فتح الحميد

في شرح التوحيد

«أوسع شروح «كتاب التوحيد» للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب»

تأليف

الشيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور التميمي

ت: ١٢٨٢ هـ

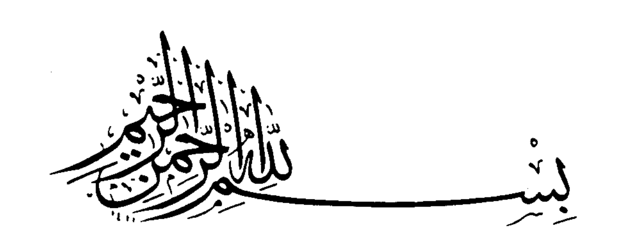
تحقيق

د. سعود بن عبد العزيز العريفي
رئيس قسم العقيدة بجامعة أم القرى

د. حسين بن جليعب السعدي
أستاذ العقيدة المساعد بجامعة الكويت

المجلد الأول

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

يطبع لأول مرة

عن ثلاثة نسخ خطية

فَتْحُ الحَمِيدِ

فِي شَرْحِ التَّوْحِيدِ

أصل تحقيق هذا الكتاب رسالتان علميتان تقدم بهما المحققان إلى قسم العقيدة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة لنيل درجة الدكتوراة وقد أجيزت الرسالتان بتقدير (ممتاز)

الطبعة الأولى ١٤٢٥

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع
مكة المكرمة ص . ب ٢٩٢٨
هاتف ٥٥٠٥٢٠٥ فاكس ٥٥٤٢٣٠٩

الصف والإخراج دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

المقـــدّمة

إن الحمد لله، نحمده ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه، وتركنا على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه أبدًا إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن «كتاب التوحيد» للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ، من أصفى كتب العقيدة المصنفة على منهج أهل السنة والجماعة، وقد وُضع له من القبول ما حمل العلماء على التسابق إلى شرحه وتدريسه والتعليق عليه وبيان مقاصده وتحفيظه للطلاب، وما يزال هذا المتن المبارك عمدة لدراسة التوحيد عند أهل السنة كافة.

وقد تتابعت شروحه في الظهور عبر الطباعة والنشر منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري، حتى تجاوزت في زماننا هذا العشرين شرحًا مطبوعًا[1]، حصل بها من النفع العظيم، ومحاصرةِ الشرك ومظاهره في المجتمعات الإسلامية ما لا ينكره إلا مكابر.

إلا أن شرحًا من بين أوائل شروح كتاب التوحيد هو أوسعها

(١) كنا قد أعددنا بعد هذه المقدمة تمهيداً بعنوان: كتاب التوحيد وشروحه، إلا أنا عدلنا عن إيرادها بعد الوقوف على كتاب «عناية العلماء بكتاب التوحيد» لعبدالإله الشايع؛ فقد وفّى بالغرض.

وأغزرها مادة، لم يزل حبيسًا في عالم المخطوطات، لا يعلم به إلا قليلٌ من العلماء وطلاب العلم المعتنين بقضايا التوحيد، ذلكم هو كتاب «فتح الحميد في شرح التوحيد»، للشيخ عثمان بن عبدالعزيز بن منصور، الذي وقع اختيارنا على دراسته وتحقيقه بالمناصفة[1] لنيل درجة الدكتوراه.

لقد ظل هذا الشرح النفيس رهينًا لملابسات ومواقف زمنية، فرضت عليه لمدة طويلة حجابًا من الإعراض والتجاهل، سيتجلى للقارىء الكريم من خلال الدراسة الآتية ما قد يبرره، فقد كان مؤلفه ـ رحمه الله ـ معدودًا في خصوم الدعوة الإصلاحية التي بعثها الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ، الذين يرون أنها قد جاوزت سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو سبيل الدعاة، إلى سبيل تكفير المسلمين وقتالهم، واستباحة دمائهم وأموالهم، ونحت بذلك منحىً خارجيا يدخلها تحت ما ورد في الخوارج الأوائل من الأحاديث والآثار.

إلا أن لصاحب هذا الشرح وجهةً أخرى يدافع فيها عن هذه الدعوة وإمامها، وكان أكثر ما مثل هذه الوجهة عنده هذا الكتاب، الذي جاء صافيًا من حيث الجملة، غير متعارض مع مقاصد المتن، محققًا لأغلبها، فزال بذلك المحذور الأعظم من إخراجه.

وقد وقع التردد أولَ الأمر في تحقيق هذا الكتاب بعد استعراض ما ذُكر عنه وعن مؤلفه في قسم الردود من كتاب «الدرر السنية في الأجوبة

---

(١) حقق النصف الأول سعود العريفي إلى نهاية الباب ٢٢، وحقق البقية حسين السعيدي، وقد قام الأول بالتنسيق بين التحقيقين.

النجدية»[1] من مخالفة لمنهج صاحب المتن، إلا أنا جعلنا الفيصل في الإقدام على تحقيقه من عدمه قراءةَ الكتاب، وما إن استعرضناه حتى ألفيناه كتابًا رصينًا متينًا ثريَّ المادة، لا يخلو من هِنَات لا تمنع الاستفادة منه وإخراجَه للدارسين، وزاد من قناعتنا بجدوى البحث فيه ودراسة شخصية مؤلفه ما اعتراها من مواقف محيّرة حقا، هي أخصب مجال للتحقيق والدراسة والبحث والتنقيب، فمدار إشكالاتها وتناقضاتها قضيةُ التوحيد، وما تفرع عنها من مواقف عملية، وذلك من صلب التخصص.

هذا ويمكن تلخيص دواعي تحقيق هذا الكتاب في ثلاثة أمور:

الأول ـ ما تميز به الكتاب من وفرة في المادة العلمية، وزيادةٍ على غيره من الشروح، فهو مشحون بالآيات المفسرة، والأحاديث والآثار المتعلقة بالعقيدة، والنقول الكثيرة عن العلماء، ولا شك أن اطّلاع دارسي «كتاب التوحيد» على هذه المادة الغزيرة سيوسع مداركهم، ويجعلهم أكثر إحاطة بقضايا التوحيد.

الثاني ـ حاجة هذا الشرح في كثير من المواطن إلى التحرير والتعقب والتصويب والاستدراك، في ضوء ما قرره أئمة السنة، والمحققون من علماء الدعوة السلفية، ولا شك أن إخراج الكتاب الآن كذلك، خير من خروجه مجردًا فيما بعد ـ أو موجهًا وجهةً لم يقصدها المؤلف أصلاً ـ وهذه سنة متبعة فيما ألفه المخالفون في غير مواطن النزاع، وظهر أثرها فيه، كما هو الحال في «السحب الوابلة» لابن حميد، ومختصر شرح السفّارينية لابن سلوم، وهما من خصوم دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب[2].

---

(١) وهو مجموعة تضم رسائل وكتبا لأشهر علماء الدعوة الإصلاحية.

(٢) ومثل كتب القصيمي التي ألفها قبل ردته.

الثالث ـ أن ما اشتهر عن مؤلفه من تناقض وتردد في موقفه من الدعوة الإصلاحية حال دون انتفاع الناس بشرحه هذا، وهذا يستدعي دراسة وافية عن المؤلف ومؤلفاته، تكشف حقيقة موقفه، وتتبين صحة ما نسب إليه، ونرجو أن نكون قد وُفقنا إلى شيء من ذلك؛ فقد قدمنا للكتاب بدراسة عن المؤلف والكتاب، بدأناها بنبذة عن عصر المؤلف، ثم تعرضنا لحياته العلمية ومؤلفاته وعقيدته وعلاقته بخصوم الدعوة الإصلاحية وما أثارت حوله من شبهات، ثم عرّفنا بالكتاب ببيان: سبب تأليفه، موارده، المآخذ عليه، مكانته بين الشروح، نسخه ومنهج تحقيقه.

وقد توخينا في دراستنا وتحقيقنا للكتاب الحق والإنصاف العدل، دون أي اعتبارات غير علمية، في الحكم على مواقف المؤلف وآرائه، فإن وفقنا فذلك فضل الله، وإلا فنسأله العفو والمغفرة لنا ولإخواننا المسلمين.

وفي ختام هذه المقدمة نوجه شكرنا إلى كل من أسهم في إخراج هذا الكتاب، ابتداءً بالأستاذ الدكتور علي العلياني الذي أشرف على هذا العمل، وكل من الأساتذة: الدكتور ناصر العقل، والدكتور عبدالله الدميجي، والدكتور سعود الصقري، الذين تفضلوا مشكورين بمناقشة هذا العمل وتقويمه، كما نشكر كل من ساهم في إخراج الكتاب، سائلين المولى جل وعلا أن يتولى مثوبتهم، والحمد لله أولاً وآخرًا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

القسم الأول

الدراسة



الفصل الأول
عصر المؤلف

أولاً: الحالة السياسية (١٢٠٠ـ ١٢٨٢هـ):

كان أهل نجد قبيل ظهور الدعوة الإصلاحية على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، متعادين متفرقين، ليس لهم إمام يجمعهم، ولا شريعة تسودهم، الغلبة فيهم للقوي، يقتل بعضهم بعضا، ويغتصب بعضهم أموال بعض، لكل قرية أمير لا يستطيع أن يوفر الأمن لنفسه، فضلاً عن أن يوفره لأفراد رعيته، فانتشر الخوف والرعب، وكثر السلب والنهب في أرجاء البلاد النجدية.

ولما ظهرت دعوة التوحيد في نجد على يد الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، وقام بنصرتها الأمير محمد بن سعود، وقام الجهاد في سبيل الله، ساد الأمن في البلاد، وقلت المخاوف، وتقلصت تلك الإمارات، وخاصة في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود[١] رحمه الله، حيث دخلت عموم البلدان النجدية وما جاورها من البلدان في طاعته، وفي عهده ولد الشيخ عثمان بن منصور رحمه الله، وامتد به العمر إلى قبيل انقضاء العصر الذهبي للدولة السعودية الثانية، ونظرًا لذلك فسوف نتعرض للأحداث الواقعة في الدولة السعودية الأولى والثانية، وبيان الأئمة الذين عايشهم الشيخ عثمان بن منصور، على وجه الاختصار.

---

(١) تأتي ترجمته عند الكلام على عصره.

الدولة السعودية:

اعتاد من تناولوا تاريخ الدولة السعودية بالكتابة أن يقسموا الأدوار التي مرت بها الدولة السعودية إلى ثلاثة أدوار:

*** الدور الأول ـ أو الدولة السعودية الأولى:**

وذلك بداية من المعاهدة التاريخية التي تمت بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمهما الله تعالى، وذلك من سنة ١١٥٧هـ، إلى سنة ١٢٣٣هـ حينما هدمت الدرعية على يد إبراهيم باشا.

*** الدور الثاني ـ أو الدولة السعودية الثانية:**

وتبدأ من سنة ١٢٤٠هـ حيث نجح الإمام تركي بن عبدالله في استعادة الحكم والقضاء على بقية جنود الحاميات العسكرية التابعة لمحمد علي باشا، وينتهي بانتصار الأمير محمد بن رشيد على الإمام عبدالرحمن بن فيصل سنة ١٣٠٩هـ.

*** الدور الثالث ـ أو الدولة السعودية الثالثة:**

وتبدأ باستيلاء الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله على الرياض سنة ١٣١٩هـ إلى يومنا هذا[١].

---

(١) انظر هذا التقسيم: تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله العثيمين (١/٧)، تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة درويش (ص ٩)، الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي (ص ١٣ـ ١٤).

أولاً: الدولة السعودية الأولى:

وقد استمرت ما يقارب (٧٥) عامًا تولى الحكم فيها أربعة من الأمراء وهم:

(١) الإمام محمد بن سعود: وذلك من سنة ١١٥٨هـ إلى سنة ١١٧٩هـ.

(٢) الإمام عبدالعزيز بن محمد: وذلك من سنة ١١٧٩هـ إلى سنة ١٢١٨هـ.

(٣) الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد: وذلك من سنة ١٢١٨هـ إلى سنة ١٢٢٩هـ.

(٤) الإمام عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز: وذلك من سنة ١٢٢٩هـ إلى سنة ١٢٣٣هـ[١].

وحيث إن الشيخ عثمان بن منصور رحمه الله ولد في بداية القرن الثالث عشر الهجري في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد، لذا فسوف نبدأ بالحديث عنه وعن أهم الأحداث التي في عهده.

---

(١) انظر أحداث هذه الدولة: روضة الأفكار، ابن غنام (١/ ٧٥ـ ٢٠٦)، عنوان المجد، ابن بشر (١/ ١ـ ٢١٨)، الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحيم عبدالرحيم، تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ٧٩ـ ٢٠٧)، تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة درويش (ص ١٩ـ ٥٣).

عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد (١١٧٩ـ ١٢١٨هـ)

التعريف به:

هو الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود ولد سنة ١١٣٢هـ، وتولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ١١٧٩هـ، كان رحمه الله من أئمة الهدى، كثير الخوف من الله لسانه رطب من ذكر الله، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ينفذ الحق ولو في أهل بيته وعشيرته، شجاعًا مهابًا، من العلماء العاملين، محبًا للعلم والعلماء، اغتاله رافضي في جامع الدرعية، طعنه وهو يصلي بالمسلمين صلاة العصر، فحمل إلى قصره فلم يلبث أن توفي رحمه الله تعالى وذلك سنة ١٢١٨هـ[١].

أهم الأحداث في عهده:

(١) الاستيلاء على الرياض، وهروب دهام بن دواس[٢] ومن معه منها، وبذلك تكون الدولة السعودية تخلصت من أقوى خصم

---

(١) انظر في ترجمته: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ١٢٥)، الأعلام، الزركلي (٤/ ٢٧)، صقر الجزيرة، أحمد عبدالغفور عطار (١/ ٦٤).

(٢) أمير بلدة الرياض، اتصل به الشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام محمد بن سعود يدعوانه دعوة الحق، فأبى وأعرض عن الحق، وأظهر عداءه، واضطهد كل من اتبع التوحيد من أهل بلده، حارب الدعوة نحو سبع وعشرين سنة.
انظر: روضة الأفكار، ابن غنام (١/ ٨٩)، عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٦١ـ ٦٢).

نجدي لها، وأصبح في إمكانها أن ترسل جيوشها إلى مناطق بعيدة، دون أن تخشى ضرب مؤخرة جيوشها، أو قطع مواصلاتها، وذلك سنة ١١٨٧هـ[١].

(٢) وفاة الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى[٢].

(٣) دخول كثير من بلدان الجزيرة العربية تحت نفوذ الدولة السعودية الأولى، حيث شمل نفوذ الدولة نجداً، والأحساء، ومعظم بلدان الخليج العربي، وأطراف الحجاز، والشام، والعراق[٣].

(٤) نتيجة لتوحيد البلاد عاش الناس في رغد من العيش، وساد الأمن جميع النواحي[٤].

(٥) تطهير البلاد الواقعة تحت نفوذ الدولة من مظاهر الشرك، وهدم القباب التي على القبور والمزارات الشركية، في نجد والحجاز والعراق وغيرها من البلدان، والتحذير من كل ما ينافي إخلاص العبودية لله تعالى[٥].

---

(١) انظر: الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحيم عبدالرحيم (ص ٦٩)، تاريخ نجد، صالح القاضي (ص ٥٠).

(٢) انظر: عنوان المجد: ابن بشر (١/ ٨٩)، روضة الأفكار، ابن غنام (١/ ١٨٠).

(٣) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٨٩)، تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ١٠٤ـ ١٠٥).

(٤) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٨٩)، تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ١٠٤).

(٥) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٨٩)، الدولة السعودية الأولى، =

(٦) بدأت في عهده الحروب مع الدولة العثمانية، حيث حاربت الجيوش السعودية جيوش والي العراق، وكذلك وقع القتال بينه وبين والي الحجاز من قبل الدولة العثمانية[١].

= عبدالرحيم عبدالرحيم (ص ١٥٤، ٢١٧).

(١) انظر: روضة الأفكار، ابن غنام (١/ ١٧٥ـ ١٧٨، ١٩٠ـ ١٩٢، ١٩٥ـ ٢٠٢)، تاريخ المملكة، صلاح الدين المختار (١/ ٦٤ـ ٧٦).

عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز (١٢١٨ـ ١٢٢٩هـ)

هو الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، الملقب بسعود الكبير، ولد سنة ١١٦١هـ وقيل غير ذلك، انعقدت له البيعة بعد مقتل أبيه، كان على قدر كبير من العلم والأدب والشجاعة والذكاء والفصاحة، قاد الجيوش في حياة والده، وبعد توليه شؤون الحكم، ولا يعلم له معركة هزم فيها، توفي سنة ١٢٢٩هـ عليه رحمة الله، وكانت ولايته نحو إحدى عشرة سنة(١).

أهم الأحداث في عهده:

(١) كثرت البلدان التابعة للدولة السعودية في عهده، وشمل نفوذ الدولة معظم أنحاء الجزيرة العربية، حيث امتدت رقعة الدولة من أطراف عمان ونجران واليمن وعسير، إلى شواطىء الفرات وبادية الشام، ومن الخليج العربي إلى البحر الأحمر(٢).

(٢) القضاء على مظاهر الشرك ومنع الأمور المخالفة للدين، ومن ذلك منع دخول المحامل الشامية والتركية والمصرية في موسم الحج إلى بلاد الحرمين، إلا بشرط اجتناب كل ما ينافي السنة، أو يخدش

---

(١) انظر ترجمته في: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ١٦٧)، البدر الطالع، الشوكاني (١/ ١٨١ـ ١٨٢)، تاريخ بعض الحوادث، ابن عيسى (ص ١٣٩).

(٢) انظر: تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة درويش (ص ٤٧)، تاريخ المملكة، صلاح الدين المختار ١٠/ ٨٦ـ ١٠٥، ١٣٩).

كمال التوحيد[1].

(٣) بعد ظهور الدولة السعودية وانتصارها على أعدائها، ودخول معظم الجزيرة في سلطانها ومنها الحرمان الشريفان، كلفت الدولة العثمانية محمد علي والي مصر بالقضاء على الدولة السعودية، وفي عهد سعود الكبير بدأت الحملات المصرية[2].

(٤) نجاح محمد علي في الاستيلاء على بعض البلاد كمكة والطائف والمدينة وغيرها[3].

(٥) مرت على البلاد النجدية وما يليها سنوات قحط وغلاء، استمرت ما يقارب ست سنوات مات فيها كثير من الناس والبهائم[4].

---

(١) انظر: الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحيم عبدالرحيم (ص ١٥٤)، تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة درويش (ص ٤٧).

(٢) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ١٥٧)، تاريخ نجد، صالح القاضي (ص ٥٢)، تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة درويش (ص ٤٩).

(٣) انظر: تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة درويش (ص ٥٠)، تاريخ ابن ضويان، إبراهيم بن ضويان (٦٤ـ ٦٥).

(٤) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ١٣٥)، تاريخ ابن ضويان، إبراهيم بن ضويان (ص ٦٠).

عهد الإمام عبدالله بن سعود (١٢٢٩ـ ١٢٣٣هـ)

التعريف به:

هو الإمام عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، تولى الأمر بعد وفاة والده سنة ١٢٢٩هـ، وكان ذا سيرة حسنة، مقيمًا للشرائع، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، كثير الصمت، حسن السمت، باذلاً للعطاء، شجاعًا عند ملاقاة العدو، ثابتًا في مصابرة الأعداء، استمر حكمه أربع سنوات في صراع مع الترك، حتى سقطت الدرعية، وقتل رحمه الله سنة ١٢٣٤هـ[١].

أهم الأحداث في عهده:

قضى عبدالله بن سعود جل فترة حكمه في صراع مع الحملة المصرية التي أرسلت بأمر من الدولة العثمانية، وأغلب الأحداث في عهده لها صلة كبيرة بحربه مع الأتراك، لذلك سوف نتكلم في هذه الأحداث بنقاط موجزة.

(١) في سنة ١٢٣٠هـ وقع الصلح بين الترك وبين الدولة السعودية ممثلة بالإمام عبدالله بن سعود على إيقاف الحرب بينهم، وعلى أن يرفع عبدالله بن سعود يده عن الحجاز، ويرفع الترك أيديهم عن نجد وأعمالها، ويحج كل منهما آمنًا[٢].

---

(١) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٢١١)، الأعلام، الزركلي (٤/ ٨٩)، تاريخ عجائب الآثار، الجبرتي (٣/ ٥٩٥ـ ٥٩٦).

(٢) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ١٨٥)، تاريخ ابن ضويان، إبراهيم الضويان (ص ٦٨)، تاريخ المملكة العثيمين (١/ ١٩٩).

(٢) وفي سنة ١٢٣١هـ حرّض رجالٌ من حاضرة نجد وباديتها محمد علي واليَ مصرَ على غزو الدولة السعودية وزخرفوا له ذلك، فنقض الصلح، وجهز جيشًا عظيمًا معظمه من عساكر الدولة التركية بالإضافة إلى جنود من الشام والعراق، وأسندت قيادة ذلك الجيش إلى إبراهيم[١] باشا[٢].

(٣) سقطت بعض البلدان النجدية في بداية الحملة في أيدي الأتراك، وانضم البعض الآخر لهم ووالاهم، مما ساعد الأتراك على متابعة مسيرهم إلى الدرعية[٣].

(٤) حاصر إبراهيم باشا الدرعية أكثر من ستة أشهر، وبعد قتال شديد اضطر الإمام عبدالله بن سعود إلى أن يخرج إلى إبراهيم باشا ليفاوضه حول إنهاء الحرب، واتفق الطرفان على ذلك، شريطة أن يسلم عبدالله بن سعود نفسه لإبراهيم ليبعث به إلى مصر ومنها إلى الآستانة عملاً برغبة السلطان، واشترط الإمام عبدالله بن سعود الأمن والسلامة لسكان الدرعية، وألا يخربها إبراهيم باشا، وتعاهدوا على ذلك، إلا أن إبراهيم لم يف بوعده وخان العهد كما

---

(١) هو إبراهيم بن محمد علي والي مصر، أو ابن زوجته، تولى على مصر بعد أبيه في حياته، توفي سنة ١٢٦٤هـ في القاهرة.
انظر: الأعلام، الزركلي (١/ ٧٠).

(٢) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ١٨٧)، الدولة السعودية الأولى، عبدالرحيم عبدالرحيم (ص ٣٤٠)، تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة (ص ٤٩).

(٣) انظر: تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ابن عيسى (ص ١٤٢)، تاريخ البلاد العربية السعودية، عهد عبدالله بن سعود، العجلاني (ص ١٢٤، ١٣٥، ٤٤ـ ٥٣)، تاريخ المملكة، صلاح الدين مختار (١/ ١٤٨ـ ١٥٤).

سيأتي[1].

(٥) بُعث بالإمام عبدالله بن سعود إلى محمد علي حاكم مصر، الذي أعجب برباطة جأشه وشجاعته، ثم أرسل من هناك إلى عاصمة الدولة العثمانية، وحوكم في الآستانة محاكمة صورية، ثم قتل في شهر صفر سنة ١٢٣٤هـ رحمه الله[2].

(٦) ارتكب إبراهيم باشا بعد استقراره في الدرعية أعمالاً إجرامية، حيث قتل وعذب عددًا من أعيان الدرعية، من أهل العلم والفضل.

وممن ذهب ضحية جوره وجور قواد جيشه الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، حيث ضربت على مسامعه آلات المعازف إرغامًا له بها، وأخرج إلى المقبرة ومعه العساكر، حيث أمرهم الباشا بإطلاق النار عليه[3].

(٧) ومن الأمور البشعة التي خالف فيها إبراهيم باشا عهده للإمام عبدالله بن سعود: نفي كل من وقعت عليه يده من أمراء الدرعية وعلمائها وذويهم إلى مصر، فنقل منهم ما يقارب من أربعمائة، فيهم الذرية والنساء.

---

(١) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٢٠٩)، تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ٢٠٥_ ٢٠٧)، الدولة السعودية، الأولى، د. عبدالرحيم (ص ٣٥٢_ ٣٥٥).

(٢) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٢١٠)، تاريخ المملكة، د. العثيمين (ص ٢٠٦)، تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة درويش (ص ٥٢).

(٣) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٢١٢)، تاريخ المملكة، د. العثيمين (ص ٢١١).

كذلك قام بهدم مدينة الدرعية، وأمر أهلها أن يرحلوا عنها، وقطع نخيلها وشجرها، وأشعل في بيوتها النيران، وبذلك انتهت الدولة السعودية الأولى[1].

(١) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٢١٥)، الدرعية العاصمة الأولى، عبدالله بن خميس (ص ٣٩٠ـ ٣٩١)، تاريخ البلاد العربية السعودية ـ عهد عبدالله بن سعود، منير العجلاني (ص ١٥١).

ثانيًا: الدولة السعودية الثانية

انسحب إبراهيم باشا بجنوده من نجد في صفر سنة ١٢٣٥هـ بعد أن ترك بعض الحاميات من الجيش المصري في المدن النجدية تحت إمرة بعض قواده[١]، وبعد انسحابه دبت في نجد الفوضى السياسية، وتجددت الضغائن بين زعمائها، وسيطر الخوف على كثير من سكانها لاختلال الأمن، واضطراب الأوضاع، فكثر القتل والسلب والنهب، وتفشت المنكرات، يقول ابن بشر مصوّرًا تلك الأوضاع:

«. . . وكانت هذه السنة كثر فيها الاضطراب والاختلاف ونهب الأموال، وقتل الرجال، وتقدم أناس، وتأخر آخرون، وذلك بحكمة الله سبحانه وقدرته. . . وانحل فيها نظام الجماعة والسمع والطاعة، وعُدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يستطيع أحد أن ينهى عن المنكر أو يأمر بطاعة، وعُمل بالمحرمات والمكروهات جهرًا، وليس للطاعات ومن عمل بها قدر، وجر الرباب والغناء في المجالس، وسفت الذواري على المجامع والمدارس[٢]، . . . وسُل سيف الفتنة بين الأنام، وصار الرجل في وسط بيته لا ينام، وتعذرت الأسفار بين البلدان، وتطاير شرر الفتن في الأوطان، وظهرت دعوى الجاهلية بين العباد. . .»[٣].

---

(١) انظر: الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي (ص ٤٢)، النهضات الحديثة في جزيرة العرب، محمد عبدالله ماضي (ص ٨١).

(٢) يعني أنها هُجرت وأُهملت حتى ملأتها الرياح الذارية بالرمال.

(٣) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٢١٢ـ ٢١٣).

نتيجة لهذه الأوضاع بات عدد غير قليل من أبناء البلاد النجدية يتوقون إلى الخلاص من الحالة المزرية التي وصلوا إليها.

وقد وُجدت محاولات عديدة لإعادة البلاد على ما كانت عليه من الدين والأمن والرخاء[1]، كان آخر هذه المحاولات ما قام به الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، وكان قد فر إلى بلدة الخرج ـ جنوب الرياض ـ عند تسليم الدرعية لإبراهيم باشا. وقد استطاع تركي بتوفيق من الله ـ سبحانه وتعالى ـ القضاء على حاميات محمد علي المتواجدة في نجد، فكانت نتيجةُ هذه المحاولة قيامَ الدولة السعودية الثانية، التي امتدت من سنة ١٢٣٥هـ إلى سنة ١٣٠٩هـ.

وقد حكم خلال هذه الفترة كل من:

(١) الإمام تركي بن عبدالله من سنة ١٢٣٥هـ إلى سنة ١٢٤٩هـ.

(٢) الإمام فيصل بن تركي وكان حكمه على فترتين:

الأولى: من سنة ١٢٤٩هـ إلى سنة ١٢٥٤هـ.

الثانية: من سنة ١٢٥٩هـ إلى سنة ١٢٨٢هـ.

(٣) الإمام عبدالله بن فيصل من سنة ١٢٨٢هـ إلى سنة ١٣٠٧هـ.

(٤) الإمام عبدالرحمن بن فيصل من سنة ١٣٠٧هـ إلى سنة ١٣٠٩هـ[2].

---

(١) انظر عن هذه المحاولات: تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ٢١٥ـ ٢٢٠)، تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة درويش (ص ٥٧ـ ٥٨).

(٢) انظر: تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ٢٠٩ـ ٤ـ٣)، تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة درويش (ص ٥٧ـ ٧٣)، الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي.

وحيث إن الشيخ عثمان بن منصور قد عاصر بداية الدولة السعودية الثانية، ولم يُتوفَّ إلا في نهاية ولاية الإمام فيصل بن تركي في سنة ١٢٨٢هـ، فسوف نقصر الحديث على عهد الإمام تركي، وابنه الإمام فيصل رحمهم الله جميعًا.

عهد الإمام تركي بن عبدالله (١٢٣٥ـ ١٢٤٩هـ)

التعريف به:

هو الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، كان من الذين فروا من المصريين بعد هدم الدرعية، تولى الإمامة بعد ابن ابن عمه مشاري بن سعود[1]، وكان رحمه الله شجاعًا مقدامًا، كثير الخوف من الله، عادلاً في الرعية، دانت له البلاد النجدية والشرقية، واستمر في حكمه، إلى أن قتله ابن أخته مشاري بن عبدالرحمن[2] سنة ١٢٤٩هـ[3].

---

(١) هو مشاري بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود، كان من الذين فروا من قبضة الترك عند هدم الدرعية. تولى الإمارة بعد أسر أخيه الإمام عبدالله بن سعود، ولكن لم يستقم له الأمر حيث قبض عليه ابن معمر وسلمه للترك ومات في السجن سنة ١٢٣٥هـ.

انظر: الأعلام، (٧/ ٢٢٦)، صقر الجزيرة، أحمد عبدالغفور عطار (١/ ١٩٦).

(٢) هو مشاري بن عبدالرحمن بن حسن بن مشاري بن سعود، قدم من مصر سنة ١٢٤٢هـ على الإمام تركي بن عبدالله فأكرمه، فطمع مشاري بالإمامة فلم يجد من يناصره فلما علم الإمام بما أراد، اعتذر منه مشاري فرضي عنه، ولكن لم يلبث مشاري أن دبر قتل الإمام تركي بن عبدالله، ولم تدم مدة حكم مشاري إلا أربعين يومًا حيث قضى عليه الإمام فيصل بن تركي وذلك سنة ١٢٤٩هـ.

انظر: الأعلام، الزركلي (٧/ ٢٢٦)، تاريخ ملوك آل سعود، ابن هذلول (ص ١٩ـ ٢٠).

(٣) انظر: تاريخ ملوك آل سعود، ابن هذلول (ص ١٨ـ ١٩)، الأعلام، الزركلي =

أهم الأحداث في عصره:

(١) بعد جهود عظيمة تمكن الإمام تركي بن عبدالله رحمه الله من إجلاء بقية رجال الحاميات العسكرية التابعة لحاكم مصر من البلاد، ساعده في ذلك انضمام بعض الأمراء، وتطلع كثير من النجديين إلى وجود سلطة تحقق لهم الأمن والوحدة.

استقر الإمام تركي في الرياض، التي أصبحت عاصمة دولته الجديدة، ولم يمر عامان على جلاء القوات الغازية عن نجد، واستقرار تركي بن عبدالله في الرياض، إلا وقد بايعته البلدان النجدية كلها[١].

(٢) لما دخلت معظم البلاد تحت حكم الإمام تركي، ودانت له بالطاعة والولاء أخذ يكاتب من كان في البلاد المصرية من العلماء والأمراء، الذين وُضعوا في مصر تحت الإقامة الجبرية، حيث قدم عليه سنة ١٢٤١هـ مجموعة، منهم الشيخ العلامة عبدالرحمن بن حسن حفيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمة الله تعالى على الجميع ـ ففرح به الإمام فرحًا عظيمًا، كما فرح بمقدمه عامة المسلمين، فحل محل جده محمد بن عبدالوهاب في إدارة الشؤون الدينية في الدولة وإبداء المشورة في تسيير أمورها العامة[٢].

= (٢/ ٨٤).

(١) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ١٧)، تاريخ المملكة، د. العثيمين (١/ ٢٢٤).

(٢) انظر: تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ٢٢٥)، الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي (ص ٥٨).

(٣) في سنة ١٢٤٢هـ استطاع الإمام فيصل بن تركي رحمه الله الهروب من مصر والقدوم على والده الإمام تركي، وكان مقدمه عاملاً مهمًا في استقرار الأوضاع في هذا العهد، حيث عاضد والده في أعماله، فقاد الجيوش، وقاتل الخصوم، كما ناب عن والده أثناء غيابه وانشغاله[١].

(٤) في سنة ١٢٤٥هـ تم إخضاع الأحساء للحكم السعودي مرة أخرى، وأخرج زعماء بني خالد من المنطقة الشرقية في معركة فاصلة سميت بـ«السبية» لكثرة ما سبي فيها من الأموال، والإبل، والغنم، والأمتعة[٢].

(٥) زين بعض ضعفاء الإيمان لمشاري بن عبدالرحمن قتل خاله الإمام تركي بن عبدالله، وقالوا: أنت أحق بالحكم منه، وكان من قبل حاقدًا على خاله حينما عزله عن إمارته[٣]، ووافق كلٌّ ذلك طمعَه بالملك، فأمر أحد عبيدِه بقتل الإمام تركي فقُتل، وطلب من الناس مبايعته فبايعوه خوفًا على أنفسهم، فلم يلبث سوى أربعين يومًا حيث قضى عليه الإمام فيصل بن تركي، وكان ذلك سنة

---

(١) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (٢/ ٣٢)، الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي (ص ٦٧).

(٢) انظر: تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ٢٢٦)، تاريخ نجد، صالح القاضي (ص ٦٧).

(٣) وكان قد عينه الإمام على بلدة منفوحة، وكان سبب عزله وصول خبر إلى الإمام بأنه يريد قتله.

انظر: الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي (ص ٥٩).

١٢٤٩هـ[١].

وقد رثى الإمامَ تركيًا ابنُ منصور بقصيدة أظهر فيها ولاءه للدعوة وأتباعها[٢]، أولها:

أبرق بدا من جانب الشرق يُكشَفُ   يذكّر أُلآفا وللدمع يُنشِفُ

ومنها:

ترى لابن عبدالله تركيٍّ صولةً   تُوُرِّثَها من والد الخير تُعرفُ
وعمٌّ وجدٌّ قوّما الدين بيننا   محمدُ مع عبدِالعزيز المخلّفُ
أئمةُ صدقٍ يقتفون نبيَّهم   عليه سلام الله غضٌّ مضعفُ

ومنها:

يوالون شيخًا للمشايخ قدوةً   إمامٌ لهم من شِرعة الدين يغرفُ
محمدُ نجمُ الدين والعلَمُ الذي   به يقتدي في حِندِس الجهل مُسدفُ[٣]
له أنجمٌ زهرٌ تغالى تراثه   من الشرعة الغراء لا تتكلفُ
أولئك أصحاب النبي وحزبُه   يوالون ربًّا لمن والاه يلطفُ
أبو حسنٍ[٤] هو الشيخ فينا وإنه   لبحر خضم زاخر يتقصفُ

ومنها:

---

(١) انظر: تاريخ ابن ضويان، إبراهيم الضويان (ص ٩٠)، الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي (ص ٥٩).
(٢) ذكرها بتمامها ابن بشر في «عنوان المجد»: ٢/ ١١٨-١٢١.
(٣) مسدف: من كان في السدفة، وهي الظلام.
(٤) كنية الشيخ عبدالرحمن بن حسن.

هم أصدقاء القرب والود إنهم	على كل حال للشريعة موقفُ

ومنها:

وقد كان قبل اليوم آباؤهم لنا	رؤوسًا على دين النبي تَصَرَّفُ

عهد الإمام فيصل بن تركي
(الفترة الأولى ١٢٥٠ـ ١٢٥٤هـ)
(الفترة الثانية ١٢٥٩ـ ١٢٨٢هـ)

التعريف به:

هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود، كان ممن حُمل إلى مصرَ بعد هدم الدرعية، وتمكن من الفرار، فقدم على والده فساعده، وقاد الجيوش وفتح البلدان، تولى الإمامة بعد القضاء على قاتل أبيه مشاري بن عبدالرحمن، وبقي إمامًا إلى أن قَبض عليه الأتراك، وسُجن بمصر سنة ١٢٥٩هـ، ثم تمكن من الفرار من سجنه، وعاد إلى نجد واستعاد الحكم ثانية، واستمر على ذلك حتى تُوفي عام ١٢٨٢هـ، يعد من أعظم حكام آل سعود، يتميز بقوة الشخصية وبذكاء واسع، وبشجاعة فائقة، وكان عادلاً محبًا للعلم والعلماء، عليه رحمة الله[١].

أهم الأحداث في عهده:

(١) بعد أن قضى الإمام فيصل بن تركي على قاتل أبيه مشاري بن عبدالرحمن بايعه الناس بالإمامة، ولكن لم يستقر له الأمر أكثر من أربع سنوات، إذ انزعج العثمانيون ومحمد علي من قيام حكم

---

(١) انظر: نبذة تاريخية عن نجد، ضاري بن فهد الرشيد (ص ٣٥ـ ٤٩)، الأعلام، الزركلي (٥/ ١٦٤).

الإمام فيصل بن تركي، حيث أرسلوا الحملات المتوالية على البلاد النجدية للقضاء على الحكم السعودي، وساعد تلك الحملة بعض القبائل التي خرجت عن طاعة الدولة، فاشتد ساعد الأتراك وضعف موقف الإمام فيصل.

وبعد قتال طويل اضطر الإمام فيصل إلى التسليم، حيث رُحّل إلى مصر وسُجن هناك، وبذلك انتهت الفترة الأولى من حكمه[1].

(٢) في الفترة التي قضاها الإمام فيصل بن تركي في سجنه بمصر، شملت الفتنة البلاد ، حيث وقعت عدة حروب بين النجديين فيما بينهم، كما وقعت حروب بين النجديين والأتراك، وكثر السلب والنهب والقتل بين الناس.

وبعد هزيمة محمد علي على أيدي الدول الكبرى، انسحبت قواته من الجزيرة العربية وبلاد الشام، تنفيذا لمعاهدة لندن الموقعة في سنة ١٢٥٦هـ، والقاضية بجلاء قواته عن بلاد الشام والجزيرة العربية[2].

(٣) وفي سنة ١٢٥٩هـ تمكن الإمام فيصل بن تركي بمساعدة بعض أقارب محمد علي[3]، من مغادرة سجنه في مصر، والقدوم إلى

---

(١) انظر: الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي (ص ٧١)، تاريخ المملكة، صلاح الدين مختار (١/ ٣٠٤ـ ٣١٨).

(٢) انظر: الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي (ص ٧١ـ ٧٤)، تاريخ المملكة، صلاح الدين مختار (١/ ٣٠٤ـ ٣١٨).

(٣) هو حفيد محمد علي باشا، عباس باشا.
انظر: تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ٢٥٨).

جبل شمر، وبمساعدة أمير الجبل[1]، بدأ خطواته التي أدت إلى القضاء على إمارة ابن ثنيان[2]، وبويع بالإمامة، واستقام له الأمر ودخلت كثير من البلدان تحت طاعته وحكمه، فسكنت الفتنة، واستقامت الأمور، وعاش الناس في أمن واطمئنان حتى توفاه الله سنة ١٢٨٢هـ[3].

ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن الصراعات العسكرية التي كانت تخوضها الدعوة إنما كانت تحت راية الجهاد والتوحيد، ضد المعاندين المشركين، والكفار المرتدين، ممن أبوا الدخول في دعوة التوحيد، أو دخلوا فيها ثم انقلبوا عليها، كما هو ظاهر من أدنى تأمل في تاريخي الدعوة: «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال

---

(١) هو الأمير عبدالله بن رشيد الشمري، مؤسس إمارة آل رشيد في مدينة حائل كان صديقًا للإمام فيصل بن تركي وهو الذي ساعده في قتل قاتل أبيه، ولي إمارة حائل للإمام فيصل، ولما هرب الإمام فيصل من مصر وقدم نجداً آزره وناصره، توفي سنة ١٢٦٣هـ.

انظر: الأعلام، الزركلي (٤/ ١٠٧)، نبذة تاريخية عن نجد، ضاري الرشيد (ص ٣٥ـ ٤١).

(٢) هو عبدالله بن ثنيان بن سعود، كان شجاعًا مهيبًا، استطاع القضاء على حكم الأتراك وإخراجهم من نجد فدانت له البلاد من سنة ١٢٥٧هـ إلى سنة ١٢٥٩هـ، حيث قضى الإمام فيصل بن تركي على إمارته، وسجن ومات في سجنه، وصلى عليه الإمام فيصل بن تركي رحمه الله.

انظر: الأعلام، الزركلي (٤/ ٧٥)، تاريخ ملوك آل سعود، ابن هذلول (ص ٢٥ـ ٢٦).

(٣) انظر: الدولة السعودية الثانية، حصة السعدي (ص ٧٩ـ ٨٧)، تاريخ المملكة، د. عبدالله العثيمين (١/ ٢٦٣ـ ٢٦٥).

الإمام وتعداد غزوات **ذوي الإسلام**»، لمؤرخ الدعوة حسين بن غنام، تلميذ الإمام المجدد، و«عنوان المجد في تاريخ نجد» لابن بشر، فمن عبارات ابن غنام[1]:

- غزا المسلمون «ثرمدا». . . فدمر المسلمون المزارع وانقلبوا راجعين.
- . . . وأخذ المسلمون أغنامهم ـ لما تزايد شر عثمان بن معمر على أهل التوحيد. . .، فلما تحقق أهل الإسلام ذلك، تعاهد على قتله نفر. .، فلما انقضت صلاة الجمعة قتلوه في مصلاة بالمسجد، في رجب سنة ١١٦٣هـ.
- وفي شوال من هذه السنة (١١٦٥هـ) ارتد أهل «حريملا». .
- وفي أواخر هذه السنة (١١٦٦هـ) ارتد أهل منفوحة، ونبذوا عهد المسلمين.
- وصارت البلدة (حريملا) فيئا من الله، ودورها ونخيلها غنيمة للمسلمين. . .، ثم أقبل عبدالعزيز بالأموال والغنائم إلى الدرعية، فقسمها الشيخ محمد بن عبدالوهاب متبعاً بذلك سنة رسول الله وما كان يصدر من السلف.
- وفي سنة ١١٦٩هـ رفع الله عن أهل «القويعية» الشرك، وهداهم إلى التوحيد، فوفدوا على الشيخ والأمير محمد في الدرعية، فبايعوا على الإسلام، والتزام السمع والطاعة، ولقد صدقوا في تلك البيعة ووفوا، فلم ينخلعوا منها، ولم ينقضوا عهدهم، وكان أول من اهتدى منهم

---

(١) انظر تاريخ ابن غنام: ١/ ٨٩ـ ١٠٥، تحرير ناصر الدين الأسد.

ووفد على الشيخ والأمير: ناصر[1] بن جمّاز العَرِيفي، وسعود بن حمد.

- وخرب المسلمون زروع «منفوحة»، ثم غزوا «جلاجل».. وأخذوا بعض الأغنام.

ومن عبارات ابن بشر وهي ألين من عبارات ابن غنام:

- غزا المسلمون الخرج.

- سار عبدالعزيز بجنود المسلمين، وقصد آل حبيش من العجمان، وهم في صبحا المعروفة قرب سدير، فأغار عليهم وأخذ عليهم إبلا كثيرة، وقتل من الأعراب عدة رجال[2].

في ظل هذه الأحداث الدامية، التي لابد للإنسان العادي فضلاً عن العالم الأديب من التأثر بها، والتفاعل معها، نشأ ابن منصور، وقد كان أثرها فيه واضحًا كما يبدو من كتاباته وما سُجل عنه، إلا أن هذا الأثر كان ذا لونين متباينين، ففي الوقت الذي نراه فيه يبكي «الدرعية» وما جرى على أهلها من آل سعود وآل الشيخ من الإجلاء إلى مصر، ويستبشر بقدوم الأمير تركي بعد ذلك، فيقول ضمن مرثيته له:

فلما ذوى منهم غصون وابتلوا ... بنقل عنيف بالعساكر يُكنفُ

أتاح لنا ربي الإلهُ بفضله ... عن الفتنة السودا إمامًا يؤلّفُ

إمامَ الهدى تركي لله درُّه ... على الدين قوامًا لمن يتعسفُ

ونراه يروي شواهد سيرهم لخواصه وتلاميذه ويشيد بها، كما جاء في بعض حديثه لتلميذه المؤرخ ابن بشر، حيث حدث عنه بقصتين

---

(١) توفي عام ١٢٠٤هـ تقريبا.

(٢) عنوان المجد: ١/ ١١٨.

شاهدًا على عدل أمير الدرعية عبدالعزيز بن محمد[1].

وذكر له عن رجل من أهل البصرة أن أولاد الشيخ محمد المجموعي ـ أحد مشايخ الإمام محمد بن عبدالوهاب الذين تأثروا بمنهجه ـ هم أحسن أهل بلدهم صلاحًا ومعرفةً بالتوحيد، وأن ذلك ـ والله أعلم ـ ببركة اجتماع الشيخ بوالدهم[2].

إذا به على النقيض من ذلك: يضيق ذرعًا بقتال أتباع الدعوة للبلدان والبوادي بحجة الدعوة إلى التوحيد، واستباحتهم دماء الناس وأموالهم بحجة عنادهم وشركهم وردتهم، فيؤلف كتبًا يتهمهم فيها تلميحًا وتصريحًا بأنهم على منهج الخوارج.

وسيتجلى لك ـ إن شاء الله ـ في هذه الدراسة سرُّ هذا التناقض، وأن أحداث عصر المؤلف فرضت عليه من جهةٍ إظهارَ الولاء والانتصار للدعوة السلفية ودولتها، إلى الحد الذي جعله يؤكد مرارًا أن أصحابها هم أولى الناس بصفة الطائفة المنصورة، التي جاء الخبر عنها في الأحاديث الصحيحة، كما صرح بذلك في أول شرحه لكتاب التوحيد، وذلك ما حدا ابنَ حميد صاحبَ «السحب الوابلة» ـ وهو من المناوئين للدعوة الإصلاحية ـ إلى إغفال ذكر ابن منصور في كتابه، كما هي سنته في أئمة الدعوة وعلمائها[3].

ومن جهة أخرى حملته على أن يسلك مسالك غاية في الالتواء في

---

(١) انظر عنوان المجد: ١/ ٢٦٨ـ ٢٧٠.

(٢) انظر عنوان المجد: ١/ ٣٦.

(٣) انظر تعليق الدكتور عبدالرحمن العثيمين على «السحب الوابلة»: ٢/ ٧٠٤ـ ٧٠٨.

مواجهة الواقع الذي لا يرضاه، وليس له حيلة فيه، فأدّته هذه الثنائية إلى سمة التردد والاضطراب التي عرفت عنه[1].

وإن كان من المحتمل أن يكون هذا التناقض في موقفه من الدعوة صدى لاضطراب حقيقي كان يعيشه ابن منصور، جراء تكافؤ الأدلة المتقابلة في نظره، التي كان يسمعها من جلسائه من الممالئين والمناوئين، وعجزه عن الحسم فيها، كما هي عادة معلومة من أحوال بعض المشايخ.

---

(١) ويبدو أن لهذا التوجه نصيبا من التأصيل العلمي لدى ابن منصور، فقد قرر في هذا الشرح وجوب مداراة العالم للعوام شرعا وعقلا، والاحتراز منهم بالتقية، وأن ذلك ليس من المداهنة المذمومة في شيء. انظر ص ٦١٣.

ثانيًا: الحالة الاجتماعية والدينية

يغلب على سكان نجد الطابع القبلي، فالغالبية العظمى منهم ينتمي إلى قبائل معروفة النسب، وهنالك أقليات متعددة بعضها على الأرجح عربية الأصل، لكن ذلك الأصل ضاع أو سلب لأسباب مختلفة.

وتوجد هناك بعض الأقليات ترجع إلى أصول غير عربية، أتت إلى هذه المنطقة بطرق متنوعة منها: تعثر بعض القادمين إلى الجزيرة العربية لغرض التجارة أو الحج أو غيرها من الأسباب، وعدم استطاعتهم العودة لأوطانهم، كما توجد نسبة غير قليلة من الرقيق، الذين في الغالب يكونون من الحبشة وبعض بلدان أفريقيا[1].

والوحدة الاجتماعية الأساسية في نجد هي القبيلة، ومن هنا فإن ثبوت الانتماء العربي الأصيل كان مهمًا جدًا لتحديد مكانة الفرد أو الأسرة في المجتمع، واتضحت هذه النظرة في قضية الزواج، أو في مزاولة بعض الأعمال والمهن[2].

وكان المجتمع النجدي من حيث السكان ينقسم إلى قسمين رئيسين: حاضرة وبادية.

---

(١) انظر: الشيخ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره، د. عبدالله العثيمين (ص ١١)، الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحيم (ص ٢٤).

(٢) انظر: المصادر السابقة.

البدو:

يسكن البدو في صحراء نجد، وليس لهم مكان معين، وقد اقتضت طبيعة معيشتهم عدم الاستقرار، فالبدوي ينتقل بأغنامه أو إبله وراء المرعى حيثما وجد، فحيثما ذكرت له الأمطار والأعشاب رحل إليها، وكثيرًا ما تشح المراعي وتجف آبار المياه، ويضطر البدوي إلى البحث عن مراعي جديدة لإبله وأغنامه، فتحدث في الغالب الصراعات بين القبائل عند تعدي بعضها على مراعي البعض الآخر، وهناك بعض القبائل تفضل الهجرة إلى أرض جديدة خارج منطقة نجد، إن كان إلى ذلك من سبيل. ولعل ذلك يفسر لنا هجرة بعض القبائل من قلب نجد إلى سوريا والعراق وشواطىء الخليج[1].

ونتيجة لكثرة تنقل البادية وعدم استقرارهم، فإن البدوي لا يعيش في المنازل المصنوعة من الطين، بل يكتفي بما يظله من الخيام، والتي غالبًا ما تكون مصنوعة من الصوف أو الوبر، حيث تمتاز بسرعة تكوينها وإقامتها، وإمكان حملها من مكان لآخر بسهولة ويسر.

وعمل البدو الأساسي رعي الماشية، وبيع منتجاتها من سمن وصوف وغيرهما، ولكل قبيلة أو عشيرة، أمير أو شيخ يرجعون إليه حال الخلاف بينهم، أو عند حدوث منازعات بينهم وبين قبيلة أخرى[2].

---

(١) انظر: تاريخ نجد، محمود الألوسي (ص ٨٢)، الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحيم (ص ٢٥).

(٢) انظر: تاريخ نجد، محمود الألوسي (ص ٦٠، ٨٣)، الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحيم (ص ٢٥).

ونتيجة لعدم وجود العلماء أو القضاة الشرعيين بين البادية، يلجأ المتخاصمون منهم إلى الأعراف والتقاليد الخاصة بقبائلهم، والتي في الغالب تكون مخالفة للكتاب والسنة[١].

الحضر:

وهم الذين يستوطنون المدن والقرى، ويغلب على حياتهم الاستقرار، وكانت الزراعة من أهم الأعمال لدى حاضرة نجد، حيث يولونها عناية كبيرة، وكانت بلادهم تنتج أنواعًا مختلفة من المحاصيل الزراعية والخضروات والفواكه، لكن النخيل كانت أهم تلك الأنواع لدى السكان، لأن ثمارها مهمة في تغذيتهم، وكل جزء من النخلة يمكن الاستفادة منه في غرض من أغراض حياتهم اليومية آنذاك[٢].

ولم تكن أعمال الحاضرة مقتصرة على الزراعة، فهناك التجارة التي لا تقل في الأهمية عن الزراعة، حيث كان النجديون مهرة في هذه المهنة، سواء كان ذلك على الصعيد المحلي، أو على الصعيد الخارجي، حيث يستورد أهل نجد الأطعمة والملابس والسلاح، ويصدرون بعض الحيوانات كالإبل والخيل[٣].

والحضر يختلفون عن البدو في طريقة حل المنازعات والخصومات، وذلك لقربهم من العلماء، فهم يحكمون بالكتاب والسنة في قضاياهم ومعاملاتهم، وقل ما تجد قرية أو مدينة في نجد إلا وتجد

---

(١) انظر: الشيخ محمد بن عبدالوهاب، د. عبدالله العثيمين (ص ٢).
(٢) انظر: المصدر السابق (ص ١٢)، الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحيم (ص ٢٥).
(٣) انظر: تاريخ نجد، الألوسي (ص ٨٣).

فيها قاضيًا شرعيًا، ينتدبه الإمام للحكم بين الناس[١].

ولقد تأثرت الجزيرة العربية تأثرًا بينًا بالدعوة الإصلاحية، وتجلى ذلك في اصطباغ المجتمع عامة بصبغة التدين والتزام شعائر الإسلام وشرائعه ـ وهذا هو الوضع الطبيعي المستقيم للمجتمع المسلم ـ، وانحسرت مظاهر الشرك والبدع والخرافات والعادات المخالفة للشرع عن الأقاليم التي حظيت بتأثير أكبر للدعوة، وتقلصت فيما سوى ذلك.

كما كان للحوادث العنيفة التي عصفت بالمنطقة وخصوصًا اجتياح الجيوش المصرية أثره في الإخلال بالأمن، وذلك ما أتاح الفرصة للثارات القبلية والنعرات الجاهلية أن تظهر من جديد[٢]، بعد أن نعم الناس أول القرن إبان عهد الدعوة الأول باستقرار لم يشهدوا له مثيلاً منذ قرون، وهو الذي ظل صاحبنا ابن منصور يروي شواهده لخواصه كما أشرنا سابقًا، إلا أن أثر تلك الحوادث كان محدودًا على الحالة الدينية التي استمرت على صلابتها وحيويتها؛ إذ كانت مبنية على حركة علمية، ومنهجية تربوية، وبناء فكري حافظ على وجوده حتى مع سقوط الإمارة التي كانت تساند الدعوة.

كذلك كانت المعيشة متفاوتة الأحوال بحسب الاستقرار والاضطراب السياسي، وبحسب تيسر أسبابها، التي تتمثل غالبًا في توفر المياه واستمرار نزول المطر؛ إذ كان الرعي والثروة الحيوانية السمة العامة لاقتصاد الناس في أواسط بلاد العرب، وإن لم تعدم شيئًا من الفلاحة والتجارة كما أشرنا سابقا، كما كان للأوبئة والأمراض فتكُها

---

(١) انظر: الشيخ محمد بن عبدالوهاب، د. عبدالله العثيمين (ص ٢٠).
(٢) انظر تاريخ ابن بشر: ١/ ٤٣٩، ٤٤٠.

في تلك المجتمعات، لذا كانت مواسم الخصب والجدب وتفاوت أسعار الأقوات وانتشار الأوبئة من أهم الحوادث التي يثبتها المؤرخون لهذه البقعة[1]، ومهما يكن من أمر، فالسمة العامة للمعيشة في الجزيرة العربية القلة والقسوة والخشونة والشظف، ولعل هذا ما أكسب بعض أهلها شيئًا من الجفاء والشراسة وشدة البأس.

ثالثًا: الحالة العلمية

اقتصرت المراكز العلمية في الجزيرة العربية قبل ظهور الدعوة التجديدية على الحرمين واليمن، ولا يكاد يوجد في التراث العربي الإسلامي مشاركة لغيرها من نواحي الجزيرة الداخلية، فكانت المنة عظيمة على أهلها بظهور هذه الدعوة، التي جعلت من قلب نجد مركزًا لترويج علوم الشريعة ذات المنهج السلفي لا للجزيرة فحسب، بل لسائر الأقطار الإسلامية، وبسبب هذه الدعوة صارت «الدرعية» منارة علمية يقصدها طلاب العلم، ويتواصل معها العلماء، ويتخرج منها الفقهاء والدعاة والقضاة، كما ظهرت آثار هذه الدعوة على أرجاء الجزيرة، في حركات علمية نشطة، تمثلت في ظهور بيوتات علمية مباركة، وشخصيات دعوية لامعة، كانوا بمثابة المعاهد التي تربي أجيالاً على المفاهيم السلفية الصافية، وكان لهم مصنفاتهم ورسائلهم وفتاواهم وآثارهم التي تشهد بما كانوا عليه من مستوى علمي رفيع، ومكانة فكرية بارزة.

---

(١) راجع مثلاً تاريخ ابن بشر: ١/ ٢٨٤، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٢، ٣٦٦، ٤٥٩، ٢/ ٥٩، ٧٩، ٨٣.

ففي قلب نجد خرّج إمام الدعوة نخبة من التلاميذ من أبنائه وأحفاده وغيرهم، صاروا أئمة فتوى، ومحققين ومصنفين تبوّأوا الذروة بين علماء الإسلام في عصرهم، مثل عبدالله بن الإمام محمد بن عبدالوهاب، وحمد بن ناصر بن معمر، وعبدالعزيز الحصين، وحسين ابن غنام، وعبدالرحمن بن حسن وسليمان بن عبدالله حفيدي الإمام، وعبدالله بن عبدالرحمن أبا بطين، وغيرهم كثير من العلماء الأعلام من طبقة تلاميذ الإمام، وطبقة تلاميذ تلاميذه التي منها ابن منصور، وتراجمهم مسطورة مشهورة في كتب التراجم[١].

كما ظهرت في تهامة وعسير حركة علمية نشطة متأثرة بالدعوة الإصلاحية برز فيها آل الحفظي، الذين منهم عبدالهادي البكري (ت١٢٦٢هـ) أحد أوائل شراح كتاب التوحيد[٢].

ولقد كان لظهور هذا المحور العلمي في الجزيرة وانتصاره للمنهج السلفي أثره في نشوب صراعات فكرية طاحنة حول مبادىء الدعوة، مع المناوئين من متعصبة أهل البدع من الرافضة والصوفية وغيرهم، تراها مسطرة فيما صنفه أئمة الدعوة من ردود[٣].

بل إن الردود ونقض الشبهات كان سمة عامة لمصنفات أئمة الدعوة؛ لما وجهه خصومها إليها من افتراءات وتلفيقات وشبهات بلغ

---

(١) مثل «السحب الوابلة» لابن حميد مع استدراكات الدكتور عبدالرحمن العثيمين، و«الأعلام» للزركلي، و«علماء نجد» لابن بسام، وغيرها.

(٢) انظر الدراسة التي قام بها حسن العواجي لتحقيق هذا الشرح «تحقيق التجريد» ١/ ٣٣ وما بعدها.

(٣) وقد لخصها أبدع تلخيص الدكتور عبدالعزيز العبداللطيف في كتابه «دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عرض ونقض».

فيها أصحابها حدًّا يبرر لدى المنصف مسحة العنف التي قد يلحظها في بعض مصنفات علماء الدعوة.

كما إن جو المواجهة العلمية بين الدعوة وخصومها، وامتزاج ذلك بالمواجهات السياسية والعسكرية، فرض مفاصلة حاسمة مع جميع الخصوم في عامة ألوان المودة والتواصل، على وجه ربما لم يسبق له مثيل في تاريخ الدعوة السلفية وصراعاتها الفكرية، مما جر إلى شمول هذه المفاصلة أحيانًا من لا يصح تصنيفه ضمن خصوم الدعوة، ممن لم يراع مقتضى الحال، وظن أنه في هذه الفترة يسعه ما كان سائغًا في فترات سابقة، من الإبقاء على بعض المودة مع بعض المخالفين ممن تربطه بهم علاقة تلمذة أو صداقة أو نحوها، وهو ما حدث مع ابن منصور كما سيأتي تفصيله.

الفصل الثاني
حياة المؤلف

نسبه

هو عثمان بن عبدالعزيز بن منصور بن حمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حسين، الحسيني، من آل رحمة، الناصري، العمْري، التميمي، النجدي، الحنبلي.

كذا هو من خط يده كما في آخر نسخته من «المسودة» في أصول الفقه لآل تيمية[١].

و«آل رحمة» الذين منهم ابن منصور بطن كبير من النواصر، الذين ينتهي نسبهم إلى الحبطات، من بني الحارث بن عمرو بن تميم[٢].

مولده

لم نقف على من صرح بتاريخ ولادته، ويترجح من النظر في موالد مشايخه وتلاميذه أنه ولد في مطلع القرن الثالث عشر، وربما في آخر الثاني عشر؛ فالشيخ عبدالرحمن بن حسن ـ وهو من أشهر شيوخه ـ ولد سنة ١١٩٣هـ، والمؤرخ ابن بشر ـ وهو من أشهر تلاميذه ـ ولد سنة ١٢١٠هـ، فينبغي جريا على المعتاد في مثل هذا أن تكون ولادته تقريبًا سنة ١٢٠٠هـ، تزيد قليلاً، أو تنقص قليلاً[٣].

---

(١) انظر صورة عنها في مطبوعة «المسوّدة» ص ١١.

(٢) علماء نجد: ٥/ ٨٩.

(٣) وإلى هذا أشار الشيخ البسام، وتجدر الإشارة إلى أن ابن منصور يروي في =

وكانت ولادته في «الفرعة»، من بلدان «الوشم»، من أقاليم نجد، وهي مقر عشيرته «النواصر»، ومنها تفرقوا في نجد[1].

نشأته وتعليمه

لم نجد من تفاصيل نشأته، إلا ما ذكره ابن بسام[2] من أنه قرأ على علماء «سدير» الذين من أشهرهم «آل عبدالجبار»، فيمكن أن يفهم من هذا أنه طلب العلم مبكرًا، ولابد أنه مهّد لذلك بحفظ القرآن أو شيء منه كما هو معتاد بين طلاب العلم.

غير أن من الجدير بالإشارة أن «سديرًا» ـ الناحية التي نشأ بها ـ لم تخضع للدعوة إلا بعد عناد وطول جلاد[3]، ولا شك أن صفاءها للدعوة بعد إخضاعها عسكريا قد تطلب مدة من الزمن، ولعل لهذا أثره في إعراض ابن منصور عن الدعوة أول الأمر، وانصرافه إلى الزبير والبصرة لطلب العلم، حيث يقيم بعض خصوم الدعوة، كما يأتي[4].

= بعض أسانيده عن عيسى بن محمد بن عيسى الزبيري (ت ١٢٤٨هـ)، قائلا: «صاحبنا»، وهذا يوحي بأنه من أقرانه، إلا أننا لم نعثر على تاريخ ولادته، فلينظر.

(١) علماء نجد ٥/ ٩٠.

(٢) علماء نجد ٥/ ٩٠.

(٣) انظر عنوان المجد ١/ ٧٦ـ ١٥١.

(٤) انظر ما نقله الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن في «مصباح الظلام» ص ٣٨٠، عن كتاب «كشف الغمة» لابن منصور، من أن أتباع الدعوة أتوا إلى «المجمعة» في ناحية «سدير» فدخلوها ليلا قبل أن يتولّوا عليهم، فأذّنوا في أحد مساجدهم؛ يطلبون قتل من جاء للصلاة، فجاءهم شيّاب من أهل الخير فقتلوهم في المسجد. وقد فند الشيخ عبداللطيف هذه الفرية بما يكفي ويشفي.

والذي يظهر جليا لقارىء كتب ابن منصور أنه محب للعلم، متفنن فيه، واسع الاطلاع، متصيد للفوائد، متتبع للشوارد، طويل النفس في دراسة المسائل واستيعاب النصوص، حريص على تنويع مصادره، مع اعتناء بالأدب وعلوم الآلة، وهذا ما لا يكاد يجتمع في مصنفات عالم نجدي، حتى إن حسد الحاسدين عاد همّا يقلق ابن منصور تلقاء كتبه، فلا يزال يردد فيها الاستعاذة منهم(١).

وهذا يدل على عناية ابن منصور الذاتية المبكرة ببناء شخصيته العلمية، وثقافته العامة، وتنويع مشاربه، والسعي إلى الاستقلال في الرأي، ومحاولة التحلل من التزام الجو العلمي العام لنجد في ظل الدعوة، وذلك ما استتبع جعله تحت المجهر، والارتياب من حقيقة موقفه حتى قبل ظهور ما ظهر إثر وفاته.

كما أن هذا التوسع من ابن منصور في طلب العلوم، وذهابه مذاهب شتى في التحصيل، كان على حساب التحقيق والتحرير والتأصيل، كما يظهر جليا من مصنفاته، فكلها نقول إلا النادر، وما إن يختصر، أو يبحث ويقارن، إلا ويفتقد القارىء نفس التحقيق في الكلام.

أما إن ثبت على ابن منصور كتاب «كشف الغمة» ـ وسيأتي تحقيق هذه القضية ـ فإنه أبعد ما يكون عن منزلة المتقنين، فضلا عن المحققين، وهو أبعد عن ذلك إن كان من آخر مصنفاته؛ لما ظهر على مؤلفه من بعد عن نفس التحقيق، فلعله إن ثبت أن يكون مسوّدة ألّفها

---

(١) كما في فتح الحميد ص ١٣، ١٤، ٢١٣١.

في أوائل الطلب.

ويصدق عليه إذن في هذا الكتاب وصف الشيخ عبداللطيف له بأنه من الغافلين عن المباحث العقدية[1].

---

(١) انظر «مصباح الظلام» ص ٣٦.

شيوخه

حرص ابن منصور في أثناء تنقله في طلب العلم وتحصيله، على القراءة على مشاهير علماء عصره، ومن هؤلاء الذين استفاد منهم وقرأ عليهم:

(١) الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد الحصيّن(١١٥٤ـ ١٢٣٧هـ):

ولد الشيخ الحصيّن في قرية الوقف من القرائن سنة ١١٥٤هـ، وكان رحمه الله تعالى من كبار أئمة الدعوة ممن تخرج على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، حيث لازمه ما يزيد على السنتين، وكان الشيخ محمد بن عبدالوهاب يكرمه ويعظمه.

كلفه الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود رحمه الله بقضاء الوشم بإشارة من الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وانتدبه الإمام عبدالعزيز بن محمد والشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمهما الله سنة ١١٨٥هـ وسنة ١٢٠٤هـ إلى مكة لمناظرة علمائها.

نفع الله بعلمه وتخرج به علماء من أفاضل الرجال ذكر جملة منهم ابن بشر في أثناء ترجمته، وكان ابن منصور ممن ذكر، توفي الشيخ الحصيّن في شقراء سنة ١٢٣٧هـ عليه رحمة الله[١].

---

(١) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٢٣٥)، علماء نجد، البسام (٣/ ٤٥٤)، السحب الوابلة، تعليق الدكتور العثيمين (٢/ ٥٤٢).

فقد استفاد ابن منصور من علوم الشيخ الحصين، حينما كان قاضيًا للوشم، وبلدة ابن منصور تابعة للوشم كما تقدم[1].

ومن العلوم التي استفادها ابن منصور من شيخه الحصيّن: التوحيد، وعندما أراد الشروع في تأليف شرح التوحيد، بحث عن نسخة صحيحة من كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، ولم يجد إلا نسخة شيخه الحصيّن، وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه بقوله:

«... فطلبت حينئذ نسخة صحيحة، لينتفي الشك عن القريحة، فلم أجد إلا نسخة عندي، قد قابلتها على خط المصنف رحمه الله بيده وجدتها عند بعض مشايخنا، وهو الشيخ عبدالعزيز الحصيّن قدس الله روحه، ونور ضريحه، وجزاه عنا وجميع مشايخنا أحسن الجزاء، فاعتمدت لأجل ذلك عليها...»[2].

ومن العلوم التي تلقاها عن شيخه عبدالعزيز الحصيّن عليه رحمة الله الفقه، فالشيخ كما ذكر في ترجمته له حلقة كبيرة في الفقه وعلومه، وكان موعد مجلسه لتدريس الفقه وقت طلوع الشمس إلى ارتفاع النهار، يرتاد هذا المجلس طلاب العلم من أهل شقراء، وباقي بلدان الوشم، وغيرهم[3].

وقد نفع الله بطلاب الشيخ الحصيّن، إذ عد ابن بشر في تاريخه ما يزيد على العشرة من طلاب الشيخ الحصيّن ممن تولى مناصب القضاء

---

(١) انظر: علماء نجد، البسام (٥/ ٩٠).

(٢) انظر: فتح الحميد ص ٦.

(٣) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (١/ ٢٣٥).

والإفتاء بالدولة السعودية الأولى والثانية، ومنهم الشيخ عثمان بن منصور رحمه الله تعالى[1].

(٢) الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب(١١٩٣-١٢٨٥هـ):

الإمام، المجاهد، المجدد الثاني، كان شجاعًا عدلاً مهيبًا، حمل لواء الدعوة السلفية في عهد الإمام تركي بن عبدالله، ثم ابنه فيصل، ثم ابنه الإمام عبدالله بن فيصل، وباشر الأعمال التي كان يقوم بها جده الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، وقصده الطلاب من شتى البلدان العربية، وراجت للعلم في الرياض وعامة نجد سوق، بفضل الله ثم بجهوده، ولد رحمه الله في الدرعية سنة ١١٩٣هـ وتوفي بالرياض سنة ١٢٨٥هـ[2].

وقد قرأ ابن منصور على الشيخ عبدالرحمن بن حسن[3] رحمه الله تعالى، وطلب منه ابن منصور أن يجيزه، فأجازه في علوم الحديث وغيرها[4]، وقد ساق ابن منصور سنده من طريق شيخه عبدالرحمن بن حسن - رحمه الله تعالى - في مقدمة كتابه فتح الحميد حيث قال:

«وقد اتصل سندنا بالإجازة إلى ما في المسند المسمى «بالإمداد في علو الإسناد»، للشيخ العالم العلامة، خاتمة المحدثين، وقدوة من بعده

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: عنوان المجد، ابن بشر (٢/ ٢٠)، السحب الوابلة (٢/ ٤٨٦) تعليق الدكتور العثيمين.

(٣) انظر: علماء نجد، البسام (٥/ ٩٠).

(٤) انظر: الدرر السنية (١٢/ ٧).

من المسندين عبدالله بن سالم البصري، ثم المكي[1] رحمه الله تعالى، من طريق شيخنا الأوحد، والإمام المفرد، الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، حفيد مصنف هذا الكتاب، متع الله بحياته، وبارك له في جميع أوقاته، فأجازني عن شيخه...»[2].

ولما انتهى ابن منصور من تأليف كتاب فتح الحميد في شرح التوحيد، عرضه على شيخه الشيخ عبدالرحمن بن حسن، لعل له بعض الملاحظات، وقد نظر فيه الشيخ عبدالرحمن وأعجب به واستحسنه، وكتب ما يفيد ذلك بخطه على غلافه.

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: «نظرت في هذا الشرح فرأيته شرحًا حسنًا، قد أجاد فيه مؤلفه وأفاد، كان الله في عونه، ولكنه ذكر فيه شيخه محمد بن سلوم[3]، وحاله في الاعتقاد معلوم، فلو أعرض عن ذكره رأسًا لحسن هذا الشرح عندنا، وفاق عند أمثالنا.

قاله كاتبه عبدالرحمن بن حسن عفا الله عنه»[4].

---

(١) المعروف بجمال الدين، من فقهاء الشافعية، محدث، توفي بمكة سنة ١١٣٤هـ، من تصانيفه الضياء الساري على صحيح البخاري في ثلاث مجلدات، والإمداد بمعرفة علو الإسناد، وذكر فيه أسانيده إلى كتب السنة وغيرها.

انظر: الكتاني، فهرس الفهارس (١/ ١٣٦)، هدية العارفين، البغدادي (١/ ٤٨٠)، الأعلام للزركلي (٤/ ٨٨).

(٢) انظر: فتح الحميد ص ١٩ إلا أن الشيخ عبدالرحمن عاد فتأسف على إجازته كما في الدرر السنية ٩/ ٢١٥.

(٣) سوف تأتي ترجمته في هذا المبحث.

(٤) انظر صورة غلاف النسخة [م] ضمن نماذج المخطوطات.

(٣) الشيخ محمد بن سلوم التميمي(١١٦١ـ ١٢٤٦هـ):

من وهبة تميم، تلقى علومه على يد خصم الدعوة الإصلاحية، محمد بن فيروز الأحسائي، وولد ابن سلوم في مقاطعة سدير سنة ١١٦١هـ، وبسبب موقفه السلبي من الدعوة الإصلاحية جلا عن نجد إلى العراق، نبغ في الفرائض والحساب والهيئة، وله مؤلفات جليلة في هذه العلوم، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٤٦هـ[١].

وعندما رحل ابن منصور إلى العراق لطلب العلم، التقى بشيخه محمد بن سلوم الفرضي المشهور، وأخذ عنه علومًا شتى، منها الفقه، والحساب، والحديث، والتفسير، والآداب، وقرأ عليه شرحه لمنظومة الشيخ البرهاني في علم الفرائض، قراءة بحث وتحقيق.

وقد أجازه شيخه ابن سلوم بإجازة مؤرخة في شعبان ١٢٤١هـ ذكرها الشيخ البسام في ترجمة ابن منصور، جاء فيها ما يلي:

«.. فإن الولد الموفق الباذل جهده في طلب العلوم، الشيخ عثمان بن عبدالعزيز بن منصور قد قرأ على هذا المُقِلّ، جملة من الفقه والحساب والحديث والتفسير والآداب، و قرأ عليَّ شرحي على منظومة الشيخ البرهاني إلى قسم التركات قراءة بحث وتحقيق، فقد أجزت الولد المذكور بما تجوز لي وعني روايته من حديث، وفقه، وفرائض، وحساب، وعلم ميقات... وغير ذلك، وأجزت له أن يروي عني الثبَت المسمى بـ: «الإمداد في علو الإسناد» الجامع لمرويات و

---

(١) انظر: الدرر السنية (١١/ ٥٣٤)، علماء نجد، البسام (٦/ ٢٩٢)، السحب الوابلة، ابن حميد (٣/ ١٠٠٧).

مستجازات ومناولات العالم العلامة والرحالة الفهامة خاتمة المتأخرين الشيخ عبدالله بن سالم البصري ثم المكي من رواية شيخيّ تغمدهما الله برحمته. . .»[1].

وقد ذكر ابن منصور هذه الإجازة عن شيخه ابن سلوم في بداية كتابه فتح الحميد في شرح التوحيد[2]، وذلك ما أثار عليه انتقاد شيخه العلامة عبدالرحمن بن حسن رحمه الله تعالى، كما ذكرنا في ترجمته قريبا.

علما بأن ابن منصور لم يذكره في كتابه إلا في معرض سوق إسناده لمروياته التي أجيز بها في أول الكتاب، وذكره دون أدنى ثناء، ولم يذكره بعد ذلك[3].

(٤) الشيخ أحمد بن حسن بن رشيد الأحسائي الشهير بالحنبلي (١١٥٥ـ ١٢٥٧هـ):

ولد في الأحساء سنة ١١٥٥هـ تقريبًا، وكان يتيمًا رباه وكفله الشيخ محمد بن فيروز، وتلقى على ابن فيروز العلم، وبرع في العلوم العقلية والنقلية، ولما مدت الدعوة سلطانها على المدينة، وكان فيها آنذاك، شرح الله صدره لها، فتولى قضاء المدينة للإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد، ودرس كتب ورسائل الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، وناظر المخالفين ورد عليهم، ولما استولت جيوش محمد علي على المدينة، نزح إلى الدرعية، وكان من ضمن المحاصرين

---

(١) انظر علماء نجد، البسام (٥/ ٩١).
(٢) انظر: فتح الحميد ص ٢١.
(٣) انظر: الموضع السابق.

فيها، ولما استولى الترك عليها، كان ممن عُذّب من علمائها وأعيانها، حيث ضُرب وقُلعت جميع أسنانه، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٥٧هـ[١].

وقد لقيه ابن منصور، واستفاد منه وقرأ عليه، في الصحيحين وغيرهما، واستجازه ابن منصور أن يروي الصحيحين من طريقه فأجازه في ذلك وجميعِ ما يرويه من الكتب والأسانيد المذكورة في ثبَت «الإمداد في علوِ الإسناد» و«مسند النخلي»[٢]، وقد ساق ابن منصور إسناده من طريق شيخه الشيخ أحمد بن حسن بن رشيد إلى الإمام البخاري صاحب الصحيح[٣].

(٥) الشيخ عيسى بن محمد الزبيري(ت١٢٤٨هـ):

فقيه، فيه ورع وزهد، ولد في الزبير وأخذ عن علمائها، مهر في الفقه، وكان زاهدًا في الدنيا عزوفًا عنها، ألزمه أعيان الزبير القضاء فباشره بلا مقابل، ثم رغب عنه فألحوا عليه في الاستمرار فامتنع، توفي في بلده الزبير سنة ١٢٤٨هـ[٤].

(٦) الشيخ عثمان بن جمعة (٠٠٠ـ ١٢٤٠هـ):

هو الشيخ عثمان بن عبدالله بن جمعة بن جامع النجدي، يتصل نسبه إلى الخزرج من الأنصار، جاء جده من المدينة وسكن نجداً، ومن

---

(١) انظر: علماء نجد، البسام (١/ ٤٥٧)، السحب الوابلة، ابن حميد (١/ ١٢٦).
(٢) انظر: فتح الحميد ص٢٣.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٢٣ ـ ٣١.
(٤) انظر: علماء نجد، البسام (٥/ ٣٤٥)، السحب الوابلة، ابن حميد (٢/ ٨٠٨).

ثَمّ رحلت أسرته إلى الزبير، وفيها ولد، تلقّى علومه على علماء الأحساء والحجاز، وتصدر في المذهب الحنبلي، وولي القضاء في البحرين فحُمدت سيرتُه، وبها توفي سنة ١٢٤٠هـ، شرح كتاب أخصر المختصرات للشيخ البلباني شرحًا مبسوطًا، جمع فيه من الفوائد زبدة كتب الحنابلة[١].

(٧) الشيخ مصطفى الدهني المدني[٢]

ذكره في أول «فتح الحميد» بعد سرد أبواب كتاب التوحيد فقال: (وقد جمع بعض مشايخنا وهو الشيخ مصطفى الدُّهني المديني عدد أبواب التوحيد، وما أورد فيه من الآيات والأحاديث والمسائل، في أبيات شعر..). ثم ذكرها. وفي عناية هذا الشيخ بكتاب التوحيد دليل واضح على أنه من أتباع الدعوة.

(٨) الشيخ عبدالله بن حمود الضرير الفقيه[٣]

وهؤلاء الأربعة ذكرهم ابن منصور في معرض ذكر من أجازه من أهل العلم، وقد أجازوه في رواية ما حواه ثبَت «الإمداد في علو الإسناد» و«مسند النخلي» من الأسانيد إلى كتب الحديث وغيرها[٤].

---

(١) انظر: السحب الوابلة، ابن حميد (٢/ ٧٠١)، علماء نجد، البسام (٥/ ١٠٩).

(٢) لم نجد له ترجمة. وقد ذكر صاحب «فهرس الفهارس» ممن يروي عن الزبيدي (١١٤٥ـ ١٢٠٥هـ) صاحب «تاج العروس»: العلامة الشيخ مصطفى الدهني المصري، انظر ص ٥٣٩، كما ذكره في ص ٧٠٣ راويًا عن حسن القويسني، والقويسني هو أحد شيوخ الشيخ عبدالرحمن بن حسن، وستأتي ترجمته.

(٣) لم نجد له ترجمة.

(٤) انظر: فتح الحميد ص١٩ ـ ٢٧.

(٩) الشيخ محمد الشعّاب الأنصاري المدني.

هو محمد بن صالح بن عبد الباقي بن أحمد، الحنفي، الشهير بالشعاب، له شرح على ملحة الإعراب سمّاه: «كشف النقاب»، توفى بمكة في نيف وأربعين بعد المائتين والألف[١].

(١٠) الشيخ إبراهيم الفاسي المغربي

(١١) الشيخ إبراهيم الضرير اليماني[٢]

وهؤلاء الثلاثة استشهد بهم ابن منصور خلال تقريره لمسألة أسماء الرب جل وعلا، وأنها أسماء ونعوت[٣].

(١٢) إسماعيل بن محمد سعيد سفر اليمني، ثم المدني[٤].

(١٣) عثمان بن سند، من خصوم الدعوة، دارسه المؤلف في البصرة، ثم هجره وردّ عليه ردًّا أليمًا بسبب طعنه على ابن تيمية وأهل نجد[٥].

(١٤) إبراهيم بن ناصر بن جديد، من خصوم الدعوة، توفي سنة ١٢٣٢هـ[٦]، ذكر الشيخ عبدالرحمن بن حسن أنه من شيوخ ابن

---

(١) انظر: المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر.

(٢) لم نجد لهما ترجمة.

(٣) انظر: فتح الحميد ص٥٥، ٥٦.

(٤) لم نجد له ترجمة، وقد ذكره في ثبت أسانيده.

(٥) انظر الدرر السنية ٩/ ٢١٥، وفي «علماء نجد» (٥/ ٨٩) نقلٌ عن ابن منصور فيه أنه سافر من البصرة عام ١٢٣٦هـ، لكن قال ابن منصور في آخر كتابه «منهج المعارج»: (كنت سودت بعضه بالبصرة المحروسة سنة الأربعين بعد المائتين والألف)، فالظاهر أنّه كان يتردد على البصرة.

(٦) انظر السحب الوابلة: ١/ ٧١، وعلماء نجد: ١/ ٤٢٣.

منصور[١]، وأشار إليه ابن منصور ضمن أسانيده على أنه شيخ شيوخه[٢].

تلاميذه

إن شخصية بهذه المنزلة في العلم والقضاء من البداهة أن يكثر تلاميذها ومريدوها، ومع هذا لا نكاد نجد التصريح إلا بأسماء قلة منهم، ولاشك في أن الدور الأكبر في هذا يعود لموقف ابن منصور من الدعوة، وما أثير حوله من شبهات، فهذا يقتضي إغفال ذكر تلاميذه له ضمن شيوخهم؛ حتى لا يصنفوا في أضداد الدعوة، ولعل ابن بشر المؤرخ شذ عن ذلك لكونه مؤرخًا، بعيدًا عن التدريس والفقه والقضاء، قوي الصلة بالأمراء، وفيما يلي ذكر من وقفت عليه من تلاميذه:

١ـ المؤرخ عثمان بن عبدالله بن عثمان بن بشر الحرقوصي، من بني زيد، ولد عام ١٢١٠هـ، وتوفي عام ١٢٩٠هـ، وهو صاحب التاريخ الشهير: «عنوان المجد في تاريخ نجد»، الذي احتفى فيه بشيخه ابن منصور، وذكر توليه القضاء في عدة مواضع، ونقل عنه بعض الأخبار، وأثبت له مرثية في الإمام تركي، وأثنى عليه الثناءَ العاطر.

٢ـ محمد بن حمد بن نصرالله بن فوزان بن نصرالله، حياته ما بين ١٢١٠هـ إلى آخر القرن الثالث عشر، تقريبًا، اشتهر بخطه الجميل المضبوط، ونسخه للكتب، ويبدو أنه من أخص تلاميذ ابن منصور، فقد نسخ كتبه بيده.

٣ـ محمد بن حمد بن عمير بن عبدالله بن ناصر، الناصري، الحنبلي،

---

(١) انظر الدرر السنية: ٩/ ٢١٥.

(٢) انظر ما يأتي في فتح الحميد ص٢٤، ٣٤.

كاتب النسخة [م]، وهي المسودة الأولى، قال في آخرها: (وتم الفراغ من تعليق هذا الشرح المبارك المسمى بفتح الحميد في شرح التوحيد **لشيخنا** العلامة عثمان بن عبدالعزيز بن منصور أيده الله...). ولم نعثر له على ترجمة.

٤ـ محمد بن فهيد الدوسري البدراني، اختص بالتلمذة لابن منصور، فلازمه وقرأ عليه حتى أدرك[١].

٥ـ علي القرشي الدوسري، زميل سابقه في التلمذة لابن منصور[٢].

٦ـ علي بن سند، من المشارفة، ذكر ابن بسام أنه من تلامذة ابن منصور، ولم يزد على ذلك[٣].

ثناء العلماء عليه

قال عنه تلميذه المؤرخ ابن بشر: الشيخ النبيل، والعالم العلامة الفقيه، الذي حوى فنون العلوم، وكشف إليها الستور، وتلألأ بمعاني بيانه الطروس والسطور[٤].

ووصفه في خطّه على إحدى نسخ «فتح الحميد» بالشيخ.. الفاضل، والحبر المناضل.. القاضي عثمان بن منصور[٥].

وقال ابن ضويان: كان فقيهًا، يكتب جيدًا، وحصّل كتبًا كثيرةً

---

(١) انظر علماء نجد ٦/ ٣٥٥.

(٢) انظر الموضع السابق.

(٣) انظر علماء نجد: ٦/ ٥١٥.

(٤) عنوان المجد ١/ ٤٦٦، والطروس: الصحف، انظر لسان العرب (٦/ ١٢١).

(٥) انظر ورقة العنوان من النسخة [م]، ومكان النقط كلمة غير واضحة، كأنها «الهمام» أو «العالم».

بالنسخ والشراء، وبعد موته حملت إلى الرياض، وبيعت بأغلى الأثمان[1].

ومن الشهادات الثمينة لابن منصور بالتمكن العلمي قول العلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن وهو من أشد الناس إنكارًا على ابن منصور في علاقاته بخصوم الدعوة، حيث قال عنه ضمن رسالة مناصحة بعث بها إليه: إيهٍ من رجل لو استقام، وصارمٍ لولا ما عراه من الانثلام، لكني أعلم أن للعلم بركات، وللملَك لمّاتٍ، فأرجو أن يقوده العلم إلى ثمراته. ا. هـ[2].

ولا يخفى ما في هذا التعبير من التحسّر على عالم مثل ابن منصور ألا يكون صافيًا في ولائه للدعوة.

(١) عن «علماء نجد» ٥/ ٩٦.

(٢) انظر الدرر السنية (١٢/ ٢٩٥).

فقهه

تلقى الشيخ عثمان بن منصور، علومه في الفقه على مشاهير علماء الحنابلة في عصره، حتى برع، وعُدّ من العلماء المبرزين، وقد نقل عنه تلميذه المؤرخ الشيخ عثمان بن بشر نصًا يدل على اطلاعه الواسع على ما كتبه متأخرو الحنابلة، من الحواشي والمتون، يقول ابن بشر: «أخبرني شيخنا عثمان بن منصور عن أشياخه قال: كل ما وضعه متأخرو الحنابلة من الحواشي على تلك المتون ليس عليه معوّل، إلا ما وضعه الشيخ منصور[١]، لأنه المحقق لذلك»[٢].

وقال عنه أيضًا: «الشيخ النبيه، والعالم العلامة الفقيه، الذي حوى فنون العلوم، وكشف عنه الستور، وتلألأت بمعاني بيانه السطور شيخنا عثمان بن منصور»[٣].

وقد تطرق ابن منصور في كتابه فتح الحميد، إلى كثير من المسائل الفقهية، يظهر للمطلع عليها، رسوخ قدمه في هذا الميدان، وبراعة استدلاله، وحدة فهمه، وقد ذكر الشيخ علي الهندي[٤] رحمه الله أن

---

(١) البهوتي، أحد كبار أئمة المذهب، شيخ شيوخ الحنابلة في مصر والشام ونجد، توفي سنة ١٠٥١هـ.

انظر: السحب الوابلة، ابن حميد (٣/ ١٣١)، معجم المؤلفين، كحالة (١٣/ ٢٣).

(٢) انظر: علماء نجد، ابن بسام (٥/ ٩٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) الحائلي، أحد المدرسين بالمسجد الحرام، له: «زهر الخمائل في تراجم علماء حائل»، وحاشية على زاد المستقنع، انظر عنه «المدخل المفصل إلى =

لابن منصور مجموع فتاوى مخطوطًا، نقل ذلك عنه الشيخ ابن بسام حفظه الله، ولم يشر إلى مكان وجوده، ولم يدرجه في مؤلفات ابن منصور[(١)].

أدبه وشعره

لابن منصور عناية بينة بالأدب والشعر، واطلاعه فيهما واسع كما يبدو من مصنفاته؛ فهو من المكثرين جدا من الشواهد الشعرية، خصوصًا في «فتح الحميد»، الذي تجاوزت الشواهد فيه الخمسمائة، وله عناية خاصة بشعر جرير، فكثيراً ما يستشهد به، ويبدو أنه يحفظ كثيراً من ديوانه؛ فقد أورد في أول نصفي الكتاب ستة وعشرين شاهداً لغويا من شعره.

أما نظمه فهو كما يقول الأستاذ حمد الجاسر: ركيك ضعيف[(٢)]، وقد وافق في هذا الحكم الشاعر الأديب العالم: ابن مشرف الأحسائي، حيث يقول في رده على مدح ابن منصور لابن جرجيس[(٣)]:

ركيك قواف صاغها فتكسـرت   وحاصلها كالعجل[(٤)] مستوجب الكسر

تخير حـرف الراء عجـزاً وإنمـا   يعـدون حرف الراء عير أولي الشعـر

= فقه الإمام أحمد بن حنبل» للدكتور بكر أبوزيد: ٢/ ٧٧٦.

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر مجلة العرب، الجزء ٩، ١٠، ص ٦٨٢ـ ٦٨٥، السنة ٣٠، عدد الربيعين من عام ١٤١٦هـ.

(٣) انظر ديوانه ص ٢٩.

(٤) يريد العجل الذي عبده بنو إسرائيل.

وخالفهما في هذا الرأي صاحب «زهر الخمائل» فقال: وله شعر قوي[١]. وبأدنى نظرة في شعره يتبين صواب الرأي الأول.

وقد حُفظت لابن منصور بعضُ القصائد، منها نظمه المذكور في أول «فتح الحميد»[٢]، ومنها منظومته التائية التي ختم بها شرحه، وأولها:

الحمـــد لله إكمـــالاً لبغيتنـــا ملء السماء وملء الأرض كرات

أنت المهيمن إنعاماً ومغفرةً والفقر لي لازم جميع حالاتي[٣]

ومنها قصيدته التي سماها «الرد الدامغ» التي رد بها على عثمان بن سند، وقصيدته في مدح ابن جرجيس، وستأتي نماذج منهما في الفصل التالي، ومنها مرثيته للإمام تركي، وقد تقدم مقاطع منها في الفصل الأول، ومنها ردّه العنيف على أبيات ابن حمّاد المغربي التي ظنّ ابن منصور أنه يتنقّص بها الحديث وأهله[٤].

وفاته

توفي ابن منصور في ربيع الأول من عام ١٢٨٢هـ، وكانت وفاته في «حوطة سدير»[٥]، وهو العام الذي توفي فيه العلامة أبو بطين، والإمام فيصل بن تركي[٦]، رحم الله الجميع.

---

(١) زهر الخمائل في تراجم علماء حائل للشيخ علي الهندي: ص٥.
(٢) انظر ص ١٢.
(٣) كذا البيت في آخر شرحه، ولا يخفى خلله.
(٤) انظر فتح الحميد ص ١٥٦٧.
(٥) انظر «علماء نجد» ٥/ ٩٩.
(٦) انظر «عقد الدرر» لابن عيسى ص ٥٥، ٥٨.

وقد ذكره صاحب تسهيل السابلة في وفيات سنة ١٢٦٤هـ، ثم عاد فذكره في سنة ١٢٦٦هـ وقال: وقد تأخرت وفاته إلى هذه السنة، أو بعدها[١].

والمقطوع به عند بقية من ترجم له أنه توفي عام ١٢٨٢هـ.

---

(١) تسهيل السابلة لمريد معرفة الحنابلة لصالح العثيمين، تحقيق بكر أبو زيد: ٣/ ١٦٩٠ ـ ١٦٩٢.

الفصل الثالث
مؤلفات ابن منصور

ألف ابن منصور مؤلفات عدة، صرح فيها بالثناء على الإمام محمد بن عبدالوهاب ودعوته، ونُسبت إليه مؤلفات تتضمن نقداً للدعوة وأتباعها تصريحاً وتلميحاً، ولم يطبع من هذه المؤلفات شيء، وإليك فيما يلي ما وقفنا عليه مما نُسب إليه، محاولَين ترتيبه ترتيباً زمنياً:

١ـ **«الرد الدامغ على الزاعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية زائغ»**، وهي منظومة رد فيها على عثمان بن سند الفيلكي البصري لما تهجم على ابن تيمية، وتضمنت دفاعاً عن الإمام محمد بن عبدالوهاب، وقد قدم لها بمقدمة هجم فيها هجوماً عنيفاً على ابن سند، وسيأتي شواهد منها في الفصل التالي، ولعلها من أول ما ألف؛ إذ ألفها إثر اجتماعه بابن سند في البصرة، وسماعه منه نيلاً من الإمام ابن تيمية وأهل نجد، ومعلوم أن إقامته بالعراق كانت في مقتبل عمره.

وهذه المنظومة موجودة بقسم المخطوطات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم (٢١٣٧) (١ـ ٣ب)[١].

٢ـ **«منهج المعارج لأخبار الخوارج بالإشراف على الإسراف من دينهم المارج»**، أو **«السيرة الخارجية المحتوية على كل غائلة وبليّة»**، يعتبر ـ كما يقول الدكتور عبدالرحمن العثيمين ـ من أجمع الكتب المؤلفة في

(١) وقد نشرتها قريبا دار التدمرية بعناية سليمان الخراشي وفقه الله.

أخبارهم[1].

قال ابن منصور في مقدمة هذا الكتاب: (..إنه قد عنّ للخاطر الحاضر أن أذكر أخبار الخوارج الذين خرجوا بالسيف على صالح الأمة، فقاتلوا به سائر المسلمين والأئمة، فسطوا على الناس بالسيف، ونسبوهم بما فيهم إلى الكفر والحيف، تأولوا فيهم آيات قد أنزلت في الكفار، وحكموا عليهم بالخلود في النار، فبدؤوا بالصحابة، وثنوا بمن بعدهم من أهل البصائر والإصابة، ففتنوا الناس بالعبادة والاجتهاد، وركّبوا دينهم على مجانبة الحق والإلحاد، وذلك لتحكيم عقولهم، وفساد أصولهم، فضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وضجت[2] من سفكهم الدماء السماوات والأرض، فتبع من خلف منهم من سلف، حتى جانبوا بذلك سيرة صالح السلف، باستعمالهم للمسلمين الغلو والصلف، إلى أن جعلوا الدين القويم بينهم مزدلفاً، وقالوا على الله غير الحق، وزعموا أن كلاًّ منهم بما زعم محق، فصاروا بذلك عن الدين ناكبون[3]، فهم لله ورسوله محاربون، ومع ذلك يزعمون أنهم محسنون، ألا إنهم هم الفاسقون، ولكن لا يشعرون، ويقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، **فهم يقاتلون أهل شعائر الإسلام، الذين نصبوا له الرايات والأعلام، يدعون بداعي الفلاح على رؤوس المنار، ويسعون إلى ما يقربهم من دار القرار، ينصبون القضاة في أمصارهم، ويعمرون المدارس في أقطارهم، ومع ذلك فهم يجعلون بلادهم بلاد كفر وحرب**، فيوقعون بهم القتل بالوخز والضرب، ومن

---

(١) السحب الوابلة: ٣/ ٧٠٨.
(٢) في الأصل: جضت، ولا محل لها.
(٣) كذا، والصواب: ناكبين.

أقام منهم في بلاده فهو عندهم الشقي الكافر، ومن رحل منها إليهم فهو المؤمن المهاجر؛ إذ من قواعد دينهم وتسويل شياطينهم أن من ساعدهم على قولهم فهو المؤمن القوي، أو خالفهم فهو الكافر الشقي، فهم يقتلون أهل الإسلام والإيمان، ويدعون أهل الكفر والعدوان، حتى غشيت الفتن الكبرى لقلوبهم، فلا هم يتوبون من جرمهم وذنوبهم، فلذلك عميت عن الحق بصائرهم وأبصارهم، وقرب من الباطل خوضهم ومزارهم، فاختلفت في ذلك أهواؤهم، وتولت عن الحق إلى الباطل آراؤهم ودلائلهم، فما خطر بخواطرهم كان عندهم كالحق، وحرمة عبّاد المسلمين لدى عبّادهم كالبق، يتلعّبون بالمسلمين تلعّب الصبيان بالكرة، وما شابه من زيهم زيّهم فهو عندهم محرم أو مكتره، يتمنون على الله الأماني، ولا يرون قاتل المسلمين بقتلهم جاني، ويؤولون القرآن على غير تأويل المؤمنين، فيجعلون بذلك المسلمين كالمجرمين، فقد ضجت[1] من فعلهم دماء المسلمين وأموالهم، وضاقت بهم فروجهم وأحوالهم، لا يرجعون في ذلك إلى قول صحيح في الأمة، ولا ينتحلون في اجتهادهم إماماً من الأئمة، معولهم في قولهم على عقولهم في القرآن، إذ ليس عندهم في تأويلهم من دليل عن السلف ولا برهان، فهم لا يعرجون في ذلك إلى قول صائب، أو يؤثر عن تابعي أو صاحب، قد جلت مصيبتهم على أهل الإسلام، وابتهج بفعلهم عباد الصليب والعجل والأصنام، فلا خرقهم يخاط، ولا كفهم عن فعلهم يناط، فلذلك استعنت الله على شرح سيرتهم بتأليفها وجمعها، وبيان صواعق وقعهم بالمسلمين ورفعها. . .) إلى أن يقول: (جعلته تنبيهاً لمن تأمله من مقيم ودارج، وتحذيراً عن مذهب الغلاة

(١) في الأصل: جضت، ولا تستقيم هنا.

الخوارج، فهو تعريف لمن عقل لدينهم المارق المارج، وسترى ما وصفته لك من مذاهبهم في هذا الكتاب مسطوراً، وإن كان كل من وافقهم يرى أنه على ذلك من دينهم مفطوراً..) إلخ.

وفي آخره يقول: (كنت سودت بعضه بالبصرة المحروسة سنة الأربعين بعد المائتين والألف، ثم عنّ لي بطلب بعض الإخوان كما مر أن أبيّضه في سنة خمس وخمسين ومائتين وألف من الهجرة)[1].

فالكتاب بهذا سُوّد قبل «فتح الحميد»، وبُيّض بعده، وبهذا يُستبعد كونه يمثل مرحلة انتقالية بين تأييد الدعوة ومناوأتها، خصوصاً أن النسخة الأخيرة لفتح الحميد بخط تلميذه ابن نصرالله مؤرخة في سنة ١٢٥٧هـ.

وقد تطرق ابن منصور في هذا الكتاب إلى أخبار الخوارج وتاريخهم ومعاركهم مع جيوش الخلافة، وفي أوله ناقش بعض الأصول التي بنى عليها الخوارج تكفير المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم.

وقد اعتبر الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب ـ إمام الدعوة الإصلاحية في زمنه ـ هذا الكتاب سهماً من سهام ابن منصور الموجهة ضدّ الدعوة، وأنه إنما عنى أتباعها به؛ إذ ليس في نجد أحد من الخوارج فيستدعي الكتابة عنهم، بل إن سائر الأمصار لم يبق فيها من يقول بقولهم إلا الإباضية[2] في عمان، أقصى الجزيرة

---

(١) منهج المعارج (١٠٤ـ أ)، مخطوط في مركز المخطوطات والتراث والوثائق بجمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت، وقد أشار صاحب «دعاوى المناوئين» ص ٥٠ إلى وجود نسخة منه في دار الكتب المصرية.

(٢) من فرق الخوارج، ينسبون إلى عبدالله بن إباض التميمي، انظر عنهم: «مقالات الإسلاميين» للأشعري: ١/ ١٨٣.

العربية، مع أن الواقع في الأمة أعظم من ضلالة الخوارج؛ فقد وقع فيها عبادة الأوثان وتزيين عبادتها، وإنكار التوحيد، فما بال ابن منصور ينصرف عن تسخير قلمه وعلمه لمحاربة هذا الشرك الصريح إلى الكتابة عن الخوارج[1].

ولا يملك القارىء لكتاب ابن منصور عن الخوارج إلا أن يؤيد موقف الشيخ عبدالرحمن بن حسن، بل يكاد يجزم بكون كتابه هذا يمثل مرحلة متوسطة في انقلابه على الدعوة، بين «فتح الحميد» و«الرد الدامغ»، وبين «كشف الغمة» ومدحه لابن جرجيس، لولا تواريخ التأليف كما سبق.

فمما جاء في «منهج المعارج»، قوله بعد إيراد الأحاديث الدالة على أن الله ـ حرم على النار من قال «لا إله إلا الله ـ: (إذا علمت ذلك فإن الخوارج لا يسلّمون في هذا، ويقيّدون الأشياء بأهوائهم التي ركبوها لتكفير الأمة، ويقولون: إن كان يقولها فهو ينقضها كلَّ حين، فيقال أولاً: إذا أقررتم بأن الشهادتين عاصمةٌ له، وأن الأمة تقولهما وتقرر بهما وتعتقدهما حقا، وأنهما مبنى دين الإسلام، وأصل الإيمان، فيلزمكم أنكم لا تخرجون صاحبهما إلا بما يفعله أو يقوله مما يضادُّهما، **وهو الجحود لهما**، وأما كونه يفعل ما قد يضادهما متأوّلاً أو جهالةً وهو لا يعلم أن ذلك ينقضهما عليه، بل يفر من ذلك لو علمه غاية الفرار، فإن العلماء قد صرحوا أنه لا يكفر بذلك، ولهذا **لو طالبته بإنكار شهادة ألا إله إلا الله، أو بإنكار أن محمدًا رسول الله ـ ﷺ ـ لنفر**

---

(١) انظر الدرر السنية ٩/ ٢٣٠، رسالة من الشيخ عبدالرحمن بن حسن إلى ابن منصور.

من ذلك غاية النفور، بل لأحب أن يُقتل ولا ينكرهما، فإذا علمت ذلك، وأنه ينفر منه غاية النفور، بل قد يختار القتل عليه، علمت الفرق بينه وبين الذين بُعث إليهم النبي ـ ﷺ ـ من مشركي العرب وكفارهم؛ فإنهم لما طلب منهم النبي ـ ﷺ ـ بأن يقولوا «لا إله إلا الله» صفّقوا بأيديهم، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾، **فيا لله العجب!**، كيف يُجعل من أقر بالشهادتين وشهد بهما، ونفر من إنكارهما غاية النفور، مثل من أنكرهما غاية الإنكار، ويعجب[(١)] كيف يطلب منه رسول رب العالمين ـ صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين ـ أن يقولَهما؟!، فالمساوي بين هذين كمن يجعل المسلمين كالمجرمين، ويجعل المتقين كالفجار، فلا عجب بأعجبَ من حال الخوارج، حيث قالوا بخير القول، وعادَوا أهله وقاتلوهم، وحكموا عليهم بالكفر والخروج من دائرة الإيمان)[(٢)].

وهذا الكلام موجه إلى أتباع الدعوة دون شك؛ إذ لم يُعرف عن الخوارج الأوائل أنهم كانوا يقاتلون الناس على التوحيد، ويكفرونهم بالشرك الأكبر، بل كانوا يكفرون أصحاب الكبائر مطلقاً، وهكذا من بقي من الخوارج كالإباضية.

وجواب شبهته هذه أن يقال له: أنت قررت في كتابك هذا أن من ارتكب مضادًّا للشهادتين كالاستهزاء بالله وآياته ورسوله، أو سب الله ـ تعالى ـ ورسوله أنه يُحكم بردته إجماعاً، سواء كان جاداً أو مازحاً، ولم تشترط في مثل هذا التبيينَ للفاعل أنه مضادّ للشهادتين قبل الحكم

---

(١) معطوف على «أنكرهما»، أي ومثل من يعجب. . .
(٢) «منهج المعارج»: ص (٢٤/ أ).

بردته؛ إذ هذه المضادة معلومة بالاضطرار[1]، فما هو جوابك على من يردّ تقريرك هذا بمثل شبهتك السابقة؟، فهو جواب أتباع الدعوة عليك، على أنهم لا يكفرون أحدًا ويقاتلونه إلا إذا أصر وعاند بعد البيان وإقامة الحجة.

ويقول أيضاً في إشارة واضحة إلى الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب وأتباعه: (وأما المعاصي والفجور ـ نعوذ بالله من ذلك ـ، وكذلك الجهالة فالأمة مغمورة بذلك إلا من أراد الله صلاحه، ولا يزال فيها من يجدد لها دينها، ويبين لها طريقها، ويأمر فيها بذلك وينهى، . . وكل مجدد يظهر فيها يكون على سنتها وصراطها، لا يحكم عليها بالكفر، ولا أنه لم يبق مسلم فيها يدعو إلى الله إلا هو ومن تبعه)[2].

وفي موضع آخر: (وأنت ترى من يخرج بغير مشايخ يتخرج عليهم، ثم يشهد عليه من علماء أمته بالخطأ أكثر ممن يشهد للإمام بالصواب والاهتداء، وهو يفتي في دماء الأمة وأموالهم وأديانهم بالاعتداء، ومع ذلك لا يتمادى عن هواه وغيه، ولو طلبت منه طريقاً يتصل به إلى النبي ـ ﷺ ـ من طرق علماء الأمة لم تجده، لا بالإجازة، ولا مناولة، فضلاً عن التحديث والأخذ بالسماع. . .، ومع ذلك فهذا دائمًا يحكم في دماء المسلمين وأموالهم وفروجهم وفي جميع أحوالهم، فما أعظمها في الأمة من بلية، وما أقدحها من رزية، فيالكِ من بدعة أحدثها بضلاله وعدله، ومن تكفير قد أطلق على من لا يستحقه بقوله، فهو يخوض بذلك في ميدان جهله، ويظن به من لا

---

(١) انظر «منهج المعارج» ص (١٧/ أ).
(٢) السابق: (٢٤/ ب).

يعرف العلم أنه من كامل أهله، وهو مع ذلك يعيب من أنكر عليه أمره بأكبر الكفر والعيوب؛ لأن صاحب الهوى حريا[1] منه ألا يرتدع عن هواه ولا يتوب)[2].

ويقول بعد قوله ـ ﷺ ـ «تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم..» الحديث: (فنبه ـ ﷺ ـ أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وأمته المرحومة بذلك؛ لئلا يغروهم بحسن قولهم ودعواهم بما يفعلونه من التكلف والتنطع في العبادة، وتعمقهم في **دعوى الإخلاص**، وإظهار العدل بين الناس، وأن **مقصودهم التوحيد** لله ـ تعالى ـ)[3].

وأبلغ من هذا أن من تأمل هذا الكتاب مليًّا، وقارن عباراته وأسلوب مؤلفه ومسائله ودلائله بكتاب «كشف الغمة»، قطع بأن مؤلفهما واحد دون تردد أو شك، جعل الطعن على الدعوة وإمامها في أحدهما تلميحات وإشارات، وفي الآخر بأصرح العبارات، كما يأتي.

ومهما يكن من أمر فإن «منهج المعارج» مما أدين فيه ابن منصور بمناوأة الدعوة، واتهام أتباعها بالخروج، إلا أن يقال: إن ابن منصور في هذا الكتاب رأى أن ثمّة تيارات داخل صفوف الدعوة السلفية جنحت إلى المبالغة في سبيل التكفير، وإعمال أحكام المشركين والمرتدين على من لم يتبين كفره، أو كان ما يُكفّر به محل خلاف واجتهاد، فألف هذا الكتاب خشية أن ينتهي بهم المطاف إلى بعض مذهب الخوارج[4].

---

(١) كذا، والصواب: حري.
(٢) «منهج المعارج» ص (٤٣/ ب).
(٣) منهج المعارج ص (٤٢/ أ).
(٤) فيكون القول فيه ما قاله الشيخ عبدالله البسام في دفاعه عن الشيخ إبراهيم بن =

لكن هذا لا يصح مع عبارات الكتاب المشيرة بالذم إلى الدعوة وإمامها جملةً وتفصيلاً.

٣ـ «**فتح الحميد في شرح التوحيد**»، أجل مؤلفاته وأوسعها، شرح فيه كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبدالوهاب، وهو بالنسبة له كتاب العمر، فقد ألفه في سنين طوال، وظل يضيف إليه دهراً من عمره، ويأتي الكلام عليه مفصلاً، وقد صرح فيه ببراءة الإمام محمد بن عبدالوهاب من مذهب الخوارج، وبالغ في الثناء عليه[(١)].

٤ـ «**التحفة الوضيّة في الأسانيد العالية المرضية**»، وهي ثبَت بأسانيده عن شيوخه، أشار إليه في أول «فتح الحميد»[(٢)]، بعد أن أورد فيه كثيراً من مادته، وذكره أيضًا في «منهج المعارج»[(٣)].

٥ـ «**كشف الغمة في الرد على من كفر الأمة**»، أو «**جلاء الغمة عن تكفير الأمة**»، لم يظهر هذا الكتاب في حياة ابن منصور، ولا أشار إليه في شيء من كتبه السابقة، بل ذكر ابن ضويان أنه ظهر في

= جاسر لما اتهم بالتساهل في التوحيد: (إن نجدا بعد ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ صارت عقيدة أهلها واحدة في تحقيق التوحيد بأنواعه الثلاثة، وبعدهم عن البدع والخرافات، وإذا كان هناك خلاف بين هذين الحزبين، فهو جسارة حزب في إطلاق الكفر على بعض الطوائف، وتورع الحزب الآخر عن ذلك، ويترتب على هذه المسألة السفر والإقامة في بلد هؤلاء المختلف في تكفيرهم، فمن كفرهم حرّم السفر والإقامة في بلادهم، ومن سكت عنهم لم يمنع من ذلك). (علماء نجد ١/ ٢٧٩).

(١) انظر ص ١٢٢.

(٢) انظر ص ٣٦.

(٣) انظر ص (١١/ أ)، (١٣/ ب) من مخطوطته.

«بريدة» بعد موته بسنين، وزعم من وُجد عنده أنه تصنيف ابن منصور، فأخذه الشيخ محمد بن عمر آل سليم إلى الرياض عام ١٢٩١هـ[١]، فرد عليه الشيخ عبداللطيف بكتاب «مصباح الظلام في الرد على منتقصي شيخ الإسلام»[٢].

وفي رواية أخرى أن ابن منصور لما توفي جيء بكتبه في بيت الشيخ عبداللطيف، فوجدوا هذا الكتاب فيها، وشهد علي بن عيسى وأحمد بن عيسى أنه بخط ابن منصور، فرد عليه الشيخ عبداللطيف بكتاب سماه «مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام»[٣].

وقد كان العلماء قبل ظهور هذا الكتاب أخف وطأة على ابن منصور؛ فهم وإن كانوا متشككين في أمره؛ لما لاحظوه عليه من عدم الابتهاج بالدعوة، وعدم براءته من المخالفين، إلا أنهم لم ييأسوا بعد من صلاح حاله، فأبقوا على مواصلته بالمناصحة والتذكير، وأعرضوا عما ينسب إليه من الهفوات العظام؛ حيث لم يقفوا لها على تصحيح يعتمد[٤]، حتى انكشفت حقيقة موقفه لديهم بوقوفهم بعد وفاته على

---

(١) هذا التاريخ مشكل؛ فقد ذكر الشيخ عبدالرحمن بن حسن في أحد ردوده على ابن منصور وجدان هذا الكتاب في بريدة، مع أنه توفي سنة ١٢٨٥هـ، انظر الدرر السنية ٩/ ١٨٧، فلعل ابن ضويان يعني بظهوره بعد موته اشتهار أمره.

(٢) انظر علماء نجد ٥/ ٩٦.

(٣) انظر علماء نجد ٥/ ٩٧، ولم يذكر الشيخ البسام مصدر الرواية الثانية، والأولى موافقة لما في الدرر السنية ٩/ ١٨٧، ٣٣٥، وهي الأقرب للصواب، أما ما عثر عليه في الكتب التي بيعت بعد موته فإنما هو مدحه لابن جرجيس، وأوراق فيها بعض مضمون «كشف الغمة».

(٤) انظر الرسالة التي بعث بها الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن إلى ابن منصور =

هذا الكتاب بخط يده، وشهد على ذلك الثقات عندهم من أهل «سدير» ـ بلد ابن منصور ـ وغيرهم من طلبة العلم والعامة[1]، عندها لم يسعهم إلا إشهار ما اطلعوا عليه، من فساد معتقده، وضلال منهجه؛ تحذيرًا من الاغترار به.

ولم يتيسر الوقوف على هذا الكتاب في صورته التي وجد عليها، لكن يُعلم من بعض نصوصه الواردة في الردود عليه أنه يتضمن الإنكار على من كفّر المستغيثين بغير الله؛ بحجة أنهم من الأمة، وأنهم يقولون «لا إله إلا الله»، وأنهم يصلون ويصومون ويبنون المساجد والمدارس، وغير ذلك من شبهات القبوريين المعروفة. كما تضمن إلى ذلك الطعن على الإمام محمد بن عبدالوهاب، والتهجم والافتراء عليه وعلى أتباعه، بما هو أشبه بالسباب والشتم[2]، ومسبته فيه للتوحيد ومن جاء به ـ كما يقول الشيخ عبداللطيف ـ حشوٌ بالزنبيل، وكذا تزكيته لعبّاد القبور، واتهامه للشيخ محمد بن عبدالوهاب وأتباعه بأنهم خوارج، وأن الشيخ ضال مضل، وأنه أجهل من أبي جهل، وأنه ضل في تخطئته صاحب البردة، وأن دعاء النبي بعد موته جائز، وأن الشيخ محمدًا بلاء على نجد وجزيرة العرب، ونحو هذا من العظائم[3].

= يناصحه فيها، ويذكر له أنهم لا يعادونه لشخصه، وإنما لما انتقد عليه في منهجه، ضمن الدرر السنية ٩/ ٣٣٢، ٣٣٣، ونحوها من والده الشيخ عبدالرحمن بن حسن في الدرر ٩/ ٢٣٠، ٢٣١.

(١) انظر الدرر السنية ٩/ ٣٣٣.

(٢) انظر النصوص المنقولة منه في «مصباح الظلام».

(٣) انظر الدرر السنية ٩/ ٣٣٣، ٣٣٤.

فالكتاب بهذا مناقض تمامًا لما في «الرد الدامغ» و«فتح الحميد»، من الثناء على الشيخ محمد بن عبدالوهاب ونصرة طريقته وتقرير ما يدعو إليه، وهذا ما يحمل الباحث أول الأمر على استبعاد أن يكون لابن منصور، ويوقع في النفس أنه ربما يكون لبعض خصوم الدعوة كابن جرجيس وغيره ممن لهم موقف واحد من الدعوة، نسخه ابن منصور بيده ليرد عليه كما رد على ابن سند من قبل، أو للاطلاع، أو غير ذلك من المقاصد سوى قبول ما فيه، فضلاً عن أن يكون له، وأنه ربما نُسب إلى ابن منصور بدافع الحسد والتنافس، ويتأيّد هذا الظن لدى الباحث بتشكيك بعض الفضلاء في نسبة الكتاب إليه بأن الروايتين المذكورتين في العثور على الكتاب بعد وفاة ابن منصور على تباينهما لا تنهضان بالدلالة القاطعة على نسبته إليه[1]، ثم إن الشيخ عبداللطيف في رده على هذا الكتاب لا يصرح باسم مؤلفه في أوله، فلعله لهذا التشكك أعرض عن ذلك، وإن كانت عباراته موجهة لابن منصور قطعاً، فقد صرح باسمه في أثنائه[2]، وفيه عبارات نحو (وصاحبه ابن سند)[3]، (وقد رأيت لخدنه داود بن جرجيس)[4]، (شيخك ابن سلوم)[5]، وغيرها[6].

---

(١) انظر تعليق الدكتور عبدالرحمن العثيمين على السحب الوابلة: ٢/ ٧٠٥، ٧٠٦.
(٢) مصباح الظلام ص ٢٩٥.
(٣) مصباح الظلام ١٩.
(٤) السابق ٧٩.
(٥) السابق ١٥٧.
(٦) انظر مصباح الظلام ١٨، ٣٩، ١٥٨، والمقدم للكتاب يرى أنه ترك ذكر اسمه لأنه ليس ذا بال. انظر «مصباح الظلام» ص ٦.

إلا أن هذا الظن لا يلبث أن ينقلب إلى ضده عند الوقوف على قصيدة ابن منصور في مدح ابن جرجيس، وهي قطعاً ـ كما سيأتي ـ متأخرة عن الكتب السابقة، فيصير الميل إلى ثبوت هذا الكتاب لابن منصور أكثر منه إلى تبرئته منه، فلا يبقى للباحث إلا سلوك سبيل المقارنة بين نصوصه المثبتة في «مصباح الظلام»، وكلام ابن منصور في كتبه الأخرى، من حيث أسلوب التعبير، والمسائل والدلائل التي يرددها، ولا يسعف «فتح الحميد» كثيراً في هذا؛ فهو وإن كان أسلوبه ليس ببعيد عن «كشف الغمة»، إلا أن ندرة كلام مؤلفه فيه، وانبناء معظمه على النقول، ضيق مجال المقارنة[1]، فصار لزاماً تجشم الرجوع إلى مخطوطة «منهج المعارج» وقراءتها قراءة فاحصة متأنية، فكانت النتيجة رجحان ثبوت «كشف الغمة» لابن منصور، بل كون «منهج المعارج» لا يقل عنه نقداً للدعوة وإمامها؛ إذ سلك فيه مسلك التلميح والإشارة التي ينتبه لها الغبي قبل النبيه، بينما كان صريحاً كل الصراحة في «كشف الغمة»، مع زيادة في التهجم على الإمام وأتباعه.

وإليك فيما يلي بعض النصوص من «كشف الغمة»، مع ما يقابلها من «منهج المعارج»، لتقف بنفسك على مقدمات هذه النتيجة:

أولها أنه في «كشف الغمة» اعتبر الشيخ وأتباعه خوارج[2].

ثم في «كشف الغمة»: (وهذا الرجل ـ يعني الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ خرج في بلد قد غلب عليها أحكام الإسلام، وشيّدوا

---

(١) وإن كان فيه إشارات لا تفوت على النبيه، توافق تماما ما في «كشف الغمة»، كما في شرحه لحديث طارق بن أشيم ص ٤٤٩.

(٢) انظر «مصباح الظلام» ص ٧١.

منارهم لداعي الفلاح، وعمروا مساجدهم ومدارسهم بالأوقاف، مظهرين لشعائر الإسلام بعلمائهم، فكفرهم، وحكم على من لم يصرح بعداوتهم بالكفر..)[1].

وفيه: (ثم إن هذا الرجل جعل أهل الكويت الذين شيدوا المساجد والمنار لداعي الفلاح، وأظهروا شعائر الإسلام، وبذلوا أموالهم على ذلك، واجتهدوا في المحافظة على أعمال الخير طلباً لما عند الله - تعالى - كالذين نزلت فيهم هذه الآيات..)[2].

قارن هذه العبارات والمعاني بما سبق إيراده من مقدمة «منهج المعارج»، وبقوله فيه أيضاً: (وأنت ترى الخوارج يخرجون على أمة قائمة قابلة للإسلام، يدعون بداعي الفلاح على رؤوس المنار، وينصبون القضاة لفصل الخصومات في جميع القرى والأمصار، يعمرون بتدريس العلم فيها المدارس، ويُفصحون بالشهادتين في كل مكان وزمان حديث ودارس، يشمّر صلحاؤهم إلى كل عمل صالح، ويتجنب للرذيل منها والطالح، فلم يشعرهم وهم على ذلك إلا والخوارج لهم بالمدارك، فهل يحسن بطائفتين تلاقتا كل منهما يعلن بالأذان للصلاة في أوقاتها، ويُفصح كل منهما بالليل تحارساً بلا إله إلا الله خوف دهاتها، إلا أن يكون أحد الطائفتين خارجيا يُفصح بالتكفير للآخر ويعلن، أو باغياً يطلب ملكاً وذلك في الحقيقة على أثامته أهون...) إلى أن يقول: (فالحاصل أن الذي يقوم بتكفير أمة قائمة، ظاهرة فيها شعائر دينها، كالشهادتين، والدعاء بالأذانين على رؤوس منارها، إلى

---

(١) عن «مصباح الظلام» ص ٦٥، ٦٦.
(٢) عن السابق ص ١٣٨.

صلاتها وصيامها رمضانها وحج البيت مع استطاعتها، ونصب قضاتها في جميع أعصارها وأمصارها، ويسل بذلك عليها سيفه، أنه بذلك لم يتق حرمتها، ولم يخلف رسول الله في أمته بخير)[١].

وفي «كشف الغمة»: (. . لمّا رأى في هذه الأمة من الأحداث التي لا تزال موجودة فيها، تقل وتكثر، ولا تزال علماؤها تجدد لها دينها من الباب الواسع، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتتحاشى الدخول عليها من الباب الضيق، وهو تكفيرها الذي حذر عنه نبيها)[٢].

قارن هذا بما أوردناه سابقاً من إشارته إلى الإمام محمد بن عبدالوهاب.

ومن أسلوب مؤلف «كشف الغمة» في التعجب قوله: (فيا لله العجب. .)[٣]، وقد سبق في أحد النصوص المنقولة عن «منهج المعارج» استعماله له، وقد مُيّز لك هناك، كما استعمله في مواضع أخر منه[٤].

وفي «كشف الغمة»: (وأنت لو قلت لأفجر الأمة: أريد منك إنكار شهادتي الإخلاص أو أحدهما وإلا قتلتك، لاختار القتل ولا إنكارهما أو أحدهما، إلا أن يعمل برخصة الله وقلبه مطمئن بالإيمان)[٥].

وفيه: (ونحن نستيقن أن هذا الرجل الذي هو وصفه بالكفر، أنّ أهل بلده لو يأمرونه بألا يقول شهادتي الإخلاص، ولا يمكنه ذلك إلا

---

(١) «منهج المعارج»: (٢٦/ أ ـ ب).
(٢) عن «مصباح الظلام» ص ٢٧.
(٣) عن «مصباح الظلام» ص ٥٤، ١٤٥.
(٤) انظر «منهج المعارج»: (٣٥/ أ).
(٥) السابق: ص ٩٩.

بفراقهم لفعل)[1].

قارن هذا بما سبق إيراده[2] من نصوص «منهج المعارج»، وقد مُيز لك موضع الشاهد فيها.

وفي موضع آخر من «كشف الغمة» استخدم وصف «المارج» لدين الإمام محمد[3]، وهو وصف معهود عند ابن منصور لدين الخوارج في «منهج المعارج»، ابتداء من عنوانه.

وفي «كشف الغمة»: (وقد رأيت لابن الجوزي في تبصرته في مجلس منها متوسلاً بالنبي ـ ﷺ ـ، وفي كلام يحيى الصرصري ـ رحمه الله ـ من ذلك ما لا يُحصى، وسمّاه أبو العباس «حسّان السنة»، وأثنى عليه ولم ينكر عليه)[4].

وقد أشار في «فتح الحميد» إلى توسل الصرصري هذا، وأن أبا العباس ابن تيمية سمّاه «حسان السنة» رغم ذلك[5].

وفي «كشف الغمة»: (وقد صح عندنا أن هؤلاء في أثناء دعوتهم

---

(١) عن «مصباح الظلام» ص ١٤٩.
(٢) راجع ص ٣٩.
(٣) انظر «مصباح الظلام» ص ١٣٠.
(٤) السابق ص ١٩١، وقد وقع فيه «حسان الأمة»، وهو سبق قلم، وانظر الإشارة إلى حسان السنّة في كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم ص ٢٠٠، وانظر انتقاد ابن تيمية له في الرد على البكري ٢/ ٤٧٩.
(٥) انظر «فتح الحميد» ص ٢١٣٥، والعجب أنه أورد نظما للصرصري يشتمل على توسل بدعي، فأبدل البيت المشتمل على التوسل بما يوافق الصواب!.

أتوا إلى «المجمعة» في ناحية «سدير» فدخلوها ليلاً قبل أن يتولوا عليها، فأذنوا في أحد مساجدهم يطلبون قتل من جاء متقدماً للصلاة في المسجد، فجاءهم شُيّاب من أهل الخير فقتلوهم في المسجد)[١].

قارن هذا بقوله في «منهج المعارج»: (وقد جعلت الخوارج الأذان الذي هو من شعائر الإسلام وسيلة إلى قتل المصلين، كما فعلوا بالكوفة، يؤذنون في المسجد آخر الليل، حتى إذا جاءهم من يريد التقدم قتلوه في المسجد في ظلمة الليل)[٢].

وذكر في ختام «كشف الغمة» قول الإمام محمد بن عبدالوهاب في «كشف الشبهات»: (ولا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً)، وفسره بقول الخوارج: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كلّه، ثم أخذ في رده مستشهداً بكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان الكبير، والعلامة ابن قندس[٣] في حاشيته على الفروع[٤].

وهذا بعينه ما ذكره عن الخوارج في «منهج المعارج»، مستشهداً بالكلام نفسه عن ابن تيمية في الإيمان، وابن قندس في حواشي الفروع[٥].

---

(١) عن «مصباح الظلام» ص ٣٨٠، ٣٨١.

(٢) «منهج المعارج» ص (٢٧/ أ)، ونحوه في (٣٢/ ب).

(٣) هو حسن بن محمد بن حسن الصالحي، ت ٨٤٠، انظر «السحب الوابلة»: ١/ ٣٦٤.

(٤) انظر «مصباح الظلام» ص ٣٨٥، ٣٨٦.

(٥) انظر «منهج المعارج» (٣٨/ أ).

ونختم بهذه؛ فهي وحدها تكفي، كيف وقد اعتضدت بأخواتها السابقات، وبشهادة الأثبات الثقات؟!.

وبرجحان ثبوت الكتاب لابن منصور فإنه لا موضع لتأليفه في حياته إلا في آخرها، بعد قدوم ابن جرجيس، فيكون مما ألقاه إليه، وحثه عليه، إلا أن يقال: إنه مسوّدة كتبها إبّان مكثه في العراق، استوحاها من شبهات أشياخه من خصوم الدعوة؛ فإن في كتاب «كشف الغمة» من الهشاشة والهزالة والضعف ما لا يحسد عليه مؤلفه في أول حياته، فضلاً عن آخرها.

وقد ذكر ابن منصور في «كشف الغمة» أن له كتابين آخرين بسط فيهما القول في الرد على الإمام محمد بن عبدالوهاب، وهما:

٦ـ **«غسل الدرن عمّا ركبه هذا الرجل من المحن»**[١].

٧ـ **«تبصرة أولي الألباب»**[٢].

لكن لم نجد ذكراً لهذين الكتابين في كتب ابن منصور الأخرى أو تراجمه، وثبوتهما متلازم مع «كشف الغمة» كما ترى، والله أعلم.

وقد نقض مضمون كتاب «كشف الغمة» العلامة عبدالرحمن بن حسن في رسالة سمّيت «المقامات»، لخص فيها تاريخ الدعوة[٣]، ونقضه أيضاً العلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بكتابه الرائع

---

(١) انظر النقول التي أوردها الشيخ عبداللطيف بن حسن عن «كشف الغمة» في «مصباح الظلام» ص ٣٠، ٩٣، ١٦٢.

(٢) انظر «مصباح الظلام» ص ٣٠، ٩٣.

(٣) انظر مختصرا لها في «الدرر السنية» ٩/ ٢١٤ـ ٢٣٠، ولم يُذكر اسمها هناك.

«مصباح الظلام»، وهو بحق يعد من أنفس ما صنف في الدفاع عن دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، ورد الشبهات حولها، وبالأخص شبهة تكفير المسلمين.

كما رد عليه بكتاب آخر مختصر، اسمه «الرد المنشور على ابن منصور»[١].

٨ـ **«الجواب المفرد على أن القبلة لم تنسخ مرتين عن الإمام أحمد»**، ذكره في فتح الحميد: ص ١٤٥٣.

٩ـ **مجموع فتاوى**، أشار إليه الشيخ علي الهندي[٢].

---

(١) مطبوع ضمن «الدرر السنية» ٩/ ٣٣٤ـ ٣٤٨.

(٢) انظر زهر الخمائل: ص٥.

الفصل الرابع
معتقد المؤلف

المؤلف في «فتح الحميد» و«الرد الدامغ» على معتقد أهل السنة والجماعة؛ فمتن التوحيد الذي شرحه من كتبهم المعتمدة، وقد التزم في شرحه بالمنهج العام للسلف في التقرير والاستدلال، كما يظهر بتتبع تفسيره الآيات، وشرحه الأحاديث، وعرضه الأصولَ والمسائل الاعتقادية الكبرى، كالأسماء والصفات، وتوحيد العبادة، والقضاء والقدر، وحقيقة الإيمان، وغيرها من قضايا العقيدة.

أما فيما سوى هذين الكتابين فليس فيه التعرض لكثير من مسائل الاعتقاد، وأكثره في التحذير من تكفير المسلمين والخروج على جماعتهم، وتقرير أن الاستغاثة بغير الله لا تكون شركاً إلا باعتقاد الضر والنفع من غير الله استقلالاً، وأن الكفر لا يكون إلا بالجحود، فهو بهذا ينحرف انحرافاً بيناً عن مذهب السلف، إلى مذاهب المرجئة، والقبوريين من المتصوفة والرافضة وغيرهم، وهو تبعاً لذلك غير متحمس لمبدأ الولاء والبراء، خصوصاً مع أهل البدع والخرافات.

وإليك فيما يلي تفصيلاً لأقواله في أصول الاعتقاد:

الأسماء والصفات

يرى ابن منصور أن كل ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة من الأسماء الحسنى والصفات العلا، لا يسع أحدًا من خلق الله قامت عليه الحجة ردها أو جحدها، بل يجب الإيمان بها وتلقيها بالتسليم والقبول

والإذعان، ويجب ترك التعرض لها بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل والنكران[1].

ويرى أيضًا أن أسماء الرب تبارك وتعالى هي أسماء ونعوت دالة على صفات كماله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه[2].

ثم يوضح أن التعامل مع آيات الصفات وأحاديثها من حيث الجملة يجب أن يكون وفق طريق أهل السنة والجاعة. وما عليه السلف من صالح الأمة من المحدثين والفقهاء والعلماء العاملين: إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلا كما جاءت من غير تحريف لها ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل[3].

ويضرب لذلك أمثلة من الكتاب والسنة ناقلا عن ابن قدامة في لمعة الاعتقاد قوله:

«ومما جاء من آيات الصفات قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله عن المسيح عليه السلام أنه قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩]، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله في الكفار: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ

(١) انظر: فتح الحميد ص ١٦٢٣.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٤٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ص ١٦٤٢.

﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

ومن السنة النزول، وقوله: «يعجب ربك من الشاب ليس له صبوة»، وقوله: «يضحك ربك ـ وفي لفظ: الله ـ إلى رجلين قتل أحدهما الآخر ثم يدخلان الجنة».

وقوله ﷺ في حديث ابن عمر الذي في البخاري وغيره في ذكر الدجال: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه، وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية».

واجتهد المصنف رحمه الله في ذكر جملة من الأحاديث في هذا الباب كان آخرها ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة في الصدقة: «أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن».

ثم نقل قول ابن قدامة في لمعة الأعتقاد: «فهذا وما أشبهه مما صح سنده وعُدّلت رواته، نؤمن به ولا نرده ولا نجحده ولا نتأوله بتأويل يخالف ظاهره، ولا نشبّهه بصفات المخلوقين، ولا صفات المحدثين، ونعلم أن الله سبحانه لا شبيه له ولا نظير له: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] وكل ما تخيل في الذهن أو خطر بالباب فالله تعالى بخلافه، ومن ذلك العلو والاستواء كما ورد به الكتاب والسنة وأجمع عليه سلف الأمة»[١].

وقال في التعليق على قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦ـ ٨٧].

---

(١) فتح الحميد ص ١٦٣٧ وبهامشه تخريج الأحاديث المذكورة.

«فالمشركون يقرون بعلوه على عرشه تعالى كما أخبر، والمعتزلة والجهمية وأتباعهم ينكرون ذلك، ويؤولون الاستواء بالاستيلاء، والاستيلاء لا يكون إلا عن قوة وقدرة ناشئة بعد عجز، فسبحان مقلب القلوب»[(١)].

وأن العرش فوق السماء السابعة، وأن الكرسي موضع القدمين والله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته لا كاستواء المخلوقين[(٢)]، كما قال الإمام مالك عندما سئل عن كيفية الاستواء فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ولا أراك إلا ضالاً، وأمر به أن يخرج من المجلس»[(٣)].

كلام الله

ابن منصور رحمه الله يعتقد أن الله تعالى متكلم بكلام مسموع غير مخلوق، يسمعه مَنْ بعُد كما يسمعه مَنْ قرُب، بحرف وصوت، وأنه يناجي وينادي ويكلم عباده على الحقيقة.

يدل على هذا قوله: «ومن صفاته جل وعلا أنه متكلم بكلام قديم[(٤)] غير مخلوق، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾﴾

---

(١) انظر: المصدر السابق ص ٨٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٨٤.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ١٦٤٥.

(٤) يعني قديم النوع، وإن كانت آحاده وأفراده حادثة، كما يظهر من سياق كلامه، وهكذا حيثما ورد على ألسنة الأئمة من أهل السنة وصف كلام الله بالقدم فإنما يريدون به أن الله تعالى لم يزل موصوفًا بصفة الكلام، لم تحدث له بعد أن كان مجردًا منها. ولا يعنون بهذا نفي تعلق كلامه بمشيئته، بل يعتقدون أنه يتكلم إذا شاء، ويسكت إذا شاء، كما تقتضيه حكمته سبحانه.

[النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١- ١٢]، وقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]. وغير جائز أن يقول هذا غير الله سبحانه»(١).

«ومن ذلك نداء الرب تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ﴾ [القصص: ٤٤]، وكذا مناداة رسله له كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ [هود: ٤٥]، ومناداته سبحانه عباده في الآخرة، وكلامه مع جبريل عليه السلام، ونداء الملائكة، في أحاديث صحاح كثيرة شهيرة يطول عدها، كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا: إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل... الحديث»(٢).

وفيهما عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «يقول الله: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار»(٣).

القرآن كلام الله غير مخلوق

وعقيدة ابن منصور رحمه الله في القرآن أنه كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، يدل على هذا نقله قول ابن قدامة في لمعة الاعتقاد

---

(١) انظر: المصدر السابق ص ١٦٣٨، ١٦٣٩.
(٢) انظر: المصدر السابق وبهامشه تخريج الحديث.
(٣) انظر: المصدر السابق وبهامشه تخريج الحديث.

مع شيء من التصرف: «ومن كلامه تعالى هذا القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فهو كتابه المبين وحبله المتين، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

وهو سور محكمات، وآيات بينات، وحروف مقطعات وكلمات، من قرأه فأعربه فله بكل حرف منه عشرة حسنات، له أول وآخر وأجزاء وأبعاض، متلو بالألسنة محفوظ في الصدور، مسموع بالآذان، مكتوب في المصاحف، فيه محكم ومتشابه، ومنسوخ وناسخ، وخاص وعام، وأمر ونهي، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]»[١].

رؤية المؤمنين لله يوم القيامة

يعتقد ابن منصور رحمه الله أن الله يُرى يوم القيامة، يراه المؤمنون دون الكافرين، يدل على ذلك قوله: «أجمع أهل السنة والجماعة بأجمعهم على رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة، وأنها غير مستحيلة عقلاً، وأنكر ذلك طوائف من المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة من المبتدعة»[٢].

«وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة فمن بعدهم

---

(١) لمعة الاعتقاد ص ١٦، ١٧، والجدير بالذكر أن المؤلف ينقل عنها دون عزو، فيوهم أن الكلام له، بل يصدّره بقوله: «قلت».

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٧.

من سلف الأمة، على إثبات رؤية الله سبحانه في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحو من عشرين صحابيًا عن رسول الله ﷺ، وآيات القرآن في ذلك مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها بألسنة أهل السنة مدحضة منثورة»[١].

الإيمان بالقدر

يعتقد أن هذا الباب قد زلت فيه أقدام، وتاهت فيه أحلام وأفهام، ولم يسلم من ذلك إلا أهل السنة والجماعة فهم «وسط بين طرفين، طرف أنكروا القدر وجعلوه أُنُفًا، فسُمّوا بذلك القدرية؛ لأنهم غلب عليهم ذكر ما أنكروه فنسبوا إليه.

وطرف آخر غلوا في إثبات القدر زيادة عن الحد الذي حده الله ورسوله وهم الجبرية، وكانوا أولى بتسميتهم القدرية لغلوهم في ذلك وتعديهم الحد، وسموا الجبرية لزعمهم أن العباد مجبورون مقهورون على ما يصدر منهم لا قدرة لهم ولا اختيار، وهذا خلاف القرآن والسنة والإجماع والفقه واللغة والنظر الصحيح»[٢].

وينقلا عن ابن رجب جعله الإيمان بالقدر درجتين:

«إحداهما: الإيمان بأن الله تعالى سبق في علمه ما يعمله العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجادهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار، وأعد لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فتح الحميد ص ١٩٠٥.

الدرجة الثانية: أن الله تعالى خلق أفعال عباده كلها، من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان، وشاءها منهم.

فهذه الدرجة أثبتها أهل السنة والجماعة وينكرها القدرية، والدرجة الأولى أثبتها مع أهل السنة كثير من القدرية، ونفاها غلاتهم كمعبد الجهني الذي سئل ابن عمر رضي الله عنه عن مقالته، وكعمرو بن عبيد وغيره».

وقد قال كثير من أئمة السلف: ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا.

يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد، وغوي ورشيد، وكتب ذلك عنده فوق العرش في كتاب حفيظ، فقد كذب بالقرآن فيكفر بذلك. وإن أقرّ بذلك وأنكر أن الله خلق أفعال العباد وشاءها وأرادها إرادة كونية قدرية فقد خصموا، لأن ما أقرّوا به حجة عليهم فيما أنكروه[1].

وأن من تمام الإيمان الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم به، والصبر عند البلاء[2]، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

حديث خلق الله آدم على صورته

يرى ابن منصور أن هذا الحديث ليس من باب الصفات في شيء،

---

(١) انظر: فتح الحميد ص ١٩٢٧ وبهامشه ترجمة معبد الجهني وعمرو بن عبيد. وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب: ١/ ١٠٣.

(٢) انظر: فتح الحميد ص ١٤٧٧.

وأن هذا الحديث مما تعلق به أهل التمثيل والتكييف والتجسيم، يدل على ذلك قوله «وأما ما يتعلق به أهل التشبيه والتمثيل والتكييف والتجسيم من مذهبهم في ذلك من الحديث الصحيح الذي عند الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته»[1].

وفي لفظ: «لا تقولوا قبح الله وجهك»، وفي لفظ: «لا تقبحوا الوجه»، وفي لفظ: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته»، فليس هذا من باب الصفات في شيء».

ثم قال: «وقد أخرج أبو حاتم[2] هذا الحديث بلفظ الصحيحين عن أبي هريرة في صحيحه وقال: هذا الخبر تعلق به من لم يُحكم صناعة العلم، وأخذ يشنّع على أهل الحديث الذين ينتحلون السنن، ويذبّون عنها، ويقمعون من خالفها بروايتهم له... ونحن نقول إن أخبار المصطفى ﷺ إذا صحت من جهة النقل لا تتضاد ولا تتهاتر، ولا تنسخ القرآن، بل لكل خبر معنى معلوم بعلم، وفصل صحيح يُعقل، يعقله العالمون، فمعنى الخبر عندنا بقوله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»: إبانة فضل آدم على سائر الخلق، والهاء راجعة إلى آدم، والفائدة من رجوع الهاء إلى آدم دون إضافتها إلى البارىء جلا وعلا، جل ربنا وتعالى عن أن يشبّه بشيء من المخلوقين، أنه جل وعلا جعل سبب الخلق الذي هو المتحرك النامي بذاته اجتماع الذكر والأنثى، ثم زوال الماء عن قرار الذكر إلى رحم الأنثى، ثم تغيّر ذلك إلى العلقة بعد

---

(١) انظر: ص ١٦٦٢ حيث خرج الحديث.

(٢) يعني ابن حبان.

مدة، ثم إلى المضغة، ثم إلى الصورة، ثم إلى الوقت الممدود فيه، ثم الخروج من قراره، ثم الرضاع، ثم الفطام، ثم المراتب الأخر، على حسب ما ذكرنا إلى حلول المنية به، هذا وصف المتحرك النامي بذاته من خلقه.

وخلق الله جل وعلا آدم على صورته التي خلقه عليها، وطوله ستون ذراعًا من غير أن تكون تقدمة اجتماع الذكر والأنثى، أو زوال الماء، أو قراره، أو تغير الماء علقة، أو مضغة، أو تجسيمه بعده، فأبان الله بهذا فضله عن سائر من ذكرنا من خلقه»[1].

ثم ذكر بعد ذلك أن شيخ الإسلام رحمه الله مال إلى أن الضمير في الحديث راجع إلى الله سبحانه، يدل على ذلك قوله:

«وقد جنح شيخ الإسلام قدس الله روحه إلى أن الهاء راجعة إلى الله سبحانه، وكأنه لاحظ الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثني أبو معمر حدثنا جرير عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن». ورواه من وجه آخر عن أبي هريرة بمعناه، وهذا إسناد جيد إن لم يكن فيه علة»[2].

وما رجحه ابن منصور مخالف لما عليه السلف من القرون الثلاثة المفضلة.

قال شيخ الإسلام: «لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير في هذا الحديث عائد إلى الله تعالى، فإنه مستفيض من طرق

(١) انظر: ص ١٦٦٧.
(٢) انظر: ص ١٦٦٩.

متعددة عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها يدل على ذلك»[1].

«ولكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة جعل طائفة الضمير فيه عائدًا إلى غير الله تعالى، حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة في عامة أمورهم، كأبي ثور، وابن خزيمة، وأبي الشيخ الأصبهاني، وغيرهم، ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة.

قال الشيخ أبو الحسن محمد بن عبدالملك الكرجي الشافعي في كتاب الفصول في الأصول: فأما تأويل من لم يتابعه عليه الأئمة فغير مقبول، وإن صدر ذلك التأويل عن إمام معروف غير مجهول، نحو ما ينسب إلى أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في تأويل الحديث: «خلق الله آدم على صورته».

فإنه يفسر بذلك التأويل، ولم يتابعه عليه من قبله من أئمة الحديث كما روينا عن أحمد رحمه الله، ولم يتابعه أيضًا من بعده»[2].

الإيمان

نهج ابن منصور في الإيمان منهج السلف رحمهم الله، فهو عنده تصديق بالقلب ونطق باللسان، وعمل بالجوارح والأركان[3]، وأن

---

(١) انظر: نقض التأسيس، ابن تيمية، قطعة منه مخطوطة لم تطبع بعد، أدرجها الشيخ عبدالله الغنيمان في كتابه شرح التوحيد من صحيح البخاري (١/ ٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (١/ ٥٤٠).

(٣) انظر: فتح الحميد ١٤٣١ وما بعدها منهج المعارج في أخبار الخوارج (٣٤/ ب)، الرد الدامغ (٣/ أ).

الأعمال داخلة في مسمى الإيمان حقيقة لا مجازًا[1]، وأن الإيمان يزيد وينقص كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة جدًا، اجتهد المصنف في استيعابها إلى جانب الآثار السلفية عن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان[2].

وأن الإيمان شعب متعددة، أعلاها كما في الخبر: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان».

وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزواله كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، منها ما يقرب من شعبة الشهادة، ومنها ما يقرب من شعبة إماطة الأذى[3].

وأن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان، وأن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا[4].

ويرى أن صاحب الكبيرة غير خارج بها من دائرة الإيمان كلية كما تقول الخوارج والمعتزلة، ولا مؤمن كامل الإيمان كما تقول غلاة المرجئة، بل هو مؤمن ناقص الإيمان، وأمره إلى الله يوم القيامة إن لم يتب، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، إذ لا يخلد في النار إلا من كفر

---

(١) انظر: فتح الحميد ص ١٣١٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١٤٣١ وما بعدها.

(٣) انظر: المصدر السابق، منهج المعارج في أخبار الخوارج (٣٣/ ب، ٣٤/ أ).

(٤) انظر: المصدر السابق (١٤٠/ أ).

أو أشرك[1]. ومن اعتقد الإيمان في قلبه ونطق به بلسانه فقد وفّق، سواء استدل أو لم يستدل، وهو مؤمن عند الله تعالى وعند المسلمين، قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

فلم يكلف الله عباده الاستدلال والنظر، ولا سأل النبي ﷺ الناس عن ذلك ولا أوجبه على أحد[2].

يدل على ذلك قوله: «يجب على كل مكلف معرفة الله تعالى بالدليل، لا على طريقة المتكلمين من تحرير الأدلة وتدقيقها، كما ذهب إليه الأشعرية والمعتزلة من أنه لا يصح الإيمان إلا بذلك»[3].

ثم أشار رحمه الله إلى أن قائل هذا القول يلزمه تكفير عوام المسلمين، وهم كما هو معلوم غالب المؤمنين، ثم إن «النبي ﷺ لم يطالب أحدًا بشيء سوى التصديق الجازم، مع التلفظ بالشهادتين، والعمل بمقتضاهما، وكذلك الخلفاء الراشدون، ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول»[4].

الشفاعة

ويعتقد أن الشفاعة في القرآن على قسمين: شفاعة مثبتة، وشفاعة منفية، وأن المثبتة لأهل الإخلاص أهل «لا إله إلا الله»، وأن الشفاعة المنفية لأهل الشرك والكفر.

---

(١) انظر: فتح الحميد ص ١٣٢٠. منهج المعارج في أخبار الخوارج (٣٨/ أ).
(٢) انظر: فتح الحميد ص ١٤٥٣ وما بعدها.
(٣) انظر: فتح الحميد ص ٩٣.
(٤) المصدر السابق.

يدل على ذلك قوله: «الشفاعة التي نفاها القرآن هي الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم، فهي التي أطلق نفيها سبحانه في كتابه، وضدها المثبتة بإذنه ورضاه، التي أسعد الناس بها يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوه وخلصوه من شوائب الشرك، وهم الذين ارتضى الله سبحانه، ولهذا قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[1] [سورة طه: ١٠٩].

وأن الشفاعة المثبتة لا تكون إلا بإذن الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولا تكون أيضًا لشخص لا يرضاه لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه: ١٠٩][2].

«وسر ذلك أن الأمر كله لله وحده فليس لأحد من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأكرمهم عنده الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيد لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون من شيء إلا من بعد إذنه وأمره»[3].

وأن الشفاعة ثابتة للنبي ﷺ والأنبياء والملائكة والمؤمنين بعضهم لبعض، وكذلك لأطفال المؤمنين حال وفاتهم لآبائهم، وللشهداء، دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع السلف، تفضلاً منه سبحانه وإكرامًا لعباده، يدل على ذلك قوله: «وحاصل الكلام في ذلك أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم ذنوبهم، بواسطة دعاء من أذن له الرب سبحانه من نبي، أو ولي، أو صبي، أو صدّيق، أو شهيد، أن

---

(١) فتح الحميد ص ٧٨١.
(٢) المصدر السابق ص ٧٧٨.
(٣) المصدر السابق.

يشفع، ليكرمه الباري جل وعلا بذلك، فيجعله بإذنه شفيعًا، كسيد البشر ﷺ، ولكي ينال بذلك تفضلاً منه سبحانه المقام المحمود الذي وعده في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، يحمده به الأولون والآخرون، وهي الشفاعة العظمى، وسيفعل تبارك وتعالى به ذلك، إنه كان وعده مفعولا»[(١)].

اللعن والتكفير

وكان اعتقاده رحمه الله في اللعن والتكفير يتفق في الجملة مع ما عليه جمهور أهل السنة والجماعة، من جواز لعن أهل المعاصي على العموم من غير تعيين، كما ثبت في السنة من لعن الواصلة والمستوصلة وآكل الربا ونحو ذلك، يدل على ذلك قوله: «ومن أطلق الشارع كفره من الأمّة لم نتعد فيه ما قاله علماء السلف كما هو معلوم في مواضعه، ولا نكفر منها معينًا في دائرة بلاد الإسلام، وقد فعل أو قال ما يوجب الكفر، إلا بعد البيان والتوضيح بأن يتضح له أن ما يقوله أو يفعله مضاد لشهادتي الإخلاص، إلا بما كان معلومًا بالاضطرار مضادته لهما، كسبّ الله تعالى، أو استهزاء به، أو بآياته، أو رسله، أو كتبه، فإن فاعل ذلك يكفر إجماعًا، سواء كان مازحًا أو جادًا، وقد جزم أبو الوفاء بن عقيل بأن من وجد منه امتهان القرآن أو خفْضٌ منه، أو طلب تناقضه، أو دعوى أنه مختلف أو مقدور على مثله، أو إسقاطٌ لحرمته، كل ذلك دليل على كفره، فيقتل بعد الاستتابة»[(٢)].

---

(١) المصدر السابق ص ٧٩٨.

(٢) انظر: منهج المعارج، ابن منصور (١٧/ أ)، وقول ابن عقيل هنا: «كل ذلك دليل على كفره» إن أراد أنه كفر ظاهر ملازم للكفر الباطن ودال عليه فهو =

وسيتضح للقارىء إن شاء الله تعالى من الفصل التالي أن هذا القيد الذي شدد عليه الشارح هنا وما ترتب عليه في مسألة التكفير هو محور الخلاف بينه وبين أئمة الدعوة، فهو يشترط في قيام الحجة على من ارتكب ناقضًا من نواقض الشهادتين قناعته بمضادّة فعله للشهادتين، إلا إن كانت هذه المضادّة معلومة بالاضطرار كما ذكر، والإشكال عنده أنه لا يجعل الاستغاثة بالأموات مضادة للشهادتين بالضرورة لشبهة التوسل، ولو فعل ذلك لعاد الخلاف في هذه المسألة لفظيًا.

وقال رحمه الله في التعليق على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]: «وفي هذا أقوى دليل على عدم جواز لعن المعين، خلافًا لمن أجازه مستدلاً بما في الكتاب والسنة من اللعن المطلق، وليس في ذلك دليل على لعن المعين، إذ غايته أن يمشي في ذلك مع النص فيقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، و«لعن الله من لعن والديه، لعن الله من غير منار الأرض»، ونحو ذلك من النصوص في ذلك، وهذا جائز بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

وأما لعن المعين فهو يستلزم الإبعاد والطرد عن رحمة الله، واليأس منها، وذلك نوع من التألي على الله سبحانه، وهو لا يجوز»[(١)].

ويقرر رحمه الله عدم جواز الشهادة لأحد لم يشهد له الكتاب

= حق، وإن أراد أنّ هذه الأعمال ليست كفراً، وإنما كان الكفر بما دلت عليه من الاعتقاد الباطن، فهذا من قول المرجئة، الذين يحصرون الكفر في الاعتقاد دون العمل.

(١) انظر: فتح الحميد ص ٧٣٠.

ويقرر رحمه الله عدم جواز الشهادة لأحد لم يشهد له الكتاب والسنة بجنة أو نار، بل يُرجى للمحسن السلامة، ويُخشى على المسيء من أعماله[١]، فلا يُشهد لمعين من أهل القبلة بالنار، لجواز ألا يلحقه الوعيد لفوات شرط، أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم ونحو ذلك[٢].

الصحابة

يعتقد رحمه الله تولي أصحاب رسول الله ومحبتهم، وذكر محاسنهم، والترحم عليهم، والاستغفار لهم، والكف عما شجر بينهم، فهم خير الأمة، وأفضلهم أبوبكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضى، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة: طلحة والزبير وسعد وسعيد وعبدالرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح. وأهل بدر فضلهم غير منكر، وكذلك أهل بيعة الرضوان، وأزواج النبي ﷺ رضي الله عنهم أجمعين[٣].

الجماعة والإمامة

ويعتقد رحمه الله وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر، والصبر على جور الأئمة وظلمهم، وأنه لا يجوز الخروج عليهم، وأن ذلك من فعل الخوارج والبغاة، وأن إقامة الحدود حق لولي الأمر أو نائبه لا يجوز الافتئات عليه، وأن أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ أبوبكر الصديق

---

(١) انظر ص ٢١٤٢.
(٢) المصدر السابق ص ١٨٣٦.
(٣) المصدر السابق ص ١٥٥٨، ٢١٤٨.

رضي الله عنه ثم عمر رضي الله عنه ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين[١].

السمعيات

يعتقد ابن منصور الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ وصح به النقل عنه، من الأمور الغيبية التي لم نطلع على حقيقة معانيها، مثل حديث الإسراء والمعراج، وأنه كان يقظة لا منامًا[٢]، ومن ذلك أشراط الساعة مثل خروج المهدي وأنه من ولد الحسن لا الحسين كما تزعم الرافضة، يصلحه الله في ليلة، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا[٣]، وخروج الأعور الدجال، وأن عيسى بن مريم عليه السلام ينزل في آخر الزمان ويقتل الدجال بيديه، ثم يصلي خلف المهدي تكرمة لهذه الأمة، وخروج الشمس من المغرب[٤].

وعذاب القبر ونعيمه حق، وفتنة القبر حق، وسؤال الملكين حق[٥]، والبعث بعد الموت حق، وذلك حين ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[٦] [يس: ٥١].

ويحشر الناس حتى يشفع فيهم نبينا محمد ﷺ[٧]، والميزان له كفتان حقيقة لا مجازًا كما يقول من خرج عن حقائق الشريعة بتحريف

---

(١) فتح الحميد ص ٢١٤٨.
(٢) المصدر السابق ص ٢١٤٤.
(٣) المصدر السابق ص ١٢٤ وما بعدها.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق ص ٢١٣٩.
(٦) المصدر السابق.
(٧) المصدر السابق.

الكلم عن مواضعه[1]، والصراط حق يجوزه الأبرار، ويزل عنه الفجار[2].

والجنة حق والنار حق، مخلوقتان موجودتان الآن، لا تفنيان وما فيهما من النعيم والنيران، ولا من يدخلهما من الإنس والجان[3].

وبعد الحساب يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح بين الجنة والنار فيذبح، كما صح بذلك الخبر[4].

النبوات

يقرر ابن منصور عموم رسالة المصطفى ﷺ إلى الإنس والجن، وهذه إحدى الخصائص التي انفرد بها النبي ﷺ عن الأنبياء قبله، إذ كان النبي إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأرسل المصطفى إلى الناس كافة، على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم.

يدل على ذلك قوله: «محمد ﷺ أرسل بالهدى ودين الحق إلى كافة الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] من الإنس والجن إجماعًا»[5].

وأن دين الإسلام وشريعة المصطفى عليه الصلاة والسلام ناسخة لجميع الشرائع والأديان السابقة، وهذا مما اختص به النبي ﷺ أيضًا على سائر الأنبياء قبله، فقد يجتمع بالعصر الواحد نبيان، يدعو كل

---

(١) فتح الحميد ص ٢٨٢.
(٢) المصدر السابق ص ٢١٤٠.
(٣) المصدر السابق ص ٢١٤١.
(٤) المصدر السابق ص ٢١٤١.
(٥) انظر: فتح الحميد ص ٧٦.

منهما إلى شريعة تخصّه، ولا يدعو الأمة التي بعث فيها غيره، ولا ينسخ ما جاء به الآخر من الشرائع، فهذه خصيصة للنبي ﷺ لم تكن لأحد قبله.

الاستغاثة بغير الله

يعتقد ابن منصور أن الاستغاثة بغير الله، أو دعاء غيره، من أعظم المحرمات؛ فالله لم يشرع لعباده أن يدعوا أحدًا من الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، ولا رخص بذلك رسول الله ﷺ، يدل على ذلك قوله بعد تضعيفه لحديث: «يا عباد الله احبسوا»:

«فأما أن يُستدل به على الاستغاثة بالغائب أو الميت، فهذا لا يقوله من له رائحة بقواعد الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة، فإن الله لم يشرع ولا رسوله أن يُنادى ميت أو غائب في قُطْر من الأرض الشاسعة، نبيًا كان أو وليًا، صالحًا أو طالحًا، بل يقال لمن ادعى ذلك: سبحان الله هذا بهتان عظيم، إذ لا حديث فيه عن رسول الله ﷺ فيستمع، ولا قول لمن يعتبر قوله فيتبع»[1].

وينقل بتصرف عن ابن تيمية قوله في الرد على البكري: «فعلم بذلك أن الله لم يشرع لأحد أن يقول لميت: أنا في حسبك أو أنا في جوارك، ولا أن يقول للميت سل الله لي، ولا: ادع الله لي، ولا شرع لهم أن يشكوا لميت البتة، مثل أن يقول أحدهم مشتكيًا إلى الميت: عليّ دينٌ، أو آذاني فلان، ونحو ذلك، سواء كان عند القبر أو بعيدًا عنه، وسواء كان الميت نبيًا أو غيره، ونحن نعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ لم يشرع

---

(١) انظر: فتح الحميد ص ٧٠٢.

لأمته أن يدعوا أحدًا من الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين، ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع السجود لميت أو إليه، بل نعلم أنه نهى عن ذلك كله، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله سبحانه، وكذا رسوله»[1].

وقال أيضًا: «وأما سؤال الميت، والغائب نبيًا كان، أو غير نبي، فمن المحرمات باتفاق المسلمين، وهذا أيضًا مما يعلم بالاضطرار كما مر من دين المسلمين، بأن أحدًا منهم ما كان يقول إذا نزلت به نازلة، أو عرضت له حاجة، لميت أو غائب: يا سيدي فلان: أنا في حسبك، أو: اقض حاجتي.

كما يقوله المشركون لمن يدعونهم من الموتى والغائبين، ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء عليهم السلام»[2].

التوسل

ينقسم التوسل من حيث المشروعية إلى قسمين: مشروع مرغّب فيه، ومبتدع منهي عنه.

أولاً: التوسل المشروع:

وهو التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى، أو صفة من صفاته العليا كأن يقول المسلم في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠٨، ٧٠٩، وانظر الرد على البكري ص ٥٠٧، ٧٣١.

(٢) المصدر السابق ص ٧١١ وأصل الكلام لابن تيمية في الرد على البكري ١/ ٤٤٨، والمؤلف ينقل عنه بتصرف.

الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير أن تعافيني ونحو ذلك، ودليل مشروعية هذا التوسل قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وأدعية النبي ﷺ الثابتة الصحيحة فيها من هذا النوع كحديث الاستخارة ودعاء الهم وغير ذلك.

ومن أنواع التوسل المشروع التوسل إلى الله بعمل صالح قام به الداعي. كأن يقول المسلم: اللهم بإيماني بك ومحبتي لك واتباعي لرسولك اغفر لي، ونحو ذلك، ومن أدلة مشروعية هذا التوسل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦﴾ [آل عمران: ١٦].

ومن السنة حديث قصة الثلاثة أصحاب الغار[١].

النوع الثالث من التوسل المشروع: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح، ومن هذا الباب استسقاء الصحابة بالنبي ﷺ عندما أصابهم الجدب في حياته، وبعد وفاته ﷺ بعمه العباس كما في حديث عمر بن الخطاب[٢].

ثانيًا: التوسل المبتدع:

وهو التوسل بالذوات الصالحة، مثل أن يقول الشخص: اللهم إني أسألك بجاه الرسول، أو بحرمة فلان الصالح، أو بحق الأنبياء والمرسلين، أو بحق الأولياء والصالحين[٣].

---

(١) انظر صحيح البخاري (٢١٥٢).

(٢) انظر تخريج الحديث ص ٢٠٢٦.

(٣) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ابن تيمية، وشرح الطحاوية، ابن أبي العز (١/ ٢٩٤ـ ٣٠٠).

وابن منصور تبعًا لمن سبقه من أهل الاعتقاد السليم يميل إلى هذا التقسيم ويقرره، يدل على ذلك قوله مقتبسا من ابن تيمية في الاقتضاء: «فإن قال مجيز الإقسام على الله بخلقه: الأنبياء والمؤمنون لهم حق على الله.

قيل: نعم لهم حق على الله بوعده الصادق لهم، وكلماته التامة، ورحمته لهم، أن ينعّمهم ولا يعذبهم، وهم وجهاء عنده يقبل من شفاعتهم ودعاءهم ما لا يقبله من دعاء غيرهم.

فإذا قال الداعي: أسألك بحق فلان وفلان.

ففلان لم يدع له، ولم يسأله سبحانه باتباعه لذلك الشخص ومحبته وطاعته بل بنفس ذاته وماجعله له ربه من الكرامة. فلم يكن قد سأله بسبب يوجب المطلوب، وحينئذ فيقال: أما التوسل والتوجه إلى الله وسؤاله بالأعمال الصالحة التي مر بها كدعاء الثلاثة الذين آووا إلى الغار بأعمالهم الصالحة وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم.

فهذا كما قال شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه مما لا نزاع فيه، بل هذا من الوسيلة التي أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]»(١).

ونقل أيضا قول ابن تيمية مقرًا له في معرض نقده للتوسل المبتدع وتوهين ما استدلوا به:

«فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها تعم الوسيلة في عبادته وفي مسألته،

---

(١) فتح الحميد، ابن منصور ص ٢٠١٨ وانظر اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية: ١/ ٤١٠.

فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم، ليس هو من باب الإقسام عليه بمخلوقاته، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يستسقون ويتوسلون بالنبي ﷺ في حياته وبعمه بعد وفاته، كما صح ذلك عن الفاروق رضي الله عنه في الصحيحين وغيرهما.

وليس المراد بهذا أنهم رضي الله عنهم يقسمون عليه سبحانه به ولا بعمه، أو بما يجري هذا المجرى مما يفعل بعد موته وفي مغيبه، كما يقول بعض النساك: أسألك بجاه فلان عندك، ويقولون: نتوسل إلى الله بأنبيائه، ويروون حديثًا موضوعًا «إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عريض».

فلو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه كما ذكر عمر لفعلوا ذلك بعد موته ولم يعدلوا إلى عمه مع علمهم بأن السؤال به والإقسام أعظم من العباس. فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكروه وهو مما يفعل بالأحياء دون الأموات أنه هو التوسل بدعائهم وشفاعتهم، فإن الحي يطلب منه ذلك والميت لا يطلب منه شيء لا دعاء ولا غيره»[1].

ونقل عنه أيضًا في معرض رده على المجيزين للتوسل بذات النبي ﷺ بأن عدم ذهاب الصحابة إلى قبر النبي ﷺ واستسقاءَهم بعمه العباس وبغيره من الصحابة ليس فيه استنقاص للنبي ﷺ، وإنما هو تجريد للتوحيد الذي بعث به النبي ﷺ: «وقد أجدب الناس على عهد عمر رضي الله عنه فاستسقى بالعباس كما كانوا يستسقون بالنبي ﷺ في حياته، وهو أنهم يتوسلون بدعائه وشفاعته لهم فيدعو لهم ويدعون معه

(١) فتح الحميد ص ٢٠١٩ وانظر الاقتضاء لابن تيمية ١/ ٤١٤.

كالإمام والمأمومين، من غير أن يكونوا يقسمون على الله بمخلوق، كما ليس لهم أن يقسم بعضهم على بعض بمخلوق، ولهذا لما مات، ﷺ توسلوا بالعباس واستسقوا به.

ولهذا قال الفقهاء رحمهم الله تعالى يستحب الاستسقاء بأهل الخير والدين والصلاح، والأفضل أن يكونوا من أهل البيت، وقد استسقى معاوية رضي الله عنه بيزيد بن الأسود الجرشي وقال: اللهم إنا نستسقي بيزيد بن الأسود، يا يزيد ارفع يديك، فرفع يديه، ودعا الناس حتى أمطروا.

ولم يذهب أحد من الصحابة رضي الله عنهم إلى قبر نبي ولا غيره فيستسقي عنده ولا به، ولا أقسم به على الله تعالى البتة، وليس هذا باستنقاص للنبي ﷺ، وإنما هو تجريد للتوحيد الذي بعث به ﷺ، ولا أيضًا هضمًا من حقه، فإن حقه صدق متابعته ﷺ»[1].

موقفه من البدع وأهلها

جرى ابن منصور في هذا الشرح على طريقة أئمة أهل السنة والجماعة في التحذير من الوقوع في البدع والأهواء المضلة، ووجوب هجر أهل الزيغ والضلال وعدم مجالستهم، حيث عقد فصلاً في كتابه فتح الحميد أبان فيه مبدأ نشأة البدع في الأمة الإسلامية، وحذر فيه من بدعة الاعتزال والقدر والإرجاء والخروج والجبر والرفض، وحذر فيه من الخوض في الكلام، وذكر فيه توبة أساطين الكلام وروجوعهم عنه كأبي المعالي الجويني إمام الحرمين، والفخر الرازي وغيرهم[2].

---

(١) فتح الحميد ص ٢٠٣١ وانظر اقتضاء الصراط: ١/٣٩٨.

(٢) المصدر السابق ص ٩٧ وما بعدها.

إلا أنه أُخذ عليه اتصاله ببعض المناوئين للدعوة السلفية، وهو ما يمكن اعتباره تساهلاً منه في مبدأ الولاء لأهل السنة والبراءة من أهل البدعة كما سيتبين من الفصل التالي.

هذه بعض جوانب عقيدة الشارح التي ظهرت من خلال مؤلفاته، وهناك جوانب أخرى كثيرة تتعلق بتوحيد الألوهية الذي هو موضوع الكتاب يمكن تأملها من خلال قراءة الكتاب.

الفصل الخامس
علاقة المؤلف بعلماء الدعوة الإصلاحية وخصومها

تقرر من الفصول السابقة أن ابن منصور كان حريصاً على إظهار ولائه وثنائه على الدعوة وعلمائها وولاتها، إلا أننا نجد علماء الدعوة المعاصرين لابن منصور يطعنون في صدق انتمائه للدعوة، ومن أشهرهم الشيخ العلامة عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب، وابنه الشيخ العلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن رحمهم الله جميعًا[1].

يقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن في رسالة أفردها لبيان حال ابن منصور:

«بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ ﴾ [آل عمران].

وبعد: فإنه قد بلغنا عمن لا نتّهم، عن عثمان بن منصور أنه كتب له نسخة نال فيها من إمام الدعوة الإسلامية، محمد بن عبدالوهاب، ومن تابعه على ملة الإسلام، أنهم كالخوارج، يكفّرون المسلمين، وذكرت ذلك للإمام فيصل بن تركي، فاستبعد هذا، واتهم القائل.

فلما حضر ابن منصور، حلف بالله جهد أيمانه أنه لم يقل ولم يكتب ذلك، ولعله تأول للإمام، وكنت لا أُبعده عن ذلك وإن حلف، لما قد

---

(١) انظر: الدرر السنية (١١/ ٥١٢، ٥٣٣، ٥٤٧، ٥٥٤، ٥٧٥)، (١٢/ ٢٩١، ٢٩٦).

استبان لي من أحواله، مع شهادة من هو أصدق منه.

فلما استقضاه الإمام على أهل سدير، لكونهم طلبوه، أظهر ذلك تنفيرًا لهم عن جماعة المسلمين، وتغييرًا للأمر الذي قد عرفوه من الدين، ليصدفهم عنه، وعن متابعة أهل الإسلام والدخول في جماعتهم، فوقعت تلك في يد بعض من أنكرها من المسلمين، فبعث بها إلينا، فإذا هي تشتمل على أمور:

أحدها: أن المسلمين القائمين بهذا الدين بعد غربته، ودروس معالمه، قد زعم: أنهم أهل بدعة، كالخوارج الذين يكفّرون بالذنوب، لاعتقاده أن ما يفعل عند القبور من عبادة الأموات، ليس بشرك يكفر فاعله، وأنهم وإن فعلوا ذلك فهم مجتهدون مخطئون، وأن أولئك الذين يقع فيهم مثل ذلك، هم الجماعة الذين وردت الأحاديث في وعيد من فارقهم، وساق الأحاديث الواردة في الخوارج وفيمن فارق الجماعة.

وجعل هذه الطائفة الذين يأمرون بالتوحيد، ويدعون إليه، وينهون عن الشرك، ويقاتلون عليه، كالخوارج الذين يكفّرون الصحابة، وأنهم فارقوا الجماعة»[1].

وقال الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن رحمه الله في رسالة بعثها لابن منصور حال حياته:

«فأخبرني الثقة بالجرح والتعديل، الخبير بما قد شاع عنك من القيل: أن صاحب الخط ينتمي إلى ممارسة العلوم، المنقول منها والمفهوم، غير أنه قد نسب عنه هفوات، إن صحت فهي من عظائم

---

(١) الدرر السنية (١١/ ٥٤٧ـ ٥٤٨).

المعضلات، ولم نقف لها على تصحيح يعتمد، ولم نلتفت إلى البحث في متنها والسند، اكتفاء بإعراضه عن الابتهاج بهذه الدعوة، ولهذا الأصل والمذاكرة، واستغناء بعدم التفاته إلى المؤاخاة في الله والمؤازرة، بل كل الناس لديه إخوان، والضدان عنده يجتمعان، يصاحب أولياء الأوثان، كما يصاحب عابدي الرحمن، ويأنس بالمنقلب على عقبه، كما يأنس بالثابت على الإيمان، مع أنه قد شرح التوحيد، وادعى الإتيان بكل معنى موجز سديد.

يومًا بِحَزْوى ويومًا بالعقيق وبالـ ـعُذيب يومًا ويومًا بالخليصاءِ
وتارة تنتحي نجدًا وآونةً شعبَ الغوير وطورًا قصر تيماءِ[1]

فهو وإن ينتسب إلى الحق، فقد والى من خرج عنه وعق، فقلت له: إيه من رجل لو استقام، وصارم لولا ما عراه من الانثلام، لكني أعلم: أن للعلم بركات، وللملك لمات، فأرجو أن يقوده العلم إلى ثمراته، وأن يحول بينه وبين الشيطان وخطواته ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحديد: ١٧]»[2]

ومع كون ابن منصور سلفيّ المعتقد، كما تبين من الفصل السابق، فإنه لم يسلم من التلمذة لبعض خصوم الدعوة السلفية، ومع أن هذا في ذاته ليس بمذمة، ولا غضاضة فيه؛ إذ «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»[3]، ومعلوم أن بعض كبار مشايخ الدعوة تلمذوا لبعض علماء الأزهر إبان إجلائهم إلى مصر، مع كونه المركز الأول

(١) البيتان لأبي محمد الخازن كما في يتيمة الدهر للثعالبي (٣/ ٢٢٨).
(٢) الدرر السنية (١٢/ ٢٩٤ـ ٢٩٥).
(٣) لفظ حديث مرفوع رواه الترمذي (٢٦٨٧) وهو في ضعيف الجامع برقم (٤٣٠٢).

للمذهب الأشعري، المخالف للمذهب السلفي، وهذه شهادة ثمينة لعلماء الدعوة بسعة الأفق، والنهم للعلم النافع، والشغف به، والحرص على تحصيله ولو عند الخصوم، مع اطراح ما عندهم من البدع، إلا أن الأمر قد اختلف لدى ابن منصور عنه عند غيره من علماء الدعوة ممن درس على خصومها، وكانت مفارقته لهم في هذا الأمر من وجهين:

الأول أن ابن منصور تلقى عن الخصوم مبكراً في مبدأ نشأته[1]، قبل النضج العلمي، والتمكن من محض المنهج السلفي، والإحاطة بشبهات الخصوم ووجه تفنيدها، وذلك ما أدى إلى الاضطراب الذي انتُقد عليه في آرائه وعلاقاته[2].

الثاني أن الخصوم الذين تلقى عنهم ابن منصور كانوا نشطاء في مناوأة الدعوة، لا يألون جهداً في الكيد لها، والتنفير منها، والتشغيب حولها، واستثارة الناس ضدها، وربما حملهم التعصب الأعمى على الافتراء على أئمتها بما يعلمون بطلانه، وعدم التورع عن شتمهم وتكفيرهم واستباحتهم واتهامهم بالخروج عن جماعة المسلمين، والسعي في سفك دمائهم وإبادة خضرائهم، إلى غير ذلك من ألوان الكيد والمكر، الذي لم يوجد عند غيرهم من المخالفين؛ وكان من أهم أسباب ذلك أن أكثر هؤلاء أصلهم من نجد، وكان ترأسهم فيها مشوباً بالبدع والضلالات، فلما زالت مناصبهم بالدعوة السلفية ظهر منهم من الحقد والعداء ما لم يظهر من غيرهم[3]، فلا

---

(١) كما ذكر شيخه عبدالرحمن بن حسن في رسالة «المقامات» في الرد عليه، انظر الدرر السنية: ٩/ ٢١٧.

(٢) انظر ما قاله الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن في رسالته له ضمن الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٩/ ٣٣٢.

(٣) من العجيب ـ وما أكثر العجائب في حياة ابن منصور ـ أن ابن منصور يقول =

عجب ألا يجد ابن منصور مجالاً لإحسان الظن به عند أئمة الدعوة، وأن لا يزال موضع الارتياب منهم، يزيده قرينةٌ بعد قرينة، حتى تُوج لديهم بما ضُبط بخطه بعد وفاته كما سيأتي.

وقد ذكر الشيخ عبدالرحمن بن حسن ـ وهو من شيوخ ابن منصور ـ في بعض ردوده على ما نسب إليه من كتب[1]، أن ابن منصور سافر إلى «الزبير» إثر انتشار الدعوة السلفية، حيث يوجد كثير من أهل نجد، ممن ضاق ذرعاً بالدعوة، منهم الشيخ محمد بن سلوم[2] الذي جلا من «سدير» بسبب ظهور الدعوة، وتمكن أتباعها، وأن ابن منصور تلمذ له، وأقام عنده مدة من السنين، ثم تردد إلى البصرة، واجتمع فيها بعثمان بن سند[3]، الذي كان

= في فتح الحميد: (وقد صنف شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب هذا الكتاب لما رأى من حوادث الشرك، وأنه قد عمت به البلوى، فدعا إلى الله بتوحيده، وحمل الناس على كتاب ربهم، وسنة نبيهم محمد ـ ﷺ ـ، **فنفر من ذلك الرؤساء؛ لما فيه من زوال مناصبهم، وترؤسهم بالباطل والقوانين الخارجة عن الشريعة المحمدية، والملة الإبراهيمية**، وشايعهم على ذلك الجهلة.. إلخ).
ص١٢٢ ويقول أيضًا: (قلتُ: وهذا من الشيخ ـ رحمه الله ـ سر لطيف، وبهذه الفراسة والسياسة نفع الله به العباد، وعمر به البلاد، ومن نصره وتبعه على ذلك رأس وساد). ص ٤٨٨.

(١) انظر الدرر السنية ٩/ ١٩٥، وهذا الجزء من الدرر مليء بالردود على ابن منصور، ربما ربعه، انظر ردود الشيخ عبدالرحمن بن حسن فيه ص ١٨٧ـ ٢٣١، وردود ابنه عبداللطيف ص ٣٣٢ـ ٣٤٨، وقد نشرت أكثر ردود الشيخ عبدالرحمن بن حسن في مجموع بعنوان «الدر المنثور في الرد على عثمان بن منصور»، بعناية إسماعيل بن سعد ابن عتيق، نشر وتوزيع مكتبة الهداية بالرياض، عام ١٤١٢.

(٢) تقدمت ترجمته ص٥٣.

(٣) توفي سنة ١٢٤٢هـ، انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ٤/ ٢٠٦، وانظر ما تقدم عنه ص ٥٧ .

من ألد خصوم الدعوة، فتلمذ له، وأنه لما عاد بعد ذلك إلى «الفرعة» ـ مسقط رأسه ـ أخرجه أهلها من الصف الأول في الصلاة؛ إنكاراً عليه، وأنه إنما استقر في «سدير» بعد اختلاف أهل نجد إثر الاجتياح المصري.

وفي مواضع أخر[1] ذكر أنه تأثر بثلاثة أشياخ: ابن سند البصري، وابن سلوم وابن جديد الزبيريين النجديين.

وفي موضع آخر ذكر عن ابن منصور فيما وُجد بخط يده أنه التقى في المدينة المنورة بعبدالله بن سليمان[2] فاستشاره في القدوم على نجد، فصده

---

(١) انظر الدرر السنية ٩/ ٢١٥، ٢١٧.

(٢) لعله عبدالله بن سليمان بن محمد بن عبيد الجلاجلي، ت ١٢٤١هـ، ولد في «جلاجل» من بلدان «سدير» ونشأ فيها، ثم رحل إلى الدرعية وتلمذ بها لتلاميذ الإمام محمد بن عبدالوهاب، وولاه الأمير سعود بن عبدالعزيز قضاء «حائل» وملحقاتها، ولبث على ذلك حتى خراب الدرعية سنة ١٢٣٣هـ، كما في «علماء نجد» للبسام ٤/ ١٦٦، وإذا كان الأمير سعود قد تولى من سنة ١٢١٨ إلى ١٢٢٩هـ، ولم يذكر ابن بشر له قاضيا على «حائل» سوى عبدالله بن سليمان هذا، فينبغي أن يكون توليه للقضاء منذ سنة ١٢٢٠هـ على الأقل، ولابد حينها أنه قد تجاوز الثلاثين من العمر على الأقل إن كان نابغا، وإلا فلابد أنه تجاوز أكثر من ذلك، حتى يكون أهلا لتولي منصب القضاء في إمارة بهذا الحجم، ولم يذكر في ترجمته عند ابن بسام أنه قرأ على الإمام، بل يفهم منها أنه قدم «الدرعية» بعد وفاته، فإن كان هو الذي ذكره الشيخ عبدالرحمن فإنه لا يُستبعد أنه كان في أول أمره غير متقبل للدعوة؛ إذ لم تزل آنذاك في أول أمرها، ولما يشتد عودها، ويظهر صوتها المبدد للشبهات التي كانت تثار حولها، وخصوصا في «سدير» التي كانت فيما يبدو مظنة للشائعات المريبة حول الدعوة وإمامها، من قبل خصومها من أهل «سدير» الذين أفرتهم الدعوة إلى الزبير، كابن جديد وابن سلوم، ولعل هذا الذي قلناه في شأن عبدالله بن سليمان يتأيد إذا كان محمد بن عبيد المترجم في علماء نجد لابن بسام (٦/ ٢٧٤) جدا له، إذ إنه قتل على يد الأمير عبدالعزيز بن محمد سنة ١١٨٠هـ لمناوأته للدعوة، بيد أن اسمه في عنوان المجد بطبعتيه: محمد بن =

هذا، فتوجه إلى الزبير، ثم ذكر الشيخ عبدالرحمن أن ابن سليمان هذا قدم نجداً، وقرأ على الإمام في «الاقتضاء»، ثم صار كاتباً لأبنائه[1].

والحق أن من المستبعد أن يكون ابن منصور درس على ابن سند وتأثر به، وهو الذي ردّ عليه ذلك الرد الموجع: «الرد الدامغ على الزاعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية زائغ»[2]، لما سمعه ينال من شيخ الإسلام ابن تيمية، ويسب أهل نجد وإمامهم المجدد، وهي منظومة طويلة بلغت ١١٥ بيتاً، قدم لها بمقدمة ذكر فيها ما جرى له مع ابن سند، وأنه بعث بها إليه، وهدده إن لم ينته عن سب شيخ الإسلام أن يبعث بها نسخاً متعددة إلى بغداد، فجرت المصالحة على أن يكف ابن سند عن ذلك، ويظهر الثناء على ابن تيمية، ولكنه لم يلبث أن عاد، فأظهر ابن منصور ردّه عليه، والذي يعنينا هنا منه دفاعه عن الإمام محمد بن عبدالوهاب، حيث يقول:

وقولكمُ في معرض الذم: شيخُكم ... يُضلّ الورى جهلاً وفيكم تنطعُ

أبِنْ لي ضلال الشيخ حتى أجيبكم ... أفي هدمه الأوثان؟ فالحقَّ يَتبعُ

= عيد، فالله أعلم بالصواب، ومهما يكن من أمر فلا يبعد ما ذُكر عن ابن منصور أنه صُد عن الدعوة أول الأمر بمشورة عبدالله بن سليمان هذا، وأن هذا كان في وقت مبكر، ربما أول القرن الثالث عشر، قبل انشراح صدر عبدالله بن سليمان للدعوة، وعليه فلا يستغرب إحجام ابن منصور عن إظهار مناوأته للدعوة ـ إن كانت ثابتة عليه ـ؛ إذ رأى من صده عنها أولا قد رجع، وربما يكون بعض ما ضبط بخطه بعد وفاته من الأوراق والوثائق المعادية للدعوة ـ والتي لم يعلنها البتة ولم يسع لنشرها ـ بمثابة مذكرات شخصية كتبها في تلك الفترة المبكرة من حياته، خصوصا وأنها في مستواها العلمي لا ترتقي إلى النضج الذي أبداه في «فتح الحميد» ولعله يشفع له أنه لم يبرزها ويدع إليها حتى في أحلك الظروف بالنسبة للدعوة.

(١) انظر الدرر السنية ٩/ ١٨٧.

(٢) نشر مقاطع منها الدكتور العثيمين في تحقيقه للسحب الوابلة ٢/ ٧٠٨.

أبِنْ لي أبِنْ لي لا أباً لك وانتبه　　أفي سَدِّه طرْق الضلالات مشنعُ
أبِنْ لي أبِنْ لي ما الضلالات عندكم　　أكفّ دعاة السوء فينا فنسمعُ
كففناهم عن ديننا ودمائنا　　وأنت لِسعدٍ آخر الليل تضبعُ
دعوت سعيد السوء في دار «فيلك»　　وسعد على أنصابه التيس تصدعُ
فلما أراك الله نوراً عن العمى　　بنور دعاة الخير هَوْلجت تقرعُ
تُبدّع أهل الخير تُخرج دينهم　　إلى دين من هو للصحابة يُبدعُ[1]
أمَنْ تُنصب الأوثان في دار ملكه　　وتعبد جهراً بالنحاير يدرعُ
كمثل صحاب يبذل المرء نفسه　　لهدم قباب الشرك هل أنت تترعُ
ولسنا بحمد الله نُكْفر مسلماً　　ولا نرْتضي التكفير بالجهل نُسرعُ

ومضمون هذا النظم متفق تماماً مع ما في «فتح الحميد»، ولعله حين نظمه كان قد شرع في تأليفه، ويبدو أنه نظَمه في آخر فترة وجوده في العراق؛ فإنه أطال اللبث عند ابن سلوم في الزبير قبل أن يذهب إلى البصرة فيجتمع بابن سند، وموقفه هذا من ابن سند يدل على أن اجتماعه به كان اجتماع مدارسة أكثر منه تلمذةً، ولا أدري إن كان علماء الدعوة قد اطلعوا على هذه القصيدة، فإنهم لم يشيروا إليها كما أشاروا إلى فتح الحميد، وهي إن كانت تدفع عن ابن منصور تهمة إبطان مناوأة الدعوة أول الأمر؛ إذ لا يتصور فيها مطمع دنيوي لابن منصور كما في «فتح الحميد»، فإنها ترجح انقلابه على الدعوة في حال ثبوت «كشف الغمة» ومدح ابن جرجيس.

---

(١) يعني أنك تصف أتباع الإمام محمد بن عبدالوهاب بأنهم على دين الخوارج الذين بدّعوا الصحابة.

أما عدو الدعوة اللدود داود بن جرجيس[1] فهو أقرب إلى كونه قرنا

---

(١) هو داود بن سليمان بن جرجيس البغدادي، النقشبندي، الخالدي، الشافعي، ولد في بغداد عام ١٢٢٢هـ على ما في هدية العارفين (١/ ٣٦٣) أو ١٢٣١هـ على ما في الأعلام (٢/ ٣٣٢) ومعجم المؤلفين (٤/ ١٣٦) وهلك بها عام ١٢٩٩هـ، وهو أحد خصومٌ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، طعن في رسائل أئمة الدعوة، فزعم أنها تخالف ما قرره السلف، وتخالف ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمه الله، وتصدر الدعوة إلى دعاء الأموات من الصالحين والأولياء، وندائهم بالحوائج، والاستغاثة بهم في الملمات والشدائد، وأن ذلك مستحب وارد، وأن من كفر من يعبد الصالحين فهو مخطىء ضال، وأنه لا يكفر ولايشرك إلا من دعاهم استقلالاً، وزعم أنهم الفاعلون المدبرون.

وله كتب حشاها بما تقدم، منها «صلح الإخوان من أهل الإيمان» ضمنها نقولاً محرفة عن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم عن عمد ليجيز بها الاستغاثة بالموتى ودعاءهم من دون الله، وكتاب «المنحة الوهبية في رد الوهابية» وغير ذلك.

وقد تصدى له أئمة الدعوة، فألفوا الردود المطولة والمختصرة في نقض شبهه وتضليله، وبيان كذبه وافترائه وتزويره، فانجلى للناس بهذه الردود حقيقة أمره، وزيف ما يدعو إليه فلله الحمد والمنة.

فممن رد عليه الشيخ عبدالله أبابطين بكتابه «الانتصار لحزب الله الموحدين والرد على المجادل عن المشركين»، وبكتاب آخر أسماه «تأسيس التقديس»، ورد عليه العلامة عبدالرحمن بن حسن بكتب منها «القول الفصل النفيس في الرد على المفتري داود بن جرجيس»، ورد عليه ابنه العلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بكتب منها «منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس»، وكتاب «تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس»، ورد عليه الشيخ الفاضل محمود شكري الألوسي بكتاب سماه «فتح المنان» ورد عليه علامة العراق السيد نعمان الألوسي بكتاب سماه «شقائق النعمان في رد شقاشق داود بن سليمان».

انظر: الدرر السنية (١٢/ ٣٣١)، تأسيس التقديس، للبابطين، تحفة الطالب والجليس، لعبداللطيف بن عبدالرحمن، دعاوى المناوئين، لعبدالعزيز العبداللطيف =

لابن منصور ـ وربما بمنزلة التلميذ ـ من أن يكون شيخاً له، فابن منصور أسن منه بعشرين عاماً على الأقل![1].

ومهما يكن فقد دخل بسببه شر عظيم على ابن منصور، إذ كان ابن جرجيس نشطاً في مناوأة الدعوة، حريصاً على فض الناس عنها، حتى أنه قدم لأجل ذلك إلى القصيم وحائل[2]، واجتمع به الشيخ عبدالله أبو بطين[3]، وناظره في مسمى العبادة وغيرها، فظهر فساد معتقده[4]، وأنه ألف كتباً يدافع فيها عن عبادة القبور، والاستغاثة بالأموات، ويشغب بها على الدعوة السلفية، فرد عليه علماء الدعوة، وحذروا المسلمين من ضلالاته، وبالغوا في رد كيده، والحد من تأثيره، حتى أنهم استكتبوا أسماء من استضافه ورحب به ليُحذّر منهم[5].

والذي يعنينا هنا أن ابن منصور ـ بمقتضى ما وُجد بعد وفاته ضمن كتبه ـ عُدّ من المرحبين بقدوم ابن جرجيس، ليس ذلك فحسب، بل من المؤيدين لآرائه، المزكين لكتبه، كما تشهد بذلك قصيدة رائية لم توجد إلا

= (ص ٥٣ـ ٥٤)، المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر، لمحمود شكري الآلوسي الذيل ص٤٥٩، وقد ذكر محققه الدكتور عبدالله الجبوري مواطن ترجمة ابن جرجيس، الأعلام للزركلي (٢/ ٣٣٢).

(١) فلا يصح ما في «علماء نجد» (٥/ ٩٠) من أن ابن جرجيس من أشهر مشايخه الذين قرأ عليهم في العراق !.

(٢) تولى ابن منصور قضاء حائل سنة ١٢٦٥، ولبث فيها أربع سنين، فربما يكون قدوم ابن جرجيس أثناء هذه الفترة.

(٣) العلامة عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالعزيز أبابطين العائذي (١١٩٤ـ ١٢٨٢هـ)، من كبار علماء الدعوة، ترجمته في الدرر السنية ١٢/ ٧٥ـ ٧٧.

(٤) انظر الدرر السنية ٩/ ٢٨٨، ٢٨٩.

(٥) انظر الدرر السنية ٩/ ٣٢٩.

في كتبه[1]، رماه العلماء إثر العثور عليها ـ بعد وفاته! ـ عن قوس واحدة، وردوا عليه بقصائد عدة من بحرها وقافيتها، وقصيدة ابن منصور هي هذه:

خليلي هلاّ تُنظـراني لحاجـة ... أقيما فواقا من نهار كما البدر

عسى تقتضي الحاجات مني رسالة ... إلى الجسر من بغداد بالود واليسر

لـرد رسـوم يستضـاء بضـوئهـا ... تضوح عبيراً من أصداغها الشقر

بها بينات واضحات من الهدى ... تحطم منهاج الخوارج الصغر

وتفصح عن غوب[2] الطغام بمازق ... من الجيش فرسان الدلائل كالبحر

أتينا بها نحت الحديد بمبرد ... على جاهل يهذي بقول ولا يدري

يؤول آيات الكتاب على الذي ... ينادون بالإخلاص والعمل البر

تشعشع أنواراً من الوحي رائقاً ... مطـرزة بـالـوشـى سـابغـة الأُزْر

ومنبعهـا بيـت النبـوة يـا لهـا ... صواعق رعد تقذف بالصخر

تـأملتهـا سبـرا لهـا فـوجـدتهـا ... جـواهـر وحـي صـافيـة الـدر

تبـارك ربـي مـا أجـل متـونهـا ... وأرصفها رصفاً بقاصمة الظهر

تدمدم جرف الزيغ من بعد ما علا ... وتدحض جور الخارجي والجبر

فضيفتهـا منـي قـريضـاً مـزوقـاً ... على أنها الحسناء واضحة الثغر

عليها من الوحي المبين دلائل ... يقصـر عنهـا كـل مبتـدع غمـر

يضل ضلال العادلين عن الهدى ... فغم بها غم المعذب في القبر

---

(١) كما يقول الشيخ عبدالرحمن بن حسن، انظر الدرر السنية ٩/ ١٩٦.

(٢) كذا، ولم يتبين لي معناها. ولعلها: غيب.

فمني سلام رائق ما سرى الصبا	وما هبت النكباء أو غنت القُمري
وما هطلت وبل السحاب وما زها	من النبت زهـر القحوياني بالقطر
وما ضحكت زهر الرياض بنورها	وما هزت الحسناء عطفاً لها تجري
وما نفحت عود الخزامي بأجرع	من الطل مغمور الأجارع والخمر
على سيد السادات روحي ومهجتي	مثيـر غـرام الــود قابـل العـــذر
سمـــي نبـــي الله داود ليتنـــي	تمليت منه الأنس في ساعة العمر
إلى جده جرجيس بالأصل ينتمي	لبنـــت رســـول الله عاليـة الخـــدر
من الخل عثمان التميمي قريضها	على نقض زيغ من طغام أصدى وكر[1]
سرت من ربى نجد تجر ثيابها	مغطـرفـة الأرداف كـالنقـا المثـر
بـأزكـى صـلاة للنبي مضـاعـف	مع الآل والأصحاب ذي العز والفخر
فـدم واستقـم مـا عشـت قـامعـاً	لشيعـة جنـد النهـروان ذوي الغـدر

هكذا هي في «الدرر السنية في الأجوبة النجدية»[2]، ولعل كثيراً من الخلل الحاصل فيها مرده إلى التصحيف والتطبيع، وهي من أقوى ما أدين به ابن منصور بعد كتاب «كشف الغمة» الذي مضى الحديث عنه.

والعجيب أن هذه القصيدة لم تظهر إلا بعد وفاة ابن منصور سنة ١٢٨٢هـ، عثر عليها حين عرضت كتبه للبيع مكتوبة بخط يده[3]، ولم أر

(١) كذا.

(٢) ٩/ ٣٤٨، ٣٤٩، وفي «علماء نجد» لابن بسام (٥/ ٩٣) أنها ستة وثلاثون بيتا، فلعله وهم.

(٣) انظر الدرر السنية ٩/ ٢١٠، ٣٣٥.

من شكك في نسبتها إليه، بل إن جلة من العلماء انبروا للرد عليها كما تقدم، منهم عبدالرحمن بن حسن، وابنه عبداللطيف[1]، وابن مشرف الأحسائي[2]، وحمد بن عتيق، وغيرهم[3]، ومع أن هذا له أثره في توثيق نسبتها إلى ابن منصور، فإنه يثير تساؤلاً من جهة أخرى عن الجدوى من نبش قصيدة مغمورة ركيكة المبنى والمعنى ـ كما يقول من رد عليها ـ، لم يعلم بها إلا بعد وفاة صاحبها[4]، وتتابع وجوه العلماء على مناقضتها، مع أن المعلوم من منهج السلف إماتة البدع وغمر أصحابها بالإعراض عنهم وتحقير شأنهم وتجاهلهم وعدم إعانتهم في نشر بدعهم بالمبادرة إلى الرد إليها، ما لم يُلجأوا إلى الرد ويضطروا إليه اضطراراً بتفشي البدعة واستطارتها في الآفاق، فهل كان لابن منصور ذلك التأثير والقبول الداعي إلى كل هذا الاهتمام، وما الذي كان سيحدث لو أن الأوراق التي حوت نظمه هذا أتلفت أو حفظت وكفي الناس هم معرفة محتواها ووجه بطلانه؟!، أم أن إدانة ابن منصور في ذاتها كانت مطلباً؟.

وقد نجد جواباً على هذا التساؤل في قول الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن في رده على «كشف الغمة»: (وقد كنا في غنية عن رد أكاذيبه؛

---

(١) قصيدته في الدرر السنية ٩/ ٣٤٩ـ ٣٥١.

(٢) قصيدته في ديوانه ص ٢٩، ٣٠.

(٣) انظر علماء نجد ٥/ ٩٣ـ ٩٥. والظاهر أن الشيخ عبدالرحمن بن حسن كان يندب من يراه أهلا لمعارضة ابن منصور، كما يفهم من ديوان ابن مشرف ص ٣١، حيث وردت قصيدته التي عارض بها قصيدة ابن منصور، ثم ذكر أن الشيخ استزاده فأجاب بقصيدة أخرى.

(٤) إذ لو كانت معلومة منتشرة أو حتى متداولة بين خواص ابن منصور فإنها لم تكن لتخفى على من يضبط عليه فلتات لسانه وما يبوح به لبعض خواصه. انظر الدرر السنية ٩/ ٢٠٠، ٢٠٢، ٣٣٤.

لسقوطها وظهور هجنتها، لولا ما قيل: «لكل ساقطة لاقطة»، وخوفاً أن تصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة)[1].

ومهما يكن من أمر، فإن ثبوت هذه القصيدة لابن منصور لا يدينه بمعاداة الدعوة السلفية وممالأة القبوريين فحسب، بل إنها تضعف من احتمال رجوعه عن مناوأة الدعوة؛ فإن ممدوحه فيها عاش ما بين عامي (١٢٢٢ـ ١٢٩٩هـ) على ما في «هدية العارفين»، أو ما بين عامي (١٢٣١ـ ١٢٩٩هـ) على ما في «الأعلام»، وهذا يعني أنه لابد أن يكون قدومه نجدا، ومدح ابن منصور له بعد عام ١٢٥٠ على الأقل؛ إذ لا يُقبل أن يحدث قدومه هذه الضجة وهذا القلق والاهتمام وهو في سن أقل من هذا، خصوصاً مع ما أبداه في كتاباته وشبهه من ضعف علمي وبعد عن منهج الراسخين في العلم، فإذا كان تأليف ابن منصور لكتابه «فتح الحميد» الذي هو قمة ما يمثل ولاءه للدعوة، وبراءته من خصومها، ومضمونه مضاد تماماً لما يدعو إليه ابن جرجيس ومن قبله ابن سلوم وابن سند وابن جديد وغيرهم من المناوئين، إذا كان تأليفه لهذا الكتاب في إخراجه الأول قد تم الفراغ منه في شعبان سنة ١٢٥١هـ، كما في اللوحة ٣٠٦/ أ، [م]، ومعلوم أن شرحاً بهذه الضخامة يستغرق من صاحبه سنوات عدة ولابد، فالحكم عليه في ضوء هذه المقدمات بالتحول عن ممالأة الدعوة إلى معاداتها أقرب من القول برجوعه، خصوصاً إذا علمنا أن المجلد الأول من الإخراج الثالث للكتاب كان الفراغ من تبييضه في ذي القعدة من عام ١٢٥٧هـ[2]، فإن كان ثمة تحول فلابد أن يكون بعد هذه الفترة بزمن، ويكون قدوم ابن جرجيس وترحيب ابن منصور له في أواخر حياة ابن منصور، ربما سنة ١٢٧٩هـ أو

---

(١) «مصباح الظلام» ص ٨٤.

(٢) كما في اللوحة ٢٠٨/ أ، وهي آخر المجلد الأول.

قريباً منها[1]، وهذا أقرب إلى تبرير اهتمام العلماء البالغ بالرد على ابن منصور بعد وفاته؛ إذ قضيته لم تزل قضية حية، وقد بلغ من البلاغة والعلم مبلغاً يُخشى معه تأثر الناس به، وربما اعتبره بعض الجهال من العامة ضحية للحسد والتنافس بين العلماء، وقد تقدمت الإشارة في الفصل الأول إلى أنه كان قاضياً على جميع ناحية «سدير» في ولاية الإمام فيصل بن تركي، ثم ولاه الإمام قضاء حائل سنة ١٢٦٥هـ، واستقبله أهل «قفار» استقبالاً تاما، واحتفوا به لعلاقة النسب بينه وبينهم، ولبث في قضائها نحو أربع سنين[2]، والجدير بالذكر أن الإمام ولاه قضاء «سدير» بطلب من أهلها[3]، وهذا كله يوحي أن له قبولاً وارتياحاً عند كثير من الناس، يسهل تأثرهم به ورواج آرائه فيهم دون شك.

على أن الشيخين الجليلين عبدالرحمن بن حسن، وابنه عبداللطيف وغيرهما من أهل العلم، لا يرون في أحوال ابن منصور تحولاً ولا تغيراً، فهو في مبتدأ أمره ومنتهاه مناوىء للدعوة[4]، وإنما كان صاحب تقية، يظهر الموالاة والتملق وهو يبطن العداوة[5]؛ ولا يبوح بمذهبه على الحقيقة

---

(١) حيث يكون ابن منصور أيضًا ـ وعلى هذه الفرضية ـ قد يئس من رضا علماء الدعوة عنه، وقبولهم لما يظهره من مصافاة الدعوة والنصح لها، وتركهم لمتابعته والتحري حول ما يبثه في مجالسه الخاصة.

(٢) كما نقل البسام في «علماء نجد» ٥/ ٩٦ عن ابن ضويان، وأظن فيه اضطرابا: فقد ذكر في ٥/ ٩٥ أن ابن منصور تولى قضاء «حائل» ثم قضاء «سدير»، وفي ٥/ ٩٦ أنه كان ارتحل إلى «سدير» عام ١٢٥٥هـ، ولم يتولَّ قضاء حائل إلا سنة ١٢٦٥هـ، ولبث فيها أربع سنين، ثم عُزل فرجع إلى سدير ساكنا لا قاضيا إلى وفاته.

(٣) انظر الدرر السنية ٩/ ٢٠٠.

(٤) انظر «مصباح الظلام» ص ٨٥.

(٥) انظر «مصباح الظلام» ص ١٨، ٤٤.

إلا لإخوانه وشيعته من أعداء الدعوة[١]، طمعاً في المنصب والمال[٢]، أو مداراة لصولة سيف السنة، أو غير ذلك، وما كان ظهور هذه القصيدة، وكذا كتاب «كشف الغمة» بعد وفاته سوى تصديقاً لما ظنوه به من قبل.

ويعلل الشيخ عبداللطيف انقلابه على الإمام محمد بن عبدالوهاب بعد أن شرح كتابه وأطراه فيه بأنه إنما فعل ذلك طلباً للدنيا، فلما فاته ذلك عند أتباع الشيخ ولوّح له به بعض أعداء التوحيد رجع القهقرى[٣].

وهكذا فإن دفاع ابن منصور عن نفسه، واجتهاده في تبرئه ساحته إذا ما حقق الأمر معه لا يجدي شيئاً، ويحمل على المراوغة والتهرب.

وخلاصة القول في تفسير علاقة ابن منصور بخصوم الدعوة أنها لا تعدو إحدى حالين، إما أنها علاقة تلمذة ومودة، يتراوح تأثيرها ما بين الحد من نشاط ابن منصور في نشر مبادىء الدعوة، وإطفاء حماسته في تحقيق أهدافها، والحيلولة دون مجاراته أقرانه من علماء الدعوة في محاربة المنكرات العقدية، وعدم التسامح أو التساهل مع أي منها، وبين الاضطراب والتباس الأمر بسبب ما يسوقون من شبه، خصوصاً في قضية التكفير الشائكة، لا يتجاوز ذلك إلى حد الاقتناع ببدعهم وضلالاتهم وتزكية مذاهبهم[٤]، وهذا ـ كما ترى ـ لا يستقيم إلا على فرض صدق ابن

---

(١) انظر السابق ص ٣١٧.

(٢) انظر السابق ص ٣٩، ٣١٩.

(٣) انظر السابق ص ٣١٩.

(٤) يقول ابن مشرف في إحدى قصيدتيه اللتين رد بهما على ابن منصور كما في ديوانه ص ٣٠:

فيا ليت شعري هل تجاهل أو غوى ... فشتان ما بين الهداية والكفر

ولكنه أبدى موافقة العدا ... **ليثني عليه الخصم في ذلك القطر**

منصور في دفاعه عن نفسه، وأن جميع ما نسب إليه لا يثبت، وإنما هو وشاية من حاسديه لدى ولاة الأمر من الأمراء والعلماء.

والحال الثانية: أنه في حقيقة أمره خصم لدود للدعوة، أراد أن يجمع بين بث مذهبه، وبين البقاء في موطنه واستمالة الناس إليه، فسلك مسلك التقية، وهذا ما يراه علماء الدعوة، وهو الذي ترجحه الدراسة الفاحصة لمؤلفاته كما سبق.

ولا ثالث فيما يبدو لهذين الحالين، إلا أن يكون تاب قبيل موته وهذا ليس مما نحن فيه، أما أن يكون مناوئاً في أول أمره ثم صلح حاله فهو بعيد كما سبق[1].

وقد ذكر الشيخ البسام[2] أن الشيخ محمد بن صالح بن سليم، رئيس محكمة التمييز بالمنطقة الغربية حدثه، أن الشيخ محمد بن عبداللطيف قال: حدثني والدي عبداللطيف عن والده الشيخ عبدالرحمن بن حسن أن عثمان بن منصور قبل وفاته ندم على ما فات منه، وأنه تاب، وتوفي على عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، التي هي عقيدة التوحيد. ا. هـ ثم جوّد السند.

وهذه الرواية يشكل عليها الوجوه التالية:

١ ـ أن الشيخ عبدالرحمن بن حسن قد صرح بعدم علمه بمآل ابن منصور في آخر حياته، فقال: (. . وهذا يبين حال هذا الرجل: أنه لم يعرف

---

(١) من الإنصاف أن يقال إن تحقيق هذه القضية على الأصول العلمية يتطلب الوقوف على مكاتبات ابن منصور للمشايخ، ودفاعه عن نفسه، أو الوقوف على رأي تلاميذه على الأقل، الذين لم يزالوا يثنون عليه حتى بعد وفاته، وذلك ما لا يتيسر في مثل هذه الدراسة.

(٢) في «علماء نجد» (٥/ ٩٨).

«لا إله إلا الله»، ولو عرف معنى «لا إله إلا الله» لعرف أن من شك أو تردد في كفر من أشرك مع الله غيره أنه لم يكفر بالطاغوت، وقد تقدم له من نصرة الشرك وتأييده من نصره ما يدل على أنه لم يتبين له معنى كلمة الإخلاص، وما دلت عليه من التوحيد، وما نفته من الشرك، وهذا ظاهر من قوله، لا يخفى على من له بصيرة في دينه، فظهر من حاله فيما وضعه وكتبه أنه يؤيد الشرك، ويوالي أهله، وينكر التوحيد، ويعادي أهله، **وهذا ما وجدناه في كتبه بخطوطه، والله أعلم بما آل إليه أمره في آخر حياته: هل راجع أم لا؟)**[1].

وقال في موضع آخر يذكر فيه مدح ابن منصور لابن جرجيس: (فأطنب بالثناء عليه بردّه على المسلمين بما كذب فيه وشبّه، وما حل وعاند، فصار هذا عند عثمان هو الحق الذي يُمدح صاحبه ويُمجّد، وشعره هذا لم نجده إلا في كتبه، وقد قدِم على ما قدِم، **فهذا ما ظهر منه في حياته، وأما الخاتمة فعلمها عند الله، نسأل ا الثبات والاستقامة)**[2].

٢ ـ أن الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن لو كان على علمٍ بهذا لصدّر به ردّه عليه: «مصباح الظلام»، ولأخذ الرد طابع النصيحة والتحذير من الكتاب دون التعرض لمؤلفه التائب؛ فالتائب من الذنْب كمن لا ذنب له، ومعلوم أنه لم يكتب ردّه الأليم على ابن منصور، الذي وصفه فيه بالوقاحة ص٩٢، والكذب ص٢٣، والبهتان ص٣٩، والغباوة ص٨٨، والجهل ص٩٩، وأنه نهم في المزاحمة على ما بأيدي رؤساء الدعوة ص٣٩، وأنه ثور المدار ص١٩٥، والثور الأعجم ص١٥٠، وأن الثيران أهدى منه

---

(١) «الدرر السنية»: ٩/ ١٩١.

(٢) المرجع السابق: ٩/١٦٩.

ص١٦٦، وأنه كعنز السوء: يبحث عن حتفه بظلفه ص٢٣٧، وأنه عدو لإمام الدعوة في أول أمره وآخره ص٨٥، لم يكتب هذا إلا بعد عثوره على كتاب «كشف الغمة» بعد وفاة ابن منصور؟!، فهل يُتصور أن الشيخ عبداللطيف يسلك هذا الأسلوب في الرد على من يعلم توبته قبل موته؟!.

٣ ـ أن الشيخ عبداللطيف لا يحتاج أن يروي مثل هذه اطلاقاً عن والده؛ إذ هو معاصر لابن منصور، بل ربما كان أعلم بحاله، وأكثر اهتماماً بقضيته من والده، ولا يبعد أن يكون قد تنبه قبله لحقيقة موقف ابن منصور، ومعلوم من تقريض والده لفتح الحميد أنه لم تنكشف له حقيقة حال ابن منصور إلا بعد عام ١٢٥٢هـ، حيث يكون عمر عبداللطيف إذ ذاك قد بلغ الثلاثين أو جاوزها، فما حاجته للرواية عن والده في توبة رجل بعد هذا التاريخ بنحو ثلاثين عاماً، أفكان ابن منصور يُسِرّ بهذه التوبة إلى الشيخ عبدالرحمن دون غيره!.

٤ ـ أن خلاف ابن منصور مع أتباع الدعوة لم يكن في التوحيد، حتى يقال إنه رجع إليه!، وإنما كان في قضية تكفير خصوم الدعوة، وقتال من صد عنها، واستباحة دمائهم وأموالهم، ورأيه في هذا ـ كما في «مصباح الظلام»[1] ـ أن المستغيثين بأصحاب القبور لا يخرجون من الإسلام إلا إذا اعتقدوا النفع والضر فيهم، وأقروا أن فعلهم هذا مضاد للشهادتين، ثم أصروا بعد ذلك، فعندها يقاتلون، أما القتال على ما هو دون ذلك من الكفر العملي فهو عنده منهج الخوارج، هذا هو ما خالف فيه الإمام وأتباعه وسائر أهل السنة المحضة، ومع انحرافه البين فيه عن جادّة الصواب ومحض السنّة، فإنه لا ينحط إلى مستوى الردّة عن جملة عقيدة

---

(١) ص ٣٩٥.

التوحيد، حتى يقال إنه رجع إليها.

٥ ـ أنه لو صح رجوع ابن منصور وتوبته، فهلا أتلف ما بحوزته من كتب مضادّة، وهلا أعلن براءته منها، ومعلوم أن شيئاً من هذا لم يحدث.

لهذه الوجوه لا يُستبعد أن تكون هذه الرواية في شأن رجوعه قديمة: إبّان تقريظ الشيخ عبدالرحمن لفتح الحميد، وأن الشيخ عبدالرحمن أخبر ابنه عبداللطيف برجوع ابن منصور إثر تأليفه لفتح الحميد؛ إذ كان قبل ذلك مصنَّفا في المناوئين لتلمذته لابن سلوم، وعلى هذا يكون ربْط رجوعه بآخر حياته وهماً.

الفصل السادس
التعريف بالكتاب

توثيق نسبة الكتاب:

لا شك أن للشيخ عثمان بن عبدالعزيز بن منصور شرحاً على كتاب التوحيد؛ يدل على ذلك ما يلي:

١ـ إشارة الشيخ عبدالرحمن بن حسن إلى شرح ابن منصور لكتاب التوحيد في إحدى رسائله إليه[١].

٢ـ نسبة الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن هذا الشرح إليه في عدة مواضع ناقداً موضعاً منه في أحدها[٢].

٣ـ إشارة ابن منصور إلى شرحه هذا في كتابه «منهج المعارج إلى أخبار الخوارج»، عدة مرات، منها قوله عند ذكر ضرب عمرَ بنِ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ صبيغا بنَ عِسلٍ التميمي: (.. كما ذكرنا قصته في **شرح التوحيد** مستقصاة)[٣].

ومنها قوله عند ذكره لأحاديث الرجاء والشفاعة لأمة محمد ـ ﷺ ـ: (وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في «فتح الحميد» لمن أراده)[٤].

---

(١) انظر الدرر السنية ٩/ ٢٣٠.

(٢) انظر الدرر السنية ٩/ ٣٣٢، ٣٣٣، والموضع المنتقد في ص ١٦٦ من «فتح الحميد». وانظر أيضا «مصباح الظلام» ص ٣١٩، حيث أشار إلى هذا الشرح.

(٣) «منهج المعارج»: ص (٦/ أ)، مخطوط، وانظر استقصاءه لقصة صبيغ في «فتح الحميد»: ص ١١٥.

(٤) «منهج المعارج»: (٨/ أ).

وقوله بعد هذا الموضع بقليل: (ومن أراد البسط في هذه المعاني عن العلماء ـ رحمهم الله ـ . . بكتابنا «فتح الحميد في شرح التوحيد» يجده موضحاً)[١]، يعني تقرير أن الكفر العملي لا يخرج من الملة، كالكبائر[٢].

وهكذا في مواطن أخرى من هذا الكتاب[٣].

٤ـ ذكر شرح ابن منصور لكتاب التوحيد: الشيخ إبراهيم بن عيسى[٤]، حيث يقول: (وقفت على شرح التوحيد لعثمان بن منصور في المجمعة عند الأخ عثمان بن أحمد في مجلد كبير، سمّاه: «فتح الحميد»)[٥].

أما كون المخطوط الذي بين أيدينا هو قطعاً «فتح الحميد» فيدل عليه ما يلي:

١ـ إجماع النسخ الثلاث للكتاب على نسبته إليه، في أول المخطوط وآخره، كما يظهر من النماذج المرفقة.

٢ـ أن إحدى هذه النسخ بخط ابن منصور المعروف، والثانية بعضها بخطه وبعضها بخط تلميذه ابن عمير، والثالثة بخط تلميذه ابن نصر الله.

٣ـ أن على بعض أوراق هذه النسخ تعليقات مختومة بعبارة: «قاله مؤلفه عثمان بن منصور ـ عفا الله عنه ـ».

٤ـ أن مؤلّفه ذكر في أوّله وأثنائه بعض شيوخه، كمحمد بن سلوم،

---

(١) «منهج المعارج»: (٨/ ب)، ومكان النقط كلمة مطموسة بمعنى: «فليراجع».

(٢) انظر «فتح الحميد»: ص ١١٥٩، ١٣٢١ وما بعدها.

(٣) انظر «منهج المعارج»: (١٩/ أ)، (٢١/ ب).

(٤) هو إبراهيم بن صالح بن إبراهيم بن عيسى، (١٢٧٠ـ ١٣٤٣هـ)، صاحب ذيل تاريخ ابن بشر المسمى «عقد الدرر».

(٥) نقلا عن «علماء نجد» للبسام ٥/ ٩٢.

وعبدالعزيز الحصين، وهم شيوخ معروفون لابن منصور.

عنوان الكتاب

«فتح الحميد في شرح التوحيد» هو العنوان الذي نص عليه المؤلف في أول الكتاب بقوله: (.. وقد سمّيته: «فتح الحميد في شرح التوحيد»)[1].

وهكذا أُثبت عنوان الكتاب في جميع نسخه الخطية دون اختلاف، وهكذا هو عند من ذكر اسمه ممن أشار إليه ممن تقدم ذكرهم.

تاريخ التأليف

اشتغل ابن منصور بتأليف هذا الشرح قبل الخامس من شعبان، سنة ١٢٥١هـ[2]، ولعله استغرق زمناً غير قصير في ذلك؛ إذ هو شرح مطوّل، وقد قدّرنا ولادته في أول القرن الثالث عشر كما سبق، فيكون قد ألّفه في العقد الخامس من عمره تقريباً، أي ما بين ١٢٤٠ـ ١٢٥٠هـ، ولا يبعد أن يكون ألف مسوّدته قبل ذلك، أو أنه على الأقل بدأ بجمع مادته العلمية؛ فإنه يرجع فيه إلى مصنفات ربما يُستبعد وجودها في «نجد» آنذاك، وقد يتأيد هذا بأن عامة الإلحاقات والإضافات الطارئة على الكتاب في مبيّضتيه مقتصرة على الأحاديث والآثار، دون النقول عن المصنفات الأخرى، التي كثر النقل عنها في المسودة، ولا يشكل على هذا كونه آنذاك في أحضان خصوم الدعوة؛ فها هو قد أنشأ «الرد الدامغ» في تلك الفترة، وهو لا يقل عن «فتح الحميد» في الدفاع عن الإمام المجدد ودعوته، كما إن منهجية ابن منصور المتسعة لتنقيح وتبييض كتابي «منهج المعارج» و«فتح الحميد» في

---

(١) ص ٣٧.

(٢) انظر ص ٢١٣٠.

فترة واحدة تقريباً، مع ما بينهما من التناقض، لا يبعد عليها ابتداء تصنيف «فتح الحميد» في أكناف خصوم الدعوة.

سبب التأليف

ذكر الشيخ عبدالله البسام أنه بلغه أن ابن منصور ألف هذا الشرح بإشارة من الأمير فيصل بن تركي[1]، وبذلك جزم الدكتور عبدالرحمن العثيمين![2]، وهذا يستبعد لثلاثة أمور:

الأول ـ أن فيصلاً إنما تولى سنة ١٢٥٠هـ، بعد قضائه على مشاري بن عبدالرحمن، قاتل أبيه تركي بن عبدالله[3]، ولا يتصور أن يؤلف ابن منصور شرحاً بهذه السعة في هذه المدة، كما يستبعد أن يكون فيصل قد كلفه بذلك في حياة أبيه.

الثاني ـ أنّ الأمير فيصلاً لو كان فاعلاً ما كان ليؤثر أحداً على العلامة عبدالرحمن بن حسن، أو ابنه الشيخ عبداللطيف؛ فهما أعلم وأقدر وأولى، والمتن لجدهما، والشيخ عبدالرحمن تلميذ له، أو على الأقل ما كان ليكلف غيرهما دون استشارتهما، ومعلوم ارتيابهما المبكر من موقف ابن منصور من الدعوة، وأن الشيخ عبدالرحمن قد رفع أمره إلى الأمير بسبب كتاباته عن الخوارج[4]، وغاية الأمير نحو ذلك أن يتثبت في شأن ابن منصور، لا أن يشرفه بهذه المهمة، إلا أن يقال: إن الأمير أراد أن يكون

---

(١) انظر «علماء نجد» ٥/ ٩١.

(٢) في تعليقه على «السحب الوابلة» ٢/ ٧٠٤، ولعله استند في ذلك إلى البلاغ الذي ذكره الشيخ البسام.

(٣) انظر «عنوان المجد» ٢/ ١٢٤.

(٤) كما في «الدرر السنية» ٩/ ٢٠٠.

شرح ابن منصور لكتاب التوحيد برهاناً لبراءته مما يحوم حوله من شبهات، لكن هذا أيضاً بعيد لما ذُكر أولاً، ولما يأتي في الأمر الثالث.

الثالث ـ أن ابن منصور ما كان ليفوّت ذكر هذا لو كان واقعاً، بل كان يزيّن به مقدمته، ويحبّره فيها تحبيراً؛ لحاجته الماسّة إلى هذه التزكية الغالية، والشهادة الثمينة من الأمير بصفاء عقيدته، وأهليته لشرح متن يعد كتاب الدعوة الأوّل.

على أن الذي ذكره ابن منصور نفسه في سبب تأليفه هذا الشرح هو قوله في آخره: (. . ليس لنا في موضع ذلك من غرض في عيب أو سباب، وإنما الغرض هنا الذب عن دين رب الأرباب، أوجب لنا ولمن قبلنا من علماء الملة الإسلامية كصاحب هذا الكتاب التكلم في هذا الباب؛ نصيحة لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم)[1].

كما قال في أوله: (فشرعت في هذا الشرح؛ لكثرة القراءة في متنه والمطالعة، وليكون لي أنيساً في الدنيا وذخراً في أحوال القيامة الهائلة الرائعة)[2].

أما الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن فقد طعن في نية ابن منصور في تأليف هذا الشرح، وقال في ذلك: (قد علم أن هذا المعترض ـ يعني ابن منصور ـ قد شرح كتاب التوحيد الذي قد صنفه الشيخ محمد ـ رحمه الله ـ، وتزين عند أهل الإسلام بشرح كتابه، وانتسابه إليه، والشهادة له بأنه على الحق، وأطنب في مدحه والثناء عليه في شرحه المذكور على مصنف شيخنا ـ قدس الله روحه ـ، فلما فاته بعض مقصوده من الدنيا التي إليها يسعى،

---

(١) ص ٢١٣٠.
(٢) ص ٥.

ولها يعمل، رجع القهقرى، وانقلب على عقبه؛ لأنه لوح له بعض أعداء التوحيد بما إليه يسعى، فولى مدبراً)[1].

وهذا من الشيخ عبداللطيف مبني على استيقانه من تصنيف ابن منصور لكتاب «كشف الغمة»، وتزكيته لمنهج ابن جرجيس؛ إذ لا يُتصور عند الشيخ عبداللطيف فيمن كان مخلصاً في تصنيف «فتح الحميد»، المشحون بدلائل التوحيد، أن ينتكس إلى مثل هذه الضلالات، والله أعلم.

موضوع الكتاب

الكتاب كما هو واضح من عنوانه شرح لـ«كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» لمؤلفه شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب عليه رحمة الله، وقد رتّب ابن منصور شرحه على حسب تبويب كتاب التوحيد.

ـ فقد صدر الكتاب بشرح أدلة المصنف على أن التوحيد أول واجب على المكلف، وما للتوحيد من الفضل من تكفيره للذنوب، ونجاة صاحبه من الخلود في النار، ثم زاد بيان ذلك ببيان ضده وهو الشرك؛ فبضدها تتبين الأشياء.

ـ ثم انتقل المصنف وتبعه الشارح بعد بيان التوحيد إلى بيان أهمية الدعوة إليه المشروطة بأن تكون على بصيرة، وذلك تحت باب: «الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله»، وباب: «تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله».

ـ ثم انتقل إلى الأبواب المفصِّلة لمعنى التوحيد، والتحذير مما وقع فيه الناس من أنواع الشرك الأكبر والأصغر، فشرح الأبواب التي فيهاالتحذير

---

(١) «مصباح الظلام» ص ٣١٩.

من التعلق بغير الله ظانًا فيه النفع والضر، كلبس الحلق والخيوط والحروز لرفع البلاء، أو دفعه، والتعلق بالرقى والتمائم، والتبرك بالأشجار والأحجار، والذبح والنذر والاستعاذة، والاستغاثة بغير الله.

ـ ثم انتقل إلى بيان ما أورده المصنف من الآيات والأحاديث في الرد على من أجاز التعلق بالخلق، وأنهم ينفعون ويضرون، تحت الأبواب المتضمنة لذلك.

ـ ثم انتقل إلى شرح الأبواب المتعلقة بالغلو في الصالحين بأصنافهم المختلفة.

ـ ثم انتقل إلى شرح الأبواب التي عقدها المصنف لمعالجة الواقع الذي كان يعيشه كثير من الناس، من الذهاب إلى السحرة، وبيان شيء من أنواع السحر، والتحذير من الكهان، أو تصديقهم، وحكم النُشرة وهي حلّ السحر عن المسحور، والتحذير من المنجمين، وحكم الاستسقاء بالأنواء، والتطير.

ـ وما بقي من أبواب الكتاب جعلها المصنف في بيان تعظيم الله أو التحذير من الاعتقاد في بعض الخلق ما يُعتقد في الله، أو النهي عن أمور تنافي التوحيد أو كماله.

وقد تبع المؤلف المصنف فشرح هذه الأبواب وبين المقصود منها، وحذر من الوقوع في تلك المخالفات الشركية، مدعمًا قوله بالآيات، والأحاديث، والآثار، وكلام العلماء، والشعر.

منهج التأليف

سلك ابن منصور في شرحه لمتن كتاب التوحيد طريقة الشرح اللفظي، متخذاً ألفاظ المتن مفاتيح للدخول فيما له تعلق من أبواب العلم، مع

محاولة الإبقاء على الموضوع الأصلي للكتاب: العقيدة، فهو يأخذ ألفاظ المتن لفظاً لفظاً، مبتدئاً بالبسملة، بل ربما توسع في التعليق على بعض حروف المعاني، كما فعل مع حرف الباء الذي في أول البسملة، فيورد خلاصة ما ذكره علماء اللغة والنحو والأصول، وغيرهم ممن لعلومهم مجال فيما يشرح، وسمته العامة في ذلك: استقصاء الجمع، والإسهاب والاستيعاب، وهي السمة الغالبة على كتابات ابن منصور، فقد جرى عليها في ثاني أهم كتبه: «منهج المعارج»، وظهر تميزه فيها دون شك، فهو بحق قوي الاستقصاء للمادة العلمية، واسع الجمع، غزير المعلومات، تزدحم لديه النصوص والنقول حتى يكاد يعيا بسبكها في الكتاب، فربما حشرها تحت لفظة أو بعض لفظة من المتن، ثم اعتذر عن الاقتصار بخشية الإطالة!.

وظاهر من غزارة مادة «فتح الحميد» أن مؤلفه قد حشد له نفسه، واعتنى به غاية الاعتناء، وواظب على تنقيحه واستكماله، وكأنما أراد منه أن يكون شاهداً على مكانة مؤلفه من العلم والسنة، ودافعاً لما قد يتهم به من خلاف ذلك.

وهو عند شرح كل باب يعتني ببيان مناسبته لموضوع الكتاب، ولما قبله من الأبواب، ثم يأخذ في بيان الترجمة ـ العنوان ـ والنصوص الواردة فيه بإسهاب.

وبما أن المتن المشروح عماده الآيات والأحاديث، فقد عاد «فتح الحميد» أشبه بكتاب تفسير موسع عند شرح الآيات، وعند شرح الأحاديث يأخذ نفس شراح الصحاح والسنن، ولا عجب؛ فهذه مصادره، ولا يكاد يدع فيها فائدة إلا يوردها، ببسط أو إيجاز.

ثم يعتني أثناء ذلك ببحث المسائل العقدية المتعلقة بنصوص الباب،

بما في ذلك المسائل المذكورة في آخر الباب، إلا أنه لا يلتزم الإشارة إليها.

وهو في ذلك كله يعتني بالنواحي اللغوية والنحوية غاية الاعتناء، فيورد الشواهد وأقوال العلماء، وربما استطرد فشرح شاهدا، أو مثلاً من الأمثال، أو ذكر خلاف البصريين مع الكوفيين، كما فعل عند ذكر اشتقاق الاسم[1].

ومما يدل على عنايته الفائقة بالنواحي اللغوية أنه استشهد بأكثر من خمسمائة بيت، وهو كم كبير بالنظر إلى موضوع الكتاب.

ثم هو حريص غاية الحرص على إيراد خلاصة أقوال المحققين من أهل العلم، فلا يكاد يقع على كلام لأحدهم في مسألة تعرض له إلا ويثبته، مع عناية بينة بتنويع موارده في ذلك، وعدم الوقوف عند شخصيات محددة، ومن أبرز من أكثر النقل عنهم: الخطابي، ابن عبدالبر، ابن عقيل، السهيلي، ابن العربي، القرطبي، النووي، ابن قدامة، ابن تيمية، ابن القيم، ابن كثير، ابن مفلح، ابن رجب، ابن حجر.

وقد يتوسع في بعض المسائل الكلامية؛ ليبين وجه مخالفتها لمذهب السلف، كمسألة الاسم والمسمى[2]، أو الفلسفية، كماهيّة الروح، والفرق بينها وبين النفس[3].

أما إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بكل مسألة فهو الذي أثرى الكتاب وجعله أوسع الشروح؛ إذ لم يأل جهداً أن يستوعب فيه ما حوته كتب السنة،

---

(١) انظر: ص ٣٩.
(٢) انظر: ص ٤٠ وما بعدها.
(٣) انظر: ص ٢٥٢ وما بعدها.

وأن يجمع فيه مبلغ طاقته وعلمه عند كل مناسبة ما هو صالح للاحتجاج أو للاستئناس، مع عناية بينة بنقد المرويات المرفوعة، وبيان درجتها من الصحة.

والحق أنه قد تميز في هذا الجانب عن غيره من شراح «كتاب التوحيد»، بما عساه أن يكون شافعاً له فيما أخذ عليه في هذا الكتاب مما يتعلق بالمنهج كما يأتي، كما أبان فيه عن استقراء قريب من التمام لدواوين السنة، يغبط عليه.

موارده

ظاهر أنه قد تيسر للمؤلف مكتبة ضخمة، جعلت المصادر والمراجع الأساسية لمختلف العلوم في متناول يده، وهو أمر نادر ـ بل مستغرب ـ في موطن المؤلف بالنسبة لعصره؛ فلعل ذلك يرجع إلى طول إقامته في العراق كما سبق ذكره في سيرته، وتكون هذه إذاً إشارة مهمة إلى بكور تصنيف هذا الشرح، وأن المؤلف قد ابتدأ فيه ـ أو في جمع مادته على الأقل ـ منذ إقامته في «الزبير»، وهو متسق تماماً مع تصنيفه «الرد الدامغ» آنذاك، ومهما يكن من أمر، فقد أجاد المؤلف الاستفادة من مكتبته، واستثمرها أيما استثمار، فظفر بثمرة يانعة ضخمة ليس لها نظير، وإن كان لا يخفى أن الوصول إلى كثير من هذه المصادر إنما كان بواسطة الشروح المطولة، كفتح الباري وغيره، وسأنبه فيما يلي إلى المصنفات التي أكثر المؤلف من النقل عنها سوى كتب السنة المشهورة، مع أنه في كثير من الأحيان لا يلتزم بالإشارة إليها:

ـ «غريب الحديث» و«الأمثال» لأبي عبيد، (ت٢٢٤هـ).

ـ «كتاب الزهرة»، لابن داود الأصبهاني (ت٢٩٧هـ).

- كتب ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، ولا سيما التفسير والتاريخ.
- «غريب الحديث» للخطابي (ت٣٨٨هـ).
- «الفنون» لابن عقيل (ت٥١٢هـ).
- تفسير البغوي (ت٥١٦هـ).
- «الكشاف» للزمخشري، (ت٥٣٨هـ).
- كتب القاضي أبي بكر ابن العربي (ت٥٤٣هـ).
- شروح صحيح مسلم، للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)، ولأبي العباس القرطبي (ت٦٥٦هـ)، وللنووي (ت٦٧٦هـ).
- «الروض الأنف» للسهيلي (ت٥٨١هـ).
- كتب ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، ولا سيما: «تلبيس إبليس»، و«زاد المسير»، و«الموضوعات»، و«ذم الهوى».
- «النهاية في غريب الحديث والأثر» و«جامع الأصول»، لأبي السعادات، ابن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ).
- تفسير القرطبي (ت٦٧١هـ).
- كتب شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ)، ولا سيما: «المسودة»، و«اقتضاء الصراط المستقيم»، و«الإيمان»، و«الاستغاثة».
- كتب ابن الفركاح الفزاري (ت٧٢٩هـ).
- كتب العلامة ابن القيم (ت٧٥١هـ)، ولا سيما: «بدائع الفوائد»، و«مدارج السالكين»، و«زاد المعاد»، و«إغاثة اللهفان»، و«الطرق الحكمية»، والنونية.
- «الفروع» لابن مفلح (ت٧٦٣هـ).

- تفسير ابن كثير (ت٧٧٤هـ).

- «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ت٧٩٥هـ).

- «مجمع الزوائد»، لنور الدين الهيثمي (ت٨٠٧هـ).

- «فتح الباري» لابن حجر (ت٨٥٢هـ).

- «فيض القدير» للمناوي (ت١٠٣١هـ).

مكانة «فتح الحميد» بين شروح التوحيد

«فتح الحميد» من أوائل الشروح على كتاب التوحيد، لم يسبقه تقريباً سوى «تيسير العزيز الحميد» لسليمان بن عبدالله، و«تحقيق التجريد» للعجيلي، وقد صرح ابن منصور بأنه لم يقف على الأول منهما، ووقوفه على الثاني أبعد، لكنه سبق الشروح جميعها في السعة وغزارة المادة، ولا سيما استيعاب الآثار وأقوال العلماء، فهو بحق بين شروح التوحيد أمة وحده، ومع ذلك لا يظهر له إطلاقاً أي أثر في من بعده، مع أن غالب الشروح لا تعدو أن تكون اختصاراً للشرح الأول، فما الذي حال بينها وبين الانتفاع بهذا الشرح النفيس!؟، لا شيء سوى ذلك الحصر الذي فُرض على كتابات ابن منصور، وسائر ما يمت له بصلة؛ بسبب موقفه المشبوه أول الأمر، ثم الصريح، من الدعوة وأتباعها، فظل الكتاب قابعا عند مصنفه وبعض محبيه، وربما سرى لدى بعض العلماء وطلاب العلم، ونرى أن هذا الموقف لم يكن إيجابيا؛ فقد حوى الكتاب علوما ومعارف كان من التفريط حجبُها عن دارسي كتاب التوحيد وشارحيه، ولعلها لو أُتيحت لأسهمت في رفع مستوى الثقافة الشرعية في بلاد تندر فيها المكتبات في ذلك العصر.

ولا تنهض المآخذ الواردة على «فتح الحميد» لتبرير إهماله؛ فهي نادرة ومحتملة، ولا يكاد يسلم منها كتاب، كما أن موقف الشارح المضطرب من

صاحب المتن ودعوته لا يدعو إلى تجاهل شرحه، بل كان الأولى إبرازه وجعله شاهداً على بطلان التوجّه السلبي لصاحبه، وشاهداً على حرص أتباع الدعوة على الأخذ بالحكمة أينما وُجدت، وقدرتهم على التمييز بين ما يحسن أخذه، وما يجب تركه، كما هي السنة مع مختصر ابن سلوم لشرح السفارينية، وقد طبع قديماً، مع أن عداوته أشد وأظهر، وابن منصور ـ إن رُجّحت عداوته ـ لا يعدو كونه تلميذاً له فيها.

تقييم العلماء لفتح الحميد

أعز تقريظ وثناء على «فتح الحميد» هو ما خطه الشيخ عبدالرحمن بن حسن بيده على إحدى نسخه، قال فيه: (نظرت في هذا الشرح، فرأيته شرحاً حسناً، قد أجاد فيه مؤلفه وأفاد، كان الله في عونه، ولكنه ذكر فيه شيخَه محمد بن سلوم، وحالُه في الاعتقاد معلوم، فلو أعرض عن ذكره رأساً لحسن هذا الشرح عندنا، وفاق عند أمثالنا، قاله كاتبه عبدالرحمن بن حسن، عفا الله عنه).

وظاهر من قوله (نظرت في هذا الشرح) أنه لم يقرأ جميعه، بل ولا أكثره، وأنه اطلع على أوله، وربما تصفّحه وقرأ مواضع منه، فلا تعجب إذا رأيته يرجع عن هذا الثناء، فيقول في رسالة بعثها إلى ابن منصور: (إذا فتّشنا عن كلامك في شرحك وغيره وجدنا معتقدك في توحيد الإلهية معتقد عبدالله المويس: حظه منها اللفظ مع إنكار المعنى، وتضليل من عمل بمعناها وقام بمقتضاها)[1].

وهذا التقريظ يدل على أن الخصومة مع ابن منصور إنما استطارت

---

(١) الدرر السنية: ٩/ ٢٣٠. وعبدالله المويس من خصوم الدعوة، لم أهتد إلى ترجمته.

بعد عام ١٢٥٢هـ، تاريخ النسخة الأولى التي كتب عليها التقريض، فيكون حال ابن منصور قبل ذلك خافياً على الشيخ وابنه عبداللطيف؛ إذ لا حامل له على هذا التقريض وهو في ريبة منه، وإن كانت عبارته فيه لا تخلو من الإيحاء بعدم الرضا.

وذكر ابن سلوم المنتقد على المؤلف في هذا التقريض هو إشارته إليه ـ على استحياء ـ في قوله: (وكذا اتصل لنا مسند الإمداد. . . من جهة مشايخ جمة، منهم: محمد بن سلوم عن شيخه. .)[1]، لا غير، ولم يقل: شيخنا، أو حتى: الشيخ، مع أنه أسبغ الألقاب على مشايخه قبله وبعده، ومنهم المقرض نفسه، حيث قال قبيل ابن سلوم: (وقد اتصل سندنا بالإجازة إلى ما في المسند المسمى بالإمداد. . . من طريق شيخنا الأوحد، والإمام المفرد، الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، حفيد مصنف هذا الكتاب، متع الله بحياته، وبارك له في جميع أوقاته).

وقد كان غير ابن سلوم من أئمة الأشاعرة الذين اعتد المؤلف بكلامهم كالجويني والغزالي وابن العربي أولى أن يعاب الكتاب به من هذا الذكر العارض لابن سلوم، وهي إشارة أخرى إلى أن الشيخ عبدالرحمن لم يقرأ الكتاب.

أماالشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن فيقول في رسالة بعث بها إلى من يشك في عداوة ابن منصور للدعوة: (. . حتى كتابه الذي يزعم أنه شرح على التوحيد، رأيت فيه من الدواهي والمنكرات ما لا يحصيه إلا الله، من ذلك: قوله في الكلام على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا

(١) «فتح الحميد»: ص ١٩.

لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾: إن ابن العربي المالكي قال: العبادة هي موافقة القضاء والقدر، وابن عباس يقول: كفرالكافر تسبيح، هذا رأيته بخط ابن نصرالله من أهل بلده، في كلامه على كتاب التوحيد، ولهذا نظائر وأخوات لا يعرفها إلا من وقف على كلامه من طلبة العلم)[1].

ومع الاتفاق مع الشيخ عبداللطيف على إنكار هذه الداهية التي أشار إليها، بل وإنكار اعتداد المؤلف في مجال العقائد بكلام القاضي ابن العربي وأضرابه من المتكلمين أو المتأثرين بهم، إلا أنا لا ينبغي أن يتجاوز بنا الحد إلى اعتبار الدواهي والمنكرات في «فتح الحميد» لا يحصيها إلا الله!، وقد حملتنا هذه العبارة ـ وكنا قرأناها قبل قراءة «فتح الحميد» والبدء بتحقيقه ـ على مضاعفة الفحص والتدقيق، والبحث والتنقيب أثناء التحقيق، عما يمكن أن يستحق هذا الوصف أو يقاربه من أخطاء الكتاب، فلم نظفر بشيء سوى ما ذكرنا هنا، إلا أخطاء معتادة لا يخلو منها كتاب بهذا الحجم، وأكثرها مما هو مجال للاجتهاد.

ثم حتى هذا الذي شُنع به على المؤلف من تفسير العبادة في آية الذاريات بالعبادة الكونية القدرية، لا يعد منكراً من القول إذا صين من معتقد وحدة الوجود، بل هو القول الذي اختاره إمام المفسرين ابن جرير الطبري، واحتج عليه في تفسيره بما رواه عن ابن عباس أنه قال: (قوله ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]: إلا ليقروا بالعبودة طوعاً وكرهاً).

---

(١) الدرر السنية: ٩/ ٣٣٣، وانظر كلام ابن العربي في «فتح الحميد»: ص ١٥٨ وفي هامش الورقة رد مختصر عليه لا يستبعد أن يكون للشيخ عبداللطيف.

ثم قال ابن جرير: (فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟. قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم، لا يقدرون من الامتناع منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمر به، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه)[1].

هذا، وممن أشاد بالكتاب وأطراه، تلميذه، المؤلف المؤرخ ابن بشر، فبخطه على ديباجة المسودة كتب: (ليعلم الواقف على هذا الكتاب الجليل، والشرح الذي ليس له مثيل، للشيخ. . .).

المآخذ على الكتاب

لا يسلم كتاب غير كتاب الله المجيد من قصور ما، ولا يبلغ منزلة يُعصم فيها من النقد، أو يتعالى صاحبه فيه عن المناقشة والمساءلة، ولا غضاضة عليه البتة في ذلك، بل هو سبيل استكماله وتحقيق مقاصده العلمية على التمام.

ولقد أُخذ على «فتح الحميد» مآخذُ عدة، في منهج الكتاب ومصادره ومادته وأسلوب صياغته، ننبه فيما يلي على ما كان منها سبيله الإجمال، وما كان سبيله التفصيل نُرجئه لموضعه من حواشي الكتاب.

ففي المنهج يؤخذ عليه التزام طريقة التحليل المسهب لألفاظ الكتاب ومفرداته، فقد أدى به إلى كثرة الاستطرادات في غير مسائل العقيدة، من اللغويات والأدبيات والتراجم والتواريخ وغيرها، وهذا الضرب من الاستطراد إنما يسوغ في إحدى حالين: الأولى أن يكون له تعلق ولو من بعيد بشيء من مسائل العلم الذي ألف فيه المتن المشروح، بحيث يترتب عليه

---

(١) تفسير الطبري: ٢٧/ ١٢.

الاستدلال والبيان والترجيح، كمسألة الحقيقة والمجاز في اللغة مثلاً، وتعلقها بموضوع الصفات الإلهية، الحال الثانية أن يكشف الاستطراد خطأ علميا شائعا عرض للمؤلف لمناسبة ما، ربما لا تعود، فينبه عليه، وهذا إنما يحسن ممن يكتبون بنفس التحقيق، لا الجمع.

وقد يُعتذر للمؤلف بأن هذه هي السمة العامة للتأليف في العصور المتأخرة[1]، إلا أن هذا العذر سيكون أقرب للقبول لو كان موضوع الكتاب فنًّا آخر سوى العقيدة؛ فإن التصنيف فيها يتطلب مزيداً من الدقة والتحرير؛ لما يترتب على الخطأ في مسائلها من الانحراف والضلال.

ومن أمثلة استطراداته من هذا النوع ما ذكره عن البدل، فقد أطال فيه حتى عاد الكتاب أشبه بكتاب نحو[2].

كما يؤخذ عليه في منهجه كثرة التصرف في عبارات العلماء المنقولة دون تنبيه، وقد أدى به ذلك إلى قلب المراد من الكلام أو تغييره أكثر من مرة، كما فعل مع كلام ابن القيم في الاسم والمسمى[3]، وربما تمادى في التصرف حتى طال النظم!، كما فعل ببيت أبي النجم:

عشِّي **تميم** واصغُري فيمن صغَر ولا تريدي الحرب واجتزّي الوبر

فاستبدل [فعيل] بـ[تميم]، فقال: عشِّي فعيل..؛ إذ هو تميمي[4]،

---

(١) هذه السمة من دواعي تسميتها بعصور الانحطاط.

(٢) انظر ص ٥٣ وما بعدها.

(٣) انظر ص ٤٢ وقريب من هذا خلطه أقوال العلماء على حديثين مختلفين مما يوهم اختلافهم في معنى أحدهما، كما في حديث «قلدوا الخيل، ولا تقلدوها الأوتار»، ص ٥٠٦ وما بعدها.

(٤) انظر ص ٣٠٦.

وفعَل نحو هذا في نظم الصرصري الذي أورده آخر الكتاب؛ إذ اشتمل على لون من التوسل البدعي.

ومثل هذه التصويبات جادّتُها التعليق والاستدراك على النصوص المنتقدة، أو الإعراض عنها وعدم إيرادها أصلاً، لا تبديلها والتصرف فيها على هذا النحو.

أما في المصادر فيؤخذ عليه الاعتماد أحياناً على بعض المصنفات المنتقدة عقديا، والاعتداد بكلام مؤلفيها من أهل البدع والمتأثرين بهم، دون تمييز وتمحيص، كالذي نقله في بيان مصطلح «التوحيد» عن «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، الفيلسوف الصوفي الأشعري![١]، أو كالذي أطال بنقله عن القاضي أبي بكر بن العربي المالكي الأشعري في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[٢].

أما في المادة فيؤخذ عليه الإكثار من إيراد الآثار الضعيفة، وإن كان ينبه على ضعفها أحياناً، لكن أحياناً لا ينبه، كحديث: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[٣]، وربما أورد ما لا أصل له جازماً برفعه إلى النبي ـ ﷺ ـ، كحديث: «ما ساد بخيل قط»، كرره في موضعين جازماً برفعه[٤]، وقد كان له سعة في أن يورد مثل هذا بصيغة التمريض.

ويؤخذ عليه أيضاً الوهم عدة مرات في كتابة بعض الآيات، فيخلطها

---

(١) انظر ص ٨٩.
(٢) انظر ص ١٦١.
(٣) انظر ص ٣٩٣.
(٤) انظر ص ٢٠١، ٢١٢.

بغيرها من شبيهاتها، ومرد هذا فيما يبدو أنه يكتبهامن حفظه[1].

كما وقع منه أوهام في عزو بعض الأحاديث، كحديث «اللهم أصلح لي دنياي التي فيها معاشي . . »، عزاه إلى السنن، وإنما هو في صحيح مسلم[2]، وكحديث «رغم أنف رجل أدرك أبويه . . » إلخ، أطلق عزوه إلى البخاري، فأوهم أنه في الصحيح، وإنما هو في الأدب المفرد، وقد كان عزوه إلى مسلم أولى؛ حيث خرجه في صحيحه[3].

وربما أورد أثراً، ثم قال: «وفي لفظ»، ثم أورد بقية الأثر من نفس المصدر، مع كونه أثراً واحداً![4].

وأما في الأسلوب فيقع فيه أحياناً بعض التراكيب الركيكة، غير المستقيمة لغةً، كتعديته الفعل «دل، يدل، دلالة» بنفسه إلى مفعول واحد، دون استعمال حرف الجر «على»، نحو: وهذا يدل كذا، وفيه الدلالة أن كذا[5]، في حين يعدي بحرف الجر فعلا يتعدى بنفسه، كما في قوله: «والفقير غير داخل في مسمى المسكين إلا أن يريدوا باستعماله **لمسمى** واحد»[6]. والصواب: إلا أن يريدوا باستعماله مسمىً واحداً.

وقريب من هذا قوله: « . . لم يعتذرهم إلا بعدم الوجود بشيء يقربه لصنمهم»[7]، والصواب أن يقال: . . لم يعتذر لهم إلا بعدم وجود شيء

---

(١) انظر مثلا ص ١٧٤، ٣٦٦، ٣٦٩، ٤٢٣، ٤٣٩، ٤٨٢.

(٢) انظر ص ١٧١.

(٣) انظر ص ٢٠٨، وانظر أمثلة أخرى في ص ٢٦٨، ٢٩٢.

(٤) انظر أثر ابن عباس في ص ٢١٨.

(٥) انظر ص ١٧٦، ٤٥٣.

(٦) انظر ص ١٩٥، وانظر مثلها ص ١١١٢.

(٧) انظر ص ٦٠٥.

يقربه لصنمهم.

ومن أمثلة ذلك استعماله مصدر الفعل اللازم «قام» موضع مصدر المتعدي «أقام»، في قوله: «أرشد ـ سبحانه ـ إلى الدواء **قياماً** للحجة علينا»[1]، يريد: إقامةً للحجة..

ومن ذلك استعماله الفعل «غاط» موضع «تغوّط»[2]، و«تترى» حالاً للمفرد، مع أنها اسم جمع[3].

ومن ذلك استعماله الفعل «يعاونه» في حق الرب ـ جل وعلا ـ بدل يعينه[4].

كما لم يخل الكتاب من الأخطاء النحوية الجلية[5].

وأحياناً تستغلق عبارته بسبب الركاكة، مع كون المراد سهلاً واضحاً، كقوله في شرح عبارة: «فأخبر بها معاذ عند موته تأثما»، الوارد على لسان الراوي في حديث «أتدري ما حق العباد على الله..»، قال المؤلف في شرحها: فأخبر بذلك عند خروجه من الدنيا.. لما أمن المفسدة بإخباره بقول رسول الله ـ ﷺ ـ بأن الذي منعه عن إخبار الناس مخافة الاتكال، فصار هذا الكلام مقروناً به عن المحذور، فحدث به[6].

وكقوله في بيان فضل العلم وشؤم الجهل: «.. فإنه إذا زال العلم

---

(١) انظر ص ١٩١.
(٢) انظر ص ٢٥٨.
(٣) انظر ص ٤٤١.
(٤) انظر ص ٦٦٥.
(٥) انظر مثلا ص ٤٣٧، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦٦.
(٦) انظر ص ٢٢٩ وانظر مثالا آخر في أول ص ٢٧٧.

استوى عند صاحب ذلك الحق والباطل، والضار والنافع. .»، فقوله «صاحب ذلك» يعني به من زال عنه العلم ليس إلا[1].

وكقوله في التعليق على قول القائل «أعذني يا رب»: «وصدور صيغة الأمر بنا ـ كذا كتبت ويبدو أن صوابها: منا ـ وهو الامتثال بالأمر إرشاداً منه ـ سبحانه ـ بالالتجاء إليه. .»[2].

ومن أمثلة التكلف في عباراته قوله تعليقاً على قول إبليس عن آدم ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾: «فخرج من خضوع العبد إلى كبرياء الباري، بالمحاورة إلى خصمه بالجدال، فزالت المسامحة بحد العداوة، وانقلبت معاتبة الود إلى التقنط من العود بالرحمة»[3].

ومما لا يكاد يغتفر للمؤلف في صياغته تذييله على ما ينقله من عبارات العلماء بما يوهم أنه من تتمة كلامهم، دون إشعار للقارىء بذلك، وبمراجعة المصادر التي نقل عنها يتبين تركيبه لعباراته على عبارات غيره بصورة توهم أن العبارة ما زالت للقائل الأول، وغالباً ما يكون هذا في صورة التعليل لأقوالهم، أو العطف عليها، فإذا اجتمع هذا إلى كون المؤلف يتصرف في العبارات المنقولة غالباً دون إشارة، تضاعف بذلك الإيهام.

ومن أمثلة ذلك قوله: «قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ ومعناه لغيره من السلف ـ: ومن ظن أن قوله ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بمعنى قدر، وأن الله ما قضى بشيء إلا وقع، كما يقول الملحدون في آيات الله، بأن جعل عباد الأصنام ما

---

(١) انظر ص ٣٣١، وانظر مثالاً آخر في ص ٣٦٢.
(٢) انظر ص ٦٦٥.
(٣) انظر ص ٤٧٧.

عبدوا إلا الله، فإن هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب كلها؛ **إذ قائل هذا لا يخرج عن قول من قص الله علينا قولهم:** ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ . .» إلخ[1].

فبالرجوع لمصدر هذا الكلام[2] يتبين أنه ينقله بتصرف، وأن الكلام من «كلها» فما بعد للمؤلف[3].

ومن أمثلة ذلك أنه نقل قول شيخ الإسلام عن مسألة الاستغاثة: «. . ولهذا ما بينت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الإسلام إلا تفطن لها وقال: هذا أصل الإسلام»؛ **إذ إنكار المنكر من أعمال الكفر والشرك من الأقوال والأفعال أوسع من تكفير عاملها مع الجهل بمضادة قوله أو فعله لشهادة الإخلاص؛ فإنه يفر من ذلك لو علمه**[4].

فالكلام الأخير للمؤلف، ألصقه بكلام شيخ الإسلام في الرد على البكري، مروجاً لرأيه الذي ينتقد به الدعوة الإصلاحية، وخالفه فيه سائر علماء السنة كما سبق بيانه.

وقريب من هذا أنه أحياناً يختصر كلام العلماء اختصاراً يفسد المعنى، كما فعل بكلام للقرطبي عن حكمة تخصيص النطق بالتشبيه في قوله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾[5].

---

(١) انظر ص ٢٠٦.

(٢) انظر الفرقان ص ٦٢، ومجموع الفتاوى: ١١/ ٢٦٩.

(٣) وانظر نظيرا لها مع كلام للخطابي في ص ٣٥١، ومع كلام للبزار ص ١١٩٥.

(٤) انظر ص ٧١٢.

(٥) انظر ص ٤٢٩.

الفصل السابع
نسخ الكتاب ومنهج التحقيق

توفّرت لنا ـ بحمد الله تعالى ـ ثلاث نسخ خطّية من فتح الحميد، أولاها النسخة المكية، وهي المسوّدة الأولى، وقد اخترنا لها الرمز: [م]، وهي من محفوظات مكتبة العلاّمة الشيخ عبدالله بن حميد ـ رحمه الله ـ، أهداها إليه بعض أحفاد ابن منصور حينما كان قاضياً في «المجمعة». وقد تفضّل ابناه الفاضلان: الشيخ الدكتور صالح، والشيخ الدكتور أحمد ـ حفظهما الله ـ، تفضلا مشكورين بصورة منها، فلهما منا جزيل الشكر ووافر العرفان.

أما النسخة الثانية فهي الكويتية، ورمزنا لها بـ[ك]، وهي من ذخائر مكتبة علامة الكويت، الشيخ عبدالله الدحيان ـ رحمه الله ـ الآيلة إلى مكتبة الأوقاف الكويتية، ورقم النسخة فيها (خ ٤١٢)، وتعتبر هذه النسخة المسوّدة الثانية للكتاب، وهي التي جعلت أصلاً لتحقيق النصف الأخير من الكتاب؛ إذ لم نعثر على المجلد الثاني من النسخة الثالثة، وقد حصلنا على صورة منها بواسطة خطاب تفضلت به مشكورة جامعة الكويت، كما أتاح الإخوة العاملون بمكتبة الأوقاف الاطلاع على أصل المخطوط ومراجعته عدة مرات، فلهم منا جزيل الشكر.

وأما النسخة الثالثة فهي نسخة الرياض، ورمزها: [ر]، وقد دلّنا عليها مشكوراً فضيلة الشيخ علي الشبل، حفظه الله ـ تعالى ـ وجزاه عنا خير الجزاء، وهي من محفوظات قسم المخطوطات بمكتبة جامعة الإمام محمد

ابن سعود الإسلامية تحت رقم (٨٩٨٥)، وقد صوّرها لنا الأخوان الكريمان: الشيخ سعد بن فلاح العريفي، والشيخ محمد بن سعود العريفي، حفظهما الله ـ تعالى ـ وأجزل لهما المثوبة، ولم يوجد من هذه النسخة سوى المجلد الأول.

وفيما يلي وصف لكل من النسخ الثلاث:

أولاً: النسخة[م]

هي أول نسخة ظهرت ـ فيما يبدو ـ من «فتح الحميد»؛ فقد أثبت أحد ناسخَيها: محد بن حمد بن عمير بن عبدالله بن ناصر، الناصري، الحنبلي، تاريخ الفراغ منها في نهار الثلاثاء ٢٨/ ربيع الأول/ ١٢٥٢هـ، كما في آخرها، وهي التي خطَّ عليها الشيخ عبدالرحمن بن حسن تقريضه بيده.

وقد عادت هذه النسخة مسوّدة بما ألحق بها المؤلّف من الإضافات الكثيرة في الطرر، التي أدخلت في صلب الكتاب في النسخة [ك]، ثم ألحق المؤلّف إضافات أخرى في طرر النسخة [ك]، أدخلت في صلب الكتاب في النسخة [ر]، وهذا ما حدا تلميذَ المؤلف المؤرخَ ابنَ بشر إلى أن يكتب على ديباجة النسخة [م] : (ليعلم الواقف على هذا الكتاب الجليل، والشرح الذي ليس له مثيل، للشيخ العالم الفاضل، والحبر المناضل، الشيخ القاضي عثمان بن منصور الناصري ـ متع الله بحياته ـ، أن هذا الكتاب بعينه هو مسودة الشرح المذكور، وأما المبيّضة فهي زائدة على هذه المسوّدة أكثر من. . [1]، وهي في مجلدين، فليعلم ذلك، قال ذلك وكتبه بإذن الشارح الفقيرُ إلى الله عثمان بن عبدالله بن بشر، وصلى الله على محمد وسلم). ثم

---

(١) كلمة غير واضحة، كأنها مطموسة، ويشبه أن تكون: «النصف»، أو «الثلث»، ولعل كاتبها تردد في التقدير فضرب عليه.

أثبت التاريخ: سنة ١٢٥٨هـ.

وقد كتب العنوان على هذه النسخة هكذا:

هذا «فتح الحميد في شرح التوحيد» بخط[١] جامعه
ومؤلفه الفقير إلى ربه الغفور عثمان بن عبدالعزيز
بن منصور الناصري ثم العمروي التميمي النجدي
الحنبلي يسئل من مولاه القبول والعفو
عن الخطأ والزلل وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وصحبه وسلم ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وحسبنا الله ونعم الوكيل

م م
م

وينبغي أن يكون هذا العنوان بخط ابن منصور؛ لتجرده من الثناء عليه، والعادة جارية بأن غيره لو كتبه لأثنى عليه، أو على الأقل للقّبه بالشيخ.

وكُتب تحت هذا العنوان تقريض الشيخ عبدالرحمن بن حسن بخط يده، وتحته تملك لحفيد المؤلف نصه: (ملك الفقير إلى الله عبدالرحمن بن عبدالكريم بن الشيخ عثمان بن منصور)، ولعله هو الذي أهداها للشيخ ابن حميد.

وفي الجهة المقابلة لصفحة العنوان كتب ما يلي:

---

(١) كأنها عدّلت إلى: «من خط جامعه».

لابن وكيع[1]

سلا عن حبّكِ القلب المشوقُ فما يصبو إليك ولا يتوقُ
جفاؤكِ كان لنا عنك[2] عزاءً وقد يُسلي عن الولد العُقوقُ

وتحت هذين البيتين مباشرة كُتب:

عبرة[3]

قد يدرك الشرفَ الفتى ورداؤُه خَلَقٌ وجيبُ قميصِه مرقوعُ

وأكثر هذه النسخة بخط محمد بن حمد بن عمير، وهو خط نسخ جميل متقن، غير أن الإلحاقات في الطرر بخط آخر ليس بجميل، وينبغي أن يكون خط ابن منصور؛ إذ له وحده حق الإضافة في كتابه دون غيره، كما أن كثيراً من صفحات هذه النسخة كُتبت بخط آخر ليس بجميل[4]، أشبه ما يكون بالخط الذي في الطرر، فتكون بخط ابن منصور، ويكون قد أعان تلميذه على النسخ في بعض الأحيان؛ لطارىء ما.

---

(١) هو الحسن بن علي الضبي التنيسي، الشاعر المعروف بابن وكيع، ت ٣٩٣هـ، انظر الأعلام ٢/ ٢٠١.
(٢) كذا، وصوابه: جفاؤكِ كان عنكِ لنا عزاء...
(٣) كذا قرأتها، وربما تكون «عِزة»، وأستبعد كونها: «عنترة»؛ فالبيت لإبراهيم بن هرمة كما في اللسان: ١٠/ ٨٨.
(٤) انظر مثلا الصفحات: ٥/ ب ـ ٨/ أ، ١٩/ ب، ٢٠/ أ، ٢٢/ ب ـ ٢٣/ أ، ٢٤/ ب، ٢٥/ أ، ٣٦/ ب ـ ٣٨/ أ، ٤٩/ ب، ٥٠/ أ، ٥٢/ ب، ٥٣/ أ، ٦٥/ ب ـ ٦٧/ أ. من النسخة [م].

ثم اطلعنا على ما يؤيد هذا في قول المؤرخ إبراهيم ابن عيسى: (وقد رأيت شرح التوحيد لعثمان بن منصور في المجمعة عند عثمان بن شبانة في مجلد كبير سماه: «فتح الحميد في شرح التوحيد»، وتحت عنوانه بخط الشيخ عبدالرحمن بن حسن ما صورته: «نظرت في هذا الشرح...»، والكتاب المذكور جملة منه بخط المصنف عثمان بن منصور، وبعض أوله وآخره بخط ابن عمير)[1].

والواقع أن أكثره بخط ابن عمير كما سبقت الإشارة، لا أوله وآخره فحسب.

وابن عيسى يعني هنا النسخة[م] دون شك؛ فهي التي كتبت بخطين مختلفين، وهي التي أُثبت اسم ابن عمير آخرها، وهي التي عليها تقريض الشيخ عبدالرحمن بن حسن بخط يده.

وتجدر الإشارة إلى أن الناسخ قال في ص[٣٠٥/ب]: (قال الشيخ أبقاه الله: وقد تم تبييضه على يد كاتبه ومصنفه.. إلخ). وهذه قرينة على كون الخط في ذلك الموضع لابن عمير، أما ورود العبارة نفسها في النسخة [ك] مع أنها بخط المؤلف فسيأتي توجيهه.

وأخيراً أنبه أن هذه النسخة تمثل الشرح كاملاً في مجلد واحد في أول إخراج له، وقد جاء في آخرها:

[وقع الفراغ من تعليق هذا الشرح المبارك المسمى بفتح الحميد في شرح التوحيد لشيخنا العلامة عثمان بن عبدالعزيز بن منصور ـ أيده الله، وقد أجاد وأفاد، وبلغ الغاية والمراد، فجزاه الله عن المسلمين خيراً، ووقاه

---

(١) عن مجموع لابن عيسى (١٣) مخطوطته محفوظة عند الدكتور عبدالرحمن العثيمين حفظه الله، وقد سمح مشكورا بالاطلاع عليه.

ضيراً ـ نهارَ الثلاثاء لثمانٍ وعشرين مضين من شهر ربيع أول، من سنة ١٢٥٢هـ، بقلم الفقير إلى ربه القادر، محمد بن حمد بن عمير بن عبدالله بن ناصر الناصري الحنبلي مذهباً، غفر الله له ولوالديه ولمشايخه، آمين].

وتحت هذا كُتب البيت التالي:

يا رب ترحم عُبيداً كان كاتبَه   يا قارىء الخط قل بالله: آمينا

وكُتب تحته: [من وجد عيباً فليصحِح؛ فإنه من التعاون على البر والتقوى].

هذا وقد استغرقت النسخة [م] ٣١٢ ورقة، عدد أسطر الصفحات ٢٣ غالباً، في كل سطر نحو ١٧ كلمة، وقد كتبت بخط نسخ عادي، المتن باللون الأحمر، والشرح بالأسود.

ثانياً: النسخة[ك]

هي في الأصل مبيضة عن النسخة السابقة؛ فقد أدخلت الإلحاقات التي كانت في الطرر في الصلب، ثم أضيفت إلحاقات أخرى كثيرة، أدخلت في الصلب في الثالثة الأخيرة، فصارت هذه كالمسودة لها.

وقد طُمس اسم الناسخ وتاريخ النسخ من آخرها تماماً[1]، لكن يُعرف من كونها بخط واحد من أولها إلى آخرها[2]، هو خط الصلب والطرر، أنها بخط المؤلف لا غير؛ ولا يشكل على هذا إلا قول الكاتب في آخر الكتاب:

---

(١) الطمس متعمد، ولا يبعد أن يكون بدافع العداوة للمؤلف.

(٢) ما عدا الصفحتين [١٩٣/ أ] و[١٩٤/ ب]، وهما من أول باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد، فقد لاحظنا أنهما كُتبتا بخط مغاير، وربما حديث، فوقع في النفس أن هاتين الصفحتين تلفتا فانتسخهما مالك النسخة بيده، والله أعلم.

(قال الشيخ أبقاه الله) يريد المؤلف، وجواب هذا أن المؤلف نسخها عن المسوّدة التي اشترك في خطّها مع تلميذه ابن عمير، فلما بلغ هذا الموضع الذي كتبه تلميذه لم ير داعياً لتغيير دعاء تلميذه له، فأثبته كما هو.

ويتأيّد كونها بخط المؤلف بمطابقة خطها تماماً لمخطوطةٍ لكتاب: «المسوّدة» في أصول الفقه لآل تيمية، كتبت بخط ابن منصور سنة ١٢٥٥هـ.

وقد كتب نفس العنوان السابق على هذه النسخة، وبنفس الخط، وهو خط المؤلف، إلا أن فيه: «بخط مؤلفه وجامعه»، بدل: «بخط جامعه ومؤلفه»، ومثل هذا التصرف عادة لا يفعله مجرد ناسخ، بل ناسخ مؤلف.

وعلى يمين العنوان كُتبت العبارة التالية: [في الحديث عن النبي ـ ﷺ ـ: (دخلت الجنة فرأيت عامة من يدخلها البله)[١]، قال الأزهري[٢]: «الأبله»: الذي طبع على الخير، وهو غافل عن الشر، وهذا... في حقه القتيبي: هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور، وحُسن الظن بالناس].

ومكان النقط غير واضح.

وتحت العنوان كُتبت الفائدة التالية بخط المؤلف:

[«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»، حكمة التقييد به مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة: أنه يظهر فيه سؤدده لكل أحد هناك، ... ولا معاند.

وقوله: «وأول شافع وأول مشفع»، قال النووي: إنما ذكر الثاني لأنه

---

(١) أخرجه بمعناه البزار بسند ضعيف كما في المجمع: ١٠/ ٢٩٤، ورواه البيهقي بإسناد منكر في الشعب: ٢/ ١٢٥.
(٢) «تهذيب اللغة»: ٦/ ٣١٢.

قد يشفع اثنان، فيشفّع . . . الأول].

ومكان النقط متآكل.

وتحت هذه الفائدة نَقلَ ابنُ نصرالله تقريض الشيخ عبدالرحمن بن حسن على النسخة [م]، إلا أنه فيما يبدو نقله من حفظه؛ فقد أبدل بعض الكلمات بمرادفات لها: فكتب «تأمّلت هذا الشرح» مكان «نظرت في هذا الشرح»، وزاد كلمة «وأوضح» في قوله: «قد أجاد فيه مؤلفه **وأوضح** وأفاد»، وكتب: «غير أنه ذكر أن شيخه محمد بن سلوم»، بدل: «ولكنه ذكر فيه شيخه محمد بن سلوم»، وحذف ـ فيما يبدو من المصوّرة ـ كلمة «الشرح» من قوله: «لحسن هذا الشرح عندنا».

وقد أُثبت في آخر هذه النسخة تحت موضع تاريخ النسخ المطموس نص حديث أبي هريرة في صحيح مسلم: «خُلقت التربة يوم السبت. . . إلخ»، وانتقاد العلماء له.

وقد جاءت هذه النسخة في جزء واحد ضخم، بلغ ٢٠٤ لوحة، عدد الأسطر في الصفحة ٣٧ سطراً غالباً، وأحياناً ٣٨، في كل سطر ما بين ١٧ـ ٢١ كلمة.

ثالثاً: النسخة[ر]

وهي فيما يبدو آخر إخراج للكتاب؛ فقد أدخلت في صلبها الزيادات التي كانت في طرر النسخة السابقة، ثم لم تُضف إليها أية زيادات.

وقد فرغ من كتابة المجلد الأول من هذه النسخة تلميذ المؤلف: محمد بن حمد بن نصرالله بن فوزان بن نصرالله بن محمد بن عيسى بن حمد بن عيسى بن صقر بن مشعاب، يوم الاثنين، لثلاث بقين من ذي القعدة، سنة ١٢٥٧هـ، كما هو مثبت في نهاية المجلد الأول.

وقد جاءت هذه النسخة في مجلدين، لم نعثر إلا على أولهما، وينتهي بنهاية الباب الثاني والعشرين: (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان).

وقد قابل المؤلف هذه النسخة على أصلها، كما هو مثبت في الطرر في مواضع كثيرة، وعبارته في ذلك بخطه: [بلغ مقابلةً وتصحيحاً على أصله، فصحّ على يد مؤلفه عفا الله عنه]. وقد نبّهنا على هذه العبارة في الحاشية حيثما وردت.

والأصل الذي قوبلت عليه هذه النسخة هي النسخة [ك] لا غير، فصح بذلك كونها مسودة للنسخة [ر] وإن كانت [ك] مبيضة عن النسخة [م]، كما صح كون [ر] آخر النسخ الثلاث.

ولا فرق بين[ر] و[ك] إلا دمج ما في الطرر في صلب الكتاب، ومقابلة المؤلف، واختلاف الناسخ، أما المضمون فمطابق تماماً، لا يكاد يوجد اختلاف حرف واحد.

والراجح أن تكون هذه النسخة هي التي ذكر محقق «عنوان المجد»: عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ أنها موجودة في مكتبة عمه الشيخ محمد بن عبداللطيف[1]، فتكون من بقايا كتب ابن منصور التي صودرت إثر وفاته، ثم أهديت بعد ذلك لمكتبة جامعة الإمام.

وهي واضحة الخط، تآكل من أوّلها ورقتان بفعل الأرضة، هما ورقة العنوان، وورقة المقدمة، والورقة الثالثة ممزوعة الصفحة اليمنى، لم يبق منها إلا الثلث تقريباً، والصفحة اليسرى تبدأ بتتمة مسرد أبواب التوحيد: الباب التاسع والأربعون...، وفيها ختم مكتبة جامعة الإمام، قسم

---

(١) انظر «عنوان المجد»: ٢/ ١١٩، حاشية.

المخطوطات، ويحمل الرقم (٨٩٨٥/ خ).

ومقاس الأوراق ٢و ١٦ x ٩و٢٢سم، وعددها في المجلد الأول ٢٠٨، وعدد السطور ما بين ٢٤ـ٢٧ غالباً، وعدد الكلمات في السطر ما بين ١١ـ١٨ غالباً.

منهج التحقيق:

اتخذنا النسخة الأخيرة [ر] أصلاً لتحقيق النصف الأول من الكتاب؛ لكونها الإخراج الأخير له؛ فقد قابلها المؤلف نفسه على أصلها، وأذن لتلميذه ابن بشر أن يكتب تنبيهاً على النسخة [م] وهي مسوّدة مسوّدتها، بأن مبيضة الكتاب في مجلدين، ولا يوجد نسخة في مجلدين إلا هذه.

وقد أتممنا نسخ جميع الكتاب أولاً من النسخة [ك] قبل العلم بالنسخة [ر]، ثم تمت مقابلتها عليها ومقارنتها لها، فلم تظهر لنا اختلافات تستحق الإثبات في الحاشية، أما المسودة الأولى [م] فلم نرجع إليها إلا حال استغلاق الخط، أو وقوع شك في القراءة.

ثم سلكنا في توثيق النص البنود التالية:

١ـ أثبتنا أسماء السور وأرقام الآيات في الصلب هكذا: [الفاتحة/ ١]، ولم نجعلها في الحواشي تخفيفاً؛ فهي كثيرة جدا، وجعلناها برسم المصحف.

٢ـ عزونا الأحاديث والآثار إلى مظانها، ولم نلتزم ذكر الكتاب والباب إلا في أحاديث الصحيحين؛ لكثرة المرويات في الكتاب، فنكتفي بذكر الجزء والصفحة والرقم.

٣ـ ما كان من المرفوعات في غير الصحيحين فإنا نذكر حكمه عند من تكلم عليه، كالترمذي في السنن، والحاكم في المستدرك، والهيثمي في

«مجمع الزوائد»، وغيرهم من القدماء بحسب ما تيسر لنا، وهو قليل، على أن المؤلف قد اعتنى ببيان حكم كثير منها، كما نذكر غالباً حكمها عند محدث العصر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله وجزاه عن طلاب العلم خير الجزاء ـ؛ لتعويل أكثر طلاب العلم عليه في ذلك، مع مراعاة من خالفه في الحكم على بعض الأحاديث.

هذا ولم نتكلف مجاوزة ذلك؛ لخروجه عن موضوع الكتاب، أما الآثار فلم نلتزم الحكم عليها مطلقاً.

٤ـ حرصنا على عزو أقوال العلماء ونقول المؤلف إلى مصادرها الأصلية، حتى إن كان ينقل عنها بواسطة، وما سكتنا عنه فإنه لم يتيسر لنا العثور عليه.

٥ـ ترجمنا لمن تدعو الحاجة إلى التعريف بهم من الأعلام وهم كثر، لكن حرصنا على الإيجاز في ذلك.

٦ـ عرّفنا بالغريب من الأماكن والكلمات والمذاهب والفرق.

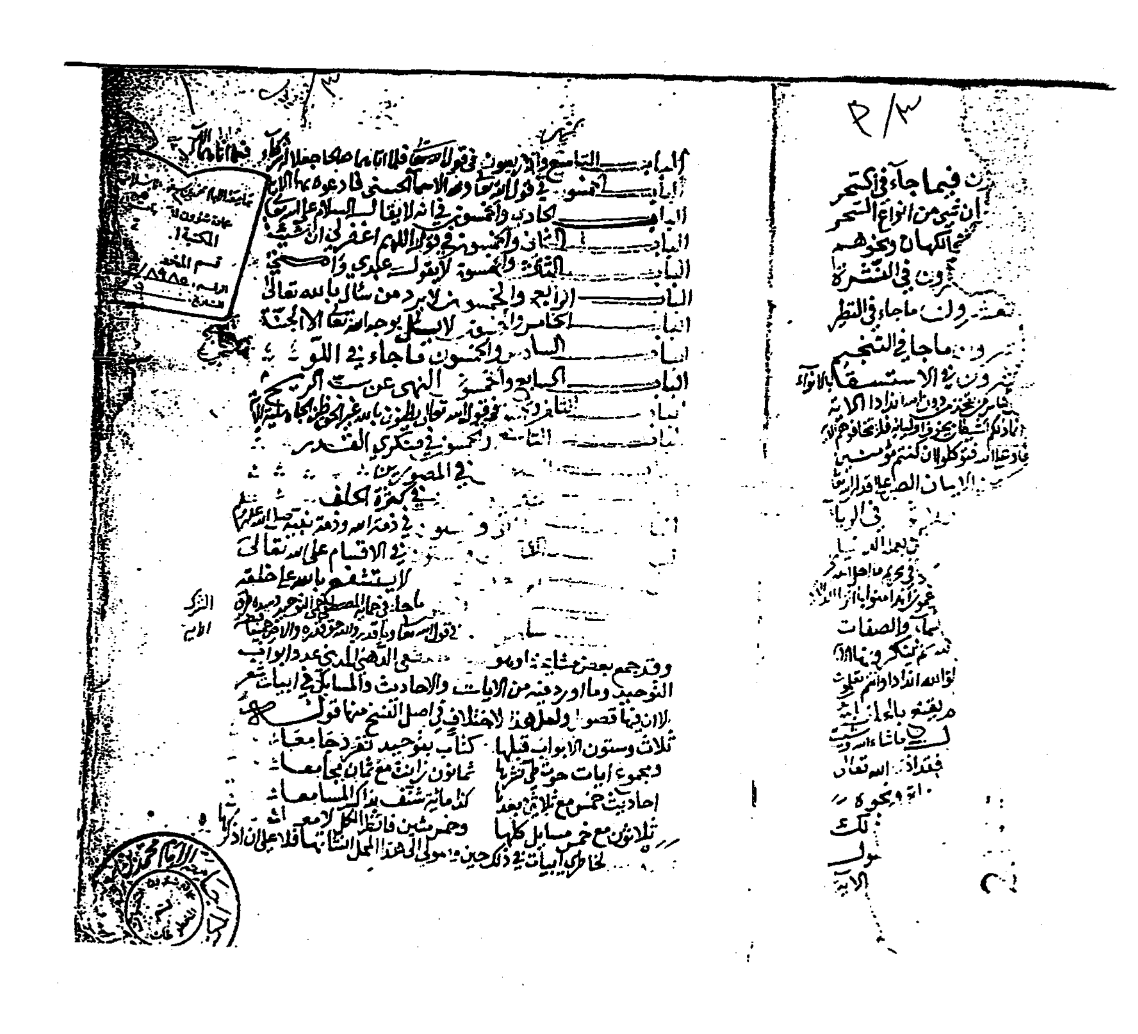
٧ـ التزمنا في كتابة النص قواعد الإملاء الحديثة، وأهملنا تماماً الإشارة إلى ما يخالفها في الأصل.

٨ـ ميّزنا التصويبات والاستدراكات في النص بين معكوفين هكذا[ ].

٩ـ ميزنا متن كتاب التوحيد عن الشرح بهلالين هكذا ( ).



نماذج المخطوطات



اللوحة الأولى من النسخة [ر]، وقد ظهر التآكل في صفحاتها الأولى

قوله والمعنى الصحيح وما خلقت
الجن والانس الا ليجري افعالهم
على مقتضى قضائي فانه في قول
انظر الى هذا الكذب على السلف
وعلى كتاب ... هذا القول
الى طرق المعاصي ... عباده
سبحانه ... من
رضي بهذا القول وحكاه في
معنى هذه الآية الكريمة قال
تعالى ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا
اولئك يعرضون على ربهم ويقول
الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا
على ربهم الا لعنة الله على
الظالمين واما ما نسبه
الى ابن عباس من القول كفر
الكافر تسبيح فهذا كذب عظيم
على ابن عباس وافتراء
حاشاه ان يجعل ما يوجب
الخلود في النار الذي لا
يرضاه الله تعالى لعباده
... الغفلة ...
عبادة وهذا ...
الحق ...
ذلك

أفعالهم على مقتضى قضائه فيكون فعل العبد على مقتضى حكم المولى وانما
يخرج فعل العبد عن حكم المولى اذا كان مغلوبا والغالب لا يخرج شيء عن
حكمه وهو الله وحده وقد فهم بعض الصالحين هذا المعنى فقيل له ما اراد
الله من الخلق فقال ما هم عليه يعني الارادة الكونية لا الشرعية وقد قال
ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون
تسبيحهم ان كفر الكافر تسبيح وتقديس والمعنى في ذلك انه امر جرى بقدر
الله وارادته الكونية مع ما فيه من مخالفة امره الشرعي وتعدي حدوده الدينية
وهذا دليل على سعة ملكه تعالى وبديع حكمه وانفراده تعالى السابق والزام
التسليم لامره الشرعي والاقرار بالعجز عن دركه وذلك كما سنبينه قريبا لانه
ما من شيء الا وهو يعبد الله سبحانه كما يجب للمولى على عبده ويسبح كما سبق
بحمده ويشهد لذلك من كلام العرب قول زيد بن عمرو بن نفيل وقيل ورقة بن
نوفل سبحان ذي العرش سبحانا يدوم له وقبلنا سبح الجودي والجمد
والجودي والجمد جبلان بالحجاز فان من لم يسبح تسبيح واه سبح تسبيح
دلالة وقد ذكر هذا القول في الآية محيي السنة ابو الحسين البغوي رحمه الله تعالى
في تفسيره قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله تعالى واهل اللغة ظنوا ان
تفسير العبادة هنا الطاعة ورأوا ان بعض الخلق لا يطيعون الله فطلبوا
للآية معنى غير معناها ولو عقلوا معنى ذلك وفهموا ايضا معنى السجود كما قال
سبحانه وتعالى يسجد من في السموات والارض طوعا وكرها كما قال زيد الخيل
رضي الله عنه بجمع تضل البلق في حجراته ترى الاكم منه سجدا للحوافر فكان
يكفر بقوله مخالفة امر الله الشرعي ودينه الذي ارتضى لعباده فارسل
رسله وهو مع ذلك جار بقضاء الله وقدره فلم يخرج شيء عن ملكه تعالى
ولا عن حكمه الكوني فجعل رحمه الله تعالى معنى العبادة في هذه الآية بمعنى
العبادة اللغوية والارادة القاهرة لا الشرعية الامرية كقوله تعالى وهو
القاهر فوق عباده اي الذي خضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة الصعاب
وقهر كل شيء ودانت له الخلائق وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه الاشياء

كلها

الصفحة ٣١/ب من النسخة [ر]، وفي طرتها تعقب لأحد العلماء

لكن تكون الروم وهم قوم معروفون أكثر الكفرة في ذلك الوقت وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى فقلت يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أن ذلك تام قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ثم يبعث الله ريحا طيبة فتوفي كل من في قلبه مثقال ذرة أو حبة من خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم فنسأل الله الحماية والله الموفق تم الجزء الأول من شرح التوحيد المسمى بفتح الحميد في شرح التوحيد تأليف العالم الفاضل

... الناصري العمري التميمي

آخر المجلد الأول من النسخة [ر]

خ ٤١٢

مكتبة الأوقاف الكويتية

١

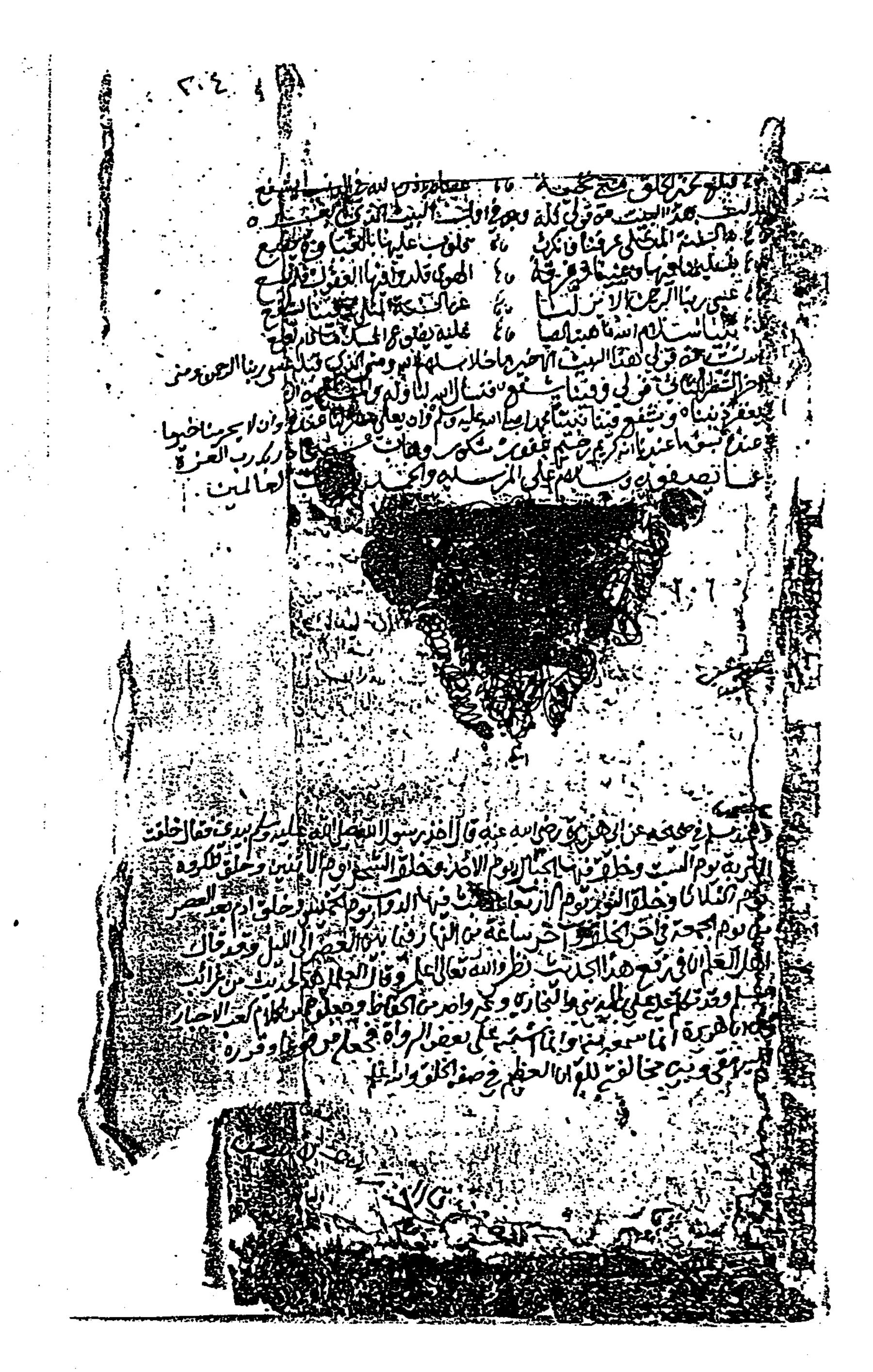
هذا فتح الحميد في شرح التوحيد
بخط مؤلفه وجامعه
الفقير إلى ربه الغفور عثمان بن عبد العزيز
بن منصور الناصري ثم العمروي التميمي
النجدي الحنبلي سأل مولاه القبول
والعفو عن الخطأ والزلل
صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم وحسبنا الله
ونعم الوكيل

تأملت هذا الشرح فرأيته شرحاً ... قد أجاد فيه مؤلفه وأوضح وأفاد كان الله ...
... وحاله في الاعتقاد معلوم فلو أعرض عن ذكره ...
... قاله كاتبه عبد الرحمن بن حسن عفا الله عنه ونقله من خط ... محمد
... وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تقريظ الشيخ عبدالرحمن بن حسن بخط ابن نصر الله



الصفحة ١١/ أ من النسخة [ك]، بخط المؤلف



آخر النسخة [ك] بخط المؤلف

ملك الفقير إلى الله عبدالرحمن بن عبدالكريم

ابن الشيخ عثمان بن منصور

غلاف النسخة [م] وعليه تقريظ الشيخ عبدالرحمن بن حسن

بخط يده وتنبيه ابن بشر إلى كون هذه النسخة مسودة

الراموز الثاني

وهو الصفحة ٤ من النسخة المرموز لها بالحرف ا

الراموز الثالث

وهو الصفحة الأخيرة من النسخة المرموز لها بالحرف ا

نماذج من مسودة آل تيمية في أصول الفقه بخط ابن منصور

فهرس المجلد الأول

أولاً: فهرس الدراسة

الموضوع — رقم الصفحة

فَتْحُ الحَمِيدِ

فِي شَرْحِ التَّوْحِيدِ

«أوسع شروح «كتاب التوحيد» للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب»

تأليف

الشيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور التميمي
ت: ١٢٨٢ هـ

تحقيق

د. سعود بن عبد العزيز العريفي
رئيس قسم العقيدة بجامعة أم القرى

د. حسين بن جليعب السعدي
أستاذ العقيدة المساعد بجامعة الكويت

المجلد الأول

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

يطبع لأول مرة

عن ثلاثة نسخ خطية

فَتحُ الحَمِيدِ

فِي شَرحِ التَّوحِيدِ

أصل تحقيق هذا الكتاب رسالتان علميتان تقدم بهما المحققان إلى قسم العقيدة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة لنيل درجة الدكتوراة وقد أجيزت الرسالتان بتقدير (ممتاز)

الطبعة الأولى ١٤٢٥

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع
مكة المكرمة ص. ب ٢٩٢٨
هاتف ٥٥٠٥٢٠٥ فاكس ٥٥٤٢٣٠٩

الصف والإخراج دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي، وهو حسبي ونعم الوكيل

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام/ ١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾ [التوبة: ٣٣]، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده، لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وبذلك يشهد الموحدون، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله؛ ابتعثه على فترة(١) من الرسل، ودروس(٢) من السبل، فأحيا به دينه القويم، وهَدى به إلى صراطه المستقيم، فجعله محجة للسالكين، وحجة على المعاندين، وأوضح به المنار، ونجّى به من عذاب النار، صلى الله عليه، وعلى آله وذريته، وأهل بيته وأصحابه، من المهاجرين والأنصار، صلاةً وسلامًا دائمين متلازمين، ما تعاقبت الدهور والأعصار، وسلم تسليما.

أما بعد، فإن الاعتناء بالتوحيد من أهم الأمور؛ إذ بمعرفته تنشرح الصدور؛ لأن عليه دعوةَ الرسل لأممهم تدور، فلما كان الأمر كذلك، كانت معرفته والدعوة إليه أولَ الواجبات عقلاً وشرعًا؛ إذ عليه الأعمال تدور أصلاً وفرعًا.

---

(١) أي انقطاع. انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ١٦٢.

(٢) أي خفاء وعفاء. انظر مقاييس اللغة لابن فارس: ٢/ ١٦٧.

وقد ألّف في ذلك شيخُ مشايخنا؛ شيخُ الإسلام، وقدوةُ الأنام، محمد بن عبدالوهاب الوهيبيّ[1] ثم العدوي[2] المضري[3] ـ يلتقي نَسَبُه ـ قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه ـ بنسب النبيّ ﷺ في إلياس بن مضر ـ كتابًا حافلاً وافيًا كافيًا لمن أنصف ولم يتعسّف، وميّز في ذلك ولم يتكلّف، فرأيتُ أن أعلّق عليه شرحًا؛ تذكرة لنفسي، ولمن شاء الله بَعدي، يحُلّ معانيَه، ويُشيّد مبانيَه، ويُظهر فوائده، ويُردّ شوارده، وإن لم أكن لذلك أهلاً، ولا في ذلك العلم رِبَحْلاً[4]، رجاء أن يدخلني الله في جملة الداعين إلى دينه القويم، وصراطه المستقيم، فطلبت حينئذٍ نسخة صحيحة، لينتفيَ الشكّ عن القريحة، فلم أجد إلا نسخة عندي، قد قابلتها على خطّ المصنّف ـ رحمه الله ـ بيده، ووجدتها عند بعض مشايخنا؛ وهو الشيخ عبدالعزيز الحُصيِّن[5] ـ قدس الله روحه، ونوّر ضريحه، وجزاه عنا وجميعَ مشايخِنا أحسن الجزاء ـ، فاعتمدت لأجل ذلك عليها، وأسأل اللهَ الكريم، ربَّ العرش العظيم، الهداية والتسديد، والتوفيق.

---

(١) نسبة إلى جدّه الأعلى وهيب بن قاسم بن موسى، وذريّته يقال لهم: الوهبة. انظر «علماء نجد خلال ثمانية قرون» للشيخ عبدالله البسام: ١/ ١٢٥، ١٢٦.

(٢) نسبة إلى عدي الرِّباب؛ عدي بن عبد مناة بن أدّ بن طابخة. انظر الأنساب للسمعاني: ٤/ ١٦٩. والوهبة عند غير المؤلف بطن من حنظلة، في بني تميم. انظر علماء نجد للبسام: ١/ ١٢٦.

(٣) نسبة إلى مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان. انظر «لب اللباب في تحرير الأنساب» للسيوطي: ٢/ ٢٦١.

(٤) فسرها في الطرّة بقوله: (أي كثير العلم، المتضلّع منه). وهو موافق لما في «لسان العرب»: ١١/ ٢٦٥، مادة (رِبَحْل).

(٥) سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص ٤٩.

وقد احتوى هذا المصنف على ستة وستين بابًا، ما خلا «كتاب التوحيد»، وهذه فهرسته:

الباب الأول ـ في فضل التوحيد، وما يكفّر من الذنوب.

الباب الثاني ـ في «من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب».

الباب الثالث ـ في الخوف من الشرك.

الباب الرابع ـ الدعاء إلى شهادة ألاّ إله إلا الله.

الباب الخامس ـ في تفسير التوحيد وشهادة «لا إله إلا الله».

الباب السادس ـ من الشرك لبس الحلْقةِ والخيطِ ونحوِهما لدفع البلاء.

الباب السابع ـ في الرُّقَى والتمائم.

الباب الثامن ـ فيمن تبرّك بشجر أو حجر أو نحوِهما.

[ك١٠/أ] **الباب التاسع** ـ في الذبح لغير الله ـ تعالى ـ.

الباب العاشر ـ لا يُذبحُ لله بمكان يُذبح فيه لغير الله ـ تعالى ـ.

الباب الحادي عشر ـ من الشرك النذرُ لغير الله ـ تعالى ـ.

الباب الثاني عشر ـ من الشرك الاستعاذةُ بغير الله ـ تعالى ـ.

الباب الثالثَ عشر ـ من الشرك أن يستغيثَ بغير الله أو يدعوَ غيرَه.

الباب الرابعَ عشر ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: ١٩١].

الباب السابع والعشرون ـ ما جاء في التطيّر.

الباب الثامن والعشرون ـ في التنجيم.

الباب التاسع والعشرون ـ في الاستسقاء بالأنواء.

الباب الثلاثون ـ في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ الآية، [البقرة: ١٦٥].

الباب الحادي والثلاثون ـ في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ الآية، [آل عمران: ١٧٥].

الباب الثاني والثلاثون ـ في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾، [المائدة: ٢٣].

الباب الثالث والثلاثون ـ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ الآية، [الأعراف: ٩٩].

الباب الرابع والثلاثون ـ من الإيمان الصبرُ على أقدار الله ـ تعالى ـ.

[ك،٣/ب] **الباب الخامس والثلاثون** ـ في الرياء.

الباب السادس والثلاثون ـ في أن من الشرك إرادةَ الإنسان بعمله الدنيا.

الباب السابع والثلاثون ـ في «من أطاع العلماءَ والأمراءَ في تحريم ما أحل الله. . . إلخ».

الباب الثامن والثلاثون ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية، [النساء: ٦٠].

الباب التاسع والثلاثون ـ فيمن جحد شيئًا من الأسماء والصفات.

الباب الأربعون ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ الآية، [النحل: ٨٣].

الباب الحادي والأربعون ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ الآية، [البقرة: ٢٢].

الباب الثاني والأربعون ـ فيمن لم يقنعْ بالحلف بالله ـ تعالى ـ.

الباب الثالث والأربعون ـ في قول: ما شاء اللهُ وشئتَ.

الباب الرابع والأربعون ـ في أن من سب الدهر فقد آذى اللهَ ـ تعالى ـ.

الباب الخامس والأربعون ـ التسمي بقاضي القضاة ونحوِه.

الباب السادس والأربعون ـ احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك.

الباب السابع والأربعون ـ فيمن هزل بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.

الباب الثامن والأربعون ـ في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةً مِّنَّا﴾ الآية، [فصلت: ٥٠].

[ر،٣/أ] (١) **الباب التاسع والأربعون** ـ في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ الآية، [الأعراف: ١٩٠].

الباب الخمسون ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ الآية، [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) من هنا تبدأ نسخة [ر]، وما قبلُ فيها تالف.

الباب السادس والستون ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ الآية، [الزمر: ٦٧].

وقد جمع بعض مشايخنا وهو الشيخ مصطفى الدُّهني المديني(١) عدد أبواب التوحيد، وما أُورِدَ فيه من الآيات والأحاديث والمسائل، في أبيات شعر، إلا أنّ فيها قصورًا، ولعل هذا لاختلافٍ في أصل النسخ، منها قوله:

ثلاثٌ وستون الأبوابُ قبلَها	كتابٌ بتوحيد تَفَرَّدَ جامعًا
ومجموع آيات حوت طيَّ نشْرِها	ثمانون زانت مع ثمانٍ مجامعًا
أحاديثُ خمسٌ معْ ثلاثين بعدَها	كذا مائةٌ شنَّف بذاك المسامعا
ثلاثون معْ خمسٍ مسائلَ كلُّها	وخمسِ مئينٍ فانظر الكلَّ لامعًا

وقد خطر لخاطري أبيات في ذلك، حين وصولي إلى هذا المحل، أنشأتُها، فلا علَيّ أن أذكرَها، [ر،٤/ب] وهي هذه:

أقول كلامًا يرتضيه ذوو البصرْ	وما كنت قوّالاً لزُور من الوحَرْ(٢)
حلفت يمينًا بالمهيمن قائلاً	لقد أوضحَ التوحيدَ للخلق وانتشرْ
إمامُ هدىً يهدي إلى الحقِّ بالهدى	محمدُ بدرُ الدين للعلْمِ مفتخرْ
فصنّف هذا للأنام مُنبِّهًا	لما غاب عنهم في العلوم وما ظهرْ

---

(١) راجع ما قيل عنه في قسم الدراسة ص ٥٦.

(٢) الوحَرْ: الغِلّ والحقد. انظر مقاييس اللغة لابن فارس: ٦/ ٩١.

وبــوّبــه ستيــن بــابًــا وإنّهــا تزيد على الستينَ ستًّا وما اقتصرْ

وأَتبعَهـا الآيـاتِ سـردًا يحقُّهـا تـراجِـمُ فيهـا للمنيبيـن مُـدّكـرْ

وعقّـب فيهـا بـالأحـاديث مُـوردًا عن الكُتُب الثَّبَّتِ الصحاحِ وما اشتهَرْ

فـزانـت وراقـت للعيـونِ وإنّهـا لكالدرِّ في عِقدٍ من العين منتَثِرْ

فنسأل مولانا الكريمَ بأن يَمُنّ علينا بعفوٍ لمن غاب أو حضرْ(١)

وأن يلهم التوفيقَ والرّشْدَ والهدى عُبيْدًا رجى في جنة الخلد يُحتضرْ

فيا ناظرًا في الشرح إيّاك والهوى وحَسْدًا هَوَى بالحاسدين إلى سقرْ

فهذا أوانٌ للشُّروع عسى الذي ألان لداودَ الحديدَ من الصخَرْ

يفهّم(٢) قلبي للهدى ويميتُني على السُّنَّةِ الغرّاء والذنبُ مُغتفرْ

[ك،٤/ب] وأقول كلامًا قد سبقني إلى جملته من لي بقوله الاهتداء والاقتداء: ثم هاك أيها الناظر لعرايس التوحيد، قريبًا معانيها ستُجلى عليك، وخُود(٣) أبكارها البديعةُ الجمالِ ترفل في حللها وهي تُزف إليك، فإما أن تكون لديك شمسا بسعد الأسعد، أو خُودًا تُزف إلى ضريرٍ مقعد(٤)، ألا ولابد لكل نعمة من حاسد، ولكل حق من جاحد، فها هو ذا الشرح، لمطالعه

---

(١) هذا البيت غير مستقيم الوزن. ولعلّه يستقيم لو قال: «بعفوٍ على من غاب منّا ومن حضر».

(٢) في [ك]: «ينهّم»، و(النُّهمة: بلوغ الهمّة في الشيء، وهو منهوم بكذا: مولع به). عن مقاييس اللغة: ٥/ ٣٦٥.

(٣) جمع خَوْد، وهي الفتاة الحسنة الخلق الشابة، ما لم تصر نَصَفا. انظر «لسان العرب»: ٣/ ١٦٥. مادة (خود).

(٤) هذا المثل نصف بيت لابن الحجاج، انظر يتيمة الدهر للثعالبي: ٣/ ٦٠..

ثمرته وغُنْمه، وعلى مؤلفه مشقّتُه وغُرمه، مع تعرّضه في ذلك لمطاعن الطاعنين، وإلقائه لنفسه وعِرْضِه بين مخالب الحاسدين، وأنياب الجهلة المعتدين، وهو قد استعذر إلى الله من الخطأ والزلل، ثم إلى عباده المؤمنين المنصفين أولي الدين والعدل.

اللهم فعياذاً بك ممن قصُر في العلم والدين باعُه، وطالت بالجهل وأذى عبادك هبرة لسانه وذراعُه، فهو يبوح بدعوى الاجتهاد، وما تأهّل لتعليم الأولاد، قد اتخذ بطَرَ الحق وغمطَ الناس إلى الترقّع سُلّمًا، بـ«عسى» و«لو» و«ليت» و«لعلما»، فطبْعه يطلب للصواب التبديل، وللواضح التأويل، يركض في ميدان جهله، ويورِّى[1] لذوي العلم أنه من أهله، قد جعل [ر، ٤/أ] الملامة بضاعته، والعذل بالجهل نصحه وصناعته، فهو دائمًا يبدي في الملامة ويعيد، ويكرِّر عليه العذل فلا يفيد ولا يستفيد.

ومن عدو في صورة ناصح، وولي في مسلاخ بعيد كاشح، فإن كانت[2] العين لا تكاد إلا على مثل هؤلاء تفتح، والميزان بهم يخف ولا يرجح، فما أحرى اللبيب بأن لا يعيرهم[3] جزءًا من الالتفات، ويسافرَ في طريق مقصِده بينهم سفرَه إلى الأحياء بين الأموات، فرحم الله من أقال لأخيه العثْرة، وجعل معرفته بعيب نفسه له شاغلاً وعبرة؛ فإن ذلك من عنوان سعادة العبد وفلاحه في الدنيا والآخرة، فنسأل الله ـ تعالى ـ أن يُتِمّ ما قصدنا، ويقبل ما له أردنا.

وقد كنت قبل ذلك أطلب تحصيل شرح[4] الحبر الهمام، والبحر

---

(١) أي يوهمهم بذلك، من التورية، وهي الستر. انظر «لسان العرب»: ١٥/ ٣٨٩، ٣٩٠، مادة (وري).

(٢) في [ر] و[ك]: «كان»، والمثبت من [م].

(٣) بعدها في [م] زيادة: (من قلبه).

(٤) وعنوانه «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد»، نشَره المكتب الإسلامي.

القمقام[1]، ابنِ ابنِ المصنف ـ رحمه الله ـ، سليمانَ[2] بنِ عبدالله بن الشيخ محمد، فلم يتيسر، ثم ذُكر لي أنه قد فاته بسبب المنية تتميمُه[3]، فشرعت في هذا الشرح؛ لكثرة القراءة في متنه والمطالعة، ليكون لي أنيسًا في الدنيا وذخرًا في أحوال القيامة الهائلة الرائعة.

وهذا المتن يحتمل ماشئت عليه من تطويل، فإنه كما قيل: «كل الصيد في جوف الفَرا»[4]، ولولا مخافةُ الإملال لأعطيناه بعض حقه، ولكن قصّرنا الميدان لِقِلّة المضمّرات[5]، ولكل ميدان سابق.

---

(١) أي العظيم الكبير. انظر تهذيب اللغة: ٨/ ٣٠٣.

(٢) الشيخ الإمام، العالم العلاّمة، المجاهد الشهيد إن شاء الله ـ تعالى ـ، من كبار أئمة الدعوة الإصلاحية، ومن حفاظ الحديث ورجاله، وكتابه «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» عمدة لمن جاء بعده من الشرّاح، ولد سنة ١٢٠٠هـ، وقتله إبراهيم باشا غدرًا سنة ١٢٣٣هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٣/ ١٢٩، وعلماء نجد لابن بسام: ٢/ ٣٤١، والسحب الوابلة: ٢/ ٤١٢، الحاشية.

(٣) وصل فيه إلى «باب ما جاء في المصوّرين» ص ٦٩٩ حسب المطبوع، وأُكمل من «فتح المجيد».

(٤) قال المؤلف في طرّة الكتاب: (المعنى: كل الصيد دون حمار الوحش، قالته امرأة من العرب، فذهب مثلاً، وقاله النبي ـ ﷺ ـ لأبي سفيان بن حرب حين أسلم ـ رضي الله عنه ـ، وقيل قاله لابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، والكل مروي بسند مرفوع، عند الإمام أحمد وغيره، ولعلّه قاله لكل منهما على حِدته، جمعًا بين الروايتين؛ لعدم اتحاد مخرجهما. قاله كاتبه عَفا الله عنه، ومؤلفه). ا.هـ.

وما ذكره من أن النبي ـ ﷺ ـ قاله لأبي سفيان بن حرب، قد رواه الرامهرمزي في أمثال الحديث: ص ١٢٥. قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٣٢٨): (وسنده جيد، لكنّه مرسل، ونحوُه عند العسكري، قال: في جوف أو جنب. وقد أفردت فيه جزءً فيه نفائس)، وقد بحثت عنه في مسند الإمام أحمد المطبوع فلم أجده. وقد أورد المثل الميداني في مجمع الأمثال: ٢/ ١٣٦ برقم (٣٠١٠)، وما ذكره من أنه قاله لأبي سفيان بن الحارث ذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب (٤/ ١٦٧٦) عن ابن دريد وغيره من أهل العلم.

(٥) جمع مضمّرة، وهي الفرس المخفّف لحمها للسبق: انظر مقاييس اللغة: ٣/ ٣٧١.

فصل(1)

ولما اقتضت الحكمة الربانية والإرادة الإلهية إخراج آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الجنّة، أعطاهم ـ سبحانه ـ من الفضل ما منّ به عليهم، وهو عهده الذي جعله سببًا موصلاً لهم إليه، وطريقًا واضحًا بيِّن الدلالة عليه، مَن تمسك به فاز واهتدى، ومن أعرض عنه شقي وغوى، كما ذكر الله ذلك في سورة البقرة (٣٨) وطه (١٢٣)، في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾، فلما كان هذا العهد الكريم، والصراط المستقيم، والنبأُ العظيم، لا يوصَل إليه أبدًا، إلا من باب العلم والإرادة، فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب، المتوقِّفِ فتحُه عليه، فكمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين: هِمَّةٍ تُرقّيه، وعلمٍ يبصره ويهديه، فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبدَ من هاتين الجهتين، أو من [إحداهما](2): إما ألا يكون له علم بها؛ فلا يتحرك في طلبها، أو يكون عالمًا بها ولا تنهض هِمتُه إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوسًا، وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودًا منكوسًا، قد أسام [ر،٥/ب] نفسه مع الأنعام راعيها مع الهمل، واستطاب لقيمات الراحة والبطالة عنِ العلم والعمل، واستلان فراش العجز والكسل، فطوبى لمن رُفع له عَلَم السعادة، فشمّر إليه، وبورك له في تفرُّده في طريق طلبه، فلزمه واستقام عليه، فذابت غلبات شوقه إلا إلى الهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء، إلا ابنَ سبيل يرافقه.

---

(١) منقول بتصرف من «مفتاح دار السعادة» لابن القيم: ١/ ٤٦.

(٢) في الأصل: «أحدهما»، والتصويب من «مفتاح دار السعادة».

ولما كانت الإرادة بحسب مرادها، وشرف العلم تابعٌ لشرف معلومه، كانت نهاية سعادة العبد، الذي لا سعادة له بدونها، ولا حياة له إلا بها، في أن تكون إرادتُه متعلقةً بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت، وعزَماتُ همّه مسافرةً إلى حضرة الحي الذي لا يموت، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى، والحظ الأوفى، إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه، الذي بعثه لذلك داعيًا، وأقامه على هذه الطريقة هاديًا، وجعله واسطة بينه وبين الأنام، وداعيًا لهم بإذنه إلى [ك،٤/أ] دار السلام، وأبى ـ سبحانه ـ من أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه، أو يقبل من أحدهم سعيًا إلا أن يكون مبتديًا ومنتهيًا إليه، فالطرق كلها إلا طريقَه ـ ﷺ ـ مسدودة، والقلوب بأسرها إلا قلوبَ أتباعه المنقادةَ إليه عن الله محبوسةٌ مصدودة، فحقٌّ على من كان في سعادة نفسه ساعيًا، وكان قلبه حيًّا عن الله واعيًا، أن يجعل على هذين الأصلين مدارَ أقواله وأعماله، وأن يصيّرهما أَخيّته[1] التي إليها مفزعُه في حياته ومآله، فلا جرم إذ كان وضع هذا الكتاب مسوسًا[2] على هاتين القاعدتين، ومقصودُه التعريفَ والتوضيح لهذين الأصلين الشريفين[3]؛ إذ بمعرفتهما والعمل بهما تتم للعبد سعادة الدارين.

ثم ليُعلمْ أنه ليس لقائل أن يقول: قد أدخلتم في هذا الشرح ما ليس من التوحيد، الذي هو المقصود بوضع هذا الكتاب، ولا أن

---

(١) في المفتاح: «أخبيته»، وما هنا هو الصواب؛ فالأخيّةُ: الطنب، والعروة تشد بها الدابّة. اللسان: ١٤/ ٢٣، ٢٤.

(٢) في المفتاح: مؤسسًا.

(٣) إلى هنا النقل من «مفتاح دار السعادة»: ١/ ٤٦.

يَعترض على المصنّف ـ رحمه الله تعالى ـ بذلك[1]؛ إذ ليس من قول ولا فعل طيّب صالح، إلا وهو بالتوحيد والإخلاص خالصٌ صالح، وكل قول أو عمل عُدم فيه ذلك فهو مُضمحِل طالح.

وهل يُطلب التوحيد والإخلاص إلا لخلاص الأقوال والأعمال الحاصلةِ من عمل القلب، الذي هو بذلك أخص خلاصًا من الأشواب؛ إذ الأعمال من الإيمان، وعلى ذلك مضى أهل السنة من الأئمة، وصالحُ سلف الأمة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولذلك نظائرُ من الكتاب [ر،٥/أ] والسُنّة، ذكرنا طرفًا منها في ذكر الإيمان والكلام عليه، عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآيات.

فالإيمان يزيد وينقص؛ إذ الإيمان والإسلام جملةُ أعمالٍ في القلوب والأبدان.

يوضّح ذلك جَرَيانُهما على معانيهما في العربية من الأمان والسلامة حقيقة. ويُعبّر بهما عن العلم أيضًا، وبه عنهما؛ لما يكون من انبنائها عليه، فلما كان مقدمةً لهما سُمّيا به.

فبما ذكرنا يزول الاعتراض المذكور زوالاً لا بقية معه، على مذهب أهل السنة والجماعة، حتى تعلم أن المعترض بذلك قد انحرف باعتراضه عنهم، والله ولي الهداية والتوفيق.

---

(١) من بدع المتكلمين أنهم يقصرون أصول الدين على الأمور العلمية العقلية الاعتقادية، ويعتبرون سائر الشرائع العملية فروعًا للدين؛ تبعًا لإخراجهم الأعمال من مسمى الإيمان، والحق الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الجليل العظيم من أمور الدين هي أصوله، سواء كانت علمية أو عملية، وما كان دقيقًا من النوعين فهي الفروع. انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٦/ ٥٦.

وهذا أوان الالتباس بالمقصود، قاصدًا بذلك للرب المعبود، وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يعفو فيما قصدنا عن الخطأ والزلل، وأن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

انتقيته من كلام العلماء المعتبرين، ودواوين المحدثين المشهورين، والمفسرين من الأئمة المرضيين، ومِن نقْلِ من أثقُ به من أهل الحديث، وذلك من كالصحاح والسنن والمسانيد.

وقد اتصل سندنا بالإجازة(١) إلى ما في المسند المسمى بـ«الإمداد في علو الإسناد»(٢) منها(٣)، للشيخ العالم العلامة، خاتمة المحدثين، وقدوة من بعده من المسندين، عبدالله بن سالم البصري، ثم المكي(٤)، ـ رحمه الله تعالى ـ، من طريق شيخنا الأوحد، والإمام المفرد، الشيخ عبدالرحمن(٥) ابن حسن بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، حفيد مصنف هذا الكتاب ـ متّع الله بحياته، وبارك له في جميع أوقاته ـ، فأجازني عن شيخه حسنٍ القويسني(٦)، وهو عن شيخه داود

---

(١) الإجازة في اصطلاح المحدثين أن يقول الشيخ لمن يجيزه: أجزتك كتاب البخاري مثلاً، أو أجزت فلانًا جميع ما اشتملت عليه فهرستي ونحو ذلك، وهي أنواع متفاوتة، وللقدماء خلاف حول اعتبارها والاعتداد بها، انظر الكفاية: ٣١١ وما بعدها، والمنهل الروي: ١/ ٨٤، وتدريب الراوي: ٢/ ٢٩، ولا يخفى أنها عند المتأخرين عادت أمرًا شكليًّا لا أثر له في توثيق كتب السنة، بعد انتشارها وحصول اليقين بثبوتها عن مصنفيها.

(٢) قال الكتاني في «فهرس الفهارس»: ١/ ١٩٣: (الثَّبَت المذكور في نحو ثلاث كراريس، طبع قريبًا في الهند)، ثم فصّل القول في التعريف به.

(٣) الضمير يعود على الصحاح والسنن والمسانيد، المذكورة في الفقرة السابقة.

(٤) سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص٥٢.

(٥) سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص٥١.

(٦) هو حسن بن درويش بن عبدالله بن مطاوع القويسني ـ نسبة إلى «قويسنا» من قرى مصر ـ، برهان الدين، ولي مشيخة الجامع الأزهر سنة ١٢٥٠هـ، وتوفي سنة =

القَلَعي[1] ـ بفتح القاف واللام ـ، وهو عن الشيخين الجليلين: أحمد الجوهري[2]، وأحمد الملوي[3]، وهما عن المصنف عبدالله بن سالم البصري المذكور.

وأجاز لي شيخنا عبد الرحمن بن حسن المذكور، بإجازة شيخه له؛ الشيخ عبدالله سويدان[4]، بروايته عن شيخه محمد بن أحمد الجوهري[5]، عن أبيه أحمد، عن شيخه المصنّف عبدالله بن سالم.

وكذا يروي شيخنا عبدالرحمن ذلك ـ فيما أجاز لي ـ عن شيخه عبد الرحمن الجبرتي[6]، وهو عن شيخه مرتضى الحسيني[7]، وهو عن شيخه عمر بن

= ١٢٥٤هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٢/ ١٩٠.

(١) أبو هريرة، داود بن محمد، المحدّث، ذكره الكتاني في فهرس الفهارس، في عدة مواضع، ضمن أسانيد، انظرها في ٣/ ٧٣ منه.

(٢) هو أحمد بن الحسن بن عبدالكريم بن محمد بن يوسف، الخالدي، الجوهري، الأزهري، الشافعي، الفقيه، المحدث الأصولي، المتكلم، درّس بالأزهر وأفتى نحو ٦٠ سنة، ولد سنة ١٠٩٦هـ، وتوفي ١١٨٢هـ. انظر تاريخ الجبرتي: ١/ ٣٦٤، الأعلام للزركلي: ١/ ١١٢.

(٣) هو أحمد بن عبدالفتاح بن عمر المُجِيري، الملوي، الشافعي، الأزهري، ولد سنة ١٠٨٨هـ، ومات بمصر سنة ١١٨٢هـ، انظر فهرس الفهارس: ٢/ ٥٥٩.

(٤) هو عبدالله بن علي بن عبدالرحمن سويدان الدمليجي، فقيه شافعي، توفي سنة ١٢٣٤هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٤/ ١٠٧.

(٥) هو ابن المترجم قريباً أبو هادي، الشهير بابن الجوهري، أو الجوهري الصغير، فقيه شافعي، له شرح على العقائد النسفية، ولد سنة ١١٥١هـ، وتوفي سنة ١٢١٥هـ، انظر الأعلام للزركلي: ٦/ ١٦.

(٦) هو عبدالرحمن بن حسن الجبرتي، مؤرخ مصر في عصره، ولي إفتاء الحنفية في عهد محمد علي، وله التاريخ المشهور باسمه، «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، ولد سنة ١١٦٧هـ، وتوفي سنة ١٢٣٧هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٣/ ٣٠٤.

(٧) هو محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرزاق، الحسيني، الزبيدي، أبو الفيض، الملقب =

أحمد بن عقيل[1]، وعن الجوهري، كلاهما عن عبدالله ابن سالم.

وكذا اتصل لنا مسند الامداد، ومسندُ الإمام الهمام، أحمدَ بنِ محمدٍ النخلي المكي الشافعي[2]، من جهة مشايخ جمة، منهم: محمد [ر،٦/ب] بن علي بن سلوم[3]، عن شيخه السيّد عبدالرحمن الزَّواوي الأحسائي المالكي، صاحبِ الجدول[4]، عن عدة مشايخ، منهم: علاء الدين السورتي[5]، عن الشيخ محمد حياة السندي المدني[6]، عن المؤلف عبدالله بن سالم المذكور. وعن السيد علي العيدروس[7]. عن محمد بن سليمان المدني الشافعي[8]، عن المؤلف عبدالله بن سالم المذكور.

= بمرتضى، العلامة، صاحب «تاج العروس في شرح القاموس» في اللغة، وغيره من المصنفات الكبار، ولد سنة ١١٤٥هـ، وتوفي سنة ١٢٠٥هـ. انظر الأعلام: ٧/ ٧٠.

(١) أبو حفص، الحسيني، العلوي، المكي، الشافعي، الشهير بالسقّاف، ولد سنة ١١٠٢هـ، وتوفي سنة ١١٧٤هـ. انظر فهرس الفهارس للكتاني: ٢/ ٧٩٢.

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد النخلي، متصوف، من أهل مكة مولدًا ووفاة، ولد سنة ١٠٤٠هـ وتوفي سنة ١١٣٠هـ. انظر الأعلام للزركلي ١/ ٢٤١.

(٣) سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص٥٣.

(٤) في [م]: [عبدالرحمن بن أحمد الزواوي]، ولعلّه والد محمد سعيد الزواوي، المتوفى سنة ١٢٤٦هـ، المترجم له في فهرس الفهارس ص ١٠٠١ برقم (٥٧٠)، ولم أهتد إلى ترجمته، والجدول المنسوب إليه لم يذكر في [م]، وفي فهرس الفهارس: ص ٣١١ ذكر «جدول الأسانيد»، لكنه من تأليف عثمان بن عقيل العلوي الجاوي، فلا أدري: هل وهم المؤلف في نسبته إلى الزواوي؟

(٥) علاء الدين السورتي، لم أجد له ترجمة.

(٦) هو محمد حياة بن إبراهيم السندي، المدني، الحنفي، العلاّمة، المحدّث، توفي سنة ١١٦٣هـ. انظر «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي: ٤/ ٣٤، والأعلام للزركلي: ٦/ ١١١.

(٧) لعلّه السيد علي بن عبدالله العيدروس السندي، المذكور في فهرس الفهارس: ص ٨٦٥.

(٨) لعلّه الكردي، فقيه الشافعية في الحجاز، ولد بدمشق سنة ١١٢٧هـ، ونشأ =

وأجاز لي محمد بن علي المذكورُ «مسند الإمام النخلي»، عن شيخه السيد عبدالرحمن الزواوي، عن عبدالله «الجرهزي» الزبيدي[1]، عن ابن مقبول[2]، عن العلاّمة [ك،٥/ب] المؤلف، أحمدَ بن محمدٍ النخلي الشافعي المذكور.

وأجاز لي محمد بن علي أيضًا رواية المسندين المذكورين من طرق، عن بعض مشايخه، منهم: محمد بن عبدالله[3]، عن شيخه الشيخ عبدالله بن محمد بن عبداللطيف الشافعي الأحسائي[4]، عن المؤلف عبدالله بن سالم. وكذا مسند النخلي عن شيخه المذكور محمد بن عبدالله، وهو عن سعد بن محمد بن كليب بن غردقة الأحسائي المالكي[5]، عن مؤلفه أحمد بن محمد النخلي المذكور.

وهذه الطريقة هي طريقة شيخنا، الشيخ المبجل، والحبر المفضل،

= بالمدينة، وتولى إفتاء الشافعية بها إلى وفاته سنة ١١٩٤هـ، انظر سلك الدرر: ٤/ ١١١، والأعلام للزركلي: ٦/ ١٥٢. ويلاحظ أن الفرق بين مولده ووفاة البصري ثمان سنوات، فالله أعلم إن كان هو المراد أو غيره.

(١) هو عبدالله بن سليمان الجرهزي الشافعي الزبيدي، وقد كُتب في الأصل (الجوهري)، بالواو والراء، والصواب أنه بالراء والزاي؛ فالجراهزة بطن من العرب، منهم المترجم، كما في «تاج العروس»:. ١٥/ ٥٦. وهكذا ضُبط في «فهرس الفهارس» في عدة مواضع، انظرها في: ٣/ ١١٣. توفي سنة ١٢٠١هـ. كما في «الأعلام» للزركلي: ٤/ ٩١، وقد سمّاه: (الجوهري).

(٢) هو السيد أحمد بن محمد شريف مقبول الأهدل الزبيدي، شهاب الدين. انظر فهرس الفهارس: ص ٢٥٣، ٦٩٦،

(٣) ابن محمد بن فيروز، التميمي، الأحسائي، حامل لواء المعارضة ضدّ الإمام المجدّد، الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ، ولد سنة ١١٤٢هـ وتوفي سنة ١٢١٦هـ. انظر ترجمته وافية في السحب الوابلة: ٣/ ٩٦٩.

(٤) ذكره في فهرس الفهارس: ١/ ١٩٧، ولم أعثر له على ترجمة.

(٥) لم أجد له ترجمة.

أحمد بن رشيد الحنبلي[1] ـ متع الله بحياته ـ، في المسندين المذكورين؛ فمن طريق الشيخ عبدالله بن سالم، صاحب الإمداد المذكور، أروي «صلة الخلف عن السلف»: مسند الإمام الهمام، محمد بن محمد بن سليمان المغربي المالكي المكي[2]، نزيل الحرمين، وهو من أجلّ شيوخ صاحب الإمداد؛ عبدالله بن سالم، رحمهما الله تعالى رحمة واسعة، وجزاهما عنّا وعن الأمّة خيرًا.

وأروي أيضًا ما في ثَبَت الإمام الهمام، شيخ الإسلام، مفتي الحنابلة، عبدالباقي الحنبلي[3]، عن مشايخ عدة، منهم: عثمان بن جمعة[4]، عن شيخه الشيخ مصطفى بن سعد السيوطي الحنبلي، شارح «الغاية»[5]، عن

---

(١) سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص٥٤.

(٢) هو محمد بن سليمان بن الفاسي بن طاهر، الرّوداني، السوسى، المكي، شمس الدين، أبو عبدالله، محدّث مغربي مالكي، عالم بالفلك، رحّال، من كتبه: «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد»، و«صلة الخلف بموصول السلف» وهو فهرس مروياته وأشياخه، اخترع آلة في التوقيت والهيئة، لم يسبق إلى مثلها، ولد سنة ١٠٣٧هـ، وتوفي سنة ١٠٩٤هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٦/ ١٥١.

(٣) هو عبدالباقي بن عبدالباقي بن عبدالقادر بن عبدالباقي بن إبراهيم بن عمر بن محمد البعلي، الأزهري، الدمشقي، المقرىء، الأثري، المشهور بـ«البدر»، وبـ«ابن فقيه فِصّة»، من تصانيفه: «العين والأثر في عقائد أهل الأثر»، وثبته المسمى: «رياض الجنة في أسانيد الكتاب والسنّة»، ولد سنة ١٠٠٥هـ، وتوفي سنة ١٠٧١هـ. انظر السحب الوابلة: ٢/ ٤٣٩.

(٤) سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص ٥٥.

(٥) هو مصطفى بن سعد بن عبده، السيوطي شهرة، الرُّحيباني مولدًا، ثم الدمشقي، فرضي، كان مفتي الحنابلة بدمشق، ولد سنة ١١٦٠هـ وتوفي سنة ١٢٤٣هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٧/ ٢٣٤، وأما شرحه فاسمه: «مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى»، مطبوع في ستة مجلدات، شرح فيه «غاية المنتهى في الجمع بين =

شيخيه؛ علي السليمي[1]، ومحمدٍ النابلسي السفّاريني[2]، وهما عن شيخيهما[3] أبي المواهب[4]، عن أبيه الإمام المصنف عبدالباقي المذكور، وعن شيخنا عبدالله بن حمود الضَّرير الفقيه[5]، عن شيخه إبراهيم بن ناصر[6]، عن أحمد البعلي[7]، عن الشيخ عبدالقادر التغلبي[8]، عن المصنف عبدالباقي، صاحب الثبَت المذكور.

وأرويه عن عثمان بن جمعة أيضًا المذكور عن شيخه علي بن

= الإقناع والمنتهى» للشيخ مرعي الحنبلي (ت ١٠٣٣هـ)، انظر «المدخل المفصل» للدكتور بكر أبو زيد: ٢/٧٨٦.

(١) هو علي بن محمد بن علي بن سليم، الشافعي، الدمشقي، الصالحي، أبو الحسن، علاء الدين، المعروف بالسليمي، تصدّر للتدريس في الجامع الأموي وغيره، ولد سنة ١١١٣هـ وتوفي سنة ١٢٠٠هـ. انظر سلك الدرر: ٣/ ٢١٩، والأعلام: ٥/ ١٦.

(٢) هو العلاّمة محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفَّاريني، صاحب العقيدة المشهورة، وشرحِها: «لوامع الأنوار البهية»، ولد سنة ١١١٤هـ، وتوفي سنة ١١٨٦هـ. انظر السحب الوابلة: ٢/ ٨٣٩.

(٣) كذا في [ر] و[ك]: «شيخيهما» بالتثنية، ولعله سبق قلم.

(٤) هو ابن عبدالباقي بن عبدالباقي، المتقدم ذكره، من كبار المتأخرين من علماء الحنابلة في بلاد الشام. ولد سنة ١٠٤٤هـ وتوفي سنة ١١٢٦هـ. انظر سلك الدرر: ١/ ٦٧، والسحب الوابلة: ١/ ٣٣٣.

(٥) لم أجد له ترجمة.

(٦) وهو ابن جديد، سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص٥٧.

(٧) هو أحمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد، الحلبي الأصل، البعلي الدمشقي، الفقيه الحنبلي، مؤلف «الروض الندي» وغيره. ولد سنة ١١٠٨هـ، وتوفي سنة ١١٨٩هـ. انظر السحب الوابلة: ١/ ١٧٣.

(٨) هو عبدالقادر بن عمر بن أبي تغلب بن سالم بن محمد بن المنتصر، التغلبي، الشيباني، الدمشقي، المعمر، أبو التقى، من كبار علماء الحنابلة وثقاتهم، ولد سنة ١٠٣٠هـ وتوفي سنة ١١٣٥هـ. انظر السحب الوابلة: ٢/ ٥٦٣.

الشمعة[١] الشافعي الدمشقي، عن والده محمد بن الشمعة[٢]، عن خاتمة المحققين عبدالغني النابلسي[٣]، وعن الشيخ أبي المواهب الحنبلي، والشيخ الإمام، محمد الكاملي[٤]، والثلاثة: عبدالغني، وأبو المواهب، ومحمد الكاملي، جميعهم عن الإمام المصنف عبدالباقي المذكور، والدِ أبي المواهب المزبور.

وأرويه أيضًا عن شيخنا محمد بن علي بن سلوم [ر،٦/أ] عن شيخه صالح ابن عبدالله[٥]، عن شيخه عبدالله بن إبراهيم بن سيف[٦]، عن شيخه أبي المواهب. عن والده الإمام عبدالباقي المذكور به.

ويروي أيضًا شيخنا أحمد بن رشيد الحنبلي ـ متع الله بحياته ـ

---

(١) هو علي بن محمد بن عثمان الشمعة ـ بالمعجمة، وقد كتبت في جميع النسخ بالمهملة ـ متفقه شافعي دمشقي، له معرفة بالقراءات. ولد سنة ١١٥٧هـ وتوفي سنة ١٢١٩هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٥/ ١٦.

(٢) لم أجد له ترجمة. ولعلّه المشهور بخطيب دوما، المذكور في فهرس الفهارس: ص ٩١، ٩٢.

(٣) هو عبد الغني بن إسمعيل بن عبدالغني بن إسمعيل بن أحمد بن إبراهيم، النابلسي، الحنفي، الدمشقي، النقشبندي، القادري، متصوف، مكثر من التصنيف. ولد سنة ١٠٥٠هـ ـ وتوفي سنة ١١٤٣هـ. انظر سلك الدرر: ٣/ ٣٠، والأعلام للزركلي: ٤/ ٣٢، ٣٣.

(٤) هو شمس الدين محمد بن نور الدين علي الدمشقي، الشهير بالكاملي، ولد سنة ١٠٤٤هـ، وتوفي سنة ١١٣١هـ. انظر فهرس الفهارس: ص ٤٨٠.

(٥) هو صالح بن عبدالله بن محمد أبا الخيل النجدي، العَنزي، قاضي عنيزة، توفي سنة ١١٨٤هـ. انظر علماء نجد لابن بسام: ٢/ ٥١٣ـ ٥١٦.

(٦) الشمّري الطائي، المدني، من مشايخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، توفي سنة ١١٤٠هـ. انظر علماء نجد للبسام: ٤/ ٦ـ ١٠.

الإمدادَ للبصري عبدالله بن سالم، عن شيخه محمد بن عبدالله، عن الشيخ أبي الحسن بن محمد صادق السندي(١)، ثم المدني الحنفي، واسمه كنيتُه، وهو شارح مسند الإمام أحمد، وعن الشيخ موسى السندي(٢)، والشيخ محمد سعيد سفر(٣)، ثلاثتهم عن الشيخ محمد حياة المدني، عن المصنف عبدالله بن سالم.

وأرويه أيضًا من هذا الطريق عن الشيخ إسماعيل بن الشيخ محمد سعيد سفر اليمني المدني(٤)، عن أبيه محمد سعيد، عن الشيخ محمد حياة، عن المصنف عبدالله بن سالم.

وأروي المسندين المذكورين أيضًا عن شيخنا الشيخ محمد بن علي المذكور، عن السيد عبدالرحمن بن أحمد الزواوي الأحسائي، عن علاء الدين السورتي، وعبدالله الجرْهزي(٥)، والسيّد علوي(٦)؛ فالأول عن محمد حياة المدني، والثاني عن ابن مقبول، كلاهما عن البصري والنخلي، والثالث عن محمد بن سليمان المدني، عن البصري.

---

(١) الصغير، محدث المدينة النبوية آخر القرن الثاني عشر، ولد سنة ١١٢٥هـ، ومات سنة ١١٨٧هـ. انظر فهرس الفهارس: ص ١٤٨.

(٢) لم أعثر على ترجمته.

(٣) هو محمد سعيد بن محمد أمين سفر، حنفي أثري، ولد وتعلّم بمكة، واستقر وتوفي بالمدينة، له أرجوزة في الحض على اتباع السنة. ولد سنة ١١١٤هـ وتوفي سنة ١١٩٤هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٦/ ١٤٠، وفهرس الفهارس: ص ٩٨٦، ومختصر نشر النّور والزهر: ص٤٣٦، ٤٣٧.

(٤) لم أجد له ترجمة، ذكره في فهرس الفهارس في مواضع، انظر: ٣/ ٥٢.

(٥) في جميع النسخ: [الجوهري]. وسبق التنبيه عند ترجمته إلى خطئه.

(٦) لم أعثر على ترجمته.

وأرويهما أيضًا عن صاحبنا عيسى بن محمد بن عيسى(١)، عن السيد يوسف بن محمد البطاح الزَّبيدي الأهدل(٢)، عن الجوهري، عن الشيخين المصنفين؛ عبدالله بن سالم، وأحمد بن محمد الشافعي النخلي.

وعن صاحبنا أيضًا عيسى بن محمد بن عيسى، عن السيد عمر بن عبدالكريم بن عبدالرسول(٣)، عن الشيخ صالح الفلاني(٤)، عن محمد ابن سِنّة(٥)، عن أحمد العجلي(٦)، وعن الشيخ عمر أيضًا، عن محمد طاهر سنبل(٧)، عن محمد عارف(٨)، عن حسن العجيمي(٩)، عن أحمد

---

(١) الزُّبيري، سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص٥٥.

(٢) هو يوسف بن محمد بن يحيى بن أبي بكر بن علي، البطاح، الأهدل، الحسيني، الزَّبيدي، من فقهاء الشافعية في اليمن. توفي سنة ١٢٤٦هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٨/ ٢٥٣. و«فهرس الفهارس»: ص ١١٤٦ برقم (٦٥٠).

(٣) هو عمر بن عبدالكريم بن عبدالرسول بن عطّار، المكي، الشافعي، مسند مكة المكرمة، وعالمها، توفي بالطاعون سنة ١٢٤٩هـ. انظر فهرس الفهارس: ص ٧٩٦.

(٤) هو صالح بن محمد بن نوح بن عبدالله العمري، المعروف بالفلاّني، عالم بالحديث، مجتهد، من فقهاء المالكية، من أهل المدينة، له «قطف الثمر في أسانيد المصنفات في الفنون والأثر» وغيره. ولد سنة ١١٦٦هـ، وتوفي سنة ١٢١٨هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٣/ ١٩٥.

(٥) هو أبو عبدالله، محمد ابن محمد بن سِنَّة العمري، ولد سنة ١٠٤٢هـ، وتوفي سنة ١١٨٦هـ. انظر فهرس الفهارس: ص ١٠٢٥ برقم (٥٨٢).

(٦) لعلّه ابن العَجِل الآتيةُ ترجمته بعد قليل.

(٧) هو محمد طاهر بن محمد سعيد سنبل، عالم بفقه الحنفية، من أهل مكة مولدًا ووفاة، له مصنفات، توفي سنة ١٢١٨هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٦/ ١٧٢.

(٨) هو محمد عارف جمل الفتني. كما في «فهرس الفهارس»: ص ٨١٢.

(٩) هو حسن بن علي بن يحيى، أبو البقاء العجيمي، مؤرخ، من العلماء بالحديث، يماني الأصل، ولد سنة ١٠٤٩هـ، وتوفي سنة ١١١٣هـ. انظر الأعلام: ٢/ ٢٠٥، =

ابن العجلي. وعن الشيخ عمر أيضًا، عن أبي الفيض السيد محمد مرتضى بن محمد، عن السيد عمر بن أحمد بن عقيل، والشهابين الملوي والجوهري، والعفيف الشبراوي[1]، وعبدالحي البهنسي[2]، وعبدالرحمن بن أسلم[3]، وإبراهيم بن جعفر[4]، وعبدالله بن خليل[5]، جميعهم عن البصري والنخلي، صاحبي الإمداد والمسند.

وعن صاحبنا أيضًا عيسى بن محمد المذكور، عن الشيخ أحمد الصاوي[6]، عن الصعيدي[7]، وعن الشيخ محمد فتح الله[8]، والشيخ

= و«فهرس الفهارس»: ص ٨١٠.

(١) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوي الشافعي الأزهري، ولد تقريبًا سنة ١٠٩٢هـ ومات سنة ١١٧١هـ. انظر فهرس الفهارس: ص ١٠٦٥ برقم (٥٩٦).

(٢) هو عبدالحي بن الحسن الحسني، البهنسي، المالكي، من شيوخ الزبيدي صاحب «تاج العروس»، انظر «فهرس الفهارس»: ص ٥٣٢.

(٣) هو عبدالرحمن بن أسلم الحسني، المالكي، الحنفي، ذكره في «فهرس الفهارس»: (ص ٥٣٢) ضمن شيوخ صاحب «تاج العروس». وفي موضع آخر قال: الحسيني. كما في ص ٩٨.

(٤) لم أجد له ترجمة.

(٥) هو عبدالله بن خليل الشافعي الزبيدي، ذكره في «فهرس الفهارس» ص ٥٣٢. ضمن شيوخ الزبيدي صاحب «تاج العروس».

(٦) هو أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي، فقيه مالكي مصري، ولد سنة ١١٧٥هـ، وتوفي بالمدينة سنة ١٢٤١هـ. انظر الآعلام: ١/ ٢٤٦.

(٧) لعلّه علي بن أحمد بن مكرم الله المنسفيسي، العدوي، المالكي، الأزهري، الشهير بالصعيدي، فقيه مصري، كان شيخ الشيوخ في عصره، ولد سنة ١١١٢هـ، وتوفي سنة ١١٨٩هـ. انظر سلك الدرر: ٣/ ٢٠٦ والأعلام: ٤/ ٢٦٠.

(٨) لم أعثر على ترجمته.

أحمد المرزوقي[1]، وشقيقه محمد[2]، كلهم عن العلامة محمد الأمير[3]، عن الشيخ علي السقاط[4]، والجوهري، والملوي، كلهم عن البصري والنخلي كليهما،[ر،٧/ب] زاد الملوي فقال: وعن العجمي[5]، وعن الأمين الصعيدي، عن محمد عقيله[6]، عن حسن العجيمي، عن أحمد ابن العَجِل[7].

---

(١) هو أحمد بن رمضان بن منصور بن محمد، المالكي، الحسني، له «متن عقيدة العوام» وشرحها: «تحصيل نيل المرام» ولد سنة ١٢٠٥هـ، وتوفي سنة ١٢٦٢هـ. انظر «المختصر من كتاب نشر النور والزهر» ص ١١٣، ١١٤.

(٢) هو محمد بن رمضان بن منصور المرزوقي الفيومي المالكي، من المشتغلين بعلم الفلك، ولي إفتاء المالكية بمكة. توفي سنة ١٢٦١هـ. انظر الأعلام: ٦/ ١٢٩.

(٣) هو محمد بن إسمعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني، الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف بالأمير، مجتهد، من بيت الإمامة في اليمن، له نحو مائة مؤلف، منها «سبل السلام شرح بلوغ المرام»، و«تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، ولد سنة ١٠٩٩هـ، وتوفي سنة ١١٨٢هـ. انظر الأعلام: ٦/ ٣٨.

(٤) هو أبو الحسن، نور الدين، علي بن العربي السقاط، الفاسي، المصري، المعمّر، توفي سنة ١١٨٣هـ. انظر «فهرس الفهارس»: ص ١٠٠٦ رقم (٥٧٣).

(٥) في [ر]: العجيمي، والصواب ما أثبته من [ك]، وهو أحمد بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن إبراهيم العجمي، الشافعي، الوفائي، المصري، الأزهري، شهاب الدين، من المشتغلين بالحديث. ولد سنة ١٠١٤هـ، وتوفي سنة ١٠٨٦هـ. انظر الأعلام: ١/ ٩٢.

(٦) هو محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكي، شمس الدين، المعروف بعَقيله، مؤرخ، من المشتغلين بالحديث، توفي سنة ١١٥٠هـ. انظر الأعلام: ٦/ ١٣.

(٧) هو صفي الدين، أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد العجل، أبو الوفاء اليمني، الضرير، المُسند، ولد سنة ٩٨٣هـ، وتوفي سنة ١٠٧٤هـ. انظر فهرس الفهارس: ص ٨٥٢. (رقم ٤٨٦).

ولابن عَجِل اليمني هذا طريقان إلى البخاري[1]، أحدهما عن يحيى بن مكرّم الطبري[2]، عن جده محبّ الدين محمد بن محمد الطبري[3]، قال: أخبرنا البرهان إبراهيم بن محمد بن صدّيق الدمشقي[4]، وغيرُه، برواياتهم ولو إجازة، عن الشيخ عبدالرحيم بن [ك،٥/أ] عبدالله الأوالي الفرغاني[5]، وكان عمره مائةَ سنة وأربعين، وأجاز عمومًا في سنة عشرين وسبعمائة، وقد قرأ صحيح البخاري على أبي عبدالرحمن محمد بن شاه بَخَتْ الفرغاني[6]، بسماعه لجميعه على الشيخ، أحد الأبدال[7] بسمرقند، أبي لقمان يحيى بن عمار بن مقبل بن

---

(١) هو صاحب الصحيح.

(٢) هو يحيى بن المكرّم بن محمد بن محمد، الطبري، من أعيان الحجاز، ذكره في «فهرس الفهارس»: ص ٩٥٨.

(٣) ذكره في «فهرس الفهارس»: ص ٩٥٨.

(٤) برهان الدين، الشهير بابن الرسّام، من تلاميذ تقي الدين بن تيمية، ومن شيوخ الحافظ ابن حجر، توفي سنة ٨٠٦هـ. انظر «إنباء الغمر بأبناء العمر» لابن حجر: ٥/ ١٥٧.

(٥) لم أعثر على ترجمته.

(٦) الفارسي، له ذكر في «فهرس الفهارس»: ص ٩٤٨، وضبطه هناك: ابن شاذ بخت.

(٧) ورد في ذكر الأبدال أحاديث لا تصح، وأكثرها باطل، انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١١/ ٤٣٣، و«المقاصد الحسنة» للسخاوي: ص ٣٢- ٣٤، رقم (٨)، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني: الأرقام ٩٣٥، ٩٣٦، ١٤٧٤- ١٤٧٩، ٢٤٩٨. وانظر ما يأتي هنا في ص٧٠٣ وما بعدها، وأمّا ما جاء على ألسنة بعض الأئمة، كالشافعي وأحمد والبخاري، من وصف أحدٍ بأنه من الأبدال، فينبغي حمله على المعنى الصحيح، وهو أنه من بقية السلف، الذين يصطفيهم الله - تعالى - لحفظ دينه، والقيام بشريعته، فكأن الأمة عوّضت بهم، عمن فات من =

شاهان الختلاني[1]، وكان عمره مائة وثلاثة وأربعين سنة، وقد سمعه جميعه عن محمد بن يوسف الفَرَبْري[2]، عن البخاري محمد بن إسماعيل.

والطريق الثاني عن قطب الدين النهروالي[3]، عن أبي الفتوح الطاووس[4]، عن المعمّر بابا يوسف الهروي[5]، المشهور بسَيْصَعْده سالَهْ، أي المعمّر ثلاثمائة سنة، عن محمد شاه بَخَتْ الفرغاني، إلى آخر السند المتقدم، برجاله المذكورين، إلى البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ.

= صالح سلفها، كما رُوي في الأثر: «يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عُدوله...» (انظر تخريجه بتوسع في أول كتاب «ما جاء في البدع» لابن وضاح القرطبي، بتحقيق بدر البدر)، وكما في أحاديث الفرقة الناجية والطائفة المنصورة. وقد قال الإمام أحمد عن الأبدال ـ كما نقل السخاوي ـ: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم. فهذا هو الحق الذي لا يصح خلافه، لا ما يذهب إليه الصوفية استنادًا إلى الأكاذيب والخرافات.

(١) ذكره في «تاج العروس»، مادة (شوه)، والظاهر أن هذا السند العالي إلى البخاري موضوع، وقد تكلّم عنه صاحب «فهرس الفهارس» ص: ٩٤٨، ٩٥٨ـ ٩٦١.

(٢) هو المحدث العالم الثقة أبو عبدالله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر الفِرَبْري، راوي الجامع الصحيح عن أبي عبدالله البخاري، توفي سنة ٣٢٠هـ. انظر أعلام النبلاء: ١٥/ ١٠.

(٣) هو محمد بن أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود النهروالي، قطب الدين الحنفي، مؤرخ من أهل مكة، توفي سنة ٩٨٨هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٦/ ٦، ٧.

(٤) هو الحافظ نور الدين أبو الفتوح أحمد بن عبدالله بن أبي الفتوح الطاوسي، الأبرقوهي الحنفي، الصوفي، التقى ببابا يوسف الهروي سنة ٨٢٢هـ. انظر «فهرس الفهارس»: ص ٩١٤، ٩١٥، ٩٥٥.

(٥) هو يوسف بن عبدالله الضياء بن الجمال الهروي، في بعض أثبات المتأخرين أنّه عمّر ثلاثمائة سنة! وقد ضبطت شهرته في «فهرس الفهارس» ص ٩٥٦: بـ«سيصد صاله»، والله أعلم بحاله.

وأروي الصحيحين أيضًا من طريق شيخنا أحمد بن رشيد الحنبلي، ومحمد بن علي، وعبدالله بن حمود الضرير، وعثمان بن جمعة، جميعهم عن شيخهم محمد بن عبدالله، عن العلاّمة عبدالله بن عبداللطيف الأحسائي، عن الشيخ عبدالله بن سالم البصري، صاحب الإمداد المذكور، عن الشيخ علاء الدين البابلي[1]، عن أبي النجا سالم بن محمد السَّنهوري[2]، والشيخ محمد حجازي الواعظ[3]، عن النجم محمد بن أحمد الغيطي[4]، عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري[5]، عن الحافظ أبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر

---

(١) لعلّه محمد بن علاء الدين البابلي، شمس الدين، أبو عبدالله، فقيه شافعي من علماء مصر، له مرويات فهرسها أحد تلاميذه في كتاب سمّاه «منتخب الأسانيد في وصل المصنفات والأجزاء والمسانيد»، ولد سنة ١٠٠٠هـ، وتوفى سنة ١٠٧٧هـ. انظر الأعلام: ٦/ ٢٧٠. ويلاحظ أن صاحب الإمداد؛ عبدالله البصري ولد سنة ١٠٤٨هـ، فيبعد أن يكون مراد المؤلف هنا بعلاء الدين البابلي والد صاحب الترجمة، فلعلّ من ترجمتُ له هو المراد، والله أعلم.

(٢) هو سالم بن محمد عز الدين بن محمد ناصر الدين السنهوري المصري، كان مفتي المالكية، ولد سنة ٩٤٥هـ، وتوفي سنة ١٠١٥هـ. انظر الأعلام: ٣/ ٧٢. وقد كتبت [السنهوري] في [ر] و[ك]: [السنوهري]، وكذا في (م)، إلا أنها صححت في طرّتها.

(٣) هو محمد بن محمد بن عبدالله الأكراوي، القلقشندي، المعروف بمحمد حجازي الواعظ، فقيه، عالم بالتفسير والحديث، ولد سنة ٩٥٧هـ، وتوفي سنة ١٠٣٥هـ. انظر الأعلام: ٧/ ٦٢.

(٤) هو محمد بن أحمد بن علي، السكندري، الغَيْطي، الشافعي، نجم الدين، ولد سنة ٩١٠، وتوفي سنة ٩٨١هـ. انظر الأعلام: ٦/ ٦.

(٥) هو زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، السكيني، المصري، الشافعي، أبو يحيى، من حفاظ الحديث، ولد سنة ٨٢٣هـ، وتوفي سنة ٩٢٦هـ. انظر الأعلام: ٣/ ٤٦.

العسقلاني[1]، عن الأستاذ إبراهيم بن أحمد التنوخي[2]، عن أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحجّار[3]، عن أبي عبدالله، الحسين بن المبارك الزَّبيدي[4]، عن أبي الوقت عبدالأول بن عيسى السجزي الهروي[5]، عن أبي الحسن، عبدالرحمن بن محمد الداوودي[6]، عن أبي محمد عبدالله بن أحمد السرخسي[7]، عن أبي عبدالله محمد بن يوسف، عن

---

(١) الإمام، شيخ الإسلام، صاحب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، وغيره من الكتب المشهورة، ولد ـ رحمه الله ـ سنة ٧٧٣هـ، وتوفي سنة ٨٥٢هـ.

(٢) هو إبراهيم بن أحمد بن عبدالواحد بن عبدالمؤمن، التنوخي، البعلي، الدمشقي، ولد سنة ٧٠٩هـ، وتوفي سنة ٨٠٠هـ. انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني: ١/ ١١، ١٢.

(٣) هو أحمد بن أبي طالب بن أبي النعم نعمة بن حسن بن علي بن بيان، الصالحي، الحجّار، أبو العباس، حدّث بالصحيح أكثر من سبعين مرّة، توفي سنة ٧٣٠هـ. انظر «الدرر الكامنة» لابن حجر: ١/ ١٤٢.

(٤) كتبت في [ر] و[ك] «الزَّبير»، وفي [م] كتبت «الزّبيري» بالراء، ثم صوّبت في الطّرة: الزّبيدي، وهو سراج الدين أبو عبدالله، الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن مسلم، الرَّبَعي، الزَّبيدي، البغدادي، البابْصري، الحنبلي، الإمام، الفقيه، مسند الشام، ولد سنة ٥٤٥هـ تقريبًا، ووفاته سنة ٦٣١هـ. انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٢/ ٣٥٧.

(٥) هو الإمام المُسند، شيخ الإسلام، أبو الوقت، عبدالأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم، السجزي، الهروي، الماليني، ولد سنة ٤٥٨هـ وتوفي سنة ٥٥٣هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٣٠٣.

(٦) هو العلاّمة أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد بن المظفر بن محمد بن داود البوشنجي، ولد سنة ٣٧٤هـ، وتوفي سنة ٤٦٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٢٢٢.

(٧) هو أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حمّويه بن يوسف بن أعين، المحدّث المسند، =

أمير المؤمنين في الحديث، أبي عبدالله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدَزْبهْ، الجعفي البخاري.

وأروي عاليًا من طريق البصري والنخلي عن صاحبنا عيسى بن محمد، عن السيّد يوسف بن محمد البطاح الزَّبيدي الأهدل، عن الشيخ عبدالرحمن الجوهري(١)، عن البصري والنخلي به.

وعن شيخنا أيضًا عبدالله بن حمود الضرير الفقيه، وعثمان بن جمعة، وصاحبنا عيسى بن محمد، ثلاثتهم عن شيخهم إبراهيم بن ناصر، عن شيخه أحمد [ر ،٧/ أ] البعلي، عن الشيخ عبدالقادر التغلبي، عن شيخ الإسلام عبدالباقي الحنبلي، صاحب الثَبَت، عن حجازي الواعظ، عن ابن أركماس(٢)، عن الحافظ ابن حجر به.

وتقدم روايتي له بالإجازة عاليا عن شيخنا عثمان بن جمعة عن شيخه مصطفى بن سعد السيوطي، شارح الغاية، عن شيخه علي السليمي، ومحمد السفاريني النابلسي الحنبلي، عن شيخهما أبي المواهب، عن أبيه شيخ الإسلام، عبدالباقي الحنبلي المذكور، عن حجازي الواعظ به.

قال النخلي: ووقع لنا مسندًا عاليا عن الشيخ محمد بن علي بن

= خطيب سَرخْس، ولد سنة ٣٨١هـ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٤٩٢.

(١) لم أعثر على ترجمته.

(٢) ضبطه في «فهرس الفهارس»: ص ١١٢٥، (ابن أركماش) بالمعجمة، الحنفي، وهوعضد الدين محمد بن أركماس اليشبكي، التركي، الحنفي، رفيق الشيخ عبدالحق الكافيجي، أتمّ نسخ «تذكرة ابن حمدون» سنة ٨٦٨هـ. ولد سنة ٨٤٢هـ، ولم تذكر سنة وفاته.

علاء الدين الصديقي الشافعي المكي[1]، عن حجازي الواعظ، عن ابن أركماس، عن الحافظ ابن حجر به.

وأرويه أيضًا عن صاحبنا عيسى بن محمد المذكور، عن السيّد عمر[2]، عن الشيخ مصطفى بن محمد الأنصاري الأيوبي الدمشقي[3]، ثم المدني، والعلاّمتين محمد الكُزبري[4]، وأحمد بن عبيد العطار[5]؛ فالأول عن عبدالغني النابلسي، والأخيران عن الشهاب أحمد المنيني[6]، عن الشيخ عبدالغني النابلسي، عن النجم الغزي[7]، عن أبي الفتح المزي[8]،

---

(١) الظاهر أنّه ابن علاّن صاحب «دليل الفالحين شرح رياض الصالحين»، وهو محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم البكري، الصدّيقي، الشافعي، مفسّر، عالم بالحديث، من أهل مكة، ولد سنة ٩٩٦هـ، وتوفي سنة ١٠٥٧هـ، انظر الأعلام: ٦/ ٢٩٣، ولا أدري، هل قول المؤلّف: (ابن علاء الدين) خطأ منه، أم له وجه؟.

(٢) هو ابن عبدالكريم المتقدم.

(٣) هو مصطفى بن محمد بن رحمة الله بن عبدالمحسن، أبو البركات الرحمتي، الحنفي، ولد سنة ١١٣٥هـ، وتوفي سنة ١٢٠٥هـ. انظر الأعلام: ٧/ ٢٤١.

(٤) هو محمد بن عبدالرحمن بن محمد الكُزبري، الشافعي، محدّث من أهل دمشق، مولده سنة ١١٤٠هـ، ووفاته سنة ١٢٢١هـ. انظر الأعلام: ٦/ ١٩٨.

(٥) هو أحمد بن عبيدالله بن عسكر أحمد، شهاب الدين العطار، محدث الشام في عصره، ولد سنة ١١٣٨هـ، وتوفي سنة ١٢١٨هـ. انظر الأعلام: ١/ ١٦٦.

(٦) هو الشهاب، أبو العباس، أحمد بن علي المنيني، الدمشقي، الحنفي، ولد سنة ١٠٨٩هـ، وتوفي سنة ١١٧٢هـ. له ثبت بعنوان «القول السديد في متصل الأسانيد»، انظر «فهرس الفهارس»: ص ٩٧٦. وقد ضبطه المؤلّف (الميْنتي)، ويظهر أنّه خطأ.

(٧) هو محمد بن محمد بن محمد الغَزِّي، العامري، القرشي، الدمشقي، أبو المكارم، نجم الدين، ولد سنة ٩٧٧هـ، وتوفي سنة ١٠٦١هـ. انظر الأعلام: ٧/ ٦٣.

(٨) هو محمد بن محمد بن علي بن عطية العوفي، الإسكندي، المزِّي ثم العاتكي، أبو =

والجلال السيوطي[1]، والقاضي زكريا الأنصاري، عن الحافظ ابن حجر به.

وأروي أيضًا مسند النخلي، والإمداد للبصري عن صاحبنا عيسى ابن محمد، عن السيّد عمر، والشيخ حمزة[2]، والشيخ عبدالحفيظ العجيمي[3]، والشيخ محمد البناني[4]، أربعتهم عن المفتي عبدالملك القلعي[5]، عن أبيه[6]، عن جده[7]، عن البصري عبدالله بن سالم، وأحمد بن محمد النخلي المذكورين.

ولي طرق غير هذه وإجازات [ك،٦/ب] مذكورات في كتابنا[8] «التحفة الوضية في الأسانيد العالية المرضية»؛ منها إجازات في سلسلة

= الفتح، شمس الدين، الشافعي، ولد سنة ٨١٨هـ، وتوفي سنة ٩٠٦هـ. انظر الأعلام: ٧/ ٥٣.

(١) العلاّمة، المصنف، عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري، ولد سنة ٨٤٩هـ، وتوفي سنة ٩١١هـ. انظر الأعلام: ٣/ ٣٠١.

(٢) لم أعرف من هو.

(٣) هو أبو سليمان عبدالحفيظ بن درويش بن محمد بن حسن، العجيمي، المكي، القاضي، انظر «فهرس الفهارس»: ص ٨١٣.

(٤) هو محمد بن محمد بن محمد العربي، ابن عبدالسلام البنّاني، النفزي، المغربي، مفتي المالكية بمكة، توفي سنة ١٢٤٥هـ. انظر الأعلام: ٧/ ٧٢.

(٥) هو مفتي مكة في زمانه عبدالملك بن عبدالمنعم بن تاج الدين القلعي، توفي بعد ١٢١٨هـ. انظر «فهرس الفهارس»: ص ٩٠٢، ٩٠٣.

(٦) هو عبدالمنعم بن محمد بن عبدالمحسن القلعي.

(٧) هو قاضي مكة، تاج الدين محمد بن عبدالمحسن القلعي، الحنفي، الطائي، روى بمصر عام ١١٠١هـ. انظر «فهرس الفهارس»: ص ٩٧.

(٨) في [ك] و[م]: «مذكورات في الثبت»، ولم يذكر اسمه، وإنما صرح به في [ر].

المذهب الأحمد، وأوليات من جهة مشايخنا المدنيين وغيرهم، ولله الحمد والمنة.

وإني لأرجو لنا ولجميع مشايخنا والمسلمين الجنة، فله ـ تعالى وتقدس ـ الحمد وحده.

وقد سميته: «**فتح الحميد في شرح التوحيد**».

قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ: **(بسم الله الرحمن الرحيم)**

أي: أبتدىء. وأولى منه: أؤلف؛ ليشمل التيمّنُ بها جميعَ المؤلَّف. وذكر بعض المحققين أن «أَفتَتِحُ» أولى، فالباء مع مجرورها متعلق بما ذُكر؛ وذلك لأن كل فاعل يبدأ في فعلٍ بـ«بسم الله» يضمر ما جَعل التسميةَ مبدأً له، مما يناسب المقام.

والباء للاستعانة، كما في: «كتبت بالقلم». أو للملابسة، أي المصاحبة، كما في: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ [هود: ٤٨]، أي معه. قال بعضهم: وهو الأولى؛ إذ في جعل اسمه ـ تعالى ـ متبرَّكًا به من [ر،٨/ب] التعظيم ما ليس في جعله كالآلة. والأول أصح[١]، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]، وغيره من أهل العربية. ومن معانيها أيضًا الإلصاق، كـ«أمسكت بزيد». والمجاوزةُ، كـ«مررت به». والتعديةُ، كـ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٧]. والسببية، نحو ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، و﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل: ٣٢]. والمقابلةُ: «لن يدخل الجنة أحد بعمله»[٣]، وهي المعاوضة[٤].

---

(١) يعني القول بأن الباء في «بسم الله» للاستعانة.

(٢) انظر مجموع الفتاوى: ٢/ ١٨.

(٣) حديث مرفوع، مخرج في الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، انظر صحيح البخاري (ص ٢١٤٧)، كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، حديث رقم (٥٣٤٩)، وصحيح مسلم (ص ١٧٢٠)، كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، حديث رقم (٢٨١٦).

(٤) انظر معاني الباء في «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام: ص ١٣٧ وما بعدها.

وجَعْلُ المتعلَّقِ اسمًا متأخِّرًا كما في: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] أوقعُ في النفس؛ لأن في اقتضاء المقام مزيدَ اهتمام بتقديم اسمه ـ تعالى ـ، مع كونه أدخلَ على الاختصاص، وأدخلَ في التعظيم، وأوفقَ للوجود[١].

أو متقدمًا، كـ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

والاسم مشتق من السمُوّ، وهو العلُو. وهذا مذهب البصريّين[٢]، يقال: سما يسمو، أي علا، ومنه سُمّيت السماء؛ لعلوّها. ومذهب الكوفيين أنه مشتق من السمة، وهي العلامة؛ لأن الاسم وسم على المسمى، أي علامة يُعرف بها. والمذهب الأول أولى عندهم[٣] لوجوه، منها تصغيره على سُمّي دون وُسَيْم، وتكسيرُه على أسماء دون أوسام[٤].

---

(١) مقصوده أن متعلَّق «بسم الله» قُدّر متأخِّرًا لأمور: منها أنّ المقام مقام استعانة، فيقتضي تقديم المستعان به في الذكر لأهميته، ومنها أنّ ذلك أبلغ في الدلالة على الاختصاص، فكأنه قال: بسم الله أبدأ، لا باسم غيره، ومنها أن ذلك أبلغ في تعظيم الرب ـ تعالى ـ، ومنها أنه موافق لأسبقيّة وجود الربّ ـ تعالى ـ قبل كل شيء، والله أعلم.

(٢) لقد تأسس علم النحو العربي من خلال عدّة مدارس، أشهرها مدرستا البصرة والكوفة، والأولى أسبق من الثانية، ومن أشهر أئمتها: الخليلُ، وسيبويه، والأخفش الأوسط وتلاميذه، والمبرِّد وأصحابه. ومن أشهر الكوفيين: الكسائي وتلاميذه، والفرّاء، وثعلب وأصحابه. وانظر تفصيل القول على المدارس النحوية في كتاب الدكتور شوقي ضيف: «المدارس النحوية».

(٣) أي عند البصريين.

(٤) انظر «الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين»: ١/٦؛ لأبي البركات الأنباري، فقد استوفى بحث هذه المسألة ورجح مذهب البصريين.

وقد تكلم المتكلمون[1] في الاسم: هل هو عين المسمى، أو غيرُه. وعُزي الأوّل للجمهور، ورجحه تاج الدين السُّبكي[2]، وجعل مسألته مما لا يضر جهله ولا ينفع علمه؛ إذ الخلاف في هذه المسألة ـ كما قال بعضهم ـ طويل الذيل، قليل النيل.

والذي ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ أن الاسم هو عين المسمى[3]، مع أن السلامة في الإمساك عن الخوض في تلك المسالك، توقيا عن الهلاك في تلك المهالك.

وقد حذر السلف عن التعمق في مثل ذلك، كما أشار إليه إمام المفسرين، محمد بن جرير الطبري، في جزءٍ له في الاعتقاد، حيث قال: وأما القول في الاسم: أهو المسمى أم هو غير المسمى، فإنه من

---

(١) يشمل هذا الإطلاقُ كلَّ من اشتغل بإثبات العقائد الإسلامية على غير منهج السلف، القائم على التسليم المطلق لنصوص الوحي، والاستغناء بها في المسائل والدلائل، السمعية والعقلية، فخرج بذلك أهل السنّة والجماعة؛ لاعتصامهم بالوحي، والفلاسفة؛ لعدم اشتغالهم بإثبات العقائد الإسلامية أصلاً. ومن أشهر طوائف المتكلمين: المعتزلة، والأشاعرة، والماتريدية، ومن تبعهم من الخوارج والشيعة والصوفية.

(٢) هو عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي، أبو نصر، تاج الدين، ابن تقي الدين، صاحبُ «طبقات الشافعية الكبرى»، الذي تعصّب فيه للمذهب الأشعري، ولد سنة ٧٢٧هـ، وتوفي آخر سنة ٧٧١هـ. انظر الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني: ٢/ ٤٢٥.

(٣) هذا خلاف ما في مجموع الفتاوى، حيث قرر شيخ الإسلام أن هذا القول فاسد، ولا يُعرف عن أحد من السلف، بل أنكره أكثر أهل السنّة، كما أنكروا على من قال: «الاسم غير المسمى»، وبيّن ـ رحمه الله ـ أن الصواب أن يقال: «الاسم للمسمى»، وأن هذا هو الموافق للكتاب والسنة والمعقول، فلا يقال: هُوَ هُو. ولا يقال: هُوَ غيره. انظر مجموع الفتاوى: ٦/ ١٨٦، ١٨٧، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠.

الحماقات الحادثة، التي لا أثرٌ فيها فيتَّبعَ، ولا قولٌ من إمام فيُستمعَ، فالخوض فيه شَيْن، والصمت عنه زَيْن، وحسب امرىء من العلم به والقولِ فيه أن ينتهيَ إلى قول الله ـ جل ثناؤه ـ الصادق، وهو قوله ـ عز وعلا ـ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠][(١)].

ونقل تاج الدين الفزاري، المعروف بابن الفركاح[(٢)]، عن الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى، أو غير المسمى، فاشهد أنه من أهل الكلام. ونقله ابن الجوزي في التلبيس عن الإمام [ر،٨/أ] الشافعي ـ رضي الله عنه ـ وزاد: ولا دين له[(٣)]. وإنما ذكرنا ذلك للتنبيه على ما فيه، والله الموفق.

وقال شمس الدين ابن قيم الجوزية في قوله ـ تعالى ـ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٨]، وغيرهما: أي سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر اسم ربك بقلبك ولسانك، فلا يَتوهّم أحد أنّ اللفظ هو المسبَّحُ، دون ما دلّ عليه من المعنى. قال: وعبّر لي شيخُنا أبو العباس ابن تيميّة عن هذا المعنى بعبارة وجيزة، فقال ـ رحمه الله تعالى ـ: المعنى: سبِّح ناطقا باسم ربك، متكلِّمًا به، وكذا: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٥]، المعنى: سبح ربك ذاكرًا اسمه. قال ابن [ك،٦/أ] القيم: وهذه العبارة فائدتها تساوى رحلة[(٤)].

---

(١) «صريح السنة»: ص ٢٦، ٢٧.

(٢) هو عبدالرحمن بن إبراهيم بن ضياء بن سِباع الفزاري، تاج الدين، الشافعي، توفي سنة ٧٢٩هـ. انظر «طبقات الشافعية الكبرى» لابن السبكي: ٨/ ١٦٣، ترجمة رقم (١١٦٠).

(٣) «تلبيس إبليس»: ص ٨٢. ط ٢، ١٣٦٨، المنيرية.

(٤) باختصار من بدائع الفوائد: ١/ ١٩. ط المنيرية.

قلت: وهذا كثير في كلام العرب، يقحمون المضاف، ويكون دخوله وخروجه عندهم سواء، وهو يعطي أن الاسم عندهم هو المسمى[1]، لا يقصدون غيره، كقول لبيد بن ربيعة[2] ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) قد صرح ابن القيّم ـ رحمه الله ـ، في نفس الموضع الذي نقل عنه المؤلف، بأن المذهب الحق في الاسم، أنه للمسمّى، لا يقال: إنّه غيرُه، كما هو مذهب المعتزلة، ولا يقال: إنه ذات المسمى، كما هو قول بعض المنتسبين إلى السنّة، والذي دعا هؤلاء إلى هذا القول، ظنّهم أن أسماء الله ـ تعالى ـ لو لم تكن هو، لكانت مخلوقة، إذ كل ما سوى الله مخلوق، فيلزم ألا يكون لله ـ تعالى ـ اسم ولا صفة في الأزل زائدةٌ على مجرد الذات، كما هو مذهب المعتزلة، القائلين بخلق القرآن، وما تضمّنه من أسماء الله ـ تعالى ـ، والحق أن أسماء الله ـ تعالى ـ وصفاته ليست غيرَه، وليست هي نفسُ الإله، بل هو ـ سبحانه ـ لم يزل موصوفًا بصفات الكمال، المشتقة منها أسماؤه، وهو إله واحد، فهي داخلة في مسمّى اسمه، وسبب الخطأ في هذه المسألة أن لفظة «غير» في قول القائل: «الاسم غير المسمى» مجملة، تحتمل المغايرة المحضة، بين الله ـ تعالى ـ وأسمائه، فيلزم بهذا الاعتبار أن تكون مخلوقة، كما تحتمل مغايرة الأسماء للذّات، باعتبار تجرّدها منها، ومما تضمّنته من صفات، وهذا أمر ذهني، لا وجود له في الخارج حتى يلزم من إثباته إثباتُ تعدّد القدماء، وأنّ موجودًا غيرَ الله ليس بمخلوق. فالمعنى الأول باطل، ومن أجله منع السلف القول بأن الاسم غير المسمى، والمعنى الثاني حقّ، ولأجله كان إطلاق القول بأن الاسم هو المسمى فاسدًا، وهكذا فإن منهج السلامة في مثل هذه الألفاظ المجملة التوقف والتفصيل، وعدم إطلاق القول بالإثبات أو النفي، ولهذا كان الصواب في هذه المسألة الوقوف عند ما دلت عليه النصوص، من أن الاسم للمسمّى، وعدم القول بأنه هو، أو غيره، إلا بالتفصيل المذكور، الذي لا يُردّ به حق، ولا يقبل به باطل، والله أعلم. انظر التنبيه على المذاهب فيها في «مقالات الإسلاميين» للأشعري: ١/ ٢٥٢، ٢٥٣. وانظر مذهب المعتزلة في «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبدالجبار: ص ٥٤٢ـ ٥٤٤.

(٢) هو أبو عَقيل، لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، الصحابي، كان من فحول شعراء الجاهلية، وهو من أصحاب المعلقات، عمّر قريبًا من مائة =

إلى الحول ثم اسمُ السلامِ عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ[(١)]

وقول غيلان ذي الرُّمّة[(٢)]:

لا يَنْعَشُ الطرفَ إلا من تخوَّنَه داعٍ ينادِيه باسم الماء مبغومُ[(٣)]

ويقولون: قال حي فلان كذا وكذا. وفَعَل حيُ فلان كذا وكذا، يعنون فلانا نفسه. فيُقحمون «حيًا». قال الشاعر في ذلك:

يـا قُـرَّ إن أبـاكَ حـيَّ خـوَيلـدٍ قد كنتُ خائفه على الإحْمَاقِ[(٤)]

وقال الأخفش[(٥)]: سمعت أعرابيًا يقول في أبياتٍ: قالهن حيُّ رباحٍ. يعني: قالهن رباحٌ[(٦)].

= وأربعين سنة، وتوفى في خلافة عثمان على الصحيح. انظر «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي: ٢/ ٧٠، ٧١.

(١) ديوانه: ص ٢١٤، تحقيق إحسان عباس.

(٢) هو غيلان بن عقبة بن بُهيس العدوي المضري، أبو الحارث، من فحول شعراء العصر الأموي، مات بأصبهان كهلًا، سنة ١١٧هـ. انظر طبقات الشعراء لابن قتيبة: ص ٣٥٠، وسير أعلام النبلاء: ٥/ ٢٦٧.

(٣) ديوانه: ١/ ٣٩٠، بشرح الباهلي. وفيه: «إلا ما تخونه».

(٤) البيت لجبار بن سلمى بن مالك، و«قرّ» مرخم «قُرّة»، والإحماق ولادة الأحمق. انظر «شرح المفصل»لابن يعيش: ٣/ ١٣.

(٥) الأخافش المشهورون من علماء العربية ثلاثة: أكبرهم أبو الخطاب، عبدالحميد بن عبدالمجيد، والأوسط سعيد بن مسعدة المجاشعي، أبو الحسن، صاحب الخليل وسيبويه، والأصغر علي بن سليمان بن الفضل، أبو الحسن. انظر إنباه الرواة للقفطي: ٢/ ٣٦، ١٥٨، ٢٧٦. والظاهر أن أوسطهم هو المراد عند الإطلاق.

(٦) انظر «شرح المفصّل» لابن يعيش: ٣/ ١٣.

ومعنى قوله: يا قُرَّ: يقول: ياقُرةُ إن أباكَ خويلدًا قد كنت أخافُه أن يحمق ولدُه؛ يهجو قرّة بذلك.

وغيلانُ في بيته وصَفَ بُغامَ الظَّبي إذا قال: «ما»، في ثغائه، إذا بغم به ثاغيًا[1]. وقول لبيدٍ من هذا المعنى.

وقال الآخر[2]:

[تداعَيْنَ] باسمِ الشِّيبِ في [متثلِّمٍ][3]

فيفعلون ذلك لأن الاسم عندهم هو المسمى نفسُه، لا يقصدون غيره.

(الله): قالوا: هو علم على الذات المنزّهة. فهو الله المستحق لكل كمال، لذاته.

وفي «تعريفات الجرجاني[4]»: (الله): علم دال على الإله الحق،

---

(١) قال العلاّمة ابن القيّم ـ رحمه الله ـ: (وأما قوله: «باسم الماء». والماء المعروف هنا الحقيقة المشروبة.. فظنّ الغالط أنه أراد حكاية صوت الظبية، وأنها دعت ولدها بهذا الصوت، وهو: «ما»، «ما»، وليس هذا مرادَه، وإنما الشاعر ألغز، لما وقع الاشتراك بين لفظ الماء المشروب، وصوتها به، فصار صوتها كأنه هو اللفظ المعبِّر عن الماء المشروب، فكأنها تصوّت باسم هذا الماء المشروب؛ وهذا لأن صوتها: «ما»، «ما»، وهذا في غاية الوضوح).ا.هـ. من بدائع الفوائد: ١/ ٢٢. وما قرره المؤلف هنا يوافق ما في شرح ديوان ذي الرمة للباهلي.

(٢) هو غيلان ذو الرمّة، انظر ديوانه: ٢/ ١٠٧٠.

(٣) في جميع النسخ: «وداعَيْنَ باسم الشيب في متلثم»، وهو تحريف ظاهر، وما أثبته هو الصواب كما في الديوان، واللسان: ١/ ٥١٤، ٤/ ٦٧، ١٢/ ٢٩٧، ومعجم البلدان: ٣/ ٢٣٤، وتتمة البيت: جوانبه من بصرة وسلام.

(٤) هو علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني، أشعري متفلسف، له =

دلالة جامعة لمعاني الأسماء كلها[1].

وأطبق محققو المتأخرين بعده على التعبير بذلك، ولم يعتبروا قول الأستاذ القشيري[2] ـ رحمه الله تعالى ـ، في قوله: لا يطلق في وصف الله ـ تعالى ـ العَلَمُ؛ لعدم التوقيف. وإن كان الواحدي[3] قد أشار إليه.

وقد اختُلف في [ر،٩/ب] اشتقاقه على قولين: أحدهما هو مشتق، قاله سيبويه وغيرُه[4].

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: الله ذو الألوهية والعبودية[5].

ففي هذا أنه دال على صفة الإلهية.

= «شرح المواقف» وغيره، ولد سنة ٧٤٠، وتوفي سنة ٨١٦هـ. انظر الضوء اللامع للسخاوي: ٥/ ٣٢٨، والأعلام للزركلي: ٥/ ٧.

(١) التعريفات: ص ٣٤. ط ٣، دار الكتب العلمية. بيروت.

(٢) هو أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة، القشيري، الخراساني، النيسابوري، الشافعي، الصوفي، صاحب الرسالة المشهورة في التصوّف، ولد سنة ٣٧٥هـ، وتوفي سنة ٤٦٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٢٢٧.

(٣) انظر «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» له: ١/ ٦٣، ٦٤، وهو العلاّمة أبو الحسن، علي بن أحمد بن محمد بن علي، الواحدي، النيسابوري، الشافعي، صاحب التفاسير الثلاثة: «البسيط»، و«الوسيط»، و«الوجيز»، و«أسباب النزول»، كان طويل الباع في العربية، توفي سنة ٤٦٨هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٣٣٩.

(٤) انظر «الكتاب» لسيبويه: ٢/ ١٩٥، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي: ص ٢٣ـ ٢٧. وقد توسّع السمين الحلبي في ذكر الأقوال في وجه اشتقاقه، كما في الدّر المصون: ١/ ٥٦ـ ٥٩.

(٥) رواه ابن جرير في تفسيره: ١/ ٥٤، إلا أن فيه: (الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين).

والقول أن اشتقاقه يستلزم مادة يُشتق منها باطل؛ لأن اسمه ـ تعالى ـ قديمٌ أزلي، لا مادة له، فاللازم باطل[1].

والمشهور عند أهل الأصول أن اللازم للقول لا يلزم[2].

وقد استُدل على اشتقاقه من كلام العرب بقول رؤبة بن العجاج[3]:

لله درُّ الغانيات المُدَّهِ سبّحن واسترجعن من تألّهي[4]

فصرّح في هذا بلفظ المصدر، وهو التألّه. من أَلِه يأْلَه تألُّهًا.

---

(١) اختصر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ هذه العبارة من كلام ابن القيم اختصارًا فسد معه المعنى، وأوردُ لك عبارة ابن القيم لتقف على ذلك:

قال ـ رحمه الله ـ: (زعم السهيلي، وشيخه أبو بكر بن العربي، أن اسم الله غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يُشتق منها، واسمه ـ تعالى ـ قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق.

ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنّه مستمد من أصل آخر، فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى، ولا ألمّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له ـ تعالى ـ، وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم، والقدير، والغفور، والرحيم، والسميع، والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، والقديم لا مادة له، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء، فهو جواب القائلين باشتقاق اسمه «الله»). انتهى من «بدائع الفوائد»: ١/ ٢٢.

وانظر القول بمنع اشتقاق لفظ الجلالة (الله) وتوجيهه في «الكليات» للكفوي: ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) أي لا يلزم القائل، والتحقيق أنه لا يلزمه إلا أن يلتزمه. انظر مجموع فتاوى ابن تيمية: ٥/ ٣٠٦.

(٣) التميمي، الراجز، من أعراب البصرة، كان رأسًا في اللغة، توفي سنة ١٤٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٦٢.

(٤) انظر ديوانه: ص ١٦٥، تصوير دار ابن قتيبة ـ الكويت. ووقع في الأصل: «المذّه»، والصواب ما أثبته، ومعناه: المُدّح، انظر اللسان: ١٣/ ٥٤٠.

قال الفاكهي[1]: ولا خلاف أنه أعرف المعارف، وإن كان عَلَمًا. وهو اسم لم يسمّ به أحد غيرُ الله ـ تعالى ـ. ولمزيد الاعتناء تكرر في القرآن العظيم ألفي مرّة، وخمسمائة وستين مرة. انتهى. وقد ذكر معنى ذلك النوويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ[2].

(الرحمن الرحيم): صفتان مشتقّتان من الرحمة، وإن كانت مصدرَ رَحِمَ، وهو متعدٍّ. وحسّن بعضُهم قولَ بعض المحققين: إن اشتقاقَها من الرُّحْم، بمعنى الرحمة. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ٨١]. وهو مصدر رَحُم بالضم؛ إذ اشتقاقها من اللازم لا يحتاج إلى تكلف. قال البخاري: (رُحما) من الرُّحم، وهي أشد مبالغة من الرحمة، ونظن أنه من الرُّحم، ـ يعني بالضم ـ، قال: وتُدعى مكةُ أمَّ رُحْمٍ، أي: الرحمة تنزل بها[3].

قال الأعشى[4]:

وأتـانـي صـاحـبٌ ذو حـاجـةٍ ‌ ‌ ‌ ‌ واجبُ الحقِّ قريبٌ رَحِمُه[5]

---

(١) يحمل هذه النسبة عدة علماء، متقدمين ومتأخرين، ولعل المراد هنا: أبو السعادات محمد بن أحمد بن علي الفاكهي، المكي، فقد ذُكر له «رسالةٌ في اللغة»، توفي سنة ٩٨٢هـ. انظر «السحب الوابلة»: ٢/ ٨٧١، والأعلام للزركلي: ٦/ ٧.

(٢) لم أهتد إلى موضعه.

(٣) صحيح البخاري: ص ١٧٥٧، كتاب التفسير، باب ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا..﴾.

(٤) هو ميمون بن قيس، أبو بصير، من سعد بن ضُبيعة بن قيس، أحد فحول شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، هلك في العام الذي بعد صلح الحديبية. انظر «الشعر والشعراء»لابن قتيبة: ص ١٥٤.

(٥) «الصبح المنير في شعر أبي بصير»: ص ٢٥٩.

وقيل: هما اسمان بُنيا للمبالغة؛ لأنّ فَعلان أبلغ من فعيل، ومن ثَمّ لم يُسمَّ به غير الله ـ تعالى ـ، إلا ما جرى لشاعر اليمامة[1]، حيث قال منكَرًا له في مسيلمة الكذاب[2]:

وأنتَ غيثُ الورى لا زلتَ رَحْمانا[3]

وذلك من التعنّت في الكفر، نعوذ بالله السميع العليم من ذلك.

وقيل: إنّ المنع من التسمية بالرحمن، إذا كان معرّفًا[4].

وهو عربي، خلافًا لثعلب[5]، حيث قال: إنه عبراني[6].

وأطلق جماعةٌ «الرحمنَ» على مفيض جلائل النعم، و«الرحيمَ» على

---

(١) هو رجل من بني حنيفة، لم يسمّ في المصادر.

(٢) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب، الحنفي الوائلي، أبو ثمامة، من المعمرين، تلقّب بالرحمن في الجاهلية، وعُرف برحمن اليمامة، وادّعى النبوّة في السنة العاشرة من الهجرة، ووضع أسجاعًا يضاهي بها القرآن، فسمّاه النبي ـ ﷺ ـ الكذّاب، هلك في السنة الثانية عشر من الهجرة. انظر الأعلام للزركلي: ٧/ ٢٢٦.

(٣) البيت من شواهد الكشاف، انظر: «مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف» لمحمد عليان: ص ١٢٥، مع الكشاف. وأول البيت:

سموتَ بالمجدِ يا ابنَ الأكرمينَ أبًا

(٤) في [م] هنا زيادة: [بالألف واللام].

(٥) هو أبو العباس، أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار، الشيباني، النحوي، إمام الكوفيين في النحو واللغة في زمانه، ولد سنة ٢٠٠هـ، وتوفي سنة ٢٩١هـ. انظر «نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء» لابن الأنباري: ص ١٧٣.

(٦) رواه عنه الأزهري في «تهذيب اللغة»: ٥/ ٥٠، وذكره الأنباري أيضًا عن المبرّد، كما في «الزاهر»: ١/ ٥٩، والعبرانية لغة اليهود، كما في «تاج العروس»: ٢/ ٥٠٧.

دقائقها[1]، ولهذا قُدِّم الرحمن؛ لأنه أبلغ؛ إذ الزيادة في البناء تدل على زيادة المعنى، كما في: (قَطَعَ) و(قَطَّعَ).

قال شمس الدين، ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: أسماء الرب ـ تبارك وتعالى ـ هي أسماء ونعوت؛ فإنها دالّة على صفات كماله ـ جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ـ، فلا تنافيَ فيها بين العَلَميّة [ر،٩/أ] والوصفيّة له ـ سبحانه ـ، فالرحمن اسمُه ـ تعالى ـ ووصفُه، ولا تنافي اسميّتُه وصفيّتَه، فمن حيث هو صفةٌ: جُرّ تابعًا على اسمه: الله ـ تعالى ـ، [يعني كما هنا][2]. ومن حيث هو اسم: ورَدَ في القرآن العظيم غيرَ تابع. [ك،٧/ب] وُرودَ الاسم العلم، [كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ـ٤]. وقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ إلى أن قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨]]. ولما كان هذا الاسم مختصًا به ـ سبحانه ـ، حَسُن مجيئه مفردًا غيرَ تابع كمجيء اسمه: «الله» ـ تعالى ـ. وهذا لا ينافي دلالته على صفة «الرحمن»[3]، كاسمه (الله)، فإنه دال على صفة الألوهية، ولم يجيء قطُّ

---

(١) هذا موافق لمذهب المتكلمين، في تأويل الرحمة بالإنعام، أو بإرادة الإنعام، ونفي اتصاف الله ـ تعالى ـ بها على الحقيقة، بزعم أن الرحمة رقّة تعتري القلب، وهذا من صفات المخلوق، فيجب تنزيه الخالق عنها، انظر مثلاً «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للقرطبي: (١/ ٦٨، ٦٩، ٧٠). و«الكشاف» للزمخشري: (١/ ٧). وإذا كان هذا لازم رحمة المخلوق، فأهل السنة لا يجعلون صفاتِ الخالق كصفاتِ المخلوق، حتى تلزم صفاتِه لوازمُ صفات المخلوق، بل القول عندهم في الصفات، كالقول في الذات. انظر «مختصر الصواعق المرسلة»: ص ٢٩٨ـ ٣٠١.

(٢) أي في البسملة، وما بين [ ] من كلام ابن منصور.

(٣) كذا في جميع النسخ «صفة الرحمن»، ويبدو أن صوابها: [صفة الرحمة].

تابعًا لغيره، بل متبوعًا[1].

قلت: ومن زعم أنه أتى تابعًا لغيره تبوعَ الصفة للموصوف، مستدِلاً بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٢]، على قراءة الجر[2]، فقد أبعد النجعةَ ولم يدر ما يقول؛ فإن قول المفسرين والنحويين إلا من شذّ دائر في ذلك بين أن يكون بدلاً، كما يقوله ابن مالك، وابن هشام، وأبو البقاء[3] في كتاب «التبيان في إعراب القرآن»[4]، وقاله الفاكهي.

قال الفاكهي: ويسمى عند ابن مالك البدلَ المطابق؛ لوقوعه في اسم الله ـ تعالى ـ، نحو: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ﴾، في قراءة الجر؛ فإن «الله» بدلٌ من العزيز، بدلٌ مطابق. ولا يقال فيه: بدل كل من كل؛ إذ «كل» إنما يقال فيما ينقسم ويتجزّأ، تعالى الله عن ذلك[5].

---

(١) بدائع الفوائد: ١/ ٢٤، وما بين [ ] زيادة على ما هناك.

(٢) وهي قراءة السبعة عدا نافعًا وابن عامر، فقد قرآ: ﴿الحميدِ، اللهُ﴾ بالرفع. انظر السبعة لابن مجاهد: ص ٣٦٢.

(٣) هو عبدالله بن الحسين بن عبدالله بن الحسين، محبّ الدين، البغدادي، العكبري، الضرير، النحوي، الحنبلي، ولد سنة ٥٣٨هـ، وتوفي سنة ٦١٦هـ. انظر «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي: ٢/ ٣٨، ترجمة رقم (١٣٧٥).

(٤) انظر: ٢/ ٧٦٢.

(٥) الانقسام والتجزؤ والتبعيض والتركيب، ونحو ذلك من الألفاظ المجملة، الواجب عدم استعمالها في حق الله ـ تعالى ـ نفيًا أو إثباتًا، إلا مع التفصيل، وبيان المراد منها، لاحتمال أن يراد بنفيها نفي الصفات الإلهية الثابتة في النقل الصحيح، كالوجه واليدين، باعتبارها تستلزم التركيب والتبعيض، كما هو مذهب الجهمية ومن تبعهم، وانظر «شرح حديث النزول» لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص ٨٨، والردّ على المنطقيين له: ص ٣١٥، و«الصواعق المرسلة» لابن القيم: ١/ ٩٣٢، ٩٣٥.

فالتعبير بالمطابق أولى من تعبيرهم؛ لاطّرادها وصدقها على ما يصدق عليه تعبيرهم. وحكى ابن هشام نحو ذلك. فإنه قال في البدل الأول: بدل كل من كل، وهو بدل الشي مما هو طبق معناه. قال: وسمّاه الناظمُ(١) البدلَ المطابق؛ لوقوعه في اسم الله ـ تعالى ـ، نحو: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ﴾ فيمن قرأ بالجر، وإنما يطلق على ذي أجزاء، وذلك ممتنع هنا(٢).

وهكذا قال محمدٌ الحطابُ المالكي(٣)، قال: ولا يحتاج هذا البدل إلى رابط بالمبدل منه؛ لاتحادهما.

وقال أبو عمرو بن العلاء(٤): الخفض على التقديم والتأخير، تقديره: إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السموات وما في الأرض. كما يقال: مررت بالظريف عبدِالله(٥). واستدل بقول الشاعر:

لو كنتَ ذا نَبلٍ وذا [شزيبٍ] ما خِفتَ شدّاتِ الخبيثِ الذيبِ(٦)

---

(١) يعني ابنُ هشام بالناظم: العلامة محمد بن عبدالله بن مالك الأندلسي، ناظم الألفية المشهورة في النحو، توفي سنة ٦٧٢هـ.

(٢) «أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك» لجمال الدين ابن هشام الأنصاري: ٣/ ٤٠١.

(٣) هو محمد بن محمد بن عبدالرحمن الرعيني، المالكي، المكي، أبو عبدالله، المعروف بالحطاب، فقيه متصوف، له شرح على الورقات، ولد سنة ٩٠٢هـ، وتوفي سنة ٩٥٤هـ. انظر الأعلام: ٧/ ٥٨.

(٤) هو زِبّان بن عمار بن العريان التميمي، ثم المازني البصري، شيخ القراء والعربية، توفي سنة ١٥٧هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ٦/ ٤٠٧.

(٥) ذكر هذا عنه الطبري في تفسيره: ١٣/ ١٧٩، ١٨٠.

(٦) أنشده في «الفائق»: ٢/ ٢٤٣، ولم يسم قائله، وقد كتب في جميع النسخ (شذيب) بالذال، والصواب (شزيب) بالزاي، وهو من أسماء القوس، انظر «تاج =

فيكون على هذا متبوعًا في الحقيقة، والمعنى ظاهر، وهو كثير في كلام العرب.

[ر، ١٠/ب] أو يكون عطف بيان[١]، كما يقوله البيضاوي[٢] وجماعة. وقد ذكر القولين: عطفَ البيان والبدلِ، الجلالُ السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في «الجلالين»[٣].

وذلك لا يدخل في الصفة، فقد ذكر علماء هذا الفن حدّ البدل وعطفِ البيان، فقالوا: عطف البيان: أن يكون موضّحًا للمعارف، مكمّلا للمتبوع المقصود بالحكم، مشبَّهًا بالصفة[٤]، أو مخصّصًا للنكرات.

وهو في اللغة: الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه.

فالبدل وعطف البيان متفقان محلاً، مختلفان قصدًا، فعطف البيان لقصد إيضاح المحكوم عليه، أو تخصيصِه مع بقاء تعلّق القصد إليه، من ذلك الاسم السابق.

= العروس» للزبيدي: ٣/ ١٢٥، وهو كذلك في تفسير الطبري.

(١) هذا تتمة قوله قبل صفحتين: (فإن قول المفسرين والنحويين إلا من شذ دائر في ذلك بين أن يكون بدلاً..).

(٢) انظر تفسيره مع حاشية الشهاب: ٥/ ٢٥٠.

(٣) لا يُلتفت إلى قول صاحب «كشف الظنون» (١/ ٤٤٥): إن تفسير الجلالين من أوله إلى آخر الإسراء للجلال المحلّي، وما بعده للسيوطي. بل الصواب أن المحلّيّ ابتدأ تفسيره من أول الكهف إلى آخر الناس، ثم بدأ بالفاتحة، وتوفي بعد تمامِها، فكمل السيوطي ما بقي، ابتداءً من البقرة إلى آخر الإسراء. هذا ما يدل عليه كلام السيوطي في مقدّمة هذا التفسير، وفي آخر تفسير الإسراء. انظر «التفسير والمفسرون» للدكتور محمد حسين الذهبي: ١/ ٣٣٤، ٣٣٥.

(٤) في جميع النسخ: (مشبه بالصفة)، والمثبت هو الصواب.

والبدل في اللغة هو العوض، تابع مقصود بالحكم بلا واسطة. وهو يقصد به تقويةُ نسبة الحكم إلى ذلك المحكوم عليه، بذكر اسم آخر له، مع قطع تعلّق القصد إليه من الاسم الأوّل السابق، حتى كأنّ المتكلمَ قد أعاد ذكر النسبة إلى ذلك المحكوم عليه، سواء كان مرفوعًا أو منصوبًا أو مجرورًا.

ويُزاد إيضاحًا بأن الأصل في البدل أنه إنما يؤتى به عند عدم معرفة المحكوم عليه من ذلك الاسم، لا لقصد إيضاح ذلك الاسم، بل مع قصد الإعراض، والإتيان ببدله عوضًا عنه، ومن ثَمَّ سُمي بدلاً؛ لأنه بدال الأول، وعطف البيان مبيِّنُه.

قال الزمخشري[1]: عطف البيان هو اسمٌ غير صفة، يكشف عن المراد، جارٍ مجرى الترجمة عن الشيء.

وقال الرضيّ[2]: وأنا إلى الآن لم يظهر لي فرق بين بدل الكل وبين عطف البيان، بل لا أرى عطف البيان إلا بدل الكل، كما هو ظاهر من كلام سيبويه[3].

قال[4]: وما قالوا من أن الفرق بينهما أن البدل هو المقصود بالنسبة دون متبوعه، بخلاف عطف البيان، فإنه بيان، والبيان فرع المبيَّن، فيكون المقصود

---

(١) انظر كتابه «المفصّل في علم اللغة»: ص ١٤٩.

(٢) هو رضي الدين، محمد بن الحسن الأستراباذي، توفي سنة ٦٨٨هـ. انظر بغية الوعاة: ٥٦٧، الأعلام للزركلي: ٦/ ٨٦.

(٣) انظر شرح الرضي عل الكافية: ٢/ ٣٧٩، و«الكتاب»: ٢/ ١٩٠.

(٤) انظر شرح الكافية: ٢/ ٣٨٠ والمؤلف ينقل بتصرف واختصار.

هو الأول. فالجواب: أنا لا نسلّم أن المقصود في بدل الكل هو الثاني فقط [كما][1] قال ابن الحاجب[2].

وقال بعض المحققين في جواب الرضي: الظاهر أنهم لم يريدوا أن البدل ليس مقصودًا بالنسبة أصلاً، بل أرادوا: ليس مقصودًا أصليًا. والحاصل أن قولك: جاءني أخوك زيدٌ. إن قصدت فيه الإسناد إلى الأول، وجئت بالثاني تمييزًا أو توضيحًا له، فالثاني عطف بيان. وإن قصدت فيه الإسناد إلى الثاني، وجئت بالأول توطئة له، ومبالغةً في الإسناد، فالثاني بدل. وحينئذٍ يكون التوضيح الحاصل [ر،١٠/أ] به مقصودًا تبعًا، والمقصود أصالته، وهو الإسناد إليه [ك،٧/أ] بعد التوطئة. فالفرق ظاهرٌ.

قال الزمخشري: ولِيُفادَ أيضًا بمجموع الاسمين فضلَ تأكيد وتبيينٍ لا يكون في الإفراد. (وقال سيبويه): وقولهم: «إنه في حكم تنحية الأول» إيذانٌ منهم باستقلاله بنفسه، ومفارقته التأكيد والصفة، في كونهما تمييزًا لما يتبعانه، لا أن يعنوا إهدار الأول واطراحه[3].

---

(١) ليست في شيء من أصول الكتاب، وإضافتها ضرورية لاستقامة الكلام؛ إذ بدونها تكون العبارة هكذا: (قال ابن الحاجب: وقال بعض المحققين في جواب الرضي..) وهذا لا يستقيم؛ لأن ابن الحاجب هو صاحب الكافية التي شرحها الرضي. والرضي يتعقبه في الشرح في تعريفه للبدل بقوله (البدل تابع مقصود بما نسب إلى المتبوع دونه). وكلام الرضي في هذا النقل ينتهي عند قوله: (فقط)، وما بعده من كلام المؤلف، ولا شك أنه أخل في اختصار جواب الرضي.

(٢) هو أبو عمرو جمال الدين، عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، الكردي، الدويني، المالكي، الأصولي، الفقيه، النحوي، صاحب التصانيف، ولد سنة ٥٧٠هـ، وتوفي سنة ٦٥٦هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ٢٦٤.

(٣) «المفصّل»: ص ١٤٨، وقد وهم المؤلف ـ رحمه الله ـ بقوله: (وقال سيبويه)، فإن الكلام كلّه لكن تخلّله قولٌ لسيبويه، أخذ المؤلف ما بعده ظانًّا أنه من كلامه، =

وقد تبين بهذا أن قول من استدل بمجيئه تابعًا لغيره، مجيء الصفة لمتبوعها، بهذه الآية، قول واهٍ[1]، لا متعلَّق له بهذا الاستدلال من السياق البتة، وذلك لا يخفى من كلامهم كما تقدم لك، فعُلم بذلك صحة قول شمس الدين ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ: إن اسمه «الله»، مع كونه دالاً على صفة الألوهية، لم يجيء قط تابعا لغيره، بل متبوعًا، بخلاف مجيء «العليم» و«القدير» و«السميع» و«البصير»، ونحوها. قال ـ رحمه الله تعالى ـ: ولهذا لم تجيء هذه مفردة، بل تابعة، فتأمل هذه النكتة البديعة، يظهر بها أن «الرحمن» اسم وصفة[2].

وقد قرر لي هذا المعنى شيخنا محمد الشعاب الأنصاري المدني[3]، وإبراهيم الضرير اليماني[4] ـ رحمهما الله تعالى ـ على هذا المقام، حال قراءتي عليهما.

قال شمس الدين ابن القيم: ولا ينافي أحدُهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا[5].

قال[6]: وأما الجمع بين «الرحمن» و«الرحيم»، ففيه معنىً أحسنُ

= وليس كذلك، كما يظهر بالمقارنة مع «الكتاب لسيبويه»: ١/ ١٥٠.

(١) ممن قال بذلك صاحب «تيسير العزيز الحميد»: ص ٣٢.

(٢) «بدائع الفوائد»: ١/ ٢٤.

(٣) سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص٥٧.

(٤) لم أجد له ترجمة.

(٥) «بدائع الفوائد»: ١/ ٢٤.

(٦) بعد الكلام السابق مباشرة.

مما ذكر، وهو أن «الرحمن» دال على الصفة القائمة به ـ سبحانه ـ، و«الرحيم» دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دالٌّ على أنه يرَحِمُ خلقَه برحمته، فإذا أردت فهم هذا، فتأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجيء قط: رحمانٌ بهم، فعُلم أن «رحمان» هو الموصوف بالرحمة، و«رحيم» هو الراحم برحمته. وهذه النكتة لا تكاد تجدها في كتاب[1].

قال أبو البقاء: فالرحمن بمعنى الرزاق للخلق في الدنيا على العموم، و«الرحيم» بمعنى العافي عنهم في الآخرة، ولذلك يُدعى غيرُ الله رحيما، ولا يُدعى رحمانا، فالرحمن عام المعنى خاص اللفظ، والرحيم عام اللفظ، خاص المعنى. إذا علمت ذلك، فيطلق «الرحيم» مُنَكَّرًا على غير الله ـ سبحانه ـ، وإن لم يُضف، كرحيم القلب. وقد نطق القرآن بذلك في قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، بخلاف الرحمن، كما تقدم. [ر،١١/ب] وجرّهما على الصفة، والعامل في الصفة هو العامل في الموصوف. وقال الأخفش: العامل فيهما معنوي، وهو كونهما تبعًا[2].

قلت: وكان شيخنا إبراهيم الفاسي المغربي[3] يميل إلى ذلك،

---

(١) «بدائع الفوائد»: ١/ ٢٤.

(٢) لم أجد في كتابه «التبيان في إعراب القرآن»: ١/ ٤، ممّا نقله المؤلّف من كلامه هنا إلا آخره، من قوله: وجرّهما على الصفة. . . فالله أعلم إن كان نقل من موضع آخر في هذا الكتاب، أو من كتاب آخر له، فقد ذكر له كتاب في التفسير.

(٣) لم أعثر له على ترجمة.

ويجوّز نصبهما، على إضمار «أعنى»، ورفعَهما على تقدير «هو». وفيهما أوجه غير ذلك، مُنع منها وجهان، وذلك في قول الشاعر:

أن يُنصبَ «الرحمن» أو يرتفعا فالجرّ في «الرحيم» قطعا مُنعا[1]

وروى الأصفهاني[2] في «الترغيب»[3] بسند صحيح مرفوعًا: «اللهم إني أسألك باسمك، بسم الله الرحمن الرحيم».

وذكر النسفي[4] في تفسيره، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: «بسم الله الرحمن الرحيم» مسهلة للوعور، مجنّبة للشرور، شفاء لما في الصدور، أمان يوم النشور. انتهى[5].

وفيها من الفضائل وردع الشياطين عن الأذى والخطرات والوساوس، كما ورد ذلك فيما تضمنته الأحاديث الصحيحة، الشهيرة المنيرة، ما لا يحصى كثرة:

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) هو الإمام الحافظ قَوّام السنّة، أبو القاسم، إسماعيل بن محمد بن الفضل، التيمي، الأصبهاني، توفي سنة ٥٣٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٨٠.

(٣) «الترغيب والترهيب» برقم (١٢٤٠)، (٢/ ٥١٤). عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ، وأوله: «من كانت له إلى الله حاجة. . .». وأخرجه أيضاً عبدالغني المقدسي في كتاب «الترغيب في الدعاء» برقم ٥٨، والضياء المقدسي في «العدّة للكرب والشدّة» برقم ٤٣، كلهم من طريق محمد بن أحمد بن يزيد الرياحي، عن إبراهيم بن سليمان المؤدب، عن سعيد بن معروف، عن عمرو بن قيس، عن أبي الجوزاء، عن عبدالله بن عمرو. وسعيد بن معروف مضعّف كما في «لسان الميزان»: ٣/ ٤٣.

(٤) هو أبو البركات، عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي، توفي سنة ٧٠١هـ. انظر «الدرر الكامنة»: ٢/ ٢٤٧.

(٥) لم أعثر عليه عند النسفي ولا غيره.

منها ما عند الإمام أحمد[1]، والترمذي[2]، وأبي داود[3]، وابن ماجه[4]، بسند حسن، وقيل: صحيح، عن علي ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم، إذا دخل أحدهم الخلاءَ أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم»[5].

وهو عند الطبراني في «الأوسط»[6]، وفيه: «إذا وضع أحدهم ثوبه»، بدل: «إذا دخل أحدهم الخلاء»، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، بإسنادين، أحدهما فيه سعيد بن مسلمة الأموي، ضعفه البخاري[7] وغيره[8]، ووثقه ابن حبان[9]، وبقية رجاله موثقون.

قال الحكيم الترمذي[10]: وإنما يمتنع المؤمن من هذا العدو بإمساك هذا الستر، فينبغي عدمُ الغفلة عنه؛ فإن للجن اختلاطًا بالآدميين، في نسائهم وطعامهم وأحوالهم، فإذا أحب الآدمي أن يطرد

---

(١) لم أجده في المسند.

(٢) سنن الترمذي: ٢/ ٥٠٣، (٦٠٦).

(٣) لم أجده في السنن.

(٤) سنن ابن ماجه: ١/ ١٠٩، (٢٩٧).

(٥) صحّحه الألباني في «إرواء الغليل»: (١/ ٨٧، ٨٨) برقم (٥٠).

(٦) المعجم الأوسط: ٧/ ١٢٨.

(٧) انظر «التاريخ الكبير»: ٣/ ٥١٦، رقم (١٧٢٤).

(٨) انظر «تهذيب التهذيب»: ٤/ ٧٤.

(٩) انظر «الثقات»: ٦/ ٣٧٤، ٣٧٥.

(١٠) هو أبو عبدالله، محمد بن علي بن الحسن بن بشر، الصوفي، اتّهم بالكفر؛ بسبب تصنيف كتابي «ختم الولاية»، و«علل الشريعة»، وأنه يفضل الولاية على النبوة، توفي سنة ٣١٨ تقريبًا. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٤٣٩.

الجني عن مشاركته، فليقل: بسم الله. فإن اسم الله طابع على جميع ما رزق الله ابنَ آدم، فلا تستطيع الجن فكاك ذلك الطابع(١).

والمقصود أن المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ افتتح بها كتابه كغيره، تأسيًا بالكتاب العزيز، وعملاً بقوله ـ ﷺ ـ فيما رواه أبو داود(٢) وغيره، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «كل كلام لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم». وفي رواية: «بالحمد لله». قال الخطّابي: معناه: المنقطع، الذي لا نظام له(٣).

وهو بمعنى منقطع البركة. قال الأعشى(٤): [ر،١١/أ]

أتتــرك غــانيــةً أم تُلِــمّ   أم الحبــلُ واهٍ بهــا مُنْجَــذِمْ(٥)

وفسّره أبو عبيد في قوله: «لقي اللهَ وهو أجذم»، بالمجذوم: المقطوع اليد. واستشهد بحديث لعلي ـ رضي الله عنه ـ، رواه بسنده عنه: (من نكث بيعته لقي اللهَ يوم القيامة أجذمَ، ليست له يد)(٦). وقولِ المُتلمِّس:

---

(١) لم أجده بنصه في «نوادر الأصول»، وإنمافيه بعض معناه، في الأصل (٧٦) «في منع الشيطان من المشاركة في كل شيء». انظر «نوادر الأصول»: ١/ ٢٥٤، ٢٥٥.

(٢) كتاب الأدب «باب الهدي في الكلام، (٤/ ٢٦١)، برقم (٤٨٤٠)، بلفظ: «لا يبدأ فيه بالحمد لله». وقد ضعّفه الألباني في «إرواء الغليل»: (١/ ٣٠)، برقم (٢).

(٣) «معالم السنن»: ٧/ ١٨٩، مع مختصر المنذري، وتهذيب ابن القيم.

(٤) كتب في الطرة عند هذا الموضع: [بلغ مقابلة على أصله فصح على يد مصنفه عفى الله عنه].

(٥) ديوانه: ص ٢٨. وفيه «أتهجر» مكان «أتترك».

(٦) انظر «غريب الحديث»: ٣/ ٤٨.

وهل كنتُ إلا مثلَ قاطعِ كفِّهِ   بكفٍّ له أخرى فأصبحَ أجذما[1]

[ك،٨/ب] وقال ابن الأعرابي: هو كناية عن الخلُوِّ عن الخير[2].

وقيل: لا حجة له.

وقال ابن قتيبة[3]: الأجذم بمعنى المجذوم. ومنه قوله: «من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله وهو أجذم»[4]. أي مقطوع البركة.

وفي بعض روايات هذا الحديث[5]: «والصلاة علي»[6]. وفي لفظ: «فهو أبتر»[7]. وحسّن هذا الحديثَ ابنُ الصلاح[8]، وغيرُه من أهل الحديث.

وفي جامع الخطيب، عن أبي جعفر مرسلاً: «إنها مفتاح كل كتاب»[9].

---

(١) ديوان المُتلمِّس الضُّبَعِي: ص ٣٢. تحقيق الصيرفي. والبيت فيه:
وما كنت إلا مثل. . .

(٢) لم أجد مصدره.

(٣) في كتابه: «إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث»: ص ٨٠.

(٤) رواه بنحوه أحمد في المسند عن سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ: ٥/ ٢٨٤، والدارمي في سننه: ٢/ ٤٣٧، كتاب فضائل القرآن، باب من تعلم القرآن ثم نسيه، برقم (١٤٧٤)، ولفظ هؤلاء جميعًا: «ما من امرىء يقرأ القرآن ثم ينساه. . .» الحديث. وقد ضعفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة: ٣/ ٥٢٩، ٥٣٠، برقم (١٣٥٤).

(٥) يعني حديث «كل كلام لا يُبدأ ببسم الله. . .» المتقدم.

(٦) وهي رواية الرهاوي في «الأربعين»، انظر «كشف الخفاء»: ٢/ ١٥٦.

(٧) انظر المسند: ٢/ ٣٥٩، والكبرى للنسائي: ٦/ ١٢٨، (١٠٣٣١).

(٨) كما ذكر عنه السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»: ١/ ٩.

(٩) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي: ١/ ٤٠٧، فقرة (٥٤٧)، والحديث ضعيف جدًّا، كما في السلسلة الضعيفة للألباني: ٤/ ٢٢٦، برقم (١٧٤١).

وأورده النووي عن سنن ابن ماجه[١]، ومسند أبي عوانة الإسفرائيني[٢]، المخرج على صحيح مسلم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: وروينا هذه الروايات كلها في كتاب «الأربعين»، للحافظ عبدالقادر الرُّهاوي. وهو حديث حسن[٣]. وقد روي موصولاً كما ذكرنا، والحكم للاتصال عند الجمهور؛ إذ زيادة الثقة في حكم الإثبات مقبولة عندهم[٤].

قال ـ رحمه الله تعالى ـ: **(الحمد لله)**: ثابت، أو مملوك، أو مستحَق. واللام والألف للاستغراق. قال صاحب[٥] «المطلع»: وهو الثناء على الله بجميع[٦] صفاته، وبينه وبين الشكر عموم وخصوص، فعمومه أنه يكون لمسدي النعمة ولغيره، وخصوصه بأنه لا يكون إلا باللسان. وعموم الشكر بأنه يكون بغير اللسان، وخصوصه بأنه لا يكون إلا لمسدي النعمة. قال الشاعر[٧]:

---

(١) (١/ ٣٤٩) أبواب النكاح، باب خطبة النكاح، برقم (١٩٠١).

(٢) لم أعثر عليه في المطبوع.

(٣) انظر شرح صحيح مسلم للنووي: ١/ ٤٣. وليس فيه عزو إلى مسند أبي عوانة كما يوهم النقل هنا، والرهاوي هو الحافظ الرحّال، محدّث الجزيرة، أبو محمد، عبدالقادر بن عبدالله بن عبدالرحمن الرُّهاوي، الحنبلي، السفّار، ولد سنة ٥٣٦هـ، وتوفي سنة ٦١٢هـ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٧١.

(٤) انظر «مقدّمة ابن الصلاح»: ص ٢٥١، بتحقيق د. عائشة عبدالرحمن.

(٥) هو الإمام أبو عبدالله، شمس الدين، محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي الحنبلي، ولد سنة ٦٤٥هـ، وتوفي سنة ٧٠٩هـ. انظر «المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد» لبرهان الدين بن مفلح: ٢/ ٤٨٥. برقم (١٠٤٢).

(٦) في المطبوع من «المطلع»: بجميل.

(٧) لم أتعرف عليه. والبيت في غريب الحديث للخطابي: ١/ ٣٤٦، والفائق للزمخشري: ١/ ٣١٤, وقبله في «مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف» للمرزوقي:

وما كان شكري وافيا بنوالكم ... ولكنني حاولت في الجهد مذهبا

أفـادتكـم النعمـاءُ منـي ثـلاثـةً ... يدي ولساني والضميرَ المحَجّبا[1]

ومعناه للفاكهي.

قال القاضي أبو الفرج، علي بن الحسين الأصبهاني[2]، في مجالسه: تقول العرب: شكرتُ النعمة. وشكرتُ للمنعم. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾[3] [النحل: ١١٤]، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقد جاء: شكرتُ فلانًا، في لغة قليلة، وهو يدل أن الشكر لا يكون إلا في مقابلة النعمة، ومن ذلك قول الشاعر [ر،١٢/ب]:

هموا جمعوا نُعمي وبؤسي عليكمُ ... فهلّا شكرتَ القوم إذ لم تقاتلِ

وقال أبو نخيلة السعدي[4]:

شكرتك إن الشكر حبل من التقى ... وما كلُّ من أوليتَه نعمة يقضي[5]

وبالجملة فالحمد أخص موردًا، وأعم متعلقًا؛ إذ مورده اللسان وحده، ومتعلَّقه النعمة وغيرها. والشكر بالعكس. ويتحقق تصادقهما

---

(١) «المطلع على أبواب المقنع»، مطبوع في آخر «المبدع»: ١١/ ٢.

(٢) الأموي، الشيعي!، الأخباري، صاحب كتاب «الأغاني»، توفي سنة ٣٥٦هـ، وعمره ٧٢ عامًا. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٢٠١. ولم أقف على مجالسه.

(٣) في الأصل كتبت الآية: واشكروا نعمة الله عليكم. وزيادة «عليكم» خطأ.

(٤) هو أبو نخيلة ـ وهو اسمه، وكنيته: أبو الجنيد ـ ابن حزن بن زائدة بن لقيط بن هِدْم، الحِمّاني، السعدي، التميمي، قتل نحو سنة ١٤٥هـ. انظر «خزانة الأدب للبغدادي»: ١/ ٧٩، ٨٠، والأعلام للزركلي: ٨/ ١٥.

(٥) البيت في الأغاني: ٢٠/ ٤٠٥.

بالثناء باللسان على الإحسان، وتفارقهما في صدق الحمد فقط على الثناء في مقابلة العلم والشجاعة، والشكر فقط على الثناء بالجنان، وسائر الأركان بعد اللسان، مقابلاً للإحسان.

وقيل: الحمد والشكر مترادفان. أي: متحدان في اللغة. قلت: وفي ذلك يقول علقمة الفحل التميمي، راوية امرىء القيس بن حجر:

والحمد لا يُشترى إلاّ لهُ ثمنٌ   مما يَضِن به الأقوامُ معلومُ[1]

وقال الحطيئة:

تزور امرأً يؤتي على الحمدِ مالَهُ   ومن يؤتِ أثمانَ المحامدِ يُحمَدِ[2]

وهذا صريح، وأصرح منه قول ماويّة بنت كعب[3]، ترقّص ابنها سامة[4] بن لؤي بن غالب، فيما أنشده السهيلي[5]:

وإنّ ظنّي ببُنَيَّ إن كَبَنْ   أن يشتري الحمدَ ويُغْلي بالثمنْ

يقال: كبَن الصبي، وأكبن: إذا اشتد[6].

(١) ديوانه: ص ٦٥، ط دار الكتاب العربي.
(٢) ديوانه: ص ٨٠. الخانجي.
(٣) هي ماويّة بنت كعب بن القين بن جسْر، من قضاعة، وكانت تحب سامة أكثر من إخوته. انظر «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/ ٩٦.
(٤) هو أخو كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، جدِّ النبي ـ ﷺ ـ السابع، انظر خبره في «السيرة النبوية»: ١/ ٩٧.
(٥) «الروض الأنف»: ١/ ٤٠٩ـ ٤١٠
(٦) انظر «تهذيب اللغة»: ١٠/ ٢٨٣، ٢٨٤.

وقيل: الحمد مختص بالقول، والشكر بالفعل. يدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقوله: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

وقال أبو السعادات[١]: الحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمهما؛ لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته. و«الحمد رأس الشكر، ما شكر اللهَ عبد لا يحمده»[٢]، كما أن كلمة الإخلاص رأس الإيمان، وإنما كان رأسَ الشكر لأنَّ فيه إظهارَ النعمة، [والإشادةَ بها، ولأنها][٣] أعمُّ منه، فهو شكر وزيادة. انتهى[٤].

وقد نص الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ على أن يقدِّم المرء بين يدي خُطبته ـ بضم الخاء المعجمة ـ وكلِّ أمر طلبَه حمدَ الله ـ سبحانه ـ والثناءَ عليه، والصلاةَ على رسوله ـ ﷺ ـ[٥]، وهذا هو هدي سلف صالح الأمّة المقتدى بهم في السنة.

(ربِّ): الربُّ هو المالك ـ سبحانه ـ، ولا يستعمل لغير الله ـ تعالى ـ

---

(١) هو مجد الدين، أبو السعادات، المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني، الجزري، الكاتب، ابن الأثير، صاحب «جامع الأصول»، و«النهاية في غريب الحديث»، ولد سنة ٥٤٤هـ، وتوفي سنة ٦٠٦هـ. انظر السير: ٢١/ ٤٨٨.

(٢) ما بين « » لفظ حديث أخرجه عبدالرزّاق في مصنّفه: ١٠/ ٤٢٤، برقم (١٩٥٧٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: ٤/ ٩٦، ٩٧، برقم (٤٣٩٥)، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع»: ص ٤١١، برقم (٣٥٢٨). وفي «النهاية في غريب الحديث» قبله عبارة: (ومنه الحديث).

(٣) في الأصل: [والإشارةَ بها؛ لأنها]، وما أثبتّه من «النهاية».

(٤) «النهاية في غريب الحديث»: ١/ ٤٣٧.

(٥) انظر «الأم»: ٥/ ٣٨.

إلا بالإضافة لمن لا يعقل، كربّ الغُنيمة والصُريمة[1]، [ر،١٢/أ] وكرب الدار والمال، ورب الإبل. وسيأتي في بابه إنشاء الله ـ تعالى ـ.

(العالمين): مجرور بالإضافة. وقيل: بالمضاف. قال شيخنا إبراهيم الضرير اليماني: وهو الأصح[2].

وهو جمع صحيح، واحدهم: عالَم. والعالَم: اسم موضوع للجمع، لا واحد له من لفظه، قاله أبو البقاء في «إعراب القرآن العظيم»[3].

واشتقاقه من العلم عند من خص «العالَم» بمن يعقل، ومن العلامة عند من جعله لجميع المخلوقات.

قال عماد الدين ابن كثير في تفسيره: والعوالم أصناف المخلوقات، وكل قرن وجيل يسمى عالمًا. انتهى[4].

فهو ـ سبحانه ـ يذكر العالمين، ويراد به جميع أصناف المخلوقات، وقد يراد به الآدميون، كما في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥]، وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٨٠]. فقد عُلم أنهم لا يأتون البهائم، ولا الجن.

---

(١) تصغير (صِرْمة)، وهي القطيع من الإبل، أو هي (الصَّريمة) بالفتح، الأرض المحصود زرعها. انظر «مقاييس اللغة»: ٣/ ٣٤٥، مادة (صرم).

(٢) وهو قول سيبويه والجمهور من المتأخرين، ولم أجده في «الكتاب» في الموضع الذي أشار إليه الفهرس، وهو: ١/ ٤٢، وفي المسألة أربعة أقوال، انظر «أوضح المسالك» لابن هشام مع حاشيته «عدّة السالك» لمحمد محي الدين عبدالحميد: ٣/ ٨٤.

(٣) «التبيان في إعراب القرآن»: ١/ ٥.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: ١/ ١٣١، باختصار.

وقد يراد بالعالمين أهل زمن واحد، كقوله: ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾ [الدخان: ٣٢].

[ك،٨/أ] وقولُه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣]، يحتمل جميع أنواع المخلوقات، ففيه تفضيل بني آدم على الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد: على بني آدم فقط، فيكون فيه تفضيل النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ببيانه بأنه هو المختار من آل إبراهيم ـ عليهم السلام[1] ـ.

إذا علمت أنه ـ سبحانه ـ الذي أبدأ الموجودات، وهو ربها ومالكها، فاعلم أنه الذي يبيدها، ثم يعيد العالمين خلقًا جديدًا، فإليه يُرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه.

(وأشهد): أي: أعلم وأتحقق. ومنه قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، أي: تيقّن.

---

(١) إن أراد ترتيب تفضيل النبي ـ ﷺ ـ على الاحتمال الثاني دون الأول فلا وجه له؛ بل هو مفضل على الاحتمالين، والمؤلف هنا يشير إلى ما رواه واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إن الله ـ عز وجل ـ اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من بني قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». أخرجه أحمد في مسنده: ٤/ ١٠٧، والترمذي في أول المناقب، برقم (٣٦٠٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه مسلم في أول الفضائل برقم (٢٢٧٦)، من دون الجملة الأولى، التي هي محل الشاهد. وقد ضعف الألباني الرواية الأولى، كما في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: ١/ ٥٤٨.

(أن لا إله): حق، أو: لنا **(إلا الله وحده)**: أي: لا ضدّ له، ولا ندّ له، بل هو منفرد بالذات والصفات والأفعال، فهو المعبود وحده لا شريك له.

ونقل الحنفي[١] أن «وحده» منصوب عند الكوفيين على الظرف، وعند البصريين على الحال. وردّه في «الحرز»[٢] بأن الفريقين اتفقا على أنه على الحال، أي حالة كونه منفردًا.

وقال الشيخ زكريا الأنصاري[٣] في «تحفة القاري على صحيح البخاري»[٤]: «وحدَه» حال، بتأويله بذكره[٥]، أي واحدًا، أو مصدر وحَد يَحِد، كوجد يجد، فجوّز كونه مفعولاً مطلقًا.

(وأشهد): أي: وأتحقّق، وحقيقة الشهادة: الإخبار بما عُلم، ليُبنى على ذلك عمل.

(أن محمدًا): هو عَلَم منقول من اسم مفعول، موضوع لمن كثُرت خِصاله الحميدة، كما قال زهير بن أبي سُلمى، مادحًا لهرم بن سنان[٦]:

---

(١) كذا في جميع النسخ، ولم أجد في تراجم النحاة من اشتهر بهذه النسبة، وأظنها محرفة عن «الحوفي» بالواو، وهو علي بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف، كان نحويا قارئًا، له «البرهان في تفسير القرآن»، توفي سنة ٤٣٠هـ. انظر «بغية الوعاة»: ٢/ ١٤٠.

(٢) لم أقف على هذا الكتاب.

(٣) هو القاضي زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، السنيكي، المصري، الشافعي، أبو يحيى، المفسّر المحدّث، ولد سنة ٨٢٣هـ، وتوفي سنة ٩٢٦هـ. انظر الأعلام: ٣/ ٤٦.

(٤) مازال مخطوطاً، وله نسخ كثيرة، انظر عنها «الفهرس الشامل للتراث العربي المخطوط»: ١/ ٣٣٨، والأشهر تسميته: «تحفة الباري»، وهو شرح مختصر في مجلدين.

(٥) كذا في [ر] و[ك]، ولعل صوابها: «بنكرة».

(٦) هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المرّي، من أجواد العرب في الجاهلية، مات قبل =

أليس بفيّاضٍ يداهُ غمامةٌ ... ثِمالِ اليتامى في السنينَ محمدِ[1]

وقال الأعشى: [ر، ١٣/ب]

إليك أبيتَ اللعنَ كان وجيفُها ... إلى الماجد القَرْم الجوادِ المحمّدِ[2]

سمي به نبينا بإلهام لذلك، وقيل: لرؤيا رآها جده عبدالمطلب، ذكر حديثه أبو نعيم[3]، وابن عبدالبر[4]، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وعلي القيرواني[5] في «البستان» له، وذكرها السهيلي[6] وغيره.

وقيل لرؤيا أمه آمنة[7]. وقيل غير ذلك.

وقد سمّت[8] به العرب قبله؛ لما يسمعون من أهل الكتاب والكهان، بأنه منهم، وأنّ اسمَه «محمدٌ»؛ طمعًا في النبوة، ذكره ابن سعد[9].

= الإسلام، نحو ١٥ قبل الهجرة، واشتهر هو وابن عمّه «الحارث بن عوف» بدخولهما في الإصلاح بين عبس وذبيان، فمدحهما زهير لذلك. انظر «الإعلام»: ٨/ ٨٢.

(١) انظر «شرح ديوان زهير» لثعلب: ص ٢٣٣.

(٢) ديوانه: ص ١٣٢، ووقع فيه «كلاهما» مكان «وحيفها»، و«الفرْع» مكان «القرْم».

(٣) لم أعثر عليها في «دلائل النبوّة» وذكرها السيوطي في «الخصائص الكبرى»، معزوة لأبي نعيم عن أبي طالب وليس فيها ذكر التسمية انظر: (١/ ٦٧)، وذكر سبب التسمية في (١/ ١٣٤)، معزوًا إلى ابن عساكر عن ابن عباس.

(٤) ليست في «الدرر في اختصار المغازي والسير».

(٥) هو علي بن أبي طالب القيرواني، العابر، له «نور البستان» في التعبير. انظر فتح الباري: ٢/ ٣٩٢، وتغليق التعليق: ٥/ ٢٧١.

(٦) انظر «الروض الأنُف»: ٢/ ١٥١.

(٧) رواها أبو نعيم في «دلائل النبوّة»: ص٩٤. وابن سعد في الطبقات: ١/ ١٠٤.

(٨) في [ر]: سمعت، والمثبت من [ك].

(٩) انظر «الطبقات الكبرى»: ١/ ١٦٩.

وجمع الحافظ ابن حجر من سُمي قبله ـ ﷺ ـ بمحمد[1] خمسة عشر[2].

والصحيح أنهم ثلاثة: محمد بن سفيان بن مجاشع، جدُّ جدِّ الفرزدق، الشاعرِ المشهور، التميمي المضري، ومحمد بن حمران بن ربيعة بن نزار، ومحمد بن أحيحة، من الأوس[3].

وقال ابن الجوزي في «الوفا»: إنهم أربعة[4]؛ لخبر رواه البغوي[5] وابن سعد[6] وابن شاهين[7] وابن السكن[8] وغيرهم، عن خليفة بن

---

(١) في الأصل هنا «ﷺ»، ولا وجه لها.

(٢) انظر «فتح الباري»: ٦/ ٦٤٢، وانظر في ذلك أيضًا «الاشتقاق» لابن دريد: ٨، ٩ «وخزانة الأدب» للبغدادي: ٢/ ٢٤.

(٣) وهؤلاء الثلاثة هم الذين قال السهيلي عنهم: لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله ـ ﷺ ـ: إلا ثلاثة... «الروض الأنف»: ٢/ ١٥١. ولا أدري ما الذي حمل الشارح على تصحيح هذا القول، مع وقوفه على استدراك ابن حجر، المشار إليه آنفًا.

(٤) انظر «الوفا بأحوال المصطفى»: ١/ ٨٦، ٨٧. وابن الجوزي إنما أورد الخبر دون عزوٍ أو ترجيح.

(٥) هو أبو القاسم، عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز بن المرزبان بن سابور بن شاهنشاه، الحافظ، له «معجم الصحابة» وغيره، ولد سنة ٣١٧هـ. انظر السير: ١٤/ ٤٤٠.

(٦) في «الطبقات»: (١/ ١٦٩) (ذكر من تسمّى في الجاهلية بمحمد رجاء أن تدركه النبوّة للذي كان من خبرها)، ولم يذكر في هذا الباب رواية خليفة بن عبدة.

(٧) هو الحافظ أبو حفص، عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد البغدادي، الشهير بابن شاهين، ولد سنة ٢٩٧هـ، وتوفي سنة ٣٨٥هـ، له مصنفات كثيرة، منها التفسير، والتاريخ، وشرح مذاهب أهل السنّة، انظر السير للذهبي: ١٦/ ٤٣١. ولعله ذكر هذه القصة في كتابه في التاريخ.

(٨) هو الحافظ أبو علي، سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن المصري البزّاز، ولد سنة =

عَبدة[1]، أن أربعة من بني تميم خرجوا إلى الشام: سفيان بن مجاشع، ويزيد بن عمرو بن ربيعة، وأسامة بن مالك، وأبو محمد بن ربيعة، فنزلوا على غديرٍ عند دَيْر، فأخبرهم صاحب الدَيْر أنه يُبعث فيهم نبي، وأمرهم أن يسارعوا إليه، وسألوه عن اسمه، فقال: محمد. فلما انصرفوا ولد لكل واحد منهم ولد فسماه محمدًا.

وقد أفرد ابن حجر لمن سُمي محمدًا في الجاهلية قبله ـ ﷺ ـ جزءًا، فحصّل منهم خمسة عشر، كما ذكرناه عنه[2].

وقيل كان آباء أولئك الثلاثة ـ كما ذكر بعض العلماء ـ قد وفدوا على بعض الملوك، وكان عنده علم الكتاب الأول، فأَخبرهم بمبعثه وباسمه، وأنه من العرب، وكان كل واحد منهم خلّف امرأتَه حاملاً، فنذر كل واحد منهم إن وُلد له ذكرٌ أن يسمّيَه محمدًا، ففعلوا ذلك.

وقد قال شاعرُه حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ، في قصيدة له[3]:

وقد قرن المحمودُ أحمدَ باسمهِ ... إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أشهدُ

وشقَّ له من اسمه كي يُجلَّهُ ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمّدُ

= ٢٩٤هـ، وتوفي سنة ٣٥٣هـ. انظر السير: ١٦/ ١١٧.

(١) هو المنقري، وانظر خبره هذا في «فتح الباري»: ٦/ ٦٤٢، ٦٤٣.

(٢) انظر «فتح الباري»: ٦/ ٦٤٣.

(٣) انظر ديوانه: ص ٣٣٨، بتحقيق د. سيد حنفي حسنين، ط. دار المعارف. ولفظ البيت الأول فيه:

وضمّ الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهدُ

وعند البخاري في تاريخه الصغير[1]: أن القائل له أبو طالب، رواه عن علي بن يزيد، فلعلّه من توارد الخواطر، أو ضمّنه حسانُ قصيدته.

فهو كاسمه ـ ﷺ ـ، فلهذا لا يُذكرُ ـ سبحانه ـ إلا ويُذكرُ معه، كما في الأذان، والتشهّدِ، والخطبِ.

[ر،١٣/أ] وقد قال عباس بن مرداس السلمي ـ رضي الله عنه ـ:

إنّ الإلـهَ بنـى عليـكَ محبّـةً   من خلقِهِ ومحمدًا سمّاكا[2]

والبناء تركيب [على][3] أساس، فأسس له ـ سبحانه ـ مقدماتٍ لنبوته: منها تسميته بـ«محمد» و«أحمد» قبل أن يولد، ثم لم يزل ـ تبارك وتعالى ـ يدرّجه في محامد الأخلاق، وما تحبه القلوب من الشيم، حتى بلغ إلى أعلى المحامد مرتبة، وتكاملت له المحبة من الخالق والخليقة، وظهر معنى اسمه ـ ﷺ ـ على الحقيقة، فهو اللَّبِنَةُ التي استتم بها البناء، كما أخبر ـ ﷺ ـ.

وقال ابن الهائم[4]: سمي به قبله ـ ﷺ ـ سبعةَ عشر، ذكره عن بعض الحفاظ، والله أعلم.

وأما «أحمد» فلم يسمَّ به أحدٌ قبلَه ـ ﷺ ـ؛ صيانةً له على الصحيح، وعن الالتباس؛ لأنه أشهر أسمائه عند أهل

---

(١) (١/ ٣٨).

(٢) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٦١، ووقع فيه «في خلْقه» بدل «من خلقه».

(٣) [على] زيادة من [م].

(٤) هو محمد بن أحمد بن محمد بن عماد، أبو الفتح، محب الدين، ابن الهائم، توفي سنة ٧٩٨هـ. انظر «إنباء الغمر» لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٣٠٨، له شرح لألفية العراقي في نظم السيرة، انظر «الأعلام»: ٥/ ٣٢٩.

الكتاب[1]. ولهذا قال عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وأول من سمي به والد الخليل بن أحمد[2]، إلا أنه ذكر أبو بكر بن فتحون[3] في ذيله على الاستيعاب[4]، أن الواقديَّ زعم أنه كان لجعفر ابن أبي طالب ابنٌ اسمه أحمد[5]، وحكى هو أن اسم أبي حفص بن المغيرة الصحابي أحمدُ[6]، وحكاه أيضًا أبو القاسم ابن مندة[7].

وحكى الجوزجاني[8] أنه سأل أبا هاشم

---

(١) أما عند أمّة المسيح ـ عليه السلام ـ فنعم، وأمّا في التوراة فإنّ اسمه «محمدٌ» كما هو في القرآن، كما قرر ذلك العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام»: ص ٩٨ـ ١٠٤. ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) واسمه أحمد بن عمرو بن تميم، الفراهيدي، الأزدي، اليحمدي، ولادته في القرن الأول. انظر الأعلام: ٢/ ٣١٤.

(٣) هو محمد بن خلف بن سليمان بن فتحون الأندلسي، أبو بكر، توفي سنة ٥٢٠هـ. انظر الأعلام: ٦/ ١١٥.

(٤) كتاب «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» لابن عبدالبر، مطبوع مع «الإصابة» لابن حجر، ومفردًا.

(٥) انظر «الإصابة»: ١/ ١٠٧.

(٦) هو أحمد بن حفص بن المغيرة، أبو عمرو المخزومي، مشهور بكنيته، مختلف في اسمه، وقيل: أبو حفص»، انظر «الإصابة»: ٣/ ١٣٩.

(٧) هو أبو القاسم، عبدالرحمن بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مندة العبدي الأصبهاني، ابن صاحب «الردّ على الجهمية» و«الإيمان»، قال عنه الذهبي: له تصانيف كثيرة، وردود على المبتدعة، انظر السير: ١٨/ ٣٤٩، ولم أعثر على موضع ما ذكره عنه المصنّف.

(٨) هو إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السعدي الجوزجاني، أبو إسحاق، المحدّث، الحافظ، توفي سنة ٢٥٩هـ. انظر «تاريخ دمشق»: ٧/ ٢٧٨، والأعلام: ١/ ٨١.

المخزومي[1] ـ وكان علامة بأنسابهم ـ عن اسم أبي عمرو بن حفص، زوج فاطمة بنت قيس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: اسمه «أحمد»[2].

وحكى ابن حبان أن اسم أبي محمد ـ الذي يقول: إن الوتر واجب ـ «أحمد»[3].

وكان عبد بن جحش بن رِئاب الأسدي، حليف بني أُميَّة، الضَّرير، الذي قيل إنه يطوف مكة بلا قائد، يكنى بأحمد[4]، حتى إنَّه لا يُعرف إلا بذلك، وكذا امرأته الفرعة[5] ابنة أبي سفيان، حيث يقول لها حين هاجر ـ رضي الله عنه ـ إلى المدينة:

لما رأتني أم أحمد غاديا ... بذمة من أخشى بغيب وأرهبُ

وهو الذي أُمّه أُميمة بنتُ عبدالمطلب، وهذا يدلُّ أن بينهما ولدًا يقال له: أحمدٌ، حيث اشتركا في تلك الكنية، والله أعلم.

وأول من سمّي بـ«محمد» في الإسلام: محمد بن حاطب[6] ـ رضي

---

(١) هو محمد بن مسلمة بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة، أبو هشام (كذا في المصادر، خلافًا لما هنا) المخزومي، المدني، الفقيه، المالكي، توفي سنة ٢٠٦هـ. انظر «تاريخ دمشق»: ٥٥/ ٢٩٠، و«الديباج المذهب» لابن فرحون: ص ٣٢٦.

(٢) انظر «الإصابة»: ١/ ٣٤.

(٣) انظر «الإصابة»: ١/ ٣٥، وانظر خبره في «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان»: ٤/ ٦٤، ٦٥، برقم (٢٤٠٨) باب الوتر.

(٤) يعني يقال له: أبو أحمد. لا أن كنيته أحمد، كما قال النبي ﷺ لعائشة: «تكنّي بابن أختك عبدالله»، «الأدب المفرد» للبخاري، رقم (٨٥٠).

(٥) كذا بالأصل، وفي «الإصابة» (٤/ ٣): «الفارعة».

(٦) ابن الحارث بن محمد بن حبيب بن وهب. أبو القاسم الجمحي، وقيل أبو =

الله عنه ـ.

(عبده): هذه الإضافة هي أخص الإضافات للعبودية وأشرفها، وأحبها إليه ـ ﷺ ـ، ولهذا قال ـ تعالى ـ مُنوِّها بذكره بها في مقام التقريب بالإسراء: ﴿[ر،١٤/ب] سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]، وقال في مقام الامتنان بتنزيل القرآن، الذي هو أعلى المقامات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾[الكهف: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، [ك،٩/ب] وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٩١-٢٠]، فهذه العبودية هي أشرف مقام الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأجلّها، وهي العبودية الخاصة، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا﴾ إلى أن قال: ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، فوصفهم بالقوى في الدين والبصائر، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: ١٧]، فنوّه(١) ذكرَهم بالعبوديّة. ألا ترى كيف نبّه رسولُ الله ـ ﷺ ـ على هذا المعنى، حين دعا إلى الإسلام قومًا يقال لهم: «بنو عبدالله»(٢)، فقال لهم: «يا بني عبدالله، إن الله قد أحسن اسم أبيكم». يحرِّضهم بذلك على ما يقتضيه اسمهم في العبوديّة لله ـ تعالى ـ.

وحقيقة العبوديّة: التذلّلُ والخضوع، والمحبّة لخالق العبد، فهي الطاعة مع ذلك في المأمور، وتجنّبُ المحظور(٣). قال بعضهم:

= إبراهيم، مات سنة ٨٦هـ فيما قيل، انظر «الإصابة»: ٣/ ٣٥٢.

(١) أي «رفع». انظر «مقاييس اللغة» لابن فارس: ٥/ ٣٧٣.

(٢) بطنٌ من «كلب»، وانظر الخبر في «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/ ٤٢٤.

(٣) في الأصل: [المحضور].

وإذا تذلّلت الرقابُ تذللاً   منّا إليك فعزُّها في ذُلِّها[1]

قال أبو علي الدقاق[2] ـ رحمه الله ـ: ليس للمؤمن صفةٌ أتمَّ ولا أعلى ولا أشرفَ من العبودية، كما قيل:

لا تدْعُني إلا بيا عبدَها   فإنه أشرف أسمائي[3]

وفي «التعريفات الجرجانية»: العبادة: فعل المكلّف على خلاف هوى نفسه، تعظيمًا لربه. والعبودية: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضى بالموجود، والصبر على المفقود[4].

(ورسوله): وهذه إضافة أخرى شريفةٌ أيضًا، «فعبد» و«رسول» خبران لـ«أن» مرفوعان بها، والواو عاطفة للثاني على الأول، والمشهور في تعريف الرسول أنه: إنسان أُوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. والنبيّ:

---

(١) البيت لأبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابىء(ت ٣٨٤هـ)، يمدح عضد الدولة البويهي، كما في يتيمة الدهر ٢/ ٢٧٥ والتذكرة الحمدونية ٤/ ١٨٢، وفيهما: «تقرّباً منها» موضع «تذلّلاً منا».

(٢) أستاذ القشيري الصوفي صاحب الرسالة، انظر الرسالة: ص ١٥٦، ط محمد علي صبيح.

(٣) هذا البيت يتمثل به المصنفون وأئمة التصوف كثيرًا عند كلامهم في مقام العبودية لله ـ تعالى ـ، ولم أر من صرح بقائله، وأقدم من رأيته تمثّل به: أبو عبدالله المغربي، محمد بن إسماعيل، من أئمة التصوف، (ت ٢٧٩هـ) كما في «طبقات الصوفية» للسلمي: ص ٢٤٥. وفي «نفح الطيب» (٢/ ٦٦٣، ٥/ ١٦٢) قبله:

يا عمرو نادِ عبد زهراءِ   يعرفه السامع والرائي

وبعده:

ولا تصفني بالهوى عندها   فعندها تحقيق أنبائي

(٤) «التعريفات»: ص ١٤٦.

إنسان أوحي إليه بشرع، ولم يؤمر بتبليغه. فكل رسول نبي، ولا عكس[1].

فمحمّد ـ ﷺ ـ أرسل بالهدى ودين الحق، إلى كافة الخلق، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، من[2] الإنس والجنّ إجماعًا.

وذكر [ر،١٤/أ] تاج الدين السبكي[3] ومن تبعه من الشافعيّة ـ ورجّحه ـ: وكذا إلى الملائكة. واستدل بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]؛ إذْ العالَم ـ بفتح اللام ـ: ما سوى الله ـ تعالى ـ. وبخبر مسلم: «أُرسل إلى الخلق كافّة»[4].

وهذا وإن كان الدليل صحيحًا، فليس بصريح في ذلك.

وزاد السيوطي إرساله إلى نفسه، ذكره في كتاب «تزيين الأرائك في إرسال النبيّ ـ ﷺ ـ إلى الملائك»[5].

و«الرسول» فَعُول بمعنى مُفعَل ـ بفتح العين ـ، قالوا: ولم يأت هذا في اللّغة إلا نادرًا[6].

---

(١) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ١٨/ ٧، و«شرح العقيدة الطحاوية»: ١/ ١٥٥.

(٢) متعلق بقوله: (كافّة الخلق).

(٣) لم أهتد إلى موضع كلامه.

(٤) قطعة من حديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، في كتاب المساجد. . .، (١/ ٣١١) برقم (٥٢٣).

(٥) مطبوع ضمن «الحاوي للفتاوي»، انظر منه: ٢/ ١٤٠.

(٦) انظر اللسان: ١٢/ ٤٣٨.

قال ابن الجوزي[1]: قرأت بخطّ أبي الوفاء بن عقيل فتوى من دمشق: ما تقولون في قوله: «وبُعثت إلى الخلق كافة». والنظر والتأمل يمنع هذا؛ لأنّه إن كان النبي مبعوثًا إلى قوم، مُنع من تعدّيه إلى غيرهم؛ لأنّ صيغة التخصيص[2] في الإرسال لَا تقتضي العموم، فلو كان موسى ـ ﷺ ـ مخصوصًا ببني إسرائيل، ثم جاءه غيرهم من الأمم يسألونه عما جاء به، لم يجُز له كتمانُه عنهم، ولا أن يقول: إني غير مبعوث إليكم. بل كان الواجب إجابتَه كلَّ من سأله عن الأحكام التي جاء بها، من عربي وعجمي. بل كان لا يجوز له أن يجيب أحدًا من هؤلاء[3]، إذا كان مبعوثًا إلى بني إسرائيل خاصة. فإن قلنا إنّه مُنع من إرشاد من استرشده من أنواع الخلق، لم يجز ذلك، فإذا بطل هذا ثبت أن كلَّ رسول إنما بعث إلى جميع الخلق. وليس لقائل أن يقول: أرسل إلى بني إسرائيل خاصة، والناس بالخيار بين اتّباعه وتركه.

قال: وطريقة أخرى: وهو أنّ الله ـ تعالى ـ رفع العذاب عن الخلق مع عدم الرسل[4]، بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥]، وأثبت على الخلق الحجّة ببعثه الرسل ـ صلوات الله

---

(١) انظر كتابه «كشف المشكل من حديث الصحيحين»: ٣/٤١ـ٤٣، ط دار الوطن ١٤١٨هـ، والمؤلف ينقل عنه بتصرف واختصار.

(٢) في «كشف المشكل»: [صفة التخصص].

(٣) كذا، ولا يخفى ما فيه من ركاكة، مع أن المقصود واضح، ولا يبعد أن يكون المستفتي عاميًا، وخلاصة الإشكال: كيف يكون الإرسال إلى الخلق كافة من خصائص نبينا محمد ـ ﷺ ـ مع أن كل نبي لو جاءه غيرُ قومه ليؤمنوا به ويتبعوه لم يجز له ردّهم؟.

(٤) في جميع النسخ: المرسل، وما أثبته هو اللائق بالسياق.

وسلامه عليهم أجمعين ـ، وأهلك الله بالطوفان جميع أهل الأرض، لمخالفة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلو لم يكن مرسلاً إلى جماعتهم لما أهلكهم بمخالفته ودعائه؟.

فأجاب ابن عقيل ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: [خصيصة][1] النبي ـ ﷺ ـ حاصلة من جهة خفيت على كثير من العلماء؛ وذلك أنّ شريعته جاءت ناسخةً لكل شريعة قبلها، فلم يبق دين من الأديان التي جاءت بها الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ إلا أَمَر بتركها، ودَعى إلى شريعته. ومعنى قوله: «كل نبي بعث إلى قومه»[2]: المراد أنه كان يجتمع بالعصر الواحد نبيّان، يدعو كل منهما إلى شريعة تخُصُّه، ولا يدعو الأمّة التي بُعث فيها غيرُه إلى شريعته، ولا يَصرِف عنه، ولا ينسخ ما جاء به الآخر، فهذه [خصيصة] له لم تكن لأحد قبله، حتى أنّ نوحًا ـ عليه السلام [ر،١٥/ب] ـ لم ينقل عنه أنه كان معه نبي فدعا إلى ملّته، يعني ملّة ذاك النبي، ولا نسخَها. يوضح هذا قوله ـ ﷺ ـ: «لو أدركني موسى لما وسعه إلا اتباعي»[3]. فهذه الخصّيصيّة التي امتاز بها عن جميع الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ[4].

فقد تبين بهذا أن العموم الذي في رسالة نوح ـ عليه السلام ـ لم

---

(١) في الأصول: خصيصية، والتصويب من «كشف المشكل».

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ١٢٨)، بلفظ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة»، كتاب التيمم، الباب الأول، برقم (٣٢٨)، وهو في صحيح مسلم (١/ ٣١٠) بلفظ: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة»، كتاب المساجد، رقم (٥٢١).

(٣) رواه أحمد بنحوه: ٣/ ٣٣٨، وابن أبي شيبة في المصنف: ٥/ ٣١٢، والبيهقي في الشعب: ١/ ٢٠٠، (١٧٩)، وقد حسنه الألباني في إرواء الغليل: ٦/ ٣٤، برقم (١٥٨٩).

(٤) إلى هنا ينتهي النقل من «كشف المشكل» لابن الجوزي.

يكن في أصل البعثة، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]، وإنما وقع العموم لأجل الحادث الذي حدث، وهو انحصار الخلق الموجودين معه، بهلاك سائر الناس. ونبيُّنا محمد ـ ﷺ ـ [ك،٩/أ] عمومُ رسالته في أصل البعثة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾[1] [الفرقان: ١]، وقوله ـ ﷺ ـ فيما تقدم: «وأُرسلت إلى الخلق كافة»[2].

وقد ورد خبر في عدّة الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، أردنا ذكره للمناسبة. فروى ابن مردويه[3] في تفسيره، والخطّابي في غريبه[4] عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف، وأربعة وعشرون ألفًا». قلت يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثةَ عشر، جمّاً غفيرًا».

ورواه الحافظ أبو حاتمٍ ابن حبان في كتاب «الأنواع والتقاسيم» له، وصححه[5]، لكن خالفه ابنُ الجوزي فذكره في الموضوعات[6]، واتّهم

---

(١) في الأصل «لتكون للعالمين».

(٢) تقدم تخريجه ص ٧٧.

(٣) هو الحافظ أبو بكر، أحمد بن موسى بن مرْدَوَيْه بن فُورْك الأصبهاني، صاحب «التفسير الكبير» وغيره، ولد سنة ٣٢٣هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٣٠٨.

(٤) انظر «غريب الحديث»: ٢/ ١٥٧.

(٥) انظر «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان» لابن بلبان: (٢/ ٢٧٧)، رقم (٣٦١) تحقيق شعيب الأرناؤوط، وقال السيوطي: (الصواب أنه ضعيف لا صحيح ولا موضوع) الدر المنثور: ٢/ ٤٣٦.

(٦) لم أهتد إليه في مطبوعة «الموضوعات»، وذكر فيه حديثًا موضوعًا تضمن عدد =

به إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني[1]، ولا شك أنه تكلم فيه غير واحد من أهل الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث.

وقد روي من وجه آخر عند الإمام أحمد، يأتي طريقه.

ورواه أيضًا ابن أبي حاتم من وجه آخر عن صحابي آخر فقال: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا معاذ بن رفاعة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة: قلت: يا نبي الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف، وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيرًا»[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا المسعودي، حدثنا أبو عمرو الدمشقي، حدثنا عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ، فذكر حديثاً فيه قصة، وفيه: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر، جمّاً غفيرًا»، وقال مرّة: «خمسة عشر»[3].

= الأنبياء، انظر الموضوعات: ١/ ٢٨٩.

(١) توفي سنة ٢٣٨هـ. انظر «لسان الميزان»: ١/ ١٢٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ٢/ ١١١٨، (٦٢٨٣). وهو كذلك في المسند للإمام أحمد: ٥/ ٢٦٥، والطبراني في الكبير: ٨/ ٢٥٨، وعلي بن يزيد هو الألهاني، ضعيف، كما في التقريب: ص ٤٠٦. لكن جاءت رواية أخرى عن أبي أمامة من طريق أبي سلام، وفيها هذا العدد للرسل، وليس فيها ذكر عدد الأنبياء، وقد رواها الحاكم (٢/ ٢٦٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وابن كثير في البداية والنهاية: (١/ ٩٤)، ورواها كذلك الطبراني في الكبير (٨/ ١٣٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١٣): ورجاله رجال الصحيحين غير أحمد بن خليد الحلبي، وهو ثقة. أ. هـ. لكن العدد في رواية الطبراني ثلاثمائة وثلاثة عشر. وقد صحح هذه الرواية الألباني في مشكاة المصابيح: ٣/ ١٣٢.

(٣) المسند: ٥/ ١٧٨. وقال محققوه: إسناده ضعيف جداً، ٣٥، ٤٣١، ٤٣٢، برقم (٢١٥٤٦).

ورواه النسائي أيضًا من حديث أبي عمرو الدمشقي به[١].

قال اليزيدي[٢]: إنما سمي الأنبياءُ أنبياءَ لأنهم قد ارتفعت منزلتهم، واستعلت درجتهم على سائر الخلق.

وقال غيره أيضًا: النبأ: الطريق، وسمي رسل الله أنبياء لأنهم الطرق إلى الله ـ سبحانه ـ.

ويشهد للقول الأوّل قول أوس بن حُجْر التميمي السعدي[٣]:

[ر،١٥/أ]لأصبح رتما دُقاقَ الحصى مكانِ [النبيّ] من الكاثب[٤]

يريد بالنبي ما نبا من الحصى إذا دُق فَنَدَرَ، والكاثبِ: الجامعَ لما ندر منه.

ويقال: إن [النبي][٥] والكاثب موضعان.

وقيل: هو بالهمز، من «النبأ»، يُجمع على «نُبّاء»، قال عباس بن مرداس السلميّ[٦] ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) لم أعثر عليه في «السنن الكبرى» ولا في «المجتبى».

(٢) اليزيديّون من علماء العربيّة كُثُر، منهم يحيى بن المبارك (ت ٢٠٢هـ)، وأبناؤه: محمد، وإبراهيم، وإسماعيل، وعبدالله، وإسحاق، وحفيد يحيى: محمد بن العباس (ت ٣١٠هـ)، ولا أدري أيّهم المذكور في النص، انظُر «نزهة الألبّاء» ص ٦٩، ١٨٢، والأعلام: ١/ ٧٩، ٦/ ١٨٢، ٨/ ١٦٣.

(٣) من كبار شعراء تميم في الجاهلية، توفي نحو ٢ ق هـ، انظر سمط اللآلي: ١/ ٢٩٠، والأعلام: ٢/ ٣١.

(٤) ديوانه: ص ١١، صادر، وفي الأصل: النبأ، والمثبَت من الديوان ومعجم البلدان: ٤/ ٤٢٧، وهو الصواب؛ إذ لا يستقيم الوزن إلا به.

(٥) في الأصل: «النبا». وتقدم أنه خلاف الصواب. وانظر معجم البلدان: ٥/ ٢٥٩.

(٦) شهد مع النبي ـ ﷺ ـ الفتح وحنينًا، وله في قسمة غنائمها قصة مشهورة، وذُكر أنه =

يـا خـاتـمَ النُبّـآءِ إنـك مـرسـلٌ   بالحق كلُّ هُدى السبيلِ هداكا[1]

فهو إذًا من الخبر، كما قاله في «التوشيح»[2] للشافعية، وهو ـ ﷺ ـ خاتم المرسلين.

وجملة (ﷺ) جملة فعلية دُعائية، فأتى بها المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ لدلالتها على الحدوث والتجدّد.

والصلاة لغةً: الدعاء بخير. ولاشتمال العبادة المخصوصة ـ وهي ذات الركوع والسجود ـ على الدعاء، أو شَبَهِ فاعلها بالخضوع[3] والذّل بالداعي[4]، سُمّيت بها شرعًا، على القول باعتبار المناسبة بينهما، كما عليه محققو الأصوليين، وجمهور الفقهاء، لكنّها هنا دعاء مخصوص؛ إذ هي المأذون بها مع السلام، في آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقد ثبتت السنة الصحيحة الصريحة أنها الدعاء بلفظها[5]، ويشهد لذلك قول الأعشى:

تقول بِنْتي وقد قرّبتُ مُرتحِلا   يا ربِّ جنّبْ أبي الأوصابَ والوجعا

= أسلم لرؤيا رآها في صنمه، ويقال إنه ممن حرّم الخمر في الجاهلية، توفي نحو ١٨هـ. انظر «الإصابة»: ٢/ ٢٦٣، ٢٦٤، و«الأعلام»: ٣/ ٢٦٧.

(١) البيت ضمن قصيدة في سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٦١.

(٢) لعله «التوشيح» لابن السبكي في فقه الشافعية. انظر كشف الظنون: ١/ ٥٠٧.

(٣) متعلق الجار والمجرور هنا هو قوله قبلها: «فاعِلِها».

(٤) متعلق الجار والمجرور هنا هو قوله قبلها: «أو شَبَهِ».

(٥) كما في «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إن الله وملائكته يصلّون على النبي﴾، رقم [٤٧٩٧].

عليكِ مثلُ الذي صلّيتِ فاغتمضي نومًا فإنّ لجنبِ المرءِ مضطجعا[١]

يقول: عليكِ مثلُ دعائكِ الذي دعيتِ لأبيك به.

وأتى المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بلفظ الماضي تحقيقًا لوقوعها له ـ ﷺ ـ، ولعله ـ رحمه الله ـ اقتصر على إفراده بالصلاة عليه عن آله وأصحابه تأدُّبًا مع الآية الكريمة، فلم يذكر «آله» و«أصحابه»، وإلا فقد اتفق العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ على جواز الصلاة عل غير الأنبياء تبعًا، ووردت به السنة الصحيحة الصريحة في آله، كما في التشهد[٢]. وجوزه بعضهم على غيرهم مفردًا، إذا لم يُتخذ شعارًا. والأدلة متظاهرة بذلك خصوصًا وعمومًا، كما صح عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[٣]، لما أتوه بصدقتهم. وهذا أصح الروايتين عن الإمام أحمد، واختيار شيخ الإسلام ابن تيميّة[٤].

والصلاة من الله: الرحمة المقرونة بالتعظيم، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن المؤمنين: التضرع والدعاء. هذا معنى ما قاله الأزهري عن علماء اللغة[٥]، والترمذي في جامعه عن سفيان الثوري، وغير

---

(١) ديوانه: ص ٧٣.

(٢) وذلك في روايات كثيرة جدًا، انظرها في «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» للعلامة ابن القيم: ص ٤ وما بعدها.

(٣) «صحيح البخاري»: ٢/ ٥٤٤، كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، رقم (١٤٢٦)، و«صحيح مسلم»: ٢/ ٦٢٠، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقته، رقم (١٠٧٨).

(٤) انظر مجموع الفتاوى: ٢٧: ٤١٠، وانظر «جلاء الأفهام»: ٢٦٠، حيث بسط ابن القيم الكلام على هذه المسألة.

(٥) انظر «تهذيب اللغة»: ١٢/ ٢٣٦، ٢٣٧، مادة (صلى).

واحد من أهل العلم[1]، [ر،١٦/ب] وعليه جرى المحققون من العلماء.

وتقييدها بما ذكر؛ كونها أخصَّ من مطلق الرحمة، فعطفها عليها في آية: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، عطفَ عامٍّ على خاص، وهو صحيح مقيِّد.

قال السيوطي ـ رحمه الله ـ في «الإتقان»: عطف العام على الخاص، أنكر بعضهم وجوده فأخطأ، والفائدة فيه واضحة، وهي التعميم، وإفراد الأول بالذكر اهتمامًا بشأنه[2]. وذكر أعدادًا من أمثلته في القرآن.

فهي ـ كما أشار ابن القيم[3] ـ تتضمن مِنّا ثناءً عليه، وإظهار فضله وشرفِه، ومن الله ـ تعالى ـ إرادة تشريفه وتكريمِه وتقريبِه، وذلك من تفضيله له ـ جل وعلا ـ، فهي تتضمّن بهذا الخبرَ والطلبَ. وسُمّي هذا السؤال والدعاء منّا: «صلاة» لسؤالنا اللهَ ـ تعالى ـ أن يفعل به هذا.

وقال علي بن سلطان مُلاّ قاري في «شرح نخبة الفِكَر»: قوله: «ﷺ». الجملة خبرية لفظًا، ودعائية معنىً، والصلاة من الله ـ تعالى ـ بإرادة الرحمة، وإظهار المِدْحة. انتهى[4].

وذكر البخاري في صحيحه[5] عن أبي العالية قال: صلاة الله على

---

(١) انظر سنن الترمذي: ٢/ ٣٥٦.

(٢) «الإتقان في علوم القرآن»: ٢/ ٧١، وفيه: «وأفرد الأول..».

(٣) انظر «جلاء الأفهام»: ٢٥٣.

(٤) «شرح نخبة الفكر»: ص ١٣٣، تحقيق محمد تيم وهيثم تيم، ط ١، دار الأرقم.

(٥) صحيح البخاري: ٤/ ١٨٠٢، كتاب التفسير، باب ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي...﴾.

رسوله: ثناؤه عليه عند الملائكة. وقال أيضًا عن أبي العالية على قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية: صلاة الله عليه: ثناؤه، وصلاة الملائكة: الدعاء.

وأتى بها المصنف ـ رحمه الله ـ عملاً بما تضمّنه قوله: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤]؛ إذ معناه ـ كما ورد ـ: «ألاّ أُذكرَ إلا وتذكر معي». رواه ابن حبان في صحيحه[١].

وأتى بالسلام حذرًا من كراهة إفراد أحدهما عن الآخر، كما نقله النووي عن العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ[٢].

وحكْم الصلاة على النبي ـ ﷺ ـ هو: هل الأمر في الآية الكريمة بها للندب أم للوجوب؟، فيه خلاف [ك،١٠/ب] عند العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ.

والتسليم هو التحية والسلام، ومعناها الإخبار بالسلامة من كل مكروه، والجمع بينه وبين الصلاة مستحب، وإفراد أحدهما عن الآخر مكروه، كما مر قريبًا.

(كتاب): الكتاب: مصدر سُمّي به المكتوب، كالخلق بمعنى المخلوق. قاله صاحب «المطلع»[٣]. يقال: كتب كَتْبًا وكتابًا وكتابةً. والكَتْب: الجمع والشدّ. يقال: كُتِبَتْ البغلةُ، إذا جُمِعَتْ من شفريها

---

(١) انظر «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان»: (٨/ ١٧٥)، برقم [٣٣٨٢]، وهو في «الضعيفة» للألباني برقم: (١٧٤٦)، وانظر تفسير الطبري: ٣٠/ ٢٣٥.

(٢) انظر شرح مسلم: ١/ ٤٤.

(٣) انظر «المطلع على أبواب المقنع» للبعلي: ص ٥.

بحلْقة أو سير. قال سالم بن دارة[1]، يهجو فزارة:

لا تـأمنـنّ فـزاريًّـا خلـوتَ بـه   على قَلوصك واكتبها بأسيارِ[2]

ومنه الكتيبة، وهو[3] الجيش.

وهو خبر مبتدأٍ محذوف، أي: هذا كتاب (التوحيد)، أي الجامع لأصوله وأحكامه.

و«التوحيدِ» مجرور بالإضافة، [ر،١٦/أ] وهو مصدر وحّد يوحّد توحيدًا فهو موحِّد.

وهو لغةً: العلم بوحدانية الشيء، والحكم بها. فاشتقاقه من حيث الاطلاق من قولهم: «وحّد فلان فلانًا في هذا العمل»، إذا لم يواسه بالمعونة فيه. ومنه نهيه ـ ﷺ ـ أن يسافر الرجلُ وحده[4].

وكذلك إذا أفرد الرجل شيئًا عن شيء قال: «أفردتُه ووحّدته»، أي جعلتُه واحدًا واحدًا. قال حاتم الطائي:

أمـاويَّ إنّـي رُبَّ واحـدِ أمِّـه   أجرْتُ فلا قتلٌ عليه ولا أسْرُ[5]

---

(١) هو سالم بن مسافع بن عقبة الجشمي الغطفاني، المعروف بابن دارة، وهو لقب جدّه، شاعر مخضرم، مات في خلافة عثمان، نحو سنة ٣٠هـ. انظر «الإصابة»: ٢/ ١٠٧، والأعلام: ٣/ ٧٣.

(٢) البيت في «تهذيب اللغة» للأزهري: ١١/ ٢١١.

(٣) كذا في جميع النسخ، والصواب (وهي).

(٤) انظر صحيح البخاري: ٣/ ١٠٩٢، (٢٨٣٦).

(٥) انظر ديوانه: ص ٥١. (ط صادر).

وقال النابغة الذبيانّي:

وقفت بها أليًا[1] كي أكلّمها أعْيت جوابًا وما بالربع من أحدِ[2]

ومنه قول حسانَ ـ رضي الله عنه ـ لقريش:

ويتركوا اللاّت والعزّى بمعزلة ويسجدوا كلهم للواحد الصمدِ[3]

فلما كانت العرب تعرف ذلك في لغتها، وكانوا يوحّدون الله ـ سبحانه ـ في ربوبيته[4]، كما قال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، وقوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

فالمشركون يقرون بعلُوِّه على عرشه ـ تعالى ـ كما أخبر، والمعتزلة والجهمية وأتباعهم ينكرون ذلك! ويؤوِّلون الاستواء بالاستيلاء[5]، والاستيلاء لا يكون إلا عن قوة وقدرة ناشئة بعد عجز، فسبحان مقلب القلوب.

---

(١) أي متأنّيًا متمهّلاً، انظر «لسان العرب»: ١٥/ ٤١٦.

(٢) البيت في ديوانه ص ٣٠ (صادر) هكذا:

وقفتُ فيها أصيلانا أكلّمُها عيّت جوابًا وما بالربع من أحدِ

(٣) انظر ديوانه: ص ١٦١، (ط دار المعارف).

(٤) إنما كان ذلك منهم على وجه الإجمال، مع تقصيرهم في تحقيقه، وإتيانهم ببعض قوادحه، كما يأتي في «باب الاستسقاء بالأنواء» وغيره، وانظر «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية: ٩/ ٣٤٤.

(٥) انظر «مقالات الإسلاميّين» للأشعري: ١/ ٢٣٧.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

ثم قال في الرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمر: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [يونس: ٣١].

وكانوا يقولون في تلبيتهم في الحج ـ كما ثبت ذلك عنهم في الصحيح(١) ـ: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

وكان قد ألقى هذه التلبيةَ الشيطانُ إلى عمرو بن لحي(٢)، كما يأتي في موضعه إن شاء الله ـ تعالى ـ(٣)، فاتخذوها عنه دِينا، وكان يسمعهم ﷺ يلبّون بتلبية إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فإذا قالوا ما أدخل الشيطان فيها قال: قدِ قدِ. أي حسبي(٤).

[ر،١٧/ب] فلما كانوا كذلك بعث الله إليهم رسوله محمدًا ـ ﷺ ـ بأن يعبدوا الله وحده، فلما دعاهم إلى ذلك عجبوا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٦٩٢، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها. برقم (١١٨٥). وفي بعض نسخ تفسير ابن كثير أنها في الصحيحين، ولم أجدها في صحيح البخاري. انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٤١٨. ت سامي السلامة.

(٢) هو عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، أبو ثمامة، أول من بدّل ملّة إبراهيم، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان، وسيأتي طرف من أخباره في الشرح. وانظر الأعلام: ٥/ ٨٤.

(٣) انظر ص ٤٩٩.

(٤) انظر صحيح مسلم: الموضع السابق.

﴿ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ [ص: ٥]. ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ومع ذلك ينكرون ويتعجبون مما دعاهم إليه ـ ﷺ ـ، ودعت إليه الرسل قبله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وقال ـ تعالى ـ مُسلِّيًا له: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٤٥]، فلم يبعث الله رسولاً إلى قومه إلا قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وقال بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ، منهم أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ: «التوحيد» من الألفاظ التي حُرفت، ونقلت بالأغراض الفاسدة إلى معان غيرِ ما أراده السلف الصالح، وذلك أنه جُعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طرق المجادلة، وسُمّي المتكلمون به «العلماء بالتوحيد»، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول، وكان التوحيد عندهم عبارةً عن أمر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتّصفوا به، وهو أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله ـ سبحانه ـ، رؤيةً يقطع بها التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر قَدَرًا إلا منه[1].

---

(١) إن كان المراد بهذا الفناءَ المعروف عند الصوفية فالتوحيد منه بريء، وأقل أحواله الابتداع، وقد يصل إلى وحدة الوجود، أما إن كان المراد نفي التأثير المستقل عن غير الله من الأسباب والوسائط فهذا حق، وبه يكون تحقيق توحيد الربوبية، الذي هو توحيد الخالق في أفعاله، لكن لا يصح حصر مفهوم التوحيد عند السلف فيه؛ إذ حقيقته عندهم: إفراد الله ـ تعالى ـ بصفاته وأفعاله، وهذا هو التوحيد العلمي الخبري، مع الالتزام بمقتضاه من إفراده بالعبادة، الذي هو التوحيد العملي الإرادي الطلبي. وانظر في هذا «شرح العقيدة الطحاوية»: (١/ ٤٢، ٤٣)، وانظر عن أنواع الفناء التدمرية لابن تيمية: ص٢٢١.

والتوحيد جوهر نفيس، وله قشران: أحدهما أبعد عن اللب من الآخر، فخَصّص الناسُ الاسم بالقشر، [وبصنعة][1] الحراسة للقشر، وأهملوا اللبَّ بالكليّة، فالقشر الأول: أن تقول بلسانك: «لا إله إلا الله». والثاني: ألاّ يكونَ في القلب مخالفةٌ وإنكارٌ لمفهوم هذا القول، الذي معناه الإيمان بالله والكفرُ بالطاغوت، والمتكلّمون حُرّاس هذا العلم عن تشويش البدعة[2].

وهذا العلم هو المراد هنا بعلم التوحيد؛ إذ هو أهم وأفضل [من][3] سائر العلوم عند سلف الأمة، وسائرِ الأئمة؛ لتوقّف أصل الإيمان أو كمالِه عليه؛ وذلك لاشتماله على معرفة توحيد الله ـ سبحانه ـ، الذي هو أوّل المفروضات، ومبنى سائر الواجبات، فالقدر الذي يتوقف على[4] صحة إيمان المكلف من هذا العلم واجب التقديم،

---

(١) في جميع النسخ: «بصيغة»، وليس لها وجه فيما يبدو لي، وما أثبتّه من «إحياء علوم الدين»؛ فالمؤلف ينقل عنه.

(٢) من قوله: «التوحيد من الألفاظ التي حرّفت» إلى هذا الموضع منقول من «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي: (١/ ٤٤، ٤٥)، بشيء من التصرف والاختصار، ولم ينبّه على ما ذكره أبو حامد بعد ذلك من لباب التوحيد، وهو ما أشيرَ إليه هنا في أول الكلام بأنه التوحيد عند السلف: وهو أن يرى الإنسان الأمور كلّها من الله ـ سبحانه ـ. . . إلخ، ويرحم الله أبا حامد، فقد كان من المساهمين، في لبس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية، في «الإحياء» وفي غيره، وغفر الله للشارح، فما كان أغناه عن «الإحياء» في التعريف بحقيقة التوحيد، فقد جرّه إلى اعتبار «الإيمان بالله، والكفر بالطاغوت» الذي هو مضمون دعوة الرسل، قشرًا للتوحيد، والمبتدعةَ (المتكلمين) حُرّاسًا للتوحيد من الابتداع!؟. وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإحياء في «مجموع الفتاوى»: (٦/ ٥٤، ٥٥)، (١٠/ ٥٥١، ٥٥٢).

(٣) زيادة يقتضيها السياق، وليست في شيء من النسخ.

(٤) كذا في جميع النسخ، ويظهر لي أن الصواب: «عليه».

وما سواه مما يتوقف عليه كمال الإيمان تقديمه أهم[١].

ومن العلم الأول: تعلّمُ لفظ الشهادتين، وتفهّم معناهما، وتفصيل [ر،١٧/أ] ما أُجمل فيهما، ونشر ما انطوى تحتهما.

وحاصل معناهما: أنه لا معبود يستحق العبادة إلا الله، وأن محمدًا ـ ﷺ ـ صادق فيما أخبر به عن الله ـ سبحانه ـ، فإذا حصل هذا سهُل عليك توحيدُ الباري ـ جلا وعلا ـ في أفعاله وصفاته، بأن تصفَه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسولُه ـ ﷺ ـ، الصادقُ المصدوق، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، بل صفاتٌ [ك،١٠/أ] تليق بجلاله وكماله، لا يعلم كيفيّتَها إلا هو، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ [طه: ١١٠]، وقال في سياق النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]، ومن صفاته: الأحدية.

ويكفي في ذلك دلالةً على توحيد القول والعمل، ونفي النقائص عنه ـ سبحانه ـ، وأنّه ليس له شبيه ولا عديل، ولا نظير ولا ظهير، [سورتا][٢] الإخلاص: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾، فتضمنت ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ نفيَ ما أضاف إليه المبطلون، من تمثيل وتجسيم، أو إثبات أصلٍ أو فرع، فدخل فيها نفيُ ما يقوله من يقوله من المشركين، والصابئة[٣]، وأهل الكتاب، ومن

---

(١) كذا في جميع النسخ، والصواب: مهم.

(٢) في جميع النسخ: (سورتَيْ).

(٣) اسمهم مأخوذ من «صبأ»، إذا خرج من دين إلى دين، فإن صار إلى التوحيد، الذي هو دين الأنبياء جميعًا، فهو من الصابئة الحنفاء، وإن صار إلى عبادة الكواكب والأوثان، فهو من صابئة المشركين، الذين منهم قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ، ثم =

دخل فيهم من منافقي هذه الأمة؛ من تولّد الملائكة، أو العقول، أو النفوس، أو بعض الأنبياء، أو غير الأنبياء عنه ـ جل وعلا ـ.

ودخل فيها أيضًا نفي ما يقوله من يقوله من المشركين وأهل الكتاب، من تولده عن غيره، كالذين يقولون في المسيح: إنه الله، والذين يقولون في الدجال: إنه الله، والذي يقولون في علي ـ رضي الله عنه ـ وغيره.

ودخل فيها نفي ما يقوله من يقوله من المشركين وأهل الكتاب، من إثبات كفؤٍ له في شيء من الأشياء، مثلُ من يَجعل له بتشبيهه أو بتجسيمه كفؤاً، أو يجعل له بعبادة غيره كفوًا، أو يجعل بإضافة بعض خلقه إلى غيره كفوًا، فلا كفو له في شيء من صفاته، ولا في ربوبيته، ولا في إلهيته.

فتضمنت هاتان السورتان تنزيهه وتقديسه عن الأصول والفروع، والنظراء والأمثال، فهو ـ تعالى ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١].

إذا فهمت ذلك، فاعلم بأن التقليد في الاعتقادات ممتنع، على الصحيح عند علماء الأمّة؛ لأنّ المطلوب فيها

= غلب إطلاق «الصابئة» على عبدة الكواكب والأفلاك، القائلين بقدم العالم، الذين من أشهرهم فلاسفة اليونان ومن تبعهم من أهل الملل، ولعلّه بدخول الفلسفة على أهل الأديان عُدّت طوائف منهم من الصابئة. انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية: ١/ ١٤٨، ١٩٥، و«درء تعارض العقل والنقل» له: ٧/ ٣٣٤، وتفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٥ـ ٢٨٧، حيث أطال الكلام عنهم، ورجّح أنهم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه، وأنّه لهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابىء؛ لخروجه عن سائر أديان أهل الأرض آنذاك، وانظر «البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» للسكسكي: ص٩٢ـ ٩٤، و«نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام» للنشار: ١/ ١٣، ٢١٤.

اليقين[١]. ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، أي تحقّق وتيقّن ذلك. قالوا: فيجب على كل مكلف معرفة الله ـ تعالى ـ بالدليل[٢]، لا على طريقة المتكلمين، من تحرير الأدلة وتدقيقها، كما ذهب إليه الأشعرية والمعتزلة، من أنه لا يصح الإيمان إلا بذلك. وهذا مذهب [ر،١٨/ب] المعتزلة[٣]، وشنّع أقوام على الأشعري ـ رحمه الله ـ بأنه يلزم على هذا الذي وافق فيه المعتزلة تكفيرُ عوامّ المسلمين، وهم غالب المؤمنين، فلعل مرادَه ـ رحمه الله ـ إنْ كان التقليد أخذًا لقول الغير بغير حجة، مع احتمال شك ووهم. وإلا يكفي في ذلك طريق العامة، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة[٤]، كما أجاب الأعرابيُّ الأصمعيَّ وقد سأله الأصمعي: بما عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وأثر القدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فِجاج، ألا يدلّان على اللطيف الخبير[٥].

(١) يبدو من سياق كلام الشارح أنه يعني بامتناع التقليد في الاعتقادات عدم صحتها مع الريب والشك، وهذا مع صحته لا ينبغي التعبير عنه بالمنع من التقليد في العقائد، وجعْل التقليد مضادًّا لليقين، لما يوهم من موافقة المتكلمين في التشكيك في إيمان المقلّد، كما هو حال عامّة المسلمين، ومذهبُ أهل السنّة والجماعة أن النظر في دلائل الاعتقاد شرط كمال، ولا يكون واجبًا إلا في حق من فسدت فطرته، بشرط أن يكون نظرًا في دليل شرعي، وانظر «تعارض العقل والنقل» لابن تيمية: ٥/ ٣٣٦، و«شرح العقيدة الأصفهانية»له: ص ١٢. وفي كيفية حصول اليقين من غير نظر، انظر مجموع الفتاوى: ٢/ ٦٨ وما بعدها.

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) انظر «شرح الأصول الخمسة» لعبدالجبار المعتزلي: ص ٦١.

(٤) انظر «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية: ٥/ ٣٣٥ـ ٣٣٨، وشرح الأصفهانية له: ١٢.

(٥) هذه العبارة يرد ذكرها في الكتب كثيرًا بصيغ مختلفة من قول أعرابي، دون الإشارة =

ولقد صدق وبرّ من قال ـ وهو أبو العتاهية ـ:

وفـي كـل شـيء لـه آيـة تـدل علـى أنـه واحـد[1]

ومن ثَمّ قال المحققون: قَلَّ أن ترى مقلدًا في الإيمان بالله ـ تعالى ـ، وكلامُ العوامّ في الأسواق محشوّ بالاستدلال عليه ـ سبحانه ـ، وعلى صفاته، وإن طريق المتكلمين في ذلك غير متعيّن[2]. هذا هو الصحيح الذي عليه الأئمة وسلف الأمة، من المحدثين والفقهاء الراسخين؛ فإن النبي ـ ﷺ ـ لم يطالب أحدًا بشيء سوى التصديق الجازم، مع التلفظ بالشهادتين، والعمل بمقتضاهما، وكذلك الخلفاء الراشدون، ومن سواهم من الصحابة، فمن بعدهم من الصدر الأول.

قال النووي ـ رحمه الله ـ: مذهب الجماهير من السلف والخلف أن الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقادًا جازمًا، أي مع التلفظ بالشهادتين والعمل بمقتضاهما، فهو مؤمن موحد، ولا تجب عليه أدلة المتكلمين، ومن أوجب ذلك من المعتزلة وغيرهم من أصحابنا[3] فقد أخطأ[4].

وقال أبو محمد، علي بن أحمد بن حزم الظاهري: مسألة، من

= إلى سؤال الأصمعي، انظر مثلاً: زاد المسير لابن الجوزي: ١/ ٣٦٢، وتفسير ابن كثير: ١/ ١٩٧، ولم أهتد إلى الموضع الذي ذكر فيه سؤال الأصمعي.

(١) ديوانه: ١٢٢ ط صادر.

(٢) بل المتعيّنُ الإعراض عنه لبدعيته، وانظر «رسالة إلى أهل الثغر» للأشعري: ص ١٩١ وما بعدها.

(٣) يعني الشافعية؛ وذلك أن الأشعرية قد غلبت عليهم، فكان فيهم من يرى وجوب النظر في العقائد على الطريقة الكلامية.

(٤) بمعناه من شرح مسلم: ١/ ٢١٠، ٢١١.

اعتقد الإيمان بقلبه ونطق به بلسانه فقد وُفّق، سواء استدل أو لم يستدل، هو مؤمن عند الله ـ تعالى ـ وعند المسلمين، قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]، ولم يشترط ـ عز وجل ـ في ذلك استدلالاً ولم يزل رسول الله ـ ﷺ ـ منذ بَعثهُ الله ـ تعالى ـ إلى أن توفّاه يقاتل الناس حتى يقروا بالإسلام ويلتزموه، ولم يكلّفهم قطُّ استدلالاً، ولا سألهم هل استدلوا أم لا. قال: وعلى هذا جرى [ر،١٨/أ] جميع أهل الإسلام إلى اليوم، وبالله التوفيق[١].

قلت: ولهذا قال بعض أهل السنة والجماعة ـ كشيخ الإسلام ابن تيمية[٢] ـ: إن أول الواجبات عبادة الله وحده ـ وهي التوحيد؛ لإطباق الرسل ـ عليهم السلام ـ على أنه أول ما تدعو قومها إليه، كما يشهد بذلك القرآن العظيم، لا المعرفةَ.

ويُعلم ذلك مما قرره ـ سبحانه ـ على المشركين من علم الربوبية التي أقروا بها، فيعلم بذلك ضرورةً أنه هو المعبود وحده، كما تقدم عن الأعرابي لما سأله الأصمعي.

فينبغي للطالب أن يقتصر في علم التوحيد في مقام الألوهية والربوبية على المعتقد القديم، الموجود في عصر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فمن بعدهم من أهل السنة والجماعة، وإيّاه والمحدثاتِ؛ فإن

---

(١) «المحلّى»: ١/ ٤٠.

(٢) انظر مثلاً مجموع الفتاوى: ٢/ ١، الحاشية.

«كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[1]، وعليه بالطريق المثلى، والمقصدِ الأسنى، فقد قال ابن عبدالبر: أجمع أهل الفقه والآثار، من جميع الأمصار، أن أهل الكلام أهلُ بدع وزيغ، ولا يُدعون[2] عند الجميع من طبقات العلماء، فإن العلماء أهل الفقه والأثر[3].

وقال ابن شكْر[4]: توحيد أهل الباطل من المسلمين: الخوض في الأعراض والأجسام، وإنما بُعث النبي ـ ﷺ ـ بإنكار ذلك، وقد أجمع أئمة الهدى، المحكوم بكفر من خالفهم، على أن الكلام جهلٌ، والخوض فيه حرام، وأنه ما أفلح من ارتدى به[5].

---

(١) قطعة من حديثٍ أخرجه النسائي عن جابر ـ رضي الله عنه ـ بهذا اللفظ، انظر سنن النسائي مع شرح السيوطي وحاشية السندي: (٣/ ١٨٨، ١٨٩)، وصحّحه الألباني كما في تخريجه لمشكاة المصابيح: ١/ ٥١، والحديث مخرج في صحيح مسلم: (٢/ ٤٩٦) كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، بلفظ مختصر، ليس فيه: «وكل ضلالة في النّار».

(٢) كذا في جميع النسخ: «يدعون»، وفي المطبوع من «جامع بيان العلم»: (يُعدّون).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله»: ص ٤١٦.

(٤) هو عبدالله بن علي بن الحسين، أبو محمد، صفي الدين الشيبي الدميري، المعروف بالصاحب ابن شكر، له كتاب في الفقه على مذهب مالك، تولى الوزارة للملك العادل بن أيوب، وكان داهية عنيفًا، توفي سنة ٦٢٢هـ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٩٤، والأعلام للزركلي: ٤/ ١٠٥، ١٠٦.

(٥) لم أهتد إلى موضع كلام ابن شكر هذا.

فصل

وأول من أحدث الكلام في الملّة الإسلامية والسنّة المحمدية: معبد الجهني[١]، وغيلان الدمشقي[٢]، وعمرو بن عبيد[٣]، وواصل بن عطاء[٤]، وذرٌّ[٥]، وغيرهم من رجال المعتزلة والجهمية والمرجئة

---

(١) هو سعيد بن عبدالله بن عويمر بن عُكيم الجهني، أول من تكلّم بالقدر في زمن الصحابة، ومع ذلك احتمل الناس حديثه؛ لما عُرف من اجتهاده في الدين والصدق والأمانة، مع سوء رأيه، أخذ القول بالقدَر عن سوسن النصراني، وأخذه عنه غيلان الدمشقي، قتله الحجاج قبل التسعين، بعد أن عذبه بأصناف العذاب. انظر سير أعلام النبلاء: (٤/ ١٨٥ـ ١٨٧).

(٢) هو غيلان بن مسلم الدمشقي، القدري، قتله هشام بن عبدالملك بفتوى من الأوزاعي، وقال رجاء بن حيوة: قتله أفضل من قتل ألفين من الروم. كان قتله بعد سنة ١٠٥هـ. انظر لسان الميزان لابن حجر: ٤/ ٤٩٢، ٤٩٣، والأعلام للزركلي: ٥/ ١٢٤.

(٣) هو كبير المعتزلة وأوّلهم، أبو عثمان عمرو بن عبيد البصري، القدري، الزاهد، العابد، اغتر الخليفة المنصور بزهده فكان يعظمه، ولم يفطن لخبث بدعته، مات سنة ١٤٣هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٠٤ـ ١٠٦.

(٤) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء البصري الغزّال، البليغ الأفوه، كان هو وعمرو بن عبيد رأسي الاعتزال، طرده الحسن عن مجلسه لمّا قال بالمنزلة بين المنزلتين، فانضم إليه عمرو، واعتزلا حلقة الحسن، فسمّوا المعتزلة. مات سنة ١٣١هـ فيما قيل، انظر سير أعلام النبلاء: ٥/ ٤٦٤، ٤٦٥.

(٥) هو ذرٌّ بن عبدالله بن زرارة الهمداني المرهبي، أبو عمر الكوفي، ثقة، عابد، رمي بالإرجاء، مات قبل المائة، انظر تقريب التهذيب: ص ٢٠٣، و«تهذب الكمال»: ٢/ ٤٤٠.

والجبرية والقدرية، وتتابعت بعدهم الأحداث، فشنّع العلماء عليهم، وهجروهم على ذلك، وكان قبل ذلك يُضرب من دخل في المتشابه، كما جرى من الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ[ك،١١/ب] على صبيغ بن عِسْل القشيعي الحنظلي[١]، وسيأتي ذلك إن شاء الله ـ تعالى ـ[٢].

قال أبو عبدالرحمن، عبدالله بن الإمام أحمد: حدثني السّري الكريري[٣]، حدّثني يعقوب[٤] المدني، مولى عبدالرحمن بن جعفر الهاشمي، حدثنا عثمان بن عثمان، قال: كنا عند معاذ بن معاذ، فذُكر عمرو بن عبيد، فقال: ذُكر حديث أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، ـ يعني في القدر ـ عند عمرو بن عبيد، فقال: لو سمعته من أبي بكر ما صدّقته، ولو سمعته من النبيّ ـ ﷺ ـ ما اجتبيته[٥]، وإذا لقيت الله قلت: على ذا فطرتنا؟![٦].

[ر،١٩/ب] وقد ذكر عنه أبو بكر الطرطوشي المالكي[٧] في حديث

---

(١) هو صَبيغ ـ بوزن عظيم ـ ابن عِسْل ـ بمهملتين: الأولى مكسورة، والثانية ساكنة ـ، الحنظلي، له إدراك، وقصّته مع عمر مشهورة، سيذكرها الشارح فيما يأتي، انظر الإصابة لابن حجر: ٢/ ١٩١.

(٢) ص ١١٥ـ ١١٧.

(٣) كذا في جميع النسخ، وفي المطبوع من السنّة: «الكريزي».

(٤) كذا في جميع النسخ، وفي المطبوع من السنّة: «أبو يعقوب»، وقال محققه: لم أقف على ترجمته.

(٥) في جميع النسخ: اجتنبته، والتصويب من كتاب السنة.

(٦) السنة لعبد الله بن أحمد: ٢/ ٤٤٢، برقم (٩٩٠).

(٧) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الفهري الطرطوشي، تفقّه على القاضي أبي =

عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، الذي في الصحيح وغيره، في خلق الجنين وتطويره، وكتب رزقه وأجله، وشقيٌّ أو سعيد، أنه قال: لو سمعته من الأعمش لكذّبته، ولو سمعته من ابن مسعود لما صدقته، ولو سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ لقلت: ما بهذا بُعِثَتْ الرسل، ولو سمعته من الله ـ عز وجل ـ لقلت: ما على هذا أخذْتَ مواثيقنا[1].

وروى الإمام الطبري محمد بن جرير، عن عمرو بن عبيد أنه قال: إن كان ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] في اللوح المحفوظ، فما على أبي لهب من لوم[2].

وهذا من عمرو بن عبيد من جنس احتجاج المشركين، في قول الله عنهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال عبدالله: حدّثنا أبو الوليد[3] بن شجاع حدّثنا عليّ بن الحسين ابن شقيق، قال: قلت لعبدالله بن المبارك: سمعت من عمرو بن عبيد؟ ـ يعني كثيرًا ـ، قال: نعم قلت: فلم لا تسمّيه، وأنت تسمّي غيره من القدرية؟ قال: لا، هذا كان رأسًا[4].

= الوليد الباجي، له كتاب «الحوادث والبدع» وغيره، توفي سنة ٥٢٠هـ، انظر «الديباج المذهب»: ص ٣٧١ـ ٣٧٣.

(١) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد»: ١٢/ ١٧٢، ولم أهتد للموضع الذي ذكره فيه الطرطوشي.

(٢) لم أعثر عليه في تفسير ابن جرير، وقد رواه الطبري اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»: ٤/ ٧٣٧، برقم (١٣٦٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: ١٢/ ١٧٢.

(٣) كذا في جميع النسخ، وفي المطبوع من «السنّة»: (حدّثنا الوليد).

(٤) «السنّة» لعبدالله بن أحمد: ٢/ ٤٣٥، برقم (٩٦٦)، وقال محققه: رجاله =

وقال: حدثني الأشجّ، حدثنا الهيثم بن عبيدالله، حدثنا حماد بن زيد، قال: كنت مع أيّوب ويونس وابن عون وغيرِهم، فمرّ عمرو بن عبيد بهم، فسلّم عليهم ووقف وقفة، فما ردّوا عَليه السلام، ثم جاز فما ذكروه[1].

وقد قيل لأبيه عبيد ـ وكان في البصرة شرطيا مع الشرط ـ: إن ابنك يختلف إلى الحسن البصري، ولعله أن يكون منه [خير][2] فقال: أي خير يكون من ابني، وأمّه أصبتها من غلول، وأنا أبوه؟![3]. فلم تكذب فراسة أبيه فيه.

وقال: حدثني أبي، حدثنا عبدالرحمن، حدثنا سفيان، عن عمرو ابن محمد، عن رجل، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إيمان[4] بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن وكذّب بالقدر فهو نقض للتوحيد[5].

وقال: حدثني أبي، حدثنا عبدالرزاق، عن معمر، قال: قال عمرو ابن العاص لأبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ: وددت أني وجدت مَن أخاصم إليه ربي. فقال أبو موسى: أنا. فقال عمرو بن

= ثقات.

(١) «السنة»: ٢/ ٣٥، برقم (٩٦٥).

(٢) في الأصل: خيراً، وما أثبته هو الصواب؛ فإنّ «كان» هنا تامة.

(٣) رواه اللالكائي: ٤/ ٧٣٧، (١٣٦٧)، عن الأصمعي.

(٤) كذا في جميع النسخ. وفي المطبوع من السنّة: (الإيمان).

(٥) «السنّة»: ٢/ ٤٢٢، برقم (٩٢٥ـ ٩٢٨)، وأخرجه الآجرّي في الشريعة: ٨٧٦٢، ٨٧٧، برقم (٤٥٦)، (٤٥٧). واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة، : ٢/ ٦٢٣، برقم (١١١٢)، والطبراني في الأوسط: ٤/ ٤٥، وأسانيده كلها مضعّفة كما نبه محققو هذه الكتب.

العاص: أيقدّر على شيئًا يعذبني عليه؟!. فقال أبو موسى: نعم. قال: لِمَ؟. قال: لأنه لا يظلمك. فقال عمرو: صدقت[1].

وقال: حدثني إسماعيل[2]، أنبأنا خالد الحذاء، عن عبدالأعلى بن عبدالله بن عامر القرشي، عن عبدالله بن الحارث الهاشمي قال: خطب عمر بالجابية ـ وقد قال خالد مرة: بالشام، والجاثليط[3] ماثل ـ، فتشهد فقال: من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له. فقال الجاثليط: لا. قال: فقال [ر،١٩/أ] عمر: ما قال؟. قالوا له: قال لا. فأعاد: من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له. فقال الجاثليط: لا. فقال عمر: ما قال؟. قال: قالوا له: قال: لا. فأعاد عمر، فقال الجاثليط بقميصه هكذا ـ ونفض إسماعيل[4] ثوبه ـ وأخذه من صدره فنفضه، وقال: إنّ الله لا يضلّ أحدًا. فقال: ما يقول؟. فقالوا له الذي قال. فقال: كذبت عدوَّ الله، الله خلقك، والله أضلّك، ثم يميتك فيدخلك النّارَ إن شاء الله، والله لولا ولثٌ[5] تقدمت[6] لك لضربتُ عنقك. ثم قال: إن الله خلق آدم فنشر ذرّيته، ثم كتب أهل الجنة وما هم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون. ثم قال: هؤلاء لهذه، وهؤلاء لهذه. قال: فتصدّع الناس وما يتنازع

---

(١) السنّة: ٢/ ٤٢٢، برقم (٩٢٧)، وأخرجه البيهقي في الاعتقاد: ص ٧٨، والسند منقطع بين معمر وعمرو بن العاص.

(٢) كذا في جميع النسخ، وفي المطبوع: حدثني أبي أنبأنا إسماعيل.

(٣) كذا في جميع النسخ، وفي المطبوع من «السنة»: الجاثليق، وهو رئيس النصارى.

(٤) هو أحد الرواة في سند هذه القصة.

(٥) الولث: اليسير من الشيء يقال: «بينهم ولث من عهد»، أي شيء منه ليس بمحكم، كما في الطبقات لابن سعد. انظر «أساس البلاغة» للزمخشري: ص ٦٨٨.

(٦) كذا في جميع النسخ، وفي المطبوع من السنّة: عُقد لك.

أحد[1] في القدر[2].

وقد رواه أبو داود[3]، وابن جرير[4]، وابن أبي حاتم[5]، وأبو الشيخ[6]، وابن منده[7]، والدارمي[8]، وابن بشران في أماليه[9]، واللالكائي في السنّة[10]، وابن عساكر[11]، والأصبهاني[12]، ولم يشكّوا أنه عمر.

وفي بعضها[13] أن عمر خطب بالجابية، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له. فقال له قسٌّ بين يديه كلمةً بالفارسيّة، فقال عمر لمترجم: ما يقول؟. قال: يزعم أنّ الله لا يضلّ أحدًا. فقال عمر: كذبت يا عدو الله، بل الله خلقك، وأضلّك،

---

(١) ليست في المطبوع من كتاب السنة.

(٢) السنّة: ٢/ ٤٢٣، برقم (٩٢٩)، وأخرجه الآجرّي في الشريعة: ٢/ ٨٣٩، برقم (٤١٧)، (٤١٨)، وابن وهب في القدر: ٢/ ١١٣.

(٣) في كتاب القدرية، كما في كنز العمال: ١/ ٣٣٩.

(٤) في «تهذيب الآثار» كما في المصدر السابق.

(٥) كما في الدر المنثور: ٣/ ٢٧٣.

(٦) كما في الدر المنثور: ٣/ ٢٧٣، وكنز العمال: ١/ ٣٤٠.

(٧) في «غرائب شعبه» كما في كنز العمال: ١/ ٣٤٠.

(٨) عثمان بن سعيد، في كتابه «الرد على الجهمية»: ص ٧٨، تحقيق الشاويش، وإنما في روايته قطعة يسيرة من هذا الأثر.

(٩) انظر كنز العمال: ١/ ٣٤٠.

(١٠) (٤/ ٦٥٩) برقم (١١٩٧).

(١١) «تاريخ دمشق»: ٢٧/ ٣١٥.

(١٢) «الحجّة في بيان المحجّة»: ٢/ ٦١. برقم (٣٨).

(١٣) انظر الدّر المنثور: ٣/ ٢٧٣.

وهو يدخلك النّار إن شاء الله، ولولا ولثٌ عُقِد لضربت عنقك. وذكر باقي الحديث.

وقال عبدالله أيضًا: حدثني أبي، ثنا وكيع، ثنا سفيان، عن زياد بن إسماعيل المخزومي، عن محمد بن عباد بن جعفر، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء مشركو قريش إلى النبي ـ ﷺ ـ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[1] [القمر: ٤٨، ٤٩].

وهكذا رواه الترمذي[2] وغيره، وسيأتي باقي ذكره إن شاء الله ـ تعالى ـ في باب القدر.

وقال عبدالله: حدثني أبي[3]، ثنا عبدالله بن يزيد، ثنا عياش ـ يعني ابن عقبة ـ، حدثني موسى بن وردان، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سيكون ناس يصدّقون بقدر ويكذبون بقدر. قال موسى: فيلْعنُهم أبو هريرة عند قوله هذا[4]. ـ يعنى القدرية والجبرية ـ.

ثم روى آثارًا في ذلك عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما[5] ـ، أصلها في الصحيحين[6]، في براءته من القدرية.

---

(١) السنة: ٢/ ٤١٩، برقم (٩١٨)، والحديث في صحيح مسلم: ٤/ ١٦٢٢، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، برقم (٢٦٥٦).

(٢) (٥/ ٣٩٩)، كتاب التفسير، باب ومن سورة القمر، برقم (٣٢٩٠).

(٣) في المطبوع من السنة بعدها: (أخبرنا محمد بن سلمة)، وأشار المحقق إلى أنها ساقطة من إحدى النسخ.

(٤) السنة: ٢/ ٤٢٠، برقم (٩٢٠).

(٥) انظر السنّة: ٢/ ٤٢٠ـ ٤٢٢.

(٦) لم أهتد إليه في صحيح البخاري، وهو في صحيح مسلم: ١/ ٣٧، كتاب الإيمان، =

ومتى دخل الإنسان في الدين من باب الكلام المذموم عرضت له الشبهُ، كما عرضت لهؤلاء وأضرابِهم، كالجهمية[1] والخوارج[2] وغيرهم، فضَلُّوا وأضلُّوا، حيث عدلوا عن كتاب الله، وطلبوا له التأويل من غير سبيل المؤمنين، بحيث لم يقتدوا بأصحاب محمد ـ ﷺ ـ [ر،٢٠/ب] ومن تبعهم بإحسان، الذين أخبر الله أنه قد رضي عنهم ورضوا عنه[3]، ولما ذكرهم أبو سلمة بن عبدالرحمن[4] ـ كما رواه

= باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

(١) الجهميّة: نسبة إلى أبي محرز، جهم بن صفوان الراسبي بالولاء، السمرقندي، الذي كان ينكر الصفات بشبهة التنزيه، ويقول بخلق القرآن، وأنّ الله ـ تعالى ـ في كل مكان، وأن الإيمان معرفة القلب، قتله سلم بن أحوز سنة ١٢٨هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٦، ٢٧. ثم توسّع أئمة السلف في إطلاق «الجهمية» على كل من تأثر بمقالاته، ولو لم يوافقه على جميعها، كالمعتزلة والكلاّبيّة والأشعرية وغيرهم، انظر شرح النونية لابن عيسى: ١/ ٤٥ وما بعدها، ومقالات الإسلاميين للأشعري: ١/ ٣٣٨.

(٢) سمّوا بذلك لقولهم بوجوب الخروج على الإمام الجائر، ويسمّون: «الحرورية»، نسبة إلى «حرَوْراء»، الموضع الذي اجتمعوا به بعد خروجهم على علي ـ رضي الله عنه ـ، ويسمّون: المارقة، لورود الخبر بأنهم: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة»، ويسمّون النواصب، لمناصبتهم عليا العداء، ويسمّون المحكّمة؛ لقولهم: لا حكم إلا لله، انظر مقالات الإسلاميين للأشعري: ١/ ١٦٧ وما بعدها، وقد تفرقوا إلى فرق كثيرة يجمعها تكفير علي وعثمان وأصحاب الجمل ومن رضي بالتحكيم الذي جرى بين علي ومعاوية، وكذا تكفير أصحاب الكبائر إلا من شذ منهم، وقد اندثرت عامّة فرقهم عدا الإباضية، التي تأثرت بمنهج المعتزلة في العقائد. انظر «الفرق بين الفرق» للبغدادي: ص ٧٤، والملل والنحل للشهرستاني: ١/ ١٣٥.

(٣) كما في سورة التوبة: ١٠٠.

(٤) هو عبدالله، وقيل: إسماعيل بن عبدالرحمن بن عوف القرشي الزهري، وقيل: =

الخطابيّ بسنده عنه ـ وصفهم فقال فيهم: لم يكونوا متحزّقين ولا متماوتين؛ ـ لأنّ هذه صفة من نتجت منهم البدع، كعمرو بن عبيد وأضرابه ـ. قال: وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحدهم على شيء من دينه، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون[1].

وقد قال الزبير بن بكارٍ في «أخباره»: حدثني أبو ضمرة، حدثني ربيعة بن أبي عبدالرحمن، قال: لقد رأيتُ مشيخةً بالمدينة، وإن عليهم الغدائر[2]، وإن عليهم الممصّر[3] والمورّد[4]، وفي أيديهم المخاصر[5]، وفي أيديهم أثر الحنّا، في هيئة الفتيان، ودين أحدهم أبعد من الثريّا إن أريد على دينه[6].

وهكذا رُوي عن الحسن البصري فيهم ـ رضي الله عنهم ـ بمعناه.

قال: والتحزّقُ: التجمّعُ، وشدةُ التقبّض. يُجمعُ على

= اسمُه كنيته، كان ثقة، فقيهًا، كثير الحديث، توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ. انظر السير: ٤/ ٢٨٩.

(١) «غريب الحديث» للخطّابي: ٣/ ٤٩، وليس فيه: «فإذا أريد أحدهم.. إلخ»، وقد رواه مع هذه الزيادة ابن أبي شيبة في المصنّف: ٨/ ٧١١، والبخاري في الأدب المفرد: ١٩٥. وما بين ـ ـ تعليق من المؤلف.

(٢) هي الذوائب، واحدتها: غديرة. انظر «النهاية»: ٤/ ٣٤٥.

(٣) الممصّر: الثياب التي فيها صفرة خفيفة. انظر «النهاية»: ٤/ ٣٣٦.

(٤) أي ملوّنة بلون الورد. انظر «مقاييس اللغة»: ٦/ ١٠٥.

(٥) واحدتها: «مخصرة»، وهي ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصًا ونحوها. انظر «النهاية»: ٢/ ٣٦.

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية: ٣/ ٢٦٢.

حِزَق[١]، قال رؤبة بن العجاج:

ولَفّ سِدْرَ الهَجَرِيِّ حَزَّقا[٢]

[ك،١١/أ] وذلك أن الهَجَريَّ يُكثر السدرَ. قالوا: وأجود نَبِقٍ يُعلم بأرض العرب نَبِقُ هَجَر[٣]، يُجمع[٤] في بقعة واحدة، وهو أشد نبق الأرض حلاوةً، ولطيب ريحه يفوح فمُ آكله، كما يفوح العطر[٥]. قاله ابن سيدَه[٦].

ويقال أيضًا للبخيل حُزُقَّة؛ لتقبّضِهِ، وللسحاب إذا تجمّعَ. قال إياس بن الحطيئة[٧]:

بل هل ترى البرقَ بِتُّ أرقُبه   في ذي حَبِيٍّ ترى له حِزَقا[٨]

---

(١) قبلها في «غريب الحديث»: (والحزَقة الجماعة)، وبدونها لا يستقيم الكلام.

(٢) ديوانه: ١١١.

(٣) قال ياقوت: قيل ناحية البحرين كلّها هجر، وهو الصواب... وينسب إليها هاجري على غير قياس. معجم البلدان: ٥/ ٣٩٣.

(٤) كذا في جميع النسخ، والظاهر أن صوابها: [يُحمى]، كما يستفاد من تاج العروس، مادة (سدر)، حيث ذكر أن النبق كان يُحمى للسلطان.

(٥) انظر اللسان: ٤/ ٣٥٤.

(٦) لم أهتد إليه في كتبه، وانظر تاج العروس، مادة (سدر).

(٧) لم أعثر له على ترجمة، وفي «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا ص ١٤٥، رقم (٤٦٧) أنه قال لسعيد بن العاص: بقي ما قلنا فيكم وذهب ما أعطيتمونا. وهو كذلك في «الأغاني»: ١٧/ ٢٢٦.

(٨) لم أعثر على البيت فيما بين يدي من المصادر.

والمعنى أنه يصفهم ـ رضي الله عنهم ـ بأنهم لم يكونوا يضيّقون ما وسّعه الله عليهم، ولا يطلبون ذلك بالغُلُوِّ والتكلّف والتمسكن في المشي بمقاربة الخطو، قال امرؤ القيس يهجو رجلاً اسمه خالد[1]، يصفه بالقِصَر وتقارب خطوه:

وأعجبني مشي الحُزُقّةِ خالدٍ ... كمشي أتانٍ حُلِّئت بالمناهلِ[2]

ولهذا لما رأت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أناسًا متماوتين سألت عنهم، فقيل: هؤلاء النساك. فقالت: كان عمر ـ رضي الله عنه ـ إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وكان أنسك النساك[3].

فعتبت ـ رضي الله عنها ـ عليهم ما رأت من هيئتهم وتماوتهم، وذكرت من أخلاق الفاروق ما يخالف ما عدّوه نسكًا، فصار بذلك ما اتصفوا به مذمومًا لا ممدوحًا؛ إذ الميزان في ذلك عند السلف ـ رضي الله عنهم ـ إنما هو الوقوف عند الأمر والنهي، فنظرهم ـ رضي الله عنهم ـ في ذلك إلى الحقائق.

وقد كانوا أشدّ الناس إنكارًا على أهل البدع والإحداث في الدين؛ لمعرفتهم بما في ذلك من الغائلة[4]؛ إذ بذلك سُفكت دماء خير الأصحاب والقرون، كما فُعل بعثمان وعلي ـ رضي الله عنهما ـ، المشهودِ لهما

---

(١) هو خالد بن سدوس بن أصبع النبهاني، كما في الديوان: ١٣٥.

(٢) في الأصل: حليت بالياء، والصواب «حُلِّئت» بالهمزة، بمعنى طُردت، انظر ديوانه: ١٩٦، ت السندوبي. ووقع فيه: «في المناهل».

(٣) انظر الطبقات لابن سعد: ٣/ ٢٩٠، وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٧٢.

(٤) أي الفساد والشر. انظر «المصباح المنير»: ص ٤٥٧.

بالجنة، وبه عُطّلت صفات رب العالمين، وبه شبّه بخلقه، وبه عُبدت [ر١٢٠/أ] الأوثان والأصنام[١]، حتى نصبت عيانًا في كثير من البلدان، ودُعيت من دون الله ـ تعالى ـ الوسائطُ، وعظُم البلاء، حتى استفاض الشرك في سوق من يَزيد، فإذا كان الأمر كذلك، وسلمْتَ من ذلك في جميع أحوالك، فإيّاك ثم إيّاك والخوضَ في تلك المحدثات المهالك، واحذر التعمّق والدخول فيها، فإنّها بحرٌ غريق، وهُوّة هوّاء، تلقي صاحبها في مكان سحيق، فقد حذّر السلف الصالح من ذلك، منهم عبدالله بن مسعود، الذي قال فيه حذيفة اليمانيُّ، صاحب السرّ ـ رضي الله عنهما ـ، حيث قال البخاري في صحيحه: ثنا سفيان بن حرب، ثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن عبدالرحمن بن يزيد قال: سألْنا حذيفة عن رجلٍ قريب السمت والهدي من النبي ـ ﷺ ـ؛ حتى نأخذ عنه، فقال: ما أعرف أحدًا أقربَ سمتًا ولا هديًا ودلاً بالنبي ـ ﷺ ـ من ابن أم عبدٍ[٢].

ورواه الترمذي وزاد: ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ـ ﷺ ـ أن ابن أم عبدٍ هو أقربهم إلى الله زلفى. ثم قال: هذا حديث حسن صحيح[٣].

وقال الدارميّ: أخبرنا أبو المغيرة، ثنا الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي قلابة قال: قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: تعلّموا العلم قبل أن يُقبض، وقبضُه أن يذهب أهلُه، وإياكم والتنطُّعَ والتعمّقَ

---

(١) كتب أمام هذا الموضع في الطرة: [بلغ مقابلة على أصله فصح].

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٣٧٢، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبدالله بن مسعود، برقم (٣٥٥١).

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٦٧٣، كتاب المناقب، باب مناقب عبدالله بن مسعود، برقم (٣٨٠٧).

والتبدّعَ، وعليكم بالعتيق[1].

وقال أيضًا: ثنا سليمان بن حرب وأبو النعمان، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي قلابة قال: قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب أهله[2]، عليكم بالعلم؛ فإن أحدكم لا يدري متى يُفتقر إليه ـ أو يفتقر إلى ما عنده ـ، إنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإيّاكم والتبدعَ، وإيّاكم والتنطّعَ، وإيّاكم والتعمّقَ، وعليكم بالعتيق[3].

وهذا يوضِّحُ أن أخذ ما في الكتاب من غوامض العلوم، لا تؤخذ إلاّ عمّن أنزله الله عليه؛ إذ هو رسوله، المبيّنُ عنه مرادَه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وهو الذي لا ينطق عن الهوى. وكذا عن أصحابه الذين أُمرنا باتّباعهم، وَوَلِيَ اللهُ تعديلَهم، وأخبر أنه قد رَضِيَ عنهم ورضوا عنه. وكذا من تبعهم بإحسان من أهل العلم والإيمان.

ولهذا قال الإمام أحمد فيما كتب به إلى عبدالرحيم الجوزجاني[4]: من تأوّله على ظاهره ـ يعني القرآن ـ، بلا دلالة من الرسول ـ ﷺ ـ،

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ٥٤، باب من هاب الفتيا وكره التنطّع والتبدّع.

(٢) في المطبوع من سنن الدارمي: (وقبضه أن يُذهب بأصحابه).

(٣) سنن الدارمي: ١/ ٥٤، باب من هاب الفتيا وكره التنطّع والتبدّع.

(٤) في «المسوّدة في أصول الفقه»: (ابن عبدالرحيم)، والصواب أنه أبو عبدالرحيم الجوزجاني، محمد بن أحمد بن الجراح، كما في «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى: ٢/ ٢٢٠، تحقيق العثيمين، ووفاته كما قال المحقق: بعد ٢٤٥هـ..

ولا أحد من أصحابه، فهو تأويل أهل البدع[1].

وقال في رواية صالح: إذا كان للآية ظاهر ينظر ما عملت السنة، فهو دليل على ظاهرها، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١]، قال القاضي أبو يعلى[2]: فلو كانت على ظاهرها لزم من قال بالظاهر أن يورّث كلّ من وقع عليه اسم «ولد»، وإن كان قاتلاً، أو يهوديًّا[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا عام في الظواهر كلّها، [ر، ٢١/ب] من العموم والمطلق والأمر والنهي والحقائق، وهو نص[4]؛ لأن الدلالة[5] قد تكون خاصّة ويكون حكمها عامًّا، أو يكون ظاهرها على العموم وإنما قصدت لشيء بعينه، ورسول الله ـ ﷺ ـ، هو المعبِّر عن كتاب الله وما أراد، وأصحابه أعلم بذلك مِنّا؛ لمشاهدتهم الأمر وما أريد بذلك.

---

(١) انظر «المسوّدة في أصول الفقه» لآل تيمية: ١١٢.

(٢) عبارة (قال القاضي أبو يعلى) ليست في «مسائل الإمام أحمد» المطبوع، فالظاهر أن الكلام بعدها من تمام كلام الإمام أحمد، وتوهم المؤلف من النظر في «المسوّدة» أنه من كلام القاضي.

(٣) «مسائل الإمام أحمد برواية ابنه صالح»: ٢/ ١٠٠ برقم (٦٥٧). وانظر «المسوّدة»: ١١١.

(٤) في هذا الموضع من «المسوّدة» ذكر كلام الإمام أحمد الذي كتب به إلى الجوزجاني، المذكور آنفا، ثم لم يميّز آخرُه عن تتمّة كلام شيخ الإسلام، فظهر في «المسوّدة» كأنه تابع لكلام الإمام أحمد السابق، فصار هكذا: (.. فهو تأويل أهل البدع؛ لأن الآية قد تكون خاصة..)، وأظنّ الصواب ما عليه المؤلف هنا، والله أعلم.

(٥) في المسودة: (الآية) بدل (الدلالة).

وقال القاضي: وظاهر هذا من الإمام أنه لا يجب اعتقاده ـ يعني الظاهر[1] ـ ولا العمل به في الحال حتى يُبحث ويُنظر: هل هناك دليل تخصيص؟.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الأدلة كالأحكام، فكما اشتُرط في الأحكام معرفة السنّة والإجماع والاختلاف في معرفة الكتاب، فكذلك دلالة الأدلة: يشترط فيها معرفة السنّة مع الإجماع والاختلاف؛ فإن السنّة والآثار كما يُبيّنان الحكم يبيّنان دلالة القرآن[2].

وهذه طريقة أكثر السلف ـ رضي الله عنهم ـ، وبهذا قال ابن سُريج وأكثر الشافعية، وغيرهم من أهل العلم.

وقيل يجب العمل بالعموم واعتقاده في الحال.

ولهذا لمّا عدَلَ من عدَل في زمن علي ـ رضي الله عنه ـ عن ذلك، أرشد إلى كتاب الله، كما روى الحارث الأعور عنه الحديث الذي رواه أهل السنن كما يأتي[3].

وروى الدارميّ بسند صحيح، فيه شعبة عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إن هذا القرآن كائن لكم أجرًا، وكائن لكم ذِكرًا، وكائن لكم نورًا، وكائن عليكم وِزْرًا، اتّبعوا القرآن، ولا يتّبِعْكم القرآن؛ فإن من يتّبع القرآن يهبط به في رياض الجنّة، ومن اتّبعَه القرآن [يزخ][4] في

---

(١) ما بين ـ ـ ليست في المسوّدة.

(٢) «المسوّدة»: ١١٢.

(٣) صفحة ١١٣.

(٤) في جميع النسخ: (يزجّ) بالجيم التحتانية، وفي المطبوع من سنن الدارمي، (يزخّ) =

قفاه، فيقذفه في نار جهنّم[1].

قال الدارمي: يزخ: يدفع. ثم روى عن أبي قلابة، أن رجلاً قال لأبي الدرداء: إن إخوانك من أهل الكوفة يُقرئونك السلام. فقال: وعليهم السلام، ومَن هم؟. ثم قال[2]: مُرْهم فليعطوا القرآن بخزائمهم، فإنه يحملهم على القصد والسهولة، ويجنّبهم الجور والحزونة[3].

ورواه الخطابي في غريبه، ولفظه: إنّ رجلاً قال له: إن إخوانك من أهل الكوفة يقرئونك السلام ويأمرونك أن تعظَهم. فقال: اقْرأ عليهم السلام، ومرهم أن يعطوا القرآن بخزائمهم[4].

قال: والخزائم: جمع خُزامة: ما يُجعل في أنف البعير ليذلّل به من شَعر، وما كان من خشب: خشاشٌ، أو من صُفر فبُرةٌ.

يريد أن يُلقوا أزمَّتهم إليه، وينقادوا لحكمه. والباء فيه صلة، كقول الشاعر:

= بالخاء الفوقانية، وهو الصواب كما في «النهاية»: ٢/ ٢٩٨. وهو كذلك عند من روى الأثر إلا الخطيب في تاريخ بغداد، ففيه «يزج» كما في «النسخ»، لكن اللغة لا تؤيده، انظر ابن فارس: ٣/ ٧.

(١) سنن الدارمي: ٢/ ٤٣٤، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن. ورواه سعيد بن منصور في سننه: ١/ ٤٩، (٨)، وابن أبي شيبة في المصنف: ٦/ ١٢٦، والخطيب في تاريخ بغداد: ٦/ ١٢٦.

(٢) عبارة (من هم؟. ثم قال) ليست في المطبوع من سنن الدارمي، وفي نسخة [ر] كتبت: (ومنهم).

(٣) سنن الدارمي، الموضع السابق.

(٤) «غريب الحديث»: ٢/ ٣٤٨.

نضرب بالسيف ونرجوا بالفرج[1]

ثم روى الدارميُّ هو والترمذيُّ وغيرهما، عن الحارث الأعور قال: [ر،٢١/أ] دخلت المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ فقلت: ألا ترى أن أناسًا يخوضون في الأحاديث في المسجد؟! فقال: قد فعلوها؟. قلت: نعم. قال: أما إني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ستكون فتن». قلت: وما المخرج منها؟. قال: «كتاب الله، فيه نبأ [ك،١٢/ب] ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْمُ ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزْل، هو الذي من تركه مِن جبّار قصَمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنتهِ الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن: ١]، هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دَعى إليه هُدي إلى صراط مستقيم»، خذها إليك يا أعور[2].

وفي رواية عن الأعور، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل: يا رسول الله، إن أُمّتك ستُفتن من بعدك؟ قال: فسأل رسول الله ـ ﷺ ـ أو

(١) انظر المرجع السابق: ٢/ ٣٤٩، والبيت للنابغة الجعدي، انظر ديوانه: ٢١٦، المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٨٤هـ.

(٢) سنن الدارمي: ٢/ ٤٣٤، ٤٣٥، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، وسنن الترمذي: ٥/ ١٧٢، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، برقم (٢٩٠٦). وقال الترمذي بعد روايته: هذا الحديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

سُئل: ما المخرج منها؟ قال «كتاب الله الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]. فذكره، وقال فيه: «ولا تنقضي عِبَره، ولا تفنى عجائبه»[1].

فالحارث الأعور هو ابن عبدالله الهمداني، من كبار علماء التابعين، مع ضعف فيه.

قال ابن حبان: كان غاليًا في التشيُّع، واهيًا في الحديث[2].

وحديثُه في السنن الأربعة.

وأمّا النسائيّ في سننه الكبرى مع تعنّته في الرجال فقد احتج به، وقوّى أمره![3].

والجمهور على توهين أمره[4]، مع روايتهم لحديثه؛ إذ هو حديث يشهد له لفظه بالصحة[5].

---

(١) سنن الدارمي: ٢/ ٤٣٥، وانظر مسند أبي يعلى: ٢/ ٣٠٢، وتاريخ بغداد: ٨/ ٣٢١.

(٢) «المجروحين»: ١/ ٢٢٢.

(٣) قال عنه ليس بالقوي (الضعفاء والمتروكين ص١٦٤) وقال أيضا: ليس به بأس (ميزان الاعتدال للذهبي ٢/ ١٧١)، وروى عنه في السنن الكبرى غير مقرون بغيره، انظر السنن الكبرى: ٣/ ٣٢٦، رقم (٥٥٣٧/ ٢)، كتاب النكاح، باب نكاح المحلّل، فيحمل قول النسائي (ليس بالقوي) على المرتبة العالية من القوة.

(٤) كذّبه الشعبي وابن المديني وأبو خيثمة وغيرهم، وخالفهم ابن معين والنسائي وغيرهما فقالوا: ليس به بأس. انظر: «تهذيب الكمال للمزّي»: ٢/ ١٨ـ ٢٠.

(٥) قال الحافظ ابن كثير: (وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ، وقد وَهِم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح، على أنه قد روي له شاهد عن عبدالله بن مسعود عن النبي ـ ﷺ ـ). التفسير: ١/ ٢١.

والمراد بالأحاديث التي ذُكر أنّهم يخوضون فيها، إنّما هي أحاديث كما قال معاوية ـ رضي الله عنه ـ: ليست في كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله ـ ﷺ ـ[1]، كما يأتي عنه إن شاء الله ـ تعالى ـ[2]؛ فإنه محال أن ينكر عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ غير ذلك، وحاشاه عنه، وإنّما معناه ـ على تقدير صحّة الحديث ـ مثلُ ما ذَكر معاوية.

وفي مسند الدارميّ أيضًا عن سليمان بن يَسار أنّ رجلاً يقال له: صبيغ قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر، وقد أعدّ له عراجين النخل، فقال: من أنت. فقال: أنا صبيغ، فأخذ عمر عرجونًا من تلك العراجين فضربه بِه، وقال: أنا عبدُالله عمر. فجعل له ضربًا، حتى دمي رأسُه. فقال: يا أمير المؤمنين حسبك، قد ذهب الذي أجد في رأسي[3].

وقال الدارمي أيضًا بسنده عن نافع مولى ابن عمر، أن صبيغًا العراقيَّ جعل [ر،٢٢/ب] يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين، حتى قدم مصر، فبعث عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، فلما أتاه الرسول بالكتاب قرأه فقال: أين الرجل؟ فقال: في الرحل. قال عمر: أبصِرْه أن يكون ذهب، فيصيبك مني العقوبة الموجِعة. فأتاه به فقال عمر: تسأل محدثة؟. فأرسل عمر إلى رطائبَ من جريدٍ فضربه بها، حتى ترك ظهره دَبرةً[4]، ثم تركه حتى برىء، فدعى به ليعود له ـ يعني

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٨٩، ١٢٩٠، كتاب المناقب، باب مناقب قريش، برقم (٣٣٠٩).
(٢) ص ١٣٤، ١٣٥.
(٣) سنن الدارمي: ١/ ٥٤، باب من هاب الفتيا...
(٤) في المطبوع من سنن الدارمي: (وَبرة) بالواو.

بالضرب ـ، قال: فقال صبيغٌ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد أن تداويَني فقد والله برئتُ. فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ ألاّ يجالسَه أحد من المسلمين، فاشتدّ ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى أن قد حسنت هيئته، فكتب عمرُ أن يأذن للناس بمجالسته[١].

ورواه الخطيب[٢] وابن عساكر[٣] عن أنس والسائب بن يزيد وأبي عثمان النهدي وزادوا عن الثالث ـ: وكتب إلينا عمر: «لا تجالسوه»، فلو جاء ونحن مائة لتفرّقنا.

ورواه إسماعيل القاضي، عن محمد بن سيرين قال: كتب عمر إلى أبي موسى: لا تجالس صبيغًا، واحرمه عطاءه[٤].

ورواه ابن الأنباري[٥] وغيره[٦] أيضًا بسند صحيح عن السائب بن يزيد قال: جاء صبيغ التميمي إلى عمر فسأله عن الذاريات، فذكر نحو رواية نافع وزاد: فخلاّ بينه وبين الناس، فلم يزل [صبيغٌ][٧] في قومه وضيعًا بعد أن كان سيدًا فيهم.

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ٥٥، ٥٦. وقد جمع الحافظ ابن حجرطرق هذه القصة وصحّح إسنادها في الإصابة: ٥/ ١٦٨، ١٦٩.

(٢) لم أهتد إليه في تاريخ بغداد. وعزاه إليه الزرقاني في شرح الموطأ: ٣/ ٣٣، والمؤلف ينقل عنه.

(٣) تاريخ دمشق: ٢٣/ ٤٠٩ـ ٤١٣.

(٤) «تاريخ دمشق»: ٢٣/ ٤١٣، بنحوه.

(٥) في «المصاحف»، كما في «الدر المنثور»: ٢/ ١٢.

(٦) نصر المقدسي في الحجة كما في «الدر المنثور»: ٢/ ١٢.

(٧) في الأصل: صبيغا، والصواب ما أثبته.

وقال العسكري[1]: اتهم برأي الخوارج.

وذكر ابن دريد أنه أحمق، وأنه وفد على معاوية[2].

وقال أبو عمر ابن عبدالبرّ: كان صبيغ من الخوارج في مذهبهم[3].

وفيه أيضًا[4] عن سفيان، عن واصلٍ، عن امرأة يقال لها عائذة، قالت: رأيت عبدالله بن مسعود يوصي الرجال والنساء، ويقول: من أدرك منكم من رجل وامرأة فالسمتَ الأوّلَ؛ فإنّا على الفطرة. قال عبدالله ـ ابن محمد شيخُ الدارمي، راوي هذا الحديث عن عبدالرحمن ابن مهدي عن سفيان به ـ: السمتُ: الطريق[5].

قلت: ومنه قول موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لابنة شعيب ـ عليه السلام ـ، ـ كما جاء في الصحيح ـ: وأريني السمتَ ـ يعني الطريق[6] ـ.

وفيه أيضًا عن نافع، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّه جاء رجل فقال: إنّ فلانًا يقرأ عليك السلام. فقال ابن عمر: بلغني أنه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تقرأ عليه السلام[7].

---

(١) لم أهتد إلى موضعه. وهو في شرح الزرقاني على الموطأ: ٣/ ٣٣، وقد نقل المؤلف عنه هذه الروايات والأقوال.

(٢) لم أهتد إلى موضعه، وانظر شرح الزرقاني: ٣/ ٣٣.

(٣) لم أجده في «التمهيد» ولا «الاستيعاب»، وانظر شرح الزرقاني: ٣/ ٣٣.

(٤) أي مسند الدارمي، المطبوع بعنوان: سنن الدارمي.

(٥) سنن الدارمي: ١/ ٧١، باب في كراهية أخذ الرأي. وما بين ـ ـ من كلام المؤلّف.

(٦) انظر سنن الدارمي: ١/ ١٥٨، باب في إعظام العلم، ولم أهتد إلى موضع القصة في الصحيح.

(٧) سنن الدارمي: ١/ ١٠٨، باب اجتناب أهل الأهواء والبدع والخصومة.

قلت: وكان السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ من الأئمة [ر، ٢٢/ أ] وغيرهم، يعيبون على أهل الكلام خوضَهم فيه، لا سيّما في صفات الله ـ تعالى ـ؛ إجلالاً له، واقتداءً بأصحاب رسول رب العالمين ـ ﷺ، ورضي عنهم ـ، وآخر قولهم: عليكم بدين العجائز.

قال عالم قريش، الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: لأن يلقى اللهَ العبدُ بكل ذنب ما خلا الشرك، خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام[1].

وكذلك قال إمام السنّة، وقامع البدعة، أحمد بن محمد بن حنبل، فإنه كان شديدًا على المبتدعين وأهل الأهواء[2].

وقد دخل في الكلام من دخل من أكابر العلماء ـ رحمهم الله ـ، فآل بهم الأمر إلى ما يكرهون في آخر أمرهم.

قال الإمام أبو المعالي الجويني، إمام الحرمين[3] ـ رحمه الله ـ: لقد جُلت في مذاهب أهل الإسلام وعلومهم، وركبت البحر الأعظم، وغُصت في الذي نهوا عنه، كل ذلك في طلب الحق، وتبرّيًا من التقليد،

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى»: ١٠/ ٢٠٦، وفي «الاعتقاد»: ٢/ ٢٣٩، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»: ٣/ ٥٧٠، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»: ٩/ ١١١، ١١٢.

(٢) انظر «المسائل والرسائل المرويّة عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة» جمع عبدالإله الأحمدي: ٢/ ٣٩٨ـ ٤٠١.

(٣) هو عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله الجويني، أبو المعالي، إمام الحرمين، ضياء الدين، شيخ الشافعية في عصره، وإمام الأشاعرة في وقته، كان له أثر كبير في تطوّر المذهب الأشعري، وجنوحه نحو منهج المعتزلة، ولد سنة ٤١٩هـ، وتوفي سنة ٤٧٨هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٤٦٨، وعن أثره في المذهب الأشعري، انظر «منهج إمام الحرمين في دراسة العقيدة» للدكتور أحمد العبداللطيف، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للدكتور عبدالرحمن المحمود: ٢/ ٦٠٢.

والآن قد رجَعت عن الكلام إلى كلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بِرِّه، فأموتَ على دين العجائز، ويَختِمْ عمري بكلمة الإخلاص، فالويل [ك،١٢/أ] لابن الجويني[١].

وكان يقول لأصحابه: لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أنّه يبلغ بي ما بلغ، ما تشاغلت به[٢].

ومن أضرابه الفخر الرازي[٣]، فإنه قال في آخر «تقسيم اللّذات»[٤] له: وأما اللّذّات العقلية فلا سبيل إلى الوصول إلى معرفة حقائقها، والقرب من العلم بكنهها، والتعلّق بها، فلهذه الأسباب نقول: يا ليتنا بقينا على العدم الأول، وليتنا ما شاهدنا هذا العالم، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن. قال: وفي هذا المعنى قلت:

نهـايـةُ إقـدامِ العقـولِ عقـالُ   وأكثر سعي العالمين ضلالُ

---

(١) انظر «المنتظم» لابن الجوزي: ١٦/ ٢٤٥، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي: ١٨/ ٤٧١.

(٢) المنتظم: ١٦/ ٢٤٥، و«سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٤٧٤.

(٣) هو محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني، إمام الأشاعرة في عصره، ولد سنة ٥٤٤، وتوفي سنة ٦٠٦هـ، قال الذهبي: (وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنّة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولّى السرائر)، انظر «السير»: ٢١/ ٥٠١. لكن بقيت كتبه التي خلط فيها علم الكلام بالفلسفة، وكان لها دورُها البالغُ في تطوّر المذهب الأشعري، وتأثره بالفلسفة. وعن أثر الرازي في تطوّر المذهب الأشعري. انظر «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للمحمود: ٢/ ٦٥٤ وما بعدها.

(٤) أو «أقسام اللذّات» كما في «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية: ١/ ١٥٩. وقال الدكتور محمد رشاد سالم محقق الدرء: (وهذا الكتاب مخطوط بالهند، ولم يذكره بروكلمان ضمن مؤلفات الرازي). الدرء: ١/ ١٦٠، حاشية (٤).

وأرواحُنا في وَحشةٍ من جُسومِنا	وحـاصـلُ دنيـانَـا أذىً ووبـالُ
ولم نستفدْ من بحثِنا طولَ عمْرِنا	سوى أن جمعنا [فيه][1] قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ	فبادوا جميعًا مسرعينَ وزالوا
وكم من جبالٍ قد علت شرفاتِها	رجـالٌ فـزالـوا والجبـالُ جبـالُ

فانظر ـ رحمك الله ـ، كيف أوصله الكلامُ إلى هذه الحيرة العظيمة، وهو من العلم والفهم والذكاء بالمثابة المعلومة، فلا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ما أعظمَها من بليّة، وما أفدحها من رزيّة.

ثم قال ـ سامحه الله ـ: [ر،٢٣/ب] واعلم أنّي بعد التوغّل في هذه المضائق، والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق، رأيت الأصوب الأصلح في هذا الباب طريقةَ القرآن العظيم، والفرقان الكريم، وهو ترك التعمق، والرجوع على الاستدلال بأقسام أجسام السموات والأرض، على وجود رب العالمين، ثم المبالغة في التعظيم، من غير خوض في التفاصيل، فأقرأ في التنزيه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، وأقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وفي التبرئة عمّا لا ينبغي: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وعلى هذا القانون فقِس. وأقول من صميم القلب ومن خالص الروح: اللهم

(١) ليست في شيء من النسخ، ولابد منها لاستقامة البيت، وهي كذلك في المصادر المطبوعة التي ذكرت الأبيات، انظر «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة: ٣/ ٤٢، ٤٣.

إني مقر بأن ما هو الأكمل الأفضل الأعظم الأجل فهو لك، وكل ما فيه عيب ونقص فأنت منه منزّه، ومقرٌّ بأن عقلي وفهمي قاصرٌ عن الوصول إلى كنه حقيقة ذرة من ذرّات مخلوقاتك[1]. انتهى.

فهذا مما يرغّب العبد في اتّباع الكتاب والسنّة، والوقوف على حدودهما، وسلوك طريقة السلف؛ ليسْلم الإنسان من التلف، فإنّ هذين من أكابر العلماء، ومن رحمة الله لهما لما أخرجهما الكلامُ إلى ما يكرهان، أوقع عليهما الحيرة، حتى عرفا ما هما فيه منها، حتى رجعا إلى باب السلامة والراحة واليقين.

وكذلك أبو الحسن الأشعري ـ قدّس الله روحه ـ، كما ذكر ابن عساكر في الكتاب الذي صنّف في الذب عنه[2]، بأنه رجع عن مذهب أبي علي الجُبّائي المعتزلي، وصار بعد ذلك ناصرًا للسنّة، قامعًا للبدعة، وأخبر عن نفسه أنّه على منهج إمام السنّة: أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ، وهذا أنموذج لمن عقل، ولم يتقدّم بين يدي الله ورسوله، والله ـ تعالى ـ الموفق.

---

(١) لم أقف على من ذكر هذا الكلام بنصّه عن الرازي، وقد أشار ابن القيم في «الصواعق المرسلة»: (٢/ ٦٦٥) إلى بعض كلام الرازي في «أقسام اللذات»، وأورد الأبيات السابقة، ولا يبعد أن يكون المؤلف قد اطلع على «أقسام اللذات»، ونقل منه مباشرة.

(٢) عنوانه: «تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري»، انظر منه: ص ٩١.

فصل

وقد صنف شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب هذا الكتابَ لِما رأى من حوادث الشرك، وأنّه قد عمّت به البلوى، فدعا إلى الله بتوحيده، وحمل الناس على كتاب ربهم، وسنّة نبيِّهم محمد ـ ﷺ ـ، فنفر من ذلك الرؤساء، لما فيه من زوال مناصبهم وترؤُّسِهم بالباطل، والقوانينِ الخارجةِ عن الشريعة المحمدية، والملّةِ الإبراهيمية، وشايعَهم على ذلك الجهلةُ بقوانين الشريعة، وزيّفوا عليه، وزيّنوا لِغوغاء العوامّ الإنكارَ عليه، فنفّروا الناس عمّا دعا إليه، بأنه يُكفِّرُ بالعموم، ويقتل [ر،٢٣/أ] الأنفس بغير حق، ونسبوه إلى الخروج[١]، وحاشاه من ذلك، وليس بمعصوم، ومن نحل أتباعه القول بعصمته فقد كذب قائله [عليهم][٢] قائله، وفجرَ في ذلك وافترى، وقال منكرًا من القول وزورًا؛ فإنّ هذه مسألةٌ لا ينتحلها في غير الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إلا أهل البدع، كالرافضة[٣] والخوارج. وأمّا أهلُ

---

(١) قد ألفت كتب كثيرة في الدفاع عن الشيخ ودعوته، يجمع الكثير منها كتاب «الدرر السنّية في الأجوبة النجديّة»، ومن أمثل ما كتب في ذلك: كتاب «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للعلامة محمد بشير السهسواني، و«دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عرض ونقض» للدكتور عبدالعزيز العبداللطيف.

(٢) زيادة من [ك].

(٣) هم كل من عدا الزيديّة من الشيعة، سمّوا بذلك لقول زيد بن علي بن الحسين لهم: رفضتموني!. وذلك لما أعرضوا عن متابعته بسبب عدم براءته من أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، أو لأنّهم رفضوا إمامة أبي بكر وعمر. انظر «مقالات الإسلاميين» للأشعري: ١/ ٨٩. وقد يتوسّع العلماء في هذا الإطلاق حتى يشمل الزيديّة، كما عند البغدادي في «الفرق بين الفرق»: ٢١، والرازي في =

السنة والجماعة فلا يعتقدون ذلك في متبوع غير الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ، ولا ينقص الخطأُ عندهم من كان مجتهدًا، باذلاً وُسعَه في اتّباعهم بالحق، واقتفاء آثارهم ومن تبعهم بإحسان، محَكِّمًا لهم في ذلك، لا من قصّر في طلب الحق، وحكّم هواه ومطلقَ رأيه وما يسنح له، بغير اقتداء بمن سلف من صالح الأمّة، فذاك هو الذي قد هوى في هوّة الهوى، من حالِقَي[1] جبل إلى مكان سحيق، وأمّا هو فاجتهد ـ رحمه الله ـ في الاتّباع وتجنُّب الابتداع جهدَه، فأوفى على سبيل الاعتدال، فصار هو وخصمُه كما قال جرير بن الخطَفَى[2]: [ك،١٣/ب]

فمـــا يستـــوي داعي الضـــلالةِ والهـــدى
ولا حجـــةُ الخصميـــن حـــقٌّ وبـــاطـــلُ

فأبى الله إلا أن يشيّد به الملة، ويرحمَ به الأمّة، ويهدمَ به الأوثان، ويدمغَ به الطغيان، ويرفعَ به من دينه الأركان ـ وسيتبيّن لك بهذا الشرحِ ما هو عليه من الدعوة ـ، فهنالك أظهره الله بذلك، فساحت دعوتُه، وظهرت شيعتُه، ونزّه الله به الشريعة، فعادت نجدٌ[3] به مخصبةً مَريعة، فصنف هذا الكتاب، قدوةً لأولي الألباب، حشاه من الكتاب والسنّة،

= «الاعتقادات»: ٦٠، فيكون مرادفًا لإطلاق «الشيعة».

(١) في «أساس البلاغة» للزمخشري: ١٣٩: («وهوى من حالق» أي: هلك، والحالق الجبل المنيف، وهو من تحليق الطائر، أو من البلوغ إلى حلْق الجو).

(٢) ديوانه: ١/ ٤٠٣، من قصيدة يمدح فيها الحجّاج. و«الخطفَى» بالألف المقصورة: لقب لعوف بن كليب، جدِّ جرير. انظر «تاج العروس»: ٢٣/ ٢٢٦، وهو فيه «خَطَفَى» دون «أل».

(٣) هي قلب الجزيرة العربية، ومهد دعوة الشيخ محمد عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ.

وإني لأرجو لنا وله والمسلمين الجنّة، فصار أتباعُه على ذلك طائفةً منصورة، وضدُّهم بإذن الله رايتُه مكسورة، فرحمه الله رحمة واسعة، ومن آواه ونصرَه.

وإني لأرجو أنّهم الخارجون في المشرق آخرَ الزّمان[1]، الموطِّئون للمهدي بخروجهم السلطانَ، وقد وردَ بذلك الخبر عن سيِّد ولد عدنان، وهو ما رواه الحافظ ابن ماجه القزويني في سننه، حيث قال: حدثنا حرملة بن يحيى المصري، وإبراهيم بن سعيد الجوهري، قالا: أنبأ أبو صالح عبدُالغفار بن داود، أنبأنا ابن لهيعة، عن أبي زرعة عمرو بن جابر الحضرمي، عن عبدالله بن الحارث بن جَزْء الزبيدي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يخرج ناس من المشرق آخر الزّمان، يوطِّئون للمهديّ سلطانه»[2].

فأما حرملة [ر،٢٤/ب]: فهو ابن يحيى بن عمران، أبو حفص التجيبي المصري، صاحب الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ، قال ابن حجر في تقريب التهذيب[3]: صدوق.

وإبراهيم بن سعيد الجوهري: هو أبو إسحاق الطبري، نزيل بغداد، ثقة حافظ[4].

---

(١) المحبّر هنا مكتوب في النسخ الثلاث بخط كبير، وهو يوحي باحتفاء المؤلف بهذا الرجاء.

(٢) سنن ابن ماجه: (٢/ ٤٠٤) ت الأعظمي، أبواب الفتن، باب خروج المهدي، رقم (٤١٣٩). وضعّفه الألباني كما في ضعيف الجامع: ٩٣١، برقم (٦٤٢١).

(٣) ص ١٥٦، (ت عوّامة)، برقم (١١٧٥).

(٤) كما في «تقريب التهذيب»: ٨٩، برقم (٧٩).

وعبدالغفّار بن داود: هو أبو صالح الحرّاني، نزيل مصر، قال في التقريب[1]: ثقة فقيه.

وابن لهيعة[2] ثقة عابد، احتجّ به الإمام أحمد[3]، لم يُتكلّم فيه إلا من جهة حفظه[4]، وقد حفظ هذا الحديث.

وعمرو بن جابر الحضرمي[5]: هو أبو زرعة المصري، تابعي شيعي، إلا أن فيه ضعفًا، تكلّم فيه النسائي.

وعبدالله بن الحارث بن جَزْء ـ بفتح الجيم وسكون الزاي، بعدها

---

(١) ص ٣٦٠، برقم (٤١٣٦).

(٢) هو عبدالله بن لَهِيعة بن عقبة الحضرمي، أبو عبدالرحمن المصري، القاضي، قال ابن حجر: صدوق من السابعة ـ أي من الطبقة السابعة، التي هي طبقة كبار أتباع التابعين، عند ابن حجر في التقريب ـ خلّط بعد احتراق كتبه، ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهما. ص ٣١٩، رقم (٣٥٦٣).

(٣) بل في «تهذيب الكمال» للمزّي: (٤/ ٢٥٣): (وقال حنبل بن إسحاق: سمعت أبا عبدالله يقول: ما حديث ابن لهيعة بحجّة، وإني لأكتب كثيرًا مما أكتب أعتبر به، وهو يقوى بعضه ببعض).

(٤) بل قال ابن حبان في كتاب «المجروحين»: (٢/ ١٢، ١٣): (قد سبرت أخبار ابن لَهِيعة من رواية المتقدّمين والمتأخّرين عنه، فرأيت التخليط في رواية المتأخرين عنه موجودًا، وما لا أصل له من رواية المتقدّمين كثيرًا، فرجعت إلى الاعتبار، فرأيته كان يدلّس عن أقوام ضعْفى عن أقوام رآهم ابن لهيعة ثقات، فالتزقت تلك الموضوعات به. . . ، وأما رواية المتأخرين عنه بعد احتراق كتبه ففيها مناكير كثيرة؛ وذلك أنه كان لا يبالي ما دُفع إليه قراءةً، سواء كان ذلك من حديثه أو غير حديثه، فوجب التنكب عن رواية المتقدمين عنه قبل احتراق كتبه؛ لما فيها من الأخبار المدلّسة عن الضعفاء والمتروكين، ووجب ترك الاحتجاج برواية المتأخرين عنه بعد احتراق كتبه؛ لما فيه ممّا ليس من حديثه).

(٥) قال في التقريب: ضعيف شيعي. . مات بعد العشرين ومائة. ص ٤١٩، رقم (٤٩٩٦).

همزة ـ الزُبيديّ ـ بضم الزّاي ـ، أبو الحارث، صحابي سكن مصر، قالوا: وهو آخر من مات بها من الصحابة ـ رضي الله عنهم[1] ـ.

ويعضُد هذا ما رواه نعيم بن حمّاد في «كتاب الفتن» له، عن حفصة زوج النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إذا سمعتم بأناس يأتون من قبل المشرق، أولو دهاءٍ، يَعجب النّاس من رأيهم[2]، فقد أظلّت الساعة»[3].

ونرجو أنها هذه الطائفة.

وقد صحّت أخبار المهديّ في السنن تصريحًا، وفي الصحيحين تلويحًا، كما سنذكر ذلك، ونوضّحه على وجهه إن شاء الله ـ تعالى ـ.

قال أبو داود في سننه: حدثنا[4] عبدالله بن جعفر الرَقِّي، حدثنا أبو المليح، الحسن بن عمر، عن زياد بن بيان، عن علي بن نفير[5]، عن سعيد بن المسيّب، عن [أم سلمة][6]، قالت: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «المهدي من عِتْرتي[7]، من ولد فاطمة»[8].

---

(١) انظر ترجمته في الإصابة: ٢/ ٢٨٢، ٢٨٣، برقم (٤٥٩٨).

(٢) في المطبوع من الفتن: [زيّهم].

(٣) «كتاب الفتن»: ١٢١، (في خروج بني العباس).

(٤) في المطبوع من السنن: (حدثنا أحمد بن إبراهيم، ثنا عبدالله بن جعفر).

(٥) في المطبوع من السنن: (نُفيل)، وهكذا هو في باقي الكتب.

(٦) في جميع النسخ: (عن أمّ صلة)!، وما أثبته من «السنن».

(٧) قال الخطّابي: «العِتْرة»: ولد الرجل لصلبة، وقد يكون العترة الأقرباء وبني العمومة. «معالم السنن»: ٦/ ١٥٩.

(٨) سنن أبي داود: ٤/ ١٠٧. كتاب المهدي، برقم (٤٢٨٤). وصحّحه الألباني كما في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: ١/ ١٠٨.

وهو عند الترمذي[1] والنسائي[2] وابن ماجه[3] والبيهقي[4] بهذا اللفظ[5].

وعندهم[6] والإمام أحمد في مسنده[7] مرفوعًا: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله فيه رجلاً من عترتي ـ وفي رواية: رجلاً من أهل بيتي ـ يملأها عدلاً، كما ملئت جَوْرًا».

وفي رواية لأبي داود[8]، والترمذي[9]: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحدٌ، لطوّل الله ذلك اليومَ، حتى يبعث فيه رجلاً من أهل بيتي، يواطيء اسمُه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قِسطًا وعدلاً، كما مُلئت ظُلمًا وجَوْرًا».

وعندهما[10] عن ابن مسعود ـ ضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله

---

(١) الحديث ليس في (باب ما جاء في المهدي) من سنن الترمذي: ٤/ ٥٠٥، ٥٠٦.

(٢) لم أعثر عليه، لا في الكبرى ولا في الصغرى.

(٣) سنن ابن ماجه: ٢/ ٤٠٢، أبواب الفتن، خروج المهدي، برقم (٤١٣٧). وليس فيه (من عترتي).

(٤) لم أعثر عليه عنده.

(٥) ورواه بهذا اللفظ أبو عمر الداني في «السنن الواردة في الفتن»: ٥/ ١٠٥٧، ١٠٦١، وبنحوه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٦٠١، كتاب الفتن والملاحم، برقم (٨٦٧٤).

(٦) سنن أبي داود: ٤/ ١٠٧، كتاب المهدي، برقم (٤٢٨٣)، والترمذي: ٤/ ٥٠٥، كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي، برقم (٢٢٣١).

(٧) ١/ ٩٩. وصحّح إسناده أحمد شاكر، كما في تحقيقه للمسند: ٢/ ١١٧، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع: ٢/ ٩٣٨، برقم (٥٣٠٥).

(٨) سنن أبي داود: ٤/ ١٠٦، ١٠٧، كتاب المهدي، برقم (٤٢٨٢)، وهو في «صحيح الجامع» للألباني: ٢/ ٩٣٨، برقم (٥٣٠٤).

(٩) سنن الترمذي: ٤/ ٥٠٥، كتاب الفتن، باب ما جاء في المهدي، برقم (٢٢٣١).

(١٠) في الموضعين السابقين.

ـ ﷺ ـ: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العربَ رجلٌ من أهل بيتي، يواطىء اسمه اسمي».

وعند أبي داود(١)، عن أبي سعيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «المهدي مِنِّي، أجْلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قِسطًا كما مُلئت جَوْرًا، يملك [ر، ٢٤/أ] سبع سنين».

ورواه أيضًا بهذا اللفظ الحاكم(٢)، وإسنادهما صحيح.

والجلَى: انحسار الشعر عن مقدَّم الرأس، والقنا في الأنف: طوله، ودقّة أرنبته. وقيل: غِلَظُها مع حدَب في وسطه.

وقد أوصل بعض الحفّاظ أحاديث المهدي إلى حدّ التواتر(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ: الأحاديث التي يُحتج بها على خروج المهدي صحيحة، رواها الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي، وابن ماجه، وغيرهم من أهل السنن(٤). حكاه عنه الحافظ الذهبي ـ رحمه الله ـ في «مختصره لمنهاج السنة»(٥).

قال: وضعّف الشيخ حديث «لا مهدي إلا عيسى»(٦)، وقال لا

---

(١) سنن أبي داود: ٤/ ١٠٧، كتاب المهدي، برقم (٤٢٨٥). وهو في «صحيح الجامع» للألباني: ٢/ ١١٤٠، برقم (٦٧٣٦).

(٢) المستدرك: ٤/ ٦٠٠، كتاب الفتن والملاحم، برقم (٨٦٧٠).

(٣) راجع في هذا «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» للكتاني: ص ٢٢٥ـ ٢٢٨.

(٤) «منهاج السنّة النبوية»: ٨/ ٢٥٤.

(٥) واسمه «المنتقى من منهاج الاعتدال».

(٦) انظر «منهاج السنة»: ٨/ ٢٥٦.

يعارض هذه الأحاديث. وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله قريبًا[1].

وقال السُّهيلي[2] بعد ذكره لفاطمة ـ رضي الله عنها ـ: ومن سؤددها أنّ المهدي المبشّرَ به في آخر الزمان من ذريّتها، فهي مخصوصة به. قال: والأحاديث الواردة في أمر المهدي كثيرة، وقد جمعها أبو بكرٍ بن [أبي][3] خيثمة فأكثر، ومن أرغبها[4] إسنادًا ما ذكره أبو بكر الإسكافي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من كذّب بالدجّال فقد كفر، ومن كذّب بالمهدي فقد كفر»[5].

وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسَب.

وعند الإمام أحمد[6] وابن ماجه[7] بسند حسن، عن علي ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «المهدي مِنّا أهلَ البيت، [ك،١٣/أ] يصلِحه الله ـ تعالى ـ في ليلة». وهو عند ابن ماجه بهذا اللفظ.

وعند أبي داود[8] وغيره أنّه من ولد الحسن، لا الحسين على زعم

---

(١) ص١٤١.

(٢) «الروض الأُنُف»: ٢/ ٤٣١.

(٣) ساقطة من الأصول، واستدركتها من ترجمته، فإنه أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب، الحافظ الحجة الإمام، صاحب التاريخ الكبير، توفي سنة ٢٧٩هـ. انظر تذكرة الحفاظ للذهبي: ٢/٥٩٦.

(٤) في مطبوعة «الروض»: ومن أغربها.

(٥) قال صاحب «عون المعبود شرح سنن أبي داود»: (١١/ ٣٦٢): وما رُوي مرفوعًا من رواية محمد بن المنكدر، عن جابر: «من كذّب بالمهدي فقد كفر» فموضوع، والمتّهم فيه أبو بكر الإسكاف).

(٦) المسند: ١/ ٨٤.

(٧) (٢/ ٤٠٣) أبواب الفتن، باب خروج المهدي برقم (٤١٣٦).

(٨) (٤/ ١٠٨) كتاب المهدي، برقم (٤٢٩٠) موقوفًا على علي ـ رضي الله عنه ـ.

الرافضة في محمد[1] بن الحسن، بن علي بن الحسين ـ قبّحهم[2] الله تعالى ـ.

وعند أبي نُعيم[3]: «ليبعثَنّ الله من عترتي رجلاً أفرقَ الثنايا، أجلى الجبهة، يملأ الأرض عدلاً».

وعند الطبراني والروياني وغيرهما مرفوعًا: «المهدي من ولدي، وجهه كالكوكب الدرّي، اللون لون عربي، والجسم إسرائيلي، يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جَوْرًا، يرضى لخلافته أهل الأرض والسماء»[4].

وعند الطبراني[5] مرفوعًا: «يلتفت المهديّ وقد نزل عيسى بن مريم، كأنما

---

(١) الذي تزعم الرافضة أنّه المهديّ المنتظر هو محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وقد نسبه المؤلف مباشرةً إلى جدْه علي بن الحسين، إما وهماً أو اختصاراً. ومحمد بن الحسن هذا هو الذي تزعم الرافضة أنه دخل سرداباً في بيت أبيه، ولم يخرج منه إلى الساعة، والمحققون من أهل العلم يقولون إن الحسن العسكري لم يعقب. انظر «السير» للذهبي: ١٣/ ١١٩ـ١٢٢.

(٢) يعني الرافضة.

(٣) كتاب «المهدي» الذي جمع فيه أربعين حديثاً عن المهدي، وقد لخّصه السيوطي في رسالة عنوانها «العرف الوردي في أخبار المهدي»، موجودة في «الحاوي للفتاوي»: ٢/ ٥٧ وما بعدها. وقد ذكر فيها هذا الحديث في (٢/ ٦٣). وأورده ابن القيّم في «المنار المنيف»: ١٤٦، برقم (٣٣٣)، ونبّه على ضعف إسناده.

والحديث رواه ابن عدي في «الكامل»: ٣/ ١٢٥٩.

(٤) الحديث رواه الجورقاني في «الأباطيل والمناكير»: ١/ ٣١٧، باب المهدي، برقم (٢٩٧)، بزيادة: «والطير في الجو، يملك عشرين سنة»، ثم نقل قول الجلاّب: هذا حديث باطل. وذكره في «لسان الميزان»: ٥/ ٣٠، من رواية أبي نعيم عن حذيفة. ورواه ابن الجوزي في «العلل»: ٢/ ٨٥٨، برقم (١٤٣٩). وذكره صاحب «كشف الخفاء»: ٢/ ٢٨٨، وقال عنه الألباني في «ضعيف الجامع»: ٨٥٧ برقم (٥٩٤٨): موضوع. ولم أهتد إلى موضعه عند الطبراني والروياني.

(٥) لم أهتد إليه عند الطبراني، وعدم إمامة المسيح ـ عليه السلام ـ بالصلاة ثابت في صحيح =

يقطر من شعره الماء، فيقول المهدي: تقدّم فصَلّ بالناس. فيقول عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: إنما أقيمت الصلاة لك، فيصلي خلف رجل من ولدي». وعند ابن حبان في «صحيحه» في إمامة المهدي نحوه[1].

ولا عبرة بمن حمل أخبار المهدي على محمد بن عبدالله المنصور العباسي[2]، واستدل بحديث رواه ابن عدي[3]، ولفظه: «المهدي من ولد العبّاس»[4]. فقد قال الحافظ الذهبي ـ وناهيك به ـ: تفرّد به محمد ابن الوليد، مولى [ر،٢٥/ب] بني هاشم، وكان يضع الحديث.

وقد استدل صاحب هذا القول أيضًا بما رواه الإمام أحمد عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «إذا رأيتم الرايات السود قد خرجت من خراسان فأتوها ولو حبوًا؛ فإن فيها خليفة الله المهدي»[5]. فقد قالوا إنّ في إسناده مقالاً، وعلى تقدير صحته فليس الاستدلال به في ذلك بصريح. وقد روى ابن ماجه في سننه نحوه[6].

= البخاري: ٣/ ١٢٧٢، برقم (٣٢٦٥)، وصحيح مسلم: ١/ ١٢٣، برقم (١٥٥).

(١) لم أهتد إليه.

(٢) هو الخليفة، أبو عبدالله محمد بن المنصور أبي جعفر عبدالله بن محمد بن علي، الهاشمي العباسي، كان محاربًا للزنادقة، مات سنة ١٦٩هـ. انظر السير: ٧/ ٤٠٠.

(٣) لم أهتد إليه في «الكامل» المطبوع.

(٤) ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: ٢/ ٨٥٦ برقم (١٤٣١) وهو موضوع كما في السلسلة الضعيفة للألباني: ١/ ١٠٨ برقم (٨٠).

(٥) المسند: ٥/ ٢٧٧.

(٦) سنن ابن ماجه: ٢/ ١٣٦٧، أبواب الفتن، باب خروج المهدي، برقم (٤٠٨٤). وقال الألباني في الضعيفة (١/ ١١٩، برقم ٨٥): منكر.

وعند الطبراني[1] والبزّار[2] والحاكم في صحيحه[3]، في مدّة مكث المهدي مرفوعًا: «يعيش فيكم ـ وفي رواية: يمكث فيكم ـ سبعًا أو ثمانًا، فإن أكثر فتسع».

وفي رواية لأبي داود[4] والحاكم[5]: «يملك سبع سنين»[6].

وفي أخرى للترمذي[7]: «يخرج في أمتي المهدي، يعيش خمسا، أو سبعا، أو تسعا» الحديث.

وأغلب الروايات أن ملكه سبع سنين بلا شك.

وعند الإمام أحمد[8] ومسلم في صحيحه[9] مرفوعًا: «يكون في

---

(١) في المعجم الأوسط: ٥/ ٣١١، بلفظ: «يكون في أمّتي المهدي، إن قصّر فسبع، وإلا فثمان، وإلا فتسع..» وهو كذلك عند ابن ماجه برقم (٤١٣٤) وأورده الألباني في القسم الصحيح من سننه: «٢/٣٨٩»، وفي «السنن والواردة في الفتن» للداني: ٥/ ١٠٣٥.

(٢) انظر «كشف الأستار عن زوائد البزّار» للحافظ الهيثمي: ٤/ ١١٤، كتاب الفتن، باب في المهدي، برقم (٣٣٢٥)، بغير هذا اللفظ.

(٣) المستدرك على الصحيحين: ٤/ ٦٠١، كتاب الفتن والملاحم، برقم (٨٦٧٥)، بنفس رواية الطبراني السابقة.

(٤) سنن أبي داود: ٤/ ١٠٧، كتاب المهدي، برقم (٢٤٨٥)، وهو في «صحيح الجامع» للألباني: ٢/ ١١٤٠، برقم (٦٧٣٦).

(٥) المستدرك: ٤/ ٥١٢، برقم (٨٤٣٨) بلفظ: «يعيش فيها سبع سنين أو ثمان أو تسع».

(٦) وهي كذلك عند ابن حبان في صحيحه كما في الإحسان: ١٥/ ٢٣٨، برقم (٦٨٢٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه: ٧/ ٥١٣، وأبي يعلي في مسنده: ٢/ ٣٦٨.

(٧) سنن الترمذي: ٤/ ٥٠٧، كتاب الفتن، برقم (٢٢٣٢).

(٨) المسند: ٣/ ٤٨.

(٩) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٧٠، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل..، برقم (٢٩١٣).

آخر الزمان خليفة، يحثي المالَ حثْيًا، ولا يعدّه عدًّا».

وعند البخاري[1] في «باب نزول عيسى بن مريم» ـ عليه الصلاة والسلام ـ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فكيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم». وهو في صحيح مسلم بهذا اللفظ[2].

وهذا يخاطب به ـ ﷺ ـ العرب؛ لأن الأمر لهم، خصوصًا لقريش من بين بني إسماعيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لما روى الإمام أحمد[3] ومسلم[4]، عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الناس تبع لقريش في الخير والشر».

وعند البخاري[5]، عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: «الناس تبع لقريش، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم».

وعند الإمام أحمد[6] بسند صحيح، والحاكم[7]، عن عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «من أهان قريشًا أهانه الله ـ تعالى ـ».

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٧٢، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم، برقم (٣٢٦٥).

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٢٣، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم..، برقم (١٥٥).

(٣) المسند: ٣/ ٣٣١.

(٤) صحيح مسلم: ٣/ ١١٥٤، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش..، برقم (١٨١٩).

(٥) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٨٨، كتاب المناقب، الباب الأول، برقم (٣٣٠٥)، ومعناه كما في الفتح (٦/ ٥٣٠) أن العرب توقف غالبهم عن الدخول في الإسلام حتى أسلمت قريش عامّةً بعد الفتح، فتبعتهم العرب، ودخلوا في دين الله أفواجا.

(٦) المسند: ١/ ٦٤. وقال محققوه: حسن لغيره، (١/ ٥٠٧).

(٧) المستدرك: ٤/ ٨٤، برقم (٦٩٥٥).

وقال أيضًا[1]: حدثنا أبو داود، ثنا هشام، عن قتادة، عن أبي الطفيل قال: انطلقت أنا وعمرو بن صُبيغ، حتى أتينا حذيفة، فقال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنّ هذا الحي من مُضر، لا تدع لله في الأرض عبدًا صالحًا إلا افتنته[2] وأهلكته، حتى يدركها الله بجنود من عنده فيذلّها، حتى لا تمنع ذنَب تلْعة»[3].

وعند الإمام أحمد[4] وغيره[5]، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «أما بعد يا معشر قريش، إنكم أهل هذا الأمر ما لم تعصوا الله، فإذا عصيتموه، بعث الله عليكم من يلحاكم كما يُلحى هذا القضيب ـ لِقضيب كان في يده ـ».

وعند الإمام أحمد[6] ومسلم[7]، عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ، أن النبي ـ ﷺ ـ قال: [ر،٢٥/أ] «هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه، ما أقاموا الدين».

---

(١) يعني الإمام أحمد.

(٢) هكذا في المسند: (افتنته) دون همزة، وفي «الفتح الربّاني» (٢٣/ ٢٤٠) بإثبات الهمزة، وفي «مختار الصحاح»: (فتنته المرأة: دلّهته، وأفتنته أيضًا، وأنكر الأصمعي «أفتنته» بالألف). ص ٤٩٠.

(٣) المسند: ٥/ ٣٩٠، ونحوه في مستدرك الحاكم: ٤/ ٥١٦، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه.

(٤) المسند: ١/ ٤٥٨، وصحّحه الألباني كما في السلسلة الصحيحة: ٤/ ٦٩، برقم (١٥٥٢). وقال: إسناده على شرط الشيخين.

(٥) انظر مسند أبي يعلى: ٨/ ٤٣٨.

(٦) المسند: ٤/ ٩٤.

(٧) لم أجده في صحيح مسلم.

وهكذا رواه البخاري في «صحيحه»[1] بهذا اللفظ، في «باب الأمراء من قريش»، حيث قال: حدثناأبو اليمان، ثنا شعيب، عن الزهري قال: كان محمد بن جبير بن مطعم يحدّث أنه بلغ معاويةَ وهو عنده في وفد من قريش، أن عبدالله بن عمرو - يعني ابن العاص -، يحدث أنّه سيكون مَلِك من قحطان، فغضب معاوية - رضي الله عنه -، فقام فأثنى على الله بما هو أهلُه، ثم قال: أما بعد، فإنّه بلغني أن رجالاً منكم يحدّثون أحاديثَ ليست في كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله - ﷺ -، وأولئك جُهّالكم، فإيّاكم والأماني التي تُضلّ أهلَها، فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن الأمر في قريش». ورواه مسلم بهذا اللفظ أيضًا[2].

وفي البخاري أيضًا في هذا الباب[3]، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان».

وعند الإمام أحمد[4] والنسائي[5] والضياء[6]، عن أنس - رضي الله عنه -: أنّ رسول الله - ﷺ - قال: «الأئمة من قريش، ولهم عليكم حق، ولكم مثل ذلك، إن استُرحموا رَحِموا، وإن استُحكموا عدلوا، وإن عاهدوا وفَوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس

---

(١) ص ٧٢٠، كتاب المناقب، باب مناقب قريش برقم (٣٥٠٠).

(٢) لم أجده في صحيح مسلم من حديث معاوية، لكن فيه «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان» برقم (١٨٢٠).

(٣) باب مناقب قريش، في الموضع السابق، برقم (٣٥٠١).

(٤) المسند: ٣/ ١٢٩. وصحّحه الألباني كما في صحيح الجامع: ١/ ٥٣٥، برقم (٢٧٥٨).

(٥) السنن الكبرى: ٣/ ٤٦٧، ٤٦٨، كتاب القضاء، باب الأئمة من قريش، برقم (٥٩٤٢).

(٦) الأحاديث المختارة: ٤/ ٤٠٣.

أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً».

وفي «معاجم الطبراني»[1]: عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «اتركوا الترك ما تركوكم؛ فإن أوّل من يسلُبُ أمّتي ملكهم وما خوّلهم الله بنو قنطورا». وفي سنده مروان بن سالم[2]، ضعّفوه، ولكن يقوّي هذا معنى قوله ـ مخاطبًا لقريش فيما تقدم من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ الذي عند الإمام أحمد ـ: «فإذا عصيتموه بعث الله عليكم من يلحاكم، كما يُلحى هذا القضيب ـ لقضيب في يده ـ»[3].

وقنطورا[4]: قيل: جارية إبراهيم ـ عليه السلام ـ، من نسلها الترك. وقيل: إنهم بنو عم [ياجوج][5] وماجوج، [ك،١٤/ب] وهو الصحيح في نسبهم، وبه قطع السوَيْدي البغدادي[6] في «شجرته»[7]، وهو الذي ينتسبون إليه اليوم.

وقد وقع ذلك؛ إذ وقوعه دليل على صحته، فبموجب خروج هذا

---

(١) الأوسط: ٦/ ٧، والكبير: ١٠/ ٢٢٤.

(٢) الغفاري، أبو عبدالله الجزَري، متروك، رُمي بالوضع، انظر «تقريب التهذيب»: ٥٢٦، برقم (٦٥٧٠).

(٣) تقدّم قريبًا أنّه صحيح على شرط الشيخين.

(٤) وفي بعض المراجع: (قطورا) بدون نون، انظر تاريخ الطبري: ١/ ١٨٥، وجمهرة الأنساب لابن حزم: ٥١٠.

(٥) في الأصل: [جوج]، دون «يا»، وأما ترك الهمز فهو موافق لقراءة عامة السبعة عدا عاصمًا.

(٦) هو محمد أمين بن علي بن محمد سعيد السويدي العباسي البغدادي، أبو الفوز، توفي السويدي في «بُرَيْدة» بنجد سنة ١٢٤٦هـ. انظر الأعلام: ٦/ ٤٢.

(٧) وتسمى «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب»، ولم أهتد إلى هذا الموضع منها.

الأمر عن قريش قدَرًا، بسبب إضاعتهم للدين، وكونه لهم شرعًا ما أقاموا الدين، مع قوله ـ ﷺ ـ فيما تقدم في الصحيحين، مخاطبًا لمن له الأمر شرعًا: «فكيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم»؛ إذ هذه مخاطبة على ما هو المعهود من منصب [ر،٢٦/ب] الإمامة الكبرى في زمنه ـ ﷺ ـ وخلفائه الراشدين في إمامتهم، حتى في الصلاة التي هي الإمامة الصغرى، ولذلك أمر ـ ﷺ ـ في مرضه الذي توفّي فيه أبا بكر أن يؤمَّ الناس في الصلاة، ليدلّهم على ذلك.

فإذا جمعْت بين الواقع والنازل[١]، تبيّن لك مفهوم أحاديثِ الصحيحين، مع تصريح أحاديث غيرهما بأن هذا الإمام للأمّة عند نزول عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو المهدي المصرّح به في غير الصحيحين.

ثم وقفتُ بعد ذلك ـ بحمد الله ـ على جواب لشيخ الإسلام بن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ في المهدي، يؤيده ما ذكرته، وفيه: والمهدي الذي أخبر به النبي ـ ﷺ ـ اسمه محمد بن عبدالله، من ولد الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ، يقوم إذا شاء الله، وهو خليفة صالح، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت جَوْرًا وظلما، ويحثو المال حثوًا.

قال: وجاءت أخباره في الترمذي، وسنن أبي داود، ومسند الإمام أحمد، ووقع التنبيه عليه في الصحيحين. هذا كلامه ـ رحمه الله[٢] ـ، فتبين ما قلناه عمّا في الصحيحين، والله الموفق.

وفي صحيح مسلم[٣] عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول

---

(١) ولعلّه أراد: بين الواقع والوارد.

(٢) لم أهتد إلى موضعه بلفظه، وانظر نحوه في «منهاج السنّة»: ٨/ ٢٥٤ وما بعدها.

(٣) (١/ ١٢٤)، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى بن مريم. . ، برقم (١٥٦).

الله ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة». قال: «فينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم: تعال صلّ لنا. فيقول: لا، إنّ بعضكم على بعض أمراء». الحديث.

فالمعنيّ بهذا الخطاب من عيسى ـ عليه السلام ـ بنو إسماعيل، الذين خلاصتهم قريش؛ إذ هو ـ عليه السلام ـ من بني إسحق[1].

وفي لفظ في السنن في هذا الحديث: «فيقول أميرهم المهدي»[2] الحديث.

وعند أبي داود[3] عن أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ في حديثٍ: «فيخرج رجل من أهل المدينة هاربًا إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة، فيُخرجونه وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث كلبٍ فيخسف بهم ببيداء من الأرض» الحديث.

وفي «صحيح مسلم»[4]، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا: «العجب أنّ ناسًا من أمّتي يؤمّون البيت لرجل[5] من قريش قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم، فيهم المستنصر والمجبور

---

(١) يعني باعتبار نسب أمه.

(٢) ذكره ابن القيّم في «المنار المنيف» ص ١٤٧ برقم (٣٣٨) من رواية الحارث ابن أبي أسامة في مسنده، وقال ابن القيّم: وهذا إسناد جيّد.

(٣) (٤/ ١٠٧)، كتاب المهدي، برقم (٤٢٨٦) باختصار، وقد ضعّفه الألباني كما في السلسلة الضعيفة: ٤/ ٤٣٥، برقم (١٩٦٥).

(٤) (٤/ ١٧٥١)، كتاب الفتن. ، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت، برقم (٢٨٨٤).

(٥) كذا في جميع النسخ: «لرجل» بلام الجر، وفي صحيح مسلم: «برجل» بالباء.

وابن السبيل، يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتّى، يبعثهم الله على نيّاتهم».

وفي آخر حديث أم سلمة - رضي الله عنها -، الذي عند أبي داود[1]، قال: [ر،٢٦/أ] «ويعمل بسنّة نبيِّهم - ﷺ -، ويلقي الإسلامُ بجِرانه في الأرض، فيلبث سبع سنين، ثم يموت، ويصلّي عليه المسلمون».

ثم يتولّى أمر الأمّة عيسى بن مريم - عليه السلام -، فيمكث في الأرض - كما عند الإمام أحمد[2]، عن عائشة - رضي الله عنها - أربعين سنة إمامًا عادلاً[3]، وحكمًا مُقسطًا. هكذا في مسنده، وهو عنده في «الزهد» أيضًا[4]، وكذا عند الطبراني[5] وأبي الشيخ[6]، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - بمعناه. وهو بمعناه أيضًا عند الحاكم[7] عن ابن مسعود - رضي الله عنه -.

ثم يموت - عليه السلام - ويصلي عليه المسلمون، ويدفن مع النبي - ﷺ - في حجرته. كما رواه الترمذي[8] - وقال: حسن غريب - من

---

(١) تقدم قريبًا أنه ضعيف.
(٢) المسند: ٦/ ٧٥، وقال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح، غير الحضرمي ابن لاحق، وهو ثقة). «مجمع الزوائد»: ٧/ ٣٤١.
(٣) في المسند «عدلاً»، بدون ألف.
(٤) لم أعثر عليه.
(٥) لم أهتد إليه.
(٦) لم أهتد إليه.
(٧) المستدرك: ٢/ ٦٥١، كتاب تواريخ المتقدمين..، برقم (٤١٦٢).
(٨) السنن: ٥/ ٥٨٨، كتاب المناقب، باب فضل النبي - ﷺ -، برقم (٣٦١٧). ونقل =

طريق أبي مودود، عن عثمان بن الضحّاك، عن محمد بن يوسف بن عبدالله بن سلام، عن أبيه، عن جده ـ رضي الله عنه ـ قال: مكتوب في التوراة صفة محمد ـ ﷺ ـ، وعيسى بن مريم يدفن معه. قال: فقال أبو مودود[(١)]: قد بقي في البيت موضع قبر.

ورواه الطبراني[(٢)] عن عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ بمعناه، من رواية عثمان بن الضحاك المذكور، وقد وثقه ابن حبان[(٣)]، وضعّفه أبو داود[(٤)]، وقال فيه الترمذي: المعروف فيه الضحاك بن عثمان المدني[(٥)].

ورواه ابن الجوزي في «المنتظم»[(٦)] عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ. وفيه قصّة.

وقال يحيى بن النجّار[(٧)] في «تاريخ المدينة»[(٨)]: قال أهل السير:

= ابن كثير عن البخاري قوله: هذا الحديث لا يصح عندي ولا يتابع عليه. انظر «البداية والنهاية»: ٢/ ٩٢.

(١) في [ر] «داود»، وهو خلاف ما في السنن وبقية النسخ.

(٢) لم أعثر عليه.

(٣) الثقات: ٧/ ١٩٢.

(٤) انظر «تهذيب الكمال»: ٥/ ١١٤.

(٥) السنن: ٥/ ٥٨٨.

(٦) لم أهتد إليه.

(٧) كذا في جميع النسخ، والصحيح أنه محمد بن محمود بن حسن بن هبة الله، بن النجّار، الحافظ المؤرّخ، صاحب الذيل على تاريخ بغداد، ولد سنة ٥٧٨هـ، وتوفّي سنة٦٤٣هـ، انظر سير أعلام النبلاء: ٢٣/ ١٣١.

(٨) اسمه كما في «السير» للذهبي: «الدرر الثمينة في أخبار المدينة»، وقد طبع قديمًا بعنوان «أخبار مدينة الرسول» بتحقيق صالح جمال. ثم طبع مؤخّرًا بعنوان «الدرر الثمينة».

وفي البيت موضع قبر في السهوة[1] الشرقية. قال سعيد بن المسيب: فيه يدفن عيسى بن مريم ـ عليه السلام[2] ـ.

وقد ذكر ابن الجوزي بسنده عن الإمام أحمد في «المعتقد»[3]، أن المهدي مما يجب الإيمان بخروجه.

وذكره السفاريني في معتقده أيضًا[4]؛ وذلك لصحة الأحاديث في خروجه عند الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ.

وقد عدّ جماعة أحاديثَ خروج المهدي من الأحاديث المتواترة[5].

وأما حديث: «لا مهدي إلا عيسى بن مريم»، الذي رواه ابن ماجه[6] والحاكم في صحيحه[7]، فقد قال الحاكم ـ على تساهله في الحديث ـ: أوردته تعجّبًا، لا محتجًا به. وقال البيهقي: تفرّد به محمد بن خالد. وقد قال الحاكم: إنه مجهول. واختلف عنه في إسناده[8]. وصرح النسائي بأنه منكر[9].

---

(١) في المطبوع بعنوان «أخبار مدينة الرسول» (ص ١٣٥): في الجهة الشرقيّة.

(٢) أخبار مدينة الرسول: ١٣٥.

(٣) ليس فيما ذكر من اعتقاده في كتاب «مناقب الإمام أحمد بن حنبل».

(٤) انظر شرح السفّارينيّة: ٢/ ٧٠.

(٥) انظر «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» للكتاني: ص ٢٢٥ برقم (٢٨٩).

(٦) سنن ابن ماجه: ٢/ ٣٨٩، أبواب الفتن، باب شدة الزمان، برقم (٤٠٨٨). وهو في السلسلة الضعيفة للألباني: ١/ ١٠٣، برقم (٧٧)، وقال عنه: منكر. وانظر دراسة موسعة لهذا الحديث في كتاب «المرسل الخفي وعلاقته بالتدليس» للدكتور الشريف حاتم العوني.

(٧) المستدرك: ٤/ ٤٨٨، ٤٨٩، برقم (٨٣٦٤).

(٨) انظر «تهذيب التهذيب»: ٩/ ١٢٦.

(٩) انظر العلل المتناهية لابن الجوزي: رقم ١٤٤٧.

قلت: وعلى تقدير صحته لو صح، فالمعنى: لا مهديّ على الحقيقة معصومًا، إلا عيسى ـ عليه السلام ـ؛ لوضعه الجزية، وإهلاكه المِلَل المخالفةَ لمِلّتنا، كما صحّت بذلك الأحاديث؛ إذ لا مهدي معصومًا إلا هو، فلا يخالف هذا الحديثُ إذًا الأحاديث الواردة في المهدي الذي هو من ولد فاطمة الزهراء، ابنةِ سيّد البشر ـ ﷺ ـ.

وقد قال إبراهيم بن ميسرة لطاووس: عمر بن عبدالعزيز المهدي؟. قال: لا؛ [ر،٢٧/ب] لأنّه لم يستكمل العدل كلّه[١].

فهو من جملة المهديين المذكورين في قوله ـ ﷺ ـ: عليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي.

قال الحافظ ابن حجر: والصحيح من الأحاديث الصحيحة أن المهدي يخرج آخر الزمان، وأن عيسى ـ عليه السلام ـ يأتمّ به[٢].

وعند الإمام أحمد[٣] [ك،١٤/أ] مرفوعًا: «أبشروا بالمهدي؛ رجل من قريش، من عترتي، يخرج في اختلافٍ من الناس وزلازل، فيملأ الأرض عدلاً وقسطًا، كما ملئت ظلما وجورًا، يرضى عنه ساكن الأرض والسماء» الحديث.

وقد ذكرنا هذه الأحاديث التي في خروج المهدي، وبيّنّا وجوهها؛ لتعلّقها بحديث عبدالله بن الحارث بن جَزْء، الذي أوردناه في أول هذا

---

(١) رواه نُعيم بن حماد في «كتاب الفتن»: ٢٢٢.

(٢) لم أقف عليه بلفظه، ونحوه في فتح الباري: ٦/ ٥٦٩، نقلاً عن أبي الحسن الآبري.

(٣) المسند: ٣/ ٣٧، ٥٢، بلفظ: «أبشركم بالمهدي، يبعث في أمّتي على اختلاف من الناس وزلازل».. الحديث. وهو ضعيف، كما في السلسلة الضعيفة للألباني: ٤/ ٩١، برقم (١٥٨٨).

الفصل، والله الموفق، وله الفضل والمنّة.

فمن رُزق اتباع الكتاب والسنّة، الذَيْن أمر الله باتّباعها، وحثّ رسوله ـ ﷺ ـ على الاهتداء بهما فقد اهتدى، فإن دعا إليهما صار بذلك هاديًا مهديًّا، كما دعا النبي ـ ﷺ ـ لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ بقوله كما عند الترمذي(١)، وقال: حسن غريب، عن عبدالرحمن بن أبي عميرة، وكان من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال لمعاوية: «اللهمّ اجعله هاديًا مهديًّا، واهد به»، فمن حصل له ذلك فهو من جملة المهديين، كصاحب هذا الكتاب.

ولهذا لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ خلاصة رسله وأنبيائه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في سورة الأنعام قال: ﴿وَمِنْ ءَابَآبِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

ولمّا نظر الله ـ سبحانه ـ إلى الخلق من العرب والعجم، عند مبعث محمد ـ ﷺ ـ، وما هم عليه من مخالفة أمره، بخروجهم عن طريق الهدى، مقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، كما في حديث عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ، الذي في صحيح مسلم(٢) وغيره، أنه قال ـ ﷺ ـ: «يا أيها الناس، إنّ الله ـ عز وجل ـ أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم، مما علّمني في يومي هذا: إن كل مالٍ نحلته عبدي

---

(١) السنن: ٥/ ٦٨٧، كتاب المناقب، باب مناقب لمعاوية..، برقم (٣٨٤٢)، وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة: ٤/ ٦١٥، برقم (١٩٦٩).

(٢) ٤/ ١٧٤١، كتاب الجنة..، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنّة..، برقم (٢٨٦٥).

فهو له حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطانًا، وإن الله ـ تعالى ـ نظر إلى أهل الأرض ومقتهم[1]، عربَهم وعجَمهم، إلاّ بقايا من أهل الكتاب».

وهذا تصديق لخبره ـ تعالى ـ، في قوله في إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٨]. ومصداق أيضًا لإجابته لدعوة [ر،٢٧/أ] إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حين دعى لأهل مكّة أن يبعث فيهم ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فبعث الله ـ سبحانه، وله الحمد والمنّة ـ فيهم محمدًا ـ ﷺ ـ، على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، ومقت الله ـ سبحانه ـ أهل الأرض، عربَهم وعجمهم، إلاّ بقايا من أهل الكتاب، يعني يسيرًا، ممن تمسك بما بعث الله به عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقد كانت العرب قديمًا متمسكين بدين إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ، فبدّلوه وغيّروه، وقلبوه وخالفوه. وكان أول من غيّره عمرو بن لحي بن قمعة، كما سيأتي إن شاء الله ـ تعالى ـ في موضعه توضيحه[2]. فاستبدلوا بالتوحيد شركًا، وباليقين شكًّا، وابتدعوا أشياء لم يأذن الله بها.

وكذلك أهل الكتاب، قد بدّلوا كتبهم وحرّفوها وغيّروها وأوّلوها على غير تأويلها.

---

(١) كذا في جميع النسخ بالواو، والذي في صحيح مسلم: «فمقتهم»، بالفاء.
(٢) انظر ص ٨٥٩.

فبعث الله محمدًا ـ ﷺ ـ بشرع عظيم كامل، شامل لجميع الخلق، فيه هدايتُهم، والبيانُ لجميع ما يحتاجون إليه من معادهم ومعاشهم، والدعوةُ لهم إلى ما يقرّبهم إلى الجنّة، ورضاءِ الله عنهم، والنهيُ عما يقرّبهم إلى النّار، وما يسخط عليهم الجبّار. فجاء بكتاب حاكم، فاصلٍ لجميع الشبهات والشكوك والرِّيَب، في الأصول والفروع، وجمع له ـ تعالى وله الحمد والمنة ـ جميعَ المحاسن ممن كان قبل، وأعطاه في ذلك ما لم يعط أحدًا من العالمين، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى جميع أنبيائه ورسله، بأتم لفظ وأدومه إلى يوم الدين.

ولهذا قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

فلمّا أن هدى الله من هدى منهم، ببعثته محمدًا ـ ﷺ ـ إليهم، صار إمامَ المهديّين، فلا مهديّ إلا من كان على طريقته، مِن كل من كان بعده، حتى عيسى بنُ مريم ـ عليه السلام ـ بعد نزوله؛ إذ هو لا يعمل إلا بشريعته، حتى بكونه لا يقبل من أهل الكتاب [ر،٢٨/ب] إلا الإسلام أو القتل؛ إذ لقائل أن يقول: إنّ في شريعة محمد ـ ﷺ ـ ما لا يُعمل به إلا بعد نزول عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ، فيُعايا بها[١].

(١) من المعاياة، وهي أن يُلقي أحد لآخر كلامًا لا يهتدي لوجهه. انظر «أساس البلاغة» للزمخشري: ٤٤٣.

وكان ـ ﷺ ـ قد بُعث والخلقُ [أصناف][1] شتّى في أديانهم، يهودُ ونصارى، ومجوس، وصابئون، وعبدة أصنام، وفلاسفة.

فأما العرب الذين الذين بُعث منهم فكانوا أيضًا أصنافًا شتى، منهم معطّلة[2] وغير معطّلة، فمنهم من ينكر الخالق والبعث والإعادة، كقول الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فجعلوا الجامع لهم الطبع، والمهلك لهم الدهر، وسيأتي النهي عن سبّه في موضعه إن شاء الله ـ تعالى ـ[3].

وبعضهم اعترف بالخالق، كغالب قريش، وأنكر البعث، أخبر الله عنهم بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، وقد نطق شعرهم بذلك، فمن مراثيهم في قُتلائِهم[4] يوم بدر قول بعضهم[5]: [ك، ١٥/ب]

فماذا بالقليب قليب بدرٍ ... من الفتيان والقوم الكرامِ[6]

أيخبرنا ابن كبشة أن سنحيا ... وكيف حياة أصداءٍ وهامِ[7]

أيقتلني إذا ما كنت حيًّا ... ويحييني إذا رمّت عظامي[8]

---

(١) في جميع النسخ: أصنافاً، والصواب ما أثبته.

(٢) من التعطيل، وهو أنواع، فمنه تعطيل الكون عن الخالق، وهو الإلحاد المطلق، وهو الذي يريده المصنف هنا، ومنه تعطيل الخالق من صفاته الواجبة له، كما عند الجهميّة، وانظر عن شرك التعطيل «تيسير العزيز الحميد بشرح كتاب التوحيد»: ٤٣.

(٣) في القسم الثاني، الباب الرابع والأربعين: باب من سب الدهر فقد آذى الله ـ تعالى ـ.

(٤) في [م]: قتلاهم، وكلاهما يصح في جمع «قتيل»، انظر اللسان: ١١/ ٥٤٧.

(٥) وهو أبو بكر شدّاد بن الأسود بن شعوب الليثي، كما في سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩.

(٦) في السيرة: «من القينات والشَّرْب الكرام» وهو بعيد المعنى.

(٧) في السيرة: «يخبّرنا الرسول بأن سنحيا»، وتبعد صحّته مع إنكارهم الرسالة.

(٨) ليس في السيرة.

وكان منهم من يعتقد التناسخ[1]، وتنقُّلَ الأرواح من جسد إلى جسد، وقد قيل إنّ كُثيِّرًا كان يعتقد ذلك[2].

ومنهم أرباب الهامَة[3]، الذين قال عنهم ـ ﷺ ـ: «لا عدوى ولا طِيَرةَ ولا هامة ولا صفر»[4]. وسيأتي ذلك في موضعه إن شاء الله ـ تعالى ـ[5].

ومنهم من أقرّ بنوع من الإعادة، وأنكر الرسلَ ـ عليهم السلام ـ،

---

(١) وهو أن الروح إذا فارقت بدن الميّت انتقلت إلى جنين قابل للروح، والقائلون بهذا يسمّون التناسخيّة، ومقالتهم كفريّة؛ لتضمنها إنكار البعث والجزاء. انظر عنهم وعن مقالتهم: «الملل والنحل» للشهرستاني: ٢/ ٥٥، ٢٥٥، و«الكلّيات» للكفوي: ٣٠٥.

(٢) كُثيّر عزّة، من فحول الشعراء، وهو أبو صخر، كثيّر بن عبدالرحمن بن الأسود الخزاعي المدني، يقال إنه كان شيعيًّا يقول بتناسخ الأرواح، ويؤمن برجعة علي ـ رضي الله عنه ـ، مات سنة ١٠٧هـ. وله الأبيات المشهورة في عودة محمد بن الحنفية بعد غيبته ـ كما هي عقيدة الكيسانيّة من غلاة الشيعة ـ، وأوّلها:

ألا إنّ الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سَواءُ

انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ١٥٢.

(٣) الهامَة بالتخفيف، وقيل: بالتشديد، والأوّل هو المحفوظ، وهي بزعم العرب في جاهليّتهم دودة تخرج من رأس المقتول الذي لم يؤخذ بثأره، فتدور حول قبره وتقول: اسقوني، اسقوني، فإن أخذ بثأره ذهبت، وإلا بقيت، وقيل: هي البومة، وقد كان العرب يتشاءمون بها، ويزعمون أن عظام الميت يصير هامة فتطير، فنُفي ذلك كلّه في هذا الحديث. انظر «فتح الباري»: ١٠/ ٢٥٢. و«بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»: ٢/ ٣١١.

(٤) صحيح البخاري (٥/ ٢١٥٨)، كتاب الطب، باب الجذام، برقم (٥٣٨٠)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٣٩٠، كتاب السلام، باب لا عدوَى..، برقم (٢٢٢٠).

(٥) في القسم الثاني، الباب (٢٧)، باب ما جاء في الطيرة.

وعبد الأصنام، وزعم أنها شفعاء عند الله ـ تعالى ـ في الآخرة، وحجّوا لها، ونحروا لها، وقرّبوا لها القربان، وحلّلوا وحرّموا، فجعلوا لها حقًّا من عبادتهم، وهم جمهور العرب، الذين قال الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، إلى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾، إلى قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ [الفرقان: ٧ـ ٩]، وكقول زهير بن أبي سُلمى المُزَني:

يؤخّر فيوضع في كتاب فيدّخر ... ليوم حسابٍ أو يُعجّل فينقم(١)

وقال مطرود بن كعبٍ الخزاعيّ(٢) يبكي المطّلبَ:

يا عين وابكي [أبا] الشُّعثِ الشجيات ... يبكينـه حُسَّرًا مثل البليّـاتِ(٣)

[ر،٢٨/أ] والبليّة: ناقة تعقِلها(٤) أهل الجاهلية عند قبر صاحبها، ويجعلون في عنقها الولايا؛ وهي البراذع(٥)، ويشدّ وجهها بكساء، وتربط عند القبر، قال لبيد بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ يمثّل بها:

---

(١) من معلقته المشهورة، انظر المعلقآت بشرح ابن الأنباري: ٢٦٦. وانظر ديوانه: ص ١٨.

(٢) شاعر جاهلي فحل، لجأ إلى عبدالمطلب بن هاشم فحماه، فأكثر مدحه ومدح أهله. انظر الأعلام للزركلي: ٧/ ٢٥١.

(٣) البيت في سيرة ابن هشام: ١/ ١٤٠، ضمن قصيدة طويلة يرثي فيها نوفل بن عبد منافٍ، وقد وقع في الأصل: «أبي الشعث»، والتصويب من السيرة.

(٤) كذا في جميع النسخ: «تعقلها» بالتاء الفوقانية، والصواب: «يعقلها». بالتحتانية.

(٥) «الولايا»: «جمع «وليّة»، وهي «البرذعة»، و«البرذعة»: الحلس الذي يلقى تحت الرحل، و«الحلس»: الكساء الغليظ، يوضع فوق الدابة ليقيها أثر الرحل. انظر «أساس البلاغة»: ٦٨٩، واللسان: ٨/ ٨.

تأوي إلى الأطناب كلُّ رذيّة مثل البليّة قالصٍ أهدامها[1]

يقول: مشمّر ومرتفع ما على البليّة من الأهدام، وهي الخلقان البالية التي تُجعل عليها؛ لأنّها تترك على تلك الحال حتى تموت جوعًا وعطشًا؛ يقولون: إنّه يحشر عليها راكبًا، ومن لم يُفعل معه ذلك منهم حُشر راجلًا، وعلى هذا مذهب من كان يقول بالبعث منهم، مع اتخاذهم الشفعاء، كما قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٓ﴾ [الفرقان: ٣].

وأوصى رجل منهم ابنه عند الموت بذلك فقال:

لا تتـركـن أبــاك يحشـر مـرةً عَدْوًا يُجَرُّ على اليدين ويُنكبُ

في أبيات ذكرها أبو سليمان الخطّابي ـ رحمه الله تعالى ـ في «غريبه»[2].

وقال شاعرهم الآخر:

والبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السمومِ حُرَّ الخدودِ[3]

وفي المثل: «جاءت البلايا، تحمل الولايا»[4].

---

(١) من معلقته المشهورة، انظر المعلّقات بشرح ابن الأنباري: ٥٨٩.

(٢) ١/ ٣٧٠. والبيت عنده هكذا:

لا أعرفنّ أباك يُحشر بعدكم نَقِبا يخرّ على اليدين ويُنكبُ

وهو لخزيمة ـ أو جذيمة ـ بن أشيم الفقعسي.

(٣) معزوّ في اللسان مادّة (بلا) لأبي زبيد.

(٤) لم أهتد إليه بهذا اللفظ في كتب الأمثال، والمشهور قول عمير بن وهب يوم بدر: «رأيت البلايا تحمل المنايا»، كما في سيرة ابن هشام: ١/ ٦٢٢. وانظر جهرة الأمثال للعسكري: ٢/ ٢٧٤، (المنايا على البلايا).

فكان عُبّاد الأصنام في عبادتها مختلفين: فمنهم من يجعلها مشاركة للباري ـ جل وعلا ـ، كقولهم في تلبيتهم ـ وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله ـ تعالى ـ في محله ـ[(١)]: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك[(٢)].

ومنهم من لا يطلق عليها لفظ الشريك، ويجعلها وسائل ووسائط وذرائع إلى الخالق، وهذه الوسائط والوسائل قد تقل عندهم، وقد تكثر. وهم الذين قال الله عنهم في كتابه العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وإنما خلقوا لأجل أمرهم بالعبادة للواحد القهار، الذي أوجدهم من العدم، ورزقهم من الطيبات، وركّب فيهم العقول والأسماع والأبصار والقوى. وأعظم ما منّ به عليهم بعثةُ الرسل ـ عليهم السلام ـ إليهم؛ ليدلّوهم على مولاهم، وما تصلح به آخرتهم ودنياهم.

ولهذا لمّا بعث الله ـ جل ثناؤه ـ محمدًا ـ ﷺ ـ إلى الثقلين بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إليه بإذنه، وسراجًا منيرًا، أنزل عليه بيانَ ما خُلقوا لأجله، (و) هو (قول الله ـ تعالى ـ) في كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: (﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات ٥٦]). [ر،٢٩/ب] قال مقاتل: ما خلقتهم إلا أمرتهم بالعبادة، ولو أنهم خُلقوا للعبادة، ما عصوا الله طرفة عين[(٣)].

---

(١) ص ٨٥٩.

(٢) انظر صحيح مسلم: ٦٩٢. كتاب الحج، باب التلبية وصفتها، برقم (١١٨٥).

(٣) لم أعثر عليه.

وقال مجاهد: يعني ما خلقتهم إلا لآمرهم وأنهاهم[١].

وقال البخاري عند تفسير هذه الآية: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾: ما خلقت أهل السعادة من أهل الفريقين إلا ليوحدون[٢]. وذلك لئلا يعارض قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال بعضهم: خلقتهم ليفعلوا، ففعل بعض وترك بعض[٣].

وهذا معنى ما مشى عليه في الجلالين، حيث قال مقتصرًا عليه: ولا ينافي ذلك عدم عبادة الكافرين؛ لأن الغاية لا يلزم وجودها، كما في قولك: «بريت هذا القلم لأكتب به»، فإنك قد لا تكتب به.[٤]

وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية في جواب له على الآية الكريمة[٥].

ولهذا قال البخاري: وليس فيه حجة لأهل القدر[٦].

فمعنى الآية حينئذ على ما قاله مقاتل ومجاهد، وعلى ما قدّمه البخاري ـ رحمه الله ـ: أن العبادة فيها هي توحيد الألوهية، المتضمن لتوحيد الربوبية، بأن يعبدوه وحده لا شريك [ك،١٥/أ] له، العبادة التي تجمع غاية الحبّ والذل والانقياد، وإثبات نعوت الكمال لله

---

(١) لم أعثر عليه مسنداً، وقد ذكره الشوكاني في فتح القدير (٥/٩٢) بصيغة: وروي عن مجاهد. . .
(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٨٣٧، كتاب التفسير، سورة ﴿والذاريات﴾.
(٣) المرجع السابق.
(٤) تفسير الجلالين: ص ٦٩٣، حاشية المصحف.
(٥) انظر مجموع الفتاوى: ٨/ ٣٩، وما بعدها.
(٦) صحيح البخاري، الموضع السابق.

ـ سبحانه ـ، والإخلاصَ له، فهي على هذا القول كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. واللام في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، لام التعليل، خلافًا لمن أنكرها، كما مشى عليه البيضاوي[١] وغيره. فنفوا أن تكون للتعليل، وجعلوها لام العاقبة، وقالوا: ليس في القرآن لام تعليل[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ: وقد أجمع المسلمون على أنه ـ تعالى ـ موصوف بالحكمة. فقالت طائفة: معناها راجع إلى العلم بأفعال العباد، وإيقاعها على الوجه الذي أراده ـ تعالى ـ، وهذا قول أناس من أهل السنّة، وسيأتي مضمونه.

وقال جمهور أهل السنّة والجماعة: بل هو حكيم في خلقه وأمره، والحكمة ليست مطلق المشيئة؛ إذ لو كان كذلك لكان كل مريد حكيمًا، ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلى محمودة ومذمومة، بل الحكمة[٣] ما في أمره وخلقه من العواقب المحمودة.

وأصحاب القول الأول ـ كالأشعري ومن وافقه من الفقهاء ـ يقولون: ليس في القرآن لام التعليل في أفعال الله ـ تعالى ـ، بل ليس فيه إلا لام العاقبة.

وأما الجمهور فيقولون: بل لام التعليل داخلة في أفعاله ـ تعالى ـ

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ٤٣٢.

(٢) هذا مذهب الجهمية والأشاعرة وابن حزم ومن وافقهم على نفي الحكمة والتعليل في أفعال الله ـ تعالى ـ، انظر «الإرشاد» للجويني: ٢٦٨ وما بعدها، و«نهاية الإقدام» للشهرستاني: ٢٩٧، والمحصل للرازي: ٢٩٦، والفِصل لابن حزم: ٣/ ١٥٣. و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة»: ٣/ ١٣١١.

(٣) في «منهاج السنّة» بعدها: تتضمّن.

وأحكامه. فأكثر أهل السنة على إثبات الحكمة والتعليل، فالقائلون بالتعليل يقولون: إن الله يرضى ويحب، وذلك أخص من الإرادة.

وأمّا المعتزلة وأكثر الأشعرية فيقولون: المحبة والرضى والإرادة سواء.

فجمهور أهل السنّة يقولون: [ر،٢٩/أ] لا يحب الكفر ولا يرضاه، وإن كان داخلاً في مراده الكوني القدري، كما دخلت سائر المخلوقات؛ لِما في ذلك من الحكمة، وهو وإن كان شرًّا بالنّسبة إلى الفاعل، فليس كل ما كان شرًّا بالنسبة إلى الفاعل، يكون عديم الحكمة، بل لله ـ سبحانه ـ في مخلوقاته حِكم تخفى[1].

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧]، ومما عليها المؤذي ذو الشرّ.

وفي قوله ـ ﷺ ـ يوم الحديبية لعمر ـ رضي الله عنه ـ، ـ كما في صحيح البخاري[2] وغيره، بعد قوله: ألسنا على الحق، وعدوّنا على الباطل، فلم نعطي الدنيّة في ديننا؟! ـ: «إني عبدالله[3]، ولست أعصيه، وهو ناصري»، إقرار منه ـ ﷺ ـ لربّه بالربوبيّة؛ بأنّه مملوك له، يفعل به ما يشاء، وبالألوهية؛ بأنه متعبد له بطاعته، فلا يعصيه.

وفي قوله: «وهو ناصري»، وفي لفظ آخر: «ولن يضيّعني»[4]، بيان لحكمته ـ تعالى ـ، وأنّه لا يفعل شيئًا عبثًا، إذ قد علمتَ بأنه ـ سبحانه ـ هو القادر على كل شيء، وبيده خزائن السموات والأرض،

---

(١) إلى هنا ينتهي نقل المصنف من «منهاج السنة»: لابن تيمية: ١/ ١٤١، بتصرف واختصار.

(٢) صحيح البخاري: ٢/ ٩٧٨، وكتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد. .، برقم (٢٥٨١).

(٣) الذي في صحيح البخاري: «إني رسول الله».

(٤) صحيح البخاري: ٣/ ١١٦٢، كتاب الجزية والموادعة، برقم (٣٠١١).

وقد نال الكفّار من رسوله ما نالوا، وما ذاك إلا عن حكمة منه ـ تعالى ـ، ولمّا خفيت على الفاروق ـ رضي الله عنه ـ، نبّهه ـ ﷺ ـ بهذا الكلام، ثم أعلّه[1] عليه الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ، فدلّ ذلك على التسليم لأمر الله ـ تعالى ـ، وإن لم تُعلم الحكمة في ذلك. إلا أنّا نعلم أنّه لا يفعل شيئًا ولا يأمر إلا عن حكمة، لا ما يقوله من نفى عنه ـ سبحانه ـ الحكمة، وعطّله من صفة كونه حكيما، تعالى الله عما قالوا.

ومع قولهم هذا، ونفيهم للتعليل في أفعال الله ـ سبحانه ـ، لا ينفكّون عن التعليل البتة، فلابد أن تجد منهم التناقض.

وفي الآية على هذا التأويل ردّ على الجبرية، الذين هم بتسمية القدرية أولى وأحرى.

وقد قال بعضهم: إنّ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، يعارض ما ظهر من قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، إذا جُعلت اللام فيها لام التعليل. حتى حملوها على لام العاقبة. وليس كذلك كما ترى[2].

وأما اللام في قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾، فهي لام العاقبة، على ما حكاه جمهور المفسرين، فهي كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وأنشدوا عليها قول الشاعر:

أموالنا [لذوي][3] الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها[4]

---

(١) أي كرّره عليه، انظر «أساس البلاغة»: ٤٣٣. والمقاييس لابن فارس: ٤/ ١٢.
(٢) في [ك]: لِما ترى.
(٣) في جميع النسخ: (لذي)، والمشهور المثبت في المصادر: لذوي، وعليه يستقيم البيت.
(٤) من قصيدة زهدية تُنسب لعلي ـ رضي الله عنه ـ، انظر ديوانه: ٢١٠.

وقال الآخر[1]:

ألا كل مولود فللموت يولد ولست أرى حيًّا لحيّ[2] يُخلّدُ

[ر، ٣٠/ب] وقال الآخر[3]:

فللموت تغذوا الوالداتُ سِخالَها[4] كما لخراب الدهر تُبنى المساكنُ

والمعنى أن الله خلق كثيرًا من الإنس والجنّ للنّار، وهم الذي حقت عليهم الكلمة الأزليّة بالشقاوة، ومَن خلَقه الله لجهنّم فلا حيلة في الخلاص منها، وسبب ذلك إعراضه عما خُلق له، من عبادة ربه ـ جل وعلا ـ.

وهاتان الآيتان كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية [الأعراف: ٢٩]،. قال ابن عباس: بلا إله إلا الله[5]. وقال الضحاك: بالتوحيد[6]. وقال مجاهد والسدّي: بالعدل[7]. وأعدل العدل التوحيد، كما أنّ أظلم الظلم الشرك بالله ـ سبحانه ـ.

ثم قال: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. قال مجاهد

---

(١) هو أبو العتاهية، انظر ديوانه: ١٢٨.

(٢) في الديوان: لشيء.

(٣) هو سابق البربري، كما في «شعب الإيمان» للبيهقي: ٧/ ٤٠٣.

(٤) السخال: ولد الضأن. واحدها: سخل، والأنثى: سخلة، انظر المقاييس: ٣/ ١٤٥. وقد حُرّفت في «شعب الإيمان» إلى: سخائها.

(٥) ذكره عنه البغوي في تفسيره (٢/ ١٥٦).

(٦) ذكره عنه البغوي في تفسيره (٢/ ١٥٦).

(٧) انظر تفسير الطبري: ٨/ ١٥٥.

والسدّي: وجِّهوا وجوهكم حيث كنتم إلى الكعبة. وقيل: معناه: اجعلوا سجودكم لله خالصًا(١).

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. أي في الطاعة والعبادة.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: إن الله بدأ خلق بني آدم مؤمنًا وكافرًا(٢). ولهذا قال: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، أي هداهم لصراطه المستقيم، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ﴾ أي وجب، ﴿عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: بالإرادة السابقة منه ـ تعالى ـ، ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾. قال بعض العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ: فيه دليل أن الكافر الذي يظن أنّه في دينه على الحق، والجاحدَ المعاندَ سواء(٣).

فتبيّن لك بذلك أنّ معنى قوله ـ تعالى ـ: [ك،١٦٠/ب] ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، أي: ليأمرهم وينهاهم، ولهذا قال ـ تعالى ـ حين أهبط أبويهم: آدم وإبليس إلى الأرض: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨، طه: ١٢٣]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، يعني: لا يؤمر ولا ينهى.

وقد أخذ الله على بني آدم العهد والميثاق، كما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والصحيح أن الخطاب في قصة آدم وإبليس حين أهبطوا إلى الأرض،

---

(١) تفسير الطبري: ٨/ ١٥٥.

(٢) تفسير الطبري: ٨/ ١٥٦.

(٣) انظر تفسير الطبري: ٨/ ١٥٩.

في قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]، أنّه للجن والإنس؛ إذ الأصح أنّ إبليس هو أبو الجنّ، كما أنّ آدم هو أبو البشر.

يدلّ عليه: [ر، ٣٠/أ] ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠]؛ فإنّ الاستثناء في جميع الآيات(١) منقطع، كما هو المشهور من القولين عن السلف، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية(٢) وابن قيّم الجوزية(٣) من أصحابنا، وهو قول الجمهور.

ويوضّح قولَ من قال في الآية: ما خلقهم إلا ليأمرهم وينهاهم. الآياتُ المتقدمة، مع قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، يعني: لا نأمرُكم ولا ننهاكم. كما قال المفسّرون في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]: لا يُؤمر ولا يُنهى(٤).

وقال الحافظ أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي المالكي(٥)

---

(١) يريد الآيات التي تضمنت الأمر بالسجود لآدم.

(٢) انظر مجموع الفتاوى: ٤/ ٢٣٥.

(٣) لم أقف على موضعه.

(٤) انظر تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٨٣.

(٥) المعافري، الإشبيلي، الأشعري، صاحبه «قانون التأويل» و«العواصم من القواصم»، توفي سنة ٥٤٣هـ، انظر عن منهجه في العقيدة: «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للدكتور عبدالرحمن المحمود: ٢/ ٣٤٧، ٦٤٨، و«منهج أبي بكر بن العربي وآراؤه في الإلهيات» رسالة ماجستير بجامعة الإمام، إعداد سعد العريفي.

ـ رحمه الله تعالى ـ ومعناه لبعض أهل السنّة ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾: وقد خفيت هذه الآية على المبتدعة، وعلى أناس من أهل السنّة، فقال قوم من المبتدعة: خلقهم، وأراد منهم العبادة، ففعلوا ما أرادوا[1]، تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد.

وقال بعض أهل السنّة: إن كان خلقهم ليعبدوه، فقد وُجد من لا يعبدُه، ولا يصح أن يكون في خبره خُلْف. وأيضًا فإنه غنيٌّ عن عبادتهم. وظاهر الآية يعطي أنه خلقهم لما هو غني عنه[2].

وقال قوم من القدرية: إنّ العبادة وقوع أفعال العباد على وفق أمر المولى، وأخرجوا الأفعال عن العبادة ما لم تكن موافقة الأمر؛ ليثبتوا بذلك أنه لا يريد المعصية[3].

قال: وقال أهل السنة والجماعة: العبادة في الآية الكريمة هي وقوع أفعال العباد على حكم المولى لا جرم[4]، كل طاعة ومعصية وخير وشر ظهر من العباد فإنه بحكم المولى وقضائه، والأمور تجري على حسب مراد الله ـ سبحانه ـ، لا على مقتضى أمره ونهيه؛ فإن ذاك

---

(١) كذا في النسخ الثلاث، والسياق يقتضي: «ما أراد».

(٢) أهل السنّة المحضة أبعد الناس عن هذا القول، وإنما هو قول نفاة التعليل لأفعال الله من المتكلمين، كالأشعرية رهط ابن العربي، ولا يسلّمُ انتماؤهم إلى السنّة إلا عند المقابلة بين السنة والشيعة.

(٣) ليس هذا ما يعاب على القدرية، وإنما يعاب عليهم إنكارهم القدر الشامل لأفعال العباد.

(٤) هذا كسابقه في نسبته إلى أهل السنة، وسيأتي التعليق وافيًا على اختيار ابن العربي في تفسير العبادة في هذه الآية، وتصويب الشارح له، في ص ١٦٦.

يترتب عليه العقاب والثواب، فلله ـ سبحانه ـ في خلقه حكمان: شرعي، وكوني.

قال: ولمّا جهل هذا الأصل المبتدعة، وغفل عنه المفسّرون، خلطوا في هذه الآية، فقال قوم: معناها الخصوص، وإن كانت بلفظ العموم. وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما: أن العموم إنما يخص لحاجة، ولا حاجة هنا. الثاني: أن الأصل الذي يدعو إلى الخصوص فاسد، فلا يُبنى عليه. ومنهم من قال: معناه: وما خلقت الجنّ والإنس إلا لآمرهم بالعبادة. والمعنى صحيح، ولكنه تركيب لا تعضده العربية، ولا تقتضيه الفصاحة، والقرآن طلق[1] العربية، ونيّر الفصاحة.

قال: والمعنى الصحيح في الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أي لتجريَ [ر،٣١/ب] أفعالهم على مقتضى قضائي، فيكون فعل العبد على مقتضى حكم المولى، وإنما يخرج فعل العبد عن حكم المولى إذا كان مغلوبًا، والغالب لا يخرج شيء عن حكمه، وهو الله وحده[2].

---

(١) من طلاقة الوجه، أي إشراقة، يريد أن القرآن مشرق البيان.

(٢) في حاشية الأصل كُتب ما يلي: [قوله «والمعنى الصحيح: وما خلقت الجن والإنس إلا لتجري أفعالهم على مقتضى قضائي.. إلخ. فأقول: انظر إلى هذا الكذب على الله وعلى كتابه، فمقتضى هذا القول الباطل أن المعاصي والكفر عبادة لله، قاتل الله من رضي بهذا القول وحكاه في معنى هذه الآية الكريمة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾، وأما ما نسبه إلى ابن عباس أنه يقول: «كفر الكافر تسبيح»، فهذا كذب عظيم على ابن عباس وافتراء، وحاشاه أن يجعل ما يوجب الخلود في النار الذي لا يرضاه الله ـ تعالى ـ لعباده عبادة، وهذا كلّه زيغ عن الحق، نعوذ بالله من ذلك]. اهـ.

ولا يخفى أنه ليس من كلام المؤلف، ولعله من تعليق بعض العلماء على =

وقد فهم بعض الصالحين هذا المعنى فقيل له: ما أراد الله من الخلق؟ فقال: ما هم عليه. يعني الإرادة الكونية والشرعية الكائنة.

وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]: إن كفر الكافر تسبيح وتقديس[١].

والمعنى في ذلك أنه أمر جرى بقدر الله وإرادته الكونية، مع ما فيه من مخالفة أمره الشرعي، وتعدّي حده الدّيني.

وهذا دليل على سعة ملكه ـ تعالى ـ، وبديع حكمه، وانفراده بعلمه السابق، وإلزامه التسليم لأمره، والإقرار بالعجز عن دركه. وذلك ـ كما سنبيّنه قريبًا ـ؛ لأنّه ما من شيء إلا وهو يعبد الله ـ سبحانه [٢]ـ، كما يجب للمولى على عبده، ويسبّح ـ كما سبق ـ بحمده. ويشهد لذلك من كلام العرب قول زيد بن عمرو بن نفيل ـ وقيل: ابن ورقا[٣] ـ:

سبحان ذي العرش سبحانا يدوم له وقبلنا سبّح الجوديّ والجمَدُ[٤]

والجوديُّ والجمَدُ جبلان بالحجاز؛ فإنه من لم يسبّح تسبيح قالةٍ، سبّح تسبيح دلالة.

= النسخة، وهو تعليق في محله على قسوته، وليت المؤلف صان كتابه عن هذا الرأي، واكتفى بما سلف إيراده عن أئمة السلف.

(١) لم أعثر عليه، وثبوته عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مستبعد.

(٢) أي العبادة الكونية، لا الدينية.

(٣) كذا في جميع النسخ، وأظن صوابه: وقيل إنه ورقة؛ لما في المصادر من الشك في نسبة البيت إلى زيد أو ورقة ابن نوفل.

(٤) ذكره ياقوت في «معجم البلدان»: ٢/ ١٦١، والقرطبي في تفسيره: ٩/ ٤٢.

وقد ذكر هذا القول على الآية محي السنّة، أبو الحسين البغوي ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره[1].

قال الحافظ ابن العربي ـ رحمه الله تعالى ـ: وأهل الغفلة ظنوا أن تفسير العبادة هنا الطاعة، ورأوا أن بعض الخلق لا يطيعون الله، فطلبوا للآية معنىً غير معناها، ولو عقلوا معنى ذلك[2]، وفهموا أيضًا معنى السجود، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، كما قال زيد الخيل ـ رضي الله عنه ـ:

بيومٍ تضل البلقُ في حَجَراته ... ترى الأكْمَ منه سجّدًا للحوافرِ[3]

فالكافر يكفر بقوله، بمخالفة أمر الله الشرعي، ودينه الذي ارتضى لعباده، فأرسل به رسله، وهو مع ذلك جارٍ بقضاء الله وقدره، فلم يخرج شيء عن ملكه ـ تعالى ـ، ولا عن حكمه الكوني.

فجعل ـ رحمه الله تعالى ـ معنى العبادة في هذه الآية بمعنى العبادة اللغوية، والإرادةِ القاهرية، لا الشرعية الأمرية، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، أي الذي خضعت له الرقاب، وذلّت له الجبابرة الصعاب، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه الأشياء [ر،٣١/أ] كلها، وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وقدَره وحكمه، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله،

---

(١) انظر «معالم التنزيل»: ٣/ ١١٦، ١١٧.

(٢) لم يُذكر جواب هذا الشرط في سياق الكلام، وتقديره: «لما ذهبوا إلى هذا التفسير». أو نحو ذلك.

(٣) أنشده أبو عبيد في الغريب: ٤/ ١٤٨، بلفظ: بجيش تضل البلق... والبكري في «معجم ما استعجم»: ٤/ ١١٨١، بلفظ: بخيل تضل البلق...

﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾ بمواضع الأشياء ومحالّها.

[ك،١٦٠/أ] قال[1]: وقد قال: ﴿عِبَادِى﴾. في مواضع من كتابه، منها قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥]. فأضافهم إلى نفسه، بما وهبهم إلى الحفظ والعصمة، فلا يضرُّهم الوَسواس، باستجارتهم بالله ـ سبحانه ـ، فإذا قرب الشيطان من قلب عالمهم أحرقه نور العلم، وإذا دنا من الغافل من عباده المؤمنين أحرقه تجديد الذكر، وإحضار التوحيد. قال النبي ـ ﷺ ـ فيما صحّ عنه في الصحيح: «إنّ الشيطان يأتي أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ فيقول: الله. فيقول: فمن خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: لا إله إلا الله»[2].

فالحاصل أن الله ـ تعالى ـ قد أحاط بكل شيء قدرةً وعلما، وحِكمةً وحُكمًا، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، فما من ذرّة في السموات والأرض، ولا معنىً من المعاني إلا وهو شاهد لله ـ تعالى ـ بتمام العلم والرحمة، وكمال القدرة والحكمة، وما خلق الخلق باطلاً، ولا فعل شيئًا عبثًا، بل هو الحكيم في أفعاله وأقواله، سبحانه وتعالى وتقدّس، ثم إن من حكمته ما أطْلع خلقَه عليه، ومنها ما استأثر[3] بعلمه ـ سبحانه ـ.

---

(١) أي ابن العربي.

(٢) أخرجه البخاري: ٦/ ٢٦٦٠، الاعتصام..، باب ما يكره من كثرة السؤال، برقم (٦٨٦٦)، ومسلم: ١/ ١١١، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان..، برقم (١٣٤).

(٣) في [ر]: (ستره)، وفي [ك]: (استتره)، والمثبت من [م].

ومما يقوّي الفهم على ما قدّمنا أن تعلم أنّ إرادته ـ جل وعلا ـ قسمان: إرادة أمر وتشريع، وإرادة قضاء وتقدير. فالقسم الأول إنما يتعلّق بالطّاعات والمعاصي، سواء وقعت أو لم تقع، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]. وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] الآية. وأمّا القسم الثاني، وهو إرادة التقدير، فهي شاملة لجميع الكائنات، محيطة بجميع الحادثات، وقد أراد من العالَم والخلق ما هم فاعلوه، بهذا المعنى لا بالمعنى الأول، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وفي قول المسلمين الدائر في ألسنتهم وعلى قلوبهم: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن». ونظائره كثيرة في الكتاب والسنّة، والعقلُ الصحيح يشهد به. وهذه الإرادة تتناول ما حدث من الطاعات والمعاصي دون ما لم يحدث، كما أنّ الأول [ر، ٣٢/ب] يتناول الطاعات حدثت أو لم تحدث، والسعيد من أراد الله به تشريعًا ما أراد به تقديرًا، والعبد الشقي من أراد به تقديرًا [خلاف][1] ما أراد به تشريعًا. والحِكَم تجري على وفق هاتين الإرادتين، فمن نظر إلى الأعمال بهذين المعنيين كان بصيرًا، ومن نظر القدر دون الشرع، أو الشرع دون القدر كان أعور، مثل كفّار قريش

(١) ليست في شيء من النسخ الثلاث، ولابد أن تكوت ساقطة سهوًا؛ إذ بدونها لا يبقى فرق فيما ذكر بين الشقي والسعيد، من حيث تعلق الإرادتين بهما. وإن كان الأولى أن تكون العبارة: والسعيد من أراد الله به تقديرًا ما أراد منه تشريعًا، والشقي من أراد به تقديرًا خلاف ما أراد منه تشريعًا.

ومن سلك قولهم من كفّار العرب، الذين قالوا: لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء. قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٨] فإن هؤلاء اعتقدوا أنّ كلّ ما شاء الله وجودَه وكوْنَه، وهو الإرادة القدرية، فقد أمر به ورضيه، وجعلوا ذلك إرادة شرعية، ثم رأوا أنّ شركهم بغير ما شرع الله ـ تعالى ـ مما قد شاء وجوده عبادةٌ له، قد رضيها حيث قدّرها، قالوا: فيكون قد رضي ذلك وأمر به. كما أوّل أهلُ الباطل[1] على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] فقال الله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، يعني بالشرائع، من الأمر والنهي، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، وهو تَوَهُّمُكم أن كلّ ما قدّره الله فقد شرعه؛ إذ هو لم يخرج عن عبادته القهرية، ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾، أي تكْذبون، وتقرّون بإبطال شرائعه، ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ أي على خلقه حين أرسل الرسل إليهم، فدعَوهم إلى توحيده وشرائعه، ومع هذا فلو شاء لهدى الناس جميعًا إلى متابعة شرائعه، لكنه يمنّ على من يشاء من عباده، فيهديه تفضّلاً

---

(١) هم زنادقة الصوفية، القائلون بوحدة الوجود، حيث يقول شيخهم الأكبر، وكبريتُهم الأحمر، ابن عربي الطائي ذاكرًا سبب أخذ موسى بلحية هارون ـ عليهما السلام ـ، ومعاتبته له: (وكان موسى أعلم بالأمر من هارون، لأنّه علم ما عبده أصحاب العجل؛ لعلمه بأنّ الله قد قضى ألاّ يُعبد إلا إيّاه، وما حكَم الله بشيء إلا وقع، فكان عُتْبُ موسى أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه؛ فإن العارف من يرى الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء). انتهى. من «فصوص الحكم» مع شرح القاشاني: ٢٩٥. وانظر الردّ عليه وعلى فصوصه في «بغية المرتاد» لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٣٩٥ وما بعدها.

منه وإحسانًا، ويحرم من يشاء؛ لأن المتفضّل له أن يتفضّل، وله ألاّ يتفضّل، فترْكُ تفضّله على من حرمه عدْلٌ منه وقِسْط، كما مرّ في محاجّة أبي موسى وعمرو ابن العاص ـ رضي الله عنهما ـ في أمر القدر، واتفاقهما على ذلك[1]، وله ـ سبحانه وتعالى ـ في ذلك حكمة بالغة.

وهو يعاقب الخلق على مخالفة أمره وإرادته الشرعية، وإن كان ذلك بإرادته القدرية، فإن القدر كما جرى بالمعصية جرى أيضًا بعقابها، كما أنه ـ سبحانه ـ قد يقدّر على العبد أمراضًا تُعقبه آلاما، فالمرض بقدره، والألم بقدره، فإذا قال العبد: «قد تقدمت الإرادة بالذنب، فلا أعاقب، كان بمنزلة قول المريض: «قد تقدمت الإرادة بالمرض، فلا أتألّم»، أو: «تقدّمت الإرادة بأكل الحارّ، فلا يحمّ مزاجي»، أو: «قد تقدّمت بالضرب، فلا يتألّم المضروب». وهذا مع أنه جهل وهذَيان، فإنّه لا ينفع صاحبه المتعلّلَ به، بل اعتلاله بالقدَر ذنب آخر [ر،٣٢/أ] ثانٍ، يعاقب عليه أيضًا.

وإنما اعتلّ بالقدَر إبليس، حيث قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجرات: ٩٣].

وأمّا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ [ك،١٧/ب] فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، مع إيمانه بالقدر في محاجّته لابنه موسى كليم الرحمن ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، فمن أراد الله ـ تعالى ـ سعادته، ألهمه أن يقول كما قال آدم ـ عليه السلام ـ، أو نحوه، ومن أراد شقاوته اعتل بعلة إبليس ونحوها، ويكون كالمستجير من الرمضاء بالنّار.

---

(١) راجع ص ١٠٠ ـ ١٠١.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ في مثل هذا[1]: مثله مثل رجل طار إلى داره شرارة نار، فقال له العقلاء: أطفئها لئلا تُحرق المنزل. فأخذ يقول: من أين كانت هذه الريح ألقتها؟، وأنا لا ذنب لي في هذه النّار. ومازال يتعلّل بهذه العلل حتى انتشرت، وأحرقت [الدار][2] وما فيها. فهذه حال من شرع يحيل الذنوب على المقادير، ولا يردُّها بالاستغفار والمعاذير، كما قد فعل آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع ربّه في ذنبه، بل حال هذا أسوأ من زلاّت المذنب وفعله، وإن كان الله ـ سبحانه ـ خلاّق الشرور، فإنّه لا فعل له فيها، بل العبد الفاعل لها، والذنب عليه، وإن كانت بقضاء الله وقدره، ونسأل الله ـ تعالى ـ أن يوفّقنا وسائر إخواننا المسلمين لما يحب ويرضى، فإنه لا تنال طاعته إلا بمعونته، ولا تترك معصيته إلا بعصمته.

وأطلنا الكلام في هذا المقام لبيان ما يتعلق بالآية الشريفة، للاختلاف في تأويلها؛ لأنها من المتشابه، ولتعلم الفرق بين الإرادتين والعبادتين والطاعتين: الكونية، والشرعية الأمرية، ومرّ التّنبيه على العبادة والإرادة الكونيّتين، وبيّنا ذلك لتعلم أنّ قول الحافظ ابن العربي المالكي المذكور ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه الآية أقربُ التأويلات إلى الصواب[3]، وهو أبعد عن التشابه؛ فإن كلامه ـ جل وعلا ـ لا يناقض

(١) مجموع الفتاوى: ٨/ ٢٠٠، والفتاوى الكبرى: ٢/ ٣٢.

(٢) في الأصل: «بالدار»، والمثبت من مجموع الفتاوى.

(٣) لا يُسلّم هذا للمؤلف؛ فإن العبودية الكونية القهرية التي زعم ابن العربي أنها مراد الآية غير مختصّة بالجنّ والإنس، بل تعمّ جميع المخلوقات، (وأيضًا فالعبادة المذكورة في جميع المواضع في القرآن لا يراد بها هذا المعنى). وأيضًا فالآية التي تليها تردّ هذا القول؛ فإنّ كونهم مرزوقين مدبَّرين داخل في العبادة على قولهم، =

بعضه بعضا، بل يصدّق بعضه بعضا، وحمل الآية على المعنى القريب الواضح أولى من حملها على ما فيه تشابه قد يحصل به على من لا يُحكمه نوع زيغ، وهذا المعنى ظاهر لاخفاء به على من عرف اللغة العربية وسعتها.

فأما العبادة الخاصة، فهي مع ما ذكرنا قد ذكرها الله ـ سبحانه ـ في مواضع من كتابه، منها قوله ـ تعالى ـ: [ر،٣٣/ب] ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩]، وقولُه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، والآيات في ذلك كثيرة جدًّا. وإنما يكون عبده الخاصَّ، من خاطبه بهذه المخاطبة

= فيكون المعنى: ما خلقتهم إلا لأرزقهم وأدبّرهم، وهذا ظاهر البطلان، وأيضًا فقوله: ﴿ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾، يقتضي فعلاً يفعلونه هم، وصيرورتهم إلى حكمه الكوني ليس فيها إلا تدبيره، وذلك فعله ـ تعالى ـ، لا فعلهم. فبهذا يُعلم ضعف اختيار ابن العربي الذي تابعه عليه المؤلف، والصواب في تفسير الآية أنه خلقهم لطاعته وتوحيده، فإن قيل: كيف يفعل فعلاً لغاية مع علمه أنها لا تحصل؟، فالجواب أنّ الفاعل تارةً يفعل ما يحصّل به مراده، فهذا لا يفعله وهو يعلم أنّه لا يكون، وتارةً يريد من غيره أن يفعل فعلاً باختياره، لينتفع ذلك الفاعل بفعله، ويكون ذلك محبوبًا للأوّل، كمن يبني مسجدًا ليصلّي فيه النّاس، فإن فعلوا كان ذلك مصلحة لهم، ومحبوبًا له، وقد يعين بعضَهم على فعل ما أمرهم به لمصلحة في ذلك، ولا يعين آخرين لمصلحة أيضًا، والرب ـ تعالى ـ قد يعين المؤمنين فيفعلوا ما أمرهم به، وأحبّه منهم، ولا يعين آخرين؛ لما له في ذلك من الحكمة؛ فإن الفعل لا يوجد إلا بلوازمه وانتفاء أضداده، وحينئذ يصح أن يقال: إنما خلقهم ليعبدوه، وإن كان هو لم يخلق لكلٍّ منهم ما به يصير عابدًا له؛ فإنه ليس من شرط من فعل فعلاً لغاية يفعلها غيره، أن يكون هو فاعلاً لتلك الغاية. انظر تقرير هذا القول في الآية، ونقد غيره من الأقوال على نحو ما سبق في «درء تعارض العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ٤٦٨ـ ٤٨١.

الشريفة، وهو من لم يكن في أسر غيره. وأما من استعبده هواه، واستمكن منه الطمع، واسترقّته كل خسيسة ونقيصة، فلا يكون منهم، ولا يُدعون، بل يدعى عليهم، كما قال النبي ـ ﷺ ـ فيما صح عنه ـ وسيأتي في متن هذا الكتاب[1]، في باب الإرادة ـ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[2]. وقد سأل الخليل ـ عليه السلام ـ ربَّه أن يجنّبه عبادة غيره، فقال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥].

والمقصود أن المعبود العبادة الشرعية هو الذي تجعل له قلبك وعملك، من قولك وفعلك، فمن جعله للحجر فهو عابد صنم، ومن جعله للذهب والفضّة والأكسية، فغدا فيه وراح، وعمل له وسعى، ورأى أنه المقصود الأوفى، فهو على منزلة من عبادة غير الله ـ تعالى ـ، ولذلك دعا عليه رسول الله ـ ﷺ ـ في هذا الحديث، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والمعنى: تذلّلوا لحكمي الشرعي، واستسلموا لأمري، وانقادوا لامتثاله، واخضعوا لسلطاني، وذلك بإقامة الصلاة لذكري؛ يعني إذا ذكرتها لكم، وخلقت لكم العلم بها.

والصلاة العبادة كلها؛ فإنها تشتمل على فعل القلب واللسان والجوارح، وهي الجملة الآدميّة المتوجّهُ إليها ابتلاءٌ بالأمر والنهي،

---

(١) باب (٣٦) [من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: ٣/ ١٠٥٧، الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو، (٢٧٣٠).

والوظائف الشرعية، التي أولها إخلاص القلب، وآخرها السجود، بتمريغ الوجه لله ـ تعالى ـ.

ولمّا بلغ النبيُّ ـ ﷺ ـ الغايةَ من التذلّل، والتواضع لربّه والمسكنة، وصار اسم العبد فيه حقيقة، رفعه الله ـ تعالى ـ إلى سدرة المنتهى، وأوصله إلى موضع يسمع فيه صريف الأقلام، باسم العبد، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، التقدير: سبحان الذي رفع العبد المتذلل إلى أعزّ موضع عنده. وقال له: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥]، وكذلك فعل، فلقد قام حتّى تفطرت قدماه، وكان نهارَه في عبادة مولاه، حتى إذا طرأ عليه الغفلات الآدميّة، بمعافسة[1] الأهل والطعام والذريّة، تاب إلى الله في اليوم والليلة مائة مرّة، ووذَر[2] الزينة، أولم يمدّ إليها عينًا[3]، ولم ينتقم لنفسه؛ إذ لا يتمّ الصبر على العبادة إلا بترك الدنيا.

وقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ الآية، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

قال أبو الدرداء ـ رضي الله عنه ـ فيما رواه عنه الإمام

---

(١) معافسة الشيء: ممارسته ومعالجته. انظر المقاييس لابن فارس: ٤/ ٦٨، مادة (عفس).

(٢) الماضي من «ذرْ»، «يذَر»، بمعنى «ترك»، وقد أماتته العرب كما يقول ابن فارس، فلا يقولون: «وذرتُه»، انظر المقاييس: ٦/ ٩٨، مادة «وذر».

(٣) يشير إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾. الآية، وما في معناها من الآيات.

أحمد[1]: كنت تاجرًا، فلمّا أسلمت حاولت التجارة والعبادة، فأخذْت العبادة [ك١٧/ أ]،[ر،٣٣/أ] وتركت التجارة[2].

وقد مدح الله أهل هذه الصفة فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [النور: ٣٧]. وقال ـ تعالى ـ مخاطبًا للمؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

وأمّا من قدَر من نفسه على عبادة ربّه مع التجارة، ولم تُلْهه، فذاك كالمجاهد في سبيل الله؛ لأن نفع ذلك يتعدّى إلى غيره، من صلة الأرحام، والإفضال على الفقراء والمساكين والأيتام، كما فعل عثمان ابن عفان، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة الخير[3] ـ رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعلنا ممن تبعهم ووالاهم ـ.

---

(١) في «الزهد»: ١٧٢.

(٢) ورواه أيضًا ابن أبي شيبة في المصنف: ٤/ ٤٦٧، ٧/ ١١٤، وابن سعد في الطبقات: ٧/ ٣٩٢، وهنّاد في «الزهد»: ٢/ ٣٥٣، باب التفرّغ للعبادة، وابن أبي عاصم في «الزهد»: ٢/ ١٣٨، وأبو نعيم في الحلية: ١/ ٢٠٩، وقال عنه في المجمع (٩/ ٣٦٧): رجاله رجال الصحيح، لكن سُئل عنه يحيى بن معين في تاريخه (٣/ ٥٧٥) فقال: هذا مرسل. وعلى فرض صحّته، فإنّ العبادة فيه تُحمل على العبادة الخاصّة، المتمثّلة في الشعائر؛ إذ لا تعارض بين العبوديّة لله ـ تعالى ـ والتجارة في حدود الشرع، كما هو حال كثير من الصحابة، ممّن هو أفضل من أبي الدرداء ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ، ولا يمكن أن يُفهم من كلامه أن عثمان وعبدالرحمن بن عوف مثلاً قد تركوا العبادة وأخذوا التجارة.

(٣) ويقال له: طلحة الفيّاض، وهو طلحة بن عبيدالله بن عثمان بن عمرو القرشي التيمي، أبو محمد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، توفي سنة ٣٦هـ. انظر الإصابة: ٢/ ٢٢٠.

وعند ابن أبي الدنيا[1]: أنّ رجلاً دخل على محمد بن علي بن أبي طالب حائطًا، فإذا هو متّزر، وبيده مِسحاة يحوّل الماء إلى نخلِه من موضع إلى موضع، قال: فقلت: أما عندك من يكفيك هذا؟. قال: إنّه لا بد للمؤمن من ثلاث: فقهٍ في دينه، وتدبيرٍ في معيشته، ومعاشرة للنّاس بالمعروف.

وفي دعائه ـ ﷺ ـ كما في السنن[2]: «اللهم أصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وآخرتي التي إليها معادي».

وعند الطبراني[3] وابن مردويه[4]، عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يا أيها الناس، اتخذوا تقوى الله تجارة، يأتيكم[5] الرزق بلا بضاعة» ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] الآية.

---

(١) لم أهتد إليه.

(٢) بل في صحيح مسلم: ٤/ ١٦٥٨، كتاب الذكر. . ، باب التعوّذ من شر ما عمل. . ، برقم (٢٧٢٠)، وأوله: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي. .» الحديث. ولم أجده عند أصحاب السنن، لكن عند النسائي في الكبرى: (١/ ٤٠٠)، (٦/ ٤٠)، والصغرى: (٣/ ٧٣) نحوه، وليس فيه: «وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي».

(٣) في الكبير: ٢٠/ ٩٧، ونبّه المحقق إلى ضعفه، وفي «مسند الشاميين»: ١/ ٢٣٣، وقال في المجمع (٧/ ١٢٥): فيه إسماعيل بن عمرو البجلي، وهو ضعيف.

(٤) كما في الدر المنثور: ٦/ ٣٥٥.

(٥) كذا في جميع النسخ، وهي كذلك في «المعجم الكبير»، «يأتيكم» من غير جزم، وفي «مسند الشاميين»، و«المجمع»: «يأتكم» مجزومة.

وهو عند الحاكم في صحيحه، وصحّحه[1].

وعند البيهقي في شعبه عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بمعناه[2].

وعند البيهقي أيضًا في الشعب[3]، والحكيم الترمذي[4]، وغيرهما[5]، بسند فيه ضعف، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «قال الله ـ تعالى ـ: إنّي والجنَّ والإنسَ في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري».

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]).

يقول ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾، كما بعثنا في هذه الأمة محمدًا ـ ﷺ ـ رسولاً، بأن يعبدوا الله وحده، فلما كان ذلك لا يحصل إلا بالكفر بالطاغوت، والبراءة مما سوى الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، والطاغوت اسم وصف لكل ما عُبد من دون الله ـ تعالى ـ، أو أضل عن صراطه المستقيم. فكل مشرك طاغوته إلٰهه ومُغويه.

---

(١) لم أجد فيه عند تفسير هذه الآية إلا قول أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: جعل رسول الله ـ ﷺ ـ يتلو هذه الآية..، فجعل يردّدها حتى نعست، فقال: «يا أبا ذر، لو أن الناس أخذوا بها لكفتهم»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. المستدرك: ٢/ ٥٣٤، برقم (٣٨١٩). وقد ضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع: ٩٢٠، برقم (٦٣٧٢).

(٢) «شعب الإيمان»: ٢/ ١٣، برقم (١٣٣٠)، وهو المذكور في الحاشية السابقة.

(٣) ٤/ ١٣٤، برقم (٤٥٦٣).

(٤) «نوادر الأصول»: ٢/ ٣٠١، وذكره السيوطي في «الجامع الصغير»: ٣٧٣، ورمز إلى ضعفه.

(٥) ورواه الطبراني في «مسند الشاميين»: ٢/ ٩٣. وضعّفه الألباني أيضًا كما في السلسلة الضعيفة: ٥/ ٣٩٣، برقم (٢٣٧١).

نظيرها قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٦]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنّه بعث في كلّ أمّة ـ أي في كل قرن وجيل من الناس وطائفة ـ رسولاً، وكلّهم يدعوا إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه، فلم يزل ـ تعالى ـ يرسلُ إلى النّاس الرسل بذلك، منذ حدث الشركُ في بني آدم، في قوم نوح ـ عليه السلام ـ الذين بعث إليهم، وكان أولَ رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبّقت دعوتُه الإنس والجنّ، في المشارق والمغارب، حتى [ر،٣٤/ب] يأجوج[1] ومأجوج، دعاهم إلى الله ـ سبحانه ـ ليلة المعراج[2].

وكلُّ رسول ـ كما قال الله ـ تعالى ـ عنهم مخبرًا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، [الأنبياء: ٢٥] ـ يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، فأوّل شيء يدعوهم إليه ويقْرع به أسماعهم عبادةُ الله ـ تعالى ـ وحده. ولهذا قال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾. [الزخرف: ٤٥] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي

---

(١) في [ر] و[ك]: «جوج»، بدون «يا»، وهي من الزيادات على [م]، وما أثبته هو الموافق للقرآن بكافة قراءاته، وفي «روح المعاني» للآلوسي (١٦/ ٣٩): وربما يقال «جوج» بلا همزة ولا ياء في غير القرآن، وجاء بهذا اللفظ في كتاب حزقيال ـ عليه السلام ـ. ا.هـ.

(٢) لا أدري إلى أي شيء استند المؤلّف في هذا، وقد راجعت أحاديث الإسراء والمعراج، والأحاديث التي فيها ذكر يأجوج ومأجوج، فلم أر تخصيصهم بالدعوة ليلة المعراج، وعلى كل حال هم داخلون في عموم الرسالة إلى الثقلين، لأنّهم من بني آدم.

كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

وهذه الآية محكمة، ليس لمبطل فيها شبهةٌ يتعلق بها، فكيف يجوز لمشرك بعد هذا، أو جبريّ أن يقول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]؟، فمشيئة الله الشرعية[1] عنهم منتفية؛ لأنّه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وقطع بذلك معذرتهم، وأمّا مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدَرًا، فلا حجة لهم على الله بعد الرسل، فلهذا قال: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2] [الأعراف: ٣٠]، وذلك بعد ما بيّن لهم طريق الهدى وطريق الضلال، فأمرهم بالهدى، ووعدهم عليه الجزاء، ونهاهم عن الضلال، وتوعّد عليهم بنار ذات سلاسل وأغلال، وذلك بعد قيام الحجّة عليهم، بإرسال الرسل بالأمر والنهي، والبلاغ لهم، بإظهار المعجزات لهم على ذلك، التي لا يشكّون بأنّ قوى جميع الإنس والجنّ لا تقدر عليها. فإذا علموا أنه لا يقدر عليها إلا الربّ، الذي خلق السمٰوات والأرض، الذي قد أقروا به، لزمهم تصديقُ من ظهرت معه تلك المعجزة من الرسل، وقامت عليهم الحجّة، وأعذر الله منهم بإبلاغ رسله لهم،

---

(١) لا يصح تقسيم المشيئة إلى كونية وشرعية؛ لأنها لم ترد في القرآن والسنّة إلا بمعنى الإرادة الكونية، فلا تصلح مرادفًا للإرادة، ومعلوم أن المشيئة من مراتب القدر، فمن قسمها إلى دينيّة شرعية وكونية قدرية، فكأنما قسم التقدير إلى ديني وكوني، وهذا خطأ ظاهر

(٢) كتبت في الأصل و[ك]: فمنهم من هدى، ومنهم من حقت عليه الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء. . .، وليس في المصحف آية هكذا، والصواب ما أثبته، أما في [م] فكتبت: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، دون البقية المذكورة في الأصل، وهي آية صحيحة من سورة النحل.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥]، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿۞قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].) يقول ـ تعالى ـ لمحمد ـ ﷺ ـ: قل لهؤلاء الذين أشركوا وحرّموا ما رزقهم الله افتراء عليه، كما ذكر عنهم في الآيات التي قبل هذه، يقول: أي أقبلوا أقصَّ عليكم، وأخبرْكم بما حرّم ربكم عليكم حقًّا يقينًا، لا ظنًّا وكذبًا، رجمًا بالغيب كما تزعمون ذلك.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. كأنّ فيه حذفًا دل عليه السياق، وتقديره: وصّاكم ألا تشركوا به شيئًا. ولهذا قال في آخرها: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾. وتقول العرب: أمرتك ألا تقوم.

قال الزجّاج: ويجوز أن يكون هذا محمولاً على المعنى، أي أتل عليكم تحريم الشرك(١).

وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾، ثم قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، على الإغراء(٢). و«شيئًا» عند العرب أنكر النكرات وأعمّها، فقد أتت هذه الآية على جميع الشرك، صغيرِه وكبيرِه، بهذا المعنى، وهو كذلك.

وهذه الآيات محكمات، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: إنّ في الأنعام آياتٍ محكمات هنّ أمّ الكتاب. ثم قرأ: ﴿۞قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات. رواه الحاكم في

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه»: ٢/ ٣٠٤.

(٢) انظر «زاد المسير» لابن الجوزي: ٣/ ١٤٧.

صحيحه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرّجاه[1].

وفي [ر،٣٤/أ] الصحيحين[2] [ك،١٨/ب] عن أبي ذر ـ رضي الله عنهم ـ مرفوعًا: «أتاني جبرئيل ـ عليه السلام ـ فبشّرني أن من مات لا يشرك بالله شيئًا من أمّتك دخل الجنّة». قلت: وإن زنى وإن سرق، ثلاثًا. قال: وإن زنى وإن سرق». وقال في الثالثة أو الرابعة: «وإن شرب الخمر». وفي رواية قال في الثالثة: «وإن رغم أنف أبي ذر».

(﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾)، أي أن تحسنوا إليهم إحسانا. والله ـ تعالى ـ كثيرًا ما يقرن بين طاعته وطاعتهما. وضعه ـ سبحانه ـ هنا موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة، والدلالة أنّ ترك الإساءة في شأنهما غير كاف، بخلاف غيرهما.

فلمّا وصى بالآباء والأجداد عطف بالأبناء والأحفاد، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم﴾. وكانوا يقتلون البناتِ خشية العار، وربّما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار. ولهذا في الصحيحين[3] عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، لمّا سئل رسول الله ـ ﷺ ـ: أيّ الذنب أعظم؟. قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك. قلت: ثمّ أي؟. قال: أن

---

(١) المستدرك: ٢/ ٣٤٧، ٣٤٨، كتاب التفسير، برقم (٣٢٣٨)، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٩٣، اللباس، باب الثياب البيض، برقم (٥٤٨٩)، وصحيح مسلم: ١/ ٩٠، ٩١، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله. .، برقم (٩٤).

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٦٢٦، التفسير، باب قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ . .﴾ الآية، برقم (٤٢٠٧)، وصحيح مسلم: ١/ ٨٧، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب. .، برقم (٨٦).

تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟. قال: أن تزاني حليلة جارك». ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨].

(﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾): قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: هو الفقر[١]. أي لا تقتلوهم من فقركم الحاصل لكم. وفي سورة الإسراء: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ [الإسراء: ٣١]، أي لا تقتلوهم خوفًا من الفقر في الآجل. ولهذا قال هناك: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فهو على الله ـ سبحانه ـ، وهنا لمّا كان الفقر حاصلاً قال: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾، لأنّه الأهمُّ هنا. ومعنى إملاق: خلاء من المال. من قولهم: صفاء مَلِق، إذا غسله المطر. قال الراجز:

جــزاكَ عنّــا رازقُ الأرزاقِ

بحبــوحةَ الجنّــةِ في الرفاقِ

أمنتُ ما عشتَ من الإملاقِ[٢]

والمعنى في ذلك: لا تئدوهم للخوف من الفقر.

ولفظ الولد يقع على الذكر والأنثى. وكانت العرب تئد أولادها في الجاهلية خشية الفقر والعار. وكانوا يقولون: البنت تجلب العار، وتذهب بالمال، ولا تركب الأمهار، فضمِّنوها الأجداث. فنهى الله عن

---

(١) رواه الطبري في تفسيره: ٨/ ٨٢.

(٢) لم أعثر على قائله.

ذلك في كتابه. ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨، ٩]. فأُرسل ـ ﷺ ـ [ر،٣٥/ب] بمكارم الأخلاق.

و(الوأد) بالهمز في أصل اللغة المواراة بالأرض. قال الكميت بن زيد الأسدي يخاطب قريشًا معاتبًا لها[(١)]:

سيذكرنا منكم نفوس وأعينٌ ... ذوارف لم تضنن بدمع غروبُها

إذا وأدتنا الأرض إن هي وُئِّدت ... وأُخرج من بيض الأمور وقوبُها[(٢)]

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، أي العلانية، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، يعني السرّ بها. وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية، ولا يرون به بأسًا في السر، فحرّم الله ـ سبحانه ـ الزنا في العلانية والسرّ.

قال العلماء ـ رحمهم الله ـ: وإن كان هذا سبب النّزول، فالآية الكريمة عامّة في جميع المعاصي، سرّها وجهرها. وهذا معنى قول مجاهد وقتادة وغيرهما من السلف[(٣)]، فهي عامّة في النهي عن قربان كل ما فحش سرًّا وجهرًا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾. هذا داخل في الفواحش، ولذا نص عليه تأكيدًا لأمره، وعظمه عند الله ـ تعالى ـ. وروى الترمذي[(٤)] وحسّنه، عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال وهو

---

(١) انظر ديوانه: ١/ ١٠٢، عالم الكتب.

(٢) في طرّة الصفحة: [الوقوب: الدخول في كل شيء، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾. قاله كاتبه ـ عفى الله عنه ـ].

(٣) انظر تفسير الطبري: ٨/ ٨٣.

(٤) ٤/ ٤٦٠، كتاب الفتن، باب ما جاء لا يحل دم امرىء مسلم...، برقم (٢١٥٨)، وهو =

محصور: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث، رجلٍ كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس». فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنّيت أنّ لي بديني بدلاً بعد إذ هداني الله، ولا قتلت نفسًا، [فبِمَ][1] تقتلوني؟.

وقد صح النهي عن قتل المعاهد، وهو المستأمن من أهل الحرب، فعند البخاري[2] عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «من قتل معاهدًا لم يجد رائحة الجنّة، وإنّ ريحها ليوجد[3] من مسيرة أربعين عامًا».

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١﴾.

لما كان العقل يشهد بالخالق لا شريك له، ويدعوا أيضًا إلى بر الوالدين، وينهى عن قتل الولد، وإتيان الفواحش؛ لأن الإنسان يغار من الفاحشة على بنته، وأخته، كذلك ينبغي لذلك أن يجتنبها. وكذلك قتل النفس، فلما لاقت[4] هذه الأمور بالعقل قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١﴾، يعني عن الله أمره ونهيه.

وبهذا يُعلم أنّ أشرف ما في الإنسان عقلُه. وسُمّي عقلاً لعقله الإنسان عمّا يضرُّه. وقد قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أفلح من جعل

= أيضًا في سنن أبي داود: ٤/ ١٧٠، برقم (٤٥٠٢)، وفي الكبرى للنسائي: ٢/ ٢٩٢، برقم (٣٤٨٢)، وفي سنن ابن ماجه: ٢/ ٨٢، أوّل أبواب الحدود، برقم (٢٥٦١).

(١) في الأصل: «فلم»، باللام، والمثبت من سنن الترمذي.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١١٥٥، الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدًا..، برقم (٢٩٩٥).

(٣) في صحيح البخاري: «يوجد» دون لام.

(٤) من اللياقة.

الله له عقلاً[1]. وسئل ابن المبارك: ما خير ما أعطي الرجل؟ قال: غريزةُ عقل[2]. ذكره عنهما ابن الجوزي[3].

وقد اختُلف في ماهيّة العقل، فقال القاضي أبو يعلى[4] وقوم: هو ضرب من العلوم الضرورية. واختاره أبو بكر [ر،٣٥/أ] بن العربي المالكي.

وقال آخرون: هو غريزة يتأتى معها درك العلوم[5].

وقال آخرون: هو قوة يُفصل بها بين حقائق المعلومات[6].

وقيل: جوهر بسيط[7]. وقيل: جسم شفاف. وقال المحاسَبي[8] وأبو الحسن التميمي[9]: هو نور في القلب، كالعلم[10]. وقاله ابن

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا مرفوعًا في «العقل وفضله»: ٣٨، وبلفظ «أفلح من رُزق لُبّا» رواه الطبراني في الكبير (٩١/٣٣)، والبخاري في التاريخ (١٨١/٧) معلقا، والبيهقي في الشعب (١٥٩/٤) عن قرة بن هبيرة مرفوعاً. وقد ضعفه الألباني كما في الضعيفة: ٦/ ٣٨٩ (٢٨٦٠).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»: ٤/ ١٦٥، برقم (٤٦٧٩)، وانظر السير للذهبي: ٨/ ٣٩٧.

(٣) في «ذمّ الهوى»: ص ٣١، ٣٣.

(٤) انظر «المسوّدة في أصول الفقه» لآل تيمية: ٥٥٦.

(٥) هذا القول محكي بلفظه في «المسوّدة»: ٥٥٧، عن الحارث المحاسبي، بزيادة «وليس منها». ولم أجده في كتاب «مائية العقل» للمحاسبي إلا بمعناه. ص ٢٠١، ٢٠٢.

(٦) انظر «المسودّة» ٥٥٦.

(٧) انظر «المسوّدة»: ٥٥٧.

(٨) هو الحارث بن أسد المحاسَبي، البغدادي، له كتب كثيرة في الزهد، حذّر منها أبو زرعة الرازي؛ لأن أئمة السلف لم ينهجوا نهجها في معالجة الخطرات والوساوس، توفي الحارث سنة ٢٤٣هـ. انظر السير: ١٢/ ١١٠.

(٩) هو عبدالعزيز بن الحارث بن أسد بن الليث، أحد فقهاء الحنابلة الأعيان، توفي سنة ٣٧١هـ. انظر «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى: ٢/ ١٣٩، و«تاريخ الإسلام» للذهبي: ٥٠١.

(١٠) هذا القول بمعناه في «مائية العقل» للمحاسبي: ٢٠٤، محكيًا عن قوم. وهو في =

حمدان[1].

ونقل إبراهيم الحربي عن الإمام أحمد أنّه قال: هو غريزة[2].

قال البربهاري[3]: مرادُه أنّه ليس باكتساب، وإنما هو فضل من الله ـ تعالى ـ[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا يقتضي أنّه القوّة المدركة، كما دلّ عليه كلام أحمد، لا الإدراك[5].

والتحقيق [ك،١٨/أ] في هذا أن يقال: هو غريزة كأنها نور يقذف في القلب متصلاً بالدماغ، فيستعد به لإدراك الأشياء، فيعلم جواز الجائزات، واستحالة المستحيلات، ويتلمح عواقب الأمور، فذلك النّور يقلّ

= «المسوّدة»: ٥٥٦ عن أبي الحسن.

(١) هو أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان بن شبيب بن حمدان النميري، الحرّاني، الفقيه، الأصولي، القاضي، نجم الدين، له «الرعاية الصغرى» و«الرعاية الكبرى»، و«جامع الفنون»، توفي سنة ٦٩٥هـ. انظر «المقصد الأرشد» لابن مفلح: ١/ ٩٩.

(٢) انظر «المسوّدة»: ٥٥٦.

(٣) هو أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، الفقيه، شيخ الحنابلة، كان قوّالاً بالحق، شديدًا على أهل البدع، له «شرح السنّة»، توفي سنة ٣٢٨هـ مستترًا. انظر السير: ١٥/ ٩٠.

(٤) العبارة من قوله: «ليس باكتساب..» إلى هنا، موجودة في «كتاب شرح السنة» للبربهاري، ص ٣٧، من قوله ابتداءً، غير مرتبطة بكلام الإمام أحمد، وليس قبلها: «مرادُه أنه». فلعل هذا من تركيب المؤلف، فإن كان كذلك فالواجب أن يقال: ومراده ـ كما قال البربهاري أنه ـ ليس باكتساب.. إلخ.

(٥) بتصرّف، من «المسوّدة»: ٥٥٨.

ويكثر[1].

وقاله ابن الجوزي وغيره، خلافًا لابن عقيل والأشعري والمعتزلة[2]. وقاله الماوردي في الغريزي لا التجريبي، وحمل الطوفي[3] الخلاف على ذلك. وسيأتي قول أبي الحسن التميمي بما يوافق ذلك.

وقيل في محلّه: إنّه القلب. رُوي عن الإمامين الحسيبين؛ الشافعي وأحمد[4]، واستدل له بقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، قيل: المراد: لمن كان له عقل. فعبّر بالقلب عن العقل لأنّه محلّه، فصلح للدلالة على ما ذكرنا.

وروى البخاري في الأدب المفرد[5]، بسنده إلى عياض [بن] خليفة[6]، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، أنه سمعه بصفّين

---

(١) هذه عبارة ابن الجوزي في «ذم الهوى» ص ٢٤، مع شيء من التصرف، وانظر «المسوّدة»: ٥٥٨، ٥٥٩.

(٢) حيث لم يجوّزوا أن يكون عقل أرجح من عقل، إلا في التجارب. كما حكاه في «المسوّدة» ٥٦٠.

(٣) هو سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم، الصرصري، الحنبلي، نجم الدين، توفي سنة ٧١٥هـ، انظر المقصد الأرشد لابن مفلح: ١/ ٤٢٥.

(٤) ذكره عن الشافعية النووي في «شرح صحيح مسلم»: ١١/ ٢٩، وهو في «المسوّدة» ٥٥٩ قول لبعض الحنابلة، ونص في «المسوّدة» ٥٦٠ عن الإمام أحمد أنه قال: العقل في الرأس.

(٥) ص ١٩٠، باب العقل في القلب، برقم [٥٤٧]. وقد حسنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد»: ص ٢٠٦.

(٦) في الأصول: عياض عن خليفة، وهو في «الأدب المفرد»: عياض بن خليفة، وهو الصواب كما في «تقريب التهذيب»: ٤٣٧، برقم (٥٢٧٥)، وقال عنه: مقبول.

يقول: (إنّ العقل في القلب، والرحمة في الكبد، والرأفة في الطحال، والنفَس في الرّئة)[1]. فدلّ على أنّ مراده حقائق هذه الأشياء.

وقالت طائفة: محلّه الدماغ. ونقله ابن زياد[2] عن الإمام أحمد[3]، وهو اختيار أبي حنيفة[4]. والذي اختاره أصحاب الإمام أحمد الأول. قال أبو الحسن التميمي: الذي نقول به أن العقل في القلب، يعلو نوره إلى الدّماغ، فيفضي إلى الحواس ما جرى في العقل[5].

والحاصل كما قال يوسف ابن أسباط[6]: العقل سراج ما بطن، ومِلاك ما علن، وسائس الجسد، وزينة كل أحد، ولا [تصلح الحياة] إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه[7].

ويكفي في ذلك أنّ الدين وحسن الخلق يتبعانه[8] حيث كان، إذ

---

(١) ورواه أيضًا البيهقي في «شعب الإيمان»: ٤/ ١٦١، برقم (٤٦٦٢).

(٢) هو الفضل بن زياد، أبو العباس، القطّان، البغدادي، كان من خواص الإمام أحمد، لم يذكروا تاريخ وفاته، انظر «المقصد الأرشد» لابن مفلح: ٢/ ٣١٢، برقم (٨٢٧).

(٣) (ذكره أبو حفص بن شاهين بإسناده عن الفضل بن زياد)، كذا في «المسوّدة»: ٥٦٠.

(٤) انظر «الكليات» للكفوي: ٦١٩، و«شرح صحيح مسلم» للنووي: ١١/ ٢٩.

(٥) انظر «المسوّدة»: ٥٥٩.

(٦) هو يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني، الزاهد، الواعظ، دفن كتبه واعتمد على حفظه فوقع في تحديثه الغلط، وكان من عباد زمانه، لا يأكل إلا الحلال المحض، توفي سنة ١٩٥هـ. انظر «السير» للذهبي: ٩/ ١٦٩، و«لسان الميزان» لابن حجر: ٦/ ٣٨٨.

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في «العقل وفضله»: ٦٣، عن عبدالله بن خبيق الأنطاكي قال: كان يُقال.. فذكره، ولم يذكر يوسف بن أسباط. وقد وقع في جميع النسخ: «ولا يصلح الحياء»، ومعناه بعيد، والمثبت من «العقل وفضله».

(٨) أي العقل.

مدار ذلك عليه.

قال القاضي أبو يعلى: ومعنى قول الإمام أحمد: إنه غريزة، يعني أنّه خلْق الله ـ تعالى ـ ابتداء، وليس باكتساب(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. يقول: لا تقربوا ماله إلا بما فيه صلاحُه وتثميرُه(٢). قال مجاهد: هو التجارة فيه. وقال الضحّاك: هو أن يبتغي له فيه، ولا يأخذ من ربحه شيئًا(٣). والصحيح أنّ له [ر،٣٦/ب] أن يأكل مع فقره قدرَ عمله. وهل يردّه إذا أيسر أم لا؟ على قولين، أصحُّها: لا يردّه.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾، قال الشعبي ومالك: الأشُدّ: الحلُم، حين تكتب له الحسنات، وتكتب عليه السيّئات(٤). وقال أبو العالية: حتى يعقل، وتجتمع قوته. وقال الكلبي: الأشدّ: ما بين ثمان عشرة سنة إلى ثلاثين(٥). وقيل غير ذلك. فالأشدّ جمع شدّ، مثل قَدٍّ وأقُدّ، وهو استحكام شباب الإنسان، ومنه شدُّ النهار، وهو ارتفاعه. وقيل: بلوغ الأشدّ: أن يونَس رشدُه بعد البلوغ، كما في الآية الأخرى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦]، وتقدير الآية هنا: ولا تقربوا مال

---

(١) انظر «المسوّدة»: ٥٥٦.

(٢) بلفظه من تفسير الطبري: ٨/ ٨٤.

(٣) أخرجه عنهما الطبري في الموضع السابق.

(٤) روى الطبري عن مالك: «الحلُم» فقط، وروى تمام العبارة عن عامر الشعبي، انظر تفسيره: ٨/ ٨٥. وذكر البغوي في تفسيره: ٢/ ١٤١، عن الشعبي ومالك تمام العبارة.

(٥) ذكره عنهما البغوي في تفسيره: ٨/ ١٤١.

اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد، حتى يبلغ أشدّه، فتدفعوا إليه ماله إن كان رشيدًا[1]. وهذا القول الأخير هو المتعين هنا، فهو كقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي العدل[2]. قال أبو طالب[3]:

بميزانِ قسطٍ لا يخيسُ شعيرةً ... له شاهدٌ من نفسِه غيرُ عائلِ

وقال جرير بن الخطفَى:

ولو قد بايعوك وليّ عهد ... لقام القسط واعتدل البناءُ[4]

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٩]، فأمرهم بالعدل في ذلك، وألاّ يطففوا، وذلك بأن يحفظوا العدل في جميع الأمور، في حقوقه ـ سبحانه ـ، من توحيده وأداء ما افترض عليهم، وفي حقوق الآدميين، بترك الحيف ومجاوزة الحدّ في كل شيء، فيُعتبر في الأعمال الإخلاص، وفي الأقوال الصدق، وفي الأنفاس التحقيق[5]، ومساواةُ الظاهر والباطن، وتركُ المداهنة والخداع والمكر، ودقائقِ الشرك، وخفايا النفاق، وغوامضِ الخيانات، وسوءِ الأخلاق، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي بالمكيال الذي تحب أن يكال

---

(١) الكلام بلفظه تقريبًا في الموضع السابق.

(٢) عن تفسير البغوي: ٨/ ١٤٢.

(٣) ذكره الطبري في تفسيره: ٤/ ٢٤٠، بألفاظ مختلفة.

(٤) انظر ديوانه: ٢/ ٦٦٨، دار المعارف.

(٥) لم يظهر لي معناها. ولعلّه أراد بها ما بعدها.

لك به، فعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، فكما تدين تدان.

﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، أي طاقتها في إيفاء الكيل والميزان، لا نكلف[1] المعطي أكثر مما وجب عليه، ولم يُكلِّف صاحب الحق الرضى بأقلَّ من حقّه، حتى لا تضيق عنه نفسه، بل أمَرَ كل واحد بما يسعه، مما لا حرج عليه فيه[2].

فمن اجتهد في أداء الحق وأخْذِه، فأخطأ بعد استفراغ وسعه فلا حرج عليه.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: إنكم وليتم أمرًا هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم. قاله لأصحاب المكيال والميزان[3].

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾، يعني فاصدقوا في الحكم والشهادة، ولو كان المحكوم والمشهود عليه ذا قرابة لكم[4].

وهذه الآية كقوله: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ الآية

---

(١) كذا في جميع النسخ، وفي تفسير البغوي الذي ينقل عنه المؤلف بتصرف: «لم يكلِّف المعطي..»، وهو اللائق بسياق الكلام.

(٢) عن تفسير البغوي: ٢/ ١٤٢.

(٣) رواه الحاكم مرفوعًا في المستدرك: ٢/ ٣٦، كتاب البيوع، برقم (٢٢٣٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي مرفوعًا أيضًا في السنن الكبرى: ٦/ ٣٢، وفي شعب الإيمان: ٤/ ٣٢٨، برقم (٥٢٨٨)، وأوله عنده: «يا معشر التجار»، ورواه الطبراني مرفوعًا في الكبير: ١١/ ٢١٤، ورواه الترمذي مرفوعًا في سننه: ٣/ ٥٢١، برقم (١٢١٧)، كتاب البيوع، باب ما جاء في المكيال والميزان، ثم قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث حسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعّف في الحديث. وقد روي هذا بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفًا. أ.هـ. والمرفوع في «ضعيف الجامع» للألباني: ٢٩٦، برقم (٢٠٤٠).

(٤) انظر تفسير البغوي: ٢/ ١٤٢.

[النساء: ١٣٥]، أي مواظبين [ر،٣٦/أ] على العدل، مجتهدين في إقامته، شهداء بالحق، تقيمون شهاداتكم لوجه الله ـ تعالى ـ، ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، بأن تقروا عليها، لأنّ الشهادة بيان الحق، سواء كان الحق عليه، أو على غيره، ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ﴾ المشهود له أو عليه ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، وحكومة العدل، ﴿أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ عن أدائها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾، فيجازيكم عليه.

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ﴾، قال ابن جرير: بوصيّة الله التي وصّاكم بها فأوفوا، وهي في الجملة: أن تعملوا بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وذلك هو الوفاء [بعهد] الله ـ تعالى ـ[1]، الذي عهد إلى عباده: بأن يعبدوه بما شرع على ألسنة رسله ـ عليهم السلام ـ.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، والمعنى: اذكر لو هلكْت فصار ولدك يتيما، واذكر عند وزنك إذ لو كنت الموزونَ له، واذكر كما تحب العدل في القول والفعل، فاعدل في حق غيرك، وكما لا تودُّ أن يخان عهدك فلا تخن، فلاقَ بهذه الأشياء التذكّر، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، أي تتعظون.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذه الآيات محكمات في جميع الكتاب، لم ينسخهنّ شيء، وهنّ محرّمات على بني آدم، من عمل بهنّ دخل الجنّة، ومن تركهنّ دخل النّار[2].

---

(١) تفسير الطبري: ٨/ ٨٦، بتصرف. ووقع في الأصل: «لعهد» باللام، والمثبت من تفسير الطبري.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره: ٢/ ١٤٢. والذي أسنده ابن جرير الطبري إنما هو قول ابن عباس: «هنّ الآيات المحكمات»، انظر تفسيره: ٨/ ٨٧.

وسيأتي كلام ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في المتن في ذلك[1].

﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ أي الذي وصّاكم به في هاتين الآيتين: التوحيد، والنبوّة، وبيان الشريعة، قرىء بكسر «إنّ»، على الاستئناف، وقرأ الأكثر بفتح الألف[2]، قال الفرّاء[3]: [ك،١٩/ب] بمعنى: وأتلُ عليكم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في هذه الآية، وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]: أمر ـ سبحانه ـ المؤمنين بالجماعة والائتلاف، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف، وأخبرهم أنّه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله[4]. ونحو هذا قاله مجاهد، وغير واحد من السلف[5].

ووحّد اللهُ ـ سبحانه ـ صراطه؛ لأن الحق واحد، وجمع السبل لتفرقها.

وعن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أيّكم يبايعني على هؤلاء الآيات؟ ثم تلا: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ منهن، ثم قال: من وفّى بهنّ فأجره على الله، ومن نقص منهنّ شيئًا فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبتَه، ومن أخّره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء أخذه، وإن شاء

---

(١) انظر ص ٢٢٤.

(٢) انظر «السبعة» لابن مجاهد: ٢٧٣.

(٣) كذا في تفسير البغوي: ٢/ ١٤٢، وهو بمعناه لا بلفظه في «معاني القرآن» للفراء: ١/ ٣٦٤.

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره: ٨/ ٨٨.

(٥) انظر الموضع السابق.

عفى عنه»[١].

وقوله: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أي: تميل بكم وتتشتت بكم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي عن طريقه ودينه التي ارتضى، وبه أوصى.

قال البخاري في صحيحه[٢]: ثنا أبو نعيم، ثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، [ر،٣٧/ب] عن همام، عن حذيفة قال: يا معشر القراء، استقيموا، فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا.

وفي الصحيحين[٣] عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: كنّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في مجلسه فقال: «بايعوني على ألاّ تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق». وفي رواية لهما: «ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو كفّارة له وطهور، ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله، إن شاء عفى عنه، وإن شاء عذّبه». فبايعناه على ذلك. ومرّ بعض ألفاظه في السنن[٤].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: ٢/ ٣٤٨، كتاب التفسير، برقم (٣٢٤٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي في التلخيص، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٥/ ١٤١٧، برقم (٨٠٧٧).

(٢) ٦/ ٢٦٥٦، كتاب الاعتصام. .، باب الاقتداء بسنن رسول الله ـ ﷺ ـ، برقم (٦٨٥٣).

(٣) صحيح البخاري: ١/ ١٥، الإيمان. باب (١١)، برقم (١٨)، وصحيح مسلم: ٣/ ١٠٧٦، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، برقم (١٧٠٩).

(٤) كذا قال، والذي مرّ من ألفاظه في الصفحة السابقة إنما هو في المستدرك وتفسير ابن أبي حاتم.

وفي ذلك حديث ابن مسعود[1]، والنّواس بن سمعان[2]، وهما معلومان، فلا نطيل بذكرهما.

والمعنى أنّ الصراط المستقيم المأمور باتّباعه في هذه الآية هو الإسلام والقرآن والدين والملّة، يقول: فاسلكوا ذلك كلَّه، اتبعوا الإسلام، وهو الدين والملة، واتبعوا القرآن، فهو الهدى والنّور، والسبيل التي لا عوج فيها، دليل قويم، وكلام قديم[3]، وفصيح عربي مبين، وهدى للمتّقين.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، وهي بُنيّات الطريق[4]، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أي تعوجّوا عنها، فسبحان العدل الحكيم، الذي نهى الخلق عنها، حتى قامت عليهم الحجة، ثم قدّرها عليهم، وقضاها فيهم.

قال النبي ـ ﷺ ـ كما في السنن عنه: «افترقت اليهود والنّصارى على إحدى ـ وفي رواية: على اثنتين ـ وسبعين فرقة، وستفترق هذه

---

(١) يشير إلى قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: خط لنا رسول الله ـ ﷺ ـ خطا، ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم تلا الآية: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما..﴾. رواه الدارمي: ١/ ٧٨، وابن حبان في صحيحه: ١/ ١٨٠، برقم (٦)، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٣٤٨، برقم (٣٢٤١).

(٢) يشير إلى حديث «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيما...»، وهو في المسند: ٤/ ١٨٢، وصححه محققوه: ٢٩/ ١٨٢.

(٣) في وصف القرآن بالقدم نظر؛ فإنه مخالف لقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾، والذي عليه أهل السنّة والجماعة أن كلام الله ـ تعالى ـ قديم النوع، حادث الآحاد، وكل ذلك صفة لله ـ تعالى ـ، ليس بمخلوق، انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٢/ ٣٧٣، ٥٧٧، و«منهاج السنة» له: ٢/ ٣٧٩.

(٤) استعمال عربي شائع. يراد به الطرق الصغيرة المتشعبة من الطريق الأعظم، حسيًّا كان أو معنويًّا.

الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النّار إلا واحدة»[1]. فوقع ذلك، وهذه من معجزاته ـ ﷺ ـ، هذا وأمْر الله لنا وعهْده عندنا، ووصيّتُه: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ، ثم أخبر ـ تعالى ـ في كل موضع عن الأمم أنّهم ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وعاينوا البيّنة، وعلِموا الحق، لينفذ عليهم القدر، فلما كان هذا الداء [واقعًا][2] لا محالة، أرشد ـ سبحانه ـ إلى الدواء، قيامًا[3] للحجة علينا، كما في هذه الآية، وحضّ رسول الله ـ ﷺ ـ على لزوم ذلك، وقال: «عليكم بسنّتي، وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عَضُّوا عليها بالنّواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور»[4]. وفي ذلك سلامة من البدع، وحسم لمادّتها، والله أعلم.

---

(١) رواه أحمد في المسند: ٢/ ٣٣٢، والترمذي في سننه: ٥/ ٢٥، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمّة، برقم (٢٦٤٠)، وأبو داود في سننه: ٤/ ١٩٧، كتاب السنّة، باب شرح السنّة، برقم (٤٥٩٦)، وابن ماجه في سننه: ٢/ ٣٧٧، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، برقم (٤٠٤٠). وقد صححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٣)، (١٤٩٢).

(٢) في الأصول: (واقع).

(٣) كذا، والصواب استعمال «إقامةً»؛ مصدر «أقام» المتعدّي.

(٤) رواه أحمد في المسند: ٤/ ١٢٦، والترمذي: ٥/ ٤٤، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنّة. .، برقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه في مقدمة السنن: ١/ ١٠، باب اتباع سنة الخلفاء. .، برقم (٣٤، ٣٥)، والدارمي: ١/ ٤٤، ٤٥، باب اتباع السنّة، والبيهقي في الكبرى: ١٠/ ١١٤، والحاكم في المستدرك: ١/ ١٧٤، ١٧٧، وصححه، وغيرهم عن العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ، وصححه الألباني كما في «إرواء الغليل»: ٨/ ١٠٧، برقم (٢٤٥٥).

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرتُ، ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾، لمّا قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ لاقَ بذلك اتقاءُ الزلل، [ر،٣٧/ أ] قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾.

(وقوله ـ تعالى ـ) في سورة النساء (٣٦): (﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾) أي وحّدوه وأطيعوه في جميع ما يأمركم به، وينهاكم عنه، (﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾)، أي من الإشراك، جليّا أو خفيّا، دقيقا أو جليلا. فأمر ـ سبحانه وتعالى ـ بعبادته وحده لا شريك له. لما كان ـ سبحانه ـ هو الخالق المنعم المتفضّل على خلقه في جميع الأوقات والحالات، كان هو المستحق منهم أن يوحّدوه ولا يشركوا به شيئا من المخلوقات.

ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإنه ـ سبحانه ـ جعلهما سببًا لخروجك من العدم إلى الوجود، ولهذا كثيرًا ما يقرن حقهما بحقّه، كقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، ثم أخبر ـ سبحانه ـ ترغيبًا للبارّ، وتخويفًا لأهل العقوق بأن المصير إليه، فقال: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤﴾، وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، أي أحسنوا إليهما إحسانا.

ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات، من الرجال والنساء، فقال: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وقد صحّ في الحديث: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة»[1].

---

(١) رواه أحمد في المسند: ٤/ ١٧، والنسائي في المجتبى: ٥/ ٩٢، بشرح السيوطي، والكبرى: ٢/ ٤٩، كتاب الزكاة، باب الصدقة على الأقارب، برقم (٢٣٦٣)، والترمذي في سننه: ٣/ ٤٧، كتاب الزكاة، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة، برقم (٦٥٨)، وابن ماجه في سننه: ١/ ٣٤٠، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة، برقم (١٨٤٩)، والدارمي: ١/ ٣٩٧، كتاب الزكاة، باب =

وهذا اللفظ يقتضي شمولَه لكل قريب من جهة أب وأمّ، من ذكر وأنثى، غنيًّا أو فقيرًا؛ لأنّه اسم جنس مضاف، فيشمل كل قريب له، حتى ولده.

ولهذا لما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، خصّص ـ ﷺ ـ في قريش وعمّم، حتى قال: «يا فاطمةُ بنت محمد»[1].

ولمّا نزل قوله: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قال أبو [ك،١٩/أ] طلحة ـ رضي الله عنه ـ كما في صحيح مسلم[2] وغيره[3]، فقلت يا رسول الله، أرى ربّنا يسألنا من أموالنا، وإنّ أطيب أموالي إليّ وأحبَّها «بَيْرَحاءُ»، وأُشهدك أنّها لله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: «فاجعلها في قرابتك»، فجعلها في حسان بن ثابت، وأبيّ بن كعب.

وبين حسان وبين [أبي][4] طلحةَ ثلاثةُ آباء، وبين [أبي] طلحةَ

= الصدقة على القرابة، والبيهقي في الكبرى: ٤/ ١٧٤، وغيرهم، وصحّحه الألباني كما في صحيح الجامع: ٢/ ٧١٧، برقم (٣٨٥٨).

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٦٣، كتاب الإيمان، باب في قوله ـ تعالى ـ: وأنذر عشيرتك الأقربين، برقم (٢٠٤).

(٢) صحيح مسلم: ٢/ ٥٧٥، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين..، برقم (٩٩٨).

(٣) مسند أحمد: ٣/ ٢٨٥، وصحيح ابن خزيمة: ٤/ ١٠٦، وسنن النسائي: ٦/ ٢٣١، وسنن أبي داود: ٢/ ١٣١.

(٤) ساقطة من الأصول، واستدركتها من المصادر، وكذا التي بعدها، انظر التمهيد لابن عبد البر: ١/ ٢١٧.

وأُبيٍّ بن كعب ستّةُ آباء.

ولما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الحشر: ٧]، يعني قرابته ـ ﷺ ـ، قسمه في بني هاشم، وأعطى بني المطّلب من خمس خيبر، كما صحّ ذلك في الصحيحين[١] وغيرهما.

وقد حدّ ذلك بعضهم بأربعة آباء، وقصّة أبي طلحة تخالفه، وهي صحيحة صريحة لا تقبل التأويل.

ثم قال: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، وذلك أنّهم قد عدموا من يقوم بمصالحهم، ومن يُنفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم، ولهذا ثبت عنه ـ ﷺ ـ في الصحيحين[٢] أنه قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنّة كهاتين»، وقرن بين أصبعيه: السبّابة والوسطى.

واليتيم من هلك أبوه ما لم يبلغ الحلم[٣].

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾، وهم المحاويج، الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم، فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفايتُهم.

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١١٤٣، فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس للإمام..، رقم (٢٩١٧)، ولم أجده في صحيح مسلم، وانظر منه: ٢/ ٦١٨، الحديث رقم (١٠٧٢).

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٣٧، الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا، برقم (٥٦٥٩)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٨٠٩، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة..، برقم (٢٩٨٣).

(٣) لحديث «لا يتم بعد احتلام»، أخرجه أبو داود في سننه، برقم (٢٨٧٣)، وصححه النووي كما في شرح مسلم: ١٢/ ١٩١، والألباني في الإرواء: ٥/ ٧٩.

والفقير غير داخل في مسمى المسكين، إلا أن [ر،٣٨/ب] يريدوا باستعماله لمسمىً واحدٍ، يدل عليه قوله: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾، وقد ثبت أنه ـ ﷺ ـ استعاذ بالله من الفقر، كما في حديث أبي هريرة عند أبي داود[١] والنسائي[٢] وابن ماجه[٣] والحاكم[٤]، ومن حديث أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ عند أبي داود[٥] والحاكم[٦] أيضًا وغيرهما.

وسأل الله ـ تعالى ـ المسكنة، كما عند ابن ماجه[٧] بسند صحيح، وعبد ابن حميد[٨] عن أبي سعيد الخدري، وهو عند الضياء[٩] عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ، وهو أيضًا عند الطبراني[١٠] من حديث أبي سعيد، كلهم مرفوعًا، ولفظه: «اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين». فصحّ الفرق بينهما لغةً وسنّةً، إلا أنّ العرب

---

(١) سنن أبي داود: ٢/ ٩١، كتاب الصلاة، باب الاستعاذة، برقم (١٥٤٤).

(٢) المجتبى: ٨/ ٢٦١، بشرح السيوطي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الذلّة.

(٣) السنن: ٢/ ٣٤٤، كتاب الدعاء، باب ما تعوذ منه رسول الله ـ ﷺ ـ، برقم (٣٨٨٧)، وإنما فيه الأمر بالتعوّذ من الفقر، أما استعاذته منه فهو في أول الباب، في حديث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٤) المستدرك: ١/ ٧٢٥، كتاب الدعاء، برقم (١٩٨٣).

(٥) السنن: ٤/ ٣٢٤، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، برقم (٥٠٩٠).

(٦) المستدرك: ١/ ٩٠، كتاب الإيمان، برقم (٩٩). وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٧) السنن: ٢/ ٤١٢، كتاب الزهد، مجالسة الفقراء، برقم (٤١٧٨).

(٨) في مسنده: ٣٠٨.

(٩) الأحاديث المختارة: ٨/ ٢٧٠.

(١٠) كذا في «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٢٦٥، وقال: فيه بقية بن الوليد، وقد وُثق على ضعفه، وشيخ الطبراني وعبيدالله بن زياد الأوزاعي لم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات. أ.هـ. ولم أعثر عليه في معاجم الطبراني، فلعله فيما فقد من الكبير.

قد تستعمل الفقر مكان المسكنة، وذلك نادر، والنّادر لا حكم له، كما قال الشاعر(١):

أما الفقير الذي كانت حلوبته   وَفق العيال فلم يُترك له سبدُ

فبذلك يتبيّن لك مسمّى الفقير من المسكين، وأنّ كل من قد شدّ الإعدامُ فقارَ ظهره فهو فقير، لا يقدر شيئًا.

ولما ذكر ـ سبحانه ـ الفقراء قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي الصحيح(٢): «اطلعت في الجنّة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء».

والمسكين له سفينة يعمل عليها في البحر كما ترى.

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ المتفق عليه، أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ليس المسكين الذي يطوف على النّاس، فتردّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكنّ المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدّق عليه، ولا يقوم فيسأل النّاس»(٣).

فمفهوم تقييده ـ ﷺ ـ نفيَ الغنى عنه بقوله: «يغنيه»، يدل على أنّه لم

---

(١) هو الراعي، انظر ديوانه: ص ٦٤. وقوله: «لم يترك له سبد» من قولهم: ما له سبد ولا لبَد، أي: لا قليل ولا كثير، وأصل السبد: القليل من الشعر. انظر القاموس المحيط: ١/ ٣٦٦.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١١٨٤، بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنّة. . ، (٣٠٦٩)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٦٦٦، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنّة الفقراء، برقم (٢٧٣٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه: ٢/ ٥٣٧، التفسير، باب ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾، برقم (١٤٠٦)، ومسلم في صحيحه: ٢/ ٥٩٣، كتاب الزكاة، باب المسكين. . ، برقم (١٠٣٩). وقد وقع في الأصل: «يُتفطن»، بالتاء، وليست كذلك في الصحيحين.

يُنف عنه من الغنى إلا ما كان يغنيه، وأنّه يجد من المال ما لا يغنيه، بخلاف الفقير الذي تردّه اللقمة واللقمتان، فإنّه لا يجد شيئًا إلا ما دُفع به عند الأبواب.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الذي بينك وبينه قرابة، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: الذي ليس بينك وبينه قرابة[1].

وكذا رُوي عن عكرمة، ومجاهد، وميمون بن مهران[2]، والضحّاك، وزيد بن أسلم، ومقاتل بن حيّان، وقتادة.

وقيل: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: المسلم، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: اليهودي والنصراني. قاله نوف البكالي[3]. وقيل غير ذلك.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾: يعني الرفيق في السفر. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة[4].

وقال علي وعبدالله بن عمر والنخعي: هو المرأة تكون معه إلى جنبه[5].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ٥/ ٧٨.

(٢) الذي رواه الطبري عن ميمون يخالف هذا، وهو أن الجار ذا القربى هو الرجل يتوسل إليك بجوار ذي قرابتك. ثم خطّأ ابن جرير هذا القول، انظر تفسيره: ٥/ ٧٨، ٧٩.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره: ٥/ ٧٩، ٨٠. ونوف البكالي هو نَوف بن فضالة الحميدي البكالي، أبو يزيد، الشامي، ابن امرأة كعب الأحبار، كان راوية للقصص، مات بين التسعين إلى المائة. انظر «تهذيب التهذيب» لابن حجر: ١٠/ ٤٣٦، ٤٣٧.

(٤) انظر تفسير الطبري: ٥/ ٨٠، والدر المنثور: ٢/ ٢٨٤.

(٥) أخرجه ابن جرير: ٥/ ٨١.

وقال ابن جريج وابن زيد: هو الذي يصحبك رجاء نفعك[1].

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: قيل: هو المسافر؛ لأنه لازم السبيل. والأكثرون قالوا: إنّه الضيف[2].

وصح من حديث أبي شريح الكعبي ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزتُه يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه»[3].

وفيه: «ومن [ر،٣٨/أ] كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[4].

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: أي المماليك، أحسنوا إليهم. وقد ثبت أنّه ـ ﷺ ـ جعل يوصي أمّته في مرض موته، يقول: «الصلاةَ الصلاةَ وما ملكت أيمانكم»، يردّدها حتى ما يفيض بها لسانه ـ ﷺ ـ[5].

وفي صحيح مسلم، عن عبدالله بن عمر، أنّه قال لقِهرمانه: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال: انطلق فأعطهم؛ إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمّن يملك قوتهم»[6].

---

(١) أخرجه ابن جرير: ٥/ ٨٢، عن ابن جريج عن ابن عباس.

(٢) انظر تفسير الطبري: ٥/ ٨٣.

(٣) أخرجه البخاري: ٥/ ٢٢٧٢، الأدب، باب إكرام الضيف، (٥٧٨٤).

(٤) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٤٠، الأدب، باب من كان يؤمن بالله..، برقم (٤٨).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده: ٦/ ٢٩٠، وغيره، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: ٢/ ٧١٩، برقم (٣٨٧٣).

(٦) صحيح مسلم: ٢/ ٥٧٤، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال..، برقم =

ولمسلم أيضًا عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «للمملوك طعامه وكِسوتُه، ولا يُكلَّف من العمل إلا ما يطيق»[1]. وعنه ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه، فإن لم يُجلسْه معه فلْيُناولْه لقمةً أو لقمتين، أو أكلة أو أكلتين». أخرجاه في الصحيحين[2].

وفيهما عن أبي ذر مرفوعًا: «هم إخوانكم خَوَلُكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾: أي مختالاً في نفسه، معجبًا بها، متكبّرًا، فخورًا على النّاس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وعند الناس بغيض، وعند الله حقير.

قال مجاهد في الآية: يعني: يعدّ ما أُعطي، وهو لا يشكر الله ـ عز وجل ـ[4]. يعني يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله ـ تعالى ـ.

= (٩٩٦). وآخره: «عمن يملك قوته» بالإفراد. والقهرمان: المسيطر الحفيظ على من تحت يديه، فارسي معرب. انظر اللسان: ١٢/ ٤٩٦، (قهرم).

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٠٣٩، كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك. .، برقم (١٦٦٢).

(٢) صحيح البخاري: ٢/ ٩٠٢، العتق، باب إذا أتى أحدكم خادمُه بطعامه، برقم (٢٤١٨)، وهذا لفظه، وصحيح مسلم: ٣/ ١٠٤٠، كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك. .، برقم (١٦٦٣).

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٢٠، الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية. .، برقم (٣٠)، وصحيح مسلم: ٣/ ١٠٣٩، كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك. .، برقم (١٦٦١).

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره: ٥/ ٨٤.

وروى ابن جرير عن عبدالله بن واقد أبي رجاء الهروي، قال: لا تجد سيّءَ الملكة إلا وجدته مختالاً فخورًا، وتلا: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، ولا عاقًا إلا وجدته جبّارًا شقيًا[١].

وروى ابن أبي حاتم مثله عن العوّام بن حوشب في المختال الفخور في الآية[٢].

وعند الإمام أحمد في المسند[٣]، والبخاري في الأدب المفرد[٤]، والحاكم في المستدرك[٥]، عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من رجل يتعاظم في نفسه، ويختال في مشيته، إلا لقي الله وهو عليه غضبان».

يقال: خالَ الرجلُ يخولُ، إذا اختال. قال الشاعر:

[ك،٢٠/ب] فإن كنتَ سيّدَنا سُدتنا وإن كنتَ للخال فاذهب فخلْ[٦]

والخال: الخيلاء، قال العجاج[٧]:

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ٨٤، وقوله: «سيّء الملكة»، أي سيّء المعاملة لمملوكيه.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ٣/ ٩٥١، برقم (٥٣١٥).

(٣) ٢/ ١١٨. وصحّحه الألباني كما في السلسلة الصحيحة: ٥/ ٣٤٢، برقم (٢٢٧٢).

(٤) ص ١٩١.

(٥) ١/ ١٢٨، كتاب الإيمان، برقم (٢٠١)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. ورواه أيضًا البيهقي في شعب الإيمان: ٦/ ٢٨٣. برقم (٨١٦٧).

(٦) أنشده ابن جرير في تفسيره: ٥/ ٨٤. وابن قتيبة في غريب الحديث: ٢/ ١٦٢، وغيرهما دون تعيين القائل.

(٧) ديوانه: ص ٤١٣، دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

والخال ثوب من ثياب الجهّالْ

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء: ٣٧]، أي: الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمر الله به، من برّ الوالدين، والإحسان إلى الأقارب، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنُب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت الأيمان،[ر،٣٩/ب] الذين هم الأرقّاء، ولا يؤدّون حق الله فيها، ومع ذلك يأمرون النّاس بالبخل أيضًا، وقد قال ـ ﷺ ـ في الحديث الصحيح: «وأي داء أدوأ من البخل»[(١)]. وقال: «ما سادَ بخيل قط»[(٢)].

ثم قال: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾، فالبخيل جحود لنعمة الله، لا تظهر عليه في مأكله وملبسه، ولا في إعطائه وبذله، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧﴾، أي بحاله وشمائله، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾. وقال هنا: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾، ولهذا توعّدهم بقوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾.

وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بالعلم الذي

---

(١) رواه الطبراني في الكبير: ١٩/ ٨١ مرفوعًا، وغيره، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/ ١١٩٥، برقم (٧١٠٤)، كما أخرجه البخاري: ٣/ ١١٤٢، المغازي، باب قصة عمان والبحرين، موقوفًا على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، برقم (٢٩٦٨)، وهو كذلك في المسند: ٣/ ٣٠٧.

(٢) لم أعثر عليه بعد طول بحث في المصادر.

عندهم في صفة النبي ـ ﷺ ـ، وكتمانهم ذلك، ولذلك قال: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾. رواه ابن إسحاق عن محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ[1]. وقاله مجاهد، وغير واحد[2]. ولا شك أن الآية محتمِلة ـ كما قال عماد الدين ابن كثير ـ، والظاهر أنّ السياق في البخل في المال ـ وإن كان البخل بالعلم داخلاً فيه بطريق الأولى ـ فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء[3].

وفي نسخ كثيرة غير خط الشيخ[4] ـ رحمه الله ـ بيده: وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾ الآيات اللاتي في سورة الإسراء [٢٣ـ ٣٩]. وسنشير إليها إشارة على حسب ما أُثبت في غير خط المصنف، فلعلّه ألحقها بعد ذلك.

فقوله: (في سورة الإسراء)، هذا اللّفظ جائز عند السّلف ـ رضي الله عنهم ـ، بأن يقال: سورة كذا. وقد ثبت ذلك عن النبي ـ ﷺ ـ، كما في الصحيحين عن أبي مسعود[5] ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[6].

---

(١) رواه من طريق ابن إسحاق ابنُ جرير الطبري في تفسيره بهذا الشك: عن سعيد أو عكرمة. انظر: ٥/ ٨٦. وانظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٠٣.

(٢) السابق: ٥/ ٨٥.

(٣) من تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٠٣.

(٤) يعني مصنف المتن، الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ، وهذه الآيات مثبتة في المطبوع من كتاب التوحيد، قبل آية النساء التي مضت.

(٥) هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة، أبو مسعود، الأنصاري، البدري، مشهور بكنيته، توفي بعد سنة ٤٠هـ. انظر الإصابة: ٢/ ٤٨٣، ٤٨٤.

(٦) صحيح البخاري: ٤/ ١٤٧٢، فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، برقم =

وقد ردّ البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره على من أنكر ذلك وخطّأه[1]. وهو كذلك؛ لإنكاره ما تلفّظ به النبي ـ ﷺ ـ.

وأمّا لفظ الإسراء، فقد اتفقت الرواة على تسميته إسراءً، ولم يسمّه أحدٌ منهم «سُرى».

قال السهيلي: وإن كان أهل اللغة قد قالوا: «سَرى» و«أسرى» بمعنىً واحد. فدلّ على أنّ أهل اللغة لم يحقّقوا العبارة؛ وذلك أنّ القرّاء لم يختلفوا في تلاوة قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل سرى. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ [الفجر: ٤]، ولم يقل: سرى[2]، فدل على أن السُّرى من سريتُ إذا سِرتُ ليلاً، وهي مؤنّثة، تقول: طالت سُراك الليلة. وقد يذكّر. والإسراء[3] متعدٍ في المعنى، لكنْ حذف مفعوله كثيرًا، حتّى ظنّ أهل اللغة أنهما بمعنى واحد، لمّا رأوهما غير متعديين إلى مفعول في اللفظ، وإنّما أسرى بعبده: أي جعل البراق يسري به[4]، كما تقول أمضيتُه: أي جعلته [ر،٣٩/أ] يمضي، لكن كثر حذف المفعول لقوّة الدلالة عليه، و[5]الاستغناء عن ذكره؛ إذ المقصود بالخبر ذكر محمد ـ ﷺ ـ، لا ذكر

= (٣٧٨٦)، وصحيح مسلم: ١/ ٤٦٥، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة. . ، برقم (٨٠٨).

(١) انظر صحيح البخاري: ٤/ ١٩٢٣، فضائل القرآن، باب من لم ير بأسًا أن يقول: سورة البقرة، وسورة كذا وكذا.

(٢) في «الروض الأنف»: ولم يقل يُسري.

(٣) في الأصل كتبت: «الإسرى»، وهكذا تكررت.

(٤) «به» ليست في الروض.

(٥) في الروض: «أو».

الدابّة التي سرت به.

وجاز في قصة لوط ـ عليه السلام ـ أن يقال له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١، الحجر: ٦٥]، أي سِرْ بِهم. وأن تُقرأ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، بالقطع، أي فأسر بهم على[1] ما يتحمّلون عليه من دابّة أو نحوها. ولم يُتصوّر ذلك في السّرى بالنبي ـ ﷺ ـ؛ إذ لا يجوز أن يقال: «سرى بعبده» بوجه من الوجوه؛ فلذلك لم يأت التلاوة إلا بوجه واحد في هذه القصة[2].

والسورة: الثروة، وسور كل شيء أعلاه وبقيّته، وهو مهموزاً؛ بقية طعام الحيوان وشرابه، قاله صاحب «المحكم» من اللغويين[3]، وصاحب «المستوعِب» من الفقهاء[4]، و«سور المدينة» غير مهموز، و«السور من القرآن»: تهمز؛ لشبهها بالسؤر الذي هو بقية الشيء، ولا تهمز؛ لشبهها بسور المدينة. قاله ابن أبي الفتح البعلي[5].

وكل مرتفِع سور، وساوره إذا طلب معالاته، ومن ذلك سور المدينة. قال النابغة الذبياني:

---

(١) «على» ليست في الروض. وعدمها هو اللائق بالقطع في «فأسر» قبلها.

(٢) «الروض الأُنُف» للسهيلي: ٣/ ٤١٢.

(٣) «المحكم والمحيط الأعظم» في اللغة، لعلي بن إسماعيل بن سيدة، المتوفى سنة ٤٥٨هـ.

(٤) «المستوعِب» لمجتهد المذهب الحنبلي، محمد بن عبدالله بن الحسين البغدادي، المعروف بابن سنينة، المتوفى سنة ٦١٦هـ. انظر عنه: «المدخل المفصّل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل» للدكتور بكر أبو زيد: ٢/ ٧١٧.

(٥) في «المُطلع على أبواب المقنع»: ٤٠.

ألـم تـرَ أن الله أعطـاك سـورةً   ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذبُ[1]

وقال أبو طالب:

وأصبح منا أحمدٌ في أُرومة   تُقصّر عنها سُورة المتطاولِ[2]

وقوله - تعالى -: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، أي أمر ربك بذلك أمرًا قاطعًا، فالقضاء هنا بمعنى الأمر، قاله مجاهد وغيره[3].

ومن كلام العرب في القضاء بمعنى الأمر قول المرقِّش في الجاهليّة:

فقضـى ثَـم أبـونـا إلّـةً   بقتال القوم والحرد معًا[4]

يقول: أمر.

وهذه الآية كقوله - تعالى -: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال زكريا بن سلّام: جاء رجل إلى الحسن فقال إنّه طلّق امرأته ثلاثًا. فقال: عصيتَ ربك، وبانت منك امرأتك. فقال الرجل: قضى الله ذلك. فقال الحسن - وكان فصيحًا -: ما قضى الله. أي ما أمر الله، وقرأ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾. فقال النّاس عند ذلك: تكلّم

---

(١) ديوانه: ١٨.

(٢) من قصيدته الطويلة في ذكر شأنه مع قومه، ودفاعه عن النبي - ﷺ -، وقد ذكرها ابن هشام في السيرة: ١/ ٢٨٠، والبيت هناك: فأصبح فينا أحمد...

(٣) انظر «الدر المنثور»: ٤/ ٣٠٩.

(٤) لم أعثر عليه في ديواني المرقشين الذين نشرتهما دار صادر.

الحسن في القدر. حيث لم يفقهوا ما قال[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، ومعناه لغيره من السلف: ومن ظنّ أنّ قوله: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بمعنى قدّر، وأنّ الله ما قضى بشيء إلا وقع، كما يقوله الملحدون في آيات الله، بأن جعل عبّاد الأصنام ما عبدوا إلا الله، فإنّ هذا من أعظم النّاس كفرًا بالكتب كلّها[2]؛ [ر،٤٠/ب] إذ قائل هذا لا يخرج عن قول من قصّ الله،[ك،٢٠/أ] علينا قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فتعلقوا بالمشيئة والقدر، وتركوا الأمر والنهي؛ إذ مشيئة الله ـ تعالى ـ تعمّ الكائنات، وأمره لا يعمّ مراداته ـ تعالى ـ، فليس لأحد أن يتعلّق بالمشيئة والقدر الكونيين، بعد ورود الأمر الشرعي الدّيني.

وقيل: معناه وصّى. وكذا قرأ علي، وابن مسعود، وأبيّ بن كعب، والضحّاك، من التوصية[3].

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره: ١٥/ ٦٢.

(٢) بتصرف، من «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»: ٦٢. وانظر مجموع الفتاوى: ١١/ ٢٦٩.

(٣) انظر تفسير الطبري: ١٥/ ٦٢. و«الدر المنثور»: ٤/ ٣٠٩. وكون القراءة بـ«ووصّى» مكان «وقضى» من القراءات الشاذة أمر مقبول على قاعدته في علم القراءات، أما أن تكون هي الصواب، دون «وقضى»، وتعدَّ «وقضى» تصحيفًا عن «ووصّى»، بإلصاق الواو الثانية بالصاد، حتى قرئت «وقضى»، كما روى ابن جرير عن الضحاك، فهذا دونه خرط القتاد، وهو في غاية السقوط؛ والمعروف عقلاً وعادةً من حفظ الأمّة لهذا الكتاب والتعبد به وترديده لدى العامّة فضلاً عن العلماء، أن مثل هذا الزعم من ضرب المحال، ونحن نرى في زماننا هذا ـ زمان الإدبار عن العلم الشرعي وحفظ القرآن ـ أن مثل هذا لا يخفى على صغار الحفظة من التلاميذ، فكيف يخفى على صدر الأمة؟!.

وقبل هذه الآيات مما يتعلق بها، قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾ [الإسراء: ٢٢]، وهذا خطاب لنبيّه ـ ﷺ ـ، والمراد به المكلّفون من أمّته، أي: لا تجعل أيّها المكلّف في عبادتك ربّك له شريكًا، فتقعدَ مذمومًا على إشراكك به، مخذولاً؛ لأنّه ـ تعالى ـ يكِلُك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا. فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالنّاس لم تسدّ فاقته، ومن أنزلها بالله [أوشك][1] الله له بالغنى، إما بموت آجل، وإما غنىً عاجل». رواه الإمام أحمد[2]، والترمذي وقال: صحيح غريب[3].

قالوا: ومفهوم الآية أنّ الموحّد يكون ممدوحًا منصورًا، كما أنّ المشرك مذمومًا مخذولاً.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، قال الكسائي: أي استوصوا بالوالدين إحسانا، على الأمر.

وقال غيره: العرب تقول: وصيتك به خيرًا، وآمرك به خيراً، ومعناه: آمرك أن تفعل خيرًا، فتحذفُ «أن» والفعل؛ لأنّه معلوم، كما أنشدوا في ذلك قول الشاعر:

---

(١) في الأصول: (أرسل)، والتصويب من المصادر.

(٢) المسند: ١/ ٤٠٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/ ١٠٤٤، برقم (٦٠٤١).

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٥٦٣، كتاب الزهد، باب ما جاء في الهم في الدنيا..، برقم (٢٣٢٦)، ورواه أبو داود: ٢/ ١٢٢، برقم (١٦٤٥)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٥٦٦، برقم (١٤٨٢)، وصححه.

عجبت من دهماء إذ تشكونا

ومـن أبي دهمـاءَ إذ يوصينـا

خيـرًا بـها كأنّنـا جـافونا[1]

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾، ومعنى «عندك»: أن يكونا أو أحدُهما في كنفك وكفالتك. وقيل: المراد إدراكُه لهما أو لأحدهما. كما في البخاري[2] وغيره في قول النبي ـ ﷺ ـ على المنبر، عن قول جبريل ـ عليه السلام ـ، وفيه: «رغم أنف رجل أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل بهما الجنّة»، وتأمينه ـ ﷺ ـ على ذلك.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾، قرىء بفتح الفاء وكسرها، منوّنًا مع الكسر وغيرَ منوّن، وبالضمّ من غير تنوين، ومنوّنًا ضمًّا ونصبًا[3]. وعن عمرو ابن عبيد أنّه قرأ: «إفَّ»[4]، وكلّها لغات، وروي فيها غير ذلك، وهو صوت يدل على تضجّر.

---

(١) أنشدها الطبري في تفسيره: ١٥/ ٦٣، والمؤلف ينقل عنه.

(٢) ليس في صحيح البخاري، وإنما هو في «الأدب المفرد» للبخاري: ٢١٩، ٢٢٠، برقم (٦٤٤)، وقد أخرجه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٥٧٠، كتاب البر..، باب رغم أنف..، برقم (٢٥٥١).

(٣) انظر «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري: ٢/ ٣٠٦، ٣٠٧، وتفسير الطبري: ١٥/ ٦٤. و«إعراب القراءات الشواذ» لأبي البقاء العكبري: ١/ ٧٨٣ـ ٧٨٥.

(٤) لم أجد من ذكره عنه، وعمرو بن عبيد بن باب هو أبو عثمان البصري، المعتزلي المشهور، توفي سنة ١٤٤هـ. انظر تاريخ الإسلام للذهبي: حوادث ووفيات (١٤١ـ١٦٠هـ) ص ٢٣٨.

وقيل: اسم الفعل، ومعناه التضجّر والكراهة، والمعنى: لا تقل لهما: «كُفّا»، أو «اتركا». قاله أبو البقاء[1]. قال: وقيل: [ر، ٤٠/ أ] اسم للجملة الخبرية. أي: كرهت وضجِرت من مداراتكما[2].

والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسًا بطريق الأولى.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، أي: ولا تزجرهما عمّا لا يعجبك بإغلاظ، ﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، جامعًا للمحاسن من البرّ وجودة اللفظ، وقيل: جميلاً لا شراسة فيه.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، أي أَلِنْ لهما القول، والجَناح: الجانب، والمعنى: اخفض لهما جانبك بالقول والصلة، ولا ترفعْه عليهما فِعْلَ المتكبّر، قال جرير بن الخطفَى لعمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ:

أنهِضْ جناحيّ في ريشي فقد رجعت ... ريشَ الجناحين من آبائك النِّعمُ[3]

وقال أيضًا:

فـلأشكـرنَّ [بـلاء] قـومٍ ثبّتـوا ... قصبَ الجناح وأنبتوا ريش الغِنى[4]

وقال أيضًا يمدح هشام بن عبدالملك:

أتتـك قـريـش لاجئيـن وغيـرهـم ... إلى كل دفـء من جناحك واسعِ[5]

---

(١) «التبيان»: ٢/ ٨١٧.

(٢) الموضع السابق.

(٣) ديوانه: ١/ ٢٧٥.

(٤) ديوانه: ١/ ٣٤٥ وما بين [] ساقطة من الأصول.

(٥) ديوانه: ٢/ ٦٦٦.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾، أي: ادع الله أن يرحمهما عند كبرهما وعند وفاتهما برحمته الباقية، ولا تكتفِ برحمتك لهما الفانية.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ثم أنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣][1].

وقيل: إن الدعاء للوالد بالرحمة بأن يسأل الله أن يهديهما للإسلام، كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام، ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ [يونس: ٥٨] أي أن جعلكم من أهله، ولذا قال: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]. وقيل: رحمته: محمد ـ ﷺ ـ، ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فإذا هُديا بسبب دعاء ولدهما للإسلام، واتباع محمد ـ ﷺ ـ فقد رُحما.

﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤﴾، أي أنعِمْ عليهما بغفرانك ذنوبهما نعمة كنعمتهما علي في صغري.

وفي بر الوالدين أحاديث كثيرة ليس هذا موضعَها، وكذا في الترهيب عن عقوقهما، وفي أدب الله[2] ـ سبحانه ـ معهما بذلك كفايةٌ لمن أبصر وعقل عن الله أمره ونهيه، والله الموفّق.

---

(١) رواه ابن جرير: ١٥/ ٦٧.

(٢) الأولى أن يقول: وفي تأديب الله. . .؛ لأن وصف الله بالأدب لم يرد في الكتاب ولا في السنة، وأصل الأدب: الدعاء، ومنه قيل للوليمة ونحوها مما يُدعى إليه الناس: مأدبة، ومن ذلك حديث ابن مسعود (القرآن مأدبة الله) ضعيف الجامع (٢٠٢٤)، وفي اللسان (١/ ٢٠٦، أدب): الأدب: الذي يتأدب به الأديب من الناس سُمّي أدبا لأنه يأدِب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح.ا.هـ.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ من برّ الوالدين وعقوقهما، كأنّه تهديد على أن يضمر لهما كراهة واستثقالاً.

﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ أي أبرارًا مطيعين فيما يأمركم الله به، بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حقوق الوالدين، وغير ذلك من فرائض الله ـ تعالى ـ، قاصدين بذلك للصلاح، ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ ﴾ الرَّاجعين بالتوبة إلى الله ـ سبحانه ـ بعد المعصية والهفوة، ﴿ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ لكم بعد رجوعكم وتوبتكم، فإن الأوّاب فعّال، من قولهم: آب، أي رجع. قال عبيد بن الأبرص الأسدي:

وكل ذي غيبة يؤوب   وغائب الموت لا يؤوب[1]

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾، من صلة الرحم، وحسن المعاشرة، والبرّ إليهم. وقيل: عنى [ر،٤١/ب] بذلك قرابة رسول الله ـ ﷺ ـ، والآية تحتمل ذلك كلّه، ﴿ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾، مرّ الكلام فيهما.

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾، أصل التبذير: التفريق، ومنه سمّي البَذر، أي لا تنفق في غير حقّه.

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كلّه في الحقّ ما كان مبذّرًا، ولو أنفق مُدًّا في باطل كان تبذيرًا[2].

وقد أنفق الصديق ـ رضي الله عنه ـ جميع ماله في سبيل الله، فما عُدّ مبذّرًا، بل مُدح بذلك غاية المدح[3].

---

(١) ديوانه: ص ٧. ط ليدن.

(٢) ذكره عنه ابن جرير معلّقًا: ١٥/ ٧٤.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك: ٣/ ٦، برقم (٤٢٦٧) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

ومما ذُكر أنه نزل فيه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾[1].

وقد مدح الله أهل هذه الصِّفَة بالإيثار، ووعدهم عليها أن يرضيهم، وقال في حق الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والمفلحون المنجحون، الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا عمّا عنه [ك،٢١/ب] هربوا.

وليس في هذه الآية حجّةٌ للبخلاء على بخلهم؛ فإنّ كتاب الله يصدّق بعضُه بعضًا، مع بيان رسوله ـ ﷺ ـ، وقد قال: «ما ساد بخيل قط»[2]. فنفى السؤدد عنه، فلا يكون سيّدًا، بل يكون بغيضًا مهينًا، ولهذا قال ـ ﷺ ـ: «أي داء أدوأ من البخل»[3].

وقال: «أنفِق بلالُ، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً»[4].

وقال لبعض النساء: «أنفِقي يُنفَق عليكِ، ولا توعي فيوعي الله عليك»[5].

---

(١) انظر تفسير ابن جرير: ٣٠/ ٢٢٨.

(٢) سبق التنبيه إلى أني لم أجده في شيء من المصادر.

(٣) سبق تخريجه في ص ٢٠١.

(٤) رواه الطبراني في الكبير: ١/ ٣٤٢، ١٠/ ١٥٥، والبيهقي في الشُعب: ٢/ ١١٨، وأبو يعلى في مسنده: ١٠/ ٤٣٠ وقال محققه: إسناده جيد. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٣١٦، برقم (١٥١٢).

(٥) رواه بلفظ مقارب البخاري: ٢٨٤، كتاب الزكاة، باب الصدقة فيما استطاع، برقم (١٤٣٤)، أنه قاله لأسماء بنت أبي بكر، ومسلم: ٢/ ٥٨٩، برقم (١٠٢٩)، وفي حلية الأولياء: ٧/ ١٣٩، أنه قاله لعائشة ـ رضي الله عنها ـ.

﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾، أي مثالهم في الشرارة في التبذير والسفه، وترْكِ طاعة الله ـ سبحانه ـ، وارتكاب معصيته؛ لأنهم يطيعونهم في ذلك، أو يشابهونهم ويشاكلونهم، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾ [الزخرف: ٤٨]، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾، مبالغًا في الكفر، فلا ينبغي أن يُطاع ويؤاخى أو يشاكل.

﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ﴾، هي «إنْ» الشرطيّة، أُكّدت بـ«ما»، فصار «إما»؛ فإنه لم يعرض لابتغاء الرحمة. والمعنى: إن لم تتمكّن من إعطاء السائل، وكنت راجيًا سعة الرزق من الله، وتنتظر مالاً يأتيك من ناحيته، فلا تؤيّسْه، وقل له قولاً ليّنًا، فيه يسْرٌ، وعِدْه عدةً حسنةً.

﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾، ليس علّةَ الإعراض، فإنّه لم يعرض لابتغاء الرحمة، وإنما هو في موضع الحال: أي إن احتجت أن تُعرض عنهم لفقدانك ما تعطيهم، وتكون مبتغيًا رحمةً من ربّك، راجيًا لها، ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ ليّنًا.

قال الكسائي: يَسَرت الأمرَ، وأيسرته ويسّرته، أي سهّلته وليّنته(١).

قال الزجاج: أي قل: يرزقنا الله وإيّاكم من فضله(٢).

وقال ابن جرير: عِدْهم، وقل: يرزق الله فأعطيكم، وتكون [ر،٤١/أ] مبتغيًا رحمة ربّك، راجيًا لها. هكذا فسّره بالوعد مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد من

---

(١) لم أهتد إلى موضعه.

(٢) ذكره الزجاج في «معاني القرآن»: ٣/ ٢٣٦، على أنه جواب النبي ـ ﷺ ـ لمن سأله وليس عنده ما يعطيه. وهو في مصنف ابن أبي شيبة: ٦/ ١٠٩ من قول عائشة، بنحوه.

السلف[1].

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾، تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذّر، ونهيٌ عنهما أمرٌ باقتصاد بينهما، وهو الكرم، والوسط بين الطرفين، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧]، إذ المسرف: المخطىء الطريق القصد، يقال: أردتكم فسرفتكم، أي أخطأتكم إلى غيركم، ومن السّرف أن يعطي العطاء في غير أهله.

قال بعض السلف: كلّ ما أنفقته في طاعة الله ـ تعالى ـ فليس بسرف وإن كثر، وما أنفقته في غير طاعة الله كان سرفًا وإن قل[2].

وفي ذلك يقول جرير لعبدالملك:

أنت الأمينُ أمينُ الله لا سَرِفٌ فيما ولِيتَ ولا هيّابةٌ وَرَعُ[3]

و«الهيّابة» و«الورع» من أسماء الجبان[4].

ولهذا قال: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾، يلومك الحكماء وأهل البصيرة، بما ينبغي وبما لا ينبغي، يقولون: أسأت فيما فعلت. وكنت مع لوم الناس لك ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾، قد انقُطع بك في عيشك، فلا تقدر على شيء، كالبعير المحسور، الذي انقطع سيره لضعفه وإعيائه، يقال: دابة حسير

---

(١) تفسير ابن جرير: ١٥/ ٧٤، ٧٥.

(٢) رواه ابن جرير عن مجاهد: ١٩/ ٣٧.

(٣) ديوانه: ٢٧٨. صادر.

(٤) انظر «أساس البلاغة» للزمخشري: ٦٧٢، ٧٠٩.

ومحسور، إذا رزَحَت وانقطع سيرها.

قال علقمة الفحل التميمي، راوية امرئ القيس، يصف فلاةً بأنه ليس كلُّ بعير يقطعها:

بها جيف الحسْرى فأمّا عظامها فبيض وأمّا جلدها فصليبُ[١]

وقال الآخر[٢]:

بها جِيَفُ الحسرى يلوح صليبُها كما لاح كتّانُ التِّجار الموضّعُ

وقال جرير بن عطيّة بن الخطفَى:

إذا بلّغ اللهُ الخليفةَ لم تُبَلْ سقاط الرذايا من حسيرٍ وضالعِ[٣]

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، ليُعلمَ بذلك أن الله ـ سبحانه ـ هو القابض الباسط المتصرف في خلقه بما شاء؛ فيُغني من يشاء، ويُفقر من يشاء، بيده الأمر كلُّه، فاعبده وتوكّل عليه. إذا علمت ذلك، فأطع لمن[٤] بيده الغِنى والفقرُ فيما أمر، وانزجر عمّا نهى عنه وزجر، تحصلْ لك بذلك السعادة في الدارين.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. يقول: لا تقتلوا أولادكم خوفَ الفقر. والولد يعمُّ الذكر والأنثى عند العرب، كما تقدّم. ولمّا رأوا أن الرزق بالاكتساب، وتعلّقوا بالأسباب، ولم ينظروا إلى

---

(١) ديوانه: ص ٤٠، دار الكتاب العربي بحلب.

(٢) هو كعب بن مالك الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ: انظر «سيرة ابن هشام»: ٢/ ١٣٢.

(٣) ديوانه: ٢/ ٦٦٤، والرذايا جمع رذية، وهي الناقة الهزيلة، وقد يطلق على المرأة الضعيفة، والرذي: الضعيف من كل شيء. انظر اللسان: ١٤/ ٣٢٠..

(٤) الفصيح تَعْدِيةُ «أطع» بنفسه، وبذلك جاء الأسلوب القرآني: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

الرازق الواجد الوهاب، الذي يرزق القويَّ والضعيف، والمختلَّ البنيّةِ والرصيف، والرضيعَ الغافيَ والضريف[1]، قال: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، فختم الآية بهاتين الصفتين؛ [ر،٤٢/ب] ليَعلم الإنسان أنّه ـ سبحانه ـ ليس عنه بغافل، وأنّه بأحواله عالم.

ثم قال: ﴿إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾. المعنى: وبئس طريقًا طريقُه. نُصب على التمييز، وقد مرّ الكلام على ذلك في آيات سورة الأنعام.

﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، فعن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد ألاّ إله إلاّ الله، وأنّي رسول الله، إلا بإحدى ثلاث؛ النفس بالنفس، والثيّب الزّاني، والمفارق لدينه، التارك للجماعة». رواه البخاري[2] ومسلم[3].

وعند البخاري، عن ابن عمر مرفوعًا: «لن يزال المسلم في فسحة من دينه، ما لم يصب دمًا حرامًا»[4].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «أول ما يُقضى بين

---

(١) كذا كُتبت بالضاد، والأشبه أنه أراد: «الظريف»، وهو الكيّس الذكي، انظر «أساس البلاغة»: ٤٠١، أما «الضريف» فلم أجد له إلا قول الأصمعي: يقال: فلان في ضِرفة خير، أي كثرة. انظر المقاييس: ٣/ ٣٩٦.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٢١، الديات، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾. . ، برقم (٦٤٨٤).

(٣) صحيح مسلم: ٣/ ١٠٥٣، كتاب القسامة. . ، باب ما يباح به دم المسلم، برقم (١٦٧٦).

(٤) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥١٧، الديات، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، برقم (٦٤٦٩).

النّاس يوم القيامة في الدماء». رواه الشيخان[1].

وعند أبي داود عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا: «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد ألا إله إلا الله، [ك،٢١/ أ] وأنَّ محمدًا رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصان، فإنّه يُرجم، ورجل خرج محاربًا لله ورسوله، فإنّه يُقتل، أو يصلب، أو يُنفى من الأرض، أو يَقتل نفسًا فيُقتل بها»[2].

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، أي اختيارَه في القوَد، أو أخذ الدية، أو العفو مجّانًا، فله السلطان في ذلك؛ بأن يُجاب إليه، ولا يُردَّ اختيارُه.

﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾، بأن يُمثّل بالقاتل، أو يقتصَّ من غير القاتل، أو أكثرَ من القاتل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ على القاتل، في الدنيا والآخرة، شرعًا وقدَرًا.

وقد أخذ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من هذه الآية ولايةَ معاوية ابن أبي سفيان، في ولايته السلطنة، وأنّه سيملك؛ لأنّه كان وليّ عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنهما ـ، وهذا من الأمر العجيب، فروى الطبراني[3]، عن زهدم[4] الجرمي، قال: كنّا في سمر ابن عبّاس، فقال: (إني محدّثكم حديثًا ليس بسر ولا علانية، إنه لما كان من أمر

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥١٧، (٦٤٧١)، وصحيح مسلم: ٣/ ١٠٥٤، كتاب القسامة. . ، باب المجازات بالدماء. . ، برقم (١٦٧٨)، واللفظ له.

(٢) سنن أبي داود: ٤/ ١٢٦، كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتد، برقم (٤٣٥٣)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل»: ٧/ ٢٥٤، وقال: إسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٣) في الكبير: ١٠/ ٣٢٠.

(٤) في [ر]: زهدم، بالذال المعجمة، والمثبت من [ك]، وهو الموافق للمصادر.

هذا الرجل ما كان ـ يعني عثمان ـ، قلت لعليٍّ: اعتزل، فوالله لو كنت في جحرٍ لطُلبت حتى تستخرج، فعصاني، وايم والله، ليتأمّرنّ عليكم معاوية؛ وذلك أنّ الله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾، ولتحملنّكم قريش على سنّة فارس والرّوم).

وفي لفظ: (وليتأمّرنّ عليكم أبناء النّصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ يومئذ بما يعرف نجا، ومن ترك ـ وأنتم تاركون ـ كنتم كقرن من القرون، هلك فيمن هلك)[1].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾، غاية لجواز التصرف الذي دلّ عليه الاستثناء، وقد مرّ الحكم في ذلك بما أغنى عن إعادته هنا[2].

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾، أي أوفوا بما عاهدكم الله من تكاليفه أو عاهدتموه، وكذا العهود التي بينكم [ر،٤٢/أ] وبين خلقه، وسيأتي الكلام على العهد ـ إن شاء الله تعالى ـ في بابه مبسوطًا، في الباب الثاني والستين، آخرَ الكتاب[3].

وقوله: ﴿مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾، أي مطلوبًا، يطلب من المعاهِد ألا يضيّعه، ويفيَ به. أو مسؤولاً عنه الناكثُ، ويُعاقَب عليه. أو يُسأل العهدُ نفسُه: لم نُكثت؟؛ تبكيتًا للناكث، كما يقال للموؤودة: بأيّ ذنبٍ قُتلْتِ؟.

---

(١) هو في الموضع السابق، من تمام الأثر.

(٢) راجع ص ١٨٤.

(٣) وهو باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه.

قالوا: ويجوز أن يراد صاحب العهد، كان مسؤولاً.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾، فيه دليل على أن الكيل على البائع؛ لأنه المخاطب، لا المشتري. والقسطاس: قال مجاهد: العدل. وقال الحسن هو القَبَّان[1].

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ۝٣٥﴾، أي مآلاً وعاقبة، وتأويلُ كلّ شيء: ما يؤول إليه في العاقبة، وقد مر الكلام على ما يتعلق بذلك[2].

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾، يقال: قفاه: اتّبع أثره، ومنه القافة. يقول: لا تقْفُهُ بما لم يتعلق به علمُك، تقليدًا أو رجمًا بالغيب. هذا معنى قول ابن عباس في الآية[3]. قال الكميت:

فلا أرمي البرِيَّ بغير ذنبٍ ... ولا أقفوا الحواصن إن قُفينا[4]

والحاصل أن هذه قضيّةٌ كليّة، يندرج تحتها أنواع. وصحّ عنه ـ ﷺ ـ أنّه قال: «من قفا مؤمنًا بما ليس فيه حبسه الله في ردغه الخبال[5] حتى يأتيَ بالمخرج». وفي لفظ: «حتى يخرج مما قال». رواه أبو داود[6]، والإمام أحمد[7]، وغيرهما عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) رواه عنهما ابن جرير: ١٥/ ٨٥.

(٢) راجع ص ١٨٥.

(٣) انظر تفسير الطبري: ١٥/ ٨٦.

(٤) ديوانه: ١/ ٤٢٦.

(٥) جاء تفسيرها في بعض الروايات بأنها عصارة أهل النار، انظر المسند: ٢/ ٨٢.

(٦) السنن: ٣/ ٣٠٥، كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومه..، برقم (٣٥٩٧)، بلفظ مقارب، وصححه الألباني كما في «الصحيحة»: ١/ ٧٢٢، برقم (٤٣٧)، و«إرواء الغليل»: ٧/ ٣٤٩، برقم (٢٣١٨).

(٧) المسند: ٢/ ٨٢.

وعند الترمذي[1] وابن جرير[2] وغيرهما، عن ابن عمر أيضًا ـ رضي الله عنه ـ قال: صعد رسول الله ـ ﷺ ـ المنبر، فنادى بصوتٍ رفيع، فقال: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفضِ الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيّروهم، ولا تتبّعوا عوراتهم؛ فإنّ من تتبّع عورة أخيه المسلم، تتبّع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحْه ولو في جوف رحله». وفي لفظ: «ولو في جوف بيته، ويتوب الله على من تاب» وفيه أحاديث تخرج بنا عن المقصود.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ أي كل هذه الجوارح والأعضاء، ولم يقل: «تلك»؛ لصحّة استعمال «أولئك» في مكان «تلك» عند العرب. قال جرير:

ذُمّ المنازلَ بعد منزلة اللِّوى والعيشَ بعد أولئكَ الأقوامِ[3]

والمعنى: أنّ الله سيسألُكم يوم القيامة عما تفعلونه بأسماعكم، من الاستماع إلى الجيران، أو إلى غيرهم، فيما لا ينبغي لكم أن تستمعوا إليه، وعمّا تفعلونه بأبصاركم، من النظر إلى ما لا يحلّ لكم أن تنظروا إليه، وعمّا تفعلونه بقلوبكم من العزم على ما لا يحلّ لكم، وعن إضمار الحقد والحسد، وظنّ السوء لإخوانكم، وأمثال ذلك.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا [ر،٤٣/ب]﴾، أي متبخترًا[4] متمايلاً، مشي

---

(١) السنن: ٤/ ٣٧٨، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، برقم (٢٠٣٢)، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: ٢/ ١٣٢٣، برقم (٧٩٨٥).

(٢) لم أعثر عليه عند ابن جرير في تفسيره.

(٣) ديوانه: ٤٥٢ ط صادر. ولم أجده في طبعة دار المعارف.

(٤) في [ر]: تبختراً.

الجبّارين. وقيل: بطرًا وكِبْرًا، وهو تفسير المشي، لا نعتُه.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾، قال ابن جرير: تقطع الأرض بمشيتك[1]. واستشهد عليه بقول رؤبة:

وقاتمِ الأعماق خاوي [المخترقْ][2]

وقيل: تجعل فيها خرقًا بشدّة وطأتك بكبرك.

﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾، أي بتطاولك. وهو تهكّم بالمختال، والمعنى أن صاحب الكبر والبطر لا ينال شيئًا يقصر عنه غيره، بل قد يُجازى بنقيض قصده، كما خسف الله بقارون، لمّا تناول من الارتفاع ما لا ينبغي، فالمتكبّر وضيعٌ شرعًا وقدَرًا، وكفى للمتكبّر عقوبةً قولُه ـ تعالى ـ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. و«الكبْر بطرُ الحق وغمطُ الناس»[3]. وكيف يتكبر من أصله قطرة قذرة من ماء مهين، تقتله شرقة، وتؤلمه بقّة[4].

وعند ابن أبي الدنيا، عن الحسن البصري أنه قال: عجبًا لابن آدم، يغسل الخراء بيده كل يوم، ويتكبّر![5].

وعنده أيضًا عن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢١]، قال: سبيل البول والغائط[6].

---

(١) في تفسيره: ١٥/ ٨٨، وفيه: «باختيالك».

(٢) ديوانه: ص ١٠٤، جمع وليم بن الورد. وقد وقع في الأصول: (المنخرق)، وهو خلاف المصادر.

(٣) كما ثبت مرفوعًا في صحيح مسلم: ١/ ٨٩، برقم (٩١).

(٤) البقة: البعوضة، «مختار الصحاح»: ٦٠.

(٥) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا رقم (٢٠٩).

(٦) المرجع السابق رقم (٢١٢).

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾، أي: الذي ذكرنا، من قوله: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾، إلى هنا، ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ هكذا وجهه ابن جرير[(١)]، على قراءة من قرأ: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ بالإضافة، ومن قرأ: ﴿سَيِّئَةً﴾، أي فاحشة، فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾ إلى هنا[(٢)]، فهو سيئةٌ مؤاخذ عليها. ﴿مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ عند الله. وقيل على القول بالإضافة: هي من قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، فلأجل ذلك استطردنا عليها بالكلام أول الآيات.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾، أي ذلك الذي أمرناك به، من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد، لتأمر به الناس، وذلك من الحكمة، التي هي معرفة الحق لذاته، والخيرِ للعمل به، ومعرفةُ الشرّ لاجتنابه.

والجامع للقول في لفظ الحكمة أن يقال: الحكمة هي العلم بالأشياء على ما هي عليه، والعملُ كما ينبغي[(٣)].

وقال ابن دريد: كلّ كلمة زجرَتك أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك [ك،٢٢/ب] عن قبيح فهي حكمة[(٤)].

وفي المثل: «الحكمة ضالة المؤمن، يلتقطها حيث وجدها»[(٥)].

---

(١) ١٥/ ٨٩.

(٢) أو من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، كما في تفسير ابن جرير: ١٥/ ٨٩، مع أن قبلها: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ..﴾، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً..﴾!.

(٣) عن «فيض القدير» للمناوي: ٣/ ٣١٦.

(٤) «جمهرة اللغة»: ٢/ ١٨٦.

(٥) أصله حديث مرفوع، عند الترمذي: ٥/ ٥١، برقم (٢٦٨٧)، وأوله: «الكلمة الحكمة..» وقال عنه الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل =

فالحكمة حلية العقل، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، ومتجر الراغبين، وحظّ الدنيا والآخرة، وسلامة العاجل والآجل[1].

قال النووي: وفي الحكمة أقوال كثيرة مضطربة، اقتصر كلٌّ من [قائليها][2] على بعض صفاتها، وقد صفا لنا منها أنها عبارةٌ عن العلم المتصفِ بالإحكام، المشتمل على المعرفة بالله ـ تعالى ـ، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس والأخلاق،[ر،٤٣/أ] وتحقيق الحق والعمل به، والصدِّ عن الهوى والباطل، والحكيم من له ذلك[3].

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، كرّره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه؛ فإنّ من لا قصْد له باطلٌ عمله، ومن قصد بفعله أو ترْكِه غيرَ الله ضاع سعيُه، وأنّ التوحيد رأسُ الحكمة وملاكُها، ورتّب عليه[4] أولاً ما هو عائدة الشرك في الدنيا، فقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، وثانيًا ما هو نتيجتُه في العقبى: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾، أي مبعَدًا من رحمة الله، تلومُك نفسك، ويلومُك الخلق، حالةَ كونك مدحورًا. قال ابن عباس وقتادة: مطرودًا[5].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، أنّ هذه الآيات كانت في

= المدني المخزومي يُضعف في الحديث من قبل حفظه. وهو عند ابن ماجه أيضًا: ٢/ ٤٢٠، برقم (٤٢٢١)، وقال عنه الألباني: «ضعيف جدًا»، كما في ضعيف الجامع: ٦٢٤، ٦٢٥، برقم (٤٣٠١)، (٤٣٠٢).

(١) عن «فيض القدير» للمناوي: ٣/ ٤١٦، من قول بعضهم.

(٢) في الأصول: (قائلها).

(٣) شرح صحيح مسلم: ٢/ ٣٣.

(٤) أي على النهي في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾.

(٥) رواه ابن جرير: ١٥/ ٩٠.

ألواح موسى ـ عليه السلام ـ، أولها: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[1].

قال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: ولقد جعل الله ـ عز وعلا ـ فاتحتَها وخاتمتَها النهيَ عن الشرك؛ لأنّ التّوحيد رأسُ كلِّ حكمة ومِلاكها، ومَن عَدِمَه لم تنفعْه حِكَمُهُ وعلومُه، وإنْ ندّ[2] فيها الحكماء، وحكّ بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحِكَم، وهم على دينٍ أضلَّ من النَّعم[3].

والمراد من هذا الخطابُ للأمة بواسطة الرسول ـ ﷺ ـ كما مرّ[4]؛ فإنّه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ معصوم، وقد بلّغ البلاغ المبين لما أُمر به.

قال أبو داود[5] الأودي، عن الشعبي، عن علقمة، قال: (قال) عبدالله (بن مسعود) الهذلي ـ ومر بعض فضائله[6]، وسيأتي لها بقية، رضي الله عنه ـ: (من أراد أن ينظر إلى وصية) رسول الله (محمد[7]

---

(١) ذكره عنه الزمخشري في الكشاف: ٢/ ٣٦١، وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال: إنّ التوراة كلّها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ـ يعني سورة الإسراء ـ، ثم تلا: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، انظر تفسيره: ١٥/ ١٨٩.

(٢) كذا بالأصل، ولا وجه لها، وفي الكشاف: «بذَّ»، بمعنى «سبق وغلب»، كما في اللسان: ٣/ ٤٧٧، مادة (بذذ)، فهي الصواب.

(٣) الكشاف: ٢/ ٣٦١.

(٤) راجع: ص ٢٠٧.

(٥) كذا في جميع النسخ، وصوابه كما في سنن الترمذي (٥/ ٢٦٤): «..عن داود الأودي عن الشعبي».

(٦) هذا وهم؛ إذ لم يسبق ذكر شيء من فضائل ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٧) في سنن الترمذي: «من سرّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ـ ﷺ ـ =

ـ ﷺ ـ، التي) أمره الله أن يوصي بها أمته ـ وفعَل ـ، ولم يتعرّضها نسخ، ولا تبديل، ولا تغيير، بل توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وهي محكمة ثابتة، (عليها خاتمه، فليقرأ) الآيات المحكمات اللاتي في سورة الأنعام، وهي (قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ الآية). أي: اقرأ واتل الآية، وإنما هو الآيات كما هو معلوم من المقام. رواه الترمذي[1] وغيره عنه ـ رضي الله عنه ـ.

(وعن معاذ بن جبل) الأنصاري ـ رضي الله عنه، وستأتي ترجمتُه ـ [قال: كنت رديف النبي ـ ﷺ ـ)، الرّديف: الراكب خلفك. قال ابن سيده: رديفك الذي يرادفك. (على حمار) يُقال له: «يعفور»، كما صح ذلك في بعض ألفاظه، وفيه: جواز الإرداف على الدابّة، وأنّ صاحبها أحقّ بصدرها، وانتفاء الكبْر عنه ـ ﷺ ـ بركوبه الحمار، وعدمُ تكلّفه، بحيث ما وافقه من دابة ركبها. وهكذا هديُه ـ ﷺ ـ، لا يتكلّف في طعامه [ر،٤٤ب] ولا لباسه، كما لا يتكلف في مركوبه، وكذا في فراشه، كما هو معلوم من هديه في جميع أحواله.

(فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟») فيه دليل استفهام العالم للمتعلّم على جهة التعليم، لا على وجه التعنّت؛ فإن ذلك مذموم.

(وما حق العباد على الله»؟. قلت: الله ورسوله أعلم). أجابه

= فليقرأ..».

(١) السنن: ٥/ ٢٦٤، كتاب التفسير، باب ومن سورة الأنعام، برقم (٣٠٧٠). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

ـ رضي الله عنه ـ بما هو خلقه وخلُق أصحابه، بأنهم لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله بما لا علم لهم به، بل يقولون لما لا يعلمون: الله ورسوله أعلم. وهكذا قالت الملائكة، تأدبًا مع ربهم ـ تبارك وتعالى ـ، حيث وقفوا عند منتهى علمهم، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]. فوكلوا العلم إلى عالمه. فينبغي لمن سُئل عمّا لا يعلم، أن يقول: الله لأعلم. أو عبارةً نحوها.

(قال: «فإن حق الله على العباد») الواجبَ عليهم، وهو الذي خلقوا لأجله، وأُرسلت لأجله الرسل، وجُرّدت له سيوفُ الجهاد، (أن يعبدوه) وحده (ولا يشركوا به شيئًا)، وقد مضى تعريف العبادة بما أغنى عن إعادته[1].

(وحق العباد على الله) وهو وعدُه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، فنُصب «وعدَ الله» على المصدر تأكيدًا، و«حقًا» حال من المصدر، أو منصوب لفعل محذوف تقديره: حق ذلك حقا. ومن هذا قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال في موضعين من سورة غافر: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥، ٧٧]، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وهو ـ سبحانه ـ لا يخلف وعده، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٧]. وأخبر في الآية الأخرى أنّه لا يخلف وعده، (ألاّ يعذب من لا يشركُ به شيئًا).

فالحق عند العرب: كل موجود متحقق، أو ما سيوجد لا محالة.

---

(١) راجع ص ٧٤.

فالله ـ سبحانه ـ هو الحق الموجود الأزلي، والباقي الأبدي، والموتُ والساعة والنّار والجنّة حق. وإذا قِيل للكلام الصدق: حقٌّ، فمعناه أنّ الشيء المخبر عنه بذلك الخبر واقعٌ متحقق، لا تردّد فيه. وكذا[1] المستحق على الغير، من غير أن يكون فيه تردّد وتحيّر.

والمعنى أنّه حق متحقق من الله ـ تعالى ـ لعباده المؤمنين. والعرب تقول للوعد المتحقق: «حقا». إذا كان صدقًا. قال العرجي[2]:

منَّيْتِنا فرحًا إن كنتِ صادقةً يا حِبَّ نفسي أحقًّا ما تُمنِّيني[3]

فحق الله على العباد معناه ما يستحقه عليهم، وجعَلَه محتّمًا عليهم، وحق العباد على الله ـ تعالى ـ [ر٢٤٤/أ] معناه أنه متحقق منه لا محالة؛ لأنه ـ كما مر ـ ليس في وعده خُلف. وسيأتي مزيد لهذا في باب الإقسام على الله ـ تعالى ـ إن شاء [ك،٢٢/أ] الله[4].

وهذا الحديث فيه رجاء عظيم لمن لا يشركُ بالله شيئًا، إذا أدّى العبد عبادةَ ربّه الواجبةَ عليه.

(فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشّر النّاس؟. قال: «لا تبشّرهم فيتكلوا»)[5] قال الراوي في بعض ألفاظه: فأخبر بها معاذ ـ رضي الله

---

(١) بعدها في [م]: «الحق».

(٢) هو عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي، القرشي، أبو عمر، شاعر غزل مطبوع، لقب بالعرجي لسكناه قرية «العرج» قرب الطائف. توفي سنة ١٢٠هـ تقريبًا. انظر: «سمط اللآلي»: ١/ ٤٢٢، ٤٢٣، و«الأعلام»: ٤/ ١٠٩.

(٣) ديوانه: ص ٣٣٧، وقوله: «يا حِبّ نفسي» هكذا بالأصل، وفي الديوان: «يا حَبّ نفسٍ».

(٤) انظر ما يأتي في الباب (٦٣).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: ٣/ ١٠٤٩، الجهاد، باب اسم الفرس والحمار، برقم (٢٧٩١)، ومسلم: ١/ ٦٢، ٦٣، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنّة قطعًا، برقم (٣٠).

عنه، كما يأتي في طريقه ـ عند موته تأثّمًا[١].

ففي ذلك فضيلة الفرح للمسلمين بما يسرّهم، وطلب بشارتهم بذلك، إذا لم يعارضها مفسدة راجحة على المصلحة، وفيه جواز كتمان العلم عمّن يُخاف منه ألا يضعه موضعه، وجواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض، إذا أُمِنت المفسدة المذكورة. ولهذا قال علي ـ رضي الله عنه ـ كما ذكره البخاري في صحيحه بسنده[٢]، ويأتي في المتن ـ: «حدّثوا النّاس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَب اللهُ ورسولُه». ولمّا خاف ـ ﷺ ـ اتّكالهم على سعة رحمة الله قال له: «لا تبشّرهم فيتّكلوا». وفي تخصيصه ـ ﷺ ـ معاذًا بهذا فضيلةٌ له ظاهرةٌ؛ حيث لم يخش عليه ـ ﷺ ـ الاتكال عن العمل. وهذا يرجّح الحديث الذي رواه الترمذي وصحّحه[٣]، عن أنس بن مالك، وفيه ـ بعد قوله: «أرحم أمتي بأمتي أبوبكر» ـ: «وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل». وهو عند سعيد بن منصور[٤]، وابن سعد[٥].

وعندهما[٦] أن معاذًا ـ رضي الله عنه ـ «يقدُم العلماءَ يوم القيامة برتوة». بالمثنّاة الفوقية، أي بخطوة. وقيل: بدرجة. قال خداش بن

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٥٩، (١٢٨)، وصحيح مسلم: ١/ ٦٤، برقم (٣٢).

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٥٩، العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا، برقم (١٢٧).

(٣) السنن: ٥/ ٦٦٤، ٦٦٥، كتاب المناقب، باب مناقب معاذ..، برقم (٣٧٩٠، ٣٧٩١). وقد صححه الألباني كما في الصحيحة: ٣/ ٢٢٣، برقم (١٢٢٤).

(٤) سنن سعيد بن منصور: ١/ ٢٨، (٤) ط الأعظمي.

(٥) ٣/ ١٧٦، وإنما فيه أول الحديث، وهو ما يتعلق بأبي بكر.

(٦) لم أعثر عليه في المطبوع من سنن سعيد بن منصور، وهو في «الطبقات الكبرى»: ٢/ ٣٤٧، وقد صححه الألباني كما في الصحيحة: ٣/ ٨٢، برقم (١٠٩١).

زهير بن ربيعة بن هوازن[1]:

إذا الشمس كانت رتوة من حجابها تقتها بأطراف الأراك وبالسّدرِ[2]

يقول: إذا كانت درجة.

وعند ابن سعد[3]، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ موقوفًا، قال: إنّ العلماء إذا حضروا يوم القيامة، كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة بحجر.

فلعل موجب تخصيصه ـ ﷺ ـ[4] بهذا الحديث، ما ذُكر من علميّته[5] ـ رضي الله عنه ـ، وتقدّمِه العلماءَ لذلك العلم، إذ الجزاء من جنس العمل في الدنيا.

وقوله: «تأثُّمًا». يقال: تأثّم تأثُّمًا: فعل فعلاً خرج به عن الإثم. قاله في مختصر النهاية[6]. وهو مخافة إثم كتمان العلم، لمّا تعارض عنده ذلك ونهْيُ رسول الله ـ ﷺ ـ له عن إخبار النّاس، ترجّح عنده الخروجُ من إثم كتمان العلمِ، فأخبر بذلك عند خروجه من الدنيا إلى الآخرة، دارِ الجزاء، لما أمن المفسدةَ بإخباره بقول [ر،٤٥/ب] رسول الله ـ ﷺ ـ، بأن الذي منعه عن إخبار

---

(١) شاعر جاهلي، قال أبو عمرو بن العلاء: خداش أشعر من لبيد، وأبى الناس إلا تقدمة لبيد. انظر «سمط اللآلي»: ٢/ ٧٠١، ٧٠٢، و«الأعلام»: ٢/ ٣٠٢.

(٢) ديوانه: ص ٧٨، ط مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٣) «الطبقات الكبرى»: ٣/ ٥٩٠.

(٤) كذا في جميع النسخ، لم يذكر مفعول المصدر، واللازم في مثل هذا السياق ذكره؛ لأمن التباس الفاعل بالمفعول، فيقال: فلعل موجب تخصيصه: ـ ﷺ ـ معاذًا بهذا الحديث...

(٥) كذا، والأقوم لغة أن يقال: من علمه.

(٦) انظر «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير: ١/ ٢٤.

النّاس مخافةُ الاتكال، فصار هذا الكلام مقرونًا به عن المحذور[1]، فحدّث به. وفي هذا أيضًا تنبيه: أنّه ينبغي لابن آدم أن يخرج مما فيه تبعةٌ مادام في الدنيا، أو يخافُها[2]، قبل انتقاله إلى الآخرة.

وروى البخاري هذا الحديث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بلفظ آخر، أن النبي ـ ﷺ ـ ومعاذٌ رديفُه على الرحل قال: «يا معاذُ بنَ جبل. قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ـ ثلاثا ـ. قال: ما من أحدٍ يشهد ألا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، صادقًا من قلبه، إلا حرّمه الله على النّار. قال يا رسول الله، أفلا أخبر النّاس فيستبشروا؟. قال: إذًا يتكلوا». وأخبر بها معاذ عند موته تأثّماً[3].

وقال أيضًا: حدثنا مسدّد، حدثنا معتمر بن سليمان، قال: سمعت أبي قال: سمعت أنسًا ـ رضي الله عنه ـ قال: ذُكر لي أن النبي ـ ﷺ ـ قال لمعاذ بن جبل: «من لقي الله لا يشركُ به شيئًا دخل الجنّة. قال: فقال: أفلا أبشّر النّاس؟. قال: لا، إني أخاف أن يتّكلوا»[4].

واعلم أن هذه البشارة المذكورة لا يستحقها على الوجه المَرضيِّ إلاّ من عنى الله بها في كتابه العزيز، في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] الآية.

---

(١) يريد أن معاذًا لما قرن الإخبار عن البشارة في هذا الحديث، بالإخبار بخشية النبي ـ ﷺ ـ عليهم من الاتكال وترك العمل، أمن بذلك المفسدة، وترجّح عنده التحديث به على كتمانه.

(٢) أي يخاف التبعة.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٥٩، العلم، باب من خص بالعلم قومًا..، برقم (١٢٨)، ورواه مسلم أيضًا: ١/ ٦٤، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٣٢).

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٦٠، العلم، باب من خص بالعلم قومًا..، برقم (١٣٠).

وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

فلما كان معاذ ـ رضي الله عنه ـ من أولئك، بشّره النبي ـ ﷺ ـ بتلك البشارة؛ لأنّه أمن عليه الاتّكال. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢٠، ٢١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الشورى: ٢٢، ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: ١١]، وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: ٤٧]، والآيات في هذا كثيرة جدًّا، لفظًا ومعنى(١).

وقد تبيّن لك من سياق الآيات الكريمة أنّ مدار هذه البشارة على ثلاث قواعد: إيمانٍ، وتقوى، وعملٍ خالص لله ـ تعالى ـ، على موافقة السنّة. فأهل هذه الأصول الثلاثة هم أهل البشرى، دون غيرهم ممّن عداهم من سائر الخلق،[ر،٤٥/أ] [ك،٢٣/ب] وعليها دارت بشارات

---

(١) يريد أنها تتضمن البشارة بلفظها أو بمعناها.

الكتاب والسنّة جميعا، وهي تجتمع في أصلين: إخلاصٍ في طاعة الله ـ سبحانه ـ، وإحسانٍ إلى خلقه. وترجع إلى خصلة واحدة، وهي موافقة الربّ ـ سبحانه ـ في محابّه، ولا طريق إلى ذلك إلا بتحقيق القدوة ظاهرًا وباطنًا برسول الله ـ ﷺ ـ.

وأما الأعمال التي تفاصيلها هذا الأصل، فهي بضع وسبعون شعبةً، أعلاها قول «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق(١)، وبين هاتين الشعبتين سائر الشّعب، التي مرجعها إلى تصديق الرسول ـ ﷺ ـ في كل ما أخبر، وطاعته في جميع ما أمر، إيجابًا أو استحبابًا. وضدُّ ذلك يجتمع في الذين يراؤون، ويمنعون الماعون.

وقد قال عُبيدٌ الراعي النميري(٢)، يشتكي لخليفة المسلمين عبدالملك ابن مروان عُمّالَه، ويعتذر لقومه بعدم دخولهم في هذا الجنس:

أخليفةَ الرّحمن إنّا معشر ... حنفاءُ نسجد بكرةً وأصيلا

قومٌ على الإسلام لمّا يتركوا ... ماعُونهم ويضيّعوا التهليلا(٣)

الحديث (أخرجاه في الصحيحين)(٤)(٥).

---

(١) ثبت ذلك في صحيح مسلم: ١/ ٦٦؛ برقم (٣٥).

(٢) هو عبيد بن حصين بن معاوية النميري، وكنيته الراعي أبو جندل، من الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، فحل مشهور.

انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤١٥)، خزانة الأدب، البغدادي (٣/ ١٤٢).

(٣) ديوانه: ص ٢٢٩، جمع رانيهرت.

(٤) وقد تقدم تخريجه.

(٥) عند هذا الموضع كتب في الطرّة: [بلغ مقابلة على أصله على يد مؤلفه عفى الله عنه].

الباب الأول

باب فضل التوحيد، وما يكفّر عن صاحبه إذا حقّقه من الذّنوب.

لمّا ذكر ـ رحمه الله ـ كتاب التوحيد، وهو الجامع لأصوله وأحكامه، أعقبه بذكر فضله تشويقًا إليه، وهذا وجه المناسبة.

ووضع العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ التراجم تسهيلاً للوقوف على مظان المسائل، وتنشيطًا للنفوس.

والباب: ما يُدخل منه إلى المقصود، ويُتوصّل به إلى الاطّلاع عليه. وقد يطلق على الصنف، يقال: أبواب مبوّبة، أي: أصناف مصنّفة. فقوله: (باب فضل التوحيد). أي الموصلُ إلى معرفة أحكام فضله، وتكفيره للذنوب. وكذا إلى آخر الأبواب.

وقد مرّ تعريف التوحيد، وسنزيده في هذا الباب بما يناسب هذا المقام، ثمّ نبيّنُ حقيقة التوحيد المترجم على فضله في هذا الباب، مع ما تقدّم، وما يأتي في المتن من الدليل.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣]، فختم سياق التوحيد بهاتين الصفتين. وقال ـ تعالى ـ: [ر،٤٦/ب] ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ [الحِجْر: ٤٩]، فرحمته ـ سبحانه ـ ناشئة عن رضاه، وهو لا يرضى عن عبده إلا بالتوحيد. وقد أخبر أن رحمته وسعت كلّ شيء[1]، وقد كتب على نفسه الرحمة[2].

---

(١) قال ـ تعالى ـ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾. [الأعراف: ١٥٦].

(٢) قال ـ تعالى ـ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. [الأنعام: ٥٤].

وأخبر أن رحمته سبقت غضبه، كما صحّ عن نبيّه ورسوله ـ ﷺ ـ فيما أخبر به عنه[1]، وصح عنه أيضًا أنّه قال: «لله ـ تعالى ـ مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة تتراحم بها الخلائق في الدّنيا، وادّخر عنده [تسعًا][2] وتسعين رحمة لعباده المؤمنين»[3]. وهم أهل التوحيد. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فحقيقة التوحيد هو ألاّ تجعل لله مِثْلاً في ذاتٍ، ولا صفاتٍ، ولا عبادةٍ، ولا أفعال، فذلك إثبات حقيقة التّوحيد له ـ سبحانه ـ: ذاتًا وصفةً وفعلاً. وفيك[4]: عقدًا وقولاً وعملاً، فتبين لك بذلك سهولة التوحيد على من يعقله.

وقد عظّمه قوم على الخلق، كما قاله الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي، الإمام المشهور ـ رحمه الله تعالى ـ، قال: حتى أيّسوهم منه[5]، وما أعظمه قدرًا، وما أقربه يسرًا، ولقد رضي الله فيه باليسير، وأدناه لعباده بالتيسير، ولم يكلّف فيه من العبادة بالعسير، وأمرهم به

---

(١) كما في صحيح البخاري: ٦/ ٢٧٠٠، التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾...، برقم (٦٩٨٦).

(٢) في جميع النسخ: «تسع» بالرفع، والصواب ما أثبته.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٧٤، الرقاق، باب الرجاء مع الخوف، برقم (٦١٠٤) مع اختلاف في اللفظ، وصحيح مسلم: ٤/ ١٦٧٥، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله ـ تعالى ـ...، برقم (٢٧٥٢) بنحوه.

(٤) يعني بذلك توحيد الله بأفعال خلقه.

(٥) مما يؤسف له أن قائل هذا الكلام، له منه نصيب؛ وذلك بتعصّبه للمذهب الأشعري، المخالف لمنهج السلف في العقائد، كما يظهر من مؤلفاته الكلاميّة، كالعواصم من القواصم، و«قانون التأويل»، و«الأمد الأقصى»، وغيرها، وانظر عنه «موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للدكتور عبدالرحمن المحمود: ٢/ ٦٤٧، ٦٤٨.

بسابق الحُكم والتقدير، فقال: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٣٦].

فالتوحيد هو ألاّ ترى لله شريكًا، بألاّ تعتقد سواه خالقًا ولا معبودًا، وأنّه ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، هذا كلّه قرائنه قرّيبة على الخلق، وقد قالوا: إنّه بحر لا ساحل له، وصدقوا. وهو نهر عذب، تخوضه بالقدم، وتدركه بالعلم في أسرع وقت، وإنّما عظّمه كثرة الشّاكّين، وتخليط الملحدين من المتكلّمين، من نزغات الشياطين.

وإذا كنت منشرح الصدر، على نور من الله، لم يعظُم عليك شيء ممّا يُلقى من الشبه، وإن أخطأتك الهداية فأنت بكل طريق طريحٌ ملقى.

وقد قابل اللهُ كلَّ ما يُخاف اعتراضُه بحججه الظاهرة في كتابه المبين، وبيّنها خاتم المرسلين، ووضّحها العلماء الرآسخين[1].

فإذا عرفت أنّه لا خالق سواه، ولا معبود إلاّ إيّاه[2]، فله الخلق لنا وفينا، ومنّا الطاعة له خلْقا وخلُقا، فمن يُرجى بعده لِمُلمّة، أو يَكشف العظيمة، أو يهدي الكريمة[3].

---

(١) كذا في جميع النسخ: «الراسخين». وكتب فوقها في الأصل: (صح صح) وقد كتب في طرّة الأصل ما لم يتضح مع التصوير، ويشبه أن يكون: [الراسخين: منصوب بفعل محذوف]، ولعله أراد «أخص».

(٢) أي بحق، وإلا فقد عُبد غيره بغير حق.

(٣) لم أفهم مقصوده بقوله: «أو يهدي الكريمة». ولعلّها: «يهدي لكريمة»، دون ألف. أي يهدي لخصلة كريمة. لكن الألف مثبتة في جميع النسخ. أو أنها «يُهدي الكريمة» بالضم، أي يعطي العطايا الكريمة. ورسمها في نسخة الأصل أقرب إلى «الكريهة».

وعن هذا وقعت الإشارة من النبي -ﷺ- في قوله لرجل: «قل: أسلمتُ وتخلّيت». رواه النسائي في سننه الكبرى[1]. والمعنى: قصدت السلامة، ولم أدعُ سواك، ولا رجوت غيرك. فالموحّد الذي يعتقد هذا بقلبه، ويقوله بلسانه، وتظهر [ر،٤٦/أ] ثمراته على جوارحه في أفعاله. والملحد لا يعلم ذلك ولا يقوله. والمنافق يقوله ولا يعتقده، والقاصر يعتقده ويقوله ولا يظهر أثره على جوارحه كما ينبغي، فهو النّاقص الحالة، النّاقص المرتبة، النّاقص العاقبة.

أما نقصان حالته: فلا يدخل في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]. وقوله: [ك،٢٣/أ] ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٣]، وأمثالِ ذلك.

وأما نقصان مرتبته: فإنّه لا يكون شاهدًا، دنيا ولا آخرة، ولا يكون إمامًا ولا أمينا.

وأما نقصان حاله في العاقبة: فبتنقّص حاله في المخالفة والتقصير.

وقد تختلج الشكوك في القلب، وتعترض العوارض، حتى يأتي الله باليقين.

---

(١) السنن الكبرى: ٢/ ٤٣، كتاب الزكاة، باب من سأل الله بوجهه، برقم (٢٣٤٩)، وانظر رقم (٢٢١٦). وهو في المجتبى: ٥/ ٤، برقم (٢٤٣٦)، والمسند: ٥/ ٤، وقال محققوه: إسناده حسن (٣٣/ ٢٣٦) والرجل هو معاوية بن حيدة، ولفظه عند الجميع أنه قال للنبي -ﷺ-: وما آية الإسلام؟. قال: «أن تقول: أسلمت وجهي لله وتخلّيت، . .» إلخ.

قال أبو سفيان، حين سأله هرقل عن النبي - ﷺ - وصفاته ومقاله، وراجعه هرقل عن ذلك بما راجعه، كما في الحديث الصحيح المشهور، على ما رواه البخاري[1]، قال أبو سفيان: فما زلت موقنًا أن أمر رسول الله - ﷺ - سيظهر.

فلما كان ليلةُ الفتح، ولقيه العباس بن عبد المطلب بالأذاخر، وجاء به، ووقف بين يدي رسول الله - ﷺ - به، وعمر بن الخطاب قد تبعه ليقتله، قال: فقال له النبي - ﷺ -: «أما آن لك أن تشهد ألاّ إلٰه إلا الله؟» فقال له أبو سفيان: أمّا هذا فقد علمتُ أنه لو كان غير الله لأغنى عنّي. قال له: «أما آن أن تشهد أن محمدًا رسول الله؟» قال له أبو سفيان: أمّا هذه ففي النفس منها شيء. فقال له العبّاس: ويحك، تشهّد قبل أن تضرب عنقك[2]. وفي رواية: أسلِم. فتشهّدَ شهادة الحق.

ولم يكن يخفى على أبي سفيان منزلتُه، ولا ضلّت عليه معجزته، ولكنّها كانت أنفةً دينيّةً، وهمّة جاهلية، وحالاً اقتضتها العصبية. وحسُن بعد ذلك إسلامُه، وإسلام الفاضلة زوجتِه، هند بنت عتبة، كما في صحيح البخاري[3] وغيره. وقد جاءت إلى النبي - ﷺ - فقالت: يا رسول الله، والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحبَّ إليّ من أن يذلّوا من أهل خبائك، وما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء

---

(١) الصحيح: ١/ ٧، بدء الوحي، برقم (٧).

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٠٣.

(٣) ٣/ ١٣٩٠، مناقب الأنصار، باب ذكر هند بنت عتبة، برقم (٣٦١٣)، وهو أيضًا في صحيح مسلم: ٣/ ١٠٨٠، كتاب الأقضية، باب قضية هند، برقم (١٧١٤)، وهذا لفظه.

أحب أليّ من أن يعِزّوا من أهل خبائك. فقال لها النبي ـ ﷺ ـ: «وأنا كذلك»[1]. وناهيك بهذه الكلمة منه ـ ﷺ ـ منقبة وشرفًا، وإنها لم تحصل لها ولأهل خبائها إلا بفضيلة التوحيد وتحقيقه.

ولّما أنهى الله ـ سبحانه ـ إلى رسوله أمرَه ونهيَه، وعرّفه ما ابتلاه به من ذلك، في طاعة يمتثلها، ومعصية يتجنّبها، ووعد بالثّواب لمن أطاع، وأوعد بالعقاب لمن عصى، [ر،٤٧/ب] قالت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: يا رسول الله، هذا الذي نحن فيه، أمر مفروغ منه، أم أمر مستأنف؟. فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ: «فرغ ربّكم». قالوا: ففيمَ العمل؟. قال: «اعملوا، فكلٌّ ميسَّر لما خلق له، أمّا من كان من أهل السعادة فيُيسّر إلى عمل أهل السعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاوة فيُيسّر لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[2] [الليل: ٥ ـ ١٠]. فانقادوا ـ رضي الله عنهم ـ، وفهموا أنّ الأمر لله، والحكمَ له، وأنّ هذه الأعمالَ الجاريةَ على الجوارح من الخلق علاماتٌ على ما للعبد عند الله ـ سبحانه ـ.

---

(١) الذي في الصحيحين أنه ـ ﷺ ـ قال لها: «وأيضًا والذي نفس محمد بيده»، يعني: وأنا أيضًا.

(٢) رواه البخاري: ١/ ٤٥٨، الجنائز، باب موعظة المحدّث عند القبر..، برقم (١٢٩٦)، ومسلم: ٤/ ١٦١٨، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي..، برقم (٢٦٤٨)، وليس فيه سؤال الصحابة، ولا قوله: «فرغ ربكم»، لكن قولهم «ففيم العمل» ثابت في حديث آخر عند مسلم نحو هذا، أنّ سراقة بن مالك ـ رضي الله عنه ـ هو الذي سأله. برقم (٢٦٤٨)، أما قوله: «فرغ ربكم» فورد في سنن الترمذي برقم: (٢١٤١)، في حديث آخر، وصححه الألباني كما في الصحيحة برقم (٨٤٨).

فإن خطر ببالك أن العمل غيرُ مغنٍ عنك، وأنّه قد خُطّ في جبينك ما خُطّ، وحَطّ رحلُك من الدارين حيث حط، فأجمعت على التخلّي عن العمل، والاستسلام لسابق القدر، والتحلّي بغير هَدْي خير القرون، فتلك علامة الهلكة.

وإن غلب على الخاطر الاستسلام للعمل والقدر، وجرى على الجوارح الامتثال لأمر الملك المتعال، فذلك دليل الله للعباد، على الفوز في المعاد.

إذا فهمت ذلك، فاعلم أن الباريَ ـ سبحانه ـ هو الذي دبّر الأمور، وقدر المقادير، وأحكمها، وابتلى بها عبادَه، وأخبرهم عنها، وأحكم فاتحتَها وخاتمتَها. وليس في فعله ـ سبحانه ـ عبث، ولا في حكمه سَفَه، ولا في خبره كذب، ولا في أقواله تناقض، ولا في أفعاله تعارض، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣]. وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ [الحجرات: ٧]. فذكرهم بصفة الفاعل، وجعلهم بما فيهم صفة مفعول[1]، وذلك كلّه بنعمته وفضله وحكمته ورحمته.

وأما لفظ الجبر فمعارض للشريعة[2]؛ فإنّ الله ـ سبحانه ـ خلق

---

(١) لم يتبين لي مرادُه، إلا أن يكون قصدُه أن جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾ الخبرية، فيها وصف لمن فُعل بهم ما ذُكر قبلُ، من تحبيب الإيمان إليهم، وتزيينه في قلوبهم. . إلخ.

(٢) وقد أنكر الإمام أحمدُ على من أنكره ومن نفاه؛ سدًّا لذريعة إنكار القدر أو الشرع، ولأنه لفظ مجمل، لم يرد به الشرع، وأنكره سفيان الثوري، وقال: إن الله جبل =

المشيئة في العبد، وأثبتها له لفظًا، ونفاها عنه خلقًا، فالقول بالجبر تكذيب لله، والقول بخلق المرء لفعله تشريك مع الله ـ سبحانه ـ، والاعتقاد لما قال الله ـ تعالى ـ وأخبر به ورتّب عليه قوله وشريعته حتم من الله.

وهو ـ سبحانه ـ قد سلك بكل فريق على طريق، واختار لأوليائه بفضله ورحمته جادّة التحقيق والتوفيق، ونسأله التسديد والهداية، والتثبيت على صراطه المستقيم، ودينه القويم. وحققنا هذه المقدمة في هذا الباب لمسوس الحاجة إليها وبيانها.

(وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾)، أي: أخلصوا العمل بالنيّة لله وحده، (﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾): يخلطوا. ومنه قول جرير:

ترى نصرَ الإمامِ عليك حقًّا ... إذا لبَسوا بدينهم ارتيابا[1]

يقول: إذا خلطوا بدينهم ارتيابا.

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، ومنه [ر،٤٧/أ] التشبيه، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩]، وهو التلبيس أيضًا، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ

= ـ باللام ـ العباد. أراد قول النبي ـ ﷺ ـ لأشج عبد القيس: «إن فيك خلقين يحبهما الله: الحلم والأناة. قال: أخلقين تخلقت بهما، أم جُبلتُ عليهما؟. قال: بل جبلتَ عليهما»، صحيح مسلم، برقم (١٧)، وقال الزُّبيدي: أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن يقضي، ويقدّر، ويخلق، ويجبل عبده على ما أحب. وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلا من القرآن والسنة، فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء، والقدر، والخلق، والجبْل، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ. انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٨/ ١٠٤، ١٠٥.

(١) ديوانه: ٣٥، دار الأرقم. وليس في طبعة دار المعارف.

دِينَهُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٧٣]، قال غيلان ذو الرُّمّة:

إذا نحن عرّسنا بأرضٍ سرى بها هوىً لبّسَتْه بالفؤادِ اللّوابسُ[١]

وقوله: (﴿إِيمَٰنَهُم﴾)، أي عبادتهم، يدلُّ عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي صلاتكم إلى بيت المقدس[٢]. ومنه عمل القلب وعقدُه.

(﴿بِظُلۡمٍ﴾) أي بشرك، يدلّ عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: ١٣].

وفي البخاري عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية، شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، حتى نزلت: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾[٣].

وفي لفظ له: قالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟. فقال النبي ـ ﷺ ـ: «ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾؟، إنّما هو الشرك»[٤].

ولابن أبي حاتم عن عبدالله [ك،٢٤/ب] بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، قال: بشرك»[٥].

---

(١) ديوانه: ٢/ ١١٢٨ بشرح الباهلي.

(٢) ثبت ذلك في صحيح البخاري: ١٢، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، برقم (٤٠)، موقوفًا على البراء.

(٣) ١١، كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، برقم (٣٢).

(٤) ١٠١٦، كتاب التفسير، سورة لقمان، برقم (٤٧٧٦).

(٥) تفسير ابن أبي حاتم: ٤/ ١٣٣٣، برقم (٧٥٤٣).

ويروى ذلك عن جماعة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، منهم: أبوبكر، وعمر، وابن عباس، وابن عمر، وأُبي بن كعب، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان[1].

وروى الإمام أحمد في هذه الآية عن جرير بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ، فلما برزنا من المدينة أتى راكبٌ يوضِعُ[2] فقال: يا رسول الله، علّمني ما الإيمان. قال: «تشهد ألا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيت». قال: قد أقررت. فركب راحلته، ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جرذان فهوى، فوقع الرجل على هامته فمات، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «عليّ الرجلَ». فوثب إليه عمّار وحذيفة فأقعداه، فقالا: يا رسول الله، قد قُبض الرجل. فأعرض عنهما، فقال: «أما رأيتما إعراضي عن الرجل، فإنّي رأيتُ ملكين يدسّان في فيه من ثمار الجنّة، فعلمت أنّه مات جائعًا». ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: هذا من الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، ثم قال: «دونكم أخاكم». فاحتملناه إلى الماء، فغسلناه وحنّطناه، وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ـ ﷺ ـ فقعد على شفير القبر، فقال: «ألْحدوا ولا تشقّوا، فإنّ اللحد لنا، والشقّ لغيرنا»[3].

وفي لفظ آخر لأحمد قال: («عمِل قليلاً، وأُجر كثيرًا»)[4].

---

(١) روى ذلك عنهم ابن جرير في تفسيره: ٧/ ٢٥٥ـ ٢٥٧.

(٢) من الإيضاع، وهو سير البعير سيرًا حثيثًا دون الدفع. انظر الفائق: ٣/ ١٥.

(٣) المسند: ٤/ ٣٥٩، وصحّحه الألباني في «أحكام الجنائز»: ١٤٥.

(٤) المسند: ٤/ ٣٥٩، وقد أثبتها المؤلف هكذا: «عَملٌ قليلٌ، وأجر كبير»، والذي =

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، الذين هذه صفتهم، ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، فضمن الله ـ سبحانه ـ لهم الأمنَ والهداية، فهم آمنون في الآخرة من العذاب، مهتدون في الدنيا [ر،٤٨/ب] والآخرة، فهل بعد ذلك من فضل أو أجر يُطلب، بعد الأمن مما يخاف منه العبد أو يحذر، والهداية لما فيه السالك يتحيّر. فما أعلاه من عيش، وما أطيبه مسلكًا لمن سلم في سلوكه من الطيش.

وهذه الآية الكريمة قضى بها ـ سبحانه ـ بين إبراهيم وقومِه، لِما ألزمهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من الحجّة، بعدما جادلوه وحاجّوه في دينه وتوحيده، فينبغي أن نذكر ذلك لتعلّقه بها.

وهو قوله ـ تعالى ـ قبل هذه الآية مخبرًا عنهم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾، أي في التوحيد، قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾، أي أتجادلونني في أمر الله، وأنّه لا إلٰه إلا هو، وقد بصّرني ذلك، وهداني إلى الحقّ وتوحيده، وأنا على بيّنة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة، وشبهكم الباطلة.

وذلك أنّه لمّا رجع إبراهيم إلى أبيه آزر، كما ذكر المفسّرون[1]، وكان ـ عليه السلام ـ من الشباب بحالة، وقد سقط عنه طمع الدنيا، وضمّه آزر إلى نفسه، جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فيذهب بها إبراهيم وينادي: من يشتري ما يضرّه ولا ينفعه. فلا يشتريها أحد، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوّب فيه رؤوسها، وقال: اشربي. استهزاءً بقومه، وبما هم فيه من الضلال، حتّى فشى استهزاؤه بها في قومه وأهل قريته، فحاجّوه. ولهذا قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾، أي خاصموه في دينه

= أثبتّه هو الموافق للمسند؛ فإنه فيه: «هذا ممن عمل قليلاً وأُجر كثيرًا».

(١) انظر تفسير ابن جرير: ٧/ ٢٤٩.

وتوحيد ربّه، كما قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾، يقول: أتجادلونني في توحيد الله وأمره، وقد هداني لذلك، ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، وذلك أنّهم قالوا له: احذر الأصنام فإنّا نخاف أن تَمسّك بسوء، من قتل أو جنون؛ لعيبك إيّاها. فقال لهم: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، يعني إنّ من الدليل على بطلان قولكم، من أنّ هذه الآلهة لا تؤثر شيئًا، بأني لا أخافها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾، وهذا استثناء منقطع، ليس من الأوّل، ومعناه: لكن إن شاء ربّي شيئًا. أي: بي سوءً، فيكون ما شاء. وهذا أيضًا من توحيده ـ عليه السلام ـ، وتسليمِه لأمر الله ـ تعالى ـ، بقطع النظر عن خوف ما يتوعدونه به من دون الله ـ سبحانه ـ ولهذا قال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾، أي أحاط علمه بكل شيء، فأنا وأنتم من ذلك الشيء، لا تخفى عليه أحوالنا، فلا تقدرون أن تضرّوني بشيء من دونه؛ لأنّه محيط بكم علما وقدرة، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ فيما بيّنته لكم، فتعتبرون أنّ آلهتكم باطلة.

وهذه حجّة احتجّ بها هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ على قومه، [ر،٤٨/أ] لمّا قالوا له: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾، فلما قالوا له ذلك، وكان ـ عليه السلام ـ بالمنزلة من عبادة ربّه ـ تبارك وتعالى ـ وتوحيده ومعرفته وعظمته وكبريائه[1]، نادى على رؤوس الملأ من قومه، بجَنان ثابت، وقلب غير خائف، متجردًا لله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا

(١) «وعظمته وكبريائه» معطوف على الضمير في «معرفته».

تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾، ثم أخبر عن عموم قدرته ـ سبحانه ـ، وقهْرِه لكلِ ما سواه، وذُلّه لعظمته وكبريائه، فقال: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٣ـ ٥٦]، فكيف أخاف مَن ناصيتُه بيد غيره، وفي قهره وقبضته، وتحت سلطانه، وهل هذا إلا من أجهل الجهل، وأقبح الظلم.

وفي الحديث الصحيح عنه ـ ﷺ ـ أنّه قال: «ما أصاب عبدًا قطّ همّ ولا حزن فقال: اللهم إنّي عبدك، ابنُ عبدك؛ ابنُ أَمَتِك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء همّي، وذهاب حزني وغمّي، إلا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحًا»[1].

وهذا يتناول حكم الربّ ـ سبحانه ـ الكونيَّ، والأمريَّ الديني، [ك، ٢٤/أ] وقضاءه الذي يكون باختيار العبد وغيرِ اختياره، وكلا الحُكْمين ماضٍ في عبده، وكلا القضائين عدل فيه، ولهذا قال ـ تعالى ـ عن هود ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، أي في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه، وقضائه وقدره، ومنعه وإعطائه، وعافيته

---

(١) أخرجه أحمد في المسند: ١/ ٣٩١، ٤٥٢، وابن حبان في صحيحه: ٢/ ١٥٩، ١٦٠، كتاب الرقائق، باب الأدعية، برقم (٩٦٨)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٩٠، كتاب الدعاء. .، برقم (١٨٧٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه عن أبيه، والطبراني في الدعاء: ٢/ ١٢٧٩، برقم (١٠٣٥)، وأبو يعلى في مسنده: ٩/ ١٩٩، برقم (٥٢٩٧)، وصححه الألباني كما في الصحيحة: ١/ ٣٣٦، برقم (١٩٩).

وبلائه، وتوفيقه وخذلانه، لا يخرج ذلك عن موجب كماله المقدّس، الذي اقتضته أسماؤه وصفاته، من العدل والحكمة والرحمة والإحسان، والفضل والهداية والإضلال والعفو والامتنان، وغير ذلك. فهو ـ جل وعلا ـ يضع الأشياء في مواضعها ومحالّها اللائقة بها عن حكمة، بحيث استحق على ذلك الحمد والثناء[1].

فلهذا قال ـ سبحانه ـ هنا عن إبراهيم خليله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾، يعني الأصنام التي تعبدونها من دون الله، وهي لا تضرّ ولا تنفع، ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾. [ر،٤٩/ب] قال ابن عبّاس وغيره من السلف: حجة وبرهانًا[2]. وهو ـ سبحانه ـ المعبود القاهر، القادر على كل شيء، بيده الضر والنفع، وأصنامكم لا تضرّ ولا تنفع، فإذا كنّا وأنتم كذلك، ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ﴾، أي أصوب وأولى ﴿بِالْأَمْنِ﴾ في الدنيا والآخرة؟، الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد ما لا يضر ولا ينفع، بلا دليل ولا حجّة، أي أنا وأهل ديني، أم أنتم بعبادتكم الأصنام، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾؟.

فقال ـ سبحانه ـ عند ذلك قاضيًا بينهما ـ وقضاؤه الحق الذي لا يُرد، كما قال: ﴿[3]يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنعام: ٥٧] ـ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، ولهذا

---

(١) قارن بالجواب الكافي لابن القيّم: ١٨٤.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٤/ ١٣٣٢، برقم (٧٥٣٧).

(٣) قرئت بالصاد المهملة: ﴿يقص الحق﴾، وقرئت بالمعجمة: ﴿يقْضِ الحق﴾، من القضاء، وهذه القراءة هي الأنسب للاستشهاد هنا، وانظر «السبعة» لابن مجاهد: ص ٢٥٩.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، حتى خصمهم وغلبهم بها، قال مجاهد وغيره: هي قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ الآية[1]، وقد صدّقه الله، وحكم له بالفلَج والأمن والهداية. ثم قال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ أي بالعلم والحكمة، والتوفيق للفهم، والفضيلة والعقل، كما رفعنا درجات إبراهيم، حيث هُدي، وحاجّ قومه في التوحيد.

وبهذا السياق يتبيّنُ لك فضلُ التوحيد المترجَمِ عليه.

وقُرِىء: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ بالإضافة وعدمها[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ أي في أفعاله وأقواله، ﴿عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ بمن يهدي ومن يُضل، وإن قامت عليه الحجّة، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

والمأخذ لفضيلة التوحيد وتكفيره من[3] الذنوب من الآية الكريمة التي استشهد بها المصنّف ـ رحمه الله تعالى ـ صدر الباب، أنّ السلف ـ رضي الله عنهم ـ لم يذكروا لبس الإيمان فيها إلا بالشرك، وهكذا الحديث الذي أوردنا عنه ـ ﷺ ـ في مسند الإمام أحمد[4]، وقوله

---

(١) كذا في تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٦، دون سند، والذي رواه ابن جرير عن مجاهد أن الحجة قوله ـ تعالى ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ الآية. انظر تفسيره: ٧/ ٢٥٩.

(٢) انظر «السبعة» لابن مجاهد: ٢٦١، ٢٦٢.

(٣) لا وجه لـ«من» في هذا التركيب، والمؤلف أخذها من ترجمة الباب: «..وما يكفّر من الذنوب»، لكن ساغت هناك لمجيئها صلةً لـ«ما»، فهي هناك بيانية، فكان عليه أن يقول في عبارته هنا: ..وتكفيره الذنوبَ...

(٤) وهو حديث جرير البجلي في الرجل الذي سأل عن الإيمان، ثم هوى عن دابته =

ـ ﷺ ـ في حديث ابن مسعود المتقدم في الصحيح، لمّا شق على أصحابه نزول الآية المذكورة، قالوا: أينا لم يظلم نفسه. فأجابهم ـ ﷺ ـ بالآية الكريمة، وبقول العبد الصالح لابنه: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[1] [لقمان: ١٣]، وهو ـ ﷺ ـ المبيّن عن الله ـ تعالى ـ مراده، ومن سلك غير طريقه بما تقدح له نفسه[2]، فقد حاد عن الصراط المستقيم، والله الموفق.

وقد قال شمس الدين ابن القيّم في المفاضلة بين فعل المأمور وترك [ر،٤٩/أ] المحظور: إن الذنوب كلّها ترجع إلى هذين الأصلين. قال: فلو فعل العبد المحظور كلّه من أوله إلى آخره، حتى أتى من مأمور الإيمان بأدنى أدنى مثقال ذرّة منه، نجا بذلك من الخلود في النّار، ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان، لكان مخلّدًا في السعير. وأين شيءٌ مثاقيل الذرّ منه تُخرج من النّار، إلى شيء وزن الجبال منه أضعافًا مضاعفةً لا تقتضي الخلود في النّار، مع وجود ذلك المأمور، أو أدنى أدنى شيء منه. انتهى[3].

ولهذا عند مسلم في صحيحه عن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم شيئًا سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ، سمعته يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلق الله خلقًا

= فمات، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «هذا من الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ..﴾، وهو صحيح كما تقدم.

(١) تقدم في ٤٧ص [ر،٤٧/ أ].

(٢) أي بما تهواه نفسه، وتمليه عليه، مما ينقدح في خاطره من غير هدى من الله ـ تعالى ـ.

(٣) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»: ٤٦، ٤٧. دار القلم، ط ١، ١٤٠٧هـ.

يذنبون فيغفر لهم»[1].

وهو بلفظه عند الإمام أحمد[2] مرفوعًا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

ثم أورد الشيخ[3] ـ رحمه الله ـ الحديث الذي رواه الشيخان[4] وغيرهما، (عن عبادة بن الصامت) بن قيس الأنصاري: أبو[5] الوليد الخزرجي، أحد النقباء، بدري ـ رضي الله عنه ـ مشهور، مات بالرّملة سنة أربع وثلاثين، وله [اثنتان][6] وسبعون سنة، وقيل عاش إلى خلافة معاوية، قال سعيد بن عفير: كان طوله عشرة أشبار[7].

(قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من شهد»] أي تحقق وجزم، («ألا إلٰه») حق («إلا الله») وحده لا شريك له، ربًّا وإلٰهًا، («وأنّ محمدًا عبدُه») الذي أَنزل عليه الكتاب، («ورسوله») بذلك، أرسله إلى خلقه بالبينات والهدى ودين الحق، وأنّه بلّغ الرسالة كما أُمر، ونصح الأمّة حتى أتاه اليقين ـ ﷺ ـ، («وأن عيسى») ابنَ مريم العذراءِ البتولِ («عبدُه»)، لا ما تزعم المثلّثةُ عليهم لعائن الله والملائكة والنّاس أجمعين. («ورسولُه») إلى بني إسرائيل، أنزل عليه الإنجيل، («وكلمتُه»)، سُمّي كلمةً ـ عليه الصلاة

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٦٧٢، التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، (٢٧٤٨).

(٢) المسند: ٥/ ٤١٤، لكن عن أبي أيوب أيضًا.

(٣) يعني مؤلف المتن الشيخ محمد عبدالوهاب.

(٤) صحيح البخاري: ٧٠٧، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾، برقم (٣٤٣٥)، وصحيح مسلم: ١/ ٦١، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، برقم (٢٨).

(٥) كذا، والأصوب: أبي الوليد.

(٦) في الأصل: (اثنان)، والصواب ما أثبته.

(٧) ترجمته في الإصابة: ٢/ ٢٦٠، برقم (٤٤٩٧)، وفيها أنه كان طوالاً جميلاً جسيما.

والسلام ـ؛ لأنّه كان بكلمة «كن» فحسْب[1]، من غير أب، بخلاف غيره من بني آدم. ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

قال الهروي[2]: سُمّي كلمةً لأنّه كان عن الكلمة، فسمّي بها، كما يقال للمطر: رحمة الله[3].

(«ألقاها إلى مريم») المحصنة العفيفة، لا ما يقوله من باء بغضب الله ولعنته. («وروح منه»)، أي رحمة منه. قاله الهروي، وقال ابن عرفة: أي ليس من أب، إنما نُفخ في أمّه الروح[4].

قال ابن قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله تعالى ـ: وهو ملك ليس بالموكل بالنفخ في بطون الحوامل، من المؤمنين والكافرين، بل هو روح الله[5]، الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه، فكان لعيسى ـ عليه السلام ـ بمنزلة الأب لسائر النوع الإنساني؛ فإنّ نفخته لمّا دخلت في فرجها، كان بمنزلة لقاح الذكر للأنثى، من غير أن يكون هناك وطء، فلو كان الملك

---

(١) انظر «الردّ على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد: ٣٢.

(٢) هو أبو عبيد الهروي، أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الباشاني، صاحب الغريبين، توفي سنة ٤٠١هـ. انظر بغية الوعاة: ١/ ٣٧١.

(٣) كتاب الغريبين: ١٦٥١/٥، المكتبة العصرية، صيدا.

(٤) انظر شرح مسلم للنووي: ١/ ٢٧٧.

(٥) يقصد جبريل ـ عليه السلام ـ، أضيف إلى الله إضافة تشريف واختصاص، كما في قوله ـ تعالى ـ ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ [مريم:١٧]، ومثل هذه الإضافة ثابت في حديث الشفاعة في الصحيحين في حق عيسى ـ عليه السلام ـ، انظر صحيح البخاري: ٢٧٢٧/٦، كتاب التوحيد، باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء..، برقم (٧٠٧٢) وصحيح مسلم: ١/ ١٥٤، كتاب الإيمان، برقم (١٩٣).

الذي ينفخ الأرواح بإذن الله في بني آدم هو الذي نفخ [ر،٥٠/ب] في مريم، لما كان لعيسى مزيّة بذلك[١].

وقال غيره: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: أي مخلوقة من عنده، وعلى هذا [ك،٢٥/ب] تكون إضافتها إليه ـ سبحانه ـ إضافة تخصيص وتشريف، كناقة الله، وبيت الله، وإلا فالعالم جميعه له ـ سبحانه ـ[٢].

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: إنّ عيسى بالكلمة كان، ليس هو الكلمة، وإنّما الكلمة قول الله. قال: وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، يقول: من أمره كان الروح فيه. كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] يقول: من أمره. فتفسير «روح الله» إنما معناها أنها روح كانت بكلمة الله، خلقها الله ـ تعالى ـ، كما يقال: عبدالله، وسماء الله، وأرض الله. انتهى[٣].

وقال ابن كثير في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١]: أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبرئيل إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربّه، فكان عيسى بإذنه ـ عز وجل ـ، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها بمنزلة لقاح الأب، والجميع مخلوق لله، ولهذا قيل لعيسى: إنّه كلمة الله، وروح منه؛ لأنّه لم يكن له أب، وإنما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها: كن، فكان، والرّوحِ التي أُرسل بها جبريل[٤].

---

(١) بتصرّف من كتاب «الروح»: ٢١٧، ٢١٨. دار الفكر، عمان، ط ٢. ١٩٨٦م.

(٢) انظر «فتح الباري»: ١٣/ ٤٤٤، و«الديباج» للسيوطي: ١/ ٤٣.

(٣) «الردُّ على الزنادقة والجهمية»: ٣٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٧٧، ٤٧٨. باختصار طفيف.

قال: وهذا أحسن مما ادّعاه ابن جرير، في قوله: أعلمها بها. كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، أي يُعْلمك بكلمة منه. بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل ـ عليه السلام ـ إلى مريم، لينفخ فيها بإذن الله ـ تعالى ـ[(١)].

وأما ما يتعلق بمعنى الرّوح وحقيقتها، فقد قصر الله الكلام في ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، على القول بأن المعنيّ بها في الآية روح الإنسان.

لكن بقي: هل الروح هي النفس، أو غيرها؟. فمنهم من تعلّق بأنّها هي النفس، بقول بلال ـ رضي الله عنه ـ في نومهم عن الصلاة: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك[(٢)]. مع قوله ـ ﷺ ـ في ذلك: «قبض الله أرواحنا»[(٣)]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]، والمقبوضةُ هي الأرواح. وإلى هذا ذهب ابن عبدالبرّ وجماعة[(٤)].

وقال المحققون ـ منهم أبو القاسم السهيلي ـ: بينهما فرق لطيف[(٥)]. وسيأتي معنى كلامهم. ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٧٨.

(٢) أخرجه مسلم: ١/ ٣٩٥، كتاب المساجد..، باب قضاء الصلاة..، برقم (٦٨٠).

(٣) رواه أحمد في المسند: ٢٨/ ٢٩، ٣٠، ط ٢ تحقيق شعيب الأرناؤوط ورفاقه، وقال محققوه: إسناده حسن.

(٤) انظر «التمهيد» لابن عبدالبر: ٥/ ٢٤١، ٢٤٢.

(٥) انظر «الروض الأُنُف» للسهيلي: ٣/ ١٨٦ـ ١٩٢. ولقد لخّص المؤلف الكلام التالي من هناك.

رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]، ولم يقل: من نفسي. وقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]، ولم يقل من نفسه. وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولم يقل: تعلم ما في روحي. ولو كانا اسمين لمعنىً واحد، «كالليث» و«الأسد»، لصح وقوع كلٍّ منهما موقع الآخر، وكذلك قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨]، ولا يحسن في الكلام: في أرواحهم. [ر، ٥٠/أ] وقال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ [الزمر: ٥٦]، ولم يقل: روح. ولا يقول ذلك عربي؛ فأين كون النفس والروح بمعنىً واحد؟.

و«الروح» مشتق من الرّيح، وهو جسم هوائيٌّ لطيف، يكون به حياة الجسد عادة، فالروح إذن كالماء الجاري في عروق الشجر صُعُدًا، حتى يحيا به الشجر عادة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فتسميته ماءً باعتبار أوّليته، فتُسمّى الرّوح روحًا باعتبار أوّليّتها، واعتبار النفخة، التي هي ريح، فما دام الجنين في بطن أمّه حيًا فهو ذو روح، فإذا اكتسبت تلك الروح أخلاقًا وأوصافًا لم تكن فيه، وأقبل على مصالح الجسم، ودفْع المضارّ عنه، سمّيت نفسًا، كما يكتسب الماء الصّاعد في الشجرة من الشجرة أوصافًا.

قال السّهيلي ـ رحمه الله تعالى ـ: فمن قال: إن النفس هي الروح على الإطلاق من غير تقييد، لم يحسن العبارة، وإنما فيها من الرّوح الأوصاف التي تقتضيها نفخة الملَك، والملَك موصوف بكل خلُق كريم.[١]

وقد روى ابن عبدالبر حديثاً[٢] يدل على خلاف مذهبه في أنّ

---

(١) «الروض الأنُف»: ٣/ ١٨٩.

(٢) ليس بحديث، بل هو أثر إسرائيلي رواه وهب بن منبّه عن التوراة، انظر «التمهيد» لابن عبدالبر: ٥/ ٢٤٣. و«تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة: ٢٩١.

النفس هي الروح، لكنّه علّله[1]. وفيه أنّ الله ـ عز وجل ـ خلق آدم، وجعل له نفسًا وروحًا، فمن الروح عفافه وفهمه، وعلمه وسخاؤه ووفاؤه، ومن النفس شهوته وطيشه، وسفهه وغضبه. ومعناه صحيح، سواء صح نقله أم لا، ولهذا يسمى الدمُ نفْسًا، ولا يسمّى روحًا. ومنه قول الفقهاء ـ رحمهم الله ـ، في قولهم: «وكل ما لا نفس له سائلة»[2]. يعنون الدم. وهو مجرى الشيطان[3].

وقد حكمت الشريعة بنجاسة الدم[4]، ولعلّه لسرّ يُفهم مما نحن فيه، فمن يعرف الكلام، وينزّل الألفاظ منازلها، لا يسمّي روحًا إلا ما وقع به الفرق بين الجماد والحي، الذي كان سببًا للحياة، كما في كلام العزيز ـ جل وعلاـ ، عند ذكر إحياء النطفة، ونفخ الروح فيها، ولا يقال: نفخ النفس فيها، إلا عند الاتساع في الكلام، وتسمية الشيء بما يؤول إليه. ومن ههنا سمّي جبريلُ ـ عليه السلام ـ روحًا، والوحيُ روحًا؛ لأنّ به حياةَ القلوب، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال في النفس: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ لأن الرّوح التي هي سبب الحياة لا تأمر بالسّوء، فلا تسمّى الروح نفسًا حتى تكتسب من الجسد الأوصاف المذكورة.

---

(١) كذا، والأصوب «أعلّه»، من الإعلال.

(٢) انظر مثلا «المغني» لابن قدامة: ١/ ٥٩.

(٣) كما ثبت ذلك في صحيح البخاري: ٢/ ٧١٧، الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، برقم (١٩٣٣)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٣٦٦، كتاب السلام، باب أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة. . ، برقم (٢١٧٤).

(٤) الذي رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قبل ظهوره وبروزه ومفارقته موضعَ خلقته ليس بنجس، انظر مجموع الفتاوى: ٢١/ ٥٩٨ـ ٦٠٠.

فالماء النّازل من السماء جنس واحد، فإذا مازج أجساد الشجر حصل فيه ما يحصل، من الحلاوة، والمرارة، والحموضة،[ر،٥١/ب] وغير ذلك، كما هو مشاهد، واختلفت أنواعه.

وكذلك الروح الباطنة إذا مازجت الجسد، الذي قد خُلق من طين، والطين فيه طيّب وخبيث، فينتزع كلُّ فرع إلى أصله، وذلك تدبير العزيز الحكيم.

فعند ذلك تتنافر النفوس وتتقارب، وتتحابُّ أو تتباغض، على حسب التشاكل في أصل الخلقة، وذلك معنى قوله: «الأرواح جنود مجنّدة» الحديث[١].

وقد يعبَّر بالنفس عن جملة الإنسان: روحه وجسده، فتقول: عندي ثلاثة أنفس. ولا تقول ثلاثة أرواح. ولا يقال في الروح: هي النفس، إلا كما يقال في [المني][٢]: هو الإنسان.

ويقال في الإنسان: له نفسان: نفس كريمة، ونفس لئيمة. ولا يقال: له روحان. وقد قال ذلك الفرزدق التميمي لعبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ:

لكل امرىءٍ نفسان: نفسٌ كريمةٌ وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعُها

ونفسُك من نَفْسَيْك تشفعُ للندى إذا قلّ من أحرارهنّ شفيعُها[٣]

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ١٢١٣، أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، برقم (٣١٥٨)، ومسلم: ٤/ ١٦١٢، كتاب البر..، باب الأرواح..، برقم (٢٦٣٨).

(٢) في الأصل: [المعنى]، وكذا في [م]، والمثبت من «الروض الأُنُف»: ٣/ ١٩١، وهو الصواب دون شك؛ إذ عنه يلخّص المؤلف هنا هذا المبحث.

(٣) ديوانه: ١/ ٤١٥.

وقال غيلان ذو الرُّمّة حين احتُضر:

يا ربِّ قد أسرفَتْ نفسي وقد علمَت علمًا يقينًا لقد أحصيتَ آثاري

يا قابض الرّوحِ من نفسي إذا احتُضرت وغافرَ الذنب زحزحني عن النّار(١)

فوصف نفسه بالإسراف، وروحَه بالقبض.

وأما قول بلال ـ رضي الله عنه ـ: «أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك»(٢)، فذكر النفس لأنّه معتذر من ترك عمل أمر به، والأعمال مضافة إلى النفس، لأن الأعمال جسدانية.

وقول النبي ـ ﷺ ـ: «إن الله قبض أرواحنا»(٣)، فذكر الروح التي هي الأصل، فآنسهم عن فزعهم، وأعلمهم أن خالق الأرواح يقبضها إذا شاء، فلا تنبسطُ انبساطها في اليقظة.

وروح النائم وإن وُصفت بالقبض، فلا يدلّ لفظ القبض على انتزاعها بالكلّيّة، كما لا يدلّ قوله في الظل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٤٦]، على إعدام الظلّ كلّيّة.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]، ولم يقل ـ سبحانه ـ: الأرواح؛ لأنّه وعْظ لعباده الغافلين عنه، فأخبر ـ سبحانه ـ

---

(١) ديوانه: ٣/ ١٨٧٤، ١٨٧٥، الملحق. وقد ذكر محقق الديوان أن «أسرفت» تصحيف، وأن الصواب: «أشرفت»، مع أن «أسرفت» لها وجه، فالله أعلم بالصواب.

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

(٣) هذه رواية الموطأ: ١/ ١٤، وعند البخاري: ١٢١، برقم (٥٩٥): «إن الله قبض أرواحكم..».

أنّه يتوفّى أنفسهم ثم يعيدُها، حتى يتوفّاها ولا يعيدُها إلى الحشر والجزاء، فتزدجر النفوس بهذه العظة عن سوء أعمالها؛ إذ الآية مكية، والخطاب للكفّار.

فهذا تنزيل للألفاظ منازلَها، من الحديث والقرآن الكريم، مع أنّ الحديث قد يُروى بالمعنى، فيختلف على الرواة[1]،[ر،٥١/أ] وأما القرآن فهو محفوظ الألفاظ، فالرجوع إليه في المعنى، وإلى لغة العرب، أصحُّ في الثبوت.

وما تقدّم عن الكتاب والسنّة هو معنى الفصاحة وسرّ البلاغة، في الفرق بين الرّوح والنفس، والله أعلم.

إذا فهمت ذلك، فاعلم أن نفخه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الطين، فيكون طيرًا بإذن الله، وإحياءه الموتى بإذن الله، وإبراءه الأكمه والأبرص، وكلامه في المهد، كلُّ ذلك يدلّ على أنّه مخلوق من نفخة روح القدس، بأمر الله ـ تعالى ـ، في جيب أمّه، ولم يُخلق من منيّ الرّجال، فكان معنى الرّوح فيه أقوى منه في غيره، فكانت معجزةً روحانيّةً دالّةً على قوّة المناسبة بينه وبين روح الحياة. ومن ذلك بقاؤه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيًّا إلى قرب السّاعة.

فدلائل الحدوث فيه تثبت له العبوديّة، وتنفي عنه الربوبيّة والألوهية، وخصائص معجزاته ـ عليه السلام ـ تنفي عن أمّه الريبة، وتثبت له النبوّة، ولها الصدّيقية. ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ

---

(١) انظر عن هذه المسألة: «فتح المغيث» للسخاوي: ٢/ ٢٠٧ـ ٢١٧.

﴿وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧٢]. وقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥]، فاللذان يأكلان الطعام مرزوقان، يبولان ويغوطان[١]، فهما لا يصلحان للربوبية ولا للألوهية، وإنّما شأنهما العبودية، ولذا قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾، أي يُصرفون عن الحق بعد تبيانه.

فقد أثبت ـ سبحانه ـ لمريم الصديقيّة دون النبوّة، وحكى إمام الحرمين الجويني إجماع العلماء على عدم نبوّتها[٢].

---

(١) المعروف في مثل هذا المعنى استعمال: «يتغوّطان»؛ فإن «غاط» «يغوط» معناه: «حفر» أو «انغمس» أو «غاب»، انظر «اللسان»: ٧/ ٣٦٤ـ ٣٦٦، مادة (غوط).

(٢) لم أهتد إليه في مؤلفاته، وقد ذكره عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى: ١١/ ٣٦٤، وذكر غيره ممن حكى الإجماع على ذلك، ووافقهم عليه، واستدل على ذلك بقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾؛ إذ سياق الآية في بيان غاية ما لها ولابنها من المنزلة، وذلك ردًّا على غلو النصارى فيهما، فلو كان لعيسى ـ عليه السلام ـ مرتبة فوق الرسالة، أو لها مرتبة فوق الصدّيقية لذُكرت، ولا خلاف أن مرتبة الصدّيقية دون مرتبة النبوّة. وانظر أيضًا مجموع الفتاوى: ١٨/ ٢٦٧، وقد رجّح ابن حزم في «الفصل»: (٥/ ١١٩) جواز نبوّة النساء دون إرسالهنّ، بحجّة أن «النبوّة» من الإنباء، وهو الإعلام، ولا دليل على حصره في الرجال، وقال بنبوّة أم إسحاق ومريم وأم موسى وامرأة فرعون لهذا المعنى، واستدل لنبوّة مريم خصوصًا بأن الله ـ تعالى ـ ذكرها في سورة مريم في جملة من ذكر من الأنبياء، وقال بعد ذلك: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ . .﴾، وأجاب عن الدليل الذي ذكره ابن تيمية بأن الله ـ تعالى ـ ذكر عن يوسف ـ عليه السلام ـ أنه قيل له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾، ومع ذلك فهو نبي. والذي يظهر لي أن ما ذكره لا ينقض دلالة الآية السالفة على =

فهذا قول أهل الصراط المستقيم، في عبده ورسوله وكلمته عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ، الذين هم وسط بين طرفين؛ فالنصارى جعلوه وأمّه إلٰهين من دون الله، واليهود قالوا فيه وفي أمّه بهتانًا عظيمًا، والجهمي جعل كلمة الله مخلوقة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

(«وأن الجنّة حقٌّ، والنّار حقٌّ»]، مخلوقتان، موجودتان الآن، لا تفنيان[1]، ولا ما فيهما من النّعيم والنّيران، ولا من يدخلهما من الإنس والجانّ[2].

(أدخله الله) برحمته لا بعمله (الجنّة، على ما كان من العمل)، ما خلا [ر،٥٢/ب] الشرك، لكن لا بدّ من عمل يكون سببًا لدخول الجنّة، لا به، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢].

إلا أنّ معنى الباء في قوله ـ ﷺ ـ فيما صحّ عنه: «لن يدخل الجنّة

= عدم نبوّة مريم؛ لأن دلالتها ليست في مجرّد وصفها بالصدّيقية، وإنما هي في كون هذا الوصف هو غاية ما تصل إليه من المراتب؛ إذ ذُكر في معرض الردّ على الغالين فيها، وهو وصف دون النبوة بلا شك، ومع ذلك لا يمتنع إطلاقه على الأنبياء كما هو حال يوسف ـ عليه السلام ـ، كما جمع الله ـ تعالى ـ لمحمد ـ ﷺ ـ الشهادة مع الرسالة، وهي دونها بلا شك، ثم إن الذي خاطب يوسف بهذا الخطاب كافر فيما يَظهر، لا يقرّ بنبوّة يوسف، إذ قد قال له في السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً. .﴾ الآية.

(١) في الأصل: تفنيان.

(٢) انظر «شرح أصول اعتقاد أهل السنّة» للالكائي: ١/ ١٦٤، ١٧٠، و«شرح السنّة» للبربهاري: ٢٧. وانظر مخالفة أهل البدع في ذلك في «مقالات الإسلاميين» للأشعري: ٢/ ١٦٧، ١٦٨.

أحد بعمله». قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»[1]، قد أشكل في هذا الحديث مع الآية الكريمة الشريفة على بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ، وكشف ذلك بعضُهم فقال: ليس بينهما ـ بحمد لله ـ اختلاف ولا إشكال؛ فإنّه ـ ﷺ ـ لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٤]، فلا يخالف قولُه قولَ مرسلِه؛ فإن الباء في الآية باءُ السبب، وفي الحديث باء المقابلة، التي هي المعاوضة والمفاداة. والمعنى: لا يدخل الجنّة أحد بمقابلة عمله، وإنّما هو برحمة الله ـ تعالى ـ وهدايته لذلك العمل، الذي كان سببًا لدخوله الجنّة[2].

وعند الطبراني بسند رجاله كلّهم ثقات[3]، عن ثعلبة بن الحكم ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يقول الله ـ تعالى ـ للعلماء يوم القيامة، إذا قعد على كرسيّه لفصل عباده: إنني لم أجعل عِلْمي وحِلمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي»[4]. وروى نحوه ابن أبي

---

(١) أخرجه البخاري: ٥/ ٢١٤٧، كتاب المرضي، باب نهي تمني المريض الموت، برقم (٥٣٤٩)، ومسلم: ٤/ ١٧٢٠، كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله. . ، برقم (٢٨١٦).

(٢) انظر مجموع الفتاوى: ٢/ ١٤٥ وما بعدها، وأجيب أيضًا بأن العمل لما كان نفعه مترتبًا على قبوله، وقبولُه إنما هو برحمة الله ـ تعالى ـ، صح أن دخول الجنّة إنما هو برحمة الله ـ تعالى ـ لا بمجرد العمل. انظر «فتح الباري»: ١/ ٧٨. ويمكن أن يقال أيضًا: إن العمل الصالح لا توفيق إليه إلا برحمة الله ـ تعالى ـ، فلا دخول إلى الجنّة إذًا إلا برحمة الله ـ تعالى ـ على الحقيقة.

(٣) بل فيه العلاء بن مسلمة الروّاس: متروك، ورماه ابن حبان بالوضع، كما في التقريب: ٤٣٦، برقم (٥٢٥٦).

(٤) المعجم الكبير: ٢/ ٨٤، وقال الحافظ ابن كثير: إسناده جيّد، انظر تفسيره: ٥/ ٢٧٢، وقال عنه أيضًا: ما أحسنه. ورواه أيضًا البيهقي في «المدخل إلى السنن =

عاصم[1]، والأصبهاني[2] مرفوعًا، عن أبي موسى - رضي الله عنه -.

قال المنذري: انظر إلى قوله: «علمي وحلمي»، يتضح لك بإضافته إليه أنّه ليس المراد به علم أكثر أهل الزمان، المجرّد عن العمل به والإخلاص[3].

وقال ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢] الآية: هم أمّة محمد - ﷺ -، ورّثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم مغفور لهم، ومقتصدهم يحاسَب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنّة بغير حساب. رواه عنه البيهقي[4] وابن أبي حاتم[5].

وعند الإمام أحمد[6]، والترمذي وحسّنه[7]، والبيهقي[8]، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - مرفوعًا، في هذه الآية، أنه قال - ﷺ -: «هؤلاء كلّهم بمنزلة واحدة، وكلّهم في الجنّة».

= الكبرى»: ٣٤٥، برقم (٥٧٠).

(١) لم أهتد إليه.

(٢) لم أميّز أي الأصبهانيين يعني، ولعلّه قوّام السنّة.

(٣) «الترغيب والترهيب»: ١/ ٥٧.

(٤) في «كتاب البعث والنشور»: ٦٢، برقم (٧٣).

(٥) كما في الدر المنثور: ٥/ ٤٧٢، ورواه ابن جرير أيضًا في تفسيره: ٢٢/ ١٣٤.

(٦) المسند: ٣/ ٧٨.

(٧) السنن: ٥/ ٣٦٣، كتاب التفسير، باب ومن سورة الملائكة، برقم (٣٢٢٥)، وإنما قال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وصحّحه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٩٧، برقم (٢٥٧٧).

(٨) في «البعث والنشور»: ٥٨، برقم (٦١).

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أبو مالك، عن ربعي عن حراش، عن حذيفة، أنّ رجلاً أتى به الله ـ عز وجل ـ فقال: ماذا عملتَ في الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملتُ مثقال ذرّة من خير. فقال له ذلك ثلاثًا، وقال في الثالثة: إنّي كنتَ أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا، فكنت أبايع النّاس، فكنت أيسّر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال ـ تبارك وتعالى ـ: نحن أولى بذلك، تجاوزوا عن عبدي. فغفر له(١).

قال أبو مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ، وعقبة بن عامر: وهكذا سمعناه من رسول الله ـ ﷺ ـ(٢). وهكذا رواه مسلم، من حديث [ر،٥٢/أ] أبي مالك، سعد بن طارق به(٣). وقد أخرجه البخاري(٤)، ومسلم، وابن ماجه(٥)، من طرق عن ربعي عن حذيفة، زاد مسلم عن عقبة بن عامر، وأبي مسعود البدري، عن النبي ـ ﷺ ـ [ك،٢٥/أ] بنحوه.

قال الحميدي في جامعه(٦): وقد رُوي هذا المعنى عن حذيفة موقوفًا، وعن عقبة بن عامر مرفوعًا(٧). وذكره من طريق «صحيح

---

(١) المسند: ٤/ ١١٨.
(٢) المسند: ٤/ ١١٨.
(٣) الصحيح: ٣/ ٩٦٨، كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، برقم (١٥٦٠).
(٤) الصحيح: ٢/ ٧٣١، كتاب البيوع، باب من أنظر موسرًا، برقم (١٩٧١).
(٥) السنن: ٢/ ٨٠٨، كتاب الصدقات، باب إنظار المعسر، برقم (٢٤٢٠).
(٦) هو الحافظ أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتّوح بن عبدالله الأزدي، الحميدي، الأندلسي، الميورقي، الظاهري، تلميذ ابن حزم، له كتاب «الجمع بين الصحيحين»، توفي سنة ٤٨٨هـ. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ١٢٠.
(٧) «الجمع بين الصحيحين»: ١/ ٤٩٤.

مسلم»، عن أبي مسعود البدري مرفوعًا بمعناه.

وحديث المتن (أخرجاه) في الصحيحين[1]، وفي لفظ لهما عنه ـ رضي الله عنه ـ: «أدخله الله من أبواب الجنّة الثمانية أيها شاء»[2].

وفي لفظ في الصحيحين عن الصنابحي أنه قال: دخلت على عبادة ابن الصامت ـ رضي الله عنه ـ وهو في الموت فبكيت، فقال: مهلاً، لم تبكي؟ فوالله لئن استُشهدتُ لأشهدنّ لك، ولئن شُفّعتُ لأشفعنّ لك، ولئن استطعت لأنفعنّك. ثم قال: والله ما من حديث سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ لكم فيه خير إلا حدثتكم به، إلا حديثًا واحدًا، وسوف أحدثكموه اليومَ وقد أحيط بنفسي، سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، حرّمه الله على النّار»[3]. وسيأتي هذا الحديث في الشرح إن شاء الله.

وفي البخاري، في باب العمل الذي يُبتغى به وجه الله، بسنده عن الزّهري قال: أخبرني محمود بن الربيع ـ وزعم محمود أنّه عقل رسول الله ﷺ، وقال: وعقلت مجّة مجّها عليّ، من دلو كانت في دارهم ـ قال: سمعت عِتبان ابن مالك الأنصاري، ثم أحدَ بني سالم، من بني العجلان، ـ رضي الله عنه ـ قال: غدا عليّ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «لن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٦٧، كتاب التفسير، باب ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾..، برقم (٣٢٥٢)، وصحيح مسلم: ١/ ٦١، كتاب الإيمان، باب رقم (١٠)، حديث رقم (٢٨).

(٣) لم أجده إلا في صحيح مسلم: ١/ ٦٢، كتاب الإيمان، باب (١٠)، حديث (٢٩).

يوافَى عبدٌ يوم القيامة بقول «لا إلٰه إلا الله»، يبتغي به وجه الله، إلا حرّم الله عليه النّار»[١].

(ولهما) يعني البخاري ومسلمًا[٢]، في رواية (من حديث عِتبان) ـ بكسر العين المهملة، وإسكان المثنّاة الفوقيّة ـ، هو الصحابي المشهور الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ، مات في خلافة معاوية. وهو حديث طويل فيه قصة. حيث قال البخاري: ثنا سعيد بن عفير، حدثني الليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب، أخبرني محمود بن الربيع، أن عِتبان بن مالك، وهو من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ، ممن شهد بدرًا من الأنصار، أنّه قال: يا رسول الله، قد أنكرت بصري، وأنا أصلي لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم، لم[٣] أستطع أن آتي مسجدَهم فأصليَ [لهم][٤]، ودِدتُ يا رسول الله أنّك تأتيني فتصلّي معي في بيتي، فأتخذَه مصلى. قال: فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: سأفعل إن شاء الله ـ تعالى ـ. قال عِتبان: فغدا عليّ رسول الله ـ ﷺ ـ وأبوبكر حين ارتفع النّهار، فاستأذن [ر،٥٣/ب] فأذنت له، فلم يجلس حين ـ وفي لفظ: حتى ـ دخل البيت، ثم قال: أين تحب أن أصليَ من بيتك. قال: فأشرتُ إلى ناحية من البيت، فقام رسول الله ـ ﷺ ـ فكبّر، فقمنا فصففنا فصلّينا ركعتين ثم سلّم. قال: وحبسْناه على خزيرة[٥] صنعناها له. قال: فبات في

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٦٠، كتاب الرقاق، باب العمل الذي يُبتغى به وجه الله، برقم (٦٠٥٩).

(٢) في الأصل: «ومسلم» وهو خطأ.

(٣) في صحيح مسلم: «ولم»، بواو العطف، وليست في صحيح البخاري.

(٤) في [ك]: فيهم، وفي [ر]: بهم، والمثبت من صحيح مسلم.

(٥) في طرة [ك] بخط المؤلف ما نصّه: [الخزيرة: بخاء معجمة مفتوحة، بعدها زاي =

البيت رجال من أهل الدّار ذوو عدد، فاجتمعوا، فقال قائل منهم: أين مالك بن الدّخيشن ـ أو ابن الدخشن ـ؟. فقال بعضهم: ذاك منافق لا يحب الله ورسوله. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لا تقل ذلك، ألا تراه قد

= معجمة مكسورة، ثم ياء تحتانية، ثم راء مهملة، ثم هاء، قال ابن قتيبة: تُصنع من لحم، يقطّع صغارًا ثم يصبّ عليه ماء كثير، فإذا نضج ذرّ عليه الدقيق، فإن لم يكن فيه لحم فهو عصيدة[1]. وكذا ذكره يعقوب[2]، وزاد: من لحم بات ليلة. قال: وقيل: هو حِساء من دقيق، فيه دسم. وحكى في الجمهرة نحوه[3]. وحكى الأزهري عن [الليث]، أن الخزيرة من النخالة[4]. وكذا حكاه البخاري في الأطعمة عن النضر ابن شميل[5]. قال عياض: والمراد بالنخالة: دقيق لم يغربل[6]. ويؤيده رواية الأوزاعي عند مسلم: «على جشيشة»[7]. بجيم ومعجمتين. قال أهل اللغة: هي أن تطحن الحنطة قليلاً، ثم يلقى فيها شحم أو غيره[8]. وفي «المطالع» أنها رويت في الصحيحين بحاء ورائين مهملات[9]. وحكى البخاري أيضًا عن النضر بن شميل أنّها تصنع من اللبن[10]. علّقه الفقير مؤلفه: عثمان بن منصور].

١ـ «غريب الحديث»: ٢/ ١٤٠.

٢ـ هو ابن السكيت، انظر تهذيب اللغة للأزهري: ٧/ ٢٠٠.

٣ـ جمرة اللغة: ٢/ ٢٠٥.

٤ـ «تهذيب اللغة»: ٧/ ٢٠٠. وفي الأصل: عن الهيثم وهو خطأ. تبعًا لما في الفتح: ١/ ٥٢١.

٥ـ الصحيح: ٥/ ٢٠٦٣، كتاب الأطعمة، باب الخزيرة.

٦ـ ذكره عنه في «فتح الباري»: ١/ ٥٢١.

٧ـ صحيح مسلم: ١/ ٣٨٢، كتاب المساجد، آخر أحاديث الباب (٤٧).

٨ـ انظر اللسان: ٦/ ٢٧٣، ٢٧٤، مادة (جشش).

٩ـ «مطالع الأنوار على صحاح الآثار» لابن قرقول، لم يزل مخطوطًا، وقد نقل هذا النص عنه ابن حجر في الفتح: ١/ ٥٢١.

١٠ـ الصحيح: ٥/ ٢٠٦٣، كتاب الأطعمة، باب الخزيرة.

والمؤلف نقل هذا الكلام بشيء من التصرف من «فتح الباري»: ١/ ٥٢١.

قال: لا إلٰه إلا الله، يريد بذلك وجه الله؟. قال: الله ورسوله أعلم. قال: فإنّا نرى وجهه ونصيحته للمنافقين. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: («فإن الله ـ تعالى ـ قد حرّم على النّار من قال: لا إلٰه ـ حق ـ إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله ـ تعالى ـ»)[1].

قال ابن شهاب: ثم سألت الحصين بن محمد الأنصاري، وهو أحد بني سالم، وهو من سراتهم، عن حديث محمود بن الربيع الأنصاري، فصدّقه بذلك[2].

وعند مسلم في صحيحه: قال محمود: فحدثت بهذا الحديث نفرًا، منهم أبو أيوب الأنصاري، فقال: ما أظنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال ما قلت. قال فحلفت إن رجعت إلى عِتبان أن أساله. قال فرجعت إليه فوجدته شيخًا كبيرًا، وقد ذهب بصره، وهو إمام قومه، فجلست إلى جنبه، فسألته عن هذا الحديث، فحدّثنيه كما حدّثنيه أول مرّة[3].

قال الزّهري: ثم نزلت بعد ذلك فرائض وأمور، نرى أن الأمر انتهى إليها، فمن استطاع أن لا يغتر فلا يغتر[4].

وعند الطبراني هذا من كلام عِتبان ـ رضي الله عنه ـ[5].

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ١٦٤، كتاب المساجد، باب المساجد في البيوت، برقم (٤١٥)، وصحيح مسلم: ١/ ٣٨١، كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، برقم (٢٣).

(٢) انظر الموضعين السابقين.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ٣٨٢، كتاب المساجد..، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، برقم (٣٣).

(٤) الموضع السابق.

(٥) الذي وجدته في الكبير: ١٨/ ٢٨، أنه من كلام الزهري.

وفي لفظ قال أنس عن عِتبان: أتاني النبي - ﷺ - ومن شاء الله من أصحابه، يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عُظم ذلك وكبره إلى مالك بن الدخشم، قال: ودّوا أنّه دعا عليه، ودّوا أنّه أصابه شيء. فلما قضى رسول الله - ﷺ - الصلاة قال: ليس أحدٌ يشهد ألا إله إلا الله، وأنّي رسول الله فيدخل النّار. قال أنس: فأعجبني الحديث، فقلت لابني اكتبه، فكتبه[1].

وفي لفظ للإمام أحمد، عن أنس - رضي الله عنه - قال: فما فرحوا بشيء قط كفرحهم بما قال[2].

وفي لفظ لأنس - رضي الله عنه - عند الإمام أحمد، أنّ عِتبان بن مالك ذهب بصره، فقال: يا رسول الله، لو جئت صلّيت في داري - أو قال في بيتي - لاتخذت مصلاّك مسجدًا. فجاءه النبي - ﷺ - فصلّى [ر،٥٣/أ] في داره - أو قال في بيته -، واجتمع قوم عِتبان إلى النبي - ﷺ -، فذكروا مالك بن الدّخشم، فقالوا: يا رسول الله، إنّه وإنّه. يعرّضون بالنفاق. فقال النبي - ﷺ -: «أليس يشهد ألا إله إلا الله، وأنّي رسول الله؟». قالوا: بلى. قال: «والذي نفسي بيده، لا يقولهما عبد صادق بهما إلا حُرّم على النار»[3].

وفي لفظ أنه قال: «والذي بعثني بالحق، لئن كان قالها صادقًا من قلبه لا تأكله النّار أبدًا». قال: فما فرحوا بشيء قط كفرحهم بما قال[4].

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٦٥، كتاب الإيمان، باب (١٠)، حديث (٢٣).
(٢) المسند: ٤/ ٤٤.
(٣) المسند: ٣/ ١٧٤، إلا أن فيه: «حرمت عليه النار».
(٤) المسند: ٤/ ٤٤.

وفيه قال أنس بن مالك لابنه أبي بكر: يا بني احفظ هذا الحديث، فإنّه من كنوز الجنّة[1]. وكل ذلك عند الإمام أحمد في مسنده.

وعند الطبراني: أن النبي ـ ﷺ ـ أتاه يوم السبت، ومعه أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ[2].

وفي لفظ: أنّ عِتبان لقي النبي ـ ﷺ ـ يوم جمعة، فقال: إني أحب أن تأتيني[3].

وفي لفظ: أن عِتبان بعث إليه[4]. وفي لفظ: إني أعمى[5]. وفي لفظ: أصابني من بصري بعض الشيء، فلا أستطيع يا رسول الله أن أصلي معك في مسجدك[6].

ورواه أبو الشيخ الأصبهاني، من حديث النضر بن أنس، عن أبيه قال: لمّا أصيب عِتبان. فجعله [ك،٢٦/ب] في مسند أنس بن مالك[7].

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني: ١٨/ ٢٦، برقم (٤٥) وليس في المسند كما أوهم المصنف.

(٢) «المعجم الكبير»: ١٨/ ٣١، برقم (٥٢).

(٣) «المعجم الكبير»: ١٨/ ٣١.

(٤) صحيح مسلم: ١/ ٦٤، برقم (٣٣). وهكذا عند أكثر من رواه.

(٥) الذي وجدته في «المعجم الكبير»: ١٨/ ٢٩؛ قوله: «وأنا رجل ضرير البصر»، وقبلها: «وهو أعمى».

(٦) الجملة الأولى في صحيح مسلم: ١/ ٦٤، برقم (٣٣).

(٧) لأبي الشيخ «المسند المنتخب على الأبواب المستخرج من كتاب مسلم بن الحجاج» كما ذكر السمعاني في «التحبير في المعجم الكبير»: ٢/ ١٤١، فلعلّه هو المراد هنا، وقد أخرج هذه الرواية الطبراني في الكبير: ١٨/ ٢٦، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة»: ٢/ ٩١٥، برقم (٩٦١). وأشار المحقق إلى ضعف سندها.

قال أبو علي الجيّاني[1]: «مالك بن الدُخشُم» بضم الدال، وسكون الخاء المعجمة، ويقال بالنون، وضمّ الشّين المعجمة، ويقال: «دِخشِن» بكسر الدّال والشين، ويقال مصغّرًا: «الدخيشن»[2].

قال أبو عمر ابن عبدالبر وغيره: لم يُختلف في شهوده بدرًا[3].

قال ابن عبدالبر: الذي ذكره بالسّوء هو عِتبان بن مالك[4].

وفي رواية قال: إنما كرهت منه مجالسته المنافقين ومودّتهم[5].

وفي قوله ـ ﷺ ـ: «ألا تراه قد قال: «لا إله إلا الله»، يريد بذلك وجه الله» دليل قوي على غلاة المرجئة، القائلين بأنّه يكفي في الإيمان النطق فقط، وإن لم يصدّقه قلبه[6]، ومن نحا نحوهم في مذهبهم

---

(١) هو الحسين بن محمد بن أحمد الغساني، الأندلسي، صاحب كتاب «تقييد المهمل». ميّز فيه المشكل من الأسماء الواردة في الصحيحين، توفي سنة ٤٩٨هـ. انظر السير: ١٩/ ١٤٨ـ ١٥١.

(٢) «تقييد المهمل»: ١/ ٢٤٦.

(٣) الاستيعاب: ٣/ ٣٥٢، في حاشية الإصابة.

(٤) انظر السابق: ٣/ ٣٥٣.

(٥) لم أعثر عليها.

(٦) بل يقولون: إن الإيمان هو مطلق المعرفة، ولا يدخلون فيه قول اللسان، ولا عمل القلب أو الجوارح. فإبليس وفرعون على قولهم مؤمنان؛ لمعرفتهما بالله، كما صرّح القرآن بذلك، ولا يكاد يختلف عن قولهم قولُ الأشاعرة بأن الإيمان هو مجرّد التصديق، كما في «المواقف»: ٣٧، أما القائلون بأن الإيمان هو قول اللسان فقط فهم الكرامية، فالمنافق عندهم مؤمن، لكن ظاهرًا، فلا يدخل الجنّة، والإيمان عند السلف: تصديق باللسان، وتصديق بالقلب، وتصديق بالجوارح، فهو قول وعمل، يزيد وينقص، انظر كتاب الإيمان الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية، ضمن =

الفاسد، نعوذ بالله من مضلّات البدع، وسيأتي الكلام على ما يتعلّق بهذا الحديث آخر الباب.

وعلى قول الزهريّ أو عِتبانَ فيما تقدّم، فإن محققي العلماء - رحمهم الله تعالى - قالوا: إنّ ذلك غير جيد؛ لأن الصلاة وشبهها فُرضت بمكة - شرّفها الله -، قبل هذا الحديث بمدّة[1]، وأمّا فرض رمضان ففي الثانية من الهجرة إجماعًا، في شعبان، وكذا الزّكاة مع زكاة الفطر، قبل العيد بيومين تلك السنة، وقيل: فرْض الزكاة بمكة، وبعْث السّعاة في المدينة لقبضها، وقيل: فرضها بعد فرض زكاة الفطر، لما روى أحمد[2] والنسائي[3] وابن ماجه[4] وغيرهم، عن [ر،٥٤/ب] أبي عمّار - واسمه «عَريب»، بفتح العين المهملة -، عن قيس بن سعد - رضي الله عنه - قال: أمرَنا رسول الله - ﷺ - بصدقة الفطر قبل نزول الزكاة، فلما نزلت لم يأمرنا ولم ينهنا، ونحن نفعله. وإسناده جيّد.

فالحاصل أن بعض الفرائض مفروض قبل هذا الحديث قطعًا.

وقد مرّ أن الإلٰه هو المألوه، الذي تألهه القلوب محبّةً وإجلالاً ورغبةً ورهبة وتعظيمًا، فهو المألوه. وبذلك صرحت عبارات أهل اللغة وغيرهم من أهل العلم.

= مجموع الفتاوى: ٧/ ١٢٠، ١٤٠.

(١) انظر الفتح: ١/ ٥٢٢.

(٢) المسند: ٦/ ٦.

(٣) السنن: ٥/ ٤٩، كتاب الزكاة، باب كم فرض، برقم (٢٥٠٧). وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي برقم (٢٣٥٠).

(٤) السنن: ١/ ٥٨٥، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر، برقم (١٨٢٨).

قال في القاموس: أَلِهَ يأله إلهة وألوهة وألوهيّة: عَبَد عبادة، ومنه لفظ الجلالة. ثم قال: وكل ما اتُّخذ معبودًا فهو إلٰه عند متّخذه[1]. وقد تقدّم تقديم صحّة اشتقاقه[2].

وفي المصباح المنير: أَلِه يألَه إلهة، بمعنى عبَد يعبُد عبادةً، وتألّه: تعبّد، والإلٰه: المعبود، وهو الله ـ سبحانه ـ، ثم استعاره المشركون لما عبدوه من دون الله[3].

فتبيّن لك بذلك أن «لا إلٰه إلا الله» لها معنى غيرُ التلفّظ بها، يدلّ عليه لفظها من النفي والإثبات، والمطلوب بها ما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والمعنى الآخر: أن الإلٰه هو المألوه المحبوب، والمحبة تستلزم الطاعة للمحبوب فيما أمر، والانتهاءَ عما عنه نهى وزجر.

ولهذا لمّا ادّعى من ادّعى محبّة الله ـ تعالى ـ، جعل على ذلك علَمًا فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فبمتابعته ـ ﷺ ـ تحصل من الله ـ سبحانه ـ لمتابِعِه المحبةُ وغفران الذنوب. والمحبّ لا يعذّب محبوبه.

ولا بدّ من شرط آخر، وهو أن تكون هذه المحبة خالصة لوجه الله ـ سبحانه ـ، لا كمحبّة المشركين، الذين يحبّون أندادهم كحبّ الله،

---

(١) «القاموس المحيط»: ٤/ ٢٨٢، ط البابي الحلبي، ١٣٧١هـ.

(٢) انظر فيما سبق: ص ٤٥.

(٣) «المصباح المنير»: ص ٨.

ولهذا قال ـ ﷺ ـ في هذا الحديث: «يبتغي بذلك وجه الله»، فحينئذٍ يكون صاحب هذا محرّمًا على النّار.

وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل: ١٩ـ ٢١]، وصاحب هذا العمل لا يرضى أن يعذَّب في النّار.

إذا فهمت ذلك، مع ما في الحديث المتقدّم قبله، إلى أن قال فيه: «أدخله الله الجنّة على ما كان [ر،٥٤/أ] من العمل»، خرجت بذلك من مذهب الحرورية[١] في الإيمان.

وقوله: «فإن الله حرّم على النّار»، المراد بالتحريم في هذا الحديث وغيره قصد تعذيبه بها، وأمّا ورودها للمرور على الصراط فهو أمر حتم من الله، لا بد منه، كما قال في الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]؛ إذ الصحيح أنّه المرور على متنها مع الصراط، لا الإشراف عليها كما يقول بعضهم[٢]، واستدل بقول العرب: وردت الماء، ولمّا أشرب منه.

(وعن أبي سعيد) سعد بن مالك بن سنان بن عبيد (الخدري) الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ، له ولأبيه صحبة، واستُصغر بأحد، ثم شهد ما بعدها، وروى الكثير. مات في المدينة بعد السبعين[٣].

---

(١) هم الخوارج سبق التعريف بهم ص١٠٥.

(٢) انظر الأقوال في معنى ورود النار المذكور في الآية عند ابن جرير: ١٦/ ١٠٨ـ ١١٢.

(٣) ترجمته في الإصابة: ٢/ ٣٢، برقم (٣١٩٦).

(مرفوعًا) إلى النبي ـ ﷺ ـ (أنّه قال: قال موسى) بن عمران، كليم الرحمن ـ عليه الصلاة والسلام ـ (يا رب علّمني شيئًا أذكرك به) لتذكرني، (وأدعوك به] تعبّدًا لك. (قال الله ـ سبحانه ـ: قل يا موسى: «لا إلٰه إلا الله») اعتراف بتوحيد الإلوهية، وهو يتضمّن أحد نوعي الدعاء، فإن الإلٰه هو المستحق أن يُدعى دعاء عبادة، ودعاء مسألة. بل ويتضمّن دعاء المسألة أيضًا، ولهذا لمّا سئل سفيان بن عيينة عن قوله ـ ﷺ ـ: «أفضل الدعاء يوم عرفة «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[1]، أنشد قول أمية بن أبي الصلت[2] مادحًا لابن جُدعان[3]:

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني ... حِباؤُك[4] إنّ شيمتَك الحباءُ

[ك،٢٦/أ] إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرّضه الثناءُ[5]

وفي الصحيحين أنه كان ـ ﷺ ـ يقول عند الكرب: «لا إلٰه إلا الله العظيم الحليم، لا إلٰه إلا الله، رب العرش العظيم، لا إلٰه إلا الله، رب

---

(١) أخرجه الترمذي: ٥/ ٥٧٢، كتاب الدعاء، باب في الدعاء إذا غزا، برقم (٣٥٨٥)، وصححه الألباني كما في الصحيحة: ٤/ ٦، برقم (١٥٠٣).

(٢) أمية بن عبدالله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي: شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، كان مطلعًا على الكتب القديمة يلبس المسوح تعبدًا، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر، ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، مات في السنة الخامسة للهجرة. انظر الأعلام للزركلي: ٢/ ٢٣.

(٣) هو عبدالله بن جدعان التيمي القرشي، من أجواد الجاهلية وحكامها، أدرك النبي ـ ﷺ ـ: قبل النبوة. انظر الأعلام للزركلي: ٤/ ٧٦.

(٤) في ديوانه ص ١٧ ط صادر: حياؤك.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق»: ١٤١، برقم (٤٥٨)، وأخرج إنشاد سفيان لذلك البيهقي في «فضائل الأوقات»: ٣٧٠، برقم (١٩٣).

السمٰوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[1]. فهذا دليل على أن العبد كلّما حقّق الإخلاص في قول «لا إلٰه إلا الله» خرج من قلبه تألّهُ كلِّ ما يهواه، من كلّ ما سوى الله، وصرف الله عنه بذلك المعاصيَ والذنوب، وفرّج عنه جميعَ الكروب، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

(قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: [ر،٥٥/ب] يارب كل عبادك يقولون هذا).

وهذا الحديث عند أبي نعيم، من طريق عبدالله بن وهب قال: أخبرني عمر بن الحارث، أنّ درّاجا أبا السمح حدّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنّه قال: «قال موسى . . .» فذكره بنحوه، وزاد فيه بعد قوله: «كل عبادك يقولون هذا»، قال: قل يا موسى: «لا إلٰه إلا الله»، قال: لا إلٰه إلا أنت. إنما أردت شيئًا تخصّني به»[2].

(قال يا موسى، لو أن السمٰوات السبع وعامرَهنّ غيري)، بنصب الرّاء على العطف أو الحال، والعامر عند العرب السّاكن، قال جرير بن الخطفَى:

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٣٦، كتاب الدعوات، باب دعوة النبي ـ ﷺ ـ لخادمه. . ، برقم (٥٩٨٤)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٦٦٢، كتاب الذكر، باب دعاء الكرب، برقم (٢٧٣٠).

(٢) «حلية الأولياء»: ٨/ ٣٢٨.

هل تعرف الرّبعَ إذ في الرّبعِ عامرُهُ فاليومَ أصبح قفرًا غيرَ معمورِ[1]

وقال طهمان بن عمرو[2]، يهجو ساكن «الثُّعْل» و«سجا» و«الأخراب»[3] المعروفة في ديار كلاب:

ولن تجد الأخرابَ أيمنَ من سجا إلى الثُّعْل إلا ألأمُ الناسِ عامرُه[4]

وهذا من باب الصّفات، كما نبّه عليه علماء السنّة، من جهة الفوقية، فإنه يتعالى أن يحويَه شيء من مخلوقاته، جل وعلا عن ذلك[5].

(والأرضين السبع)، ولم يقل وعامرَهن غيري؛ لما ذكرنا أنّه من باب الصفات[6].

والأرَضين: بفتح الرّاء، وقد تُسكّن، كقول الشاعر[7]:

[قد سألتني بنت عمرو عن الْـ أرض التـي][8] تُنكِـر أعـلامَهـا

---

(١) ديوانه: ١/ ١٤٤.

(٢) هو طهمان بن عمرو بن سلمة الكلابي، شاعر إسلامي، وهو أحد صعاليك العرب وفُتّاكهم، كان في زمن عبدالملك بن مروان، توفي نحو ٨٠هـ. انظر سمط اللآلي: ١/ ٤٧٣، والأعلام: ٣/ ٢٣٣.

(٣) «الثُّعْل» و«سجا» من أكرم مياه نجد، وهما لبني كلاب، و«الأخراب» موضع بينهما، واحده خُرْب، وهو منقطع الرمل. انظر «معجم البلدان»: ١/ ١١٩، ١٢، ٢/ ٧٩.

(٤) أنشده في «معجم البلدان»: ٢/ ٧٩.

(٥) يريد قوله: «وعامرهنّ غيري»؛ فإنّه يدلّ على أنّ الله ـ تعالى ـ في السمٰوات، ثم فسر ذلك بالفوقية، أي أنه فوق السمٰوات؛ احترازًا من توهّم تخلّله فيهنّ.

(٦) أي أنّ الأرض ملازمة للدونيّة، والله ـ تعالى ـ متصف بكمال ضدّها، وهو العلو المطلق.

(٧) هو عمرو بن قمِيئَة، انظر ديوانه: ص ١٨١، تحقيق الصيرفي.

(٨) في الأصل كتب البيت: «سألتني بنت عمي عن الأرضين إذ تنكر أعلامها»، وأثبت =

فقد نصّ في هذا على أن السمٰوات سبع، وكذا الأرضين، ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

ومن الدليل على أن السمٰوات بعضها فوق بعض قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وكذلك الأرض سبع؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، لكن بعضها أسفل من بعض، كما في الصحيحين عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «من ظلم قيد شبرٍ من الأرض، طُوِّقه من سبع أرضين يوم القيامة»(١).

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال: في كل أرض مثل إبراهيم، ونحو ما في الأرض من الخلق(٢).

قال الحافظ ابن حجر: وإسناده صحيح(٣). وسيأتي زيادة في ذلك

= ما في الديوان.

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٨٦٦، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، برقم (٢٣٢٠)، وصحيح مسلم: ٣/ ٩٩٨، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم، برقم (١٦١١).

(٢) التفسير: ٢٨/ ١٥٣.

(٣) «فتح الباري»: ٦/ ٢٩٣. وقال ابن كثير في «البداية والنهاية»: ١/ ٤٣، تحقيق التركي: وهو محمول إن صح نقله عنه على أنّ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أخذه عن الإسرائيليات. وصحّح البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٨٩، ٣٩٠) إسناده =

[ر،٥٥/أ] عن قريب إن شاء الله، عند آخر هذه المادة.

ففي مضمون قول موسى ـ عليه السلام ـ، وجواب ربّ العالمين الآتي له، بيان لتباين القائلين للا إلٰه إلا الله، والفارقُ في ذلك إنما هو التحقيق لها؛ إذ ليس كل من قالها محققًا لها تحقيقًا يجعلها له بالمثابة التي أخبر الله ـ سبحانه ـ لموسى [بها][(١)] في جوابه له.

ولهذا صح عنه ـ ﷺ ـ أنّه قال: «من قال لا إلٰه إلا الله مخلصًا ـ وفي لفظ: خالصًا ـ من قلبه حرّمه الله على النّار»[(٢)]. فجعل ـ ﷺ ـ الإخلاص نافيًا لأسباب دخول النّار، فمن دخل النّار من القائلين لها فهو لم يحقق إخلاصها، المحرِّمَ له على النّار، بل كان في قلبه نوع من الشرك.

والشرك في هذه الأمّة أخفى من دبيب النمل على الصخرة السوداء في الليلة المظلمة[(٣)]، ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول:

= عن ابن عباس، ثم قال: وهو شاذ بمرة، لا أعلم لأبي الضحى عليه متابعًا. وفي «المنتخب من العلل» للخلال: ١٢٥، ما يوحي بأن الإمام أحمد ينكره عن ابن عباس. وانظر حول هذا الأثر «أبجد العلوم» لصديق حسن خان: ١/ ٤٤٠ـ ٤٤٦.

(١) في جميع النسخ: به، والصواب ما أثبته؛ لأن الضمير يعود على المثابة.

(٢) أخرجه بنحو هذا اللفظ الإمام أحمد: ٥/ ٢٣٦، من حديث معاذ، وأصله في الصحيحين كما تقدم. أما لفظ: «خالصًا من قلبه» فإنما وجدته عند البخاري: ١/ ٤٩، برقم (٩٩) من حديث أبي هريرة، لكن لفظه: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال «لا إله إلا الله» خالصًا من قلبه ـ أو نفسه ـ». وفي بعض الأحاديث: «صادقًا من قلبه» كما في المسند: ٤/ ٤٤، وغيره، وهي كثيرة جدًا، تفيد تقييد الأحاديث المطلقة في تحريم من قال «لا إلٰه لا الله» على النار، بشرط الصدق والإخلاص.

(٣) كما روى الحاكم مرفوعًا في المستدرك: ٢/ ٣١٩، برقم (٣١٤٨)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع: ٥٠٢، برقم (٣٤٣٢)، =

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝﴾.

والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تُطيعه، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله ـ تعالى ـ، إما خوفًا منه، وإمّا رجاءً له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك، فصاحب الهوى الذي قد اتبع هواه له نصيب ممن اتخذ إلٰهه هواه، فصار فيه شرك يمنعه من الاستغفار. وأما من حقّق التوحيد فلا بد أن يُرفع عنه الشر[1].

ولهذا يقرن الله ـ تعالى ـ بين التوحيد والاستغفار، كقوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦].

وقال سفيان الثوري في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ الحجر: ٤٢]، قال: ليس له عليهم سلطانٌ أن يحملهم على ذنب لا يستغفرون منه. رواه عنه ابن أبي الدنيا[2].

إذا ثبت هذا فالمسلمون وإن اشتركوا في الإقرار بلا إلٰه إلا الله، فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلاً لا يقدر أحد أن يضبطه. وهذا المقام يحقق زيادة الإيمان ونقصانَه، لا ما يظنّه بعض النّاس، من أنّ التّوحيد

= وروى الجملة الأولى الإمام أحمد: ٤/ ٤٠٣، عن أبي موسى مرفوعًا، وروى ابن أبي حاتم هذا المعنى موقوفًا على ابن عباس، في تفسيره: ١/ ٦٢، برقم (٢٢٩).

(١) كذا في جميع النسخ: الشر، ولا أستبعد أن تكون: [الشرك] كما يوحي بذلك السياق.

(٢) في «حسن الظنّ بالله»: ٢/ ١١٧، برقم (١٣٨)، غير أنّ لفظه: «..على ذنب لا يُغفر». ورواه ابن جرير في تفسيره: ٤/ ١٤/ ١٧٤، وأبو نُعيم في الحلية: ٧/ ٧٦.

المفروضَ إنما هو الإقرار والتصديق بالله ـ تعالى ـ، بأنّه خالق كل شيء وربُّه، ولا يميّزون بين توحيد الربوبيّة الذي أقرّ به المشركون، من توحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، ولا يجمعون بين التوحيد العلمي القولي، والتوحيد العملي، كما في سورتي الإخلاص[1].

وفي مسند الإمام أحمد بسند جيّد، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «جدّدوا إيمانكم». قيل: [ك،٢٧/ب] يا رسول الله، كيف نجدّدُه؟. قال: «أكثروا من قول «لا إلٰه إلا الله»»[2].

ورواه الحاكم أيضًا، وقال: صحيح [ر،٥٦/ب] الإسناد[3].

قال الذهبي[4]: وفي سند الحاكم صدقةُ بن موسى، ضعّفوه، ورجال الإمام أحمد كلّهم ثقات. قاله الهيثمي[5] وغيره.

فالمداومة عليها مع العمل بها وتحقّق معناها يجدّد الإيمان في القلب، ويملأه نورًا، ويزيده يقينًا، ويفتح أسرارًا يدركها أهل البصائر، ولا ينكرها إلا كلُّ ملحدٍ جائر.

وقد ذكر شيخنا عبدالعزيز الحصيّن[6] ـ رحمه الله ـ أن شيخه الشيخَ

---

(١) وهذا حال عامّة المتكلمين والصوفيّة، ومن تبعهم من الفرق والمذاهب، وهو سرّ تفريطهم في توحيد العبادة.

(٢) المسند: ٢/ ٣٥٩، وقد ضعفه الألباني كما في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: ٢/ ٣٠٠، برقم (٨٩٦).

(٣) المستدرك: ٤/ ٢٨٥، برقم (٧٦٥٧).

(٤) مختصر المستدرك: ٤/ ٢٥٦، مطبوع أسفل المستدرك، ط دار المعرفة.

(٥) «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٨٢.

(٦) سبقت ترجمته في قسم الدراسة ص ٤٩.

محمدَ بنَ عبدالوهاب، مصنّفَ هذا الكتاب ـ رحمه الله ـ، كان كثيرًا ما يلهج بقوله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ إذ عند ابن ماجه بسند حسن أنهنّ يحططن الخطايا كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقَها. أخرجه عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا[1].

فمواضبته عليهنّ لأنّ فيهنّ كلمة الإخلاص، التي هي كلمة الحق، وقطب دعوة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

ففيهنّ نفيُ النّقائص عن ذاته ـ جل وعلا ـ، بسبحانَ الله، ثم إثبات الكمالات، مع التنبيه على معنى الفضل والإفضال من الصفات الذاتية الإضافية[2] بالحمدُ لله، ثم إثبات الألوهية ونفيُها عن كل ما سواه، ففيه توحيد الذات، ونفي الضدّ والندّ، والتبرُّؤ من الحول والقوّة. والإثبات المذكور مدلول عليه بكلمة التوحيد، ثم إثبات الكبرياء له ـ تبارك وتعالى ـ، والاعترافُ بالعجز عن القيام بما يليق به من الثناء؛ لعجز سائر الخلق عن ذلك، ولهذا قال ـ ﷺ ـ فيما صح عنه: «سبحانك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[3].

---

(١) سنن ابن ماجه: ٢/ ١٢٥٣، كتاب الدعوات، باب الاستغفار، برقم (٣٨١٣)، وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع: ٥٤٩، برقم (٣٧٥٠)، ولا يشكل محافظة الإمام على هذه الكلمات الطيبات، والباقيات الصالحات، مع ضعف هذا الحديث، فقد وردن مجتمعات ومتفرقات في أحاديث كثيرة صحيحة، ولا يلزم من كلام الشارح أن الإمام كان يحافظ عليهنّ لمجرّد هذا الحديث.

(٢) كذا في جميع النسخ، ولعلها: الصفات الذاتية والإضافية، والمراد أن «الحمد لله» تتضمن الثناء على الله بكمال صفاته الذاتية اللازمة كالحياة، والفعلية المتعدية كالرزق.

(٣) جزء من حديث رواه مسلم: ١/ ٢٩٥، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع =

فهذه الكلمات الأربع هنّ الباقيات الصالحات في الآية الكريمة[1]، كما رواه النسائي[2] والحاكم[3]، من جملة حديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وعند الإمام أحمد[4] والنسائي[5] والترمذي[6]، في حديث البطاقة، أنّ «لا إله إلا الله» لا يقوم لها شيء في الميزان.

وعند الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح، عن عبدالرحمن بن غَنْم ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنّه قال: «من قال قبل أن ينصرفَ ويثنيَ رجلَه من صلاة المغرب والصبح: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير، يحي ويميت، وهو على كل شيء قدير»، عشر مرّات، كُتب [ر،٥٦/أ] له بكل واحدة عشرُ حسنات، ومُحيت عنه عشرُ سيئات، ورُفع له عشرُ درجات، وكانت له حرزًا من كل مكروه، وحرزًا من الشيطان الرجيم، ولم يحل لذنبٍ أن

= والسجود، برقم (٤٨٦).

(١) يريد قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ الآية [الكهف: ٤٦، مريم: ٧٦].

(٢) «السنن الكبرى»: ٦/ ٢١٢، برقم (١٠٦٨٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٦١٢، برقم (٣٢١٤).

(٣) المستدرك: ١/ ٦٩٤، برقم (١٨٨٩).

(٤) المسند: ٢/ ٢١٣. وأخرجه الحاكم: ١/ ٤٦، برقم (٩)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة: ١/ ٢١٢، برقم (١٣٥).

(٥) لم أعثر عليه في الصغرى ولا الكبرى.

(٦) السنن: ٥/ ٢٤، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد ألا إله إلا الله، برقم (٢٦٣٩).

يدركه إلا الشرك، وكان من أفضل النّاس عملاً»[1].

وروى الترمذي نحوه عن أبي الدرداء[2]، إلى قوله: «إلا الشرك»، ولم يذكر صلاة المغرب، ولا «بيده الخير». وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

قال الطّيبي[3]: «لا إلٰه إلا الله» هي الكلمة العليا، وهي القطب التي تدور عليها رحى الإسلام، والقاعدة التي بني عليها أركان الدين، وهي أعلى شُعب الإيمان، ولهذا قال الله ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ في هذا الحديث القدسي: «لو أنّ السمٰوات السبع وعامرَهنّ غيري، والأرضين السبع في كِفّة، و«لا إلٰه إلا الله» في كفة، لمالت بهنّ «لا إلٰه إلا الله»[4].

وهذا يدلّ على سعة كفّة الميزان، وأنّه حقيقة، لا مجاز كما يقول من خرج عن حقائق الشريعة، بتحريف الكلم عن مواضعه، وأنّ السمٰوات مفتوقة؛ بعضها فوق بعض، والأرضين السبع، بعضها أسفل من بعض، كما صح بذلك الخبر، واتفق على ذلك أهل العلم بالأثر. فمنه ما تقدّم ذكره.

---

(١) المسند: ٥/ ٢٢٧، وقال محققوه: حسن لغيره: ٩/ ٥١٢. ط التركي وشعيب.

(٢) بل عن عبدالرحمن بن غنم عن أبي ذر، كما في السنن: ٥/ ٥١٥، كتاب الدعوات، باب (٦٣)، حديث (٣٤٧٤). وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع: ٨٢٧، (٥٧٣٨).

(٣) هو الحسين بن محمد بن عبدالله الطِّيبي، صاحب شرح المشكاة وغيره، كان كريمًا متواضعًا حسن المعتقد، شديد الردّ على الفلاسفة والمبتدعة، مظهرًا فضائحهم، توفي سنة ٧٤٣هـ. انظر «الدرر الكامنة»: ٢/ ٦٨، ٦٩.

(٤) لم أعثر عليه في «شرح المشكاة» عند هذا الحديث: ٦/ ١٨٢٧. تحقيق عبدالحميد الهنداوي. ط ١، ١٤١٧هـ. مكتبة نزار الباز.

وعند الحاكم[1] والبيهقي عنه[2] ـ ﷺ ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «في كلّ أرض ـ أي من السبع ـ آدمُ كآدمكم، ونوحٌ كنوحكم، وإبراهيمُ كإبراهيمكم، وعيسى كعيساكم، ونبيٌّ كنبيّكم». قال البيهقي: إسناده صحيح، لكنّه شاذ بمرة، ولا دليل عليه، ولعل ابن عباس تلقاه من الإسرائيليات، فلا يعول عليه في ذكر الأنبياء.

ومَن أوّل سبعَ الأرضين على الأقاليم السبعة فقد أبعد النجعة، ولم يدر ما يقول.

فروى أبو الحسين[3] في طبقاته، من رواية أبي العبّاس، أحمدَ بنِ جعفرِ بن يعقوبَ الإصطخْري قال: قال أبو عبدالله، أحمدُ بن حنبل: هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنّة المتمسكين بعروقها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب النبي ـ ﷺ ـ إلى يومنا هذا، وأدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئًا منها، أو طعن فيها، أو عاب قائليها، فهو مخالف مبتدع، خارج عن الجماعة، زايل عن منهج السنّة وسبيل الحقّ ـ وساق أقوالهم، إلى أن قال في ذلك: ـ وخلق سبع سمٰوات؛ بعضُها فوق بعض، وسبعَ أرضين، بعضُها أسفلُ من بعض،

---

(١) المستدرك: ٢/ ٥٣٥، كتاب التفسير، سورة الطلاق، برقم (٣٨٢٢). موقوفًا على ابن عباس، وقد أنكره عنه الإمام أحمد، كما في «المنتخب من العلل» للخلال: ١٢٥.

(٢) «الأسماء والصفات»: ٤٩٣، ٤٩٤. موقوفًا على ابن عباس أيضًا، فالمؤلف واهم في رفعه.

(٣) هو محمد بن محمد بن أبي يعلى، صاحب طبقات الحنابلة، (٤٥١ـ ٥٢٦هـ). انظر «المقصد الأرشد»: ٢/ ٤٩٩.

وبين الأرض العُليا والسماء الدنيا مسيرةُ خمسِمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرةُ خمسِمائة عام، والماءُ فوق السماء السابعة، وعرش الرحمن ـ عز وجل ـ [ر،٥٧/ب] فوق الماء، والله ـ عز وجل ـ على العرش، والكُرسيّ موضعُ قدميه، وهو يعلم ما في السمٰوات والأرضين السبع، وما بينهما وما تحت الثرى، ومافي قعر البحر، ومنبتَ كل شجرة، وموضِعَ كل شعرة، وكلَّ زرع، وكلَّ نبات، ومسقَطَ كل ورقة، [وعدد](١) كل كلمة، وعدد الرمل والحصى والتراب، ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد، وآثارهم، وكلامهم، وأنفاسهم، ويعلم كل شيء، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو على العرش، فوق السماء السابعة، ودونه حجبٌ من نار ونور وظلمة، وما هو أعلم [به](٢).

قال: فإن احتج محتج مخالف مبتدع(٣) بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ الآية [المجادلة: ٧]، ونحو هذا من متشابه القرآن، قيل له: إنّما يعني بذلك العلم؛ لأنّه ـ سبحانه ـ على العرش، فوق السماء السابعة العليا، يعلم ذلك كلّه، وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان(٤)، سبحانه عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) في الأصل: «وعد»، والمثبت من الطبقات.

(٢) في الأصل: بها، والمثبت من الطبقات.

(٣) في الطبقات: فإن احتج مبتدع مخالف...

(٤) إلى هنا، من «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى: ١/ ٥٥ـ ٦١. تحقيق د/ العثيمين.

[ك،٢٧/أ] وهكذا ذكر حربٌ الكرمانيُّ صاحبُ الإمام أحمدَ هذا عنه بلفظه[١]، فإيّاك ثمّ إيّاك وبُنيّات الطريق، التي تنكبك عن الصراط المستقيم بالتعويق، فالذئب إنما يأخذ القاصية من الغنم.

فبيّن ـ تبارك وتعالى ـ في هذا الحديث القدسي لكليمه موسى على لسان رسوله محمد ـ ﷺ ـ بأنّه لو كانت السمٰوات السبع وعامرُهنّ غيرَه؛ لأنّه ـ جل وعلا وتقدّس ـ لا يشابهه شيء ولا يعادله، [والأرضون][٢] السبع وما فيهما وُضعا في كِفّة الميزان، كما يأتي مصرّحًا به، في الحديث الآخر[٣]، و«لا إله إلا الله» في كفّة الميزان الأخرى، و«الكِفّة» بالكسر، وقيل مثلّثة الكاف[٤]، وأنشدوا في ذلك:

وقالوا «كِفّةٌ» بالكسر جاءت ... وغير الكسر يأباها[٥] الفصيحُ

فقلت الفتح جاء عن الكسائي ... وما برح الفصيح به يصيحُ

وجاء عن الخليل الضمُّ فيها ... فسيحوا فالمجال بها فسيحُ

وروى المبرِّد فيه فرقا ... لثعلب فالمقام به جنوح

وذاك إذا استدار الشكل فاكسر ... وإن هو طال فالضمّ الفصيح[٦]

---

(١) لم أهتد إلى موضعه.

(٢) في الأصل: «والأرضين»، والصواب ما أثبتُّه.

(٣) انظر ما يأتي: ص [ر،٥٨/ب].

(٤) انظر اللسان: ٩/ ٣٠٤، مادة (كفف).

(٥) كذا، ويظهر لي أن صوابها: يأباه.

(٦) لم أهتد إلى مصدرها، والبيت قبل الأخير غير مستقيم. ولعلّ صوابه: «وروّانا».

فرجّح ثعلب مع الاستدارة الكسر.

(مالت بهنّ «لا إلٰه إلا الله»)، الميل هنا الرّجحان، يقال: مال الميزان، إذا رجُح بما فيه. ويقال: عال في الزيادة أيضًا، وهو تعدي [ر،٥٧/أ] القدْر. وأمّا في النقصان فهو من الخس والبخس والخسران، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨٣]، وقال: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٩]، فالميل هنا الرّجحان بما في كِفّة الميزان، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ الآية [القارعة: ٦]، وقد قال أبو طالب في النقصان والزيادة:

بميزان قسط لا يخسّ شعيرةً   له شاهد من نفسه غير عائل[1]

ففرّق بين الخَس والعول، فجعل الخس من النقصان، والعول من الزّيادة عن الحدّ.

(رواه ابن حبّان[2][3] والحاكم[4])، أبو عبدالله، محمد بن عبدالله ابن محمد النّيسابوري، المعروف بابن البّيع، صاحب «التاريخ»، و«علوم الحديث»، و«المستدرك»، وغيرها، توفّي سنة خمس وأربعمائة

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ٢٧٧.

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: ١٤/ ١٠٢، برقم (٦٢١٨) شعيب.

(٣) كُتب في الطرة ما يلي: [ابن حبان هو محمد بن حبان ـ بكسر المهملة وتشديد الموحّدة ـ، ابن أحمد بن حبان بن معاذ، أبو حاتم التميمي، البستي، الحافظ الناقد، صاحب التصانيف. كالصحيح والتاريخ والضعفاء والثقات وغير ذلك. قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال. مات سنة ٣٥٤هـ ببلده «بست»، رحمة الله عليه وعلى إخوانه].

(٤) المستدرك: ١/ ٧١٠، برقم (١٩٣٦).

بنيسابور. قاله الأزهري، وعبدالغافر، ومحمد بن يحيى المزكّي، وزاد: في صفر، وكان مولده بنيسابور، في ربيع الأول، سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة[1].

(وصحّحه)، في المستدرك على الصحيحين. ورواه أيضًا النّسائي[2]، وأبو نُعيم[3]، وهو عند الجميع من طريق درّاج أبي السمح[4]، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد به. ورواه أيضًا أبو يعلى الموصلي في مسنده[5].

وحديث البطاقة في ذلك معلوم، وهو عند الترمذي[6]، وابن ماجه[7]، وابن حبّان[8]، والبيهقي[9]، والحاكم[10]، وصحّحه من حديث عبدالله ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا. ونحوه عنه أيضًا عند الإمام

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» للذهبي: ١٧/ ١٦٢ وما بعدها.
(٢) في الكبرى: ٦/ ٢٠٨، برقم (١٠٦٧٠)، ٦/ ٢٨٠، برقم (١٠٩٨٠)، وفي «عمل اليوم والليلة»: ٢/ ٤٨٢، برقم (٨٣٤).
(٣) في «حلية الأولياء»: ٨/ ٣٢٨.
(٤) وبه ضُعّف الحديث؛ ففي التقريب (٢٠١، برقم ١٨٢٤): صدوق، في حديثه عن أبي الهيثم ضعف.
(٥) ٢/ ٥٢٨، برقم (١٣٩٣)، ورواه أيضًا الطبراني في الدعاء: ٣/ ١٤٨٩، برقم (١٤٨٠).
(٦) السنن: ٥/ ٢٤، كتاب الإيمان، باب (١٧)، برقم (٢٦٣٩). وصححه الألباني في الصحيحة: ١/ ٢١٢ برقم (١٣٥).
(٧) السنن: ٢/ ١٤٣٧، كتاب الزهد، باب (٣٥)، برقم (٤٣٠٠).
(٨) الإحسان: ١/ ٤٦١، برقم (٢٢٥) شعيب.
(٩) «شعب الإيمان»: ١/ ٢٦٤، برقم (٢٨٣).
(١٠) المستدرك: ١/ ٤٦، برقم (٩)، و١/ ٧١٠، برقم (١٩٣٧).

أحمد في مسنده[1]. [2]

وممّا يدلّ على سعة الميزان: ما عند الحاكم ـ وقال: صحيح على شرط مسلم ـ عن سلمان ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السمٰوات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: لمن تزن هذا؟، فيقول: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك، ما عبدناك حق عبادتك»[3]. ورواه ابن المبارك[4] والآجرّي[5] موقوفًا على سلمان، وهو عند ابن مردويه بنحوه مرفوعًا عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ[6].

وقال ابن عبّاس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه: وهو يخفّ بمثقال حبّة ويرجح[7]. قال ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ الآية [الزلزلة: ٧]. وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ

---

(١) المسند: ٢/ ٢١٣. وقوّى محققو المسند إسناده: ١١/ ٥٧١، ط التركي، برقم (٦٩٩٤)، من حديث عبدالله بن عمر، وهو وهم، فالحديث إنما هو عن ابن عمرو ابن العاص.

(٢) كتب أمامه في الطرة: [بلغ مقابلة على أصله على يد مؤلفه عفى الله عنه].

(٣) المستدرك: ٤/ ٦٢٩، برقم (٨٧٣٩)، وأقرّه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة: ٢/ ٦٥٦.

(٤) الزهد: ٤٧٨، برقم (١٣٥٧) ط. الأعظمي.

(٥) «الشريعة»: ٣/ ١٣٢٩، برقم (٨٩٥)، وصحح المحقق إسناده، ورواه اللالكائي: ٦/ ١١٧٣، برقم (٢٢٠٨).

(٦) كما في «الدر المنثور»: ٣/ ١٣٠، ١٣١.

(٧) ذكره في «الدر المنثور»: ٣/ ١٣٠، ولم أجده في تفسير ابن أبي حاتم لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ في سورة الأعراف، فلعله رواه في غير هذا الموضع، وقد أخرجه ابن جرير في تفسيره عن ابن مسعود: ٨/ ١٩١.

﴿شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ﴾ الآية [الأنبياء: ٤٧].

وروى البزّار[١] [والحاكم][٢] في صحيحه[٣] ـ وقال صحيح الإسناد ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ، أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنّ نوحًا ـ عليه السلام ـ لمّا حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال: آمركا بلا إلٰه إلا الله، فإنّ السمٰوات والأرض وما فيهما لو وضعتا في كفّة [ر،٥٨/ب] الميزان، ووضعت «لا إلٰه إلا الله» في الكفة الأخرى، كانت أرجح منهما».

وروى الطبراني أيضًا عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده، لو جيء بالسمٰوات والأرضين ومن فيهنّ وما بينهنّ وما تحتهنّ فوضعت في كفّة الميزان، ووضعت شهادة «لا إلٰه إلا الله» في الكفّة الأخرى، لرجُحت بهنّ»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا ابن وهب، ثنا جرير بن حازم، ثنا أبي، سمعت الصقعب بن زهير يحدّث، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن

---

(١) «كشف الأستار عن زوائد البزّار»: ٤/ ٧، ٩، برقم (٣٠٦٩) وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤١٧) عن رواية البزار: ورواته محتج بهم في الصحيح، إلا ابن إسحاق. ورواه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول»: ٢٥٥، برقم (٢٠٦). ورواه النسائي في الكبرى: ٦/ ٢٠٨، برقم (١٠٦٦٨)..

(٢) ساقطة من الأصول، والسياق يقتضيها؛ فإن كتاب البزار يسمى مسنداً لا صحيحاً، والحاكم قد أخرج الحديث واللفظ له.

(٣) المستدرك: ١/ ١١٢، برقم (١٥٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجا للصقعب بن زهير فإنه ثقة قليل الحديث... اهـ. واللفظ الذي ذكره المصنف لفظ الحاكم.

(٤) المعجم الكبير: ١٢/ ٢٥٤، برقم (١٣٠٢٤)، وقال في المجمع (٤/ ٣٢٣): رجاله ثقات، إلا أن ابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس.

يسار، عن ابن [عمرو] ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ أعرابي عليه جبّة طيالسيّة مكفوفة بديباج، أو مزرورة بديباج، فقال ـ يعني لمن حضر ـ: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع، ويضعَ كل رأس ابنَ رأس، فقام النبي ـ ﷺ ـ مغضبًا، فأخذ بمجامع جبّته فاجتذبه فقال: «[ألا][1] أرى عليك ثياب من لا يعقل». ثم رجع رسول الله ـ ﷺ ـ فجلس فقال: «إنّ نوحًا ـ عليه السلام ـ لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال: إنّي قاصّ عليكما الوصيّة، آمركما باثنتين، وأنهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشرك بالله والكبْر، وآمركما بلا إلٰه إلا الله؛ فإن السمٰوات والأرض وما فيهما لو وضعت [ك،٢٨/ب] في كفّة الميزان، ووضعت «لا إلٰه إلا الله» في الكفّة الأخرى، لمالت بهنّ «لا إلٰه إلا الله»، ولو أنّ السمٰوات والأرض حلْقة، فوضعت «لا إلٰه إلا الله» عليها لقصمتها، وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرزق كل شيء»[2].

ورواه أيضًا من طريق آخر، عن سليمانَ بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصقعب بن زهير به، أطولَ من هذا[3].

وروى ابن جرير بسنده، عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ـ عليه السلام ـ ابنه، إنّ نوحًا

---

(١) في الأصل: «لا أرى»، آخر وكذا هي في المسند، لكن جاء صوابها في الموضع الثاني من المسند: ٢/١٦٩ط. الإسلامي. (١١/ ١٥٠)ط التركي.

(٢) المسند: ٢/ ٢٢٥، وصحح محققو المسند إسناده: ١١/ ٦٧١، برقم (٧١٠١) ط. التركي. والحديث فيه عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وقد وقع في الأصل: «عن ابن عمر»، وهو وهم.

(٣) المسند: ٢/ ١٦٩، وصحح محققو المسند إسناده: ١١/ ١٥٠، ط. التركي.

قال لابنه: يا بنيّ، آمرك أن تقول: «لا إلٰه إلا الله»، وسبحان الله؛ فإنّها صلاة الخلق، وتسبيحُ الخلق، وبها يرزق الخلق، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] [الإسراء: ٤٤]. وإسناده فيه ضعف عند الأكثرين، يعني إسناد ابن جرير.

والصقعب بن زهير هو الأزدي الكوفي، ثقة[2]، وزيد بن أسلم العدوي، مولى عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ، المدني، ثقة عالم[3]. وعطاء بن يسار الهلالي هو أبو محمد المدني، مولى ميمونة ـ رضي الله عنها ـ، ثقة فاضل تابعي[4]. وجرير بن حازم بن زيد بن عبدالله الأزدي، أبو النضر البصري، ثقة، إلا أن له أوهامًا إذا حدّث عن حفظه ـ رحمه الله تعالى ـ، واختلط آخر عمره، ولم يحدّث حال اختلاطه[5]. وابن وهب هو عبدالله، صاحب الإمام مالك، لا يسأل عنه[6].

وهذه الأحاديث فيها شاهد لحديث أبي سعيد الخدري، وحديث عبدالله بن [عمرو][7].

---

(١) التفسير: ١٥/ ٩٢.

(٢) كما في التقريب: ٢٧٧، برقم (٢٩٤٦).

(٣) زاد في التقريب: «وكان يرسل»: مات سنة ١٣٦هـ. ٢٢٢، برقم (٢١١٧).

(٤) مات سنة ٩٤هـ. التقريب: ٣٩٢، برقم (٤٦٠٥).

(٥) مات سنة ١٧٠هـ. التقريب: ١٣٨، برقم (٩١١).

(٦) مات سنة ١٩٧هـ. التقريب: ٣٢٨، برقم (٣٦٩٤).

(٧) وقع في الأصل: عبدالله بن عمر، وقد تكرر هذا الوهم، وأن الصواب: ابن عمرو؛ فهو راوي حديث البطاقة المتقدم، وكذلك حديث وصية نوح.

وعند النسائي[1] مرفوعًا،[ر،٥٨/أ] من طريق سليمان بن يسار، عن رجل من الأنصار، والبزّار[2] عن ثوبان مولى رسول الله ـ ﷺ ـ أنّه قال: «بخٍ بخٍ لخمس، ما أثقلَهنّ في الميزان: «لا إله إلا الله»، و«سبحان الله»، و«الحمد لله» و«الله أكبر»، والولد الصالح يُتوفى للمرء المسلم فيحتسبُه». رواه ابن ماجه[3] وابن حبان[4] والحاكم[5]، عن أبي سلمى راعي رسول الله ـ ﷺ ـ.

قال ابن عساكر[6]: إنّه يعرف بكنيته، ولم أقف على اسمه، وقيل اسمه «حريث»، قاله في «أُسْد الغابة في أسماء الصحابة»[7]، وذكر حديثه هذا.

وقال الحاكم عن هذا الحديث: إنه صحيح الإسناد، وأقرّه عليه الذهبي في مختصره للمستدرك[8].

---

(١) السنن الكبرى: ٦/ ٥٠، برقم (٩٩٩٥)،إلا أن فيها: «والعبد الصالح»... وقد صححه الألباني كما في الصحيحة: ٣/ ٢٠٢، برقم (١٢٠٤).

(٢) «كشف الأستار عن زوائد البزّار»: ٤/ ٩، برقم (٣٠٧٢)، وقال البزّار: إسناده حسن.

(٣) لم أجده في سننه، وأظنه وهم من المؤلف؛ إذ لم يعزه أحد إلى ابن ماجه.

(٤) الإحسان: ٣/ ١١٥، برقم (٨٣٣).

(٥) المستدرك: ١/ ٦٩٢، برقم (١٨٨٥)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٦) «تاريخ دمشق»: ٦٦/ ٢٧٥.

(٧) «أسد الغابة»: ١/ ٤٧٨ لابن الأثير، طبعة الشعب بمصر ١٩٧٠، والنص منقول منه، وابن الأثير ينقل عن ابن عساكر، فعزى المؤلف الكلام للاثنين!. وجاء التصريح باسمه في بعض الروايات، كما في مسند الشاميين للطبراني: ١/ ٣٥٧، برقم (٦١٥).

(٨) مختصر المستدرك: ١/ ٥١١، ٥١٢، في حاشية المستدرك.

ورواه الإمام أحمد عن أبي أمامة[1].

ورواه الطبراني عن سفينة مولى رسول الله ـ ﷺ ـ[2].

وقال المنذري: إنّ رجاله رجال الصحيح[3].

وقال البزّار في إسناده إنّه حسن[4].

وقد اختلف العلماء رحمهم الله ـ تعالى ـ: أيما أفضل، قول «لا إله إلا الله»، أو قول «الحمد لله رب العالمين»؟. فذهبت طائفة إلى تفضيل الثاني؛ لأن في ضمنه التوحيد، الذي هو «لا إله إلا الله»، ففيه توحيد وحمد. وجزمت طائفة بالأوّل؛ لأن «لا إله إلا الله» تدفع الكفر والشرك، وعليها يقاتَل الخلق، قال ـ ﷺ ـ: «أمرت أن أقاتل النّاس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله» الحديث[5].

قلت: والحاكم في ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ، في قوله: «أفضل ما قلته أنا والنبيّون من قبلي: «لا إله إلا الله» الحديث[6].

---

(١) المسند: ٥/ ٢٥٣، وقد وهم العلامة الألباني في قوله: ليس له أصل عن أبي أمامة فيما علمت. السلسلة الصحيحة: ٣/ ٢٠٣. ووهّم بذلك السيوطي في الجامع الصغير.

(٢) الأوسط: ٥/ ٢٢٥، برقم (٥١٥٢).

(٣) «الترغيب والترهيب»: ٢/ ٤٣٠. ط مصطفى عمارة.

(٤) «كشف الأستار»: ٤/ ٩.

(٥) أخرجه البخاري: ١/ ١٧، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُواْ ..﴾، برقم (٢٥)، ومسلم: ١/ ٥٨، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين، برقم (٢٢).

(٦) رواه بهذا اللفظ البيهقي في «السنن الكبرى»: ٤/ ٨٤، ٥/ ١١٧، وقال: هذا مرسل، وقد رُوي عن مالك بإسناد آخر موصولاً، ووصله ضعيف. اهـ. وكذلك =

رواه الترمذي[1] من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، ولفظه: «خير ما قلت أنا والنبيون» الحديث. وفيه حماد بن أبي حميد، ليس بالقوي، ولذا قال فيه الترمذي إنّه غريب.

ورواه الإمام مالك في الموطأ[2]، وصحّحه الحافظ ابن العربي[3].

إلا أنّ قومًا قالوا: التحميد أفضل ما يقال في مقام التحميد، و«لا إله إلا الله» أفضل ما يقال في مقام التوحيد. واستدلوا بالحديث الذي رواه النسائي[4] وابن ماجه[5]، عن جابر - رضي الله عنه - مرفوعًا: «أفضل الذكر «لا إله إلا الله»، وأفضل الدعاء «الحمد لله»». ورواه الترمذي، وقال: حسن غريب[6]. ورواه أيضًا ابن حبان[7] والحاكم، وقال: صحيح الإسناد[8]. وهو عند الجميع مرفوع إلى النبي - ﷺ -.

وهذا دليل قوي للقول الأخير، وفيه جمع بين الأدلّة، إلا أنّه

= هو في مصنف عبدالرزاق: ٤/ ٣٧٨، برقم (٨١٢٥). وقد صححه الألباني كما في الصحيحة: ٤/ ٦، برقم (١٥٠٣).

(١) السنن: ٥/ ٥٧٢، كتاب الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة، برقم (٣٥٨٥).

(٢) «الموطأ»: ١/ ٢١٤، برقم (٥٠٠).

(٣) لم أهتد إلى موضع تصحيحه لهذا الحديث، ولم أجده في «عارضة الأحوذي».

(٤) في الكبرى: ٦/ ٢٠٨، برقم (١٠٦٦٧)، وصححه الألباني كما في الصحيحة: ٣/ ٤٨٤، برقم (١٤٩٧)، إلا أن الرواية التي صححها فيها: «وأفضل الشكر الحمد لله»، وهي للخرائطي في «فضيلة الشكر»: ٣٥.

(٥) السنن: ٢/ ١٢٤٩، برقم (٣٨٠٠)، كتاب الدعاء، باب فضل الحامدين.

(٦) السنن: ٥/ ٤٦٢، كتاب الدعاء، باب (٩)، برقم (٣٣٨٣).

(٧) الإحسان: ٣/ ١٢٦، برقم (٨٤٦).

(٨) المستدرك: ١/ ٦٧٦، برقم (١٨٣٤)، ١/ ٦٨١، برقم (١٨٠٢).

ـ ﷺ ـ فضّل قول [يونس][1] ـ عليه السلام ـ في موضع الدعاء، في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ الآية [الأنبياء: ٨٧]، وهو يتضمّن الدعائين: دعاء المسألة، ودعاء العبادة أيضًا.

(وللترمذي في جامعه وحسّنه[2]، عن أنس) بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ـ ﷺ ـ، خدمه عشر سنين، مات سنة اثنتين ـ وقيل ثلاث ـ وتسعين، وقد جاوز المائة ـ رضي الله عنه ـ [ر،٥٩/ب] وأرضاه ـ.

قال: (سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «قال الله ـ تعالى ـ) يابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك».

---

(١) في الأصل «أيوب»، وهو وهم؛ فإن المحكي عنه في القرآن قول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ إنما هو يونس، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، وأما ما ذكره من تفضيل النبي ـ ﷺ ـ لقول يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، فقد رواه أحمد في المسند (١/ ٧٠) عن سعد بن أبي وقاص مرفوعًا: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾؛ فإنه لم يدع بها مسلم ربّه في شيء قط إلا استجاب له». ورواه غيره، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: ١/ ٦٣٧، برقم (٣٣٨٣). وبمعناه أحاديث أخرى مرفوعة، انظرها في الدر المنثور: ٤/ ٥٩٩، ٦٠٠.

(٢) السنن: ٥/ ٥٤٨، كتاب الدعوات، باب فضل التوبة. . ، برقم (٣٥٤٠)، ولم أجد تحسينه في هذا الموضع، وإنما قال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد حسنه الألباني في الصحيحة: ١/ ١٩٩، برقم (١٢٧). وذكر ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: (٣/ ٤٠٠) أن الترمذي حسنه، وكذلك الألباني، فلعلها سقطت من المطبوع. ثم وجدتها في الطبعة التي مع تحفة الأحوذي: ٩/ ٥٢٥.

(يابن آدم): لما كان هذا النداء عامًّا نُسب المنادى إلى أبي البشر ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قال أهل اللغة: آدم مشتق اسمه من أديم الأرض؛ لأنّه خُلق من تراب، وأديم الأرض وجْهُها[1].

قال الزجّاج[2]: اختلفت الآيات فيما بُدىء به خلق آدم، ففي موضع خلقه الله من تراب، وفي موضع من طين، وفي موضع من حمأ مسنون، وفي موضع من صلصال. قال: وهذه الألفاظ راجعة إلى أصل واحد؛ وهو التراب الذي هو أصل الطين. فأعلمنا الله ـ سبحانه ـ أنّه خلقه من تراب جعله طينًا، ثم انتقل فصار كالحمأ المسنون، ثم انتقل فصار صلصالاً كالفخّار.

وهكذا قال الإمام أحمد في هذه الآيات، ردًّا على من ادّعى تناقض القرآن الكريم كالجهمية[3].

(إنك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا)، رُوي بضم القاف وكسرها؛ لغتان، والضم أشهر، أي ما يقارب مِلأها، قاله في مختصر النهاية[4].

وقيل معناه بالضم: مِلأها، وبالكسر مصدر «قارب»؛ أراد به ما يقارب مِلأها.

---

(١) انظر «المقاييس»: ١/ ٧٢.

(٢) لم أهتد إلى موضع كلامه في «معاني القرآن وإعرابه».

(٣) انظر «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد: ٩، ١٠.

(٤) انظر «النهاية»: ٤/ ٣٤.

وقوله (عنان السماء) بفتح العين المهملة: نواحيها، وقيل: ما عنّ لك منها؛ أي ظهر لك إذا رفعت رأسك، وقيل: هو السحاب، والأول أليق بسياق الحديث، ولذلك اقتصر عليه في مختصر النهاية[1].
ويرجّحه الرواية الأخرى: «لو أخطأتم حتّى بلغت خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم اللهَ لغفر لكم»[2].

(ثم لقيتَني)، قال الحافظ ابن العربي المالكي[3] ـ رحمه الله تعالى ـ: اللقاء عند العرب في لسانهم لا يكون إلا [ك،٢٨/أ] مع الرؤية، إلا أنْ يكون معه قرينةٌ تدل على المنع من الرؤية، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة: ٧٧].

وقد أجمع أهل السنّة بأجمعهم على رؤية المؤمنين ربَّهم في الآخرة، وأنها غير مستحيلة عقلاً، وأنكر ذلك طوائف من المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة من المبتدعة. قال أهل السنّة والجماعة: وهذا خطأ صريح، وجهل قبيح[4].

وقد تظاهرت أدلّة الكتاب والسنّة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمّة على إثبات رؤية الله ـ سبحانه ـ في الآخرة للمؤمنين، ورواها نحوٌ من عشرين صحابيًّا عن رسول الله ـ ﷺ ـ، وآيات القرآن

---

(١) انظر «النهاية»: ٣/ ٣١٣.
(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ٣/ ٢٣٨، وقال محققوه: صحيح لغيره، ٢١/ ١٤٦، رقم (١٣٤٩٣).
(٣) لم أهتد إلى موضع كلامه.
(٤) عن شرح مسلم للنووي: ٣/ ١٥.

في ذلك مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها بألسنة أهل السنّة مُدحضة منثورة.

ثم بيّن حاله وجزاءه فقال: (.. لا تشركُ بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة)، وهذا بيان لكثرة مغفرته، كيلا ييأس المذنبون منها، لكثرة الخطيئة.

ولا يجوز للمرء أن [ر،٥٩/أ] يغترّ بها وباقتراف المعاصي؛ لأنّ الله ـ تعالى ـ عقوبةً شديدة لبعض المذنبين، فينبغي أن يَخاف منها، ويرجوَ المغفرة. ولذلك يقول الله ـ تعالى ـ لرسوله محمد ـ ﷺ ـ: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد: ١٩].

قال الحسن البصري: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم؛ فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة[١].

فقد علمت بهذا الحديث أن من أسباب المغفرة تجريدَ التوحيد عن الشرك، وهو السبب الأعظم في غفران الذنوب، ومن فقده فقد فقد المغفرة، ومن جاء به فقد جاء بأعظم أسباب المغفرة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن عطاء

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان: ١/ ٤٤٣، برقم (٦٥٦)، إلا أنه قال: «..لا تدرون في أي وقت تنزل البركة».

ابن السائب، عن أبي البختري، عن عبيدة، عن عبدالله بن الزبير، عن النبي ـ ﷺ ـ، «أن رجلاً حلف بالله الذي لا إلٰه إلا هو كاذبًا فغُفر له». قال شعبة: من قِبل التوحيد[1].

وعند أبي داود، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاث من أصل الإيمان: الكفّ عمّن قال: «لا إلٰه إلا الله» لا نكفّرُه بذنب، ولا نخرجُه من الإسلام بعمل، والجهادُ ماضٍ منذ بعثني الله ـ عز وجل ـ إلى أن يقاتل آخر أمّتي الدجّال، لا يبطله جورُ جائر، ولا عدُل عادل، والإيمان بالأقدار»[2]. إلا أنّ فيه يزيدَ بن أبي نُشبة ـ بضم النون ـ، لم يخرج له بقيّة الستّة. قال ابن حجر والمناوي: إنّه مجهول[3].

وعند أبي يعلى الموصلي قال: حدثنا عمر بن الضحّاك، حدثنا أبي، حدّثنا أبو همّام الهنائي، حدثنا ثابت، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء رجلٌ النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، ما تركت حاجة ولا داجة إلا قد أتيتها. قال: أليس تشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثلاث مرّات، قال: نعم. قال: فإن ذلك يأتي على ذلك

(١) المسند: ٤/٣، وضعّف محققوه إسناده، ٢٦/ ٢٦، برقم (١٦١٠١). ورواه النسائي في الكبرى: ٤٨٩/٣، برقم (٦٠٠٥)، والضياء في المختارة: ٣٢٠/٩ برقم (٢٨١)، و٩/ ٣٢١، برقم (٢٨٣).

(٢) السنن: ٣/ ١٨، كتاب الجهاد، باب في الغزو مع أئمة الجور، برقم (٢٥٣٢). ورواه البيهقي في الكبرى: ٩/ ١٥٦، برقم (١٨٢٦١)، وفي الاعتقاد: ١٨٨، وأبو يعلى في المسنده: ٧/ ٢٨٧، برقم (٤٣١٢). وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع: ٣٧٣، برقم (٢٥٣٢).

(٣) انظر التقريب: ٦٠٥، برقم (٧٧٨٥).

كلّه»[1].

وعند أبي حاتم[2]، عن ابن أخي أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: إنّ لي ابن أخ لا ينتهي عن الحرام. قال: وما دينُه؟. قال: يصلي ويوحّد الله. قال: استوهبْ منه دينَه، فإن أبى فابتعْه منه. فطلب الرجل ذلك منه فأبى عليه، فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره فقال: وجدتُّه شحيحًا على دينه. قال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[3].

فصرّح الحديث أنّ من جاء مع التوحيد بقُراب الأرض ـ وهو ملؤها، أو ما يقاربه ـ خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة، لكن هذا مع مشيئة الله ـ سبحانه ـ،[ر،٦٠/ب] فإن شاء غفر له، وإن شاء واخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته ألا يخلّده في النّار، بل يخرج منها، ثم يدخل الجنّة، فإن كمُل توحيد العبد، وإخلاصُه لله ـ سبحانه ـ، وقام بشروطه كلّها، بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، بحيث لا يمكنه العمل بالجوارح، أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلّها، ومنعه من دخول النّار بالكلية، إلاّ تحلّة القسم، كما تقدّم.

(١) مسند أبي يعلى: ٦/ ١٥٥، برقم (٣٤٣٣). وصحح المحقق إسناده. ورواه الضياء في المختارة: ٥/ ١٥١، (١٧٧٣) وقال: إسناده صحيح. والطبراني في الكبير: ٧/ ٣١٤، برقم (٧٢٣٥). والبيهقي في الشعب: ٥/ ٤٠٤، برقم (٧٠٨٦).

(٢) كذا في الأصل، ومع أن الحديث من رواية أبي حاتم الرازي، إلا أن الصواب أن يقال: «وعند ابن أبي حاتم»؛ لأنه هو صاحب التفسير، لا أبوه.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم: ٣/ ٩٧١، برقم (٥٤٢٤). رواه الطبراني في الكبير: ٤/ ١٧٧، برقم (٤٠٦٣). وقال في المجمع (٧/ ٥): فيه واصل بن السائب وهو ضعيف.

فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبُه أخرجت منه كلَّ ما سوى الله، محبة وتعظيما وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكّلا، وحينئذ تحرق ذنوبَه وخطاياه كلَّها، ولو كانت مثل زبَد البحر، وربّما قلبتها حسنات، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

فهذا التوحيد هو الإكسير الأعظم، الذي لو وضع منه ذرّة على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات، كما في المسند وغيره عن أم هانىء ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا إله إلا الله» لا تترك ذنْبًا، ولا يسبقُها عمل»[1].

وفي المسند[2] ومعجم الطبراني[3] بسند حسن، عن شدّاد بن أوس وعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنهما ـ، أنّ النبي ـ ﷺ ـ قال لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ: «ارفعوا أيديكم، وقولوا «لا إله إلا الله». فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ـ ﷺ ـ يده، ثم قال: الحمد لله، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني الجنّة عليها،

(١) معناه في المسند: ٦/ ٣٤٤ دون قوله «لا تترك ذنبًا»، وهو بلفظه هذا في سنن ابن ماجه: ٢/ ١٢٤٨، كتاب الأدب، باب فضل «لا إله إلا الله»، برقم (٣٧٩٧)، وبنحوه في «المعجم الأوسط»: ٧/ ٣٤٩ برقم (٧٦٩٤)، ورواه الطبراني في الكبير: ٨/ ١١٥ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ. وقد ضعف الألباني حديث أم هانىء، كما في ضعيف سنن ابن ماجه: ٣٠٦، برقم (٨٢٧).

(٢) ٤/ ١٢٤، وهذا لفظه، وقد ضعف محققو المسند إسناده، ٢٨/ ٣٤٨، برقم (١٧١٢١).

(٣) الكبير: ٧/ ٢٨٩، مختصرًا وهو في مسند الشاميين: ٢/ ١٥٧، برقم (١١٠٣)، بهذا اللفظ، ورواه الحاكم في المستدرك: ١/ ٦٧٩، برقم (١٨٤٤).

وإنك لا تخلف الميعاد». ثم قال: «أبشروا؛ فإن الله قد غفر لكم».

وأخرج الإمام أحمد أيضًا عن أبي ذر - رضي الله عنه -، من طريق لا بأس به، نحو حديث أنس، الذي أورد المصنف في المتن[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أو أبي سعيد الخدري - بالشك -، عن النبي - ﷺ - أنّه قال: «من شهد ألاّ إله إلا الله، وأنّي رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غيرَ شاك فيهما فيحجب عن الجنّة»[2].

وفيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، أنّ النبي - ﷺ - قال له يومًا: «من لقيت يشهد ألا إله إلا [ر،٦٠/أ] الله مستيقنًا بها قلبه فبشّره بالجنّة»[3].

والأحايث في هذا المعنى كثيرة جدًا، ولكن قال بعض السلف: إنّ كلمة التوحيد سبب يقتضي لدخول الجنّة، وللنجاة من النّار، لكن لذلك شروط وهي الإتيان بالفرائض، وموانع وهي إتيان الكبائر.

قال وهب بن منبّه كما في البخاري عنه، لما قيل له: أليس مفتاح الجنّة «لا إله إلا الله»؟. قال: بلى، ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلا لم يفتح لك[4].

وفي رواية غير البخاري، [ك،٢٩/ب] أنّ ابن عبّاس - رضي الله عنهما -

---

(١) المسند: ٥/ ١٤٨، ١٦٧، ١٧٢.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٦١، كتاب الإيمان، باب (١٠)، برقم (٢٧). وفي الأصل: «لا يلقى بهما..»

(٣) صحيح مسلم: ١/ ٦٣، ٦٤، كتاب الإيمان، باب (١٠)، برقم (٣١).

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٤١٧، أول كتاب الجنائز.

ذُكر له قول وهب فقال: صدق، وأنا أخبركم عن الأسنان ما هي. فذكَر الصلاة والزكاة وشرائع الإسلام[١].

وقال الحسن البصري للفرزدق: يا أبا فراس، إن للا إلٰه إلا الله شروطا، فإياك وقذف المحصنة[٢].

وعنه أنّه قال: هذا العمود، فأين الطنُب[٣].

يعني أن كلمة التوحيد عمود الفسطاط، ولا يثبت الفسطاط دون أطنابه، وهي فعل الواجبات، وترك المحرّمات[٤].

وذكر ابن عبدالبرّ في ترجمة أبي رجاء العطاردي[٥]، عن الهيثم بن عدي، عن [أبي][٦] بكر بن عياش قال: اجتمع في جنازة أبي رجاء العطاردي الحسن البصري والفرزدق، فقال الفرزدق للحسن: يا أبا سعيد، يقول الناس اجتمع في هذه الجنازة خير النّاس وشرّهم. فقال

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٥٨٤.

(٣) لم أعثر عليه. وقد ذكره عنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: ص ٢٠٩.

(٤) عن «جامع العلوم والحكم»: ص ٢٠٩.

(٥) واسمه عمران بن ملحان، أدرك الجاهلية، ولم ير النبي -ﷺ-، توفي سنة ١٠٧هـ. انظر ترجمته والقصة التي أوردها المصنف في «الاستيعاب» لابن عبدالبر: ٣/ ٢٣ في حاشية الإصابة.

(٦) ساقطة من جميع النسخ، واستدركتها من الاستيعاب. وأبو بكر بن عياش هو شعبة بن عياش بن سالم الأسدي الكوفي الإمام، كان كثير العلم والعمل، صاحب سنة وعبادة، معروفًا بالصلاح والورع، توفي سنة ١٩٣هـ.

انظر: تاريخ ابن معين برواية الدوري (٢/ ٦٦٦)، معرفة القراء الكبار، الذهبي (١/ ١٣٤).

الحسن: لستُ بخيرهم، ولستَ بشرّهم، ولكن ما أعددت لهذا اليوم يا أبا فراس؟. فقال: شهادةَ ألا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم انصرف الفرزدق، فقال يرثي أبا رجاء ـ وكان من قومه بني تميم، أدرك النبي ـ ﷺ ـ ولم يره ـ:

ألم ترَ أنّ الناس مات كبيرهم ... وقد كان قبل البعث بعث محمدِ

ولم يغنِ عنه عيشُ سبعين حجّةً ... وستين لما بات[1] غير موسّدِ

إلى حُفرة غبراء يُكره وِردها ... سوى أنّها مثوى وضيع وسيّدِ

إلى أن قال:

نروح ونغدوا والحتوف أمامنا ... يضعن لنا كفّ الردى كل مرصدِ

وقد قال لي: ماذا تُعدّ لما ترى ... فقيهٌ إذا ما قال غيرُ مُفنَّدِ

فقلت له أعددت للبعث والذي ... أُراد به أني شهيد بأحمدِ

وألا إلٰهًا غيرَ ربي هو الذي ... يميت ويحي يوم بعث وموعدِ

فهذا الذي أعددتُ لا شيء غيره ... وإن قلت لي أكثر من الخير وازددِ

فقال لقد أعصمت بالخير كله ... تمسّك بهذا يا فرزدق ترشُدِ[2]

وروى ابن أبي الدنيا معناه باختصار، وفيه: قال له الحسن: يا أبا فراس، ما أعددتَ لهذا؟ فقال: لا والله ما أعددتُ له إلا شهادةَ أن لا

---

(١) في النسخ الثلاث: (بان) بالنون، والمثبت من الاستيعاب.

(٢) انظر الخبر والأبيات في «الاستيعاب»: ٣/ ٢٥، ٢٦، في حاشية «الإصابة».

إلٰه إلا الله، منذ ثمانين سنة. فقال الحسن: اثبت عليها، وأبشر. فلما مات الفرزدق رآه ابنه في النّوم فقال: أي بني، نفعتني الكلمة التي راجعت فيها الحسن(١).

قلت: فكأن قول الحسن هذا مشتق من قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ الآية؛ فقد قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ: أي عليها، أي قالوا: «لا إلٰه إلا الله»،[ر،٦١/ب] ثم استقاموا عليها، ولم يروغوا روَغان الثعالب(٢).

وقيل للحسن أيضًا: إنّ ناسًا يقولون: من قال: «لا إلٰه إلا الله» دخل الجنّة. فقال: من قال: «لا إلٰه إلا الله» وأدّى حقّها وفرْضها دخل الجنّة(٣).

ورُوي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّه سُئل عن «لا إلٰه إلا الله»: هل يضرّ معها عمل، كما أنّه لا ينفع مع تركها عمل؟. فقال ابن عمر: «عَشِّ ولا تغتر». ثم سُئل ابن عباس فقال مثل ذلك. ثمّ سئل ابن الزبير فقال مثل ذلك. ذكره أبو عبيد القاسم بن سلاّم(٤)

---

(١) «حسن الظنّ بالله ـ تعالى ـ»: ١٠١، ط. دار طيبة، الرياض، ١٤٠٨هـ.

(٢) انظر تفسير الطبري: ٢٤/ ١١٥.

(٣) لم أقف على من رواه عنه، وقد ذكره عنه النووي في شرح مسلم: ١/ ٢١٩، وابن حجر في الفتح: ١١/ ٢٦٩.

(٤) هو القاسم بن سلام الهروي، الأزدي، الخزاعي بالولاء، الخرساني، البغدادي، أبو عبيد من كبار العلماء، محدث، فقيه، أديب، من أهل هراة، ولد بها سنة ١٥٧هـ، وبها تعلم، وكان مؤدبًا، توفي بعد حجه بمكة سنة ٢٢٤هـ، له غريب الحديث وهو أول من صنف في ذلك، وغريب القرآن، والأموال وغير ذلك.

انظر: طبقات الحنابلة، أبو يعلى (١/ ٢٥٩)، تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ٥) وانظر =

وغيره[1].

وهذا مَثَلٌ أصله أنّ رجلاً أراد أن يقطع مفازة بإبله، فاتكل على ما فيها من الكلأ، فقيل له: عشِّ إبلك قبل أن تفوّز بها، وخذ بالاحتياط وإن كان فيها كلأ.

فأرادوا ـ رضي الله عنهم ـ ذلك المعنى في العمل، يقولون: اجتنب الذنوب، ولا ترتكبها، واعمل بالطّاعات، ولا تترْكْها اتكالاً على ذلك، وخذ في ذلك بالثقة والاحتياط. قال أبو النجم[2]:

عشِّي [تميم] واصغُرى فيمن صغَر ولا تُريدي الحرب واجتزِّي الوبر[3]

يقول: خذي بالثقة في ترك الحرب، وعليك بالإبل فعالجيها؛ إنكِ لستِ صاحبة حرب، وجزّي من وبَرها وانعمي.

فالمرجئة يقولون: لا يضرّ مع التوحيد عمل، كما لا ينفع مع عدمه عمل[4]. وهذا القول متضمّن لتعطيل الأمر والنهي والشريعة، وقابلتها

= «الأمثال» لأبي عبيد: ص ٢١٢، ٢١٣، ط. جامعة أم القرى.

(١) رواه عن ابن عمر معمر بن راشد في الجامع: ١١/ ٢٨٥، ملحق بمصنف عبدالرزاق، وابن المبارك في الزهد: ٣٢٤، ٣٢٥، برقم (٩٢٣)، وابن الجعد في مسنده: ٤٨٦، برقم (٣٣٨١)، وأبو نعيم في الحلية: ١/ ٣١١.

(٢) الراجز الأموي، اسمه الفضل بن قدامة بن عبيد الله العجْلي، ت ١٣٠هـ. انظر «سمط اللآلي»: ١/ ٣٢٨، والأعلام: ٥/ ١٥١.

(٣) البيت في جميع النسخ هكذا:
عشي فعيل واصغُري فيمن صغُر ولا تريدي الحرب واجتزّي من الوبر
والتصويب من الديوان ص٩٢، إلا أن في الديوان: (مشي) بدل (عشي).

(٤) انظر «الملل والنحل» للشهرستاني: ١/ ٤٨، و«التوقيف على مهمات التعاريف» =

الخوارج: فأيّست الخلق، وقنّطتهم من رحمة الله ـ تعالى ـ.

وقالت طائفة من السلف ـ منهم الضحّاك والزهري ـ: كان هذا قبل الفرائض والحدود[1]. فمن هؤلاء من أشار إلى نسخها، ومنهم من قال: بل ضُمّ إليها شروط زيدت عليها.

وزيادة الشرط[2]: هل هي نسخ أم لا؟. فيه خلاف مشهور بين الأصوليين[3].

قالوا: وفي هذا كلّه نظر؛ فإن كثيرًا من هذه الأحاديث [متأخر][4] بعد الفرائض والحدود.

وقال الثوري: نسختها الفرائض والحدود.

فيحتمل أن يكون مراده ما أراده هؤلاء، ويحتمل أن يكون مرادُه أنّ وجوب الفرائض والحدود يتبيّن بها أنّ عقوبات الدنيا لا تسقط بمجرد الشهادتين، فكذلك عقوبات الآخرة. ومثل هذا البيان وإزالةِ الإيهام كان السلف يسمّونه نسخًا[5]، وليس هو بنسخ في الاصطلاح المشهور[6].

= للمناوي: ٢/ ٦٤٩. وهذا القول إنما هو لغلاتهم.

(١) انظر صحيح مسلم: ١/ ٣٨٢، حديث (٣٣).

(٢) في [ر]: الشروط، والمثبت من [ك].

(٣) انظر «المسوّدة»: ٢٠٧ وما بعدها، و«إعلام الموقعين» لابن القيم: ٢/ ٣١٦ وما بعدها.

(٤) في جميع النسخ: «متأخرًا»، وهو خطأ.

(٥) انظر «الاستقامة» لابن تيمية: ١/ ٢٣، و«إعلام الموقعين»: ٢/ ٣١٦، و«تهذيب السنن» لابن القيم: ٦/ ٢٩٨، مع «عون المعبود».

(٦) النسخ في الاصطلاح المشهور هو «الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بخطاب متقدم على وجه لولاه لكان ثابتًا به مع تراخيه عنه». «الحدود في الأصول» =

وقالت طائفة: هذه النصوص المطلقة جاءت مقيّدة بأن يقولها [ك،٢٩/أ] بصدق وإخلاص، وإخلاصها وصدقها يمنع الإصرار معها على معصية.

وجاء من مراسيل الحسن عن النبي ـ ﷺ ـ: [ر،٦١/أ] «من قال: «لا إلٰه إلا الله» مخلصًا دخل الجنّة». قيل: وما إخلاصها؟ قال: «أن تحجزك عمّا حرّم الله»[1].

ورُوي ذلك عن غيره من أوجه أخر ضعيفة مسندة.

فعند الطبراني في الأوسط، عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قال «لا إلٰه إلا الله» مخلصًا دخل الجنّة». قيل: وما إخلاصها؟. قال: أن تحجزه عن محارم الله ـ عز وجل ـ»[2].

ورواه أيضًا في الكبير بلفظه، إلا أنّه قال فيه: «أن تحجزه عمّا حرّم الله عليه»[3].

ولعل الحسن أشار بكلامه المتقدم إلى هذا، فإن تحقيق القلب لمعنى «لا إلٰه إلا الله»، وصدقه فيها، وإخلاصه بها ـ كما نبّهنا عليه عند حديث عتبان ـ يقتضي أن يرسخ فيه تألّهُ الله وحده، إجلالاً وهيبةً ومحبةً ورجاءً وتعظيمًا وتوكلاً، وينتفي عنه بذلك تألّهُ كل ما سواه. ومتى كان العبد كذلك لم يبق فيه محبة ولا إرادة ولا طلب لغير ما يريده الله

= لابن فورك: ١٤٣، وانظر اللمع للشيرازي: ١١٩.

(١) لم أعثر على مرسل الحسن هذا.

(٢) الأوسط: ٢/ ٥٦، وفي إسناده وضاع كما في المجمع: ١/ ١٨.

(٣) ٥/ ١٩٧، وفيه: «أن يحجزه» بالتحتانية.

ويحبّه ويطلبه. وينتفي عنه بذلك جميع هوى النفوس وإراداتها، ووساوس الشيطان.

فمن أحب شيئًا وأطاعه، وأحب عليه وأبغض عليه، فهو إلهه، فمن كان لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي ولا يعادي إلا لله، فالله إلٰهه حقا.

ومن أحب لهواه وأبغض له، وعادى عليه ووالى عليه، فقد اتخذ إلٰهه هواه.

قال الحسن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1] [الفرقان: ٤٣] هو الذي لا يهوى شيئًا إلا ارتكبه[2].

وقال قتادة: هو الذي كلما هوِي شيئًا فعله، وكلّما اشتهى شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى[3]. نعوذ بالله من ذلك.

ويروى من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوىً متّبع»[4]

---

(١) في الأصل كتبت الأية: ﴿أفرأيت﴾، ومع صحتها، إلا أنها غير الأية التي أراد المؤلف كما تبين من الروايات عن المفسرين.

(٢) رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٨/ ٢٧٠٠، برقم (١٥٢٠١)، إلا أن فيه: «اتبعه» بدل «ارتكبه».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٨/ ٢٧٠٠، برقم (١٥٢٠٣).

(٤) رواه الطبراني في الكبير: ٨/ ١٠٣، برقم (٧٥٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنّة»: ١/ ٨، برقم (٣)، وحكم عليه الألباني بالوضع كما في تخريجه لكتاب السنّة، ورواه أيضًا أبو نعيم في الحلية: ٦/ ١١٨.

وكذلك من أطاع الشيطان في معصية الله ـ سبحانه ـ فقد عبده، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

فتبيّن بهذا التحقيق أنه لا معنى لتحقيق قول «لا إلٰه إلا الله» إلا لمن لم يكن في قلبه إصرار على محبة ما يكرهه الله، ولا على إرادة ما لا يريده الله شرعا. ومتى كان في القلب شيء من ذلك كان ذلك نقصانًا في التوحيد، وهو نوع من الشرك الخفي.

فاتضح بذلك معنى قول رسول الله ـ ﷺ ـ: «من شهد أن لا إلٰه إلا الله صادقًا من قلبه حرّمه الله على النّار»، وما شاكله من الأحاديث المتقدِّم ذكرها، وغيرها مما في معناها، وأنّ من دخل النار من أهل هذه الكلمة فلِقلّة صدقه في قولها؛ فإنّ هذه الكلمة إذا صدقت أظهرَت[1] من القلب كلّ ما سوى الله ـ سبحانه ـ.

فمن صدق في قول: «لا إله إلا الله» لم يحبَّ سواه، ولم يرجُ [ر،٦٢/ب] إلا إياه، ولم يخش إلا هو، ولم يتكل إلا عليه، ولم يبق له بقية من آثار نفسه وهواه.

ولهذا قال سفيان بن عيينة ـ كما رواه ابن أبي الدنيا عنه ـ: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرّفهم «لا إلٰه إلا

(١) استعمال «ظهر» و«أظهر» بمعنى «خرج» و«أخرج» دارج في نجد، موطن المؤلف، وهو منسجم مع أصل مادة (ظهر) الدال على البروز، كما في المقاييس: ٣/ ٤٧١، ويدل عليه ـ كما في اللسان: ٤/ ٥٢٣ ـ قول عمر ـ رضي الله عنه ـ في كتابه لأبي عبيدة: «فاظهر بمن معك من المسلمين إليها»، أي اخرج إلى ظاهر البلد، وأبرزهم منها.

الله»[1].

فعند مسلم في صحيحه، عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «من مات وهو يعلم ألا إلٰه إلا الله دخل الجنّة»[2].

وفي مسند الإمام أحمد عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا يبقى بَرٌّ ولا فاجرٌ إلا دخلها ـ يعني النّار ـ فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا، كما كانت النّار على إبراهيم»[3].

ويشهد لما تقدّم حديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنّه قال: «من كان آخرَ كلامه «لا إلٰه إلا الله» دخل الجنّة»[4]. وهو حديث صحيح.

قال الخطابي على هذا الحديث في مصنفٍ له في التوحيد[5]: فإن

---

(١) كتاب الشكر: ٣٤، برقم (٩٦)، ورواه كذلك البيهقي في الشعب: ٤/ ١١٩، برقم (٤٥٠٠)، وأبو نُعيم في الحلية: ٧/ ٢٧٢.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٦٠، كتاب الإيمان، باب (١٠)، حديث (٢٦).

(٣) المسند: ٣/ ٣٢٨، وقال المنذري: ورواته ثقات. (الترغيب: ٤/ ٢٣١)، ورواه البيهقي في الشعب: ١/ ٣٣٦، برقم (٣٧٠) وحسن إسناده، وعبد بن حميد في مسنده: ٣٣٣، برقم (١١٠٦)، وقد ضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع: ٨٨٩، برقم (٦١٥٦)، وكذلك ضعف محققو المسند إسناده: ٢٢/ ٣٩٧ ط التركي.

(٤) رواه أحمد في مسنده: ٥/ ٢٣٣، ٢٤٧، بلفظ «وجبت له الجنّة»، وأبو داود في سننه: ٣/ ١٩٠، الجنائز، باب في التلقين، برقم (٣١١٦)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٥٠٣، برقم (١٢٩٩)، وقال: صحيح الإسناد، والطبراني في الكبير: ٢٠/ ١١٢، برقم (٢٢١)، والبيهقي في الشعب: ١/ ١٠٨، برقم (٩٤). وحسنه الألباني كما في «إرواء الغليل»: ٣/ ١٤٩، برقم (٦٨٧).

(٥) المعروف من مصنفات أبي سليمان حمْد بن محمد الخطّابي (٣١٩ـ ٣٨٨هـ) =

المحتضَر لا يكاد يقولها إلا بإخلاص وتوبة، وندم على ما مضى، وعزْم على ألا يعود إلى مثله. نقله عن بعض العلماء ورجّحه.

قلت: ويُستأنس لما قال الخطابي ـ رحمه الله تعالى ـ بما رواه أبوبكر بن أبي الدنيا[1]، والبيهقي في شعب الإيمان[2]، وابن لال[3]، والديلمي في الفردوس[4]، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا قال: «حضر ملك الموت رجلاً يموت، فشق أعضاءه فلم يجده عمل خيرًا قط، ثم شق قلبه، فلم يجد فيه خيرًا قط، ففك لِحْيَيْه، فوجد طرَف لسانه لاصقًا بحنكه، يقول: «لا إلٰه إلا الله»، فغُفر له بكلمة الإخلاص»[5].

فتبيّن بهذا أن الموحّد المخْلص لو لقي ربّه بقُراب الأرض خطايا، قابله مولاه الغفور الرحيم بقُرابها مغفرة، فإن نجاسة الذنوب عارضة، والدافع لها قوي، ولهذا قال ـ ﷺ ـ فيما صح عنه وثبت: «الإسلام يجبّ ما قبله»[6].

= المتعلّقة بالاعتقاد: «الغنية عن الكلام وأهله» و«شعار الدين» و«الرسالة الناصحة» و«شأن الدعاء»، فلعل المصنَّف المذكور أحد هذه. ولم أعثر على كلامه في «شأن الدعاء» و«معالم السنن».

(١) كتاب المحتضرين، رقم (٩).

(٢) ٢/ ٩، برقم (١٠١٥)، ٦/ ٥٤٥، برقم (٩٢٣٥)، ورواه الخطيب في «تاريخ بغداد»: ٩/ ١٢٥.

(٣) هو أبوبكر، أحمد بن علي بن أحمد الهمذاني الشافعي (٣٠٨ـ ٣٩٨هـ)، المشهور بابن لال ـ معناه: أَخرس ـ فقيه محدث، له «السنن» و«معجم الصحابة»، انظر السير: ١٧/ ٧٥ـ ٧٧.

(٤) ٢/ ١٣٧، برقم (٢٦٩٩).

(٥) ضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع: ٤٠٢، برقم (٢٧٢٥).

(٦) رواه مسلم عن عمرو بن العاص بلفظ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله»، =

قال الفخر الرازي: وإنما سُمّيت كلمةُ الإخلاص بذلك؛ لأن كل شيء يُتصوّر أن يشوبه غيرُه: إذا صُفّى عن شوبه بغيره وخُلّص منه سمّي خالصًا[1]. رزقنا الله والمسلمين الخاتمة عليه، والله ـ سبحانه ـ ولي التوفيق.

= الصحيح: ١/ ١٠٥، كتاب الإيمان، باب (٥٤)، حديث (١٢١)، واللفظ الذي أورده المؤلف رواه أحمد في المسند: ٤/ ١٩٨، والبيهقي في الكبرى: ٩/ ١٢٣.

(١) لم أهتد إلى موضعه.

الباب الثاني

باب من حقق التوحيد دخل الجنّة بغير حساب ولا عذاب

لمّا ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ فضل التوحيد، وشوّق إليه، أعقبه بذكر حقيقة هذا المشوَّقِ إليه ليعرف، حتى يكون به على حقيقة من فضله، فيزداد فيه رغبة.

قال: (وقول الله ـ تعالى ـ: [ك،٣٠/ب] ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾) ـ هو خليل الرحمن، إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ـ. (﴿كَانَ أُمَّةً﴾) أي إمامًا يقتدى به، قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: الأمّة معلم الناس الخير(١). وعن ابن عمر: الأمّة: الذي يعلّم النّاس دينهم(٢).

(﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾)، أي خاشعًا مطيعًامنقادًا [ر،٦٢/أ] لمولاه. هذا مجمع الأقوال في ذلك.

(﴿حَنِيفًا﴾)، أي منحرفًا قاصدًا عن الشرك إلى التوحيد، فالقاصد إلى التوحيد لا بد أن يكون منحرفًا عن جميع ما سواه من الأديان.

قال الحطيئة يمدح سعيد بن العاص(٣) وهو على المدينة:

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره: ١٤/ ١٩١.

(٢) ذكره عنه ابن كثير في تفسيره: ٤/ ٦١١.

(٣) هو سعيد بن العاص بن أبي أحيحة سعيد بن العاص بن أمية، له صحبة، ولي إمرة =

يقولون هل يبكي من الشوق مسلمٌ تخلّى إلى وجه الإله حنيفُ[1]

وأصل الحنَف: الميل والانحراف في الشيء.

قالت أم الأحنف بن قيس التميمي وهي ترقّصه صغيرًا:

والله لولا حنفٌ في رجله ما كان في صبيانكم من مثله[2]

فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ مائل كما ذكرنا إلى التوحيد عن جميع الأديان مما سواه، كما قال أبو قيس ابن الأسلت الأنصاري[3] ـ رضي الله عنه ـ بعد أن ذكر نعمة الله عليهم أن جنّبهم دين النصارى واليهود، وجميع طرق الضلال:

ولكنّا خُلقْنا إذ خلقنا حنيفًا ديننا عن كل جيلِ[4]

وقال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يوم الطائف:

لأمر الله والإسلام حتى يقوم الدين معتدلاً حنيفًا[5]

= المدينة لمعاوية، واعتزل الفتنة، كان أشبه الناس لهجة برسول الله ـ ﷺ ـ، توفي سنة ٥٩هـ. انظر السير: ٣/ ٤٤٤ـ ٤٤٩.

(١) ديوانه: ص ١٦٨، وفي رواية: «حازم» بدل «مسلم»، و«ذات» بدل «وجه».

(٢) أنشده الأزهري في «تهذيب اللغة»: ٥/ ١٠٩، مادة «حنف».

(٣) مختلف في اسمه، قيل صيفي، وقيل غيره، والأسلت اسمه عامر بن جشم بن وائل الأوسي، كان أبو قيس يُدعى في الجاهلية بالحنيف، واختلف في إسلامه، مات على رأس عشرة أشهر من الهجرة. انظر الإصابة: ٤/ ١٦٠، ١٦١، برقم (٩٤٤) من باب الكنى.

(٤) البيت ضمن أبيات في سيرة ابن هشام: ١/ ٤٣٨.

(٥) ديوانه: ص ٢٣٧، مكتبة النهضة ـ بغداد.

فهو دين معتدل في نفسه حال كونه مائلاً عن كل دين سواه.

ولهذا قال ـ تعالى ـ: [﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾] [النحل: ١٢٠].

قال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل، قال: قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إنّ معاذًا كان أمّة قانتا لله حنيفًا. فقلت في نفسي: غلِط أبو عبدالرحمن. إنما قال الله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ ﴾. فقال: أتدري ما الأمّة وما القانت؟ فقلت: الله أعلم. قال: الأمّة: الذي يعلّم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله(١).

ولهذا أثنى الله على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢١]، فإنه ـ عليه السلام ـ قد بذل ماله للضيفان، وبدنه للنيران، وقلبه للرحمن، فاتخذه الله بذلك خليلا، واصطفاه دون الخلق وليّا، وكان به أبدًا حفيّا، ووهبّ له إسحق ويعقوب ومن ذريّته، وجعل الكل نبيا، حتى ختمهم بمحمد ـ ﷺ ـ، ابنِ ابنه الذبيح، الذي مِن أتباعه عيسى ابن مريم رسول الله المسيح.

ومن جِلّ(٢) قول الخليل ـ عليه السلام ـ ما ذكر الله عنه في محكم التنزيلِ، حيث قال: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقال لمحمد ـ ﷺ ـ: ﴿[ر،٦٣/ب] قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] يعني في

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره: ١٤/ ١٩١، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٣٩٠، برقم (٣٣٦٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والطبراني في الكبير: ١٠/ ٥٩.

(٢) الجِلّ ـ بالكسر ـ: الجليل العظيم، اللسان: ١١/ ١١٧، مادة (جلل).

زمانكم[1]، وذلك كما قال ـ تعالى ـ: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وهذا الدين هو الصراط المستقيم، الذي لا تمثيل فيه ولا تعطيل[2]، ولا حيف فيه ولا زيف، وتقريبُه هو أن لا ترى مَن دونه ـ سبحانه وتعالى ـ شيئًا[3].

ولهذا قال لخاتم رسله محمد ـ ﷺ ـ آمرًا له أن يتبع ملته: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الإسراء: ١٢٣]. وقد قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: من كان على الحق فهو جماعة وإن كان وحده، وتلا: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[4].

فقد تبين لك أن الإنسان إذا استكمل هذه الصفة فقد أتى بتحقيق التوحيد، وحُق له أن يُحرَّم على النّار، كما حرّمها ـ سبحانه ـ على

---

(١) هذا توجيه بعض العلماء، انظر الرد على الزنادقة للإمام أحمد ص١٤، وذهب بعض المحققين إلى أن هذه الآية وكذا قول موسى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقول سحرة فرعون: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١] وقوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[الزخرف: ٨١] إنما يراد به بيان المسارعة في الامتثال لما أمر به، لا أنه أول شخص اتصف بهذا الوصف. انظر نيل الأوطار للشوكاني: ٢/٢٠٩، وعلى هذا المعنى قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

(٢) أي لا تمثيل للخالق بالمخلوق، لا في كماله، ولا في أفعاله، ولا في حكمه، ولا في عبادته، ولا تعطيل للخالق من صفات الكمال الواجبة له نقلاً وعقلاً.

(٣) أي شيئا يستحق العبادة مع الله أو دونه. ويحترز في مثل هذا التعبير من موافقة أصحاب وحدة الوجود من ملاحدة التصوّف؛ فإنهم لا يرون غير الله ـ تعالى ـ موجودًا أصلاً.

(٤) ذكره ابن عبدالبر في التمهيد: ٢١/ ٢٧٤، بنحوه، من رواية الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن عبدالرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون قال: قال عبدالله بن مسعود، فذكره.

إبراهيم. حتى نار الدنيا قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وأن يُدخل الجنّة بغير حساب ولا عذاب.

[وقال ـ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾] [المؤمنون: ٥٩] أي لا يعبدون معه غيره، بل يوحّدونه، ويعلمون أنه لا إلٰه إلا هو الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

ولهذا لمّا وصفهم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون: ٦١]، فبسبقهم إلى الخيرات في الدنيا ليُرضوا مولاهم، قرّبهم في الآخرة وأرضاهم، فهم السّابقون إلى الجنّة، جزاء بما كانوا يعملون، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

وهذا على قراءة الجمهور في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(١) [المؤمنون: ٦٠] ظاهر.

وهذه الآية كقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ الآية [البقرة: ١٢٧]، فهذا قولهما وهما يرفعان قواعد بيت ربهما، في أفضل عمل، وهما هما، قد خشيا ألا يُقبل منهما عملُهما، فما ظنّك بمن هذا إخلاصهم وشفقتهم على قبوله منهم، أتُراهم يُحجبون عن الجنّة للحساب، أو يُدخلون النّار للعذاب، لا والذي أنزل الكتاب، فإنه الصادق وعده، وهو لا يخلف الميعاد، وإنما الخوف علينا، حيث جمعنا بين الأمن والتقصير، فنسأل من يأخذ بالنواصي أن يأخذ بنواصينا إلى الحق، وأن يثبّت قلوبنا عليه، فقد نجّى الله ـ سبحانه ـ خليله

---

(١) وقرأتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «يأتون ما أتو» أي يفعلون ما فعلوا. رواه ابن جرير في تفسيره: ١٨/ ٣٣.

إبراهيم من نار الدنيا التي أراد أن يعذّبه بها أعداؤه، فجعلها الذي خلقها عليه بردًا وسلاما، وهذه عادة الله مع أوليائه.

فقد علمت بهذا أن مرتبة الإخلاص عقبة كؤود، صعبةُ المرقى، ومن تأمّل أحوال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والسّلف الصالح وجدهم مع غاية العمل في غاية الخوف من حبوطه، ونحن جمعنا بين التقصير والتفريط، فنسأل الله لطفه وعفوه، وأن [ر،٦٣/أ] يرحم ضعفنا، ويجبر كسرنا، إنّه كريم وهّاب.

[ك،٣٠/أ] (وفي الصحيحين)[١] والسياق للبخاري[٢]، (عن حُصين) بضمّ الحاء المهملة في أوّله (ابن عبدالرحمن) الحارثي[٣] الكوفي، الثبت الثقة، (قال: كنت عند سعيد بن جبير) الأسدي مولاهم، الكوفي الثبت الفقيه، قتله الحجّاج ظلمًا ولم يُكمّل له خمسين سنة، وذلك في شعبان، سنة خمس وتسعين، وهو ابن تسع وأربعين سنة[٤]، ولم يعش الحجّاج بعده إلا أيّامًا.

ورُوي عن خلف بن خليفة قال: حدّثنا بوّاب الحجّاج بن يوسف قال: رأيت رأس سعيد بن جبير بعدما سقط إلى الأرض يقول: لا إلٰه

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٩٦، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنّة سبعون ألفا..، برقم (٦١٧٥)، وصحيح مسلم: ١/ ١٦٩، كتاب الإيمان باب (٩٤)، حديث (٢٢٠).

(٢) بل لمسلم.

(٣) بل السلمي. ت ١٣٦هـ، وحصين بن عبدالرحمن الحارثي غيره، مقبول، ت ١٣٩هـ. انظر «تهذيب الكمال» للمزي: ٢/ ٢١١، ٢١٢. وتقريب التهذيب: ١٧٠.

(٤) وفي السير: (٤/ ٣٣٣) أنه بلغ سبعة وخمسين عامًا، وفي (٤/ ٣٤١) أنكر الذهبي أنه عاش تسعًا وأربعين سنة.

إلا الله[١].

وقال خلف عن رجل: إنّه هلّل ثلاثًا لمّا ندر، يُفْصح بها[٢].

وقد جرى له من الصبر عند قتله، وإغلاظ القول للحجّاج ما هو مشهور لائق بمرتبته، رحمه الله ورضي عنه.

(فقال سعيد: أيّكم رأى الكوكب الذي انقضّ البارحة؟) أي النجم الذي سقط، والانقضاض السقوط، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أسند الإرادة إليه مجازًا.

(قلت: أنا)، ثم قال حصين: (أما إنّي لم أكن في صلاة) إبعادًا عن الرياء والعجب وتزكية النفس، وهذا من أخلاق السلف، مع أنّه لم يكن في صلاة[٣].

ثم استدرك فقال: (ولكنّي لُدغت) بالبناء[٤]، واللدغ في الأصل للذي يضرب بفيه، والذي يضرب بمؤخّره يقال: «لسع»[٥]، وبأسنانه: «نهش» بالمهملة والمعجمة، وقيل: بينهما فرق، وقد يستعمل بعضها مكان الآخر تجوّزًا[٦].

والظاهر أنّ الذي لدغه عقرب، وقد جاء التصريح بها في بعض

---

(١) السير: ٤/ ٣٣٤، ٣٣٥.

(٢) انظر «حلية الأولياء»: ٤/ ٢٩١، وفيه أنه لم يتمّ الثالثة.

(٣) أي أنه كان صادقًا في قوله، لم يقله تكلّفًا في البعد عن الرياء.

(٤) أي ببناء الفعل «لُدغت» للمجهول.

(٥) انظر اللسان: ٨/ ٤٤٨، مادة (لدغ)، و٨/ ٣١٨، مادة (لسع).

(٦) انظر اللسان: ٦/ ٣٦٠، مادة (نهش)، و٦/ ٢٤٤، مادة (نهس).

طرق الحديث[1].

(قال) سعيد لحصين: (فما صنعت؟) قال حصين: (قلت: ارتقيت)، الرقية العوذة. (قال) سعيد: (فما حملك على ذلك؟) قال حصين: (قلت: حملني (حديث حدثناه الشعبي) يعني عامر بن شراحيل، أبو عمرو[2]، الثقة الفاضل الفقيه الحافظ التابعي المشهور. قال مكحول: ما رأيت أفقه منه[3]. مات بعد المائة، له نحو ثمانين سنة[4].

(قال) سعيد: (وما حدّثكم؟ قلت: حدّثنا عن بُريدة) بضم الباء الموحّدة، وفتح الرّاء المهملة (ابن الحُصيب) بالمهملتين مصغّرًا، أبو سهل الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ، صحابي، أسلم قبل بدر، مات سنة ثلاث وستين وهو بمرو[5]. قاله الديلمي[6].

(إنّه لا رقية إلا من عين)، أي من إصابة العائن بعينه.

وهذا الحديث رواه الشيخان[7]، والترمذي[8]، وأبو داود[9]، كلّهم

---

(١) انظر «التمهيد» لابن عبدالبر: ٥/ ٢٧١.

(٢) كذا، وصوابها: أبا عمرو.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»: ٢٥/ ٣٦٠.

(٤) انظر السير: ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩، وفيه أنه مات سنة ١٠٥هـ.

(٥) انظر «الإصابة»: ١/ ١٥٠، رقم (٦٣٢).

(٦) لعلّه شيرويه بن شهردار بن شهرويه بن فناخُسْره بن خسركان، أبو شجاع الديلمي، صاحب «مسند الفردوس» و«تاريخ همذان»، (٤٤٥ـ٥٠٩هـ). انظر السير: ١٩/ ٢٩٤.

(٧) البخاري: ٥/ ٢١٥٧، الطب، باب من اكتوى أو كَوى..، رقم (٥٣٧٨)، ومسلم: ١/ ١٦٩، الإيمان، باب (٩٤)، حديث (٢٢٠).

(٨) السنن: ٤/ ٣٩٤، الطب، باب (١٥)، حديث (٢٠٥٧).

(٩) السنن: ٤/ ١٠، الطب، باب ما جاء في العين، حديث (٣٨٨٤).

بطرق إلى حصين بن عبدالرحمن، عن الشعبي، عن بريدة، وعمران بن حصين موقوفًا[١].

ورواه ابن ماجه مختصرًا عن حصين بن عبدالرحمن، عن الشعبي، عن بريدة، فرفعه. ولفظه: قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا رقية إلا من عين أو حُمة»[٢].

وعند ابن عبدالبر[٣] والخطّابي في غريبه[٤]، من حديث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أنّه رأى صبيًّا تأخذه العين جمالاً، فقال: دسّموا نونته. أراد بالنّونة النقرة التي في ذقنه.

وسأل أحمد بن يحيى الشيباني محمد بن زياد الأعرابي عن ذلك فقال: أراد سوّدوا ذلك الموضع من ذقنه ليردّ العين[٥]؛ لأن [ر،٦٤/ب] ذلك يكسر جماله المُدرْدِقَ له[٦]. قال الشاعر[٧]:

بني كلِّ دسماءِ الثيابِ كأنما طلاها بنو العَجلان من حُمَمِ القِدْرِ

---

(١) بل رواية الترمذي وأبي داود مرفوعة.

(٢) سنن ابن ماجه: ٢/ ١١٦١، الطب، باب (٣٤)، حديث (٣٥١٣). وكذلك رواية الترمذي وأبي داود مختصرة.

(٣) لم أهتد إليه عنده، ولا أستبعد أن الشارح عزاه إليه لقول الخطابي: «ذكره أبو عمر»، والخطابي إنما أراد غلام ثعلب أبا عمر الزاهد؛ فهو من شيوخه ووفاة الخطابي سنة ٣٨٨هـ ووفاة ابن عبدالبر سنة ٤٦٣هـ.

(٤) «غريب الحديث»: ٢/ ١٣٩.

(٥) الموضع السابق.

(٦) كأنه أراد أن جماله يظهر ملاحة صِغَره؛ ففي اللسان (١٠/ ٩٦، مادة «دردق»): «الدردق: الصبيان الصغار». هكذا بدا لي معناها، وقد أتعبتني حتى قرأتها.

(٧) هو الأخطل. انظر ديوانه: ١٣٨. ط دار الفكر، ١٤١٤هـ.

وقال الآخر[1]:

إلى كلّ دسماء الذّراعين والعَقْبِ

(أو حُمة)، الحُمَةُ ـ بضم الحاء المهملة وتخفيف الميم ـ: سمّ ذوات السموم، وقد تسمى إبرةُ العقرب والزنبور «حُمَة»؛ وذلك لأنهما مجرى السمّ[2].

وقيل: فَوْعة السمّ، وهي حدّته وحرارته[3].

والمراد: أو ذي حمة.

قال الخطّابي[4]: وليس في هذا نفي جواز الرّقية في غيرهما من الأمراض والأوجاع؛ لأنّه قد ثبت عن النبي ـ ﷺ ـ أنّه رقى بعض أصحابه من وجع كان به[5]، وقال للشفاء[6]: «علّمي حفصة رقية النملة»[7]، وإنما معناه: لا رقية أولى وأنفعُ من رقية العين

---

(١) بل هو الأخطل أيضًا، انظر ديوانه: ٤٤، وصدر البيت:
وظلّت بنو الصمعاء تأوي فلولُهم

(٢) انظر اللسان: ١٤/ ١ـ٢، مادة (حما).

(٣) انظر «غريب الحديث» للخطابي: ١/ ٤٤٨.

(٤) «معالم السنن»: ٥/ ٣٦٣، مع مختصر المنذري، وتهذيب ابن القيم.

(٥) انظر مثلاً سنن أبي داود: ٤/ ١١، رقم (٣٨٩٠)، و٤/ ١٢، رقم (٣٨٩٤)، والكبرى للنسائي: ٦/ ٢٤٩، رقم (١٠٨٤١)، وغيرها كثير في أبواب الرقى من كتب الطب في دواوين السنّة.

(٦) الشِّفاء هي أم سليمان ابن أبي حثمة القرشية العدوية من المبايعات أسلمت قبل الهجرة. فكانت من المهاجرات الأُول. وكانت من عقلاء النساء، وكان رسول الله ﷺ يأتيها ويقيل عندها في بيتها، وكانت قد اتخذن له فراشاً وإزاراً ينام فيه. الاستيعاب (٤/ ١٨٦٨) لابن عبدالبر.

(٧) رواه أحمد في المسند: ٦/ ٣٧٢، وأبو داود في سننه: ٤/ ١١، الطب، باب (١٨)، =

والحُمة[1]، وهذا كما قيل: «لا فتى إلا علي، ولا سيف إلا ذو الفقار»[2].

وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا عبدالواحد بن زياد، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثتني الرباب قالت: سمعت سهل بن حنيف يقول: مررنا بسيل، فدخلت فاغتسلت فيه، فخرجت محمومًا، فنُمي ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «مروا أبا ثابت يتعوّذ». فقالت: فقلت يا سيّدي، والرّقية صالحة؟. قال: لا رقية إلا في نفس أو حمة أو لدغة[3]. والنفس هنا العين[4].

= حديث (٣٨٨٧)، والنسائي في الكبرى: ٤/ ٣٦٦، رقم (٧٥٤٣)، والحاكم في المستدرك: ٤/ ٦٣، رقم (٦٨٩٠)، وصححه الألباني كما في الصحيحة: ١/ ٢٨٩، رقم (١٧٨). و«النملة» كما في («النهاية»: ٥/ ١٢٠) قروح تخرج في الجنب، ورقية النملة التي كانت تُعرفُ بين نساء العرب في الجاهلية: «العروس تحتفل، وتختضب وتكتحل، وكلُّ شيء تفتعل، غير ألا تعصي الرجل»، ولما كان هذا كلامًا يعلم من سمعه أنه لا يضرّ ولا ينفع، قيل إنّ النبي ـ ﷺ ـ إنما أراد بقوله للشفاء: «علمي حفصة رقية النملة» الإلغاز والمزاح بقصد التأديب؛ أنها أفشت سرّه. انظر «النهاية»: ٥/ ١٢٠.

(١) في «معالم السنن»: «من رقية العين والسم».

(٢) روى ابن أبي الدنيا في «الهواتف»: ٢٠، برقم (٥)، أن مناديًا يوم بدر يقال له «رضوان» نادى: «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي»، وروى ابن عدي في الكامل: (٥/ ٢٦٠) من طريق عيسى بن مهران المستعطف ـ وهو وضاع محترق في الرفض كما يقول ابن عدي ـ أن صائحًا صاح بها في السماء يوم أحد. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات: ١/ ٣٨١، والحلبي في «الكشف الحثيث». ٢٠٦.

(٣) السنن: ٤/ ١١، الطب، باب (١٨)، حديث (٣٨٨٨)، ورواه النسائي في الكبرى: ٦/ ٧٢، برقم (١٠٠٨٦) و٦/ ٢٥٦، رقم (١٠٨٧٣)، وأحمد في المسند: ٣/ ٤٨٦، والحاكم في المستدرك: ٤/ ٤٥٨، برقم (٨٢٧٠) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي والطبراني في الكبير: ٦/ ٩٣، وقد ضعفه الألباني كما في «الضعيفة»: ٤/ ٣٣٥، برقم (١٨٥٤).

(٤) «معالم السنن» للخطابي: ٥/ ٣٦٤.

قال الخطّابي: فيه جواز قول الرجل لرئيسه من الآدميين يا سيّدي[1].

قلت: ليس هذا على إطلاقه؛ فإن الرجل الفاجر لا يسمّى سيّدًا، وإن كان رئيسًا، وقد ورد النهي عن ذلك[2]. وسيأتي معنى السيّد في بابه إن شاء الله تعالى[3].

وفي الرقية أحاديث صحيحة صريحة شهيرة، تؤذن بأنّها إذا كانت بالقرآن والسنّة، وأسماء الله الحسنى فهي مباحة. وإنما جاء المنع لما كان بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفرًا، أو قولاً يَدخله الشرك. وكذا ما كان منها على مذاهب الجاهلية في العُوَذ التي كانوا يتعاطونها ويزعمون أنها تدفع عنهم العين والآفاتِ استقلالاً، ويعتقدون أنها من قبل الجنّ ومعونتهم.

وأما الإصابة بالعين فهو شيء ثابت موجود، وهو من جملة ما تحقق وقوعه.

قال المازري: أخذ الجمهور بظاهر الحديث، وأنكره طوائف من المبتدعة بغير معنى؛ لأن كل شيء ليس محالاً في نفسه، ولا يؤدي إلى

---

(١) «معالم السنن»: ٥/ ٣٦٤.

(٢) روى الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٤٦) عن بريدة مرفوعًا: «لا تقولوا للمنافق سيدنا؛ فإنه إن يك سيدكم فقد أسخطتم ربكم ـ عز وجل ـ»، ورواه أبو داود في سننه: ٤/ ٢٩٥، برقم (٤٩٧٧)، والنسائي في الكبرى: ٦/ ٧٠، برقم (١٠٠٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد: ٢٦٧، برقم (٧٦٠)، والبيهقي في الشعب: ٣/ ٢٣٠، برقم (٤٨٨٣). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ١/ ٦٤٥، برقم (٣٧١).

(٣) ص٢٠٥٧.

قلب حقيقة ولا [ر،٦٤/أ] إفساد دليل، [بل هو][(١)] من مجوّزات العقول، فإذا أخبر الشارع ـ عليه الصلاة والسلام ـ بوقوعه لم يكن لإنكاره معنى. وهل من فرق بين إنكارهم هذا وإنكارهم ما يخبر به ـ ﷺ ـ عن أمور الآخرة[(٢)].

وعند مسلم، من حديث الزهري، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رفعه: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا استُغسِلتم فاغسلوا»[(٣)].

ففي هذا تنبيه على سرعة نفوذ العين، وتأثيرها بإذن الله ـ تعالى ـ في الذوات.

وقد قال يعقوب ـ عليه السلام ـ لبنيه: ﴿يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ الآية [يوسف: ٦٧]. قال ابن الجوزي وغيرُه: إنما خاف عليهم ـ عليه السلام ـ العين. ورُوي ذلك عن جماعة من السلف[(٤)].

وفيه أيضًا إثبات القدر؛ لأنه لا يمكن [ك،٣١/ب] أن يرُدَّ القدرَ شيءٌ؛ إذ القدر عبارة عن سابق علم الله ـ سبحانه ـ[(٥)]، وهو لا راد لأمره. ولهذا قال يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن

(١) في «المعلم بفوائد مسلم» للمازري: ٣/ ٩١: [فإنه] موضع (بل هو).
(٢) «المعلم بفوائد مسلم» للمازري: ٣/ ٩١، بمعناه.
(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٢، كتاب السلام، باب الطب، رقم (٢١٨٨).
(٤) انظر «زاد المسير»: ٤/ ٢٥٤.
(٥) للقدر أربع مراتب: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، فلو قال المؤلف: «القدر متضمن لعلم الله السابق» لكان أولى.

شَيْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ الآية [يوسف: ٦٨]، وهي استعمال الأسباب، مع التسليم لقضاء الله وقدره في سابق علمه. ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ [يوسف: ٦٨].

والتقدير إذًا في الحديث: إنه لو فرض أن شيئًا له قوّة بحيث يسبق القدر، لكان العين، لكنّها لا سبقه، فكيف نحوها.

قال النووي: فيه إثبات القدر، وصحّة أمر العين، وأنّها قويّة الضرر[1].

وفيه أمره ـ ﷺ ـ العائن بالاغتسال، عند طلب المعيون منه ذلك، إشارة إلى أن ذلك معلوم عندهم. فأمرهم ـ ﷺ ـ ألا يمتنعوا منه إذا أريد منهم. وأدنى ما في ذلك رفع الوهم الحالّ في ذلك. وظاهر الأمر الوجوب مطلقًا، وقيل إذا خُشي الهلاك، كما يُجبر على بذل الطعام للمضطر وأولى[2].

وصفة الاغتسال ما خرّجه الإمام أحمد[3] والنسائي[4]، وصحّحه ابن حبّان[5]، عن أبي أمامة ابن سهل بن حنيف، أن أباه ـ رضي الله عنه ـ حدّثه أن النبي ـ ﷺ ـ خرج وساروا معه نحو ماء، حتى إذا كانوا

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١٤/ ١٧٤.
(٢) انظر «فتح الباري»: ١٠/ ٢٠٤.
(٣) المسند: ٣/ ٤٨٦. وصححه محققوه: ٢٥/ ٣٥٦، برقم (١٥٩٨٠).
(٤) السنن الكبرى: ٤/ ٣٨١، (٧٦١٧) و٦/ ٦٠، (١٠٠٣٦).
(٥) الإحسان: ١٣/ ٤٧٠ـ ٤٧٢.

بشِعْب الخَرّار من الجُحْفة[1]، اغتسل سهل بن حنيف، وكان أبيض حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة[2] فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلدَ مخبّأة. فلُبط به؛ أي صرع. فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «هل تتهمون به من أحد؟» قالوا: عامر بن ربيعة. فدعا عامرًا فتغيظ عليه، فقال: «على ما يقتل أحدكم أخاه، هلاّ إذا رأيت ما يعجبك برّكت». [ر،٦٥/ب] ثم قال: «اغتسل له». فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره في قَدَح، ثم أمر أن يَصُب ذلك الماءَ عليه رجلٌ من خلفه على رأسه وظهره، ثم يُكفى القدح. ففُعل ذلك به، فراح سهل مع الناس ليس به بأس. لفظ رواية ابن أبي أويس عن الزهري بهذا السند، ولفظ رواية النسائي من رواية ابن أبي ذئب عن الزهري بهذا السند، أنّه صبّ صبة على وجهه بيده اليمنى، وكذلك سائرُ أعضائه، صبة صبة على القدح، وقال في آخره: ثم يُكفى القدح وراءه على الأرض.

واختلفوا في كيفيّة غَسل الإزار، وكلامهم يدور على ما يلي الجسد.

قال أبو عبيد القاسمُ بن سلاّم: اختلف الناس في معناه، فكان بعضهم يذهب وهمُه إلى المذاكير، وبعضهم على الأفخاذ والوِرْك.

قال: وليس هو عندي [من][3] هذا في شيء. إنما أراد بداخلة

---

(١) انظر معجم البلدان: ٢/ ٣٥٠.

(٢) هو عامر بن ربيعة بن كعب بن مالك العنْزي، أحد السابقين الأولين، هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وشهد بدرًا وما بعدها، توفي سنة ٣٥هـ. الإصابة: ٢/ ٢٤٠، والسير: ٢/ ٣٣٣.

(٣) في الأصول: «في»، وما أثبته من «غريب الحديث».

إزاره طرف[1] إزاره: الداخل الذي يلي جسده، وهو يلي الجانب الأيمن من الرجل؛ لأن المؤتزر إنما يبدأ إذا ائتزر بجانبه الأيمن، فذلك الطرف يباشر جسده، فهو الذي يُغسل.

قال: ولا أعلمه إلا وقد جاء مفسّرًا في بعض الحديث هكذا[2].

ورَوى بسنده في صفة الغسل عن الزهري، فقال: حدّثنيه حجاج عن ابن أبي ذئب عن الزهري قال: يؤتى الرجل العائن بقدح، فيُدخل كفه فيه فيمضمض، ثم يمجّه في القدح، ثم يدخل يده اليسرى فيصبّ على كفّه اليمنى، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على كفّه اليسرى، ثم يدخل يده اليسرى فيصبّ على مِرفقه الأيمن، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على قدمه اليمنى، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على قدمه اليسرى، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على ركبته اليمنى، ثم يدخل على يده اليمنى فيصب على ركبته اليسرى، ثم يغسل داخلة إزاره، ولا يوضع القدح بالأرض، ثم يصب على رأس الرجل الذي أصيب بالعين من خلفه صبة واحدة[3].

وقال ابن قيّم الجوزيّة ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذه الكيفية لا ينتفع بها من أنكرها، ولا من سخر منها، ولا من شكّ فيها، أو فعلها مجرّبًا غير معتقد. وإذا كان في الطبيعة خواص لا يعلم الأطبّاء عللها، بل هي

---

(١) في الأصول: «وطرف»، ولا معنى للواو هنا، وليست في «غريب الحديث».

(٢) «غريب الحديث»: ٢/ ١١٣، ١١٤.

(٣) «غريب الحديث»: ٢/ ١١٢. وليس فيه السند المذكور. وهو في «السنن الكبرى» للبيهقي: ٩/ ٣٥٢.

عندهم خارجة عن القياس، وإنما تفعل بالخاصّية، فما الذي ينكر جَهَلْتُهم من الخواصّ الشرعية؟!. هذا مع أنّ في المعالجة بالاغتسال مناسبةً لا تأباها العقول الصحيحة، فهذا ترياق سمّ الحيّة يؤخذ من لحومها، وهذا علاج [ر،٦٥/أ] النفس الغضبيّة بوضع اليد على بدن الغضبان فيسكن. وكأنّ أثر تلك العين كشعلة من نار وقعت على جسد، ففي الاغتسال إطفاء لتلك الشعلة.

ثم لما كانت هذه الكيفيّة الخبيثة تظهر في المواضع الرقيقة من الجسد لشدّة نفوذها فيها، ولا شيء أرق من العين(١)، فكان بغسلها إبطال لعملها، ولا سيما أن للأرواح الشيطانيّة في تلك المواضع اختصاصًا(٢).

وأصل العين من الحسد المنبعث من القلب.

وعند أبي داود الطيالسي(٣)، والبخاري في تاريخه(٤)، والضياء المقدسي في المختارة(٥)، والحكيم الترمذي(٦)، والبزّار(٧)، بإسناد

---

(١) لقد تصرف المؤلف بكلام ابن القيم تصرّفًا مخلا، ففي «الزاد»: «فلا تجد أرق من المغابن وداخلة الإزار، ولا سيما إن كان كناية عن الفرج، فإذا غُسلت بالماء بطل تأثيرها وعملها..»، ومغابن البدن: الأرفاغ والآباط، والرفَغ: أصل الفخذ. انظر المصباح المنير: ٨٩، ١٦٨.

(٢) بتصرف من «زاد المعاد»: ٤/ ١٧١.

(٣) في مسنده: ٢/ ٢٤٢. وحسن إسناده الألباني في الصحيحة: ٢/ ٣٨٤، برقم (٧٤٧).

(٤) الكبير: ٤/ ٣٦٠. برقم (٣١٤٤).

(٥) لم أعثر عليه في المطبوع، وأظنه مما بقي مخطوطا، فإن منه مسند جابر ـ رضي الله عنه ـ.

(٦) «نوادر الأصول»: ٣/ ٤٦.

(٧) «كشف الأستار»: ٣/ ٤٠٣، برقم (٣٠٥٢).

حسن، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «أكثر من يموت من أمّتي بعد قضاء الله وقدره بالعين».

فخصّ أمّته ـ ﷺ ـ من بين سائر الأمم؛ لأنها فُضّلت عن غيرها باليقين، فلما حجبوا أنفسهم بالشهوات، عوقبوا بآفة العين. وذكر القضاء والقدر في ذلك، مع أن كلّ كائن إنما هو بهما للردّ على العرب الزاعمين أن العين تؤثر بذاتها استقلالا.

وقد قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ في العائن إذا عُرف منه الضرر على الناس بذلك: إن لولي الأمر أن يلزمه بلزوم بيته، فإن كان فقيرًا رُزق من بيت المال[1]. وفي تضمينه ما يتلف بعينه خلاف عندهم. [ك،٣١/أ] الصحيح تضمينه. حتى قال بعضهم بالقصاص فيمن يقتل بعينه.

فقال سعيد: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع).

فيه دليل على أنّ العبادات مبناها على التوقيف، وأنّ الطبّ في باب الأسباب من باب العبادة؛ حيث قال: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع)؛ إذ فعل الأسباب من باب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

وبهذا يتبيّن فضلُ العلم والانتهاءِ إليه، والتأدبِ معه، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فإنه إذا زال العلم استوى عند صاحب ذلك الحق والباطل، والضار والنّافع، والغيّ

(١) انظر تفسير القرطبي: ٩/ ٢٢٧، وفتح الباري: ١٠/ ٢٠٥.

والرشاد، فلم ينتفع بشيء، كما قال الشاعر[1]:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوى[2] عنده الأنوار والظلم[3]

(ولكن حدّثنا عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنّه قال: عُرضت علي الأمم، فرأيتُ النبيّ) وهو إنسان أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه[4]، والظاهر أنه أتى باسم النبي في هذا الموضع دون الرسول لأنه أعم؛ ليدخل فيه النبي غير الرسول. ويُعلم هذا مما بعده من ذكر موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

(ومعه الرجل والرجلان،[ر،٦٦/ب] والنبي وليس معه أحد)، وهذا يدل على قلّة أهل الحق، فلا يمنعْك من دين الحق أن ترى قلّةَ أهله، فقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ لعدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ فيما روى ابن إسحق وغيره عنه: «لعلّك يا عديّ إنّما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوّهم، وقلّة عددهم» الحديث[5]. وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠].

---

(١) هو المتنبي.

(٢) كذا في الأصول، وفي الديوان: إذا استوت.

(٣) ديوان المتنبي. بشرح العكبري: ٣/ ٣٦٧.

(٤) هذا هو التعريف المشهور للنبي، انظر «شعب الإيمان» للبيهقي: ١/ ١٥٠، و«تدريب الراوي» للسيوطي: ٢/ ٥٩، والأصح أن يقال: إنسان حرّ ذكر أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، فإن أمر بتبليغه فهو النبي الرسول. انظر «النبي والرسول» للدكتور أحمد آل حمد: ١٤٣.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٨١.

وقد مضى في الخطبة ما ورد في عدّة الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ[1].

(إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنّهم أمّتي، فقيل لي: هذا موسى) هو موسى بن عمران كليم الرحمن ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولم يقل وهارون؛ لأنّه له تبع؛ لأنّه سأل ربّه أن يكون معه رسولا، ونِعْم الشفاعة، إذ حصلت بها لهارون ـ عليه الصلاة والسلام ـ الرسالة.

(وقومه) الذين اتبعوه وقبلوا منه ما أُرسل به إليهم، من بني إسرائيل ومن تبعهم من القبط، وغيرهم ممن تبعهم في ذلك الزمن من بني آدم.

فنظرت فإذا سواد عظيم، قيل لي: هذه أمتك] يعني أمّةَ الإجابة من المحسنين والمسيئين.

(ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنّة بغير حساب ولا عذاب. ثم نهض ـ ﷺ ـ) من ذلك المجلس قائمًا، (فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك) والخوض: التخليط في الأمر، والدَّوْكُ[2] في أولئك السبعين: ما عملُهم الذي استحقوا به أن يدخلوا الجنّة بغير حساب ولا عذاب؟؛ لاهتمامهم بالحرص ـ رضي الله عنهم ـ على ذلك العمل، ليتصفوا به.

والمعنى أنّهم تكلّموا أو تناظروا فيهم. وفيه إباحة ذلك في باب العلم، والمباحثة في نصوص الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق، وأنّ الرجوع في ذلك عند الاختلاط واختلاف الأفهام إلى الأعلم في ذلك، كالشيخ المستفاد منه. وأنّه قد يتفق المتباحثون على الخطأ، حتى يكشف لهم من هو أعلم منهم بالعلم الواضح في ذلك، إلا أن يقال:

---

(١) راجع ص ٧٩.

(٢) يقال: بات القوم يدوكون دَوْكًا، إذا باتوا في اختلاط. المقاييس: ٢/ ٣١٤.

كان المتكلّمون بعضَ الصحابة من الحاضرين، لا كلّهم.

(فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا رسول الله ـ ﷺ ـ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئا. وذكروا أشياء) داكوا وخاضوا فيها، بأقوال لم توافق ما قال النبي ـ ﷺ ـ.

(فخرج عليهم رسول الله ـ ﷺ ـ) وهم في خوضهم، (فأخبروه) بما خاضوه في أولئك، (فقال) لهم عند ذلك، كاشفًا لهم ما خاضوا فيه: (هم الذين لا يسترقون) ولم يقل في هذا لا يرقون، (ولا يكتوون) ولم يقل: لا يكوون، (ولا يتطيرون) خرج من هذا التفاؤل؛ فإنه في الحقيقة لا يسمّى [ر،٦٦/أ] طيرة؛ فإنّه ـ ﷺ ـ كان يعجبه الفأل الحسن، كما يأتي إن شاء الله في موضعه بأوضح بيان[١].

(وعلى ربّهم يتوكلون) امتثالاً منهم لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، وطلبًا لكفايته في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

وقد قال الحافظ أبوبكر بن العربي المالكي: إن الإنسان إذا قصد بالطب إدامة الصحّة أو دفْعَ السقَم، وعلم أنّه سبب وعلامة لا يوجب استقلالاً لدفع الآلام، أو دفع السقم، فهو من الذين لا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربّهم يتوكلون، على أحد الأقوال[٢].

ولهذا في صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله

---

(١) ص١٢٣٩.

(٢) لم أهتد إلى موضعه.

عنه ـ من طريق أبي حازم، أنّه سمع سهلاً وسأله الناس ـ قال: وما بيني وبينه أحد ـ بأي شيء دُووِي جُرح النبي ـ ﷺ ـ؟. فقال: ما بقي أحد أعلم به مني. كان علي يجيء بترسه فيه ماء، وفاطمة تغسل عن وجهه الدم، وأُخذ حصيرٌ فأُحرق، فحُشي به جُرحه(١).

وقيل منسوخ بجواز التداوي. قال بعضهم: وهذا لا يصح؛ لأن الأخبار في الفضائل لا يدخلها النسخ، وإنما يدخل النسخ في الأحكام.

قال بعضهم: وهذا غفلة؛ فإن جواز التداوي من الأحكام، ولكن إنما المانع من النسخ، كون النبي ـ ﷺ ـ قد كوشف بهم في الآخرة، وأُري أحوالهم في القيامة، وأُعلم بصفتهم، وعددهم، وخصلتهم.

وتحقيق القول في الحديث أن ظاهره يقتضي حال الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ، لما قيل له في مرضه: ندعو لك الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني(٢).

وفي لفظ: قد سألته [ك،٣٢/ب] فقال: إنّي فعال لما أريد(٣).

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٩٦، كتاب الوضوء، باب فعل المرأة أباها..، برقم (٢٤٠) و(٤٩٥٠). وقد وقع في الأصل: «بأي شيء دووي به»، و«به» ليست في الصحيح.

(٢) رواه البيهقي في الشعب: ٢/ ٤٩١، برقم (٢٤٩٧) وابن عبدالبر في التمهيد: ٥/ ٢٦٩، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»: ٣٣/ ١٨٤، كلهم عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، ورواه ابن عساكر (٩/ ٣٦٨) عن أنس، ورواه أيضًا عن حذيفة (١٢/ ٢٩٨).

(٣) هو هذا اللفظ المروي عن الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ، رواه هنّاد في الزهد: ١/ ٢٣٠، برقم (٣٨٢)، وابن سعد في الطبقات: ٣/ ١٩٨، وذكره ابن عبدالبر في التمهيد: ٥/ ٢٦٩، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ، ورواه عن أبي الدرداء ابن أبي شيبة في المصنف: ٥/ ٣٢، برقم (٢٣٤٣٠) و(٣٤٥٩٣)، بلفظ: «هو أضجعني»، قاله لما قالوا له: ندعو لك الطبيب؟. وهكذا رواه عنه ابن سعد في الطبقات: ٧/ ٣٩٢، وأبو نعيم في الحلية: ١/ ٢١٨، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»: ٤٧/ ١٩٥.

فأخذه سري السقطي[1]، لما قال له الجنيد[2] ـ رحمه الله تعالى ـ: كيف تجدك؟ فقال مجيبًا له:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي   والذي بي أصابني من طبيبي[3]

وهذه حال أيوب ـ عليه السلام ـ وأضرابِه.

وظهر مما تقدّم أن التوكل لا ينافي الأسباب ولا مباشرتها، إذا تحقق العبد أنّه مدفوع إليها بنوع من المقدار، وأنها مسخرة له بحكمة من التقدير.

وأنّ مباشرتها لا [تنافي][4] حقيقة التوكل ولا حقّه، إلا أن التوكل بتركها جائز. وأنّه أفضل لمن قدر عليه. مع جواز استعمالها.

---

(١) هو أبو الحسن، السري بن المغلِّس البغدادي السقطي (١٦٠ـ ٢٥٣هـ)، من قدماء الصوفية وأوائلهم، قال السلمي: كان السري أول من أظهر ببغداد لسان التوحيد!، وتكلم في علوم الحقائق، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته. («طبقات الصوفية»: ٤٨) يريد التوحيد على طريقة الصوفية، وأسلم أحواله عندهم فناء الشهود البدعي، وذكروا للسقطي مقالات مخالفة لهدي النبوّة، كاستغفاره من حمد الله على السلامة من المصيبة!، وتحريمه على نفسه جزرةً يغمسها في دبس! وغير ذلك من الغلوّ المجافي لمنهاج النبوة. انظر السير: ١٢/ ١٨٥ـ ١٨٧. ولم يتعقب الذهبي شيئًا من مقالاته؟!. وعن الفناء عند الصوفية انظر آخر التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي، ثم البغدادي القواريري، شيخ الصوفية، القائل: «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ولم يتفقه، لا يقتدى به». ذُكر أنّ الفلاسفة كانوا يحضرون مجلسه لدقّة معانيه!؟ فالله أعلم بصحة ذلك، توفي سنة ٢٩٨هـ. انظر السير: ١٤/ ٦٦.

(٣) انظر «حلية الأولياء»: ١٠/ ٢٧٣، و«العاقبة» لعبدالحق الاشبيلي: ص ١٣٥.

(٤) في الأصول: «لا ينافي» بالتحتانية، والصواب ما أثبته.

وفي البخاري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً»[(١)].

وفي مسلم، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لكل داءٍ دواء، فإذا أصيب دواء الداء برىء بإذن الله ـ تعالى ـ»[(٢)].

وقد أخذ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على الرقية الأجرة. وأمرهم [ر،٦٧/ب] ـ ﷺ ـ أن يجعلوا له معهم منها قسما، كما في الصحيحين وغيرهما، في قصة لديغ الحي[(٣)].

(فقال عُكّاشة) بضمّ عين، وتشديد كافٍ وتخفيفها، ومنهم من عيّن التشديد أو رجّح.

(ابن مِحصَن) بكسر ميم وفتح صاد، الأسدي الغَنْمي، قتله ـ رضي الله عنه ـ طليحة الأسدي، حين تنبّأ في أيّام الردّة، شهيدًا في أكناف سلمى، أحد جبلي طيء، في أرض قومه، وقبره معروف اليوم، جهته في ذلك المحل[(٤)].

ومن سعادته ـ رضي الله عنه ـ أنّه رُزق الشهادة على يد رجل يدّعي النبوّة إذ ذاك، إلا أنه تاب في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ، وحج البيت الحرام، وبايع عمر، فعاتبه عمّا بدر منه، وعن قتل عكّاشة

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٥١، كتاب الطب، باب (١)، حديث (٥٣٥٤).

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٣٨٠، كتاب السلام، باب لكل داء دواء، برقم (٢٢٠٤).

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٩١٣، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، (٤٧٢١)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٨، كتاب السلام، باب (٢٣)، حديث (٢٢٠١).

(٤) انظر خبر قتل عكاشة في الطبقات الكبرى لابن سعد: ٣/ ٩٢، ط صادر.

ـ رضي الله عنه ـ، فقال له طليحة كلامًا معناه: ذاك رجل أكرمه الله على يديّ، ولم يشقني على يديه[1].

(فقال) ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ: (ادع الله أن يجعلني منهم، فقال) رسول الله ـ ﷺ ـ: (أنت منهم. ثم قام رجل آخر، فقال) يا رسول الله ـ ﷺ ـ (ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: سبقك بها عكّاشة).

هكذا الحديث في الصحيحين[2]. وفي لفظ للبخاري في حديث أبي هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نَمِرة عليه، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: اللهم اجعله منهم. ثم قام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك عكّاشة[3].

ذكره في باب «يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب»، قبل باب صفة الجنّة والنار[4].

وزاد ابن إسحاق: وبردت الدعوة[5].

وزاد مسلم: «هم الذين لا يرقون ولا يسترقون» الخ[6].

---

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى»: ٨/ ٣٣٤، برقم (١٧٤٠٩)، ولفظه أنّ عمر قال له: يا طليحة، لا أحبك بعد قتلك الرجلين الصالحين: عكاشة بن محصن، وثابت بن أقرم. فقال: يا أمير المؤمنين، أكرمهما الله بيدي، ولم يهنّي بأيديهما، وما كل البيوت بنيت على الحب، ولكن صفحة جميلة؛ فإن الناس يتصافحون على الشنآن.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٨٩، كتاب اللباس، باب المغفر، برقم (٥٤٧٤).

(٤) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٩٦.

(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/ ٦٣٨.

(٦) صحيح مسلم: ١/ ١٦٩، كتاب الإيمان، باب (٩٤)، حديث (٢٢٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: الصواب أنّ هذه اللفظة ـ يعني قوله: (لا يرقون) ـ مقحمة في الحديث، وهي غلط من بعض الرواة؛ فإن النبي ـ ﷺ ـ جعل الوصف الذي استحق به هؤلاء دخول الجنّة بغير حساب ولا عذاب هو تحقيق التوحيد وتجريده، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم[١].

وذكر ابن عبدالبر أن بعض أهل العلم ـ ولم يسمّهم ـ قال: إنّ الرجل الذي قيل له: «سبقك بها عكّاشة»، كان منافقًا، ولذلك لم يدع له ـ ﷺ ـ[٢].

ورواه الدارقطني عن أحمد بن محمد بن عيسى البِرتي القاضي[٣]، والحافظ ابن ناصر عن ثعلب اللغوي[٤].

قال السهيلي[٥]: وهذا لا يصح؛ لأن في مسند البزّار من طريق أبي صالح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في هذا الحديث، قال: فقام رجل من خيار المهاجرين فقال: ادع الله أن يجعلني منهم.

وقد ذكر الخطيب أنه سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ، رواه عن مجاهد[٦].

---

(١) بتصرف من «اقتضاء الصراط المستقيم»: ٢/ ٨٣٧، وانظر «التوسل والوسيلة» ضمن مجموع الفتاوى: ١/ ١٨٢، ٣٢٨.

(٢) «الاستيعاب»: ٨/ ١٠٨١، ط دار الجيل ١٤١٢هـ.

(٣) ذكر هذا ابن حجر في الفتح: ١١/ ٤١٢.

(٤) الذي في الفتح: ١١/ ٤١٢ أن ابن الجوزي أخرجه عن ثعلب في «كشف المشكل»، وأن ابن ناصر رجحه.

(٥) «الروض الأنف»: ٥/ ١٧٣.

(٦) في كتاب «الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة»: ١٠٦، ١٠٧.

وقد تقدّم ما في البخاري: «فقام رجل من الأنصار»، فالله أعلم أي ذلك كان، وما أُبهم في الصحيح [ر،٦٧/أ] إلا لمصلحة؛ إذ ليس في معرفته لنا ولا له فائدة، وإلا لم يبهمه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ولهذا لم يبهموا عكّاشة ـ رضي الله عنه ـ في حديث واحد في هذه القصة.

ولم يختلف أهل السير أن عكاشة ـ رضي الله عنه ـ قُتل كما ذكرنا، يوم بُزاخة[١]، طليعة لخالد بن الوليد. إلا سليمان التيمي، فإنه زعم أنه قتل في سريّة بعثها رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بني أسد[٢]. وليس ذلك بشيء.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن قوله ـ ﷺ ـ: «سبقك بها عكاشة» [سد][٣] للذريعة؛ أن يقوم من لا يستحق الدعوة. وقال ابن بطال: معنى قوله «سبقك بها عكاشة»: أي سبقك بهذه الصفة، التي هي صفة السبعين ألفًا، وهو ترك التطير ونحوه. ولم يقل «لست منهم» ولا «على أخلاقهم» بحسن أدبه ـ ﷺ ـ، وبلطفه في الكلام، لا سيّما مع أصحابه الكرام[٤].

وقال السهيلي: عندي في هذا الحديث أنها كانت ساعة إجابة، علمها ـ ﷺ ـ، فلما انقضت قال للرجل ما قال. يبيّن هذا حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، [فإنه][٥] قال فيه بعد ذكر عكاشة:

---

(١) «قال الأصمعي: ماء لطيء بأرض نجد، وقال أبو عمرو الشيباني: ماء لبني أسد». معجم البلدان: ١/ ٤٠٨.

(٢) كذا في الأصول «بني أسد»، والذي في «الاستيعاب» (٨/ ١٠٨٠): «بني خزيمة».

(٣) في الأصل: «سدًا»، والصواب ما أثبتّه.

(٤) نقله السهيلي كما في «الروض الأنف»: ٥/ ١٧٣، ١٧٤.

(٥) في الأصول: «أنه»، وما أثبته من «الروض» هو الأصوب، والمؤلف ينقل منه.

فقام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: اللهم اجعله منهم. ثم سكتوا ساعة يتحدثون، ثم قام الثالث فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: سبقك بها عكّاشة وصاحبه، ولو قلتَ لقلتُ، ولو قلتُ لوجبت. وهي في مسند ابن أبي شيبة، وفي مسند البزار أيضًا[1].

ويقوي هذا المعنى أيضًا رواية ابن إسحاق المتقدمة؛ فإنه زاد فيها ـ كما تقدم ذكره ـ: «سبقك بها عكاشة» وبردت الدعوة[2].

وقوله: (ولا يتطيرون) الطيرة نوع من الشرك. فوصفهم أنهم يتوكلون على الله ـ سبحانه ـ وحده، لا على غيره. وتركُهم الاسترقاءَ والتطيرَ هو من تمام التوكل على الله ـ تعالى ـ، كما جاء في الحديث: «الطيرة شرك» قال ابن مسعود: «وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل»[3]؛ لأن التوكل ينافي الطيرة. وستأتي في بابها.

وأما رقية العين فهي إحسان من الراقي. وقد رقى رسولَ الله ـ ﷺ ـ جبريلُ وميكائيلُ ـ عليهما السلام ـ من السحر[4]. وأذن ـ ﷺ ـ في

---

(١) كما ذكر الحافظ في الفتح: ١١/ ٤١٢، وضعّفه، وذكر أبا يعلى فيمن رواه. وفي المجمع (١٠/ ٤٠٧): رواه البزار، وفيه عطية وهو ضعيف وقد وثق، ومحمود بن بكر لم أعرفه.

(٢) «الروض الأنف»: ٥/ ١٧٤.

(٣) رواه أحمد في المسند: ١/ ٣٨٩، وأبو داود: ٤/ ١٧، كتاب الطب، باب في الطيرة، برقم (٣٩١٠)، والترمذي: ٤/ ١٦٠، برقم (١٦١٤) وصححه، وابن حبان في صحيحه: ١٣/ ٤٩١، الإحسان، برقم (٦١٢٢)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٤، برقم (٤٣).

(٤) رواه البخاري: ٥/ ٢١٧٤، كتاب المرضى، باب السحر، (٥٤٣٠)، ومسلم: ٤/ ١٣٧٢، كتاب السلام، باب السحر، (٢١٨٩). وهي رؤيا منامية، وليس في لفظه =

الرقى، وقال: لا بأس بها ما لم يكن فيها شرك[1]. واستأذنوه فيها فقال: من استطاع منكم أن ينفع أخاه ـ كما عند مسلم ـ فلينفعه[2].

وهذا يدل على أنها نفع وإحسان، وذلك مستحب مطلوب لله ـ سبحانه ـ ولرسوله. فالراقي محسن، والمسترقي سائل، راجٍ نفع الغير، وتحقيق التوكل ينافي ذلك.

فإن قيل: فعائشة [ك،٣٢/أ] ـ رضي الله عنها ـ قد رقت النبي ـ ﷺ ـ[3]، [ر،٦٨/ب] وجبريل رقاه، وميكائيل. قيل: أجل، ولكن هو لم يسترْق، وهو ـ ﷺ ـ لم يقل: لا يرقيهم راقٍ. وإنما قال: لا يطلبون من أحد أن يرقيهم.

وفي صحيح مسلم من حديث محمد بن سيرين، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يدخل الجنّة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب ولا عذاب». قيل: من هم؟ قال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»[4].

= تسميتهما، ولا أنهما رقياه، بل أخبراه بمكان السحر، وقد روى رقية جبريل للنبي ـ ﷺ ـ مسلم في صحيحه: ٤/ ١٣٧١، برقم (٢١٨٦).

(١) رواه مسلم: ٤/ ١٣٧٨، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقي. .، برقم (٢٢٠٠).

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٧، كتاب السلامة، باب استحباب الرقية. .، برقم (٢١٩٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، ٥/ ٢١٧٠، الطب، باب في المرأة ترقي الرجل، برقم (٥٤١٩)، ومسلم: ٤/ ١٣٧٥، كتاب السلام، باب (٢٠)، حديث رقم (٢١٩٢).

(٤) صحيح مسلم: ١٦٨/١، كتاب الإيمان، باب (٩٤)، حديث (٢١٨)، ورواه البخاري أيضًا في صحيحه: ٥/ ٢٣٧٥، برقم (٦١٠٧)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

وقال أحمد بن منيع في مسنده: حدثنا عبدالملك بن عبدالعزيز، حدثنا حماد، عن عاصم، عن زر، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «عُرضت علي الأمم فترأّت[1] عليّ أمتي، ثم رأيتهم، فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم، وقد ملأوا السهل والجبل، فقال: أرضيت يا محمد؟. فقلت: نعم. قال: فإن مع هؤلاء سبعين ألفًا يدخلون الجنّة بغير حساب. وهم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون. فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: النبي ـ ﷺ ـ: أنت منهم. فقام رجل آخر فقال: سبقك بها عكاشة[2]. وإسناده على شرط مسلم وهو عند الإمام أحمد بهذا اللفظ بسند صحيح على شرط الشيخين[3].

وفي حديث حصين بن عبدالرحمن المتقدم زيادات ونقص أعرضنا عنها؛ لأن ما أورده المصنف هو أتم سياقاته وأثبتها عند الحفاظ، فاقتصرنا عليه.

وفي حديث سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ في الصحيحين: «سبعون ألفًا، أو سبعمائة ألف»[4].

---

(١) كذا في الأصل، ولم أرها عند أحد ممن خرج هذا الحديث، وفي اللسان (١٤/ ٢٩٩): «تراءى لي» و«ترأّى» عن ثعلب: تصدّى لأراه. وفي المسند (١/ ٤٠٣): «فراثت» بمعنى أبطأت.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٤٦٠، برقم (٨٢٧٨) وقال: صحيح الإسناد من أوجه، والبخاري في الأدب المفرد: ٣١٤، برقم (٩١١)، وابن عبدالبر في التمهيد: ٢٤/ ٦٦، وابن حبان في صحيحه: ١٣/ ٤٤٨، (٦٠٨٤) الإحسان، وأبو يعلى في مسنده: ٢٣٣٩، برقم (٥٣٤٠)،

(٣) المسند: ١/ ٤٠٣، ٤٥٤. وصححه محققوه: ٦/ ٣٧٠. ط التركي.

(٤) صحيح البخاري: ٣/ ١١٨٦، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنّة..، =

وعند الإمام أحمد في مسنده[1]، والطبراني في معجمه[2]، عن ثوبان مرفوعًا: «ليدخلنّ الجنّة من أمتي سبعون ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفًا». ورواه الإمام أحمد أيضًا[3] وأبو يعلى[4] عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وفيه: «فاستزدت ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفًا».

وعند الإمام أحمد عن أنس ـ رضي الله عنه ـ، وفيه: فقال أبوبكر: يا رسول الله زدنا. قال: وهكذا. وأشار بيده. قال يا نبي الله زدنا. قال: وهكذا. قال له عمر: حسبك يا أبابكر. قال: أبوبكر: ما لنا ولك يا بن الخطاب؟. قال عمر: إنّ الله قادر أن يدخل الناس الجنّة بحفنة واحدة. قال النبي ـ ﷺ ـ: صدق عمر[5].

ورواه هو[6] والبزّار[7] أيضًا من وجه آخر، عن عبدالرحمن بن أبي بكر مرفوعًا، وفيه: فقال عمر: يا رسول الله، هلا استزدتَّه. قال: قد استزدتُّه فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفًا. فقال عمر: فهلّا استزدتَّه. فقال: قد استزدتُّه فأعطاني هكذا. وفرّج بين يديه، وبسط ذراعيه وحثا.

= برقم (٣٠٧٥)، وصحيح مسلم: ١/ ١٦٨، كتاب الإيمان، باب (٩٤)، حديث (٢١٩).

(١) المسند: ٦/ ٢٨٠.

(٢) الكبير: ٢/ ٩٢، وفي مسند الشاميين: ٢/ ٤٣٩، برقم (١٦٥٧).

(٣) المسند: ١/ ٦، وضعف محققوه إسناده: ١/ ٢٠٣. ط التركي.

(٤) مسند أبي يعلى: ١/ ١٠٤، برقم (١١٢).

(٥) المسند: ٣/ ١٩٣. وصححه محققوه: ٢٠/ ٣١١. ط التركي.

(٦) المسند: ١/ ١٩٧، وضعف محققوه إسناده: ٣/ ٢٣٣. ط التركي.

(٧) كشف الأستار: ٤/ ٢٠٨، برقم (٣٥٤٦).

قال هشام: هذا من الله ما يُدرى ما عدده.

[ر،٦٨/أ] وعند الترمذي وحسّنه، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «وعدني ربي أن يدخل من أمتي سبعين ألفًا، لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا، وثلاث حثيات من حثيات ربي»[(١)].

وروى الإمام أحمد بسند حسن، عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «أوّل من يدخل الجنّة من أمتي سبعون ألفا، مع كل ألف سبعون ألفا، ليس عليهم حساب»[(٢)].

وفي هذا أحاديث كثيرة، اقتصرنا منها على المقصود، والله أعلم.

وأمّا الكيّ، فقد ترجم عليه الحفّاظ من أهل الحديث، منهم البخاري في صحيحه، فقال: باب من اكتوى، أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو[(٣)]. أراد بهذه الترجمة أنّ الكيّ جائز للحاجة، وأنّ الأولى تركُه إذا لم يتعيّن، وأنّه إذا جاز كان فعل غيره ذلك به أحمدَ من أن يباشر الشخص ذلك بنفسه، أو بغيره لنفسه[(٤)].

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٦٢٦، كتاب صفة القيامة، باب (١٢)، حديث (٢٤٣٧). وقال: حسن غريب. وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: ٢/ ١١٩٦، برقم (٧١١١). ورواه ابن ماجه أيضًا: ٢/ ١٤٣٣، برقم (٤٢٨٦)، وأحمد في المسند: ٥/ ٢٦٨.

(٢) المسند: ٥/ ٣٩٣، وفي سنده ابن لهيعة.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٥٧، كتاب الطب.

(٤) أي يطلب منه أن يكويه.

وعموم الجواز مأخوذ من حديث جابر، الذي أورده البخاري في هذا الباب عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن كان في شيء من أدويتكم شفاء، ففي شَرطة مِحجم، أو لذعةٍ بنار، وما أُحبُّ أن أكتوي»[(١)].

وقد أخرج مسلم من طريق أبي الزبير، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: رُمي سعد بن معاذ على أكحله فحسمه رسول الله ـ ﷺ ـ[(٢)].

ومن طريق أبي سفيان عن جابر أن النبي ـ ﷺ ـ بعث إلى أُبيّ بن كعب طبيبًا، فقطع عنه عِرْقًا، ثم كواه[(٣)].

وروى الطحاوي[(٤)] والحاكم وصحّحه[(٥)]، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كواني أبو طلحة في زمن النبي ـ ﷺ ـ. وأصله في البخاري، وأنه كوى من ذات الجنب[(٦)].

وعند الترمذي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ، أن النبي ـ ﷺ ـ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة[(٧)].

---

(١) الصحيح: ٥/ ٢١٥٧، كتاب الطب، باب من اكتوى. .، رقم (٥٣٧٧).
(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٣٨١، كتاب السلام، باب لكل داء دواء، حديث (٢٢٠٨). والحسم هو الكيّ، كما في زاد المعاد: ٤/ ٦٣.
(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٣٨١، كتاب السلام، باب لكل داء دواء، حديث (٢٢٠٧).
(٤) «شرح معاني الآثار»: ٤/ ٣٢١. ط ١٣٩٩.
(٥) المستدرك: ٤/ ٤٦٣، برقم (٨٢٨٨). وهو في المسند: ٣/ ١٣٩.
(٦) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٦٢، كتاب الطب، باب ذات الجنب، رقم (٥٣٨٩).
(٧) السنن: ٤/ ٣٩٠، كتاب الطب، باب (١١)، حديث (٢٠٥٠)، وقال: حسن غريب. ورواه الحاكم في المستدرك: ٣/ ٢٠٧، برقم (٤٠٥٩)، وابن حبان في صحيحه: ١٣/ ٤٤٤، برقم (٦٠٨٠).

ولمسلم في صحيحه عن عمران بن حصين أنّه قال: كان يُسلَّم علي حتى اكتويت، فتُركت، ثم تركت الكيّ فعادوا[1].

وله عنه من وجه آخر: الذي كان انقطع عنّي رجع إلي. يعني تسليم الملائكة[2].

وفي لفظ له: أنه كان يسلَّم علي، فلمّا اكتويت أُمسك عنّي، فلما تركته عاد إلي[3]

وروى الإمام أحمد[4]، وأبو داود[5]، والترمذي[6]، عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن الكيّ، فاكتوينا فما أفلحنا ولا أنجحنا.

وفي لفظ: فلم نفلحن، ولم ننجحن[7].

وذلك أنّه ـ رضي الله عنه ـ استسقى بطنه، فبقي ملقىً على ظهره

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٧٣٣، كتاب الحج، باب جواز التمتع، (١٢٢٦).

(٢) لم أعثر عليه في صحيح مسلم، وهو في مسند الروياني: ١/ ١٢٢ برقم (١١٥)، وفي الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤/ ٢٨٩. وقد ذكر أنه في مسلم، ابن حجر في الفتح: ١٠/ ١٥٥.

(٣) لم أعثر على هذا اللفظ في صحيح مسلم، وهو بنحوه عند اللالكائي: ٢/ ١٤٧.

(٤) المسند: ٤/ ٤٣٠.

(٥) السنن: ٤/ ٥، كتاب الطب، باب في قطع العرق، برقم (٣٨٦٥).

(٦) السنن: ٤/ ٣٨٩، كتاب الطب (١٠)، حديث (٢٠٤٩)، ورواه النسائي في الكبرى: ٤/ ٣٧٧، برقم (٧٦٠٢)، والحاكم في المستدرك: ٤/ ٢٣٨، برقم (٧٤٩١) وصحح إسناده.

(٧) وهو لفظ أبي داود، لكنه عنده هكذا: «فما أفلحن، ولا أنجحن».

ثلاثين سنة، وقد نُقب له في سرير من جريد، فكان عليه موضع لقضاء حاجته، فدخل عليه مطرّف بن عبدالله بن الشخّير، وأخوه العلاء، فجعل مطرّف يبكي؛ لما يرى من حاله، فقال عمران ـ رضي الله عنه ـ: ممّ تبكي؟. فقال: لأني أراك [ر،٦٩/ب] على هذه الحالة [ك،٣٣/ب] العظيمة. قال: لا تبك؛ فإنّ أحبَّه إلى الله أحبُّه إلي.

ثم قال: أُحدّثُك حديثًا، لعلّ الله ينفعُك به، واكتم عليّ حتى أموت: إنّ الملائكة تزورني فآنس بها، وتسلّم علي[١].

قال ابن حجر[٢]: ولم نر في أثر صحيح أن النبي ـ ﷺ ـ اكتوى، وذكره الحاكم[٣] بلفظ (رُوي أنّه اكتوى للجرح الذي أصابه بأحد). والثابت في الصحيح، في غزوة أحد، أن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أحرقت حصيرًا فحشت به جرحه[٤]. وليس هذا الكيَّ المعهود. وجزم ابن التين بأنه اكتوى، وعكْسه شمس الدين ابن قيم الجوزية في الهدي[٥].

---

(١) انظر نحوه في «الطبقات الكبرى» لابن سعد: ٧/ ١١.

(٢) فتح الباري: ١٠/ ١٥٦ باختصار.

(٣) كذا في الأصول، والذي في الفتح: «وذكره الحليمي بلفظ..».

(٤) صحيح البخاري: ٣/ ١٠٦٣، رقم (٢٧٤٧)، وصحيح مسلم: ٣/ ١١٣١، رقم (١٧٩٠).

(٥) قال ابن القيم: تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع، أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته له، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه، ولا تعارض بينها بحمد الله ـ تعالى ـ؛ فإن فعله يدل على جوازه، وعدمَ محبته له لا يدل على المنع منه. وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل. وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو على النوع الذي لا يحتاج إليه. بل يفعله خوفًا من حدوث الداء، والله أعلم. اهـ. «زاد المعاد»: ٤/ ٦٦.

فعُلم مما تقدّم أن الكيّ مستعمل في هذا الباب، وهو من العلاج الذي يعرفه الخاصة والعامة، والعرب تستعمله كثيرًا فيما يعرض لها من الأدواء، وتقول في أمثالها: «آخر الدواء الكيّ»[1]. قال شاعرهم في ذلك، وهو مما يُتمثل به:

إذا اكتـويـتَ كيّـة فـأنضـج نشّف بها الداء ولا تلهوج[2]

فالكي داخل في جملة العلاج والتداوي المأذون فيه، المذكور في حديث أسامة بن شريك أنه قال: أتيت النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت عليهم ثم قعدت، فجاءت الأعراب من ههنا وههنا، فقالوا: يا رسول الله، نتداوى؟. قال: «تداووا؛ فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً، غير الهرم». رواه أبو داود بسند صحيح، فقال: حدثنا حفص بن عمر النمري، حدثنا شعبة، عن زياد بن علاقة، عن أسامة به، فذكره[3]. ورواه غيره من الحفاظ[4].

فأما حديث عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ في النهي عن الكي، المتقدم، فقال العلماء ـ منهم أبو سليمان الخطابي ـ: يحتمل وجوهًا، أحدها أن يكون ذلك من أجل أنهم يعظّمون أمره، ويقولون

---

(١) «جمهرة الأمثال»: ١/ ٩٧، (٨٤).

(٢) لم أعثر عليه. وقوله (ولا تُلهْوِج) من قولهم: «طعام مُلَهْوَج» وهو الذي لا ينضج. انظر اللسان: ٢/ ٣٦٠.

(٣) سنن أبي داود: ٤/ ٣، كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى، رقم (٣٨٥٥). وصححه الألباني كما في «غاية المرام»: ١٧٩.

(٤) انظر المسند: ٤/ ٢٧٨، وسنن الترمذي: ٤/ ٣٨٣، برقم (٢٠٣٨)، والسنن الكبرى للنسائي: ٤/ ٣٦٨، رقم (٧٥٥٣)، وسنن ابن ماجه: ٢/ ١١٣٧، رقم (٣٤٣٦).

«آخر الدواء الكي»، ويرون أنّه يحسم الداء ويُبريه، فإذا لم يفعل ذلك عطب صاحبه وهلك، فنهاهم عن ذلك إذا كان العلاج على هذا الوجه. ولهذا قال في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ عند البخاري، ـ والصحيح رفعه ـ: «الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكيّة بنار، وأنهى أمّتي عن الكيّ»[1]. ذكره في باب الطب. فأباح لهم استعماله على معنى التوكل على الله ـ سبحانه ـ وطلب الشفاء، والترجّي للبرء، مما يُحدث الله من صنعه، ويجلبه من الشفاء على أثره؛ لِما جعل الله ـ سبحانه ـ في ذلك من الأسباب، فيكون الكيّ والدواء سببًا لا علة، وهو أمر قد يكثر شكوك الناس فيه، وتخطيء فيه ظنونهم وأوهامهم، فما أكثر ما تسمعُهم يقولون: [ر،٦٩/أ] لو أقام فلان بأرضه وبلده لم يهلِك، ولو شرب الدواء لم يسقَم. ونحوَ ذلك من تجريد إضافة الأمور إلى الأسباب، وتعليق الحوادث بها، دون تسليط القضاء عليها، وتغليب المقادير فيها، فتكون الأسباب أمارات لتلك الكوائن، لا موجبات لها.

وقد بيّن الله ذلك في كتابه، في قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ١٠]. وقال عن الكفار: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وقد سلك الحكماء في هذا الطريق الصواب، وقُيد كلامهم في مثله، قال أبو ذؤيب الهذلي يذكر ابنًا له يُدعى «نبيشة»:

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٥١، كتاب الطب، (١)، حديث (٥٣٥٦).

يقولون لي: لو كان بالرمل لم يمت ... نُبيشـــة والكهّـــان يكـــذب قيلُهـــا
ولو أنني استودعته الشمس لارتقت ... إليـه المنـايـا عينُهـا ورسـومُهـا[1]

يريد أبو ذؤيب بالكهان في هذا الأطباء، والعرب تدعو الأطباء كهانًا، وكل من يتعاطى علمًا مغيبًا فهو عندهم كاهن [وعرّاف أيضًا، كما قال عروة بن حزام[2]، وقد مرّ بطبيب نجد، فعالجه، فلم يصنع شيئًا، فقال له عروة: يا هناه، هل عندك للحب دواء أو رقية؟، فقال: لا والله، فانصرف به أصحابه حتى مرّوا بطبيب نجد، فعالجه فلم يصنع شيئاً، فقال عروة: يا هناه، هل عندك للحب دواء أو رُقية؟ فقال: لا والله، فانصرف به أصحابه حتى مرّوا بطبيب نجد، فعالجه فلم يصنع شيئاً، فأنشأ يقول ـ فيما رواه محمد بن داود الظاهري في كتاب الزهرة[3] وغيره ـ:

جعلتُ لعرّاف اليمامة حكمَه ... وعرّاف نجد إن هما شفياني

وفي رواية:

وعرّاف حجر إن هما شفياني][4]

وقال رؤبة في كلمة له[5]: ولو رقاه لوقاه الواقي

---

(١) «شرح أشعار الهذليين»: ١/ ١٧٤، مكتبة دار العروبة.

(٢) هو عروة بن حزام بن مهاجر الضني، شاعر من بني عذرة، مات نحو ٣٠هـ. انظر «الأغاني»: ٢٤/ ١٢٣، والأعلام: ٤/ ٢٢٦.

(٣) ١/ ٤٣٩. وفي التعبير بالرواية تجوز، إذ ليس في كتاب «الزهرة» رواية للبيت بإسناد.

(٤) ما بين [ ] زائد على ما في «معالم السنن» للخطابي، والظاهر أنه إضافة من المؤلف كما هي عادته.

(٥) لم أجدها في ديوانه الذي حققه وليم بن الورد البروسي ونشرته دار ابن قتيبة.

ثم خشي أن يكون فوّض، فتداركه فقال على إثره:

وكيف يُوقَى ما الملاقي لاقي

وقال زهير بن أبي سلمى[1]:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلّم

ومثل هذا في كلامهم كثير.

وفيه وجه آخر، وهو أن يكون نهيه ـ ﷺ ـ عن الكي هو أن يفعله احترازًا بالدواء قبل وقوع الضرورة، ونزول البلية، وذلك مكروه، وإنما أبيح العلاج والتداوي عند وقوع الحاجة، ودعاء الضرورة إليه، ألا ترى [أنه][2] إنما كوى سعدًا حين خاف عليه الهلاك [ر،٧٠/ب] من النزف.

وقد يحتمل أن يكون إنما نهى عمران [ك،٣٣/أ] خاصة عن الكي، في علّة بعينها؛ لعلمه أنه لا ينجح[3] الأمر فيه، ألا تراه يقول ـ رضي الله عنه ـ: «فما أفلحنا، ولا أنجحنا». وقد كان به الناصور.

ولعلّه إنما نهاه عن استعمال الكي في موضعه من البدن، والعلاجُ إذا كان في الخطر العظيم كان محظورًا، والكيّ في بعض الأعضاء يعظم خطره، وليس كذلك في بعض الأعضاء، فيشبه أن يكون النهي منصرفًا إلى النّوع المخوف[4].

---

(١) ديوانه: ص ٣٠، بشرح ثعلب. وليس في «معالم السنن» بيت زهير هذا.

(٢) «أنه» ليست في الأصل، وهي ثابتة في «معالم السنن».

(٣) في «معالم السنن»: «لا ينجع» بالعين.

(٤) «معالم السنن» للخطابي: ٥/ ٣٥٠ـ ٣٥٣. بتصرف يسير من المؤلف.

قالوا: وهذا الاحتمال يردّه حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ المتقدم، الذي في البخاري: «وأنهى أمتي عن الكيّ»، وهو عام، وسيأتي باقي الكلام على باقي حديث الباب في أبوابه إن شاء الله ـ تعالى ـ، كالطيرة.

الباب الثالث

باب الخوف من الشرك

لما ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ أنّ من حقق التوحيد دخل الجنّة بغير حساب ولا عذاب، أعقبه بباب الخوف من الشرك؛ ليكون محصِّلُ التوحيد على حذر من زواله أو نقصانه، ولئلا يتكل على الرجاء في فضله، بل يجمع بين الخوف والرجاء في ذلك، ولهذا استشهد بهذه الآية الكريمة فقال: [وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]].

وينبغي أن نقدّم قاعدة في الشرك، مما يتعلّق بالآية الكريمة وهذه الترجمة، مما قرّره العلماء ـ رضي الله عنهم ـ في هذا المقام، بأن تعلم أنّ «الشرك شركان: شرك يتعلق بذات المعبود ـ سبحانه ـ، وبصفاته وأفعاله، وشركٌ في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحب هذا يعتقد أنّه ـ سبحانه ـ لا شريك له في ذاته وأفعاله وصفاته.

فالأول نوعان: أحدهما شرك التعطيل، وهو أقبحها، كشرك فرعون، إذ قال: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

قالوا: فالشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطّل، وكل معطّل مشرك، إلا أنّ الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك

مقرًّا بالخالق ـ سبحانه ـ وصفاته، ولكن عطل حق التوحيد.[1]

وأصل الشرك وقاعدته ترجع إلى التعطيل، فهو أقسام: تعطيل للمصنوع عن صانعه [ر،٧٠/أ] وخالقه، وتعطيل الصانع عن كماله المقدّس، بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله ـ وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه من هذا الكتاب، إن شاء الله ـ تعالى ـ، وتعطيل معاملته مما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

ومن هذا شرك أهل وحدة الوجود، في قولهم ما ثمّ خالق ومخلوق، بل الحق المنزّه عين الخلق. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديّته، وأنّه لم يكن معدومًا أصلاً، إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة، التي مضمونها إنكار الباري ـ سبحانه ـ.

ومن هذا أيضًا شرك من عطّل الربّ ـ سبحانه ـ عن صفاته وأفعاله، كغلاة الجهمية والقرامطة.

النوع الثاني: من جعل معه ـ سبحانه ـ آلهة أخرى، كالنصارى، فجعلوه ثالث ثلاثة، وكالمجوس، قالوا بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، وكشرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وإنما تحدث بدون مشيئة الله وقدرته

---

(١) وعلى هذا يفهم قول شيخ الإسلام في (درء التعارض: ١٠/ ٢٨٩): «كل معطل مشرك، وليس كل مشرك معطلا»، أي: منكرًا للخالق، وهذا هو أصل التعطيل.

وإرادته، ـ وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه، إن شاء الله ـ تعالى ـ، ولهذا كانوا بالمجوس أشبه»[1].

ومنه شرك الذي جعل نفسه ندًّا لله ـ تعالى ـ بأن قال في محاجته لإمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، إبراهيم خليل رب الأرض والسماء ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لما قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلما رآه الخليل ـ عليه السلام ـ عييًّا أو مستعليًا، انتقل به إلى الدليل الواضح[2]، في باب يعجزه عن دعواه المشاركة لباريه ـ جل وعلا ـ، حيث قال ـ عليه السلام ـ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾، فإنّ ترْك المسؤول الدليل لعجز فهم السائل ليس انقطاعًا عند محققي الأصوليين. قال ابن الجوزي: رأى ضعف فهمه، لمعارضته اللفظ بمثله ـ أي مع اختلاف الفعلين ـ فانتقل إلى حجة أخرى قصدًا لقطعه، لا عجزًا منه ـ عليه السلام ـ[3].

وهذا معنى قول شيخه أبي الوفاء بن عقيل، وشيخ الإسلام ابن تيمية[4].

---

(١) ما بين « » منقول من «الجواب الكافي» لابن القيم: ص ٩٠، مع شيء من التصرف والاختصار.

(٢) ليت المؤلف استمر في نقل كلام ابن القيم، حيث قرر أن الخليل ـ عليه السلام ـ لم ينتقل من دليل إلى دليل، وإنما طرد الدليل الأول؛ لأن الذي يحي ويميت لا بد أن يكون قادرًا على الإتيان بالشمس من غير الجهة المعتادة. لكنّ المؤلّف قرر كلامًا يلزم منه عدم وضوح الدليل الأول، وعدم إعجازه، وعلله بعدم فهم الخصم للحجة الأولى وتعسرها عليه، موافقًا في ذلك أبا حامد الغزالي، كما في كتابه «القسطاس المستقيم» ص ٢١، ضمن مجموعة القصور العوالي، الجزء الأول.

(٣) «زاد المسير»: ١/ ٣٠٨، بتصرف.

(٤) لم أجد لشيخ الإسلام كلامًا في هذه المسألة، وأشك في موافقته لما اختاره المؤلف.

ولهذا أتى ـ عليه السلام ـ بالفاء المؤذنة بتعلق هذا الكلام بما قبله.

قال أبو البقاء: «والمعنى: إذا ادعيت الإحياء والإماتة، ولم تفهم، فالحجة أنّ الله يأتي بالشمس»[1] من المشرق، فأت بها من المغرب. ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾، كأنما ألقم حجرًا.

وقال ابن التلمساني[2]: عدل الخليل ـ عليه السلام ـ في تقرير الاستدلال بالأثر على المؤثر الأوضح عنده، لِما رأى من عِي النمرود، وعدم فهمه، لا لعجز الخليل ـ عليه السلام ـ. انتهى.

لأنّه ـ عليه السلام ـ قادر أن [ر،٧١/ب] يحقق معه حقيقة الإحياء والإماتة، كيف وهو المستدل بالنجوم وغيرها ـ عليه السلام ـ.

وقاله ابن عقيل، وقرّره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ. وقال: فحاصله أن الانتقال لمصلحة يجوز، وليس انقطاعًا، دون ما إذا كان عجزًا، فإنه انقطاع[3].

وكشرك[4] من يجعل الكواكب العلويات أربابًا مدبِّرة لأمر هذا العالم استقلالاً، من غير مدبّر لها، كما هو مذهب مشركة الصابئة وأتباعهم من الحكماء.

وكشرك عباد الشمس وغيرهم.

---

(١) «التبيان في إعراب القرآن»: ١/ ٢٠٧.

(٢) هو عبدالله بن محمد بن علي، أبو محمد، شرف الدين الفهري التلمساني، (٥٦٧-٦٤٤هـ)، له شرح «المعالم في أصول الدين» للفخر الرازي.

(٣) لم أعثر على موضعه.

(٤) عاد المؤلف إلى كلام ابن القيم في الجواب الكافي بتصرف.

ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم أنّه إله من جملة الآلهة، [ك،٣٤/ب] وأنه إذا خصه بعبادته والانقطاع إليه أقبل عليه، واعتنى به.

ومنهم من يزعم أن معبوده الأدنى يقرِّبه إلى المعبود الذي هو فوقه، والفوقاني يقرّبه إلى من هو فوقه، حتى تقرِّبَه تلك الآلهة إلى الله ـ سبحانه ـ، فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقل[1]، كما أخبر الله عنهم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وهذا الذي قال الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولهذا قال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم، وقد جمعتهم الجحيم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، ومعلوم أنهم ما سوّوهم به ـ سبحانه ـ في الخلق والرزق، والإماتة والإحياء، والملك والقدرة، وإنما سوّوهم به في الحبّ والتألّه، والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الظلم والجهل، فكيف يسوّى رب الفلق بمن خلق؟!، فأي ظلم أقبح من هذا؟، وأي حكم أجور منه؟، حيث عدل من لا عديل له ولا مثيل بخلقه، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: ١]، فعدلوا به من لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السمٰوات والأرض، فيا لك من عدل تضمّن أكبر الظلم وأقبحه وأخسّه[2].

وقد قال بعض السلف: إن آية النساء هذه، التي صدّر بها الشيخ

---

(١) «الجواب الكافي»: ٩١.

(٢) انظر الجواب الكافي: ٩٢.

هذا الباب، أحكمُ آية في الشرك، وأخوفها في جانبه، وأرجاها في جانب التوحيد.

فقد روى ابن أبي الدنيا، عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: أحب آية في القرآن إليّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] [النساء: ٤٨].

وفي[2] صحيح مسلم، من طريق مرّة، عن عبدالله قال: لما أسري برسول الله ـ ﷺ ـ انتهى إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها [ينتهي ما] يهبط [به][3] من فوقها، فيقبض منها، قال: [ر،٧١/أ] ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ١٦]، قال: فراش من ذهب. قال: وأعطي رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثًا: أعطي [الصلوات][4] الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المُقْحِمات[5].

فأما كونها أحكمَ آية في الشرك، ففي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، فدخل تحت ذلك جميع الشرك، كبيرُه وصغيرُه، فلا يُغفر من ذلك شيء إلا بالتوبة منه.

وقد ذُكر دخول الشرك الأصغر في عموم هذه الآية عن بعض

---

(١) «حسن الظن بالله»: ٦٢، برقم (٥١). ط طيبة ١٤٠٨هـ.
(٢) كتب في الطرة أمامه: [بلغ مقابلة على أصله فصح على يد مصنفه عفى الله عنه].
(٣) ما بين [ ] ساقط من الأصل، متمم من صحيح مسلم.
(٤) في الأصل: «الصلاة»، بالإفراد، والمثبت من صحيح مسلم.
(٥) صحيح مسلم: ١/ ١٣٨، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٣).

السلف كشيخ الإسلام ابن تيمية[1]، وغيره من العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ.

فكبيره ينقض التوحيد، ويُخرج من الملّة، ولا يُقبل من صاحبه عمل ما دام على ذلك، نستجير بالله من ذلك.

وصغيره كالرياء والسمعة يبطل العمل إذا أنشيء عليه، فإن كان عارضًا فقد اختلف السلف في إبطاله، والصحيح أنّه إذ زال العارض بتجديد النيّة عند حدوثه سلم العمل، لكن مع نقصانه.

وأما كونها أخوفَ آية في جانب الشرك، فهو يظهر من هذا التقرير؛ لأن وجود الشرك دائر بين ما ذكرنا، ومتى لزم الإنسان الخوف في هذا المقام رُزق من الله ـ سبحانه ـ الهداية، كما قال ـ تعالى ـ: عن ألواح موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، التي كتبها له ـ تبارك وتعالى ـ بيده: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤]. وقال في كتابنا الذي أنزل على رسولنا محمد ـ ﷺ ـ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢]. وبذلك وصى ـ سبحانه ـ كل أمّة، وقرن التذكر بالخوف فقال ـ تعالى ـ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ١٠]. وأهل خشيته هم أهل العلم به، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. فهم بخشيتهم له يرجونه ـ سبحانه ـ، وسيلقون عنده ما أمّلوه.

وأما كون الآية المذكورة في الباب أرجى آية في جانب التوحيد، فهو في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، وهذا عام لغفران

(١) لم أقف على تصريح له بذلك بعد بحث، وانظر الرد على البكري ص ١٤٨، حيث جعل شيخ الإسلام ذلك محتملا دون جزم. وفي اعتبار المؤلف شيخَ الإسلام من السلف توسع في التعبير؛ فإن المقصود بهم أصلاً القرون المفضلة: الصحابة، والتابعون، وأتباعهم.

جميع الذنوب تحت المشيئة من غير توبة، ما عدا الشرك.

وعند الإمام أحمد عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر: ٥٦] فقال: «قال ربكم: أنا أهل التقوى، فلا يُجعل معي إله غيري، فمن اتقى أن يجعل معي إلهًا كان أهلاً أن أغفر له»(١).

وفي صحيح مسلم وغيره، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال في حديث طويل، وفيه: «حتى إذا فرغ الله من قضائه بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا، ممن أراد الله ـ عز وجل ـ أن يرحمه، ممّن يقول: «لا إله إلا الله»(٢).

قال أبو محمد، علي بن أحمد بن حزم الظاهري عند هذا الحديث: [ر،٧٢/ب] مسألة ـ من ضيّع الأعمال كلّها فهو مؤمن ناقص الإيمان، لا يكفر. وذكر الحديث(٣).

---

(١) المسند: ٣/ ٢٤٣، ورواه الترمذي: ٥/ ٤٣٠، برقم (٣٣٢٨)، والنسائي في الكبرى: ٦/ ٥٠١، برقم (١١٦٣٠)، وابن ماجه: ٢/ ١٤٣٧، (٤٢٩٩)، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٥٥٢، (٣٨٧٦) وصحح إسناده، والدارمي: ٢/ ٣٩٢، وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع: ٥٩٢، برقم (٤٠٦١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه: ٦/ ٢٧٠٥، كتاب التوحيد، باب (٢٣)، حديث (٧٠٠٠)، ومسلم: ١/ ١٤٣، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، حديث (١٨٢).

(٣) المحلى: ١/ ٤٠، وهذا منه فرض لأمر ذهني، لا يقع بحال، إذ لا يتصوّر مؤمن ترك الأعمال كلّها؛ فإنه لا بد أن يحصل منه ولو بعض أعمال القلوب، كالحب والخوف والرجاء، كما أن هذا من ابن حزم ومن وافقه تهوين من شأن العمل، =

وقد ذكر جمهور العلماء ـ رحمهم الله ـ نحو ذلك فيمن ترك الصلاة تهاونًا وكسلاً، لا جحودًا، ولم يُدعَ[1] إليها[2].

ولهذا قال بعض السلف: إنها أرجى من قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ فإنّه لا بد في هذه الآية من التوبة حتمًا، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، [ك،٣٤/أ] ولو لم تشترط التوبة فيها لدخل الشرك. فتبين بهذا الاعتبار أن آية النساء أرجى منها في جانب التوحيد[3].

ونزع ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في محاورته لعبدالله بن عمرو ابن العاص، فيما رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، والحاكم وقال:

= وإغراء بالتفلّت من فرائض الإيمان، وهو محض مذهب المرجئة، المؤخرين العمل عن مسمّى الإيمان.

(١) في الأصل: يُدعى. ومؤدى عبارته أن تارك الصلاة تهاونًا وكسلاً لا يكفر عند الجمهور إلا إذا دُعي إليها فامتنع، وهذا غير صحيح؛ فإنهم لا يكفر عندهم حتى لو دُعي إليها فامتنع، وإنما يُقتل عند غير الحنفية، ويكفر عند الحنابلة، ولعل المؤلف لم يقصد ذلك. وانظر «الصلاة وحكم تاركها» لابن القيم: ص ٣٨.

(٢) الخلاف في تكفير تارك الصلاة كسلاً وتهاونًا إنما حدث بعد عهد الصحابة، بتأثير من تيار الإرجاء، الذي نشأ في أواخر عهد التابعين، أما الصحابة فقد انعقد إجماعهم على كفر تارك الصلاة ولو لم يجحدها، وحكى هذا الإجماع عبدالله بن شقيق العقيلي، قال: كان أصحاب محمد ـ ﷺ ـ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة، رواه الترمذي: ٥/ ١٤، برقم (٢٦٢٢)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٤٨، (١٢) عن أبي هريرة، وانظر الآثار في ذلك في كتاب الكبائر للذهبي: ١٩، ٢٠.

(٣) هكذا عبارته، والمقصود أن آية النساء أرجى من آية الزمر لأنها لم تشترط التوبة لحصول المغفرة إلا في الشرك، أما آية الزمر فالمغفرة فيها لجميع الذنوب مرتبة على التوبة، بدليل قوله بعدها: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ..﴾ الآيات.

صحيح الإسناد عنهما ـ منزعًا في أرجى آية في كتاب الله، لما قال عبدالله بن عمرو: أرجاها قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، أن قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أرجى آية قوله ـ تعالى ـ عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. قال: فرضي ـ تعالى ـ من إبراهيم قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ﴾. قال: فهذا لما يتعرض في النفوس، ويوسوس به الشيطان(١).

وقد قوّى بعض السلف ـ رضي الله عنهم ـ منزع ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ هذا، وأنها أرجى آية، كيف وهو ترجمان القرآن، المعلَّم للتأويل. وهو كما ذكروا؛ إذ هو من القوّة بمكان لمن تدبّره، والله أعلم.

وذكر السيوطي في حاشية البخاري، عن ابن المبارك أن أرجى آية قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾(٢) [النور: ٢٢]، ولهذا قال القائل:

فإنّ قدْرَ الذنب من مسطحٍ ... يَحُطُّ قدْرَ النجم من أُفقه
وقد جرى منه الذي [قد] جرى ... وعوتب الصدّيق في حقه(٣)

---

(١) تفسير ابن جرير: ٣/ ٤٩، وتفسير ابن أبي حاتم: ٢/ ٥٠٩، برقم (٢٦٩٤) وتمام السياق له، والمستدرك: ١/ ١٢٨، برقم (١٩٨) وقال صحيح على شرط الشيخين.

(٢) الصواب أن يقول: إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ لأنه موضع الشاهد. وقد رواه عن ابن المبارك مسلم في صحيحه: ٤/ ١٦٩٥، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، رقم (٢٧٧٠). وهذا أيضًا أولى من عزوه إلى السيوطي.

(٣) ذكرهما ابن حجر في الفتح: ٨/ ٤٧٨. و[قد] سقطت من الأصل. وفي نسخة [ر]: فإن كان قدر..، بزيادة (كان)، ولا وجه لها.

إذا فهمت ذلك، فمذهب أهل السنّة والجماعة بأجمعهم، من السلف الصالح، والخلف، وأهل الحديث، والفقهاء، والمتكلمين على مذهبهم[1]، أن أهل الذنوب في مشيئة الله ـ تعالى ـ، وأن من مات على الإيمان، وتشهّد مخلصًا من قلبه الشهادتين، فإنّه يدخل الجنّة، فإن كان تائبًا، أو سليمًا من المعاصي، دخل الجنّة برحمة ربه، وحُرّم على النار بالجملة. وإن كان من المخلّطين بتضييع ما أوجب الله ـ تعالى ـ عليه، أو بفعل ما حرّم عليه، فهو في المشيئة، كما ذكر الله في هذه الآية الكريمة، لا يُقطع في أمره بتحريمه على النار، ولا باستحقاقه الجنّة لأول وهلة، بل يقطع بأنّه لا بد من دخوله الجنّة آخرًا، ولا يخلّد في النار، وحاله قبل ذلك في خطر المشيئة؛ إن شاء الله ـ تعالى ـ [ر، ٧٢/أ] عذّبه، وإن شاء عفى عنه بفضله.

قال عبدالله بن الإمام أحمد: حدثني أبي، حدثنا وكيع، قال: قال سفيان الثوري: الناس عندنا مؤمنون في الأحكام والمواريث، ونرجو أن نكون كذلك، ولا ندري ما حالنا عند الله[2].

[وقال الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]]. يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: أبعدني وبَنِّي أن نعبد الأصنام، فسأل الله ـ سبحانه ـ أن يجنّبه وبنيه عبادتها، وكان إبراهيم التيمي ـ رحمه الله ـ يقول في قصصه: من يأمن البلاء بعد خليل الله إبراهيم، حيث يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[3].

---

(١) كذا، ولعلها: «على مذاهبهم».

(٢) السنة: ١/ ٣١١، (٦٠٩)، ورواه الخلال في السنة: ٣/ ٥٦٧، وأبو نعيم في الحلية: ٧/ ٢٦.

(٣) رواه ابن جرير ١٣/ ٢٢٨، ورواه ابن عبدالبر في التمهيد: ١٨/ ١٤٩ من قول سفيان الثوري.

وهذا يدل بظاهره أن عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بتوفيق الله - سبحانه - وحفظه إياهم، وأنّه بظاهره في دعائه - ﷺ - لا يتناول أحفاده وجميع ذريّته، وإنما يتناول مجموعهم، خلافًا لما زعم ابن عيينة، فيما روى عنه ابن أبي حاتم[1] أن أولاد إسماعيل لم يعبدوا الصنم، - فإن هذا مكابرة للحس والمشاهدة - محتجًا بهذه الآية.

والظاهر من استقراء عبادة بني إسماعيل - عليه السلام - للأصنام، حين بعث إليهم رسول الله - ﷺ - يرد ذلك. بل عبدوه وعكفوا عليه، حتى هدى الله من شاء منهم بمحمد - ﷺ -، ولهذا قال - تعالى - بعد أن قال لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، قال إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]، مع قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد قال بعض السلف: عهده: دينه الذي ارتضى لعباده، ومنه الإمامة في دينه[2].

قال الربيع بن أنس: عهد الله الذي عهد إلى عباده: دينه. ألا ترى أنه قال: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٣]. يقول: ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق[3]. وكذا روى عن عطاء[4]، وأبي العالية[5]، ومقاتل بن حيان[6]، وغيرهم.

---

(١) انظر الدر المنثور: ٤/ ١٦٠.

(٢) انظر تفسير الطبري: ١/ ٥٣٠، ٥٣١.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ١/ ٥٣١.

(٤) روى ابن جرير عن عطاء أنه سئل: ما عهده؟. قال: أمره. (١/ ٥٣٠). وروى عنه ابن أبي حاتم أنه قال: هي رحمة لا ينالها إلا المؤمنون أهل الجنة: ١/ ٢٢٣.

(٥) رواه ابن أبي حاتم: ١/ ٢٢٣.

(٦) انظر تفسير ابن كثير: ١/ ٤١١.

وفي ذلك دليل واضح على أن الفاسق لا يصلح للإمامة، وكيف يصلح من لا يجوز حكمه ولا شهادته ولا طاعته ولا خبره، وإذا كان ظالمًا جاء المثل السائر فيه: من استرعى الذئب في الغنم ظلم[1]. إلا أنه عند السلف في الإمامة الكبرى إذا قهر الظالم الناس، أو حدث ذلك الوصف عليه في أثناء ولايته، لا يجوز الخروج عليه لذلك؛ لأنه يؤدّي إلى سفك دماء المسلمين وافتراقهم، والمطلوب الأعظم منها عدم ذلك، ما أقام شعائر الإسلام الظاهرة.

ويزيد المعنى الأول توضيحًا أنه لما دعى ـ عليه السلام ـ لأهل البلد الحرام، في قوله ـ تعالى ـ: [ر،٧٣/ب] ﴿[2] وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦]، فخص ـ عليه السلام ـ في دعائه المؤمنين منهم في الرزق، حتى وقع عليه الرد بكلام الله ـ تعالى ـ بقوله على قراءة الجمهور أنه من كلام الله لإبراهيم[3] ـ عليه السلام ـ: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ لأنه ـ عليه السلام ـ قاس الرزق على الإمامة، فعرّفه الله ـ سبحانه ـ الفرق بينهما، بأن الاستخلاف استرعاء، يختص بمن ينصح للرعيّة، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم، والرزق يكون لاستدراج المرزوق، وإلزامه بالحجة عليه، فلم يسوّ الله بين رزق الدنيا ورزق الآخرة، بل فرق بينهما؛ لهوان الدينا عليه، وأنه

---

(١) انظر «جمهرة الأمثال»: ٢/ ٢٦٥.

(٢) كتب في الأصل: البلد. وهو خطأ.

(٣) والقراءة الأخرى: «قال ومن كفر فأَمْتِعْهُ قليلاً، ثم اضطرَّه»، على أنها دعاء من إبراهيم، وهي قراءة ابن عباس ومجاهد، وهي شاذّة، والأولى هي المتواترة، انظر تفسير ابن جرير الطبري: ١/ ٥٤٤، ٥٤٥.

يعطيها من يحب ومن لا يحب، وأما كلمة التوحيد فلا يعطيها ويولي رعايتَها إلا من يحب[1]. ولهذا قال في أوليائه: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾.

وظاهر سياق ما بعد هذا الدعاء، من قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥]، أن سببه ما رأى ـ عليه السلام ـ من كثرة من ضلّ بعبادتها، لقوله بعده: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، المعنى: فلذلك سألت منك العصمة، واستعذت بك من إضلالهن. وإسنادُ الإضلال إليهنّ باعتبار السببيّة، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ﴾.

ثم قال ـ عليه السلام ـ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾، أي تبعني على ديني، فإنه مني، لا ينفك عني في أمر الدين. كما روي عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: «سلمان منّا أهل البيت»[2]. وقال في الحديث الصحيح: «فمن رغب عن سنتي [ك،٣٥/ب] فليس مني»[3].

---

(١) روى الإمام أحمد من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إنّ الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإنّ الله ـ عز وجل ـ يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب..» الحديث، وإسناده ضعيف كما قال محققو المسند: ٦/ ١٨٩. وكذلك ضعفه الألباني كما في «غاية المرام»: ٢٩، ٣٠.

(٢) رواه الطبراني في الكبير: ٦/ ٢١٢، والحاكم في المستدرك: ٣/ ٦٩١، برقم (٦٥٤١)، قال في المجمع (٦/ ١٣٠): فيه كثير بن عبدالله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات. وقال الألباني: ضعيف جدًا. ضعيف الجامع: ٤٨٠، ٤٨١، برقم (٣٢٧٢)، وقد أورده المؤلف هنا بصيغة التمريض: «رُوي» فأحسن.

(٣) جزء من حديث أنس في الصحيحين، انظر صحيح البخاري: ٥/ ١٩٤٩، أول =

ثم تبرأ ـ عليه السلام ـ ممن عصاه، وردّه إلى مشيئة الله؛ لأنّ طاعة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ طاعة لله مطلقًا، وعصيانهم معصية لله ـ سبحانه ـ كذلك.

ولما كانت المغفرة في ذلك والرحمة والهداية من الله وحده قال ـ عليه السلام ـ: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، أي بأنك تقدر أن تغفر للعاصي وترحمه ابتداءً، إذا اجتنب الشرك، كما في الآية التي قبلها، أو بعد التوفيق للتوبة.

وفيه دليل على أن كل ذنب فلله أن يغفره حتى الشرك، إلا أن الوعيد فرّق بينه وبين غيره في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

وبذلك يعلم أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، أرجى آية في جانب التوحيد، وأخوف آية في جانب الشرك.

ولهذا روى ابن جرير(١) [ر،٧٣/أ] وابن مردويه(٢) من طرق عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: لما نزلت ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الزمر: ٥٣]، قام رجل فقال: والشرك

= حديث في كتاب النكاح، برقم (٤٧٧٦)، وصحيح مسلم: ٢/ ٨٢٧، كتاب النكاح، الباب الأول، برقم (١٤٠١).

(١) تفسير الطبري: ٥/ ١٢٥. ورواه ابن أبي حاتم أيضًا: ٣/ ٩٧٠، برقم (٥٤٢٢).

(٢) ليست في الدر المنثور.

يا رسول الله؟. فكره ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ، قال: فقرأ رسول الله ـ ﷺ ـ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ الآية. فدل أن آية (تنزيل)[1] مشروطة بالتوبة، وإلا لدخل الشرك كما نبهنا عليه.

فتبين لك بذلك موافقة هاتين الآيتين الكريمتين في المعنى.

ويُستدل من هذا السياق أيضًا أنه ينبغي للداعي إذا دعى أن يبدأ بنفسه، ويدعو لوالديه وذريته، فهذه سنّة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، كقوله: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ [الأحقاف: ١٥][2]، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ [إبراهيم: ٤١]، وكقوله: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨].

ولما علم ـ عليه السلام ـ من ذريته بإعلام الله ـ سبحانه ـ، أو من استقراء عادته في الأمم الماضية، أن يكون فيهم كفار، بعدما دعا بأن يجنبهم عبادة الأصنام ـ وفعل سبحانه بمن اراد الله إسعاده منهم ـ قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾، فعطف بـ«من» اللتي للتبعيض، فعُلم بهذا أن الدعاء الأول بتجنب عبادة الأصنام خاص ببنيه لصلبه ـ عليه السلام، وقد فعل ـ سبحانه ـ، بأن جنبه وبنيه عبادتها. وأما ذريّته

---

(١) يعني سورة الزمر، المبدوءة بهذه الكلمة.

(٢) كذا استشهد الشارح بآية الأحقاف، مع أن الدعاء فيها ليس محكيًا عن أحدٍ من الرسل كما يظهر من السياق، وقد ذكر أنها نزلت في أبي بكر الصديق كما قال الطبري (٢٦/ ١٧)، ولو أن الشارح لم يورد الجملة الأخيرة من الدعاء، لوافق ذلك ما جاء في آية سورة النمل (١٩) عن سليمان ـ عليه السلام ـ.

فلم يدع لهم إلا بـ«مِن» كما ترى، والله أعلم.

(وفي الحديث) الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد بن الهادي، عن عمرو، عن محمود بن لبيد، أن النبي ـ ﷺ ـ قال: («أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». فسئل عنه] ـ وفي رواية: «قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ ـ (فقال: الرياء»)[1].

وقال الإمام أحمد أيضًا: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبدالحميد بن بهرام، قال: قال شهر بن حوشب: قال ابن غَنْم: لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء، لقيَنا عبادةُ بن الصامت، فأخذ يميني بشماله، وشمالَ أبي الدرداء بيمينه، فخرج يمشي بيننا، ونحن نتناجا، والله أعلم بما نتناجا، فقال عبادة: إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما، لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج قراء المسلمين ـ يعني من وسط قراء القرآن ـ على لسان محمد ـ ﷺ ـ فأعاده وأبداه، وأحلّ حلاله، وحرم حرامه، ونزل عند منازله، لا يحور فيكم إلا كما يحور صاحب الحمار الميت ـ وفي لفظ: كما يحور رأس الحمار الميت ـ قال: فبينا نحن كذلك، إذ طلع علينا شداد بن أوس [ر،٧٤/ب] وعوف بن مالك، فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس ـ كما سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول ـ من الشهوة [الخفية][2] والشرك. فقال

---

(١) المسند: ٥/ ٤٢٨، ٤٢٩، وقال في المجمع: رجاله رجال الصحيح (١/ ١٠٢)، ورواه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٤٦٥، وقال: صحيح الإسناد. وصححه الألباني في الصحيحة: ٢/ ٦٧١، برقم (٩٥١).

(٢) ليست في الأصل، وقد استدركتها من المسند.

عبادة وأبو الدرداء: اللهم غفرًا، ألم يكن رسول الله - ﷺ - قد حدّثنا أن الشيطان قد يئس أن يُعبد في جزيرة العرب. وأما الشهوة الخفيّة فقد عرفناها؛ هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوّفنا به يا شداد؟. فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتم رجلاً يصلي لرجل، أو يصوم لرجل ويتصدق، أترون أنّه قد أشرك؟. قالوا: نعم والله، إن من صلى لرجل، أو صام أو تصدّق له لقد أشرك. فقال شداد: فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن تصدّق يرائي فقد أشرك». قال عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمد إلى ما ابتُغي به وجهُه من ذلك العمل، فيتقبّل ما أُخلص له، ويدع ما أُشرك به؟. فقال شداد عند ذلك: فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا غني عنه[١].

وقوله في هذا الحديث: (من ثبج قرّاء المسلمين) بمثلثة ثم موحدة ثم جيم، يعني من سراتهم وعِلْيتهم، و«الثَّبَج» بفتح أوله وثانيه: أعلى متن الشيء، ومنه «ثبج البحر»: معظمه.

وقوله: (لا يحور فيكم) بالحاء والراء المهملتين، من «الحَوْر»، ضد «الكور»، يقول: لا يرجع فيكم بخير، ولا ينتفع فيكم بما حفظه من القرآن، إلا كما ينتفع بالحمار الميت صاحبه؛ وذلك لإماتتهم القرآن

(١) المسند: ٤/ ١٢٥، وقال محققوه: إسناد ضعيف لضعف شهر بن حوشب (٢٨/ ٣٦٤). ط التركي. وقال في المجمع: (١٠/ ٢٢١): فيه شهر بن حوشب، وثقه أحمد وغيره، وضعفه غير واحد، وبقية رجاله ثقات. وفي التقريب قال عن شهر: صدوق كثير الإرسال والأوهام. ص ٢٦٩.

بينهم. يُقال: حار الشيء، يحور، بمعنى رجع، وأكثر ما يراد بالحور الرجوع إلى النقص، ومنه قوله: «أللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور»(١). ويدل على أن حار بمعنى رجع قول الشاعر:

وقلت له: أهلاً وسهلاً فلم يَحَرْ بك الليل إلا للجميل من الأمر(٢)

وأنّه بمعنى النقص والخسران قول الآخر(٣):

الذم يبقى وزاد القوم في [حورِ](٤)

قال يعقوب: في نقصان.

ثم روى(٥) بعض ذلك الإمام أحمد من طريق آخر فقال: حدثنا زيد ابن الحباب، حدثني عبدالواحد بن زيد، أنبأنا عبادة بن نسي، عن شداد ابن أوس -رضي الله عنه- أنه بكى، فقيل: ما يبكيك؟. قال شيء سمعته من رسول الله -ﷺ-. يقول: [ر،٧٤/أ] «أتخوّف على [ك،٣٥/أ] أمتي الشرك، والشهوة الخفية. قال: قلت: يا رسول الله، أتشرك أمّتك

---

(١) رواه مسلم: ٢/ ٧٩٩، الحج، رقم (١٣٤٣)، مرفوعًا بلفظ: «الحور بعد الكون»، وبلفظ «الحور بعد الكور» رواه ابن خزيمة في صحيحه: ٤/ ١٣٨، (٢٥٣٣)، وأحمد في مسنده: ٥/ ٨٢، والترمذي في سننه: ٥/ ٤٩٧، (٣٤٣٩)، والنسائي: ٨/ ٢٧٢، (٥٤٩٨).

(٢) أنشده ثعلب، كما في «غريب الحديث» للخطابي: ٢/ ٣٠٧.

(٣) هو سبيع بن الخطيم، انظر تاج العروس، مادة (ح و ر)، و«المؤتلف والمختلف» لابن القيسراني وذكر الأبيات.

(٤) في الأصول: (الحور)، والتصويب من المصادر، وانظر «غريب الحديث» للخطابي: ٢ /١٩٦ ذكره الخطابي في «غريب الحديث»: ٢/ ١٩٦، إلا أنه هناك: «وزاد القوم في حور» دون «أل».

(٥) كتب في الطرة أمامه: [بلغ مقابلة على أصله فصح على يد مؤلفه ومصنفه عفى الله عنه].

بعدك؟. قال: نعم، أما إنّهم لا يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا حجرًا ولا وثنًا، ولكن يُراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفيّة: أن يصبح أحدهم صائمًا، فتعرض له الشهوة من شهواته، فيترك صومه»[1]. ورواه ابن ماجه من حديث الحسن عن عبادة بن نُسيّ[2].

فأما حديث شهر بن حوشب المتقدم، فله شواهد، ورجاله كما ترى، فإسناده صالح؛ أما أبو النضر، شيخ الإمام أحمد، فهو إسحاق ابن إبراهيم الدمشقي الفراديسي، مولى عمر بن عبدالعزيز، وضُعّف بلا مستند[3]، كيف وقد حدّث عنه الإمام أحمد[4].

وعبدالحميد بن بهرام هو الفزاري المدائني، صاحب شهر بن حوشب.

وشهر بن حوشب الأشعري الشامي، مولى أسماء بنت يزيد بن السكن، فقيل له أوهام، وهو كثير الإرسال، وهذا الحديث متصل.

وابن غَنْم ـ بفتح المعجمة وسكون النون ـ هو عبدالرحمن بن غَنْم الأشعري، مختلف في صحبته، وذكره العجلي في كبار التابعين.

---

(١) المسند: ٤/ ١٢٣، وقال محققوه: إسناده ضعيف جدًا (٢٨/ ٣٤٧) ط التركي. ورواه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٣٦٦، وقال: صحيح الإسناد. ورواه الطبراني في الكبير: ٧/ ٢٨٤، والبيهقي في الشعب: ٥/ ٣٣٣، قال الحافظ ابن كثير: عبادة فيه ضعف، وفي سماعه من شداد نظر (التفسير: ٣/ ١١٠، الفكر ١٤٠١هـ).

(٢) سنن ابن ماجه: ٢/ ٤٢٠٦)، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة. وأورده الألباني في القسم الضعيف منها: ص ٢٤٦، رقم (٩٢١).

(٣) انظر تهذيب الكمال: ١/ ١٧٩. ط ١٤١٨هـ.

(٤) انظر قيمة تحديث الإمام أحمد عن راوٍ في تقويته في شرح علل الترمذي لابن رجب: ١/ ٣٨٦.

فالحديث صالح الإسناد.

وقد حصلت المناظرة بين شداد بن أوس وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء ـ رضي الله عنهم ـ، في وقوع الشرك الأصغر، وقرره عليهما شداد.

فمع صحة حديث أبي الدرداء وعبادة، يجب الجمع بينه وبين الأحاديث الصحيحة، الصريحة بوقوع الشرك في جزيرة العرب، وفي الأمّة خصوصًا وعمومًا.

فأما الخصوص، فقد أخبر ـ ﷺ ـ بعد هدم ذي الخلصة، كما في الصحيحين وغيرهما، أنها لا تقوم الساعة حتى تضطرب [أليات][1] نساء دوس على ذي الخلصة[2].

وأما العموم، فقوله ـ ﷺ ـ: «وحتى تعبد [فئام][3] من أمتي الأوثان»[4]. وأخبر أن هذه الأمة ستأخذ ما أخذت القرون قبلها، وأنها

---

(١) وقع في الأصل «ليات» بدون همزة، والصواب ماأثبته من الصحيحين.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٠٤، كتاب الفتن، باب (٢١)، حديث (٦٦٩٩)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٧٦٦، كتاب الفتن..، باب (١٧)، حديث (٢٩٠٦). وانظر خبر هدمه في صحيح البخاري: ٣/ ١٠٠، حديث (٢٨٥٧)، ومسلم برقم (٢٤٧٦).

(٣) وقع في الأصل «فيام» بالياء، والصواب الهمز، كما نبه عليه الخطابي في «إصلاح غلط المحدثين»: ص ٧٥.

(٤) رواه أحمد في المسند: ٥/ ٢٧٨، ٢٨٤، وأبو داود: ٤/ ٩٧، برقم (٤٢٥٢)، وابن ماجه: ٢/ ١٣٠٤، برقم (٣٩٥٢)، ولفظه عندهم: «وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان». وقد روى مسلم أول الحديث، (٤/ ١٧٥٤) برقم (٢٨٨٩)، وليس فيه هذه الجملة، ووهم الحافظ ابن حجر فعزى هذه الجملة إلى مسلم. انظر الفتح: ١٣/ ٨٥. وقد صحح الحديث بتمامه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٣٦٤، ٣٦٥، برقم (١٧٧٣).

ستتبع سنن من كان قبلها.

فهذه أحاديث صحيحة، صريحة في وقوع عبادة الأوثان في هذه الأمّة، لا تقبل التأويل.

وحديث أبي الدرداء وعُبادةَ رواه مسلم عن جابر - رضي الله عنه - مرفوعًا، ولفظه: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب»[1].

ورواه أحمد بسند صحيح فقال: حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي الزبير، عن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن إبليس قد يئس أن يعبده المصلون، ولكن في التحريش بينهم»[2].

فمعنى ذلك - والله أعلم - أن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلّون كلُّهم، لا جزءٌ منهم، إذ الألف واللام في «المصلين» للاستغراق، وعليه يحمل حديث أبي [ر،٧٥/ب] الدرداء وعبادة - رضي الله عنهما -؛ لأن الله قد عصم هذه الأمّة أن تجتمع على ضلالة[3]، فلا تزال طائفة منهم على الحق، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك[4]، وبهذا لا ينفي

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٧١٨، كتاب صفات المنافقين..، باب (١٦)، حديث (٢٨١٢).

(٢) المسند: ٤/ ٣٦٦، وانظر: ٣/ ٣١٣، ٣٥٤، و٥/ ٧٢.

(٣) في المسند (٦/ ٣٩٦) والمعجم الكبير (٢/ ٢٨٠) عن أبي بصرة الغفاري مرفوعًا: «.. سألت الله - عز وجل - ألا يجمع أمّتي على ضلالة فأعطانيها..»، وفي سنده راو لم يسم. وفي سنن الترمذي (٤/ ٤٦٦) برقم (٢١٦٧) عن ابن عمر مرفوعًا: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة..» وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: ١/ ٣٧٨، برقم (١٨٤٨).

(٤) ثبت ذلك في صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٦٧ حديث (٦٨٨١)، ومسلم: ١/ ١٢٤، =

الحديثُ وقوعَ عبادة الأوثان في هذه الأمّة.

والحس يكذّب من ادّعى عدم وقوع ذلك، وقصة أهل الردّة بطاعتهم للشيطان التي يطلق عليها اسم العبادة[1] مشهورة، مع أنّه قد نُقل أن دوسًا أعادوا ذا الخلصة أيام الردّة، ذكره غير واحد من أهل العلم، منهم أبو القاسم السهيلي[2].

أو يكون معنى الحديث حيث لم تكن ردّة العرب من جهة عبادة الأوثان، بل من جهة النبوة، وقد يئس من جهة عبادة الأوثان أن يُعبد في جزيرة العرب[3].

وكذا قوله: «المصلّون»، أي في الزمن الذي قبل الغاية التي في الحديث الصحيح بوقوع عبادة الأوثان؛ فإنه ـ ﷺ ـ أتى بـ«حتى» الغائية، وأيضًا إنما أخبر عن إياس الشيطان، ولم يقل هو: «لا تُعبدُ الأصنام في جزيرة العرب بعد هذا اليوم» في حديث صحيح.

وحديث إياس الشيطان الذي أخبر عنه ـ ﷺ ـ صحيح، ولكن لا ينافي وقوع عبادة الأوثان؛ لأنه إنما أخبر ـ ﷺ ـ عن إياس الشيطان، وذلك أنه لما رأى عدوُّ الله زوال عبادته في الجزيرة، وقوّة الإسلام

= حديث ١٥٦.

(١) كما يؤخذ من قوله ـ تعالى ـ ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾.

(٢) لم أر ذلك في «الروض الأنف»: ١/ ٣٧٢ـ ٣٧٥، عند حديثه عن ذي الخلصة، وقد ذكر أنّ «الخلص» في اللغة نبات طيّب الريح. وفي «تاريخ الطبري» (٢/ ٢٩٥) أن أبابكر أمر جريرًا البجلي ـ رضي الله عنهما ـ أن يأتي خثعم فيقاتل من خرج غضبًا لذي الخلَصة، ومن أراد إعادته.

(٣) هذا المعنى لا تلتئم معه الأحاديث، والأقرب ما ذكره أولاً.

وأهلِه فيها، بعد حرصهم على زوال عبادته بهدم الأوثان، التي هو الداعي إلى عبادتها، إذ عابدو الأوثان لا بد أن يكونوا عابدين له، بدعائهم أوثانهم بطاعته، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧، ١١٨]، فعند ذلك أيس من عبادة العرب له في جزيرتهم؛ لأنه علم أنهم أوفى بني آدم عقولاً، وبأنّهم إذا عقلوا عن الله أمره، باتباع رسوله ـ ﷺ ـ فمحاولة صرفهم في تلك الحالة عن عبادة الله ـ سبحانه ـ إلى عبادة الشيطان أصعب شيء عليه وأمضُّه[1]، ولذلك كانت ردّة العرب بعد موته ـ ﷺ ـ من جهة النبوّة[2]، كما سنبيّنه في موضعه إن شاء الله ـ تعالى ـ عند ذكر ادّعاء النبوّة[3]، فإنه فتنهم في ذلك، كأهل صنعاء ومن حولهم بالأسود العنْسي، وثقيفَ بالمختار، وبني حنيفة بمسيلمة الكذاب، وبني أسد وفزارة ومن تبعهم من غطفان بطليحة الأسدي، وبعضِ بني دارم ومن تبعهم من تميم بسجاحَ العقفانية الدارمية.

ويُعلم هذا من إقامة بني إسماعيل ـ عليه السلام ـ على دين إبراهيم دهورًا [ر،٧٥/أ] متطاولة لم يغيّروه، وبنو عمّهم بنو إسرائيل [ك،٣٦/ب] فيهم الرسل والأنبياء تترى؛ لكثرة الإحداث منهم في دينهم من لدن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وابنه إسحق، وحفيده يعقوب، وبنيه: يوسف وإخوته، إلى عيسى بن مريم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

---

(١) أي أشدُّه إيلاما.

(٢) قد يكون هذا هو الغالب، لكن (من العرب من ارتد عن الإسلام ولم يتبع متنبئًا كذابًا، ومنهم قوم أقروا بالشهادتين، لكن امتنعوا من أحكامهما، كمانعي الزكاة). «منهاج السنة» لابن تيمية: ٧/ ٢١٩.

(٣) انظر ما يأتي في ١٠٠٤ وما بعدها.

فلأجل ما يعلم الشيطان من ذلك؛ إذ هو منظرًا يئيس[1] من عبادة العرب له في جزيرتهم، مع السعي منه في محاولتهم على ما يوقعهم في ذلك.

فأخبر -ﷺ- عن إياسه ذلك، فلم يزل الشيطان على إياسه من ذلك، حتى ذهبت القرون المفضّلة، وضعف حكم الإسلام في العرب وفي جزيرتهم، وتزايدت الأهواء والفتن، فدخل عليهم بذلك، حتى ضعف يأسُه، وقوي طمعه فيهم، فأدخل عليهم الأحداث حتى أدرك ما أدرك، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ولتتم معجزة سيّد البشر -ﷺ- بوقوع عبادة الأوثان في الأمّة. حتى بصّر الله عبدًا من عبيده في الجزيرة، فجدد الله به دينه فيها، بتوحيده، وفلّ حزب الشيطان بحدّه وحديده، وهو شيخ الإسلام مصنف هذا الكتاب، جزاه الله عن الإسلام وأهله خيرًا. فلمع به فجر التوحيد وسطع، وأخمد الله به نار الشرك وقطع، فالحمد لله على هذه المنّة، وإنا لنرجو بفضله الجنّة.

(عن) عبدالله (بن مسعود -رضي الله عنه-، أن رسول الله -ﷺ- قال: «من مات وهو يدعو لله ندّا دخل النار». رواه البخاري)[2].

هذا داخل في معنى قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾،

---

(١) كذا في الأصل، وهي فعيل بمعنى فاعل من اليأس، لكن لم أجدها في اللسان، والمعروف «يؤوس» كما ورد به التنزيل. وأيضًا تقديمه للتمييز على العامل مخالف للجاري من كلام العرب، والنحاة إنما اختلفوا في جواز تقديمه إذا كان العامل فعلاً متصرفًا، انظر «الإنصاف»: ٢/ ٨٢٨.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٦٣٦، كتاب التفسير، باب (٢٤)، حديث (٤٢٢٧)، ولفظه: «.. وهو يدعو من دون الله ندًا..».

والندّ والضدّ والعدل: الكفء. ولهذا قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه، يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب قبل أن يسلم ـ وأسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه ـ:

أتهجـوه ولسـت لـه بنـدٍّ ... فشرّكما لخيركما الفداء[1]

وقال حسان أيضًا لبني تميم:

فلا تجعلوا لله ندًا وأسلموا ... ولا تلبسوا زِيًا كزي الأعاجمِ[2]

وقال جرير بن الخطفىٰ:

أتيـمٌ تجعلـون إلـيّ نـدًا ... وهل تيم لذي حسب نديدُ[3]

وقال لبيد بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ:

أحمـدُ اللهَ فـلا نِـدَّ لـهُ ... بيده الخير ما شاء فعلْ[4]

وفي رواية عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عند البخاري، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار»، وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنّة[5].

---

(١) ديوانه: ٧٦، وروايته فيه: أتهجوه ولست له بكفء. وأما الرواية المستشهد بها هنا فهي رواية ابن دريد كما في الاقتضاب: ٣٠٠، عن حاشية «أمالي المرتضى»: ١/ ٦٣٢.

(٢) ديوانه: ٢٣٧.

(٣) ديوانه: ١/ ٣٣١.

(٤) ديوانه: ص ١٧٤.

(٥) صحيح البخاري: ١/ ٤١٧، كتاب الجنائز، باب (١)، حديث (١١٨١)، ورواه مسلم أيضًا: ١/ ٩٠، كتاب الإيمان، باب (٤٠)، حديث (٩٢).

فقوله: (وقلت أنا) أي: من نفسي. وكأنّه ـ رضي الله عنه ـ ما بلغه [ر،٧٦/ب] هذا اللفظ مرفوعًا، فقد صح كما ترى في هذا الباب من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ الآتي، ولعل ابن مسعود أخذ هذا من مفهوم الخلاف، بناءً على انحصار الدارين بين الجنّة والنار، وقيل أخذه من كون الشرك سببًا لدخول النار، وانتفاء السبب يوجب انتفاء المسبَّب. وعند انتفاء النار تعيّن دخول الجنّة؛ لانتفاء دار أخرى.

ولا يخفى أن الحديث لا يفيد انحصار السببية في الشرك، فيجوز وجود سبب آخر لدخول النار.

وقيل لعلّه أخذه ممّا علِمه من كتاب الله ـ سبحانه ـ ووحيه، أو أخذه من مقتضى ما سمعه من النبي ـ ﷺ ـ.

قلت: وعلى كل تقدير فلا بد من جعل الشرك فيه كناية عن الكفر، وإلا يلزم أن يدخل جاحد النبوة وغيرها الجنّة، وليس كذلك، فليتأمّل. ثم المراد دخول الجنّة مطلقًا، لا الدخول ابتداءً؛ فإنه غير لازم عند أهل السنة والجماعة.

فبهذا السياق والبيان يتبيّن لك فضيلة التوحيد، والسلامة من الشرك.

(ولمسلم) في صحيحه، (عن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النّار»[(١)]).

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٩٠، كتاب الإيمان، باب (٤٠)، حديث (٩٣).

فبهذا الحديث والذي قبله تعلم أن مذهب أهل السنّة والجماعة، وما عليه أهل الحق من السلف والخلف أنه من مات موحّدًا دخل الجنة قطعًا على كل حال، فإن كان سالمًا من المعاصي كالصغير، والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة صحيحة من الشرك وغيره من المعاصي، إذا لم يحدث معصية بعد توبته، والموفق الذي لم [يبتل][1] بمعصية أصلاً، فكل هذا الصنف يدخلون الجنة، ولا يدخلون النّار أصلاً، لكنّهم يردونها، على الخلاف المعروف في الورود، والصحيح ـ كما مرّ[2] ـ أنه المرور على الصراط المنصوب على متنها، عافانا الله والمسلمين منها، ومن سائر المكروه.

وأما من كانت له معصية كبيرة، ومات من غير توبة، فهو في مشيئة الله ـ تعالى ـ، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنّة أولاً، وجعله كالقسم الأول، وإن شاء عذّبه القدْرَ الذي يريد ـ سبحانه ـ، ثم يدخله الجنة.

فلا يخلّد في النّار أحد مات على التوحيد، ولو عمل من المعاصي غير الشرك ما عمل، كما أنّه لا يدخل الجنّة أحد مات على الكفر أو الشرك، ولو عمل من أعمال البرّ ما عمل.

هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة.

وقد تظاهرة أدلة الكتاب والسنة، وإجماع من يُعتدّ به من علماء الأمّة على هذه القاعدة، وحُمل عليها جميع ما ورد من هذا الباب.

فعند البخاري [ر،٧٦/أ] عن أبي ذر [ك،٣٦/أ] ـ رضي الله عنه ـ قال:

---

(١) في الأصل: «لم يبتلا».

(٢) راجع ص٢٧٢.

خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله -ﷺ- يمشي وحده، وليس معه إنسان. قلت: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد. قال: فجعلت أمشي في ظل القمر، فالتفت فرآني، فقال: من هذا؟. فقلت: أبو ذر، جعلني الله فداك. قال: يا أبا ذر، تعاله. قال: فمشيت معه ساعة، فقال: «إنّ المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرًا فنفح فيه يمينَه وشمالَه وبين يديه ووراءَه، وعمل فيه خيرًا». قال[1]: فمشيت معه ساعة، فقال لي: اجلس ههنا. قال: فأجلسني في قاع حوله حجارة، فقال لي: اجلس ههنا حتى أرجع إليك. قال: فانطلق في الحرّة حتى لا أراه، فلبث عني فأطال اللبث، ثم إني سمعته وهو مقبل يقول: وإن سرق وإن زنى. قال: فلما جاء لم أصبر حتى قلت: يا نبي الله -جعلني الله فداك- من تُكلّم من جانب الحرّة؟، ما سمعت أحدًا يرجع إليك شيئًا. قال: ذاك جبرئيل[2] -عليه السلام-، عرض لي في جانب الحرّة. قال: بشّر أمّتك أن من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنّة. قلت: يا جبرئيل، وإن سرق وإن زنا؟. قال: نعم، وإن شرب الخمر[3].

ثم روى البخاري أيضًا هذا اللفظ عنه بطريق آخر نحوه[4].

---

(١) في الأصل: «فقال»، والمثبت من الصحيحين.

(٢) في الصحيحين: «جبريل».

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٦٦، كتاب الرقاق، باب المكثرون هم المقلون، حديث (٦٠٧٨)، ورواه مسلم أيضًا: ٢/ ٥٧١، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، برقم (٩٤).

(٤) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣١٢، برقم (٥٩١٣).

وقد ذكرنا في هذا الشرح هذا الحديث، وفيه في الصحيحين: «وإن رغم أنف أبي ذر»[1].

وروى عبد بن حميد حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ بسند صحيح مرفوعًا، ولفظه: قال: جاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئًا وجبت له الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا وجبت له النار»[2].

وهذا مما يبيّن أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، من أرجى آية في جانب التوحيد، كما مر بيانه[3]، وأخوف آية في جانب الشرك، أعاذنا الله والمسلمين منه ومن أهله.

وقيل: إن أرجى آية في جانب التوحيد قولُه ـ تعالى ـ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝﴾ [الضحى: ٥]، وستأتي الإشارة إليها إن شاء الله ـ تعالى ـ، في باب الشفاعة، مع أنك إذا جمعت بينها وبين قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وجدت آية النساء أرجى منها؛ لأن الموعود عليه المغفرة في آية النساء هو الأصل المرتضى، والمجوز للشفاعة في حق المشفوع له، والله الموفق.

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٩٣، برقم (٥٤٨٩)، وصحيح مسلم: ١/ ٩١، برقم (٩٤).

(٢) هو في صحيح مسلم: ١/ ٩٠، كتاب الإيمان، باب (٤٠)، حديث (٩٣)، وفي مسند عبد بن حميد: ٣٢٢، برقم (١٠٦٠). المنتخب، ت السامرائي ١٤٠٨هـ.

(٣) راجع ص ٣٦٠.

الباب الرابع

باب الدعاء إلى شهادة ألا إلٰه إلا الله

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]

لما ذكر المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ فضل التوحيد وتحقيقه، وذكر الخوف من زواله أو نقصانه، تحذيرًا عن ذلك؛ إذ السالك للصراط المستقيم [ر،٧٧/ب] بالتوحيد، إذا كان بين الخوف والرجاء يكون مهتديًا، فحينئذ يصلح للدعوة، فيكون هاديًا مهديًا، أعقبه ببيان الدعوة إلى شهادة ألا إلٰه إلا الله، ولهذا استشهد بقوله ـ جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ـ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ الآية.

يقول ـ تعالى ـ مخاطبًا لنبيّه وخليله، وأمينه على وحيه، محمد ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، كما قال آمرًا له في الآية الأخرى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٧، ٨٨]. وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٧]، وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

وقد عُلم بالاضطرار أنّه ـ ﷺ ـ قد امتثل أمر ربّه، وبلّغ ما أُرسل به البلاغَ المبين، فيلزم الداعيَ إلى الله ـ سبحانه ـ من أمّته ـ ﷺ ـ أن يلتزم

في دعوته ما في هذه الآيات من آداب الدعوة، ليتخلق بخلُق سيد البشر ـ ﷺ ـ؛ فإنه كان خلقه القرآن، كما قالت عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ[1].

ولهذا في البخاري ومسلم وغيرهما، أنّه ـ ﷺ ـ لما بعث معاذ بن جبل وأبا موسى ـ رضي الله عنهما ـ إلى اليمن قال لهما: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا»[2].

قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في صحيحه: وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يحبّ التخفيف واليسر على الناس[3].

وعند الشيخين[4] والإمام أحمد[5] عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يسّروا ولا تعسّروا، وسكّنوا ولا تنفّروا».

وعندهم[6] أيضًا من حديث أبي هريرة، في قصة بول الأعرابي في المسجد: «فإنما بعثتم ميسّرين، ولم تبعثوا معسرين».

---

(١) رواه مسلم: ١/ ٤٣١، ٤٣٢؛ كتاب صلاة المسافرين..، باب (١٨)، حديث (٧٤٦).

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١١٠٤، كتاب الجهاد، باب (١٦١)، حديث (٢٨٧٣)، وصحيح مسلم: ٣/ ١٠٩٣، كتاب الجهاد..، باب (٣)، حديث (١٧٣٣).

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٦٩، كتاب الأدب، باب (٨٠).

(٤) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٦٩، كتاب الأدب، باب (٨٠)، حديث (٥٧٧٤)، وصحيح مسلم: ٣/ ١٠٩٣، كتاب الجهاد، باب (٣)، حديث (١٧٣٤).

(٥) المسند: ٣/ ١٣١.

(٦) صحيح البخاري: ٥/ كتاب الوضوء، باب (٥٦)، حديث (٢١٧)، وصحيح مسلم: ١/ ١٩٩، كتاب الطهارة، باب (٣٠)، حديث (٢٨٤)، وليس فيه هذه الجملة، والمسند: ٢/ ٢٨٢.

فليحذر الإنسان الخروج في دعوته عن قانون دعوة سيّد البشر، فإن خير الدنيا والآخرة في هديه ـ ﷺ ـ، والتأدّب بآداب الله له[1] في قوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وليست هذه الآية منسوخة كما ذكر بعضهم[2]، فإن ما فيها من الآداب ثابت في حق المجاهدة باللسان؛ إذ هي قائمة أبدًا، كالمجاهدة بالسيف، ولا تجمل إلا بهذه الآداب.

وهذه الآية التي استشهد بها المصنف ـ رحمه الله ـ في هذا الباب قويّة الأركان، نافية للشرك والبدع والأهواء [ك،٣٧/ب] والبهتان. فأمر ـ سبحانه ـ عبده ونبيّه ورسوله وأمينه على وحيه أن يقول للثقلين؛ الإنس والجان، المبعوث إليهم مرشدًا: ﴿ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾، أي طريقي وسنتي، التي بعثني الله بها إليكم، وهي دعوة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، شهادة ألا إلٰه إلا الله، وهي الطريق القاصد المعتدل، الذي يرجع [ر،٧٧/أ] إلى الله ـ سبحانه ـ، ويوصّل إليه، أدعوكم بها إلى الله.

وأتى بأداة «إلى» التي هي للانتهاء، ثم عقّبها بعلى التي للوجوب؛ لأن في أداة (على) سر لطيف، وهو الإشعار بأن يكون السالك في هذه السبيل، والداعي على هدى وحق، مع وصوله إلى الله ـ سبحانه ـ، فغايته الوصول إلى الله ـ سبحانه ـ وهو في حال استقامته على هدى، وعلى حق، كما قال في حق المؤمنين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ ﴾ [البقرة: ٥]،

---

(١) الأولى أن يقال: والتأدب بتأديب الله له.

(٢) كالبغوي: ٣/ ٩٠، وابن جزي: ١/ ٤٧٨.

وقال لرسوله: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾[1] [النحل: ٧٩].

قال أهل المعاني[2]: ومن فوائد ذكر (على) في هذا المحل: استعلاء المؤمن، وعلوّه بالحق والهدى، مع ثباته عليه؛ فإن طريق الحق تأخذ علوًّا، صاعدة إلى العلي المبين، وطريق الضلال تأخذ سُفلاً، هاوية في أسفل سافلين، وهذا بخلاف الضلال والريب، فأتى فيه بأداة (في)، الدالّة على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسيسه[3] فيه كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة: ٤٥]، وكقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله: ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ ﴾ [هود: ١١٠]. وتأمل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤].

ولهذا قال ههنا: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾، المعنى: على علم من الله ـ سبحانه ـ، وهو توحيده الذي أمر به عباده، أن يعبدوه به، وأرسل به رسله، وأنزل به كتبه.

ففي هذين المعنيين من قوله: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾، الإخلاص في الأول والمتابعة في الثاني.

والبصيرة حقيقتها نور يقذفه الله في قلب العبد، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ عن الله ـ سبحانه ـ،

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم: ١/ ١٦.
(٢) انظر المدارج: ١/ ١٦.
(٣) كذا في الأصل، وفي المدارج: «تدسّسه» وهو الأصوب.

كأنه شاهده رأي عين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه، وتضرره بمخالفتهم[1].

وهذا معنى قول بعضهم: البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرّر به.

وقال بعضهم: هي ما خلّصك من الحيرة، إما بإيمان، أو بعيان.

فبهذا يُعرف أن مقام التوحيد أولى المقامات، أن يُبدأ به، كما هو أول دعوة الرسل كلّهم، كما في حديث معاذ الآتي، ولأنه لا يصح مقام من المقامات، ولا حال من الأحوال إلا به، فلا وجه لجعله آخرًا.

وهو مفتاح دعوة الرسل، وأول فرض فرضه الله ـ تعالى ـ على العباد، وما عدا ذلك من الأحوال لا يظهر وجهها، كقول من يقول: أول الفروض النظر، قاله الأستاذ القشيرى[2]، والقاضي[3] وابن حمدان وابن مفلح من أصحابنا، كما ذكره المرداوي في أصوله. وقيل المعرفة، أو الشك الذي يوجب النظر[4]، كما يقوله ابن عبدالسلام من

---

(١) عن المدارج: ١/ ١٢٤.

(٢) ذكره في الرسالة عن رويم والجنيد، من أوائل الصوفية، انظر الرسالة: ٦، وقد نبّه شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن ما ذكره القشيري في الرسالة عن اعتقاد أوائل الصوفية غالبه موافق لأصول السلف، لكن فيه قصور عن بعض ما كانوا عليه، وزيادة تخالف ما كانوا عليه، مع أن الثابت عن أكابر مشايخ الصوفية موافق لما كان عليه السلف. انظر الاستقامة: ١/ ٨٢، ٨٩، ٩٠.

(٣) هو أبو يعلى، محمد بن الحسين الفراء، الحنبلي، توفي سنة ٤٥٨هـ. انظر «المقصد الأرشد»: ٢/ ٣٩٥.

(٤) الشك لا يوجب النظر، لكنه من شرطه عندهم.

الشافعية[1].

وكل هذه الأقوال فيها مقال عند المحققين من أهل السنّة والجماعة، بل أول واجب دعوة الرسل كلهم أجمعين، وهي أول ما دعى إليه فاتحتهم نوح ـ عليه السلام ـ؛ [ر،٧٨/ب] بأن قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وأول ما دعا إليه خاتمهم محمد ـ ﷺ ـ.

وفي الصحيح: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» الحديث[2].

ولهذا كان ما قدمنا من أن أول واجب على المكلّف؛ شهادة ألا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله= لا المعرفة، ولا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال لبعض أهل العلم ـ رحمهم الله ـ لا تخلو من معارض عند التأصيل لقواعد السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ= هو الذي يجب المصير إليه، وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[3]، وابن قيّم

---

(١) الذي في فتاواه ص ١٥٢ أنه يُكتفى من العامّة بالتصميم على الاعتقاد المستقيم، ولو لم ينظروا في الأدلة، ثم إن مخالفة مذهب أهل السنة والجماعة في أن توحيد العبادة هو أول واجب على المكلف غير مختصّة بابن عبدالسلام أو غيره، بل عامّة المتكلمين على خلاف مذهب السلف في هذه المسألة؛ إذ معرفة الله لا تحصل عندهم إلا بالنظر، فهو أول واجب، لكن منهم من يقول: أول واجب النظر الصحيح، ومنهم من يقول: القصد إلى النظر الصحيح، ومنهم من يقول: المعرفة، ومنهم من يقول: الشك، وهذا الأخير منسوب إلى الجبائي المعتزلي، وأخذ به الغزالي، ونسبه ابن حزم إلى الأشاعرة، وهذا الخلاف ـ كما يقول شيخ الإسلام ـ لفظي. انظر درء التعارض: ٧/ ٣٥٣، و«موقف ابن تيمية من الأشاعرة» للدكتور المحمود: ٣/ ٩٣٤ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ١٧، برقم (٢٥)، وصحيح مسلم: ١/ ٥٨، برقم (٢٢).

(٣) انظر «درء تعارض العقل والنقل»: ٧/ ٣٥٢ وما بعدها.

الجوزية[1]، وغيرهما، ونصّا عليه، وعزَيا ما عدا ما قدّمنا للمعتزلة وأهل الكلام.

ولما سئل النبي ـ ﷺ ـ كما في صحيح مسلم، من حديث عمرو بن عبسة حين قيل له: بأي شيء أرسلك؟. يعني الله ـ تعالى ـ. قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحّد الله، لا يشرك به شيء»[2].

فالتوحيد أول ما يُدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا كما صح عنه ـ ﷺ ـ أنّه قال: «من كان آخر قوله ـ وفي لفظ: كلامه ـ «لا إلٰه إلا الله»، دخل الجنة»[3]. فهو أول واجب وآخر واجب، أول الأمر وآخره، والجامع لدعوة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعِهم إلى الله ـ سبحانه ـ على بصيرة، وهو تحقيق شهادة ألا إلٰه إلا الله، علمًا ومعرفة وعملاً وحالاً وقصدًا وحقيقة.

وهذا النفي والإثبات [الذي][4] تضمّنته هذه الشهادة هو تقطيع العبد العلائق عن تألهه لما سوى الله ـ تعالى ـ علمًا وإقرارًا وتعبدًا، فيبقى بتألهه لله وحده، فهذا هو حقيقة التوحيد [ك،٣٧/أ] الذي اتفقت عليه الرسل، وأنزلت به الكتب، وخُلقت لأجله الخليقة، وشرعت له الشرايع، وقامت عليه سوق الجنّة، وأسّس عليه الخلق والأمر

---

(١) انظر «مدارج السالكين»: ٣/ ٤٤٣، ٤٤٤.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٤٧٦، كتاب صلاة المسافرين..، باب إسلام عمرو بن عنبسة، حديث (٨٣٢).

(٣) رواه أبو داود: ٣/ ١٩٠، كتاب الجنائز، باب (١٨)، حديث (٣١١٦)، بلفظ: «آخر كلامه»، ورواه الترمذي: ٣/ ٣٠٧، كتاب الجنائز، باب (٧)، حديث (٩٧٧)، بلفظ: «آخر قوله». وصححه الألباني كما في الإرواء برقم (٦٨٧).

(٤) في الأصل: «التي».

والنهي[1].

ومن حقيقته البراء والولاء؛ البراءة من عبادة غير الله، والولاء لله ـ سبحانه ـ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]، وقال لمحمد خاتم رسله ـ ﷺ ـ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ السورة، وهذه أيضًا براءةٌ منهم ومن معبوداتهم، وسمّاها براءةً من الشرك، وهي حقيقة النفي والإثبات، وهي أيضًا حقيقة التجريد للتوحيد، [ر،٧٨/أ] والتفريدِ للمعبود، فيتجرد العبد عن عبادة ما سوى الله ـ سبحانه ـ، ويفرده وحده بالعبادة، فالتجريد نفي، والتفريد إثبات، ومجموعهما هو التوحيد، وهو النافع المثمر[2].

ومن ذلك البصيرة في الأمر والنهي، وهو تجريده عن المعارضة بتأويل أو تقليد أو هوى، فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوةٌ تمنعه عن تنفيذه وامتثاله والأخذ به، ولا تقليدٌ يُريحه من بذل الجهد في تلقي الأحكام من معدنها، وقد [علم] بهذا أهل البصائر من العلماء وغيرهم[3].

---

(١) قارن بما في «مدارج السالكين»: ١/ ١٦٧، ١٦٨.

(٢) قارن بالمدارج: ١/ ١٦٨، ١٦٩.

(٣) عن المدارج: ١/ ١٢٥. وقد وقع في الأصل: «وقد علمت بهذا..».

فالبصيرة ـ كما مرّ ـ نور يقذفه الله في القلب، يُفرّقُ به العبد بين الحق والباطل، والصادق والكاذب، قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر: ٧٥]، قال مجاهد: للمتفرسين(١). وقال قتادة: للمتفكرين(٢). وقال ابن زيد: للمعتبرين(٣). وقال الزجاج: حقيقته في اللغة: النظّار [المتثبتون](٤) في نظرهم، حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء(٥).

قال طريف العبدي في ذلك(٦):

أو كلما وردت عكاظ قبيلةٌ بعثوا إلـيّ عـريفَهـم يتـوسـمُ

فتـوسمـونـي إنني أنـا ذاكـم شاكٍ سلاحي في الحوادث معلمُ

وهذا الذي ذكرنا حقُّ الفقه الذي دعا به النبي ـ ﷺ ـ لابن عمه عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ(٧)، ولهذا روى الترمذي(٨) وابن

---

(١) رواه ابن جرير: ١٤/ ٤٥.

(٢) المروي عنه: «للمعتبرين»، انظر تفسير ابن جرير: ١٤/ ٤٦. وذكر البغوي عن مقاتل أنه قال قال في تفسيرها: للمتفكرين. انظر تفسيره: ٣/ ٥٥.

(٣) لم أقف على من ذكره عنه، والظاهر أن المؤلف وهم فخلط قول قتادة بقول ابن زيد، ففي زاد السير ٤/ ٤١٠ عزا «المعتبرين» لقتادة و«المتفكرين» لابن زيد.

(٤) في الأصول: المثبتون، والمثبت من المصدر.

(٥) «معاني القرآن وإعرابه»: ٣/ ١٨٤.

(٦) البيتان في «البيان والتبيين»: ١/ ٤٣٧.

(٧) رواه البخاري: ١/ ٦٦، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، حديث (١٤٣).

(٨) السنن: ٥/ ٤٨، كتاب العلم، باب (١٩)، حديث (٢٦٨١)، وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم. وحكم عليه الألباني بالوضع =

ماجه[1] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد».

وفي الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خصلتان لا تجتمعان في منافق: حسن سمت، ولا فقه في الدين»[2].

ومن التفرس ما يكون بالعين، قال أبو صعترة البولاني:

بأطيبَ مِن فيها وما ذُقتُ طعمه ... ولكنني فيما تَرى العين فارسُ[3]

وفي الترمذي وغيرِه عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾[4] [الحجر: ٧٥].

والتوسم تفعّل من السيما، وهي العلامة، فسمّي المتفرس متوسمًا[5].

فخص ـ سبحانه ـ أهل البصيرة بالفراسة الصادقة، ومن لم يقبل هدى الله، ولم يرفع به رأسًا، ويتبع رسوله، دخل قلبه في الغلاف

= كما في صحيح الجامع: ٥٨١ برقم (٣٩٨٧).

(١) السنن: ٥/ ٨١، كتاب العلم، باب فضل العلماء..، حديث (٢٢٢).

(٢) السنن: ٥/ ٤٩، كتاب العلم، باب (١٩)، حديث (٢٦٨٤)، وصححه الألباني كما في الصحيحة برقم (٢٧٨).

(٣) ديوان الحماسة: ٢/ ٩١.

(٤) السنن: ٥/ ٢٩٨، كتاب التفسير، برقم (٣١٢٧)، وضعفه الألباني كما في الضعيفة برقم (١٨٢١).

(٥) عن المدارج: ١/ ١٣٠.

والكنان، فأظلم، وشر القلوب مظلمها، فعمي عن البصيرة، وحُجب عن حقائق الإيمان، فيرى الحق باطلاً، والباطل حقًا، والرشد غيا، والغي رشدًا، قال ـ تعالى ـ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥]، فلا يحصل لأهل هذه الصفات من الفراسة إلا السفليّة، التي يتلقونها عن الشياطين.

[ر،٧٩/ب] وقد يكون للفاجر فراسة تصدق، كما تفرّس إبليس في أتباعه من بني آدم، فصدقت فراسته، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠].

وأما فراسة أولياء الرحمن فهي البصيرة، صاعدة كما تصعد أعمالهم الخالصة الصالحة، وكذا أرواحهم وقت نومهم، فتسجد تحت العرش، وكذا أرواحهم بعد موتهم، فهم الصادقون، العارفون بأمر الله ـ تعالى ـ ونهيه، المفرّقون بين أعداء الله وأوليائه؛ فإن هممهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته ودعوة الخلق إليه على بصيرة، كانت فراستهم في الدين متصلة بالله ـ سبحانه ـ، متعلقة بنور الرحمن، مع نور الإيمان، فميّزت بين ما يحبّه الله وما يبغضه، من الأعيان والأقوال والأعمال والأحوال، وميّزت بين الخبيث والطيّب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب. ففراسة هؤلاء دائمًا حائمة حول كشف سبيل الرسول ـ ﷺ ـ، ومعرفتها، وتخليصها من بين سائر الطرق، [ك،٣٨/ب] وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال، العائقة عن سلوك سبيل المرسلين، فهذا أشرف أنواع البصيرة، وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده(١).

---

(١) المدارج: ١/ ١٣١.

وهو سبيل رسول الله ـ ﷺ ـ وأتباعه، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال في هذه الآية: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾، فنزّه ربّه ـ سبحانه ـ عن كل ما لا يليق به، وتبرأ من الشرك؛ لأنه مسبّة لله ـ سبحانه ـ.

فقد علمت بذلك أن سر الخلق والكتب والرسل والأمر والنهي والشرائع والثواب والعقاب قد انتهى إلى هاتين الكلمتين في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولهذا قال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ في الباب الذي بعد هذا، الذي هو معقود لتفسير هذه الدعوة: «وشرحُ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب».

(عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ)، هو ترجمان القرآن، ابن عم النبي ـ ﷺ ـ، فضائله كثيرة مشهورة، وكتب علماء الأمّة بعلومه معمورة؛ إذ هو حبر هذه الأمّة بلا مدافع.

(قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ لما بعث معاذًا)، هو ابن جبل بن عمرو ابن أوس الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ، الخزرجي، أبو عبدالرحمن، المشهور، من أعيان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وكان إليه المنتهى في العلم بالأحكام والقرآن، وفضائله لا تحصى كثرة.

(إلى اليمن)، وهي [ر،٧٩/أ] الناحية التي دعا فيها رسول الله ـ ﷺ ـ

بالبركة، كما رواه البخاري في صحيحه، حيث قال في باب قول النبي ـ ﷺ ـ: «الفتنة من قبل المشرق»: حدثنا علي بن عبدالله ـ يعني ابن المديني ـ حدثنا أزهر بن سعد، عن ابن عون، عن نافع، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا». قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا. قال: اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا. قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا. فأظنّه قال في الثالثة: «هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان»(١).

وهو عند الإمام أحمد وغيره بهذا اللفظ(٢).

قيل سميت اليمنَ بيمن بن قيذر بن نبيت بن إسمعيل(٣).

وقال ابن هشام: يمنٌ هو يعرب بن قطحان، سمي بذلك لأن هودًا ـ عليه السلام ـ قال له: أنت أيمن ولدي.

وقيل: سميت بذلك لأنها عن يمين الكعبة(٤)، وهي الناحية المعروفة بذلك اليوم.

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٩٨، كتاب الفتن، حديث (٦٦٨١).

(٢) المسند: ٢/ ١١٨، ١٢٦.

(٣) يشهد لهذا ما في صحيح البخاري: ٣/ ١٢٩٢، كتاب المناقب، باب نسبة اليمن إلى إسماعيل..، حديث (٣٣١٦)، وفيه قول النبي ـ ﷺ ـ: «ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا» قال ذلك لقوم من أسلم.

(٤) قاله البخاري في صحيحة: ٣/ ١٢٨٩، ١٢٨٩، أول كتاب المناقب، بعد حديث (٣٣٠٨).

(قال: إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب)، وفي سبب حدوث اليهودية والنصرانية في اليمن خبر يطول ذكره، ويخرج بنا عن المقصود، فتركنا ذكره[١].

(فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله): حق، أو: لنا، (إلا الله)، وفي رواية أخرى: «إلى أن يوحدوا الله»[٢]، وفي رواية: «إلى عبادة الله»[٣]، وكل هذه الألفاظ في الصحيح.

وعند مسلم[٤] من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «بني الإسلام على خمس، على أن يوحدوا الله» وذكر باقيها، فجعل ـ ﷺ ـ التوحيد في هذا الحديث أصل الدين وجملته.

وظاهر حديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ وجوبُ دعوة من لم تبلغْه الدعوة، وحَرَّم في الفروع[٥] وغيره قتال من لم تبلغه قبلها، وفي حق من بلغته سنّة.

وعن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه قال: قد بلغت الدعوة كل أحد، فإن دعا فلا بأس[٦].

وظهر بهذا أن أول واجب على الإنسان كما مرّ شهادة ألا إله إلا

---

(١) اقرأه في سيرة ابن هشام: ١/ ٢٧ وما بعدها.
(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٨٥، برقم (٦٩٣٧).
(٣) صحيح البخاري: ٢/ ٥٢٩، برقم (١٣٨٩).
(٤) صحيح مسلم: ١/ ٥٢، كتاب الإيمان، باب (٥)، حديث (١٦). ورواه بنحوه البخاري: ١/ ١٢، أول كتاب الإيمان، برقم (٨).
(٥) كتاب الفروع لابن مفلح: ٦/ ١٩٧.
(٦) الفروع: ٦/ ١٩٧.

الله، وأن محمدًا رسول الله، التي قد تضمنتها شهادة ألا إله إلا الله[1]، وهو التوحيد، وأصل العبادة.

وصرّح بهذا من الشافعية أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتاب العلم من الإحياء[2].

وقد قال شيخ الطائفة والفقهاء، عبدالقادر الجيلاني ـ قدس الله روحه ـ في غنيته: «أول ما أمر الله المؤمنين به قول (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، وضمن لهم إذا قالوها الجنّة، فسمعوا وأطاعوا»[3]. ثم ذكر باقي المفروضات. ذكره ـ رحمه الله تعالى ـ على قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣].

(فإن هم أطاعوك لذلك) وفي بعض طرق البخاري: «فإذا عرفوا الله»[4]، وبه استدل من قال: إن المعرفة أول واجب. وليس هذا الاستدلال بشيء؛ إذ المعرفة لم تنفع إبليس ولا فرعون، حيث قال له موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿[ر،٨٠/ب] لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فإذا خلا العلم والمعرفة من

---

(١) يريد أن الشهادة بالتوحيد متضمنة للشهادة بالرسالة، ووجه ذلك أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، فالإله المعبود بحق هو المنفرد بالربوبية دون غيره، ومن الإيمان بالربوبية الإيمان بقدرة الله ـ تعالى ـ وعدله وحكمته، فلا يجوز أن يخلق الخلق عبثا، ولا أن يتركهم سدى، بل لا يفكُّهم حتى يبعث إليهم رسولاً يبيّن لهم ما خلقوا لأجله، ثم يحاسبون بمقتضى موقفهم من هذا الرسول، فالإيمان بالرسالة فرع عن الإيمان بالوحدانية.

(٢) الإحياء: ١/ ٢٥

(٣) الغنية: ٢/ ٣٣

(٤) صحيح البخاري: ٢/ ٥٢٩، كتاب الزكاة، باب (٤٠)، حديث (١٣٨٩).

عمل القلب وعزيمته كما هو المطلوب هنا، لم ينفعا صاحبهما، ولهذا أصّل السلف على ذلك الإيمان، فقالوا: هو عقد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، وهو بذلك يزيد وينقص[1]؛ إذ معرفة القلب مرتبطة بالشهادتين.

قال محي الدين النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: مذهب أهل السنّة وسلف الأمّة أنّ المعرفة ـ أي معرفة القلب ـ مرتبطة بالشهادتين، لا تنفع إحداهما ولا تنجي من النار دون الأخرى، إلا لمن لا يقدر على الشهادة لآفة بلسانه، أو لم تمهله المدة ليقولها، بل اخترمته المنية. انتهى[2].

(فأعلمهم ـ وفي لفظ: فأخبرهم ـ أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة)، وذلك الافتراض عليهم ليلة المعراج، حين عرج به ـ ﷺ ـ إلى سدرة المنتهى، وإليها ينتهي الأمر، حتى سمع ـ ﷺ ـ صريف الأقلام، في قصة قد ثبتت بالكتاب والسنة[3]، وإجماع الأمّة، يجب بها الإيمان والإيقان، قيل هي ليلة السبت، لسبع عشرة[4] ليلة خلت من رمضان، في السنة الثانية عشر من المبعث، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا، قاله الواقدي[5]، وروى أيضًا عن أشياخ له أنّه أسري به ـ ﷺ ـ ليلة سبع عشرة من ربيع الأول، قبل الهجرة

---

(١) انظر الإيمان لابن منده: ١/ ٣٤١.

(٢) شرح صحيح مسلم: ١/ ٢١٩.

(٣) انظر صحيح البخاري: ١٠/ ١٣٦، أول كتاب الصلاة، حديث (٣٤٢)، وصحيح مسلم: ١/ ١٣١، حديث ١٦٣.

(٤) في الأصل: لسبع عشر ليلة.

(٥) انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد: ١/ ٢١٣، صادر. و«المنتظم» لابن الجوزي: ٣/ ٢٥، ٢٦.

بسنة(١).

قال ابن الجوزي: وهذا قول ابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ. قال: وسمعت شيخنا أبا الفضل ابن ناصر يقول: قال قوم: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وقال آخرون: كان قبل الهجرة بثمانية أشهر. وقال آخرون: [ك،٣٨/أ] بستة أشهر. قال: فمن قال: بسنة، فيكون ذلك في ربيع الأول، ومن قال: بثمانية أشهر، قال: فيكون ذلك في رجب. ومن قال: بستة أشهر، فيكون ذلك في رمضان(٢). هذا كلام ابن ناصر.

قال ابن الجوزي: وقد قيل: كان في ليلة سبع وعشرين من رجب(٣).

وقد قال يحيى بن يوسف الصرصري ـ رحمه الله تعالى ـ:

فهو الذي خُص بالإسراء في رَجب   في ليلة السبع والعشرين في الخبر(٤)

وقوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم» دليل ظاهر أن الكفار مخاطبون بالفروع، وأنهم يعاقبون على تركها، وإن كانت لا تصح منهم إلا بتقدم الإيمان، الذي(٥) هي فرعه.

(فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ

---

(١) «الطبقات الكبرى»: ١/ ٢١٤، صادر. و«المنتظم»: ٣/ ٢٦.
(٢) «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزي: ١/ ٣٤٩.
(٣) «المنتظم»: ٣/ ٢٦، وفي «الوفا»: (قلت: وقد كان في ليلة سبع وعشرين من رجب) هكذا جزما، بدون عبارة: (وقد قيل).
(٤) هذا البيت زيادة من [ر].
(٥) في الأصل: «التي».

من أغنيائهم فترد على فقرائهم)، هذا منه ـ ﷺ ـ تعليم على التدريج، لا على الترتيب، فبدأهم أولاً بشرط الأعمال، الذي هو التوحيد، الذي لا يصح من الإنسان عمل إلا بتقدمه عليه، ثم درّجهم شيئًا فشيئًا، فبدأهم بعمل البدن الذي هو أفرض الفرائض بعد التوحيد، الواجب على الإنسان في الإيسار والإعسار، والصحة والمرض، والخوف والأمن، بحسب الطاقة، ولو لم تحصل إلا الإشارة في شدة المرض بالطرف، ثم عقّب بالفرض في المال؛ لأنّه إذا صلح الجسد بالتوحيد، وما فرض عليه من الصلاة، سمح ببذل المال لمن تعبد له؛ لأنه حينئذ يكون مذللاً منقادًا له ـ سبحانه ـ، فلا يؤثِر على طاعته شيئًا.

ثم أخبر ـ ﷺ ـ أن [ر،٨٠/أ] ذلك الفرض المأخوذ من أموالهم مردود على فقرائهم، وهذه نكتة أخرى، وهو يدل بظاهره على أن الدَّيْن يمنع وجوب الزكاة؛ لأن من بيده مال وعليه من الدين ما يستغرقه لا يسمى غنيًّا، لا عرفًا ولا لغةً ولا شرعًا.

ثم قال ـ ﷺ ـ لمعاذ ـ رضي الله عنه ـ: (فإن هم أطاعوك لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم)، فأمر بالعدل في ذلك، وهو الوسط بين الطرفين، بين الكريمة والرذيلة، وظهر من تحذيره ـ ﷺ ـ أن أخذ المصدّق من الكرائم ظلم، ولهذا قال: (واتق دعوة المظلوم) بأخذك لكريمة ماله (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) يحجبها دونه.

وقد استعاذ ـ ﷺ ـ من دعوة المظلوم في دعاء السفر، الذي في الصحيح من حديث عبدالله بن عمر، وعبدالله بن سرجس ـ رضي الله عنهما ـ[(١)].

---

(١) حديث عبدالله بن سرجس في صحيح مسلم: ٢/ ٧٩٩، كتاب الحج، باب (٧٥)، حديث (١٣٤٣)، أما حديث ابن عمر ففيه: دعاء السفر المشهور، وهو في صحيح مسلم قبل هذا الحديث، لكن ليس فيه ذكر لدعوة المظلوم.

فأوصاه - ﷺ - بأن يدعوهم إلى الإسلام بالتدريج؛ لأنه أقرب إلى الطاعة والقبول، بخلاف ما لو عرض عليهم دينًا يخالف لدينهم[1] في أشياء كثيرة دفعةً واحدة، فإن ذلك ينفّرهم في أول وهلة، ويبعدهم عن القبول، فلا دلالة في الحديث على أن الكافر الأصلي لا يكون مخاطبًا بالفروع معاقبًا على تركها إلا بعد الإيمان، بل هي من مسمى الإيمان، ولكن لا يصح منها شيء إلا بتقدم أصل الإيمان، الذي هو شرط لصحة أعماله.

وقد أخر الدعوة إلى الزكاة عن الدعوة إلى الصلاة، مع أن التكليف بالزكاة لا يتأخر عن التكليف بالصلاة؛ تدريجًا، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

وقوله: «فإن هم أطاعوك لذلك»، الطاعة موافقة الأمر، والانقياد مع التذلل، والخضوعُ بالمحبة، واجتنابُ المحظور.

وقال القاضي عياض في قوله - ﷺ - (فإذا عرفوا الله): يدل هذا على أنهم ليسوا بعارفين اللهَ، وهو مذهب حذاق المتكلمين في اليهود والنصارى، وإن كانوا يعبدونه ويظهرون معرفته، لدلالة السمع عندهم على هذا، وإن كان العقل لا يمنع أن يعرف اللهَ من كذّب رسولاً[2].

قلت: وقد تقدّمت الإشارة منا إلى هذا المعنى باختصار.

قال: وما عرف الله - تعالى - من شبّهه وجسّمه من اليهود، أو أجاز [عليه] البَداء[3]، أو أضاف الولد إليه منهم، أو أضاف إليه الصاحبة

---

(١) لا وجه لحرف الجر هنا؛ فالفعل «يخالف» يتعدى بدونه.

(٢) «إكمال المعلم»: ١/ ٢٣٨، ٢٣٩.

(٣) في الأصل: «أو أجاز النداء»، ولا وجه له، والمثبت من شرح صحيح مسلم للنووي: ١/ ١٩٩، والمؤلف ينقل عنه. و«البَداء» يعني أن الله - تعالى عما يقولون علوا عظيما - يبدو له في الأمر ما كان خافيًا عليه على حد زعمهم، فيغيّر حكمه فيه، =

والولد، أو أجاز الحلول عليه، والامتزاج، من النصارى، أو وصفه بما لا يليق به، أو أضاف إليه الشريك والمعاند في خلقه، من المجوس والثنوية، فمعبودهم الذي عبدوه ليس هو الله ـ سبحانه ـ، وإن سمّوه به، إذ ليس موصوفًا بصفات الإلٰه الواجبة له، فإذًا ما عرفوا الله ـ سبحانه ـ(١).

قال: فتحقق هذه النكتة، واعتمد عليها، وقد رأيت معناها لمتقدمي أصحابنا، وبها قطع الكلام [ر، ٨١/ب] أبو عمران الفاسي(٢)

= وربما ندم، كما في التوراة المحرفة (التكوين/ ٦/ ٥) و(الخروج/ ٣٢/ ١٢، ١٣) و(القضاة/ ٢/ ١٨) و(صموئيل الأول/ ١٥/ ١٠، ٣٤) وغيرها. والعجيب أنهم يتناقضون، فيمنعون النسخ في الشرائع لاستلزامه البداء بزعمهم، انظر «الملل والنحل»: ١/ ٢١١، ولا يخفى أنّ النسخ رفعٌ لحكم مؤقت مُغيًا بغاية ينتهي إليها، ويستبدل بغيره عندها بما يوافق الحكمة والمصلحة، بحسب تغيّر الأحوال والأزمان، ولا يلزم من ذلك تغيّر العلم الإلهي البتّة. هذا وممن قال بالبداء «المختارية» من غلاة الشيعة، انظر «الملل والنحل»: ١/ ١٤٨، ١٤٩. و«مقالات الإسلاميين»: ١/ ١١٣. وعن البداء عند الاثني عشرية انظر «أصول الكافي» للكليني: ١/ ١٤٦، باب البداء، ولشناعته لطّفه المعلّق بزخرف من القول يروج على من عادتُه أن يُعظّم ما لا يَفهم، كما هي سنّة أصحاب العقائد الباطلة في كتبهم، وانظر «أصول مذهب الشيعة الإمامية» للقفاري ٢/ ٩٣٧، وما بعدها.

(١) الإطلاق في هذا النفي يعارض صريح القرآن: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ ومعرفة الرسول تستلزم معرفة المرسِل، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ومن عقل كلام الله وعلم أنه الحق لا يقال «إنه ما عرف الله» بإطلاق، وإنما يقال إنه ما عرف الله معرفة خضوع وانقياد، كما دلت الروايات الأخرى، وقال المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٧٧٤): «.. وجدنا اليهود قد عرفوا الله ورسوله بقلوبهم وهم كافرون..» إلى أن قال: «وإنما المعرفة التي هي إيمان هي معرفة تعظيم الله وجلاله وهيبته».

(٢) هو موسى بن عيسى الغفجومي المالكي، الحافظ، توفي سنة ٤٣٠هـ. انظر «الديباج المذهب» لابن فرحون: ٤٢٢، ٤٢٣.

بين عامة أهل القيروان، عند تنازعهم في هذه المسألة.

وقوله: «فأخبرهم ـ وفي الرواية الأخرى: فأعلمهم ـ أن الله افترض عليهم صدقة» الحديث، يدل على وجوب ردّ الزكاة إلى فقراء من أخذت منهم، وأنّه لا يجوز إخراجها إلى غيرهم فوق مسافة القصر، إلا أنّه إن فعل أجزأت مع التحريم، إلا لضرورة، كعَدم فقير فيهم، إلا أن يُجعل الضمير للمسلمين مطلقًا، وهو بعيد وأنّه لا يَأخذ المصدّق كرائم المال، كما مرّ التنبيه عليه، وهو خياره وأفضله، فإن أخذه [تعدى] الحدود[1]، ودخل في الظلم، ولهذا قال: «واتق دعوة المظلوم»، والمراد: اتق الظلم خوفًا من دعوة من تظلمُه عليك، وهذا لزيادة التأكيد، وإلا فلا بد من اتقاء الظلم مطلقًا؛ لكونه حرامًا، وإن لم يخف من دعوة صاحبه.

وقوله: «فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»، قد جاء في بعض الأحاديث: (ولو كان كافرًا). فعند الإمام أحمد[2]، وأبي يعلى الموصلي[3]، والضياء المقدسي[4]، بإسناد صحيح، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا؛ فإنه ليس دونها حجاب».

وعند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا:

---

(١) في الأصل: «تعد الحدود».

(٢) المسند: ٣/ ١٥٣، وضعف محققوه إسناده: ٢٠/ ٢٢ ط. التركي.

(٣) في المسند الكبير؛ لأن الضياء رواه من طريق أبي بكر بن المقرىء عن أبي يعلى الموصلي، وابن المقرىء هو راوي المسند الكبير عن أبي يعلى، انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ١٨٠.

(٤) الأحاديث المختارة: ٧/ ٢٩٣ برقم (٢٧٤٨).

«دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه»[1]، وإسناده حسن.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝﴾ [غافر: ٥٠]، المراد دعاؤهم للنجاة من نار الآخرة، وأما دعاؤهم لطلب الانتصاف ممن ظلمهم في الدنيا كما في الحديث فلا تنافيه الآية الكريمة.

فالحجاب مرفوع عن دعوة المظلوم، فليس يحجبها دونه ـ سبحانه ـ شيء، فإذا لم تحجب حصلت الإجابة وتحققت.

فعند الإمام أحمد[2] وابن ماجه[3] والترمذي[4] عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وحسنه [ك،٣٩/ب] مرفوعًا: «ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر ـ وفي لفظ: حين يفطر ـ، ودعوة المظلوم، يرفعها الله ـ تعالى ـ فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب ـ تبارك وتعالى ـ: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين». وقد قيل: إن في إسناده مقالاً.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في «إجابة الدعوة» بسنده قال: جاء رجل إلى حبيب العجمي فقال: لي عليك ثلثمائة درهم، فقال له حبيب: إلى غد. فلما كان من الليل قام حبيب، وتوضأ وصلى، وقال: اللهم إن كان صادقًا فأدِّها عني، وإن كان كاذبًا فابْتَلِهِ في بدنه. فضربه الفالج،

---

(١) المسند: ٢/ ٣٦٧، وحسنه الألباني في الصحيحة برقم (٧٦٧).

(٢) المسند: ٢/ ٣٠٤، وصححه محققوه: ١٣/ ٤١٠. ط التركي.

(٣) السنن: ١/ ٥٥٧، كتاب الصيام، باب (٤٨)، حديث (١٧٥٢). وضعفه الألباني كما في «ضعيف سنن ابن ماجه»: ص ١٣٥.

(٤) السنن: ٤/ ٦٧٢، كتاب صفة الجنة، باب (٢)، حديث (٢٥٢٦).

فجاء الرجل إلى حبيب محمولاً وقال: أنا الذي جئتك بالأمس، ولم يكن لي عليك شيء. فقال حبيب: تعود؟. قال: لا. قال حبيب: اللهم إنك تعلم إن كان صادقًا فأطلقه، فقام وكأن [ر،٨١/أ] لم يكن به شيء[١] [٢].

وعند البخاري وغيره عن جابر بن سمرة في حديث شكوى أهل الكوفة لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - بأنه لا يحسن يصلي، وأن عمر أرسل معه رجلاً، فسأل عنه أهل الكوفة، ولم يدع مسجدًا إلا سأل عنه، ويثنون معروفًا، حتى دخل مسجدًا لبني عبس، فجلس، فقام رجل منهم يقال له: أسامة بن قتادة، يكنى أبا مسعدة، فقال: إذ نشدتنا فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية. قال سعد: أما والله لأدعونّ بثلاث، اللهم إن كان عبدُك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه بالفتن. فكان بعدُ إذا سُئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد.

قال عبدالملك - يعني ابن عمير، أحد رواة الحديث عن جابر -: فأنا رأيته بعدُ قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطريق يغمزهن[٣].

ورواه ابن أبي الدنيا[٤] وغيره، ولفظه عن جابر: اللهم إن كان كاذبًا فأعم بصره، وأطل عمره، وشدّد فقره، وعرّضه للفتن. فقال

---

(١) مجابو الدعوة (١٣٠) ومن طريقه اللالكائي في كرامات الأولياء (٢/ ٢٢٣).
(٢) كتب في الطرّة أمامه: [بلغ مقابلة على أصله فصح على يد مؤلفه عفى الله عنه].
(٣) صحيح البخاري: ١/ ٢٦٢، كتاب صفة الصلاة، باب (١٣)، حديث (٧٢٢).
(٤) الأولياء لابن أبي الدنيا (٣٢).

عبدالملك: فأنا رأيته يتعرض للإماء في السكك، فإذا قيل له: كيف أنت يا أبا مسعدة، فيقول: كبير فقير مفتون، أصابتني دعوة سعد.

وكان سعد ـ رضي الله عنه ـ مجاب الدعوة، بدعوة النبي ـ ﷺ ـ له في ذلك. فعند الترمذي عنه ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك»[1].

وفي شرح السنة[2] عنه ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال له ـ يعني يوم أحد ـ: «اللهم اشدد[3] رميته، وأجب دعوته».

قال عبدالله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتقدمت إليه فعرفني، وقال: أنت قارىء مكة؟. قلت: نعم. ورأيت الناس يهرعون إليه ويسألونه أن يدعو لهم، فقلت: هلا دعوت لنفسك أن يردّ الله عليك بصرك؟ فتبسّم ـ رضي الله عنه ـ وقال: يا بني، قضاء الله أحسن إلي من بصري[4].

وذكر[5] السمهودي[6] في «تاريخ المدينة»[7] عن العلاء بن

---

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٦٤٩، كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن أب وقاص. . ، حديث (٣٧٥١). وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٩٥٠).

(٢) للبغوي: ١٤/ ١٢٥، برقم (٣٩٢٢).

(٣) في «شرح السنة»: «اسدد» بالمهملة، وفي المستدرك (٣/ ٢٨): «سدّد».

(٤) لم أعثر على موضعه.

(٥) كتب أمامه في الطرة: [بلغ مقابلة].

(٦) هو علي بن عبدالله بن أحمد الحسني، الشافعي، نور الدين، أبو الحسن، مؤرخ المدينة ومفتيها، (٨٤٤ـ ٩١١هـ). الضوء اللامع: ٥/ ٢٤٥، الأعلام: ٤/ ٣٠٧.

(٧) «وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى»: ٢/ ١٠٦٥.

عبدالرحمن عن أبيه أن أروى بنت أوس استعْدت مروان على سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ في أرضه بالشجرة، يعني بوادي العقيق، فقالت: إنه أدخل ظفيرتي في أرضه. فقال: كيف أظلمها وقد سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من اقتطع شبرًا من الأرض طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة»؟. وترك لها سعيد ما ادّعت، وقال: اللهم إن كانت أروى ظلمتني فأعم بصرها، واجعل قبرها في بئرها. فعميت أروى، وجاء سيل فأبدى عن ظفيرتها خارجًا عن حق سعيد، فعزم سعيد على مروان، ليركبنّ معه، وينظر إلى ظفيرتها، فركب والناس حتى نظروا إليها، ثم إن أروى خرجت لبعض حاجاتها، فوقعت [ر،٨٢/ب] في البئر، فماتت.

وفي رواية أنها سألت سعيدًا أن يدعو لها، وقالت: إني ظلمتك. فقال: لا أرد على الله شيئًا أعطانيه(١).

ومعناه عند البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عروة بن الزبير، أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل خاصمته أروى بنت أوس، فذكراه بمعناه.

وكان مطرِّف بن عبدالله بن الشخير العامري ـ رضي الله عنه ـ من أعبد الناس وأنسكهم، فذكروا أنّه وقع بينه وبين رجل منازعة، فكذب عليه، فرفع يديه، وذلك كان في مسجد البصرة، فقال: اللهم إنّي أسألك ألا يقوم من مجلسه حتى تكفيَنيه. فلم يفرغ مطرّفٌ من كلامه

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١١٦٨، كتاب بدء الخلق، باب (٢)، حديث (٣٠٢٦)، وصحيح مسلم: ٣/ ٩٩٧، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم..، حديث (١٦١٠).

حتى صُرع الرجل فمات، فأخذوا مطرِّفًا فقدّموه إلى القاضي بالبصرة، فقال القاضي: لم يقتله، إنّما دعا اللهَ عليه، فأجاب الله دعاءه. فكان بعد ذلك تُتقى دعوته. رواه ابن أبي الدنيا[١]، وابن الكلبي في جمهرته[٢].

وذكر الزمخشري في «ربيع الأبرار» عن علي مرفوعًا ـ رضي الله عنه ـ: «إياك ودعوة المظلوم، فإنما يسأل اللهَ حقَّه، وإنّ الله لا يمنع من ذي حق حقّه»[٣].

وذكر أن أنوشروان[٤] وقع إليه أن عامل الأهواز قد جبى من الأموال ما يزيد على الواجب، فوقّع بردّ المال على الضعفاء، وقال: إن الملِك إذا كثّر أمواله بما يأخذ من رعيّته، كان كمن يعمر سطح بيته بما قلع من قواعد بنائه[٥].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لا تغبطنّ ظالمًا بظلمه؛ فإن له عند الله طالبًا». ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ۝٩٧﴾[٦] [الإسراء: ٩٧]. وهو عند البيهقي بمعناه[٧].

---

(١) مجابو الدعوة (٨٩) و(٩٢) بنحوه.

(٢) «جمهرة النسب» لابن الكلبي: (ص/ ٣٥٦ـ ٣٥٧) ط دار عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية، ط، ١ ١٤٠٧هـ تحقيق د/ ناجي حسن.

(٣) «ربيع الأبرار»: ٢/ ٨١٦، بلا سند، ورواه البيهقي بسنده في الشعب: ٦/ ٤٩، برقم (٧٤٦٤)، وأبو نعيم في الحلية: ٣/ ٢٠٢، ومن طريقه الخطيب في تاريخ بغداد: ٩/ ٣٠١، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (١٦٩٧).

(٤) أحد أكاسرة الفرس، انظر فتح الباري: ٨/ ١٢٧.

(٥) «ربيع الأبرار»: ٢/ ٨٢٢.

(٦) «ربيع الأبرار»: ٢/ ٨١٦، ولم أجده مسندًا بهذا اللفظ.

(٧) الشعب: ٤/ ١٢٩، برقم (٤٥٤٢)، ورواه ابن المبارك في الزهد: ٢٢١، برقم =

ولهذا يقال: الظلم يجلب النقم، ويسلب النعم.

إذا فهمت ذلك، فاعلم أن هذه الدعوةَ التي وصّى بها رسول الله ـ ﷺ ـ معاذًا، والشهادةَ هي التي شهد الله بها، لما قال الذين كفروا لرسوله محمدٍ ـ ﷺ ـ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، فقال ـ سبحانه ـ آمرًا له أن يقول: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣]، فاستشهد على رسالته بشهادة الله له، وفُهِم من ذلك أن شهادتي الإخلاص أولُ الأمر وآخرُه، كما في قوله: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، دخل الجنّة»[(١)].

ولا بد أن تُعلم هذه الشهادة، وتقوم بها الحجة على المكذّبين له ـ ﷺ ـ، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٩]، وكذلك قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿[ر، ٨٢/ ب]،[ك، ٣٩/ أ] وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما بعث الله نبيًّا إلا أخذ عليه العهد، لئن بُعث محمد وهو حي ليتبعَنّه، وأخذ عليه أن يأخذ على

= (٦٢٣)، وفي مسنده: ١٦٥، برقم (٢٦٩)، والبخاري في التاريخ الكبير: ٢/ ٢٣٣، برقم (٩٢٢٦) و٣/ ٣٤٥ برقم (١١٦٩)، ولفظه عند هؤلاء: «لا تغبطن فاجرًا بنعمة أنّ له عند الله قاتلاً لا يموت..». وهو ضعيف كما في «ضعيف الجامع»: ٩٠٢، برقم (٦٢٤٨).

(١) رواه أحمد: ٥ / ٢٣٣، ٢٤٧، وأبو داود: ٣/ ١٩٠، رقم (٣١١٦)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٥٠٣، رقم (١٢٩٩) وصحّح إسناده. وصححه الألباني كما في الإرواء برقم (٦٨٧).

أمّته، لئن بُعث محمد وهم أحياء ليتبعُنّه، ولينصرُنّه[1].

وقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ [يس: ١ ـ ٣]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون: ١]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] فهذا كلّه شهادة منه ـ سبحانه ـ لرسوله، قد أظهرها وبيّنها، وبيّن صحّتها، فأوضحها غاية الإيضاح، بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم.

ومن ذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨﴾ [الفتح: ٢٨]، فأظهره ـ سبحانه ـ ظهورين: ظهورًا بالحجة والبيان، وظهورًا بالنصر والغلبة والتأييد، حتى ظهر على مخالفيه، فكان منصورًا مؤيَّدًا[2].

فما في هذا من الخبر[3] عن علم الله الذي لا يعلمه غيره، من أعظم الشهادة بأنّه هو الذي أنزله ـ تعالى ـ.

ومن شهادته أيضًا ما أودعه ـ سبحانه ـ في قلوب عباده من التصديق الجازم واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه، وبذلك احتج هرقل على أبي سفيان، حيث قال: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوب[4].

---

(١) روى ابن جرير نحوه عن علي ـ رضي الله عنه ـ، انظر تفسيره: ٣/ ٣٣٢، وذكره ابن كثير عن علي وابن عباس: ١/ ٣٧٩، ط الفكر ١٤٠١هـ.

(٢) عن «مدارج السالكين» لابن القيم: ٣/ ٤٧٠.

(٣) يعني الآية المتقدمة: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ..﴾.

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٨، كتاب بدء الوحي، رقم (٧).

وقد أشار ـ سبحانه ـ إلى هذا المعنى بقوله: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقوله: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦]، وقال: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ [الرعد: ١٩]، ثم نبّههم ـ سبحانه ـ على أعظم آية وأجلّها، وهي طمأنينةُ قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فطمأنينة القلوب الصحيحةِ والفطرة السليمة، وسكونها إليه، من أعظم الآيات والدلالات على صحّته؛ إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل[١].

قالوا: فإن قيل: فلمَ لا ذكر ـ سبحانه ـ شهادة رسله مع الملائكة في قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨]، والرسل هم أعظم شهادة من أولي العلم؟

قيل: في ذلك عدة فوائد.

[أحدها]: أن أولي العلم أعم من الرسل والأنبياء، فيدخلون هم وأتباعهم.

[وثانيتها][٢]: أن في ذكر أولي العلم في هذه الشهادة وتعليقها بهم ما يدل على أنها من موجَبات [ر،٨٣/ب] العلم ومقتضَياته، وأن كل من كان من أولي العلم فإنه يشهد بهذه الشهادة، كما يقال: إذا طلع الهلال

(١) عن «مدارج السالكين» لابن القيم: ٣/ ٤٧٢.

(٢) في الأصل: «أحدها»، و«ثانيها».

واتضح لكل من كان من أهل النظر رآه[1].

كقوله: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦]، أي كل من كان له رؤية يراها حينئذ عيانًا، ففي هذا بيان أن من لم يشهد له ـ سبحانه ـ بهذه الشهادة فهو من أعظم الجهّال، لا من أولي العلم[2].

فقد تبيّن لك بهذا أنه لا يقوم بهذه الشهادة ويؤديها على وجهها إلا أتباعالرسل، ثم أهل الإثبات منهم، وهم أولوا العلم، وسائر من عداهم أولوا الجهل، وإن وسّعوا القول وأكثروا الجدل.

ومنها الشهادة من الله ـ سبحانه ـ لأهل هذه الشهادة أنهم أولوا العلم، وشهادتُه لهم عدل، وأصدق شهادةً من شهادة المعطلة والمشركة والمبتدعة بأنهم جهال، وكفاهم بشهادة رب العالمين، وهو أصدق القائلين في كتابه المبين، بأنهم من أولي العلم، وقد شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه، وأعطوه ـ سبحانه ـ حقه من التوحيد والإخلاص في القول والعمل[3].

فهو الذي ولِيَ تعديل أهل هذه الشهادة، واستشهد بهم على أجل مشهود به، وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة، كما يُحتج بالبيّنة على من أنكر الحق، والمشركةُ والمبتدعة يطلبون جرح من عدّل ربُّ العالمين، وهو أصدق القائلين.

---

(١) تصرف المؤلف في عبارة ابن القيم بما أغلقها، والعبارة في المدارج هكذا: «كما يقال: إذا طلع الهلال واتضح فإن كل من كان من أهل النظر يراه». المدارج: ٣/ ٤٧٢.

(٢) المدارج: ٣/ ٤٧٣.

(٣) بتصرف من مدارج السالكين: ٣/ ٤٧٣.

فقد علمت بهذا أن الحجة قامت للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على الخلق، وهؤلاء الذين هم أولوا العلم هم نواب الرسل ـ عليهم السلام ـ، وخلفاؤهم في إقامة حجج الله على العباد، لا أهل الظلم والفساد، ولهذا قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في صحيحه عند قوله ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرّهم من خالفهم إلى يوم القيامة»، أو «حتى يأتي أمر الله»، هم أهل العلم(١).

ولهذا أيضًا فُسرت شهادتهم بالإقرار، وفُسّرت بالتبيين والإظهار، فهي تتضمن الأمرين جميعا، فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام، وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه جعلهم عدلاً خيارًا، ونوّه بذكرهم [ك،٤٠/ب] قبل أن يوجدهم؛ لما سبق في علمه من إيجاده لهم، شهداءَ يشهدون على الأمم يوم القيامة، فمن لم يقم بهذه الشهادة علما وعملاً ومعرفة وإقرارًا ودعوة وتعليما وإرشادًا فليس من شهداء الله(٢).

وفي حديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ عند الإمام أحمد أنه ـ ﷺ ـ قال لما بعثه إلى اليمن: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها»(٣).

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٦٧، كتاب الاعتصام..، باب (١٠).

(٢) عن «مدارج السالكين»: ٣/ ٤٧٤.

(٣) لم أعثر عليه في المسند، ورواه ابن المبارك في الزهد: ٤٨٤، رقم (١٣٧٥)، وفي صحيح البخاري: ٣/ ١٠٧٧، برقم (٢٧٨٣) أن النبي ـ ﷺ ـ قال نحوه لعلي ـ رضي الله عنه ـ.

[ر،٨٣/أ] وفي صحيح مسلم مرفوعًا: «من دعى إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»[(١)].

الحديث ـ والله تعالى الموفق ـ (أخرجاه) في صحيحيهما[(٢)].

(ولهما) أي الشيخين (عن سهل بن سعد) بن مالك بن خالد الساعدي الأنصاري الخزرجي، أبو العباس، كان له ولأبيه صحبة، مات سنة ثمان وثمانين، وقيل بعدها، وقد جاوز المائة[(٣)] (ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوم) فتح (خيبر) حين حاصرها ـ ﷺ ـ.

قال البكري: سميت خيبرُ خيبرَ برجل من العماليق، اسمه خيبر[(٤)].

(لأعطين الراية) هي علم يجعل في عامل رمح[(٥)]، وهي اللواء أيضًا، قال في «مجمع البحار في غريب الآثار»[(٦)]، و«المطالع»[(٧)]، وغيرهما: اللواء راية لا يحملها إلا صاحب الحرب، أو صاحب دعوة الجيش، ويكون الناس له تبعا.

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٦٣٦، كتاب العلم، باب (٦)، حديث (٢٦٧٤).

(٢) صحيح البخاري: ٢/ ٥٢٩، كتاب الزكاة، باب (٤٠)، حديث (١٣٨٩)، وصحيح مسلم: ١/ ٥٥، كتاب الإيمان، باب (٧)، حديث (١٩).

(٣) انظر «الإصابة»: ٣/ ٢٠٠، ترجمة (٣٥٣٥)، ط الجيل، ت البجاوي.

(٤) في «معجم ما استعجم» (١/ ٥٢٣): «قال محمد بن سهل الكاتب: سميت «خيبرُ» بخيبر بن قاينة بن مهلائيل، وهو أول من نزلها».

(٥) عامل الرمح: ما يلي السنان. اللسان: ١١/ ٤٧٧.

(٦) أو «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» لمحمد طاهر الفتّني، ت ٩٨١هـ. انظر «مجمع البحار»: ٤/٥١٦، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ.

(٧) لعله «مطالع الأنوار على صحاح الآثار» لابن قرقول، ت ٥٦٩هـ.

قال الجوهري وغيره: الراية العلَم[1].

وقيل الراية اللواء، فيكون على هذا مترادفان[2].

وقال في «مجمع البحار» أيضًا على قوله: «لكل غادر لواء يُعرف به»[3]، قال: له علم يومئذ، وكانوا إذا غدر رجل في الجاهلية رفعوا له لواءً أيام الموسم؛ ليعرفوه فيجتنبوه[4].

وفي مختصر النهاية: اللواء: الراية، وفيها أيضًا: الراية: العلم[5].

فتبين بهذا أن هذه أسماء مترادفة عند العرب في العادة.

وقيل: اللواء: عصابة طويلة، والغالب كونها بيضاء، والراية علم مربّع.

وقد يدل على ذلك ما رواه ابن ماجه[6]، والحاكم وقال: صحيح الإسناد[7]، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: كان[8] رايته ـ ﷺ ـ سوداء، ولواؤه أبيض[9].

(غدًا) ظرف منصوب على الظرفية، وهو بكرةُ ما بعد يومك.

---

(١) الصحاح: ٦/ ٢٣٦٤، مادة (روى).

(٢) كذا في الأصل، والصواب أن يقال: فيكونان مترادفين.

(٣) رواه البخاري: ٣/ ١١٦٤، برقم (٣٠١٥)، ومسلم: ٣/ ١٠٩٣، برقم (١٧٣٥).

(٤) «مجمع البحار»: ٤/ ١٢.

(٥) انظر «النهاية»: ٢/ ٢٩١، ٤/ ٢٧٩.

(٦) السنن: ٢/ ٩٤١، كتاب الجهاد، باب الرايات والألوية، حديث (٢٨١٨).

(٧) المستدرك: ٢/ ١١٥، برقم (٢٥٠٦)، وليس فيه أنه صحح إسناده.

(٨) كذا في الأصل، وفي سنن ابن ماجه وغيره: «كانت».

(٩) ورواه الترمذي: ٤/ ١٩٦، رقم (١٦٨١)، وحسنه الألباني في الصحيحة برقم (٢١٠٠).

(رجلاً) أبهمه ـ ﷺ ـ عليهم ليحرصوا على التقدم في الدعوة إلى الله ورسوله، وليتنافسوا في ذلك، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦] فلم يذكر لهم إلا صفته في المحبة؛ إذ لا يكون تركيبًا[1] للعبادة الشرعية إلا عليها، بحيث إذا خلت العبادة من المحبة لم تكن شرعية. ولذلك قال عمر ـ رضي الله عنه ـ فيما صح عنه: (ما تمنّيت الإمارة قط إلا يومئذ)[2]؛ لتثبت له المحبةُ المذكورة، وأن يكون ـ رضي الله عنه ـ قائدًا إلى الخير.

(يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسولُه)، هذه المحبّة هي التي تحصل بها العبادة الشرعية، فلا يخالف حينئذ المحِب محبوبه، بل يكون منقادًا خاضعًا له، تحت أمره ونهيه، باطنًا وظاهرًا؛ إذ هذه المحبة له مقرون بها متابعة رسوله ـ ﷺ ـ ومحبّته.

ولما ادّعى من ادعى محبّة الله، جعل ـ سبحانه ـ على ذلك علما، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فلا بد أن يكون الله ورسوله أحب إلى المرء مما سواهما، حتى من نفسه، ولهذا في الحديث الصحيح عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت [ر، ٨٤/ب] به»[3]. فإذا استكمل العبد محبة الله ورسوله على الحقيقة، فقد أدى حق الله ـ سبحانه ـ، وهو أن يعبده ولا يشركَ به شيئًا، ويطيعَ اللهَ ورسوله؛ لأنها لا تُعرف عبادتُه ـ سبحانه ـ إلا

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: «تركيبٌ».

(٢) رواه النسائي في الكبرى: ٥/ ١١١، برقم (٨٤٠٦)، والبيهقي في الشعب: ١/ ٨٨، برقم (٧٨).

(٣) رواه ابن أبي عاصم في السنة: ١/ ١٢، رقم (١٥)، وضعف الألباني إسناده. ورواه الخطيب في تاريخ بغداد: ٤/ ٣٦٩.

من جهته، فحينئذ يكون محبوبًا لله ورسوله، ولعباده المؤمنين، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [مريم: ٩٦].

وقد أثبت ـ ﷺ ـ هذه المحبّة لعلي ـ رضي الله عنه ـ، لما كان منه من متابعة رسوله ـ ﷺ ـ، فإنه كان أول الصبيان إسلامًا، كما أن الصديق ـ رضي الله عنه ـ أول البالغين من الرجال الأحرار، وأمَّ المؤمنين خديجةَ أولُ النساء، وزيدًا أولُ الموالي.

(يفتح الله على يديه)، هذه معجزة له ـ ﷺ ـ، وكرامة وفضيلة لعلي ـ رضي الله عنه ـ، وهكذا ينبغي لولي أمر المسلمين ألا يقدّم إلا من هو بهذه المثابة؛ لأنه أقرب إلى التوفيق والتسديد والتأييد والنصر، ويعتبر في ذلك الأمثل فالأمثل، في الديانة والشجاعة والأمانة، والمكيدة للعدو، وليجنّب ذلك أهل المعاصي والمجون؛ فإنهم عند الله وعند أوليائه الأرذلون[1]، وإن كانوا أهل شجاعة وبراعة، فإنهم أهل فسق وإضاعة، ولم يقرن الله نصره إلا بحزبه وجنده، أهلِ السمع والطاعة.

(فبات الناس) تلك الليلةَ (يدوكون ليلتهم)، الدَوْك: اختلاط الأصوات واختلافها.

(أيهم يُعطاها؟): في هذا جواز إبهام ولي الأمر لبعض ما يريد إنفاذه، إذا رأى في ذلك مصلحة للرعية والحرب، من غير مشورة.

(فلما أصبحوا) من ليلتهم تلك (غدوا)، الغُدُوّ ما يكون أولَ النهار، (على رسول الله ـ ﷺ ـ، كلُّهم)، تأكيدٌ لغدوّهم جميعهم، (يرجو)، والرجاء ضد اليأس، (أنه يعطاها) أتى بضمير الاختصاص في

---

(١) في [ر]: الأذلّون.

قوله: (أنه يعطاها)[1]، أي كلهم يرجو أنّه يُخص بإعطائها لا غيره.

وفيه جواز الحرص والاستشراف للأعمال التي تدعو إلى الخير، ويكون صاحبُها قائدًا إليه، ولهذا قال يوسف [ك،٤٠/أ] ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٥]، ولم يكن ذلك من إطراء النفس ومدحها المكروه.

وقال إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، خليل الرحمن ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لما قال له ـ سبحانه ـ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وفعل ـ سبحانه ـ، فإنه لم يكن نبي ولا رسول بعده إلا من ذرّيته، إلا أن الله أخبر أنه لا ينال عهدُه الظالمَ منهم، وإلا فقد جعل ـ كما أخبر ـ في ذريته النبوّة والكتاب، فلو لم يكن فيهم إلا موسى وعيسى ومحمد خاتم رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، الأولين والآخرين ـ[2].

فهذا مصداق ما نبّهنا عليه، من عدم جواز تولية من لا يصح من جهة الله ـ تعالى ـ توليتُه، لظلمه وفسقه؛ فإن الظالم والفاسق لا يُسدَّد ولا يوفق، ولا يكون حَرِيا للنّصر[3] والتمكين، إلا أن [ر،٨٤/أ] يكون في الإمامة الكبرى[4]، بالشرط السابق[5]؛ لعدم جواز الخروج على الأئمة، ووجوب الصبر

---

(١) إنما جاءت رواية الحديث عند الجميع: «أن يعطاها» بلا «هاء»، ولم أجد من رواها: «أنه يعطاها».

(٢) أي لكفى.

(٣) الصواب أن يقال: «حريًا بالنصر»، أو: «حريًا أن يُنصر»..؛» فإن معنى «حري»: «جدير» و«خليق».

(٤) لا وجه لهذا الاستثناء؛ لأن الكلام في تولية الولاة، لا في الخروج عليهم، وتحريم الخروج على أئمة الجور لا يعني تجويز تنصيبهم.

(٥) إن أراد بالشرط السابق محبة الله ورسوله فهي أمر قلبي، والشروط لا تكون إلا =

على جورهم؛ لأن بالخروج عليهم تُستباح الدماء، ويحصل به من الفساد ما لا يحصيه إلا رب العالمين.

والظلم في هذه الآية يعمّ الشرك فما دونه، وهو وضع الأشياء في غير مواضعها، وقد قصره بعضهم على الشرك، وسيأتي إن شاء فيها مزيد.

(فقال: أين ـ وفي لفظ: فأين ـ علي بن أبي طالب؟. فقيل: هو يشتكي عينيه)، وفي رواية: عينه، بالإفراد. وقد صح أن الذي بعينيه رمد[1].

(فأرسل إليه، فأُتي به)، ولم يقل: فأتى. وهذا دليل على شدّة وجع عينيه ـ رضي الله عنه ـ.

ثم رأيت بعد ذلك في مسند الإمام أحمد من حديث سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ ما يصدّق ما قلنا، وفيه: فجئت به أقوده أرمد... الحديث[2].

(فبصق ـ ﷺ ـ في عينيه) من ريقه الشريف، (ودعا له، فبرىء حتى كأن لم يكن به وجع)، وهذا أيضًا من معجزاته ـ ﷺ ـ، وأعظم من هذا ردّه ـ ﷺ ـ لعين قتادة بن النعمان.

قال ابن إسحق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، أن رسول الله

= بأمور ظاهرة، وإن أراد انتفاء الظلم نقض كلامه.

(١) كما في صحيح مسلم: ٣/ ١١٤٧، رقم (١٨٠٧)، كتاب الجهاد، باب (٤٥).

(٢) المسند: ٤/ ٥١، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٦/ ٣٧٠ برقم (٣٢١٠٠) و٧/ ٣٩٢، برقم (٣٦٨٧٤). ط الرشد. وابن سعد في الطبقات: ٢/ ١١١.

ـ ﷺ ـ ردّها ـ يعني عينه ـ حين وقعت على وجنته بيده ـ ﷺ ـ، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما[١].

وروى جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: أصيبت عين رجل منا يوم أحد ـ وهو قتادة بن نعمان ـ حتى وقعت على وجنته، فأتينا به رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسول الله، إن لي امرأةً أحبها، وأخشى إن رأتني تقذِرني. فأخذها رسول الله ـ ﷺ ـ بيده فردّها مكانها ـ أو إلى موضعها ـ، وقال: اللهم اكسه جمالاً. فكانت أحسن عينيه، وأحدّهما نظرًا، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى[٢].

وقد وفد على عمر بن عبدالعزيز رجل من ذريته، فسأله عمر: من أنت؟ فقال:

أنا ابن الذي سالت على الخدّ عينُه فـرُدّت بكـفّ المصطفـى أيّمـا ردِّ

فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حُسنَ ما عينٍ ويا حُسنَ ما خدِّ

فقال عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ له عند ذلك متمثلاً بقول أميّة بن أبي الصلت:

تلك المكارم لا قعبانِ من لبنٍ شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا[٣]

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات: ٣/ ٤٥٢، من طريق ابن إسحاق عن عاصم ـ بن عمرو بن قتادة ـ وليس فيها: حدثني ـ أن حدقة قتادة بن النعمان سقطت ـ أوعينه ـ على وجنته يوم أحد فردّها رسول الله ﷺ بيده.. إلخ.

(٢) رواه مختصرًا الأصبهاني في دلائل النبوة: ١١٨، وانظر «سير أعلام النبلاء» للذهبي: ٢/ ٣٢٢، ٣٣٣.

(٣) وقيل للنابغة الجعدي، وقيل لأبي الصلت الثقفي، انظر «معجم شواهد العربية» لعبدالسلام هارون: ٢٦٨.

فوصله عمر عند ذلك، وأحسن جائزته[1].

وقد رُوي أن عَيْنيه جميعا سقطتا، فردّهما ـ ﷺ ـ، رواه محمد بن أبي عثمان، عن الإمام مالك بن أنس، عن محمد بن عبدالله بن أبي صعصعة، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، عن أخيه قتادة بن النعمان ـ يعني لأمّه ـ قال: أصيبت عيناي يوم أحد، فسقطتا على وجنتي، فأتيت بهما [ر،٨٥/ب] رسول الله ـ ﷺ ـ، فأعادهما مكانهما، وبصق فيهما، فعادتا تبرقان[2].

قال الدارقطني: هذا حديث غريب عن الإمام مالك، تفرّد به عمّار ابن نصر[3].

(فأعطاه ـ ﷺ ـ الراية، فقال: علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟. فقال له: انفُذ) أي امض وانفصل سالما (على رِسْلك)، بفتح الراء المهملة وكسرها مع سكون السين، والكسر أفصح، والمعنى أنه ـ ﷺ ـ أمره بالثبات على أمره الذي بعثه فيه، والتأنّي وعدم الاستعجال. يقال: «ترسّل في مشيه وكلامه»، إذا لم يعجل.

(حتى تنزل بساحتهم): ما حول حصونهم، والساحة والباحة والعرصة

---

(١) الخبر في «الاستيعاب» لابن عبدالبر: ٨/ ١٢٧٥، ط الجيل ١٤١٢هـ، ت البجاوي.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية: ٦/ ٣٣٧، ووقع فيه: أصيبت عيناي يوم بدر... وقال أبو نعيم بعد روايته: غريب من حديث مالك، تفرد به محمد بن أبي عثمان، وإنما يعرف من حديث ابن إسحاق وابن الغسيل، عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه، وقال ابن إسحاق: يوم أحد.

(٣) غالب الظن أنه في كتاب «غرائب مالك» من جمع الدارقطني، وهو مفقود.

بمعنى واحد، وهو الفِناء[1]، وأصله الفضاء، قال امرؤ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبتٍ ذي قفافٍ عقنقلِ[2]

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أعطاه الراية يومئذ وهو ابن عشرين سنة[3].

(ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقوق الله فيه)، وفي لفظ: «حق الله»[4]، في غير خط المصنف.

وحقوق الله في الإسلام هي أوامره ونواهيه، في كتابه أو على لسان رسوله ـ ﷺ ـ، من أداء الفرائض، كما في حديث معاذ ـ رضي الله عنه ـ واجتناب الزواجر.

والإسلام الذي أمره ـ ﷺ ـ أن يدعوَهم إليه هو الإسلام الذي سمّى به عباده المؤمنين، فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨]، وهو الذي رضيه لهم دينا، فقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالدين مصدر سُمي به الاعتقاد والعمل، المتضمنان للجزاء من الله ـ تعالى ـ.

والشريعة كلّها دين، كما قال ـ تعالى ـ أول الآية[5]: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

---

(١) في الأصل: «الفنا»، «الفضا»، دون همز.

(٢) ديوانه: ص ١٧٠.

(٣) وهم المؤلف ـ رحمه الله ـ؛ فإن هذا إنما كان في معركة بدر، كما رواه الحاكم في المستدرك: ٣/ ١٢٠ برقم (٤٥٨٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ورواه البيهقي في الكبرى: ٦/ ٢٠٧، وخيبر كانت في السنة السابعة من الهجرة، فيكون علي ـ رضي الله عنه ـ وقتها ابن خمس وعشرين. وانظر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٢٨.

(٤) وهو لفظ الصحيحين، ولم أعثر على رواية بلفظ الجمع.

(٥) كذا في الأصل، ولم أفهم مراده بأول الآية؛ فإن قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..﴾ ليس أول الآية، بل وسطها.

﴿لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: افتخر المشركون بآبائهم فقال كلُّ فريق منهم: لا دين إلا دينُ آبائنا وما كانوا عليه. فأكذبهم الله ـ سبحانه ـ، وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[(١)] [آل عمران: ١٩]، يعني: الذي جاء به محمد ـ ﷺ ـ هو الإسلام، دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإنّه لم يكن لله ـ سبحانه ـ قط ولا يكون له دين سواه، قال أول الرسل وفاتحهم نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢].

وقال إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ الآية [البقرة: ١٢٨]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال يعقوب ـ عليه السلام ـ عند الموت لبنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

[ك، ٤١/ب] وقال ابنه يوسف ـ عليه السلام ـ: ﴿۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ يوسف: ١٠١].

[ر، ٨٥/ أ] وقال موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

وقال ـ تعالى ـ عن عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

---

(١) لم أعثر على من رواه عن ابن عباس، لكن وجدت نحو هذه العبارة في «الوجيز» للواحدي: ١/ ٢٠٢، غير منسوبة، فلعله رآها في بعض الروايات عن ابن عباس.

وقالت ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

وقال ـ جل ذكره ـ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]، فضمن لهم ـ سبحانه ـ على ذلك تحصيل الأجور، والأمن مما يخافون ويحذرون، فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما مضى، مما يتركونه.

فالإسلام هو دين التوحيد، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه، وهو ملة إبراهيم، الذي وصفه به، حنيفًا مسلمًا، وارتضاه.

ومنه فطرة الإسلام التي فطر الله عليها عباده، فهو توحيد خاصّة عباده، الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠ـ ١٣٢]، فقسَم ـ سبحانه ـ الخلائق قسمين: سفيهًا لا أسفه منه، ورشيدًا لا أرشد منه، فالسفيه من رغب عن الإسلام، الذي هو ملة إبراهيمَ ودينُه، ووصيّته لبنيه وأتباعه، والرشيد من تبرأ من الشرك قولاً وعملاً وحالاً، فكان قوله توحيدًا، وعمله توحيدًا، وحاله توحيدًا، ودعوته إلى التوحيد[1].

وبهذا أمر الله ـ سبحانه ـ المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ

---

(١) عن «مدارج السالكين»: ٣/ ٤٨٢.

ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾[1] [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

فهذا هو دين الإسلام، وهو دين الرسل، الذي أمر محمدًا ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ أن يدعو الناس إليه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

وهذا داخل في مسمى الإيمان قطعًا؛ فإن الإسلام إذا أُفرد دخل فيه الإيمان على أصح قولي السلف، وأمّا إذا قرن أحدهما بالآخر فإنهم يفرّقون بينهما، كما يأتي إن شاء الله في الكلام على الإيمان الذي وعدنا به[2].

وأما دخول مسمّى الإسلام في الإيمان فذاك مقطوع به عندهم، وسيأتي الكلام فيه على قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية[3] [الأنفال: ٢].

وعند البخاري من حديث جبير بن حيّة، في حديث طويل، وفيه عنه قصة له في قتال الفرس، قال: فندبَنا عمر ـ رضي الله عنه ـ، واستعمل علينا النعمان بن مقرن، حتى إذا كنا بأرض العدو، وخرج علينا عامل كسرى في أربعين ألفا، فقام ترجمانٌ فقال: ليكلمْني رجل منكم. فقال المغيرة ـ رضي الله عنه ـ: [ر،٨٦/ب] سل عما شئت. قال: ما أنتم؟.

---

(١) في جميع النسخ كتبت: (فاعبدون) وهو خطأ.
(٢) انظر فيما يأتي: باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾، وفي القسم الثاني من هذا الشرح، رقم (٣٢.
(٣) انظر فيما يأتي: القسم الثاني من هذا الشرح: باب (٣٢).

قال نحن أناس من العرب، كنّا في شقاء شديد، نمصّ الجلد والنّوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر، ونعبد الشجر والحجر، فبينا نحن كذلك، إذ بعث رب السمٰوات والأرض ـ تعالى ذكره، وجلت عظمته ـ إلينا نبيًّا من أنفسنا، نعرف أباه وأمّه، فأمرنا نبيُّنا ورسول ربّنا، ـ ﷺ ـ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو تؤدّوا الجزية، وأخبرنا ـ ﷺ ـ عن رسالة ربّنا؛ أنّه من قُتِل منّا صار إلى الجنّة في نعيم، لم ير مثلها قط، ومن بقي منا ملك رقابكم. وذكر الحديث(١).

وحقوق الله ـ تعالى ـ المطلوبة منهم في الإسلام في حديث الباب هي ـ كما مرّ ـ اتباع ما أمر ـ تبارك وتعالى ـ، واجتناب ما نهى عنه وزجر، في كتابه، أو على لسان رسوله ـ ﷺ ـ، هذا مجمع ذلك.

ثم قال ـ ﷺ ـ ترغيبًا لأمّته في الدعوة إلى الله ـ سبحانه ـ، مُقسمًا على ذلك توكيدًا له وتحقيقا: (فوالله لأن يهديَ الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم)(٢).

قال المصنّف ـ رحمه الله تعالى ـ: («يدوكون» أي يخوضون).

قال القاضي عياض(٣): النَّعم: الإبل خاصّة، فإذا قيل الأنعام دخل فيها البقر والغنم. وقيل هما لفظان بمعنى واحد للجميع. يدل عليه قوله ـ تعالى ـ في المائدة في جزاء الصيد: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١١٥٢، كتاب الجزية والموادعة، باب (١)، حديث (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه البخاري: ٣/ ١٠٩٦، كتاب الجهاد، باب (١٤١)، حديث (٢٨٤٧)، ومسلم: (٤/ ١٤٩١، كتاب فضائل الصحابة، باب (٤)، حديث (٢٤٠٦).

(٣) بمعناه من «إكمال المعلم بفوائد مسلم»: ٣/ ٦٠٢.

[المائدة: ٩٥].

«والحُمر» بضمّ الميم: جمع أحمر، و«النَعَم» بفتحتين.

فلما كانت حُمْر النَعَم من المواشي أحبَّ شيء إلى العرب، أقسم - ﷺ - على أنّ ما يحصل للإنسان من الثواب بهداية الرجل الواحد على يديه للإسلام خير له من ذلك المحبوب عندهم.

وذكر الرجلَ تغليبًا، وإلا المراد به الرجل والمرأة.

ففي هذا جواز الإقسام على الفتوى؛ ليتحقق السّامع ذلك يقينا، حتى يطمئن قلبه بتحصيله، فيسعى له.

وقد أقسم الله - سبحانه - على خبره؛ تأكيدًا وتحقيقًا للسامع، فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢، ٢٣].

ولهذا لما سمع بعض العرب هذه الآية قال: ومن ذا اللئيم الذي أحوج الكريم إلى اليمين[1].

إذ هذا أبلغ الأقسام، فإنه - سبحانه - خصّ النطق لأن به طلبوا ذلك، وبه أنكروه. قالوا: ولأن النطق لا يتشكّل في المرآة؛ لأن كلام الإنسان لا يتكلّم به غيره، فكذلك رزقه لا يأكله

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٧/ ٤٢) في قصة للأصمعي مع أعرابي، وعبارة الأعرابي هناك: (يا سبحان الله، من الذي أغضب الجليل حتى حلف ألم يصدّقوه في قوله حت ألجأوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثاً وخرجت بها نفسه). ولا يخفى ما في هذه العبارة من منافاة الأدب مع الله - تعالى -، وقد وصف الأصمعي هذا الأعرابي بأنه (جِلْفٌ جافٍ)، وانظر إنكار الإمام الخطابي نظيرها في «شأن الدعاء» ص١٧، ١٨.

غيره[1].

وقد أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقسم، فقال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [التغابن: ٧]، و﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣]، فالقسم على ذلك ـ كما نبهنا عليه ـ تأكيد وتحقيق لحصول المقسم عليه، والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ١٧/ ٤١، ٤٢، وقد اختصر المؤلف كلام القرطبي، ودمجه بغيره حتى استغلق المعنى، ومراد القرطبي أن التشبيه جرى في الآية بالنطق دون سائر الحواس؛ لأنه سالم من العوارض التي قد تعتريها: فالنظر إلى ما في المرآة يوهم بأن المرئي حقيقة، وإنما هو صورة، وكذلك الذوق ربما تغير وفسد لعلّة ما، وهكذا السمع يعتريه آفات كالدوي والطنين، أما النطق فهو سالم من جنس هذه الآفات. وبعد فلا يخلو هذا من تكلف لا يحتاج إليه من يتدبر القرآن.

فتح الحميد

في شرح التوحيد

«أوسع شروح «كتاب التوحيد» للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب»

تأليف

الشيخ عثمان بن عبد العزيز بن منصور التميمي

ت: ١٢٨٢ هـ

تحقيق

د. سعود بن عبد العزيز العريفي
رئيس قسم العقيدة بجامعة أم القرى

د. حسين بن جليعب السعدي
أستاذ العقيدة المساعد بجامعة الكويت

المجلد الثاني

دار عالم الفوائد
للنشر والتوزيع

الباب الخامس

باب تفسير التوحيد

لفظ «التوحيد» [ر،٨٦/أ] [ك،٤١/أ] مرّ الكلام على اشتقاقه من اللغة في بابه[١].

ومعنى ذلك أن توحِّدَه ـ سبحانه ـ ذاتًا[٢]، وصفة، وفعلا. ومنك[٣] عقدًا[٤]، وقولاً، وفعلاً.

وحقيقة ذلك بالإيجاز: ألاّ تعتقد خالقًا إلا الله، ولا معبودًا سواه[٥]، وأنّه فعّال لما يريد، وأنه قد كتب العبد شقيًّا أو سعيدًا، صحيحًا أو معوجًا، مقدَّرًا عليه رزقه أو موسَّعا، طائعا أو عاصيا، معمَّرًا أو معتبطا[٦]، وأنّه قد أنهى إلى رسوله ـ ﷺ ـ أمره ونهيه، وعرّفه

---

(١) راجع ص ٨٦.

(٢) توحيد الذات جرى ذكره على ألسنة المتكلمين بقصد نفي التكثر والتبعيض والتركيب، ويدخلون في ذلك نفي الصفات الخبرية، التي لا تعرف إلا من طريق السمع، كالوجه والعينين واليدين، بحجة استلزامها للتجسيم، فلا ينبغي اعتبار توحيد الذات من معاني التوحيد العلمي الخبري؛ إذ يكفي في نفي التعدد في الذات الإلهية توحيد الصفات، وتوحيد الأفعال المسمى: توحيد الربوبية. وانظر مناقشة ابن تيمية للمتكلمين في نفيهم للصفات بشبهة استلزامها للتركيب في: «الرد على المنطقيين»: ٣١٤، ٣١٥، و«درء تعارض العقل والنقل»: ٩/ ٣٣٩، و«شرح حديث النزول»: ٨٣ـ ٩٥، و«التسعينية»: ٣/ ٧٤٤ وما بعدها.

(٣) أي بأفعالك.

(٤) أي نيةً.

(٥) أي بحق.

(٦) في «المصباح المنير»: ١٤٨: «عبطه الموت واعتبطه، ومات عَبْطة ـ بالفتح ـ: أي =

ما ابتلاه به من ذلك، في طاعة يمتثلها، أو معصية يجتنبها، ووعد بالثّواب لمن أطاع، وأوعد بالعقاب لمن عصى، وأن الله ـ سبحانه ـ خلق المشيئة للعبد، وأثبتها له لفظا[1]، ونفاها عنه خلقا، فالقول بالجبر تكذيب لله، والقول بخلق المرء لفعله تشريك مع الله ـ تعالى ـ، قال ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

والاعتقاد لما قال الله ـ سبحانه ـ، وأخبر به، ورتب عليه قوله وشريعته حتم من الله ـ تعالى ـ[2].

وهو ـ سبحانه ـ قد سلك بكل فريق على طريق، واختار للمؤمنين أهلِ توحيده جادّةَ التحقيق، والله هو الهادي للتوفيق.

(وشهادةِ ألا إلٰه) حق، أو: لنا (إلا الله)، التي هي العروة الوثقى.

لمّا ذكر ـ رحمه الله تعالى ـ الدعاء إلى شهادة ألا إلٰه إلا الله، ذكر تفسيرها؛ ليكون الداعي من دعوته إليها على جليّة، وجعل ما بعد هذه الترجمة من التراجم شرحًا لها؛ لتعلّقها كلِّها ـ بل الدينِ كلِّه ـ بذلك.

قال الجوهري: الشهادة خبر قاطع، والمشاهدة المعاينة[3].

فقول الموحّد: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله»، بمعنى: أخبر بأني قاطع

= شابًا صحيحًا».

(١) المشيئة ثابتة للعبد لفظًا وحقيقة، ونفي حقيقة ذلك مخالف للحس والنقل، وهو الجبر بعينه.

(٢) أي أن من حقيقة التوحيد: التصديق الجازم بكل ما جاء عن الله ـ تعالى ـ، في كتابه أو على لسان رسوله.

(٣) الصحاح: ٢/ ٤٩٤.

بالوحدانية، قالوا: فالقطع من فعل القلب، واللسان مخبر عن ذلك، والأركان مطلوب منها مضمون ما عقده الجنان، وتلفظ به اللسان.

و«الله» ـ جل اسمه ـ مرفوع على البدل، من موضع «لا إله»؛ لأن موضع «لا» مع اسمها رفع بالابتداء، ولا يجوز نصبه حملاً على إبداله من اسم «لا» المنصوب؛ لأنّ «لا» لا تعمل النصب إلا في نكرة منفيّة، و«الله» معرّف مُثبت[1].

وهذه الكلمة وإن كان ابتداؤها نفيا، فالمراد بها غاية الإثبات، ونهايةُ التحقيق؛ فإن قول القائل: «لا أخ لي سواك»، و«لا معين لي غيرُكَ»، آكد وأبلغ من قوله: «أنت أخي»، و«أنت معيني».

قالوا: ومن خواصّها أنّ حروفها كلّها مهملة، ليس فيها حرف معجم؛ تنبيهًا على التجرّد من كل معبود سوى الله ـ تعالى ـ.

وأن جميع حروفها جوفية، ليس فيها شيء من الشفويّة.

وخبرها محذوف تقديره: «حق»، أو: «لنا»، كما قدّره الحريري[2] وغيره.

وهي متضمّنة قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويدل لما قلنا من التقدير كلمة لبيد ـ رضي الله عنه ـ في جاهليته، التي قال فيها رسول الله ـ ﷺ ـ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله

(١) انظر «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري: ١/ ١٣٢.

(٢) انظر «شرح مُلحة الإعراب»: ص ٢٢١.

باطل»(١)؛ إذ ضد الباطل الحق، والحق يراد به ما ينفع ويبقى، والباطل يراد به ما لا يبقى ولا ينفع، قال ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠]، فسمى الآلهة التي تدعى من دونه باطلاً؛ وهي مخلوقة موجودة.

وفي الحديث: «كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته»(٢).

يعني أن اللهو لا ينفع إلا هذه الثلاث؛ فإنهنّ من الحق.

وقد يراد بالحقّ: الموجود، وبالباطل: المعدوم، فمن عرف أن الحق يقال على الموجود وعلى المقصود عرف ذلك.

وسيأتي لذلك مزيد. على حديث طارق ـ رضي الله عنه ـ(٣).

(وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾) [الإسراء: ٥٦، ٥٧].

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ١٣٩٥، كتاب المناقب، باب أيام الجاهلية، حديث (٣٦٢٨)، ومسلم: ٤/ ١٤١١، كتاب الشعر، حديث (٢٢٥٦)، وانظر ديوان لبيد: ص ١٣٢، دار صادر.

(٢) رواه أحمد: ٤/ ١٤٤، والترمذي: ٤/ ١٧٤، حديث (١٦٣٧)، وأبو داود: ٣/ ١٣، رقم (٢٥١٣)، والنسائي: ٦/ ٢٢٢، ترقيم أبي غدة، وابن ماجه: ٢/ ٩٤٠، رقم (٢٨١١)، والحاكم: ٢/ ١٠٤، برقم (٢٤٦٧)، وصحح إسناده. وضعف الحديث الألباني كما في تخريجه لفقه السيرة للغزالي: ص ٢١١، لكن صحح حديثًا بمعناه في السلسلة الصحيحة برقم (٣١٥).

(٣) انظر فيما يأتي: ص ٥٨٧.

[ر،٨٧/ب] أمر الله ـ سبحانه ـ نبيّه ورسوله محمدًا ـ ﷺ ـ في هذه الآية الكريمة الشريفة أن يقول للمشركين على سبيل التبكيت والتهَكّم، حيث عبدوا معه غيره: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، أي من الأنداد، فافزعوا إليهم؛ فإنّهم لا يملكون كشف الضرّ عنكم ولا تحويلاً، أي للضرّ إلى العافية، أو لا يستطيعون تحويل الضرّ إلى غيركم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية، قيل هم الملائكة، وعيسى، وعزير، روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ(١).

وكان كثير منهم يعبدونهم، ويقولون: بنات الله(٢). تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

وقيل إن قومًا من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجنّ كفارًا، وأسلمت الجنّ، وطلبت القربة إلى الله ـ سبحانه ـ، وبقي النفر على عبادتهم. قاله ابن مسعود، واختاره ابن جرير؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾، وهذا لا يعبّر به عن الماضي، فلا يدخل عيسى وعزير والملائكة(٣).

فقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾: يطلبون القربة إلى ربّهم.

قال الزجّاج: «أولئك» ابتداء، و«الذين» صفة، و«يدعون» صلة

---

(١) رواه ابن جرير: ١٥/ ١٠٥.

(٢) كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾ [الزخرف: ١٩، ٢٠].

(٣) انظر تفسير ابن جرير: ١٥/ ١٠٦.

«الـذيـن»، و«يبتغـون» خبـر «أولئـك»، و«أيّهـم أقـرب» بـدل مـن واو «يبتغون»، أي يبتغي أولئك أيهم أقرب الوسيلةَ إلى الله ـ سبحانه ـ[1].

وكل ما قرّب إلى شيء فهو وسيلة إليه، وقد وَسَل إليه، يسِل، إذا تقرّب بأمر يقرّبه، فهو واسل.

قال لبيد بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ:

أرى الناس لا يدرون ما قدرُ أمرِهم   بلى كلُّ ذي عقل إلى الله واسلُ[2]

والمعنى: هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي، يرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونهم من دوني، وهم مع ذلك لا يملكون كشف الضرّ عنكم ولا تحويلا، فكيف تعبدون من دوني من لا يضر ولا ينفع، ولا توحدون من بيده الضر والنفع، وله الخلق والأمر؟.

ولهذا قال ـ تعالى ـ لخاتم رسله: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فمن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعا يمتنع أن يملك ذلك لغيره.

فمن أجاز أنه يُطلب من المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الخالق

---

(١) بتصرف واختصار من «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج: ٣/ ٢٤٦، وقد ذكر الزجاج قولين في إعراب ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، أحدهما ما أورده المصنف، والثاني: أن ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبتدأ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره.

(٢) ديوانه: ص ٢٥٦.

ـ تبارك وتعالى ـ فقد أجاز الشرك [ك،٤٢/ب] الأكبر.

ومعلوم أنّ جملة المشركين الذين بُعث إليهم ـ ﷺ ـ من قريش وغيرهم من العرب لم يطلبوا ممن عبدوا إلا على أنّهم وسيلة، يقرّبونهم إلى الله زلفى، ولهذا قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ولم يعتقدوا أنّ ثَمّ خالقًا أو رازقًا(١) غيرَ الله؛ فإنّهم مقرّون بأنّ الله هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، كما أخبر الله عنهم في غير ما آية.

وهذه الآية الكريمة كقوله ـ تعالى ـ: [ر،٧٨/أ] ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢].

فبيّن ـ سبحانه ـ أنّ المدعوّ من دونه ليس له في السموات أو الأرض مثقالُ ذرة، ولا هو شريك في الملك، وأنّه ليس ظهيرًا لله؛ فإنه ـ سبحانه ـ ليس له ظهير، ولا يحتاج في شيء من ذلك إلى غيره، وما خلقه بأسباب فهو خالق الأسباب، والجميع فقراء إليه، وهو غني عن الجميع، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ [الزمر: ٣٦]، فهو ـ سبحانه ـ يكفي عبدَه، ولا يحتاج العبد في كفاية الله إلى غيره.

ثم قال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال في الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وأمثالِ ذلك ممّا يتبيّن به أن الشفاعة

(١) في الأصل: [خالق أو رازق]، والصواب ما أثبته.

لا بدّ فيها من إذنه للشافع.

فلم يُثبِت لما يُدعى من دونه من الوسائط والوسائل، لا الملائكةِ، ولا الأنبياءِ، ولا غيرهم أثرًا في شيء من الأشياء، إلا الشفاعة، وبيّن أنها لا تكون إلا من بعد إذنه.

ثم إذا جاز أن يقول ضالٌّ مُضِل: إنه يُطلب من مخلوق كلُّ ما يطلب من الخالق، من كشف الشدائد، فكذلك يطلب منه ما يطلب من الخالق من إعطاء الفوائد، فحينئذ يجوّز هذا القائل أن يُطلب من المخلوق كلُّ ما يطلبُ من الخالق مطلقًا[1]، فهذا كفر شرٌّ من كفر عُبّاد الأصنام وشركهم؛ فإن أولئك لم يكونوا يطلبون من الأوثان كلَّ ما يُطلب من الرحمن، بل لهم مطالب لا يطلبونها إلا من الله ـ سبحانه ـ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]، فبيّن أنّه إذا جاء عذاب الله أو أتت الساعة، لا يدعون إلا الله، فلا يطلبون كشف الشدائد وإنزال الفوائد إلا منه ـ سبحانه ـ، فمن جوّز طلب ذلك من مخلوق كان أضلّ من هؤلاء المشركين، ولو كان من أعبد الناس.

وقال ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، فيه دليل أنها لا تتم العبادة

---

(١) انظر مثلاً تجويز التقي السبكي الاستغاثة بالنبي ـ ﷺ ـ في كتابه: «شفاء السقام»: ١٥٣، ١٦٥.

للسالك إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكفّ عن المناهي، وبالرجاء يُكثر من الطاعات.

وهذه حال الأنبياء والأولياء؛ يسيرون بين الخوف والرجاء، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ النحل: ٥٠].

ومن قول أوليائه ما ذكر الله عنهم أنّهم قالوا[1]: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ [ر، ٨٨/ أ]﴾ آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ـ ٢٨]).

قد حضَّ الله ـ سبحانه ـ هذه الأمّة في هذه الآية أن يتأسوا بإبراهيم خليله، إمام الحنفاء، ووالدِ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في هذه البراءة، في كتابه العزيز، الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ﴾ [فصلت: ٤٢] فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) كتبت في الأصل: ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا. وهو خطأ.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ١ ـ ٤].

يعني: اقتدوا بإبراهيم ـ عليه السلام ـ في التبرؤ من المشركين ومعبوداتهم، وبغضهم وعداوتهم، ولا تقتدوا به في وعده لأبيه بالاستغفار؛ فإن هذا حرام عليكم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ولذلك ذكر براءته مما عبدوا من دونه في هذه الآية الكريمة التي في الزخرف، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الزخرف: ٢٦]. يعني بريئاً من معبودكم الذي تعبدونه من دون الله سبحانه.

قال الفرّاء في قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾: هذه مصدر صُرفت اسمًا، وكلّ مصدر صُرف إلى الاسم فالواحد والجماعة، والذكر والأنثى فيه سواء[1].

ثم ذكر ـ سبحانه ـ استثناء إبراهيم، حيث قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾: يعني إلا الذي خلقني، فإنّي لا أتبرأ منه؛ ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) بمعناه لا بلفظه، انظر «معاني القرآن»: ٣/ ٣٠.

ويقال: «إلا» بمعنى «لكن»[1].

﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ أي الذي خلقني، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾، يعني يثبّتني علي ديني.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾، [ر،٨٨/أ] أي جعل[2] تلك الكلمة ثابتة في نسل إبراهيم وذريته، وهي كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله».

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾: عن كفرهم إلى الإيمان.

قال قتادة: هو التوحيد والإخلاص، لا يزال في ذريّته ـ عليه الصلاة والسلام ـ من يوحّد الله ويعبده[3].

وقال مجاهد: هي كلمة «لا إله إلا الله»[4]، في عقبه وولده. وكذلك فعل ـ سبحانه ـ؛ بأن جعل هذه الموالاة والبراءة من كل معبود سواه باقيةً في عقب إبراهيم ـ عليه السلام ـ، يتوارثها الأنبياء من ذريّته، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فتوارثوها هم وأتباعهم، بعضهم عن بعض ـ التي هي كلمة «لا إله إلا الله» ـ ورثّها إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء ـ عليه السلام ـ لأتباعه إلى يوم القيامة، تترا[5] بها الأنبياء، والرسل من ذريّته، إلى الأمم، حتى ختمهم

---

(١) انظر التمهيد لابن عبدالبر: ٥/ ١٤٤.

(٢) الجاعل هنا هو إبراهيم ـ عليه السلام ـ، انظر تفسير ابن جرير الطبري: ٢٥/ ٦٣.

(٣) رواه ابن جرير: ٢٥/ ٦٣.

(٤) رواه ابن جرير: ٢٥/ ٦٣.

(٥) كذا في الأصل، فإن كانت: «تترى» فمعناها: يتبع بعضهم بعضًا، من المواترة، وهي اسم جمع، فلا تكون حالاً من المفرد. انظر تفسير ابن جرير: ١٨/ ٢٣. وعلى كل حال فاستعمال المؤلف لها هنا في غير محله كما يبدو من سياق الكلام.

الله بمحمد ـ ﷺ ـ، خلاصةِ ولده إسماعيل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، الذين هم خلاصة بني آدم.

فهي الكلمة التي قامت بها السموات والأرض، وفُطر عليها جميع المخلوقات.

وهي الكلمة التي عليها أسست الملّة، ونُصبت القبلة، وجُرّدت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على جميع العباد.

وهي الكلمة العاصمةُ لمن أقامها للدم والمال والذريّة في هذه الدار، والمنجيةُ من عذاب القبر والنار.

وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنّة إلا به، والحبل الذي لا يصل أحد إلى الله ـ سبحانه ـ إلا من تعلّق بسببه.

وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها ينقسم الخلق إلى شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميّزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان.

وهي العمود الحامل للفرض والسنّة، ومن كان آخر كلامه «لا إلٰه إلا الله» دخل الجنّة.

وروح هذه الكلمة ولبُّها وسرُّها: إفراد الربّ ـ جل ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جَدُّه، ولا إلٰه غيره ـ بالمحبّة والإجلال، والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك؛ من التوكّل، والإنابة، والرغبة، والرهبة، فلا يُحَب سواه، وكلّ ما يُحَب غيرَه فإنّما هو تبع لمحبّته، أو وسيلة إلى زيادتها، فلا يُخاف ولا يُرجى سواه، ولا

يُتوكل إلا عليه، ولا يُرغب إلا إليه، ولا يُرهب إلا منه، ولا يُحلف إلا باسمه، ولا يُنذر إلا له، ولا يُتاب إلا إليه، ولا يُطاع إلا أمرُه، ولا يُحتسب[1] إلا به، ولا يُستغاث في الشدائد إلا به، ولا يُلتجأ إلا إليه، ولا يُسجد إلا له، ولا يُذبح إلا له، وباسمه، ويَجتمع ذلك كلّه في حرف واحد، وهو ألا يُعبد إلا إياه أنواعَ العبادة، عن أمره[2].

فهذا هو تحقيق شهادة ألا إلٰه إلا الله وتفسيرها، ولهذا حُرّم على النّار من شهد ألا إلٰه إلا الله حقيقة.

ويقال في: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾: [ر،٨٩/ب] أي ذو براءة. كما يقال: رجل عدل، ورجال عدل، أي: ذو عدل.

[وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]].

الأحبار: العلماء، واحدهم: حِبْر، بكسر الحاء المهملة وفتحها.

والرهبان من النصارى: أصحاب الصوامع، وأهل الاجتهاد في دينهم، يقال: «راهب»، و«رهبان»، مثل «فارس» و«فرسان». كانوا يترهّبون بالتخلي من أشغال الدنيا وترْك ملاذّها، والزهد فيها، والعزْلة عن أهلها، وتعمّد مشاقها.

---

(١) يعني قول «حسبي الله»، لا يقال لغير الله.

(٢) أي ألا يصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، وألا يكون ذلك إلا بما شرع، وقد نقل المؤلف هذا الكلام عن «الجواب الكافي» لابن القيم ص ١٣٨، ١٣٩، بتصرف.

ويُجمع أيضًا على «رهابين»، و«رهابنة»، والرهبنة: فعله[1].

وقوله: ﴿أَرْبَابًا﴾، أي سادةً من دون الله، يطيعونهم في معاصي الله ـ سبحانه ـ.

قال أبو البختري: أما إنهم لم يصلّوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكنّهم أمروهم، فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله، فأطاعوهم[2].

وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية؟. قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ـ تعالى ـ ما أمروا به، وما نُهوا عنه، فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء، فما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا. ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم[3].

وقال أهل المعاني[4]: معناه: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كلّ شيء، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦]، أي كالنار.

قال عبدالله بن المبارك في بيته السائر:

---

(١) كذا بالأصل، ولعل صوابها: فَعْلَنَة.

(٢) رواه سعيد بن منصور عن أبي البختري الطائي عن حذيفة من قوله، انظر السنن: ٥/ ٢٤٦، برقم (١٠١٢)، ورواه كذلك ابن جرير في تفسيره: ١٠/ ١١٤، كما رواه أيضًا من قول أبي البختري.

(٣) رواه ابن جرير: ١٠/ ١١٥.

(٤) انظر تفسير القرطبي: ٨/ ١٢٠. والمعاني من علوم البلاغة: علم يعرف به مطابقة الكلام لمقتضى الحال. انظر «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زاده: ١/ ١٨٦.

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها[1]

فإذا كان هذا وهم لا يعبدوهم، فكيف لو عبدوهم.

فأثبت الله ـ سبحانه ـ أنّهم اتخذوهم أربابًا من دون الله بذلك.

وقد روى الإمام أحمد[2]، والترمذي[3]، وغيرهما من طرق، عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ أنّه لمّا بلغته دعوة [ك،٤٣/ب] رسول الله ـ ﷺ ـ فرّ إلى الشام، وكان قد تنصّر في الجاهلية، فأسرت أخته سفّانة، وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ـ ﷺ ـ على أخته، فأعطاها، فرجعت إلى أخيها، ورغّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ـ ﷺ ـ، فقدم عدي المدينة، وكان رئيسًا في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي، المشهور بالكرم، فتحدّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وحلّلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فتلك عبادتهم إياهم. وقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: يا عدي، ما يُفِرُّك؟ أيُفِرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟، ما يُفرُّك؟ أيُفرك أن يقال: لا إلٰه إلا الله. فهل تعلم من إلٰه إلا الله؟. ثم دعاه إلى الإسلام،

---

(١) ديوانه: ص ٦٧، دار الوفاء، ورواه البيهقي في الشعب: ٥/ ٤٦٤، (٧٣٠٠) وأبو نعيم في الحلية: ٨/ ٢٧٩.

(٢) المسند: ٤/ ٣٧٨، وليس في سياقه أنه قرأ عليه الآية أو راجعه فيها، والمؤلف هنا دمج بين الروايات.

(٣) السنن: ٥/ ٢٧٨، كتاب التفسير، برقم (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٥٦.

فأسلم، وشهد شهادة الحق. قال: فلقد رأيت وجهه - ﷺ - استبشر، ثم قال: إنّ اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون.

[ر،٨٩/أ] وقال السدّي: استنصحوا الرجال، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم[1].

ولهذا قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١]، أي الذي إذا حرم الشيءَ فهو الحرام، وما حلله حلّ، وما شرعه اتُّبع، وما حكم به نفذ.

﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾: قدس - تعالى - نفسه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأنداد والأولاد، لا إله إلا هو، فلا رب لنا سواه، ولا نعبد إلا إياه.

(وقوله - تعالى -: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]).

وفي هذا أوضح دليل، أن جملة مشركي العرب مقرون أنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، وأنّه وحده المنفرد بالخلق والربوبية، وذلك معلوم عند جملتهم، وقد تظاهرت به الأدلة من الكتاب عنهم، كما مرّ تقريره.

ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلوهية، وهو المحبة والتعظيم والخضوع، والتذلل بالتعبد تحت أمره ونهيه، بل كانوا يتألهون مع الله غيره، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله - سبحانه وتعالى -[2].

---

(١) ذكره عنه ابن كثير غير مسند: ٢/ ٣٥٠، ط الفكر ١٤٠١.

(٢) كذلك الشرك في الربوبية لا يغفره الله - تعالى -، فكان حق العبارة أن تكون: وهذا =

فقد أخبر ـ سبحانه ـ أن من أحب شيئًا من دون الله كما يحب اللهَ ـ تعالى ـ فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، وهذا ندٌّ في العبادة، لا في الخلق والربوبية.

ثم قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾، وفيه كما قالوا تقديران[1]:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حبًا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم، التي يحبونها ويعظمونها من دون الله ـ سبحانه ـ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أثبت وأدوم[2].

ولأن المؤمنين لا يعدلون عنه إلى غيره، بخلاف المشركين، فإنهم يعدلون عن[3] أندادهم إلى الله عند الشدائد، ويجعلونهم وسائط بينهم وبين الله، فيقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، ويعبدون الصنم، ثم يرفضونه إلى غيره، أو يأكلونه، كما سنذكر ذلك إن شاء الله في موضعه.

والثاني: والذين آمنوا أشد حبًا لله من محبة المشركين بالأنداد لله؛ فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد لله قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والخالصة أشد من المشتركة.

والقولان مرتبان على القولين في ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ﴾:

= من الشرك الذي لا يغفره الله.

(١) انظر مدارج السالكين: ٣/ ٢٠.

(٢) لم أعثر عليه، وهو لفظ البغوي في تفسيره: ١/ ١٣٦.

(٣) في الأصل: [من] ولا وجه لها.

أحدهما: يحبّونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبةٌ يشركون فيها مع الله ـ سبحانه ـ أندادهم.

والثاني: المعنى: يحبونهم كما يحب المؤمنون الله ـ سبحانه ـ، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد أندادهم.

ورجح بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ القول الأول[1]؛ لأنهم إنما ذُمّوا بأنّهم شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة، ولم يخلصوها لله ـ سبحانه ـ كمحبة المؤمنين، وهذه هي التسوية المذكورة في قوله ـ تعالى ـ عنهم في نار جهنم، في قولهم لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، ومعلوم أنهم لم يسوّوهم به في الخلق والرزق، وجميع [ر،٩٠/ب] مقام[2] الربوبية، وإنّما سوّوهم في الألوهية، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، أي يعدلون به غيره في العبادة، وهذا أصح القولين، وقيل الباء بمعنى (عن)[3]، والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربّهم يعدلون إلى عبادة غيره[4].

(و) لمسلم (في الصحيح)[5] له، من حديث أبي مالك، سعد بن طارق بن أشيم بن مسعود الأشجعي، الكوفي، الثقة، مات في حدود

---

(١) وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، كما في «مدارج السالكين»: ٣/ ٢١، والمؤلف ينقل منه.

(٢) كذا، ولعل الأصوب: جميع مقامات...

(٣) قاله النضر بن شميل، كما في «زاد المسير» لابن الجوزي: ٣/ ٢.

(٤) وضعف هذا القول ابن القيم كما في المدارج: ٣/ ٢١.

(٥) ١/ ٥٨، كتاب الإيمان، باب (٨)، وحديث (٢٣).

الأربعين بعد المائة، عن أبيه طارق، صحابي ـ رضي الله عنه ـ، قال مسلم: لم يروِ عنه غيرُ ابنه.

(عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال:) ولفظ مسلم: قال طارق ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول:

(مَنْ): هو اسم شرط جازم، يجزم فعلين، الأول فعل الشرط، والثاني جوابه وجزاؤه، والذي يظهر أن (مَنْ) في هذا من ألفاظ العموم، التي تقع في اللغة على الذكر والأنثى.

(قال): فعل الشرط.

(لا إلٰه إلا الله): جملة المقول.

(وكفر بما يُعبد من دون الله): أي من الأنداد والأصنام والأوثان.

وهذا عطف جملةٍ هي من معنى المعطوف عليه، فهو من باب عطف الخاص على العام، زيادةَ بيان للمعطوف، واهتمامًا بشأنه، وتعميمًا لنفي كل ما سوى الله ـ تعالى ـ، لا أنّه شرط زيد على الأول، إذ لفظ «لا إلٰه إلا الله» مستلزم للكفر بما يعبد من دون الله.

وقد فهم ذلك كفّار قريش بحضرة أبي طالب، حيث طلب رسول الله ـ ﷺ ـ منهم لما اجتمع ملأهم عنده، أن يقولوا «لا إلٰه إلا الله»، فصفّقوا بأيديهم، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝﴾[1] [ص: ٥].

---

(١) رواه أحمد: ١/ ٢٢٧، ٣٦٢، وابن حبان في صحيحه: ١٥/ ٨٠ الإحسان.

ويوضح ذلك قوله ـ ﷺ ـ فيما صح وثبت عنه أنه قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إلٰه إلا الله» الحديث[1]، وفي لفظ: «حتى يقولوا..»[2].

ومن قال غير ذلك لم يفهم ما فهمت قريش من لغتها[3]، والله الموفق.

ولهذا قال ابن القيم في طرقه[4]: لا يفتقر في صحة الإسلام أن يقول الداخل فيه: «أشهد..»، بل لو قال: «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله» كان مسلمًا بالاتفاق. يعني من العلماء ـ رحمهم الله ـ.

فاجتمع في هذا الحديث [ك،٤٣/أ] خطاب الوضع والتكليف[5]،

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ١٠٧٧، برقم (٢٧٨٦)، ومسلم: ١/ ٥٨، رقم (٢٠).

(٢) كلاهما في الصحيحين.

(٣) المؤلف هنا يتعقب صاحب المتن في قوله آخر هذا الباب عن حديث «من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله»: وهذا من أعظم ما يبين معنى «لا إله إلا الله»؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها، مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفرَ بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها. ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع. ا.هـ.
وقد صرّح بهذا التعقب في كتابه «كشف الغمة»، وقد ردّ عليه الشيخ عبداللطيف في «مصباح الظلام» ص ١٦٢ وما بعدها.

(٤) «الطرق الحكمية»: ص ٢١٣.

(٥) الخطاب الشرعي على نوعين: خطاب تكليف، وهو الأمر والنهي، وخطاب وضع =

فالإيمان واجب، وهو سبب لعصمة الدم والمال، والكفر محرّم، وهو سبب لاستباحتهما.

أو تكون الواو في هذا الموضع واو الحال[1].

وقد قال عون الدين ابن هبيرة ـ رحمه الله تعالى ـ: هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، فأما معنى «لا إلٰه إلا الله»، فإنه كلام هو دليل نفسه، ودليل غيره، وقول «لا إلٰه إلا الله» يقتضي الإقرار بها، وأن تعلم أن كل ما فيه أمارة الحدث فإنّه لا يكون إلٰها، فإذا قلت: لا إلٰه إلا الله، فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإلٰه، فيلزمك إفراده ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك وحده، والسموات والأرض وما فيهما وما بينهما مخلوق له؛ لأن بعضها أمثال بعض وأشباه، إذ لا يمكن أن يكون له مثل، ولا يكون هو مثلا لغيره؛ لأن المثلية تطرّقٌ إلى الاشتباه، وليس يمكن أن يعرف الشيء من بين الأشياء إلا بأن لا يشبهها ولا تشبهه[2]، [ر،٩/أ] فينفرد الله ـ عز وجل ـ بأنّه لا شبيه له، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

= وإخبار، كالخطاب بالصحة والفساد، ووقوع الطلاق ولزوم الكفارة، فالأول لا يثبت إلا في حق المكلّف، والثاني ثابت في حق المكلف وغيره. انظر فتاوى ابن الصلاح: ٢/ ٤٧٩.

(١) يعني في قوله: «وكفر بما يُعبد..».

(٢) ما كان أغنى المؤلف عن هذا الكلام؛ فمؤدّاه ألا نعرف شيئًا أبدًا، وقد جعل علّة حدوث السموات والأرض وما فيهما وما بينهما هي تماثلها وتشابهها، فلزمه أن تكون النار مثل الماء، والأرض مثل السماء، وهذا إنما يجري على أصول المتكلمين القائلين بتماثل الأجسام، وهو ما ينكره أكثر العقلاء، انظر «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية: ٤/ ١٧٦ وما بعدها، و«منهاج السنة»: ٢/ ٥٩٩.

وكان اسم «الله» ـ تعالى ـ مرتفعًا بعد «إلا» من حيث إنّه الواجب له الإلهية، ولا يستحقها فيما لم يزل غيرُه.

ويقتضي أيضًا من هذا القائل أن يكون عالما أن لا إله إلا الله، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، والعلم يقتضي العمل؛ لأنه مطلوب من مضمونها؛ إذ هو المألوه، المطاع أمره، المجتنب نهيه، محبة وإجلالاً وتعظيما ورغبة ورهبة.

(حرم ماله ودمه)، الجملة من ذلك جواب فعل الشرط وجزاؤه.

(وحسابه على الله ـ عز وجل ـ).

وهو في المسند عن الإمام أحمد، من طريق يزيد بن هارون، قال: أنبأنا أبو مالك الأشجعي عن أبيه، أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ وهو يقول لِقوم: «من وحد الله، وكفر بما يُعبد من دونه، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله ـ عز وجل ـ».

قال الإمام أحمد: حدثنا به يزيد بواسط وبغداد، قال: سمع النبي ـ ﷺ ـ. فهو بهذا السند ثلاثي.

وهو عنده أيضًا بطريق آخر بهذا اللفظ بسند صحيح[1].

وهذا إشارة إلى أن ما تكنّه القلوب وتنطوي عليه الضمائر إلى الله ـ عز وجل ـ، وأن الشريعة مركبة على ما ظهر من العباد، إذا قالوا: «لا إله إلا الله»، ثم عملوا بمقتضاها.

---

(١) المسند: ٣/ ٤٧٢. وهذا اللفظ عند مسلم أيضًا برقم (٢٣).

وفي الحديث: «إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم». رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ[1].

وعند ابن أبي الدنيا من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لا تزال «لا إله إلا الله» تمنع العباد من سخط الله، ما لم يؤثروا دنياهم على صفقة دينهم، فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا: لا إله إلا الله. رُدّت عليهم، وقال الله: كذبتم»[2].

وعند الترمذي ـ وقال: حسن غريب ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما قال عبد: «لا إله إلا الله» قط مخلصًا، إلا فُتحت له أبواب السماء، حتى يفضي إلى العرش، ما اجتنب الكبائر»[3].

فدل بهذا أن المراد العملُ بمقتضاها، لا مجرّد لفظها.

واقتصر النبي ـ ﷺ ـ هنا على كلمة الإخلاص؛ لتضمنها شهادة أن محمدًا رسول الله؛ لأنه لا يُعلم ما استلزمته إلا من جهته ـ ﷺ ـ، فهي

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٥٨١، كتاب المغازي، باب (٥٨)، حديث (٤٠٩٤)، وصحيح مسلم: ٢/ ٦١٠، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج. . ، حديث (١٠٦٤).

(٢) لم أهتد إلى موضعه عن ابن أبي الدنيا،
ورواه البيهقي في الشعب: ٧/ ٣٣٧، رقم (١٠٤٩٧) وابن عدي في الكامل: ٥/ ١٩، وخطّأ أبو حاتم الرازي روايته عن أنس، وقال: إنما هو عن مالك بن أنس عن النبي ـ ﷺ ـ، مرسل. انظر «علل الحديث» لابن أبي حاتم: ٢/ ١٢١. ورواه أبو يعلى في مسنده: ٧/ ٩٥ رقم (٤٠٣٤) بلفظ: «سفقة» بالسين، وإسناده ضعيف جدًا كما قال محققه. و«السفقة» و«الصفقة» لغتان.

(٣) السنن: ٥/ ٥٧٥، كتاب الدعوات، باب (١٢٧)، وحديث (٣٥٩٠). وحسنه الألباني كما في صحيح الجامع: ٢/ ٩٨٧، رقم (٥٦٤٨).

متضمنة أيضًا للرسالة.

ويُعلم ذلك من قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾، وهذا الهدى هو ما تضمّنته «لا إله إلا الله».

فروى الإمام أحمد في مسنده عن ابن المنتفق ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبي ـ ﷺ ـ وهو بعرفات، فقلت اثنتان أسألك عنهما: ما ينجيني من النار، ويدخلني الجنّة؟. فقال: «إن كنت أوجزت في المسألة، لقد أعظمت وأطولت، فاعقِل عني إذًا: اعبد الله، ولا تشرك به شيئا، وأقم الصلاة المكتوبة، وأدّ الزكاة [ر،٩١/أ] المفروضة، وصُمْ رمضان»[١]. ولم يزد على ذلك.

ورواه ابن منده[٢] وأبو نعيم[٣] بنحو هذا اللفظ.

وفي لفظ الإمام أحمد أيضًا عنه قال: «اتق الله، ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان»[٤]. ولم يزد على ذلك.

وفي لفظ: «وما تحب أن يفعله الناس بك فافعله لهم، وما تكره أن يأتي الناس إليك فذر الناس منه»[٥].

وقد قيل: إن هذا الصحابي هو وافد بني المنتفق، واسمه لقيط،

---

(١) المسند: ٦/ ٣٨٣، وأشار في المجمع (١/ ٤٣) إلى ضعف في سنده.

(٢) لم أهتد إليه.

(٣) لم أعثر عليه.

(٤) المسند: ٦/ ٣٨٣.

(٥) المسند: ٦/ ٣٨٣. ورواه الطبراني في الكبير: ٨/ ٢٧ و١٩/ ٢٠٩، والبيهقي في الشعب: ٧/ ٥٠٢، رقم (١١١٣٢)، وابن قانع في معجم الصحابة: ٢/ ٦٨.

صاحب الحديث الطويل المشهور.

وفي الترمذي من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب في حجة الوداع، يقول: «يا أيها الناس اتقوا الله، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وحجّوا بيت ربكم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم». وقال حديث حسن صحيح[1].

ورواه الإمام أحمد، ولفظه: «اعبدوا ربكم»، بدل قوله: «اتقوا الله»[2].

وعند ابن ماجه عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله، وعبادتِه وحده لا شريك له، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، مات واللهُ راضٍ عنه».

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: وهو دين الله الذي جاءت به الرسل، وبلّغوه عن ربّهم، قبل هرْج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديقُ ذلك في كتاب الله ـ تعالى ـ في آخر ما أنزل الله: ﴿فَإِن تَابُوا﴾، قال: خلعوا الأوثان وعبادتَها، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾. وقال في آية أخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]. انتهى ما ذكره ابن ماجه عن أنس ـ رضي الله عنه ـ[3].

---

(١) السنن: ٢/ ٥١٦، آخر كتاب الصلاة، رقم (٦١٦). وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٨٦٥).

(٢) المسند: ٥/ ٢٥١، ٢٦٢.

(٣) السنن: ١/ ٢٧، باب في الإيمان، رقم (٧٠)، ورواه الضياء في المختارة: ٦/ ١٢٦، رقم (٢١٢٢)، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٣٦٢، رقم (٣٢٧٧) وصحح إسناده، والبيهقي في الشعب: ٥/ ٣٤١، رقم (٦٨٥٦). وقد ضعفه الألباني كما =

[ك،٤٤/ب]وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

وفي مسند الإمام أحمد أيضًا، عن بشير بن الخصاصية ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ لأبايعه، فاشترط علي شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أوتي الزكاة، وأن أحج حجّة الإسلام، وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد والصدقة. فقبض رسول الله ـ ﷺ ـ يده، ثم حرّكها، وقال: فلا جهاد ولا صدقة؟ فبم تدخل الجنّة إذًا؟. قلت: يا رسول الله، أنا أبايعك. فبايعته عليهن كلّهنّ(١).

فقوله ـ ﷺ ـ: «حرم ماله ودمه» يدل على أنّه مأمور بقتال من عبد مع الله غيره، وهو واضح، فلا وجه لمن قال: إنه ـ ﷺ ـ قال [ر،٩١/أ] هذا أول الإسلام، قبل فرض الفرائض والهجرة، ولكن وجهه ـ كما قال جمهور العلماء رحمهم الله تعالى ـ أنه من المعلوم بالضرورة أنّ النبي ـ ﷺ ـ كان يقبل من كل من جاء يريد الدخول في الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه وماله بذلك؛ إذ شهادة أن لا إله إلا الله متضمّنة للكفر بما يُعبد من دون الله وعابديها، بل ومتضمنة لشهادة أنّ محمدًا رسول الله، بل ولجميع ما أمر الله به، أو نهى عنه، فيجعله إذا قالها

= في ضعيف الجامع: ٨٢٤، رقم (٥٧١٩).

(١) المسند: ٥/ ٢٢٤، ورواه البيهقي في الكبرى: ٩/ ٢٠، رقم (١٧٥٧٤)، والحاكم: ٢/ ٨٩ رقم (٢٤٢١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد: ١/ ١٩٥. وقال في الجمع (١/ ٤٢):رجال أحمد موثقون.أ.هـ.

مسلمًا بذلك، حرامَ الدم والمال؛ لتضمنها لجميع ذلك[١][٢].

وقد أنكر ـ ﷺ ـ على أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قتله من قال: «لا إلٰه إلا الله»، لما رفع عليه السيف، ولم يقبل منه ـ ﷺ ـ قوله: إنما قالها تعوّذًا عن القتل[٣]. ولهذا قال في الحديث: «وحسابه على الله ـ عز وجل ـ».

ولم يكنِ ـ ﷺ ـ يشترط على من جاء يريد الدخول في الإسلام أن يلتزم الصلاة والزكاة[٤]، بخلاف من جاء ليبايعه عليه، أو يسأله عنه.

بل قد رُوي عنه أنّه قبل من قوم الإسلام، واشترطوا ألا يزكوا[٥].

---

(١) في الطرة عند هذا الموضع كتب: [بلغ مقابلة على أصله فصح على يد مصنفه عفا الله عنه].

(٢) لكن إذا جاء بعد ذلك بما ينقضها صار مرتدًّا، حلال الدم والمال، إذا إقيمت عليه الحجة فلم يرتدع، ولو لم ينكر الرسالة، ونواقض الإسلام وقواطعه معلومة، قد صنّفت فيها المصنفات، منها «الإعلام بقواطع الإسلام» للهيتمي، و«نواقض الإيمان القولية والعملية» لعبدالعزيز العبداللطيف، وأبواب الردة من كتب الفقه.

(٣) إنما أنكر النبي ـ ﷺ ـ على أسامة لأن الرجل صار معصوم الدم بقول «لا إلٰه إلا الله»، ولم يقع منه ما ينقضها، فلو أنه لم يقتله، ثم أظهر ناقضًا وهو يعلم، لقُتل ردّة وأُخذ ماله، كالذي تزوج امرأة أبيه، انظر سنن الترمذي: ٣/ ٦٤٣، رقم (١٣٦٢)، والنسائي: ٦/ ١٠٩، رقم (٣٣٣١) وصحيح ابن حبان: ٩/ ٤٢٣، رقم (٤١١٢)، وانظر عنه «نيل الأوطار» للشوكاني: ٧/ ٢٨٦.

(٤) كما لم يشترط عليه مفصّلاً ألا يعبد غير الله، وألا يستهزيء بالله وآياته ورسوله، وألا يرتد عن الإسلام بناقض من النواقض؛ فإن هذه كلها من مقتضيات عقد الإسلام، والشروط التي هي من مقتضى العقد لا تذكر كما هو معلوم.

(٥) لكن لم يقبل الشرط، كما سيأتي.

ففي مسند الإمام أحمد، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: اشترطت ثقيف على رسول الله ـ ﷺ ـ ألا صدقة عليها ولا جهاد، وأنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «سيصَّدَّقون ويجاهدون»(١).

وفيه أيضًا عن نصر بن عاصم الليثي، عن رجل منهم أنّه أتى النبي ـ ﷺ ـ فأسلم، على ألا يصلي إلا صلاتين، فقبل منه(٢).

وأخذ أحمد بهذه الأحاديث، وقال: يصحّ الإسلام على الشرط الفاسد، ثمّ يلزم بشرائع الإسلام كلّها.

واستدل أيضًا بأن حكيم بن حزام الأسدي، ابن أخي خديجة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ قال: بايعت رسول الله ـ ﷺ ـ على ألا أخِرّ إلا قائما(٣). وكان بعد ذلك من خيار أصحابه وأورعهم، وهو الذي ولد في جوف الكعبة(٤)، وليست هذه الخصّيصة لأحد غيره.

قال الإمام أحمد: معناه أن يسجد من غير ركوع(٥).

---

(١) المسند: ٣/ ٣٤١ بزيادة: «إذا أسلموا»، بسند فيه ابن لهيعة، وصححه محققوه: ٢٣/ ٣٤، ورواه أبو داود: ٣/ ١٦٣، كتاب الخراج. . ، باب ما جاء في خبر الطائف، برقم (٣٠٢٥)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (١٨٨٩).

(٢) المسند: ٥/ ٢٥، وقال محققوه: رجاله ثقات، رجال الصحيح، (٣٣/ ٤٠٧).

(٣) المسند: ٣/ ٤٠٢ وضعف محققوه إسناده: ٢٤/ ٢٨، ط التركي، ورواه النسائي: ٢/ ٢٠٥، رقم (١٠٨٤)، والطبراني في الكبير: ٣/ ١٩٥.

(٤) قاله مسلم في صحيحه: ٣/ ٩٤٢، ورواه الحاكم: ٣/ ٥٤٩، برقم (٦٠٤١).

(٥) انظر المغني لابن قدامة: ٩/ ٢٠١، ط الفكر، ومعلوم أن السجود أبلغ من الركوع، فالظاهر أنه اشترط ترك الركوع لعلة كانت به، تمنعه الركوع دون السجود. وقد قيل إن معناه: ألا أموت إلا مسلمًا، وقيل معناه: ألا أقتل إلا مقبلاً غير مدبر، انظر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٨٩، ط الفكر، عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝﴾.

ومع هذا لم يكن يقرُّ أحدًا دخل في الإسلام على ترك الصلاة والزكاة.

ولهذا قال الإمام أحمد فيمن قال لكافر: أسلمْ وخذ ألفًا. وأسلمَ ولم يعطه شيئًا، فأبى الإسلامَ: يقتل، وينبغي أن يفي[(١)].

قال: وإن أسلم على صلاتين قُبل منه، وأمر بالخمس.

فعن غالب بن القطان، عن رجل، عن أبيه، عن جدّه، أنه أرسل ابنه إلى النبي - ﷺ - فقال: إن أبي جعل لقومه مائة من الإبل على أن يسلموا، وحسن إسلامهم، ثم بدا له أن يرتجعها منهم، أفهو أحق بها أم هم؟. قال: «إن بدا له أن يسلّمها إليهم فليسلّمها، وإن بدا له أن يرتجعها فهو أحق بها منهم، فإن أسلموا فلهم إسلامهم، وإن لم يسلموا قوتلوا على الإسلام».

وقال: إن أبي شيخ كبير، وهو عريف على الماء، وإنّه يسألك أن تجعل إليّ العرافة بعده. فقال: «إن العرافة [ر،٩٢/ب] حق، ولا بد للنّاس من عرفاء، ولكن العرفاء في النار». رواه أبو داود بإسناد لا يُحتج به[(٢)].

قال الخطّابي: فيه أنّ من أعطى رجلاً على أن يفعل أمرًا مفروضًا عليه، فإنّ للمعطي ارتجاعه منه، ولم يشارط النبي - ﷺ - المؤلّفة على أن يسلموا، فيعطيَهم جُعلاً على الإسلام، وإنما أعطاهم عطايا باتّةً يتألّفهم بها.

---

(١) ذكره في «الانصاف»: ١٠/ ٣٣١، وانظر «كشاف القناع»: ٦/ ١٧٦.

(٢) السنن: ٣/ ١٣١، كتاب الخراج..، باب في الضرير يتولى، رقم (٢٩٣٤)، ورواه البيهقي في الكبرى: ٦/ ٣٦١ رقم (١٢٨٢٨). وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع: ٢١٧، رقم (١٥٠٧).

وأنّ في العرافة مصلحةً للناس.

وفيه التحذير من التعرض للرياسة والتأمّرِ على الناس؛ لما فيه من الفتنة.

وأنّه إذا لم يقم بحقّه، ولم يؤدّ الأمانة، فيه إثم عظيم[1].

فالحاصل أنه - ﷺ - أمرَ معاذًا - كما تقدم - لمّا بعثه إلى اليمن أن يدعوَهم إلى شهادة ألا إلٰه إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، وقال: «فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم - وفي لفظ فأخبرهم -»، فذكر فيه الصلاة والزكاة.

والمراد أنّ من كان مسلمًا بدخوله في الإسلام بشهادة الحق، بحيث يحرم بذلك دمه وماله، يؤمر بعد ذلك بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ويُلزم بشرائع الإسلام، ويحجز عن المحارم، مما نهى الله عنه ورسوله - ﷺ -.

ولهذا، من سأله - ﷺ - عن الإسلام، يَذكر له مع الشهادتين بقيّة أركان الإسلام، كما في حديث عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه -، الذي في الصحيح، المعروف بحديث جبريل - عليه السلام -[2]، وحديث وفد عبدالقيس[3]، وحديث ضمام بن ثعلبة[4]، من بني سعد بن بكر، الذي قال فيه ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة[5]، وغير ذلك مما هو مشهور، وفي

---

(١) بتصرف، من «معالم السنن»: ٤/ ١٩٥.
(٢) صحيح البخاري: ١/ ٢٧، رقم (٥٠)، وصحيح مسلم: أول حديث فيه.
(٣) صحيح البخاري: ١/ ٤٥، رقم (٨٧)، وصحيح مسلم: ١/ ٥٣، حديث (١٧).
(٤) صحيح البخاري: ١/ ٥٣، رقم (٦٣)، وصحيح مسلم: ١/ ٥٠، رقم (١٢).
(٥) المسند: ١/ ٢٦٤.

كتب أهل الحديث مثبت مسطور.

وكما في حديث لقيط ـ رضي الله عنه ـ وافد بني المنتفق المشهور، وقد مرّ طريق منه(١).

وبهذا يزول الإشكال في جنس هذا [ك،٤٤/أ] الحديث(٢)؛ فإن كلمة الشهادتين بمجردهما يعصمان لمن أتى بهما(٣) دمه وماله، ويصير بذلك مسلمًا، وقد تقدّم حكاية ابن القيم اتفاق العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ على ذلك(٤). فإذا دخل بذلك في الإسلام، فإن أقام صاحبها الصلاة، وآتى الزكاة وشرائع الإسلام، فله ما للمسلين، وعليه ما عليهم، وإن أخل بشيء من هذه الأركان: فإن كانوا طائفة لهم منعة فامتنعوا عن ذلك قوتلوا(٥).

وقد قال بعضهم: إن معنى هذا الحديث: أن الكافر يقاتَل حتى

---

(١) ص ٤٥٤.

(٢) يريد حديث المتن: «من قال «لا إله إلا الله»، وكفر بما يعبد من دون الله ـ عز وجل ـ»، ويقصد بالإشكال أنه قد يُتوهم منه عصمة دم من قال ذلك، ولو أتى بناقض من نواقضه.

(٣) كذا في الأصل، والسياق يقتضي أن يقول: «..بمجردها تعصم لمن أتى بها»، أو يحذف لفظه «كلمة» من صدر الجملة.

(٤) راجع ص٤٥٠.

(٥) باعتبارهم مرتدّين، ناقضين للشهادة التي دخلوا بها في الإسلام، كحال مانعي الزكاة، وهو قول المحققين من العلماء كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، أما قتال الطائفة الممتنعة من الشرائع أو بعضها فذكر أنه محل إجماع. انظر مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٠٢، ٥٠٣. وإن كان فردًا واحدًا حُمل على شرائع الإسلام، فإن أنكرها صار مرتدًا حلال الدم والمال، وإن امتنع منها دون إنكار صار مرتدًا بترك الصلاة خاصة دون غيرها، على الصحيح، لقول عبدالله بن شقيق: «كان أصحاب محمد ـ ﷺ ـ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة». رواه الترمذي: ٥/ ١٤، برقم (٢٦٢٢)، وغير الصلاة من الفرائض والواجبات يكون فاسقًا بتركه، ويعزر على ذلك.

يأتيَ بالشهادتين، ويقيمَ الصلاة، ويؤتيَ الزكاة[1]، وجعلوا ذلك حجة على خطاب الكفار بالفروع.

وسيرة النبي - ﷺ - في قتال الكفّار تدل على خلاف هذا[2]، وإن كان الكفّار عندنا مخاطبين بالفروع، ويعاقبون عليها، فإنّها لا تصح منهم إلا بتقدم الشهادتين؛ لأنّها شرط لصحّة الأعمال، ولهذا لما طلب أهل الطائف المهلة في هدم طاغيتهم، [ر،٩٢/أ] لم يمهلهم النبي - ﷺ - في ذلك، وطلبوا منه ألا يهدموها بأيديهم، فأعفاهم.

وروى ابن إسحاق أنّهم طلبوا منه أيضًا أن يعفيهم من الصلاة، فقال: أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه. فقالوا: يا محمد، فسنؤتيكها وإن كانت دنأة. فبعث لهدم طاغيتهم - وهي اللات - المغيرةَ بن شعبة، وأبا سفيان ابن حرب[3].

وقد ذكر السهيلي عن بعض من ألّف في السيَرِ أن المغيرة قال لأبي سفيان حين هدْمها: ألا أُضْحِكُك من ثقيف؟. قال: بلى. فأخذ المغيرة المعول فضرب به ضربة وخرّ لوجهه، فارتجّت الطائف بالصياح

---

(١) وهذا هو الحق؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وغيرها من الآيات، انظر «تيسير العزيز الحميد»: ١٤٧.

(٢) لم يأت المؤلف بأدلة على زعمه هذا، بل الأدلّة على ضدّه، كقوله - ﷺ -: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر». رواه أحمد: ٥/ ٣٤٦، والترمذي: ٥/ ١٣، برقم (٢٦٢١)، وصححه ابن حبان (١٤٥٤) والحاكم (١١).

(٣) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام: ٢/ ٥٤٠.

سرورًا، بأن اللات قد صرعت المغيرة، وأقبلوا يقولون كيف رأيت يا مغيرة؟ دونكها إن استطعت، ألم تعلم أنّها تُهلك من عاداها؟. ويقولون لمن حضر: ويحكم، ألا ترون ما صنع؟. فقام المغيرة يضحك منهم، ويقول لهم: يا خبثاء، ما قصدت إلا الهزء بكم. ثم أقبل على هدمها حتى استأصلها، وأقبلت عجائز ثقيف تبكي وتقول:

أسلمها الرضّاع إذ كرِهوا المصاع

أي: أسلمها اللئام، إذْ كرِهوا القتال[1].

ولهذا قال ضرار بن الخطاب في ذلك:

وأقبلت[2] ثقيف إلى لاتها بمنقلب الخائب الخاسر[3]

فلم يمهلهم النبي ـ ﷺ ـ في هدمها؛ لأن بهدمها وإزالتها يحصل الكفر منهم بما عُبد من دون الله، وهو أحد أركان شهادة ألا إلٰه إلا الله، إذ ليس قوله ـ ﷺ ـ في الحديث: «وكفر بما يعبد من دون الله»، بزيادة شرط عليها، كما توهمه المصنّف ـ رحمه الله ـ[4]، وقد بيّنا ذلك، وهو مما اعترض عليه به.

ولهذا، في صحيح مسلم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ـ ﷺ ـ دعا عليًا يوم خيبر، فأعطاه الراية، وقال: امش ولا تلتفت

(١) «الروض الأنف»: ٧/ ٣٧٢.
(٢) كذا في الأصل، وهو غير مستقيم، وفي السيرة: وفرّت ثقيفٌ...
(٣) «السيرة النبوية»: ١/ ٤٧، والبيت فيها.
(٤) وقد تقدمت عبارة المصنف في ص ٤٥٠.

حتى يفتح الله عليك. فسار علي شيئًا ثم وقف فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل النّاس؟. فقال: قاتلهم على أن يشهدوا ألا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ـ عز وجل ـ[1].

فجعل ـ ﷺ ـ مجرّدَ الإجابة إلى الشهادتين عاصمة للنفوس والأموال، إلا بحقها، ومن حقّها الامتناع[2] بعد ذلك من الصلاة والزكاة بعد الدخول في الإسلام والشهادتين، كما فهمه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ[3].

وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية الوالبي، [ر،٩٣/ب] في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]، قال: الرحمة[4]، إن الله بعث نبيّه ـ ﷺ ـ بشهادة ألا إله إلا الله، فلمّا صدّقوا بها زادهم الصلاة، فلمّا صدّقوا بها زادهم الصيام، فلمّا صدّقوا به زادهم الزكاة، فلمّا صدّقوا بها زادهم

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٤٩١، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي ـ رضي الله عنه ـ، رقم (٢٤٠٥).

(٢) الصواب أن يقال: ومن حقها المؤاخذة على الامتناع... والله أعلم.

(٣) وأولى من ذلك الامتناع من التوحيد، فإذا كان مجرد النطق بلا إله إلا الله لا يعصم دم ومال من ترك الالتزام ببعض الشرائع، فكيف بمن ترك أصل الشرائع، (ودان بالشرك، وفعله وأحبه ومدحه، وأثنى على أهله، ووالى عليه، وعادى عليه، وأبغض التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله، وتبرأ منه، وحارب أهله، وكفّرهم، وصد عن سبيل الله كما هو شأن عباد القبور)؟!. انظر «تيسير العزيز الحميد»: ١٤٩.

(٤) أي أنه فسر السكينة في الآية بالرحمة.

الحج، فلمّا صدّقوا به زادهم الجهاد، ثم أكمل لهم دينهم، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

قال ابن عباس: فأوثق إيمانِ أهل السموات والأرض وأصدقه وأكمله: شهادة ألا إلٰه إلا الله[1]. ذكره في الفروع[2].

ومما يدلّ على قتل الجماعة الممتنعة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، مع قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝﴾ [البينة: ٥].

ولمّا ظنّ الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنّ مجرّد الإتيان بالشهادتين بعد التمكّن من الإتيان بالفرائض يعصم الدم والمال، تمسكًا بعموم ألفاظ وردت[3]، كشفَ الصدّيق ـ ثاني الاثنين إذ هما في الغار ـ عنه ذلك، فرجع إلى الحق، وموافقةِ الصدّيق، وأطبق على ذلك الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، والقصة في ذلك مشهورة منشورة، وفي كتب أهل العلم مسطورة، وسنبين ذلك في الباب الثاني والعشرين، إن شاء الله

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: ٢٦/ ٧٢.

(٢) لابن مفلح: ٢/ ٣١٧.

(٣) وذلك في قوله لأبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ «أمرت أن أقاتل الناس..» الحديث في صحيح البخاري: ٢/ ٥٠٧، برقم (١٣٣٥)، ومسلم برقم (٢٠).

ـ تعالى ـ[1] عن إطالة الكلام هنا.

وليس كل من قوتل أو قتل بأمر الشارع ـ ﷺ ـ يكون كافرًا؛ فإن اختلاف الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يكن في كفر مانع الزكاة، وإنما هو في استباحة دمه بمنعه لها[2].

وأما قتل الواحد الممتنع عن الصلاة، فأكثر العلماء من السلف على أنه يقتل، وهو قول الأئمة الثلاثة، ونص عليه الإمام أحمد، فإن كان امتناعه جحودًا فلا خلاف في كفره، وحكمه حكم سائر المرتدين، إذا كان مثله لا يجهل ذلك.

قال ابن أبي عمر في شرحه: قال شيخنا ـ يعني عمّه موفقَ الدين ـ: ولا أعلم في هذا خلافًا[3].

وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾ [الروم: ٣١].

وإن كان امتناعه تهاونًا وكسلاً بعد أن يُدعى إليها مع اعتقاد وجوبها، والتهديد بالقتل، والداعي له الإمام أو نائبة، فيأبى فعلها حتى تضايق وقت التي بعدها، أو الأولى، أو وقت الرابعة على القول الثالث، فاختلفوا في كفره، مع اتفاقهم على قتله، خلافًا لأبي حنيفة ـ رحمه الله ـ، فإنه قال: لا يقتل. وهو محجوج بما تقدّم.

---

(١) كذا في الأصل، وأظن هنا كلمة ناقصة: [بما يغني].

(٢) في هذا نظر، وسيأتي تعقبه بعد قليل.

(٣) الشرح الكبير على المقنع لشمس الدين ابن قدامة: ٣/ ٢٧، ط التركي. وانظر المغني: ٣/ ٣٥١.

فقيل: يقتل حدًّا، ويقبر في مقابر المسلمين، ويرثه أقاربه المسلمون، كالزاني المحصن.

وذكر ابن أبي عمر أن هذا اختيار أبي عبدالله بن بطة، وأنّه أنكر قول من قال: إنه يكفر، وأن المذهب على هذا، [ر،٩٣/أ] لم يجد خلافًا فيه(١).

قال: وهو قول أكثر الفقهاء، منهم أبو حنيفة، ومالك، والشافعي(٢).

[ك،٤٥/ب] قال الموفّق: وهو أصوب القولين(٣).

ومال إليه ابن أخيه صاحب الشرح(٤). وصحّحه المجد(٥)، وجزم به في الوجيز(٦) وغيره.

وقيل: يقتل كفرًا. قال في الفروع: اختاره الأكثر، فحكمه كالكافر(٧).

وقاله الزركشي(٨)، وقال في الفائق(٩): نصره الأكثر.

---

(١) الشرح الكبير: ٣/ ٣٦.

(٢) الموضع السابق.

(٣) المغني: ٣/ ٣٥٩.

(٤) الشرح الكبير: ٣/ ٣٥ـ ٤٠.

(٥) كما ذكر صاحب الإنصاف: ٣/ ٣٨، مع الشرح الكبير والمقنع، ط التركي.

(٦) «الوجيز» متن في الراجح من مذهب أحمد، لسراج الدين الدجيلي (ت ٧٣٢هـ)، وهو مضمن في الإنصاف للمرداوي، قال صاحب المدخل المفصل (٢/ ٧٤٩): ولا أعلم في المذهب كتابًا بهذا الاسم «الوجيز» سواه. وانظر الإنصاف: ٣/ ٣٦، ط التركي.

(٧) «الفروع» لابن مفلح: ١/ ٢٩٤.

(٨) انظر «شرح مختصر الخرقي»: ٦/ ٢٤٩، و«الإنصاف»: ٣/ ٣٧.

(٩) «الفائق في المذهب» لابن قاضي الجبل (ت ٧٧١هـ). وهو من مصادر المرداوي =

وفي الإفصاح[1]: اختاره جمهور أصحاب الإمام أحمد.

وذكره القاضي[2] ظاهر المذهب.

وقال في الإنصاف: وهو المذهب، وعليه جمهور الأصحاب[3].

قال في الفروع عن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: ويمتنع أن يعتقد أن الله فرضها ولا يفعلها، ويصبر على القتل، هذا لا يفعله أحد قط[4]. يعني بعد الدعاء إليها بالاستتابة والتهديد بالقتل، وهو يعلم أنه إن لم يفعلها أنه يُقتل.

قال في الإنصاف: والعقل يشهد بما قال ويقطع به، وهو عين الصواب الذي لا شك فيه، وأنه لا يقتل إلا كافرًا[5].

والحاصل أن الاختلاف في ذلك لفظي كما ترى[6].

= في «الإنصاف»، انظر «المدخل المفصل» لبكر أبو زيد: ٢/ ٨٢٠. وانظر «الإنصاف»: ٣/ ٣٧.

(١) للوزير ابن هبيرة (ت ٥٦٠)، أصله شرح على الجمع بين الصحيحين للحميدي، أتى فيه على جميع أبواب الفقه عند شرح حديث «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين». انظر «المدخل المفصل»: ٢/ ٩٠٤. و«الإنصاف»: ٣/ ٣٧.

(٢) أبو يعلى (ت ٤٥٨هـ) في شرح الخرقي كما في الإنصاف: ٣/ ٣٧.

(٣) «الإنصاف»: ٣/ ٣٧.

(٤) «الفروع»: ١/ ٢٩٤ وذكره شيخ الإسلام في الايمان الأوسط انظر مجموع الفتاوى: (٧/ ٦١٥).

(٥) «الإنصاف»: ٣/ ٤٠.

(٦) لا أدري وجه اعتبار الشارح خلافاً كهذا لفظياً، مع أن الخلاف اللفظي هو الذي لا أثر له، وأنت ترى آثار الخلاف حول كفر تارك الصلاة، وقد ذكر الشارح طرفاً منها في الصفحة السابقة.

وقال شيخ الإسلام أيضًا: أجمعوا أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة متواترة من شرائع الإسلام يجب قتالها، حتى يكون الدين كله لله[1]. كالمحاربين وأولى. ـ يعني من غير تكفير لهم؛ إذ ليس كل من قوتل يكون كافرًا ـ[2].

قال: ولهذا اتفقوا أن البدع المغلّظة شر من الذنوب، وأمر ـ عليه السلام ـ بقتال الخوارج عن السنّة، وأمر بالصبر على جور الأئمة وظلمهم[3].

وأن الرافضة شر من الخوارج اتفاقًا[4].

قال: وفي قتل الواحد منهما ونحوهما وكفره روايتان، والصحيح جواز قتله، كالداعية ونحوه[5].

وأن ما قالوا مما يُعلم مخالفته للرسول ـ ﷺ ـ كفر، وكذا فعلٌ من جنس أفعال الكافر بالمسلمين كفرٌ، نص عليه الإمام أحمد[6].

يعني أنه وإن كان ذلك كفرًا، فهو لا يكفر به حتى يعلم أنه مضاد للشهادتين[7].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٤٦٨.

(٢) قوله: «كالمحاربين وأولى» هو معنى بقية كلام شيخ الإسلام، ونفي الشارح هنا أن يكون شيخ الإسلام يرى كفر مانعي الزكاة مخالف لما نقله عنه صاحب المتن كما في الدرر السنية: ٨/ ٣٥، ٣٦. وانظر ترجيح كفرهم في الإيمان لأبي عبيد: ص ١٢، وفتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم: ٦/ ٢٠٢.

(٣) بتصرف واختصار، انظر مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٤٧٠.

(٤) انظر مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٢٧.

(٥) السابق: ٢٨/ ٥٠٠ بمعناه لا بلفظه.

(٦) انظر مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٠٠، وليس في هذا الموضع أن أحمد نص عليه.

(٧) هذا الكلام غير مستقيم؛ فإن القول أو العمل أو الاعتقاد متى ما علم أنه كفر، عُلم =

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في موضع آخر، لما ذكر من كان يفعل أفعال المشركين: وهذا الشرك يطلق على الإنسان إذا قامت عليه الحجة فيه ولم ينته عنه، وأما إذا كان جاهلاً لم يبلغه العلم، أو لم يعرف حقيقة الشرك الذي قاتل عليه النبي ـ ﷺ ـ المشركين، معرفةً تزيل عنه اللبس، فإنه لا يحكم بكفره، لا سيما وقد كثر مثل هذا الشرك في كثير من المنتسبين إلى الإسلام. انتهى[(١)].

وأما ترك ما سوى الصلاة من العبادات، فقال أبو عبدالله، محمد بن عبدالله السامري[(٢)]، من أصحابنا الحنابلة، في مستوعِبه[(٣)]، بعد حكايته لكفر تارك الصلاة: وأما بقية العبادات، فأكثر أصحابنا حكوا أنه لا يكفّر بتركها، بخلاف الصلاة، وهل يقتل بتركها؟ على روايتين.

وقال أبوبكر[(٤)] في كتاب الخلاف: من ترك الصلاة والزكاة والصيام والحج مع القدرة، فعند الإمام أحمد أنه مرتد.

وكذا حكى أبو الخطاب[(٥)] في الهداية[(٦)].

= أنه مضاد للشهادتين، أما تكفير صاحبه فأمر آخر، يترتب على ثبوت شروط، وانتفاء موانع، كما ذكر شيخ الإسلام في هذا الموضع.

(١) لم أعثر عليه بعد طول بحث.

(٢) توفي سنة ٦١٦هـ.

(٣) انظر عنه «المدخل المفصل»: ٢/ ٧١٧.

(٤) هو عبدالعزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد، المعروف بـ«غلام الخلاّل»، توفي سنة ٣٦٣هـ. له «الخلاف مع الشافعي» وغيره. انظر «المقصد الأرشد»: ٢/ ١٢٦.

(٥) محفوظ بن أحمد البغدادي الكلوذاني، ت ٥١٠هـ. وكتابه «الهداية» مطبوع في مجلدين، انظر عنه «المدخل المفصل»: ٢/ ٧١٢.

(٦) المستوعب: ١/ ١٢٢، تحقيق د. عبد الملك بن دهيش، ط ١٤٢٠هـ، دار خضر، بيروت.

وأنكر ابن بطة كما تقدم عنه القولَ بتكفير تارك الصلاة، وقال: لا يختلف المذهب أنّه لا يكفر؛ لعموم الأحاديث[1].

وقد احتج الإمام أحمد [ر،٩٤/ب] في رواية المروذي على من قال: يقتل أو يكفر بتأخيرها عن وقتها بإخباره ـ ﷺ ـ بتأخير الأمراء لها عن وقتها[2].

وكذا نقل أبو طالب[3]. ونقل أيضًا: إذا تركها حتى يصلي صلاةً أخرى فقد تركها. قلت: فقد كفر؟. قال: لا، الكفر لا يوقف على حدّه، ولكن يستتاب[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: وأما الذين لم يكفروا بترك الصلاة ونحوها فليست لهم حجة إلا وهي متناولة للجاحد كتناولها للتارك، كاحتجاجهم بالعمومات التي تحتج بها المرجئة، كقوله ـ ﷺ ـ: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأنّ عيسى عبدالله ورسوله»[5] الحديث. قال: وأجود ما اعتمدوا عليه: «خمس صلوات كتبهن الله» إلى أن قال: «من حافظ عليهن كان له عند الله عهدًا أن يدخله الجنّة، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عند الله عهد، إن

---

(١) انظر الإنصاف مع الشرح الكبير: ٣/ ٣٦، ٣٨.

(٢) انظر «أحكام أهل الملل» للخلال: ٢١٣، أما خبر تأخير الأمراء الصلاة عن وقتها فرواه مسلم برقم (٥٣٤)، كتاب الصلاة، باب (٥).

(٣) هو عصمة بن أبي عصمة العكبري، ت ٢٤٤هـ. انظر «المقصد الأرشد»: ٢/ ٢٨٢. أو هو أحمد بن حميد المُشكاني، ت ٢٤٤هـ أيضًا، فكلاهما أبو طالب، وكلاهما صحب أحمد. انظر «المقصد الأرشد»: ٢/ ٩٥.

(٤) الفروع (١/ ٢٩٧).

(٥) أخرجه البخاري، برقم (٣٢٥٢)، ومسلم، برقم (٢٨).

شاء عذّبه، وإن شاء أدخله الجنّة»[1].

ثم ذكر كلامًا طويلاً قال فيه: فلم يدخل تحت المشيئة إلا من لم يحافظ، لا من ترك الصلاة رأسًا[2].

ثم قال: فإن كثيرًا من الناس، بل أكثرهم في كثير من الأمصار لا يكونون محافظين عليها، ولا تاركين لها، بل يصلّون أحيانًا، ويدعون أحيانا، فهؤلاء فيهم إيمان ونفاق، وتجرى عليهم أحكام الإسلام الظاهرة، من المواريث ونحوها[3].

وقد يفهم هذا من كلام الإمام أحمد الذي ذكرنا عنه هنا، والله الموفق.

فصل

واختلف في سبب كفر إبليس، فقال الشيخ برهان الدين[4]، ولد صاحب الفروع، في «الاستعاذة» له: قال جمهور العلماء: إنما كفر إبليس لأنّه أبى واستكبر، وعاند وطعن وأصر، واعتقد أنّه محق في تمرّده، واستدل بـ: «أنا خير منه»، فكان تركه للسجود تسفيهًا لأمر الله

---

(١) رواه أحمد: ٥/ ٣١٥، وأبو داود، برقم (١٤٢٠). وهو في صحيح الجامع: ١/ ٦١٦، برقم (٣٢٤٢).

(٢) مجموع الفتاوى: ٧/ ٦١٦.

(٣) السابق: ٧/ ٦١٧، باختصار وتصرف.

(٤) هو تقي الدين، وبرهان الدين، إبراهيم بن محمد بن مفلح الراميني، ثم الدمشقي. أبو إسحاق، (٧٥١ـ ٨٠٣هـ).

ـ تعالى ـ وحكمته[1].

وقال الإمام أحمد: إنما أمر بالسجود، فأبى واستكبر وكان من الكافرين، فالاستكبار عن أمر الله كفر[2].

وقالت الخوارج: بمعصية الله ـ تعالى ـ، وكل معصية كفر[3].

قال[4]: وهذا خلاف الإجماع.

قال تاج الدين عبدالرحمن بن إبراهيم الفزاري الشافعي، المعروف بابن الفركاح[5] ـ رحمه الله تعالى ـ: فذهب إبليس اللعين إلى أنّه إذا اعترف بأن الله ـ تعالى ـ إلٰه عالم قادر حكيم، كفاه ذلك، وظن أن طاعته مقصورة على الخضوع لذات الله ـ سبحانه ـ، دون امتثال أوامره العامة، فلما أمره الله بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ أنكر اشتمال الأمر على الخضوع لغيره، فعاف الإنكار، وحسن له إنكاره الميل مع الاستكبار، فأبى، فغشّى الكبر بصيرته، وأثار الهوى شبهة التعلق بالنظر إلى أصله الذي خُلق منه، وهو النّار، وأنّ آدم خُلق من التراب، والنار أعلى من التراب، وجهل أنّ عناية الخالق ـ سبحانه ـ ترفع بالمشيئة، فذهب يعتل بما يَرُدُّ به على الله ـ سبحانه ـ، ويزعم أنه أخطأ؛ فأمره

---

(١) لم أقف على كتاب الاستعاذة المذكور. والمؤلف ينقل عن الإنصاف للمرداوي: ١/ ٤٠٩.
(٢) الإنصاف: ١/ ٤٠٢.
(٣) إنما يقولون: كل كبيرة كفر. انظر «مقالات الإسلاميين»: ١/ ١٦٨.
(٤) الظاهر أنه يعني برهان الدين المتقدم ذكره.
(٥) سبقت ترجمته ص ٤١.

بخضوع الأعلى للأدنى، وأنّه على بصيرة أبى، وكان إقراره بأن الله ـ تعالى ـ إلٰه عالم قادر حكيم زعم مدعٍ، وقول مفترٍ؛ [ر،٩٤/أ] لأنه لو كان متيقنًا إلهيّته لسلّم لعموم أمره، ولو تحقق كمال علمه لما اعترض برأيه، وعارض بعلّة أصله، ولو آمن بقدرته لعلم أنّه فعال لا تقيّده العلل، ولو جزم بثبوت حكمته لما أنكر أمره بالسجود لغيره، ولو سلّم أنّه لا يُسأل عما يفعل لما اجترأ على إيراد الأسئلة على الملائكة[1].

ورُوي أن الله ـ تعالى ـ أوحى إلى الملائكة: «قولوا له: إنك في تسليمك أني إلـٰهك وإلـٰه الخلق غيرُ صادق ولا مخلص؛ إذ لو صدقت لما احتكمت علي بـ«لِمَ»، وأنا الله الذي لا إلٰه إلا أنا، لا أُسأل عما أفعل، والخلق مسؤلون»[2]. يعني أنّ الإيمان لا يكون إلا مع الانقياد من غير اعتراض.

ووجه ذلك أنّ الفاعل إنما يقال له: «لم فعلت» لأحد أمور ثلاثة:

---

(١) هذا كلام غير مسلم به؛ فالقرآن صريح في أن كفر إبليس إنما كان من جهة الإباء والاستكبار، لا من جهة إنكار الربوبية، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾، فهو مقر لله بالربوبية، وأنه هو الذي أغواه، وأنه لا سلطان له على عباده المخلصين، ولذا سأله الإنظار إلى يوم القيامة، فمن هذا حاله لا يصح أن يقال إنه غير مستيقن بالربوبية، بل إن فرعون الذي أنكر الربوبية لا يقال عنه ذلك؛ فقد قال الله ـ تعالى ـ عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

(٢) ذكر هذه الأسئلة الشهرستاني في أول «الملل والنحل»: ١/ ١٦ـ ١٨، وذكر أنها مذكورة في التوراة والإنجيل، وقد أطال ابن القيم الجواب عنها في الصواعق المرسلة: ١٥٣٨ وما بعدها. والظاهر أنها من وضع بعض منكري القدر، كما يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد نبّه إلى أنه ليس لها إسناد يعتمد عليه. انظر مجموع الفتاوى: ٨/ ١١٥.

الأول ـ أن يكون غير مستبد بفعله؛ لوجود منازع مماثل أو أعلى، فيقال: [لمَ][1] فعلت ما لا تستبد به؟.

الثاني ـ أن يكون ممن يتطرق إلى فعله الخطأ، فيُسأل ليُنظر: أخْطأ أم أصاب.

الثالث ـ أن يكون علمه وحكمته متناهيين، يمكن استيعابهما بالبحث عنهما، فيُسأل ليحصل الغرض.

وكلّ ذلك ممتنع في حق الله ـ سبحانه ـ، فيمتنع جواب السؤال له.

ولما كانت قصة إبليس اللعينِ أصلاً لوقوع الشبهات، [ك،٤٥/أ] وتسلّطه بالإغواء، وأنّ ذلك لا ينقطع ما دام الإنسان في الحياة، نطقت بها كتب الله ـ سبحانه ـ، تحذيرًا من ارتكاب شبهاته، ومتابعة خطواته، والاغترار بآفاته، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]، يعني: من تبعه صار مثله، آمرًا بمثل ما يأمر به إبليس من الفحشاء والمنكر.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، أي لما طهر أحد منكم من متابعته.

وقال مبينًا ذلك: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣]، يعني لارتكبتم سننه في التحكم على الله ـ تعالى ـ، لما أجراه[2] على المخالفة، والإصرار على متابعة الهوى،

---

(١) في الأصول: [لما].

(٢) كذا، ولم أتبين أهي من الجرأة أم من الإجراء.

ونصب النفس لمعارضة من أوجد الأشياء من العدم، وعلّم من الجهل، وأنعم بما لا يجب عليه لحق سابق ولا لاحق، ولكن بفضله ورحمته ولطفه رحم، مع العظمة التي لا تُرام، ولا تدركها الأفهام، فأمهل مع البغي، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأوضح الهدى، وبيّن الضلال.

وفي ذلك دليل قاطع، وبرهان ساطع، على أن من لم يرض بما رضي الله به، من التزام ما أنزل من كتابه ووحيه، وظن أنّه يصل بدقيق نظره إلى ما لا يوضّحُ اللهُ ـ تعالى ـ في كتابه، أو على لسان نبيّه ـ ﷺ ـ فضَلالُه متيقّن، وهلاكه متحقق.

وقد قال ـ تعالى ـ لإبليس: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء: ٦٣].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: ٦].

[ر،٩٥/ب] ولما حكم إبليس برأيه على الله ـ سبحانه ـ التبس عليه الأمر، فبادر بالغلو عند المخالفة، إلى دعوى أنّه لا يَسجد إلا لله، وتوهّم أنّ تعلّقه بهذه الشبهة يتميز بها على الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وجهل أن «يد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار»[١]، فوقع عليه الإنكار بنقيض وهمه، في بيان أن السجود لآدم ـ عليه السلام ـ لم يكن لاستحقاق آدم بموجب الشركة[٢]، إنما هو

---

(١) جزء من حديث مرفوع عند الترمذي: ٤/ ٤٦٦، برقم (٢١٦٧)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٢٠٠، برقم (٣٩٢)، وفيه ضعف كما في تخريج الألباني لكتاب السنة لابن أبي عاصم: ص ٤٠.

(٢) أي أن آدم لم يكن شريكًا لله فيُسجد له لذلك.

مجرّد طاعة الأمر، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢]، فحاد عن إظهار الغلو، إذ لم يفد توهّمُه إلا الإفراط في التقصير، فأنزل درجة الخالق ـ تعالى ـ في أمره بالسجود لآدم عن درجة نفسه في رأيه، بأن قال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾، فخرج من خضوع العبد، إلى كبرياء الباري، بالمحاورة إلى خصمه بالجدال، فزالت المسامحة بحدّ العداوة، وانقلبت معاتبة الودّ إلى التقنّط من العود بالرحمة، فقال الربّ: ﴿ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥].

قال الحكماء: أخطأ عدو الله في تفضيله النار على الطين؛ لأن الطين أفضل منها من وجوه:

أحدها ـ أن من جوهر الطين الرزانةَ والسكون والوقار والحلموالأناة والحياء والصبر، وذلك سبب توبة آدمَ وتواضعِه وتضرّعِه، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية.

وجوهر النّار الخفّةُ والطيش والحدة والارتفاع والاضطراب، وذلك سبب استكبار إبليس، فأورثه اللّعنةَ والإبعاد من الرحمة، واليأس منها والهلاك.

والثاني ـ أن الجنّة موصوفة بأن ترابها مسك، ولم ينقل أن فيها نارًا.

الثالث ـ أنها سبب العذاب، بخلاف الطين.

الرابع ـ أن الطين مستغن عن النار، وهي محتاجة إلى مكان، وهو التراب.

الخامس ـ أن الطين سبب جمع الأشياء، وهي سبب تفريقها.

السادس ـ أنهما[1] يُطفئان أو أحدُهما النار.

السابع ـ أن بالماء حياةَ كل شيء، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والنار لا تلابس شيئًا إلا أحرقته وأهلكته وفرّقته، كما في الوجه الخامس[2].

فمن آثر نفسه على كتاب الله وسنة رسوله، وحكّم عقله على خالقه، اضطرّه الأمر إلى ما وقع فيه إبليس؛ فإن الأمم لمّا أبَوْا طاعة رسولٍ من البشر، وغلوا بزعمهم تعظيمَ الله ـ تعالى ـ، فأنكروا أن يقوم بحجة الله ـ تعالى ـ ويؤدّي عنه بشر، كما أنكر إبليس الأمر بالسجود لبشر، فاضطرّهم ذلك إلى الرجوع من الغلوّ في تعظيم الله ـ تعالى ـ إلى الإفراط[3] والتقصير بعبادة غيره، فمنهم من حاد عن إنكار رسالة البشر إلى التكبّر بطلب مواجهة الله ـ تعالى ـ بلا واسطة، ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨]، ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، [ر،٩٥/أ] ثم سقط إلى عبادة البقر، كما حاد إبليس في غلوّ دعوى: «لا أسجد إلا لك»، إلى التكبّر بـ«أنا خير منه»، ثم سقط إلى تزيين المعاصي للبشر، وذلك من خزي الطرد.

---

(١) ضمير التثنية هذا راجع إلى الماء والتراب، المكوّنين للطين، وكان على المؤلف الإفصاح عن ذلك، وعدم التكنية بالضمير؛ إذ لم يسبق لهما ذكر.

(٢) انظر نحو هذه الوجوه في «الصواعق المرسلة» لابن القيم: ٣/ ١٠٠٤.

(٣) كذا، والصواب أن يذكر هنا «التفريط»؛ فهو الملائم للتقصير.

ومنهم من حاد إلى تعلله بمشيئة الله ـ تعالى ـ، فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، ثم سقطوا إلى عبادة أوثان لا تضرّ ولا تنفع، كما حاد إبليس إلى الإقرار بالقدر، ليعترض بالأسئلة، ويقطعَ عنه لوم الملامة، ثم سقط إلى طلب الصدّ عن عبادة الله ـ تعالى ـ.

[ك،٤٦/ب] ومنهم من غرّه رأيُه فجمح في عنان كبره، حتى تجرّأ بدعوى الإلهة[1]، حيث قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، كما اغتر إبليس حين رأى نفسه أخبرَ بالمصلحة من باريها، فتجرأ بالإنكار عليه في قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]، فسقط مدّعي الربوبية إلى الانتصار بجنده من السحرة على من كان يحقر، كما سقط إبليس من الملأ الأعلى إلى الانتصار بذريّته إلى إغواء من يدخل به النّار.

فكذلك أهل العقل، حكّموا العقل على خالقهم، وقدّموا على كتابه وسنة رسوله ـ ﷺ ـ سنائح آرائهم، وأبَوْا ما جاءهم منهما على خلاف أهوائهم، فالتبس الأمر عليهم، كما التبس على كفّار الأمم، واضطرّهم إلى ما وقع أولئك فيه، من السقوط إلى نقيض ما زعموه؛ فإن المعتزلة غلو في التوحيد[2]، حتى أنكروا ما وصف الله به نفسه في كتابه، وعلى

---

(١) في اللسان (١٣/ ٤٦٨، مادة «أله»): «يقال: إله بين الإلهة والأُلهانية»: ونقل عن ابن سيده قوله: الإلهة والألوهية: العبادة.

(٢) ما سيذكره غير مختص بالمعتزلة، بل يشمل سائر المتكلمين من الأشاعرة والماتريدية ومن وافقهم.

لسان نبيّه، من الكلام، والرؤية، والاستواء، والنزول، والوجه، واليدين، والقدم، والعلم السابق[1]، وغير ذلك، كما أنكر الكفّار ما جاءت به الرسل ـ عليهم السلام ـ، فحطّهم غلوّهم إلى أنّهم أجروا عليه ـ تعالى ـ أحكام العباد، في أنه ما حسُن منهم حسُن منه، وما قبُح منهم قبُح منه، بل رفعوهم عليه ـ تعالى ـ بنفي القدَر عنه، بأنهم يفعلون في سلطانه ما يشاؤون، لا ما يشاء، فحالُهم أشبه بحال من قال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وأثبتوا له صفة الجهل بالجزئيات وتفصيلِ المجملات[2]، وما يستقبله العباد من المعاصي والطاعات. وردّوا النصوص الصحيحة الصريحة في إثبات الكلام والصفات، فهم أشبه بحال الذين قالوا لرسولهم: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾ [هود: ٥٣].

---

(١) إنما أنكر العلم السابق غلاة القدرية من الجهمية، أما المعتزلة فيثبتونه. انظر «شرح الأصول الخمسة» لعبدالجبار: ١٦٠، ولو أنكروه لكُفّروا بلا خلاف كالجهمية.

(٢) هذا هو المشهور عن الفلاسفة، ويبررونه بأن واجب الوجود يمتنع لصفة ذاته أن تتغير، فيجب أن يكون علمه بالجزئيات على الوجه الكلّي الذي لا يتغيّر بتغير الأزمنة والأحوال. انظر تقريرهم لهذا في «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا، مع شرحه للطوسي: ٣/ ٢٩٥ـ ٢٩٧، و«النجاة» لابن سينا: ٢٨٣ـ ٢٨٦، وانظر إبطال الغزالي لقولهم في «تهافت الفلاسفة»: ٢٠٦، وهناك من لا يسلم للغزالي ومن وافقه كالرازي والطوسي فهمهم لمذهب الفلاسفة في العلم الإلهي، ويدعي أنه يمكن حمل كلامهم على وجه لا يلزم منه إنكار علم الله بالجزئيات، كما نبه الدكتور سليمان دنيا في تعليقه على الموضع المحال عليه من «تهافت الفلاسفة». وانظر مناقشة ابن رشد للغزالي حول هذه القضية في «تهافت التهافت»: ٢/ ٦٩٠ وما بعدها. وانظر تعقب ابن تيمية لابن رشد في دفاعه عن الفلاسفة في مسألة العلم الإلهي في درء التعارض: ٩/ ٣٧٩ وما بعدها.

وغلت الجبرية في إضافة الحكم إليه ـ سبحانه ـ، حتى نفوا عن العباد مطلق الاستطاعة والاختيار[1]، وأسقطوا اعتبار نهيه وأمره، فهم أشبه حالاً بالذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقريب منهم المرجئة؛ فإنهم غلوا في التوحيد، حتى قالوا: لا تضرّ معه معصية، كما لا ينفع مع عدمه طاعة[2].

وغلا قوم في القول في إثبات ذاته[3] حتى أفرطوا[4]، منهم [ر،٩٦/ب] من ألحقه بخلقه ـ تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا ـ كالمجسّمة[5] والمشبّهة، ومنهم من ألحق الخلق به، وأجرى حكمه في خلقه، كغلاة الرافضة، وهم أقرب شبهًا بمن عبَد العزيرَ[6] والمسيح والملائكة

(١) أطال ابن القيم النفَس في إيراد شبهاتهم ودحضها في «طريق الهجرتين»: ٦٥ـ ١٠٣، و«شفاء العليل»: ٢٣٨ وما بعدها.

(٢) إنما يقول هذا من لا خلاق له من المنافقين والفساق، وقد ذُكر عن غلاة المرجئة، لكن لا يعرف له قائل معين من المنسوبين إلى العلم فيُحكى عنه، إلا ما ذكر عن مقاتل بن سليمان، والأشبه أنه غلط عليه. انظر مجموع الفتاوى: ٧/ ١٨١، ٤٨٦ و١٦/ ١٩٦، و«منهاج السنة» لابن تيمية: ٥/ ٢٨٦.

(٣) الأولى أن يقال: «في إثبات صفاته»؛ إذ لا يتصور في إثبات الذات غلو.

(٤) الإفراط هو الغلو، فكان حق الكلام أن يقال: وغلا قوم حتى ألحقوه بخلقه.. أو نحو ذلك.

(٥) لم يرد في لفظ «الجسمية» إثبات ولا نفي، فالواجب التوقف فيه والاستفصال عن المراد به، فإن كان حقا أثبت، وإن كان باطلاً نفي، دون التعرض للفظ التجسيم بنفي ولا إثبات. و«المجسّمة» مما ينبزُ به الجهميةُ أهلَ السنة لإثباتهم الصفات.

(٦) يقال: «عزير» بالألف واللام، وبدونهما، وهو عزير بن جروة ـ ويقال ابن شوريق ـ بن عرنا بن أيوب، ويقال: عزير بن سروحا، رُوي في حديث مرفوع: «لا أدري: أكان عزير نبيًا أم لا»، ضعيف الجامع: ٣٧٨ (٢٥٦٢)، والمشهور عند المفسرين =

ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وغيرهم من الأصنام.

والحاصل أنّ كل من لم يرض بما رضي الله لعباده من متابعة رسوله وكتابه فقد ضلّ قطعًا ضلالاً مبينا، كيف وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿(1) وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿(2) مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية [النور: ٦٣]، وقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٨]، وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ النجم: ٣، ٤]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ الآية [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فكل هذه الآيات محكمات، ونصوص واضحات في وجوب امتثال أمر النبي ـ ﷺ ـ ونهيه، وأن الانقياد له هدى، وأن نفس طاعته نفس طاعة الله ـ تعالى ـ، وأنها موجبة لمحبّة الله ـ سبحانه ـ، وأن التوقف

= أنه الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، وأنه من أنبياء بني إسرائيل، بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى. وقال بعض السلف: إنه غير نبي، بل صالح ألهمه الله حفظ التوراة لما لم يبق فيهم من يحفظها، وعليه فقد انقطع تواتر التوراة عنده. انظر «تاريخ دمشق»: ٤٠/ ٣١٧، و«البداية والنهاية»: ٢/ ٣٨٣ـ ٣٩٢، ط التركي.

(١) في الأصل: ﴿ما آتاكم﴾ بلا واو.

(٢) في الأصل: «ومن يطع»، بواو، وهو خطأ.

عن التسليم لحكمه مانع من ثبوت الإيمان، وأن مخالفة أمره موجبة لحلول الفتنة والعذاب، وأنّه ليس لمؤمن ولا مؤمنة مع أمره اختيار، حتى صرح بأنّه أولى بالمؤمنين من أنفسهم[1].

فإذا ثبت أن الإيمان بالله ـ تعالى ـ لا يُقبل بدون الإيمان بمشروعاته، وأنّ حكم الشرع باق على وجوب مراعاته، كان الشك في وجوب الأخذ بالسنّة شكًّا في وجوب التوحيد، والإعراضُ عنها تعرّضًا بتكذيب القرآن المجيد، فما أعجب حالَ من أقر بالإسلام، واعترف بنبوة محمد ـ ﷺ ـ، ثم رضي بعلمٍ مبتدع، لم يُنقل عن نبيه الأمين، ولم يؤثر عن صحابته ولا التابعين، وما أقربهم شبهًا بالذين قص الله علينا حالهم، وحذّرنا انقلابهم ومآلهم، إذ يقول ـ عز من قائل ـ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣][2].

إذا علمت ذلك، ففي قتل الواحد الممتنع من أداء الزكاة من غير جحود قولان مشهوران للعلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ:

أحدهما ـ يقتل[3]، وهو المشهور عن الإمام أحمد، حدًّا لا كفرًا[4]؛

---

(١) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. ومعناه أنه أحق بهم من أنفسهم، أن يحكم فيهم بما يشاء. انظر تفسير الطبري: ٢١/ ١٢٢.

(٢) هذا الكلام منطبق تمامًا على العلمانيين بأصنافهم، الذين يرفضون هيمنة الإسلام على نواحي الحياة.

(٣) إن لم يمكن أخذها منه، بعد أن يستتاب ثلاثًا، فإن أمكن أخذُها عُزّر، انظر المغني: ٤/ ٧، و«الشرح الكبير»: ٧/ ١٤٤ـ ١٤٧.

(٤) وفي رواية عنه: إن قاتل عليها كفر، وفي أخرى: يكفر وإن لم يقاتل عليها، لقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما تارك الزكاة بمسلم»، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ٣/ ١١٤، واللالكائي: ٤/ ٨٤٥، ولقول أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ =

فإن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لا يرون شيئًا تركه [كفر][1] غيرَ الصلاة، وكلامهم ـ رضي الله عنهم ـ في قتل الممتنع من الزكاة، [ر،٩٦/أ] واتفاقُهم على ذلك من غير تكفير له، عامّ في الواحد والجماعة[2]؛ فإنّهم لم يتركوا الفلَّ من الممتنعين عن أداء الزكاة إلا بأدائها إلى الإمام، إذا كان الإمام يضعها مواضعها التي صرفها الله ـ تعالى ـ في كتابه العزيز إليها، نص على ذلك الإمام أحمد، فهو الذي به يستباح دم مانعها.

فلا تستطل الكلام على هذا الباب، وعلى هذا الحديث؛ فإنه قد غلط فيه بعض من ليس عنده بصيرة بكلام الأئمة وصالح سلف الأمة، فأجراه على ظاهره مطلقًا، ومن نظر إلى نصوص الكتاب والسنّة المحكمة وكلام السلف الصالح كما بيّنّا ذلك علم أنّه لا يخالفها، بل يجاريها؛ [ك،٤٦/أ] فإن كلام الله وكلام رسوله ـ ﷺ ـ يصدّق بعضه بعضًا، والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل.

ولهذا قال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ: وشرح هذا الباب ما بعده ـ وفي غير خط الشيخ: هذه الترجمة ما بعدها ـ من الأبواب.

وقد أشرنا إلى تفصيل بعض ما أجمل فيه[3].

= لمانعي الزكاة لما قالوا: نؤديها ـ: «لا أقبلها حتى تشهدوا أن قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار». أخرجه أبو عبيد في الأموال: ١٩٦ـ ١٩٨.

(١) في الأصل: «كفرًا»، والصواب ما أثبته.

(٢) تقدم التنبيه إلى أن الصحيح كفر الطائفة الممتنعة عن شيء من شرائع الإسلام، وأنهم يقاتلون ردّة، وأن هذا قول المحققين من أهل العلم.

(٣) في الطرّة: «بلغ مقابلة على أصله فصح على يد مصنفه عفى الله عنه».

الباب السادس

(باب من الشرك لبس الحلْقة والخيط ونحوهما لدفع البلاء) قبل نزوله عن لابس ذلك (أو رفعه) بعد نزوله باللابس.

وهذا شيء لا يقدر عليه أحد من جميع ناطق المخلوقات دون جمادها[1]، فلا يُطلبُ دفعُ البلاء أو رفعه إلا ممّن بيده ملكوت كل شيء، الذي يجير ولا يُجار عليه، فعليك بدعائه ـ جل وعلا ـ؛ فهو الذي يدفع ذلك.

فعند الحاكم ـ وقال: صحيح الإسناد ـ، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا: «الدعاء ينفع مما نزل وممّا لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء»[2].

إلاّ أنّه من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر المليكي، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر. وقد قال الذهبي في عبدالرحمن: إنه واهٍ[3].

وقال ابن حجر: إسناده ليّن[4]. ومع ذلك صحّحه الحاكم.

فهو ـ سبحانه ـ هو الذي يُنزل البلاء ويدفعه ويرفعه، وهو ـ تعالى ـ

---

(١) لعلّه يقصد أنه لا يقدر عليه ناطق المخلوقات، فجمادها من باب أولى.

(٢) المستدرك: ١/ ٦٧٠، برقم (١٨١٥)، ورواه الترمذي: ٥/ ٥٥٢، كتاب الدعوات، باب (١٠٢)، حديث (٣٥٤٨). وهو في ضعيف الجامع: ٨٢٤، برقم (٥٧٢٠).

(٣) انظر الكاشف: ٢/ ١٤٠، و«ميزان الاعتدال»: ٢/ ٥٥٠.

(٤) فتح الباري: ١١/ ٩٥.

هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء.

وقد روى هذا الحديث أيضًا الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا(١).

وهو عند أبي يعلى الموصلي والطبراني في الكبير(٢) عنه أيضًا مرفوعًا.

ولفظهم: «لن ينفع حذر من قدر، ولكن الدعاء ينفع ممّا نزل وممّا لم ينزل، فعليكم بالدعاء عباد الله».

ولمّا كانت شهادة ألا إله إلا الله مبتدأها بالنفي، بدأ بتعريف الشرك في تفصيل ما أجمله.

ثم بدأ ـ رحمه الله تعالى ـ لمّا شرع في تفصيل ما أجمل بالأدنى فالأدنى دون الأعلى؛ تمرينًا. كحال الطبيب الحاذق، ترقّيًا من الأدنى إلى الأعلى.

[ر،٩٧/ب] ولشدّة البلوى وكثرة وقوع الأصغر، مع قلّة وقوع الأكبر(٣)، بدأ به بحيث إذا علم ذلك من وقع فيه، وتحققَ عِظمَه عند الله، وأنّه أكبر من كبائر المعاصي، كالزّنا، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقذف المحصنات الغافلات، مع صِغره في الشرك، نبّهه

---

(١) المسند: ٥/ ٢٣٤، وهو في ضعيف الجامع: ٦٩١، برقم (٤٧٨٥).

(٢) ٢٠/ ١٠٣.

(٣) لا يسلم للمؤلف ـ رحمه الله ـ قلة وقوع الشرك الأكبر، خصوصًا في زمن مصنف المتن.

ذلك على الأكبر المخرج من الملّة، وكان معرفة الأصغر تنبيهًا على الأكبر، من باب الأولى.

وقد قال زين الدين ابن رجب ـ رحمه الله ـ في الشرك والكفر مفصِّلاً: وحقيقةُ [الكفؤ][1] هو المساوي والمقاوم، فلا كفؤ له ـ تعالى ـ في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في ربوبيّته، ولا في إلهيّته.

ولهذا كان الإيمان بالقدر نظامَ التوحيد، كما قال ابن عباس[2]، لأن القدرية جعلوا له كفؤًا في الخلق.

قال: وأما التوحيد في الإلهيّة، فالشرك فيه تارة يوجب الكفر والخروج من الملّة، والخلود في النّار، ومنه ما هو أصغر، كالحلف بغير الله، والنذر، وخشيته غيرَ الله، ورجائه، والتوكّل عليه، والذلّ له، وقولِ القائل: «ما شاء الله وشئت».

ومنه ابتغاءُ الرزق من غير الله[3]، وحمدُ غيره على ما أعطى،

---

(١) في الأصل: [الكفر]، وما أثبته هو اللائق بسياق الكلام.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٥) برقم (٣٥٧٣) عن ابن عباس مرفوعًا، قال في المجمع: (٧/ ١٩٧) وفيه هانىء بن المتوكل وهو ضعيف، ورواه موقوفًا اللالكائي: ٤/ ٦٧٠، برقم (١٢٢٤).

(٣) اعتبار ذلك من الشرك الأصغر مطلقًا فيه تساهل بيّن، وقد قال ـ تعالى ـ على لسان الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٧]، فكان حق ذلك أن يقيد بالتفات القلب إلى الأسباب ونحوه مما هو دون الشرك الأكبر.

والغنية بذلك عن حمده.

ومنه العمل لغير الله، وهو الرياء، وهو أقسام.

ولهذا حرّم التشبّه بأفعاله بالتصوير، وحرّم التسمّي بأسمائه.

فأما ما يتسمّى به المخلوقون من أسمائه، كالسميع والبصير والقدير والعليم والرحيم، فإنّ الإضافة قاطعة للشركة.

وكذلك الوصفية، فقولنا: «زيد سميع بصير»، لا يفيد إلا صفة المخلوق. وقولنا: «الله سميع بصير»، يفيد صفته اللائقةَ به، فانقطعت المشابهة بوجه من الوجوه، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]. انتهى كلام ابن رجب ـ رحمه الله ـ[1].

قلت: وهذا من الشيخ[2] ـ رحمه الله ـ سر لطيف، وبهذه الفراسة والسياسة نفع الله به العباد، وعمر به البلاد، ومن نصره وتبعه على ذلك رأس وساد.

قال: (وقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [الزمر: ٣٨]).

يأمر ـ تبارك وتعالى ـ رسوله محمدًا ـ ﷺ ـ أن يقول للمشركين، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يعني ما تعبدون من دون الله من الآلهة، ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، أي أصابني ببلاء أو مرض في جسدي، وضيق [ر، ٩٧/أ] في معيشتي، أو عذاب في الآخرة، ﴿هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ

---

(١) لم أقف على موضعه.

(٢) يقصد صاحب المتن الإمام محمد بن عبد الوهاب.

ضُرِّهِۦٓ﴾، أي هل تقدر الأصنام دفع ذلك عني؟.

﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾، أي نعمة وخير، ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾، أي هل تقدر الآلهة التي تدعون من دون الله منع تلك الرحمة عني؟.

قُرِىء: «كاشفاتُ»، و«ممسكاتُ»، بالإضافة. وبالتنوين، وما بعدهما مفعول[1].

﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾، أي يكفيني الله من شر آلهتكم. ويقال: ثقتي بالله كافيًا في إصابة الخير ودفع الضير؛ إذ قد تقرر بهذا أن القادر على دفع المضار وجلب المنافع هو الله، الذي لا مانع لما يريد من خير أو ضير.

﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾، أي يثق الواثقون بالله، الذي لا إلٰه إلا هو، النافع الضار، الذي بيده مقاليد السموات والأرض. ففوِّضْ أمرك إليه، وتوكّل في جميع أمورك وما نابَك عليه، وما ربك بغافل عما يعملون، فلا تجعل لأحد من دونه من ناطق أو جماد في عبادتك حقًا.

قال سعيد بن منصور[2]: حدّثنا هشيم، أخبرنا منصور، عن الحسن ـ يعني البصري ـ (عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي ـ ﷺ ـ رأى رجلاً في يده حلْقة من صُفْر، فقال ـ يعني رسول الله ـ ﷺ ـ للرجل: ما هذه الحلْقة] التي في يدك؟. (قال: من الواهنة) أي جعلتها

---

(١) انظر «السبعة» لابن مجاهد: ٥٦٢.

(٢) أخرجه من طريقه الخطابي في غريب الحديث: ٢/ ٤٤٥، ورواه ابن ماجه: ٢/ ١١٦٧، (٣٥٣١)، وابن حبان في صحيحه: ١٣/ ٤٥٣ (٦٠٨٨) بنحوه، وفيه أن الرجل هو عمران. والبيهقي في الكبرى: ٩/ ٣٥٠ (١٩٣٩٣)، وقد ضعفه الألباني في الضعيفة: ٣/ ١٠١، برقم (١٠٢٩).

من أجل الواهنة، (فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: انزعْها) أي عن يدك (فإنّها لا تزيدك) بجعلك إيّاها لذلك (إلا وهْنًا).

زاد الإمام أحمد في روايته: (فإنّك لو مُتّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا». رواه) جميعه الإمام (أحمد) في مسنده (بسند لا بأس به)[1].

وسند سعيد بن منصور على شرط الشيخين، على تصحيح سماع الحسن من عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ[2].

والواهنة: عِرْق يأخذ في المَنكب وفي اليد كلّها، يوهن اليد بأمر الله ـ سبحانه ـ، أو يضعفها، لا يرفعها إلا الله ـ تعالى ـ الذي أنزلها في ذلك العضو، الذي هو تخليقه وإيجاده ـ سبحانه ـ.

يقال: وهَن يَهِن وهْنًا، ووهَنه غيرُه، ووهّنه: أضعفه.

ومنه: «ولا واهنًا في عزمٍ»[3]، أي ضعيفًا في رأي.

وقال الفرّاء: الواهنة: القُصيْرَى، وهي أسفل الأضلاع[4].

وقال غيره أيضًا: الواهنة عرق مستبطن حبل العاتق إلى الكتف، إذا ضرب على الإنسان أوجعه، فيقال عند ذلك: «هِني يا واهنة». أي

---

(١) المسند: ٤/ ٤٤٥.

(٢) قد صرح بعض أئمة الجرح والتعديل بعدم سماعه منه، انظر «جامع التحصيل» للعلائي: ١٦٤.

(٣) هو في اللسان (١٣/ ٤٥٣) عن علي ـ رضي الله عنه ـ، ويروى أيضًا: «ولا واهيا» بالياء، ولم أعثر عليه مسندًا.

(٤) انظر «غريب الحديث» للخطابي: ٢/ ٤٤٥، وقيل أعلى الأضلاع، انظر اللسان مادة (وهن) ١٣/ ٤٥٤.

اسكني. هذا من قول العرب لها[1].

وإنما أنكر عليه ﷺ ـ كما قال الخطّابي ـ اتّخاذ الحلْقة من الصفر؛ لأنّه كان اتخَذها على أنّها تعصمه من ضرَبان العِرْق، فكان ذلك عنده في معنى التمائم التي ورد النهي عن تعلّقها؛ [ر،٩٨/ب] لاعتقادهم فيها استقلالاً النفع والضرّ[2].

وروى بريدة ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً جاء إلى النبي ـ ﷺ ـ وعليه خاتم من حديد، فقال: ما لي أرى عليك حلية [ك،٤٧/ب] أهل النّار؟. فطرحه. ثم جاء وعليه خاتم من شَبَه، فقال: ما لي أجد منك ريح الأصنام؟. فقال: يا رسول الله، من أي شيء أتّخِذُه؟. قال: من ورِق، ولا تُتِمَّه مثقالاً. رواه أبو داود[3].

والشَبَه ـ بفتح الشين المعجمة والموحّدة ـ جيّد النحاس الأصفر، قيل إنّه سمّي بذلك وبالصُّفْر؛ لكونه يشبه الذهب.

فانظر كيف غلّظ الإنكارَ ـ ﷺ ـ على هذا الرجل من أصحابه، لما اعتقد أنّ هذه الحلْقة ترفع الضرّ النّازل، ولم يعذرْه بجهله، وأخبره أنها لا تزيده من وهن يده الذي أصابها إلا وهنا، نقيضَ قصده، وأنّه لو

---

(١) انظر «غريب الحديث»: ٢/ ٤٤٥.

(٢) عن السابق، مع زيادة طفيفة.

(٣) السنن: ٤/ ٩٠، كتاب الخاتم، باب ما جاء في خاتم الحديد، (٤٢٢٣)، ورواه النسائي: ٨/ ١٧٢، برقم (٥١٩٥)، والترمذي: ٤/ ٢٤٨، (١٧٨٥) بلفظ «خاتم من صفر». وقد ضعف الألباني إسناد الحديث كما في تخريجه لمشكاة المصابيح: ٢/ ١٢٥٥، حديث رقم (٤٣٩٦)، لكنه صحح الجملة الأولى منه في صحيح الجامع: ٢/ ٩٨٩، (٥٦٦٤).

مات على هذه الحالة معتقدًا ذلك ـ لم ينزِعْها ويتب إلى الله ـ سبحانه ـ مما اعتقده ـ ما أفلح أبدًا، وهذا وعيد شديد، وقول أكيد.

فتبيّن بهذا أنّ صغيرة الشرك أكبر من كبيرة الكبائر.

ولم يغلّظ ـ ﷺ ـ هذا التغليظ على من شابه الكفّار في حليتهم في النّار.

(وله) أي للإمام أحمد في مسنده، (عن عقبة بن عامر) الجهني، الصحابي المشهور، ولي مصر لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ ثلاث سنين، وكان فقيهًا فاضلاً، يكنى بأبي عمرو، وهو أحد مشاهير الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

قال في التجريد: كان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن[١].

وفي العبر: كان مقرئًا فصيحًا مفوّهًا[٢].

قال ابن الربيع[٣]: لأهل مصر عنه نحو مائة حديث.

وكان ـ رضي الله عنه ـ راميًا، ويُبعد في الغاية، حتى قيل: ما رمى في أربعمائة ذراع إلا عقبة بن عامر[٤].

مات في مصر، سنة ثمان وخمسين[٥].

---

(١) انظر «تاريخ الإسلام»: عهد معاوية: ص ٢٧٣. «وتجريد أسماء الصحابة»: ١/ ٣٨٤، دار المعرفة، بيروت.

(٢) «العبر في خبر من غبر» للذهبي: ١/ ٤٥.

(٣) هو يحيى بن الربيع بن سليمان العُمري، الشافعي، (٥٢٨ـ ٦٠٦هـ)، انظر «طبقات الشافعية» لابن السبكي: ٨/ ٣٩٣، والأعلام للزركلي: ٨/ ١٤٤.

(٤) ذكره ابن قدامة في «المغني»: ٩/ ٣٧٥.

(٥) انظر «الإصابة»: ٢/ ٤٨٢.

(مرفوعًا) إلى النبي -ﷺ- أنّه قال:

(«من تعلّق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلّق ودعة فلا ودع الله له»)[1].

وفي لفظ للإمام أحمد عنه في هذا الحديث: «فقد أشرك»[2].

التميمة جمعها تمائم، وهي خرزات كانت العرب في الجاهلية تعلّقها على الصبيان، يتقون بها العين بزعمهم، وشقّوا لها هذا الاسم تفاؤلاً لإتمام الأمر الذي جعلت له. فدعا رسول الله -ﷺ- على من تعلّقها لذلك بنقيض ما قصدوا بها، بقوله: «فلا أتمّ الله له».

فما حال من دعا عليه سيّد البشر -ﷺ-، على فعل يُغضب الله ويضاهيه؟.

فهذا المتعلّق لهذه التميمة أو الودَعة [ر،٩٨/أ] فعل أمرًا استحق عليه دعوة رسول الله -ﷺ-، وأغضب مولاه عليه بتركه التوكّل عليه في دفع ما يتوقع وقوعه من المكروه، أو رفع ما حلّ به، واستبدل بذلك خرزات جماد، أو تعوّذات بغير من أوجده من عدم وأنشأه، فسبحان من أضل من شاء من عباده على علم.

---

(١) المسند: ٤/ ١٥٤، ورواه الطبراني في مسند الشاميين: ١/ ١٤٦ (٢٣٤) والكبير: ١٧/ ٢٩٧، وأبو يعلى في مسنده: ٣/ ٢٩٥ (١٧٥٩). وابن حبان في صحيحه: ١٣/ ٤٥١ (٦٠٨٦)، والحاكم في المستدرك: ٤/ ٢٤٠ (٧٥٠١)، و٤/ ٤٦٣ (٨٢٨٩)، وقال: صحيح الإسناد. وقال في المجمع (٥/ ١٠٣): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجالهم ثقات.

(٢) المسند: ٤/ ١٥٦، ولفظه «من علق تميمة فقد أشرك»، قال في المجمع (٥/ ١٠٣): (ورجال أحمد ثقات)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٤٩٢).

وقوله: (ومن تعلّق ودَعة) هي بالفتح والسكون: خرزات بحريّة بِيض معروفة، كانوا يعلّقونها مخافة العين. واسمها مشتق من ودَعْتُه، أي تركتُه؛ لأن البحر ينضب عنها ويدعها، فهي ودَع. فإذا قلت: الودْع بالسكون، فهي من باب ما سمّي بالمصدر.

قال الشاعر في السكون:

لا الودْع ينفعه حمل الجمال له ... ولا الجمال بحمل الودْع تنتفعُ[1]

وعلى الفتح قول الآخر:

والحلم حلم صبي يمرس الودَعه[2]

وقوله: (فلا ودع الله له) أي لا جعله في دعة وسكون، قاله في «مجمع البحار في غريب الآثار»[3].

وقيل: هي لفظ مبني من الودعة، أي لا خفّف الله عنه ما يخافه، وفي معنى ذلك: «من تعلّق شيئًا وكل إليه»[4]. وسيأتي في المتن.

ومن ذلك تعليق رأس الحمار، ورأس الكلب، أخسِّ الحيوانات، على مواضع؛ ليدفع بذلك عنها العين.

---

(١) أنشده القرطبي في تفسيره: ١٨/ ٩٥.

(٢) أنشده الأصمعي في الأصمعيات لرجل من تميم، كما في اللسان: ٨/ ٣٨١، إلا أن فيه: والعقل عقل صبي يمرث. ولم أجده في المطبوع من الأصمعيات.

(٣) «مجمع البحار»: ٥/ ٣٢.

(٤) رواه أحمد: ٤/ ٣١٠، والترمذي: ٤/ ٤٠٣ (٢٠٧٢) كتاب الطب، باب (٢٤)، والنسائي: ٧/ ١١٢ (٤٠٧٩)، والحاكم: ٤/ ٢٤١ (٧٥٠٣)، وحسنه الألباني في «غاية المرام»: ١٨١، برقم (٢٩٧).

وليس هذا من باب قول عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ الذي قدّمنا[1] في الصبي الذي تقع عليه العين كثيرًا: «دسموا نونته»؛ لأنه في ذلك أمرهم بإزالة ما فيه جمالُه الذي تقع عليه العين، بتسويد نونته، فلا يبقى فيه للعين موضع.

والسعي في إزالة المحذور بفعل الأسباب التي لا تضاد أمر الله ورسوله مطلوبٌ للشارع، وأمّا تعليق رأس الحمار ونحوه فإنّهم يجعلونه دافعًا للعين على ما يستحسن، وما يستحسن باقٍ على حاله لم يتغيّر.

فانظر كيف يتلاعب الشيطان ببني آدم، فيتنزّهون من الكلب والحمار حال حياتها، وينصبونهما بعد موتهما إذا كانا عظامًا نخرة؛ لدفع البلاء عنهم بذلك، ومع ذلك، قد لا ينكره من يدّعي المعرفة، ويتساهلُ به، وهو لو يرى رجلاً يفجر بامرأة جهارًا، لم يستقر قرارًا، وهذا أعظم من ذلك بكثير؛ لأن صغيرة الشرك أعظم من كبيرة الكبائر، ولهذا قال ابن أم عبدٍ، عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «لأن أحلفَ بالله كاذبًا أحبُّ إلي من أن أحلفَ بغيره صادقًا»[2].

فعُلم بذلك أنه متى فُعل شيء من ذلك، من تعليق أو نحوه، كتبرّك بشجر أو حجر، وجب على من له القدرة إزالة جميعه، بقطع خيط أو شجر، أو إزالة حلْقة أو حجر.

---

(١) راجع: ص ٣٢٢.

(٢) رواه عبدالرزاق في المصنف: ٨/ ٤٦٩ (١٥٩٢٩)، وابن حزم في المحلى: ٨/ ٣٣، وابن وهب كما في المدونة: ٣/ ١٠٨، والطبراني في الكبير: ٩/ ١٨٣، قال في المجمع (٤/ ١٧٧): ورجاله رجال الصحيح. ورواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٣/ ٧٩ (١٢٢٨١).

ولا يقال في قطع الشجر إنّه إذا كان المتبرَّك به سدرةً لا تقطع؛ لنهي النبي ـ ﷺ ـ عن قطعها. كما عند الإمام أحمد[1] وأبي [ر،٩٩/ب] داود[2] بسند حسن، عن عبدالله بن [حُبْشي][3] ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من قطع سدرةً صوّب الله رأسه في النّار». ورواه الحافظ الضياء المقدسي في المختارة[4].

وهو عند الطبراني[5] والبيهقي[6] عن معاوية بن حيدة مرفوعًا، لفظه: «لعن الله قاطع السدر».

فإن النهي ورد عن قطع السدر لإبقاء المصلحة الدنيوية، من [ك،٤٧/أ] ظلّ أو ثمرة، وهذا القطع لدفع المضرّة الدينيّة، التي غاية بعثة

---

(١) لم أعثر عليه في المسند في حديث عبدالله بن حبشي ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) السنن: ٤/ ٣٦١، كتاب الأدب، باب في قطع السدر، برقم (٥٢٣٩)، ورواه النسائي في الكبرى: ٥/ ١٨٢ (٨٦١١). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٦١٤).

(٣) في الأصل: [حبيش]، وهو خطأ، والصواب ما أثبته من السنن، وهو عبدالله بن حُبْشي الخثعمي، أبو قتيلة. انظر الإصابة: ٢/ ٢٨٥، وتهذيب الكمال: ٤/ ١٠٩، ولم يذكروا من اسمه عبدالله بن حبيش.

(٤) ٩/ ٢٣٧، (٢١٥).

(٥) في الكبير: ١٩/ ٤٢٠، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وفي الأوسط: ٤/ ١٨٦ (٣٩٣٢) عن علي. قال في المجمع (٨/ ١١٥) فيه إبراهيم بن يزيد الخوزي وهو متروك.

(٦) في الكبرى: ٦/ ١٤٠ (١١٥٤٥) عن علي، ورواه بلفظ «من الله لا من رسوله: لعن الله عاضد السدر» ٦/ ١٤١ (١١٥٤٩)، قال الألباني: ورجاله ثقات غير مخارق ـ راويه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ـ هذا فلم أجد من ترجمه. السلسلة الصحيحة: ٢/ ١٧٦.

الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ لإزالة ما كان من هذا الضرب ومحوه من الأرض.

وقد سُئل أبو داود السجستاني عن هذا الحديث فقال: هو حديث مختصر، ومعناه: من قطع سدرة في فلاة يَستظل بها ابن السبيل عبثاً، وظلمها بغير حق يكون له فيها، صوّب الله رأسه في النّار[1]، أي نكّسه.

وأيضًا قد قال الإمام أحمد في رواية أبي داود: ليس فيه حديث صحيح، وما يعجبني قطعه.

قال: قلت له: فإذا لم يكن فيه حديث، فلم لا يعجبك قطعه؟.

قال: على كل حال قد جاء فيه كراهة[2].

وعلى تقدير صحّته وثبوته فهو على سبيل المصلحة الدنيوية.

وأما المصلحة الدينية فقد قطع الملهَم المحدَّث، الفاروق عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين، الخليفة الراشد، أحدُ الذين أُمِرنا باتباعهم والاهتداء بهديهم ـ رضي الله عنهم ـ الشجرةَ[3] التي بايع أصحابُ بيعة

---

(١) السنن: ٤/ ٣٦١، مع اختلاف يسير.

(٢) قول أحمد: «ليس فيه حديث صحيح» ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: ٢/ ٦٥٧، والموصلي في «المغني عن الحفظ والكتاب بقولهم لم يصح شيء في هذا الباب»، وابن مفلح في الآداب الشرعية: ٣/ ٤٢٦، مؤسسة الرسالة.

(٣) وهي سمرة لا سدرة، قال ـ ﷺ ـ حين انكشف المسلمون في حنين: «يا عباس، ناد: يا أصحاب السمرة»، أي يا من بايع تحت الشجرة في الحديبية، أخرجه ابن حبان في صحيحه: ١٥/ ٥٢٥ (٧٠٤٠)، والحاكم: ٣/ ٣٧٠ (٥٤١٨).

الرضوان النبيَّ ـ ﷺ ـ تحتها[1]، مخافة الفتنة في الدين، وقد ظلّلت أغصانُها خيرَ الخلق، وعبَدَ هو وأصحابه الذين بايعوه تحتها من أرسله بالإخلاص، والتفويض على نصرة الله ورسوله ببذل المهج، حتى بايعوه في تلك المبايعة على الموت، أو ألا يفرّوا[2]، وحصل مجموع ذلك منهم.

(وعن حذيفة بن اليمان)، واسم اليمان «حُسَيل» مصغّرًا، العبسي، بموحدة، حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين بالإسلام.

صحّ في صحيح مسلم عنه ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ أعلمه بما كان وما يكون إلى أن تقوم السّاعة[3]، وأبوه صحابي أيضًا، قتل بأحد خطأً، فتصدّق حذيفة ـ رضي الله عنه ـ بدمه على المسلمين، وشكر له النبي ـ ﷺ ـ ذلك[4]، ومات حذيفة في أول خلافة علي ـ رضي الله عنه ـ، سنة ست وثلاثين.

---

(١) انظر خبر ذلك في الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٠٠، وفيه أن الصحابة قد نسوا موضعها من العام المقبل.

(٢) الذي في الطبقات (٢/ ٩٩، ١٠٠) عن معقل بن يسار وجابر بن عبدالله: أنه بايعهم على ألا يفروا، وأنه لم يبايعهم على الموت. وفي صحيح البخاري (٣/ ١٠٨٠) (٢٧٩٨) باب البيعة في الحروب ألا يفروا. وقال بعضهم: على الموت. . ، وأسند فيه عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: رجعنا من العام المقبل، فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها، كانت رحمة من الله، فسألت ـ السائل هو جويرية، الراوي عن نافع ـ نافعًا: على أي شيء بايعهم، على الموت؟. قال: لا، بل بايعهم على الصبر.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٥٦، كتاب الفتن. . ، باب (٦)، حديث (٢٨٩١).

(٤) انظر الخبر في سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٧، ٨٨.

(أنّه رأى رجلاً في يده خيط من الحُمّى، فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].) رواه الحافظ الثقة الثبت أبو محمد، عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي[١]، وغيره.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في الآية: من إيمانهم إذا قيل لهم: من خلق السموات والأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون به[٢].

وقاله جمع من التابعين[٣].

وفي الصحيح أن المشركين يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما [ر،٩٩/أ] ملك[٤].

وفيه أيضًا[٥] أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك. يقول ـ ﷺ ـ: قدِ، قدِ. أي حسْب، لا تزيدوا على هذا. يعنون بذلك أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ـ تعالى ـ.

فيوحّدون في أوّل تلبيتهم، ويشركون في آخرها، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا

---

(١) في تفسيره: ٧/ ٢٢٠٨ (١٢٠٤٠). ولفظه: «عن عزرة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرًا فقطعه أو انتزعه»، ثم قرأ الآية. ولم أجد لفظ المتن.

(٢) رواه ابن جرير: ١٣/ ٧٧.

(٣) انظر الموضع السابق.

(٤) صحيح مسلم: ٢/ ٦٩٢، كتاب الحج، باب التلبية، (١١٨٥)، وانظر ما يأتي ص٨٥٩.

(٥) الموضع نفسه.

رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[1].

وقال الحسن البصري في الآية: ذلك المنافق، يعمل إذا عمل رئاء الناس، وهو مشرك بعمله[2]. يعني كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

وثَمّ شرك خفي لا يشعر به غالبًا فاعلُه، كالذي استدل عليه حذيفة ـ رضي الله عنه ـ بهذه الآية. وهذا من فقه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ودقة فهمهم، باستدلالهم بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر؛ لدخول ذلك بالمعنى فيه، وإنْ لم يخرج من الملّة[3].

وليعلمْ بذلك أن كلام السلف ـ رضي الله عنهم ـ في الآية ليس اختلافه باختلاف تضاد، وإنّما هو اختلاف تنوّع[4].

وقد رُوي حديث حذيفة هذا من وجه آخر، كما روى حماد بن سلمة عن أبي النجود، عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض، فرأى

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٦٢٦، كتاب التفسير، باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، (٤٢٠٧)، وصحيح مسلم: ١/ ٨٧، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، (٨٦).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٧/ ٢٢٠٧ (١٢٠٣٦).

(٣) لا يصح اعتبار الشرك الخفي من الأصغر مطلقًا، وإن كانت غالب صوره داخلة في الأصغر، لكن قد ينقلب إلى أكبر باسترسال القلب معه، واعتقاده التأثير لغير الله استقلالاً، فهو في حدود الأصغر ما لم يتجاوز السببية إلى التأثير المستقل.

(٤) وهو غالب ما يصح عن السلف من الخلاف في التفسير، انظر مجموع الفتاوى: ١٣/ ٣٣٣ وما بعدها.

في عضده سيْرًا فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦ ﴾[1] [يوسف: ١٠٦].

فالشرك في عموم هذه الأمة كما قال ترجمان القرآن ابن عباس: أخفى من دبيب النمل على الصفاة الصمّاء، في الليلة الظلماء[2].

فليحذر الإنسان كل الحذر دخوله عليه، والله الهادي الموفق.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٧/ ٢٢٠٨، وقد تقدم، وضعفه صاحب «النهج السديد»: ٥٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: ١/ ٦٢ (٢٢٩)، ورواه الحاكم بنحوه، مرفوعًا عن عائشة: ٢/ ٣١٩ (٣١٤٨) وقال: صحيح الإسناد. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع: ٥٠٢ برقم (٣٤٣٢).



الباب السابع

باب ما جاء في الرُّقى والتمائم

عقّب - رحمه الله تعالى - الرّقى للبس الحلقة والخيط؛ لتناسب ذلك في المعنى والاستعمال.

(في الصحيح) للبخاري[1] قال: حدثنا عبدالله بن يوسف، ومسلم: حدّثنا يحيى، وأبو داود، عن القعنبي، كلّهم عن مالك بن أنس، وهو في الموطّأ[2] عن عبدالله بن أبي بكر - يعني محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري - عن عباد بن تميم - يعني المازني التابعي، وقد قيل: له رواية - عن النبي - ﷺ -.

ولفظ الصحيح: (عن أبي بشير الأنصاري)، - بفتح أوله وكسر المعجمة -، الصحابي المدني، قيل اسمه قيس بن عبيد. قال الدارقطني: الساعدي، شهد الخندق.

وذكره الحاكم فيمن لا يعرف اسمُه[3].

---

(١) ٣/ ١٠٩٤، كتاب الجهاد، باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل، رقم (٢٨٤٣)، ورواه مسلم: ٣/ ١٣٣٣ برقم (٢١١٥).

(٢) ٢/ ٩٣٧، برقم (١٦٧٧).

(٣) قال ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (٤/ ١٦١٠): لا يوقف له على اسم صحيح، ولا سماه من يوثق به ويعتمد عليه، وقد قيل اسمه «قيس بن عبيد» من بني النجار، ولا يصح.

وذكر ابن سعد أن اسمه قيس بن عبد الحُرير[1] ـ بمهملات مصغرًا ـ، [ر،١٠٠/ب] ابن عمرو، قيل: الأنصاري الساعدي، وقيل: الأنصاري الحارثي، وقيل: الأنصاري المازني.

روى عنه أولاده، وعبّاد بن تميم، ومحمد بن فضالة وعمارة بن غزية، عاش ـ رضي الله عنه ـ إلى بعد الستين، وشهد الحَرّة، وجُرح بها، ومات من ذلك. يقال: جاوز المائة.

قال خليفة الخياط[2]: مات أبو بشير بعد الحرّة، وكان قد عُمّر طويلاً، يقال: جاوز المائة.

وقيل: مات سنة أربعين، والأول أصح؛ لأنه أدرك الحرّة.

قال: ولا أعلم فيهم من يكنّى أبا بشير إلا الحارث بن خزمة بن عدي الأنصاري[3].

قال عباد: إنه ـ أي أبا بشير ـ أخبره [ك،٤٨/ب] (أنه كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ في بعض أسفاره).

قال ابن حجر: لم أقف على تعيينها[4].

(فأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ رسولاً)، وعند مالك في رواية روح ابن عباد: فأرسل زيدًا مولاه. قال ابن عبدالبر: وهو زيد بن حارثة فيما يظهر لي[5].

---

(١) الذي في «الطبقات» (٥/ ٢٧٧): قيس بن عبيد بن الحرير بن عمرو.

(٢) كذا في الأصول، والظاهر أنه أراد خليفة بن خياط صاحب الطبقات والتاريخ، ت ٢٤٠هـ.

(٣) عن «الاستيعاب»: ٤/ ١٦١١.

(٤) فتح الباري: ٦/ ١٤١.

(٥) انظر فتح الباري: ٦/ ١٤١. والمؤلف ينقل منه.

قال عبدالله بن أبي بكر، شيخ الإمام مالك: حسبت أنه ـ أي عباد بن تميم ـ قال: والنّاس في مقيلهم.

(وقال: لا تَبْقَينَّ)، الصحيح بفوقية مثناة، وقاف مفتوحتين في جميع الروايات الصحيحة، بينهما موحّدة ساكنة، آخره نون توكيد.

(في رقبة) أي عنق.

(بعير قلادةٌ) رُفع على الفاعلية.

(من وَتَر) بفتح الواو والمثّناة الفوقية في جميع الروايات.

قال ابن الجوزي: إنّما صحّف من لا علم له بالحديث، فقال: (وبَر) بموحّدة[1]. يعني كالداودي؛ فإنّه جزم بالموحّدة، وقال: هو ما يُنزع من الجِمال، يشبه الصوف. قال ابن التين: فصحّف[2].

(أو قلادة إلا قُطعت)، أو للشك من الراوي، أو هي للتنويع.

وفي رواية القعنبي عند أبي داود: «ولا قلادة»[3]. وهو من عطف العام على الخاص، وبه جزم المهلّب.

ويؤيّد الشكَّ ما روي عن الإمام مالك أنّه سئل عن القلادة؟. فقال: ما سمعت بكراهيتها إلا في الوترَ[4].

---

(١) «كشف المشكل من حديث الصحيحين»: ٢/ ٢٣٢ لابن الجوزي، تحقيق د/ علي البواب، طبعة دار الوطن ط ١، ١٤١٨هـ، وعنه فتح الباري.

(٢) انظر «فتح الباري»: ٦/ ١٤١، ١٤٢.

(٣) سنن أبي داود: ٣/ ٢٤، كتاب الجهاد، باب في تقليد الخيل بالأوتار، حديث (٢٥٥٢).

(٤) انظر «فتح الباري»: ٦/ ١٤١.

وقال مالك بعد روايته لهذا الحديث: أرى ذلك من العين[1].

قلت: وقد كانت العرب تقلّد الأوتار حتى الكلاب عن العين.

قال جرير بن الخطفَى يهجو السليطي:

خرجتُ خروجَ الثورِ إذ عكست به مقلّـدةُ الأوتـار غيـرُ سمـان[2]

يقول: خرجتُ خروج الثور بين الكلاب المقلدة بالأوتار عن العين، فهي قد عكست به، أي لزمته وعلقته، فلا يفوتها ركضًا، ولهذا قال: غير سمان. وكانت العرب إذا سبق لها سابق من خيل أو غيرها قلّدوها الأوتار عن العين، وهذا معلوم عندهم.

فقوله: (أو قلادة)، القلادة معلومة، وهي ما يُجعلُ في الأعناق.

وقوله: (من وتر)، جمعه أوتار، وهي وتَر القوس، فنهى [ر،١٠٠/أ] النبي ـ ﷺ ـ عن تقليدها؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أنّ تقليدها الحيوان يدفع عنها العين، فتكون كالعُوذة لها، مما يفعله أهل الجاهلية، فنهاهم عن ذلك المعنى، وأعلمهم أنها لا تدفع ضرًا.

وليس هذا من قوله: «قلّدوا الخيل، ولا تقلّدوها الأوتار»[3]؛ فإن معنى هذا كما قاله ابن الأثير[4] وغيره: أي قلّدوها طلب أعداء الدين،

---

(١) الموطأ: ٢/ ٩٣٧، رقم (١٦٧٧).

(٢) ديوانه: ٢/ ٧١١.

(٣) رواه سعيد بن منصور في سننه: ٢/ ٢٠٠، رقم (٢٤٣٣)، والطحاوي في مشكل الآثار: ١/ ١٣٢، وهو أيضًا جزء من حديث رواه الإمام أحمد: ٣/ ٣٥٢، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ٢/ ٦٣٣، برقم (٣٣٥٥).

(٤) النهاية: ٤/ ٩٩.

والدفاع عن المسلمين، ولا تقلّدوها طلب أوتار الجاهلية وذُحولَها[1] التي كانت بينكم.

والأوتار في هذا جمع «وِتْر»، بالكسر والسكون، وهو الدم وطلب الثأر، يريد: لا تجعلوا ذلك لازمًا لأعناقها لزوم القلائد للأعناق.

وضعّف هذا التأويل مع قوّته النووي[2] ـ رحمه الله ـ، وبعّده القرطبي[3].

والقول الأول[4] قول النضر بن شميل[5]، ومشى عليه صاحب النهاية[6] ومختصرها.

وبه قال وكيع بن الجراح، فقال: المعنى: لا تركبوا الخيل في الفتن؛ فإن من ركبها لم يسلم أن تتعلّق به وترتبط به[7].

وقيل: أراد بذلك: ولا تقلدوها الأوتار، جمع وَتَر ـ بالتحريك والفتح ـ وهو القوس، أي لا تجعلوها في أعناقها فتختنق؛ لأنها ربما رعت

---

(١) جمع «ذَحْل»، وهو الحقد، و«طلب بذَحْله» أي بثأره. انظر المصباح المنير: ٧٦ (ذحل).

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٤/ ٩٦.

(٣) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»: ٥/ ٤٣٥، والقرطبي والنووي إنما ضعفا هذا في شرح حديث الباب، لم يذكرا حديث «قلدوا الخيل، ولا تقلدوها الأوتار».

(٤) أي تفسير الوتر بطلب الثأر.

(٥) انظر شرح صحيح مسلم للنووي: ١٤/ ٩٦.

(٦) صاحب النهاية إنما ذكر هذا المعنى عند حديث «قلدوا الخيل، ولا تقلدوها الأوتار»، ولم يذكر حديث الباب في ذلك الموضع.

(٧) انظر التمهيد لابن عبدالبر: ١٧/ ١٦٥.

الأشجار فنشبت الأوتار ببعض شعبها فتخنقها[1].

وقيل: إنهم كانوا يعلّقون فيها الأجراس، فنهوا عن ذلك.

وقد حكى جملة هذه الأقوال ابن الجوزي وغيره[2].

فأرشدهم ـ ﷺ ـ وحذّرهم عمّا يضرّهم في دينهم ودنياهم.

وأما القلائد التي لا محذور فيها، فلا بأس بها. وهذا الكلام عام في الإبل والخيل وغيرها.

(وعن) عبدالله (بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ)، هو أبو عبد الرحمن الهذلي، من السابقين الأولين من المهاجرين، ومن علماء الصحابة الكبار ـ رضي الله عنهم ـ، مناقبه جمّة، أمّره عمر ـ رضي الله عنه ـ على الكوفة، مرّ بعض شمائله، مات سنة اثنتين وثلاثين، أو في التي بعدها بالمدينة.

(قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك»)[3].

وفي بعض طرق هذا الحديث: فقلنا: هذه الرقى والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟. قال: شيء يجعلن النساء لأزواجهنّ، يتحبّبن به إليهم»[4].

---

(١) انظر النهاية: ٤/ ٩٩.

(٢) انظر «كشف المشكل من حديث الصحيحين» لابن الجوزي: ٢/ ٢٣٢.

(٣) سيأتي تخريجه قريبًا.

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه: ١٣/ ٤٥٦، (٦٠٩٠)، بلفظ: «شيء يصنعه النساء =

فالتِّوَلَةُ ـ بتشديد التاء المثنّاة الفوقية وكسرها، وفتح الواو واللام ـ ضرب من السحر.

وقيل: خيط يُرقى فيه من السحر، أو قرطاس يكتب فيه شيء من ذلك للمحبة.

والحاصل أنّه عمل ـ كما قال الأصمعي وغيره[١] ـ يحبب المرأة إلى زوجها، والزوج إلى امرأته.

ويقابله «الأخذة»، وسيأتي في باب النشرة[٢].

وذلك يضادّ التوكّل على الله ـ تعالى ـ، ولهذا جعله [ر،١٠١/ب] ـ ﷺ ـ لمضادّته التوكلَ شركًا.

(رواه) الإمام (أحمد[٣] وأبو داود[٤]) وابن ماجه[٥]، والحاكم[٦] وقال: صحيح الإسناد، وأقرّه الذهبي عليه.

ورواه الطبراني[٧] من حديث عبيدالله بن زحر الألهاني، عن علي بن

= يتحببن إلى أزواجهن»، ولم أجد اللفظ الذي أورده المؤلف.

(١) انظر غريب الحديث لأبي عبيد: ٤/ ٥٠.

(٢) انظر ما يأتي في القسم الثاني، الباب (٢٦).

(٣) المسند: ١/ ٣٨١.

(٤) السنن: ٤/ ٩، كتاب الطب، باب في تعليق التمائم، (٣٨٨٣).

(٥) سنن ابن ماجه: ٢/ ١١٦٦، (٣٥٣٠).

(٦) المستدرك: ٤/ ٤٦٣، (٨٢٩٠)، وقد وقع فيه: «التولية» بدل «التولة». وقال على شرط الشيخين.

(٧) في الكبير: ٨/ ٢٠٣، وهو في ضعيف الجامع: ٣٨١، (٢٥٨٣).

زيد، عن القاسم، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «ثلاثة من السحر: الرُّقى، والتمائم، والتِّوَل».

إلا أن علي بن زيد ضعيف.

ورواه الديلمي أيضًا، وقال: التِّول: ما يحبب المرأة إلى زوجها[1].

وقد قال أبو عبيد في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ [ك،٤٨/أ] «أنّ امرأة قالت لها: ألا أقيّد جملي؟. قالت: قلت: نعم. فلمّا علمت ما تريد قالت: وجهي من وجهك حرام»: تعني بقولها: أقيّد جملي: زوجها، وتقييده: أن تؤخّذه عن النساء غيرها.

قال: وإنما تكرّهَت[2] هذا لأنه سحر، وهو شبيه بقول عبدالله بن مسعود في التِّوَلة: «إنّها شرك»، إلا أنّ المؤخّذ من البغض، والتِّوَلة من الحبّ، وكلاهما من أنواع[3] السحر، قال ـ تعالى ـ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ الآية[4] [البقرة: ١٠٢].

ومن المعنى ما عند الإمام أحمد[5] وابن حبان[6] والحاكم[7] عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «من خبّب على امرىء زوجته فليس منا».

---

(١) الفردوس: ٢/ ١٠٢، (٢٥٤٣).

(٢) في «غريب الحديث»: كرهت.

(٣) «من أنواع» ليست في «غريب الحديث» المطبوع.

(٤) «غريب الحديث»: ٤/ ٣٢٩.

(٥) المسند: ٢/ ٣٩٧، بنحوه.

(٦) صحيح ابن حبان: ١٠/ ٢٠٥، (٤٣٦٣) بنحوه.

(٧) المستدرك: ٢/ ٢١٤، (٢٧٩٥).

وهو عند أبي داود[1] والحاكم[2] أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا، بسند صحيح، ولفظه: «ليس منّا من خبّب امرأة على زوجها، أو عبدًا على سيّده».

(وعن عبدالله بن عُكيم) بالتصغير، الجهني، أبو معبد، الكوفي، مخضرم، وقد سمع كتاب النبي - ﷺ - إلى جهينة قبل موت النبي - ﷺ - بشهر أو شهرين، في جلد الميتة وعصبها[3]، مات في إمرة الحجّاج. روى هذا الحديث عن النبي - ﷺ - مرفوعًا إليه، أنّه قال:

(«من تعلّق شيئًا وكل إليه» رواه) الإمام (أحمد)[4] فقال: حدثنا وكيع، حدّثنا ابن أبي ليلى، عن عيسى بن حمزة قال: دخلْنا على عبدالله بن عُكيم وهو مريض نعوده، فقيل له: لو تعلّقت شيئًا. فقال: أتعلّق شيئًا وقد سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من تعلّق شيئًا وُكِل إليه».

وعند أبي داود[5] بسنده، عن عيسى بن حمزة قال: دخلت على عبدالله بن عُكيم وبه حمرة، فقلت: ألا تعلّق تميمة؟. فقال: نعوذ بالله من ذلك، وقد قال رسول الله - ﷺ -: «من تعلّق شيئًا وكل إليه»؟.

ورواه الترمذي[6]، وقال: إنّما نعرفه مرفوعًا من حديث ابن أبي

---

(١) سنن أبي داود: ٢/ ٢٥٤، أول كتاب الطلاق، (٢١٧٥)، وصححه الألباني كما في الصحيحة برقم (٣٢٤).

(٢) المستدرك: ٢/ ٢١٤، (٢٧٩٥)، وقال: صحيح على شرط البخاري.

(٣) انظر سنن أبي داود: ٤/ ٦٧، (٤١٢٧)، والترمذي: ٤/ ٢٢٢، (١٧٢٩).

(٤) المسند: ٤/ ٣١١.

(٥) لم أجده في سننه.

(٦) سنن الترمذي: ٤/ ٤٠٣، كتاب الطب، باب ما جاء في كراهية التعليق، (٢٠٧٢).

ليلى، وقد صرّح بالسماع في رواية الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ.

وقد أُعِل رفعه، فهو دائر بين الوقف والإرسال؛ إذ الصحيح عدم سماعه كما تقدّم، [ر،١٠١/أ] وأنّه مخضرم[1]، ليس صحابيًا.

والحُمْرة: قال أهل اللغة: هي ورم معروف، من جنس الطواعين. قاله الخطّابي وغيره[2].

قال المصنّف ـ رحمه الله تعالى ـ: (التمائم) يعني في حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ هي (شيء يعلّق على الأولاد عن العين)[3] على ظنّ معلّقها أنها تؤثر وتدفع العين عن متعلّقها استقلالاً.

وفي الحديث قصة يحسن إيرادها، فعن زينب، امرأةِ عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ أنها قالت: إن عبدالله رأى في عنقي خيطًا فقال: ما هذا؟. قلت خيط رُقي لي فيه. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: أنتم آلَ عبدالله الأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنّ الرقى والتمائم والتِوَلة شرك». فقلت: لم تقول هكذا؟، لقد كانت عيني تقذف ـ أي تَرمي ـ بالرَمص[4] والماء من الوجع ـ على بناء

---

(١) «المخضرم»: الذي أدرك الجاهلية والإسلام، كأنما قطع نصفه حيث كان في الجاهلية، من قولهم: «ناقة مخضرمة»، وهي التي جدع نصف أذنها. انظر الأساس: ١٦٦.

(٢) انظر «القاموس»: ١/ ٥٣٨، ولم أعثر عليه في غريب الخطابي.

(٣) في المتن المطبوع: يعلق على الأولاد يتقون به عن العين.

(٤) يقال «غمِصت العين ورمِصت»، من الغمص والرمص، وهو البياض الذي تقطعه العين ويجتمع في زوايا الأجفان، والرمص: الرطب منه، والغمص: اليابس. النهاية: ٢/ ٢٦٣.

الفاعل، أو على بناء المفعول، أي تبلغ من غاية الألم إلى أنها كأنها تُرمى ـ، قالت: وكنت أختلف إلى آل فلان اليهودي، فإذا رقاها سكنت. فقال عبدالله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقى كفّ عنها، إنّما يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «أذهب البأس ربَّ الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا». رواه الإمام أحمد[1]، وأبو داود[2].

وقوله: «الأغنياء عن الشرك»، يريد أنّه لا حاجة بهم أن يستعملوا ما هو شرك، لِضرّهم أقرب من نفعهم، كما نبّه على ذلك عبدالله ـ رضي الله عنه ـ بأن الشيطان ينخسها بيده، أي يحرّكها ويؤذيها بها.

قال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ: [لكن] مستدركًا مما تقدم بقوله: (إذا كان المعلّق من القرآن، فرخص فيه بعضهم)[3] أي بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وكذا إذا كان من السنّة، منهم عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ، وعائشة أم المؤمنين، وغيرهما.

فروى أبو داود[4] والترمذي[5] ـ وحسّنه ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يعلّمهم من الفزع كلمات: «أعوذ بكلمات الله التامّات من غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات

---

(١) المسند: ١/ ٣٨، وهو في صحيح الجامع للألباني: ١/ ٢٠٩، برقم (٨٥٥).

(٢) السنن: ٤/ ٩، كتاب الطب، باب في تعليق التمائم، (٣٨٨٣).

(٣) في المطبوع: «بعض السلف».

(٤) سنن أبي داود: ٤/ ١٢، كتاب الطب، باب كيف الرقى، (٣٨٩٣).

(٥) سنن الترمذي: ٥/ ٥٤١، كتاب الدعوات، (٣٥٢٨). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣/ ١٧١، دون قوله: وكان عبدالله بن عمرو يلقنها من بلغ من ولده.. إلخ.

الشياطين، وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون». وكان عبدالله بن عمرو يعلمهنّ من عقل من بنيه، ومن لم يعقل كتبه وعلّقه عليه.

ورواه الإمام أحمد[1] والنَّسائي[2] عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ، وزاد النَّسائي في أوّله: «بسم الله».

وفي لفظ الترمذي: كان عبدالله بن عمرو يلقّنها من بلغ من ولده، ومن لم يبلغ منهم كتبها في صكٍّ، ثم علّقها في عنقه.

ورواه ابن أبي الدنيا[3] بنحو هذا اللفظ، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جدّه قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعلّمنا كلمات نقولهنّ عند النوم من الفزع: «بسم الله، أعوذ بكلمات الله التامّة من غضبه وعقابه، وشر عباده، ومن همزات الشياطين، وأن يحضرون».

قال: وكان [ر،١٠٢/ب] عبدالله بن عمرو يعلّمها من بلغ من ولده، ومن لم يبلغ أن يقولها كتبه فعلّقه عليه.

وذكر الإمام أحمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وغيرها من الصحابة، أنّهم سهّلوا في ذلك. ولم يشدّد فيه. يعني الإمام أحمد[4].

وقال ابن أبي الدنيا: حدّثنا عبدالرحمن بن صالح، حدّثنا يحيى بن آدم، عن إسرائيل، عن أبان بن ثعلب، عن يونس بن خبّاب قال:

---

(١) المسند: ٢/ ١٨١.

(٢) السنن الكبرى: ٦/ ١٩٠، (١٠٦٠١).

(٣) في كتاب العيال: ٨٦١، (٦٥٦).

(٤) انظر مسائل الكوسج: ٢/ ٢١٧، ومسائل أبي داود: ٢٦٠، نقلاً عن «المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد» لعبدالإله الأحمدي: ٢/ ١١٨. وانظر الفروع: ٢/ ١٣٧.

سألت أبا جعفر عن التعويذ يُعلّقُ على الصبيان؟. قال: لا بأس به[(١)].

ورواه عنه من وجه آخر أيضًا، وفيه: قال: نعم، إذا كان من كتاب الله، أو من كلامٍ عن النبي ـ ﷺ ـ، قال يونس بن خباب: وأمرني أن أستشفي به ما استطعت، فكتب لي كَتْبًا[(٢)] من الحمى الرِّبع[(٣)]: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرۡدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ إلى: ﴿ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء: [٦٩، ٧٠]، أللهم [ك،٤٩/ب] ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، اشف صاحب هذا الكتاب[(٤)].

وذكر الشيخ عبدالقادر الجيلاني في غنيته، عن الإمام أحمد أنه قال: حُممت فكُتب لي من الحمى: بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله، وبالله، محمدٌ رسول الله، ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرۡدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدًا فَجَعَلۡنَـٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ۝٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠]، اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، اشف صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك يا أرحم الراحمين[(٥)].

قلت: وأبو جعفر هذا هو محمد بن علي بن الحسين، الثقة العابد الفاضل، المسمّى بالباقر، رحمه الله ـ تعالى ـ، ورضي عنه، وعن

---

(١) كتاب العيال: ٨٦٢، (٦٥٧)، وسيُعرف المؤلف بأبي جعفر بعد قليل.

(٢) في «كتاب العيال»: «كتابًا».

(٣) في اللسان (٨/ ٩٩): (الرِّبع في الحُمّى: إتيانها في اليوم الرابع، وذلك أن يُحمّ يومًا ويترك يومين لا يُحمّ، ويحمّ في اليوم الرابع).

(٤) «كتاب العيال»: ٨٦٣، (٦٥٨).

(٥) الغنية: ١/ ٤٠.

صالح أهل بيته. قال في الفروع[1]: ولد سنة ست وخمسين.

وقال ابن أبي الدنيا: حدّثنا القاسم بن هشام قال: حدّثنا موسى بن داود، حدثنا هشيم، عن حجاج قال: أخبرني من رأى سعيد بن جبير يكتب التعاويذ[2].

وبسنده عن حجاج قال: سألت عطاءً عن ذلك فقال: إنما جاءنا كراهته من قبلكم يا أهل العراق[3].

قال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ: (وبعضهم لم يرخّص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم) عبدالله (بن مسعود) الهذلي، أبو عبدالرحمن، الصحابي المشهور، رضي الله عنه.

(قال إبراهيم)[4] بن يزيد النخعي[5] ـ وكان كثيرًا ما يروي عن أصحاب عبدالله بن مسعود ـ رحمهم الله ـ، كالأسْود، وعلقمة، ومسروق، وقد رأى النخعي عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهو صبي، وكان يكنّى بأبي عمران، وكان فقيه الكوفة، نسب إلى قبيلة النَّخَع ـ بفتح النون والخاء المعجمة، وبعدها عين مهملة ـ قبيلةٍ كبيرة من مذحج اليمن ـ قال: (كانوا) ـ يعني أصحاب عبدالله بن مسعود من أهل العراق ـ (يكرهون التمائم كلّها، من القرآن وغير القرآن)[6].

---

(١) الفروع: ١/ ٤٧١ و٤/ ٢١٩، ٢٢٠.

(٢) «كتاب العيال»: ٨٦٨، (٦٦٣).

(٣) السابق: ٨٦٨، (٦٦٤).

(٤) تأخر قول إبراهيم في المطبوع من المتن وشروحه إلى آخر الباب.

(٥) توفي سنة ٩٦هـ.

(٦) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٥/ ٣٦، (٢٣٤٦٧).

وعند ابن أبي شيبة بسنده، عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون الرُّقى والتمائم والنُّشرة[1] يعني أصحاب عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

قال جعفر: سمعت أبا عبدالله ـ يعني الإمام أحمد ـ سُئل عن النُّشرة فقال: ابن مسعود يكره هذا كلّه[2].

وسيأتي الكلام على النشرة [ر،١٠٢/أ] في بابها إن شاء الله ـ تعالى ـ، وبيانُ الجائز منها والمحظور.

وقال ابن منصور: قيل لأبي عبدالله: هل تعلّق شيئًا من القرآن؟. قال: التعليق كلّه مكروه، ومن تعلق شيئًا وُكل إليه[3].

وقال صالح لأبيه: هل تعلّق شيئًا من القرآن؟. قال: التعليق كلّه مكروه، وكان ابن مسعود يشدّد فيه[4].

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي العالية: لا تتّكل على غير الله، فيكللك إلى ما توكّلت عليه[5].

وعنده أيضًا عن هدّابٍ المصري قال: قيل لي في نومي: يا هدّابُ، توكّل على من يتوكلُ عليه المتوكلون قبلك، فإنّه ـ جل ثناؤه ـ لا يكل متكلاً عليه إلى غيره.

---

(١) المصنف: ٥/ ٣٦، (٢٣٤٧١)، وقد وقع فيه «النُّشَر» بالجمع.

(٢) نقله ابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٨٤ دار الكتب العلمية).

(٣) انظر الفروع لابن مفلح (٢/ ١٣٦).

(٤) الموضع السابق.

(٥) التوكل على الله لابن أبي الدنيا (٣٨) وأحمد في الزهد (ص٤٤) وهناد في الزهد (٨٥٥).

وقد قدّمنا عن الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ حكايته عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وغيرها من الصحابة أنّهم سهّلوا في ذلك، ولم يشدّد هو فيه، فلعل قوله هذا قَبْل أن يبلغه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وغيرها الرخصة في ذلك.

ولهذا قال الراوي: ولم يشدد فيه.

أو يحملُ كلامه هنا فيما إذا اتكل على غير الله ـ تعالى ـ، وهناك على ما إذا اتكل على الله ـ سبحانه ـ، وجعل ذلك من الأسباب التي يدفع الله بها، فهي من باب فعل الأسباب المباحة، المرتبط بها التوكّل على من بيده ملكوت كل شيء، الذي ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.

قال ابن مفلح[1]: وأما التميمة ـ وهي عوذة، أو خرزة، أو خيط ونحوه ـ فنهى الشارع عنه، ودعا على فاعله، وقال: «لا يزيدك إلا وهنًا»، «انبذها»، «ولو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»، روى ذلك الإمام أحمد[2] وغيره، والإسناد حسن.

قال القاضي أبو يعلى وغيره: يحرم ذلك.

وقال[3]: شبّه النبي ـ ﷺ ـ تعليق التميمة بمثابة أكل الترياق.

وقال أيضًا: يجوز حمل الأخبار على اختلاف حالين، فَنَهى عن ذلك إذا كان يعتقد أنها هي النافعة والرافعة عنه. قال: وهذا لا يجوز؛

---

(١) الفروع: ٢/ ١٧٣، ١٧٤ بتصرف يسير.

(٢) المسند: ٤/ ٤٤٥، وصححه ابن حبان (١٣/ ٤٤٩)، والحاكم (٤/ ٢٤٠). وضعفه الألباني كما في الضعيفة برقم (١٠٢٩).

(٣) أي القاضي أبو يعلى. انظر «الفروع»: ٢/ ١٧٣، ١٧٤.

لأنّ النافع والرافع هو الله ـ سبحانه ـ. والموضع الذي أجازه: إذا اعتقد أن الله ـ سبحانه ـ هو النافع والدافع، أو لعل هذا خرج على عادة أهل الجاهلية، كما كانوا يعتقدون أن الدهر يضرّهم، فكانوا يسبّونه، أو إنما كره ذلك إذا لم ينزل به البلاء، لأن النبي ـ ﷺ ـ إنّما رخّص في ذلك عند الحاجة.

قال: ولا بأس بكتب قرآن وذكر، ويسقى منه مريض وحاملٌ لعسرِ الولد. نص عليه الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ. لقول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في ذلك[1].

فمما يكتب لعسر الولادة في [جام][2] أو آنية نظيفة: بسم الله الرحمن الرحيم، لا إلٰه إلا الله الحكيم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦]، ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ثم يغسل فتسقى منه، وينضح بما بقي على صدرها[3].

وقال بعضهم: تكتب سورة الزلزلة.

---

(١) انظر «الفروع»، الموضع السابق.

(٢) «الجام: إناء من فضة، عربي صحيح»، كذا في اللسان: ١٢/ ١١٢، وقد كتبت في الأصل: «اجام».

(٣) ذكر الخلال عن الإمام أحمد، أنه كتبه لمن عسرت ولادتها. انظر زاد المعاد: ٤/ ٣٥٧. وقد رواه بنحوه ابن السني في عمل اليوم والليلة: ص ٢١٩، برقم (٦١٩) مرفوعا بإسناد فيه عبدالله بن محمد بن المغيرة، وهو ضعيف، كما في لسان الميزان: ٣/ ٣٣٢، كما رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٣٩) موقوفا على ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وقد ذكر ابن القيم في «زاد المعاد» (٤/ ٣٥٨) أن جماعة من السلف رخصوا في كتابة بعض القرآن وشربه، وصرح شيخ الإسلام ابن تيمية بجوازه كما في مجموع الفتاوى: ١٩/ ٦٤، ٦٥.

واستعمال [ر،١٠٣/ب] ذلك من الأسباب التي لا تخرج عن العبادة، بل هي قد تكون من التعبّد لله ـ جل وعلا ـ، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، فمن استشفى بكلامه ـ جل ثناؤه ـ [ك،٤٩/أ] الذي هو صفة من صفاته، فهو ممن أحسن عبادته، وصاحب هذا هو ممن قال الله فيهم: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية [الذاريات: ٥٠]، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

وقد ذكر ابن مفلح عن شيخه، شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ أنّ أعمال القلوب، كالتوكّل والصبر وغيرهما واجبة باتفاق الأئمة[١].

وروى ابن ماجه[٢] بإسناد كلُّهم ثقات، عن أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إني لأعرف كلمةً لو أخذ الناس بها كلُّهم لكفتهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾». وهو عند النسائي بمعناه[٣].

قال ابن مفلح[٤]: وروى جماعة في ترجمة موسى بن عمير ـ وهو كذّاب ـ عن إبراهيم عن الأسود عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «داووا مرضاكم بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، وأعدّوا للبلاء الدعاء»[٥].

---

(١) الفروع: ٢/ ٢٢٣.

(٢) سنن ابن ماجه: ٢/ ١٤١١، باب الورع والتقوى، (٤٢٢٠). وأورده الألباني في القسم الضعيف من السنن: ص ٣٤٧.

(٣) السنن الكبرى للنسائي: ٦/ ٤٩٤، (١١٦٠٣).

(٤) الفروع: ٢/ ١٨٢.

(٥) رواه البيهقي في الكبرى: ٣/ ٣٨٢، (٦٣٨٥).

قال: وكان جماعة من أصحابنا وغيرهم يفعلون هذا، وهو حسن، ومعناه صحيح.

قلت: وعند البيهقي والخطيب[١]، من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «داووا مرضاكم بالصدقة».

وكذا عند ابن حيان أبي الشيخ[٢]، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا بهذا اللفظ.

وكذا الطبراني رواه عنه بهذا اللفظ[٣].

وعند ابن أبي الدنيا أنّ صاحب إفريقية كتب إلى عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يشكوا إليه الهوام، فكتب إليه عمر: وما على أحدكم إذا أمسى وأصبح أن يقول: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ الآية[٤].

قال: وقال بعضهم: وهي تنفع من البراغيث[٥].

---

(١) تاريخ بغداد: ١٣/ ٢٠. وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٦٣٤، (٣٣٥٨).

(٢) في «الثواب» كما ذكر السيوطي في الجامع الصغير. ووقع في الأصل: «ابن حبان» بالموحدة، وهو خطأ.

(٣) في الأوسط: ٢/ ٢٧٤، (١٩٦٣)، ومسند الشاميين: ١/ ٣٤، (١٨)، والكبير: ١٠/ ١٢٨، ورواه أيضًا القضاعي في مسنده: ١/ ٤٠١، والبيهقي في الشعب: ٣/ ٢٨٢، ٢٨٣.

(٤) «التوكل»: ص ٧٥، ٧٦، (٢٨).

(٥) القائل هو زرعة الزبيدي، أحد رواة هذا الأثر.

(رواه وكيع) بن الجرّاح بن مليح الرُّؤاسي ـ بضم الراء وهمزة ثم مهملة ـ أبو سفيان، الكوفي، الثقة، الحافظ، الثبت، العابد.

قال الإمام أحمد: لو رأيتَ وكيعًا رأيتَ رجلاً لم ترَ عينُك مثله قط[1].

وقال الترمذي: سمعت أحمدَ بنَ الحسن يقول: سُئل أحمد بن حنبل عن وكيع وعبدالرحمن بن مهدي؟. فقال أحمد: وكيع أكبر في القلب، وعبدالرحمن إمام[2].

وقال يحيى بن معين: والله ما رأيت أحدًا يحدّث لله غير وكيع، وما رأيت رجلاً قط أحفظ منه، وهو كالأوزاعي في زمانه[3].

وقال الرازي: قدم ابن المبارك، فقلت: يا أبا عبدالرحمن، من خلّفت بالعراق؟. قال: وكيع. قلت ثم من؟. قال: ثم وكيع[4].

أسند عن الأئمة ما لا يُعدّ ولا يحدّ. وله من المصنفات ما لا يعد.

قال مروان [الطاطَري][5]: ما وصف لي أحد إلا رأيته دون الصفة إلا وكيع، فإني رأيته فوق ما وصف لي[6].

---

(١) تاريخ ابن معين: ٣/ ٥٥٦.

(٢) علل الترمذي: ٧٤٨، تحقيق أحمد شاكر.

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد: ١٣/ ٥٠٤، وأبو نعيم في الحلية: ٨/ ٣٧١.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية: ٨/ ٣٧١، وانظر سؤالات أبي عبيد الآجري: ١٠٠.

(٥) في الأصول: الظاهري، والصواب ما أثبته من المصادر، وهو مروان بن محمد الدمشقي الطاطَري، أبو بكر، من حفاظ الحديث، توفي سنة ٢١٠هـ، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي: ١/٣٤٨

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية: ٨/ ٣٧٠.

وقال سفيان الثوري وقد نظر إلى وكيع: لا يموت هذا الرُّواسي حتى يكون له شأن[1].

وقال يحيى بن معين: ذهب سفيان، وقعد وكيع مكانه[2].

[ر،١٠٣/أ] وكان يحيى يفضّله على سفيان الثوري ـ رحمهما الله تعالى ـ.

كان أوّاهًا صوامًا قواما، مات آخر سنة ست وتسعين ومائة، وله سبعون سنة.

(والرُّقى) بضم الراء، مقصور: جمع رُقْية ـ بضم فسكون ـ: العزائم، والمراد بالممنوع منها ما كان بأسماء الأصنام والشياطين، مما فيه شرك، أو لا يُعرف معناه، احتياطًا عن الشرك، لا ما كان بالقرآن، أو بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وما يؤثر عن رسول الله ـ ﷺ ـ في ذلك، أو يعرف معناه خاليًا من المحذور؛ إذ هذا لا يدخل في الرُّقى المنهي عنها.

ولهذا قال النبي ـ ﷺ ـ لمن رقى بالفاتحة سيّدَ الحي: «وما يدريك أنها رقية». وأمر أن يقسموا له من جُعلهم على ذلك قسما[3]. قيل: إن الرّاقي بها منهم أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، قاله ابن الجوزي[4] وغيره.

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد: ١٣/ ٤٩٩.

(٢) الموضع السابق.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٦٦، (٥٤٠٥)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٧٢٨، (٢٢٠١).

(٤) بل بينه الأعمش راوي الحديث، وغيره، انظر فتح الباري: ٤/ ٤٥٦.

قال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ: (الرُقى) المذكورة (هي التي تسمى العزائم).

قال الجوهري: العزائم هي الرُّقى[1]، قال الجميح[2] في فرسه:

تُعوّذ بالرُّقى بغير خبل ويُعقد في قلائدها التميم

فالعزائم هي الرقى.

وقال ابن فارس: العزائم آيات تُقرأ على المريض تُرجى بركتها[3].

ومنها التعوّذ.

(وخَصَّ منه) الضمير في (منه) إما أن يكون لدليل نهي العموم، أو للشأن والقصة.

(الدليل) الشرعي الخاص، وهو فاعل (خصَّ).

قال محمد بن أبي الفتح البعلي[4] في مختصر روضة موفق الدين ابن قدامة: لا نعلم خلافًا في جواز تخصيص العموم.

قال: وحدّ العام: هو اللفظ الواحد الدالّ على شيئين فصاعدًا مطلقا.

وقيل: العامّ كلام مستغرق لجميع ما يصلح له.

---

(١) الصحاح: ٥/ ١٩٨٥.

(٢) بل سلمة بن الخرشب الأنماري كما في المفضليات: ص ٤٠.

(٣) «مجمل اللغة»: ٢/ ٦٦٦.

(٤) شمس الدين، ت ٧٠٩هـ. انظر ترجمته ومؤلفاته في المقصد الأرشد: ٢/ ٤٨٥.

فالأوّل حدّه به أكثر الأصحاب، وبالثاني أبو الخطّاب[1] والرازي[2].

وقال المنقح في أصوله: هو اللفظ الدال على جميع أجزاء ماهيِّ مدلوله.

قال: والتخصيص قصر العام على بعض أجزائه.

وقيل: إخراج بعض ما تناوله الخطاب عنه.

قال: ويطلق على قصر لفظٍ غير عام على بعض مسمّاه.

والدليل في اللغة: المرشد إلى المطلوب.

وفي الشرع: ما يمكن التوصل بصحيح النظر إلى المطلوب الخبري[3].

وهو أيضًا بمعنى الدال عند الجمهور، إما كونَه مرشدًا حقيقة، أو به الإرشاد.

فالأول: إما الباري ـ تعالى ـ الذي هو الناصب لما به الإرشاد، أو رسوله ـ ﷺ ـ.

والثاني: كتاب الله، وسنة نبيّه ـ ﷺ ـ، وما نشأ عنهما من إجماع

---

(١) الكلوذاني انظر التمهيد: (٢/ ٥).

(٢) انظر «المحصول»: ١/ ٣٥٣.

(٣) كان حق العبارة: «ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه..». وتخصيصه المطلوب الخبري لا وجه له، فالدليل ما أوصل إلى المطلوب خبريًا كان أو عقليًا، وخاصته التلازم بينه وبين مدلوله.

أو تخصيص أو قياس صحيح، أو غير ذلك من الوجوه التي يمكن الاستدلال بها.

[ر،١٠٤/ب] (ما خلا من الشرك) فجملة ما خلا من الشرك هو المخصَّص من عموم النهي بالجواز، لصحة الدليل المخصِّص لذلك، وهو في موضع نصب لخصّ. وسيأتي إن شاء الله ذلك، وأنّه ليس الجواز مقصورًا على العين والحُمَة، ولكنهما من أدلة التخصيص.

ولهذا قال المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ كالمعلل لحكم التخصيص [ك،٥٠/ب] الذي ذكره: (فقد رخّص فيه رسول الله ـ ﷺ ـ) أي فيما خلا من الشرك.

والرخصة لغةً: السهولة، وشرعًا: ما ثبت على خلاف دليل شرعي، لمعارض راجح. قاله غير واحد[1].

وقيل: هي استباحة المحظور، مع قيام سبب الحاظر[2].

وسنورد الدليل في ذلك.

وعند الإمام أحمد وغيره، عن ابن عمر وجابر ـ رضي الله عنهم ـ مرفوعًا: «من لم يقبل رخصة الله ـ تعالى ـ كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة»[3]. وسنده حسن.

---

(١) انظر «كشاف القناع»: ١/ ١١٠.

(٢) انظر المغني: ٤/ ٥٨، والمبدع: ٤/ ١٤٠.

(٣) المسند: ٢/ ٧١ و ٤/ ١٥٨. وضعفه الألباني كما في الضعيفة برقم (١٩٤٩).

وعنده أيضًا في مسنده[1] هو والبيهقي في شُعبه[2]، وابن حبّان في صحيحه[3]، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنّه قال: «إنّ الله يحب أن تؤتى رخصُه كما يكره أن تؤتى معصيته».

وفي صحيح مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «عليكم رخصةَ الله التي رخّص لكم»[4].

(من العين) التي صدورها من الحسد، وقد تكون من نظرة الجنّ، ومنفذها غالبًا من العين؛ فإنها قد تكون بالوصف من غير رؤية، ولهذا كثيرًا ما تصدر من ضرير البصر، كما قد وجد ذلك كلُّه.

وكان يقال: عيون الجنّ أنفذ من أسنّة الرّماح[5].

وقد أخبر الله في كتابه العزيز أن الجنّ قد تتأتى منهم الأفعال، وأن لهم بطشًا وحركة.

ورُوي عن النبي ـ ﷺ ـ أخبارٌ صحيحة، أن للجنّ خطفةً وانتشارًا، وتأثيرًا في بني آدم، وأنّ العين حق.

ومن أقوى الأسباب في ذلك التحصّن بالاستعاذة بالله ـ سبحانه ـ، وبأسمائه الحسنى؛ فإن تأثيرات النفوس بعضِها في بعض لا ينكره ذو

---

(١) المسند: ٢/ ١٠٨. وصححه الألباني في «إرواء الغليل» برقم (٥٦٤).
(٢) ٣/ ٤٠٣، (٣٨٨٩).
(٣) ٦/ ٤٥١، (٢٧٤٢).
(٤) صحيح مسلم: ٢/ ٦٤٦، كتاب الصيام، باب (١٥)، حديث (١١١٥).
(٥) انظر «شرح السنة» للبغوي: ١٢/ ١٦٣.

حس سليم، ولا عقل مستقيم.

فترى النفس تؤثر أثرًا يعجز عنه البدن؛ بأن تنظر إلى الحجر العظيم فتشقَّه، وإلى حيوان كبير فتُتلفَه، أو إلى نعمة فتزيلَها؛ إذ هذا أمر قد شاهدته الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها، يسمّونه «إصابة العين»، فيضيفون الأثر إلى العين، وليس لها بالحقيقة، وإنما هو للنفس المتكيّفة بكيفيّة رديّة سُمّيّة، وذلك بتقدير العزيز العليم[(١)].

وقد يكون ذلك الفعل بواسطة العين، وقد لا يكون، بل بوصف للنفس، فيقع منها ذلك[(٢)].

وأنت ترى البدن القوي لا يؤثّر إلا فيما لاقاه وماسّه تأثيرًا مخصوصًا، لا كما تؤثر النفس، والنفسَ تقع منها التأثيرات العظيمة بلا مماسة[(٣)].

ويدل على هذا أمره ـ ﷺ ـ للعائن بغسل مغابنه [ر،١٠٤/أ] ومواضع القذر منه للمعيون، وصبِّه عليه[(٤)]، وهذه حكمة عظيمة.

وفي السنن[(٥)] عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ـ ﷺ ـ رأى

---

(١) عن كتاب الروح لابن القيم: ٢١٤، مع تصرف طفيف.

(٢) انظر «الروح»: ٢١٤.

(٣) انظر «الروح»: ٢١٤.

(٤) كما في مسند: ٣/ ٤٨٦.

(٥) بل في صحيح البخاري: ٥/ ٢١٦٧، كتاب الطب، باب رقية العين، (٥٤٠٧). ومسلم: ٤/ ١٣٧٧، كتاب السلام، باب (٢١)، حديث (٢١٩٧)، وسينبه المؤلف على هذا بعد قليل.

في بيتها جارية في وجهها سفعة، فقال: «استرقوا لها، فإن بها النظرة».

قال محي السنّة البغوي ـ رحمه الله تعالى ـ: يعني بالسفعة نظرةً من الجنّ، يقول: بها عين أصابتها من نظر الجنّ[1].

قلت: والسُّفعة حُمرة في الخدين إلى السواد. قال جرير يصف ثور وحش بعد وصفه لحماره:

كأنها قارح طارت عقيقته   يرعى السماوة أو طاوٍ به سَفَعُ[2]

وقد تكون هذه السفعة تُعطي[3] إلى الصفرة، كما فسّره الراوي في حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ، أن النبي ـ ﷺ ـ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة، قال: يعني صفرة. فإنها بعض الأحيان تكون صفرة بحمرة، لها كلحة ككلحة وجه حمار الوحش، من تصويح الشمس. والحديث في الصحيحين.

يقول: إن نظر الجن وقع عليها.

وكان ـ ﷺ ـ يتعوّذ من الجانّ، وعين الإنسان[4].

وقد تقدّم أنّ أصل العين من الحسد، فكل عائن حاسد، وليس كل حاسد [عائنًا][5]، فلما كان الحاسد أعمّ من العائن، كانت الاستعاذة منه؛ لأن

---

(١) «شرح السنة»: ١٢/ ١٦٣.
(٢) ديوانه: ١/ ٢٩٤.
(٣) أي تميل إلى الصفرة.
(٤) رواه الترمذي: ٤/ ٣٩٥، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، (٢٠٥٨). وهو في صحيح الجامع للألباني: ٢/ ٨٨٢، (٤٩٠٢).
(٥) في الأصل: «عائن»، والصواب ما أثبته.

العين تصدر منه[1]، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

فهي سهام تخرج من نفس الحاسد العائن، فإن صادفت المعيونَ مكشوفًا أثّرت فيه، كما تؤثر السهام في الذي لم يتدرّع بدرعٍ حصينة وأولى، وإن كان حذرًا شاكيَ السلاح متحصنًا بحصن الله ـ تعالى ـ الذي جعل الله له، لم تؤثر فيه، وربّما رُدّت على صاحبها، بمثابة الرمي الحسي سواء[2].

وقد يعين الرجل نفسه، وقد يعين بغير إرادته، بل بطبعه[3].

فمن استعمل العُوَذ الإلهية والنبويّة وجرّبها، عرف منفعتها، إذا توكّل مع ذلك على الحي الذي لا يموت، فإنها تمنع وصول العين، وترفعها بعد وصولها، كما قال شمس الدين، ابن قيم الجوزية[4].

ولكن ذلك بحسب قوّة إيمان قائلها، وقوّة نفسه، بالتوكّل على الله ـ سبحانه ـ؛ فإن ذلك سلاح، والسلاح بضاربه، فكيف بما جعله الله ورسوله تحصّنًا عن ذلك؛ إذ هو أبلغ من السلاح والحصن الحسي؛ إذ لا شيء أقوى في دفع ذلك من الإخلاص، والتوحيد في الإيمان، الذي هو فعل الأسباب مع التوكل على الكريم المنّان، العزيز ذي السلطان،

---

(١) بنّصه من «زاد المعاد»: ٤/ ١٦٧، من قوله: فكل عائن حاسد، والظاهر أن ابن القيم أراد بهذه القاعدة الغالب؛ وإلا فإنه قد فصّل القول في هذه المسألة في بدائع الفوائد: ٢/ ٤٥٤ بأبسط مما في زاد المعاد، وقررها هناك أن بين العين والحسد عموماً وخصوصاً من وجه، بدليل أن العائن ربما يَعين نفسه، وهو لا يحسدها.

(٢) «زاد المعاد»: ٤/ ١٦٧، بتصرف.

(٣) «زاد المعاد»: ٤/ ١٦٧، ١٦٨.

(٤) السابق: ٤/ ١٧٠.

الذي جميع ما يصدر في الكون بقضائه وتقديره؛ إذ لا يخرج عن حكمه الكوني شيء، و﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

(والحُمة)، الحُمة ـ بضمّ المهملة ـ [ر،١٠٥/ب] وقد ذكرنا تعريفها كما سبق في حديث بريدة بن الحصيب ـ رضي الله عنه ـ.

وفي البخاري وغيره، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: رخّص رسول الله ـ ﷺ ـ [ك،٥٠/أ] في الرقية من كلّ ذي حُمة[(١)].

وفيه أيضًا عنها قالت: أمرني رسول الله ـ ﷺ ـ أو أمر أن يُسترقى من العين[(٢)].

وفي البخاري أيضًا عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: أذن رسول الله ـ ﷺ ـ لأهل بيت من الأنصار أن يرقوا من الحمة والأُذن[(٣)].

والأُذْنُ وجع يكون بها.

وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كنّا نُرقى في الجاهلية، فقلنا يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟. فقال: اعرضوا عليّ، لا بأس بالرُّقى ما لم يكن فيها شرك[(٤)].

وفي صحيح مسلم أيضًا، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: رخص

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٦٧، كتاب الطب، باب رقية الحية والعقرب، (٥٤٠٩)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٥، كتاب السلام، باب (٢١)، حديث (٢١٩٣).

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٦٦، كتاب الطب، باب رقية العين، (٥٤٠٦).

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٦٢، كتاب الطب، باب ذات الجنين، (٥٣٨٩).

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٨، كتاب السلام، باب (٢٢)، حديث (٢٢٠٠).

رسول الله ـ ﷺ ـ في الرّقية من العين والحمة والنملة[1].

فهذه رخصة عامّة، مقيّدة بخلوّها عن الشرك، كما في حديث عوف ابن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وهو حديث صحيح.

وعند مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: نهى رسول ـ ﷺ ـ عن الرُّقى، فجاء آل عمرو بن حزم فقالوا: يا رسول الله، إنّه كانت عندنا رقية نرقي بها من العقرب، قال: فعرضوها عليه فقال: ما أرى بأسًا، من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعْه[2].

فهذا يدل على أن الرقى المنهيّ عنها ما كان فيها شرك، وأن المرخّص فيه ما خلا من ذلك.

ولهذا لما سأله ـ ﷺ ـ الذين أخذوا قطيعًا من الغنم على رقية سيّد الحي بفاتحة الكتاب حين لدغ، كما في الصحيحين عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: فضحك، وقال: وما أدراك أنها رقية، خذوها واضربوا لي بسهم[3].

وفي غير الصحيحين، في حديث أبي سعيد، لما قال رسول الله ـ ﷺ ـ للراقي: وما أدراك أنها رقية؟. قال: يا رسول الله، شيء ألقي في رُوعي[4].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٦، كتاب السلام، باب (٢١)، حديث (٢١٩٥)، والنملة: قروح تخرج في الجنب. انظر النهاية: ٥/ ١١٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٨، كتاب السلام، باب (٢١)، حديث (٢١٩٩).

(٣) صحيح البخاري: ٢/ ٧٩٥، برقم (٢١٥٦)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٩، (٢٢٠١).

(٤) أخرجه أحمد في المسند: ٣/ ٥٠، والدارقطني في سننه: ٣/ ٦٤، (٢٤٦).

وفي رواية ابن عباس عند الشيخين: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»[1].

وقال الربيع: سألت الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ عن الرقية. فقال: لا بأس أن يُرقى بكتاب الله، وبما يُعرف من ذلك. قلت: أيرقي أهل الكتاب المسلمين؟. قال: نعم، إذا رقوا بما يعرف من كتاب الله، وبذكر الله. انتهى[2].

وفي موطأ مالك ـ رضي الله عنه ـ أنّ أبابكر قال لليهوديّة التي كانت ترقي عائشة: ارقيها بكتاب الله[3].

وروى ابن وهب عن الإمام مالك كراهية الرقية بالحديدة والملح، وعقد الخيط، والذي يكتب خاتم سليمان. وقال: لم يكن ذلك من أمر الناس القديم[4].

قال المازري: وكره الإمام مالك رقية أهل الكتاب؛ لئلّا يكون مما بدّلوه من كتاب الله[5].

قال [ر،١٠٥/أ] الحافظ ابن حجر وغيره في رقية أهل الكتاب: والحق أنّه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص[6]، جمعًا بين الآثار.

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٦٦، كتاب الطب، باب الشرط في الرقية..، (٥٤٠٥)، ولم أجده في صحيح مسلم.
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى: ٩/ ٣٤٩.
(٣) الموطأ: ٩٤٣، كتاب العين، باب التعوذ، حديث (١١).
(٤) ذكره الحافظ في الفتح: ١٠/ ١٩٧.
(٥) بمعناه، انظر «المعلم بفوائد مسلم»: ٣/ ٩٥..
(٦) الفتح: ١٠/ ١٩٧.

وسئل ابن عبدالسلام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ عن الحروف المقطّعة، فمنع منها ما لا يُعرف؛ لئلا يكون فيه كفر(١).

قال الحافظ ابن حجر: وقد أجمع العلماء على جواز الرُّقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

ـ إما(٢) أن يكون بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته.

ـ وباللسان العربي، أو بما يُعرف معناه من غيره.

ـ وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها(٣).

ولعل مراده استقلالاً، بل بتقدير العزيز العليم؛ إذ هي أسباب، وهو ـ سبحانه ـ مسبب الأسباب، كما قال ـ تعالى ـ لرسوله ـ ﷺ ـ في مادة الأسباب: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فأسند حقيقة الرمي إلى الله ـ سبحانه ـ؛ إذ هو الموصل له بقدرته ـ تعالى ـ، وأيضًا هو الذي خلق القُوى في الإنسان وغيره، فالكل خلقُه وإيجاده، وذلك صادر عن حكمته وتقديره وتدبيره، مع إثبات السبب.

وإسناد الرمي السببي إليه ـ ﷺ ـ مجازي(٤)؛ إذ هو ـ سبحانه ـ في

---

(١) انظر الفتح: ١٠/ ١٩٧.

(٢) [إما] ليست في الفتح.

(٣) الفتح: ١٠/ ١٩٧.

(٤) بل حقيقي؛ فإن الله ـ تعالى ـ أثبت له في الآية رميًا، ولما كان الرمي يتناول الحذف، كما يتناول الإيصال، أثبت الله له الحذف حقيقة، كما وقع يوم بدر من النبي ـ ﷺ ـ حين حصب المشركين، وأوصل الله ـ تعالى ـ بقدرته التراب إلى عيونهم، ولما كان هذا الإيصال غير مترتب على حذفته، بل على قدرة الله =

الحقيقة مسبب الأسباب ومكوّنها، وجاعل القُوى والتأثيرات في الطبائع.

وأمّا ما رواه الإمام أحمد[1]، وأبو داود[2]، والنسائي[3]، وابن حبّان وصحّحه[4]، والحاكم[5]، من رواية عبدالرحمن بن حرملة، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه كان ـ ﷺ ـ يكره عشر خصال، فذكر منها: الرُّقى إلا بالمعوّذات، فعبدالرحمن بن حرملة قال البخاري: لا يصح حديثه[6]، وقال الطبراني: لا يُحتج بهذا الخبر؛ لجهالة راويه، وقال علي بن المديني ليحيى بن معين: ما رأيت من عبدالرحمن بن حرملة؟. قال: لو شئت أن ألقّنه لفعلت. قال علي: كان يُلقَّن؟. قال: نعم[7].

وعلى تقدير صحته، فهو منسوخ بالإذن والرخصة الصحيحة الصريحة في الرقية.

وقد يشبه أن يكون أصله كحديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ الذي

= الخارقة، نفاه عنه بقوله ﴿وما رميت﴾، ويلزم مما ذهب إليه المؤلف هنا في سبب نفي الرمي عنه في الآية أن يطّرد ذلك في سائر الأفعال التي خلقها الله فيه، فيقال: وما مشيت إذ مشيت ولكن الله مشى.. إلخ، وذلك باطل قطعًا. انظر «منهاج السنة»: ٣/ ٢١٨، ٢١٩، و«زاد المعاد»: ٣/ ١٨٢، ١٨٣.

(١) المسند: ١/ ٤٣٩.

(٢) السنن: ٤/ ٨٩، (٤٢٢٢).

(٣) سنن النسائي: ٨/ ١٤١، (٥٠٨٨).

(٤) صحيح ابن حبان: ١٢/ ٤٩٥، (٥٦٨٢).

(٥) المستدرك: ٤/ ٢١٦، (٧٤١٨).

(٦) التاريخ الكبير: ٥/ ٢٧٠، وفيه: (لم يصح حديثه).

(٧) رواه العقيلي في الضعفاء: ٢/ ٣٢٨، والترمذي في العلل: ١/ ٧٤٤.

رواه الترمذي وحسنه[1]، والنسائي[2] أيضًا، قال: «كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتعوّذ من الجانّ، وعين الإنسان، حتى نزلت المعوّذتان، فأخذ بهما، وترك ما سواهما». إذ هذا لا يدل على المنع.

وقد صح في البخاري وغيره، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه ـ ﷺ ـ كان يعوّذ الحسن والحسين بكلمات الله التامّة، من كلّ شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة[3].

وفيه أيضًا عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوّذات، [ر،١٠٦/ب] ومسح عنه بيده، [ك،٥١/ب] فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه، طفقت أنفث على نفسه بالمعوّذات، وأمسح بيده ـ ﷺ ـ اليمنى[4].

وروى الترمذي ـ وصحّحه ـ عن خولة بنت حكيم ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق، لم يضرّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»[5].

وعند أبي داود[6] والنسائي[7] بسند صحيح عن سهيل بن أبي صالح،

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٣٩٥، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، (٢٠٥٨). وهو في صحيح سنن الترمذي للألباني: ٢/ ٢٠٦.

(٢) السنن الكبرى: ٤/ ٤٤١، (٧٨٥٣).

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٣٣، (٣١٩١)، كتاب الأنبياء، باب (١٢).

(٤) صحيح البخاري: ٤/ ١٦١٤، المغازي، باب (٧٨)، حديث (٤١٧٥).

(٥) سنن الترمذي: ٥/ ٤٩٦، الدعوات: باب (٤١)، حديث (٣٤٣٧)، والحديث رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٦٥٢، كتاب الذكر . . ، باب (١٦)، حديث (٢٧٠٨).

(٦) سنن أبي داود: ٤/ ١٣، الطب، كيف الرقى، حديث (٣٨٩٨).

(٧) السنن الكبرى: ٦/ ١٥٢، (١٠٤٢٣).

عن أبيه، عن رجل من أسلم قال: جاء رجل فقال: لُدغت الليلة. فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامّة من شر ما خلق لم تضرّك»[1].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة موجودة.

لكن يحتمل أن يُقال: إن الرقى أخصّ من التعوّذ، وإلا فالخلاف في كل ما وقع وما يتوقّع، إذا لم تجعل الرقى أخصَّ من التعوّذ.

وأمّا قوله في حديث بريدة بن الحصيب، المتقدّم في الصحيحين: «لا رقية إلا من عين أو حُمة»، وهو عند أهل السنن بهذا اللفظ، فتقدم الكلام عليه[2].

ويدل على ما ذكرنا: إذنه ـ ﷺ ـ في رقية الأذن والنملة[3]، مع ما في الأحاديث العامّة.

وعند أبي داود عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا رقية إلا من عين أو حُمة أو دم»[4].

وقد قال ابن التين: الرّقى بالمعوّذات وغيرها من أسماء الله ـ تعالى ـ هو الطبّ الروحاني، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق، حصل الشفاء بإذن الله ـ تعالى ـ.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم: ٤/ ١٦٥٢، برقم (٢٧٠٩).

(٢) راجع ص ٣١٩.

(٣) انظر الإذن في رقية النملة في سنن أبي داود: ٤/ ١١، (٣٨٨٧)، والمستدرك: ٤/ ٦٣، (٦٨٨٨). أما رقية الأذن فرواها البخاري معلقه: ٥/ ٢١٦٢، (٥٣٨٩).

(٤) سنن أبي داود: ٤/ ١١، الطب، ما جاء في الرقى، (٣٨٨٩). وهو في صحيح الجامع: ٢/ ١٢٤٧، (٧٤٩٦).

قلت: كما رقى جبريل وميكائيل النبي - ﷺ - بالمعوّذتين من السحر[1]، لمّا أُخذ عن نسائه، وسيأتي في النشرة إن شاء الله.

قال ابن التين: فلما عزّ هذا النّوع، فزع الناس إلى الطبّ الجسماني، وتلك الرقى المنهى عنها، التي يستعملها المعزِّم وغيره، ممن يدّعى تسخير الجنّ له، فيأتي بأمور مشبّهة مركّبة من حق وباطل، يجمع إلى ذكر الله - سبحانه - وأسمائه ما يُشعر أنّه من ذكر الشياطين، والاستعانة بهم، والتعوّذ بمردتهم.

ويقال: إن الحيّة لعداوتها للإنسان بالطبع تصادق الشياطين، أعداءَ بني آدم، فإذا عزّم على الحيّة بأسماء الشياطين أجابت، وخرجت من مكانها.

وكذا اللديغ إذا رُقي بتلك الأسماء سالت سمومها من بدن الإنسان، فلذلك كُره من الرُّقى ما لم يكن بذكر الله - تعالى - وأسمائه وصفاته خاصة، وباللسان العربي الذي يُعرف معناه؛ ليكون بريًّا من شوب الشرك.

قال: وعلى كراهة الرُّقى بغير كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - علماءُ الأمّة[2].

وقد مرّ الدليل على جواز ما خلا من الشرك بأوضح عبارة.

وقال شمس الدين، ابن قيّم الجوزيّة - رحمه الله تعالى -: إذا ثبت أنّ لبعض الكلام خواصّ ومنافع - يعني كالرقى التي أجازها [ر،١٠٦/أ]

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١١٩٢، (٣٠٩٥) وصحيح مسلم: ٤/ ١٧٢٠، (٢١٨٩).

(٢) نقله عنه الحافظ في الفتح: ١٠/ ١٩٦.

النبي ـ ﷺ ـ حين عرضت عليه، وكرقية النملة التي أمر الشِّفاء أن تعلّمها حفصةَ أمَّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، فما الظنّ بكلام رب العالمين، ثم بفاتحة الكتاب، التي لم ينزل في القرآن العظيم، ولا غيره من الكتب التي أنزلها الله مثلها؛ لتضمّنها جميع معاني الكتاب العزيز، فقد اشتملت على ذكر أصول أسماء الله ـ تعالى ـ، ومجامعها، وإثبات المعاد، وذكر التوحيد، والافتقار إلى الرب ـ تبارك وتعالى ـ في طلب الاستعانة والهداية منه، وذكر أفضل الدعاء، وهو طلب الهداية منه ـ سبحانه ـ إلى الصراط المستقيم، ولتضمنها كمال معرفته وتوحيده وعبادته ـ تعالى ـ، بفعل ما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، والاستقامة عليه، ولتضمنها ذكر أصناف الخلائق، وقسمتهم إلى منعَم عليهم، لمعرفتهم بالحق والعمل به، ومغضوبٍ عليهم؛ لعدولهم عن الحق بعد معرفته ـ يريد اليهود ومن شابههم من هذه الأمّة ـ، وضالّين لعدم معرفتهم له ـ وهم النصارى ـ ومن شابههم في طريقتهم نستعيذ بالله من ذلك ـ، مع ما تضمّنته من إثبات القدر والشرع، والأسماء والمعاد، والتوبة، وإصلاح العمل والقلب، والردّ على جميع أهل البدع، من جميع الفرق.

وحقيق بسورة هذا بعض شأنها أن يُستشفى بها من كل داء[1].

وقد مر بعض الكلام على الرقية، وبعض ما يتعلّق بها، في حديث حصين بن عبدالرحمن، في «باب من حقق التوحيد»[2].

---

(١) باختصار من «زاد المعاد»: ٤/ ١٧٧، ١٧٨.

(٢) راجع ص ٣١٩.

(والتِّوَلة) هو بكسر المثنّاة من فوق، وفتح الواو واللام، نوع من السحر، وحاصله [شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبّب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته]، ولهذا سمّي شركًا؛ لأنّه من أفعال المشركين، أو لأنه يفضي بصاحبه إلى الشرك، إذا اعتقد أن له تأثيرًا حقيقة، استقلالاً من دون الله ـ تعالى ـ؛ إذ غالب من يفعله يعتقد ذلك، نعوذ بالله من الخذلان.

وقيل: المراد بذلك الشرك الخفي، بترك التوكل على الله ـ تعالى ـ، وعدم الاعتماد عليه ـ سبحانه ـ؛ إذ التوكل على الله خلاصة التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ [المائدة: ٢٣]. وسيأتي كلام سعيد بن المسيّب ـ رحمه الله تعالى ـ، في معنى بعض ذلك، في «باب النشرة» إن شاء الله ـ تعالى ـ.

وبالجملة يكفي اللبيبَ في ذلك زجْرًا تسميتُه ـ ﷺ ـ شركًا.

(وروى الإمام أحمد) في مسنده[1] (عن رُويفع) بالفاء، وضمّ أوّله مصغّرًا، ابن ثابت بن السكن بن عدي بن حارثة الأنصاري المدني، سكن مصر ـ رضي الله عنه ـ، وولي إمرة برقة، ومات سنة ست وخمسين، وله صحبة، ورواية. روى عنه أهل مصر نحو عشرة أحاديث.

(قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: يا رويفع، لعل الحياة ستطول [ك،٥١/أ] بك) وقد عُمّر ـ رضي الله عنه ـ إلى رأس الستّين، وهذه معجزة من معجزاته ـ ﷺ ـ، وإن كانت بصيغة الترجّي، فلهذا أمره ـ ﷺ ـ بقوله: (فأخبر الناس أنّ من عقد لحيته) والمراد العقدُ المعلوم، لزعمه أنّ عقده لها يدفع عنه بلاء كالعين، كما أشار إلى ذلك في

---

(١) المسند: ٤/ ١٠٨.

«مجمع البحار في غريب [ر،١٠٧/ب] الآثار»[١].

ومن حمله على غير ذلك، كقول من يقول: إنّه معالجتها حتى تتعقّد وتتجعّد فقد أبعد النجعة؛ إذ هذا لا يحتمله اللفظ؛ فإنّه لم يأت لفظ «عقّد» بالتشديد بصيغة التكثير في هذا الخبر، ولم يرو بذلك، وإنّما هو بصيغة «قطَع»، لا بصيغة «قطّع».

وأيضًا هذا الفعل لا يستوجب البراءة من النبي -ﷺ-، وهو بصورته إلى إكرام اللحية المأمور به أقرب منه إلى ضدّه.

وإن كانت العرب تفعله فليس هو المقصود بقوله -ﷺ- في هذا الحديث.

وكذا من حمله على أنّهم كانوا يعقدونها في الحروب تكبّرًا وتعجّبًا؛ فإن ذلك ليس فيه ما يعطي العجب ولا التكبّر عند العرب، وكيف وطول اللحية وصغر الرأس عندهم عيب.

وإنما المراد ما يفعلونه لدفع العين، كما ذكرنا ذلك عن «مجمع البحار»، ولم يذكر غيره؛ لإعراضه عما سواه من الأقوال.

ولهذا قال -ﷺ-: (فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلّد وتَرًا) بالتحريك والفتح، وهو وتَر القوس، وجمعه: «أوتار»، قال جرير:

لـن تستطيـع بتيـم أن تغـالبنـي ... حين استحنّ جذاب النبعة الوترُ[٢]

---

(١) انظر مجمع البحار: ٣/ ٦٣٦.

(٢) ديوانه: ٢١٢.

وحنين الوتَر: طنينه ورنّتُه إذا رُمي به، عند مراهنة الرجلين أيّهما أبعد رمية.

(أو استنجى برجيع دابّة أو عظم فإن محمّدًا بريء منه)[1].

لمّا كان أهل الجاهلية يعتقدون أنّ عقد اللحية وتقلّد الأوتار يدفع عنهم بزعمهم العين ونحوها من المكاره، فنُهوا عن ذلك، وأعقبه - ﷺ - في هذا الحديث بالبراءة من ذلك الفعل.

وقد تقدّم النهي عمّا هو في معنى عقد اللحية لدفع العين، من تعليق التمائم، وتقلّد الأوتار المقرون بعقدها ههنا، ومتى حصلت هذه العلّة في شيء دار الحكم معها؛ لأن الحكم يدور بدوران العلّة.

وقوله: (فإن محمدًا بريء منه) أي من فعل ذلك كلّه، كقوله - ﷺ -: «أللهم إني أبرأ إليك ممّا صنع خالد»[2].

أو من عهدة ما لزمه - ﷺ - بيانه وتبليغه.

أو مما يستوجب فاعله.

ونبّه بهذه المذكورات على ما في معناها، أو معنى البراءة، كما في صحيح مسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - مرفوعًا: «أنا بريء ممّن حلق وسلق وخرق»[3]؛ إذ لا يكون فاعل ذلك في فعله متابعًا

---

(١) ورواه أبو داود: ١/ ٩، الطهارة، باب ما ينهى عنه أن يستنجى به، (٣٦)، والنسائي: ٨/ ١٣٥، باب عقد اللحية، (٥٠٦٧). وهو في صحيح الجامع: ٢/ ١٣١٠، (٧٩١٠).

(٢) رواه البخاري: ٤/ ١٥٧٧، (٤٠٨٤).

(٣) صحيح مسلم: ١/ ٩٥، (١٠٤)، الإيمان، باب (٤٤)، ومعنى «سلق»: رفع صوته عند المصيبة. انظر النهاية: ٢/ ٣٩١.

للنبي ـ ﷺ ـ، بل مجانبًا له في ذلك الفعل.

أو إنّما أراد البراءة ـ ﷺ ـ من مساواته في ذلك الحكم والفعل، كما قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ لمّا شاطره عمر ـ رضي الله عنه ـ ماله الذي أتى به من البحرين، ثم دعاه إلى العمل فأبى، فقال له عمر: إنّ يوسف ـ عليه السلام ـ قد سأل العمل. فقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: إنّ يوسف منّي بريء، وأنا منه براء، وأخاف ثلاثًا واثنتين. قال عمر: أفلا تقول «خمسًا»؟. قال: أخاف أن أقول بغير حكم، وأقضي بغير علم، وأخاف أن يُضرب [ر،١٠٧/أ] ظهري، وأن يُشتم عرضي، وأنْ يؤخذ مالي[١].

فلم يُرد أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ في هذا براءة ولاية الدين، وكيف يتبرّأ من نبي هو مأمور بموالاته، مفروض عليه الإيمان به، والتصديق بنبوّته؟ وإنما أراد به البراءة عن مساواته في الفعل والحكم[٢].

وقسم الخمس قسمين، ولم يقل «خمسًا» كما قال عمر؛ لأن [الأُوليين][٣] من الحق عليه، وخاف أن يضيّعه، والثلاث الأخر من الحق له، خاف أن يظلمه، فجعله قسمين ليكون أزين[٤] للقول، وأبلغ في العذر.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: ٢/ ٣٧٨، (٣٣٢٧)، وقال إسناده صحيح على شرط الشيخين. ورواه أيضًا ابن سعد في الطبقات: ٤/ ٣٣٥، وليس فيه ذكر البراءة من يوسف. وإنما فيه: إن يوسف نبي ابن نبي ابن نبي.... والبراءة مذكورة في رواية الخطابي كما يأتي.

(٢) عن «غريب الحديث» للخطابي: ٢/ ٤٣٣.

(٣) في الأصل: «الأولتين» وليس بصحيح، وما أثبته هو المثبت، في «غريب الحديث».

(٤) في «غريب الحديث»: «أبين».

وقد رواه الخطّابي[1] بسند صحيح عن ابن سيرين، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وهو حديث مشهور عند غيره من أهل المسانيد.

ومنع ـ ﷺ ـ الاستنجاء بالرجيع والعظم من أجل تقذيره على مؤمني الجن ودوابّهم.

وقصّتهم مع النبي ـ ﷺ ـ لما أتاه وفدهم معلومة مشهورة، وفي دواوين المحدّثين مثبتة مسطورة، بأن كل عظم يُذكر اسم الله عليه يُكسى لهم أوفر ما كان لحمًا، ورجيع دوابّ الإنس علف لدوابّهم.

وحَمل بعض أهل العلم الحديث الذي في السنن، كالترمذي[2] وغيره من أهل السنن: «كلُّ عظم لم يذكر اسم الله عليه يُكسى لهم أوفر ما كان لحمًا»، على الكفّار منهم، وحديث الصحيحين[3]: «كل عظم يُذكر اسم الله عليه» إلخ، على مؤمنيهم.

ورجّح ذلك السهيلي[4] وغيره.

فلذلك حرم الاستنجاء بالعظم والرجيع.

وفي هذا ردّ على من زعم أنّ الجنّ لا تأكل ولا تشرب، وصرفوا الحديث عن ظاهره.

فهذا من كبائر الذنوب، وذاك من صغائر الشرك، وصغيرة الشرك

---

(١) في غريب الحديث: ٢/ ٤٣٢.
(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٣٨٢، (٣٢٥٨)، وليس فيه: «لم يذكر..».
(٣) لم أجده في صحيح البخاري، وهو في صحيح مسلم: ١/ ٢٧٨، برقم (٤٥٠).
(٤) «الروض الأنف»: ٤/ ٥٨.

أكبر من كبيرة الكبائر، ولذلك قدّم ذكر الشرك؛ للاهتمام بشأنه.

وقد قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وسيأتي في المتن ـ: لأن أحلف بالله كاذبًا أحبُّ إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا[١].

(وعن سعيد بن جبير) التابعي المشهور، قتله الحجّاج ظلمًا.

(قال: من قطع تميمة من إنسان) وهي خرزات أو طلسمات تُعلّق على الأطفال وغيرهم اتّقاء العين، وأمّا ما يكتب من القرآن والتعوذات النبويّة والسلفيّة فقد تقدّم عن سعيد بن جبير هذا جوازُه، وكتْبُه لها، وجوّزه كثير من السلف، كما مرّ عن عبدالله بن عمرو، وعائشة، وغيرهما، [ك،٥٢/ب] إذا لم يكن ذلك قادحًا في التوكّل، ومنعه أصحاب عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ من أهل العراق كما مر.

(كان له) من الثواب (كعِدْل رقبة)، أي له من الثواب مثل عِدْل رقبة.

والكاف في هذا التأويل اسم بمعنى المثل، والعِدْل ـ بفتح العين المهملة وكسرها: لغتان ـ وهو المثل، وقيل بالفتح ما عدل الشيء من جنسه، وبالكسر ما ليس من جنسه، وقيل بالعكس.

وقد جاء في إعتاق الرقبة أن جزاءه العتقُ من النار[٢]، وهو يتوقف

---

(١) رواه الطبراني في الكبير: ٩/ ١٨٣، وقال في المجمع (٤/ ١٧٧): ورجاله رجال الصحيح. ورواه عبدالرزاق في المصنف: ٨/ ٤٦٩، (١٥٩٢٩) بشك في نسبته بين ابن مسعود وابن عمر. ورواه ابن حزم في المحلى (٨/ ٣٣) عن مجاهد عن ابن مسعود جزمًا.

(٢) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق =

على مغفرة الذنوب كلّها، صغيرِها وكبيرها، بل وسابقها ولا حقها، ما خلا الشرك الأكبر، والله أعلم.

والمراد [ر،١٠٨/ب] بالرقبة: المسلمةُ؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ وذلك لإعتاقه إيّاه من عمل الشيطان، بقطعها عنه؛ لأن ذلك يضادّ التوكّل على العزيز المنّان، الذي له الخلق والأمر، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا إله إلا هو، خالق كل شيء، وهو الواحد القهّار.

(رواه وكيع)[1] بن الجرّاح، الحافظ المشهور، المتقدّم ذكره.

= الله بكل عضو منه عضوًا من النار، حتى فرجه بفرجه». أخرجه البخاري: ٦/ ٢٤٦٩، (٦٣٣٧)، ومسلم (١٥٠٩).

(١) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٥/ ٣٦، (٢٣٤٧٣).

الباب الثامن

باب من تبرّك بشجر أو حجر ونحوهما

لما ذكر ـ رحمه الله ـ ما يستعمله الإنسان في بدنه من الخيط والحلْقة والرُّقى والتمائم، ذَكر ما يُتبرّك به من الشجر والحجر والتعليق على ذلك، ونحو ذلك.

وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩ـ ٢٣].

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾: كلمة استفهام، ومعناها: أخبروني عن هذه الأصنام التي تعبدونها، وتعتقدون أنها آلهة، هل فعلت ما فعل الله، من خلق السموات السبع، والأرضين السبع، وما فيهما من الحيوانات والنبات، وجلب الأرزاق؟.

فإذا أقررتم أنّها لم تفعل شيئًا من ذلك، فلم تعبدونها من دونه؟.

قرأ مجاهد: «اللاتّ»، بالتشديد للتاء، قال: كان رجلاً يلتّ السويق للحاجّ بالزيت، ويطعم الناس[١].

---

(١) رواه ابن جرير الطبري: ٢٧/ ٥٨. ورواه البخاري عن ابن عباس: ٤/ ١٨٤١، التفسير، باب ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾، (٤٥٧٨).

وقال السدي: كان رجلاً يقوم على آلهتهم، ويلت السويق لهم[1].

ويقال: كانت حجارة يعبدونها، وينزل عندها رجل يبيع اللتّ، أي السويق الملتوت، فسمّيت تلك الحجارة «اللات».

ولهذا قال [الطبري][2] بعد روايته لقول عمر ـ رضي الله عنه ـ لمّا قبّل الحجر الأسود: «إني لأعلم أنك حجر، لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يقبلك ما قبّلتك»[3]: إنما قاله لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأوثان، فخاف أن يظنّ الجهّال أنّ استلامه تعظيم للأحجار، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية، فأعلمهم بأن استلامه إنما هو اتباع، وأنه لا يضرّ ولا ينفع بذاته، بل بأمر الله ـ تعالى ـ، من شهادته له أو عليه[4].

وقد روى ابن الجوزي بسنده عن سفيان بن عيينة، أنه سُئل: كيف عبدت العرب الحجارة والأصنام؟. فقال: أصل عبادتهم الحجارة والأصنام أنهم قالوا: البيت حجر، فحيث ما نصبنا حجرًا فهو بمنزلة البيت[5].

وقال مقاتل: إنما سمّي اللات والعزّى؛ لأنّهم كانوا يقولون: هكذا أسماء الملائكة، وهم بناته، فنزل: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) رواه ابن جرير عن أبي صالح: ٢٧/ ٥٩، ولم أعثر عليه عن السدي.

(٢) في الأصل: «الطبراني» وهو خطأ.

(٣) أخرجه البخاري: ٢/ ٥٧٩، (١٥٢٠).

(٤) ذكره عن الطبري الحافظ في الفتح: ٣/ ٤٦٣.

(٥) «تلبيس إبليس»: ٦٠، ط المنيرية ١٣٦٨هـ.

وقال قتادة: «اللات» كان لأهل الطائف، و«العزى» لقريش، و«مناة» للأنصار[1].

ويقال إن المشركين [ر،١٠٨/أ] اشتقوا لها أسماءً من أسماء الله ـ تعالى ـ، فاللات من «الله»، والعزّى من «العزيز»، ومناة من «المنّان»[2].

ثم قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾، إنكار لهم في قولهم: الملائكة بنات الله، وهذه الأصنام استوطنها جنيّات هي بناته بزعمهم.

يقول الله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾، يعني قسمة جائرة معوجّة. يقال: ضازه، يضيزه، إذا نقصه حقّه، وضاءزه يضائزه، بمعناه.

ويقال: ضِزت في الحكم: أي جرت فيه.

يعني: جُرتم حيث جعلتم له ما تستنكفون منه، وهي الإناث، كما قال: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال في استنكافهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

ولهذا قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي ما هي إلا أسماء سميتموها، يعني الأصنام، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾، يعني اتّبعتم آباءكم بالتقليد في ذلك، كما قال ـ تعالى ـ عنهم في قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

---

(١) ذكره في الدر: ٦/ ١٦٣.

(٢) ذكر هذا ابن جرير (٢٧/ ٥٨) دون قوله: ومناة من المنان. وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وقتادة: ٧/ ٣٢٨.

فقلدوا آباءهم في عبادة الأصنام والأوثان بغير حجة، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، أي من عذر وحجة لكم بما تقولون.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، أي: إلا توهم أن ما هم عليه حق، تقليدًا وتوهمًا باطلاً، فجمعوا في ذلك بين الظنّ الباطل وهوى النفس، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، فإنّهم اتبعوا في ذلك الظنّ الباطل وهوى الأنفس، وتركوا دين الله.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾، أي أتاهم الكتاب والرسول، وبيّن لهم طريق الهدى، فلم يعرّجوا على ذلك.

(عن أبي واقد الليثي) واسمه الحارث بن مالك بن قيس على الصحيح، وهو المعروف بابن البرصاء، صحابي، رضي الله عنه، ليس له إلا هذا الحديث[1]، عُمّر إلى آخر خلافة معاوية ـ رضي الله عنهما ـ.

(قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى حنين) وهو موضع معروف، قريب الطائف، حصلت فيه الوقعة بينه ـ ﷺ ـ وبين هوازن، في خرجته [ك،٥٢/أ] هذه.

قال البكري: سُمّيت بحنين بن قانية بن مهلائيل، من العماليق، كان ينزلها[2].

(ونحن حُدَثاء عهد بكفر) الحديث ضدّ القديم.

(وللمشركين سدرة يعكفون عندها)، وفي خطّ الشيخ عليها: وفي

---

(١) بل أخرج له البخاري غيره كما في رقم (٦٦) ومسلم برقم (٨٩١) وغير ذلك.

(٢) معجم ما استعجم: ١/ ٤٧٢.

هذا دليل أن الشرك والكفر قد يطلقان بمعنى واحد، وهو الكفر بالله ـ تعالى ـ، وقد يفرّق بينهما فيُخصّ المشرك بعبدة الأوثان، وغيرها من المخلوقات، مع اعترافهم بالله ـ سبحانه ـ، وإن كانوا كفّارًا ككفّار قريش، فيكون الكفر أعمّ من الشرك.

والسدرة شجرة النَبِق، والغالب عليها أن تكون ناعمة، وتسمّى «ضالَةً» أيضًا بتخفيف اللام، إذا كانت بعيدة عن الماء، وهي ذي[1] شوك، وما لا شوك فيه يسمّى العُبري، قال غيلان ذو الرمّة بن عقبة الربابي: [ر،١٠٩/ب]

قطعْتُ إذا تخوّفَتِ العواطي ضروبَ السدرِ عُبريا وضالا[2]

يقول: إذا تخوفت العواطي، أي تنقصت، والتخوّف التنَقّص، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾[النحل: ٤٧]، أي على تنقّص منهم، قال الشاعر:

تخوّف السير منها تامكًا قرِدًا[3].

يقول: تنقص السير من سنامها، والمعنى تنقّصت الماشية والظباء بتناولها لورق الشجر ضروب السدر، وخصّ السدر لأنّه أبقى ما يكون من الشجر خضرةً، وتعاطاه الظباء بالصيف، تأكل من ورقه.

---

(١) كذا، والصواب: «وهي ذات شوك». إلا أن يكون: «كل ذي شوك»، وسقطت كل.

(٢) ديوانه: ٣/ ١٥٣٠، وقد جاء فيه: «تجوفت» مكان: «تخوفت»، وقال الباهلي شارح الديوان: العُبري عظام السدر، والضال صغاره.

(٣) البيت لتميم بن أبيّ بن مقبل (ت بعد ٣٧هـ)، وتتمته:

كما تخوف عود النبعة السفَنُ

انظر اللسان: ٩/ ١٠١.

والعكوف: الإقامة على الشيء والمكانِ ولزومُه، قال الفرزدق التميمي يفتخر بقِرَى الأضياف:

نُفرّغُ في شيزى كأن جفانَها حياضُ الجَبا منها مِلاءٌ ونُصّفُ

ترى حولهنّ المعتفين كأنّهم على صنم في الجاهلية عُكّفُ[1]

(وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»).

التنويط: التعليق، يقال: نِيط بكذا: عُلّق، فهو منوط، ومنه قولهم: «أخذناه عفوًا بلا سوط ولا نوط»، أي بلا ضرب ولا تعليق، قال الحطيئة في ذلك:

تنـوّطُنـا بـذبيـانٍ عـزيـزٌ علينـا مثـل أثقـال الجمـال[2]

يقول أنفةً: تعلقنا ببني ذبيان، ونحن بنو عمّهم عبس[3]؛ لما فيه من الذل؛ إذ نحن بنوا أب واحد، فلا نكون معهم كالجيران منهم.

(فمررنا بسِدْرة) من السدر، خضراء كما يأتي.

(فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط).

أتى بكاف التشبيه؛ وذلك أن المشركين من أهل الجاهلية إذا رأوا ما يشبه أصنامهم عبدوه، واتخذوه معبودًا لهم.

(فقال رسول الله ـ ﷺ ـ) عند ذلك، متعجبًا تعجُّبَ إنكارٍ لما

---

(١) ديوانه: ٢/ ٢٩، دار بيروت.

(٢) ديوانه: ٣١٣، ووقع فيه: مثل أثقال الجبال.

(٣) لم يذكر خبر المبتدأ «تعلقنا»، وهو قوله في البيت: «عزيز علينا».

قالوا: (الله أكبر)، والمعنى أنّه ـ سبحانه ـ أكبر من كل شيء، والعرب تحذف مثل هذا اختصارًا، للعلم به، كما قال الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنا لنا   بيتًا دعائمه أعز وأطول[1]

أراد: دعائمه أعز عزيز، وأطول طويل.

وهذا معنى ما ذكره ابن سيده، وسيبويه[2].

وقيل: المعنى أكبر من أن يُنسب إليه ما لا يليق به.

ويشهد لمعنى القول الأوّل قول خِداش بن زهير: [ر،١٠٩/أ]

رأيت الله أكبر كلِّ شيء   محاولةً وأكثرَهم جنودًا[3]

وفي ذلك ردٌّ على من أنكر ذكر الله ـ تعالى ـ عند التعجّب والإنكارِ بما يناسب المقام، كقوله ـ ﷺ ـ: «سبحان الله»، عند قول القائل له: إنا نستشفع بالله عليك[4].

ثم قال ـ ﷺ ـ: (إنها السُّنن)، بضم السين المهملةِ، وفتحُها لغةٌ، جمع سُنّة، وهي الطريقة، ومنه قوله ـ ﷺ ـ في الجزية: «سُنّوا بهم سنّة

---

(١) ديوانه: ٢/ ١٥٥.

(٢) وهو قول النحويين، وقال أهل اللغة: «ألله أكبر» معناه: ألله كبير. انظر «الزاهر» لابن الأنباري: ١/ ٢٩، ٣٠.

(٣) ديوانه: ص ٤١، صنعة يحيى الجبوري.

(٤) رواه أبو داود: ٤/ ٢٣٢، (٤٧٢٦)، والطبراني في الكبير: ٢/ ١٢٨، واللالكائي: ٣/ ٣٩٤، والدارقطني في الصفات: ٣١. وضعف الألباني في إسناده كما في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم: ٢٥٢.

أهل الكتاب»[1]، يعني المجوس، يقول: خذوهم على طريقتهم، وأجروهم مجراهم فيها.

وقيل: قاله عمر ـ رضي الله عنه ـ، والصحيح رفعُه.

فكل طريقة لأُناس وإن كانت جائرة عن القصد والاعتدال تُسمّى سنّة لهم، قال زهير بن أبي سلمى، يخاطب بني عُليم من بني كنانة عذرة:

أرونـا سنـةً لا عيـب فيهـا   يسوَّى بيننا فيها السواءُ[2]

ثم بيّن ـ ﷺ ـ ذلك بقوله: (قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل)، إسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ، وفي تركيب «إسرائيل» كلام يطول ذكره، أصحّه أنّ معناه كعبد الله، فـ«إسرا» الاسم ليعقوب، و«إيل»: الله، كـ«جبرئيل»، و«ميكائيل»، كما قاله ابن عباس، وغيره من السلف[3].

وهو غير مصروف؛ للعلمية والعُجمة.

(لموسى) بن عمران، كليم الرحمن، عليه الصلاة والسلام، وهو من سُلالة إسرائيل، وبنو إسرائيل هم قومه، لمّا نجاهم الله من فرعون وقومه، فأغرقهم في البحر أجمعين، وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، (﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ

---

(١) رواه مالك في الموطأ: ١/ ٢٧٨، (٦١٦) والبيهقي في الكبرى: ٩/ ١٨٩، (١٨٤٣٤). ورجاله ثقات لكنه منقطع كما قال الحافظ في الفتح: ٦/ ٢٦١.

(٢) ديوانه: ص ٨٤.

(٣) رواه ابن جرير: ١/ ٢٤٨.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا﴾ [الأعراف: ١٣٨ـ ١٤٠].

ولهذا قال النبي ـ ﷺ ـ: (لتتبعنّ سُنن) وفي لفظ: لتركبنّ سنن ـ أي طُرُق ـ (من كان قبلكم)، يعني من أهل الكتاب، فأكّد الفعل في قوله: «لتتبعن» بلام القسم، في أوله، ونون التوكيد في آخره، ففيه ثلاث تأكيدات: القسم، واللام، والنون، فالخطاب الأول لأهل هذة المقالة، فأتي به بلفظ الماضي فى قوله: «قلتم»، والثاني لجميع الأمة، فيما يُستقبل، فأَتى فيه بالفعل المستقبل، وأكّده.

وليس كل الأمّة تتّبع ذلك، وإن عمّهاالخطاب، لأن الله ـ تعالى ـ قد عصمها من أن يجمعها على ضلالة[1].

وليس المقصود بسننهم ما كان فيهم من سنن المرسلين، فإن الصحيح أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، قال ـ تعالى ـ مخاطبًا لنبيّنا محمد ـ ﷺ ـ بعد ذكرهم: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال ـ ﷺ ـ فيما صح عنه في الصحيحين: «من نام عن صلاة أو نسيها فلْيصلّها إذا ذكرها؛ فإنّ الله يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾»[2] [طه: ١٤]، إذ هذا الخطاب لموسى ـ عليه السلام ـ، فإن سنن المرسلين لا يلحقها الذمّ.

وإنما المراد أنهم كما أحدثوا في دينهم ما ليس منه، فأنتم كذلك

---

(١) ثبت ذلك في أحاديث صحيحةٍ وحسنة، انظرها مع تخريجها في «ظلال الجنة في تخريج السنة» للشيخ الألباني: ٤٠، ٤١.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٢١٥، الصلاة، باب من نسي صلاة. . ، (٥٧٢)، وصحيح مسلم: ١/ ٣٩٥، المساجد. . ، باب قضاء الصلاة. . ، (٦٨٠).

تتّبعون سننهم في الإحداث، وتشابهوهم في أشياء من أفعالهم [ر،١١٠/ب] وأقوالهم المحدثة.

ففي الصحيحين عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم»، قيل يا رسول الله، اليهود والنصارى؟. قال: فمن؟»[1].

وقد وقع الأمر كما أخبر ـ ﷺ ـ، وسيأتي لهذا مزيد توضيح عن قريب.

(رواه الترمذي وصحّحه)[2].

ورواه الأزرقي فقال: حدّثني أحمد بن محمد، عن عمر الواقدي[3]، عن معمر بن راشد البصري، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي، وهو الحارث بن مالك، قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى حنين، وكانت لكفّار من قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء، يقال لها: «ذات أنواط»، يأتونها كل سنة فيعلّقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها، ويعكفون عندها يومًا، قال: فرأينا يومًا ونحن نسير مع رسول الله ـ ﷺ ـ شجرة عظيمة خضراء، فسايرتنا من جانب الطريق، فقلنا يا رسول الله، اجعل

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٧٤، الأنبياء، باب (٥١)، حديث (٣٢٦٩)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٦٣١، العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث (٢٦٦٩).

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٤٧٥، الفتن، باب (١٨)، حديث (٢١٨٠).

(٣) في أخبار مكة للأزرقي (ص ١٢٩ ـ ١٣٠): [حدثني جدي ـ وهو أحمد بن محمد الأزرقي ـ عن محمد بن إدريس عن محمد بن عمر الواقدي] وهو الصواب.

لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الله أكبر، الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ الآية. ألا إنها السنن، سنن من كان قبلكم»[١].

ورواه بهذا اللفظ ابن إسحاق قال: حدّثني ابن شهاب الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي، الحارث بن مالك، قال: خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ، فذكره، إلا أنّ فيه: فسايرتنا من جانب الطريق، فتنادينا من جنبات الطريق، فقلنا: يا رسول الله، الحديث[٢].

قال الأزرقي أيضًا: وحدثني جدّي، عن محمّد بن إدريس، عن الواقدي، قال: أخبرني ابن أبي حبيبة، عن داود بن الحصين[٣]، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت ذات أنواط شجرةً يعظّمُها أهل الجاهليّة، يذبحون لها، ويعكفون عندها يومًا، وكان من حج منهم وضع زاده عندها، ويدخل بغير زاد تعظيمًا لها، فلمّا مرّ رسول الله ـ ﷺ ـ إلى حنين قال له رهط من أصحابه، منهم الحارث بن مالك: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. قال: وكبّر رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: هكذا فعل قوم موسى بموسى[٤].

قال بعض أهل العلم من أصحاب الإمام مالك بن أنس[٥]: فانظروا

---

(١) «أخبار مكة»: ١/ ١٣٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤٢.

(٣) في «أخبار مكة» المطبوع: «الحسين» بدل «الحصين».

(٤) «أخبار مكة»: ١/ ١٣٠.

(٥) هو أبوبكر محمد بن الوليد الطرطوشي الأندلسي (ت ٥٢٠هـ) انظر وفيات =

ـ رحمكم الله ـ أينما وجدتم من سدرة أو شجرة يقصدها النّاس ويعظّمونها، ويرجون البرؤ والشفاء من قِبلها، ويضربون بها المسامير والخرق، فهي ذات أنواط[1].

قلت: ومن استدل بعدم قطع السدرة التي بهذه المثابة بحديث عبدالله بن [حُبْشي]، الذي رواه أبو داود والضياء في المختارة، وغيرهما، الذي مرّ ذكره في الباب السادس والكلامُ عليه[2]، فقد أبعد النجعة، وعلى تقدير ثبوته، فالمراد سدرة لها ظل أو ثمر يُنتفع به، خالية من علائق الشرك، فقد أحرق [ر، ١١٠/أ] النبي ـ ﷺ ـ مسجد الضرار.

وسأل أبو طالب الإمامَ أحمد عن قطع النخل؟. فقال: لا بأس به، لم نسمع فيه شيئًا، قيل له: فالنَّبِق؟ قال: ليس فيه حديث صحيح، وما يعجبني قطعُه. قال: قلت له: فإذا لم يكن فيه حديث صحيح، فِلمَ لا يعجبك قطعه؟. قال: لأنّه على كل حال قد جاء فيه كراهة، والنخل لم يجيء فيه شيء[3].

وهذا منه ـ رضي الله عنه ـ يدل على أن الأعيان المنتفع بها قبل الشرع على الإباحة.

والحاصل أن من له خبرةٌ بما عليه أهل الشرك والبدع اليوم علم أنّ بينهم وبين السلف أبعدَ ممّا بين السماء والأرض، وأنّهم على شيء،

= الأعيان: . ١/ ٤٧٩.

(١) «كتاب الحوادث والبدع» للطرطوشي: ١٠٥.

(٢) راجع ص ٤٩٦، وقد وقع في الأصل: حبيش، وسبق التنبيه إلى أنه خطأ.

(٣) لم أعثر عليه.

والسلفَ على شيء.

وفي قوله: (ونحن حدثاء عهد بكفر) حثٌّ على تعلّم مايهتدي به الإنسان إلى صراط الله المستقيم، ليميّز به بين الحق والباطل؛ فإنّه ربّما قصد الجاهل بجهله ما يضرّه وهو لا يعلم، وقد لايعُذر بالجهل إذا أمكنه التعلّم؛ لتفريطه، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

وفيه أن العبادة موقوفة على التوقيف، فلايجوز للإنسان أن يعمل أويتكلّم في ذلك بالجهل، الذي ليس له فيه مستند.

وفيه أنّ من صُرف عن عادة قد اعتادها وإن كانت ضارّة، إذا جهل ضررها لا يؤمن عوده إليها، كما قال ابن جريج: كانت أصنام الذين مرّ بهم موسى ـ عليه السلام ـ وقومُه صوراً من بقر، وهم قوم من لخم، فلهذا أثّر ذلك شبهة لهم في عبادة العجل الذي صنع لهم السامري [١].

وأنه إذا كان فيمن يشاهد النبي ـ ﷺ ـ ومايدعو إليه [ك،٥٣/أ] من التوحيد، وينهى عنه من الشرك وتوابعه، من يجهل ذلك، فغيرهم أولى وأحرى.

وفيه أيضا أن غير حدثاء العهد بالكفر من أصحابه ـ ﷺ ـ لايجهلون ذلك؛ لأنّهم قد فقُهوا، فينبغي أن يتفقّه الإنسان في دينه؛ لئلا يقع في المحذور بالجهل.

وأن أصحاب الجهل إذا لم يفرّطوا بترك التعلّم، يُغتفر لهم ما لا

---

(١) تفسير الطبري: ٩/ ٤٥.

يُغتفر لغيرهم.

وأنه قد يترك الإنسان شيئًا من اللازم، محاذرة تغيّر ما هو أهم؛ تخوّلاً، كما ترك النبي - ﷺ - وضع الكعبة على أساس إبراهيم - عليه السلام -؛ لأجل حداثة عهد قريش بالكفر(١).

وفيه أنّ أهل الجاهليّة إذا استحسنوا شيئًا من جنس معبوداتهم اتخذوه لذلك، كما قد نبّهنا عليه.

كما روى ابن عبدالبر بإسناده إلى أبي سلمة المنقري قال: حدثنا أبو حارث الكرماني، وكان ثقة، قال: سمعت أبا رجاء العطاردي يقول: أدركت النبي - ﷺ - وأنا شاب أمرد، قال: ولم أر ناسًا أضلَّ من العرب(٢)؛ يجيئون بالشاة البيضاء فيعبدونها، فيجيء الذئب [ر،١١١/ب] فيذهب بها، فيأخذون أخرى مكانها يعبدونها، وإذا رأوا صخرة حسنة جاءوا بها وذهبوا يصلّون إليها، وإذا رأوا صخرة أحسن من تلك رموها، وجاؤوا بتلك يعبدونها(٣).

وكان - رضي الله عنه - يقول: بُعث رسول الله - ﷺ - وأنا أرعى الإبل على أهلي، وأريش وأبري، فلما سمعنا بخروجه لحقنا بمسيلمة الكذّاب(٤).

---

(١) انظر صحيح البخاري: ٢/ ٥٧٤، (١٥٠٩)، و٦/ ٢٦٤٦، (٦٨١٦)، وصحيح مسلم: ٢/ ٧٩٠، (٣٣٣).

(٢) يعني في جاهليتهم، كما قال - تعالى -: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، لا أن الضلال وصف لازم لهم.

(٣) الاستيعاب: ٣/ ١٢١١، ط الجيل، ت البجاوي ١٤١٢هـ.

(٤) الاستيعاب: ٣/ ١٢١٠.

والصحيح أنّه لم يرَ النبيَّ ـ ﷺ ـ، ومرّت وفاته بالبصرة، وقد عُمِّر عمرًا طويلاً.

وفيه التأسي والتسلّي بالرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، عند مشاهدة ما يقع من الناس، مما يخالف أمر الله ورسوله.

وفيه قياس المشابهة مع وجود العلّة، حيث قال: «إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى»، ولو لم يكن ذلك الأمر مساويًا للمُقاس عليه في جميع أحواله.

وأن العكوف على ذلك، وتعليقَ الأسلحة بالشجر لذلك، نوعٌ من التألّه لغير الله ـ سبحانه ـ.

وأنّ من فعل ذلك فقد اتخذ ما يَعكِف عليه إلٰهًا، ومن ذلك تعليق الخِرَق بالشجر.

وفيه تحقيق الأمر بالقسم عليه.

وفيه أنّهم لم يخرجوا بقولهم ذلك وطلبِهم له من الإسلام؛[1]

---

(١) الصواب في تعليل ذلك لا يعدو أحد أمرين: إما أن ماطلبوه مقتصر على التبرك، فلا يناقض أصل التوحيد،، ويكون تشبيه قولهم بقول بني إسرائيل من باب التشبيه مع الفارق، لاتفاق الموقف وأسلوب الطلب مع اختلاف مضمون الطلب، وإما أن ما طلبوه شرك أكبر، ولكنهم عُذروا بالجهل، أما تعليل المؤلف ذلك بعدم فعلهم فليس بسديد؛ فإن من رضي بالكفر كفر ولو لم يفعله، وكذا قصد مخالفة الشهادة لو اعتبر في الخروج من الإسلام لم يكد يبقي من يحكم بردته، وهكذا فهم الحجة إنما يعتبر إذا كان بمعنى فهم الخطاب، أما فهمها بمعنى حصول القناعة لديه بمضمونها فلا اعتبار له.

لأنهم لم يفعلوا، ولأنّهم لم يقصدوا ما يخالف الشهادتين، وأيضًا لم يفهموا أن ما طلبوا يضادّ لهما[1]، فلم يكن ذلك شكًّا منهم في وحدانية الله ـ تعالى ـ، وإنّما معنى ما قصدوا: اجعل لنا ذات أنواط نعظّمها، ونتقرّب بتعظيمها إلى الله ـ سبحانه ـ، كما لهم ذات أنواط. فظنّوا أنّ ذلك لا يضرّ الديانة، لشدّة جهلهم.

ولهذا لم يكفَّر أصحاب موسى ـ عليه السلام ـ بذلك؛ فإن هؤلاء ليسوا كالمشركين الذين لما قال لهم رسولهم ـ ﷺ ـ: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]، قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، وكقول مشركي قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝﴾ [ص: ٥]، فأنكروا ما دعاهم إليه من وحدانية الله ـ تعالى ـ، وتعجّبوا من ذلك، فاعلمه؛ فإنه مهمّ جدًّا.

ولهذا لم يكفّر النبي ـ ﷺ ـ الرجلَ الشاكَّ في قدرة الله ـ تعالى ـ وإعادته؛ لأنه لا يكون إلا بعد بلاغ الرسول، حيث قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، واذروني في البحر. وحديثه في الصحيحين[2]، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية[3]، وقد ذكرناه في هذا الشرح، وسيأتي طريق منه.

وأنّ منه قولَ عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله، مهما يكتم

---

(١) كذا بالأصل، والأصوب تعدية الفعل دون حرف الجر: «يضادّهما»، أو أن يقال: مضاد لهما.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٧٢، الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، (٣٢٦٦)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٦٧٦، التوبة، باب في سعة رحمة الله ـ تعالى ـ، (٢٧٥٦).

(٣) انظر مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٠١.

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ [الكوثر: ٢]).

لمّا ذكر ـ سبحانه ـ منّته على رسوله محمد ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾، قال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾، قالوا: ويعني بالكوثر الخير الكثير، الذي أعطيه ـ ﷺ ـ، وأفضله القرآن، ويقال: العلم.

قال القتيبي: أحسبه «فوعل» بالجزم، من الكثرة، وهو الخير الكثير[١].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الكوثر هو الخير الكثير، الذي أعطاه الله إيّاه[٢].

وأنشدوا في ذلك لِرؤبة يصف حمار وحش وكثرة ما يثيره من الغبار في عدوه:

في كوثر كالجلال[٣]

وقال الآخر يمدح عبدالملك بن مروان:

[ر،١١٣/أ] وأنت كريمٌ يا ابن مروان كوثرُ[٤]

---

(١) انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٥٤١ دون قوله «بالجزم»، ولعل الشارح أراد بها هنا تسكين الواو حتى لا تتصحف، والقتيبي هو ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد، عبدالله بن مسلم، خطيب أهل السنة، كان لهم كالجاحظ للمعتزلة، ت٢٧٦هـ، انظر تاريخ بغداد: ١٠/ ١٧٠، والمنتظم: ٥/ ١٠٢.

(٢) رواه ابن جرير: ٣٠ / ٣٢١.

(٣) البيت في اللسان(٥/ ١٣٣) منسوب لأميّة، وتمامه:

يحامي الحقيق إذا ما احتدمْن   وحمحمن في كوثر كالجلالْ

(٤) كذا في الأصل، وفي اللسان (٥/ ١٣٣): قال الكميت:

وأنت كثيرٌ يا ابن مروان طيبٌ   وكان أبوك ابنُ العقائلِ كوثرا

﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. رواه ابن أبي حاتم[١] وغيره.

وقد قال جمع من السلف والخلف: إن النسك في هذه الآية الذبحُ[٢].

وقيل إنّ الذبح فرد من أفراد النسك. وهو أظهر من جهة اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم[٣].

وعن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في استفتاح النبي -ﷺ-، أنّه كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا مسلمًا، وما أنا من المشركين، إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، أللهم أنت الملك، لا إله إلا أنت، أنت ربي، وأنا عبدُك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبّيك وسعديك، والخير كلّه في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت ربنا وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك». رواه مسلم في صحيحه[٤]

---

(١) تفسيره: ٥/ ١٤٣٤، (٨١٨٣)، لكنه عنده عن جابر، ورواه بنحوه أبو داود: ٣/ ٩٥، (٢٧٩٥).

(٢) انظر تفسير الطبري: ٨/ ١١٢.

(٣) انظر «المقاييس»: ٥/ ٤٢٠، مادة (نسك).

(٤) ١/ ٤٤٩، صلاة المسافرين.. ، باب (٢٦)، حديث (٧٧١).

عليكِ مثلُ الذي صليتِ فاغتمضي نومًا فإن لجنبِ المرءِ مضطجعًا[1]

وسُمّيت الصلاة المفروضة صلاةً لاشتمالها على ذلك، فهي مقرونة بالشهادتين، وهي تأدية الطاعة، وجملة العبادة، وقد جعلها الله -تعالى- من خصال إسمعيل -عليه السلام- فقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ الآية [مريم: ٥٥]، ومن دعوة أبيه إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- حيث يقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ولا يوصف بالكفر من ترك شيئًا من الأعمال الصالحات سواها[2].

فلما كان -ﷺ- متصفًا بمتابعة [ر،١١٣/ب] أبويه: إبراهيم وإسمعيل -عليهما الصلاة والسلام- في ذلك، أمره -تبارك وتعالى- أن يخبر بإخلاصه؛ لكي تتأسى به أمّتُه في ذلك.

فهو -ﷺ- مخلَص، ومخلِصٌ عبادتَه في أقواله وأفعاله لمن ربّاه، وخلقه فسوّاه، ولهذا قال: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾، أي وبذلك الإخلاص في الأقوال والأفعال أمرت، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾؛ لأن إسلام كل نبي مقدّم على إسلام أمّته.

ولمّا قال ذلك -ﷺ- في غير هذا المقام، كما يأتي في حديث الاستفتاح، قال: «وأنا من المسلمين»[3].

وعن ابن عبّاس -رضي الله عنهما- قال: ضحّى رسول الله -ﷺ- بكبشين أملحين -وفي لفظ: أقرنين- يوم العيد، وقال لما وجّههما:

---

(١) ديوانه: ص ٧٣.

(٢) انظر سنن الترمذي: ٥/ ١٤، (٢٦٢٢).

(٣) رواه مسلم: ١/ ٤٤٩، صلاة المسافرين. .، باب (٢٦)، حديث (٧٧١).

الباب التاسع

(باب ما جاء في الذبح لغير الله ـ تعالى ـ.)

لمّا ذكر ـ رحمه الله ـ ما يتبرّك به من الشجر والحجر، ذكر الذبح لغير الله ـ تعالى ـ؛ لأنّ من عادة أهل الابتداع وعُبّاد الأصنام يُعقبون ذلك بالذبح لما يتبرّكون به أو يدعونه من دون الله ـ تعالى ـ.

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

يأمر ـ سبحانه وتعالى ـ نبيّه ورسوله، وأمينَه على وحيه، محمدًا ـ ﷺ ـ في هذه الآية الكريمة، أن يخبر الذين عبدوا معه غيره، بأن صلاته ونسكه، ومحياه ومماتَه لله رب العالمين، لا شريك له، فكما أنهم قد علموا أنه ـ سبحانه ـ هو ربّ العالمين، فليعلموا أنّه المعبود وحده.

والصلاة في اللغة الدعاء، ومنه قوله ـ ﷺ ـ في الصحيح، في حديث الدعوة[1]: «وإن كان صائمًا فليصل»[2]، أي فليدعُ، ومنه قول الأعشى لابنته:

تقـول بنتي وقـد قـرّبـت مـرتحِـلاً يا رب جنّب أبي الأوصاب والوجعا

[ك، ٥٤/أ]

(١) أي الدعوة إلى طعام الوليمة.

(٢) رواه مسلم: ٢/ ٨٥٤، النكاح، باب (١٦)، حديث (١٤٣١).

رحمه الله ـ على مقدّمات يظنّون صحّتها، إما في دلالة الألفاظ، وإما في المعاني المعقولة، ولا يتأمّلون بيان الله ورسوله، وكل مقدّمات تخالف بيان الله ورسوله فإنّها تكون ضلالاً[1].

وقد تكلّم الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ على من يتمسك بما يظهر له من القرآن، من غير استدلال ببيان الرسول ـ ﷺ ـ ومن تبعه بإحسان[2]، حفظًا لدين الإسلام، وكفًّا بذلك عمّا لا يحل، والله ـ تعالى ـ الموفق، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[3].

---

(١) «مجموع الفتاوى»: ٧/ ٢٨٨.

(٢) انظر الموضع السابق.

(٣) كتبت في الطرة هنا: [بلغ مقابلة على أصله فصح على يد مصنفه عفى الله عنه].

تيمية[1]، وحفيده شيخ الإسلام[2]، وتلميذه ابن قيّم الجوزية[3]، وغيرهم، وهو قول جمهور السلف[4]، لقوله - ﷺ - في الصحيحين وغيرهما: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها، فإن الله يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾»[5] [طه: ١٤].

وإنما المراد ما سنّه أهل الكتاب من الابتداع في دينهم، وسُمّي الابتداع في دينهم سنّة؛ لأن السنّة في اللغة: الطريقة والمنهج، وقد مر الشاهد على ذلك من قول زهير بن أبي سُلمى.

ولهذا في الحديث عنه - ﷺ - أنه قال: «من سنّ سنّة حسنة كان [ر،١١٢/أ] له أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم [شيء][6]، ومن سنّ سنّة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[7].

وقد عُلم أن تغيير أديان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - سببه البدع؛ فإن أهل البدع يبنون الإسلام - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية

= محمد بن أحمد.

(١) انظر المسودّة: ص ١٩٤.

(٢) انظر مجموع الفتاوى: ١٩/ ٧، والصفدية: ١/ ٢٥٨، والمسودة: ١٩٣.

(٣) انظر «بدائع الفوائد»: ٣/ ٢٦٣، والطرق الحكمية: ٤١٧.

(٤) انظر «الجواب الصحيح» لابن تيمية: ٢/ ٤٣٦.

(٥) تقديم تخريجه قريبًا.

(٦) في الأصل: «شيئًا»، والمثبت من صحيح مسلم.

(٧) أخرجه مسلم: ٢/ ٥٨٣، ٥٨٤، الزكاة، باب (٢٠)، حديث (١٠١٧).

الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: إذا كان من وقع منه ذلك جاهلاً، لم يبلغه العلم، أو لم يعرف حقيقة الشرك الذي قاتل عليه النبي ـ ﷺ ـ المشركين، فإنّه لا يحكم بكفره، لا سيما وقد كثر مثل هذا الشرك في كثير من المنتسبين إلى الإسلام، فلا يطلق عليهم الكفر حتى يتبيّن لهم أن ما يصدر منهم يضاد أصل الإيمان. انتهى[1].

وفيه معجزة له ـ ﷺ ـ بإخباره عما لم يقع بوقوعه، في قوله: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم»، فوقع في هذه الأمة كما أخبر من التفرّق والابتداع وعبادة الأوثان، نسأل الله الحماية من ذلك.

وفيه التحذير عن التشبّه بأهل الكتاب وأهل الجاهلية، وجوازُ الغضب عند إنكار ذلك إذا وقع، وسدُّ الذرائع في ذلك؛ لئلا يؤدّي إلى أعظم منه.

وفيه التنبيه على أن معنى قوله: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم» أنه ليس المراد منه ما فيهم من سنن المرسلين والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، كما مر التنبيه عليه، فإن الصحيح في ذلك عند العلماء ـ كما تقدّم قريبًا ـ[2] أنّ شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه. اختار هذا القول من أصحابنا شيوخ المذهب، منهم القاضي أبو يعلى[3]، وموفق الدين ابن قدامة[4]، وابن أخيه[5]، والمجد ابن

---

(١) «جامع المسائل». المجموعة الثالثة، تحقيق محمد عزير شمس، ص١٥١، إلى قوله: (.. المنتسبين إلى الإسلام)، وليس فيه بقية النص، وانظر نحوه في مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٥٤، ٧/ ٦١٩، ١١/ ٤٠٧، ١٢/ ٥٢٣.

(٢) راجع: ص ٥٥٥.

(٣) انظر المسودة: ١٩٣.

(٤) انظر «روضة الناظر»: ١٤٤، ١٤٥.

(٥) هو صاحب الشرح الكبير على المقنع: شمس الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن =

وفيه أنّ الشرك فيه أصغر وأكبر، وأنهما قد [يكونان][1] في عمل واحد من عاملين؛ بحسب القصد والاعتقاد، كما فيما طلب أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، من حدثاء العهد يوم حنين، وفعل كفّار قريش بالشجرة، وكما في الحلف بغير الله ـ سبحانه ـ، إذا كان غيرُ الله أعظم في صدر الحالف به من الله، بحيث لا يقدر من نفسه أن يكذب في الحلف به، ولو حلف بالله وكذب لم يستعظم في صدره ذلك، ولم يبتئس منه، فهذا [ر،١١٢/ب] لا يكون إلا أكبر في حقه، وكما استدل حذيفة ـ رضي الله عنه ـ على من رأى في يده خيطًا من الحمّى، فقطعه بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[2] [يوسف: ١٠٦]، وهذا من دقة فهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بالقرآن، ووجهه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أثبت لهم في الآية الإيمان، مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيبٌ[3] لرسله، أو جحدٌ لشيء مما جاءت به الرسل، أو مضادٌّ، لم ينفعهم ما معهم من الإيمان، وإن كان معه التصديق برسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك الأصغر، كلُبس الخيط والحلْقة، والحلِف بغير الله ـ تعالى ـ، وأشباه ذلك، مما لا يخرجهم من الإيمان، فهم مستحقّون للوعيد أعظم من استحقاق أهل الكبائر.

ولهذا الأصل أثبت أهل السنّة دخول أهل الكبائر النار تحت المشيئة، ثم خروجَهم منها، ودخولَهم الجنّة، لِما قام بهم من السببين.

وكذا من وقع منه شرك أكبر يضاد الإيمان وحاله كما قال شيخ

---

(١) في الأصل: «قد يكونا»، والصواب ما أثبته.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٧/ ٢٢٠٨، (١٢٠٤٠).

(٣) في الأصل: تكذيبًا، جحدًا، مضادًا. بالنصب، والصواب ما أثبته.

فاذروني في البحر، أو كما حدّث[1].

وفي بعضها: فوالله لا يقدر علي[2].

وفي البخاري أيضًا عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: وسمعته يقول: «إن رجلاً ـ يعني ممن كان قبلكم ـ حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا متّ فاجمعوا لي [ك،٥٤/ب] حطبًا كثيرًا، وأوقدوا فيه نارًا، حتى إذا أكلَت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشْت فخذوها فاطحنوها، ثم انظروا يومًا راحًا[3] فاذروه في اليم، ففعلوا، فجمعه الله، فقال له: لِمَ فعلت ذلك؟. قال: خشِيتُك. فغفر الله له[4].

قال عقبة بن عمرو، راوي الحديث عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: وأنا سمعته يقول ذاك، وكان نبّاشًا.

وقد قال الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ: أكثر ما يخطيء الناس من جهة التأويل والقياس[5].

فإذا كان ما تقدم قد يقع ممّن قد صحب رسول الله ـ ﷺ ـ، ولم يقصد بذلك مخالفة دعوته، فما ظنّك بغيره.

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٣٧٨، الرقاق، باب الخوف من الله، (٦١١٦).

(٢) لم أجد هذا اللفظ عند البخاري ولا غيره، وإنما في صحيح البخاري: «..وإن يقدر الله عليه يعذبه..»: ٦/ ٢٧٢٦، (٧٠٦٩).

(٣) أي شديد الريح، الفتح: ٦/ ٥٢٢.

(٤) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٧٣، الأنبياء، باب (٥١)، حديث (٣٢٦٦).

(٥) انظر «القواعد النورانية» لابن تيمية: ٢٠٦.

الناس يعلمْه الله؟. قال: نعم. رواه مسلم[1].

ورُوي بإسقاط «قال»، كأنها صدّقت [ر،١١١/أ] نفسها، فقالت: نعم.

وقد سمع أبي بن كعب قراءة أنكرها، ثم سمع قراءة سواها، وأخبر النبي -ﷺ-، فأمر القارِئَين، فقرآ عليه، فحسّن النبي -ﷺ- شأنهما، قال: فسُقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى النبي -ﷺ- ما قد غشيني، ضربني في صدري، فَفُضْت عَرَقًا، وكأنما أنظر إلى الله فَرَقا، فقال لي: «يا أُبيّ، أُرسل إلي أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف». الحديث. رواه مسلم في صحيحه[2]، وغيره.

ولفظ حديث الشاك في بعض طرق البخاري، عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، عن النبي -ﷺ- أنّه ذكر رجلاً فيمن كان سلف، وقال لبنيه: أيُّ أبٍ لكم أنا؟. قالوا: خيرُ أب. قال: فإنّه لم يبتئر عند الله خيرًا، -فسّرها قتادة: لم يدّخِرْ- وإن يقدَم على الله يعذِّبْه، فانظروا، فإذا متّ فاحرقوني، حتى إذا صرت فحمًا فاسحقوني -أو قال: فاسهكوني-، ثم إذا كان ريحٌ عاصف فاذروني فيها. فأخذ مواثيقهم على ذلك -وربي-، ففعلوا. قال: فقال الله: «كُن»، فإذا رجل قائم، ثم قال: أي عبدي، ما حملك على ما فعلت؟ قال مخافتك، أو فرقٌ منك، فما تلافاه أن رحمه الله.

قال: فحدّثت أبا عثمان، فقال: سمعت سلمان، غير أنه زاد:

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٥٥٩، الجنائز، باب (٣٥)، حديث (٩٧٤).

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٤٧٠، صلاة المسافرين، باب (٤٨)، حديث (٨٢٠).

وقال لبيد بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ:

وصاحب ملحوب فجعنا بيومه   وعند الرداع بُيّت آخر كوثرُ[1]

يعني بصاحب ملحوب: عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب، والّذي عند الرداع: شريح بن الأحوص بن جعفر، ويقال: جناب بن عتيبة بن مالك بن جعفر، و«الرداع» من أرض اليمامة، و«ملحوب» بمعنى مفعول، من لحبت العود، إذا قشرته، سمّى به هذا الموضع لأنّه لا أكم فيه ولا شجر[2].

ومن أفراد هذا الخير الكثير الذي أعطيه ـ ﷺ ـ: حوضه المورود، وهو نهر يَرِدُه من مات على طريقته وسنّته من أمّته، يصبّ فيه ميزابان من الجنّة، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وآنيتُه عدد نجوم السماء، عرضه مثلُ ما بين أيلة إلى صنعاء، طوله وعرضه سواء، وفيه أحاديث كثيرة جدًا، قد بلغت حدّ التواتر، نسأل الله الكريم أن لا يصدّنا عن وِرْده بسوء أعمالنا، وأن يجعلنا من أتباع نبيّه محمد ـ ﷺ ـ.

وسبب نزول هذه السورة قول العاص بن وائل: «إن محمدًا أبتر، إذا مات انقطع ذِكْرُه». في قول أكثر المفسرين[3].

وقيل إنّ أبا جهل هو الذي قال ذلك[4].

---

(١) ديوانه: ص ٥٢.

(٢) انظر «الروض الأنف»: ٣/ ٤٠٩، ٤١٠.

(٣) انظر تفسير ابن جرير: ٣٠/ ٣٢٩.

(٤) ذكره ابن كثير عن ابن عباس: ٤/ ٥٦٠.

وقيل: كعب بن الأشرف[1]، وليس بشيء.

وقد روى يونس بن بكير عن أبي عبدالله الجعفي، عن[2] جابر الجعفي، عن محمد بن علي قال: كان القاسم بن رسول الله ـ ﷺ ـ قد بلغ أن يركب الدابّة، ويسير على النجيبة، فلمّا قبضه الله ـ سبحانه ـ قال العاص: أصبح محمد أبتر من ابنه، فأنزل الله على نبيّه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ السورة[3].

فقوله ـ جل ثناؤه ـ لنبيّه محمد ـ ﷺ ـ [ك،٥٥/ب] ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾، ولم يقل: إن شانئك الأبتر.

قال السهيلي: هذا يتضمّن اختصاصه بهذا الوصف، دون من نسب ذلك إليه، وإن كان الحكم عامًّا، لأن «هو» في مثل هذا الموضع تعطي الاختصاص، مثل أن يقول قائل: إنّ زيدًا هو الفاسق، فمعناه: هو الفاسق، لا الذي زعمت، فدل على أنّ بالحضرة من يزعم غير ذلك[4].

وهكذا قال الجرجاني وغيره، أنّ «هو» تعطي الاختصاص[5].

---

(١) رواه ابن جرير عن عكرمة: ٣٠/ ٣٢٩.

(٢) في الإصابة: «هو جابر» بدل: «عن جابر» وماأثبته المؤلف في «الروض الأنف»: ٣/ ٤٠٢.

(٣) انظر هذه الرواية في الإصابة: ٣/ ٢٥٤.

(٤) انظر «الروض الأنف»: ٣/ ٤٠٢، ٤٠٣. وعامّة الكلام التالي على سورة الكوثر للسهيلي.

(٥) الموضع السابق.

وكذلك قالوا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨]، لمّا كان عبّاد الأصنام قد يتوهمون أنّ غير الله قد يغني، قال: ﴿هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨﴾ [النجم: ٤٨]، أي لا غيره[1].

وكذلك قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾ [النجم: ٤٤]؛ إذ كانوا قد يتوهّمون في الإحياء والإماتة كما توهّمه النمرود، حين قال: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي أنا [ر،١١٤/ب] أقتل من شئتُ وأستحيي من شئت، فقال ـ عزّوجلّ ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾ لا غيره[2].

وكذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾ [النجم: ٤٩]، أي هو الرب لا غيره، وكان المشركون قد اتخذوا أربابًا من دونه، منها الشعرى.

فلمّا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ [النجم: ٤٥]، ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠﴾ [النجم: ٥٠]، استغنى الكلام عن «هو» التي تعطي الاختصاص؛ لأنه فعل لم يدَّعِهِ أحد[3].

إذا ثبت هذا، فكذلك قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، لا أنت. ففي ذلك من التأكيد: تصدير الجملة بـ«إنّ»، والإتيان بضمير الفصل، الدالّ على قوّة الإسناد والاختصاص المذكور، ومجيء الخبر على أفعل التفضيل، دون اسم المفعول، وتعريفه باللام الدالّة على حصول هذا الوصف لشانئه ـ ﷺ ـ بتمامه، وأنه أحق به من غيره.

---

(١) الموضع السابق.

(٢) الموضع السابق.

(٣) انظر الروض الأنف: ٣/ ٤٠٣.

ونظير هذا في التأكيد قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٨]، ففيه الإشارة إلى ترك الالتفات، وما يناله منهم.

ولهذا قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ المستحقِّ لذلك، وأنت جدير أن تعبده بذلك، ثم عقّبه بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

والأبتر: الذي لا عَقِب له يتبعه، فإذا تأمّلت هذا، ونظرت إلى العاص بن وائل. وكان ذا ولد وعقب، وولده عمرو وهشام ابنا العاص ابن وائل، فكيف تثبت له البتر وانقطاع الولد، وهو ذو ولد ونسل، وتنفيه عن بنيه، وتلحقهم بالنبي ـ ﷺ ـ، والله يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؟[1].

فأجيب في ذلك أن العاصي وإن كان ذا ولد فقد انقطعت العصمة بينه وبينهم بالإسلام، فليسوا بأتباع له؛ لأن الإسلام قد حجزهم عنه، فلا يرثهم ولا يرثونه، وهم من أتباع محمد ـ ﷺ ـ، وأزواجه أمّهاتهم، وهو أب لهم، كما قرأ أبي كعب ـ رضي الله عنه ـ: «وأزواجه أمهاتهم، وهو أب لهم»[2]، والنبي ـ ﷺ ـ أولى بهم، وإنما نفى الله البنوّة التي تشبه بنوّة الولادة، فهم وجميع المؤمنين أتباع النبي ـ ﷺ ـ في الدنيا، وأتباعه في الآخرة إلى حوضه.

---

(١) بتصرف يسير، من «الروض الأنف»: ٣/ ٤٠٤. والضمير في قوله «تلحقهم» يعود على مطلق الأولاد.

(٢) رواها البيهقي في الكبرى عن أبي: ٧/ ٦٩، (١٣١٩٧)، وعن ابن عباس: (١٣١٩٨)، ورواها الحاكم عن ابن عباس في المستدرك: ٢/ ٤٥٠، (٣٥٥٦) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواها الطبري (٢١/ ١٢٢) عن الحسن وقتادة.

وهذا معنى الكوثر، وهو موجود في الدنيا؛ لكثرة أتباعه فيها، ليغذّوا أرواحهم بما فيه حياتهم من العلم، وكثرةِ أتباعه ـ ﷺ ـ في الآخرة، ليسقيهم من حوضه ما فيه الحياة الباقية[1].

وعدو الله العاصي على هذا هو الأبتر على الحقيقة؛ إذ قد انقطع دينه وأتباعه، وصاروا تبعًا لمحمد ـ ﷺ ـ، ولذلك قوبل تعييره للنبي ـ ﷺ ـ بالبتر بما هو ضدّه من الكوثر، وأن الكثرة تضادّ معنى القلّة.

ولو قال ـ عز وجل ـ في جواب اللعين: الحوض الذي من صفته كذا وكذا، لم يكن ردًّا عليه، ولا مشاكلاً لجوابه، ولكن جاء باسم يتضمّن الخير الكثير، والعدد الجمّ الغفير، المضادّ لمعنى البتر، وأن ذلك له في الدنيا والآخرة؛ بسبب الحوض المورود الذي أعطاه، فلا يختص لفظ الكوثر بالحوض، بل بجميع هذا المعنى كلِّه، ويشتمل عليه، ولذلك [ر،١١٤/أ] كانت آنيته كعدد نجوم السماء[2].

ويقابل هذه الصفة في الدنيا علماء الأمّة، من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومن بعدهم، كما تروي الآنية، وتسقي الواردة عليه، تقول: «رويت الماء»، أي استقيته، كما تقول: «رويت العلم»، وكلاهما فيه حياة، ومنه قيل لمن روى شعرًا أو علمًا: «راوية»، تشبيهًا بالمزادة، أو الدابّة التي يُحمل عليها الماء[3].

---

(١) الروض الأنف: ٣/ ٤٠٥.
(٢) «الروض الأنف»: ٣/ ٤٠٥.
(٣) «الروض الأنف»: ٣/ ٤٠٥، ٤٠٦.

وفي حديث أبي برزة أنها ـ أي الآنية ـ تنزوا في أكف المؤمنين(١)، وحصباء الحوض اللؤلؤ والياقوت، ويقابلها في الدنيا حِكَمُ العلم المأثورة عنه ـ ﷺ ـ، ألا ترى أن اللؤلؤ في علم التعبير حِكَمٌ وفوائد علم(٢).

وفي صفة الحوض: «حاله المسك»، أي حَمَأُه، ويقابله في الدنيا طيب الثناء عن العلماء، وأتباعِ النبي ـ ﷺ ـ الأتقياء، كما أن المسك في علم التعبير ثناء حسن، وعلَم التعبير من علم النبوّة مقتبس.

وذُكر أيضًا في صفة الحوض الطيرُ الذي تردُه كأعناق البخت(٣)، ويقابله من صفة العلم في الدنيا ورود الطالبين من كل فج وقُطْر.

وحُباب الماء على الحوض يقابله حضرة العلم(٤)، وانتيابهم إيّاها في زمان النبي ـ ﷺ ـ وبعده.

فتأمّل هذه الصفة في الكوثر، فهي معقولة في الدنيا، محسوسة في الآخرة، مدركة بالعيان، هنالك يتبيّن لك إعجاز القرآن، ومطابقة [ك،٥٥/أ] السورة لسبب نزولها(٥).

ولذلك قال ـ سبحانه ـ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾، «فأوردنا ما

---

(١) رواه البزّار: ٩/ ٢٩٧، (٣٨٤٩). وصححه الألباني كما في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم: ٣٢٠، ٣٢١، (٧٢٠، ٧٢٢).
(٢) الروض الأنف: ٣/ ٤٠٦.
(٣) أخرجه هناد في الزهد: ١/ ١١٠، (١٣٦).
(٤) هذه العبارة ليست في «الروض» المطبوع.
(٥) الروض: ٣/ ٤٠٦، ٤٠٧.

تقدّم لأنه وسيلة إلى المقصود»[1]، والمعنى: تواضع لمن أعطاك الكوثر بالصلاة له، فإن الكثرة في الدنيا تقتضي في أكثر الخلق الكبر، وتحدو إلى الفخر والجبرية[2]، فلذلك كان ـ ﷺ ـ حين رأى كثرة أتباعه عام الفتح يطأطىء رأسه وهو على الراحلة، حتى ألصق عثنونه بالرحل، امتثالاً لأمر ربّه[3].

ولما دخل مكّة صلى ثمان ركعات[4] شكرًا لله ـ تعالى ـ؛ إذ في الصلاة من الأسرار الجليّة والخفيّة ولطائفِ المعاني والحِكم ما يوجب الفزع إليها عند الملمّات، ليكشفها رب الأرض والسموات، وكذلك عند شكر النعمة؛ مخافةَ زوالها؛ إذ فيما تضمّنته خارجها من فوائد الوضوء لها، وكذا الأذان لفرضها، المفتتَحُ بالتكبير، المختتم به، مع التكرار، وقول «لا إلٰه إلا الله» في آخره، و«أشهد أن لا إلٰه إلا الله» في أوله، وما تحت هذا من الحِكم الإلهيّة التي تملأ الصدور هيبة، وتنوّر القلوب بنور المحبّة، وما تضمّن داخلها من شفعها ووترها، والتكبير في أركانها، والقراءة في قيامها، والتسبيح في ركوعها وسجودها، والتشهد في آخرها، وغير ذلك مما هو معلوم من أفعالها وأقوالها، فإنّ ذلك كلّه من فوائد الحكمة، ولطائف المعرفة.

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]؛ إذ هي أقوى الأسباب في الشكر وعند المصائب.

[ر،١١٥/ب] وكذلك أمره ـ سبحانه ـ بالنحر شكرًا لله وحده، ورفع

---

(١) ليست في الروض.

(٢) كذا في الأصول، وفي الروض: والمحيرية.

(٣) الروض: ٣/ ٤٠٧.

(٤) أخرجه البخاري: ١/ ٣٧٢، (١٠٥٢)، ومسلم: ١/ ٢٢٣، (٣٣٦).

اليدين إلى النحر في الصلاة عند استقبال القبلة، التي عندها يُنحر، وإليها يُهدى، ومعناه الجمع بين الفعلين: النحر المأمور به يوم الأضحى، والإشارةِ إليه في الصلاة برفع اليدين إلى النحر، كما أنّ القبلة محجوجةٌ ومصلىً إليها، وكذلك يُنحر عندها، ويشار إلى النحر عند استقبالها[1].

وإلى هذا التفت النبي ـ ﷺ ـ حين قال: «من صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، ونسك نسكنا، فهو مسلم»[2].

وهذا كقوله في الآية الأخرى التي أورد الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ هنا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، فقرن بين الصلاة إلى الكعبة والنسك إليها، كما قرن بينهما في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾[3].

فقد علمت بهذا التقرير أن من خالف ما أمر الله به ورسولُه، فنحر لغير الله ـ سبحانه ـ، فقد تعبّد بذلك لغيره، وخرج بذلك عن الموصولين بالخير في الدنيا والآخرة، إلى فعل الحزب المبتورين من الخير في الدنيا والآخرة.

ولو لم يكن في الذبح لغير الله ـ تعالى ـ إلا الخروج عن متابعة النبي ـ ﷺ ـ وحزبه، والدخول بذلك مع ذلك الحزب الشانئين له ـ ﷺ ـ، المبتورين، لكان في ذلك كفاية في الزجر عنه، فكيف وذلك

---

(١) الروض: ٣/ ٤٠٧.

(٢) رواه البخاري بنحوه: ١/ ١٥٣، (٣٨٤).

(٣) الروض: ٣/ ٤٠٧. وهنا ينتهي النقل منه فيما يتعلق بالكوثر.

من الشرك الذي لعن النبي - ﷺ - فاعله.

والشنئان: البغضاء، قال الشاعر:

فوالله ما فارقتكم شانئًا لكم ولكنّ ما يُقضى فسوف يكون(١)

ويروى: «قاليًا لكم».

كقوله - تعالى -: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ الآية [المائدة: ٢، ٨].

كما قال عُبيد الراعي النميري:

وشنئت كل منافق متقلبٍ ترك [الزلازل] قلبه مدخولا(٢)

وقال عَبيد بن الأبرص الأسدي:

إلا سجايا من القلوب وكم يُرى شانيًا حبيبُ(٣)

والصحيح أن نزول هذه السورة في المدينة، لما في صحيح مسلم عن أنس - رضي الله عنه - قال: بينا رسول الله - ﷺ - بين أظهرنا، إذْ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسّمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟. قال: أنزلت علي آنفًا سورة، فقرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟. قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه نهَر وعدَنيه ربي - عز وجل -، عليه خيرٌ كثير، وهو حوض ترد عليه أمّتي

(١) هو ذو القرنين أبو المطاع بن حمدان كما في «معجم البلدان» لياقوت: ١/ ٣٧٨.

(٢) ديوانه: ص ٢٣٤. وفي الأصل: «الزلال» والتصويب من الديوان.

(٣) من معلقته. انظر ديوانه: ص ٢٦، والبيت فيه هكذا:

إلا سجيّات ماالقلوب وكم يصيرنّ شانيا حبيبُ

يوم القيامة، آنيته عدد النجوم»[1].

وقد أجمع المسلمون على أنّ أنسًا ـ رضي الله عنه ـ لم يصحب النبي ـ ﷺ ـ قبل الهجرة إلى المدينة، فبهذا يكون النزول متأخّرًا عن سببه.

وقد مرّ سبب نزولها، وذلك في مكة قطعًا.

(عن علي) بن أبي طالب (ـ رضي الله عنه ـ [ر،١١٥/أ] قال: حدّثني رسول الله ـ ﷺ ـ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله).

فبدأ ـ ﷺ ـ بلعْن من ذبح لغير الله؛ لعِظَم أمر الشرك على غيره؛ اهتمامًا به، ومفهومه: سواء في ذلك تلفّظ به، أو قصده. ولا يرد على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، لأنّه لا يقال: أهللت بكذا، إلا إذا تكلمت به، بل ويُشعر اللفظ من اللغة برفع الصوت بذلك؛ فإن ذلك قد خرج على عادتهم من رفع الصوت، وأيضًا فإنّه معلوم أنّما حرّم ذلك لجعله لغير الله مسمّىً، فكذلك منويًا من باب الأولى؛ إذ هذا مثل حكم النيّات في العبادات، فإنّ اللفظ بها وإن كان أبلغ، لكن الأصل القصد، ألا ترى أن التقرّب بالهدايا والضّحايا لله ـ سبحانه ـ، سواء قال: «أذبحه لله»، أو سكت؛ فإن العبرة بالنيّة[2].

ولهذا كانت التسمية على الذبيحة غيرَ ما ذبحها له، فإنّه يسمي على ما يقصد به اللحم، وأمّا القربان فيذبح لله ـ سبحانه ـ، ولهذا قال النبي ـ ﷺ ـ في قربانه: «اللهم منك ولك»، بعد قوله: «بسم الله، والله

(١) صحيح مسلم: ١/ ٢٥١، الصلاة، باب (١٤)، حديث (٤٠٠).
(٢) عن «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية: ٢/ ٥٦٠.

أكبر»[1]؛ اتّباعًا لقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

والكافرون يصنعون بآلهتهم كذلك، فتارة يسمّون آلهتهم على الذبائح، وتارة يذبحونها قربانًا إليهم، وتارة يجمعون بينهما، وكل ذلك ـ والله أعلم ـ يدخل فيما أُهلّ لغير الله به؛ فإن من سمّى غير الله فقد أَهَلَّ لغير الله، فقوله: [ك،٥٦/ب] باسم كذا، استعانة به، وقولُه: لكذا، عبادة له، ولهذا جمع الله ـ سبحانه ـ بين الاستعانة والعبادة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾[2].

وأيضًا فإنّه ـ سبحانه ـ حرّم كل ما ذُبح على النّصب، وهي كل ما نصب ليعبد من دون الله ـ سبحانه ـ، فعموم قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ﴾، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾، عموم محفوظ، لم تُخص منه صورة.

فقد عُلم يقينًا أن الذبح لغير الله وباسم غيره ليس من دين الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فهو إذًا من الشرك الذي أحدثه المشركون، وغيّروا به دين الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: وسواء سُمّيت الأنصاب أصنامًا أو لا؛ لأن ما ذُبح عليها إما أن تسمى أصنامًا، فالذبح لها على قول من يسميها

---

(١) رواه أبو داود: ٣/ ٩٥، (٢٧٩٥)، والذي فيه أن قوله «بسم الله. .» إلخ بعد قوله: «اللهم منك ولك»، وراه ابن خزيمة في صحيحة: ٤/ ٢٨٧، (٢٨٩٩). وصححه الألباني كما في الإرواء برقم (١١٥٢).

(٢) انظر الاقتضاء: ٢/ ٥٦٠، ٥٦١.

(٣) انظر الاقتضاء: ٢/ ٥٦٢.

بذلك، وإما ألاّ تسمّى أصنامًا، فلا يكون الذبح عليها إلا للأصنام التي هي مجعولة أنصابًا لها، فعلى كلا القولين هذا الذبح شرك [مضاهٍ][1] لدين الأنبياء والمرسلين أجمعين ـ عليهم الصلاة والسلام إلى يوم الدين ـ[2].

وهذا القول الأخير هو الأصل في وضعها، وقد يغلب الأول باسم ما وضعت له، ويشهد للثاني قول متمّم بن نويرة يرثي بحير بن عبدالله السليطي:

ولو شئتَ نجّاك الكميت ولم تكن كأنّك نصبٌ للرماح رجيم[3]

[ر،١١٦/ب] واللعن ـ في اللغة ـ من الله: الطرد والإبعاد عن رحمته، وسيأتي الشاهد على الإبعاد إن شاء الله ـ تعالى ـ، وكفى بذلك زاجرًا عن ذلك.

وهو من الناس: السبُّ والشتم.

(لعن الله من لعن والديه)، فما أقرب البارَّ بوالديه من الله ـ سبحانه ـ بعد أداء حقه، حيث قرن حقّهما بحقّه، مع قوله ـ تعالى ـ في الحديث القدسي للرحم: «من وصلك وصلته»، وأصله في الصحيحين[4].

وما أبعد العاقّ عنه ـ سبحانه ـ، حيث لعنه في كتابه في قوله:

---

(١) في الأصل: مضاهيا. وما أثبته هو الصواب.

(٢) بمعناه من الاقتضاء: ٢/ ٥٦٢، ٥٦٣.

(٣) كذا البيت في الأصل، وهو في «معجم البلدان» (٢/ ١٢٦) هكذا:
ولم تشْبُ في حال الكميت ولم تكن كأنك نصب للرماح رجيم

(٤) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٣٢، الأدب، باب من وصل وصله الله، (٥٦٤٢)، وبنحوه في صحيح مسلم: ٤/ ١٧٢، البر..، باب (٦)، حديث (٢٥٥٤).

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]، وعلى لسان رسوله، كما في الحديث، وقوله في الحديث القدسي للرحم أيضًا: «ومن قطعك قطعته»[١]، وفي رواية: «بتتُّه»[٢]، فهل بعد هذا زجرٌ لذي لُبّ أو عقل حاظر.

ومن لعْنِ الوالدين أن يلعن الرجل أبا الرجل، فيلعن الرجل أباه، أو يلعن أمّه، فيلعن الرجل أمّه، كما في الحديث الصحيح[٣].

وقوله ـ ﷺ ـ: (لعن الله من آوى مُحدِثًا)، إذا كان هذا اللعن لمن آوى المحدِث، فكيف بالمحدِث نفسِه؟. فهو أولى بذلك وأحرى.

وقد ورد اللعن له أيضًا، وصح الحديث في ذلك[٤]، فالمحدِث من أحدث الحدَث، والحديثُ: الأمر الحادث، من المحدَث، وهو الأمر المنكر، الذي ليس بمعروف في السنّة.

وهل غُيّرت أديان الرسل إلا بالإحداث، حتى عُبدت الأصنام.!

ومؤوي المحدِث ـ بكسر الدال ـ هو من نَصَرَ جانيًا في الدّين، أو أجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يأخذ منه حقّه.

وبمعنى الإيواء: الرضا بإحداثه، والإقرار عليه.

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٣٢، (٥٦٤٢).

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٣١٥، (١٩٠٧)، وأبي داود: ٢/ ١٣٣، (١٦٩٤).

(٣) أخرجه البخاري: ٥/ ٢٢٢٨، الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، (٥٦٢٨)، ومسلم: ١/ ٨٩، الإيمان، باب (٣٨)، حديث (٩٠).

(٤) أخرجه البخاري: ٢/ ٦٦١، (١٧٦٨)، ومسلم: ٢/ ٨١٠، (١٣٦٦).

والمحدَث ـ بالفتح ـ هو الأمر المبتدَع نفسه، الذي وقع من الفاعل.

وقد عاتب الله ـ سبحانه ـ رسوله ـ ﷺ ـ في أمر ما قصد فيه إلا الحق؛ ولا هو يحوم حول حمى هذا الفعل، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

وقوله: («لعن الله من غيّر منار الأرض» رواه مسلم[1])، منار الأرض هي الأعلام الحاجزة بين الأملاك.

وهل هذا اللعن عامٌّ لمن غيّر منار الأرض المملوكة، وعلامات الطرق، والموارد، كالمنار المبنيّة أعلامًا في البرّيّة، كما قال جرير بن الخطفى:

خل الطريق لمن يبني المنار به   وابرز ببرْزة حين اضطرّك القدر[2]

أو يختص بالمراسيم الحاجزة بين الأراضي المملوكة، كاختصاصها بقوله ـ ﷺ ـ فيما صح عنه في الصحيح: «من ظلم قيدَ شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة»[3]؟.

الأوّل أشبه باللغة، أو يدخل من باب الأولى؛ لما ورد في لعن من كمّه أعمى عن الطريق[4]، فكذلك من أضلّ جاهلاً للطريق بتغيير أعلامه الذي يُقتدى بها فيه.

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٢٤٥، الأضاحي، باب (٨)، حديث (١٩٧٨).

(٢) ديوانه: ١/ ٢١١.

(٣) أخرجه البخاري: ٢/ ٨٦٦، (٢٣٢١)، ومسلم: ٣/ ٩٩٨، (١٦١٢).

(٤) رواه أحمد: ١/ ٣١٧، والطبراني في الكبير: ١١/ ٢١٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ١٠٢٥، (٥٨٩١).

وفيه [ر،١١٦/أ] دليلُ أنّ القرينة القويّة كالمراسيم الثابتة بين الأرْضَيْن، الخاليةَ من الاشتباه بغيرها، قد يُعمل بها كالجدار والحائط بين المِلكين، مع يمين من هي في جانبه، وإلاّ لما استوجب مغيّرُها اللعنَ المطلقَ على تغييرها؛ فإنّه ربما قلعها من لا يريد ظلم الأرض، فإطلاق اللعن في ذلك يفيد حكمًا على بقائها.

وقال الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ: حدّثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، (عن طارق بن شهاب) بن عبد شمس البجلي الأحمسي، وكان شريفًا، يكنّى بأبي عبدالله، وكان يحدّث عنه الحجاج، أثبت له ابن الجوزي الرؤية والرواية، وعدّه من أصحاب الآحاد، ولعل حديثه الذي عنى هذا، وذكره الإمام أحمد في الجزء الرابع من مسند الكوفيين، من ترتيب ابن عساكر[١]، فخر الحفّاظ، علي ابن هبة الله، مؤرخ دمشق، وعده في جزئه في الصحابة من رواة المسند عن النبي ـ ﷺ ـ، ولم يذكر عنه إلا حديثًا واحدًا، وأحد طرقه الذي ذكرناه.

وقال أبو داود: رأى النبي ـ ﷺ ـ ولم يسمع منه، مات سنة اثنين[٢] أو ثلاث وثمانين[٣]، رضي الله عنه، فيكون بهذا هذا الحديث مرسل

---

(١) انظر «ترتيب أسماء الصحابة الذين أخرج حديثهم أحمد بن حنبل في المسند» لابن عساكر ص ٦٩، وعزو الشارح إلى هذا الكتاب فيه نظر؛ فإن الإمام أحمد لم يخرج هذا الحديث في المسند، وإنما خرجه في الزهد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه موقوفاً، وذكره ابن القيم في الجواب الكافي ص ٢١ من زوائد الإمام أحمد قال: حدثنا معاوية ثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه، ولم يذكر سلمان الفارسي، ومال صاحب المنهج السديد إلى أن هذا وهم من ابن القيم، انظر ص ٦٨منه.

(٢) كذا، والصواب: سنة اثنتين.

(٣) انظر «تقريب التهذيب»: ٢٨١، (٣٠٠٠).

صحابي، ومرسل الصحابي إذا صح سنده في حكم الموصول المتّصل.

(قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: دخل الجنّة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب).

قوله: «في ذباب»، أي لأجله، أو بسببه، على أنّ «في» في هذا الموضع سببيّة، كقوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]، ذكر معنى ذلك أهل العربيّة.

وقال ابن مالك: «في» هنا بمعنى التعليل، وهو مما خفي على أكثر النحاة[١].

وتعقّبه الطّيبي بأنّهم يقدّرون المضاف، أي في شأن هذا، أو في أمره[٢]، فالظاهر من الحديث استحقاق الرجل الذي قرّب الذباب للنّار؛ بسبب تقريبه الذباب للصنم، وكذا داخل الجنّة، سبب دخولها له[٣] امتناعه عن تقريب الذباب لغير الله ـ تعالى ـ.

ولهذا (قالوا [ك،٥٦/أ] وكيف ذلك يا رسول الله؟. قال: مرّ رجلان) يعني ممّن كان قبلكم، (على قوم لهم صنم)، يعني يعبدونه من دون الله ـ تعالى ـ، (لا يجوزه أحدٌ) من تعظيمهم له، (حتى يقرّب له شيئًا) من الأشياء، ولو كان قليلاً؛ لأن المقصود من ذلك طاعةُ الشيطان، وهي تحصل بأدنى قليل، وأحقر حقير، (فقالوا) بواو الجمع، وهذا يدلّ على أنّ أهل الصنم قد اتفقوا على ذلك، وإلا قد لا يحضره إلا سادنُه،

---

(١) «شواهد التوضيح والتصحيح»: ٦٧.
(٢) انظر «فيض القدير» للمناوي: ٣/ ٥٢٣.
(٣) كذا، وصوابه: سبب دخوله فيها.

ولهذا قال: (فقالوا لأحدهما:) أي الرجلين (قرِّب) أي لهذا الصنم قربانًا، (فقال: ليس عندي شيء أقرِّبُه) له، وهذا دليل على استطاعته من غير إكراه؛ لأنّه لم يعتل إلا بعدم وجود ما يقرِّب له، فلما علموا أنه لا يمنعه من ذلك إلا العُدْم لِما طلبوا، (قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا، فقرّب ذبابًا) لصنمهم ذلك، (فخلَّوا سبيله، فدخل) بسبب ذلك (النار)، نعوذ [ر،١١٧/ب] بالله من الخذلان وطاعة الشيطان.

(وقالوا للآخر: قرِّب، قال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئًا دون الله ـ عزّ وجل ـ)، وهذا دليل على رسوخ الإيمان في قلبه، مع علمه بما أرادوا به، ومع كونهم لم يطلبوا منه من أمر الدنيا إلا أمرًا حقيرًا، فهانت عليه نفسه بأن خاطبهم بما يُرضي اللهَ ـ تعالى ـ، وقد علم أنّ فيه هلاك نفسه.

(فضربوا) حينئذ (عنقه، فدخل) بسبب توحيده وامتناعه عن الشرك (الجنّةَ» ، رواه) الإمام (أحمد) بسنده المتقدّم[1].

فهذا الذي دخل النّار في ذباب للصنم، قرّبه له، إما أن يكون كافرًا وخُتم له بالشقاوة بهذا العمل على كفره، وحيل بينه وبين التوبة عن الكفر بسببه، كما في قوله ـ ﷺ ـ فيما صح عنه في الصحيحين[2] وغيرهما، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «دخلت امرأة النار في هرّة حبستها، ـ وفي رواية: ربطتها ـ فلم تطعمها إذ

---

(١) الزهد: ١٥، ١٦، ورواه أبو نعيم في الحلية: ١/ ٢٠٣، والخطيب في الكفاية: ١٨٥، وابن أبي شيبة في المصنف: ٦/ ٢٧٣، والبيهقي في الشعب: ٥/ ٤٨٥، (٧٣٤٣). كلهم رووه موقوفًا على سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ، وهو صحيح موقوفًا كما في النهج السديد: ٦٨، (١٢٤). وممن ذكر هذا الحديث مرفوعًا ابن القيم في الجواب الكافي: ٢١، فلعله وهم منه تبعه المصنف عليه.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٢٦٠، (٧١٢)، وصحيح مسلم: ٢/ ٥١٩، (٩٠٤).

حبستها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت». زاد مسلم: «هُزالاً»؛ فإن الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كفر المرأة، قيل إنها حميرية يهودية من أهل اليمن، وقيل إسرائيلية[1].

قال علقمةُ مولى عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كنّا جلوسًا عند عائشة، فدخل أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ فقالت له: أنت الذي تحدّث عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنّ امرأة عُذّبت في هرة ربطتها، فذكرت الحديث؟ فقال: سمعته منه. فقالت: هل تدري ما كانت المرأة؟، إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، وإنّ المؤمن أكرم على الله من أن يعذّبه في هرّة، فإذا حدّثت عن رسول الله ـ ﷺ ـ فانظر كيف تحدّث. رواه الإمام أحمد في مسنده[2]، وقال الحافظ الهيثمي: رجاله رجال الصحيح[3].

ومن هذا الباب قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٨ـ ١٠].

وإما أن يكون ذلك الرجل مسلمًا، وأنّ فِعْلَ الشرك والنطقَ به في تلك الأمّة لم يرخّص فيه، ويُعفَ[4] عنه مع الإكراه، أو رُخّص فيه، ولم يتأوّل حيث أمكنه التأوّل، ففعله طائعًا مختارًا، وقد تظهر هذه الحالة من حاله.

ويُستدل للأوّل بحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنّ الله تجاوز عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا

---

(١) انظر صحيح مسلم: ٢/ ٥٢٠، (٩٠٥).

(٢) المسند: ٢/ ٥١٩، ورواه أبو داود الطيالسي: ١٩٩، (١٤٠٠).

(٣) المجمع: ١/ ١١٦ و١٠/ ١٩٠.

(٤) في الأصل: يُعفى.

عليه». رواه ابن ماجه[1] والبيهقي[2] وابن حبّان في صحيحه[3] والدارقطني[4].

ورواه الجوزجاني، ولفظه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تُجوز لأمّتي عن ثلاث: الخطأ، والنسيان، وما استكرِهوا عليه»[5].

ورواه حرب الكرماني، وابن عدي[6] عن ابن عباس أيضًا من وجه آخر.

وقد رُوي من وجوه أخر غير هذه: رواه ابن أبي حاتم عن أمّ الدرداء ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا: «إن الله تجاوز لأمّتي عن ثلاث: عن الخطأ، والنسيان، [ر،١١٧/أ] والاستكراه». أخرجه من رواية أبي بكر الهذلي، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء[7].

قال أبوبكر: فذكرت ذلك للحسن فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآنًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وأبوبكر هذا أخباري متروك. قاله ابن حجر[8] وغيره.

---

(١) سنن ابن ماجه: ١/ ٦٥٩، (٢٠٤٣). وصححه الألباني كما في «إرواء الغليل» برقم (٨٢).

(٢) السنن الكبرى: ٧/ ٣٥٦، (١٤٨٧١).

(٣) ١٦/ ٢٠٢، (٧٢١٩).

(٤) سنن الدارقطني: ٤/ ١٧٠.

(٥) ذكره عن الجوزجاني ابن رجب في جامع العلوم: ٣٧٣.

(٦) الكامل: ٢/ ٧٥٧، ٧٥٨.

(٧) تفسير ابن أبي حاتم: ٢/ ٥٧٩، (٣٠٩٢).

(٨) «تقريب التهذيب»: ٦٢٥.

وررواه ابن ماجه عن شهرٍ، عن أبي ذرٍّ الغفاري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إن الله تجاوز لي عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1]. ولم يذكر كلام الحسن.

وشهر بن حوشب وثّقه الإمام أحمد، ويحيى بن معين، والعجلي، ويعقوب بن شيبة. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال ابن عدي: ليس بالقوي في الحديث، وهو ممن لا يحتج بحديثه، ولا يتديّن به[2].

وقد روى له مسلم في صحيحه مقرونًا بغيره[3].

ورجال حديث ابن عباس الذي عند ابن ماجه على شرط الشيخين، سوى محمد بن مصفّى، شيخ ابن ماجه. وهو صدوق. وقال ابن حبّان: يخطىء[4].

وهو ابن مصفّى بن بهلول، حمصيّ.

وقد أُعلّ الحديث.

ورواه الحاكم من حديث الأوزاعي، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا، ولفظه: «تجاوز الله عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وقال: صحيح على شرطهما[5].

---

(١) سنن ابن ماجه: ١/ ٦٥٩، (٢٠٤٣).

(٢) انظر «تهذيب التهذيب» لابن حجر: ٤/ ٣٢٥.

(٣) انظر صحيح مسلم: ٣/ ١٢٩٠، (٢٠٤٩).

(٤) انظر «تهذيب التهذيب»: ٩/ ٤٠٦.

(٥) المستدرك: ٢/ ٢١٦، (٢٨٠١).

ورواه الدارقطني عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أيضًا مرفوعًا، وفيه: «وما أكرهوا عليه»[1].

فقوله في حديث أبي ذر الغفاري: «تجاوز لي»، أي لأجلي.

وقوله: «تجاوز لأمّتي»، هذا يفيد الخصوص له من بين الرسل ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ، ولأمّته من بين الأمم.

وقد أخرج لفظ حديث ابن عبّاس ـ الذي روى الحاكم ـ الطبرانيُّ في الأوسط عن ابن عمر[2]. وقال السيوطي: إن إسناده صحيح.

[ك،٥٧/ب] والتجاوز: العفو، وهو يشعر ـ كما مرّ ـ خصوصيّتَه بهذه الأمّة، والمراد أمّةُ الإجابة؛ لأنهم الذين ينفعهم عمل الخطاب.

ويُستأنس لهذا الحديث بحديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ، الذي رواه الطبرانيّ عنه ـ مرفوعًا ـ: «رُفع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[3].

قال النووي في الروضة: حسن[4]، ـ وكذا السيوطي حكى صحته، ورمز عليه في الجامع الصغير ـ[5]، وتعقّبه الهيثمي بأن فيه يزيد بن ربيعة الرحبي، وهو ضعيف[6].

---

(١) سنن الدارقطني: ٤/ ١٧١.

(٢) المعجم الأوسط: ٢/ ٣٣١، (٢١٣٧) و٨/ ١٦١، (٨٢٧٣).

(٣) مسند الشاميين: ٢/ ١٥٢، (١٠٩٠)، وأوله: «إن الله تجاوز لأمتي..». قال في «كشف الخفاء» (١/ ٥٢٢): لا يوجد بهذا اللفظ. ا.هـ. يعني: رفع عن أمتي...

(٤) «روضة الطالبين»: ٨/ ١٩٣، ط المكتب الإسلامي.

(٥) «الجامع الصغير»: ٢٧٣، (٤٤٦١).

(٦) المجمع: ٦/ ٢٥٠.

وقال ابن أبي حاتم عن أبيه عن هذه الأحاديث: إنها منكرة، كأنها موضوعة[1].

وقال عبدالله بن الإمام أحمد في العلل، إنّ أباه أنكر هذا الحديث[2].

ونقل الخلّال عن الإمام أحمد أنّه قال: من زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف الكتاب والسنّة[3]. ومرادُه الحكم، لا رفع الإثم، كما سيأتي الكلام عليه قريبًا.

وقال البيضاوي: مفهوم هذا الحديث: أن الخطأ والنسيان كان مؤاخذًا بهما أولاً، إذ لا [ر،١١٨/ب] يمتنع المؤاخذة بهما عقلاً[4].

وقال الكمال بن الهمام[5]: قوله: «رُفع عن أمّتي» الحديث، من باب المقتضي للعموم ولا عموم له؛ لأنّه ضروري، فوجب تقديره على وجه يصحّ، والإجماع على أنّ رفع الإثم مراد، فلا يراد غيره، وإلا لزم تعميمه، وهو في غير محلّ الضرورة، ومن اعتبره في الحكم الأعمّ من حكم الدنيا والآخرة فقد عمّمه من حيث لا يدري، إذ قد أثبته في غير محلّ الضرورة، ويلزم منه لمن تكلّم في الصلاة سهوًا تصحيح الكلام، وهو لو أطال الكلام ساهيًا في الصلاة فإنه يقول بالفساد؛ فإن الشرع إن

---

(١) علل ابن أبي حاتم: ١/ ٤٣١.

(٢) «العلل ومعرفة الرجال»: ١/ ٥٦١، (١٣٤٠).

(٣) ذكر ذلك الحافظ في «تلخيص الجبير»: ١/ ٢٨٢.

(٤) انظر تفسير البيضاوي: ١/ ١٤٧.

(٥) في حاشية الصفحة من نسخة المؤلف بخطه: [الكمال هو ابن الهمام: محمد بن عبد الواحد بن عبدالمجيد بن مسعود، الحنفي، الإسكندري، تقدم في جميع العلوم، من الفقه، والنحو، والمعاني، والأصول، وغيرها، مات سنة إحدى ـ في الأصل: أحد ـ وستين وثمانمائة. وله تصانيف كثيرة، منها: «التحرير في الأصول»، كان علّامة محققًا جدليا نظّارًا].

رفع إفساده وجب شمولُه الصحّة، وإلا فشمول عدمها، وإنما عُفي عن القليل من العمل لعدم التحرّز عنه[١].

وفي «جمع الجوامع» أنّ هذا ليس من المجمل[٢].

قال: وفصّل البصريّان: أبو الحسن، وأبو عبدالله، وبعض الحنفية فقالوا: لا يصحّ رفع المذكورات مع وجودها، فلا بدّ من تقدير شيء، وهو متردّد بين أمور لا حاجة لجميعها، ولا مرجّح لبعضها، فكان مجملاً[٣].

قلنا[٤]: المرجّح موجود، وهو العرف، فإنّه يقتضي بأن المراد منه رفع المؤاخذة. هذا كلامه.

فلفظ الرفع تقتضي عبارته النقلَ من سُفْل إلى علوّ، وذلك يوجد في زمان واحد غيرِ متطاول، فهو رفع حكمِ وضعِ سابقٍ شرعيٍّ متقدّمٍ على من قبْلَ أمّته ـ ﷺ ـ، فرُفع عن أمّته، والمراد به رفعُ الإثم، وإلا فالمُكرَه مكلّف عند أهل السنّة والجماعة، لا يرتفع عنه حكم التكليف، كما أشار إليه الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ أولاً[٥]، في رواية الخلاّل، وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله ـ تعالى ـ قريبًا.

وقد تقدّم في هذا الشرح[٦] بيان أنّ شرع من قبلنا شرع لنا ما لم

---

(١) عن «فيض القدير»: ٤/ ٣٥.

(٢) انظر «جمع الجوامع» للسبكي، ضمن مجموع مهمّات المتون: ١٥٢.

(٣) مقتضى سياق الكلام أن القائل هو الكمال ابن الهمام، لكن وقع في «فيض القدير» للمناوي كلام ابن الهمام بعد هذا الكلام، ومقتضى ما في «فيض القدير» أنه من كلام البيضاوي. لكني لم أجده ضمن كلامه في التفسير.

(٤) أي الكمال ابن الهمام، على نقل المؤلف. وانظر «فيض القدير»: ٤/ ٣٥.

(٥) انظر: الصفحة السابقة.

(٦) راجع: ص٥٥٥.

يرد شرعنا بخلافه، وأنّ عليه شيوخَ المذهب، كالقاضي أبي يعلى، ومجد الدين ابن تيميّة، وحفيده أبي العبّاس، وموفّق الدين ابن قدامة، وابن أخيه: ابن أبي عمر، وغيرهم، وهو المنصوص عن الإمام أحمد.

أو أن يكون ذلك الرجل مسلمًا[1] مع وجود الرخصة للمكرَه في تلك الأمّة، من رفع الإثم كما أشرنا إلى ذلك، فقرّب الذباب قصدًا منه بعد ما دعوه لذلك، وشرح له صدره، وتابعهم على عملهم ودينهم، وهو الذي يقتضيه اللفظ، فلولا أنّه خُتم له بذلك العمل، ولم يتعقبه توبة ماحيةٌ له، لما قال: دخل النار في ذباب.

أو أنّه لمّا كان حكم الإكراه عندهم كما هو عندنا: مقرونةً به الرخصة، بحيث لا يؤثّر ذلك [ر،١١٨/أ] العمل مع الإكراه في الإيمان تأثيرًا يزيله عن القلب، لم يتأوّل حيث أمكنه التأوّل، كما قد صرّح بذلك العلماء - رحمهم الله تعالى - في هذا الباب؛ فإن التأوّل لا يقع عليه إكراه، لأنه مختص بالقلب، إذا أمكنه ذلك؛ ولأنّه لم يخرج بالإكراه عن التكليف، وإنّما رفع الإكراه عنه إثم ما أكره عليه، كما قال - تعالى -: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[2] [النحل: ١٠٦ - ١٠٩].

ففي هذه الآية إذا ضُمّت إلى قوله - تعالى -: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ

---

(١) عاد إلى التفصيل في شأن الرجل الذي قرب ذبابًا.

(٢) كتبت في الأصل: الأخسرون.

نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [ك،٥٧/أ] [المنافقون: ١، ٢]، دليل على أنّ أحكام الدنيا متعلّقة بما ظهر من الجوارح، من القول والفعل، التي أميرها القلب، الذي يدور عليه الثواب والعقاب، إلا أنّ الجوارح تعبّر عن القلب بأعمالها الواجبة عليها، المرتبطة به، التي لا تصلح إلا بصدورها عنه؛ لأنها من الإيمان، إذا كانت بنيّة صادقة خالصة، كما صح وثبت عنه ـ ﷺ ـ في الصحيحين وغيرهما، من حديث عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ، أنّه قال: «إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[1]، وهذا الارتباط بين القلب والجوارح هو الذي ينفع الإنسان في الدنيا والآخرة، إذا كان ذلك الارتباط دائرًا على الإيمان والعمل الصالح، فإن لم يصدر ذلك عن طويّة صادقة خالصة في الباطن، حُكم لصاحبها بالظاهر في الدنيا بحقن الدم، والكفّ عن المال، بما ظهر منه، وصار له بذلك ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، وفي الآخرة في الدرك الأسفل من النّار، كما أخبر الله عن أصحاب هذا العمل، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ۝١٤٥﴾ [النساء: ١٤٥]، ولهذا قال في حق من ظهر منه بعض ما أبطن، في أحكام الدنيا: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ [التوبة: ٧٤]، فإنّهم كما قال ـ تعالى ـ في وصفهم: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ۝٥٧﴾ [التوبة: ٥٧]، ولهذا لم يقل ـ سبحانه ـ: بعد إيمانهم، بل قال: ﴿بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾، وهو الإسلام اللغويّ على الصحيح من قولي المفسرين، الذي ليس فيه إلا الانقياد في الظاهر، لا

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٣، (١) وصحيح مسلم: ٣/ ١٢٠٤، (١٩٠٧).

الإسلام الذي نشأ عن الإيمان والمحبة الخالصة.

فهم كما وصفهم ـ سبحانه ـ: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ [ر، ١١٩/ب]﴾ [الفتح: ١١]، أي يعطون المسلمين بألسنتهم، وإذا خلوا بإخوانهم الكافرين أظهروا لهم ما في قلوبهم، وقالوا: إنّا معكم، إنما نحن مستهزؤن بهم.

فلمّا كان الإكراه لأهل الإيمان دليلاً حسيًّا، كان لمن ادّعاه قرينة ظاهرة لقبول دعواه في الدنيا، فإن كان قلبه في علم الله ـ سبحانه ـ على ما ادعاه، كان ذلك مقبولاً في الدنيا والآخرة، وارتفع الإثم عنه بما رخّص الله له فيه، وإلا يكن كذلك، فسبيله سبيل أهل الدرك الأسفل من النار.

وفي هذا دليل على أنّ القرائن إذا قويت، لها مدخل في الأحكام؛ لأنها قد تكون في مقام البيّنة أصحّ من شهود الوقت، فيعمل بها، مع قول من قَوِيت بجانبه، لأن البيّنة في اللغة ولسان الشارع أيضًا: ما يبيّن الحق.

فقوله ـ سبحانه ـ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾، هذا عامّ في جميع الناس؛ من أجل أنّه شرط، ومن حكم الشرط المطلق عندهم أن يعم.

ومعنى «كفر»: أظهر الكفر، وهو أيضًا عامّ في القول والفعل.

وكذلك الأحاديث المتقدّمة، ظاهرها العموم، إلا بدليل قاطع خارج منفصل، يخص العموم، كالإكراه على قتل النفس المعصومة.

وفي الإكراه على فعل الزنا خلاف، وسيأتي التنبيه على ذلك.

ولمّا كان فيمن يُظهر الكفر في هذا العموم من لا يتناوله الوعيد، الذي هو جزاء الشرط، وهو من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، الذي هو فعل الشرط، استثناهم الله ـ سبحانه ـ قبل ذكر الجزاء، ليكون الوعيد عامًّا لكل من عمّه الشرط، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾، أي وهو مؤمن حقًّا.

والصحيح عن المفسرين أن الاستثناء في هذا متصل، وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، وهي تقية.

ثم وصف من يتناوله الوعيد، وأعاد كلمة الشرط فقال: ﴿وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾، أي فتح صدره، ووسّعه للكفر، بالقول والقبول، وأتى به على اختيار منه، ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي العذاب ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي آثروها عليها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾. أي الذين آثروا الكفر بعد ظهور الحق، عنادًا وتمردًا، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي بجحدهم الحق بعد ظهوره، طبع على قلوبهم وخذلهم، ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ عمّا أُعدّ لهم وينالهم من العذاب على كفرهم، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ﴾، قيل معناه: لا بدّ أنهم، وقيل: وجب قطعًا، [١١٩/ب] ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[1]، فأتى بضمير الاختصاص، والمبالغة لهم في الخسران[2]، وعلى هذا حرف «لا» في هذا الموضع [ردٌّ][3] لما اعتقدوه.

(١) في الأصل: «الأخسرون».
(٢) هذا مبني على الخطأ السابق في الآية.
(٣) في الأصل: ردًّا».

فالإكراه قسمان: أحدهما الإكراه على الأقوال، مثل أن يُكرَه الإنسان على قولٍ محرم، يكفر أو يفسق به لو قاله مختارًا غير متأوّل، فيُكرَه على قول ذلك إكراهًا معتبرًا، فله أن يفتدي نفسه بذلك، ولا إثم عليه.

وهذا إجماع حكاه غير واحد من العلماء[1]، وقد دلّ عليه الكتاب والسنّة، وأجمع عليه علماء الأمّة.

وأمّا الأفعال المكره عليها، فمنها ما هو حق لله ـ تعالى ـ محض، ومنها ما هو حق للآدمي حرّمه الله ـ تعالى ـ.

[ك،٥٨/ب] والمكره[2] عليها نوعان: أحدهما: أن يُكره من لا اختيار له بالكليّة، ولا قدرة له على الامتناع، كمن حُمل كرهًا، وضُرب به غيرُه حتى مات ذلك الغير، ولا قدرة له أن يمتنع من حامله.

أو امرأة اضطجعت حتى زُني بها، من غير قدرة لها على الامتناع، فهذا ونحوه لا إثم عليه باتفاق الأئمة.

إلا أنهم اتفقوا على أنّه لو أُكره على قتل معصوم بالقتل لم يُبح له قتله؛ لأنّه يفتدي نفسه بذلك من القتل[3].

قالوا: وهذا أيضًا إجماع ممّن يُعتد به من العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ، فإذا قتل المُكرَه في هذه الحال، وجب عليهما القوَدُ، المكرِه والمكرَه؛ لاشتراكهما في القتل، عند مالك والشافعي، وأحمد في

---

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: ٢/ ٣٧٢.

(٢) أراد: والمكرهون على هذه الأفعال نوعان:

(٣) انظر «مجموع الفتاوى»: ٢٨/ ٥٣٩.

إحدى[1] الروايتين عنه، وعنه: يجب على المكرِه ـ بكسر الراء ـ وحده؛ لأنّ المكرَه ـ بفتحها ـ كالآلة، وهو قول أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ، والقول الثاني للشافعي[2].

وأما الإثم، فهو آثم بالإجماع كما مر.

والنّوع الثاني: من أكره بضرب أو غيره، كالتهديد بالقتل إن لم يفعل، فهذا الفعل يتعلّق به التكليف؛ فإنّه يمكنه ألا يفعل، فهو مختار للفعل، لكن ليس غَرضه نفسَ الفعل، بل دفعُ الضرب عنه، فهو مختار من وجه، وغير مختار من الوجه الآخر.

وخالفت في ذلك المعتزلة، فقالوا: لا تكليف مع الإكراه[3]، وردّ عليهم أهل السنة والجماعة بأنه ليس الترخيص ممّا يخرج المكره عن حكم الخطاب، وإنما يرفع عنه الإكراهُ الإثم، ولا يخرج عن أن يكون مخاطبًا بالتكليف، لأنّه يُتصوّر انكفافه عما أكره عليه مع الإكراه، وكذلك يُتصوّر منه القصد إلى الامتثال، إذا أكره على فعل الطاعة، كما جُرّدت سيوف الجهاد للإكراه بالقتل على الدخول في الإسلام لله ـ تعالى ـ، وبه يتعلّق صحّة التكليف.

وقد قال ـ ﷺ ـ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: «لا إله إلا الله»، فإذا قالوها عصموا منّي [ر، ١٢٠/ب] دماءهم وأموالهم إلا

---

(١) في الأصل: «أحد».

(٢) انظر مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٤٠.

(٣) انظر المغني لعبدالجبار: ١١/ ٣٩٣، والمعتمد لأبي الحسين البصري: ١/ ١٦٦، عن «آراء المعتزلة الأصولية» للدكتور علي الضويحي: ٢٩٦ وما بعدها.

بحقها»(١)، مع قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، المراد به بإجماع أهل العلم: الذمّي إذا أقام على ما عوهد عليه، وكذا المستأمن، لا يجوز نقض عهده، ولا إكراهُه على ما لم يلزمه في عهده، بخلاف الحربيّ والمرتد؛ فإنّهما يُكرهان على الإسلام، بأن يقال لكل منهما: إن أسلمت وإلا قتلناك، فإذا أسلم مواطئًا قلبُه لسانَه، صحّ إسلامُه مع الإكراه، باطنًا وظاهرًا.

وقد ذُكر أنّ سبب نزول قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، قومٌ من أبناء الأنصار تهوّدوا، حيث قال ابن جرير: حدّثنا ابن [بشار](٢)، حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت المرأة تكون مقلاة(٣)، فتجعل على نفسها، إن عاش لها ولدٌ أن تهوّده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا لا ندع أبناءنا، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ الآية(٤).

ورواه أبو داود(٥) والنسائي(٦) جميعًا، عن بُندارٍ به، من وجوه عن

---

(١) أخرجه البخاري: ١/ ١٥٣، (٣٨٥)، ومسلم: ١/ ٥٧، (٢١).

(٢) في الأصول: [يسار]، والتصويب من تفسير الطبري.

(٣) في تفسير الطبري وسنن أبي داود: مقلاتا.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري: ٣/ ١٤.

(٥) سنن أبي داود: ٣/ ٥٨، الجهاد، باب في الأسير يكره على الإسلام، (٢٦٨٢).

(٦) السنن الكبرى: ٦/ ٣٠٤، (١١٠٤٩).

شعبة به نحوه.

ورواه ابن أبي حاتم[١]، وابن حبان في صحيحه[٢]، من حديث شعبة أيضًا به.

وهكذا قال سعيد بن جبير، والشعبي، والحسن البصري، وغيرهم: أنها نزلت في ذلك[٣].

وهو عند ابن إسحاق بسنده[٤] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وفيه: نزلت في رجل من الأنصار، من بني سالم بن عوف، يقال له: «الحصين»، كان له ابنان نصرانيّان، وكان هو رجلاً مسلمًا، فقال للنبي ـ ﷺ ـ: ألا أستكرههما؛ فإنهما قد أبيا إلا النصرانيّة؟. فانزل الله فيه ذلك. ورواه أيضًا ابن جرير[٥].

وعند[٦] السدّي نحو ذلك، وزاد: وكانا قد تنصّرا على يدي تجّار قد قدموا من الشام، يحملون زيتًا، فلما عزما على الذّهاب معهم، أراد أبوهما أن [يستكرهَهُما][٧]، وطلب من رسول الله ـ ﷺ ـ أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية[٨].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٢/ ٤٩٣، (٢٦٠٩).

(٢) صحيح ابن حبان: ١/ ٣٥٢، (١٤٠).

(٣) انظر تفسير الطبري: ٣/ ١٤، وسنن سعيد بن منصور: ٣/ ٩٥٦، (٤٢٧).

(٤) انظر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٨٢، ط طيبة ١٤١٨هـ.

(٥) تفسير الطبري: ٣/ ١٤.

(٦) كذا في الأصل، وأظن الصواب: وعن السدي.

(٧) في الأصل: يستكرهما.

(٨) أخرجه الطبري: ٣/ ١٥.

وعند ابن أبي حاتم بسند صحيح، عن أسلم[1] قال: كنت مملوكًا نصرانيًّا لعمر بن الخطاب، فكان يعرض عليّ الإسلام، فآبى، فيقول: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾، ويقول: يا أسلم، لو أسلمت لاستعنّا بك على بعض أمور المسلمين، فذَكر أنّه أسلم بعد ذلك[2].

وهذا هو الصّحيح من معنى الإكراه في الدين، ولهذا قال ـ تعالى ـ مخاطبًا للمؤمنين: ﴿ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ ﴾ [الفتح: ١٦]، وقرأ بعضهم[3]: «أو يسلموا» بالنصب، على معنى «حتى يسلموا»، أو «إلى أن يسلموا»، كما قال الشاعر:

وكنتُ إذا غمزْتُ قناةَ قومٍ كسرتُ كعوبَها أو تستقيما[4]

[ر،١٢٠/أ] ومعنى قراءة العامّة: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ ﴾، فيسلمون معطوف على تقاتلونهم، والكلّ به الاستدلال قائم على ما تقدّم.

وقد روي عن الحسن البصري، فيمن قيل له: اسجد لصنم وإلا قتلناك، قال: إن كان الصنم تجاه القبلة فليسجد، ويجعل تقيّةً [ك،٥٨/أ] لله ـ تعالى ـ، وإن كان إلى غير القبلة فلا يفعله وإن قتلوه[5].

---

(١) المثبت في طبقات ابن سعد (٦/ ١٥٨) وتفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٣) وتفسير ابن كثير (١/ ٦٨٣): أُسَق. وفي بعض طبعاته: أسبق. والمعروف من موالي عمر: «أسلم»، انظر شعب الإيمان: ٦/ ١٧ و٥/ ٢٦١ وطبقات ابن سعد: ٣/ ٢٩٢ و٣/ ٣٠٩ وفضائل الصحابة لأحمد: ١/ ٢٩١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٥٦٨. فالظاهر أن أسبق محرفة عنها.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ٢/ ٤٩٣.

(٣) انظر تفسير الطبري: ٢٦/ ٨٤.

(٤) البيت لزياد الأعجم، انظر اللسان: ٥/ ٣٨٩.

(٥) ذكره ابن رجب في جامع العلوم: ٢/ ٣٧٢. وذكره القرطبي في تفسيره لكن عن =

قال ابن حبيب المالكي: وهذا قول حسن[١].

قال ابن عطية: وما يمنعه أن يجعل نيّته لله ـ تعالى ـ وإن كان لغير القبلة؛ ففي كتاب الله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقد أباحت الشريعة التنفّل إلى غير القبلة[٢].

قلت: وكذا المكرَه على الذبح للصنم، فما يمنعه إذا أكره على الذبح أن يجعله لله ـ سبحانه ـ بقلبه!، وقد قال ـ ﷺ ـ: «إنما الأعمال بالنيّات، وإنّما لكل امرىء ما نوى» الحديث[٣]، ولعل أمر صاحب الذباب من هذا الوجه، بحيث أنّه لم يتأوّل حيث أمكنه التأوّل، إلا أنّ حاله تقتضي الموافقة لهم من أوّل وهلة؛ لأنّه لم يعتذر [لهم][٤] إلا بعدم الوجود بشيء يقرّبُه لصنمهم.

والصحيح من قولي العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ أن الإكراه يعمّ الأقوال والأفعال، إلا ما خُصّ بدليل خارج، أو إجماع، كفداية[٥] نفسه بنفس غيره، ونحو ذلك؛ فإنّ آية الإكراه عامّة، وكذا آية التقية، قال البخاري عن الحسن: التقية إلى يوم القيامة[٦]. وكذا الأحاديث الواردة

= محمد بن الحسن.

(١) عن جامع العلوم: ٢/ ٣٧٢. وابن حبيب هو عبدالملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمة بن عباس بن مرداس السلمي، أبو مروان، الأديب، الفقيه المالكي، توفي سنة ٢٣٨هـ. انظر «ترتيب المدارك»: ٣/ ٣٠، و«الديباج المذهب»: ص ٢٥٢.

(٢) بمعناه من تفسير ابن عطية: ٣/ ٤٢٣، وانظر جامع العلوم لابن رجب: ٢/ ٣٧٢.

(٣) سبق تخريجه قريبًا.

(٤) في الأصل: يعتذرهم.

(٥) هذه الصيغة من توليد المؤلف، والصواب: «كمفاداة»، انظر اللسان: ١٥/ ١٥٠.

(٦) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٤٥.

في الإكراه، ظاهرها العموم، وقصّة عمار[1] ـ رضي الله عنه ـ قضيّة عين، لا عموم لها، واختصاصه بالقول لأنّهم لم يراودوه إلا على ذلك، فليس فيه دليل منع لجواز الرّخصة في الأفعال مع الإكراه، إلا ما خصّه الدليل الخارج المنفصل عن الآية.

ويشهد لذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [النور: ٣٣]؛ فإن سبب نزولها عبدُالله بن أبي، كانت له أمتان يكرهُهُما على الزنا، وهما يأبيان ذلك[2].

وقد روى معنى ذلك البزّار عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ[3].

ورواه ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر أيضًا[4].

ورواه أبو داود الطيالسي عن عكرمة عن ابن عباس بنحوه[5].

وقال السدّي: كانت لابن أُبيّ جارية تدعى: «معاذة»، وكان إذا

---

(١) أخرجها الحاكم في المستدرك: ٢/ ٣٨٩، (٣٣٦٢)، وقال صحيح على شرط الشيخين. وأخرجها البيهقي في السنن الكبرى: ٨/ ٢٠٨، (١٦٦٧٣) وقوّاها الحافظ في الفتح: ١٢/ ٣١٢.

(٢) رواه مسلم في آخر صحيحه: ٤/ ١٨٣٣، التفسير، باب في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾، (٣٠٢٩).

(٣) الذي في «كشف الأستار»: ٣/ ٦١، (٢٢٣٩)، (٢٢٤٠) إنما هو عن ابن عباس وعن أنس ـ رضي الله عنهم ـ.

(٤) انظر سنن أبي داود: ٢/ ٢٩٤، (٢٣١١).

(٥) لم أجده في مسند الطيالسي: ٣٤٧، ضمن مرويات عكرمة عن ابن عباس. وإنما روى نحوه أبو داود السجستاني في سننه عن جابر: ٢/ ٢٩٤، (٢٣١١).

نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها؛ إفادة الثواب منه، والكرامة له، فشكت الجارية لأبي بكر، فذكر ذلك أبوبكر للنبي ـ ﷺ ـ، فأمر بقبضها، فصاح عبدالله بن أبي: من يعذرني من محمد؟ يغلبنا على مملوكتنا! . فأنزل الله هذه الآية[1].

وروى معناه البزّار أيضًا عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ[2].

قال الحسن البصري في الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾، قال: لهنّ [ر،١٢١/ب] والله[3].

وقاله جابر بن عبدالله[4].

وقال ابن عباس: فإن فعلتم فإن الله لهنّ غفور رحيم، وإثمهُنّ على من أكرههنّ[5].

وكذا قال مجاهد، وعطاء الخراساني، والأعمش، وقتادة[6]، وغيرهم من السلف.

وهذا قول جمهور العلماء، كالشافعي، وأبي حنيفة، وهو المشهور

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم: ٨/ ٢٥٩، (١٤٥٢٨).

(٢) «كشف الأستار»: ٣/ ٦١، (٢٢٤٠).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى: ٨/ ٩، (١٥٥٧٠)، وفيه أنه كررها.

(٤) رواه ابن أبي حاتم: ٨/ ٢٥٩١، (١٤٥٣٥)، وفيه أنه كان يقرأ الآية: «فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم». وروى بعدها هذه القراءة عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) رواه ابن أبي حاتم: ٨/ ٢٥٩١، (١٤٥٣٧).

(٦) روى ذلك عنهم ابن أبي حاتم في تفسيره: ٨/ ٢٥٩١ـ ٢٥٩٢.

عن الإمام أحمد؛ بأنهم لا يرون الحد على من أُكره على الزنا[١].

وهو قول الفاروق عمر بن الخطّاب، وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ[٢].

وقاله جماعة من التابعين، منهم الزهري، والحسن، ومكحول، ومسروق، وغيرهم[٣].

ولم يُعرف للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في ذلك منهم مخالف، إلا أنّ بعض أهل هذه المقالة قد فرّق بين إكراه المرأة والرجل، فمنهم من قال: لا يصح إكراه الرجل على الزّنا دون المرأة؛ لأن الرجل لا يفعل ذلك إلا بعد الانتشار الصادر عن قلبه، فجعلوا هذه قرينة، فلم يقبلوا منه[٤]، لقوله ـ ﷺ ـ في زنا عين الرجل: «والفرج يصدّق ذلك ويكذّبه»[٥]، وقد نص على ذلك الإمام أحمد، خلافًا لأبي حنيفة[٦].

والقول الآخر: يصح إكراهه عليه، والانتشار يمكن أن يكون باعثه الخوف على نفسه. اختاره أبو الوفاء بن عقيل من أصحاب الإمام أحمد[٧].

---

(١) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: ٢/ ٣٧١.
(٢) انظر «المغني» لابن قدامة: ٩/ ٥٧.
(٣) انظر «جامع العلوم والحكم»: ٢/ ٣٧١.
(٤) انظر الموضع السابق.
(٥) أخرجه البخاري: ٦/ ٢٤٣٨، (٦٢٣٨)، ومسلم: ٤/ ١٦٢٤، (٢٦٥٧).
(٦) مذهب أبي حنيفة في هذه المسألة كمذهب أحمد، إلا أنه يصحح الإكراه على الرجل من السلطان دون غيره. انظر «أحكام القرآن» للجصاص: ٥/ ٩٩.
(٧) انظر «جامع العلوم والحكم»: ٢/ ٣٧٢.

وفي الأفعال قولٌ، أنّه لا تقيّه فيها، ولا إكراه عليها، وهي رواية عن الإمام أحمد، ويُروى عن ابن عباس، وأبي العالية، وجماعة[(١)].

ولعل هذا القول ليس على عمومه، وأنّه كما قدّمنا تفصيله، وإلا فقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٣﴾، ظاهره يردّ ذلك، كما تقدم عن ترجمان القرآن ابن عباس، وغيره، ولأن سبب نزوله ما قدّمناه.

وقد ردّ البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ على أصحاب هذا القول الأخير، كما يفهم من كلامه[(٢)].

وفي الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا قصةُ سارة زوج الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع الجبّار، إلا أنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ردّ كيده، وعصمها منه[(٣)].

ولمّا أخذ بنو المغيرة عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ، وغطُّوه في بئر ميمون، وقالوا له: اكفر بمحمد، فتابعهم على ذلك وقلبه مطمئن بالإيمان، كاره لما تفوّه به[(٤)]. وأُخبر النبي ـ ﷺ ـ بأنّ عمارًا كفر، قال: كلا، إن عمّارًا مُليء إيمانًا من قرنه إلى قدمه[(٥)]، واختلط الإيمان

---

(١) انظر جامع العلوم: ٢/ ٣٧٢.

(٢) انظر صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٤٨.

(٣) انظر صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٤٩، (٦٥٥٠).

(٤) إلى هنا رواه ابن جرير عن قتادة قال: ذُكر لنا.. فذكره: ١٤/ ١٨١.

(٥) روى هذه الجملة بهذا اللفظ أبو نعيم في الحلية: ١/ ١٤٠، ورواها غيره: مليء إيمانًا إلى مشاشته. رواه الضياء في المختارة: ٢/ ٣٩٥، وابن أبي شيبة في المصنف: ٦/ ١٦٣، ٣٨٥، والبزار: ٢/ ٣١٢، وأبو يعلى: ١/ ٣٢٤.

بلحمه و دمه[1]، فأتى عمار رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يبكي، فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يمسح عينيه، ويقول: ما لك؟، إن عادوا لك فعُد، فأنزل الله آية الإكراه.

وفي لفظ: دخل عمار وهو بمكّة على رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال له: أفلح وجه أبي اليقظان. فقال عمار: ما أفلح ولا أنجح. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: وما ذاك؟. قال: لم يزل بي المشركون حتى أعطيتُهم الذي أرادوا. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن استزادوا فزد. روى ذلك ابن منده، وأبو نعيم[2]، و غيرهما[3].

وأما قوله ـ ﷺ ـ لبعض أصحابه موصيًا لهم: «لا تشركوا [ر،١٢١/أ] بالله شيئًا وإن قُطّعتم وحُرّقتم[4]»، [ك،٥٩/ب] وقوله: «وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُلقى في النار»، كما في الصحيحين[5] وغيرهما، فالمراد به الشرك بالقلوب.

وعن مجاهد أنّ هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾

(١) روى نحو هذه الجملة الضياء في المختارة: ٢/ ١٣٢، والطبراني في الكبير: ٦/ ٢١٣، عن علي ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) بنحوه في الحلية: ١/ ١٤٠، ولم أجده في ترجمة عمار من كتابه «معرفة الصحابة».

(٣) كتب في طرة الأصل هنا: [بلغ مقابلة على أصله فصح على يد مصنفه عفى الله عنه].

(٤) رواه الضياء في المختارة: ٨/ ٢٨٧، ٢٨٨، (٣٥١)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة»: ٢/ ٨٨٩، (٩٢٠)، والطبراني في الكبير: ٤/ ٨١، والبخاري في «الأدب المفرد»: ١/ ٢٠، (١٨)، وعبد بن حميد: ١/ ٤٦٢، (١٥٩٤)، وصححه الألباني كما في الإرواء برقم (٢٠٢٦).

(٥) صحيح البخاري: ١/ ١٦، الإيمان، حديث (٢١). وصحيح مسلم: ١/ ٦٨، الإيمان، باب (١٥)، حديث (٤٣).

[النحل: ١٠٦]، نزلت في أناس من مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض أصحاب النبي ـ ﷺ ـ أن هاجِروا؛ فإنا لا نراكم منّا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش بالطريق، ففتنوهم، فتلفّظوا بكلمة الكفر كارهين[١].

ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾، قيل إنهم عياش بن ربيعة أخو أبي جهل بن هشام لأمّه من الرضاعة، وأبو جندل ابن سهيل بن عمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، فتنهم المشركون، فأعطوهم بعض ما أرادوا، ليَسلموا من شرهم، ثم إنّهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا[٢].

فهؤلاء ممّن فُتن وهم يستطيعون الهجرة، والخروج من تحت أيدي من فتنهم، فإذا كان الإنسان له استطاعة على الخروج ممّا به لزمه ذلك، وهوفي الإقامة في ذلك على خطر من دينه، بخلاف المستضعف الذي لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً.

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

قال ابن إسحاق: هؤلاء فتية ـ سمّاهم ـ أسلموا ورسول الله ـ ﷺ ـ بمكة، فلمّا هاجروا إلى المدينة حبسهم آباؤهم وعشائرهم بمكة، وفتنوهم فافتتنوا، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر، فأصيبوا

---

(١) رواه ابن جرير: ١٤/ ١٨٣.

(٢) رواه ابن جرير عن ابن إسحاق: ١٤/ ١٨٤.

جميعًا[1].

ولذلك لم يدخلوا في المستضعفين حيث استثناهم - جلّ وعلا - بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩]، وعسى من الله - تعالى - واجب، قاله ابن عباس وغيره[2].

ولهذا لمّا علم الله - تعالى - عجز المستضعفين عن الخروج من أيدي من استضعفهم، خاطب - سبحانه - المؤمنين، وحضّهم على الجهاد، وتخليص المستضعَفين من أيدي الكفرة المستضعِفين لهم، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥].

قال البخاري في صحيحه[3]: فعذر الله المستضعفين، الذين لا يمتنعون من ترك ما أمر الله به[4]، والمكرَه لا يكون إلا مستضعفًا غير ممتنع من فعل ما أمر به.

وقد قدّمنا قوله عن الحسن: إنه قال: التقية إلى يوم القيامة[5].

[ر،١٢٢ب/] ولهذا قال أبو الوفاء ابن عقيل في فنونه: إن الشرع

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام: ١/ ٦٤١.

(٢) رواه عن ابن عباس البيهقي في السنن الكبرى: ٩/ ١٣، (١٧٥٣١).

(٣) صحيح البخاري: ٦/ ٢٥٤٥.

(٤) أي ما أمر الله بتركه.

(٥) وصله ابن أبي شيبة في المصنف: ٦/ ٤٧٤، (٣٣، ٤٢)، وعبد بن حميد كما قال الحافظ في الفتح: ١٢/ ٣١٤.

والعقل أوجبا التحرّز من العوامّ بالتقيّة، وأنّه لا إقالة لعالم زلّ في شيء ممّا يكرهونه.

قلت: فتنبّه لما قاله أبو الوفاء، فلله درّه من عالم ما ألطف كلامه، وأرق معانيه؛ إذ هذه قاعدة عظيمة دلّت عليها الآية الشريفة، التي هي آية التقيّة، لها أصول وأوساط وحواشي وأطراف لا يعقلها إلا العالمون، فرحمه الله من عالم قد نوّر الله قلبه، حيث علم من هذه الآية مع ما هي فيه طريقَ المداراة، فلم يشتبه عليه بالمداهنة، فانظر إلى دقة علمه، ونفوذ بصيرته، وسعتها في ميدان الأدلّة.

فالحاصل أن هؤلاء الضعفاء الذين حضّ الله ـ سبحانه ـ المؤمنين على استنقاذهم لا قدرة لهم على الهجرة، فاستثناهم ـ جل وعلا ـ مع منع الكفّار لهم عن إظهار دينهم، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ الآية [الفتح: ٢٥].

ولذلك لم يُرخَّص لمن [له القدرة][١] على الهجرة في الإقامة على منعه عن إظهار دينه؛ فإن الهجرة في حقه واجبة، بخلاف من قدر على إظهار دينه، فإن الهجرة في حقّه مسنونة؛ ليكثّر سواد المسلمين.

ورُخّص لمن لا قدرة له عليها، ممّن لا يقدر على إظهار دينه إما بكونه محبوسًا، أو ليس له مال ولا قدم ينجع بها عن بلد الكفّار، التي قد منع عن إظهار دينه فيها.

---

(١) في الأصل و[ك]: «لمن لا قدرة له». وهو خطأ كما يفهم من السياق، وما أثبته هو الذي في [م].

ولهذا المعنى قال الأثرم عن الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ: إنّه سئل عن الرجل يؤسر فيُعرض على الكفر ويُكره عليه، أله أن يرتدّ؟. فكرهه كراهية شديدة، وقال: ما يشبه هذا عندي الذين نزلت فيهم الآية من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ، أولئك كانوا يُراوَدون على الكلمة، ثم يُتركون يعملون ما شاؤوا، وهؤلاء يريدونهم على الإقامة على الكفر، وترك دينهم(1).

ففرّق ـ رحمه الله تعالى ـ بين الأمر الذي يزول؛ إذ هو عارض، وبين الأمر الذي يقصد من صاحبه الإقامة عليه أبدًا، وذلك لأن الذي يُكره على كلمة يقولها، ثم يُخلّى، لا ضرر فيها، وهذا المقيم بينهم يلتزم بإجابتهم إلى الكفر المقامَ عليه، واستحلالَ المحرَّمات، وتركَ الفرائض والواجبات، وفعلَ المحظورات والمنكرات دائمًا، وإن كانت امرأة تزوّجوها، واستولدوها أولادًا كفّارًا، وكذلك الرجل، وظاهر حالهم المصير إلى الكفر [ر،١٢٢/أ] الحقيقي، والانسلاخ من الدين الحنيفي.

ولا ريب مما تقدّم أنّ من صبر [ك،٥٩/أ] واختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، أفضل ممّن أباح لهم ـ مع الإكراه ـ بالكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، على الأصح عند العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ.

ففي البخاري وغيره، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في

---

(١) المغني: ٩/ ٣١، دار الفكر، ١٤٠٥هـ.

الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

وفيه أيضًا عن خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ قال: شكونا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو لنا؟. فقال: «قد كان من كان قبلكم، يؤخذ الرجل، فيُحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليَتِمّنّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون»[2].

ومن ذلك قصة خبيب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ، فعند البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عشرةً، منهم خبيب الأنصاري، فأخبرني عبيدالله بن عياض أن ابنة الحارث أخبرته حين اجتمعوا ـ يعني قريشًا ـ على قتله، استعار منها موسى ليستحد بها، فلمّا خرجوا من الحرم ليقتلوه قال خبيب:

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلمًا على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإلٰه وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزَّعِ

[فقتله][3] ابن الحارث، فأخبر النبي ـ ﷺ ـ أصحابَه يوم

(١) صحيح البخاري: ١/ ١٤، الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (١٦)، ورواه مسلم: ١/ ٦٨، الإيمان، باب (١٥)، حديث (٤٣).

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٣٢٢، المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٣٤١٦).

(٣) في الأصل: «قتله» بلا فاء، والتصويب من صحيح البخاري، وهو كذلك في [م].

أصيبوا[١].

وعند البخاري[٢] أنّ أبا ميسرة بن عوف، من بني عبد الدار، شارك عقبة بن الحارث في قتله، فطعناه في الخشبة، وأسلم عقبة بن الحارث بعد ذلك، وهو الذي تزوّج بنت أبي إهاب، وشهدت امرأة سوداء أنها قد أرضعَتهما، وقال في ذلك النبي ـ ﷺ ـ بعد ما ذكر له: «كيف وقد قيل»[٣].

ومن ذلك أيضًا قصّة إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، خليل رب الأرض والسماء، إبراهيم ـ عليه الصلاة السلام ـ، حين ألقي في النار[٤].

[ر،١٢٣/ب] ومنه قصّة أصحاب الأخدود، وعبدالله بن الثامر، وهي في البخاري[٥] وغيره.

وقد وُجد في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ رجل في حفرة، ويده على جرحه لم يتغيّر، فإذا رفعوا يده عن جرحه ثعّ دمًا، فإذا تركوها رجعت إلى مكانها على الجرح، فراجعوا عمر ـ رضي الله عنه ـ في ذلك، فأمرهم أن يحسنوا دفنه، وذلك باليمن، وكانوا يرون أنّه عبدالله بن الثامر[٦].

ومنه الرجل الذي لم يأت بعد، حين ينزل الدجّال في بعض السباخ

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١١٠٨، الجهاد، باب هل يستأسر الرجل..، (٢٨٨٠).

(٢) الذي في الصحيح: (٤/ ١٥٠٠) أن قاتله أبو سروعة، أخو عقبة بن الحارث، أما مشاركة أبي ميسرة فذكرها ابن إسحاق بإسناد صحيح، كما في فتح الباري: ٧/ ٣٨٥.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٤٥، العلم، باب الرحلة..، (٨٨).

(٤) هي في سور الأنبياء والعنكبوت والصافات.

(٥) هي في صحيح مسلم: ٤/ ١٨١٨، الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود، (٣٠٠٥)، ولم أجدها في صحيح البخاري.

(٦) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٦، ٣٧.

التي تلي المدينة، كما في الصحيح وغيره، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، وفيه: «فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، فيقول: أشهد أنّك الدجّال الذي حدّثنا رسول الله ـ ﷺ ـ حديثه، فيقول الدجّال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، هل تشكّون في الأمر، فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول: والله ما كنت فيك أشدَّ بصيرة منّي اليوم، فيريد الدجّال أن يقتله فلا يسلّطُ عليه»[1].

ومن ذلك حبيب بن زيد، وهو ابن أم عُمارة، الأنصاري، من بني مازن، ثم من بني النجّار، كما ذكر سيف بن عمر وغيرُه، قالوا: وكان قد أُخذ لمسيلمةَ الكذّابِ وهو جاءٍ من البحرين، فأتي به، فقال: أتشهد أنّي رسول الله؟. قال: إن في أذنّي وقرًا، فأعاد عليه، قال: إنّي لا أسمع. قال: أفتشهد أن محّمدًا رسول الله؟. قال: نعم، أشهد بذلك. فقطع إحدى يديه، ثم أعاد عليه المسألة، فقال كما قال، قال: فقطع يده الأخرى، فلم يزل كذلك حتى جزّ قوائمه، ثم قتله ـ رضي الله عنه ـ[2].

قال سيف: وكان معه رجل من الأنصار أيضًا، فثبت له فقتله، وآخر من ثقيف، فعرض عليه فأجابه[3]، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أمّا هذا ـ يعني الثقفي ـ فقبل رخصة الله، وأما هذا فصبر على البلاء»[4].

وكذلك النعمان البستي، الذي قدم على النبي ـ ﷺ ـ من اليمن،

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٠٨، الفتن، باب لا يدخل الدجال المدينة، (٢٦٠٨)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٧٨٤، الفتن. .، باب في صفة الدجال. .، (٢٩٣٨).
(٢) انظر خبره في سيرة ابن هشام: ١/ ٤٦٦، ٤٦٧، والطبقات لابن سعد: ٤/ ٣١٦.
(٣) في طبقات ابن سعد: ٤/ ٣١٦ أن اسمه عبدالله بن وهب.
(٤) لم أجد هذا اللفظ.

وذكر صفته، كما ذكره الواقدي وغيره، فآمن به وصدّقه، فلما تنبّأ العَنسي ـ لعنه الله ـ أخذه فقطّعه عضوًا عضوًا، وهو يقول عند كل عضو: أشهد أن محمدًا رسول الله، وأنّك كذّاب مفترٍ على الله ـ تعالى ـ، ثم حرّقه بالنّار، وكان ـ رضي الله عنه ـ من أحبار يهود؛ الذين في اليمن(١).

ومن ذلك أبو مسلم الخولاني، واسمه عبدالله بن ثُوَب ـ بضم المثلّثة، وفتح الواو ـ، الثقة، العابد، المخضرم، رحمه الله تعالى، فعند ابن أبي حاتم(٢) والبغوي(٣)، في فضائل عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ واللفظ للبغوي قال: لمّا دخل أبو مسلم [ر،١٢٣/أ] الخولاني المدينة [قادمًا](٤) من اليمن، وكان الأسود بن قيس الذي ادّعى النبوّة باليمن. عرض عليه أن يشهد أنّه رسول الله، فأبى، فقال: أتشهد أنّ محمدًا رسول الله؟. قال: نعم. قال: فأمر بتأجيج نار عظيمة، وأُلقي فيها أبو مسلم، فلم تضرّه، فأمر العنسي بنفيه من بلاده، فقدم المدينة، فلما دخل من باب المسجد قال عمر: هذا صاحبكم الذي زعم الأسود الكذّاب أن يحرّقه بالنار فنجّاه الله منها، ولم يكن القوم ولا عمر سمعوا قضيّته، ولا رأوه، ثم قام إليه واعتنقه، وقال: ألست عبدَالله بنَ ثُوَب؟. قال: بلى. فبكى عمر، ثم قال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمّة محمد ـ ﷺ ـ شبيهًا بإبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ(٥).

---

(١) انظر طبقات ابن سعد: ٥/ ٥٣٥.

(٢) لم أعثر عليه.

(٣) لعله أبو القاسم، عبدالله بن محمد، ت ٣١٧هـ، فإن له «معجم الصحابة»، انظر السير: ١٤/ ٤٤٢. ولم أجد هذا الخبر في «شرح السنة» للحسين بن مسعود البغوي.

(٤) زيادة يقتضيها السياق.

(٥) انظر الخبر في صحيح بن حبان: ٢/ ٣٣٩. غير مسند. ورواه أبو نعيم في الحلية: =

فهكذا حبّ الله ـ تعالى ـ إذا تمكّن من القلب، صارت المحن عند صاحبه في مرضاة الله منحًا.

[ك، ٦٠/ب] ولمّا أخذت الروم فروةَ بن عمرو الجذامي حين أسلم وبعث بإسلامه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، وأهدى له بغلةً بيضاء، كما ذكره ابن إسحاق(١) وغيره، وكان فروة قبل ذلك عاملاً للرّوم على من يليهم من العرب، وكان منزله «معان» وما حولها من أرض الشام، فلمّا بلغ الروم إسلامُه طلبوه وأخذوه وحبسوه، فلمّا اجتمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له: «عفرى»، بفلسطين، قال:

ألا هل أتى سلمى بأنّ حليلَها ... على ماء عفْرى فوق إحدى الرواحلِ

على ناقة لم يضرب الفحلُ أمَّها ... مشذبةٍ أطرافها بالمناجلِ

قال ابن إسحاق: فزعم ابن شهاب الزهري أنّه لمّا قدّموه ليقتلوه قال:

بلّغ سراة المسلمين بأنني ... سلم لربّي أعظمي ومقامي

ثم ضربوا عنقه، وصلبوه على ذلك الماء.

فهكذا ما حكى ـ ﷺ ـ عن الرجل الذي دخل الجنّة في [ذباب](٢)، آثر محبّة الله ـ تعالى ـ على نفسه، فعوّضه الله جنّته ومرضاتَه، وهذا مصداق حديث: «إنما الأعمال بالخواتيم»(٣).

= ٢/ ١٢٨، ١٢٩.

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٩١. وروى خبره أيضًا الطبراني في الكبير: ١٨/ ٣٢٦ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) في الأصل: «باب».

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري بنحوه: ٥/ ٢٣٨١، الرقاق، باب الأعمال =

وقد روى ابن المبارك عن مجاهد قال: في الجنّة دارٌ لا يسكنها إلا خمسة: نبي، أو صديق، أو شهيد، أو إمام عادل، أو مخيّر بين القتل والكفر، فيختار القتل[1].

= بالخواتيم. .و (٦١٢٨).

(١) الزهد: ١/ ٥٥١، (١٥٧٨)، ورواه عبدالرزاق في المصنف: ٥/ ٢٦٥، (٩٥٦٠).

«تتمّة»

ودخول كل من [الرجلين][1] منزله من الجنّة والنار يقتضي لكل منهما المقام فيما دخل فيه، وهو الظاهر من سياق الحديث.

فإن قيل: إن المتقرِّب بالذباب لا يقصده؛ [ر،١٢٤/ب] لأن الذباب لا يُقصد التقرّبُ به.

قيل: قد حصل منه صورة الفعل، وفي ضمن ذلك: القصد حاصل؛ إذ نيّته التخلّص منهم بذلك.

وقد لا بدّ[2] من القول وانشراح الصدر.

وأيضًا قد حصل منه ما طلب أهل الصنم، من التقرّب إليه، وهو صورة العبادة، بالقول والفعل، فاستوجب بذلك ـ حيث قصده ولم يتأوّل ـ دخولَ النار.

أو أنّه كان كافرًا، فخُتم له بهذا العمل، ومُنع الإسلامَ قدَرًا بسبب ذلك، كما تقدّم التنبيه عليه.

وقد سأل بعض الخلفاء الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: لِمَ خُلق الذباب؟. فقال: مذلّةً للملوك. وكان على أنفه ذبابةٌ. قال الشافعي:

---

(١) ساقطة من (ر) و(ك)، واستدركتها من [م].

(٢) كذا بالنسخ الثلاث، ومعلوم أن قد الحرفية (مختصة بالفعل المتصرف الخبري المثبت، المجرد من جازم وناصب وحرف تنفيس). مغني اللبيب: ٢٢٧. ولو كُتبت العبارة: «وقد لابس القولَ..» لكان الكلام مستقيمًا. وربما تكون العبارة: وقيل لابد..إلخ.

سألني ولا جواب عندي[1].

قلت: ويمكن أن يكون هذا من كرامات الشافعي؛ بأن سأله الخليفة تعنّتًا، فألهمه الله هذا الجواب، والله ـ تعالى ـ الموفق[2].

ومن هذا الباب ما يُذبح للجنّ، فقد روى أبو عبيد في كتابه «الأموال»[3]، والبيهقي عن الزهري[4]، عن النبي ـ ﷺ ـ مرسلاً، أنّه نهى عن ذبائح الجنّ[5].

قال أبو عبيد: وذبائح الجنّ: أن يشتري الرجل الدّار، أو يستخرج العين، وما أشبه ذلك، فيذبح لها[6] ذبيحةً للطيرة، وكانوا يقولون: إذا فعل ذلك لا يضرُّ أهلَها الجنّ، فأبطل النبي ـ ﷺ ـ ذلك، ونهى عنه[7]؛ إذ هو من أنواع الشرك.

وقد ذكر ابن الجوزي هذا الخبر مرفوعًا في الموضوعات[8]، والله أعلم.

---

(١) ذكره الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٥٠) بلفظ: يُحكى.

(٢) لا يدخل هذا في الاصطلاح الشرعي للكرامة، وغاية ما يدل عليه سرعة البديهة، وجراءة القلب.

(٣) بل في «غريب الحديث»: ٢/ ٢٢١.

(٤) السنن الكبرى: ٩/ ٣١٤، (١٩١٣٦). وانظر «المجروحين» لابن حبان: ٢/ ١٩.

(٥) ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات»: ٢/ ٣٠٢، ٣٠٣، وحكم عليه الألباني بالوضع كما في الضعيفة برقم (٢٤٠).

(٦) في [ر]: بها.

(٧) «غريب الحديث»: ٢/ ٢٢١.

(٨) الموضوعات: ٢/ ٣٠٢، ٣٠٣.

الباب العاشر

باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله ـ تعالى ـ

(وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨]).

هذا المكان الذي نُهي ـ ﷺ ـ أن يقوم فيه هو مسجد الضرار، الذي بناه أتباع أبي عامرٍ الفاسق(١)، الذين نافقوا، كما ذكر الله ذلك عنهم في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

وفي هذه الآية الكريمة تنبيه للمسلمين بالاحتراز من عدوّهم الباطن؛ لئلا يغتروا بزخرفته القول، فيلبس الباطل عليهم بالحق، والباطنُ غيرُ ذلك.

كما بيّن الله عورات هؤلاء، وفضحهم في هذه الآية فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾، سمّاه ـ سبحانه ـ بتسميتهم له: مسجدًا؛ ليُعلم أن الاعتبار في ذلك بالحقائق لا بالأسماء، ولهذا أخبر النبي ـ ﷺ ـ أن أناسًا من أمّته سيشربون الخمر، يسمّونها بغير اسمها(٢)، فلم يغير حقيقتها [ر، ١٢٤/أ] تسميتُهم إيّاها بغير اسمها.

---

(١) انظر تفسير الطبري: ١١/ ٢٤.

(٢) رواه أبو داود: ٣/ ٣٢٩، (٣٦٨٨)، وابن ماجه: ٢/ ١١٢٣، (٣٣٨٤)، والنسائي: ٨/ ٣١٢، وأحمد: ٤/ ٢٣٧، وابن حبان في صحيحه: ١٥/ ١٦٠، (٦٧٥٨). وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٩٠، ٩١، ٤١٤).

ولهذا بيّن ـ تبارك وتعالى ـ قصدهم باتخاذه؛ لئلا يروج أمرُهم على المؤمنين بتسميتهم إياه مسجدًا، فقال: ﴿ضِرَارًا﴾، أي مضارّة للمؤمنين، ﴿وَكُفْرًا﴾، يعني تقوية للكفر الذي يضمرونه في قلوبهم.

ثم وصفهم في اتخاذه صفة ثالثة فقال: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذه الصفة هي من صفاتهم اللازمة، وهي أعظم صفاتهم اللازمة، الضارّة للمسلمين.

يريد ـ تبارك وتعالى ـ بالمؤمنين: الذين يجتمعون للصلاة بـ«قباء»، بل وعامّة المؤمنين؛ لأن المؤمنين كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر.

فشرّهم طويل، وضررهم عريض، أعاذنا الله والمسلمين بكرمه منهم.

وصفتهم هذه إنما تقوى فيهم عند عجزهم عمّا هو أكبر من ذلك، فهم يسعون في طلب الإضرار بالمؤمنين حسب قدرتهم، ولهذا قال ـ سبحانه ـ عنهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

[ك،٦٠/أ]. ثم ذكر ـ سبحانه ـ صفة رابعة من مقاصدهم وغوائلهم الفاسدة فقال: ﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي: ترقّبًا ﴿لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل ذلك، في وقت تمكّنهم من المحاربة وأذى المسلمين، فلمّا أثخنهم الله بالإسلام سعوا بالخداع بين المؤمنين، والدخول معهم بصورة الطاعة والعبادة؛ ليترقبوا بذلك الفرصة، وليخفّ غرْب المؤمنين[1] عنهم، باختلافهم وتفرّقهم الذي أوقعوا بينهم.

---

(١) أي حدّتهم، انظر «أساس البلاغة»: ٤٤٧.

ومع صنيعهم القبيح، وخداعهم المجيح[1]، سلكوا في ذلك طريق إبليس اللعين الوقيح، حيث أخبر الله عنه مع أبوينا بقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾، كقوله ـ سبحانه ـ عنهم هنا: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ يعني: ما أردنا ببنيانه وإحكامه وإحصانه إلا الخصلة ـ أو الإرادة ـ الحسنى، من الصلاة والذكر والتوسعة على المصلّين من أهل قباء، وغير ذلك من أنواع الخير بزعمهم.

يقول الله ـ تعالى ـ وهو أصدق الشاهدين: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، يعني في حلفهم.

فهدمه ـ ﷺ ـ، فأسند الطبراني[2]، وفيما قاله ابن عطيّة[3]، عن ابن إسحاق[4]، عن الزهري وغيرهم، أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ أقبل من تبوك، حتى نزل بـ«ذي أُوان» ـ بلدٍ بينه وبين المدينة ساعة من نهار ـ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العّلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه. فقال: إنّي على جناح سفر وحال شغل ـ أو كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلّينا لكم فيه. فلما نزل [بـ«ذي][5] أوانٍ» أتاه

---

(١) من «المجاحة» بمعنى «البجاحة»، وهي التكبر والبذخ والفخر. انظر اللسان: ٢/ ٥٨٨ (مجح).

(٢) لم أجده عند الطبراني، وأظنه أراد الطبري؛ فإنه في تفسيره: ١١/ ٢٣، وكذا قال ابن عطية.

(٣) أظن الواو زائدة، وانظر تفسير ابن عطية: ٣/ ٨١، ولم يذكر الطبراني، بل ذكر الطبري.

(٤) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٢٩.

(٥) ساقطة من [ر]، والاستدراك من [ك]، ومن السيرة لابن هشام.

خبر المسجد، فدعا رسول الله -ﷺ- مالك بن الدخشم، أخا بني سالم بن عوف، ومعنَ بن عدي، [ر،١٢٥/ب] أو أخاه عاصم بن عدي العجلاني، فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه و حرّقاه، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعْن: انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهله، فأخذ سعفًا من النخل، فأشعل فيه نارًا ثم خرجا يشتدان، حتى دخلاه و فيه أهله، فحرّقاه و هدماه، وتفرّقوا عنه، ونزل فيه من القرآن مانزل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ الآية(١).

وفي رواية أنّ الذين أمرهم النبي -ﷺ-، انطلَقوا سريعًا حتى أتوا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك: انظروني حتى أخرج إليكم بنار من أهلي، فدخل على أهله فأخذ سعفًا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرّقوه وهدموه، وتفرّق عنه أهله، وأمر النبي -ﷺ- أن يُتخذ ذلك كُناسة يُلقى فيها الجيف والنتن والقمامة(٢).

قلت: لأن ذلك هو قدْرها.

وقال ابن النجّار في تاريخ المدينة: هذا المسجد بناه المنافقون مضاهاة لمسجد «قُباء»، وكانوا يجتمعون فيه ويعيبون النبي -ﷺ- ويستهزؤون به(٣).

---

(١) ورواه ابن جرير في تفسيره: ١١/ ٢٣، وفي تاريخه: ٢/ ١٨٦.

(٢) ذكر ذلك القرطبي في تفسيره: ٨/ ٢٥٨.

(٣) «أخبار مدينة الرسول» لابن النجار: ١١٧.

قال ابن إسحاق: وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً[1].

وروى ابن شبّة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان موضع مسجد «قبا» لامرأة يقال لها: «ليّة»، كانت تربط حمارًا لها فيه، فابتنى به سعد بن خيثمة - رضي الله عنه - مسجدًا، فقال أهل مسجد الضرار: نحن نصلّي في مربط حمار ليّة!، لا لعمر الله، لكنّا نبني مسجدًا فنصلي فيه، حتى يجيء أبو عامر فيؤمّنا فيه، وكان أبو عامر فرّ من الله ورسوله، فلحق بمكة، ثم لحق بعد ذلك بالشام، فتنصّر، فمات بها، فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، قال عكرمة: إلى أن تقطّع قلوبهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٨- ١١٠][2].

وروى البيهقي في الدلائل[3] عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾: أناس من الأنصار، ابتنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم، واستعدّوا ما استطعتم من قوّة وسلاح؛ فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخرج محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي - ﷺ - فقالوا: إنّا فرغْنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلّي فيه، وتدعوَ بالبركة، فأنزل الله - عز وجل -: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾[4] - يعني مسجد «قباء» - ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٣٠.
(٢) أخبار المدينة لابن شبة: ١/ ٥٧.
(٣) دلائل النبوة: ٥/ ٢٦٣.
(٤) ورواه ابن جرير في تفسيره: ١١/ ٢٤.

﴿أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، يعني قواعده.

فقد أكّد الله ـ تعالى ـ نفي الخير عمّن أسّس بنيان إرادته على غير تقوى من الله ـ سبحانه ـ.

والانهيار: [ر،١٢٥/أ] الانهدام من الرمل وغيره، وهو معنى الانهيال، قال النابغة الذبياني:

تلُوثُ بعدَ افتضالِ الدرع ميزَرَها ... لَوثًا على مثل دعصِ الرملة الهاري[(١)]

قال ابن عقبة: الظاهر منه، وممّا صحّ من خبرهم، وهدْم رسول الله ـ ﷺ ـ مسجدَهم، وقوله: [ك،٦١/ب] ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، أنّه خارج مخرج المثل لهم، أي حالهم كمن ينهار ببنيانه في نار جهنّم[(٢)].

وقيل بل ذلك حقيقة، وأن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنّم، قاله قتادة وابن جريج[(٣)].

ورُوي عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ وغيره أنّه قال: رأيت الدخّان يخرج منه على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ[(٤)].

ورُوي أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ رآه حين انهار حتّى بلغ الأرض السّابعة، ففزع لذلك رسول الله ـ ﷺ ـ[(٥)].

---

(١) ديوانه: ص ٤٩. صادر.

(٢) لم أعثر عليه.

(٣) رواه ابن جرير: ١١/ ٣٢.

(٤) رواه ابن جرير: ١١/ ٣٣.

(٥) ذكره ابن عطية في تفسيره: ٣/ ٨٥.

وأسندالطبري عن خلف بن [ياسين][1] أنّه قال: رأيت مسجد المنافقين الذي ذُكر في القرآن، ورأيت فيه مكانًا يخرج منه الدخّان، وذلك في زمن أبي جعفرٍ المنصور[2].

وقيل كان الرجل يدخل سعفه فتخرج سوداء محترقة[3].

ونُقل عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: جهنّم في الأرض، ثم تلا: ﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[4].

وهذا المسجد ـ كما قال الجمال المطري ـ[5] لا يُعرَف اليوم عينُه، وإنّما تعرف جهته.

وقد قال ابن النجّار في «تاريخ المدينة»: اعلم أن بالمدينة مساجد خرابًا، فيها المحاريب وبقايا الأساطين، وتُنقض وتؤخذ حجارتها، منها مسجد بقبا، قريب من مسجد الضرار، فيه أسطوان قائمة[6].

وفي هذا دليل على جواز هدم المعاقل والحصون التي يُخشى

---

(١) في الأصل: «يامين»، وما أثبته هو الوارد في تفسير الطبري وغيره.

(٢) تفسير الطبري: ١١/ ٣٣.

(٣) ذكره ابن عبدالبر في التمهيد: ١٣/ ٢٦٧، والقرطبي في تفسيره: ٨/ ٢٦٥.

(٤) ذكره ابن عبدالبر في التمهيد: (١٣/ ٢٦٧) من رواية عاصم عن ذر عن ابن مسعود، وكذلك القرطبي في تفسيره: ٨/ ٢٦٥.

(٥) هو محمد بن أحمد بن محمد، الأنصاري، السعدي، العبادي، المدني، له «التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة»، توفي سنة ٧٤١هـ. انظر «الدرر الكامنة» لابن حجر: ٣ /٣١٥، و«لحظ الألحاظ بذيل تذكرة الحفاظ» لابن فهد: ١١٠، ضمن ذيول التذكرة.

(٦) «أخبار مدينة الرسول»: ١١٦.

ضررها على المسلمين، بلا دفع قيمة لأهلها، وأنّ ذلك ليس من إضاعة المال المنهي عنها، وكذا تحريقها، وكلٍّ مكان اتخذ للمعصية، كالمشاهد المتّخذة على القبور، بل هي أحق بذلك وأوجب.

وقد حرّق عمر ـ رضي الله عنه ـ قريةً بكمالها؛ يباع فيها الخمر[1]، وحرّق حانوت «رويشد»، وسمّاه: «فويسق»[2]، وحرّق قصر سعد ـ رضي الله عنه ـ لما احتجب فيه عن الرعيّة[3].

وهمّ رسول الله ـ ﷺ ـ أن يحرّق على أناس يتخلّفون عن الجماعة بيوتهم، لولا ما فيها من النساء والذرّيّة[4].

وفيه أنّ لوليّ الأمر أن يفرّق بين من يخشى ضرر اجتماعهم على المسلمين، وإن كان ذلك في صورة طاعة، وأن يردَعهم عن السعاية بين المسلمين بما يشوّش عليهم.

وأنّ المعصية قد تؤثّر في البقعة الجماد، فكيف بمن فعلها.

وأن الاعتبار بالحقائق لا بالأسماء؛ فإن الظاهر أنّهم اتخذوه مسجدًا للعبادة.

---

(١) لم أعثر على من رواه عن عمر، وذكره ابن القيم عن علي في أحكام أهل الذمة: ١/ ٥٧٦.

(٢) رواه عبدالرزاق في المصنف: ٦/ ٧٧، (١٠٠٥١)، و٩/ ٢٢٩، (١٧٠٣٥)، وابن سعد في الطبقات: ٥/ ٥٥.

(٣) انظر تاريخ الطبري: ٢/ ٤٨٠، وفيه أنه إنما حرّق بابه.

(٤) رواه البخاري: ٢/ ٨٥٢، (٢٢٨٨)، ومسلم: ١/ ٣٧٧، (٦٥١)، وذكر النساء والذرية إنما رواه أحمد: ٢/ ٣٦٧.

وفيه [ر،١٢٦/ب] أنّ الإنسان لا يأمن عقوبة المعصية، والخزيَ عليها في الدنيا، وإن بعُد عهدُها، وتأثيرَها في القلب؛ لقوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾، قيل: إلى أن تقطّع قلوبهم بالموت، وقيل بالعذاب.

وفيه تنبيهٌ أن يكون الإنسان من دينه على حذر؛ لئلاّ يَغُرَّه من لا يَعلم حاله، وقد ذُكر أن فيهم مجمِّعَ بن جارية[١]، وكان إذ ذاك غلامًا حدثًا، وقد جمع القرآن، فسمّوه بذلك «مجمّعًا»، قيل استهزاءً، فقدّموه إمامًا لهم، وهو لا يعلم بشيء من شأنهم.

وقد ذُكر أن عمر ـ رضي الله عنه ـ في أيّامه أراد عزله عن الإمامة في مسجد قباء، وقال: أليس بإمام مسجد الضرار، فأقسم له مجمّع أنه ما علم شيئًا من أمرهم، وما يعلم إلا الخير، حيث قال: والله يا أمير المؤمنين، لقد صلّيت فيه وإنّي لا أعلم ما أضمروا عليه، ولا أحسب إلاّ أنّهم يتقرّبون إلى الله ـ تعالى ـ، فعذَره وصدّقه عمر ـ رضي الله عنه ـ، وأقرّه إمامًا لِقُبا[٢].

فمسجد الضرار لمّا اتُّخذ ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، خدعوا به بعض المسلمين، حتى إمامُهم لم يعلم بحالهم، وهكذا المسلم قد يخدع، فكما أنّ الفاجر خبٌّ لئيم، فالمسلم غِرٌّ كريم، قال غيلان ذو الرُّمّة بن عقبة الربابي:

تلك القناة التي عُلِّقتها عرضًا ... إنّ الكريم وذو الإسلام يُختلبُ[٣]

---

(١) هو مجمع بن جارية بن عامر بن مجمع الأنصاري الأوسي، توفي نحو ٥٠هـ. انظر الإصابة: ٥/ ٧٧٧، (٧٧٣٩) ط البجاوي.

(٢) انظر سيرة ابن هشام: ١/ ٥٢٢، ٥٢٣.

(٣) ديوانه: ١/ ٣٧. و«ذو الإسلام» رواية صحيحة، ولها وجه من العربية.

يقول: يُختدع، ومنه قوله - ﷺ - لحَبّان[1] - رضي الله عنه -: «إذا بايعت فقل: لا خلابة»[2]، والعَرض: ما يكون من غير قصدٍ ولا تعدٍّ.

فلمّا كان وضع ذلك المسجد على ذلك، نهى الله - سبحانه - أن يُصلَّى له فيه، فقال - تعالى - ناهيًا لخاتم رسله محمد - ﷺ -: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، وكذلك المكان الذي قد ذُبح فيه لغير الله، مُنع - ﷺ - أن يُذبح فيه لله.

وهاتان عبادتان قرن الله بينهما، كما قد ذكرنا في قوله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢].

وبهذا تظهر المناسبة بين هذا الباب والذي قبله.

ولمّا أُسس مسجد قُبا على التقوى من أوّل يوم وُضع، صار صلاةُ ركعتين فيه تعدل عمرة[3].

---

(١) هو حَبان بن منقذ بن عمرو بن عطية، الأنصاري، الخزرجي، كان رجلاً ضعيفًا، ثقيل اللسان، إثر إصابة في رأسه، فجعل له النبي - ﷺ - الخيار فيما اشترى ثلاثًا، مات في زمن عثمان. الإصابة: ١/ ٣٠٢.

(٢) رواه البخاري: ٢/ ٧٤٥، البيوع، باب ما يكره من الخداع في البيع، (٢٠١١)، ومسلم: ٣/ ٩٤٢، ٩٤٣، البيوع، باب من يُخدع في البيع، (١٥٣٣).

(٣) رواه أحمد: ٣/ ٤٨٧، والنسائي: ٢/ ٣٧، (٦٩٩)، وابن ماجه: ١/ ٤٥٣، (١٤١١)، وابن حبان في صحيحه: ٤/٥٠٧، (١٦٢٧)، والحاكم في المستدرك: ٣/ ١٣، (٤٢٧٩) وقال: صحيح الإسناد. و صححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/ ١٠٦٩، (٦٢٢٥).

قال الحافظ ابن حجر[1]: اختُلف في المراد بقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، فالجمهور على أنّ المراد به مسجد قُبا، وهو ظاهر الآية.

وصحّ في صحيح مسلم بسنده، عن سلمة بن عبدالرحمن، قال: مرّ بي عبدالرحمن بن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: فقلت له كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أُسس على القوى؟. قال: قال لي أبي: دخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أُسس على التقوى؟، [ك، ٦١/ أ] فأخذ [ر،١٢٦/أ] كفًّا من حصباء، فضرب به الأرض، ثمّ قال: هو مسجدكم هذا ـ لِمسجد المدينة ـ. قال: فقلت: أشهد أنّي سمعت أباك يذكره[2].

وفي رواية للإمام أحمد[3] والترمذي[4]، عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ أيضًا قال: اختلف رجلان في المسجد الذي أُسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد المدينة. فسألاه عن ذلك ـ يعني النبي ـ ﷺ ـ فقال: هو هذا، وفي ذلك ـ يعني مسجد قبا ـ خير كثير.

والجمع بين ذلك أن كلا المسجدين قد أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه، وأنهما المراد من الآية، وأنّ السرّ في اقتصاره ـ ﷺ ـ على ذكر مسجد المدينة دفعُ توهم اختصاص ذلك بمسجد قبا، كما هو ظاهر ما فهمه السائل، وثبوتها بمزيّة مسجده الشريف.

---

(١) فتح الباري: ٧/ ٢٤٥.

(٢) صحيح مسلم: ٢/ ٨٢٤، الحج، باب (٩٦)، حديث (١٣٩٨).

(٣) المسند: ٣/ ٢٣.

(٤) سنن الترمذي: ٢/ ١٤٤، (٣٢٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وهو في صحيح سنن الترمذي: ١/ ١٠٤.

قال الحافظ ابن حجر: والحق أنّ كلاًّ منهما أُسّس على التقوى، وقوله في الآية: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾، يؤيّد كونَ المراد مسجدَ قبا؛ فعند أبي داود بسند صحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: نزلت: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ في أهل قبا. قال: كانوا يستنجون بالماء، فنزلت فيهم هذه الآية[1].

وليس هذا اختلافًا؛ لأن كلاًّ منهما أُسّس على التقوى.

ولأحمد[2] وابن شبّة[3] ـ واللفظ للإمام أحمد ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: انطلقت إلى مسجد التقوى أنا وعبدالله بن عمر وسمرة بن جندب، فلما انطلقنا نحوه استقبلَنا ـ يعني رسول الله ـ ﷺ ـ يداه على كاهل أبي بكر وعمر، فثرنا في وجهه، فقال: من هؤلاء يا أبابكر؟. قال: عبدالله بن عمر وأبو هريرة وسمُرة.

وروى ابن شبة من طرق ما حاصله أنّ الآية لمّا نزلت، أتى رسولُ الله ـ ﷺ ـ أهلَ قبا ـ وفي رواية: أهل ذلك المسجد، وفي رواية: بني عمرو بن عوف ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: إنّ الله قد أحسن إليكم الثناء في الطُّهور، فما بلغ طُهوركم؟. قالوا: نستنجي بالماء[4].

وقال يحيى بن الحسين[5] في «أخبار المدينة»: حدثنا بكر بن

---

(١) سنن أبي داود: ١/ ١١، (٤٤)، وروى نحوه ابن خزيمة في صحيحه: ١/ ٤٥، (٨٣).

(٢) المسند: ٢/ ٥٢٢.

(٣) لم أهتد إليه في «أخبار المدينة النبوية».

(٤) «أخبار المدينة النبوية» لابن شبة: ١/ ٥٠ ـ ٥٣.

(٥) كذا في الأصل، ولعله يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيدالله بن الحسين بن علي زين العابدين، (٢١٤ـ ٢٧٧هـ)؛ فإنّ له «أخبار المدينة» كما في الأعلام: ٨/ ١٤٠، ١٤١.

عبدالوهاب، انبأنا عيسى بن عبدالله، عن أبيه، عن جدّه، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى من أوّل يوم هو مسجد قبا، قال الله ـ جل ثناؤه ـ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾»[١].

وبكر بن عبدالوهاب ابن أخت الواقدي، صدوق[٢]، وعيسى بن عبدالله هو ابن مالك، وهو مقبول[٣].

وفي قوله ـ سبحانه ـ: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ـ وقد علم أنّه ليس أولَ الأيّام كلّها، ولا أضافه إلى شيء في اللفظ الظاهر ـ من الفقه ـ كما قال السهيلي[٤] وغيرُه من العلماء ـ صحةُ ما اتفق عليه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مع الخليفة الراشد عمر بن الخطّاب، حين شاورهم على التاريخ، فاتفق أن يكون رأيهم فيه من عام الهجرة؛ لأنّه الوقت الذي عزّ فيه الإسلام، والحينُ الذي أمن فيه النبي ـ ﷺ ـ، وأسس فيه المساجد، [ر،١٢٧/ب] وعبَدَ الله آمنًا كما يحب، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل، وفهمنا الآن بفعلهم أنّ قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾، أنّ ذلك اليوم هو أول التاريخ الذي يؤرَّخ به الآن، فلعلّ هذا مأخذ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ للتاريخ، لأنّهم أعلم الناس بتأويل الكتاب والسنّة، وأفهمهم بما في القرآن من الإشارات والإفصاح[٥].

---

(١) لم أقف على هذا الكتاب.

(٢) انظر «تقريب التهذيب»: ١٢٧.

(٣) انظر السابق: ٤٣٩.

(٤) «الروض الأنف»: ٤/ ٢٥٥.

(٥) السابق: ٤/ ٢٥٧.

قال أهل هذا القول: وليس ههنا إضافةٌ في المعنى كما مر تقديرها.

قالوا: إلاّ إلى هذا التاريخ المعلوم؛ لعدم القرائن الدالّة على غيره، من قرينة لفظ أو حال[1].

ولا يُحتاج في قوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى إضمار، كما قدّره بعضهم من: «تأسيس أول يوم». ونحوه، فرارًا من دخول «من» على الزمان.

قالوا: ولو لفظ بالتأسيس لكان معناه: من وقت تأسيس أول يوم، بإضماره التأسيس، ولا يفيد شيئًا.

و«مِن» تدخل على الزمان وغيرِه، ففي التنزيل: ﴿من قبل ومن بعد﴾، والقبل والبعد زمان[2].

وفي الصحيح: «ما من دابّة إلاّ وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تطلع الشمس إلى أن تغرب»[3]

قال النابغة:

تُوُرِّثن من أزمـان يوم حليمـة ... إلى اليوم قد جُرّبن كل التجاربِ[4]

---

(١) «الروض الأُنُف»: ٤/ ٢٥٧.

(٢) «الروض الأُنُف»: ٤/ ٢٥٧.

(٣) رواه أحمد: ٢/ ٤٨٦، وأبو داود: ١/ ٢٧٤، (١٠٤٦)، بلفظ «مسيخة»، وهو بمعنى «مصيخة»، أي: مستمعة منصتة، انظر النهاية: ٣/ ٦٤،ورواه النسائي: ٣/ ١١٣، (١٤٣٠)، وابن حبان في صحيحه: ٧/ ٧، (٢٧٧٢)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٤١٣، (١٠٣٠)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في الإرواء برقم (٧٧٣).

(٤) ديوانه: ص ١١، صادر.

وعن أسيد بن ظهير بن رافع الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الصلاة في مسجد قُبا كعمرة»[1]. قال الترمذي: وفي الباب عن سهل بن حنيف. قال: وحديث أسيد حسن غريب، ولا نعرف لأُسيد شيئًا غير هذا الحديث[2].

وله صحبة، وأبوه ظهير من كبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، شهد بدرًا، وهو عم رافع بن خديج.

وقد أخرجه أيضًا البيهقي[3] وابن ماجه[4] من طريق ابن أبي شيبة بإسناد الترمذي، وهو إسناد جيد، بلفظ: «الصلاة في مسجد قبا كعمرة».

وروى ابن حبّان في صحيحه عن ابن عمر نحوه مرفوعًا[5].

ورواه ابن زبالة[6] موقوفًا، ولفظه: أن عبدالله بن عمر شهد جنازة في الأوساط من بني الحارث بن الخزرج، ثم خرج يمشي، فقالوا له: أين تريد يا أبا عبدالرحمن؟ قال: أريد مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ بقبا؛ فإنّه من صلّى فيه ركعتين كانتا كعِدْل عمرة.

---

(١) رواه الترمذي: ٢/ ١٤٦، الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، (٣٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/ ٧١٩.

(٢) سنن الترمذي: ٢/ ١٤٦.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٢٤٨، (١٠٠٧٥).

(٤) سنن ابن ماجه: ١/ ٤٥٣، (١٤١١).

(٥) صحيح ابن حبان: ٤/ ٥٠٧، (١٦٢٧).

(٦) هو محمد بن الحسن بن زبالة، متفق على ضعفه، له «أخبار المدينة»، مفقود، انظر فتح الباري: ٧/ ٢٤٤، ١١/ ٢٩٨.

وصرّح في رواية ابن حبّان فقال: وإني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من صلّى فيه ركعتين كان كعدل عمرة».

وأخرج ابن ماجه[1] وعمر بن شبة[2] بسند جيّد، عن سهل بن حنيف قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من تطهّر في بيته، ثم أتى مسجد قبا، فصلّى فيه صلاة، كان له كأجر عمرة».

ورواه أيضًا الطبراني في الكبير، عن سهل بنحوه[3].

ورواه أيضًا الطبراني في الكبير، [ك،٦٢/ب] عن كعب بن عجرة بمعناه[4].

وروى أيضًا عمر بن شبّة عن أنس بن مالك معناه من قوله[5]، قال ابن شبّة: قال أبو غسّان: وممّا يقوّي هذه الأخبار، [ر،١٢٧/أ] ويدلّ على تظاهرها في العامّة والخاصة، قول عبدالرحمن بن الحكم في شعرٍ له:

فإن أهلِك فقد أقررتُ عينًا [من المتعمّرات][6] إلى قباءِ

من اللاتي سوالفهنّ غيد عليهنّ الملاحة بالبهاءِ[7]

---

(١) سنن ابن ماجه: ١/ ٤٥٣، (١٤١٢). وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٢٣٨.

(٢) «أخبار المدينة النبوية»: ١/ ٤٣.

(٣) المعجم الكبير: ٦/ ٧٥.

(٤) المعجم الكبير: ١٩/ ١٤٦. وذكر فيه صلاة أربع ركعات.

(٥) «أخبار المدينة»: ٤٥. وذكر فيه أربع ركعات.

(٦) في الأصل: «المعتمرات»، والتصويب من «أخبار المدينة» لابن شبّة.

(٧) «أخبار المدينة»: ١/ ٤٥.

وروى ابن شبّة بسند صحيح، من طريق عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: سمعت أبي يقول: لأن أصليَ في مسجد قبا ركعتين، أحبّ إلي من أن آتي بيت المقدس مرّتين، ولو يعلمون ما في قبا لضربوا إليه أكباد الإبل[1].

ورواه الحاكم عن عامر بن سعد، وعائشة بنت سعد، سمعا أباهما ـ رضي الله عنه ـ يقول: لأن أصلّي في مسجد قبا أحبُّ إلي من أن أصلّي في بيت المقدس.

قال الحاكم: وإسناده صحيح على شرطهما[2].

وفي الصحيحين عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يزور قبا ـ أو يأتي قبا ـ راكبًا وماشيًا. وفي رواية لهما: فيصلّي فيه ركعتين[3].

وفي رواية للبخاري: أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يأتي مسجد قبا كل سبت راكبًا وماشيًا، وكان عبدالله بن عمر يفعله[4].

وفي رواية لابن حبان في صحيحه: «كل يوم سبت»[5]، وفيها ردٌّ

---

(١) «أخبار المدينة»: ١/ ٤٤، وقوله: «لضربوا إليه أكباد الإبل» من الجاري على الألسنة لبيان عظمة الأجر، وإلا فهو مخالف لحديث «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..» الآتي ص ٩٥٠، ومن ألفاظه: «لا تضرب أكباد المطي...»، وفي لفظ: «الإبل»، انظر: الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم: ٢/ ٢٥٠، والتمهيد لابن عبدالبر: ٣/ ٤٧.

(٢) المستدرك: ٣/ ١٣، (٤٢٨٠)، ورواه البيهقي في الكبرى: ٥/ ٢٤٩، (١٠٠٧٦).

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٣٩٩، التطوّع، باب إتيان مسجد قبا..، (١١٣٦)، وصحيح مسلم: ٢/ ٨٢٤، الحج، باب فضل مسجد قبا..، (١٣٩٩).

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٣٩٩، التطوع، باب من أتى مسجد قباء كل سبت، (١١٣٥)، ورواه مسلم أيضًا: ٢/ ٨٢٥، الحج، باب فضل مسجد قباء..، (١٣٩٩).

(٥) صحيح ابن حبان: ٤/ ٥١٠، (١٦٣٢) و«طبقات المحدثين بأصبهان»: ٣/ ٢٣٠، (٣٣٠).

على من قال: إن المراد بالسبت الأسبوع.

وروى ابن شبّة عن سعيد بن عمرو بن سليم مرسلاً: أنّ النبي ـ ﷺ ـ كان يُطرح له على حمار إنبجانيّة لكل سبت، ثم يركب إلى قبا[1].

ورواه ابن زبالة بنحوه، وزاد: يمشي حوله أصحابه[2].

وعند ابن شبّة عن شريك بن عبدالله بن أبي نمر مرسلاً: أنّه ـ ﷺ ـ يأتي قبا يوم الاثنين[3].

وقد أوردنا ما تقدّم من الأحاديث والآثار لتَعلم كيف تأثيرات الطاعات والمعاصي في الأراضي والبقاع التي لم تعص الله ـ تعالى ـ، ولم يقع عليها الخطاب، وكيف منع ـ ﷺ ـ من الصلاة في هذه البقعة التي عُصي الله فيها.

ومن ذلك: الموضع الذي ناموا عن الصلاة فيه، حيث ارتحل عنه ـ ﷺ ـ، ولم يصلّ فيه، وقال: «هذا مكان حضرنا فيه الشيطان»، فلما تجاوزه أناخ فصلّى[4].

وكيف نهى عن دخول ديار المعذّبين، إلاّ أن يدخلوها باكين[5].

(١) «أخبار المدينة»: ١/ ٤٧.
(٢) سبق التنبيه إلى أن كتاب ابن زبالة في عداد المفقود.
(٣) «أخبار المدينة»: ١/ ٤٧.
(٤) رواه مسلم: ١/ ٣٩٥، المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة..، (٦٨٠).
(٥) رواه البخاري: ١/ ١٦٧، المساجد، باب (٢١)، حديث (٤٢٣)، ومسلم: ٤/ ١٨٠٨، الزهد والرقائق، باب (١)، حديث (٢٩٨٠).

فالمنع من ذبحٍ لله بمكان قد ذُبح فيه لغيره أولى وأحرى.

فإن قيل: إنّ النبي ـ ﷺ ـ قد أمر أهل الطائف أن يجعلوا المسجد مكان طواغيتهم[1]، وإنّه أمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة عندهم[2]، وكان مسجده ـ ﷺ ـ مقبرة للمشركين بعد نبشها[3].

قيل: أمره ـ ﷺ ـ لأهل الطائف بذلك ليَنيهم[4] بعبادة الله ـ تعالى ـ [عن][5] عبادة غيره في ذلك المكان، بعد إزالة الطاغية بهدمها، وجعْل فيها ما لا يشاكلها، وهو المسجد، وليس في ذلك إلاّ مجرّد مصلحة للمسلمين. وأمّا إبقاء مسجد الضرار فلا يخفى ما في ذلك من الضرر على الدين والمسلمين، والمطلوب محوُ اسمه وجسمه عن المشاكلة.

وأيضًا قد يكون لمواضع [ر،١٢٨/ب] العذاب مزيّة عن مواضع المعصية، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾، وقد مر الكلام

---

(١) رواه أبو داود في السنن: ١/ ١٢٣، (٤٥٠)، وابن ماجة: ١/ ٢٤٥، (٧٤٣)، والحاكم في المستدرك: ٣/ ٧١٦، (٦٥٩١)، والطبراني في الكبير: ٩/ ٤٩، والبيهقي في الكبري: ٢/ ٤٣٩، (٤١٠٥)، والبزار: ٦/ ٣١٤، (٢٣٢٧). وضعفه الألباني كما في ضعيف سنن ابن ماجه: ص ٥٨.

(٢) رواه النسائي: ٢/ ٣٨، (٧٠١)، وابن حبان في صحيحه: ٣/ ٤٠٥، (١١٢٣)، من حديث قيس بن طلق بن علي عن أبيه، وقيس متكلم فيه. انظر «نصب الراية»: ١/ ٦٢.

(٣) انظر صحيح البخاري: ١/ ١٦٥، المساجد، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد. . ، (٤١٨).

(٤) أراد: «ليُضعفهم ويفتّرهم»، من «الونى»، وهو الضعف والفتور، انظر المقاييس: ٦/ ١٤٦، والأساس: ٦٩٠، لكنه عداه باللازم، والصواب أن يقال: «ليونيَهم»؛ من أونى.

(٥) ليست في الأصول، وأرى أنها لازمة.

في ذلك.

فاحذر مصاحبة من تؤثّر معاصيهم في البقاع، وكن مستبصرًا متيقظًا بين الاستبصار والاعتبار تنجُ[1] من الهلكة، والله الموفق يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[2].

(عن ثابت بن الضحّاك) بن خليفة الأشهلي، صحابي مشهور، أنصاري، مات ـ رضي الله عنه ـ سنة خمس وأربعين، قاله الفلاّس، والصواب سنة أربع وستين[3].

(قال: نذر رجلٌ)، هو «كرْدَم»[4] ـ بسكون راء وفتح دال مهملتين ـ الثقفي، كما يأتي التصريح به في هذا الحديث.

(أن ينحر إبلاً بَبُوانة) ـ بضم الموحدة وفتح النون، وقيل بفتح الموحّدة ـ، هضْبة معلومة عندها وادٍ[5] في ناحية اليمن يعرف بها، قريبًا من مكة من جهة يلملم، وسيأتي الشاهد من الحديث، وهي التي يقول فيها وضّاح اليمن[6]:

أيا نخلتي وادي بوانة حبّذا إذا نام حراس النخيل جناكما[7]

---

(١) في الأصول: «تنجوا».

(٢) في الطرة عند هذا الموضع: (بلغ مقابلة على يد مصنفه عفى الله عنه فصح).

(٣) انظر «الإصابة»: ١/ ٣٩١، (٨٩٥).

(٤) هو كَرْدم بن سفيان بن أبان بن يسار الثقفي، انظر «الإصابة»: ٥/ ٥٧٨، (٧٣٩٥).

(٥) في الأصول: «وادي».

(٦) هو عبدالرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال الخولاني، الحميري، من شعراء الغزل، توفي نحو ٩٠هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٣/ ٢٩٩.

(٧) لم أجده في ديوانه الذي جمعه الأثري والزيات والبقاعي ونشرته دار صادر، مع أن =

(فسأل النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال:) أي النبي ـ ﷺ ـ: (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهليّة يُعبد؟).

الوثن: ما له جُثّة، كصورة الآدمي، والصنم: الصورة بلا جُثة. قاله في مختصر النهاية[1].

والجاهلية هي ما كانت عليها العرب من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين، والمفاخرة بالأحساب والأنساب، والكبر والتجبّر، وغير ذلك من رذائل الأخلاق، التي تدعو إلى غضب الخلّاق.

(قالوا: لا. قال ـ ﷺ ـ: فهل [كان][2] فيها عيد من أعيادهم؟)، سيأتي الكلام على معنى هذا العيد المستفصل عنه.

(قالوا: لا. فقال النبي ـ ﷺ ـ: أوف بنذرك؛ فإنّه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم». رواه أبو داود[3] بإسناد صحيح على شرطهما). أي البخاري ومسلم.

وشرطهما: قال محمد بن طاهر السلفي[4]: هو أن يخرّجا الحديث

= فيه قصيدة على نفس الوزن والقافية، فلعله ساقط منها.

(١) انظر «النهاية»: ٥/ ١٥١، (وثن). وفيه أن من العلماء من لم يفرق بينهما، وأن الوثن قد يطلق على غير الصورة.

(٢) ليست في الأصول، أثبتها من السنن.

(٣) سنن أبي داود: ٣/ ٢٣٨، الإيمان والنذور، باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر، (٣٣١٣). وهو في صحيح الجامع: ١/ ٤٩٩، (٢٥٥١).

(٤) كذا قال المؤلف، والصواب «المقدسي» صاحب كتاب «شروط الأئمة الستة»؛ فهذه عبارته، انظر منه ص ٨٦، ولعل المؤلف التبس عليه المقدسي بأبي طاهر السِّلفي، المحدث المشهور، ت ٥٧٦هـ.

المجمع على ثقة نقلته إلى الصحابي المشهور[1].

قال العراقي: وليس هذا بجيد؛ لشدّته[2].

وقال النووي تبعًا لابن الصلاح: المراد بقولهم: «على شرطهما»: أن يكون رجال إسناده في كتابيهما؛ لأنهما ليس لهما شرط فيهما ولا في غيرهما[3].

وعلى هذا عمل ابن دقيق العيد، ومشى عليه الحافظ الذهبي في مختصر المستدرك[4].

وصرّح الحاكم في خطبته بأوسع من ذلك فقال: وأنا أستعين الله على إخراج أحاديث رُواتها ثقات، قد احتج بمثلها الشيخان أو أحدهما[5].

وهذا لا يحتمل ردّ الضمير إلا على السند، لا المتن، أي بمثل رواتها، لا بهم أنفسهم.

وقال عماد الدين ابن كثير: إنّ شرط البخاري أن يكون الراوي قد عاصر شيخه، وثبت عنده سماعه منه، ولم يشترط مسلم الثاني، بل اكتفى بمجرّد المعاصرة، وبهذا رجَح تصحيح البخاري عليه[6].

---

(١) انظر «تدريب الراوي» للسيوطي: ١/ ١٢٤.

(٢) انظر السابق: ١/ ١٢٥.

(٣) انظر السابق: ١/ ١٢٧.

(٤) انظر «تدريب الراوي»: ١/ ١٢٧.

(٥) المستدرك: ١/ ٤٢.

(٦) «اختصار علوم الحديث»: ٢٣، مع شرحه «الباعث الحثيث».

وسَنُورِد رجال هذا الحديث، حيث قال أبو داود: حدّثنا داود بن رشيد، حدّثنا شعيب بن إسحاق، عن الأوزاعي، حدثني يحيى بن أبي كثير، حدّثني أبو قلابة، [ر،١٢٨/أ] حدّثني ثابت [ك،٦٢/أ] بن الضحّاك، فذكره.

فأمّا داود بن رُشيد ـ بالتصغير ـ فهو الهاشمي مولاهم، الخوارزمي، نزيل بغداد، ثقة، روى له البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه(١).

وأمّا شعيب بن إسحاق فهو ابن عبدالرحمن الأموي مولاهم، البصري ثم الدمشقي، ثقة، رُمي بالإرجاء، روى له الشيخان والنسائي وابن ماجه(٢).

وأما الأوزاعي فهو أشهر من أن يُذكر.

وأمّا أبو قلابة فهو عبدالله بن زيد بن عمرو ـ أو عامر ـ الجرمي، أبو قلابة البصري، ثقة فاضل، كثير الإرسال، وقد صرّح بالتحديث، قال العِجلي: فيه نصب يسير. مات بالشام هاربًا من القضاء، سنة أربعٍ ومائة، وقيل بعدها، وروى له الجماعة كلّهم(٣).

فكلّ رواة هذا الحديث كما ترى من رجال الصحيحين، مشاهير، والحديث متصل(٤).

وقال أبو داود أيضًا: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا يزيد بن هارون،

---

(١) انظر «تقريب التهذيب»: ١٩٨، (١٧٨٤).

(٢) انظر السابق: ٢٦٦، (٢٧٩٣).

(٣) انظر السابق: ٣٠٤، (٣٣٣٣).

(٤) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية: ١/ ١٨٦.

أنبأنا عبدالله بن يزيد بن مقسم الثقفي، من أهل الطائف، حدثتني سارة بنت مقسم أنّها سمعت ميمونة بنت كردم قالت: خرجت مع أبي في حجة الوداع، حجة رسول الله ـ ﷺ ـ، فرأيت رسول الله ـ ﷺ ـ، وسمعت الناس يقولون: رسول الله، فجعلت أبدُّه بصري ـ أي أُتبعه إيّاه، لا أقطعه عنه ـ، فدنا إليه أبي وهو على ناقة له، معه دِرّة كَدُرَّة الكتاب، فسمعت الأعراب [والنّاس][1] يقولون: الطبطبيةَ الطبطبيةَ.

قلت: هي بالنصب على التحذير، قيل حكاية وقع السياط، وقيل وقع الأقدام عند السعي، ويحتمل أنّها الدرة نفسها لأنها؛ إذا ضرب بها حكت صوت: «طبطب». انتهى.

قالت: فدنا إليه أبي فأخذ بقدمه. قالت: فأقرّ له ووقف واستمع منه. فقال: يا رسول الله، إنّي نذرت إن وُلد لي ولد ذكر أن أنحر على رأس بُوانة، في عقبة من الثنايا عدةً من الغنم. قال: لا أعلم إلا أنّها قالت: خمسين. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: هل بها من هذه الأوثان شيء؟. قال: لا. قال: فأوف بما نذرت به لله. قال: فجمعنا، فجعل يذبحها، فانفلتت منه شاة، فطلبها وهو يقول: اللهم أوف بنذري، فظفر بها فذبحها[2].

وقال أبو داود أيضًا: حدثنا مسدّد، حدّثنا الحارث بن عبيد أبو واقد، عن عبيدالله بن الأخنس، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، أنّ امرأة أتت النبي ـ ﷺ ـ فقالت: يا رسول الله، إنّي نذرت أن أضرب

---

(١) ليست في الأصول، وهي في السنن.

(٢) سنن أبي داود: ٣/ ٢٣٨، ٢٣٩، (٣٣١٤). وهو في صحيح سنن أبي داود للألباني: ٢/ ٣٢٩.

على رأسك بالدفّ. قال: [أوفي][1] بنذرك. قالت: إنّي نذرت أن أذبح بمكان كذا وكذا ـ مكان كان يَذبح فيه أهلُ الجاهلية ـ. قال: لصنم؟. قالت: لا. قال: لوثن؟. قالت: لا. قال: أوفي بنذرك[2].

وقال أيضًا: حدّثنا محمد بن بشار، حدّثنا أبوبكر الحنفي، حدّثنا عبدالحميد بن جعفر، عن عمرو بن شعيب، عن ميمونة بنت كردم بن سفيان، عن أبيها نحو حديثها، المتقدّم، قال فيه: هل بها وثن أو عيد من أعياد الجاهلية؟. قال: لا. [ر،١٢٩/ب] قلت: إن أمّ هذه عليها نذر مشي[3]، أفأقضيه عنها؟ ـ وربّما قال ابن بشار: أنقضيه عنها؟ ـ قال: نعم[4].

فوجه الدلالة في الحديث ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره ـ أنّ هذا الناذر نذر أن يذبح نعمًا، ـ إما إبلاً، وإمّا غنمًا، كما عينت ذلك ميمونة ـ رضي الله عنها ـ، وإما كانت قضيتين ـ بمكان سمّاه، فسأل النبي ـ ﷺ ـ: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟. قال: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟. قال: لا. قال: أوف بنذرك. ثم قال: لا وفاء لنذر في معصية الله. وهذا يدل على أنّ الذبح بمكان بمحل[5] أوثانهم وعيدهم معصيةٌ لله ـ تعالى ـ من وجوه:

---

(١) في الأصل: «أوف»، والمثبت هو الذي في السنن.

(٢) سنن أبي داود: ٣/ ٢٣٧، ٢٣٨، (٣٣١٢). وهو في صحيح سنن أبي داود للألباني: ٢/ ٢٣٨.

(٣) في المطبوع من السنن: «إنّ أمي هذه عليها نذر، ومشى..» بالألف المقصورة، وهو خطأ؛ ففي المسند (٤/ ٦٤). أنه قال: «إنّ على أمّ هذه الجارية مشيا، أفأمشي عنها؟. قال: «نعم». ووقع في «المجمع» (٤/ ١٩١): «إن على أمي هذه..».

(٤) سنن أبي داود: ٣/ ٢٣٩، (٣٣١٥). وهو في صحيح أبي داود: ٢/ ٣٢٩.

(٥) العبارة في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٤١): «بمكان عيدهم، ومحل =

أحدها ـ أن قوله: «فأوف بنذرك» تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء، وذلك يدل على أن الوصف هو سبب الحكم، فيكون سببُ الأمر بالوفاء وجودَ النذر خاليًا من هذين الوصفين، فيكون الوصفان مانعَيْن من الوفاء، ولو لم يكن معصية لجاز الوفاء به.

الثاني ـ أنّه عقّب ذلك بقوله: «لا وفاء لنذر في معصية الله»، ولولا اندراج الصورة المسؤول عنها في هذا اللفظ العام وإلا لم يكن في الكلام ارتباط[1]، والمنذور في نفسه وإن لم يكن معصية، لكن لمّا سأله النبي ـ ﷺ ـ عن الصورتين قال له: «فأوف بنذرك»، يعني حيث لم يكن هناك ما يوجب تحريم الذبح هناك، فكان جوابه ـ ﷺ ـ فيه أمر بالوفاء[2] عند الخلوّ من هذا، ونهي عنه عند وجود هذا، وأصل الوفاء بالنذر معلوم، فبيّن بأن لا وفاء فيه، واللفظ العامّ إذا ورد على سبب فلا بد أن يكون السبب مندرجًا فيه.

الوجه الثالث ـ أنّه لو كان الذبح في موضع الوثن والعيد جائزًا لسوّغ ـ ﷺ ـ للناذر الوفاء به، كما سوّغ لمن نذرت الضرب بالدف على رأسه أن تضرب به، بل لأوجب الوفاء به، إذا كان الذبح بالمكان المنذور واجبًا.

فإذا كان الذبح بمكان أوثانهم وعيدهم منهيًّا عنه، فكيف بالموافقة في نفس ذلك، بفعل بعض الأعمال التي بسبب أوثانهم وعيدهم؟!.

= أوثانهم»، والمؤلف ينقل منه.

(١) في الأصول: «ارتباطا»، والمثبت من الاقتضاء.

(٢) في [ر] و[ك] «بأمر الوفاء»، وفي الاقتضاء: «فيه أمرًا بالوفاء»، وما أثبته من [م م].

يوضح ذلك أن العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائدٍ إما بعود السنة، أو بعود[1] الأسبوع أو الشهر، أو نحو ذلك[2]. [ك،٦٣/ب] ولهذا لمّا خلت البقعة من ذلك أذن بالذبح فيها، وقصد التخصيص باقٍ، وإذا كان تخصيص بقعة عيدهم محذورًا فكيف نفس عيدهم؟![3].

وهكذا لمّا كان موضع شركهم بعبادة الأوثان محذورًا بالمنع عن الذبح فيه لله ـ سبحانه ـ، كان ذلك أدلّ على النهي عن الشرك وعبادة الأوثان[4].

وفي الحديث الآخر أن القصّة كانت في حجّة الوداع كما مرّ، فحينئذ لم يكن بقي من أوثان المشركين ولا أعيادهم شيء إلا مجرّد البقعة، فإذا [ر،١٢٩/أ] كان ـ ﷺ ـ قد نهى أن يذبح لله في مكان قد ذُبح فيه لغير الله، أو كان الكفّار يعملون فيه أعيادًا، وأنّ أولئك الكفّار أسلموا وتركوا ذلك، والسائل لا يتخذ المكان عيدًا، ولا مكان ذبحهم وثنًا، بل يذبح فيه لله ـ سبحانه ـ، فقد ظهر أنّ نهيه ـ ﷺ ـ سدّ للذريعة إلى إبقاء شيء من ذلك؛ خشية أن يكون الذبح هناك سببًا لإحياء ذلك الأمر، فهذا حكمة نهيه ـ ﷺ ـ[5].

وهذا من شفقته على أمّته أن يضلّوا، فسدّ كل طريق يوصل إلى أقوال الجاهلية وأعمالها، فمحى الله ذلك بمبعثه ـ ﷺ ـ، وحذّر أمّته

---

(١) في الأصل: «عائدًا ما تعود السنة أو يعود الأسبوع..»، والمثبت من الاقتضاء.

(٢) الاقتضاء: ١/ ٤٤١، ٤٤٢.

(٣) السابق: ١/ ٤٤٣.

(٤) الاقتضاء: ١/ ٤٤٣.

(٥) السابق: ١/ ٤٤٤.

منه؛ مخافة انبعاثه بعده.

وهو موجبٌ العلمَ اليقينَ بأنّ إمام المتقين، وسيّد رسل رب العالمين - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين -، كان يمنع أمّته منعًا قويًّا عن ذلك، ويسعى في دروس سنن الجاهلية، وطمسها بكل سبيل، فلولا المانعُ القوي لما دَرَسَتْ سننُهم؛ فإن الداعي إليها والباعثَ الشيطانُ المُنظَرُ إلى يوم الدين، أعاذنا الله والمسلمين من نزغاته وهمزاته وتسويله وتضليله، إنّه على ما يشاء قدير[1]، وبالإجابة جدير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) الثناء على الله -تعالى- بهذه الجملة «إنه على ما يشاء قدير» ونحوها «القادر على ما يشاء» جارٍ على ألسنة الأئمة والعلماء قديما وحديثا، انظر مثلا الأم: ٤/١٢٣، والرد على الجهمية للدارمي ص ٩٣، و«رسالة في أن القرآن غير مخلوق» لإبراهيم الحربي ص ٤٤، وتفسير الطبري: ٣/٥٤٨، والعظمة لأبي الشيخ: ٢/٦١٩، والفصل لابن حزم: ٤/ ١٢٦، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج ص ٥٩، واعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/ ٢٨، والتمهيد لابن عبدالبر: ١٨/ ٤٢، وحلية الأولياء لأبي نعُيم: ١٠/ ٤٠٨، والروض الأنف للسهيلي: ٦/٤٣١، والمغني لابن قدامة: ٦/ ١٦١، ودرء التعارض لابن تيمية: ٩/ ٢٦٢، وبيان تلبيس الجهمية له: ٢/٤٣٣، ومجموع فتاواه: ٣/٢٨٩ و٥/٤٨٢، ومنهاج السنة له: ١/ ٤٠٥، وإعلام الموقعين لابن القيم: ١/١٣٩، ٣٨٣، ٤٢٥، وتيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبدالله: ص ٣٣، وقد جاء نحو هذا الثناء في صحيح مسلم: ١/ ١٥٠ (١٨٧) في قول الرب -تعالى- «..ولكني على ما أشاء قادر»، وغير بعيد منه قوله -تعالى-: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى: ٢٩]، ومراد الأئمة من هذه الجملة أن الله -تعالى- إذا شاء شيئا فهو قادر على إنفاذه؛ لكمال قدرته، كما قال في الثناء على نفسه: ﴿فعال لما يريد﴾، والأكمل أن يقال: «إنه على كل شيء قدير»؛ موافقةً للغالب في القرآن، واحترازا من موافقة الفلاسفة وبعض المتكلمين القائلين: «إن الله لا يقدر على غير ما فعل» انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١١/٤٨٨، ٤٨٩.

وقد كره[1] الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ الذبح عند القبر وأكْلَ ذلك[2]؛ لخبر أنس ـ رضي الله عنه ـ المرفوع: «لا عقر في الإسلام». وهو حديث صحيح، رواه الإمام أحمد[3]، وأبو داود وقال: قال عبدالرزّاق: كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة[4].

وقال في رواية المروذي: كانوا إذا مات لهم الميّت نحروا جزورًا، فنهى ـ ﷺ ـ عن ذلك[5].

وفسّره بعضهم بمعاقرة الأعراب، ذكره البيهقي عن ابن معين[6].

وجزم الأئمة بالتفرقة بينهما، وأنّ معاقرة الأعراب إنّما هي المباهاة بينهم في الكرم، كما في قصّة الفرزدق[7] حين منع علي ـ رضي الله عنه ـ من أكلها، وعدّها ـ رضي الله عنه ـ ممّا أهل لغير الله ـ تعالى ـ، وفيها يقول جرير بن الخطفى في مهاجاته للفرزدق:

---

(١) التعبير في كلام الإمام أحمد بالكراهة عن المحرمات دارج غير قليل، ويغلط من يفهمه على اصطلاح بعض متأخري الفقهاء في المكروه بأنه ما كان تركه أولى من فعله. انظر «إعلام الموقعين» لابن القيم: ١/ ٧١ وما بعدها.

(٢) انظر الفروع: ٢/ ٢٣١، و«المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة»: ٢/ ١٢٩ وما بعدها.

(٣) المسند: ٣/ ١٩٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/ ١٢٠٣، (٧١٦٨).

(٤) سنن أبي داود: ٣/ ٢١٦، الجنائز، باب كراهية الذبح عند القبر، (٣٢٢٢).

(٥) انظر «الفروع»: ٢/ ٢٣١.

(٦) السنن الكبرى: ٩/ ٣١٤، (١٩١٣٥).

(٧) القصة لوالد الفرزدق: غالب بن صعصعة التميمي، وقد رواها سعيد بن منصور، كما في الإصابة: ٣/ ٢٥٢، ترجمة سحيم بن وثيل.

تعدّون عقر النيب أفضلَ مجدِكم　　　　بني ضَوْطَرَى لولا الكميَّ المقنّعا[1]

وأمّا هذا فغير.

قال جماعة: وفي معنى الذبح عند القبر: الصدقة عنده؛ فإنّه محدث، وفيه رياء.

ونقل أبو طالب عن الإمام أحمد: لم أسمع فيها بشيء، وأكره أن أنهى عن الصدقة[2].

وحرّم الشيخ ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ الذبح والتضحية عنده[3]، والله أعلم.

---

(١) ديوانه: ٢/ ٩٠٧، وفيه (هلّا) بدل (لولا)، وهي هنا بمعناها كما في لسان العرب: ٤/ ٤٨٩.

(٢) انظر «الفروع»: ٢/ ٢٣٢، والإنصاف: ٢/ ٥٧٠.

(٣) الفروع: ٢/ ٢٣٢.

الباب الحادي عشر

باب من الشرك النذر لغير الله ـ تعالى ـ

النذْر ـ بالمعجمة ـ هو لغةً: الوعد بخير أو شر، وفي الشرع: التزام قُربة لم تتعيّن.

لمّا ترجم ـ رحمه الله تعالى ـ [ر،١٣٠/ب] على المنع من الذبح في مكان يُذبح فيه لغير الله ـ تعالى ـ، ذكر هذه الترجمة على قاعدته [في](١) الترقي من الأسفل إلى الأعلى، فالأُولى تمنع عن المشابهة في الفعل، وهذه تمنع عن الفعل نفسه.

(وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧])، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

لمّا ذكر ـ سبحانه ـ الأبرار وجزاءهم في الآخرة، بيّن من صفتهم في الدنيا ما أثنى به عليهم، فقال مادحًا لهم: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، فاستأنف ـ سبحانه ـ الكلام ببيان ما رُزِقوا الجزاء في الآخرة لأجله، وهو أبلغ في وصفهم بالتوفّر على أداء الواجبات؛ لأنّ من أوفى بما أوجبه على نفسه لله ـ سبحانه ـ، كان أوفى بما أوجبه الله عليه.

وقيل معناه: يُتِمّون الفرائض.

ثم قال: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ أي شدائده ﴿مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾، أي فاشيًا

---

(١) في جميع النسخ: «من».

ظاهرًا منتشرًا غاية الانتشار. من: «استطار الحريق والفجر» إذا ظهر وانتشر، وهو أبلغ من طار، قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

وهـان علـى سَـراة بنـي لـؤيٍ   حـريـقٌ بـالبـويـرة مستطيـرُ[1]

أي متفرق منتشر، كأنّه طار في نواحيها، والفجر المستطير: الذي انتشر ضوءه واعترض في الأفق، بخلاف المستطيل.

وذلك اليوم هو يومٌ تشقق فيه السموات، وتناثرُ فيه النجوم، وتفزع فيه الملائكة والإنس والجن بعضها إلى بعض، [ك،٦٣/أ] وتغور فيه المياه، يومٌ تُبدّل الأرض فيه غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهّار.

وفي هذا إشعار بحسن عقيدة هؤلاء، وتجنّبهم المعاصي خوفًا من ذلك اليوم؛ لأنهم متيقنون وقوع ذلك، كأنّهم يشاهدونه عيانًا.

ثم ذكر باقي صفاتهم، وإخلاصَهم في قولهم بلسان حالهم لا مقالهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ١١].

وفي نسخةٍ غيرَ خط المصنّف ـ رحمه الله تعالى ـ: (وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]).

يقول ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ أي في سبيل الله، أو سبيل الشيطان، ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾، في طاعة الله أو معصيته، فإنّ الله يعلمه،

---

(١) ديوانه: ١/ ٢١٠، صادر، والبيت في صحيح البخاري: ٢/ ٨١٩، (٢٢٠١)، ومسلم برقم (١٧٤٦).

ولا يخفى عليه، وهو مجازيكم على ذلك، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

ثم قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾، أي وما للذين يمنعون الصدقات في سبيل الله، أو ينفقون أموالهم في المعاصي، ولا يوفون بالنذر في طاعة الله، أو ينذرون في المعاصي، كأن ينذروا لغير الله ـ تعالى ـ، ﴿مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾ ينصرونهم من الله ـ سبحانه ـ، أو يمنعونهم من عقابه إذا خالفوا أمره، وارتكبوا نهيه.

ففي مدحه ـ سبحانه ـ الموفين بالنذر دليلٌ أنّ نذرهم الذي وفوا به طاعة لله ـ سبحانه ـ، فلذلك [ر،١٣٠/أ] استحقّوا المدح على الوفاء به، فإذا كان ذلك عبادةً لله ـ تعالى ـ، فصرفُه إلى غيره شرك.

وليس في قوله ـ ﷺ ـ: «إنّ النذر لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من مال البخيل»[١]، أنّه لا يثاب فاعله؛ فإن الله ـ تعالى ـ لا يمدح على الوفاء به وهو لا يثيب عليه؛ إذ البخل هنا إنما هو البخل بالطاعة.

ويوضح ذلك الحديث القدسي الذي في صحيح البخاري[٢] وسنن ابن ماجه[٣]، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «قال الله ـ تعالى ـ: لا يأتي ابنَ آدم النذرُ بشيء لم أكن قد قدرته، و لكن يلقيه النذر إلى القدر، و قد قدرته له، أستخرج به من البخيل». «فيؤتيني عليه ما لم يكن يؤتيني عليه قبل»[٤].

---

(١) رواه البخاري بنحوه: ٦/ ٢٤٣٧، القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، (٦٢٣٤)، ومسلم: ٣/ ١٠٢٠، النذر، باب النهي عن النذر، (١٦٣٩).

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٤٣٨، القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، (٦٢٣٥).

(٣) بلفظ مختلف، سنن ابن ماجه: ١/ ٦٨٦، (٢١٢٣).

(٤) هذه الجملة في رواية أخرى عند البخاري: ٦/ ٢٤٦٣، الأيمان والنذور، باب =

(وفي الصحيح) للبخاري (عن عائشة) أم المؤمنين (ـ رضي الله عنها ـ)، وفضلُها بين أزواجه أمّهات المؤمنين معلوم، وفقهها بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ غير مجهول، ولا حاجة لنا إلى المفاضلة بينها وبين أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ، التي بعث إليها رب العزة ـ جلّ وعلا ـ مع جبريل الأمينِ بالسلام، وبشّرها ببيت لها في الجنّة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب. كما رواه مسلم في صحيحه وغيره، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ[1]، وإن كان كل منهما ـ رضي الله عنهما ـ قد اختصّت بفضل لم تشاركْها فيه الأخرى، فخديجة ببذلها مالَها، ومؤازرتِها له ـ ﷺ ـ في دعوته، عند تشمير قومه له عن ساق العداوة، وعائشةُ ـ رضي الله عنها وعن أبويها ـ بنشر شريعته ـ ﷺ ـ بعده، وحفظِها على الأمّة من السنّة ما لم يحفظه غيرها، وما نزل بسببها ممّا كان عاقبته للأمّة خيرًا ورحمة، فرضي الله عنهما، وجعلنا وإخواننا المسلمين ممن غرس الله محبة أهل نبيّه في قلبه، ووالاهم، إنّه كريم وَهَّاب.

(أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»)[2].

ورواه أبو داود، واللفظ له[3]، ورواه باقي الجماعة[4] إلا مسلمًا.

= الوفاء بالنذر، (٦٣١٦). وكلتا الروايتين ليس فيهما «قال الله ـ تعالى ـ».

(١) بل رواه البخاري: ٣/ ١٣٨٩، فضائل الصحابة، باب تزوج النبي ـ ﷺ ـ خديجة. . .، (٣٦٠٧). ومسلم: ٤/ ١٥٠٤، فضائل الصحابة. . .، باب فضائل خديجة. . .، (٢٤٣٢).

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٤٦٤، الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، (٦٣٢٢). وهذا لفظه أيضًا.

(٣) سنن أبي داود: ٣/ ٢٣٢، (٣٢٨٩).

(٤) الترمذي: ٤/ ١٠٤، (١٥٢٦)، والنسائي: ٧/ ١٧، (٣٨٠٦)، وابن ماجه: ١/ =

ورواه الطحاوي وزاد فيه: «وليكفّر عن يمينه»[1]. قال عبدالحق: هذا أحسن إسنادًا وأصح. يعني حديث الطحاوي من حديث الزهري عنها: «لا نذر في معصية، وكفارته كفارة اليمين»[2].

قال الطحاوي في «مشكل الحديث»: حدثنا محمد بن داود، حدثنا سعيد بن سليمان الواسطي، حدثنا حفص بن غياث، عن عبيدالله بن عمر، عن القاسم بن محمد، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[3].

قال حفص: وسمعت ابن محبّر[4] وهو عند عبدالله، فذكره عن القاسم عن عائشة مثله، وقال: يكفّر عن يمينه[5].

قال الطحاوي: فتأمّلنا ما حدّث به حفص عن ابن المحبّر[6]،

= ٦٨٧، (٢١٢٦).

(١) «شرح مشكل الآثار»: ٥/ ٣٩٤، (١٥١٤)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

(٢) «شرح معاني الآثار»: ٣/ ١٣٠، ورواه أحمد: ٤/ ٤٤٣، وأبو داود: ٣/ ٢٣٢، (٣٢٩٠)، والنسائي: ٧/ ٢٧، (٣٨٣٧)، وابن ماجه: ١/ ٦٨٦، (٢١٢٥)، والترمذي: ٤/ ١٠٣، (١٥٢٤)، وصححه الألباني في الإرواء برقم (٢٥٨٧).

(٣) «تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار»: ٦/ ٦٨، ٨٧، تحقيق وترتيب خالد الرباط، «دار بلنسية، ط ١، ١٤٢٠هـ، الرياض.

(٤) كذا في الأصل، وفي «شرح مشكل الآثار»: ابن محيريز.

(٥) «شرح مشكل الآثار»: ٥/ ٣٩٤، وصحح ابن القيم إسناده كما في حاشيته على سنن أبي داود: ٩/ ٨٤.

(٦) كذا في الأصل، وفي «شرح مشكل الآثار»: ابن محيريز.

فوجدناه فيه أمرُ رسول الله ـ ﷺ ـ الناذرَ بالمعصية بالكفّارة، عن غير عجز منه عن إصابة ذلك بأفعاله، ولكن لعجزه عنه بمنع الشرع إيّاه، فعقلنا بذلك أنّ منع الشريعة إيّاه كعجزه في نذره عن فعله إيّاه، وأنّ عليه الكفّارة، وأنّه في ذلك كمن سقط عنه النذر، ووجب عليه في ترك فعله الكفّارة(١).

ومعنى هذا أنّ الناذر قد التزم فعل المنذور، فإذا لم يف بما التزمه لزمته الكفّارة، كما لو التزم صومًا أو صلاةً فعجز عنها، والعجز شرعًا بالمنع كالعجز حسًّا، لكن قد يقال إنّ العجز الشرعي مقارن لعقد النذر، فمنع من انعقاده، والعجز الطارىء يوجب الانتقال إلى البدل والكفّارة، فبينهما فرق.

ويقال في الجواب: إنّ النذر كاليمين وأقوى، وهو لو التزمه بيمينه [ر، ١٣١/ب] لزمته الكفّارة، قارنه العجز أو طرأ عليه، فإذا نذره فقد التزمه بنذره، فإذا مُنع منه شرعًا أو حسًّا كفّر عن يمينه، وهذا قوي على قول من أوجب الكفارة(٢).

ويدل على ذلك أيضًا حديث عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ لمّا نذرت أخته أن تمشي حافية غير مختمرة(٣).

---

(١) «شرح مشكل الآثار»: ٥/ ٣٩٦، مع اختلاف يسير.

(٢) هكذا العبارة في [ك]، على غموض في كتابة «..قوي على..»، وهي في [ر] و[م] هكذا: .. وهذا قوي، قال من أوجب الكفارة: ويدل..

(٣) أصله في الصحيحين: البخاري: ٢/ ٦٦٠ (١٧٦٧)، ومسلم: ٣/ ١٠٢٣، (١٦٤٤)، رواه أحمد: ٤/ ١٤٥، وأبو داود: ٣/ ٢٣٣، (٣٢٩٣)، والترمذي: ٤/ ١١٦، (١٥٤٤)، وحسنه، والنسائي: ٧/ ٢٠، (٣٨١٥)، وابن ماجه: ١/ ٦٨٩، (٢١٣٤). =

وفي حديث عبدالرزاق عن ابن جريج، حدثني سعيد بن أبي ذئب، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن عقبة، أنّ أخته نذرت أن تحج ماشية ناشرة شعرها، فأمرها رسول الله ـ ﷺ ـ بصيام ثلاثة أيّام[١].

وفي سنن أبي داود: أمَرها أن تكفّر عن يمينها، وتختمر وتركب[٢].

لكن يقال: الحديث مختلف؛ ففي بعضه أنّها أُمرت أن تُهدي بدنة، وفي لفظ: أُمرت أن تكفّر عن يمينها، وفي لفظ: أُمرت بهما.

وأجابوا: أنّ هذا لا تناقض فيه ولا اختلاف؛ وذلك أنّها نذرت أمرين: أحدُهما طاعةٌ فعجِزت عنها، والأخرى[٣] معصية، وهو نشرها شعرها، فأمرت بالهدي لِتركها المشيَ المنذور، وكما يؤمر به من ترك بعض واجبات حجّه، وأُمرت بالكفّارة في نذرها المعصية، وهو نشرُ شعرها، وكشفُ وجهها، كما يؤمر بها من حلف على ذلك.

فبعض الرواة روى الأمرين، وبعضهم اقتصر على أحدهما، ومن زاد فهو ثقة، وزيادته مقبولة، لا سيّما وغيره لم ينفها، وإنّما غايته أنّه سكت عنها، والزائد روى الحديث بتمامه.

قالوا: وممّا يدلّ على الكفّارة أيضًا حديث عقبة: «كفّارة النذر كفّارة اليمين»[٤]، وحديث ابن عبّاس أيضًا: «من نذر نذرًا لم يسمّه

= وضعفه الألباني في الإرواء برقم (٢٥٩٢).

(١) رواه مسلم: ٣/ ١٠٢٤، (١٦٤٤)، وبنحوه البخاري: ٢/ ٦٦٠، (١٧٦٧).

(٢) سنن أبي داود: ٣/ ٢٣٣، (٣٢٩٣). وهو في ضعيف سنن أبي داود للألباني: ص٢٦٩.

(٣) كذا، والصواب: «الآخر».

(٤) رواه مسلم: ٣/ ١٠٢٤، النذر، باب في كفارة النذر، (١٦٤٥).

فكفّارته [ك،٦٤/ب] كفّارة يمين، ومن نذر نذرًا لم يطقْه فكفّارته كفّارة يمين»[١].

قالوا: ونذر المعصية غيرُ مطاق شرعًا.

فحديث عقبة رواه مسلم، وحديث ابن عبّاس رواه أبو داود، وذُكر أنّه رُوي موقوفًا على ابن عباس، وهو مرفوع صحيح الإسناد، وسأل ابن أبي حاتم أباه وأبا زرعة عنه فقالا: رواه وكيع عن مغيرة، فوقفه، والموقوف أصح[٢].

إذا علمت ذلك، فإنّ نذر الطاعة الملتزمَ في مقابلة نعمة استجلبها العبد من الله ـ سبحانه ـ، أو نقمة استدفعها، بأن تكون الطاعة الملتزمة مما له أصل في الوجوب بالشرع، فإنّه يلزم الوفاء به إجماعًا، ذكره أبو الخطّاب من الشافعية[٣]، وموفّق الدين ابن قدامة من أصحابنا[٤].

وأما نذر المعصية فلا يحلّ الوفاء به إجماعًا[٥]، وهل يجب فيه كفّارة؟، على روايتين عن الإمام أحمد، ومبناهما [ر،١٣١/أ] على الأحاديث المتقدّمة: إحداهما[٦] تجب، رُوي عن جماعة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ والتابعين، وهو قول الثوري وأبي حنيفة وأصحابه،

---

(١) رواه أبو داود: ٣/ ٢٤١، (٣٣٢٢)، وابن ماجه: ١/ ٦٨٧، (٢١٢٨)، بنحوه، وضعفه الألباني كما في الإرواء برقم (٢٥٨٦).

(٢) «علل الحديث» لابن أبي حاتم: ١/ ٤٤١.

(٣) انظر المجموع: ٦/ ٤٧٤.

(٤) المغني: ١٠/ ٦٨.

(٥) عند هذا الموضع كتب في الطرة: [بلغ مقابلة فصح].

(٦) في الأصل: أحدهما.

والأخرى: لا تجب، وهو قول الشافعي ومالك[1]، لعموم الأحاديث الصحيحة، كقوله في مسلم وغيره مرفوعًا: «لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك العبد»[2]، وهذا يؤذن بعدم انعقادها.

إذا فهمت ذلك، فقوله ـ ﷺ ـ «من نذر أن يعصي الله فلا يعصه» بإسقاط حرف العلّة من «يعصيه»؛ لأن «لا» ههنا ناهية على الصحيح عند المحدّثين، دليلٌ ظاهر في النهي عن الوفاء بنذر المعصية، فإذا مُنع من الوفاء به، فمنعه من إنشائه من باب الأولى.

ولفظ المعصية عامّ لكل معصية، داخل فيه أنواع الشرك، كالنذر لغير الله ـ سبحانه ـ؛ فإنّ الشرك أخصّ المعاصي بالنهي في هذا اللفظ.

ويُروى: «فلا يعصيه» بإثبات الياء على النفي[3].

وقوله في الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ۝٢٧﴾، تهديد أكيد، ووعيد شديد لمن تعدّى حدود الله ـ تعالى ـ إلى محارمه، ودخل من باب الظلم إلى ذلك، ومن أعظم الظلم أن تصرف شيئًا من عبادة الله ـ تعالى ـ إلى غيره، كالنذر لغير الله كائنًا من كان، نبيًا أو وليًا أو ملَكًا أو صالحًا أو طالحًا أو حجرًا أو شجرًا، فمن نذر لشيء من ذلك فقد دخل في الشرك بنوع منه، ولهذا قال ـ سبحانه ـ لنبيّه ورسوله وأمينه على وحيه آمرًا له بأن يوحّد في ذلك

---

(١) انظر «المغني»: ١٠/ ٦٩.

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٠٢٢، النذر، باب لا وفاء لنذر في معصية الله..، (١٦٤١).

(٣) كذا رواه ابن خزيمة في صحيحه: ٣/ ٣٥٢، (٢٢٤١)، وأبو عوانة في مسنده: ٤/ ١٣، (٥٨٥٢).

ربّه؛ لأنه - ﷺ - هو الواسطة بالأمر والنهي بينه وبين عباده: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾، أي له لا لغيره، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾، وهو الذبح، أو هو فرد من أفراد النسك، ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، أي من أمّته - ﷺ -، فآخر الآية في قوله: ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾ يدلّ على أن الخطاب له ولأمّته، والله ولي التوفيق.

الباب الثاني عشر

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله ـ تعالى ـ

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]

ينبغي الكلام على الاستعاذة أولاً.

لمّا كانت هذه الكلمة وسيلةَ المقرّبين، واعتصامَ الخائفين، وامتثالَ قول ربّ العالمين، حيث قال وهو أصدق القائلين: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل: ٩٨]، [ر،١٣٢/ب] لم تصلح الاستعاذة أن تكون بمخلوق.

ومعنى الاستعاذةِ بالله: أي أعوذ وأستجير به، وألتجىء إليه ـ سبحانه وتعالى ـ وحده من شرور خلقه في ديني ودنياي.

ويقال: لا عياذ ولا لياذ إلا بالله وحده. وألوذ بمعنى أعوذ. قال جرير بن الخطفَى:

كان الفرزدق إذ يعوذُ بخالهِ   مثلَ الذليلِ يعوذُ تحت القَرملِ[1]

والقرمل ـ بفتح القاف ـ ضرب من الشجر، وبكسرها: الصغير من الإبل، وهو في البيت من الأوّل بالفتح.

---

(١) ديوانه: ٢/ ٩٤٢.

ومن معنى الاستجارة قول جريرٍ أيضًا:

ولـو مِنـا فتـاتُكـم لغِـرنـا ... ولـو عـاذ الـزبيـرُ بنـا وفَيْنـا[1]

يقول: ولو استجار بنا الزبير بن العوّام ـ رضي الله عنه ـ حيث قُتل حول سَفَوان[2]، في بني مجاشع، وفَيْنا له بجواره، يعيّر بذلك قوم الفرزدق، حيث قُتل بين بيوتهم.

ومن أخصّ خلقه بالضرر[3] وابتغاء الغوائل لابن آدم: الشيطانِ الرجيمِ، ولهذا خصّ الله ـ تعالى ـ بأمره بالاستعاذة منه؛ لعظم ضرره بالإغواء لبني آدم.

فهو من العون والنصرة، قال الشاعر:

بنا عاذ عوف وهو بادي ذلة ... لديكم فلم يعدم ولاءً ولا نصرًا[4]

وقيل: معنى الاستعاذة في «أعوذ»: أي أستعين، والعوْذ والعياذ مصدران، كالصوم والصيام.

وقيل: مأخوذ من «العُوّذ» ـ بضم العين وتشديد الواو ـ، وهو نبت في أصل شجر يستتر بها، فعلى هذا: العَوْذ هو التستّر بستر الله ـ تعالى ـ، والتبوّؤ في ظل حمايته.

---

(1) ديوانه: ١/ ٣٥٥.

(2) بفتح السين والفاء: ماء على قدر مرحلة من البصرة. معجم البلدان: ٣/ ٢٢٥. وفي استعمال «حول» بمعنى «عند» نظر.

(3) هذا الكلام متصل بكلام سبق، أي: وأعوذ بالله من أخصّ خلقه...

(4) لم أعثر على قائله، والذي يدخل في معنى العون والنصرة الإعاذة، لا الاستعاذة.

وقيل: من اللحم الذي يلتصق بالعظم، يقال: «أطيب اللحم عوذه»، فعلى هذا: معناه الانقطاع من غير الله ـ تعالى ـ، واتصال القلب بالله ـ تعالى ـ.

وإذا قال القائل: «أعوذ بالله»، يكون إخبارًا عن فعله بالتعوّذ، وفي الحقيقة هو سؤال الله ـ سبحانه ـ أن يعاونه[1] بفضله، معناه: أعذني يا رب، مثل ما يقول القائل: «أستغفر الله»، أي «اغفر لي يا رب».

وصدور صيغة الأمر بنا[2] هو الامتثال بالأمر [ك،٦٤/أ] إرشادًا منه ـ سبحانه ـ لعباده بالالتجاء[3] إليه، والاستجارة به من شر خلقه، ولهذا قال ـ سبحانه ـ لرسوله محمد ـ ﷺ ـ آمرًا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾ السورتين.

فإذا جعلت الله ـ تعالى ـ بينك وبين من تخشى ضررَه كفاك، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وقال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾ [آل عمران: ١٠١].

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجنّ: ٦]).

يعني أن الإنس في الجاهلية يعوذون برجال من الجنّ؛ وذلك أنّ

---

(١) كذا، وهو غير لائق بهذا المقام؛ لأن المعاونة مفاعلة تقتضي لغةً أن يعين كل من المتعاونين الآخر، فكان عليه أن يقول: . .أن يعينه بفضله.

(٢) كذا في الأصول، ولعلها «منّا».

(٣) كتبت في الأصول هكذا: «بالالتجى».

الرجل إذا نزل في فضاء من الأرض كان يقول: [ر،١٣٢/أ] أعوذ بسيّد هذا الوادي من شر سفهائه. فيكون في زعمه في أمانهم تلك الليلة[١].

(﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾)، يعني زادوا الجنّ عظمة وتكبّرًا وعتوًّا، ويقولون: بلغ من سؤددنا أن الجن والإنس يستعيذون بنا، ويطلبون منّا الأمان من شر سفهائنا.

و«الرّهَق» في الأصل غشيان الشيء، ومنه: «رجل فيه رهق»، أي غشيان للمحارم، وارتكاب للطغيان والمفاسد، ويقال: رجل مرهّق، وفيه رهق، إذا كان يُظنّ به السوء، قال معْن بن أوس يمدح رجلاً:

كالكوكب الأزهرِ انشقت دُجُنّتُه ... في النّاس لا رهقٌ فيه ولا بَخَلُ[٢]

وقال أبو العالية والربيع بن أنس وزيد بن أسلم: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾: أي خوفًا[٣].

وقال ابن عباس: إثمًا، وقاله قتادة[٤].

والمعنى أنّ تعوّذ الإنس من الجنّ ليمنعوهم من أذاهم وشرّهم في أبدانهم وأموالهم زاد الإنسَ ذلك من الجنّ خوفًا وإرهابًا[٥] وذعرًا،

---

(١) رواه الطبراني عن خُريم بن فاتك: (٤/ ٢١٠)، وله فيه قصة عجيبة، وفي سندها كذاب، ورواه الطبري في تفسيره عن ابن عباس والحسن وطائفة من التابعين: ٢٩/ ١٠٨.

(٢) أنشده أبو عبيد في غريب الحديث: ٤/ ٣٧٠.

(٣) رواه الطبري: ٢٩/ ١٠٩.

(٤) رواه الطبري: ٢٩/ ١٠٩.

(٥) كذا، والصواب: رهبة.

حتى بقي أشدّاء الإنس أشدّ مخافة منهم، وأكثرَ تعوّذًا بهم، فزادوهم بذلك إثمًا، وإزدادت الجنّ عليهم بذلك جَراءة، وقالت الجن: نراهم يفْرَقون منّا كما نفْرَقُ منهم، فدنوا من الإنس، فأصابوهم بالخبل والجنون.

وروى ابن أبي حاتم بسند صحيح، عن كردم بن السائب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجت مع أبي إلى المدينة، وذلك أولَ ما ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حمَلاً من الغنم، فوثب الراعي فقال: يا عامرَ الوادي جارُك. فنادى منادٍ لا نراه، يقول: يا سِرحان أرسله. فأتى الحمَل يشتد حتّى دخل الغنم لم تصبه كدمة، وأنزل الله على رسوله بمكّة: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآية[1] [الجن: ٦].

والحمَل ولد الشاة، فيحتمل أنّ هذا الذئب [جنّيٌّ][2]، فعل ذلك ليضلّه ويهينَه، ويخرجَه عن دينه، ويخوّفَه بذلك، كما ذكر الله عنهم.

وفي الأثر: «حسبك من الرهق والجفاء ألا تعرف نبيّك»[3]، أي حسبك من الحمق والجهل ألا تعرف نبيّك.

قال الأصمعي: يقال: فلان يرهق في دينه، وذلك إذا أُثني عليه بقلّة ورع، ويقال: فلان فيه رهق، إذا كان فيه غِشيان للمحارم، واستخفاف

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره: ٤/ ٤٣٠، ط الفكر، ١٤٠١هـ. والحافظ ابن حجر في الإصابة: ٥/ ٥٧٧، ط البجاوي.

(٢) في الأصول: جنّيا.

(٣) رواه أبو يعلى (١١/ ٢٥) من قول أبي هريرة بحضرة النبي ـ ﷺ ـ، وقال محققه: إسناده ضعيف جدًا.

بدينه[1]. قال أبو طالب يذُمّ أبا جهل:

ومخـزومٌ أقـلّ القـوم حلمًـا   إذا طاشت من الرهق الحلومُ[2]

يقول: إذا طاشت من السفه والحمق الحلوم. قال أعشى بكر بن وائل: [ر، ١٣٢/ب]

من ليس فيه إذا قاولتَه رهقٌ   وليس فيه إذا عاشرته عسرُ[3]

وقال جرير:

يمضي إذا خِمْسُ الفلاةِ أرهقا[4]

يقول: يمضي ويسير في الفلاة بعد ما أخمس، وغشّاه العطش خمسة أيّام لا يشرب فيها الماء، يصفه بصبره على غشيان العطش له، مع مضيّه على تلك الحالة.

وقال إياس بن الحطيئة يصف ثعلبًا قد غشيه العُقاب دون جحره:

فـراح مـن حسّهـا يبـادرهـا   يلوذ بالصخر بعد ما رهقا[5]

---

(١) انظر «تهذيب اللغة» للأزهري: ٥/ ٣٩٨، ٤٠٠. و«غريب الحديث» للخطابي: ٢/ ١٧٣.

(٢) ذكره الخطابي في غريب الحديث: ٢/ ١٧٣.

(٣) ذكره الخطابي في الموضع السابق بلفظ «عاسرته» بالمهملة، وهو في ملحق ديوان الأعشى ص ٢٦٧ لأعشى باهلة، ولفظه:

وليس فيه إذا استنظرته عجل   وليس فيه إذا ياسرته عسر

(٤) ديوانه: ٢/ ٧٩٥.

(٥) لم أعثر عليه.

وفي «المعرب»[1] و«مجمع الغرائب»[2]: رهقتنا الصلاة: غشيتنا.

وقال أبو الحسن، علي بن عيسى النحوي[3]: أصل الرهَق ـ كما مر ـ الغشيان، يقال: رهقت القوم، أي غشيتهم ودنوت منهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس ٢٦]. وقاله الزجّاج[4].

وقال أبو النضر: رهقني: دنا منّي، وقاله ابن الأعرابي[5].

وفي «المحكم»: أرهقَنا الليل: دنا منّا[6].

قالوا: ويأتي الإرهاق بمعنى الإدراك.

وقيل إنّ ضمير المفعول للإنس، والمعنى: فزاد الجنُ الإنسَ غيّا، بأن أضلّوهم حتى استعاذوا بهم، فلمّا بعث الله محمدًا ـ ﷺ ـ أبدلهم عن الشرك بالتوحيد، وعن الاستعاذة بالجِنّي العاجز الاستعاذةَ بالقويّ القادر، الكافي لمن استجار به وتوكّل عليه من جميع شرور خلقه.

وقد أرشد الله ـ سبحانه ـ إلى الاستعاذة به في سورتي المعوذتين،

---

(١) «المعرب عما في الصحاح والمُغرب» لعبدالوهاب الزنجاني الخزرجي. انظر «كشف الظنون»: ٢/ ١٧٣٨، وانظر «المغرب» للمطرزي: ١/ ٣٥٥، (رهق).

(٢) «مجمع الغرائب في غريب الحديث» لعبدالغافر الفاسي ت ٥٢٩هـ. انظر «كشف الظنون»: ٢/ ١٦٠٢.

(٣) الرمّاني، المعتزلي، له نحو مائة مصنف، توفي سنة ٣٨٤هـ. انظر السير: ١٦/ ٥٣٣، ٥٣٤.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه»: ٣/ ١٥.

(٥) لم أر من ذكره عنهما من أصحاب المعاجم. وأظنه أراد «النضر بن شميل»؛ إذ لا يعرف في اللغويين أبو النضر.

(٦) المحكم لابن سيده: ٤/ ٨٩، (ر هـ ق).

وأخبر عن الجنّ بعجزهم بقوله في هذه السورة: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن: ١٢]، فعليك بمن لا يعجزه قوي ولا هارب، ودع عنك الضعيف العاجز، الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعا، فضلاً لغيره.

(وعن خولة بنت حكيم) ويقال: خويلة بنت حكيم بن أميّة بن حارثة السلميّة، من سُليم بن منصور، امرأةُ عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنهما ـ وهي التي وهبت نفسها للنبي ـ ﷺ ـ في قول بعضهم، وكانت امرأة صالحة، روى عنها سعد بن أبي وقّاص، أحد العشرة ـ رضي الله عنهم ـ، وحديثها هذا تفرّد به مسلم[١]، [ك،٦٥/ب] وهو في الموطأ[٢] والترمذي[٣]، ورواه عنها الإمام أحمد في مسنده من أربعة طرق[٤]، وهي التي قالت للنبي ـ ﷺ ـ: إن فتح الله عليك الطائف فأعطني حُليَّ باديةَ بنتِ غيلان. فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «أرأيت إن كان لم يؤذن في ثقيف»[٥].

(قالت: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «من نزل منزلاً) من المنازل، حضرًا أو سفرًا، (فقال: أعوذ) أي ألوذ وأستجير وألتجيء (بكلمات الله التامات) ـ وفي لفظ: التامّة ـ وصفها بالتمام لأنّها كلام الله، ليست مخلوقة؛ لأن ما من مخلوق إلا وفيه نقص، وأما كلماته

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٦٥٢، الذكر...، باب في التعوذ من سوء القضاء...، (٢٧٠٨).

(٢) الموطأ: ٢/ ٩٧٨، (١٧٦٣).

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٤٩٦، (١٧٦٣).

(٤) المسند: ٦/ ٣٧٧، ٣٧٨.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٨٤، وتاريخ الطبري: ٢/ ١٧٣.

التي هي كلامه ـ جل وعلا ـ [ر،١٣٣/أ] فهي تامّة كاملة، لا مدخل للنقص ولا للباطل فيها، وقد وصف كلامه ـ جل وعلا ـ بذلك بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وبقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ الآية [فصلت: ٤١، ٤٢]، فهو صفة من صفاته ـ سبحانه وبحمده ـ.

وفي هذا ردّ على الجهمية، القائلين بخلق القرآن، فإنّه لا يُستعاذ بمخلوق البتة.

(من شرّ ما خلق)، قال أبو البقاء: يجوز أن تكون (ما) بمعنى (الذي)، والعائد محذوف، وأن تكون مصدريّة، ويكون الخلق في هذا بمعنى المخلوق.

قال[١]: وإن شئت كان على بابه، أي من شر خلقه، أي ابتداعه[٢].

وهذا هو الصحيح إن شاء الله ـ تعالى ـ؛ لأن الخلق غير المخلوق عند جمهور السلف في الجملة، إلا أنّه قد يأتي بمعنى المخلوق، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١][٣].

قال: وقُرىء: ﴿من شرٍّ﴾ بالتنوين[٤]، و(ما) على هذا بدل من

---

(١) التبيان: ٢/ ١٣١٠.

(٢) إن أراد دخول الشر في فعل الله عز وجل الذي هو صفته فلا يصح، والسلف يفرقون بين الفعل القائم بذات الله وبين المفعول المنفصل عنه.

(٣) المؤلف هنا يصَوِّب القول الثاني، ثم يعلِّل للقول الأول.

(٤) وهي قراءة شاذة، نسبها ابن عطية إلى عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين إن =

«شر»، أو زائدة، ولا يجوز أن تكون نافية؛ لأن النافية لا يتقدّم عليها ما في حيّزها، فلذلك لم يجز أن يكون التقدير: ما خلق من شر. ثم هو فاسد في المعنى[1].

فخصّ عالم الخلق بالاستعاذة لانحصار الشرّ فيه، إمّا اختياريًّا، كالذي يصدر من فَسَقَةِ الجنّ والإنس، وإمّا أن يكون طبيعيًّا، كذوات السموم وغيرها من الدوابّ، وكذا الرياح وغيرها.

فهي استعاذة من شرور جميع المخلوقات التي صدرت عن تكوينه ـ تعالى ـ وتخليقه، فهي تحت ملكه وقهره وسلطانه، قد أحاط بها قدرةً وعلما، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يُجار عليه، فلا يخرج شيء من ذلك عن قدره وقضائه وملكه، فهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه.

فإذا قال القائلُ ما تقدّم بنيّة وإخلاص (لم يضرَّه شيء) من جميع الأشياء.

والشيء هو ما يجوز أن يُخبر عنه، وتصحّ الدلالة عليه.

(حتّى يرتحل من منزله ذلك) الذي قال ذلك فيه. و«حتى» هنا غائية.

(رواه مسلم) في صحيحه، وهو عند الإمام أحمد بمعناه وقال: قال يزيد بن هارون: «ثلاثًا إلا وُقي شر منزله ذلك حتى

= الله لم يخلق الشر، انظر المحرر الوجيز (١٦/ ٣٨٥)، ونسبها ابن خالويه في مختصره إلى عمرو بن فائد، (ص١٨٢)، وقال عنها العكبري في إعراب القراءات الشواذ (٢/ ٧٦٠): وهي قراءة ضعيفة جداً.

(١) التبيان: ٢/ ١٣١٠.

يظعن»[1]. ورواه أيضًا ابن ماجه[2].

قال المصنّف ـ رحمه الله تعالى ـ: (وقد استدل به أهل العلم على أنّ كلام الله غير مخلوق، وقالوا: وإن الاستعاذة بالمخلوق شرك)[3]، ورسول الله ـ ﷺ ـ أبعد الناس عن الشرك.

ولهذا ذكرنا في الحلف بغير الله أنّه لم يثبت عنه ـ ﷺ ـ، بل لم يرد أنّه حلف بغير الله في معرض اليمين، وإنّما ورد عنه وصحّ في مقام التعجّب، على عادة العرب، كقوله: «وأبيك لأُنبئنّك»[4]، وقوله: «أفلح وأبيه إن صدق»[5]، وحاشاه من أن يتلفّظ بنوع من الشرك وهو أبعد الناس عنه.

فتبيّن بهذا أنّه لا يستعاذ بمخلوق، [ر،١٣٤/ب] وإنّما الاستعاذة بالله، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العلا.

ولهذا احتج السلف كالإمام أحمد وغيره استدلالاً بهذا الحديث على أنّ كلام الله غير مخلوق؛ لأنّ الاستعاذة عبادة، ومن استعاذ بغير أسماء الله وصفاته فقد صرف شيئًا من عبادته لغيره ـ سبحانه ـ، وكلماته ـ تعالى ـ من صفاته[6].

---

(١) المسند: ٦/ ٤٠٩.

(٢) سنن ابن ماجه: ٢/ ١١٧٤، (٣٥٤٧).

(٣) كذا في جميع النسخ، وفي المطبوع من كتاب التوحيد ذكر من مسائل هذا الباب: (الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث؛ لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك).

(٤) رواه مسلم: ٢/ ٥٩١، الزكاة، باب (٣١)، حديث (١٠٣٢)، بلفظ: «وأبيكَ لتُنبَّأنَّه». وفي كتاب البر والصلة...، باب (١)، حديث (٢٥٤٨). «لتنبأنَّ».

(٥) رواه مسلم: ٤٩/١، الإيمان، باب (٢)، حديث (١١).

(٦) ذكره عنه الخطابي في معالم السنن: ٥/ ١٠٥، مطبوع مع السنن.

ولذلك نهى ـ ﷺ ـ عن الرُّقى التي فيها شرك، كالتي فيها الاستعاذة بالجنّ، ونهى العلماء ـ رحمهم الله ـ عن العزائم والأقسام التي قد يستعملها بعض الناس، كالّتي تتضمّن الشرك، بل نهوا عن كلّ ما لا يُعرف معناه، خشية أن يكون فيه [شرك][1]، بخلاف ما كان من الرَّقْي المشروع؛ فإنه جائز.

إلاّ أنّ عند الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: بعثت صفية إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بطعام، فلمّا رأيت الجارية أخذتني رِعدة حتى استقلّني أَفْكَلٌ[2]، فضربت القصعة فرميت بها. قالت: فنظر إليّ رسول الله ـ ﷺ ـ فعرفت الغضب في وجهه. فقلت: أعوذ برسول الله أن [يلعنَني][3] اليوم. قالت: فقال: أولى لك. قالت: قلت: ما كفّارته يا رسول الله؟. قال: طعام كطعام، وإناء كإنائها[4].

وذلك بمعنى الاستجارة، كما مر في بيت جرير بن الخطفى أول الباب.

---

(١) في الأصل: شركًا.

(٢) الأَفْكَلُ: الرعدة من برد أو خوف، ولا يُبنى منه فعل، النهاية: ١/ ٥٦.

(٣) في الأصل: يلعنّي. والمثبت من المسند.

(٤) المسند: ٦/ ٢٧٧. وقال في المجمع (٤/ ٣٢١): رجاله ثقات. وصحح الألباني بعض رواياته المختصرة في الإرواء برقم (١٥٢٣).

وروى مسلم في صحيحه: ٣/ ١٠٣٨، الإيمان، باب صحبة المماليك..، (١٦٥٩)، عن أبي مسعود البدري أن غلامه قال حين ضربه: أعوذ برسول الله، فتركه.. إلخ، وذلك بحضرة رسول الله ـ ﷺ ـ. وتوجيهه كتوجيه حديث عائشة الذي ذكره المؤلف، وهو أنه بمعنى الاستجارة بالشاهد على ما يقدر عليه، فلا يدخل في الاستعاذة الشركية المحذّر منها في هذا الباب؛ إذ هذه تكون بالغائب، أو بالشاهد فيما لا يدخل تحت قدرته عادة.

وقد روى اللالكائي السجستاني[1] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لمّا حكّم علي ـ رضي الله عنه ـ الحكمين قالت الخوارج: لِمَ حكّمت رجلين؟. قال: ما حكّمت مخلوقًا، إنّما حكّمت القرآن[2].

وكان ذلك بمحضر من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، قال: غير مخلوق[3].

وحكى تاج الدين الفزاري الشافعي عن سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار قال: سمعت مشيختنا منذ سبعين سنة يقولون: القرآن كلام الله، ليس بمخلوق[4]. وكان عمرو قد أدرك خلقًا من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

وقال عبدالله بن مبارك: سمعت الناس منذ [تسع] وأربعين سنة يقولون: من قال: القرآن مخلوق فامرأته طالق ثلاثًا بتةً، قيل: ولمَ ذلك؟. قال: لأن امرأته مسلمة، والمسلمة لا تكون تحت كافر[5].

وعن أبي نعيم الفضل بن دكين قال: أدركت ستمائة شيخ، كلّهم يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق[6].

---

(١) كذا في الأصول، ولم يذكر هذه النسبة أحد ممن ترجم له.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ٢/ ٢٢٨، (٣٧٠)، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات: ٣١٣.

(٣) رواه اللالكائي: ٢/ ٢١٧، (٣٥٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات: ٣١١.

(٤) رواه البيهقي في الشعب: ١/ ١٩٠، (١٦٩)، والاعتقاد: ١٠٥، واللالكائي: ٢/ ٢٣٥، (٣٨٣)، والحاكم في شعار أصحاب الحديث: ٢٩، (١٥).

(٥) رواه اللالكائي: ٢/ ٣٢٠، (٥١٥). وقد وقع في الأصل: «تسعة» بدل «تسع».

(٦) رواه اللالكائي: ٢/ ٢٤٤، (٤٠٦)، إلا أنّ فيه «ثلاثمائة» بدل «ستمائة».

ولمّا امتحن أبو نعيم قال: أدركت سبعمائة شيخ[1].

وقال يحيى بن خلف: كنت عند مالك بن أنس، فجاءه رجل فقال: ما تقول فيمن يقول: القرآن مخلوق. قال: هو عندي كافر فاقتلوه[2].

ومثلَه قال ابن المبارك، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجرّاح، وهشيم، وعلي بن عاصم، وحفص بن غياث، وعبدالرحمن [ر،١٣٤/أ] ابن مهدي[3].

[ك،٦٥/أ] وقال محمد بن خزيمة: سمعت الربيع يقول: لمّا كلّم الشافعي ـ رحمه الله ـ حفصًا الفرد قال حفص: القرآن مخلوق. فقال له الشافعي: كفرت بالله العظيم[4].

ولو ذهبت أعدّ أقوال السلف ـ رضي الله عنهم ـ في ذلك، وما رُوي عنهم، لما استوعبه مختصر.

ولمّا بُعث ـ ﷺ ـ وأهلُ الجاهليّة على ما ذَكر الله ـ سبحانه ـ من استعاذتهم بالجنّ، أبدلهم ـ ﷺ ـ عن ذلك بالتوحيد، وهداهم إلى الاستعاذة

---

(١) رواه اللالكائي: ٢/ ٢٤٠، (٣٩٥).

(٢) رواه ابن حبان في الثقات: ٩/ ٢٥٨، (١٦٣١٣)، إلا أن فيه: يحيى بن خليف، وروواه البيهقي في الكبرى: ١٠/ ٢٠٦، (٢٠٦٧٨). وهو فيها ابن خلف، وفي لسان الميزان ذكر يحيى بن خلف فقال: (ليس بثقة، أتى عن مالك بما لا يحتمل..! وأظنّه الذي بعده) ثم ذكر يحيى بن خليف فقال: منكر الحديث. اللسان: ٦/ ٣١٠، ٣١١.

(٣) انظر الثقات: ٩/ ٢٥٨. والسنن الكبرى للبيهقي: ١٠/ ٢٠٦.

(٤) رواه البيهقي في الكبرى: ١٠/ ٤٣، (١٩٦٩٠) واللالكائي: ٢/ ٢٥٢، ٣/ ٤٠٥. ومن طريق ابن خزيمة رواه ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري» ص ٣٣٩.

بالقوي العزيز، الذي ما من دابّة إلا هو آخذ بناصيتها.

فقد روى أبو داود عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله - ﷺ - إذا سافر وأقبل الليل قال: «يا أرض، ربّي وربّك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك، وشر ما يدبّ عليك، أعوذ بالله من الأسد والأسْود، ومن الحيّة والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد»[١].

وفي سنن أبي داود[٢] والترمذي[٣] والنسائي[٤] وغيرها بأسانيد صحيحة، عن عبدالله بن خُبيب - بضم الخاء المعجمة - رضي الله عنه - قال: خرجنا في ليلة مطر وظلمة شديدة نطلب النبي - ﷺ - ليصلي لنا، فأدركناه، فقال لي: قل. فلم أقل شيئًا. ثم قال لي: قل. فلم أقل شيئًا. ثم قال لي: قل. فلم أقل شيئًا. قلت يا رسول الله، ما أقول؟. قال: قل هو الله أحد والمعوّذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرّات، تكفيك من كل شيء. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقد ذكرنا في هذا الشرح في الحديث المرفوع قوله - ﷺ -: «ما تعوّذ متعوّذ بمثل المعوّذتين»[٥].

---

(١) سنن أبي داود: ٣/ ٣٥، الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا نزل المنزل، (٢٦٠٣)، إلا أن فيه: «من أسد وأسود» بلا «أل»، ورواه أحمد: ٣/ ١٢٤، وابن خزيمة في صحيحه: ٤/ ١٥٢، (٢٥٧٢)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦١٥، (١٦٣٧)، و٢/ ١١٠، (٢٤٨٧) وقال: صحيح الإسناد. وضعف محققو المسند إسناده: ١٠/ ٣٠١.

(٢) سنن أبي داود: ٤/ ٣٢٢، الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، (٥٠٨٢)، وهو في صحيح الجامع للألباني: ٢/ ٨١٢، (٤٤٠٦).

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٥٦٧، الدعوات، باب (١١٧)، حديث (٣٥٧٥).

(٤) المجتبى: ٨/ ٢٥٠، (٥٤٢٨).

(٥) رواه أبو داود: ٢/ ٧٣، (١٤٦٣) بمعناه.

ولهذا رقاه - ﷺ - جبرئيل وميكائيل - عليهما السلام - لما أخذ - بهما[1].

فهذه استعاذة إمام أهل التوحيد، خاتم المرسلين، محمد - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم إلى يوم الدين -، التي هي دائرة بين جلب الخير، ودفع الضر.

وعن القعقاع - هو ابن حكيم -، أنّ كعب الأحبار قال: لولا كلماتٌ أقولُهنّ لجعلتني يهودُ حماراً[2]. فقيل له: ما هنّ؟. قال: أعوذ بوجه الله العظيم، الذي ليس شيء أعظمَ منه، وبكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهنّ بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق وذرأ وبرأ. رواه الإمام مالك[3].

قال الخطّابي في قوله في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -: «ومن ساكن البلد»: هم الجنّ الذين هم سكان الأرض، والبلد من الأرض ما كان فيه مأوى للحيوان، وإن لم يكن فيه بناءٌ ومنازل، ويحتمل أن المراد بالوالد: إبليس، وبما ولد: الشياطين[4].

قال النووي: والأسود الشخص، وكل شخص يُسمّى أسود.

وفي صحيح البخاري عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - قال: كان

---

(١) انظر صحيح البخاري: ٣/ ١١٩٢، (٣٠٩٥)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٢، (٢١٨٩)، وليس فيهما التصريح بجبريل وميكال، لكن دل عليهما مجموع طرق القصة، كما في فتح الباري: ١٠/ ٢٢٨.

(٢) لا يقدر أحد غير الله أن يقلب حقائق الأشياء، كما جعل العصا حية تسعى، ولعل كعبًا أراد: لجعلتني يهود بمثابة الحمار.

(٣) الموطأ: ٢/ ٩٥١، (١٧٠٧).

(٤) معالم السنن: ٣/ ٤١٠، مع مختصر المنذري وتهذيب ابن القيم.

رسول الله ـ ﷺ ـ [ر،١٣٥/ب] يعوّذ الحسن والحسين: «أعيذكما بكلمات الله التامّة، من كلّ شيطان وهامّة، ومن كلّ عين لامّة»، ويقول ـ ﷺ ـ: «إنّ أباكما كان يعوّذ بهما إسماعيل وإسحاق ـ عليهما الصلاة والسلام ـ»[١].

قال العلماء[٢]: الهامّة ـ بتشديد الميم ـ هي كلّ ذات سمّ يقتل، كالحيّة وغيرها، والجميع هوامّ. قالوا: وقد يقع ذلك على ما يدبّ من الحيوان، وإن لم يقتل، كالحشرات، ومنه حديث كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ: «لعلّك تؤذيك هوامّ رأسك»[٣]، يعني القمل.

والعين اللامّة ـ بتشديد الميم ـ هي التي تصيب ما نظرت إليه بسوء، وتُلمّ به.

فقد حذّر ـ ﷺ ـ أمّته عمّا يضرّهم في الدنيا والآخرة، وهو الاستعاذة بغير الله، وأمرهم بما هو خير لهم في الدارين، وهو التوحيد لله ـ تعالى ـ، بأن لا يستعيذوا إلا به، والله ولي التوفيق.

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٣٣، الأنبياء، باب (١٢)، حديث (٣١٩١).

(٢) انظر شرح سنن ابن ماجه: ١/ ٢٥٢.

(٣) رواه البخاري: ٤/ ١٥٣٤، (٣٩٥٤) بنحوه، ومسلم: ٢/ ٧٠٥، (١٢٠١).

الباب الثالث عشر

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعوَ غيره

(وقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]).

الكلام أولاً على لفظ الاستغاثة، فالاستغاثة بالشخص: طلب الغوث منه، وهو المعونة والنصرة على التخلّي ممّا وقع فيه من الكربة والشدّة، ومنه الالتجاء والاحتراز بالشيء، كما قال زهير بن أبي سُلمى في قطاة قد كاد يدركها باز:

حتى استغاثت بماءٍ لا رشاءَ لهُ من الأباطحِ في حافاتِهِ البِرَكُ[1]

يقول: حتى لجِئت وتحصّنَت به عن الباز، كأنّها طلبت الغوث عنه بالماء؛ حتى لا يقدر عليها.

وقال محمد بن كعب الغنوي:

غياث لِعان لم يجد مَن يُغيثُه ومختبِطٍ يغشى الدخانَ غريبُ[2]

ولهذا قال ـ تعالى ـ عن كليمه موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ

---

(١) ديوانه: ص ١٧٥، بشرح ثعلب.

(٢) من قصيدته المشهورة في رثاء أخيه، انظر جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص٣٢٤، والشاعر هو كعب بن سعد الغنوي الشاعر المشهور، وتسميته محمداً هنا تبعاً لما في الجمهرة.

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، أي سأله أن يغيثه بالإعانة عليه، ولذلك عُدّي بـ(على)، وقُرِىء: (فاستعانه الذي من شيعته)(١).

ثم قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، أي مُعينًا، ؛ لأنّ الإسرائيلي كان كافرًا.

فظهر أنّ المستغيثَ مستنصر مستعينٌ بمن يطلب الغوث منه، وسائلٌ له أيضًا، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ [القصص: ١٨]، أي يسأله أن يغيثه كما أغاثه بالأمس، مشتق من الصراخ، كقوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، يعني بمغيثكم.

وسُمّي المطر غيثًا لأنّ الله ـ تعالى ـ يغيث به العباد والبلاد، قال جرير بن الخطفَى:

إنا لنرجوا إذا ما الغيث أخْلَفَنا ... من الخليفة ما نرجوا من المطرِ(٢)

[ر،١٣٥/أ] فتبيّن بهذا أنّ المستغيث [ك،٦٦/ب] سائل ومستعين ومستنصر في إغاثته.

إذا علمتَ ذلك تبيّن لك معنى قول الشيخ في مسائله: (أن عطف الدعاء على الاستغاثة) في الترجمة (من عطف العام على الخاص) وهو صحيح.

---

(١) ذكرها الآلوسي في روح المعاني: ٢٠/ ٥٣، ولم أجدها في كتب القراءات.
(٢) ديوانه: ١/ ٤١٤.

والدعاء هو مخّ العبادة، فعند أبي داود[1] والنسائي[2] وابن ماجه[3] والترمذي[4] وقال: حسن صحيح، عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الدعاء هو العبادة».

ورواه أيضًا الإمام أحمد[5]، وابن أبي شيبة[6]، والبخاري في الأدب المفرد[7]، وابن حبّان[8]، والحاكم وقال: صحيح الإسناد[9].

ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا[10].

وقال النووي: أسانيده صحيحه[11].

فوروده بضمير الفصل، والخبر المعرّف باللّام، دليل على الحصر، بأنّ العبادة ليست غير الدعاء.

---

(١) سنن أبي داود: ٢/ ٧٦، ٧٧، الصلاة، باب الدعاء، (١٤٧٩).

(٢) سنن النسائي الكبرى: ٦/ ٤٥٠، (١١٤٦٤).

(٣) سنن ابن ماجه: ٢/ ١٢٥٨، (٣٨٢٨).

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٢١١، (٢٩٦٩). وهو في صحيح الجامع للألباني: ١/ ٦٤١، (٣٤٠٧).

(٥) المسند: ٤/ ٢٦٧.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة: ٦/ ٢١، (٢٩١٦٧).

(٧) الأدب المفرد: ١/ ٢٤٩، (٧١٤).

(٨) صحيح ابن حبان: ٣/ ١٧٢، (٨٩٠).

(٩) المستدرك: ١/ ٦٦٧، (١٨٠٢).

(١٠) لم أجده في المطبوع.

(١١) الأذكار: ٣٤٥.

وقيل المعنى: «هو أعظم العبادة»، كقوله: «الحج عرفة»، أي ركنه الأكبر ومُعظمُه.

ولهذا، عند الترمذيّ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا ـ وقال: غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ـ: «الدعاء مخّ العبادة»[1]، أي خالصها.

وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص، فلا عبادة فوقه؛ لما فيه من الافتقار، وإظهار [التبرؤ][2] من الحول والقوّة، وتضمّنِ الثناء على الله ـ تعالى ـ، وإضافةِ القدرة والحول والقوّة والجود والكرم إليه ـ سبحانه ـ، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فرتّب ـ سبحانه ـ عليه الإجابة ترتُّبَ الجزاء على الشرط، فهو إذًا من أعظم الوسائل إليه ـ جل وعلا ـ، وأجلُّها لداعِيهِ قربةً ووسيلة.

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ [يونس: ١٠٦]) أي إنْ دعوتَه (﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾) إنْ خذلتَه، فلا تدْعُهُ إلٰهًا كما يدعوه المشركون إلٰها.

وقيل: لا تدْعُهُ كما يُدعى الإلٰه، وخالِفِ المشركين في جميع ذلك.

(﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾) أي فإن دعوته إلٰها، (﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾)، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، ومن أظلم ممن جعل عبادة الله لغيره؟!

---

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٤٥٦، (٣٣٧١). وهو في ضعيف الجامع: ٤٤١، (٣٠٠٣).

(٢) كتبت في الأصل: التبرّي.

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧﴾ [العنكبوت: ١٧]).

لمّا ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، يعني وحّدوه واتّقوه، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦﴾ من عبادة الأوثان، قال منبّهًا لهم: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ يعني أصنامًا، ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ بأن [تعملوها][1] بأيديكم، ثم تعبدونها وتجعلونها آلهة من دون الله، (إفكًا): كذبا.

ثمّ نبّههم أيضًا محتجًّا عليهم ببطلانها فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهم [ر،١٣٦/ب] الأصنام، وكل ما يُعبد من دونه ـ سبحانه ـ، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي لا يقدرون أن يرزقوكم، فإذا كانوا كذلك، فكيف تعبدونهم من دون الله، وأنتم تعلمون ذلك، وتقرّون به؟!.

ثم أرشدهم إلى من هو القادر على كل شيء، أن يبتغوا عنده الرزق، حتى يعلموا أنّه المعبود وحده، كما هو الرازق وحده.

﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ في النِّعم، متوسلين إلى مطالبكم بعبادته ـ سبحانه ـ، مستعدّين للقائه؛ فإن مصيركم إليه، و﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧﴾ بعد الممات، وقرىء: (تَرجِعون) ـ بفتح التاء ـ[2].

فأرشد ـ سبحانه ـ في هذه الآية إلى الإخلاص لله، وأنّه أعظم الوسائل في ابتغاء الرزق عنده، ولا سيّما رزقُ القلوب، الذي هو حياة الأرواح، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى

---

(١) في الأصل: يعملونها.

(٢) لم أجد من ذكر هذه القراءة.

ﭐلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فمن أحس بتقصير في قوله أو عمله أو حاله أو رزقه، أو تقلَّبَ قلبُه فعليه بالتوحيد بالإخلاص، والاستغفار ممّا سلف، ففيهما الشفاء، إذا كانا بصدق قلب؛ لأنّ ذلك من الشكر، فإن التوبة من أعظم الحسنات، والحسنات كلّها مشروط فيها الإخلاص، وموافقةُ الأمر باتباع الرسول ـ ﷺ ـ.

وكذلك إذا وجد العبد تقصيرًا في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران، منه أو عليه، فعليه بالدعاء لهم، والاستغفار والإخلاص، ليستجلب من الله بذلك وُدَّهم منه وله.

وقد قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ للنبي ـ ﷺ ـ: إنّ لي لسانًا ذربًا على أهلي. فقال: «أين أنت من الاستغفار؟، إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرّة»[1].

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]).

---

(١) رواه بنحوه أحمد: ٥/ ٣٩٤، والدارمي: ٢/ ٣٩١ (٢٧٢٣)، والنسائي في الكبرى: ٦/ ١١٧، (١٠٢٨)، وابن ماجه: ٢/ ١٢٥٤، (٣٨١٧)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٩١، (١٨٨١)، و٢/ ٤٩٦، (٣٧٠٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه هكذا. وابن أبي شيبة: ٦/ ٥٦، (٢٩٤٤١)، و٧/ ١٧٣، (٣٥٠٧٨)، والبزار: ٧/ ٣٧٢، (٢٩٧٠)، والطبراني في الأوسط: ٣/ ٢٨٨، (٣١٧٣)، والطيالسي: ١/ ٥٧ (٤٢٧)، كلهم قالوا: مائة مرة، إلا في رواية ابن ماجه: سبعين مرة. والجملة الأخيرة منه رواها البخاري عن أبي هريرة: ٥/ ٢٣٢٤، (٥٩٤٨).

المعنى: لا أحدَ أضلُّ من المشركين، حيث تركوا عبادة السميع المجيب، القادرِ الخبير، وعدلوا إلى عبادة من لا يستجيبُ لعابديه لو سمع دعاءَهم، فضلاً أن يعلم سرائرَهم، ويراعيَ مصالحَهم، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ما دامت الدنيا، ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾، يعني عن عبادتهم؛ لأنّهم إمّا جمادات، وإما عباد مسخّرون، مشتغلون بأحوالهم.

ثم بيّن إجابتهم وحالهم يوم القيامة فقال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾، أي صارت الآلهة أعداءً لمن عبدهم، يضرّونهم ولا ينفعونهم، أي جاحدين متبرئين منهم.

وقيل الضمير للعابدين، فهو كقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

(وقوله ـ تعالى ـ: [ر،١٣٦/أ] [ك،٦٦/أ] ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل: ٦٢].

المضطر: هو الذي قد أحوجه شدّة ما به من مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الأيّام إلى الالتجاء إلى الله ـ تعالى ـ، مشتق من الاضطرار، واللام فيه للجنس لا للاستغراق؛ لأنّه لا يلزم إجابةُ كلِّ مضطر؛ لوجود مانع من جهة الداعي.

ثم قال: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، أي ويدفع عن الإنسان ما يسوؤه.

فعُلم من قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ الآية، أنّ للعبد حالتين: اختياريةً، وضروريةً، وكل واحدة أيضًا محلٌّ للعبادة، ومن عبادات الرجاء: الشكر، ومن عبادات الضرورة الصبر، وكل واحد أيضًا

محل للدعاء، فالرجاء محل دعاء العافية، والضرورة محل دعاء الكشف، وأكثر ما ينفع الدعاءُ في الضرورة بما يقدمه من الرجاء، والكل مرجوٌّ ومطلوب من الله ـ تعالى ـ.

فعند أبي نعيم عن وهيب بن الورد المكّي قال: بلغَنا أن عطاءً قال: جاءني طاووس اليماني بكلام محبّر من القول، فقال: يا عطاء، إيّاك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك أبوابه، وجعل دونه حُجّابه، وعليك بمن أمرك أن تسأله، ووعدك بالإجابة[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، عن يوسف بن صهيب، عن زيد العمي، عن ابن عمر. قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من أراد أن تُستجاب دعوته، وأن تكشف كربته، فليفرّج عن مُعْسر»[2]. تفرّد به الإمام أحمد[3].

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾، أي سكان الأرض بعد هلاك أهلها، تتصرّفون فيها.

﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الذي خصّكم بهذه النعم الخاصة؟، ﴿قَلِيلًا مَّا

---

(١) «حلية الأولياء»: ٨/ ١٤١.

(٢) المسند: ٢/ ٢٣. وقال في المجمع (٤/ ١٣٣): رجال أحمد ثقات.

(٣) بل رواه أيضًا عبد بن حميد في مسنده: ١/ ٢٦٢، (٨٢٦)، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج»: ٨٨، (١٠١)، ورواه أبو يعلى في مسنده: ١٠/ ٧٨، (٥٧١٣)، إلا أنه قال: فلييسر على معسر. وعنه ابن حبان في «المجروحين»: ١/ ٣٠٩، إلا أنه قال: عن أنس بن مالك، مع أن أبا يعلى كغيره رواه عن ابن عمر. وقال ابن حبان عن زيد العمي: يروي عن أنس أشياء موضوعة لا أصل لها، حتى سبق إلى القلب أنه المتعمد لها.. وهو عندي لا يجوز الاحتجاج بخبره...

﴿تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ أي قليلاً ما تذكّركم، والمراد بالقلّة العدَم، أو الحقارة المزيحة للفائدة؛ لأن الكلام مع المشركين، وهم لا يتذكّرون تذكّرًا معتدًّا به، يرشدهم إلى الحق، ويهديهم إلى صراط الله المستقيم.

فوقف الله ـ سبحانه ـ المشركين في هذه الآية وما بعدها من الآيات على المعاني التي تَبيّنَ لكل عاقل أنّه لا مدخل لصنم ولا لوثن ولا لكل ما يُعبد من دونه ـ تعالى ـ فيها.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عبيد الله بن أبي صالح قال: دخل عليَّ طاووس يعودُني، فقلت له: ادع الله لي يا أبا عبدالرحمن. فقال: ادع لنفسك؛ فإنّه يجيب المضطر إذا دعاه[١].

وقال وهب بن منبّه: قرأت في الكتاب الأوّل أنّ الله يقول: بعزّتي إن مَن اعتصم بي فكادته السموات بمن فيهنّ والأرض بمن فيهنّ أني أجعل له من بين ذلك فرجًا ومخرجا، ومن لم يعتصم بي فإنّي أخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء[٢]، فأكِلُه إلى نفسه[٣].

وقال الإمام أحمد في مسنده: حدّثنا عفّان، حدّثنا وهيب، حدثنا خالد الحذّاء، عن أبي تميمة الهجيمي، عن رجل من بلهجيم قال: قلت: يا رسول الله، إلى ما تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده، الذي إن مسك ضرٌّ فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللت ضالّة بأرض قفر فدعوته ردّ عليك، وإن أصابك سَنة فدعوته أنبت لك». قال: قلت:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٩/ ٢٩٠٩، (١٦٥١٩).
(٢) في الأصل: الهوى. والتصويب من تفسير ابن أبي حاتم.
(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٩/ ٢٩١٠، (١٦٥٢٠).

أوصني. قال: «لا تسبّنّ أحدًا، ولا تزهدنّ في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهُك، ولو أن تُفرغ من دلوك في إناء المستقي، واتّزر إلى نصف الساق، [ر،١٣٧/ب] فإن أبيت فإلى الكعبين، وإيّاك وإسبال الإزار؛ فإنّ إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة»[١].

ورواه الإمام أحمد من وجه آخر، فذكر اسم الصحابي فقال: حدّثنا عفان حدثنا حمّاد بن سلمة، حدّثنا يونس هو ابن عبيد، حدّثنا عبيدة الهجيمي، عن أبيه، عن أبي تميمة الهجيمي، عن جابر بن سليم الهجيمي قال: أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ وهو محتبٍ بشملة، وقد وقع هدبها على قدميه، فقلت: أيّكم محمد ـ أو رسول الله ـ، فأومأ بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله، أنا من أهل البادية، وفيّ جفاؤهم، فأوصني، قال: لا تحقرنّ من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك ووجهُك منبسط، ولو أن تُفرغ من دلوك في إناء المستقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك، فلا تشتمْه بما تعلمُ فيه؛ فإنّه يكون لك أجرُه، وعليه وزرُه، وإيّاك وإسبالَ الإزار؛ فإنّ إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحبّ المخيلة، ولا تسبنّ أحدًا». قال: فما سببت بعده أحدًا، ولا شاةً ولا بعيرًا[٢].

---

(١) المسند: ٥/ ٣٧٧، وقال في المجمع (٨/ ٧٢): فيه الحكم بن فضيل، وثقة أبو داود وغيره، وضعفه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح. ورواه البيهقي في الشعب: ٥/ ١٤٨، (٦١٣٧).

(٢) المسند: ٥/ ٦٣. ورواه ابن حبان في صحيحه: ٢/ ٢٧٩، (٥٢١).

وقد روى أبو داود[1] والنسائي[2] طرفًا منه.

«وأبو تميمة»: قيل اسمه «طريف بن مجالد الهجيمي»، وقيل غير ذلك، وهو تابعي، قال في «أُسْد الغابة في أسماء الصحابة»: ووهم من عدّه من الصحابة[3].

وروى عنه ابن عبدالبر بإسناده إلى بكر بن عبدالله المزني قال: قالوا لأبي تميمة: كيف أنت يا أبا تميمة؟. قال: بين نعمتين: ذنبٍ مستور، وثناءٍ من الناس[4].

وهو بفتح التاء المثنّاة من فوق، بصري ثقة، مشهور بكنيته، مات سنة سبع وتسعين، أو قبلها، أو بعدها، على اختلاف في ذلك، آكدُه ما ذكرنا.

وجابر بن سليم: صحابي، اختلف في اسمه: هل هو جابر بن سليم، أو سليم بن جابر؟. وهو عند أبي داود كما هو عند الإمام أحمد: جابر ابن سليم، وكنّاه أبو داود بأبي جَرِي.

وروى أصل حديثه أبو نعيم، وابن منده[5]، وأبو عمر بن عبدالبر[6].

---

(١) سنن أبي داود: ٤/ ٥٦، (٤٠٨٤). وصححه الألباني كما في الصحيحة برقم (١١٠٩) و(١٣٥٢).

(٢) السنن الكبرى: ٥/ ٤٨٦، (٩٦٩١).

(٣) «أسد الغابة» لابن الأثير: (٥/ ٤١).

(٤) «الاستيعاب»: ٤/ ١٦١٦، ط البجاوي، ١٤١٢هـ. ورواه الإمام أحمد في الزهد: ٢٥٧، والبيهقي في الشعب: ٤/ ١٢٢، (٤٥١٥)، والزهد الكبير: ٢/ ٢٢٣، (٥٧٧).

(٥) عزاه إليهما ابن الأثير في أسد الغابة (١/ ٣٠٣).

(٦) الاستيعاب: ١/ ٢٢٥، ٢٢٦.

وعند [ك،٦٧/ب] ابن أبي الدنيا قال: وقال لقمان لابنه: يا بني، إذا افتقرت فافزع إلى ربّك، وادعه، وتضرّع إليه، واسأله من فضله؛ فإنّ خزائنه ملأى، ولا تسأل النّاس فتهون عليهم، ولا يردّوا إليك شيئًا[١].

قال: وخرجت رابعة العدويّة يومًا إلى المقبرة، فاستقبلها رجل فقال لها: ادعي الله لي. فقالت: رحمك الله، أطع الله وادعه؛ فإنّه يجيب دعوة المضطر إذا دعاه[٢].

قال: وكتب بعض بني أميّة إلى أبي حازم يعزم عليه أن يرفع حوائجه إليه، فكتب أبو حازم: أما بعد، فقد جاءني كتابك تعزم علي أن أرفع إليك حوائجي!، هيهات، رفعت حوائجي إلى من لا تُقتصر الحوائج دونه، فما أعطاني منها قبلت، وما أمسكه عني منها رضيت[٣].

وكتب ابن سمّاك[٤] إلى أخٍ [ر،١٣٧/أ] له: أمّا بعد، فلا تكن لأحد غيرِ الله عبدًا ما وجدت من العبوديّة بُدًّا.

(وروى) سليمان بن أحمد بن أيوب الشامي، نزيل أصبهان، الذي انتهى إليه علوّ الإسناد في الدنيا، وعاش مائة سنة، وولد بعكا في صفر، سنة مائتين وأربعين، وسمع في سنة ثلاث وسبعين بمدائن الشام، ومات بذي القَعدة، لثلاث بقين منها، سنة ثلاثمائة وأربعين سنة[٥]، هذا هو

---

(١) كتاب «إصلاح المال» ص ٣٥٩و رقم (٤٥٨).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «صفة الصفوة»: ٤/ ٢٨، ولم أهتد إليه عند ابن أبي الدنيا.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية: ٣/ ٢٣٧. وابن السني في «القناعة»: ص ٤٣.

(٤) هو أبو العباس، محمد بن صبيح العجلي، مولاهم الكوفي، الزاهد الواعظ، توفي سنة ١٨٣هـ. انظر السير: ٨/ ٣٢٨.

(٥) كذا في الأصل.

الصحيح من مولده وموته. وقيل مات سنة ستين وثلاثمائة وأياما[1]، فيما قال الذهبي[2]، والخلاف في مولده.

وكنيته: «أبو القاسم»، وهو اللخمي، أحد الحفّاظ الرحّالين المعمّرين، المعروف بـ(الطبراني)، نسبة إلى قرية يقال لها: «طبرا»، بخلاف «طبرية» من قرى دمشق؛ فالنسبة إليها: «طبري»[3].

روى هذا الحديث الآتي في معجمه الكبير[4] في أسماء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: (إنّه كان في زمن النبي ـ ﷺ ـ) رجل (منافق).

النفاق نفاقان: أحدهما اعتقادي، وهو الذي يُظهر صاحبه الإيمان ويبطن الكفر، وهو المراد هنا، وأهل هذا هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

والثاني: النفاق العملي، وهو من الكبائر، وذلك في قوله ـ ﷺ ـ: «أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة ـ وفي لفظ: خلّة ـ منهنّ كانت فيه خلّة من النفاق حتى يدعها»[5].

---

(١) كذا في الأصل.

(٢) انظر «تذكرة الحفاظ»: ٣/ ٩١٧.

(٣) الذي في الأنساب للسمعاني (٨/١٩٨) أن الطبري نسبة إلى طبرية مدينة في الأردن، وأن أبا القاسم ينسب إليها، وبها ولد سنة ٢٦٠هـ، وأما نسبة الطبري فهي إلى طبرستان، وإليها ينسب ابن جرير، الأنساب (٨/ ٤٠٤).

(٤) وليس في المطبوع منه، وقال في المجمع (١٠/ ١٥٩): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث. ا.هـ. ورواه أحمد بلفظ: «لا يقام لي، إنما يقام لله». المسند: ٥/ ٣١٧. ورواه أيضًا ابن سعد في الطبقات: ١/ ٣٨٧، وفيه راو لم يسمّ.

(٥) رواه البخاري: ١/ ٢١، الإيمان، باب علامة المنافق، (٣٤)، ومسلم: ١/ ٧٧، =

وفي رواية عنه ـ ﷺ ـ: «آية المنافق ثلاث» الحديث، وهو في الصحيح[1].

قال النووي ـ رحمه الله تعالى ـ: وقد عدّ هذا الحديث جماعة من العلماء ـ رحمهم الله ـ مشكلاً، من حيث أنّ هذه الخصال توجد في المسلم المصدّق، الذي ليس فيه شك[2].

قال: وقد أجمع العلماء ـ رحمهم الله ـ على أن من كان مصدّقًا بقلبه ولسانه، وفعل هذه الخصال، لا يُحكم عليه بكفر، ولا هو منافق يُخلّد في النّار؛ فإن إخوة يوسف ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جمعوا هذه الخصال، وكذا وُجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كلّه[3].

وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله إشكال، ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار: أنّ معناه أنّ هذه الخصال خصالُ نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال، ومتخلّق بأخلاقهم؛ فإنّ النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال[4].

أو أن يكون نفاقه في حق من حدّثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنّه منافق في الإسلام، فيظهره وهو يبطن الكفر،

الإيمان، باب بيان خصال المافق، (٥٨).

(١) رواه البخاري في الباب السابق، برقم (٣٣)، ومسلم في الباب السابق برقم (٥٩).

(٢) شرح مسلم: ٢/ ٤٦.

(٣) شرح مسلم: ٢/ ٤٦.

(٤) شرح مسلم: ٢/ ٤٧.

ولم يُرد النبي ـ ﷺ ـ بهذا أنّه منافق نفاق الكفّار المخلّدين في الدرك الأسفل من النّار[1].

قالوا: ومعنى [ر،١٣٨/ب] قوله: «كان منافقًا خالصًا» أي شديد الشبه بالمنافقين، بسبب هذه الخصال[2].

قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه، فأمّا من ندر منه ذلك فليس داخلاً فيه، فهذا هو المختار في معنى الحديث[3]. وهكذا قال ابن مفلح[4].

وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذي ـ رضي الله عنه ـ معناه عن العلماء مُطلِقًا، فقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل[5].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: والذي أقول: إن ما كان من النفاق في الأفعال لا يكفّر، وذلك فيما سأله إسحاق بن إبراهيم عمّن لا يخاف النفاق على نفسه، فقال أحمد: ومن يأمن النفاق، فبيّن أنه يكون في غالب حال الإنسان، ولا يدلّ على كفره[6].

قال: وفي معنى النفاق: الرياء للناس[7].

---

(١) شرح مسلم: ٢/ ٤٧.

(٢) الموضع السابق.

(٣) الموضع السابق.

(٤) انظر «الفروع»: ٦/ ١٦٠.

(٥) سنن الترمذي: ٥/ ١٩.

(٦) نقله عنه صاحب «الفروع»: ٦/ ١٥٩.

(٧) «الفروع»: ٦/ ١٥٩.

قال في الفروع: ومراده: ولا يكفر به، فكذا هذا النفاق، أو أنّه نفاق فهو مثله[1].

ولأحمد من حديث عقبة وعبدالله بن عمرو: «أكثر منافقي أمّتي قرّاؤها»[2]، والمراد الرياء[3].

قال: ولعل مراد من قال: كلّه كفر، غير ناقل عن الملّة، كقول أحمد: كفر دون كفر، وإلاّ فضعيف جدًا[4].

وظاهر كلام الأصحاب: لا يكفر إلا منافق أسر الكفر[5].

وقال جماعة من العلماء: المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي ـ ﷺ ـ، فحدّثوا بإيمانهم فكذبوا، وائتمنوا على دينهم فخافوا، ووعدوا في أمر الدين ونصره فأخلفوا، وفجروا في خصوماتهم[6].

وهذا قول سعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، ورجع إليه الحسن البصري، بعد أن كان على خلافه، وهو مروي عن ابن عباس، وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ[7].

---

(١) «الفروع»: ٦/ ١٥٩.

(٢) المسند: ٤/ ١٥١، ٢/ ١٧٥، ورواه الطبراني في الكبير: ١٧/ ١٧٩، ٣٠٥، والبيهقي في الشعب: ٥/ ٣٦٢، (٦٩٥٨) عن شرحبيل بن يزيد. قال في المجمع (٦/ ٢٢٩): وأحد أسانيد أحمد ثقات أثبات. وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٧٥٠).

(٣) «الفروع»: ٦/ ١٦٠.

(٤) الموضع السابق.

(٥) الموضع السابق.

(٦) «شرح مسلم» للنووي: ٢/ ٤٧.

(٧) الموضع السابق.

قال النووي: ورويناه أيضًا عن النبي - ﷺ -[1].

قال القاضي عياض: وإليه مال كثير من أئمتنا[2].

قلت: وهذا والله أعلم سبب الحديث، وإلا فهو عامٌّ حكمه على ما ذكر النووي - رحمه الله تعالى - والترمذي وغيرهما من العلماء.

وحكى أبو سليمان الخطّابي [ك،٦٧/أ] قولاً آخر: أنّ معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يخاف عليه أن يفضي به إلى حقيقة النفاق[3].

وحكاه أيضًا صاحب الفروع من أصحابنا[4].

قالوا: وأمّا قوله في الرواية الأولى: «أربع من كنّ فيه كان منافقًا»، وفي الرواية الأخرى: «آية المنافق ثلاثة»، فلا منافاة بينهما؛ فإنّ الشيء الواحد قد يكون له علامات، كلّ واحد منها تحصل بها صفة، ثم قد تكون تلك العلامة شيئًا واحدًا، وقد [ر،١٣٨/أ] تكون أشياء[5].

إذا تقرّر الفرق بين النفاق العملي من الاعتقادي، فاعلم أنّ هذه الخصال أخص من يتصف بها أهل النفاق الاعتقادي، نعوذ بالله - تعالى - منه، وإن كانت إذا وجدت فيمن كان مصدّقًا بقلبه ولسانه، عاملاً بأركانه،

---

(١) الموضع السابق.

(٢) انظر السير: ٨/ ٣٢٨. إكمال المعلم: ١/ ٣١٥.

(٣) ذكره عنه النووي في «شرح مسلم»: ٢/ ٤٧.

(٤) انظر السير: ٨/ ٣٢٨. «الفروع»: ٦/ ١٦١، وهو ينقل عن النووي.

(٥) شرح مسلم: ٢/ ٤٨.

تُعد فيه من النفاق العملي.

وقد استقر في العقول السليمة، والفطر المستقيمة، أنّ النفاق ـ خصوصًا الأكبر ـ أسمج القبائح؛ فإنّه كفر مموّه باستهزاء وخداع مع ربّ الأرباب، وعالم الأسرار، ولهذا قال ـ تعالى ـ في شأنه وأهله ما قال، وشنّع عليهم بالخصال الشنيعة، ومثّلهم بالأمثال الفظيعة، وجعلهم شر الكفّار، وأعدّ لهم الدرك الأسفل من النار، جزاء لمخادعتهم الباطنة في هذه الدار، ولهذا بيّن الراوي في هذه القصّة أن من صفتهم أذى المؤمنين، فقال: (يؤذي المؤمنين). إذ أذى المؤمنين من صفاتهم اللازمة، نعوذ بالله السميع العليم من الاتصاف بذلك.

(فقال بعضهم) أي بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وفي رواية له: فقال أبوبكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: (قوموا بنا نستغيث ـ وفي لفظ: لنستغيث ـ برسول الله ـ ﷺ ـ من هذا المنافق. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ، وفي لفظ: النبي ـ ﷺ ـ: «إنّه لا يُستغاث بي، وإنّما يستغاث بالله ـ عز وجل ـ»).

قد مرّ تعريف الاستغاثة مستوفى، ولله الحمد والمنّة.

وهذا تأدّب منه ـ ﷺ ـ مع ربّه ـ تبارك وتعالى ـ؛ إذ حقيقة الاستغاثة ـ كما مرّ ـ طلب الاستنصار والمعونة، ومنه قوله ـ تعالى ـ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يطلبوا منه، ولم يستغيثوا به إلا في شيء يقدر عليه، ويليق بمنصبه، وقد استغاث الإسرائيلي كليمَ الرحمن موسى بنَ عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ في أقلّ من ذلك فأغاثه.

وعند ابن عساكر وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إنّ الله ـ تعالى ـ يحبّ إغاثة اللهفان»[1].

فنفيه ـ ﷺ ـ لفظَ الاستغاثة في شيء يقدر عليه، لائقاً بمنصبه، إنّما هو حمايةٌ لجناب التوحيد، وإلاّ فقد علمنا بالاضطرار أنّه ـ ﷺ ـ إذا طُلب منه ما يليق بمنصبه في حياته، بأنّه لا نزاع في جوازه؛ فإنّ الطلب منه في حياته، والاستغاثةَ به في حياته فيما يقدر عليه، لم ينازع في جوازه أحد من العلماء ـ رحمهم الله ـ، كما ذكر الله عن كليمه ـ عليه السلام ـ.

ولكنّه نبّه بهذا ـ ﷺ ـ أمّته، حمايةً منه للتوحيد؛ حتى يُعرف أنّ الشيء إذا نفى النبي ـ ﷺ ـ لفظه على وجه التأدّب مع مرسله ـ تبارك وتعالى ـ [ر،١٣٩/ب] مع جوازه في حياته، بحيث يقدر عليه، فمع عدم قدرته عليه بعد وفاته أولى وأحرى؛ فإنّ ما لا يقدر عليه إلا الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يُطلب البتة إلا منه، وطلبه من غيره حينئذ شرك.

فبهذا لا يمكن أحدًا أن يقول: إنّ النبي ـ ﷺ ـ شرَع لأمّته أن يستغيثوا بميّت، لا نبيٍ، ولا غيرِه، لا في دفع مضرّة، ولا جلبِ منفعة، لا بهذا اللفظ، ولا معناه، بل لم يشرع لهم أن يدعوا ميّتًا، ولا يسألوه أصلاً، ولا يستغيثوا به، ولا يدعوا إلى ذلك، ولا أن يستجيروا به.

وأمّا الحديث الذي أورده ابن القيّم ـ رحمه الله تعالى ـ، وعقد له

---

(١) «تاريخ دمشق»: ٥٢/ ١٥٩، ١٦٠، وروى نحوه أبو يعلى: ٧/ ٢٧٥، (٤٢٩٦). والبيهقي في الشعب: ٢/ ٢٥٤، (١٦٦٤)، و٦/ ١١٦، (٧٦٥٧). ورواية ابن عساكر ضعفها الألباني في «ضعيف الجامع»: ٢٤٥، (١٦٩٨).

فصلاً في «الكلم الطيّب»[1]، وكذا النووي في «الأذكار»[2]، وغيرهما، وهو ما رواه الحاكم أبو عبدالله في صحيحه[3]، وأبو عوانة الإسفرائيني[4]، والبزّار[5]، وابن السنّي[6]، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، أنّ النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا انفلتت دابّة أحدكم بأرض فلاة، [فليناد][7]: يا عباد الله احبسوا، ثلاثًا؛ فإنّ لله حاضرًا سيجيبه»[8].

---

(١) يريد كتاب «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب» لابن القيم: ١٨٥، الفصل (٣٧). وكان عليه أن يذكره باسم «الوابل الصيب»، حتى لا يلتبس بكتاب «الكلم الطيب» لابن تيمية، ولعله وهم.

(٢) الأذكار: ٢٠١، باب ما يقول إذا انفلتت دابته. قال النووي: حكى لي بعض شيوخنا الكبار في العلم، أنه انفلتت له دابة، أظنها بغلة، وكان يعرف هذا الحديث، فقاله، فحبسها الله عليهم في الحال. وكنت أنا مرة مع جماعة، فانفلتت منها بهيمة وعجزوا عنها، فقلته، فوقفت في الحال بغير سبب سوى هذا الكلام. ا. هـ.

(٣) لم أعثر عليه في المستدرك.

(٤) لم أعثر عليه في المطبوع منه بطبعتيه عند دار المعرفة.

(٥) لم أجد فيه حديث ابن مسعود هذا، لكن في «كشف الأستار» (٤/ ٣٤) برقم (٣١٢٨) عن ابن عباس مرفوعًا: «إن لله ملائكة في الأرض، سوى الحفظة، يكتبون ما يسقط من ورق الشجر، فإذا أصاب أحدكم عرجة بأرض فلاة فليناد: أعينوا عباد الله». قال البزار: لا نعلمه يُروى عن النبي ـ ﷺ ـ بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد. ا. هـ. وقال في المجمع (١٠/ ١٣٢) رواه الطبراني، ورجاله ثقات. ورواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٦/ ١٠٣، (٢٩٨١٩)، والبيهقي في الشعب: ١/ ١٨٣، (١٦٧) لكن موقوفًا على ابن عباس.

(٦) «عمل اليوم والليلة»: برقم (٥٠٨).

(٧) في الأصل: فلينادي.

(٨) ورواه أبو يعلى في مسنده: ٩/ ١٧٧، (٥٢٦٩)، والطبراني في الكبير: ١٠/ ٢١٧، بهذا اللفظ. وضعفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم(٦٥٥).

ورواه الطبراني، ولفظه: «إن أراد عونًا فليقل: يا عباد الله أعينوا»[1].

وأورده ابن مفلح في «الآداب» وقال: قال عبدالله بن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: حججت خمس حجج، فضللت الطريق في حجّة، وكنت ماشيًا، فجعلت أقول: يا عباد الله، دلّونا على الطريق، فلم أزل أقول ذلك، حتى وقعت على الطريق[2].

فهو على تقدير ثبوته لا يدلّ على الاستغاثة بميّت ولا غائب.

وأيضًا قد قال ابن عدي فيه: إنّه من رواية معروف بن حسان، وهو منكر الحديث[3].

وإن قلنا بثبوته فقد علمنا بالضرورة أن لله ـ سبحانه ـ عبادًا من الملائكة سيّاحين، وكذا من مؤمن[4] الجنّ في الفلوات، هم أحياءٌ حاضرون، يسمعون صوته إذا نادى بما أُمر به في هذا الحديث، فإذا سمعوه ينادي بذلك حبسوا عليه دابّته، كيف وهم لا تراهم أبصارنا[5]، ألا ترى إلى جبرئيل ـ عليه السلام ـ يأتي إلى النبي ـ ﷺ ـ بحضرة أصحابه، وهم لا يرونه إلا نادرًا؛ إذ هذا شيء يجوز طلبه من الأحياء الحاضرين؛

---

(١) «المعجم الكبير»: ١٧/ ١١٧، ولفظه: «يا عباد الله أغيثوني»، وبلفظ «أغيثوني عباد الله» رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٦/ ١٠٣، (٢٩٨١٩)، ونحوه في «شعب الإيمان» للبيهقي: ١/ ١٨٣، (١٦٧) موقوفًا على ابن عباس.

(٢) «الآداب الشرعية»: ١/ ٤٢٩، ورواه عن الإمام أحمد البيهقي في الشعب: ٦/ ١٢٨، (٧٦٩٧).

(٣) «الكامل في الضعفاء»: ٦/ ٣٢٥، (١٨٠٥).

(٤) كذا، ولعل الصواب: مؤمني الجن.

(٥) يريد: كيف يستبعد ذلك.

إذ هو ممّا يقدر عليه الخلق، فيكون من باب قوله عن كليمه موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، [ك،٦٨/ب] وقوله: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وهو من فعل المعروف في حق بني آدم، وإحسانٌ[(١)]، والله يحب المحسنين.

وكما يستغيث الناس بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمد ـ ﷺ وعليهم أجمعين ـ، كما صح بذلك الخبر في الموقف[(٢)].

وهذا بهذا الاعتبار لا يُنكر، فهو كما لو سأل الإنسانُ بعضَ رُفقته إذا نفرت دابّتُه ردَّها، فلا فرق، بل قد يكون قربةً إذا قصد بذلك امتثال الأمر، [ر،١٣٩/أ] وفعلَ السبب المأمور به[(٣)].

فأما أن يُستدلّ به على الاستغاثة بالغائب أو الميّت فهذا لا يقوله من له رائحة بقواعد الكتاب والسنّة، وأقوال سلف الأمّة؛ فإن الله لم يشرع ولا رسوله أن يُنادى ميّت أو غائب في قطر من الأرض الشاسعة، نبيًّا كان أو وليًّا، صالحًا كان أو طالحا، بل يقال لمن ادّعى ذلك: سبحانك هذا بهتان عظيم؛ إذ لا حديث فيه عن رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) أي: وهو إحسان.

(٢) رواه البخاري: ٣/ ١٧٤٥ـ ١٧٤٧، التفسير، الإسراء، (٤٤٣٥)، ومسلم: ١/ ١٥٤، الإيمان، باب أدنى أهل الجنة. .، (١٩٣).

(٣) عند هذا الموضع كتب في الطرّة: (بلغ مقابلة على أصل فصح على حسب الطاقة).

فيُستمع، ولا قولَ لمن يعتبر قوله فيتبع.

وأمّا ذكر «الغوث» و«النجباء» و«الأبدال»، ونحو هذه الأسماء، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيميّة[1]، والحافظ ابن العربي المالكي[2]، وغيرهما من العلماء الأعلام: هذه الأسماء ليست موجودة في كتاب الله، ولا عن رسول الله ـ ﷺ ـ بإسناد صحيح ولا ضعيف، إلا لفظ الأبدال؛ فقد رُوي فيهم حديث شاميٌّ منقطعُ الإسناد، عن علي ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا إلى النبي ـ ﷺ ـ، ولفظه كما عند الإمام أحمد عنه: «الأبدال بالشام، وهم أربعون رجلاً، كلّما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يُسقى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب»[3].

وعند الطبراني، عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «الأبدال في الشام، وبهم ينصرون، وبهم يرزقون»[4].

وعند الإمام أحمد أيضًا[5]، والطبراني في الكبير[6]، عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «الأبدال في هذه الأمّة ثلاثون

---

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٣٣ وما بعدها، وراجع ما سبق ص٣٠.
(٢) لم أهتد إلى موضع كلامه.
(٣) المسند: ١/ ١١٢، وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٢٩٩٣).
(٤) المعجم الكبير: ١٨/ ٦٥، بنحوه. قال في المجمع (١٠/ ٦٣): وفيه عمرو بن واقد، وقد ضعفه جمهور الأئمة، ووثقه محمد بن المبارك الصوري، وشهر اختلفوا فيه، وبقية رجاله ثقات.ا.هـ. وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٩٣٦).
(٥) المسند: ٥/ ٣٢٢. وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٩٣٦).
(٦) لم أجده عند الطبراني. وهو في السلسلة الضعيفة برقم (٩٣٦). وليس فيه أنهم على قلب إبراهيم.

رجلًا، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن[1]، كلّما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا»، وهذا لفظ الإمام أحمد.

ورواه أيضًا عن عبادة مرفوعًا أبوبكر بن مردويه، ولفظه: «الأبدال في أمّتي ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون»[2].

ورواه من طريق قتادة عن أبي قلابة، ثم قال: قال قتادة: إنّي لأرجو أن يكون الحسن منهم[3].

ورواه أيضًا مرفوعًا عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «الأبدال فيكم سبعة»، فذكره بنحوه[4].

وروى ابن المبارك، وهنّاد بن السري في ذلك أخبارًا.

قال ابن العربي: ويعنون بالبدل أنّه خليفة عن النبي ـ ﷺ ـ، [وعِوَض][5] منه في القيام بالدين، يستغني عن الطعام والشراب، كما يستغنى عن الأصحاب.

قال: وهذا اسم محدث، لم يكن في الصحابة، ويروى فيه أحاديث عن

---

(١) في المسند: «مثل إبراهيم».

(٢) ذكره بإسناده الحافظ ابن كثير في تفسيره: ١/ ٣٠٤، ط دار الفكر، ١٤٠١هـ.

(٣) هي نفس الرواية السابقة لا غير. وروى نحوها الطبراني في الأوسط: ٤/ ٢٤٧، (٤١٠١) من حديث أنس، إلا أن العدد فيها أربعون، وفي آخرها: «ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر».

(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره: ١/ ٣٠٤، وأورد إسناد ابن مردويه. وقد روى نحوه ابن أبي الدنيا في «الأولياء»: ٣٠، (٦٩).

(٥) في الأصل: عوضًا.

النبي ـ ﷺ ـ لا أصل لها، ذكره في علوم القرآن[1].

وقال: الذهبي في «مختصر الاعتدال في الردّ على أهل الرفض والاعتزال»، المسمّى «بالمنقذ من الضلال»: ومعلوم بالاضطرار من الدين، أنّ نبي الله ـ ﷺ ـ لم يشرع لأمّته التصديق بوجود هؤلاء ـ يعني إلياس والخضر والغوث والقطب ـ[2].

قال: فأمّا من زعم أن القطب والغوث هو الذي يُمد أهل الأرض في هداهم ونصرهم ورزقهم، وأنّ هذه الأمور لا تصل [ر،١٤٠/ب] إلى أحد من أهل الأرض إلا بواسطته، فهذا ضال يشبه قوله قول النصارى[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في موضع آخر عن الغوث والقطب والنجباء والأبدال: ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف كما هي على هذا الترتيب، وإنما توجد عند بعض المتوسطين من المشايخ، وهذا الجنس ونحوه من العلم هو من الذي التبس على أكثر المتأخرين حقه بباطله، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله، ومن الباطل ما يوجب ردّه، وصار كثير من الناس فيه على طرفي نقيض: قوم كذّبوا به كلّه لما وجدوا فيه من الباطل، وقوم صدّقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق[4].

---

(١) لا أعلم لابن العربي كتابًا موجودًا بهذا العنوان، وقد قال ابن جزي الكلبي في تفسيره (١/ ١٠): «..فأما ابن العربي فصنف كتاب أنوار الفجر في غاية الاحتفال والجمع لعلوم القرآن، فلما تلف تلافاه بكتاب قانون التأويل». وقد تقصى محقق «قانون التأويل» مؤلفات ابن العربي، فلم يذكر منها «علوم القرآن». انظر «قانون التأويل»: ١٢١.

(٢) المنتقى: ٢٧، ٢٨، ط ١٤١٨هـ. وانظر «منهاج السنة»: ١/ ٩٣.

(٣) المنتقى: ٢٨.

(٤) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٣٤.

قال: وإنما الصواب التصديق بالحق، والتكذيب بالباطل، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي - ﷺ - من ركوب هذه الأمّة سنن من كان قبلها حذو القذّة بالقذّة[1]؛ فإنّ أهل الكتابين ألبسوا الحق بالباطل، وهذا هو التبديل، وهذا الدين لا بد أن يكون فيه من يُدخل فيه من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به الحق بالباطل، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقومُ به الحجّة خلفًا عن الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، فينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وزيغ الزائغين؛ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون[2].

إلى أن قال - رحمه الله -: فإن المؤمنين يقلّون تارة، ويكثرون أخرى، ثم إنه الإسلام قد انتشر في مشارق الأرض ومغاربها، وكان في المؤمنين في كل وقت من أولياء الله المتقين، بل من الصدّيقين السابقين المقربين، من لا يحصى عدّه إلا ربّ العالمين، لا يحصون بثلاث مائة، ولا بثلاثة [ك،٦٨/أ] آلاف[3].

ولما انقرضت القرون الثلاثة الفاضلة كان أيضًا في القرون الخالية من أولياء الله ما لا يُحصى عدُّه. ومن جعل لهم عددًا محصورًا لازمًا فهو من [المبطلين][4] عمدًا أو خطأ[5].

فأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه على الإطلاق إلا الله

---

(١) انظر صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٦٩، وصحيح مسلم: ٤/ ٢٦٣١.

(٢) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٣٤، ٤٣٥، بتصرف يسير.

(٣) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٣٥، ٤٣٦، باختصار.

(٤) في الأصل: «المتطلسمين» والتصويب من مجموع الفتاوى.

(٥) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٣٦.

ـ سبحانه ـ، فهو غياث المستغيثين، لا يجوز لأحد الاستغاثةُ بغيره، لا بملك مقرب، ولا نبي مرسل، ومن زعم أنّ أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم، ونزول الرحمة بهم إلى الثلاثِمائة، والثلاثُمائةَ إلى السبعين، والسبعون إلى الأربعين، والأربعون إلى السبعة، والسبعةُ إلى الأربعة، والأربعةُ إلى الغوث الفرد الجامع، فهو كاذب ضال مشرك، فقد كان المشركون كما أخبر الله عنهم بقوله: [ر، ١٤٠/أ] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، يفزعون في شدائدهم وحال اضطرارهم إليه ـ جل وعلا ـ، ولهذا قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النمل: ٦٢]، فكيف مع هذا يكون المؤمنون يرفعون حوائجهم إلى غيره من الوسائط، وهو القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦]، وقوله ـ ﷺ ـ لما رفعوا أصواتهم بالدعاء: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، إن الذي تدعونه سميع بصير قريب»[1]. وفي لفظ: «أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[2]. وهو في الصحيحين[3].

وليس في أولياء الله المتقين، بل ولا الأنبياء ولا المرسلين، من

---

(١) في الأصل: سميعًا بصيرًا قريبًا، وفي مجموع الفتاوى (١١/ ٤٣٨): إنما تدعون سميعًا. . إلخ. وهو هكذا في صحيح البخاري: ٦/ ٢٤٣٧، (٦٢٣٦).

(٢) هذا اللفظ لمسلم وحده: ٤/ ١٦٥٠، (٢٧٠٤) وهو هكذا: «من عنق راحلة أحدكم».

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٠٩١، الجهاد، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير، (٢٨٣٠)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٦٤٩، الذكر. .، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، (٢٧٠٤)، ومعنى «اربعوا»: ارفقوا.

كان غائب الجسد دائمًا عن أبصار الناس، بل هذا من جنس قول القائلين بأن عليًا في السحاب، وأن محمّدًا بن الحنفيّة في جبال رضوى[1]، وأنّ محمد بن الحسن في سرداب [سامَرّا][2]، وأنّ الحاكم بجبل مصر، وأنّ الأبدال رجالَ الغيب في جبل لبنان، فهذا ونحوه من أقوال أهل الإفك والبهتان[3].

نعم، قد تُخرق العادة في حق الشخص فيغيب تارة عن أبصار الناس، إما لدفع عدو عنه، وإما لغير ذلك، وأما أن يكون هذا طول عمره فباطل[4].

نعم، يكون نورُ قلبه وهدى فؤادِه وما فيه من أسرار الله ـ تعالى ـ وأمانتُه وأنوارُه ومعرفتُه غيبًا عن الناس، ويكون صلاحه وولايته غيبًا عن أكثر الناس، فهذا هو الواقع، وأسرار الحق بينه وبين أوليائه، والناس لا يعلمون[5].

فعلم بذلك أن الله لم يشرع لأحد أن يقول لميّت: أنا في حسبك، أو: أنا في جوارك، ولا أن يقول للميت: «سل الله لي»، ولا: «ادع الله لي»، ولا شرع لهم أن يشكوا إلى ميّت البتة، مثل أن يقول أحدهم مشتكيًا إلى الميت: «عليّ دين»، أو: «آذاني فلان»، ونحو ذلك، سواء كان

---

(١) هو جبل لا جبال، قريب من ينبع. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٥١.

(٢) في الأصل: سامرى. وهي تقصر وتمد، بلد على دجلة، شمال بغداد، أطال ياقوت الحديث عنها في «معجم البلدان»: ٣/ ١٧٣ وما بعدها.

(٣) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٤٣، وانظر: ٢٧/ ٥٨.

(٤) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٤٣.

(٥) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٤٣.

عند القبر أو بعيدًا منه، وسواء كان الميّت نبيًا أو غيره[1].

ونحن نعلم بالضرورة أن الرسول - ﷺ - لم يشرع لأمّته أن يدعوا أحدًا من الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، كما أنّه لم يشرع السجود لميّت ولا إليه، بل نعلم أنّه نهى عن ذلك كلّه، وأنّ ذلك من الشرك الذي حرّمه الله - سبحانه -، وكذا رسوله، لكن لغلبة الجهل، وقلّة العلم بآثار الرسالة، حدث في كثير من الأمّة ذلك.

ولكن تكفير فاعل ذلك لا يكون إلا بعد ما يُبيّنُ له ما جاء به الرسول - ﷺ - مما يخالفه، فإذا بيّن له ذلك، وأنّ ما يفعلُه شرك، ثم عاند بعد ذلك، أطلق عليه الكفر، لعناده بعد إقامة الحجّة عليه، وتوضيحِها له، ولهذا قال - تعالى -: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]؛ إذ بعثة الرسول - ﷺ - للإبلاغ للبيان، وإقامة الحجة، قال - تعالى - مخاطبًا لنبيّه خاتم الرسل - ﷺ -: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فلا يُكفَّرُ إنسان [ر،١٤١/ب] حتى يتبين له أن ما يقولُه أو يفعلُه مضادٌّ لشهادة ألا إلٰه إلا الله، ثم يعاند بعد ذلك[2]، فإذا

---

(١) انظر مجموع الفتاوى: ١/ ١٦١.

(٢) من المعلوم أن كل معاند للتوحيد من المشركين في العبادة يمكنه أن يقول: لم يتبيّن لي أن الاستغاثة بأصحاب القبور وطلب الحوائج من غير الله ونحو ذلك مما تعدونه شركًا أكبر وتكفّرون فاعله، لم يتبيّن لي أنه مضادٌّ للا إلٰه إلا الله. خصوصًا وأن المتكلمين يفسرون «لا إلٰه إلا الله» بتوحيد الربوبية فحسب، فلا سبيل إذًا على ما قرره الشارح هنا إلى تكفير عبّاد القبور البتّة، فيكون ما ذكره بعد ذلك لا معنى له. والحق أنه يكفي في إقامة الحجة على المشركين أن يُبلّغوا البلاغ المبين، فإن أعرضوا كُفّروا وإن زعموا أن ما هم عليه غير مضاد للا إلٰه إلا الله.

تحقق منه ذلك كُفْر، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الآية [فصلت: ٥٣].

فإذا عُلم أنّه قد تبيّن له الحق ولم ينته كُفّر، وقوتل إن كانوا طائفة ممتنعة، وإلا مضى عليه حكم المرتد، وهذا أصل دين الرسل، الذي بعث الله به محمدًا ـ ﷺ ـ، الذي من رغب عنه فقد سفه نفسه، وهو في الآخرة من الخاسرين، نعوذ بالله من الخذلان وكيد الشيطان.

وقيل إنما أراد النبي ـ ﷺ ـ بقوله: «إنّه لا يستغاث بي وإنّما يستغاث بالله» يعني على الإطلاق، والمراد فيما لا يقدر عليه إلا الله، وإلا فالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يطلبونه في حياته الدعاء[1]، ويستسقون به[2]، كما صح ذلك عنهم[3]، كما قال عمّه أبو طالب[4]:

وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمالَ اليتامى عِصمةٌ للأراملِ[5]

ولذلك قال العلماء ـ رضي الله عنهم ـ في عباراتهم: يجب على كل مكلّف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله، وأنّ كل غوث فمِن عندِه، وإن كان قد جعل الله ذلك على يد غيره، فالحقيقة له ـ سبحانه ـ، وذلك لغيره فيما يقدر عليه

---

(١) الجادّة أن يقال: يطلبون منه الدعاء؛ لأن«طلب» لاتتعدى إلا إلى مفعول واحد.

(٢) أي بدعائه، لا بذاته أو جاهه. وانظر تلخيص الاستغاثة: ١/ ٤١٧.

(٣) انظر صحيح البخاري: ١/ ٣١٥، (٨٩٠)، وصحيح مسلم: ٢/ ٥١٢، (٨٩٧).

(٤) في البخاري (١/ ٣٤٢) رقم (٩٦٣) عن ابن عمر قال: «ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ـ ﷺ ـ يستسقي فما ينزل حتي يجيش كلُّ ميزاب: ..» وذكر بيت أبي طالب.

(٥) البيت ضمن قصيدته في سيرة ابن هشام: ١/ ٢٧٦.

مجاز[1].

قالوا: ومن أسمائه ـ تعالى ـ المغيث، والغياث، وجاء ذكر المغيث في حديث أبي هريرة[2]، وأجمعت الأمّة على ذلك[3].

وقال أبو عبدالله الحليمي: الغياث هو المغيث، وأكثر ما يقال: غياث المستغيثين. ومعناه: المدرك عبادَه في الشدائد إذا دعوه، ومريحُهم ومخلصُهم[4].

فالاستغاثة بالرسول ـ ﷺ ـ في حياته بمعنى أن يُطلب منه ما هو اللائق بمنصبه، وهذا لا ينازع في جوازه مسلم، كما أنّه يستغاث بغيره بمعنى أنه يُطلب منه ما يليق به[5].

وأما سؤال الميّت والغائب [ك،٦٩/ب] نبيًا كان أو غير نبي فمن المحرمات باتفاق المسلمين. وهذا أيضًا مما يعلم بالاضطرار ـ كما مر ـ من دين المسلمين، بأن أحدًا منهم ما كان يقول إذا نزلت به نازلة، أو عرضت له حاجة لميّت أو غائب: يا سيّدي فلان، أنا في حسبك، أو: اقض حاجتي. كما يقوله المشركون لمن يدعونهم من الموتى

(١) انظر تلخيص الاستغاثة: ١/ ٤١٨.
(٢) في بعض طرقه، وهو ما أخرجه البيهقي في الاعتقاد: ٥١، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٣، (٤٢). وبعضهم قرأ «المغيث»: «المقيت». كما نبه الحاكم. وقد قواه الحاكم، ولكن خالفه الذهبي. وقد توسع في دراسة طرق هذا الحديث عبدالله الغصن في رسالة الماجستير التي كتبها في «أسماء الله الحسنى»: ١٤٩ وما بعدها.
(٣) انظر «تلخيص الاستغاثة»: ١/ ٤١٨، ٤١٩.
(٤) نقلاً عن السابق: ١/ ٤١٩.
(٥) «تلخيص الاستغاثة»: ١/ ٤٢٠.

والغائبين، ولا أحدَ[1] من الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ استغاث بالنبي ـ ﷺ ـ بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

وقد عُلم بالاضطرار أن الله ـ سبحانه ـ لم يأمر بذلك، ولا رسولُه ـ ﷺ ـ، ولا استحبّه أحد من أئمة المسلمين، بل نعلم أنّه نهى عن كل هذه الأمور، وأنّ كل ذلك نوع من الشرك الذي حرّمة الله ورسوله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لكن لغلبة الجهل وقلّة العلم بآثار الرسالة في [ر،١٤١/أ] كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرُهم بذلك حتى يتبيّن لهم ما جاء به الرسول، مما يخالفه.

قال: ولهذا ما بُيّنت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الإسلام إلا تفطّن لها، وقال: هذا أصل دين الإسلام[2].

إذ إنكار المنكَر من أعمال الكفر والشرك من الأقوال والأفعال أوسعُ من تكفير عاملها مع الجهل بمضادة قوله أو فعله لشهادة الإخلاص؛ فإنّه يفر من ذلك لو علمه.

وبمعرفة ما ذكرنا بالعلم القاطع ينجو الإنسان من الهلَكة في الدنيا والآخرة؛ إذ لا يستريح قلب الإنسان من تعلّقه بالمخلوقين حتى يمتلىء من معرفة الله ومحبّته، وخشيته وإخلاص الدين له، وخوفه ورجائه، والتصديق بأخباره، وغير ذلك مما يتباين الناس فيه، ويتفاضلون تفاضلاً عظيمًا، بحسب تمكن ذلك من القلوب؛ فإن ذلك يقْوى في القلب ويزدادُ كلما ازداد العبد تدبّرًا للقرآن والسنّة، بل ويزداد يقينًا وفهمًا

---

(١) في الأصل: ولا أحدًا.

(٢) «تلخيص الاستغاثة»: ٢/ ٧٣١.

ومعرفةً بأسماء الله وصفاته وعظمته، بأن يعلم أنّه مفتقر إليه ـ سبحانه ـ في عبادته واستغاثته به، بحيث يجد اضطراره إلى أن يكون الرب ـ تعالى ـ معبودَه ومستغاثَه أعظمَ من اضطراره إلى الأكل والشرب؛ فإنّه لا صلاح له إلا بذلك، ولا حصول لهذا إلا بإعانة الله ـ تعالى ـ، ومتى كان للقلب إلٰه غير الله فسد وهلك هلاكًا لا صلاح معه، ومتى لم يعنه الله على ذلك لم يصلحه أحد، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، ولا منجى ولا ملجأ إلا إليه.

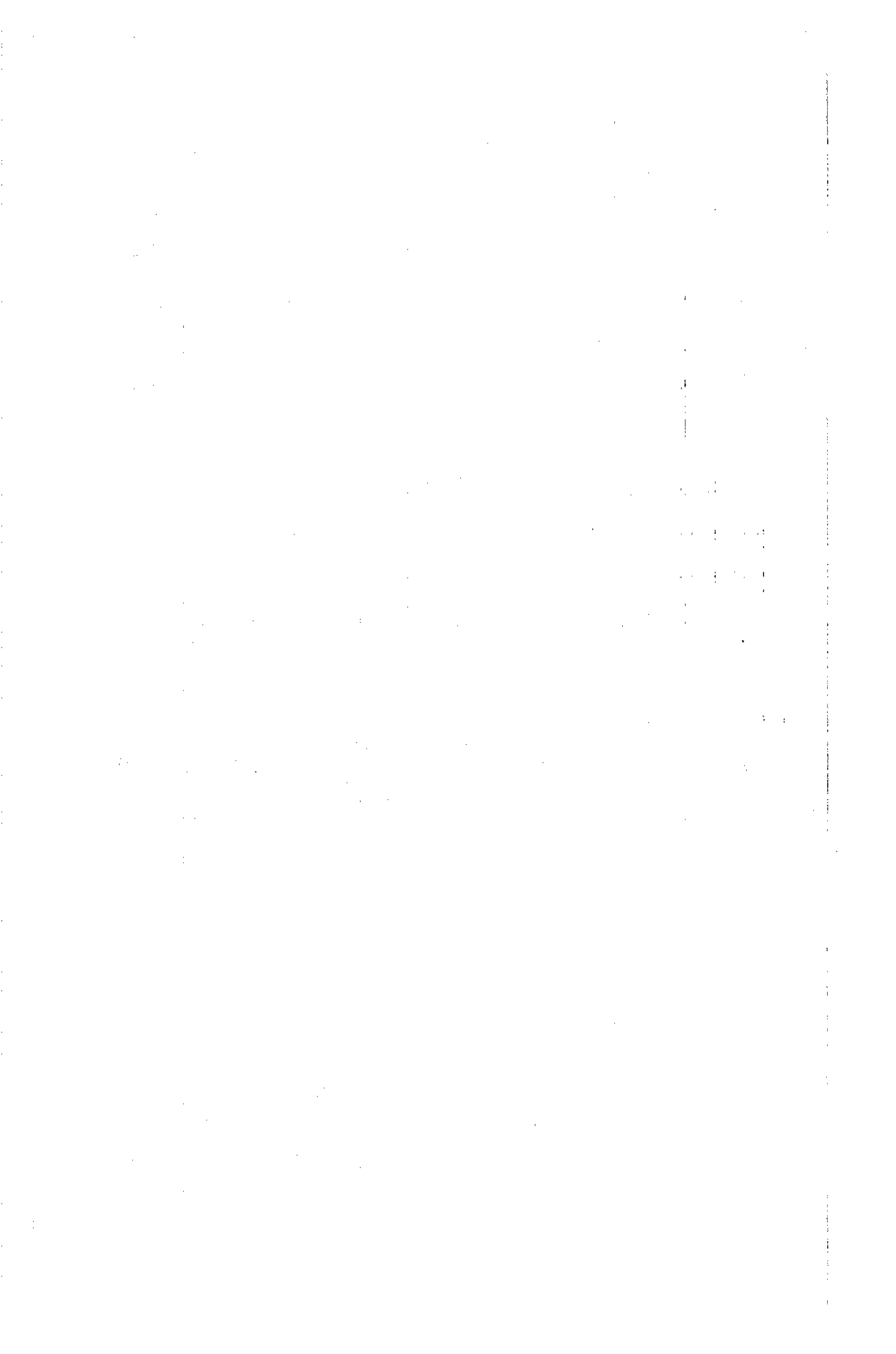
ولهذا يُروى أن الله ـ تعالى ـ أنزل مائة كتاب وأربعة كتب، جمع علمها في الكتب الأربعة، وجمع الكتبَ الأربعة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصّل، وجمع علم المفصّل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[1].

ونظيرُ ذلك قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقولُه: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، نسأل الله الهداية والتوفيق لما يحب ويرضى، إنّه على ما يشاء قدير[2].

---

(١) رواه البيهقي في الشعب: ٢/ ٤٥٠، (٢٣٧١) من قول الحسن.

(٢) تقدم التعليق على هذه العبارة ص ٦٥٠.



الباب الرابع عشر

(باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢ ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢] .)

هذا إنكار من الله ـ تعالى ـ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأصنام والأنداد والأوثان، وهي مخلوقة مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئًا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تنتصر لعابديها، وعابدوها أكملُ منها بسمعهم وأبصارهم، ولهذا قال: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾، كما قال ـ تعالى ـ: [ر،١٤٢/ب] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

وبهذا تظهر مناسبة هذا الباب للذي قبله؛ إذ كيف يُستغاث بمخلوق جامدٍ أو ناطقٍ فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو يُدعى وهو بهذه المنزلة؟!.

فأخبر ـ سبحانه ـ بهذا أنها لو اجتمعت آلهتُهم كلُّها من دون الله فسلبهم الذباب شيئًا حقيرًا، مع حقارة الذباب، لما استطاعوا استنقاذه منه، فضلاً عن أن يخلقوا الذباب، أو عضوًا منه، أو يركّبوا ما وَهى من أعضائه المخلوقة بعد انفصالها منه، فمَن هذا حالُه وعجزه عن استنقاذ ما يسلب الذباب منه، يمتنع أن يُعبد ليَرزُق، ويُستنصر لينصُر، أو يُدعى ليجيب[١].

---

(١) أما أنه يُعبد ويُستنصر ويدعى فهو واقع فعلاً، لكن بغير حق، ففي التعبير بامتناع =

ومن ذلك قول الخليل ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

والضمير في قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١﴾ قال بعض المفسّرين: هو للعابدين، فالمعنى: أيشركون ما لا يخلق شيئًا وهم مخلوق الله ـ تعالى ـ؟!، فليعبدوا خالقهم[١].

ثم قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي لعابديهم ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها، ممّن أرادها بسوء، فقد كسر إبراهيم ـ عليه السلام ـ أصنام قومه[٢]، فهلاّ انتصرت لأنفسها، وكذلك النبي ـ ﷺ ـ[٣].

قال ـ تعالى ـ عن إبراهيم: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ [الأنبياء: ٥٨].

وقال الدارمي: أخبرنا هارون بن معاوية، عن إبراهيم بن سليمان المؤدب، عن الأعمش، عن مجاهد قال: حدّثني مولاي أنّ أهله بعثوا

= ذلك من التجوز ما فيه، خصوصا وأنه ربطها بالرزق والنصر والإجابة، الممتنعة من الآلهة الباطلة حقا.

(١) ذكر هذا القول النسفي في تفسيره: ٢/ ٥١، وهو خلاف ما عليه عامّة المفسرين من رجوع الضمير إلى المعبودات من دون الله، وإنما عُبر عنها بما يعبر به عن العاقل لأن عابديها نزّلوها تلك المنزلة، انظر تفسير الطبري: ٩/ ١٥٠، والقرطبي: ٧/ ٣٤١، وابن كثير: ٢/ ٢٧٧، وغيرها.

(٢) انظر القصة في سورتي الأنبياء والصافات.

(٣) انظر صحيح البخاري: ٤/ ١٧٤٩، (٤٤٤٣)، وصحيح مسلم: ٣/ ١١٢٥، (١٧٨١).

معه بقَدَح فيه زُبْد إلى آلهتهم، قال: فمنعني أن آكل الزبد [لمخافتها][1]، قال فجاء كلب فأكل الزبد، وشرب اللبن، ثم بال على الصنم. وهو إساف ونائلة[2].

قال هارون: كان الرجل في الجاهلية إذا سافر حمل معه أربعة أحجار، ثلاثةً لقِدْره، والرابع يعبدُه. ويربّي كلبه [ك،٦٩/أ] ويقتل ولده[3].

ثم روى بإسناده عن أبي رجاء ـ يعني العطارديَّ ـ قال: كنّا في الجاهليّة إذا أصبنا حجرًا حسنًا عبدناه، وإن لم نصب حجرًا جمعنا كثبة من رمل، ثم جئنا بالناقة الصفى، فتفاج عليه، فنحلبها على الكثبة حتى تُرويها، ثم نعبد تلك الكثبة ما أقمنا بذلك المكان[4].

قال أبو محمد الدارمي: الصفى: الكثيرة الألبان. وقوله: «فتفاج عليه» يعني الناقة إذا فرّجت بين رجليها للحلب. والفج: الطريق الواسع، وجمعه «فجاج»[5].

وقال الواقدي: أخبرنا عبدالرحمن بن أبي الزناد، عن [١٤٢/ب] عبدالحميد بن سهيل قال: لما أسلَمت هند بنت عتبة ـ رضي الله عنها ـ جعلت تضرب صنمًا في بيتها بالقدّوم فلذة فلذة وهي تقول: كنّا منك في غرور[6].

---

(١) في الأصل: «لمخالفتها»، والتصويب من سنن الدارمي.
(٢) سنن الدارمي: ١/ ١٤، (٣).
(٣) الموضع السابق.
(٤) سنن الدارمي: ١/ ١٥، (٤).
(٥) الموضع السابق.
(٦) «الطبقات الكبرى»: ٨/ ٢٣٧، دار صادر.

قال: وبعث ـ ﷺ ـ عمرو بن العاص إلى سواعَ ـ صنم هذيل ـ فهدمه، وكان عمرو يقول: انتهيت إليه وعنده السادن، فقال لي: ما تريد؟. قلت: هدمَ سواع. قال: وما لك وله؟. قلت: أمرني رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: لا تقدر على هدمه. قلت: لِمَ؟ قال: يمتنع. قال عمرو: حتى الآن أنت في غي الباطل؟، ويحك، وهل يسمع أو يبصر؟. قال: فدنوت منه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، ولم يجدوا فيها شيئًا. ثم قال للسادن: كيف رأيت؟. قال: أسلمت لله رب العالمين(1).

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]).

يقول ـ تعالى ـ مخاطبًا للمشركين: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ من دون الله من الأوثان والأصنام، وتعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ ـ تعالى ـ ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾، وهذا دليل على تفرّده ـ تعالى ـ بالألوهيّة والربوبية، فإذا كانوا لا يملكون من العطاء والمنع، ولا الضرّ ولا النفع، مقدار القطمير، وهو قشر النوى الأبيضُ، الذي يكون بين النواة والتمرة(2)، فكيف تطلبون ذلك منهم؟.

ثم قال ـ سبحانه ـ: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾؛ لأنهم جماد أو أموات، ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ أي ولو كانوا بحال يسمعون أيضًا على سبيل الفرض، ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ أي فلا يجيبونكم، ولا يكشفون عنكم

---

(١) «الطبقات الكبرى»: ٢/ ١٤٦، وتاريخ الطبري: ٢/ ١٦٣.

(٢) انظر تفسير الطبري: ٢٢/ ١٢٥.

شيئًا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾، أي يتبرؤون من عبادتكم إيّاهم، ويقولون: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: ٢٨].

يقول ـ تعالى ـ لنبيّه محمد ـ ﷺ ـ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾، أي لا يخبرُك عن حال آلهتهم، ونفي ما يدّعون لها، وعن عمل الآخرة، مثلُ الرب ـ تبارك وتعالى ـ، لا يخبرُك أحد مثلَ خبره، بأنّ الذي ذكر عن الأصنام كائن، وأنّهم يتبرؤون من عابديهم يوم القيامة.

ومن أعطاه الله عقلاً، ووفّقه للهداية، تيقّن واعتبر، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

فقد قال ابن إسحاق: إنّه كان لبني مِلكان ـ بكسر الميم وسكون اللام ـ بن كنانة بن خزيمة بن مُدركة صنمٌ يقال له: «سعد»، صخرة بفلاة من أرضهم طويلة، فأقبل رجل من بني مِلكان بإبلٍ له مؤبّلةٍ ليقفها عليه التماسَ بركته فيما يزعم، فلما رأته الإبل وكانت مرعيّة ولا تُركب، وكان يُهراق عليه الدماء، فنفرت منه، فذهبت في كل وجه، وغضب ربّها المِلْكاني، فأخذ حجرًا فرماه به، قال: لا بارك الله فيك، نفّرت علي إبلي، ثم خرج في طلبها، فلما اجتمعت له قال:

أتينا إلى سعدٍ ليجمعَ شملَنا فشتّتنا سعدٌ فلا نحن من سعدِ

وهل سعدُ إلا صخرةٌ بتنوفةٍ من الأرضِ لا تدعو لغيٍّ ولا رُشدِ[1]

[ر،١٤٣/ب] التنوفة: الصحراء، أو القفر، والمعنى: يقول: فلا

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٨١.

[تتولّ][1] سعدًا، ولا تدِن[2] به. وهذا كقول مالك بن نَمَط الهمْداني في صنمهم «يعوق» في اليمن، حيث يقول:

يريش الله في الدنيا ويبري ولا يبري «يعوق» ولا يريشُ[3]

معناه من «رِشت السهم، وبريته»، ثم استعير ذلك في النفع والضر، ومنه قول سويد بن صامت:

فرِشني بخير طال ما قد بريتني فخير الموالي من يريش ولا يبري[4]

وذكر ابن الجوزي عن أبي رجاء العطاردي ـ رضي الله عنه ـ قال: بُعث النبي ـ ﷺ ـ ونحن على ماء لنا، وكان لنا صنم مدور، فحملناه على قتب فمررنا برملة، فانسل الحجر فوقع في الرمل فغاب فيه، فرجعنا في طلبه، فإذا هو في رمل قد غاب فيه، فاستخرجناه، فكان ذلك أولَ إسلامي، فقلت: إنّ إلهًا لم يمتنع من تراب يغيب فيه لإله سوء، وإنّ العنز لتمنع حياءَها بذنبها، فرجعت إلى المدينة و[قد][5] توفّى رسول الله ـ ﷺ ـ[6].

فقوله: «تمنع حياها بذنبها» أي بوضعه على فرجها، فلا يقدر عليها

---

(1) في الأصل: «تتولى».

(2) في الأصل: «تدين».

(3) سيرة ابن هشام: 1/ 79، 80.

(4) البيت منسوب في اللسان (5/ 208) لعمير بن حباب.

(5) ساقطة من الأصل، واستدركتها من المصادر.

(6) رواه ابن الجوزي بسنده في المنتظم: 7/ 61، (555) وذكره في «صفة الصفوة»: 3/ 220، ورواه أبو نعيم في الحلية: 2/ 305.

الفحل، وهذا الصنم سقط فما منع عن نفسه الضياع، فكيف يُعبد من دون الله ـ تعالى ـ، والعنز أمنع منه للمضارّ عن نفسها، والله ـ تعالى ـ الموفق.

(في[1] الصحيح) للبخاري تعليقًا على قوله ـ تعالى ـ: [ك،٧٠/ب] ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية، قال ـ رحمه الله تعالى ـ: قال حميد ـ يعني الطويل ـ وثابت ـ يعني ابن أسلم البناني ـ، (عن أنس) بن مالك الأنصاري، خادم النبي ـ ﷺ ـ (قال: شُجّ) أي جُرح (وجه النبي ـ ﷺ ـ يوم) وقعة جبل (أحد)، وهي الوقعة المشهورة، (وكُسرت رُباعيّته، فقال: كيف يفلح قوم) الفلاح هو الفوز والظفر (شجّو نبيّهم؟. فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[2] [آل عمران: ١٢٨]).

وقد أسنده ابن إسحاق فقال: حدّثني حميد الطويل عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كُسرت رباعيّة النبي ـ ﷺ ـ، وشجّ في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يقول وهو يمسح الدم: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى ربّهم، فأنزل الله في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[3] [آل عمران: ١٢٨].

قال ابن هشام: وذكر رُبيْح بن عبدالرحمن بن أبي سعيد الخدري

---

(١) هكذا في الأصل بلا واو، وفي المطبوع من كتاب التوحيد: (وفي الصحيح) بواو.

(٢) علقه البخاري في صحيحه: ٤/ ١٤٩٣، المغازي، باب: «ليس لك من الأمر شيء..»، (٣٨٤٢). وأسنده مسلم: ٣/ ١١٣١، الجهاد..، باب غزوة أحد، (١٧٩١).

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٩، ٨٠.

عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أنّ عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله - ﷺ - فكسر رباعيّته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وأنّ عبدالله ابن شهاب الزهري شجّه في جبهته، وأنّ ابن قمئة جَرح وجنته، فدخلت حلْقتان من حِلَق المِغفر في وجنته، ووقع - ﷺ - في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله - ﷺ -، ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائمًا، ومصّ مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري الدمَ من وجه رسول الله - ﷺ - [ر،١٤٣/أ] ثم ازدرَدَه[١]، فقال رسول الله - ﷺ - «من مسّ دمُه دمي لم تصبه النّار»[٢].

وذكر ابن إسحاق[٣] عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أن أبا عبيدة بنَ الجرّاح نزع إحدى الحلْقتين من وجه رسول الله - ، فسقطت ثنيّته. ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيّته الأخرى، فكان ساقط الثنيّتين، فكان أحسن الناس هتمًا[٤].

وعتبة ابن أبي وقاص هذا هو أخو سعد - رضي الله عنه -، ولم يولد لعتبة هذا بعد إصابته للنبي - ﷺ - وكسرِ رباعيّته ولد فبلغ الحلم إلا وهو أبخر وأهتم، يُعرف ذلك في عقبه[٥].

---

(١) أي ابتلعه.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٠.

(٣) الذي في سيرة ابن هشام (٢/ ٨٠): وذكر - يعني عبدالعزيز الدراوردي - عن إسحاق بن يحيى بن طلحة، عن عيسى بن طلحة، عن عائشة، عن أبي بكر.. فذكره..

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٠.

(٥) ذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب: ٣/ ٩٢٧، ط البجاوي، من قول عبدالرحمن بن =

ومن رماه ـ ﷺ ـ يومئذ عبدالله بن شهاب، جد شيخ الإمام مالك ابن أنس، محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب[1].

وقد قيل لمحمد بن شهاب: أكان جدّك عبدالله بن شهاب ممن شهد بدرًا؟ فقال: نعم، ولكن من ذلك الجانب ـ يعني مع الكفّار ـ[2].

وهو الأصغر، وأما عبدالله بن شهاب الأكبر فهو من مهاجرة الحبشة، وكان أحدهما جدّ الزهري لأبيه، والآخرُ لأمّه[3].

وقد أسلم عبدالله بن شهاب بعد ذلك[4].

ومن شرب دم النبيّ ـ ﷺ ـ عبدالله بن الزبير وهو غلام حزوّر[5]، حين أعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ دم محاجمه ليدفنه، فشربه، فقال له النبي ـ ﷺ ـ كما قال لمالك، ولكنّه قال بعد ذلك لابن الزبير: «ويل لك من الناس، وويل للناس منك». ذكره الدارقطني في السنن[6].

= عبدالله بن عبدالعزيز الزهري.

(١) انظر الاستيعاب: ٣/ ٩٢٧.

(٢) انظر الاستيعاب: ٣/ ٩٢٧.

(٣) الموضع السابق.

(٤) الموضع السابق.

(٥) أي قد بلغ القوة. انظر «أساس البلاغة» الزمخشري: ١٢٤.

(٦) سنن الدارقطني: ١/ ٢٢٨، (٣)، ورواه الحاكم في المستدرك: ٣/ ٦٣٨، (٦٣٤٣)، والضياء في المختارة: ٩/ ٣٠٨، ٣٠٩، (٢٦٧)، قال في المجمع (٨/ ٢٧٠): رواه الطبراني والبزّار باختصار، ورجال البزّار رجال الصحيح، غير هنيد بن القاسم وهو ثقة.ا.هـ. وانظر كشف الأستار: ٣/ ١٤٥، (٢٤٣٦). وقد رُوي أيضًا أن سفينة شرب دم النبي ـ ﷺ ـ، كما في مسند البزّار: ٩/ ٢٨٤، (٣٨٣٤)، قال في المجمع: رواه الطبراني والبزّار. . ورجال الطبراني ثقات.

وهذا دليل أنّ دم النبي ـ ﷺ ـ يخالف دم غيره في التحريم، وكذلك بوله ـ ﷺ ـ شربته أمّ أيمن ـ رضي الله عنها ـ، حين وجدته في إناء من عَيدان ـ بفتح العين المهملة ، من جذوع النخل ـ وجدته تحت سريره، فلم ينكر ـ ﷺ ـ ذلك عليها؛ فإنّه ـ ﷺ ـ كان طيّبًا مطهّرًا[1].

إلا أنّ ابن عبدالبر ذكر في الاستيعاب أنّ رجلاً من الصحابة اسمه «سالم» حجم رسول الله ـ ﷺ ـ ثم ازدرد دمه، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: أما علمت أن الدم حرام؟[2].

غير أنّه حديث لا يعرف له إسناد[3].

فروى الزبير بن أبي بكر، المعروف بابن بكار، قال: لمّا ولد

---

(١) قد جاء شرب بول النبي ـ ﷺ ـ عن امرأتين، إحداهما أم أيمن حاضنة النبي ـ ﷺ ـ، كما رواه الطبراني في الكبير: ٢٥/ ٨٩، والحاكم في المستدرك: ٤/ ٧٠، (٦٩١٢)، وأبو نعيم في الحلية: ٢/ ٦٧، وفيه أبو مالك النخعي، وهو ضعيف كما في المجمع: ٨/ ٢٧١.

والمرأة الثانية هي خادمة أم حبيبة، واسمها بركة، وكنيتها أم يوسف، وحديثها رواه الطبراني أيضًا: ٢٤/ ١٨٩، قال في المجمع (٨/ ٢٧١): ورجاله رجال الصحيح، غير عبدالله بن أحمد بن حنبل، وحكيمة، وكلاهما ثقة. والرواية التي أوردها المؤلف دمجت الخبرين، تبعًا لابن عبدالبر في الاستيعاب (٤/ ١٧٩٤) حيث اعتبر الخبرين عن امرأة واحدة. وحقق الحافظ ابن حجر خلاف ذلك في الإصابة: ٧/ ٥٣١، (١٠٩١٦) و«تلخيص الجبير»: ١/ ٣١، ٣٢.

(٢) الاستيعاب: ٢/ ٥٦٩، (٨٨٢).

(٣) ذكر ابن حجر في الإصابة (٣/ ١٣) أن ابن منده أخرجه من طريق يوسف بن صهيب، حدثنا أبو الحجاف عن سالم قال.. فذكره. وفي تلخيص الحبير (١/ ٣٠) أن أبا نعيم رواه في معرفة الصحابة. قال ابن حجر: وفي إسناده إبو الحجاف، وفيه مقال.

عبدالله بن الزبير نظر إليه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: هو هو. فلما سمعت بذلك أسماءُ أمُّه أمسكتْ عن إرضاعه، فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ: «أرضعيه ولو بماء عينيك، كبش بين ذئاب، ذئاب عليها ثياب، ليَمنعنّ البيت، وليقتلنّ دونه»[1].

وروى ابن أبي الدنيا عن محمد بن كعب قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ دخل على أسماء بنت أبي بكر حين ولدت عبدالله بن الزبير، فذكره، وفي آخره: «كبش بين ذئاب، ليمتنعنّ بالحرم، [ر،١٤٤/ب] وليقتلنّ به»[2].

وكان ـ رضي الله عنه ـ أوّل مولود ولد للمهاجرين، وحنّكه رسول الله ـ ﷺ ـ بتمرة من ريقه، وكان أشبه آل أبي بكر بأبي بكر الصديقِ جدِّه، وجاء إلى النبي ـ ﷺ ـ وهو ابن سبع أو ثمان سنين ليبايعَه، بعثه أبوه لذلك، وهو ـ ﷺ ـ الذي سمّاه «عبدَالله» لمّا حنّكه ومسح عليه[3].

وفي رواية عند ابن أبي الدنيا أيضًا: «كبش بين ذئاب عليها ثياب، ليمنعنّ الحرم، وليقتلن فيه».

وهذا معنى قوله ـ ﷺ ـ فيما تقدم عند الدارقطني: «ويل لك من الناس، وويل للناس منك»، والله أعلم.

(وفيه) أي البخاري[4]، بسنده المتصل إلى الزهري قال: حدثني

---

(١) رواه ابن عساكر من طريق ابن بكار في «تاريخ دمشق»: ٢٨/ ١٦٠، إلا أنه قال: ليث بين ذئاب.

(٢) لم أهتد إليه.

(٣) انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ٣٦٣ وما بعدها.

(٤) صحيح البخاري: ٤/ ١٤٩٣، المغازي، باب: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ..﴾، (٣٨٤٢).

سالم (عن) أبيه (عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنّه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة من صلاة الفجر:)، فيه دليل أنّ القنوت بعد الركوع، خلافًا لمن قال: موضعُه قبل الركوع، كالإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ[1]، مستدلاً بحديث أبي بن كعب الذي رواه النسائي في سننه[2]، وقد اختُلف في رفعه، ومع صحّة رفعه قيل: إنّ ذِكْر [ك، ٧٠/أ] القنوت فيه غير صحيح، إلا أنّه قد صح ذلك من قول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، كما في صحيح البخاري وغيره[3]،

---

(١) في المدونة (١/ ١٠٢): وقال مالك في القنوت في الصبح: كل ذلك واسع: قبل الركوع، وبعد الركوع.ا.هـ. وفي الكافي لابن عبدالبر (ص ٤٤): والأشهر عن مالك القنوت قبل الركوع، وهو تحصيل مذهبه.ا.هـ.

(٢) سنن النسائي: ٣/ ٢٣٥، قيام الليل. . ، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أُبيّ بن كعب في الوتر، (١٦٩٩). وذكره أبو داود في سننه: ٢/ ٦٤، (١٤٢٧) فقال: روى عيسى بن يونس. . فساق الإسناد إلى أُبيّ، وذكره من طرق أخرى، ورواه ابن ماجه: ١/ ٣٧٤، (١١٨٢)، والبيهقي في الكبرى: ٣/ ٣٩، (٤٦٣٩)، ورواه البيهقي أيضًا عن ابن مسعود، وابن عباس، وضعف هذه الروايات كلّها، قال الحافظ في تلخيص الحبير (٢/ ١٨): وسبق إلى ذلك ـ يعني تضعيف البيهقي للروايات ـ ابن حنبل وابن خزيمة وابن المنذر، قال الخلال عن أحمد: لا يصح فيه عن النبي ـ ﷺ ـ شيء.ا.هـ. وقال الترمذي في سننه (٢/ ٣٢٨): اختلف أهل العلم في القنوت في الوتر، فرأى عبدالله بن مسعود القنوت في الوتر في السنة كلّها، واختار القنوت قبل الركوع، وهو قول بعض أهل العلم، وبه يقول سفيان الثوري، وابن المبارك، وإسحاق، وأهل الكوفة، وقد رُوي عن علي بن أبي طالب أنه كان لا يقنت إلا في النصف الآخر في رمضان، وكان يقنت بعد الركوع، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى هذا، وبه يقول الشافعي وأحمد.ا.هـ.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٣٤٠، الوتر، باب القنوت قبل الركوع وبعده، (٩٥٦)، ورواه مسلم: ١/ ٣٩٢، المساجد. .و باب استحباب القنوت. . ، (٦٧٧). قال الحافظ في الفتح (٢/ ٤٩١): ومجموع ما جاء عن أنس من ذلك أنّ القنوت =

وروي عن غيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

(«أللهم العن فلانًا وفلانًا»، بعد ما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربّنا لك الحمد»)، وفي رواية: «ربنا ولك الحمد»، فقد صحّت الرواية بإثبات الواو، ودونَها، إلا أنّ الأفضل بالواو؛ و[1] لأنّها تجمع معنيين: الدعاء، والاعتراف، أي: ربّنا استجب لنا، ولك الحمد على هدايتك.

أما ما قاله القاضي عياض فيوافق قول من قال: «سمع الله لمن حمده». بمعنى الدعاء[2].

قال الخطّابي: معنى «سمع»: استجاب[3]، قال الشاعر[4]:

دعوت الله [حتى][5] خفتُ ألاّ يكونَ اللهُ يسمعُ ما أقولُ

وعلى حذف الواو يكون الحمد مجرّدًا، ويوافقُ قولَ من قال: «سمع الله لمن حمده» خبر، وقد يكون معناه بالواو: ربّنا حمدناك ولك الحمد.

= للحاجة بعد الركوع لا خلاف عنه في ذلك، وأما لغير الحاجة فالصحيح عنه أنه قبل الركوع، وقد اختلف عمل الصحابة في ذلك، والظاهر أنه من الاختلاف المباح. ا. هـ.

(١) الظاهر أن هذه الواو زائدة.

(٢) أي أن «ربنا» متصل بقول «سمع الله لمن حمده»، وانظر شرح مسلم للنووي: ٤/ ١٢١.

(٣) «غريب الحديث»: ١/ ٣٤٢.

(٤) هو شتير بن الحارث الضبي كما في «غريب الحديث» للخطابي.

(٥) في الأصل: «حين»، والتصويب من «غريب الحديث».

وقد قال الإمام أحمد في رواية ابنه صالح[1]: أحاديث الزهري كلّها: «ربّنا ولك الحمد»، وما سمعنا أحدًا قال: «اللهم ربنا و[2]لك الحمد»، إلا أن يقول: «اللهم[3] ربّنا لك الحمد» كما جاء الحديث بذلك[4].

قلت: إلا أنّ في البخاري عن بعض رواته عن الفربري إثبات الواو مع «اللهم» في حديث أبي هريرة[5].

وقوله: «اللهمّ» ذهب سيبويه والخليل وسائر البصريين أنّ أصل «اللهم»: يا الله، وأنّ الميم بدل من ياء النداء، وقال الفرّاء: أصله: «يا الله، أمّنا بخير» فحذف حرف النداء. حكى المذهبين الأزهري[6].

(فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨])؛ لأنّه ـ ﷺ ـ عبدٌ لله، لا علم [ر،١٤٤/أ] له بالمطبوع على قلبه في سابق علم الله من غيره[7]، ولكنه قد جاء بما يسعد الخلق إن اتبعوه، ومن لم يتبعه فقد

---

(١) «مسائل الإمام أحمد بن حنبل»: ١/ ٤٢٩، ٤٣٠، (٤١٤).

(٢) هذه الواو ليست في المطبوع من المسائل.

(٣) «اللهم» في هذا الموضع ليست في المطبوع، وهو الأشبه بالسياق.

(٤) قد ثبت في الصحيحين أنه ـ ﷺ ـ كان يقول بعد «سمع الله لمن حمده»: «اللهم ربنا ولك الحمد». انظر صحيح البخاري: ١/ ٢٧٤، (٧٦٢)، ومسلم: ١/ ٢٥٤، (٤٠٤)، بلا «واو» عند مسلم.

(٥) صحيح البخاري: ١/ ٢٧٤، (٧٦٢).

(٦) «تهذيب اللغة»: ٦/ ٤٢٥، (أله)، وقد أورد الأزهري تشنيع الزجاج على الفراء في قوله هذا. وانظر رأي الفراء في كتابه: «معاني القرآن»: ١/ ٢٠٣، وتشنيع الزجاج في كتابه: «معاني القرآن وإعرابه»: ١/ ٣٩٣، ولم يفصح بذكر الفراء بل أشار إليه بقوله: «فقال بعضهم..».

(٧) أي لا علم له بمن طبع على قلبه من غيره.

أنذره وأعذر الله منه؛ فإنه لا حجّة على الله بعد الرسل، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

(وفي رواية) للبخاري تعليقًا[١] قال: وعن حنظلة بن أبي سفيان ـ يعني ابنَ عبدالرحمن بن صفوان بن أميّة، الجمحي المكي، الثقة الحجّة في الحديث، قال: سمعت سالم بن عبدالله يقول: كان رسول الله ـ ﷺ ـ (يدعو على صفوان بن أميّة، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وفي الترمذي مرفوعًا[٢]: لعن رسول الله ـ ﷺ ـ الحارث بن هشام، وأبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أميّة، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. ورواه غيره أيضًا بهذا اللفظ[٣].

يقول ـ تعالى ـ: ليس لك يا محمدُ من الحكم شيءٌ في عبادي، إلا ما أمرتُك به فيهم، أو أتوبَ عليهم برحمتي، فإن شئتُ فعلتُ، أو أعذّبَهم بذنوبهم، فبحقي، فإنّهم ظالمون، قد استوجبوا ذلك، بمعصيتهم إياي، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني ملكًا وخلقًا، وعبيدًا، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: ١٢٩] أي يغفر الذنوب، ويرحم العباد على ما فيهم، فهم خلقه وعبيده، وتحت تصرّفه ـ سبحانه ـ، يغفر لمن يشاء

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٤٩٣، (٣٨٤٢).

(٢) سنن الترمذي: ٢٢٧١٥، التفسير،(٣٠٠٤). وهو في صحيح سنن الترمذي للألباني: ٣/ ٣٣،(٢٤٠٢).

(٣) المسند: ٢/ ٩٣.

منهم، ويعذب من يشاء، ليس لأحدٍ سواه من الأمر شيء، فصحّ بذلك أنّه المعبود وحده.

وقد تاب على الأربعة المذكورين[1].

فلمّا كان معنى اللعن: الإبعادَ والطردَ، كما يُعرف من أنثار العرب وأشعارها، كما قال الشمّاخ بن ضرار الطائي:

ذعرتُ به القطا ونفيتُ عنه　　مقام الذئب كالرجلِ اللعينِ[2]

وقال كعب بن مالك للزِّبَعْرى:

تبجّستَ تهجو رسول المليك　　قاتلك الله جلْفًا لَعينا[3]

وأنّ معنى لعْنِ رسول الله ـ ﷺ ـ: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ـ تعالى ـ. ولهذا سمّى الله إبليس رجيمًا بلعنه له؛ إذ الرجيم عند العرب: المطرود والمبعد، كما قال متمم بن نويرة ـ رضي الله عنه ـ يرثي بحير بن عبدالله السليطيَّ اليربوعيَّ:

ولو شئتَ نجّاك الكميتُ ولم تكن　　كأنك نُصْبٌ للرماح رجيمُ[4]

ولعن ـ ﷺ ـ هؤلاء المعيّنين، قال[5] له ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وفي هذا أقوى دليل على عدم جواز لعن المعيّن،

---

(١) انظر سنن الترمذي: ٥/ ٢٢٧، (٣٠٠٤).

(٢) ديوانه: ص ٣٢١، دار المعارف.

(٣) ديوانه: ص ٢٧٧، مكتبة النهضة ـ بغداد.

(٤) البيت في «معجم البلدان» لياقوت (٢/ ١٢٦) هكذا:

ولم تشْبُ في حال الكميت و لم تكن　　كأنك نصبٌ للرماح رجيمُ

(٥) كذا، والسياق يقتضي الترتيب بالفاء: «فقال».

خلافًا لمن أجازه مستدلاً [ر،١٤٥/ب] بما في الكتاب والسنّة من اللعن المطلق، وليس في ذلك دليلٌ على لعن المعيّن؛ إذ غايته أن يمشي في ذلك مع النص، فيقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود: ١٨]، و«لعن الله من لعن والديه.. لعن الله من غيّر منار الأرض»[١]، ونحو ذلك من النصوص في ذلك، وهذا جائز بالكتاب والسنّة وإجماع الأمّة.

وأما لعن المعيّن فهو يستلزم الإبعادَ والطردَ من رحمة الله، واليأسَ منها، وذلك نوع من التألّي على الله ـ سبحانه ـ، وهو لا يجوز.

وقد تقدّم قول الله ـ تعالى ـ لنبيّه محمد ـ ﷺ ـ لمّا عيّن باللعن المذكورين قال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وقال: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي إلا بإعلام الله لي من ذلك، أو المراد: ممّا يُحدث الله بي وبكم في الدنيا، وإن كان يعلم منزله ومستقرّه في الآخرة بإعلام الله له، فإذا كان هذا مطويًا عن سيّد البشر ـ ﷺ ـ إلا بإعلام الله له، فغيرُه أولى، فكيف بعلم الخواتيم.

وقد أخبر ـ ﷺ ـ في الحديث الصحيح الصريح الثابت: «إنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها»[٢] وبالعكس.

بخلاف من علمنا سبق شقاوته بموته على الكفر من جهة الكتاب والسنّة، كإبليس وفرعون وهامان وأبي جهل وأبيّ بن خلف ونحوهم،

---

(١) أخرجه مسلم: ٣ / ١٢٤٥، (١٩٧٨)، آخر الأضاحي.

(٢) أخرجه البخاري: ٣/ ١١٧٤، (٣٠٣٦)، بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ومسلم: ٤/ ١٦١٦، القدر، باب (١)، حديث (٢٦٤٣).

فإن تعيينهم باللعن جائز عند عامّة العلماء - رضي الله عنهم -.

وفي الصحيحين[1] أنّ عبدالله بن عمر مر بفتيان من قريش وقد نصبوا طيرًا - يعني حيًّا - وهم يرمونه، فقال ابن عمر - رضي الله عنهما -: لعن الله من فعل هذا، إنّ رسول الله - ﷺ - لعن [ك،٧١/ب] من اتخذ شيئًا فيه الرّوحُ غرضًا.

فلم يلعنْهم ابن عمر - رضي الله عنهما - بكاف الخطاب، بل بالعموم، ففي الصحيحين عن ثابت بن الضحّاك، وكان من أصحاب الشجرة - رضي الله عنهم - مرفوعًا: «لعْن المؤمن كقتله»[2].

وفي مسلم عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - مرفوعًا: «لا يكون اللعّانون شفعاء ولا شهداء»[3].

وعند الإمام أحمد[4] ومسلم[5] أيضًا عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: «إنّي لم أبعث لعّانًا، وإنّما بعثت رحمةً».

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢١٠٠، الذبائح..، باب ما يكره من المثلة..، (٥١٩٦)، وصحيح مسلم: ٣ / ١٢٣٢، الصيد..، باب النهي عن صبر البهائم، (١٩٥٨).

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٢٦٤، الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، (٥٧٥٤)، وصحيح مسلم: ١/ ٩٩، الإيمان، باب (٤٧)، حديث (١١٠).

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٥٩٢، البر..، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، (٢٥٩٨).

(٤) لم أجده في المسند، ووجدت فيه (٢/ ٣٣٧): «لاينبغي للصدّيق أن يكون لعانًا» وهذا اللفظ في صحيح مسلم: ٤/١٥٩١، برقم (٢٥٩٧).

(٥) صحيح مسلم: ٤/ ١٥٩٢، البر..، باب (٢٤)، حديث (٢٥٩٩).

وعند أبي داود[(١)] والترمذي وقال حسن صحيح[(٢)]، عن سمرة بن جندب مرفوعًا: «من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه».

ورواه أبو داود أيضًا بمعناه عن أبي الدرداء[(٣)].

وأما الثلاثة الذين لعن رسول الله ـ ﷺ ـ في هذا الحديث الذي أورده المصنّف فقد تاب الله عليهم فأسلموا، وحسُن إسلامهم.

قال ابن إسحاق: حدّثني محمد بن جعفر، عن عروة قال: خرج صفوان بن أميّة يوم الفتح يريد «جُدّة» ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي الله، إن صفوان بن أميّة يريد جُدّة ليركب منها إلى اليمن ـ وفي رواية: إنّ صفوان سيّدُ قومه، وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه في البحر ـ فآمِنْه صلى الله [ر،١٤٥/أ] عليك. قال: هو آمن. قال: يا رسول الله، فأعطني آية يعرف بها أمانك. فأعطاه رسول الله ـ ﷺ ـ عمامته التي دخل بها مكة، فخرج بها عميرٌ حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر؛ فقال: يا صفوان، فِداك أبي وأمّي، اللهَ اللهَ في نفسك أن تُهلكها، فهذا أمان رسول الله ـ ﷺ ـ قد جئتك به. فقال: ويلك، اغرب عنّي، فلا تكلّمني. فقال: أي صفوان، فِداك أبي وأمّي، أفضل النّاس، وأبرّ الناس، وأحلم الناس، وخير النّاس: ابنُ عمّك، عِزّه عزُّك، وشرفه شرفُك، ومُلكه ملكُك. قال: إنّي أخاف على نفسي. قال: هو أحلم من ذلك وأكرم. فرجع معه حتى وقف على رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال صفوان: إنّ هذا يزعم أنّك قد أمّنْتني. قال: صدق. قال:

---

(١) سنن أبي داود: ٤/ ٢٧٨، (٤٩٠٨)، الأدب، باب في اللعن.

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٣٥٠، (١٩٧٨)، البر والصلة، باب ماجاء في اللعنة. عن ابن عباس، وهو في الصحيحة للألباني برقم (٥٢٨).

(٣) سنن أبي داود: ٤/ ٢٧٧، الأدب، باب في اللعن، (٤٩٠٥).

فاجعلني بالخيار شهرين. قال: أنت بالخيار أربعةَ أشهر[1].

ولمّا هُزم المسلمون يوم حنين، وصرخ جبلة بن الحنبل ـ وقيل: كَلَدة بن الحنبل فيما قال ابن هشام ـ وهو مع أخيه صفوان بن أميّة مشرك، في المدّة التي جعل له ـ ﷺ ـ: ألا بطل السحر. قال له صفوان: اسكت فضّ الله فاك، فوالله لئن يربّني رجل من قريش أحبّ إلي من أن يربّني رجل من هوازن[2].

وقد طلب منه ـ ﷺ ـ في تلك الغزوة وهو بمكة أن يعيره أدراعًا، فقال: أغصبا يا محمد؟. قال: بل عاريّة مضمونة حتى نؤديَها إليك. قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح[3].

وأعطاه ـ ﷺ ـ مع المؤلّفة من غنائم حنين مائة بعير، وواديًا من الغنم، فأسلم، وحسن إسلامه ـ رضي الله عنه ـ[4].

وقال أبو سفيان بن حرب ذلك اليوم، والأزلام معه في كنانته يستقسم بها: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر[5].

وأما الحارث بن هشام، فهو أحد الرجلين اللذين استأمنت لهما أم

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤١٧، ٤١٨.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤٣، ٤٤٤، وانظر تاريخ الطبري: ٢/ ١٦٨، ورواه أبو يعلى في مسنده: ٣/ ٣٨٩، (١٨٦٣) من طريق ابن إسحاق مصرحًا بالسماع.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤٠، ورواه أحمد في المسند: ٦/ ٤٦٥، والحاكم في المستدرك: ٣/ ٥١، (٤٣٦٩)، وقال: صحيح الإسناد، والضياء في المختارة: ٨/ ٢٣، والبيهقي في الكبرى: ٦/ ٨٩، (١١٢٥٧)، والدارقطني: ٣/ ٣٩.

(٤) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٩٣، ولم يذكر واديًا من غنم.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤٣.

هانىء، ابنة أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ، قاله الأزرقي في تاريخه[1]، وابن هشام في سيرته[2]، والزبير بن بكار، وغيرهم[3].

قال أبو محمد ابن حزم[4]: وابن هشام هو أحد الثلاثة الذين اجتمعوا في الحجر يوم الفتح، فذكر ابن إسحاق أن رسول الله ـ ﷺ ـ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذّن ـ يعني على الكعبة ـ، وأبو سفيان بن حرب وعتّاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ـ وقيل في الحجر ـ، فقال عتّاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيدًا ألا يكون يسمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنّه محق لاتبعته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمْت لأخبرَتْ عنّي هذه الحصى. فخرج عليهم النبي ـ ﷺ ـ فقال: قد علمت الذي قلتم. ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتّاب: نشهد أنّك رسول الله، والله ما اطّلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك[5].

وقد رُوي بأبسط من هذا، وهذا [ر،١٤٦/ب] والله أعلم بعد ما استأمنت أم هانىء للحارث بن هشام هو وزهير بن أبي أميّة، أخو أمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ، فإنهما أسلما بعد الأمان، وحسن إسلامهما،

---

(١) أخبار مكة للأزرقي: ٢/ ١٦١، ١٦٢. وانظر أخبار مكة للفاكهي: ٥/ ٢٢٠، ٢٢١، (١٨٤).

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤١١.

(٣) انظر المسند: ٦/ ٣٤١، وسنن الترمذي: ٤/ ١٤١، (١٥٧٩)، وسنن أبي داود: ٣/ ٨٤، (٢٧٦٣).

(٤) انظر تأمين أم هانىء للحارث ابن هشام في جوامع السيرة لابن حزم: ص٢٣٣، وليس في هذا الموضع ذكر إجتماع الثلاثة في الحجر.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤١٣.

وكانا بعد ذلك من خيار المسلمين.

والحارث بن هشام هذا هو الذي قال فيه حسّان بن ثابت يوم بدر في قصيدة له:

إن كنت كاذبة الذي حدّثتِني ... فنجوتِ منجى الحارث بن هشامِ

ترك الأحبّة أن يقاتل دونهم ... ونجى برأس طِمِرّة ولجامِ[1]

فاعتذر الحارث بن هشام من فراره ذلك اليوم، قالوا: وهي أحسن عذر خرج به معتذر، فقال[2]:

القوم أعلم ما تركت قتالهم ... حتى حبو مُهري بأشقرَ مزبدِ

وعرفتُ أني إن أقاتلْ واحدًا ... أقتلْ ولا ينكي عدوي مشهدي

فصددت عنهم والأحبّة فيهم ... طمعًا لهم بعقاب يومٍ مفسدِ

[ك،٧١/أ] فأما أبو سفيان بن حرب ـ رضي الله عنه ـ، فأسلم حين أتى به العبّاس ليلة الأذاخر إلى النبي ـ ﷺ ـ، بعد ما أراد عمرُ بن الخطّاب قتلَه، فقال العباس: إنّي قد أمّنتُه، ولو كان من بني عدي ما قلتَ مقالتك هذه، ولكن قد علمت أنّه من بني عبد مناف. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ عند ذلك: مهلاً يا عبّاس، فوالله لإسلامك عندي أحب إليّ من إسلام الخطّاب لو أسلم، وما ذاك إلا أنّي علمت أنّ إسلامك أحب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ[3].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٧، وانظر ديوانه: ١٠٨.
(٢) الأبيات في سيرة ابن هشام: ٢/ ١٨.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٠٣.

ثم حضر بعد ذلك «اليرموكَ»، وهي وقعة عظيمة كانت على المسلمين[1]، وكان يومًا مشهودًا، فحصل له بلاءٌ ذلك اليوم، وفُقئت حينئذ عينه[2].

وأما سهيل بن عمرو السهمي ـ رضي الله عنه ـ فهو الذي انقطع[3] صلح قريش مع النبي ـ ﷺ ـ يوم الحديبية على يديه، وهو الذي قال النبي ـ ﷺ ـ لما طلع عليهم لأصحابه: سَهُل أمركم. وأسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، ومات ـ رضي الله عنه ـ بالشام شهيدًا[4].

وله مشهد في الإسلام عظيم يوم الردّة عند موت النبي ـ ﷺ ـ، نصر الله به الإسلام، ولا علينا أن نذكرَه؛ ليعلم الإنسان أن الله يمنّ على من يشاء من عباده، وإن كان منه ما كان.

قال سيف بن عمر: حدثنا سعيد بن عبدالله الجمحي، عن عبدالله ابن عبيد بن عمير الليثي، عن أبيه قال: مات رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى مكة وعملها عتّاب بن أسيد، فلما بلغهم موت رسول الله ـ ﷺ ـ [ر،١٤٦/أ] ضجّ أهل المسجد، وبلغ عتّابًا فخرج حتّى دخل شعبًا من شعاب مكّة، وسمع أهل مكّة الضجيج، فتوافى رجالهم إلى المسجد، فقال سهيل بن عمرو: أين عتّاب؟. وجعل يستدل عليه حتى أتى عليه في الشعب، فقال: مالك؟. قال: مات رسول الله ـ ﷺ ـ. قال: فقم في الناس فتكلم. قال: لا أطيق مع موت رسول الله ـ ﷺ ـ الكلام.

---

(١) كذا قال، والأولى: للمسلمين؛ لأن الله نصرهم فيها على الروم.

(٢) انظر الإصابة: ٣/ ٤١٤.

(٣) كذا، والأولى أن يقال: «انعقد».

(٤) انظر الإصابة: ٣/ ٢١٣. وخبر الحديبية في الصحيحين.

قال: فاخرج معي، فأنا أكفيكه. فخرجا، حتى أتيا المسجد الحرام. فقام سهيل خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، وخطب مثل خطبة أبي بكر، لم يخرم منها شيئًا[1]

وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ قال لعمر بن الخطّاب وسهيلُ بن عمرو في الأسرى يوم بدر، ـ لمّا قال عمر للنبي ـ ﷺ ـ: دعني أنزع ثناياه؛ فلا يقوم عليك خطيبًا ـ: ما يدعوك إلى أن تنزع ثناياه؟ دعه؛ فعسى الله أن يقيمه مقامًا يسرّك. فكان ذلك المقام.

قال: وضبط عتّابٌ عملَه[2].

وعند ابن الجوزي بسنده إلى جرير بن حازم قال: سمعت الحسن البصري قال: حضر بابَ عمر بن الخطّاب سهيلُ بن عمرو، والحارثُ ابن هشام، وأبو سفيان بن حرب، ونفر من تلك الرؤوس، وصهيب وبلال وتلك الموالي الذين شهدوا بدرًا، فخرج آذنُ عمر، فأذن لهم، وترك هؤلاء، فقال أبو سفيان: لم أر كاليوم قطُّ! يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا؟!. فقال سهيل بن عمرو وكان رجلاً عاقلاً: أيّها القوم، إنّي والله قد أرى الذي في وجوهكم، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القومُ ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعوا يوم القيامة وتُركتم؟، أما والله، لما سبقوكم إليه من الفضل مما لا ترون أشد عليكم فَوْتًا من بابكم هذا التي نتأسف فوتهم عليه. قال: ونفض ثوبه وانطلق[3].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٦٦، والإصابة: ٣/ ٢١٣.

(٢) انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٦٦.

(٣) المنتظم: ٤/ ٢٦٠، ٢٦١، ورواه الحاكم في المستدرك: ٣/ ٣١٨، (٥٢٢٧) =

قال الحسن: صدق والله سهيل، لا يجعل الله عبدًا أسرع إليه كعبد أبطأ عنه[1].

ولا بأس أن نذكر فضيلة لوالد الصدّيق، عثمان بن أبي قحافة ـ رضي الله عنهما ـ ذلك اليوم للمجانسة؛ فالشيء بالشيء يذكر.

فروى سيف بن عمر وابن إسحاق وغيرهما، من حديث أم تدرس قالت: كنت في بيت أبي قحافة يوم جاءتنا وفاة رسول الله ـ ﷺ ـ، فسمع أبو قحافة الضجّة، فقال: ما هذا؟. فقالوا: رسول الله ـ ﷺ ـ مات. قال: إنا لله، وإنّا إليه راجعون، وصلوات الله على رسول الله، على أي حال ترك الناس؟. قيل: ارتدّ بعضهم، وثبت [ر،١٤٧/ب] بعض. قال: فمن على الناس؟. قيل: ابنك. قال ولِمَ؟. قالوا: أمر بذلك. قال: فما صنع بنو عبد مناف؟. قيل: سمعوا وأطاعوا وسلّموا. قال: لا يزال الناس بخير ما سمعوا وأطاعوا. ثم سمع ضجّة بعد ذلك، فقال: ما هذا؟. قالوا: مات ابنُك. قال: إنا لله، وإنّا إليه راجعون، وصلوات الله على رسول الله، ويرحم الله أبابكر. فصاح أهله، فقال: ماه، ماه، أبوبكر أجلّ من البكاء[2].

وفيما تقدّم جوازُ الدعاء لإنسان بعينه في الصلاة، وقد دعا الإمام أحمد فيها للإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ[3]، وجوازُ القنوت في

= وابن المبارك في الجهاد: ٨٥، (١٠٠)، والطبراني في الكبير: ٦/ ٢١١، قال في المجمع (٨/ ٤٦): رجاله رجال الصحيح، إلا أن الحسن لم يسمع من عمر.

(١) الموضع السابق.

(٢) لم أجده في سيرة ابن هشام، وقد رواه بنحوه الفاكهي في أخبار مكة: ٣/ ٨٠، (١٨٣٢)، عن سعيد بن المسيب.

(٣) انظر مناقب الشافعي للبيهقي: ٢/ ٢٥٤، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، ط =

الفريضة عند النوازل.

(وفيه) أي صحيح البخاري[1]، على تفسير سورة الشعراء، بسنده (عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قام رسول الله ـ ﷺ ـ حين أُنزل عليه) وذلك في مكّة (: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]) العشيرة القبيلة، قاله الجوهري[2] وغيره.

وقال عياض: عشيرة الإنسان أهله الأدنون، وهم بنو أبيه[3].

ويصدّق القول الأوّل فعله ـ ﷺ ـ في قوله: (يا معشر قريش)، وهذه النذارة الخاصة لا تنافي النذارة العامّة، بل هي فرد من أجزائها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦]، وقال: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ [السجدة: ٣]، وقال: ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ [الشورى: ٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقال: ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم: ٩٧]، وقال: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكما قال: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ ﴾ [هود: ١٧].

فهذه تخصيص لعشيرته الأدنَين بالإنذار، وعشيرتُه الأدنون هم قريش، ومِن بعدِهم بنو معَدّ بن عدنان، بأنّه لا يخلّص أحدًا منهم إلا

١، ١٣٩٠هـ

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٠١٢، الوصايا، باب (١١)، حديث (٢٦٠٢)، ورواه بنحوه مسلم: ١/ ١٦٣، الإيمان، باب (٨٩)، حديث (٢٠٤).

(٢) الصحاح: ٢/ ٧٤٧، (عشر).

(٣) مشارق الأنوار على صحاح الآثار: ٢/ ١٠٢، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة.

الإيمانُ بربّه ـ جل وعلا ـ.

ففي صحيح مسلم أنّه ـ ﷺ ـ قال: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة، يهوديا ولا نصرانيا ثم لا يؤمن بي إلا دخل النّار»(١).

(فقال) أي لهم، بعد أن جمعهم صوتُه على الصفا ـ كما يأتي ـ مخاطبًا: (يا معشر قريش)، وقريش هو النضر بن كنانة، وهذا هو الصحيح، وأمّه برّة بنت مرّ، أخت تميم، ولهذا قال جرير بن الخطفى التميمي ـ مدليًا بخؤولته على الخليفة عبدالملك وبنيه ـ لقريش:

فما الأمّ التي ولدت قريشًا ... بمقرفة النجار ولا عقيمِ

فلا قِرْمٌ بأنجب من أبيكم ... ولا خالٌ بأكرمَ من تميمِ(٢)

[ك،٧٢/ب] ومن قال: إنّه فهر بن مالك بن النضر؛ فذلك أنّ قريشًا إنما تفرّقت من فهر بن مالك، فلزمه اللقب بقريش لذلك، وإنما سُمّي النضْرُ بقريش؛ لأنّه كان يُقرِّش عن خَلَّة الناس وحاجتهم، فيسدّدُها بماله، والتقريش [ر،١٤٧/أ] هو التفتيش عن المحاسن والمثالب، وهو الاكتساب أيضًا، والتجميع لكل شيء من مال، أو كلام، قال أبو [جلدة](٣) اليشكري:

إخوةٌ قرّشوا الذنوب علينا ... في حديثٍ من عمرِنا وقديمِ(٤)

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٢١، ١٢٢، الإيمان، باب (٧٠)، حديث (١٥٣).

(٢) ديوانه: ١/ ٢١٩.

(٣) في [ر]: ابن حلّزة، وفي [ك]: أبو خلدة، والتصويب من الأغاني: ١١/ ٣١١.

(٤) ديوانه: ص ٧٨، دار ابن طيبه، وهو في غريب الحديث للخطابي: ١/ ٣٧٣، والفائق: ٣/ ١٨٤.

وقيل: سمّي من التجارة، وهي التقريش الذي هو التكسب أيضًا، من الاكتساب، قال رؤبة بن العجاج في ذلك من أرجوزةٍ له:

قـد كان يغنيهم عـن الشغوشِ

والخشْلِ مـن تساقط القـروشِ

شحمٌ ومحضٌ ليس بالمغشوشِ[1]

قال ابن هشام: «الشغوش»: قمح يسمى بذلك، و«الخشل»: رؤوس الخلاخيل والأسورة ونحوه، و«القروش»: التجارة والتكسّب[2]. يقول: قد كان يغنيهم عن هذا شحم ومحض، و«المحض»: اللبن الحليب الخالص[3].

وقيل: سُمّي بقريش لأنّ حوتًا يُسمّى بالقِرْش، تسوّر عليهم في سفينة وهو فيها، فهرب من معه عنه لخوفهم من سَوْرته، فسُمّي بذلك[4].

وقال الشيخ أبو بحر عن أبي الوليد في أرجوزة رؤبة: إنّما «الخشل» المُقْل، والقروش ما تساقط من حتاته وتقشر منه[5].

---

(١) الأبيات في اللسان: ٦/ ٣١٠.

(٢) في السيرة: الاكتساب.

(٣) السيرة النبوية: ١/ ٩٤.

(٤) روي نحو هذا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، انظر أخبار مكة للفاكهي: ٥/ ١٧٠، (٩٢)، ومعجم البلدان: ٤/ ٣٣٦، وقد ضعف ياقوت هذا القول، وفتح الباري: ٦/ ٥٣٤.

(٥) عن «الروض الأنُف» للسهيلي: ١/ ١٨٨، ١٨٩. والمُقل: ثمر الدَّوْم. عن المصباح المنير، (مقل): ٢٢٠.

(أو كلمة نحوها) في معناها، وهي هنا عوض عن جملة[1]، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾.

(اشتروا أنفسكم)، قال ذلك ـ ﷺ ـ لهم لأنّهم أرهنوا[2] أنفسهم، واستوبقوها بالشرك إن لم يستنقذوها بكلمة التوحيد من النار وغضب الجبار.

وفي الحديث: «كلّكم يغدو، فبائع نفسَه فمعتقها أو موبقها»[3].

ولهذا قال: (لا أغني عنكم من الله شيئًا) إن لم توحّدوه، فتعبدوه ـ جل وعلا ـ وحده؛ وذلك لأنّ شفاعته ـ ﷺ ـ بإذن مرسله ـ تبارك وتعالى ـ، لأهل التوحيد من أمّته، ليس لمشرك فيها حضّ.

ثم خصّص ـ ﷺ ـ بعد أن عمّ قريشًا، فقال: (يا عباسُ بنَ

---

(١) الأصل في «الكلمة» أنها تعني الجملة والعبارة، وبهذا المعنى ورد استعمالها في الكتاب والسنة وعند فصحاء العرب، وكذلك هي عند قدماء النحاة، ثم عُبّر بها بعد ذلك عن واحد الكَلِم، المسمّى قديمًا بالحرف، واستمرّ على تسميته كذلك علماء القراءات، وصار الأصل بعد ذلك عند متأخري النحاة أن الكلمة هي واحد الكلم، والحرف ما بُنيت منه الكلمة، أو ما كان معناه في غيره، وقد يراد بالكلمة الجملة والعبارة، كما قال ابن مالك في الخلاصة:

واسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عمّ   وكِلْمة بها كلام قد يؤمّ

وانظر في هذا: «الرد على المنطقيين» لابن تيمية: ١٢٨، ١٢٩.

(٢) «أرهنوا» لغة في «رهنوا»، وضعفها الأصمعي كما في في اللسان: ١٣/ ١٨٨ (رهن).

(٣) جزء من حديث رواه مسلم: ١/ ١٧٢، الطهارة، باب فضل الطهور، (٢٢٣). ولفظه: «كل الناس يغدو..».

عبدالمطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفيّةُ عمّةَ رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا)، [إن لم تؤمنوا بما أُرسلت به إليكم، وتقبلوا الكلمة التي عرضت على عمّي أبي طالب][1].

خصّ - ﷺ - عمّه العباس من بين أعمامه؛ لما عند العباس - رضي الله عنه - للنبي - ﷺ - من مودّة القرابة، وكان يحبّه، ويحبّ ظهوره، وكان له قريبًا من مكان عمّه أبي طالب، إلا أن العبّاس كان أكثر مداراةً لقومه من جهة النبي - ﷺ -، ومن ذلك أنّه حضر الأنصار - رضي الله عنهم - عند بيعة العقبة، وهو على دين قومه؛ ليشدّ للنبي - ﷺ - منهم العقد.

وكذا خصّ صفيّةَ - رضي الله عنها - أمَّ الزبيرِ بنِ العوّامِ من بين عمّاته.

ثم قال: (ويا فاطمةُ بنتَ [ر،١٤٨/ب] محمد، سليني من مالي ماشئت)، إشارة منه - ﷺ - أنه لا يملك التصرّف إلا في ذلك، وأما الهدايةُ والإضلال والإنجاء من عذاب الله فلا يملك منه شيئا، ولهذا قال: (لا أغني عنك من الله شيئًا)، إن لم تؤمني بي، عن الله - تعالى -.

وهذا يشعر بأنها - رضي الله عنها - قد بلغت سنّا تعقل فيه الإنذار، لتخصيصها بالخطاب، وقد قيل إنها من أصغر بناته.

وهو يشعر بتفضيلها عليهم، كيف وقد قال - ﷺ - كما في الصحيحين وغيرهما، لمّا خطب علي - رضي الله عنه - ابنة أبي جهل: «إنّها بضعة مني، يُريبني ما أرابها»[2].

---

(١) زيادة من [ك] بخط المؤلف في الطرّة.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٠٠٤، النكاح، باب ذب الرجل عن ابنته. .، (٤٩٣٢)، =

ولم يعش بعده من بناته ـ ﷺ ـ أو بقي له نسل إلا هي، قيل توفيت بعده ـ ﷺ ـ بستة أشهر، وهو أصح ما قيل في ذلك. وقيل ثلاثة، وقيل ثمانية، وقيل سبعين يومًا.

وما رؤيت ضاحكة بعد موته ـ ﷺ ـ، وهي أول من جُعل عليها المِكبّة[1]، وقد وصفتها لها أسماء بنت عميس، تُجعل على موتى النساء بأرض الحبشة، ـ بعد ما قالت: يا أسماء، إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء، يطرح على المرأة الثوب فيصفها ـ، فقالت لأسماء: ما أحسن هذا وأجمله. وأمرت أن يُجعل ذلك عليها، فهي أوّل من غطّي نعشها في الإسلام، ثم زينب بنت جحش، أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ[2]، وأوصت[3] أن تُدفن ليلاً، ففُعل بها ذلك، ونزل قبرَها علي والعباس والفضل ابنه، قيل لثلاث خلون من رمضان، سنة [إحدى][4] عشرة، وكان عمرها تسعًا وعشرين سنة.

وقال عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي: كان عمرها ثلاثين سنة.

وقال الكلبي: خمسًا وثلاثين سنة[5].

والصحيح أن الذي غسلها علي وأسماء بنت عميس ـ رضي الله

= وصحيح مسلم: ٤/ ١٥١٢، فضائل الصحابة. .، باب فضائل فاطمة، (٢٤٤٩).

(١) هو مثل هودج العروس يوضع على النعش، كما جاء تفسيره في رواية البيهقي في سننه: ٤/ ٣٤، (٦٧٢١).

(٢) انظر الاستيعاب: ٤/ ١٨٩٨، ١٨٩٩.

(٣) أي فاطمة.

(٤) في الأصل: «احد».

(٥) انظر هذا القول والذي قبله في الاستيعاب: ٤/ ١٨٩٨، ١٨٩٩.

عنهم ـ[1].

وكانت ـ رضي الله عنها ـ أحبّ بناته إليه، والصحيح أن قبرها في البقيع، وقيل في بيتها.

وفضّلها بعض أهل العلم على نساء العالمين، وبعضهم جعل الخلاف بينها وبين أمّها وعائشة من أمّهات المؤمنين، ومريم ابنةِ عمران[2]، رضي الله عنهنّ، وجعلَنا ممّن يحبّهن ويواليهن.

(وفي البخاري)[3] من طريق الأعمش، عن عمرو بن مرّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لمّا نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، ورهطك منهم المخلَصين[4]، خرج رسول الله ـ ﷺ ـ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه. فقالوا: من هذا؟. فاجتمعوا إليه. فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدّقيّ؟. قالوا: ما جرّبنا عليك كذبًا. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب: تبًا لك، ما جمعتنا إلا لهذا؟. [ك،٧٢/أ] ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾، وقد [تبّ][5]. هكذا قرأها الأعمش يومئذ. رواه الجماعة عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

---

(١) كما في سنن البيهقي: ٤/ ٣٤.

(٢) انظر الاستيعاب: ٤/ ١٨٩٤.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٩٠٢، التفسير، باب تفسير سورة تبت..، (٤٦٨٧)، ورواه مسلم أيضًا في صحيحه: ١/ ١٦٤، الإيمان، باب (٨٩)، حديث (٢٠٨).

(٤) هذه الزيادة من القراءات الشاذة، انظر فتح الباري: ٨/ ٥٠٢.

(٥) في الأصل: «وقد تبت»، وما أثبته هو الموجود في جميع المصادر.

وفي مسلم[1] ومسند الإمام أحمد[2] والترمذي[3] عن أبي هريرة [ر،١٤٨/أ] ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله ـ ﷺ ـ قريشًا، فعم وخصّ فقال: يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النّار، يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبدالمطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد، انقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحما سأبلُّها ببِلالها.

وروى الإمام أحمد[4] وغيره عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه ـ ﷺ ـ صنع طعامًا، ودعى عليه بني عبدالمطلب، ودعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ، فعل ذلك مرتين أو ثلاثًا، وفيهم عمّه أبو لهب، فلم يجبه منهم إلا علي ـ رضي الله عنه ـ.

وقد روي ذلك الإنذار بطرق متعدّدة، في الصحيحين والسنن والمسانيد.

وقد عدّه العلماء ـ رضي الله عنهم ـ من الأحاديث المتواترة عن

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٦٣، (٢٠٤).
(٢) المسند: ٢/ ٣٦٠.
(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٣٣٨، (٣١٨٥).
(٤) المسند: ١/ ١١١، وقال في المجمع (٩/ ١١٣) إسناده جيّد.ا.هـ. وقال محققو المسند: إسناده ضعيف؛ لضعف شريك النخعي، وعباد الأسدي، ...(٢/ ٢٢٥). وأخرجه الإمام أحمد أيضًا في فضائل الصحابة: ٢/ ٧١٢، (١٢٢٠)، بإسناد آخر، قال محققه الشيخ وصي الله عباس: إسناده صحيح.

النبي - ﷺ -.

ومن أغربها ما رواه أبو يعلى الموصلي، حيث قال: حدثنا سويد ابن سعيد، حدّثنا ضمام بن إسماعيل عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنّه قال: «يا بني قصي، يا بني عبد مناف، أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد»[1].

ولهذا ذكر - سبحانه - مضمون هذه الدعوة عامّة في سورة الجنّ فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٠ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢٠ـ ٢٣]، فأمره - تبارك وتعالى - أن يخبر من أرسل إليهم من جميع الخلق، الإنس والجن، أنّه لا يملك لهم جلب خير، ولا دفع ضرّ، من دون الله - عز وجل -، ثم أمره بأبلغَ من ذلك، فقد يُتوهّم أنّه إذا لم يملك جلب الخير لغيره، ودفع الضر عنه، بأنه يملك ذلك لنفسه، فقال له آمرًا: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، أي لن يمنعني من عذاب الله أحد إن عصيته، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ اي ملجأ ولا مفرًّا.

ثم قال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢٣]، استثناء من قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾؛ فإن التبليغ إرشاد وإنفاع[2]، وما بينهما اعتراض مؤكِّد لنفي الاستطاعة، والمعنى: إلا بلاغًا من الله ورسالاته، فذلك الذي

---

(١) مسند أبي يعلى: ١١/ ١٠، (٦١٤٩)، قال في المجمع: (١٠/ ٢٢٧): ورجاله رجال الصحيح، غير ضمام بن إسماعيل، وهو ثقة. ا.هـ. وضعف محقق المسند حسين أسد إسناده؛ لضعف سويد بن سعيد. وقد وقع في الأصل: «همام عن إسماعيل»، وهو ضعيف.

(٢) كذا بالأصل، وصوابها: إرشاد ونفع.

يجيرني من عذاب الله، إذا بلّغت ما أرسلني به.

قالوا: ويقال: في الآية تقديم وتأخير، معناه: قل إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا، إلا أنّي أبلغكم رسالات ربي، فليس بيدي شيء من الضر والهداية، إلا تبليغ الرسالة(١).

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾، أي دائما - نعوذ بالله من ذلك -.

وقال في الآية الأخرى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، [ر،١٤٩/ب] فإذا كان هذا أفضل الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً عن غيره، علمت بذلك أنّ الأمر كلّه لله، ليس لأحد منه شيء، فلا يطلب ذلك إلا منه.

وهذا فيه تنبيه على ألا يسكن أحد إلى غير الله - سبحانه - في نفع أو دفع؛ لأنه قد أمر - سبحانه - رسوله - ﷺ - أن يتبرّأ من نفع نفسه وضرّها، فكيف أن ينفع غيره، فاتضح بهذا أن قطع العلائق بين القلب وبين غير الله من أوجب الواجبات، بحيث يخرج العبد من رق جميع المخلوقات، إلى رق الله، الذي هو المولى، ورازق المرزوقات.

فبيّن - تعالى - منصب سيّد البشر - ﷺ - في هذه الآيات، كما بيّنه - تعالى - في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ

(١) انظر تفسير الطبري: ٢٩/ ١٢٠.

﴿بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، فأخبر أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه، فمن دعى إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعى إليه بغير إذنه فقد ابتدع.

والشرك أيضًا بدعة، والمبتدع يؤول به ابتداعه إلى الشرك، ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فكان من إشراكهم أنّهم أحلّوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم[1]، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الآية [التوبة: ٢٩]، فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر أنّهم لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق.

والمؤمنون صدّقوا الرسول ـ ﷺ ـ فيما أخبر في باب الإيمان بالله واليوم الآخر، وأطاعوه فيما أمر ونهى، وحلّل وحرّم، فحرّموا ما حرّم الله ورسوله، ودانوا دين الحق؛ فإن الله بعث الرسول ـ ﷺ ـ يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرّم عليهم الخبائث، فأمرهم بكل معروف، ونهاهم عن كل منكر، وأحل لهم كل طيّب، وحرّم عليهم كل خبيث، وكل ذلك على علم من الله ـ تعالى ـ، كما قال: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

---

(١) ورد ذلك مرفوعًا في سنن الترمذي: ٥/ ٢٧٨، (٣٠٩٥).

ولهذا لمّا بدأ بتبليغ ما أُرسل به عشيرتَه الأقربين كما أمره الله، وقال له عمّه أبو لهب صنو أبيه[1]، [ك،٧٣/ب] الذي هو حريص على هدايته: تبًّا لك سائر اليوم، ما جمعتنا إلا لهذا!. من بين ذلك الجمع، طرده الله من رحمته، وشيّع بذكره في كتابه العزيز، يُقرأ في محافل المسلمين ومحاريبهم إلى يوم يرفع القرآن من [ر،١٤٩/أ] الأرض، حتى في الجنّة.

ولمّا تأسف ـ ﷺ ـ على إسلام قومه وعشيرته، خاطبه ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]، والمعنى ـ كما قال المفسرون ـ[2]: فلعلّك مُهلِكُ نَفسِك على آثارهم في طلب هدايتهم إذ وَلَّوا عنك، وأعرضوا عن الإيمان بك لمّا دعوتهم، كما يقال: «فلان يبكي على أثر فلان»، إذا بكى لفراقه، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾[الرعد: ٤٠].

والأسَف: الحزنَ، كقول يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، وقيل الأسف: الغضب، وقيل: شدة الجزع، ونظيرها قوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [الشعراء: ٨].

والبخْع: الذبح، فقال ذو الرُمّة:

ألا أيّهاذا الباخع الوجدُ نفسَه ... لشيء نحتْه عن يديه المقادرُ[3]

---

(١) أي شقيقه، يقال: شجر صنوان، أي من أصل واحد. الأساس: ٣٦٣ (صنو).

(٢) انظر تفسير الطبري: ١٥/ ١٩٤.

(٣) ديوانه: ٢/ ١٠٣٧.

يقول: المهلك بالوجد نفسَه لأجل شيء قد نحته عن يديه المقادير، فلا حيلة له في ذلك؛ لأن الأمر بيد مقدّر المقادير، العليم الحكيم.

والمعنى: لا تُفْرط في الجزع لكفرهم؛ فإنما عليك البلاغ، وكفرهم لا يضرّ الله شيئًا ولا يضرُّك، إنّما يضرّ ذلك أنفسهم فقط.

فبهذا يتبيّن لك حقُّ الله ـ سبحانه ـ، ومنصبُ الرسالة، حتى تعطي كل ذي حق حقّه، وتقصر عبادتك على عبادة من بيده الضرّ والنفع، وألا تعبده إلا بما شرع على لسان رسوله محمد ـ ﷺ ـ، فتُجرد المتابعة له ـ ﷺ ـ بتوحيدك لله ـ تعالى ـ، والله الموفق[1].

(١) كتبت في الطرة: (بلغ مقابلة على أصله فصح حسب الإمكان).

الباب الخامس عشر

(باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣﴾ [سبأ: ٢٣].

يخبر ـ تعالى ـ عن خوف الملائكة ـ عليهم السلام ـ بأنهم إذا سمعوا الوحي خرّوا سُجّدًا من مخافة الله ـ تعالى ـ، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾؛ وذلك أنّ أهل السموات لم يكونوا سمعوا صوت الوحي بين عيسى ومحمد ـ ﷺ ـ[1]، الذي ينزل إلى الأرض، فسمعوا أصواتًا كوقع الحديد على الصفا، فذلك صوت الوحي، فخرّوا سجّدًا مخافةً من الله ـ تعالى ـ، فهبط جبريل على أهل السماء بعد إلقاء الوحي إليه ـ عليه السلام ـ، فأخبرهم بقوله ـ كما في الحديث الصحيح الآتي: حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربنا يا جبريل؟. فيقول لهم ـ عليه السلام ـ: قال الحق وهو العلي الكبير.

وقال بعض أهل اللغة: إنّ «حتى» إذا كان موصولاً بـ«إذا» يكون بمعنى «لمّا»، ويقع موقع الابتداء[2]، [ر، ١٥٠/ب] كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم﴾ [المؤمنون: ٧٧]، و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، وكذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾، أي لمّا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟. ومعناه: انجلى الفزع عن قلوبهم، فقاموا عن السجود،

---

(١) انظر «الردّ على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد: ٢٩.

(٢) راجع في هذا «دراسات لأسلوب القرآن» لمحمد عبدالخالق عضيمة: القسم الأول: ١/ ٩٧ـ ١٠٩، ٢/ ١٥٧، ١٦٥.

وسأل بعضهم بعضا، وقالوا: ماذا قال ربكم؟. قالوا: قال الحقَّ، بالنصب؛ لأن الجملة «ماذا» قد يكون معناه: أي شيء، فيعرب الجواب بإعرابه نصبًا، وقد يكون «ما» وحده بمعنى: أي شيء؟، و«ذا» بمعنى «الذي»، فعلى هذا تقديره: أي شيء الذي قال؟. فيكون جوابه إذًا مرفوعًا، ولهذا قرىء: «الحقُّ» بالرفع، أي الذي قاله الحق[1].

ويُقرأ: «حتى إذا فَزَع»، بنصب الفاء والزَّاي، يعني كشف الله الفزع، وقرأ الباقون: «فُزِّع»، بالتشديد، على ما لم يسمّ فاعله[2]، والقائم مقام الفاعل: «عن قلوبهم»، والمعنى: أزيل الفزع عن قلوبهم، وقيل: المسند إليه مضمر دل عليه الكلام، أي نُحّي الخوف عنهم، وقيل: خفّف.

وقال مجاهد: معناه: حتّى إذا كُشف عنها الغطاء يوم القيامة[3].

ويُقرأ: «فُرّغ» بالراء المهملة والغين المعجمة، وهي قراءة الحسن، أي فُرّغ الفزع عن قلوبهم[4].

قال أبو البقاء: وقرىء شاذًا: «افرنقع»[5]، أي تفرّق الفزع عن قلوبهم، ومنه قول [أبي] الأحمر[6] الأسدي لما اجتمع إليه الناس: «افرنقعوا عنّي»[7]، أي تفرّقوا.

---

(١) ذكرها البيضاوي في تفسيره: ٤/ ٤٠٠. ولم أهتد إليها في كتب القراءات.

(٢) انظر «السبعة» لابن مجاهد: ٥٣٠.

(٣) رواه ابن جرير: ٢٢/ ٩٠.

(٤) انظر «المحتسب» لابن جني: ٢/ ١٩٢.

(٥) التبيان: ٢/ ١٠٦٨، وانظر «المحتسب»: ٢/ ١٩٣.

(٦) في الأصل: «أبو الأحمر».

(٧) هذه الكلمة ذكرها الجاحظ عن أبي علقمة النحوي، «البيان والتبيين»: ١/ ١٩٨، =

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾، يعني هو أعلى وأجل وأعظم من أن يُجعل له شريك في العبادة، فالذي جميع الخلائق خاضعةٌ لأمره، مستكينة له، مشفقة منه، هو المعبود وحده، الذي تُسأل منه الرغائب والعطيّات، وتُستدفع به المكاره والبليّات.

فلم يبق لمشرك بعد هذه الآية تعلّق في شِركه ولا شبهة، إلا من ختم الله على قلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله؟، فنعوذ بالله من عمى البصيرة وريْن القلوب.

(وفي الصحيح) للبخاري[1]، في التفسير، (عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء).

قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ: القضاء يأتي على وجوه ـ وقاله أهل اللغة من أهل السنّة والجماعة ـ، مراجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه، [وكلُّ ما][2] أُحكم عملُه، وأُتمّ، أو خُتم، أو أُدّي، إذا وجب و أُنفذ وأُمضي فقد قُضي. وجاءت هذه الوجوه في الكتاب والسنّة، وهي من الله ـ سبحانه ـ دائرة بين القضاء [ك،٧٣/أ] الكوني والديني، فمن الكوني: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ الآية [فصلت: ١٢]، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: ٦٦]، والقضاء الديني كقوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي أمر، كقوله ـ جلّ ثناؤه ـ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾

= وذكرت أيضًا عن عيسى بن عمر الثقفي النحوي، كما في «صبح الأعشى»: ٢/ ٢٥٧. ولم أتعرف على أبي الحمر الأسدي المذكور هنا.

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٧٣٦، التفسير، باب تفسير سورة الحجر، (٤٤٢٤).

(٢) كتبت هكذا: وكلّما.

[يوسف: ٤٠]، فليس المراد منه هنا قدّر؛ فإنّه قد أخبر في غير ما موضع [ر،١٥٠/أ] أنّه قد عُبد غيرُه، كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝﴾ الآية [الشعراء: ٧٥، ٧٦]، وقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ الآية [يوسف: ٤٠]، والآيات في هذا كثيرٌ[1] جدًّا.

فمن ظنّ أن قوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] بمعنى قدّر، وأنّ الله ما قضى بشيء إلا وقع، فقد جعل عبّاد الأصنام ما عبدوا إلا الله ـ تعالى ـ، ومن قال هذا فهو من أعظم الناس كفرًا بالكتب والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

ومعنى القضاء في هذا الحديث في زمن النبوّة يحتمل الأمرين، وأمّا بعدها فلا يكون إلا الكوني؛ لأن الديني انقطع بموته ـ ﷺ ـ عن الأرض، ولهذا قال ـ تعالى ـ في الآية التي نزلت عليه ـ ﷺ ـ في عرفة عشيّتها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣].

(ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا) ـ ويُروى في غير الصحيح: خفقانا ـ (لقوله).

فيه الإيمانُ بأنّ الملائكة أولوا أجنحة، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

وفيه أنّ قوله الذي تخضع له الملائكة ـ عليهم السلام ـ هو كلامه ـ جلّ وعلا ـ، ولهذا قالوا: ماذا قال ربّكم. ففيه ردٌّ على الجهمية

---

(١) كذا في الأصل، ولعل صوابها: كثيرة.

والمعتزلة، وقد فرّق ـ سبحانه ـ بين الخلق والأمر بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٢٨].

قال البخاري في صحيحه[١]: قال سفيان بن عيينة: بيّن الله ـ تعالى ـ الخلق من الأمر بقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

ثم وصف ـ ﷺ ـ قوله ـ تعالى ـ الذي خضعت له الملائكة خوفًا حتى أثّر ذلك الخوف في أبدانها بالسقوط خضعانًا على وجوهها بقوله:

(كأنّه سلسلة على صفوان)، قال علي بن المديني: (يَنفذُهم ذلك)، بفتح أول المضارع، فوصف ـ ﷺ ـ شدّته بوقع السلسلة من الحديد على الصفوان، وهو الحجر الأملس الصلب.

وقد وُصف في بعض الأحاديث بصفاء الرعد الذي لا يرجِّع.

وعند محمد بن طاهر بن علي الحنبلي، في كتابه: «الحجّة على تارك المحجّة»[٢] بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان لكل قبيل من الجنّ مقعد من السماء يستمعون فيه الوحي إذا نزل، يُسمع له [صوت][٣]

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٧٤٦، التوحيد، باب قول الله ـ تعالى ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

(٢) لا يزال مخطوطًا، وصاحبه هو ابن القيسراني، صاحب «كتاب السماع»، و«صفوة التصوف» وغيرها من الكتب، وهو ظاهري المذهب كما في تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٢٤٤. ولأبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي كتاب بنفس العنوان.

(٣) في الأصل: صوتًا.

[كإمرار][1] السلسلة على الحجر، فلا ينزل إلى سماء إلا صُعقوا، حتى ينزل إلى سماء الدنيا، ثم يقال: يكون العامَ كذا، ويكون العامَ كذا، فتسمع الجنّ ذلك، فتخبر الكهنة، فتخبر الكهنة به الناس، فيجدونه كما قيل، فلما بعث الله رسوله دُحروا.. الحديث.

وقوله: (يُنفذهم ذلك)، فيه دليل على أنّ الغشي يصيبهم كلَّهم مما سمعوا من ذلك، ولهذا قال: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ [سبأ: ٢٣]).

وفيه دليل مع ما يأتي أنّ جبريل [ر،١٥١/ب] ـ عليه السلام ـ يرفع رأسه وهم في غشيهم؛ ليُلقى إليه الوحي، ولهذا يسألونه: ماذا قال ربّنا يا جبريل؟. فيجيبُهم بما يأتي.

(قالوا) ـ للذي قال ـ: (الحق وهو العلي الكبير).

فإذا علمت أن علم الغيب مطوي عن الملائكة، فغيرهم أولى، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، وقال في حق شياطين الجنّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: ١٤].

قال البخاري في صحيحه: قال مسروق عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إذا تكلّم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئًا، فإذا فُزع عن

(١) في الأصل: «كإمداد»، بالدال، وليس لها وجه.

قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق وهو العلي الكبير[1].

قال البخاري: «ولم يقل: ماذا خلق ربكم». يشير ـ رحمة الله عليه ـ إلى الردّ على الجهميّة والمعتزلة ـ قاتلهم الله، أنى يؤفكون ـ.

(فيسمعها) يعني كلمة الحق (مسترق السمع) من الشياطين، (ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ وصفه سفيان) بن عيينة، وهو أحد رواة هذا الحديث، وهو حديث متصل بالسماع والتحديث.

(بكفّه، فحرَفها) سفيان بأن جعل خُنصُرَها إلى الأرض، وإبهامها إلى السماء، وجعلها إلى السماء على حرف.

(وبدّد بين أصابعه) أي فرّق بينها واصفًا لركوب الشياطين بعضها فوق بعض لاستراق السمع إلى عنان السماء.

(فيسمع) المسترق الأعلى (الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها) آخرهم، وهو أسفلهم إلى الأرض (على لسان الساحر أو الكاهن من الإنس).

وهذا دليل واضح على صحّة وصف سفيان لركوب بعضهم على بعض.

(فربّما أدرك) الشهاب المستمع (قبل أن يلقيها) إلى من تحته.

وفي تسمية المقذوف شهابًا دليل أنه ليس النجمَ نفسَه، وإنما هو

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٧١٩، التوحيد، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ..﴾.

شهاب يحدثه الله منه بقدرته ـ جل وعلا ـ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]؛ لأنها هي المادّة التي يخرج منها الشهاب، كما أن النّار لا يعدمها ولا يُزيلها عن هيئتها القبس منها[1].

(وربّما ألقاها) المستمع (قبل أن يدركه) الشهاب، (فيكذب معها مائة كذبة)، وفي ذلك من العبرة ما جعل الله ـ سبحانه ـ لمسترقي السمع من القوى والقدرة على استماعه، ومع ذلك صُرفوا عن الحق وهم يعلمونه.

(فيقال: أليس قد قال) أي الساحر أو الكاهن (لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا)، من كلمة الحق التي كذب معها مائة كِذْبة، (فيُصدَّق بتلك الكلمة) الحق (التي سُمعت من السماء).

وفي هذه تنبيه أن الإنسان [ر،١٥١/ب] لا يغتر بصاحب الباطل بما يكون في باطله من الحق، وأنّ من عُرف [ك،٧٤/ب] بالكذب لا يُقبل قوله.

وفيه معرفةُ أنّ للشياطين أولياءَ من بني آدم، يشاركونهم في ذلك، وأنّهم يضاهون بكذبهم هذا أخبارَ الرسل ـ عليهم السلام ـ؛ ليروّجوا على النّاس بذلك، وليُلبسّوا عليهم دينهم، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ولذلك مُنعوا وقت المبعث برجْم الشهب، بحيث استنكروا كثرتها، وفزع بعضهم إلى بعض، وإن كانوا قد يُرجمون قبل

---

(١) كما أن من الشهب ما يكون سببه اصطدام بعض الأجرام الصغيرة بالغلاف الغازي للأرض، وليس بلازم أن كل ما لمع في السماء رجوم للشياطين.

ذلك، كما هو معروف عند العرب في أشعارها وأنثارها، وسيأتي حديث البخاري في ذلك.

وفيه مع ما هم فيه من الباطل أنّهم يعانون في باطلهم المشاقّ العظيمة، ويصبرون على ما ينوبهم فيه، من الصعود إلى عنان السماء، والمخاطرة على ما يصيبهم من الشهب التي تأتيهم وهي تلتهب.

وأنّ لهم أولياءَ على ذلك من الإنس، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣]، ففي ذلك تنبيه لأهل الحق أن يصبروا على ما يصيبهم فيه.

وقد قال الإمام أحمد في محنته ما مضمونه: ما عزّاني مثل سارق قال لي: يا أحمد، إني ضُربت كذا وكذا سوطًا لأقر بحق، فصبرت ولم أقر، وأنت تُضرب على الحق لتقر بالباطل. يعني فلا يكون صاحب الباطل على باطله أصبر منك على الحق، وكان أحمد بعد ذلك يدعو له[1].

وروى البخاري وغيره عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الملائكة تتحدّث في العنان ـ والعنان الغمام ـ بالأمر يكون في الأرض فتستمع الشياطين الكلمة فتقرُّها في أذن الكاهن كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة»[2].

---

(١) انظر نحو هذا في «محنة الإمام أحمد» للمقدسي: ٤٩، و«سير أعلام النبلاء»: ١١/ ٢٤٠.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١١٩٧، بدء الخلق، باب صفة إبليس..، (٣١١٤)، وقوله =

وفي رواية للبخاري أن النبي - ﷺ - قال: إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب -، فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكهّان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[1].

وفيه أيضًا[2] عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: بينما النبي - ﷺ - في نفر من الأنصار، إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال النبي - ﷺ -: ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟. قالوا: كنّا نقول: يموت عظيم، أو يولد عظيم. فقال النبي - ﷺ -: إنه لا يُرمى لموت أحد ولا لحياته، ولكنّ ربّنا - تبارك وتعالى - إذا قضى أمرًا، سبّح حملة العرش، ثم سَبَّح أهل السماء الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهلَ هذه السماء، ثم يسأل أهلُ السماء السابعة حملةَ العرش: ماذا [ر،١٥٢/ب] قال ربّنا؟. فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماء، حتى يبلغ الخبر إلى أهل السماء الدنيا، ويخطف الشياطين السمع، فيُرمَوْن، فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، لكنّهم يزيدون.

وفي رواية قال معمر: قلت للزهري: أكان يُرمى بها في الجاهلية؟. قال: نعم، ولكنّها غُلّظت حين بعث النبي - ﷺ -[3].

= «كما تقر القارورة» سيأتي شرحه عند المؤلف قريبًا.

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٦٣، بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (٣٠٣٨).

(٢) كذا قال، وليس هو عند البخاري، إنما رواه مسلم: ٤/ ١٣٩٦، السلام، باب تحريم الكهانة..، (٢٢٢٩).

(٣) رواه أحمد: ١/ ٢١٨، والطبري: ٢٣/ ٣٧.

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٨].

وكلام الزهري هذا يشهد لما قدّمنا، وإنّما أنكرت العرب كثرةَ الرجوم بالنجوم، لا وجودَه؛ لصحّة الأخبار عن العرب بوجوده قبل المبعث، وذكره في أشعارها.

وذكره عبدالرزّاق في تفسيره عن معمر عن ابن شهاب بنحو ما ذكر البخاري، ولفظه أنه سُئل عن هذا الرمي بالنجوم: أكان في الجاهلية؟. قال: نعم، ولكنّه إذ جاء الإسلام غُلّظ وشدّد[١].

ورواه عنه أيضًا ابن إسحاق[٢].

قال الزهري: وملئت السماء حرسًا شديدًا وشهبا، فحرست السماء حينئذ.

فروى أبو جعفر العقيلي[٣] في كتاب الصحابة عن رجل من بني لهب، يقال له: «لهيب» قال: حضرت مع رسول الله ـ ﷺ ـ، فذُكِرت عنده الكهانة، فقلت: بأبي وأمي، نحن أول من عرف حراسة السماء، وزجر الشياطين، ومنعَهم من استراق السمع عند حذف النجوم، وذلك

(١) تفسير عبدالرزاق: ٣/ ٣٢٢.

(٢) انظر سيرة ابن هشام: ١/ ٢٠٧.

(٣) هو محمد بن عمرو بن موسى بن حماد، العقيلي، الحجازي، صاحب «كتاب الضعفاء» وغيره، وقد كان كثير المصنفات، ت ٣٢٢هـ. انظر السير: ١٥/ ٢٣٦ـ ٢٣٩.

أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له: خطر بن مالك، وكان شيخًا كبيرًا، قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة، وكان من أعلم كهّاننا، فقلنا له عند ذلك: هل عندك علم من هذه النجوم التي يُرمى بها؟؛ فإنا قد فزعنا لها، وخشينا سوء عاقبتها. فقال: عودوا إليّ السَّحَر فذكر قصة طويلة، وفيها أنهم أتوه سحَرًا بعد ما انقضّ نجم عظيم، وصرخ الكاهن، ثم ذكر أقسامه، ثم قال: لقد مُنع السمعَ عُتاتُ الجانّ، بثاقبٍ بكف ذي سلطان، من أجل مبعوث عظيم الشأن، يُبعث بالتنزيل والقرآن، وبالهُدى وفاصل الفرقان، تبطل به عبادة الأوثان. ثم ذكر كلامًا طويلاً، ثم قال: هذا هو البيان، أخبرَني به رأس الجانّ. ثم قال: الله أكبر، جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجنّ الخبر. ثم سكت وأغمي عليه، فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام، فقال: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لقد نطق عن مثل النبوّة، وإنّه ليبعث يوم القيامة أمّة وحده. وذكر في خبره أن المبعوث من قريش، من بني هاشم(١).

ولا ريب [ك،٧٤/أ] أنّ الله ـ سبحانه ـ لمّا بعث محمدًا ـ ﷺ ـ حُفظت السماء، وملئت حرسًا شديدًا وشهبًا، فحفظت من سائر أرجائها، وطُردت

---

(١) نقل هذا الخبر بطوله ابن عبدالبر في الاستيعاب: ٣/ ١٣٤٣، عن كتاب الصحابة للعقيلي، وساق سند العقيلي، ثم قال: إسناد هذا الحديث ضعيف، ولو كان فيه حكْم لم أذكره؛ لأنّ رواته مجهولون، وعمارة بن يزيد متهم بوضع الحديث، ولكنه في معنى حسن من أعلام النبوة، والأصول في مثله لا تدفعه، بل تصححه وتشهد له، والحمد لله. ا. هـ.

ولا شك أن ما قاله أبو عمر عين الصواب لو كان الإسناد ضعيفًا فحسب، أما وفيه متهم بالوضع فلا حاجة بنا إلى مثل هذه الآثار، مهما حسُن معناها، وخصوصًا ما كان منها بالغ الغرابة، نحو هذا الأثر؛ فإن الهمم والدواعي تتوافر على روايته ونقله لو كان ثابتًا.

الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها للسمع قبل ذلك؛ [ر،١٥٢/أ] لئلا يسترقوا شيئًا من الوحي، فيلقونه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يُدرى من الصادق، فكان هذا من لطف الله ـ تعالى ـ بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه، ولهذا قالت الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩]، يقول: من يروم السمع اليوم ليسترقه يجد له شهابًا مُرصدًا له، لا يتخطّاه ولا يتعدّاه، بل يمحقُه ويهلكُه.

ثم قال: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠]، فأضافوا الخير إلى الله ـ سبحانه ـ، وأسندوا الشر إلى غير فاعل، وإن كان الخالقَ له اللهُ، ولهذا صحّ عنه ـ ﷺ ـ في الصحيح أنّه قال في دعائه: «والشرّ ليس إليك»[(١)].

وبما تقدّم يظهر سرّ كثرة الرجوم بالنجوم.

وقد قال السُدّي: لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين ظاهر[(٢)].

وذكر أن أول من فزع لذلك أهل الطائف، وأن إبليس لما فزعت إليه الشياطين أمر أن يأتوه من كل أرض بقبضة من تراب، فأتوه بذلك، فشمّها وقال: صاحبكم بمكّة. في قصّة طويلة، ذُكر فيها بعثُه لجنّ نصيبين، فوجدوه ـ ﷺ ـ قائمًا يصلي[(٣)].

(١) أخرجه مسلم: ١/ ٤٤٩، صلاة المسافرين..، باب الدعاء في صلاة الليل..، (٧٧١).
(٢) ذكره عنه ابن كثير: ٤/ ٤٣١، سورة الجن.
(٣) نقله عن السدي ابن كثير في «البداية والنهاية»: ٣/ ٢٠.

وقوله في الحديث المتقدّم: «فيقرّها في أذنه كما تُقرّ القارورة»، قالوا: معناه كما يُسمع صوت الزجاجة إذا حُلّت على شيء، أو ألقي فيها شيء[1].

وقال القابسي[2]: المعنى أنّه يكون لما يلقيه الجنّي إلى الكاهن حسّ كحس القارورة إذا حرّكت باليد أو على الصفا.

وقال الخطّابي: المعنى أنّه يطبَّق به كما يطبَّق رأسُ القارورة برأس الوعاء الذي يفرّغ فيه منها ما فيها[3].

وفي الرواية الأخرى: «قرّ الدجاجة»، وفيه معنى التشبيه، فكما أنّه يشبَّه إيراد ما اختطفه من الكلام في أذن الكاهن بصبّ الماء في القارورة، يصحّ أن يشبَّهَ ترديد الكلام في أذنه بترديد الدجاجة صوتَها في أذن صواحبها[4].

وهذا مشاهد؛ ترى الديك إذا رأى شيئًا ينكره يقرقر، فيسمعه الدجاج فيجتمع ويقرقر معه، وباب التشبيه واسع[5].

وفي رواية: «الزجاجة»، ومعناها «في القارورة»، وقد أنكرها

---

(١) عن «فتح الباري»: ١٠/ ٢٢٠.

(٢) هو أبو الحسن، علي بن محمد بن خلف، المَعافَري، القروي، المكي، قال الذهبي: وهو من أصح الناس كتبًا.ا.هـ. وذكر له: «أحكام الديانات»، «المنقذ من شبه التأويل»، «المنبّه لذوي الفطن من غوائل الفتن»، «الاعتقادات». ت ٤٠٣هـ. انظر السير: ١٧/ ١٥٨ـ ١٦٢.

(٣) لم أجد هذا اللفظ في «غريب الحديث»: ١/ ٦١١، ٦١٢.

(٤) عن «فتح الباري»: ١٠/ ٢٢٠.

(٥) انظر السابق.

الدارقطني، وقال إنّها تصحيف، وإنّما هي «الدجاجة» بالدال[١].

وروى البخاري حديث أبي هريرة المتقدم من وجه آخر فقال: حدّثنا علي بن عبدالله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ[٢].

وهذا سند الحديث الذي أورده المصنّف، إلاّ أن «عليًّا» في مكانه «الحميدي» هناك[٣]، ولفظه هنا: عن أبي هريرة يبلغ به النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا قضى الله الأمر من السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خصعانًا لقوله، كالسلسلة على صفوان ـ قال علي: وقال غيره: [ر،١٥٣/ب] على صفوان ينفذهم ذلك ـ فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟. قالوا ـ للذي قال ـ: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقوا السمع، ومسترقوا السمع هكذا واحد فوق آخر ـ ووصف سفيان بيده، وفرّج بين أصابع يده اليمنى، ينصبها بعضها فوق بعض ـ فربّما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربّما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه، ثم إلى الذي أسفلَ منه، حتى يُلقوها إلى الأرض ـ وربّما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض ـ، فتُلقى على فم الساحر، فيكذب معها مائة كذبة فيُصدّق، فيقولون: «ألم يخبرنا يوم كذا وكذا: يكون كذا وكذا، فوجدناه حقّا؟»، للكلمة التي سُمعت من السماء.

---

(١) انظر السابق.

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٧٣٦، التفسير، باب تفسير سورة الحجر، (٤٤٢٤).

(٣) الرواية التي عن الحميدي في موطن آخر من الصحيح: ٤/ ١٨٠٤، التفسير، باب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ . .﴾، (٤٥٢٢).

وقال ابن أبي حاتم[١]: حدّثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور ابن سيّار الزيادي والسياق لمحمد بن عوف قالا: حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبدالله بن زكريا، عن رجاء بن حيوة، عن النوّاس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ، ـ هو النوّاس ـ بتشديد الواو، ثم مهملة ـ ابن سمعان بن خالد الكلابي الأنصاري، صحابي مشهور، سكن الشام ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلّم بالوحي».

الوحي يقع على الرسالة، والكتابة، والإشارة، والكلام الخفي والجهير، ومنه وحاة الرعد، ويقع أيضًا على الإلهام.

قال ابن سِيْدَه: يقال: «وحى وحيًا»: كتب، والوحي: المكتوب أيضًا[٢]، قال لبيد بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ:

فمدافع الريان عُرّي رسمها خلقًا كما ضمن الوُحيَّ سِلامُها[٣]

والمعنى أن آثار هذه المنازلِ كأنها كتابة في حجارة؛ لأن ذلك لا يَبين من بعيد؛ فإنّ نقْشه بالكتاب ليس بشيء مخالف للونه، فلا يتبيّن إلا لمن قرب منه، فوصَفَ الآثارَ الدارسة بذلك.

والمدافع: مجاري الماء، والريّان: واد بالحمى، بين «طخفة» و«غول»[٤].

(١) ذكره مسندًا ابن كثير في تفسيره: ٣/ ٥٣٨، وقد رواه ابن جرير: ٢٢/ ٩١، وابن أبي عاصم في «السنة»: ١/ ٢٢٧، (٥١٥)، وقال الألباني: إسناده ضعيف.

(٢) انظر اللسان: ١٥/ ٣٧٩.

(٣) من معلقته، انظر ديوانه: ص ٢٩٧.

(٤) وفى معجم البلدان (٣/ ١١٠) أنه جبل في بلاد بني عامر.

قال النضر بن شميل: ومنه: «سمعت وحاة الرعد»، وهو صوته الممدود الخفي، والرعد يحي وحاة(١).

واستوحيناهم: استصرخناهم، وكل كلام خفي أيضًا يسمّى وحيا، قال علقمة الفحل التميمي يصف نقنقة ذكر النعام عند أدُحيةٍ(٢) للأنثى:

يوحي إليها بأنقاض ونقنقةٍ كما تَراطَنُ في أخدانها الرومُ(٣)

ومن الشاهد على الكتابة قول جرير:

حيّ الديارَ كوحي الكافِ والميمِ ما حظُّك اليومَ منها غيرُ تسليمِ(٤)

وقال ابن الأنباري: سمّي وحيًا لأن الملَك يستره عن جميع الخلق(٥).

ويكون [ر،١٥٣/أ] الوحي بمعنى الأمر، قال ـ تعالى ـ: [ك،٧٥/ب] ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١].

وبمعنى الإلهام، كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧].

وقد كره العلماء ما تطلقه الصوفية على خواطرها من قول أحدهم: «أُوحي إليّ»، ويقصدون هذا المعنى؛ لما فيه من التلبيس على الناس،

---

(١) انظر اللسان: ٥١/ ٣٨٢.
(٢) الأُدْحيّة الموضع الذي تفرّخ فيه النعامة؛ لأنها تدحوه برجلها، أي تبسطه، انظر اللسان: ١٤/ ٢٥١.
(٣) ديونه: ص ٦٢.
(٤) ديوانه: ١/ ٣٥٨.
(٥) انظر اللسان: ١٥/ ٣٨٠.

والتشبّه بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في هذا اللفظ المخصوص استعماله بهم، فإذا أخبر بذلك عن غير الآدمي كالنحل جاز.

ويقال أيضًا: «أوحى» و«وحى» وحيا بمعنى.

قال الفرّاء: «أوحيت إليك» حجازية، و«وحيت» أسديّة[1].

(«أخذت السموات رجفة») وهي تَحرُّكُ الشيء بانزعاج.

(ـ أو قال: رِعدة ـ شديدة) وهي دون الرجفة، إلا أنها متتابعة، والرجفة شديدة الحركة والاضطراب.

(خوفًا من الله ـ سبحانه ـ).

وظاهر هذا أنه يأخذ السمواتِ نفسَها بأهلها، ويدل عليه قوله: (فإذا سمع ذلك أهل السموات صُعقوا)، ويحتمل أن يكون بحذف المضاف، أي أخذت أهلَ السموات رجفة، على حد قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ الآية [يوسف: ٨٢].

(أو قال: خرّوا لله سُجّدا)، فالصعق أن يُغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه كصاعقة الرعد، وربّما مات، ولهذا ورد أنّه يُنتظر بالمصعوق ثلاثا[2]، فهذا حال الملائكة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

والجهميّ[3] يسمع كلام الله الذي عجزت الفصحاء والبلغاء عن

---

(١) انظر اللسان: ١٥/ ٣٨١.

(٢) رواه ابن عدي في الكامل: ٣/ ٣٤٥ من قول الحسن البصري، وانظر المحلى: ٥/ ١٧٣. والمراد أنه لا يدفن حتى يُستيقن هلاكه. ورواه أحمد في العلل: ١/ ٥٠١، (١١٦٩).

(٣) سبق التعريف بالجهمية.

معارضته ولو بآية من مثله، حتى أقرّوا على أنفسهم أنّه لا يتقوّلُه البشر، حيث قال الوليد ـ حين استمع إلى تلاوة النبي ـ ﷺ ـ له: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمعذق، وإنه ليحطم ما تحته، ـ وفي لفظ: إنه ليعلو ولا يُعلى، وما تقوّله بشر ـ(١).

وهو ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ويقول الجهمي: هذا قول البشر، أو عبارة لجبرئيل ـ عليه السلام ـ منه(٢). فكابر قول رب العالمين: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ

(١) روى نحوه ابن جرير (٢٩/ ١٥٧) عن قتادة مرسلاً، ورواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس: ٢/ ٥٥٠، (٣٨٧٢)، والبيهقي في الشعب: ١/ ١٥٦، (١٣٤)، وفي الاستيعاب (٢/ ٤٣٣) أنه قرأ عليه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ..﴾ الآية. فقال ما قال. والوليد المذكور هو الوليد بن المغيرة المخزومي، الذي نزل فيه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾... الآيات.

(٢) يقول القاضي أبوبكر الباقلاني ـ وهو من متقدمي أئمة الأشاعرة ـ: (والمنزَّل على الوجه الذى بيّناه ـ من كونه نزول إعلام وإفهام، لا نزول حركة وانتقال ـ كلام الله ـ تعالى ـ القديم الأزلي، القديم بذاته؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٩٢﴾... والنازل على الحقيقة، المنتقل من قطر إلى قطر، قول جبريل ـ عليه السلام ـ، يدل على هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾... وقوله ـ تعالى ـ: ﴿.. إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ ..﴾. وهذا إخبار من الله ـ تعالى ـ بأن النظم العربي الذي هو قراءة كلام الله ـ تعالى ـ (قولُ جبريل، لا قول شاعر، ولا قول كاهن..) إلخ من «الإنصاف»: ١٤٧، ١٤٨. وعلى هذا جرى الأشاعرة في قولهم إن القرآن عبارة عن كلام الله، ففي المواقف (ص ٢٩٣، ٢٩٤) بعد أن افترى على الحنابلة بأن منهم من يقول: الجلد والغلاف قديمان. قال: (وقالت المعتزلة: أصوات وحروف يخلقها الله في غيره، كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبي، وهو حادث. وهذا لا نكره، لكنّا نثبت أمرًا وراء ذلك؛ وهو المعنى القائم بالنفس؛ ونزعم أنه غيّر العبارات؛ إذ قد تختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام..) إلى أن يقول: (إذا =

﴿كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾، فسيُصلي الله من قال ذلك القول سقر.

(فيكون أول من يرفع رأسه جبرئيلُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فيكلّمه الله من وحيه بما أراد من أمره ـ جل وعلا ـ)، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ الآية.

(ثم يمر جبرئيل على الملائكة) ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وقد رفعوا رؤوسَهم من صعقتهم عند سماعهم لكلام الله ـ تعالى ـ بالوحي، (كلّما مرّ بسماء) من السموات السبع (سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبرئيل؟).

وفي هذا دليل [ر،١٥٤/ب] أنّهم لا يعون الوحي من الصعق الذي يصيبهم في أوّل وهلة، وأنّ جبرئيل ـ عليه السلام ـ هو المخصوص من بينهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بالوحي، وهو السفير بين الله وبين أنبيائه ورسله.

(فيقول) لهم (جبرئيل ـ عليه السلام ـ: قال الحقَّ، وهو العلي الكبير، قال: فيقولون كلّهم مثلَما قال جبرئيل، فينتهي جبرئيل بالوحي) الذي أوحي إليه (إلى حيث أمره الله ـ عز وجل ـ») من السماء والأرض.

= عرفت هذا، فاعلم أن ما يقوله المعتزلة، وهو خلق الأصوات والحروف وكونها حادثة قائمة، فنحن نقول به، ولا نزاع بيننا وبينهم في ذلك). ا. هـ.

وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية قول الأشاعرة بأن كلام الله معنى قائمٌ بالنفس بنحو من تسعين وجهًا، في كتاب «التسعينية»، وانظر ردّه على خصوص كلام الباقلاني السابق في التسعينية: ٣/ ٩٧١ وما بعدها.

وكذا رواه ابن جرير في تفسيره[1] وابن خزيمة في صحيحه[2]، عن زكريا بن أبان [المصري][3]، عن نعيم بن حمّاد به.

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفي عن ابن عباس، وعن قتادة، أنهما فسّرا قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، [بابتداء][4] إيحاء الله إلى محمد ـ ﷺ ـ، بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ[5].

قالوا[6]: ولا شك أنّ هذا أولى ما دخل في هذه الآية[7].

ومن لم يذعن للوحي الذي نزل به جبرئيل الأمين على خاتم المرسلين محمد الأمين ـ عليهما الصلوات والسلام إلى يوم الدين ـ، ويعبد ربّه وحده بما شرع له في كتابه أو على لسان رسوله ـ ﷺ ـ فليس من الله في شيء، والله الموفق.

---

(١) تفسير ابن جرير: ٢٢/ ٩١.

(٢) كتاب التوحيد: ١/ ٣٤٨، (٢٠٦) وكتاب التوحيد جزء من كتابه الصحيح.

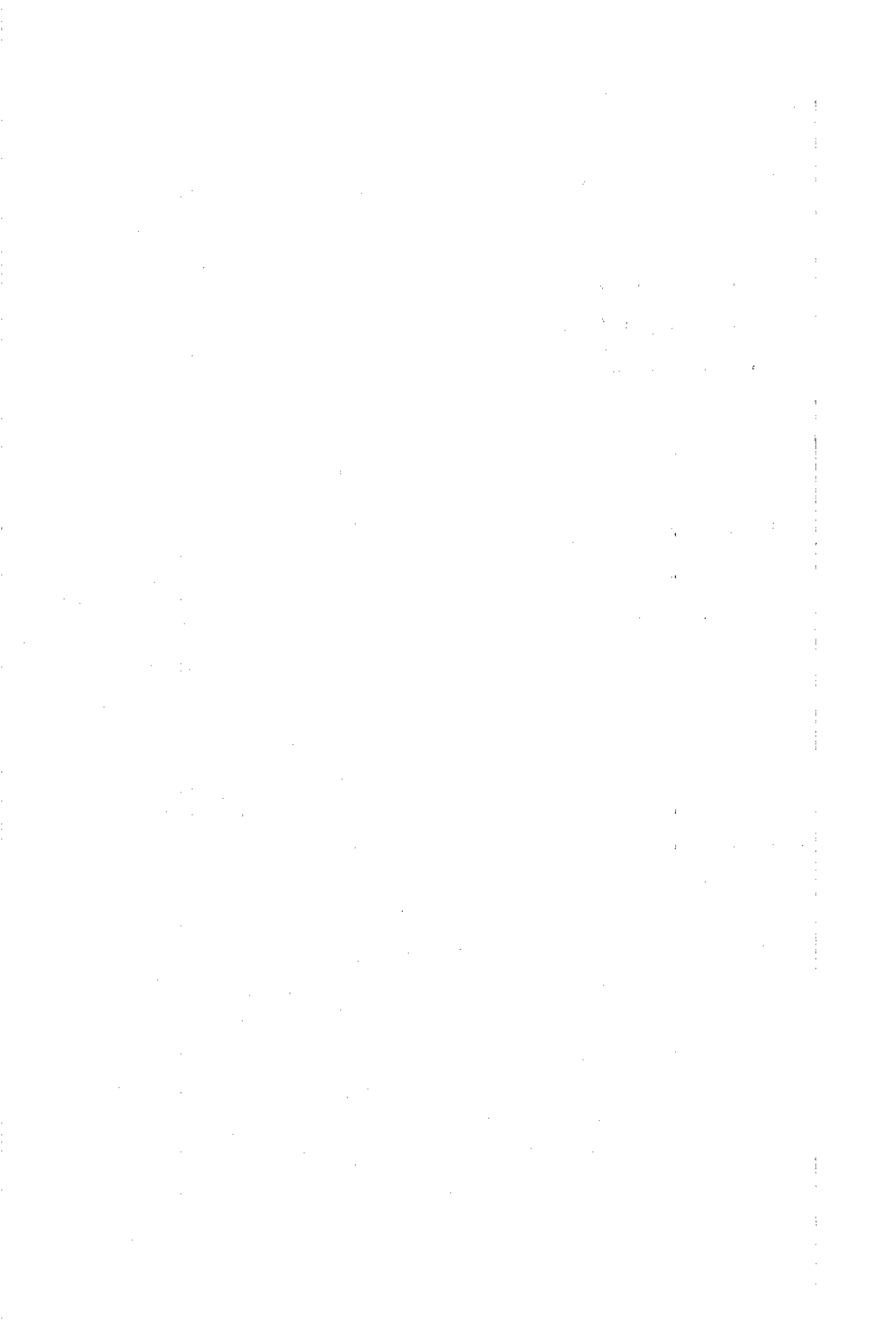
(٣) كذلك هو في تفسير الطبري، ومخطوطات التوحيد لابن خزيمة، لكن محققه الدكتور عبدالعزيز الشهوان يذكر أنه خطأ، وأنّ صوابه: زكريا بن يحيى بن إياس. انظر كتاب التوحيد: ١/ ٤٣. وزكريا بن أبان هذا له ذكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ١٦٦) يروي عن نعيم بن حماد. وفي حلية الأولياء: ٧/ ١٥٠ ونسبه فقال: الواسطي. وقد وقع في الأصول: «البصري»، والتصويب من تفسير الطبري وابن كثير، ٤/ ٥٥٦، والمؤلف ينقل منه.

(٤) في الأصل: «بأشد»، والتصويب من تفسير ابن كثير، والمؤلف ينقل منه.

(٥) انظر تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٣٨.

(٦) ليس في تفسير ابن كثير: «قالوا»، وإنما القائل هو ابن كثير نفسه.

(٧) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٣٨.



الباب السادس عشر

باب الشفاعة

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١]).

قال بعض المفسّرين: الضمير في قوله: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾، لـ ﴿ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾؛ لأنّه في سياقه، أي خوّف بما يوحَى إليك ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ ﴾، أي يُبعثوا، أو يُجمعوا إلى ربّهم.

وقيل: ﴿ يَخَافُونَ ﴾ أي يعلمون؛ لأنّ خوفهم إنما كان من علمهم، وهم المؤمنون المفرّطون في العمل، أو المجوّزون للحشر، مؤمنًا، أو كافرًا مقرًّا به، أو متردّدًا؛ فإنّ الإنذار ينتجع[1] فيهم دون الفارغين عنه، الجازمين باستحالته.

وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل: ٢]، فسمّى الوحي في هذه الآية روحًا، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الآية [الشورى: ٥٢]؛ لأنّه تحيا به القلوب، ويموت به الكفر والباطل.

---

(١) في «الأساس» (ص ٦٢٠): (انتجعت فلانًا: طلبت معروفه)، (وفلان لا ينجع فيه القول)، ويبدو أن المؤلف استعمل (ينتجع) بمعنى: ينفع.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، وفي الأخرى: ﴿مِّنْ أَمْرِنَآ﴾، يدل على أنّ القرآن كلام الله حقيقة، غيرُ مخلوق؛ لأنّه ـ سبحانه ـ فرّق في الآية الأخرى بين الخلق والأمر فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، ليس المراد: أنذروا من التوحيد، وإنما هو معلّق بضدّه، وهو الشرك؛ لأنّه إذا علموا أن التوحيد حق، وليسوا عليه، فقد خُوّفوا ما عليهم من وبال الباطل، يدل عليه قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾، وقولُه قبلها: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾.

ومفعول الإنذار محذوف، تقديره: بأن أنذروا المشركين العذاب، أي أعلموهم به؛ [ر،١٥٤/أ] لأنّه لا إله إلا أنا.

وهذه الآيات يبيّن بعضها بعضا، فلأجل ذلك ذكرناها لتوضيح بعضها بعضا.

وقولُه: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ﴾، أي قريب ينفعهم، ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾ عمّا نهيتهم عنه، ليسلموا من هول ذلك اليوم العظيم، الذي لا حاكم فيه إلا الله الواحد القهّار.

وإنّما نفى الشفاعة لغيره مع أنّ الأنبياء والأولياء والشهداء والأطفال يشفعون ذلك اليوم لأنّهم لا يشفعون إلا بإذنه ـ تبارك وتعالى ـ [ك،٧٥/أ] لمن ارتضى.

فنفى ـ سبحانه ـ ما يزعم المشركون ويطلبون من آلهتهم التي يدعون من دون الله ـ تعالى ـ.

(وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٤])

ذكر ـ سبحانه ـ هذه الآية الشريفة في سياق قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أي عبدوها لتشفع لهم عند الله، كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ الآية [الزمر: ٣]، ولهذا قال: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي فيشفعون لكم، لو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم: جماداتٍ لا تقدِرُ ولا تعلم، فلذلك قال بعد هذه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾، قال بعض المفسرين: لعلّه ردٌّ لما عسى أن يجيبوا به، وهو أن الشفعاء أشخاص مقرّبون، والأصنام تماثيلهم، والمعنى أن الله ـ سبحانه ـ مالك الشفاعة كلّها، لا يستطيع أحد شفاعةً إلا بإذنه، ولا يستقل بها، فإذا كان الأمر كذلك، فكيف تجعلون لمن له الشفاعةُ جميعًا ندًّا تدعونه من دونه.

ثم قرّر ـ عز وجل ـ ذلك فقال: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي هو مالك الملك كلِّه، لا يملك أحد أن يتكلّم في أمره دون إذنه ورضاه.

﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أي يومَ القيامة، فهو ـ سبحانه ـ له الملك في الأولى والآخرة.

قالوا: والميم في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ صلة، ومعناه: «أَتخذوا؟»، اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به التوبيخ والزجر[1].

---

(١) «أم» هنا للإضراب مع الاستفهام الإنكاري، فالمعنى: بل أتّخذوا... وانظر عن معنى «أم» المنقطعة: المغني: ٦٦، و«دراسات لأسلوب القرآن الكريم» لمحمد عبدالخالق عضيمة: القسم الأول: ١/ ٢٩٧، ٢٩٨. وانظر «بدائع الفوائد» لابن =

وهذه الآية كقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه: ١٠٩].

فإذا تحققنا أنّه لا شفاعة إلا عن رضاه وإذنه ـ تعالى ـ، علمنا بذلك أن الشفاعة لله جميعا؛ لأنّها إذا كانت صادرة عن إذنه، فهي منه ـ سبحانه ـ، وهو المستقل بها، فحينئذ لا تُطلب إلا منه وحده.

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤])[١].

يأمر ـ تبارك وتعالى ـ في هذه الآية الكريمة المؤمنين أن ينفقوا مما رزقهم الإنفاقَ الواجب. كالزكاة ونفقة العيال، وما يتصل الوعيد بترك إنفاقه، ولهذا قال تهديدًا لتارك ذلك: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾، والمعنى: من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون [ر،١٥٥/ب] على تدارك ما فرطتم، والخلاص من عذابه؛ إذ ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فتحصّلون به ما تنفقونه، أو تفتدون به من العذاب، ﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾ حتى يعينكم عليه أخلاّؤكم، أو يسامحوكم به، ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ ـ إلا لمن ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ ـ حتى تتكلوا على شفعائكم، فتشفعَ لكم من

= القيم: ٢٠٦ـ ٢٠٩، حيث رجح أنّ «أم» حيث وقعت فهي معادلة لهمزة الاستفهام وإن لم يكن قبلها إداة استفهام، فالاستفهام مدلول عليه بقوة الكلام وسياقه. فتقدير المعنى في الآية على رأيه: آلهتهم التي يعبدون تفعل هذا ـ أي المذكور في الآية قبلها، في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا .﴾ الآية ـ؟، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾؟.

(١) هذه الآية الكريمة ليست في المطبوع من كتاب التوحيد.

دون الله، في حطّ ما في ذِمَمِكم عنكم، ولهذا قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾، أي التاركون الإنفاقَ الواجب، وهم الذين وضعوا الأمر غيرَ موضعِه، وكفروا نعمته.

والكفر هاهنا من الكفران، لا من الكفر؛ لأنّه خطاب للمؤمنين، فوُضع «الكافرون» موضعَه تغليظًا أو تهديدًا، كقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، مكان «من لم يحج»[1]، وإيذانًا بأن ترك الزكاة من صفات الكفّار، كقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، على قول.

(وقوله) أيضًا: (﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥])، هذا استفهام بمعنى الإنكار والنفي، وبيانٌ لملكوته وكبريائه ـ جل وعلا ـ، أي لا يتمالك أحد أن يتكلم يوم القيامة بشفاعة وغيرها من التصرّفات إلا بأمره.

وفي بعض نسخ «التوحيد»، غير خط الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ: (وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فيما روى البيهقي عنه[2]: الذين ارتضاهم بشهادة أن لا إله إلا الله، ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾).

وهاتان الآيتان ليستا في أصل الشيخ كما ذكرنا، فلعلّه ألحقها

---

(١) يريد في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾.

(٢) الاعتقاد: ٢٠٣.

بعد[1].

فقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ الآية، لما ذكر ـ تعالى ـ قوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾، منكرًا لذلك بأنه ليس له كل ما يتمنّاه، أعقبها بقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾، والمراد منه نفي طمع المشركين في شفاعة الآلهة التي يعبدون من دون الله، ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾، قيل: ثواب الآخرة والأولى. ويقال: أهل السموات والأرض كلّهم عبيده، ويقال: نفاذ الأمر في الآخرة والأولى له، ويقال: جميع ما فيهما يدل على وحدانيته. والكلّ تحتمله الآية[2].

ولهذا قال ـ جل وعلا ـ في الآية: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، أي لا تنفع شفاعتهم، ردًّا لقولهم: إنهم يشفعون لنا استقلالاً.

ثم استثنى ـ تبارك وتعالى ـ فقال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من الملائكة أن يشفع، أو من الناس، ﴿ويرضى﴾، أي من كان معه التوحيد، فيراه أهلاً لذلك، فكيف تشفع الأصنام لعبدتهم.

فعلّق ـ سبحانه ـ الشفاعة بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنِه للشافع.

وسرّ ذلك أنّ الأمر كلّه لله وحده، فليس لأحد من الأمر شيء، وأعلى الخلقِ وأكرمُهم [ر،١٥٥/أ] عنده: الرسل والملائكة المقربون،

---

(١) هما في المطبوع من «التوحيد».

(٢) لم أهتد إلى هذه الأقوال في كتب التفسير.

وهم عبيد، لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدّمون بين يديه، ولا يفعلون شيئًا إلا من بعد إذنه وأمره، كما حكى الله ـ سبحانه ـ من قول جبرئيل ـ عليه السلام ـ لمحمد ـ ﷺ ـ بقوله: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم: ٦٤]، فإذا أشرك بهم المشرك، واتخذهم شفعاء من دونه، ظنًّا أنه إذا فعل ذلك تقدّموا وشفعوا له عند الله استقلالا، من غير إذنه ورضاه، فهو من أجهل الناس بحق الرب ـ سبحانه ـ، وما يجب له ويمتنع عليه، فإن هذا محال ممتنع، سببُه قياس الرب ـ جل وعلا ـ على الملوك والكبراء، حيث يُتّخذ من خواصّهم [ك،٧٦/ب] وأوليائهم من يشفع عندهم في قضاء الحوائج، وبهذا القياس عُبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفعاء والأولياء[١].

فتبيّن أنّ الشفاعة التي نفاها القرآن هي الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس، ويفعلها بعضهم، فهي التي أطلق نفيَها ـ سبحانه ـ في كتابه، وضدُّها المثبتةُ بإذنه ورضاه، التي أسعدُ الناس بها يوم القيامة أهل التوحيد، الذين جرّدوه وخلّصوه من شوائب الشرك، وهم الذين ارتضى

(١) وحجتُهم في ذلك أن مقتضى عظمة الرب ألا يُتقربَ إليه إلا بواسطة وحجّاب، وأنّ في التقرب إليه بدون ذلك غضًّا من جنابه الرفيع، وهي حجة داحضة؛ لأن القادر على سماع مطالب عبيده وإجابتها مباشرة دون واسطة أكمل وأعظم إحسانا، وإنما احتاج ملوك الدنيا إلى الوسائط والشفعاء والحجّاب بينهم وبين رعاياهم لقصور علمهم بأحوالهم ومطالبهم، وهي صفة نقص لا تليق بالرب ـ جل وعلا ـ، وأيضًا فإن كمال قدرة الله وغناه يمتنع معها أن يكون في سؤاله مباشرة غض منه؛ فإن هذا إنما يكون في حق من يفتقر إلى الخلق أو يرهبهم، وأيضًا فإن سؤاله مباشرة إذا كان بأمر منه وإذن لم يكن فيه غضاضة ولا سوء أدب البتة، كيف وهو لم يأذن في غيره!. انظر مجموع الفتاوى: ٦/ ١٣٣، ١٣٤.

الله ـ سبحانه ـ، ولهذا قال: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [طه: ١٠٩].

فإن قيل: فما الجمع بين هذا الإيراد من الآيات المذكورات في هذا الباب؟.

فنقول: قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، حيث ادّعيتم أنهم يضرّون أو ينفعون، تجدونهم ﴿ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ من ملكه ـ تعالى وتقدّس ـ ﴿ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾، وذلك أحقر ما يكون، فهم لا يملكون شيئًا ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، أتى ـ سبحانه ـ بـ«في» الظرفية؛ لإحاطة ملكه ـ جل وعلا ـ بذلك، واحتوائه عليه، فلما نفى ـ سبحانه ـ الملك عنهم في ذلك، أعقبه ـ جل وعلا ـ بنفي الشركة لهم في ذلك، فقال: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾، ثم عقّب ذلك بنفي الظهير له، فقال: ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾، ولم يبق إلا الشفاعةُ، فبيّن أنّها لا تكون إلا لمن أذن له ـ جل وعلا ـ، بقوله: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، فقطع ـ تبارك وتعالى ـ جميع مواد أهل الشرك وعلائقَهم التي كانوا يتعلقون بها من دون الله ـ تعالى ـ بهذه الآية الشريفة، وقد تقدّم الكلام عليها في هذا الشرح مستوفى، ولله الحمد والمنّة.

(قال) شيخ الإسلام تقي الدين (أبو العباس) أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي الإمام العالم العلامة المجتهد الفقيه الحافظ الناقد المفسّر البارع الأصولي، عالم الزهّاد ونادرة الزمان، شهرته تغني عن الإطناب في ذكره، ولد يوم الاثنين، عاشرَ ربيعِ الأول، سنة

إحدى[1] وستين وستمائة، [ر،١٥٦/ب] بِحَرّان، وقدِم به والده وبإخوته إلى دمشقَ عند استيلاء التتار على البلاد، سنة سبع وستّين، فسمع بها من ابن عبدالدايم، وابن أبي اليُمْن، والمجد ابن عساكر، ويحيى الصيرفيِّ الفقيه، وأحمدَ بنِ أبي الخير الحداد، والقاسمِ الأُبلّي، وشمسِ الدين بن أبي عمر، ومسلمِ بن علاّن، وخلق كثير.

وعيّن[2] بالحديث، وسمع المسند مرّات، والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير، وما لا يحصى من الكتب والأجزاء.

وقرأ بنفسه، وكتب بخطّه جملة من الأجزاء، وأقبل على العلوم في صغره، فأخذ الفقه والأصول عن والده، وعن الشيخ ابن أبي عمر، وزين الدين ابن المنَجّا، وبرع في ذلك وناظر، وقرأ في العربيّة أيّامًا على ابن عبدالقوي، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمّله ففهمه، وأقبل على تفسير القرآن الكريم، وبرز فيه، وأحكم أصول الفقه، والفرائض، والحساب، والجبر والمقابلة، وغير ذلك من العلوم.

ونظر في علم أهل الكتاب والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، وردّ على رؤسائهم وأكابرهم.

ومهر وتأهّل للتدريس والفتوى وله دون عشرين سنة، وأمدّه الله بكثرة الكتب، وسرعة الحفظ، وقوّة الإدراك والفهم، وبطؤ النسيان، حتى قال غير واحد إنّه لم يكن يحفظُ شيئًا فينساه.

ثم توفّي والده وكان له حينئذ إحدى وعشرين سنة، فقام بوظائفه

---

(١) في الأصل: أحد.

(٢) كذا، ولعلها: وعُني.

بعده، فدرّس بدار الحديث السكّرية، في أوّل سنة ثلاث وثمانين، وحضر عنده القاضي بهاءُ الدين ابن الزكي، والشيخ تاج الدين الفزاري، وزين الدين ابنُ المرحّل، وزين الدين ابن المنجا، وجماعة.

وذكر درسًا في البسملة، وهو مشهور بين الناس، وعظّمه الجماعة الحاضرون، وأثنوا عليه ثناءً كثيرًا.

قال الذهبي: وكان تاج الدين الفزاري يبالغ في تعظيمه، قال: وكذا شيخنا الحافظ أبو الحجّاج المزّي(١).

قال البرزالي في تاريخه: شرع الشيخ تقي الدين في الجمع والتصنيف دون العشرين(٢).

وقال الذهبي في معجم شيوخه(٣): برع في تفسير القرآن، وغاص في دقائق معانيه، بطبع سيّال، وخاطرٍ إلى مواقع الإشكال ميّال، واستنبط منه أشياء لم يُسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه، فقل من يحفظ ما يحفظه، معزوّا إلى أصوله وصحابته، مع شدّة استحضار له وقت إقامة الدليل.

وفاق الناسَ في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة والتابعين.

وأتقن العربيّة أصولاً وفروعًا وتعليلاً واختلافًا.

---

(١) لم أقف عليه في شيء من تراجم الذهبي لشيخ الإسلام ضمن كتبه المطبوعة، انظر الجامع: ٢٠٣ وما بعدها.

(٢) انظر العقود الدرّية لابن عبدالهادي ص١٠، ١١.

(٣) نقله عنه ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة: ٢ / ٣٨٧ ـ ٤٠٨.

ونظر في العقليات، وعرف أقوال المتكلمين، وردّ عليهم، وحذّر منهم، ونصر السنّة بأوضح حجج، وأبهر براهين.

وأوذي في ذات [ر،١٥٦/أ] الله من المخالفين، وأُخيف في نصر السنّة المحضة، حتى أعلا الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبّته والدعاء له، وكبت الله أعداءه، وهدى الله به رجالاً من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له، وأحيا الله به الشام بالإسلام، بعد أن كان متثلمًا. ومحاسنُه كثيرة.

قال[1]: وهو أكبر من أن ينبّه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام، لحلفت أنّي ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه.

[ك،٧٦/أ] قال الذهبي: وقرأت بخط شيخنا العلاّمة كمال الدين ابن الزملكاني ما كتبه سنة بضع وتسعين، تحت اسم ابن تيمية: كان إذا سُئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنّه لا يعرف غير ذلك الفنّ، وحكم أنّ أحدًا لا يعرف مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه أشياء كثيرة، ولا يُعرف أنّه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلّم في علم من العلوم سواء كان من علم الشرع أو غيره إلا فاق فيه أهله، واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها[2].

وأما تصانيفه فهي أشهر من أن تذكر، وأعرف من أن تنكر، سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار، حتى جاوزت حد الكثرة، فلا يمكن أحدًا حصرُها، ولا يتسع هذا الكلام لعد

---

(١) أي الذهبي.

(٢) انظر الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب: ٢/٣٨٧ ـ ٤٠٨.

المعروف منها، ولا ذكرِها، فرحمه الله ـ تعالى ـ رحمة واسعة.

فلما توفّي ـ رضي الله عنه ـ في عشرين ذي القعدة، سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وهو يتلو القرآن، خرجت روحه عند قوله ـ تعالى ـ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٥]، فيما قاله ابن كثير[1]، وكان عنده هو وشيخه أبو الحجّاج المزي، وهما اللذان غسلاه، وأتم له الحافظ المزي الختمة[2]، وكان هو الذي جهّزه، فأعانه عليه ابن كثير وجماعة، ولما غُسّل ازدحم الناس على ماء غسله، فلما خرجوا به ضاق بمن تبع جنازته الفضاء، وكثر البكاء عليه والتأسّف، ولكن ذلك لا يردّ القضاء، فلأجل ذلك جُعل كلامه ـ قدّس الله روحه ـ فاصلاً للمشكل حيث قال المصنّف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(قال أبو العباس ابن تيميّة) يعني على هذه الآية الكريمة، جمعا بين آيات الشفاعة، وبيانا أنّه ليس بينها اختلاف، بل بعضها يوافق بعضا، ويصدّق بعضها بعضا، ويعلم ذلك من هذة الآية المحكمة، حيث قال شيخ الإسلام المذكور:

(نفى الله ـ سبحانه ـ عما سواه) في هذه الآية (كلَّ ما يتعلّق به المشركون) في شركهم [ر،١٥٧/ب]، (فنفى ـ جل وعلا ـ أن يكون لغيره مُلْك أو قسط منه) أي شركة من الملك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، (أو يكون) الغير (عونًا لله) ـ تعالى ـ في ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾، (ولم يبق) بعد هذا النفي (إلا الشفاعة، فبيّن) ـ جل وعلا

(١) انظر «البداية والنهاية»: ١٤/ ١٣٨.

(٢) الذي في «البداية والنهاية» أن الذي أتمها الشيخان: عبدالله بن المحب، وعبدالله الزرعي الضرير، وكان شيخ الإسلام يحب قراءتهما.

وتقدست أسماؤه ـ في هذه الآية الكريمة (أنّها لا تنفع) عنده (إلا لمن أذن له الرب ـ تعالى ـ) فيها أن يشفع لمن يشاء من خلقه. بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، (فالشفاعة التي يطلبها المشركون) ممن عُبدوا من دون الله (منتفية) عنهم، (كما نفاها القرآن) المجيد، (وأخبر النبي ـ ﷺ ـ) في الحديث الصحيح المتواتر عنه، الذي أجمعت الأمّة على صحّته، وثبوت ما دلّ عليه، إلا من أعمى الله بصيرته بخروجه في ذلك عنهم، وفيه (أنّه) ـ ﷺ ـ (يأتي) أولاً (فيسجد لربّه) تحت العرش، (ويحمد الله) ـ تعالى ـ في سجوده بمحامد يلهمه الله إيّاها حينئذ، (لا يبدأ بالشفاعة أولاً)، فبهذا يُعلم أنّها لا تكون إلا عن إذن الله ـ تعالى ـ، كما نطق بذلك القرآن الكريم، فلا تطلب إلا منه، وطلبها من غيره شرك، ثم عند ذلك يُجاب ـ ﷺ ـ في دعائه، (ويُقال له): «يا محمد، (ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفّع)، ففي هذا أنّ حمده ـ سبحانه ـ والثناء عليه من أقوى أسباب الإجابة لطالبيه ـ تعالى ـ.

فحينما يقال له ـ ﷺ ـ ذلك، يرفع رأسه، ويشفع فيُشفّع[1]، ولولا الإطالة لأوردنا شيئًا من أحاديث الشفاعة الخاصّة والعامّة في هذا المقام، وسقناها بألفاظها، لكنّها معلومة في أماكنها من دواوين المحدّثين من علماء الإسلام وأعلامهم، فهي أشهر من أن تذكر، إلا أنا سنذكر حديثًا في صفة شفاعته ـ ﷺ ـ لأمّته، حيث قال البخاري في صحيحه[2]: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ١٢١٥، ٣١٦٢، ومسلم: ١/ ١٥٤، (١٩٣).

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٧٢٧، التوحيد، باب كلام الرب ـ عز وجل . .، (٧٠٧٢).

ابن هلال العنزي قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس ابن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وذهبنا معنا بثابت إليه ليسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي، فاستأذنّا، فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت لا تسأله عن شيء أولَ من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهلُ البصرة، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة؟. فقال: حدّثنا محمد ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ القيامة ماج الناس بعضُهم في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربّك. فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بنوح ـ عليه السلام ـ. فيأتون نوحًا فيقولُ: لستُ لها، ولكن عليكم بإبراهيم؛ فإنّه خليل الرحمن. فيقولُ: لستُ لها، ولكن عليكم بموسى؛ فإنّه كليم الله. فيأتون موسى، فيقولُ: لستُ لها، ولكن عليكم بعيسى [ر،١٥٧/أ]؛ فإنّه روح الله، وكلمتُه. فيأتون عيسى، فيقولُ: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ـ ﷺ ـ، فيأتوني، فأقول: أنا لها، فأستأذنُ على ربّي، فيؤذنُ لي، ويُلهمُني محامدَ أحمدُه بها، لا تحضرُني الآن، فأحمدُه بتلك المحامد، وأخِر له ساجدًا، فيقال: يا محمّد، ارفع رأسك، وقُل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفّع، فأقول: يا ربِّ، أمّتي أمّتي. فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقالُ شعيرة من إيمان. فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمد بتلك المحامد، ثم أخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع وسل تعطه، واشفع تشفّع. فأقول: يا ربّ، أمّتي أمّتي. فيقال: انطلق فأخرِج منها من كان في قلبه مثقالُ ذرة ـ أو خردلة ـ من إيمان، فأنطلقُ فأفعل، ثم أعود فأحمد بتلك المحامد، ثم أخِرّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفّع. فأقول: يا ربّ، أمّتي أمّتي. ك[٧٧،/ب] فيقال: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى

مثقالِ حبّةِ خردلٍ من إيمانٍ فأخرجْه من النّار. فأنطلقُ فأفعل». فلمّا خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن ـ وهو متوارٍ في منزل أبي خليفة ـ، فحدّثناه بما حدّثَنا أنس بن مالك، فأتيناه فسلّمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدّثنا في الشفاعة. فقال: هيه. فحدثناه بالحديث، فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه. فقلنا: لم يزد لنا على هذا. فقال: لقد حدّثني وهو جميعٌ[1]، منذ عشرين سنة، فلا أدري، أنسي، أم كره أن تتكلوا؟. فقلنا: يا أبا سعيد، فحدّثنا. فضحك، وقال: خُلق الإنسان عجولاً، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدّثكم، حدّثنا كما حدّثكم به، ثم قال: ثم أعود الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخِر له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تشفّع. فأقول يا رب، إئذن لي فيمن قال «لا إلٰه إلا الله». فيقول: وعزّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجنّ منها من قال: «لا إلٰه إلا الله».

هذا لفظ البخاري، وعنده ومسلم[2] عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «من مات وهو يعلم ألا إلٰه إلا الله، دخل الجنّة».

وروى البخاري أيضًا عن أنس ـ رضي الله عنه ـ في الشفاعة نحو ما تقدّم عنه، إلا أن ظاهرها العموم منه ـ ﷺ ـ لجميع الأمم ممّن في

---

(١) أي مجتمع العقل، لم يدركه الكبر الذي هو مظنة تفرق الذهن وضعف الحفظ. عن الفتح: ١٣/ ٤٨٤.

(٢) كذا في الأصل، وإنما هو في صحيح مسلم: ١/ ٦٠، الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، (٢٦).

النار، من أهل «لا إلٰه إلا الله».

ولهذا (قال) له خادمه (أبو هريرة) الدوسي ـ رضي الله عنه ـ كما صحّ في صحيح البخاري[1] وغيره، حين سأله: (من أسعد الناس) ـ وفي لفظ: من أحق الناس[2] ـ (بشفاعتك) يا رسول الله؟. (فقال) رسول الله ـ ﷺ ـ: «لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أوّل منك، لِما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد ـ وفي لفظ: أحق ـ الناس بشفاعتي [ر،١٥٨/ب] يوم القيامة (من قال «لا إلٰه إلا الله» خالصًا) أي ذلك القول، من شوْب شرك أو نفاق حال نشوئه (من قلبه)، وفي لفظ للبخاري: «من قبل نفسه»[3].

قال الأزهري: «أحق» في كلام العرب له معنيان: أحدهما استيعاب الحق، والثاني ترجيح الحق[4].

وسيأتي بيان ذلك على معنى «أسعد الناس» قريبًا.

وعند البيهقي[5]، وأبي نعيم[6]، والخطيب في رواية مالك[7]، والديلمي في «مسند الفردوس»[8]، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٤٩، العلم، باب الحرص على الحديث، (٩٩).

(٢) لم أعثر على هذا اللفظ. وفي الضعفاء للعقيلي (٣/ ٤٦٨): من أولى الناس...

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢٤٠٢، الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٦٢٠١).

(٤) نقلاً عن «المطلع على أبواب المقنع»: ١/ ٩٩.

(٥) لم أعثر عليه عنده.

(٦) «حلية الأولياء»: ٨/ ٢٨٠.

(٧) «تاريخ بغداد»: ١٢/ ٣٥٨، وللخطيب كتاب «أسماء الرواة عن مالك» في حكم المفقود، اختصره رشيد الدين العطار ت٦٦٢هـ. انظر مجرد أسماء الرواة عن مالك له ص٢٧١، رقم ١١٥٦.

(٨) لم أعثر عليه في المطبوع.

رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قال في كل ليلة «لا إله إلا الله الملك الحق المبين» مائة مرّة، كان له أمانًا من الفقر، وأُنْسًا من وحشة القبر»[1].

وفيما تقدّم دليلُ أن إخلاص القلب شرط لصحّة الإيمان، وأنّ اللفظ لا يكفي من دون ذلك؛ إذ الإيمان لا يصحّ إلا بشرط الكفر بالطاغوت، وهذا معنى قوله ـ ﷺ ـ: «من شهد ألا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه»[2] إلخ؛ إذ الخالص عند العرب: الصافي من كل شيء، قال محيّصة[3]:

حسامٌ كَلَوْن الملح أخلصُ نصلُه ... متى ما أصوّبْه فليس بكاذب[4]

وقال بعض الصحابة في النبي ـ ﷺ ـ:

يصدّقُ بالأنباءِ بالغيب مُخلصًا[5]

قال الراغب: الإخلاص: التعرّي[6] عن كل ما دون الله ـ تعالى ـ،

---

(١) وأخرجه الدارقطني في غرائب مالك وضعفه كما في «لسان الميزان»: ٣/ ٦٥، وانظر «علل الدارقطني»: ٣/ ١٠٦، (٣٠٨)، و«العلل المتناهية» لابن الجوزي: ٢/ ٨٣٧، (١٤٠٢).

(٢) أخرجه مسلم: ١/ ٥٨، (٢٣).

(٣) هو محيصة بن مسعود بن كعب الخزرجي، الأنصاري، أبو سعد. انظر «الاستيعاب»: ٤/ ١٤٦٣، (٢٥٢٥)، وفيه بيتُه هذا.

(٤) البيت في سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٩.

(٥) صدر بيت لكعب بن مالك، وتتمته: يريُد بذاك الفوزَ والعزَّ في غدِ. انظر سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٤٩.

(٦) كذا في الأصل، وفي «المفردات» بتحقيق صفوان داودي: «التبرّي». وكذا في طبعة =

ذكَرَه في «مفرداته»[1].

ويقال: «أُخلص الحديد»، إذا صُفي عمّا يشوبه، «وخَلُص»، إذا صَفى.

والشاهد على هذا أشهر من أن يذكر، فلا نطيل بذكره.

قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، ولا يَخلُص الدين إلا بالإخلاص، وهو ألاّ يكون شيء من حركات العبد، ولا من سكناته، من قول أو فعل، إلا خالصًا مصفىً لله من الخلل والشوائب، حال كونه حنيفًا، قاصدًا إلى الحق عن الباطل، غير خارج عن سَنن الحق، وهذا لايحصل إلا بالصدق.

وقد قال عبد القادر الجيلاني ـ قدّس الله روحه ـ في «غنيته»: الصدق: صحّة التوحيد مع القصد[2].

قلت: وحقيقة الصدق: الثّبوت في جميع الأعمال والأحوال على قدم الحق والاستمرار على ذلك في جميع الأحوال على حكم الشرع، وذلك في ثلاثة وجوه: صدقِ القلب، وصدقِ القول، وصدقٍ في الفعل الذي هو العمل.

ولهذا قال: «من قال «لا إله إلا الله» خالصًا من قلبه ـ وفي لفظ: مخلصًا[3]، وفي لفظ: صادقًا[4] ـ من قلبه»، أي ثابتًا لم تزعزعْه شبهة،

= محمد سيد كيلاني.

(١) المفردات: ٢٩٣.

(٢) «الغنية»: ٢/ ٢٠٠، وقد ذكره بلفظ: وقيل: الصدق.. إلخ.

(٣) هذا اللفظ في المستدرك: ١/ ١٤١.

(٤) لم أجد هذا اللفظ في روايات حديث أبي هريرة في الشفاعة.

ولا أثّرت فيه ريبة، ولم يَشْبُه ما يُكره، كقوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ۝٦٦﴾ [النحل: ٦٦]، يعني ليس فيه شوبٌ مما جاوره، [ر،١٥٨/أ] فهو حسن اللون، حسن الرائحة، حسن الطعم، فكل خالص حسنٌ طيب، وكل حسن خالصٍ طيّبٌ عمومًا في الوجوه كلها، أو خصوصًا، كما قال: ـ تعالى ـ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١١٢﴾ [البقرة: ١١٢]، وقولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، الملك: ٢].

وليس أفعلُ التفضيل ـ في قوله ـ ﷺ ـ: «أسعد الناس بشفاعتي» في الخروج من النار ـ بمراد لجميع الناس؛ [ك،٧٧/أ] فإنه لو كان كذلك لدخل الكافر، وذلك باطل.

قال ابن الحاجب في «أماليه»[(١)]، ومعناه للزمخشري[(٢)] وابن هشام وغيرهم من أئمة العربية، في قولهم «أكرم الناس»: يلزم أن يكون جميعُ الناس كرماءَ في قصد المتكلّم، وهو باطل، وكذا قوله ـ ﷺ ـ: «ألا أخبركم بأحبّكم إلي، وأقربكم منّي مجلسًا؟: أحاسنُكم أخلاقًا»[(٣)]، وكذا «أبغضكم»، و«أبعدكم»، فإنه يلزم أن يكون المخاطبون شركاء في أصل ما أضيف إليهم من المحبّة والبغض والبعد، مع أنّهم لم يُشركوا في القصد.

---

(١) (١/ ٣١٤،٣١٥)، دار الجيل ١٤٠٩هـ.

(٢) انظر «المفصّل»: ١١١، وشرحه «الإيضاح» لابن الحاجب: ١/ ٤١١، ٤١٢.

(٣) أخرجه أحمد: ٢/ ١٨٥، وابن حبان في صحيحه: ٢/ ٢٣٥، (٤٨٥)، وأخرج الترمذي نحوه: ٤/ ٣٧٠، (٢٠١٨). وصححه الألباني كما في الصحيحة برقم (٧٩١).

قال: والجواب أن معنى «أحبكم» أي أحب المحبوبين منكم، وكذا «أقربكم» و«أبغضكم» و«أبعدكم».

فإذًا معنى هذا الحديث على هذا الوجه: أسعد الناس المشفّع فيهم بشفاعتي، من قال: «لا إله إلا الله»، خالصًا من قلبه. فالإضافة على هذا الوجه إلى جميع الناس ليست للتفضيل على المضاف إليهم، بل لمجرّد التخصيص لمن قالها مخلصًا.

وإنما التفضيل في الإضافة على الوجه الآخر بين أهلها المشفّع فيهم، بتفاضلهم بدرجة الإخلاص فيها، وهو تفاضل بعيد، لاينضبط، فصار بعضهم بالشفاعة أسعد من بعض؛ إذ الكافر لا حضّ له في هذة الشفاعة.

ومعنى هذا الوجه الأخير: أن يراد أن المفضّل زائد على المضاف إليهم في الخصلة التي هو والمفضّل عليه فيها شركاء.

وقد اجتمع الوجهان[1] في هذا الحديث، فالأول بين المؤمنين والكافرين من الناس، فإضافته فيه إلى الناس إنما هو لمجرّد تخصيص أهل «لا إله إلا الله» من الناس بالشفاعة دون الكافرين منهم، فهذا معنى الوجه الأول.

ومعنى الوجه الثاني هو التفضيل بين المشفّع فيهم، أهل «لا إله إلا الله»، في شفاعته ـ ﷺ ـ، بحسب مراتب تحقيقهم لها وإخلاصهم.

ويحتمل أن كل أحد يحصل له سعد بشفاعته ـ ﷺ ـ؛ لكن المؤمن المخْلص أكثرُ سعادةً بها؛ فإنّه ـ ﷺ ـ يشفع في الخلق لإراحتهم من هول الموقف[2]، وهي الشفاعة العظمى التي يغبطه بها الأولون والآخرون،

(١) انظر هذين الوجهين للتفضيل في «المفصّل» للزمخشري: ١١١.

(٢) أخرجه البخاري: ٦/ ٢٦٩٥، (٦٩٧٥)، ومسلم: ١/ ١٥٧، (١٩٤).

ويشفع في بعض الكفّار بتخفيف العذاب، كما صح في حق أبي طالب[1]، وفي بعض المؤمنين بالخروج من النار[2]، وفي بعضهم بعدم دخولها بعد أن استوجبوه[3]، وفي بعضهم لدخول الجنّة بغير حساب، وفي بعضهم برفع [ر،١٥٩/ب] الدرجات فيها[4]، فيظهر الاشتراك في الشفاعة، وأن أسعدهم بها المؤمن المخلص[5].

ويحتمل أن يكون معنى «أفعل» للفعل، لا أفعل التفضيل، والمعنى: سعيد الناس بشفاعتي، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾[6].

وأما لفظ السعادة في الحديث فهي ضدّ الشقاوة؛ إذ هي أعظم الأشياء، وأعلاها رتبة في حق الآدمي، ولا تحصل للإنسان هذه السعادة إلا بالعلم عن الله ورسوله، والعمل بذلك، وذلك جماع التقوى؛ فالعلم إذًا كما قال عالم قريش، الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ أفضل الأعمال[7]، وهو أحد[8] الروايتين عن الإمام أحمد؛ إذ هو

---

(١) أخرجه البخاري: ٣/ ١٤٠٨، (٣٦٧٠)، ومسلم: ١/ ١٦٥، (٢٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: ٦/ ٢٦٩٥، ومسلم: ١/ ١٥٧، (١٩٤).

(٣) قال ابن القيم في حاشيته على سنن أبي داود (٧/ ١٣٠): وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه.

(٤) انظر أنواع الشفاعة وما ورد فيها في: مجموع الفتاوى: ٣/ ١٤٧، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود: ٧/ ١٣٠ـ ١٣٤، وشرح الطحاوية: ١/ ٢٨٢ـ ٢٩٠، وفتح الباري: ١١/ ٤٤٥ـ ٤٤٩، ومعارج القبول: ٢/ ٢٠٨ـ ٢١٩.

(٥) عن «فتح الباري»: ١/ ١٩٤.

(٦) الموضع السابق.

(٧) رواه بنحوه البيهقي في المدخل: ص ٣١٠ (٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦)، إلا أنه قيده بقوله: بعد أداء الفريضة. وأبو نعيم في الحلية: ٩/ ١١٩، وابن عبدالبر في الجامع: ١/ ٢٥.

(٨) كذا، وصوابها: وهي إحدى.

أصل كل عمل، والمشهور عن إمامنا أحمد أن الجهاد أفضل الأعمال[1].

وقد قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]: أكرم الكرم التقوى، وألأم اللؤم الفجور[2].

فبهذا نعلم أن تقوى الله ـ تعالى ـ هو القطب الذي عليه مدار السعادة، والأساس الذي لا يصح البناء إلا عليه في العادة.

والسعادة محلّها العاقبة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وهم أهل كلمة التقوى، التي هي «لا إله إلا الله»، وهذا هو الأصل الذي لا ينهدم البناء عليه على تعاقب الدهور.

وقد نقل عبدالله بن الإمام أحمد عن أبيه أنه قرأ بعد آية غض البصر: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾، فقال: أي يتقي الأشياء، لا يقع فيما لا يحل[3].

وحكاه ابن الجوزي عن ابن عباس[4].

والمراد به كما قال ابن مفلح: أنّه يتقي الكفر والزنا والمعاصي كلّها، فيحبط من الطاعة بالمعصية مثلها، فتكون كأنها لم تقبل بالكلّية[5].

---

(١) انظر «الفروع» لابن مفلح: ١/ ٤٦٥.

(٢) ذكره عنه البغوي في تفسيره: ٤/ ٢١٧.

(٣) ذكره عنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم»: ١/ ١٠١، وابن مفلح في الفروع: ٢/ ٥٠٨.

(٤) انظر «زاد المسير»: ٢/ ٣٣٤٠.

(٥) «الفروع»: ٢/ ٥٠٨. وفيه «الرياء» بدل «الزنا»، وفي بعض طبعاته: «فيحيط» بدل =

قال القرطبي: عند أكثر المفسرين أن المراد بذلك الموحّدون[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: إلا من اتقى الله في عمله، ففعله كما أمر خالصًا، وأنه قول السلف والأئمة[٢].

قال: وعند الخوارج والمعتزلة: إلا من اتقى الكبائر، وعند المرجئة: إلا من اتقى الشرك[٣].

وقد سئل أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ كما ذكر ذلك عبدالله بن أسعد اليافعي الشافعي[٤] ـ عن التقوى فقال: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد للرحيل[٥].

قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ: وقد يُستدلّ على التقوى بثلاث: حسن التوكل فيما لم يُنل، وحسن الرضي فيما نيل، وحسن الصبر على ما فات.

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ[٦]:

= «فيحبط»، ولم يظهر لي معناها.

(١) نقله عنه صاحب «الفروع» في الموضع السابق، وليس في الجامع.

(٢) عن «الفروع»: ٢/ ٥٠٨ وهو في الفتاوى: ٧/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

(٣) عن «الفروع»: ٢/ ٥٠٨.

(٤) هو عبدالله بن أسعد بن علي، اليافعي، الشافعي، اليمني، صاحب «روض الرياحين»، و«مرآة الجنان»، توفي سنة ٧٦٨هـ. انظر «الدرر الكامنة»: ٢/ ٢٤٧ـ ٢٤٩، ترجمه (٢١٢٠).

(٥) لم أعثر عليه بعد طول بحث، رغم اشتهاره على ألسنة الوعاظ!.

(٦) بمعناه لا بلفظه، من كتاب «الإيمان الكبير»، ضمن مجموع الفتاوى: ٧/ ٧٨.

(فتلك الشفاعة) المذكورة إنّما هي حاصلة (لأهل الإخلاص)، وهم أهل شهادة ألا إله إلا الله، (بإذن الله ـ تعالى ـ، لا تكون لمن أشرك بالله) ـ تعالى ـ شركًا أكبر، (وحقيقته) ـ أي حقيقة الجواب في الجمع بين الأدلة في الشفاعة، الواردةِ من الكتاب والسنّة، أو أنّ الضمير في ذلك للشأنِ [ر،١٥٩/أ] والقصّةِ وحاصلِ الكلام في ذلك ـ (أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يتفضّل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم) ذنوبهم (بواسطة دعاء من أذن له) الرب ـ سبحانه ـ، من نبي أو ولي أو صبي أو صِدّيق أو شهيد، (أن يشفع، ليكرمه) الباري ـ جل وعلا ـ بذلك، فيجعله بإذنه شفيعًا كسيّد البشر ـ ﷺ ـ، (و) لكي (ينال) بذلك تفضلاً منه ـ سبحانه ـ (المقام المحمود)، الذي وعده في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، يحمده به الأولون والآخِرون، وهي الشفاعة العظمى[١].

وسيفعل ـ تبارك وتعالى ـ به ذلك، إنّه كان وعده مفعولاً، وصحّ عنه ـ ﷺ ـ أنّه قال: «من قال ـ يعني بعد إجابة المؤذن ـ: «اللهم رب هذه الدعوة التامّة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته»، حلّت له شفاعتي يوم القيامة»، وهو في البخاري[٢]، وكثير من [ك،٧٨/ب] الكتب، كالترمذي[٣]، وأبي داود[٤]، ومسند الإمام أحمد[٥]: «مقامًا محمودًا»، بالتنكير، فيكون

---

(١) انظر «الإيمان الكبير»، ضمن مجموع الفتاوى: ٧/ ٧٨.
(٢) صحيح البخاري: ١/ ٢٢٢، الأذان، باب الدعاء عند النداء، (٥٨٩).
(٣) سنن الترمذي: ١/ ٤١٣، (٢١١).
(٤) سنن أبي داود: ١/ ١٤٦، (٥٢٩).
(٥) المسند: ٣/ ٣٥٤.

«الذي وعدته» بدلاً، أو عطف بيان.

قيل جيء به منكرًا تأدّبًا مع القرآن في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾.

ورواه البيهقي في سننه[(١)]، وابن أبي حاتم[(٢)]، وغيرهما: «المقام المحمود»، بالتعريف.

قال شيخ الإسلام[(٣)]: (فالشفاعة التي نفاها القرآن الكريم ما كان فيها شرك)، حيث قاس المشركون الله ـ تبارك وتعالى ـ بخلقه، فجوّزوا عليه ما يجوز على المخلوق من الوسائط والوسائل، فنفى ـ سبحانه ـ عنه ما يمتنع وجوده في حقّه، ونزّه نفسه عمّا لا يليق به من ذلك، (ولهذا أثبت) ـ سبحانه ـ (الشفاعة بإذنه) ورضاه، الجائزة في حقّه ـ تعالى ـ (في مواضع) من كتابه العزيز، فدلّ على أنّ الخارج عن ذلك منفي، لا يجوز في حقّه؛ إذ هو ممتنع لكماله ـ جل وعلا ـ.

وبهذا الاعتبار تكون له الشفاعة جميعًا، فلا تُسأل إلا منه؛ لأنّها صادرة عنه ـ سبحانه ـ.

وأعلى الوسائل في هذا المقام: التوسّل بطاعته ـ تعالى ـ، وطاعة رسوله ـ ﷺ ـ، كما في قوله ـ تعالى ـ قاصًّا عن أوليائه: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ

(١) سنن البيهقي الكبرى: ١/ ٤١٠، (١٧٩٠)، وفيها: اللهم إني أسألك بحق هذه الدعوة...

(٢) ليس فيما طبع من تفسيره.

(٣) مجموع الفتاوى: ٧/ ٧٩.

عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤]، ولهذا قال: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

(وقد بيّن النبي ـ ﷺ ـ أنها) أي الشفاعة المثبتة في القرآن، إذ هو ـ ﷺ ـ المبيّن عن الله مراده.

(لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص)، عطْفُ الإخلاص في هذا على التوحيد من عطف الخاص على العام، وهو عطف صحيح ورد به الكتاب والسنّة، وهو في كلام العرب معلوم، فمما في القرآن من ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٧]؛ إذ خلاصة التوحيد الإخلاص، وخلاصة الإخلاص وأساسه الذي ينبني عليه: الصدق، وقد مدح الله به، وحض عليه فقال: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم: ٥٤]، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩].

[ر، ١٦٠/ب] وضدُّه الكذب، وقد وصف ـ سبحانه ـ أهل الدرك الأسفل من النّار به[1].

ويكشف لك قبحَ الكذب أنّ الشرك بالله ـ تعالى ـ والكفرَ به من أفراده.

وكفى للصدق مدحًا أنّ توحيد الله والإخلاصَ له لا يحصل إلا به، نسأل الله الكريم أن يجعلنا من أهله.

---

(١) في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾.

وقد قال عبدالله بن المبارك فيما روى ابن أبي الدنيا عنه: الإجابة مقرونة بالإخلاص[1].

قال: ورُئي عامرُ بن عبدالله في النوم، فقيل له: أي الأعمال وجدتَ أفضل؟. قال: ما أريد به وجه الله[2].

قال: وقال أبو حازم: بتصحيح الضمائر تُغفر الكبائر، وإذا عزم العبد على ترك الآثام أتته الفتوحات[3].

وعند ابن أبي الدنيا أن النبي ـ ﷺ ـ قال لمعاذ لما بعثه الى اليمن: «أخلص دينك يكفك القليل من العمل»[4].

وعنده أيضًا عن الحسن البصري في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، قال: النية الصالحة[5].

وعنده أيضًا عن عون بن عبدالله قال: فواتح التقوى: حسن النيّة، وخواتمها: التوفيق، والعبد فيما بين ذلك بين هلكات[6].

---

(١) هو في الإخلاص لابن أبي الدنيا، ص٣٧ رقم (٨) من كلام عبدالواحد بن زيد، وقد رواه أبو نعيم أيضاً عن عبدالواحد بن زيد في الحلية: ٦/ ١٦٢.

(٢) رواه من طريق ابن أبي الدنيا ابنُ الأعرابي في «الزهد وصفة الزاهدين»: ٣٧.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية»: ٣/ ٢٣٠.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» كما في استدراك المحقق ص٧٦ برقم (٧٩) وقد استدركه من إتحاف السادة المتقين للزبيدي: ١٠ / ٤٥، ورواه البيهقي في الشعب: ٥/ ٣٤٢، (٦٨٥٩)، والحاكم في المستدرك: ٤/ ٣٤١، (٧٨٤٤)، وقال: صحيح الإسناد. وضعفه الألباني كما في الضعيفة برقم (٢١٥٩).

(٥) قد رواه ابن أبي حاتم في التفسير: ٩/ ٣٠٥٣، (١٧٢٦٣).

(٦) قد رواه أبو نعيم في الحلية: ٤/ ٢٥٠.

قال: وقال الربيع بن أنس: علامة الدين الإخلاص، وعلامة العلم خشية الله ـ تعالى ـ[1].

وقال: قال يوسف بن أسباط: تخليص النيّة من فسادها أشدُّ على العابد من طول الاجتهاد[2].

وقال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: من خلُصت نيته ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس[3].

وقال سفيان الثوري: عن عبدالعزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة قال: قال الحواريّون: ياروح الله، أخبرنا عن المخْلِص؟. قال: الذي يعمل لله، لا يحب أن يحمده الناس[4].

فالحاصل أن الله ـ سبحانه ـ قد قطع[5] جميع الأسباب التي يتعلّق بها المشركون في معبوداتهم قطعًا يعلم به من تامّله وعرفه بأن من اتخذ من دون الله ـ سبحانه ـ وليًّا أو شفيعًا فهو ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

---

(١) الإخلاص لابن أبي الدنيا ص٣٣ رقم (٣) ورواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة»: ٢/ ٦٧٨، (٧٤٤).

(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم: ١/ ١٣، وأورده محقق كتاب الإخلاص لابن أبي الدنيا في الملحق برقم (٦٦) ص٧٣.

(٣) هذه جملة من كتاب عمر إلى أبي موسى ـ رضي الله عنهما ـ، وقد رواه الدارقطني في سننه: ٤/ ٢٠٦، (١٥)، الأقضية؛ ورواه البيهقي في السنن الكبرى: ١٠/ ١٥٠، (٢٠٣٢٤)، والخطيب في تاريخ بغداد: ١٠/ ٤٤٩.

(٤) رواه أحمد في الزهد: ص ٥٥.

(٥) بداية نقل عن ابن القيم في «مدارج السالكين»: ١/ ٣٤٣.

[العنكبوت: ٤١].

فإنّ المشرك إنّما يتّخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممّن كان فيه مراتب أربع: إما مالك لما يريد عابُده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا، فإن لم يكن شريكًا له كان معينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده، فنفى ـ سبحانه ـ المراتب الأربع نفيًا مرتبًا، منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى، فنفى الملك عن الغير، والشركة له، والمظاهرة، ولم يبق إلا الشفاعة، فنفى ـ سبحانه ـ أيضًا الشفاعة التي يطلبها المشركون من معبوداتهم، وأبطلها في غير ما آية من كتابه العزيز، كقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقوله: : [ر،١٦٠/أ] ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١]، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]، ولهذا قال في الآية المتقدّمة: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾﴾[1] [النجم: ٢٦].

وأثبت ـ تعالى ـ [ك،٧٨/أ] لعباده المؤمنين شفاعة لا نصيب فيها لمشرك البتة، وهي الشفاعةُ التي بإذنه ـ تعالى ـ ورضاه.

فهذا كلّه ظاهر من الآية المتقدمة، فكفى بهذه الآية في ذلك نورًا وبرهانًا ونجاةً، وتجريدًا للتوحيد الذي بعث الله به محمدًا ـ ﷺ ـ ودعا

---

(١) «مدارج السالكين»: ١/ ٣٤٣.

إليه، وقطعًا للشرك وأصلِه وموادّه، الذي بُعث ـ ﷺ ـ لمحوه من الأرض، وقتالِ أهله حتى يتبرّؤا منه، ويُخلِصوا الدين لله ـ تعالى ـ.

وفي القرآن من أمثال هذه الآية ونظائرها كثير، لكنّ أكثر الناس لا يشعر بدخول الواقع تحته، أو تضمُّنِه له، ويظنّه في نوع وقوم قد خَلَوا من قبل، ولم يعقّبوا وارثًا على مذهبهم.

وهذا هو الذي يحول بين القلب وفهم القرآن؛ فإنهم وإن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك، ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إنّما تنقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية[1].

قال العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ[2]: ومن لم يعرف هذه الآية ويفهمها حقّ الفهم والمعرفة، ويعرف الشرك وما عابه القرآن وذمّه، وقع فيه، وأفاده[3]، ودعا إليه، وحسّنه وصوّبه، وهو لا يعرف أنّه الذي عليه أهل الجاهلية، أو نظيرُه، أو أسوأ منه، أو دونه، فينقض عرى الإسلام، ويعود المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والبدعة سنّة، والسنّة بدعة، ويكفَّر الرجل بمحض الإيمان، وبتجريد التوحيد، أو يبدّع بتجريد متابعة الرسول ـ ﷺ ـ، ومفارقة أهل الأهواء

(١) «مدارج السالكين»: ١/ ٣٤٣. وأثر عمر هذا قد أكثر ابن القيم وشيخه ابن تيمية من الاستشهاد به في مصنفاتهما، ولم يتيسر لي العثور على أصله.

(٢) لا يزال الكلام لابن القيم مع تصرف طفيف، وأقحم فيه المؤلف عبارة «قال العلماء..».

(٣) كذا في الأصل، وفي المدارج: «وأقرّه».

والبدع[(١)]، وينسب مع ذلك إلى تنقيص الرسل والأولياء، ومن له قلب وبصيرة علم أن هذا هو غاية تعظيم الحق وأهله.

فحق الرسول ـ ﷺ ـ الاتّباع فيما أمر، وقد أمرَناأن نسأل له الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده، وأنّ بهذا تحِل لنا شفاعته ـ ﷺ ـ يوم القيامة، ولم يأمرنا بسؤال غير الله ـ سبحانه ـ، بل نهانا عنه، وأخبرنا أن ذلك مقرون بغضب الله وعقابه، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨]، فحقّه ـ ﷺ ـ ألا نقدّم على قوله وهديه قول قائل، وأن نعزّره ونوقره في باب الرسالة، الذي هو حقّه، ولا نرفعَه فوق منزلته التي أنزله الله ـ تعالى ـ؛ إذ هي أعلى المنازل والمراتب، فلا أعلى منزلة للعبد عند الله من الرسالة والعبودية، ولهذا استحق بذلك من الله المقام المحمود، الذي يحمده به الأولون [ر،١٦١/ب] والآخِرون.

وقد قال الترمذي[(٢)]: حدثنا الحسين بن يزيدَ الكوفي، حدّثنا عبدالسلام بن الحارث، عن ليث، وقال الدارمي[(٣)]: حدّثنا سعيد بن سليمان[(٤)]، عن منصور بن أبي الأسود، عن ليث، فكلاهما عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا أولهم خروجًا إذا بُعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا

---

(١) إلى هنا ينتهي النقل عن «مدارج السالكين»: ١/ ٣٤٤.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٥٨٥، المناقب، باب في فضل النبي ـ ﷺ ـ، (٣٦١٠)، وضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع: ١٨٨، (١٣٠٩).

(٣) سنن الدارمي: ١/ ٣٩، (٤٨).

(٤) في «سنن الدارمي»: سعيد بن سفيان.

خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مستشفعهم إذا حُبسوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي».

ولفظ الترمذي: «ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربّي، ولا فخر».

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب(١).

وفي صحيح مسلم عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنّة»(٢).

وعنده أيضًا عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشقّ عنه القبر، وبيدي لواء الحمد، وأوّل شافع، وأوّل مشفّع»(٣).

ورواه الترمذي أيضًا(٤).

وعند الإمام أحمد(٥) والترمذي(٦) ـ وقال: حسن صحيح ـ عن أبي

---

(١) السنن: ٥/ ٥٨٥.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٦٠، الإيمان، باب (٨٥)، حديث (١٩٦).

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٤٢٣، الفضائل، باب (٢)، حديث (٢٢٧٨)، وليس فيه: «وبيدي لواء الحمد».

(٤) لم أجده عند الترمذي بهذا اللفظ عن أبي هريرة.

(٥) المسند: ٣/ ٢، بأخصر منه.

(٦) سنن الترمذي: ٥/ ٥٨٧، المناقب، (٣٦١٥) وصححه الألباني في الصحيحة برقم (١٥٧١).

سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ: آدم فمن سواه، إلا تحت لوائي، وأنا أوّل من تنشق عنه الأرض، ولا فخر، وأنا أول شافع، وأوّل مشفّع، ولا فخر».

وعند الإمام أحمد[1] والشيخين[2]، عن جندب بن عبدالله، والبخاري عن ابن مسعود[3]، ومسلم عن جابر بن سمرة[4]، جميعهم ـ رضي الله عنهم ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «أنا فرطكم على الحوض».

وعند مسلم[5] والإمام أحمد[6]، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنّه قال: «أنا محمد وأحمد، وأنا المقفِّي ـ بشدٍّ للفاء وكسرها، الذي جاء في قفى الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة».

وهو عند الطبراني أيضًا، وزاد: «ونبي الملحمة»[7].

---

(١) المسند: ٤/ ٣١٣.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٤٠٨، الرقاق، باب في الحوض، (٦٢١٧)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٤٣٠، الفضائل، باب (٩)، حديث (٢٢٨٩).

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢٤٠٤، الرقاق، باب في الحوض، (٦٢٠٥).

(٤) صحيح مسلم: ٣/ ١١٥٦، الإمارة، باب الناس تبع لقريش..، (١٨٢٢)، ولفظه: «أنا الفرط على الحوض».

(٥) صحيح مسلم: ٤/ ١٤٥٩، الفضائل، باب (٣٤)، حديث (٢٣٥٤). وروى البخاري نحوه عن جبير بن مطعم: ٣/ ١٢٩٩، المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ـ ﷺ ـ، (٣٣٣٩).

(٦) المسند: ٤/ ٤٠٧، إلا أنه قال في آخره: «ونبي التوبة والملحمة».

(٧) المعجم الأوسط: ٤/ ٣٢٧، (٤٣٣٨).

فالحاصل أنّ أهل السنّة والجماعة يثبتون من الشفاعة لأهل التوحيد ما أثبته نبيّهم محمد ـ ﷺ ـ، وما أثبته مرسله في كتابه العزيز، ويخالفون لمن أنكر ذلك من المبتدعة، كالخوارج والمعتزلة ـ قبّحهم الله تعالى ـ، حيث تعلّقوا بمذاهبهم القبيحة في تخليد المذنبين من أهل كلمة «لا إله إلا الله» في النار، واحتجوا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨﴾ [غافر: ١٨]، وضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وتركوا محكم الكتاب والسنّة، مع إجماع أهل السنّة والجماعة على جوازها [ك،٧٩/ب] عقلاً، ووجوبها [ر،١٦١/أ] سمعًا، كما قال القاضي عياض[١].

قال: وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر، بصحّة الشفاعة في الآخرة لمذنب المؤمنين.

قال: وأمّا تأويلهم أحاديثَها لكونها في زيادة الدرجات فباطل، وألفاظ الأحاديث في الشفاعة صحيحة صريحة في بطلان مذهبهم، وإخراج من استوجب النار بها.

ثم ذكر أقسام الشفاعة، وذكر أنّ شفاعة زيادة الدرجات، وشفاعة الحشر الأوّل لم ينكروهما، وأنكروا ما عدا ذلك من الشفاعة.

فقد علمت أنّ سلف الأمّة يثبتون ما أثبته القرآن، وينفون ما نفاه، ويثبتون لنبيّهم ـ ﷺ ـ فضلَه.

فقد روى الشيخان في صحيحيهما[٢] عن الفاروق عمر بن الخطاب

---

(١) انظر «إكمال المعلم»: ١/ ٥٦٥.

(٢) هذا وهم من المؤلف؛ فهذا الأثر ليس في الصحيحين، وإنما رواه أحمد في =

ـ رضي الله عنه ـ أنّه خطب فقال: إنّه سيكون في هذه الأمّة قومٌ يكذّبون بالرجم وبالدجّال، ويكذّبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكذّبون بعذاب القبر، ويكذّبون بالشفاعة، ويكذّبون بقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا.

وهذا عند أهل العلم لا يقوله الصحابي إلا توقيفًا، كيف وهو الفاروق، وقد عُلم توقّيه في هذا المقام.

وروى سعيد بن منصور(١) والبيهقي(٢) وهنّاد بن السري(٣) عن أنس ابن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: من كذّب بالشفاعة فلا نصيب له فيها، ومن كذّب بالحوض فليس له فيه نصيب.

وروى البيهقي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنّه قيل له: إنّ قومًا يكذّبون بالشفاعة. فقال: فلا تجالسوا أولئك(٤).

وفي رواية له عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: يخرج قوم بالشفاعة من النّار، ولا تكذّب كما يكذّب بها أهل حرَوْرا ـ يعني الخوارج ـ(٥).

= المسند: ١/ ٢٣، وأبو يعلى: ١/ ١٣٦، (١٤٦)، وعبدالرزاق في المصنف: ٧/ ٣٣٠، (١٣٣٦٤)، وابن أبي عاصم في السنة: ١/ ١٥٢، (٣٤٣)، وفي سنده علي ابن زيد بن جدعان، وهو سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات، كما في المجمع: ٧/ ٢٠٧.

(١) ذكر ذلك الحافظ في الفتح: ١١/ ٤٢٦، دون ذكر الحوض، وصحح إسناده.

(٢) الغالب أن هذا الأثر وما سيأتي من روايات الشفاعة عند البيهقي من كتابه «البعث والنشور» والمطبوع منه في نقص؛ فلم أعثر عليها فيه.

(٣) الزهد: ١/ ١٤٣، (١٨٩).

(٤) انظر نحوه في اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٦/ ١٢١٠ رقم (٢١٤٣).

(٥) ذكر الحافظ في الفتح: (١١/ ٤٢٦) أنه في «البعث والنشور» ولم أعثر عليه في المطبوع منه.

وروى عن عمران بن حصين مثل ذلك.

وفي مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه ـ ﷺ ـ وقال: أمّتي أمّتي. ثم بكى، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل له: إنّا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[١].

والمراد بذلك أمّة الإجابة؛ أهل كلمة الإخلاص.

وعند الترمذي[٢] وابن ماجه[٣] والحاكم وصحّحه[٤]، وابن حبّان[٥] والبيهقي[٦] والطبراني[٧]، عن عوف بن مالك الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنّ ربّي خيّرني بين أن يُدخل نصف أمّتي الجنّة ـ وفي لفظ: بين أن يدخل نصف أمّتي الجنّة بغير حساب ولا عذاب ـ وبين الشفاعة لأمّتي، فاخترت الشفاعة» قال: وهي لكل مسلم.

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٦٢، ١٦٣، الإيمان، باب (٨٧)، حديث (٢٠٢).

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٦٢٧، صفة القيامة، باب (١٣)، حديث (٢٤٤١).

(٣) سنن ابن ماجه: ٢/ ١٤٤٤، (٤٣١٧).

(٤) المستدرك: ١/ ٦٠، (٣٦). وقال: على شرط مسلم.

(٥) صحيح ابن حبان: ١/ ٤٤٣، (٢١١).

(٦) بنحوه عن ابن عمر، في الاعتقاد: ص ١١٣.

(٧) المعجم الكبير: ١٨/ ٦٨، وهو في «صحيح الجامع» للألباني: ١/ ٧٢، (٥٦).

وعند الإمام أحمد[(١)] والبخاري[(٢)] ومسلم[(٣)] في صحيحهما عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن لكل نبي [ر،١٦٢/ب] دعوةً قد دعا بها في أمّته فاستجيب له، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة».

وعند الإمام أحمد[(٤)] والطبراني[(٥)] والبزّار[(٦)] بسند جيّد[(٧)]، عن معاذ بن جبل وأبي موسى ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّ ربّي خيّرني بين أن يدخل نصف أمّتي الجنّة أو شفاعة، فاخترت لهم الشفاعة، وعلمت أنها أوسع لهم، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئًا».

وروى الطبراني مثله عن أنس بن مالك[(٨)].

وعند الحاكم[(٩)] والبيهقي[(١٠)] وصحّحاه، عن أم حبيبة ـ رضي الله

---

(١) المسند: ٣/ ٢٠٨.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٢٣، الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة، (٥٩٤٦).

(٣) صحيح مسلم: ١/ ١٦١، ١٦٢، الإيمان، باب (٨٦)، حديث (٢٠٠).

(٤) المسند: ٥/ ٢٣٢.

(٥) المعجم الكبير: ٢٠/ ١٦٣.

(٦) مختصرًا، كما في «كشف الأستار»: ٤/ ١٦٧، (٣٤٦٣).

(٧) بل فيه عاصم بن أبي النجود، فيه ضعف، وأبو المليح لم يدرك معاذًا، كما في المجمع: ١٠/ ٣٦٨.

(٨) المعجم الأوسط: ٢/ ١٠٤، (١٣٩٥).

(٩) المستدرك: ١/ ١٣٨، (٢٢٧)، وقال: على شرط الشيخين. وهو في المسند: ٦/ ٤٢٧، والمعجم الكبير: ٢٣/ ٢٢١، والسنة لابن أبي عاصم: ١/ ٩٦، (٢١٥) وصححه الألباني كما في الصحيحة برقم (١٤٤٠).

(١٠) عزاه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٢٣٣) إلى «البعث والنشور» وصحح =

عنها ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أُريت ما تلقى أمّتي من بعدي، وسفك بعضهم دماء بعض، فأحزنني، وسبق ذلك من الله كما سبق في الأمم قبلهم، فسألت أن يوليني فيهم شفاعة يوم القيامة ففعل».

وفي البخاري[1] ومسلم[2]، عن جابر بن عبدالله: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنّ الله يخرج قومًا من النار بالشفاعة، فيدخلهم الجنّة».

وعند أبي داود[3] والترمذي[4] والحاكم[5] والبيهقي[6] وصحّحوه، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي».

وعندهم أيضًا إلا أبا داود، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»[7].

قال جابر: من زاد حسناته على سيّئاته فذاك الذي يدخل الجنّة بغير حساب، ومن استوت حسناته وسيئاته فذاك الذي يحاسب حسابًا يسيرًا،

إسناده. ولم أجده في المطبوع من «البعث».

(١) صحيح البخاري: ٥/ ٢٣٩٩، الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (٦١٩٠).

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٥٢، الإيمان، باب (٨٤)، حديث (١٩١).

(٣) سنن أبي داود: ٤/ ٢٣٦، السنة، باب في الشفاعة، (٤٧٣٩).

(٤) سنن الترمذي: ٤/ ٦٢٥، صفة القيامة (٢٤٣٥).

(٥) المستدرك: ١/ ١٣٩، (٢٢٨)، وقال: على شرط الشيخين.

(٦) السنن الكبرى: ٨/ ١٧، (١٥٦١٦). وهو في «صحيح الجامع» للألباني: ١/ ٦٩١، (٣٧١٤).

(٧) رواه الترمذي: ٤/ ٦٢٥، (٢٤٣٦)، والحاكم في المستدرك: ١/ ١٤٠، (٢٣١).

ثم يدخل الجنّة، وإنّما شفاعة رسول الله ـ ﷺ ـ لمن أوثق نفسه، وأغلق ظهره[1].

وعند الإمام أحمد[2] والطبراني[3] والبيهقي[4] بسند صحيح، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خيّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمّتي الجنّة، فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفأ، أترونها للمتقين؟، ولكنّها للمذنبين الخاطئين المتلوّثين».

وفي صحيح مسلم[5] وغيره، عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لا يثبت أحد على لأواء المدينة وجهدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة».

وفيه مثله عن أبي سعيد[6]، وابن عمر[7]، وأبي هريرة[8] ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا.

---

(١) روى هذه الزيادة عن جابر ابن عدي في الكامل: ٣/ ٢٢١.
(٢) المسند: ٢/ ٧٥، ورواه ابن ماجه في السنن: ٢/ ١٤٤١، (٤٣١١).
(٣) بنحوه عن عبدالله بن بسر في الأوسط: ٥/ ٣٠٤، (٥٣٨٢).
(٤) الاعتقاد: ص ٢٠٢، ٢٠٣. وصحح الألباني هذا الحديث إلى قوله: «فاخترت الشفاعة». انظر صحيح الجامع: ١/ ٦٢٩، (٣٣٣٥).
(٥) صحيح مسلم: ٢/ ٨٠٩، الحج، باب (٨٥)، حديث (١٣٦٣).
(٦) صحيح مسلم: ٢/ ٨١٤، الحج، حديث (١٣٧٤).
(٧) صحيح مسلم: ٢/ ٨١٥، الحج، حديث (١٣٧٧).
(٨) صحيح مسلم: ٢/ ٨١٥، الحج، حديث (١٣٧٨).

وعند الترمذي(١) وابن ماجه(٢) وابن حبّان(٣) والبيهقي(٤)، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها؛ فإني أشفع لمن مات بها».

وعند البيهقي(٥) والطبراني(٦) [ك،٧٩/ب] بسند جيّد، عن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رجلان لا تنالهما شفاعتي يوم القيامة: إمام ظلوم غشوم عسوف، وآخر غالٍ في الدين مارق منه».

وعند الترمذي(٧) من حديث حصين بن عمر، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وليس هو عند أهل الحديث بذاك القوي، عن عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ [ر،١٦٢/أ] قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي، ولم تنله مودّتي».

وجاء أحاديث كثيرة في شفاعة الملائكة والأنبياء والشهداء والأولياء والصالحين والأطفال، لا نطيل بذكرها، نسأل الله الكريم، ربّ العرش

---

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٧١٩، المناقب، باب فضل المدينة، (٣٩١٧). وهو في «صحيح الجامع»: ٢/ ١٠٤٠، (٦٠١٥).

(٢) سنن ابن ماجه: ٢/ ١٠٣٩، (٣١١٢) لكن وقع فيه: «أشهد» بدل «أشفع».

(٣) صحيح بن حبان: ٩/ ٥٧، (٣٧٤١).

(٤) شعب الإيمان: ٣/ ٤٩٨، (٤١٨٤) عن سبيعة الأسلمية.

(٥) كتاب البعث والنشور: ص٣٤، ٣٥، برقم (٢٠).

(٦) المعجم الكبير: ٢٠/ ٢١٣، ورواه ابن أبي عاصم في السنة: ص ٢٣، (٤١)، وصححه الألباني كما في الصحيحة برقم (٤٧١).

(٧) سنن الترمذي: ٥/ ٧٢٤، المناقب، باب مناقب في فضل العرب، (٣٩٢٨). وضعفه الألباني كما في الضعيفة برقم (٥٤٥).

العظيم أن يشفّع فينا نبيّه وعباده الصالحين، إنّه قريب مجيب.

ففي الترمذي[(١)] وصحيح الحاكم[(٢)] وصحّحاه، والبيهقي[(٣)]، عن عبدالله بن أبي الجدعاء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «[ليدخلنّ][(٤)] الجنّة بشفاعة رجل من أمّتي أكثر من تميم»، قالوا: سواك يا رسول الله؟ قال: سواى.

قال الفريابي: يقال إنّه عثمان بن عفان[(٥)]. وروي مرفوعًا.

وعند أبي داود[(٦)] وابن حبّان[(٧)]، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «الشهيد يُشفّع في سبعين من أهل بيته».

وروى الإمام أحمد[(٨)] والطبراني[(٩)] مثله عن عبادة بن الصامت.

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٦٢٦، صفة القيامة، باب (١٢)، حديث (٢٤٣٨). وهو في الصحيحة برقم (٢١٧٨)

(٢) المستدرك: ١/ ١٤٢، (٢٣٦)، وليس فيه أنه صححه. وهو في صحيح ابن حبان أيضًا: ١٦/ ٣٧٦، (٧٣٧٦). وفي المسند: ٣/ ٤٦٩.

(٣) دلائل النبوة: ٦/٣٧٨.

(٤) في الأصول: ليدخل، والتصويب من المصادر.

(٥) وقيل إنه أويس القرني. انظر «موضح أوهام الجمع والتفريق» للخطيب: ٢/ ٥٤، و«فيض القدير»: ٥/ ٣٥٢.

(٦) سنن أبي داود: ٣/ ١٥، الجهاد، باب في الشهيد يشفع، (٢٥٢٢)، وهو في صحيح الجامع: ٢/ ١٣٤٤، (٨٠٩٣).

(٧) صحيح بن حبان: ١٠/ ٥١٧، (٤٦٦٠).

(٨) المسند: ٤/ ١٣١.

(٩) المعجم الكبير: ٢٠/ ٢٦٦، عن المقدام.

والترمذي[١] وابن ماجه[٢] مثله من حديث المقدام بن معديكرب.

وعند البزّار[٣] والبيهقي بسند صحيح، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إنّ الرجل ليشفع في الرجل والرجلين والثلاثة يوم القيامة».

وقد قال ابن ماجه: حدّثنا محمد بن عبدالله بن نمير، وعلي بن محمد قالا: حدّثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يصفّ الناس يوم القيامة صفوفًا ـ وقال ابن نمير: أهل الجنّة ـ، فيمر الرجل من أهل النار على الرجل، فيقول: يا فلان، أما تذكر يوم استسقيتَ فسقيتُك شربة؟. قال: فيشفع له، ويمر الرجل على الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتُك طهورًا؟. فيشفع له». قال ابن نمير: «ويقول الرجل: يا فلان، أما تذكر يوم بعثتني في حاجة كذا وكذا فذهبت لك؟. فيشفع له»[٤].

وهذا إسناد صحيح كما ترى[٥].

وعند البيهقي والحاكم وصحّحه[٦]، عن الحارث بن أقيش ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّ من أمّتي من يدخل الجنّة بشفاعته

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ١٨٧، ١٨٨، فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد، (١٦٦٣)، وقال: حسن صحيح غريب. وأورده الألباني في القسم الصحيح من السنن: ٢/ ١٣٢، (١٣٥٨).

(٢) سنن ابن ماجه: ٢/ ٩٣٥، (٢٧٩٩).

(٣) كشف الأستار: ٤/ ١٧٣، (٣٤٧٣). وقال في المجمع (١٠/ ٣٨٢): رجاله رجال الصحيح.

(٤) سنن ابن ماجه: ٢/ ١٢١٥، (٣٦٨٥). وهو في السلسلة الضعيفة برقم (٩٣).

(٥) بل يزيد الرقاشي ضعيف كما في «تقريب التهذيب» لابن حجر: ص٥٩٩، رقم (٧٦٨٣).

(٦) المستدرك: ٤/ ٦٣٥، ٨٧٥٢)، وقال: على شرط مسلم. وهو في الضعيفة برقم

أكثر من مضر، وإن من أمّتي من سيعظّم للنّار، حتى يكون أحد زواياها».

وروى الإمام أحمد مثله عن أبي برزة ـ رضي الله عنه ـ[(١)].

وعند الإمام أحمد[(٢)] أيضًا، والطبراني[(٣)] والبيهقي بسند صحيح، عن أبي أمامة، سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول: «ليدخلن الجنّة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيّين؛ ربيعة ومضر»، فقال رجل: يا رسول الله، وما ربيعة ومضر؟. قال: إنّما أقول ما أُقوَّل: رجل».

وفي رواية عنه ـ رضي الله عنه ـ عند البيهقي والطبراني[(٤)] مرفوعًا: «يدخل الجنّة بشفاعة رجل من أمّتي أكثر من عدّة مضر، ويشفع الرجل في أهل بيته، ويشفع على قدر عمله».

وعند ابن عدي في «كامله»[(٥)] عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «سيكون في أمّتي رجل يقال له: «أويس بن عبدالله القرني»، وإنّ شفاعته في أمّتي مثل ربيعة ومضر».

[ر،١٦٣/ب] والأحاديث نحو هذا كثيرة جدًا، وإنّما أوردنا أنموذجًا منها خوف الإطالة.

وهذه الشفاعة هي التي أثبتها القرآن، فلا نصيب فيها لمن أنكرها كما تقدّم، ولا لمن تعلّق بالشفاعة الشركيّة، ولا لمشرك البتة.

---

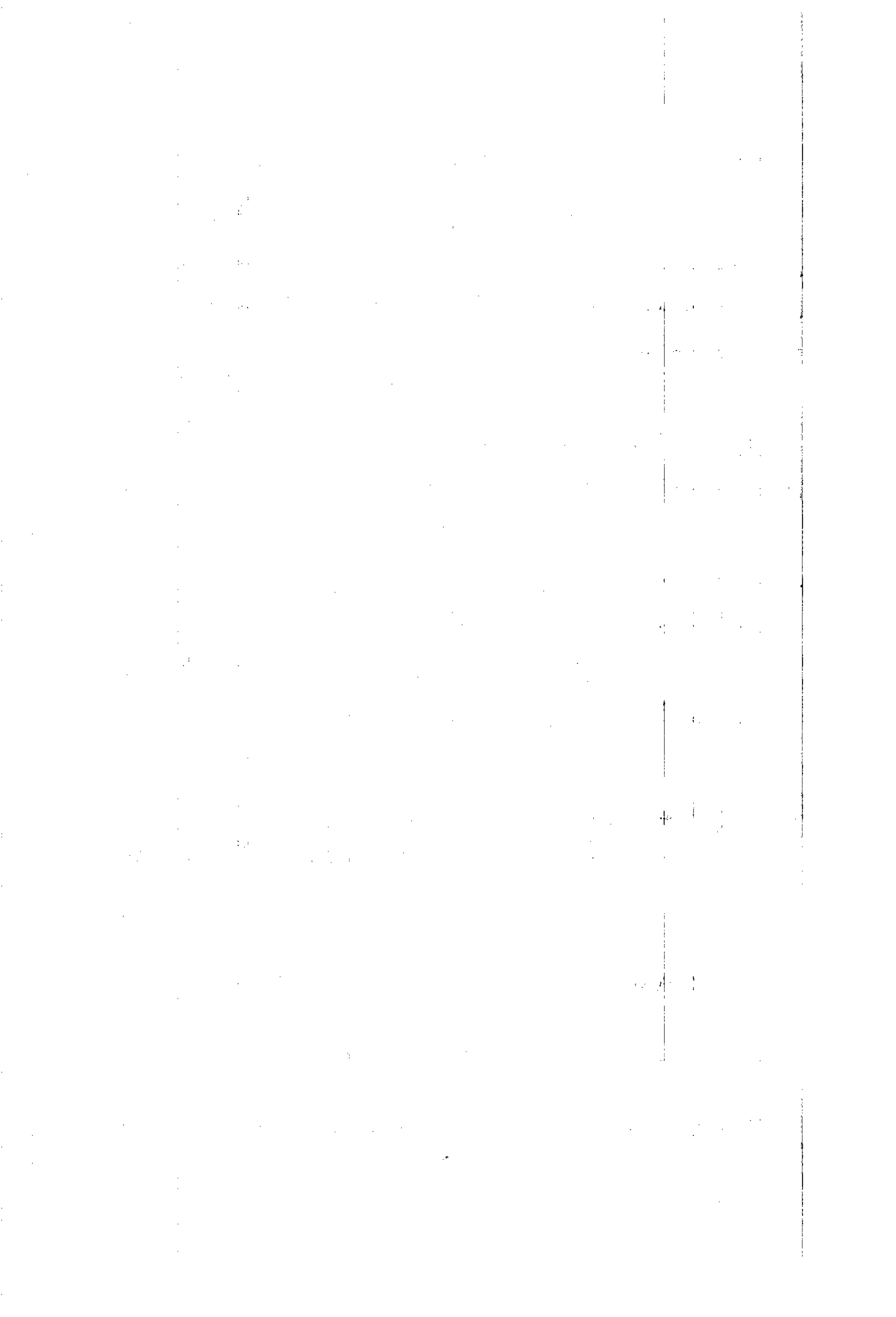
(١) المسند: ٤/ ٢١٢.

(٢) المسند: ٥/ ٢٦١. وصححه الألباني كما في الصحيحة برقم (٢١٧٨).

(٣) المعجم الكبير: ٨/ ٢٣٥.

(٤) المعجم الكبير: ٨/ ٢٧٥.. وقال في المجمع (١٠/ ٣٨٢): رجاله رجال الصحيح غير أبي غالب، وقد وثقه غير واحد، وفيه ضعف.

(٥) «الكامل»: ٧/ ٧٠، وهو في ضعيف الجامع للألباني: ص ٤٨٦، رقم (٣٣١٢).



الباب السابع عشر

باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]

يقول ـ تعالى ـ لنبيّه محمد ـ ﷺ ـ: إنك لا تقدر أن ترشد[1] من أحببت، فتدخله في الإسلام، وإنّما عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء.

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]، فبيّن في هذه الآية هداية التوفيق أنّها من الله، من هداية الدلالة، فالأُولى لا يقدر عليها إلا الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولا تُسأل إلا منه، والثانية هداية الدلالة بأمره ـ تعالى ـ، وهي منصب الرسول ـ ﷺ ـ، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

قال أهل التفسير[2]: وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أخصّ من

---

(١) الأولى أن يقال هنا «تُلهم» أو «توفّق»؛ لأن المنفي عنه في الآية إنما هو هداية التوفيق والإلهام، أما إرشاده فهو حاصل للمهتدين وغيرهم.

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٦/ ٢٤٦، ط دار طيبة.

هذا كلّه؛ فإنّه قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فإذا كان لا يهدي من أحب مع حرصه على هدايته صحّ أنّه ليس له من الأمر شيء، ومع ذلك أيضًا ليس يعلم من يصلح للهداية، فإذا كان هذا سيّد البشر ـ ﷺ ـ، وهو أكرم الخلق على الله، فكيف بغيره.

يوضّح ذلك معاتبتُه ـ تبارك وتعالى ـ له مع ابن أم مكتوم[1]، وقولُه في الذين لعنهم ـ ﷺ ـ، يوم أحد[2]: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فبهذا يقطع الإنسان العلائق عن كل الخلائق، ويتعلق بالواحد الخالق الرازق، الذي له الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، وله الأمر من قبل ومن بعد، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

إذا علمت ذلك، فالصحيح في هذه الآية أنّها نزلت في أبي طالب عمّ رسول الله ـ ﷺ ـ، كما ثبت ذلك في الصحيحين[3].

[ك، ٨٠/ب] منه ما ذكر المصنّف ـ رحمه الله تعالى ـ ههنا، (في الصحيح) للبخاري، عن سعيد بن المسيّب، (عن) أبيه (المسيب) بن حَزْن ـ بفتح المهملة وسكون الزاي ـ، ابن أبي وهب القرشي، له ولأبيه حَزْنٍ صحبة، عاش إلى خلافة عثمان، وحزنٌ ـ رضي الله عنه ـ [ر، ١٦٣/ أ] هو الذي أراد النبي ـ ﷺ ـ أن يغيّر اسمه بسهل فقال: لا

---

(١) كما في أول سورة عبس، وانظر سبب النزول في سنن الترمذي: ٥/ ٣٣٢، (٣٣٣١) وتفسير الطبري: ٣/ ٥٠ـ ٥٢.

(٢) انظر صحيح البخاري: ٤/ ١٤٩٣، (٣٨٤٢)، وصحيح مسلم: ١/ ٣٠١، (٦٧٥).

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٤٠٩، فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، (٣٦٧١)، وصحيح مسلم: ١/ ٥٩، الإيمان، باب (٩)، حديث (٢٤).

أغيّر اسمًا سمّاني به أهلي، قال سعيد بن المسيّب: فلم تزل الحزونة في أخلاقنا بعد ذلك[1]، واستشهد حزْنٌ ـ رضي الله عنه ـ في اليمامة.

(قال: لمّا حضرت أبا طالب الوفاة)، وذلك في سنة خمسين من مولده ـ ﷺ ـ، في شوّال، سنة عشر من نبوّته، وتوفّيت خديجة ـ رضي الله عنها ـ، بعده بثلاثة أيّام، وقيل بخمسة، وقيل في رمضان، وقيل توفيت قبل الهجرة بأربع سنين.

قال القرطبي وعياض: لا خلاف أنّ خديجة ـ رضي الله عنها ـ صلّت مع النبي ـ ﷺ ـ بعد فرض الصلاة، وأنّها توفّيت قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل بخمس[2].

والعلماء مجمعون أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء[3]، وقد مر اختلاف تاريخها[4].

وفي كتاب الزبير بن بكّار، عن عائشة: توفيت خديجة ـ رضي الله عنها ـ قبل أن تفرض الصلاة[5]. انتهى.

قالوا: ولعلّها أرادت فرضها ليلة الإسراء، لا فرض قيام الليل.

---

(١) رواه البخاري: ٥/ ٢٢٨٨، الأدب، باب اسم الحزْن، (٥٨٣٦).

(٢) انظر فتح الباري: ٧/ ٢٠٣، وشرح صحيح مسلم للنووي: ٢/ ٢١٠.

(٣) انظر شرح مسلم للنووي: ٢/ ٢١٠. وقد كتب في الأصل: كانت ليلة..، وما أثبته هو الصواب.

(٤) راجع ص ٣٩٩.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٧/ ٢٤٩، (٣٥٧٦٠)، والطبراني في الكبير: ٢٢/ ٤٥١، وابن منده في الإيمان: ٢/ ٢٩٠، (٦٨٢)، قال في المجمع: (٩/ ٢٢٠): رواه الطبراني وفيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو ضعيف.

قال ابن بطّال: قال جماعة من العلماء: لم يكن على نبيّنا ـ ﷺ ـ صلاة مفروضة قبل الإسراء، إلا ما كان أُمر به من قيام الليل من غير تحديد ركعات معلومة ولا وقت محصور، فقام المسلمون نحو حول معه، حتى شق عليهم، فأنزل الله التخفيف عنهم[١].

رجعنا إلى المقصود:

(فلمّا عَلِم أنّه مُحتَضِر جاءه رسول الله ـ ﷺ ـ) يعني وهو في السياق (وعنده عبدالله بن أبي أميّة) وأسلم بعد ذلك ـ رضي الله عنه ـ وحسن إسلامه، قبل الفتح، ومات شهيدًا في غزوة الطائف[٢] (وأبو جهل بن هشام)، الذي سمّاه رسول الله ـ ﷺ ـ فرعون هذه الأمّة[٣]، وكنّاه بأبي جهل، قتل في بدر كافرًا، من أصحاب القليب[٤].

(فقال رسول الله ـ ﷺ ـ له: يا عمّ، قل «لا إله إلا الله»، كلمة أحاج لك بها عند الله ـ تعالى ـ)، وفي لفظ أشهد لك بها عند الله، وسيأتي.

فقد عُلم بهذا أنّ كلمة التوحيد حجّةٌ لصاحبها عند الله، نافعةٌ له، وبها يستحق[٥] صاحبُها شفاعة النبي ـ ﷺ ـ، حيث قال: «أحاجّ لك بها عند الله»، وهذا من حرصه ـ ﷺ ـ على هداية أمّته خصوصًا وعمومًا،

---

(١) انظر التمهيد لابن عبدالبر: ٨/ ٣٥، ٣٦.
(٢) انظر الإصابة: ٤/ ١٢.
(٣) انظر المسند: ١/ ٤٠٣، ٤٤٤.
(٤) أي ممن ألقي في قليب بدر من صناديد الكفار.
(٥) الأولى: «يستحل»؛ فإن المحاجة بكلمة التوحيد على النجاة لا على الشفاعة.

فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

(فقالا له) أي جلساءُ السوء، لمّا علما أن معنى «لا إلٰه إلا الله» إذا تلفّظ بها يخالف ما عليه هم وآباؤهم، من عبادة غير الله ـ تعالى ـ، وأنّه يَخرج [ر، ١٦٤/ ب] بذلك القولِ من دينهم.

(أترغب عن ملّة عبدالمطّلب)، إذ علموا أن ليس المراد من «لا إلٰه إلا الله» مجرّدَ لفظها، بل يخرج الإنسان بقولها من ملّة، ويدخل بها في ملّة أخرى، فلذلك قالا له: (أترغب عن ملّة عبدالمطّلب)؛ إذ ما على الإنسان فتنةٌ أضرَّ وأعظمَ من دين الآباء، ولهذا قال المشركون لرسولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]، ولذا لم يقولا لأبي طالب: أترغب عن ملّتنا. بل قالا: أترغب عن ملّة عبدالمطّلب، أبيك؟. وإن كانت ملّتهم واحدة؛ تحريضًا وإغراءً له بذلك.

(فأعاد عليه النبي ـ ﷺ ـ) ما قال له أولاً، (فأعادا) عليه قولهما: أترغب عن ملة عبدالمطّلب، (فكان آخرَ ما قال:) أي أبو طالب (هو على ملّة عبدالمطّلب)، جعل الراوي ضمير الغائب مكان ضمير المتكلّم؛ تأدّبًا عن اللفظ بذلك، عن قوله «أنا».

قال الراوي: وأبى أبو طالب أن يقول «لا إلٰه إلا الله».

وفي هذا دليل واضح أن من قال قولاً أو فعل فعلاً بأنّه لا يُقطع عليه به بالكفر، حتى يعلم أنّه يضادُّ الشهادة بعد البيان[١]، كما قال

---

(١) الدلالة هنا على ما يذكر المؤلف غير موجودة فضلاً عن كونها واضحة؛ إذ لا خلاف أن أبا طالب وغيره من أمّة الدعوة كان مقطوعًا بكفرهم قبل بلوغ الدعوة =

ـ تعالى ـ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

(فقال النبي ـ ﷺ ـ عند ذلك: لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك)، أتى ـ ﷺ ـ بضمير الخطاب لعمّه، فيحتمل أنّه خاطبه بهذا القول قبل خروج روحه، ويحتمل أنّه قاله بعد خروجها، وإياسه من إسلامه بموته، ولهذا قال: «ما لم أُنْهَ عنك»، إذ هو لا يرجو إسلامه، فخاطبه بكاف الخطاب؛ لوجود بدنه عنده على الحالتين.

وقد قال الصدّيق للنبي ـ ﷺ ـ بعد موته: ما أطيبك حيًا وميّتًا، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد مِتّها، ولن يجمع الله عليك موتتين[1].

وهذا من جنس قوله لأصحاب القليب في مقام التوبيخ لهم: «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا»[2].

وأيضًا العرب تخاطب بكاف الخطاب حتى الجماد، كما قال أفصحهم ـ ﷺ ـ وهو في مكّة المشرّفة، في سوق الحزوّرة[3]: «والله إنك لأحبّ

إليهم، وبيانها لهم، كما دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾ الآيات، فوصفهم بالكفر قبل إتيان الرسول إليهم، وهكذا من ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام القولية أو العملية من أمة الإجابة فإنه يقطع بكفره إذا كان العلم في متناوله فأعرض عنه؛ إذ الجاهل المفرّط لا يعذر.

(١) رواه البخاري بنحوه: ٣/ ١٣٤١، (٣٤٦٧).

(٢) رواه البخاري: ٤/ ١٤٦١)، المغازي، باب قتل أبي جهل، (٣٧٥٧)، ومسلم: ٤/ ١٧٤٦، الجنّة. . ، باب (١٧)، حديث (٢٨٧٣).

(٣) في حاشية نسخة المصنف بخطه: [الحزوّرة ـ بالحاء المهملة والزاي، ثم واو مشدّدة، ثم راء مهملة، قاله كاتبه ـ موضع بمكة].

أرض الله إلي، ولو لا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت»[1]. كما صحّ ذلك عنه.

ولم يقصد ـ ﷺ ـ بذلك الاستغفارِ مخالفة ربّه، بل لمّا نُهي انتهى.

وهذا كقول إبراهيم لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧]، وقوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ﴾ [الممتحنة: ٤]، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ﴾ [التوبة: ١١٤].

(فأنزل الله ـ عز وجل ـ في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، وقد مرّ الكلام على هذه الآية، وسيأتي مزيد فيها[2].

[ك، ٨٠/أ] وأنزل الله في شأن أبي طالب: [ر، ١٦٤/أ] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فقد ثبت بما تقدّم أنّ أبا طالب مات على الكفر والشرك.

وثبت في الصحيح أنّ أخاه العباس بن عبدالمطّلب ـ رضي الله عنه ـ قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: إنّ أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟. قال: «نعم، وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح»[3].

---

(١) رواه أحمد: ٤/ ٣٠٥، والترمذي: ٥/ ٧٢٣، (٣٩٢٦) بنحوه، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وهو في صحيح الجامع برقم (٧٠٨٩).

(٢) راجع ص ٤٤٠، وانظر ص ٨٢٧.

(٣) رواه البخاري: ٣/ ١٤٠٨، فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب، (٣٦٧٠)، =

وفي الصحيح أيضًا من طريق أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنه ـ ﷺ ـ قال: «لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، تغلي منه أمُّ دماغه»[١].

وفي رواية أخرى: «كما يغلي المرجل أو القمقم»[٢].

وفي رواية أبي ذر الهروي في البخاري: «كما يغلي المرجل بالقمقم»[٣].

قال بعض أهل العلم: القمقم: البسر الأخضر، يطبخ في المرجل استعجالاً لنضجه، يفعل ذلك أهل الحاجة[٤]. هذا على رواية الهروي.

والمرجل ـ بكسر الميم وفتح الجيم ـ قِدر معروف، له أرجل من حديد، وقيل من غير ذلك.

وفي رواية: «عليه نعلان من نار، يغلي منهما دماغه، فهو أدنى أهل النار عذابًا»[٥].

وفي البخاري أيضًا عن العباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال للنبي ـ ﷺ ـ: ما أغنيت عن عمّك؟؛ فإنه كان يحوطك ويغضب لك. فقال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النّار»[٦].

= ومسلم: ١/ ١٦٥، الإيمان، باب (٩٠)، حديث (٢٠٩).

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٤٠٩، (٣٦٧٢).

(٢) انظر فتح الباري: ١١/ ٤٣١.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢٤٠٠، (٦١٩٤).

(٤) «الروض الأنف»: ٤/ ٢٨.

(٥) روى مسلم نحوها في صحيحه: ١/ ١٦٦، (٢١٣).

(٦) صحيح البخاري: ٣/ ١٤٠٨، (٣٦٧٠)، ورواه مسلم: ١/ ١٦٥، (٢٠٩).

وفي رواية يونس في غير الصحيح عن ابن عباس: «عليه نعلان من نار، يغلي منهما دماغه حتى يسيل على قدميه»[1].

قال بعض العلماء[2] ـ رضي الله عنهم ـ: ومن باب النظر في حكمة الله ـ تعالى ـ ومشاكلة الجزاء أن أبا طالب كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ بجملته محرِّبًا له[3]، إلا أنّه كان مثبّتًا لقدميه على ملّة عبدالمطّلب، حتى قال عند الموت: «أنا على ملّة عبدالمطّلب». فسُلّط العذاب على قدميه خاصّة لتثبيته إياها على ملّة آبائه، ثبّتنا الله والمسلمين على صراطه المستقيم.

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣]).

وقد يُشكل هذا مع استغفاره ـ ﷺ ـ للمشركين يوم أُحد، حيث قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[4]، وذلك حين جرح المشركون وجهه، وقتلوا حمزة عمّه، وكثيرًا من أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ.

قالوا: ولا يصح أن تكون الآية التي نزلت في عمّه أبي طالب ناسخة لاستغفاره ـ ﷺ ـ يوم أحد؛ لأن وفاة عمّه كانت قبل ذلك، كما مر تاريخها، ولا ينسخ المتقدّمُ المتأخر[5].

---

(١) ذكرها صاحب «الروض الأنف»: ٤/ ٢٨.

(٢) انظر «فيض القدير»: ٣/ ٦٨.

(٣) أي مجرِّئًا له ومشجعًا. انظر «تهذيب اللغة»: ٥/ ٢١. ووقع في المطبوع من «الروض الأنف» (٢/ ٢٢٥) [متحزّبًا]، والمؤلف ينقل منه.

(٤) رواه البخاري: ٣/ ١٢٨٢، الأنبياء، (٣٢٩٠)، ومسلم: ٣/ ١١٣٢، الجهاد، (١٧٩٢) على أنه ـ ﷺ ـ يحكيه عن نبي من الأنبياء. انظر الفتح: ٦/ ٥٢١.

(٥) «الروض الأنف»: ٤/ ٢٨.

وقد أجيب عن هذا بأجوبة، منها أن استغفاره - ﷺ - [ر، ١٦٥/ب] لقومه مشروط بتوبتهم من الشرك، كأنّه - ﷺ - أراد الدعاء لهم بالتوبة حتى يغفر لهم، ويقوّي هذا القول رواية من روى: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»، وقد ذكرها ابن إسحاق، رواها عنه الكتّاب[1] بهذا اللفظ. قاله السهيلي.

وقيل: أراد - ﷺ - مغفرة تصرف عنهم عقوبة الدنيا، من المسخ والخسف وغير ذلك من عذاب الاستئصال[2].

ووجه ثالث: وهو أن تكون الآية تأخّر نزولها، فنزلت في المدينة ناسخة للاستغفار للمشركين، فيكون سبب نزولها متقدّمًا، ونزولها متأخّرًا - كما قد ذكرنا في تأخّر سورة الكوثر، وأنّ نزولها في المدينة، مع أنّ سببه بمكّة -[3]، ولا سيّما وهذه الآية في سورة براءة، وهي من آخر ما نزل، فتكون على هذا ناسخة للاستغفارين جميعًا[4].

وفي الصحيح أيضًا أن رسول الله - ﷺ - دخل على عمّه أبي طالب عند موته، وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أميّة، فقال: يا عمّ، قل «لا إله إلا الله»، كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وابن أبي أميّة: أترغب عن ملّة عبدالمطّلب؟. فقال: أنا على ملّة عبدالمطّلب[5].

---

(١) في «الروض»: [رواها عن بعض رواة الكتاب بهذا اللفظ].

(٢) انظر «الروض»: ٤/ ٢٨.

(٣) راجع ص ٥٨١.

(٤) انظر «الروض»: ٤/ ٢٩.

(٥) رواه البخاري: ١/ ٤٥٧، (١٢٩٤)، ومسلم: ١/ ٥٩، (٢٤).

وظاهر هذا الحديث أنّ عبدالمطّلب مات على الشرك كما تقدّم، وسيأتي كلام المعترض على ذلك قريبًا إن شاء الله ـ تعالى ـ، وما رُوي في ذلك مما لم يصح.

وفي قلّة اتّباع قومه له ـ ﷺ ـ، وتأخُّرِهم عن الإسلام إلا قليلاً، وتقدّم الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ وهم أبعد الناس نسبًا منه، علَم من أعلام نبوّته ـ ﷺ ـ؛ فإنّ العرب قد عُلم منها أنّها أشدُّ خلق الله[1] حميّة وتعصّبًا، فبلغ الإيمان من الأنصار ونورُ اليقين في قلوبهم بأن يرغب الرجل منهم في قتل أبيه وولده وأخيه تقرّبًا إلى الله ـ تعالى ـ وزلفى لديه، فسبق إلى الإيمان به الأباعد، وتأخر عنه قومه، إذ لو بادر أهله وأقربوه إلى الإيمان به لقالت العرب إنما أراد القوم الفخر برجل منهم، وتعصبوا له، فلما بادر إليه الأباعد، وقاتلوا على حبّه من كان منهم أو من غيرهم، عُلم أن ذلك منهم على بصيرة صادقة، ويقين قد تغلغل في قلوبهم، وهيئة[2] من الله أزالت عن نفوسهم من أخلاق الجاهلية ما لا يستطيع إزالتَها إلا الذي فطرها الفطرة الأولى، القادر على ما يشاء[3]، وهذه حكمة ربانية.

وقد قال ابن إسحاق: حدّثني العباس بن عبدالله بن معبد، هو ابن العباس بن عبدالمطّلب، عن بعض أهله، عن ابن عبّاس بن عبدالمطّلب قال: مشوا إلى أبي طالب وكلّموه، وهم أشراف قومه؛ عتبة بن ربيعة، [ك، ٨١/ ب] وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأميّة بن خلف،

---

(١) الأمثل أن يقال: «من أشد خلق الله..».

(٢) كذا في الأصول، وفي «الروض الأنف» المطبوع (٦/ ٤٣١): [ورهبة].

(٣) «الروض الأنف» للسهيلي: ٦/ ٤٣١، وقوله «القادر على ما يشاء» تقدم التعليق عليه ص ٦٥٠.

وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك منّا حيث علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوّفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخُذ له منّا، [ر،١٦٥/أ] وخذ لنا منه؛ ليكفّ عنا، ونكفّ عنه، وليدعنا ودِيننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه ـ ﷺ ـ فقال: ياابن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. قال: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: نعم، كلمةً واحدة تعطونيها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم. قال: فقال أبو جهل: وأبيك وعشرَ كلمات. قال: تقولون «لا إله إلا الله»، وتخلعون ما تعبدون من دونه. قال: فصفّقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمدُ أن تجعل الآلهة إلٰهًا واحدًا؟، إن أمرك لعجب. قال: ثم قال بعضهم لبعض: إنّه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدونه، فانطلقوا وامضُوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. قال: ثم تفرّقوا. قال: فقال أبو طالب لرسول الله ـ ﷺ ـ: يا ابن أخي، ما رأيتك سألتَهم شططا. قال: فلما قالها أبو طالب طمع رسول الله ـ ﷺ ـ فيه، قال: فجعل يقول له: أي عمّ، فأنت فقلها، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة. قال: فلما رأى حرص رسول الله ـ ﷺ ـ عليه قال: والله يا ابن أخي، لولا مخافةُ السبّة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظنّ قريش أني إنّما قلتها جزعًا من الموت، لقلتُها، لا أقولها إلا لأسرَّك بها. قال: فلما تقارب من أبي طالب الموت قال: نظر العباس إليه يحرّك شفتيه، فأصغى إليه بأُذنه، فقال: يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرتَه أن يقولها. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: لم أسمع. قال: وأنزل الله ـ عز وجل ـ في الرهط الذين اجتمعوا وقال لهم ما قال، وردّوا عليه ما ردّوا: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ

هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعنون النصارى بقولهم: إنّ الله ثالث ثلاثة، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝﴾ [ص: ١ـ ٧]، ثم هلك أبو طالب[١].

فقد تبيّن مما تقدّم أنّه لو كان في قلبه مثقال حبّة، أو أدنى ذرّة من إيمان، لأخرجه الله بشفاعة نبيّه محمد ـ ﷺ ـ من النار، ولم يخلّد فيها.

وقد أخبر ـ ﷺ ـ عن منزله في النار، والأخبار لا يدخلها نسخ، وهو لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وعُلم أيضًا مما تقدّم أنّ فعل الكافر لأعمال الخير قد تنفعه إما في الحياة الدنيا، كما يدلّ عليه القرآن، وإمّا في الآخرة، بتخفيف عذابٍ عنه، مع الخلود في العذاب المخفَّف، كأبي طالب، لحتم الله للكافر بالخلود، في قوله ـ تعالى ـ: [ر،١٦٦/ب] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ [المائدة: ٧٢].

فاحذر عملاً لا يكون لصاحبه خلاصًا من النار إلا بالبراءة منه، أعاذنا الله والمسلمين من ذلك بمنّه وكرمه.

وعلى تقدير صحّة حديث العباس فإنّ النبي ـ ﷺ ـ قال: لم أسمع. ولم يقبل شهادته؛ لإقامته إيّاها في حال كفره، فلا تُقبل، فلو صح الحديث وأقامها بعد إسلامه لقبلت، ولكن الأمر خلاف ذلك[٢].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤١٧ـ ٤١٩.

(٢) كيف يصح ذلك وقد ثبت في الصحيح كما تقدم أن آخر ما قال: «أنا على ملّة =

وفي بعض كتب المسعودي كما قال السهيلي[1] اختلاف في عبدالمطلب، وأنّه قد قيل مات مسلمًا، لما رأى من الدلالة على نبوّة محمد ـ ﷺ ـ، وعلم أنّه لا يبعث إلا بالتوحيد، وبشارة تبّع إيّاه لما وفد عليه في قومه بذلك.

والأحسن في شأنه: لم تبلغْه الدعوة، فالله أعلم.

غير أنّ في مسند البزّار[2]، وكتاب النسوي[3]، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ، أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال لفاطمة وقد عزّت قومًا من الأنصار عن ميّتهم: لعلك بلغتِ معهم الكُدى ـ ويروى: الكرى، بالراء[4]، يعني القبور ـ، فقالت: لا. فقال: لو كنت بلغت معهم الكدى ـ أو كما قال ـ ما رأيت الجنّة حتى يراها جد أبيك. ورواه أبو داود[5] والحاكم في صحيحه[6]، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. إلا أنّ أبا داود أعرض عن قوله: لو بلغت معهم الكدى. إلخ.

عبدالمطلب»، وأنه أبى أن يقول «لا إله إلا الله»، ولا يبعد إن ثبتت شهادة العباس، أنه إنما قالها تطييبًا لقلب النبي ـ ﷺ ـ.

(١) «الروض الأنف»: ٤/ ٢٩.

(٢) مسند البزار: ٦/ ٤١٥، (٢٤٤٠). ورواه أحمد: ٢/ ١٦٨، وسنده ضعيف كما نبه محققو المسند: ١١/ ١٣٧، ١٣٨.

(٣) سنن النسائي: ٤/ ٢٧، (١٨٨٠).

(٤) لم أعثر على هذه الرواية.

(٥) سنن أبي داود: ٣/ ١٩٢، الجنائز، باب في التعزية، (٣١٢٣).

(٦) المستدرك: ١/ ٥٢٩، (١٣٨٣)، ورواه ابن حبان في صحيحه: ٧/ ٤٥١، (٣١٧٧).

وذكره ابن الجوزي في الواهيات وقال: هذا حديث لا يثبت[1].

وضعّفه عبدالحق[2].

وقال ابن القطّان: هو عندي حسن[3].

قال السهيلي: يحتمل أنّه أراد بقوله: «جد أبيك» تخويفًا لها، فتتوهم أنّه الجد الكافر، ومن جدوده ـ ﷺ ـ إبراهيم وإسمعيل ـ عليهما السلام ـ؛ لأنّ قوله ـ ﷺ ـ حق، وبلوغها معهم الكدى لا يوجب خلودًا في النار، فهذا على التعبير من لطيف الكناية[4].

والله أعلم بقوله ـ ﷺ ـ وما أراد، أهو عبدالمطلب إن صح، أو غيره.

وفي قوله ـ ﷺ ـ «جد أبيك»، ولم يقل: جدّك، يعني أباه، تعلّق من تعلّق بالحديث الضعيف، من أنّ الله أحيى له ـ ﷺ ـ أبويه، فآمنا به، رُوي ذلك من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، أورده الخطيب في «السابق واللاحق»[5]، وابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ»[6] له، والدارقطني[7]، وابن عساكر[8]، كلاهما في «غرائب مالك»، والبغوي

---

(١) «العلل المتناهية»: ٢/ ٩٠٣، (١٥٠٩).

(٢) الأحكام الوسطى: ٢/ ١٥٢، مكتبة الرشد، ط ١٤١٦هـ.

(٣) «بيان الوهم والإيهام»: ٥/ ٦١٧، ٦١٨، (٢٨٣٧).

(٤) «الروض الأنف»: ٤/ ٣٠.

(٥) «السابق واللاحق في تباعد مابين راويين عن شيخ واحد»: لم أعثر عليه في المطبوع فيه.

(٦) «الناسخ والمنسوخ»: ٣٠٢، ٣٠٣، (٦٥٠)، (٦٥١).

(٧) «غرائب مالك» للدارقطني ولابن عساكر كلاهما في حكم المفقود.

(٨) انظر «لسان الميزان» لابن حجر: ٤/ ٣٠٥. فقد أورد سند ابن عساكر وقوله: =

في تفسيره[1]، والمحبّ الطبري في «خلاصة السير»[2]، وأورده السهيلي بإسناد ضعيف فيه مجاهيل[3]، [ك،81/أ] ونقله ابن سيد الناس عن بعض أهل العلم[4].

وقال فيه عماد الدين ابن كثير: إنه حديث منكر [ر،166/أ] جدًا، ومسنده مجهول[5].

وقال ابن دحية[6]: هذا حديث موضوع، يردّه القرآن والإجماع؛ لأنّ من مات كافرًا لم ينفعه الإيمان بعد الرجعة، بل مَن عند المعاينة لم ينفعْه بذلك، فكيف بعد الإعادة.

وبنحو ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ قدّس الله روحه ـ[7].

ويؤيّد هذا ما رواه مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «استأذنت ربّي أن أستغفر لأمّي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور؛ فإنها تذكّر الآخرة»[8].

حديث منكر.

(1) لم أجده عند تفسيره لآيات التوبة ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآيات.

(2) وقع في الأصل: «خلاصة السر»، والصواب ما أثبته.

(3) «الروض الأنف»: 2/ 187.

(4) لم أهتد إلى ذلك في «عيون الأثر».

(5) «البداية والنهاية»: 3/ 429، تحقيق التركي.

(6) هو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي الكلبي، الأندلسي، توفي سنة 633هـ، انظر وفيات الأعيان (3/ 449، 450) دار صادر.

(7) انظر مجموع الفتاوى: 4/ 324.

(8) صحيح مسلم: 2/ 559، الجنائز، باب (36)، حديث 976).

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره، عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنّ رسول الله - ﷺ - أتى إلى المقابر، فاتّبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى، حتى بكَيْنا لبكائه، ثم قام، فقام إليه عمر، فدعاه ثم دعانا، فقال: «ما أبكاكم؟. فقلنا: بكَيْنا لبكائك. فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، فاستأذنته في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة: ١١٣]، فأخذني ما يأخذ الولد عند الوالد»[١].

ورواه الطبراني من حديث ابن عباس - رضي الله عنه -[٢].

قال القاضي عياض: بكاؤه - ﷺ - على ما فاتها من إدراك أيّامه والإيمان به[٣].

وفي رواية أنّه سئل عن بكائه، فقال: ذكرت ضعفها، وشدّة عذاب الله - تعالى -.

وفي مسند البزار من حديث بريدة أنّه - ﷺ - حين أراد أن يستغفر لأمه، ضرب جبرئيل في صدره - عليه السلام -، وقال: لا تستغفر لمن مات مشركًا. فرجع وهو حزين[٤].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٦/ ١٨٩٣، ١٨٩٤، (١٠٠٥١).

(٢) المعجم الكبير: ١١/ ٣٧٤. قال في المجمع (١/ ١١٧): فيه أبو الدرداء وعبدالغفار بن المنيب عن إسحاق بن عبدالله عن أبيه عن عكرمة، ومن عدا عكرمة لم أعرفهم، ولم أر من ذكرهم.

(٣) «إكمال المعلم»: ٣/ ٤٥٢.

(٤) «كشف الأستار»: ١/ ٦٦، (٩٦)، قال البزار: لم يروه بهذا الإسناد إلا محمد بن جابر عن سماك بن حرب. وقال الهيثمي في المجمع (١/١١٧): ولم أر من ذكر =

وفي صحيح مسلم أنّ رجلاً قال له: يا رسول الله، أين أبي؟. فقال: في النّار. فلمّا ولّى الرجل قال ـ ﷺ ـ: «إنّ أبي وأباك في النّار»[1].

وفي رواية قال الرجل: وأين أبوك يا رسول الله؟ الحديث[2].

ومع قوله هذا ـ ﷺ ـ، فليس لنا أن نؤذيه بسبّ أبويه، وقد قال ـ كما صح عنه ـ: «لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات»[3]، وليست حرمة أذاه ـ ﷺ ـ كحرمة غيره، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وإنما قال ـ ﷺ ـ لذلك الرجل هذه المقالة لمّا وجد الرجل في نفسه، أو جوابًا لسؤاله في قوله: وأين أبوك؟. كما في الرواية الأخري، فحينئذ قال له ذلك.

= محمد بن جابر هذا.

(١) صحيح مسلم: ١/ ١٦٣، الإيمان، باب (٨٨)، حديث (٢٠٣).

(٢) لم أجدها بهذا اللفظ، وإنما وجدت قول أبي رزين، لقيط بن عامر العامري: فهممت أن أقول: وأبوك يا رسول الله فإذا الأخرى أجمل، فقلت: وأهلك... ضمن حديثه الطويل المشهور، وقد أخرجه أحمد: ٤/ ١٣، والحاكم: ٤/ ٦٠٧. وقال: حديث جامع في الباب، صحيح الإسناد، كلهم مدنيون، ورواه عبدالله بن أحمد في السنة: ٢/ ٤٨٩، وقال في المجمع (١٠/ ٣٤٠): رواه عبدالله والطبراني بنحوه وأحد طريقي عبدالله إسنادها متصل ورجالها ثقات.

(٣) رواه بهذا اللفظ الفاكهي في «أخبار مكة»: ٣/ ١٥٨، (١٩١٥)، وذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب: ٣/ ١٠٨٢، وبلفظ «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء» رواه أحمد: ٤/ ٢٥٢، والترمذي: ٤/ ٣٥٣، (١٩٨٢)، وابن حبان في صحيحه: ٧/ ٢٩٢، (٣٠٢٢)، والطبراني في الكبير: ٨/ ٢٥، وقال في المجمع: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٨/ ٨٦). وهو في السلسلة الصحيحة للألباني برقم (٢٣٧٩).

قال النووي: وفي هذا الحديث أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تنفعه قرابة المقرّبين[١].

قلت: والسلامة في هذا والأحسن أن يُجعلوا من أهل الفترة.

فروى عبدالرزّاق[٢]، وابن جرير[٣]، [ر،١٦٧/ب] وابن أبي حاتم[٤]، وابن المنذر[٥] في تفاسيرهم بسند صحيح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفترة، والمعتوه، والأصمّ، والأبكم، والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام، ثم أرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار، فيقولون: كيف ولم تأتنا رسل؟، وايم الله، لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا، ثم يرسل إليهم، فيطيعه من كان يريد أن يطيعه. قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

وروى الحاكم في صحيحه[٦] وقال: صحيح على شرطهما، من حديث ثوبان نحوَه، وأقرّه الذهبي على ذلك في مختصره للمستدرك.

وكذلك روى الإمام أحمد[٧] والبزّار[٨] وأبو يعلى[٩] من حديث

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٣/ ٧٩.
(٢) انظر «الدر المنثور»: ٤/ ٣٠٥.
(٣) «جامع البيان»: ١٥/ ٥٤.
(٤) انظر «الدر المنثور»: ٤/ ٣٠٥.
(٥) الموضع السابق.
(٦) المستدرك: ٤/ ٤٩٦، (٨٣٩٠).
(٧) لم أهتد إليه.
(٨) لم أهتد إليه.
(٩) مسند أبي يعلى: ٧/ ٢٢٥، (٤٢٢٤).

أنس ـ رضي الله عنه ـ مثله.

وهكذا روى الإمام أحمد[1] وإسحاق بن راهويه[2] في مسنديهما، والبيهقي في الاعتقاد[3] وصحّحه، من حديث أبي هريرة نحو ما تقدّم في حديثه أو قريبًا منه.

وقد سُئل أبوبكر بن العربي المالكي الحافظ، عن رجل قال: إنّ أبا النبي ـ ﷺ ـ في النّار؟، فأجاب بأنّه ملعون[4]؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وأي أذىً أن يقال عن أبيه إنه في النار.

وروى شيخ الإسلام أبو إسمعيل الأنصاري الهروي في «كتاب ذمّ الكلام»،

---

(١) لم أجده في مسند أحمد عن أبي هريرة.

(٢) «مسند إسحاق بن راهويه»: ١/ ٤٤٥، (٥١٤).

(٣) «الاعتقاد»: ١٦٩، ورواه أيضًا من حديث الأسود بن سريع أحمد: ٤/ ٢٤، قال في المجمع (٧/ ٢١٦): ورجاله في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح، وكذلك رجال البزار فيهما.

(٤) من آذى رسول الله ـ ﷺ ـ قاصدًا متعمدًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لكنّ هذا الإطلاق من ابن العربي فيه مجازفة؛ إذ ليس الأذى غيرُ المقصود بداخل في اللعن المذكور في الآية، وإلا لتناول نحو من ذكرهم الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾، كما أن الحكم بأن أبا النبي ـ ﷺ ـ في النار قد يذكر لا على سبيل سب الأموات المفضي لإيذاء الأحياء، بل على سبيل رواية حديث مسلم المتقدم ونحوه من الأحاديث الواردة في هذا الباب، والنطق بمدلولها، أو على سبيل الفتوى لمن سأل، مع التأكيد على حرمة النبي ـ ﷺ ـ في عدم سب أبويه، وترديد حكمهما دون مناسبة، ولا أظن القاضي يلتزم بموجب استدلاله هذا منع رواية الأحايث الصحيحة في المسألة، فضلاً عن لعن رواتها ومدونيها وشارحيها والقائلين بموجبها ومدلولها.

من طريق أبي جميلة قال: قال أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز لسليمان ابن سعد: بلغني أن أباك عاملنا كان كذا وكذا، وهو كافر. فقال: كان أبو رسول الله ـ ﷺ ـ كافرًا. فغضب عمر غضبًا شديدًا، وعزله عن الدواوين[1].

وقد جرى على هذا الأدب الإمام الحافظ أبو داود صاحب السنن، فإنّه خرّج في سننه حديثًا في آخر متنه ما يتعلّق بعبدالمطّلب، فلما انتهى إلى ذكره قال: فذكر شديدًا[2]. فلم يصرّح بشيء.

والحديث مبهم في مسند الإمام أحمد[3]، وسنن النسائي[4]، وهذا وأمثاله إرشاد من هؤلاء الأئمة، وتعليم لنا أن نسكت عن التلفّظ بمثل ذلك تأدّبًا معه ـ ﷺ ـ.

وعند أبي نعيم في «الحلية»، من طريق عبدالله بن يونس قال: سمعت بعض شيوخنا يذكر أن عمر بن عبدالعزيز أُتي بكاتب بين يديه، وكان مسلمًا وأبوه كافرًا، فقال عمر للذي جاء به: لو كنت جئت من أبناء المهاجرين. فقال الكاتب: قد كان أبو رسول الله [ك،٨٢/ب] ـ ﷺ ـ [ر،١٦٧/أ] كافرًا. فغضب عمر، وقال: لا تخط بين يديّ بقلم أبدًا[5].

---

(١) «ذم الكلام»: ٤/ ٨٥ ٨٦، رقم (٨٢٧) تحقيق عبدالله الأنصاري، ط ١، ١٤١٩هـ.

(٢) كذا في الأصل، والذي في سنن أبي داود [(٣/ ١٩٢)، الجنائز، باب في التعزية، (٣١٢٣)] أنه قال: فذكر تشديدًا في ذلك.

(٣) المسند: ٢/ ١٦٨، ٢٢٣.

(٤) سنن النسائي: ٤/ ٢٧، (١٨٨٠)، وأراد بإبهامه أنه قال لفاطمة: «..لو بلغتها معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك». ولم يقل: عبدالمطلب تصريحًا.

(٥) «حلية الأولياء»: ٥/ ٢٨٣.

وفي «ربيع الأبرار» للزمخشري: لقي رجل من المهاجرين العباس ابن عبدالمطّلب فقال: يا أبا الفضل، أرأيت عبدالمطّلب والغيطلة[1] كاهنة بني سهم، جمعهما الله في النار، فصفح عنه، فلما كان في الثالثة رفع يديه فوجأ أنفه، فانطلق إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فلما رآه قال: ما هذا؟. قال العباس. فأرسل إليه، وقال: ما أردت برجل من المهاجرين؟. فقص عليه القصّة، فقال: ما ملكتُ نفسي، وما إيّاه أردت، ولكن آذاني. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما بال أحدكم يؤذي أخاه في شيء وإن كان حقًّا؟»[2].

وعند البيهقي في سننه[3]، والحاكم في مستدركه[4]، عن سعيد بن زيد الأنصاري مرفوعًا: «لا تؤذوا مسلمًا بشتم كافر».

وعند الإمام أحمد بسند حسن[5]، والترمذي[6]، عن المغيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تسبّوا الأموات فتؤذوا الأحياء».

فبما ذكرنا يلزم الأدب معه ـ ﷺ ـ في أبويه وجدّه، بأن لا نُؤذيه فيهم بأمر، وإن كان حقًّا؛ لأنّ حرمته بعد موته كحرمته حيًّا؛ إذ أعمال

---

(١) في الأصل: «القبطة» وهو خطأ، وما أثبته هو ما اتفقت عليه المصادر.

(٢) «ربيع الأبرار»: ٢/ ٨٤٠، وقد رواه ابن سعد في الطبقات: ٤/ ٢٥، والروياني في مسنده: ٢/ ٣٤٧، ٣٤٨، (١٣٢٨)، وأبو داود في المراسيل: ٣٤٥، (٥٠٨). وهو في «ضعيف الجامع»: ٧٢٧، (٥٠٣٢).

(٣) السنن الكبرى: ٤/ ٧٥، (٦٩٨٠)، والشعب: ٥/ ٢٨٧، (٦٦٨٠).

(٤) المستدرك: ١/ ٥٤٢، (١٤٢٠) وقال صحيح الإسناد. وهو في صحيح الجامع للألباني: ٢/ ١٢٠٧، (٧١٩١).

(٥) المسند: ٤/ ٢٥٢.

(٦) سنن الترمذي: ٤/ ٣٥٣و (١٩٨٢). وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٢٣٧٩).

أمّته تعرض عليه، كما صحّ بذلك الخبر، فلا نطيل بإيراده؛ إذ ليس له ما يعارضه من كتاب ولا سنّة، سوى أهل البدع.

وقد صحّ أنّ قبر أبيه ـ ﷺ ـ في المدينة، وذلك أنّه بعد ما دخل بآمنة، وحملت برسول الله ـ ﷺ ـ، سافر بتجارة إلى الشام، فرجع من الشام وهو مريض، فقدم المدينة على أخوال أبيه بني النجار، فمات بها من مرضه ذلك.

وقيل: ذهب ليمتار لأهله تمرًا من المدينة، ولما قدمت العير مكة ذكروه لأبيه عبدالمطّلب، فبعث إليه ابنه الحارث، فوجد أخاه عبدالله قد مات بها، فقبض تركته، وجاء بها إلى أبيه، فلمّا وُلد ـ ﷺ ـ صار في كفالة جدّه عبدالمطّلب، فلما بلغ ـ ﷺ ـ ست سنين من مولده ـ وقيل أربع، وقيل خمس، وقيل سبع، وقيل تسع، وقيل غير ذلك ـ توفّيت أمّه آمنة بالأبواء، في رجوعها من المدينة به ـ ﷺ ـ، وقد أزارته أخوال جدّه بني النجار، وقيل إن قبرها بمكّة، فلعلّها منقولة بعد ما دفنت بالأبواء.

فروى ابن سعد(١) عن ابن عباس وعن عاصم بن عمر بن قتادة، دخل حديث بعضهم في بعض قالوا: لمّا بلغ رسول الله ـ ﷺ ـ ست سنين، خرجت به أمّه إلى أخواله بني عدي بن النجّار بالمدينة تزورهم ـ وفي رواية: تزيرهم إيّاه ـ، ومعها أم أيمن، فنزلت به دار النابغة، وهو رجل من النجّار، وكان قبر عبدالله أبي النبي ـ ﷺ ـ في تلك الدار، وأقامت به عندهم شهرًا، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يذكر أمورًا كانت في مقامه ذلك، ونظر ـ ﷺ ـ حيث هاجر وقال: ههنا نزلَت بي

---

(١) الطبقات الكبرى: ١/ ١١٦.

أمي، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون علي ينظرون إلي.

قالت أم أيمن: فسمعت أحدهم يقول: هو نبي هذه [ر،١٦٨/ب] الأمّة، وهذه دار هجرته، وعيتُ ذلك كلّه من كلامهم.

ثم رجعت به أمّه إلى مكة، فلما وصلوا الأبواء ـ وهو موضع بين مكّة والمدينة ـ توفّيت، يعني بالأبواء.

ودار النابغة في بني عدي بن النجار: قال المطَري[1]، وتبعه من بعده: إنّها كانت قبلة مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ، وهي دار بني عدي بن النجّار[2].

وفي البخاري من حديث عائشة، أنّه ـ ﷺ ـ أقبل يسير، حتى نزل دار أبي أيوب فقال: أي بيوت أهلنا أقرب؟، أي أخوال جدّه. فقال أبو أيّوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي. قال: فانطلق فهيىء لنا مقيلاً[3].

قلت: إنما أبو أيوبَ ـ رضي الله عنه ـ من بني عمّ أخواله، بني مالك بن النجّار، وإنّما أخواله آخر من مرّ بهم ـ ﷺ ـ في طريقه قبل بني مالك، وهم بنو عدي بن النجّار، ولهذا ذكر المطري أنّ منازلهم قبلة مسجده ـ ﷺ ـ، ولكنّ العرب تطلق الخؤولة على كل القبيلة التي

---

(١) سبق التعريف به.

(٢) انظر «التعريف»: ص ٣٥ وما بعدها، المكتبة العلمية ـ المدينة، ١٤٠٢هـ.

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٤٢٤، فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ـ ﷺ ـ...، (٣٦٩٩).

أم الإنسان منهم.

وفي حديث هجرته أنّه مر بعد بني بياضة ببني عدي بن النجّار، وهم أخواله، فقام أبو سليط وصرمة بن أبي أنيس في قومهما فقالا: يا رسول الله، نحن أخوالك، هلمّ إلى العدد والمَنَعة والقوّة، مع القرابة، لا تَجاوزْنا إلى غيرنا، يا رسول الله، ليس أحد من قومنا أولى بك منا، لقرابتنا بك. فقال: خلّوا سبيلها؛ فإنّها مأمورة، ثم مر ببني مالك بن النجار[١].

وقيل: أول من اعترضه من الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ بنو بياضة، ثم بنو سالم، ثم مال إلى ابن أبيّ، ثم مرّ على أخواله بني عدي، التي منهم سلمى بنت عمرو، أم عبدالمطلب، جدّه ـ ﷺ ـ، ثم بني مالك بن النجار، فنزل فيهم، وهم أخواله.

والصحيح من تاريخ وفاة أمّه ـ ﷺ ـ أنّها ماتت وهو ابن ست سنين، كما في رواية ابن سعد[٢]، وهو الذي ذكره الحفّاظ، كابن إسحاق[٣] وغيره، بل لم يُذكر غيره.

ولولا خشية الإطالة لبسطنا الكلام في هذا الموضع أبسط من هذا؛ لأنّ الحاجة داعية إلى معرفة ذلك في باب الإيمان والمتابعة، والتأدّب مع رسول ربّ العالمين ـ ﷺ ـ بترك ما يسوؤه ذكره[٤]، خصوصًا إذا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣.

(٢) الطبقات: ١/ ١١٦.

(٣) انظر سيرة ابن هشام: ١/ ١٦٨.

(٤) ومن أعظم ما يسوؤه ـ ﷺ ـ الكذبُ عليه، وتقويلُه ما لم يقل، وتبديلُ سنّته، والإخلال بأعظم ما جاء به من توحيد الله ـ تعالى ـ في عبادته وأفعاله وصفاته، والاستدراكُ عليه بالابتداع في دينه، وإحداثِ الاعتقادات والأعمال التي لم تثبت =

علمت أنّ أعمال أمّته تعرض عليه كل أسبوع، كما صح بذلك الخبر[1]، والله الهادي الموفق.

= عنه من طريق يعتمد عليه، بل تخالف الصحيح الثابت من سنته وهديه، كما هو حال الخرافيين المغالين، والزاعمين تحكمًا أن الله ـ تعالى ـ أحيا أبويه فآمنا به، بل ربما جادلوا في عمه وجّده، متجاهلين الصحيح الثابت في كتاب ربه وصحيح سنته.

(1) رواه البزّار: ٥/ ٣٠٨، (١٩٢٥)، وهوفي السلسلة الضعيفة للألباني برقم (٩٧٥).

الباب الثامن عشر

باب ما جاء أنّ سبب كفرِ بني آدمَ وتركِهم دينَهم هو الغلوُّ في الصالحين.

أتى الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه الترجمة بضمير «هو» [ك،٨٢/أ] الذي [ر،١٦٨/أ] هو يفيد الاختصاص؛ إذ لا سبب أخصَّ في تغيير الأديان وعبادة الأوثان من الغلوّ في الصالحين، فبذلك يُضل الشيطانُ بني آدم عن عبادة الرحمن.

(وقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧]).

يقول ـ تعالى ـ مخاطبًا أهل الكتاب: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، أي لا تجاوزوا الحد في اتّباع الحق، ولا تُطروا ابنَ مريم بتعظيمه، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه من حيّز النبوّة إلى مقام الإلهيّة، كما فعلتم فيه، وهو نبي من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فجعلتموه إلٰهًا من دون الله ـ سبحانه ـ، وما ذاك إلا الاقتداء بشيوخ الضلال، الذين هم سلفكم، ممّن ضل قديمًا، ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ من الناس، ﴿وَضَلُّوا۟﴾ أنفسُهم ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

والسَّواء: الوسط من كل شيء، قال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

يا ويحَ أنصارِ النبيِّ ورهطِه   بعد المغيَّبِ في سَواء المُلحدِ[1]

والسَّـواء أيضًـا: التمـام، يقـال: هـذا درهـم سَـواء، ومنـه قـولـه ـ تعالى ـ: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ١٠].

ويقال: «سواء» ويقصد به العدل، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، أي عدل، ذات استواء واعتدال في جميع الوجوه. قال الشاعر[2]:

فاضرب وجوه الغُدُرِ الأعداءِ   حتـى يجيبـوك إلـى السَّـواءِ

ويقال: مكان سَوى، إذا كان وسطًا بين موضعين، قال الشاعر[3]:

وإنّ أبـانـا كـان حـلَّ بِبَلْـدةٍ   سَوى بين قيسٍ قيسِ عيلانَ والفَزْرِ

والمعنى في قوله: ﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ أي خرجوا عن طريق الاستقامة إلى طريق الضلالة.

فحذّر ـ سبحانه ـ محمدًا ـ ﷺ ـ أن تكون أمّتُه مثلَهم؛ فإن الغلوّ في الدين أعظمُ طرق الضلال الموصل إلى الهلاك.

(و) قال البخاري (في) جامعه (الصحيح)[4]: حدّثنا موسى بن هشام، عن ابن جريج، وقال عطاء (عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ)، ذكره

---

(١) ديوانه: ٢٠٩، حاشية (٥).

(٢) هو ظبيان بن عمارة، كما في تاريخ الطبري: ٣/ ٧٥.

(٣) هو موسى بن جابر الحنفي، كما في الإكمال لابن ماكولا: ٧/ ٥١، والبيت في تفسير الطبري: ١٦/ ١٧٦.

(٤) صحيح البخاري: ٤/ ١٨٧٣، التفسير، باب ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾..، (٤٦٣٦).

البخاري (في) تفسير (قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾،) قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: صارت الأوثان التي في قوم نوح ـ عليه السلام ـ في العرب بعد، أمّا «وَدٌّ» فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وقيل بجوف الشام، وهو جوف العير الذي يقول فيه امرأ القيس:

وادٍ كجـوفِ العيـرِ قفـرٍ قطعتُـهُ ... به الذئبُ يعوي [كالخليع] المعيّلِ[1]

والعير رجل يقال له «حمار»، وفي المثل: «أكفر من حمار»[2]، وله قصّة في سبب كفره من [ر،١٦٩/ب] هلاك بنيه[3].

وأمّا «يعوق» فكانت لهمدان، وأمّا «نسرٌ» فكانت لحِمْيرَ، لآل ذي الكلاع.

(قال) ابن عبّاس ـ رضي الله عنه ـ: (وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمّا هلكوا)، أي أولئك الصالحون، وكان هلاكهم في زمن متقارب، فجزعوا عليهم، و(أوحى الشيطان إلى قومهم)، فيه دليل على أنّ إلقاء الشيطان في قلب ابن آدم يسمى إيحاء، ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾، فإن الشيطان يجري من ابن

---

(١) ديوانه: ص ١٧٤، وقد جاء في الأصل: «به الذئب يعوي والخليع المعيّل» بالواو بدل الكاف، وهو خلاف ما في الديوان.

(٢) انظر «جمهرة الأمثال» للعسكري: ٢/ ١٧٧، (١٤٩٢)، و«المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري: ١/ ٩٨، (٣٧٧).

(٣) في «المستقصى» أنه كان مسلمًا، فأصابت بنيه صاعقة، فكفر بالله. وفي شرح المعلقات لابن الأنباري (ص ٨٠) أنه قال: لا أعبد ربًا أحرق بنيّ.

آدم مجرى الدم[1] ـ أعاذنا الله والمسلمين من تسويله ـ، فلا يحتجب الإنسان عنه إلا بالله، الذي ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦].

وكذا الإلهام، يسمى إيحاءً، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

ويحتمل أنّه أتاهم في صورة البشر فأوحى إليهم ذلك، كما أتى قريشًا يوم دار الندوة[2] ويوم بدر[3]، في صورة البشر.

فأوحى إليهم (أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصابًا)، جمع «نُصْب» بضم الصاد وسكونها: حَجر ينصبونه في الجاهلية، ويتخذونه صنمًا، فيعبدونه، أو يذبحون عليه الأصنام فيحمرّ بالدم.

(و)أوحى إليهم أن (سمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم يُعبدوا) في ذلك القرن؛ لوجود العلم فيهم، وفي هذا دليل على فضيلة العلم الموروث عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

(حتى إذا هلك أولئك) القرن، (ونُسي العلم)، وفي الأصل للبخاري: «وانتسخ العلم»[4] (عبدت) تلك الأنصاب.

---

(١) كما ثبت في الصحيحين مرفوعًا: البخاري: ٢/ ٧١٧، (١٩٣٤)، ومسلم: ٤/ ٨٣٦٦، (٢١٧٤).

(٢) انظر تفسير الطبري: ٩/ ٢٢٧ وسيرة ابن هشام: ١/ ٤٨٠، ٤٨١، وطبقات ابن سعد: ١/ ٢٢٧.

(٣) انظر تفسير الطبري: ١٠/ ١٨، وسيرة ابن هشام: ١/ ٦١٢.

(٤) في الصحيح المطبوع: «وتنسّخ العلم»، وكذا هي في «فتح الباري»: ٨/ ٦٦٩، =

وقد اختُلف في حدّ العلم، فحدّه ابن عقيل في «الواضح» بإدراك الأمور بحقائقها[1]. وحدّه الموفق بصفة يميّز المتّصف بها تمييزًا جازمًا مطابقًا، فلا يدخل إدراك الحواس، خلافًا للأشعري[2].

وقيل: معرفة الشيء، وقيل: معرفة المعلوم، وقيل: لا يحدّ، والمقصود من ذلك ما ينجّي من الهلكة[3].

وعند ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس في الآية، قال: كانوا قومًا صالحين بين آدم، ونوح ـ عليهما السلام ـ، وكان لهم تبّاع يقتدون بهم، فلمّا ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلمّا ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم[4].

وعند ابن عساكر في ترجمة شيث ـ عليه السلام ـ، من طريق إسحاق بن بشر قال: أخبرني [جويبر][5] ومقاتل عن الضحّاك، عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال: ولد لآدم ـ عليه السلام ـ أربعون ولدًا، عشرون غلامًا، وعشرون جارية، فكان ممّن عاش منهم هابيل، وقابيل، وصالح، وعبدالرحمن الذي سمّاه عبدالحارث، وود، وكان ود يقال له: «شيث»، ويقال له: «هبة الله»، وكان إخوته [ك،٨٣/ب] قد

= وفي بعض روايات الصحيح: ونُسخ العلم.

(١) «الواضح»: ١/ ١٢.

(٢) لم أهتد إلى موضعه.

(٣) انظر تعريفات الجرجاني: ١٥٥، و«الكليات» للكفوي: ٦١٠، ٨٦٨.

(٤) تفسير الطبري: ٢٩/ ٩٩.

(٥) في الأصل: «موسر»، والتصويب من تاريخ دمشق.

سوّدوه، وولد له سواع ويغوث ويعوق ونسر[1].

وعند ابن أبي حاتم بسنده عن عروة بن الزبير قال: اشتكى آدم ـ عليه السلام ـ وعنده بنوه: ودٌّ، ويغوث،ويعوق، وسواع، ونسر. قال: وكان ودٌّ أكبرَهم وأبرَّهم[2].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كانت هذه الأصنام تُعبد في زمان نوح ـ عليه السلام ـ[3].

وبنحو هذا قال عكرمة والضحّاك وقتادة وابن إسحاق[4].

وفيما تقدّم [ر،١٦٩/أ] دليلُ أنّ فُقدان العلم وأهلِه في الوطن من أعظم المصائب على أهله، وبفُقدانه يقع الاختلاف.

فروى البزّار في مسنده[5]، وابن جرير[6] وابن أبي حاتم[7] وابن المنذر[8] في تفاسيرهم، والحاكم في المستدرك وصحّحه[9]، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله ـ تعالى ـ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾

---

(١) «تاريخ دمسق»: ٢٣/ ٢٧٣.
(٢) انظر «الدر المنثور»: ٦/ ٤٢٧.
(٣) رواه الطبري في تفسيره: ٢٩/ ٩٩.
(٤) انظر تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٣٥.
(٥) انظر «الدر المنثور»: ١/ ٤٣٥، ولم أعثر عليه في مسند البزار.
(٦) تفسير الطبري: ٢/ ٣٣٤.
(٧) لم أجده في تفسيره، وقد عزاه إليه صاحب «الدر المنثور»: ١/ ٤٣٥.
(٨) انظر «الدر المنثور»: ١/ ٤٣٥.
(٩) المستدرك: ٢/ ٤٨٠، (٣٦٥٤) وقال: صحيح على شرط البخاري.

[البقرة: ٢١٣]، قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلّهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين.

وذكر ابن جرير الطبري أيضًا أنّ سواعًا كان ابن شيث، ويغوث ابن سواع، وكذلك يعوق ونسر، كلما هلك الأول منهم صُوّرت صورتُه وعُظمت؛ لموضعه من الدين، ولِما عهدوا في دعائه من الإجابة، فلم يزالوا هكذا حتى خلفت الخلوف، وقالوا ما عظّم هؤلاء آباؤنا إلا بأنها تَرزُق وتنفع وتضر، واتخذوها آلهة[1].

وعند ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: ذُكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلّهم علماء بهذا، وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله نوحًا، وكان أولَ رسول أرسله الله إلى الأرض[2].

وهو يدل بمفهومه أنهم إنما اختلفوا حتى[3] فُقد[4] العلم القاطع للاختلاف، وذلك بموت العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، ولهذا بعث الله إليهم نوحًا ـ عليه السلام ـ ليهديهم به إلى ما اختلفوا فيه من الحق.

(قال) شمس الدين (ابن القيم) قيم الجوزية، محمدُ بن أبي بكر الزرعي التميمي الحنبلي الدمشقي، وسيأتي بعض الكلام على ترجمته

---

(١) لم أعثر عليه في تفسير الطبري.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم: ٢/ ٣٧٧، (١٩٨٩).
(٣) كذا في جميع النسخ ولعل صوابها: «حين».
(٤) في نسخة المصنف: (فقدوا).

في الباب الثامن والخمسين: (قال غير واحد من السلف: لمّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثمّ صوّروا تماثيلهم)[1].

وهذا الصنيع ابتداع محرّم في الدين؛ لأنّه يؤدّي إلى تغييره أو إزالته أو تبديله، كما وقع لقوم نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن بعدهم من الأمم.

ولهذا قال في هذا الأثر: (ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) من دون الله ـ عز وجل ـ، فخرجوا بذلك الابتداع من دين أبيهم آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، إلى دين الشيطان، وعبادة الأوثان، فليتخذ الإنسان حذره عن مقاربة البدع وأهلها.

والأمد: الغاية، وهو عبارة عن قطعة من الزمان.

وقال أبو الوفاء ابن عقيل، وابن الجوزي: يكره قصد القبور للدعاء[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واتفقوا أنّه لا يمسحها، ولا يقبّلها»[3]؛ فإنّه من الشرك.

قال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر[4].

---

(١) «إغاثة اللهفان»: ١/ ١٨٤.

(٢) ذكره عنهما صاحب الفروع: ٣/ ٣٨٦.

(٣) انظر مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٩٩، وليس فيها: فإنه من الشرك. لكن ذكر هذا عنه بتمامه صاحب الفروع: ٣/ ٣٨٦.

(٤) ذكره عنه صاحب الفروع: ٣/ ٣٨٦.

وقال أبو الوفاء ابن عقيل أيضًا: لمّا صعبت التكاليف على الجهّال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، [ر،١٧٠/ب] فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم.

قال: وهم عندي كفّار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وإكرامها بما نهى عنه الشرع، من إيقاد النيران، وتقبيلها، وتخليقها[١]، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع، فيها: يا مولاي افعل لي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبركًا، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر، اقتداء بمن عبد اللات والعزّى[٢].

(وعن عبدالله بن عمر)[٣] بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ قال: (إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تطروني).

الإطراء: المدح، والمنهي عنه هو مجاوزة الحد، والكذب فيه.

(كما أطرت النصارى) عيسى (ابن مريم، إنما أنا عبد[٤]، فقولوا عبدالله ورسوله» أخرجاه) في صحيحيهما[٥]، يعني الإمامين الحافظين الذين أجمعت الأمة على عدالتهما وصحّةِ كتابيهما، وهما محمد بن

---

(١) أي: كسوتها بالثياب.

(٢) لم أهتد إلى موضع كلامه.

(٣) كذا في الأصل، والحديث في صحيح البخاري عن ابن عباس عن عمر ـ رضي الله عنهم ـ، وهو كذلك في المطبوع من متن كتاب التوحيد، فما هنا وهم أو سبق قلم من المؤلف.

(٤) في صحيح البخاري: «فإنما أنا عبده».

(٥) هذا وهم من صاحب المتن، تبعه عليه الشارح، فالحديث ليس عند مسلم، وإنما أخرجه البخاري: ٣/ ١٢٧١، الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ . . ، (٣٢٦١).

إسمعيل البخاري الجُعفي، ومسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري المضري النيسابوري، ـ رحمهما الله تعالى ـ رحمة واسعة، فقد حفظ الله ـ تعالى ـ بهما وأَضرابِهما سنة نبيّه محمد ـ ﷺ ـ.

ومفهوم هذا الحديث أنّ إطراءه ـ ﷺ ـ من غير جنس إطراء النصارى لعيسى بن مريم جائز، وذلك أنّ النصارى أفرطوا في مدح عيسى ـ عليه السلام ـ، وإطرائه بالباطل، حتى أخرجوه بإطرائهم من حيّز العبودية والرسالة، وجعلوه ولد الله، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٣، ٤٤]، فمنعهم النبي ـ ﷺ ـ أن يطروه كإطراء النصارى[1].

قلت: وفي العدول في قوله ـ ﷺ ـ عن «عيسى» و«المسيح» إلى «ابن مريم» تبعيد له عن الألوهية.

والمعنى أنّهم بالغوا في المدح بالإطراء والكذب، فصار أهل الكتاب بين طرفين نقيضين فيه ـ عليه السلام ـ، فاليهود بالغوا في ذمّه حتى قذفوا أمّه، والنصارى بالغوا في مدحه حتى دعوه من دون الله إلٰهًا.

ولهذا قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، فالحق هو الوسط العدل، كما بيّنه ـ تعالى ـ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٧١]، وقوله: ﴿مَّا

(١) وأشنع من غلو النصارى هذا غلوُّ القائلين بالحقيقة المحمدية من الشيعة وغلاة الصوفية، ومعناها عندهم أن نبيّنا محمدًا ـ ﷺ ـ هو أكمل مظهر يتجلى فيه الإله، ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾. انظر فصوص ابن عربي: ٥٤، ٥٥، وانظر «محبة الرسول ـ ﷺ ـ بين الاتباع والابتداع» لعبدالرؤوف محمد عثمان: ١٦٢ـ ١٩٦.

﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ الآية [المائدة: ٧٥].

والمعنى أنّه عبده ورسوله؛ لأن كونه ابنَ مريم يدل على أنه عبده وابن أمتِه، كما أشار إليه بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، أي يبولان ويغوطان، ويحتاجان إلى الأكل والشرب، فلا يصلحان للألوهية، ولا مناسبة لهما بالربوبية، وإنّما شأنهما العبودية.

وقوله ـ ﷺ ـ: [ر،١٧٠/أ] «إنما أنا عبد»، أي الخاص في مقام الاختصاص، [ك،٨٣/أ] وهذا في الحقيقة أفضل مدح عند الفاضل الكامل، كما قال القائل:

لا تَدْعُني إلا بيا عبدَها فإنه أفضل أسمائي[1]

ولهذا ذكره ـ سبحانه ـ في مواضع من كتابه بهذا الوصف المنيع، والفضل البديع، كما نبّهنا عليه في أول هذا الشرح، منها مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ومنها مقام إنزال الكتاب: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وقد نوّه ـ سبحانه ـ بذكر رسله بهذه العبودة[2] فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ الآية [ص: ٤٥]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧]، إلى غير ذلك.

---

(١) راجع في شأن هذا البيت ص ٧٥.

(٢) «العبودة» و«العبودية» بمعنى. انظر «المصباح المنير»: ١٤٧. (عبد).

وفيه إشارة لطيفة، وبشارة شريفة، أن العناية الربوبية باعتبار غاية العبودية لعبده[1].

وقوله: «فقولوا عبدالله ورسوله»، أي ليتميّز عن بقية عبيده بهذا الوصف. وفي ذكرهما أيضًا إيماء إلى مبتدأ حالته، ومنتهى غايته ـ ﷺ ـ.

(وفي الصحيح) للبخاري (عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إياكم والغلوّ») أي التشديدَ في الدين، وهو مجاوزة الحد، والبحث عما لا يجب البحث عنه.

(«فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»)، أي في الدين، حملهم ذلك على أن سفكوا دماءهم، وغيّروا دينهم، أو فارقوه، حتى عبدوا غير الله ـ سبحانه ـ، فصار بذلك الحق منكرًا، والمنكر معروفًا.

(ولمسلم) في صحيحه[2] (عن) عبدالله (بن مسعود) الهذلي ـ رضي الله عنه ـ (أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «هلك المتنطعون») أي المتكلفون في الفصاحة، والمصوّتون عن قعر حلوقهم ، والمردّدون لكلامهم رعونة في القول.

وقال التوربشتي[3]: أراد بهم المتعمّقين الغالين في خوضهم فيما لا يعنيهم من الكلام.

---

(١) يريد أنّ احتفاء الله ـ تعالى ـ بعبده بحسب تحقيقه للعبودية.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٦٣٢، العلم، باب هلك المتنطعون، (٢٦٧٠).

(٣) هو أبو عبدالله، فضل الله بن حسن التوربشتي، شهاب الدين، له شرح على مصابيح السنة للبغوي، توفي سنة ٦٦١هـ تقريبًا. انظر طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ٣٤٩، وكشف الظنون: ٢/ ١٧١٩، وفي ١/ ٣٧٣ ذكر وفاته في ٦٨٥هـ.

والأصل في التنطّع: الذي يتكلّم بأقصى حلقه، مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم[1]، فالتنطّع: المغالاة في الدين، والتعمّق فيه بما يَخرج عن الحدالشرعي قولاً وفعلاً.

فعند الإمام أحمد في مسنده عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: إن الدين ليس بالطنطنة من آخر الليل، ولكن الدين الورع[2].

وعند عبدالرزّاق في سننه، عن سليمان بن أبي حثمة، عن الشفا بنت عبدالله، زوجة أبيه، قالت: دخل عليّ بيتي عمرُ بن الخطاب، فوجد عندي رجلين نائمين، فقال: وما شأن هذين لم يشهدا معنا [ر، ١٧١/ب] الصلاة؟. قلت: يا أمير المؤمنين، صلّيا مع الناس، ـ وكان ذلك في رمضان ـ فلم يزالا يصلّيان حتى أصبحا، وصلّيا الصبح وناما. فقال عمر: لأن أصلي الصبح في جماعة أحب إلي من أن أصلي حتى أصبح[3].

وقد بُين أحد الرجلين عند عبدالرزّاق من طريق أخرى أنه زوجها أبو حثمة[4]. وفي الموطأ أنه ابنها سليمان[5].

وروى ابن الجوزي في التلبيس بسنده إلى أبي بكر ابن أبي شيبة قال: حدثنا أبو أسامة، عن مسعر، قال: أخرج إلي معن بن عبدالرحمن ابن عبدالله كتابًا، وحلف بالله الذي لا إلٰه غيره أنه خط أبيه، فإذا فيه:

---

(١) يريد التجويف العلوي داخل الفم.

(٢) لم أجده في المسند، وإنما وجدته في الزهد للإمام أحمد: ١٢٥.

(٣) مصنف عبدالرزاق: ١/ ٥٢٦، (٢٠١١)، ورواه مالك في الموطأ: ١/ ١٣١، (٢٩٤).

(٤) مصنف عبدالرزاق: ١/ ٥٢٦، (٢٠١٠).

(٥) الموطأ: ١/ ١٣١، (٢٩٤).

قال عبدالله: والله الذي لا إله غيره، ما رأيت أحدًا كان أشدّ على المتنطّعين من رسول الله ـ ﷺ ـ، ولا رأيتُ بعده أحدًا أشدّ خوفًا عليهم من أبي بكر، وإني لأظن عمر كان أشدَّ أهل الأرض خوفًا عليهم[(١)].

ولهذا (قالها ـ أي هذه الكلمة، أو الجملة ـ ثلاثًا)، إنما ردّد ـ ﷺ ـ القول ثلاثًا تهويلاً وتحذيرًا وتنبيهًا وتأكيدًا على ما فيه من الغائلة، وتحريضًا على التيقّظ والتبصّر دون التنطّع.

وكم تحت هذه الكلمة من مصيبة تعود على أهل اللسان بما يؤديهم إلى تغيير الأديان، وهلاك الأبدان، نسأل الله العافية من الدخول في الوبال.

وظاهر هذا الحديث العموم في القول والفعل، إلا أنّ القول أخص، ولهذا نفى ـ ﷺ ـ عن نفسه معنى التنطع فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص: ٨٦]، فكل ما يخرج الإنسان عن حد الاعتدال نقْصٌ في توحيده.

إذا علمت بأن أول حدوث الشرك في بني آدم سببه الغلو في الصالحين، فاعلم بأن سبب حدوثه في بني إسمعيل بن إبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ تعظيمُ الرؤساء والقدماء وأهل الجهل؛ بسبب الجاه والمآثر، وأدوأ الداء إن كان مع الترؤس والجهل تعبّدٌ وتنسّك بذلك، فقد ذكر أهل العلم بالآثار والأخبار، أن عمرو بن لحي بن قمعة حين

---

(١) «تلبيس إبليس»: ١٧٠، ورواه الدارمي في سننه: ١/ ٦٥، (١٣٨)، وأبو يعلى في مسنده: ٨/ ٤٣٧، (٥٠٢٢)، وروى أوله الطبراني في الكبير: ١٠/ ١٧٤، وقال في المجمع (١٠/ ٢٥١): رواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات.

غلبت خزاعة على البيت، ونفت جرهما عن مكة، جعلته لها ربًا، لا يبتدع بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس، ويكسو في الموسم، فربّما نحر في الموسم عشرة آلافِ بدنة، وكسا عشرة آلافِ حلّة، حتى أنّ اللاتّ الذي كان يلُتّ السويق[1] للحاج على صخرة معروفة، تسمى صخرة اللاتّ ـ ويقال إن الذي كان يلُتّ من ثقيف ـ لما مات قال لهم عمرو: إنه لم يمت، ولكن دخل في الصخرة، ثم أمرهم بعبادتها، وأن يبنوا عليها بيتًا يسمى اللات، ويقال دام أمرُه، وأمرُ ولدِه على هذه الحال بمكة ثلاثَمائةِ سنة [ر،١٧١/أ]، فلما هلك سُمّي صخرة اللات[2].

وذكر الأزرقي في أخبار مكة، أن عمرو بن لحي فقأ أعين عشرين بعيرًا، وكانوا يفقؤون عين الفحل إذا بلغت الإبل ألفًا، فإذا بلغت [ك،٨٤/ب] ألفين فقؤوا العين الأخرى[3].

وكانت التلبية من عهد آدم وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ: «لبيك اللهم لبيك[4]، لا شريك لك»، حتى كان عمرو بن لحي، فبينا هو يلبي تمثل الشيطان له في صورة شيخ يلبي معه، فقال عمرو: «لبيك لا شريك لك»، فقال الشيخ: «إلا شريكًا هو لك»، فأنكر ذلك عمرو، وقال: ما هذا؟. فقال الشيخ: قل تملكه وما ملك؛ فإنه لا بأس بهذا. فقالها عمرو، فدانت به العرب، ثم دعاهم إلى عبادة الأصنام فأجابوه[5].

---

(١) يلتُّ السويق أي يبلُّه بالماء، والسويق طعام من الحنطة والشعير. انظر المصباح المنير: ١١٣ (سوق)، ٢٠٩ (لت).

(٢) الخبر بهذا السياق في «معجم البلدان» لياقوت: ٥/ ٤.

(٣) «أخبار مكة» للأزرقي: ص ١٠٠.

(٤) ساقطة من الأصول، واستدركتها من «أخبار مكة» للأزرقي.

(٥) انظر «أخبار مكة» للأزرقي: ص ١٩٤، وانظر ذكر تلبية أهل الجاهلية ونهى النبي =

وفي البخاري وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رأيت عَمرو بنَ لحيٍّ بْنِ عامرٍ الخزاعيَّ يجر قصْبه في النار؛ كان أول من سيّب السوائب»[1].

وفيه أيضًا عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رأيت جهنّم يحطم بعضها بعضًا، ورأيت عمرو بن لحي يجر قُصْبه، وهو أول من سيّب السوائب»[2].

وفي لفظ: «وأول من غير دين إسمعيل ـ عليه السلام ـ»[3].

وقال الكلبي: كان عمرو بن لحي كاهنًا، وكان يكنى أبا ثمامة[4]، له رَئيّ من الجنّ، فقال له: «عجّل السير والظعن من تهامة، بالسعد والسلامة، ائت [ضَفَّ][5] جُدّة، تجد فيها أصنامًا معدّة، فأوردها تهامة ولا تهب، ثم ادع العرب إلى عبادتها تُجب». فأتى جُدّة فاستثارها، ثم حملها حتى ورد بها تهامة، وحضر الحج، فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة، فذُكر أنهم أخذوها فتفرقت فيهم[6].

وقال هشام: حدثنا الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس قال:

= ـ ﷺ ـ إياهم عنها في صحيح مسلم: ٢/ ٦٩٢، (١١٨٥).

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٩٧، المناقب، باب قصة خزاعة، (٣٣٣٣)، ووقع فيه: «عمرو بن عامر بن لحي»، ورواه بنحوه مسلم: ٤/ ١٧٣٧، الجنة..، باب (١٣)، حديث (٢٨٥٦) وسماه: «عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف».

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ١٦٩١، (٤٣٤٨)، ورواه مسلم: ٢/ ٥١٦، (٩٠١).

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ٧/ ٨٦، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام: ١/ ٧٦.

(٤) في «الأصنام» للكلبي: «وكان له رَئيّ من الجن، وكان يكنى أبا ثمامة».

(٥) في الأصل: «منف جدة». ولا معنى له. والتصويب من «الأصنام».

(٦) «كتاب الأصنام» لهشام بن محمد بن السائب الكلبي: ص ٦٥، ٦٦.

قال النبي ـ ﷺ ـ: «رُفعت لي النار فرأيت عمرو بن لحي، قصيرًا أحمر أزرق، يجر قُصْبَه في النار، قلت: من هذا؟. قيل: هذا عمرو بن لحي، أول من بحّر البحيرة، ووصل الوصيلة، وسيّب السائبة، وحمى [الحامي][1]، وغيّر دين إسمعيل، ودعى العرب إلى عبادة الأوثان»[2].

وذكر أيضًا محمد بن إسحاق[3] والأزرقي[4] والطبري وغيره أنّ عمرو بن لحي هو أول من دعى العرب إلى عبادة الأصنام من دون الله ـ تعالى ـ، إلا أن قريشًا قبله كانوا يعظّمون أحجار مكة، ويظعنون بها معهم إذا ظعنوا تعظيمًا لها، حتى دعاهم عمرو بن لحي إلى عبادة الأحجار والأشجار وغير ذلك، حتى قطع الله ذلك عنهم بخاتم رسله، سيد البشر محمد ـ ﷺ ـ، ولذلك نهى أمّته عن الغلو، الذي كان سبب تغيير دين الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ؛ مخافة ذلك؛ لأنه سريع السراية في محو سنن المرسلين، وتبديل عبادة رب العالمين بعبادة الشياطين، حتى إنه ليصعب على عابديها الخروج من ذلك.

ولهذا لم يتابعه ـ ﷺ ـ من قريش [ر،١٧٢/ب] والأنصار إلا شبابهم، إلا نادرًا كأبي بكر في المهاجرين، وعبدالله بن حرام في الأنصار، بخلاف من أسلم بعد ما أظهر الله دينه وأعلى كلمته.

بل سعوا بالذب عن آلهتهم التي كانوا يعبدون من دون الله، كما

---

(١) في الأصول: الحام.

(٢) «كتاب الأصنام»: ٦٩، وهشام الكلبي متروك عند أهل الحديث، انظر «لسان الميزان»: ٦/ ١٩٦، (٧٠٠).

(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٠٣.

(٤) «أخبار مكة»: ١١٦. ورواه الفاكهي أيضًا في «أخبار مكة»: ٥/ ١٣٥، (٢٩).

ذكر الله عنهم في قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص: ٦]، وقال عن قوم نوح ـ عليه السلام ـ بعد ما دعاهم إلى الله وحده وخلْع الأنداد والأوثان التي اتخذوها آلهة من دون الله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٣]، أي تواصوا بينهم بذلك، لما علموا أنها باتباع دعوته ـ عليه السلام ـ تُرفض وتُترك.

ويقال: قال الرؤساء للسفلة: لا تذرنّ آلهتكم، أي لا تتركوا عبادتها، وانصروها ممن أراد كسرها، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ [نوح: ٢٣].

قال قتادة: هذه الآلهة كانت يعبدونها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك[1].

وقال السهيلي: هذه أسماءٌ سريانية وقعت إلى الهند، فسمّوا بها أصنامهم التي زعموا أنها صورة الدراري السبعة، وربّما كلمتهم الجن من جوفها ففتنتهم، ثم أدخلها إلى العرب عمرو بن لحي، وعلّمه الشيطان تلك الأسماء، وألقاها على ألسنتهم موافقة لما كان في عهد نوح ـ عليه السلام ـ[2].

وقال ـ تعالى ـ عن قوم إبراهيم لما دعاهم إلى خلع الأصنام والأنداد، وأن يعبدوا الله وحده، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فقبّح الله آلهة تحتاج لناصر ينصرها من أن تهدم وتكسر.

---

(١) رواه الطبري: ٢٩/ ٩٩.

(٢) «الروض الأنف»: ١/ ٣٥٩.

ولهذا تنبّه لهذا المعنى السيّد الجعد الأبيض عمرو بن الجموح، كما قال ابن إسحاق عنه، قال: وكان ابنه معاذ بن عمرو شهد العقبة وبايع رسول الله ـ ﷺ ـ بها، وكان عمرو بن الجموح سيّدًا من سادات بني سلِمة، وشريفًا من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنمًا من خشب يقال له «مناة»، كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذه إلٰهًا تُعظّمه وتُطهّره، فلمّا أسلم فِتيان بني سلِمة: معاذ بن جبل، وابنه[1] معاذ بن عمرو، وفتيانٌ منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يُدْلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في حُفر بني سلمة، وفيها عُذَر[2] الناس، مُنكّسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويحكم، من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟. قال: ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله وطهّره وطيّبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينّه، فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثلَ ذلك، فيغدوا فيجدُه [ك،٨٤/أ] في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسِلُه ويطهّره ويطيّبه، ثم يغدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه استخرجه حيث ألقوه، فغسله وطهّره وطيّبه، ثم جاء بسيفه فعلّقه عليه، ثمّ قال له: والله إني ما أعلم من صنع بك [ر،١٧٢/أ] ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك، فلما أمسى نام عمرو، وعدوا عليه، وأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقَوْه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عُذَر من عذر الناس، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكسًا، مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه،

---

(١) الضمير راجع إلى عمرو بن الجموح.

(٢) جمع عَذِرة، وهي رجيع الإنسان.

وكلمه من أسلم من قومه فأسلم ـ رضي الله عنه ـ، وحسن إسلامه، فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من أمره، ويشكر الله ـ سبحانه ـ الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لـو كنـت إلٰهًـا لـم تكـن ... أنت وكلب وسط بئر في قَرَنْ

أفٍّ لمُلقــاكَ إلٰهًــا مُسْتَــدَنْ ... الآن فتّشناكَ عـن سـوءِ الغَبَـنْ

الحمـد لله العلـيِّ ذي المِنَـنْ ... الـواهـبِ الـرزّاقِ ديّـانِ الـدِّيَـنْ

هو الذي أنقذني مِن قبلِ أنْ ... أكونَ في ظلمة قبرِ مُرْتَهَنْ[1]

فلما كان يوم أحد كما ذكر ابن إسحاق وغيره، أراد أن يخرج مع النبي ـ ﷺ ـ للقتال، وكان رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأُسْد، يشهدون مع رسول الله ـ ﷺ ـ المشاهد، فأرادوا حبسه، وقالوا له: إن الله قد عذرك، فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إنّ بنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرْجتي هذه في الجنّة. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أمّا أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك. وقال لبنيه: ما عليكم ألا تمنعوه، لعلّ الله يرزقه شهادة. فخرج معه، فقُتل يوم أحد شهيدًا ـ رضي الله عنه ـ[2].

وهو الذي قال فيه رسول الله ـ ﷺ ـ فيما صح عنه، لما قال: من سيّدكم يا بني سلِمة؟. قالوا: الجدّ بن قيس، إلا أنا نُبخّله. قال: وأي

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٤٥٢، ٤٥٣.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٩٠، ٩١.

داء أدوأ من البخل؟، بل سيدكم عمرو بن الجموح[(١)].

وروى أبو حاتم الرازي قصةً فيها أن بني تغلبَ كان لهم صنم يعبدونه، فبينما هم ذات يوم عنده إذ أقبل ثَعلبان يشتدّان، فرفع كل منهما رجله وبال على الصنم، وكان للصنم سادن يقال له عادي بن ظالم، فكسر الصنم، وأنشد في ذلك:

أربٌّ يبــول الثَّعلبــانِ بــرأســهِ   لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالبُ

ثم أتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: ما اسمك؟. فقال: عادي بن ظالم. فقال: أنت راشد بن عبدالله[(٢)].

ولهذا قال ـ تعالى ـ في الآية بعد ذكر آلهة قوم نوح ـ عليه السلام ـ [ر،١٧٣/ب] فيما تقدّم: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٤]، يعني هذه الأصنام، أضلوا كثيرًا من الناس، أي ضل بهن كثير منهم، كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

قال أبوبكر بن أبي شيبة: حدّثنا يزيد بن هارون، أنبأنا حجاج بن أبي زينب قال: سمعت أبا عثمانَ النهديَّ يقول: كنّا في الجاهلية نعبد

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط: ٤/ ٧٥، (٣٦٥٠)، وقال في المجمع (٩/ ٣١٥): ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني.ا.هـ. ورواه البيهقي في الشعب: ٧/ ٤٣٠، (١٠٨٥٥)، والبخاري في الأدب المفرد: ١١١، (٢٩٦). ورجح الدارقطني في العلل إرساله. انظر علل الدارقطني: ٨/ ٤٠.

(٢) ذكر هذه الرواية ابن حجر في الإصابة: ٢/ ٤٣٤، ورواه بنحوه ابن سعد في الطبقات: ١/ ٣٠٨، واسمه عنده: غاوي بن عبد العزّى، فسماه النبي ـ ﷺ ـ راشد بن عبد ربّه. والبيت يُروى على خلاف ما في هذا السياق، فإنه في بعض المصادر: «الثُّعلبان» وهو ذكر الثعالب. انظر «لسان العرب»: ١/ ٢٣٧، (ثعلب) وقائله في اللسان: غاوي بن ظالم السلمي، وقيل غيره.

حجرًا، فسمعنا مناديًا ينادي: «يا أهل الرحال، إن ربّكم قد هلك، فالتمسوا ربًّا». قال: فخرجنا على كل صعب وذلول، فبينا نحن كذلك نطلبه، إذا نحن بمناد ينادي: إنا قد وجدنا ربكم ـ أو شبهه ـ. قال: فجئنا، فإذا حجر، فنحرنا عليه الجزور[١].

وقد سُئل سفيان بن عيينة: كيف عبدت العرب الحجارة والأصنام؟. فقال: أصل عبادتهم الحجارة أنهم قالوا: البيت حجر، فحيث ما نصبنا حجرًا فهو بمنزلة البيت[٢].

قلت: وما أحسن ما عاب الحقُّ ـ جل وعلا ـ عليهم في ذكر أصنامهم، حيث يقول: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وكأنّ الإشارة إلى العبّاد لها، والمعنى: إنكم أيّها العابدون تمشون وتبطشون وتُبصرون وتسمعون، فأنتم أكملُ منها، والأصنام عاجزة عن ذلك، فهي إما جماد، أو أموات، فكيف عَبد التامُّ الناقصَ؟!. ولهذا قال ـ تعالى ـ[٣]: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ولو تفكروا لعلموا أنّ الإله يَصنع ولا يُصنع، ويجمع وليس بمجموع، وتقوم به الأشياء[٤] ولا يقوم بها. وإنما ينبغي للإنسان أن يعبد من صنعه، لا ما صنعه، وما خُيّل إليهم أنّ الأصنام تشفع فخيال، ليس فيه

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٧/ ١٧، (٣٩١٤)، ورواه ابن سعد في الطبقات: ٧/ ٩٧، والخطيب في تاريخ بغداد: ١٠/ ٢٠٤.

(٢) رواه ابن الجوزي بسنده في «تلبيس إبليس»: ٧٦.

(٣) كتبت الآية في الأصل: «إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل»... وهو خلط بين آيتين.

(٤) أي بأمره.

شبهة يُتعلّق بها.

فقد تبيّن لك مما تقدّم أنّ من أصل دروس دين الله وشرائعه وظهورِ الكفر والمعاصي التشبُّهَ بالكافرين، كما أن من أصل كلِّ خيرٍ المحافظةَ على سُنن الأنبياء وشرائع المرسلين، ولهذا عظُم عند السلف وقعُ البدع في الدين، وإن لم يكن فيها تشبّهٌ بالكفّار، فكيف إذا جمعت الوصفين.

وتبيّن لك أيضًا أن أديان الرسل ـ عليهم السلام ـ لم تُغيّر إلا بسبب الجهل، إذا نُسي العلم وانتُسخ من الناس، وسببُ ذلك ذهاب العلماء بموتهم، إذا لم يخلِّفوا وارثًا على منهاجهم.

فروى الدارمي في مسنده بسند صحيح، عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكنْ قبضُ العلم قبضُ العلماء، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا»[(١)].

وهو عند البخاري في صحيحه عنه بهذا اللفظ[(٢)].

وعند الدارمي [ك،٨٥/ب] بسنده إلى هلال بن خبّاب [ر،١٧٣/أ] قال: سألت سعيد بن جبير، قلت: يا أبا عبدالله، ما علامة هلاك الناس؟. قال: إذا هلك علماؤهم[(٣)].

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ٨٩، (٢٣٩).

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٥٠، العلم، باب كيف يقبض العلم، (١٠٠)، ورواه مسلم أيضًا: ٤/ ١٦٣٤، العلم، باب رفع العلم. .، (٢٦٧٣).

(٣) سنن الدارمي: ١/ ٩٠، (٢٤١).

وفيه عن سلمان ـ رضي الله عنه ـ قال: لا يزال الناس بخير ما بقي الأوّل، حتى يتعلّم أو يعلّم الآخِر، فإن هلك الأول قبل أن يعلّم أو يتعلم الآخِرُ هلك الناس[1].

وفيه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: هل تدرون ما ذهاب العلم؟. قلنا: لا. قال: ذهاب العلماء[2].

وهكذا قال صاحب السر؛ حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: قبض العلم قبض العلماء[3].

وفيه عن أبي الدرداء قال: ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجهّالكم لا يتعلّمون؟ فتعلّموا قبل أن يُرفع العلم؛ فإنّ رفع العلم ذهاب العلماء[4].

وقال: الناس عالم أو متعلم[5].

وقال: معلم الخير والمتعلم في الأجر سواء، وليس لسائر الناس بعدُ خير[6].

وفيه أيضًا عن تميمٍ الداري ـ رضي الله عنه ـ قال: تطاول الناس في البناء في زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا معشر العرب، الأرضَ الأرضَ، إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ٩٠، (٢٤٢).
(٢) سنن الدارمي: ١/ ٩٠، (٢٤٣).
(٣) رواه الدارمي في سننه: ١/ ٩٠، (٢٤٤).
(٤) سنن الدارمي: ١/ ٩٠، (٢٤٥).
(٥) رواه الدارمي في سننه: ١/ ٩٠، (٢٤٦).
(٦) رواه الدارمي في سننه: ١/ ٩١، (٢٤٧).

بطاعة، فمن سوّده قومُه على الفقه كان حياة له ولهم، ومن سوّده قومُه على غير فقه كان هلاكًا له ولهم(١).

وقد صح عن مالك بن دينار فيما رواه ابن الجوزي وغيره عنه أنّه قال: إنّ الشيطان ليلعب بالقُرّاء كما يلعب الصبيان بالجوز(٢).

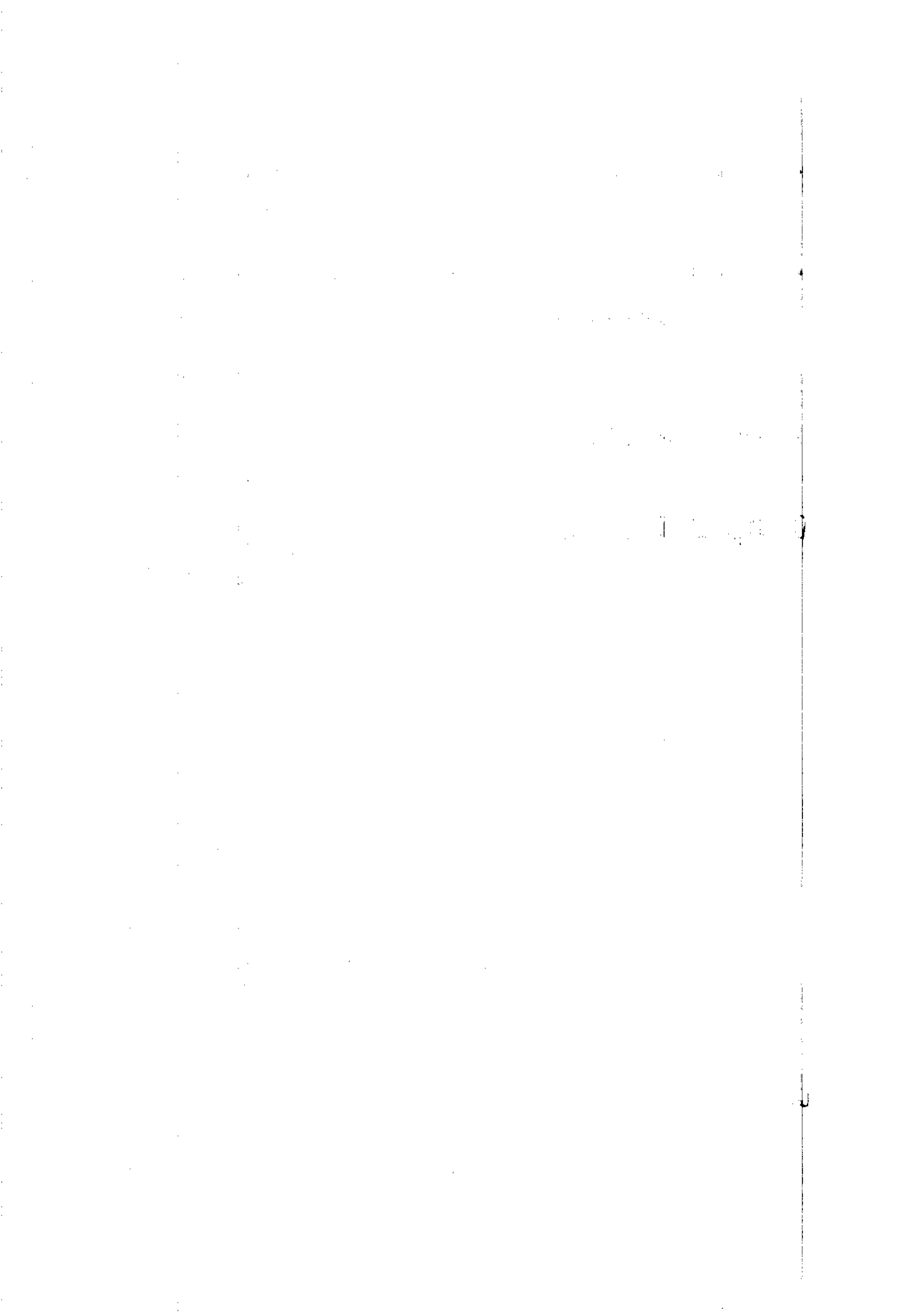
وهكذا قال حبيب الفارسي(٣).

قال ابن الجوزي: المراد بالقرّاء: الزهاد ـ يعني على غير علم ـ. قال: وهذا اسم لهم قديم معروف لهم(٤).

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد: ١٩]، والله الموفق(٥).

---

(١) سنن الدارمي: ١/ ٩١، (٢٥١).
(٢) «تلبيس إبليس»: ١٩٨.
(٣) الموضع السابق.
(٤) الموضع السابق.
(٥) كتب عند هذا الموضع في الطرة: [بلغ مقابلة فصح على أصله على يد مصنفه عفا الله عنه].



الباب التاسع عشر

باب التغليظ فيمن عبدَ اللهَ عند قبر رجلٍ صالح، فكيف إذا عبد صاحب القبر؟!.

روى البخاري (في الصحيح)[1] له (عن عائشة) أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ (أنّ أم سلمة) أمَّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، وهي هند بنت أبي أميّة بنِ المغيرةِ بنِ عبدالله بن مخزوم، المخزوميةُ ـ رضي الله عنها ـ، القرشية، وقد هاجرت الهجرتين مع زوجها أبي سلمةَ ـ رضي الله عنه ـ، وتوفي عنها النبي ـ ﷺ ـ، خلف عليها بعد أبي سلمة.

(ذكرت لرسول الله ـ ﷺ ـ) بعد ما رجعت من الحبشة وهاجرت إلى المدينة.

(كنيسة) للنصارى، وهي معبدهم، قد (رأتها بأرض الحبشة) يقال لها: «مارية»، (و) ذكرت (ما فيها من الصور، فقال) رسول الله ـ ﷺ ـ عند وصفها لتلك الكنيسة.

(أولئكِ)، يُروى بفتح الكاف وكسرها، والمراد: الذين هذا صنيعهم.

(إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح ـ شك الراوي ـ بنوا على قبره مسجدًا)، [ر،١٧٤/ب] «المسجَد» بفتح الميم وكسر الجيم، ويجوز فتحها، حكاهما الجوهري[2] وغيره، وهو المكان المتّخذ للصلاة

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ١٦٧، الصلاة، باب الصلاة في البيعة، (٤٢٤).

(٢) الصحاح: ٢/ ٤٨٤.

والتعبّد.

وقال أبو حفص الصقلّي: ويقال: «مَسيد» بفتح الميم، وحكاه غير واحد[1]، بالياء المثنّاة التحتيّة بدل الجيم، على لغة تميم.

قال[2]: وأنشد بنو تميم قول الشاعر في الشجر، قيل إنها للحكم أبي مروان يعرّض ببني أميّة:

إذا لم يكن فيكنّ ظلٌّ ولا جنىً   [فأبعدكنّ الله][3] من شيراتِ

وفيه جواز تسمية معبد الكفّار كالكنيسة والبيعة مسجدًا.

وفيه دليل على غربة دين عيسى ـ عليه السلام ـ، حيث غلب الأشرار على الأخيار ببناء المساجد على القبور؛ فإن أهل الصلاح لا يرضَون بذلك، ولا يدينون به، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١]، على القول بأنهم مسلمون، وسيأتي الكلام في ذلك إن شاء الله ـ تعالى ـ.

وفيه دليل أن الصلاة في ذلك المسجد المبنيِّ على القبر الواحد لا تجوز؛ لوصفه ـ ﷺ ـ من فعل ذلك بأنه من شرار الخلق، ولو جاز أمره هذا، وقُبلت عبادته على القبور المذكورة لما كان من شرارهم.

---

(١) «تثقيف اللسان»: ١٨٦، لأبي حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي، النحوي، اللغوي، المتوفى سنة ٥٠١هـ، انظربغيرة الوعاة: ٣٦١، والأعلام: ٥/ ٤٦.

(٢) ليس في الموضع السابق من «تثقيف اللسان»، ولعله في موضع آخر منه.

(٣) في الأصل: «فلا بارك الله فيكنّ»، ولا يستقيم بها البيت، والتصويب من المزهر (١/ ١١٤).

وهذا بخلاف الصلاة إلى القبر الواحد، إذا لم يكن ثَمّ مسجدٌ قد بني عليه؛ فإن فيه خلافًا في صحة الصلاة إليه، والصحيح صحتها، فرقًا بين الصلاة إليه، وبين الصلاة في المسجد المبني عليه، وهو ظاهر لمن تأمله، ويحقق هذا ما يأتي في الحديث بعده.

وفي «الهدي النبوي»: لو وضع المسجد والقبر معاً لم يجز، ولم يصح الوقف ولا الصلاة فيه[1].

(وصوّروا تلك الصور)، لما ذكر ـ ﷺ ـ المحذور الذي يضاهي عبادة الله وألوهيتَه، ذكر المحذور الثاني المضاهي لربوبيته، من تصوير الصور تشبيهًا بخلقه ـ تعالى ـ، فجمعوا في صنيعهم هذا بين الفتنتين، فلهذا قال ـ ﷺ ـ: (أولئك) الذين هذا صنيعهم (شرار الخلق عند الله) ـ تعالى ـ.

وفي لفظ في الصحيحين عن عائشة أن أم سلمة وأم حبيبة ـ رضي الله عنهم ـ ذكرتا لرسول الله ـ ﷺ ـ كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها: «مارية»، وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح ـ أو الرجل الصالح ـ بنوا على قبره مسجدًا، وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله ـ عز وجل ـ»[2].

وقد يكون بعض الخلق ممن هو مثلُهم أو شبهُهم لا يعدّهم من

---

(١) «زاد المعاد»: ٣/ ٥٧٢.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٤٥٠، الجنائز، باب بناء المسجد على القبور، (١٢٧٦)، وصحيح مسلم: ١/ ٣١٤، المساجد..، باب (٣)، حديث (٥٢٨).

شرار الخلق، بل قد يستحسن أمرهم ويتابعُهم عليه، أو لا يراهم في المنزلة التي وصفهم بها سيد البشر ـ ﷺ ـ.

قال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ[1] واللفظ لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين) العظيمتين: [فتنة] تعظيم (القبور، وفتنة) تصوير (التماثيل) التي ابتدعوها كما ابتدعها قوم نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، [ر، ١٧٤/ أ] فصارت سببًا لوقوع الشرك فيهم[2].

(ولهما) أي الشيخين (عنها) يعني عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وإن كانت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أقرب مذكور، فراوي الحديث عائشة [ك، ٨٥/ أ] ـ رضي الله عنها ـ.

(قالت: لما نُزِل) بضم النون، بالبناء، وروي بفتح النون، والفاعل محذوف، أي الموت.

(برسول الله ـ ﷺ ـ طفق يطرح خميصة له)، والخميصةُ ـ بالخاء المعجمة ـ: ثوبُ خزٍّ أو صوفٍ معلوم، وقيل لا تُسمى خميصةً إلا أن تكون سوداء مُعلَمة.

(على وجهه، فإذا اغتم بها ـ ﷺ ـ كشفها عنه فقال وهو كذلك) في السياق: (لعنة الله) تقدّم تعريف اللعن من الله ـ تعالى ـ.

(على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم) كما في

---

(١) يعني الإمام محمد بن عبدالوهاب.

(٢) لم أهتد إلى موضعه، وانظر معناه لابن القيم في «إغاثة اللهفان»: ١/ ١٨٤، وانظر «الرد على المنطقيين» لابن تيمية: ٢٨٥.

صحيح مسلم[1]؛ لأن النصارى ليس لهم إلا نبي واحد لا قبر له، وقد آن نزوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ خليفةً لنبيّنا محمد ـ ﷺ ـ، ثم يقبر معه في حجرته، كما ورد ذلك، وقد مر ذكره أول الشرح[2].

أو يكون ذلك على التغليب.

والقولُ بنبوّة مريم، وأن في الحواريين أنبياء ضعيف، فلا تُحمل عليه.

أو أن المراد بالاتخاذ أعمُّ من أن يكون ابتداعًا أو اتباعًا؛ فاليهود ابتدعت، والنصارى اتبعت[3].

ولا ريب أنّ النصارى تعظم قبور كثير من الأنبياء الذين تعظمهم اليهود، ممن اتخذت اليهودُ قبورهم كذلك.

(«مساجد». يحذّرُ) ـ ﷺ ـ بذلك أمّته (ما صنعوا)، فيحذروا صنيع ذلك، مع علمه ـ ﷺ ـ بأن أمّته ستتبع سَنن من كان قبلها من اليهود والنصارى؛ ليخرج بالإنذار عن ذلك من عُهدة ما حُمّل، ومن باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]، فقد بلّغ ـ ﷺ ـ البلاغ المبين، حتى سدّ الذرائع الموصلة لهم إلى الشرك؛ شفقة عليهم أن يقعوا فيما وقعت فيه الأمم الخالية؛ فإنه ـ ﷺ ـ كما قال ـ تعالى ـ عنه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

(ولولا ذلك) المحذور (لأُبرز قبره، غير أنه خَشي) أي النبي ـ ﷺ ـ،

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٣١٥، ٣١٦، المساجد..، باب (٣)، حديث (٥٣٢).

(٢) راجع ص ١٣٩.

(٣) أي اتبعت ما ابتدعه اليهود.

أو: «خُشي»، بالبناء، هكذا رواه البخاري في صحيحه باللفظين [١].

وفي لفظ له في «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور»[٢]: «غير أني أخشى (أن يتخذ) بالإبراز (مسجدًا)».

فقُبر ـ ﷺ ـ حيث قُبض، وأحيط بالجدران فلم يبرز.

ولحديث أبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ الذي رواه سيف بن عمر، ومحمد بن إسحاق، فوافق رأي عمِّه العباس بن عبدالمطّلب ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه عند ابن إسحاق من طريقه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حين اختلفوا في دفنه، فقال أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «ما قُبض نبي إلا دفن حيث قبض»، فرُفع فراش رسول الله ـ ﷺ ـ الذي توفي عليه، فحُفر له تحته[٣].

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر أيضًا مرفوعًا، ولفظه: «ما مات نبي إلا دُفن حيث يقبض»[٤].

ورواه أيضًاالإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، ولفظه: «لم يُقبر نبي إلا حيث يموت»[٥].

وذكره الإمام مالك في الموطّأ بلاغًا[٦].

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٦١٤، المغازي، باب مرض النبي ـ ﷺ ـ ووفاته، (٤١٧٧)، وصحيح مسلم: ١/ ٣١٥، المساجد.. باب (٣)، حديث (٥٣١).
(٢) صحيح البخاري: ١/ ٤٤٧، الجنائز، (١٢٦٥).
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٦٣، ورواه البزار في مسنده: ١/ ٧١، (١٨).
(٤) سنن ابن ماجه: ١/ ٥٢٠، (١٦٢٨). وهو في ضعيف ابن ماجه للألباني: ص١٢٥.
(٥) المسند: ١/ ٧، ورواه بنحوه ابن أبي شيبة في المصنف: ٧/ ٤٢٨، (٧٠٢٢).
(٦) الموطأ: ١/ ٢٣١، (٥٤٥).

ووصله ابن سعد عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس. ومن طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ[1].

وذكر بعضهم[2] أن هذا أول اختلاف [ر،١٧٥/ب] وقع بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ. يعني من طريق الأحكام.

ورواه أيضًا أبو القاسم البغوي، وأبوبكر الشافعي في فوائده، وابن عساكر، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، عن أبيها بمعناه[3].

ورواه الترمذي[4] وابن زنجويه[5]، وقال: وهذه سنة تفرّد بها أبوبكر الصدّيق من بين المهاجرين والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ، ورجعوا إليه فيها، فاتفق للصحابة في دفنه ـ ﷺ ـ حديثُ الصدّيق، وهذا المحذور الذي في حديث ابنته عائشة ـ رضي الله عنها وعن أبويها ـ، فكأنهم أولاً منعهم هذا المحذور الذي ذكرت عائشة من إبراز قبره قبل أن يحدّثهم الصدّيق، فلما حدّثهم به لم يبق عند أحد منهم توقف، فانظر كيف نظروا ـ رضي الله عنهم ـ إلى سد ذريعة الشر قبل وقوعه، وذلك من دقيق فهمهم، لمخافتهم على الأمّة على تطاول الدهور من ذلك المحذور المُهلك، الذي أصاب عاقبتُه الأممَ قبلهم،

---

(١) الطبقات: ٢/ ٢٩٢.

(٢) انظر «تنوير الحوالك» للسيوطي: ١/ ١٨٠.

(٣) لم أهتد إليه عند ابن عساكر.

(٤) سنن الترمذي: ٣/ ٣٣٨، الجنائز، باب (٣٣)، حديث (١٠١٨)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» برقم (١٣٧).

(٥) لعلّه حميد بن زنجويه صاحب كتاب الأموال، توفي سنة ٢٥١هـ.

فرضي الله عنهم من سلفٍ حفظ الله بهم دين الأمّة، فهم القدوة.

وفي الحديث المرفوع: «أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم»[١].

قال البخاري في صحيحه: ولما مات الحسن بن الحسن بن علي ـ رضي الله عنه ـ، ضربت امرأته القبة على قبره سنة، ثم رفعت، فسمعوا صائحًا يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟. فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا[٢].

قال: ورأى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فسطاطًا على قبر عبدالرحمن، فقال: انزعه يا غلام، فإنما يظله عمله[٣].

(ولمسلم) في صحيحه[٤] (عن جندب بن عبدالله) بن سفيان البجلي ـ رضي الله عنه ـ، له صحبة، مات بعد الستين.

(قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يموت بخمسٍ) أي ليالٍ، في مرضه الذي مات فيه، (وهو يقول: «إني أبرأ)، من «بريء» بالكسر، بمعنى تبرّأ.

(إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛)، المعنى: مُنْهيًا براءتي إلى كل من يزعم أني اتخذته خليلاً منكم.

---

(١) رواه ابن عبدالبر في الجامع: ٢/ ٩١، وابن حزم في الأحكام: ٦/ ٨٢، وحكم عليه الألباني بالوضع كما في السلسلة الضعيفة برقم (٥٨).

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٤٤٦، الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٤٥٧، الجنائز، باب الجريد على القبور.

(٤) صحيح مسلم: ١/ ٣١٥، ٣١٦، المساجد. . ، باب (٣)، حديث (٥٣٢).

والخُلّة بالضم: الصداقة والمحبّة التي تخللت قلب المحِب، فهي تدعو إلى طاعة المحبوب، وعدم المخالفة له، قال طرفة بن العبد:

وتبسم عن ألمى كأن منوِّرًا تخلل حُرَّ الرمل دِعْصٍ له ندِ[1]

يقول: تخلل: دخل خلَلَه، أي وسطه، والحر: الخالص من كل شيء، والمعنى: كأن أقحوانًا منوِّرًا بالنَّوْر[2]، متخلّلاً حُرَّ الرمل: خالص الرمل، دِعص له ند، هذا الثغر، فحذف الثغر لعلم السامع، والثغر يعود على «ألمى»، وهو الثغر، جعله ألمى لسمرة الشفتين، وهو مستحسن عند العرب.

والخليل: فعيل منه، بمعنى الصديق، وكل مصاحب ملازم قد انقُطع إليه فلا يزاحمه ما يقطع الإنسان عنه خليل، فهذا أصله واشتقاقه عند العرب، قال عبيدٌ الراعي النميري: [ر،١٧٥/أ]

فطوى البلادَ على قضاءِ صريمةٍ بـالجـدّ واتخـذ الـزّمـاع خليـلاً[3]

فالصريمة: العزيمة، والزماع: الجد في الأمر، يقول إنه في طوْيه البلاد قد اتخذ العزيمة فيه، ولازم الزّماع مصاحبًا له، لا يصدُّه شيء، ولا [ك،٨٦/ب] يقطعه عنه قاطع، ولا يبتغي به بدلاً، قد اختار الزّماع في سيره على غيره.

فكذلك النبي ـ ﷺ ـ في خُلّته مع الله ـ عز وجل ـ لا يزاحمها شيء.

---

(١) من معلقته، انظر ديوانه: ص٢١، ط صادر.

(٢) أي بالزهر، انظر شرح المعلقات لابن الأنباري: ١٤٤.

(٣) ديوانه: ص ٢٢٨.

وقيل: هو من يُعتمد عليه في الحاجة؛ فإن أصله: «الخَلّةُ» بالفتح، بمعنى الحاجة.

(فإن الله قد اتخذني خليلاً)، المعنى: فيجب عليّ أن انقطع إليه، فكيف اتخذ غيره خليلاً، وقد منّ علي بهذه المنّة؟!، قاله ـ ﷺ ـ احترازاً عن الشركة.

(كما اتخذ ـ جل وعلا ـ إبراهيم خليلاً)؛ إذ ليست الخلّة مخصوصةً بإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بل حاصلة لنبيّنا محمد ـ ﷺ ـ، فقد اتخذ الله كلاًّ منهما خليلاً، صلوات الله وسلامه عليهما، وعلى آلهما بأكمل وجه وأتمّه.

هذا، وقد يكون مقام الخلّة بعضُه أعلى من بعض، وهو غير ممتنع، لا عقلاً، ولا لغةً، ولا شرعًا.

(ولو كنت متخذًا من أمّتي خليلاً لاتخذت أبابكر).

وقد عدّ العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ حديث الخلّة من الأحاديث المتواترة؛ رواه عن النبي ـ ﷺ ـ فوق ثلاثة عشر صحابيًا، ذكرهم جلال الدين السيوطي وغيره[1].

وفي هذا دليل ظاهر على أفضليّة أبي بكر على غيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ؛ إذ ليس أحد منهم من هو بهذه المثابة عنده ـ ﷺ ـ غيرَه، والذي هو بهذه المثابة هو الذي لا ينبغي أن يتولّى أمّتَه بعده غيرُه.

---

(١) انظر «قطف الأزهار المتناثرة» للسيوطي: ص ٢٧٥، و«نظم المتناثر»: ١٩٣، (٢٣١).

ولهذا اتفقت على ذلك الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، فلم يعدلوا به غيره، ومن قال غير ذلك فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، الذين أخبر الله عنهم أنه قد رضي عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار، فهو ـ سبحانه ـ لما رضي عنهم لا يولّي عليهم قدَرًا وشرعًا إلا خيارهم.

ولهذا في الأثر الذي رواه الإمام أحمد وغيره عن قتادة: قال موسى: يا رب، أنت في السماء ونحن في الأرض، فما علامة غضبك من رضاك؟. قال: إذا استعملتُ عليكم خياركم فهو علامة رضاي عنكم. الحديث[1].

وعند البيهقي عن الحسن البصري في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية، قال: هو والله أبوبكر وأصحابه، لما ارتدّت العرب جاهدهم أبوبكر وأصحابُه حتى ردّوهم إلى الإسلام[2].

وروى يونس بن بكير عن قتادة مثله[3].

وقال ابن كثير في قوله ـ تعالى ـ: [ر،١٧٦/ب] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [النور: ٥٥]: هذه الآية منطبقة على خلافة أبي بكر[4].

---

(١) رواه أحمد في الزهد: ٢٧٧، وأبو نعيم في الحلية: ٦/ ٢٩٠.

(٢) الاعتقاد: ٣٤٤.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى: ٨/ ١٧٧، (١٦٥١٣).

(٤) انظر تفسير ابن كثير: ٦/ ٧٩، دار طيبة، ط ١، ١٤١٨هـ.

وروى ابن أبي حاتم عن عبدالرحمن بن حميد المهري مثله[١].

وعند الخطيب عن أبي بكر بن عيّاش قال: أبوبكر خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ في القرآن؛ لأنّ الله يقول: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ الآية [الحشر: ٨]، فمن سمّاه الله ـ تعالى ـ صادقًا فليس يكذب، قالوا: «يا خليفة رسول الله»[٢].

قال ابن كثير: وهذا استنباط حسن[٣].

وعند البيهقي عن الزعفراني قال: سمعت الإمام الشافعيّ يقول: أجمع الناس على خلافة أبي بكر الصدّيق؛ وذلك أنه اضطُرّ الناس بعد رسول الله ـ ﷺ ـ، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيرًا من أبي بكر، فولَّوْه[٤].

قال معاوية بن قرة: وما كانوا يجتمعون على خطأ ولا ضلال.

وعند الحاكم وصحّحه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيِّئًا فهو عند الله سيِّء، وقد رأى الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ جميعًا أن يستخلفوا أبابكر[٥].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: ٨/ ٢٦٢٧، ٢٦٢٨، (١٤٧٦٤)، والمثبت فيه: عبدالرحمن بن عبدالحميد المصري.

(٢) تاريخ بغداد: ١٤/ ٣٧٦.

(٣) لم أجده عند تفسيره لآيات سورة الحشر.

(٤) انظر مناقب الشافعي للبيهقي: ١/ ٤٣٤، ٤٣٥، ورواه أبو نعيم في الحلية: ٩/ ١١٥.

(٥) المستدرك: ٣/٨٣، (٤٤٦٥)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وله شاهد أصح منه، إلا أن فيه إرسالاً. ا.هـ. ورواه أحمد دون الجملة الأخيرة في مسنده: ١ /٣٧٩ والطيالسي بنحوه في مسنده: ص٣٣، والبزار: ٥/٢١٢، ٢١٣، =

قلت: فليس في الإسلام من يومئذ إلى الآن حركة إلا في تلك البركة، ولا تفكّر ولا تقدير إلا من ذلك التدبير، فتبارك الله العليم القدير، فجزاهم الله عن أمّة محمد - ﷺ - أفضل الجزاء، فهم السلف المتبوع، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعلنا ممّن تبعهم ووالاهم، إنه ولي الهداية والتوفيق.

وقد ورد الخبر عنه - ﷺ - من حديث أنس - رضي الله عنه - أنّه قال: «أرحم أمّتي بأمّتي أبوبكر، وأشدّها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ، وأقرؤها لكتاب الله أُبيّ، وأعلمها بالفرائض زيد، ولكل أمّة أمين، وأمين هذة الأمّة أبو عبيدة ابن الجرّاح». رواه الإمام أحمد[١]، والنسائي[٢]، والترمذي وصحّحه[٣]، وابن ماجه[٤]، والحاكم وقال: إنه على شرط الشيخين[٥].

وقال كثير من أهل العلم بالحديث: إن الصحيح أنّه مرسل عن أبي قِلابة عن النبي - ﷺ -، كذا قال الدارقطني والخطيب[٦].

= (١٨١٦)، والطبراني في الكبير: ٩/ ١١٢، قال الحافظ ابن حجر في الدراية (٢/ ١٨٧): لم أجده مرفوعاً، وأخرجه أحمد موقوفاً على ابن مسعود بإسناد حسن. ا. هـ.

(١) المسند: ٣/ ١٨٤.

(٢) السنن الكبرى: ٥/ ٦٧، (٨٢٤٢).

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٦٦٥، المناقب، باب (٣٣)، حديث (٣٧٩١). وهو في صحيح السنن للألباني: ٣/ ٢٢٧.

(٤) سنن ابن ماجه: ١/ ٥٥، (١٥٤).

(٥) المستدرك: ٣/ ٤٧٧، (٥٧٨٤).

(٦) انظر «فتح الباري»: ٧/ ٩٣.

وقال ابن عبدالبر: إنّ أكثر الرواة على هذا، وما ذُكر في أبي عبيدة فهو في الصحيح[1].

وروى الحديث جميعه الطبراني[2] عن جابر وقاسم بن أصبغ، عن أبي سعيد الخدري، وأبو يعلى عن ابن عمر[3]، بأسانيد فيها كلام، وأحسنها حديث أنس، وبها ـ وإن كان مرسلاً ـ يتقوّى، ويصير حجّة عند العامّة[4].

فإذا كان هو أرحَم أمّتِه بها، فقد وافق صفته ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾، فلا ينبغي أن يلي أمّتَه بعده إلا من هذه صفتُه، من بين غيره من أمّته ـ ﷺ ـ.

ولهذا في صحيح مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في مرضه: ادعي لي أبابكر أباك، وأخاك؛ حتى أكتب [ر،١٧٦/أ] كتابًا؛ فإني أخاف أن يتمنى متمنٍّ، ويقولَ قائل: «أنا ولا[5]»، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبابكر»[6].

---

(١) انظر صحيح البخاري: ٣/١٣٦٩، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح، برقم (٣٥٣٤)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٨٨١، برقم (٢٤١٩).

(٢) المعجم الصغير: ١/ ٣٣٥، (٥٥٦).

(٣) مسند أبي يعلى: ١٠/ ١٤١، (٥٧٦٣).

(٤) صحح الحديث الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٢٤).

(٥) في صحيح مسلم: «أنا أولى». قال النووي: (هكذا هو في بعض النسخ المعتمدة: «أنا، ولا» بتخفيف «أناولا»، أي يقول: أنا أحق، وليس كما يقول..). شرح مسلم: ١٥/ ١٥٥.

(٦) صحيح مسلم: ٤/ ١٤٨٠، فضائل الصحابة..و باب (١)، حديث (٢٣٨٧).

وفي جامع الحميدي: «أنا أولى» بدل «ولا»[1].

وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ قال: أتت النبي ـ ﷺ ـ امرأة، وكلّمتْه في شيء، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: يا رسول الله، أرأيت إن جئتُ ولم أجدْك؟. كأنها تريد الموت، قال: «فإن لم تجديني فأتي أبابكر»[2].

ولمّا خالفت الرافضة في ذلك، ودخلوا من باب الغلوّ الذي نهى الله ورسوله عنه، بحيث خرجوا من الحد بذلك، دخل عليهم من عبادة الأوثان، وسبّ أفضل الأمّة وخير القرون[3]، ما لم يدخل على غيرهم، وقابلتهم الخوارج من طرف الغلو في الدين، فكفّروا من شهد له رسول الله ـ ﷺ ـ بالجنّة، وسفكوا دمه، كعلي ـ رضي الله عنه ـ، والرافضة صرفت له شيئًا من حق الخالق ـ تعالى ـ، فانظر إلى ما يصنع الغلوّ بأهله من الطرفين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

(ألا وإن من كان قبلكم) أي من اليهود والنصارى من أهل الكتابين.

(كانوا يتخذون قبور أنبيائهم)، «وصالحيهم»، [ك،٨٦/أ] كما في لفظ مسلم[4]، وإلا فالنصارى ليس لهم إلا نبي واحد لا قبر له.

---

(١) «الجمع بين الصحيحين» للحميدي: ٤/ ١٨٢.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٣٣٨، فضائل الصحابة..، باب قول النبي ـ ﷺ ـ «لو كنت متخذًا خليلاً»، (٣٤٥٩)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٤٨٠، فضائل الصحابة..، باب (١)، حديث (٢٣٨٦).

(٣) راجع في هذا كتاب «عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام» للدكتور ناصر بن علي الشيخ: ٣/ ٩٧٤ وما بعدها.

(٤) صحيح مسلم: ١/ ٣١٥، (٥٣٢).

(مساجد)، وقد ذكر الله ذلك عمّن كان قبلنا في الأولياء في معرض الذم لمتّخذيها، حيث قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾ [الكهف: ٢١].

ويفهم هذا من قوله: ﴿غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾؛ فإن هذا الكلام ليس في مقام الرضى عنهم، ولا المدح لهم، حتى على القول بأن الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ للفتية، فإذا كان هذا قولهم في الأولياء، فالأنبياء عندهم من باب الأولى والأحرى.

وقد اختلف المفسّرون في هؤلاء الذين غلبوا على أمرهم: هل هم من المسلمين، أو من الكفار؟، على قولين[1]، مع اتفاقهم أنّهم السلاطينُ من أحد الفريقين، وأهلُ الرأي منهم، ممّن له نفوذ الكلمة.

ورجّح بعض المفسّرين أنّهم كانوا مسلمين، بقولهم: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١﴾، واستدل من قال إنّهم كفار بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١].

وقال جماعة: وقع التنازع بين المسلمين والكفار، فهم فريقان: مسلم وكافر.

وذكر الطبري أنّ أهل تلك المدينة تنازعوا قبل مبعثهم في الأجساد والأرواح: كيف تكون إعادتها يوم القيامة؟. فقال قوم: تُعاد الأجساد كما كانت بأرواحها، كما يقوله أهل الإسلام. وخالفهم آخرون،

---

(١) انظر تفسير الطبري: ١٥/ ٢٢٥، وانظر بحثًا نفيسًا للعلامة عبدالرحمن المعلمي بعنوان «البناء على القبور» فصل فيه الرد على من يحتج بقصة أصحاب الكهف على جواز البناء على القبور.

وقالوا: تُبعث الأرواح دون الأجساد، كما تقوله النصارى. [وشرِيَ][1] بينهم الشر، واشتدّ الخلاف، واشتدّ على ملِكهم ما نزل بقومه من ذلك، فأقبل على البكاء، والتضرّع إلى الله ـ تعالى ـ أن يُودِيَه[2] الفصل فيما اختلفوا فيه، فأحيا الله أصحاب الكهف عند ذلك، فكان من حديثهم ما عرف وشُهر.

وذكر قصة قال في آخرها: فرجع الكلّ إلى ما قاله الملك، وعلموا أنّه الحق[3].

(ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك»).

لما بيّن ـ ﷺ ـ ما يفعله من كان [ر،١٧٧/ب] قبلنا من اتخاذهم قبور أنبيائهم مساجد، عقّبه بالنهي عن ذلك في جميع القبور، فقال: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك»، فالضمير راجع إلى النهي العامّ عن اتخاذ القبور مساجد.

وقد قال الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: أكره أن يُعظَّمَ مخلوق، حتى يُجعل قبرُه مسجدًا؛ مخافة الفتنة[4].

قال: ورأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يُبنى ـ يعني عليها ـ[5].

---

(١) في الأصل: «شرا» والتصويب من المقاييس لابن فارس: ٣/ ٢٦٦، ومعنى شرِيَ: هاج واستطار. ورسمها في نسخة [م]: شرى.

(٢) كذا في الأصل، وفي أساس البلاغة (ص ٦٧٣) ما يدل على صحتها.

(٣) انظر تفسير الطبري: ١٥/ ٢١٦ـ ٢٢٢.

(٤) ذكره عنه بلفظه صاحب فيض القدير: ٥/ ٢٧٤، وهو بمعناه في الأم: ١/ ٢٧٨.

(٥) الأم: ١/ ٢٧٧.

ثم قال الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ واللفظ لشيخ الإسلام ابن تيمية[١] ـ قدّس الله روحه ـ: (فقد نهى عنه ـ ﷺ ـ في آخر حياته) من الدنيا، (ثم لعن وهو في السياق من فَعله، والصلاة عندها) أي القبور (من ذلك) المنهي، الملعون على فعله، (وإن لم يُبنَ) في ذلك الموضع (مسجد)، إذا قصد المصلّي ذلك، (وهو معنى قولها) أي عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ في حديثها المتقدّم: (غير أنه خشي) على كلا اللفظين، إن أُبرز قبرُه (أن يُتخذ مسجدًا)، فالعلّة في ذلك قصدُ الاتخاذ، كفعل أهل الكتاب الذي حذّرَنا عنه، حتى حذّرَناه ـ ﷺ ـ في اخر حياته من الدنيا، وهو في السياق، حتى ما تفيض بتحذيره منه نفسه، فجزاه الله عنّا وعن أمّته أحسن ما جُزي نبي عن أمّته؛ فقد بلّغ البلاغ المبين، وحذّر أمّته عن جميع مضارّها في الدنيا والآخرة. (فإنّ الصحابة) ـ رضي الله عنهم ـ حسموا ذريعة الشر قبل وقوعه؛ خوفًا على الأمّة بذلك، وإلا فإنهم ـ رضي الله عنهم ـ (لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا)، وحاشاهم عن مخالفة نبيّهم ـ ﷺ ـ، وهم خلاصة أمّته، وبهم تقتدي.

ويمكن أنّ الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قُبروا حيث قُبضوا مخافة ذلك الشر، وأنهم قد خشوا من أممهم ما خشي ـ ﷺ ـ، على رواية إقامة الفاعل مقامه ـ أن يُتخذ مسجدًا.

(وكل موضع قصد الصلاة فيه فقد اتُّخذ) بذلك القصد (مسجدًا)[٢]، بل (كل موضع يُصلّى فيه يُسمّى مسجدًا، كما قال النبي ـ ﷺ ـ) فيما صحّ عنه عند ابن ماجه[٣]، من حديث أبي هريرة، وعند الترمذي[٤] من حديث أبي ذر الغفاري

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٧٣، ٦٧٤، وانظر «إغاثة اللهفان» لابن القيم: ١/ ١٨٦.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٦٧٧.

(٣) سنن ابن ماجه: ١/ ١٨٨، (٥٦٧).

(٤) سنن الترمذي: ٢/ ١٣١، (٣١٧). وصححه الألباني في «إرواء الغليل» برقم (٢٨٥).

ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا بلفظ: («جُعلت لِيَ الأرض مسجدًا وطَهورًا»).

وفيه إجمال يفصّله خبر مسلم: «جعلت لنا الأرض مسجدًا، وتربتها لنا طهورًا»[١].

فالخبر وارد على منهج الامتنان على هذه الأمّة، بأن رُخِّص لهم في الطهور بالأرض، والصلاة في بقاعها، وكان مَن قبلهم إنّما يصلّون في كنائسهم، وفيما يتيقّنون طهارته.

وعموم ذكر الأرض [ر،١٧٧/أ] هنا مخصوص بغير ما نهى الشارع عن الصلاة فيه، كخبر أبي سعيد الخدري، الذي رواه الإمام أحمد[٢]، وأبو داود[٣]، والترمذي[٤]، وابن ماجه[٥]، والبزّار[٦]، بأسانيد جيّدة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الأرض كلّها مسجد إلا المقبرة والحمّام».

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: ومن تكلّم في حديث أبي سعيد هذا فما استوفى طرقه[٧].

(ولأحمد) في مسنده[٨] (بسند جيد عن) عبدالله (بن مسعود ـ رضي

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٣١١، المساجد. .، (٥٢٢).
(٢) المسند: ٣/ ٨٣، وصححه الألباني في الإرواء: ١/ ٣٢٠.
(٣) سنن أبي داود: ١/ ١٣٣، (٤٩٢).
(٤) سنن الترمذي: ٢/ ١٣١، (٣١٧).
(٥) سنن ابن ماجه: ١/ ٢٤٦، (٧٤٥).
(٦) لم أجده عنده، لكن روى عن ابن عمر مرفوعًا: «سبع مواطن لا تكون فيها الصلاة»، وذكر منها المقبرة والحمام. وهو ضعيف كما في «إرواء الغليل» برقم (٢٨٧).
(٧) الاقتضاء: ٢/ ٦٧٧.
(٨) المسند: ١/ ٤٠٥.

الله عنه ـ مرفوعًا) إلى النبي ـ ﷺ ـ.

قال عماد الدين ابن كثير: المرفوع هو ما أضيف إلى النبي ـ ﷺ ـ قولاً منه، أو فعلاً منه، وسواء كان متصلاً، أو منقطعًا، أو مرسلاً[1].

قال: ونفى الخطيب أن يكون مرسلاً، فقال: هو ما أخبر فيه الصحابي عن رسول الله ـ ﷺ ـ فعلاً، أو قولاً.

(«إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء)؛ لكثرة عبادة الأوثان، وخلوّ الأرض من العلم.

(والذين يتّخذون القبور (مساجد)[2]»)، فجعلهم بمجرّد اتخاذهم إيّاها مساجد من شرار الخلق عند الله ـ تعالى ـ.

ومفهومه أنّهم إذا خلوا من هذا الوصف، بهدمها، واتّباع سنّة نبيّهم محمد ـ ﷺ ـ، صاروا بذلك من خيار الناس.

فإذا كان هذا الفعل، وهو بناء المساجد على القبور، يصير فاعلُه من شرار الناس، وهو بذلك ما قصد عبادة القبر، بل يريد أن يصلّي في ذلك المسجد الذي بُني على القبور لله ـ تعالى ـ، فما ظنّك بمن عبده؟. نعوذ بالله من الخذلان وانطماس القلب عن الهدى، وعن اتباع الرشَد.

[ك،٨٧/ب] (رواه أبو حاتم) الحافظ محمد بن إدريس الحنظلي الرازي[3]، أحد الأئمة الثقات، روى عن الإمام أحمد وطبقته، وعنه أبو

---

(١) «اختصار علوم الحديث»: ٤٣، مع شرحه «الباعث الحثيث»، وانظر رأي الخطيب في «الكفاية»: ٢١.

(٢) في الأصل: مساجدًا.

(٣) هكذا وهم المؤلف فترجم لأبي حاتم الرازي، وإنما المقصود ابن حبان البستي صاحب الصحيح والثقات وغيرها.

داود وطبقته، توفي بالري سنة خمس وقيل سبع وسبعين ومائتين، وهذا الحديث مما أودعه (في صحيحه)[1].

وعن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ لعن زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسّرُج. رواه الإمام أحمد[2]، وأبو داود[3]، والترمذي[4]، والنسائي[5].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة شهيرة.

فهذه أحاديث تدل على أنّ هذه المساجد المبنيّة على القبور من حيث الجملة يتعيّن إزالتها وإبطالها مع القدرة على ذلك.

وهكذا المشاهد التي على القبور، التي تُتّخذ أوثانًا تُعبد من دون الله ـ تعالى ـ، والأحجار والأشجار التي تُقصد للتعظيم والتبرّك، والنذور والتقبيل، فلا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض بعد القدرة؛ فإن كثيرًا منها بمنزلة اللات والعُزّى ومناةِ الثالثةِ الأخرى؛ لغلبة الجهل وظهوره، وخفاء العلم ودروسه، حتى صار المنكر معروفًا، [ر،١٧٨/ب] والمعروف منكرًا، والبدعةُ سُنّةً، والسنّةُ بدعةً، ونشأ على ذلك الصغير، وهرِم عليه الكبير، وطُمست الأعلام، واشتدّت غربة الإسلام،

---

(١) صحيح ابن حبان: ٦/ ٩٤، (٢٣٢٥)، ورواه الطبراني في الكبير: ٢/ ١٦٨، قال في المجمع (٢/ ٢٧): إسناده حسن.

(٢) المسند: ١/ ٢٢٩.

(٣) سنن أبي داود: ٣/ ٢١٨، (٣٢٣٦).

(٤) سنن الترمذي: ٢/ ١٣٦، (٣٢٠).

(٥) سنن النسائي: ٤/ ٩٤، (٢٠٤٣). وحسنه الألباني دون قوله: «والمتخذين عليها السرج»، انظر السلسلة الضعيفة رقم (٢٢٥) و«الإرواء»: ٣/ ٢١٢ برقم (٧٦١).

وقلّ العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، و﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمديّة بالحق قائمة ظاهرة، ولأهل الشرك والبدع مجاهدة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

فإن كان في تلك المشاهد [أموال][١] جعلها الإمام في الجهاد والمصالح، كما فعل ـ ﷺ ـ بما وجد في بيوت الأوثان والأصنام.

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة[٢]: وهذا ممّا لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين ـ يعني في هدم المساجد المبنيّة على القبور ـ.

قال: وتُكره الصلاة فيها من غير خلاف أعلمه، ولا تصحّ عندنا في ظاهر المذهب؛ لأجل النهي واللعن الوارد في ذلك[٣].

قال: وليس في هذه المسألة خلاف في المنع؛ لكون المدفون فيها واحدًا، وإنّما اختلف أصحابنا في المقبرة المجرّدة عن مسجد: هل حدّها ثلاثة أقبر، أو منهي عن الصلاة عند القبر الفذ وإن لم يكن عنده قبر آخر؟، على وجهين للأصحاب[٤].

والله المستعان، وعليه التكلان.

---

(١) في الأصل: أموالاً.
(٢) الاقتضاء: ٢/ ٦٧٥.
(٣) الاقتضاء: ٢/ ٦٧٥.
(٤) الموضع السابق.

الباب العشرون

(باب ما جاء أنّ الغُلوَّ في قبور الصالحين يصيّرها) ذلك الغلوُّ مع طول الزمان **(أوثانًا)**، أي كالأوثان حكمًا لا صورة؛ لأن الوثن عندهم ما له جثة كصورة الآدمي، إلا أنهم اتسعوا في تسميته كما يأتي، قال الأعشى:

تطـوفُ العفـاةُ بـأبـوابِـه كطوفِ النصارى ببيتِ الوثنْ[1]

والعفاة جمع عافٍ، وهو سائل الحاجة وطالبها، والوثن هو الصنم، وقيل: الوثن ما كان غير مصوّر. وقيل: هو ما كان جثة، مصوّرًا أو غير مصوّر، أيَّ نوع كان.

والصنم صورة بلا جثة، ثم اتسع استعمالهم في ذلك.

وقال ابن فارس: الوثن واحد الأوثان، وهي حجارة كانت تُعبد من دون الله ـ تعالى ـ[2].

فإنها قد تصوّر وثنًا ولا تعبد، وهي التماثيل، كما فعل قوم نوح ـ عليه السلام ـ، فآل بهم الأمر إلى عبادتها من دون الله ـ جل وعلا ـ.

فكما أن الغلوّ في الصالحين، وتصويرَ تماثيلهم أوثانًا، يؤول الأمر

---

(١) انظر ديوانه المسمى (الصبح المنير في شعر أبي بصير): ص ١٩، والبيت فيه: «يطوف العفاة. .» بالياء التحتانية.

(٢) «مجمل اللغة»: ص ٩١٦، والمقاييس: ٦/ ٨٥.

بذلك إلى عبادتها من دون الله ـ تعالى ـ، كذلك الغلو في قبورهم، واتخاذُها مساجد، يؤول ذلك الأمر بهم إلى أن تعبد من دون الله ـ تعالى ـ.

والغلوّ: الارتفاع فوق الحد، ومنه: «غلا القدر»، إذا ارتفع الماء فيه فوق حدّه، قال ابن [ر،١٧٨/أ] حلّزة:

أنّ إخواننا الأراقمَ يغلون علينا وفي قيلهم إحفاءُ[(١)]

ومنه النهي عن الغلوّ في الدين، أي التشديد ومجاوزة الحد فيه، سواء في نفس الغالي، أو على الناس، كما قال عدي بن زيد التميمي:

وعــاذلــةٍ هبّــتْ بليــلٍ تلــومُنــي فلمّا غلتْ في اللوم قلت لها اقصُدي[(٢)]

فالدين سلوك الصراط المستقيم بالقصد من غير غلوّ، فهو قصد بين طريقة الخوارج والرافضة، وبين القدرية والجبريّة.

ولما كان تغيير أديان المرسلين ينشأ عن الابتداع في الدين، حذّر السلف الصالح منه أشدّ التحذير، وكذا النبي ـ ﷺ ـ.

فعن غضيف بن الحارث الثمالي قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما أحدث[(٣)] قوم بدعة إلا رُفع منهم مثلُها من السنّة، فتمسُّكٌ بسنة خير من إحداث بدعة». رواه الإمام أحمد[(٤)].

---

(١) من معلقته، انظر ديوانه: ص ٢٣. دار الكتاب العربي والواو هنا زائدة عما هناك.

(٢) ديوانه: ص ١٥٧، ضمن ديوان المروءة، ط دار الجيل.

(٣) في الأصل: «ما أحلّت»، ولا معنى له.

(٤) المسند: ٤/ ١٠٥، قال في المجمع (١/ ١٨٨): فيه أبوبكر بن عبدالله بن أبي مريم وهو منكر الحديث. ا.هـ والحديث في «ضعيف الجامع»: ٧٢٠، (٤٩٨٣).

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «لا تشدّدوا على أنفسكم فيشددَ الله عليكم؛ فإنّ قومًا شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]». رواه الإمام أبو داود[١] وغيره.

وعن حسان بن عطيّة قال: ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثمّ لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة. رواه الدارمي[٢].

وعن إبراهيم بن ميسرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام». رواه البيهقي في شعب الإيمان هكذا مرسلاً[٣].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: من كان مستنًّا فليستنّ بمن قد مات؛ فإنّ الحي لا يؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ـ ﷺ ـ، كانوا أفضل هذه الأمّة؛ أبرَّها قلوبًا، وأعمقَها علمًا، وأقلّها تكلّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيّه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتّبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسِيَرهم؛

---

(١) سنن أبي داود: ٤/ ٢٧٧، الأدب، باب في الحسد، (٤٩٠٤)، وهو في «ضعيف الجامع»: ٩٠٠، (٦٢٣٢).

(٢) سنن الدارمي: ١/ ٥٨، (٩٨)، ورواه اللالكائي في «اعتقاد أهل السنة»: ١/ ٩٣، (١٢٩)، وأبو نعيم في الحلية: ٦/ ٧٣.

(٣) شعب الإيمان: ٧/ ٦١، (٩٤٦٤)، ورواه اللالكائي عن إبراهيم بن ميسرة من قوله: ١/ ١٣٩، (٢٧٣)، ورواه ابن عدي في الكامل عن عائشة مرفوعًا: ٢/ ٣٢٤، وفي موضع آخر (٢/ ٦٥) رواه مرفوعًا عن ابن عباس بلفظ: من وقر أهل البدع. والحديث ضمن السلسلة الضعيفة للألباني برقم (١٨٦٢).

فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. رواه رزين[1] وغيره[2].

وفي حديث العرباض [ك،٨٧/أ] بن سارية ـ رضي الله عنه ـ الذي رواه الإمام أحمد[3] والترمذي[4] وابن ماجه[5]، قال: وعظَنا رسول الله ـ ﷺ ـ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجِلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله، كأنّ هذه موعظة مودّع فأوصنا. فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبدًا حبشيًا؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين، تمسكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[6].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يكون [ر،١٧٩/ب] في آخر الزمان دجّالون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإيّاكم وإيّاهم، لا يُضِلّونكم ولا يفتنونكم»[7].

---

(١) هو رَزين بن معاوية بنِ عمار، أبو الحسن العبدري الأندلسي، صاحب كتاب «تجريد الصحاح» الذي اعتمد عليه ابن الأثير في تصنيف جامع الأصول، توفي بمكة سنة ٥٣٥هـ. انظر السير: ٢٠/ ٢٠٤.

(٢) رواه بنحوه أبو نعيم في الحلية: ١/ ٣٠٥.

(٣) المسند: ٤/ ١٢٦، ورواه أبو داود: ٤/ ٢٠٠، (٤٦٠٧).

(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٤٤، (٢٦٧٦).

(٥) سنن ابن ماجه: ١/ ١٥، (٤٢).

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه: ١/ ١٧٩، (٥) والحاكم في المستدرك: ١/ ١٧٤، (٣٢٩). وصححه الألباني كما في الإرواء برقم (٢٤٥٥).

(٧) رواه مسلم في مقدمة صحيحه: ١/ ٢٦، (٧).

وعند أبي نُعيم من طريق سفيان بن عيينة قال: سمعت عاصمًا[1] الأحولَ يحدّث عن أبي العالية، قال: عليكم بالأمر الأوّل الذي كانوا عليه قبل أن يتفرّقوا. قال عاصم: فحدّثت به الحسن فقال: قد نصحك والله وصدقك[2].

وروى ابن الجوزي بسنده إلى أبي إسحاق الفزاري قال: قال الأوزاعي: اصبر نفسك على السنّة، وقف حيث وقف القوم، وقل ما قالوا، وكفّ عمّا كفُّوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم[3].

وقال ابن شوذب: إنّ من نعمة الله على الشابّ إذا نسك أن يؤاخي صاحب سنّة يحمله عليها[4].

وعند البغوي[5] وأبي نعيم في حليته[6]، عن يوسف بن أسباط، أنّه كان يقول: كان أبي قدريًّا، وأخوالي روافض، فأنقذني الله بسفيان الثوري[7].

وعند ابن الجوزي من طريق ابن المبارك، عن سفيان الثوري قال:

---

(١) في الأصول: «عاصم».
(٢) حلية الأولياء: ٢/ ٢١٨، ٦/ ٣٧٦.
(٣) «تلبيس إبليس»: ص ٩.
(٤) رواه اللالكائي: ١/ ٦٠، (٣١).
(٥) أخرجه من طريقه اللالكائي: ١/٦٠، رقم (٣٢).
(٦) لم أجده في الحلية.
(٧) رواه ابن الجعد في مسنده: ١/ ٢٧٢، (١٨٠٣)، واللالكائي: ١/ ٦٠، (٣٢)، وروى نحوه أحمد بن حنبل في العلل: ٢/ ٤٣٤، (٢٩١٥).

استوصوا بأهل السنّة خيرًا؛ فإنّهم غرباء[1].

وقال ابن عدي: حدّثنا أبو عوانة، حدثنا جعفر بن عبدالواحد قال: قال لنا ابن أبي بكر بن عياش: السنّة في الإسلام أعزّ من الإسلام في سائر الأديان[2].

وقال[3]: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو اليمان قال: سمعت سفيان الثوري يقول: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يتاب منها[4].

وقال الحافظ أبو نُعيم: أخبرني جعفر بن الخلدي[5] في كتابه قال: سمعت الجنيد بن محمد يقول: الطرق كلّها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ـ ﷺ ـ واتبع سنّته، والتزم طريقته؛ فإن طرق الخيرات كلّها مفتوحة عليه[6].

ولهذا قال ـ تعالى ـ مخاطبًا لنبيّه ـ ﷺ ـ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢﴾ [هود: ١١٢].

---

(١) بل رواه اللالكائي: ١/ ٦٤، (٤٩) وابن الجوزي ينقل عنه باسم الطبري، وهي نسبة أخرى صحيحة له.

(٢) الكامل: ٤/ ٢٩ وهو عنده وعند الخطيب في الجامع: ٢/ ١٧٢، (١٥١٩) من قول أبي بكر بن عياش، وعند ابن الجوزي في التلبيس: ١٠ كما هنا، سقط أبوبكر بن عياش.

(٣) أي البغوي، كما في «تلبيس إبليس» لابن الجوزي: ١٣، والمؤلف ينقل منه.

(٤) انظر اللالكائي: ١/ ١٣٢، (٢٣٨)، والحلية: ٧/ ٢٦، وشعب الإيمان للبيهقي: ٧/ ٥٩، ومسند ابن الجعد: ١/ ٢٧٢.

(٥) هكذا أضافه إلى نسبته، والذي في حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٢٥٧): أخبرني جعفر بن محمد، وهو جعفر بن محمد بن نصير الخلدي، شيخ الصوفية، ت٣٤٨هـ. انظر سير أعلام النبلاء: ١٥/ ٥٥٨ـ٥٦٠.

(٦) الحلية: ١٠/ ٢٥٧.

وعند ابن الجوزي بسنده عن مخلد بن الحسين أنّه قال: ما ندب الله ـ تعالى ـ العباد إلى شيء إلا اعترض فيه إبليس بأمرين، ما يبالي بأيّهما ظفر: إما غلو [فيه]، وإما تقصير عنه(١).

وبسنده عن الأعمش قال: حدّثنا رجل كان يكلّم الجنّ أنّهم قالوا: ليس علينا أشدُّ ممّن يتّبع السنّة، وأما أصحاب الأهواء فإنا نلعب بهم لعبًا. ذكره في «التلبيس»(٢).

وعند الإمام أحمد(٣) والنسائي(٤) وابن ماجه(٥) بسند صحيح على شرط مسلم، من حديث عوف بن أبي جميلة، عن زياد بن حصين، عن أبي العالية، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ غداةَ العقبة وهو على ناقته: «القُط لي حصى». فلقطت له سبع حصيات من حصى الخذف، فجعل ينفضُهنّ في كفّه ويقول: «أمثالَ هؤلاء فارموا». ثم قال: «أيّها الناس، إيّاكم والغلوَّ في الدين، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين»(٦).

وهذا عام في جميع أنواع الغلوّ: في الاعتقادات، والأعمال، والأقوالِ بأن يُزاد في حمد شيء أو ذمِّه على ما يستحقّه.

وهذا أنموذج مما [ر،١٧٩/أ] يحض على المتابعة، وينهى عن البدع

---

(١) «تلبيس إبليس»: ٣٣. و[فيه] ساقطة، واستدركتها من التلبيس.

(٢) التلبيس: ٣٩.

(٣) المسند: ١/ ٢١٥.

(٤) سنن النسائي: ٥/ ٢٦٨، (٣٠٥٧).

(٥) سنن ابن ماجه: ٢/ ١٠٠٨، (٣٠٢٩).

(٦) ورواه ابن خزيمة: في صحيحه: ٤/ ٢٧٤، (٢٨٦٧) وابن حبان في صحيحه: ٩/ ١٨٣، (٣٨٧١)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٦٣٧، (١٧١١). وهو في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٨٣).

ومتابعة أهلها عليها.

فقد روى حنبل حيث قال: حدّثنا محمد بن داود الجذامي قال: قلت لسفيان بن عيينة: إنّ هذا يتكلّم في القدَر، يعني إبراهيم بن [أبي] يحيى، فقال سفيان: عرّفوا الناس أمره، واسألوا ربّكم العافية[1].

وقد قال عبّاد بن عبّاد، أبو عتبة الخواص الشامي، في رسالته التي رواها الدارمي في مسنده عنه بطولها، بواسطة أبي عبدالرحمن، عبدالملك بن سليمان الأنطاكي عنه، وفيها: ربّ رجل شغل قلبه ببدعة قلّد فيها دينه رجالاً دون أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ، أو اكتفى برأيه فيما لا يرى الهدى إلا فيها، ولا يرى الضلالة إلا بتركها، يزعم أنّه أخذها من القرآن، وهو يدعو إلى فراق القرآن، [أفما][2] كان للقرآن حملةٌ قبلَه وقبل أصحابه، يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وكانوا منه على منار [أوضح][3] الطريق، وكان القرآن إمام رسول الله ـ ﷺ ـ، وهو إمامًا لأصحابه، وأصحابُه أئمّةً لمن بعدهم، رجال معروفون في البلدان، متفقون في الرد على أصحاب الأهواء، مع ما كان بينهم من الاختلاف. [وتسكّعَ][4] أصحاب الأهواء بآرائهم في سبل مختلفة، جائرةٍ عن القصد، مفارِقةٍ للصراط المستقيم، فتوّهت [بهم][5] أدلاؤُهم في مهامِهَ مضلّةٍ، فأمعنوا فيها متعسّفين في تيههم، كلّما أحدث لهم

---

(١) رواه الإمام أحمد في العلل: ٢/ ٢٩٠، (٢٢٩١)، ٣/ ٧٠، (٤٢١٨) والخطيب في تاريخ بغداد: ٥/ ٤١٤ بلفظ: عرّفوا الناس بدعته...، وما بين معقوفتين ساقط من الأصول.

(٢) في الأصل: «فما كان»، والتصويب من سنن الدارمي.

(٣) في الأصل: «كوضح»، والتصويب من سنن الدارمي.

(٤) في الأصل: «تسلّع»، والتصويب من السنن.

(٥) ليست في الأصل، وهي في سنن الدارمي.

الشيطان بدعةً في ضلالتهم انتقلوا منها إلى غيرها؛ لأنّهم لم يطلبوا أثر السابقين[١]، ولم يقتدوا بالأنصار[٢] والمهاجرين[٣].

إلى أن قال: فلا تكتفوا من السنّة بانتحالها بالقول دون العمل بها؛ فإن ذلك مع إضاعة العمل كذب بالقول، ولا [تعيبوا][٤] بالبدع تزيّنًا بعيبها؛ فإن فساد أهل البدع ليس بزايد في صلاحكم، ولا تعيبوها بغيًا على أهلها؛ فإن البغي من فساد أنفسكم.

إلى أن قال: فليكن أمركم فيما تنكرون على إخوانكم نظرًا منكم لأنفسكم، ونصيحةً منكم لربكم، وشفقةً منكم على إخوانكم[٥].

وهي رسالة نافعة، ذكرنا منها ما يناسب للمقام تلخيصًا.

وبهذا تعرف فضيلة الشيخ مصنّف هذا الكتاب؛ لإزالته بدعوته البدع المضلّة شرقًا وغربًا، رزقنا الله وإخواننا المسلمين الاقتداء بالكتاب والسنّة، وجنّبنا الابتداع بكرمه ومنِّه.

قال الشيخ: (روى) الإمام (مالك) الأصبحي، إمام دار الهجرة ـ رضي الله عنه ـ، (في الموطأ)، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار مرسلاً: (أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «اللهم [ك،٨٨/ب] لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»)[٦].

---

(١) في السنن: السالفين.

(٢) «الأنصار» ليست في السنن.

(٣) سنن الدارمي: ١/ ١٦٠.

(٤) في الأصل: «ولا تعتنوا»، والتصويب من السنن.

(٥) سنن الدارمي: ١/ ١٦٢.

(٦) الموطأ: ١/ ١٧٢، (٤١٤)، وروى نحوه ابن أبي شيبة في المصنف: ٢/ ١٥٠، =

قال ابن عبدالبر: لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث، وهو حديث غريب لا يكاد يوجد[(١)].

قال: وزعم البزّار أنّ مالكًا لم يتابعه أحد على هذا الحديث، إلا عمر بن محمد عن زيد بن أسلم. قال[(٢)]: وليس بمحفوظ عن النبي ـ ﷺ ـ من وجه من الوجوه إلا من هذا الوجه، لا إسناد له غيره، إلا أنّ عمر بن محمد أسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ـ ﷺ ـ، وعمر ابن محمد ثقة، روى عنه الثوري وجماعة.

قال: [ر، ١٨/ب] وأما قوله: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، فإنه محفوظ من طرق كثيرة صحاح. وهذا كلام البزّار[(٣)].

قال ابن عبدالبر: مالك عند جميعهم حجّة فيما نقل، وقد أسند حديثه هذا عمر بن محمد، وهو من ثقات أشراف أهل المدينة، روى عنه مالك بن أنس، والثوري، وسليمان بن بلال، وهو عمر بن محمد ابن عبدالله بن عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنهم ـ[(٤)].

= ٣/ ٣٠، وعبدالرزاق في المصنف: ١/ ٤٠٦، (١٥٨٧)، كلاهما عن زيد بن أسلم مرسلاً، ورواه أبو يعلى في مسنده: ١٢/ ٣٣، (٦٦٨١) عن أبي هريرة مرفوعًا. وكذا أبو نعيم في الحلية: ٧/ ٣١٧، بلفظ النهي: «لا تجعلوا قبري وثنًا..» وبلفظ الموطأ رواه الحميدي في مسنده: ٢/ ٤٤٥، (١٠٢٥) عن أبي هريرة مرفوعًا بزيادة: «..لعن الله قومًا اتخذوا ـ أو جعلوا ـ قبور أنبيائهم مساجد».

(١) التمهيد: ٥/ ٤١.

(٢) أي البزّار.

(٣) نقله في التمهيد: ٥/ ٤٢.

(٤) التمهيد: ٥/ ٤٢.

فهذا الحديث صحيح عند من قال بمراسيل الثقات، وعند من قال بالمسند؛ لإسناد عمر بن محمد له، وهو ممّن تقبل زيادته[1].

ثم أسنده من كتاب البزار من طريق عمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا بلفظ الموطأ سواء، ومن كتاب العقيلي من طريق سفيان، عن الأعرج، عن حمزة بن المغيرة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[2].

(ولابن جرير)[3] الإمام الحافظ صاحب التفسير، محمد الطبري (بسنده عن سفيان) الثوري ـ وهو سفيان بن سعيد، فقيه وقته وحافظه، بل وعابده وزاهده، وسيأتي فضله في الباب السابع والثلاثين ـ (عن منصور) بن المعتمر بن عبدالله السلمي الثقة الثبت، كان لا يدلّس، وهو من طبقة الأعمش، وكان كثير التحديث عن مجاهد، وكذا الثوري عنه.

قال ابن الجوزي في تذكرته[4]: وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة، وقام ليلها، وكان يبكي طول الليل، فتقول له أمّه: يا بنيّ، قتلت قتيلاً. فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسي. ذكره في قصّة إدريس ـ عليه السلام ـ.

---

(١) الموضع السابق.

(٢) التمهيد: ٥/ ٤٣، وانظر «كشف الأستار»: ١/ ٢٢٠.

(٣) تفسير الطبري: ٢٧: ٥٩.

(٤) صفة الصفوة: ٣/ ١١٤و والخبر في الحلية: ٥/ ٤١.

وقال عبدالرحمن بن مهدي: لم يكن بالكوفة أحفظ من منصور بن المعتمر[1].

وكان هو والثوريُّ من أهل الكوفة.

ونقل عماد الدين ابنُ كثير عن وكيع بن الجراح أنّه قال لأصحابه: أيّما أحبّ إليكم: الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود، أو سفيان الثوري عن منصور بن المعتمر عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود؟. فقالوا: الأوّل. فقال وكيع: «الأعمش عن أبي وائل» شيخ عن شيخ، و«سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم» فقيه عن فقيه، حديث تداوله الفقهاء أحب إلينا مما يتداوله الشيوخ[2].

(عن مجاهد) بن جَبْر ـ بفتح الجيم وسكون الموحّدة، أبو الحجّاج المخزومي مولاهم، المكي، الثقة، كان إمامًا في التفسير وفي العلم ـ (في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ﴾) بتشديد اللام، (﴿وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [النجم: ١٩]) وهي شجرة بوادي نخلة، وقد تقدم الكلام في ذلك[3].

(قال) مجاهد: (كان) اللاتُ رجلاً (يُلتّ السويق) بالزيت (لهم)، [ر، ١٨٠/أ] أي لعابدي آلهتهم.

قال السدّي: كان رجلاً يقوم عل آلهتهم، ويلتّ السويق لهم، فمات فعكفوا على قبره[4].

---

(١) انظر «تذكرة الحفاظ» للذهبي: ١/ ١٤٢.

(٢) رواه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل»: ٢٣٨.

(٣) راجع ص ٥٤٧ وما بعدها.

(٤) لم أجد هذا مرويًا إلا عن ابن عباس ومجاهد وأبي صالح كما في تفسير الطبري: =

والعكوف: الإقامة على الشيء والمكان، قال الشاعر:

تراهم حول [قيلهم][(1)] عكوفًا كما عكفت هذيلُ على سُواعِ
تظل جنابه صرعى لديه عتائرُ من ذخائرِ كلّ راعي[(2)]

(وكذلك قال أبو الجوزاء) ـ بالجيم والزاي، وكان يرسل كثيرًا، وإذا وصل فحسبك به، واسمه أوس بن عبدالله الربَعي، بفتح الموحّدة، بصري تابعي ثقة.

قال البخاري في صحيحه: حدّثنا مسلم، حدّثنا أبو الأشهب، حدّثنا أبو الجوزاء، (عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان ـ يعني اللات ـ يلت السويق للحاج)[(3)].

وقيل اشتقوا لها تلك الأسماء من أسماء الله ـ تعالى ـ، فاللات من «الإله»، والعزى من «العزيز»، ومناة من «المنّان»[(4)]، وسيأتي تقرير ذلك في باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠]، إن شاء الله ـ تعالى ـ، ومضى بعض ذلك في الباب الثامن.

(وعن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لعن رسول الله ـ ﷺ ـ زائرات القبور).

= ٢٧/ ٥٨.

(١) في الأصل: «حول قبلتهم»، ولا معنى له، والتصويب من معجم البلدان، والقَيْل: الملك.

(٢) البيتان في معجم البلدان: ٣/ ٢٧٦.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٨٤١، التفسير، سورة النجم، (٤٥٧٨).

(٤) رواه الطبري عن مجاهد: ٩/ ١٣٣.

اللعن من الله: الإبعاد والطرد، ومن الخلق: السب والشتم والدعاء، قيل: هذا قبل رخصة النهي عن زيارة القبور،ثم دخلن في الإذن حين نسخ النهي بالأحاديث الصحيحة، منها قوله: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإنها تذكرُكم الآخرة».

ويعضد هذا حديث أم عطيّة ـ رضي الله عنها ـ قالت: نُهينا عن اتباع الجنائز، ولم يُعزم علينا[1].

ولكن ليس فيهنّ بصريح في زيارتهنّ للقبور.

وقيل: بقيْنَ على النهي لقلّة صبرهنّ، وكثرة جزعهنّ، فهنّ بذلك باقيات تحت النهي.

وهذا هو الصحيح إن شاء الله ـ تعالى ـ؛ لما ذكرناه، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد[2]؛ فإن تخصيص اللعن بهنّ يؤيّد ذلك.

وأطلق مجد الدين ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ التحريم، إذا علمت المرأة أنّها يقع منها محرّم كالنّوح[3].

وأمّا الجموع للزيارة كما هو معتاد فبدعة.

قال أبو الوفاء ابن عقيل: أبرأ إلى الله ـ تعالى ـ منه[4].

---

(١) رواه البخاري: ١/ ٤٢٩، الجنائز، باب اتباع النساء الجنائز، (١٢١٩)، ومسلم: ٢/ ٥٣٨، الجنائز، باب (١١)، حديث (٩٣٨).

(٢) الذي في الإنصاف (٢/ ٥٦١) أن المذهب كراهة الزيارة لهن، وفيه روايات بالمنع والإباحة، انظر الفروع: ٢/ ٢٣٣.

(٣) ذكره عنه صاحب الفروع: ٢/ ٢٣٣.

(٤) انظر «الفروع»: ٢/ ٢٣٣.

قال مجد الدين وحفيده وغيرهما[1]: ويجوز زيارة قبر مشرك، والوقوف عليه للاعتبار؛ لزيارته ـ ﷺ ـ قبر أمّه، كما في صحيح مسلم وغيره[2]، وكان ذلك بعد الفتح، وبعد نزول قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] بسبب عبدالله بن أُبَيّ، في آخر التاسعة، وهو عند أكثر المفسرين للدعاء والاستغفار، وهذا للاعتبار.

ثم قال: (والمتّخذين [ر،١٨١/ب] عليها المساجد والسرج. رواه أهل السنن) الأربعة[3]، والإمام أحمد في مسنده[4].

وهو عند الإمام أحمد أيضًا بسند حسن من حديث أبي هريرة[5].

ورواه عنه أيضًا الترمذي، وقال: «حسن صحيح»[6]، إلا أن في إسناده عمر بن أبي سلمة، وقد ضعّفه غير واحد، منهم شعبة وابن معين[7]، وذكره ابن حبان في الثقات[8].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى: ٢٧/ ١٦٥، والفروع: ٢/ ٢٣٣.

(٢) صحيح مسلم: ٢/ ٥٥٩، (٩٧٦).

(٣) سنن أبي داود: ٣/ ٢١٨، (٣٢٣٦)، وسنن الترمذي: ٢/ ١٣٦، (٣٢٠)، وسنن النسائي: ٤/ ٩٤، (٢٠٤٣)، ورواه ابن ماجه: ١/ ٥٠٢، (١٥٧٤)، دون قوله: «والمتخذين عليها المساجد والسرج».

(٤) المسند: ١/ ٢٢٩. وقد ضعف الألباني هذا الحديث بهذا السياق والتمام كما في السلسلة الضعيفة: ١/ ٢٥٨ـ ٢٦٠، رقم (٢٢٥).

(٥) المسند: ٢/ ٣٣٧، وليس فيه: «والمتخذين عليها. .».

(٦) سنن الترمذي: ٣/ ٣٧١، (١٠٥٦).

(٧) انظر تهذيب الكمال: ٢١/ ٣٧٦، ٣٧٧.

(٨) الثقات: ٧/ ١٦٤.

وممّن ضعّف حديث أبي هريرة: عبدالحق[1]، وحسّنه ابن القطّان[2].

ورواه أيضًا الإمام أحمد[3] وابن ماجه[4] بسند صحيح، والحاكم في مستدركه[5]، عن حسان بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، ولفظه: «لعن الله زوّارات القبور».

إلا أنّ أصحّها إسنادًا وأتمّها لفظًا حديث ابن عباس الذي أورد المصنّف.

ولا فرق في اتخاذ المساجد على القبور بأن يجعلها قبلة يسجد إليها في الصلاة كالوثن، أو تكونَ القبور في ناحية منها؛ فإن جميع ذلك داخل في الملعون عليه؛ فإنه ـ ﷺ ـ لم يفرّق في الحديث في ذلك، ولا آمنُ على من فرّق أن يدخل تحت قوله: «لعن الله من أحدث حدثًا، أو آوى مُحدثًا»[6].

قال أبو الوفاء ابن عقيل ـ رحمه الله تعالى ـ: لا يجوز تخليق القبور بالخلوق، والتزويق والتقبيل لها، والطواف بها، والتوسل بهم[7].

قال: ولا يكفيهم ذلك حتى يقولوا: «بالسرّ الذي بينك وبين الله»!، وأي شيء من الله يسمى سِرًّا بينه وبين خلقه؟!.

---

(١) «الأحكام الوسطى»: ٢/ ١٥١، تحقيق حمدي السلفي وصبحي السامرائي، مكتبة الرشد، ط ١، ١٤١٦هـ.

(٢) «بيان الوهم والإيهام»: ٥/ ٥١٢، (٢٧٥٣).

(٣) المسند: ٣/ ٤٤٢.

(٤) سنن ابن ماجه: ١/ ٥٠٢، (١٥٧٤).

(٥) المستدرك: ١/ ٥٣٠، (١٣٨٥)، وذكر الحاكم أن أحاديث لعن زائرات القبور منسوخة بأحاديث الأمر بزيارتها.

(٦) رواه البخاري: ٢/ ٦٦١، فضائل المدينة، باب حرم المدينة، (١٧٧١) ومسلم: ٢/ ٨١٠، (١٣٦٦).

(٧) قاله في «الفنون» كما ذكره عنه صاحب الفروع: ٢/ ٢١٤.

قال: ويُكره إشعال النيران، والتبخير بالعود، والأبنية الشاهقة الباب، سمّوا ذلك مشهدًا أولاً.

قال: ولا يكفيهم ذلك حتى استشفوا بالتربة من الأسقام، وكتبوا إلى التربة الرقاع، ودسّوها في الأثقاب، فهذا يقول: جِمالى قد جربت، وهذا يقول: أرضي قد أجدبت، كأنهم يخاطبون حيًّا، ويدعون إلهًا[1].

فالحاصل أنّ من حمل ما ورد من النهي في اتخاذ المساجد على القبور على إضاعة المال ونجاسة الموضع فقط، فقد أبعد النجعة، وقال ما لا علم له به؛ فإنّه بذلك قد أبعد المرمى، وانصرف عن الصواب بطرْف أعمى، ولا آمنُ عليه أن يدخل في وعيد من حرّف الكلم عن مواضعه؛ فإن إضاعة المال وردت مقرونة بالنهي عن القيل والقال، كما في الحديث الصحيح[2]، ولم يرد النهي عنها بصيغة اللعن البتة، وإنْ كان هذا فيه إضاعةٌ للمال، فليس هو بالمقصود باللعن، وكيف وقد أتبع زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج، فخصّهم من بين الزائرين من الرجال، على القول الصحيح بمنع النساء من الزيارات للقبور، بأنّهم ملعونون على فعلهم هذا، وليسوا بداخلين في أهل الزيارة الشرعية، المحضوضين[3] عليها؛ فإن أولئك [ر،١٨١/أ] اقتصروا على ما شُرع لهم، بأن يزوروها ليتّعظوا ويتذكّروا الآخرة، ويدعوا لأهل القبور بالرحمة والمغفرة، فيرجعوا بالخير، والمتخذون عليها المساجد والسرُج يرجعون منها باللعنة من النبي المختار، وغضب الجبار ـ جل وعلا ـ.

---

(١) انظر «الفروع»: ٢/ ٢١٤.

(٢) رواه البخاري: ٢/ ٥٣٧، (١٤٠٧)، ومسلم: ٣/ ١٠٨٠، (١٧١٥).

(٣) أي المندوبين إلى فعلها.

وأما نجاسة الموضع، فمن المعلوم عدم صحّة الصلاة فيها، في مقبرة أو غيرها، فلو كانت هي العلّة لم يصحّ الصلاة على الميّت في المقبرة.

وأصرح من هذا ما في صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوي ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلّوا إليها»[1]، فهذا نهي صريح، يبطل التأويل المشار إليه أولاً.

قلت: ولا يدخل التنوير على دفن الميّت ليلاً في اتخاذ السرُج؛ لأنه لا يُسمّى اتخاذًا، وأيضًا صح عنه ـ ﷺ ـ فِعْلُه للحاجة[2].

فاحذر أيّها الإنسان من كلمة اعتراض، أو إضمار لردّ سُنّة، أو إثبات بدعة، فربّما أخرجتك تلك الكلمة من دائرة الإسلام، وقِفْ على جادة السلف الأوّل؛ فإنما الأعمال بالنيّة، والجزاء على قدر الإخلاص، وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية [النور: ٦٣].

نسأل الله ـ تعالى ـ توفيقًا يلهم الرشاد، ويمنع الفساد، وعفوًا منه إن لم يقع الرضى[3]، ونعوذ به من خِذلان لا ينفع مع[4] اجتهاد، إنّه كريم جواد، لطيف بالعباد.

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٥٥٦، الجنائز، باب (٣٣)، حديث (٩٧٢).

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أدخل رجلاً قبره ليلاً، وأسرج في قبره. سنن ابن ماجه: ١/ ٤٨٧، (١٥٢٠)، وصححه الألباني كما في أحكام الجنائز: ١٤١.

(٣) لا ينبغي الدعاء على هذا النحو؛ لقول النبي ﷺ: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه». رواه بهذا اللفظ مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.(٤/ ١٦٣٨)، برقم (٢٦٧٩).

(٤) كذا، والذي يظهر أن صوابها: معه.

الباب الحادي والعشرون

(باب ما جاء في حماية المصطفى - ﷺ - جناب التوحيد)

المصطفى هو المصفّى من الشيء، وهو خياره وخلاصته وما صفَى منه، فسُمِّي - ﷺ - بالمصطفى لأنّه اصطُفيَ من خلاصة بني آدم، وهم العرب، ثم من بني إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن - عليهم الصلاة والسلام -، قال جرير بن الخطفى:

هشام الملك والحَكَمُ المصفّى يطيب إذا نزلتَ به الصعيدُ(١)

وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع - رضي الله عنه - مرفوعًا: «إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(٢).

وعند الترمذي عنه - ﷺ -: «إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة»(٣).

والجناب في هذا المقام جمع جانب(٤)، وهو مشتق [ك،٨٩/ب] في اللغة من البعد والغربة، ومن جوانب الشيء؛ لأنّها أبعدُه. قال الأعشى يذكر الحارث بن وعلة:

---

(١) ديوانه: ١/ ٢٩٠.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٤٢٣، الفضائل، باب (١)، حديث (٢٢٧٦).

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٥٨٣، المناقب، باب في فضل النبي - ﷺ -، (٣٦٠٥). وقد ضعف هذه الرواية الألباني في ضعيف الجامع: ٢٢٣، (١٥٥٣).

(٤) هكذا قال، والذي في لسان العرب (٢/ ٢٧٥): الجنب والجنبة والجانب: شق الإنسان وغيره، والجمع: جنوب وجوانب وجنائب، وفي (٢/ ٢٧٩): اتجناب الفتح، والجانب: الناحية والفناء وما ضرب من محلّه القوم، والجمع: أجنبة.

أتيتُ حُريثًا زائرًا عن جنابةٍ فكان حُريثٌ عن عطائي جَامدًا[1]

[ر،١٨٢/ب] يقول: أتيته عن غربة وبُعد فحرمني، ومنه قول علقمة الفحل التميمي للحارث بن جبلة الغساني:

فلا تحرمنّي نائلاً عن جنابةٍ فإني امرؤٌ وسط القباب غريبُ[2]

فجنابٌ: جمع جانب، وأجْنابٌ جمع جنب، قالت الخنساء ـ رضي الله عنها ـ تبكي أخاها صخرًا في الجاهلية:

ابكي أخاكِ لأيتامٍ وأرملةٍ وابكي أخاكِ إذا جاورتِ أجنابا[3]

وجناب الدار فِناؤها ـ بكسر الفاء ـ، وهو ما حولها من جميع جوانبها، كما قال الشاعر ـ وقد ذكرناه في الباب الذي قبل هذا ـ:

تظل جنابه صرعى لديه[4]

والمعنى أنّه ـ ﷺ ـ حمى التوحيد من جميع جوانبه ونواحيه، وضمّ على أوساطه ما اتسع من أطرافه وحواشيه، كما يحمي الملك حماه لئلا يُستباح أو يُكدّر على رعيّته، فكذلك حماؤه ـ ﷺ ـ لجناب التوحيد، وسدُّه كلَّ طريق من جوانبه يوصل سالكَ ذلك الطريق إلى الشرك، وهذا من باب سدّ الذرائع، وهو ما ظاهره مباح ويُتوصّلُ به إلى محرّم، وهي قاعدة عند الأصوليّين، منع من قِربانها[5] الإمام أحمد، وإمامُ دار

---

(١) «الصبح المنير في شعر أبي بصير»: ٤٩.
(٢) ديوانه: ص ٤٨.
(٣) ديوانها: ص ٢٢، دار الكتب.
(٤) وتتمته: عتائر من ذخائرِ كل راعي.
(٥) أي الذرائع.

الهجرة مالكُ ابن أنس، وجمهور العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ[1]، وقالوا: كل ما هو طريق إلى المحرّم وإن كان ظاهره مباحًا فهو محظور، وكل ما كان وسيلة إلى محرّم فله حكمه.

ثم اعلم أن شرعنا مضبوط الأصول، محروس القواعد، لا خلل فيه ولا دخَل، وكذلك كل الشرائع، وإنّما الآفة تدخل من المبتدعين، أو الجهّال في الدين.

وقد قارب الشيطان الضلال في أمتنا من أجل هذه المسالك، وإن كان عمومهم قد حُفظ من الشرك والشك والخلاف الظاهر؛ لأنهم أعقل الأمم وأفهمُهم، غير أن الشيطان قارب بهم، ولم يطمع في إغراقهم كلّهم، وإن كان قد أغرق بعضهم بحال الضلالة.

فمن ذلك أن الرسول ـ ﷺ ـ جاء بكتاب عزيز من الله ـ عز وجل ـ، وقيل في صفته: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وبيّن ما عساه يشكل مما يُحتاج إلى بيانه بسُنّته، كما قيل له: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فقال ـ ﷺ ـ بعد البيان: «تركتكم عليها بيضاء نقيّة»[2]، فجاء أقوام فلم يقنعوا بتبيينه، ولم يرضوا بطريقة أصحابه وسبيله، فتعرّضوا لِما تعب[3] الشرع في إثباته في القلوب، فمحَوْه

(١) وخالف في اعتبارها أبو حنيفة والشافعي. انظر «البحر المحيط» للزركشي: ٦/ ٨٢ وما بعدها، و«المدخل» لابن بدران: ٢٩٦.

(٢) رواه أحمد: ٣/ ٣٨٧، وابن أبي شيبة: ٥/ ٣١٢، والبيهقي في الشعب: ١/ ٢٠٠، (١٧٦)، وابن أبي عاصم في السنة: ٢٧، (٥٠) عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وحسنه الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم.

(٣) كذا، ولعل الأنسب أن يقال: بالغ الشرع. . ، أو حرص الشرع. . أو نحوها.

منها، وأدخلوا بدله البدع، حتى آل بهم ذلك إلى الخروج بالغلوّ، أو إلى الدخول في الشرك، أو قُرُب[1].

فإيّاك ثم إيّاك من ذلك، وكن متوقيًا لجميع تلك المهالك، ولا يهولنّك ذكر معظّم في النفوس؛ فإنّ ذكرَ كتاب الله ورسوله أعظم منه.

والمقصود شرحُ أنّ ديننا [ر،١٨٢/أ] سليم، وإنّما أدخل أقوام فيه ما تأذّينا به، ممّا حمى رسول الله ـ ﷺ ـ صالحي أمّته عنه بتحذيره.

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]).

يقول ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي من نسبكم، تعرفون نسبه، وأتاكم بكتاب ربكم على لغتكم، وفي ذلك نعم من الله عليكم؛ لأن ذلك شرف لكم، وسبب لفلاحكم في الدنيا والآخرة؛ لأن الإنسان بنسيبه آنس، وإليه أميل، ولو كان أعجميًّا لكنتم عنه أنفر، وعن القبول منه أبعد، وأيضًا فلا عذر لكم؛ لأنكم تعرفونه بوفور العقل، وصدق اللهجة، والأمانةِ عندكم قبل أن يدعوكم إلى ما دعاكم إليه، فما كان ـ ﷺ ـ ليدع الكذب عليكم ويكذب على الله ـ سبحانه ـ، هذا لا يجيء به العقل.

ولأنّه كان منكم، فلا يُتّهمُ عليكم، وقد أتاكم بما فيه شرفكم، قال ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ١٠]،

---

(١) أي أن كلا السبيلين ابتداع، سبيل الغالين الخوارج المفْرطين في التكفير، وسبيل القبوريين المفرّطين في التوحيد.

وقرأ ابن محيصن: (من أنفَسكم)[1]، بفتح الفاء، أي من أشرفكم وأفضلكم وأعلاكم نسبًا.

وروى ابن مردويه من طريق بهز بن حكيم، عن الحسن، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قرأ رسول الله - ﷺ -: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، فقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: يا رسول الله، ما معنى من أنفسكم؟. قال: «أنفَسكم نسبًا وطُهْرًا وحسبًا، ليس فيّ ولا في آبائي من لدن آدم سِفاح، وكلّها نكاح والحمد لله»[2].

وقد رُوي من غير هذا الوجه.

ثم قال - عز وجل -: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي شديد عليه عنتكم، والمعنى: شديد عليه دخول المشقة والمضرّة عليكم، ولذلك حمى - ﷺ - حِمى التوحيد من جميع جوانبه ونواحيه، لئلا يدخل على أمّته ما يضرّهم في دينهم، وكذا دنياهم، فأرشدهم - ﷺ - وحذّرهم في ذلك.

وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، أي على إيمانكم وصلاحكم، ولهذا قال مخاطبًا له: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]، والمعنى: لعلك مهلكٌ نفسَك على آثارهم في طلب إيمانهم؛ خيفةَ ألا يؤمنوا.

وأصل «البَخْع» [ك،٨٩/أ] أن يبلغ بالذبح النّخاع[3]، وذلك أقصى حد الذبح، وهو أيضًا «النخع»، وقد استشهدنا على ذلك المعنى بقول

---

(١) وهكذا قرأها ابن عباس والزهري كما ذكر البغوي في تفسيره: ٢/ ٣٤١.

(٢) انظر الدر المنثور: ٤/ ٣٢٧. ط دار الفكر ١٩٩٣م.

(٣) انظر المقاييس: ١/ ٢٠٦، ٢٠٧.

غيلان ذي الرُّمّة:

ألا أيُّهذا الباخعُ الوجدُ نفسَه لشيءٍ نحتْه عن يديهِ المقادرُ[1]

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقولُه: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾، كقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾ الآية [الشعراء: ٢١٥]، فهو يتبع أمر ربّه، وقد أخبر الله عن [ر، ١٨٣/ب] نفسه ـ تبارك وتعالى ـ فقال: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وهذه الآية كقوله: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: ١٥١]؛ إذ كانوا قبلُ في الجاهلية الجهلاء، فانتقلوا ببركة رسالته ويُمْن سِفارته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرَّهم قلوبًا، وأقلّهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة، ولهذا قال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢]، فندب الله ـ تعالى ـ المؤمنين به إلى الاعتراف بهذه النعمة، ومقابلتها بذكره وشكره، ونبّههم على أنّها منّةٌ منه ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]، وعرّفهم في الآية الأخرى ما هم عليه قبل ذلك من الضلال؛ ليشكروا نعمته ومنّته عليهم ببعثة هذا الرسول إليهم، بقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ

(١) ديوانه: ٢/ ١٠٣٧، مع شرح أبي نصر الباهلي.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

ولهذا ذمّ - سبحانه - من لم يعرف قدر هذه النعمة بقوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٣٠﴾ [إبراهيم: ٢٨- ٣٠].

ولذلك قال - جل ثناؤه -: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾[1] [إبراهيم: ٧].

(عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»).

المعنى: لا تعطّلوها عن الصلاة فيها، والدعاءِ والقرآن، فتكونَ بمنزلة القبور، وأنتم بمنزلة الموتى.

فأمر - ﷺ - بتحري العبادة[2] في البيوت، ونهى عن تحرّيها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبّه بهم من هذه الأمّة.

وفي الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنه - أنّ النبي - ﷺ - قال: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا»[3].

---

(١) في الطرة عند هذا الموضع كتب: [بلغ مقابلة على أصله فصح].

(٢) في [ر]: الصلاة.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ١٦٦، الصلاة، باب كراهية الصلاة في المقابر، (٤٢٢)، وصحيح مسلم: ١/ ٤٥٢، صلاة المسافر..، باب (٢٩)، حديث (٧٧٧).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ [أن رسول الله ـ ﷺ ـ][1] قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإن الشيطان يفر من البيت الذي يَسمع سورة البقرة تُقرأ فيه»[2].

والمقصود من ذلك أنّ الشيطان بلطف كيده يحَسِّنُ الصلاة والدعاء عند القبر، وأنّ ذلك أرجحُ منه في بيته ومسجده، فإذا أدرك ذلك من الإنسان دعاه إلى الدعاء به، والإقسام به على الله ـ تعالى ـ، وهذا أعظم من الأول، فإذا أدرك ذلك منه دعاه إلى دعاء الميّت نفسه من دون الله ـ تعالى ـ، حتى يتخذَ قبره معتكفًا، ويصنعَ عليه المسجد والستور، ويوقدَ عليه القناديل، ويعبدَه بالسجود له، والطواف والتقبيل والاستلام، والحج إليه، والذبح، ثم يدعوه ذلك إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيدًا، ثم يدعوه إلى الإنكار على من أنكر شيئًا من هذه المفاسد العظائم، والحكم على من أنكرها بالضلال البعيد، [ر،١٨٣/أ] حتى يكون أضل خلق الله ـ تعالى ـ عنده، فيكون ممّن قال الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨، ٩].

(ولا تجعلوا قبري عيدًا).

«العيد» من عاد يعود، إذا تكرر لأوقاته، هذا معناه في اللغة.

ووجه الدلالة من الحديث أنك إذا علمت أن قبر النبي ـ ﷺ ـ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيدًا، فقبر غيره

---

(١) ليست في الأصل، وهي في صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٤٥٢، صلاة المسافرين، باب (٢٩)، حديث (٧٨٠).

أولى بالنهي، كائنًا من كان.

وقد صان الله قبر رسوله - ﷺ - عمّا يَحذر، وأجاب دعاءه في قوله في حديث عطاء المرسل: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»(١).

ثم إنه - ﷺ - أعقب النهي عن اتخاذه عيدًا بقوله: (وصلوا علي)، فالمطلوب منّا في حقّه بعد اتّباعه وتوقيرِه وتعزيره: الصلاةُ عليه، ومضمونها الدعاءُ بتشريف الله - تعالى - وتكريمه له - ﷺ -، وقد مر الاستشهاد على ذلك ببيت الأعشى البكري(٢)، ولهذا خاطبَنا الله بالأمر بذلك فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وعند الجماعة إلا مسلمًا، عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من قال حين يسمع النداء: «اللهم ربّ هذه الدعوة التامّة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته»، حلّت له الشفاعة يوم القيامة»(٣).

وعند البخاري: «حلّت له شفاعتي يوم القيامة».

وفيه عنه - ﷺ - أنّه قال: «من صلى علي مرّة صلى الله عليه بها عشرًا»(٤).

---

(١) رواه مالك: ١/ ١٧٢، (٤١٤)، وقد تقدم تصحيح ابن عبدالبر له ص ١٧٩/ ب.

(٢) راجع ص ٨٣، ٥٧٠.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٢٢٢، الأذان، باب الدعاء عند النداء، (٥٨٩)، وسنن الترمذي: ١/ ٤١٣، (٢١١)، وسنن أبي داود: ١/ ١٤٦، (٥٢٩)، والنسائي: ٢/ ٢٦، (٦٨٠)، وابن ماجه: ١/ ٢٣٩، (٧٢٢) والمسند: ٣/ ٣٥٤.

(٤) لم أجده في صحيح البخاري، وقد رواه مسلم: ١/ ٢٤١، ٢٤٢، الصلاة، باب (٧)، حديث (٣٨٤).

وفي الترمذي وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «سلوا الله لي الوسيلة»، قالوا: يا رسول الله، وما الوسيلة؟. قال: أعلى درجة في الجنّة، لا ينالُها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»[1].

ثم قال: (فإنّ صلاتكم تبلغني حيثما كنتم).

وفي خطّ الشيخ: (حيث كنتم)، والصحيح من الرواية إثبات الميم.

وفي الحديث الآخر: «فإنّ تسليمكم يبلغني أينما كنتم»[2]، يشير بُذلك ـ ﷺ ـ إلى أنّ ما ينالني من الصلاة والتسليم يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم منه، فلا حاجة [ك،٩٠/ب] بكم إلى اتخاذه عيدًا لذلك.

والأحاديث بأن صلاتنا وسلامنا يعرضان عليه، وكذا أعمالنا كثيرة جدًا، فعند أبي داود من حديث أبي صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبدالله بن قسيط، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة؛ فإن صلاتكم معروضة عليّ»، قالوا: يا رسول الله، كيف تُعرض عليك وقد أرمت؟. قال: «إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء»[3].

---

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٥٨٦، (٣٦١٢)، وهو في صحيح الجامع للألباني: ١/ ٦٧٩، (٣٦٣٦).

(٢) رواه أبو يعلى: ١/ ٣٦١، (٤٦٩)، قال في المجمع (٤/ ٣): فيه جعفر بن إبراهيم الجعفري، ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا، وبقية رجاله ثقات. ا. هـ. وقد ضعف محقق مسند أبي يعلى إسناده لانقطاعه.

(٣) إنما رواه أبو داود عن أوس بن أوس مرفوعًا بلفظ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علي من الصلاة فيه..» إلخ. سنن أبي داود: ٢/ ٨٨، (١٥٣١). وهو في السلسلة الصحيحة: ٤/ ٣٢، برقم (١٥٢٧).

ورواه أيضًا عنه البيهقي في شعب الإيمان[1]، وأبو يعلى عن أنس، وسعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري وخالد بن معدان مرسلًا[2].

وروى ابن ماجه معناه بإسناد رجاله كلّهم ثقات، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ[3].

ورواه الطبراني عن أبي هريرة[4].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا حسين بن علي الجعفي، عن عبدالرحمن ابن يزيد بن جعفر، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن [ر،١٨٤/ب] أوس بن أوس الثقفي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من أفضل أيّامكم يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة عليّ»، قالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ـ يعني بلِيت ـ، قال: «إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[5].

ورواه من هذا الوجه أبو داود[6] والنسائي[7]، وصحّحه ابن

---

(١) شعب الإيمان: ٣/ ١٠٩، (٣٠٢٩).

(٢) انظر المطالب: ٣/ ٢٢٤، رقم (٣٣٢٢).

(٣) بل عن شداد بن أوس: ١/ ٣٤٥، (١٠٨٥)، وأوس بن أوس: ١/ ٥٢٤، (١٦٣٦).

(٤) بل عن أوس بن أوس، المعجم الكبير: ١/ ٢١٦.

(٥) المسند: ٤/ ٨. وقال محققوه: إسناده صحيح. (٢٦/ ٨٤).

(٦) سنن أبي داود: ٢/ ٨٨، (١٥٣).

(٧) سنن النسائي: ٣/ ٩١، (١٣٧٤).

خزيمة[1] والدارقطني[2].

ورواه أيضًا ابن ماجه[3]، وابن حبّان في صحيحه[4]، والحاكم وصحّحه[5] في صحيحه بمعناه، عن أوس بن أوس مرفوعًا.

وفي مسند ابن أبي شيبة، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من صلى عليّ عند قبري سمعته، ومن صلّى علي نائيًا بُلّغتُه»[6].

ورواه الدارقطني عنه بمعناه[7].

ورواه أبو داود الطيالسي[8]، وكذا البيهقي[9]، كلّهم من طريق أبي عبدالرحمن محمد بن مروان السدّي الصغير، وهو ضعيف.

وفي النسائي[10] وغيره عنه ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الله وكّل بقبري

---

(١) صحيح ابن خزيمة: ٣/ ١١٨، (١٧٣٣).

(٢) لم أهتد إلى موضع تصحيحه له.

(٣) سنن ابن ماجه: ١/ ٥٢٤، (١٦٣٦).

(٤) صحيح ابن حبان: ٣/ ١٩١، (٩١٠).

(٥) المستدرك: ١/ ٤١٣، (١٠٢٩). وقال: على شرط البخاري.

(٦) لم أجده فيما طُبع من مسند ابن أبي شيبة وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٨٨): وأخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب بسند جيد.ا.هـ. ورواه البيهقي في الشعب: ٢/ ٢١٨.

(٧) لم أهتد إليه.

(٨) لم أعثر عليه.

(٩) الشعب: ٢/ ٢١٨.

(١٠) لم أعثر عليه.

ملائكة يبلغوني من أمّتي السلام».

وعنده بلفظ آخر بسند صحيح، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إنّ لله ملائكة سيّاحين في الأرض، يبلّغوني عن أمّتي السلام»[1].

ورواه إسماعيل القاضي بهذا اللفظ[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: إن الشهداء، بل كل المؤمنين، إذا زارهم المسلم عُرّفوا به، وردّوا عليه، فإذا كان هذا في آحاد المؤمنين، فكيف بسيّد المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم إلى يوم الدين ـ[3].

ولأحمد من حديث سفيان، عمّن سمع أنسًا ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرًا استبشروا، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهمّ لا تُمتْهم حتى تهديَهم كما هديتنا»[4].

ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن جابر مرفوعًا[5]، إلا أنّه حديث ضعيف.

قال الإمام أحمد: يعرف الميت زائره يوم الجمعة بعد الفجر، وقبل طلوع الشمس[6].

---

(١) سنن النسائي: ٣/ ٤٣، (١٢٨٢). وهو في صحيح الجامع: ١/ ٤٣٤، (٢١٧٤).

(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ لإسماعيل القاضي (٢١)، ط دار ابن حزم.

(٣) لم أهتد إلى موضعه.

(٤) المسند: ٣/ ١٦٤، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٨٦٣).

(٥) مسند الطيالسي: ١/ ٢٤٨، (١٧٩٤).

(٦) ذكره عنه في المبدع: ٢/ ٢٨٥ والفروع: ٢/ ٢٣٥، ومثل هذا يحتاج إلى دليل، =

وفي «الغنية» لعبدالقادر الجيلاني: يعرفه كل وقت، وهذا الوقت آكد[1].

وأطلق أبو محمد [البربهاري][2] من متقدّمي الحنابلة أنه يعرفه[3].

وفي [«الإفصاح»][4] في حديث بريدة في السلام على أهل القبور قال: فيه وجوب الإيمان بأن الموتى يسمعون كلام المسلّم عليهم، وأنه لم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ ليأمر بالسلام على قوم لا يسمعون[5].

وقد قال البزّار في مسنده: حدّثنا يوسف بن موسى، حدّثنا عبد [ر،١٨٤/ر] المجيد، [بن][6] عبدالعزيز بن أبي رواد، عن سفيان، عن عبدالله ابن السائب، عن زاذان، عن عبدالله ـ يعني ابن مسعود رضي الله عنه ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن لله ملائكة سيّاحين، يبلّغوني عن أمّتي السلام».

وقال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «حياتي خير لكم، وتحْدثون ويُحْدث لكم، ووفاتي خير لكم، تُعرض عليّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدتُ الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت لكم».

قال: ولا نعلمه رُوي عن عبدالله إلا بهذا

= فضل الصلاة على النبي ﷺ لإسماعيل القاضي (٢١)، ط دار ابن حزم. ولعل الإمام وقف على آثار في ذلك.

(١) نقله في المبدع: ٢/ ٢٨٥ ولم أهتد إلى موضعه في الغنية.

(٢) في الأصل: «الرهاوي»، وهو خطأ، والتصويب من «الفروع» لابن مفلح: ٢/ ٢٣٥، والمؤلف ينقل عنه. والبربهاري هو أبو محمد الحسن بن علي بن خلف الحنبلي.

(٣) انظر «شرح السنة» للبربهاري: ص ٣٧، (٥٣).

(٤) في الأصل: «الإيضاح»، والتصويب من «الفروع»: ٢/ ٢٣٥.

(٥) نقلاً عن الفروع لابن مفلح: ٢/ ٢٣٥.

(٦) في الأصل: [عبدالمجيد عن عبدالعزيز]، والتصحيح من مسند البزّار.

السند[1].

قال العراقي: ورجاله رجال الصحيح[2].

قلت: وهو كما قال، إلا أن ابن أبي رواد روى له مسلم، ووثقه ابن معين، والنسائي مع شدته في الرجال، وضعّفه بعضهم، ولعل الذي تكلّم فيه تكلّم فيه لأجل ما رُمي به من الإرجاء، وذلك لا يضرّ في النقل إذا كان ثقة، كيف وهو من رجال مسلم[3].

وروى الفصلَ الأخيرَ أيضًا من قوله: «حياتي خير لكم» إلخ ابنُ سعد في طبقاته، عن بكر بن عبدالله المزني مرسلاً[4]، وهو يرسل عن ابن عباس وغيره.

قال الذهبي: وهو ثقة إمام[5].

ورواه ابن سعد أيضًا عن حماد بن زيد، عن غالب، عن بكر به.

وقال ابن أبي الدنيا: بلغني عن أحمد بن أبي الحواري قال: حدّثني محمد بن أخي قال: دخل عبّاد ـ يعني الخوّاص ـ على إبراهيم ابن صالح وهو أمير على فلسطين، فقال له: عِظني. قال: ما أعِظُك أصلحك الله؟. بلغني أنّ أعمال الأحياء تُعرض على أقارِبهم، فانظر ماذا يُعرض على رسول الله ـ ﷺ ـ ابن عمّك من عملك. قال: فبكى

---

(١) مسند البزار: ٥/ ٣٠٨، (١٩٢٥)، وقال في المجمع: (٩/ ٢٤): رجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر تخريج الإحياء: ٤/ ١٤٨.

(٣) انظر «رجال صحيح مسلم» لابن منجويه: ١/ ٤٤٧، (١٠٠٣).

(٤) «الطبقات الكبرى»: ٢/ ١٩٤.

(٥) الكاشف: ١/ ١٠٨، (٦٣٥).

إبراهيم حتى سالت دموعه على لحيته[1].

وروى ابن المبارك بإسناده، عن سعيد بن جبير أنه سُئل: هل يأتي الأمواتَ أخبارِ الأحياء؟. قال: نعم، ما من أحد له حميم إلا ويأتيه أخبار أقاربه، فإن كان خيرًا سُرّ به، وإن كان شرًّا ابتأس وحزن[2].

وقال مجاهد: إن الرجل ليُبَشَّرُ بصلاح ولده بعده في قبره. رواه عنه ابن أبي الدنيا[3].

وعنده عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ أنه قال وهو على المنبر: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنّه لم يبق من الدنيا إلا مثلُ الذباب في جوّها، فالله الله في إخوانكم من أهل القبور؛ فإن أعمالكم تُعرض عليهم»[4].

قال: شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: قد استفاضت الآثار [ك،٩٠/أ] بمعرفة الميّت بأحوال أهله وأصحابه في الدنيا، وأنّ ذلك يُعرض عليه، وجاءت الآثار بأنه يرى أيضًا، وأنّه يدري بما يُفعل عنده، ويُسرّ بما كان حسنًا، ويتألّم بما كان قبيحًا[5].

ومن ذلك قول أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: [ر،١٨٥/ب] «اللهم

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية: ١٠/ ٢١.
(٢) الزهد: ص ١٥١.
(٣) كتاب القبور: ص ٢٢٦، رقم (٦٥) من استدراك المحقق، ط١، ١٤٢٠هـ، مكتبة الغرباء.
(٤) رواه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٣٤٢، (٧٨٤٩)، وقال: صحيح الإسناد، والبيهقي في الشعب: ٧/ ٢٦١، (١٠١٤٢)، وفي سنده مجاهيل، كما في «الجرح والتعديل»: ٩/ ٣٣٦.
(٥) الفتاوى الكبرى: ٤/ ٤٤٦، ٤٤٧.

عمّه، وكذا تستُّر عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن عمر، لمّا دُفن مع صاحبيه، وقولُها: «إنما كان أبي وزوجي، وعمر أجنبي»[١]، يعني أنه يراها[٢]، فإذا كان هذا في آحاد أمّته، فما ظنّك بسيّد البشر ـ ﷺ ـ.

(رواه أبو داود بإسناد حسن[٣]. ورواته ثقات) مشاهير؛ فإنه قال أبو داود: حدّثنا أحمد بن صالح، قال: قرأت على عبدالله بن نافع، أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ به.

لكنّ عبدالله بن نافع، الفقيهَ المدنيَّ صاحبَ الإمام مالك فيه لين لا يقدح في حديثه.

قال يحيى بن معين: هو ثقة.

وحسبك بابن معين موثّقًا.

وقال أبو زرعة: لا بأس به.

وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالحافظ، هو ليّن، يُعرف من حفظه وينكر[٤].

---

(١) رواه أحمد: ٦/ ٢٠٢، والحاكم في المستدرك: ٣/ ٦٣ (٤٤٠٢)، وقال: صحيح، على شرط الشيخين، وقال في المجمع (٨/ ٢٦): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) لا يحتمل أثر عائشة الدلالة على هذا؛ كيف والحي لا يرى من وراء حائل فضلاً عن الميت، وإنما استترت من قبر عمر استحياءً، لاستشعارها وجوده.

(٣) سنن أبي داود: ٢/ ٢١٨، المناسك، باب زيارة القبور، (٢٠٤٢)، وهو في صحيح الجامع للألباني: ٢/ ١٢١١، (٧٢٢٦).

(٤) انظر هذه الأقوال في «الجرح والتعديل»: ٥/ ١٨٤.

فهذه العبارات منهم تنزّل حديثه من مرتبة الصحيح إلى مرتبة الحسن؛ إذ لا خلاف في عدالته وفقهه؛ وأنّ الغالب عليه الضبط، لكن قالوا: قد يغلط أحيانًا.

ثم هذا الحديث مما يعرف من حفظه، ليس هو مما ينكر؛ لأنّه سُنّة مدنيّة، وهو محتاج إليها في فقهه، ومثل هذا يضبطه الفقيه.

وللحديث شواهد من غير طريقه؛ فإن هذا الحديث رُوي من جهات أخرى، فما بقي منكرًا كما مر.

وكل جملة من هذا الحديث قد رُويت عن النبي ـ ﷺ ـ بأسانيد معروفة.

وشاهدُ قول شيخ الإسلام ابن تيمية المتقدّم: ما روى عبدالحق في الأحكام الصغرى، وقال: إسناده صحيح، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما من مسلم يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا فيسلّم عليه إلا عرفه، ويرد عليه السلام»[(١)].

ورواه ابن عبدالبر وصحّحه بلفظ: «ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسّلم عليه إلا ردّ الله عليه روحه حتى يردّ عليه»[(٢)].

وقال عبدالحق في كتابه «العاقبة»: ويُروى من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم»[(٣)].

---

(١) «الأحكام الصغرى»: ٢/ ١٥٢، ١٥٣.

(٢) ذكره عنه ابن كثير في تفسيره: ٣/ ٤٣٩، وابن القيم في حاشية السنن: ١/ ٩٣.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في القبور كما ذكر ابن كثير في تفسيره: ٣/ ٤٣٩، وابن حجر في اللسان: ٣/ ٢٩٧.

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا مرّ الرجل بقبر يعرفه في الدنيا فسلّم عليه ردّ عليه السلام، وعرفه، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلّم عليه ردّ عليه[(١)].

وقد تقدّم لهذا من الشواهد ما يكفي اللبيب، والأحاديث والآثار في هذا المعنى كثيرة جدًا، فلا نطيل بذكرها، وإنما الغرض هنا النهي عن اتخاذ القبر عيدًا مشابهة للمشركين من النصارى ومن تشبّه بهم من هذه الأمّة.

(و) من ذلك ما رواه أبو يعلى [ر،١٨٥/أ] الموصلي في مسنده[(٢)] حيث قال: حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة، حدثنا زيد[(٣)] بن الحباب، حدثنا جعفر ابن إبراهيم من ولد ذي الجناحين، حدثنا علي بن عمر، عن أبيه، (عن علي) هو زين العابدين، الثقة العابد الفقيه الفاضل المشهور، قال ابن عيينة عن الزهري: ما رأيت قرشيًّا أفضل منه (ابن الحسين) السِّبط، ابن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ، (أنّه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ـ ﷺ ـ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه) علي بن الحسين عن ذلك.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب: ٧/ ١٧، (٩٢٩٦).

(٢) مسند أبي يعلى: ١/ ٣٦١، (٤٦٩)، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف: ٢/ ١٥٠، (٧٥٤٢)، والضياء في المختار: ٢/ ٤٩، (٤٢٨)، والبخاري في التاريخ الكبير: ٢/ ١٨٦، (٢١٤٠)، وقال في المجمع (٤/ ٣): فيه حفص بن إبراهيم الجعفري، ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا، وبقية رجاله ثقات.ا.هـ. وقد قوّاه الألباني كما في «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» ص ١٤٠، ١٤١.

(٣) في [ر]: يزيد، وما أثبته هو الموافق لما في مسند الموصلي.

والفُرجة: الخلل بين الشيئين. قاله غير واحد من أهل اللغة، وهي بضم الفاء وفتحها. ذكره الأزهري(١) وصاحب المحكم(٢).

وأما التي بمعنى الراحة فمثلّثة الفاء. قاله ابن مالك(٣) وغيره.

قلت: وعليها يُطلب الشاهد الذي طلب الحجاج من أبي عمرو بن العلاء التميمي على قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، حيث سمع أعرابيًا وقت تأجيل الحَجاج له ينشد على موته، وكان الأعرابي قد أجّله الحجّاج أيضًا في أمر طلبه منه، فأنشد أبياتًا حين بلغه موته؛ فرحًا بذلك، منها قوله في تلك الأبيات:

ربّما تجزع النفوس من الأمْـ ـــرِ لـه فُـرجـةٌ كحـلِّ العقـالِ

وأنّ أبا عمرو سأل الأعرابي: ما تنشدونها؟. فقال: فُرجة، وفَرجة، وفِرجة، يعني مثلّثة الفاء، ذكر معنى ذلك ابن الأعرابي في نوادره، وأبو الفرج الأصبهاني في مجالسه، وغيرهما(٤).

(وقال) علي بن الحسين عند ذلك مستدلاً على إنكاره لفعل ذلك الرجل لمّا رآه يفعل ذلك: (ألا أحدّثكم حديثاً سمعته) صادرًا (عن أبي

(١) تهذيب اللغة: ١١/ ٤٦، (فرج).

(٢) «المحكم» لابن سيدة: ٧/ ٢٧٧.

(٣) انظر «إكمال الإعلام في تثليث الكلام»: ٢/ ٤٧٧.

(٤) روى هذا الخبر الأزدي في «المتوارين»: ص ٤٠، ٤١، والبيهقي في الشعب: ٧/ ٢٠٨، (١٠٠١٨)، وقد أورد البيتَ الطبري في تاريخه ضمن قصيدة لأمية بن أبي الصلت في قصة ابتلاء الخليل ـ عليه السلام ـ بذبح ابنه، انظر تاريخ الطبري: ١/ ١٦٧.

عن جدّي) أي علي رضي الله عنهم (عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا»)، يعود متكرّرًا، وليس هذا منعًا لزيارته ـ ﷺ ـ والسلامِ عليه، التي كان يفعلها الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومَن بعدهم من المقتدين بهم؛ فإن تلك من أفضل الأعمال المتقرَّب بها إلى الله ـ تعالى ـ.

إلا أنّ العلماء اختلفوا في شدّ الرحل لها، لا إلى مسجدِهِ وتدخل ضمنًا، وسيأتي التنبيه على ذلك.

(ولا بيوتكم قبورًا)، فعُلم من هذا أن القبور عند أهل الحق لا تُتّخذ موضعًا للصلاة.

ولما علم النبي ـ ﷺ ـ أن الصلاة والسلام عليه مشروعان للأمّة في حياته وبعد موته بالكتاب والسنّة، وخاف ـ ﷺ ـ أن يُتّخذ قبرُه عيدًا بسبب ذلك، بحيثُ يتوهمون أنّ صلاتهم وسلامهم عليه لا تبلغه من بعيد، قال: (فإن تسليمكم علي) وفي الرواية الأخرى: فإن صلاتكم (بلغني أينما كنتم»).

قال بعض العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ: ويُستثنى من هذا العموم الأمكنة التي لا يُذكر الله ـ سبحانه ـ فيها، كالأخْلية[1]، فلا يُصلَّى عليه فيها، وهو كما قالوا.

[ك،٩١/ب] (رواه) أبو عبدالله [ر،١٨٦/ب] محمد بن عبدالواحد بن أحمد الضياء المقدسي الحنبلي الحافظ، أحد الأعلام، شيخ السنّة، ولد

---

(١) جمع خلاء وهو موضع قضاء الحاجة.

سنة سبع وستين وخمسمائة، وسمع من الخضر بن طاووس وطبقته بدمشق، ومن ابن المعطوش وطبقته ببغداد، ومن البويصيري وطبقته بمصر، ومن أبي جعفر الصيدلاني وطبقته بأصبهان، ومن أبي روح والمؤيّد وطبقتهما بخراسان، وأفنى عمره في هذا الشأن، مع الدين المتين، والورَع والفضيلة التامّة، والثقة والاتقان، وانتفع الناس بتصانيفه، والمحدّثون بكتبه ـ رحمه الله ـ، توفّي في السادس والعشرين من جُمادى الآخرة، سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

روى ـ رحمه الله تعالى ـ هذا الحديث فيما اختاره من الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين، وشرطه فيه أحسن من شرط الحاكم في صحيحه.

في كتابه الذي سمّاه: (المختارة)[1].

وقال سعيد بن منصور في سننه: حدّثنا حيّان بن علي، حدّثني محمد بن عجلان، عن سعيد مولى المهري، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلّوا علي حيثما كنتم؛ فإنّ صلاتكم تبلغني»[2].

---

(١) «الأحاديث المختارة»: ٢/ ٤٩، (٤٢٨).

(٢) ليس في الموجود من سنن سعيد بن منصور، والظاهر أن الحسن ساقط من هذا السند، وقد رواه بهذا اللفظ عبدالرزاق في المصنف: ٣/ ٧١، (٤٨٣٩) عن الثوري، عن ابن عجلان، عن رجل يقال له: سهيل، عن الحسن بن الحسن بن علي وقد أورده الذهبي في السير (٤/ ٤٨٤) فقال: ابن عجلان عن سهيل وسعيد مولى المهري عن حسن بن حسن بن علي أنه رأى رجلاً.. فذكر نحو ما ذُكر عن علي بن الحسين في حديث المتن، ثم قال الذهبي: (هذا مرسل، وما استدل حسن في فتواه بطائل من الدلالة..) ثم ذكر كلامًا لا يخلو من نظر. وقد روى نحو هذا =

وأصل هذا الحديث عند الطبراني في الأوسط[١] والكبير[٢]، عن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا، ولفظه: «حيث كنتم فصلّوا؛ فإنّ صلاتكم تبلغني».

قال الهيثمي: وفيه حميد بن أبي زينب، لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح[٣].

وقاله السخاوي[٤].

وقال سعيد أيضًا: حدّثنا عبدالعزيز بن محمد، أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال: رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى، فقال: هلمّ إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟. فقلت: سلّمت على النبي ـ ﷺ ـ. فقال: إذا دخلت المسجد فسلّم. ثم قال:

= الحديث أبو يعلى في مسنده: ١٢/ ١٣١، (٦٧٦١) عن الحسن بن علي، وروى ابن أبي شيبة هذه القصة مع الحديث بلفظه إلا أنه قال: «قبري» بدل «بيتي» عن علي بن الحسين، انظر مصنف بن أبي شيبة: ٢/ ١٥٠، (٧٥٤٢)، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٦٢) عن الحسن بن علي، والظاهر من هذه الروايات وغيرها أنّ هذا الحديث محفوظ متداول في آل البيت، وأنه قد تكرر منهم الإنكار على من اعتاد الوقوف على القبر النبوي الشريف للدعاء والصلاة والسلام.

(١) المعجم الأوسط: ١/ ١١٧، (٣٦٥)، وبلفظ «حيثما».

(٢) المعجم الكبير: ٣/ ٨٢.

(٣) «مجمع الزوائد»: ١٠/ ١٦٢.

(٤) الذي في المقاصد ص ٦٧١، رقم (٦٢٣) قوله: (وفي لفظ عند الطبراني في الكبير وابن أبي عاصم أيضًا: «حيثما كنتم فصلوا علي. . .» إلخ وله شواهد منها عن علي مرفوعًا: «سلموا علي فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم»، وهو حديث حسن).

إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، لعن الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وصلّوا عليّ؛ فإنّ صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء[1].

فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلاّن على ثبوت الحديث، لا سيّما وقد احتج من أرسله به، وذلك يقتضي ثبوته عنده، وأنّه حجّة ولو لم [يرو][2] من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدّم مسندًا؟!.

ورواه عبدالرزّاق في مصنّفه، ولفظه أنّ الحسن بن الحسن بن علي رأى قومًا فنهاهم، وقال: إنّ النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلّوا عليّ حيث كنتم؛ فإنّ صلاتكم تبلغني»[3].

وهذا أفضل التابعين من أهل بيت النبوّة: عليّ بن الحسين، قد نهى ذلك الرجل أن يتحرّى الدعاء عند قبره ـ ﷺ ـ، [ر،١٨٦/أ] واستدل بالحديث الذي سمعه من أبيه الحسين، عن جدّه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ، وهو أعلم بمعناه من غيره، فبيّن أنّ قصده للدعاء ونحوِه اتخاذٌ له عيدًا، وكذلك ابن عمّه حسن بن حسن، شيخ أهل بيته، كره أن يقصد الرجل القبر للسلام عليه ونحوه، عند غير دخول المسجد، ورأى أنّ ذلك من اتخاذه عيدًا كما مرّ.

فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت ـ رضي الله عنهم ـ، الذين لهم من رسول الله ـ ﷺ ـ قربُ النسب وقرب الدار،

---

(١) ليس في المطبوع منه.

(٢) في الأصل: «روي»، ولم لا تدخل إلا على المضارع.

(٣) مصنف عبدالرزّاق: ٣/ ٥٧٧، (٦٧٢٦).

ومن بيتهم خرجت الحكمة، ولأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم[1]، فكانوا له أضبط.

والعيد إذا جُعل اسمًا للمكان فهو المكان الذي يُقصد الاجتماع فيه، وانتيابه[2] للعبادة عنده، أو لغير العبادة، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة جعلها الله عيدًا [و][3] مثابة للناس، يجتمعون فيها، وينتابونها للدعاء والذكر والنّسك، وكان للمشركين أمكنةٌ ينتابونها للاجتماع عندها، فلمّا جاء الإسلام محى الله ذلك كلّه.

وهذا النوع من الأمكنة يدخل فيه قبور الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وسائر القبور أيضًا داخلة في هذا؛ فإنّ قبر المسلم له من الحرمة ما جاءت به السنّة؛ إذ هو بيت المسلم الميّت، ويزار فيه كما يُزار في بيته في الدنيا للسلام عليه، والدعاء له، والاعتبار بمصرعه، وأنّه كما كان تكون، ويكرّمُ فلا يتركُ عليه شيء من النجاسات بالاتفاق، ويصان ولا يهان، فلا يوطأ، ولا يُتكأ عليه، ولا يُداس عليه عندنا[4]، ولا يجوز عند جمهور العلماء، ولا يجاور بما يؤذي الأموات من الأقوال والأفعال الخبيثة، ويستحب عندنا إتيانه، بل يحسن السلام على صاحبه، والدعاء له، وكلما كان الميّت أفضل، كان حقُّه أوكد.

---

(١) إذ كانوا سكان المدينة النبوية، والقبر الشريف بين أظهرهم، ويغشاهم مَن حمله الشوق إلى دار النبوة، فلربما أدّاه فرط الحنين إلى مجاوزة الحد، واتخاذ القبر الشريف عيدًا.

(٢) في الأصول: «ومثابة»، وهو خطأ، والتصويب من «إغاثة اللهفان» لابن القيّم: ١/ ١٩٠، والمؤلف ينقل منه مختصِرًا.

(٣) الواو ليست في الأصول، وهي في «إغاثة اللهفان».

(٤) يعني الحنابلة.

فصل

فزيارة القبور، والسلام على أهلها، والدعاء لهم، من أفضل القربات، خصوصًا أهل الفضل والصلاح.

وقد قال في الإنصاف بعد قول موفق الدين (فإذا فرغ من الحج استُحب له زيارة قبر النبي ـ ﷺ ـ وقبر صاحبيه)[١]: هذا المذهب، وعليه الأصحاب قاطبة، متقدمهم ومتأخرهم[٢]، ويلزم التأدّب عند زيارته ـ ﷺ ـ، وأن يرى الزائر له ـ ﷺ ـ حرمته في قبره كحرمته حيًّا، فيسلّم عليه ـ ﷺ ـ بسلام النبوّة، متأدباً بسكينة ووقار، ثم يسلم على صاحبيه ـ رضي الله عنهما ـ من وراء الحائط، ولا يمسُّه، ولا يُلصقُ به صدرَه؛ لأن ذلك من عادة اليهود.

وقال الأثرم: ذلك من فعل الجاهلية[٣].

وقد قال شمس الدين ابن قيّم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ في الزيارة:

---

(١) متأخرو العلماء يقصدون بهذا التعبير زيارة المسجد النبوي، وتدخل زيارة القبر الشريف تبعًا؛ إذ لا يُتصوّر من مسلم عالم بفضل المسجد النبوي أن يقصد شدّ الرحل إلى القبر دون المسجد، وهو يعلم بالنهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، ويعلم أن القبر الشريف لا يوقف عليه إلا مرورًا بالمسجد، فمجرد زيارة القبر دون المسجد غير مقدورة أصلاً، فضلاً عن كونها مشروعة، فلا يقع ذلك إلا بالنية فقط كما قال الإمام مالك، انظر «الرد على الإخنائي» لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص ١١٨ وما بعدها.

(٢) الإنصاف: ٤/ ٥٣.

(٣) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، وفي «كشاف القناع» (٢/ ٥١٧): قال الأثرم: رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسون قبر النبي ـ ﷺ ـ، بل يقومون من ناحية فيسلّمون.

فـإذا أتينـا المسجـدَ النبـويَّ صلّينـــا التحيّـــة أوّلاً ثنتـــانِ
بتمـامِ أركـانٍ لهـا وخشـوعِهـا وحضورِ قلبٍ فعلَ ذي إحسانِ
ثـمّ انثنينـا للـزيـارة نقصـدُ القبرَ الشريفَ ولو على الأجفانِ

[ر، ١٧٨/ أ]

فنقـوم دون القبـرِ وقفـةَ خـاضـعٍ متــذلّــلٍ فــي الســرّ والإعــلانِ
فكـأنّـه فـي القبـر حـيٌّ نـاطـقٌ فـالـواقفـون نـواكـسُ الأذقـانِ

[ك، ٩١/ أ]

ملكَتْهمُ تلك المهابةُ فاعْترت تلـك القـوائـمَ كثـرة الـرجفـانِ
وتفجّرت تلك العيونُ بمائها ولطالما غاضت على الأزمانِ
وأتـى المسلّـمُ بـالسـلام بهيبـةٍ ووقـار ذي عِلْـم وذي إيمـانِ
لم يرفعِ الأصوات حول ضريحه كـلا ولـم يسجـد على الأذقـانِ
كلا ولم يُرَ طائفًا بالقبر أسبوعًا كـــأنّ القبــــر بيـــتٌ ثـــانِ
ثـمّ انتهـى بـدعـائـه متـوجّهًـا لله نحـو البيـت ذي الأركـان
هذي زيارة من غدا متمسّكًا بشـــريعــة الإســـلام والإيمـــان
من أفضل الأعمال هاتيك الزيارةُ وهـي يـوم الحشـر فـي الميـزانِ
لا تلبسوا الحق الذي جاءت به سننُ الرسول بأعظم البطلانِ
هذي زيارتُنا ولم ننكر سوى البِدَعِ المضلّةِ يا ذوي العدوانِ

وقد سئل الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ عمّن يتمسّح بقبر النبي ـ ﷺ ـ فقال: ما أعرف هذا، أهل العلم كانوا لا يمسّونه، ويقومون ناحية فيسلّمون، وكذلك كان يفعل ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ[1].

قال صاحب «المستوعب»: فدل على أنّه غير مستحب، بل مكروه[2].

وقاله غيره.

فيقف ناحيةً، ثم يستقبل القبلة، ويجعل الحجرة عن يساره؛ لئلا يستدبره ـ ﷺ ـ، وذلك بعد تحيّته والصلاة والسلام عليه وعلى صاحبيه؛ فإنّ الدعاء عند القبر لا يكره مطلقًا، بل يؤمر به كما جاءت به السنّة، فيما يأتي ضمنًا وتبعًا، وإنّما المكروه أن يتحرّى المجيء إلى القبر للدعاء عنده، هكذا نص الإمام أحمد وغيره من الأئمة على ذلك[3]، بأن يستقبل القبلة، ويجعل الحجرة عن يساره، ويدعو، وسيأتي بيان الحكاية المأثورة عن الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ في «باب الإقسام على الله» إن شاء الله تعالى ـ.

ومن هديه ـ ﷺ ـ في زيارة القبور والسلام على أهلها ما روى مسلم في صحيحه عن بريدة بن الحُصَيب قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: «السلام على أهل الديار ـ وفي لفظ له: السلام عليكم أهل الديار ـ من المؤمنين والمسلمين،

---

(١) انظر «الفروع»: ٣/ ٣٨٦، و«الإنصاف»: ٤/ ٥٣، و«مسائل الإمام أحمد» رواية صالح: ٣/ ٦٢.

(٢) انظر «الفروع»: ٣/ ٣٨٦.

(٣) انظر «المبدع»: ٣/ ٣٨٥.

وإنا إن شاء الله بكم للاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»[1].

وروى أيضًا عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ [ر،١٨٧/أ] خرج إلى المقبرة فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون»[2].

وعنده أيضًا عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، في حديث طويل، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إنّ جبريل ـ عليه السلام ـ أتاني فقال: إنّ ربّك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم»، وفيه قالت: قلت: كيف أقول يا رسول الله؟. قال: قولي: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»[3].

وروى ابن ماجه عنها أيضًا قالت: فقدته ـ ﷺ ـ، فإذا هو بالبقيع، فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم لنا فرَط، ونحن بكم لاحقون، اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنّا بعدهم»[4].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: مر رسول الله ـ ﷺ ـ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر». رواه الإمام

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٥٥٩، الجنائز، باب (٣٥)، حديث (٩٧٥).
(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٨٤، الطهارة، باب (١٢)، حديث (٢٤٩).
(٣) صحيح مسلم: ٢/ ٥٥٩، الجنائز، باب (٣٥)، حديث (٩٧٤).
(٤) سنن ابن ماجه: ١/ ٤٩٣، (١٥٤٧)، ورواه أحمد: ٦/ ٧١، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٢٥٨.

أحمد[1]، والترمذي وقال: حسن غريب[2].

وقد ثبت عنه - ﷺ - أنّه بعد أُحد بثمان سنين خرج إلى الشهداء فصلّى عليهم كصلاته على الميّت، ومعنى هذا - والله أعلم - أنّه دعا لهم كدعائه على الميّت.

وفي البخاري عن عقبة بن عامر: فصلّى عليهم صلاته على الميّت[3].

قال ابن عبدالبر وغيره: يحتمل أن تكون الصلاةُ هنا الدعاءَ والاستغفارَ، وأن تكون كالصلاة على الموتى، فتكونُ خصوصيّةً له - ﷺ -، وليعمَّ بصلاته من لم يصلِّ عليه حين دفنه[4].

وروى أبو داود عن عثمان بن عفّان - رضي الله عنه - قال: كان النبي - ﷺ - إذا فرغ من دفن الميّت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل»[5].

فهذا ونحوُه مما كان يفعله ويأمرُ به أمّتَه عند قبور المسلمين عند

---

(١) لم أجده في المسند.

(٢) سنن الترمذي: ٣/ ٣٦٩، (١٠٥٣)، ولم يورده الألباني في القسم الصحيح من سنن الترمذي.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٤٥١، الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، (١٢٧٩)، ورواه مسلم أيضًا: ٤/ ١٤٣٢، الفضائل، باب (٩)، حديث (٢٢٩٦).

(٤) انظر التمهيد: ٢٠/ ١١٠.

(٥) سنن أبي داود: ٣/ ٢١٥، (٣٢٢١)، ورواه الحاكم في المستدرك: ١/ ٥٢٦، (١٣٧٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الإسناد. وصححه الألباني في صحيح الجامع: ١/ ٢٢٤، (٩٤٥).

الدفن وعند الزيارة لهم أو المرور بهم إنّما هو تحيّةٌ للميّت كما يُحيّا الحي، ودعاءٌ له إذا صُلي عليه قبل الدفن أو بعده.

وروى سعيد بن منصور عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي ـ ﷺ ـ كان يقف عند القبر فيدعو[1].

واستحبّ الوقوف شيخ الإسلام ابن تيمية[2] والأصحاب.

ونص الإمام أحمد أنّه لا بأس به. قال: وقد فعله علي والأحنف[3].

ويدل عليه أنّه معتاد في زمنه ـ ﷺ ـ قوله ـ تعالى ـ في المنافقين: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]؛ إذ هو المراد[4]، على ما ذكره أكثر المفسرين.

وقال ابن جرير: معناه: لا تتولَّ دفنه[5].

[ر،١٨٨/ب][ك،٩٢/ب] والأوّل قول الجمهور من المفسّرين[6]؛ إذ معناه عندهم: ولا تقم على قبره داعيًا له؛ إذ دعاؤه ـ ﷺ ـ أن يصلّي على من مات من أصحابه، فإذا دفنه قام على قبره ودعا له، وقد خرج إلى أهل البقيع جوفَ الليل يسلّمُ عليهم ويدعو لهم، ومرّ خروجه إلى

---

(١) ليس في المطبوع منه. وعزاه إليه صاحب «كشاف القناع»: ٢/ ١٣٥، وهو في «المدونة»: ١/ ١٧٦.

(٢) انظر مجموع الفتاوى: ٢٤/ ٣٣٠.

(٣) انظر «الفروع»: ٢/ ٢١٤.

(٤) أي الوقوف على القبر للدعاء للميت بعد دفنه.

(٥) تفسير الطبري: ١٠/ ٢٠٤.

(٦) انظر «زاد المسير» لابن الجوزي: ٣/ ٤٨١.

الشهداء، وصلاتُه ـ ﷺ ـ عليهم.

وفي ضمن الدعاء للميّت دعاءُ الحي لنفسه ولسائر المسلمين، كما أنّ الصلاة على الجنازة فيها الدعاءُ للمصلّي ولسائر المسلمين، وتخصيصُ الميت بالدعاء له.

فعند أبي داود[1] وابن ماجه[2] وابن حبان[3] عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بإسناد حسن مرفوعًا: «إذا صليتم على الميّت فأخلصوا له الدعاء».

يعني: ادعوا له بإخلاص؛ لأن القصد بهذا الدعاءِ والصلاةِ إنما هو الشفاعةُ للميّت، وإنّما يرجى قبولها عند توفّر الإخلاص، والابتهالِ إلى الله ـ تعالى ـ بذلك؛ إذ مبنى الشفاعة إنما هو على الإخلاص لله ـ تعالى ـ في الشافع والمشفّع فيه، كما مرّ في بابها.

فهذا كلّه، وما كان مثلَه من سنّة رسول الله ـ ﷺ ـ، وكذا ما كان عليه السابقون الأولون، هو المشروع للمسلمين في ذلك، وهو الذي كانوا يفعلونه عند قبر النبي ـ ﷺ ـ وغيره.

وروى ابنُ بطة في الإبانة بإسناد صحيح، عن معاذ بن معاذ قال: حدّثنا عوف قال: سأل رجل نافعًا فقال: هل كان ابن عمر يسلم على القبر؟. فقال: نعم، لقد رأيتُه مائة، أو أكثر من مائةِ مرّة، يأتي القبر،

---

(١) سنن أبي داود: ٣/ ٢١٠، (٣١٩٩)، وحسنه الألباني كما في «إرواء الغليل» برقم (٧٣٢).

(٢) سنن ابن ماجه: ١/ ٤٨٠، (١٤٩٧).

(٣) موارد الظمآن: ١/ ١٩٢، (٧٥٥).

فيقوم عنده فيقول: السلام على النبي -ﷺ-، السلام على أبي بكر، السلام على أبي[1].

وفي رواية أخرى ذكرها الإمام أحمد محتجًّا بها: «ثمّ ينصرف»[2].

وهذا الأمر رواه الإمام مالك في الموطّأ[3].

فزيارة القبور جائزة، بل مندوب إليها في الجملة، حتى قبور الكفّار؛ للاعتبار.

وفي صحيح مسلم كما مر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -ﷺ-: «استأذنت ربّي أن أستغفر لأمّي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي»[4].

وفيه أيضًا عنه قال: زار رسول الله -ﷺ- قبر أمّه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: «استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور؛ فإنّها تذكر الآخرة»[5].

وفي رواية لأحمد عن بريدة بن الحصيب: «فمن أراد أن يزور

---

(١) لم أهتد إليه.

(٢) لم أعثر عليها عند أحمد.

(٣) الموطأ: ص ١٦٦، (٦٨) رواية الليثي، وفي رواية محمد بن الحسن: ص ٣٣٤، (٩٤٨)، وقد رواه ابن سعد في الطبقات: ٤/ ١٥٦، وعبدالرزاق في المصنف: ٣/ ٥٧٦، (٦٧٢٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه: ٣/ ٢٨، (١٧٩٣)، والبيهقي في الكبرى: ٥/ ٢٤٥، (١٠٠٥١).

(٤) صحيح مسلم: ٢/ ٥٥٩، (٩٧٦).

(٥) صحيح مسلم: ٢/ ٥٥٩، (٩٧٦)، إلا أن فيه: «فإنها تذكر الموت».

فليزُرْ، ولا تقولوا هُجْرًا»[1]. ورواه النسائي[2].

وروى الإمام أحمد أيضًا عن علي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنّي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإنها تذكر الموت والدار الآخرة»[3].

فأذن إذنًا عامًّا في زيارة قبر المسلم والكافر، والسبب الذي ورد عليه [ر،١٨٨/أ] اللفظ يوجب دخول الكافر، والعلّةُ وهي تذكّر الموتِ والدارِ الآخرةِ موجودةٌ في ذلك كلِّه.

وقد كان النبي ـ ﷺ ـ يأتي قبور أهل البقيع والشهداء كما مر، للدعاء لهم والاستغفار، فهذا المعنى الأخيرُ تخصيص للمسلمين دون الكافرين.

فهذه الزيارة، وهي زيارة القبر لتذكُّرِ الآخرة، أو لتحيّتِهم والدعاءِ لهم، و[4]هو الذي جاءت به السنّة، مع تذكّر الآخرة.

وأما الجموع للزيارة كما هو معتاد فبدعة، ولأنّ ذلك من اتخاذها عيدًا، وهو منهي عنه.

قال أبو الوفاء بن عقيل: أبرأ إلى الله منه[5].

---

(١) صحيح مسلم: ٥/ ٣٥٩، دون قوله «ولا تقولوا هجرًا»، وكذا الطبراني في الكبير: ٥/ ٨٢ عن زيد بن الخطاب.

(٢) سنن النسائي: ٤/ ٨٩، (٢٠٣٣) وهذا لفظه. وصححه الألباني كما في الصحيحة برقم (٨٨٦).

(٣) المسند: ١/ ١٤٥.

(٤) الظاهر أن هذه الواو زائدة.

(٥) نقله عنه في «الفروع»: ٢/ ٢٣٣.

وهل تُكره القراءة على القبور وفي المقبرة؟

فعن الإمام أحمد في ذلك أقوال:

أحدهما: لا تكره، نُص عليه، واختاره أبوبكر القاضي وجماعة، وهو المذهب.

قال في «الفروع»: وعليه العمل عند مشايخ الحنفية ـ خلافًا للشافعي[1] ـ فقيل: يباح، وقيل: يستحب.

قال ابن تميم: نص عليه ـ الإمام أحمد ـ كالسلام والذكر والاستغفار.

وعنه: لا [تكره] وقتَ دفنه[2].

وعنه: [تكره]، اختاره عبدالوهاب الورّاق، وأبو حفص، وفاقًا للشافعي ومالك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «نقلها الجماعة عنه، وهو قول جمهور السلف، وعليها قدماء أصحابه». [وسمّى][3] المروذيَّ.

وعلّله أبو الوفاء وأبو المعالي بأنّها مدفن النجاسة كالحش.

قال ابن عقيل: أبو حفص يغلّب الحظر، وصحّ عن ابن عمر أنّه أوصى إذا دُفن أن يُقرأ عنده بفاتحة الكتاب، وبفاتحة سورة البقرة

---

(١) ما بين ـ ـ ليست في «الفروع».

(٢) «الفروع» لابن مفلح: ٢/ ٢٣٧، ٢٣٨ ووقع في الأصل: (لا يكره) بالتحتانية، وما أثبته هو الموافق للسياق.

(٣) في الأصول: «وسهى»، وهو خطأ، والتصويب من الفروع.

وخاتمتها[1]، فلهذا رجع الإمام أحمد عن الكراهة.

وقال الخلاّل وصاحبه: المذهب رواية واحدة: لا يكره.

وقال مجد الدين على رواية الكراهة: شدد أحمد حتى قال: لا يُقرأ فيها [في][2] صلاة جنازة.

وعنه بدعة؛ لأنّه ليس من فعله ـ عليه السلام ـ وفعلِ أصحابه، فعُلم بأنه محدث.

ولعلّه قبل أن يبلغه عن ابن عمر ما بلغه مما تقدّم.

وسأله عبدالله: يحمل مصحفًا فيَقرأ عليه؟. قال: بدعة[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولم يقل أحد من العلماء المعتبرين إن القراءة عنده أفضل، ولا رخّص في اتخاذه عيدًا، كاعتياد القراءة عنده في وقت معلوم[4].

وقد تبيّن بما ذكرنا من الأحاديث المنع من البناء على القبور، واتخاذِ المساجد عليها والمظاهر، والإسراجِ عليها.

وفي صحيح مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: نهى رسول الله

---

(١) رواه يحيى بن معين في التاريخ: ٤/ ٤٤٩، (٥٢٣٧) عن العلاء بن اللحلاج عن أبيه أنه أمر بذلك، وقال: سمعت عبدالله بن عمر يقول ذلك. وعند الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٢٠): فإني سمعت رسول الله يقول ذلك.

(٢) في الأصول: على، والتصويب من الفروع.

(٣) انظر جميع هذه الأقوال في الفروع: ٢/ ٢٣٨.

(٤) عن الفروع: ٢/ ٢٣٨.

ـ ﷺ ـ أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يُبنى عليه[(١)].

وكذا يتبيّن مما تقدّم المنع من مشابهة أهل الكتابيين في كثير من الأقوال والأفعال [ر،١٨٩/ب] بهذا السبب، وأنه لا يجوز الوفاء بما يُنذر للقبور، [ك،٩٢/أ] من دَهن وغيره؛ لأنّ بناءها محرّم، فهو كذلك، وكذلك اتخاذها مساجدَ وإن لم يبن عليها.

وهذه العلّة التي لأجلها نهى الشارع ـ ﷺ ـ هي التي أوقعت كثيرًا من الأمم إمّا في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك؛ فإن تبرّك الرجل بقبر الرجل الذي يعتقد نبوّته أو صلاحه أعظمُ من أن يتبرّك بخشبة أو حجر على تمثاله[(٢)].

ولهذا تجد أقوامًا كثيرًا يتضرّعون عندها، ويخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في المسجد، بل ولا في المسجد الحرام، بل ولا في السَّحَر[(٣)].

ومنهم من يسجد لها، كما يُفعل عند قبر الحسين ـ رضي الله عنه ـ وغيره.

وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد التي تشد إليها الرحال[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٥٥٦، الجنائز، باب (٣٢)، حديث (٩٧٠).

(٢) باختصار من الصراط المستقيم: ٢/ ٦٨٠ وقد وقع في [ر]: على تماثله، وهو تصحيف.

(٣) عن «اقتضاء الصراط»: ٢/ ٦٨٠، ٦٨١.

(٤) عن الموضع السابق.

فهذه المفسدة التي هي مفسدة الشرك، كبيرةً كانت أو صغيرة، هي التي حسم النبي - ﷺ - مادّتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا[1] وإن لم يقصد المصلّي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد الثلاثة ونحو ذلك، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس واستوائها وغروبها[2]؛ لأنّها الأوقات التي يقصد المشركون فيها بركة الصلاة للشمس فيها، فنُهي المسلم عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ذلك سدًا للذريعة.

فأما إذا قصد الرجل الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين تبركًا بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادّة لله ولرسوله، وهو عين المخالفة لدينه، وابتداعُ دين لم يأذن الله به؛ فإنّ المسلمين قد أجمعوا على ما علموا بالاضطرار من دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله محمدًا - ﷺ - من أن الصلاة عند القبر، أيَّ قبر كان، لا فضل فيها لذلك، ولا للصلاة في تلك البقعة مزيّة خير، بل مزيّة شر[3].

وما أشبه أهل القبور حالاً بمن قال الله - تعالى - فيهم: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾.

وهنا كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - قاعدة، من لزمها اقتدى واهتدى، وسلم من تعدّي الحدود بالاعتداء، وهي: ليس على المؤمن ولا له أن يطالب الرسل - عليهم الصلاة والسلام -

---

(١) انظر صحيح مسلم: ٢/ ٥٥٦، حديث (٩٧٢)، وصحيح ابن خزيمة: ٢/ ٧، حديث (٧٩١)، وصحيح ابن حبان: ٦/ ٩٠، حديث (٢٣٢٠).

(٢) انظر صحيح البخاري: ٣/ ١١٩٣، حديث (٣٠٩٩)، وصحيح مسلم: ١/ ٤٧٦، حديث (٨٣٢).

(٣) عن الاقتضاء: ٢/ ٦٨٠، ٦٨١.

بتبيين وجوه المصالح والمفاسد، وإنما عليه طاعتهم[١].، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ [ر،١٨٩/أ]﴾ [النساء: ٨٠]، فجعل طاعة الله بمجرّد طاعة رسوله، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

فحقوق الأنبياء ـ عليهم السلام ـ: توقيرهم وتعزيرهم ومحبتهم وطاعتهم على الإطلاق، وإيثارهم على النفس والأهل والمال، بحيث لا يردّك عن متابعة سننهم شيء من الأشياء؛ فإن عامّة من يشرك بهم شركًا أكبر أو أصغر هو[٢] [يترك] ما يجب عليه من طاعتهم بقدر ما ابتدعه من الإشراك بهم.

وكذلك حقوق الصدّيقين والشهداء والصالحين: المحبة والإجلال، ونحو ذلك من الحقوق التي جاء بها الكتاب والسنّة، وكان عليها سلف الأمّة[٣].

وأمّا ما يُذكر من الكرامات وخوارق العادات التي توجد عند قبور الأنبياء والصالحين، مثل نزول الأنوار والملائكة عندها، وتوقي الشياطين والبهائم لها، واندفاع النار عنها وعمّن جاورها، وشفاعة

---

(١) الموضع السابق.

(٢) «هو» ليست في الاقتضاء، والمؤلف ينقل منه بتصرف، فأقحمها وقرأ ما بعدها: بترك ما يجب.. إلخ فاستغلقت العبارة، والعبارة كما في الاقتضاء: فإن عامّة من يشرك بهم شركًا أصغر أو أكبر يترك ما يجب عليه من طاعتهم بقدر ما ابتدعه من الإشراك بهم.

(٣) الاقتضاء: ٢/ ٦٨٢.

بعضهم في جيرانه من الموتى، واستحبابِ الاندفان عند بعضهم، وحصولِ الأنس والسكينة عندها، ونزولِ العذاب لمن استهان بها، فجنس هذا حق[1]، لا ينكره لهم إلا جاهل أو معاند.

وكذا ما جاء في قبورهم من كرامة الله ورحمته، وما لها عند الله من الحرمة والكرامة فوق ما يتوهم أكثر الخلق.

وكل هذا لا يقتضي استحباب الصلاة، أو قصد الدعاء، أو النسك عندها؛ لما في قصد العبادات عندها من المفاسد التي علمها الشارع[2]، فنهى عنها.

ولهذا فرّق العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ في شد الرحل للزيارة لها، بين من يقصد الزيارة والدعاء للميت، وبين من يقصد في ذلك العبادة عندها، فمنعوا شدّ الرحل للمقصد الثاني، وجرى بينهم الخلاف للمقصد الأوّل، فمنهم من أجاز، ولم يجعل حديث شدّ الرحل في النهي على عمومه، ومنهم من منع شد الرحل في جميع الزيارة إلى المقابر، وجعل النهي فيه عامًّا.

ولفظه عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»، وهو في الصحيحين وغيرهما[3].

---

(١) الاقتضاء: ٢/ ٧٣٦، ٧٣٧.

(٢) الاقتضاء: ٢/ ٧٣٦، ٧٣٧.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ٣٩٨، التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، (١١٣٢)، وصحيح مسلم: ٢/ ٧٩٦، الحج، باب (٧٤)، حديث (١٣٣٨).

وقال أهل القول الأول: معنى الحديث: لا تُشد الرحال إلى مسجد إلا المساجد الثلاثة؛ إذ شد الرحال إلى عرفة لقضاء النسك واجب بالإجماع، وكذا سفر الجهاد والهجرة بشرطه، وكذا جواز شدّ الرحال للتجارة ومصالح الدنيا وزيارة الإخوان الأحياء، والانتقال في الأراضي لبادٍ وحاضر(١).

واستأنسوا بما رواه ابن شبّة بسند حسن، أن أبا سعيد الخدري ذُكر عنده الصلاة في الطور، فقال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا ينبغي للمطي أن تشدّ رحالها إلى مسجد تُبتغى فيه الصلاة غير المسجد الحرام، ومسجدي [ر،١٩٠/ب] هذا، والمسجد الأقصى»(٢).

وهو عند أبي يعلى بمعناه بسند صحيح إلى شهر(٣).

ورواه الإمام أحمد بهذا اللفظ بسند صحيح(٤)، إلا أنّ فيه شهرًا،

---

(١) لا يخفى ضعف مأخذهم؛ فإنا إذا منعنا شد الرحال إلى ما سوى المساجد الثلاثة من المساجد، فأولى من ذلك منع شد الرحال إلى ما سوى المساجد من البقاع المخصوصة بنية التعبد عندها، أما شد الرحال إلى عرفة وغيرها من مشاعر الحج فهو تابع لشد الرحل للمسجد الحرام، والله عز وجل وصف الحجاج بقوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾، ولا يخفى أن بدء الحج بالوقوف بعرفة وكونَه ركنَه الأكبَر غيرُ معارض لكون المقصد الأصلي لهذا السفر هو البيت الحرام، كما أن من اقتصر على الوقوف بعرفة دون الطواف بالبيت فحجه غير صحيح، بل لو تعمد شد الرحل إلى عرفة دون البيت لكان مبتدعًا آثمًا، وأما سفر الجهاد والهجرة فغير مخصوص ببقعة لذاتها يشد الرحل إليها، وأما ما سوى ذلك من الضرب في الأرض فليس من النسك والعبادة أصلاً، فلا يتناوله النهي.

(٢) لم أعثر عليه فيما طبع منه، وقد عزاه إليه ابن تيمية في الرد على الإخنائي (ص ١٤).

(٣) مسند أبي يعلى: ٢/ ٤٨٩، (١٣٢٦)، وضعف محققه إسناده.

(٤) المسند: ٣/ ٦٤، وشهر بن حوشب قال عنه في التقريب (ص ٢٦٩): صدوق كثير =

وقال فيه: سمعت أبا سعيد ـ رضي الله عنه ـ، فزال المحذور من جهته[1].

ولأنّ هذه المساجد الثلاثةَ لها مزية من بين باقي المساجد.

ولمّا كان مسجد «قباء» تابعًا في حكم مسجده ـ ﷺ ـ، وداخلاً في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التوبة: ١٠٨]، كان يأتيه ـ ﷺ ـ راكبًا وماشيًا[2].

وأهل هذا القول يقولون: إن قَصَد في شدّه الرحلَ التعظيم للقبور [ك،٩٣/ب] لم يجز[3]؛ لأنه تعظيم لما لم يعظمْه الشرع، بل نهى عن اتخاذ قبره عيدًا، فضلاً عن قبر غيره ـ ﷺ ـ.

وممن قال بالمنع أبو محمد الجويني[4]، واختاره القاضي حسين من الشافعية[5].

وبه قال القاضي عياض من المالكية[6].

= الإرسال والأوهام.

(١) انظر طرق هذا الحديث ورواياته بتوسع في كتاب «الأحاديث الواردة في فضائل المدينة. جمعًا ودراسةً» للدكتور صالح الرفاعي: ٤٣٩ـ ٤٥٥.

(٢) رواه البخاري: ١/ ٣٩٨، التطوع، باب مسجد قباء، (١١٣٤)، ومسلم: ٢/ ٨٢٤، الحج، باب فضل مسجد قباء، (١٣٩٩).

(٣) هذا لا يستقيم؛ فإن شد الرحال إليها داخل في تعظيمها.

(٤) هو عبدالله الجويني، والد إمام الحرمين، توفي سنة ٤٣٨هـ. انظر المجموع للنووي: ٨/ ٣٦٩.

(٥) انظر المجموع للنووي: ٨/ ٣٦٩، و«روضة الطالبين» له: ٣/ ٣٢٤، والقاضي حسين هو أبو علي حسين بن محمد بن أحمد المروزي، توفي سنة ٤٦٢هـ. انظر السير للذهبي: ١٨/ ٢٦١، ٢٦٢.

(٦) انظر «إكمال المعلم»: ٤/ ٤٤٩.

وقاله جماعة من العلماء كثيرة، منهم من أصحابنا الحنابلة: موفق الدين ابن قدامة[1].

وأجرى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ الحديث على عمومه في المساجد وغيرها[2]، سوى ما خص على وجوبه أو جوازه أو إباحته الدليل الخارج عن شدّ الرحل في ذلك السفر، فالاستثناء عنده مفرّغ، وأن التقدير: لا تشد الرحال إلى موضع إلا ما استثني؛ لأن المستثنى منه في المفرّغ يقدّر بأعم العام، كما قاله القسطلاني في شرح البخاري على هذا الحديث[3].

لكن المراد بالعموم هنا الموضع المخصوص، وهو المسجد[4]، إلا أنه منعه الأولون إذا قصد تعظيم بقعة القبر لعينها، لما مر من الأحاديث.

قال بعضهم: ويُحتمل في حديث شد الرحال غيرَ ما تقدّم أن يكون المراد منه أن المعنى: لا تشد الرحال إلى مسجد لابتغاء مضاعفة

---

(١) هذا خلاف ما صرح به في المغني (٢/ ٥٢) من أن الصحيح إباحة السفر لزيارة القبور والمشاهد، وأن حديث «لا تشد الرحال..» محمول على نفي التفضيل، لا التحريم، وانظر اختلاف الحنابلة حول هذه المسألة في اقتضاء الصراط: ٢/ ٦٧٠ـ ٦٧٢.

(٢) انظر مجموع الفتاوى: ٢٧/ ٢١٤ وما بعدها، وقد شنع على شيخ الإسلام بعض خصومه بسبب منعه من شد الرحال إلى قبور الأنبياء، كما فعل الإخنائي، والسبكي في «شفاء السقام»، وقد أجابهم الشيخ بردود كثيرة تجدها في المجلد ٢٧ من مجموع الفتاوى، كما رد ابن عبدالهادي على السبكي في كتاب «الصارم المنكي».

(٣) إرشاد الساري: (٢/ ٣٤٤) دار الكتاب العربي.

(٤) هذا في رأي المجيزين.

الصلاة إلا إلى المساجد الثلاثة، فلا ينفي ذلك شد الرحل لمسجد آخر له فضيلة غير المضاعفة، والله أعلم بمراد رسوله ـ ﷺ ـ، والمنع مع قصد التعظيم ظاهر ليس عليه غبار، والله الموفق.

الباب الثاني والعشرون

(باب ما جاء أنّ بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)

ويصدّق ذلك وجوده في الأمّة الآن.

وتقدّم الكلام على تسمية الوثن في اللغة، حتى اتسعت العرب في ذلك، حتى صار لكل ما عبد من دون الله ـ تعالى ـ حكمًا ومجازًا.

(وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء: ٥١، ٥٢]).

نزلت هذه الآية في اليهود، وكانوا يقولون: إن عبدة الأصنام أرضى عند الله ـ تعالى ـ وأهدى مما يدعو إليه محمد ـ ﷺ ـ[١].

[ر،١٩٠/أ] وقيل: في حُيَيّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف، في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشًا على محاربة رسول الله ـ ﷺ ـ، فقالوا: أنتم أهل الكتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمنُ مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى تطمئن إليكم قلوبنا، ففعلوا[٢].

و«الجبت» في الأصل: اسم صنم، فاستُعمل في كل ما عُبد من دون الله، ويطلق على الساحر، والسحر، والكاهن، والذي لا خير فيه[٣].

---

(١) رواه ابن جرير عن ابن عباس وغيره: ٥/ ١٣٣.

(٢) رواه ابن جرير عن عكرمة: ٥/ ١٣٤.

(٣) انظر تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ١٣٠.

و«الطاغوت» يطلق على كل باطل، من معبود أو غيره، فهو اسم وصف لكل من طغى عن الحق، وتعدّى الحدّ بقول أو فعل إلى الباطل.

وقال عكرمة: هما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله ـ تعالى ـ[1].

وقال أبو عبيد اللغوي[2] وغيرُه من أهل اللغة: هما كل معبود من دون الله، يدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «الجبت»: السحر، والطاغوت: الشيطان. وهكذا قال الشعبي، ومجاهد وغيرهما من السلف[3].

وعن الشعبي: الجبت: الشرك[4].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الجبت: الأصنام[5].

وقال هو وجماعة من السلف: الجبت هو الشيطان[6].

---

(١) رواه ابن جرير: ٥/ ١٣٠.

(٢) لعله القاسم بن سلام، ولا يبعد أن يكون المراد أبا عبيدة معمر بن المثنى؛ فله نحو هذه العبارة في «مجاز القرآن»: ١/ ١٢٩، وهو أخص باللغة من القاسم.

(٣) رواه ابن جرير: ٥/ ١٣١.

(٤) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ٣/ ٩٧٤، (٥٤٤٥).

(٥) رواه ابن أبي حاتم: ٣/ ٩٧٥، وابن جرير: ٥/ ١٣١.

(٦) رواه ابن أبي حاتم: ٣/ ٩٧٤، وابن جرير: ٥/ ١٣٢.

وقيل: الجبت: الأوثان، والطاغوت: شياطين الأوثان؛ فإنّ لكل صنم شيطانًا يعبّر عنها، فيغترّ بها الناس[1].

وقال محمد بن سيرين ومكحول: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر[2].

وقال سعيد بن جبير وأبو العالية: الجبت: الساحر، بلسان الحبشة، والطاغوت الكاهن[3].

وقال الضحّاك: الجبت: حييُّ بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف[4].

يدل عليه قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠]. وهي حكومة مشهورة، سيأتي إن شاء الله توضيحها، ولكن ليس[5] هي سببَ تسميته بالطاغوت، وإنما هو من المضلّين عن سبيل الله، الصادّين عن اتّباع محمد ـ ﷺ ـ، المزينين لعبادة الأصنام والأوثان، فلهذا سمي طاغوتًا، يدل عليه قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ـ يعني كفّار قريش ـ ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ـ يعني محمدًا ـ ﷺ ـ وأصحابه ـ ﴿سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾، ممّا عليه محمدٌ وأصحابُه، ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١، ٥٢]،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ٣/ ٩٧٥، (٥٤٥١).

(٢) رواه ابن جرير: ٥/ ١٣٢.

(٣) رواه ابن جرير: ٥/ ١٣١، ١٣٢.

(٤) رواه ابن جرير: ٥/ ١٣٢، عن الضحاك وعن ابن عباس أيضًا.

(٥) كذا بالأصل: والصواب: «ليست».

فختم لكعب بن الأشرف وأصحابه باللعن، كما ختم لإبليس بذلك في الآية الأخرى؛ لأن داءهما واحد، وهو الحسد والإضلال عن الهدى، وتسفيهُ أمر الله وحكمتِه ـ جل وعلا ـ، بالمعاندة والطعن والإصرار، وأنه مُحقٌّ في ذلك.

ولهذا قال: [ر،١٩١/ب] ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فجعل الطاغوت جمعًا.

قال مقاتل: يعني كعب بن الأشرف، وحييَّ بن أخطب، وسائر رؤساء الضلال[١].

فالشيطان داخل في هذا القول، وكل من دعا إلى ضلالة، كما نبهنا عليه.

ولهذا قال: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾، قال أهل التفسير: يدعونهم [ك،٩٣/أ] من النور إلى الظلمات[٢]، فهم يضلّونهم.

ونظائر هذا في القرآن كثير[٣]، كقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٧ـ ٣٠].

وقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٩].

---

(١) ذكره عنه البغوي في تفسيره: ١/ ٢٤١.
(٢) كذا في تفسير البغوي: ١/ ٢٤١.
(٣) كذا في الأصل، وصوابها «كثيرة».

وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ [النساء: ٧٦].

ففي هذه الآية دليل على أنّ الطاغوت هو الشيطان، فالطاغوت يكون مذكّرًا ومؤنّثًا، وواحدًا وجمعًا، فالمفرد في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ الآية [النساء: ٦٠]، والمؤنّث في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]، والجمع في قوله: ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقد استشكل بعض أهل العلم قوله: ﴿يُخۡرِجُونَهُم﴾، وهم كفار، لم يكونوا في نورٍ قط؟!.

فأجيب بأنهم اليهود؛ كانوا مؤمنين بمحمد ـ ﷺ ـ قبل بعثه، لما يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما بُعث كفروا به، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

وقيل: هي على العموم في حق جميع الكفار، ومنعهم إيّاهم من الدخول فيه إخراجٌ لهم منه، كما يقول الرجل لأبيه: «أخرجتني من مالك»، ولم يكن له فيه نصيب(١).

---

(١) انظر تفسير البغوي: ١/ ٢٤١.

والعرب تذكر الخروج والعود، وتريد بذلك الابتداء، كما قال أميّة ابن أبي الصلت:

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعاد بعدُ أبوالا[1]

فإنّ اللبن قبل الشوب حلو، ليس فيه مرارة يعود إليها[2].

وكقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، ولم يكن دخل في ملّتهم.

وقول شعيب ـ عليه السلام ـ: [ر،١٩١/أ] ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: ٨٩]، على أحد الأقوال، وإلا فالمشهور أنه خطاب لأتباعه.

ويحتمل أن المعنى يخرجونهم من النور الذي هو فطرة الله التي فطر عليها عباده، في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وفي الحديث الصحيح: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه أو ينصّرانه، كما تنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدع»[3].

---

(١) نسبه الخطابي في غريب الحديث (١/ ١١١) لأبي الصلت، وكذا ياقوت في معجم البلدان (٤/ ٢١٠). وهو في ديوان أمية: ١٧٩، صادر.

(٢) عند هذا الموضع كتب في الطرة: [بلغ مقابلة على أصله فصح].

(٣) رواه البخاري: ١/ ٤٥٦، الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات..، (١٢٩٢)، ومسلم: ٤/ ١٦٢٤، القدر، باب (٦)، حديث (٢٦٥٨).

وفي الحديث القدسي: «إنّي خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم»[1].

ولهذا قال في المثل الناري في سورة النور: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، وقال العلماء: نور الوحي على نور الفطرة[2].

فسمى ـ سبحانه ـ الفطرة التي فطر عليها عباده نورًا، كما سمى الوحي الذي أنزله على محمد ـ ﷺ ـ نورًا في قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالشياطين ودعاة السوء المتصفون بالطاغوتيّة يغيّرون فِطَر الخلق، ويخرجونهم من نور الفطرة التي فطرهم باريهم عليها، ووُلدوا عليها، إلى ظلمات الشرك والشك والبدع في دينه، الذي لا يخالف نورَ فطرته التي فطر الناس عليها.

فقد علمت أن الاختلاف في مسمى ذلك ليس باختلاف تضادّ، وإنّما هو اختلاف تنوّع.

فلما كان اسم الطاغوت عندهم اسمَ وصف، عبّر كل منهم عن الموصوف باسم الصفة، فعبّر أكثرهم بالشيطان؛ لأنه رأسُ المضلّين عن صراط الله المستقيم، ولهذا حذّر الله منه أشدّ التحذير بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، وقد

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم: ٤/ ١٧٤١، الجنة، باب (١٦)، حديث (٢٨٦٥).

(٢) انظر «الوابل الصيب» لابن القيم: ص ٧٧. و«اجتماع الجيوش» له: ص ١٤.

حذّر - سبحانه - عباده عن تولّيه كل الحذر[1]، وتوعّد من تولاه وعَشِيَ عن ذكر الرحمن أن يخلّي بينه وبينه، فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

فالحاصل أنّ الطاغوت اسم وصف شاملٌ لكل من عدل عن الحق إلى الباطل، فيطلق عليه هذا الاسم، أو يشملُه مسمّاه، خصوصًا إذا زَخرف الباطلَ، ودعى إليه، وهو يعلم أنّ الحق خلافُه، كإبليس لعنه الله، وكعبِ بن الأشرف، وحُييِّ بن أخطب، وأشباهِهم، وكلٍّ من دعى إلى ضلالة.

وكذا السّاحرُ؛ [ر،١٩٢/ب] فإنه يزخرف باطله في صورة الحق، ولهذا قال: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦]، وقد يكون فيه ما يؤثر، ولكن لا يضرّ إلا بإذن الله، ولهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وكذا الكاهن والتحاكُم إليه؛ فإنه يزخرف قوله الباطل بكلمته الصدقِ التي يلقيها إليه شيطانه من الجن، إذا استرق له السمع من السماء، ليضل الناس بها، ويلبّس عليهم دينهم، فسمّي بذلك طاغوتًا.

وأيضًا فالساحر والكاهن أفعالهم وأقوالهم مكتسبة من الشياطين، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فالشيطان بهذا الاعتبار هو رأس دعاة الضلال، فاستحق الاسمَ الأعظمَ من الطاغوتية، فكان كاسم العلَم له؛ لأن الذي

---

(١) كذا في الأصل، وصوابها: «كل التحذير».

يطلَق عليه من غيره هو له تبع، فصار بذلك هو الطاغوت الأكبر، أعاذنا الله والمسلمين بسلطانه منه ومن تولّيه؛ فإنه ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

فعلى المؤمن أن يتبع ما جاء به رسول رب العالمين، محمدٌ خاتم المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأن لا يلتفت إلى دعاة الباطل، كائنًا من كان، وليكن منهم على حذر.

وأطلنا الكلام [ك،٩٤/ب] في هذا المقام لمسوس الحاجة إليه، والله الموفق.

(وقوله: ﴿(١) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾ [المائدة: ٦٠]).

يقول ـ تعالى ـ: قل يا محمد: أأنبئكم، أي أخبركم بشر من ذلك الذي ذكرتم، يعني قولهم: لم نر أهل دين أقلَّ حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًا من دينكم.

فذكر الجواب بلفظ الابتداء، وأن يكون الابتداء شرًا، كقوله: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾، أي ثوابًا وجزاءً، نصب على التفسير، أو على التمييز عن «شر»، والمثوبة مختصة بالخير، كما العقوبة بالشر، فوضعت المثوبة هنا موضع العقوبة على طريقه(٢) تهكّمًا.

---

(١) في الأصل: قل انبئكم.

(٢) كذا.

والمعنى: أخبركم بشرٍ جزاءً عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟، هم أنتم الذين تتصفون بهذه الصفات، المفسَّرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: أبعده من رحمته؛ إذ اللعن في اللغة: الإبعاد والطرد، والتقصية للملعون. قال النابغة الذبياني:

فبتُّ كأنني حَرِجٌ لعينٌ نفاه الناسُ أو دنِفٌ طعينُ[1]

[ر،٩٢/ب] ثم قال: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، أي غضبًا لا يرضى بعده أبدًا، وهم اليهود ومن نحا نحوهم.

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾، فالقردة: أصحاب السبت، والخنازير كفّار مائدة عيسى ـ عليه السلام ـ[2].

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية علي بن أبي طلحة: أنّ الممسوخين كلاهما[3] من أصحاب السبت، فشُبّانهم مسخوا قردة، ومشائخهم خنازير[4].

وقد صحّ في الصحيحين وغيرهما أن الممسوخين لم يبقوا بعد مسخهم إلا ثلاثة أيام[5].

فهؤلاء مسخوا على صورة أقبح الحيوانات؛ مقابلة لعملهم، وعبرة

---

(١) ديوانه: ص ٢٢٢، ط دار المعارف.

(٢) رواه ابن جرير عن قتادة: ٧/ ١٣٦.

(٣) كذا في الأصل، وصوابه: كلُّهم.

(٤) رواه ابن جرير: ٩/ ١٠١، وابن أبي حاتم: ١/ ١٣٣، (٦٧٣)

(٥) لم أعثر عليه في الصحيحين، وإنما رواه ابن جرير عن ابن عباس عند تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ..﴾ الآية، (١/ ٣٢٩، ٣٣٠).

لأهل وقتهم ومن بعدهم تحذيرًا عن عملهم.

وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾، قرىء بالإضافة، على أنّ المعنى: وجعل منهم خدم الطاغوت، أي خدّامه وعبيده.

وقرىء على أنّه جمع كعبْد وعبيد، مثل «ثمار» و«ثَمَر».

وحكى عن بريدة أنّه قرأها: «وعابد الطاغوت»[1].

وحكى ابن جرير عن أبي جعفرٍ القارىء أنه كان يقرؤها: «وعُبد الطاغوت»، على أنه مفعول ما لم يسمّ فاعله، ثم استبعد معناها[2].

قال بعض المفسّرين: ولا يبعد ذلك؛ لأنه من التعريض بهم، والمعنى أنّه قد عُبد الطاغوت فيكم، وأنتم الذين فعلتموه[3].

وذكر أبو البقاء في إعرابه في: (وعبد) قريبًا من اثني عشر قراءة[4].

وكل القراءات[5] يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتابين الطاعنين في ديننا، الذي هو توحيد رب العالمين، وإفراده بالعبادة دون من سواه، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد فيكم جميع ما ذكر.

ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي ممّا تظنّون بنا، ثم قال: ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾، وهذا من باب استعمال أفعلِ التفضيل فيما ليس

---

(١) رواه ابن جرير: ٦/ ٢٩٤.

(٢) تفسير ابن جرير: ٦/ ٢٩٤.

(٣) انظر تفسير ابن كثير: ٢/ ٧٥.

(٤) كذا في الأصل، وصوابها: اثنتي عشرة قراءة.

(٥) في الأصل كتبت: القراة.

[فيه][1] من الطرف الآخر مشاركة، كما بيّنا في الوجه الأول في قوله ـ ﷺ ـ: «أسعد الناس بشفاعتي»[2]. وكقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

فجعل مكانهم شرًا ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم، كما هم ﴿أضل عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾، فالنصارى في طرف الغلوّ، واليهود في طرف الجفاء، والصراط المستقيم بين هذين الطرفين؛ لأن سواء السبيل وسطُه؛ إذ سواء كل شيء وسطُه، قال الشاعر:

وصاحبٍ غيرِ ذي ظل ولا نفس　　هيّجتُه بسواء البيد فاهتاجا[3]

ومنه قول البكري النسابة لأبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ حين نسبه فانتسب إليه: «أمكنت من سَواء الثغرة»[4]. وهي نُقرة النحر، وسَواؤها: وسطها[5].

كما قالت صفية بنت عبدالمطّلب وهي ترقّص ابنَها الزبيرَ بن العوّام ـ رضي الله عنهما ـ: [ر، ١٩٣/ ب]

حامي [الحقيق][6] ماجد مصدّق　　[ويضرب الكبش][7] سواء المفرق

---

(١) ليست في الأصل، والمقام يقتضيها.
(٢) رواه البخاري: ١/ ٤٩، (٩٩). وراجع ص ١٥٨/ ب.
(٣) أنشد الخطابي في غريب الحديث: ٢/ ٢٥، ولم يسمّ قائله.
(٤) روى هذا الخبر البيهقي في الدلائل: ٢/ ٤٢٣.
(٥) انظر غريب الحديث للخطابي: ٢/ ٢٥.
(٦) في الأصل: الحقيقة، ولا يستقيم بها البيت، والتصويب من المنمق لابن حبيب.
(٧) في الأصل: يضرب الكبس، والتصويب من المنمق.

وليس بالواني ولا بالأخرق[1]

تقول: يضرب البطل بالسيف وسط المفرق من الرأس.

فالصراط المستقيم وسط بين طرفين: بين الغالي والجافي، فمن جفا من هذه الأمّة سلك طريق اليهود، ومن غلا سلك طريق النصارى.

وقد أخبر الله ـ تعالى ـ وهو أصدق القائلين بأنّهم عبدوا الطاغوت.

وصح وثبت عن رسوله الكريم ـ ﷺ ـ أنّه قال ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ في هذا الباب، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لتتبعنّ سُنن من كان قبلكم» الحديث[2]، وما يأتي في ضمنه في الشرح إن شاء الله ـ تعالى ـ.

وبهذا نقطع يقينًا أنّ كائنًا من أمّته ـ ﷺ ـ من يعبد الأوثان[3].

والمراد حدوث ذلك في أمّة الإجابة، وإلا لم يكن للخطاب منه ـ ﷺ ـ لأمّته فائدةٌ؛ إذ الخطاب لأمّة الإجابة، والله الموفّق.

(وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ [الكهف: ٢١]) وهم السلاطينُ، وذوو الرأي منهم، وقد تقدم الكلام على هذه الآية في الشرح، حيث أوردناها في مادّة تعظيم القبور، واتخاذها مساجد[4].

---

(١) الأبيات في المنمق لابن حبيب: ٣٤٧، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ.

(٢) الحديث في الصحيحين، وسيأتي عزوه.

(٣) كذا العبارة، ولا يخفى ركاكتها، مع وضوح معناها! وصوابها: ..نقطع يقينًا أنه كائن من أمته..

(٤) راجع ص ٨٨٦.

(﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾)، وهذا من عمل الضالين بالابتداع في الدين، الذين لعنهم رسول الله ـ ﷺ ـ، باتخاذهم القبورَ مساجدَ.

وقد نهى ـ ﷺ ـ أمّته عن ذلك في غير ما موطن، حتى في وقت مفارقته الدنيا، في قوله: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»[1].

وقد ابتلي به كثير من هذه الأمّة، نسأل الله الكريم [ك،٩٤/أ] الحماية من الدخول تحت لعنة سيد البشر ـ ﷺ ـ، وغضب مرسلِه ـ جل وعلا ـ.

(عن أبي سعيد) الخدري الأنصاري (ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لتتبعنّ سُنن) بضم المهملة ـ والفتح فيها لغةٌ ـ: جمعُ سُنّة، قال زهير بن أبي سُلمى يعاتب بني عليم من كنانة عذرة:

أرونا سُنّةً لا عيبَ فيها يسوّي بيننا فيها السواءُ[2]

وقال لبيد بن ربيعة ـ رضي الله عنه ـ:

من معشر سنّت لهم آباؤُهم ولكل قوم سنّةٌ وإمامها[3]

(من كان قبلكم)، يعني السنن التي ابتدعوا في دينهم؛ إذ السنة في اللغة: الطريقة والمنهج، فلذلك أضاف سنتهم إليهم؛ لأنهم الذين ابتدعوها، فلا يدخل تحت هذا اللفظ سنن الأنبياء والمرسلين ـ عليهم

---

(١) رواه مسلم عن جندب، برقم (٥٣٢)، وقد تقدم.
(٢) ديوانه: ص ٨٤.
(٣) من معلقته، انظر ديوانه: ٣٢٠. الكويت.

الصلاة والسلام إلى يوم الدين ـ؛ [١٩٣/ب] إذ هي في نفسِها ليست مذمومةً، بل هي ممدوحةٌ؛ إذ لا يتم إيمانٌ إلا بالإيمان بها جملة.

وأما إذا أُطلقت السنة في الشرع، فإنما يراد بها: ما أَمر به النبي ـ ﷺ ـ، أو نَهى عنه، أو ندب إليه، مما لم ينطق به الكتاب العزيز، قولاً وفعلاً أو إقرارًا.

ولهذا حذّر ـ ﷺ ـ عن بدع الضلال أشد التحذير.

فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم. ويقول: «بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتين»، ويقرن بين أصبعيه: السبابةِ والوسطى، ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ـ ﷺ ـ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة». رواه مسلم في صحيحه[١].

وفي رواية للنسائي: «وكل ضلالة في النار»[٢].

وفي الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعًا: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[٣].

وفي لفظ في الصحيح: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردّ»[٤].

---

(١) صحيح مسلم: ٢/ ٤٩٦، الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، (٨٦٧).

(٢) سنن النسائي: ٣/ ١٨٨، ١٨٩، (١٥٧٨)، وصحح إسنادها ابن تيمية كما في «بيان الدليل على بطلان التحليل»: ١٧٣.

(٣) رواه مسلم: ٣/ ١٠٨٣، الأقضية، باب (٧)، حديث (١٧١٨)، وجزم البخاري بهذا اللفظ في موضعين من صحيحه: ٢/ ٧٥٣، ٦/ ٢٦٧٥، دون أن يسنده.

(٤) رواه البخاري: ٢/ ٩٥٩، الصلح، باب إذا صلحوا على صلح جور. .، (٢٥٥٠)، =

وفي حديث العرباض بن سارية المتقدّم في السنن مرفوعًا أنه قال: «من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، تمسّكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنّ كل بدعة ضلالة»[١].

وهذه قاعدة دلت عليها السنة وإجماع الأمّة، مع ما في الكتاب عليها من الدلالة[٢].

قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله ـ تعالى ـ، أو أوجبه بقوله أو بفعله من غير أن يشرعه، فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ـ تعالى ـ.

وقد عاب الله على المشركين شيئين: أحدهما: أنهم أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًا. والثاني: أنّهم حرّموا ما لم يحرّمه الله[٣].

وبيّن ـ ﷺ ـ ذلك فيما رواه مسلم في صحيحه، عن عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالهم الشيطان، وحرّم عليهم ما أحللت لهم، وأمرهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطانا»[٤].

= ومسلم: ٣/ ١٠٨٣، الأقضية، باب (٧)، حديث (١٧١٨).

(١) رواه أحمد: ٤/ ١٢٦، وأبو داود: ٤/ ٢٠٠، (٤٦٠٧)، وابن ماجه: ١/ ١٦، (٤٣)، وابن حبان في صحيحه: ١/ ١٧٨، (٥)، والحاكم في المستدرك: ١/ ١٧٤، (٣٢٩)،

(٢) انظر «اقتضاء الصراط»: ٢/ ٥٨٢.

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم»: ٢/ ٥٨٣.

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٤١، الجنة. .، باب (١٦)، حديث (٢٨٦٥)، ولفظه في =

ولهذا قال ـ تعالى ـ عن المشركين: [ر،١٩٤/ب] ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ (١)﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فجمعوا بين الشرك والتحريم.

والشرك يدخل فيه كل عبادة لم يأذن الله ـ جل ثناؤه ـ بها(٢)؛ فإنّ المشركين يزعمون أنّ عبادتهم إما واجبة، وإما مستحبّة، وأنّ فعلها خير من تركها، ثم منهم من عبد غير الله ـ تعالى ـ ليتقرّب بعبادته إلى الله، ومنهم من ابتدع دينًا عبدوا به الله ـ عز وجل ـ بزعمهم، كما أحدثته النصارى من أنواع العبادات المحدثة(٣).

وأصل الضلال المغيّرِ لدين الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إنما نشأ من هذين: إما اتخاذُ دين لم يشرعه الله، أو تحريمُ ما لم يحرمه الله(٤).

والأصل في الدين ألا يُعبد إلا الله، بما شرع في كتابه، أو على ألسنة رسله.

ثم قال ـ ﷺ ـ واصفًا لذلك في قوله: («حذو القذّة بالقذّة)، وفي لفظ: «حذو النعل بالنعل»(٥).

= الصحيح بالجمع: فاجتالتهم الشياطين. . .

(١) في الأصل: من دونه من شيء، وهو خطأ.

(٢) وجه ذلك أن التشريع حق خالص لله وحده دون شريك، سواء في العبادات أو الأحكام، فمن شرع من دون الله شيئًا من ذلك شمله وصفُ الشرك.

(٣) الاقتضاء: ٢/ ٥٨٤.

(٤) الموضع السابق.

(٥) رواه الترمذي: ٥/ ٢٦، (٢٦٤١)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٢١٨، (٤٤٤)، والطبراني في الكبير: ٦/ ٢٠٥. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٢/ ٣٣٤.

والحذو: التقدير بالقطع. والقَدّ والقذُّ ـ بإعجام الذال وإهمالها ـ بمعنى.

والقُذّة ـ بضم القاف ـ جمعها: «قُذَذ»: ريش السهم، وهي بالذال المعجمة. فَعْلتها: «قَذّة» ـ بفتح القاف ـ.

والمعنى أنكم ستعملون مثل أعمالهم، وتبتدعون في دينكم مثل ابتداعهم، كما تقطع أحدُ النعلين[1]، وتُقذ أحد القذتين على حذو الأخرى، أي قدرها!

ومنه قول عمر ـ رضي الله عنه ـ في ميقات الحج المكاني: فانظروا حذوها من الأخرى[2].

وهذا مثل يضرب للشيئين يستويان ولا يتفاوتان.

وسميت النعلان بالحذاء لأنه يحاذي بأحدهما الأخرى، وبها القدم، فتُقدّ على حذوها.

قال مسلم بن معبد الوالبي في ذلك:

جزى الله الصحابةَ عنك شرًّا ... وكل [صحابةٍ][3] لهمُ جزاءُ

بفعلهمُ فإن خيرًا فخيرٌ ... وإن شرًّا كما مُثل الحذاءُ[4]

---

(١) كذا، والصواب: إحدى النعلين، إحدى القذّتين.

(٢) رواه البخاري: ٢/ ٥٥٦، الحج، باب ذات عرق. . ، (١٤٥٨).

(٣) في جميع النسخ: (الصحابة) وفي الفائق للزمخشري (٣/ ٣٤٥):

جزى الله الموالي منك نصفًا ... وكل صحابةٍ لهمُ جزاءُ

(٤) أنشده الزمخشري في الفائق: ٣/ ٣٤٥، وقد وقع في الأصل بين البيتين خطأ =

وقال الآخر[1] في الحذو [في عبدالله بن عبيد الله بن عباس][2].

إذا ما نزلتم حذوَ نزّاعةِ الشوى   بيوتَ [ابن قطرٍ] فاحذروا أيها الركب[3]

ونزّاعة الشوى موضع بمكة[4].

وقال غيلان ذو الرُمّة في «القدّ» [ر،١٩٤/أ] الذي هو بمعنى القطع، يفتخر بإلياسَ بن مضر، وبخندفَ أمِّ بنيه[5]:

أبونا إياسٌ قَدَّنا من أديمِهِ   لوالدةٍ تُدهِي البنين وتذكِرُ

[ك،٩٥/ب] يقول: الوالدة وهي خندِفُ بنت عمرانَ بن الحاف بن قضاعة، وهي أم أولاد إلياس، قيل: اسمها «ليلى»، و«خندِفُ» لقب، يقول: تأتي بأولادها ذكورًا دهاة.

ثم قال ـ ﷺ ـ مبالغةً في ذلك: (حتى لو دخلوا) يعني الذين قبلهم، من اليهود والنصارى وفارسَ والرومِ، كما سيأتي.

= عبارة [وقال الآخر فى الحذو].

(١) هو أبو الفضلاء عبدالله بن خالد مولى الأخنس بن شريق كما في أخبار مكة للفاكهي: ٤/ ١٤٦، ط ابن دهيش.

(٢) زيادة من [م].

(٣) البيت في جميع النسخ هكذا:

إذا ما نزلتم خدو نزّاعة الشوى   بيوت بني قطنٍ فاحذروها أيها الركبُ

وهو في أخبار مكة للأزرقي (٢/ ٢٧٤) هكذا:

إذا ما نزلت خدو نزّاعة الشوى   بيوت ابن قطر فاحذروا أيها الركبُ

أما في أخبار مكة للفاكهي (٤/ ١٤٦) فهو هكذا:

إذا ما مررتم نحو نزّاعة الشوى   بيوت بني قطرٍفاحذروها أيها الركبُ

(٤) انظر معجم البلدان: ٣/ ٣٦٩، ٥/ ٢٨١.

(٥) ديوانه: ٢/ ٦٥٥، بشرح الباهلي.

(جُحرَ)، بضم الجيم في أوّله: لكل ما انجحر في الأرض، باتخاذه فيها، من السباع والهوام والحشرات والحيوانات.

وهنا قال: «جحر (ضب)»، فأضافه إلى الضب المعروف مبالغةً؛ لصغر جحره.

وحكمه: حلّ الأكل عندنا[1]؛ لقصّة خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ، وأكْلِه له بين يدي النبي ـ ﷺ ـ، كما في الصحيحين[2]، خلافًا لأبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ[3].

(لدخلتموه)، ومعلوم أن الآدمي لا يدخل جحر الضبّ، وإنما العرب تمثل بالمحال مبالغةً في الأمر، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وقال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥]، وقال ـ ﷺ ـ: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[4]، وقوله ـ ﷺ ـ: «اسمعوا وأطيعوا ولو تأمّر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[5]، وهذا منه ـ ﷺ ـ مبالغةٌ في السمع والطاعة لولي الأمر، وإلا فإنه ـ ﷺ ـ ما كان يريد إمارته، وقد

---

(١) انظر «المغني»: ٩/ ٣٣٦، ومجموع الفتاوى: ٢٠/ ٣٣٥.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٠٦٠، الأطعمة، حديث(٥٠٧٦)، وصحيح مسلم: ٣/ ١٢٢٦، الصيد. . ، باب إباحة الضب، (١٩٤٥).

(٣) انظر المبسوط للسرخسي: ١١/ ٢٣١، وبدائع الصنائع للكاساني: ٥/ ٣٦.

(٤) رواه البخاري: ٣/ ١٢٨٢، الأنبياء، باب (٥٢)، حديث (٣٢٨٨)، ومسلم: ٣/ ١٠٦٢، الحدود، باب (٢)، حديث (١٦٨٨).

(٥) رواه البخاري بنحوه: ١/ ٢٤٦، الجماعة والإمامة، باب (٢٦)، حديث (٦٦١).

قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»[1] أو «ما أقاموا الدين»[2]، وقال: «لا ينازعهم أحد في هذا الأمر إلا كبّه الله على وجهه»[3]، والأحاديث صحيحة صريحة.

وما كانت ابنته الزهراء ـ رضي الله عنها وصانها ـ لتسرق، وإنما هو مبالغة في إقامة الحد.

(قالوا يا رسول الله، اليهود والنصارى؟)، يعني أردت بمن قبلنا؟.

(قال: فمن؟).

وسمّيت «اليهودَ» بقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقيل: من أنّهم هادوا، أي تابوا من عبادة العجل، وقيل: إنهم يتهوّدون عند قراءة التوراة، أي يتحرّكون، ويقولون: السموات تحركت حين آتى اللهُ موسى التوراةَ، قاله أبو عمرو بن العلاء[4].

وقيل: من نسبتهم إلى يهوذ بن يعقوب، قيل لهم: «اليهوذ» بالمعجمة، ثم عُرّب بالمهملة، نقله غير واحد[5].

ويقال: «يهود» و«يهدان»، [ر،١٩٥/ب] قال حسان بن ثابت ـ رضي

---

(١) رواه البخاري: ٣/ ١٢٩٠، المناقب، باب مناقب قريش، (٣٣١٠) ومسلم: ٣/ ١١٥٤، الإمارة، باب (١)، حديث (١٨٢٠).

(٢) رواه البخاري: ٣/ ١٢٩٠، (٣٣٠٩).

(٣) الموضع السابق.

(٤) انظر تفسير البغوي: ١/ ٧٩، وابن كثير: ١/ ١٠٤، وتهذيب الأسماء للنووي: ٣/ ٣٥٧.

(٥) ضعّف هذا ابن سيده، انظر اللسان: ٣/ ٤٣٩.

الله عنه ـ في الضحاك بن ثابت، أحدِ بني كعب، رهطِ سعد بن زيد الأنصاري، من بني عبد الأشهل، وكان من بينهم يُتّهمُ بالنفاق وحُبِّ اليهود.

من مبلغ الضحّاكِ أن عروقَهُ أعْيتْ على الإسلام أن تَتمجّدا
أتحبُّ يُهدانَ الحجازِ ودينَهم كبِدَ الحمار ولا تحبُّ محمدًا
دينٌ لعَمْرك لا يوافق ديننا ما استنّ آلٌ في الفضاءِ وخَوَّدًا[1]

وأما النصارى فقالوا: واحدهم: «نَصران»، بمعنى: نصراني، و«نصرانيّة»، نسبةً إلى قرية بالشام، يقال لها: «نصران»، ويقال: «ناصرة»[2]، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

(أخرجاه) في الصحيحين[3].

وفي البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمّتي ما أخذت القرونُ شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع»، فقيل: يا رسول الله، كفارسَ والروم؟. قال: «ومن الناس إلاّ أولئك»[4].

فأخبر ـ ﷺ ـ أنه سيكون في أمّته مضاهاةٌ لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة أيضًا لفارس والروم، وهم الأعاجم.

---

(١) ديوان حسان: ١/ ١٩٢، بتحقيق د. وليد عرفات. دار صادر.
(٢) يقال إنّ المسيح ولد فيها، انظر معجم البلدان: ٥/ ٢٥١.
(٣) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٧٤، الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، (٣٢٦٩)، ومسلم: ٤/ ١٦٣١، العلم، باب (٣)، حديث (٢٦٦٩).
(٤) صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٦٩، الاعتصام. .، باب (١٤)، حديث (٦٨٨٨).

وقد كان - ﷺ - ينهى عن التشبّه بهؤلاء وهؤلاء.

وليس هذا إخبارًا عن جميع الأمّة، بل قد تواتر عنه - ﷺ - أنّه قال: «لا تزال طائفة من أمته[1] ظاهرةً على الحق حتى تقوم الساعة»[2].

وفي رواية: «لا يضرهم من خذلهم»[3].

وأخبر أن الله لا يجمع هذه الأمّة على ضلالة، كما عند ابن ماجه[4]، وإن كان هذا الحديث والذي بعده ليس في رتبة الذي قبله في الصحة، فهما داخلان في معناه.

وأخبر «أن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعة الله»[5].

فعُلم بخبره - ﷺ - الصدقِ أنّ في أمّته قومًا متمسكون[6] بهديه، الذي هو دين الإسلام محضا، وقومًا منحرفون[7] إلى شعبة من شعب

---

(١) كذا، والذي في الصحيحين: «من أمتي».

(٢) رواه البخاري: ٦/ ٢٦٦٧، الاعتصام. .، باب (١٠)، حديث (٦٨٨١)، ومسلم: ١/ ١٢٤، الإيمان، باب (٧١)، حديث (١٥٦).

(٣) رواه البخاري: ٣/ ١٣٣١، (٣٤٤٢)، ومسلم: ٣/١٢٠٩، (١٩٢٠).

(٤) سنن ابن ماجه: ٢/ ١٣٠٣، (٣٩٥٠)، ورواه أحمد: ٦/ ٣٩٦، والترمذي: ٤/ ٤٦٦، (٢١٦٧)، والحاكم في المستدرك: ١/ ٢٠٢، (٣٩٨)، والطبراني في الكبير: ٢/ ٢٨٠، وحسنه الألباني كما في تخريج السنة لابن أبي عاصم: ١/ ٤١.

(٥) رواه ابن ماجه: ١/ ٥، (٨)، وأحمد: ٤/ ٢٠٠، وحسنه الألباني كما في السلسلة الصحيحة برقم (٢٤٤٢).

(٦) كذا، والصواب: متمسكين؛ لأنها صفة «قومًا».

(٧) كذا، والصواب: منحرفين.

اليهود، وإلى شعبة من شعب النصارى، وإلى شعبة من شعب فارس والروم.

وإن كان الرجل قد لا يكفّر بكل انحراف، بل وقد لا يفسّق أيضًا، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع، ويزيّنه الشيطان، فلذلك أُمر العبد بالدعاء لله ـ سبحانه ـ، ومداومته عليه، بالهداية إلى الاستقامة، التي لا يهوديةً ولا نصرانيةً أصلاً.

وهذه الأحاديث كلّها خرجت [ر،١٩٥/أ] منه ـ ﷺ ـ مخرج الخبر عن وقوع ذلك، والذمِّ لمن اتبع غير سبيل المؤمنين، والمدحِ لمن تمسك بسبيلهم.

وهذا كما كان يخبر ـ ﷺ ـ عمّا يفعله الناس بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرّمات.

فعُلم ممّا تقدّم أن مشابهة اليهود والنصارى وفارسَ والروم مذمومةٌ، إذا كانت فيما لم يأذن الله به، ممّا ذمّه الله ورسوله، وهو المطلوب من البيان.

ولا يقال: فإذا كان الكتاب والسنّة قد دلاّ على وقوع فعل، فما فائدةُ النهي عنه؟

لأن الكتاب والسنة قد دلاّ على أنّه لا يزال في هذه الأمّةِ طائفةٌ ظاهرةً متمسكةً بالحق الذي بعث الله به محمدًا ـ ﷺ ـ إلى قيام الساعة، وأنها لا تجتمع على ضلالة، كما تقدم التنبيه عليه؛ فإن في النهي عن

ذلك تنبيهًا وتكثيرًا لهذه الطائفة المنصورة، وفيه تثبيتٌ لها، وزيادة لإيمانها، وليخرجَ ـ ﷺ ـ عن تبعة ما حُمّل من البلاغ، ومن باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]، فنسأل الله الكريمَ المجيبَ أن يجعلنا من هذه الطائفة [ك،٩٥/أ] الظاهرة المنصورة، إنه لطيف وهاب.

(ولمسلم) في صحيحه[1] (عن ثوبان) الهاشمي، مولى رسول الله ـ ﷺ ـ، صحبه ولازمه، ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

(أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنّ الله زوى لي الأرض).

الزوْي: جمع أطراف الشيء حتى يجتمع، ومعناه: قبضها وتجمّعها[2]. يقال: «انزوى الشيء» إذا تقبض وتجمّع.

(فرأيت مشارقها ومغاربها).

وفي رواية: «فأريت»، وهي رواية الترمذي[3]، أي: التي زويت لي.

(وسيبلغ ملكُ أمّتي ما زُوي لي منها)، قد يتوهم بعض الناس أن «من» ههنا معناه التبعيض، فيقول: كيف يشترط في أول الكلام الاستيعاب، ورُدّ آخره إلى التبعيض؟.

وليس ذلك على ما يقدّرونه، إنما معناه ـ كما قال الخطابي وغيره ـ

---

(١) ٤/ ١٧٥٤، الفتن..، باب (٥)، حديث (٢٨٨٩).

(٢) كذا، والأصوب: «قبضها وتجميعها»، أو «انقباضها وتجمّعها».

(٣) إنما في سنن الترمذي: ٤/ ٤٧٢، (٢١٧٦): «فرأيت».

التفصيل للجملة المتقدمة، والتفصيل لا يناقض الجملة ولا يبطل شيئًا منها[1].

وفي البخاري عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ خرج يومًا فصلّى على أهل أحد صلاته على الميّت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإنّي لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكنّي [ر،١٩٦/ب] أخاف عليكم الدنيا؛ أن تنافسوا فيها»[2].

وقد وقع جملة ممّا ذكر ـ ﷺ ـ، من الفتح على أمّته، والتنافس في الدنيا، فوقع بسبب ذلك الخللُ في الإيمان والأعمال، وما حدث في ضمن ذلك من الابتداع في الدين، وافتراق المسلمين، وسيُنزل الله عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ إلى الأرض خليفة لمحمد ـ ﷺ ـ، ليعيد الأمان والإيمان، ويعمَّ بالعدل الأرض، ويصدّقَ ميعاد النبي ـ ﷺ ـ في ملك أمّته للأرض كلّها، حتى يكون عيسى ـ عليه السلام ـ من أصحابه، ومن أئمة دينه، ومن أنصاره، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فليس إلا الإيمانُ أو السيف[3]، فإذا مات ـ عليه السلام ـ دفن مع النبي ـ ﷺ ـ وصاحبيه[4]، كما قد ذكرنا ذلك عمّن رواه[5].

واختلّت الأرض، ورُفعت الأمانة، وضلّ الخلق اعتقادًا وعملاً،

---

(١) معالم السنن: ٦/ ١٣٦.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٤٥١، الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، (١٢٧٩)، ورواه مسلم أيضًا: ٤/ ١٤٣٢، الفضائل، باب (٩)، حديث (٢٢٩٦).

(٣) انظر صحيح البخاري: ٣/ ١٢٧٢، (٣٢٦٤)، وصحيح مسلم: ١/ ١٢٢، (١٥٥).

(٤) انظر سنن الترمذي: ٥/ ٥٨٨، رقم (٣٦١٧)، والتمهيد: ٦٤/ ٢٠٣، والباري: ٧/ ٦٦.

(٥) لم يسبق له ذكر روايات في نزول عيسى إلا ما في ص١٣٤.

حتى لا يكون في الأرض من يقول: «اللهُ اللهَ» ـ بضم الهاء وفتحها، وسيأتي قريبًا توجيهه إن شاء الله تعالى ـ.

(وأعطيت الكنزين: الأحمرَ) كنز قيصرَ ملكِ الروم؛ لأن غالب كنزه الذهبُ الأحمر، ولحمرة ألوانهم.

(والأبيضَ) كنز كسرى، مِلِكِ الفرس؛ لأن غالب كنزهم الفضةُ البيضاء، ولبياض ألوانِهم.

فوصفهما بالغالب من ألوانهم وأموالهم، من الحمرة والبياض، فصارت بعد ذلك أموالهم وأولادهم ونساؤهم بأيدي المسلمين غنيمة، ولهذا قال غيلان ذو الرُمّة يهجو هشامًا صاحب مرات الوشم، ويعيّره بالحمرة، كأنّه يعزوه إلى الروم، ويهجو قومه بني امرىء القيس تميم[1]:

تسمّى امرؤ القيسِ بنَ سعدٍ إذا اعتزتْ

وتأبى السِّبالُ الصهْبُ والآنُفُ الحُمْرُ[2]

فلم يُفتح على أمته ـ ﷺ ـ مدينةٌ بعده إلى يوم القيامة إلاّ وقد أعطي مفاتيحَها قبل موته، كما صحّت بذلك الأخبار، منها ما تقدم[3].

وعند مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «بعثت بجوامع الكلم، ونُصرتُ بالرعب، وبينا أنا نائم أُتيتُ

---

(١) كذا، وصوابها: «بني امرىء قيس تميم»، إن أراد إضافة امرىء القيس إلى تميم، أو: «تميمًا» إن أراد إبدال «تميم» من «قومه».

(٢) ديوان ذي الرمة: ١/ ٥٩٢.

(٣) كتب في الطرة عند هذا الموضع: [بلغ مقابلة على أصله فصح].

بمفاتيح خزائن الأرض، فوضِعتْ في يدي»[1].

وهو أيضًا عند البخاري بهذا اللفظ[2].

قال أبو هريرة: فذهب رسول الله ـ ﷺ ـ، وأنتم [تنتثلونها][3]. أي تستخرجونها.

وعند الإمام أحمد مرفوعًا: «ستفتح مشارق الأرض ومغاربها على أمّتي، ألا وعمّالُها في النار إلا من اتقى الله وأدّى الأمانة»[4].

ورواه أيضًا مرسلاً عن الحسن.

ومنها حديث الخندق المشهور[5].

(وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكهم بسنة بعامّة).

السَّنَة: القحط والجدب، وهو عندما تقل الأمطار، ومنها: «القحمة»،

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٣١١، المساجد. .، (٥٢٣).

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٠٨٧، الجهاد، باب (١٢٠)، حديث (٢٨١٥).

(٣) في الأصل: «تنتظونها»، ولم أجدها في أي من روايات الحديث، وما أثبته هو الذي في الصحيحين.

(٤) الزهد: ص ٢٧٧، من زوائد عبدالله بن أحمد عن الحسن مرسلاً، وعنه أبو نعيم في الحلية: ٦/ ١٩٩، وضعفه الألباني كما في السلسلة الضعيفة برقم (٢١٥٣)، وذكر المناوي في فيض القدير (٤/ ٩٨) أن أحمد رواه موصولاً، ولم أعثر عليه، ومع ذلك فقد ضعفه.

(٥) رواه أحمد: ٤/ ٣٠٣، والنسائي: ٦/ ٤٣، (٣١٧٦)، وابن أبي شيبة في المصنف: ٧/ ٣٧٨، وأبو يعلى في مسنده: ٣/ ٢٤٤، (١٦٨٥)، والخطيب في تاريخ بغداد: ١/ ١٣١، وحسن إسناده الحافظ في الفتح: ٧/ ٣٩٧.

[ر،١٩٦/أ] و«الأزْمة»، وهي من الأسماء الغالبة، كالدابة في الفرس، و«المال» في الإبل، قال جريرٌ يمدح أيوب بن سليمان بن عبدالملك:

يأوى إليكَ فلا مَنٌّ ولا جحَدٌ ... من ساقه السنةُ الحصّاء والذيبُ[(١)]

السنة الحصّاء: التي لا مرعى بها ولا نبات، كالرأس الأحص، الذي لا شعر عليه.

وكان القوم إذا أجدبوا أتتهم الذئاب والضباع، فتأكل ما سقط من أموالهم.

ومنه قول الآخر:

أبا خِراشةَ إما كنتَ ذا نَفَرٍ ... فإنّ قوميَ لم تأكلْهم الضبُعُ[(٢)]

وقوله ـ ﷺ ـ: «بسَنة بعامّة» الباء في «بعامّة» زائدة، وقد ورد الحديث بحذفها، وزيدت للتأكيد، ولأنّ «عامّة» صفة لسنة، قال الفرزدق التميمي:

ما أنت بالحكمِ التُّرضى حكومتُه ... ولا الأصيلِ ولا ذي الرأيِ والجَدلِ[(٣)]

فالحاصل أنّ الذي جرت به الدعوة بأن لا تعمّ أمّتَه السنةُ كافةً فيهلكوا عن آخرهم، فأما ألا يجدب قوم ويخصب آخرون فإنه خارج عما جرت به الدعوة؛ لأن ذلك لم يكن على سبيل العموم والاستيعاب لكافّة الأمّة، الذي وردت عليه الدعوة، فلم يكن في شيء منها خُلْف

---

(١) ديوانه: ١/ ٣٤٩.

(٢) البيت للعباس بن المرداس، انظر اللسان: ٨/ ٢١٧، والعين: ١/ ٢٨٥، وغريب الحديث لابن سلام: ٣/ ٤٧، وفيه: أما أنت ذا...

(٣) لم أعثر عليه في ديوانه، وهو من شواهد النحو المشهورة، انظر شرح ابن عقيل: ١/ ١٥٧.

للخبر، وهو أمر محسوس، يشاهد بالعيان.

(ألاّ يسلّط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم)، قال الزجّاج وابن مالك: «سوى» كـ«غير» معنىً وإعرابًا[1].

وهذه دعوة لأمّته ـ ﷺ ـ أخرى.

وأمّا من أنفسهم فإنّ الله ـ سبحانه ـ قضى بأن يجعل بأسهم بينهم؛ عقوبة لهم إذا لم يعملوا بكتابه وسنّة نبيه ـ ﷺ ـ، فيقتلُ بعضهم بعضًا، ويعلو بعضهم بعضًا.

فعند أبي داود، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أمّتي هذه أمّة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل»[2].

وقد وقع بينهم من الحروب والفتن والقتل، ممّا سببه الاختلاف والأهواء، ما لا يقيّدُه قلم بمداد، نسأل الله الحماية والسلامة.

وأمّا عدوّهم [ك،٩٦/ب] فلا يسلّطُ عليهم؛ لدعوة نبيّهم ـ ﷺ ـ.

(فيستبيحُ بيضتهم)، أي مجتمعهم وموضع سلطانهم، ومستقَرَّ دعوتهم، بحيث يستأصلُهم، ويُهلكُ جميعَهم.

قيل: أراد إذا هلكت البيضةُ كان هلاكَ كلِّ ما فيها، من طُعم أو فراخ، وإذا هلك أهل البيضة ربّما سلم بعضُ فِراخها.

---

(١) عن «أوضح المسالك»: ٢/ ٢٨١.

(٢) سنن أبي داود: ٤/ ١٠٥، (٤٢٧٨)، ورواه أحمد: ٤/ ٤١٠، ٤١٨، والبزار: ٨/ ١٠٠، (٣٠٩٩)، والحاكم: ٤/ ٢٨٣، (٧٦٤٩)، وصحح إسناده، ورواه أبو يعلى في مسنده: ١٣/ ٢٦١، (٧٢٧٧)، وحسنه محققه.

وقيل: أراد بالبيضة الحوزةَ، فكأنّه شبّه مكان اجتماعهم والْتآمهم بالبيضة، قال الأعشى:

وفي كل عام بيضة تفقؤونها فتُفقى[1] وتبقى بيضة لا أَخا لَها[2]

وبيضة كل شيء وسطُه ومعظمه، قال الشمّاخ بن ضرار الطائي: [ر،١٩٧/ب]

طوى ظِمئَها في بيضةِ الصيفِ بعد ما جرى في عنانِ الشِّعْرَيَيْنِ الأماعزُ[3]

(وأنّ ربّي قال: يا محمّد، إذا قضيتُ قضاء فإنّه لا يُردُّ)؛ وذلك أنّه ـ ﷺ ـ سأل ربّه لأمّته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعه ذلك كما صحّ بذلك الخبر.

فعند مسلم في صحيحه، عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: أقبلنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فصلّى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربّه ـ عزّ وجل ـ طويلاً، فقال: «سألت ربّي ثلاثًا: سألته ألا يهلك أمّتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته ألاّ يهلك أمّتي بالسَّنة، فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها»[4].

و«القضاء» يأتي في لسان الشرع على نوعين: كَوْنيّ، كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ

---

(١) كذا في الأصل، وفي الديوان: «فتَغْنى».

(٢) «الصبح المنير في شعر أبي بصير»: ص ٢٢٢.

(٣) ديوانه: ٦٤ ط دار الكتاب العربي ١٤١٤هـ، وفيه «القيظ» مكان «الصيف».

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٥٥، الفتن..، باب (٥)، حديث (٢٨٩٠).

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، وهو بمعنى الفراغ من الشيء.

وشرعي، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وهو بمعنى الأمر، يدلّ عليه قوله ـ تعالى ـ في الآية الأخرى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

والظاهر من القضاء هنا أنّه الكوني، فهو لا رادّ لقضائه، وهو الحكيم العليم.

(وإنّي أعطيتك لأمّتك ألا أهلكهم بسَنة بعامّة)؛ بأن تعمّهم بالمحْل والجدب والجوع.

(وألاّ أسلّط عليهم عدوًّا من سوى) أي غير (أنفسهم فيستبيح بيضتهم) مرّ الكلام على البيضة آنفًا.

(ولو اجتمع عليهم من بأقطارها) من عدوّهم، لعصمهم الله ـ تعالى ـ بدعوة نبيّهم محمد ـ ﷺ ـ، فلا يزالون ظاهرين على عدوّهم على الحق، لا يضرّهم من خذلهم إلى يوم القيامة.

و«الأقطار» واحدها: «قُطْر»، وهي الجوانب والنواحي من كل شيء، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ [الرحمن: ٣٣]، قال الفرزدق التميمي:

كم غِنىً فتح الإلٰه لهم به ... والخيل مُقْعيةٌ على الأقطارِ[١]

وهي «الأقتار» أيضًا.

---

(١) ديوانه: ١/ ٣٠٣، وفيه «الأكتار» بدل «الأقطار».

(حتى يكون بعضُهم) هو الذي (يهلك بعضًا)، بتسليط الله ـ تعالى ـ بعضهم على بعض بسبب ذنوبهم.

وأعظم ذلك الهوى، وحبُّ الدنيا، ولكن لن يجمع الله على هذه الأمّة سيفين، سيفًا منها، وسيفًا من عدوّها، كما روى ذلك أبو داود في سننه عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بسند حسن، ولفظه عنه ـ ﷺ ـ أنّه قال: «لن يجمع الله ـ تعالى ـ على هذه الأمّة سيفين»[(١)].

وفي الصحيح عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي ـ ﷺ ـ صعد المنبر فقال: «إنّي لست أخشى عليكم أن تشركوا [ر،١٩٧/أ] بعدي، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها فتقتتلوا، فتَهلِكوا كما هلك من كان قبلكم». قال عقبة: فكان آخر ما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ على المنبر[(٢)].

فيُحمل قولُه ـ ﷺ ـ: «إنّي لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي» على أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، فيُقصر على موضع الخطاب، ولأنّ مفهومه أنّه جعل لهم وقتين: وقت حياته ـ ﷺ ـ، وقد حفظهم الله به، ووقتًا بعد موته، وهو الذي خشي عليهم فيه الدنيا، أو أنه خرج مخرج الغالب فليس له إذًا عموم؛ لصحّة الأحاديث عنه بوقوع عبادة الأوثان في أمّته ـ ﷺ ـ، كما ثبت عنه في الصحاح وغيرها، وقد وقع عيانًا، لا ينكره إلا مكابر معاند، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وروى أبو داود هذا الحديث[(٣)] في سننه بسند صحيح[(٤)].

---

(١) سنن أبي داود: ٤/ ١١٢، (٤٣٠١)، ورواه أحمد: ٦/ ٢٦، وصححه الألباني كما في صحيح الجامع: ٢/ ٩٢٧، (٥٢٢١).

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٤٣٢، الفضائل، باب (٩)، حديث (٢٢٩٦).

(٣) يعني حديث المتن.

(٤) سنن أبي داود: ٤/ ٩٧، (٤٢٥٢).

ـ (ورواه) الإمام الحافظ أبوبكر، أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب، الفقيهُ، المحدّث، الأديب، الصالح، الناسك، (البِرقاني)، بفتح الموحّدة، وكسرها، وسكون الراء المهملة، وبالقاف ثم نون بعد الألف، هكذا ضبطه السبكي في الطبقات[1] وغيرُه.

قال صاحب «لبّ اللباب»[2] ـ: نسبةً إلى قرية من قرىً كانت بنواحي خُوارَزْم، خربت.

قال ياقوت في معجمه: يقال لها: «برقان» ـ بفتح أوّله، وبعضهم يكسر ـ من قرىً كانت شرقي «جيحون»، على شاطئه، بينها وبين الجرجانيّة مدينة خوارزم يومان، وخربت «برقان»، منها الحافظ أبوبكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي البرقاني، سمع ببلده، وورد بغداد، فسمع أبابكر الصوّاف، وأبابكر القطيعي، وسمع ببلاد كثيرة، بجرجان وخراسان وغيرها، ثمّ استوطن بغداد، وكتب عنه أبوبكر الخطيب الحافظ، وغيره من الأئمة[3].

وكان له كتب كثيرة، انتقل من الكرخ إلى قرب باب الشعير، وتفقّه في حداثته، وصنّف في الفقه، ثمّ اشتغل بالحديث، فصار فيه إمامًا.

قال الخطيب: واستوطن بغداد، وحدّث بها، فكتبنا عنه، وكان ثقة ورعًا، متقنًا فهمًا، لم نر [ك،٩٦/أ] في شيوخنا أحفظ[4] منه، حافظًا للقرآن، عارفًا بالفقه، له حظ من علم العربية، كثير الحديث، حسن الفهم

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى»: ٤/ ٤٧.

(٢) للسيوطي: ١/ ١١٩، (٤٨٢).

(٣) «معجم البلدان»: ١/ ٣٨٧.

(٤) في «تاريخ بغداد»: «أثبت».

والبصيرة[1]، صنّف مسندًا صحيحًا[2]، ضمّنه ما اشتمل عليه الصحيحان[3]، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، في آخرها، ومات أوّل يوم من الأضحى، آخر سنة خمس وعشرين وأربعمائة، ببغداد.

وهذا الحديث ممّا أودعه (في صحيحه) على الصحيحين، (وزاد) فيه على ما في صحيح مسلم قوله: (وإنّما أخاف)، الخوف: غلبة ظنّ وصول المكروه، (على أمّتي) يعني أمّة الإجابة، (الأئمة المضلّين).

[ر،١٩٨/ب] وروى هذا اللفظ مرفوعًا الإمام أحمد[4]، والطبراني[5]، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ، ولفظه: «وإنّ أخوف ما أخاف على أمّتي الأئمّة المضلّون».

فكلّ من اتبع على شيء فهو إمام لمتّبعه، قال ـ تعالى ـ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١]، وقد مر قول لبيد ـ رضي الله عنه ـ في قوله:

من معشرٍ سنّت لهم آباؤهم ولكلّ قومٍ سنّةٌ وإمامُها[6]

ولهذا وصفهم ـ ﷺ ـ بالمضلّين؛ ليتميّزوا بذلك من الهادين المهديّين.

---

(١) في «تاريخ بغداد»: «حسن الفهم له، والبصيرة فيه».

(٢) «صحيحا» ليست في «تاريخ بغداد».

(٣) «تاريخ بغداد»: ٤/ ٣٧٤، بتصرف.

(٤) المسند: ٦/ ٤٤١.

(٥) إنما وجدته عند الطبراني من حديث عمر بن الخطاب، «مسند الشاميين»: ٢/ ٩٦، (٩٨١).

(٦) ديوانه: ص ٣٢٠. ط الكويت.

وقال العبد الصالح عبدالله بن المبارك في بيته السائر:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورُهْبانُها[1]

إذ غالب الناس لا يقتدي ولا يأتمّ إلاّ بهؤلاء، في طلب الدين والدنيا.

وعند الإمام أحمد[2] بسند صحيح، والحاكم[3]، عن أبي أيّوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهلُه، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غيرُ أهلِه».

وعند أبي يعلى الموصلي عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إنّ ممّا أتخوّف عليكم رجلاً قرأ القرآن، حتى إذا رُئيت بهجته عليه انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا رسول الله، أيّهما أولى بالشرك، المرمي أو الرامي؟. قال: «بل الرامي»[4].

ورواه الدارمي في مسنده بنحوه[5].

---

(١) رواه البيهقي في الشعب: ٥/ ٤٦٤، (٧٣٠٠) في أبيات، وهو عنده: وهل بدّل الدين. . . وبهذا اللفظ أيضًا رواه أبو نعيم في الحلية: ٨/ ٢٧٩.

(٢) المسند: ٥/ ٤٢٢، وضعفه الألباني كما في الضعيفة برقم (٣٧٣).

(٣) المستدرك: ٤/ ٥٦٠، (٨٥٧١)، وقال: صحيح الإسناد.

(٤) هو في المسند الكبير لأبي يعلي، انظر المطالب العالية لابن حجر برقم (٤٣٦٢) وقد ذكره بإسناد أبي يعلى ابنُ كثير في تفسيره: ٢/ ٢٦٦، وجوّد إسناده، ورواه ابن حبان في صحيحه: ١/ ٢٨١، ٢٨٢، (٨١).

(٥) لم أجده في المطبوع منه.

وفي شعب الإيمان للبيهقي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنما أخاف على هذه الأمّة كلّ منافق يتكلّم بالحكمة، ويعمل بالجور»[1].

ثم ذكر ـ ﷺ ـ أوّل وقوع ذلك وآخر منتهاه بقوله: (وإذا وقع عليهم السيف) يعني من بعضهم على بعض، (لم يُرفع عنهم) أي السيف، عن مجموعهم، لا عن جميعهم، قضاءً من الله ـ تعالى ـ، وقدَرًا سابقًا عليهم، والعيان يصدّق ذلك بوجوده فيهم نسأل الله ـ تعالى ـ بلطفه الحماية والعفو والعافية، إنه كريم وهّاب لطيف بالعباد، وأن يجعلنا وإخوانَنا المسلمين من الناجين من الفتن المضلّة.

(إلى يوم القيامة).

روى هذا الفصل، من قوله: «وإنما أخاف على أمّتي» إلى آخر الحديث، أبو داود[2] والترمذي[3]، بنحو رواية البرقاني، عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا، وسيأتي الكلام على لفظ «القيامة» قريبًا إن شاء الله ـ تعالى ـ.

وهذا الحديث فيه تخويفٌ وبشارة ومعجزة لخاتم الرسل محمد ـ ﷺ ـ: أما التخويف: فمن الفتن بين أمّة الإجابة، وأما البشارة: فإخباره ببقائها على الحق إلى يوم القيامة، أو حتّى يأتي أمر الله وهم

---

(١) شعب الإيمان: ٢/ ٢٨٤، (١٧٧٧)، ورواه عبد بن حميد في مسنده: ١/ ٣٢، (١١)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة»: ٢/ ٦٣٣، (٦٨٥)، وقد صح نحو هذا كما في السلسلة الصحيحة برقم (١٠١٣).

(٢) سنن أبي داود: ٤/ ٩٧، (٤٢٥٢).

(٣) سنن الترمذي: ٤/ ٥٠٤، (٢٢٢٩).

على ذلك، كما جاء مصرَّحًا به في الصحيحين وغيرهما، وأما المعجزة: فوجود وقوعه كما أخبر ـ ﷺ ـ.

وهذا السيف الذي وقع عليهم من أنفسهم هو أعظم ما يلهيهم ـ إذا استلحم بينهم ـ عن إيقاعه بعدوّهم، نعوذ بالله من ذلك.

ومن أعظم أسباب ذلك الأهواء، [ر،١٩٨/أ] كما قال ترجمان القرآن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وغيره من المفسّرين في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، قالوا: يعني الأهواء[1].

وفي السنن في الحديث المرفوع: «ستفترق هذه الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة»[2].

وقد وقع ذلك الافتراق.

وقال ابن عباس أيضًا في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل[3].

وهكذا قال غيره.

وقولُه ـ ﷺ ـ: «لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[4].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: ٤/ ١٣١١، [٧٤١٢]، وابن جرير: ٧/ ٢٢١.

(٢) رواه أحمد: ٣/ ١٤٥، وأبو داود: ٤/ ١٩٨، (٤٥٩٧)، وابن ماجه: ٢/ ١٣٢٢، (٣٩٩٢)، وغيرهم، وانظر الدراسة الجيدة التي كتبها عبدالله الجديع عن هذا الحديث سندًا ومتنًا.

(٣) رواه ابن جرير: ٧/ ٢٢٢.

(٤) رواه البخاري: ١/ ٥٦، العلم، باب (٤٣)، حديث (١٢١)، ومسلم: ١/ ٨٠، =

ولهذا لما ذكر ـ تعالى ـ قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥].

وعند الإمام أحمد في مسنده عن أبي بصرة الغفاري أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «سألت ربي ـ عزّ وجلّ ـ أربعًا[1]، فأعطاني ثلاثًا، ومنعني واحدة: سألت الله ـ عزّ وجلّ ـ ألاّ يجمع أمّتي على ضلالة، فأعطانيها، وسألت الله ـ عزّ وجلّ ـ ألا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم، فأعطانيها، وسألت الله ـ عزّ وجلّ ـ ألا يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض، فمنعنيها»[2].

وفي حديث عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ الذي رواه عنه حميد ابن هلال، أنّه قال أيامَ حصر عثمان بن عفّان: ما هلكت أمّةٌ قط حتى يرفعوا القرآن على السلطان[3].

يعني حتى [يتأوّلونه][4] عليه، ويرون الخروج به على الولاة، ويفهم من هذا عدم جواز الخروج على الأئمة.

= الإيمان، باب (٢٩)، حديث (٦٥).

(١) كذا في الأصل، وكذا في المسند طبع المكتب الإسلامي، وليس في السياق سوى ثلاث، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٣) حديث أبي بصرة هذا بتمامه، وفيه الثانية: «وسألت الله أن لا يظهر عليهم عدوًا من غيرهم فأعطانيها..» وبهذا يظهر أن في نسخة المؤلف والمطبوع من المسند سقط، وممن أورد الحديث بتمامه صاحب «مجمع الزوائد»: ٧/ ٢٢١.

(٢) المسند: ٦/ ٣٩٦، ورواه الطبراني في الكبير: ٢/ ٢٨٠، والراوي عن أبي بصرة لم يسم.

(٣) رواه الخلال في السنّة: ٢/ ٤٥٩، (٧١).

(٤) في الأصل: «يتألّونه»، والمثبت من السنة للخلال، وهو من تفسير حميد راوي الأثر.

ونصوص الإمام أحمد وغيره من الأئمة تدلّ على ذلك[1]، وأنّه لا يحلّ، وأنّه بدعة مخالفة للسنّة. وقد أمروا بالصبر على جور الأئمة، وأنّ السيف إذا وقع عمّت الفتنة، وانقطعت السبل، فتُسفك الدماء، وتستباح الأموال، وتُنتهك المحارم، ويَعمّ البلاء، وتكبر الفتنة، ويضعف أهل الحق، ويقوى الباطل، وبالإمام يقوم الحق، ويُدفع الباطل، قال جرير بن الخطفى:

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرأهُ ... ما قامَ للناسِ أحكامٌ ولا جُمعُ[2]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[3] ـ قدّس الله روحه ـ: عامّة الفتن التي وقعت، من أعظم أسبابها قلة الصبر؛ إذ الفتنة لها سببان: إما ضعفُ العلم، وإما ضعفُ الصبر؛ فإن الجهل والظلم أصلُ الشر، وفاعل الشر إنّما يفعله لجهله بأنّه شر، أو تكون نفسه تريده، فبالعلم يزول الجهل، وبالصبر يُحبس الهوى والشهوة، فتزول الفتنة.

وقد فعلت الخوارج بخروجها أمرًا ظنّت أنه خير وهو شر حدث به فساد عريض.

وقال الإمام أحمد: لو أعلم أن لي دعوةً مستجابةً لجعلتها للسلطان[4].

---

(١) انظر السنة للخلال: ١/ ١٣٠، وما بعدها، والمسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة: ٢/ ٣ وما بعدها.

(٢) ديوانه: ١/ ٢٩٥.

(٣) لم أهتد إلى موضع كلامه.

(٤) ذكرها عنه ابن مفلح في المبدع: ٢/ ١٦٤، والفروع: ٢/ ٩٣، وروى نحوها أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩١) عن الفضيل بن عياض، وذكرها عن الاثنين ابن تيمية في «السياسة الشرعية»: ص ١٣٧.

وقال عبدالله بن الإمام أحمد في مسند أبيه: سمعت أبي يقول: إني لأرى السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره. ذكره [ر،١٩٩/ب] في مسند أمّ حصين ـ رضي الله عنها ـ[١].

فأوّل وقوع السيف في هذه الأمّة قتلُ خليفتِها [ك،٩٧/ب] الصابر الخابر، ذي النورين، أمير المؤمنين، عثمان بن عفان، الذي شهد له رسول الله ـ ﷺ ـ بالجنّة، وبشّره بها على بلوى تصيبه، فصبر لها ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ؛ مخافة الفتنة الحاظرة على الأمّة، وهو ثالث الخلفاء الراشدين المهديّين بعده، الذين أُمرنا باتباعهم، فضائله جمّة كثيرة شهيرة، لا تعدّ ولا تحصى.

ثم استمر بعد ذلك عمل السيف في الأمّة بينهم، كما أخبر ـ ﷺ ـ، وهذا من معجزات نبوّته.

وقد قال أيمن بن حزيم ـ رضي الله عنه ـ في قتل عثمان:

ضحَّوا بعثمانَ في الشهر الحرامِ ضحىً ... فأيَّ ذِبحٍ حرامٍ ويحهم ذبحوا

وأيَّ سُنّةِ كفرٍ سنَّ أوّلُهم ... وبابِ شرٍّ على سلطانِهم فتحوا[٢]

وهذا من باب قوله ـ ﷺ ـ: «لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[٣].

وقال الحُتَاتُ المجاشعي التميمي ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) المسند: ٦/ ٤٠٣.

(٢) البيتان في الاستيعاب: ٣/ ١٠٥١، وهو فيه أيمن بن خزيمة بخلاف سائر المصادر، وفي تهذيب الكمال: ٢٩/ ٤٥٩.

(٣) متفق عليه، وقد تقدم قريبًا.

لقد سَفِهَ النَّاسُ في دِينِهِمْ وخلّى ابنُ عفّانَ شرًّا طويلاً[1]

وكان قتله ـ رضي الله عنه ـ في أيّام التشريق، في الشهر الحرام، في المدينة.

ولهذا قال عُبيدٌ الراعي النميري يهجو جريرًا في قصيدته التي يستعطف بها عبدالملك بنَ مروان:

قتلوا ابنَ عفّانَ الخليفةَ مُحرِمًا ودعا فلم أرَ مثلَه مخذولا
فتفرّقتْ من بعدِ ذاكَ عصاهمُ شِقَقًا وأصبح سيفُهم مسلولاً[2]

وقال الآخر:

ألا قل لقوم شاربي كأسِ [علقمٍ][3] بقتل إمامٍ بالمدينةِ محرمِ
قتلتم أمينَ اللهِ في غير رِدّةٍ ولا حدِّ إحصانٍ ولا قتلِ مسلمِ
تعالوا ففاتونا فإن كان قتلُهُ لواحدةٍ منها فحلٌّ لكم دمي[4]

وقال حسان ـ رضي الله عنه ـ:

ضحَّوا بأشمطَ عنوانُ السجودِ بهِ يُقطِّعُ الليلَ تسبيحًا وقرآنا[5]

---

(1) البيت في تاريخ الطبري: ٢/ ٦٩٦، وسماه الحباب بالباء الموحدة التحتانية، وهو تصحيف، انظر «تصحيفات المحدثين» للعسكري: ٢/ ٤٢٤.

(2) ديوانه: ٢٣١، ٢٣٢، وفيه: «فتصدّعت» بدل «فتفرقت».

(3) في الأصل: «علقمي».

(4) الأبيات لسعيد بن العاص، ولها بقية انظرها في «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» للمالقي: ١٨٣، دار الثقافة، قطر، وقد وقع فيه: «فعايونا» بدل «ففاتونا».

(5) ديوانه: ١/ ٩٦، صادر.

وقالت ليلى الأخيلية:

قُتِلَ ابنُ عفانَ الإمامُ　　　وضاع أمرُ المسلمينَ
وتشتّتت سبل الرشادِ　　　لصادرينَ وواردينَ[1]

وعند ابن ماجه[2] والترمذي[3]، وقال: حسن صحيح، عن مرّة بن كعب قال: سمعت [ر،١٩٩/أ] من رسول الله ـ ﷺ ـ وذكر الفتنَ فقرّبَها، فمرّ رجل مقنّع في ثوب فقال: «هذا يومئذ على الهدى». فقمت إليه فإذا هو عثمان، قال: فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا. قال: نعم.

وعند الترمذي[4] والنسائي[5] والدارقطني[6]، عن ثمامة بن حزن القشيري قال: شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فقال: أنشدكم الله والإسلام، ولا أنشد إلا أصحاب محمد ـ ﷺ ـ: هل تعلمون أن رسول الله ـ ﷺ ـ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال: «من يشتري بئر رومة، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنّة؟». فاشتريتها من صلب مالي، وأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها، حتى أشرب من ماء البحر؟. فقالوا: اللهم نعم. فقال: أنشدكم الله والإسلام: هل تعلمون أنّ

---

(١) لم أعثر عليه في ديوانها الذي نشرته دار الجيل.
(٢) سنن ابن ماجه: ١/ ٤١، (١١١).
(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٦٢٨، (٣٧٠٤). وأورده الألباني في القسم الصحيح من السنن: ٣/ ٢١٠.
(٤) سنن الترمذي: ٥/ ٦٢٧، (٣٧٠٣)، وقال: هذا حديث حسن.
(٥) سنن النسائي: ٦/ ٢٣٥، (٣٦٠٨).
(٦) سنن الدارقطني: ٤/ ١٩٦.

المسجد ضاق بأهله، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في المسجد بخير له منها في الجنّة؟»، فاشتريتها من صلب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلّي فيها ركعتين؟. فقالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله والإسلام: هل تعلمون أنّي جهّزت جيش العسرة من مالي؟. قالوا: اللهم نعم. قال: أنشدكم الله والإسلام: هل تعلمون أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان على ثبير بمكة، ومعه أبوبكر وعمر وأنا، فتحرّك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض، فركضه برجله، وقال: «اسكن ثبير، فإنّما عليك نبي وصدّيق وشهيدان»؟. قالوا: اللهم نعم. قال: الله أكبر، شهدوا وربّ الكعبة أنّي شهيد. ثلاثًا[1].

والصحيح في الجبل إنما هو أحد؛ فعند البخاري عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي ـ ﷺ ـ صعد أحدًا وأبوبكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله، فقال: اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان[2].

هكذا رواه البخاري: «أحد»، وهو أثبت من غيره[3].

وخلْف أحد جبل مدوّر إلى الحمرة، يقال له: «ثبير»[4].

---

(١) حسنه الألباني في «إرواء الغليل» برقم (١٥٩٤).

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٣٤٤، فضائل الصحابة، باب (٥)، حديث (٣٤٧٢)، ورواه الترمذي أيضًا: ٥/ ٦٢٤، (٣٦٩٧)، وقال: حسن صحيح، وروى مسلم في صحيحه أنه قال ذلك لحراء: ٤/ ١٤٩٨، (٢٤١٧).

(٣) الأولى حمل هذا الاختلاف على تعدد القصة، انظر فتح الباري: ٧/ ٣٨.

(٤) كذا قال، وإنما الذي خلف أحد جبل ثور، وهو الذي حدد به النبي ـ ﷺ ـ حرم المدينة في قوله: «المدينة حرم من عير إلى ثور»، البخاري (٦٣٧٤)، ومسلم (١٣٧٠)، وهو غير ثور الذي بمكة. انظر فتح الباري: ٤/ ٨٢، ٧٨٣. ولم أجد من ذكر بالمدينة جبلاً يسمى ثبيرًا.

وقوله: «محرمًا»، في الأبيات يعني في الشهر الحرام، وعلى ذلك حمل بعض أهل العلم قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في حديث ميمونة الذي رواه البخاري[1] وغيره، أنه ـ ﷺ ـ تزوّجها محرمًا، يعني في الشهر الحرام؛ إذ هو ـ رضي الله عنه ـ عربي فصيح، فتكلّم بكلام العرب، الذي هو سليقته، لم يرد الإحرام بالحج[2].

ولهذا روى [ك،٩٧/أ] الدارقطني وغيره من وجه صحيح، من طريق أبي الأسود يتيم عروة، ومن طريق الورّاق عن عكرمة عن ابن عباس أنّه ـ ﷺ ـ تزوّجها وهو حلال. قال: وكانت خالتي وخالة ابن [ر،٢٠٠/ب] عباس[3].

وعند الإمام أحمد بسند جيّد[4]، والترمذيّ وحسّنه[5]، عن أبي رافع ـ رضي الله عنهما ـ قال: إنّ رسول الله ـ ﷺ ـ تزوّج ميمونة وهو حلال، وبني بها بسَرِف، وكنت الرسول بينهما.

وكانت العرب إذا دخلت في الأشهر الحرُم تقول: «أحرمنا»، قال ابن حِلّزة:

ثمّ مِلْنا على تميمٍ فأحرمْنا   وفينـا بنـاتُ مُـرٍّ إمـاءُ[6]

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٥٥٣، المغازي، باب عمرة القضاء، (٤٠١١)، ورواه مسلم أيضًا: ٢/ ٨٣٦، النكاح، باب (٥)، حديث (١٤١٠).

(٢) انظر فتح الباري: ٩/ ١٦٥، ١٦٦.

(٣) سنن الدارقطني: ٣/ ٢٦٢، ورواه مسلم في صحيحه: ٢/ ٨٣٧، (١٤١١).

(٤) المسند: ٦/ ٣٣٣.

(٥) سنن الترمذي: ٣/ ٢٠٠، (٨٤١).

(٦) من معلقته، وانظر ديوانه: ص ٢٤.

يقول: فلمّا صرنا في ديار بني تميم أحرمنا، أي دخلنا في الأشهر الحرم، فكففنا عن قتالهم.

وكانوا أيضًا يسمّون من قاتل في الأشهر الحرُم أو في الحرم: «المُحل»، قال الشاعر في رملة أختِ عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهم ـ حيث قاتل في الحرم:

يا من لِقلبٍ مُعنّىً غَزِلْ　　بذكر المُحلّةِ أختِ المُحلّ[1]

وذكرنا هذه المسألة الغريبة لغرابتها، ومناسبتِها لسياق اللغة.

ثم قال ـ ﷺ ـ: (ولا تقوم الساعة)، الساعة كلمة عبّرت بها العرب عن جزؤ من الزمان غيرِ محدود في الأصل، وفي العرف: جزؤ من أربعة وعشرين جزءًا من يوم وليلة، اللذان[2] هما أصل الأزمنة، وتكون متساوية ومتفاوتة[3]، كما في تفضيل الرائح للجمعة[4]، فهي قسمة عقلية قديمة في الخِلقة، وشرعية كما نطق بها الخبر، وحقّقها الأثر، في قوله ـ ﷺ ـ كما عند أبي داود وغيره: «الجمعة اثنتا عشرة ساعة، منها ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي، يسأل الله خيرًا إلا أعطاه إيّاه»[5].

---

(١) البيت لمحمد عبدالله الثقفي، الملقب بالنميري، انظر «التمهيد» لابن عبدالبر: ٢٢/ ٢٠٠، ٢٠١. وذكر أنه قاله في زينب أخت الحجاج، خلاف ما ذكره المؤلف هنا. وعنده: «بحب المحلة». وفي «فتح الباري» (٨/ ٣٢٨) أنه قيل في رملة. وفي الأغاني (٦/ ٢٠١) أنه كان يهوى زينب بنت يوسف، أخت الحجاج. وذكر بيته هذا فيها ضمن قصيدة: (٦/ ٢١٨).

(٢) كذا، وصوابها: «اللذين».

(٣) أي الساعات.

(٤) انظر صحيح البخاري: ١/ ٣٠١، (٨٤١)، وصحيح مسلم: ٢/ ٤٨٧، (٨٥٠).

(٥) رواه أبو داود بنحوه: ١/ ٢٧٥، (١٠٤٨)، والنسائي: ٣/ ٩٩، (١٣٨٩)، =

وتقول العرب: «أفعل كذا الساعة»، و«أنا هذه الساعة في أمر كذا»، يريدون به الوقت الذي هم فيه، أو يليه تقريبًا، وهو المسمّى بـ«الآن»، وسمّيت به القيامة لقربها؛ فإنّ كلّ آتٍ قريب جدًّا، وإنْ وسِعت الآباد، ولكي يورثَ ذلك نكدًا في العيش، وكرْبًا في النفس، وندمًا باستشعار جزاء المعصية، المكروهِ وقوعه، وبتوقّع جزاء الطاعة يتألّم المتوقِّعُ له بانتظار المحبوب، فيكون السائرُ بين الخوف والرجاء.

أو سمّيت الساعة به تنبيهًا على ما فيها من الكائنات العظام، التي تصهر الجلود، وتكسر العظام.

(حتى يلحق حي)، الحيّ ضد الميّت، وهذا لفظ تستعمله العرب في القبائل والعشائر المجتمعة، تقول: «مررنا بحي آل فلان، وبحي فلان»، ومنه الحديث الصحيح: أن نفرًا من أصحاب النبي - ﷺ - [ر، ٢٠٠/أ] نزلوا على حي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيّفوهم، فلدغ سيّد ذلك الحي. . الحديث. وهو في الصحيحين[1] وغيرهما.

ومنه قول امرىء القيس:

فلما نزلْنا ساحةَ الحيِّ وانتحى بنا بطنُ خبتٍ ذي قفاف عقنقل[2]

وقال الفرزدق:

وأرضى بحكْم الحيِّ بكرِ بنِ وائلٍ إذا كان في الذُّهلين أو في اللهازمِ[3]

= وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/ ١٣٦١، (٨١٩٠).

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٩١٣، (٤٧٢١)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٣٧٨، (٢٢٠١).

(٢) من معلقته، وانظر ديوانه: ص ١٧٠.

(٣) لم أهتد إليه في ديوانه، وهو في «غريب الحديث» للخطابي: ٢/ ٢٢.

وقد تغْني العرب بالحيِّ الواحدَ، قال الأخفش: سمعت أعرابيًا يقول في أبيات: قالهنّ حيُّ رباح[1].

وفي ذلك يقول الشاعر:

يـا قُـرَّ إن أبـاكِ حيَّ خـويلـدٍ قد كنتُ خائفَهُ على الإحماقِ[2]

والمعنى: قالهنّ رباح، وإن أباك خويلدًا، و«حي» مقحمة.

قلت: ولا يكاد يقولون[3] ذلك في الواحد إلا بعد موته، بخلاف الفريق من الناس.

(من أمتي)، يعني أمّةَ الإجابة، والأمّة: الرجل المنفرد بالدين، ويقال لكل جيل من النّاس والحيوان: «أمّة»، فلمّا كان ـ ﷺ ـ منفصلاً عن الرسل، وكان من أُرسل إليهم وأتباعه أمّة، قال: «حتى يلحق حي من أمّتي»، يعني من أمّةِ الإجابة.

(بالمشركين) بالله ـ تعالى ـ، الذين هم من أمّة الدعوة.

(وحتى تعبد فئام من أمّتي الأوثان)، «الفئام» ـ بالهمزة ـ: الكثير، والجماعات من الناس، وقد قال الشاعر في ذلك:

كـأنَّ مـواضـعَ الـربَـلاتِ منهـا فئـامٌ ينهضـونَ إلـى فئـامِ[4]

---

(١) انظر «شرح المفصّل» لابن يعيش: ٣/ ١٣.

(٢) البيت لجبار بن سلمى بن مالك، و«قرَّ» مرخم «قُرَّة»، والإحماق ولادة الأحمق، انظر معجم الشواهد: ٢٥٣.

(٣) كذا، ولعل صوابها: ولا يكادون يقولون.

(٤) البيت ليهودي، وله روايات مختلفة في قصة تجدُها في مصنف ابن أبي شيبة: ٥/ =

و«الربلات»: لحم الفخذين والعضدين وما شاكل ذلك.

ومنه ما روى أبو نُعيم عن عبدالملك بن مروان أنّه قال: لقد كنت أسير في الزرع فأتوقّى الجندب أن أطأه ورعًا، فصار الحجّاج يكتب إليّ في قتل فئام من الناس، فلا أحفل بذلك[1].

و«من» في الموضعين للتبعيض، والمعنى: أنّ هؤلاء يرتدّون عن الإسلام، ويعبدون الأوثان حقيقة، وفرّق في هذا بين اللحوق بالمشركين، وعبادة الأوثان؛ لأن المقصود من الأوّل اللحوقُ بهم في دارهم، لا في عبادتهم، فلم يجعلهما واحدًا، فدلّ على أنّ السكون معهم في دارهم مذموم، إلا أن يَقْدِر على إظهار دينه، كما مرّ التنبيه على ذلك.

وقد وقع الأمر كما أخبر ـ ﷺ ـ، وهذه معجزة له أيضًا، وسيأتي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ الذي عند مسلم في صحيحه آخر شرح [ر،٢٠١/ب] هذا الباب.

ولا عبرة بمن طمس اللهُ على قلبه، وجعل على بصره غشاوة، حيث أنكر وقوع ما أخبر النبي ـ ﷺ ـ بوقوعه، فليس الخبر كالمعاينة.

(وإنه سيكون في أمّتي ثلاثون كذّابون، كلّهم يزعم أنه نبي).

وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «إنّ بين يدي الساعة كذّابين، فاحذروهم»[2].

= ٤٤٩، والبيت بهذا اللفظ في «إصلاح غلط المحدثين» للخطابي: ص ٧٥.

(١) لم أهتد إليه.

(٢) إنما رواه بهذا اللفظ مسلم: ٣/ ١١٥٦، الإمارة، باب (١)، حديث (١٨٢٢)، وإنما روى البخاري أن النبي ـ ﷺ ـ رأى في منامه في يديه سوارين من ذهب =

وهذه أيضًا معجزة له ـ ﷺ ـ أخرى.

وقد مضوا، أوّلُهم الأسود العنْسي، صاحب صنعاء، وقيل ابن صيّاد.

ومسليمة الكذّاب الحنفي، صاحب اليمامة، قتله وحشيٌّ، قاتل حمزةَ بنِ عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ؛ رجاءً منه أن يكون هذا بهذا، مع أن الإسلام يجُبُّ ما قبله.

وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن هفّان بن ذهل بن الدؤل بن حنيفة بن لُجيم بن صعب بن بكر بن وائل، ويكنى «أبا ثمامة»، وقيل: أبا «هارون»، وكان يُسمّى بالرحمن، فيما رُوي عن الزهري[1].

قيل قتل وهو ابن مائة وخمسين سنة، وكان صاحب مخرقة، كان قبل التنبّؤ يدور في الأسواق التي كانت بين دور العرب والعجم: سوقِ الأبلّة[2]، وسوقِ بقّة[3]، وسوق الأنبار[4]، وسوق الحِيرة[5]؛ يلتمس تعلّم الحيل، واحتيالات أصحاب الرُّقى والنجوم، وكان قد أحكم

= نفخهما فطارا، فأولهما كذابين يخرجان من بعده، فكان أحدهما العنسي والآخر مسيلمة.

(١) انظر فتح الباري: ٨/ ٨٩.

(٢) «الأبلّة» بلدة على شاطيء دجلة، قرب البصرة. «معجم البلدان»: ١/ ٧٧.

(٣) «بقّة» موقع قريب من الحيرة. «معجم البلدان»: ١/ ٤٧٣.

(٤) «الأنبار» مدينة على الفرات غرب بغداد. «معجم البلدان»: ١/ ٢٥٧.

(٥) «الحيرة» مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة. «معجم البلدان»: ٢/ ٣٢٨.

الحزاة[١] والزجر[٢] والخطّ[٣].

فمن ذلك أنه صبّ على بيضة من خلٍّ حاذق قاطع فلانت، حتى إذا مددها استطالت واستدقت كالعِلْك، ثم أدخلها قارورة ضيّقة الرأس، وتركها حتى انضمّت واستدارت، وعادت كهيئتها الأولى، فأخرجها إلى قومه، [وهم قوم][٤] أعراب، وادعى النبوّة، فآمن به جماعةٌ جملة بني حنيفة، وقيل فيه:

ببيضـــة [قـــارورٍ] ورايـــة شـــادن ... وتوصيل مقصوص من الطير [جادفِ][٥]

يريد براية الشادن: الراية التي يعملها الصبي من القرطاس الرقيق، ويجعل له ذنبًا من القرطاس، ويرسلها يوم الريح بالخيوط الطوال، ويعلّق بها الجلاجل[٦]، وكان يرسلُها في ليلة الريح ويقول: إنّ

---

(١) كذا في الأصل، وإنما أراد التحزّي، وهو التكهّن، والفاعل منه: حاز، ويُجمع على حُزاة، ولم أر من ذكر المصدر منه على الصيغة التي ذكرها المؤلف، وإنما الحَزاة بنت من البقول. انظر اللسان: ١٤/ ١٧٥، (ص ١٠).

(٢) أراد زجر الطير، ويسمى العيافة، وهو التفاؤل بأسماء الطير وأصواتها وممرّها، وهو من عادات العرب في جاهليتهم. انظر اللسان: ٩/ ٢٦١.

(٣) هو الخط في الرمل، بأن يُعطى الحازي أُجرةً فيقول: اقعد حتى أخط لك، فيخط في أرض رخوة خطوطًا متوازية على عجل، حتى لا يعرف عددها، ثم يمحوها خطين خطين، فإن بقي اثنان فهو علامة النجاح، وإن بقي واحد فهو علامة الخيبة، والعرب تسميه الأسحم، فهو المشؤوم عندهم. انظر تفسير القرطبي: ١٦/ ٧٨٠.

(٤) ساقط من الأصل، واستدركتها من «ربيع الأبرار» للزمخشري (٣/ ٤٤٩)، والمؤلف ينقل منه، والكلام للجاحظ.

(٥) في الأصل: (قارورة)، (حاذق)، والتصويب من «ربيع الأبرار».

(٦) أي يعلق بها ما يحدث صوتًا شديدًا بحركته، والجلجلة صوت الرعد وما يشبهه. انظر اللسان: ١١/ ١٢٢.

الملائكة تنزل عليّ، وهذه خشخشتها وزجَلُها.

ويقال إنّه أوّل من وصل جناح الطائر المقصوص.

وكان يدّعى أنّ ظبية تأتيه من الجبل فيحلب لبنها.

وقال رجل من بني حنيفة يرثيه:

لهَفي عليك أبا ثمامةْ   لهفي على ركني شمامةْ

كم آيةٍ لك فيهمُ   كالشمس تطلُعُ من غمامةْ[1]

[ر، ١٠٢/أ]

قلت: بل كانت آية منكوسة، يُغوى بها أهل اليمامة؛ فقد تفل في بئر قوم سألوه تبركًا فملُح ماؤها، فصار أُجاجًا لا يُساغ شربُه[2].

وأخذ رجل منهم فضل وضوئه فرش به أرضه فصارت سبخة لا تنبت شيئًا[3].

ومسح رأس صبي فقرع قرَعاً فاحشاً.

ودعا لرجلٍ في ابنين له بالبركة، فرجع إلى منزله فوجد أحدهما قد وقع في البئر، والآخر قد أكله الذئب.

---

(١) الروض الأنف: (٧/ ٤٤٤).

(٢) عن الروض الأنف (٧/ ٤٤٤) والمؤلف يقول: «قلت مع أنه ينقل عن السهيلي في الروض الأنف عبارته، وليس فيها (قلت)»؟؛ وانظر «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٨٥، ٢٨٦. تحقيق محمد أبو الفضل.

(٣) الموضع السابق.

ومسح على عيني رجل استشفى بمسحه فابيضّت عيناه[١].

قال سيف بن عمر: وأتته امرأة من بني حنيفة تكنى بأمّ الهيثم، فقالت: إن نخلنا لسحُق[٢]، وإنّ آبارنا لجُرز، فادع لمائنا ونخلنا كما دعى محمد لأهل هزمان[٣]. فقال: يا نهار، ما تقول هذه؟. فقال: إنّ أهل هزمان أتوا محمدًا فشكوا بُعد مائهم ـ [وكانت][٤] آبارهم جرزًا ـ وشدّةَ عملهم، ونخلَهم وأنها سحق، فدعا لهم، فجاشت آبارهم، وانحنت كلّ نخلة قد انتهت حتى وضعت جرانها لانتهائها، فحلّت[٥] بالأرض حتى أنشبت عروقًا، ثمّ قطعت من دون ذلك فعاد فسيلاً مكمّمًا، فسمى[٦] صاعدًا. قال: وكيف صنع؟. قال: دعا بسجل فدعا لهم فيه، ثمّ تمضمض منه بفمه، ثمّ مجّه فيه، فانطلقوا به حتى أفرغوه في تلك الآبار، ثمّ سقوا نخلهم، ففعل المنتهى[٧] ما حدثتك. فدعا مسيلمة لهم بدلو من ماء فدعا لهم فيه، وتمضمض ثم مج فيه، فنقلوه فأفرغوه في آبارهم، فغارت منه تلك الآبار، وخوى نخلهم، وإنّما استبان ذلك بعد مهلكه[٨].

---

(١) الموضع السابق.

(٢) أي طوال، تصعب معالجتها. انظر اللسان: ١٠/ ١٥٤.

(٣) اكتفى ياقوت بذكر هذا الخبر في معجم البلدان (٥/ ٤٠٥) دون أن يحدد موقع «هزمان».

(٤) في الأصل: «كان» بلا «واو» ولا «تاء»، والتصويب من تاريخ الطبري.

(٥) في الطبري: «فحكّت».

(٦) هكذا كُتبت بالألف المقصورة، وهي في الطبري: «ينمي».

(٧) كذا، في الأصل، وفي بعض نسخ الطبري ومعجم ياقوت: «النبي».

(٨) انظر تاريخ الطبري: ٣/ ٢٨٥، ٢٨٦.

وقال له نهار: برِّك على مولّدي[1] بني حنيفة. فقال: وما التبريك؟. قال: كان أهل الحجاز إذا وُلد فيهم المولود أتوا به محمدًا فحنّكه ومسح رأسه، فلم يؤت بصبي حنكه ولا مسح رأسه إلا قرع ولثغ، استبان ذلك بعد مهلكه[2].

وقالوا له: تتبّع حيطانهم كما كان محمد يصنع فصلّ فيها، فدخل حائطًا من حوائط اليمامة فتوضأ. فقال نهار لصاحب الحائط: ما يمنعك من وضوء الرحمن تسقي به حائطك حتى يروى وينبل، كما صنع بنوا المهريّة ـ أهلَ بيتٍ من بني حنيفة، وكان رجل منهم قدم على النبي ـ ﷺ ـ فأخذ وضوءه فنقله معه إلى اليمامة، فأفرغه في بئره، ثم نزع فسقى، فكانت أرضه نَهومًا، فرويت وجزَأت، فلا تُلفـى إلا خضراء مهتزّة ـ ففعل ذلك فعادت يبابًا، لا ينبت مرعاها[3].

وأتاه رجل فقال: ادع الله لأرضي؛ فإنها مستسبخة[4]، [ر،٢٠٢/ب] كما دعا محمد ـ ﷺ ـ لسلميٍ على أرضه. فقال: ما تقول يا نهار؟. قال: قدم عليه سلمي، وكانت أرضه سبِخة، فدعا له، وأعطاه سجلاً من ماءٍ، ومجّ له فيه، فجاء به فأفرغه في بئره، ثم نزع، فطابت وعذبت، ففعل مثل ذلك، فانطلق الرجل، ففعل بالسَجْل كما فعل السلمي، فغرِقت أرضه سباخًا، وما جَفّ ثراها، ولا [ك،٩٨/أ] أدرك ثمرها ومرعاها[5].

---

(١) في تاريخ الطبري: «مولودي».
(٢) انظر «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٨٥.
(٣) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٨٥.
(٤) في الطبري: مسبخة.
(٥) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٨٦.

وأتته امرأة فاستجلبته إلى نخل لها يدعو لها، فجُزّت[1] كبائسُها[2] يومَ عقرباءَ[3] كلّها، وكانوا قد عقلوا واستبان لهم، ولكن الشقاء غلب عليهم[4].

ولهذا لمّا سأل الحجاجُ ابنَ القِرِّيّة[5] عن أهل اليمامة، حين سأله عن طبائع أهل كل بلاد. قال له في أهل اليمامة: أهلُ جفاء، واختلافِ آراء. ذكره أحمد بن عبدالوهّاب البكري القرشي، المعروف بالنويري، في تاريخه: «نهاية الأرب في فنون الأدب»[6].

ولذلك صح عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: . . .[7] إلى يوم القيامة. رواه عنه الإمام أحمد وغيره.

وروى سيف بن عمر عن خليد بن زفر النمري، عن عمير بن طلحة النمري، عن أبيه قال: جاء أبي اليمامة فقال: أين مسيلمة؟. فقالوا: مهْ!، رسول الله؟. قال: لا، حتى أراه. فلما جاءه قال: أنت مسيلمة؟. قال: نعم. قال: من يأتيك؟. قال: رحمان. قال: أفي نورٍ أو في

---

(١) في الأصل: «فخرّت»، والتصويب من الطبري.

(٢) الكبائس: جمع كباسة وهو العذق التام بشماريخه ورطبه. اللسان: ٦/ ١٩١.

(٣) عقرباء موضع بالعرض باليمامة، كانت فيه موقعة بين المسلمين وبني حنيفة. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ١٣٥.

(٤) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٨٦.

(٥) هو أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي، أحد البلغاء، يضرب به المثل في الخطابة، والقرِّيّة أمّه، قتله الحجاج سنة ٨٤هـ. انظر وفيات الأعيان: ١/ ٨٢، والأعلام: ٢/ ٣٧.

(٦) «نهاية الأرب»: ١/ ٢٩٤.

(٧) مكان النقط طمس بمقدار خمس كلمات.

ظلمة؟. قال: في ظلمة. قال: أشهد أنّك كذّاب وأنّ محمدًا صادق، ولكنْ كذّاب ربيعةَ أحبُّ إلي من صادق مضر. فقُتل معه يوم عقربا[١].

قلت: والنَّمَري ـ بفتح النون والميم ـ هو من بني النمر بن قاسط، من عبد القيس، من ربيعة بن نزار، وكذلك بنو حنيفة من بكر بن وائل، من ربيعة.

وكان مسيلمة قد ضرب حرمًا باليمامة، فنهى عنه، وأخذ الناس به، فكان حرمًا، فوقع في ذلك الحرم قرى الأحاليف، أفخاذٌ من بني أسيد، من بني عمرو بن تميم، كانت دارهم باليمامة، وهم بنو جُرْوةَ، وجعلوا يغيرون على ثمار اليمامة، فإذا نذرَوا بهم أهل الثمار دخلوا الحرم، فأحجموا عنهم، فإن لم ينذروا بهم فذلك الذي يريدونْ، فكثر ذلك منهم، حتى استعْدَوا عليهم مسيلمة، فقال لهم: أنتظر الذي يأتيني من السماء فيكم وفيهم. ثم قال لهم: والليل الأطخم[٢]، والذئب الأدلم[٣]، والجذَع الأزلم[٤]، ما انتهكت أسيد من محْرَم. فقالوا له: أمَا مَحْرمٌ استحلالُ الحرام، وفساد الأموال؟. ثم عادوا للغارة، وعاد بنو حنيفة للعَدوى[٥]. فقال: أنتظر الذي يأتيني، فقال: [ر،٢٠٢/أ] والليل الدامس، والذئبِ الهامس[٦]، ما قطعت أسيد من رطْب ولا يابس. فقالوا: أمَا النخيل برطبة وقد جدوها، والجدران يابسة وقد هدموها.

---

(١) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٨٦.

(٢) الطُخْمة السواد. اللسان: ١٢/ ٣٦٠. (طخم).

(٣) الأدلم: الشديد السواد. اللسان: ١٢/ ٢٠٤، (دلم).

(٤) الجذَع الأزلم: الدهر، لأنّه لا يهرم أبدًا. اللسان: ٧/ ١٢٧.

(٥) العدوى هنا: «طلبك إلى والٍ ليعديك على من ظلمك، أي ينتقم منه». اللسان: ١٥/ ٣٩.

(٦) أي الشديد. انظر اللسان: ٦/ ٢٥١.

فقال: اذهبوا فارجعوا، فلا حق لكم عليهم[1].

وكان مما يقرأ فيهم: إن بني تميمٍ قوم طهر لَقَاح[2]، لا مكروه عليهم ولا إتاوة، نجاورهم ما حيينا بإحسان، ونمنعهم من كل إنسان، فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمن[3].

مع كلام له سامج، كلامُ النساء أرصف وأرصن منه وأبلغ.

وكان له شيطان يأخذه ويستشيره، وكان ـ ﷺ ـ فيما رواه سيف بن عمر قد أخبر أصحابه بذلك، وأنّه إذا أخذه أزبد شدقاه، وذلك وقتُ غِرّته، وكان خالد في الوقعة يتحيّن منه ذلك[4].

وأمّا الأسود العنْسي صاحب صنعاء، فله شيطان أيضًا يأخذه، فإذا أخذه أزبدت شدقاه، ويخبره بأشياء يفتن بها الناس. وقتله فيروز وداذوَيه[5].

وروي أنه ـ ﷺ ـ قال ـ كما رواه سيف بن عمر وغيره ـ: فاز فيروز[6].

وهو أحد الذين قتلوا العنسي، وهو فيروز الديلمي، في قصة طويلة، وأعانتهم عليه امرأته، وكانت امرأة صالحة قد كفرت

---

(١) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٨٣.
(٢) أي لم يدينوا للملِك. انظر اللسان: ٢/ ٥١٧.
(٣) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٨٣، ٢٨٤.
(٤) انظر «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٩٣.
(٥) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٣٤، ٢٣٥.
(٦) رواه الطبري في تاريخه: ٣/ ٢٣٦.

به[١].

قيل قتل وهو سكران، ذكره الدولابي، فضربوه بأسيافهم وهم يقولون:

ضلّ نبيٌّ ماتَ وهْو سكرانْ والناس تلقى جُلَّهم كالذبّانْ
النورُ والنارُ لديهم سيّان[٢]

وفي حديث الضحّاك بن فيروز، عن حبيش[٣] الديلمي عن سيف ابن عمر وغيره في قصّة قتل الأسود، وفيها قال: وأخذت المرأة بشعره، وسمعنا منه برْبرة، فألجمته بملاءة، وأمرّ فيروز الشفرة على حلقه، فخار كأشدّ خوار ثور سمعته قط، فابتدر الحرس الباب وهم حول المقصورة: ما هذا، ما هذا؟. فقالت المرأة ـ يعني متهكمة وفادةً[٤] للحرس ـ: النبيّ يوحى إليه. وخمد الخبيث[٥].

وفيه: فلما طلع الفجر نادى داذويه بالأذان، وكان الشعارَ بينه وبين أشياعه ـ رضي الله عنهم ـ، ففزع المسلمون والكافرون، وتجمّع الحرس.

قال داذويه: فناديتهم: أشهد أن محمدًا رسول الله، وأنّ عبهلة كذاب. وألقينا إليهم رأسه، وأقام فيروز ـ رضي الله عنه ـ الصلاة[٦].

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٣/ ٢٣٤، ٢٣٥.
(٢) انظر «تاريخ دمشق»: ٤٩/ ٤٩٠.
(٣) في الطبري: جُشيش.
(٤) كذا، وأظنّها: «وصادّةً».
(٥) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٣٤، ٢٣٥.
(٦) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٣٥.

وعند النسائي في سننه عن عيسى بن محمد، عن ضمرة، عن الشيباني، عن عبدالله بن فيروز الديلمي، عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ برأس الأسود العنسي[١].

وضمرة هذا هو [ر،٢٠٣/ب] ابن ربيعة، أبو عبدالله الرملي الفلسطيني، روى له البخاري في «الأدب المفرد»، وأصحابُ السنن الأربعة، وقال فيه: الإمام أحمد: هو رجل صالح، صالح الحديث، من الثقات المأمونين، لم يكن بالشام رجل يشبهه، وهو أحب إلينا من بقيّة[٢].

وقال آدم بن أبي إياس: ما رأيت رجلاً أعقل لما يخرج من رأسه من ضمرة[٣].

وقال ابن سعد: كان ثقة.

وقال يونس[٤]: كان فقيههم في زمانه[٥].

وقال أبو حاتم هو صالح الحديث[٦].

ووثقه يحيى بن معين[٧]، والنسائي، وغيرهما[٨].

---

(١) سنن النسائي الكبرى: ٥/ ٢٠٤، (٨٦٧٢).
(٢) انظر «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم: ٤/ ٤٦٧.
(٣) انظر سير أعلام النبلاء: ٩/ ٣٢٧.
(٤) كذا، وفي السير: ابن يونس.
(٥) الموضع السابق.
(٦) الجرح والتعديل: ٤/ ٤٦٧.
(٧) الموضع السابق.
(٨) انظر تهذيب الكمال: ١٣/ ٣١٩.

وقال ابن القطّان: قولهم: إنّ الخبر بقتل الأسود لم يجيء إلا إثر موت النبي - ﷺ - لم يصح، وإن ورد فبطرق لا تصح.

قال: وما يقال: إن ضمرة لا يتابع على هذا الحديث، لا يضرّه؛ فإنّه ثقة، ولأجل انفراده قيل فيه: غريب(١).

وعند سيف بن عمر عن أبي القاسم الشنَوي، عن العلاء بن زياد، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: أتى الخبر النبي - ﷺ - من السماء الليلة التي قتل فيها العنسي ليبشرنا، فقال: قُتل الأسودُ البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين. قيل: ومن هو؟. قال: فيروز، فاز فيروز(٢).

ورواه أيضًا من طريق آخر بمعناه.

ويصدّق ذلك بأنّه قتل في حياة رسول الله - ﷺ - قول قيس بن عبد يغوث بن المكشوح:

لم تر عيني مثلَ يوم رأيتُه ... أحاطت بعنْس والكلابِ عجائبُه

نعينا لها الكذّاب فارمدّ جمعها ... وقد حرِبتْ أفراسه وركائبُه

فمن مبلغٌ عنّي الرسول بأنني ... رأيت نهارًا طالعاتٍ كواكبُه(٣)

ولفيروز - رضي الله عنه - قاتلِه أبياتٌ تدلّ أنه قُتل في حياة الرسول - ﷺ -، قال فيها - واسم العنسي عبهلة -:

---

(١) «بيان الوهم والإيهام»: ٥/ ٣٨٩.

(٢) رواه الطبري في تاريخه: ٣/ ٢٣٦.

(٣) انظر «تاريخ دمشق»: ٤٩/ ٤٩١.

ثمّــت حمّلنــا إلينــا العبهلــة شطرَ الرسولِ والقبيلُ أوسله[١]

وطليحة الأسدي قد مرّ ذكره، وأسلم وحج بعد ذلك، وحسن إسلامه بعد ما قَتل عكّاشةَ بنَ مِحصنٍ الغُنْميَّ الأسديَّ ـ رضي الله عنه ـ أيام الردّة بأكناف سلمى، أحد جبلَي طيء، في جيش خالد بن الوليد ـ رضي الله عنهم ـ، ويعرف جهة قبره في ذلك الموضع، وقد مررت عليه في غربي سلمى، أيمن فج من فجاجها.

[ر،٣٠٢/أ] وسَجاح الدارميّةُ العقفانية، وتكنّى أمَّ صادر، وهي بنت الحارث بن سويد بن عقفان، فلمّا ادّعت النبوّة أجابها من قومها إلى الموادعة ـ فيما قال سيف [ك،٩٩/ب] بن عمر وغيره ـ وكيع ومالك بن نويرة، فقالوا لها: بمن نبدأ؟. فقالت: أعدّوا الركاب، واستعدّوا للنّهاب، ثمّ أغيروا على الرِّباب، فليس دونهم حجاب. وعمدت[٢] سجاح للأجفار[٣] حتى تنزل به، وقالت لهم: إنّ الدهناء حجازُ بني تميم، ولن تعدو الرباب، إذا شدها العصاب[٤]، أن تلوذ بالدجاني والدهاني، فلينزلها بعضكم. فنزل الدجانيَ مالكُ بن نويرة. وذكر قصّة طويلة، قال في آخرها: قالوا لها: ما تأمرينا؟. فقالت: عليكم باليمامة. فقالوا: إنّ شوكة أهل اليمامة شديدة، وقد غلظ أمر مسيلمة. فقالت: عليكم باليمامة، ودُفّوا دفيف الحمامة؛ فإنّها غزوة ضرّامة[٥]،

---

(١) الموضع السابق.

(٢) في الطبري: صمدت.

(٣) كذا في الأصل، وفي الطبري: «للأحفار» بالمهملة، وليس في «معجم البلدان» إلا «الأحفار» المهملة، جمع حفر، (١/ ١١٥).

(٤) كذا، وفي الطبري: المصاب.

(٥) في الطبري: «صرّامة»، بالمهملة.

لا تلحقكم بعدها ندامة[١]. فنهَدت لبني حنيفة، وبلغ ذلك مسيلمةَ فخافها، وأرسل إليها ليستأمنها على نفسه حتى يأتيها، فنزلت الجنود على الأمواه، وأذِنت له وأمّنته، فجاءها وافدًا عليها في أربعين من بني حنيفة، حتى قام لدى قبّتها وحولها حراسُها، فقالت: إنّي نبيّة، كازمل[٢] الكريمة، لأُمِّ الذي يجحدني الهزيمة. فقال مسيلمة: لنا نصف الأرض، وكان لقريش نصفُها لو عدلت، وقد ردّ الله عليك النصف الذي ردّت قريش، فحباك الله به، وكان لها لو قبلْتِ. فقالت: لا يردّ النصف إلا من جنف، فاحمل النصف إلى خيل تراها كالسهَف. فقال مسيلمة: سمع الله لمن سمع، وأطمعه بالخير إذ طمع، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع، رآكم ربكم فحباكم[٣]، ومن وحشته خلاّكم، ويوم دينكم نجّاكم.

ثم ذكر سيف في روايته كلامًا طويلاً مما كان يقرأ مسيلمة عليهم[٤].

قال سيف: فصالحته على أن يَحمل إليها النصْفَ من غلاّت اليمامة، وأبتِ إلا السنةَ المقبلة يسلفها لها، فباح لها بذلك، وقال: خلّفي من يجمع لك السلف، وانصرفي أنت بنصف هذا العام. فحمل إليها النصف، واحتملت وانصرفت به، وخلّفت عقّةَ والهذيلَ ووتادًا[٥] ليتنجّزوا النصف الباقي، فلم يفجأهم إلا دنوّ خالد بن الوليد ـ رضي الله

---

(١) في الطبري: «ملامة».

(٢) كذا، ولم أفهم معناها، ولعلها: «كاملة»، وهذه الكلمات الثلاث ليست عند الطبري.

(٣) في الطبري: «فحيّاكم» بالمثناة التحتانية.

(٤) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٧٢.

(٥) كذا، وفي الطبري: «وزيادًا».

عنه ـ منهم، فارفضّوا[1]، وتشاغل أهل اليمامة بأمر خالد ومن معه من المهاجرين والأنصار ومن سار بسيرهم من بني تميم وطيء وغيرهم من العرب[2].

وأسلمت بعد ذلك سجاح، وهي التي يقول [ر،٢٠٤/ب] فيها قيس بن عاصم، سيّد بني تميم ـ رضي الله عنه ـ:

أمست نبيّتُنا أنثى يُطاف بها وأصبح أنبياءُ الله ذكرانا[3]

قال ذلك على سبيل التهكّم بها.

ثم تتابع المدّعون للنبوّة هلمّ جرًا، حتى عدّ العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ استكمال الثلاثين، فتمّت معجزة نبي الله ـ ﷺ ـ.

فأما الأسود العنْسي، ومسيلمة الكذّاب، وطليحة الأسدي، وسجاح العقفانية، فهم الذين قامت عليم ساق الردّة.

وأهل الردّة ثلاثة أصناف، صنفان خرجوا من الإسلام، وصنف قوتلوا على منع الزكاة، قاتلهم أبوبكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بمفهوم خطاب النبي ـ ﷺ ـ، وبالقياس، كما يأتي من كلام العلماء ـ رحمهم الله تعالى ـ، وهم الذين وقع فيهم الاختلاف بين الصدّيق والفاروق ـ رضي الله عنهما ـ.

وأما الصنفان الأوّلان، فلم يُختلف في قتالهم ولا كفرهم.

---

(١) أي تفرّقوا. اللسان: ٧/ ١٥٦.

(٢) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٧٥.

(٣) «تاريخ الطبري»: ٣/ ٢٧٤، وفيه: «..أنثى نُطيفُ بها».

قال أبو سليمان الخطّابي ـ رحمه الله ـ: ومما يجب أن يُعلم: أنّ أهل الردّة كانوا صنفين: صنف ارتدّوا عن الدين، ونابذوا المسلمين، وعادُوا إلى الكفر، وهم الذين عناهم أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ في حديثه، ـ يعني الذي في الصحيح، قال: لما توفّي رسول الله ـ ﷺ ـ استُخلف أبوبكر، وكفر من كفر من العرب[1]، ـ وفي لفظ: ارتدّت العرب[2] ـ، وهذة الفرقة طائفتان: إحداهما أصحاب مسيلمة، من بني حنيفة وغيرهم، الذين صدّقوه على دعواه في النبوة، وأصحابُ الأسود العنسي، ومن كان من مستجيبيه من أهل اليمن وغيرهم، وكذا من استجاب لطليحة وصدّقه، وهذة الفرقة بأسرها منكرة لنبوة محمد نبيّنا ـ ﷺ ـ، مدعيةٌ النبوة لغيره، فقاتلهم أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ حتى قتل الله مسيلمة باليمامة، والعنسي بصنعاء[3]. وتقدّم حديث حمزة في وقت قتله.

قال: وانفضّت جموعهم، وهلك أكثرهم.

والطائفة الأخرى ارتدّوا عن الدين، فأنكروا الشرائع، وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين، وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية، فلم يكن يُسجد لله ـ تعالى ـ في بسيط الأرض[4] إلا في ثلاثة مساجد: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد عبد القيس في البحرين، في قرية يقال لها: «جُواثا»، ففي ذلك يقول الأعور

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٥٠٧، الزكاة، باب وجوب الزكاة، (١٣٣٥)، وصحيح مسلم: ١/ ٥٧، الإيمان، باب (٨)، حديث (٢٠).

(٢) سنن النسائي: ٦/ ٦، (٣٠٩٤)، وصحيح ابن خزيمة: ٤/ ٧، (٢٢٤٧)، والمستدرك: ١/ ٥٤٤، (١٤٢٧).

(٣) «معالم السنن»: ٢/ ١٦٣.

(٤) أراد سجود موحّد صحيح الاعتقاد، تابع للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

الشنّي[1] يفتخر بذلك ـ ولنعم المفتخر ـ: [ر، ٢٠٤/ أ]

والمسجدُ الثالثُ الشرقيُّ كان لنا فيه الفخار[2] وفصلُ القول في الخطبِ

أيامَ لا منبرٌ في الناسِ نعرفُه إلا بطيبةَ والمحجوجِ ذي الحجبِ

وكان هؤلاء المتمسكين بدينهم[3]، ولما اشتدّ على المحصرين في «جواثا» الحصر قال رجل صالح من صالحي المسلمين، يقال له: عبدالله بن حذف، أحد بني بكر بن كلاب، بعد أن كادوا يهلكون، وأرسلها إلى أبي بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ: [ك، ٩٩/ أ]

ألا أبلغْ أبابكرٍ رسولاً وفتيانَ المدينةِ أجمعينا

فهل لكمُ إلى قومٍ كرامٍ قعود في جواثا محصرينا

كأنّ دماءَهم في كلِّ فجٍ شعاعُ الشمسِ يغشى الناظرينا

توكّلنا على الرحمنِ إنّا وجدنا النصر[4] للمتوكّلينا[5]

والصنف[6] الآخر هم الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة، وأنكروا الزكاة، ووجوب أدائها إلى الإمام ـ وقيل إنّهم لم يمنعوا إلا الأداء ـ[7].

---

(١) في المعالم: الثريني. وهو خطأ، والصواب «الشنّي» كما هنا، وكما في «الإكمال» لابن ماكولا: ٤/ ٥٠٥، ومعجم البلدان: ٢/ ٤٨٨.

(٢) في المعالم: والمِنبران وفصل القول. . .

(٣) في المعالم: «وكان هؤلاء المتمسكون بدينهم من الأزد محصورين بجواثا».

(٤) في الطبري: «وجدنا الصبر».

(٥) انظر الأبيات في «تاريخ الطبري»: ٣/ ٣٠٤.

(٦) في الأصل: «والنصف»، والتصويب من المعالم.

(٧) ما بين ـ ـ للمؤلف لا للخطابي.

قال: وهؤلاء على الحقيقة أهل بغي، وإنّما دُعوا بهذا الاسم في ذلك الزمان خصوصًا؛ لدخولهم في غُمار أهل الردّة؛ إذ كانت أعظم الأمرين وأهمّهما[١].

وأُرِّخ قتالُ أهل البغي من زمن علي - رضي الله عنه -؛ إذ كانوا منفردين في زمانه، لم يختلطوا بأهل الشرك[٢].

وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين للزكاة من كان يسمح بالزكاة ولا يمنعها - بل هم الغالب -[٣] إلا أنّ رؤساءهم قد صدّوهم عن ذلك الرأي، وقبضوا على أيديهم في ذلك، كبني يربوع، فإنّهم قد جمعوا زكاتهم، وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر - كما بعث بها باقي بني تميم، كقيس ابن عاصم، والزبرقان، والقعقاع بن عمرو، من بني عمرو بن تميم - فمنعهم مالك بن نويرة، وفرّقها فيهم[٤]. ولذلك سمّي «الجفول».

وفي أمر هؤلاء عَرضَ الخلاف، ووقعت الشبهة لعمر - رضي الله عنه -، فراجع أبابكر الصدّيق، وناظره، واحتج عليه بقول رسول الله - ﷺ -: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إلٰه إلا الله، فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم، إلا بحقّها، وحسابهم على الله - عز وجلّ -»[٥].

---

(١) «معالم السنن»: ٢/ ١٦٤. وقد سبق الخطابيَّ إلى هذا التصنيف الإمام الشافعي في الأم: ٤/ ٢١٥.

(٢) المعالم: ٢/ ١٦٤.

(٣) ما بين -- ليس في المعالم.

(٤) المعالم: ٢/ ١٦٤.

(٥) في المعالم: حتى يقولوا: لا إلٰه إلا الله، فمن قال «لا إلٰه إلا الله» فقد عصم نفسه =

وهذا من عمر ـ رضي الله عنه ـ تعلّقٌ بظاهر الكلام، قبل أن ينظر في آخره، ويتأمّل شرائطه[1].

فقال أبوبكر ـ رضي الله عنه ـ إنّ الزكاة حق المال[2]. ـ يريد أنّ العصمة[3] قد تضمّنت عصمة دم [ر،٢٠٥/ب] ومال، متعلقةً بإيفاء شرائطها، والحكم المتعلّق بشرطين لا يحصل[4] بأحدهما والآخرُ معدوم[5].

ثم قاسه بالصلاة، وردّ الزكاة إليها، فكان في ذلك من قوله دليلٌ على قتال الممتنع من الصلاة، وكان ذلك بإجماع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، وبذلك ردّ الحكمَ المختلفَ فيه إلى المتفق عليه، فاجتمع في هذه القضية الاحتجاجُ من عمر ـ رضي الله عنه ـ بالعموم، ومن أبي بكر بالقياس، ودلّ ذلك على أنّ العموم يُخص بالقياس، وأنّ جميع ما تضمّنه الخطاب الوارد في الحكم من شرط ومشترط مراعىً فيه[6]، ومعتبر صحّته به، فلمّا استقر عند عمر ـ رضي الله عنه ـ رأيُ أبي بكر، وبان له صوابُه، تابعه على قتال القوم، وهو معنى قوله: فلمّا رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال علمتُ أنّه الحق[7]. يشير ـ رضي الله

= وماله. والحديث في الصحيحين: البخاري برقم (٢٥)، ومسلم برقم (٢١).

(١) المعالم: ٢/ ١٦٤، ١٦٥.

(٢) البخاري برقم (١٣٣٥)، ومسلم برقم (٢٠).

(٣) في المعالم: القضية.

(٤) في المعالم: لا يجب.

(٥) المعالم: ٢/ ١٦٥.

(٦) في المعالم: . . من شرط واستثناء مراعىً فيه ومعتبر صحته به.

(٧) متفق عليه كما سبق.

عنه ـ إلى انشراح صدره بالحجّة[1].

وقال أبو سليمان في موضع آخر[2]: وقد بيّنّا أنّ أهل الردّة كانوا أصنافًا، منهم من ارتدّ عن الملّة، ودعى إلى نبوّة مسيلمة وغيره، ومنهم من أنكر الشرائع كلّها، وهؤلاء هم الذين سمّاهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كفّارًا، ولذلك رأى أبوبكر سبي ذراريهم، وساعده على ذلك ـ يعني على سبي الذراري ـ أكثر الصحابة، ثمّ لم ينقض عصر الصحابة حتى أجمعوا على أنّ المرتدّ لا يسبى[3].

فأمّا مانع الزكاة منهم، المقيمين[4] على أصل الدين، فإنّهم أهل البغي، ولم يُسمّوا على الانفراد منهم كفّارًا، وإن كانت الردّة أضيفت إليهم؛ لمشاركتهم للمرتدّين في بعض ما منعوه من حقوق الدين؛ وذلك أنّ الردّة اسم لغوي، وكل من انصرف عن أمر كان مقبلاً عليه فقد ارتدّ عنه، وقد وُجد من هؤلاء الانصراف عن الطاعة، ومنع الحق، وانقطع عنهم اسم الثناء والمدح، وعلِق بهم الاسم القبيح؛ لمشاركتهم القوم الذين كانوا ارتدّوا حقًا.

قال[5]: وإن قيل: فإذا أنكر طائفة في زماننا فرض الزكاة، وامتنعوا من أدائها، يكون حكمهم حكم أهل البغي؟.

---

(١) معالم السنن: ٢/ ١٦٥، مع اختلافات يسيرة لعلها من تصرّف المؤلف.

(٢) لم أجده بألفاظه، لكنه بمضمونه وبعض ألفاظه في أعلام الحديث: ١/ ٧٤٠ـ ٧٤٣. ومن عادة المؤلف التصرف في ما ينقل.

(٣) انظر «أعلام الحديث»: ١/ ٧٤٣.

(٤) كذا بالأصل، ولعله نصبه على الاختصاص.

(٥) انظر «أعلام الحديث»: ١/ ٧٤٢.

قلنا: لا، فإنّ من أنكر فرض الزكاة في هذه الأزمان كان كافرًا بإجماع المسلمين؛ لأنه شاع دين الإسلام، واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة، قد عرفه الخاص والعامّ، واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يُعذر منكره[1].

[ر،٢٠٥/أ] وكذلك الأمر في كلّ من أنكر شيئًا ممّا أجمعت عليه الأمّة من أمور الدين، إذا كان علْمُه منتشرًا، [كالصلوات][2] الخمس، وصوم رمضان، والاغتسالِ من الجنابة، وتحريم الربا والخمر ونكاحِ ذوات المحارم، ونحوِها من الأحكام، إلاّ أن يكون رجلاً حديثَ عهدٍ بالإسلام، ولا يعرف حدودَه، فإنّه إن أنكر شيئًا منها جاهلاً به لم يكفر، وكان سبيلُه سبيل أولئك القوم في نفي الاسم[3].

وتبع الخطّابيَّ على ذلك جمهورُ العلماء، من آخرهم شيخ الإسلام ابن تيميّة[4] ـ قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه ـ، وقد ذكرنا هذا استطرادًا،

---

(١) انظر «أعلام الحديث»: ١/ ٧٤٢، ٧٤٣.

(٢) في الأصل: «كالصلاة».

(٣) انظر «أعلام الحديث»: ١/ ٧٤٢، ٧٤٣.

(٤) لم أقف على تصريح لشيخ الإسلام بتأييد كلام الخطابي هذا، بل ظاهر كلامه أن ردّة مانعي الزكاة الذين قاتلهم أبوبكر ردّة حقيقية إلى الكفر، وخروج من الإسلام؛ فهو يقول: (وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يصلون الخمس، ويصومون شهر رمضان، وهؤلاء لم يكن لهم شبهة سائغة، فلهذا كانوا مرتدين، وهم يقاتلون على منعها وإن أقروا بالوجوب، كما أمر الله). مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥١٩. وقال عن الطائفة الممتنعة من فعل الفرائض وترك المحرمات إذا أصرت: (وأما المذكورون فهم خارجون عن الإسلام، بمنزلة مانعي الزكاة، وبمنزلة الخوارج الذين قاتلهم علي). مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٠٣، ٥٠٤. وقوله هنا: (وبمنزلة الخوارج..) مشكل؛ فإنه قد صرّح بإجماع الصحابة على عدم =

عند ذكر ادعاء النبوّة؛ لتعلّقه بذلك.

وأما من منع دفع الزكاة إلى الإمام إذا طلبها فإنّه يقاتل على منعها حتى يقرّ بالطاعة، ويدفَعها كما أُمر، وأنّه لا يكفُر بذلك، كما قاتلهم أبوبكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ على ذلك، وأقرّ له الفاروق عمر بن الخطاب بذلك بعد المخالفة، ورأى أنه الحق، حيث شرح الله صدر أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لذلك، ثمّ أجمع الصحابة عليه.

فتبيّن ممّا تقدّم أنّ قتال أبي بكر للعرب بعد [ك،١٠٠/ب] موت النبي ـ ﷺ ـ، وارتدادَ من ارتدّ منهم، منه ما هو على كفرهم: إما لادّعاء النبوّة لغير خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ، وإمّا على إنكار دين الإسلام رأسًا، وارتدادِهم إلى جاهليتهم، وإمّا على الطّاعة ومنع الزكاة، حتى لا يفرّقوا بين ما جمع الله ورسولُه بينه، ويعطوا الطاعة لمن ولاّه الله أمرهم؛ إذ الاجتماع على ولي الأمر مطلوب للشارع، بحيث يتضرّر المسلمون بمن خرج عن قبضتهم، ولو لم يحصل إلا بسفك الدم لسُفك منه ما يتحصّل بسفكه الاجتماع والطاعة، وإن لم يكن صاحبُ ذلك كافرًا؛ إذ المصالح الكلّيات يُغتفر في تحصيلها المفاسد الجزئيات.

وهذا هو الذي حصل من عمر ـ رضي الله عنه ـ المراجعةُ فيه لأبي

= تكفيرهم، كما في منهاج السنة: ٥/ ٢٤١، ٢٤٧، ٢٤٨ وغيره، وأن أصح الأقوال فيهم أنهم ليسوا كفارًا كالمرتدين من أصل الإسلام، وليسوا كأهل الجمل وصفين، بل هم نوع ثالث. كما في مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥١٨، فهل قصد أن مانعي الزكاة من هذا النوع الثالث الذين ليسوا كفارًا كالمرتدين عن الإسلام؟ تصريحه بعد ذلك بقليل بردتهم، وأنهم ليس لهم شبهة سائغة، كما في النص المنقول آنفًا يدل على أنه يفرق بينهم وبين الخوارج في الحكم بالردّة، فبقي أن قوله (وبمنزلة الخوارج..) إنما أراد به مشروعية قتالهم. والله أعلم. وراجع ما ذُكر في ص ٩٣/ ب.

بكر الصدّيق، كما قد مضى بيانه، فقد روى الحاكم عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: لأن أكون سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ عن ثلاث أحبّ إلي من حمر النعم: عن الخلافة بعده، وعن قوم قالوا: نُقرّ بالزكاة، ولا نؤديها إليكم: أيحل قتالهم؟، وعن الكلالة. ثم قال: [ر،٢٠٦/ب] صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه[١].

مع أنّه قد وافق بعد ذلك رأيَ أبي بكر على قتالهم.

وكذا كما[٢] أنّه يُسفك الدم في تحصيل الطاعة والجماعة إذا تضرّر المسلمون بمن خرج عنهم، ممن أراد تفريقها، كما صح في ذلك الخبر عن رسول الله ـ ﷺ ـ في الصحيحين وغيرهما أنّه قال: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم، أو يفرّق جماعتكم فاقتلوه». لفظ مسلم[٣].

وفي لفظ: «فاقتلوه كائنًا من كان»[٤].

ويفهم من عموم هذا اللفظ عدمُ جواز الخروج على ولي الأمر.

وفي الأثر المسند عن حميد بن هلال قال: قال عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ عند قتل عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ: إنّ

---

(١) المستدرك: ٢/ ٣٣٢، ٢/ ٣٣٢، (٣١٨٦)، ورواه عبدالرزاق في المصنّف: ١٠/ ٣٠٢، (١٩١٨٥)، وسعيد بن منصور في سننه: ٢/ ٣٣٢، (٢٩٣٢)، الأعظمي.

(٢) لم يذكر المؤلف المشبه بعد هذا الموضع، فلعل العبارة: وهذا كما أنه. .

(٣) صحيح مسلم: ٣/ ١١٧٥، الإمارة، باب (١٤)، حديث (١٨٥٢)، ولم أجده في صحيح البخاري.

(٤) المصدر السابق.

الملائكة لم تزل محيطة بمدينتكم هذه منذ قدمها رسول الله ـ ﷺ ـ حتى اليوم، فوالله لئن قتلتموه [ليذهبُنّ ثمّ لا يعودوا][1]، ووالله لا يقتله رجل منهم إلا لقي الله أجذم، لا يدَ له، وإنّ سيفَ الله لم يزل مغمودًا عنكم، والله لئن قتلتموه ليَسْلُلَنّه الله، ثمّ لا يُغمِدُه عنكم ـ إمّا قال ـ: أبدًا، ـ وإما قال ـ: إلى يوم القيامة، فما قُتل نبي إلا قُتل به سبعون ألفًا، ولا خليفةٌ إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفًا[2].

قال المفسّرون على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]، بعد قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾: إنّ المراد به كفرُ النعمة، وإنّ أوّل من كفر بالنعمة وجحد حقّها الذين قتلوا عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فلمّا قتلوه غيّر الله ما بهم، وأدخل عليهم الخوف، حتى صاروا يقتتلون، بعد أن كانوا إخوانا[3].

وسبب ذلك: الاختلافُ، وعدمُ لزوم ما جاءت به الرسالة، بالخروج عنها إلى الأهواء المضلّة، نعوذ بالله مما يُخرج عن جماعة المسلمين، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[4]

---

(١) في الأصل: «ليذهبون ثم لا يعودون»، والتصويب من الجامع.
(٢) رواه معمر بن راشد في الجامع: ١١/ ٤٤٥.
(٣) «تفسير البغوي»: ٣/ ٣٥٥.
(٤) في الأصل كتبت الآية هكذا: ومن يتبع غير سبيل المؤمنين. . .

[النساء: ١١٥].

ثم قال - ﷺ - رافعًا للوهم أن يدّعي أحدٌ بعده النبوّة: («وأنا خاتَمُ النبيّين) - بفتح المثنّاة الفوقيّة، وكسرها - [ر،٢٠٦/أ]، (لا نبي بعدي»).

كما قال - تعالى -: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وفي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - أنّ النبي - ﷺ - قال لعلي: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟، إلا أنه لا نبي بعدي»[١].

وقد ادعى رجل من أهل المجون النبوّةَ، فلمّا أرادوا قتله قالوا له: ما اسمك؟. قال: «لا»، والنبي - ﷺ - يقول: «لا» نبيٌّ بعدي.

فانظر إلى تلاعب الشيطان بعقول بني آدم، أعاذَنا الله والمسلمين من شرّه وتسويله، إنه على ما يشاء قدير[٢].

ثمّ قال - ﷺ -: («ولا تزال طائفة») الطائفة: الجماعة من الناس، تقلّ وتكثر، قال - تعالى -: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾، قال ابن عباس: ثلاثة فما فوقهم[٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ١٦٠٢، المغازي، باب غزوة تبوك..، (٤١٥٤)، وصحيح مسلم: ٤/ ١٤٩٠، فضائل الصحابة، باب (٤)، حديث (٢٤٠٤).

(٢) سبق التعليق على مثل هذا التعبير في ص ٦٥٠.

(٣) لم أجد من ذكر هذا عنه، وإنما ذكروا عنه: الرجل فما فوقه. انظر الدر المنثور: ٥/ ٣٨.

(مِن أمّتي)، «مِن» هنا تبعيضية، والأمّة تطلق على الجماعة، وعلى الرجل المنفرد بدينٍ كما مر، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ الآية [النحل: ١٢٠].

ويقال أيضًا لكل جيل من الناس والحيوان: «أمّة».

(على الحق)، أتى بـ«على» لاستعلائهم به، ولزومهم له، وزادها بقوله: (منصورة).

ثمّ لمّا كان اللازم للشيء وإن كان منصورًا قد يحاذر عليه الخذلان على طول ممر الزمان قال: (لا يضرّهم من خذلهم)، يعني بإرادة الخذلان لهم. فهذا دليل واضح على أنّ الجهاد ماضٍ في هذه الأمّة، كما قد جاء مصرّحًا به في أحاديث صحيحة صريحة.

ولذلك قال: (حتى يأتي أمر الله ـ تعالى ـ)، وهي الريح الّتي تقبض روح كلّ مؤمن ومؤمنة، (وهم على ذلك).

قال البخاري في صحيحه عن هذه الطائفة: وهم أهل العلم(١).

وروي عن الإمام أحمد وغيره معناه، فإنّه قال: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم(٢).

وروى البخاري في صحيحه هو ومسلم، عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لا تزال طائفة من أمّتي

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٦٧، الاعتصام. . ، باب (١٠).
(٢) ذكره عنه النووي في شرح مسلم: ١٣/ ٦٧، والحافظ في فتح الباري: ١/ ١٦٤.

ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»[1].

وفيهما عن معاذ بن جبل قال: وهم بالشام[2].

وفي تاريخ البخاري: وهم بدمشق[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدّس الله روحه ـ[4]: ويُروى: «وهم بأكناف بيت المقدس»[5].

قال: وهناك يحشر[6] الخلق، والإسلام في آخر الزمان يكون أظهر بالشام[7].

[ر،٢٠٧/ب] فخيار أهل الأرض في آخر الزمان ألزمهم لمهاجَر إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وهو بالشام[8].

---

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١١٣٤، الخمس، باب (٧)، حديث (٢٩٤٨)، وصحيح مسلم: ٣/ ١٢٠٩، الإمارة، باب (٥٣)، حديث (١٩٢١).

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٣٣١، المناقب، باب (٢٤)، حديث (٣٤٤٢)، ولم أجده في صحيح مسلم.

(٣) كذا عزاه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: ٢٧/ ٤٣، ولم أعثر عليه في تاريخ البخاري المطبوع.

(٤) انظر مجموع الفتاوى: ٢٧/ ٤٣.

(٥) رواه الطبراني في الكبير: ٢٠/ ٣١٧، قال في المجمع: (٧/ ٢٨٩): وفيه جماعة لم أعرفهم. وقد ضعف الألباني أحاديث بهذا المعنى في «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي»: ٥٩ـ ٦٣.

(٦) في الأصل: «تحشر» والتصويب من مجموع الفتاوى: ٢٧/ ٤٣.

(٧) مجموع الفتاوى: ٢٧/ ٤٣.

(٨) مجموع الفتاوى ٢٧/ ٤٤.

قال: وقد دلّ القرآن العظيم على بركة الشام[1].

وفي هذه الجملة من حديث الباب وما بعده، أدلُّ دليل على أفضليّة هذه الأمّة على من سبقهم من الأمم، فإن أهل الكتاب ذهب من أيديهم دينُهم، واستُحفِظوه فلم يحفظوه، فلا علم عندهم، ولا دين لهم، ولاحكم لهم، ولا قانون عندهم من شريعتهم، بل ظلّوا حيارى، وأقاموا سُكارى، لا يهدون ولا يعدِلون، ولم يدخلوا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، على أنّه خصوص كان، وأوتيناه عمومًا يبقى إلى يوم القيامة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فأثبت ـ سبحانه ـ أنّ هذه الأمّة ـ وأخصُّها الطائفة التي لا تزال ظاهرةً منصورة ـ عدولٌ، شهداءُ، هداةٌ، دعاةٌ إلى الخير، أئمة فيه، فهذه خمسة أسماء شرّفهم الله ـ تعالى ـ بها، دائمةٌ فيهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وليس هذا لأحد غيرهم من الأمم.

ولهذا روى البخاري في صحيحه وغيرُه، عن معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ـ ﷺ ـ [ك،١٠٠/أ] يقول: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطي الله، ولن يزال أمرُ هذه الأمّة مستقيمًا حتى تقوم الساعة»[2].

---

(١) الموضع السابق.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢٦٦٧، الاعتصام، باب (١٠)، (٦٨٨٢).

وعند البيهقي[1] وابن عدي[2] وغيرهما[3] مرفوعًا: «يحمل هذا العلم من كل خلَف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

قال ابن مفلح: قال مهنّا: سألت أحمد عن هذا الحديث فقال: صحيح[4].

وعند مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لن يبرح هذا الدين قائمًا، يقاتِل عليه عصابةٌ من المسلمين، حتى تقوم الساعة»[5].

وعند [ر،٢٠٧/أ] مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقّاص ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[6].

قيل: هم المجاهدون في سبيل الله؛ لأنّهم أهل الشدّة والجلادة.

---

(١) السنن الكبرى: ١٠/ ٢٠٩، (٢٠٧٠٠).

(٢) الكامل: ٣/ ٣١.

(٣) ورواه الطبراني في مسند الشاميين: ١/ ٣٤٤، (٥٩٩)، وقال في المجمع (١/ ١٤٠): رواه البزار، وفيه عمرو بن خالد القرشي، كذّبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل، ونسبه إلى الوضع.ا.هـ. ورواه ابن وضاح في أول كتابه في البدع، وتوسع محققه بدر البدر جدًا في دراسة أسانيده، ورجح تضعيفه، ونقل ذلك عن كل من الدارقطني والعراقي وابن كثير.

(٤) انظر «تقييد والإيضاح»: ١٣٩، و«شرف أصحاب الحديث»: ٢٩، وتاريخ دمشق: ٧/ ٣٩. وقد تعقب أحمد بن حنبل في تصحيح هذا الحديث ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام»: ٣/ ٤٠. ومع هذا فقد حسنه محقق «بيان الوهم».

(٥) صحيح مسلم: ٣/ ١٢١٠، الإمارة، باب (٥٣)، حديث (١٩٢٢).

(٦) صحيح مسلم: ٣/ ١٢١١، الإمارة، باب (٥٣)، حديث (١٩٢٥).

قال الجوهري وغيره: غرب الفرس: حدّته[1].

قلت: وهذا يقال في كلّ مركوب؛ قال جرير بن الخطفىٰ:

والأَرْحَبِيُّ إذا الظلالُ تقاصَرتْ يفْرِي الفرِيَّ وذاتُ غرْبٍ ميلعُ[2]

يقول: ذاتُ جدٍّ في سيرها وحدّة، ولهذا قال: ميلع، يصفُها بالسرعة والنشاط في المشي بالسرعة بالفلاة، إذا تقاصرت الأظلّة في حرّ الظهيرة تملع ملْعًا، وذلك أشدُّ ما يكون من الحرّ على السائر في الفلاة.

وقيل: هم العلماء عامّة.

وقيل: هم أهل الحديث، وهو مروي عند الإمام أحمد[3].

وقيل: هم أهل الشام؛ لأنّهم في طرف الغرب من الحجاز.

وقيل: الغرب هنا: الدلو الكبيرة، والمراد بأهلها: أهل الغرب؛ لأنهم يختصون بها غالبًا.

وقيل: بل أخص الناس بها العرب في جزيرتهم، قال الحطيئة:

إثــاثٌ أعــاليــه رَواءٌ أصــولُــه سقاه بماء البئر غربٌ وناضحُ[4]

---

(١) الصحاح: ١/ ١٩٣، (غرب).

(٢) ديوانه: ١/ ٢٩٧.

(٣) المذكور عنه أنهم أهل الشام، كما في «مناقب الشام وأهله» لابن تيمية: ٧٩، ورجحه شيخ الإسلام.

(٤) ديوانه: ١٥١. مكتبة الخانجي ١٤٠٧.

وقوله: «حتى يأتي أمر الله ـ تعالى ـ»، أمر الله هو القيامة، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: ١]، وكما في الحديث الآخر السابق.

والأوجَه فيه أن يقال: المراد به هو الريح[1] التي تأتي فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة، كما مرّ التنبيه عليه؛ لأن الساعة لا تقوم حتى لا يقال في الأرض: «اللهُ، اللهُ» كما هو في الصحيح[2]، يروى برفع الهاء، ونصبها، فمن رفع فمعناه ذهاب التوحيد، ومن نصب فمعناه انقطاع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي صحيح مسلم عن المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»[3].

وثبت في الصحيح أنه لا يبقى مسلم وقت قيام الساعة[4]، [ر،٢٠٨/ب] لكن تكون الروم ـ وهم قوم معروفون ـ أكثرَ الكفرة في ذلك الوقت.

وفي صحيح مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللاّتُ والعزّى». فقلت يا رسول الله: إن كنت لأظنُّ حين أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩] أنّ ذلك تامٌ. قال: «إنّه سيكون

---

(١) انظر صحيح مسلم: ٤/ ١٧٨٤، الفتن، باب (٢٠)، حديث (٢٩٣٧).

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١١٩، الإيمان، باب (٦٦)، حديث (١٤٨).

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٦٠، الفتن. . ، باب (١٠)، حديث (٢٨٩٨).

(٤) صحيح مسلم: ١/ ١١٩، الإيمان، باب (٦٦)، حديث (١٤٨).

من ذلك ما شاء الله، ثمّ يبعثُ الله ريحًا طيّبة، فتوفّى كل من في قلبه مثقال ذرّة ـ أو حبّة ـ من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم»[١].

فنسأل الله الحماية، والله الموفق[٢].

تم الجزء الأول من شرح التوحيد المسمى بفتح الحميد في شرح التوحيد تأليف العالم الفاضل الشيخ عثمان بن عبدالعزيز بن منصور، الناصري، العمَرْي، التميمي، الحنبلي، غفر الله لنا وله ولوالديه ولمشايخه ولأئمة المسلمين. .[٣] آمين.

ويتلوه الباب الثالث والعشرون إن شاء الله.

أنهاه كتابة بقلمه راجي عفو ربه وكرمه، الفقير إلى الله، محمد بن حمد بن نصر الله بن فوزان بن نصر الله بن محمد بن عيسى بن محمد ابن عيسى بن صقر بن مشعاب، غفر الله له ولوالديه.

تم كتابة ذلك في يوم الاثنين المبارك، لثلاث بقين من ذي القعدة، من سنة ١٢٥٧[٤]. اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٦٧، الفتن. . ، باب (١٧)، حديث (٢٩٠٧).

(٢) كتب في طرة هذه الورقة من المخطوط: [بلغ مقابلةً وتصحيحًا على أصله فصح على يد مؤلفه ـ عفى الله عنه ـ].

(٣) للدعاء تتمة قصيرة لم أستطع قراءتها، ولعلها: وعامتهم.

(٤) منزلة العشرات من التاريخ غير واضحة، والأقرب ما أثبته.

الباب الثالث والعشرون

(باب: ما جاء في حكم السحر وبيانه)

وهو صرف الشيء عن وجهه.

قال موفق الدين بن قدامة(١) رحمه الله تعالى: هو عقد(٢) ورقى وكلام يتكلم به الساحر، أو يكتبه أو يعمل شيئًا يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له، وله حقيقة، فمنه ما يقتل، وما يمرض، وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، وما يبغض أحدهما [إلى] الآخر، أو يحبب بين الاثنين(٣).

قال: وهذا قول الشافعي، وذهب بعض أصحابه [إلى] أنه لا حقيقة له، وفرق أصحاب أبي حنيفة، بأن ما كان له سبب يصل إلى [بدن المسحور](٤) فهو حقيقة، وإلا فتخييل(٥).

---

(١) هو عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، ثم الدمشقي، موفق الدين، الحنبلي، فقيه زاهد من أعلام الحنابلة، وقدوتهم في اتباع مذهب السلف، له مصنفات كثيرة، ولو لم يكن منها إلا المغني لكفى وشفى، ولد سنة ٥٤١هـ وتوفي بدمشق عليه رحمة الله سنة ٦٢٠هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٢/ ١٦٥)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ١٥).

(٢) العقد: جمع عقدة، وهي الخيوط المعقودة، يقال خيوط معقدة، ويقال عقدة الحبل، أو الخيط فهو معقود، والمراد بها هنا الخيوط التي تنفث فيها السواحر وتعقد عليها عند كل نفثة، قال ابن قدامة رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾: يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن، وينفثن في عقدهن.
انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/ ٢٩٦)، الكافي، لابن قدامة (٤/ ٧٩).

(٣) المغني، ابن قدامة المقدسي (١٢/ ٢٩٩)، وما بين [ ] ليست في الأصل.

(٤) في [ك]: (البدن للمسحور)، والمثبت من [م].

(٥) المصدر السابق.

وسيأتي باقي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

يقول تعالى: ولقد علموا أي اليهود، أن من فعل فعلهم، واستبدل ما تتلو الشياطين من السحر بكتاب الله تعالى، أنه ما له في الآخرة من خلاق، أي نصيب، قاله ابن عباس[١]، ومجاهد[٢][٣]، وغيرهما[٤].

وقال قتادة[٥]: قد علم الله فيما عهد إليهم، أن الساحر لا خلاق له في الآخرة[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير، والطستي في مسائله، عن ابن عباس، كما في الدر المنثور (١/ ٢٥١).

(٢) هو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المخزومي مولاهم، المكي ثقة إمام في التفسير وفي العلم، تابعي من أهل مكة، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأ عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت؟ توفي سنة ١٠٤هـ ويقال إنه مات ساجدًا.

انظر: صفوة الصفوة، ابن الجوزي (٢/ ١١٧)، الأعلام، الزركلي (٥/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير عن مجاهد (١/ ٤٦٥).

(٤) السدي وسفيان أخرجه عنهما ابن جرير في التفسير (١/ ٤٦٥).

(٥) قتادة بن دعامة أبو الخطاب السدوسي البصري، مفسر حافظ ضرير أكمه، قال الإمام أحمد: قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان يرى القدر، وقد يدلس في الحديث، مات بواسط في الطاعون سنة ١١٨هـ.

انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ (١/ ١١٥)، ابن خلكان، وفيات الأعيان (١/ ٤٢٧).

(٦) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (١/ ٤٦٤)، وعبد بن حميد، كما في الدر المنثور (١/ ٢٥٠)، ونصه عند الطبري: «قد علم ذلك أهل الكتاب في عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة».

فبئس البديل ما استبدلوا به من السحر، عوضًا عن الإيمان، لو كان لهم علم بما وعظوا به.

وقيل: لو كانوا يعلمون كنه ما يصيرون إليه من العقاب.

وقيل (من خلاق) أي: من خلاص من عذاب الله تعالى في الآخرة.

قال ابن أبي الصلت[1]:

يدعون بالويل فيها لا خلاق لهم ... إلا السرابيل من قطر وأغلال[2]

يقول: لاخلاص لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝١٠٢﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي: باعوا حظ أنفسهم.

قال المخلب الهلالي[3]:

فبيناه يشري رحله قال قائل ... لمن جمل رخوُ [الملاط][4] ذلولُ

---

(١) أمية بن عبدالله أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي: شاعر جاهلي حكيم، من أهل الطائف، كان مطلعًا على الكتب القديمة يلبس المسوح تعبدًا، وهو ممن حرموا على أنفسهم الخمر، ونبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية، أدرك الإسلام ولم يسلم، مات في السنة الخامسة للهجرة.

انظر: النووي، تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٦)، الزركلي، الأعلام (٢/ ٢٣).

(٢) نسبه ابن جرير الطبري إلى أمية بن أبي الصلت، انظر: تفسير الطبري (١/ ١٦٦).

(٣) قال عبدالقادر البغدادي في خزانة الأدب (٥/ ٢٥٨): «وهذا الشاعر لم أقف على نسبه ولا على شيء من أثره، والله أعلم».

(٤) في الأصل: «البلاط» بالباء، وما بين معكوفتين من خزانة الأدب للبغدادي (٥/ ٢٥٥)، وابن منظور، لسان العرب (٣/ ٤٣٥)، بالميم «الملاط».

والملاط بكسر الميم: مقدم السنام، وقيل جانبه، وهما ملاطان: العضدان، =

يقول: يبيع رحله حين ضاع جمله، بعدما طلب من صاحبيه حمله، ورحله فأبيا عليه، فحينئذ سمع قائلاً يقول: لمن جمل صفته كذا وكذا لجمله، فهلل واستبشر وترك بيع رحله، وأخذ جمله من واجده وشده برحله، كما أبانه في الأبيات قبل هذا البيت وبعده[1].

وفي مسند الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص[2] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لداود نبي الله عليه السلام من الليل ساعة، يوقظ فيها أهله يقول: يا آل داود قوموا فصلوا، فإن هذه الساعة يستجيب الله فيها الدعاء، إلا لساحرٍ أو عشار[3]»[4].

= وقيل الإبطان «ورخز الملاط» سهله وأملسه.
خزانة الأدب، البغدادي (٥/ ٢٥٤).

(١) منسوب في اللسان للحجير السلولي (٣/ ٤٣٥)، وجزم البغدادي في نسبته إلى المخلب الهلالي.
انظر: خزانة الأدب له (٥/ ٢٥٥ـ ٢٥٧).

(٢) عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد بن دهمان من ثقيف: صحابي من أهل الطائف، أسلم في وفد ثقيف، استعمله النبي ﷺ على الطائف فبقي في عمله إلى أيام عمر رضي الله عنه، عزله عثمان رضي الله عنه بعد أن آلت الخلافة إليه، فسكن البصرة إلى أن توفي سنة ٥١هـ عليه رحمة الله.
انظر: الإصابة، ابن جرير (٢/ ٤٥٣)، الطبقات الكبرى، ابن سعد (٥/ ٣٧٢).

(٣) العشار هو من يأخذ العشر من الأموال على ما كان يأخذه أهل الجاهلية، تاركًا فرض الله وهو ربع العشر.
انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٣٨).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٥٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ١٩٧)، كلهم من طريق علي بن زيد عن الحسن عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٤٠١): ضعيف.

[ك،١٠١/ب] فالحاصل أن السحر اسم لما خفي سببه، ومنه ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشياطين مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يحصل إلا لمن يشابههم في الشرارة وخبث [النفس][١]، فإن التناسب شرط في التضام والتعاون.

(**وقوله تعالى**: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ**﴾ [النساء: ٥١]).

تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى قريبًا[٢].

(**قال**) أمير المؤمنين الفاروق (**عمر**) بن الخطاب رضي الله عنه: (**الجبت: السحر**) لأنه لا خير فيه، وتقدم أن العرب تطلق الجبت على كل ما لا خير فيه، (**والطاغوت: الشيطان**)[٣]، لأن كل من طغى عن الحق، ودعا إلى الباطل، وتعدى الحد، له تبع في ذلك.

(**وقال جابر**) بن عبدالله بن عمرو بن حرام بن **عمرو** بن سود[٤] بن سلمة الأنصاري، الخزرجي، السلمي، كان من جلة الصحابة، وحفاظهم، روي له عن رسول الله ﷺ ألف وخمسة وأربعون حديثًا، اتفق الشيخان على ستين، وانفرد البخاري بستة عشر، ومسلم بثمانية وعشرين، وهو من أصحاب بيعة

---

(١) طمست هذه الكلمة في الأصل وما بين معكوفتين من المسودة.

(٢) ص ٩٥٥.

(٣) أخرجه البخاري تعليقًا في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [المائدة: ٦] بصيغة الجزم (٤/ ١٦٧٣)، ووصله ابن جرير الطبري في التفسير (٥/ ١٣١)، وعبد بن حميد في تفسيره، ومسدد في مسنده كما في تغليق التعليق (٤/ ١٩٦)، وعبدالرحمن بن رسته في كتاب الإيمان، كلهم من طريق أبي إسحاق عن حسان بن فائد عن عمر مثله كما في فتح الباري (٨/ ٢٥٢).

قال الحافظ ابن حجر: إسناده قوي، وقد وقع التصريح بسماع أبي إسحاق له من حسان وسماع حسان من عمر، في رواية رسته. الفتح (٨/ ٢٥٢).

(٤) كذا قال والذي في الإصابة (١/ ٢١٤): حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة.

العقبة، وأبوه رضي الله عنه من النقباء، وحضر معهم جماعة من قومهم بني سلمة، منهم معاذ بن عمرو بن الجموح[1] ومعاذ بن جبل، روى البخاري عنه أنه قال: أنا وأبي [وخالاي][2] من أصحاب العقبة[3].

وفي صحيح مسلم أنه قال: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع عشرة غزوة، ولم أشهد بدرًا ولا أحدًا؛ منعني أبي، فلما قتل أبي يوم أحد لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة قط[4].

وكان من فرسان رسول الله ﷺ، له مناقب جليلة، كف آخر عمره، وتوفي بالمدينة سنة ثلاث وسبعين وهو ابن أربع وتسعين سنة.

وعند الترمذي عنه أنه قال: استغفر لي رسول الله ﷺ ليلة البعير خمسًا وعشرين مرة[5].

---

(١) معاذ بن عمرو بن الجموح بن زيد من بني كعب بن سلمة الأنصاري الخزرجي السلمي، شجاع صحابي، شهد العقبة وبدرًا، وكان أول من تعاونوا على قتل أبي جهل يوم بدر، ووثب حينذاك عكرمة بن أبي جهل فضرب معاذًا فقطع يده، وبقيت معلقة بجلدة من جسمه، فضايقته فوضعها تحت قدمه وتمطى حتى فصلها عن جسده، واستمر يقاتل إلى آخر النهار، وعاش بعد ذلك إلى خلافة عثمان.

انظر: الإصابة، لابن حجر (٣/ ٤٠٩)، الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣/ ١٢٠).

(٢) في الأصل والمسودة: «وخالي» والصواب «وخالاي» كما في نص حديث جابر الآتي تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري، فضائل الصحابة، باب وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة وبيعة العقبة (٣/ ١٤١٣).

(٤) أخرجه مسلم، الجهاد والسير، باب عدد غزوات النبي ﷺ (٣/ ١٤٤٨).

(٥) أخرجه الترمذي، المناقب، مناقب جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وقال الترمذي حسن صحيح (٥/ ٦٩١). وابن حبان، الإحسان بترتيب ابن بلبان (١٦/ ٩١)، وأخرجه الطيالسي في مسنده رقم (١٣٣) (ص ٢٣٩)، والطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٨٧)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٦٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ =

قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

ويعني بليلة البعير: ليلة باع من النبي ﷺ في سفر بعيره، واشترط حملانه إلى المدينة، وهي مشهورة، وكان أبوه قد قتل يوم أحد وترك [بناتٍ][(١)]، وكان يعولهن وكان النبي ﷺ يبره ويرحمه بسبب ذلك. كما روي عن جابر نحو ذلك[(٢)].

وفي وفاء دين أبيه حصلت المعجزة للنبي ﷺ، في وفائه من التمر[(٣)].

وعند الترمذي وغيره، أن النبي ﷺ قال لجابر: أما علمت أن الله أحيا أباك، وكلمه كفاحًا[(٤)(٥)].

= ٦٥٣)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي، كلهم من طريق أبي الزبير عن جابر، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (ص ٥١٧).

(١) في الأصل: «بناتا».

(٢) الترمذي، السنن (٥/ ٦٩١).

(٣) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب الشفاعة في وضع الدين، وهو جزء من حديث طويل ونصه عن جابر رضي الله عنه قال: أصيب عبدالله وترك عيالاً ودينًا فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضًا من دينه فأبوا فأتيت النبي ﷺ فاستشفعت به عليهم فأبوا فقال: صنّف تمرك، كل شيء منه على حدته... ثم أحضرهم حتى آتيك ففعلت ثم جاء ﷺ فقعد عليه وكال لكل رجل حتى استوفى وبقي التمر كما هو كأنه لم يمس. (٢/ ٨٤٧).

(٤) أي: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.

النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (٤/ ١٨٥).

(٥) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، سورة آل عمران، من طريق موسى بن إبراهيم قال سمعت طلحة بن خراش قال سمعت جابر، وقال الترمذي حسن غريب (٥/ ٢٣٠).

وابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٨).

والإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣١٣) من طريق الشعبي عن جابر رضي الله عنه، وابن حبان، الإحسان بترتيب ابن بلبان (١٥/ ٤٩٠) من طريق وهب بن كيسان عن =

(الطواغيت: كهان، كان ينزل الشيطان عليهم، في كل حي واحد).

رواه ابن أبي حاتم، ولفظه قال حدثنا أبي ثنا إسحاق بن الصعب ثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرًا رضي الله عنه سئل عن الطاغوت فقال: هم كهان تنزل عليهم شياطين(1).

تقدم أن الجبت اسم لصنم، فاستعمل في كل ما عبد من دون الله، ويطلق على الساحر، والسحر، والكاهن، والذي لا خير فيه، قاله أهل اللغة، وهذا من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، وكذلك الاختلاف في مسمى الطاغوت، إذ هو اسم وصف يوصف به كل من طغى عن الحق، أو دعا إلى باطل، حسًا أو معنى، كما قال عباس بن مرداس رضي الله عنه يوم حنين يخاطب النبي ﷺ:

بك أسلم الطاغوت واتبع الهدى   وبك انجلى عنا الظلام الحندس(2)

والسحر أنواع، منه ما يقع بخداع، وتخييلات لا حقيقة لها، وإلى

= جابر، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٣)، من طريق نبيح العنزي، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٦)، والحميدي في مسنده (٢/ ٥٣٢)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٣١٧)، كلهم من طريق عبدالله بن محمد عن جابر.

والحديث حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٣٨).

(1) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ بصيغة الجزم (٤/ ١٦٧٣)، ووصله ابن جرير الطبري في التفسير (٣/ ١٩) من طريق حجاج عن ابن جريج به، وابن أبي حاتم في تفسيره من طريق وهب بن منبه عن جابر كما في تغليق التعليق (٤/ ١٩٦).

(2) قال الجوهري: الحندس بكسر الحاء والدال: الليل الشديد الظلمة. الصحاح (٣/ ٩١٦)، في لسان العرب: ٣/ ٤٧٦.

ذلك الإشارة بقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦]. وقوله: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]. ومن هناك سمّوا موسى عليه السلام ساحرًا.

ومنه ما يحصل بمعاونة الشياطين ـ كما مر ـ بضرب [من التقرّب][(١)] إليهم بعبادتهم لهم من دون الله، ومنه ما يؤخذ جميعه عنهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ومنه ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانيتها بزعمهم فتنزل عليهم، وتلك شياطين من مسترقة السمع، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ـ ٢٢٢].

قال أبو محمد بن حزم: ومنه ما يوجد من الطلسمات[(٢)]،

---

(١) في الأصل: [بضرب أو تمريض يفعلونه لمن تقرب إليهم]، وهو فاسد المعنى؛ إذ الشياطين تعاون من تقرب إليهم لا تمرضهم ولا تضربهم، وإنما حصل الخلل في العبارة من سوء قراءة كلام ابن حجر في فتح الباري (١٠/ ٢٢٢) الذي ينقل فيه المؤلف بتصرف، وما أثبتناه مأخوذ من هناك.

(٢) هو أشرف وأرفع، أنواع السحر عند السحرة، وهو عبارة عن تخريج القوى الفعالة السماوية، بالقوى المنفعلة الأرضية لإحداث ما يخالف العادة، أو للمنع مما يوافق العادة، ويقصد السحرة بالقوى الفعالة السماوية، أرواح النجوم، وهي في الحقيقة الشياطين، ويقصدون بالقوى المنفعلة الأرضية، الأحداث الأرضية، وقيل إن من معاني الطلسم كما يقول طاش كبرى زاده: إنه عقد لا ينحل، وقيل هو مقلوب اسمه أعني مسلط، لأنه من جواهر القهر والتسلط.

انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٥/ ١٧١، ١٩٢ـ ١٩٦)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، طاش كبرى زاده (١/ ٣١٦)، موقف الإسلام من السحر، حياة سعيد (١/ ٢٥٧).

كالطبائع[1] المنقوش فيها صورة عقرب في وقت كون القمر في العقرب، فينفع بزعمهم إمساكه من لدغة العقرب، وكالمشاهد ببعض الغرب[2] بناء لا يدخله ثعبان إلا إن كان بغير إرادته، وقد يجمع بعضهم بين الأمرين الأخيرين: الاستعانة بالشياطين ومخاطبة الكواكب، فيكون ذلك بزعمهم أقوى[3].

قال أبو بكر الرازي[4] في أحكامه: كان أهل بابل[5] قومًا صابئين[6]،

---

(١) في المسودة أيضًا: «كالطبائع» وفي المصدر الذي نقل منه المؤلف هذا النص «كالطابع».
انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تعليقه على هذا النص: «وهي مدينة سرقسطة». انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

(٣) النص منقول من فتح الباري (١٠/ ٢٢٢)، وانظر: الفصل، ابن حزم (٥/ ١٠١-١٠٢).

(٤) هو أحمد بن علي الرازي، أبوبكر الجصاص، من فضلاء الحنفية، انتهت إليه رئاسة المذهب، وعرض عليه أن يلي القضاء فامتنع، من كتبه أحكام القرآن، وكتاب في أصول الفقه، ولد في الري سنة ٣٠٥هـ وتوفي سنة ٣٧٠هـ. انظر: الجواهر المضيئة في تراجم الحنفية، عبدالقادر القرشي (١/ ٨٤)، الأعلام، الزركلي (١/ ١٧١).

(٥) بابل مدينة قديمة أهلها الكلدانيون، ينسب إليها السحر والخمر، وهي ناحية منها الكوفة، والحلة، كان أهلها شديدي التعلق بالسحر، فعن الإمام مالك رضي الله عنه أنه بلغه أن عمر بن الخطاب أراد الخروج إلى العراق فقال له كعب الأحبار، لا تخرج إليها يا أمير المؤمنين فإن بها تسعة أعشار السحر، وبها فسقة الجن وبها الداء العضال. انظر: الموطأ، مالك (٢/ ٩٧٥)، معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٣٠٩).

(٦) سبق التعريف بالصابئة، راجع ك(١٠/ أ).

يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة، ويعتقدون أنها الفعالة لكل ما في العالم، وعملوا لها أوثانًا على أسمائها، ولكل واحد منها هيكل فيه صنمه، يتقرب إليه بما يوافقه بزعمه من أدعية وبخور، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم عليه السلام وكانت علومهم أحكام النجوم، ومع ذلك فكان السحرة منهم يستعملون وجوه السحر وينسبونها إلى فعل الكواكب لئلا يبحث عنها[١].

ثم السحر يطلق ويراد به الآلة التي يسحر بها، ويطلق ويراد به فعل الساحر، والآلة تارة تكون معنى من المعانى فقط كالرقى والنفث في العقد، كما قال جرير بن الخطفَى:

طوى حزنًا في القلب حتى كأنما   به نفْث سحر أو أشد من السحر[٢]

وتارة تكون بالمحسوسات كتصويره على صورة المسحور، وتارة يجمع الأمرين الحسي والمعنوي، وهو أبلغ في السحر.

واختُلف في السحر فقال بعضهم: هو تخييل لا حقيقة له، اختاره أبوبكر الرازي من الحنفية[٣]، وابن حزم الظاهري[٤] وطائفة.

قال النووي: والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه

---

(١) النص منقول من فتح الباري (١٠/ ٢٢٢)، وانظر: أحكام القرآن، أبوبكر الرازي المعروف بالجصاص (١/ ٥٢ـ ٥٤).

(٢) انظر: شرح ديوان جرير، مهدي ناصر الدين (ص ٢٠٦).

(٣) انظر: أحكام القرآن، أبوبكر الجصاص (١/ ٦٠).

(٤) انظر: المحلى، ابن حزم (١/ ٣٦)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم (٥/ ١٠٣).

عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة[(١)].

وقطع شيخ الإسلام ابن تيمية بأن له حقيقة مع التفرقة في ذلك[(٢)].

ومحل النزاع: هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا، فمن قال: إنه تخييل يكون نوعين[(٣)]: إما أن يكون كالأمراض أو ينتهي إلى الإحالة، بحيث يصير الجماد حيوانًا مثلاً وعكسه، فالذي عليه الجمهور الأول، وذهب طائفة قليلة إلى الثاني فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلم، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف، فإن كثيرًا ممن يدعي ذلك لا يستطيع [ك،١٠١/أ] إقامة البرهان عليه[(٤)].

ونقل الخطابي[(٥)] أن قومًا أنكروا السحر مطلقًا، وكأنه عنى القائلين

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي (٤/ ١٧٤).

(٢) انظر: النبوات، شيخ الإسلام (ص ١١٥، ٢٧٣، ٢٨١)، وفي مواضع أخرى.

(٣) يوجد سقط في هذا النص، وهو كما تقدم منقول من كتاب فتح الباري، مما أدى إلى الإخلال بالمعنى، وجعله متناقضًا، إذ كيف يقول نفاة حقيقة السحر بأن له حقيقة، وأنه على نوعين، ولا شك أن ذلك تناقض واضح، ولعله سبق قلم من المؤلف عفا الله عنا وعنه وبعد إلحاق عبارة الحافظ الساقطة يستقيم الكلام، وقد جعلت الكلام الساقط بين معكوفتين.

يقول الحافظ ابن حجر: «لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا؟ فمن قال إنه تخييل [فقط منع ذلك، ومن قال إن له حقيقة اختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعًا من الأمراض] أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصير الجماد حيوانًا مثلاً وعكسه، فالذي عليه الجمهور...». فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

والملاحظ أن المؤلف لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى أنه نقل هذه النصوص السابقة واللاحقة من كتاب فتح الباري.

(٤) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٢٢).

(٥) تقدمت ترجمته ص ٣١٣.

بأنه تخييل فقط وإلا فهي مكابرة ممن أنكره[1].

وقال المازري[2]: جمهور العلماء على إثبات وجود السحر، وأن له حقيقة، ونفى بعضهم حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق، أو تركيب أجسام، أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص.

ونظير ذلك ما يقع من حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض، حتى ينقلب الضار منها منفردًا[3]، فيصير بالتركيب نافعا.

وقيل لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله في قوله: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢] لكون المقام مقام تهويل، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره[4].

قال المازري: والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع أكثر من ذلك، قال: والآية ليست نصا في منع الزيادة، ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك[5].

---

(١) النص منقول من فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

(٢) هو محمد بن علي بن عمر المازري أبو عبدالله، محدث، من فقهاء المالكية، نسبته إلى «مازر» بجزيرة صقلية، ووفاته بالمهدية سنة ٥٣٦هـ، له المعلم بفوائد مسلم، والتلقين، والكشف والإنباء في الرد على الإحياء للغزالي، وغير ذلك. انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٤٨٦)، الأعلام، الزركلي (٦/ ٢٧٧).

(٣) في فتح الباري «بمفرده» (١٠/ ٢٢٢).

(٤) انظر المعلم بفوائد مسلم، المازري (٣/ ٩٣ـ ٩٤).

(٥) المصدر السابق.

ثم قال: والفرق بين السحر والمعجزة[1] والكرامة[2]، أن السحر يكون بمعاناة حتى يتهيأ للساحر ما يريد، والكرامة لا تحتاج إلى ذلك، بل إنما تقع غالبًا اتفاقًا، فالساحر لا يقدر أن يحيي ميتًا، ولا أن يخرج من عصا حية، وكذا الكاهن قد يصيب ويخطىء، بخلاف النبوة التي لا خطأ فيها بوجه ما[3].

ونقل إمام الحرمين الجويني[4] الإجماع على أن السحر لا يظهر إلا

---

(١) هي الآيات، والبراهين، التي يظهرها الله على يد أنبيائه، ورسله، لإثبات صدقهم في دعوى النبوة، وتسميتها بالمعجزة تسمية حادثة، فهي عند الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل، وغيره من السلف، تسمى: الآيات والبراهين، بل إنها لم ترد في كتاب الله عز وجل إلا بهذا الاسم، فهو «اسم يدل على مقصودها ويختص بها لا يقع على غيرها، لم يسمها معجزة، ولا خرق عادة، وإن كان ذلك من بعض صفاتها، فهي لا تكون آية وبرهانا حتى تكون قد خرقت العادة، وعجز الناس عن الإتيان بمثلها». انظر: النبوات، ابن تيمية (ص ٣١٠)، مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١١/ ٣١١).

(٢) أمر خارق للعادة يظهره الله عز وجل على أيدي أوليائه، وهو مصطلح حادث، أحدثه المتأخرون، للتفرقة بينها وبين آيات الأنبياء، «فالمعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمة العلم المتقدمين»، وهي دون آيات الأنبياء. انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي (٢/ ٧٤٦)، مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١١/ ٣١١).

(٣) النص منقول من فتح الباري (١٠/ ٢٢٣)، وقد تصرف المؤلف بالنص، وانظر: المعلم بفوائد مسلم، المازري (٣/ ٩٤).

(٤) هو عبدالملك بن عبدالله بن يوسف أبو المعالي، الملقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، ولد في جوين بنيسابور في سنة ٤١٩هـ، تولى الإمامة في مكة والمدينة، فقيه أصولي، كان من أعمدة الأشاعرة، ورجع عن الأشعرية عند وفاته، وتوبته عن الكلام مشهورة، حيث أشهد من حضر وفاته أنه رجع عن كل مقالة تخالف السنة، وأنه يموت على ما تموت عليه عجائز نيسابور،

من فاسق، وأن الكرامة لا تظهر على فاسق[1].

وقال النووي في الروضة نحوه عن المتولي[2].

ويعتبر ذلك بحال من يقع الخارق منه، فإن كان متمسكًا بالشريعة متجنبًا للموبقات، فالذي يظهر على يده من ذلك كرامة، وإلا فهو سحر لأنه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين[3].

وقال القرطبي[4]: السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته، وأكثرها تخييلات بغير حقيقة وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك كما قال تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦].

مع أن حبالهم وعصيهم لم تخرج عن كونها حبالاً وعصيًا[5]. ثم قال: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيرًا في القلوب، كالحب والبغض

= توفي عليه رحمة الله سنة ٤٧٨هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٠٩)، طبقات الشافعية، السبكي (٥/ ١٦٥).

(١) النص منقول من فتح الباري (١٠/ ٢٢٣)، وانظر: الإرشاد، الجويني (ص ٣٢٣).

(٢) انظر: «روضة الطالبين» للنووي: ٩/ ٣٤٦، حيث ذكر أن المتولي ذكر نحوه في الغنية، والمتولي هو عبدالرحمن بن مأمون بن علي النيسابوري، أبو سعد، من فقهاء الشافعية، ت ٤٧٨هـ، انظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: ٢/ ٢٤٨.

(٣) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٣).

(٤) هو أبو العباس، أحمد بن عمر بن إبراهيم، صاحب «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، ت ٦٥٦هـ.

(٥) المفهم: ٥/ ٥٦٩، باختصار وتصرف.

وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم[1].

قال النووي: وعمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات [ومنه ما يكون كفرًا][2]، ومنه ما لا يكون كفرًا بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر، كفر وقتل من غير استتابة حتمًا كالزنديق[3].

قال عياض[4]: وهو قول مالك والإمام أحمد وجماعة من الصحابة

---

(١) المفهم: ٥/ ٥٦٩، بمعناه.

(٢) ما بين معكوفتين ساقط من الأصل، والمثبت من المسودة، انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٤) وشرح مسلم، النووي (١٤/ ١٧٦).

(٣) لم يكن المؤلف دقيقًا في تصرفه في النص الذي نقله من فتح الباري (١٠/ ٢٢٤)، فالنووي في هذه المسألة تبعًا للإمام الشافعي، لا يرى قتل الساحر من غير استتابة، خلافًا للجمهور القائلين بقتل الساحر، وعدم قبول توبته قياسًا على الزنديق، وهو ما أشار إليه النووي في النص الآنف الذكر حيث يقول الحافظ ابن حجر: «قال النووي: عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع... ومنه ما يكون كفرًا، ومنه ما لا يكون كفرًا، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفّر، واستتيب منه، ولا يقتل عندنا، فإن تاب قبلت توبته، وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر، وعن مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب بل يتحتم قتله كالزنديق، والمسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق، لأن الساحر عنده كافر كما ذكرنا، وعندنا ليس بكافر وعندنا تقبل توبة المنافق والزنديق، قال القاضي عياض: وبقول مالك قال أحمد...». شرح صحيح مسلم، النووي (١٤/ ١٧٦)، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٤).

لاحظ أن المؤلف قد نسب رأي الإمام مالك، إلى النووي عليهم رحمة الله جميعًا.

(٤) هو عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، أبو الفضل، عالم المغرب، محدث، من أعلم الناس بكلام العرب، وأنسابهم، وأيامهم، وولي قضاء سبتة وغيرها، =

والتابعين[1]. وعند الإمام الشافعي يستتاب، فإن تاب قبلت توبته.

وفي المسألة اختلاف في حكمها وتفاصيلها لا نطيل بذكرها، وقد أجاز بعض أهل العلم تعلم السحر كأبي حنيفة رحمه الله لأحد أمرين: إما لتمييز ما فيه كفر من غيره، وإما لإزالته عمن وقع فيه.

قالوا فالأول لا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد، فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لا [تستلزم][2] منعًا، كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان، لأن كيفية ما يعمل الساحر إنما هي حكاية قول أو فعل، بخلاف تعاطيه والعمل به.

وأما الثاني: إن كان لا يتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق فلا يحل أصلاً قربانه، قالوا: وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة[3].

قلت: وظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] خلافه، وأنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر، وكذا قوله عن الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] فإن فيه إشارة أن تعلمه كفر، فيكون العمل به كفرًا، وهذا كله واضح على ما قرر من العمل ببعض

= وبها ولد سنة ٤٧٦هـ، توفي سنة ٥٤٤هـ مسمومًا على يد يهودي بمراكش، من تصانيفه الكثيرة: الشفا، وشرح صحيح مسلم.

انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٣٩٢)، الأعلام، الزركلي (٥/ ٩٩).

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٤).

(٢) في الأصل: يستلزم.

(٣) فتح الباري: ابن حجر (١٠/ ٢٢٤ـ ٢٢٥).

أنواعه، وقد زعم بعضهم أن السحر لا يصح إلا بالكفر، وعلى هذا فتسمية ما عدا ذلك سحرًا [مجاز][١] كإطلاقه على القول البليغ، كما يأتي الكلام عليه إن شاء الله في الباب بعده.

(**عن أبي هريرة**) رضي الله عنه أن (**رسول الله ﷺ قال: اجتنبوا**) بمعنى ابعُدوا وهو أبلغ من لا تفعلوا، (**السبع**) أي: الكبار، السبع المذكورة في هذا الخبر لاقتضاء المقام ذكرها فقط، وإلا فهي إلى السبعين، بل إلى السبعمائة أقرب.

(**الموبقات**) أي: المهلكات، (**قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك**) بنصبه على البدل، ورفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف.

(**بالله**) أي: جعل أحد شريكًا له، والمراد الكفر به سبحانه، لأن المشرك شركًا يخرج عن الملة لابد أن يكون كافرًا.

(**والسحر**): وهو مزاولة النفس الخبيثة لأقوال وأفعال يترتب عليها أحوال خارقة، كما مر بيانه مستوفى.

(**وقتل النفس التي حرم الله**)، أي: قتلها عمدًا، قال بعضهم: أو شبه عمد.

(**إلا بالحق**)، بأن يفعل موجبًا للقتل شرعًا، بأن يبدل دينه، أو يخرج على المسلمين يريد أن يشق عصاهم ويفرق جماعتهم، أو يقطع طريقهم، أو يزني بعد إحصانه، أو يقتل نفسًا عمدًا بغير نفس.

(**وأكل الربا**)، بأن يتناوله الإنسان بأي وجه كان من الوجوه الربوية، ولابد أن يعامل صاحب الربا بنقيض قصده في الدنيا دون ما يدخر الله له من العقوبة في الآخرة، كما في الحديث الذي رواه الإمام

---

(١) في الأصل: مجازاً.

أحمد في مسنده حيث قال ثنا حجاج، ثنا شريك، عن [الركين][1] بن الربيع، عن أبيه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، [ك،١٠٢/ب] عن النبي ﷺ قال: «الربا وإن كثر، فإن عاقبته تصير إلى قل»[2].

ورواه ابن ماجه عن العباس بن جعفر، عن [عمرو[3] بن عون]، عن يحيى بن أبي زائدة، عن إسرائيل، عن [الركين][4] بن الربيع بن عميلة، الفزاري، عن أبيه عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة»[5].

وهذا بنقيض مقصود المرابي.

---

(١) في الأصل والمسودة «الركيس»، بالسين، والصواب الركين، بالنون، وهو ابن الربيع بن عميلة، الفزاري، أبو الربيع الكوفي، ثقة من الرابعة، مات سنة إحدى وثلاثين.

انظر: تقريب التهذيب (ص ٢١٠)، تهذيب التهذيب (٣/ ٢٨٧ـ ٢٨٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٩٥)، وإسناده حسن، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣)، من طريق إسرائيل عن الركين به، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو يعلى في المسند (٨/ ٤٥٦)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٢٣)، كلاهما من طريق شريك به.

(٣) في الأصل والمسودة «عمر بن عوف» وما بين معكوفتين من سنن ابن ماجه (٢/ ٧٦٥) وهو الصواب، وهو عمرو بن عون بن أنس، الواسطي، البصري، ثقة ثبت، من العاشرة، مات سنة خمس وعشرين.

انظر: تقريب التهذيب (ص ٤٢٥)، تهذيب التهذيب (٨/ ٨٦ـ ٨٧).

(٤) في الأصل والمسودة «الركسي» بالسين، وما بين معكوفتين من تهذيب التهذيب (٣/ ٢٤٩ـ ٢٥٠)، وفي سنن ابن ماجه «دكين» أوله دال (٢/ ٧٦٥).

(٥) أخرجه ابن ماجه، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا (٢/ ٧٦٥)، وإسناده صحيح، قال البويصري في مصباح الزجاجة: إسناده صحيح ورجاله موثقون (٢/ ١١٩)، وقال الحافظ في الفتح (٤/ ٣١٥): إسناده حسن.

(وأكل مال اليتيم)، إلا ما خصه الشارع من الرخصة لوليه، وذلك مع الحاجة بأن يكون بقدر عمله، وهل يرده إذا أيسر على روايتين عن الإمام أحمد رضي الله عنه، أصحهما لا يرده.

(والتولي) أي: الإدبار عن وجوه الكفار **(يوم الزحف)**، غير متحرف لقتال أو متحيز إلى فئة، أو يزيد الكفار على مثلي المسلمين، وقال بعض أهل العلم: لا يجوز إلا أن يعلم أن مقامه لا ينكؤ عدوا. قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(وقذف المحصنات) أي: الحافظات فروجهن، **(الغافلات)** عن الفواحش وما قذفن به، **(المؤمنات)** بالله سبحانه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وكفى قاذف من هذه صفته عقوبة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٣ـ ٢٤].

فإن الصحيح من أقوال المفسرين عمومها كما اختاره ابن جرير[(١)] وغيره، ويعضده حديث الباب، ومن قال إنها خاصة بعائشة أو بأزواج النبي ﷺ فقد يكون مراده سبب النزول، وهو كذلك، قال ابن زيد على هذه الآية هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا اليوم في المسلمات أيضًا، فله ما قال الله ولكن عائشة كانت إمامًا في ذلك[(٢)].

---

(١) حكاه ابن جرير عن ابن عباس وابن زيد وغيرهم، وقد اختاره ابن جرير كما ذكر المؤلف. انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٠٣ـ ١٠٥)، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٢٧٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٠٣ـ ١٠٥)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٦).

فعند الطبراني عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة[١].

وأما قاذف عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبويها، فقد أجمع العلماء قاطبة على كفر من قذفها لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان للعلماء[٢]. وعند البخاري في الأدب[٣]، والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا بسند حسن: «ثلاث من كن فيه فإن الله يغفر له ما سوى ذلك، من مات لا يشرك بالله شيئًا، ولم يكن ساحرًا يتبع السحرة، ولم يحقد على أخيه»[٤].

وقد قال الإمام أحمد: ثنا يزيد بن هارون ثنا شعبة عن عمرو بن مرة سمعت عبدالله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي قال: قال يهودي لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

فقال: لا تقل له نبي فإنه لو سمعك لصارت له أربعة أعين، فسألاه، فقال النبي ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٦٨)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم بن زنيم، قال عنه الإمام أحمد وأبو زرعة: مضطرب الحديث، وقال الحافظ في التقريب: صدوق اختلط جدًا ولم يتميز حديثه فترك.

انظر: تهذيب التهذيب (٨/ ٤٦٦ـ ٤٦٨)، تقريب التهذيب (ص ٤٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٢٧٦).

(٣) الأدب المفرد: ص١٤٩، رقم (٤١٣)، دار البشائر، ١٤٠٩هـ.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٤٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٢٤٣)، والأوسط (١/ ٥٠١)، وعبد بن حميد في مسنده، المنتخب من مسند عبد بن حميد (ص ٢٢٩)، كلهم من طريق أبي فزارة عن يزيد بن الأعصم عن ابن عباس به.

ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذفوا المحصنة، أو قال: لا تفروا من الزحف ـ شعبة الشاك ـ وأنتم يهود عليكم خاصة أن لا تعدوا في السبت».

فقبلا رجليه ويديه وقالا: نشهد أنك نبي. قال: فما يمنعكما أن تتبعاني؟ قالا: إن داود عليه السلام دعا أن لا يزال من ذريته نبي، فإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود.

ورواه النسائي والترمذي وصححه، وعبدالله بن سلمة تكلم فيه وحديثه حسن[1].

وجمهور المفسرين على أن المراد بالآيات: المعجزات والدلالات وهي العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وفي الثامن والتاسع أقوال[2].

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٢٣٩)، والترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة النحل (٥/ ٣٠٥)، والنسائي، كتاب تحريم الدم، باب السحر (٧/ ١١١)، وابن ماجه، الأدب، باب الرجل يقبل يد الرجل (٢/ ١٢٢١)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٦٩)، والطيالسي في مسنده (ص ١٦٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢١٥)، كلهم من طريق شعبة عن عمرو بن مرة به، وفي إسناده ضعف، عبدالله بن سلمة، قال عنه شعبة: «عن عمرو بن مرة كان عبدالله بن سلمة يحدثنا فيعرف وينكر كان قد كبر» تهذيب التهذيب (٥/ ٢٤٢)، فسماع عمرو بن مرة إذًا لعبدالله بن سلمة غير مقبول لأنه سمعه بعد كبره واختلاطه، قال الألباني في ضعيف الترمذي: إسناده ضعيف (ص ٣٨٢).

(٢) وجمهور المفسرين كما ذكرها المؤلف على أن المراد بهذه الآية الآيات البينات التي بعث الله بها موسى، وقد ذكرها المؤلف على خلاف بعضها، ولذلك أنكر ابن كثير =

ويشهد لمعنى الآية والحديث في صفة المحصنة من اللغة، قول حسان بن ثابت رضي الله عنه معتذرًا من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في أبيات منها قوله:

حصان[1] رزان[2] ما تزن بريبة وتصبح غرثى[3] من لحوم الغوافل[4]

فمن قذف مسلمة عفيفة فعليه حد القذف، فإن لم تكن بالوصف المذكور من العفة فليست هذه بمحصنة، فلا يستوجب قاذفها حدًا، لكن يعزر إن رآه ولي الأمر ردعًا له عن التجرؤ وصيانة للمسلم، **(أخرجاه في الصحيحين)**[5].

(وعن جندب) بن عبدالله بن سفيان البجلي، الذي تقدم ذكره، راوي حديث الخلة الذي عند مسلم وهو بهذا غير جندب قاتل الساحر،

= عليه رحمة الله هذا الحديث بقوله: «وهو حديث مشكل، وعبدالله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه تسع الآيات بعشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة، لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم».
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٦٦).

(١) كل امرأة عفيفة مُحصَنة ومُحصِنة. لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ١٢٠).
(٢) امرأة رزان إذا كانت ذات ثبات ووقار وعفاف وكانت رزينة في مجلسها، لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ١٧٩).
(٣) الغرث أيسر الجوع، وقيل: شدته، وقيل: هو الجوع العامة. المصدر السابق (٢/ ١٧٢).
(٤) البيت في ديوان حسان (ص ٢٢)، لسان العرب (١٣/ ١٧٩).
(٥) أخرجه البخاري في الوصايا، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [النساء: ١٠] (٣/ ١٠١٧)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (١/ ٩٢) وغيرهم.

فإن ذلك ذكره ابن حبان في ثقات التابعين، وقتل بصفين على ما قاله أبو عبيد، يقال له جندب الخير، أزدي يكنى بأبي عبدالله، وجعله الترمذي عنه فقال: عن جندب الأزدي، وذكره غير ابن حبان في الصحابة فهو مختلف في صحبته، يقال ابن كعب ويقال ابن زهير وقيل هما واحد، [روي][1] هذا الحديث (مرفوعًا) إلى النبي ﷺ أنه قال: («حد الساحر ضربة بالسيف»)[2].

الأظهر في تسمية الحد في هذا الموضع كونه مانعًا عن الوقوع في مثل هذا الذنب، أو أنه مقدر لا تجوز الزيادة فيه ولا النقصان.

روي ضربة بالتاء والهاء، والمعنى حد الساحر القتل، وضربة [ك،١٠٢/أ] بالسيف أحسن القتل ولهذا قال ﷺ: «إذا قتلتم فأحسنوا القِتلة»[3].

فعند الإمام أحمد ومالك إذا وقع السحر من فاعله فهو كفر مطلقًا،

---

(١) في الأصل «فروى» وما بين معكوفتين من المسودة.

(٢) أخرجه الترمذي في الحدود، باب ما جاء في حد السحر (٤/ ٦٠) وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث، والصحيح عن جندب موقوف (٤/ ٦٠)، والدارقطني في سننه (٣/ ١١٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٦١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٠١)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل ابن مسلم، فإنه غريب صحيح»، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٦).

وقد روي هذا الحديث عن جندب بإسناد صحيح موقوفًا، كما قال الترمذي آنفًا، وهو عند الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦١)، وقد صححه الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ٦٤٢).

(٣) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة (٣/ ١٥٨).

فيقتل من غير استتابة عملاً بظاهر الحديث[1]، وعند الحنفية والشافعية أنه يقتل إذا كان ما يسحر به كفرًا أو أقر أنه قتله بسحره، أو أنه يقتل غالبًا[2]، وتقدم ذكر الخلاف في الاستتابة، والقول الأول: هو الذي عليه جملة من الصحابة رضي الله عنهم وجماهير التابعين وبه عمل جندب، وقد جوز أهل السنة والجماعة بأنه قد يقدر الساحر أن يطير في الهواء بسحره، أو بحمل الشياطين له والكل من عمل الشيطان، وذلك لا يقع إلا عن قضاء الله وقدره، فإنه خالق الخير والشر ومقدرهما وإن كان ذلك القول أو الفعل كفرًا، فإنه لا يخرج عن قضاء الله وقدره[3].

وبهذا يُعلم أن الكفرة والفسقة لا ترتدع إلا بإمضاء الحدود على أهلها المستحقين لها، وبذلك أرسلت الرسل كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

وعند ابن ماجه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إقامة حد من حدود الله تعالى، خير من مطر أربعين صباحًا في بلاد الله تعالى»[4].

---

(١) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١٤/ ١٧٦)، فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٢٤).

(٢) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١٤/ ١٧٦)، فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٢٤).

(٣) المصادر السابقة.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الحدود، باب إقامة الحدود (٢/ ٨٤٨)، وإسناده ضعيف جدا فيه سعيد بن سنان الحنفي الحمصي، قال في التقريب (ص ٢٣٧)،: «متروك، رماه الدارقطني وغيره بالوضع»، وأخرجه ابن ماجه (٢/٨٤٨) من طريق آخر عن أبي =

إلا أن فيه سعيد بن سنان الحنفي أو الكندي، أبو مهدي الحمصي وهو ضعيف[1]، وقال النسائي إنه متروك[2].

ورماه الدارقطني بالوضع[3]، وقد قال الشاعر[4]:

= هريرة مرفوعاً بلفظ: «حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحاً».

وفيه جرير بن يزيد البجلي وهو ضعيف كما في التقريب (ص١٣٩)، لكنه لم يتفرد به، فقد أخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ١٠/ ٢٣)، وإسناده: أخبرنا ابن قتيبة حدثنا محمد بن قدامة حدثنا ابن علية عن يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة به (١٠/ ٢٤٣)، قال الألباني: «وهذا الإسناد وإن كان ظاهر الصحة، ورجاله كلهم ثقات، ومنهم محمد بن قدامة، فهو وإن كان ثقة، إلا أنه قد خالفه في إسناده من هو أوثق منه وأحفظ كما عند النسائي: أخبرنا عمرو بن زرارة قال أنبأنا إسماعيل قال حدثنا يونس بن عبيد عن جرير بن يزيد عن أبي زرعة قال: قال أبو هريرة: موقوفاً إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة» (٨/ ٧٦)، فعمرو بن زرارة، اتفقوا على وصفه بأنه ثقة، بل قال عنه محمد بن عبد الوهاب النيسابوزي ثقة ثقة، فهو بلا شك أوثق من محمد بن قدامة الذي قيل فيه «لا بأس به»، و«صدوق»، ولذلك احتج به الشيخان بخلاف المذكور، وقد خالفه في موضعين:

الأول: أنه أوقفه على أبي هريرة، وذاك رفعه.

الثاني: أنه سمى شيخ يونس بن عبيد بن يزيد، وذاك سماه عمرو بن سعيد وهذا ثقة والذي قبله ضعيف كما سبق».

فعلى ذلك فالرواية المحفوظة رواية الوقف، وقد حسنها الشيخ الألباني، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٦٥-٦٧).

(١) انظر: تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٢٣٧).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٤/ ٤٧).

(٣) انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٤/ ٤٦).

(٤) هو أبو تمام، انظر ديوانه: ٣/ ٨٦، ٨٧، وفيه اختلاف عما هنا.

فما هو إلا الوحي أو حد مرهف يقيم ضُباه أخدعي كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل جاهل وهذا دواء الداء من كل عائل

وقد علم أن رسول الله ﷺ له رمح وسيف وسوط وقوس وعصا ودرع ومغفر وترس وخيل وركاب، وكل منها مستعمل فيما يناسب له، هذا والله تعالى يقول في صفته: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال مخاطبًا للمؤمنين عند إقامتهم لحد من حدوده: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [النور: ٢].

فعلم أن من الرحمة إقامة الحدود في الأمة، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «أنا الضحوك القتال»[١].

(**رواه الترمذي**[٢] **وقال: الصحيح أنه موقوف**)، لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وفيه إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف من قبل حفظه[٣].

والصحيح عن الحسن[٤] عن جندب[٥]

---

(١) أخرجه ابن فارس عن ابن عباس مرفوعًا كما في الخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ١٣٣) ولفظه هناك: «اسمي في التوراة أحمد الضحوك القتّال..».

(٢) أي حديث «حد الساحر..» المتقدم.

(٣) انظر: تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ١١٠).

(٤) هو الحسن بن يسار البصري، الأنصاري مولاهم، ثقة، فقيه، فاضل، وكان يرسل ويدلس، مات سنة ١١٠هـ، وقد قارب السبعين.

انظر: تقريب التهذيب (ص ١٦٠)، تهذيب التهذيب (٢/ ٢٦٣).

(٥) جندب الخير الأزدي، أبو عبدالله، قاتل الساحر، مختلف في صحبته، يقال ابن كعب ويقال ابن زهير، ذكره ابن حبان، في ثقات التابعين، قتل بصفين، وقد جعل الطبراني راوي الحديث جندب البجلي، وقد تعقبه الحافظ ابن حجر بقوله: «والصواب أنه غيره، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جندب الخير». (٢/ ١١٨ـ ١١٩). =

موقوفا[1].

وقال أيضًا في العلل: سألت محمد بن إسماعيل ـ يعني البخاري ـ فقال: هذا لا شيء، وإسماعيل بن مسلم ضعيف جدًا. وقاله ابن المنذر، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ورواه الطبراني والبيهقي من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعًا، وأشار مغلطاي[2] إلى أنه وإن كان ضعيفًا يقوى بكثرة طرقه، وقال خرجه جمع منهم البغوي الكبير، والصغير[3]، والطبراني، والبزار ومن لا يحصى كثرة.

(وفي صحيح البخاري عن بجالة) بفتح الموحدة بعدها جيم، **(بن عبدة)** بفتحتين التميمي العنبري البصري الثقة الثبت، **(قال: كتب عمر بن الخطاب،)** ثاني الخلفاء الراشدين المهديين رضي الله عنهم الذين أمرنا بالاهتداء بهديهم، إلى عماله: **(أن اقتلوا كل ساحر وساحرة)**[4]، فلم

= انظر: تقريب التهذيب (ص ١٤٢)، تهذيب التهذيب (٢/ ١١٨ـ ١١٩)، الإصابة (١/ ٢٥٢).

(١) الترمذي، السنن (٤/ ٦٠).

(٢) مغلطاي بن قليج بن عبدالله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبدالله، مؤرخ، من حفاظ الحديث ونقاده، تركي الأصل، ولي تدريس الحديث في المظفرية بمصر، توفي سنة ٧٦٢هـ.

انظر: الدرر الكامنة، ابن حجر (٤/ ٣٥٢)، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (١١/ ٩).

(٣) الكبير هو أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز، صاحب معجم الصحابة، (ت ٣١٧هـ)، وأما الصغير فهو محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء المفسر، صاحب شرح السنة، (ت ٥١٦هـ).

(٤) أخرج أصل الحديث البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية (٣/ ١١٥١)، =

يقتصر رضي الله عنه على قوله كل ساحر حتى قال: وساحرة، لئلا يتوهم أن المرأة لا تقتل بالسحر، إذ هذا لا يقاس على الكفر الأصلي لما فيه من الإفساد المتعدي، فيقتل به الرجل والمرأة كالردة.

وزاد عبدالرزاق[1] عن ابن جريج[2] عن عمرو بن دينار[3] في رواية

= من طريق «سفيان قال سمعت عمرًا قال كنت جالسًا مع جابر بن زيد وعمرو بن أوس فحدثهما بجالة.. فأتانا كتاب عمر بن الخطاب قبل موته بسنة: فرقوا بين كل ذي محرم من المجوس، ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس، حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر».

والترمذي في أبواب السير، باب في أخذ الجزية من المجوس (٤/ ١٤٧)، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء، في أخذ الجزية من المجوس (٣/ ١٦٨)، وأحمد في المسند (١/ ١٩٠)، واللفظ له، والشافعي في المسند (ص ٣٨٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٤٧)، وأبو يعلى في المسند (٢/ ١٦٦)، والدارقطني في سننه (٢/ ١٥٤)، وسعيد بن منصور في سننه (رقم ٢١٨١)، وعبدالرزاق في المصنف (١٠/ ١٧٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ١٣٦)، كلهم من طريق سفيان عن عمرو بن دينار أنه سمع بجالة، أما عبدالرزاق فمن طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار، والحديث صحيح، صححه ابن حزم في المحلى (١١/ ٣٩٦).

(١) هو عبدالرزاق بن همام بن نافع الحميري، مولاهم، أبوبكر الصنعاني، من حفاظ الحديث، الثقات، من أهل صنعاء، له «الجامع الكبير» المعروف بمصنف عبدالرزاق، وغير ذلك، توفي سنة ٢١١هـ.

انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٣٠٣)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٦/ ٣١٠).

(٢) هو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الأموري، مولاهم، ثقة فقيه، فاضل، وكان يدلس ويرسل من السادسة، مات سنة خمسين أو بعدها.

انظر: تقريب التهذيب (ص ٣٦٣)، تهذيب التهذيب (٦/ ٤٠٢ـ ٤٠٦).

(٣) هو عمرو بن دينار المكي، أبو محمد الأثرم، الجمحي مولاهم، ثقة ثبت من =

عن بجالة قال: (**فقتلنا ثلاث سواحر**)[1].

وهذه الزيادة لم يخرجها البخاري في صحيحه[2]، ورواه جميعه الإمامان الحسيبان محمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل حيث قالا: ثنا سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع بجالة بن عبدة يقول: كتب عمر بن الخطاب إلى عماله فذكراه بكماله وبلفظه[3].

وعند سعيد بن منصور[4] وأبي داود في كتابيهما، عن بجالة هو ابن عبدة قال: كنت كاتبًا لجزء بن معاوية[5] عم الأحنف[6] بن قيس،

= الرابعة، مات سنة ست وعشرين ومائة.

انظر: تقريب التهذيب (ص ٤٢١)، تهذيب التهذيب (٨/ ٢٨ـ ٣٠).

(١) أخرجه عبدالرزاق، المصنف (١٠/ ١٧٩)، وفيما مضى تمام تخريجه.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٣٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٩٠)، والشافعي في المسند (ص ٣٨٣) بإسناد صحيح، وقد مضى تمام تخريجه قبل قليل.

(٤) هو سعيد بن منصور بن شعبة، أبو عثمان الخراساني، نزيل مكة، ثقة مصنف، له كتاب السنن سنن سعيد بن منصور»، مات سنة ٢٢٧هـ.

انظر: تقريب التهذيب (ص ٢٤١)، تهذيب التهذيب (٤/ ٧٩ـ ٩٠).

(٥) هو جزء بن معاوية بن حصن بن عبادة التميمي، السعدي، صحابي، استعمله عمر على الأهواز، وعاش إلى أن ولي لزياد بعض عمله.

انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٢٣٦).

(٦) هو الأحنف بن قيس بن معاوية، أبو بحر التميمي، سيد بني تميم واسمه الضحاك على المشهور، وقيل صخر، ولقبه الأحنف، أدرك النبي ﷺ ولم يجتمع به، وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل البصرة، مات بها سنة ٦٧هـ، يضرب بحلمه المثل، تبع جنازته مصعب بن الزبير وقال: ذهب اليوم الحزم والرأي.

انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ١١٠)، الطبقات الكبرى، ابن سعد (٧/ ٦٦).

إذ جاءنا كتاب عمر قبل موته بسنة: اقتلوا كل ساحر، فقتلنا ثلاث سواحر في يوم[١].

قلت: وهذا لا يعم ساحر أهل الكتاب، قال ابن بطال: لا يقتل ساحر أهل الكتاب عند مالك والزهري، إلا أن يقتل بسحره [ك،١٠٣/ب] فيقتل وهو قول أبي حنيفة والشافعي.

قلت: وهذا مذهب إمامنا الإمام أحمد المشهور عنه، وقال مالك أيضًا: إن أدخل بسحره ضررًا على مسلم انتقض عهده بذلك فيحل قتله، وإنما لم يقتل النبي ﷺ لبيد بن الأعصم[٢] لأنه لا ينتقم لنفسه، ولأنه خشي الفتنة على المسلمين من قتله كما يأتي التنبيه على ذلك إن شاء الله تعالى، وهو من نمط مراعاة ترك قتل المنافقين الذين علم نفاقهم[٣]. وفيما تقدم دليل على استقرار قبول خط ولي الأمر كالقاضي في الأحكام عندهم رضي الله عنهم إذا عرف خطه وختمه، ولا يقال: هذا من باب الفتيا؛ لأنه حكم، وهذا هو الحق إن شاء الله تعالى الذي لا يعدل عنه، بل الخط أثبت من شهود الوقت.

(وصح عن حفصة) أم المؤمنين ابنة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: **(أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت)**[٤].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لبيد بن الأعصم، رجل من بني زريق، وبنو زريق بطن من الأنصار، مشهور من الخزرج حليف اليهود، حتى نسب إليهم، أسلم نفاقًا، وهو الذي سحر النبي ﷺ، وقصته مشهورة معروفة، عليه لعنة الله.

انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٢٦).

(٣) من فتح الباري (١٠/ ٢٣٦) بتصرف بسيط.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣/ ١٨٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ =

وهذا أدل دليل مع ما تقدم على قتل الساحر وإن لم يقتل بسحره، كما هو مذهب الإمام أحمد لظاهر الأخبار، وفي قصة حفصة رضي الله عنها أيضًا دليل على عدم الاستتابة، وأن الإنسان يقيم الحد على مملوكه من دون الإمام ونائبه.

(**وكذلك صح عن جندب**) راوي الحديث المتقدم، وقد اختلف في اسمه كما تقدم، وقيل هما اثنان، المتقدم جندب بن عبدالله صحابي، وهذا جندب ابن كعب.

قال أبو بكر الخلال[1]: أنبأ عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل حدثني أبي ثنا يحيى ابن سعيد حدثني أبو إسحاق عن حارثة قال: كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملاً على سيف فقتله، قال أراه كان ساحرًا[2].

= ١٣٦)، كلاهما من طريق عبيدالله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، وله شاهد عند الشافعي في المسند (ص ٣٨٣) من طريق بجالة وإسناده صحيح، وأخرجه مالك في الموطأ، كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر (٢/ ٨٧١)، بلاغًا عن محمد بن عبدالرحمن بن سعد بن زرارة، ووصله عبدالرزاق في المصنف (١٠/ ١٨٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٤١٦)، (١٠/ ١٣٦).

(١) هو أحمد بن محمد بن هارون أبوبكر، الخلال، من كبار الحنابلة، من أهل بغداد، له حلقة بجامع المهدي، جمع علم الإمام أحمد، من أعلم الناس بالسنة، شديد على البدعة وأهلها، وكتابه السنة أشهر من نار على علم، وله طبقات أصحاب أحمد، والعلل، وغير ذلك، مات سنة ٣١١هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (٣/ ٧)، مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي (ص ٥١٢).

(٢) رجال الإسناد كلهم ثقات، والإسناد متصل، إلا أن سماع يحيى بن سعيد من أبي إسحاق كان في آخر حياته، والسبيعي كما تقدم قد اختلط بأخره، وللحديث شاهد صحيح عند البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١٧٧)، والطبراني في المعجم الكبير =

وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وابنته وجندب، على سحر يكون شركًا.

قلت: وهذا الأمير المذكور هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان يشرب الخمر، وفيه شيم[١] عربية من [الشمم][٢] والشجاعة والأنفة، وكرم النفس والحلم والأدب رضي الله عنه وعفى عنه، ولما قدم على سعد بن أبي وقاص أميرًا على العراق بعزل سعد قال له سعد رضي الله عنه: يا أبا وهب والله ما أدري أكِست[٣] بعدنا أم حمقنا بعدك. فقال: لا تجزعنّ أبا إسحاق، إنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون، قال: إني أراكم ستجعلونها ملكًا[٤].

ولما قدم الكوفة أتاه ابن مسعود رضي الله عنه فقال له: ما جاء بك؟ قال جئت أميرًا، فقال ابن مسعود: ما أدري أصلحت بعدنا أم فسد الناس[٥].

= (٢/ ١٧٧)، والدارقطني في سننه (٣/ ١١٤)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٠/ ١٨٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٦)، كلهم من طريق خالد الحذاء عن أبي عثمان النهدي عن جندب، قال الذهبي: إسناده صحيح. تاريخ الإسلام (٣/ ٣).

(١) في [م] كُتب: (وفيه مجون)، ثم أبدلت في [ك] بكلمة (شيم) وألحق في الهامش ما بعدها إلى آخر كلام ابن مسعود.

(٢) في الأصل: الشيم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) قال ابن الأثير: «(كيس) فيه «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» أي العاقل، وقد كاس، يكيس، كيسًا، والكيس: العقل». وكستك: أي غلبتك بالكيس، يقال كايسني فكسته: أي كنت أكيس منه. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢١٧).

(٤) انظر: الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ابن عبدالبر (بهامش الإصابة ٣/ ٥٩٦).

(٥) المصدر السابق.

وهو أخو عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمه أروى[1] بنت كريز، وأمها البيضاء أم حكيم ابنة عبدالمطلب[2]، وكان قد أمّره عثمان رضي الله عنه على العراق فجعل ساحر يلعب بين يديه في بقرة يدخلها ويخرج منها، فضربه جندب بالسيف فقتل الساحر، فحبس الوليد جندبًا حتى كلم فيه فخلا عنه.

وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله يحي الموتى، ورآه رجل من صالحي المهاجرين فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه، وذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر، وقال: إن كان صادقًا فليحي نفسه وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ [الأنبياء: ٢].

فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فحبسه ثم أطلقه[3].

والوليد هذا هو الذي صلى بأهل الكوفة يومًا صلاة الغداة وهو سكران، فلما فرغ قال: أأزيدكم؟ فقال بعض من خلفه: ما زلنا منك منذ وليت في زيادة[4] ووثب إليه جندب بن زهير وأبو زينب الأزديان فأخذا خاتمه من يده وهو لا يعلم، ودخل منزله رجال من المسلمين

---

(١) انظر ترجمتها في الإصابة (٤/ ٢٢٢).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) مضى تخريجه.

(٤) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٥٩٧) وفيه أن قائل ذلك عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

فرأوه يتقيأ الخمر فشهدوا عليه عند عثمان فحده، وكان الذي ضربه الحد علي[1] رضي الله عنه، وفيه يقول الحطيئة[2]:

شهد الحطيئة حين يلقى ربه ... أن الوليد أحق بالعذر

نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكمْ ثملا وما يدري

إلى قوله:

خلعوا عنانك إذ جريت ولو ... تركوا عنانك لم تزل تجري[3]

وكان عثمان رضي الله عنه قد أرسل إليه أن يقدم معه من يقوم بعذره فأقبل في سبعين راكبًا من أهل الكوفة من أشرافهم، فنزل يومًا يحدوا بأصحابه فجعل يقول:

لا تحسبينا قد نسينا الإيجافْ ... والنشوات من معتّق صافْ

فقال عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه: يا أبا وهب ففيم نذهب إذن. فلما حده عثمان رضي الله عنه قال: والله لا أساكن عثمان إلا

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، مناقب عثمان بن عفان (٣/ ١٤٠٥)، وأحمد في مسنده (١/ ١٤٠، ١٤٤)، والطبراني في الكبير (٣/ ٥٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ١٥٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣١٨).

(٢) هو جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام كان هجاءً عنيفًا، لم يكد يسلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه، سجنه عمر بعد أن شكاه الزبرقان بن بدر بسبب الهجاء، ثم أخرجه ونهاه عن هجاء الناس، توفي سنة ٤٥هـ.

انظر: فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي (١/ ٩٩)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٤٠٩).

(٣) ذكر هذه الأبيات ونسبها إلى الحطيئة ابن عبدالبر في الاستيعاب (٣/ ٥٩٧)، وابن شبة في تاريخ المدينة المنورة (٢/ ١٠٧).

وبيني وبينه بطن وادٍ، وفعل، في قصة طويلة ذكرنا هذا منها ليعلم أن إنكاره على جندب لا يعد من مثله خلافًا في الأحكام، إذ لم يوافقه غيره من الصحابة رضي الله عنهم، بل أنكر عليه، وقد نزل في خبره رضي الله عنه من القرآن ما نزل، ولكن حرمة الصحبة توجب الإمساك عمن اتصف بها وإن كان قد قال أبو عمر بن عبدالبر: إن خبر صلاته بهم سكران وقوله أأزيدكم بعد أن صلى الصبح أربعًا، مشهور من رواية الثقات من أهل الحديث[1].

قلت: وممن استقصى خبره في ذلك عمر بن شبة[2] رحمه الله وأن الذي قال: ما زلنا منك منذ وليت في زيادة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه[3]، فالوليد هذا له صحبة ولحرمة الصحبة قال بعض أهل العلم: إنه لم ينكر على جندب إلا كونه فعل الحد من دون الإمام ونائبه، أو أنه يقول باستتابة الساحر وأنه كالمرتد.

وقد قال أصحابنا منهم موفق الدين بن قدامة في قتل الساحر: [ك،١٠٣/أ] وهذا أمر اشتهر بين الصحابة رضي الله عنهم فلم ينكر فكان إجماعًا، وهو دليل على عدم الاستتابة في السحر، إذ هي لم تنقل عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم.

(قال الإمام أحمد عن ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ) وهم عمر

---

(١) أخرجه أحمد، المسند (١/ ١٤٤)، وانظر: الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ابن عبدالبر (٣/ ٥٩٧).

(٢) هو عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة بن ريطة النميري، أبو زيد، شاعر، مؤرخ، أحد حفاظ الحديث، من أهل البصرة، توفي بسامراء سنة ٢٦٢هـ، له تصانيف كثيرة، أشهرها تاريخ المدينة، وتاريخ البصرة.

انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٤٨)، بغية الوعاة، السيوطي (ص ٣٦١).

(٣) تاريخ المدينة، ابن شبة (٢/ ١٠٥ـ ١٠٨).

وابنته، وجندب على أنه صحابي.

وحد الصحابي فيما قاله الإمام أحمد: كل من صحبه سنة أو شهرًا أو يومًا أو ساعة، أو رآه [من المسلمين][1] فهو من أصحابه. هذا مذهب أهل الحديث نقله عنهم البخاري وغيره، وقاله أبو البقاء[2] وجعله الصحيح في ذلك[3].

وقال البخاري في صحيحه: من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه[4].

وعبر بعضهم: من لقي النبي ﷺ مسلمًا، ثم مات على الإسلام، ليدخل الأعمى، ويخرج المرتد الذي مات على ردته، كمسيلمة الكذاب ونحوه[5]، وهذا استدراك حسن وهو أجمع ماقيل في ذلك، وقيل غير ذلك[6].

وممن روي عنه قتل الساحر عثمان بن عفان وابن عمر وقيس[7] بن

---

(١) ساقطة من [ك].

(٢) هو أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء صاحب الكليات من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في كفه بتركيا وبالقدس وببغداد، توفي سنة ١٠٩٤هـ.
انظر: هدية العارفين، إسماعيل باشا (ص ٢٢٩)، الأعلام، الزركلي (١/ ٣٨).

(٣) الكليات لأبي البقاء (ص ٥٥٨).

(٤) البخاري، فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣/ ١٣٣٥).

(٥) انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ١٠)، فتح الباري (١/ ٤ـ ٥).

(٦) انظر: الباعث الحثيث، ابن كثير (ص ١٧٤)، تدريب الراوي، السيوطي (٢/ ٢٠٦).

(٧) هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي المدني، صحابي ذو رأي ومكيدة في الحرب، كان يحمل راية الأنصار مع النبي ﷺ ويلي أموره، توفي بالمدينة سنة ٦٠هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٢٣٩)، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (١/ ٨٣).

سعد بن عبادة، وعمر بن عبدالعزيز وجماعة من التابعين.

قال موفق الدين بن قدامة: تعلم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافًا بين العلماء.

قال: وقال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته[1].

وروي عن الإمام أحمد ما يدل على أنه لا يكفر، فإن حنبلاً روى عنه فقال قال عمي في العراف والكاهن والساحر: أرى أن يستتاب من هذه الأفاعيل كلها، فإنه عندي بمعنى المرتد، فإن تاب وراجع خلي سبيله.

قلت له: يقتل؟ قال: لا، يحبس لعله يرجع.

قلت: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلي لعله يتوب ويرجع[2].

قال: وهذا يدل على أنه لم يكفره، لأنه لو كفره لقتله[3].

وقوله في معنى المرتد، يعني في الاستتابة[4].

وهاتان الروايتان في ثبوت حكم التوبة في الدنيا من سقوط القتل ونحوه، أما فيما بينه وبين الله تعالى، وسقوط عقوبة الآخرة عنه فتصح، فإن الله تعالى لم يسد باب التوبة عن أحد من خلقه سوى إبليس، فقد سبق عليه الكتاب، وأما من عداه من أهل التكليف فمن تاب إلى الله قبل الله توبته،

---

(١) المغني، ابن قدامة (١٢/ ٣٠٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (١٢/ ٣٠١).

(٤) المصدر السابق.

وهذا إجماع من أهل العلم[1].

وقد تقدم حكاية مذهب أبي حنيفة، أن مضمونها أنه إن اعتقد أنه يفعل ذلك استقلالاً، أو تفعله له الشياطين من دون الله كفر.

فليعلم بذلك أنه ليس شيء سوى الله تعالى إلا مخلوقاً له، مقدراً بقضائه وقدره، لا يخرج شيء عن مشيئته، مع كونه يكره الشر ويمقت فاعله.

وعند الشافعي: إن اعتقد ما يوجب الكفر، مثل التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس، وأشباه ذلك كفر، لأن القرآن نطق بموجب تحريمه وثبت بالنقل المتواتر والإجماع عليه، وإلا يفسق ولم يكفر، لأن عائشة رضي الله عنها باعت مدبرة لها سحرتها[2] بمحضر من الصحابة، ولو كفرت لصارت مرتدة[3].

قلت: وقد يجيب المخالف له في ذلك بأنه يحتمل أنها ليست التي عملت السحر بنفسها وإنما أمرت به، وجهل فاعل السحر العامل له، وهي لا تستحق القتل بذلك، ولهذا لما كانت جارية حفصة رضي الله عنها هي العاملة له أمرت بقتلها فقتلت كما تقدم في المتن، والسحر الذي فيه هذا الحكم هو الذي يعد في العرف سحرًا، مثل فعل لبيد بن

---

(١) المصدر السابق (١٢/ ٣٠٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٦٨)، وأحمد، المسند (٦/ ٤٠)، والدارقطني، السنن (٤/ ١٤٠)، والحاكم، المستدرك (٤/ ٢٤٤)، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والبيهقي، السنن الكبرى (٨/ ١٣٧)، كلهم من طريق يحيى بن سعيد عن محمد بن عبدالرحمن بن حارثة عن عمرة، وإسناده صحيح.

(٣) المغني، ابن قدامة (١٢/ ٣٠١).

الأعصم بالنبي ﷺ، وكسحر سحرة قوم فرعون مع موسى عليه الصلاة والسلام، وكالسواحر اللاتي دعاهن النجاشي فنفخن في إحليل عمارة بن الوليد، حتى هام مع الوحش فلم يزل معها إلى إمارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما رواه أبو الفرج الأصبهاني والأموي[1] في مغازيه، فاستأذن ابن عمه عبدالله بن أبي ربيعة عمر بن الخطاب في المسير إليه، فأذن له، فوصل أرض الحبشة وأكثر النشدة والفحصة عنه وعن أمره، حتى أخبر أنه في جبل يرد مع الوحش ويصدر، فكمن له في طريقه إلى الماء، فإذا هو قد غطاه شعره وطالت أظافره وتمزقت عنه ثيابه حتى كأنه شيطان فقبض عليه عبدالله وجعل يذكره بالرحم ويستعطفه، وهو ينتفض منه ويقول: أرسلني يا بحير، أرسلني يا بحير.

قلت: وكان عبدالله يسمى بذلك في الجاهلية، فأبى عبدالله أن يرسله فمات بين يديه. وهذا خبر مشهور، وهو عند أبي الفرج أطول من هذا[2]، وله قصة تركناها اختصاراً للمعنى الذي أوردناه لأجله.

قال موفق الدين: وبلغنا أن بعض الأمراء أخذ ساحرة فجاء زوجها كأنه محترق فقال: قولوا لها تحل عني، فقالت: ائتوني بخيوط وباب فأتوها به، فجلست على الباب وجعلت تعقد فطار بها الباب، فلم يقدروا عليها[3].

---

(١) هو الوليد بن مسلم الأموي بالولاء، الدمشقي، أبو العباس، عالم الشام في عصره من حفاظ الحديث، له ٧٠ تصنيفًا في الحديث والتاريخ، منها السنن والمغازي، وكان يقال: من كتب مصنفات الوليد، صلح أن يلي القضاء، توفي بذي المروة، قافلاً من الحج سنة ١٩٥هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ٢٧٨)، غاية النهاية، السيوطي (٢/ ٣٦٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٣/ ٧٤)، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني (٩/ ٦٩).

(٣) المغني، ابن قدامة (٩/ ٣٠٤)، وانظر مثلها في لسان الميزان: (٣/ ٤٥٧) ترجمة =

قال: فهذا وأمثاله مثل أن يعقد الرجل عند التزويج فلا يطيق وطء امرأته هو السحر المختلف في حكم صاحبه، فأما الذي يعزم على المصروع، ويزعم أنه يجمع الجن ويأمرها فتطيعه، فهذا لا يدخل في هذا الحكم ظاهرًا، وذكره القاضي وأبو الخطاب في جملة السحرة[1].

وأما حل السحر فسيأتي حكمه إن شاء الله تعالى في باب النشرة، والله تعالى الموفق سواء السبيل.

= عبدالله بن هلال الكوفي الساحر المعروف بصديق إبليس.

(١) المصدر السابق.

الباب الرابع والعشرون

باب بيان شيء من أنواع السحر

[ك،١٠٤/ب] **(قال الإمام أحمد)** في مسنده **(حدثنا محمد بن جعفر)**، هو الهذلي البصري المعروف بغندر، وكان كثير الرواية عن شعبة بن الحجاج[١]، وهو ثقة صحيح الكتاب إلا أنهم ذكروا أن فيه غفله، وروى له الجماعة كلهم، توفي سنة ثلاث أو أربع وتسعين ومائتين، ولقب بغندر لأن ابن جريج قدم البصرة فحدث بحديث عن الحسن البصري فأنكروه عليه وشغبوا، قال ابن عائشة: إنما لقب بغندر من ذلك اليوم، لأن ابن جريج كان هو الذي يكثر الشغب عليه، فقال له: اسكت يا غندر. وأهل الحجاز يسمون المشغب غندرًا، ثم كان بعده جماعة يلقبون بذلك[٢].

(ثنا عوف[٣] عن حيان بن العلاء،) ويقال ابن مخارق أبو العلاء، مقبول روى له أبو داود والنسائي وغيرهما من أهل السنن[٤]، **(ثنا قطن[٥]**

---

(١) أبو بسطام الواسطي ثم البصري، ثقة حافظ متقن، أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال وذب عن السنة، من العباد، توفي سنة ١٦٠هـ.
انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ٣٣٨)، تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٢٢٦).

(٢) انظر: تقريب التهذيب (ص ٤٧٢)، تهذيب التهذيب (٩/ ٩٦ـ ٩٨).

(٣) هو عوف بن أبي جميلة، بفتح الجيم، الأعرابي العبدي، البصري، ثقة رمي بالقدر وبالتشيع، من السادسة، مات سنة ست، أو سبع وأربعين، وله ست وثمانون.
انظر: تقريب التهذيب (ص ٤٣٣)، تهذيب التهذيب (٨/ ١٦٦ـ ١٦٨).

(٤) انظر: تقريب التهذيب (ص ١٨٥)، تهذيب التهذيب (٣/ ٦٨).

(٥) انظر: تقريب التهذيب (ص ٤٥٦)، تهذيب التهذيب (٨/ ٣٨١).

ابن **قبيصة عن أبيه)** قبيصة بن المخارق بضم الميم وتخفيف المعجمة، ابن عبدالله الهلالي، صحابي سكن البصرة[1] رضي الله عنه، **(أنه سمع النبي ﷺ يقول: العيافة)**، وهي زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها، ومنه الحديث كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يعتاف[2].

رواه ابن إسحاق[3]، وظاهره أن العيافة في المكروه خاصة، والفأل

---

(١) انظر: تقريب التهذيب (ص ٤٥٣)، تهذيب التهذيب (٨/ ٣٥٠).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٥٧) بلفظ «كان رسول الله ﷺ يتفاءل ولا يتطير ويعجبه الاسم الحسن»، والطيالسي في مسنده (ص ٣٥٠)، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ١٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ١٤٠)، كلهم من طريق جرير عن ليث عن عبدالملك بن سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، وعند الطبراني عن ليث عن عبدالملك عن عطاء عن ابن عباس، ومدار الحديث على ليث بن أبي سليم، وهو ممن لم يتميز حديثه فترك حديثه لشدة اختلاطه، قال عنه الحافظ: «صدوق اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك». تقريب التهذيب (ص ٤٦٤).

وأما ابن حبان فقد أخرجه من طريق جرير بن عبدالحميد عن عبدالملك بن سعيد به بإسقاط ليث من الإسناد، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لابن حبان: «إسناده إن سلم من الانقطاع بين جرير وبين عبدالملك رجاله ثقات رجال الشيخين غير علي بن المديني فمن رجال البخاري، وعبدالملك بن سعيد بن جبير روى له البخاري تعليقًا وهو ثقة».

صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (١٣/ ١٣٩).

ويبدو أنه من كلام ابن إسحاق، ويقصد به أن النبي ﷺ يتفاءل ولا يتطير، انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤)، أو أنه روى الحديث بالمعنى.

(٣) هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المديني البغدادي، من أقدم المؤرخين المسلمين، من أهل المدينة، ورحل للاسكندرية، واستقر ببغداد، وبها توفي سنة ١٥١هـ كان قدريًا، له السيرة النبوية، وقد اعتنى بها ابن هشام وهذبها، وله كتاب الخلفاء، وكان جده يسار من سبي عين التمر.

انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ١٦٣)، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (١/ ٢١٤ـ ٢٣٤).

في المحبوب، وقد يكون الفأل في المكروه.

وفسر أبو عبيد[1] الحديث فقال: العيافة زجر الطير يقال: عفت الطير، أعيفها، عيافة[2]. وكانت العرب تستعملها، وأخصهم بها بنو لِهب - بكسر اللام - قبيلة من الأزد معروفة بذلك عند العرب، وبالزجر أيضًا، منهم اللِّهبي الذي زجر حين وقعت الحصاة على صلعة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأدمتها، وذلك في الحج، فقال اللِّهبي: أشعرَ أمير المؤمنين والله لا يحج بعد هذا العام فكان كذلك[3]، واللِّهب في اللغة شق في الجبل[4]، وقد قال الشاعر في بني لِهب:

سألت [أخا] لِهب ليزجر زجره وقد رد زجر [العائفين] إلى لهب[5]

وقال الآخر:

فما أعْيَفَ اللِّهبيَّ لا درَّ درُّه وأزجَره للطير لا عَزَّ ناصرُه[6]

---

(١) هو القاسم بن سلام الهروي، الأزدي، الخزاعي بالولاء، الخرساني، البغدادي، أبو عبيد من كبار العلماء، محدث، فقيه، أديب، من أهل هراة، ولد بها سنة ١٥٧هـ، وبها تعلم، وكان مؤدبًا، توفي بعد حجه بمكة سنة ٢٢٤هـ، له غريب الحديث وهو أول من صنف في ذلك، وغريب القرآن، والأموال وغير ذلك.
انظر: طبقات الحنابلة، أبو يعلى (١/ ٢٥٩)، تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ٥).

(٢) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٢٣٣).

(٣) انظر: الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ابن عبدالبر (٢/ ٤٥٩).

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٧٤٤).

(٥) البيت لكثير عزة، انظر ديوانه ص٥٠ دار الكتاب العربي، وقد وقع في الأصل (أبا) موضع [أخا]، و(العالمين) موضع [العائفين]، والتصويب من الديوان.

(٦) بل البيت لكثير عزة أيضًا، وهو جزء من قصيدة سوف يوردها المؤلف بعد قليل.

(والطرْق): هو الضرب بالحصى الذي تفعله النساء، ومنه سميت مِطرقة الصانع والحداد، لأنه يطرق بها أي يضرب، وقيل هو الخط في الرمل، وسيأتي الكلام إن شاء الله تعالى على الخط والرمل.

وفي الطرق والزجر يقول لبيد بن ربيعة رضي الله عنه:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع[1]

(والطيرة) بكسر الطاء والياء المثناة من تحت، ـ وقد تسكن وتفتح الياء ـ: التشاؤم بالشيء، مصدر تطيّر ـ كتخيّر خيرة ـ، فالطيرة تكون في المحبوب والمكروه، وفي الحديث أنه ﷺ نهى عن الطيرة، وقال: خيرها الفأل[2]. فدل أنها تكون على وجوه، والفأل خيرها، فلفظها يعطي ذلك، ويعطي أنها في الخير والشر، لأنها من الطير.

تقول العرب: جرى له الطائر بخير، وجرى له بشر[3].

وفي كتاب الله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] أي ما حصل له في علم الله مما قدر له، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

---

(١) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد (١/ ٢٣٣)، الفائق في غريب الحديث، للزمخشري (٢/ ٩٤)، لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٢١٥).

(٢) أخرجه البخاري، الطب، باب الفأل، ونصه «لا طيرة وخيرها الفأل، قالوا وما الفأل، قال الكلمة الصالحة» (٥/ ٢١٧١)، ومسلم، السلام، باب الطيرة والفأل، وما يكون فيه من الشؤم، بنفس لفظ البخاري (٦٤ ١٧٤٥)، كلاهما من طريق معمر عن الزهري عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة عن أبي هريرة.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١/ ٢١٤ـ ٢١٥)، غريب الحديث، ابن الأثير (٣/ ٤٠٥ـ ٤٠٦).

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ... ما كان بين علي وابن عفانِ

وقال جاهلي:

وما صدقتنا الطير يوم لقيتنا ... وما كان من دلاك فينا بخابر

وقالت رقيقة بنت أبي صيفي بن هشام بن عبد مناف، حين استسقى عبدالمطلب بالنبي ﷺ وهو غلام على أبي قبيس[(١)]، قيل أنها صحابية، قاله ابن سعد، وأوردها الطبراني والمستغفري[(٢)] في الصحابيات، والله أعلم، وقيل لم تدرك[(٣)] البعثة، قاله أبو نعيم[(٤)]

---

(١) أبو قبيس: بلفظ التصغير كأنه تصغير قبس النار، وهو اسم الجبل المشرف على مكة، وجهه إلى قعيقعان، ومكة بينهما، هو من شرقيها، وقعيقعان من غربيها، قيل سمي باسم رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس، لأنه أول من بنى فيه قبة، وقيل سمي باسم رجل من جرهم، توعده عمرو بن مضاض بالقتل، بسبب وشاية بينه وبين ابنة عمه، فنذرت ألا تكلمه، فهرب أبو قبيس منه في الجبل وانقطع خبره، فسمي أبا قبيس لذلك.

انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٨٠ـ ٨١).

(٢) هو جعفر بن محمد بن المعتز بن محمد بن المستغفري، النسفي، أبو العباس، فقيه، له اشتغال بالتاريخ، كان خطيب نسف، وتوفي بها سنة ٤٣٢هـ، له فضائل القرآن، وكتاب «الشمائل والدلائل ومعرفة الصحابة الأوائل» وغير ذلك.

انظر: الرسالة المستطرفة، الكتاني (ص ٣٩)، الجواهر المضيئة، عبدالقادر القرشي (١/ ١٨٠).

(٣) انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ٢٩٦).

(٤) هو أحمد بن عبدالله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم، ثقة، حافظ، مؤرخ ولد بأصبهان سنة ٣٣٦هـ وبها مات سنة ٤٣٠هـ، ومن تصانيفه حلية الأولياء، ومعرفة الصحابة، ودلائل النبوة، وغير ذلك.

انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٦)، لسان الميزان، ابن حجر (١/ ٢٠١).

وغيره، وروى قصتها هو وأبو موسى في استسقاء عبدالمطلب به، بسند حسن، ومن قولها:

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا وقد فقدنا الحيا واجلود المطر

إلى قولها:

مَنّاً من اللهُ بالميمون طائره وخير من بشرت يومًا به مضرُ

مبارك الأمر يُستسقى الغمام به ما في الأنام له عدل ولا خطرُ[1]

فقولها: الميمون طائره أي: المبارك حظه، تعني النبي -ﷺ-.

قال أبو عبيدة[2]: الطائر عند العرب الحظ، قال: وهو الذي تسميه العوام البخت[3]، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

ذريني وعلمي بالأمور وشيمتي فما طائري يومًا عليك بأخيلا[4]

والأخيل: اسم طائر وهو الشقراق، ويقال الصرد[5] كما سيأتي قريبًا، والعرب تتشاءم به وتطّير، تقول: هو أشأم من أخيل[6].

وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٢٥٩)، وفي الأحاديث الطوال له (ص ٢٤٠).

(٢) في لسان العرب لابن منظور (٤/ ٥١١)، قال أبو عبيد: «الطائر عند العرب...».

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٥١١.

(٤) انظر: ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٧١)، لسان العرب، ابن منظور (١١/ ٢٣٠).

(٥) انظر: الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٣٧ـ ٤٣٨).

(٦) انظر: جمهرة الأمثال، العسكري (١/ ٥٥٩)، وموسوعة الأمثال، اميل بديع (٢/ ٣٧٨).

[الإسراء: ١٣] أي عمله فهو لازمه أينما كان[١]، وهذا القول داخل في القول الأول، فسمى فعله طائرًا من قولهم جرى لفلان الطائر بكذا وكذا من الخير والشر، وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء لأن العرب إذا وصفت شيئًا بشدة [ك،١٠٤/أ] اللزوم قالت: هو كالطوق في العنق[٢].

قال أوس بن مغراء التميمي[٣] في ذلك:

تجول وفي الأعناق منها خزاية   أوابدها تهوي إلى كل موسم

قال الحسن البصري:

يابن آدم بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فإذا بُعِثْت قُلِّدتَها في عنقك.

ومن هذا المعنى قوله ﷺ في غزوة أحد كما عند ابن إسحاق وغيره في التفاؤل لما دلق السيف عند خروجه ﷺ إلى أحد: إني أرى السيوف ستُستل[٤].

ففي هذا دليل على أن هذا من التوسم والزجر المصيب، وأنه غير مكروه لكنه غير مقطوع به، إلا أن يكون من كلام النبي ﷺ.

---

(١) انظر: جامع البيان، ابن جرير الطبري (١٥/ ٥٠ـ ٥١).

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٥١١).

(٣) هو أوس بن مغرا، أو ابن تميم بن مغراء، من بني أنف الناقة، من تميم، مخضرم، شاعر، اشتهر في الجاهلية، وعاش زمنًا في الإسلام، توفي سنة ٥٥هـ.
انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ص ٦٨٧)، الإصابة، ابن حجر (١/ ١٢٢).

(٤) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (٢/ ٦٤).

ومن هذا أيضًا ما روى ابن إسحاق وغيره واحد من أهل السير والمسانيد عن أبي ذؤيب الهذلي، قيل اسمه خويلد، وكان مسلمًا على عهد رسول الله ﷺ ولم يره[1]، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ مريض فاستشعرت حزنًا، وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها، فظللت أقاسي طولها حتى إذا كان قرب السحر، أغفيت فهتف بي هاتف يقول:

خطب [أجل][2] أناخ بالإسلام ... بيـن النخيـل ومعقـد الآطـام

قبـض النبـي محمـد فعيـوننـا ... تذري الدموع عليه بالتسجام

قال أبو ذؤيب: فوثبت من نومي فزعًا فنظرت إلى السماء فلم أر إلا سعد الذابح، فتفاءلت ذبحًا يقع في العرب، فعلمت أن رسول الله ﷺ قد قبض أو هو ميت من علته، فركبت ناقتي وسرت، فلما أصبحت طلبت شيئًا أزجر به فعنّ لي شيهم، يعني القنفذ، وقد قبض على صل وهي الحية، فهي تلتوي عليه والشيهم يقضمها حتى أكلها، فزجرت فقلت: الشيهم شيء مهم، والتواء الصل التواء الناس على القائم بعد رسول الله ﷺ، ثم قلت: أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعده على الأمر، فحثثت ناقتي حتى إذا كنت بالغابة زجرت طائرًا فأخبرني بوفاته، ونعب غراب فنطق بمثل ذلك، فتعوذت بالله من شر ما عنّ لي في طريقي، وقدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحاج إذا أهلوا بالإحرام فقلت مه، فقالوا: قبض رسول الله ﷺ فجئت المسجد فوجدته خاليًا فأتيت رسول الله ﷺ فوجدت بابه مرتجًا، وقيل هو مسجى، وقد خلا به

---

(١) انظر تمام ترجمته في: الإصابة، ابن حجر (٤/ ٦٦- ٦٧)، الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦٥٣)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٦٥- ٦٧).

(٢) في [ك] و[م] كتبت هكذا: (اضل)، والمثبت من الاستيعاب.

أهله فقلت: أين الناس؟ فقالوا: في سقيفة بني ساعدة، صاروا إلى الأنصار، فجئت إلى السقيفة فوجدت أبابكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وسلمان وجماعة من قريش، وتكلمت الأنصار فأطالوا الخطاب وأكثروا الصواب، وتكلم أبوبكر فلله دره من رجل لا يطيل الكلام، ويعلم مواضع فصل الخصام، والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع إلا انقاد له ومال إليه، ثم تكلم عمر بعده بدون كلامه فبايعه وبايعوه، ورجع أبوبكر فرجعت معه، وشهدت الصلاة على رسول الله ﷺ وشهدت دفنه، ثم أنشد أبو ذؤيب يبكي رسول الله ﷺ أبياتًا منها:

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها ... وتزعزعت آطام بطن الأبطح

وتدعدعت أجبال يثرب كلها ... ونخيلها لحلول خطب مفدح

ولقد زجرت الطير قبل وفاته ... لمصابه وزجرت سعد الأذبح

وزجرت إن نعب المشحج سانحًا ... متفائلاً فيه بفأل أقبح[1]

ففي هذا دليل واضح أن التفاؤل يقع عند العرب على الخير والشر، وفي العرب من لا يتشاءم بشيء في جاهليتها[2]، منهم علقمة الفحل راوية امرىء القيس ابن حجر، وعلقمة هذا من بني إسماعيل من بني تميم[3] حيث يقول:

ومن تعرض للغربان يزجرها ... على سلامته لابد مشؤومُ[4]

---

(١) انظر: الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ابن عبدالبر (٤/ ٦٥، ٦٧).

(٢) انظر: الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٤٩).

(٣) انظر ترجمته: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ص ٢١٨)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦).

(٤) نسبه الجاحظ إلى سلامة بن جندل، وتعقبه الأستاذ عبدالسلام هارون بقوله: =

قال العلماء رحمهم الله تعالى: وبين الطيرة والفأل عند أهل النظر والمعرفة بالحقائق فرقان في الجملة، وذلك أن الفأل تقوية على العزيمة، ويحض على البغية وإطماع في الأمنية، ومنه قوله ﷺ لأصحابه لما أقبل عليهم سهيل بن عمرو السهمي لصلح قريش: «سهل من أمركم»[(١)].

ومن قول العرب في التفاؤل قول الضحاك العقيلي في الهدهد:

وقال صحابي هدهد فوق بانة هدى وبيان للنجاح يلوح[(٢)]

والطيرة تكسر الأمنية، [ك،١٠٥/ب] وتصد عن الوجهة، وتثني العزيمة، وفي ذلك ما يعطل الإحالة على المقادير، وقد تفائل ﷺ ونهى عن الطيرة.

والطيرة مشتقة من أحد شيئين: إما من الطيران، كأنّ الذي يرى ويسمع ما يكره يطير، كما قال بعض شعراء العرب[(٣)]:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطير

وإما من الطير، وهو الأصل المختار من الوجهين، هكذا ذكره الزجاج وغيره، وكانت العرب تزجر الطير والوحش، فمن قال القول الأول

= «والصواب أن البيت لعلقمة الفحل كما في أمالي المرتضى (٣/ ٣٧)». الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٤٩).

(١) أخرجه البخاري في الشروك، باب الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢/ ٤٤٥)، ومسلم متخصرًا في الجهاد والسير، صلح الحديبية (٣/ ١٤١١).

(٢) ذكره الجاحظ في الحيوان (٣/ ٤٤٥)، ولم ينسبه إلى أحد، ونسبه المحقق إلى أبي حية النميري.

(٣) هو الأحيمر السعدي كما في معجم البلدان: ٢/ ٤٨٣.

احتج بأن الوحش تطّير بها العرب، وتُزجر مع الطير.

وفي مسند الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الطير تجري بقدر» وكان يعجبه الفأل[1].

ومن قال بالقول الثاني قال: إنما كان الأصل في الطير، ثم كان في الوحش، وقد يجوز أن يغلب أحد الشيئين على الآخر ويذكر دونه، قال أعشى بني ثعلبة:

ما يعيفُ اليومَ في الطير الرَّوَحْ　　　من غراب البين والتيس برحْ[2]

فجعل التيس من الطيرة، والعرب تطّير بأشياء كثيرة منها العطاس، وسبب تطيرهم به دابة يقال لها العاطوس، يكرهونها، فهم بذلك يتطيرون منه لأجل التسمية[3].

قال المسيب بن علس الضبعي[4]:

أرحلت من سلمى بغير متاع　　　قبل العطاس ورعتنا بوداع

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٢٩)، والحارث في مسنده، (بغية الباحث ٢/ ٧٥٢)، وابن حبان في صحيحه، بترتيب ابن بلبان (١٣/ ١٣٩)، كلهم من طريق حسان بن إبراهيم قال نا سعيد بن مسروق به، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (١٣/ ١٣٩).

(٢) ديوانه: ١٥٩، وفيه: أو تيسٍ برحْ.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٦/ ١٤٢).

(٤) هو المسيب بن علس بن مالك بن عمرو بن قمامة، من ربيعة بن نزار، شاعر جاهلي، وهو خال الأعشى ميمون، وقيل اسمه زهير، وكنيته أبو فضة.

انظر: خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٥٤٥)، الأعلام، الزركلي (٧/ ٢٢٥).

وأعظم ما يتطيرون منه الغراب، والقول فيه أعظم من أن يطلب عليه شاهد، وقد قال النابغة الذبياني واسمه زياد:

نعب الغُراب بأنّ رحلتنا غدا وبذاك تنعابُ الغُراب الأسودِ[١]

وقال جرير بن الخطفى:

إن الغراب لما كرهت لمولع بنوى الأحبة دائم التشحاج[٢]

يقال نعب، [وشحج][٣]، وصاح، بمعنى واحد وكانوا يسمونه حاتمًا، لأنه بزعمهم يحتم الفراق، ولهذا قال النابغة بعد بيته السابق:

لا مـرحبًـا بغـد ولا أهـلاً بـه إن كان تفريق الأحبة في غد[٤]

ويسمونه أيضًا الأعور على جهة التطير بذلك؛ إذ كان أصح الطير بصرًا، فإذا أراد أن يحد النظر أغمض إحدى العينين ونظر بالأخرى[٥]،

---

(١) ديوانه: ٨٩.

(٢) التشحاج: رفع الصوت، وقيل: شحيج الغراب ترجيع صوته، فإذا مد رأسه، قيل: نعب، وغراب شحاج: كثير الشحيج.
انظر: النهاية، ابن الأثير (٢/ ٤٤٨)، لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٣٠٤-٣٠٥)، وانظر البيت عند جرير في ديوانه (١/ ١٣٦)، البغدادي في خزانته (٤/ ١٥٢)، تحقيق اميل يعقوب.

(٣) في الأصل: «وشج» وهو غلط إذ الشج في اللغة: كسر الرأس، وما بين معكوفتين هو الصواب «شحج»، فتقول العرب شحج الغراب، وشحج البغل يشحج شحيجًا إذا رفع صوته، أو ردده.
انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٣٠٤).

(٤) انظر: ديوان النابغة الذبياني (ص ٩٠)، لسان العرب، ابن منظور (١٥/ ١١٧).

(٥) انظر: الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٣٩).

قال الحطيئة العبسي:

ويمسي الغرابُ الأعور العين واقعًا مع الذئب يعتسان ناري ومفأدي[1]

أراد شدة نظره فلقبه بالعور وليس هناك عور، والمفأد المخبز[2]، وقيل سمي بذلك من قولهم عورت الرجل عن حاجته، إذا رددته عنها، ويتطيرون أيضًا بالصرد، ويسمونه الأخيل والأخطب والواق.

قال إبراهيم الحربي[3]: إنما نهي عن قتل الصرد إبطالاً لمذهبهم.

وقد مر قول حسان رضي الله عنه في الأخيل، قال: وأما الهدهد فإنما نهي عن قتله إبقاءً عليه وإكرامًا، لأنه أطاع نبيًا من الأنبياء.

فالعرب تطّير بأشياء كثيرة، حتى تطيرت بالجرادة، قال زبان بن منظور الفزاري[4] في حديث له كان مع زياد نابغة بني ذبيان، وقد تطير من جرادة

---

(١) انظر: ديوانه: ٧٩.

(٢) انظر: لسان العرب (٣/ ٣٢٨).

(٣) هو إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبدالله البغدادي، الحربي، أبو إسحاق، من أعلام المحدثين، أصله من مرو، ولد سنة ١٩٨هـ، حافظ، فقيه، أديب، زاهد، واشتهر وتوفي ببغداد سنة ٢٨٥هـ، له غريب الحديث.
انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ١٤٧)، معجم الأدباء، ياقوت الحموي (١/ ٣٧).

(٤) هو زبان بن سيار بن عمرو بن جابر الفزاري، شاعر جاهلي غير قديم، عاش قبل الإسلام وقد أخطأ المؤلف في اسمه حيث سماه «زبان بن منظور» وأظنه أراد أن يسميه «زبان أبو منظور الفزاري» لأن منظور ابنه وقصته مشهورة فهو أحد من فرق الإسلام بينه وبين زوجة أبيه، وقد تزوج أبوه مليكه بنت خارجة المزنية، ومات وهي شابة، فتزوجها ابنه منظور، وقد فرق أبوبكر بينهما، وقيل إن المفرق بينهما عمر.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٤٤١)، الأعلام، الزركلي (٣/ ٤١).

وقعت عليه، فرجع النابغة متطيرًا وقال: جرادة تجرد وذات ألوان، لا أذهب في هذا الوجه ورجع من الغزو وبعضُ القوم، ومضى زبان فظفر وغنم فقال:

تخبـــر طيـــره فيهـــا زيـــاد ... لتخبـــره ومـــا فيهـــا خبيـــر
فقـام[1] كـأن لقمـان بـن عـاد ... أشـــار لـــه بحكمتـــه مشيـــر
تعلـــم أنـــه لا طيـــر إلا ... علـــى متطيـــر وهـــو الثبـــور
بلى شيء يوافق بعض شيء ... أحـــايينـــا وبـــاطلـــه كثيـــر[2]

وقال المرقّش[3] وهو جاهلي:

لا يمنعنك من لقـــاء الخيـر تعقاد التمائم
و[لا] التشاؤم بالعطاس ولا التيامن بالمناسم
ولقد غدوتُ وكنت لا أغدو على واق[4] وحاتم[5]

---

(١) عند الجاحظ في الحيوان (٣/ ٤٤٧): «أقام» وكذلك في البيان والتبيين (٣/ ٣٠٤).

(٢) انظر هذه القصة مع الأبيات: الجاحظ، البيان والتبيين (٣/ ٣٠٤ ـ٣٠٥)، الحيوان (٣/ ٤٤٧).

(٣) هو المرقش السدوسي، وقيل إن الصواب في لقبه: المرقم، فصُحفت إلى المرقش، انظر ديوان المرقشين: ص٧٥، ٧٦، دار صادر، ١٩٩٨م، وقد وقع فيه (بُغاء) موضع (لقاء)، و(التيمّن) موضع (التيامن).

(٤) الواق من طيور الماء، كانت العرب تتشاءم به.
انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٣٧٠).

(٥) الحاتم هو الغراب الأسود، وكانت العرب تتشاءم به، يقولون أنه يحتم بالفراق، وقد تقدم كلام المصنف في ذلك قبل قليل. انظر لسان العرب (١٢/ ١١٤).

فإذا الأشائم كالأيامن والأيامن كالأشائم

قد خط ذلك في الزبور الأوليات القدائم

[و]كذاك لا خير ولا شر على أحد بدائم[١]

ويتشاءمون أيضًا بالثور الأعضب، [ك،١٠٥/أ] وهو المكسور القرن، قال الكميت[٢] ينفي الطيرة عن نفسه ويدفعها حيث يقول:

وما أنا ممن يزجر الطيرُ همَّه   أصاحَ غرابٌ أم تعرض ثعلبُ

ولا السانحات البارحات عشية   أمرّ صحيح القرن أم مرّ أعضبُ[٣]

والبيت الأول من هذين يشبه بيت الأعشى، ومن أمثالهم «فلان كبارح الأروى»[٤] وفيه قولان:

---

(١) انظر: عيون الأخبار (١/ ١٤٥)، تأويل مختلف الحديث (ص ١٢٩) كلاهما لابن قتيبة، ونسب فيها الأبيات للمرقّش السدوسي، ولم يعين أهو المرقّش الأصغر، أم المرقّش الأكبر ورجح الأستاذ عبدالسلام هارون في تعليقه على الحيوان أنه الأصغر؛ لأنه أشعرهما وأطولهما عمرًا.

الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٣٦).

(٢) الكميت ثلاثة: الكميت بن ثعلبة، ثم الكميت بن معروف، ثم الكميت بن زيد بن خُنيس الأسدي، وكلهم من بني أسد، وهذا الأخير هو صاحب هذه الأبيات وهو شاعر الهاشميين، من أهل الكوفة، اشتهر في العصر الأموي، وكان منحازًا إلى بني هاشم، كثير المدح لهم، مدح زين العابدين علي بن الحسين، وجعفر الصادق بحضرتهما، وهما أهل لذلك، وأعطياه مالاً فرده، ولد سنة ستين هجرية، ومات سنة ١٢٦هـ.

انظر: خزانة الأدب، البغدادي (١/ ١٥٣ـ ١٥٦)، الأغاني، الأصبهاني (١٧/ ١).

(٣) البيتان ضمن قصيدة طويلة في مدح آل النبي أوردها البغدادي في خزانة الأدب (٤/ ٢٩١)

(٤) البارح الذي يكون في البراح، وهو الفضاء الذي لا جبل فيه ولا تل، والأروى =

الأول: أن الأروى يتشاءم بها، فإذا كان بارحًا عظم الأمر عندهم، والآخر إنما تكون في قرون الجبال فلا تكاد تكون عندهم سانحة[1] ولا بارحة[2]، وفي السانح والبارح اختلاف عندهم، قال أبو عمرو بن العلاء: سأل يونسُ[3] رؤبةَ بنَ العجاج ـ وأنا شاهد ـ عن السانح والبارح فقال: السانح ما ولاّك ميامنَه والبارح ما ولاّك مياسرَه[4].

وقال ابن دريد[5]: السانح يتيمن به أهل نجد ويتشاءمون بالبارح،

= الإناث من المعزى الجبلية، وهي لا تكون إلا في الجبل، فلا ترى قط في البراح.
انظر: المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري (١/ ٣٧٩)، موسوعة الأمثال، د. إميل يعقوب (٣/ ١٣٤).

(١) السانح ما مر من الطير والوحش بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك، والعرب تتيمن به لأنه أمكن للرمي والصيد.
انظر: ابن الأثير، غريب الحديث (١/ ١١٤)، لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٤٩٠).

(٢) البارح ضد السانح، وهو ما مر من الطير، والوحش بين يديك من جهة يمينك إلى اليسار والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف.
المصادر السابقة.

(٣) هو يونس بن حبيب الضبي مولاهم، أبو عبدالرحمن، إمام نحاة البصرة في عصره، أعجمي الأصل، من تلاميذه أبو عمرو بن العلاء، أخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء وغيرهم من الأئمة، توفي سنة ١٨٢هـ.
انظر: بغية الوعاه في طبقات النحاة، السيوطي (ص ٤٢٦)، نزهة الألباء، ابن الأنباري ٠ص ٧٤ـ ٥٠).

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٤٩٠)، وعنده أن القائل أبو عبيدة وليس أبو عمرو بن العلاء.

(٥) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، أبوبكر، من أئمة اللغة والأدب، كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء، وأعلم الشعراء، وهو صاحب المقصورة الدريدية، ولد في البصرة سنة ٢٢٣هـ، وأقام ببغداد إلى أن توفي سنة ٣٢١هـ.
انظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي (٦/ ٤٨٣)، تاريخ بغداد، الخطيب =

وتخالفهم أهل العالية فيعكسون ذلك، قال الهذلي[١]: من أهل العالية:

زجرت لها طير السنيح[٢] فإن يكن هواك الذي تهوى يصبك [اجتبابها][٣]

ومن ذلك الحادّ والناطح اللذان يستقبلانك، والقعيد الذي يأتيك من ورائك[٤]، قال متمم بن نويرة[٥]:

قعيدك [أن][٦] لا تسمعيني ملامة ولا تنكئي قرح الفؤاد فييجعا[٧]

ومن ذلك الكادس الذي ينزل عليك من الجبل[٨] قاله الثعالبي[٩].

= البغدادي (٢/ ١٩٥).

(١) هو أبو ذؤيب الهذلي، وقد ترجم له المؤلف آنفًا.

(٢) في شرح أشعار الهذليين (ص ٤٢)، ومقاييس اللغة ابن فارس (٤/ ٢٣): طير الشمال.

(٣) في الأصل: «اجتنابها» وما بين معكوفتين من شرح الهذليين، السكري (ص ٤٢)، مقاييس اللغة، ابن فارس (٤/ ٢٣)، وقد نسبه السكري في شرح أشعار الهذليين لأبي ذؤيب الهذلي، ولم ينسبه ابن فارس في مقاييس اللغة إلى أحد.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/ ٣٦٠ـ ٣٦١).

(٥) هو متمم بن نويرة بن جمرة اليربوعي، أبو نهشل، شاعر فحل، صحابي من أشرف قومه اشتهر في الجاهلية والإسلام، توفي سنة ٣٠هـ.

انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٣٤٠)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٢٣٦ـ ٢٣٨).

(٦) ما بين معكوفتين ساقطة من البيت.

(٧) انظر: ديوان متمم بن نويرة، ابتسام الصفار (ص ١١٥)، لسان العرب، ابن منظور (٣/ ٣٦٣).

(٨) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٦/ ١٩٣).

(٩) هو عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، أبو منصور، من أئمة اللغة والأدب، من أهل نيسابور، كان فراء يخيط جلود الثعالب، فنسب إلى صنعته، واشتغل بالأدب والتاريخ فنبغ، توفي سنة ٤٢٩هـ.

انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٩٠)، شذرات الذهب، ابن العماد =

وقال المبرد[1]: السانح ما أراك مياسره فأمكن الصائد، والبارح ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائدَ إلا أن ينحرف له، وقد يتطيرون من الباز وأشياء كثيرة من جهة التسمية، ويتيمن بها آخرون، وأشد ما يكون تطيرًا عندهم كما مر غراب البين، فيقولون: أشأم من غراب البين[2]. وإنما لزمه هذا الاسم لأنه إذا بان أهل الدار منها أعقبهم عليها، فتشاءموا به وتطيروا منه لاعترائه منازلهم بعد بينهم عنها، وبذلك سموه غراب البين[3].

قال كثير عزة:

رأيت غرابًا ساقطًا[4] فوق بانة	ينتّف أعلى ريشه ويطايره
فقلت ولو أني أشاء زجرته	لنفسي للهبيِّ[5] هل أنت زاجره
فقال غراب لاغتراب[6] من النوى	وفي[7] البان بينٌ من حبيب تحاذره
فما أعيف اللهبيَّ لا درَّ درُّه	وأزجرَه للطير لا عزَّ ناصرُه[8]

= (٣/ ٢٤٦).

(١) هو محمد بن يزيد بن عبدالأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد، إمام العربية في بغداد في زمنه، أديب، أخباري، ولد بالبصرة، ومات ببغداد سنة ٢٨٦هـ.
انظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (٣/ ٣٨٠)، بغية الوعاة، السيوطي (ص١١٦).

(٢) انظر: الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، الأصفهاني (١/ ٢٤٩)، زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن اليوسي (٣/ ٢١٠).

(٣) انظر: الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٣٨ـ ٤٣٩).

(٤) في الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٤١): «واقعا».

(٥) في الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٤٢): «للنهدي».

(٦) في الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٤٢): «باغتراب».

(٧) في الحيوان، الجاحظ (٣/ ٤٤٢): «وبالبان».

(٨) المصدر السابق، عيون الأخبار، ابن قتيبة (١/ ١٤٧).

وقال عبدالله بن الزِّبَعْرى[1] في جاهليته -يدفع الطيرة عن نفسه [وينفيها][2]- في غراب البين:

يا غرابَ البين أسمعت فقل ... إنمـا تنطـق شيئًـا قـد فُعـل

إن للخيـر وللشـر مـدى ... وكـلا ذلـك وجْـهٌ وقَبَـل[3]

وقال الحطيئة أيضًا في ذلك:

لا يزجر الطير إن مرت به سنحًا ... ولا يفيض على قسم بأزلام[4]

يقول: لا يتطير من السانح والبارح ولكنه يمضي متوكلاً على الله سبحانه ولا يستقسم بالأزلام كما كانت الجاهلية تفعل، قاله لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال آخر جاهلي في العيافة والزجر للطير:

وصاح غراب فوق أعواد بانة ... بأخبار أحبابي فقسّمني الفكْرُ

فقلت غراب [باغترابٍ][5] وبانةٌ ... ببين النوى تلك العيافة والزجرُ

---

(١) هو عبدالله بن الزبعرى بن قيس السهمي القرشي، أبو سعد، شاعر قريش في الجاهلية، كان شديدًا على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال فيه حسان أبياتًا، فلما بلغته عاد إلى مكة، فأسلم واعتذر، مدح النبي ﷺ فأمر له بحلة.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٣٠٠)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٣٣٠-٣٠٣).

(٢) في [ك]: (وينفاها)، وليست في [م].

(٣) انظر: ديوان عبدالله بن الزبعرى (ص ٤١)، شرح ألفية ابن مالك، ابن عقيل (٢/ ٦٢)، وقد وقع في الأصل: ألا يا غراب البين.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٢٧٠).

(٥) في الأصول: (ياغرابٌ)، والتصويب من «مجمع الأمثال».

وهبت جنوب باجتنابيَ منهم وهاجت صبًا قلت الصبابةُ والهجرُ[1]

فتطير هذا حتى بالرياح وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى.

(**من الجبت،**) مر تفسيره[2] بأنه يطلق على الصنم وكل ما عبد من دون الله، وعلى السحر والساحر، وعلى الكاهن، وعلى كل ما لا خير فيه، وروى هذا الحديث أبو داود فقال: حدثنا مسدد ثنا عوف قال ثنا حيان قال غير مسدد حيان بن العلاء ثنا ابن قبيصة عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العيافة والطيرة والطرق من الجبت»[3].

أورده أبو داود في باب الخط، فيفهم منه أنه عنى بالطرق الخط، ولهذا أورد بعده حديث أنه «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك».

---

(١) الأبيات غيرَ منسوبة في مجمع الأمثال ١/ ٣٨٣، ٣٨٤.

(٢) راجع ص ١٠٣٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الطب، باب الخط وزجر الطير، (٤/ ١٦)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٧٧) والنسائي في الكبرى، كما في تحفة الأشراف (٨/ ٢٥٧)، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٥٠٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٢)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٠٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٩/ ٤٢)، والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٧٧)، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين رقم (٣٧)، والحربي في غريب الحديث (٣/ ١٧٧)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٦٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٢٤)، كلهم من طريق عوف، وقد اختلف الرواة في إسناده عن عوف بن أبي جميلة الأعرابي، فقال بعضهم: حيان، ولم ينسبه، وقال بعضهم: حيان بن العلاء، وقال بعضهم: حيان بن عمير، وقال بعضهم: حيان بن مخارق، قال الألباني: «وهذا اضطراب شديد يدل على أن الراوي لم يحفظ ولم يضبط فكان دليلاً على ضعف الحديث». غاية المرام، الألباني (ص ١٨٤).

والحديث في صحيح مسلم[1].

(**قال عوف**) المذكور في سند الحديث المتقدم، وهو عوف بن أبي جميلة بفتح الجيم، الأعرابي العبدي البصري الثقة، روى له الجماعة كلهم، إلا أنه قد رمي بالقدر والتشيع، وذلك لا يضره في الحديث إذا كان ثقة، توفي سنة ست أو سبع وأربعين ومائة، وله ست وثمانون سنة[2].

[ك،١٠٦/ب] (**العيافة زجر الطير**)، زجر الشيء حثه وحمله على السرعة.

قال في مختصر النهاية: الزجر النهي والصياح، وزجر الطائر التيمن والتشاؤم[3].

قال الحطيئة في ذلك:

ألم تسأل العياف إن كنت صادقًا ... غداة اللوى ما أنبأتْك البوارحُ

بسُرْع الفراق إذ تولت حمولهم ... كما يستقل الخيبريُّ الدوالحُ[4]

ويقال: عاف الطعامَ كرهه، وعاف الطيرُ على الماء يعيف عيفًا وعيافة فهو عائف، إذا حام ولم يرد[5]، كما في الصحيحين في قصة جُرْهمٍ أنهم رأوا طيرًا عائفةً حين أشرفوا على مكة وفيها هاجر وابنها

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحتها (١/ ٣٨١)، وأبو داود في الطب، باب الخط وزجر الطير (٤/ ١٦) مختصرًا، وأحمد في مسنده (٥/ ٤٤٧) كلهم من طريق حجاج الصواف عن يحيى بن أبي كثير به.

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٨/ ١٦٦)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٤٣٣).

(٣) انظر: النهاية. ابن الأثير (٢/ ٢٩٧).

(٤) ديوانه: ١٥١، والدوالح: الموقرة بالحمل الثقيل.

(٥) انظر: غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٢٣٣).

إسماعيل عليه السلام، وقالوا: عهدنا بهذا الوادي وليس به ماء[1]..

وهي الحوائم أيضًا، قال جرير بن الخطفى:

لو شئت قد نقع الفؤاد بمشرب[2] يـدع الحـوائـم لا يجـدْن غليـلاً

فالحوائم في هذا طالبو الحاجة، مأخوذ من الحوم حول الماء، يقال: عاف الماء إذا حام حوله، قال عمرو بن مخلاة الكلابي:

ويوم ترى الرايات فيه كأنها حـوائـم طيـر مستـديـر وواقـع

قال أنس الخثعمي وهو ابن مدركة[3]:

إنـي وقتلـي سليكًـا ثـم أعقلـه كالثور يُضرب لما عافت البقر[4]

يقول: إن البقرة إذا امتنعت من شروعها في الماء لا تضرب؛ لأنها ذات لبن، وإنما يضرب الثور عند عيافها للماء لتفزع هي فتشرب.

ومنه قولهم: عاف الطعام، كرهه، ومثله: عاف الشراب يعافه إذا كرهه.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب (يزفون) النسلان في المشي (٣/ ١٢٢٧).

(٢) في اللسان، ابن منظور (٨/ ٣٦١): «بشربة».

(٣) هو أنس بن مدرك بن كعب الخثعمي، ثم الأكلبي، يكنى أبا سفيان، صحابي كان سيد خثعم في الجاهلية وفارسها، وأدرك الإسلام فأسلم وعمر طويلاً حتى وصل عمره مائة وأربعًا وخمسين سنة، وكان شاعرًا، شجاعًا، وأخباره في الجاهلية كثيرة، ذكر طرفًا منها ابن حجر في الإصابة، أقام بالكوفة، قتل مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أجمعين.

انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٨٥)، خزانة الأدب، البغدادي (٣/ ٨٩).

(٤) انظر: أوضح المسالك، ابن هشام (٤/ ١٩٥)، لسان العرب، ابن منظور (٤/ ١٠٩).

(والطرق: **الخط يخط بالأرض**)، قد مضى أن الطرق الضرب بالحصى، والاستشهاد على ذلك ببيت لبيد بن ربيعة العامري الشاعر الصحابي المشهور[1] رضي الله عنه، وتفسير عوف هذا له بالخط لعلّه نوع من أنواعه الداخلة في مسماه، وقد قاله ابن الأعرابي أيضًا، فإنه قال: الطرق أن يخط الرجل في الأرض خطوطًا وينظر ماذا يرى[2].

وفي مسند الإمام أحمد من طريق آخر قال: ثنا يحيى بن سعيد حدثني عوف حدثني حيان حدثني قطَنٌ عن أبيه قبيصةَ بن مخارق أنه سمع النبي ﷺ فذكره، وفيه قال ـ يعني عوفًا ـ: العيافة من الزجر والطرق من الخط[3].

و«من» هنا تبعيضية، والمراد مما قصد عوف بهذا الخط أنه الذي لم يوافق خط ذاك النبي الذي ذكره ﷺ في حديث مسلم وأبي داود وغيرهما، في حديث طويل عن معاوية بن الحكم السلمي[4] رضي الله عنه وفيه: قلت يا رسول الله ومنا رجال يخطون، فقال ﷺ: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطَّه فذاك»[5]. فيحتمل أنه أراد ﷺ بهذا الكلام أنه إذا وافق خطُّه خطَ ذاك النبي أبيح، وقيل إنه إدريس عليه السلام، قاله ابن الجوزي، وأبو القاسم السهيلي وغير واحد من العلماء[6].

---

(١) راجع ص ١٠٨٠.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٢١٥).

(٣) مسند أحمد (٣/ ٤٧٧)، وقد مضى تخريجه.

(٤) هو معاوية بن الحكم السلمي، صحابي، نزل المدينة، وكان يسكن بني سليم.
انظر: تقريب التهذيب (ص ٥٣٧)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٤١١).

(٥) مضى تخريجه ص ١٠٩٦.

(٦) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ٩٢).

ويشهد له ما عند الزبير بن بكار[1] قال حدثني سفيان بن عيينة عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلاً: أن النبي ﷺ سئل عن الخط فقال: علم أوتيه نبي، فمن وافق علمُه علمَ ذلك النبي فقد علم، ومن لم يصبه فقد أخطأ[2].

ويحتمل أن يكون معناه: الزجر عنه؛ إذ كان مَن بعده لا يوافق خطَّه ولا ينال حظَّه من الصواب؛ لأن ذلك يروى أنها كانت آية لذلك النبي عليه السلام، فليس لمن بعده أن يتعاطاه طمعًا في نَيْلِه، وأيضًا فهو قد اشتبه الحق فيه بالباطل فكان محظورًا، كاشتباه كلمة الحق التي يلقيها مسترق السمع على وليه من الإنس فيكذب معها مائة كذبة، فتصديق صاحب الخط على هذه الصفة، وإن كان أصله حقًا، وسؤاله كسؤال الكاهن وتصديقه، وهو مع ذلك معه كلمة حق فيكون محظورًا، كاشتباه الحلال بالحرام الذي لا يمكن معرفته وتخليصه[3]، وقد روى النسائي والبزار وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير وابن المنذر وابن سعد أيضًا والطبراني وابن مردويه بسند حسن عن عبدالله بن أبي أوفى[4] رضي الله عنه

---

(١) هو الزبير بن بكار بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوام، المدني أبو عبدالله بن أبي بكر، قاضي المدينة، ثقة، توفي سنة ٢٥٦هـ.
انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٣/ ٣١٢)، تقريب التهذيب (ص ٢١٤).

(٢) أخرجه الزبير بن بكار في الأخبار الموافقيات (ص ٣٦٢)، وهو عند أبي داود ومسلم موصولاً من طريق هلال بن أبي ميمون عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم السلمي، وقد مضى تخريجه.

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم، النووي (٥/ ٩٢).

(٤) هو عبدالله بن أبي أوفى علقمة بن خالد الخزاعي الأسلمي، ويقال له ابن أبي أوفى، آخر من توفي من الصحابة في الكوفة، وهو أحد من بايع بيعة الرضوان =

قال الأولان: جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلتك العرب، ـ وفي لفظ: بنو فلان ـ فأنزل الله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ [الحجرات: ١٧] الآية، قال ابن سعد وكان منهم قوم من بني الزنية، وهم بنو مالك بن ثعلبة بن ذودان بن أسد، فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم بنو الرشدة، فقالوا: لا نكون مثل بني محولة، يعنون بني عبدالله بن غطفان وكان مما سألوا عنه رسول الله يومئذ: العيافة والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك كله فقالوا: يا رسول الله هذه الأمور كنا نفعلها في الجاهلية، أرأيت خصلة بقيت؟ قال: وما هي؟ قالوا: الخط، قال: عُلِّمَه نبي من الأنبياء، فمن صادف مثل علمه علم(1).

وضبط الخط بفتح الخاء المعجمة وبالطاء المهملة. قال في المطالع والتقريب: فسّروه بخط الرمل ومعرفة ما يدل عليه.

وقال في النهاية: هو الذي يخطه الحازي، وهو علم تركه الناس، يأتي صاحب الحاجة إلى الحازي فيعطيه حُلوانا فيقول: اقعد حتى أخط لك، وبين يدي الحازي غلام له معه ميل، ثم يأتي الأرض الرخوة فيخط فيها خطوطًا كثيرة بالعجلة؛ لئلا يلحقها العد، ثم يرجع فيمحوا منها على مهل خطين خطين وغلامه يقول(2): ابني عيان اسرعا البيان، فإن بقي

= وشهد الحديبية وخيبر، كف بصره في أواخر عمره، توفي بالكوفة سنة ٨٧هـ.

انظر: تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٢٩٦)، الجمع بين رجال الصحيحين، ابن القيسراني (ص ٢٤٢).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٩١)، وابن حبان في الثقات (٢/ ٧٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٢٥٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٤٦٧) دون الإشارة إلى سؤالهم النبي ﷺ عن العيافة والخط، والحديث مضى تخريجه.

(٢) في النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (٢/ ٤٧): «وغلامه يقول تفاؤلاً: ابني...».

خطان فهما علامة النجح، وإن بقي خط فهو علامة ضد ذلك، ونحو ذلك[1]، قاله أبو سليمان الخطابي عن [أبي عمر][2] عن أبي العباس أحمد بن يحيى[3] عن ابن الأعرابي[4].

وقال إبراهيم الحربي: هو أن يخط ثلاثة [ك،١٠٦/أ] خطوط ثم يضرب عليهن بشعير أو نوى، ويقول: يكون كذا وكذا، وهو ضرب من الكتابة[5].

وقال ابن أثير الدين: الخط المشار إليه علْم معروف عند الناس، فيه تصانيف كثيرة، وهو معمول به الآن، ولهم فيه أوضاع واصطلاح وأسامي وعمل كثير، ويستخرجون به الضمير وغيره، [وكثيراً][6] ما يصيبون فيه[7] ويخطئون قلت: وهو كما قال، لكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة لذلك النبي عليه السلام، فلا يباح ذلك العلم إلا بيقين الموافقة كما قال ﷺ، واليقين منتفٍ، وسنورد شيئًا من أخبار أهل الخط لأجل التنبيه على قبح نتيجته، وأنه بذلك محرم، مذموم الدخول

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو محمد بن عبدالواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد، من أكابر أهل اللغة، أخذ عن ثعلب ولازمه، كان يعرف بغلام ثعلب، توفي سنة ٣٤٥هـ.

وما بين معكوفتين من غريب الحديث للخطابي (١/ ٦٤٨)، وفي الأصل: «أبي عمرو» والصواب ما أثبت.

انظر: نزهة الألباء، ابن الانباري (ص ٢٠٦)، اللباب في الأنساب، ابن الأثير (٢/ ١٨٣).

(٣) هو المشهور بثعلب، تقدمت ترجمته في ر(٩/ب). .

(٤) انظر: غريب الحديث، الخطابي (١/ ٦٤٨).

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٢/ ٤٧).

(٦) في الاصول: (وكثير).

(٧) إلى هنا النقل من النهاية (٢/٤٧)، وما بعده للشارح ابتداءً من: «يخطئون. .»؟؟.

فيه عند الأئمة والعلماء المعتبرين رحمهم الله تعالى؛ لعدم إحكامه، وعلى ذلك مشى شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه؛ لاختلاط الحق فيه بالباطل، فأقل أحواله أن يكون كأخبار أهل الكتاب عن التوراة والإنجيل، عند من لم يقل بالتحريم في ذلك، وأخص من يكون بهذا العلم من العرب بنوا أسد بن خزيمة، فقد روى الزبير بن بكار في أخباره حيث قال: حدثني عمي مصعب بن عبدالله، يعني ابن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه، أبو عبدالله الزبيري[1] المدني نزيل بغداد، ثقة صدوق عالم بالنسب والأخبار، قال: قال لي رجل: شردت لنا إبل فأتيت [حليساً][2] الأسدي[3] فسألته عنها، فقال لبُنيّةٍ له: خُطي، فخطت ونظرت، ثم تقبضت وقامت، ونظر حليس وضحك، فقال: أتدري لم قامت؟ قلت: لا، قال: رأت لما خطت أنك تجد إبلك وأنك تزَوّجُها، فاستحيت فقامت. قال: فخرجت فأصبت إبلي ثم تزوجتها بعد[4].

قال الزبير بن بكار أيضًا: وحدثني أبو الحسن علي بن محمد عن عبدالله بن مسلم قال: قال شريح بن الأقعس العنبري التميمي: عزبت

---

(١) انظر ترجمته: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (١٣/ ١١٢)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (١٠/ ١٦٢).

(٢) في الأصول: (حليس).

(٣) من مشاهير القافة عند العرب، وهو الذي قال لذي الرمة إنك لتنعت الفلاة «الثعلبية» نعتًا لا تكون منيتك إلا بها، فمات فيها حين نفرت ناقته منه وعليها طعامه وشرابه، ولم تكن نفرت منه قبل.
انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٨/ ٤٨).

(٤) الأخبار الموافقيات، الزبير بن بكار (ص ٣٦٥).

لي إبل، فأتيت رجلاً من بني أسد فقلت: انظر لي. فخطط خطوطًا فقال: تصيب إبلك بكناسة الكوفة. فقلت: بيّن، قال: وتذهب عينك، قلت: زدني، قال: وتُزوج امرأة أشرف منك، قال: فخرجت وما شيء أبغض إلي من أن أصيب إبلي ليكذب فيما قال، فأتيت الكناسة فأصبت إبلي، وخرجت مع عبدالرحمن بن الأشعث[1] مع القراء فذهبت عيني، وحججت مع ابنة قيس بن [الخشخاش][2] العنبري، فقالت مولاة لها في الطريق: هل لك أن تُزوج مولاتي؟ قلت: وددت، قالت: فاخطبها إذا قدمت، ففعلت فأبوا ذلك أهلها فلم أزل حتى زوجونيها[3].

وقال أيضًا: حدثني سفيان بن عيينة قال: قال محمد بن سوقة[4]: قفلنا من مكة من حج أو عمرة، فلما كنا بالثعلبية[5] أتى رجل منا حُليسًا فسأله عن شيء فخط له ونظر، فقال: أما إنك لا تدخل الكوفة حتى تصيب مالاً، ورواه المدائني عن أبي اليقظان: تصيب مالاً مع مصيبة.

---

(١) هو عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، أمير، من القادة الشجعان الدهاة، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج الثقفي، توفي مقتولاً سنة ٨٥هـ إثر خروجه على بني أمية، وقد ناصره جمع من أهل الخير والصلاح من الفقهاء والقراء.
انظر: تاريخ الطبري (٨/ ٣٩)، البداية والنهاية، ابن كثير (٩/ ٥٧).

(٢) في الأصول: «الحسحاس» بالإهمال، وما بين معكوفتين من الأخبار الموافقيات (ص ٣٦٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) هو أبوبكر محمد بن سوقة الغنوي الكوفي العابد، كان بزازًا، أدرك أنس بن مالك، وعامة روايته عن كبار التابعين، ثقة مرضي، من الخامسة.
انظر: تقريب التهذيب (ص ٤٨٢)، صفوة الصفوة، ابن الجوزي (٣/ ٦٥).

(٥) الثعلبية من منازل طريق مكة من الكوفة، وهي ثلثا الطريق.
معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٧٨).

فلما صرنا بالنجف تلقاه رجل فأخبره أن أخاه مات، فورثه مالاً كثيرًا[١].

وقال الزبير بن بكار أيضًا: حدثني علي بن محمد عن مسلمة بن محارب قال: خرج عمر بن عبيدالله بن معمر ومالك بن خداش الخزاعي غازيين، فمرا بامرأة وعليها جماعة وهي تخط لهم، فنظر إليها وضحك منها مستهزئًا بها، فقالت: أيها الضاحك، أما والله لا تخرج من سجستان حتى تموت، فيتزوج هذا الرجل امرأتك وأشارت إلى عمر، فمات ابن خداش وتزوج امرأته عمر بن عبيدالله بن معمر، وهي رملة بنت عبيدالله بن خلف الخزاعي[٢]. والآثار في ذلك كثيرة عن العرب، فهذا هو الخط المذكور في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه وغيره[٣].

قال أبو داود: حدثنا مسدد ثنا يحيى عن حجاج الصواف ثنا يحيى بن أبي كثير عن هلال بن أبي [ميمونة] عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه السلمي قال: قلت يا رسول الله ومنا رجال يخطون فقال «كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك»[٤].

وهذا العلم هو الذي تعلمه الإمام الشافعي عالم قريش رضي الله عنه، فيما ذكره الحافظ البيهقي في كتابه الذي صنّف في مناقب الشافعي وبوب عليه بابًا، فذكر فيه بسنده عن الربيع بن سليمان[٥] شيئًا من ذلك، ثم

---

(١) الأخبار الموافقيات، الزبير بن بكار (ص ٣٦٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) مضى تخريجه.

(٤) مضى تخريجه وقد وقع في الأصل: «ميمون»، والتصويب من المصادر.

(٥) هو الربيع بن سليمان بن عبدالجبار المرادي، أبو محمد المصري المؤذن، صاحب =

أورد بسنده عن أحمد ابن بنت الشافعي[1] قال: سمعت أبي يقول: كان الشافعي ما ينظر في شيء إلا حفظه وفهمه، فنظر يومًا في الحساب، يعني المذكور[2]، فجلس وامرأة تطلق فحسب فقال: تلد جارية عوراء على فرجها خال أسود وتموت إلى ثلاث وفي لفظ إلى كذا وكذا، فكان كما قال[3].

وهكذا ذكر عنه الفخر الرازي نحو ذلك في ترجمته له[4]، وكلاهما ذكر أن الإمام الشافعي رضي الله عنه دفن بعد ذلك ما عنده في ذلك من الكتب[5]، وأوردنا [ك،١٠٧/ب] هذا عن الإمام الشافعي في سياق ما تقدم، لما في ضمنه من صريح الدلالة على قبح نتيجة هذا العلم [الذي][6] لا يشك عاقل ممن اطلع عليه في ذمه وتحريمه، ورجوع هذا الإمام الجليل عنه ودفنه ما عنده من كتبه أدل دليل على ذلك، ولعله بهذا الاعتبار أورده الحافظ البيهقي في مناقبه فافهم ذلك ولا تغتر.

= الشافعي، ثقة، من الحادية عشرة، مات سنة سبعين، وله ست وتسعون سنة.
انظر: تقريب التهذيب (ص ٢٠٦)، تهذيب التهذيب (٣/ ٢٤٥ـ ٢٤٦).

(١) هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن شافع ابن بنت الشافعي، وابن عمه، كان واسع العلم جليلاً فاضلاً، كان أبوه من فقهاء أصحاب الشافعي، روى الكثير عن أبيه عن الشافعي، توفي سنة ٢٩٥هـ.
انظر: طبقات الشافعية، ابن قاضي شبهة (١/ ٧٥)، تهذيب الأسماء واللغات، النووي (١/ ٢٨٥).

(٢) يقصد به الخط.

(٣) انظر: مناقب الشافعي، البيهقي (٢/ ١٢٦).

(٤) انظر: مناقب الشافعي، الرازي (ص ٢٨٩).

(٥) انظر: المصدر السابق، مناقب الشافعي، البيهقي (٢/ ١٢٦).

(٦) في الأصول: (التي).

وقد أطلق جمهور العلماء التحريم على ذلك لوجوه:

الوجه الأول منها: أن ذلك معجزة لذلك النبي فليس لأحد أن يتعاطاه بعده.

الوجه الثاني: أنه لا مدخل فيه للأحكام المتعبد بها فلا فائدة إذًا فيه.

الوجه الثالث: أنه تجسس على علم الغيب.

الوجه الرابع: أنه إذًا من علم الله تعالى، ولا يحل لأحد الدخول في علم الله والقول به إلا بيقين، وهذا قل من يحكمه، فإذا لم يحكم بالعلم اليقيني حرم التخبط في ذلك بغير علم.

الوجه الخامس: أن العلم به لا يرد قضاءً مع قلة نفعه.

الوجه السادس: أن معرفة شيء منه يورث الهم والحزن، ولا حيلة لدفع القضاء والقدر، فلم يبق فيه فائدة للخلق تجوّز العلم به أو الدخول فيه.

فلأجل ما ذكرنا وقررنا كما ترى، حرم جمهور العلماء الدخول فيه ومنعوا منه، وسيأتي مزيد لتوضيح هذا المعنى في باب التنجيم إن شاء الله تعالى عند بيان ما تعلّمُه كفر، وما هو محرم، وما هو واجب كأوقات الصلاة، وما هو مندوب إليه كالأشهر والسنين الشمسية والقمرية، وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] أن هذه التسع زيادة الشمسية على القمرية[١].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٧٩)، زاد المسير، ابن الجوزي (٥/ ١٣١).

(والجبت: قال الحسن) بن أبي الحسن البصري، نسبة إلى البصرة المعروفة بفتح الباء الموحدة وكسرها وضمها، ثلاث لغات ذكرها الجوهري وغيره[1]، مصرٍ من أمصار المسلمين، أول من نزلها عتبة بن غزوان[2] رضي الله عنه بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجعلها ثغرًا من ثغورهم، كانت مشحونة بالعرب والعلماء، ولم يكن مصرٌ أحظَّ منها؛ لوراثة النبي ﷺ وحفظِ سنته بعد المدينة.

والبصْر: والبصرة، حجارة رخوة إلى البياض، قاله الخطابي[3].

وقال ابن الانباري: البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة الصلبة[4].

وقال ابن الأعرابي: هي حجارة صلاب[5].

قال الطرماح بن حكيم الطائي[6] يصف قطاة:

---

(١) الصحاح، الجوهري (٢/ ٥٩١)، لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٦٧).

(٢) الحارثي المازني، صحابي قديم الإسلام، هاجر إلى الحبشة، وشهد بدرًا وغيرها من المشاهد، وكان من الرماة المعدودين، توفي سنة ١٧هـ.
انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (١/ ١٧١)، صفوة الصفوة، ابن الجوزي (١/ ١٥١).

(٣) انظر: غريب الحديث (١/ ٤٨٦).

(٤) انظر: المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) هو الطرماح بن حكيم بن الحكم، من طي، شاعر إسلامي فحل، ولد ونشأ في الشام، وانتقل إلى الكوفة، واعتقد مذاهب الأزارقة، وكان هجاء، توفي سنة ١٢٥هـ.
انظر: خزانة الأدب، البغدادي (٣/ ٤١٨)، البيان والتبيين، الجاحظ (١/ ٢٧).

مولهة تهوي جميعًا كما هوى   من النيق فهر البصرة المتطحطح[1]

(**هو رنة الشيطان**). فسره رحمه الله تعالى ببعض أنواعه لما يفهم من تفسيرهم له المتقدم، يقال: رن يرن رنينًا ورنةً، إذا كان الصوت حادًا، قال عمرو بن كلثوم[2]:

وسالفتي[3] رخام أو بلاط   يرن خشاش حليتها رنينا

وصف سالفتي هذه المرأة بسالفتي رخام أو بلاط، وهما حجران أبيضان ثم وصف صوت رنين حليتها إذا مضت سالفتها ماشية، ويقال ذلك أيضًا لحسن الصوت إذا حسن بالتغني، ومنه صوت الثكلى عند ثكلها ونوحها، وكذا القوس إذا رمي بها وترنمت يقال: رنت بصوتها[4]، قال الشاعر[5]:

إذا زل عنها السهم حنت كأنها   مرزأةٌ ثكلى تُرِنُّ وتُعْوِلُ

وكذا يقال لصهيل الخيل، قال جرير:

---

(١) ذكره ياقوت في معجم البلدان (١/ ٤٣٠) ونسبه للطرماح بن حكيم، وعنده بدل «مؤلهة» «مؤلفه» وبدل «فهر» «فوق».

(٢) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، من بني تغلب، أبو الأسود، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، من أعز الناس نفسًا، من الفتاك الشجعان، وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند، أشهر شعره معلقته، مات نحو ٤٠ق.هـ.

انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٣٤ـ ٢٣٦)، الأعلام، الزركلي (٥/ ٨٤).

(٣) السالفة: صفحة العنق، وهما سالفتان من جانبي العنق.

انظر: النهاية، ابن الأثير (٢/ ٣٩٠)، لسان العرب، ابن منظور (٩/ ١٥٩).

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ١٨٧).

(٥) هو الشنفري، انظر ديوانه: ٦٠.

يشتفـن للنظـر البعيـد كـأنمـا إرنـانهـا ببـوائـن الأشطـان[1]

يقول: كأنما يصهلن في آبار واسعة تبين أشطانها عن نواحيها.

فكل جلبة تختلف الأصوات فيها تسمى رنة، قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه يوم موته، يخاطب نفسه عند لقاء العدو لما رأى فيها تأخرًا عن الشهادة:

لَتَنْـــزِلِـــنّ أو لتُكـــرهنـــه إن أجلب الناس وشدو الرنة

مالي أراك تكرهين الجنة[2]

فالرنة هي الصوت الحاد من كل شيء، قال عمرو بن كلثوم أيضًا:

عشـــوزنـــة إذا انقلبـــت أرنّـــت تـــدق قفـــى المثقـــف والجبينـــا

يقول: إذا انقلبت في ثقافها صوتت وشجت من يثقفها، وهكذا يقال لصوت المكروب والمريض إذا كان رقيقًا حادًا، وهذا قول أئمة أهل اللغة[3].

والمعنى والله أعلم أن مراد الحسن بذلك يحتمل أمرين فقط:

أحدهما: رنة صوت النائحة بالنوح، لأن ذلك من عمل الشيطان المضاف إليه، لما فيه من التسخط على قضاء الله وقدره.

---

(١) البيت في اللسان (٩/ ١٨٥) غير معزو،

(٢) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٢٨٦).

(٣) انظر: غريب الحديث، أبو إسحاق الحربي (٢/ ٥٥٢)، لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ١٨٧).

فعند ابن سعد في الطبقات، عن بكير بن عبدالله بن الأشج[1] مرسلاً: البكاء من الرحمة، والصراخ من الشيطان[2].

وذكر الزمخشري[3] وغيره، أنه لما فتحت مكة رن إبليس رنة فاجتمعت إليه ذريته، فقال لهم: آيسوا من أن تردّوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومهم هذا، ولكن افتنوهم في دينهم وأفشوا فيهم النوح والشعر.

وذكره الأزرقي[4] أيضًا في تاريخ مكة ولفظه: أن إبليس رن ثلاث رنات: رنة حين لعن فتغيرت صورته عن زي الملائكة، ورنة حين رأى رسول الله ﷺ قائمًا بمكة يصلي، ورنة حين افتتح رسول الله ﷺ مكة،

---

(١) هو بكير بن عبدالله بن الأشج، مولى بني مخزوم، أبو عبدالله، أو أبو يوسف، المدني، نزيل مصر، ثقة، من الخامسة، مات سنة عشرين وقيل بعدها.
انظر: تقريب التهذيب (ص ٢٢٨)، تهذيب التهذيب (١/ ٤٩١ـ ٤٩٣).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٣٣)، وفي إسناده انقطاع فبكير بن عبدالله الأشج لم يرو عن أحد من الصحابة، وإنما روايته عن التابعين، فيكون الإسناد بذلك معضلاً، وقد صح بلفظ، يخالف هذا اللفظ ضمن حديث بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن بلفظ «البكاء من الشيطان» دون ذكر الصراخ من الشيطان، كما عند أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (ص ٤٢٠)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٢١)، كلهم من طريق الحكم بن نافع أبو اليمان ثنا صفوان عن راشد بن سعد عن عاصم بن حميد السكوني عن معاذ بن جبل، وإسناده حسن، صفوان بن عمرو الحمصي قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٢٧٧): صدوق.

(٣) في «ربيع الأبرار» (٤/ ٢٧٦)، وهو أثر موقوف على ابن عباس رواه الضياء في المختارة (١٠/ ١٠٦) برقم (١٠٢) من طريق الطبراني.

(٤) لم أهتد إلى موضعه في «أخبار مكة».

فاجتمعت إليه ذريته فقال إبليس: آيسوا أن تردّوا أمة محمد على الشرك بعد يومهم هذا، ولكن أفشوا فيهم النوح والشعر[1].

وقد قال عدي بن زيد[2]:

ينحـن علـى ميـت فيعْلـنَّ رنـة   تؤرق عيني كل باك ومسعد

وعن ابن عمر مرفوعًا: أن رسول الله ﷺ نهى أن تتبع جنازة معها رانة يعني نائحة[3].

وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن يزيد أو أبي بردة قال: أغمي على أبي موسى رضي الله عنه، فأقبلت امرأته أم عبدالله تصيح برنة، ثم أفاق فقال: أولم تعلمي، وكان يحدثها أن رسول الله ﷺ قال: أنا بريء ممن حلق وصلق وخرق[4].

وقد روي [ك،١٠٧/أ] عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه لما مات إبراهيم ابن النبي ﷺ بكى وذرفت عيناه، فقال عبدالرحمن: يا رسول الله تبكي، أو لم تنه عن البكاء؟ قال: لا، ولكن نُهيت عن النوح

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ١١)، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٣): رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٢) هو عدي بن زيد بن حماد بن زيد التميمي، شاعر، من دهاة الجاهليين، كان قرويًا من أهل الحيرة، فصيحًا، يحسن العربية والفارسية، مات سنة ٣٥ق.هـ.

انظر: خزانة الأدب، البغدادي (١/ ١٨٤ـ ١٨٦)، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (١/ ٢٤٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه، الجنائز، باب النهي عن النياحة (١/ ٥٠٤)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٤٠٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٢٦٤)، حسن.

(٤) أخرجه البخاري، الجنازة، باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة (١/ ٤٣٦)، ومسلم، الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب (١/ ١٠٠).

والغناء، عن صوتين أحمقين فاجرين، عن صوت الغناء فإنه لعب ولهو ومزامير الشيطان، وعن خمش الوجوه، وشق الجيوب، ورنة الشيطان، ولكن هذه رحمة جعلها الله في قلوب الرحماء، ومن لا يَرحم لا يُرحم. ثم قال: القلب يحزن والعين تدمع.. الحديث.

ذكره أبو الليث وابن الجوزي في كتاب النساء، ورواه الترمذي وصححه والبزار والبيهقي عن جابر بن عبدالله مرفوعًا[1].

ويدل على هذا المعنى قول امرىء القيس يصف [المِعزى][2] إذا رأت حالبها حيث يقول:

ألا إن لم يكن إبل فمعزى   كأن قرون جلتها عصيُّ

إذا مُشّت حوالبها أرنت   كأن الحي صبحهم نعيُّ

ويقال أيضًا للرعد إذا جلجل صوته رن رنة ورنينا، قال جرير:

فسقى ديارك حيث كنت مُجلجلٌ   هزج يرن على الديار مطير[3]

والمعنى الآخر أنه عنى بذلك رنة الغناء، كالتشبيب بالنساء بأنواع الملاهي وكلام الشرك والإقسام في ذلك بهن وبعظماء الجن والشياطين، الذي

---

(١) أخرجه الترمذي، الجنائز، باب الرخصة في البكاء على الميت (٣/ ٣٢٨)، وقال الترمذي هذا حديث حسن، وكذلك الألباني في صحيح الترمذي (١/ ٢٩٥)، وعبد بن حميد، المنتخب من مسند عبد بن حميد، (ص ٣٠٩)، والطيالسي في مسنده (ص ٢٣٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٣)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٦٩)، كلهم من طريق عطاء عن جابر مثله.

(٢) في الأصل: للمعزى، والمثبت هو الصواب.

(٣) الهزج والزنة، والوزج دونه، والهزج أيضًا صوت الرعد والذبان، وضرب من الأغاني، وبحر من بحور الشعر. انظر النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٥/ ٢٦٢).

هو من عمل الشيطان، فأضاف الرنة في ذلك إليه لتزيينه لها، إذ هي من عمله وهو الداعي إليها، كما قال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: ١٥] فأضاف العمل الذي هو من تسويله إليه، فكذا رنته، فإن من أهل الأحوال الشيطانية من إذا حضر سماع الغناء بذلك تتنزل عليه الشياطين عند ذلك، وتتكلم على لسانه بكلام قد لا يعلم به، وربما لم يفقهه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلوبهم عن الشياطين التي تجري من ابن آدم مجرى الدم، حتى تخلص إلى قلبه وتشمه[(١)] وتوسوس فيه، وربما تكلم الشيطان على لسانه بألسنة مختلفة، كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والذي حصل له الحال لا يدري بذلك، بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس، وربما تنزل عليهم عند سماع ذلك، فتحمل أحدهم في الهواء وتخرجه عن تلك الدار.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وقد جرى هذا لغير واحد، وهذا كما كانت الشياطين تدخل في الأصنام وتكلم المشركين منها، ومن هؤلاء من يرى عند سماع الغناء عرشًا في الهواء فوقه نور، وقائلاً يقول: أنا ربك[(٢)].

وإنما ذلك من عمل الشياطين، إذ هي من عمله التي يضل بها أولياءه وجنده، نسأل الله الكريم الحماية.

وقد قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾

---

(١) كذا في الأصول.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/ ٢٨٧-٢٨٩).

[الإسراء: ٦٤]: هو الغناء والمزامير والملاهي[1].

لأنها أصوات كلها مختصة بالمعاصي فهي مضافة إليه.

وقال ابن عباس: صوته دعاء كل داع إلى معصية إليه[2]. فيكون قول مجاهد داخلاً في هذا القول.

وأما ما روى الديلمي[3] [وابن] طاهر المقدسي[4] عن أنس رضي الله عنه من طريق أبي بكر عمار بن إسحاق أن أبا محذورة[5] أنشد بين يدي النبي ﷺ:

لسعت حية الهوى كبدي ... فلا طبيب لها ولا راقي

سوى الحبيب الذي كلفت به ... فمنه طبي ومنه درياقي[6]

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥/ ١١٨)، وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٤٩)، زاد المسير، ابن الجوزي (٥/ ٥٨).

(٢) المصادر السابقة.

(٣) تقدمت ترجمته ص ٣٢٢.

(٤) في «صفوة التصوف» ص(٣٦١،٣٦٢)، ووقع في الأصل: أبوطاهر، والمثبت هو الصواب، وهو محمد بن طاهر بن علي أبو الفضل المقدسي، المعروف بابن القيسراني، رحل إلى بلاد كثيرة لطلب الحديث، ولد سنة ٤٤٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧هـ، له كتب كثيرة منها الجمع بين رجال الصحيحين، ومسألة السماع، وتذكرة الموضوعات، انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٤٨٦)، هدية العارفين، إسماعيل باشا (٦/ ٨٢ـ ٨٣).

(٥) هو أبو محذورة الجمحي المكي المؤذن، صحابي مشهور، اسمه أوس، وقيل سمرة، وقيل سلمة، وقيل سلمان، وأبو مِعْير، بكسر الميم وسكون المهملة وفتح التحتانية، وقيل عمير بن لوذان، مات بمكة سنة ٥٩هـ وقيل بعد ذلك.

انظر: تقريب التهذيب (ص ٦٧١)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ١٧٥ـ ١٧٦).

(٦) درياق وترياق بمعنى.

فتواجد النبي ﷺ حتى سقط رداءه عن منكبه، ثم قال: ليس بكريم من لم يهتز عند السماع، وقسم رداءه أو بردته بين من حضر من أهل الصفة أربعمائة قطعة[1]. فهو كذب.

قال الديلمي: تفرد به عمار بن إسحاق.

وقال الذهبي: وكأنه هو الذي وضعه، وهو كذاب عند أهل العلم، يضع الحديث على الثقاة، لأن من بعده فيه ثقة، ولا يشك أنه واضعه[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هو كذب باتفاق أهل العلم بالحديث[3].

وقد سئل أبوبكر الطرطوشي[4] عن قوم يقرأون شيئًا من القرآن ثم ينشدون لهم شيئًا من الشعر، فيرقصون ويطربون بالدف والشبابة، هل الحضور معهم حلال أو لا فقال:

أكثر مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلاً جسدًا له خوار قاموا يرقصون له

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/ ٥٦٣) وقال: «ذكره محمد بن طاهر المقدسي في مسألة السماع، وفي صفة التصوف، ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردي صاحب عوارف المعارف، وهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن»، وكذلك ذكره الحافظ ابن حجر وعزاه إلى المقدسي والسهروردي في لسان الميزان (٤/ ٢٧٠) ولم أجده في كتاب السماع.

(٢) انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (٣/ ١٦٤)، لسان الميزان، ابن حجر (٤/ ٢٧٠)، الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث، ابن سبط العجمي (ص ١٩٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١١/ ٥٦٣).

(٤) تقدمت ترجمته ص ٥٥٧.

ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل، وإنما كان النبي ﷺ يجلس مع أصحابه كأن على رؤوسهم الطير من الوقار، قال: فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها لأن هذا من عمل الشيطان، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب الإمام الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين انتهى[1].

وقال جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي: وكم فتنت الأصوات بالغناء من زاهد وعابد، قال: وذكرنا منهم جملة في كتابنا ذم الهوى[2].

وقال أبو الوفاء ابن عقيل[3]: وأطم الطامات ادعاؤهم أن هذا قربة، وقد انعقد الإجماع [على] أن من ادعى الرقص قربة إلى الله تعالى كفر، فلو أنهم قالوا [مباح][4] كان أقرب حالاً، لأن القُرَب لا تعرف إلا بالشرع، وليس في الشرع أمر بالرقص ولا ندب إليه، ولو لم يكن في الغناء إلا

---

(١) ذكره عنه القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٨).

(٢) انظر «ذم الهوى»: ص ٢٨٧، وكأن في المطبوع نقصا؛ فقد ذكر فصلا في أن الغناء من أسباب العشق، ثم لم يُذكر تحته شيء من الأخبار كما هي عادة ابن الجوزي في بقية فصول الكتاب.

(٣) هو علي بن عقيل بن محمد البغدادي، الظفري، أبو الوفاء، ويعرف بابن عقيل، عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته، اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته، ثم رجع وأظهر توبته على الملأ، من كتبه كتاب الفنون وهو في أربعمائة جزء، قال الذهبي: لم يصنف في الدنيا مثله، و«الرد على الأشاعرة» وإثبات الحرف والصوت في كلام الكبير المتعال، وغير ذلك، توفي سنة ٥١٣هـ.

انظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٢٤٥)، طبقات الحنابلة، أبو يعلى (٢/ ٢٥٩)، الذيل على طبقات الحنابلة، ابن رجب (١/ ١٤٢).

(٤) في الأصل: مباحًا.

أنه يزرع النفاق في القلب، ويقرب من الشيطان لكفى بذلك زاجرًا.

وقد حرمه جمهور العلماء مجردًا عن أحوال الشرك [ك،١٠٨/ب] بآلات اللهو فكيف إذا خالطه ذلك، كشيخ الإسلام ابن تيمية والنووي وغيرهما[١]، إلا ما خصه الشرع كالعرس ويوم العيد وحداء الإبل، ونحو ذلك في العرس والعيد مع الدف لا غير.

ولهذا نزه الله سبحانه نبينا محمدًا ﷺ عمن تقترن بهم الشياطين، من الكهان والشعراء والمجانين فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٣٨- ٤٣].

وقال: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٢٩- ٣٠].

وبين سبحانه أن الذي جاءه بالقرآن ملك كريم، اصطفاه تعالى، قال جل ثناؤه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

إلى قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠- ٢١١].

وقال: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/ ٥٧٣- ٥٧٨)، حيث لم يذكر نزاعًا في حرمة الغناء بآلات اللهو عن أحد من أتباع الأئمة الأربعة، بعد أن حكى إجماع الأئمة الأربعة على ذلك.

﴿بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

إلى أن قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢﴾ [النحل: ١٠٢].

فسماه الروح الأمين، وسماه روح القدس، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧﴾ [التكوير: ١٩-٢٧].

فنزه جبريل عليه السلام كما نزه محمدًا ﷺ، فأولياء الله سبحانه هم المتقون المهتدون بمحمد ﷺ، فيفعلون ما به أمر، وينتهون عما عنه نهى وزجر، ويقتدون به فيما بيّن لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم الله بملائكته وروح منه، ويقذف في قلوبهم نورًا من أنواره، ويكرمهم بالكرامات الرحمانية، ويعيذهم من الأحوال الشيطانية؛ لاتباعهم القرآن الذي عجز أن يأتي بمثله الإنس والجان وبذلك تُيقن أنه كلام الرحمن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(إسناده جيد)[1]. قال النووي في شرح الروضة[2]: الجيد عند

---

(١) يشير إلى حديث الباب وقد أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٦٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٩)، وفيه قال الحسن: إنه الشيطان، وانظر تمام تخريجه بعد قليل دون قول الحسن.

(٢) كذا في الأصل، ويمكن أن تُقرأ: «الروض» بدل «الروضة»، ولا أعرف للنووي =

علماء الأثر بمعنى الصحيح.

وقاله الزركشي في حواشي ابن الصلاح.

قال السمعاني في آداب الاستملاء: قال ابن المبارك: ليس جودة الحديث قرب الإسناد، وإنما جودة الحديث صحة الرجال[1].

قلت: فعلى هذا لا يلزم من الحكم على الإسناد بالصحة صحة المتن، فقد يكون السند مقبولاً والمتن معلولاً، وهذا هو الظاهر من صناعة القوم رضي الله عنهم في هذا الباب.

(ولأبي داود) سليمان بن الأشعث، **(والنسائي)** أحمد بن شعيب بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبدالرحمن الحافظ، المتوفى سنة ثلاث وثلاثمائة، وله ثمان وثمانون سنة.

ومحمد بن حبان التميمي البستي في صحيحه[2] المسند منه دون ما سواه.

= كتاباً بهذا العنوان على الاحتمالين، ولم أجد هذه العبارة في كتابيه في المصطلح: «التقريب» و«الإرشاد»، كما لم أجدها في شرح الروضة للطوفي، وبقي أن أشير إلى أن للشيخ زكريا الأنصاري (ت٩٢٦هـ): «شرح روض الطالب» في الفقه الشافعي، وروض الطالب هذا اختصار لروضة الطالبين للنووي، من اختصار ابن المقرىء.

(١) أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني: ٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الطب، باب في الخط وزجر الطير (٤/ ١٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٣٢٤)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٧٧)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٠٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٩/ ٤٢)، وابن سعد في الطبقات (٧/ ٣٥)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/ ١٥٨)، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين رقم (٣٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٢)، وقال النووي في رياض الصالحين (ص ٦٣٧)، وشيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢)، إسناده =

(وعن) عبدالله (بن عباس) عم النبي ﷺ ورضي عنهما (**قال: قال رسول الله ﷺ: من اقتبس شعبة**)، بضم الشين المعجمة، (**من**) علم (**النجوم**). يقال: قبست العلم واقتبسته: تعلمته، والاقتباس من الشيء الأخذ منه، أي: بأن يتعلم من علم النجوم شيئًا، وهو الذي يخبر به متعلمه عن المغيبات بواسطة النظر في أحوال الكواكب، بسيرها في مجاريها واجتماعها وافتراقها، ويدّعون أن لها تأثيرًا في السفليات، وأنها تتصرف على أحكامها وتجري على قضايا فيها، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاطٍ لعلم قد استأثر الله تعالى به، لا يعلم الغيب أحد سواه. وأما ما يعلم به أوقات الصلوات، جهة القبلة ونحو ذلك، فغير داخل فيه. فمن اقتبس منه شعبة، وهي الطائفة من الشيء والقطعة منه، (**فقد اقتبس**)، أي: تعلم وأخذ (**شعبة من السحر زاد**) من السحر (**ما زاد**). من اقتباس ذلك من علم النجوم، وفي هذا رد على من رخص في تعلم شيء من السحر.

(**رواه أبو داود بسند صحيح**)، ورواه ابن أبي شيبة في مسنده مرفوعًا بسند صحيح، وليس فيه زاد ما زاد، ورواه رزين عن ابن عباس مرفوعًا، ولفظه: من اقتبس بابًا من علم النجوم اقتبس شعبة من السحر، المنجم كاهن والكاهن ساحر، والساحر كافر[1].

= حسن. وقال ابن مفلح الآداب الشرعية (٣/ ٣٦٧): إسناده جيد.

(١) أخرجه أبو داود في الطب، باب في النجوم (٤/ ١٥)، وابن ماجه، الأدب، باب تعلم النجوم (٢/ ٢٢٨)، وأحمد في المسند (١/ ٣١١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٦٠٢)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٣٥)، وعبد بن حميد في مسنده، المنتخب من مسند عبد بن حميد (ص ٢٣٦)، كلهم من طريق عبيدالله بن الأخنس عن الوليد بن عبدالله عن يوسف بن ماهك عن ابن عباس مرفوعًا، =

وسئل النووي رحمه الله عن وجه ارتباط السحر بالنجوم في حديث ابن عباس هذا فأجاب: وجهه أنهما اشتركا في كونهما باطلاً وخداعًا وتمويهًا، فإن النجوم لا فعل لها، بل الله الفاعل لحركتها، وهو خالقها ومدبرها، فهو خالق كل شيء وهو الواحد القهار، وكذلك السحر تخييل.

وقال السبكي بعد إيراده لهذا الحديث: قد أشار النبي ﷺ بذلك إلى أن النجوم فن من السحر، ثم ذكر بعد بسطٍ أن ذلك لا يسمى سحرًا على الحقيقة وإنما يسمى تنجيمًا وصاحبه منجمًا.

وفي التنجيم يقول أبو فراس بن حمدان[1]: [ك،١٠٨/أ]

دع النجوم لعراف يعيش بها   وانهض بعزم قوي أيها الملك

إن النبي وأصحاب النبي نهوا   عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا

وقال ابن حجر[2] صاحب التحفة فيها بعد جزمه بتحريم ما مر من

= وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ٦٣٧)، والذهبي في الكبائر (ص ١٢٣)، وابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣)، وقال الألباني في صحيح أبي داود حسن (٢/ ٧٣٩).

(١) هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، أبو فراس الحمداني، أمير، شاعر، فارس ابن عم سيف الدولة الحمداني، مات سنة ٣٢٠هـ.

انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٢٧)، شذرات الذهب، ابن العماد (٣/ ٢٤).

(٢) هو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي السعدي الأنصاري، شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس، فقيه، مصري، ولد في سنة ٩٠٩هـ، في محلة أبي الهيثم، وإليها نسبته، له تحفة المحتاج لشرح المنهاج، والفتاوى الهيتمية، وغير =

السحر والضرب بالرمل والحصى والشعبذة تعلمًا وتعليمًا: وكذا التفرج على فاعل شيء من ذلك كما هو ظاهر، لأنه إعانة على معصية.

(وللنسائي من حديث أبي هريرة) الدوسي **(رضي الله عنه مرفوعًا: من عقد عقدة)**، من عقد السحر، **(ثم نفث فيها فقد سحر)** لأن السحرة يعقدون عقدًا وينفثون فيها فيكون السحر، وهذا يدل على أن غالب السحر مركب من ذلك، ولهذا أمر الله سبحانه بالتعوذ من شر النفاثات في العقد.

والنفث: النفخ مع ريق، فتمتزج الأرواح الخبيثة الإنسية والشيطانية بأسباب خفية، يعلمها الذي أحاط علمه بكل شيء إذ لا يقع في ملكه شيء إلا بقضائه وقدره، فهو قد أحاط بكل شيء قدرةً وعلمًا، فيؤثر ذلك بإذن الله تعالى[1]، ولهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

(ومن سحر فقد أشرك) بالله تعالى، **(ومن تعلق شيئًا)** معتقدًا أنه مؤثر من دون الله تعالى، **(وكل إليه)**[2]، أي وكل إلى ذلك الشيء، ومن وكل إلى غير الله تعالى فقد هلك، لأنه لا منجى منه ولا ملجأ إلا إليه، وتقدم الكلام على ذلك.

(وعن) ابن أم عبدٍ عبدالله **(بن مسعود)** الهذلي المهاجري **(رضي الله**

= ذلك، مات سنة ٩٧٤هـ.

انظر: الأعلام، الزركلي (١/ ٢٣٤)، دائرة المعارف الإسلامية (١/ ١٣٣).

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٢٢١).

(٢) سبق تخريجه في المجلد الثاني ص[ر،٩٨/ أ]، [ر،١٠١/ب].

عنه أن رسول الله ﷺ قال: **ألا هل أنبئكم ما العضه؟**)

العضه بكسر العين المهملة وفتح الضاد المعجمة، أصلها العضهه فعلة من العضة بفتح ثم سكون وهو البهت، حذفت لامه فقيل العضة التي هي الرمي بالعضيهة وهي البهتان والكذب، سميت بذلك تجوزًا وتعظيمًا لشأنها[1].

فعند البخاري في الأدب، والبيهقي في الشعب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: أتدرون ما العضه؟ نقل الحديث من بعض الناس إلى بعض ليفسدوا بينهم[2].

فالعضه في هذا بسكون الضاد المعجمة هو البهتان، ولذلك قال ههنا: (**هي النميمة**). التي هي نقل الحديث من قوم إلى قوم، والغالب على ذلك الكذب، وكذا من إنسان إلى إنسان على جهة الإفساد والشر، ولهذا وصفها فقال: (**القالة بين الناس**)[3]. يعني كثرة القول وإيقاع الخصومة بينهم بما يحكى للبعض عن البعض، وقد عدها بعض أهل العلم من أنواع السحر، لأنها تفعل بين الناس أعظم مما يفعل السحر من التفريق بينهم وإيقاع العداوة، بل قد يحصل بها القتل ونهب

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٣/ ٢٥٤)، الفائق في غريب الحديث، الزمخشري (٢/ ٤٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٩٣).

(٣) أخرجه مسلم، البر والصلة والآداب، باب تحريم النميمة (٤/ ٢٠١٢)، وأحمد في مسنده (١/ ٤٣٧)، والدارمي في سننه (٢/ ٣٨٨)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ٢٤٥)، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٥٦، ٥٢١).

الأموال.

قال في عيون المسائل[1]: ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس[2].

ومما يدل على أنها من أنواع السحر قول الشاعر:

أعـوذ بـربـي مـن النـافثـات   فـي عقـد العـاضـه المعضـه[3]

هكذا استشهد أبو عبيد القاسم بن سلام بهذا البيت على هذا الحديث بأن النميمة نوع من أنواع السحر، قال: والعاضه والعاضهة الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها[4].

وقد قال ابن عبدالبر عن يحيى بن أبي كثير[5]: يفسد النمام

---

(١) عيون المسائل: هو المعروف بالخلاف الصغير، أو رؤوس المسائل، لمحفوظ بن أحمد الكلوذاني، أبو الخطاب، البغدادي، الحنبلي، فقيه أصولي، توفي سنة ٥١٠هـ.

انظر: كشف الظنون، إسماعيل باشا (٦/ ٦)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (٣/ ٢٠)، المنهج الأحمد، العليمي (٢/ ٢٣٣).

(٢) انظر: الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٨٠)، حيث نقل كلام أبي الخطاب.

(٣) ذكره أبو عبيد في غريبه (١/ ٤٦٢)، ولم ينسبه، وكذلك ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٥١٦).

(٤) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٤٦٢).

(٥) هو يحيى بن صالح، وقيل يسار، وقيل نشيط، الطائي بالولاء، اليمامي، أبو نصر ابن أبي كثير، عالم أهل اليمامة في عصره، من ثقات أهل الحديث، رجحه بعضهم على الزهري، مات سنة ١٢٩هـ.

انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٥/ ٤٠٤)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (١١/ ٢٦٨).

والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة.

وقال بعضهم عن يحيى بن أكثم[١]: النمام شر من الساحر. ووجه ذلك أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله، على وجه المكر والحيلة فأشبه السحر، ولهذا يعلم بالعادة والعرف بأنه يؤثر ويبيح ما يعمل السحر أو أكثر، فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين، قالوا لا سيما إن قلنا بقتل الآمر بالقتل على قول، فهنا أولى، أو الممسك لمن يقتل فهذا مثله، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة في قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ﴾ يعني: المغتاب.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١﴾ [القلم: ١١] يعني: الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين وهي الحالقة[٢].

وروى الجماعة إلا ابن ماجه من طريق همام بن الحارث قال: مر رجل على حذيفة رضي الله عنه فقيل: إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء فقال: سمعت رسول الله ﷺ أو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»، وفي لفظ له «لا يدخل الجنة قتات»[٣].

---

(١) هو يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي، الأسيدي، المروزي، أبو محمد، ولي قضاء بغداد، رفيع القدر، من نبلاء الفقهاء، ولد بمرو سنة ١٥٩هـ، وتوفي سنة ٢٤٢هـ.

انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٢١٧)، أخبار القضاة، وكيع (٢/ ١٦١ـ ١٦٧).

(٢) أخرجه عن ابن عباس وقتادة ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٩/ ٢٣)، وحكاه ابن كثير عنهما في تفسيره (٤/ ٤٠٣).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما يكره من النميمة (٥/ ٢٢٥٠)، وفي الأدب المفرد له (ص ١١٩)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم النميمة (١/ ١٠١)، =

وفي حديث أسماء[1] بنت يزيد رضي الله عنها عند الإمام أحمد مرفوعًا: ألا أخبركم بشراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العنت[2].

ورواه ابن ماجه بهذا اللفظ[3]، ثم وصفه سبحانه بصفة أخرى فقال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم: ١٣].

قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم من السلف: العتل: زيادة

= والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في القتات (٤/ ٣٧٥)، وأبو داود في الأدب، باب في القتات (٤/ ٢٦٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٩٦)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٨٩، ٤٠٦)، وابن حبان في صحيحه، بترتيب ابن بلبان (١٣/ ٧٨)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٦٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٤٩٦).

(١) هي أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية، الأوسية، ثم الأشهلية، من أخطب نساء العرب، ومن ذوات الشجاعة والإقدام، يقال لها خطيبة النساء، حضرت وقعة اليرموك، فكانت تسقي الظمآى وتضمد الجرحى، ولما اشتدت الحرب، أخذت عمود خيمتها وصرعت به تسعة من الروم، وعاشت بعد ذلك دهرًا، ماتت سنة ٣٠هـ.

انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ٢٢٩)، حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ٧٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد، باب من لا يؤبه له (٢/ ١٢٧٩)، وأحمد في المسند (٦/ ٤٥٩) واللفظ له، وهو شطر حديث شطره الأول: «ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: خياركم الذين إذا رأوا، ذكر الله عز وجل، ألا أخبركم بشراركم...» وقد اكتفى ابن ماجه بشطره الأول، بينما روى الحديث بشطريه بالإضافة لأحمد، البخاري في الكبير (٢٤/ ١٦٧)، كلهم من طريق عبدالله بن عثمان بن خثيم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد الأنصارية، وشهر بن حوشب مختلف في توثيقه فكثير منهم لا يرى توثيقه، انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ٣٦٩).

(٣) ابن ماجه (٢/ ١٢٧٩)، قال الألباني في ضعيف ابن ماجه (ص ٣٣٨): إسناده ضعيف.

الشديد القوي في المأكل والمشرب والمنكح وغير ذلك، المصحح الخلق[1].

ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: النميمة تسلب العزيز عزه، وتحط المكين عن مكانته، والسيد عن مرتبته، فكم دم أراقته، وكم محبين تقاطعا، ومن زوجين تفارقا، فليتق الله من يستمع إلى النمام.

وفي المثل: من أصغى إلى الواشي أضاع الصديق، ومن سعى بها حذره الغريب ومقته القريب.

كما قال الخليفة المأمون العباسي[2]:

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه   على الصديق ولم تؤمن أفاعيه

كالسيل بالليل لا يدري به أحد   من أين جاء ولا من أين يأتيه

[ك،١٠٩/ب] وفي المثل الآخر: مبلّغ السوء كباغيه.

وأخذه أبو العتاهية[3] فنظمه وقال:

---

(١) انظر: جامع البيان، ابن جرير الطبري (٢٩/ ٢٣ـ ٢٧)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٠٤ـ ٤٠٥).

(٢) هو عبدالله بن هارون الرشيد، أبو العباس، سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ، في أيامه انتشرت الفلسفة، وصار لأهل الكلام شوكة، حتى قال بقولهم في القرآن، وحمل الناس بقوة السيف على ذلك، ومات على هذه العقيدة سنة ٢١٨هـ، نسأل الله العافية والسلامة.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (١٠/١٨٣)، الطبري في تاريخه (١٠/٢٩٣).

(٣) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي، بالولاء، أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية، شاعر مكثر، سريع الخاطر، كان جزارًا، ورمي بالزندقة، يجيد القول في =

من جعل النمام عينا هلك   مبلغك الشر كباغيه لك

وقال الحسن البصري: من نم لك نم عليك.

وقد قال جعفر الصادق[1] لابنه: إياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال.

وقالت الحكماء: احذروا أعداء العقول، فإنهم لصوص المودة.

وفي المثل الآخر: النميمة إرثة العداوة[2].

والإرثة اسم لما تورث به النار[3]، كيف وقد تغير الزمان حتى كل عن وصفه اللسان.

وفي الحديث فشت القالة بين الناس[4].

= الزهد والمديح وغيرها من أنواع الشعر ولد في عين التمر سنة ١٣٠هـ، وسكن بغداد وبها مات سنة ٢١١هـ.

انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٧٩١)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٧١).

(١) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، أبو عبدالله، الملقب بالصادق، من أجلاء التابعين، أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك، تزعم الرافضة أنه سادس الأئمة الاثنى عشر عندهم، له أخبار مع خلفاء بني العباس، وكان جريئًا عليهم صداعًا بالحق، ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ، وبها توفي سنة ١٤٨هـ.

انظر: وفيان الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٠٥)، صفوة الصفوة، ابن الجوزي (٢/ ٩٤).

(٢) انظر: مجمع الأمثال، الميداني (٢/ ٣٤٥).

(٣) انظر: موسوعة الأمثال، د. إميل يعقوب (٥/ ٥٤٣).

(٤) أخرجه البخاري، السنة، باب الاشتراك في الهدى والبدن (٢/ ٨٨٥)، وهو جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في حجة النبي ﷺ حجة الوداع، وأمره =

أراد به القول والحديث بينهم، فينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلامًا تظهر المصلحة فيه، كما قيل يغنيك عن كل قبيح تركه.

وعند ابن أبي الدنيا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا تشغلوا أنفسكم بذكر الناس فإنه بلاء، وعليكم بذكر الله تعالى[1].

وقد ذكر أبو داود في وصفه سننه في رسالته إلى أهل مكة أنه أودع فيها حديثًا هو ربع الإسلام وهو قوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[2].

وقد جاء أن رجلاً ذكر لعمر بن عبدالعزيز رجلاً بشيء فقال عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦]، وإن كنت صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم: ١١]، وإن شئت عفونا عنك.

قال: العفو يا أمير المؤمنين لا أعود أبدًا.

= الصحابة وكانوا مهلين بحجة، ولما قدموا نهار رابع من ذي الحجة أمرهم بجعلها عمرة، وأن يحلوا إلى نسائهم، ففشت في ذلك القالة ضمن حديث طويل، والطبراني في الكبير (٧/ ١٢٤)، والحاكم من حديث جابر (١/ ٦٤٧).

(١) لم أعثر عليه.

(٢) لم أجد في رسالته إلى أهل مكة، وإنما ذكره عنه الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٩)، والحديث أخرجه الترمذي، أبواب الزهد، الباب الثامن (٤/ ٥٥٨)، وابن ماجه، الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٢/ ١٣١٥)، والشهاب في مسنده (١/ ١٤٤)، كلهم من طريق الأوزاعي عن قرة بن عبدالرحمن عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة، قال الألباني في صحيح الترمذي: صحيح (٢/ ٢٦٩).

ورفع إلى الصاحب[1] بن عباد رقعة، يحثه صاحبها فيها على أخذ مال يتيم وكان مالاً كثيرًا، فكتب على ظهرها: النميمة قبيحة، وإن [كانت][2] صحيحة، والميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والمال ثمّره الله، والساعي لعنه الله.

وقد قال القاضي أبو الفرج الأصفهاني[3] في مجالسه: حدثنا ابن دريد ثنا أبو حاتم أخبرني أبو الحسن المدائني قال: وشى واشٍ بعبدالله بن همام السلولي[4] إلى زياد[5] أنه هجاه فقال زياد: أجمع بينك وبينه

---

(١) هو إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، وزير غلب عليه الأدب، ذو علم وفضل ورأي، لقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك، له تصانيف منها المحيط في اللغة، والكشف عن مساوىء شعر المتنبي، وغير ذلك، مات بالري سنة ٣٨٥هـ.

انظر: معجم الأدباء، ياقوت (٢/ ٢٧٣ـ ٢٤٣)، المنتظم، ابن الجوزي (٧/ ١٧٩).

(٢) من المسودة، وفي الأصل: «كان».

(٣) لعله يقصد أبا الفرج الأصبهاني نسبة إلى أصبهان أو أصفهان أحد مدن فارس، فالعرب تقول أصبهان والفرس تقول أصفهان، المتوفى سنة ٣٥٦هـ، صاحب الأغاني أموي إلا أنه لم يذكر أحد ممن ترجم توليه للقضاء، بل على العكس ذكر عنه المجون والخلاعة، وكتابه الأغاني خير شاهد على ذلك.

انظر: تاريه بغداد، الخطيب (١١/ ٣٩٨)، كشف الظنون، إسماعيل باشا (٥/ ٦٨١).

(٤) من بني مرة بن صعصعة، شاعر، لقب بالعطار لحسن شعره، أدرك معاوية، مات سنة ١٠٠هـ.

انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦٥١)، الأعلام، الزركلي (٤/ ١٤٣).

(٥) هو زياد بن أبيه، من الدهاة القادة الفاتحين، اختلفوا في أبيه، فقيل عبيد الثقفي وقيل أبو سفيان، ولد في الطائف، أدرك النبي ﷺ ولم يره، وأسلم في عهد أبي بكر، ألحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤هـ، فكان عضده الأقوى، وولاه العراق، فكان =

قال: نعم، فبعث زياد إلى ابن همام فقال له: بلغني أنك هجوتني، قال: كلا أصلحك الله ما فعلت ولا أنت لذلك أهل، قال: فإن هذا - وأخرج الرجل - أخبرني، فأطرق ابن همام هنيئة ثم أقبل على الرجل فقال:

وأنت امرؤ إما ائتمنتك خاليًا فخنت وإما قلت قولاً بلا علم
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

فأعجب زيادًا جوابه فأقصى الساعي ولم يقبل منه.

ويكفي في السعاة قول العلماء رحمهم الله تعالى فيهم: إن الصدق ممدوح إلا منهم، وإن أصدقهم في ذلك أخبثهم، ذكره الزمخشري وغيره.

وقال عدي بن حاتم رضي الله عنه: الغيبة مرعى اللئام.

ومن السحر والسكر حب الدنيا، وهي أعظم فتنة على الإنسان، إذا تمكن حبها من قلبه ألهته عن طاعة ربه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

وقد قال ابن الجوزي: احذروا الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت، وذلك أنهما يفرقان بين المرء وزوجه، وهذه تفرق بين العبد وربه، قال تعالى في وصفها: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

= فيها إلى أن مات سنة ٥٣هـ. انظر: تهذيب التهذيب ابن عساكر، ابن بدران (٤/ ٤٠٦)، الأعلام، الزركلي (٣/ ٥٣).

مُّصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

فأخبر في أول الآية أنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، ثم ذكر في آخر السياق مآلها بعد ذكره تعالى لحالها، ليتذكر من تلبث بحالها بعد التفكر بمآلها، فينتهي عن ... ...[1] قبل أن تنأى به عن ربه.

(رواه مسلم[2] في صحيحه).

(ولهما) أي البخاري ومسلم في صحيحيهما، **(عن)** عبدالله **(بن عمر)** ابن الخطاب رضي الله عنهما: **(أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان سحرا»)**[3].

ورواه الإمام مالك في الموطأ ولفظه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قدم رجلان من المشرق فعجب الناس لبيانهما فقال رسول الله ﷺ: إن من البيان سحرا، أو إن بعض البيان سحر[4].

قال ابن عبدالبر: هما الزبرقان[5] بن بدر وعمرو بن

---

(١) آثار طمس، وهذا النص غير موجود في [م].

(٢) يشير إلى حديث الباب، أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم النميمة (٤/ ٢٠١٢)، وأحمد في مسنده (١/ ٤٣٧)، والدارمي في سننه (٢/ ٣٨٨)، وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري في الطب، باب إن من البيان سحرا (٥/ ٢١٧٦)، وفي الأدب المفرد (ص ٣٠٢)، وأبو داود في الأدب، باب ما جاء في الشعر (٤/ ٣٠٢)، والترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء إن من البيان لسحرا (٤/ ٣٧٦)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٨٦)، وابن حبان من طريق مالك، بترتيب ابن بلبان (١٣/ ١٢)، وأبو يعلى في مسنده (١٠/ ١٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٩٨).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٨٦).

(٥) التميمي السعدي، صحابي، من رؤساء قومه، قيل اسمه الحصين ولقب بالزبرقان =

الأهتم[1] باتفاق العلماء ذكره في التمهيد.

وفي صحيح مسلم أيضًا عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة واقصروا [الخطبة][2]، وإن من البيان سحرا[3].

ومن تبعيضية، فهو يعطي أنه على وجهين كما سيأتي: ممدوح ومذموم، والسحر هو قلب الشيء عن وجهه في عين الإنسان أو سمعه، وليس بقلب الأعيان، وإن كان ذلك غير ممتنع بالنسبة في السحر الحقيقي إلى قدرة الله تعالى، ويقال ما سحرك عن كذا أي: ما صرفك عنه، وفي كتاب الله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٩].

ويقال: سحره أيضًا بمعنى خدعه، وسبب هذا القول أنه لما قدم عليه ﷺ وفد بني تميم من المشرق، وكان فيهم الزبرقان بن بدر السعدي وعمرو بن الأهتم، وجماعة من سادتهم منهم الأقرع بن حابس

= وهو من أسماء القمر لحسن وجهه، ولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه، كف بصره في آخر عمره وكان فصيحًا شاعرًا، توفي في أيام معاوية رضي الله عنه.

انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٥٢٤)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٥٣١).

(١) هو عمرو بن سنان التميمي، المنقري، أبو ربعي أحد السادات الشعراء الخطباء في الجاهلية والإسلام، وفد على رسول الله ﷺ مع قومه مسلمًا، لقب أبوه بالأهتم لأن ثنيته هتمت يوم الكلاب، توفي سنة ٥٧هـ.

انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٥١٧)، البيان والتبيين، الجاحظ (١/ ٢٧، ١٩١).

(٢) في الأصل: «الخطب» بالجمع، وما بيم معكوفتين نص الحديث، الإفراد.

(٣) أخرجه مسلم، الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٤)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٦٣)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٠)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١٤٢)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٢٠٦)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٤٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٨).

وقيس بن عاصم[1]، القدمة التي طلبوا من النبي ﷺ المفاخرة فيها على عادة العرب، لأنهم من قومه مضر، وقد قال ﷺ حين جاءت صدقاتهم كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: هذه صدقات قومي[2]. ففخر في قدمتهم تلك الزبرقان بن بدر فقال: يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب، أمنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقهم، وهذا يعلم ذلك، وذلك بعدما استحقر الزبرقان لعمرو [بن] الأهتم عند إعطاء رسول الله ﷺ لهم الجائزة، وعمرو إذ ذاك في رحلهم فلما جاء عمرو أخبروه بما قال الزبرقان، فأنشد عند النبي ﷺ في الزبرقان قوله:

ذهبْتَ مفترشَ الهلباء تشتمني عند الرسول فلم تفلح ولم تصب

والهلباء قيل لحيته، وقيل شعر دبره، وقيل امرأته، فأعطى النبي ﷺ الأهتم مثل جائزتهم، ثم قال الزبرقان مقالته هذه، وكان الزبرقان من بني سعد كما مر،

---

(١) هو قيس بن عاصم سنان المنقري، السعدي، التميمي، أبو علي، صحابي، قدم على النبي ﷺ في وفد تميم سنة ٩هـ فأسلم، أحد سادات العرب في الجاهلية والإسلام، وهو ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، استعمله النبي ﷺ على صدقات قومه، توفي في البصرة سنة ٢٠هـ وله ٣٣ ولد.

انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٢٤٢)، الأعلام، الزركلي (٥/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب وفد بني تميم (٤/ ١٥٨٧)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل غفار وتميم ودوس وطي (٤/ ١٩٥٧)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٩٠)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٢١٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (ص ٣٦٩) وأبو يعلى في مسنده (١٠/ ٤٩٣)، وابن الجارود في المنتقى (ص ٢٤٥)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٢١٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١١).

فقال عمرو عند ذلك يعني الزبرقان بحضرة النبي ﷺ: إنه لشديد العارضة، مانع لجنابه، مطاع في آذنه[1]، فقال الزبرقان: والله يا رسول الله لقد علم مني غير ما قال، [ك،١٠٩/أ] وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، وكان أخوال الزبرقان بني عكل، ولهذا قال قيس بن عاصم رضي الله عنه أيام الردة لما أراد من قومه صدقتهم يدفعها لأبي بكر: لا يسبقكم ابن العكلية يعني الزبرقان، وكان على بعض بني سعد، فقال عمرو بن الأهتم عند ذلك مجاوبًا للزبرقان: أنا أحسدك؟ والله يا رسول الله إنه للئيم الخال، حديث المال، ضيق العطن، حمق الولد، مضيع في العشيرة، فتغير وجه رسول الله ﷺ فلما رأى عمرو ذلك قال: والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً، وما كذبت فيما قلت آخرًا، ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت، وإذا غضبت قلت أقبح، وفي لفظ أسوأ ما وجدت، ولقد صدقت في الأولى والآخرة جميعًا، فقال النبي ﷺ عند ذلك: إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة[2].

وقد أخرج نحو هذه القصة ابن إسحاق والطبراني والبيهقي وغيرهم[3].

---

(١) عند ابن عبدالبر في التمهيد (٥/ ١٧٢- ١٧٣): «ناديه»، وفي رواية أخرى عنده «أدانيه».

(٢) ذكر القصة والأبيات ابن عبدالبر في الاستيعاب (٢/ ٥٢٨- ٥٣١)، وابن حجر في الإصابة (٢/ ٥١٧- ٥١٨).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧١٠) مطولاً، من حديث ابن عباس وأبي بكرة الأنصاري، وسكت عليهما الحاكم والذهبي، وأخرجه مختصرًا البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٠١)، وأبو داود، الأدب، باب ما جاء في السحر (٤/ ٣٠٣)، والترمذي، الاستئذان باب إن من الشعر لحكمة (٥/ ١٣٨)، وقال حسن صحيح، وابن ماجه، الأدب، باب الشعر (٢/ ١٢٣٦)، وأحمد في المسند (١/ ٣٠٣)، =

قال أبو عمر بن عبدالبر: وقد سار هذا الحديث سير المثل في الناس، إذا سمعوا الكلام يعجبهم قالوا: إن من البيان لسحرا[1].

وعمرو هذا هو خطيب وفد بني تميم، وهو والد عبدالله بن الأهتم[2] وجد خالد بن صفوان بن عبدالله[3] وشبيب بن شيبة بن عبدالله[4]، وهم خطباء فصحاء بلغاء معروفون بذلك، فأما عبدالله فهو الذي تكلم بين يدي عمر بن عبدالعزيز بكلام بهر به عمر، رواه الدارمي

= والطيالسي في مسنده (ص ٣٤٨)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٢٢٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٩٩)، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٩٦)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٣٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٩٨)، كلهم عن ابن عباس بألفاظ متقاربة أجمعها لفظ الترمذي وأبو داود وأحمد وغيرهم «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فجعل يتكلم بكلام، فقال رسول الله ﷺ: من من البيان سحرا، وإن من الشعر حكما»، قال الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٩٤٥): صحيح.

(١) انظر: التمهيد، ابن عبدالبر (٥/ ١٧٤).

(٢) خطيب مفوه، أخرج له الدارمي الخطبة التي تكلم بها بين يدي عمر بن عبدالعزيز، انظر سنن الدارمي (١/ ٥٥) وسوف يذكرها المؤلف بد قليل.

(٣) هو خالد بن صفوان بن عبدالله بن عمرو ابن الأهتم التميمي، المنقري، من فصحاء العرب المشهورين، كان يجالس عمر بن عبدالعزيز وهشام بن عبدالملك، وله معهما أخبار، ولد ونشأ بالبصرة، عاش إلى خلافة السفاح العباسي وحظي عنده، وكان قدر الناس على مدح الشيء وذمه، كف بصره، مات نحو ١٣٣هـ.

انظر: وفيان الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٤٣)، الأعلام، الزركلي (٢/ ٢٩٧).

(٤) هو شبيب بن شيبة بن عبدالله التميمي، المنقري، الأهتمي، أبو معمر، أخباري صدوق من أهل البصرة، كان يقال له الخطيب لفصاحته، وكان شريفًا من الدهاة، مات نحو ١٧٠هـ.

انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٤/ ٣٠٧)، الأعلام، الزركلي (٣/ ١٥٦).

في مسنده من طريق خالد بن معدان[1] قال: دخل عبدالله بن الأهتم على عمر بن عبدالعزيز مع العامة فلم يفتح[2] عمر إلا وهو بين يديه يتكلم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن الله خلق الخلق غنيًا عن طاعتهم آمنًا لمعصيتهم، والناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون، فالعرب بشر تلك المنازل، أهل الحجر وأهل الوبر وأهل المدر تحتاز دونهم طيبات الدنيا ورخاء عيشها، لا يسألون الله جماعة ولا يتلون له كتابًا ميتهم في النار وحيهم أعمى نجس مع ما لا يحصى من المرغوب عنه والمزهود فيه، فلما أراد الله أن ينشر عليهم رحمته بعث إليهم رسولاً من أنفسهم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، صلى الله تعالى عليه وسلم، فلم يمنعهم ذلك أن جرحوه في جسمه ولقبوه في اسمه، ومعه كتاب من الله ناطق لا يقوم إلا بأمره ولا يرحل إلا بإذنه، فلما أمر بالعزمة وحمل على الجهاد انبسط لأمر الله لوثه[3]، فأفلج الله حجته وأجاز كلمته وأظهر دعوته وفارق الدنيا تقيا نقيا، ثم قام بعده أبوبكر فسلك سنته [وأخذ سبيله][4] وارتدت العرب أو من فعل ذلك منهم، فأبى أن يقبل منهم بعد رسول الله ﷺ إلا

---

(١) هو خالد بن معدان الكلاعي الحمصي، أبو عبدالله، ثقة عابد يرسل كثيرًا، من الثالثة، مات سنة ثلاث ومائة وقيل بعد ذلك.

انظر: تقريب التهذيب (ص ١٩٠)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٣/ ١١٨).

(٢) عند الدارمي (١/ ٥٥): «يفجأ».

(٣) قال في النهاية: «الملاث: السيد تلاث به الأمور: أي تقرن به وتعقد»، وفي لسان العرب «اللوثة بالفتح، القوة والشدة، وناقة ذات لوثة ولوث أي قوة»، «واللوث، بفتح القوة. . . ورجل ذو لوث أي ذو قوة».

انظر: النهاية، فابن الأثير (٤/ ٢٧٥)، لسان العرب، ابن منظور (٢/ ١٨٥-١٨٦).

(٤) في الدارمي (١/ ٥٥) ساقط من الأصل.

الذي كان قابلاً، انتزع السيوف من أغمادها، وأوقد النيران في شعلها، ثم ركب[1] بأهل الحق أهل الباطل، فلم يبرح يقطع أوصالهم، ويسقي الأرض دماءهم، حتى أدخلهم في الذي خرجوا منه، وقررهم بالذي نفروا عنه، وقد كان أصاب من مال الله بكرًا يُرتوى عليه وحبشية [أرضعت][2] ولدًا له، فرأى ذلك عند موته غصة في حلقه فأدى ذلك إلى الخليفة من بعده، وفارق الدنيا تقيا نقيا على منهاج صاحبه ثم قام بعده عمر بن الخطاب فمصر الأمصار، وخلط الشدة باللين، وحسر عن ذراعيه وشمر عن ساقيه، وأعد للأمور أقرانها، وللحرب آلتها، فلما أصابه فتى المغيرة بن شعبة أمر ابن عباس أن يسأل الناس هل يثبتون قاتله، فلما قيل فتى المغيرة استهل فيه بحمد ربه ألا يكون أصابه ذو حق في الفيء فيحتج عليه بأنه إنما استحل دمه بما استحل من حقه، وقد أصاب من مال الله بضعة وثمانين ألفًا[3]، فأداها إلى الخليفة من بعده، وفارق الدنيا تقيا نقيا على منهاج صاحبه، ثم إنك يا عمر بنيُّ الدنيا، ولدتك ملوكها، وألقمتك ثديها، وثبتّ فيها تلتمسها مظانها، فلما وُلّيتَها ألقيتها حيث ألقاها الله، هجرتها وجفوتها وقذرتها، إلا ما تزودت منها، فالحمد لله الذي جلا بك حوبتنا، وكشف بك كربتنا، فامض ولا تلتفت، فإنه لا يعز على الحق شيء، ولا يذل على الباطل شيء أقول قولي وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات.

قال أبو أيوب: فكان عمر بن عبدالعزيز يقول بعد ذلك في الشيء:

---

(١) في الدارمي (١/ ٥٥): «نكب».

(٢) في الأصل والمسودة: «ارتضعت»، وما بين معكوفتين من الدارمي (١/ ٥٥).

(٣) هناك سقط بعد قوله بضعة وثمانين ألفًا «فكسر لها رباعه، وكره بها كفالة أولاده، فأداها إلى الخليفة...». انظر: الدارمي (١/ ٥٥).

قال لي ابن الأهتم: امض ولا تلتفت[1].

وأما خالد[2] فهو الذي خصم إبراهيم بن مخرمة الكندي أحد أخوال أمير المؤمنين أبي العباس العباسي بحضرته[3]، لما فخر الكندي على مضر مدلا[4] بخؤولته للخليفة، فأجزع الخليفة ذلك لغمصه قومه مضر بما قال، لأنه كما قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قال الشاعر في جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه:

لولا جرير هلكت بجيله   نعم الفتى وبئست القبيلة[5]

ما مدح من ذمت قبيلته.

ولأن ما قال الكندي يؤدي إلى التنقص من النبي ﷺ كما سيأتي بيانه، فقال أبو العباس لما دخله من قوله ما غمه: ما أظن خالدًا أخا بني تميم يرضى بما يقول في قومه، ثم أمره أن يتكلم مع الكندي فجرى بينهما قصة طويلة ذكرها الزبير بن بكار بسنده المتصل، ليس هذا موضع استقصائها، إلا أنه قال فيها خالد للكندي: يا أمير المؤمنين ما أهل

---

(١) عند الدارمي في سننة (١/ ٥٥).

(٢) وهو خالد بن صفوان بن عبدالله مضت ترجمته قبل قليل.

(٣) هو عبدالله بن محمد بن علي، أبو العباس السفاح، أول خلفاء الدولة العباسية، يوصف بالدهاء، والفصاحة، والأدب، مرض بالجدري فمات شابًا بالأنبار سنة ١٣٦هـ.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (١٠/ ٤٦)، البداية والنهاية، ابن كثير (١٠/ ٦٠ ـ ٦٣).

(٤) ذكر القصة والأبيات ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/ ٢٣٥).

(٥) انظر البيت في الأغاني (١٠/ ٣٠٨).

اليمن إلا دابغ جلد، أو سائس قرد، أو حائك برد، غلبهم الهدهد والجرذ، وملكتهم أم ولد، قوم يا أمير المؤمنين ما لهم ألسنة فصيحة، ولا لغة صحيحة، ولا حجة تدل على كتاب، ولا يعرف بها الصواب. وإنهم منا لبين اثنين، إن جاوزوا قصدنا أكلوا، وإن جاوزوا حكمنا قتلوا، حتى قال آخر الجواب: يا أخا اليمن إني سائلك [ك، ١١٠/ب] عن أربع خصال، إن أقررت بها قهرت، وإن أنكرتها قتلت.

قال الكندي: وما هنّ؟ قال: عن النبي المصطفى ﷺ أمِنّا أو منكم؟ قال: بل منكم قال خليفة الله المرتضى أمِنّا أو منكم؟ قال: بل منكم. قال: كتاب الله المنزل أعلينا أنزل أم عليكم؟ قال: بل عليكم. وذكر الرابعة ثم قال: فأي شيء يعدل هذه الخصال؟! حتى قال أبو العباس الخليفة للكندي: مالك يا يماني ورجال مضر ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم، وأقطعه سبعين جريبًا(١) في أرض العرب بالبصرة(٢).

وأما شبيب بن شيبة بن عبدالله فهو ابن ابن عبدالله بن عمر، والمذكور خطيب بليغ بصري صاحب أخبار صدوق ثقة يكنى بأبي معمر، له بلاغة وبراعة فائقة فلا نطيل بذكرها(٣).

فهذا الحديث قد صار مثلاً يضرب به في استحسان المنطق وإيراد الحجة البالغة، والأظهر عند العلماء أنه ذو وجهين، والمعنى أن بعض

---

(١) في لسان العرب: الجريب من الطعام والأرض: مقدار معلوم.
والجريب: قدر ما يزرع فيه من الأرض، والجمع أجربة، وجربان، وقيل الجريب المزرعة وقيل الوادي، وقيل البقعة الحسنة النبات، ابن منظور (١/ ٢٦٠).

(٢) أخرج هذه القصة الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات (ص ١٢١ـ ١٢٧).

(٣) مضت ترجمته قبل قليل.

البيان بمنزلة السحر في ميلان القلوب، أو في العجز عن الإتيان بمثله، وهذا النوع ممدوح إذا صرف إلى الحق، لمذمّة ما نهى الله عنه ورسوله، كما مر عن عبدالله بن الأهتم وكذا ابن أخيه خالد بن صفوان، إذ قصده إقامة الحجة على تفضيل خلاصة بني إسماعيل وهم مضر الذين منهم سيد البشر محمد ﷺ على غيرهم، إذ هم قومه الذين اختاره الله منهم، ولهذا قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما مر في مدح جرير بن عبدالله وذم قومه: ما مُدح من ذُمت قبيلته[(١)].

فمن ادعى أن مضر لم يفضلوا العرب فضلاً على العجم إلا بالنبي ﷺ فقد ألحد وتطرق إلى ذمه، إذ هو ﷺ خيار من خيار، فأفضل الناس العرب وأفضل العرب بنو إسماعيل، وأفضل بنو إسماعيل مضر، وأفضل مضر بنو كنانة، وأفضل بني كنانة قريش، وأفضل قريش بنو عبد مناف، وأفضلهم بنو هاشم، وأفضل بني هاشم بنو عبدالمطلب، وأفضل بني عبدالمطلب المصطفى ﷺ.

وقصد هذا اليماني أن يفضل قومه على من فضله الله على لسان رسوله محمد ﷺ، فأظهر خالد على ذلك اليماني الحجة البالغة الواضحة الدامغة القاطعة التي ليس بعدها لأحد مقول، ولا عنها له عدول، ولم تظهر إلا بالبيان حتى أوضحها مع ظهورها به.

والوجه الثاني: مذموم وهو إذا صرف إلى مدح الباطل، كمدح ما نهى الله عنه ورسوله، [وتزويقه][(٢)]، أو تفضيل مفضول على ما فضله الله ورسوله، وفي شرح السنة لمحيي السنة أبي الحسين

---

(١) ذكره صاحب الأغاني (١٠/ ٣٠٨) من قول الحسن البصري.

(٢) في الأصول: وتزويغه.

البغوي[1] على هذا الحديث: اختلفوا في تأويله، فمنهم من حمله على الذم، وذلك أنه ذم التصنّع في الكلام والتكلف لتحسينه ليروق للسامعين قوله، ويستميل به قلوبهم، وأصل السحر في كلامهم الصرف كما مر، وسمي السحر سحرًا لأنه مصروف عن جهته، فهذا المتكلم ببيانه يصرف قلوب السامعين إلى قبول قوله، وإن كان ذلك غير حق، والمراد من صرف الكلام فضله، وما يتكلف الإنسان من الزيادة فيه من وراء الحاجة، وقد يدخله الرياء والفخر ويخالطه الكذب ويعقبه الكبر، وأيضًا قد يحيل الشيء عن ظاهره ببيانه ويزيله عن موضوعه بلسانه إرادة التلبيس على السامعين، فيصير بذلك بمنزلة السحر الذي هو تخييل لا حقيقة له.

وقيل أراد به أن من البيان ما يكتسب به صاحبه من الإثم مثل ما يكتسب الساحر بسحره، وقيل معناه أن يكون الرجل عليه الحق وهو ألحن بحجته من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه [وتزويقه][2] وبلاغته فيذهب بالحق بحجته، وشاهد هذا قوله ﷺ فيما صح عنه في الصحيح: إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض الحديث[3].

وذهب آخرون إلى أن المراد منه مدح البيان والحث على تحسين

---

(١) شرح السنة (١٢/ ٣٦٣).

(٢) في الأصول: وتزويغه.

(٣) اتفق على إخراجه الشيخان من حديث أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها. أخرجه البخاري في الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين ٢٠/ ٩٥٢)، ومسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (٣/ ١٣٣٧)، وغيرهما.

الكلام وتحبير الألفاظ، لأن إحدى القرينتين وهو قوله: وإن من الشعر لحكمة، وفي لفظ حكمًا، على طريق المدح فكذلك القرينة الأخرى، وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدح بني عبد المدان من بني كعب بن الحارث أهل نجران:

وقـد كنـا نقـول إذا سمعنـا بـذي حسـب يعـد وذي بيـان

كـأنـك أيهـا المعطـي بيـانًـا وجسمًا من بني عبد المدان

وقال فروة بن عمرو الجذامي[1] في محبس الروم له حين بلغهم إسلامه وإهداؤه للنبي ﷺ في أبيات قالها قبل أن يصلبوه بفلسطين، وقد كان قبل عاملاً لهم على من يليهم من قومه ومضت قصته.

ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى مـن جـودة وشجـاعـة وبيـان[2]

وقد ذكر بعضهم حد البيان بأنه إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز التجلي[3].

---

(١) أسلم على عهد النبي ﷺ، وأرسل للنبي ﷺ بذلك مع هدية، وكان عاملاً للروم فلما بلغ الروم ذلك، حبسوه ثم صلبوه، عليه رحمة الله.
انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ١٩٤)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٢٠٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (٢/ ٥٩١)، وهي عند الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٣٢٦)، بصيغة أخرى:

ولقد عرفت بكل ما جمع الفتى مـن رأيه وبنجـدة وبيـان

(٣) قال الجاحظ في حد البيان: البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت =

وروي عن عمر بن [ك،١١٠/أ] عبدالعزيز أن رجلاً طلب إليه حاجة كان يتعذر إليه إسعافه بها، فاستمال قلبه بالكلام فأنجزها له، ثم قال: هذا هو السحر الحلال[١].

قال بعض أهل العلم: من في الحديث كما مر للتبعيض والكلام فيه تشبيه وحقه أن يقال: إن بعض البيان كالسحر. فقلب فجعل الخبر مبتدأ، مبالغة في جعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً، ووجه الشبه أنه يتغير بتغير إرادة المدح.

ومما يدل على أن البيان أصله ممدوح محمود قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

وهذا الحديث قد قيل إن مسلمًا لم يخرجه من هذا الطريق، وكذا رواه مالك والإمام أحمد وأبو داود والترمذي، ورواه الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا بلفظ: إن من البيان سحرا، وإن من الشعر حكمًا[٢].

= عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع. البيان والتبيين (١/ ٧٦).

(١) ينظر: معالم السنن للخطابي (٤/ ١٣٦).

(٢) مضى تخريجه.

الباب الخامس والعشرون

(باب ما جاء في الكهان ونحوهم)

كالعراف والرمال، **(روى مسلم في صحيحه)** عن صفية بنت أبي عبيد أخت المختار بن أبي عبيد الثقفي، أدركت النبي ﷺ، وهي امرأة عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، ولا يصح لها سماع من النبي ﷺ[١]، **(عن بعض أزواج النبي ﷺ)**

قال الحافظ ابن حجر: وسماها بعض الرواة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[٢] **(عن النبي ﷺ أنه قال:**

«من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»[٣]).

وأخرجه الحميدي في جامعه في مسند حفصة بنت عمر بن الخطاب، وقال: هكذا أخرجه أبو مسعود يعني الدمشقي[٤] في هذا المسند متصلاً به على ما هو عليه ولعله قد عرف أنه من حديثها، أو أن بعض

---

(١) انظر ترجمتها في: الإصابة، ابن حجر (٤/ ٣٤٣).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢١٧).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٤/ ١٧٥١)، دون قوله «فصدقه بما يقول»، وأحمد في مسنده (٤/ ٦٨)، والنص له، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢١٥)، وفي الأوسط (٢/ ٢٣٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٨).

(٤) وهو إبراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي، ثقة حافظ، له كتاب أطراف الصحيحين، توفي سنة ٤٠١هـ.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (٦/ ١٧٢)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٢٧).

الرواة قد نسب ذلك إليها.

وهكذا رواه الإمام أحمد بلفظ مسلم(١).

وقوله: **(من أتى عرافًا)**.

العراف عند العرب اسم عام يدخل في مسماه الكاهن والمنجم وغيرهما، حتى أنهم يسمون الطبيب عرافًا، وربما دعوه كاهنًا كما مر الاستشهاد على ذلك في قوله:

جعلت لعراف اليمامة حكمه   وعراف نجد إن هما شفياني(٢)

وهذا الأخير غير داخل في جملة النهي، وإنما هو مغالطة في الأسماء، فقد أثبت النبي ﷺ الطب وأباح العلاج والتداوي، وقد مر ذلك مستوفى ولله الحمد والمنة.

وإنما المراد بالعراف هنا، الذي يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات [و] أسباب يستدل بها في الأشياء على مواقعها كالشيء يسرق فيعرف المظنون به بالسرقة، وتتهم المرأة بالريبة فيعرف صاحبها، ونحو ذلك من الأمور، ومن ذلك قصة هند(٣) بنت عتبة مع زوجها الفاكه بن المغيرة

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٦٨).

(٢) البيت لعروة بن حزام في ديوانه (ص ٩٠)، الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦٢٤)، وبلا نسبة في لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ٣٩٥).

(٣) هند بنت عتبة بن ربيعة، صحابية، قرشية، زوجة أبي سفيان، وأم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين، كانت فصيحة جريئة، صاحبة رأي وحزم ونفس وأنفة، تقول الشعر الجيد، أسلمت يوم فتح مكة، ماتت في خلافة عمر، وقيل قبل ذلك، وقيل في خلافة عثمان. =

المخزومي[1] قبل أبي سفيان بن حرب[2]، لما رحل بها أبوها مع نسوة من قومها في قصة طويلة إلى الكاهن[3].

فالحديث يشتمل على النهي عن إتيان العراف والكاهن والمنجم والرمال، وعن الرجوع إلى قولهم، وتصديقهم على ما يدعونه من هذه الأمور، وذلك كله قادح في التوحيد، وهو بصاحبه كفر.

وقوله: **(لم تقبل له صلاة أربعين يومًا)**.

لا يلزم من عدم القبول عدم الصحة، فعدم قبولها لهذا الحديث لأجل اقترانها بالمعصية، وأما صحتها فلِوجود شروطها وأركانها

= انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٨/ ١٧٠)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٤٠٩ـ ٤١٠).

(١) من فتيان قريش، صاحب كرم وجود، كان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن، وهو زوج هند بنت عتبة، أم معاوية بن أبي سفيان، ثم انفصلت عنه في حادثة مشهورة ذكر طرفًا منها المؤلف.

انظر: الطبراني، المعجم الكبير (٢٥/ ٦٩)، فتح الباري، ابن حجر (٧/ ١٤١).

(٢) هو صخر بن حرب بن أمية، أبو سفيان، والد معاوية رأس الدولة الإسلامية، صحابي، من سادات قريش في الجاهلية، قاد المشركين يوم أحد والخندق لقتال المسلمين، أسلم يوم فتح مكة ٩هـ، وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن، شهد حنينًا والطائف ففقئت عينه يوم الطائف ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك، فعمي، وكان من الشجعان الأبطال، ولما توفي رسول الله ﷺ كان أبو سفيان عامله على نجران، وكانت ابنته أم حبيبة زوجة للنبي ﷺ مات سنة ٣١هـ وقيل بعدها.

انظر: الإصلابة، ابن حجر (٢/ ١٧٢)، الأعلام، الزركلي (٣/ ٢٠١).

(٣) أخرج هذه القصة الطبراني في الكبير (٢٥/ ٦٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٦٤ـ ٢٦٥): رواه الطبراني وفيه زحر بن حصن وهو مجهول.

المستلزمة صحتها، ولا تناقض في ذلك.

ويظهر أثر عدم القبول في سقوط الثواب، وأثر الصحة في سقوط القضاء، وفي أنه لا يعاقب عقوبة تارك الصلاة، قال ذلك ابن الصلاح وغيره من العلماء رحمهم الله تعالى[١].

وحمله المازري والقاضي عياض وجماعة على المستحل[٢]، والأول قول حسن ظاهر حسنه لا شك فيه.

(وعن أبي هريرة) الدوسي **(رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: من أتى كاهنًا)**.

الكاهن هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن قبل وقوعها، وكان في العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيرًا من الأمور، فمنهم من كان يزعم أن له رئيًا من الجن، وتابعة يلقي إليه الأخبار، لأنه يتراءى لصاحبه ويتصور له، كما في قصة سواد بن قارب رضي الله عنه وهي طويلة لا نطيل بذكرها، وفيها يقول:

أتاني [نجي][٣] بعد هدء ورقدة ... ولم يك فيما قد بلوت بكاذب

ثلاث ليال قوله كل ليلة ... أتاك رسول من لؤي بن غالب[٤]

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١/ ٢٣٥)، الديباج على صحيح مسلم، السيوطي (١/ ٨٩).

(٢) انظر: المعلم، المازري (١/ ٢٠٠)، شرح مسلم للنووي (٢/ ٥٨).

(٣) في الأصل والمسودة: «رئي» وما بين معكوفتين من جميع المصادر التي نقلت الأبيات.

(٤) أخرج هذه القصة البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٢٠٢)، والطبراني في الكبير (٧/ ٩٢)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧٠٤)، ولها طرق كثيرة لا تخلو من ضعف، =

ولسواد هذا مقام حميد في دوس حين بلغهم وفاة رسول الله ﷺ، فقام حينئذ فيهم خطيبًا فقال: يا معشر الأزد إن من سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم، ومن شقاوتهم ألا يتعظوا إلا بأنفسهم، وإنه من لم تنفعه التجارب ضرته، ومن لم يسعه الحق لم ينفعه الباطل، وإنما تسلمون اليوم بما أسلمتم به أمس، وعلمنا أن نبي الله ﷺ قد تناول قومًا أبعد منكم فظفر بهم، وأوعد قومًا أكثر منكم فأحفاهم، ولم يمنعه منكم عدد ولا عُدد، وكل بلاء منسي [ك،١١١/ب] إلا ما بقي أثره في الناس، ولا ينبغي لأهل البلاء إلا أن يكونوا للبلاء أذكر من أهل العافية، إلى أن قال: ولست أدري لعله أن تكون للناس جولة، فإن تكن فالسلامة منها الأناة، والله يحبها فأحبوها، فأجابوه وسمعوا له فسعدوا[١]، وقال في ذلك أبياتًا منها:

جلت مصيبتك الغداة سواد ... وأرى المصيبة بعدها ترتاد

أبقى لنا فقد النبي محمد ... صلى الإله عليه ما يعتاد

حزنًا لعمرك في الفؤاد مخامرًا ... أو هل لمن فقد النبي فؤاد

فبكت عليه أرضنا وسماؤنا ... [وتصدعت] وجدًا به الأكباد

إن النبي وفاته كحياته ... الحق حق والجهاد جهاد

إلى أن قال:

= يقوي بعضها بعضًا قاله الحافظ في الإصابة (٣/ ٢١٩).

(١) الروض الأنف، السهيلي (١/ ٢٤٤).

لو قيل تفدون النبي محمدًا — بذلت له الأموال والأولاد

هـذا وهـذا لا يـرد نبينـا — لـو كـان يفـديه فـداه سـواد

إنـي أحـاذر والحـوادث جمـة — أمرًا لعاصف ريحه إرعاد[1]

وأوردنا هذا عند اعتراض ذكر سواد رضي الله عنه، ليعلم أن الرجوع إلى الحق والأخذ به والتزامه بعد الباطل ممدوح صاحبه إذا كان في ذلك صادقًا، وله العاقبة في الدنيا والآخرة، ولا ينقصه ذلك عند أهل الحق، كما جرى له مع الفاروق رضي الله عنه[2].

ومن الكهان من يدعي أنه يستدرك الأمر بفهم أعطيه ونحو ذلك، وغالبهم يتلقاه عن الشياطين، كشق[3] وسطيح[4] وغيرهما من كهان العرب، فمن أتى كاهنًا متصفًا بالكهانة المذمومة **(فصدقه بما يقول)** وظاهر هذا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) حينما سأله عمر عن كهانته في الجاهلية، وعن حديثه في بدء الإسلام وما أتاه به رئيه من الجن من ظهور الإسلام، وأنه أتاه ثلاث ليال متواليات.

انظر: الإستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ١٢٢)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٩٥ـ ١٠٠).

(٣) هو شق بن صعب بن يشكر القسري البجلي، كاهن جاهلي، وسمي بذلك لأنه نصف إنسان، له يد واحدة وعين ورجل واحدة وله نسل منهم خالد القسري أمير العراقين لعبد الملك بن مروان، مات نحو ٥٥ق.هـ.

انظر: الأعلام، الزركلي (٣/ ١٧٠).

(٤) واسمه ربيع بن ربيعة، كاهن جاهلي، سمي بذلك لأنه كالبضعة الملقاة على الأرض، فكأنه سطح عليها.

انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (١/ ١٥).

ولو لم يسأله بل أخبره بديهة أو صدّقة بما يقول لغيره، لأنه لم يقل فسأله لا في هذا الخبر ولا في الذي بعده، لكن قد ورد ذلك في غيرهما، ومر في صحيح مسلم في العراف «فسأله».

(**فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**[1]).

قال جمهور العلماء رحمهم الله تعالى: والكفر في هذا كما سيأتي المراد به كفر النعمة، أو تشديد، ويأتي[2].

والعرب تطلق الكفر على الجحود وعلى كفر النعمة.

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب، باب في الكاهن (٤/ ١٥)، والترمذي في الطهارة، كراهية إتيان الحائض (١/ ٢٤٢)، وقال الألباني في صحيح الترمذي صحيح (١/ ٤٤)، وابن ماجه في الطهارة، النهي عن إتيان الحائض (١/ ٢٠٩)، وأحمد بن المسند (٢/ ٤٠٨)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٤٢٣)، والدارمي في سننه (٢٧٥)، وابن الجارود في المنتقى (ص ٣٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٩٨).

(٢) ليست المسألة على إطلاقها، فظاهر الحديث أن مصدق الكاهن عما سأله عنه كفر متى اعتقد صدقه، بأي وجه كان؛ لاعتقاده أن الكاهن يعلم الغيب، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب، وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، كافر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة لأن تصديق الكاهن في علم الغيب هو في الحقيقة تكذيب للقرآن ومنه هذه الآية التي حصرت علم الغيب في الرب جل وعلا، أما إن كان هذا المصدق جاهلاً ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب فكفره في هذه الحالة كفر دون كفر، وقد نقل الشيخ سليمان بن عبدالله الخلاف في هذه المسألة فقال بعد أن رجح أن المقصود بالكفر هو الكفر المخرج من الملة: «وهل الكفر في هذا الموضوع كفر دون كفر أو يجب التوقف؟ فلا يقال: ينقل عن الملة. ذكروا فيها روايتين عن أحمد وقيل: هذا على التشديد والتأكيد، أي قارب الكفر، والمراد كفر النعمة، وهذان القولان باطلان».

انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان آل الشيخ (ص ٤١٠)، القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين (٢/ ٦٨).

قال عنترة بن شداد[1] في ذلك:

نبئت عَمْرًا غير شاكر نعمتي   والكفر مخبثة لنفس المنعم[2]

هذا الحديث (رواه أبو داود)، والذي روى أبو داود في باب النهي عن إتيان الكاهن «فقد برىء مما أنزل على محمد ﷺ»[3] مكان «فقد كفر» في هذا الحديث.

(وللأربعة) أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه (و) أبي عبدالله **(الحاكم)** في صحيحه[4] **(وقال صحيح على شرطهما: من أتى عرافًا أو كاهنًا)** شك من الراوي أو هي تفريعية، **(فصدقه بما يقول)** يفهم من هذا أن الحكم عليه بما ذكر متعلق بتصديقه له، فإذا وقع منه التصديق **(فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ[5])**.

---

(١) هو أحد فرسان العرب المشهورين وأجوادهم، وكان أبوه نفاه واستعبده على عادة العرب مع أبناء الإماء، فلما ظهرت عليه النجابة والشجاعة ألحقه بنسبه، وشجاعته أشهر من نار على علم، من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفسًا.
انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة ١٠/ ٢٥٠)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ١٣٨).

(٢) البيت في ديوان عنترة (ص ٢١٤)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ١٣٨).

(٣) أبو داود في سننه (٤/ ١٥).

(٤) أي المستدرك على الصحيحين.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في المسند (٢/ ٤٢٩)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٤٣٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٨)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٥)، وقال الذهبي في الكبائر (ص ١٢٣) إسناده صحيح، ولم يروه أحد من أصحاب السنن الأربعة بهذا اللفظ، وقد تابع الشارح وكذلك الماتن، الحافظ ابن حجر على عزوه هذا اللفظ إلى الأربعة فوهما بذلك. فتح الباري (١٠/ ٢١٧)، وقد اشار الشيخ سليمان بن عبدالله في تيسير العزيز الحميد (ص ٤٠٩) إلى هذا الوهم.

(**ولأبي يعلى**) الموصلي الحافظ الثقة محدث الجزيرة أحمد بن علي ابن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي صاحب المسند الكبير، سمع ابن معين وجماعة، ومنه ابن حبان وأبو علي النيسابوري، وأبوبكر الإسماعيلي، وقال[1]: مسنده كالبحر يكون مجتمع الأنهار، ولد في شوال سنة [عشر][2] ومائتين، ورحل وله خمس عشرة سنة، وعُمّر وتفرد ورحل الناس إليه [مات سنة][3] ثلاث مائة وسبع سنين - (**بسند جيد عن ابن مسعود مثله -، موقوفًا**[4]) على عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ورواه الحاكم أبو عبدالله في علوم الحديث موقوفًا عن ابن مسعود

---

(١) النص منقول من ترجمة أبي يعلى وهي عند الذهبي في سير أعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ، وعند الرجوع إليها وجدت أن القائل لهذه العبارة إسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ، ليس أبابكر الإسماعيلي، كما توحي عبارة المؤلف، ويبدو أنها سقطت أثناء نقله للعبارة ونصها كالتالي: «قال السمعاني: سمعت إسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ يقول قرأت المسانيد كمسند العدني ومسند ابن منيع وهي كالأنهار، ومسند أبي يعلى كالبحر. . .».

انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٤/ ١٨٠)، تذكرة الحفاظ، له (٢/ ٧٠٧).

(٢) في الأصل: «أحد» وما بين معكوفتين من تذكرة الحفاظ (٢/ ٧٠٧)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ١٧٤).

(٣) في الأصل طمس وما بين معكوفتين من ترجمته في المصادر السابقة.

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٩/ ٢٨٠)، والبزار في مسنده (٢/ ٤٤٣)، والطيالسي في مسنده (ص ٥٠)، وابن الجعد في مسنده (ص ٧٧)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٧٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١١٨) وقال: «رواه البزار، ورجاله رجال الصحيحين، خلا هبيرة بن يريم وهو ثقة».

وقال الحافظ ابن حجر: «أخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد، لكن لم يصرح برفعه ومثله لا يقال بالرأي».

انظر: فتح الباري (١٠/ ٢١٧).

ولفظه من أتى ساحرًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ[1].

قال: فهذا وأشباهه مما ذكرناه إذا قاله الصحابي المعروف الصحبة، فهو حديث مسند وكل ذلك مخرج في المسانيد[2].

وقال فخر الدين الرازي: إذا قال الصحابي قولاً ليس للاجتهاد فيه مجال، فهو محمول على السماع تحسينًا للظن به[3].

وقال القاضي أبوبكر بن العربي: في مثل هذا لا يكون إلا توقيفًا، لأنه لا يدرك بنظر، وهكذا صرح غيرهم أن مثل هذا في حكم المرفوع إذا قاله الصحابي[4].

قال النووي: وهو قول جمهور العلماء من المحدثين والأصوليين والفقهاء والمتكلمين[5].

ومطلق الموقوف يختص عند المحدثين بالصحابي ولا يستعمل فيما دونه إلا مقيدًا، كوقفه معمر[6] على همام[7]، ومالك على

---

(١) علوم الحديث، الحاكم (ص ٢١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: تدريب الراوي، السيوطي (١/ ١٨٥)، الباعث الحثيث، ابن كثير (ص ٤٤).

(٤) المصادر السابقة.

(٥) انظر: تدريب الراوي، السيوطي (١/ ١٨٥).

(٦) هو معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي الحداني بالولاء، ثقة متقن، حافظ، محدث، فقيه، من أهل البصرة، وسكن اليمن، وأراد الرجوع إلى بلده، فكره أهل صنعاء أن يفارقهم، فزوجوه فأقام، وهو أول من صنف باليمن.

انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (١٠/ ٢٤٣)، ميزان الاعتدال، الذهبي (٣/ ١٨٨).

(٧) هو همام بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني، أبو عقبة، من ثقات التابعين، =

نافع[1]، ونحو ذلك، وقد يكون إسناده متصلاً وغير متصل، وهو الذي يسميه كثير من الفقهاء والمحدثين أيضًا أثرًا، وعزاه ابن الصلاح إلى الخراسانيين: أنهم يسمون الموقوف أثرًا[2].

قال: وبلغنا عن أبي القاسم الفوراني[3] أنه قال: الخبر ما كان عن النبي ﷺ، والأثر ما كان عن الصحابي[4].

قال ابن كثير: ومن هذا سمى كثير من العلماء الكتاب الجامع لهذا وهذا بالسنن والآثار، ككتاب السنن والآثار للطحاوي والبيهقي وغيرهما والله أعلم[5].

= وصحيفته أصح وأقدم صحيفة، تعرف بصحيفة همام بن منبّه، من أبناء الفرس في صنعاء، لازم أبا هريرة، مات سنة ١٣١هـ.

انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (١١/ ٦٧)، شذرات الذهب، ابن العماد (١/ ١٨٢).

(١) هو نافع مولى ابن عمر، أبو عبدالله المدني، فقيه، محدث، حافظ، ثقة، لا يعرف له خطأ في جميع ما رواه، وهو ديلمي الأصل مجهول النسب، أصابه عبدالله بن عمر في مغازيه، مات سنة ١١٧هـ.

انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (١٠/ ٤١٢)، البداية والنهاية، ابن كثير (١٠/ ٣٣٢).

(٢) مقدمة ابن الصلاح: ص ١٩٤.

(٣) هو عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن فوران، أبو القاسم الفوراني، من علماء الشافعية، فقيه أصولي، صنف بالخلاف والأصول والملل والنحل، مولده بمرو ووفاته بها سنة ٤٦١هـ.

انظر: وفيات الأعلام، ابن خلكان (١/ ٢٧٦)، لسان الميزان، ابن حجر (٣/ ٤٣٣).

(٤) ابن كثير، الباعث الحثيث (ص ٤٣).

(٥) المصدر السابق.

وقد رواه أبو نعيم من طريق سفيان الثوري عن أبي إسحاق السبيعي عن سعيد بن وهب عن عبدالله بن عمرو يعني ابن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: من أتى كاهنًا أو عرافًا فذكره بلفظه(١).

ورواه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: وهو غريب من حديث الثوري تفرد به عن يوسف بن أسباط عن هبيرة بن يريم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه(٢).

وعند الطبراني في الكبير عن واثلة بن [الأسقع](٣) رضي الله عنه مرفوعًا من أتى كاهنًا [ك،١١١/أ] فسأله عن شيء حجبت عنه التوبة أربعين ليلة، فإن صدقه بما قال كفر(٤).

وقد علم مما تقدم دخول اسم الكاهن في اسم العراف، فالكاهن أخص من العراف في بعض الوجوه، وقد تسمي العرب الطبيب عند مغالطة الأسماء كاهنًا، كما تسميه عرافًا، كما قال الفرزدق التميمي:

فأرسل في عينيه ماءً علاهما ... وقد علموا أني أطَب وأعرف

وقد تقدم التنبيه عليه، لكن ليس ذلك أيضًا داخلاً في الذم المذكور

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٤٦) عن ابن عمر وليس ابن عمرو بن العاص كما ظن المؤلف.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في الأصل والمسودة: «الأصقع» وما بين معكوفتين بالسين «الأسقع» هو الصواب، وهو واثلة بن الأسقع بن كعب، صحابي، من أهل الصفة، أسلم في تبوك وشهدها، توفي سنة ٨٥هـ.

انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٥٨٩).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٦٩).

هنا، لخروج ذلك بدليل جواز الطب وإباحته كما مر بدليل خارج، فالكاهن الذي يتناوله هذا الوعيد هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار، جمعه كهان وكهنة.

قال الشيخ موفق الدين بن قدامة رحمه الله: أما الكاهن فهو الذي له رئيٌّ من الجن يأتيه بالأخبار، والعراف الذي يحدس ويتخرص[(١)].

وقد قال الإمام أحمد في رواية حنبل[(٢)] في العراف والكاهن: أرى أن يستتاب من هذه الأفاعيل. قيل له: يقتل؟ قال: لا، يحبس لعله يرجع.

قال: [والعرافة] طرف من السحر والساحر أخبث، لأن السحر شعبة من الكفر[(٣)].

وسأله علي بن سعيد[(٤)] عن قوله: من غشنا فليس منا[(٥)]. قال: للتأكيد

---

(١) المغني، ابن قدامة (١٢/ ٣٠٥).

(٢) هو حنبل بن إسحاق بن حنبل الشيباني، أبو علي، ثقة، حافظ، ابن عم الإمام أحمد بن حنبل، ومن أخص تلاميذه، له الفتن، والتاريخ، ومحنة الإمام أحمد، والمسائل، مات سنة ٢٧٣هـ. انظر: طبقات الحنابلة، أبو يعلى (١/ ١٤٣)، المنهج الأحمد، العليمي (١/ ٣٥١).

(٣) المغني، ابن قدامة (١٢/ ٣٠٥).

(٤) هو علي بن سعيد بن جرير النسوي، أبو الحسن، من تلاميذ الإمام أحمد، كبير القدر عنده، صاحب حديث، روى عن الإمام أحمد جزأين من المسائل، وكان يناظر الإمام أحمد مناظرة شافية. انظر: طبقات الحنابلة، أبو يعلى (١/ ٢٢٤)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٢٢٥).

(٥) يشير إلى حديث أبي هريرة مرفوعًا: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا» وهو عند مسلم في صحيحه (١/ ٩٩)، وأحمد في المسند (٢/ ٤١٧)، والقضاعي في مسند الشهاب، وغيرهم.

والتشديد ولا أكفر أحدًا إلا بترك الصلاة.

وقال في الفروع: ومن أطلق الشارع كفره كدعواه لغير أبيه، ومن أتى عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر، فقيل كفر نعمة وقيل قارب الكفر(١).

وذكر ابن حامد(٢) روايتين(٣):

[إحداهما]: تشديد وتأكيد، نقل حنبل: كفر دون كفر، لا يخرج عن الإسلام.

والثانية: يجب التوقف، لا يقطع بأنه لا ينقل عن الملة، نص عليه في رواية صالح(٤) وابن(٥) الحكم(٦).

وقال صاحب تصحيح الفروع(٧) فيه [قولان]: أحدهما كفر نعمة،

---

(١) الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٨١).

(٢) هو الحسن بن حامد البغدادي، إمام الحنابلة في زمانه، له الجامع وشرح الخرقي، مات سنة ٤٠٣هـ. انظر المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٣١٩).

(٣) أي عن الإمام أحمد.

(٤) هو صالح بن الإمام أحمد بن حنبل، أبو الفضل، أكبر أبناء الإمام، سمع من أبيه مسائل كثيرة، كان عالمًا، سخيًا ثقة، ولي قضاء أصبهان، بسبب فاقة أصابته، ودين، وكثرة عيال، مات سنة ٢٦٦هـ بأصبهان.

انظر: الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (٤/ ٣٩٤)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٤٤٤).

(٥) هو محمد بن الحكم، أبو بكر الأحول، من خواص الإمام أحمد، توفي سنة ٢٢٣هـ. انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧).

(٦) ابن مفلح، الفروع (٦/ ١٨١).

(٧) هو علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي السعدي الحنبلي، شيخ =

وقال به طوائف من العلماء من الفقهاء والمحدثين، وذكره ابن [رجب][1] في شرح البخاري عن جماعة، وروي عن الإمام أحمد، والقول الثاني: قارب الكفر[2].

وقال القاضي عياض وجماعة من العلماء في قوله ﷺ: من أتى عرافًا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ[3].

أي جحد تصديقه بكذبهم، وقد يكون على هذا إذا اعتقد تصديقهم بعد معرفته بتكذيب النبي ﷺ [لهم] كفرًا حقيقة[4].

قال صاحب التصحيح والتنقيح في تصحيحه: والصواب رواية حنبل، وإنما أتى به تشديدًا وتأكيدًا، وقد بوب على ذلك البخاري رضي الله عنه في صحيحه بابًا، ونص على أن بعض الكفر دون بعض، ونص عليه أئمة الحديث[5].

قال ابن الجوزي في السر المصون: رأيت جماعة من العلماء أقدموا على تكفير المتأولين من أهل القبلة، وإنما ينبغي أن يقطع بالكفر على من خالف إجماع الأمة، ولم تحتمل حاله تأويلاً.

= المذهب ومنقحه وجامع الكتب والروايات فيه، صاحب الإنصاف والتنقيح وغيرها، توفي سنة ٨٨٥هـ. انظر: السحب الوابلة، ابن حميد (٢/ ٧٣٩)، الضوء اللامع، السخاوي (٥/ ٢٢٥)، البدر الطالع، الشوكاني (١/ ٤٤٦).

(١) من تصحيح الفروع، المرداوي، بهامش الفروع (٦/ ١٨١)، وفي الأصل: «ابن المجد».

(٢) المصدر السابق.

(٣) مضى تخريجه.

(٤) تصحيح الفروع، المرداوي، بهامش الفروع (٦/ ١٨١).

(٥) المصدر السابق.

قال: وأقبح جالاً من هؤلاء المكفرين، قوم من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف العقيدة بأدلتها المحررة فهو كافر، وهذا مخالف للشريعة؛ فإنها حكمت بإسلام أجلاف العرب الجهال، فعند أبي طاهر[1] في كتاب الحجة على تارك المحجة بسنده إلى سفيان: أن رجلاً قال لجابر رضي الله عنه: هل كنتم تسمون أحدًا من أهل القبلة مشركًا؟ قال: معاذ الله، قال: هل كنتم تسمونه كافرًا؟ قال: لا والله[2].

وقال ابن رجب[3] في شرح البخاري: وللعلماء في هذه الأحاديث مسالك متعددة، منهم من حملها على فعل ذلك مستحلاً، منهم مالك وإسحاق[4].

---

(١) كذا في الأصل، وهناك كتابان بعنوان: «الحجة على تارك المحجة»، أولهما لنصر المقدسي، توفي سنة ٤٩٠هـ، وكنيته أبو الفتح، انظر سير أعلام النبلاء (١٩/ ١٣٧-١٤٢)، وثانيهما لإسماعيل بن محمد بن الفضل بن طاهر الأصبهاني، قوّام السنة، توفي سنة ٥٣٥هـ، وكنيته أبو القاسم، وكتابه مطبوع، والأثر مخرّج فيه، فالظاهر أنه المراد هنا، وأن الشارح وهم في كنية مؤلفه.

(٢) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في الإيمان (٥٠)، قال الألباني في تخريجه للحديث: إسناده صحيح على شرط مسلم، وابن عساكر في تبيين كذب المفتري (ص ٤٠٥)، والأصبهاني في الحجة على تارك المحجة (٢/ ٤٢٣).

(٣) هو الحافظ عبدالرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي، ثم الدمشقي، فقيه، محدث، ولد في بغداد سنة ٧٣٦هـ، ونشأ وتوفي في دمشق سنة ٧٩٥هـ، من كتبه فتح الباري شرح البخاري ولم يكمله، وشرح الترمذي، وجامع العلوم والحكم، والقواعد الفقهية، وغير ذلك.

انظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٨١)، البدر الطالع، الشوكاني (١/ ٣٢٨).

(٤) هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي التميمي المروزي، أبو يعقوب، ابن راهويه عالم خراسان في عصره، حافظ ثبت، من شيوخ الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم، ساد أهل المشرق والمغرب بصدقه، اجتمع له الفقه والحفظ والورع والزهد وله تصانيف منها المسند، مات بنيسابور سنة ٢٣٨هـ.

انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (١/ ٢١٦)، الحلية، أبو نعيم (٩/ ٢٣٤).

ومنهم من حملها على التغليظ والكفر الذي لا ينقله عن الملة، منهم ابن عباس وعطاء[1].

قال إبراهيم النخعي[2]: هو كفر بالنعم[3]، ونقل عن أحمد وقاله طاووس[4][5].

وروي عن الإمام أحمد إنكار من سمى شارب الخمر كافرًا[6]، ولذلك أنكر القاضي أبو يعلى[7] جواز إطلاق كفر النعمة على أهل الكبائر[8].

وحكى ابن حامد عن أحمد: جواز إطلاق الكفر والشرك على بعض الذنوب التي لا تخرج عن الملة[9].

---

(١) فتح الباري، ابن رجب (١/ ١٣٨)، والنص منقول من تصحيح الفروع للمرداوي، بهامش الفروع (٦/ ١٨١).

(٢) هو إبراهيم بن زيد بن قيس بن الأسود، أبو عمران النخعي، من مذحج، من أهل الكوفة، فقيه العراق، كان إمامًا مجتهدًا له مذهب، مات مختفيًا من الحجاج سنة ٩٦هـ، ولما بلغ الشعبي موته قال: والله ما ترك بعده مثله.

انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٦/ ١٨٨- ١٩٩)، حلية الأولياء، أبو نعيم (٤/ ٢١٩).

(٣) فتح الباري، ابن رجب (١/ ١٣٨).

(٤) هو طاووس بن كيسان الخولاني، الهمداني، مولاهم، أبو عبدالرحمن، من أكابر التابعين، فقيه، محدث، زاهد، توفي حاجًّا سنة ١٠٦هـ.

انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٥/ ٨)، صفوة الصفوة، ابن الجوزي (٢/ ١٦٠).

(٥) فتح الباري، ابن رجب (١/ ١٣٩- ١٤٠)، وانظر: تعظيم قدر الصلاة، المروزي (٢/ ٥٢٧).

(٦) فتح الباري، ابن رجب (١/ ١٤٠).

(٧) تقدمت ترجمته ص ٣٨٩.

(٨) فتح الباري، ابن رجب (١/ ١٤٠)، تصحيح الفروع، المرداوي (٦/ ١٨١).

(٩) المصدر السابق.

وروي عن أحمد أنه كان يتوقى الكلام في تفسير هذه النصوص تورعًا، ويمرها كما جاءت من غير تفسير مع اعتقادهم أن المعاصي لا تخرج عن الملة[1].

ونقل مجد الدين ابن تيمية[2] قول المروذي[3] لأبي عبدالله[4]: إن قومًا يكفرون من لا يكفِّر، فأنكره، قال في رواية أبي طالب: من يجترىء أن يقول إنه كافر.

يعني من لا يكفِّر، وهو لا يقول ولا يفعل ما يكفر به، وإنما ترك التكفير تورعًا وتوقيًا عن الخطر في ذلك، إذا لم يكن واضحًا له من الكتاب والسنة أو إجماع الأمة.

وقال الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان البستي عند قوله ﷺ: لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض[5].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو عبدالسلام بن عبدالله بن الخضر بن تيمية الحراني، شيخ الإسلام، أبو البركات، الفقيه العالم المقرىء، جد الإمام المجاهد أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، تقي الدين ابن تيمية، له مصنفات كثيرة منها المنتقى، والأحكام السلطانية، والمسودة في الأصول وأكملها أولاده من بعده، مات سنة ٦٥٣هـ.

انظر: ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب (٢/ ٢٤٩)، العبر، الذهبي (٥/ ٢١٢).

(٣) هو أحمد بن محمد بن الحجاج المروذي، من الخواص والمتقدمين عند الإمام أحمد، وكان يأنس به، وقد روى عنه مسائل جمة في السنة وغيرها، والمروذي أيضًا أحمد بن محمد بن عبد ربه، وهو أيضًا ممن روى عن أحمد.

انظر: طبقات الحنابلة، أبو يعلى (١/ ٥٦، ٧٥)، المنهج الأحمد، العليمي (١/ ٣٦١، ٣٦٣).

(٤) أي الإمام أحمد.

(٥) صحيح ابن حبان (١٣/ ٢٦٨)، وهو في الصحيحين أخرجه البخاري، العلم، باب =

لم يرد به النبي ﷺ الكفر الذي يخرج عن الملة، ولكن معنى هذا الخبر أن الشيء إذا كان له أجزاء يطلق اسم الكل على بعض تلك الأجزاء، فكما أن الإسلام له شعب ويطلق اسم الإسلام على مرتكب شعبة منها لا بالكلية، كذلك يطلق اسم الكفر على تارك شعبة من شعب الإسلام لا الكفر كله، وللإسلام [والكفر] مقدمات، لا تقبل أجزاء الإسلام إلا ممن أتى بمقدمته، ولا يخرج من حكم الإسلام من أتى بجزء من أجزاء الكفر، إلا من أتى بمقدمة الكفر وهو الإقرار والمعرفة والإنكار والجحد[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تفسير هذا الحديث في قوله لا ترجعوا بعدي كفارًا هو قوله بعده: يضرب بعضكم رقاب بعض[2].

وحكى أبو سليمان الخطابي: أن معناه لا يكفر بعضكم بعضًا فتستحلوا به أن تقاتلوا ويضرب بعضكم رقاب بعض[3].

وهو في معنى قول شيخ الإسلام ابن تيمية.

وروى أبو سليمان الخطابي وغيره بسند صحيح من طريق شعبة أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه [ك،١١٢/ب] قال: إذا قال الرجل للرجل أنت لي عدو فقد كفر أحدهما بالإسلام.

= الإنصات للعلماء (١/ ٥٦)، ومسلم، الإيمان، باب بيان معنى لا ترجعوا بعدي كفارًا (١/ ٨١).

(١) صحيح ابن حبان (١٣/ ٢٦٨).

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٠).

(٣) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٢٤٨).

قال شعبة: وهذا حديث شديد[1].

قال الخطابي: أراد به كفر النعمة، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فمن جهل هذه النعمة ولم يعظم موقع المنة فيها فقد قابلها بالكفران، ولو أراد الكفر المطلق الذي هو الخروج من الملة لأشبه أن يقول فقد كفر بالله، وإنما قال فقد كفر بالإسلام إشارة إلى هذا المعنى، إلا أن يكون مكذبًا بالقرآن في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فالمكذب به كافر[2].

قال: ومعنى قوله: «قتال المسلم كفر» إنما هو التحذير والتغليظ عليه فيه، يريد أنه كالكفر فلا يقاتله، كما يقال: الفقر الموت، أي كالموت، وكل من غطى شيئًا فقد كفره. قال الشاعر:

قد درست غير رماد مكفور   مكتئب اللون مروح ممطور[3]

يريد أن الريح سفت التراب فوارته به، ومن هذا اشتقاق الكافر لأنه غطى نعمة الله تعالى، وقوله «فقد كفر أحدهما بالإسلام» كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [سبأ: ٢٤]، وكقول الرجل: والله إن أحدنا لكاذب[4].

وقال شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: اعلم أن الكفر

---

(١) أخرجه الخطابي في غريبه (٢/ ٢٤٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) البيت في تاج العروس (١٤/ ٦٣)، وقد نسبه إلى منظور بن مرثد الأسدي.

(٤) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٢٥٠).

والإيمان متقابلان إذا زال أحدهما خلفه الآخر، قال: ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة وكل شعبة فيه تسمى إيمانًا، كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم، قال: وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها كإماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان فشعب الكفر كفر(١).

إلى أن قال: وههنا أصل آخر وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد، أن يسمي مؤمنًا وإن كان ما قام به إيمانًا، ولا من قام به شعبة من شعب الكفر أن يسمي كافرًا وإن كان ما قام به كفرًا، وقد يطلق عليه الفعل كقوله ﷺ: فمن تركها فقد كفر(٢)، ومن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك(٣)، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد

---

(١) ابن القيم، الصلاة (ص ٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ترك الصلاة (٥/ ١٣)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه، في إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة (١/ ٣٤٢)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص ١٩)، وقال الألباني في تعليقه على الكتاب: إسناده صحيح، والدارقطني في سننه (٢/ ٥٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٨) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب النذور والإيمان (٤/ ١١٠)، وأبو داود في الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء (٣/ ٢٢٣)، وأحمد في مسنده (٢/ ١٢٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤/ ١٧٩)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٩٩)، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرح الشيخين ووافقه الذهبي (١/ ٦٥)، والبيهقي في سننه (١٠/ ٢٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٨/ ١٨٩).

كفر[1]، قال فمن صدر منه خلة من خلال الكفر أو الشرك فلا يستحق اسم كافر أو مشرك على الإطلاق، لأن معه أصل الإيمان وإنما قام به شعبة من شعب الكفر[2].

إلى أن قال: وههنا أصل آخر وهو أن الكفر نوعان: كفر عمل وكفر جحود.

فكفر الجحود: أن يكفر بما علم أن رسول الله ﷺ جاء به من عند الله جحودًا وعنادًا، وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه.

قال: وأما كفر العمل فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يضاده، فالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان، قال: وأما الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة فهو من الكفر العملي قطعًا، فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله ﷺ، لكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد، وقد نفى النبي ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر[3]، وعن من لم يأمن جاره بوائقه[4]، فهو كافر من جهة العمل وإن انتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد، وكذا قوله ﷺ لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب

---

(١) مضى تخريجه في (ص١١٥١).

(٢) الصلاة، ابن قيم الجوزية (ص ٦١).

(٣) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في المظالم، باب النهي بغير إذن صاحبه (٢/ ٨٧٥) ومسلم في الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي، ونفيه عن المتلبس بالمعصية، على إرادة نفي كماله (١/ ٧٦).

(٤) أخرجه البخاري من حديث أبي شريح في الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٥/ ٢٢٤٠)، ومسلم من حديث أبي هريرة في الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار (١/ ٦٨).

بعض[1]، فهذا كفر عملي[2].

وقد قال موفق الدين بن قدامة رحمه الله تعالى في رده على فخر الدين محمد بن خضر بن عبدالله بن تيمية[3]: ليس من لوازم التكفير التخليد فإن النبي ﷺ قد أطلق التكفير في مواضع لا تخليد فيها، وذكر حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر[4]، وحديث لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض[5]، وحديث من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد[6]، وغيرها من الأحاديث الصحيحة، قال: ومراده أن هذا من الكفر العملي الذي لا يخرج من الملة، وسبيل عامله سبيل أهل الكبائر في عدم التخليد في النار، وأنهم من الذين هم تحت المشيئة والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

(وعن عمران بن حصين) رضي الله عنه قال: **(قال رسول الله ﷺ: ليس منا)** أي من أهل متابعتنا، **(من تطير)** بأن يكون هو المتطير نفسه،

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) الصلاة وحكم تاركها، ابن قيم الجوزية (ص ٥٥).

(٣) شيخ حران وخطيبها، فقيه مفسر واعظ، موصوف بالفضل والتدين، له شرح الهداية والتفسير الكبير، توفي سنة ٦٢٢هـ بحران.
انظر: طبقات الحنابلة، أبو يعلى (٢/ ١٥١)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٤٠٦).

(٤) متفق عليه من حديث عبدالله بن مسعود، أخرجه البخاري في الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (١/ ٢٧)، ومسلم في الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر (١/ ٨١).

(٥) مضى تخريجه.

(٦) مضى تخريجه.

(**أو تُطير له**) بضم التاء المثناة الفوقية وكسر الطاء على البناء، (**أو سحر أو سحر له**) الفعل الأول على بابه والثاني على البناء، (**أو تكهن أو تكهن له**) إعرابه كالذي قبله.

وقوله: «**ليس منا**» أي ليس من أهل متابعتنا في ذلك، أو من مخلصينا، أو نحو ذلك مما ينفي الكمال ويُبقي أصل الإيمان، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فهو نفي لكمال المتابعة بإحسان، وهذا كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من غشنا فليس منا»[١]، وقوله: «من رغب عن سنتي فليس مني»[٢]، و«من حمل علينا السلاح فليس منا»[٣]، وأشباه ذلك، قال ابن حامد: ومراده فليس منا أي ما أمرنا به، أو ليس من أخلاقنا، أو ليس من سنتنا. وكفى بهذا زجرًا عن هذه الذنوب، وقد مضى بيان حكم الساحر وأنه كافر كفرًا حقيقة، يخرج بذلك عن الملة على ما بيناه عن العلماء رحمهم الله تعالى من أقوالهم، وحكمه عندنا القتل من غير استتابة له في ذلك كما هو المشهور عن الإمام أحمد رحمه الله، وهو الذي مشى عليه أهل الترجيح والتصحيح من أصحابه [ك،١١٢/أ] وجعلوه المذهب[٤].

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري مطولاً من حديث أنس بن مالك في النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥/ ١٩٤٩)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٧)، وابن خزيمة مختصرًا واللفظ له من حديث ابن عمر (١/ ٩٩).

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر، أخرجه البخاري، الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ (٦/ ٢٥٢٠)، ومسلم، الإيمان، باب قول النبي ﷺ «من حمل علينا السلاح فليس منا» (١/ ٩٨)، وغيرهم.

(٤) انظر: الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٧٧).

وما عداه في هذا الحديث تقدم أيضًا حكمه واختلاف العلماء فيه فلا نعيده لقربه.

(ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

رواه البزار[1] **بإسناد جيد، ورواه الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بسند حسن دون قوله: «ومن أتى...»**[2] **إلى آخره).**

وقد تقدم ومر بيان ذلك وأنه من كفر العمل، وأن كفر العمل منه ما لا يضاد الإيمان فلا يكون كفرًا حقيقة، ومنه ما يضاده فيكون كفرًا حقيقة يخرج من الملة.

قال ابن رجب في قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾ [البقرة: ٨٥] الآية.

يدل هذا على أن فعل الطاعات يسمى إيمانًا، وأن ترك بعض الطاعات يسمى كفرًا، فإن المراد من الآية أن أهل الكتاب كانوا يقتلون بعضهم بعضا، ويخرجونهم من ديارهم نصرةً لحلفائهم من الأوس والخزرج، وقد حرم ذلك عليهم في كتابهم، وقد أقروا بذلك وشهدوا به، ثم يفدونهم امتثالاً لما أمروا به في التوراة، فسمي فعلهم للفداء إيمانًا بالكتاب، وقتلهم وإخراجهم من الديار كفرًا بالكتاب.

---

(١) أخرجه البزار في مسنده كما في كشف الأستار (٣/ ٣٩٩)، والطبراني في الكبير من طريق الحسن البصري عن عمران به، وفيه عنعنة الحسن البصري، وله شواهد عن ابن عباس وغيره صححه بها الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ٢٢٨).

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١١٧) للطبراني في الأوسط وقال: فيه زمعة ابن صالح وهو ضعيف.

قال: وهذا يشبه قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[1].

قال: ولم أر أحدًا من المفسرين تعرض له، وكذلك يؤخذ ذلك من قوله ردًا عليهم دعوى الإيمان بما أنزل عليهم أنهم قالوا سمعنا وعصينا فقال: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: ٩٣] فدل على أن عصيانهم لما أمروا بالإيمان به ينافي الإيمان ويضاده، فكان كفرًا حقيقة، فلم ينفعهم إيمانهم بالبعض لما ضاد كفرهم أصل الإيمان، بخلاف ما لو أتوا بعمل كفر لا يضاده فإنه لا يخرجهم ذلك العمل عن أصل الإيمان وإن كان يسمى كفرًا.

فخذ من العلم ما يخرجك من غمرات الجهل، ولا تغتر بمن لا يحسن مدارك الكتاب والسنة، وأصل لغة العرب التي نزل بها الكتاب، على رسول رب الأرباب، النبي الفصيح العربي محمد ﷺ، تنجو بذلك من الهلكة، وقد أوضحنا لك الطريق من كلام من تبعه هو وأصحابه رضي الله عنهم بإحسان، والله تعالى الهادي الموفق.

قال الشيخ[2] رحمه الله تعالى مفسرًا لما تقدم بقوله: **(قال)** محيي السنة أبو محمد **(البغوي)** الإمام الفقيه الحافظ المجتهد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء الثعالبي، ويلقب أيضًا بزكي الدين، صاحب التفسير وشرح السنة والتهذيب والمصابيح وغير ذلك، تفقه على القاضي حسين، وحدث عنه وعن أبي عمر بن عبدالواحد المليحي وله في التصانيف القصد الصالح فإنه كان من العلماء الربانيين، ذا عفة نفس

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أي الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب عليه رحمة الله.

وقناعة باليسير، وآخر من روى عنه بالإجازة أبو المكارم فضل الله بن محمد، مات بمرو الروذ في شوال سنة أربع عشرة وخمسمائة، عن سبع وسبعين سنة[١].

قال رحمة الله عليه: (**العراف: الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة، ونحو ذلك**[٢].

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل).

يقال: كهن في كذا إذا مهر فيه وتمكن، والكاهن الغالب عليه أنه الذي يتلقى السمع كما أخبرت الكهان بمبعث رسول الله ﷺ قبل أن يبعث، لاستراق الشياطين لهم ذلك، وقد ورد في مأثور الأخبار كما رواه الزبير بن بكار وغيره أن إبليس كان يخترق السموات قبل عيسى عليه السلام، فلما بعث عيسى أو ولد حجب عن ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ حجب عنها كلها، وكثر قذف الشياطين بالنجوم لئلا يلبّسوا باستراقهم الوحي، وليكون ذلك أظهر للحجة وأقطع للشبهة فحرست السماء عنهم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: ٨]، وذلك لينحسم أمر الشياطين وتخليطهم ولتكون الآيةُ أبينَ والحجةُ أقطع، فإن وُجد اليوم كاهن فلا يدفع ذلك بما أخبر الله عز وجل من طرد الشياطين عن استراق السمع، فإن التغليظ والتحديد كان زمن النبوة ثم بقي من استراقها بقايا يسيرة،

---

(١) انظر ترجمته: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٤٥)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٩/ ٤٣٩).

(٢) البغوي، شرح السنة (١٢/ ١٨٢).

بدليل وجودهم على الندور في بعض الأزمنه والأمكنة[1].

وفي تفسير ابن سلام[2] كما ذكره السهيلي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إذا رمى الشهاب الجني لم يخطئه، ويحرق ما أصاب ولا يقتله، يعني ولا يوصل ما استرق إن كان قبل أن يلقيه إلى الكاهن أو الساحر[3].

وعن الحسن البصري قال: تقتله في أسرع من طرفة عين[4].

ومضى تقرير الاستراق في موضعه بحمد الله تعالى[5].

(وقيل:) الكاهن هو **(الذي يخبر عما في الضمير)** إما بحساب، وإما بكهانة كابن صياد، واسمه صاف[6]، وكان يهوديًا يتكهن، قيل: ويدعي النبوة، وهو الذي قيل إنه الدجال، قاله بعض الصحابة رضي الله عنهم كابن عمر وغيره، والصحيح أنه دجال من الدجاجلة، لأن الدجال قد وقف عليه تميم الداري[7] حين لعبت بهم سفينتهم في البحر مصفدًا

---

(١) الخبر الذي ذكره المؤلف، وعزاه إلى الزبير بن بكار، وما بعده منقول برمته من الروض الأنف للسهيلي (١/ ٢٣٤).

(٢) هو يحيى بن سلّام، ابن أبي ثعلبة، أبو زكريا البصري، ليس لأحد من المتقدمين مثل تفسيره، كان ثقة ثبتا، ولد سنة ١٢٤هـ، ومات سنة ٢٠٠هـ. انظر سيرأعلام النبلاء للذهبي (٩/ ٣٩٦،٣٩٧).

(٣) الروض الأنف، السهيلي (١/ ٢٣٥).

(٤) المصدر السابق.

(٥) راجع باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾.

(٦) الروض الأنف للسهيلي (١/ ٢٣٥).

(٧) هو تميم بن أوس بن خارجة الداري، أبو رقية، صحابي، من لخم، أسلم سنة ٩هـ، وكان يسكن المدينة، وبعد مقتل عثمان نزل بيت المقدس، وهو أول من =

بالحديد كما في الصحيحين وغيرهما[1]، وأخبر النبي ﷺ بذلك وصدقه وأمره أن يسمع ذلك أصحابه، وسيخرج فقد أظل زمانه، وكان ﷺ حين أتى ابن صياد خبأ له خبأ، فقال له حين وجده عند أمه في قطيفة له فيها رمرمة أو زمزمة بعد أن نبهته أمه برسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: إني قد خبأت لك خبأ فقال ابن صياد: الدخ. يعني: الدخان، وكان قد خبأ له: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان: ١٠] وذلك بعد أن قال ﷺ بعد تنبيه أم صياد له: لو تركَتْه بيَّنَ.

يروى بيّن بالفعل الماضي والخبر، وقد قيل إنّ ابن صياد لم يصب.

قال أبو سليمان الخطابي: لأن الدخ نبات يكون بين النخيل، ويمكن أن شيطانه قرب من النبي ﷺ حين ذكر الآية سرًا فسمع منها ذكر الدخان، بقوة جعلت لهم في أسماعهم ليست لنا، فألقاها على لسان صاف بن صياد وحدها، ولذلك قال ﷺ مجيبًا له: اخسأ فلن

= أسرج السراج في المسجد، توفي سنة ٤٠هـ.

انظر: صفوة الصفوة، ابن الجوزي (١/ ٣١٠)، تهذيب تاريخ دمشق لابن بدران (٣/ ٣٤٤).

(١) أخرج حديث تميم مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة (٤/ ٢٢٦٥)، والترمذي في الفتن، باب رقم (٥٧) (٤/ ٥٢١)، وأبو داود في الملاحم، باب في خبر الجساسة (٤/ ١١٨)، وابن ماجه في الفتن، باب فتنة الدجال (٢/ ١٣٥٤)، وأحمد في المسند (٦/ ٤١٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/ ٥)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ١٩٥)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٠١)، ووهم المصنف في عزوه إلى البخاري، فالبخاري لم يرو لتميم في صحيحه لا هذا الحديث ولا غيره مسندًا.

تعدو قدرك. أي لن تعدو منزلتك من العجز عن علم الغيب، وإنما الذي يمكن في حقه هذا القدر دون مزيد عليه، ولهذا لما سأله رسول الله ﷺ عما يأتيه قال: يأتيني صادق وكاذب، فقال رسول الله ﷺ: قد لُبّس عليه أمره[1].

روي ذلك [ك،١١٣/ب] بأسانيد صحاح عن النبي ﷺ تركناها خشية الإطالة.

(وقال أبو العباس) شيخ الإسلام محيي السنة وقامع البدعة، أحمد ابن عبدالحليم بن مجد الدين عبدالسلام **(بن تيمية)** قدس الله روحه ونور ضريحه، وقد مضت ترجمته[2] وشهرته تنبىء عن فضله وعلمه، بحيث لم يوجد في زمانه ولا بعده مثله:

(العراف: اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن كان يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق[3]).

وكالذي ينظر في الألواح، وقد مر الكلام على جملة ذلك، وكلام شيخ الإسلام هذا هو الذي تقتضيه اللغة العربية فيما ذكر، ومن جنس الرمل علم الجفر الذي تزعم الرافضة[4] أن جعفر الصادق رحمه الله ورضي عنه كتبه في جلد جفر، وأنه علم كان يتوارثه أهل البيت بينهم، وقد كذبوا على جعفر كما كذبت الشياطين على نبي الله سليمان عليه السلام،

---

(١) حديث ابن صياد متفق على صحته أخرجه البخاري من حديث ابن عمر في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات (١/ ٤٥٤)، ومسلم في الفتن، باب ذكر ابن صياد (٤/ ٢٢٤٤).

(٢) راجع ص٢٨٧.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٣).

(٤) سبق التعريف بهم في ص ١٢٢.

ويوضح كذبهم ما في الصحيحين وغيرهما، قال البخاري في صحيحه: حدثنا أحمد بن يونس ثنا زهير ثنا مطرف أن عامرًا حدثهم عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي، قال: وحدثنا صدقة بن الفضل ثنا ابن عيينة ثنا مطرف: سمعت الشعبي قال: سمعت أبا جحيفة قال: سألت عليًا رضي الله عنه هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ قال وقال ابن عيينة مرة: ما ليس عند الناس؟ قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهما يعطى رجل في كتابه، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر.

وفي رواية عنه: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة فذكر نحوه، وذكر فيه تحريم المدينة، وهو عند الإمام أحمد ومسلم بنحو ذلك[1].

وعلم الجفر هذا علم من علم الحساب المذموم عند العلماء رحمهم الله تعالى بالشريعة المطهرة، وقد مر الكلام على تحريمه بوجوه ذكرناها ستةً في الكلام على الخط؛ إذ هذا علم قد اختلط حقه بباطله فقلّ من يحكمه إلا على الندور كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية على الخط، وهو مما يجلب الهم ولا يدفع القدر، إذ لا حيلة في ذلك فهو إذا قليل الفائدة.

قيل وينسب للحجاج[2]:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب فكاك الأسير (٣/ ١١١٠)، ومسلم في الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله (٣/ ١٥٦٧)، وأحمد في المسند (١/ ١١٨).

(٢) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، ولد ونشأ في الطائف، وانتقل إلى =

دعها سماوية تجري على قدر   لا تفسدنها برأي منك معكوس

وأيضًا غالبه متلقى عن الأوائل من علوم اليونان وأضرابهم من الصابئة، المتعلق علمه بالنجوم لا على ما تزعمه الرافضة، إذ مبنى دينهم على الكذب، وهم أقبل الناس له مع خبث الطوية، إذ هم لا يرجعون في دينهم إلى نظر نافذ في القرآن ولا عقل بالغ في الفرقان، ولا يهتدون إلى حقيقة الصواب، قد قلدوا أمورهم أهواءهم وجعلوا دينهم العصبية لأقوال ابتدعوها فلزموها، فهم لا يتبعون إلا ما تقوله طائفتهم غيا كان أو رشدا، ضلالا كان أو هدى، ينتظرون الدول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة[1]، ويدعون علم الغيب

= الشام، تولى لعبد الملك بن مروان مكة والطائف والمدينة، ثم أضيفت له العراق، وكان سفاكًا سفاحًا باتفاق المؤرخين، كان داهية خطيبًا لا يجاري، قائد محنكًا، مات بواسط سنة ٩٥هـ، قال الذهبي: له حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله.

انظر: سيرة أعلام النبلاء، الذهبي (٤/٣٤٣)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/١٢٣).

(١) يؤمن الرافضة برجعة الأئمة إلى الظهور بعد الغيبة أو الاختفاء، أو الحياة بعد الموت، والرجعة بهذا المعنى لها جذور في اليهودية كما في قصة عزير وهارون، وفي النصرانية التي يقول منتحلوها بأن صلب المسيح وقتله على حسب زعمهم وقع على جزئه الناسوتي دون اللاهوتي، وأنه قام بعد ثلاثة أيام من صلبه وصعد إلى السماء، وأنه سيعود مرة ثانية للقضاء بين الأموات والأحياء، وأول من ظهرت فكرة الرجعة على يديه هو عبدالله بن سبأ اليهودي عليه لعنة الله، الذي نادى برجعة النبي، ثم زعم رجعة علي، قائلاً إنه لم يقتل، بل رفع إلى السماء كما رفع عيسى، وسيعود إلى الأرض فيملؤها عدلاً بعد أن ملئت جورًا، ونادت كل فرقة من فرق الشيعة باستثناء الزيدية بعودة الإمام الذي آمنت به فنادت الكيسانية بعودة محمد بن الحنفية بعد موته، والإسماعيلية برجعة محمد بن إسماعيل، والاثنا عشرية برجعة آخر أئمتهم محمد المهدي المنتظر عندهم، وقد غالت طوائف من الشيعة وقالوا بعودة الأئمة وعودة أعدائهم معهم إلى الحياة الدنيا، لكي ينال كل جزاءه الدنيوي، ويعذب من اعتدى على الأئمة وغصبهم حقوقهم أو =

وهم مخلوقون لا يعلم أحدهم ما في بيته، بل لا يعلم ما ينطوي عليه ثوبه ويحتويه جسمه، ينقمون المعاصي على أهلها ويعملون بها ولا يعلمون المخرج منها، جفاة في دينهم قليلة عقولهم، يعبد غالبهم الحجر والمدر، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم، واهاً لو يتبعونهم، يزعمون أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة، قاتلهم الله أنى يؤفكون، فما أشبههم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨]، وبقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

ويكذبهم أيضًا ما عند أصحابهم في كتبهم، عن علي رضي الله عنه، فروى ابن ديزيل[1] في كتاب صفين، قال: لما عزم علي رضي الله عنه على الخروج من الكوفة إلى الحرورية[2]، وكان في أصحابه منجم فقال: يا أمير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة وسر على ثلاث ساعات مضين من النهار، فإنك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصحابك أذى وضر شديد، وإن سرت في الساعة التي أمرتك بها ظفرت وظهرت

= قتلهم. انظر: الفرق بين الفرق، البغدادي (ص ٢٣٣- ٢٣٤)، الملل والنحل، الشهرستاني (١/ ١٤٦، ٢١٢)، دراسة عن الفرق، د. أحمد جلي (ص ٢٠٧- ٢٠٩).

(١) ليس رافضيًا كما أوهم المؤلف، بل هو إبراهيم بن الحسين بن علي، الهمذاني، أبو إسحاق، الإمام الحافظ الثقة، توفي سنة ٢٨١هـ، انظر سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٣/ ١٨٤.

(٢) هم الخوارج، سبق التعريف بهم ص ١٠٤.

وأصبت ما طلبت. فقال له علي رضي الله عنه: أتدري ما في بطن فرسي هذه أذكر هو أم أنثى؟ قال: إن حسبت علمت. فقال علي رضي الله عنه: من صدقك بهذا فقد كذب بالقرآن، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية، ثم قال رضي الله عنه: إن محمدًا ﷺ ما كان يدعي علم ما ادعيت علمه، أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي يصيب النفع من سار فيها، وتصرف عن الساعة التي يحيق السوء بمن سار فيها، فمن صدق بهذا فقد استغنى عن الاستعانة بالله تعالى في صرف المكروه عنه، وينبغي للموقن بأمرك أن يوليك الحمد دون الله تعالى؛ لأنك بزعمك هديته إلى الساعة التي يصيب النفع من سار فيها، وصرفته [ك،١١٣/أ] عن الساعة التي يحيق السوء بمن سار فيها، فمن آمن بك في هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله تعالى ضدا وندا، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، ثم قال: نخالفك ونسير في الساعة التي نهيتنا عنها، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس إياكم والتعلم للنجوم، إلا ما يُهتدى به في ظلمات البر والبحر، إنما المنجم كالكاهن، والكاهن كالكافر، والكافر في النار، أما والله لئن بلغني أنك تعمل بالنجوم لأدخلنك السجن أبدًا ما بقيت، ولأحرمنك العطاء ما كان لي سلطان، ثم سار في الساعة التي نهاه عنها المنجم فظفر بأهل النهروان وظهر عليهم، فقال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا بها المنجم، لقال الناس: سار في الساعة التي أمر بها المنجم فظفر وظهر، أما إنه ما كان لمحمد ﷺ ولا لنا من بعده [منجم](١) حتى فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر، أيها الناس فتوكلوا على الله وثقوا به فإنه يكفي ممن سواه(٢).

---

(١) في الأصل: منجما.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٧/ ٢٩٩).

واسم هذا المنجم فيما ذكره ابن الجوزي ومسلم الضبي في خبر صفين مسافر بن عوف، وهذا مع ما تقدم صريح في تكذيب الروافض فيما نحلوه أهل البيت من هذا العلم المذموم، كما نحلت إخوانهم من الشياطين السحر لسليمان عليه السلام.

وقال ترجمان القرآن وحبر هذه الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في قوم كانوا يكتبون «أباجاد»، وينظرون بذلك في علم النجوم قال: ما أرى من فعل ذلك له عند الله سبحانه في الآخرة من خلاق، أي نصيب.

كما قال تعالى في السحر: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولفظ ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه الطبراني والديلمي عنه: رب معلم حروف أبي جاد ودارس في النجوم ليس له عند الله من خلاق يوم القيامة[١].

إلا أن في سنده كما قال الهيثمي: خالد بن يزيد العمي وهو كذاب[٢].

ورواه أيضًا عن ابن عباس حميد بن زنجويه ولفظه: رب ناظر في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق[٣].

وقد ورد النهي أيضًا عن تعليم الصبيان حروف أبي جاد، وهذا

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤١).

(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي (٥/ ١١٧).

(٣) وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٩)، قال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٣١): وقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عد أبي جاد والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر.

محمول على علم التأثير كما سيأتي لا علم التسيير، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أول كتاب أنزل من السماء أبو جاد[1].

وأما العلم الباطل المذموم لأهله فقد قال تعالى في سياقة الآية المتقدمة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] ثم قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

وعلم أبي جاد هو المسمى عندهم بعلم الحروف، من العلم الباطل، وهو علم محرم من علم الأوائل وأهل الفلسفة والطبائعيين، باعتقادهم في الحروف أنها مؤثرة في العالم، ويجعلون لكل حرف من حروف أبجد هوز إلي آخرها خاصية، وإن لكل حرف منها طبيعة تخصه، ويجعلون أيضًا لكل حرف منها منزلة من المنازل الثمانية والعشرين، منزلاً على ترتيب حروف أبجد، فالألف للشرطين، والباء للبطين، والجيم للثريا، والدال للدبران، وهو المجدح، وهكذا إلى آخرها، ثم يضيفون لكل برج ما يخص منها، ويركبون على ذلك تركيبات يزعمون أن لها تأثيرات، ولهم بها بزعمهم استخراجات واستنباطات للضمائر والمغيبات، بطرق عندهم معلومات عند أهل الهيئة والفلسفات، يخرجون بها عن علم النبوات وتوقعهم في مهاوٍ مهلكات، نسأل الله الكريم العافية والاستقامة على صراطه المستقيم، ودينه القويم، وأن يعيذنا والمسلمين من تسويل الشيطان الرجيم إنه لطيف رحيم.

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/ ١٧).

الباب السادس والعشرون
(باب ما جاء في النُّشرة)

النُّشرة بضم النون، ضرب من الرقية والعلاج، ومنه قولهم: نشره بقل أعوذ برب الناس، أي رقاه.

قال أبو داود حدثنا أحمد بن حنبل ثنا عبدالرزاق ثنا عقيل بن معقل قال سمعت وهب بن منبه يحدث **(عن جابر)** بن سمرة بن جنادة[1] بضم الجيم بعدها نون، صحابي ابن صحابي، نزل الكوفة ومات بها سنة سبعين رضي الله عنه[2] **(أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: هي من عمل الشيطان)**.

جعلها ﷺ من عمله إذ هو الداعي إليها والمسوِّلُ لها، فأضيفت إليه إضافة الصفة إلى موصوفها، كما قال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام في قوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [القصص: ١٥].

(ورواه الإمام أحمد بسند جيد، وأبو داود) ومر سنده ولفظه[3].

---

(١) وهم المؤلف في نسبة الحديث إلى جابر بن سمرة بن جنادة، بل هو جابر بن عبدالله الأنصاري كما سيتضح من خلال تخريج الحديث بعد قليل.

(٢) انظر ترجمة جابر بن سمرة رضي الله عنه في: الإصابة، ابن حجر (١/ ٢١٣)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٥٣)، وأبو داود، الطب، باب في النشرة (٤/ ٦)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٩٤)، وابن حبان في الثقات (٨/ ٣١٥)، =

وقد سئل الإمام أحمد عنها أي النشرة، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله[1].

قال أبو سليمان الخطابي: النشرة ضرب من الرقية والعلاج، يعالج به من كان يظن به مس من الجن، قال: وقيل سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه، أي يحل عنه بها ما خامره من الداء[2].

وروى أبو داود أيضًا بسنده إلى الأصمعي قال حدثنا الحكم بن عطية عن الحسن البصري قال: النشر من السحر[3].

وأنشد الأصمعي[4] قول جرير:

أدعوك دعوة ملهوف كأن به ... مسّاً من الجن أو ريحًا من النشر[5]

= والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٤١٨)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٤)، والحاكم في المستدرك من حديث أنس (٤/ ٤١٨) وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في الأوسط والبزار في مسنده كما في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٢)، وقال: ورجال البزار رجال الصحيح.

(١) رواية جعفر عنه كما في الآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٧٣).

(٢) الخطابي، معالم السنن (٤/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه في المراسيل (ص ٣١٩) بلفظ: «النشرة من عمل الشيطان» عن الحسن مرفوعًا، قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٣): ووصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر.

ولفظ المؤلف ذكره ابن الأثير في النهاية (/ ٥٤) ولم أجده عند غيره. ويبدو أنه أخذه منه.

(٤) هو عبدالملك بن قريب بن علي الباهلي، أبو سعيد الأصمعي، رواية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، ولد بالبصرة وبها توفي سنة ٢١٦هـ، تصانيفه كثيرة منها: الإبل والخيل، وشرح ديوان ذي الرمة، وغير ذلك.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (١٠/ ٤١٠)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٨٨).

(٥) البيت لجرير في ديوانه (ص ٢٠٤) باختلاف يسير، وذكره الخطابي بنصه في معالم السنن (٤/ ٢٢٠).

فمن الناس من أجرى هذا الحديث على العموم، والصحيح من السنة وهو الذي رجحه علماء سلف الأمة كما سيأتي إن شاء الله تعالى، أن هذا خاص بالنشرة التي فيها الخواتيم والعزائم التي فيها الاستعانة بالشياطين ومردة الجن، وما لا يفهم من الأسماء الأعجمية والطلاسم التي لا يعرف معناها.

(وفي) صحيح **(البخاري)** تعليقًا **(عن قتادة)** بن دعامة بن قتادة، أبو الخطاب البصري، الثقة الثبت، سدوسي، ويقال أنه ولد أكمه، عالم بالفقه والتفسير[(١)].

قال البخاري وقال قتادة [ك،١١٤/ب]: **(قلت لسعيد بن المسيب)**: هو ابن حزن القرشي المخزومي، أحد العلماء الأثبات والفقهاء الكبار، قال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه.

وروى ابن الجوزي بسنده عنه وهو في المسجد أيام الحرة أنه قال: لا يأتي وقت صلاة إلا سمعت أذانًا من القبر، ثم أقيمت الصلاة فقمت وصليت وما في المسجد أحد غيري.

وقد رواه عنه غيره واشتهر عنه هذا الخبر، وهذه كرامة من كراماته رحمه الله، وليس هذا ببدْع؛ فقد صح في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: عن النبي ﷺ أنه رأى موسى يصلي وكذا عيسى وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وأنها حضرت الصلاة فأمهم[(٢)].

---

(١) انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٨/ ٣٥١)، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (١/ ٢٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب ذكر المسيح (١/ ١٥٦)، والنسائي في السنن =

وفي بعض ألفاظ حديث المعراج أنه مر بموسى عليه الصلاة والسلام يصلي في قبره[١].

وقد اتفقوا على أن مراسيله رحمه الله تعالى أصح المراسيل، مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين[٢].

(**رجل به طب**) بكسر الطاء، والضم والفتح لغتان في الكسر، أي: سحر، ويقال للمسحور: مطبوب كما يأتي في قصة سحره ﷺ، حين سحر فجاءه جبريل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام فرقياه بالمعوذتين، (**أو يؤخّذ**) بفتح الواو مهموز وبتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة، أي يحبس (**عن امرأته**) فلا يصل إلى جماعها، والأخذ بالهمزة الكلام الذي يقول الساحر، وقيل خرزة يرقى عليها، أو هي الرقية نفسها، (**أيحل عنه**) بضم المثناة التحتية وفتح الحاء المهملة، أي: السحر، (**أو ينشّر**) بتشديد الشين المعجمة وفتح النون وقبلها ياء مثناة مضمومة تحتية، من النشرة بالضم وهي كشف ما خامره من الداء.

والنشر له معنيان في اللغة من حيث الجملة:

أحدهما: النشر المقابل للطي، ومنه قول العلاء بن الحضرمي[٣]

= الكبرى (٦/ ٤٥٥)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢١٢).

(١) مسلم في الفضائل، باب من فضائل موسى (٤/ ١٨٤٥)، والنسائي في الكبرى (١/ ٤١٩)، والمجتبى في قيام الليل، باب صلاة نبي الله موسى (٣/ ٢١٦)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٠)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٤١)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ١٢٧).

(٢) انظر ترجمته في: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٥/ ٨٨)، حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ١٦١).

(٣) هو العلاء بن عبدالله الحضرمي، صحابي، أصله من حضرموت، سكن أبوه مكة، =

رضي الله عنه يرثي النبي ﷺ:

طوى الموت ما بيني وبين محمد   وليس لما تطوي المنية ناشر

فجعل رضي الله عنه موته بمنزلة ثوب أو غيره، طوي منه ما كان منه ظاهرًا وخفي، كما قال غيلان ذو الرمة الربابي:

من دمنة نسفت منها الصبا سفعا   كما تنشّر بعد الطية الكتب[1]

وقال الآخر[2]:

طوتك خطوب دهرك بعد نشر   كـذاك خطـوبـه نشــرا وطيــا

ومنه نشر الطيب، قال امرؤ القيس[3]:

كـأن المـدام وصـوب الغمـام   وريح الخزامى ونشر القُطر[4]

القطر بضم القاف العود الذي يتبخر به، وقيل المبخرة اشتقاقًا لها منه.

= فولد بها العلاء ونشأ، وولاه رسول الله ﷺ البحرين سنة ٨هـ، وأقره أبوبكر في خلافته، ثم عمر، توفي سنة ٢١هـ.

انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٤٩١)، تهذيب الأسماء، النووي (١/ ٣٤١).

(١) ديوانه ذي الرمة (ص ١٥)، لسان العرب، ابن منظور (١٥/ ١٨).

(٢) هو أبو العتاهية.

(٣) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، نجدي المولد، صاحب المعلقة المشهورة، مات نحو سنة ٨٠ق.هـ.

انظر: الشعر والشعراء: ابن قتيبة (١/ ١٠٥)، الأعلام، الزركلي (٢/ ١٢).

(٤) انظر: ديوان امرؤ القيس (ص ١٥٧)، لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٤٥١).

والمعنى الثاني: منشور بمعنى محيا، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ٢٢].

قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا ... يا عجبًا للميت الناشر

قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١] ويقال نُشر الميت فهو منشور، قال تعالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشرها﴾ [البقرة: ٢٥٩] على قراءة من قرأ بالراء المهملة وضم النون بمعنى نحييها، وبفتح النون الذي هو خلاف الطي[١].

فالحاصل أن النشرة للأخذة، والحل للطب الذي هو السحر، والأخذة نوع منه ينشر المؤخذ عنها بالنشرة، وكنى بالطب عن السحر تفاؤلاً فكان اسمًا كما قالوا للديغ سليم، وللفلاة مفازة، من الفوز والسلامة.

قال ابن الأنباري[٢]: الطب من الأضداد، يقال لعلاج الداء طب، والسحر من الداء ويقال له طب[٣].

وروى أبو عبيد من مراسيل عبدالرحمن بن أبي ليلى: قال احتجم

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وسهل «ننشرها» بالراء المهملة من أنشر الله الموتى بمعنى أحياهم، وهي قراءة حجازية بصرية.

انظر: الغاية في القراءات العشر، للحافظ ابن مهران الأصبهاني (ص ٢٠٣).

(٢) هو محمد بن القاسم بن بشار، المقري، النحوي، أبوبكر بن الأنباري، توفي سنة ٣٢٨هـ.

انظر: طبقات الحنابلة، ابن رجب (٢/ ٦٩)، المقصد الرشد، ابن مفلح (٢/ ٤٨٨).

(٣) الأضداد، ابن الأنباري (ص ٢٣)، وقد نقله المصنف من فتح الباري (١٠/ ٢٢٨).

النبي ﷺ بقرن حين طب.

قال أبو عبيد يعني سحر[1].

قال سعيد: (**لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه. انتهى**)[2].

هكذا ذكر البخاري، ووصله أبوبكر الأثرم في كتاب السنن له من طريق أبان العطار عن قتادة مثله ومن طريق هشام الدستوائي عن قتادة ولفظه عنده: أيلتمس له من يداويه، فقال: إنما نهى الله عما يضر، ولم ينه عما ينفع[3].

ورواه [الطبري][4] في التهذيب من طريق يزيد ين زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب: أنه كان لا يرى بأسًا إذا كان بالرجل السحر أن يمشي إلى من يطلق عنه، وقال: هو صلاح.

وقال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك، يقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر، قال: فقال سعيد بن المسيب: إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع[5].

---

(١) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث (١/ ٢٣٢) عن عبدالرحمن بن أبي ليلى مرسلاً.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا في الطب، باب هل يستخرج السحر (٥/ ٢١٧٥)، ووصله ابن جرير الطبري في التهذيب، والأثرم في السنن كما في تغليق التعليق لابن حجر (٥/ ٩)، وقال: إسناده صحيح.

(٣) النص منقول من الفتح (١٠/ ٢٣٣).

(٤) في الأصل والمسودة: «ورواه الطبراني»، وما بين معكوفتين من المصدر الذي نقل منه المؤلف، الفتح (١٠/ ٢٣٣).

(٥) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٣٣)، تغليق التعليق (٥/ ٤٩ـ ٥٠).

وقال ابن الجوزي: النشرة حل السحر عن المسحور ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر[١].

وقد سئل الإمام أحمد عمن يطلق السحر عن المسحور فقال: لا بأس به[٢]. وهذا هو المعتمد.

ويجاب عن الحديث والأثر بأن قوله: «[النشرة][٣] من عمل الشيطان» إشارة إلى أصلها ويختلف الحكم بالقصد فمن قصد بها خيرًا ونفعًا كان خيرًا، وإلا فهو شر وهو من عمل الشيطان، ثم الخبر المنقول عن الحسن ليس على ظاهره، لأنه قد يحل بالرقى والأدعية والتعاويذ والأدوية، ولكن يحتمل أن تكون النشرة نوعين، فما كان بالرقى والتعوذات والأدعية والأدوية فهو جائز، وما كان بالسحر فغير جائز.

ويقوي قول سعيد بن المسيب حديث جابر بن عبدالله الذي رواه مسلم في صحيحه مرفوعًا: من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل[٤].

وقد روى عبدالرزاق من طريق الشعبي قال: لا بأس بالنشرة [ك،١١٤/أ] التي إذا وطئت لا تضر، ومن نوعها أن يخرج الإنسان في موضع عضاه[٥]،

---

(١) ابن الجوزي، غريب الحديث (٢/ ٤٠٨)، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٣٣).

(٢) انظر: الفروع، ابن مفلح (٣/ ٧٧)، الفتح (١٠/ ٢٣٣).

(٣) ما بين معكوفتين ساقطة من الأصل، والمسودة، وألحقت من الفتح (١٠/ ٢٣٣).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب استحباب الرقية (٤/ ١٧٢٦)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٣٤)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٤٢٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣٢٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٤٨).

(٥) العضاه: كل شجر عظيم له شوك.
انظر: النهاية، ابن الأثير (٣/ ٢٥٥).

يأخذ عن يمينه وعن شماله من ورق كل شجرة، ثم يدقه ويقرأ فيه ثم يغتسل به[1].

وذكر ابن بطال: أن في كتب وهب بن منبه: أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقهن بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به، فإنه يذهب عنه بكل ما به، وهو جيد للرجل إذا حُبس عن أهله[2].

وممن صرح بجواز النشرة المزني[3] صاحب الإمام الشافعي، وأبو جعفر الطبري وغيرهما[4]، وقد مر قول الإمام أحمد قريبًا.

وفي قول عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ كما في البخاري: هلا تنشرت فقال مجيبًا لها: أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًا[5].

دليل واضح على إباحة النشرة حيث قالت له ﷺ: هلا تنشرت. ولم ينكر عليها، فلولا أنها عالمة أن النشرة جائزة لما قالت ذلك لرسول الله ﷺ، فإنها لو لم تكن جائزة لأنكر عليها، وبهذا استدل ابن بطال

---

(١) أخرجه عبدالرزاق من طريق الشعبي كما في فتح الباري (١٠/ ٢٣٣).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٣٣).

(٣) هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني من أهل مصر، من أئمة الشافعية، كان زاهدًا، عالمًا، مجتهدًا، قوي الحجة، له الجامع الكبير، والصغير، والمختصر، توفي سنة ٢٦٤هـ.

انظر: وفيان الأعيان، ابن خلكان (١/ ٧١)، الأعلام، الزركلي (١/ ٣٢٩).

(٤) انظر: فتح الباري (١٠/ ٢٣٤).

(٥) أخرجه البخاري في الطب، باب هل يستخرج السحر (٥/ ٢١٧٥).

وغيره كالسهيلي على جوازها، ولم يروا حديث جابر وخبر الحسن معارضًا لذلك.

وكانت عقد السحر الذي عقد، وسحر به النبي ﷺ إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله سبحانه المعوذتين فرقاه بهما جبرئيل وميكائيل عليهما السلام، وهما إحدى عشرة آية فانحلت كل عقدة بآية[1]، وقد قال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ٤] ولم يقل النفاثين.

والذي سحره رجل كما في الصحيح أنه لبيد بن الأعصم، لأن الحديث الذي رواه القاضي إسماعيل فيه زيادة أن زينب اليهودية أعانت لبيد بن الأعصم على ذلك السحر. وفي رواية عند ابن إسحاق وغيره أن الذي سحره ﷺ بنات لبيد بن الأعصم، فلعل الذي صنعه وعقده النساء والذي وضعه في البئر لبيد، مع أن الأخذة في الغالب من عمل النساء وكيدهن.

ولبيد هذا من بني زريق كما في البخاري في هذا الباب بعد كلام سعيد بن المسيب المتقدم، حيث قال: حدثنا عبدالله بن محمد قال: سمعت ابن عيينة يقول: أول من حدثنا به ابن جريج يقول: حدثني آل عروة عن عروة فسألت هشامًا فحدثنا عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ سُحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. قال: سفيان: هذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال: يا عائشة أما علمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر:

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ٥٧٤)، فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٣٠)، زاد المعاد، ابن القيم (٤/ ١٨١).

ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن أعصم - رجل من بني زريق حليف ليهود وكان منافقًا -، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاقة، قال: وأين هو؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان، وفي لفظ أروان. قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه فقال: هذه البئر التي أريتها وكأنّ ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين، قالت: فاستخرج، فقلت: أفلا تنشّرت؟ فقال: أما الله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًا[1].

ثم روى حديثًا آخر فقال حدثنا عبيد بن إسماعيل ثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة نحوه إلا أنه ذكر في آخره عنها قلت يا رسول الله: أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أثوّر على الناس [منه] شرا، وأمر بها فدفنت[2].

فلبيد هذا هو الذي أخّذ رسول الله عن نسائه، والأخذة ضرب من السحر كما مر.

وفي الخبر أن القاسم بن محمد بن الحنفية كان مؤخَّذًا عن مسجد رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يدخله.

وراعوفة البئر: صخرة في أسفله يقف عليها المائح وينقي البئر، ويقال: هي صخرة صلبة لا يقدرها الحافر فتترك، ويروى رعونة البئر بالنون، والمعنى واحد[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الطب، باب هل يستخرج السحر (٥/ ٢١٧٥)، ومسلم في السلام، باب السحر (٤/ ١٧١٩).

(٢) أخرجه البخاري في الطب، باب السحر (٥/ ٢١٧٦).

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٣٤).

وفي جامع معمر بن راشد عن الزهري قال سحر رسول الله ﷺ [ستة أشهر][1] يخيل إليه أنه يفعل الفعل وهو لا يفعله[2].

وقد بين الواقدي أنه سحر ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة، وحل سنة سبع في المحرم، وهكذا رواه ابن سعد وعند الإسماعيلي أنه قام أربعين ليلة، وفي رواية وهيب عن هشام بن عروة عند الإمام أحمد ستة أشهر، ويمكن الجمع بين ذلك بأن منهم من حكى شدته ومنهم من حكى ما دون الشدة، ومنهم من حكى وجود أثره وأنه لم ينعدم أثره إلا بعد سنة والله أعلم[3].

وقد طعنت المعتزلة[4] في حديث سحر النبي ﷺ هم وطوائف من

---

(١) في الأصل: «سنة» وما بين معكوفتين من الفتح (١٠/ ٢٢٦).

(٢) نقله المؤلف من الفتح (١٠/ ٢٢٦)، وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى أن قائل ذلك السهيلي حيث قال: «وقال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها في السحر حتى ظفرت به في جامع معمر عن الزهري أنه لبث ستة أشهر».

(٣) ما تقدم من ذكر الروايات واختلاف مدة سحره ﷺ، إنما هو من كلام ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٢٦) بنصه.

(٤) المعتزلة من أكبر الفرق الكلامية، سموا بذلك لاعتزالهم مجلس الحسن البصري، وضع أصول مذهبهم واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، في أوائل المائة الثانية، صنف لهم أبو الهذيل كتابين وبني مذهبهم على أصول خمسة هي العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولبسوا فيها الحق بالباطل، وهذا شأن البدع، اشتمالها على حق وباطل، وقد بادت هذه الفرقة منذ زمن بعيد، غير أن أفكارهم لم تبد، فأصبحت بعض الفرق الضالة تعتنق هذه الأصول وتنافح عنها، كالاثني عشرية والزيدية، ومنهم في عصرنا الحاضر أصحاب المدرسة العقلية، أو أصحاب الفكر المستنير، يتجلى لنا مدى تأثرهم =

أهل البدع، وقالوا: لا يجوز على الأنبياء أن يسحروا، ولو جاز أن يسحروا لجاز أن يجنوا، واستدل بعضهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

والحديث ثابت عند أهل الحديث لا مطعن فيه من جهة النقل، لأن العصمة إنما وجبت لهم في عقولهم وأديانهم، وأما أبدانهم فإنهم يبتلون فيها ويخلص إليهم بالجراحة [ك،١١٥/ب] والضرب والسموم والقتل، والأخذة التي أخذها رسول الله ﷺ من هذا الفن إنما كانت في بعض جوارحه، والآية في المائدة وكان نزولها متأخرًا، وكان يحرس في مغازيه وبيته ﷺ حتى نزلت: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأمر حراسه أن ينصرفوا عنه.

وقوله ﷺ: «خشيت أن أثور على الناس شرًا» لما قالت له: «أفأخرجته» وفي رواية «هلا استخرجته»؟ ومرادها هلا استخرجت السحر من الجف والمشاطة، فيكون قد استخرجه من البئر كما تقدم ولم يستخرجه من الجف والمشاطة، كراهة أن يثير على الناس شرًا من: إما أن يتعلم منه بعض الناس إذا رأوا السحر فيكون ذلك هو الشر الذي كرهه، وإما أن يكون غير هذا، وذلك أن الساحر كان من بني زريق فلو أظهر سحره للناس وأراهم إياه، لأوشك أن يريد طائفة من المسلمين قتله، ويتعصب آخرون من عشيرته فيثور الشر، كما ثار في حديث الإفك[1]

= بالمدرسة الاعتزالية من ناحية تقديسهم للعقل وتقديمه على النقل.

انظر: شرح الطحاوية، ابن أبي العز (٢/ ٧٩١)، الفرق الكلامية، د. علي عبدالفتاح (ص ٢٠٣).

(١) هو مخرج في الصحيحين، أخرجه البخاري في الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا (٢/ ٩٤٢)، ومسلم في التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة =

من حال عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين حتى تركه ﷺ.

إذا فهمت ذلك فقد علمت مما تقدم أن النشرة ذات وجهين ليس المنع منها على العموم كما بينا ذلك.

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية: أنفع الأدوية وأقوى ما يوجد من النشرة مقاومة السحر الذي هو من تأثيرات الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية من الذكر والقرآن والدعاء، فالقلب إذا كان متمكنًا من الله معمورًا بذكره وكتابه، وله ورد من الذكر والتوجه إلى الله تعالى لا يخل به، كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر.

قال: وسلطان تأثير السحر إنما يكون في القلوب الضعيفة، ولهذا غالب ما يؤثر في النساء والصبيان والجهال، لأن الأرواح الخبيثة إنما تنشط على أرواح تلقاها مستعدة لما يناسبها[1].

وهذا الذي ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى إنما هو جري على الغالب كما أشار إليه في النساء وأشباههم، وإلا فقد جاز السحر على بدن النبي ﷺ مع عظم مقامه وصدق توجهه إلى الله وملازمة ذكره ووروده، وقد قال تعالى في حق كليمه موسى عليه السلام: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦] وقال: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: ٦٧].

= القاذف (٤/ ٢١٢٩)، وهو حديث طويل أوله: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين نسائه».

(١) النص منقول من فتح الباري (١٠/ ٢٣٥)، وانظر: زاد المعاد، ابن القيم (٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧).

وقد يكون إنما وقع السحر به ﷺ لبيان الجواز للنشرة الجائزة، ولتجويز وقوع السحر به والله أعلم بالصواب[1][2].

(**وروي عن الحسن**) بن أبي الحسن البصري، واسم أبيه يسار بالتحتانية المثناة والسين المهملة، الأنصاري مولاهم، ثقة فاضل مشهور كان يرسل كثيرًا ويدلس، قال البزار: كان يروي عن جماعة لم يسمع منهم فيتجوز ويقول: حُدثنا وخُطبنا ـ بضم أوله على البناء ـ يعني قومه الذين حُدثوا وخُطبوا بالبصرة، توفي سنة عشر ومائة، وقد قارب التسعين رضي الله عنه[3]، (**أنه قال**) فيما رواه [الطبري][4] وغيره عنه: (**لا يحل السحر**) عن المسحور (**إلا ساحر**[5]).

(**قال**) شمس الدين (**بن القيم**) رحمه الله تعالى: (**النشرة**) هي:

---

(١) في حاشية النسخة [ك]، علق بعض أهل العلم تعليقًا لطيفًا على كلام المؤلف، ولم أستطع معرفة صاحبه، وإليك نصه: (قول الشارح رحمه الله: وهذا الذي ذكره ابن القيم.. الخ، إيراد منه وهو غير وارد فإن الحافظ ابن القيم رحمه الله أراد أن السحر لا يؤثر في القلب إذا كان صاحبه محتميًا بما ذكر من الأدوية الإلهية، والشارح يريد تأثيره في البدن، وقد صان الله قلب رسول الله ﷺ كما ذكره الشارح).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢٣٥)، وهذا الاعتراض الذي أثاره المؤلف على ابن القيم إنما هو اعتراض الحافظ ابن حجر.

(٣) انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ٦٦)، طبقات الحفاظ، السيوطي (ص ٢٨)، وما بين ـ ـ مقحم من المؤلف في كلام البزار، وليس بصواب؛ إذ لو كان يقول: «حُدثنا» بالضم، لعده العلماء تصريحا بعدم السماع، ولم يعدوه تدليسا.

(٤) في الأصل، والمسودة: «الطبراني» وما بين معكوفتين من المصدر الذي نقل منه المؤلف وهو فتح الباري (١٠/ ٢٣٣)، وقد سبق التنبيه على ذلك قبل قليل.

(٥) أخرجه أبو جعفر الطبري في التهذيب، كما في تغليق التعليق (٥/ ٤٩) قال الحافظ: إسناده صحيح.

(حل السحر عن بدن المسحور، وهي نوعان) ـ كما قدمنا ـ (أحدهما حل سحر بسحر مثله، وهو الذي) ورد في الحديث والأثر أنه (من عمل الشيطان) كما تقدم ذكره، (وعليه يُحمل قول الحسن) البصري في هذا الباب وغيره، (فيتقرب الناشر والمنتشر) في ذلك (إلى الشيطان بما يحب) من عمله، لأن ذلك منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] (فيبطل) الشيطان حينئذ عن المسحور (عمله) الذي عمله مع الساحر الأول عن المسحور المنشور عنه.

النوع الثاني: (النشرة) عن المسحور (بالرقية والتعوذات، أو الدعوات والأدوية) المركبة (المباحة) الاستعمال، (فهذا) النوع (جائز)(١).

قال شمس الدين: وهو المتعين شرعًا وعقلاً، فإن جبريل ومكائيل عليهما السلام رقيا النبي ﷺ بالمعوذتين عن السحر، حتى حله الله تعالى عنه(٢).

فعند النسائي عن عابس بن ربيعة الغطيفي والطبراني عن عقبة بن عامر رضي الله عنهما مرفوعًا: ألا أخبركم بأفضل ما تعوذ به المتعوذون، قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، ولن يتعوذ الخلائق بمثلهما(٣).

---

(١) فتاوى إمام المفتين، ابن القيم (١/ ٢٠٦).

(٢) زاد المعاد، ابن القيم (٤/ ١٨٠ـ ١٨١).

(٣) أخرجه النسائي في الاستعاذة (٨/ ٢٥١)، واللفظ له، والترمذي في فضائل القرآن، باب المعوذتين (٥/ ١٧٠)، وأبو داود في أبواب الوتر، باب المعوذتين (٢/ ٧٣)، وأحمد في المسند (٤/ ١٥٢)، والدارمي في سننه (٢/ ٥٥٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٥)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٢)، ومسند الشاميين =

وأما من جهة الأدوية المباحة فقد مر جواز الطب بذلك في جميع الأمراض وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه، وفي الصحيحين عن عامر ابن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت سعدًا رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من تصبّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر[1].

هكذا رواه مسلم في صحيحه بهذا اللفظ، وعنده: من أكل سبع تمرات عجوة من ما بين لابتي المدينة على الريق لم يضره شيء[2].

وفي صحيح مسلم أيضًا: إن في عجوة العالية شفاءًا، وإنها ترياق أول البكرة[3].

وقد صح في سنن أبي داود عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مرضت مرضًا شديدًا فأتاني رسول الله ﷺ يعوذني فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادي فقال: إنك رجل مفؤود، ائت الحارث بن كلدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب فيأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة فليجأهن ثم ليلدك بهن.

رواه الطبراني لكن عن سعد بن أبي رافع[4]، وقوله: «فليجأهن»

= (٢/ ١٨٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٦٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٤٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ٨).

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة، باب العجوة (٥/ ٢٠٧٥)، ومسلم في الأشربة، باب فضل تمر المدينة (٣/ ١٦١٨)، واللفظ له.

(٢) مسلم (٣/ ١٦١٨)، دون قوله «على الريق».

(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٦١٩).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٦١)، وأبو داود، الطب، باب في تمر العجوة (٤/ ٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (١/ ٢٠٥).

أي فليدقّهنّ قاله عياض، وقال ابن الأثير: فليجأهن فليدقهن، وبه سميت الوجية وهو: تمر يبل بلبن ثم يدق حتى يلتئم، ومنه الحديث: «دعا سعدًا فوصف له الوجية»[1].

وقوله: «ثم ليلدك» أي يسقيك، يقال: لده باللدود إذا سقاه الدواء في إحدى جانبي الفم[2].

وفي كامل [ك،١١٥/أ] ابن عدي: أنه ينفع من الدوّام والدوار، وهو ما يأخذ الإنسان في رأسه ويدومه، ومنه تدوم الطائر، وهو أن يستدير في طيرانه يفعل ذلك به سبعة أيام[3].

وفي غريب الخطابي عن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تأمر للدوام والدوار بسبع تمرات عجوة في سبع غدوات على الريق[4].

وقد قال الترمذي: حدثنا أبو عبيدة بن أبي السفر ومحمود بن غيلان قالاً حدثنا سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنة وفيها شفاء للعين».

تفرد بإخراجه من هذا الوجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن عامر، قال: وفي الباب عن سعيد بن زيد

---

(١) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٥/ ١٥٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٤٥).

(٣) المصدر السابق (٢/ ١٤١)، لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٢١٢ـ ٢١٩)، ولم أجده في الكامل لابن عدي.

(٤) أخرجه الترمذي في غريب الحديث (٢/ ٥٧٧).

وأبي سعيد وجابر[1].

ورواه النسائي وابن ماجه عن محمد بن بشار عن أبي عبدالصمد عبدالعزيز بن عبدالصمد عن مطر الوراق عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة مرفوعًا وفيه: العجوة من الجنة وهي شفاء من السم.

ورواه الترمذي أيضًا بهذا اللفظ بسند صحيح إلى شهر[2]، وهو عند الإمام أحمد بهذا اللفظ بسند صحيح إلى شهر عن جابر بن عبدالله وأبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ مرفوعًا[3]، وقد قيل إن شهرًا لم يسمع من أبي هريرة فهو منقطع[4].

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في توجيه حديث سعد المتقدم في الصحيحين فمنهم من جعله من باب التعوذات فلا يقاس عليه استعمال الدواء قبل وجود العلة، منهم الخطابي، ومنهم من قال غير ذلك كالقاضي عياض، والأكثر منهم قال لا يعقل وجهه ولا يقاس عليه، وإنما طريقه الإيمان والتصديق، لصحة الأخبار في ذلك، والله تعالى الهادي والموفق[5].

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الطب، باب ما جاء في الكمأة والعجوة (٤/ ٤٠٠)، قال الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٠٧): حسن صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٠١)، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ١٥٧)، وابن ماجه في الطب باب الكمأة والعجوة (٢/ ١١٤٣)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ١٩٥)، وأبو يعلى في مسنده (١١/ ٢٩٢) كلهم من طرق عن شهر به.

(٣) أحمد في المسند (٣/ ٤٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٤/ ١٥٧).

(٤) انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ٣٦٩).

(٥) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض (٦/ ٥٣١ـ ٥٣٣).

الباب السابع والعشرون

(باب ما جاء في التطير)

(وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١]).

هذا جواب لقول آل فرعون لموسى كليم الرحمن عليه أفضل الصلاة والسلام حيث قالوا فيما قص الله علينا عنهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ يعني الخصب والسعة والعافية، ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: لأجلنا ونحن أهلها ومستحقوها على العادة التي جرت لنا في سعة أرزاقنا، ولم يروها تفضّلا من الله سبحانه فيشكروه عليها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] من قومه.

قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر[1]: كان ملك فرعون أربعمائة سنة وعاش ستمائة سنة لا يرى فيها مكروهًا، ولو كان له في تلك المدة جوع يوم أو حمى ليلة، أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية قط. فوصفهم الله سبحانه بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب، وتذلل العرائك، وتزيل التماسك، سيما بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتوًا وانهماكًا في الغي والجهل، وإسناد الأمر إلى غير مرسله، وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها، ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها، فلما لم تنجع فيهم

---

(١) القرشي التيمي، المدني، أدرك بعض الصحابة وروى عنهم، قال ابن عيينة، ابن المنكدر من معادن الصدق، توفي سنة ١٣٠هـ.

انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٩/ ٤٧٣)، الأعلام، الزركلي (٧/ ١١٢).

الآيات وروّجوا على الناس بالتطير بموسى ومن معه قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي حظهم من الخصب والجدب والضيق والسعة والخير والشر كله من عند الله تعالى.

وقيل معنى طائرهم عند الله: أي ما قضى عليهم وقدر لهم. قاله ابن عباس[1]، وقرأ الحسن: (ألا إنما طيرهم) بغير ألف[2]، وهما بمعنىً واحد وهو اسم الجمع، وقيل هو جمع، يقال: أي طير جرى لك اليوم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أي: إن الذي يصيبهم من الله شؤم ذنوبهم وأعمالهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩] والمعنى: أي حظكم وما نالكم من شر سببه أفعالكم وأقوالكم وكفركم، ومخالفتكم الناصحين لكم ﴿معكم﴾ ليس هو من أجلنا ولا سببنا، بل ببغيكم على أنفسكم وعدواتكم لرسل ربكم الذين يدعونكم إلى صلاحكم في الدنيا والآخرة فطائر الباغي الظالم معه وهو عند الله، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨ـ ٧٩].

قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية أبي صالح: الحسنة: الخصب والمطر، والسيئة: الجدب والغلاء[3].

---

(١) انظر: جامع البيان، ابن جرير الطبري (٦/ ٣٠)، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٢٣٩).

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٢/ ٢٣٧).

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٣٧).

وفي رواية الوالبي عنه: الحسنة: الفتح والغنيمة، والسيئة: الجراح والهزيمة[1].

ثم قال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

ولو فقهوا وفهموا لما تطيروا بما جاءت به الرسل عليهم السلام، فإنه كله خير محض لا شر فيه، وصلاح لا فساد فيه، ورحمة لا جور فيها.

(**وقوله تعالى**: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٩]).

مر بعض الكلام فيها استطرادًا على الآية الأولى، والمعنى: لما قال أهل القرية - وهي أنطاكية -[2] لرسل الله - قيل يحيى ويونس عليهما السلام وقيل غيرهما -: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي تشاءمنا بكم، وذلك أن المطر حبس عنهم، فقالوا: أصابنا هذا بشؤمكم وذلك لاستغرابهم ما دعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده، واستقباحهم له ونفرتهم عنه، ولأجل ذلك قالوا: لئن لم تنتهوا عن مقالتكم هذه لنرجمنكم، أي لنقتلنكم بالحجارة.

قاله قتادة: فلم يكتفوا بالتطير منهم حتى [ك،١١٦/ب] توعدوهم برجمهم[3].

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) إحدى مدن الشام، بينها وبين حلب مسيرة يوم وليلة، سار إليها أبو عبيدة بن الجراح في عهد عمر رضي الله عنهم أجمعين من حلب وفتحها صلحًا بعد حصاره لها.

انظر: معجم البلدان، ياقوت (١/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٢/ ١٥٧).

وأعقبوه بقولهم: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ فلما قالوا لهم ذلك، رد عليهم رسل الله بما أرشدهم إليه مرسلهم تبارك وتعالى، بما هو الحق حيث ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: سبب شؤمكم وهو سوء أعمالكم وعقيدتكم وتكذيبكم لرسل ربكم معكم، وقرىء (طيركم[1] معكم أئن ذكرتم) أي: وعظتم بالله عن الشرك به ومعاصيه، وهذا استفهام محذوف، مجازه: أئن ذكرتم تطيرتم بنا وتوعدتمونا بالقتل والرجم بالحجارة، فلو عكسوا ذلك الأمر لمن سعى في هلاكهم في الدنيا والآخرة بإضلالهم لكان أصلح وأقوم والله الموفق.

(عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر». أخرجاه) عنه في الصحيحين[2].

(وزاد مسلم) في روايته («ولا نوء ولا غول»)[3].

ورد هذا الحديث بلفظ النفي، فهو يدل على إبطال أمور الجاهلية، قالوا: والنفي في هذا الحديث [أبلغ من][4] النهي في الأحاديث الأخر، لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/ ١٣) حيث نسبها لابن هرمز.

(٢) أخرجه البخاري في الطب، باب لا هامة، ولا صفر (٥/ ١٢٧١)، ومسلم في السلام، باب لا عدوى ولا طيرة (٤/ ١٧٤٣)، وغيرهم.

(٣) من رواية أبي هريرة «ولا نوء ولا صفر»، ومن رواية جابر «ولا غول ولا صفر» مسلم (٤/ ١٧٤٤ـ ١٧٤٥)، وهي عند أحمد في المسند (٣/ ٢٩٣، ٣١٢)، وأبي يعلى في مسنده (٣/ ٣٢٤).

(٤) من المسودة في الأصل آثار طمس.

فقوله «**لا عدوى**» يريد أن شيئًا لا يعدي شيئًا حتى يكون الضرر من قبله، وإنما هو بتقدير الله وسابق قدره وقضائه فيه.

وقد أورد البخاري هذا الحديث من طريق أخرى فعد فيه هذه الأربعة وفرقها في مواضع من حديث ابن عمر وأنس وابن عباس رضي الله عنهم، وزاد البخاري في هذا الحديث الذي أورده المصنف عنه حيث قال في باب الجذام: وقال عفان: حدثنا سليم بن حيان حدثنا سعيد بن مينا قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الأسد»(١).

وقال الحافظ ابن حجر: لم أقف عليه من حديث أبي هريرة إلا من هذا الوجه، ومن وجه آخر عند أبي نعيم في الطب لكن معلول.

وأخرج ابن خزيمة في كتاب التوكل له شاهدًا من حديث عائشة ولفظه: «لا عدوى، وإذا رأيت المجذوم ففر كما تفر من الأسد»(٢).

وروى مسلم من حديث عمرو بن الشريد الثقفي عن أبيه قال: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي ﷺ أن قد بايعناك فارجع(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في الطب، باب الجذام (٥/ ٢١٥٨)، تعليقًا.

(٢) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٥٩)، وانظر تغليق التعليق له (٥/ ٤٣).

(٣) أخرجه مسلم في السلام، باب اجتناب المجذوم (٤/ ١٧٥٢)، والنسائي في البيعة، بيعة من به عاهة (٧/ ١٥٠)، وفي السنن الكبرى له (٤/ ٣٩٠)، وابن ماجه في الطب، باب الجذام (٢/ ١١٧٢)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٩٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢١٨).

قال عياض[1]: اختلفت الآثار في المجذوم، فجاء عن جابر أن النبي ﷺ أكل مع المجذوم وقال: ثقة بالله وتوكلاً عليه[2].

قال: فذهب أبو عمر وجماعة من السلف إلى الأكل معه ورأوا أن الأمر باجتنابه منسوخ، وممن قال بذلك عيسى بن دينار من المالكية، قال: والصحيح الذي عليه الأكثر ويتعين المصير إليه أن لا نسخ، بل يجب الجمع بين الحديثين، وحمل الأمر باجتنابه والفرار منه على الاستحباب والاحتياط، والأكل معه على بيان الجواز[3].

هكذا اقتصر القاضي ومن تبعه على هذين القولين وحكى غيره قولاً ثالثًا وهو: الترجيح، وقد سلكه فريقان من العلماء:

أحدهما: رجح الأخبار الدالة على نفي العدوى وتزييف الأخبار الدالة على ضد النفي، فإن حديث أبي هريرة هذا أعلوه بالشذوذ، ولهذا لم يذكر الشيخ هنا رحمه الله تعالى الزيادة في المجذوم، وأيضًا فإن عائشة أنكرت ذلك، فروى [الطبري][4] عنها: أن امرأة سألتها عنه فقالت: ما قال رسول الله ﷺ ذلك لكنه قال: لا عدوى، وقال: فمن أعدى الأول.

---

(١) سبقت ترجمته ص ١٠٥١.

(٢) أخرجه الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الأكل مع المجذوم (٤/ ٢٦٦)، وأبو داود في الطب، باب في الطيرة (٤/ ٢٠)، وابن ماجه في الطب، باب الجذام (٢/ ١٧٥٢)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٣٢٩)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٢٤٢)، وابن حبان (١٣/ ٤٨٨)، والحاكم (٤/ ١٥٢)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٢٤٢)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٤٠٩)، كلهم من طريق المفضل بن فضالة، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديثه، وضعفه الألباني في الضعيفة (٣/ ٢٨١).

(٣) النص منقول من الفتح (١٠/ ١٥٩) وكذلك ما بعده.

(٤) في الأصل: «الطبراني» وما بين معكوفتين من فتح الباري (١٠/ ١٥٩).

قالت: وكان لي مولى به هذا الداء فكان يأكل في صحافي، ويشرب في أقداحي، وينام على فراشي[1].

وبأن أبا هريرة رضي الله عنه تردد في هذا الحكم، وبأن الأخبار في رواية غيره في نفي العدوى كثيرة شهيرة، بخلاف أحاديث الرخصة في ذلك.

ومثل حديث «لا تديموا النظر إلى المجذومين». وقد أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف[2].

وما أخرجه أبو نعيم من حديث عبدالله بن أبي أوفى[3] رفعه: كلم المجذوم وبينك وبينه قدر رمحين. فسنده واهٍ مرة[4].

وما أخرجه الطبراني من طريق معمر عن الزهري أن عمر رضي الله عنه قال لمعيقيب[5]: اجلس عني قدر رمح، ومن طريق خارجة بن زيد:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه ابن ماجه، الطب، باب الجذام (٢/ ١١٧٢)، وأحمد في المسند (٨/ ٧٨)، والطيالسي في مسنده (ص ٣٣٩)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ١٤٥)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٠٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢١٨)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ٢٧١).

(٣) سبقت ترجمته ص ١١٠٣.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢/ ٢٨٣)، وفيه الحسن بن عمارة البجلي، قال عنه ابن حجر في التقريب (ص ١٦٢) متروك، وقال في الفتح عن الحديث: «فسنده واه بالمرة» (١٠/ ١٥٩).

(٥) معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي الأزدي، صحابي، من مهاجرة الحبشة، بدري، أصيب بالجذام، فعولج بأمر عمر فسلم، توفي سنة ٤٠هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٤٣)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (١٠/ ٢٥٤).

كان عمر يقول نحوه.

فهما أثران منقطعان[1]، قالوا: وحديث مسلم عن أبي الشريد صريح أن ذلك بسبب الجذام.

وطريق الترجيح لا يصار إليه إلا بتعذر الجمع، وهو ممكن فهو أولى[2].

الفريق الثاني: سلكوا في الترجيح عكس المتقدم فردوا حديث لا عدوى بأن أبا هريرة رجع عنه، قالوا: والأخبار الدالة على الاجتناب أكثر مخارج، وأكثر طرقًا فالمصير إليها أولى.

قالوا: وأما حديث جابر: أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فوضعها في القصعة وقال: كل ثقة بالله وتوكلاً عليه. ففيه نظر وقد أخرجه الترمذي وبين الاختلاف فيه على راويه، ورجح وقفه على عمر رضي الله عنه، وعلى تقدير ثبوته فليس فيه أنه ﷺ أكل معه وإنما فيه أنه وضع يده في القصعة، قاله الكلاباذي[3] في معاني الأخبار[4].

قالوا: والواجب أن طريق الجمع أولى كما تقدم، وأيضًا فحديث لا عدوى ثبت من غير طريق فصح عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص وجابر وغيرهم، فلا معنى لكونه معلولاً.

---

(١) فيح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٥٩).

(٢) النص وما قبله وما بعده منقول من الفتح (١٠/ ١٥٩).

(٣) الكلاباذي هو محمد بن إبراهيم بن يعقوب البخاري، أبوبكر، أحد الحفاظ، من أهل بخارى، له بحر الفوائد ويعرف بمعاني الأخبار، توفي سنة ٣٨٠هـ.
انظر: كشف الظنون، حاجي خليفة (٦/ ٥٤)، الأعلام، الزركلي (٥/ ٢٩٥).

(٤) النص منقول من الفتح، وعبارة المؤلف توهم أنه رجع إليه، والحقيقة أنه نقله من كلام ابن حجر في الفتح (١٠/ ١٦٠).

قالوا: وللجمع مسالك:

أحدها: نفي العدوى جملة وحمل الأمر بالفرار على رعاية خاطر المجذوم لأنه إذا رأى الصحيح البدن، السليم من الآفة، تعظم مصيبته وتزداد حسرته، ونحوه «لا تديموا النظر إلى المجذومين» من هذا المعنى[1].

الثاني: حمل [الخطاب بالنفي والإثبات][2] على حالتين مختلفتين، فحيث جاء لا عدوى كان المخاطب بذلك من قوي يقينه وصح توكله، بحيث يستطيع أن [ك،١١٦/أ] يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى، كما يستطيع أن يدفع التطير الذي يقع في نفس كل أحد، لكن القوي اليقين لا يتأثر به، وهذا مثل ما تدفع قوة الطبيعة العلة فتبطلها، وعلى هذه الطريقة يحمل حديث جابر في أكل المجذوم من القصعة وسائر ما ورد من جنسه، وكأن المخاطب بذلك من ضعف يقينه ولم يتمكن من تمام التوكل، فلا يكون له قوة على دفع اعتقاد العدوى عن نفسه، فأريد بذلك سد باب اعتقاد العدوى عنه، بأن لا يباشر ما يكون سبباً لإثباتها، وقريب من هذا كراهة الكي مع إذنه فيه كما تقدم، وقد فعل ﷺ كلا الأمرين ليتأسى به كل من الطائفتين[3].

الثالث: مسلك القاضي أبي بكر الباقلاني[4] في إثبات العدوى في

---

(١) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٦٠).

(٢) في الأصل، والمسودة: «الخطابي الإثبات والنفي» وما بين معكوفتين من فتح الباري (١٠/ ١٦٠).

(٣) المصدر السابق.

(٤) هو محمد بن الطيب بن محمد، أبوبكر الباقلاني، من كبار الأشعرية، متكلم، أصولي قوي الحجة، له إعجاز القرآن، والإنصاف، والتمهيد، توفي سنة ٤٠٣هـ =

الجذام ونحوه، فهو مخصوص من عموم نفي العدوى، فيكون معنى قوله ﷺ إذًا في الحديث: لا عدوى إلا من الجذام والجرب والبرص مثلاً.

قال: فكأنه قال: لا يعدي شيء شيئًا إلا ما تقدم، تبيين له أن فيه العدوى وقد حكى ذلك ابن بطال[1].

الرابع: أن الأمر بالفرار ليس من العدوى في شيء، بل هو لأمر طبيعي، وهو انتقال الداء من جسد لجسد بواسطة الملامسة والمخالطة وشم الرائحة، ولذلك تقع في كثير من الأمراض في العادة انتقال الداء من المريض إلى الصحيح بكثرة المخالطة، وهذه طريقة ابن قتيبة[2].

ولذا يقع كثيرًا بالمرأة من الرجل وعكسه، وينزع الولد إليه، ولهذا جعل من العيوب التي يفسخ بها النكاح، وقل من يكون به برص إلا وجد في نسله، ولذا أيضًا يأمر الأطباء بترك مخالطة المجذوم لا على طريق العدوى بل على طريق التأثر بأمر الله تعالى بالرائحة، لأنها تسقم بدن من واظب على اشتمامها.

قال: ومن ذلك حديث «لا يورَد ممرض على مصح»؛ لأن الجرب الرطب قد يكون بالبعير فإذا خالط الإبل، أو حاكها، أو أوى إلى مباركها وصل إليها الماء الذي يسيل منه، وكذا بالنظر نحو ما به[3].

= في بغداد.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (٥/ ٣٧٩)، وفيان الأعيان، ابن خلكان (١/ ٤٨١).

(١) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٣٦).

(٢) تقدمت ترجمته ص ٥٧٢.

(٣) يعني النظر إلى المجذومين، وانظر فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٦٠).

قلت: ولهذا لابد أن ينفر جلد الصحيح إذا أُدمي وجعل فيه من رطوبة الجدري شيء، ولهذا يؤثر ما حمل الله في النار والماء فيما قاربهما من الإحراق والإغراق، والكل بأمر الله وتقديره وتكوينه، يخلق ما يشاء ويحكم ما يريد، وكما جعل الله سبحانه في الشمس من تأثير الحرارة، وفي القمر من الرطوبة، وإنما نفى ﷺ أن شيئًا لا يعدي شيئًا استقلالاً من دون الله تعالى، إذ هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار.

وأما قوله «لا عدوى» فله على هذا أيضًا معنى آخر، وهو أن يقع المرض بمكان كالطاعون فيفر منه أن يصيبه؛ لأن فيه نوعًا من الفرار من قدر الله تعالى، وما قسم له لابد واقع.

الخامس: أن المراد بنفي العدوى أن شيئًا لا يعدي بطبعه، نفيًا لما كانت الجاهلية تعتقده من أن الأمراض تعدي بطبعها من غير إضافة ذلك إلى الله تعالى، ومرت الإشارة إلى ذلك في الطريق الذي قبل هذا، فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم ذلك في أكله مع المجذوم ليبين لهم أن الله هو الذي يمرض ويشفي، ونهاهم عن الدنو منه ليبين لهم أن هذا من الأسباب التي أجرى الله العادة بأنها تفضي إلى مسبباتها، ففي نهيه ﷺ إثبات الأسباب، وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل، بل الله إن شاء سلبها ما أودع فيها من القوى فلا تؤثر شيئًا، وإن شاء أبقاها فأثرت بأمره تعالى وتكوينه، كما أودع في النار الحرارة وسلبها عن خليله إبراهيم عليه السلام، وكما أودع في الماء الإغراق فأغرق به قوم نوح وفرعون وقومه، وسلب إغراقه عن يونس عليه السلام، ويحتمل أيضًا أن يكون أكله ﷺ مع المجذوم أنه كان به أمر يسير لا يعدي مثله في العادة، إذ ليس الجذمى كلهم سواءً، ولا تحصل العدوى من جميعهم، بل منهم من لا يحصل منه في العادة عدوى أصلاً، كالذي أصابه شيء من ذلك ووقف فلم

[يُعدِ][1] بقية جسده، وعلى الاحتمال الأول جرى أكثر الشافعية.

قال الحافظ البيهقي بعد أن أورد قول الشافعي: وتخصيص الجذام والبرص بزعم أهل الطب بالعلم بالتجارب أنه يعدي الزوجة كثيرًا، وهو داء مانع للجماع ولا تكاد نفس كل أحد تطيب بمجامعة من هو به، ولا نفس امرأة أن يجامعها من هو به، وأما الولد فبين أنه إذا كان من والده أجذم أو أبرص، أنه قلما يسلم الولد وإن سلم أدرك نسله[2].

قال البيهقي: وأما ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال «لا عدوى» فهو على الوجه الذي كانو يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سببًا لحدوث ذلك ولهذا قال ﷺ: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، وقال: «لا يورد ممرض على مصح»[3].

وقال في الطاعون: «من سمع به في أرض فلا يقدم عليه»[4]، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم[5].

وتبعه على ذلك ابن الصلاح في الجمع بين الحديثين ومن بعده،

---

(١) في الأصل: يُعدي.

(٢) النص منقول من فتح الباري (١٠/ ١٦٠).

(٣) أخرجه البخاري في الطب، باب لا هامة (٥/ ٢١٧٧)، ومسلم في السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة (٤/ ١٧٤٣)، وغيرهم.

(٤) أخرجه البخاري في الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥/ ٢١٦٣)، ومسلم في السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٤/ ١٧٤٠)، وغيرهم.

(٥) النص منقول من فتح الباري (١٠/ ١٦١).

وطائفة ممن قبله[1].

قلت: ولهذا قال عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه في قصة الطاعون ورجوعه لما ذكر أنه حل بالشام، قيل له في ذلك: أفِرارًا عن قدر الله؟ قال: «نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله»[2].

السادس: حمل العمل بالأكل مع المجذوم على نفي العدوى أصلاً ورأسًا، وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسدًا للذريعة، لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك فيظن أنه بسبب المخالطة فيثبت العدوى التي نفاها الشارع، وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام، وتبعه على ذلك جماعة من أهل العلم.

فقال أبو عبيد: ليس في قوله ﷺ: «لا يورد ممرض على مصح» إثبات العدوى، بل لأن الصحاح لو مرضت بتقدير الله تعالى ربما وقع في نفس صاحبها أن ذلك من العدوى، فيفتتن ويتشكك في ذلك، فأمر باجتنابه، قال: وكان بعض الناس يذهب إلى أن الأمر بالاجتناب إنما هو خوف للمخالطة على الصحيحة من ذوات العاهات، قال: وهذا [شر][3] ما حمل عليه الحديث، لأن فيه إثبات العدوى [التي][4] نفاها الشارع [ك،١١٧/ب]، ولكن وجه الحديث عندي ما ذكرته.

[وأطنب ابن خزيمة في هذا الكتاب «التوكل» فإنه أورد حديث «لا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) متفق عليه وهو جزء من الحديث السابق.

(٣) في الأصل، والمسودة: «أشد» وما بين معكوفتين من فتح الباري (١٠/ ١٦١).

(٤) في الأصل، والمسودة: «ولكنه» وما بين معكوفتين من فتح الباري (١٠/ ١٦١).

عدوى»][1] عن [عدة من][2] الصحابة رضي الله عنهم، وحديث «ولا يورد ممرض على مصح» وجهه أنه نهى عن ذلك شفقة عليهم وخشية أن يصيب بعض من يخالط المجذوم الجذام، والصحيح من الماشية الجرب، فيسلك إلى قلب بعض المسلمين أن ذلك من العدوى فيثبت العدوى التي نفاها ﷺ، فأمر بتجنب ذلك شفقة منه ورحمة ليسلموا من التصديق بإثبات العدوى، وبين لهم أنه لا يعدي شيء شيئًا.

قال: ويزيد هذا توضيحًا أكله ﷺ مع المجذوم ثقة بالله وتوكلاً عليه، وساق حديث جابر في ذلك، قال: وأما نهيه عن إدامة النظر إلى المجذوم فيحتمل أن يكون لأن المجذوم يغتم ويكره إدمان الصحيح نظره إليه، لأنه قل من يكون به داء إلا وهو يكره أن يطلع عليه.

هذا الذي ذكره يصدقه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى فإنه سئل عن هذا الحديث فقال: ما سمعت فيه كراهة، وما أدري ما يكره من ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء[3].

وقال الطبري: الصواب عندنا في ذلك القول بما صح به الخبر، وأن لا عدوى، وأنه لا يصيب نفسًا إلا ما كتب عليها، وأما دنو عليل من صحيح فغير موجب انتقال العلة للصحيح، إلا أنه لا ينبغي لذي صحة الدنو من صاحب العاهة التي يكرهها الناس لا لتحريم ذلك، بل لخشية أن يظن الصحيح أنه لو نزل به ذلك الداء أنه من جهة دنوه من العليل، فيقع فيما أبطل النبي ﷺ من العدوى.

---

(١) ما بين معكوفتين ساقط من الأصل، والمسودة وتم إلحاقه من فتح الباري (١٠/ ١٦١).

(٢) ما بين معكوفتين ساقط من الأصل، والمسودة وتم إلحاقه من فتح الباري (١٠/ ١٦١).

(٣) النص منقول من الفتح (١٠/ ١٦١).

قال: وليس في أمره بالفرار من المجذوم معارضة لأكله معه، لأنه كان يأمر بالأمر على سبيل الإرشاد أحيانًا، وعلى سبيل الإباحة أخرى، وإن كان أكثر الأوامر على الإلزام، وإنما كان يفعل ما نهى عنه أحيانًا لبيان أن ذلك ليس حرامًا[1].

وقد سلك الطحاوي[2] في معاني هذه الآثار مسلك ابن خزيمة فيما ذكره فأورد حديث «لا يورد ممرض على مصح» ثم قال: معناه أن المصح قد يصيبه ذلك المرض فيقول الذي أورده لو أني ما أوردته لم يصبه من هذا المرض شيء، والواقع أنه [لو لم يورده لأصابه][3] لكون الله قدره، فنهى عن إيراده لهذه العلة التي لا يؤمن غالبًا من وقوعها في قلب المرء، ثم ساق الأحاديث في ذلك وأطنب[4].

وكذلك قال القرطبي: بأنه نفي عما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد العدوى، أو مخافة تشويش النفوس، وتأثير الأوهام، فالأولى للمؤمن أن لا يتعرض إلى ما يحتاج فيه إلى مجاهدة، وإن كنا نعتقد أن الجذام لا يعدي لكنا نجد في أنفسنا نفرة وكراهة لمخالطته، حتى ولو أكره إنسان نفسه على القرب منه وعلى مجالسته لتأذت نفسه بذلك،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، نسبة إلى طحا، قرية من قرى صعيد مصر، الفقيه المحدث، الحافظ، أحد الأعلام، لم يخلف مثله، صاحب العقيدة الطحاوية، ومشكل الآثار، وشرح معاني الآثار، وغير ذلك، توفي سنة ٣٢١هـ بمصر.

انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٥/ ٢٧)، اللباب، ابن الأثير (٢/ ٢٧٦).

(٣) ما بين معكوفتين ساقط من الأصل، وأُلحق من فتح الباري (١٠/ ١٦٢).

(٤) المصدر السابق.

فحينئذ ينبغي للمؤمن أن يجتنب طرق الأوهام ويتباعد عن أسباب الآلام مع أنه يعتقد أن لا ينجي حذر من قدر[1].

وقال أبو محمد بن أبي جمرة[2]: ويمكن الجمع بين فعله ﷺ وقوله، بأن القول هو المشروع من أجل المخاطبين وفعله حقيقة الإيمان، فمن فعل الأول أصاب السنة وهي أثر الحكمة، ومن فعل الثاني كان أقوى يقينًا، لأن الأشياء كلها لا تأثير لها إلا بمقتضى إرادة الله تعالى وتقديره، كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فمن كان قوي اليقين فله أن يتابعه في فعله ولا يضره شيء، ومن وجد في نفسه ضعفًا فليتبع أمره في الفرار، لئلا يدخل بفعله في إلقاء نفسه إلى التهلكة[3].

فالمقصود أن كلام العلماء رحمهم الله تعالى في ذلك يدور على أن جميع الأمور راجعة إلى الله تعالى، دائرة تحت أقضيته، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، والحاصل من ذلك أن الأمور التي يتوقع المؤمن منها

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو عبدالله بن سعد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، أبو محمد، محدث، من فقهاء المالكية، من كتبه جمع النهاية اختصر به صحيح البخاري، وبهجة النفوس، وكان قوالاً للحق أمارًا بالمعروف، ونهاء عن المنكر، توفي بمصر سنة ٦٩٥هـ.

انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١٣/ ٣٦٧)، الأعلام، الزركلي (٤/ ٨٩).

(٣) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٦٢).

الضرر قد أباحت الحكمة الربانية الحذر منها، فلا ينبغي للضعفاء أن يقربوها، وأما أصحاب الصدق واليقين فهم في ذلك بالخيار[1].

قال ابن أبي جمرة: وفي الحديث ما يشعر أن الحكم للأكثر، لأن الغالب من الناس هو الصفة بالأمر بالفرار، وبحسب ذلك استدل بالأمر بالفرار من المجذوم لإثبات الخيار للزوجين في فسخ النكاح إذا وجده أحدهما بالآخر[2].

قلت: وهو قول جمهور العلماء، وأجاب من لم يقل بالفسخ بأنه لو أخذ بعمومه لثبت الفسخ إذا حدث الجذام ولا قائل به، ورد بأن الخلاف ثابت وثبوت الفسخ لأحد الزوجين إذا حدث في الآخر بعد الدخول هو المذهب عندنا حكاه القاضي وأصحابه عن الإمام أحمد رضي الله عنه، وصرح به شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح المحرر، واختاره ومشى عليه صاحب التنقيح فيه، وتبعه من بعده كالمنتهى والإقناع، وهو الراجح عند الشافعية ولذلك أدلة ليس هذا موضعها، واختلف العلماء رحمهم الله تعالى في المجذومين إذا كثروا هل [يمنعون][3] من المساجد والمجامع؟ وهل يتخذ لهم [مكان منفرد][4] عن الأصحاء؟ ولم يختلفوا في النادر أنه يمنع، ولا في شهود الجمعة والله ولي الهداية[5].

وقوله «**ولا طيرة**» مر ضبطها وتعريفها، وحقيقتها: هي ما أمضاك أو ردك، وعند الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في الأصل: يُمنعوا.
(٤) في الأصل: مكاناً منفرداً.
(٥) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٦٣).

قال: ثلاث من كن فيه لم ينل الدرجات العلا، من تكهن أو استقسم، أو رده من سفره طيره[1].

وسيأتي فيها مزيد بيان سوى ما تقدم إن شاء الله تعالى بعد الكلام على الغول لتعلق هذه الترجمة بها.

قوله «**ولا هامة**» الهامة: بتخفيف الميم على المشهور، وهي الصدى، والجمع هام وهامات، قال غيلان ذو الرمة: [ك،١١٧/أ]

قد أعسف النازح المجهول معسفه في ظل أغضف يدعو هامها البوم[2]

يقول: قد أعسف سيري على غير هداية، والنازح: البعيد، والمجهول: الذي ليس به علم، وأغضف، يعني: الليل، والهام: ذكر البوم في ظهره خط أسود، وكانت العرب إذا سقطت البومة على دار أحدهم قالوا: نعت إليه نفسه أو بعض أهله، وهذا تفسير مالك بن أنس إمام دار الهجرة رضي الله عنه وابن الأعرابي المالكي[3] وجماعة[4].

والثاني: أن العرب كانت تعتقد أن روح القتيل الذي لم يؤخذ بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره وتقول: اسقوني اسقوني من دم قاتلي، فإذا

---

(١) أخرجه الدارقطني في العلل (٦/ ٢١٨)، وقال الحافظ في فتح الباري (١٠/ ٢١٣) بعد عزوه الحديث للطبراني: ورجاله ثقات إلا أنني أظن أن فيه انقطاعًا، وله شواهد عن عمران بن حصين، وأخرجه البزار في أثناء حديث بسند جيد.

(٢) البيت في ديوان ذي الرمة (ص ٤٠١)، لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٢٤٩).

(٣) كذا في [ك]، وفي [م] ابن الأعرابي فقط دون وصفه بالمالكي، والظاهر أنه الصواب، وأن وصفه بالمالكي خلطٌ بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي المالكي المعافري

(٤) انظر: شرح مسلم، النووي (١٤/ ٢١٥).

أخذ بثأره طارت.

وقال الزبير بن بكار في أخباره: إن العرب كانت في جاهليتها تقول: إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره، خرجت من رأسه هامة وهي دودة فتدور حول قبره فتقول: اسقوني، فإن أدرك بثأره ذهبت، وإلا بقيت.

قال ذو الإصبع العدواني[1] يخاطب ابن عم له يقال له عمرو:

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني[2]

وقال توبة[3] صاحب ليلى الأخيلية:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت علي ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو رقى إليها صدى من جانب القبر صائح[4]

فالصدى عندهم طائر يصيح في هامة المقتول، أو عند قبره حتى يؤخذ بثأره كما تقدم عنهم، وهي الهامة.

---

(١) هو حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة، من عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، شاعر جاهلي، وسمي ذا الإصبع لأن حية نهشته في إصبعه فقطعها.
انظر الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٧٠٨)، الأغاني، الأصبهاني (٣/ ٢).

(٢) البيت في ديوان ذي الإصبع العدواني (ص ٩٢)، الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٧٠).

(٣) توبة بن حمير الخفاجي، وكان شاعرا لصا، وأحد عشاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته ليلى الأخيلية، مات سنة ٨٥هـ.
انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٤٥)، الأعلام، الزركلي (٢/ ٨٩).

(٤) البيت ذكره ابن قتيبة في الشعر والشعراء (١/ ٤٤٦)، عند ترجمته لتوبة بن حمير ونسبه له.

قال الأصمعي: باع ابن مفرغ الحميري غلامًا له يقال له برد فندم عليه فقال:

وشـــريـــت بـــردًا ليتنـــي   مـن بعـد بـرد كنـت هـامـة
أو بـومـة تـدعـو صـدىً   بيـن المشقّـر واليمـامـة[1]

وقال أبو داود الإيادي[2]:

سلط الموت والمنون عليهم   فلهم في صدى المقابر هام[3]

فأبطل النبي ﷺ ذلك من قولهم.

وتطير العامة اليوم من صوت الهامة هي البومة ميراث ذلك الرأي، ويسمى أيضًا الذي يجيبك من الجبال وغيرها إذا تكلمت صدى، يقال: صم الله صداك، وأصم الله صداك، أي أهلكه، لأن الرجل إذا مات لم يسمع الصدى منه شيئًا فيجيبه.

وقوله «ولا صفر» قال أبو عبيد عن رؤبة بن الحجاج أنه سئل عن الصفر فقال: هو حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس. قال: وهي أعدى من الجرب عند العرب، وهي تسمى الصفراء، ويقولون إذا تحركت في البطن جاع الإنسان فهي تؤذيه، ويحدث منها المرض

---

(١) البيت في ديوان يزيد بن مفرغ (ص ٢١٣)، لسان العرب، ابن منظور (٣/ ٨٧).
(٢) هو جارية بن الحجاج الحذاقي، وحذاق قبيلة من إياد، شاعر جاهلي، أحد نعات الخيل المجيدين.
انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٣٧)، الأعلام، الزركلي (٢/ ١٠٦).
(٣) البيت في ديوانه (ص ٣٣٩)، لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ٤١٧).

المسمى بالاستسقاء فيما يزعمون[1].

قال أعشى باهلة:

لا يتأرى لما في القدر يرقبه ... ولا يعض على شرسوفه الصفر[2]

يقول: لا يتأرى أي: لا يتلبث ويجتلس ويطمئن، فأبطل النبي ﷺ أنها تعدي، وقال غيره في الصفر أنه تأخيرهم المحرم إلى صفر في تحريمه[3].

قال النووي: وهذا التفسير[4] هو الصحيح الذي عليه عامة العلماء، وقد ذكره مسلم عن جابر رضي الله عنه راوي أحد ألفاظ هذا الحديث فتعين اعتماده[5].

قلت: ويجوز أن يكون المراد هذا والأول جميعًا، وأن الصفرين باطلان لا أصل لهما، وهذا الظاهر من كلام العرب كما بيناه عنهم.

وقوله «**ولا نوء**» بالهمز جمعه أنواء. قال حاتم الطائي:

إذا الريح جاءت من أمام أطائفٍ ... وأخلف نوء الشعريين دبورها

والنوء عند العرب غيبوبة الكوكب في المغرب غدوة، وطلوع رقيبه في المشرق غدوة، وإنما سمي نوء لأنه من ناء ينوء نوءًا إذا غاب، وقيل من النهوض.

---

(١) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٢٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ١٧١).

(٤) أي: تفسير الصفر دواب البطن وهي عندهم أعدى من الجرب، وعبارة المؤلف توحي أنه رجح تفسير الصفر بتأخيرهم المحرم إلى صفر، ولم يرد النووي ذلك.
انظر: شرح مسلم، النووي (١٤/ ٢١٥).

(٥) المصدر السابق.

واختار الخليل بن أحمد[1] أن النوء هو المطر الذي ينزل الله تعالى مع سقوط الكوكب، واسم الساقط النوء، واسم الطالع البارح، وإنما سمي بارحًا لأن ما يحدثه الله تعالى عند طلوعه من ريح وحر يقال له بارح، لأنه يبرح بالتراب، أي يذهب به، وقيل سمي بذلك للبيان والوضوح، كما يقال برح الخفاء.

قال الزجاجي: وإذا اتفق أن يطلع منزل من المنازل الثمانية والعشرين منزلا المنقسمة على الاثني عشر برجًا، لكل برج منها منزلتان وثلث، بأن يطلع بالغداة ويغرب رقيبه فذلك النوء، لا يتفق لكل منزلة إلا مرة في السنة، قال: وهو مأخوذ من ناء ينوء إذا نهض متثاقلاً، والعرب تجعل النوء للغارب لأنه ينهض للغروب متثاقلاً، وعلى ذلك أكثر أشعارها، وتفسير بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

أي تميل بهم إلى الأرض، هو أوجه من جعل الكلمة من المقلوب، قال: وبعضهم يجعل النوء للطالع.

قلت: وهو قول المنجمين لأن الطالع له التأثير والقوة بزعمهم، والغارب ساقط لا قوة له ولا تأثير.

وقال المبرد: النوء على الحقيقة للطالع من الكوكبين لا الغارب.

---

(١) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، أبو عبدالرحمن، من أئمة اللغة والأدب، شيخ سيبويه، وواضع علم العروض، مات سنة ١٧٠هـ.
انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٧٢)، الأعلام، الزركلي (٢/ ٣١٤).

قلت: وهذه المنازل كلها يطلع بها الدوار كل يوم وليلة من المشرق إلى المغرب، ويغرب من المغرب وتلك [ك،١١٨/ب] دورة من دوراته، وهي الدورة العظمى القسرية، لأنها تقسر الأفلاك كلها وتدور بها إلى غير جهة حركتها الذاتية الطبيعية عكسًا، ولهذه الحركة ترى الشمس في كل يوم في شروق وغروب، وإلا ففلكها لا يدور الدورة الكاملة إلا بعد مضي سنة شمسية، وهي مدة مفارقتها لأية نقطة تفرض من منطقة البروج إلى عودها إليها بحركة فلكها الخاصة بها الذاتية، التي من المغرب إلى المشرق، ولله در صلاح الدين الصفدي[١] حيث يقول:

أما ترى الشمس تلقى عكس مقصدها   في كـل يوم ولولا ذاك لم تفـل

وقال الأرجائي[٢] في الكوكب السائر:

فالقصد نحو المشرق الأقصى له   والسير رأي العين نحو المغرب

وأخذه تقي الدين ابن دقيق العيد[٣] فقال:

---

(١) هو خليل بن أيبك الصفدي، نسبة إلى صفد، قرية بفلسطين، أديب مؤرخ، له زهاء مئتي مصنف منها الوافي في الوفيات، توفي سنة ٧٦٤هـ. انظر: الدرر الكامنة، ابن حجر (٢/ ٨٧)، الأعلام، الزركلي (٢/ ٣١٦).

(٢) هو أحمد بن محمد، أبوبكر الأرجائي، شاعر، في شعره رقة وحكمة، ولي القضاء بتستر وتوفي بها سنة ٥٤٤هـ. انظر: المنتظم، ابن الجوزي (١/ ١٣٩)، الأعلام، الزركلي (١/ ٢١٥).

(٣) هو محمد بن علي بن وهب، تقي الدين القشيري، أبو الفتح، قاض، فقيه، أصولي، مجتهد، ولي قضاء مصر، توفي سنة ٧٠٢هـ. انظر: الدرر الكامنة، ابن حجر (٤/ ٩١)، مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده (٢/ ٢١٩).

الحمد لله كم أسموا بعزمي في نيل العلا وقضاء الله بيته
كأنني البدر يبغي الشرق والفلك الـ أعلى يعارض مسراه فيعكسه

فالأفلاك السبعة تدور دورتين، دورة قسرية من المشرق إلى المغرب، والأخرى ذاتية طبيعية تطلب مركزها، وهي التي من المغرب إلى المشرق، وكل فلك منها له دورة تخصه، تعرف بسرعة دورة كوكبه وبطئه من السبعة السيارة وقد نظمها بعضهم بقوله مرتبًا لها:

زحل شرى مريخهم من شمسه فتزاهرت لعطارد أقمار

والكلام في ذلك يطول، وإنما المقصود النظر والاعتبار في هذه الصنيعة المحكمة العظيمة، التي تدل على أن صانعها ومحكمها هو الإله وحده، وقد حث الله تبارك وتعالى على التفكر في ذلك والنظر إليه بعين الاعتبار فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ـ ١٩١]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] الآيات، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، والآيات في ذلك يطول عدها وكلها تحث على هذا المعنى.

فالحاصل أن النبي ﷺ أبطل ما كانت تعتقده العرب من أهل الجاهلية في الكواكب السيارة والثابتة، لأنهم لم يجعلوها مسخرات مدبرات تحت أمر العزيز العليم، بل جعلوها فاعلات مدبرات مستقلات بذلك الأمر، فخالفوا قوله جل وعلا: ﴿وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ

ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في بعض أجوبته على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] بعدما قرر البروج وأنها اثنا عشر برجًا، لكل برج من المنازل منزلتان وثلث، عليها سير الشمس والقمر، وأن تعاقب الليل والنهار تابع لحركة غيرهما، قال: فإذا كان قد أخبر عن الليل والنهار بما أخبر به، من أنهما يسبحان وذلك تابع لحركة غيرهما، جاز مثل ذلك فيما أخبر به أن الشمس والقمر يسبحان تبعًا للفلك، وعلى ذلك أدلة كثيرة ليس هذا موضعها.

قال: ليست السموات متصلة بالأرض لا على جبل قاف ولا غيره، بل الأفلاك مستديرة سبع سموات بعضهن فوق بعض، كما أخبر الله ورسوله، وكما ذكره علماء المسلمين وغيرهم، فذكر أبو الحسين بن المنادي[1]، من أكابر أصحاب الإمام أحمد الحنابلة من متقدميهم، وأبو محمد بن حزم وابن الأنباري إجماع المسلمين على أن الأفلاك مستديرة، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قال: في فلكة مثل فلكة المغزل.

والفلك في لغة العرب الشيء المستدير، يقال [تفلك][2] ثدي

---

(١) هو أحمد بن جعفر بن محمد، أبو الحسين بن المنادي، سمع من أبي داود السجستاني وعبدالله بن أحمد وغيرهم، ثقة، أمين، ورع، توفي سنة ٣٣٦هـ.
انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (٤/ ٦٩)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٨٥).

(٢) في الأصل: «فلك» وما بين معكوفتين من «م»، مجموع الفتاوى (٦/ ٥٩٥).

الجارية [إذا][(١)] استدار[(٢)].

قال غيلان ذو الرمة:

بعيدات مهوى كل قرط عقدنه   لطاف الحشا تحت الثدي الفوالك

قال: وقد خلق الله سبع أرضين بعضهنّ فوق بعض. ثم استدل على ذلك بأدلة من السنة، قال: وقد ذكر أبوبكر بن الأنباري أن الإجماع على ذلك، وأراد به إجماع أهل الحديث والسنة.

وتحت العرش بحر كما جاء في الأحاديث وكما ذكر في تفسير القرآن، وكما أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء، والعرش فوق جميع المخلوقات، وهو سقف جنة عدن التي هي أعلى الجنة، كما ثبت ذلك في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنها أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن»[(٣)].

والأرض يحيط الماء بأكثرها، والهواء يحيط بالماء والأرض، والله تعالى بسط الأرض للأنام وأرساها بالجبال لئلا تميد، كما ترسى السفينة بالأجسام الثقيلة إذا كانت في البحر وإلا مادت، والله تعالى ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا

---

(١) في الأصل: «ذا» وما بين معكوفتين من المسودة.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ٥٩٢ـ ٥٩٦).

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله (٣/ ١٠٢٨)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٥)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٤٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٥٨).

﴿غَفُورًا ۝٤١﴾ [فاطر: ٤١]، والمخلوقات العلوية والسفلية يمسكها الله بقدرته ويدبرها بحكمته سبحانه، وما جعل فيها من الطبائع والقوى فهو من آثار قدرته ومشيئته وهذه جملة لها تفاصيل[١].

انتهى كلام الشيخ ابن تيمية قدس الله روحه، وأوردنا هذه الجملة لتعلم أن النجوم مدبرة مسيرة بأمر فاطرها، الذي ينزل الغيث على عباده [ك،١١٨/أ] في بلاده من بعد ما قنطوا، وينشر رحمته وهو الولي الحميد.

وقال عماد الدين ابن كثير في البداية والنهاية: حكى ابن حزم وابن الجوزي الإجماع على أن السماء كرية مستديرة، وحكاه أيضًا غير واحد، واستدلوا عليه بآية: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾ [الأنبياء: ٣٣].

قال الحسن: يدورون، وقال ابن عباس: فلكة مثل فلكة المغزل[٢].

وقال الحافظ ابن حجر: حكى الإجماع على أن السموات مستديرة كرية جماعة، وأقاموا عليه الأدلة، وخالف في ذلك فرق يسيرة من أهل الجدل.

وقال الكلبي: الفلك استدارة السماء.

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾: لكل واحد منها فلك.

وقال صلاح الدين الصفدي: الفلك كرة صحيحة الاستدارة بالإجماع من الرياضيين والطبائعيين، حسبما تقتضيه البراهين من

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ٥٩٥ـ ٥٩٦).
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير (١/ ٢٧).

الفريقين، ومتى وجدت الكرة وجدت الدائرة، أقل ذلك منطقة الكرة فإنها محيط دائرة بلا شك، فعلى هذا قطر الدائرة خط مستقيم ومحيطها خط مستدير، وهما متباينان بالنوع فلا نسبة بينهما، فمتى كان محيط الدائرة معلومًا كان القطر مجهولاً ضرورة، وإنما قربه أرشميدس[1] بأن جعل القطر سبعة من اثنين وعشرين بأقرب تقريب، فعلى هذا لا يعلم نسبة قطر الدائرة من محيطها تحقيقًا وتحديدًا إلا الله تعالى، وكذلك نهاية العدد لا يعلمه إلا الله تعالى.

وبهذا الذي قدمنا يعلم أن الطلوع والغروب، واختلاف الليل والنهار باستدارة الأفلاك، بتقدير العزيز العليم الذي أحسن كل شيء خلقه ودبره، وسيبيده بعد أن بناه وأحكمه، ثم يعيد العالمين خلقًا جديدًا، ولما قرأ قارىء ببغداد كما ذكر ابن القيم رحمه الله: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١- ٣] وفي الحاضرين أبو الوفاء بن عقيل فقال له القائل: سيدي هب أنه أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم هدم الأبنية، وسير الجبال، ودك الأرض، وفطر السماء، ونثر النجوم، وكور الشمس فقال: إنما بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها وجعل ما فيها للاعتبار والتفكر، واستدلالاً عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى، وأجلاهم من الدار، خربها لانتقال الساكن منها. فأراد أن يعلمهم بأن الكونين معمورة بهم، وفي إحالة الأحوال، وإظهار تلك الأهوال، وبيان القدرة بعد بيان العزة تكذيب لأهل الإلحاد، وزنادقة المنجمين وعباد

(١) أو (أرخميدس)، أعظم رياضيي العصور القديمة، من اكتشافاته: نسبة قطر الدائرة إلى محيطها، توفي سنة ٢١٢ قبل الميلاد، انظر المنجد في اللغة والأعلام ص٣٦، ط١٥، دار المشرق، بيروت.

الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا منازل آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالها قد تشققت، ظهرت فضائحهم، وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب محدث، مدبر له رب يصرفه كيف يشاء تكذيبًا للملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم، فكم لله من حكمة في [هدم][1] هذه الدار، دالة على عظم قدرته وعزه وسلطانه، وانفراده بربوبيته وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره، وإذعانها لمشيئته فتبارك الله رب العالمين[2]. انتهى.

فبهذا يعلم اللبيب بأن الذي هذا صنعه وتقديره، هو الذي يستحق أن يعبد وحده ويسأل، وجميع ما سواه مدبر في قبضته وتحت تصرفه، يفعل به ما يشاء ويحكم ما يريد، وقد أبطل رسوله محمد ﷺ جميع ما عليه أهل الجاهلية من باطلها، ودعا إلى توحيد ربه ونفى عنه جميع ما يشوبه ويضاده، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وسيأتي باقي الكلام على النوء في بابه إن شاء الله تعالى.

وقوله «**ولا غول**» هو بالفتح مصدر غاله غولاً أهلكه، وبالضم اسم، فالغول بالضم أحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين وهم سحرتهم، ومنه الحديث: «لا غول، ولكن السعالي»[3] وهي سحرة الجن، أي ولكن في الجن سحرة لهم تخييل وتلبيس.

---

(١) ساقطة من الأصل وألحقتها من بدائع الفوائد، ابن القيم (٣/ ١٤٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه الخطابي في غريب الحديث (١/ ٤٦٣) عن الحسن بن محمد رفعه، وروي معناه عن عمر، وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥/ ١٦٢).

وفي الحديث الآخر: «إذا تغولت الغيلان، فبادروا بالأذان»[1] أي ادفعوا شرها بذكر الله تعالى فإنهم ينفرون منه، وهذا يدل على أنه لم يرد ﷺ بنفي ذلك عدمها، بل أخبر أنها لا تقدر على شيء من الإضلال والإهلاك إلا بإذن الله تعالى.

وقال السهيلي: الغول التي تتراءى بالليل، والسعالي ما يتراءى بالنهار من الجن، وقد أبطل رسول الله ﷺ حكم الغول لا وجوده، حيث قال: «لا غول» وليس يعارض هذا ما روي من قوله: «إذا تغولت الغيلان فارفعوا أصواتكم بالأذان»، وكذلك حديث أبي أيوب مع الغول حين أخذها[2]، لأن قوله ﷺ لا غول إنما أبطل به ما كانت الجاهلية تتقوله من أخبارها وخرافاتها.

وقال الجوهري: هي السعالي، والجمع أغوال وغيلان، وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول، والتغول التلون، يقال: تغولت المرأة إذا تلونت، ويقال: غالته غول إذا وقع في مهلكة، والغضب غول الحلم، ويقال: غال الإنسان كذا إذا نابه، وغاوله أدركه، ويشهد لذلك قول امرىء القيس بن حجر حيث يقول:

ودع عنك شيئًا قد مضى لسبيله ولكن على ما غالك اليوم أقبل

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٠٥، ٣٨١، ٣٨٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٩٥٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٤٤)، والدينوري في عمل اليوم والليلة رقم (٥٢٣) من حديث جابر، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح» (٣/ ٢١٣).

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة البقرة (٥/ ١٥٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأحمد في المسند (٥/ ٤٢٣)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٦٢)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٢٠)، وقال الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ٤): صحيح.

وقال جمهور العلماء: كانت العرب تزعم أن الغيلان في الفلوات وهي من جنس الشياطين تتراءى للناس وتتغول تغولاً، أي: تتلون تلونًا فتضلهم عن الطريق وتهلكهم، فأبطل النبي ﷺ ذلك الفعل لا وجودها، ولهذا قال: ولا غول أي: لا تستطيع أن تقتل أحدًا.

وروى الترمذي والحاكم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: كانت لنا سهوة فيها تمر، فكانت تجيء الغول كهيئة السنور فتأخذ منه، فشكونا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: اذهب فإذا رأيتها فقل بسم الله أجيبي رسول الله، قال: فأخذتها فحلفت ألا تعود، فأرسلها، وجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك، فقال: كذبت وهي معاودة للكذب، فذكر أنه تكرر ذلك منها ثلاثًا حتى أنها ذكرت له في الثالثة آية الكرسي أن يقرأها في بيته فلا يقربه شيطان(١).

ورواه الإمام أحمد بنحوه فقال: حدثنا سفيان عن ابن أبي ليلى عن أخيه عبدالرحمن بن أبي ليلى عن أبي أيوب رضي الله عنه فذكره(٢).

وقال الترمذي بعد روايته له هذا حديث حسن غريب(٣).

وروى الإمام أحمد وأبو يعلى الموصلي عن أبي بن كعب رضي الله عنه نحوه، في قصة له مع جني وجده يأخذ من تمر له في جرة، ورواه الحاكم أيضًا وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو كما قال(٤).

---

(١) انظر تخريج الحديث السابق.

(٢) مسند أحمد (٥/ ٤٢٣).

(٣) سنن الترمذي (٥/ ١٥٨).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٩)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٦٣)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٠١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٤٩)، ولم أعثر =

وهذا يشبه الحديث الصحيح الذي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه في حراسته لتمر الصدقة[1]، وهو حديث مشهور، فوجودهم ثابت وهم يتصورون في صور شتى، وقد مر أنهم سحرة الجن، وقيل إن الله تعالى مكنهم من التصور، ولو لم يكونوا سحرة، ويسمى ذلك المتصور الغول.

وقد أنشد كعب بن زهير[2] رضي الله عنه قصيدته بين يدي النبي ﷺ التي قال فيها ولم ينكر عليه قوله في تشبيبه:

فما تكون على حال تدوم بها ... كما تلون في أثوابها الغول[3]

وتزعم العرب أنه إذا انفرد الإنسان في الصحراء ظهرت له في خلقة الإنسان فلا يزال يتبعها حتى يضل عن الطريق، فتدنو منه وتتمثل له في صور مختلفة وتهلكه روعًا، وإذا أرادت أن تضل إنسانًا أوقدت له نارًا فيضل بها.

قال القزويني: ورأى الغول جماعة من الصحابة، وروينا عن عمر ابن الخطاب وأبي أيوب الأنصاري وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم، رؤية الجن ومعالجتهم إياهم في غير طريق من حديث الأثبات

= عليه عند أحمد وأبي يعلى في مسنديهما.

(١) أخرجه البخاري في الوكالة، باب إذا وكل رجلاً (٢/ ٨١٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٣٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٩١).

(٢) هو ابن أبي سلمى المزني، هجا النبي ﷺ في جاهليته فأهدر النبي ﷺ دمه ثم أسلم، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول» فعفا عنه النبي ﷺ وخلع عليه بردته، توفي سنة ٢٦هـ. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٥٤)، الأعلام، الزركلي (٥/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٧٠) ضمن قصة إسلامه رضي الله عنه.

والثقات من النقلة.

وذكر أبو سليمان الخطابي ذلك عن جماعة من السلف وأهل الصفاء والإخلاص، وعن جماعة [ك،١١٩/ب] من الصحابة رضي الله عنهم منهم عمر بن الخطاب حين سافر إلى الشام قبل الإسلام، وقد ذكر الدارمي في مسنده حديث مصارعة الجني لعمر بن الخطاب رضي الله عنه[١]، وذكر أن ثابت بن جابر[٢] الفهمي لقي الغول، وذكر له أبياتًا في ذلك.

والحاصل أن الله أبطل جميع أفعال الجاهلية، وما هم عليه من الباطل من ادعاء علم الغيب، واعتقاد النفع والضرر من غير الله تعالى، ومر ما فيه كفاية.

ومن ذلك الطيرة وأصلها أنهم يزجرون الطير، والوحش كما مر توضيحه، فما تيامن منها يسمونه بارحًا، وما تياسر يسمونه سانحًا ويتشاءمون به، ومنهم من يعكس ذلك، قال جرير بن الخطفى يهجو التيم في ذلك:

لَعَمْـرُ أبيـك مـا سنحـت لتيـم ... أيامنُ يزدجرن ولا سعودُ[٣]

والمستقبل لهم يسمونه ناطحًا، وما جاءهم من خلفهم سموه قعيدًا،

---

(١) سنن الدارمي (٢/ ٥٤٠)، عن عبدالله بن مسعود قال: «لقي رجل من أصحاب محمد ﷺ رجلاً من الجن فصارعه فصرعه...» ولم يذكر اسم هذا الصحابي.

(٢) المعروف بتأبط شرا، شاعر، من صعاليك العرب، ومن فتاكهم في الجاهلية، سريع العدو يقال إنه يصطاد الظبي عدوا في الفلاة، مات سنة ٨٠ق.هـ. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣١٢)، الأعلام، الزركلي (٢/ ٩٧).

(٣) البيت في ديوان جرير (ص ١٢٨).

وفيهم أيضًا من ينكر ذلك بعقله، ويعتقد بطلان تأثيرها، ويذم من يغتر بها، قال جهم الهذلي في ذلك:

ألم تر أن العائفَين وإن جرت ... لك الطير عما في غد عَمِيانِ

يظنــان ظنًّــا مــرة يخطئــانــه ... وأخرى على بعض الذي يصفان

قضى الله ألا يعلم الغيب غيرُه ... ففــي غيــر أمــر الله يحتــريــان

وقال الآخر يمدح منكرها:

وليــس بهيّــاب إذا شــد رحلــه ... يقول غدا في اليوم واق وحاتمُ

ولكنه يمضي على ذاك مُقْدِمًا ... إذا صُدّ عن تلك الهناة الخثارمُ[1]

يعني بالواق الصرد، وقيل طير أبيض من طيور الماء إذا صاح يقول واق واق، والحاتم الغراب، سموه بذلك لأنه عندهم كأنه يحتم الفراق كما ذكرنا ذلك عنهم فيما تقدم، والخثارم جمع خثرم، وهو ضعيف الرأي المتطير، وقد شفى النبي ﷺ أمته في الطيرة حيث سئل عنها فقال: ذاك شيء يجده أحدكم فلا يصدنه[2].

---

(١) البيت في لسان العرب منسوب للرقاص الكلبي، وقيل قائله خثيم بن عدي ١٢٠/ ١١٤).

(٢) أخرجه مسلم في السلام، باب تحريم الكهانة (٤/ ١٧٤٨)، والنسائي في السهو، الكلام في الصلاة (٣/ ١٤)، والسنن الكبرى (١/ ٣٦٢)، والطيالسي في مسنده (ص ١٥٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٨٤)، وابن حبان في صحيحه (٦/ ٢٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٩٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٨).

وقد قال الحارث بن حلزة في الجاهلية:

يا أيها الموضع ثم انثنى ... لا يُثنك الحازي ولا الشاحج

ولا قعيد أعضب قرنه ... هاج له من مرتع هائج

بينا الفتى يسعى ويسعى له ... تاح له من أمره خالج

يترك ما رقح من عيشه ... يعيش فيه همج هامج

لا تكسع الشول بأغبارها ... إنك لا تدري من الناتج[1]

فالحازي: الكاهن، والزاجر والشاحج: الغراب، والخالج: ما يعتري الإنسان من الشك وترك اليقين والعلم، ورقح معيشته: أصلحها، والشول: النوق التي جفت ألبانها، وكسعت الناقة: إذا تركت في ضرعها بقية من اللبن، والأغبار ههنا: بقايا اللبن، والناتج: الذي يلي الناقة حال نتاجها، يقول: فإنك لا تدري من المال له بعدك الذي يلي نتاجه.

قال العلماء: وإنما يضر التطير من أشفق منه وخافه، وأما من لم يبال به لم يضر به البته، لا سيما إذا قال عند رؤيته ما يتطير به، ما أرشد إليه سيد البشر ﷺ من قوله: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يذهب السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[2].

---

(١) الأبيات في ديوان الحارث بن حلزة (ص ٦٦)، والبيان والتبيين، الجاحظ (٣/ ٣٠٣).

(٢) أخرج شطره الأول «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك» أحمد في المسند =

فإن الطيرة باب من الشرك وإلقاء من الشيطان، فمن كان معتنيًا بها قائلاً بها كانت إليه أسرع من السيل المنحدر، ففي صحيح ابن حبان عن أنس رضي الله عنه رفعه: لا طيرة، والطيرة على من تطير[1].

وروى عبدالرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي ﷺ قال: ثلاث لا يسلم منهن أحد: الطيرة والظن والحسد، فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق[2].

وهذا مرسل أو معضل، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند البيهقي في شعبه[3].

[وأخرج ابن عدي][4] بسند لين [عن أبي هريرة][5] مرفوعًا: إذا

= (٢/ ٢٢٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٦٥)، من حديث عبدالله بن عمرو.

وأخرج شطره الثاني «اللهم لا يأتي بالحسنات...» أبو داود في الطب، باب في الطيرة (٤/ ١٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ٣٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٩)، كلهم من طريق حبيب بن أبي ثابت عن عروة بن عامر مرفوعًا، والإسناد فيه بعض ضعف بسبب حبيب بن أبي ثابت قال عنه في التقريب (ص ١٥٠): «ثقة كثير الإرسال والتدليس» ولم يصرح بالتحديث، انظر السلسلة الضعيفة للألباني (٤/ ١٢٣).

(١) صحيح ابن حبان (١٣/ ٤٩٢)، قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٦٣): «وفي صحته نظر، لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبيدالله بن أبي بكر عن أنس، وعتبة مختلف فيه».

(٢) رواه من هذا الطريق ابن قتيبة في مختلف الحديث ص١٠٧.

(٣) قائل هذه العبارة الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢١٣)، والمؤلف نقل هذه الأحاديث وحكم الحافظ عليها، ولم يشر إلى ذلك.

(٤) ما بين معكوفتين ساقط من الأصل، ألحقتها من فتح الباري (١٠/ ٢١٣).

(٥) ما بين معكوفتين ساقط من الأصل، ألحقتها من فتح الباري (١٠/ ٢١٣).

تطيرتم فامضوا وعلى الله فتوكلوا[1].

وقد روي حديث عبدالرزاق مرفوعًا متصلاً، رواه أبو الشيخ في التوبيخ والطبراني عن حارثة بن النعمان بن نافع بن زيد من بني مالك بن النجار الأنصاري الصحابي رضي الله عنه، كان ممن شهد بدرًا ولفظه: ثلاث لازمات لأمتي، سوء ظن والحسد والطيرة، فإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فاستغفر الله، وإذا تطيرت فامض[2].

ورواه بنحوه أيضًا الحافظ عبدالرحمن بن عمر الأصفهاني، الملقب برستة بضم أوله وسكون السين المهملة في كتاب الإيمان له، عن الحسن البصري مرسلاً، والذي قبله فيه إسماعيل بن قيس الأنصاري ضعيف قاله الهيثمي[3].

وعند الطبراني عن أبي الدرداء مرفوعًا: لن ينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر تطيرًا[4].

ورجاله ثقات إلا أن الحافظ ابن حجر قال أظن أن فيه انقطاعًا[5].

قال الطبري: قيل لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه

---

(١) الكامل، ابن عدي (٤/ ٣١٣).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ١٧)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٢٨).

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي (٨/ ٧٨).

(٤) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١١٨) إلى الطبراني، وكذلك الحافظ في الفتح (١٠/ ٢١٣).

(٥) فتح الباري، ابن حجر (١٠/ ٢١٣).

خوف من شيء ألبته، [ك،١١٩/أ] حتى السبع الضاري والعدو العادي، ولا من يسعى في طلب رزق ولا في مداواة ألم[١].

والحق أن من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب اتباعًا للكتاب والسنة، فقد ظاهر ﷺ في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هو وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، فلم ينتظر أن يُنزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، وقال للذي يسأل: أوَأعقل ناقتي أو أتوكل؟ قال اعقلها وتوكل[٢].

فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل، وقد أمرنا أن نقول في كل ركعة من الصلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وأما التطير فلم يذكره سبحانه إلا عن أعداء الرسل حيث قالوا لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقال عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ۝﴾ [النمل: ٤٧]، وغير ذلك من الآيات، وقد مر الكلام على ذلك.

---

(١) المصدر السابق (١١/ ٤١٣)، وفيه أن قائل هذا النص القرطبي وليس الطبري.

(٢) يشير إلى حديث أنس عند الترمذي في أبواب صفة القيامة (٤/ ٦٦٨)، قال الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٣٠٩) حسن.

وقد ذكرنا عن أبي عبيد أن الطائر هو الحظ الذي يسميه العامة البخت[1] نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يمكن حظنا من متابعة رسوله محمد ﷺ إنه كريم وهاب.

(ولهما) أي: الشيخين، **(عن أنس)** بن مالك خادم رسول الله ﷺ **(قال: قال رسول الله ﷺ: لا عدوى ولا طيرة)**، بكسر الطاء، **(ويعجبني الفأل). قيل له ﷺ: يا رسول الله وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة)**[2]. يعني يسمعها الرجل فيتفاءل بها.

فعند الترمذي بسند صحيح والحاكم عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع يا راشد يا نجيح[3].

وفي الصحيحين أيضًا من حديث الزهري عن عبيدالله بن عبدالله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا طيرة وخيرها الفأل، قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم[4].

فابتدأهم ﷺ بإزالة الشبهة وإبطال الطيرة، لئلا يتوهم عليه في إعجابه بالفأل الصالح، وليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجب الفطرة الإنسانية التي

---

(١) لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٥١١).

(٢) أخرجه البخاري في الطب، باب لا عدوى (٥/ ٢١٧٨)، ومسلم في السلام، باب الطيرة والفأل (٤/ ١٧٤٦)، وغيرهم.

(٣) أخرجه الترمذي وصححه في أبواب السير، باب ما جاء في الطيرة (٢/ ٢٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ١٢١).

(٤) أخرجه البخاري في الطب، باب الفأل (٥/ ٢١٧١)، ومسلم في السلام، باب الطيرة والفأل (٤/ ١٧٧٥)، وغيرهم.

تميل إلى ما يوافقها مما يمنعها، كما أخبرهم أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب[1]، وفي بعض الآثار وإن كان لم يبلغ مرتبة الصحة، أنه كان يعجبه الفاغية، وهي نور الحناء[2]، وكان يحب الحلوى والعسل، ويحب المشارب الباردة الحلوة[3]، ويحب حلو الصوت بالقرآن، واستمع إليه ﷺ[4]، ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم[5].

وبالجملة يحب كل كمال وخير، وما يفضي إليهما، والله سبحانه جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن، ومحبته وميل نفوسهم إليه، فجعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور، باسم السلام والفلاح والنجاح والتهنئة، والبشرى والفوز والظفر والغُنْم والربح

---

(١) أخرجه النسائي في عشرة النساء، باب حب النساء (٧/ ٦١)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٨٠)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٢٣٧)، والطبراني في الصغير (٢/ ٣٩)، كلهم من حديث أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٩٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٥٢)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٥٤)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٧)، وفيه عبدالرحمن بن قدامة، قال ابن حجر في لسان الميزان: قال البخاري: لا يتابع على حديثه (٣/ ٣٩٧).

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق، باب ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ (٥/ ٢٠١٧)، وزاد المعاد (١/ ١٤٧).

(٤) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود في فضائل القرآن، باب من أحب أن يسمع القرآن من غيره (٤/ ١٩٢٥)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن (١/ ٥٥١) وغيرهم.

(٥) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس في مناقب الأنصار، باب إسلام أبي ذر (٣/ ١٤٠١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر (٤/ ١٩٢٣).

والطيب ونيل الأمنية والفرج والعز والغنى وأمثال ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس وارتاحت، وانشرح لها الصدر، وقوي لها القلب. وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال، وأثار لها خوفًا وطيرة وانقباضًا عما قصدت له وعزمت عليه فأورث ذلك لها ضررًا في الدنيا ونقصًا في الإيمان ومقارفة للشرك[1].

كما ذكر ابن عبدالبر في تمهيده بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: من أرجعته الطيرة عن حاجته فقد أشرك، قال: وما كفارة ذلك يا رسول الله؟ قال: أن يقول أحدكم اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك[2].

(ولأبي داود) سليمان بن الأشعث **(بسند صحيح عن عقبة بن عامر)** الجهني الصحابي المشهور كان فقيهًا فاضلاً وولي إمرة مصر لمعاوية ثلاث سنين وتوفي رضي الله عنه قرب الستين[3] مرفوعًا الحديث إلى النبي ﷺ **(قال)** **عقبة**: **(ذكرت الطيرة)**، بالرفع نيابة عن الفاعل، وهي بكسر الطاء والمثناة والتحتية، وقد تسكن وتفتح الياء، **(عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفأل ولا ترد)**، أي الطيرة، **(مسلمًا)**، لتسليمه الأمر لله تعالى، وتيقنه أن القضاء لابد واقع لا يمنعه شيء، فينبغي للإنسان أن يثق بربه ولا يتطير، ثم أرشد ﷺ من عرض له شيء من ذلك إلى ما يرفع عنه الوهم به فقال: **(فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي**

---

(١) النص منقول من مفتاح دار السعادة، ابن القيم (ص ٥٩٢).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٤٨٢).

بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)[1].

فأرشد ﷺ في هذا أمته إذا رأى أحدهم ما يكره، إلى اليقين والإيمان بمن لا توجد نابضة حركة، ولا قابضة سكون في خير ولا شر، إلا بأمره التابع لمشيئته.

وروى ابن النجار بإسناد فيه لين يصلح للاستشهاد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال جئت إلى النبي ﷺ فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: ألا أخبركم بتفسيرها، لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله، إلا بعون الله، هكذا أخبرني جبريل يابن أم عبد[2].

وعند الجماعة من حديث أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا: لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة[3].

وقد مضى الكلام على أول هذا الحديث، وسيأتي لهذا مزيد في

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٦٢)، والعقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٠٠)، والسهمي في تاريخ جرجان (١/ ٢٩٤)، وفيه الفضل بن السكين القطيعي، قال ابن معين كما في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٦٢: كذاب، وفيه صالح بن بيان السيرافي، قال العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٠٠): «الغالب على حديثه الوهم، ويحدث بالمناكير عمن لم يحتمل».

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾ (٦/ ٢٦٩٠)، من حديث أبي موسى، ومسلم في الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٤/ ٢٠٧٦)، وغيرهم.

باب التوكل إن شاء الله تعالى.

والحول كما يأتي في كلام ابن الأنباري عند العرب: الحيلة، أي: لا حيلة في دفع سوء، ولا قوة في درك خير، إلا بالله عز وجل.

قال عبيد الراعي النميري[1]:

من نعمة الرحمن لا من حيلتي   إنـي أعـد لـه علـي فضـولا

ووجه آخر معناه المنع والدفع، من قولك حال بين الشيئين، إذا منع أحدهما عن الآخر، تقول: لا أمنع ولا أدفع إلا بك.

قال في الفروع: وكان غير واحد منهم شيخنا يقول هذا عند قصد مجلس العلم.

وقوله ﷺ «**أحسنها الفأل**» وفي لفظ آخر [ك،١٢٠/ب] «وخيرها الفأل»، أتى بأفعل التفضيل، فلفظها يدل على أنها تكون على وجوه، والفأل خيرها، ويعطي لفظها أيضًا أنها في الخير والشر كما مر، لأنها من الطير في المختار من أحد القولين، تقول العرب: جرى له الطائر بخير، وجرى له بشر، يدل عليه قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] يعني: ما يقضي عليه من خير وشر، فيعمل به على قول جمهور المفسرين، منهم ابن عباس رضي الله عنهما كما مر الكلام على ذلك[2].

فأبطل ﷺ الطيرة، وأخبر أن الفأل منها ولكنه أحسنها وخيرها.

---

(١) تقدمت ترجمته ص٢٣٢.

(٢) مضى تخريجه.

وفي مسند الإمام أحمد عن يحيى [عن][1] حية التميمي أن أباه رضي الله عنه أخبره أنه سمع النبي ﷺ يقول: لا شيء في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل[2].

وروي ابن الجوزي من طريق البيهقي موصولاً إلى بريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يتطير، وكان يتفاءل، وكانت قريش قد جعلت مائة من الإبل لمن يأخذ نبي الله فيرده إليهم حين توجه إلى المدينة، فركب بريدة في سبعين راكبًا من أهل بيته من بني سهم، فتلقى نبي الله فقال له نبي الله ﷺ: من أنت؟ قال: أنا بريدة، فالتفت ﷺ إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر برد أمرنا وصلح، ثم قال ﷺ: ممن أنت، قال: من أسلم، فقال لأبي بكر: سلمنا، ثم قال: ممن؟ قال: من بني سهم، قال النبي ﷺ: خرج سهمك، قال بريدة: من أنت؟ قال: أنا محمد بن عبدالله رسول الله، قال بريدة: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعًا، فلما أصبح قال بريدة للنبي ﷺ: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فجعل بريدة عمامته ثم شدها على رمح ثم مشى بين يديه ﷺ، ثم قال بريدة: يا رسول الله تنزل على من؟ قال: إن ناقتي هذه مأمورة،

---

(١) في الأصل: «بن» وما بين معكوفتين من مسند أحمد (٥/ ٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٧٦)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣١٥)، والتاريخ الكبير (٣/ ٣٠٨)، والترمذي في الطب، باب ما جاء أن العين حق (٤/ ٣٩٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٣٨٩)، وأبو يعلى في المسند (٣/ ١٥٥)، والطبراني في الكبير (٤/ ٣١)، كلهم من طرق عن يحيى بن أبي كثير عن حية بن حابس التميمي عن أبيه، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (ص ٢٣١).

قال بريدة: الحمد لله الذي أسلمت بنو سهم طائعين.

وذكر حديث بريدة هذا أبو سليمان الخطابي بسنده بمعناه مختصرًا، إلا أنه قال فيه: خرج سهمنا، بدل خرج سهمك[1].

ففصل ﷺ بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا منعه من الرقْي بالشرك، وإذنه في الرقية إذا لم تكن شركًا كما مر؛ لما فيها من المنفعة.

قالوا: وقد اعتاص هذا الفرقان على أفهام كثير ممن غلط في معرفة الحق والذي جاء به نهي الرسول ﷺ، وإنما تحصل الهداية من ألفاظه ﷺ، وشرف ألفاظه إنما يكون في صدور من تلقاها بالتصديق والقبول، وأذعن لها بالسمع والطاعة، وقابلها بالرضى والتسليم، وعلم أنها منبع الهدى ومعيار الحق الذي لا يجور.

وقد سئل بعض الحكماء فقيل له: ما بالكم تكرهون الطيرة وتحبون الفأل؟ فقال: لأن لنا في الفأل عاجل البشرى وإن قصر عن الأجل، ونكره الطيرة لما يلزم قلوبنا من الوجل.

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية ومعناه لشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا الفرقان حسن جدا[2].

---

(١) أخرجه الخطابي في غريب الحديث (١/ ١٨٠، وابن عبدالبر في الاستيعاب (١/ ١٧٨)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٥٥) بنحوه وقال: رواه البزار وفيه: عبدالعزيز بن عمران الزهري وهو متروك.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٢/ ٢٤٥).

وقال ابن الرومي: الفأل لسان الزمان، والطيرة لسان الحدثان[1].

وقد كانت العرب تقلب الأسماء تطيرًا وتفاؤلاً، فيسمون اللديغ سليمًا تفاؤلاً بالسلامة، وتطيرًا من اسم السقم، ويسمون الفلاة مفازة، تفاؤلاً بالفوز والنجاة، ولهم مذاهب في تسمية أولادهم نحو غالب وغلاب، وسعد وسعيد، وحارث وهمام، وذئب وضرغام، حتى تفاءلوا في ذلك بالغلظ والقساوة، فسموا بفهر وحجر، وجندل وصخر، ومنهم من يخرج وامرأته تطلق، فيسمي ولده بأول ما يلقاه كائنًا من كان، حتى من سبع وكلب، أو ظبي أو ضب، أو حشيش أو شجر أو غير ذلك، فهم على ذلك حتى جاء الله بالإسلام وبمحمد ﷺ، ففرق بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، والحسن والقبيح، والمحبوب والمكروه، والضار والنافع، والحق والباطل، فكره الطيرة وأبطلها، واستحب الفأل وحمده، فقال: لا طيرة، وأحسنها الفأل، وفي اللفظ الآخر كما مر، وخيرها الفأل[2]، فلما قال ذلك قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟، قال: الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم[3].

ففي الفرقان بينهما فائدة كبيرة أيضًا، وهي أن التطير هو التشاؤم من الشيء المرئي أو المسموع، فإذا سمع الإنسان أو رأى ما يكره، فرجع بذلك عن سفره أو امتنع عما عزم عليه من بغيته، فقد قرع باب الشرك، بل ولجه، وذلك قاطع عن مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مضى تخريجه

(٣) مضى تخريجه.

فيتعلق حينئذ قلبه بغير الله سبحانه عبادةً وتوكلاً، فيفسد عليه إيمانه وحاله، ويبقى هدفًا لسهام الطيرة، ويقيض له الشيطان ما يفسد عليه دينه ودنياه، فأين هذا من الفأل الصالح الساتر للقلوب، المؤيد للآمال، الفاتح باب الرجاء، المسكّن للخوف، الرابط للجأش، الباعث للاستعانة بالله والتوكل عليه، فهذا ضد التطير، فالفأل يفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد، والطيرة تفضي بصاحبها إلى الشرك والمعصية، فلهذا استحب ﷺ الفأل وأبطل الطيرة.

قالوا: وأما حديث اللقحة، ومنع النبي ﷺ - كما في الحديث الذي في الموطأ وغيره - حربًا ومرة من حلبها، وإذنه ليعيش في حلبها[1]، فليس هذا من باب الطيرة.

قال أبو عمر بن عبدالبر: ليس هذا عندي من الطيرة، لأنه محال أن ينهى عن شيء ويفعله، وإنما هو منه ﷺ من طلب الفأل الحسن[2].

وقد أخبرهم أن أقبح الأسماء حرب ومرة، وقال: خير الأسماء عبدالله وعبدالرحمن والحارث وهمام[3]، كما في الطبراني عن خيثمة

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٧٣) عن يحيى بن سعيد مرسلاً.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٢/ ٢٤٧).

(٣) أخرجه بنحوه أبو داود في الأدب، باب في تغيير الأسماء (٤/ ٢٨٧)، والنسائي، الخيل، باب ما يستحب من شية الخيل (٦/ ٢١٨)، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٤٥)، والدارمي في سننه (٢/ ٢٨٠)، والدولابي في الكني (١/ ٥٩)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٧)، كلهم من طريق عقيل ابن شبيب عن أبي وهب الجشمي، وقد ضعفه الألباني في إرواء الغليل (٤/ ٤٠٨)، وقال: «إسناده ضعيف من أجل عقيل بن شبيب، قال الذهبي: لا يعرف هو ولا الصحابي إلا بهذا الحديث». إلا أن لهذا الحديث شواهد ذكرها في =

ابن عبدالرحمن بن سبرة عن أبيه أبي سبرة، ورجاله رجال [ك،١٢٠/أ] الصحيح، إلا أن ظاهره الإرسال(١) وفي لفظ: وأصدقها حارث، وهمام(٢).

فحارث يحرث لدنياه وأخراه، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى: ٢٠] والحرث الاكتساب، قال امرؤ القيس بن حجر:

كلانا إذا ما نال شيئًا أفاته ... ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل(٣)

يخاطب بذلك الذئب لقلة اكتسابه، وأنه لا يبقى ما اكتسبه، ولهذا لا تجد شيئًا أجوع ولا أهزل منه، وهمام يهم بالخير، وكان ﷺ يكره الاسم القبيح، لأنه كان يتفاءل بالحسن من الأشياء، وسيأتي إن شاء الله تعالى قول مخشي بن حمير حين اتهم بالنفاق - رضي الله عنه - وحضوره كلام المنافقين، حين اعتذر من النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، في باب: من هزل بشيء فيه ذكر الله، أو القرآن، أو الرسول ﷺ(٤).

= السلسلة الصحيحة (٣/ ٣٣) يكون بها صحيحًا إن شاء الله.

(١) المعجم الكبير (٧/ ١١٨)، (٢٢/ ٢٩٥).

(٢) المعجم الكبير (٢٢/ ٣٨٠)، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٨٤)، من حديث أبي وهب الجشمي السابق، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ٣٠٣).

(٣) البيت في لسان العرب (٢/ ١٣٤) بلا نسبة، ولتأبط شرا أو لامرىء القيس في خزانة الأدب للبغدادي (١/ ١٣٤).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/ ٣٦٦)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٣٧٢).

وقال ابن جرير الطبري: كان هاشم بن عبد مناف توأم عبد شمس، فخرج ورجله ملصقة برأس عبد شمس، فما خلص حتى سال بينهما دم، فأول بأن تكون بينهما حرب، فكان بين بني أمية وبين بني العباس ما كان.

وهذا أيضًا من التفوّل[1]، ويكشف عن حديث اللقحة أيضًا ما زاده ابن وهب في جامعه في الحديث قال: فقال سهل بن سعد أنا أذكّره، فقام عمر بن الخطاب فقال: أتكلم يا رسول الله أم أصمت؟، فقال: بل اصمت، وأخبرك ما أردت، ظننت يا عمر أنها طيرة، ولا طير إلا طيره ولا خير إلا خيره، ولكن أحب الفأل الحسن.

ورواه أيضًا ابن وهب من وجه آخر قال: فقام عمر رضي الله عنه فقال لا أدري أقول أم أسكت؟، فقال له رسول الله ﷺ: قل، فقال: كنت نهيتنا عن الطيرة، فقال عليه السلام: ما تطيرت ولكني اخترت الاسم الحسن، أو كما قال[2] ﷺ. فزال بذلك تعلق المتطير.

وقد صح الحديث أنه غير ﷺ أسماء استقبحها إلى أسماء حسنة، حتى أنه قلب أسماء من الأراضي، والآثار فيها كثيرة، ليحصل في ذلك انتقالهم عن مذاهب آبائهم، ومقاصد أسلافهم القبيحة، لما بقي مع بقائها من آثار الطيرة الكامنة في الغريزة، تأديبًا لأمته ﷺ وشفقة عليهم بذلك.

ومن هذا قوله في الحديث المعروف المشهور: أقروا الطير على مكانها، وفي رواية على أوكانها، وفي لفظ على مكناتها[3].

---

(١) كذا في النسخ، وهو يريد التفاؤل، ولم أجد هذه الصيغة في كتب اللغة، ولعلّها عامّية.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٢/ ٢٣٦).

(٣) أخرجه أبو داود، الأضاحي، باب في العقيقة (٣/ ١٠٥)، وأحمد في المسند =

قال أبو زياد الكلابي وأبو طيبة الأعرابي، وغيرهما من الأعراب أو من قال منهم، لا نعرف للطير مكنات وإنما هي الوكنات[1]، قال امرؤ القيس:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل[2]

واحدتها وكنة، وهي موضع عش الطائر، ويقال له أيضًا وكر بالراء المهملة، فأما الوكن بالنون فهو العود الذي يبيت عليه الطائر، وأما المكنات فإنما هي بيض الضباب، وواحدتها مكنة بكسر الميم والكاف وقد تفتح.

وقال ابن الأثير: المعنى أقروها على بيضها وهي في الأصل بيض الضباب وقيل المكنة من التمكن، كالطلبة والتبعة من التطلب والتتبع، أي أقروها على كل مكنة ترونها عليها، ودعوا التطير بها.

وروي مكناتها جمع مكن، بضم الميم والكاف فيهما، كصعدات في صعد، ومكن جمع مكان جمع جمع، والضب المكون التي قد جمعت المكن وهو بيضها[3].

قال أبو عبيد: المعنى أنه أراد لا تزجروا بها ولا تلتفتوا إليها،

= (٦/ ٣٨١)، والحميدي في مسنده (١/ ١٦٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٦٥)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣١١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٥٤٦).

(١) النص منقول من غريب الحديث لأبي عبيد (١/ ٢٨٠).

(٢) البيت استشهد به أبو عبيد في غريب الحديث (١/ ٢٨٠)، وهو في ديوان امرىء القيس (ص ١٩٠).

(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٤/ ٣٥٠).

أقروها على مواضعها التي جعلها الله لها ولا تعدوا ذلك، أي أنها لا تضر ولا تنفع فدعوها[1].

وقال غيره: أقروها على أمكنتها التي تجدونها عليها، فإنهم في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرًا أو أمرًا، أثارها من أوكارها لينظر أي وجهة تسلك وأي ناحية تطير، فإن خرجت ذات اليمين خرج ومضى لأمره، وإن أخذت ذات الشمال لم يمض، فأمرهم ﷺ أن يقروها على أمكنتها، وأبطل فعلهم كما أبطل الاستقسام بالأزلام[2].

وقال ابن جرير الطبري: معنى ذلك أقروا الطير التي تزجرونها في مواضعها المتمكنة فيها وامضوا لأمركم، فأمرهم ﷺ بذلك إبطالاً لأمر الجاهلية[3].

وهذا القول يجمع الأقوال كلها في ذلك والكل داخل في لفظ الخطاب والله أعلم.

فمن تمسك بالعروة الوثقى، واعتصم بحبله المتين وتوكل عليه، قطع هاجس الطيرة قبل استقرارها.

ومن هذا أيضًا قوله ﷺ في الصحيح: الشؤم في ثلاث. رواه البخاري وغيره من حديث أبي هريرة حافظ الأمة، وابن عمر، وسهل ابن سعد، ومعاوية بن الحكم، وغيرهم رضي الله عنهم، وفي لفظ: لا شؤم فإن كان شؤم ففي ثلاث فذكر المرأة والخيل، وفي رواية والدابة

---

(١) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٢٨٠).
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٢/ ٢٣٥).
(٣) المصدر السابق.

والدار[1]. وقد أنكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها اللفظ الأول، كما في مسند الإمام أحمد وغيره بسند صحيح عن قتادة عن أبي حسان أن رجلين دخلا على عائشة فقالا: إن أبا هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال: «الشؤم ـ وفي رواية عنده: إنما الطيرة ـ في المرأة والدار والدابة» فطارت شقة منها في السماء وشقة في الأرض، ثم قالت: كذب والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم ﷺ، من حدث عنه بهذا؟ ولكن رسول الله ﷺ كان يقول: كان أهل الجاهلية يقولون إن الطيرة في المرأة والدار والدابة، ثم قرأت: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾[2] [الحديد: ٢٢].

قال أبو عمر بن عبدالبر وكان قد روى [ك،١٢١/ب] هذا الحديث في تمهيده عن عائشة رضي الله عنها قال: وكانت عائشة تنفي الطيرة، حتى قالت لنسوة كن يكرهن البناء بأزواجهن في شوال: ما تزوجني رسول الله ﷺ إلا في شوال، فمن كان أحظى مني عنده[3]. قال: وقولها في أبي هريرة «كذب» تعني غلط، فإن العرب تقول: كذبت، بمعنى: غلطت فيما قدّرت، ووهمت فيما قلت ونحو هذا، وهذا معروف من كلامهم موجود في أشعارهم، قال أبو طالب:

كذبتم وبيت الله نبزى محمدًا ولما نطاعن دونه ونناضل[4]

---

(١) أخرجه البخاري، النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة (٥/ ١٩٥٩)، من حديث ابن عمر وسهل بن سعد، ومسلم، السلام، باب الطيرة والفأل، وما يكون فيه الشؤم (٤/ ١٧٤٨)، ومن حديث جابر أيضًا.

(٢) مسند أحمد (٦/ ٢٤٦)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٢١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٤٠).

(٣) التمهيد (٩/ ٢٨٨).

(٤) أورد ابن الأثير خلال شرحه لكلمة (بزا) وقال: «يبزى أي يقهر ويغلب، أراد لا يبزى، =

وقال شاعر همدان:

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها　　　مراغمة ما دام للسيف قائم[1]

ثم قال: ألا ترى أن هذا ليس من باب الكذب الذي هو ضد الصدق، وإنما هو من باب الغلط وظن ما ليس بصحيح، وذلك أن قريشًا زعموا أن يخرجوا بني هاشم من مكة إن لم يتركوا جوار محمد ﷺ ونصرته، فقال أبو طالب: كذبتم أي غلطتم وظننتم غير ما تدركونه[2].

قلت: وهذا مشهور من كلامهم، ومنه قول سعيد بن جبير: كذب جابر بن زيد[3]، يعني قوله الطلاق بيد السيد، أي أخطأ، إنما الطلاق لمن أخذ بالساق[4].

وقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: كذب أبو محمد لما قال: الوتر واجب[5]. أي أخطأ، إذ هو له صحبة، أنصاري من بني النجار، اسمه مسعود بن زيد بن سبيع على الصحيح، وقيل اسمه أحمد، مشهور

= فحذف لا من جواب القسم، وهي مرادة، أي لا يقهر ولم نقاتل عنه ومدافع». النهاية (١/ ١٢٥). وأورده أيضًا في الأحاديث الطوال الطبراني (ص ٢٤٣).

(١) التمهيد، ابن عبدالبر (٩/ ٢٨٩).

(٢) التمهيد (٩/ ٢٩٠).

(٣) أبو الشعثاء الأزدي، البصري، مشهور بكنيته، ثقة فقيه، مات سنة ثلاث وتسعين، ويقال: ثلاث ومائة. انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٢/ ٣٨)، تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ٦٧).

(٤) انظر: التمهيد، ابن عبدالبر (٩/ ٢٩٠).

(٥) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٤٢٩).

رضي الله عنه عند العلماء[1]، وقد نزه الله سبحانه الصحابة عن الكذب، وشهد لهم في محكم كتابه بالصدق والعدالة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الحديد: ١٩]، وإنما أراد أنه زل في الرأي وأخطأ في الفتوى، وذلك أن حقيقة الكذب إنما يقع في الإخبار عن الغير، ولم يكن أبو محمد مخبرًا عن غيره، إنما كان مفتيًا عن نفسه.

ومن ذلك قول عروة بن الزبير[2] لما سأله عمرو بن دينار[3] كم لبث النبي ﷺ بمكة؟ قال: عشرًا، قال: فقلت: إن ابن عباس كان يقول: لبث بضع عشرة، فقال: كذب، ثم قال: ذهب إلى شعر [صرمة][4] حيث يقول:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة ... يذكّر لو يلقى خليلاً مواتيا[5]

يريد أخطأ.

ومنه قول عمران بن حصين رضي الله عنه لسمرة بن جندب، لما

---

(١) انظر: ترجمته في الإصابة، ابن حجر (٣/ ٣٨٩).

(٢) هو عروة بن الزبير بن العوام، القرشي، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، عالم، صالح، زاهد، توفي بالمدينة سنة ٩٣هـ. انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٣١٦)، صفوة الصفوة، ابن الجوزي (٢/ ٤٧).

(٣) سبقت ترجمته ص١٠٦٤.

(٤) في الأصل، والمسودة: «ابن صرمت» وما بين معكوفتين من المستدرك للحاكم (٢/ ٦٨٣)، والإصابة، ابن حجر (٣/ ٤٢٢).

(٥) المصادر السابقة.

قال في المغمى عليه يصلي مع كل صلاة صلاة حتى يقضيها، كذبت ولكنه يصليهن معًا، يريد أخطأت في الفتوى وزللت في الرأي، ومن هذا قول غيلان ذي الرمة:

وقد توجس ركزًا مقفرٌ ندسٌ　　　لنبأة الصوت ما في سمعه كذب[١]

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: كذب أبو السنابل لما أفتى أن الحامل المتوفى زوجها لا تخرج من عدة الوفاة بالوضع[٢].

وهذا ونحوه كثير، والمقصود أن عائشة رضي الله عنها ردت هذا الحديث وخطّأت قائله، ولكن قولها هذا مرجوح، ولها رضي الله عنها اجتهاد في رد بعض الأحاديث الصحيحة خالفها فيه غيرها من الصحابة رضي الله عنهم، ولما ظنت أن هذا الحديث يقتضي إثبات الطيرة التي هي من الشرك لم يسعها غير تكذيبه ورده، ممن لا يمكن رد روايتهم، ولم يتفرد أبو هريرة وحده، ولو انفرد به فهو حافظ الأمة على الإطلاق، وكل ما رواه عن النبي ﷺ فهو صحيح، بل قد رواه ابن عمر وجابر بن عبدالله وسهل بن سعد الساعدي وأحاديثهم في الصحيح[٣]، قالوا فالواجب بيان معنى الحديث ومباينته للطيرة الشركية، وقد روي

---

(١) ديوانه: ١/ ٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (٥/ ٢٠٣٧)، ومسلم في الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها (٢/ ١١٢٢)، وأحمد في المسند ١٠/ ٤٤٧)، والشافعي في مسنده (ص ٢٤٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٤٢٩).

(٣) مضى تخريجها قبل قليل.

هذا الحديث على وجهين أحدهما بالجزم، والثاني بالشرط، فالأول ما رواه مالك عن ابن شهاب عن سالم وحمزة ابني عبدالله بن عمر عن أبيهما أن رسول الله ﷺ قال: الشؤم في الدار والمرأة والفرس. متفق عليه[1].

ولا ينافي هذا ما ورد في الصحيحين وغيرهما، في الخيل عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: البركة تنزل في نواصي الخيل[2].

وهو عند الإمام أحمد والنسائي وابن منيع وأبي داود الطيالسي عن أنس رضي الله عنه بنحوه[3].

لأن الحديثين وردا في جملة الخيل، فيكون قد أودع الله سبحانه في جملة هذا وهذا، وخص جل ثناؤه كلا بما جعل فيه من أحد الصفتين، ويكشف هذا ما ورد في الريح في قوله ﷺ: اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها... الحديث[4].

وهو في الصحيحين أيضًا عن سهل الساعدي رضي الله عنه قال قال

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، الجهاد، باب الخيل معقود في نواصيها الخير (٣/ ١٠٤٨)، ومسلم، الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير (٣/ ١٤٩٤).

(٣) أخرجه النسائي في الخيل، باب بركة الخيل (٦/ ٢٢١)، وأحمد في المسند (٣/ ١١٤)، والطيالسي في مسنده (ص ٣١٩)، وابن الجعد في مسنده (ص ٢١٢)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ١٨٧)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٥٢٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٥٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٨) كلهم من طرق عن أنس، سوى الطيالسي من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري من حديث أنس مختصرًا في الاستسقاء، باب إذا هبت الريح (١/ ٣٥٠)، ومسلم في الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح (٢/ ٦١٦)، من حديث عائشة واللفظ له.

رسول الله ﷺ: إن كان شؤم ففي المرأة والفرس والمسكن[(١)].

وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعًا: إن يكن من الشؤم شيء حقا، ففي الفرس والمسكن والمرأة[(٢)].

وروي عنه ﷺ أنه قال: لا طيرة، والطيرة على من تطير، وإن يكن شيء ففي المرأة والدار والفرس. ذكره ابن عبدالبر[(٣)].

فقالت طائفة من أهل العلم: لم يجزم النبي ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة بل علقه على الشرط فقال: إن يكن الشؤم في شيء، وفي رواية: لا شؤم فإن يكن ففي ثلاث... الحديث.

ولا يلزم من صدق [ك،١٢١/أ] الشرطية صدق كل واحد من مفردها، فقد يصدق التلازم بين المستحيلين، قالوا: ولعل الوهم وقع من تلك، وهو أن الراوي غلط وقال: إن الشؤم في ثلاثة، وإنما الحديث: إن كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة.

وقد اختلف على ابن عمر، والروايتان صحيحتان عنه، وبهذا يزول الإشكال، ويبين وجه الصواب.

وقالت الطائفة الأخرى: إضافة رسول الله ﷺ الشؤم إلى هذه الثلاثة مجاز واتساع، أي قد يحصل الشؤم مقارنًا لها، وعندها، لا هي في نفسها موجب الشؤم، وقد تكون الدار قد قضى الله تعالى أن يميت فيها خلقًا

(١) مضى تخريجه.

(٢) مضى تخريجه.

(٣) أخرجه ابن عبدالبر في التمهيد (٩/ ٢٨٤) من حديث أنس.

من عباده، كما يقدر ذلك في البلد الذي ينزل الطاعون به، والمكان الذي يكثر الوباء به، فيضاف ذلك إلى المكان مجازًا، كما يقال المكان الفلاني وبيٌّ، والله سبحانه خلقه عنده وقدره فيه، كما يخلق الموت عند قتل القاتل، والشبع والري عند الأكل والشرب[١]، فالدار التي يهلك بها أكثر ساكنيها توصف بالشؤم بهذا الاعتبار، لأن الله خصها بكثرة من قبض فيها، فمن كتب الله عليه الموت في تلك الدار حسّن إليه سكناها، وحركه إليها، كما سيق الرجل من بلد إلى بلد للأثر والبقعة التي قضي أن يدفن فيها، ولهذا عند البخاري في تاريخه، والطبراني في الكبير، وابن السني، وأبي نعيم في الطب، عن رباح بن الربيع أخي حنظلة الكاتب الأسيدي التميمي عن النبي ﷺ أنه قال: إن مصرًا ستفتح عليكم، فانتجعوا خيرها، ولا تتخذوها دارًا، فإنه يساق إليها أقل الناس أعمارًا[٢].

قالوا: وكذلك ما يوصف من طول أعمار أهل البلد، ليس من أجل الصحة في الهواء ولا طيب تربته، ولا طبع يزداد به الأجل وينقص لفواته، ولكن الله خلق ذلك المكان وقضى أن يسكنه أطول خلقه أعمارًا، فيسوقهم إليه ويحببه إليهم.

قالوا: وإذا كان هذا في الدور والبقاع، جاز مثله في الخيل

---

(١) يحترز في هذا التعبير من موافقة الأشعرية في قولهم بالعادة والكسب، ومضمونه إنكار تأثير الأسباب، انظر شفاء العليل لابن القيم ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ٧٤)، وعزاه الحافظ في الإصابة (٢/ ٤٥٠)، لابن شاهين وابن السكن وابن يونس، وقال: وقد تفرد به مطهر بن الهيثم وهو متروك.

والحديث من رواية رباح بن قصير اللخمي، وليس من رواية رباح بن الربيع الأسيدي، أشار إلى ذلك ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/ ٥٠٧)، والحافظ في الإصابة (١/ ٤٨٩).

والنساء، فتكون المرأة قد قدر الله أن تتزوج عددًا من الرجال ويموتون معها، فلابد من إنفاذ قضائه وقدره، حتى أن الرجل ليُقدم عليه بعد علمه بكثرة من مات عنها، لوجه من الطمع الذي يقوده إليها، أو رغبة فيها، حتى يتم قضاء الله وقدره النافذ، فتوصف حينئذ المرأة بالشؤم لذلك، وكذلك الفرس، ولو لم يكن لشيء من ذلك فعل ولا تأثير.

قال ابن القاسم: سئل الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى عن الشؤم في الفرس والدار فقال: إن ذلك كذب فيما نرى، كم من دار سكنها ناس [فهلكوا][1].

ومن هذا قصة عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، أخت سعيد بن زيد رضي الله عنهما، يجتمعان وعمر بن الخطاب في نفيل، وكانت تحت عبدالله بن أبي بكر الصديق لما هاجرت إلى المدينة، وكانت حسناء جميلة فطلقها بأمر أبيه، ثم رق له، فراجعها، بعدما سمعه ينشد أبياتًا فيها، وشهد الطائف فرمي بسهم فمات منه بالمدينة عنها فرثته بأبيات، فتزوجها زيد بن الخطاب فقتل عنها شهيدًا يوم اليمامة فرثته بأبيات، فتزوجها عمر بن الخطاب فقتل عنها فرثته بأبيات، ثم تزوجها الزبير بن العوام فقتل عنها فرثته، ثم خطبها علي بن أبي طالب، فقالت: يا أمير المؤمنين أنت بقية الناس، وسيد المسلمين، وإني أنفس بك على الموت، فلم يتزوجها[2].

أخرج ذلك ابن عبدالبر في قصة طويلة اختصرتها خشية الإطالة،

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٦٢). وقد وقع في الأصل: فيهلكوا.

(٢) الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٣٥٤).

وأوردها أثير الدين في أسد الغابة في أسماء الصحابة رضي الله عنهم[(١)].

وقالت طائفة ثالثة: شؤم الدار مجاورة جار السوء، وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها في سبيل الله، وشؤم المرأة أن لا تلد أو تكون سيئة الخلق.

قلت: وقد شهد لهذا التأويل ما رواه ابن مردويه الحافظ، وأبو عبدالله الحاكم في مستدركه، من طريق معاذ بن معاذ العنبري عن شعبة عن فراس عن الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب الله لهم، رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يشهد.

ثم قال الحاكم صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبي موسى وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الإسناد: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين فرفعوه كلهم[(٢)].

وقالت طائفة رابعة منهم الخطابي: هذا مستثنى من الطيرة، أي الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس أو خادم، فليفارق الجميع بالبيع والطلاق ونحوه، ولا يقيم على الكراهة والتأذي فإنه شؤم.

وقد سلك هذا المسلك [أبو] محمد بن قتيبة في مشكل الحديث لما ذكر أن بعض الملاحدة اعترض بحديث هذه الثلاثة[(٣)].

---

(١) أسد الغابة، ابن الأثير (٧/ ١٨١).

(٢) المستدرك (٢/ ٣٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٤٦).

(٣) انظر: تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة (١٦٧ـ ١٧٣).

وقالت طائفة خامسة: الشؤم بهذه الثلاثة إنما يلحق من تشاءم بها وتطير فيكون شؤمها عليه، ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير، لم تكن مشؤومة عليه، قالوا: ويدل عليه حديث أنس: الطيرة على من تطير. وقد يجعل الله تطير العبد وتشاؤمه سببًا لحلول المكروه، كما يجعل الثقة والتوكل عليه وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر المتطير منه، وسرُّ هذا أن الطيرة إنما تتضمن الشرك بالله والخوف من غيره، وعدم التوكل عليه جل وعلا والثقة به، فكأن صاحبها غرض لسهام الشر والبلاء، فيسرع نفوذها فيه لأنه لم يدّرع من التوحيد والتوكل عليه بدرع حصينة، وكل من خاف شيئًا غير الله سلطه الله عليه، كما أن من أحب مع الله غيره [ك،١٢٢/ب] عذب به، ومن رجا مع الله غيره خذل من جهته.

وهذه أمور تجربتها تكفي عن أدلتها، والنفس لابد أن تطير، ولكن المؤمن القوي الإيمان يدفع موجب تطيره بالتوكل عليه سبحانه، فإنه من توكل على الله كفاه من غيره، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٣٦] فهذه الثلاثة شؤم على من تشاءم بها وتطير بها، وأما من توكل على الله وحده لم تكن شؤمًا في حقه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٣] ولله در القائل ممن ينكر التطير من شعراء العرب:

الزجر والطير والكهان كلهم ... مضللون ودون الغيب أقفال[١]

وقال الآخر:

وما عاجلات الطير تدني من الفتى ... نجاحًا ولا عن ريثهن قصور[٢]

---

(١) البيت في فتح الباري (١٠/ ٢١٣) بلا نسبة

(٢) المصدر السابق.

وقالت طائفة سادسة: معنى الحديث إخباره ﷺ عن الأسباب المثيرة للطيرة، الكامنة في الغرائز، فأخبرنا بهذه الثلاثة لنأخذ الحذر منها، فقال: الشؤم فيها، أي: أن الله قد قدر فيها على قوم دون قوم، فخاطبهم ﷺ بذلك لما استقر عندهم منه ﷺ من إبطال الطيرة، وإنكار العدوى، ولذلك لم يستفهموه في ذلك عن معنى ما أراده، كما استفهموه عن قوله: لا يورد ممرض على مصح[1]. فقالوا عند ذاك: وما ذاك يا رسول الله فأخبرهم أنه خاف في ذلك الأذى الذي يدخله الممرض على المصح لا العدوى، لأنه أمر بالتودد واتخاذ السرور بين المؤمنين، وحسن التجاور، ونهى عن التقاطع والتباغض والأذى، فمن اعتقد أن رسول الله ﷺ نسب الطيرة والشؤم إلى شيء من الأشياء، على سبيل أنه مؤثر لذلك دون الله تعالى فقد أعظم الفرية على رسوله ﷺ، وضل ضلالاً بعيدًا، والنبي ﷺ ابتدأهم بنفي الطيرة والعدوى ثم قال: الشؤم في ثلاثة.

وبالجملة فإخباره ﷺ بالشؤم أنه في هذه الثلاثة، ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها شؤم ولا شر، كما يعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا، يريان الخير على وجهه.

قلت: كما قال تعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وكذا يعطي غيرهما ولدًا مشؤومًا يريان

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في الطب، باب لا هامة (٥/ ٢١٧٧)، ومسلم في السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر (٤/ ١٧٤٣).

الشر على وجهه، كما قال تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ٨٠- ٨١].

وكما عند ابن ماجه وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس ناسًا مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله تعالى مفاتيح الشر على يديه[(١)].

ورواه بنحوه الطبراني في الكبير، والضياء بسند صحيح مرفوعًا، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه[(٢)].

وهذه الأشياء من باب الشقاوة والسعادة، قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس: ١٢].

وهذا القول من أعدل الأقوال التي ذكرنا عن العلماء رحمهم الله تعالى، وأوفقها للأدلة والعقول الصحيحة، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله سبحانه هو خالق الخير والشر، والسعود والنحوس، فيخلق سبحانه في الأعيان سعودًا مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن له والبركة، ويخلق في بعض ذلك نحوسًا يتنحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضاء العزيز العليم وقدره، قال تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب من كان مفتاحًا للخير (١/ ٨٦)، والطيالسي في مسنده (ص ٢٧٧)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٤٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ٨٧)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ٥٢١)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٥٠).

وكما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة، فكما خلق المسك وغيره من سائر الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس، وخلق ضدها من الأرواح الخبيثة وجعلها سببًا لأذى من قاربها من الناس، والفرق بين هذين يدرك بالحس فكذلك في الديار والنساء والخيل، فهذا لون والطيرة الشركية لون.

ومن ذلك قوله ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه حين استقبلهم عمال يهود بمساحيهم ومكاتلهم: الله أكبر خربت خيبر[1].

فإن هذا من التفاؤل أيضًا، وذلك أنه رأى المساحي والمكاتل وهي من آلة الهدم والحفر، مع أن لفظ المسحاة من سَحَوْتَ إذا قشرت، فدل ذلك على خراب البلدة التي أشرف عليها فهو من ذلك، وقيل أعلمه الله تعالى والكل ممكن، كما تفاءل باستلال السيوف يوم أحد.

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام مالك وبعض أهل السنن أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله دار سكناها والعدد كثير والمال وافر، فقل العدد وذهب المال. فقال: دعوها ذميمة[2].

فإن هذا أيضًا ليس من الطيرة المنهي عنها في شيء، فإنما أمرهم بالتحول عنها لمصلحتين، مفارقتهم لمكان هم له مستثقلون ومنه يتوحشون،

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس في الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة (٣/ ١٠٧٧)، ومسلم في النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمة ثم يتزوجها (٢/ ١٠٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود في الطب، باب في الطيرة (٤/ ٢٠)، من حديث أنس، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣١٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٤٠، ومالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد منقطعًا، وصححه الحافظ في الفتح (٦/ ٦٣).

لما لحقهم فيه؛ ليتعجلوا الراحة؛ لما داخلهم من الجزع في ذلك المكان، لأن الله تعالى قد جعل في غرائز الناس استثقال ما نالهم الشر فيه، وإن كان لا سبب له في ذلك، وحبّ من جرى لهم على يديه الخير وإن لم يردهم به، فأمرهم بالتحول عما كرهوا لأن الله سبحانه بعثه رحمة ولم يبعثه عذابًا، وميسرًا لا معسرًا، فكيف يأمرهم بالمقام في مكان قد أضر بهم المقام به، واستوحشوا منه [ك،١٢٢/أ] لكثرة من فقدوا فيه لغير منفعة ولا طاعة، سيما ما وصل قلوبهم منها، فقد يبعثهم ويقودهم إلى التشاؤم والتطير، فيوقعهم في أمرين عظيمين: مقارفة الشرك، وحلول مكروه أحزنهم بسبب التطير بالتي إنما تلحق المتطير، فحماهم ﷺ بكمال رأفته ورحمته من هذين المكروهين، بمفارقة تلك الدار والاستبدال بها من غير ضرر يلحقهم في دنيا ولا نقص في دين.

وقد تقدم حديث رباح أخي حنظلة الكاتب قريبًا، وهو مما يدل على ذلك، وهو ﷺ حين فهم عنهم في سؤالهم ما أرادوه من التعرف عن حال رحلتهم هل ذلك لهم ضارّ مؤد إلى الطيرة، قال: دعوها ذميمة.

وهذا بمنزلة الخارج من أرض بها طاعون غير فار منه، ولو منع الناس الرحلة من الدار التي تتوالى عليهم فيها المصائب، وتعذر الأرزاق مع سلامة التوحيد في الرحلة، للزم كل من ضاق عليه الرزق في بلد ألا ينتقل منه إلى بلد آخر، ومن قلت فائدة صناعته في بلد ألا ينتقل منها إلى غيرها، ولهذا لما عرض له ﷺ المرور بين الجبلين مسلح ومخزيء بعدما سأل عن اسمهما، فأخبر بهما، ترك المرور بينهما، وعدل ذات اليمين، وذلك في طريقه من الصفراء يوم بدر[١].

---

(١) انظر: الروض الأنف، السهيلي (٣/ ٣٣).

وسبب تسميتهما فيما نقل الحافظ أبو بحر[1] عن الوقّشي أن عبدًا لبني غفار كان يرعى بهما غنمًا لسيده، فرجع ذات يوم من المرعى فقال له سيده لم رجعت فقال: لأن هذا الجبل مسلح الغنم، وإن هذا الآخر مخزىء فسميا بذلك[2].

وذكر ابن إسحاق أنهما الجبلان اللذان بينهما الصفراء، قرية، وأنه سأل عن أهلها فقيل بنو النار، وبنو حُراق، بطنان من بني غفار، فكرههما رسول الله ﷺ والمرور بينهما وتفاءل بأسمائهما وأسماء أهلهما فتركهما رسول الله ﷺ[3].

وعند البزار عن بريدة مرفوعًا: أنه ﷺ كان يكتب إلى أمرائه إذا أبردتم إلي بريدًا فأبردوا حسن الاسم حسن الوجه[4].

وليس هذا كله من الطيرة، وإنما هو عدول عمّا يؤذي النفوس ويشوش القلوب إلى ما هو بخلافه، كالعدول عن الاسم القبيح وتغييره بأحسن منه كما مر، فإن الأماكن فيها الميمون المبارك، وفيها المشؤوم المذموم، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وقال لموسى عليه السلام:

---

(١) هو الجاحظ، وفي تلقيبه بالحافظ نظر.

(٢) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٥/ ٧٢).

(٣) انظر: الروض الأنف، السهيلي (٣/ ٣٣).

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل من طريق طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء عن ابن عباس موفوعًا، وفيه طلحة الحضرمي قال عنه أحمد متروك الحديث، وقال ابن معين ليس بشيء (٤/ ١٠٧) وابن حبان من طريق أخرى عن عمر بن راشد اليمامي، وقال: كان ممن يروي الموضوعات، ولا يحل ذكره في الكتب إلا على سبيل القدح فيه (٢/ ٨٣).

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢]، وقال تعالى لرسوله محمد ﷺ في حال مسجد الضرار: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨].

وأمر ﷺ أصحابه ألا يستقوا من آبار ثمود إلا بئر الناقة، وقال: لا تدخلوا ديار المعذبين إلا أن تكونوا باكين[١].

فهذا في المكان. وقال في الزمان: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣].

وكما أمر بالإسراع وأسرع بالخروج من وادي محسر[٢]، وكما ارتحل عن المكان الذي أخذهم فيه النوم عن صلاة الفجر، وقال: هذا مكان حضرنا فيه الشيطان، فلما جاوزه أناخ وصلى[٣].

وقد يكون أطلع الله رسوله على شؤم ذلك المكان، وأنه مكان سوء فجاوزه إلى غيره.

وقد نص العلماء رضي الله عنهم أن بين الأسماء ومسمياتها ارتباطًا

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ (٣/ ١٢٣٧)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم (٤/ ٢٢٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في باب حجة النبي ﷺ (٢/ ٨٨٦)، وأبو داود في المناسك، باب صفة حجة النبي ﷺ (٢/ ١٨٢)، وابن ماجه في المناسك، حجة رسول الله ﷺ (٢/ ١٠٢٢)، والدارمي في سننه (٢/ ٦٧)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (ص ٣٤٠)و وابن حبان في صحيحه (٩/ ٢٥٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٦).

(٣) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار من حديث أبي هريرة (١/ ٤٠٢)، وهو في الصحيحين دون قوله «حضرنا فيه شيطان»، وأخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب الأذان بعد ذهاب الوقت (١/ ٢١٤)، ومسلم في المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة (١/ ٤٧١).

قدره العزيز العليم، وألهمه نفوس العباد وجعله في قلوبهم بحيث لا ينصرف عنها، وليس هو ارتباط العلة بمعلولها، بل ارتباط تناسب وتشاكل، اقتضته حكمة الحكيم العليم، فقلما ترى اسمًا قبيحًا إلا بينه وبين مسماه رابط من القبح، ولذلك إذا تأملت الاسم الثقيل الذي تنفر عنه الأسماع، وتنبو عنه الطباع، فإنك تجد مسماه يقارب له، أو يلمّ، أو يطابق، ومن المشهور على ألسنة الخلق أن الألقاب تنزل من السماء، فلا تكاد تجد الاسم الشنيع القبيح إلا على مسمى يناسبه، كما قيل في ذلك:

وقلّ أن أبصرت عيناك ذا لقب ... إلا ومعناه إن فكرت في لقبه[1]

والمقصود أن هذه المناسبة تنصرف إلى ما جعل الله سبحانه في طباع الإنسان وغريزته، من النفرة من الاسم القبيح المكروه وكراهته، وتطير أكثرهم به، وذلك يوجب عدم ملابسته ومجاوزته إلى غيره.

ومن هذا الباب ما رواه الإمام مالك وغيره من حفاظ الإسلام عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال مالك: عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال لرجل ما اسمك؟ فقال جمرة، فقال: ابن من؟ قال: ابن شهاب، قال: ممن؟ قال من الحرقة، قال: أين مسكنك؟، قال: بحرة النار، قال: بأيتها؟، قال: بذات لظى، قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا، قال: فكان كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].

ورواه أبو القاسم بن بشران في فوائده من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال: قال عمر بن الخطاب لرجل فذكره بنحوه[3].

---

(١) استدل به ابن القيم في زاد المعاد ولم ينسبه إلى أحد (٢/ ٣٠٧).

(٢) الموطأ، مالك (٢/ ٩٧٣).

(٣) عزاه الحافظ في الإصابة (١/ ٥٣٩) إلى ابن بشران في فوائده.

ورواه أيضًا من هذا الوجه ابن دريد في الأخبار المنثورة، وابن الكلبي وغيرهم[1].

وليس في هذا أيضًا شيء من التطير، وكيف يتطير رضي الله عنه وهو القائل في حديث اللقحة ما تقدم[2].

ولكن المعنى والله أعلم أن هذا القول كان منه مبالغة في الإنكار عليه لاجتماع أسماء النار والحريق في اسمه، واسم أبيه وجده وقبيلته ومسكنه، فوافق قوله: أدرك أهلك فقد احترقوا، قدرًا من الله، لا أنّ قوله كان السبب فيه، وكثير ما يجري مثل هذا لمن هو دون عمر المحدَّث بكثير، فكيف بالفاروق المحدَّث الملهم؟، الذي ما قال لشيء أظنه كذا إلا كان كما قال، ويقول الشيء يشير به فينزل القرآن بموافقته، فكذلك وقوع الأمر الكوني القدري موافقًا لقوله رضي الله عنه.

ففي الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أمتي محدَّث فعمر بن الخطاب».

قال ابن وهب[3] [ك،١٢٣/ب] في تفسير محدَّثون: أي ملهمون[4].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مضى تخريجه.

(٣) هو عبدالله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء، أبو محمد، إمام، فقيه، محدث، جمع بين العلم والعبادة، له كتب منها الجامع والموطأ، مولده بمصر وبها توفي سنة ١٩٧هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ٢٧٩)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٦/ ٧١).

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٤/ ١٨٦٤)، =

قلت: وقصة آية الحجاب وآية الأسارى[1]، وآية الصلاة على المنافقين بالمنع من صلاته ﷺ عليهم[2]، مشهور نزولهن بموافقته رضي الله عنه وأرضاه، وجعلنا والمسلمين ممن اتبع سلفه[3].

وقال الباجي المالكي رحمه الله تعالى: قد كانت هذه حال هذا الرجل قبل ذلك فما احترق أهله، ولكنه شيء يلقيه الله سبحانه في قلب المتفائل عند سماع الفأل، ويلقيه الله على لسانه فيوافق قدرة الله تعالى.

وقال الإمام الحافظ أبوبكر العربي المالكي في علوم القرآن له عند هذا الحديث: فجمع عليه رضي الله عنه من اسمه في قلبه ما أوجب احتراقه، وذلك كما يحصل في نفس العائن على المعين مجموع يكون فيه هلاكه أو سقمه، وإنما جاز ذلك لعمر من جمعه نفسه عليه وحكمه به فيه، للتنبيه على تحسين الأسماء واجتناب مكروهها، فإنها قاعدة شرعية، وكم اسم بدله النبي ﷺ.

قال: وهذا هو الذي يسمى التوسم، أو هو نوع منه قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: ٧٥]، وهو مأخوذ من الوسم كما تقدم وهو العلامة.

= والبخاري من حديث أبي هريرة في الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (٣/ ١٢٧٩).

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس في التفسير، البقرة (٤/ ١٦٢٩)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر (٤/ ١٨٦٥)، من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، التوبة (٤/ ١٧١٦) من حديث ابن عمر، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر (٤/ ١٨٦٥).

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٢/ ٢٥١) بتصرف يسير.

قال سلمة بن كهيل[1]: كان أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين[2] من المتوسمين. قال: والفراسة نحو منه، وهي الاستدلال بالخلْق على الأخلاق.

قلت: وقد قال في ذلك ابن الجوزي: متى رأيت الشخص معتدل الخِلْقة حسن الصورة فهو إلى الصلاح، ومتى رأيت ذا عيب فاحذره، مثل الكوسج[3] والأعور والأعمى، فقل أن ترى بأحد آفة في بدنه إلا وفي باطنه مثلها، وإذا رأيت عيبًا في شخص فلا تُلِحّن عليه بالتأديب فالطبع أغلب.

ثم قال: فتأمل بفراستك من تخاطبه وتؤدبه وتعاشره.

وقال نحو ذلك غير واحد من أهل العلم، قال شمس الدين ابن القيم: قل أن ترى آفة في بدن إلا وفي روح صاحبها آفة تناسبها، ولهذا يأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها، فقلّ أن تخطىء ذلك، ويُحكى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه في

---

(١) هو الحضرمي أبو يحيى الكوفي، من أهل الكوفة، أحد ثقات التابعين، وكان فيه تشيع قليل، توفي سنة ١٢١هـ. انظر: مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان (١/ ١١٠)، الطبقات، خليفة بن خياط (ص ١٦٣).

(٢) هو أبو جعفر الباقر، الإمام الثبت الهاشمي العلوي المدني، أحد الأعلام، سيد بني هاشم في زمنه، من فقهاء التابعين وعبادهم، مات سنة ١١٤هـ، وله ٦٣ سنة.
انظر: مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان (١/ ٦٢)، تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ١٢٤).

(٣) هو الذي عنده نقص في الأسنان، وقيل الذي لا شعر على عارضيه، وهو معرب، أصله بالفارسية كوسه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٣٥٢).

ذلك عجائب[1]، قد ينكرها من ليست له بصيرة ولا اطلاع على مثل ذلك، لأن الإنسان عدو ما جهل، وفي المثل: من جهل شيئًا أنكره.

ولما ذكر المصنف رحمه الله تعالى ما أرشد به ﷺ أمته مما تدفع به عنها الطيرة من توحيد الله سبحانه أعقبه بذكر بيانه عن الطيرة بأنها شرك، ثم بين صاحبه رضي الله عنه أن أقوى دافع لذلك عن العبد التوكل على الله تعالى، فقال: **(وعن عبدالله بن مسعود)** ابن أم عبد الهذلي رضي الله عنه **(قال: إن رسول الله ﷺ قال: الطيرة شرك، الطيرة شرك)**، قالها مرتين للتأكيد والتحذير، وإنما جعل ذلك شركًا لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعًا أو يدفع ضرًا، فكأنهم شركوا ذلك مع الله تعالى، أو هي مفضية إلى الشرك باعتقاد التأثير لغيره تعالى في الإيجاد، وهذا هو الحديث النبوي، وما بعده مدرج في الحديث من كلام ابن مسعود رضي الله عنه، وقد بينه سليمان بن حرب[2] شيخ البخاري كما حكاه الترمذي عن البخاري عنه، وذكره غيره من الحفاظ وقطعوا به، وهو قوله: **(وما منا)** أي أحد، **(إلا)** ويعتريه شيء ما منها في أول الأمر قبل التأمل، مما يعتري الإنسان من الغريزة التي ركب الله تعالى في بني آدم، التي إن تمادى معها ولم يدفعها عنه بالتوكل أوصلتْه إلى الشرك، ولهذا قال رضي الله عنه: **(ولكن الله يذهبه)** بضم الياء أول الفعل، **(بالتوكل)** على الله تعالى بحيث إنه إذا توكل على الله ومضى ولم يعمل بوفق هذا العارض الذي عنّ له لم يضره ذلك، ولم يؤاخذ بما عرض

---

(١) الروح، ابن القيم (ص ٥٣).

(٢) الأزدي الواشحي البصري، قاضي مكة، ثقة إمام حافظ، توفي سنة ٢٢٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٠/ ٣٣٠)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٢٥٠).

له، فإذا كان هذا ما يعرض لأفاضل أصحاب رسول الله ﷺ فكيف بغيرهم، وهذا فيه تسلية لنا، وقد أخبر رضي الله عنه بأن الله يذهب ذلك بالتوكل، فهو داء، ودواؤه التوكل على الله تعالى، فلو كان هذا الكلام الأخير من قول النبي ﷺ لكان المراد: وما منّا، أي الأمة، والله أعلم.

إلا أن عند أبي داود في مراسيله: أن النبي ﷺ قال: ليس عبد إلا سيدخل قلبه طيرة، فإذا أحس بذلك فليقل أنا عبد الله، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب السيئات إلا الله، أشهد أن الله على كل شيء قدير، ثم يمضي[1].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية حديثًا ولم يعزه، وكذا ابن مفلح، فقالا: وفي الحديث: ثلاث لا ينجو منهن أحد، الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك، إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض[2].

وقد مر قريبًا معزوا نحوه من مراسيل عبدالرزاق، أو هو معضل،

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء في الطيرة (٤/ ١٦٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود في الطب، باب ما جاء في الطيرة (٤/ ١٧)، وابن ماجه في الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة (٢/ ١١٧٠)، وأحمد في المسند (١/ ٣٨٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣١٣)، وابن الجعد في مسنده (ص ٨٦)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ٢٦)، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٤٩١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٤)، وقال: هذا حديث صحيح سنده، ثقات رواته ولم يخرجاه، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٩) كلهم من طرق عن ابن مسعود.

(٢) مضى تخريجه.

وله شاهد ذكرناه هناك[١].

وروى عبدالله بن الإمام أحمد في كتاب السنة من طريق أبيه عن زياد بن أبي مريم قال: خرج سعد بن مالك رضي الله عنه على جيش من جيوش المسلمين، فإذا ظبي قد سنحت فجاءه رجل من أصحابه فقال له: ارجع أيها الأمير، فقال سعد: من أي شيء تطيرت؟ أمن قرونها حين أقبلت، أم من أذنابها حين أدبرت، امض فإن الطيرة شرك[٢].

(رواه أبو داود والترمذي وجعل الترمذي آخره من قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه) كما بيناه، فقال: قال محمد بن إسماعيل، يعني صاحب الصحيح [ك،١٢٣/أ] أمير المؤمنين في الحديث، كان سليمان بن حرب ينكر هذا، ويقول هذا الحرف يعني: ومامنا إلى آخره، ليس قول النبي ﷺ، وكأنه قول ابن مسعود[٣].

قال الخطابي: قوله: ومامنا، معناه إلا من قد تعتريه الطيرة، وتسبق إلى قلبه الكراهة فيه، فحذف اختصارًا للكلام واعتمادًا على فهم السامع[٤].

(وللإمام أحمد) في مسنده **(من حديث عبدالله بن [عمرو][٥])** رضي الله عنهما مرفوعًا: **(من ردته الطيرة عن حاجته)** بعد قصدها **(فقد أشرك)**

---

(١) أحمد، المسند (٢/ ٢٢٠) من حديث ابن عمر.

(٢) السنة، عبدالله بن أحمد (١/ ٣٦١)، ورجال إسناده ثقات، سوى محمد بن عبدالله بن علاثة، قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٤٨٩) صدوق يخطىء.

(٣) الترمذي (٤/ ١٦٠).

(٤) معالم السنن، الخطابي (٤/ ٢٣٢).

(٥) في الأصل: «بن عمر» والصحيح ما تم إثباته بين معكوفتين.

لاعتقاده أنها مؤثرة من دون الله سبحانه، **(قالوا)** عند ذلك: **(وما كفارة ذلك؟ قال ﷺ: أن يقول)** أي من عرض له ذلك، **(اللهم لا خير إلا خيرك)** فأنت الجالب له والموجد، **(ولا طير إلا طيرك)** فالخير والطير عندك ومنك، **(ولا إله)** لنا **(غيرك)**[1].

(وله) أي للإمام أحمد في مسنده **(من حديث الفضل بن العباس)** رضي الله عنهما بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ، كان أكبر إخوته وبه كان يكنى أبوه وأمه، غزا مع رسول الله ﷺ مكة وحنينًا، وثبت معه يومئذ، وشهد معه حجة الوداع، وأردفه ﷺ خلفه، وله في ذلك قصة في النظر إلى المرأة حين صرف النبي ﷺ وجهه عن ذلك، وكان يكنى أبا العباس، وأبا عبدالله، ويقال كنيته أبو محمد، وزوجه النبي ﷺ وأمهر عنه، وكان وضيئًا وسيمًا جسيمًا[2].

فعنه مرفوعًا: **(الطيرة ما أمضاك)** لولاه ما مضيت **(أو ردك)**[3] عما كنت فيه ماضيًا، لولاه مضيت، وفي إسناد هذا الحديث ـ كما ذكره

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٢٠)، وابن السني في عمل اليوم الليلة (ص ٢٩٢)، والطبراني في الدعاء رقم ((١٢٧٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٥): «وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وفيه ضعف». وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٥٤).

(٢) انظر ترجمته في: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٢٠٢)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢١٣)، وفيه محمد بن عبدالله بن علاثة، قال عنه ابن حبان في المجروحين (٢/ ٢٧٩): كان ممن يروي الموضوعات عن الثقات، وقال عنه الدارقطني كما في التهذيب (٩/ ٢٧٠): متروك، وقال عنه الحافظ في التقريب (ص ٤٨٩): صدوق يخطىء، وفيه انقطاع فإن مسلمة الجهني لم يسمع من الفضل ابن العباس.

شيخ شيخ مشايخنا أبو الحسن السندي ثم المدني: عُلاثة بضم العين صدوق يخطىء، ومسلم بن كيسان الضبي الكوفي ضعيف، ذكره في شرحه لمسند الإمام أحمد رضي الله عنه، فذكر المصنف رحمه الله تعالى هذه الأحاديث في آخر باب الطيرة بيانًا لمعناها المذموم، وما تُدفع به، والله الموفق.

الباب الثامن والعشرون

باب ما جاء في حكم التنجيم

وعرّفه ابن ساعد الأنصاري[1] في إرشاده القاصد بأنه: علم الاستدلال بالشكلات الفلكية على الحوادث السفلية.

لكن الظاهر أن المراد هنا أعم من هذا كما يأتي، وأنه قسمان:

حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب معلوم بالحساب، حيث قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥].

قال المفسرون: يجريان بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما، وبه تختلف الفصول والأوقات، والليل والنهار، ويعلم به الشهور والسنون، وأوقات الحج والصوم والصلاة، وغير ذلك من آجال البيوع والتعليقات، وجميع المعاملات والمفروضات والمسنونات والمستحبات، وكذلك معرفة القبلة، فلا يوقف على معرفة أوقات ذلك وجهاته إلا من جهة الحساب[2].

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجاري ويعرف بابن الاكفاني، طبيب، باحث، ولد ونشأ في سنجار، وسكن القاهرة، وتوفي فيها سنة ٧٤٩هـ، له تصانيف منها: «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد»، و«نهاية القصد في صناعة الفصد» وغير ذلك.
انظر: الدرر الكامنة، ابن حجر (٣/ ٢٧٩)، الأعلام، الزركلي (٥/ ٢٩٩).

(٢) حكاه ابن جرير عن ابن عباس وقتادة وابن زيد ورجحه (٢٧/ ١١٥ـ ١١٦)، وابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٠٦) وعزاه إلى الجمهور وابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٧٠).

وقد قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٣٧- ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

والثاني: الذي عرفه ابن ساعد بما مر، وهو المراد عند الإطلاق وعلمه حرام، وقد يكون كفرًا إذا اعتقد صاحبه تأثير النجوم بذاتها.

قال ابن الجوزي: اعلم أن علم النجوم على ضربين:

أحدهما: مباح وتعلمه فضيلة، وهو العلم بأسماء الكواكب ومطالعها، ومساقطها، وسيرها في منازلها، والاهتداء بها إلى القبلة، وغيرها من الطرق.

والثاني: محظور وهو ما يدّعيه المنجمون من الأحكام، قال: وقد صار أهل زماننا لا يسافرون ولا يلبسون ثوبًا، ولا يعملون عملاً إلا بقول المنجم(١).

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: التنجيم كالاستدلال بالأحوال الفلكية، على الأحوال - وفي لفظ له: على الحوادث - الأرضية من السحر(٢).

---

(١) وما أشبه الليلة بالبارحة، فقد عمت البلوى بهذه المنكرات في عصرنا هذا في جميع الأمصار فالبروج والحظوظ تطالعنا صباح مساء من خلال الصحف والمجلات اليومية منها والأسبوعية، والناس ما بين مقل ومستكثر، وعز في الناس من ينكر ذلك، نسأل الله السلامة والعافية.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٢).

قال: ويحرم إجماعًا[1].

قال: وأقرّ أولهم وآخرهم أن الله يدفع عن أهل العبادة والدعاء، ببركة ذلك ما زعموا أن الأفلاك توجبه، وأن لهم من ثواب الدارين ما لا تقوى الأفلاك أن تجلبه[2].

وقد روى محدِّث الجزيرة أبو يعلى أحمد بن علي بن عمر المثنى التميمي الحافظ الثقة في مسنده، وابن عدي الحافظ عبدالله بن عدي الجرجاني[3]، والخطيب أحمد بن علي بن ثابت الفقيه[4]، في كتاب «النجوم» له، الجميع عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: «أخاف على أمتي خصلتين، تكذيبًا بالقدر وتصديقًا بالنجوم»[5].

---

(١) المصدر السابق (٣٥/ ١٩٤).

(٢) المصدر السابق (٣٥/ ١٩٦).

(٣) أبو أحمد، من أئمة الحديث الكبار، أخذ عن أكثر من ألف شيخ، له «الكامل في معرفة الضعفاء»، و«العلل»، و«أسماء الصحابة»، توفي سنة ٣٦٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٦/ ١٥٤)، الكتاني، الرسالة المستطرفة (ص ١٤٥).

(٤) أبوبكر، المعروف بالخطيب البغدادي، من كبار حفاظ الحديث، من جاء بعده عيال عليه، وكان فصيح اللهجة، عارفًا بالأدب، ولوعًا بالمطالعة، يقول الشعر، لم يترك فنًّا أو بابًا من أبواب المصطلح إلا وألف فيه، له «تاريخ بغداد»، و«الكفاية في الرواية»، و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» وغير ذلك، توفي سنة ٤٦٣هـ.
انظر: معجم الأدباء، ياقوت (١/ ٢٤٨)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٧).

(٥) أخرجه أبو يعلى في المسند (٧/ ١٦٢)، وابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٥٠)، والخطيب البغدادي في كتاب «القول في النجوم» كما في الدر المنثور (٣/ ٣٣٠) وفيه يزيد بن أبان الرقاشي، قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٥٩٩): زاهد ضعيف. وللحديث شواهد يصح بها، منها حديث أبي محجن الآتي، وقد استوفاها الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ١١٨).

ورواه ابن عساكر عن أبي محجن عمرو بن حبيب الثقفي[1] مرفوعًا ولفظه: «أخاف على أمتي من بعدي ثلاثًا: حيف الأئمة، وإيمانًا بالنجوم، وتكذيبًا بالقدر»[2].

وقوله «إيمانًا بالنجوم» أي تصديقًا باعتقاد أن لها تأثيرًا، والمراد أحد قسمي [علم][3] النجوم، وهو التأثير لا التسيير، كما مر بدلالة القرآن.

قال ذو النون المصري[4]: رأيت في بعض براري مصر كتابة، فتبينتها بذلك القلم، فوجدتها:

تدبر بالنجوم ولستَ تدري وربُّ النجم يفعل ما يشاءُ

فمن صدّق بتأثيرات النجوم مع قصور نظره عن الأسباب، هلك بلا ارتياب، وقد قال بعضهم لطلا بها في ذلك:

---

(1) أحد الأبطال شاعر مشهور، له صحبة، وهو صاحب سعد بن أبي وقاص الذي أُتي به إليه وهو سكران فحدّه، ثم سجنه بأمر عمر، ثم أطلقه بعد بلائه يوم القادسية، وكان ذلك سببًا لتوبته من الخمر. انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ١٧٣)، الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٢٣).

(2) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق كما في كنز العمال (٦/ ١٥)، وعزاه ابن حجر في الإصابة (٤/ ١٧٣) إلى الحاكم وأبي نعيم، وقال: أبو سعيد ضعيف ولم يدرك أبا محجن، وأخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤٨)، وقال الألباني في صحيح الجامع (١/ ١٠٣): صحيح.

(3) في الأصل: عِلْمي، والظاهر أنه سبق قلم.

(4) هو ثوبان بن إبراهيم، أبو الفيض، الزاهد العارف، كان عالمًا فصيحًا، حكيمًا أصله من النوبة، توفي في مصر سنة ٢٤٥هـ. انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (٢/ ٣٣)، تاريخ بغداد، الخطيب (٨/ ٣٩٣).

أطـلابَ النجـوم أَحَلْتمـونـا ... علـى خبـرٍ أرقَّ مـن الهبـاءِ

كنوزُ الأرض لم تصلوا إليها ... فكيـف وصلتـمُ علـمَ السمـاءِ

[ك،١٢٤/ب] ولما أراد علي رضي الله عنه قتال الخوارج يوم النهروان فيما قال المبرد[١] وغيره، أتقاتلهم والقمر في العقرب؟، قال: فأين قمرهم؟.

وقال له أيضًا المنجم يومًا: لا تسر في هذه الساعة، فقال: ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا للناس بعده، فمن صدّقك في قولك لا آمن أن يكون ممن اتخذ من دون الله ندا، اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، فسار ونُصر نصرًا مؤيدًا، وذلك يوم مشهور، ثم أقبل على المنجم، فقال: والله لئن بلغني أنك تنظر في النجوم أو تعمل فيها، لأخلّدنك في الحبس ما بقيتَ وبقيتُ، ولأحرمنك العطاء ما دام لي سلطان[٢].

وهذه قضية أشهر من أن تذكر، وقد ذكرناها قبل، وأن اسم المنجم مسافر بن عوف.

وما أحسن قول أبي إسحاق الشيرازي الشافعي[٣] رحمه الله تعالى:

---

(١) سبقت ترجمته ص ١٠٩٦.

(٢) أشار إلى هذه القصة باختصار الطبري في تاريخه (٣/ ١١٩)، وابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٢٩٩).

(٣) هو إبراهيم بن علي بن يوسف، ولد في فيروزآباد بفارس، مفتي الشافعية في عصره، اشتهر بقوة الحجة في الجدل والمناظرة، له تصانيف كثيرة منها المهذب في الفقه، واللمع في الأصول، توفي سنة ٤٧٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي =

لا يقدر الناس باجتهادهمُ   إلا على ما جرى به القدر[1]

وفي الحديث المرفوع: الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن.

رواه الحاكم في تاريخه، والقضاعي عن أبي هريرة[2].

وللديلمي في الفردوس من حديث أبي هريرة أيضًا يرفعه: الإيمان بالقدر نظام التوحيد[3].

وهو بالموقوف أشبه، وتقدم مثله عند الدارمي عن ابن عباس رضي الله عنهما من قوله، وكذا عند عبدالله بن الإمام في كتابه السنة، ذكرناه عنه في هذا الشرح[4].

= (١٨/ ٤٥٢)، اللباب، ابن الأثير (٢/ ٢٣٢).

(١) في الأصل: إلا على ما قد جرى..، ولا يستقيم البيت كذلك، وما أثبته هو الصواب، كما في التدوين في أخبار قزوين (١/ ٣٩٤)، وفيه أن البيت لأبي الحسن الواسطي، وقبله:

من عارض اللهَ في مشيئتهِ   فما من الدين عنده خبرُ

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٨٧)، وفي إسناده السري بن عاصم بن سهل أبو عاصم الهمداني، قال الحافظ في لسان الميزان (٣/ ١٢): «وهّاه ابن عدي وقال يسرق الحديث، وكذبه ابن خراش، ومن بلاياه حديث أبي هريرة مرفوعًا: الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن».

(٣) أخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ١١٤)و والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٥)، ثم قال بعد أن ساق الحديث وطريقًا أخرى له عن ابن عباس: «ففيهما جميعًا نظر، لا يعرفان إلا به» يقصد محمد بن معاذ البصري حيث قال عنه: «في حديثه وهم».

وقال ابن حجر في التقريب (ص ٥٠): صدوق يهم، وقال في التهذيب (٩/ ٤٠٨): أورد له العقيلي حديثاً رفعه لابن عباس: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فقال العقيلي: والصواب أنه موقوف، وقال الذهبي: هذا لا يقتضي ضعفه.

(٤) لم أعثر عليه عند الدارمي، وهو عند عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٢٢) من =

وللترمذي من حديث جابر رضي الله عنه رفعه: لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره[1].

وأصل ذلك في الصحيح[2]، وفي الحديث المرفوع: إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا.

رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود[3]، وثوبان[4] رضي الله عنهما معًا، ورواه ابن عدي عن [ابن عمر بن الخطاب][5] رضي الله عنهما وإسناده حسن[6].

= طريق عمر بن محمد عن رجل عن ابن عباس وفيه جهالة الراوي عن ابن عباس، ومن نفس الطريق أخرجه اللالكائي (٤/ ٦٢٣). وأخرجه الآجري في الشريعة (٢/ ٨٧٦) بنفس الطريق، وبطريق أخرى فيها إعضال حيث رواه من طريق عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي عن ابن عباس، وبينه وبين ابن عباس راويان فيكون معضلاً، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني في الأوسط مرفوعًا وقال: «وفيه هاني بن المتوكل وهو ضعيف». مجمع الزوائد (٧/ ١٩٧).

(١) أخرجه الترمذي، القدر، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره (٤/ ٤٥١)، وقال الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٢٧): صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٦) من حديث ابن عمر.

(٣) أخرجه الحارث في مسنده «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» (٢/ ٧٤٨)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ١٥٥).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٩٦).

(٥) في الأصل: «عن عمر بن الخطاب» والصواب «عن عبدالله بن عمر بن الخطاب» رضي الله عنهما.

(٦) أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ١٦١)، ومن طريقه أخرجه السهمي في تاريخ =

قال النووي في فتاويه: معناه فأمسكوا عن الخوض في علم النجوم، والعمل به، والتصديق للقائل به[1].

وقد أحسن الخليل بن أحمد حيث يقول:

خبِّرا عني المنجم أني ... كافر بالذي قضته الكواكبْ
عالم بأن [ما يكون و][2] ما كا ... ن قضاءٌ من المهيمن واجبْ

والمراد بهذا علم التأثير لا علم التسيير، فقد قال الزبير بن بكار: حدثني علي بن محمد ثنا عبدالله [بن محمد][3] بن حفص قال: خُصّت العرب بخصال: بالكهانة والقيافة[4] والعيافة[5] والنجوم والحساب،

= جرجان (١/ ٢٩٤)، ومن طريق آخر وبلفظ أطول من ذلك ابن حبان في المجروحين (٣/ ١١٤)، إلا أنه ذكر أن فيه يحيى بن سابق المدائني كان ممن يروي الموضوعات عن الثقات.

(١) فتاوى الإمام النووي لابن العطار: ص ١٥٧، مسألة (٣٣٥)، طبع دار الفكر، تحقيق محمود الأرناؤوط.

(٢) ما بين [ ] إضافة من لسان العرب (١٣/ ٣٦٧)، وبدونها البيت ناقص.

(٣) ما بين معكوفتين ساقط من الأصل، وتم إثباتها من الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار (ص ٣٦٢).

(٤) القيافة تتبع الآثار ومعرفتها، ومعرفة شبه الرجل بأبيه وأخيه، ومفرده قائف، والجمع قافة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٩/ ٢٩٣)، الحيوان، الجاحظ (٦/ ١٩).

(٥) العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، أو التطير بها وإن لم ير العائف شيئًا، وممن اشتهر بالعيافة من العرب بنو أسد. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٩/ ٢٦١)، الحيوان، الجاحظ (٥/ ٥٨٠).

فهدم الإسلام الكهانة وثبّت الباقي[1] بعد ذلك[2].

(وقال البخاري في صحيحه) تعليقًا: **(قال قتادة)** بن دعامة بن قتادة السدوسي أبو الخطاب البصري، الثقة التابعي المشهور بالعلم والتفسير، يقال إنه ولد أكمه: **(خلق الله هذه النجوم [الثلاث]**[3] **زينة للسماء)** أخذه رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات: ٦ ـ ٧].

ولهذا قال: **(ورجومًا للشياطين)** الذين يسترقون السمع من السماء، **(وعلامات يُهتدى بها)**، في البر، والبحر، هذا منزوع من قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. **(فمن تأول فيها غير ذلك فقد أخطأ)** في تأويله.

وتأويل كل شيء ما يؤول إليه، وليس كل تأويل مذموم، وإنما المذموم منه ما أُخطىء به مآله.

قال جرير بن الخطفى:

ولكــــل منـــزل آيـــةٍ تـــأويـــلُ

---

(١) الأدلة من الكتاب والسنة متظاهرة على تحريم التطير، ولعله يقصد الجانب الآخر من العيافة وهو التفاؤل بالأسماء والأصوات الحسنة، وقد مر معنا قبل قليل أن النبي ﷺ كان يحب الفأل، وهو أحد قسمي الطيرة كما في حديث عقبة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا...» الحديث، وقد مضى تخريجه.

(٢) الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار (ص ٣٦٢).

(٣) من صحيح البخاري (٣/ ١١٦٨) ساقطة من الأصل والمسودة.

(وأضاع نصيبه) من خبر الله ورسوله، حيث عدل عن ذلك بخطئه في التأويل، **(وتكلّف)** حينئذ بتأويله، **(ما لا علم له به)**[1]، في نجوم مخلوقة مفعولة مدبرة، تحت تدبير العزيز العليم، الذي أحسن كل شيء خلقه، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهي لا توجد معدومًا ولا تعدم موجودًا، ولا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرا، وقد روى رزين في مسند الفردوس[2] هذا الخبر عن قتادة، وقال بعد قوله «وأضاع نصيبه، وتكلف بما لا يعنيه وما لا علم له به»، وما عجز عن علمه الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام: والله ما جعل الله في نجم حياة أحد ولا رزقه ولا موته، إنما يفترون على الله الكذب، ويتعللون بالنجوم.

قال ابن مفلح: وأصل التكلف تتبع ما لا منفعة فيه، أو ما لا يؤمر به ولا يحصل إلا بمشقة، وأما ما أمر به، أو فيه منفعة، فلا وجه لذمه[3].

وقال الأصبحي[4]: قال أهل الشرع والتفسير: فمن اعتقد في النجوم غير هذا فقد ضل سواء السبيل، هذا وقد أكدت العزة الإلهية بلزوم

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في بدء الخلق، باب في النجوم (٣/ ١١٦٨)، ووصله عبد بن حميد من طريق شيبان عن قتادة به، كما قال الحافظ في الفتح (٦/ ٢٩٥)، تغليق التعليق (٣/ ٤٨٩)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٢٨) إلى عبدالرزاق، وابن جرير في تفسيره (١/ ٩١)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والخطيب البغدادي في كتاب النجوم.

(٢) كذا قال، ومسند الفردوس إنما هو للديلمي شيرويه بن شهردار كما هو معلوم، وقد نُبه إلى هذا في طرة النسخة [م]، ورزين هو العبدري السرقسطي، صاحب كتاب التجريد للصحاح الستة، توفي سنة ٥٣٥هـ.

(٣) الفروع (١/ ٤٩٧).

(٤) كذا قال، ولم نميّز من هو، وأشهر من يحمل هذه النسبة الإمام مالك بن أنس، انظر الأنساب للسمعاني (١/ ١٧٤).

نقيض القصد، كالميتة السوء في طلب علم النجوم، والفقر في طلب الكيمياء[1]، والذل في طلب السيمياء[2]، لأن الكل خروج عن حكمة الأسباب، ومعاندة لحكمة رب الأرباب، ومعارضة له في طلب الأكمل بالوهم، ويزيد الأول بالتجسس على غيبه ومملكته سبحانه.

وقد عد صاحب الإقناع[3] من العلوم المحرمة الفلسفة والشعبذة والتنجيم، والضرب بالرمل والشعير والحصا، والكيمياء وعلوم الطبائعيين، إلا الطب فإنه فرض كفاية في قول.

قال: ومن المحرم السحر والطلسمات والتلبيسات، وعلم اختلاج الأعضاء، ونسبتها إلى جعفر الصادق كذب كما نص عليه الشيخ، يعني ابن تيمية، وحساب اسم الشخص واسم أمه بالجمل، [والقول أن][4] طالعه كذا، والحكم على ذلك بفقر أو غنى، أو غير ذلك من الدلائل الفلكية على الأحوال السفلية.

وأما علم النجوم الذي يستدل به على الجهات والقبلة وأوقات

---

(١) هو علم يتوصل به إلى دراسة العناصر المكونة للأشياء، بحيث تسلب الجواهر المعدنية خواصها، وإفادتها خواصًا لم تكن لها. انظر: مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده (١/ ٣١٧)، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية (ص ١٤٢).

(٢) علم يطلق على غير الحقيقي من السحر كما هو مشهور، وحاصله إحداث أمثلة خيالية في الجو لا وجود لها في الحس، ولا حقيقة لها، وإنما هي من باب الخيال. انظر: مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده (١/ ٣١٦).

(٣) هو العلامة المحقق موسى بن أحمد الحجاوي المقدسي، بقية المجتهدين والمعول عليه في مذهب أحمد في الديار الشامية، توفي سنة ٩٦٨هـ. انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، ابن بدران (ص ٢٣٩).

(٤) كلمة غير مقروءة، ولعل الصواب ما أثبت.

الصلوات ومعرفة أسماء الكواكب لأجل ذلك، فمستحب كالأدب.

والمكروه: كالمنطق.

ومن المباح: علم الهيئة والهندسة والعروض والمعاني والبيان والله أعلم[١].

(انتهى) يعني ما في البخاري عن قتادة، كما ذكر المصنف ورواه أيضًا متصلاً إلى قتادة ابن جرير، وابن أبي حاتم، ولفظهما عنه: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال:

خلقها الله زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلاملات يهتدى بها، فمن تأول غير ذلك، فقد قال برأيه وأخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به[٢].

وقد نفى النبي ﷺ التكلف عن نفسه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص: ٨٦].

فالتكلف مذموم قولاً وفعلاً، حتى كره الصحابة ذلك من أنفسهم، حيث قال أبو عبيد القاسم بن سلام ثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٣١] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأبّ، ثم رجع إلى نفسه، فقال إن هذا لهو التكلف يا عمر[٣].

---

(١) انظر كشاف القناع (٣/ ٣٤).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٢٩/ ٣)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣/ ٣٢٨).

(٣) أخرجه مختصرًا البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من السؤال =

وقال محمد بن سعد في طبقاته ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال: كنا عند عمر بن الخطاب، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ فقال: هذه الفاكهة فما الأبّ، ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدري به[1].

وصح في هذا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ضروب[2]، وهذا يبين أن التكلف هو تتبع مالا منفعة فيه؛ إذ هو محمول على أنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأبّ، وإلا فكونه نبتًا من الأرض ظاهر، [١٢٤/أ] لا يجهله من [دونهما][3] فضلاً عنهما لقوله تعالى في ذلك: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضۡبًا ۝٢٨﴾ الآية [عبس: ٢٧-٢٨] فالاعتبار وطلب الشكر على ذلك حاصل من دون معرفة كيفية الأبّ، فلم يبق إلا التكلف بتتبع ما لا منفعة فيه.

وقد قال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي[4] في فتح عمورية فيما

= (٦/ ٢٦٥٩) مقتصرًا على قوله «نهينا عن التكلف» وحذف القصة، وأخرجه الدارقطني في العلل (٢/ ١٢٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٩)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٤٥٨)، والمزي في تهذيب الكمال (٢١/ ٥).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٣٢٧)، وعبد بن حميد في التفسير، وأبو نعيم في المستخرج كما في الفتح (١٣/ ٢٧١)، وانظر تخريج الحديث السابق.

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن إبراهيم النخعي ومن وجه آخر عن إبراهيم التيمي كما في الفتح، والإسنادان منقطعان، قال الحافظ (١٣/ ٢٧١): «لكن أحدهما يقوي الآخر».

(٣) في الأصل: «ونهما» بسقوط الدال، والمثبت من المسودة.

(٤) شاعر أديب، ولد في جاسم إحدى قرى الشام، قدمه المعتصم العباسي على شعراء وقته، توفي سنة ٢٣١هـ، له تصانيف منها «فحول الشعراء»، و«ديوان الحماسة»، =

يناسب لهذا المقام، من مادة التنجيم:

أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذبِ

تخرصًا وأحاديثًا ملفقةً ... ليست بنبعٍ إذا عدت ولا غربِ

عجائبًا زعموا الأيام [مُجفلة][1] ... عنهنّ في صفر الأصفار أو رجبِ

وخوفوا الناس من دهياء مظلمةٍ ... إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنبِ

فصيروا الأبرج العليا مرتبة ... ما كان منقلبا أو غير منقلبِ

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قطبِ

لو بَيَّنَتْ قطُّ أمرا قبل موقعه ... لم يخف ما حل بالأوثان والصلُبِ

(**وقد كره قتادة**) بن دعامة المذكور (**تعلّمَ منازل القمر**) التي هي الثمانية والعشرون منزلاً، مخافة التشاؤم على متعلمها، وأن يتعدى ما رُخّص فيه، (**ولم يرخص سفيان بن عيينة فيه**). أي في هذا العلم أو في هذا الشأن، والمعنى أنه لم يرخص في تعلمها مخافة ذلك الذي ذكرنا، وسدا للذريعة عن التوهم الداخل على متعلمها، (**ذكره حرب**) بن إسماعيل الكرماني[2] صاحب الإمام أحمد، (**عنهما**) في مسائله، (**ورخص في تعلم منازله**) الثمانية والعشرين التي ينزلها في سيره من

= و«الوحشيات» ديوان شعره.

انظر: خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٣٤٦)، الأعلام، الزركلي (٢/ ١٦٥).

(١) في الأصل: مخلفة، والتصويب من الديوان (١/ ٤٣).

(٢) أبو محمد، فقيه محدث، من تلاميذ أحمد، له عنه مسائل، مات سنة ٢٨٠هـ. انظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٣٥٤)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٣/ ٢٤٤).

المغرب إلى المشرق الإمام المبجل، والحبر المفضل، الذي أجمعت الأمة على عدالته وإمامته وأمانته وزهده وديانته، أبو عبدالله **(أحمد)** بن محمد بن حنبل الشيباني، من شيبان بن ذهل الأكبر، لا شيبان بن ثعلبة الأصغر، يلتقي نسبه بنسب النبي ﷺ في نزار بن معد.

قال الربيع بن سليمان قال لنا الشافعي رضي الله عنه: أحمد بن حنبل إمام في ثمان خصال، إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر(١)، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة، ولما قدم مصر من العراق قال: ما خلفت بالعراق أحداً يشبه أحمد بن حنبل(٢).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: أحمد بن حنبل إمامنا، إني لأتزين بذكره.

وقال أبوبكر الأثرم(٣): كنا عند أبي عبيد وأنا أناظر رجلاً عنده، فقال الرجل: من قال بهذه المسألة؟ فقلت: من ليس في شرق ولا غرب مثله، قال: من؟ قلت: أحمد بن حنبل، فقال أبو عبيد: صدق من ليس في شرق ولا غرب مثله، ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة منه.

---

(١) لعله يقصد في إظهار الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى.

(٢) انظر: مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي (ص ١٤٦)، وما بعدها، وجميع النقول الآتية منه.

(٣) هو أحمد بن محمد بن هاني الطائي، من كبار أصحاب أحمد، كان إمامًا جليلاً حافظًا، مات بعد ٢٦٠هـ. انظر: طبقات الحنابلة، أبو يعلى (١/ ٦٦)، المنهج الأحمد، العليمي (١/ ٢١٠).

وعن إسحاق بن راهويه أنه قال: أحمد بن حنبل حجة بين الله وبين عباده في أرضه.

وعن أبي زرعة عبيدالله بن عبدالكريم الرازي[١] قال: ما رأت عيني مثل أحمد بن حنبل في العلم والزهد والفقه والمعرفة وكل خير، ما رأت عيناي مثله.

وعن أبي داود[٢] صاحب السنن قال: رأيت مئتي شيخ من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل، لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس، فإذا ذكر العلم تكلم.

وعن علي بن المديني[٣] أنه قال: إن سيدي أحمد بن حنبل، أمرني ألا أحدث إلا من كتاب.

وعن عبدالوهاب الوراق[٤] أنه قال: لما قال النبي ﷺ وما جهلتم

---

(١) من أئمة الجرح والتعديل، ومن كبار الحفاظ، ممن لازم أحمد وروى عنه مسائل كثيرة، كان محبًا للسنة شديدًا على أهل البدع، توفي سنة ٢٦٤هـ. انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (١٠/ ٣٢٦)، العبر، الذهبي (٢/ ٢٨).

(٢) هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني، ثقة حافظ، له السنن وغيرها، من كبار العلماء، مات سنة ٢٧٥هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ١٥٢)، تاريخ بغداد، الخطيب (٩/ ٥٥).

(٣) أبو الحسن، الحافظ المبرز، إمام الجرح والتعديل، من أصحاب أحمد ومحبيه، وكانت وفاته في سنة ٢٣٤هـ. انظر: الجرح والتعديل، الرازي (٦/ ١٩٣)، ميزان الاعتدال، الذهبي (٣/ ١٤٠).

(٤) هو عبدالوهاب بن عبدالحكم الوراق، أبو الحسن، صحب أحمد وسمع منه، كان ذا علم وصلاح وعقل، وكان أعلم أهل زمانه، صاحب سمت وهيبة، توفي سنة =

فردوه إلى عالمه، رددناه إلى أحمد بن حنبل.

وعن إسحاق بن راهويه أيضًا قال: سمعت يحيى بن آدم[1] يقول: أحمد بن حنبل إمامنا[2].

وعن أحمد بن المبارك قال: قال محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري[3] قد جعلت أحمد بن حنبل إمامًا بيني وبين الله تعالى.

وعن أحمد بن علي الأبار قال سمعت سفيان بن وكيع[4] يقول: أحمد بن حنبل محنة[5]، من عاب عندنا أحمد فهو فاسق.

وعن الحسن بن حسن الرازي أنه قال سمعت عمرو بن محمد بن

= ٢٥٠هـ. انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى (١/ ٢٠٩)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ١٤١).

(١) الأموي مولاهم، أبو زكريا، أحد الأئمة الأعلام، روى عنه الإمام أحمد وإسحاق، وروى عنه أحمد، توفي سنة ٢١٠هـ. انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى (١/ ٣٩٩)، المنهج الأحمد، العليمي (١/ ١١٩).

(٢) المقصد الأرشد، ابن مفلح (٣/ ٨٦).

(٣) أبو عبدالله النيسابوري، من أصحاب الإمام أحمد، وحدث عنه. انظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٥٣٤)، المنهج الأحمد، العليمي (١/ ١١٩).

(٤) هو سفيان بن وكيع بن الجراح، ذكره الخلال فيمن روى عنه أحمد، ضعفه الذهبي، توفي سنة ٢٤٣هـ. انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلة (١/ ١٧٠)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٤٣١).

(٥) بمعنى أن من يطعن في الإمام أحمد أو يبغضه، فبسبب دفاعه عن السنة وموقفه الواضح من أهل الزيغ والابتداع، وهذا هو شأن أئمة أهل السنة إلى زماننا هذا، فلا يعيبهم إلا ضال مبتدع.

محمد الناقد[1] يقول: إذا وافقني أحمد بن حنبل على حديث فلا أبالي من يخالفني.

وعن المروذي قال: حضرت أبا ثور إبراهيم بن خالد[2]، وقد سئل عن مسألة، فقال: قال شيخنا، وإمامنا، أحمد بن حنبل: كذا وكذا.

وعن العباس بن محمد الدوري قال: سمعت يحيى بن معين يقول: أراد الناس أن أكون مثل أحمد بن حنبل، لا والله ما أكون مثله، وهكذا قال زهير بن حرب[3] نحوه.

وعن إبراهيم بن هاني[4] النيسابوري قال صليت مع بشر بن الحارث[5] فجعلت أرفع في الصلاة، فلما سلم الإمام قال: يا أبا

---

(١) أبو عثمان البغدادي، من أوعية العلم، إمام حافظ حجة، من الحفاظ المعدودين، مات سنة ٢٣٢هـ ببغداد. انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٧/ ٣٥٨)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١١/ ١٤٧).

(٢) الإمام الحافظ الحجة، مفتي العراق، كان أحد أئمة الدنيا فضلاً وعلمًا وورعًا، صنف الكتب، وفرع على السنن، وذب عنها، توفي سنة ٢٤٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٢/ ٧٢)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٦).

(٣) أبو خيثمة الخرشي النسائي، ثم البغدادي، الحافظ الحجة، أحد أعلام الحديث، جمع وصنف وبرع في هذا الشأن، مات سنة ٢٣٤هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١/ ٤٨٩)، التاريخ الصغير، البخاري (٢/ ٣٦٢).

(٤) أبو إسحاق الأرغياني، الإمام، الحافظ، القدوة، العابد، من كبار تلامذة أحمد في الفقه والفضل، مات سنة ٢٦٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٣/ ١٧)، تهذيب ابن عساكر، ابن بدران (٢/ ٣٠٧).

(٥) أبو نصر المروزي، ثم البغدادي، المشهور بالحافي، الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة، شيخ الإسلام كان رأسًا في الورع والإخلاص، مات سنة ٢٢٧هـ. انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٧/ ٣٤٢)، العبر، الذهبي (١٠/ ٤٦٩).

إسحاق العجب منك ومن صاحبك أبي عبدالله أحمد بن حنبل ترفعون في الصلاة. حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم أنه كان يأمرنا بإرسال اليدين في الصلاة، قال: فرجعت إلى أحمد، فقلت: يا أبا عبدالله أبو نصر يقول: وذكرت ما حدثه، فقال أبو عبدالله: سبعة عشر من أصحاب رسول الله ﷺ رفعوا، ثم قرأ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] الآية، ثم قال: الرفع زين الصلاة.

قال: فرجعت إلى بشر فأخبرته، فقال: ومن أنا من أبي عبدالله مرتين، ذلك أعلم مني، مرتين يرددها(١).

[ك،١٢٥/ب] وعند شيخ الإسلام الأنصاري وابن ناصر وابن الجوزي عن إبراهيم بن إسحاق الحربي قال سمعت بشر بن الحارث يقول: سمعت المعافى بن عمران يقول: سئل سفيان الثوري عن الفتوة(٢) فقال: الفتوة

---

(١) مناقب أحمد، ابن الجوزي (ص ١٥٩)، وكذا ما سبق من أقوال العلماء في الثناء على الإمام الأحمد كله من هذا المرجع ص١٤٣ وما بعدها.

(٢) الفتوة لغة: السخاء والكرم، قال الجوهري في الصحاح (٦/ ٢٤٥٢): الفتى: السخي الكريم، يقال: هو فتى بين الفتوة، وقد تفتى وتفاتى والجمع فتيان وفتية.

واستعمال الفتى بمعنى المتصف بمكارم الأخلاق، موجود في كلام كثير من الأئمة المتقدمين منهم سفيان الثوري وكلامه هو النص الذي بيننا.

ونقل شيخ الإسلام في الفتاوى (١١/ ٨٤) عن أبي إسماعيل الأنصاري قوله: الفتوة أن تقرب من يقصدك، وتكرم من يؤذيك، وتحسن إلى من يسيء إليك، سماحةً لا كظمًا، وموادةً لا مصابرةً.

ونقل أيضًا عن الإمام أحمد قوله: الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى.

ونقل ابن القيم في روضة المحبين (ص ٤٨٢) عن الحسن بن علي المطوعي قوله: صنم كل إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة.

ونقل في مدارج السالكين (٢/ ٣٤٠) عن الإمام أحمد وجعفر الصادق والفضيل =

العقل والحياء، ورأسها الحفاظ، وزينتها الحلم والأدب، وشرفها العلم والورع، وحليتها المحافظة على الصلاة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وبذل المعروف، وحفظ الجار، وترك التكبر، ولزوم الجماعة، والوقار، وغض الطرف عن المحارم، ولين الكلام، وبذل السلام، وبر الفتيان العقلاء اللذين عقلوا عن الله أمره ونهيه، وصدق الحديث،

= اين عياض وسهل بن عبدالله وغيرهم مثل ذلك وعرفها بقوله: هي استعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق.

ثم قال: «هذه منزلة شريفة لم تعبر عنها الشريعة باسم الفتوة بل عبرت عنها باسم مكارم الأخلاق كما في قوله ـ ﷺ ـ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ولم يُعرف عن السلف استعمالهم اسم «الفتوة»، وإنما استعمله من بعدهم في مكارم الأخلاق.

والفتوة من المصطلحات الحادثة التي يتداولها المتصوفة، وقد أوردها الكاشاني في معجم اصطلاحات الصوفية (ص ٢٦١) فقال: الفتوة: طهارة القلب من غواشي النشأة، والرجوع إلى صفاء الفطرة حتى يتصف بالعدالة التي هي جماع الفضائل الخلقية، وظل الوحدة الحقيقة، ويتنزه عن الرذائل النفسية، والألوان الطبيعية.

وقريب من ذلك عرفها المناوي في التعاريف (ص ٥٥٠) ولها عندهم شروط وطقوس معينة منها ما له أصل في الشرع، ومنها مبتدع لا أصل له، وهذا هو شأن أهل البدع يشوبون بدعهم بشيء من السنة، كما يفعلون بلباس الفتوة، يلبسونه في اجتماع خاص ويديرون بينهم في مجلسهم شربًا فيه ملح وماء، وينسبون هذه الطقوس إلى علي ابن أبي طالب رضي الله عنه زورًا وبهتانًا، وقد سئل شيخ الإسلام عن ذلك في مجموع الفتاوى (١١/ ٨٧) فقال: هذا باطل لا أصل له ولم يفعل هذا رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه لا علي ولا غيره، ولا من التابعين لهم بإحسان.

وفي (١١/ ٨٤) قال: فمن دعا إلى ما دعا إليه الله ورسوله من مكارم الأخلاق كان محسنًا سواء سمى ذلك فتوة أو لم يسمه، ومن أحدث في دين الله ما ليس منه فهو رد.

ثم قال: والغالب أنهم يدخلون في الفتوة أمورًا ينهى عنها، فينهون عن ذلك، ويؤمرون بما أمر الله ورسوله، كما ينهون عن الإلباس، والإسقاء، وإسناد ذلك إلى علي رضي الله عنه وأمثال ذلك.

واجتناب الحلف والأيمان، وإظهار المودة، وإطلاق الوجه، وإكرام الجليس، والإنصات للحديث، وكتمان السر، وستر العيوب، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، والوفاء بالعهد، والصمت في المجالس من غير عي، والتواضع من غير حاجة، وإجلال الكبير، والرفق بالصغير، والرأفة والرحمة للمسلمين، والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، وكمال الفتوة الخشية لله تعالى، فينبغي للفتى أن تكون فيه هذه الخصال، فإذا كان كذلك، كان فتى بحق.

قال بشر: وكذلك أحمد بن حنبل فتى، لأنه قد جمع هذه الخصال كلها.

وقد قال فيه إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري عند القول في ألفاظ العباد بالقرآن قال: فلا أثر فيه نعلمه عن صحابي مضى، ولا عن تابعي قفى، إلا عمن في قوله الغناء والشفاء رحمة الله عليه، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم قوله لدينا مقام قول الأئمة الأول، أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه، ثم ذكر قوله في ذلك.

وشهرة إمامته وسيادته وبراعته، وزهادته وعلمه ومجموع محاسنه تنبىء عن ذلك كله، فمحاسنه كالشمس إلا أنها لا تغرب ولا تكسف، رضي الله عنه وحشرنا في زمرته[1]، أتت به أمه حملاً من مرو، وولدته في بغداد في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وتوفي ببغداد يوم الجمعة، لنحو من ساعتين من النهار، لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، سنة إحدى وأربعين ومائتين، والمشهور من ربيع الآخر،

---

(١) الأولى ألا يدعو الإنسان بمثل هذا الدعاء إلا لمن شُهد له بالجنة، كالخلفاء الأربعة، وبقية العشرة المبشرين بالجنة، وغيرهم من الصحابة المشهود لهم بالجنة.

ومصنفاته مشهورة، وقد قال علماء أهل الحديث والسنة: أحمد بن حنبل محنة لأهل البدع، من عاب أحمد فهو مبتدع لكراهته ما هو عليه من السنة(١).

(وإسحاق) هو ابن إبراهيم بن مخلد أبو محمد بن راهويه الحنظلي المروزي التميمي، الثقة الثبت الحافظ، قرين الإمام وصاحبه، يلتقي نسبه بنسب النبي ﷺ في إلياس بن مضر.

قال عماد الدين بن كثير: كان(٢) إسحاق بن راهويه إماماً متبعاً، له طائفة يقلدونه ويجتهدون على مسلكه رحمه الله تعالى، يقال لهم الإسحاقية.

وقد قال قتيبة بن سعيد(٣) ـ وناهيك به ـ: أحمد بن حنبل وإسحاق ابن راهويه إماما الدنيا، وكان حرب ينقل كثيرًا في مسائله عن إسحاق وكان من أعلام الحفاظ، توفي في سنة ثمان وثلاثين ومائتين عن بضع وسبعين سنة، ولم يخلف بخراسان مثله، إذ هو مروزي نزيل نيسابور، رحل إلى العراق والحجاز واليمن والشام وعاد إلى خراسان، اجتمع له الحديث والفقه والحفظ، والصدق والورع والزهد، فهو من أئمة المسلمين

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١١/ ١٧٧)، مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي، المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٦٤)، وترجمته في تاريخ بغداد للخطيب مطولة (٤/ ٤١٢ـ ٤٢٣).

(٢) (كان) ساقطة من [ك].

(٣) الثقفي، مولاهم، شيخ الإسلام، المحدث الإمام، راوية الإسلام، أبو رجاء، ويقال إن قتيبة لقب وأن اسمه يحيى أو علي بن سعيد، من شيوخ الإمام أحمد، مات سنة ٢٤٠هـ، وله تسعون سنة. انظر: الطبقات، خليفة بن خياط (ص ٣٢٤)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١١/ ١٣).

وعلماء الدين.

قال الدارمي: ساد إسحاق أهل المشرق والمغرب بصدقه[1].

قال الإمام أحمد: إسحاق من أئمة المسلمين[2].

وقال ابن خزيمة[3]: لو أن إسحاق كان في التابعين لأقروا له؛ لحفظه وعلمه وفقهه[4].

وقال الإمام أحمد أيضًا: إذا حدثك إسحاق أمير المؤمنين فتمسك به[5].

وعن إسحاق أنه قال: أعرف مكان مائة ألف حديث كأني أنظر إليها، وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلب، وأحفظ أربعة آلاف حديث مزورة. فقيل له ما معنى حفظ المزور؟ قال: إذا قُرىء منها حديث في الأحاديث الصحيحة فليته منها فلياً[6].

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي (١١/ ٣٧١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة، الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة، أبو بكر السلمي، إمام نيسابور في عصره، فقيه محدث مجتهد، تزيد مصنفاته على ١٤٠ منها «التوحيد وإثبات الصفات»، و«الصحيح»، توفي سنة ٣١١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٤/ ٣٦٥)، تاريخ جرجان، السهمي (ص ٤١٣).

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي (١١/ ٣٧١).

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق (١١/ ٣٧٣).

وقد روى عنه الجماعة سوى ابن ماجه، فبما ذكرنا صار إمامًا يقتدى به[1]، وحق له ذلك.

وتلك المنازل التي رخصا هما وغيرهما في تعلمها، مقسومة على اثني عشر برجًا، لكل برج منها منزلتان وثلث، وعليها سير الشمس، والقمر، وباقي السبعة السيارة وهي المنطقة[2]، ولهذا قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [يونس: ٥]، وقال: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس: ٣٩]، وقال جل ثناؤه وتقدست أسماؤه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ وهي القصور ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الفرقان: ٦١] فالقول بالرخصة في ذلك اقتداء بهذين الإمامين الجليلين المفضلين، وغيرهما ممن لا يحصى كثرة من كبار علماء السلف رضي الله عنهم، ولما ظهر من الدليل من كتاب الله العزيز، هو الصحيح إن شاء الله تعالى، لما في ذلك من المصالح الدينية والدنيوية، وبه تعرف ساعات الليل والنهار، فلولا ذلك لما عرف ثلث الليل الآخر، وغير ذلك مما ندب الله ورسوله إليه، فالمرخص حينئذ في تعلمه إنما هو علم التسيير، لا علم التأثير المذموم، فإنه باطل محرم قليله وكثيره، وهو الذي ورد النهي فيه.

---

(١) انظر: ترجمته: التاريخ الكبير، البخاري (١/ ٣٧٩)، الجرح والتعديل، الرازي (٢/ ٢٠٩)، تاريخ بغداد، الخطيب (٦/ ٣٤٥)، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (٢/ ٢٩٠).

(٢) فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٢٩٩).

قال الزمخشري[1]: كان علماء بني إسرائيل يكتمون علمين عن أولادهم، علم النجوم والطب، لئلا يكون سببًا لصحبة الملوك، فيضمحل دينهم.

وقاله ابن الجوزي رحمه الله: إذ بناء كلا العلمين على النجوم.

فعند ابن مردويه في التفسير، والخطيب في كتاب النجوم له، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، ثم انتهوا[2].

إلا أن عبدالحق[3] قال فيه: ليس إسناده مما يحتج به، وقال ابن القطان[4] فيه من لم أعرفه، ورواه ابن زنجويه من طريق آخر صالح.

---

(١) العلامة، كبير المعتزلة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، صاحب «الكشاف» و«الفائق» و«المفصل»، كان رأسًا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان والأنساب وكان داعية إلى الاعتزال، سامحه الله، مات سنة ٥٣٨هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢/ ١٥١)، المنتظم، ابن الجوزي (١٠/ ١٢).

(٢) عزاه الحافظ في تلخيص الحبير (٢/ ١٨٧) إلى حرب الكرماني، والسيوطي في الجامع الصغير وزيادته إلى ابن مردويه في التفسير والخطيب في كتاب النجوم، وأورده الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢/ ٣٥).

(٣) هو أبو محمد عبدالحق بن عبدالرحمن الإشبيلي، المعروف بابن الخراط، كان فقيهًا حافظًا عالمًا بالحديث وعلله، عارفًا بالرجال، موصوفًا بالخير والصلاح ولزوم السنة، له «الأحكام الكبرى» و«الصغرى» و«الجمع بين الصحيحين» توفي ببجاية بعد محنة نالته من الدولة سنة ٥٨١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢١/ ١٩٨)، فوات الوفيات، ابن شاكر (٢/ ٢٥٦).

(٤) هو القاضي أبو الحسن علي بن محمد الحميري، الفاسي، المعروف بابن القطان، الإمام الحافظ العلامة، كان من أعلم الناس بصناعة الحديث، روايةً ورجالاً، له تصانيف منها «بيان الوهم والإيهام» انتقد به كتاب «الأحكام الكبرى» لعبدالحق الاشبيلي، =

قال ابن رجب: علم التسيير جائز عند الجمهور[1].

ومر نحوه من كلام ابن الجوزي، فتلك المنازل المذكورة هي المقسومة على اثني عشر [برجًا][2] المعلومة، فالمنازل هي المنطقة، أولها النطح وآخرها الرشا، والبروج أولها الحمل بفتح الحاء والميم، وآخرها الحوت، عليها سير السبعة السيارة، مع اختلاف سرعة سيرها إلى المشرق وبطئه، لأن كلاً منها له فلك يخصه كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، تقطعها منازل على اختلاف سيرها إلى المشرق بتقدير العزيز العليم، ولما قرأ بعض السلف [ك،١٢٥/أ] قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] قال: ويل لمن قرأها ثم مسح بها سبلته[3].

والمعنى بأن يترك التأمل فيها، ويقتصر في فهم السماء على اللون وضوء الكواكب، دون أن يعرف اختلاف أفلاكها، وأنها مسخرة بأمر الله تعالى لمصالح عباده وبلاده، ويظن أن ذلك يقدح في الشرع، لنهي النبي ﷺ عن الاشتغال بعلم النجوم، فذلك لون وهذا لون، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

= توفي سنة ٦٢٨هـ، وهو على قضاء سجلماسة. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٢/ ٣٠٦)، شذرات الذهب، ابن العماد (٥/ ١٢٨).

(١) انظر: فضل علم السلف على علم الخلف، ابن رجب (ص ٣٤).

(٢) في الأصل: البرج، والمثبت هو الصواب.

(٣) سبلة الرجل: شاربه، وقيل غير ذلك، انظر اللسان (٣٢١).

شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦١ـ ٦٢]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج: ١] ومحال أن يرشد الله الخلق إلى التفكر في شيء لا يعلم بالفكرة عند تصريف الله سبحانه له.

فعند محمد بن طاهر بن علي المقدسي(١)، في كتاب الحجة على تارك المحجة، بسنده عن أبي هريرة مرفوعًا: بينا رجل مستلق ينظر إلى النجوم وإلى السماء، فقال: والله إني لأعلم أن لك خالقًا وربًا، اللهم اغفر لي، قال: فنظر الله إليه فغفر له.

فمن تفكر وتدبر في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، بدوران الأفلاك وإحكام صنعتها، بعين بصره وبصيرته زاده ذلك شكرًا وتوحيدًا وإيمانًا، وعلم أن صانع ذلك هو الإله وحده، فاكتفى به وكفى بالله وكيلاً، وإنما المنهي عنه أن يعتقد أنها فعالة لآثار مستقلة بها، تعالى الله وتقدس عن ذلك علوًا كبيرًا، وبأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبرها الذي خلقها وقهرها، وأودع فيها ما أودع، فهذا كفر يخرج من الملة، أو يعتقد تصديق ما يقوله المنجم من علم الغيب الذي استأثر الله به، فهذا باطل، إذ لا يعلم ما في غد إلا الله، فإذا قال الإنسان: قد أجرى الله سبحانه العادة، أنه متى حلت الشمس في البرج الفلاني كان الحر وكذا في البرد، لم يكن الإنسان بذلك مخطئًا، لأنه يخبر عنها بأن له من علم الله تعالى مما أجراه من علامة في ذلك، ما لم ينسب ذلك الفعل لغير الفاعل جل وعلا، فحينئذ يقع المحذور أعاذنا الله والمسلمين من ذلك.

---

(١) سبقت ترجمته ص ١١١٥.

وما يذكره المنجمون من وصف الكواكب، من أن النيرين والزهرة والمشتري سعد، وزحل والمريخ نحس، وعطارد سعد مع السعد ونحس مع النحس، فإنما قالوا ذلك ليثبتوا عليه الأحكام النجومية التي يزعمون برأيهم الفاسد في علم التأثير المنهي عنه، وذلك من أنواع الشرك نعوذ بالله من ذلك، كما صنف في ذلك من صنف حتى وصل به الأمر إلى مخاطبة النجوم، وكذلك ما يذكرونه في بعض الأيام أو الأشهر أنه نحس ونحو ذلك، فينبغي للمؤمن أن يتحصن بتقوى الله تعالى ويتوكل عليه، ولا يلتفت إلى غير الله سبحانه من خرافات أهل الباطل، إذ جميع ما يصدر إنما هو من الله جل وعلا، فهو المكون المقدر لا يخرج شيء عن إيجاده وقدره وقضائه الكوني.

وقد ذكر بعض أهل العلم منهم السهيلي عن أهل الحساب أنهم قالوا: إن مولد النبي من الشهور الشمسية، كان في نيسان لعشرين مضت منه، ومن المنازل في الغفر[١].

وقد سئل إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه عن الحجامة، والاطّلاء يوم الأربعاء ويوم السبت، فقال: لا بأس بذلك ما لَم يرد نهي عن النبي ﷺ، فقيل له: تفعله؟ فقال: نعم، وأكثره وأتعمده، ليس يوم إلا وقد احتجمت فيه، ولا أكره فيه حجامةً ولا طلاءً ولا نكاحًا ولا سفرًا.

قال العلامة ابن رشد المالكي[٢]: أصل تطير الناس من يوم

---

(١) الروض الأنف، السهيلي (١/ ١٨٤).

(٢) هو محمد بن أحمد بن رشد، أبو الوليد، قاضي قرطبة، من أعيان المالكية، وهو =

الأربعاء، ما جاء أنه أول الأيام النحسات التي أهلك الله فيها عادًا، وأصل تطيرهم من يوم السبت أن بني إسرائيل لما عدوا فيه مسخهم الله فيه قردة وخنازير.

وروي: «إنّ يوم الأربعاء يوم نحس مستمر» في حديث لا يصح[1].

ففي مسند الإمام أحمد بإسناد كلهم ثقات عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دعا يوم الأحزاب يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء بين الظهر والعصر.

قال جابر: فما نزل بي أمر مهم غائض إلا توخيت ذلك الوقت، فدعوت الله فيه فرأيت الإجابة[2].

ورواه عنه البزار وغيره.

وأما تشاؤم أهل الجاهلية بشوال فقد قيل إن أصل ذلك أن طاعونًا وقع في شوال في سنة من السنين فمات فيه كثير من العرائس، فتشاءموا بذلك، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: ما تزوجني رسول الله ﷺ إلا في شوال، فمن أحظى عنده مني؟[3].

= جد الفيلسوف ابن رشد، له تآليف منها «المقدمات والممهدات»، و«البيان والتحصيل»، مات سنة ٥٢٠هـ بقرطبة. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٩/ ٥٠٧)، شذرات الذهب، ابن العماد (٤/ ٦٢).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٤٤٤)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٧٠) من حديث جابر ومداره على إبراهيم بن أبي حية، قال الذهبي في الميزان (١/ ٢٩): قال البخاري منكر الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٤٦)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال (٢/ ١٠٣٩).

وكذلك أيضًا تزوج ﷺ أم سلمة رضي الله عنها في شوال[1].

وقال العلامة بن جماعة[2]: ولا يكره السفر في يوم من الأيام لسبب كون القمر في العقرب، ولا بسبب من الأسباب.

قلت: إلا أن يقصد رجل الخميس والاثنين استنانًا بالنبي ﷺ[3]، من غير كراهة منه للخروج في غيرهما طيرة، ومع هذا البيان فالويل للمحق مع أهل الباطل، فسبحان من حفظ هذه الملة على هذه الأمّة، وأعلى كلمتها حتى إن كل الطوائف تحت قهرها، إما تحت قائم بها حقيقة، أو بظاهرها وشعائرها، وما ذاك إلا إقبالاً من الله تعالى على حراسة النبوات، وقمعًا لأهل المحال، فنسأله الحماية من طريق الوبال.

(وعن أبي موسى) عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بفتح المهملة،

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٨/ ٨٧)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢/ ٢٠٣).

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الحموي، بدر الدين، أبو عبدالله، ولي القضاء فكان من خيار القضاة، محدث فقيه، له مؤلفات كيرة منها «المنهل الروي في الحديث النبوي»، و«تذكرة السامع والمتكلم» وغير ذلك، توفي بمصر سنة ٧٣٣هـ. انظر: النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (٩/ ٢٩٨)، الدرر الكامنة، ابن حجر (٣/ ٢٨٠).

(٣) الثابت أن النبي ﷺ كان يحب الخروج للسفر في يوم الخميس دون سائر الأيام، وقد ثبت عنه أنه سافر في غيره من أيام الأسبوع، وقد عنون البخاري في صحيحه باب: من أراد غزوة فورى بغيرها، ومن أحب الخروج يوم الخميس، وأورد فيه حديث كعب بن مالك أن النبي ﷺ كان يحب أن يخرج يوم الخميس (٣/ ١٠٧٨)، وقد عقد ابن القيم في زاد المعاد فصلاً أبان فيه هدي النبي ﷺ في السفر وأنه يحب السفر في الخميس (١/ ٤٦٢)، ولم أجد من أشار إلى أن من هدي النبي ﷺ السفر في يوم الاثنين.

وتشديد الضاد المعجمة، الأشعري، الصحابي المشهور، أمره عثمان بن عفان رضي الله عنهما على الكوفة، وقبله عمر على البصرة، وهو أحد الحكمين بصفين، مات سنة خمسين وقيل بعدها وقيل قبلها[1].

(**قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة لا يدخلون الجنة**) أي مع السابقين الأولين، أو من غير سبق عذاب، وإلا لزم التخليد بذلك في النار في مدمن الخمر وقاطع الرحم، وهو خلاف ما عليه أهل السنة والجماعة.

(**مدمن الخمر**) أي الملازم على شربها ملازمة لا ينفك عنها.

(**وقاطع الرحم**) القطع والقطيعة الصد والهجران، وترك البر والإحسان إلى الأهل والأقارب من أي جهة كانوا، ويقابله الوصل بصلة الرحم، وفي قاطع الرحم وواصله من الترغيب والترهيب أحاديث كثيرة ليس هذا موضعها.

(**ومصدق بالسحر**) يعني ومؤمن بالسحر، ومن آمن بالسحر فقد آمن بالجبت.

قال الذهبي في السحر: ويدخل فيه تعليم السيميا وعملها، وهي محض السحر، وعقد الرجل عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وعكسه، [ك،١٢٦/ب] وبغضها وبغضه، وأشباه هذا بكلمات مجهولة[2].

رواه الإمام أحمد وأبو حاتم بن حبان بن معاذ بن معبد، الحافظ العلامة

---

(١) انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٣٥١)، الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤/ ٧٩)، صفوة الصفوة، ابن جوزي ١٠/ ٢٢٥).

(٢) الكبائر، الذهبي (ص ٤٥، ٤٦).

التميمي البستي صاحب التصانيف، سمع [من][1] النسائي والحسن بن سفيان[2] وأبي يعلى الموصلي، وولي قضاء سمرقند، وكان من فقهاء الدين وحفاظ الآثار عالمًا بالنجوم والطب وفنون العلم.

قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه والحديث واللغة والوعظ، ومن عقلاء الرجال، وكانت الرحلة إليه.

وقال الخطيب: كان ثقة، نبيلاً فهيمًا.

وقال ابن الصلاح: ربما غلط الغلط الفاحش، مات في شوال سنة أربع وخمسين [وثلاثمائة][3]، وهو في عشر الثمانين، رحمه الله، روى هذا الحديث (في صحيحه)[4] المسمى بالتقاسيم والأنواع، التزم فيه إخراج الصحيح من الأحاديث كما التزم أبوبكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في صحيحه وتخريجه[5].

فقد علمت مما تقدم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أبعد الناس

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) أبو العباس الشيباني الخراساني النسوي، الإمام الحافظ الثبت، صاحب المسند، مقدم في الحديث والفقه والأدب، توفي سنة ٣٠٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٤/ ١٥٧)، لسان الميزان، ابن حجر (٢/ ٢١١).

(٣) في الأصل: ومائتين.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٩٩)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٣٦٦)، وأبو يعلى في المسند (١٣/ ٢٢٣)، وبحشل في تاريخ واسط (ص ١٨٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٧٤): رجال أحمد وأبي يعلى ثقات.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٦/ ٩٢)، تذكرة الحفاظ، الذهبي (٣/ ١٢٥)، شذرات الذهبي، ابن العماد (٣/ ١٦).

عن كل هذه الأشياء هم وأتباعهم، ومن قال أن علم النجوم من إرث إبراهيم الخليل عليه السلام، فما درى كيف يقول، ولم يفرق بينه وبين قومه الذين ألقوه عند دعوته إياهم إلى توحيد ربه غضبًا لآلهتهم في النار، الذين كان علم النجوم وعبادتها دينهم، فلا ريب أن من قال ذلك هو أبعد الناس عن الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم، وعن معرفتهم ومعرفة مرسلهم ومعرفة ما أرسلوا به، فإن هؤلاء في شأن والرسل عليهم السلام في شأن، فإنك تجد أتباع هؤلاء ضد أتباع الرسل في العلوم والأعمال والهدي، ومتى بعث الله رسولاً يعاني التنجيم والطلسمات، والحكم على الكواكب بالسعود والنحوس، والذكورة والأنوثة؟ وهل هذا إلا صنائع المشركين وعلومهم؟!، وهل بعثت الرسل ـ عليهم السلام ـ إلا بالإنكار على هؤلاء ومحو علومهم من الأرض؟!، وهل للرسل أعداء أعدى من هؤلاء ومن سلك سبيلهم؟! وهل كان لإبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عدو مثل هؤلاء المنجمين الصابئين؟! وحران كانت دار ملكهم، وهم المشركون حقا، يعبدون صور النجوم وتماثيلها، قد جعلوا لكل كوكب هيكلاً فيه أصنام تناسبه، فكانت عبادتهم للأصنام تعظيمًا للكواكب وعبادة لها، وهذا أقوى السببين في الشرك الواقع في العالم، وهو الشرك بالنجوم، وكانت الشياطين تنزل عليهم في صورها وتخاطبهم، وتريهم من العجائب ما يدعوهم إلى بذل نفوسهم، وأولادهم وأموالهم، لتلك الأجسام والتقرب إليها.

وكان مبدأ هذا الشرك تعظيم الكواكب وظن السعود والنحوس منها مستقلة به، وهذا شرك خواص المشركين، وهو شرك قوم إبراهيم عليه السلام.

والسبب الثاني: عبادة القبور والإشراك بالأموات، وهو شرك قوم نوح عليه السلام، وهو أول شرك طرأ في العالم، وفتنته أعم وأهل البلاء به أكثر، وهم جمهور أهل الإشراك، وقد مر ذكر ذلك وتفصيله في بابه، وكثير منهم يجمع بين الشركين، وإنما بعثت الرسل عليهم السلام بمحو جميع الشرك من الأرض، ومحق أهله وقطع أسبابه، وهدم بيوته، فكيف يظن بإمام الحنفاء ووالد الأنبياء، وخليل رب الأرض والسماء، أن يتعاطى علم النجوم، سبحانك هذا بهتانٌ عظيم[1].

قال العلماء رحمهم الله تعالى: وإنما كانت النظرة التي نظرها عليه السلام في النجوم من معارض الأفعال، كما في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله عن امرأته سارة هذه أختي[2]، من معارض المقال يتوسل بها إلى كسر الأصنام، وهذا من جنس معارض يوسف عليه السلام حين فتش أوعية إخوته عن الصاع[3].

قال الخطيب البغدادي: لقي منجم رجلاً فقال المنجم للرجل: كيف أصبحت، قال: أصبحت أرجو الله وأخافه، وأصبحت أنت ترجو المشتري وزحل وتخافهما، فنظمه بضعهم فقال:

أصبحت لا أرجو ولا أخشى سوى الـ ... جبار في الدنيا ويوم المحشر

---

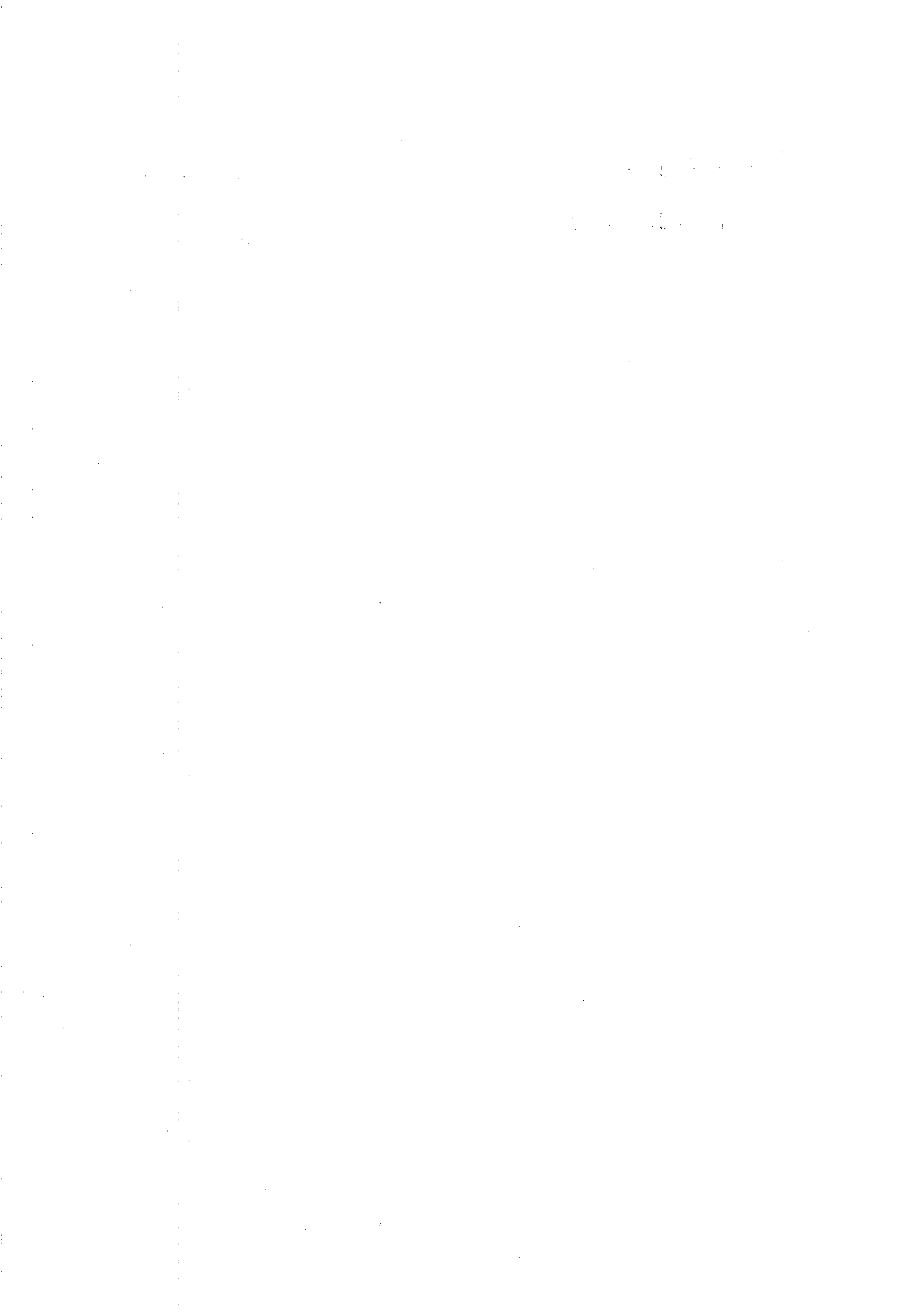
(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٢/ ١٩٧).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في البيوع، باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، من حديث أبي هريرة (٢/ ٧٧٢).

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (٢/ ١٩٨).

وأراك تخشـى مـا تقـدّر أنـه يأتي به زحل وترجو المشتري

شتان ما بيني وبينك فالتزم طرق النجاة وخل طرق المنكر



الباب التاسع والعشرون
(باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء)

جمع نوء بالهمز، قال أعشى بكر بن وائل[1]:

تنعى امرأ لا تغب الحي جفنته إذا الكواكب خوّى نوءها المطر

ولما ذكر رحمه الله تعالى باب التنجيم أعقبه بباب الاستسقاء، ليعلم أن ما أودعه الله تعالى من عادته عند سقوط النجوم، أو طلوعها مع الفجر من الأنواء، إنما هو عن أمره وتكوينه إذ هو خالق الأسباب والمسببات، وكل حركة أو سكون إنما تصدر عن أمره وقضائه جل وعلا، فالأنواء هي ما يحدثه الله سبحانه عند سقوط كل نجم من المنازل وطلوع رقيبه مع الفجر، ولكل نجم منها عندهم أيام معلومة، من أول سقوط ذلك النجم من المنازل التي هي الثمانية والعشرون نجمًا، وهي معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها، يسقط منها في كل [ثلاث عشرة][2] ليلة تقريبًا نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته تقريباً، وهي منازل الشمس والقمر وباقي السبعة السيارة، [ك،١٢٦/أ] وانقضاء هذه النجوم مع انقضاء السنة الشمسية، إلا أنهم يجعلون منزلة منها أربعة عشر يومًا، قالوا الهقعة وقالوا غيرها، ومنهم من يزيد ربع يوم، فكانت العرب إذا سقط منها نجم وطلع آخر قالوا لابد من رياح ومطر، فينسبون كل غيم وريح عند ذلك إلى النجم الساقط،

---

(١) سبقت ترجمته ص ٤٧، والبيت ضمن قصيدة لأعشى باهلة عامر بن الحارث كما في ديوان الأعشين ص ٢٦٧، ط آدلف هلز هوسن.

(٢) في الأصل: ثلاثة عشر.

فيرجون السقيا من ذلك النوء، فيقولون إذا مطروا: مطرنا بنوء الثريا مثلاً، أو الدبران وهو المجدح، أو بالسماك ونحوها من النجوم، والنوء عندهم من الأضداد، فيسمى به النجم إما الساقط أو الطالع، وما ينزل في ذلك من المطر. فالاختلاف في مسمى النوء إنما هو اختلاف تنوع.

(**وقول الله تعالى**: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾) أي شكركم (﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]) أي: تقولون للمطر إذا مطرتم: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقرىء عن عاصم[١] في بعض الروايات تكذبون بالتخفيف[٢]، أي تجعلون رزقكم الكذب، وهو أن تقولوا مطرنا بنوء كذا.

فعند الدارمي من طريق حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: لو حبس الله القطر عن أمتي عشر سنين، ثم أنزله لأصبحت طائفة من أمتي بها كافرين تقول هو بنوء مجدح [قال][٣]: المجدح كوكب يقال له الدبران[٤].

---

(١) ابن أبي النجود الكوفي الأسدي بالولاء، أبوبكر أحد القراء السبعة، تابعي من أهل الكوفة، ووفاته فيها سنة ١٢٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٥/ ٢٥٦)، الطبقات، خليفة بن خياط (ص ١٥٩).

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٦١).

(٣) في الأصل: «و» وما بين معكوفتين من السنن، نص الحديث، والكلام لأحد الرواة (٢/ ٤٠٥).

(٤) أخرجه الدارمي في سننه (٢/ ٤٠٥)، والنسائي في المجتبى، كتاب الاستسقاء، كراهية الاستمطار بالكوكب (٣/ ١٦٥)، وأحمد في المسند (٣/ ٧)، والحميدي في مسنده (٢/ ٣٣١)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٤٨٢)، كلهم بلفظ الدارمي ما عدا أحمد» سبع سنين»، وبلفظ «خمس سنين» عند النسائي، مع أنه أخرجه في السنن الكبرى (٦/ ٢٣٠) بلفظ «عشر سنين»، كلهم من طرق عن عمرو بن دينار عن عتاب بن حنين عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا، وفي إسناده عتاب بن حنين قال=

وهذا يدل بظاهره في هذا الحديث أن المراد بالكفر كفر النعمة ولهذا قال ﷺ: «لأصبحت طائفة من أمتي بها كافرين».

والضمير في بها للنعمة المعهودة، وقراءة العامة بالتشديد في تكذِّبون[1]، قالوا والمعنى الآخر في الآية: تجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون بمحمد ﷺ وبالقرآن، بقولكم في صفته: إنه سحر وشعر متقوّل.

هذا معنى قول ابن عباس وغيره من السلف[2].

(عن أبي مالك الأشعري) اختلف في اسمه على أقوال كثيرة، قيل كعب بن مالك، وقيل ابن عاصم، وقيل عبيد بن عاصم، قدم رضي الله عنه في السفينة مع الأشعريين[3]، **(أن رسول الله ﷺ قال: أربع)** أي

= عنه الحافظ في التقريب (ص ٣٨٠): مقبول، فلابد من متابع له، والمحفوظ في الباب ما سوف يذكره الماتن عليه رحمة الله بعد قليل من حديث زيد بن خالد عند البخاري ومسلم، ولذلك ضعف الألباني هذا الحديث في السلسلة الضعيفة (٤/ ٢١٠).

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٦١).

(٢) انظر: المصدر السابق، تفسير الطبري (٢٧/ ٢٠٧)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٨)، تفسير القرطبي (١٧/ ١٤٨).

(٣) رجح الحافظ ابن حجر في التهذيب (١٢/ ٢١٨)، بعد أن ذكر الخلاف في اسمه رضي الله عنه أنه الحارث بن الحارث الأشعري حيث قال: «قلت: أبو مالك الأشعري الذي روى عنه سلام الأسود وشهر بن حوشب ومن في طبقتهما هو الحارث الأشعري... وبينت أنه تأخرت وفاته، وأما أبو مالك الأشعري هذا فهو آخر قديم كما تقدم هنا أنه مات في خلافة عمر». وحديث الباب هو من رواية أبي سلام عنه، فيرتفع بذلك الخلاف في اسم هذا الصحابي على الصحيح، وقد رجح ذلك الشيخ سليمان بن عبدالله في تيسير العزيز الحميد (ص ٤٥٢)، والشيخ عبدالرحمن بن حسن في فتح المجيد (٢/ ٥٣٧)، تبعًا للحافظ ابن حجر رحمة الله على الجميع.

خصال أربع (**كائنة في أمتي**) يعني أمة الإجابة، (**من أمر الجاهلية**) أي من أفعال أهلها، والجاهلية هي التي كانت عليها العرب من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب والأحساب، والكبر والتجبر والخيلاء، والاستسقاء بالنجوم وغير ذلك، فعد ﷺ أفعالاً منها كائنة في أمته، لا جميع أمر الجاهلية، فإن الله تعالى قد عصمهم من الجاهلية العامة، بدعوة نبيهم محمد ﷺ بأنه لا يزال منهم طائفة ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة.

وفي لفظ «لا يضرهم من خذلهم»[1] كما يأتي في المتن إن شاء الله تعالى.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه بعد كلام له: فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا في جاهلية، منسوبة إلى جاهل، فكل ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال، إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل، وكذلك كل ما يخالف ما [جاء][2] به المرسلون عليهم الصلاة والسلام من يهودية ونصرانية فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد مبعث رسول الله ﷺ فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم، فإنه في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام.

فأما في زمان مطلق: فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ، فإنه لا يزال في أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة[3].

---

(١) سوف يأتي تخريجه في موضعه.

(٢) في الأصول: جاءت، والمثبت من الاقتضاء.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٣٠).

قال: والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاص المسلمين، كما قال ﷺ في هذا الحديث: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية»[1].

وقالَ لأبي ذر: «إنك امرؤ فيك جاهلية»[2] ونحو ذلك[3].

قال: ولفظ الجاهلية قد يكون اسمًا للحال وهو الغالب في الكتاب والسنة وقد يكون اسمًا لذي الحال.

فمن الأول: قوله لأبي ذر رضي الله عنه[4].

وقول عمر: «إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة»[5].

وقول عائشة رضي الله عنها: «كان النكاح في الجاهلية على ثلاثة أنحاء»[6].

---

(١) سوف يأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية (١/ ٢٠)، ومسلم في الإيمان، إطعام المملوك مما يأكل)٣/ ١٢٨٢)، وغيرهما.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٣١).

(٤) كما في الحديث المتقدم «إنك امرؤ فيك جاهلية».

(٥) هذا جزء من حديث ورد في الصحيحين وغيرهما، ولفظ البخاري: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال النبي ﷺ: «أوف نذرك» فاعتكف ليلة.
أخرجه البخاري في الاعتكاف، باب من لم ير عليه إذا اعتكف صومًا (٢/ ٧١٨)، ومسلم في الإيمان، باب نذر الكافر وما يفعل فيه إذا أسلم (٣/ ١٢٧٧).

(٦) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري، النكاح، باب لا نكاح إلا بولي (٥/ ١٩٧١) وغيره.

وقولهم: «يا رسول الله كنا في جاهلية وشر»[1]، أي في حال جاهلية، أو طريقة جاهلية، أو عادة جاهلية، فإن «الجاهلية» وإن كان في الأصل صفة لكنه غلب عليه الاستعمال، حتى صار اسمًا معناه قريب من معنى المصدر.

وأما الثاني: فقولهم طائفة جاهلية وشاعر جاهلي، وذلك نسبة إلى الجهل، الذي هو عدم العلم، أو عدم اتباع العلم، فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلاً بسيطًا، فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلاً مركباً، فإن قال خلاف الحق عالماً به أو غير عالماً به فهو جاهل أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال ﷺ: «إذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل»[2].

ومن هذا قول بعض العرب وهو عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلنْ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينَ[3]

وإن علم أنه مخالف للحق، فهو جاهل أيضًا كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال أصحاب محمد ﷺ: كل من عمل سوءًا فهو جاهل[4].

---

(١) جزء من حديث حذيفة أخرجه البخاري، الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٣/ ١٣١٩)، ومسلم، الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين (٣/ ١٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في الصوم، باب فضل الصوم (٣/ ٦٧٠)، ومسلم في الصوم، باب حفظ اللسان للصائم (٢/ ٨٠٦).

(٣) انظر: شرح القصائد العشر، التبريزي (ص ٢٨٨).

(٤) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (٤/ ٢٩٨) حيث ذكر أقوال الصحابة والتابعين في =

وسبب ذلك أن العلم الحقيقي الراسخ في القلب، يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، ومتى صدر خلافه فلابد من غفلة القلب عنه، أو ضعف في القلب بمقارفة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم، [فيصير جهلاً بهذا الاعتبار](١)، ومن هنا يعرف دخول الأعمال في مسمى الإيمان حقيقةً لا مجازًا، وإن لم يكن [كل](٢) من ترك شيئًا من الأعمال كافرًا، ولا خارجًا عن أصل مسمى الإيمان، وكذا اسم العقل ونحو ذلك من الأسماء(٣).

قال شيخ الإسلام: فمن عمل بشيء من سنتهم فقد اتبع سنة جاهلية، وقوله لأبي ذر رضي الله عنه: إنك امرؤ فيك جاهلية. لما عيّر رجلاً بأمه، وفي لفظ في الصحيح عن أبي ذر [ك،١٢٧/ب] رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله على ساعتي هذه من كبر سني؟ قال نعم(٤).

هذا وقد قال ﷺ فيه: ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر(٥).

ففي هذا أن كل ما أضيف إلى الجاهلية فهو مذموم شرعًا. وفي صحيح

= ذلك، وكلها تؤكد هذا المعنى الذي أشار إليه شيخ الإسلام.

(١) ساقطة من النص، ألحقت من اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٢٩).

(٢) في الأصل والمسودة: «كفر» وما بين معكوفتين من اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٣٠).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٣٠).

(٤) مضى تخريجه.

(٥) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب أبي ذر رضي الله عنه (٥/ ٦٦٩)، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه، المقدمة، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١/ ٥٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٣١)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٨٥).

مسلم في حديث الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه: اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت[1].

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه: فقوله «هما بهم كفر» أي هاتان الخصلتان هما كفر قائم بالناس، فنفس الخصلتين كفر، حيث كانتا من أعمال الكفار، وهما قائمتان بالناس، لكن ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافرًا، حتى يقوم به أصل الكفر، كما أن من قام به شعبة من شعب الإيمان لا يصير مؤمنًا حتى يقوم به أصل الإيمان[2].

وفرق رحمه الله بين الكفر المعرّف باللام كما في قوله: «ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»[3]، وبين كفرٍ منَكّر في الإثبات، وفرق أيضًا بين معنى الاسم المطلق، إذا قيل كافر، أو مؤمن[4]، وبين المعنى المطلق للاسم في جميع موارده، كما في قوله: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[5].

فقوله يضرب بعضكم رقاب بعض، تفسير لكفار في هذا الموضع، وهؤلاء يسمون كفارًا تسمية مقيدة، ولا يدخلون في الاسم المطلق إذا

---

(١) أخرجه مسلم، الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (١/ ٨٢).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢١١).

(٣) الحديث أخرجه مسلم من حديث جابر، في الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (١/ ٨٨).

(٤) في الأصل: ومؤمن، وفرق أيضًا. . ، والتصويب من الاقتضاء.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري من حديث جرير في كتاب العلم، باب الإنصاف للعلماء (١/ ٥٦)، ومسلم في الإيمان، باب معنى قول النبي ﷺ لا ترجعوا بعدي كفارًا (١/ ٨١).

قيل: كافر ومؤمن، كما أن قوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: ٦] فسمى المني ماء تسمية مقيدة، ولم يدخل في الاسم المطلق حيث قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾[١] [المائدة: ٦].

ثم أخبر ﷺ في هذه الأربع أن أمته **(لا يتركونهن)** بحيث أن الأمة لا تخلو منها مع العلم بتحريمها.

(الفخر بالأحساب) وهو ادعاء العظمة والكبر والشرف بحسب الآباء، والتعاظم بما يعده المُفاخر من مناقبهم على الخلق.

والحسب عند العرب نسب الآباء، قال مسكين الدارمي[٢] التميمي:

رُبَّ مهزولٍ سمينٌ عِرضُهُ   وسمينِ الجسمِ مهزولُ الحسبْ[٣]

قالوا معناه رب مهزول البدن والجسم، كريم الآباء وبالعكس آخر البيت، ولهذا قال أعشى همدان[٤] يمدح مصعب بن الزبير:

إمامُ الدينِ والحِلْمِ والسِّلْمِ والتقى   وذي الحسبِ الزاكي الرفيعِ المهذبِ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢١١ـ ٢١٢).

(٢) هو ربيعة بن عامر بن أنيف، من بني دارم، ومسكين لقب، من الشعراء الإسلاميين، له أشعار جيدة في الزهد والأخلاق، وفاته سنة ٨٩هـ. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٥٤٤)، معجم الأدباء، ياقوت (٤/ ٢٠٤).

(٣) البيت في ديوانه (ص٢٢)، ولسان العرب، ابن منظور (٧/ ١٧٠)، وتاج العروس، الزبيدي (١٨/ ٣٩٦).

(٤) عبدالرحمن بن عبدالله الهمداني، شاعر اليمانيين بالكوفة، من شعراء الدولة الأموية أحد الفقهاء القراء، لما خرج ابن الأشعث انحاز إليه وقاتل معه، قتله الحجاج بسبب ذلك سنة ٨٣هـ. انظر: الأغاني، الأصبهاني (٥/ ١٣٨)، الأعلام، الزركلي (٣/ ٣١٢).

وعند الإمام أحمد والترمذي وصححه، والحاكم وقال: على شرط البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه مرفوعًا: «الحسب المال، والكرم التقوى».

ورواه ابن ماجه أيضًا عنه، وأقر الذهبي الحاكم على تصحيحه[1]، إلا أنه قيل إنه من حديث الحسن البصري عن سمرة وقد تُكلم في سماعه عنه[2]، وفي المعنى يقول الشاعر:

تـالله لا يُحمـدنّ المـرءُ مجتنبـا فعلَ الكرامِ وإنْ فاقَ الورى حسبا[3]

فقد بين في هذا الحديث أن الشيء الذي يكون الإنسان به عظيمًا عند الناس هو المال، والذي يكون به عظيمًا عند الله هو التقوى، والتفاخر بالآباء ليس واحدًا منهما، فلا فائدة له؛ فالغني يُعظمه ما لا يُعظم الحسيب، فكأنه لا حسب إلا المال، وأن الكريم هو المتقي، لا من يجود بماله ويخاطر بنفسه ليعد شجاعًا وكريمًا، فإذا لم يقترن المال بالتقوى فهو مذموم الافتخار به، فيكون من باب الفخر بالأحساب، كما عند الإمام أحمد والنسائي وابن حبان والحاكم بأسانيد صحيحة عن بريدة

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجرات (٥/ ٣٩٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في الزهد، باب الورع والتقوى (٢/ ١٤١٠)، وأحمد في المسند (٥/ ١٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢١٩)، وابن أبي الدنيا، مكارم الأخلاق (ص ١٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٧)، وقال: هذا حديث صحيح، وأقرّه الذهبي، والدارقطني في سننه (٣/ ٣٠٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٣٥).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٧/ ١٥٧)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٥٨٧)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٢/ ٢٦٨).

(٣) البيت بلا نسبة في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (٢/ ٤٩٦).

رضي الله عنه مرفوعًا: «إن أحساب أهل الدنيا الذي يذهبون إليه هذا المال»[1].

(والطعن في الأنساب) أي الوقوع فيها بنحو قدح أو ذم، فإن ذلك من الكبائر المخالفة للشرع، وقد يقع في ذلك كثير من الناس وهو لا يشعر، حتى وقع أناس من أهل العلم في نسب النبي ﷺ، وذلك من قلة العلم في الأنساب، كقولهم: إن كنانة بن خزيمة خلف على زوجة أبيه بعد وفاته برة بنت أد بن طابخة، وجعلوها أم النضر بن كنانة، فجعلوا بذلك في نسب النبي ﷺ نكاح مقت[2]، ولم يعلموا أن برة هذه لم تلد لكنانة ولدًا ذكرًا ولا أنثى، ولكن لما كانت ابنة أخيها برة بنت مر أخت تميم بن مر عند كنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة، اشتبه الأمر على بعض الناس من العلماء لما سمعوا أن كنانة خلف على زوجة أبيه برة، لاتفاق اسميهما ونسبهما، وهذا الذي ذكرنا من أن أم النضر هي برة بنت مر أخت تميم هو الذي عليه أهل العلم بالنسب، ومعاذ الله أن يكون أصاب نسب النبي ﷺ نكاح مقت. وقد قال: ولدت من نكاح لا من سفاح[3].

---

(١) أخرجه النسائي، النكاح، باب الحسب (٦/ ٦٤)، وفي السنن الكبرى (٣/ ٢٦٨)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٥٣)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٧٤)، والدارقطني في سننه (٣/ ٣٠٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٧)، وصححه ووافقه الذهبي، والقضاعي في مسنده (٢/ ١٠٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٣٥)، وأورده الألباني في صحيح النسائي (٢/ ٦٧٩).

(٢) هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها، وكان يفعل في الجاهلية، وحرمه الإسلام. انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٤/ ٣٤٦)، لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٩٠).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٥٨)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٩٠)، كلهم من طريق المديني عن أبي الحويرث =

ومن اعتقد غير هذا فقد كفر وشك في هذا الخبر، والحمد لله الذي الذي طهر نبيه من كل وصم.

ولهذا قال جرير بن الخطفى يستعطف هشام[1] بن عبدالملك بخؤولة تميم لقريش مع قرب النسب:

واذكـر قـرابـة قـوم بـرة منكـم ... فالرحم طالبة وترضى بالرضى[2]

وقال فيه في قصيدة أخرى:

فمـا الأمُّ الـتـي ولـدت قـريشًـا ... بمقـرفـة النِّجَـارِ[3] ولا عقيـمِ

= عن ابن عباس ولفظه: «ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، وما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام». قال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه الطبراني عن المديني عن أبي الحويرث، ولم أعرف المديني ولا شيخه، وبقية رجاله وثقوا». واسم أبي الحويرث عبدالرحمن بن معاوية قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٣٥٠): «صدوق سيء الحفظ»، إلا أن له شواهد لا تخلو من الضعف عن علي بن أبي طالب، وعائشة، وأبي هريرة، بنفس اللفظ الذي ساقه المؤلف، وبنحوه، عند الرامهرمزي في المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (ص ١٣٦)، والجرجاني السهمي في تاريخ جرجان (١/ ٣٦٠)، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى العدني في مسنده وابن عدي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦١٣)، وقال في الإرواء بعد أن جمع طرقه: «وخلاصته أن الحديث من قسم الحسن لغيره عندي» (٦/ ٣٣٤).

(١) الأموي، أحد خلفاء الدولة الأموية، ولد في دمشق سنة ٧١هـ، توفي بالرصافة سنة ١٢٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٥/ ٣٥١).

(٢) ديوانه (١/ ٣٤٤) دار المعارف، ط٣.

(٣) المقرفة: الدنيئة المهجنة من الخيل وغيرها، والنجار: الأصل والحسب.
انظر: لسان العرب، ابن منظور (٥/ ١٩٣)، (٩/ ٢٨١).

وما قَرم[1] بأنجبَ من أبيكم ولا خالٌ بأكرمَ من تميمِ[2]

وقال الكميت بن زيد الأسدي، أسد بن خزيمة يعاتب قريشًا بني النضر بن كنانة:

بني ابنةِ مرٍّ أين مُرّةُ عنكمُ وعنّا التي شعبًا تصير شعوبها[3]

وهذا يصدق ما قلنا قبل وأنه الحق والله الموفق.

فقريش هو النضر بن كنانة، وأمه برة بنت مر، ولهذا قال جرير:

سما أولادُ بـرّةَ بنتِ مُـرٍّ إلى العلياء في الحسبِ العظيمِ

فخال قريش تميم بن مر، وتسميةُ فهر بن مالك بن النضر بقريش لأنه الذي تفرعت منه بطون قريش، فلذلك بقيت التسمية بقريش عليه، [ك،١٢٧/أ] وانسلبت عن النضر[4]، وهذا هو الصحيح، وبه يُجمع بين القولين في تسمية قريش قريشًا، فليحذر الإنسان الطعن في الأنساب والقولَ فيها بلا علم، لئلا يقع في كبيرة من الكبائر، وليتفكر في عيب نفسه قبل عيب غيره.

وقد بين عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفى[5]، فيما

---

(١) القرم: السيد من الرجال، وهو في الأصل: الفحل من الإبل. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٤٧٣).

(٢) ديوانه (١/ ٢١٩).

(٣) ديوانه ص٦٨، دار صادر، ط١، ٢٠٠٠م.

(٤) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (١/ ٩٣)، ابن كثير، البداية والنهاية (٢/ ١٨٥).

(٥) شاعر مقدم فصيح، من بني تميم، من أهل اليمامة، كان النحويون في البصرة يأخذون عنه اللغة، فسد دينه بعدما تحضر بسبب مخالطة قوم يقولون بالدهر فعاشرهم فأفسدوا عليه دينه، مات سنة ٢٣٩هـ. انظر تاريخ بغداد (١٢/ ٢٨٢) الأعلام للزركلي (٥/ ٣٧).

أملاه عنه أبو عبدالله محمد بن حبيب بن زياد الأعرابي، مولى بني هاشم، المشهور بالضبط والإتقان في اللغة والأخبار، أن برة المذكورة في شعر جده جرير المذكور هي أم النضر بن كنانة، وأنها بنت مر، أختُ تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، كما ذكرنا قبل.

وقد روى أبو سليمان الخطابي عن عمرو بن العاص[1] رضي الله عنه أنه قال: انتهى عجبي عند ثلاث: المرء يفر من الموت وهو لاقيه، والمرء يرى في عين أخيه القذاة[2] فيعيبها، ويكون في عينه الجذع[3] لا يعيبه، والمرء يكون في دابته الضغن فيقومها جهده، ويكون في نفسه الضغن فلا يقوم نفسه[4].

والضغن قيل الأحقاد، والضغن أيضًا فساد الداخلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ۝٣٧﴾ [محمد: ٣٧] يريد والله أعلم أسراركم الفاسدة.

قال [أبو زبيد][5] الطائي[6] يرثي عليا رضي الله عنه:

---

(١) السهمي القرشي، أبو عبدالله، فاتح مصر، وأحد دهاة العرب في الجاهلية والإسلام، أسلم عام الحديبية، ولاه النبي ﷺ إمرة جيش ذات السلاسل، كان من أمراء الجيوش الإسلامية المجاهدة في الشام، أخباره كثيرة، توفي سنة ٤٣هـ.
انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٥٠١)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢/ ٥٤).

(٢) القذاة: مفرد القذى، وهو ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو وسخ أو غير ذلك وفي الحديث ضرب مثل لمن يرى الصغير من عيوب الناس ويعيرهم به، وفيه من العيوب ما هو أعظم. انظر: النهاية، ابن الأثير (٤/ ٣٠).

(٣) الجذع: واحد جذوع النخلة، وقيل هو ساق النخلة، والجمع أجذاع وجذوع.
انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨/ ٤٥).

(٤) أخرجه الخطابي في غريب الحديث (٢/ ٤٨٢)، وابن المبارك في الزهد (ص ٥٠٨).

(٥) في الأصل: «أبو زيد» وما بين معكوفتين من غريب الخطابي (٢/ ٤٨٢) وهو الصواب.

(٦) هو المنذر بن حرملة، كان جاهليًا قديمًا، وأدرك الإسلام، واختلف في إسلامه، =

طَبٌّ بصيرٌ بأضغانِ الرجالِ ولم   يُعدل بحَبْرِ رسول الله أحبار[1]

والضغن أيضًا نزاع الدابة إلى مكان قد كانت تألفه.

قال بشر بن أبي خازم الطائي[2]:

فـإنـي والشكـاةَ مـن آلِ لامٍ   كذاتِ الضغنِ تمشي في الرفاقِ[3]

والرفاق حبل يُشد به مرفقُ البعير ليقصُر خطوُه إذا كان به نزاع، والمعنى: إني وحبسي نفسي عن آل لام فلا أتسرع إليهم مع طلبهم ذلك مني، مثل هذه الناقة في رفاقها[4].

وما أحسن ما قيل في هذا المقام، حيث يقول بعض الحكماء، وهو أبو محمد هبة الله بن الحسين الشيرازي[5]، فيما ذكره عبدالباقي مفتي

= قال ابن قتيبة لم يسلم ومات على نصرانيته، وحكى الطبري إسلامه في آخر إمارة الوليد بن عقبة للكوفة، وكان نديمًا له ودفن بجانبه، حسب وصية الوليد بن عقبة، فالظاهر أنه مات على الإسلام، فالكافر لا يقبر في مقابر المسلمين، وإن كان الحافظ ابن حجر لم يسلم بذلك، ويبدو أنه لم يطلع على نص الطبري. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٠١)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٨٠)، الطبري في التاريخ، حوادث سنة ٣٠هـ (٣/ ٦٠).

(١) انظر: غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٤٨٢).

(٢) الأسدي، جاهلي قديم، من فحول الشعراء، شهد حرب أسد وطيء، وشهد الحلف بينهما. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٧٠)، خزانة الأدب، البغدادي (٢/ ٢٦١).

(٣) انظر: غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٤٨٢)، لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ١١٩).

(٤) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٤٨٢).

(٥) لعله البديع الإسطرلابي، توفي سنة ٥٣٤هـ، انظر عنه معجم الأدباء لياقوت (٦/ ٢٧٦٩) وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠/ ٥٢)، والشعر الذي سيذكره عنه المؤلف لم يشر إليه أحد ممن ترجم له، وقد نسبه عبدالقاهر الجرجاني في أسرار =

الحنابلة[1] في ثبته:

الناس من جهة التمثال أكفاء	أبـــوهـــمُ آدمٌ والأم حـــواءُ
فإن يكن لهم في أصلهم شرف	يفـاخـرون بـه فـالطيـن والمـاءُ
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاّءُ
وقدْر كلِّ امرىء ما كان يحسنُه	والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
ففز بعلم تعش[حيًّا] به أبدا	الناس موتى وأهل العلم أحياءُ

وللزمخشري عفا الله عنه:

وكـــل فضيلـــة فيهـــا سنـــاء	رأيتُ العلم من هاتيك أسنى
فـلا تعتـدَّ غيـرَ العلـم فخـرا	فـإن العلـمَ كنـزٌ ليـس يفنـى

وكفى بالعلم شرفًا أن يدعيَه من لا يحسنُه، ويفرح إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذما أن يتبرأ منه من هو فيه، فالعلم صعب المرام، عزيز المنال.

قال ابن الجوزي في كتاب «المستجاد في فعل الأجواد»[2]:

= البلاغة ٢٦٤ إلى محمد بن الربيع الموصلي، وهو في تاريخ بغداد (٤/ ٣٩١) من إنشاد أبي عبدالرحمن مؤذن المأمون.

(١) هو عبدالباقي بن عبدالباقي بن عبدالقادر البعلي، الدمشقي، المشهور بـ«البدر» ثم بابن فقيه فصة»، ولد بدمشق، وأفتى بها، وبها توفي سنة ١٠٧١هـ، محدث، فقيه، مفسر، له تصانيف كثيرة من أهمها ثبته المسمى «رياض الجنة في أسانيد الكتاب والسنة»، و«العين والأثر في عقائد أهل الأثر». انظر: السحب الوابلة، ابن حميد (٢/ ٤٣٩)، معجم المؤلفين، كحالة (٥/ ٧٢).

(٢) «المستجاد من فعلات الأجواد» عنوان كتاب معروف لأبي الحسن التنوخي المتوفى =

أما بعد، فإن العلم بطيء اللزام، بعيد المرام، لا يدرك بالسهام، ولا يرى في المنام، ولا يورث عن الآباء والأعمام، إنما هو شجرة غرس، لا تصلح إلا بالدرس، ولا تحصل إلا بالاستناد على الحجر، ومواصلة السهر، وافتراش المدر، وقلة النوم، وصلة الليلة باليوم، إلى أن قال: فلا يدركه إلا من أنفق العين، وجثى على الركبتين.

قلت: ولهذا قال سفيان بن عيينة: أرفع الناس عند الله منزلة من كان بينه وبين عباده، وهم الرسل والعلماء.

وعند الإمام أحمد في مسنده عن أبي حفص أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: قال النبي ﷺ: إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة[(١)].

وقال أبو مسلم الخولاني[(٢)]: العلماء في الأرض كالنجوم في السماء، إذا بدت للناس اهتدوا، وإذا خفيت تحيروا.

فالعلم أشرف منقبةً، وأجل مرتبةً، وأبهى مفخرًا، وأربح متجرًا، به

= سنة ٣٨٤هـ، وليس فيه النص الذي أورده المؤلف، كما أننا لم نجد هذا العنوان ضمن مؤلفات ابن الجوزي.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٥٧)، من طريق رشدين بن سعد عن عبدالله بن الوليد عن أبي حفص به، قال الحافظ في تعجيل المنفعة (١/ ٤٧٦): «وفي سنده رشدين بن سعد أحد الضعفاء».

(٢) هو عبدالله بن ثوب الخولاني، تابعي، فقيه عابد زاهد، ريحانة الشام، أصله من اليمن، أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي ﷺ ولم يره، قدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام وبها توفي سنة ٦٢هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ٤٦)، حلية الأولياء أبو نعيم (٢/ ١٢٢).

يتوصل إلى توحيد رب العالمين، وتصديق أنبيائه المرسلين.

وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم، فقيل له لم لا عمّمت؟ فقال لأني لا أعرف بعد مقام النبوة، أفضل من مقام العلماء.

فهذا هو الفخر والشرف في الدنيا والآخرة لمن حسنت نيته، والله تعالى الموفق.

ففي الترمذي وقال حسن غريب عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع[(١)].

وعند أبي داود عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا: من فَصَل في سبيل الله فمات، أو قتل فهو شهيد، أو وقصته فرسه أو لدغته هامة فهو شهيد[(٢)].

ومعنى فصل خرج، فعلى هذا الموت في طلب العلم أولى بالشهادة، نسأل الله من فضله وكرمه.

---

(١) أخرجه الترمذي في العلم، باب فضل طلب العلم (٥/ ٢٩)، وقال: «هذا حديث حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه»، والطبراني في الصغير (١/ ٢٣٤)، والضياء في المختارة كما في الجامع الصغير، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥/ ١٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب فيمن مات غازيًا (٣/ ٩)، وله تكملة لم يذكرها المؤلف اختصارًا وهذا نصها «أو لدغته هامة، أو مات على فراشه، أو بأي حتف شاء الله فإنه شهيد وإن له الجنة». والطبراني في الكبير (٣/ ٢٨٢)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٨٨) كلهم من طريق بقية بن الوليد عن ابن ثوبان عن أبيه، يرده إلى مكحول إلى عبدالرحمن بن غنم الأشعري به، وبقية بن الوليد مدلس وقد عنعن في هذا الإسناد إلا أنه قد صرح بالتحديث في إسناد آخر كما عند الحاكم (٢/ ٨٨)، وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي بقوله: «ابن ثوبان لم يحتج به مسلم وليس بذاك، وبقية ثقة وعبدالرحمن بن غنم لم يدركه مكحول فيما أظن». وضعفه الألباني كما في ضعيف أبي داود (ص ٢٤٦).

فعند البزار عن أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما مرفوعًا: إذا جاء الموت لطالب العلم، وهو على هذه الحالة، مات وهو شهيد(١).

[ك،١٢٨/ب] قوله: **(والاستسقاء بالنجوم)** قال القاضي: هو طلب السقيا، قال في الفردوس عن الأزهري: إنما غُلّظ القول في ذلك، لأن العرب كانت تزعم أن المطر فعل النجم، لا سقيا من الله تعالى، أما من لم يرد هذا وقال: مطرنا في وقت كذا، النجم طالع أو غارب فجائز.

وقال النووي: قال العلماء: إن قال مسلم مطرنا بنوء كذا، مريدًا أن النوء هو الموجد الفاعل المحدث للمطر، صار مرتدًا بلا شك(٢).

وقد حكى ابن مفلح على معنى ذلك الإجماع(٣)، قال: وإن قاله مريدًا أنه علامة لنزول المطر، ونزول الغيث عند هذه العلامة، وأن نزوله بفعل الله وخلقه لم يكفر(٤).

واختلفوا في كراهته، والمختار أنه مكروه لأنه من ألفاظ الكفار، وهذا ظاهر الحديث، نص عليه الإمام الشافعي في الأم(٥).

قلت: والصحيح عند الإمام أحمد رضي الله عنه تحريم هذا اللفظ مطلقًا، وعلى هذا الباء في الأول للاستعانة، وفي الثاني للظرفية أو المصاحبة،

---

(١) أخرجه البزار في مسنده كما في الزوائد، وقال الهيثمي: «رواه البزار وفيه هلال بن عبدالرحمن الحنفي وهو متروك» (١/ ١٢٤)، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى البزار، وقال الألباني في ضعيف الجامع (١/ ١٦٧): «ضعيف جدا».

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي (٢/ ٦٠).

(٣) انظر: الفروع (٢/ ١٦٣).

(٤) انظر: شرح مسلم للنووي (٢/ ٦٠).

(٥) (١/٢٥٢).

ومن هذا الاعتماد على قول المنجمين والرجوع إليهم، فإن ذلك شديد التحريم عند العلماء رحمهم الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشورى: ٢٨]، فهو الذي يحمد ويشكر جل وعلا على إنزاله.

ولما سأل الزيادي[١] الأصمعي عن معنى قول غيلان ذي الرمة في قوله:

قرحاء حوّاء أشراطية وكفت فيها الذهاب وحفتها البراعيم[٢]

قال باسته واست عرسه[٣]، وذلك أنه عنى أنها مُطرت بنوء الشرطين، فلما علم الأصمعي أنه بعينه قول مطرنا بنوء كذا وكذا، أغلظ له القول، فقوله قرحاء يريد نور الأزهار[٤]، وحواء يقول: تضرب إلى السواد لشدة ريها بالماء وخضرتها، وكذلك يقول المفسرون في قوله ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٤]: يضربان إلى الدهمة لشدة خضرتهما[٥]، والبراعم أكمام الثمر، الواحدة برعومة، وهي أكمّة النور قبل أن تتفتق[٦]، ويُروى بدل وكفت سمحت، والذهاب الأمطار اللينة الدائمة[٧]، يقال إنها أنجع

---

(١) إبراهيم بن سفيان الزيادي، أبو إسحاق، من أحفاد زياد بن أبيه، أخذ عن الأصمعي وغيره، أديب راوية للشعر، وله شعر، كانت فيه دعابة ومزاح، توفي سنة ٢٤٩هـ.
انظر: نزهة الألباء، ابن الأنباري (ص ١٥٧)، بغية الوعاة، السيوطي (ص ١٨١).

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٧/ ٣٣١).

(٣) الاست: العجُز، وقد يراد بها حلقة الدبر. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ٤٩٥).

(٤) المصدر السابق ١٩/ ٤١٢)، تاج العروس، الزبيدي (٧/ ٤٦).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٥٤)، تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٩).

(٦) انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٤٨)، تاج العروس، الزبيدي (١٩/ ٤١٢).

(٧) المصدران السابقان، اللسان (١/ ٣٩٦)، التاج (٢/ ٤٥٤).

المطر في النبت وكذلك العهاد[1].

(**والنياحة**) على الميت، النياحة والنوح، اجتماع النساء للبكاء على الميت متقابلات، برنة وندبة، والتناوح التقابل، قال غيلان ذو الرمة:

إذا هيج الصيف الربيع تناوحت بها الهوجُ تحنان المولّهةِ العجلِ

يقول إذا أيبست حرارة ريح الصيف ما نبت في الربيع، تناوحت الرياح الهُوج الشديدات، وتقابلت على ذلك المكان الذي قد صوح[2] منه نبت الربيع وحنت بأصواتها عند تقابلها، تحنان المولهة، من الوله وهو القلق للحزن، شبه حنين الرياح في تناوبها، وتقابلها وتجاوبها، حيث تقابلت بحنين الإبل الولّه التي فقدت أولادها، فهي قد عجلت السير للورود على أهلها طلبًا لأولادها، فهذا أصل التناوح، ثم استعمل في صفة بكاء النوائح، لتقابلهن على ذلك بصوت ورنة وندبة، بتعديد شمائل الميت، واستعير بتسمية صوت النائحة نوحًا من ذلك.

وقد قال ابن جرير: ثنا أبو كريب ثنا وكيع عن يزيد مولى الصهباء عن شهر بن حوشب عن أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] قال: النوح[3].

ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن أبي نعيم[4]، وابن ماجه عن

---

(١) جمع عهد، وهو أول المطر الوسمي، وقيل مطر بعد مطر، يدرك آخره بلل أوله. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/ ٣١٤).

(٢) يقال: صوحته الريح، بمعنى أيبسته، وتصوحت الأرض: يبس نباتها. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٥٢٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٨/ ٨٠).

(٤) في سننه، التفسير، باب ومن سورة الممتحنة (٥/ ٤١١).

أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع[1]، كلاهما عن يزيد بن عبدالله الشيباني مولى الصهباء به، وقال الترمذي حسن غريب[2].

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الرمادي ثنا القعنبي ثنا الحجاج بن صفوان عن أسيد بن أبي أسيد البراد عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ ألا نعصيه في معروف، ألا نخمش وجهًا، ولا ننشر شعرًا، ولا نشق جيبًا، ولا ندعو ويلاً[3]، فهذه النياحة المنهي عنها.

وأما البكاء من غير ندب على الميت فيجوز، لقول أنس رضي الله عنه: رأيت النبي ﷺ وعيناه تدمعان[4]. وقال: إن الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه، أو يرحم[5].

أخرجاه في الصحيحين، وفيهما عنه قال: تدمع العين، ويحزن

---

(١) في سننه، الجنائز باب في النهي عن النياحة (١/ ٥٠٣).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٤١٢)، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٢٦٣): حسن، وأخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وابن سعد وابن مردويه كما في الدر المنثور (٨/ ١٤٢)، وأبو داود في الجنائز، باب في النوح (٣/ ١٩٤)، والطبراني في الكبير (٢٥/ ١٨٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٦٤)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٦٠٥).

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون» (١/ ٤٣٩)، وساقه المصنف رحمه الله بمعناه مختصرًا ولفظه: «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئرا لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. . . الحديث».

(٥) متفق عليه من حديث ابن عمر أخرجه البخاري في الجنائز، باب البكاء على الميت (١/ ٤٣٩)، ومسلم في الجنائز، باب البكاء على الميت (٢/ ٦٣٦).

القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، قاله عند موت ابنه إبراهيم عليه السلام[1].

وقد قال البخاري في صحيحه: وقال عمر رضي الله عنه: دعهن يبكين على أبي سليمان، يعني خالد بن الوليد، ما لم يكن نقع، أو لقلقة، قال: والنقع: التراب على الرأس، واللقلقة: الصوت[2].

وفي الصحيحين عن أبي موسى[3] رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بريء من الصالقة[4]، والحالقة[5]، والشاقة[6][7].

---

(١) هو تكملة لحديث أنس المتقدم عند البخاري في الجنائز (١/ ٤٣٩)، ومسلم (١٨٠٧/٤) برقم ٢٣١٥.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا في الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت (١/ ٤٣٤)، ووصله في التاريخ الأوسط (٣/ ١٦١)، والصغير (١/ ٤٦)، وسعيد بن منصور في سننه، وابن سعد كما في تغليق التعليق لابن حجر (٢/ ٤٦٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٧١).

(٣) الأشعري مشهور بكنيته، واسمه عبدالله بن قيس بن مسلم، من مهاجرة الحبشة، استعمله النبي ﷺ على بعض اليمن، واستعمله عمر على البصرة، وعثمان على الكوفة، وهو أحد الحكمين بصفين، وفي الصحيح أنه أوتي مزمارًا من مزامير آل داود، لحسن صوته، من علماء الصحابة، وزهادهم، توفي سنة ٤٤هـ بالكوفة أو مكة.

انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٣٥١)، صفوة الصفوة، ابن الجوزي (١/ ٢٢٥).

(٤) الصلق: الصوت الشديد عند المصيبة، وعند الفجيعة بالموت، ويقال بالسين.

انظر: النهاية، ابن الأثير (٣/ ٤٨).

(٥) الحالقة: قيل التي تحلق وجهها للزينة، وقيل التي تحلق شعرها عند المصيبة.

انظر: النهاية، ابن الأثير (١/ ٤٢٧)، فتح الباري، ابن حجر (٣/ ١٦٦).

(٦) الشاقة: التي تشق ثيابها عند المصيبة، أو تخرقها لرواية أو «خرق». انظر: فتح الباري، ابن حجر (٣/ ١٦٦).

(٧) أخرجه البخاري، الجنائز، باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة (١/ ٤٣٦)، =

وعند أبي داود عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ لعن النائحة والمستمعة[1].

وأما حديث عمر وابنه في الصحيحين: أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه[2]. فهذا مما أنكرته عائشة رضي الله عنها واحتجت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وتبعها طوائف من السلف على ذلك، والخلف، والصواب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أنه يتأذى بالبكاء عليه كما نطقت به الأحاديث الصحيحة، لأنه لم يقل إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليه، حتى يرد كلام عائشة رضي الله عنها على الفاروق وابنه فيما رويا: بل قال: يعذب، والعذاب أعم من العقاب، فإن العذاب هو الألم، وليس كل من تألم بسبب كان ذلك عقابًا له على ذلك الأمر، فإن النبي ﷺ قال: السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم طعامه، وشرابه[3]. فسمى ذلك عذابًا وليس هو عقابًا على ذنب، والإنسان يعذب بالأمور المكروهة، كالأصوات الهائلة، والأرواح الخبيثة، ولم يكن ذلك عملاً له عوقب

= ومسلم، الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية (١/ ١٠٠).

(١) الجنائز، باب في النوح (٣/ ١٩٣)، وقال الألباني كما في الإرواء (٣/ ٢٢٢): إسناده ضعيف.

(٢) حديث عمر وعائشة أخرجه البخاري ضمن حديث طويل في الجنائز، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه (١/ ٤٣٣)، ومسلم في الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٢/ ٦٤٠).

(٣) أخرجه البخاري، العمرة، باب السفر قطعة من العذاب (٢/ ٦٣٠)، من حديث أبي هريرة.

به، ولهذا أفتى الإمام أبو يعلى بأن الموتى إذا عمل عندهم بالمعاصي بأنهم يتألمون بذلك كما جاءت به الآثار، فتعذيبهم بعمل المعاصي عند قبورهم كتعذيبهم بنياحة من ينوح عليهم، ولا شك أن الميت يدري بما عمل أهله، فالنياحة سبب العذاب.

وقد يندفع حكم السبب بما يعارض، فقد يكون من الميت من قوة الكرامة ما يدفع عنه ذلك، كما يكون في بعض الناس من القوى ما يدفع ضرر الأصوات الهائلة والأرواح الخبيثة، فهذا وجه الحديث، لا أن الله يعذب الإنسان بذنب غيره، مع أن البكاء ليس بذنب لأنه لا يُملك، وأيضًا لا يفعله النبي ﷺ، وهو يعرف أن الله يعذب عليه ميته والله أعلم(١).

وقد عد الصحابة رضي الله عنهم صنيع أهل الميت للطعام من النياحة، [ك،١٢٨/أ] فروى الإمام أحمد وغيره، وإسناد أحمد كلهم ثقات، عن جرير بن عبدالله(٢) رضي الله عنه قال: كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت، وصنع الطعام بعد دفنه من النياحة(٣).

فقد حذر ﷺ أمته عن أفعال الجاهلية أشد التحذير، وهذا يقتضي

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٤/ ٣٧٣).

(٢) البجلي، الأمير النبيل الجميل، من أعيان الصحابة، كان بديع الحسن كامل الجمال والعقل، اعتزل الفتنة بالجزيرة ونواحيها، توفي سنة ٥١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢/ ٥٣٠)، الإصابة، ابن حجر (١/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٠٤)، وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في النهي عن الإجتماع إلى أهل الميت، وصنعة الطعام (١/ ٥١٤)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٢٨٩): إسناده صحيح على شرط الشيخين، والطبراني في الكبير (٢/ ٣٠٧).

أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم، فهو مذموم في دين الإسلام، كما مر التنبيه عليه، فإضافة هذه الأربع منه ﷺ إلى أمر الجاهلية خرجت مخرج الذم، وهذا معلوم من الخطاب.

وفي قوله ﷺ «في أمتي» دليل على أن أمة الإجابة لا تخلو من ذلك، وأنه ليس معناه لا يخلو منها كل فرد من الأمة، وأن الاستسقاء الموجود فيها من الشرك الأصغر، الذي هو أكبر من الكبائر، وقد يترقى الأصغر إلى الأكبر، مثل أن يضيف الإنسان إنزال المطر إلى النجم، لا إلى الذي أنزله عز وعلا، استقلالاً معتقدًا ذلك، نسأل الله الحماية والعافية من مضادة الله ورسوله.

(**رواه مسلم**)[1] في الجنائز، وهذا من معجزاته ﷺ لأنه إخبار عن غيب وقع، فلم يزل الناس بعده في كل عصر يوجد فيهم ذلك، وإن أنكر منهم شرذمة، فقلما يلتفت إلى إنكارهم، ولا يؤبه باعتراضهم ولكن ذكرى لعلهم يتقون.

وعند البخاري في تاريخه والطبراني في معجمه عن مصعب بن عبدالله بن جنادة عن أبيه عن جده جنادة بن مالك[2]، مرفوعًا: ثلاث

---

(١) كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة (١/ ٦٤٤)، وللحديث تكملة لم يذكرها المؤلف مع أن الماتن الشيخ محمد بن عبدالوهاب عليه رحمة الله قد ذكرها في أصل الكتاب وهي: «وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب». وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٤٢ـ ٣٤٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٣٩٠)، وأبو يعلى في المسند (٣/ ١٤٨).

(٢) جنادة بن أبي أمية مالك الأزدي الزهراني، صحابي، كان قائد غزوات البحر أيام معاوية كلها، وهو ممن شهد فتح مصر، ودخل جزيرة رودس فاتحًا سنة ٥٣هـ، توفي بالشام سنة ٨٠هـ. انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٢٤٤)، تهذيب تاريخ =

من فعل أهل الجاهلية، لا يدعهن أهل الإسلام، استسقاء بالكواكب، وطعن في النسب، والنياحة على الميت[1].

وعند الإمام أحمد والطبراني في معجمه عن جابر بن سمرة رضي الله عنه مرفوعًا: ثلاث أخاف على أمتي، الاستسقاء بالأنواء، وحيف السلطان، وتكذيب بالقدر[2].

(ولهما) أي الشيخين، **(عن زيد بن خالد)** الجهني المدني صحابي مشهور رضي الله عنه مات سنة ثمان وستين، أو سبعين على الأصح،

= دمشق، ابن بدران (٣/ ٣٠٨).

(١) رواه البخاري في تاريخه وقال: في إسناده نظر، كما في الإصابة لابن حجر (١/ ٥٠٥)، والطبراني في الكبير (٢/ ٢٨٢)، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند أحمد في المسند (٢/ ٢٦٢)، صححه به الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤١١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٨٩)، والطبراني في الكبير (٢/ ٢٠٨)، والأوسط (٢/ ٥٠٧) والصغير (١/ ٥٨)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ٤٥٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٣)، وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الثلاثة، وفيه محمد بن القاسم الأسدي، وثقه ابن معين، وكذبه أحمد، وضعفه بقية الأئمة».

فالإسناد كما هو ظاهر ضعيف جدًّا، لا يمكن الاستشهاد به، إلا أن الحديث قد صح من غير هذا الطريق، وله شواهد كثيرة من حديث أبي أمامة كما هو عند الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٩)، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٣): «وفيه ليث ابن أبي سليم، وهو لين، وبقية رجاله وثقوا». ومن حديث أبي محجن عند ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٣٩)، من طريق أبي سعد البقال عن أبي محجن مرفوعًا: وأبو سعد البقال هو سعيد بن المرزبان العبسي، قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٢٤١): ضعيف مدلس، وله شواهد أخرى عن أبي الدرداء وأنس عند الطبراني وأبي يعلى استوفى تخريجها الشيخ ناصر في السلسلة الصحيحة (٣/ ١١٨)، يرتقي بها الحديث إلى درجة الصحة.

بالكوفة، وله خمس وثمانون سنة، وهو من جِلّة الصحابة[1] رضي الله عنهم، (**قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية**) بئر معروفة بالتخفيف عند أهل اللغة، وهو قول الإمام الشافعي[2]، وبالتشديد عند المحدثين، وهي التي صالح فيها النبي ﷺ قريشًا، قريبًا من مكة، أدون من مرحلة، وهي خارج الحرم، عن يمين القاصد لمكة من التنعيم، إذا سلك من عند المسجد المعروف بمسجد عائشة رضي الله عنها، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره[3].

(**على إثر**) بكسر الهمزة وإسكان المثلثة، ويقال بالفتح. (**سماء**) يعني إثر مطر، والعرب تسمي المطر والعشب سماء، قال الفرزدق التميمي:

إذا نـزل السمـاء بـأرض قـوم ... رعيناه وإن كـانـوا غضـابًـا[4]

(**كانت**) عليهم (**من**) بمعنى في، كقوله ﷺ وأدبر الليل من ههنا[5]، (**الليل**) المعهود الذي أصبحوا عنه، (**فلما انصرف**) النبي ﷺ

---

(١) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٥٣٩)، الإصابة، ابن حجر (١/ ٥٤٧).

(٢) الصواب أن الشافعي يرى تشديدها لا التخفيف كما نقل عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان حيث قال: «روي عن الشافعي أنه قال: الصواب تشديد الحديبية وتخفيف الجعرانة وأخطأ من نص على تخفيفها» (٢/ ٢٢٩).

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٦/ ١٠٣)، وانظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٢٢٩).

(٤) البيت لمعود الحكماء في لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ٣٩٩)، وهو للفرزدق في تاج العروس، الزبيدي، مادة سما، وبلا نسبة في مقاييس اللغة، ابن فارس (٣/ ٩٨).

(٥) جزء من حديث عمر بن الخطاب مرفوعًا: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم». أخرجه البخاري، الصوم، باب متى يحل فطر الصائم (٢/ ٦٩١).

(أقبل على الناس) بوجهه وقوله **(فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم)** تبارك وتعالى؟ وهذا من حسن تلطفه ﷺ بهم، حيث أتى بالاستفهام ليفرغوا أسماعهم وأذهانهم، ليعوا ما يجيبهم به، إذ قد علم من حسن أدبهم معه ﷺ ورضي الله عنهم أنهم سيردون علم ذلك إلى عالمه، وهذا ينبىء عن فضلهم رضي الله عنهم على الأمم قبلهم بتأدبهم مع رسولهم ﷺ عندما يخاطبهم به، ولما أمرهم في ذلك الموضع أن ينحروا هديهم ويحلقوا وثقل ذلك عليهم، وشكا ذلك إلى بعض نسائه[1]، وأشارت عليه أن يقدمهم بالفعل، ورأوه يحلق ﷺ كادوا يقتتلون على ذلك، وجعل يحلق بعضهم بعضًا بالمدى استعجالاً منهم بالامتثال لذلك[2] رضي الله عنهم، ولذلك **(قالوا الله ورسوله أعلم)**.

فعلم بهذا أن الدراية هي العلم، قال الشاعر:

دريت الوفي العهد [يا عمرو فاغتبط][3] فإن اغتباطًا بالوفاء حميد[4]

فلن يزال الناس بخير ما وقفوا عند غاية علمهم، وما قصروا عنه بعلمهم سألوا عنه من هو أعلم به منهم، كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، ومن قال بالجهل فقد أخذ

---

(١) هي أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) كما في حديث عمرة الحديبية الذي أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط (٢/ ٩٧٤).

(٣) في الأصل، والمسودة: «يا عمرو فاتئد» وما بين معكوفتين نص البيت.

(٤) من الشواهد النحوية، وهو عند ابن عقيل في شرحه (١/ ٣١)، وأوضح المسالك، ابن هشام (٢/ ٣٣)، وشرح الأشموني (١/ ١٥٧)، ولم ينسبوه إلى قائل معين.

حظًا مما يروى عنه ﷺ أنه قال: إن من العلم جهلاً(١).

وقد قال بعض السلف: من ترك قول لا أدري أصيبت مقاتله.

وليستحضر الإنسان قوله تعالى مخاطبًا للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [الحجرات: ١] الآية على قراءة فتح المثناة، والدال من لا تقدموا(٢).

(قال:) أي النبي ﷺ **(قال)** أي: **(ربكم أصبح من عبادي مؤمن بي)** أي مصدق لي بأني أنا الذي أنزل الغيث عليهم، **(وكافر)** أي: بنعمتي، **(فأما من قال)** منهم: **(مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب)** بأنه لا فعل له، وإنما الفاعل الذي خلقه ودبره وصرفه حيث شاء، إذ ليس عنده علم من المطر وإنزاله، وإنما المنزل الحكيم العليم الذي هو على ما يشاء قدير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولهذا قال تعالى [ك، ١٢٩/ب] منبهًا لعباده ليعبدوه ويشكروا له: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤١- ٤٤].

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ٣٠٣) وقد مضى تخريجه، ونصه: «إن من البيان سحرا، وإن من العلم جهلاً، وإن من القول عيالاً» من حديث صخر ابن عبدالله بن بريدة عن أبيه عن جده مرفوعًا، وهو ضعيف بهذا اللفظ، ضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (ص ٤٩٢).

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٥/ ٥٩).

فالذي هذا صنعه وعلمه وقدرته هو المستحق أن يشكر ويعبد. قال تعالى ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [فاطر: ٢] الآية، ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠ ﴾ [الفرقان: ٥٠].

فليس نابضة حركة ولا سكون إلا عن أمره وتكوينه، فهو بذلك المعبود وحده، كما هو الرازق وحده، ولهذا قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝١٤ ﴾ [الرعد: ١٢- ١٤].

فليحذر الإنسان من غبار مذهب الجاهلية في الاستسقاء بالأنواء، وليعلم أن الأمر كله بيد الملك المتعال فيسأله من فضله.

وقد قال الإمام مالك في الموطأ إنه بلغه أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول إذا أصبح وقد مطر الناس: مطرنا بنوء الفتح، ثم يتلو هذه الآية: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[1] [فاطر: ٢].

قال: وبلغني أن رسول الله ﷺ كان يقول: إذا أنشئت بحرية ثم تشاءمت فتلك عينٌ غُديقة[2].

---

(١) الموطأ (١/ ١٩٢) بلاغًا.

(٢) المصدر السابق، وقال ابن عبدالبر في تعليقه على هذا الحديث: «هذا الحديث لا أعرفه بوجه من الوجوه في غير الموطأ إلا ما ذكره الشافعي في الأم عن إبراهيم بن محمد. . .» وساق الحديث بإسناده. انظر التمهيد (٢٤/ ٣٣٧).

وهكذا ذكر هذا اللفظ الإمام الشافعي رضي الله عنه في الأم عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى عن إسحاق بن عبدالله أن النبي ﷺ قال: إذا أُنشئت بحرية ثم استحالت شامية، فذكره بنحوه[١].

وفي مجمع بحار الأنوار[٢]: إذا نشأت السحابة من [العين][٣] فتلك عين غديقة.

وقال فيه: وفي النهاية: عين غُديقة: كثيرة الماء، وصغرت للتعظيم[٤].

قال في مختصر النهاية: والعين اسم لما عن يمين قبلة العراق، وذلك يكون أخلق للمطر في العادة، تقول العرب: مطرنا بالعين، وقيل العين من السحاب ما أقبل عن القبلة.

قلت: وعين السحاب مما يلي المغرب، قال جرير:

خبّر عن الحي سرا أو علانية ... جادتك مدجنة[٥] في عينها وطفُ[٦]

---

(١) الأم، الشافعي ١٠/ ٢٥٥).

(٢) لمحمد طاهر الهندي في تفسير غريب القرآن والحديث. انظر: ذيل كشف الظنون، إسماعيل باشا (٤/ ٤٣٤).

(٣) ما بين معكوفتين لم أستطع قراءتها من الأصل، وأثبتت من النهاية، لابن الأثير (٣/ ٣٤٥).

(٤) انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٤٥).

(٥) الدجن: المطر الكثير، وأدجنت السماء: دام مطرها، والداجنة: المطبقة المطر نحو الديمة. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ١٤٨).

(٦) شرح ديوان جرير، مهدي محمد ناصر الدين (ص ٢٩٠).

والوطف: دنوّ السحاب وتقاربه من الأرض، فإذا كان كذلك لم يُخلِف بإذن الله تعالى، يقول: إن عيان السحاب ثقيلة، وهي مواخيره، وذلك من حملها الماء الذي جعله الله فيها جل وعلا.

(**وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا**) النوء بالهمزة: ما أضيف إلى نجم غارب أو طالع، من ناء ينوء إذا نهض وقد مر الكلام على ذلك.

وقوله: كذا وكذا: كناية عن النجم بأن يقول مثلاً: مطرنا بنوء الثريا، أو المجدّح، وهو الدبران، أو نحوهما من نجوم المنازل الثمانية والعشرين نجمًا، (**فذلك**) القائل لما ذكر (**كافر بي**) أي بنعمتي التي أنزلتها برحمتي على عبادي، ويحتمل أن يكون كفرًا حقيقيًا، وذلك إذا اعتقد القائل تأثير النجم بذاته استقلالاً بذلك من دون أمر العزيز الحكيم العليم، (**مؤمن**) أي مصدق (**بالكوكب**)[1].

وظاهر هذا المنع من هذا اللفظ وإن لم يقصد المتكلم به تأثير النجم، تأدبًا مع الله تعالى الذي بيده الخلق والأمر، وقد مر الكلام في ذلك.

وما روى ابن جرير من طريق محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن سعيد بن المسيب قال: أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يستسقي فلما استسقى التفت إلى العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه فقال: يا عباس يا عم رسول الله كم بقي من نوء الثريا، فقال العباس: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعًا،

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الحديبية (٤/ ١٥٢٤)، ومسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (١/ ٨٣).

قال: فما مضت سابعة حتى مطرنا[1].

فهذا منه رضي الله عنه محمول على سؤال عن الوقت الذي أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر، لا أن ذلك النوء مؤثر بنفسه في نزول المطر، فإن هذا هو المنهي عنه، والصحابة رضي الله عنهم أبعد شيء عنه، ولهذا قال ابن جرير حدثني يونس أنا سفيان عن إسماعيل بن أمية فيما أحسبه، أو غيره، أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً ومطروا، يقول: مطرنا ببعض عثانين الأسد، فقال: كذبت بل هو رزق الله[2].

وواحد العثانين: عثنون وهو اللحية من كل حيوان.

(ولهما) أي الشيخين، **(من حديث بن عباس رضي الله عنهما معناه)** أي معنى حديث زيد بن خالد (وفيه) أي: الحديث الذي ذكر هنا الشيخ أنه أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولم أره في الصحيحين ولا معناه من حديث ابن عباس[3]، وإنما روى معناه إمام المفسرين محمد بن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح إليه حيث قال: حدثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفًا رضي الله عنهما قال: ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافرًا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا،

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٧/ ٢٠٨)، والحميدي في مسنده (٢/ ٤٣٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٥٩)، كلهم عن سعيد بن المسيب أنه قال حدثني من لا أتهم أنه شهد هذا المصلى مع عمر بن الخطاب به. وذلك ضمن حديث سمعه من أبي هريرة.

(٢) أخرجه في التفسير (٢٧/ ٢٠٨).

(٣) بل هو موجود في مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (١/ ٨٤).

وقرأ ابن عباس: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢][(١)].

فالظاهر أن نسبة حديث ابن عباس هذا الذي عزاه المصنف إلى الصحيحين وهم ممن نقله عنه، لأن غالب ما يورد في هذا الكتاب إنما هو نقل عن غيره ممن يثق به، وذلك جائز عند جمهور العلماء رحمهم الله تعالى.

وقوله: **(قال بعضهم:)** يصدق هذا اللفظ على الواحد فما فوقه إذا كان له تبع، كقول البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: وقال بعض الناس، خصوصًا إذا قصد القائل عدم تخصيص القائل، ومنه قوله ﷺ إذا بلغه عن إنسان مقالة يكرهها: ما بال بعض الناس، أو بعضكم[(٢)]، كراهة أن يواجه القائل بقوله أو فعله، توخيًا منه ﷺ تأليفهم وما يصلح قلوبهم، مع حصول المقصود من الإنذار والتبليغ، وقد قال تعالى فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وهذا منه ﷺ من باب [ك،١٢٩/أ] الرفق والتيسير وعدم التعسير والتنفير، فينبغي أن يُقتدى به في ذلك، فقد قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٧/ ٢٠٨)، وسعيد بن منصور في السنن بسند صحيح كما قال الحافظ في الفتح (٢/ ٥٢٢)، وأبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه كما في الدر المنثور (٨/ ٢٨).

(٢) أو «ما بال أقوام» كما في حديث عائشة عند البخاري في المساجد، باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد (١/ ١٧٤).

(لقد صدق نوء كذا وكذا) كما كانت العرب في جاهليتها تقول إذا نزل المطر بأمر الله تعالى عند سقوط النجم مع الفجر، أو طلوعه على القول الآخر لهم: صدق نوء كذا وكذا، فإذا لم ينزل مطر حينئذ قالوا: أخطأ أو أخلف أو خوى نوء كذا وكذا، فنسبوا ذلك إلى النجم، كقول حاتم طي حيث يقول في قولهم أخلف:

إذا الريح جاءت من أمام أطايفٍ   وأخلف نوء الشعريين دبورها[1]

وقال كعب بن زهير رضي الله عنه في مدحه للأنصار رضي الله عنهم بإكرامهم للضيف والجار:

قوم إذا خوت النجوم فإنهم   للطارقين النازلين مقاري[2]

قال ابن الأعرابي: إن كواكب الأنواء سواقط وكواكب ناجر[3] طوالع، والنوء أن يكون المطر في أيام سقوط النجم، يقال: ناء النجم إذا سقط، وإن لم يكن مطر في أيامه كلها قيل: خوى، يقال: خوت النجوم والدار تخوي خواء، وخويا، وخوى الإنسان خوًى شديدا من الجوع، وأنشد:

والمطعمون إذا النجوم خوت   وأحاط بالمتوحد المحل

(فأنزل الله) على محمد ﷺ **(هذه الآية)** التي في سورة الواقعة تأديبًا

---

(١) آخر البيت في ديوانه ص ٦٢ هكذا: . . وألوت بأطناب البيوت صدورها.

(٢) ديوان كعب بن زهير (ص ٢٨)، لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ٢٦٤).

(٣) كل شهر ذي صميم الحر فاسمه ناجر؛ لأن الإبل تنجَر فيه، أي يشتد عطشها حتى تيبس جلودها، وصفر كان في الجاهلية يقال له ناجر. عن اللسان (٥/ ١٩٤).

وتعليمًا لعباده المؤمنين، عن أن يشابهوا المشركين في أقوالهم وأفعالهم، وإن لم يقصدوا بهذا اللفظ ما يعتقده المشركون في استسقائهم بالنجوم، فقال تعالى مقسمًا وله أن يقسم بما شاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون: (﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾) قال بعض المفسرين: المعنى أقسم و«لا» صلة في الكلام للتأكيد، وقيل ردًا لقول الكفار ثم قال: أقسم، وقرىء فلأقسم[1]، والذين قالوا إنها صلة لم يقولوا لا معنى لها، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي، كقول عائشة رضي الله عنها: «لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط»[2]، تعني في مبايعته النساء.

وهكذا ههنا تقدير الكلام لا أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم في القرآن إنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم.

وقال ابن جرير: وقال بعض أهل اللغة معنى قوله فلا أقسم: فليس الأمر كما تقولون ثم استؤنف القسم فقيل أقسم[3].

(﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ ﴾) وقرىء «بموقع النجوم»[4] أي: بنزول القرآن نجومًا آية بعد آية وسورة بعد سورة. بعد أن نزل من العلياء إلى السماء الدنيا جملة واحدة، قاله ابن عباس[5] وغيره، ولهذا لما حكى الله قول

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٥٩).

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري، الطلاق، باب إذا أسلمت المشركة أو النصرانية تحت الذمي أو الحربي (٥/ ٢٠٢٥)، ومسلم، الإمارة، باب كيفية بيعة النساء (٣/ ١٤٨٩).

(٣) تفسير الطبري (٢٧/ ٢٠٣).

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٥٩).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ٢٠٣).

الكفار في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ قال جل ثناؤه: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: أنزلناه متفرقًا: ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾. يقول: فرقناه تفريقًا غير متباعد، ويقال: تابعناه، ويقال: بيناه تبيينًا، ولهذا قال بعده ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٢- ٣٣]، وهذا من الحكمة في إنزال القرآن منجمًا، لدفع شبه المشركين بعد إيرادها، وذلك أبلغ في محقها وزهوقها، وأوضح للفلج وأقطع للحجة، وأقوى للإيمان في قلوب المؤمنين، وأثبت لقلب سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين وأضعف للباطل في قلوب المشركين، وأوهى له على ألسنتهم وجولانه بينهم وبين إخوانهم المنافقين، الشانئين لدين رب العالمين، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾. فلم يكتف سبحانه بقوله ﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ حتى أعقبه بأفعل التفضيل، فقال: ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ يعني: أحسن تبيينًا، فترد به خصومتهم وشبهتهم الباطلة، وقد قال ابن عباس رضي الله عنه في رواية سعيد بن جبير: ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾ بمحكم القرآن، وقاله البخاري في التفسير[1].

ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة: ٧٧- ٧٩].

قال البخاري: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقه إلا الموقن لقوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾[2] [الجمعة: ٥].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في التفسير، باب تفسير سورة الواقعة (٤/ ١٨٥٠).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ٢٧٣٩).

ثم قال البخاري رحمه الله تعالى: بمسقط النجوم إذا سقطن، قال: ومواقع وموقع واحد[1].

وقال مجاهد: مواقع النجوم في السماء، ويقال مطالعها ومساقطها[2].

وكذا قال الحسن وقتادة، واختاره ابن جرير[3]، وعن قتادة مواقعها منازلها[4]، وعن الحسن أيضًا مواقعها انتشارها يوم القيامة[5].

وقال الضحاك يعني بذلك الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا وكذا. إلى قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾[6] وهذا الشاهد.

قال الحسن: بئسما أخذ قوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب به[7].

يعني بأنهم يكذبون به، وما كان تكذيبهم نعوذ بالله بجملته، ولكن بنسبتهم المطر إلى النجم، والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] ولهذا من المسنون عند

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة الواقعة (٤/ ١٨٥٠).
(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٧/ ٢٠٤).
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس في الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (١/ ٨٤).
(٧) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٧/ ٢٠٩).

المطر أن يقول الإنسان مطرنا بفضل الله ورحمته، ليخالف عادة أهل الجاهلية، قال [ك،١٣٠/ب] ابن مفلح: ولا يكره في نوء كذا خلافًا للآمدي[(١)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ألم تروا إلى ما قال ربكم؟ قال: ما أنعمت على عبادي [من][(٢)] نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين ينزل الله الغيث فيقولون بكوكب كذا وكذا[(٣)].

فهذا يدل على أن المراد بهذا كفر النعمة لقوله بها، إذ الضمير في بها للنعمة وقد مر التنبيه على ذلك، وأما إضافة المطر إلى النوء دون الله تعالى استقلالاً مع الاعتقاد بذلك فهو كفر بالإجماع كما مر.

قال محي الدين النووي: ويكره أن يقول الإنسان مطرنا بنوء كذا، فإن قاله معتقدًا أن يكون الكوكب هو الفاعل فهو كفر، وإن قال ذلك معتقدًا أن الله هو الفاعل وأن النوء المذكور علامة لنزول المطر لم يكفر، لكنه ارتكب مكروهًا لتلفظه بهذا اللفظ الذي كانت أهل الجاهلية تستعمله مع أنه مشترك بين إرادة الكفر وغيره[(٤)].

ولهذا قال ابن جرير: حدثني أبو صالح الصراري ثنا أبو جابر محمد بن عبدالملك [الأزدي][(٥)] ثنا جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ما مطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين ثم قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، قال: قولهم في

---

(١) الفروع، ابن مفلح (٢/ ١٦٣).

(٢) ساقطة من الأصل، مثبتة من صحيح مسلم (١/ ٨٤).

(٣) مسلم، الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (١/ ٨٤).

(٤) انظر: شرح مسلم للنووي (٢/ ٦٠).

(٥) في الأصل: الأزدي، والمثبت من تفسير الطبري.

الأنواء مطرنا بنوء كذا وكذا[1].

يقول: قولوا هو من عند الله وهو رزقه، وهكذا قال الضحاك وغير واحد من السلف[2].

ولهذا روي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قرآها: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون»[3].

قال ابن جرير: وقد ذكر عن الهيثم بن عدي: أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان بمعنى ما شكر[4].

قال الإمام أحمد في مسنده ثنا حسين بن محمد ثنا إسرائيل عن عبدالأعلى عن أبي عبدالرحمن عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يقول: شكركم أنكم تكذبون تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، أي بنجم كذا وكذا[5].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مخول بن إبراهيم النهدي[6]، وابن جرير عن محمد بن المثنى عن عبيدالله بن موسى وعن يعقوب عن

---

(١) تفسير الطبري (٢٧/ ٢٠٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني (٥/ ١٦١).

(٤) التفسير (٢٧/ ٢٠٧).

(٥) مسند أحمد (١/ ١٠٨)، والترمذي في التفسير، باب سورة الواقعة (٥/ ٤٠١)، وقال حسن غريب، وأورده الحافظ في الفتح بصيغة تمريض «روي» وعزاه إلى عبد ابن حميد (٢/ ٥٢٣)، والخرائطي وابن مردويه وابن المنذر والضياء في المختارة كما في الدر المنثور (٨/ ٢٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (ص ٤٢٠).

(٦) كما في الدر المنثور (٨/ ٢٩).

يحيى بن أبي كثير ثلاثتهم عن إسرائيل به مرفوعًا[1].

وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع عن حسين بن محمد وهو المروزي به، وقال فيه: حسن غريب وقد رواه سفيان الثوري عن عبدالأعلى ولم يرفعه[2].

وقال ابن جرير أيضًا حدثني يونس ثنا سفيان عن محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله ليصبّح القوم بالنعمة أو يمسّيهم بها، فيصبح قوم بها كافرين يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا.

قال محمد هو ابن إبراهيم: فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب، فقال: ونحن قد سمعناه من أبي هريرة[3].

وهذا أيضًا صريح أن الكفر في ذلك إنما هو بالنعمة.

قال في الفروع: ويسن لمن رأى سحابًا أو هبت ريح أن يسأل الله تعالى خيره ويتعوذ بالله من شره، ولا سأل سائل ولا تعوذ بمثل المعوذتين، وقد ورد في ذلك أحاديث ليس هذا موضعها والمقصود منها ما ذكرناه[4].

فمنها حديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا سمع صوت

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٨).
(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٤٠١).
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٢٠٨)، وأحمد في المسند (٢/ ٥٢٥)، والحميدي في مسنده (٢/ ٤٣٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٥٩).
(٤) ابن مفلح، الفروع (٢/ ١٦٤).

الرعد والصواعق قال: اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك.

رواه الإمام أحمد والترمذي وقال حسن غريب[1].

وعند الإمام أحمد والترمذي وصححه والنسائي والضياء وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت اليهود إلى النبي ﷺ فقالت: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من الملائكة موكل بالسحاب، بيده مخراق من نار، يزجي به السحاب ليسوقه حيث أمر الله، قالوا: ما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدق[2].

قال[3]: روي في الأثر: قوس قزح أمان لأهل الأرض من

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا سمع الرعد (٥/ ٥٠٣)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٥١)، وأحمد في مسنده (٢/ ١٠٠ـ ١٠١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ٢٩٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٥١٨)، والحاكم (٤/ ٢٨٦)، وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٦٢)، كلهم من طريق أبي مطر عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه مرفوعًا، وفي إسناده أبو مطر قال عنه الذهبي في الميزان (٤/ ٥٧٤): «لا يدرى من هو»، وقال عنه الحافظ في التقريب (ص ٦٧٤): «مجهول»، وبهذه العلة ضعفه الألباني في الضعيفة (٣/ ١٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة الرعد (٥/ ٢٩٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٣٣٦)، وأحمد في المسند (١/ ٢٧٤)، وأبو إسحاق الحربي في غريب الحديث (٢/ ٦٨٨)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥)، وأبو نعيم في الحلية والضياء في المختارة كما في الجامع الصغير وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٦٥).

(٣) أي ابن مفلح.

الغرق[1].

قال ابن حامد في أصوله[2]: هو من آيات الله تعالى، ودعوى العامة أنه إن غلبت عليه حمرته كانت الفتن والدماء، وإن غلبت خضرته كان رخاءً وسرورًا، هذيان باطل[3].

قلت: وقد ورد الحديث بالنهي عن تسميته بقوس قزح، فعند أبي نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: لا تقولوا قوس قزح فإن قزح شيطان، ولكن قولوا قوس الله عز وجل، فهو أمان لأهل الأرض[4].

ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولفظه: قوس قزح أمان لأهل الأرض من الغرق[5].

ورواه أيضًا البخاري في الأدب المفرد ولفظه: وأما قوس قزح فأمان من الغرق بعد قوم نوح عليه السلام[6].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٦٨) وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، قال الحافظ في التقريب (ص ٤٠١): ضعيف، وقال الألباني في ضعيف الأدب المفرد (ص ٧١): ضعيف الإسناد.

(٢) لعله «تهذيب الأجوبة» في أصول المذهب الحنبلي، كما أشار إلى ذلك أستاذنا الدكتور العثيمين في تحقيقه للمقصد الأرشد (١/ ٣١٩).

(٣) الفروع، ابن مفلح (٢/ ١٦٤).

(٤) الحلية، أبو نعيم (٢/ ٣٠٩).

(٥) لم أعثر عليه بهذا اللفظ عند الحاكم في مستدركه.

(٦) مضى تخريجه قبل قليل.

والحديث عند الجميع مرفوع، قيل سمي بذلك لأنه أول ما رؤي على جبل قزح بالمزدلفة، وفي آخر رواية الحاكم أنه كان عليه وتر وقوس في السماء فلما جعل أمانًا لأهل الأرض نزعا.

وقزح: بضم القاف وفتح الزاي قال الجوهري وغيره: هي غير مصروفة[1]، هذا والله الموفق.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري (١/ ٣٩٦)، لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٥٦٣).



الباب الثلاثون

(باب قول الله تعالى

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾)

لما ذكر المصنف رحمه الله تعالى باب الاستسقاء وأن النعمة لا توجد إلا من الله تعالى وأنه المشكور عليها، أعقبه بباب المحبة إذ القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، ولا أعظم إحسانًا على العبد من الله، وبين أن هذه المحبة لا تصلح إلا لله وحده، وأن محبة المشركين له سبحانه لما أشركوا غيره فيها لم تنفعهم بل تكون وبالاً عليهم، وقد مر الكلام على هذه الآية التي استشهد بها رحمه الله مستوفى في باب تفسير التوحيد بما أغنى عن إعادته هنا، فلينظر هناك حيث أوردها المصنف رحمه الله تعالى.

(**وقوله تعالى**: [ك، ١٣٠/أ] ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤]).

هذا خطاب للمؤمنين ونهي لهم عن أن يوالوا الكفار، وبيان أن موالاتهم حرام عليهم وارتكاب الحرام من المؤمنين فسق فلاق به كلمة الفاسقين.

كما أن قوله تعالى بعد قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٣٧]، بيان أن تحليل الحرام وتحريم الحلال كفر، فلاق به كلمة الكفر، يقول تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمتخلفين عن الهجرة والجهاد، ممن آمن بك وأقام في دار الكفر، بين أظهر الكفار ولم يقدر على إظهار دينه، مما أرسلت به: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾.

وقرأ يعقوب[1]: «وعشيراتكم» بالألف على الجمع[2]، وروي عن عاصم ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ وهو ضد النَّفاق، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ فسكنتموها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ أي: من الهجرة إلى الله ورسوله، والجهاد في سبيل الله مع رسوله ﷺ، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: بقضائه، وهذا تهديد أكيد ووعيد شديد، وورود خبر «كان» بأفعل التفضيل يدل على أن حب الإنسان لهذه الأشياء أمر طبيعي لا ينفك عنه، والمطلوب أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

وغاية المقصود أن تكون محبة هذه الأشياء متابعة لمحبة الله ورسوله، حتى تكون أعمال الإنسان وأقواله الدينية والدنيوية كلها طاعة لله تعالى،

---

(١) هو يعقوب بن إسحاق الحضرمي، قارىء أهل البصرة في عصره، كان عالمًا بالعربية ووجوهها، والقرآن واختلافه، فاضلاً تقيًا نقيًا ورعًا زاهدًا، توفي سنة ٢٠٥هـ. انظر: معرفة القراء الكبار، الذهبي (١/ ١٥٧)، مرآة الجنان، اليافعي (٢/ ٣٠).

(٢) عزى الأصبهاني هذه القراءة إلى شعبة، وعزاها ابن الجزري إلى أبي بكر. انظر: الغاية في القراءات العشر، الأصبهاني (ص ٢٦٧)، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (٢/ ٢٠٩).

حتى النفقة يحتسبها الرجل، وحتى اللقمة يجعلها في في امرأته، وسيأتي الكلام على ما يتعلق بهذا المقام قريبًا إن شاء الله تعالى.

وهذه الآية في التهديد كقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١] أي: إن لم تطيعوا أُمهلتم في الوقت، ولكن عما قليل يأتيكم وبال عصيانكم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، أي: لا يرشد من عصاه وترك الهجرة بعد ما دعي إليها، وهو يقدر عليها من بلد الكفار، مع كونه لا يقدر على إظهار دينه فيها.

وقد قال أبو العباس بن سريج الشافعي(١) في هذه الآية: توعُّد الله لهم على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ورسوله ﷺ لا يقع إلا على فرض لازم، وحتم واجب، ولأن محبة الله تعالى تمنع المحب له من عصيانه، وكذا محبة رسوله ﷺ تمنعه من أن يعصيَه أو يرد قوله، فدل على أن محبتهما فرض، والانقياد لأمرهما لازم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] الآية.

وعند الإمام أحمد في مسنده وأبي داود في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم،

---

(١) هو أحمد بن عمر بن سريج البغدادي، أبو العباس، القاضي الشافعي، فقيه العراقيين، به انتشر مذهب الشافعي ببغداد، توفي على رأس الثلاثمائة. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٤/ ٢٠١)، طبقات الشافعية، السبكي (٣/ ٢١).

حتى ترجعوا إلى دينكم[1].

وعند الإمام أحمد أيضًا عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مثله[2].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

والضمير في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ راجع إلى المؤمنين في قوله مخاطبًا لهم قبل ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣] ثم قال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ الآية ففيها أقوى دليل أن موالاة الكفار تخلّ بالتوحيد، وعلم من ذلك أن موالاة غير القرابات منهم أولى بالمنع وأحرى.

وأما برهم حيث لم يخل بالتوحيد فلم يُنه عنه كما صرح به في

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، الإجارة، باب في النهي عن العينة (٣/ ٢٧٤)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٨، ٤٢، ٨٤)، والدولابي في الكنى (٢/ ٦٥)، وابن عدي في الكامل (٥/ ٣٥٨)، وأبو يعلى في المسند (١٠/ ٢٩)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٣ـ ٣١٤) من طرق عن ابن عمر مرفوعًا، ونقل الحافظ في التلخيص (٣/ ١٩) عن ابن القطان تصحيحه، وجمع الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٥) طرقه وصححه لمجموعها، وصححه أحمد شاكر في عمله على المسند (٧/ ٢٧).

(٢) حكى الشوكاني في نيل الأوطار (٥/ ٢٠٧) عن ابن كثير تضعيفه لحديث عبدالله بن عمرو حيث قال: «قال ابن كثير: وروي من وجه ضعيف أيضًا عن عبدالله بن عمرو ابن العاص مرفوعًا. ولم يشر إلى أن الإمام أحمد أخرجه.

كتابه العزيز، وإنما نهى عن توليهم من دون المؤمنين، وفيها أيضًا فضيلة رفيعة لرسوله ﷺ مع ما يأتي من التنبيه عليها في الحديث الذي بعدها حيث قال: «**أحب إليكم من الله ورسوله**».

فواجب على كل مسلم أن يبغض في الله من كفر به، أو جعل معه إلهًا غيره، أو كذب رسوله ﷺ، فقد نبهنا سبحانه في هذه الآية على علامة المحبة له، بقطع العلاقات، ومفارقة العادات، وهجران القرابات، ونبذ الشهوات، والرجوع إليه جل وعلا في دوام الحالات، وفي المثل: من نفقت سوق دينه، كسدت سوق حضوضه.

فأكثر الخلق له سبحانه محبة أعظمهم طاعة، فإن من يحبك لا يعصيك، ولا يراك حيث نهاك.

وأصل هذه المحبة ولبها في القلب، ولهذا لا تمتحي من القلب ولا تزول مع الإكراه، ولا يخرج صاحبها به من المدح، فهو مستثنى مع الإكراه في قوله تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وهذه رحمة منه سبحانه لمحبيه بأن رخص لهم إذا خاف أحدهم على ماله أو نفسه، وكان فداؤه بالكفر جاز أن يتلفظ به ولا يعتقده بقلبه، وكذلك في عرض النبي ﷺ [ونقصان][(١)] قدره، وإنما كانت تلك الفروض مع الرفاهية والاختيار دون الضرورة والإكراه.

[ك،١٣١ب] ولما كانت حقيقة المحبة هي الميل بالطبع إلى الموافق الملائم

---

(١) في الأصل: «وصان قدره»، ولا يتفق مع السياق.

للنفس، خلق الله سبحانه الحواس للعبد ربيئة وطليعة على المحسوسات، تلقيها إلى قلبه فيميل إلى كل ما يوافق منها، وينفر عن كل ما يخالف، فبذلك يعرف صلاح القلب وفساده وصحته وسقمه.

وقد قال الحافظ ابن عساكر[1] في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي: قال سمعت بعض الجن وأنا في منزلي بالليل ينشد:

قلوب براها الحب حتى تعلقت ... مذاهبها في كل غرب وشارق

تهيم بحب الله والله ربها ... معلقة بالله دون الخلائق[2]

(عن أنس) بن مالك الأنصاري خادم النبي ﷺ: **(أن رسول الله ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم)** أي: لا يتم إيمانه، أو لا يكون كامل الإيمان، فلا يستحق أن يطلق عليه مسمى الإيمان المطلق، إذ المطلق من الأسماء لا يتناول إلا الكامل من المسميات في الإثبات دون النفي، فالنفي في هذا لمطلق الاسم، الذي لا يطلق إلا على الكامل الذي قد وصل إلى غاية «حتى»، المغيّىٰ بها في الحديث، والقاصر عنها في إيمانه من النقص بحسب قصوره، وهذا معنى قول محققي العلماء من أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى[3].

---

(١) هو علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر وهو لقب أحد أجداده، الإمام الحافظ المجود، محدث الشام، صاحب «تاريخ دمشق» وغيره من المصنفات الجليلة، لم يكن له نظير في زمانه، توفي سنة ٥٧١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٠/ ٥٥٤)، طبقات الشافعية، الأسنوي (٢/ ٢١٦).

(٢) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر (٢٦/ ٢٤٣)، في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي، حيث لم يزد في ترجمته عن ذكر هذه القصة.

(٣) وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله: «الإيمان المطلق لا يطلق إلا على الكامل المأمور به ومطلق الإيمان يطلق على الناقص والكامل، ولهذا نفى النبي ﷺ الإيمان=

وفيه دلالة صريحة على زيادة الإيمان ونقصانه، وهو مذهب الأئمة وسلف الأمة[1].

ومنهم من قال إن صاحب الكبائر يسمى مسلمًا، ولا يسمى مؤمنًا، وهو قول جماعة من السلف[2].

= المطلق عن الزاني وشارب الخمر والسارق ولم ينف عنه مطلق الإيمان، لئلا يدخل في قوله ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾، ولا في قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾، ولا في قوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى آخر الآيات، ويدخل في قوله ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، وفي قوله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾، وفي قوله: «لا يقتل مؤمن بكافر»، وأمثال ذلك. فلهذا كان قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ نفيًا للإيمان المطلق لا لمطلق الإيمان لوجوه... والمقصود الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها». بدائع الفوائد (٤/ ٦١).

(١) انظر: السنة، عبدالله بن أحمد (١/ ٣٠٧)، السنة، الخلال (ص ٥٨٣)، الشريعة، الآجري (٢/ ٥٨٠)، الإبانة، ابن بطة (٢/ ٨٣١)، حيث عقدوا عليهم رحمة الله فصولاً ضمنوها نقولاً كثيرة عن سلف الأمة وأئمتها تنص على أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن حكى هذا القول عن بعض السلف: «الذين قالوا من السلف: إنهم خرجوا من الإيمان إلى الإسلام، لم يقولوا: إنه لم يبق معهم من الإيمان شيء بل هذا قول الخوارج والمعتزلة، وأهل السنة الذين قالوا هذا، يقولون: الفساق يخرجون من النار بالشفاعة، وإن معهم إيمانًا يخرجون به من النار، لكن لا يطلق عليهم اسم الإيمان لأن الإيمان المطلق هو الذي يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة، وهؤلاء ليسوا من أهله وهم يدخلون في الخطاب بالإيمان، لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل في الإيمان وإن لم يستكمله، فإنه إنما خوطب ليفعل تمام الإيمان فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب»؟! ثم قال: والتحقيق أن يقال إنه مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا يعطى اسم الإيمان المطلق، فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله». مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤٠ـ ٢٤١).

(حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[1].

فقوله: **والناس أجمعين**، يفهم من ألف الاستغراق والتأكيد بعدها دخول كل مخاطب من الأمة في الناس، فيلزم أن يكون أحب إليه من نفسه كما جاء مصرحًا في حديث عمر بن الخطاب[2].

قالوا: وأصل هذا الحديث من كتاب الله الآية المتقدمة قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ثم تهدد على ذلك وتوعد فقال: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] الآية، فقرن الله حب نبيه مع حبه وزاده مزية بذلك على سائر المخلوقات كما في الحديث الآتي: **أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**[3].

وما سواهما هو جميع المخلوقات من نبي أو ملك، جلت رتبته أو علت منزلته، فلما أفرده الله تعالى بهذه المرتبة وجب له مزية في الحب على سائر الخلق بألا يثبت إيمان أحد ولا يُقبل إلا بحبه، ثم لا يكمل إيمانه حتى يكون أحب إليه من جميع المخلوقات حتى من نفسه.

ثم اعلم أن هذا الباب كما قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى: على ثلاثة أقسام:

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ١٤)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد (١/ ٦٧)، كلاهما من حديث أنس.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦/ ٢٤٤٥).

(٣) سوف يأتي تخريجه بعد قليل.

قسم في مقام الإسلام وهو: محبته ﷺ بالقلب واللسان وإظهار ذلك على الجوارح، بالنصر له ولدينه وسنته، وكثرة الثناء عليه، والصلاة والدعاء له، والمعاداة لمن عاداه، وعادى طريقته وأتباعَ سنته، ومخالفةِ الأهواء والبدع.

والثاني: حبه في مقام الإيمان وهو: وده بالقلب، حتى يكون أود إليك من كل شيء سوى الله عز وجل.

والثالث: حبه في مقام الإحسان وهو: أن تنظر بالعقل في تشريف الله تعالى له، وتلحظ ذلك بعين التعظيم والتوقير، وأنه معظم موقر في جميع العالم، حتى أنه صُعد به ﷺ حتى كان قاب قوسين أو أدنى، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] الآية، بحيث لا تخرجه بهذا التعظيم عن مقام العبودية والرسالة، فتطريه كما أطرت النصارى المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام، حتى جعلوه في مقام الألوهية، وإنما بعث ليدل عليها الخلق بأنها لله تعالى وحده لا شريك له فيها.

والمطلوب منك في حقه ﷺ أن يكون هواك تبعًا لما جاء به.

ولا تحصل هذه المتابعة إلا بباعث لها وهي محبة الله تعالى، ومحبة الله تعالى تدعو إلى محبة رسوله ﷺ ومتابعته مطلقًا، بحيث لا يعارضها هوى ولا شهوة، ولا شيء من المحبات والعوارض القاطعة للمتابعة.

قال أبو سليمان الخطابي: لم يرد به حب الطبع بل أراد به حب الاختيار لأن حب الإنسان نفسه طبع ولا سبيل إلى قلبه[1].

---

(١) انظر: شرح مسلم، النووي (٢/ ١٥).

قال: فمعناه لا تصدق في حبي حتى تُفني في طاعتي نفسك، وتؤثر اتباعي على هواك، وإن كان فيه هلاكك[1].

وقال غيره: وحب الطبع أيضًا.

وفي الحديث الذي رواه البيهقي في شعبه عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: جبلت القلوب على حب من أحسن إليها[2].

ورواه موقوفًا وقال: هو المحفوظ، قال ابن عدي: وهو المعروف[3].

دليل على ذلك فإن الجبل: الطبع عند العرب، وأي إحسان أعظم من أن عرفنا بالله ودلنا عليه، فهدانا الله به؟ فلا أكبر من ذلك إحسانًا، فكيف [ك، ١٣١/أ] لا تجبل القلوب مع ذلك على حبه.

---

(١) شرح مسلم، النووي (٢/ ١٥).

(٢) شعب الإيمان، البيهقي (٦/ ٤٨١)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٥١)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٢٨٣) وقال: وهذا لم أكتبه مرفوعًا إلا من هذا الشيخ، ولا أرى يرفع هذا الحديث إلا من هذا الوجه وهو معروف عن الأعمش موقوف. والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢١) من طرق عن إسماعيل بن أبان عن الأعمش عن خيثمة عن عبدالله بن مسعود مرفوعًا وموقوفًا، وفيه إسماعيل بن أبان الخياط تركه البخاري وقال في التاريخ الكبير (١/ ٣٤٧): متروك تركه أحمد، وقال ابن حبان: كان يضع الحديث على الثقات. تهذيب التهذيب (١/ ٢٣٧). وأورده سبط ابن العجمي في الكشف الحثيث فيمن رمي بوضع الحديث (ص ٦٨)، ونقل ابن حجر في لسان الميزان (١/ ٤٤٦) عن أبي الفتح الأزدي قوله: «كوفي زائغ هو الذي روى عن الأعمش عن خيثمة عن عبدالله حديث جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، قال الأزدي هذا الحديث باطل»، ونص الألباني في السلسلة الضعيفة على وضعه (١/ ٦٦).

(٣) الكامل، ابن عدي (٢/ ٢٨٣).

وعند البخاري والإمام أحمد عن زهرة بن معبد عن جده رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر فقال: والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، فقال عمر رضي الله عنه: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: الآن يا عمر[1].

أخرجاه[2] في الصحيحين، **(ولهما)** فيهما **(عنه)** أي عن أنس رضي الله عنه **(قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث)** نكرة هي صفة لمحذوف، من ثم وقعت مبتدأة، أي: خصال ثلاث، والخبر قوله: **(من كن فيه)** أو وجدن فيه، **(وجد)** أي: أصاب بهن **(حلاوة الإيمان)** أي: التلذذ بالطاعة وتحمل المشقة في رضى الله ورسوله، وإيثار ذلك على عرض الدنيا، وهذا استعارة بالكناية، شبه الإيمان بنحو العسل، للجهة الجامعة وهو الالتذاذ، فأطلق المشبه وأضاف إليه ما هو من خصائص المشبه به ولوازمه، وهو الحلاوة، وقال بعضهم إنها حلاوة حسية، لأن القلب السليم من أمراض الغفلة والهوى، يجد طعم الإيمان كذوق الفم طعم العسل، وبالجملة فلا يذوقه إلا من خلا قلبه من الشك، والريب والشبهة والشهوة، ولهذا قال بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك، ما نحن فيه من اللذة، لجالدونا عليها بالسيوف[3].

ويمكن كون الجملة صفة لثلاث والخبر ما بعدها، ثم إن هذه الحلاوة

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦/ ٢٤٤٥)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٦)، وقد مضى تخريجه.

(٢) يشير إلى حديث أنس السابق وقد مضى تخريجه.

(٣) ذكره في الحلية (٧/ ٣٧١) عن إبراهيم بن أدهم.

لا توجد لشخص إلا **(أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)** قال بعضهم «أن» في هذا مصدرية خبر مبتدأ محذوف، أي أول الثلاث كون الله ورسوله في محبته إياهما أكثرَ محبة من محبة سواهما من نفس وأهل ومال، وكل شيء.

قال النووي: عبر بـ«ما» دون «من» لعمومها[١]، وما سواهما جميع المخلوقات، فأتى في محبتهما في هذا الحديث بأفعل التفضيل، في جانب المحاب الطبيعية، بخلاف المحبة الشركية فإنه لا يُثبت معها إيمان البتة.

وفي الحديث تلميح بأن المؤمنين يتفاضلون في محبة الله ومحبة رسوله ﷺ، إذ قد علم بالاضطرار من أصل الإيمان أنهم فيه على مراتب، فأكثرهم له محبة أعظمهم له طاعة، فإن من يحبك لا يعصيك ولا يراك حيث ينهاك[٢]، ألا ترى كيف كان عمر الفاروق رضي الله عنه على درجة لا يحب النبي ﷺ فيها أكثر من نفسه، ثم عرفه بالواجب، فلما انتهى إليه انتهت قوة المعرفة به، وكانت معرفة أبي بكر رضي الله عنه بالله أكثر منه.

وقد تبين ذلك في أفعالهما رضي الله عنهما أيام موت النبي ﷺ.

وعند الترمذي وقال حسن غريب عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تبغضني فتفارق دينك، قلت: يا رسول الله كيف أبغضك وبك هدانا الله، قال: تبغض العرب فتبغضني[٣].

---

(١) هذا من كلام الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ٦١) بمعناه، توهم المؤلف أنه للنووي لأنه ورد بعد نقل عن النووي، وليس هو في شرح مسلم للنووي.

(٢) هكذا في الأصل ولعل الصواب، «ولا تراه حيث نهيته».

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب في فضل العرب (٥/ ٧٢٣) وقال: «هذا حديث حسن =

وقد سئل ذو النون المصري: متى أحب ربي؟ قال: إذا كان ما يكرهه عليك أمرَّ من الصَّبر[1].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه: أن محركات القلوب إلى الله ثلاثة أشياء: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، وقال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩] والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي صاحبها إلى محبوبه، وسيره إليه على قدر ضعفها وقوتها، والخوف يمنعه من الخروج عن طريق سيره إليه، والرجاء يقوده، ولا تحصل للعبد العبودية بدون ذلك، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره، ولكن الحكمة في التحقيق للعبودية وطريقها والله الموفق.

وفي هذا الحديث أنه لا بأس بمثل هذه التثنية في قوله مما

= غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبي بدر شجاع بن الوليد. وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: أبو ظبيان لم يدرك سلمان، مات سلمان قبل علي». ونقل الحافظ في تهذيب التهذيب (٢/ ٣٨٠) عن أبي حاتم قوله: «لا أظنه سمع من سلمان حديث العرب ولا يثبت له سماع من علي» ونقل عن الإمام أحمد قوله فيه: «كان شعبة ينكرأن يكون سمع من سلمان». وأخرجه بنفس الطريق أحمد في المسند (٥/ ٤٤٠)، والطيالسي في مسنده (ص ٩١)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٣٨)، والعقيلي في الضعفاء (٢/ ١٨٤)، وأورده الألباني في ضعيف الترمذي (ص ٥٢٤).

(١) رواه عنه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٦٣، ٣٩٢).

سواهما، وأما قوله عليه السلام للخطيب حين قال: ومن يعصهما فقد غوى: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله».

كما رواه مسلم من حديث عدي بن حاتم[1] رضي الله عنه، فقد أجاب العلماء رحمهم الله تعالى في ذلك بأجوبة: أحدها قول النووي ـ وهو من أحسنها حيث قال ـ: إنه ليس من هذا النوع، لأن المراد في الخطب الإيضاح لا الرموز والإشارات، وأما هنا فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ.

ومما يدل على هذا حديث ابن مسعود رضي الله عنه في خطبة الحاجة: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه[2][3].

ثانيًا: أنه إنما أنكر الجمع تعظيمًا لله تعالى، وقد قال ﷺ: لا يقولن أحد ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ثم شاء فلان[4].

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٤)، من حديث عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. . . الحديث.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في خطبة النكاح (٢/ ٢٣٨)، قال النووي في شرح مسلم (٦/ ١٦٠): إسناده صحيح، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٤٦)، وللحديث ألفاظ أخرى في السنن وغيرها جمعها الألباني في رسالة خطبة الحاجة وقد رد فيها تصحيح النووي للحديث حيث قال في (ص ٢٢): «وهذا سند ضعيف وعلته أبو عياض قال الحافظ في التقريب مجهول».

(٣) شرح صحيح مسلم (٦/ ١٦٠).

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي (٤/ ٢٩٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٨٤)، والطيالسي في مسنده (ص ٥٧)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٩٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢١٦)، من طرق عن شعبة عن منصور بن المعتمر سمعت عبدالله بن يسار عن =

لما في ثم من التراخي والتعقيب بخلاف الواو التي تقتضي التسوية والتشريك[(١)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فيه اشتراك الضمير أيضًا، لكن قدره آخرون بأن الله يصلي وملائكته يصلون، وكأن هذا الجواب لا يتوجه لأن هذا لون وذاك لون[(٢)].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن هذا الباب أن النبي ﷺ يقول في خطبته: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا[(٣)].

وقال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد[(٤)].

قال: ففي الطاعة قرن اسم الرسول ﷺ باسمه بحرف الواو، وفي المشيئة أمر أن يجعل ذلك بحرف ثم، وذلك لأن طاعة الرسول طاعة لله، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله، وطاعة الله طاعة للرسول، بخلاف المشيئة، فليس مشيئة أحد مشيئة لله، ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد، بل ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لم يكن

= حذيفة به، قال الألباني: وهذا إسناد صحيح، انظر: السلسلة الصحيحة (١/ ٥٤).

(١) حكى هذا القول النووي في شرح مسلم (٦/ ١٥٩) وعزاه للقاضي عياض، وانظر إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣/ ٢٧٥).

(٢) انظر: إكمال المعلم، القاضي عياض (٣/ ٧٥).

(٣) مضى تخريجه.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الكفارات، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (١/ ٦٨٥)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٩٣)، والدارمي في سننه (٢/ ٣٨٢) كلهم من طريق ربعي بن حراش عن حذيفة به، وهو شاهد للحديث السابق.

إن لم يشأ الله[1].

وقال البيضاوي: إنه ثنى الضمير إيماءً إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة فإنها وحدها لاغية، وأمر بالإفراد [ك،١٣٢/ب] في حديث الخطيب إشعارًا بأن كل واحد من العصيانين مستقل بالتزام الغواية، إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل واحد من المعطوفين في الحكم[2]. وهذا جواب حسن.

وجواب آخر: أنه إنما أنكر على الخطيب وقوفه على «ومن يعصهما». وليس هذا بشيء إذ قوله «قل: ومن يعص الله ورسوله» يرد ذلك.

وجواب آخر: أن له عليه السلام أن يجمع بخلاف غيره كما مر في خطبته ذكر ذلك. وهذا أيضًا لا يصح إلا بدليل التخصيص [إذ أمته ﷺ أسوته][3] في الأحكام.

وجواب آخر: أن الجمع يوهم التسوية من قصده فلهذا منعه. قاله ابن عبدالسلام[4]، وهذا جواب متوجه.

وجواب آخر: أن كلامه ﷺ جملة واحدة، فيكره لغيره إقامة المضمر

---

(١) التدمرية، ابن تيمية (ص ٢٠٤ـ ٢٠٦).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١/ ٦٢).

(٣) هذه العبارة غير واضحة في النسختين، وقد أثبت ما رأيته أقرب للصواب، بعد ما أتعبتني قراءتها، والمعنى أن أمته مثله ﷺ في الأحكام من حيث الأصل، لا أنها قدوة له، كما يقال: (القوم أسوة في هذا الأمر، أي حالهم فيه واحدة)، اللسان (٢٤/ ٣٥).

(٤) المصدر السابق.

مقام الظاهر بخلاف الخطيب، فإنه جملتان. قاله ابن رزين الحنبلي[1].

وجواب آخر: أنّ المتكلم لا يتوجه تحت خطاب نفسه إذا وجهه لغيره انتهى[2].

وأما حقيقة المحبة فقد سئل رويم[3] عنها فقال: هي الموافقة في جميع الأحوال[4].

وأصل المحبة ينشأ عن مشاهدة الإحسان ومطالعة الآلاء والامتنان، والنظر في النعم فإن القلوب جبلت على حب المحسنين إليها، ولا إحسان أعظم من إحسان الرب تعالى وتقدس. والمقصود أن الذي دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ومشايخ الطريق كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه أن الله يحِب ويحَب حقيقة، ومن أنكر حقيقة المحبة لزمه أن ينكر التلذذ بالنظر إليه جل وعلا كالمعتزلة والجهمية، فإنه ليس في الحقيقة عندهم إلا التنعم في الآخرة بالأكل والشرب ونحو ذلك، وهذا القول باطل بالكتاب والسنة، واتفاق سلف الأمة ومشايخها، وفي دعائه ﷺ كما في السنن: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك»[5].

---

(١) لعله محمد بن أحمد بن علي بن رزين، ممن صحب الإمام أحمد ونقل عنه أشياء. انظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٣٢٦).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١/ ٦١)، حيث ذكر جميع هذه الأقوال.

(٣) هو رويم بن أحمد، أبو محمد، أحد أئمة الصوفية، كان عالمًا بالقرآن ومعانيه، كان يتفقه على مذهب داود الظاهري، توفي سنة ٣٠٢هـ. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير (١١/ ١٣٣)، الأعلام، الزركلي (٣/ ٣٧).

(٤) رواه عنه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٠١).

(٥) أخرجه النسائي في السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٤)، وفي السنن الكبرى (١/ ٣٨٧)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٦٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني =

وفي صحيح مسلم وغيره في حديث الرؤية عن صهيب رضي الله عنه مرفوعًا: فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه[1]، الحديث.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ولو لم ينظر إليه جل وعلا أولياؤه المؤمنون لما كان لقوله للكفار ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥] فائدة.

وأما أسباب محبة الرسول ﷺ فهي كثيرة منها: أن الله أنقذنا به من الهلكة، وأوجب لنا باتباعه الفلاح الأبدي والنعيم السرمدي، عصمنا الله وتعالى والمسلمين عن الانحراف عن سبيله إنه قريب مجيب.

(وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله) أي لا يحبه لغرض، إلا لرضى الله تعالى حتى محبته لأبويه، لكونه سبحانه أمر بالإحسان إليهما، ومحبته لولده بأن يعبد الله ويدعو له من صالح دعائه وهكذا.

(وأن يكره أن يعود في الكفر) أي يصير إليه، واستعمال العود بمعنى الصيرورة غير عزيز في لغة العرب، قال أمية بن أبي الصلت[2]:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

والمعنى: فصار بعد تلك الحلاوة بعد الشوب كالأبوال، فالعود في هذا

= (١/ ٢١٠)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٠٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١/ ٢٨١).

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١/ ١٦٣).

(٢) ديوانه: ص١٧٩، دار صادر.

بمعنى الصيرورة. (**بعد إذْ أنقذه الله منه**) أي: نجاه منه بالإسلام لله وحده[1]، (**كما يكره أن يلقى في النار**)[2]. لثبوت إيمانه وتمكنه من جنانه، بحيث انشرح له صدره والتذ به وذاق حلاوته، فعلم أن لا شيء أحلى منه، فلما كان ذلك كذلك، جعل ﷺ من علامات الإيمان الذي يحصل به ذوق طعمه: أن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

وفيه تنبيه على أن الكفر كالنار، وإشارة إلى التحلي بالفضائل وأعظمها حب الله ورسوله، وحب الخلق لله عز وجل، والتخلي عن الرذائل، وهو كراهة الكفر وأهله، وما يلزمه من النقائص وهو في الحقيقة لازم للأول، إذ إرادة الكمال تستلزم كراهة النقصان فهو تصريح باللازم.

ومن لوازم هذه المحبة أن يتيقن الإنسان أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل، أو خلاص آجل، وقد قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فمن أحب القرآن فهو يحب الله ورسوله[3].

ولهذا قال النبي ﷺ في الصحيح لمن قال إني أحب سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ لأنها صفة ربي فقال: أخبروه أن الله يحبه[4].

---

(١) أي ولو لم يكن قبل ذلك كافرًا، فيصدق هذا على من ولد في الإسلام واستمر عليه، ولا يختص الإنقاذ من الكفر بمن كان كافرًا فأسلم.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر (١/ ١٦)، ومسلم في الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١/ ٦٦)، كلاهما من حديث أنس.

(٣) أخرجه البغوي في الجعديات (ص ٢٩٠)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٣٢).

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله =

وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن: لما قدم النبي ﷺ المدينة خطب فقال في خطبته: إن أحسن الحديث كتاب الله، قد أفلح من زينه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره [ك،١٣٢/أ] على ما سواه، أحبوا الله من كل قلوبكم[(١)].

وقال ذو النون: من أدمن ذكر الله قذف الله في قلبه نور [الاشتياق][(٢)] إليه.

وقال بعض التابعين علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لن تحب شيئًا إلا أكثرت ذكره[(٣)].

وقال فتح الموصلي[(٤)]: المحب لله لا يجد مع حب الله للدنيا لذة، ولا يغفل عن ذكر الله طرفة[(٥)].

وقال: المحبون إن نطقوا نطقوا بالذكر، وإن سكتوا سكتوا بالفكر.

فالحاصل أن أفضل ما استجلبت به محبة الله تعالى للعبد، فعل الواجبات وترك المحرمات، والتقرب إليه بالنوافل من جميع الطاعات،

= تبارك وتعالى (٦/ ٢٦٨٦)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١/ ٥٥٧).

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (١/ ٥٠١)، وأخرج هناد في الزهد نحوها (١/ ٢٧٩).

(٢) في [م]: الأسباب، وفي [ك]: الأسباب الموصلة، والمثبت من حلية الأولياء (٩/ ٣٧٩) وجامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٤٤٥).

(٣) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة عن بعض أصحاب الربيع بن أنس (٢/ ٦٧٨) رقم ٧٤٤.

(٤) هناك زاهدان يحملان هذا الاسم أحدهما الكبير وهو فتح بن محمد بن وِشاح الأزدي، زاهد زمانه، توفي سنة ١٧٠هـ، والآخر الصغير وهو فتح بن سعيد الموصلي، أبو نصر، من أقران بشر الحافي، كبير الشأن في باب الورع والمعاملات، توفي سنة ٢٢٠هـ، انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٧/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٥) ذكره عنه الحافظ بن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٣، ٤٤٥).

كما في الحديث الإلهي الذي عند البخاري وغيره وفيه: وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، الحديث بطوله[1].

وفي هذا إشارة إلى أن درجة محبة الله إنما تنال بطاعته، وبفعل ما يحبه، فإذا امتثل العبد أمر مولاه، وفعل ما يحبه وانتهى عما يكرهه أحبه الله تعالى، ورقّاه إلى درجة محبته، ومتى أخل العبد ببعض الواجبات، أو ارتكب بعض المحرمات، فمحبته لربه غير تامة، فالواجب عليه المبادرة بالتوبة والإنابة، والاجتهاد في تكميل المحبة المقتضية لفعل الواجبات كلها، واجتناب المحرمات كلها، وهذا معنى قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن[2].

فإن الإيمان الكامل يقتضي محبة ما يحبه الله وكراهة ما يكرهه، والعمل بمقتضى ذلك، فلا يرتكب أحد شيئًا من المحرمات، أو يخل بشيء من الواجبات إلا لتقديم هوى النفس المقتضي لارتكاب ذلك على محبة الله المقتضية لخلافه.

وأعلى المحبات أن يمتلىء القلب بمحبة الله تعالى، حتى توجب لصاحبها محبة النوافل والاجتهاد فيها، وكراهة المكروهات والانكفاف عنها، والرضا بالأقضية والأقدار المؤلمة للنفوس، لصدورها عن المحبوب.

قال عامر بن قيس[3]: أحببتُ الله حبًا هوّن علي كل مصيبة،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب التواضع (٥/ ٢٣٨٤)، من حديث أبي هريرة مرفوعًا به.

(٢) مضى تخريجه.

(٣) هو عامر بن عبدالله ويعرف بابن عبد قيس، ثقة عابد من زهاد التابعين أبو عبدالله =

ورضّاني بكل بلية، فلا أبالي مع حبي إياه على ما أصبحت، ولا على ما أمسيت[1].

وكان عمر بن عبدالعزيز يقول: أصبحت وما لي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر.

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ قال: إن داود عليه السلام كان يقول: اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يبلغني إلى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد[2].

وفيه أيضًا عنه ﷺ: أنه كان يدعو اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك، وحب عمل يبلغني إلى حبك اللهم ما رزقتني فاجعله بلاغًا لي فيما تحب[3].

وعند الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس فخرج رسول الله ﷺ سريعًا فثوب بالصلاة وتجوز في

= العنبري التميمي، رآه كعب الأحبار فقال: هذا راهب هذه الأمة، توفي في زمن معاوية رضي الله عنه، ودفن بالقدس. انظر: المعرفة والتاريخ، البسوي (٢/ ٦٩)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ١٥).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الأولياء ص٣٠، رقم ٧١.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ٧٣ (٥/ ٥٢٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٠)، كلاهما من طريق عبدالله بن يزيد الدمشقي حدثنا عائذ الله أبو إدريس الخولاني عن أبي الدرداء به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بقوله: «بل عبدالله بن يزيد الدمشقي هذا، قال أحمد: أحاديثه موضوعة».

(٣) لم أعثر عليه في الترمذي.

صلاته، فلما سلم قال: كما أنتم على مصافكم، كما أنتم، ثم أقبل علينا فقال: إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي، فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة، فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب، قال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب، قال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري رب، فرأيته وضع كفه بين كتفيّ حتى وجدت برد أنامله بين صدري وتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات، قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجماعات، وجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند المكروهات، فقال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك، وقال رسول الله ﷺ إنها حق فادرسوها وتعلموها[(١)].

ورواه الترمذي، وقال: حديث صحيح، قال: وسألت محمد بن إسماعيل يعني البخاري، عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح[(٢)].

---

(١) مسند أحمد (٥/ ٢٤٣).

(٢) في السنن، تفسير القرآن، باب ومن سورة (ص) (٥/ ٣٦٩)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٥٤٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٤١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢١)، والحديث من طريق معاذ من طرق شتى وقد صححه الإمام أحمد كما في التهذيب (٦/ ٢٠٥)، والبخاري والترمذي كما في سننه (٥/ ٣٦٩)، =

قال الحافظ: وله طرق متعددة[1]، وفي بعض ألفاظها زيادة ونقصان، فعند الإمام أحمد والترمذي أيضًا: «المشي على الأقدام إلى الجماعات» بدل نقل «الأقدام إلى الجماعات»، وعندهما أيضًا بعد ذكر الكفارات زيادة «ومن فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه»، وفيه عندهما بعد «وما الدرجات»: «إفشاء السلام»[2] بدل «لين الكلام»، وفي بعض رواياته: «فعلمت ما في السماء والأرض ثم تلا ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[3] [الأنعام: ٧٥]، وفي لفظ «ما بين المشرق والمغرب»[4] وفي بعضها زيادة في الدعاء،

= والألباني في مختصر العلو (ص ١١٩).

(١) للحديث شواهد كثيرة متعددة الطرق عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم منهم ابن عباس، وابن عمر، وأبو هريرة، وعبدالرحمن بن عائش، وثوبان، وأبو أمامة، وجابر بن سمرة، وأبو رافع وغيرهم، جمعها الدارقطني في رسالة مستقلة «الرؤية»، وقد قام الشيخ جاسم الفهيد بتخريج هذا الحديث على وجه الإسهاب في تحقيقه لكتاب اختيار الأولى في شرح حديث الملأ الأعلى لابن رجب، هامش (ص ٣٤ـ ٣٦)، والدكتور عبدالله بن عمر الدميجي في تحقيقه للشريعة للآجري، هامش (٣/ ١٥٤٧)، ففي الرجوع إليهم غنية.

(٢) هذه اللفظة والتي قبلها جزء من حديث ابن عباس من طريق أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس أخرجه الترمذي (٥/ ٣٦٦)، وأحمد في المسند (١/ ٣٦٨)، والآجري في الشريعة (٣/ ١٥٤٧).

(٣) هذه اللفظة جزء من حديث عبدالرحمن بن عائش أخرجه الدارمي في السنن (٢/ ١٧٠)، وأحمد في المسند (٤/ ٦٦)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٣٩)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٥٣٣)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٣٥ـ ٣٦)، وقد رواه غيرهم دون هذه اللفظة.

(٤) جزء من حديث ابن عباس من طريق قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عباس مرفوعًا، وهو عند الترمذي في سننه (٥/ ٣٦٧)، وأبو يعلى في المسند (٤/ ٤٧٥)، وقد رواه غيرهم دون هذه اللفظة.

وهي «وتتوب علي»[1]، وفي بعضها «إسباغ الوضوء في السبرات»[2]، وفي بعضها «وقال: يا محمد إذا صليت فقل اللهم إني أسألك فعل الخيرات»[3]، وهو أيضًا عند الإمام أحمد في مسنده من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا، وكذا الترمذي أيضًا وصححه[4]، ولعل اختلاف هذه الألفاظ بالزيادة والنقصان أن بعض رواته حفظ ما حفظ، [ك،١٣٣/ب] ونسي الآخر ما نسي، فجاء كل منهم بما حفظ وترك ما نسي، ومنهم من جاء بالمعنى دون اللفظ، فحصل في متنه الاختلاف بذلك.

ورواه أيضًا أبو محمد الدارمي في مسنده بنحوه، عن عبدالرحمن ابن عائش رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ فذكره[5]، والحديث مشهور بين السلف ليس فيه غباوة[6]، ومن أشكل عليه فهم شيء من

---

(١) جزء من حديث ابن عائش من طريق خالد اللجلاج عن عبدالرحمن بن عائش عن بعض أصحاب النبي مرفوعًا، أخرجه أحمد في المسند (٥/٣٧٨) وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٥٣٤)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٩)، والآجري في الشريعة (٣/ ١٥٥٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٠٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبقية سوى أحمد رووه عن عبدالرحمن بن عائش مرفوعًا.

(٢) في غريب الحديث للقاسم بن سلام (١/ ١١٤): «السبرة شدة البرد». وهذه اللفظة جزء من حديث ابن عباس وهو عند الآجري في الشريعة (٣/ ١٥٤٩)، من حديث نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه، وأبي أمامة، ومعاذ بن جبل، عند الطبراني في الكبير (٢/ ١٣٥) (٨/ ٢٩٠، ٣٢٢)، (٢٠/ ١٠٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٦٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٦٦) من طريق أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس مرفوعًا، وأحمد في المسند (٤/ ٦٦) من طريق خالد بن اللجلاج عن عبدالرحمن بن عائش عن بعض أصحاب النبي مرفوعًا.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أي خفاء، تقول: غبي الأمر عني، أي خفي فلم أعرفه، انظر اللسان (١٥/ ١١٤).

هذا الحديث واشتبه عليه، فليقل ما مدح الله به الراسخين في العلم، وأخبر عنهم أنهم عند ذلك يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وعند الإمام أحمد عنه ﷺ أنه قال في القرآن: وما جهلتم فكِلوه إلى عالمه[١].

ورواه النسائي أيضًا وغيره[٢].

ولا يتكلف ما لا علم له به فإنه يخشى عليه الهلكة من ذلك، وسمع ابن عباس رضي الله عنه يومًا من يروي عن النبي شيئًا من هذه الأحاديث، فانتفض رجل استنكارًا لذلك فقال ابن عباس: ما فرق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه.

رواه عبدالرزاق عنه، في كتابه عن معمر عن طاووس عن أبيه عن ابن عباس به[٣].

---

(١) في المسند (٢/ ٣٠٠)، من طريق أنس بن عياض ثنا أبو حازم عن أبي هريرة مرفوعًا، ونصه: أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء في القرآن كفر ـ ثلاثًا ـ ما عرفتم منه فاعملوا، وما جهلتم منه فردوه عالمه». وإسناده صحيح صححه غير واحد من أهل العلم كما سيأتي في الفقرة التالية.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥/ ٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٠/ ٤١٠)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٧٥)، وصححه، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والطبري في تفسيره (١/ ١١)، والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٢٦) من طرق عن أنس بن عياض به، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٥١) وقال: «رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح ورواه البزار بنحوه».

(٣) قال الحافظ في الفتح بعد أن عزاه إلى الطبري في تهذيب الآثار: «رواه الطبري في تهذيبه بسند صحيح عن ابن عباس» (١٢/ ٣٠٠).

فكلما سمع المؤمنون شيئًا من هذا الكلام عن الله أو رسوله ﷺ قالوا: هذا ما أخبرنا الله ورسوله ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب: ٢٢].

قال التوربشتي[1]: مذهب أهل العلم من السلف في أمثال هذا الحديث أن يؤمن بظاهره، ولا يفسر بما يفسر به صفات الخلق بل ينفي عنه الكيفية، ويوكل باطنه إلى الله تعالى، فإن الخطب فيه جليل، والإقدام على مزلة اضطربت عليها أقدام الراسخين شديد، ولأن نرى أنفسنا أحقاء بالجهل والنقصان أزكى وأسلم من أن ننظر إليها بعين الكمال، وهذا لعَمْر الله هو المنهج الأقوم والمذهب الأحوط.

وأوردنا هذا الحديث السابق في هذا المقام لمناسبته له، وتضمنه إياه، وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان»[2] إلى آخره.

فنفى عنه في هذا وجود حلاوة الإيمان إلا بالإتيان بما ذكر في آخره، كما تقدم في الحديث قبله فلا نطيل بإعادته، وقد حذفه الشيخ للعلم به مما تقدم، وأتى بالزيادة التي فيها الفائدة لأن ما في الإعادة له عائدة فائدة[3].

وقد أخبر ﷺ أن للإيمان ذوقًا وطعمًا، وهذا الذوق لطعم الإيمان لا يجده إلا من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، كما روى ذلك مسلم في صحيحه عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا

---

(١) تقدمت ترجمته ص ٨٥٦.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أنس في الأدب، باب في الحب في الله (٥/ ٢٢٤٦).

(٣) كذا، ولا تخفى ركاكته.

وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً[1].

لأنه لا يرضى بذلك إلا من رسى التوحيد والإخلاص في قلبه واستقر فيه استقرار النخلة الطيبة في الأرض الطيبة، بحيث لا تزعزعه رياح الشكوك ولا تدحضه عوارض الخواطر.

ثم من ثمرات هذا الإيمان: التوكل والتفويض والتسليم والمحبة والرضا والأحوال الصافية والأخلاق الرضية العالية، فيكون العبد منقادًا لأمر الله ورسوله.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة. قال: تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. قال: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئًا، ولا أنقص منه. فلما ولّى قال النبي ﷺ: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا[2].

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى كلام ابن عباس رضي الله عنهما، وحاصله أن ولاية الله لا تحصل للعبد، ولا وجود لطعم الإيمان، إلا بوجود ما ذكر خالصًا من القلب، فقال: **(وعن ابن عباس)** ترجمان القرآن ابن عم النبي ﷺ أنه **(قال: من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله)** أي: في طلب رضى الله تعالى، أو لأجله

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا. . . فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي والكبائر (١/ ٦٢).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة (٢/ ٥٠٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة (١/ ٤٤) من حديث أبي هريرة.

لا لغرض دنيوي، وأن يكون ذلك مستمرا بالقلب لا يقطعه عارض دنيوي، وقد سئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن الحب في الله فقال: هو ألا يحبه لطمع الدنيا[1].

وقال إمام دار الهجرة مالك بن أنس: المحبة في الله من واجبات الإسلام.

وقال يحيى بن معاذ الرازي[2]: حقيقة المحبة في الله تعالى ألا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء.

وقيل لرجل من الحكماء: الرجل يحب الرجل ويمنعه منافع الدنيا، يكون صادقًا في حبه قال: هو صادق في حبه مقصر في حقه.

وقال مالك بن دينار[3]: وجدت أخوة زماننا هذا مثل مرقة الطباخ طيبة الريح ولا طعم لها.

فالمطلوب من الإنسان أن يحب في الله كل من اتصف بكمال، سابقًا زمنه أو لاحقًا، وما أحسن ما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه فيما يروى عنه من إنشاده:

---

(١) انظر: طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى (١/ ٥٦ـ ٥٧)، المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة، د. عبدالله الأحمدي (٢/ ٢٥٠).

(٢) أبو زكريا، واعظ، زاهد، له كلام جيد، ومواعظ مشهورة من أهل الري، توفي بنيسابور سنة ٢٥٨هـ. انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (١٤/ ٢٠٨ـ ٢١٢)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٣/ ١٥).

(٣) البصري، أبو يحيى، علم العلماء الأبرار، من أعيان التابعين، يأكل من كسبه، ويكتب المصاحف بالأجرة، توفي سنة ١٣١هـ بالبصرة. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٥/ ٣٦٢)، طبقات خليفة (ص ٢١٦).

أحب الصالحين ولست منهم   لعلي أن أنال بهم شفاعة[١]

وقد ثبت في الصحاح والمسانيد من طرق متواترة، عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: أن رسول الله سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: المرء مع من أحب[٢].

قال أنس فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث[٣].

وفي لفظ عنه رضي الله عنه: إني لأحب رسول الله ﷺ وأبابكر وعمر وأرجو أن يبعثني الله معهم، وإن لم أعمل بعملهم[٤].

ولهذا يعلم أن التحابّ في الله والتباغض فيه، من أعلى الدرجات وأعظمها أجرًا عند رب الأرض والسموات، فعند مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله يوم القيامة:

---

(١) ديوانه: ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب علامة الحب في الله عز وجل (٥/ ٢٢٨٣)، من حديث أبي موسى، وقد روي نحوه عن جمع من الصحابة منهم أنس بن مالك وعبدالله بن مسعود وصفوان بن عسال وأبو ذر وغيرهم، وقد جمع أبو نعيم كما يقول الحافظ في الفتح (١٠/ ٥٦٠) طرق هذا الحديث في جزء سماه كتاب المحبين مع المحبوبين وبلغ الصحابة فيه نحو العشرين.

(٣) طرف من حديث أنس الذي أخرجه البخاري في الأدب، باب علامة الحب في الله عز وجل (٥/ ٢٢٨٣)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٤/ ٢٠٣٢) واللفظ لمسلم قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: وما أعددت للساعة؟ قال: حب الله ورسوله. قال: فإنك مع من أحببت؟ قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ «فإنك مع من أحببت».

(٤) مسلم (٤/ ٢٢٨٣).

أين المتحابون لجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي[(١)].

وعند الإمام أحمد وابن حبان والترمذي، وقال حسن صحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعًا: المتحابون في الله على منابر من نور، تحت ظل العرش، يوم لا ظل إلا ظله، يغبطهم بمكانهم النبيون [ك،١٣٣/أ] والشهداء[(٢)].

وهو عند الإمام أحمد والطبراني بمعناه من حديث أبي الدرداء[(٣)]، وأبي مالك الأشعري مرفوعًا، وفي آخره: يفزع الناس ولا يفزعون[(٤)].

وعند الإمام أحمد أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله (٤/ ١٩٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الحب في الله (٤/ ٥٩٧)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٣٦)، وابن أبي الدنيا، الإخوان (ص ٤٨)، والحارث في مسنده، بغية الباحث (٢/ ٩٩١)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٨)، وفي مسند الشاميين له (٢/ ٤٤٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٦٦)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٨٤).

(٣) هو عويمر بن مالك بن قيس الأنصاري، صحابي جليل، اشتهر بالشجاعة والنسك، ولاه عمر قضاء الشام، وهو أول قاض بها، وهو ممن جمع القرآن حفظًا على عهد النبي ﷺ، مات بالشام سنة ٣٢هـ. انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ١٥)، حلية الأولياء، أبو نعيم (١/ ٢٠٨).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٤١)، ومعمر بن راشد في الجامع، مصنف عبدالرزاق (١١/٢٠١)، والطبراني في الكبير (٣/٢٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/٤٨٦)، كلهم من طرق عن شهر بن حوشب عن أبي مالك الأشعري مرفوعًا، سوى الإمام أحمد من طريق شهر عن عبدالرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري دون هذه الزيادة.
ومن حديث أبي الدرداء أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٩٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٧): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفهم».

مرفوعًا إن المتحابين لترى غرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي فيقال من هؤلاء فيقال هؤلاء المتحابون في الله عز وجل[(١)].

(**فإنما تنال ولاية الله بذلك**) العمل إذا كان خالصًا من القلب لله تعالى، وبهذا تنال ولاية الله تعالى، وأهلها هم الذين قال الله فيهم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣] ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان أحظ الناس في هذا المقام وبه استحقوا ولاية الله، فهم مع ذلك كما وصفهم جل وعلا في كتابه ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

فعند ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن تميم بن سلمة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أتى الشام استقبله أبو عبيدة بن الجراح[(٢)]، وخاض إليه الماء، فالتزمه عمر وقبل يده، وجعلا يبكيان[(٣)].

وعند ابن أبي الدنيا أيضًا عن محمد بن زياد الأسدي قال: قال أكثم بن صيفي[(٤)] التميمي: لقاء الأحبة مسلاة للهم[(٥)].

وعند أبي داود عن زارع بن عامر[(٦)] العبدي رضي الله عنه وكان في

---

(١) المسند (٣/ ٨٧).

(٢) هو عامر بن عبدالله بن الجراح الفهري القرشي، الصحابي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أمين هذه الأمة، فاتح الديار الشامية، توفي بطاعون عمواس، ولم يعقب. انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر (٢٥/ ٤٣٥)، صفة الصفوة، ابن الجوزي (١/ ١٤٢).

(٣) في الإخوان (ص ١٨٢).

(٤) حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين، أدرك الإسلام، وقصد المدينة في مائة من قومه يريدون الإسلام، فمات في الطريق، ولم ير النبي ﷺ. انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ١١٨)، الأعلام، الزركلي (٢/ ٦).

(٥) في الإخوان (ص ١٨٢).

(٦) أبو الوازع من عبد القيس، معدود في أعراب البصرة. انظر: الإصابة، ابن حجر =

وفد عبد قيس قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا، فنقبل يد رسول الله ﷺ ورجله[١].

وقال ابن أبي الدنيا حدثني سويد بن سعيد ثنا سفيان الثوري عن علي بن زيد قال: قال ثابت لأنس رضي الله عنه: مسست يد رسول الله ﷺ؟ قال: نعم قال: فناولني يدك فناوله يده فقبلها[٢].

وعنده بسند صحيح عن عاصم بن بهدلة[٣] قال: قدمت من سفر فدخل علي أبو وائل[٤] رضي الله عنه فقبل يدي[٥].

وعنده من طريق مالك بن مغول عن طلحة بن مصرف[٦] قال: دخلت على خيثمة[٧] فقبل يدي وقبلت يديه[٨].

= (١/ ٥٢٢)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٥٦٩).

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في قبلة الجسد (٤/٣٥٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/١٠٢)، وشعب الإيمان (٦/ ٤٧٧)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٨١).

(٢) الإخوان (ص ١٩٧).

(٣) سبقت ترجمته ص ١٣١٤.

(٤) هو شقيق بن سلمة الأسدي صاحب ابن مسعود أدرك النبي ﷺ وهاجر بعده. انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ١٦٢)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ١٦٦).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخوان (ص ١٩٦).

(٦) الهمداني اليامي، أبو محمد، أقرأ أهل الكوفة في عصره، ورع ناسك، توفي سنة ١١٢هـ. انظر: غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري (١/ ٣٤٣)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٥/ ٢٥).

(٧) هو ابن عبدالرحمن بن أبي سبرة، الجعفي، الطوفي، ثقة وكان يرسل، مات بعد سنة ثمانين. انظر: تقريب التهذيب، ابن حجر (ص١٩٧)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٣٢٠).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا، الإخوان (ص ١٩٦).

وعنده أيضًا عن الحسن البصري قال: المصافحة تزيد في المودة[1].

وعنده عن الحسن عن أبي رجاء العطاردي[2] رضي الله عنه قال: قدمت المدينة فرأيت عمر بن الخطاب يقبل رأس أبي بكر رضي الله عنهما[3].

وعنده عن الحسن أنه كان له بيت إذا فتح بابه فهو إذنه فجاء أعرابي فصادفه مفتوحًا، فدخل والحسن في المذهب، فجاء إلى شيء تحت سرير الحسن فأخرجه، وجعل يأكل فنظر إليه الحسن وجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا سعيد؟ فقال: ذكرني هذا أخلاق قوم قد مضوا[4].

وعنده عن معاوية بن قرة[5] أنه قال: نظرنا في المودة والإخاء فلم نجد أثبت مودة من ذي أصل[6].

وعنده من طريق عبدالرحمن بن صالح قال: قال عمر بن عبدالعزيز أحسبه تمثل بأبيات في آخرها قوله:

والمــرء يصنــع نفســه ومتــى ... مــا تبلـه ينـزع إلـى العـرق[7]

---

(١) المصدر السابق (ص ١٧٦).

(٢) تقدمت ترجمته ص ٣٠٥.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا، الإخوان (ص ١٩٩).

(٤) المصدر السابق (ص ٢٤٥).

(٥) أبو إياس المزني البصري، الإمام العالم الثبت، أدرك سبعين صحابيا، توفي سنة ١١٣هـ. سير أعلام النبلاء، الذهبي (٥/ ١٥٣)، الطبقات، خليفة بن خياط (ص ٢٠٧).

(٦) ابن أبي الدنيا في الإخوان (ص ١٠٨).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخوان (ص ١٠٩).

وعنده أيضًا عن أبان بن تغلب[1] قال: إن عابدًا من عباد البصرة قال لنا: أتيت البادية فإذا أنا بأعرابية وهي توصي ابنها وهي تقول: يا بني أوصيك والله يوفقك، إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن في صدور الرجال، وتفرق بين المحبين، وإياك والعيوب، فخليق أن تُتخذ غرضًا، وإن الغرض إذا اعتورته السهام ثلمته ووهى ما اشتد منه، وإياك أن تجود بدينك وتبخل بمالك، فيحرى أن تجود بمالك وتبخل بدينك، وإذا هززت فهز كريمًا، فإنه يلين لمهزتك، ولا تهز اللئيم فإنه صخرة لن ينفجر ماؤها إلا بتصدعها، يا بني مثل لنفسك مثالاً فما استحسنته لغيرك فاعمل به، وما استقبحته لغيرك فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه، وإياك ومن كانت مودته بشره، وخالف ذلك فعله، فإن صديقه في مثل حال الريح في حال تصرفها، قال: ثم أمسكَتْ عنه ساعة، فقلت لها: يا أعرابية زيديه. قالت: وأعجبك كلام العرب؟. قال: قلت: نعم. قالت: يا بني والبخل فإنه أقبح ما تعامل به الإخوان بينهم، وإياك وترك مكافأة الإخوان فإن ترك مكافأة الإخوان من التطفيف، ومن جمع الحلم والسخاء فقد استجاد الخلة[2].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إسحاق السهمي حدثني إبراهيم بن عثمان بن زائدة عن أبيه قال: كتب الأحنف بن قيس سيد بني تميم مع رجل إلى صديق له: أما بعد: فإذا قدم عليك أخ لك

---

(١) أبو سعيد وقيل: أبو أمية الربعي، الإمام المقرىء، الكوفي، الشيعي، صدوق في نفسه، عالم كبير، وبدعته خفيفة، توفي سنة ١٤١هـ. انظر: مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان (ص ١٦٤)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٦/ ٣٠٨).

(٢) روى نحوه البيهقي في الشعب (٧/ ٤٤٦) عن الأصمعي، وذكر نحوه ابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٣٩٣).

موافق فليكن منك مكان سمعك وبصرك، فإن الأخ الموافق أفضل من الوالد المخالف، ألا تسمع إلى قول الله عز وجل لنوح عليه الصلاة والسلام في شأن ابنه ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ [هود ٤٦] يقول: ليس من أهل ملتك، فانظر إلى هذا وأشباهه فاجعلهم كنوزك وذخائرك في سفرك وحضرك، فإنك إن تقربهم يقربوا منك، وإن تباعدهم يستغنوا بالله عز وجل والسلام(١).

وقد قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

اعتبروا الناس بأخدانهم فإن المرء على دين خليله(٢).

[ك،١٣٤/ب] وعند ابن أبي الدنيا عن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن من فقه الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومحله.

ثم قال أبو قلابة قاتل الله الشاعر(٣):

عن المرء لا تسأل وانظر قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي(٤)

وقال أيضًا حدثني عبدالرحمن بن صالح حدثني أبو أبحر جليس ليحيى بن آدم قال كان سفيان الثوري يتمثل:

ابلُ الرجالَ إذا أردتَ إخاءَهم   وتوسمنّ أمورَهم وتفقدِ

فإذا وجدت أخا الأمانة والتقى   فبه اليدين قريرَ عين فاشدد(٥)

---

(١) الإخوان (ص ٨٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٨٩).

(٣) هو عدي بن زيد، انظر تفسير الطبري (٥/ ٨٨).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٣٥).

(٥) الإخوان (ص٨٢).

(ولن يجد عبد طعم الإيمان) وفي رواية العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه عند الإمام أحمد كما تقدم في الصحيحين ذاق طعم الإيمان[١].

وحديث ابنه ترجمان القرآن بصيغة النفي أبلغ في ذلك[٢].

وعند البيهقي بسند صحيح في شعبه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: من أحب أن يطعم الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله[٣].

والطعم بفتح فسكون، وفي الصحاح الطعم بالفتح ما يؤديه الذوق، يقال: طعمه مر، والطُعم بالضم: الطعام[٤].

وفي القاموس: طعم الشيء يعني حلاوته ومرارته، وما بينهما يكون في الطعام والشراب[٥].

وبالجملة فقد استعير اسم الطعم والحلاوة، لما يجده المؤمن الكامل في القلب بسبب الإيمان من الانشراح والاتساع، ولذة القلب من الله تعالى. ولهذا قال: **(وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك)** فإذا كان كذلك فقد وصلت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه، وقد جاء استعمال الذوق في القرآن في الخير والشر، وهو تمثيلي وأصله كما مر وجود الطعم في الفم، ويحقق ذلك ما روى أبو أمامة رضي الله عنه

---

(١) حديث العباس مضى تخريجه وهو عند مسلم (١/ ٦٢)، وأحمد في المسند (١/ ٢٠٨)، ولم أعثر عليه في الصحيح، ويبدو أنه لم يخرجه البخاري في صحيحه، وقد رواه غيرهما.

(٢) سوف يأتي تخريجه بعد أن يستوفي المؤلف شرحه.

(٣) شعب الإيمان (٦/ ٤٩١)، ولفظه «من سره أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله عز وجل».

(٤) الصحاح، الجوهري (٥/ ١٩٧٤).

(٥) انظر: ترتيب القاموس المحيط، الزاوي (٣/ ٧٨).

مرفوعًا: من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان.

رواه أبو داود[1].

ورواه الترمذي عن [سهل بن معاذ بن أنس][2] بنحوه وفي آخره: فقد استكمل إيمانه[3].

وعن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا: أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله.

رواه أبو داود[4]، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره عن البراء رضي الله عنه مرفوعًا: أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله[5].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤/ ٢١٩)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (ص٦٢)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٤)، من طرق عن القاسم عن أبي أمامة به، وإسناده كما يقول الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١١٣): حسن ورجاله ثقات.

(٢) في الأصل: «عن معاذ بن أنس» والصواب ما أثبته، وهو الجهني نزيل مصر، قال عنه الحافظ في تقريب التهذيب (ص ٢٥٨): لا بأس به إلا في روايات زبان عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب (٦٠) (٤/ ٦٧٠)، وقال: هذا حديث حسن، وأحمد في مسنده (٣/ ٤٤٠)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٦٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٨٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ١٧٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة، باب مجانبة أهل الأهواء وبغضهم (٤/ ١٩٨) من طريق يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن رجل عن أبي ذر به، وإسناده ضعيف من أجل جهالة الرجل الذي لم يسم.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٨٦)، والطيالسي في مسنده (ص ١٠١)، وابن أبي الدنيا في الإخوان (ص ٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٠)، كلهم من =

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: يا أبا ذر أي عرى الإيمان أوثق؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: الموالاة في الله، والحب في الله، والبغض في الله. رواه البيهقي في شعب الإيمان[1].

وعن أبي ذر أيضًا قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أتدرون أي الأعمال أحب إلى الله؟ الحب في الله والبغض في الله. رواه الإمام أحمد[2].

وروى أبو داود منه الفصل الأخير[3].

وعند ابن جرير بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه: من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد توسط الإيمان[4].

وسيأتي في حديث عائشة رضي الله عنها عند وصف ابن عباس للشرك الخفي، أنه أخفى من دبيب النمل الحديث[5]، ما يبين أن محبة

= طرق عن ليث بن أبي سليم به، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠): فيه ليث ابن أبي سليم وضعفه الأكثر. وقال عنه ابن حجر في التقريب (ص٤٦٤): «صدوق اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك».

(١) (٧/ ٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٤٦)، من طريق مجاهد عن رجل عن أبي ذر به، قال الهيثمي في المجمع (١/ ٩٠): «رواه أحمد وفيه رجل لم يسم».

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤/ ١٩٨)، وقد مضى تخريجه قبل قليل، ولفظه: «أفضل الأعمال الحب في الله والبغض» من طريق أحمد السابق، فعلة الحديثين واحدة، وهي جهالة الرجل الذي لم يسم.

(٤) لم أعثر عليه، وانظر قريبا منه عن أبي هريرة في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٠٧)، وعن كعب الأحبار في مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٧١) والزهد لهناد ص٢٧٤ وحلية الأولياء (٦/ ٣١).

(٥) سوف يخرج في موضعه بحوله تعالى.

ما يكرهه الله تعالى وبغض ما يحبه الله من الشرك الخفي، وبه يعلم أنه لا يكمل التوحيد الواجب والإيمان الواجب، إلا بمحبة ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله، ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما: **(وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا)**[1]، إذ كل عمل لغير الله والدار الآخرة، وإن حسنت صورته باطل لا جدوى فيه لصاحبه في الآخرة، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ـ ١٩]، إلى قوله ﴿مَحْظُورًا﴾.

(رواه) الحافظ الثبت الثقة إمام المفسرين محمد **(بن جرير)** الطبري في تفسيره[2] (وقال) ابن جرير **(قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾** [البقرة: ١٦٦] **قال: المودة**[3]) التي

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص ٣٥٣)، والعدني في الإيمان (ص ١٢٨)، وابن أبي شيبة والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٦/ ١٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٢)، عن ابن عمر مرفوعًا، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤١٧)، عن ابن عمر موقوفًا، ومدار الحديث على ليث بن أبي سليم وقد تكلم فيه، قال الهيثمي في المجمع: «فيه ليث بن أبي سليم الأكثر على ضعفه». فالحديث كما هو واضح قد اضطرب فيه ليث فمرة يرويه عن ابن عباس موقوفًا، ومرة يرويه عن ابن عمر موقوفًا، ومرة مرفوعًا.

(٢) أي حديث ابن عباس السابق، ولم أعثر عليه في تفسير الطبري، وممن عزاه إليه ابن رجب في جامع العلوم (١/ ٣٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢/ ٧١).

كانت بينهم من الاتّباع والاتّفاق على دين واحد، والأغراض الداعية إلى ذلك من أمور الدنيا، والمراد مواد الكفر والعصيان التي بينهم في الدنيا، وما كان بينهم من أمور الدنيا التي لا يقصد بها وجه الله والدار الآخرة، وأما ما قصد به وجه الله والدار الآخرة من أمور الدنيا، من مهاداة وتواصل فيها بين المؤمنين، فقد أرشد إليه النبي ﷺ وجعله سببًا للمحبة، وقد يكون سببًا لشفاعة بعضهم في بعض في الآخرة كما وردت الأحاديث عنه ﷺ بذلك.

والأسباب: الوُصَل، جمع سبب، التي يتوصل بها إلى الأغراض.

قال أوس بن حجر التميمي[1] يذكر رجلاً نزل من رأس جبل بحبل إلى نبعة ليقطع منها له قوسًا فأفرط فيها نفسه وهو معتصم:

وألقى بأسباب له وتوكلاً

أي: أظهر نفسه وأقدم بها فيما يحاول أن يفعله.

ومن ذلك ما قال لبيد بن ربيعة رضي الله عنه:

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها[2]

وقال جرير بن الخطفى:

لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعت أسباب دنياك من أسباب دنيانا[3]

---

(١) سبقت ترجمته ص ٨٢.

(٢) أحد أبيات معلقته رضي الله عنه، انظر: شرح القصائد السبع الطوال، ابن الأنباري (ص ٥٣٢).

(٣) انظر: شرح ديوان جرير، مهدي محمد ناصر الدين (٤٥١).

وقال الحطيئة يعرّض بالزبرقان:

لن يتركوا جار مولاهم بمتلفةٍ غبراء ثُمّت يطووا دونه السببا[1]

فالسبب هو الحبل الذي يتوصل به في الارتقاء إلى البغية، قال جرير:

كنا نواصلكم بحبل مودة فلقد عجبت لحبلنا المصروم[2]

وهكذا قال مجاهد في هذه الآية: الأسباب المودة.

والمعنى انقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، فلم يجدوا عن النار مصرفًا ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧].

فأيّسهم سبحانه من الخروج، وقنّطهم عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا، فلم يُبق لهم سببًا إلى ذلك نسأل الله الحماية، فبهذا يُعلم أن كل سبب خال من الإخلاص منقطع ولابد، والله تعالى الموفق.

---

(١) ديوانه ص١٤، مكتبة الخانجي.

(٢) ديوانه (ص ٤٠١).

الباب الحادي والثلاثون

(باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾)

[ك، ١٣٤/أ] لما ذكر المصنف رحمه الله باب المحبة المتضمنة للرجاء ذكر باب الخوف للمناسبة، فإن الخوف أيضًا متضمن للرجاء[1]، وقد ربطهما الله تعالى في كتابه ارتباطهما في صفاته فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجرات: ٤٩-٥٠]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٦]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠].

ولهذا أتبع المصنف رحمه الله بالمحبة الخوف، وذكر فيه هذه الآية الكريمة التي نبه الله بها رسوله وأصحابه، فكان ذلك تنبيهًا للمؤمنين بعدهم فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ يعني ذلكم الذي ذكرنا لكم وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، إنما هو من فعل الشيطان الذي ألقى في أفواههم ليرهبوكم به ويجبنوكم عنهم.

وقوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم أولياءه وذلك هو في قراءة عبدالله بن مسعود، والمعنى: يخوفكم أولياءه فلا تخافوهم من دوني، وفي قراءة أبي بن كعب[2]: «يخوفكم بأوليائه»، يعني يخوف المؤمنين

---

(١) في هذا نظر، فإن الخوف مضاد للرجاء، وإنما تتابعت هذه الأبواب عند المصنف لأن العبودية مبناها على الحب والخوف والرجاء.

(٢) النجاري الخزرجي، أبو المنذر، صحابي أنصاري، من كتاب الوحي، وكان عمر =

بالكافرين، قال السدي[(١)]: يعظم أولياءه في صدورهم ليخافوهم[(٢)].

ثم قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ في ترك أمري ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: مصدقين بوعدي، فإني متكفل لكم بالنصر والظفر على عدوي وعدوكم، وذكر الإيمان يقتضي إيثار خوف الله على خوف الناس ومن آثر خوف الناس على خوف الله فقد دخل بابًا من الشرك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝١٨﴾ [التوبة: ١٨].

روى الإمام أحمد في مسنده من طريق دراج أبي السمح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان[(٣)].

ورواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم في مستدركه من طريق دراج أيضًا عن أبي سعيد به[(٤)].

= يسميه سيد المسلمين، وهو أول من كتب للنبي ﷺ، مات سنة ثلاثين. نظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٣٢)، غاية النهاية، ابن الجزري (١/ ٣١).

(١) هو إسماعيل بن عبدالرحمن السدي، تابعي، عالم بالتفسير، إمام عارف بالوقائع وأيام الناس، توفي سنة ١٢٨هـ. نظر: النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (١/ ٣٠٨)، اللباب، ابن الأثير (١/ ٥٣٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٨٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٦٨).

(٤) أخرجه الترمذي، تفسير القرآن، باب من سورة التوبة (٥/ ٢٧٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في المساجد، باب لزوم المسجد (١/ ٢٦٣)، والدارمي في سننة (١/ ٣٠٢)، والمنتخب من مسند عبد بن حميد (ص ٢٨٩)، وابن حبان في صحيحه (٦/ ٥)، وبالهامش قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، =

وروى عبد بن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: عُمّار المساجد هم أهل الله.

وكذا رواه البزار[1]، وروى الحافظ الضياء في المختارة عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: يقول الله: وعزتي وجلالي إني لأهُمّ بأهل الأرض عذابًا، فإذا نظرت إلى عُمّار بيوتي، والمتحابين فيَّ، والمستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم[2].

= وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٣٧٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٣٢)، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله دراج كثير المناكير، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٦٦)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٤٠) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه، كلهم من طرق عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري به، وعلة الحديث دراج، قال الحافظ في التقريب (ص ٢٠١): دراج صدوق في حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

(١) أخرجه البزار برقم (٤٣٣)، كشف الأستار، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (ص ٣٨٧)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ١٣٢)، وتمام في الفوائد (١/ ٢٢٦)، والعقيلي في الضعفاء (٢/ ١٩٩)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٦٦)، والشعب (٣/ ٨٢)، كلهم من طرق عن صالح المري عن ثابت عن أنس به، قال الطبراني في الأوسط (٣/ ٦٧): «لم يرو هذا الحديث عن ثابت إلا صالح». وصالح هذا هو ابن بشير المري، وعليه مدار الحديث وقد ضعفه جمع من العلماء، قال يحيى كان قاصا وكان كل حديث يحدث به عن ثابت باطلا، وقال البخاري منكر الحديث، وقال النسائي متروك، نقل ذلك الحافظ في التهذيب (٤/ ٣٨٢). وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٣): فيه صالح المري، وهو ضعيف.

(٢) لم أعثر عليه في الأحاديث المختارة، وهو عند ابن عدي في الكامل (٤/ ٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٨٢)، رواه ابن عدي من طريق صالح المري عن جعفر بن زيد عن أنس ورواه البيهقي من طريق المري عن ثابت عن أنس، فمدار الحديث كسابقه على صالح المري وقد تقدم الكلام عليه.

وروواه ابن عساكر وقال غريب[1].

وعند سعيد بن منصور، والطبراني والبزار، وحسنه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: المساجد بيوت المتقين، وقد ضمن الله لمن كانت المساجد بيوتهم بالروح، والراحة، والجواز على الصراط إلى رضوان الله[2].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ يقول: من يوحد الله وآمن باليوم الآخر، يعني بما أنزل الله، ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يقول: لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٠) حيث عزاه إلى ابن عساكر، ويبدو أن المؤلف نقله منه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١٤)، من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن رجل عن محمد بن واسع قال: قال أبو الدرداء، وهناد في الزهد (٢/ ٤٧١) من طريق إسماعيل عن محمد بن واسع قال: قال أبو الدرداء، والطبراني في الأوسط (٧/ ١٥٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٣٤٠)، كلاهما من طريق إسماعيل عن قيس بن أبي حازم عن أبي الدرداء. وقد أعل الدارقطني في العلل (٦/ ٢٣٢) هذا الحديث باختلاف رواته على محمد بن واسع وإسماعيل بن أبي خالد، وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٤٠٩) وقال: قال الدارقطني: رواه حماد بن سلمة عن محمد بن واسع أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان، والمرسل هو المحفوظ. وفي الجامع الصغير عزاه السيوطي للطبراني، وقال الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢/ ١٣٣): ضعيف، وعزاه صاحب كنز العمال (٦/ ٢٠٣) إلى البيهقي في الشعب، وهو عنده (٣/ ٨٣) من طريق عبدالله بن المختار عن محمد بن واسع عن أبي الدرداء، ولم أعثر عليه في سنن سعيد بن منصور، أو من عزاه له.

﴿مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨﴾، وكل عسى من الله في القرآن واجبة[1]. قاله ابن عباس وغيره.

ومن رزق الهداية فقد أفلح وأنجح، والمعنى إنما تستقيم عمارة المساجد لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية.

فعند ابن ماجه من طريق عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا: ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم. ورواته كلهم ثقات[2].

وعند أبي يعلى، وابن خزيمة من طريق أبي قلابة عن أنس موقوفًا، ومرفوعًا، يأتي على أمتي زمان يتباهون بالمساجد ثم لا يعمرونها إلا قليلا[3].

ورواه أبو داود والنسائي عنه مرفوعًا، ولفظه: لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد[4].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٩٤)، وفيه علي بن أبي طلحة قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٤٠٢): صدوق يخطىء، أرسل عن ابن عباس ولم يره.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات، باب تشييد المساجد (١/ ٢٤٤)، وفي إسناده جبارة بن المغلس شيخ ابن ماجه ضعفه الذهبي في الكاشف (١/ ٢٨٩)، وقال الحافظ في الفتح (١/ ٥٣٩): رجاله ثقات إلا شيخه جبارة بن المغلس ففيه مقال، وفي التقريب (ص ١٣٧): ضعيف. وقال الألباني في ضعيف ابن ماجه (ص ٥٧): ضعيف جدا.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥/ ١٩٩)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٢٨١)، كلاهما من طرق عن أبي قلابة عن أنس مرفوعًا، الحديث قال عنه حسين سليم الأسد في هامش أبي يعلى (٥/ ١٩٩): إسناده حسن.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في بناء المساجد (١/ ١٢٠)، والنسائي في المساجد، =

وذكر البخاري معنى الأول تعليقًا[1].

وقال: قال ابن عباس: لتُزَخْرِفُنَّها زخرفة اليهود والنصارى[2].

وفيه دليل على أن عمارة الظاهر لا تنفع بدون عمارة الباطن كما قال تعالى رادًّا على المشركين: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٩﴾ [التوبة: ١٩] فلم تنفعهم سقايتهم وعمارتهم المسجد الحرام مع شركهم، وسماهم الله ظالمين بشركهم، فلم تغنِ عنهم العمارة للبيت الحرام وتحريمهم إياه شيئًا حيث فسدت بواطنهم بالشرك.

ومن تمام عمارتها بعد إقامة الصلوات فيها بالإخلاص، تنويرها بالسرج، وإقامة العبادة والذكر ودرس العلم، وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا وأغراضها، ولهذا لما بنى أهل مسجد ضرار مسجدهم في الباطن لغير طاعة الله ورسوله، وكانت بواطنهم فاسدة في ذلك، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ

= باب المباهاة في المساجد (٢/ ٣٢)، كلاهما من طريق أبي قلابة عن أنس مرفوعًا، وأخرجه الضياء في المختارة من طريق قتادة عن أنس (٧/ ٨٦)، والحديث صحيح صححه الألباني في صحيح النسائي (١/ ١٤٨).

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في المساجد، باب بيان المسجد (١/ ١٧١).

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا (١/ ١٧١)، ووصله أبو داود في الصلاة، باب في بناء المساجد (١/ ١٢٠) عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس مرفوعًا: ماأمرت بتشييد المساجد، قال ابن عباس: لتزخرفنّها... الحديث، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٤٩٤)، والبيهقي في سننه (٢/ ٤٣٨)، والبغوي في شرح السنة (٢/ ٣٤٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١/ ٩٠)، والأرناؤوط في هامش شرح السنة (٢/ ٣٤٨).

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٧ـ ١٠٩] الآية.

قلت: وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ في الآية لما علم أنّ الإيمان بالله قرينه، وتمامه الإيمان به، ولدلالة قوله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عليه؛ فإن ذلك لا يعلم إلا من جهته ﷺ، ثم لم يكتف بذكر الإيمان حتى قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فأكد النفي بالإثبات وعطف الخشية على الإيمان، لأن الخشية رأس الإيمان، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وهو من عطف الخاص على العام، اهتمامًا وتخصيصًا لمقام الخوف، وحضًّا عليه في أبواب الدين، فإن الخشية عن المحاذير جبلية لا يكاد الإنسان يتمالك عنها، فلهذا قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ثم قال: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ فذكره بصيغة التوقع قطعًا لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم، وتوبيخًا لهم بالقطع بأنهم على أفعالهم [مهتدون][(١)] فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائرًا بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم؟، ومنعًا للمؤمنين أن يغترّوا بأحوالهم وأقوالهم فيتكلوا عليها.

قال الزبير بن بكار في أخباره عن الوليد بن هشام قال: سمعت أعرابيًا وهو يقول: اللهم ارزقني عمل الخائفين، وخوف العاملين، حتى

---

(١) في الأصل: مهتدين.

أتنعم بترك النعيم، طمعًا فيما وعدت، وخوفًا مما أوعدت[1].

(وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]).

[ك،١٣٥/ب] يذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزمه وقلة صبره، وعدم ثباته على المحنة والابتلاء، وأنه إذا أوذي في الله سبحانه كما جرت به سنة الله واقتضت حكمته، من ابتلاء أوليائه بأعدائه وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى لم يصبر على ذلك وجزع منه، وفرّ من أسبابه كما يفر من عذاب الله، فجعل فتنة الناس على الإيمان وطاعة الرسول ﷺ كعذاب الله تعالى لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله، وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه متمكنًا، ولا هو ذاق حلاوته وطعمه، حيث سوى بين عذاب الناس له على الإيمان بالله ورسوله، وبين عذاب الله لمن لم يؤمن بالله ورسوله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فتنة الناس، أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله تعالى، قاله غيره من علماء السلف، فصارت هذه الآية تنبيهًا لجميع المسلمين ليصبروا على ما أصابهم في الله تعالى.

فهذا كحال من يعبد الله على حرف واحد، لم يرسّخ قدمه في الإيمان وعبادة الله تعالى، فهو من المفتونين المعذبين وإن فر من عذاب الناس له على الإيمان.

---

(١) الأخبار الموفقيات (ص ١٩٩).

ثم ذكر تعالى حال هذا عند نصره سبحانه للمؤمنين وأنهم إذا نصروا لجأ إليهم، وقال كنت معكم، والله يعلم من قلبه خلاف قوله، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج: ١١]، ولهذا قال ههنا: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [العنكبوت: ١٠] أي أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنّ ضمائرهم وإن أظهروا الموافقة، ولهذا قال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني ليميزن الله الذين ثبتوا على الإسلام ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت: ١١] يعني ليميزنّ المنافقين الذين لم يكن إيمانهم حقيقة، فيجازي الفريقين كلًّا بما يستحقه، واللام في الفعلين لام القسم، وإلى هذا انتهى المدني من السورة.

فمن فكر في الدنيا والآخرة علم أنه لا ينال واحدة منهما إلا بمشقة، فليحتمل المشقة لخيرهما وأبقاهما والله الموفق.

(عن أبي سعيد) الخدري رضي الله عنه **(مرفوعًا)** إلى النبي ﷺ، كذلك رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد فرفعاه بإسناد ضعيف **(إن من ضعف اليقين)** بفتح الضاد في لغة تميم وضمها في لغة قريش، **(أن ترضي الناس بسخط الله)** إذ لولا ضعفه لما تجرأت على ذلك، **(وأن تحمدهم)** أي: تصفهم بالجميل **(على رزق الله)** أي: على ما وصل إليك بيديهم من رزق الله تعالى، **(وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله)** أي: على إمساكهم ما بأيديهم عنك مع أن المانع هو الله وهم مأمورون مقهورون تحت إمرة الله القدرية، إذ لا معطي على الحقيقة إلا الله، ولا مانع إلا هو.

ولهذا قال: (إن رزق الله لا يجره) إليك (حرص حريص) وفي رواية حارص أي: اجتهاد مجتهد متهافت على تحصيل ذلك، إذا فهمت ذلك فاعلم أن الحرص متولد من الطمع، وهو إظهار ما استكنّ في النفس منه، ويتولد من الحرص رذائل عظيمة منها: الذل والسرقة والغضب والزنا والقتل والعشق والهم بالفقر، والمسألة لما بأيدي الناس وغير ذلك.

قال الحكيم الترمذي[1]: الحريص فقير وإن ملك الدنيا.

(ولا يرده) عنك (كراهية كاره[2]) وصوله لك، فما لم يقدر لك لم يأتك بكل حال، وما قدر لك خرق الحجب وطرق عليك الباب.

وفي الحديث زيادة ينبغي أن نتممها لعظم فائدتها «**وإن الله بحكمته**» أي: بإحاطته بالكليات والجزئيات ووضعها مواضعها، «**وجلاله**» أي: عظمته التي لا تتناهى «**جعل الروح**» بفتح الراء الراحة «**والفرح**» السرور والنشاط والانبساط «**في الرضا**» عن الله في جميع أمره وقضائه، «**واليقين**» قال ابن مسعود رضي الله عنه اليقين الإيمان كله. رواه البخاري عنه وفيه: الصبر نصف الإيمان[3].

---

(١) سبقت ترجمته ص ٥٩.

(٢) اكتفى الماتن عليه رحمة الله بهذا القدر من الأثر، وانظر تخريجه عند تمام الأثر بعد قليل.

(٣) تعليقًا في الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس (١/ ١١)، ووصله الحافظ في تغليق التعليق (٢/ ٢٢) بإسناده إلى ابن أبي خيثمة في تاريخه، وابن رستة في الإيمان، ثم قال: وهذا موقوف صحيح، وقد روي مرفوعًا من وجه لا يثبت. وأخرجه هنّادٌ في الزهد (٢/ ٤٥٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤)، وقال الهيثمي فيه كما في المجمع (١/ ٥٧): ورجاله رجال الصحيح، وقال الحافظ =

فمن أوتي يقينًا شاهد به قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، وقر قلبه وسكن فلم يضطرب. «**وجعل الهم والحزن في الشك**»، أي: التردد في أن الكل بإرادته تعالى وتقديره، فهو التجويز لأمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، قيل الهم لما يستقبل والحزن على ما فات، وقيل غير ذلك.

فالهم والحزن يضعفان العزم ويوهنان القلب، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه دنيا وأخرى، فهما حمل ثقيل على السائر إلى الله سبحانه فلا يزال القلب الذي هما فيه في سجن، حتى يخلص إلى فضاء التوحيد، والإقبال على الله تعالى بالخلاص منهما بقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] فإن العمل بهذه الآية يخرج من القلب جميع ذلك كله الناشيء عن العجز والكسل، فإن ما مضى لا يدفع بالحزن بل بالرضى والحمد والصبر والإيمان بالقدر، وما يستقبل لا يدفع بالهم، بل إما أن يكون له حيلة فلا يعجز عنها، وإما ألا يكون له حيلة فلا يفزع ليأسه، فمن التوحيد التوكل والرضا بالله ربا فيما يحب ويكره.

«**والسخط**»[1]: أي عدم الرضى بالقضاء، [ك،١٣٥/أ] ومن هذا حاله لم

= في الفتح (١/ ٤٥): وصله الطبراني بسند صحيح، والحاكم في مستدركه (٢/ ٤٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٤) وقال: قد روي هذا من وجه آخر غير قوي مرفوعًا.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤١) وقال: وهذا الحديث مما ركب على أبي يزيد والحمل عليه على شيخنا أبي الفتح فقد عثر منه على غير حديث ركبه، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٢١)، وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣/ ٦٧٤): موضوع.

يرض بمكروه فلا يزال ساخطًا للقضاء، جازعًا عند البلاء، ولا يفيده ذلك شيئًا.

ورواه ابن أبي الدنيا من قوله: وإن الله بحكمته وجلاله إلى آخر الحديث من كلام ابن مسعود رضي الله عنه، والجميع عند أبي نعيم والبيهقي مرفوعًا من حديث أبي سعيد كما تقدم[1].

(وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: من التمس) أي طلب، **(رضى الله بسخط الناس)** فعلم أنه سبحانه ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ فلم تأخذه في الله لومة لائم، **(رضي الله عنه وأرضى عنه الناس)** ولهذا أنزل في أهل هذا المقام قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٨ـ ١٩] الآيات.

(ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس[2]).

وقد فضح الله قومًا من أهل هذا المقام، فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ

---

(١) انظر: التخريج السابق.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٥١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٠١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٤/ ٢٠)، كلهم من طرق عن عثمان بن واقد العمري عن أبيه عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة مرفوعًا.

قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ٣٩٣): «وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير عثمان بن واقد، وهو صدوق، ربما وهم كما قال الحافظ».

وقد توسع الشيخ في ذكر طرق الحديث وشواهده ليراجعه من أراد الاستزادة.

﴿لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٦].

فقد علمت أن أصل الدين وفرعه، يدور على الصدق مع الله، وفي الصحيحين في حديث تخلف كعب بن مالك رضي الله عنه يوم تبوك حين قال له رسول الله ﷺ: ما خلّفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك، قال: قلت: يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب، ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي منه، إني لأرجو فيه عقبى الله عز وجل[١].

وحاصل الكلام في هذا المقام وقاعدته أنه إذا لم يكن بذلك بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله تعالى، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق ومنافرة الحق، فأغضب الناس ونافرهم، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق، لأن التأسي بالنبي ﷺ ومتابعة أمره في جفوة أهل الجهل والمعاصي والرذائل إذا لم تجد مندوحة في ذلك واجب، وذلك إذا لم ينجع مع صاحب ذلك المداراة، ولم يبق إلا المداهنة في دين الله التي قد نهى الله ورسوله عنها والله أعلم. والغضب والرضى في حق الله عز وجل هما من صفات الذات، ويحدث سبحانه عنهما لخلقه العقوبة لمن عصاه، والإنعام لمن أطاعه، والإكرام.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك (٤/ ١٦٠٣)، ومسلم في التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٤/ ٢١٢٠).

فقد علمت أن أصل الدين وفرعه يدور على الصدق مع الله وطلب مرضاته، وقد ذكر أبو القاسم القشيري[1] عن النصر أباذي[2] أنه قال: من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

فصل: وسنذكر قاعدة في الرضا من حيث الجملة لمسوس الحاجة إليها من جهة الأمر والنهي وما يتعلق بذلك، ليعرف المكلف مايرضي الله سبحانه ويغضبه، فيكون من ذلك في دينه على بصيرة من كلام العلماء رحمهم الله تعالى، فذكروا أنه ثلاثة أنواع:

أحدهما: الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، ويتناول هذا ما أباحه الله سبحانه من غير تعد إلى المحضور كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٦٢﴾ [التوبة: ٦٢] وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: ٥٩] فالرضا بذلك واجب، ولهذا ذم الله من تركه بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة: ٥٨].

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذل، فهذا الرضا فيه مستحب في أحد قولي العلماء رحمهم الله تعالى، وليس بواجب. وقد قيل بوجوبه، والصحيح عندهم أن الواجب في ذلك الصبر.

---

(١) سبقت ترجمته ص ٤٦.

(٢) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد الخراساني النصراباذي، ونصر آباذ: محلة في نيسابور، توفي سنة ٣٦٧هـ بمكة. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٦/ ٢٦٣)، المنتظم، ابن الجوزي (٧/ ٨٩).

كما قال الحسن البصري: الرضا غريزة، ولكن الصبر معوّل المؤمن[1].

وفي الحديث المرفوع عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا[2].

النوع الثالث: الرضا بالكفر والفسوق والعصيان، فالذي عليه أئمة الدين من الصحابة والتابعين وأئمة السلف أجمعين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله سبحانه لا يرضاه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٦]، وقال

---

(١) هذا الأثر والنصوص التي قبله والتي بعده ذكرها شيخ الإسلام في الاستقامة (٢/ ٧٤).

(٢) جزء من حديث وصية النبي ﷺ لابن عباس في الحديث المشهور «يا غلام احفظ الله يحفظك»، أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب (٥٩) (٤/ ٦٦٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وقد أخرجه الترمذي دون هذه اللفظة، وأخرجها هناد في الزهد (١/ ٣٠٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٠٣)، من طرق عن عمر بن عبدالله مولى غفرة عن عبدالله بن عباس باللفظة المذكورة. وقال ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٣٨): «ورواه عمر مولى غفرة [عن عكرمة] عن ابن عباس عن النبي ﷺ، وقال الألباني حديث صحيح، وهو معلق أيضًا وعمر مولى غفرة هو ابن عبدالله المدني وهو ضعيف». وأخرجها أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤) من طريق عبيدالله بن عبدالله عن ابن عباس، وفي إسناده رجلان لم يسميا، وأخرجها الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣) من طريق عبدالملك بن عمير عن ابن عباس، وفي إسناده ميمون القداح وهو متروك، وعبدالملك بن عمير لم يسمع من ابن عباس، قاله الذهبي في التلخيص متعقبا الحاكم، وقد جمع الشيخ محمد العجمي في هامش نور الاقتباس لابن رجب طرق هذا الحديث فأجاد وأفاد ولمن أراد الاستزادة مراجعته (ص ٣١ـ ٣٥).

فيمن فعل ما يغضبه: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ۝٩٣﴾ [النساء: ٩٣]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٢٨﴾ [محمد: ٢٨]، وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٨]، وقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥].

فإذا كان سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه بل يُسخطه ذلك، وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم به، فهو لا يشرع لمؤمن أن يرضى ذلك، ولا أن لا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه لأجل مخلوق[1].

قلت[2]: وقد ضل في هذا المقام فريقان من الناس:

فريق من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة في مناظرة القدرية[3]، ظنوا أن محبة الحق، ورضاه وغضبه، وسخطه يرجع إلى إرادته، لأنهم علموا أنه يريد جميع الكائنات خلافًا للقدرية، فهو أيضًا محب لها ومريد لها، وحرفوا الكلم عن مواضعه، فقالوا: معنى لا يحب

---

(١) القاعدة الآنفة وما يتبعها من كلام شيخ الإسلام في الاستقامة (٢/ ٧٣ـ ٧٦) نقلها المصنف ولم يشر إلى ذلك.

(٢) ليست موجودة في الاستقامة، وهي توهم بأن النص للمؤلف.

(٣) هم نفاة القدر، ظهرت تلك الفرقة في البصرة، وأول من تكلم في القدر فيها معبد الجهمي (ت ٨٠هـ) ويزعم كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه عند مسلم (١/ ٣٦): «أن لا قدر وأن الأمر أنف». أي مستأنف لم يسبق به قدر كما في لسان العرب (٩/ ١٤). ويذكر شيخ الإسلام أنه كثر الخوض بعد ذلك في القدر فصار القائلون بهذا قلة، وصار النزاع في الإرادة وخلق أفعال العباد وأهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق: مجوسية، ومشركية، وإبليسية». انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦ـ ٣٧)، التدمرية (ص ٢٠٧).

الفساد بمعنى لا يريده لعباده المؤمنين، ولا يرضى لعباده الكفر أي لا يريده لعباده المؤمنين[1].

وقال أهل السنة والجماعة[2]: وهذا غلط عظيم فإن هذا بمنزلة أن يقال: إن الله لا يحب الإيمان ولا يرضى لعباده الإيمان، أي لا يريده للكافرين ولا يرضاه للكافرين.

وقد اتفق أهل الإسلام على أن ما أمر الله به يكون مستحبًّا يحبه الله، ثم يكون مع ذلك واجبًا، وقد يكون مستحبًّا ليس بواجب، سواء فعل [ك،١٣٦/ب] أو لم يفعل[3].

والفريق الثاني: من المتصوفة والمتعبدة شربوا من هذه العين، فشهدوا أن الله سبحانه رب الكائنات جميعًا، وعلموا أنه قدر على العبد كل شيء وشاءه، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما

---

(١) يشير بذلك إلى مذهب الأشاعرة ومن تبعهم، فهم لما ثبت عندهم أن المشيئة والإرادة والمحبة والرضى كلها بمعنى واحد، قالوا: المعاصي والكفر كلها محبوبة لله لأن الله شاءها وخلقها، وفي ذلك يقول الجويني في الإرشاد (ص ٢٣٩): «ومن حقق من أئمتنا لم يَكِعّ - أي لم يخَفْ - عن تهويل المعتزلة، وقال: المحبة بمعنى الإرادة وكذلك الرضا، والرب تعالى يحب الكفر، ويرضاه كفرًا معاقبًا عليه». وقد حاول بعض الأشاعرة أن يجيبوا عن النصوص التي دلت على أن الله لا يحب الكفر ولا الفساد، وفي النص السابق جملة منها، بأن هذا خاص بمن لم يقع منه الكفر والفساد، والمعنى أن الله لا يحب الفساد لعباده المؤمنين ولا يرضاه لهم، وقد أشار شيخ الإسلام إلى فساد هذا القول، لأن لازمه أن الله لا يحب الإيمان ولا يرضاه من الكفار، وهذا من أعظم الباطل. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/ ٣٤٠)، مدارج السالكين، ابن القيم (٢/ ١٩٠)، الإنصاف، الباقلاني (ص ٢٢٧).

(٢) هذه العبارة ليست موجودة في الاستقامة (٢/ ٧٧) وما بعدها من كلام ابن تيمية.

(٣) المصدر السابق.

يقدره ويقضيه، من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قالوا: الكون كله مراد المحبوب، ولم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية، والإذن الكوني والديني، والأمر الكوني والديني، والبعث الكوني والديني، والإرسال الكوني والديني، وهذا يؤول بهم إلى ألا يفرقوا بين المأمور والمحظور، وأولياء الله وأعدائه، ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ويجعلون المتقين كالفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، فيعطلون الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والشرائع كلها، وربما سموا هذه الحقيقة الرضى، وهو حقيقة كونية لا دينية، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عباد الأصنام كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٥]، فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان كعباد الأصنام في هذا المقام، وأبطل مقام الخوف والرجاء بالكلية، بل وعطل الأمر والنهي والشرائع كلها، والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان بالله ورسله، بتصديقهم فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا واتباع ما يرضى الله ويحبه، دون ما يقضيه ويقدره من الكفر والفسوق والعصيان، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب لا بما فعله من المعايب، فهو من ذنوبه يستغفر، وعلى المصائب يصبر، فهو كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

فجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب كما قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال

يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

وقد تقدم قول النصراباذي وقد أحسن في قوله: من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه.

وقال أبو سليمان الداراني[١]: «إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض؛ لأنه إذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق»[٢].

وقال الفضيل بن عياض[٣] لبشر الحافي[٤]: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته[٥].

وقد روي عن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري أما بعد: فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر[٦].

وقد سئل أبو عثمان الحيري[٧] النيسابوري عن قول النبي ﷺ:

---

(١) هو عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العنسي، من أئمة الصوفية، من داريا بدمشق، توفي سنة ٢١٥هـ. انظر: طبقات الصوفية، السلمي (ص ٧٥ـ ٨٢)، الطبقات الكبرى، ابن سعد (١/ ٦٨).

(٢) انظر: الاستقامة، ابن تيمية (٢/ ٨٠).

(٣) التميمي اليربوعي، أبو علي، من العباد الصالحين، والثقات الورعين، مات سنة ١٨٧هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ٢٤٥)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٢١٥).

(٤) سبقت ترجمته ص ١٣٠٤.

(٥) انظر: الاستقامة، ابن تيمية (٢/ ٨١).

(٦) المصدر السابق.

(٧) هو سعيد بن إسماعيل بن سعيد النيسابوري، شيخ الصوفية بنيسابور وبها توفي سنة =

«أسألك الرضا بعد القضاء»[1]، فقال: لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا[2].

فالرضا الحقيقي لا يكون إلا بعد القضاء، وأما قبله فهو عزم على الرضا؛ وقد يدوم وقد ينفسخ، كما قيل لبعضهم: بمَ عرفت ربك قال: بفسخ العزائم[3] وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٢ ـ ٤].

وبيان هذا أن الرضا المحمود، إما أن يكون الله يحبه ويرضاه، وإما ألا يكون الله يحبه ويرضاه، فإن لم يكن يحبه ويرضاه لم يكن هذا الرضا مأمورًا به، لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب، فإن من الرضا ما هو كفر كرضا الكفار بالشرك، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، ورضاهم بما يسخط الله ويكرهه.

= ٢٩٨هـ. انظر: طبقات الصوفية، السلمي (ص ١٧٠)، تاريخ بغداد، الخطيب (٩/ ٩٩).

(١) جزء من حديث عمار بن ياسر أخرجه النسائي في السهو، باب (٦٢) (٣/ ٥٤)، وفي الكبرى (١/ ٣٨٧)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٦٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٢٦٤)، وعبدالله بن أحمد في السنة (١/ ٢٥٤)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٠)، وابن نصر في قيام الليل (ص ٢٤٦)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص ٩٨)، واللالكائي في أصول السنة (٣/ ٤٨٨)، والطبراني في الدعاء (ص ١٩٩)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٣٠٤)، وابن منده في الرد على الجهمية (٩٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٤)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ١٤٩)، وصححه الألباني في صحيح النسائي (١/ ٢٨٠).

(٢) الاستقامة، ابن تيمية (٢/ ٨٦).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٨٧).

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد: ٢٨]، فمن اتبع ما أسخط الله برضائه به وعمله فقد أسخط الله، وفي الحديث الصحيح: «سيكون بعدي أمراء تعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر فقد برىء، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع»[١].

وقال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة: ٩٦]، فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه وهو لا يرضى عنهم، وقال: ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [التوبة: ٣٨] الآية، فالرضا عن القوم الفاسقين والرضا بفعلهم رضا قد ذمه الله تعالى، فمن رضي بكفره وكفر غيره، وفسقه وفسق غيره، ومعاصيه ومعاصي غيره، فليس هو متبعًا لرضا الله ولا هو مُرضٍ لله بل هو مُسخط له، وربه غضبان عليه، ذامٌ له، متوعد له بالعقاب، إذ غاية هذا تعطيل مقام الرسالة من الدعوة إلى الله تعالى بتوحيده والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغضب لله في ذلك والرضا له، فلا أعظم جرمًا في الإسلام ممن جعل هذا مرضيًا لله ورسوله.

ولما احتج القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به، قالوا فلو كانت المعاصي بقضاء الله وقدره، لكنا مأمورين بالرضا بها، والرضا بما ينهى الله عنه لا يجوز[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا، ونحو ذلك (٣/ ١٤٨٠).

(٢) الاستقامة، ابن تيمية (٢/ ١٢٥).

أجابهم أهل السنة والجماعة: هذا العموم ليس بصحيح فلسنا مأمورين أن نرضى بكل ما قضى وقدر فلم يجىء في الكتاب والسنة أمر بذلك، ولكن علينا أن نرضى بما أمر بالرضا به كطاعة الله ورسوله[1].

الجواب الثاني: أنهم قالوا إنما الرضا بالقضاء في الذي هو صفة الله سبحانه أو فعله، لا بالمقضي الذي هو مفعول له[2].

وقوى هذا الوجه شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في موضع وضعفه في موضع آخر[3].

الجواب الثالث: أنهم قالوا إن هذه المعاصي لها وجهان، وجه إلى العبد من حيث هو فعله وصنعه وكسبه، ووجه إلى الرب تبارك وتعالى من حيث هو الذي خلقها وقضاها وقدرها، فنرضى به من الوجه الذي يضاف به إلى الله سبحانه، ولا نرضى به [ك،١٣٦/أ] من الوجه الذي يضاف به إلى العبد، إذ كونها شرا أو قبيحة ومحرمة وسببًا للعذاب والذم ونحو هذا وذلك إنما هو من جهة كونها مضافة إلى العبد، وهذا مقام فيه من كشف الحقائق والأسرار ما لا يعلمه إلا أولو الألباب، وهو متعلق بمسائل الصفات والقدر، وهي من أعظم مطالب الدين وأشرف علوم الأولين والآخرين وأدقها على عقول أكثر العالمين[4].

والمقصود أن الرضا الذي هو من طريق الله سبحانه لا يتضمن ترك

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٢٦).
(٤) المصدر السابق (١/ ١٢٦).

واجب ولا ترك مستحب ولا فعل مكروه، والمنحرفون ظنوا أن الرضا بكل ما يكون أمرٌ يحبه الله ويرضاه، وأنه من أعظم طرق أولياء الله، فجعلوا الرضا بكل حادث وكائن، أو بكل حال يكون فيها العبد سالكًا طريقًا إلى الله سبحانه، فضلوا بذلك ضلالاً مبينًا، وعطلوا بذلك الأمر والنهي وجميع الشرائع، وجعلوا المسلمين كالمجرمين والمتقين كالفجار، والطريقُ إلى الله سبحانه إنما هي أن ترضيه بأن تفعل ما يحبه ويرضاه، وليس الرضا أن ترضى بكل ما يحدث ويكوّن، فإنه سبحانه لم يأمرك بذلك ولا رضيه لك ولا أحبه، بل هو سبحانه يكره ويسخط ويحب ويرضى ويوالي ويعادي، فإذا كنت تحب وترضى ما يكرهه الله ويسخطه كنت بذلك عدوه لا وليه، وكان كل ذم نال من رضي ما أسخط الله قد نالك، فتدبر هذا فإنه تنبيه على أصل عظيم ضل فيه من طوائف النساك والعباد والعامة ما لا يحصيهم عددًا إلا الله سبحانه[1].

وقد قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى لمن يخاطب: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أي: أي مذهب وافق هواك تمذهبت به[2].

وإنما المشروع أن تستعين الله سبحانه على الطاعة قبل الفعل، وتشكره عليها بعد الفعل، وتجتهد ألا تعصي، فإن أذنبت بادرت بالتوبة والاستغفار، فالطريق إلى الله سبحانه التي يأمر بها السلف، إنما هي الأمر بطاعة الله والنهي عن معصيته، فمن أمر أو استحب أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه، وينهى عنه ويعاقب أصحابه، فهو عدو

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٢٨).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٣٩).

لله لا ولي لله، فهو حينئذ قد ضل عن سبيل الله وطريقه، فليس بسالك لطريقه وسبيله، وإذا كان الرضا الموجود في بني آدم منه ما يحبه الله، ومنه ما يكرهه ويسخطه، ومنه ما هو مباح لا من هذا ولا من هذا فهكذا سائر أعمال القلوب من الحب والبغض وغير ذلك، كلها تنقسم إلى محبوب لله سبحانه ومكروه له ومباح، وفعل المباح المستوي الطرفين لا ينافي الرضا المحمود؛ إذ ليس من شرط الراضي ألا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا ينكح ولا يفعل أمثال هذه الأمور، فإذا كان ما يفعله من هذه الأمور لا ينافي الرضا دل على أن فعل المباح لا يخرج عن رضاه سبحانه ولا ينافيه لإباحته إياه لعباده.

قال القشيري رحمه الله: اعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله الذي أمر بالرضا به، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب على العبد الرضا به كالمعاصي[1].

فقد تبين غلط هؤلاء من جهة ظنهم أن الرضا مشروع بكل مقدور، وكذا من جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجابًا أو استحبابًا، والدعاء غير المشروع، وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام، أن طلب الجنة من الله والاستعاذة به من النار، هو من أعظم الأدعية المشروعة لكل أحد من المرسلين والنبيين، وجميع الصديقين والشهداء والصالحين، وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجبًا أو مستحبًا، إذ ما سوى ذلك محرم أو مكروه، أو مباح لا منفعة فيه في الدين، فإذا قال قائل: لا يطلب حصول الثواب الذي هو الجنة، ولا دفع العقاب الذي هو النار، من الله تعالى، فحقيقة هذا القائل أنه لا يفعل مأمورًا ولا يترك محظورًا، ويقول: أنا

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١٢٤).

راض بكل ما يفعله ربي، وإن كفرت وفسقت وعصيت، بل يقول: أنا أكفر وأفسق وأعصي حتى يعاقبني وأرضى بعقابه، فأنال درجة الرضا بقضائه.

وقائل هذا من أجهل الخلق وأضلهم، بل وأكفرهم، إذ طلب رضا الله إنما يدور مع الصدق مع الله وطلب مرضاته، ولهذا لما بعث معاوية رضي الله عنه إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بعد ما استخلف رضي الله عنه يطلب منها الموعظة، بعثت إليه بهذا الحديث المتقدم الشريف الجامع[١]، وهذا من فقهها لعلمها أن هذا من أنفع ما يكون موعظة لمن ولاه الله أمر المسلمين إذا عقله، فكان رضي الله عنه يعرضه على نفسه، ويستعين به على تنفيذ أوامر الله ورسوله طلبًا لرضا مولاه المطلوب منه تحصيله، وما كان أحوجه رضي الله عنه إلى هذه الوصية، فإنه كانت له فضلة حلم تسع أخلاق الناس، فخشيت عليه رضي الله عنها أن يسحب حلمه على مسامحةٍ فيما لا تجوز المسامحة فيه، فما نبهت منه غافلاً، ولا ذكّرت ساهيًا، ولقد ساد رضي الله عنه وساس الناس حتى وجد الناس فقده، ولم يجدوا مثله بعده، فإياك ثم إياك أن تسمع فيه قول المؤرخين، فهم عن الحق فيه جدًا [ناكبون][٢]؛ فإنه كاتب الوحي، كيف وقد دعا له رسول الله ﷺ حيث قال كما رواه الترمذي وغيره من أهل السنن: اللهم اجعله هاديًا مهديًا[٣]. وإنه لكما وصفه ابن حواري

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) في الأصل: ناكبين.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب معاوية بن أبي سفيان (٥/ ٦٨٧) وقال: حسن صحيح، وأحمد في المسند (٤/ ٢١٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٣٥٨)، والطبراني في الأوسط (١/ ٣٨٠)، ومسند الشاميين له (١/ ١٨١)، =

رسول الله ﷺ عبدالله بن الزبير حيث قال الزبير بن بكار: حدثني علي ابن مصلح قال حدثني جدك عبدالله عن هشام بن عروة قال: صلى بنا يومًا من الأيام عبدالله بن الزبير فوجم بعد الصلاة ساعة، فقال الناس: لقد حدّث نفسه، ثم التفت إلينا ثم قال: لا يبعدنّ ابن هند، إن كانت فيه لمخارج لا نجدها في أحد بعده، والله إن كنا لنفرقه فيتفارق لنا، وما الليث الحرِب على براثنه بأجرأ منه، وإن كنا لنخدعه، وما ابن ليلة من أهلِ الأرضِ بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أن مُتِّعْنا به ما دام في هذا الجبل حجر، وأشار إلى أبي قبيس، لا يتخون له عقلٍ، ولا تنقص له مروءة، فقلنا: أوحش والله الرجل، ثم قال: وكان والله كما قالت رقيقة ـ امرأة من قريشٍ أمها بنت أسد بن عبد العزى أو خويلد بن أسد ـ :

ألا ابكيه ألا ابكيه   ألا كل الفتى فيه[1]

قلت بهذه الأخلاق دعا له النبي ﷺ بأن يُجعل هاديًا مهديًا رضي الله عنه وأرضاه.

(رواه ابن حبان في صحيحه) وقد روي من غير وجه، ورواه الترمذي وحسنه، وأبو نعيم في الحلية عن عائشة أيضًا، ولفظه قالت: قال رسول الله ﷺ من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضى الله كفاه الله مؤونة الناس[2].

= وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٦١٥).

(١) الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار (ص ٥١٦).

(٢) مضى تخريجه وهو عند أبي نعيم في الحلية (٨/ ١٨٨). والبغوي في الجعديات (ص ٢٤١) بهذا اللفظ.

وعند ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله [ك،١٣٦/ب] ﷺ قام خطيبًا فكان فيما قال: ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه. قال فبكى أبو سعيد وقال: قد والله رأينا شيئًا فهبنا[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن (٤/ ٤٨٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢/ ١٣١٨)، وأحمد في المسند (٣/ ٧١)، والطيالسي في مسنده (٢/ ٢٨٧)، والحميدي في مسنده (٢/ ٣٣١)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٣٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٩٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٠٩).

الباب الثاني والثلاثون

باب ما جاء في قول الله تعالى

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

لما ذكر المصنف رحمه الله الخوف أعقبه بالتوكل، إذ الخائف لا بد له من ملجأ يلجأ إليه، فاستفتح الباب **بقوله تعالى**: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة: ٢٣]، فقدم الجار والمجرور اهتمامًا للأمر وحصرًا للتوكل على الله، ثم أعقبه بإن الشرطية فدل أن التوكل شرط من شروط الإيمان.

وقد روى عبدالله ابن الإمام أحمد بسنده عن سعيد بن جبير قال: التوكل على الله جماع الإيمان[١].

ودل أيضًا أنه سبحانه الكافي وحده كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر: ٣٦]، وهذه إضافة خاصة للمطيع.

وقد علم من قواعد الشرع من الكتاب والسنة، أن التوكل لا ينافي فعل الأسباب، قال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥].

---

(١) أخرجه في السنة (١/ ٣٦١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١١١)، كلهم من طريق محمد بن فضيل عن ضرار وهو أبو سنان الشيباني عن سعيد بن جبير به، وإسناده حسن، محمد بن فضيل بن غزوان قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٥٠٢): «صدوق عارف رمي بالتشيع».

وفي الحديث المرفوع: لو توكلتم على الله حق التوكل، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا، وتروح بطانًا[1][2].

فغدوها من فعل السبب، قال إمام الطائفة عبدالقادر الجيلاني[3] في غنيته: وأما الحركة بالظاهر الذي هو الكسب بالسنة، فلا ينافي توكل القلب بعدما يتحقق العبد في قلبه أن التقدير من قبل الله تعالى، لأن محل التوكل القلب وهو تحقيق الإيمان، فمن أنكر الكسب فقد أنكر السنة، ومن أنكر التوكل فقد أنكر الإيمان، فإن تعسر شيء من الأسباب أو تيسر فبتقدير الله تعالى، فبهذا يكون ظاهر الإنسان وجوارحه متحركًا بالسبب بأمر الله تعالى، وباطنه ساكنًا لوعد الله عز وجل.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا[4]﴾ [الأنفال: ٢ـ ٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب في الزهادة في الدنيا (٤/ ٥٧٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الزهد، باب التوكل واليقين (٢/ ١٩٤)، وأحمد في المسند (١/ ٣٠)، والطيالسي في مسنده (ص ١١)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٩)، وأبو يعلى في مسنده (١/ ٢١٢)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٥٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٧٤).

(٢) قال في النهاية: «(خمص) ومنه حديث «كالطير تغدو خماصًا وتروح بطانا» أي تغدو بكرة وهي جياع وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف». النهاية لابن الأثير (٢/ ٨٠).

(٣) هو عبدالقادر بن أبي صالح الجيلي الحنبلي، شيخ بغداد، قال عنه الذهبي: الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف، كبير الشأن، عليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه، وبعضها مكذوبة عليه، توفي سنة ٥٦١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٠/ ٤٣٩)، الأنساب، السمعاني (٣/ ٤١٥).

(٤) الآية الثالثة والرابعة من السورة ليست في متن كتاب التوحيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكاملون في الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. ولهذا أتى بإنما والألف واللام التي للحصر، والمعنى ليس المؤمن من يخالف الله ورسوله تاركًا اتباع ما أنزله في كتابه، لكن المؤمن من هذه صفته.

وسئل الحسن البصري: أمؤمن أنت؟ قال: الإيمان إيمانان، إن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار فأنا مؤمن، وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، فوالله لا أدري أنا منهم أم لا[١].

وقد روى الطبراني بسنده المتصل عن حارثة بن مالك الأنصاري[٢] أنه مر برسول الله ﷺ فقال: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمنًا حقا. قال: انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتصايحون، وفي رواية يتضاغون[٣] فيها، فقال: يا حارث عرفت فالزم ثلاثًا[٤].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٨٦) برقم ٧٦.

(٢) لم يزد الحافظ في ترجمته على ذكر هذا الحديث عنه، قتل رضي الله عنه أثناء غارة على سرح المدينة بعد أن قتل ثمانية. انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٢٨٩).

(٣) قال في النهاية (٣/ ٩٢): «ضغا يضغو ضغوا وضغاء إذا صاح وضج، تضاغيهم في النار أي صياحهم وبكاؤهم».

(٤) أخرجه في الكبير (٣/ ٢٦٦)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (ص ١٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٦٣)، كلهم من طريق ابن لهيعة ثنا خالد بن يزيد =

وقد رُوي من وجه آخر مرسلاً[1].

وهذا حديث مشهور تلقته العلماء بالقبول.

وقوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فزعت لذكره استعظامًا له وتهيبًا من جلاله، وقيل هو الرجل يهم بالمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفًا من عقابه، وقرىء بالفتح وهي لغة فيه، وفزعت أي: خافت، وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، لزيادة المؤمن به إيمانًا باطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة كقوله تعالى عن إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فالإيمان دائر بين أعمال القلوب كالتوحيد والإخلاص والتوكل، وبين أعمال الجوارح كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، فهو يزيد وينقص كما هو معلوم من هذه الآية الكريمة.

وقال أبو محمد بن حزم: قال أهل اللغة: الإيمان اسم واقع على ثلاثة معان: أحدها: العقد بالقلب، والآخر: النطق باللسان فقط، والثالث: عمل جميع الطاعات فرضها ونفلها واجتناب المحرمات[2].

= السكسكي عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن أبي الجهم الحارث بن مالك به، قال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٧): «فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه».

(١) قال الحافظ في الإصابة (١/ ٢٨٩): أخرجه ابن المبارك في الزهد، وعبدالرزاق في التفسير عن معمر عن صالح بن مسمار أن النبي ﷺ قال: يا حارث، وهو معضل.

(٢) انظر: الفصل، ابن حزم (٣/ ٢٣٠)، الدرة فيما يجب اعتقاده، له (ص ٣٣٧).

وقالت طائفة: الإيمان واقع على معنيين: أحدهما: العقد بالقلب والنطق باللسان فقط، وأن أعمال الطاعات، واجتناب المحرمات أنها شرائع الإيمان وليست إيمانًا، وهذه المقالة وإن كانت فاسدة فصاحبها لا يكفر.

وقالت طائفتان قولين خرجا بهما إلى الكفر صراحًا، أحدهما: جهم بن صفوان ومن قلده فإنهم قالوا: الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، وإن أعلن بالكفر وجحد النبوة، وقال بالتثليث وعبد الصليب في دار الإسلام من غير تقية[1].

والآخر محمد بن كرام[2] وأتباعه فإنهم قالوا: الإيمان هو التصديق باللسان وإن اعتقد الكفر بقلبه[3].

فلزم الطائفة الأولى أن إبليس مؤمن وأن اليهود والنصارى الذين حاربوا رسول الله ﷺ مؤمنون أولياء لله تعالى من أهل الجنة، لأن كل هؤلاء عرفوا الله تعالى بقلوبهم.

ولزم الطائفة الثانية أن المنافقين الذين شهد الله جل وعز بأنهم من أهل

---

(١) انظر: الدرة فيما يجب اعتقاده (ص ٢٣٩)، الفصل، ابن حزم (٣/ ٢٢٧).

(٢) هو محمد بن كرام السجستاني، شيخ الكرامية، قال الذهبي: قال ابن حبان: خُذل حتى التقط من المذاهب أرداها، ومن الأحاديث أوهاها. قال بأن الإيمان مجرد قول اللسان، وأن الله تعالى عما يقول جسم لا كالأجسام، سجن لأجل بدعته ثمانية أعوام، مات سنة ٢٥٥هـ. انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (٤/ ٢١)، الفرق بين الفرق، البغدادي (ص ٢١٥ـ ٢٢٥).

(٣) انظر: الفصل، ابن حزم (٣/ ٢٢٧)، الدرة فيما يجب اعتقاده، له (ص٣٣٢ـ٣٣٧).

النار، مؤمنون أولياء لله تعالى من أهل الجنة، وهذا كفر محض مجرد.

وكلا القولين خرق للإجماع ومخالفة لأهل الإسلام(١).

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في الإيمان والإسلام وعمومهما وخصوصهما، وأن الإيمان يزيد وينقص أم لا، وأن الإيمان من الأعمال أم لا، وسنوضح ذلك إن شاء الله، ونبين قول السلف رضي الله عنهم في ذلك والله الموفق.

قالوا فأما الزهري فقال: الإسلام الكلمة، والإيمان العمل(٢). واحتج بقوله [ك، ١٣٧/أ]: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد محتجًا بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ـ ٣٦].

فدل بذلك على أن المسلمين هم المؤمنون، فدل بالإسلام على الإيمان.

قال أبو سليمان الخطابي وقد تكلم في هذا الباب رجلان من كبراء أهل العلم وصار كل واحد منهما إلى مقالة من هاتين المقالتين، ورد الآخِر منهما على المتقدم، وصنف عليه كتابًا يبلغ عدد أوراقه المائتين(٣).

---

(١) انظر: الدرة فيما يجب اعتقاده (ص ٣٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤/ ٢٢٠)، واللالكائي في السنة (٤/ ٨١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٨٨٦).

(٣) ممن صنف في هذه المسألة مؤيدًا القول بأن الإسلام والإيمان شيء واحد محمد بن =

قال: والصحيح من ذلك أن يقيّد الكلام في هذا ولا يطلقَ على أحدِ الوجهين؛ وذلك أن المسلم قد يكون مؤمنًا في بعض الأحوال ولا يكون مؤمنًا في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا، فإذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات، واعتدال القول فيها، ولم يختلف شيء منها.

وأصل الإيمان التصديق مع نية وعزيمة، وأصل الإسلام الاستسلام والانقياد، وقد يكون المرء مستسلمًا في الظاهر غير منقاد في الباطن، وقد يكون صادق الباطن غير منقاد الظاهر[1].

وقال أيضًا في قوله ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة»[2]: وفي هذا بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء، بها أعلى وأدنى، فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع

= نصر المروزي وابن عبدالبر، وقد رويا هذا القول عن سفيان الثوري، وهو أيضًا قول جماعة من السلف منهم البخاري والمزني وابن منده وغيرهم.

واستشهدوا بأدلة منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ـ ٣٦]، فالموصوف واحد، فدل على عدم الفرق بينهما.

وممن صنف وأيد القول بالتفريق أبوبكر السمعاني وغيره، وقد نقل ذلك عن كثير من السلف منهم: قتادة وداود بن أبي هند وأبو جعفر الباقر والزهري وحماد.

(١) معالم السنن (٤/ ٣١٥).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (١/ ٦٣) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان».

وأخرجه البخاري في الإيمان، باب أمور الإيمان (١/ ١٢) بلفظ «الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان».

شعبها وتستوفي جملة أجزائها، كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء والاسم يتعلق ببعضها، والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفي بها، ويدل على صحة ذلك قوله: «والحياء شعبة من الإيمان»[١].

وفي هذا الباب إثبات التفاضل في الإيمان وتباين المؤمنين في درجاتهم، والمعنى أن الحياء يقطع صاحبه عن المعاصي ويحجزه عنها، فصار بذلك من الإيمان؛ إذ الإيمان مجموعه ينقسم إلى ائتمار لما أمر الله به وانتهاء عما نهى الله عنه، وهذا أصل في جميع الآيات والأحاديث الواردات في الإيمان[٢].

قال محي السنة الحسين بن مسعود البغوي رحمه الله تعالى في سؤال جبريل عليه الصلاة والسلام عن الإسلام والإيمان والإحسان[٣] وجوابه: جعل النبي ﷺ الإسلام اسمًا لما ظهر من الأعمال، والإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان، أو التصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين، ولهذا قال «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»، والتصديق والعمل يتناوله اسم الإيمان والإسلام جميعًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولا يكون في محل الرضا والقبول إلا بانضمام

---

(١) هو تتمة الحديث السابق.

(٢) معالم السنن، الخطابي (٤/ ٣١٢).

(٣) حديث جبريل حديث مشهور أخرجه البخاري في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام (١/ ٢٧) من حديث أبي هريرة، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٩).

التصديق إلى العمل[1].

وقد حكى النووي على ذلك الإجماع[2].

وقال ابن بطال: مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص والحجة على ذلك ما أورد البخاري رحمه الله من الآيات[3]، فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص[4]، فلم يبعث الله تعالى نبيًّا قط إلا دعا قومه إلى القول والعمل وأمر بالقول والعمل، أولهم آدم عليه الصلاة والسلام، وقد صح أنه حج البيت وصلى عنده، ولما ذكر سبحانه خلاصة رسله عليهم السلام قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾ [الأنبياء: ٧٣].

قال أبو الحسن الأشعري[5] رحمه الله: ثم الأنبياء عليهم الصلاة

---

(١) شرح السنة، البغوي (١/ ١٠).

(٢) شرح مسلم، النووي (١/ ١٤٩).

(٣) انظر: صحيح البخاري، الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (١/ ٢٤)، حيث قال رحمه الله بعد ترجمة الباب: «وقول الله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فإذا ترك شيئًا من الكمال فهو ناقص».

(٤) انظر: شرح مسلم، النووي (١/ ١٤٦).

(٥) هو علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق الأشعري من أحفاد أبي موسى الأشعري الصحابي رضي الله عنه، ولد بالبصرة سنة ٢٧٠هـ، إليه تنتسب فرقة الأشاعرة، كان على مذهب المعتزلة، ثم رجع عن الاعتزال وأعلن توبته على المنبر في البصرة، ثم في آخر حياته رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة، من مؤلفاته «التبيين»، و«مقالات الإسلاميين»، و«الإبانة عن أصول الديانة» وهو آخرها ذكر فيه أنه رجع =

والسلام هلم جرًا يصومون ويصلون، قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال في إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾ [مريم: ٥٥].

قال رسته(١): وما ذاكرت أحدًا من أصحابنا من أهل العلم مثل علي بن المديني وسليمان بن حرب(٢) والحميدي(٣) وغيرهم إلا يقولون الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص.

وكذا روي عن عمير بن حبيب وكان من أصحاب الشجرة(٤).

وحكاه اللالكائي في كتاب السنة عن ربعي وسعيد بن عبدالعزيز وشريك وأبي بكر بن عياش والحمادين وأبي ثور والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم(٥).

= عن علم الكلام وأنه على عقيدة الإمام أحمد، توفي سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة.
انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (١١/ ٣٤٦)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (٣/ ٢٨٤).

(١) هو أبو الفرج عبدالرحمن بن عمر الزهري، إمام محدث متقن، لقب برسته، توفي سنة ٢٥٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٢/ ٢٢)، الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (٨/ ١٤٦).

(٢) سبقت ترجمته ص ١٢٧٢.

(٣) سبقت ترجمته ص ١١٥١.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان (ص ١١)، وعبدالله بن أحمد في السنة (١/ ٣١٥)، والطبري في صريح السنة (ص ٢٨)، والآجري في الشريعة (٢/ ٥٨٤)، وأبو أحمد الحاكم في شعار أصحاب الحديث (ص ٨)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ٨٤٥)، واللالكائي في السنة (٥/ ٩٤٩)، كلهم من طرق عن أبي جعفر الخطمي عن أبيه عن جده عمير بن حبيب به. وفي إسناده يزيد بن عمير بن حبيب قال الألباني في هامش الإيمان لابن أبي شيبة: «يزيد بن عمير لم أجد له ترجمة».

(٥) انظر: السنة للالكائي (٥/ ٨٨٥- ٩٦٤).

قال الحافظ أبوبكر محمد بن عبدالله بن العربي المالكي: لم يختلف أحد من المتقدمين، من الصحابة، والتابعين، والسلف الماضين، في أن الإيمان والعلم يزيد وينقص، حتى نشأت المبتدعة من القدرية، وإخوانهم، فتكلموا بألفاظ الأوائل من عرض[1] وجوهر[2]، وحامل ومحمول[3]، وخاضوا في أن العرض [يتعدد][4] وأن الجوهر الفرد[5] لا يتعدد، وركبوا عليه أدلة التوحيد.

قال: وهذا وإن كان يفضي إلى تحقيق[6]، ولكنه خروج عن سيرة

---

(١) هو ما قام بغيره، ويقابل الجوهر والذات، فالجسم جوهر واللون والقيام والضحك والقعود أعراض له. انظر: التعريفات، الجرجاني (ص ١٤٩)، المعجم الفلسفي، جميل صليبا (٢/ ٦٨).

(٢) هو ما قام بنفسه، فهو متقدم بذاته ومتعين بماهيته، وهو المقولة الأولى من مقولات أرسطو وبه تقوم الأعراض والكيفيات، ويقابل العرض. انظر: التعريفات، الجرجاني (ص ٧٩)، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية (ص ٦٤).

(٣) إذا كان الجوهر حالا في جوهر آخر كان صورة، وإن كان محلا لجوهر آخر كان هيولى، وإن كان مركبًا منهما كان جسمًا، وإن لم يكن كذلك، أي لا حالا ولا محلا ولا مركبًا منهما، كان نفسا أو عقلا. انظر: التعريفات، الجرجاني (ص٧٩)، المعجم الفلسفي، عبدالمنعم حنفي (ص٨٥).

(٤) في الأصل: يتحدد، وما أثبته هو المتفق مع السياق.

(٥) يخصص المتكلمون اسم الجوهر الفرد للجوهر المتحيز الذي لا ينقسم، ويسمون المنقسم جسمًا لا جوهرًا. انظر: معيار العلم، الغزالي (ص ٣٠١)، المبين، الآمدي (ص ١١١).

(٦) الصحيح أن التزام مناهج المتكلمين في الاستدلال بعيد عن التحقيق، بل إنه يفضي بسالكه إلى مفاسد عظيمة، ومصادمة لصريح الكتاب والسنة، فقولهم مثلاً «ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث» أدى بهم إلى نفي جميع صفات الله عز وجل الفعلية كالاستواء والمجيء والنزول إلى سماء الدنيا والرضى والغضب ونحو ذلك مما ثبت بالكتاب والسنة، لأنها عندهم حوادث، فلو جاز حلولها في ذات الله لكان =

السلف وقد أغنى الله في كتابه بما وضع[1] من أدلته من[2] الزيادة والنقصان، وإن كنا نقول: إن العرض لا يقوم بنفسه وإنّه [يتعدد][3]، وأن الجوهر الفرد لا يتعدد، وحكمنا بأن الإيمان والعلم والاعتقاد أعراض فقد أغنانا الله عن ذلك بكتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من

= مخلوقًا تعالى الله عما يقولون، وما ذلك إلا لالتزام مثل هذه المناهج البدعية.

يقول شيخ الإسلام مبينًا فساد التزام هذه المناهج: «وعن هذه الحجة ـ حجة الأعراض واستدلالهم بها على حدوث العالم بحدوث الأجسام ـ نشأ القول بأن القرآن مخلوق، وأن الله تعالى لا يرى في الآخرة، وأنه ليس فوق العرش ونحو ذلك من مقالات الجهمية النفاة».

«وبالجملة فقد صاروا ينفون ما ينفونه من صفات الله تعالى لأن إثبات ذلك يقتضي أن يكون الموصوف جسمًا وذلك ممتنع، لأن الدليل على إثبات الصانع إنما هو حدوث الأجسام، فلو كان جسمًا لبطل إثبات الصانع.

ومن هنا قال هؤلاء: إن القول بما دل عليه السمع من إثبات الصفات والأفعال يقدح في أصل الدليل الذي به علمنا صدق الرسول.

وقالوا: إنه لا يمكن تصديق الرسول لو قدر أنه يخبر بذلك، لأن صدقه لا يُعلم إلا بعد أن يثبت العلم بالصانع، ولا طريق إلى إثبات العلم بالصانع إلا القول بحدوث الأجسام.

قالوا: وإثبات الصفات له يقتضي أنه جسم قديم، فلا يكون كل جسم حادثًا، فيبطل إثبات العلم به».

هذه بعض المفاسد المترتبة على التزام منهج المتكلمين في إثبات الوحدانية وقد أغنانا الله عن ذلك بالكتاب والسنة.

انظر: درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية (١/ ٣٠٦)، الإرشاد، الجويني (ص ٣٩) وما بعدها، فطرية المعرفة، د. أحمد بن سعد الغامدي (ص ٢٢ـ ٢٣٥).

(١) كذا في الأصل، ولعلها: [وضّح].

(٢) كذا في الأصل، ولعلها: [عن].

(٣) في الأصل: يتحدد.

بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقال ابن كثير: الإيمان كلمة جامعة للإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه وتصديق الإقرار بالفعل. قال: فأما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما [ك،١٣٨/ب] قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقرونًا مع الأعمال كقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٣].

فأما إذا استعمل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولاً وعملاً، وقد حكاه الإمام الشافعي والإمام أحمد وأبو عبيد وغير واحد إجماعًا، بأن الإيمان قول واعتقاد وعمل يزيد وينقص[1].

قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية: لفظ الإيمان إذا أفرد دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة، ولهذا قيل: الإيمان قول وعمل. أي: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، ومنه قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»، كما في حديث أبي هريرة عند مسلم، وأهل السنن[2]، ومنه قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥] الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآية.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٠).

(٢) مضى تخريجه قبل قليل.

قال: والإيمان المطلق يدخل فيه الإسلام كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال لوفد عبد القيس: آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم(١).

ولهذا قال من قال من السلف: كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا.

قال: وأما إذا قرن لفظ الإيمان بالعمل أو بالإسلام، فإنه يفرق بينهما كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وكما في حديث جبريل عليه الصلاة والسلام(٢)، ففرق في هذا النص بين الإسلام والإيمان، وفي ذلك النص أدخل الإسلام في الإيمان لما أفرده بالذكر، وكذلك لفظ العمل فإن الإسلام هو العمل، والعمل الظاهر هو موجب إيمان القلب ومقتضاه، فإذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورة، وإيمان القلب لابد فيه من تصديق القلب وانقياده، وإلا فلو صدق قلبه بأن محمدًا رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته، لم يكن قد آمن قلبه بأنه رسول الله، والإيمان وإن تضمن التصديق فليس هو مرادًا له، فلا يقال لكل مصدق بشيء إنه مؤمن به، قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] ففرق بين إيمانه بالله تعالى وإيمانه للمؤمنين، لأن المراد يصدق المؤمنين إذا

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (١/ ٢٩) من حديث ابن عباس، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين (١/ ٤٦) واللفظ له.

(٢) مضى تخريجه.

أخبروه بخبر، وأما إيمانه بالله فهو من باب الإقرار به، ومنه قوله عن فرعون وملئه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] أي نقر لهما ونصدقهما، ومن المعنى الآخر قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ﴾ الآية، [البقرة: ٣]، وقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، أي: أقر بذلك فلابد في ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه، فإذا كان عالمًا بأن محمدًا ﷺ رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه، بل يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه، فإن هذا ليس بمؤمن بل هو كافر به، وهذا كفر فرعون وإبليس وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فإن إبليس لم يكذب خبرًا ومخبرًا، بل استكبر عن أمر ربه وعارضه، وقد قال تعالى في فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] فمجرد علم القلب بالحق إذا لم يقترن به [عمل][(١)] القلب بموجبه، مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه، بل أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه[(٢)].

وفي دعائه ﷺ: اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفس لا

---

(١) في الأصل: علم، والصواب ما أثبته.

(٢) فهو أحد الثلاثة الذين تسعر بهم النار قبل غيرهم بسب الرياء، وهم العالم وصاحب المال والمجاهد كما في حديث أبي هريرة الطويل حيث قال المصطفى عليه الصلاة والسلام: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة (٤/ ٥٩١)وقال: حسن غريب، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١١٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٨١).

تشبع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع[1].

فإن من المعلوم أن الإنسان يكون عالمًا بالحق ويبغضه، فالإيمان قول وعمل.

قلت: وقد جعل الله مجرد العلم في حق الكفار موجبًا للعذاب، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٥] بحيث أنه يدعوهم إلى الله تعالى، ويخبرهم بما يجب عليهم من عبادة مرسله، حتى يستقر عندهم ذلك بالمعجزات التي يستيقنون أنها لا يدركها البشر[2]، فإذا أقام الله عليهم الحجة بهذا العلم الذي دعاهم إليه رسوله، وأبوا اتباعه والانقياد لأمر مرسله، استحقوا الخلود في النار بقيام هذه الحجة عليهم، ولهذا لم يبعث الله رسولاً إلا ومعه معجزات ودلائل على نبوته ظاهرة باهرة لا يكذبها إلا مكابر معاند، ولهذا يقول خزنة جهنم مجاوبين لأهل النار وهم يعذبون فيها، ما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر: ٤٩- ٥٠] ثم أخبر عن قطع معذرتهم فقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب (٦٩) (٥/ ٥١٩) وقال: وفي الباب عن جابر وأبي هريرة وابن مسعود، وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه من حديث عبدالله بن عمرو، وأخرجه النسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من قلب لا يخشع (٨/ ٢٥٤)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧١٧)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ١٦٥).

(٢) بل لا يطيقها الخلق كافة.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: ٥١ـ ٥٢]، وقال في إقامة الحجة عليهم بالرسل على إهلاكهم في الدنيا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]، ولذلك قال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] الآية.

قال شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه: ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق بالمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة إلا لعدم القدرة، وأبو طالب وإن كان عالمًا أن محمدًا رسول الله ﷺ وهو محب له، فلم تكن محبته لمحبة الله بل لأنه ابن أخيه، وإذا أحب ظهوره فلما [ك،١٣٨/أ] يحصل له بذلك من الشرف والرياسة، فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى الإقرار بها زوال دينه، فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه فلم يقر بهما، فلو كان يحبه لأنه رسول الله كأبي بكر الذي قال الله فيه سبحانه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾ إلى قوله ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل: ١٧ـ ٢١] لاتبعه، وهذا مما يحقق أن الإيمان والتوحيد لابد فيهما من عمل القلب كحب القلب، فلابد من إخلاص الدين، والدين لا يكون دينًا إلا بعمل، فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة.

قال تاج الدين عبدالرحمن بن إبراهيم الفزاري الشافعي[(١)] رحمه الله تعالى: ودعوى كون الإيمان عبارة عن مجرد اعتقاد القلب باطلة قطعًا باعتقاد من لم يشك في نبوة محمد ﷺ من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦] الآية، وكذلك من لم يشك في صدقه من مشركي مكة كالوليد بن المغيرة وأبي

---

(١) هو ابن الفركاح، تقدمت ترجمته ص ٤١.

جهل، الذين نزل فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال: والدعوى بأن الإقرار شرط لقبول الإيمان لا جزء شرط منه، باطلة بإقرار أبي طالب للنبي ﷺ فإنه لم يكن متهمًا في إقراره، ولم يكن بمنزلة المنافقين المخادعين.

قال: ولا يصح التعلق بحديث جبريل عليه السلام(١) الذي فرق فيه بين الإيمان والإسلام، لأن التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء خيره وشره كما في الحديث، إنما خص به بيان الإيمان لأنه أعظم شرطي الإيمان، لأن الانقياد بأركان الإسلام عمل مقتضاه فهو أساس وأصل وهي تتمة وفرع، فلا يتم إلا بها ولا تقوم إلا به.

قال: وتقرير ذلك أن الإيمان مأخوذ من الأمن والأمن طمأنينة، والمصدق مطمئن إلى من علم صدقه، ومن اطمأن إلى شيء سكن إليه، إذ لا طمأنينة مع الإقرار(٢)، والإقرار في الجملة فرع التصديق، والفرع لا يكون شرطًا لأصله، لأن الشرط ما كان سابقًا في الوجود على المشروط له، وإلا لصح تعليق حكم على شرط قبل وجوده في صورة من الصور وذلك محال، ولأن اشتراط التصديق للإقرار بما في الحديث ثابت بالاتفاق، ولا يصح شيء من أركان الإسلام بغير تصديق من أحد من المسلمين، فلو ثبت كون الإقرار شرطًا لقبول التصديق وتصحيحه، للزم المحال من وقوف كل واحد منهما على وجود الآخر قبله لكونه شرطًا

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) كذا في النسختين، ولعل صوابها: إلا مع الإقرار.

له.

قال: وهذا لا يخفى فساده على ذي نظر ولا قاصر، فعلم أن الإيمان عبارة عن المجموع في الحقيقة، وأن كل واحد منهما من التصديق بالقلب والانقياد جزء لا يتم الإيمان إلا به، كما عرّض التنزيل بذلك في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ـ ٣٦].

قال: ولا يقال كان لوط وأهله مسلمين غير مؤمنين، وإنما قال ذلك لأن الإيمان عبارة عن المجموع، فمن كان مؤمنًا كان مسلمًا، ومن لم يصح إيمانه لم يصح إسلامه.

قال: وكذلك شرط الحكم للإيمان إذا كان بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وكشف حقيقته أن الإيمان لما كان عبارة عن الطمأنينة والإقرار وسائر الفروض الخمسة الأركان، وكان لا يطمئن إلى الله تعالى من لم يأت بها، ولا يحتمل أن يبلغ الأمان من عذابه من أخل بالإتيان بها، كان المجموع عين الإيمان وحقيقته ولا يمتنع أصل الشيء المجموع باسم كلّه فينفرد الباقي باسمٍ خاص، ويكون تسمية الأصل باسم الكل مجازاً، كما سمى الله سبحانه بقية جزء الإيمان إسلامًا بقوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] أي أتينا بجزء الإيمان الذي سمي إسلامًا، ولما يدخل الإيمان الكامل مع ما أتيتم به، ففسر قوله ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ بذلك؛ لنفي إيمانهم بانتفائه، كما نفى إيمان المشركين بدون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

قال: وهذا ظاهر جلي، وسأبين زيادة التصديق ونقصانه، بتفاوت

الطمأنينة الحاصلة فيما يقتضيه العقل، بتحقيق النظر في حال المؤمنين، وما شهدت به نصوص القرآن من حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

أما العقل: فكل عاقل يعلم أن في المؤمنين من يحمله إيمانه على بذل نفسه في مرضاة الله على أن يقتحم المهالك، مستعذبًا لها في كل موطن يغلب على ظنه أنه محل لرضى الله سبحانه، وفيهم من يحجم عن ذلك إلا في موطن الفرض وهو مع ذلك لا يشك في الدين ولا يتردد في التصديق، ولا ريب أن أخبار التواتر تفيد اليقين، والمعاينة أشد تأثيرًا، ولما أخبر الله سبحانه كليمه عليه السلام أن قومه اتخذوا العجل، لم يؤثر فيه خبر الله سبحانه من الغضب ما أثرته المعاينة حين ألقى الألواح من يده فتكسرت، ولا يجوز أن يقال إن موسى عليه السلام كان شاكًّا في إخبار الله له بذلك، وكذلك إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فتبين أنه مؤمن، ولا ينفي ذلك موجب الطمأنينة من زيادة اليقين برؤية إحياء الموتى، ولا ينبغي أن يقال إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مؤمنًا بغير يقين، فسأل حدوث اليقين ليطمئن بنفي الشك، ولأن الإيمان بالظن لا يصح، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣١- ٣٢] إلا أنه عليه السلام طلب زيادة يقين توجب طمأنينة قلبه.

فتبين بهذا وبقول شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من سادة العلماء رحمهم الله تعالى من أهل السنة والجماعة، أن الدين لا يكون دينًا [ك،١٣٩/ب] إلا بعمل، فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة وقد أنزل الله على رسوله سورتي الإخلاص، إحداهما في توحيد القول والعمل، والثانية في توحيد العمل والإرادة فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾

[الإخلاص: ١] السورة، فأمره أن يقول هذا التوحيد، وقال في الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] السورة، فأمره أن يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله سبحانه وإخلاص العبادة لله، والعبادة أصلها القصد والإرادة، وإذا أفردت العبادة دخل فيها التوكل ونحوه، وإذا قرنت بالتوكل صار التوكل قسيمًا لها، كما ذكرنا في لفظ الإيمان والإسلام قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات، والتوكل من ذلك.

وقال في موضع آخر: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ومثل هذا في القرآن كثير، فإن الإنسان قد يقصد سؤال الله وحده والتوكل عليه لكن في أمور لا يحبها الله، فهذا وإن كان مخلصًا في سؤاله وتوكله فليس هو مخلصًا في عبادته وطاعته، وطائفة يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لا يحققون التوكل والاستعانة فهؤلاء قد يثابون على حسن نيتهم وطاعتهم، لكنهم مخذولون فيما يقصدون إذا لم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارة وبالإعجاب أخرى، فإذا لم يحصّل مراده من الخير كان لضعفه وربما حصل له جزع[1]، والمؤمن يقصد عبادة الله ابتداء وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانة الله والتوكل عليه، وذلك في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقال ابن بطال في شرح البخاري في باب: من قال الإيمان هو

(١) انظر الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٣٢٧).

العمل: فإن قيل قد قدمتم أن الإيمان هو التصديق، قيل: التصديق هو أول منازل الإيمان وموجب للمصدق الدخول فيه، ولا يوجب له استكمال منازله ولا يسمى مؤمنًا مطلقًا، هذا مذهب جماعة أهل السنة، بأن الإيمان قول وعمل[١].

قال أبو عبيد: وهو قول مالك والثوري[٢] والأوزاعي[٣] ومن بعدهم أرباب أهل العلم والسنة، الذين كانوا من مصابيح الهدى وأئمة الدين، من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم[٤].

قال ابن بطال: وهذا المعنى الذي أراد البخاري رحمه الله إثباته في كتاب الإيمان، وعليه بوب أبوابه كما تقدم التنبيه عليه ـ يعني على الأعمال ـ وإنما أراد الرد على المرجئة في قولهم إن الإيمان قول بلا عمل، وسنبين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة[٥].

قال: ومن أقوى ما يرد به عليهم إجماع الأمة على إكفار المنافقين وإن كانوا قد أظهروا الشهادتين قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ

---

(١) انظر: شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٧).

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أمير المؤمنين في الحديث، سيد أهل زمانه في علوم الشرع، آية في الحفظ والورع والتقوى، توفي سنة ١٦١هـ.
انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٦/ ٢٥٧)، حلية الأولياء، أبو نعيم (٦/ ٣٥٦).

(٣) هو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع أبو عمرو، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، ولد في بعلبك، وسكن بيروت وتوفي بها سنة ١٥٧هـ.
انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (٦/ ١٣٦)، الأعلام، الزركلي (٣/ ٣٢٠).

(٤) انظر: شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٧).

(٥) انظر: شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٧).

كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ [التوبة: ٨٤ـ ٨٥][1].

وقال أبو عمرو بن الصلاح في قوله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: هذا بيان لأصل الإيمان والتصديق الباطني، وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر، وحكم الإسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليهما الصلاة والزكاة والصوم والحج، لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها، و[بقيامه][2] بها يتم استسلامه وإيمانه[3]، [وتركه][4] لها يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله، ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في هذا الحديث، وسائر الطاعات، لكونها ثمرات التصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان، ومقويات ومتممات وحافظات له، ولهذا فسر النبي ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخمس من المغنم، ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو ترك فريضة لأن اسم الشيء مطلقًا يقع على الكامل منه ولا يستعمل في الناقص ظاهرًا إلا بقيد، فيقال مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم،

---

(١) انظر: شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٧).

(٢) في الأصل: وقيامه، والتصويب من شرح النووي.

(٣) (وإيمانه) ليست في [م]، ولا في شرح النووي.

(٤) في الأصل: وبتركه، والتصويب من شرح النووي.

ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ: لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن[1] الحديث.

واسم الإسلام يتناول أيضًا ما هو أصل الإيمان وهو التصديق بالباطن، ويتناول أصل الطاعات، فإن ذلك كله استسلام.

قال: فخرج مما ذكرناه وحققناه أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان، وأن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا، فهذا تحقيق وافٍ بالتوفيق بين متفرقات نصوص الكتاب والسنة الواردة في الإيمان والإسلام، التي طالما غلط فيها الخائضون، وما حققناه من ذلك موافق لمذاهب جماهير العلماء، من أهل الحديث وغيرهم[2]، انتهى.

فإذا تقرر ما ذكرناه من مذاهب السلف وأئمة الخلف المتظاهرة المتطابقة على كون الإيمان يزيد وينقص، وعلمت أنه مذهب السلف من المحدثين والفقهاء والراسخين، كما قال يعقوب بن سفيان[3]: أدركت أهل السنة والجماعة على ذلك بمكة والمدينة والبصرة والشام والكوفة، وذكر جملة من الفقهاء [ك،١٣٩/أ] والمحدثين، من مشايخ البخاري وطبقته[4].

---

(١) جزء من حديث أبي هريرة وهو عند البخاري في المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه (٢/ ٨٧٥)، ومسلم واللفظ له في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي (١/ ٧٦).

(٢) انظر: شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٨).

(٣) هو المعروف بالفسوي، أبو يوسف الإمام الحجة الحافظ، من أهل «فسا» بلدة بفارس، صاحب المعرفة والتاريخ، توفي بالبصرة سنة ٢٧٧هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ٥٨٢)، اللباب، ابن الأثير (٢/ ٢١٥).

(٤) أخرجه اللالكائي في السنة (٥/ ٩٦٣).

وقال سهل بن المتوكل[1]: أدركت ألف أستاذ كلهم يقول الإيمان قول وعمل يزيد وينقص[2].

وقال أبو الحسن[3] عبدالرحمن بن عمر بن يزيد المعروف برسته لا أعلم أحدًا ممن يقتدى به عندي، إلا يقول الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وعلمت أصل الإيمان والإسلام، وما قال السلف في ذلك، فلا يغرنك قول من قال إن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهي الأعمال بزيادتها ونقصانها، وجعل هذا القول توفيقًا بين ظواهر النصوص وأقاويل السلف، وبين أصل وضع الإيمان في اللغة وما عليه المتكلمون، وعزاه إلى المحققين، وخرق به الإجماع [وزوّقه][4] بهذا التوفيق والتحقيق.

فاعلم أنه لم يخرج بهذا عن قول أهل الأهواء والبدع، فإنه قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام، أن إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبه ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم مستبشرة نيرة، وإن اختلفت عليهم الأحوال، بل يزداد إيمانهم عند الامتحان، وتقوى قلوبهم بطلب مرضاة الله تعالى على ما أصابهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ

---

(١) سهل بن المتوكل بن حجر البخاري، أبو عصمة، الشيباني، انظر الثقات (٨/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه اللالكائي في السنة (٥/ ٩٦٤).

(٣) في [م] بعدها: البصري، وهو سبق قلم، وقد تقدمت ترجمته.

(٤) أي زيّنه، وقد وقع في الأصل: زوّغه، ولا معنى لها هنا.

ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٣- ١٧٤]، وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ولا يشك عاقل أن نفس تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يساويه تصديق آحاد الناس، وقد كان في الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم وجعلنا ممن تبعهم ووالاهم، من هو أكثر منه عبادة بدنية، كعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عمرو بن العاص وغيرهما، فلم يفضلوا عليه بذلك، فتأمل ذلك يظهر لك الحق وطريق السلف.

وأما إطلاق اسم الإيمان على الأعمال فمتفق عليه عند أهل الحق، ودلائله من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تشهر.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فإنهم قد أجمعوا على أن المراد صلاتكم، كما ذكرت ذلك في «الجواب المفرد على أن القبلة لم تنسخ مرتين عن الإمام أحمد» رضي الله عنه، وأنه ذكر الإجماع على ذلك.

وقد قال ابن الجوزي في تلبيس إبليس: وقد زعم أرباب الكلام أنه لا يتم الإيمان إلا بمعرفة ما رتبوه من الأدلة، وهؤلاء على الخطأ؛ لأن الرسول ﷺ أمر بالإيمان ولم يأمر ببحث المتكلمين، ودرج الصحابة رضي الله عنهم الذين شهد لهم الشارع بأنهم خير الناس على ذلك[١].

وقد ورد ذم الكلام كما أشرنا إليه أول هذا الشرح، ومر نحو قول ابن الجوزي عن النووي وغيره من علماء السنة[٢].

---

(١) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (ص ٩٨).

(٢) راجع ص ٩٣.

قال الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري: ومن اعتقد الإيمان بقلبه ونطق به بلسانه فقد وُفق، سواء استدل أو لم يستدل، هو مؤمن عند الله تعالى وعند المسلمين قال تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، ولم يشترط جل ثناؤه في ذلك استدلالاً، ولم يزل رسول الله ﷺ منذ بعثه الله عز وجل إلى أن توفاه، يقاتل الناس حتى يقروا بالإسلام ويلتزموه، ولم يكلفهم قط استدلالاً، ولا سألهم هل استدلوا أم لا، وعلى هذا جرى جميع أهل الإسلام إلى اليوم وبالله التوفيق[١].

هذا كلامه رحمه الله، وقد ذكرنا منه طرفًا في هذا الشرح، وهذا ما وعدنا بإيراده على الإيمان، والله تعالى الموفق للهداية.

(وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾) [الأنفال: ٦٤].

المعنى: حسبك وحسب من اتبعك الله فهو وحده كافيهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: ومن ظن أن معناها حسبك الله والمؤمنون، فقد غلط غلطًا عظيمًا[٢].

فأخبرهم سبحانه أنه كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين كما قال

---

(١) انظر: الدرة فيما يجب اعتقاده (ص ٣٩٠- ٣٩٣)، الفصل (١/ ٦٧- ٧٨).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: ص ٤٤٧.

تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وفي ذلك قول الشاعر:

إذا كانت الهيجاء واشتجر القنا فحسبك والضحاكَ سيف مهند[1]

وتقول حسبك وزيدًا درهم، والمعنى فحسبك والضحاك عنهم سيف مهند فقصد المصاحبة فنصب الضحاكَ، والمعنى كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصرًا، قالوا وذلك أنه لما كان حسب مصدرًا وأضيف لم يحسن العطف عليه إلا بإعادة الجار ويندر بدونه، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩].

فجعل الإيتاء لله والرسول كما قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، فالحلال ما حلله الرسول، والحرام ما حرمه الرسول، والدين ما شرعه الرسول.

وجعل التحسب بالله وحده فقال: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: ورسوله، ثم قال: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩] فجعل الفضل لله، وذكر الرسول في الإيتاء لأنه لا يباح إلا ما أباحه الرسول، وليس لأحد [ك،١٤٠/ب] أن يأخذ ما تيسر له إن لم يكن مباحًا في

---

(١) البيت غير منسوب لأحد في لسان العرب (١/ ٣١٢)، وفي خزانة الأدب، للبغدادي (٧/ ٥٤٩)، عزاه المحقق لجرير وليس في ديوانه.

الشريعة.

ثم قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التوبة: ٥٩] فجعل الرغبة إلى الله وحده دون ما سواه كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٧ـ ٨]، فأمر بالرغبة إليه، ولم يأمر قط أحدًا أن يسأل مخلوقًا، وإن كان قد أباح في موضع من المواضع ذلك لكنه لم يأمر به، بل الأفضل للعبد ألا يسأل قط إلا الله، ولهذا قال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وفي الصحيحين في صفة الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب: هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون[(١)].

ولم يقل لا يرقون، وإن كان ذلك قد روي في بعض طرق مسلم[(٢)].

قال شيخ الإسلام: فهو غلط فإن النبي ﷺ رقى نفسه وغيره لكنه لم يسترق، فالمسترقي طالب للدعاء من غيره، بخلاف الراقي غيره، فإنه داع له[(٣)] كما قدمنا ذلك فيما تقدم من هذا الشرح في موضعه، وقد قال ﷺ لابن عمه ترجمان القرآن عبدالله بن العباس: إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله[(٤)].

فهو سبحانه الذي يتوكل عليه ويستعان به، ويستغاث به، ويخاف

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٠/ ١٥٤)، منهاج السنة (٧/ ٢٠١ـ ٢٠٥)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٨٣٦ـ ٨٣٧) بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره (٥/ ٢١٥٨)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (١/ ١٩٨).

(٣) أخرجه مسلم، الإيمان، الباب السابق (١/ ٢٠٠).

(٤) مضى تخريجه.

ويرجى ويعبد، وتنيب إليه القلوب وتخضع، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، والقرآن كله يحقق هذا الأصل.

والرسول ﷺ يطاع ويحَب ويُرضى ويسلَّم إليه حكمه، ويعزر ويوقر ويتبع، ويؤمَن به وبما جاء به، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[1] [التوبة: ٦٢].

قيل وحّد الضمير لتلازم الرضائين، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك، أو لأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ ورضاه، ولهذا أورد المصنف رحمه الله بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي من يثق بالله وحده فيما نابه كفاه ما أهمه.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعًا: لو أنكم تتكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانا[2].

رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والترمذي وقال حسن صحيح[3].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٨٣٧ـ ٨٣٨).

(٢) قال في النهاية (٢/ ٨٠): «الخمص والمخمصة: الجوع والمجاعة...، ومنه الحديث «كالطير تغدو خماصًا وتروح بطانا» أي تغدو بكرة وهي جياع، وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف».

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد، باب في التوكل على الله (٤/ ٥٧٣)، وابن ماجه في الزهد، باب التوكل على الله (٢/ ١٣٩٤)، وأحمد (١/ ٣٠، ٥٢)، وأبو يعلى في المسند (١/ ٢١٢)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٣٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٤) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

وتعقبه الألباني في الصحيحة (ص ٣١٠) بقوله: بل هو صحيح على شرط =

فأتى تبارك وتعالى بهذه الآية بعد قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢]، فأفرد التوكل عن التقوى، وإن كان داخلاً فيه لتخصيصه بالذكر، لأن التقوى هنا في جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق بالوعد على الاتقاء عما نهى عنه صريحًا أو ضمنًا من الطلاق في الحيض، والإضرار بالمعتدة وإخراجها من المسكن وتعدي حدود الله، وكتمان الشهادة، وتوقع بَعْل على إقامتها بأن يجعل الله له مخرجًا مما في شأن الأزواج من المضائق والغموم، ويرزقه فرجًا وخلفًا من وجه لم يخطر بباله، أو بالوعد لعامة المتقين بالخلاص من مضار الدارين، والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون، أو كلام جيء به للاستطراد عند ذكر المؤمنين، فذكر سبحانه التقوى والتوكل وما يأتي في ضمنهما ليلزموا ذلك، ويجردوا توحيده سبحانه وتعالى عما يشوبه، ليحصل لهم المطلوب في الدنيا والآخرة.

وعنه ﷺ أنه قال: إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها[1]. رواه ابن أبي الدنيا.

= مسلم، وأخرجه أيضًا القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣١٩).

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٤)، وابن ماجه في الزهد، باب الورع والتقوى (٢/ ١٤١١)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٧٨)، والدارمي في سننه (٢/ ٣٩٢)، وابن حبان (١٥/ ٥٣)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٥٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كلهم من طرق عن كهمس عن أبي السليل عن أبي ذر به. قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٣٠١): «هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع، وأبو السليل لم يدرك أبا ذر، قاله في التهذيب». وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (ص ٣٤٧).

وعنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كتب إلى ابنه عبدالله ابن عمر: أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله، فإنه من اتقى الله تعالى وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، ولتكن التقوى نصب عينيك وعماد عملك وجلاء قلبك، فإنه لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له ولا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خلق له[1].

ورواه أبوبكر الصولي[2] أيضًا بهذا اللفظ في جزئه.

وعند أبي نعيم في الأربعين عن الحسن عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا: من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها.

وسنده صحيح على مذهب من يصحح سماع الحسن من عمران رضي الله عنهما[3].

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) هو محمد بن يحيى البغدادي، الشطرنجي، أديب، كاتب، إخباري، راوية مشارك في بعض العلوم، ولد في بغداد وبها نشأ، وتوفي بالبصرة سنة ٣٣٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٠/ ٧٣)، معجم المؤلفين، كحالة (١٢/ ١٠٥).

(٣) الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٣٤٦) من طريق إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل بن عياض، قال: ثنا الفضيل بن عياض عن هشام بن حسان عن الحسن عن عمران بن الحصين مرفوعًا به، وفي المعجم الصغير (١/ ٢٠١) وقال: لم يروه عن هشام بن حسان إلا الفضيل بن عياض تفرد به إبراهيم بن الأشعث، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢٩٨)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١٢٠)، والخطيب في التاريخ (٧/ ١٩٦)، وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٢٩٩): رواه أبو الشيخ وابن حبان في الثواب وإسناد الطبراني مقارب.

وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٣): «فيه إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل =

ومن أحسن ما قيل في التوكل قول بعضهم: هو اعتمادك على مولاك ورجوعك إليه، وخروجك عن حولك وقوتك، وانطراحك بين يديه.

وعرّفه بعضهم فقال: هو اكتفاؤك بعلم الله فيك عن تعلق القلب بسواه، ورجوعك في جميع أمورك إليه. قاله إبراهيم الخواص[1].

وروى ابن الجوزي بسنده عن يعقوب بن إسحاق قال: سمعت أحمد بن حنبل وسئل عن التوكل فقال: هو قطع الاستشراف باليأس من الخلق. قيل له: فما الحجة فيه؟ قال: قصة الخليل لما وضع في المنجنيق مع جبريل عليه السلام، قال له: أما إليك فلا، فقال له: فسل من لك إليه حاجة، قال: أحب الأمرين إلي أحبهما إليه.

قال أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن[2]: التوكل محله القلب، والحركة في الظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعد تحقيق العبد أن التقدير من قبل الله عز وجل. وقد تقدم معنى ذلك أول الباب عن إمام الطائفة من أهل السنة والجماعة عبدالقادر الجيلاني.

وفي السنن: أن سالم بن عوف بن مالك الأشجعي أسره العدو فشكا أبوه إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال: اتق الله وأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله ففعل، وذكر ذلك لزوجته فقالت: نعم ما أمرك، فبينا هو

= وهو ضعيف وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال يغرب ويخطىء ويخالف».

(١) هو إبراهيم بن أحمد الخواص، أبو إسحاق، من أقران الجنيد، كان أحد المذكورين بالتوكل والزهد وله كتب مصنفة، توفي سنة ٢٩١هـ. انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (٦/ ٧)، الأعلام، الزركلي (١/ ٢٨).

(٢) هو القشيري صاحب الرسالة القشيرية، في التصوف، تقدمت ترجمته.

في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مئة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها، فنزلت: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1] [الطلاق: ٣].

قال الخطابي: ومعنى «لا حول ولا قوة إلا بالله» إظهار الفقر وطلب المعونة منه سبحانه، على كل ما يزاوله، أي يعالجه وهو حقيقة العبودية.

وقال ابن الأنباري: الحول معناه في كلام العرب الحيلة، يقال: ما للرجل حول، وما لي احتيال، وما لي محالة، وما لي محال، بمعنى واحد، يريد أنه لا حيلة له في دفع شر ولا قوة له في درك خير إلا بالله، ومعناه التبري من حول نفسه ومن قوته.

وقال [ك،١٤٠/أ] أبو الهيثم الرازي: أصله من حال الشيء إذا تحرك، يقول: لا حركة ولا استطاعة إلا بالله.

وقد ذكرنا تفسيرها في حديث ابن مسعود: لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعته إلا بمعونته[2].

قال الخطابي هذا أحسن ما جاء فيه، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: لا حول من حال إلى حال، ولا قدرة على ذلك إلا بالله، وهذا أجمع

---

(١) أورد هذه القصة الحافظ في الإصابة (٢/ ٥) مستدلاً بها على ثبوت صحبة سالم بن عوف، ووالده عوف بن مالك الأشجعي، وعزاها إلى ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والخطيب (٩/ ٨٣) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، والسدي في تفسيره، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٢٧) من طريق علي بن بذيمة عن أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه.

(٢) مضى تخريجه في باب ما جاء في التطير، وفي إسناده الفضل بن السكين القطيعي، قال عنه ابن معين كذاب، ينظر تاريخ بغداد (١٢/ ٣٦٢).

وأشبه.

وروى ابن أبي الدنيا عن أبي العالية أنه قال: لا تتكل على غير الله فيكلك الله إلى من اتكلت عليه.

وقد تقدم جعل التوكل في كلام عبدالله بن مسعود رضي الله عنه دافعًا للطيرة الواردة على الإنسان والله الموفق للهداية.

(وعن) ترجمان القرآن **(عبدالله بن عباس)** رضي الله عنهما **(قال: حسبنا الله ونعم الوكيل)** معناه أي كافيًا، وجملة حسبنا خبر مقدم على المبتدأ وهو الاسم الكريم، ونعم الوكيل معطوف على الخبر، والوكيل في العربية عبارة عن الذي وكلت إليه الأمور، وألقيت إليه المقاليد، والذي بيده جميع الأمور وله مقاليد السموات والأرض هو الله، فهو الوكيل حقيقة قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النساء: ٨١]، وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا ۝٢﴾ [الإسراء: ٢]، وقال مخبرًا عن المؤمنين ومعلمًا لهم التوحيد لرب العالمين: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فإذا اتخذه العبد وكيلاً وتحقق هذا الاسم وتسلمه عقدًا وفعلاً فهو المتوكل حقيقة، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ [الشعراء: ٢١٧ـ ٢٢٠]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨] الآية.

فالنطق بهذا اللفظ مع اعتقاد معناه بالقلب، والإخلاص وقوة الرجاء أمان لكل خائف، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] فمتى اعتقد العبد ألا فاعل إلا الله، وأن كل موجود من خلق ورزق وحياة وموت وعطاء ومنع، وفقر وغنى وضر ونفع بإيجاده سبحانه،

اكتفى به عن كل موجود ولم ينظر إلى غيره، بل كان منه خوفه ورجاؤه، وبه ثقته وعليه اتكاله، وكفى بالله وكيلا.

(قالها) أي: هذه الجملة **(إبراهيم)** خليل الرحمن إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، **(حين ألقى في النار)** انتصارًا ممن ألقاه للأصنام التي عبدوا من دونه سبحانه، حيث كسرها عليه الصلاة والسلام وتبرأ منها وعابديها، فلما ألقي في النار، قال لها من اكتفى به: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩ـ ٧٠].

وعند ابن النجار في تاريخه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: لما ألقي إبراهيم الخليل في النار، قال حسبي الله ونعم الوكيل، فما احترق منه إلا موضع الكتاف[١]، ورواه غيره بنحو هذا اللفظ.

وقد قال الحسن البصري: استوى الناس في العافية، فإذا نزل البلاء تباينوا. يعني من جهة التوكل والتوحيد والإخلاص.

قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]

(وقالها محمد ﷺ) وأصحابه **(حين قالوا)** أي: الركب الذين بلّغوهم وصية أبي سفيان بن حرب وأصحابه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾، يعني أبا سفيان وأصحابه من قريش: ﴿قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ ليكروا عليكم فيستأصلوكم: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾، وذلك في قصة طويلة[٢]، بعدما تبعهم النبي ﷺ بعد

---

(١) أي الحبل الذي كتف به.

(٢) انظر: تمامها في الدر المنثور (١/ ٣٨٤ـ ٣٩٠) حيث ذكر السيوطي جمعا من الروايات، حول هذه القصة.

وقعة أحد حتى بلغ وادي حمراء الأسد[1] بمن معه ممن حضر أُحدًا ليرى المشركون قوتهم وجلدهم، وكان الركب من بني عبد القيس يريدون الميرة من المدينة فبلغوه ﷺ وصية أبي سفيان وقد شرط لهم على تبليغها للنبي ﷺ وأصحابه أن يوقر لهم إبلهم زبيبًا من سوق عكاظ، إذا وافوه بها ففعلوا، وبلّغوا النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِيمَـٰنًا﴾ بالله وخشية وتثبيتا، ﴿وَقَالُواْ﴾ مجاوبين عن قولهم ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافيا ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

رواه البخاري[2] رحمه الله في صحيحه، وعند أبي نعيم من طريق بقية بن خالد[3]، والديلمي في الفردوس عن شداد بن أوس رضي الله عنه مرفوعًا: حسبي الله ونعم الوكيل أمان لكل خائف[4].

وأنه قاله ﷺ ذلك اليوم في غزوة الخندق.

قلت الصحيح أنها غزوة أحد كما ذكرت أولاً مجاوبة لقول الركب عن أبي سفيان وأصحابه، إلا أن يكون قالها - ﷺ - يوم الخندق من غير ذلك السبب، فلا مانع من ذلك أن يكون صحيحًا.

فتبين بذلك أن التوكل من الفرائض [التي][5] لا يتم الإيمان إلا بها.

---

(١) في معجم البلدان لياقوت الحموي (٢/ ٣٠١): موضع على ثمانية أميال من المدينة.

(٢) أخرجه البخاري في تفسيره، باب إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم (٤/ ١٦٦٢).

(٣) في الدر المنثور أخرج أبو نعيم هذه الرواية من طريق شداد بن أوس (٢/ ٣٩٠)، لا من طريق بقية بن خالد.

(٤) أخرجه الديلمي كما في كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٤٢٧)، والذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٥٦).

(٥) في الأصل: الذي.

الباب الثالث والثلاثون

باب ما جاء في قوله تعالى

﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٩٩ ﴾

قوله: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ ﴾، الهمزة تقرير وتوبيخ كقوله: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [الأعراف: ٩٧]، يعني بعدما عرفوا ذلك أمنوا واطمأنوا، يقول تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: أخْذه وعذابه في حال تظاهر النعم عليهم وغفلتهم، ومكر الله استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب، ولهذا قال: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٩٩ ﴾ [الأعراف: ٩٩] أي: الذين خسروا بالكفر وترك ما خلقوا له، بأن يعلموا أنما هو إله واحد فيعبدوه بذلك، فلم يتعظوا ويعتبروا، فلما استشهد المصنف رحمه الله على الأمن من مكر الله بالآية الكريمة آية الأعراف، أعقبها بالاستشهاد على القنوط من رحمة الله بآية الحجر فقال: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦ ﴾ [الحجر: ٥٦]، هذا جواب من خليل الرحمن إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، لرسل ربه من الملائكة عليهم السلام حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط عليه السلام، فمروا بإبراهيم في صورة الأضياف، وكان من شيمته عليه السلام إكرام الضيف وتعجيل الضيافة، فقرب إليهم عجلاً حنيذا فلما لم يأكلوا منه خافهم، على عادة العرب أنه لا يأمن منهم ولا يأمنون إلا ممن أكل من طعامهم فحينئذ قال: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ٥٢ ﴾، قالوا مجيبين: ﴿ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ٥٣ ﴾. فعرفهم عند ذلك أنهم

رسل ربه فحينئذ: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾، لأنهم خافوا أن يعرض له القنوط بسبب تخلف أسباب الولد منه، فقالوا له: ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الحجر: ٥٢ـ ٥٥].

وإنما قال ذلك عليه السلام [ك،١٤١/ب] متعجبًا من كبره وكبر زوجته، مع تحققه للولد من الله تعالى، فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد وإن كان قد كبر وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك، ولهذا قال مجيبًا لهم عليه السلام: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر: ٥٦].

وفي هذا دليل واضح على أن الذبيح إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، لأن المبشر به إسحاق عليه الصلاة والسلام، وذلك بعدما تخلفت عن إبراهيم وامرأته سارة أسباب الولد، ولم يبق إلا خرق العادة بالقدرة الإلهية، وإسماعيل بنص القرآن العظيم قد بنى معه البيت العتيق، وبنص أصدق القائلين ابنهما محمد ﷺ كما في الصحيحين أن ذلك بعدما تزوج إسماعيل عليه السلام امرأتين، وقيل إن ذلك بعد استكمال شبابه.

وقد ذكر العلماء في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ [البقرة: ١٢٤] إن من جملة ذلك الابتلاء ذبح ولده، ولما ذكر عليه الصلاة والسلام امتنان مولاه عليه بالولد كما ذكر الله عنه في قوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. قدم ذكر إسماعيل، وهذا يؤذن بتقدم منّة الله عليه به قبل إسحاق عليهما السلام، وقد تكون المنة عليه إبقاء إسماعيل عليه السلام له، حتى جمع له بينه وبين إسحاق عليهم الصلاة والسلام، وقد قال ابن ابنه يعقوب عليه الصلاة والسلام لبنيه: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [يوسف: ٨٧] الآية، وقال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ

﴿أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

وهذه الآية تنزل كلا من الخوف والرجاء موضعه، ومن تأملها علم ذلك إذ هي لقوم لما أسرفوا على أنفسهم واكتسبوا الذنوب واقترفوا الخطايا، وجزعوا وخافوا من الرد لهم وقت التوبة عما اجترحوا، قيل لهم: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾.

وقد بينا في باب فضل التوحيد أنه لابد في هذه الآية من التوبة وإلا لدخل الشرك، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

فهذه الآية تبين أن العبد لا يكون سالكًا للصراط المستقيم إلا بين الخوف والرجاء، فقد علمت مما سبق أنه لا يقنط من رحمة الله إلا الضال عن الطريقة المحمدية الإبراهيمية الحنفية، والقنوط في اللغة أشد اليأس.

(وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال: الشرك بالله) الأصغر والأكبر، **(واليأس)** ضد الرجاء. قال جرير بن الخطفى:

أحنّ إذا نظرت إلى سهيل وعند اليأس ينقطع الرجاء[1]

(من روح الله) الروح بالفتح من فرجه وتنفيسه جل وعلا عن عبده، وبالضم من رحمته تعالى التي تحيى بها العباد والبلاد، **(والأمن من مكر الله[2])**، وهو إيقاع بلائه بأعدائه من حيث لا يشعرون، وكل هذه من

---

(١) انظر: شرح ديوان جرير، مهدي ناصر الدين (ص ١١).

(٢) أخرجه البزار في مسنده رقم (١٠٦) كشف الأستار، وابن أبي حاتم في التفسير كما في الدر المنثور (٢/ ١٤٧) وقال السيوطي: إسناده حسن، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤): «رواه البزار والطبراني ورجاله موثقون»، وحسنه العراقي في =

الكبائر، فالشرك مضاد للتوحيد، والثلاثة بعده قادحة فيه.

وعن علي رضي الله عنه مرفوعًا: ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا: بلى، قال: من لم يقنّط الناس من رحمة الله، ولم يؤيّسهم من روح الله، ولم يؤمّنهم من مكر الله، ولا يجعل القرآن ظهريا رغبة عنه إلى ما سواه، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءةٍ ليس فيها تدبر[1].

رواه أبو عمر بن عبدالبر وغيره، وقال: لم يأت هذا الحديث مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وأكثرهم يوقفونه على علي رضي الله عنه.

وذكر البخاري في صحيحه قال: وكان العلاء بن زياد[2] يذكر [النار][3] فقال رجل: لِمَ تقنّط الناس؟ قال: وأنا أقدر أن أقنط الناس والله يقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣] ويقول: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾ [غافر: ٤٣]، ولكنكم تحبون أن تبشَّروا بالجنة على مساوىء أعمالكم، وإنما بعث محمد ﷺ مبشرًا بالجنة لمن أطاعه، ومنذرًا بالنار من عصاه[4].

= تخريج الإحياء (٤/ ١٧).

(١) أخرجه الدارمي في السنن (١/ ١٠١) من طريق ليث بن أبي سليم عن يحيى بن عباد عن علي بن أبي طالب موقوفًا، وفي إسناده ليث بن أبي سليم قال الحافظ في التقريب (ص ٤٦٤): «صدوق اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك».

(٢) أبو نصر العدوي البصري، القدوة العابد، وكان ربانيا تقيا قانتا لله بكاء من خشية الله، توفي في آخر ولاية الحجاج سنة ٩٤هـ.

انظر: التاريخ الكبير، البخاري (٦/ ٥٠٧)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٢٠٢).

(٣) في الأصل، والمسودة: «الناس» وما بين معكوفتين نص الأثر عند البخاري.

(٤) أخرجه البخاري تعليقًا في التفسير، باب تفسير سورة غافر (٤/ ١٨١٤).

(**وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله**) بأن تجعل معه جل وعلا آلهة أخرى، وكذا الرياء، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه[1].

(**والأمن من مكر الله**) إذ لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون، (**والقنوط**) وهو أشد اليأس، فهو أشر الحالين، يبعد المطلوب، ويورث الحسرة، إذ هو يقنط الإنسان من رحمة الرحمن، ويدل على ما قلنا قول الشاعر من العرب كما أنشد الأصمعي وغيره من أئمتهم:

لا تقنّطن وكن بالله محتسبًا ... فبينما أنت [ذو] يأس أتى [الفرجُ][2]

والمعنى: إذا احتسبت في الله تعالى الفرج، فبينما كنت ذا يأس أتاك الفرج فتبين بهذا أن القنوط أشد اليأس، فهو يقنط العبد (**من رحمة الله**) إذ العارف بالله وصفاته لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال.

(**واليأس من روح الله**) إذ لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، كما قص الله عن نبيّه يعقوب عليه السلام، وقد ذهب ابنه يوسف وأخوه بعدما بكى ثمانين سنة، ثم لم ييأس فقال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: ٨٧]، ولهذا قال مجاوبًا: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

والروح جمعه أرواح وقد مر الكلام عليه آنفًا، يقال: روح الله جنته

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/ ٢٢٨٩)، وابن ماجه في الزهد، باب الرياء والسمعة (٢/ ١٤٠٥)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٠١)، كلهم من طرق عن أبي هريرة.

(٢) في الأصل: .. فبينما أنت ذا يأس أتى الفرجا.

ورزقه، قال الأخطل:

في جنة هي أرواح الإله فما يفزِّع الطير في أغصانها فزعُ[1]

يعني بذلك الذي في الجنة النبي ﷺ، كما بينه وأشار إليه في بيت له سابق، ويقال للجزاء روح أيضًا، قاله أبو مصعب الأسدي، ـ ويقال مكعت ـ[2] فيما أنشده النبي ﷺ:

يقـول أبـو مصعـب صـادقًـا عليـك السـلام أبـا القـاسـم

سـلام الإلـه وريحـانـه وروح المصليـن والصـائـم[3]

فاليأس والقنوط من صفات الإنسان، إلا من عصمه الله تعالى، قال جل ثناؤه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت:٤٩]، يقال: يئس من الشيء إذا انقطع أمله منه.

(رواه عبدالرزاق)[4] الصنعاني في مصنفه.

وقـد قـال مكحـول[5]: مـن عبـد الله بـالخـوف فهـو

---

(١) ديوانه ص٢٥٩، دار الفكر المعاصر.

(٢) أبو مكعت الأسدي الفقعسي، واسمه عرفطة بن نضلة، وقيل الحارث بن ثعلبة، قدم على النبي ﷺ في وفد بني أسد، ووقف بين يدي النبي ﷺ وأنشد الأبيات السالفة، ويكنى أيضاً بأبي مصعب. انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ١٨٣، ١٩٣).

(٣) انظر: المصدر السابق، إلا أن مطلع البيت: يقول أبو مكعت صادقًا.

(٤) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١٠/ ٤٥٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٧١)، قال في مجمع الزوائد (١/ ١٠٤): «إسناده صحيح».

(٥) هو مكحول بن أبي مسلم الهذلي، فقيه الشام في عصره، ومن كبار الحفاظ، ورحل في طلب الحديث لكثير من البلدان، واستقر في دمشق، وبها توفي سنة ١١٢هـ. =

حروري[1]، [ك،١٤١/ب] ـ لأنهم يعتقدون إنفاذ الوعيد ويقنطون الناس من رحمة الله تعالى ـ ومن عبده بالرجاء فهو مرجىء[2]، لأن المرجئة يرون أن المؤمن لا تضره المعصية ـ ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ـ لأنهم لا يثبتون بين الذاتين مناسبة للعبادة، ولا متفق لذة إيمان حتى يعبده العبد لها، وإنما هو عندهم عبد وسيد، وكامل وناقص، ومقدس وذو آفات، فليس عندهم إلا المحبة فقط ـ والموحد من عبده بالخوف والرجاء والمحبة ـ وبذلك يخرج العبد من البدع[3].

وعند ابن أبي الدنيا عن أبي ذر رضي الله عنه قال: ذروة الإيمان أربع: الصبر للحكم، والرضى بالقدر، والإخلاص بالتوكل، والاستسلام للرب تبارك وتعالى[4].

وعند ابن أبي الدنيا وغيره من أهل السنن: أن رسول الله ﷺ دخل على شاب يعوده، فقال: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي.

= انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ١٠١)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ١٢٢).

(١) أي من الحرورية، وهم الخوارج، سبق التعريف بهم ص ١٠٤.

(٢) نسبة إلى المرجئة، من الإرجاء وهو التأخير ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] وسموا بذلك لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، فقالوا: الإيمان هو الاعتقاد بالقلب فقط، ومنهم من قال: الإيمان هو: الاعتقاد والنطق فقط، وقالوا: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وهم فرق شتى منها: الجهمية، واليونسية، والغسانية، وغيرهم. انظر: مقالات لإسلاميين، الأشعري (ص ١٣٢)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي (ص ١٠٧).

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز (٢/ ٤٥٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه (٢/ ٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٦)، والبيهقي في الشعب (١/ ٢١٩)، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢/ ١٦٨): ضعيف.

فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمّنه مما يخاف[1].

وقد قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله: الخوف ذكر والرجاء أنثى، ومخنث البطالى إلى الإناث أميل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه عند حديث الشاب: وهذا هو العدل، ولهذا من غلب عليه حال الخوف أوقعه في نوع من اليأس والقنوط، إما في نفسه، وإما في أمور الناس، ومن غلب عليه حال الرجاء بلا خوف أوقعه في نوع من الأمن لمكر الله، إما في نفسه، وإما في الناس، لكن الرجاء بحسب رحمة الله التي سبقت غضبه ينبغي ترجيحه، كما قال تعالى في الحديث القدسي: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي خيرًا[2].

وأما الخوف فيكون بالنظر إلى تفريط العبد وتعدّيه، فإن الله عدل لا يأخذ إلا بالذنب.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (ص ٤١)، والمرض والكفارات (ص ٩٨)، والترمذي في الجنائز، باب رقم (١١) (٣/ ٣١١)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له (٢/ ١٤٢٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٢)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٤٠٤)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٥٧)، من طرق عن ثابت عن أنس، وقال الألباني في صحيح سنن الترمذي (١/ ٢٨٩): حسن.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (٦/ ٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى (٤/ ٢٠٦١).

وعند ابن أبي الدنيا: أنه قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه إن هنا رجلاً قد خولط ولم يكن به يأس، فظننا أنه أذنب ذنبًا يرى في نفسه أن ذلك الذنب لا يغفر. فقام علي رضي الله عنه ودخل عليه وقال له: اسمع ما أقول لك: إن الذي أدركـ منك عدوكـ يقنطك من رحمة الله، وإن عفو الله أعظم من ذنبك الذي أذنبت. فقال الرجل: ها هو ذا فأفاق[1]. هذا والله الموفق.

(١) حسن الظن بالله (ص ١٠٠).



الباب الرابع والثلاثون

باب من الإيمان الصبر على قدر الله

في هذا إشارة إلى أن ما تقدم لا يدرك إلا بالصبر، فالصبر من حيث الجملة وصف كريم، وحظ لمن وُهب له عظيم، وقد كثر في الشريعة ذكره قرآنًا وسنةً، وجُعل أمره موازنًا لجميع العمل، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر: ٤٠]، وقال في الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠] يريد معدود[١]، وإنما هو جزاف، وبه يتم للعبد بلوغ الأمل في الدنيا وهلاك العدو، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وأخبر أن الله مع الصابرين، فإذًا ففي ماذا يرغب من كان الله معه في شيء بعده؟ وحديث «الصبر نصف الإيمان» ضعيف قاله الحافظ[٢].

---

(١) أي: أجرهم غير معدود، ولو أنه أضاف «غير» لمعدود لكان أنسب.

(٢) أخرجه تمام في فوائده (٢/ ٤٠)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٢٦، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٢٣)، والخطيب في تاريخه (١٣/ ٢٢٦)، كلهم من طرق عن محمد بن خالد عن سفيان الثوري عن زبيد الأيامي عن أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعًا.

قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨١٥): «تفرد به محمد بن خالد عن الثوري، ومحمد بن خالد مجروح».

وقال الحافظ في لسان الميزان (٥/ ١٥٢): «قال أبو علي النيسابوري: هذا =

بل إذا تحقق الإنسان وجد الصبر الإيمان كله، لأن الشريعة على قسمين: مأمور ومزجور، ولا يطاق فعل المأمور ولا الانكفاف عن المزجور إلا بالصبر، فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

فروى ابن أبي الدنيا قال: سئل الفضيل بن عياض[1] عن قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٤]. فقال: صبروا أنفسهم على ما أمرهم الله به من طاعته، وصبروا أنفسهم عما نهاهم الله عنه من معصيته، فقالت لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي الحلية لأبي نعيم من طريق المعافى بن عمران قال ثنا إسرائيل وسفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: لو كان الصبر رجلاً لكان رجلاً كريمًا.

قال أبو نعيم بعد روايته له: غريب عن الثوري، تفرد به المعافى عنه[2].

= حديث منكر لا أصل له من حديث زبيد ولا من حديث الثوري».

وقد صح موقوفًا على ابن مسعود لا مرفوعًا، أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٠٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٢٣)، وقال بعد أن روى المرفوع منه: والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله، غير مرفوع، ثم أتبعه بالحديث الموقوف، وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٤٠): «رواه الطبراني في الكبير ورواته رواة الصحيح وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم»، وقال الحافظ في تغليق التعليق: «وهذا موقوف صحيح» (٢/ ٢٢).

(١) التميمي، أبو علي، إمام الحرم المكي، من الأئمة العباد الزهاد، ولد بسمرقند وتوفي بمكة سنة ١٨٧هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ٢٥)، حلية الأولياء، أبو نعيم، الحلية (٨/ ٨٤).

(٢) الحلية (٨/ ٢٩٠)، وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٠٩): رواه الطبراني والعسكري =

ولهذا لما مرّ ﷺ على آل ياسر وهم يؤذون في الله تعالى قال: صبرًا آل ياسرٍ فإن موعدكم الجنة[1]، كما صح ذلك عنه ﷺ.

ولهذا أورد الشيخ رحمه الله قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، وهي في سياق قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]، أي: بإرادته وقضائه وتدبيره وأمره، ثم قال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فيصدق أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله تعالى، ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي يوفقه لليقين، حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيرضى ويسلم بقضاء الله تعالى، فلما كان ذلك ينشأ عن عمل القلب قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾. إذ هو سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، فجعل سبحانه هداية القلب إلى ما يرضي الرب تعالى جزاء لفعل الشرط، وهو الإيمان بالله والتسليم لقضائه، والصبر على بلائه، فإن ذلك الإيمان لا يحصل إلا بالصبر، فإن الصبر للإيمان ـ كما صح عن علي رضي الله عنه وروي عنه مرفوعًا ـ بمنزلة الرأس من الجسد[2]، فكيف يطلب حياة جسد بلا رأس.

= عن عائشة مرفوعًا وهو ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥/ ٤٧).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٣٠٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٣٨) من طريق أبي الزبير عن جابر به، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال في المجمع (٩/ ٢٩٣): «رواه الطبراني ورجاله ثقات».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان (ص ٤٤)، وفي المصنف (٦/ ١٧٢)، واللالكائي في السنة (٤/ ٨٤٢)، والعدني في الإيمان (ص ٨٥)، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٢٤)، موقوفًا على علي رضي الله عنه، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٢٨٠): «ضعيف جدا مرفوعا وضعيف موقوفا».

قال الشيخ عبدالقادر في غنيته: قال ذو النون المصري: الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البليات.

قال: قال الخواص: حق الصبر الثبات مع الله على أحكام الكتاب والسنة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الحديد: ٢٢]: ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن العاقل من جعل الفرح شكرًا، والحزن صبرًا(١).

وقال جعفر الصادق: مالك يا ابن آدم تحزن على مفقود لا يرده إليك الفوت، وتفرح لموجود لا يتركه في يديك الموت.

وفي الأثر الذي رواه الديلمي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها: الدنيا لا تصفو لمؤمن، كيف وهي سجنه وبلاؤه(٢). انتهى.

فحق على كل عاقل أن يعلم أن الدنيا جمة المصائب، كدرة المشارب، تُمير للبرية أصناف البلية، فيها مع كل لقمة غصة، ومع كل شربة شرقة. فهي عدوة محبوبة كما قال أبو نواس:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق(٣)

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٢٣٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٤١) كلهم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قال: ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ولكن من جعل المصيبة صبرا، وجعل الفرح شكرا.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (٢/ ٢٢٩)، وعزاه المناوي في فيض القدير (٥/ ٤٢٨) إلى الحاكم في التاريخ.

(٣) انظر: الشعر والشعراء (٢/ ٨١٥).

وقال بعض الحكماء: أسباب الحزن فقد محبوب، أو فوت مطلوب، ولا سلم منهما إنسان، لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد، فمن أحب أن يعيش هو وأهله وأحبابه فهو غافل.

ولبعضهم:

ومن رام في الدنيا حياة خلية　　من الهم والأكدار رام مُحالاً

وهاتيك دعوى قد تركت دليلها　　على كل أبناء الزمان مُحالاً[1]

(قال علقمة) هو ابن قيس النخعي الكوفي الثقة الثبت الفقيه العابد رحمه الله تعالى، صاحب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه[2]، في الآية المتقدمة: **(هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها)** كائنة **(من عند الله)** بقضائه وقدره السابق، **(فيرضى)** بذلك عن الله تعالى، **(ويسلّم)**[3] الأمر له سبحانه.

كما أنه يجب عليه أن يسلم لحكمه الشرعي كما قال تعالى في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. فأتى فيه بالمصدر تأكيدًا إذ حكم رسوله إنما هو من حكمه / تعالى في قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] الآية، يجب أن يرضى ويسلم لحكمه الكوني القدري من باب الأولى.

---

(١) البيتان للعلائي كما في تذكرة المقريزي، انظر فيض القدير للمناوي (٣/ ٥٥١).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٧/ ٢٧٦).

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (٢٨/ ١٢٣)، وابن أبي حاتم في التفسير كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٥)، وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٨/ ١٨٤)، والفريابي في تفسيره، والبرقاني في مستخرجه كما في تغليق التعليق (٤/ ٣٤٢)، وابن أبي الدنيا في الرضا عن الله بقضائه (ص ٤٧)، والبيهقي في الشعب (٧/ ١٩٦).

وقد قال ابن الجوزي في هذا المقام: ولو أن عين الفهم زال عنها غشاء الغشاء[1] لرأيت المسبب للأسباب والمقدر للأقدار، وهو الله سبحانه فصبرت على بلائه إيثارًا ورضاء لما يريد.

قال: ومن هنا ينشأ الرضا بالقضاء، كما قيل لبعض أهل البلاء: ادع الله بالعافية، فقال: أحبه إليّ أحبه إليه[2]. كما قيل:

إن كان رضاكم في سهري ... فسلام الله على وسني[3]

وقال الآخر[4]:

حسبي من [الحّب] أني ... لما [تُحب] أحبُّ

قال: والقضاء الذي يلزم الرضا به إنما هو الذي يصدر عن أقضيته سبحانه التي لا كسب للعبد فيها.

قالت رابعة العدوية[5]: من ذاق طعم المعرفة وجد فيها طعم المحبة، فوقع الرضى عنده ضرورة.

---

(١) كذا في النسختين.

(٢) هذا مردود؛ فسيد أهل الرضى - ﷺ - سأل الله العافية، وأمر بذلك أمته.

(٣) البيت لعبد الغافر ركن الدين السروستاني، توفي بعد ٥٤٦هـ، كما في ترجمته في الوافي بالوفيات للصفدي.

(٤) هو الحلّاج، انظر ديوانه ص٢٨، دار صادر، ١٩٩٨هـ. وقد وقع في الأصل: المحب، يحب، والتصويب من الديوان، ومضمون البيت أن كل ما قدّره الله فهو محبوب له، ولا يصح كما تقدم في باب الصبر على قدر الله. وانظر ص ١٥٠٧.

(٥) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير البصرية، صالحة مشهورة، عابدة ناسكة، ولدت بالبصرة، وتوفيت بالقدس سنة ١٣٥هـ. انظر سير أعلام النبلاء، الذهبي (٨/ ٢٤١)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٨٢)، الأعلام، الزركلي، (٣/ ١٠).

وقد سئل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أي شيء أقربُ إلى الكفر؟ قال: ذو فاقه لا صبر له.

وهذا كما عند أبي نعيم وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا: كاد الفقر أن يكون كفرًا[١].

وروى ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد عن أبي بكر المروذي[٢] قال: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: إن لكل شيء كرمًا، وإن كرم القلوب الرضا عن الله عز وجل[٣].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: إن أعمال القلب من التوكل وغيره واجبة باتفاق الأئمة، وإن الصبر واجب بالاتفاق، قال: والصبر لا ينافي الشكوى[٤].

وقال: الصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق، وأما الشكوى إلى الخالق فهي مطلوبة[٥].

قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وقال أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقال كليمه موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤].

ونقل عبدالله ابن الإمام أحمد عن أبيه في أنين المريض: أرجو ألا يكون شكوى، ولكنه اشتكى إلى الله[١].

واقتصر ابن الجوزي على قول الزجاج في قول يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: إن الصبر الجميل الذي لا جزع فيه ولا شكوى إلى الناس[٢].

وأن قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] شكوى إلى الله لابنيه، واختاره ابن الأنباري[٣] من أصحابنا، أو أن المراد به الدعاء، والمعنى: يا رب ارحم أسفي على يوسف[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ١٨٣).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٤/ ١٩٣).

(٣) هو محمد بن القاسم الأنباري النحوي، كان من أعلم الناس بالنحو والأدب، وأكثرهم عطاءً له، وكان صدوقًا فاضلاً دينًا خيرًا من أهل السنة، وصنف كتبًا كثيرة في علوم القرآن والمشكل وغيرها، توفي سنة ٣٢٨هـ.

انظر: طبقات الحنابلة، ابن رجب (٢/ ٦٩)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٤٨٨).

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي (١/ ٢٧٠).

وقال سفيان بن عيينة: وكذلك من شكى إلى الناس، وهو في شكواه راض بقضاء الله لم يكن ذلك جزعًا، ألم تسمع قول النبي ﷺ لجبريل في مرضه: أجدُني مغمومًا، وأجدُني مكروبًا[1]، وقوله لعائشة رضي الله عنها كما في الصحيحين: بل أنا وا رأساه[2].

وكان الإمام أحمد يحمد الله أولاً، لخبر ابن مسعود رضي الله عنه المتفق عليه: إذا كان الشكر قبل الشكوى، فليس بشاكٍ[3].

قال مجد الدين ابن تيمية: يخبر بما يجده لغرض صحيح، لا لقصد شكوى[4].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٥٩) من طريق أبي ضمرة الليثي قال حدثونا عن جعفر بن محمد عن أبيه موقوفًا، ولم يصرح أبو ضمرة بالذين حدثوه، وعند الطبراني في معجمه (٣/ ١٢٩)، والدعاء (ص ٣٦٧) من طريق عبدالجبار بن العلاء ثنا عبدالله بن ميمون القداح به موقوفًا على علي بن الحسين، قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥): «رواه الطبراني وفيه عبدالله بن ميمون القداح، وهو ذاهب الحديث».

(٢) بل هو عند البخاري فقط، باب في المرضى، باب ما رخص للمريض أن يقول: إني وجِع، أو وا رأساه (٥/ ٢١٤٥).

(٣) لم أجده في الصحيحين ولا في غيرهما، ويبدو أن المؤلف نقله من الفروع لابن مفلح (٢/ ١٨٢) ضمن النص التالي: دخلت على بشر بن الحارث فقلت: كيف تجدك؟ فقال: أحمد الله إليك، أجد كذا، أجد كذا، فقلت أما تخشى أن يكون هذا شكوى؟ فقال: حدثنا المعافي بن عمران عن سفيان عن منصور عن إبراهيم عن علقمة والأسود قالا: سمعنا عبدالله بن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان الشكر قبل الشكوى فليس بشاك» فدخلت على أحمد بن حنبل فحدثته فكان إذا سألته قال: أحمد الله إليك، أجد كذا، أجد كذا. وانظر نحوه عن ابن سيرين في تاريخ بغداد (١٠/ ٢٧٦). انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى (١/ ٢٠٨).

(٤) الفروع، ابن مفلح (٢/ ١٨٢).

واحتج الإمام أحمد بقوله ﷺ المتقدم لعائشة لما قالت له وا رأساه قال: بل أنا وا رأساه[1].

واحتج عبدالله بن المبارك بقول ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: إنك لتوعك وعكًا شديدًا ـ كما في الصحيحين ـ قال ﷺ: أجل كما يوعك الرجلان منكم[2][3].

وفي الفنون لأبي الوفاء بن عقيل أن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] يدل على جواز الاستراحة إلى نوع من الشكوى عند إمساس البلوى، قال ونظيره: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ما زالت أكلتي بخيبر تعاودني[4]، الحديث[5].

وفي تفسير ابن الجوزي في الآية الأولى قال: هذا يدل على إباحة إظهار مثل هذا القول عندما يلحق الإنسان من الأذى والتعب، ولا يكون ذلك شكوى[6].

قال ابن الجوزي: وكانوا يكرهون الأنين لأنه يترجم عن الشكوى، وقد قال رجل للإمام أحمد كيف تجدك يا أبا عبدالله فقال بخير وفي عافية. فقال له: حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك أنا في عافية فحسبك،

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى، باب شدة المرض (٥/ ٢١٣٩)، ومسلم في البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض وحزن (٥/ ٢١٣٨).

(٣) الفروع، ابن مفلح (٢/ ١٨٣).

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤/ ١٦١١).

(٥) الفروع، ابن مفلح (٢/ ١٨٣).

(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٤/ ٢٧٠).

لا تخرجني إلى ما أكره[١].

وهذا منه رضي الله عنه وأمثاله فيما إذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من أعمال القلب الخفية، وإلا فعند ابن ماجه والترمذي وصححه عن خباب[٢] رضي الله عنه أنه قال وقد اكتوى في بطنه بسبع كيات: ما أعلم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ لقي من البلاء ما لقيت[٣].

مع أن هذا والله أعلم قاله خباب رضي الله عنه تسلية للمؤمن المصاب لا على وجه الشكاية.

كما قاله ابن هبيرة[٤] عن قول أبي هريرة وإخباره عن جوعه وربطه الحجر تسلية للفقير، ولحسن ظنه بربه.

وذكر هذا الكلام المتقدم في المتن عن علقمة البخاري في صحيحه

---

(١) الفروع، ابن مفلح (٢/ ١٨٣).

(٢) ابن الأرت بن جندلة التميمي، ويقال الخزاعي، أبو عبدالله، من السابقين الأولين، وكان من المستضعفين، وهو أول من أظهر إسلامه، وعذب لأجل ذلك، وهو سادس ستة إسلاما، توفي بالكوفة سنة ٣٧هـ. انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٤١٦)، الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣/ ١٦٤).

(٣) أخرجه الترمذي في الجنائز، باب ما جاء في النهي عن التمني (٣/ ٣٠١)، وقال: حسن صحيح، وأحمد في مسنده (٥/ ١١٠)، والطيالسي في مسنده (ص ١٤١)، وقال الألباني في أحكام الجنائز (ص ٥٩): إسناده صحيح.

(٤) هو يحيى بن محمد بن هبيرة، الوزير العلامة، أبو المظفر، كان مسددًا في اتباع السنة وسير السلف، له الإفصاح عن معاني الصحاح، والعديد من المؤلفات، توفي سنة ٥٦٠هـ.

انظر: المنتظم، ابن الجوزي (١٠/ ٢١٤)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (٣/ ١٠٥).

تعليقًا[١].

(**وفي صحيح مسلم**) بن الحجاج القشيري ثم المضري، يلتقي نسبه بنسب النبي ﷺ في مضر بن بزار، (**عن أبي هريرة**) خادم النبي ﷺ الدوسي رضي الله عنه، (**أن رسول الله ﷺ قال: اثنتان**) أي: خصلتان (**في الناس**) موجودتان من خصالهم، بحيث لا يخلو منهما مجموعهم لا جميعهم، (**هما بهم كفر**) يعني هم بهما كفر، فهو من باب القلب، والمراد أنهما من أعمال الكفار لا خصال الأبرار، وقيل هو على بابه من غير قلب، والباء بمعنى في، والمعنى هما فيهم كفر، ومنه قوله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه فيما صح عنه لما عير إنسانًا بأمه: إنك امرؤ فيك جاهلية[٢].

وقوله: (**أربع في أمتي لا يتركونهن**)[٣]، فذكر منهن هاتين الخصلتين.

إحداهما: (**الطعن في الأنساب**) أي: الوقوع في أعراض الناس بنحو قدح في نسب ثبت في ظاهر الشرع، والثانية: (**النياحة على الميت**)[٤]، ولو بغير بكاء، وهي: رفع الصوت بالندب بتعديد شمائله، وذلك لأن الطاعن في نسب غيره كفر سلامة نسبه من الطعن، ومن ناح كفر نعمة الله، حيث لم يسلّم لقضائه وقدره، ورواه الإمام أحمد في مسنده[٥].

---

(١) في التفسير، باب تفسير سورة التغابن (٤/ ١٨٦٣)، بنحوه عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية (١/ ٢٠)، ومسلم في الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل (٣/ ١٢٨٢).

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز، باب التشدد في النياحة (٢/ ٦٤٤)، من حديث أبي مالك الأشعري، وأحمد في المسند (٥/ ٣٤٢).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (١/ ٨٢).

(٥) المسند (٢/ ٣٧٧، ٤٤١).

[ك، ١٤٢/أ] وقد تقدم الكلام في ذلك مستوفىً في باب التاسع والعشرين ولله الحمد والمنة، وأما ما رواه الدارمي والبخاري في صحيحه واللفظ للدارمي في مسنده حيث قال: حدثنا أبو النعمان ثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها قالت: يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب، وقالت: يا أبتاه من ربه ما أدناه، وا أبتاه جنة الفردوس مأواه وا أبتاه إلى جبريل ننعاه، وا أبتاه أجاب ربًّا دعاه[1].

قال حماد: حين حدث به ثابت بكى، وقال ثابت: حين حدثنا به أنس بكى.

فإن هذا خرج منها رضي الله عنها من غير قصد، ومعاذ الله وحاشاها أن تقصد النياحة، وقد نهى عنها والدها سيد البشر ﷺ، كيف وقد قال في حقها إنها بضعة مني يريبني ما أرابها[2]. رضي الله عنها وأرضاها وجعلنا ممن أحبها ووالاها.

وهكذا ما روى أحمد عن عائشة: أن أبابكر رضي الله عنه لما مات النبي ﷺ دخل عليه وجعل يديه على خديه وقبل ما بين عينيه، وقال: وا نبياه، وا خليلاه، وا صفياه[3].

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤/ ١٦١٩)، والنسائي في الجنائز، باب في البكاء على الميت (٤/ ١٣)، وابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١/ ٥٢٢)، والدارمي في سننه (١/ ٥٤) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف (٥/ ٢٠٠٤) من حديث المسور بن مخرمة، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة (٤/ ١٩٠٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣١)، والترمذي في الشمائل رقم (٢٧٣)، وابن سعد =

فلم يكن هذا عندهما من النوح حيث خرج منهما من غير قصد، عند تعاظم شوقهما إلى النبي ﷺ حين علما أنه قد فارقهما رضي الله عنهما في الدنيا.

(ولهما) أي الشيخين في صحيحيهما **(عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ليس منا)** أي: من متابعينا أو مخلصينا ونحو ذلك مما ينفي الكمال ويبقي أصل الإيمان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية، فالكلام مطلق والمعنى مقيد، والعرب تستعمل ذلك في لغتها، ولهذا قال ﷺ: سلمان[١] منا أهل البيت[٢]. والمعنى: ليس من أهل طريقتنا ومتابعتنا من فعل شيئًا من ذلك الفعل، كما قال الشاعر في مسعود بن عقبة بن بهيس[٣] أخي

= في الطبقات (٢/ ٢٦٧)، وأبو يعلى في مسنده (١/ ٤٨) كلهم من طريق يزيد بن بابنوس عن عائشة، وحسنه الألباني في مختصر الشمائل (ص ١٩٦).

(١) هو سلمان الفارسي، صحابي جليل، أصله من مجوس أصبهان، هداه الله للإسلام في قصة طويلة، ذو حلم ورأي، وهو الذي أشار على النبي ﷺ بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، توفي سنة ٣٦هـ.

انظر: الطبقات، ابن سعد (٤/ ٥٣)، حلية الأولياء، أبو نعيم (١/ ١٨٥).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٨٣)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢١٢) من طريق كثير بن عبدالله المزني عن أبيه عن جده مرفوعًا، قال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٣٠): فيه كثير بن عبدالله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٩١)، وقال الذهبي في التلخيص: سنده ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٢٢٠)، وقال الذهبي في التلخيص: سنده ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٢٢٠) وقال: وقد صح موقوفًا على علي رضي الله عنه. وهو عند أبي نعيم في الحلية (١/ ١٨٧)، والضياء في المختارة (٢/ ١٢٣).

(٣) العدوي، من بني عدي الرباب، من فحول الشعراء، له مراثي في أخويه غيلان ذي =

غيلان ذي الرمة الشاعر المشهور حيث يقول:

إن كان مسعود سقى أطلالهم سيل الشئون فلست من مسعود

قال أبو القاسم الآمدي[1] في كتاب الموازنة على هذا البيت: مسعود هذا هو مسعود بن عقبة أخو غيلان ذي الرمة الشاعر المشهور، وعقبة هو ابن بهيس.

قلت: ومن نسل مسعود بن عقبة هذا، الشيخ محمد بن عبدالوهاب مصنف هذا الكتاب، إذ مسعود بن عقبة بن بهيس هذا هو جد وهيب نفسه، كما ذكره القاضي محمد بن أحمد بن منيف المعروف في بلده أشيقر بهذا الاسم[2]، في وثائق كتبها بيده في بلده أشيقر، قال في أحدها: كتبه بيده وأثبته الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد بن منيف بن عساكر بن بسام بن عقبة بن رسي بن زاخر بن محمد بن عليوي بن وهيب بن قاسم بن مسعود أخي غيلان ذي الرمة الشاعر المشهور.

قلت: وغيلان هو ابن عقبة بن بهيس بإجماع علماء النسب لا يختلف منهم اثنان، وهكذا قال أحمد بن محمد بن بسام[3] على شرح

= الرمة وأوفى، مات سنة ١٢٠هـ. انظر: الأعلام، الزركلي (٧/ ٢١٨).

(١) هو الحسن بن بشر، عالم بالأدب، راوية، من الكتاب، من كتبه الموازنة والمؤتلف والمختلف وديوان شعر، ولد بالبصرة وبها توفي سنة ٣٧٠هـ.
انظر: بغية الوعاة، السيوطي (ص ٢١٨)، معجم الأدباء، ياقوت (٨/ ٧٥).

(٢) أحد علماء نجد وقضاتها في عصره، اشتهر بالعلم والتقى والصلاح والعفاف والورع، وهو من علماء النصف الأخير من القرن العاشر الهجري.
انظر: علماء نجد، ابن بسام (٥/ ٥٠٠).

(٣) أحد كبار علماء نجد وقضاتها، وهو جد الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله من =

ذات الفروع بخطه بيده، إلا أنه أوصل النسب إلى عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر، وعلى ذلك علماء بني وهيب بالنسب، وجدته بخط جماعة، منهم من ذكرته ومنهم حسن بن عبدالله أبا حسين[(١)]، وعبدالمحسن بن علي[(٢)] ابن شارخ وعثمان بن عبدالله من أولاد علي بن محمد[(٣)] وغيرهم، وهم مأمونون على نسبهم، وما وجد غير ذلك فليس له أصل يؤثر، وإنما صدر عن رجل قد أدركناه في زماننا ليس منهم ولا له علم بهذا النسب، ولم يكن له به تعلق إلا أنه وجد مسعود بن عقبة فجعله عقبة بن سنيع الميثاوي، وجدته في مجموع له بخطه، وقد جعل على «ابن» التي بين عقبه وسنيع ما صورته «حَشيه»[(٤)] وليس لعقبة بن سنيع ابن يقال له مسعود بإجماع أهل النسب، وإنما له ابنان هندابة ويحيى، وقد هجاهما ووالدَهما جرير بن الخطفى، وذلك معلوم في ديوانه برواية بني بنيه، وأما مسعود جد بني وهيب فلم يختلف فيه منهم اثنان بأنه مسعود بن عقبة بن بهيس؛ إذ لا يحل اعتراض الأنساب بالتوهم والتخرص عند اشتباه الأسماء؛ لأنه

= الأم، ولد في بلد عشيرته أشيقر، وتوفي في العيينة سنة ١٠٤٠هـ تقريبًا.
انظر: علماء نجد، ابن بسام (١/ ٥٢٨).

(١) الوهيبي ثم التميمي، ولد في أشيقر وأخذ عن فقهائها، حتى أصبح مرجعًا في الفقه والفرائض، وقد ولي القضاء في بلده أشيقر، توفي سنة ١١٢٣هـ.
انظر: المصدر السابق (٢/ ٤٨).

(٢) المشرفي التميمي، ولد في قرية الفرعة في نجد، وكان فقيهًا تقيًا صالحًا دمث الأخلاق، ولي قضاء الزبير، وبها توفي بسبب الطاعون سنة ١١٨٧هـ.
انظر: علماء نجد، ابن بسام (٥/ ٢٨).

(٣) لم أعثر على تراجمهم.

(٤) كذا في الأصل، ولم يتبين لي معناها.

خطر عظيم، وعلماء أهل بلدهم أعلم بذلك، وفي بلدهم قبر جدهم وهيب الذي إليه نسبهم، فمصنف هذا الكتاب هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن حمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن عليوي ـ ويقال علوي ـ بن وهيب بن قاسم بن مسعود أخي غيلان ذي الرمة الشاعر المشهور ابن عقبة بن بهيس بن مسعود بن حارثة بن عمرو ابن ربيعة بن ساعدة بن كعب بن عوف بن ثعلبة بن ربيعة بن ملكان بن عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر كما قد ذكرناه أول الكتاب، قال الآمدي: وكان مسعود هذا يلوم أخاه غيلان على بكائه على الأطلال حتى قال غيلان ذو الرمة:

عشية مسعود يقول وقد جرى ... على لحيتي من واكف الدمع قاطرُ

أفي الدار تبكي إذ بكيتَ صبابةً ... وأنت امرؤ قد حكّمتك العشائرُ

وكانت رياسة قومهم بني عدي في بيتهم وكانوا إخوة خمسة، غيلان ومسعود وأوفى وهشام وخرفاش، وكلهم شعراء، وعدهم ابن رشيق في عمدته في بيوت الشعراء، ثم إن مسعودًا صار بعد ذلك [ك،١٤٣/ب] يبكي الأطلال بعد لوم أخيه غيلان له في ذلك، فقال فيه الشاعر المذكور ما قال، ومن قول مسعود هذا في أخيه أوفى يتعزى عنه بغيلان حيث يقول:

تعزيت عن أوفى بغيلان بعده ... عزاءً وجفن العين ملآن مترع[1]

---

(١) في خزانة الأدب، البغدادي (٥/ ٣٩٨)، البيت لهشام بن عقبة لا لأخيه مسعود.

ومن قوله أيضًا في الاعتبار وطرح الأمل وارتقاب الأجل، فيما أنشده عنه ابن الأعرابي[1] في نوادره حيث يقول في تكذيب أمنيته:

إنـــي وإنْ منّتْنِـــيَ الكـــذوبُ   يتلـو حيـاتـي أجـلٌ قـريـبُ

ومن قول أخيه هشام بن عقبة[2] المذكور فيما قال العلاء بن أسلم[3] أنه قال: أردت الخروج إلى مكة للحج فقال هشام بن عقبة أخو غيلان ذي الرمة موصيًا: يا ابن أخي إنك تريد سفرًا يحضر الشيطان فيه حضورًا لا يحضر في غيره، فاتق الله تعالى وصل الصلاة لوقتها، فإنك مصلّيها لا محالة فصلها وهي تنفعك، واعلم أن لكل رفقة كلبًا ينبح دونهم، فإن كان مهناء[4] شركوا فيه، وإن كان عارٌ تقلده دونهم، فلا تكونن كلب الرفقة[5].

وكانت وفاة ذي الرمة سنة سبع عشرة ومئة[6]، والمقصود بعد طول

---

(١) هو محمد بن زياد، يعرف بابن الأعرابي، أبو عبدالله، راوية، نسابة، علامة باللغة، من أهل الكوفة، له تصانيف كثيرة منها النوادر والأنواء وغيرها، توفي سنة ٢٣١هـ.
انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٤٩٢)، تاريخ بغداد، الخطيب (٥/ ٢٨٢).

(٢) العدوي، شاعر، من إخوة ذي الرمة (غيلان) وهم: أوفى ومسعود وهشام، وكان هشام أكبر من ذي الرمة، وهو الذي رباه، توفي سنة ١٢٠هـ.
انظر الأغاني، الأصفهاني (١٦/ ١٠٧)، الأعلام، الزركلي (٨/ ٨٧).

(٣) أحد شيوخ الأصمعي، وقد أسند إليه هذه القصة التي ذكرها المؤلف ولم أعثر له على ترجمة. انظر: الحيوان، الجاحظ (٢/ ٣٠٧).

(٤) في الحيوان، الجاحظ (٢/ ٣٠٧): «نهب».

(٥) المصدر السابق.

(٦) انظر ترجمته: الأعيان، ابن خلكان (١/ ٤٠٤)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ =

المدى بنا إلى ذكر المصنف رحمه الله ونسبه وبيته، أن هذا الشاعر يقول إن كان مسعود قد رجع إلى ما لام عليه أخاه من البكاء على الأطلال فلست منه في ذلك، وهذا أبلغ في التبرؤ منه في البكاء على الأطلال، وهذا أيضًا كما يقال: إن كان حاتم[1] قد بخل والسموأل[2] قد غدر فلست منهما، يعني في البخل والغدر، وأما الذي يقتضي التبرؤ في جميع الأشياء فهو كقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. أي: لست مشاكلاً لهم في شيء من جميع أمورهم، بل أنت متبرىء منها كلها، وأما من تابع غيره في بعض أموره فهو منه في ذلك الأمر، ومن خالفه في شيء من أموره فليس منه في ذلك، ولهذا قال ﷺ: (**ليس منا من ضرب الخدود**) أي: لطمها عند المصيبة كفعل أهل الجاهلية، والمعنى: ليس منا على طريقتنا ولا عاملاً بهدينا في المصيبة من ضرب الخدود (**وشق الجيوب**) عندها، وإنما الذي منه في ذلك من فعل عندها ما أرشده الله إليه ورسوله بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦- ١٥٧]. فأرشد سبحانه عباده بذلك إلى خالص توحيده في الحال والمآل، وهذا بخلاف من ضرب الخدود

= ٥١)، الأعلام، الزركلي (٥/ ١٢٤).

(١) هو حاتم بن عبدالله الطائي القحطاني، أبو عدي، فارس وشاعر وجواد، جاهلي يضرب المثل بجوده، مات سنة ٤٦ق.هـ.
انظر: تهذيب تاريخ دمشق (٣/ ٤٢٠)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٤٩٤).

(٢) هو السموأل بن غريض بن عاديا، الأزدي، شاعر جاهلي حكيم، من أهل خيبر وقصته في الوفاء مشهورة، وهو الذي استودعه امرىء القيس أدرعه، فكانت مضربًا للوفاء، مات نحو ٦٥ق.هـ.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (١/ ٨٦)، الأعلام، الزركلي (٣/ ١٤٠).

وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية[1].

فإن من فعل ذلك فليس هو من فعله ﷺ في شيء من ذلك، وإنما الذي منه في ذلك من استعمل ما أرشده الله إليه ورسوله.

ففي صحيح مسلم من حديث أم المؤمنين أم سلمة[2] رضي الله عنها أنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها، إلا آجره الله تعالى في مصيبته وأخلفه خيرًا منها.

قالت: فلما توفي أبو سلمة[3] رضي الله عنه قلت كما أمرني رسول الله ﷺ. فقلت في نفسي ومن خيرٌ من أبي سلمة، فأخلف الله لي خيرًا منه رسول الله ﷺ[4].

(وشق الجيوب) كما كانت نساء أهل الجاهلية تفعله، يشققن

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ليس منا من ضرب الخدود (١/ ٤٣٦)، ومسلم في الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب (١/ ٩٩).

(٢) واسمها هند بنت سهل القرشية المخزومية، تزوجها النبي ﷺ في السنة الرابعة للهجرة، من أكمل النساء عقلاً وخلقًا، من مهاجرة الحبشية ثم المدينة وبها توفيت سنة ٦٢هـ.

انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٨/ ٦٠)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٤٠٦).

(٣) هو عبدالله بن عبد الأسد المخزومي القرشي، أخو المصطفى ﷺ من الرضاعة وابن عمته من السابقين الأولين، هاجر للحبشة ثم إلى المدينة، وشهد بدرًا وتوفي بعدها بأشهر.

انظر: أسد الغابة، ابن الأثير (٣/ ٢٩٤)، حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ٣).

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز، باب ما يقال عند المريض والميت (٢/ ٦٣١)، وأبو داود في الجنائز، باب ما يستحب أن يقال عند الميت من الكلام (٣/ ١٩١)، والترمذي في الجنائز، باب ما جاء في تلقين الميت عند الموت والدعاء له عنده (٥/ ٥٣٣) وغيرهم.

جيوبهن من الجزع عند المصائب، حتى صار ذلك دينًا لا يرون غيره، حتى أنهم يوصون به كما قال طرفة بن العبد[(١)]:

فإن مت فانعيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد[(٢)]

حتى إن منهم من يدعو أهله عند موته ليسمعوه ما ينعونه به كما فعل عبدالمطلب وغيره، ولهذا أكثر النبي ﷺ من التحذير عن ذلك، ولعن عليه ليمحو بذلك سنن الجاهلية عن أمته، وأرشد من لم تصبه المصيبة إلى تعزية المصاب؛ لأن للمصيبة صدمةً، فأرشد ﷺ إليها ليتعظ بها ويلزم الصبر عندها، كما قال ﷺ للمرأة التي أمرها به عند القبر: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى». كما في الصحيح لما أتته تعتذر إليه بأنها لم تعرفه[(٣)].

وعزّى النبي ﷺ إحدى بناته في ابنٍ لها في الموت كما في الصحيحين عن أسامة بن زيد[(٤)] رضي الله عنه بقوله: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، وقال لرسولها: فمرها فلتصبر ولتحتسب وذكر الحديث[(٥)].

---

(١) هو طرفة، شاعر جاهلي، البكري الوائلي، أبو عمرو، ولد في بادية البحرين، ومعلقته مشهورة، قتله عمرو بن هند بسبب أبيات هجاه بها، فقتله وعمره عشرون عاما، مات سنة ٦٠ق.هـ.

انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٨٥)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٤١٤).

(٢) انظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ابن الانباري (ص ٢٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز، باب زيارة القبور (١/ ٤٣٠) من حديث أنس بن مالك، ومسلم في الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٢/ ٦٣٧).

(٤) ابن حارثة، من كنانة عوف، أبو محمد، صحابي جليل، وكان رسول الله ﷺ يحبه حبا جما، واستعمله على جيش فيه أبوبكر وعمر، توفي سنة ٥٤هـ.

انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٤/ ٤٢)، تهذيب تاريخ دمشق (٢/ ٣٩١).

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز، باب وما يرخص من البكاء في غير نوح (١/ ٤٣١)، =

وهذا الحديث في هذا المقام من أعظم قواعد الإسلام المشتملة على مهمات كثيرة من أصول الدين وفروعه، والآداب في الصبر على النوازل كلها والهموم والأسقام، وغير ذلك من الأعراض المعترية لابن آدم والحاجات العارضة، والمعنى: إن لله ما أخذ إذ العالم كله ملك له تعالى، فلم يأخذ ما هو لكم، بل أخذ ما له عنكم في معنى العارية، كما مثلت بذلك أم سليم[١] لأبي طلحة[٢] عند موت ابنهما رضي الله عنهما في قصتهما المشهورة[٣].

ومعنى قوله ﷺ: «وله ما أعطى» أي: ما وهب لكم ليس خارجًا عن ملكه، بل هو سبحانه يفعل فيه ما يشاء، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلا تجزعوا فإن من قبضه، قد انقضى أجله المسمى، فمحال تقدمه أو تأخره عنه، فإذا علمتم هذا كله فاصبروا واحتسبوا ما نزل بكم عند الله تعالى فهو لا يخيب آمله.

= ومسلم في الجنائز، باب البكاء على الميت (٢/ ٦٣٥).

(١) الغميصاء ويقال الرميصاء بنت ملحان الأنصارية الخزرجية، ويقال سهلة، ويقال رميثة، ويقال أنيفة، أم خادم النبي ﷺ أنس بن مالك، من أفاضل النساء، شهدت حنينًا وأحدًا، اشترطت على أبي طلحة حين خطبها إسلامه، فكان صداقها الإسلام.
انظر: أسد الغابة، ابن الأثير (٧/ ٣٤٥)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢/ ٣٠٤).

(٢) هو زيد بن سهل الخزرجي النجاري، صاحب رسول الله ﷺ، ومن بني أخواله، وأحد أعيان البدريين، وأحد النقباء ليلة العقبة، مناقبة كثيرة، مات بالمدينة سنة ٣٤هـ.
انظر: الطبقات، خليفة بن خياط (ص ٨٨)، المعرفة والتاريخ، الفسوي (١/ ٣٠٠).

(٣) عندما مات ابنهما، وكتمت أمره، وتصنعت له حتى أصابها، ثم أخبرته وقالت: إن الله كان أعارك عارية فقبضها، فاحتسب ابنك، وهي عند البخاري من حديث أنس في العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد (٥/ ٢٠٨٢)، ومسلم في الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته (٣/ ١٦٩٠)، دون ذكرهما للمثل، وهو عند الإمام أحمد في المسند (٣/ ١٠٥)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (ص ٢٧٣) وغيرهم.

وذكر البيهقي بإسناده أن الشافعي رضي الله عنه عزى عبدالرحمن[(١)] بن مهدي لما مات ابن له وجزع عليه جزعًا شديدًا، وأنه بعث إليه: يا أخي، عز نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك، واعلم أن من أمضى المصائب فقدان سرور أو حرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر، فتناول حظك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأى عنك، ألهمك الله عند المصائب صبرًا، وأجرى لكم ولنا بالصبر أجرًا، [ك،١٤٣/أ] وكتب إليه شعرًا:

إني معزيك لا إني على ثقة من البقاء ولكن سنة الدينِ

فما المعزّى بباق بعد ميتّه ولا المعزي ولو عاشا إلى حينِ

وكتب رجل لآخر يعزيه بابنه: أما بعد، فإن الولد على والده ما عاش حزن وفتنة، فإذا قدمه فصلاة ورحمة، فلا تجزع على ما فاتك من حزنه وفتنته، ولا تضيع ما عوضك الله عز وجل من صلاته ورحمته.

وقال المدائني: دخل عمر بن عبدالعزيز على ابنه عبدالملك في وجعه فقال: يابني كيف تجدك، قال: أجدني في الحق، قال: يابني لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك، فقال: يا أبت لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب.

ومات ابن للشافعي رضي الله عنه فأنشد:

وما الدهرُ إلا هكذا فاصطبر لهُ رُزيتَ بمال أو فراق حبيبِ[(٢)]

---

(١) اللؤلؤي، أبو سعيد، من كبار حفاظ الحديث ونقاده، مولده بالبصرة وبها توفي سنة ١٩٨هـ. انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٦/ ٢٧٠)، حلية الأولياء، أبو نعيم (٩/ ٣).

(٢) ديوانه: ص٣٤، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٨هـ.

فقد فارقَ الناسُ الأحبةَ قبلنا وأعيا دواءُ الموتِ كل طبيبِ

وقد صح عنه ﷺ كما في الصحيح أنه قال: اقرأوا على موتاكم ياسين[1]، يعني المحتضرين كما جاء مصرحًا به، وذلك ليتعظ والحاضرون من أهله، مع ما ورد أنه يخفف ويسهل بذلك نزع الروح على الميت، وليشتغل أهله بالقرآن والذكر ليعلموا أن الأمر من الله وإليه، ولاشتمالها على أحوال البعث والقيامة فيتذكر ذلك بها.

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية[2]: ولما فيها من التوحيد

---

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز، باب القراءة عند الميت (٣/ ١٨٨)، وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حضر (١/ ٤٦٥)، وأحمد في مسنده (٥/ ٢٦، ٢٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٢٣٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٥)، والبيهقي (٣/ ٣٨٣)، والطيالسي في مسنده (ص ٩٣١) كلهم من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان ـ وليس النهدي ـ عن أبيه عن معقل بن يسار به، والحديث لا يصح فضلاً عن أن يكون في الصحيح كما ذكر المؤلف رحمه الله، فيه جهالة أبي عثمان وأبيه، قال الذهبي في الميزان (٤/ ٥٥٠): «أبو عثمان عن أبيه، عن معقل بن يسار، لا يعرف، قال ابن المديني: لم يرو عنه غير سليمان التيمي».

ثم إن في الحديث علة أخرى وهي الاضطراب، فبعض الرواة يقول: «عن أبي عثمان عن أبيه معقل» وبعضهم: «عن أبي عثمان عن معقل» وقد توسع الألباني في الكلام على هذا الحديث تخريجًا ونقدًا في الإرواء (٣/ ١٥٠) حيث حكم بضعفه، ولعدم ورود حديث صحيح في ذلك، عده من بدع الجنائز، ينظر: أحكام الجنائز وبدعها (ص ١١، ٢٤٣).

(٢) هو محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، أبو عبدالله، الإمام المجاهد، من الأعلام والمصلحين الأفذاذ، مولده ووفاته بدمشق، من أنجب تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، سجن معه في قلعة دمشق، كان حسن الخلق، حريصًا على السنة، شديدًا على أهل الأهواء والبدع، ألف تصانيف كثيرة نفع الله بها، توفي سنة ٧٥١هـ.

انظر: الدرر الكامنة، ابن حجر (٣/ ٤٠٠)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٣٨٤).

والمعاد والبشرى لأهل التوحيد، وغبطة من مات عليه لقوله: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾ [1] [يس: ٢٦ـ ٢٧].

وقد صح عنه في الحديث الحسن بل والصحيح أنه قال: من كان آخر كلامه أو قوله لا إله إلا الله دخل الجنة[2].

ولهذا قال ﷺ كما صح عنه: لقنوا موتاكم لا إله إلا الله[3].

(ودعا بدعوى الجاهلية) كقولهم يا آل فلان عند الأمر الحادث يتناصرون فيه على الباطل، ولما تداعى بها جهجاه بن سعد الغفاري[4] وسنان بن وبرة أو ابن تيم الجهني[5] كما في الصحيح، وذلك في غزوة المريسيع[6] مع النبي ﷺ، فقال جهجاه: يا للمهاجرين، وقال سنان بن

---

(١) الروح، ابن القيم (ص ١٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز، باب في التلقين (٣/ ١٨٧) من طريق صالح بن عريب عن كثير بن مرة عن معاذ بن جبل مرفوعًا، وأحمد في مسنده (٥/ ٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١١٢)، وابن منده في التوحيد (٢/ ٤٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٤٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ ووافقه الذهبي، وقال الألباني في الإرواء (٣/ ١٤٩): حسن.

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز، باب تلقين الموتى لا إله إلا الله (٢/ ٦٣١) من حديث أبي سعيد، وأبو داود في الجنائز، باب في التلقين (٣/ ١٨٧)، والترمذي في الجنائز، باب ما جاء في تلقين المريض عند الموت (٣/ ٣٠٦) وغيرهم.

(٤) ممن شهد بيعة الرضوان، وكان أجيرًا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، توفي في خلافة علي رضي الله عنهم جميعًا. انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٢٥٤).

(٥) حليف بني الحارث بن الخزرج، هو الذي سمع عبدالله بن أبي يقول ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ الآية. انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٨٢).

(٦) وتسمى غزوة بني المصطلق، والمريسيع كما يقول ياقوت في معجم البلدان (١/ =

وبرة يا للأنصار. قال ﷺ: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم[1].

هذا وقد دعا الداعيان باسمين قد سماهما الله به في كتابه العزيز وهما اسما مدح فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

فلم يعتبر الأسماء دون الحقائق، فإذا كان هذا فيمن تداعيا بهذين الاسمين الشريفين الفضيلين، فكيف بالمتداعين بأسماء القبائل والعشائر على الباطل، ولما سمع رسول الله ﷺ ذلك منهما قال: دعوها فإنها منتنة[2]، أي: خبيثة كما في اللفظ.

وقد أجمعت الأمة على تحريم النياحة والدعاء بدعوى الجاهلية، وبالويل والثبور عند المصيبة، وكذا يحرم باتفاق العلماء رحمهم الله تعالى نشر الشعر، ولطم الخدود، وخمش الوجوه، وشق الجيوب، ورفع الصوت عند المصيبة بالندب والنياحة، لا بإفراط في البكاء فقط.

وللفقهاء فيمن دعا بدعوى الجاهلية أقوال ثلاثة:

أحدها: يجلد من استجاب لها خمسين سوطًا اقتداء بأبي

= ١١٨): «اسم ماء في ناحية قديد إلى الساحل» وقد اجتمع عليه بنو المصطلق من خزاعة لقتال المسلمين، فسار إليهم النبي ﷺ فقاتلهم وسباهم.

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية (٣/ ١٢٩٦)، ومسلم في البر والصلة باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٤/ ١٩٩٨)، كلها من طرق عن جابر بن عبدالله مرفوعًا.

(٢) جزء من الحديث السابق.

موسى[1] رضي الله عنه في جلده بذلك النابغة[2] الجعدي، حين سمع يا آل عامر[3] فأقبل يشتد بعُصيّته إلى الداعي[4].

الثاني: يجلد دون العشرة أسواط لنهيه ﷺ أن يجلد أحد فوق عشرة أسواط؛ إلا في حد من حدود الله[5].

الثالث: يرجع إلى اجتهاد الإمام على حسب ما يراه من سد الذريعة وإغلاق باب الشر في ذلك، إما بالوعيد، وإما بالسجن، وإما بالجلد، بأن يؤدبه، حيث يشم نتنها الذي وصفها به رسول الله ﷺ كما فعل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه بالنابغة، ولا معنى لنتنها الذي وصفها به ﷺ إلا سوء العاقبة فيها والعقوبة عليها.

وهذا الأخير أقرب إلى العدل والصواب، ولعل فعل أبي موسى

---

(١) هو عبدالله بن قيس، من بني الأشعر من قطحان، صحابي جليل، ومن الولاة الفاتحين الشجعان، استعمله النبي ﷺ على زبيد وعدن، وولاه عمر البصرة، وأقره عثمان ثم ولاه الكوفة، وهو أحد الحكمين بين علي ومعاوية، وممن اعتزل الفتنة، توفي بالكوفة سنة ٤٤هـ.

انظر: الطبقات، ابن سعد (٤/ ٧٩)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٣٥١).

(٢) أبو يعلى، شاعر زمانه، له صحبة، ووفادة، ورواية، اسمه قيس بن عبدالله بن عدس وقيل حيان بن قيس، يقال عاش ١٨٠ سنة، وقيل أكثر من ذلك، فيه خير ودين، توفي نحو ٥٠هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٣/ ١٧٧)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٥٠٨).

(٣) نسبة إلى عامر بن صعصعة، وهو جد لقبيلة النابغة الجعدي فهو من بني عامر بن صعصعة.

(٤) ذكر هذه القصة ابن عبدالبر في الاستيعاب (٣/ ٥٥٦).

(٥) أخرجه البخاري في المحاربين، باب كم التعزير والأدب (٦/ ٢٥١٢) من حديث أبي بردة، ومسلم في الحدود، باب قدر أسواط التعزير (٣/ ١٣٣٢).

رضي الله عنه من هذا الوجه، فرأى أنه لا يردع عن ذلك إلا الجلد، ففعل ما رآه رادعًا.

وقد روى الترمذي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا، رفعه من رواية سفيان ووقفه زهير بن حرب: «من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردي فهو ينزع بذنبه»[1].

ومعناه أنه قد وقع في الإثم وهلك، كالبعير إذا تردى في بئر فصار ينزع بذنبه ولا يُقدر على خلاصه.

ومفهوم هذا الحديث أن نصرهم على الحق غير مذموم، وهو كذلك جاء مصرحًا به في سنن أبي داود وغيرها عن سراقة بن مالك[2] بن جعشم رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: خيركم الدافع عن عشيرته ما لم يأثم[3].

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في المعصية (٤/ ٣٣٣) موقوفًا على ابن مسعود، وأحمد في مسنده (١/ ٣٩٣)، والطيالسي في مسنده (ص ٤٥)، ورفعه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٢٧١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٣٤) موقوفًا، قال الألباني في صحيح أبي داود: «صحيح موقوفًا ومرفوعًا».

(٢) المدلجي الكناني، أبو سفيان، صحابي، له شعر، وكان قائفًا وقد أخرجه أبو سفيان في الجاهلية ليقتاف أثر الرسول ﷺ حين هجرته، أسلم بعد غزوة الطائف، توفي سنة ٢٤هـ. انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ١٨)، الأعلام، الزركلي (٣/ ٨٠).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في العصبية (٤/ ٣٣٤)، والطبراني في الصغير (٢/ ١٩٧)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٢٧) كلهم من طريق أيوب بن سويد أنا أسامة بن زيد الليثي عن سعيد بن المسيب عن سراقة مرفوعًا، وفيه أيوب بن سويد قال الحافظ في التقريب (ص ١١٨): صدوق يخطىء. ونقل في التهذيب (١/ ٤٠٥) عن أحمد تضعيفه، وقول البخاري عنه: يتكلمون فيه، وقول النسائي: ليس =

وقد أبدل الله تعالى بدعوى الجاهلية دعوى المسلمين، أي فينادي يا للمسلمين، فإذا دعا بها وجب على كل من سمعه إجابته والكشف عن حاله، فإن كان مظلومًا نصره بما يمكنه، وإن كان ظالمًا كفه عن الظلم بالملاطفة والرفق، فإن نفعه وإلا يدفعه بما أمكنه.

فالحاصل أنه قد أبعد ﷺ أهل دعوى الجاهلية من متابعته في ذلك وغلّظ لأهلها القول، ففي شرح السنة لمحيي السنة الحافظ البغوي عن أبي بن كعب[1] [ك، ١٤٤/ب] رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من

= بثقة، وتضعيف غيرهم من العلماء له.

وقال ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٢٠٩): هذا حديث موضوع بابه حديث الواقدي، وقال في موضع آخر (٢/ ٢٣١): أول ما أنكرنا على أيوب بن سويد حديث أسامة بن زيد عن سعيد بن المسيب عن سراقة بن مالك مرفوعًا خيركم المدافع... الحديث، وما أعلم أسامة روى عن سعيد بن المسيب شيئًا.

وفي الموضع الأول ذكر عن أسامة أنه لم يسمع منه إلا حديث: «لاربا إلا فيما يكال ويوزن» وقد ضعف الحديث الألباني في ضعيف أبي داود (ص ٥٠٦) وقال: قال أبو داود: أيوب بن سويد ضعيف، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٢٧٧)، والحسن بن سفيان في مسنده مختصرًا، ومطين في الوحدان كما في الإصابة (١/ ٤٠٨)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٢٨) كلهم من طرق عن سحبل عن خالد بن عبدالله المدلجي مرفوعًا، وعند البيهقي عن خالد المدلجي عن أبيه وقال: قال أبو علي: لا أعلم أحدًا قال في هذا الحديث عن خالد عن أبيه عن أبي سعيد، قال الإمام أحمد قد عد ابن أبي عاصم خالدًا من الصحابة ولم يثبت له البغوي صحبة والله أعلم.

وذكر في الإصابة (١/ ٤٠٨) أن البغوي قال لا أدري له صحبة أم لا، وأنه ذكره في الصحابة لأجل هذا الحديث، وذكر أن ابن أبي عاصم وابن منده وأبو نعيم قد عدوه من الصحابة، بينما ذكره البخاري وأبو حاتم وابن حبان في التابعين.

وعليه فصحة الحديث متوقفة على صحبة خالد بن عبدالله المدلجي وإلا فمرسل.

(١) الخزرجي الأنصاري، أبو المنذر، من كتاب الوحي، شهد المشاهد كلها مع رسول =

تعزى بعزاء الجاهلية فأعضّوه بِهَنِ أبيه ولا تكْنوا[1].

ورواه الإمام أحمد عنه، وذكر أن أُبيًّا رضي الله عنه قاله لرجل[2]، وقيل معناه: من انتسب وانتمى إلى الجاهلية بإحياء سنة أهلها واتّباعها في العزاوي والشتم واللعن والتعيير والطعن في الأنساب، ومواجهتكم بالفحشاء والمنكر وسائر ما أذهبه الله وأسقطه ونهى عنه من سنن الجاهلية، بما شرعه الله من الدين فقولوا له: اعضض بذكَر أبيك أو فرجه أو أيره، ولا تكْنُوا ـ بفتح أوله وضم النون ـ بذكر الهَنِ عن آلة أبيه، بل صرحوا له بها تقبيحًا له، وليعلم حقارة أصله، وأنه قد خرج من مجرى البول مرتين، فيرتدع عن فخره إذا علم أصله، فإن أوله من ماء مهين نطفة قذرة، وآخره جيفة مذره، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة، فهو لا يرتفع عن حقارته إلا بطاعة من خلقه فسواه في أحسن تقويم، فبذلك يعتز وينتصر كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

= الله ﷺ، وممن جمع القرآن في عهد عثمان، توفي سنة ٢١هـ.

انظر: صفة الصفوة، ابن الجوزي (١/ ١٩٩)، حلية الأولياء، أبو نعيم (١/ ٢٥٠).

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٣٤)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٢٧٢)، وفي عمل اليوم والليلة (ص ٣٣٤)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ٤٢٤)، كلهم من طرق عن الحسن عن عتي بن ضمرة عن أبي بن كعب مرفوعًا، قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٣): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

قال الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ٣٦٩): صحيح.

(٢) مسند أحمد (٥/ ١٣٦) بزيادة أن رجلاً عند أبي بن كعب اعتزى بعزاء الجاهلية فأعضّه ولم يكنه فنظر القوم إليه فقال للقوم: «إني قد أرى الذي في نفوسكم إني لم أستطع إلا أن أقول هذا...» ثم ذكر الحديث.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ [الطارق: ٥ـ ٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦ـ٨].

(**وللترمذي وحسنه عن أنس**) بن مالك رضي الله عنه الأنصاري خادم النبي ﷺ (**أن** رسول الله ﷺ **قال**: «**إذا أراد الله بعبده الخير**») وفي لفظ خيرًا، (**عجّل**) بالتشديد أي أسرع (**له العقوبة في الدنيا**) ليخرج منها نقيا بذلك ليس عليه ذنب، ومن فعل ذلك معه فقد أعظم اللطف به والمنة عليه، فإن عقوبات الدنيا أخف من عقوبات الآخرة، وقل أن يجمع الله على المؤمن عقوبتين، ولما يترتب على عقوبات الدنيا من المصائب، ومقاساتُ الصبر على ذلك من عمل القلب، ويتعلق بذلك التوكل والخوف والرجاء، وما يتبع ذلك من الأمور التي هي من الواجبات على العبد باتفاق الأئمة عند المصائب، وفي هذا تسلية للمؤمن إذا علم أن كل ما أصابه تكفير من خطاياه، مع أنه ينبغي أن يرضى عن الله تعالى.

قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢٢]: اعلم أنه من علم أنما قضي لابد أن يصيبه قل حزنه وفرحه. قال: والصبر على العافية أشد، لأنه لا يتم إلا بالقيام بحق الشكر.

وقال: أبو الوفاء بن عقيل: وتهون المصيبة بالنظر إلى جلال من صدرت عنه، وعن حكمته وملكه.

قال إبراهيم الحربي: اتفق العقلاء من كل أمة أن من لم يمش مع قدر لم يتهنّ بعيش، وليعلم قوله ﷺ: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

وروي من قول عبدالله بن عمرو بن العاص[1] رضي الله عنه كما ذكره الخطابي قال: وهو الصحيح، قلت وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وكذا عند الإمام أحمد وأبي داود عنه بهذا اللفظ، والله أعلم[2].

وقوله: الدنيا دار بلاء فمن ابتلي فليصبر ومن عوفي فليشكر[3].

وقوله: أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون الأمثل فالأمثل[4].

وقد يبتلي الله العبد ليرفع درجاته، فإنه من نظر في سير الأنبياء وسادات أتباعهم، وجد منهم من كابد النار وذبْح الولدِ كإبراهيم، ومنهم من صبر على الفقر وقاسى من قومه المحن، ومنهم من بكى الزمن الطويل،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٩٧)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ١٣٧)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٧٧، ١٨٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٤٣٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥١)، وصححه، وسكت عليه الذهبي، كلهم من طرق عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعًا لا من قوله.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٧٢)، والترمذي في الزهد، باب ما جاء في أن الدنيا سجن المؤمن (٤/ ٥٦٢)، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا (٢/ ١٣٧٨)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢٣) وغيرهم، ولم أجده في أبي داود.

(٣) لم أعثر عليه.

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٤/ ٦٠١) من حديث سعد وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء (٢/ ١٣٣٤)، وأحمد في مسنده (١/ ١٧٢)، والدارمي في سننه (٢/ ٤١٢)، والطيالسي في مسنده (ص ٢٩)، وعبد بن حميد في المنتخب (٢/ ٧٨)، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (ص ١٧)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ١٤٣)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٦٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٩) وقال صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في سننه (٣/ ٣٧٢)، وقال الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٣٣): صحيح.

فمن نظر في ذلك وفي كون مصيبته لم تكن في دينه هانت عليه مصيبته، بلا شك وتسلى بهم وتأسى، وليعلم الإنسان قوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك»[١].

وفيما يأتي في هذا الحديث دليل من جهة الرضا بالقضاء، أن كل ما ليس من فعل العباد وإنما هو إحداث الرب تبارك وتعالى للحكمة التي يحبها ويرضاها، فهو يجب الرضا به؛ لأنه رضىً لله بما رضيه لنفسه، فيرضاه الإنسان ويحبه مفعولاً مخلوقًا لله، ويبغضه ويكرهه فعلاً للمذنب المخالف لأمر الله، وهكذا نقول فيما خلقه الله من الأجسام الخبيثة فنبغضها لذمه تعالى لها بالنظر إليها، ونرضى عنه بإيجاده لها، ولما له في ذلك من الحكمة فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

فبهذا يحصل القيام بحقوق الشريعة على الحقيقة بأكمل طريقة وثيقة، ويسلم الإنسان من حيرة العقول، وينتفض من الغفول، فإنه ليس في الكتاب والسنة نص يأمر فيه بالرضا بكل مقضي، ولا قاله أحد من السلف، فإن الرضا بالكفر كفر بالإجماع، ذكره ابن عقيل وغيره، ومن فهّمه الله تعالى ذلك فقد أعظم اللطف به والمنة عليه.

وقد سبق في الباب الحادي والثلاثين الكلام على الرضا بعد حديث عائشة[٢] رضي الله عنها بأبسط من هذا.

---

(١) جزء من وصية النبي ﷺ لابن عباس، تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٤/ ٦٠١) قال حسن غريب من هذا الوجه، وابن عدي في الكامل (٣/ ٣٥٥)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٤٧)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٢٧٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٥١)، والبيهقي في الأسماء =

(**وإذا أراد بعبده الشر**) وفي رواية شرًّا، (**أمسك عنه بذنبه**) أي: بالعقوبة بسبب ذنبه في الدنيا (**حتى يوافي به يوم القيامة**).

أي لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوافر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب.

(**وإن عظم الجزاء**) في الآخرة (**من عظم البلاء**) في الدنيا، (**وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم**) ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقد سئل الإمام الشافعي رحمه الله فقيل له يا أبا إدريس هل يمكّن الرجل قبل أن يبتلى؟ قال: لا يمكّن حتى يبتلى، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ الآية، وقال: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].

فإذا ابتلى الله قومًا (**فمن رضي**) منهم عن الله سبحانه فيما ابتلي به (**فله الرضا**) من الله سبحانه، ومن سخط قضاء الله وأقداره، [ك،١٤٤/أ] ولم يرض عنه سبحانه (**فله السخط**) من الله على ذلك.

(**وحسنه الترمذي**) ورواه الحاكم في الحدود عن أنس بن مالك، والطبراني في معجمه الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان عن عبدالله بن مغفّل رضي الله عنه الأنصاري وصححه[1]، ورواه الطبراني أيضًا عن

= والصفات (ص ١٩٦)، وقال الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٨٥): حسن صحيح.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٨٧)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥)، وفي أخبار أصبهان (٢/ ٢٧٤)، وابن حبان في =

عمار بن ياسر بإسناد جيد[١]، ورواه ابن عدي عن أبي هريرة[٢].

= صحيحه (٧/ ١٧٣)، والحاكم في مستدركه (١/ ٥٠٠)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩١): ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذا أحد إسنادي الطبراني.

(١) كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٢) وقال: إسناده جيد.

(٢) أخرجه ابن عدي من حديث أنس (٣/ ١١٩٢)، ولم أعثر عليه من حديث أبي هريرة.



الباب الخامس والثلاثون

(باب ما جاء في الرياء)

الرياء بالمد: إظهار العبادة ليراها الناس فيحمدوا صاحبها. وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، أو مقدر على حذف مضاف، أي: باب في ذي الرياء، وقد قال جرير بن الخطفى:

تدارك منهم مربع يوم عاقل　　　ظعائن قد راءى بهنّ وسمّعا[(١)]

لما ذكر رحمه الله تعالى ما يحضّ على محبة الله والإخلاص فيها، وذلك أيضًا هو متضمن للرجاء، وأعقبه بباب الخوف ثم التوكل والبابين بعدهما فلما علم أن مدار التوحيد في الأقوال والأعمال والأحوال على هذه الأشياء، أعقبها بذكر الرياء إشارة أنها لا تصلح الأعمال معه، ثم أعقبه بالباب الذي قد تضمنه وهو باب الإرادة تحذيرًا عن ذلك لئلا يفسد عليه بذلك ما تقدم.

(**وقوله تعالى**: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]).

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي افتتح هذه السورة بإنزال الكتاب عليه صلوات الله وسلامه عليه: قل لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم وإنزال الكتاب عليك من ربك، إنما أنا بشر مثلكم

---

(١) انظر شرح ديوان جرير، مهدي ناصر الدين (ص ٢٧٢).

فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتم عنه من قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين[1]، وخبر موسى عليه السلام والخضر مما هو مطابق في نفس الأمر لولا ما أطلعني الله عليه، وأنا أخبر أنما إلهكم الذي أدعوكم إلى عبادته إله واحد لا شريك له: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾، وهو العمل الذي يراد به وجه الله تعالى وحده لا شريك له والدار الآخرة.

وحاصل المعنى في ذلك: هو أن تكون أفعال العبد وأقواله متمحضة لإرادة التقرب إلى الله تعالى، على ما شرع في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وهذان ركنا العمل المتقبل، فلابد أن يكون العمل خالصًا صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ، فمن تيقن أنه ملاقي ربه عمل له ووقف على أمره وانزجر عن نهيه، فهذان الركنان قائدهما وسائقهما الخوف والرجاء، لأن مشاهدة التوحيد في ذلك تفتح لصاحبها باب الخير، وتغلق عنه باب الشر، فينبغي للعبد أن لا يعلّق رجاءه إلا بالله، ولا يخاف إلا منه، بحيث لا يخاف إلا ذنوبه، لا يخاف أن الله يظلمه فإن الله لا يظلم الناس شيئًا، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه.

قال علي رضي الله عنه: لا يرجونّ عبد إلا ربه، ولا يخاف إلا ذنبه.

---

(١) ذكره الله في كتابه في سورة الكهف، وأنه ملك المشارق والمغارب وأثنى عليه بالعدل بين رعيته، وقد اختلف فيه، فقيل هو رسول، وقيل نبي، وقيل ملك من الملائكة، والصحيح كما قال ابن كثير: أنه كان ملكًا من الملوك العادلين، ويخلط البعض بينه وبين الإسكندر المقدوني اليوناني، ويعتقدون أنهما واحد، فإن الأول كان عبدًا مؤمنًا صالحًا ومتقدمًا على زمن الثاني بدهر طويل، وأما الثاني: فكان مشركًا. انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (٢/ ٩٥).

وفي الحديث الذي في السنن الذي قدمنا ذكره قبل هذا الباب أنه ﷺ دخل على مريض فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال ﷺ: ما اجتمعن في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف(١).

لأن تعليق الرجاء بغير الله شرك، ولهذا قيل الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، لأنه حصل في توحيده شرك، والمشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم، فيحصل له رعب كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، والخالص من الشرك يحصل له الأمن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، والظلم في هذه الآية الشرك كما قدمنا ذلك عنه ﷺ(٢)، والشرك في هذه الآية أخفى من دبيب النمل.

ولهذا كان العبد مأمورًا في كل ركعة من صلاته أن يقول: ﴿إِيَّاكَ

---

(١) تقدم تخريجه ص١٤٧٢.

(٢) يشير إلى حديث عبدالله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾. والحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ (٣/ ١٢٦٢)، ومسلم في الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه (١/ ١١٤).

نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله تعالى، إما خوفًا منه وإما رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك، فصاحب الهوى الذي اتبع هواه له نصيب ممن اتخذ إلهه هواه، فصار فيه شرك يمنعه من تجريد الحق لله، ومن حقق التوحيد فلابد أن يرفع عنه [الشرك][1]، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾ [يوسف: ٢٤] على قراءة الكسر من اللام[2]، والمسلمون وإن اشتركوا في الإقرار بكلمة التوحيد فهم متفاضلون في تحقيقها، تفاضلاً لا يقدر أحد ضبطه، حتى إن كثيرًا منهم يظن أن التوحيد المفروض هو: الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وهو ربه ومليكه. فلا يميزون بين توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون، وبين توحيد الألوهية الذي دعا إليه رسوله ﷺ كما في آخر هذه السورة، ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي[3]، فمن أحب مخلوقًا من دون الله كما يحب الخالق فهو

---

(١) في الأصول: الشر.

(٢) وهي قراءة ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو «المخلصين» بكسر اللام، وقرأ الآخرون بفتحها، والمعنى على القراءة الأولى: أن يوسف عليه السلام كان ممن أخلص طاعته لله، وعلى الثانية «المخلصين»: أنه كان ممن استخلصه الله للرسالة، وقد كان عليه السلام مخلصًا مستخلصًا. انظر: فتح القدير، الشوكاني (٣/ ١٨).

(٣) كما هو الحال عند عموم أهل الكلام، فكان جل اهتمامهم العناية بتقرير توحيد الربوبية، وغفلوا عن تقرير توحيد الألوهية، وبيان ما يضاده من الشرك، والخطأ الذي وقع فيه هؤلاء هو أنهم فهموا أن هذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأنه المقصود بشهادة أن لا إله إلا الله، وكان من آثار ذلك أن وقع كثير من أتباعهم في كثير من أنواع الشرك، كدعاء الأموات، والطواف بالقبور، والذبح والنذر لأصحابها وغير ذلك من الضلالات، ثم إذا اعترضت عليهم، قالوا: إن هذا ليس بشرك، =

مشرك قد اتخذ من دون الله أندادًا، وإن كان مقرا بأن الله خالقه. ولهذا جمع سبحانه التوحيدين في قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فجمع بين الاسمين اسم الإله واسم الرب، فإن الإله هو: المعبود أي: الذي يستحق أن يعبد، والرب هو الذي يرب عبده فيدبره. فلهذا كانت العبادة متعلقة باسميته الله، والسؤال متعلقة باسميته الرب.

وقد ذكر الزبير بن بكار في أخباره قال: قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الكفر فاغفر لي ما بينهما[1].

= إنما الشرك إذا اعتقدتُ أنها هي المدبرة، أو أنها تستحق العبادة، أما إذا جعلتها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا.

وهذا المنهج الخطير الذي سلكه المتكلمون أثر في كتاباتهم العقدية فقلما تجد لعالم منهم كتابًا أو رسالة في بيان توحيد الألوهية، وأنواع العبادة التي لا يجوز صرفها إلا لله، أو بيان الشرك وأنواعه، بل على العكس من ذلك تجد الكثير منهم يميل إلى مثل هذه الشركيات نسأل الله السلامة، فليس كل من أقر أن الله رب كل شيء وخالقه يكون عابدًا له دون ما سواه، داعيًا له وراجيًا له وخائفًا منه دون ما سواه، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦] قال طائفة من السلف: تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

انظر: درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية (١/ ٢٢٦ـ ٢٢٨)، الرد على البكري (ص ٢٣٨)، منهاج السنة (٢/ ٦٥)، أصول الدين، البغدادي (ص ١٢٣)، الملل والنحل، الشهرستاني (١/ ١٠٠)، الاعتقاد، البيهقي (ص ٥٤).

(١) الأخبار الموفقيات (ص ٥١٦).

وقد أطلنا الكلام على هذا المقام لمسوس الحاجة إليه، وقد وردت أحاديث مما يتعلق بهذه الآية الكريمة من غير ما ذكر المصنف رحمه الله، منها حديث أبي الدرداء، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما، وتقدم كذلك حديث شداد بن أوس[1]، وروى ابن أبي حاتم بسنده عن طاوس مرسلاً قال: قال رجل [ك،١٤٥/ب]: يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا حتى نزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[2] [الكهف: ١١٠].

وقد أرسله جماعة من التابعين من غير هذا الوجه[3]، ورواه الحاكم في صحيحه متصلاً عن ابن عباس رضي الله عنهما ولفظه أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أقف الموقف فذكره بلفظه. وقال صحيح على شرطهما[4].

وعند الترمذي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي عن [أبي سعيد][5] ابن أبي فضالة[6] ويقال سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا جمع الله

---

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي (٥/ ٤٦٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن أبي حاتم، وعبدالرزاق كما في الدر المنثور (٥/ ٤٦٩)، وابن المبارك في الجهاد (ص ٣٤)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٦٦) عن طاوس مرسلاً.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي (٥/ ٤٦٩).

(٤) المستدرك على الصحيحين (٢/ ١٢٢)، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٥) في الأصل: «سعد» وما بين معكوفتين هو الصحيح من مصادره.

(٦) ويقال أبو سعد بن فضالة الأنصاري، ويقال أبو سعيد بن فضالة بن أبي فضالة، معدود في طبقة أهل الخندق، وممن سكن المدينة من الصحابة.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ٨٧)، ابن عبدالبر (٤/ ٩٥).

الأولين والآخرين يوم القيامة نادى مناد: من كان أشرك في عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك[1].

فيا له من يوم قال الله فيه: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: ١٠] و﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]. ولهذا كان دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما عند الإمام أحمد في الزهد عن الحسن البصري عنه أنه كان يقول: اللهم اجعل عملي صالحًا واجعله لك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا[2]. وفي لفظ: شركًا.

وتحصيل ما في الصدور يوم القيامة بالبينات، حين تنطق الأعضاء فحينئذ يقول الإنسان: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾.

وروى أبو يعلى الموصلي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه.

ورواه البيهقي وعبدالرزاق في مصنفه بهذا اللفظ[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب من سورة الكهف (٥/ ٣١٤)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الزهد. باب الرياء والسمعة (٢/ ١٤٠٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٢١٥)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٠٧)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٣٠)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ٤١٠).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٧٤)، وابن أبي عاصم في الزهد (ص ١١٨).

(٣) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٢/ ٣٦٩)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ٥٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٩٠)، والشعب (٣/ ١٣٦) كلهم من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي الأحوص عن عبدالله مرفوعًا، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢١): «رواه أبو يعلى وفيه إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف».

وقال الحافظ في المطالب العالية (٣/ ١٨٣): حديث حسن.

(**عن أبي هريرة رضي الله عنه**) الدوسي خادم رسول الله ﷺ (**مرفوعًا: قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك**).

إضافة أفعل التفضيل هنا يجوز أن تكون للفصل إلى الزيادة المطلقة، أي: أنا أغنى من بين الشركاء عن الشرك، ويجوز أن تكون الزيادة على من أضيف إليه أي: أكثر الشركاء استغناء عن الشرك، والمعنى: أنا أكثر من تصدّق على الشريك استغناء عن الشرك، ولا يلزم منه أن من تصدّق على الشريك أن يحتاج إلى الشريك، والأول أولى لسلامته من الاعتراض.

(**من عمل**) أي: من عبادي (**عملاً**) من الأعمال قوليًا أو فعليًا، (**أشرك معي فيه**) أي: في ذلك العمل (**غيري**) بأن لم يكن خالصًا لله بل للرياء والسمعة (**تركته وشركه**) لذلك الغير.

قالوا: إن الواو بمعنى مع ويجوز أن تكون عاطفة، فلم يقبل ما جُعل له تبارك وتعالى مع الشريك فهو الغني سبحانه على الإطلاق كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، فالذي له الغناء التام والحمد التام، مشاركة الغير له نقص في حقه. فبهذا يتنبه ويعلم المرائي بأن قلب من يرائيه بيد من يعصيه، وأن نفاق المنافقين صير المسجد مزبلة فقال فيه رب العالمين: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقد قال زيد بن مروان[١]: مررت بجارية متعبدة قد ولهت من شدة المحبة فسمعتها تقول:

---

(١) لم أعثر على ترجمته، ولعله يزيد بن مروان الخلال، انظر عنه لسان الميزان (٦/٢٩٣).

سلب الرقاد من الجفون تشوّقي فمتى اللقا يا جامع الأمواتِ

قال: فسلمت عليها فردّت علي السلام ثم قالت: يا زيد ما السخاء عندكم؟ قلت: البذل والعطاء، قالت: هذا سخاء الدنيا فما هو السخاء في الدين؟ قلت: المسارعة إلى طاعة الله تعالى، قالت: إلى متى؟ قلت: إلى أن نفوز بالجنة، قالت: إنما المسارعة إلى طاعة الله تعالى إلى أن يطلع على قلبك فلا يجد فيه غيره، ثم أنشدت:

حسْبُ المحب من الحبيب بعلمه أن المحب ببابه مطروحُ

وإذا تقلب في الدجى ففؤاده بسهام لوعات الهوى مجروحُ[1]

(رواه مسلم)[2] في صحيحه.

(وعن أبي سعيد) سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري، هو وأبوه صحابيان رضي الله عنهما **(مرفوعًا)** إلى النبي ﷺ قال: **(ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من فتنة المسيح الدجال؟)** الذي ما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لخوفهم شدة فتنته، وهذا معلوم من المقام، **(قالوا: بلى. قال:)** هو: **(الشرك الخفي)** الذي هو في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ثم مثله ﷺ فقال: **(يقوم الرجل)** للصلاة **(فيصلي لله فيزين صلاته، لما يرى من نظر رجل)** يعلم أنه ينظر إليه.

---

(١) البيتان في خبر آخر في شعب الإيمان للبيهقي (١/ ٣٧٦)، رقم ٤٤٦، وعقلاء المجانين لابن حبيب ص ١٢٢، من إنشاد ريحانة المتعبدة.

(٢) في الصحيح في الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/ ٢٢٨٩).

(**رواه الإمام أحمد**)[1] رضي الله عنه في مسنده، فالصلاة في أصلها لله، وتزيينها لأجل الناظر إلى المصلي، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم احمنا والمسلمين مما يضاد توحيدك.

روى هذا الحديث عن أبي سعيد رضي الله عنه الإمام أحمد في مسنده[2] وابن ماجه في سننه أيضًا بنحوه[3].

وعن أبي أمامة[4] رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: لا شيء له، فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ لا شيء له، ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتُغي به وجهه.

إسناده جيد رواه الإمام أحمد والنسائي[5].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: أن رجلاً قال: يا رسول الله إن الرجل يريد الجهاد في سبيل الله ويبتغي عرض الدنيا؟ فقال رسول

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٣٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن ماجه في الزهد، باب الرياء والسمعة (٢/ ١٤٠٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٢٩) وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٩٦): هذا إسناد حسن.

(٤) هو صدي بن عجلان الباهلي، صحابي جليل، أبو أمامة كنيته وبها يعرف، سكن الشام وهو آخر من مات من الصحابة بالشام، وفاته بحمص سنة ٨١هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ١٧٥)، تهذيب التهذيب له (٤/ ٤٢٠).

(٥) أخرجه النسائي في الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر (٦/ ٢٥)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٦٩)، والكبير (٨/ ١٤٠)، ولم أعثر عليه عند الإمام أحمد، قال الحافظ في الفتح (٦/ ٢٩): إسناده جيد.

الله ﷺ: لا شيء له. فأعظموا ذلك وقالوا: أعد فلعله لم يفهم، فعاد فقال: لا أجر له.

رواه أحمد ورواه أبو داود أيضًا[1]، وفي إسناده ابن مكرز قيل هو أيوب بن عبدالله بن مكرز العامري القرشي فهو مستور، وقيل غيره فهو إذا مجهول[2].

وقد تقدم التنبيه على أن العمل إذا أنشىء على الرياء أبطله، فإن عرض في أثنائه وجدد النية لم يضرّه، وإن لم يجدد النية فقال بعضهم حبط أجره.

وقال ابن رجب: إن شارك الرياء العمل من أصله فالنصوص الصحيحة على بطلانه، / وإن كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه خاطر الرياء ودفعه لم يضر بلا خلاف، وإن استرسل معه فخلاف، رجح أحمد أن عمله لا يبطل بذلك[3]. وذكر غيره لا إثم في شوب الرياء إذا غلب قصد الطاعة، وعكسه يأثم، فإن تساوى الباعثان فلا له ولا عليه، ولا تترك عبادة خوف رياء، ونرجو الثواب لمن تلا بلا نية.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في من يغزو ويلتمس الدنيا (٣/ ١٣)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٩٠، ٣٦٦)، وابن المبارك في الجهاد (ص ١٦٩)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٤٩٤)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٩٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن (٩/ ١٦٩)، كلهم من طرق عن بكير بن عبدالله الأشج عن ابن مكرز عن أبي هريرة مرفوعًا، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٤٧٨).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (١/ ٤٠٧).

(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب (ص ١٥).

وقال ابن الجوزي: وإن طرأ رياء بعثه على العمل كإطالة ليُرى مكانُه حبط أجرُه، وإن طرأ فرح وسرور لم يؤثر، ذكره عنه في الفروع[1].

قال: وإن فرح ليُمدح ويكرم عليه فهو رياء، لكن لا يؤثر بعد فراغه، فإن تحدث به فالغالب أنه كان في قلبه نوع رياء، فإن سلم منه نقص أجره، وأنه لا يترك العبادة خوف الرياء[2].

وأطلق ابن عقيل وغيره: أن الفرح لا يقدح، وإنما الإعجاب باستكثار طاعته ورؤية نفسه، قال: وعلامة ذلك اقتضاء الله بما أكرم به الأولياء، وانتظار الكرامة ونحو ذلك[3].

وعند أبي نعيم من طريق بقية بن الوليد قال: ثنا الفزاري عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله الرجل منا يُسر العمل ثم يُطلع عليه فلا يسوؤه، قال: ذلك الذي يؤتى أجرَه مرتين.

قال أبو نعيم حديث غريب من حديث الفزاري تفرد به عنه بقية، ورواه سعيد بن بشير عن الأعمش مثله[4].

ورواه من طريق الثوري أيضًا مرفوعًا عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله الرجل يعمل في السر

---

(١) الفروع، ابن مفلح (١/ ٤٩٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الحلية، أبو نعيم (٨/ ٢٥٧).

فيطلع عليه فيفرح، فقال: له أجران أجر السر وأجر العلانية[1].

قال: ولم يقل أحد عن أبي صالح عن أبي ذر غير يوسف بن أسباط عن الثوري، واختلف فيه على الثوري، فرواه يحيى بن اليمان عنه قال: عن أبي مسعود الأنصاري، ورواه قبيصة عنه فقال: عن المغيرة بن شعبة، ورواه أبو سنان عن حبيب عن أبي صالح عن أبي هريرة، والمحفوظ عن الثوري عن حبيب عن أبي صالح مرسلاً[2].

وقال ابن هبيرة في خبر عائشة رضي الله عنها عنه ﷺ في قوله: أعوذ بك من شر ما عملت، وشر ما لم أعمل[3].

قال: له معنيان أحدهما: أن يرضى بشرٍّ، أو يتمنى أن يعمل مثله. الثاني: لا يشرب الخمر مثلاً فيعجب بنفسه كيف لا يشربه؟ فيكون العجب بترك الذنب شرًّا مما لا يعمل[4].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٥٠) من طريق الثوري عن حبيب عن أبي صالح عن أبي ذر، وأخرجه الترمذي في الزهد، باب عمل السر (٤/ ٥٩٤)، من طريق أبي سنان الشيباني عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي هريرة مرفوعًا، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقد روى الأعمش وغيره عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح عن النبي ﷺ مرسلا، وأصحاب الأعمش لم يذكروا فيه عن أبي هريرة.

وابن ماجه في الزهد، باب الثناء الحسن (٢/ ١٤١٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٩٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٦٣)، والطيالسي في مسنده (ص ٣١٨)، وأورده الألباني في ضعيف ابن ماجه (ص ٣٤٧).

(٢) انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (٨/ ٢٥٠).

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل (٤/ ٢٠٨٥)، وأبو داود في الصلاة، باب في الاستعاذة (٢/ ٩٢)، والنسائي في الصلاة، باب التعوذ في الصلاة (٣/ ٥٦)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ (٢/ ١٢٦٢) وغيرهم.

(٤) انظر: الفروع، ابن مفلح (١/ ٤٩٦).

وقال المروذي لأحمد: الرجل يدخل المسجد فيرى قومًا فيحسن صلاته؟ يعني الرياء، قال: لا، تلك بركة المسلم على المسلم[1].

وجهه القاضي أبو يعلى: بانتظاره والإعادة معه وإن قصده[2]، واختار في النوادر: إن قصد ليُقتدى به، أو لئلا [يساء به الظن][3] جاز، وذكر قول أحمد، قال في الفروع: وقاله الشيخ: يعني الموفق. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لا يثاب على عمل مشوب إجماعًا[4]، وقال أيضًا: من صلى ثم أحسنها وأكملها للناس أثيب على ما أخلصه لله، لا على عمله للناس ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾[5] [الكهف: ٤٩].

وعند الطبراني بإسناد حسن عن عبدالله بن عمر، والحاكم بإسناد رواته ثقات عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعًا: إن الإيمان ليخلُق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم[6].

وقد فرق بعض العلماء رحمهم الله تعالى بين شوب الرياء وحض النفس، فجعلوا شوب الرياء مبطلاً للعمل، وحض النفس كإطالة الصلاة خلاصًا من الخصم، ونية الصوم مع قصد هضم الطعام، ونية الحج

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في الأصل: [يشابه النظر].

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٥) وقال: رواته ثقات، ووافقه الذهبي.

مع قصد رؤية البلاد النائية منقصًا لا مبطلاً، لأنه قصد ما يلزم ضرورة كنية التبرد والنظافة مع نية رفع الحدث، قاله ابن الجوزي وغيره، وفيه احتمال لبعض الشافعية أنه يضر، والأول قول الجمهور[1].

وقال شيخ الإسلام أيضًا فيما يتعلق في معنى الحديث الأول: لا يمكن أن يقال لم لا أخذ نصيبه منه؟ لأنه مع الإشراك يمتنع أن يكون له شيء، كما أنه بتقدير الإشراك في الربوبية يمتنع أن يصدر عنه شيء، فإن الغير لا وجود له، وهو لم يستقل بالفعل، كذا هنا لم يستقل بالقصد، والغير لا ينفع قصده[2].

قال: ولهذا نظائر في الشرعيات والحسيات إذا خلط بالنافع الضار أفسده، كخلط الماء بالخمر.

قال: ويبين هذا أنه لو سأل الله شيئًا فقال: اللهم افعل كذا أنت وغيرك، أو دعا الله وغيره فقال: افعل كذا لكان هذا الطلب ممتنعًا، فإن غيره لا يشاركه، وهو على هذا التقدير لا يكون فاعلاً، لأن تقدير وجود الشريك يمنع أن يكون هو أيضًا فاعلاً، فإذا كان يمتنع هذا في الدعاء والسؤال، فكذلك يمتنع في العبادة والعمل أن يكون له ولغيره[3].

قال: وذكر الأصحاب فيمن حج بأجرة أنه لا يجوز الإشراك في العبادة، فمتى فعله من أجل أخذ الأجرة خرج عن كونه عبادة فلم يصح[4].

---

(١) انظر: الفروع، ابن مفلح (١/ ٣٩٠، ٤٩٨).
(٢) الفروع، ابن مفلح (١/ ٤٩٦).
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

واعتمد شيخ الإسلام أيضًا قدس الله روحه على هذا في القراءة للميت بأجرة[1]، وقاله الثوري والأوزاعي في إمام الصلاة، لا صلاة له ولا لهم، وقاله الإمام أحمد[2] رضي الله عنه، بخلاف الجعالة في باب الحج ونحوه إذا أخذها ليحج، فإن بابها عندهم أوسع من باب الإجارة، ولجوازها مع جهالة العمل والمدّة، بخلاف من حج ليأخذ. قال، ومن أمّر للرياسة[3] والمال، لم يثب ويأثم على فساد نيته، كالمصلي رياء وسمعة.

قال ابن مفلح: وهو معنى كلام ابن الجوزي في كل طاعة، والله ولي الهداية.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق (٣/ ٢٥٢).

الباب السادس والثلاثون

[باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا][1]

(**باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله**) الأخروي (**الدنيا**)، فمن أراد بعمله الأخروي الدنيا من الله تعالى فقد أشرك في إرادته، ويشهد لذلك ما رواه الإمام أحمد بسند رجاله رجال الصحيح، ورواه ابن حبان والبيهقي والحاكم وقال صحيح على شرطهما، عن أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعًا: «بشر هذه الأمة بالسناء[2] والدين والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»[3].

وهذه بظاهره يرد على من اعترض للشيخ منصور[4] رحمه الله فيما أودعه من النقل في شرحه للمنتهى[5] لأنه لم يرد شرك الإرادة ولا أجازه، وإنما أراد الأعمال المقصود بها الله تعالى، بقطع النظر عن

---

(١) غير موجود في الأصل.

(٢) أي بارتفاع المنزلة والقدر عند الله تعالى. انظر: النهاية، ابن الأثير (٢/ ٤١٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٣٤)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٣٢)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٤٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الأرنؤوط في هامش صحيح ابن حبان (٢/ ١٣٢): إسناده حسن.

(٤) هو البهوتي صاحب «الروض المربع»، وغيره من كتب الحنابلة، تقدمت ترجمته في المقدمة.

(٥) لم نهتد للموضع المقصود من «شرح منتهى الإرادات»، والكلام هنا فيه غموض.

إرادة الحاصل بها من نيته تحصيل الجزاء، محصورة نيته على إرادة الدنيا من الله تعالى فقط، فإن أراد من الله تعالى الدنيا فقط بعمل الآخرة، أو نوى شيئًا غير التقرب إلى الله تعالى وطلب الجزاء منه في الآخرة، فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص أن يخلص العبد لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده، فهي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه، وفي مسند الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجدها من طلب دنيا بعمل الآخرة»(١).

وعند الطبراني في الأوسط(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «من تزين بعمل الآخرة وهو لا يريدها ولا يطلبها، لعن في السموات والأرض»(٣).

وعند أبي نعيم من طريق أحمد بن الفتح قال: سمعت بشر بن الحارث يقول: سمعت يحيى بن القطان يقول: سمعت سفيان الثوري يقول: إن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة(٤).

وقد أكد الله نفي الخير عمن أسس بنيان إرادته على غير تقوى الله سبحانه فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] الآية.

---

(١) مسند الفردوس (٢/ ٢٧١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ١٩٠).

(٢) (٥/ ٩٦)، برقم (٤٧٧٦).

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٠): فيه إسماعيل بن يحيى التيمي وهو كذاب.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٥٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إن الرجل يريد الجهاد في سبيل الله ويبتغي عرض الدنيا؟ فقال رسول الله ﷺ: لا شيء له، فأعظموا ذلك، وقالوا: عد فلعله لم يفهم، فعاد فقال: لا أجر له».

رواه أبو داود ورواه الإمام أحمد في مسنده وفي إسناده [ابن][1] مكرز، وقد مضى القول فيه عند إيراده في الباب الذي قبل هذا للتنبيه وإلا فهو بهذا الباب أليق إذ هو منه.

وفي مراسيل أبي داود عن جبير بن نفير[2] مرفوعًا: مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجعل يتقوون على عدوهم، مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها[3].

ورواه بهذا الوجه البيهقي في سننه[4]، ولهذا استشهد الشيخ في هذا المقام على هذه الترجمة بهذه الآية فقال: (**وقوله تعالى**: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥- ١٦].)

يقول تعالى: من كان يريد بعمله الصالح التماس الدنيا صومًا أو

---

(١) ساقطة من الأصل.

(٢) الحضرمي ثم الحمصي، يكنى أبا عبدالرحمن، أدرك حياة النبي ﷺ، من أئمة التابعين بحمص ودمشق، توفي سنة ٨٠هـ بحمص. انظر: الطبقات، خليفة بن خياط (ص ٣٠٨)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود في المراسيل (ص ٢٤٧).

(٤) السنن الكبرى (٩/ ٢٧) من طريق أبي داود في المراسيل.

صلاةً أو حجًا أو صدقةً أو تهجدًا بالليل أو نحو ذلك من قول أو فعل، لا يعمل ذلك إلا التماس الدنيا أُوَفّيه، أي الذي التمس في الدنيا.

روي ذلك عن قتادة والضحاك[1] وغير واحد[2]، وفي هذا المعنى نزلت الآية، وقال الحسن: نزلت في اليهود والنصارى، وروي ذلك عن أنس[3] رضي الله عنه.

وتعجب شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من قول مجاهد: إنها نزلت في أهل الرياء[4]، وأن من عمل عملاً من صلة أو صلاة أو صدقةٍ رياءً لا يريد به وجه الله أعطاه الله في الدنيا ثواب ذلك[5]، ويدرأ عنه في الدنيا. فإن العمل الذي لا يريد به إلا الرياء وبال على صاحبه لا له، بل ويعاقب به، فليس له منه شيء في الدنيا ولا في الآخرة إلا التجوّه[6] عند الحق.

وإنما معنى هذه الآية كما قال قتادة: «من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته، جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة، وليس له حسنة يعطاها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب

---

(١) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، أبو القاسم، مفسر، له كتاب في التفسير، توفي سنة ١٠٥هـ بخراسان. انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (١/ ٤٧١)، العبر (١/ ١٢٤).

(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي (٤/ ٤٠٦_ ٤٠٩).

(٣) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه كما في الدر المنثور (٤/٤٠٦).

(٤) أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٤/ ٤٠٧).

(٥) الفروع، ابن مفلح (١/ ٤٩٨).

(٦) أي طلب الجاه.

عليها في الآخرة لقصده الله والدار الآخرة»[1].

وأما من قصد الدنيا فإنهم يؤتون أعمالهم فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة العيال فلا يُنقصون شيئًا من أجورهم.

ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني الذين هذه إرادتهم: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ في مقابلة ما عملوا، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الخسيسة، وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة، ولهذا قال: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي: لأنه لم يبق له ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا به وجه الله، والعمدة في اقتضاء ثواب الآخرة هو الإخلاص.

فالضمير في قوله ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ راجع إلى الآخرة، والمعنى: حبط ما صنعوا في الآخرة إذا وافوها، فلا ثواب لهم فيها؛ لأنهم قد استوفوا أعمالهم الخسيسة في الدنيا لإرادتهم إياها، فلم يبق لهم ثواب في الآخرة.

أو لأن المقتضي لثواب الآخرة الإخلاص وقد فُقد، ففُقد الجزاء فيها.

وهذا يدل على أن الكفار يُجازون على أعمالهم في الدنيا التي يطلبون بها من الله ـ سبحانه ـ الصحة والعافية والولد وسعة الرزق وغير ذلك، وليس لهم في الآخرة من خلاق.

ولهذا قال في هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾، فالمعنى: ليس لهم شيء من جزاء أعمالهم في الآخرة إلا النار.

فتبين بهذا النفي والحصر أن المقصود بذلك الكفار المخلّدون في

---

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في الدر المنثور (٤/ ٤٠٨).

النار. ولكن فيه تخويف للمؤمن في إرادته الحياة الدنيا [بتلف][1] ذلك العمل المراد به الدنيا في الآخرة، فلا يبقى له عليه جزاء في الآخرة.

ويجوز تعليق الظرف في ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ على أن الضمير للدنيا.

ثم قال: ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ يعني في نفسه ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، لأنه لم يُعمل على ما ينبغي، وكأن كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٨ـ ٢٠].

وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

وقد قال الزبير بن بكار في أخباره: حدثني المدائني عن عبدالله بن الحكم قال: قال الشعبي[2]: سمعت الحجاج يتكلم بكلام ما سبقه إليه أحد، سمعته يقول: أما بعد: فإن الله كتب على الدنيا الفناء، وعلى الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب عليه البقاء، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل[3].

---

(١) في الأصل: بتلاف، والمثبت هو الصواب.

(٢) هو عامر بن شراحيل الشعبي الحميري، من ثقات التابعين، وكان محدثًا وفقيهًا وشاعرًا، ولاه عمر بن عبدالعزيز القضاء، توفي سنة ١٠٣هـ.
انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (٤/ ٣١٠)، تاريخ بغداد، الخطيب (١٢/ ٢٢٧).

(٣) الأخبار الموفقيات (ص ١٠٨).

وعند الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن ثوبان[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها[2].

وهو عند ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين رضي الله عنه[3]، وليس المقصود من ذلك طلب زوال حب الدنيا من قلب المؤمن، فإن ذلك غير مطلوب ولا متحصل.

وقد قال أبو الوفاء بن عقيل: من قال: إني لا أحب الدنيا فهو كاذب، فإن يعقوب عليه السلام لما طُلب منه ابنه بنيامين قال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فقالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ فقال: خذوه.

وقال بعض السلف: من ادعى بغض الدنيا فهو عندي كذاب إلى أن يثبت صدقه، فإذا ثبت صدقه فهو مجنون، وقد قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية، وإنما المقصود أن يجعل الإنسان سعيه في تحصيل هذه الأشياء من أمور الدنيا، عونًا على طاعة الله وأداءً لما افترض عليه وما ندب إليه،

---

(١) هو ثوبان بن بجدد، أبو عبدالله، مولى رسول الله ﷺ، أصله من أهل السراة، اشتراه النبي ﷺ ثم اعتقه، فلم يزل يخدمه إلى أن مات، توفي بحمص سنة ٥٤هـ.
انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (١/ ١٨٠)، الإصابة، ابن حجر (١/ ٢٠٥).

(٢) لم أعثر عليه من حديث ثوبان، ولم يعزه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٠٣) لغير عمران بن حصين رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٠١)، والقضاعي في مسنده (١/ ٢٩٨)، وقال في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٠٣): رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات.

حتى يكون أمر آخرته ودنياه كله خالصًا في الحقيقة لله والله تعالى الموفق.

وقد قال عبدالله بن الإمام[1] رضي الله عنه: أوصني يا أبة. فقال: يا بني انو الخير، فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير.

ذكره عنه ابن مفلح وغيره، ورواه ابن الجوزي عن عبدالله بن الإمام أحمد، وروى بسنده عن علي بن المديني قال: ودعت الإمام أحمد رضي الله عنه فقلت: أوصني بشيء قال: نعم، اجعل التقوى زادك، وانصب الآخرة أمامك. ذكرهما في مناقبه[2].

(**وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: تعس عبد الدينار**) أي عثر فانكب على وجهه فلا لعًا[3] للعاثر [ك،١٤٦/أ]، وقد تفتح عينه والمشهور الكسر، وفي رواية الترمذي «لعن عبد الدينار لعن عبد الدرهم». قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أي: هلاكًا وخيبةً من الله تعالى، ثم قال: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٨]. ولهذا أضاف ﷺ عبوديته حيث تمكنت الدنيا من قلبه للدينار وما بعده، فإن الكل من هذه الأعيان بلية، فإذا ربط بها العبد نفسه انتكس، فمتى كان العبد عبدًا لعبد كان شر العبيد، حتى يخلص نفسه عن كل ما سوى الله سبحانه.

(**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة**) الخميصة ثوب خز أو صوفٍ معلّم، وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة مربعة.

---

(١) يعني الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

(٢) مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي (ص ٢٦٠).

(٣) «لعًا» تقولها العرب للعاثر تواسيه بها، ومنه قول كعب بن مالك لأخيه بجير: ..
ولا قائلٍ إمّا عثرت: لعًا لكَ. انظر اللسان (١١/ ٤٧٢).

(تعس عبد الخميلة) الخميلة بخاء معجمة: القطيفة، وهي كل ثوب له خمَل من أي شيء كان، وقيل الخميلة: هي الأسود من الثياب.

(إن أعطي) شيئًا من الدنيا من جنس ما ذكر **(رضي، وإن لم يعط)** شيئًا منها **(سخط)**. فهذه حالة من يسخط للدنيا ويرضى لها، فصاحب هذا الخلق قد استحق بهذه الصفة دعوة النبي ﷺ عليه، وقد حكى الله هذه الصفة عن المنافقين فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة: ٥٨] الآية، وعند الإمام أحمد ومسلم في صحيحه والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي كافرًا ويصبح مؤمنًا، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا قليل[١].

يعني حطامها، والعرض قال الزمخشري: ما عرض لك من منافع الدنيا.

وفي مسند الإمام أحمد عن رجل من الصحابة، والبيهقي عن ابن عمر، والطبراني وغيره عن ثوبان رضي الله عنهم مرفوعًا: تبًّا للذهب والفضة، قالوا: يا رسول الله فأي [المال][٢] نتخذ؟ قال: قلبًا شاكرًا ولسانًا ذاكرًا وزوجة صالحة[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١/ ١١٠)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم (٤/ ٤٨٧)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٠٣).

(٢) في الأصل: الأعمال، وهو تصحيف، والتصويب من المصادر، انظر فيض القدير (٣/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣٦٦) عن رجل من الصحابة، والطبراني في الصغير =

ثم قال ﷺ: (تعس) أي: عثر فكب لوجهه، وقد تفتح عينه، (وانتكس) أي: انقلب على رأسه.

والمعنى: أنه دعا عليه بالخيبة والحرمان، (وإذا شيك) بشوكة في جسده (فلا انتقش) منها بالمنقاش، أي: فلا أخرجها بذلك، وهذه دعوة أخرى، فدعا عليه بالتعس والانتكاس، حيث تنكس الأمر فجعل الإرادة الواجبة عليه لله سبحانه مُشرَكة بغيره، مريدًا بذلك عرضًا من الدنيا. ثم دعا عليه دعوة أخرى بأنه لا يرفع عنه ما حل به من مكروه، ثم رغّب أهل الإخلاص فيه، بما حصل لهم عند الله تعالى، فقال: (طوبى) قيل: شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مسيرة مائة عام كما وردت الأحاديث بذلك، وقيل اسم الجنة نفسها، (لعبد) وصفه بالعبودية لأنها سجيته وهي أشرف أوصافه، ولهذا حملته العبودية على ما صنع بأن حمله التعبد لله تعالى والتذلل له أن بذل نفسه وجواده فصار بذلك (آخذ بعنان فرسه) راكبًا أو قائدًا (في سبيل الله) يقاتل من كفر بالله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٦] الآية، فوصف ﷺ جميع أحواله بالأغلب منها، إذ لا يخلو في معظم أمره أن يكون راكبًا أو قائدًا لفرسه في سبيل الله، كما قال ﷺ: وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه[1].

ثم وصف هيئته فقال: (أشعث رأسه) الشعث التفرق، يقول:

= (٢/ ١٢١) عن ثوبان، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤١٩) عن عمر، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٦١).

(١) أخرجه مسلم في الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها (٢/ ١١١٤) من حديث فاطمة بنت قيس، وأبو داود في الطلاق، باب في نفقة المبتوتة (٢/ ٢٨٤)، والنسائي في النكاح، باب إذا استشارت المرأة رجلاً فيمن يخطبها (٦/ ٧٥).

متفرق شعر رأسه لم يُلم ولم يُلبد أو يُرجّل، **(مغبرة قدماه)** من كثرة سعيه في سبيل الله من غدوّه ورواحه فيه، وفي هذا المعنى يقول النابغة[1]:

ولسـتَ بمستبْـقٍ أخًـا لا تلُمُّـه   على شعَثٍ أيُّ الرجال المهذب[2]

فوصفه بأنه قد هجر الملاذّ من الدهن والطيب حتى صار أشعث الرأس، **(مغبرة قدماه)** من الغبار من كثرة سعيه في سبيل الله من غدوّه ورواحه فيه، **(إن)** شرطية **(كان في الحراسة كان في الحراسة)** والمعنى: إن كان هذا العبد في الحراسة كان مستقرًّا ثابتًا على ذلك العمل، وهذا من باب قوله ﷺ في حديث عمر بن الخطاب: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله[3] فهي كقول القائل: إن كان فلان في الصداقة فهو في الصداقة، يعني: فهو ثابت فيها لا يتغير، مقيم على ذلك، فهو من باب المدح والتعظيم لثبوته في عمله، ومنه قول أبي النجم[4]:

أنا أبو النجم وشعري شعري[5]

---

(١) هو زياد بن معاوية الذبياني، أبو أمامة، شاعر جاهلي من أهل الحجاز، وهو أحد الأشراف في الجاهلية، عمر طويلاً، مات نحو ١٨ق.هـ. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٥٧)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٢٨٧، ٤٢٧).

(٢) ديوانه: (ص ٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة (١/ ٣٠)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنية (٣/ ١٥١٥).

(٤) هو الفضل بن قدامة، من عجل، وكان ينزل بسواد الكوفة في موضع يقال له الفرك، أقطعه إياه هشام بن عبدالملك، وهو أحد رجال الإسلام. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (٢/ ٦٠٣)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ١١٦).

(٥) ديوانه: ص٩٩، النادي الأدبي، الرياض، ١٤٠١هـ.

أي: شعري الآن هو شعري السابق الثابت لم يتغير لكبر ولا غيره، فوصفه في موقفه الذي يقف فيه من مواطن الجهاد بالاستقرار والثبات فيه، (**وإن كان في الساقه كان في الساقه**) المعنى فيه كالأول، فوصفه بكونه ثابتًا في هذه المواضع التي هي أشد الجهاد عملاً وأنفعها للمسلمين، ففيه أن الأجر على قدر المشقة في العمل، وإن كان أصله واحدًا إذا صلحت النية، ثم وصفه بصفة الخمول في الناس فقال: (**إن استأذن**) على الرؤساء وذوي الهيئات (**لم يؤذن له**) لخموله وعدم تعلق قلبه في الترفع[1] ليعرف ويرى مكانه، فإنه في الغالب إذا كان يطلب الترفع ليُعرف أُذن له، فهذا العبد قد طرح نفسه إلا من طاعة ربه وما يقرّبه عنده، لأنه لا يطلب ما يقرّبه عند الخلق، لطرح إرادة الدنيا من قلبه وتعلقه بإرادة الله تعالى والدار الآخرة، وهذا منه يدل على إخلاصه.

(**وإن شفع**) لأحد على هذه الحال (**لم يشفّع**) لأن ذوي الهيئات لا يشفّعون إلا ذا الجاه في الدنيا المعروف عندهم، وأما عند الباري جل وعلا فعند مسلم وابن ماجه وغيرهما مرفوعًا: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[2]».

[ك، ١٤٧/ب] ففرق ﷺ بين العبدين، فذاك عبد الدرهم والدنيا والخميصة والخميلة لإرادته الدنيا، فلما أعرض عن إرادته الله والدار الآخرة، دعا عليه رسول الله ﷺ بالتعس والانتكاس، لأنه خالف إرادة الله الشرعية،

---

(١) في الأصل: (وعدم تعلق قلبه في عدم الترفع)، بتكرار (عدم)، والثانية سبق قلم.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله (٤/ ١٩٨٧) من حديث أبي هريرة، وابن ماجه في الزهد، باب القناعة (٢/ ١٣٨٨) واللفظ له، وأحمد في المسند (٢/ ٢٨٤).

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] الآية.

والآخر عبدالله المقاتل في سبيل الله من كفر بالله، فلإرادته الله والدار الآخرة أثنى عليه رسول الله ﷺ، وأخبر بخبره الصادق أن له طوبى، التي لا تفنى، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها كما في الحديث الصحيح[(١)]، أو هي الجنة نفسها مع الخلود فيها[(٢)]، نسأل الله من فضله لنا ولكل مسلم، وذاك له ما يفنى من الدنيا التي أرادها، مع سخط مولاه حيث خالف إرادته الشرعية، وما له في الآخرة من نصيب؛ لأنه استوفى أعماله من الدنيا بإرادته الخسيسة.

فانظر لما بين الإرادتين والعبدين من الفرق تجده أبعد ما بين المشرق والمغرب جهةً ومسافةً، فأين ولي الرحمن من ولي الشيطان، وأين دار النعيم في أعلى عليين من دار الجحيم في أسفل سافلين، نسأل الله الكريم خير الدارين والإرادتين إنه لطيف كريم، فعند البخاري وغيره عن سهل بن سعد الساعدي[(٣)] رضي الله عنه قال: «مر رجل على

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٧١)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٥١٩)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٢١٣)، والآجري في الشريعة (٢/ ١٠٣٧)، كلهم من طريق دراج أبي السمح أن أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد الخدري به، قال الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٧٢٨): صحيح وانظر السلسلة الصحيحة (٤/ ٦٦٩).

(٢) انظر: النهاية، ابن الأثير (٣/ ١٤١).

(٣) الأنصاري الخزرجي، من بني ساعدة، صحابي، من مشاهيرهم، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة، عاش نحو مائة سنة، توفي سنة ٩١هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٨٧)، الأعلام، الزركلي (٣/ ١٤٣).

رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس ما رأيك في هذا الرجل؟ فقال: رجل من أشرف الناس، والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفّع. قال: فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا؟ فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا[١].

ولهذا قال خالد بن الوليد رضي الله عنه لما حضرته الوفاة: لقد طلبت القتل مظانّه فلم يقدّر لي إلا أن أموت على فراشي فلا قرت عين الجبان، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس بترسي، والسماء تهلبني. أي: تجودني وتمطرني، يقال: يوم هلاب إذا كان مطره شديدًا[٢]، رواه الخطابي عنه[٣].

وعند الطبراني والحاكم، وقال صحيح الإسناد، والبيهقي من حديث كهمس عن مصعب بن ثابت عن الزبير قال: قال عثمان بن عفان رضي الله عنهما وهو يخطب: ألا أحدثكم حديثاً لم يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: حرس ليلة في سبيل الله عز وجل أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب الأكفاء في الدين (٥/ ١٩٥٨)، وابن ماجه في الزهد، باب فضل الفقراء (٢/ ١٣٧٩)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٦٩).

(٢) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الجهاد (ص ٥٥)، والخطابي في غريبه (٢/ ٣٧٨)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٠٦)، كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن أبي وائل عن خالد به، وقال الهيثمي في مجمعه (٩/ ٣٥٠) بعد أن عزاه للطبراني: إسناده حسن.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٦١)، والطبراني في الكبير (١/ ٩١)، والحاكم في =

قال الحافظ ابن حجر إسناده حسن[1]، وأقر الذهبي والحاكم على تصحيحه في تلخيصه للمستدرك[2]، وهذه الأخبار مع ما ذكر الله سبحانه من الترغيب في الجهاد تدل على تفضيله من بين أعمال البدن، وإلى هذا ميل الإمام أحمد رضي الله عنه وعليه جلة أصحابه، وعنه قال: مذاكرة ليلة يعني في العلم أحب إلي من إحيائها، وأن العلم أفضلها.

وبه قال الإمام أبو حنيفة ومالك، وعن الإمام الشافعي رضي الله عنه: الصلاة أفضل أعمال البدن.

والذي يستدعيه الدليل عند التأصيل أن العلم أفضل الأعمال؛ لأنه من أعمال القلب وهي أفضل من عمل الجوارح[3]، وأيضًا كل عمل صالح ينفع صاحبه لا يصلح صدوره إلا عنه، ولهذا قال الإمام أحمد: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، وقال: لولا العلم لكان الناس كالبهائم[4].

وهذا منه يدل على أن العلم تعلمه وتعليمه أفضل من الجهاد وغيره فنقل عنه مُهنّا[5]: العلم أفضل الأعمال لمن صحت نيته. قال: فأي

= المستدرك (٢/ ٩١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٤/ ١٦).

(١) فتح الباري (٦/ ٨٣).

(٢) المستدرك على الصحيحين (٢/ ٩١).

(٣) في اعتبار العلم هنا من أعمال القلب نظر؛ فإن المراد به التفقه في الدين وطلب العلم ودراسته، وهذه من أعمال الجوارح.

(٤) الآداب الشرعية، ابن مفلح (٢/ ٤٢).

(٥) مهنّا بن يحي الشامي السلمي، من كبار أصحاب أحمد، انظر عنه طبقات الحنابلة (٢/ ٤٣٢).

شيء تصحيح النية؟ قال: ينوي يتواضع فيه وينفي عنه الجهل[١].

وقال لأبي داود: شرط النية شديد [ولكن][٢] حبب إلي فجمعته.
وسأله ابن هانيء: يطلب الحديث بقدر ما يظن أنه ينتفع به؟ قال: العلم لا يعدله شيء.

ونقل ابن منصور أن تذاكر بعض ليلة أحب إليه من إحيائها، وأنه العلم الذي ينتفع به الناس في أمر دينهم، قلت: الصلاة والصوم والتوبة والحج والطلاق ونحو هذا؟ قال نعم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] في بركة من فعل هذا أو غيره مما هو خير في نفسه لما فيه من المحبة له، لا لله ولا لغيره من الشركاء فليس مذمومًا بل قد يثاب بأنواع من الثواب إما بزيادة فيها وفي أمثالها فيتنعم بذلك في الدنيا، ولو كان فِعْلُ كلِّ حسنٍ لم يُفْعل لله مذمومًا لما أُطعم الكافر بحسناته في الدنيا، لأنها تكون سيئات، وقد يكون من فوائد ذلك وثوابه في الدنيا أن يهديه الله إلى أن يتقرب بها إلى الله تعالى، وهذا معنى قول بعضهم: طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله، وقول الآخر: طلبهم له نيته، يعني أن طلبه حسن ينفعهم، ولهذا قيل في العلم إنه الدليل المرشد، فإذا طلبه بالمحبة وحصّله عرف الإخلاص، والإخلاص لا يقع إلا بالعلم.

قال: فلو كان طلبه لا يكون إلا بالإخلاص لزم الدور، وعلى هذا ما حكاه أحمد، وهو حال النفوس المحمودة، ومن هذا قول خديجة

---

(١) الآداب الشرعية، ابن مفلح (٢/ ٣٧).

(٢) من المصدر السابق، ساقطة من الأصل.

(٣) انظر الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٢٦).

رضي الله عنها للنبي ﷺ: كلا والله لا يخزيك الله[1].

فعلمتْ أن النفس المطبوعة على محبة الأمر المحمود وفعله لا يوقعها الله فيما يضاد ذلك.

وفي الفنون لأبي الوفاء: إذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يظهر عليه أثرها، ومما أنعم الله علي أن حبب إلي العلم فهو أسنى الأعمال وأشرفها، واختاره غيره.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا: قال الإمام أحمد: معرفة الحديث والفقهُ فيه أعجب إلي من حفظه[2].

قال ابن الجوزي لما عد همم الناس: فأما أرباب النهاية في علو الهمة فإنهم لا يرضون إلا بالغاية، فهم يأخذون من كل فن من العلم مهمه ثم يجعلون جل اشتغالهم بالفقه، لأنه سيد العلوم، ثم ترقيهم الهمم العالية إلى معاملة الحق ومحبته والأنس به وقليل ما هم. انتهى.

وقد قال الإمام أحمد لإبراهيم بن جعفر[3]: انظر ما هو أصلح لقلبك فافعله[4].

---

(١) جزء من حديث عائشة في بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ الطويل، متفق عليه أخرجه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق (٤/ ١٨٩٤)، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي (١/ ١٣٩) وغيرهم.

(٢) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٢٧).

(٣) ممن أخذ عن الإمام أحمد ونقل عنه أشياء، لم تذكر سنة وفاته. انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى (١/ ٩٣)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٢٢٠).

(٤) المصادر السابقة.

وقال أبو الحسين بن سمعون[1] من أصحابنا الحنابلة للبرقاني[2] وقد قال له أيها الشيخ تدعون الناس إلى الزهد في الدنيا، وتلبس أحسن الثياب وتأكل أطيب الطعام فكيف هذا؟ فقال له: كلّ ما يُصلحُك مع اللهُ فافعله[3].

فهذا يدل على أن أفضلية العمل تكون فيما يصلُح القلب به؛ لأن المطلوب من العبد صلاحية القلب، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه إلى ذلك في هذا المقام في مواضع كثيرة من كلامه، وأن أعمال القلوب أفضل من أعمال الجوارح، ولهذا فضل إيمان أبي بكر إيمان غيره من الصحابة.

ولما ذكر المصنف رحمه الله باب الإرادة وأن الأعمال لا تنفع صاحبها حتى توافق إرادة الله سبحانه الشرعية، وهو أن يقصد العبد بعمله الله والدار الآخرة، بين أن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله ورسوله، وأن من أطاع أحدًا من أولياء الأمر في غير ما تضمن تحليله أو تحريمه الكتاب والسنة فقد اتخذهم أربابًا من دون الله تعالى، فإن هذا فيه نوع شرك سنبينه إن شاء الله تعالى في بابه، فهذان البابان قد دخل معناهما فيما قرن في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ

---

(1) محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو الحسين المعروف بابن سمعون، كان واحد دهره، وفريد عصره في الوعظ والإرشاد، والصدع بالحق أمام السلاطين، توفي سنة ٣٨٧هـ.
انظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٣٤٠)، مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي (ص٦٢٤).

(2) أحمد بن محمد بن أحمد، أبوبكر البرقاني، الإمام العلامة، الحافظ الثبت، شيخ الفقهاء والمحدثين، صاحب التصانيف، توفي سنة ٤٢٥هـ ببغداد.
انظر: المنتظم، ابن الجوزي (٨/ ٧٩)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٧/ ٤٦٤).

(3) المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٣٤٠).

ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

فالباب الأول من باب الكلم الطيب، وهذا الباب الآتي من باب العمل الصالح، وذلك عام في العبادات والمعاملات لمن تأمله، مع أن المعاملات مع التحقيق داخلة في الحقيقة في العبادات، وفي قوله ﷺ في النفقة يحتسبها الرجل(١) دليل على أن النفقة على العيال وإن كانت من أفضل الطاعات فإنما تكون طاعة إذا نوى بها وجه الله عز وجل، وكذا نفقته على نفسه وزوجته ودابته وغير ذلك، حتى سعيه في اكتساب دنياه ومعاملاته إذا نوى بذلك الطاعة لله تعالى من أدّى ما وجب عليه، وأن يستعين بنفقته على نفسه وغيرها من النفقات على طاعة الله سبحانه.

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «حتى ما تجعل في في امرأتك»(٢)، [ك،١٤٧/أ] بيانٌ لهذه القاعدة المهمة، بأن ما أريد به وجهُ الله والدارُ الآخرةُ ثبت فيه الأجر في الآخرة، وإن حصل لفاعله حظ نفس، فإذا كان الذي هو من حظوظ النفس بالمحل الذي ذكرناه إذا أريد به وجه الله، فكيف الظن بغيره وهو مباعد لحظوظ النفس، وتمثيله باللقمة مبالغة في تحقيق هذه القاعدة النافعة ولذلك قال رحمه الله:

---

(١) يشير إلى حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعًا: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك».

أخرجه البخاري في الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة (١/ ٣٠)، وأحمد في مسنده (١/ ١٧٢)، والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٣٨٣٦).

(٢) جزء من الحديث السابق.

الباب السابع والثلاثون

باب من أطاع العلماء والأمراء

الطاعة هي موافقة الفعل للقول المتوجه عليه، فهي أعم من القربة، فإن النظر الأول يقع طاعة ولا يصح أن يقع قربة للجهل بالمتقرب إليه.

واختلف في هذه الطواعية هل هي مقرونة بإرادة، أم هي عبارة عن تصورها بالفعل المأمور به حتى تتبعها الإرادة، على قولين للعلماء رحمهم الله تعالى، واقتصر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في المسودة في الأصول على أن الطاعة موافقة الإرادة(١).

ولما كان يلزم طاعة العالم فيما أفتى وأخبر، وطاعة الأمير فيما أمر وحكم وكلما تأكد الأمر به تأكد الأمر فيه بالطاعة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

قال المفسرون في الآية قولين: قيل: العلماء، وقيل: الأمراء. والقولان صحيحان، لأن السلف رضي الله عنهم لا يولون عاملاً إلا عالمًا، فلما رأى الناس الأمراء جهالاً بالأحكام الشرعية من الكتاب والسنة خصوا بذلك العلماء، وقد صرح العلماء رضي الله عنهم أنه لا يجوز أمير غير عالم إلا لضرورة وحاجة يقلد فيها أهل العلم، ولهذا قال البخاري والإمام أحمد وغيرهما في قوله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي

(١) انظر: المسودة في أصول الفقه (ص ٤٤).

على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم»[1]، وفي لفظ «من خالفهم حتى يأتي أمر الله» هم: العلماء[2].

وقال ابن أبي طلحة[3] عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: أهل الفقه والدين[4]. وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن وأبو العالية وغيرهم من السلف[5].

فلما كان الأمر كذلك احترز المصنف رحمه الله عن ذلك بقوله: **(في تحريم ما أحل الله)** سبحانه **(أو تحليل ما حرمه)** لأن ذلك معصية لله سبحانه ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقد قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [يونس: ٥٩ـ ٦٠] الآية.

ولذلك قال الشيخ: **(فقد اتخذهم أرباباً من دون الله)**.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية (٣/ ١٣٣١) من حديث المغيرة بن شعبة، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي (٣/ ١٥٢٣).

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١٣/ ٢٩٣).

(٣) هو علي بن أبي طلحة سالم مولى بني العباس، أرسل عن ابن عباس ولم يره، صدوق قد يخطىء، مات سنة ١٤٣هـ.

انظر تهذيب التهذيب (٧/ ٣٣٩)، وتقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٤٠٢).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/ ١٤٩)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/ ٥٧٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢١١).

(٥) أخرجها ابن جرير في تفسيره (٥/ ١٤٩)، وانظر: الدر المنثور (٢/ ٥٧٥).

والرب عند العرب هو السيد المطاع. قال ابن حلزة[1] في المنذر بن ماء السماء[2] وقد حضرهم يوم الحيارين[3] يذكره ما صنع في ذلك اليوم:

وهو الرب والشهيد علي يوم   الحيـاريـن والبـلاء بـلاء[4]

وسبب ذلك التحريم والتحليل الإحداث في الدين، وقد حذّر رسول الله ﷺ عن ذلك أشد التحذير.

ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله قال: «كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: بُعثت أنا والساعةُ كهاتين، ويقرب بين أصابعه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»[5].

وفي رواية للنسائي «وكل ضلالة في النار»[6].

---

(١) هو الحارث بن حلزة اليشكري، من بني يشكر من بكر بن وائل، شاعر جاهلي، أحد أصحاب المعلقات.

انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٩٧)، الأغاني، الأصبهاني(٩/ ١٧١).

(٢) ثالث المناذرة ملوك الحيرة في الجاهلية، ومن أرفعهم شأنًا وأشدهم بأسًا، هلك نحو ٦٠ق.هـ. انظر: الأعلام، الزركلي (٧/ ٢٩٢).

(٣) الحيارين، بكسر الحاء والراء، وهو يوم من أيام العرب، للمنذر بن ماء السماء ومعه بنو يشكر على أهل الحيارين. انظر: معجم البلدان، ياقوت (٢/ ٣١٥)، شرح القصائد السبع الطوال، ابن الأنباري (ص ٤٧٦).

(٤) انظر: شرح القصائد السبع الطوال، ابن الأنباري (ص ٤٧٦).

(٥) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/ ٥٩٢)، والبيهقي في سننه (٣/ ٢١٣).

(٦) أخرجه النسائي في صلاة العيدين، باب كيف الخطبة (٣/ ١٨٨).

وفي الصحيحين عن عائشة مرفوعًا: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»(١).

وفي حديث العرباض بن سارية(٢) الذي عند أهل السنن مرفوعًا أنه ﷺ قال: «من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»(٣).

وهذه قاعدة دلت عليها السنة وإجماع الأمة، مع ما في كتاب الله من الدلالة عليها أيضًا، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

فمن ندب إلى شيء يتقرب به إلى الله سبحانه أو أوجبه بقوله أو فعله من غير أن يشرعه الله سبحانه، فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله تعالى،

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢/ ٥٩٥) ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة (٣/ ١٣٤٣).

(٢) الفزاري السلمي، من البكائين، ممن نزل فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ...﴾ الآية، أبو نجيح، ممن سكن الشام، مات سنة ٧٥هـ.

انظر: مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان (ص ٥١)، الطبقات، خليفة (ص ٣٠١).

(٣) أخرجه أبو داود في السنة، باب في لزوم السنة (٤/ ٢٠٠)، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (٥/ ٤٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء (١/ ١٥)، وأحمد في مسنده (٤/ ١٢٦)، والدارمي في سننه (١/ ٥٧)، والحارث في مسنده كما في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (١/ ٤٠٢)، وابن حبان في صحيحه (١/ ١٨٧)، والطبراني في الكبير (١/ ٢٤٦)، والأوسط (١/ ٧٨)، والحاكم في مستدركه (١/ ١٧٤) وقال: هذا حديث صحيح ليس له علة ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (١٠/ ١١٤)، وقال الألباني في إرواء الغليل (٨/ ١٠٧): صحيح.

وكذا من حرم ما أحله الله، ومن اتبعه في ذلك فقد اتخذه شريكًا به شرع من الدين ما لم يأذن به الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وقد يكون هذا متأولاً في هذا الشرع فيُغفر له لأجل تأويله إذا كان مجتهدًا الاجتهاد الذي يُعفى عنه معه عن الخطأ، ويثاب أيضًا على اجتهاده، ولكن لا يجوز اتّباعه في ذلك، كما لا يجوز اتباع سائر من قال أو عمل قولاً أو عملاً قد علم الصواب في خلافه، نعوذ بالله من العمى والخذلان.

وأما قوله ﷺ في الأمراء كما في الحديث الصحيح: «اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك[1]»، وما ورد في هذا الباب من هذا الضرب، من الحث على السمع والطاعة، فإنما ذلك من الحث على توقير جماعة المسلمين وائتلافهم، وكفًّا عن تفرقهم واختلافهم المنهي عنه، الذي يوصلهم وينتهي بهم إلى وضع السيف فيهم من بعضهم بعضًا، فأمر ﷺ بالصبر على أدنى المفسدتين حذرًا من أكبرهما، فهو مركّب على درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا حث ﷺ على الصبر على جور الأئمة، وأمر بإعطائهم حقهم مع ذلك، حتى أنه أمر بالصلاة مع الذين يؤخرونها منهم عن وقتها طلبًا لجمع القلوب[2]، ودفعًا بذلك للمضار واستجلابها عليهم بمفارقتهم في

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال (٣/ ١٤٧٥).

(٢) يشير بذلك إلى حديث أبي ذر قال: «قال رسول الله ﷺ ـ وضرب فخذي ـ: كيف أنت إذا بقيت في قوم يؤخرون الصلاة عن وقتها؟ قال: ما تأمر؟ قال صل الصلاة لوقتها ثم اذهب لحاجتك، فإن أقيمتِ الصلاة وأنت في المسجد فصل.

أخرجه مسلم في المساجد، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها المختار (١/ ٤٤٨)، =

ذلك، وصبر هو على أذى المنافقين له وللمؤمنين محافظةً على التئام جماعتهم، وليحصل بذلك التناصر والتعاون على العدو [ك،١٤٨/ب] الظاهر، إذ هو ﷺ طبيب الأمة، وهو أعلم بمصالحها وما يصلح لها من جهة أمر مرسله عز وجل، ولهذا قال فيه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وهذا بخلاف التحليل والتحريم لما لم يأذن الله به، فإن ذلك بابه مسدود بأجمعه؛ إذ هو من أنواع الشرك كما مر بيانه والله الموفق.

ولهذا (قال) عبدالله (بن عباس رضي الله عنه) هو عبدالله ابن عم النبي ﷺ ولد في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وحنّكه رسول الله ﷺ بريقه المبارك، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان جسيمًا طويلاً أبيض مشربًا صفرة، صبيح الوجه ذا وفرة يخضب بالحناء، قال عطاء: ما رأيت القمر ليلة البدر إلا [ذكرت] وجه ابن عباس[1]. وكانت الصحابة رضي الله عنهم يعظمونه ويرجعون إلى قوله مع حداثة سنه، رأى جبريل عليه السلام مرتين[2]، وكان إذا رؤي قيل أجمل الناس، وإذا تكلم قيل أفصح الناس، وإذا تحدث قيل أعلم الناس.

وقد ذكرنا وفاته بالطائف سنة ثمان وستين أيام ابن الزبير، وقد كان

= والنسائي في الإمامة، باب إعادة الصلاة بعد ذهاب وقتها مع الجماعة (٢/ ١١٣)، وأحمد في مسنده (٥/ ١٤٧)، والدارمي في سننه (١/ ٣٠٤) وغيرهم.

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي (٣/ ٣٣٧)، وقد وقع في الأصول: (وكبرت) بدل [ذكرت].

(٢) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٣٤٤).

عبدالله بن الزبير أمره وأخاه عبيد الله بن عباس[1] أن يرتحلا من مكة للطائف، فمات بها وله من العمر إحدى وسبعون سنة، وصلى عليه محمد بن الحنفية[2]، وكفّ بصره آخر عمره، وفيه يقول حسان:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل   بمنتظمات لا ترى بينها فصلا[3]

وقال فيه أبو الطفيل[4] وفي أخيه رضي الله عنهم:

كنا نجيءُ ابن عباسٍ فيُقبسنا   فقهًا ويكسبنا أجرًا ويهدينا

ولا يزال عبيد الله مترعةً   جفانه مُطعمًا ضيفًا ومسكينا

فالبر والدين والدنيا بدارهما   ننال منها الذي نبغى إذا شينا

إن النبي هو النور الذي كُشفت   به عَمايات باقينا وماضينا

---

(١) يكنى أبا محمد، وهو أصغر من عبدالله بسنة، رأى النبي ﷺ وصحبه وسمع منه، كان سخيا جوادا، وكان إذا قدم مكة أوسع أهلها طعاما، وأخوه عبدالله علما، أخباره في الجود كثيرة، توفي سنة ٥٨هـ وقيل ٨٧هـ بالمدينة.

انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٣/ ٥١٢)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٤٣٠).

(٢) هو محمد بن علي بن أبي طالب، أبو القاسم المشهور بابن الحنفية، أمه خولة بنت جعفر الحنفية، ينسب إليها تمييزًا عن إخوته، كان واسع العلم، ورعا، أسود اللون، شجاعا، أحد الأبطال، ولد بالمدينة وبها توفي سنة ٨١هـ.

انظر: الطبقات، ابن سعد (٥/ ٦٦)، صفة الصفوة، ابن الجوزي (٢/ ٤٢).

(٣) انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٣٢٢).

(٤) هو عامر بن واثلة الكناني القرشي، أبو الطفيل، شاعر كنانة، وأحد فرسانها، ومن ذوي السيادة فيها، روى عن النبي ﷺ تسعة أحاديث، توفي بمكة، وهو آخر الصحابة وفاة بها، سنة ١٠٠هـ على خلاف.

انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ١١٣)، تهذيب تاريخ دمشق، ابن عساكر (٧/ ٢٠٠).

وأهله عصمة في ديننا ولهم حق علينا وحق واجب فينا

ففيم تمنعنا منهم وتمنعهم منا وتؤذيهم فينا وتؤذينا

ولست فاعلم بأولاهم به رحمًا يابن الزبير ولا أولى به دينا

لن يؤتي الله إنسانًا ببغضهم في الدين عزًّا ولا في الأرض تمكينا[1]

في أبيات منع من إيرادها الأمر بالسكوت عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم من جهة عبدالله بن الزبير.

قال ابن عبدالبر: وروي عن عبدالله بن عباس أنه رأى رجلاً مع النبي ﷺ فلم يعرفه، فسأل النبي ﷺ هل رأيته؟ قال: نعم، قال: ذاك جبريل عليه السلام، أما إنك ستفقد بصرك فعمي بعد ذلك في آخر عمره[2].

وهو القائل في ذلك:

إن يأخذ الله من عينيّ نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور

قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخَل وفي فمي صارم كالسيف مأثور[3]

وكان أبوهما العباس رضي الله عنهم هو أصلب قريش رأيًا، وقد تكلم يوم موت النبي ﷺ بكلام من جنس كلام أبي بكر الصديق، وحضر مع النبي ﷺ بيعة الأنصار يوم العقبة وهو على دين قومه ليشد

---

(١) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٣٤٨).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

لرسول الله ﷺ العقد[١].

فلما نهى معاوية رضي الله عنه عن متعة الحج في خلافته أنكر عليه سعد وابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم بأن المتعة في كتاب الله وسنها رسول الله ﷺ، وذلك عند الإمام أحمد في مسنده وغيره، وعنده: فقال عروة بن الزبير: نهى أبوبكر وعمر عن المتعة، فقيل ذلك لابن عباس، فقال: مجيبًا لعروة لما عارض بقول الخليفتين الراشدين المهديين المحضوض على متابعتهما: **(يوشك)** أي: يقرب أو يسرع وهو بكسر الشين المعجمة، يقال: أوشك يشك ويوشك قال جرير بن الخطفى:

إذا جهـل اللئيـم ولـم يقـدّر لبعض الأمر أوشك أن يصابا[٢]

والعامة يقولون يوشك بفتح الشين المعجمة وهي لغة رديئة، قاله النووي في شرح البخاري.

(أن ينزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، **وتقولون: قال أبوبكر وعمر؟)**[٣].

---

(١) انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٢٦٣).

(٢) شرح ديوان جرير (ص ٥٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٣٧)، وابن إسحاق كما في المطالب العالية (١/ ٣٦٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٤٥)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٢/ ١٩٦)، وعزاه ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٦٦) إلى الضياء في المختارة، وقال: حديث حسن، وقال أحمد شاكر في عمله على المسند (٥/ ٤٨): إسناده صحيح.

وفي رواية عند الإمام أحمد وغيره قال ابن عباس: «أراهم سيهلكون، أقول قال رسول الله ﷺ، ويقولون نهى أبوبكر وعمر»[1].

وعند الدارمي بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أما تخافون أن تعذبوا أو يخسف بكم، أن تقولوا: قال رسول الله ﷺ وقال فلان[2].

وفي الصحيحين أن ابن عباس رضي الله عنهما أمر بالمتعة وقال: سنة أبي القاسم[3].

وقد قال أناس لابن عمر رضي الله عنهما كيف تخالف أباك وقد نهى عنها؟ فقال: ويلكم ألا تتقون الله! إن كان عمر نهى فيبتغي فيه الخير يلتمس به تمام العمرة، فلم تحرّمون ذلك وقد أحله الله وعمل به رسول الله ﷺ؟، فرسول الله أحق أن تتبعوا سنته أم سنة عمر؟ لم يقل لكم إن العمرة في أشهر الحج حرام ولكنه قال: إن أتم العمرة أن تفردوها من أشهر الحج.

روى ذلك عن ابن عمر الإمام أحمد والترمذي والنسائي بهذا المعنى[4].

---

(١) مسند أحمد (١/ ٣٣٧).

(٢) سنن الدارمي (١/ ١٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في الحج، باب فيمن تمتع بالعمرة إلى الحج (٢/ ٦٠٥)، ومسلم في الحج، باب في متعة الحج (٢/ ٩٠٩).

(٤) أخرجه الترمذي في الحج، باب ما جاء في التمتع (٣/ ١٨٥) وقال بهامشه أحمد شاكر: لم يخرجه من أصحاب الكتب الستة غير الترمذي، وأحمد في مسنده (٢/ ٩٥)، والبيهقي في سننه (٥/ ٢١)، وقال الألباني في صحيح الترمذي (١/ =

ولمسلم في صحيحه أن عمر رضي الله عنه قال لأبي موسى في قصة ذكرها: قد علمت أن النبي ﷺ قد فعله وأصحابه، ولكني كرهت أن يظلوا معرسين بهن في الأراك ثم يروحون في الحج[1].

وقد قال الإمام أحمد في رواية الأثرم[2]: المتعة في كتاب الله، وأجمع الناس عليها.

فالحاصل أنه إذا كان هذا قول ترجمان القرآن حبر هذه الأمة بلا مدافع المفقَّه في الدين المفهَّم للتأويل، فيمن عارض قول رسول الله [ك،١٤٨/أ] ﷺ، بقول من قد أمرنا باتباعهما والاهتداء بهديهما وهما أفضل الخلفاء الراشدين بل أرشدهم، وأحدهما الذي قال الله تبارك وتعالى فيه في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقد أجمع المسلمون على أن الصاحب المذكور هو أبوبكر الصديق رضي الله عنه.

وروى أبو حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:

= ٢٤١٧): صحيح الإسناد.

(١) أخرجه مسلم في الحج، باب في نسخ التحلل من الإحرام والأمر بالتمام (٢/ ٨٩٦)، والنسائي في الحج، باب التمتع (٥/ ١٥٣)، وابن ماجه في المناسك، باب التمتع بالعمرة إلى الحج (٢/ ٩٩٢).

(٢) هو أحمد بن محمد بن هاني الطائي الأثرم، كان إمامًا جليلاً حافظًا من خيار عباد الله، لازم الإمام أحمد ونقل عنه مسائل كثيرة، توفي سنة ٢٦٠هـ. انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى (١/ ٦٦)، المنهج الأحمد، العليمي (١/ ٢١٨).

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة: ٤٠]. قال: على أبي بكر، فإن النبي ﷺ لم تزل السكينة عليه[١].

وعند ابن عساكر عن سفيان بن عيينة قال: عاتب الله المسلمين كلهم في رسول الله ﷺ، إلا أبابكر وحده فإنه خرج عن المعاتبة، ثم قرأ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[٢] [التوبة: ٤٠].

ويروى أن رجلاً قرأ سورة التوبة عند أبي بكر فلما بلغ: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ بكى أبوبكر رضي الله عنه وقال: أنا والله صاحبه[٣].

وقد أجمع من يعتد بإجماعه من هذه الأمة أنه أفضلها بعد نبيها ﷺ، وقد جمع الله لأبي بكر بالإسلام أبويه وبنيه، وأمه أم الخير لا تعرف إلا بذلك، فهي على اسمها أم الخير، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر عم أبيه، تيمية[٤].

والثاني: الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال فيه رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد والترمذي وقال حسن صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: إن الله جعل الحق على

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه كما في الدر المنثور (٤/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه ابن عساكر كما في الدر المنثور (٤/ ١٩٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤/ ٢٠٢).

(٤) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٢٣٤).

لسان عمر وقلبه[1].

ورواه الحاكم وصححه وأبو داود عن أبي ذر الغفاري، وأبو يعلى والحاكم أيضًا عن أبي هريرة وقال الحاكم على شرط مسلم وأقره على ذلك الذهبي وغيره[2].

وفي لفظ عند الإمام أحمد وابن ماجه وأبي يعلى عن أبي ذر: «إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به»[3].

قالوا: وله طرق. وعند ابن عساكر عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا: «إن الله جعل السكينة على لسان عمر وقلبه يقول بها»[4].

وعند ابن أبي شيبة بسند صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كنا نتعاجم ـ أي: نكني ونوري ـ أن ملكًا ينطق على لسان عمر رضي الله عنه[5].

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب في مناقب عمر (٥/ ٦١٧) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأحمد في مسنده (٢/ ٥٣)، وعبدالله بن أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٥٠)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٣١٨)، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٠٢)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (ص ٢٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة، باب تدوين العطاء (٣/ ١٣٩)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل عمر (١/ ٤٠)، وأحمد في المسند (٢/ ٤٠١)، (٥/ ١٤٥)، وعبدالله في فضائل الصحابة (١/ ٤٣١، ٤٥١)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٩٣) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل عمر (١/ ٤٠)، وأحمد في المسند (٥/ ١٦٥).

(٤) تاريخ دمشق (٤٨/ ٧٣).

(٥) أخرجه في مصنفه (٦/ ٣٥٤).

وروى أبو سليمان الخطابي بسنده عن علي رضي الله عنه ما لفظه: كنا أصحاب محمد ﷺ لا نشك أن السكينة تكلم على لسان عمر[1].

وعند الخطابي من حديث عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: دخلت على أبي بكر في علته التي مات فيها فقلت: أراك بارئًا يا خليفة رسول الله، فقال: أما إني على ذلك لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين الأولين أشد علي من وجعي، إني وليت أموركم خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه ألا يكون له الأمر دونه، والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير، ولتألمن النوم على الصوف الأذربي كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان، والله لأن يُقَدّم أحدكم فتضرب رقبته في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا، يا هادي الطريق جُرْت إنما هو الفجر أو البجر[2].

والأذربي منسوب إلى أذربيجان[3] والعرب تسكن ذاله كما قال الشاعر[4]:

تذكرتها وهْنًا وقد حال دونها   قرى أذربيجان المسالح والجالي

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٨).

(٣) أذربيجان: بالفتح، ثم السكون، وفتح الراء وكسر الباء الموحدة، وياء ساكنة، وجيم، والنسبة إليها أذري، وقيل أذربي، ومعناه بالفارسية: بيت النار، مملكة عظيمة، فتحها حذيفة بن اليمان صلحا، وكانت إلى عهد قريب تحت حكم الروس الشيوعيين، واستقلت بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

انظر: معجم البلدان، ياقوت (١/ ١٢٨)، غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٩).

(٤) هو الشمّاخ، انظر ديوانه ص ١٠٠، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٤هـ.

وقوله: «إنما هو الفجر أو البجر»، مثل، والبجر [الداهية][1] والأمر العظيم. يقال: جئت يا هذا ببجر، أي بأمر عظيم منكر. يقول إن نظرت حتى يضيء لك الفجر أبصرت الطريق، وإن خبطت الظلماء أفضت بك إلى [المكروه[2]][3] ويروى البحر والنحر بتقديم الموحدة والنون على الحاء المهملة، والأول بالموحدة والجيم، ومنه قول عمر رضي الله عنه اللهم إني أشكو إليك عُجَري وبُجَري[4].

فجعل الصديق -رضي الله عنه وناهيك به- عمر خير المهاجرين الأولين بعده، وكفى بهذا فضلاً له.

قلت: وقد نفعت هذه الموعظة من الصديق عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما وذلك أنه لما أصيب عمر، وجعل الخلافة شورى بين من بقي من العشرة عافها عبدالرحمن، وكان هو سبب صلاح الأمر بين الباقين، حتى وقع الأمر على الاتفاق على عثمان رضي الله عنهم[5]، فعمر هو أفضل الصحابة رضي الله عنهم بعد الصديق، وقد أخبر ﷺ أن

(١) غريب الحديث للخطابي (٢/ ٣٩)، وغير مقروء في الأصل.
(٢) من غريب الحديث للخطابي (٢/ ٣٩)، وغير مقروء في الأصل.
(٣) من غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٩).
(٤) نسب هذا الأثر إلى علي بن أبي طالب الخطابي في غريب الحديث (٢/ ١٥٦)، والرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ١٣٤)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١/ ٣٦) وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٢٦٠): قال الأصمعي: معناه: سرائري وأحزاني التي تموج في جوفي.
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١/ ٨٦).

الشيطان يفر منه، وأنه إن يكن في أمته محدثون فعمر منهم. ووافق ربه في نزول آيات من القرآن العظيم. فإذا كان قول ترجمان القرآن فيمن يعارض قول رسول الله ﷺ بقول هذين الخليفتين المهديين الراشدين، الذين قد أمرنا باتباعهما والاهتداء بهديهما، فكيف بمن يعارض بقول غيرهما، بل كيف بمعارض كلام رب العالمين الذي هو أصدق القائلين، وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، فليحذر الإنسان ما يؤول به إليه هذا الأمر، وهكذا (قال) إمام السنة وعالم الأمة قامع البدعة، الصابر في المحنة لإزاحة الفتنة، المجمع على عدالته وديانته وزهده وورعه وإمامته وأمانته، وتقدمه بالعلم بالكتاب والسنة على سائر الأمة[1]، **(الإمام)** المبجل والحبر المفضل أبو عبدالله **(أحمد)** بن محمد ابن حنبل الشيباني من شيبان الأكبر، يلتقي نسبه ونسب النبي ﷺ في نزار بن معد بن عدنان، مناقبه معلومة مشهورة، وفي كتب علماء أعلام الإسلام مثبتة مسطورة، فرحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن أمة محمد ﷺ أحسن جزاء ومقوله، هذا ما نقله أبو طالب عنه قال: عجبًا، وفي لفظ: **(عجبت لقوم عرفوا الإسناد)**.

الإسناد: هو رفع الحديث إلى قائله[2]، وهو من خصوصية هذه الأمة.

قلت: ومما يدل على طلبه والاعتماد عليه قوله ﷺ فيما صح عنه أنه قال في حجة الوداع: فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى

---

(١) يقصد في زمنه، لأنه لا يمكن أن يقال فيه هذا بجانب القرون المفضلة الأولى، وقد مر ما يشهد لهذا قبل قليل من كلامه رحمه الله.

(٢) انظر: تدريب الراوي، السيوطي (ص ٤٢).

من سامع[1].

وقد قال هذا في خطبته يوم النحر بحضرة الحاضر والبادي المتأدب والجافي، فدل بذلك أنه مطلوب للأمة ومعتبر.

وعند الترمذي وغيره عن عبدالله بن المبارك أنه قال: الإسناد من لدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء[2].

ولما قال سلمة بن شبيب المسمعي النيسابوري[3] الثقة للإمام أحمد: يا أبا عبدالله قوّيت قلوبَ الرافضة، وفي لفظ: كل شيء منك حسن جميل إلا خلة واحدة، فقال أحمد وما هي: قال: تقول بفسخ الحج. قال له أحمد: كنت أرى لك عقلاً، عندي ثمانية عشر حديثاً صحاحًا جيادًا، كلها [ك،١٤٩/ب] في فسخ الحج اتركها لقولك[4]!

وقد قال أبو نصر بن سلام: ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا

---

(١) جزء من حديث أبي شريح عند البخاري في العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب (١/ ٥١)، ومسلم في الحج، باب تحريم مكة (٢/ ٩٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة، باب بيان أن الإسناد من الدين (١/ ١٥)، والترمذي في العلل (٥/ ٧٤٠)، وأبو الوليد الباجي في التعديل والتجريح (١/ ٢٨٩)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢/ ١٥)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص ٧)، والحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ٥).

(٣) أبو عبدالرحمن الحجري المسمعي النسائي نزيل مكة، إمام حافظ، ثقة عالم، من شيوخ مسلم صاحب الصحيح، وممن لازم الإمام أحمد، توفي بمصر سنة ٢٤٧هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٢/ ٢٥٦)، الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (٤/ ١٦٤).

(٤) انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى (١/ ١٦٨).

أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته وإسناده.

وقد عاب بعضهم على حفاظ الحديث الكلام في الرواة، وعدّوه غيبة، وإنما هو عين النصيحة، قال الترمذي رحمه الله تعالى: وقد عاب من لا يفهم على أهل الحديث الكلام في الرجال، قال: وقد وجدنا غير واحد من الأئمة من التابعين قد تكلموا في الرجال وضعفوا، وعد جماعة[1].

قال: وإنما حملهم على ذلك عندنا والله أعلم النصيحة للمسلمين، لا يظن بهم أنهم أرادوا الطعن على الناس أو الغيبة، وإنما أرادوا عندنا أن يبينوا ضعف هؤلاء لكي يُعرفوا، لأن بعضهم من الذين ضعفوا كان صاحب بدعة، وبعضهم كان متهمًا في الحديث، وبعضهم كانوا أصحاب غفلة وكثرة خطأ، فأراد هؤلاء الأئمة أن يبينوا أحوالهم شفقةً على الدين وتثبيتًا، لأن الشهادة في الدين أحق أن يُتثبت فيها من الشهادة في الحقوق والأموال[2].

ثم روى عن ابن سيرين[3] بسنده أنه قال: كان في الزمن الأول لا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة سألوا عن الإسناد، لكي يأخذوا حديث أهل السنة ويدعوا حديث أهل البدع[4].

فبما ذكرنا يعلم أنه لا يعرف صحة الإسناد من ضعفه إلا بذلك.

---

(١) سنن الترمذي، العلل (٥/ ٧٣٨).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٧٣٩).

(٣) هو محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبوبكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، من سادات التابعين، اشتهر بالورع وتعبير الرؤيا، توفي سنة ١١٠هـ.
انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ٢٦٣)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٩/ ٢١٤).

(٤) أخرجه مسلم في المقدمة، باب بيان أن الإسناد من الدين (١/ ١٥)، والترمذي في العلل (٥/ ٧٤٠).

وذكر عماد الدين ابن كثير: أن رجلاً سمع الإمام أحمد وهو يتكلم في بعض الرواة فقال: أتغتاب العلماء؟ فقال له أحمد: ويحك هذا نصيحة، ليس هذا غيبة[١]. وقال في رواية أخرى: الإسناد العالي سنة عمن سلف[٢].

وقيل ليحيى بن معين رحمه الله تعالى في مرض موته: ما تشتهي؟ قال: بيتٌ خالٍ، وإسنادٌ عالٍ[٣].

فالإسناد من خصائص هذه الأمة، وذلك أنه ليس أمة من الأمم يمكنها أن تسند عن نبيها إسنادًا متصلاً بالإسناد العالي غير هذه الأمة، فلهذا كان طلب الإسناد مرغبًا فيه، ولذلك قال ﷺ في حديث ابن عمر بن الخطاب الذي عند الإمام أحمد والبخاري في صحيحه والترمذي في العلم: بلغوا عني ولو آية[٤]، وفي رواية: وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار[٥].

مع ما أشرنا إليه من قوله الصحيح في خطبته ﷺ يوم منى: فليبلغ

---

(١) علوم الحديث (ص ٢٣٨)، الكفاية في علوم الرواية، الخطيب (ص ٤٥)، تدريب الراوي، السيوطي (٢/ ٣٦٩).

(٢) علوم الحديث (ص ١٥٥)، المنهل الروي، ابن جماعة (ص ٦٩)، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب (١/ ١٢٣)، تدريب الراوي، السيوطي (٢/ ١٦٠).

(٣) علوم الحديث، ابن كثير (ص ١٥٥).

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣/ ١٢٧٥)، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل (٥/ ٤٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند (٢/ ٢٠٢)، كلهم من حديث عبدالله بن عمرو ابن العاص، لا من حديث عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين كما ذكر المصنف.

(٥) ما ذكره المصنف ليس رواية مستقلة بل هي تكملة للحديث وجزء منه.

الشاهد منكم الغائب[1]. وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ولا يبلَّغُ الشيءَ أحدٌ إلا بمبلِّغ.

وقال أبوبكر الخطيب عمن عاب ذلك بإسناده إلى أبي بكر محمد بن أحمد المفيد الجرجاني قال أنشدني الحسن بن علي الباغاني من أهل باغية المغرب[2] قال أنشدني ابن حماد المغربي الباغاني لنفسه منتقصًا لأهل الحديث:

أرى الخير في الدنيا يقل كثيرهُ ... وينقص نقصًا والحديث يزيدُ

فلو كان خيرًا كان كالخير كله ... ولكن شيطان الحديث مَريدُ

ولابن معينٍ في الرجال مقالة ... سيُسأل عنها والمليك شهيدُ

فإن تك حقًّا فهي في الحكم غيبة ... وإن تك زورًا فالقصاص شديدُ[3]

قلت: فلما وقفت على هذه الأبيات أنشأت أبياتًا ردًّا على صاحبها، وأوردتها هنا لتعلم الفرق بين الغيبة والنصيحة عند السلف، وأنّ صحة الإسناد لا يعرف إلا بما عابه هذا العائب، كما لا يعرف زيف الدراهم إلا بالناقد، فقلت في ذلك طلبًا من الله جزيل جزائه، انتصارًا لأوليائه:

---

(١) مضى تخريجه قبل قليل.

(٢) مدينة بالأندلس من كورة البيرة بين المغرب والقبلة منها، قبلي قرطبة منحرفة عنها يسيرًا، وبينها وبين قرطبة خمسون ميلاً، اسمها باغة والنسبة إليها الباغاني.
انظر: معجم البلدان، ياقوت (١/ ٣٢٦).

(٣) الكفاية في علم الرواية، الخطيب (ص ٣٨).

تنقص يالمغرور قومًا حماهم مليـك يعلّـي مجـدهـم ويَشيـدُ

هم القوم أهل العلم والدين والنُّهى وأنت خلاء في الفلاء طريدُ

بهم يدفع الشيطان عن دين ربهم إلـهٍ علـى كـل العبـاد شهيـدُ

وأنت كما الشيطان ترميك شهبهم محسحس ريش الدفتين بعيدُ

منتج في باغية الخبث[1] راكس خبيث فما للخبث فيك مزيدُ

فإنك هيهاتَ العلا لك هالكٌ غـويـا وللشيطـان فيـك مقيـدُ

فلو قلبت جنباك منك رأيت ما تحسحس بالوحيين منك بديد

فحافظُ وحي الله شهب من السماء وفي الأرض حفّاظ الرجال تُجيدُ

فهيهات يحيى أجهد النفس وارتقا مـراقٍ كفتـه الـذم فيـك معيـدُ

فما في حفاظ الدين ويحك غيبة كمـا لـك فـي نقـد النقـود نقيـد

وما أحسن ما قال بعض الفضلاء:

عليك بأصحاب الحديث فإنهم على نهج للدين ما زال معلما

[ك، ١٤٩/أ]

وما النور إلا في الحديث وأهله إذا ما دجى الليل البهيم وأظلما

وأعلى البرايا من إلى السنن اعتزى وأعمى البرايا من إلى البدع انتمى

ومـن تـرك الآثـار ضلـل سعيـه وهل يترك الآثار من كان مسلما

وبهذا يُعلم أن الإسناد هو الذي يُعتمد في الحديث عليه، وعليه صحة

---

(١) لا نوافق الشارح سامحه الله على هذه القسوة والمجاوزة في الردّ.

الحديث وضعفه، مع أن كلام النبوة له نور في القلوب النيرة، ولذلك قال الإمام أحمد: (وصحته) يعني الإسناد، فعلى هذا السند والإسناد يتقاربان في معنى الاعتماد، وقيل إن أحدهما أخص من الآخر، فالإسناد رفع الحديث إلى قائله، مثاله: قال فلان: كذا وكذا فهو إسناد ليس سند، والسند إخبار عن طريق المتن، من قولهم فلان سند أي: معتمد فسمي سندًا، لاعتماد الحفاظ في صحة الحديث وضعفه عليه، فهو أخص والإسناد أعم على هذا المعني[1].

وحاصل الإسناد الصحيح على ما ذكره عماد الدين بن كثير في مختصر علم الحديث لابن الصلاح وغيره: أنه المتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله حتى ينتهي إلى النبي ﷺ، أو إلى منتهاه من صحابي أو من دونه، وأن لا يكون شاذًا ولا معللاً بعلة قادحة[2].

فعجب الإمام أحمد تعجب إنكار من الذين يعرفون صحة ذلك الإسناد المتصل إلى النبي ﷺ، على الصفة المذكورة في حكم صريح محكم غير منسوخ فيدعونه (ويذهبون إلى رأي سفيان).

قال أبو طالب في روايته عن أحمد: إلى رأي سفيان الثوري وغيره، وهو سفيان بن سعيد الكوفي الثوري الرباني، كان قد صنف كتابًا يسمى الجامع شبيهًا بالموطأ فقهًا، إذ هو الحبر العالم الرباني المضري من ثور بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس، وفيه يلتقى نسبه ونسب النبي ﷺ، كان رحمه الله إمامًا له مذهب، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته،

---

(١) انظر: تدريب الراوي، السيوطي (٢/ ٤٠).

(٢) اختصار علوم الحديث، ابن كثير (ص ٢٠).

وهو أحد الحفاظ المجتهدين المغفور لهم اجتهادهم.

قال أبو الفرج بن الجوزي: سبرت السلف كلهم فأردت أن أستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار من المجتهدين، وبين العمل حتى صار قدوة للعابدين، فلم أر أكثر من ثلاثة: الحسن البصري، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، قال: ولا أنكر على من ربّعهم بسعيد بن المسيب.

وقال سفيان بن عيينة: ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري.

وقال عبدالرحمن بن مهدي، ما عاشرت أرق من سفيان الثوري. وقال ابن مهدي أيضًا: أئمة الناس أربعة، الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، وحماد بن زيد بالبصرة، والأوزاعي بالشام[1].

وعن إبراهيم الحربي قال: سعيد بن المسيب في زمانه، وسفيان الثوري في زمانه، وأحمد بن حنبل في زمانه[2].

وقال عبدالله بن المبارك: كتبت عن ألف ومائة شيخ ما فيهم أفضل من سفيان الثوري[3]

وقال شعبة ويحيى بن معين وغيرهما: سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث[4].

---

(١) تاريخ بغداد، الخطيب (٤/ ٤١٦).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٤/ ١١٣).

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧/ ٢٣٦).

وقال عبدالرحمن بن مهدي أيضًا: سفيان الثوري إمام في الحديث وليس بإمام في السنة، وقد روي عنه أنه قال: ما أودعت قلبي شيئًا فخانني[(١)].

وقال الإمام أحمد: لا يتقدم سفيان الثوري في قلبي أحد.

وقال يحيى بن سعيد القطان: ما رأيت أحدًا أحفظ من سفيان الثوري، وهو فوق مالك في كل شيء[(٢)].

وقال أبو إسحاق في الطبقات: قال عبدالله بن المبارك: لا نعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان الثوري. قال: وقال علي بن المديني: سألت يحيى بن سعيد فقلت: أيما أحب إليك، رأي مالك أو رأي سفيان؟ فقال: سفيان لا أشك في هذا، ثم قال يحيى: سفيان فوق مالك في كل شيء[(٣)].

وعند الترمذي عن علي بن عبدالله يعني المديني قال سمعت يحيى بن سعيد يقول: ليس أحد أحب إلي من شعبة، ولا يعدله أحد عندي، وإذا خالف سفيان أخذت بقول سفيان[(٤)]. وعنده أيضًا عن وكيع أنه قال: قال شعبة: سفيان الثوري أحفظ مني[(٥)].

وكان سفيان كثير الحط على المنصور[(٦)] فهمّ به وأراد قتله فلما

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧/ ٢٣٦).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧/ ٢٣٩، ٢٤٦).

(٣) المصدر السابق (٧/ ٢٤٦).

(٤) سنن الترمذي، العلل (٥/ ٧٤٩)، تاريخ بغداد، الخطيب (٩/ ١٦٦).

(٥) سنن الترمذي، العلل (٥/ ٧٥٠).

(٦) هو عبدالله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر، المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، كان عارفًا بالفقه والأدب، محبًا للعلماء، توفي سنة ١٥٨هـ. =

قرب من مكة وسفيان فيها، أقسم سفيان الثوري على ربه في الملتزم ألا يدخلها فمات المنصور[(١)] خارجها. ذكره ابن جرير وغيره.

ولما قال له المهدي: يا سفيان تفر ههنا وههنا وتظن أن لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن فما عسى أن نحكم فيك بهوانا، فقال سفيان: إذا يحكم فيك ملك قادر عادل، يفرق في حكمه بين الحق والباطل، فأراد الربيع بن يونس[(٢)] وكان واقفًا على رأس المهدي بالسيف قتله، فقال له المهدي: ويلك وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم، فنشقى بسعادتهم؟ اكتبوا عهده على قضاء الكوفة، فكتب، فخرج به فرمى به في دجلة وهرب، فطلب فلم يوجد، وولي قضاءها شريك بن عبدالله النخعي[(٣)] فقال الشاعر:

تحــرز سفيــان وفــر بــدينــه ... وأمسى شريك مرصدًا للدراهم

وقد أخذ العلم عن أبي إسحاق السبيعي والأعمش ومن في طبقتهما، وسمع منه الأوزاعي وابن جريج ومالك وابن إسحاق ووكيع بن الجراح وابن عيينة وغيرهم، توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة متواريًا عن السلطان ولم يعقّب إلا العلم[(٤)].

= انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (١٠/ ٥٣)، الأعلام، الزركلي (٤/ ١١٧).

(١) انظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٦١)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٤/ ١١٤).

(٢) وزير عباسي، من موالي العباس، من العقلاء الموصوفين بالحزم، توفي سنة ١٦٩هـ.
انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٨٥)، تاريخ بغداد، الخطيب (٨/ ٤١٤).

(٣) الكوفي، أبو عبدالله، فقيه، محدث، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديهته، مات سنة ١٧٧هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ١٨٥)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٢٥).

(٤) انظر: الطبقات، ابن سعد (٦/ ٣٧١)، الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (١/ ٥٥)، =

وهذا يبين لك مع جلالة سفيان وعلو قدره أن قول الرسول ﷺ لا يعظم في جانبه شيء عند السلف والأئمة، ولهذا قال عالم قريش الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه: إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ فاضربوا بقولي الحائط[(١)].

ومن قول سفيان الثوري رحمه الله في المقام أنه قال: الإسناد سلاح المؤمن فإذا لم يكن له سلاح فبأي شيء يقاتل[(٢)].

وكان إمام دار الهجرة مالك بن أنس يبالغ في تعظيم السنة حتى قيل إنه لا يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على وضوء[(٣)].

وكذا ما يروى عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى من تعظيم ذلك[(٤)]، وكان شعبة بن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث لا يحدث عن رسول الله ﷺ إلا مفرغًا قلبه لذلك، فضلاً عن كونه على غير وضوء فإذا ضجر أمسك حتى [ك،١٥٠/ب] يستجم ويفرغ قلبه. فروى الحافظ أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي عن روح بن عبادة قال: كنا عند شعبة ابن الحجاج، فضجر من الحديث فرمى بطرفه، فرأى أبا زيد سعيد بن أوس بن ثابت[(٥)] الأنصاري في أخريات الناس، فقال يا أبا زيد:

= حلية الأولياء، أبو نعيم (٦/ ٣٥٦)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧/ ٢٢٩).

(١) أخرج البيهقي في المناقب (١/ ٤٧١)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٧) نحوه، وانظر: إعلام الموقعين، ابن القيم (٢/ ٢٨٢).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧/ ٢٧٣).

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٤١٠).

(٤) انظر: إيقاظ همم أولي الأبصار، الفلاتي (ص ٥٠).

(٥) من أئمة الأدب واللغة، من ثقات اللغويين، كان يرى رأي القدرية، له تصانيف منها «خلق الإنسان»، و«لغات القرآن»، و«الهمزة» توفي بالبصرة سنة ٢١٥هـ.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (٩/ ٧٧)، إنباه الرواة، القفطي (٢/ ٣٠).

استعجمت دار ميٍّ ما تكلّمُنا   والدار لو كلمتنا ذات أخبار

إليَّ يا أبا زيد، فجاءه فجعلا يتناشدان الأشعار، فقال بعض أصحاب الحديث: يا أبا بسطام نقطع إليك ظهور الإبل لنسمع منك حديث رسول الله ﷺ، فتدعنا وتقبل على الأشعار، قال: فرأيت شعبة قد غضب غضبًا شديدًا، ثم قال: يا هؤلاء أنا أعلم بالأصلح لي، أنا والله الذي لا إله إلا هو في هذا أسلم مني في ذاك[١].

وبهذا وأشباهه استحق هؤلاء أن يكونوا للدين أئمة يقتدى بهم، ويروى عن الإمام أحمد في هذا المعنى ضروب، وعن غيره من السلف والعلماء المعتبرين، قال ابن الجوزي بعد ذكره لنصوص من الكتاب والسنة: وهذه النصوص ظاهرة البرهان، لا يهولنك مخالفتها لقول معظم في النفس أو لطغام، وقد قال رجل لعلي رضي الله عنه: أتظن أن طلحة والزبير على خطأ وأنت على الصواب؟ فقال: إنه ملبوس عليك، اعرف الحق تعرف أهله[٢][٣].

وقال رجل للإمام أحمد: إن ابن المبارك قال كذا، فقال: إن ابن المبارك لم ينزل من السماء[٤].

---

(١) تاريخ بغداد (٩/ ٧٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ٣٤٠).

(٣) الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٣٠).

(٤) انظر: مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي (ص ٢٥٠)، الفروع، ابن الجوزي (٦/ ٤٣١).

وقال عثمان بن سعيد[1]: قال لي أحمد بن حنبل: لا تنظر في كتب أبي عبيد، ولا فيما وضع إسحاق ولا سفيان ولا الشافعي، ولا مالك، وعليك بالأصل[2].

وقال حنبل بن إسحاق: رأيت أبا عبدالله يكره أن يكتب شيء من رأيه أو فتواه[3].

وذلك منه محافظة على حفظ السنة.

وقال ابن الجوزي أيضًا: لما بعث الله محمدًا ﷺ بعثه على أقوم منهاج، وأحسن الآداب، فكان أصحابه على طريقته وجمهور التابعين، ثم دخلت آفات وبدع، فأكثر السلاطين يعملون بأهوائهم وآرائهم لا بالعلم، ويسمون ذلك سياسة، والسياسة هي الشريعة[4]. فإن أرحم الخلق بالأمة النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] والله تعالى أرحم بعباده، فالواجب اتباع طريق الرحمة.

قال ابن الجوزي: والتجار يدخلون في الربا ولا يعلمون، وقد

---

(١) الدارمي السجستاني، أبو سعيد، الإمام المحدث المسند، محدث هراة، له تصانيف نافعة في الرد على المبتدعة منها «الرد على الجهمية»، و«الرد على المريسي»، توفي سنة ٢٨٠هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ١٧٧)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٣/ ٣١٩).

(٢) مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي (ص ٢٤٩).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٥١).

(٤) الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٦٣١).

يعلمون ولا يبالون، وصار جمهور العلماء في تخليط منهم[1]. وقال: التقليد للأكابر أفسد العقائد، قال: ولا ينبغي أن يناظر بأسماء الرجال، إنما ينبغي تتبع الدليل، فإن أحمد بن حنبل أخذ في الجد بقول زيد[2]، وخالف أبابكر الصديق[3] رضي الله عنهما.

وقال شريح: إن السنة قد سبقت قياسكم فاتبع ولا تبتدع، فإنك لن تضل ما أخذت بالأثر[4].

وقال الشعبي: إنما الرأي بمنزلة الميتة إذا اضطررت إليها أكلتها.

رواهما البغوي في شرح السنة، وقال عبدالله بن الإمام أحمد: كان أبي يكره جامع سفيان الثوري وينكره[5].

قال عبدالله: وسألت أبي عن الرجل تكون عنده الكتب المصنفة، فيها قول رسول الله ﷺ واختلاف الصحابة والتابعين، وليس للرجل بصر بالحديث والإسناد القوي من الضعيف، أفيجوز له أن يعمل بما شاء ويتخير ما أحب فيفتي به ويعمل؟ قال: لا حتى يسأل ما يؤخذ به ويعمل على أمر صحيح، يسأل عن ذلك أهل العلم[6].

---

(١) الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٣٢).

(٢) هو زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي، أبو خارجة، من كبار الصحابة، كان كاتب الوحي، وكان رأسًا بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض، وممن كتب المصحف لأبي بكر ثم عثمان، توفي سنة ٤٥هـ.

انظر: غاية النهاية، ابن الجزري (١/ ٢٩٦)، الإصابة، ابن حجر (١/ ٥٤٣).

(٣) الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٣٢).

(٤) رواه الدارمي: ١/ ٧٧.

(٥) انظر: مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي (ص ٢٥٠)، رواية نحوها.

(٦) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم (٤/ ٢٠٦).

وعند أبي بكر الأثرم عن ابن عبدوس[١] قال: سمعت أحمد بن حنبل يقول: من لم يجمع علم الحديث وكثرة طرقها واختلافها، لا يحل له الحكم على الحديث ولا الفتيا به[٢].

ونقل عنه أبو الحارث قال: لا يجوز الاختيار إلا لعالم بالكتاب والسنة مميز فيختار الأقرب والأشبه منهما فيعمل به[٣].

وقال الإمام الشافعي: لا ينبغي للمفتي أن يفتي حتى يكون عالمًا بالكتاب ناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه، وفرضه وأدبه، عالمًا بالسنن وأقاويل أهل العلم قديمًا وحديثًا، عالمًا بلسان العرب، عاقلاً يميز بين المشتبه، ويعقل القياس عدلاً. زاد البيهقي عنه في القديم، أن يكون عالمًا كيف يأخذ الأحاديث صحيحها من ضعيفها، وهل لها معارض أم لا، وما معناها، وما يؤخذ به منها عند أهل العلم[٤]. وكان السلف يعظمون الإقدام على الحديث إلا لمتأهل لذلك.

قال ابن القيم رحمه الله في الإعلام: لا يجوز لأحد أن يأخذ من الكتاب والسنة ما لم تجتمع فيه شروط الاجتهاد من جميع العلوم. وقال

---

(١) في الأصل: عن أحمد بن عبدوس، ولعلها سبق قلم؛ فإنه علي بن عمر الحراني، المعروف بابن عبدوس، الفقيه الزاهد الواعظ، كان فردًا في الوعظ والتذكير، والاطلاع على علوم التفسير، توفي سنة ٥٥٩هـ بحران.

انظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٢٤٢)، المنهج الأحمد، العليمي (٢/ ٣٢٥).

(٢) انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، ابن بدران (ص ١٩٢).

(٣) الفروع، ابن مفلح (٢/ ٢٤٢).

(٤) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم (١/ ٣٧).

أيضًا: ولو اجتمعت شروط الاجتهاد في رجل لم يجب الأخذ بقوله دون نظرائه. وهذا معنى قول سيخ الإسلام ابن تيمية فإنه قال: من أوجب تقليد إمام بعينه دون نظرائه يستتاب فإن تاب وإلا قتل.

وروى الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمهما الله تعالى في كتاب فضائل الشافعي رضي الله عنه قال: حدثنا أبي سمعت حرملة بن يحيى التجيبي يقول: قال الشافعي: كل ما قلت وكان النبي ﷺ بخلاف قولي مما يصح فحديث النبي ﷺ أولى، ولا تقلدوني[١].

قال: وكذا روى الربيع[٢] والزعفراني[٣] وأحمد بن حنبل عن الشافعي.

قال: وقال موسى أبو الوليد بن أبي الجارود[٤] عن الشافعي: إذا صح الحديث وقلت قولاً فأنا راجع عن قولي وقائل بذلك[٥].

---

(١) أخرجه البيهقي في المناقب (١/ ٤٧٣)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) هو الربيع بن سليمان المرادي، صاحب الشافعي، وراوية كتبه، أحد من حمل الفقه الجديد عنه، وأشهرهم بروايته، توفي سنة ٢٧٠هـ.

انظر: طبقات الشافعية، ابن السبكي (١/ ١٣٤)، تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ١٤٨).

(٣) هو الحسن بن محمد بن الصباح، البغدادي، أبو علي الزعفراني، صاحب الشافعي، أثبت من روى عنه الفقه القديم، أحد الحفاظ، من شيوخ البخاري وأصحاب السنن، توفي سنة ٢٠٦هـ.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (٧/ ٤٠٧)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٢/ ٣١٨).

(٤) راوي كتاب «الأمالي» عن الشافعي، وأحد الثقات من أصحابه، فقيه جليل. انظر: طبقات الشافعية، ابن السبكي (٢/ ١٦١)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (١٠/ ٣٣٩).

(٥) أخرجه البيهقي في المناقب (١/ ٤٧٣)، وانظر: إعلام الموقعين، ابن القيم (٢/ ٢٠٣).

وهذا من سيادته وإمامته، وهذا نفس قول إخوانه من الأئمة رحمهم الله تعالى، وقد قال الإمام أحمد لأحمد بن الحسن[1]: ألا تعجب يقال للرجل قال رسول الله ﷺ فلا يقنع، وقال فلان فيقنع[2]؟

وقال له أبو داود: الرجل يسأل أدلُّه على إنسان يسأله؟ قال: إذا كان يفتي بالسنة، لا يعجبني رأي أحد[3].

ونقل أبو الحارث عنه: لا تقلّد أمرك أحدًا وعليك بالأثر[4].

وقال الفضل بن زياد: لا تقلد دينك الرجال، فإنهم لن يسلموا أن يغلطوا[5].

وقد روى ابن الجوزي عن عبدالوهاب الوراق قال: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، قالوا له وأي شيء بان لك من فضله وعلمه على سائر من رأيت؟ قال: رجل سُئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال: حدثنا وأخبرنا[6].

---

(١) ابن راشد، أبو عبدالله الصوفي، ممن صحب الإمام أحمد، ونقل عنه، وثقه الدارقطني، مات سنة ٣٠٦هـ.

انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى (١/ ٣٦)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٨٧).

(٢) الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٢٣).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، ابن حمدان الحراني (ص ٥٢)، الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٤٥).

(٥) انظر: صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، ابن حمدان (ص ٢٥)، الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٤٥).

(٦) مناقب الإمام أحمد (ص ١٨٥).

قال أبو علي الضرير: قلت لأحمد بن حنبل: كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي، يكفيه مائة ألف، قال: لا، قلت: مائتي ألف، قال: لا، قلت: فثلاثمائة ألف، قال: لا، قلت: أربعمائة ألف، قال: لا، قلت: خمسمائة ألف، قال: أرجو[1].

وقال الحسن بن إسماعيل[2]: قيل لأحمد وأنا أسمع مثل ذلك، وعن يحيى بن معين مثل هذا.

قال ابن مفلح: ومن العجب ما رواه البيهقي في المدخل إلى السنن عن المروذي: قال أحمد: إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبرًا، قلت فيها بقول الشافعي، لأنه إمام عالم من قريش.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: عالم قريش يملأ الأرض علمًا. وذكر في الخبر أن الله يقيّض في رأس كل مائة سنة رجلاً يعلم الناس دينهم، فكان في المائة الأولى عمر بن عبدالعزيز وفي الثانية الشافعي[3].

---

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم (٤/ ٢٠٥).

(٢) الربعي، ممن صحب الإمام أحمد وروى عنه أشياء. انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى (١/ ١٣٠)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٣١٦).

(٣) انظر: المدخل إلى السنن، مناقب الشافعي (١/ ٥٤)، كلاهما للبيهقي من طريق محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمي، أنبأنا أبو عبدالله محمد بن العباس العصمي حدثنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن ياسين الهروي، قال سمعت إبراهيم بن إسحاق الأنصاري يقول: سمعت المروذي به.

وقد ضعف هذه القصة ابن المفلح في الفروع (٦/ ٤٤٥) وقال: وهذه الحكاية في إسنادها أحمد بن محمد الهروي كذبه الدرقطني، وقال الإدريسي: سمعت أهل بلده يطعنون فيه لا يرضونه.

وقد ذكر ذلك فيه الذهبي في الميزان (١/ ١٥٠)، وابن حجر في لسان الميزان (١/ ٢١٩)، وللقصة شواهد ذكرها الحافظ ابن حجر في توالي التأسيس (ص ٤٧ـ =

قال: وهذه الحكاية في إسنادها أحمد بن محمد [بن ياسين أبو إسحاق الهروي، كذبه الدارقطني[1]، وقال الإدريسي[2]:][3]: سمعت أهل بلده يطعنون فيه لا يرضونه[4].

[وإبراهيم بن عبدالله بن حاتم أبو إسحاق الهروي نزيل بغداد، وقد تكلم فيه بسبب القرآن، وقال الدارقطني فيه: كذاب][5].

والخبر الأول[6]: رواه البيهقي من حديث ابن مسعود بإسناد لا

= ٤٨): من طريق عبدالملك بن عبدالمجيد الميموني عن أحمد، ومن طريق أبي سعيد الفريابي قال: قال أحمد، ومن طريق حميد بن زنجويه سمعت أحمد بن حنبل يقول، وقد ساق الحافظ أسانيده لكل طريق من تلك الطرق.

(١) انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (١/ ١٥٠)، لسان الميزان، ابن حجر (١/ ٢٩١).

(٢) هو عبدالرحمن بن محمد الإدريسي، الاسترابادي، أبو سعد، محدث سمرقند، الإمام الحافظ، له تاريخ سمرقند، وتاريخ استراباذ وغير ذلك، توفي بسمرقند سنة ٤٠٥هـ. انظر: تاريخ جرجان، السهمي (ص ٢١٩)، شذرات الذهب، ابن العماد (٣/ ١٧٥).

(٣) العبارة في الأصول هكذا: (.. أحمد بن محمد الإدريسي، قال الدارقطني: سمعت أهل بلده..)، وفيها خلط ظاهر، والمثبت هو الصواب من الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٤٥).

(٤) انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (١/ ١٥٠) لسان الميزان، ابن حجر (١/ ٢٩١).

(٥) ما بين معكوفتين غير موجود في نص ابن مفلح (٦/ ٤٤٥)، وإبراهيم بن عبدالله بن حاتم، أبو إسحاق العروي، لم يقل فيه الدارقطني: كذاب، وصفه الذهبي في الميزان (١/ ٤٢): بالحافظ «الثقة، أحد أعلام الحديث»، وقال: «قال الدارقطني: ثقة».

ولا أعلم سبب إقحام المؤلف لهذه العبارة المغلوطة، فلعله سبق نظر.

(٦) يريد حديث «عالم قريش..».

يحتج به، قاله الدارقطني وغيرهم[1]. قال: وقد روي عن ابن عباس وعلي وأبي هريرة مرفوعًا، وفي إسنادها[2] ضعف[3].

والخبر الثاني: رواه أبو داود عن سليمان بن داود المهري عن ابن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة فيما أعلم عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله [ك،١٥٠/أ] يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها.

قال أبو داود: رواه عبدالرحمن بن شريح الاسكندراني، لم يخبر به شراحيل وكلهم ثقات. ورواه الحاكم والبيهقي أيضًا في المعرفة بإسناد صححوه[4].

---

(١) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن، ومناقب الشافعي (١/ ٥٤)، والطيالسي في مسنده (ص ٣٩)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٦٥)، والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٢٨٩)، والخطيب في تاريخه (٢/ ٦٠)، كلهم من طرق عن النضر عن الجارود عن أبي الأحوص عن ابن مسعود به، قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٨٢) بعد هذا الحديث: «قلت: النضر، قال فيه أبو حاتم: متروك الحديث». وقال العقيلي في الضعفاء (٤/ ٢٨٩): منكر الحديث وهذا من أحاديثه.

(٢) الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٤٥).

(٣) جمع طرقه وشواهده الحافظ ابن حجر وساق أسانيده عن الصحابة المذكورين في توالي التأسيس (ص ٤٤) وقال: «قال البيهقي: إذا ضمت طرق هذا الحديث بعضها إلى بعض أفاد قوة وعرف أن للحديث أصلاً، قلت: وهو كما قال لتعدد مخارجها، وشهرتها».

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤/ ١٠٦)، والخطيب في تاريخه (٢/ ٦١)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ١٥١): سنده صحيح، ولا يعلل الحديث قول أبي داود عقبه: «رواه عبدالرحمن بن شريح الاسكندراني. . .» وذلك لأن سعيد بن أيوب ثقة ثبت كما في التقريب وقد وصله وأسنده فهي زيادة ثقة يجب قبولها.

والتجديد في قوله: «من يجدد لها دينها» يعم في هذا اللفظ الواحد والجماعة.

قال ابن كثير: وقد ادعى كل قوم في إمامهم أنه المراد بهذا الحديث، والظاهر حمله على العلماء من كل طائفة. وهكذا قال غيره من أهل الإنصاف، وليس في هذا الحديث إذا قيل بصحته ما يوجب التقليد.

فظهر مما سبق أنه لا يجوز أن يدع الإنسان ما عنده من الشرع لقول أحد، ثم أنهض[1] الإمام أحمد القول في ذلك مستدلاً على ما تعجب منه إنكارًا له فقال: (**والله تعالى يقول**: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾). أي: يخالفون أمره، و«عن» صلة، قالوا: وقيل معناه: ويعرضون عن أمره، أو ينصرفون عنه بغير إذنه، كما كان يفعل المنافقون يوم الخندق من انصرافهم بغير استئذان، والضمير لله، فإن الأمر له في الحقيقة، أو للرسول ﷺ فإنه المقصود بالذكر، ومن المعلوم أن من رد قول الرسول ﷺ أو خالفه، فقد خالف قول مرسله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧]. ولم يقف مع الأدب في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقَدَّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [الحجرات: ١] على قراءة الفتح[2]، وقال في وصف الملائكة عليهم السلام: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء: ٢٧]. فصار من خالف الرسول ﷺ داخلاً تحت حكم الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) أي: قوّى.

(٢) بفتح التاء والقاف والدال من «تقدموا» وهي قراءة ابن عباس والضحاك ويعقوب. انظر: فتح القدير، الشوكاني (٥/ ٥٩).

أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ [النور: ٦٣]. قال مجاهد: بلاء في الدنيا، وعذاب وجيع في الآخرة، وقيل: فتنة أي كفر[١].

ثم قال الإمام أحمد: **(أتدرون ما الفتنة)** المذكورة؟ **(الفتنة: الشرك)** وفي لفظ لأبي طالب[٢] عنه: الفتنة الكفر[٣].

وأصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت فيما أخرجه الاختبار إلى المكروه في المكروه، فجاءت بمعنى الكفر كهذه الآية، وكقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وبمعنى الإثم كقوله: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩] وبمعنى الإزالة والصرف كقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣].

[وبمعنى العذاب كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟]⁽٤⁾ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[البروج: ١٠]، ومنه أعوذ بك من فتنة النار[٥].

والحاصل أن مما يدل على أن المبتدع فيه نوع من الشرك قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٦/ ٩٦).

(٢) هو أحمد بن حميد المشكاني، من أصحاب أحمد، وكان يكرمه ويعظمه.
انظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى (١/ ٣٩)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٩٥).

(٣) انظر: الصارم المسلول، ابن تيمية (٢/ ١١٧).

(٤) ما بين [ ] غير واضح في الأصل.

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات، باب الاستعاذة من فتنة الغنى (٥/ ٢٣٤٤) من طريق هشام عن أبيه عن خالته: أن النبي ﷺ كان يتعوذ: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ومن عذاب النار، . . .»، ومسلم في الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر الفتن وغيرها (٤/ ٢٠٧٨).

الآية، وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] الآية.

وعند الإمام أحمد والطبراني في الكبير وأبي يعلى وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبيهقي في الشعب عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم»[١].

وهذا حديث مشهور تلقته العلماء بالقبول، والشاهد منه قوله «وجعل الذل والصغار على من خالف أمري»، فكما أن الذل والصغار مضروب على من خالف أمره، فالعز لأهل طاعته ومتابعته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وعلى قدر متابعته تكون العزة والكفاية والفلاح في الدنيا والآخرة، وقد ذكر البخاري هذا الحديث في صحيحه تعليقًا[٢]، وهو عند الإمام

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٥٠)، وابن المبارك في الجهاد (ص ٨٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٢١٢)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٢٦٧)، وتمام في الفوائد (١/ ٣٠٨)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ١٣٥)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٧٥)، كلهم من طرق عن عبدالرحمن بن ثوبان بن ثابت، ثنا حسان بن عطية، عن أبي منيب الجرشي، عن ابن عمر مرفوعًا، ولم أعثر عليه عند أبي يعلى.

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٩٩): في إسناده عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان مختلف في توثيقه وله شاهد مرسل بإسناد حسن أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٧٠) من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن طاووس مرفوعًا، وصححه الدارقطني في العلل (٩/ ٢٧٢): من طريق الأوزاعي عن حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر مرفوعًا، وصححه الألباني في الإرواء (٥/ ١٠٩).

(٢) في الجهاد، باب ما قيل في الرماح (٣/ ١٠٦٧)، ووصله الحافظ في تغليق التعليق (٣/ ٤٤٦) من طريق عبد بن حميد في مسنده، وصححه.

أحمد بسند كلهم ثقات إلا أن فيه عبدالرحمن بن ثوبان بن ثابت، وقد وثقه علي بن المديني وأبو حاتم، وضعفه الإمام أحمد[1].

ويروى ذلك الحديث من طرق عن أبي هريرة - رضي الله عنه - وغيره[2].

(**لعله إذا رد بعض قوله**) أي: قول الله تعالى، أو قول رسوله ﷺ على القول الآخر، (**أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك**)[3] بذلك في دينه. وذلك أنه ترك حكمًا صحيحًا محكمًا، فصار من الذين قال الله فيهم: ﴿ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٧]، يقول: فأما الذين في قلوبهم زيغ أي: عدول عن الحق إلى الباطل كالمبتدعة، فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما لا يطابق المحكم، أو يحملونه على ما يخالف المحكم من الباطل، ويتبعونه ابتغاء الفتنة، أي: طلب افتتان الناس وإضلالهم في دينهم، بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه، وطلب أن يؤولوه على ما يشتهونه من الأباطيل من غير فكر وروية، فهو يحتمل كما قال العلماء رحمهم الله تعالى أن يكون الداعي إلى الابتغاء مجموع

---

(١) انظر: خلاصة تذهيب الكمال، الخزرجي (٢/ ١٢٧)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٦/ ١٥٠).

(٢) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٨٨) من طريق صدقة عن الأوزاعي عن يحيى ابن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا، وقد أعله الدارقطني في العلل (٩/ ٢٧٢) بالاختلاف على الأوزاعي قال: فرواه عنه صدقة بن عبدالله بن السمين وهو ضعيف عن يحيى عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وخالفه الوليد بن مسلم، رواه عن الأوزاعي عن حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر، وهو الصحيح.

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (١/ ٢٦٠)، وانظر: الصارم المسلول، ابن تيمية (٢/ ١١٧).

الطِّلبتين[1]، أو كلا منهما على التعاقب، والأول يناسب المعاند، والثاني يلائم الجاهل، والتأويل غير المذموم الذي يؤثر عن السلف رضي الله عنهم، الذي هو معنى قوله ﷺ في دعائه لابن عباس رضي الله عنهما: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[2]، إنما هو تأويل الشيء بما يؤول إليه، قال جرير:

ولكل مُنْزَل آية تأويلُ[3]

وهذا كما قال عمار بن ياسر رضي الله عنه يوم صفين:

نحن ضربناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله[4]

وقال تاج الدين عبدالرحمن بن إبراهيم الفزاري الشافعي المعروف بابن الفركاح رحمه الله تعالى في قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ هما منصوبان على الحال والعامل فيهما [يتّبعون][5]، وذو الحال ضمير الفاعل الراجع إلى الذين في قلوبهم زيغ، فكان كل واحد من الأمرين صفة لازمة للذين في قلوبهم زيغ.

قال: ولما وصف الذين في قلوبهم زيغ بابتغاء الفتنة، دل على الشقاق، ثم عطف بابتغاء تأويله، فدل على التوقف المؤذِن بالشك حتى

---

(١) مثنى طِلْبَة، وهي ما يطالَب به.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء (١/ ٦٦) من حديث ابن عباس بشطره الأول «اللهم فقهه في الدين»، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عبدالله بن عباس (٤/ ١٩٢٧)، وأحمد بشطريه في المسند (١/ ٢٦٦).

(٣) ديوانه: ١/ ٩٥، وأول البيت: يقضي الكتاب على الصليب وتغلبِ.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٥٠١).

(٥) في النسختين: يبتغون، وهو سبق قلم؛ فليس في نص الآية إلا ما أثبتنا.

يتضح الحق لمن ليس في قلبه زيغ، ثم وصف الراسخين بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ إيذانًا بانقيادهم وثقتهم بربهم، فدل على سلامتهم من الانقياد إلى التأويل الذي ذم به أهل الزيغ.

وكلام الإمام أحمد هذا الذي ذكر المصنف رحمه الله تعالى مشهور عنه، رواه عنه جماعة من أصحابه منهم أبو طالب كما قدمنا عنه، فاشتهر عنه وسار في الأقطار وسُطر في الأسطار حتى صار طلبُ الإسناد له عبثًا.

ومن كلامه لبعض أصحابه: لا تقلدني، ولا تقلد مالكًا ولا الثوري ولا الشافعي، وخذ كما أخذنا أو كما قال رضي الله عنه(١).

ومن العقوبات الواقعة بالمخالفة له ﷺ ما في مسلم عن سلمة بن الأكوع(٢) رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند النبي ﷺ بشماله فقال: كل بيمينك، فقال: لا أستطيع، قال: لا استطعت، ما منعه [ك،١٥١/ب] إلا الكبر، فما رفعها إلى فيه(٣).

وعند مسلم أيضًا عن ابن مسعود قال: إنا [ليلة الجمعة](٤) في

---

(١) انظر إعلام الموقعين، ابن القيم (٢/ ١٣٩).

(٢) هو سلمة بن عمرو بن الأكوع، أبو عامر، وقد قيل إن الأكوع لقب، من شجعان الصحابة، وأسرعهم عدوا، أعطي في غزوة ذي قَرَد سهم الراجل والفارس، توفي سنة ٧٤هـ بالمدينة.

الطبقات، ابن سعد (٤/ ٥٠)، مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان (ص ٢٠).

(٣) أخرجه مسلم في الأشعرية، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٣/ ١٥٩٩)، وأحمد في مسنده (٤/ ٤٥)، والدارمي في سننه (٢/ ١٣٣).

(٤) في الأصل كتبت هكذا: الليلة جمعة، والتصويب من صحيح مسلم.

المسجد إذ جاء رجل من الأنصار فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته يعني رجلاً فتكلم جلدتموه أو [قتل][1] قتلتموه، أو سكت سكت على غيظ، فقال اللهم افتح، فجعل يدعو، فنزلت آية اللعان. وفيه: فابتلي به ذلك الرجل بين الناس فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ فتلاعنا[2]، الحديث.

وروى الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما: أن رجلاً مر بين يدي رسول الله ﷺ على حمار أو أتان وهو يصلي، فقال: «قطع علينا صلاتنا قطع الله أثره» فأُقعد[3].

وقد ذكر الحافظ البيهقي: أن رجلاً ذكر عنده حديث رسول الله ﷺ في قوله: إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثًا، فإنه لا يدري أين باتت يده[4]. فقال: هو يدري، باتت معه في الفراش، فنام فأصبح ويده مدخلة في دبره. نعوذ بالله من مُعاندة الحق وتلبيسه بالباطل.

ولما مر ﷺ في غزوة تبوك بالحِجْر[5] نزلها وكان فيما قال: لا

---

(١) ساقطة من الأصل، وألحقت من صحيح مسلم (٢/ ١١٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في اللعان (٢/ ١١٣٣)، وأبو داود في الطلاق، باب في اللعان (٢/ ٢٨٣)، وابن ماجه في الطلاق، باب اللعان (١/ ٦٦٩).

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب ما يقطع الصلاة (١/ ١٨٥)، وأحمد في مسنده (٤/ ٦٤) والبيهقي في سننه (٢/ ٢٧٥)، وأورده الألباني في ضعيف أبي داود (ص ٦٦).

(٤) أخرجه البخاري في الضوء، باب الاستجمار وترًا (١/ ٧٢) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الطهارة، باب كراهة غمس المتوضىء وغيره يده المشكوك نجاستها في الإناء قبل غسلها ثلاثًا (١/ ٢٣٣).

(٥) الحجر بالكسر ثم السكون، وراء، اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، وبها بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، وتعرف =

يخرجن منكم أحد الليلة إلا ومعه صاحب له، ففعل الناس ما أمرهم رسول الله ﷺ، إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعير له فخنق الذي ذهب لحاجته على مذهبه، وأما الآخر فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طي. فقال رسول الله ﷺ ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه، فدعا بالذي أصيب فشفي، والآخر أهدته طي لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة، وقيل فاداه. روى ذلك ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر عن عباس بن سهل الساعدي، وقال: قال عبدالله: قد سمى لي العباس الرجلين، ولكنه استودعه إياهما. فأبى عبدالله أن يسميهما لي[١].

وعند الدارمي من طريق قتادة قال: حدّث ابن سيرين بحديث عن النبي ﷺ فقال رجل: قال فلان كذا وكذا، فقال ابن سيرين: أحدثك عن النبي ﷺ وتقول قال فلان كذا وكذا[٢].

وعنده من طريق أبي المخارق قال: ذكر عبادة بن الصامت[٣] رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نهى عن درهمين بدرهم. فقال فلان: ما أرى بهذا بأسًا يدًا بيد، فقال عبادة: أقول قال النبي ﷺ وتقول لا أرى به بأسًا، والله لا يُظلني وإياك سقف[٤].

= اليوم بمدائن صالح. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي (٢/ ٢٢٠).

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (٢/ ٥٢١).

(٢) سنن الدارمي (١/ ١٢٨).

(٣) الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، صحابي، من الموصوفين بالورع، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وسائر المشاهد، توفي بالقدس سنة ٣٤هـ. انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٢٦٠)، تهذيب ابن عساكر، ابن بدران (٧/ ٢٠٦).

(٤) سنن الدارمي (١/ ١٢٩).

ولما قال ﷺ في حديث ابنِ عباس: «لا تطرقوا النساء ليلاً» وأقبل ﷺ قافلاً فانساق رجلان إلى أهلَيهما، وكلاهما وجد مع امرأته رجلاً، وهو في السنن[1].

وقد قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم ثنا الهيثم بن نافع الطاطري حدثني أبو يحيى رجل من أهل مكة عن فروخ مولى عثمان: أن عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين خرج من المسجد فرأى طعامًا منشورًا فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: جُلب إلينا، قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه، قيل: يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر، قال: من احتكره؟ قال: فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر، فأرسل إليهما فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالوا: يا أمير المؤمنين نشتري بأموالنا ونبيع، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بجذام» فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله ألا أعود في طعام أبداً، وأما مولى عمر فقال: إنما نشتري بأموالنا ونبيع، قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذومًا[2].

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢/ ١٢٩)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٤٥) عن ابن عباس، قال الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢٢٩): صحيح، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة النور (٥/ ٦٦) من حديث جابر، وقال: حسن صحيح، وقد روي عن جابر من غير وجه، وقد روي عن ابن عباس، وساق الحديث كاملاً.

وأصل الحديث في الصحيحين من حديث أنس بن مالك، أخرجه البخاري في العمرة، باب الدخول بالعشي (٢/ ٦٣٨) بلفظ: «كان النبي ﷺ لا يطرق أهله، كان لا يدخل إلا غدوة أو عشية». ومسلم في الإمارة، باب كراهة الطروق وهو الدخول ليلاً (٣/ ١٥٢٧).

(٢) مسند أحمد رقم (١٣٥)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

ورواه ابن ماجه من حديث الهيثم بن رافع ولفظه: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس والجذام»[١].

وقال الدارمي: حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن الزهري عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها، فقال فلان بن عبدالله: إذًا والله أمنعها. فأقبل عليه ابن عمر فشتمه شتمة لم أره شتمها أحدًا قبله، ثم قال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: إذًا والله أمنعها؟!![٢].

ومن ذلك جهجاه بن سعد[٣] الغفاري الذي تنادى هو وسنان بن وبرة، ـ وقيل: ابن تيم الجهني ـ يوم المريسيع، فقال جهجاه: يا للمهاجرين، وقال سنان: يا للأنصار، فقال ﷺ حين سمعها منهما كما في الصحيح: «دعوها فإنها منتنة»[٤]. وذلك لأنها من دعوى الجاهلية.

وفي الحديث أنه قال لما تداعيا بذلك: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم»[٥].

فكان جهجاه كما روى ابن أبي شيبة والبزار حين قتل عثمان رضي الله عنه انتزع عصا رسول الله التي كان يخطب بها من يد عثمان حين

---

(١) أخرجه في التجارات، باب الحكرة والجلب (٢/ ٧٢٨)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٦٤): هذا إسناد صحيح رجاله موثقون.

(٢) سنن الدارمي (١/ ١٢٨)، وأخرجه أبو داود في الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد (١/ ١٥٢)، وأحمد في المسند رقم (٤٩٣٣) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) كذا في الأصل وطبقات ابن سعد (٤/ ٣٤٩)، وفي بقية المصادر: سعيد.

(٤) مضى تخريجه.

(٥) مضى تخريجه.

أُخرج من المسجد ومُنع من الصلاة، وكان من المعينين عليه، فكسرها على ركبته، فأخذت الأكلة في ركبته فمات منها[1]، نعوذ بالله من الأهواء المضلة.

وقال الدارمي حدثنا أبو المغيرة حدثنا الأوزاعي ثنا عبدالرحمن بن حرملة قال: جاء رجل إلى سعيد بن المسيب يودعه لحج أو عمرة فقال له: لا تبرح حتى تصلي؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «لا يخرج بعد النداء من المسجد إلا منافق، إلا رجل أخرجته حاجته وهو يريد الرجعة إلى المسجد»، فقال: إن أصحابي بالحرة، قال: فخرج، قال: فلم يزل سعيد يولع بذكره، حتى أخبر أنه وقع من راحلته فانكسرت فخذه[2].

وذكره أيضًا ابن عبدالبر عن مالك وفيه فقال سعيد: قد بلغنا أنه من خرج بين الأذان والإقامة لغير وضوء أنه يصاب[3].

وذكر الزمخشري في ربيع الأبرار أن جماعة من طلاب الحديث يمشون إلى شيخ لهم، فقال خليع منهم: امشوا رويدًا فإن طالب العلم يطأ على أجنحة الملائكة حتى لا تكسروها، فعثر عثرة عرج منها[4].

وروى أبو سليمان الخطابي من طريق سليمان بن حرب عن حماد ابن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن قومًا كانوا في سفر فكانوا إذا ركبوا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٦١)، والباوردي وابن السكن كما في الإصابة (١/ ٢٥٤).

(٢) سنن الدارمي (١/ ١٣٠).

(٣) التمهيد، ابن عبدالبر (٢٤/ ٢١٤).

(٤) ربيع الأبرار (٤/ ١٧٠)، تحقيق الدكتور سليم النعيمي.

قال: وكان فيهم رجل على ناقة له رازم- يعني: لا تتحرك هزالاً- [ك،١٥١/أ] فقال: أما أنا فإني لهذه مقرن، فقمصت[١] به فصرعته فدقت عنقه[٢].

والمقرن للشيء المطيق له[٣].

وقال أبو الفرج بن الجوزي: قال لنا عبدالمجيد بن عبدالعزيز: رأيت رجلاً كان يأتي امرأته حائضًا فحاض، فلما كثر الأمر به تاب إلى الله تعالى فانقطع عنه الحيض.

وقال الفضل بن زياد: سمعت أبا عبدالله أحمد بن حنبل يقول: من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكه.

والآثار في ذلك عن السلف كثيرة، وهذا وأشباهه في الجزئيات وفي الكليات، أهلك الله بردّ أمره تعنتًا وجحودًا الأمم، نعوذ بالله من ذلك، وما كان من سوى ذلك فنسأله التوفيق والهداية والعفو من الزلل.

(عن عدي بن حاتم) الطائي المشهور بالكرم **(أنه سمع النبي ﷺ)** وقت إسلامه وتقدم ذكره **(يقرأ هذه الآية:** ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [التوبة: ٣١]**)** وقد مر الكلام عليها في باب الدعاء إلى شهادة ألا إله إلا الله أول الكتاب، وسنزيده توضيحًا إن شاء

---

(١) قمصت الدابة قماصًا إذا وثبت ونفرت فألقته.
انظر: غريب الحديث، الخطابي (٣/ ٥١)، غريب الحديث، ابن الأثير (٤/ ١٠٨).

(٢) غريب الحديث، الخطابي (٣/ ٥١).

(٣) انظر: المصدر السابق، غريب الحديث، ابن الأثير (٤/ ٥٥).

الله تعالى، قال عدي: **(فقلت: يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم)** وكان قد تنصر وتتبع الكتب في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ مجيبًا له: **(أليس يحرّمون)** لكم **(ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه، فقلت: بلى قال ﷺ فتلك عبادتهم)**.

لما كانت هذه الطاعة على غير أمر الله ورسوله ﷺ كانت في الحقيقة عبادة للمطاع، إذ أصل العبادة في اللغة الطاعة والانقياد مع التذلل، وفي الشرع لا تسمى عبادة مع ذلك إلا بالمحبة والخضوع باطنًا وظاهرًا، وكذلك الدين الباطن. **(رواه الإمام أحمد والترمذي وقال هذا حديث حسن[1])**.

فيفهم من هذا أن من أطاع أحدًا في دين الله مما لم يأذن الله به من تحليل أو تحريم أو استحباب أو إيجاب، فقد لحقه من هذا الذم نصيب، كما يلحق الآمر الناهي أيضًا من ذلك نصيب، ويلحق الذم من تبين له الحق فتركه أو قصر في طلبه حيث لم يتبين له، أو أعرض عن طلب معرفته لهوى أو شغل أو نحو ذلك، فإن الله تعالى عاب على المشركين شيئين أحدهما: أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا، والثاني: تحريمهم ما لم يحرمه عليهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة (٥/ ٢٧٨)، وقال: حسن صحيح غريب من حديث الأعمش، وأصله في المسند (٤/ ٢٥٧، ٣٧٨)، وابن جرير في تفسيره (١٠/ ١١٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٠٦)، وابن حبان في الثقات (١/ ٥٤١)، والجرجاني في تاريخ جرجان (١/ ٥٤١)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢)، والحاكم في المدخل إلى السنن (ص ٢١٠)، قال الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ٥٦): حسن.

وبين النبي ﷺ فيما رواه مسلم عن عياض بن حمار[1] رضي الله عنه مرفوعًا: «قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالهم الشيطان عن دينهم، وحرم عليهم ما أحللت لهم، وأمرهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا»[2]. ورواه الترمذي بمعناه.

ولهذا قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فجمعوا بين الشرك والتحريم، والشرك يدخل فيه كل عبادة لم يأذن الله بها[3]، فإن المشركين يزعمون أن عبادتهم إما واجبة أو مستحبة، وأن فعلها خير من تركها، ثم منهم من عبد الله ومنهم من عبد غيره، يتقرب بعبادته إياه إلى الله، ومنهم من ابتدع دينًا عبدوا به الله بزعمهم كما أحدثته النصارى من أنواع العبادات المحدثة، وكذلك هذه الأمة أحدثت في دينها الأحداث، ولهذا كان الأصل الذي بنى الإمام أحمد وغيره من الأئمة مذاهبهم عليه، أن أعمال الخلق تنقسم إلى عبادات يتخذونها دينًا ينتفعون بها في الآخرة أو في الدنيا، وإلى عادات ينتفعون بها في معايشهم فالأصل في

---

(١) المجاشعي التميمي، كان صديقًا لرسول الله ﷺ قديمًا، وكان إذا قدم مكة لا يطوف إلا في ثياب رسول الله ﷺ، لأنه كان من الذين لا يطوفون إلا في ثوب أحمسي، سكن بالبصرة.

انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ١٢٩)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٤٨).

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٧)، وأحمد في المسند (٤/ ١٦٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٢٢) وغيرهم.

(٣) الصواب أن يقول: الشرك يدخل فيه كل عبادة صُرفت لغير الله؛ لأن مالم يأذن الله ـ تعالى ـ به أعم من الشرك، وأهل البدع من المتصور أنهم يتوجهون بعباداتهم المبتدعة إلى الله ـ تعالى ـ دون غيره، فترُدّ لأنها مبتدعة، لا لأنها شرك.

العبادات ألا يُشرع منها إلا ما شرعه الله والأصل في العادات ألا يُحظر إلا ما حظره الله سبحانه، فالمتبِع في ذلك يمشي مع أمر الله، والله تعالى الهادي الموفق.

ولما ذكر المصنف رحمه الله تعالى الزجر عن طاعة الأمراء والعلماء فيما يخالف أمر الله ورسوله ﷺ، أعقبه بهذه الترجمة ليعلم بهذا أن لكل قول حقيقة، لمن ادعى متابعة أمر الله ورسوله في ذلك، وأن حقيقة الدعوى الامتثال بالفعل بالأركان والجنان، لا دعوى القول باللسان؛ إذ دعوى القول لم تنفع المنافقين حيث أضمروا خلاف قولهم، فحينئذ يكون القائل قد قال بلسانه ما ليس في قلبه، فيكون بذلك مخادعًا لله تعالى، ومن يخدع الله يُخدع، ولهذا قال المصنف رحمه الله تعالى منبهًا على ذلك الخلق الذميم، الذي لا يسلكه إلا أهل المخالفة والمخادعة[1]:

---

(١) تكملة الكلام هي بداية المجلد الرابع.

الباب الثامن والثلاثون

باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل على رسول الله ﷺ وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف[1]، ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

وظاهره أنه خطاب لأهل الكتاب وإن كان المراد به العموم.

وقوله يزعمون، مصدره الزعم مثلث الفاء. قال السيرافي[2]: هو قول مقرون باعتقاد، صح أم لا.

---

(١) الطائي، من بني نبهان، شاعر جاهلي، أمه يهودية من بني النضير، فدان باليهودية، أدرك الإسلام، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، وحرض القبائل عليهم، أمر النبي ﷺ بقتله، قتله خمسة من الأنصار وحملوا رأسه إلى المدينة سنة ٣هـ.

انظر: الروض الأنف، السهيلي (٢/ ١٢٣)، الأعلام، الزركلي (٥/ ٢٢٥).

(٢) هو الحسن بن عبدالله، أبو سعيد، أديب نحوي، وكان معتزليا، متعففا لا يأكل إلا من كسب يده، سكن بغداد، فتولى نيابة القضاء، وبها توفي سنة ٣٦٨هـ.

انظر: وفيان الأعيان، ابن خلكان (١/ ١٣٠)، لسان الميزان، ابن حجر (٢/ ٢١٨).

وقال الجرجاني[1]: هو قول مع علم.

وقال ابن الأنباري: إنه يستعمل في القول من غير صحة. ويقوي هذا قوله في الحديث المرفوع كما عند الإمام أحمد وأبي داود عن حذيفة رضي الله عنه إلا أنه فيه انقطاع: «بئس مطية الرجل زعموا»[2].

رواه عبدالله بن زيد [الجرمي][3] عن حذيفة وهو لم يسمع منه، ومعناه أن هذا اللفظ مَرْكب الكذب، وقيل نزلت في جماعة من المنافقين أرادوا أن يتحاكموا إلى أحكام الجاهلية، وقيل غير ذلك[4].

والآية أعم من ذلك كله، فإنما هي ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت ههنا،

---

(١) هو علي بن محمد، المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف متكلم، صاحب «التعريفات» و«شرح المواقف»، لغوي بارع، توفي بشيراز سنة ٨١٦هـ.

انظر: مفتاح السعادة، طاش كبرى (١/ ١٦٧)، الضوء اللامع، السخاوي (٥/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب قول الرجل زعموا (٤/ ٢٩٥) عن أبي قلابة قال: قال أبو مسعود لأبي عبدالله، أو قال أبو عبدالله لأبي مسعود، وأحمد في المسند (٥/ ٤٠١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٦٨)، ومن طريق أبي قلابة قال حدثني أبو عبدالله أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٢٧٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٤٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٢٦٨)، قال الحافظ في الإصابة (٤/ ١٢٦): سنده صحيح متصل.

(٣) أبو قلابة البصري، ثقة فاضل كثير الإرسال، مات بالشام هاربًا من القضاء سنة ١٠٤هـ.

انظر: تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٣٠٤)، تهذيب التهذيب، له (٥/ ٢٢٤)، وقد وقع في [ك] و[م]: الحزمي، والتصويب من المصادر.

(٤) انظر: أسباب النزول، الواحدي (ص ١٠٧)، والصحيح المسند من أسباب النزول، الوادعي (ص ٤٥).

وقد مر تعريفه بأوضح عبارة وأبين بيان، وهو من الطغيان والارتفاع فوق القدر وركوب ما لا يحل وما يفسد الدين، كما يفسد طغيان الماء ما يغرقه، قال جرير بن الخطفى:

إذا غـدرت ربيعـة واستقـامـوا لطـاغيـة دعـا بشـرًا طَغـامـا[1]

والطغام السفلة من الناس، [ك،١٥٢/ب] والله المستعان وعليه التكلان.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١١ـ ١٢].

هذا معطوف على يكذبون، أي لهم عذاب أليم بسبب ذلك التكذيب، وإنكار الإفساد وادعاء الإصلاح الكاذب، وجاز على البُعد أن يكون معطوفًا على «آمنّا»، والتقدير: ومن الناس من إذا قيل لهم لا تفسدوا: إلى آخره، والفساد خروج الشيء من حالة استقامته وكونه منتفَعًا به، على ضد الإصلاح، الذي هو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة، ولا شك أن هيجان الحروب والفتن يوجب فساد الأرض، فبسبب اشتغال الناس حينئذ عن الزراعة والغراس والبناء والمنافع الدينية، وإظهار الكفر والعمل بالمعصية، وإغراء المنافقين الكفار على المسلمين بإفشاء أسرارهم لهم، كان ذلك يوجب هيج الفتن والحروب، المترتب عليها فساد الأرض، ولما كان ذلك من صنعهم قيل لهم: لا تفسدوا، كما قيل لمن أقدم على ما يوجب قتل نفسه وإلقائها في النار: لا تقتل نفسك بيدك ولا تلقها في التهلكة، ولمبالغتهم في الإنكار قالوا ـ بكلمة «إنما» المفيدة لقصر الحكم على الشيء ـ إنهم على صفة المصلحين المصلحة

---

(١) شرح ديوان جرير، مهدي ناصر الدين (ص ٤٠٧).

الخالصة المتمحضة من غير شائبة، ورد الله تعالى عليهم ما ادعوه من الانتظام البليغ أبلغ رد بكلمة «ألا» التنبيهية، المركبة من حرف الاستفهام والنفي المفيدة تحقيق ما بعدها، كقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ﴾ [القيامة: ٤٠]، وبكلمة «إنّ» وضمير الفصل وتعريف الخبر، واستأنف الجملة ومهد عذرهم بجعلهم من قبيل العجماوات في عدم شعورهم بلزوم الفساد من فعلهم ونفاقهم، مع أن ذلك اللزوم من قبيل المحسوس لظهوره، وعدمُ الشعور في الجهالة أقوى من عدم العلم، وإسناد «قيل» إنما هو إلى لفظ «لا تفسدوا»، والمعنى: أن المنافقين بمكرهم وحيلهم وخبثهم، يهيجون الفتنة بين أهل الإسلام والكفر، وتلك الفتنة توجب فساد الأرض من جهة اشتغالهم بالحرب حينئذ عن الزراعة والغراس والبناء التي هي صلاحها مع التوحيد، فإذا قيل لهم يا أهل النفاق لا تأتوا بما يوجب فساد الأرض من الفتنة وتهييج الحروب، قالوا على سبيل الخداع والمكر: يا أهل الحق أليس دأبنا الإتيان بما يصلح الأرض من الأمور الموافقة لما قال الشارع من الأمر والنهي والخير. مع أن حالهم السيئة تشعر صريحًا بخلاف ما يظهر عليهم من ملامح النفاق المفسد للأرض وأهلها.

(وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]). لما أرشد سبحانه عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دينهم ودنياهم بالتذلل والاستكانة له، وأخبر أنه لا يحب المعتدين، نهاهم عن الإفساد في الأرض وهو ضد ما أمرهم به، والمعنى: ادعوا ربكم تذللاً واستكانةً وسرًّا كقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. فذكر سبحانه سبب صلاح الأرض وأمر به، وأعقبه ببيان ما يوجب فسادها ونهى عنه.

قال الحسن البصري: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا.

ثم قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. وإن الله تعالى ذكر عبدًا صالحًا ورضي فعله فقال عز من قائل: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾[1] [مريم: ٣].

ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥].

قال ابن جريح: من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح، وكانوا يؤمرون بالتضرع والاستكانة[2].

وفي مسند الإمام أحمد: أن عبدالله بن مغفل[3] سمع ابنا له يدعو: اللهم أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني اسأل الله الجنة واستعذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور»[4].

ورواه أبو داود وابن ماجه عنه بأسانيد حسان لا بأس بها[5].

---

(١) أخرجه ابن المبارك، وابن جرير وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣/ ٤٧٦)، وذكره في بدائع الفوائد، ابن القيم (٣/ ٦).

(٢) أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣/ ٤٧٦).

(٣) المزني، صحابي، من أصحاب الشجرة، من العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا الناس بالبصرة، فتحول إليها، وبها وفاته سنة ٦٠هـ أو ٦١هـ.

انظر: الإصابة (٢/ ٣٦٤)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٦/ ٤٢).

(٤) مسند أحمد (٤/ ٨٦).

(٥) أخرجه أبو داود، الطهارة، باب الإسراف في الماء (١/ ٢٤)، وابن ماجه في الدعاء، =

وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا»[1].

فكل هذا من الاعتداء، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

أي: لا تفسدوا في الأرض بالشرك والمعاصي، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل بالتوحيد والأمر بالطاعة والنهي عن المعصية.

وقال عطية: معناه لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث والنسل بمعاصيكم[2]. وذلك فساد لها، والله لا يحب الفساد، ثم أمر بدعائه المقرون بالخوف والرجاء فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]. فدل أن الإحسان لا يتم إلا بالخوف والرجاء، فحينئذ يكون تعالى قريبًا ممن اتصف بذلك.

قال ابن الجوزي: إنما لم يقل قريبة لأن المراد بها الثواب[3]، ونظيره قول الشاعر:

= باب كراهية الاعتداء في الدعاء (٢/ ١٢٧١)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ١٦٦)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وعبد بن حميد في المنتخب (ص١٨٠)، والحاكم في مستدركه (١/ ٧٢٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ١٩٦).

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٣/ ١٠٩١)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٤/ ٢٠٧٦).

(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم (٣/ ١٤).

(٣) ذكر العلامة ابن قيم الجوزية في ذلك تسعة احتمالات، ثم قال: (والذي عندي أن الرحمة لما كانت من صفات الله ـ تعالى ـ، وصفاته قائمة بذاته، فإذا كانت قريبة من المحسنين، فهو سبحانه قريب منهم قطعاً). انظر مختصر الصواعق المرسلة: ص ٣٩٧، ط دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.

فـلا مـزنـةٌ ودقَـتْ ودْقَهـا ولا أرضٌ أبقـلَ إبقـالَهـا[1]

فذكّر، لأن المراد بالأرض الموضع والمكان.

وعن النضر بن شميل[2] أنه قال: الرحمة مصدر، ومن حق المصادر التذكير كقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال الشاعر:

إن السمـاحـة والمـروءة ضُمّنـا قبرا بمروَ على الطريقِ الواضحِ

ولم يقل ضُمّنتا، لأنهما مصدران، فقد علمت من سياق الآية الشريفة أن صلاح الأرض التوحيد والطاعة، وتقديم الرسل عليهم الصلاة والسلام واتباعهم فيها، وفسادها بالشرك وغلبة أهله وأهل النفاق والمعاصي فيها على أهل الخير والدعوة إليه.

(**وقوله** [ك، ١٥٢/أ] **تعالى**: ﴿**أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠**﴾ [المائدة: ٥٠]).

قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال كعب بن أسد

---

(١) البيت لعامر بن جوين الطائي في شرح ابن عقيل (٢/ ٩٢)، ولسان العرب، ابن منظور (٧/ ١١١).

(٢) المازني التميمي، أبو الحسن، أحد الأعلام، اشتهر بمعرفة أيام العرب، ورواية الحديث، وفقه اللغة، ولد بمرو، وانتقل إلى البصرة، ثم ولي قضاء مرو، توفي سنة ١٢٢هـ. انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ١٦١)، غاية النهاية، ابن الجزري (٢/ ٣٤١).

وابن صلوبا وشاس بن قيس بعضهم لبعض(١): اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار يهود وسادتهم وإن اتبعناك اتبعونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩ـ ٥٠].

ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم(٢)، وعند البيهقي في الدلائل عن [أبي عذبة](٣) الحمصي قال: أخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن أهل العراق قد حصبوا أميرهم فخرج غضبان فصلى فسها في صلاته فلما سلم قال: اللهم إنهم قد لبّسوا علي فالبس عليهم، وعجّل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجاهلية، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم.

---

(١) مجموعة من أحبار اليهود وعلمائهم ناصبوا الرسول عليه الصلاة والسلام العداء، بغيًا وحسدًا وضغنًا، لما خص الله تعالى العرب من بعثه رسوله منهم.
انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (١/ ٥١٣ـ ٥١٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٦/ ٢٧٣)، وابن إسحاق وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ٩٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٥٣٦)، والخبر عند ابن هشام في السيرة (١/ ٥٦٧)، والواحدي في أسباب النزول (ص ١٣٢).

(٣) في الأصل: «أبي هدية»، وصحح من دلائل النبوة، البيهقي (٦/ ٤٨٧)، والبداية والنهاية، ابن كثير (٦/ ٢٤٢).

قال ابن لهيعة[1]: وما ولد الحجاج يومئذ[2].

فقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]. ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، بأن عدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله تعالى، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، فمن فعل شيئًا من ذلك كما فعل جنكيز خان حيث وضع للتتار كتابًا مجموعًا من أحكام اقتبسها من ملل شتى، غالبها أخذه عن مجرد نظره فصار في بنيه شرعًا يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة، فهو كافر يجب قتاله كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه وغيره[3]، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكّم سواه في قليلٍ ولا كثير، لأن هذا مضاهاة لله ورسوله، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أي يريدون ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]. أي: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عنه شرعه، وآمن وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالحهم، العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، ومن أعظم الجور أن يجعل معه آلهة أخرى، وأعدل العدل أن يُجرد له توحيده فيعبد وحده، فإن هذا هو صلاح الأرض وأهلها وضده فسادها[4].

---

(١) سبقت ترجمته ص ١٢٥.

(٢) دلائل النبوة، البيهقي (٦/ ٤٨٧)، وابن سعد في الطبقات (٧/ ٤٤١)، عن أبي عذبة الحمصي، قال عنه في لسان الميزان (٧/ ٨٠): أبو عذبة عن عمر قوله: اللهم عجل علينا بالغلام الثقفي، مجهول.

(٣) انظر: منهاج السنة (٥/ ١٢٩ـ ١٣٢)، مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩٥).

(٤) ابن كثير، التفسير (٢/ ٦٧).

وروى ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة الباجي قال سمعت الحسن البصري يقول: من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية يبغي[1].

ثم روى عن ابن أبي نجيح[2] قال: كان طاوس إذا سأله رجل: أُفضّل بين ولديّ في النحل؟ قرأ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾[3] [المائدة: ٥٠].

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: أبغض الناس إلى الله ثلاثة ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة جاهلية، ومطلب ـ بتشديد ـ دم امرىء بغير حق ليهريق دمه[4].

ورواه الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس مرفوعًا. ولفظه «أبغض الناس إلى الله عز وجل مبتغ في الإسلام سنة جاهلية، وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه»[5].

(عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهم) أسلم مع أبيه وهاجر قبله واستصغر يوم أحد وله يومئذ أربع عشرة سنة، وكان من أهل الورع والزهد، شديد التحري والاحتياط في الفتوى، ومناقبه كثيرة، ولد قبل

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧).

(٢) عبدالله بن يسار المكي، الثقفي مولاهم، ثقة رمي بالقدر، وربما دلس، توفي سنة ١٣١هـ.

انظر: التاريخ الكبير، البخاري (٥/ ٢٣٣)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٣٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧). والنَّحْل: العطاء.

(٤) أخرجه البخاري في الديات، باب من طلب دم امرىء بغير حق (٦/ ٢٥٢٣).

(٥) المعجم الكبير (١٠/ ٣٠٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٧).

الوحي بسنة وتوفي بمكة سنة ثلاث وسبعين بعد قتل عبدالله بن الزبير بثلاثة أشهر، وله سبع وثمانون سنة رضي الله عنه[1] (**أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**[2]).

(**قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة**[3]) للشيخ أبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي الفقيه الزاهد نزيل دمشق[4]، وكتابه هذا هو «كتاب الحجة على تارك المحجة» يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة، أخرج هذا الحديث فيه (**بإسناد صحيح**[5]) مع كلام فيه، ورواه البغوي في شرح السنة[6].

ومعنى الحديث: أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب، حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها،

---

(١) انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٣٢٣)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٣/ ٨٠).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢)، والنسوي في الأربعين (ص ٢٥)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٣٨٧)، والخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ٣٦٩) كلهم من طريق نعيم بن حماد ثنا عبدالوهاب بن عبدالمجيد الثقفي عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عقبة بن أوس عن عبدالله بن عمرو مرفوعًا.

(٣) الأربعين، النووي، الحديث الحادي والأربعين.

(٤) النابلسي، يعرف بابن أبي حافظ، فقيه محدث، توفي سنة ٤٩٠هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٩/١٣٦)، طبقات الشافعية، الاسنوي (٢/٣٨٩).

(٥) قال ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم (ص ٣٦٤): «قلت: تصحيح هذا الحديث بعيد جدا من وجوه». وذكر فيه عللاً ثلاثًا: الأولى: ضعف نعيم بن حماد، والثانية: الاضطراب في إسناده، والثالثة: الانقطاع بين عقبة بن أوس وعبدالله بن عمرو.

وضعفه الألباني بهامش السنة لابن أبي عاصم ص١٢، حديث (١٥).

(٦) شرح السنة، البغوي (١/ ٢١٣) من طريق نعيم بن حماد أيضًا.

فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه، وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير ما موضع، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله، أو [أحبّ][1] ما كرهه الله فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمد: ٩]، وقال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨].

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله، محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً، وفي الصحيحين مرفوعًا: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين[2]». وقد سبق، فلا يكون الإنسان مؤمنًا كاملاً حتى يكون كذلك[3].

قال العلماء رحمهم الله تعالى في حد الهوى: المختار أنه ميل الطبع إلى

---

(١) في الأصل: أوجب، والسياق يقتضي ما أثبت.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ١٤)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد (١/ ٦٧) كلاهما من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.

وليس فيهما من «نفسه»، ولم أعثر عليه بهذا اللفظ، ولعله اختلط عليه حديث أبي هريرة مرفوعًا، فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده، عند البخاري (١/ ١٤). فسبق نظره إلى (نفسي) وظنها (نفسه)، والله أعلم.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب (ص ٣٦٥).

ما يلائمه، وهذا الميل مخلوق في الإنسان، فإما أن يكون إلى الحق كما هنا، وإما أن يكون إلى الباطل كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ﴾ [ص: ٢٦] الآية، وقوله﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، فالهوى مطلق الميل والمحبة(١)، فلولا ميل الإنسان إلى المطعم لما أكل وشرب، وكذا المنكح وجميع ما يميل إليه، فالهوى مستجلب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصح ذم الهوى حينئذ على الاطلاق، وإنما يذم منه ما يزيد على جلب المصالح ودفع المفاسد، ولا يفرَّق بين الهواءين [ك،١٥٣/ب] إلا بعقل يؤتيه الله من يشاء من عباده، قد غذي من فطرة الله التي فطر عليها عباده المؤمنين، ولهذا قال ﷺ: **(حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به)**.

فمطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة ما جاءت به الشريعة، وقد مدح الله سبحانه مخالفة الهوى بقوله: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]، وحذر من اتباعه بقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [القصص: ٥٠] الآية، وبقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث** مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرؤ بنفسه»(٢).

---

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب (ص ٣٦٧).

(٢) أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (١/ ٩٠)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٤٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤٧١)، كلهم من طرق عن الفضل بن بكر العبدي عن قتادة عن أنس مرفوعًا، قال العقيلي (٣/ =

رواه أبو الشيخ والبزار وأبو نعيم والبيهقي والطبراني في الأوسط.

قال الحافظ العراقي[1]: وفيه ضعف.

وعن الفضيل بن عياض أنه قال: من استحوذت عليه الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق.

وعن أبي عمرو الشيباني قال: لقي عالم من العلماء راهبًا من

= ٤٤): رواه الفضل بن بكر العبدي عن قتادة ولا يتابع عليه من وجه يثبت، وقد روي عن أنس من غير هذا الوجه، وعن غير أنس بأسانيد فيها لين.

وقال الحافظ في لسان الميزان (٤/ ٤٣٧): الفضل بن بكر عن قتادة لا يعرف وحديثه منكر.

وأخرجه من طريق الحسن عن أنس الطبراني في الأوسط (٥/٣٢٨)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٦٠)، والدولابي في الكنى (١/ ١٥١)، كلهم من طريق حميد بن الحكم الجرشي عن الحسن به، وحميد هذا قال فيه ابن حبان في المجروحين (١/ ٢٦٢) منكر الحديث جدا.

وللحديث طرق وشواهد كثيرة، لا تخلو من ضعف عن جمع من الصحابة منهم عبدالله بن عباس، وأبو هريرة، وعبدالله بن أبي أوفى، وعبدالله بن عمر، قال المنذري في الترغيب (١/ ١٦٢): رواه البزار والبيهقي وغيرهما، وهو مروي عن جماعة من الصحابة وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى.

وقال الألباني في الصحيحة (٤/ ٤١٦) بعد أن استوفى تخريج طرقه: وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق حسن على أقل الدرجات إن شاء الله تعالى، وبه جزم المنذري.

(١) هو عبدالرحيم بن الحسين، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي، من كبار حفّاظ الحديث، له الألفية في علوم الحديث، والمغني عن حمل الأسفار، توفي سنة ٨٠٦هـ.

انظر: الضوء اللامع، السخاوي (٤/ ١٧١)، غاية النهاية (١/ ٣٨٢).

الرهبان فقال له: كيف ترى الدهر؟ قال: يُخلق الأبدان، ويجدد الآمال، ويبعد الأمنية، ويقرب المنية. قال له: فأي الأصحاب أبر؟ قال: العمل الصالح. قال: فأي شيء أضر؟ قال: النفس والهوى.

وعن علي بن سهل قال: العقل والهوى يتنازعان، فقرين العقل التوفيق، وقرين الهوى الخذلان، والنفس واقفة بينهما، فأيهما ظفر كانت في حيزه.

فبهذا تعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه.

ولهذا قال الأحنف بن قيس المشهور بالعقل والحلم: العرب تقول: الصبر على الهوى صحة من السقم. وقد أنشد بعضهم في ذم الهوى:

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا[(١)]

وسئل ابن المقفع[(٢)] عن الهوى فقال: هوان سرقت نونه. فنظمه[(٣)] بعضهم فقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا[(٤)]

---

(١) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى (ص ١٣).

(٢) هو عبدالله بن المقفع، من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، ولد في العراق مجوسيا، وأسلم على يد عم السفاح العباسي، وولي كتابة الديوان للمنصور، اتهم بالزندقة، فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي، سنة ١٤٢هـ. انظر: لسان الميزان، ابن حجر (٣/ ٣٦٦)، البداية والنهاية، ابن كثير (١٠/ ٩٦).

(٣) ذم الهوى، ابن الجوزي (ص ١٣).

(٤) المصدر السابق.

وروي عن عبدالرحمن بن مهدي قال: رأيت سفيان الثوري في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلا أن وُضعتُ في اللحد حتى وقفت بين يدي الله تعالى فحاسبني حسابًا يسيرا، ثم أمر بي إلى الجنة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها، ولا أسمع حِسّا ولا حركة، إذ سمعت قائلاً يقول: سفيان بن سعيد؟ قلت: سفيان بن سعيد، قال: تحفظ أنك آثرت الله على هواك يومًا؟ قال فقلت: إي والله، فأخذتني صواني النثار من جميع الجنة[1]. ذكره ابن أبي الدنيا.

قال ابن الجوزي وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما جاءه منكر ونكير جذب بذؤابة هذا وذؤابة هذا وقال: من ربكما؟[2]. ولولا انقباض جوارحه عن الهوى لما انبسطت يده إليهما[3]، فينبغي للإنسان أن يتفكر في عواقب الهوى المردي، فكم أفات من فضيلة، وكم أوقع في رذيلة، وكم من مطعم أوقع في مرض، غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى. فأقرب شبها به من في المدبغة، فإنه لا يجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان، فليتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه المخالف لهداه، ثم يتصور الأذى الحاصل عقب اللذة الحاصلة به، فإنه يرى الأذى يربي على الهوى أضعافًا تترى، وإذا تفكر فيما يناله من لذات الهوى المخالفة للهدى، واستخبر العقل السليم أخبره أن ذلك ليس بشيء، وإنما عين الهوى عمياء.

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٤٣٨).

(٢) ذم الهوى (ص٣٢) ولم يذكر له أسنادًا ولعله من قبيل المنامات التي رئيت لعمر رضي الله عنه.

(٣) المصدر السابق.

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه في لذات الشهوات التي يدعو إليها الهوى، قال: إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مناتنها[1].

وفي مخالفة الهوى من اكتساب الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعرض، ومرضاة الرب جل وعلا، والأجر في الآخرة، والقرب من الله سبحانه والأنس به، ما يدعو العاقل إلى مخالفته، والهوى يسري بصاحبه في فنون، فقد يكون في الشهوة، ويكون في العلم، فيخرج بصاحبه إلى ضد ما أمره به العلم، فيكون مخالفًا لله ورسوله، ويكون في الزهد فيخرج به إلى الرياء، هذا إذا ادعى المتابعة فكيف بمن سرى به الهوى إلى المخالفة، وقد روي أن عبدالله بن حسن كان يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدين واللذاتُ تعجبني ... فكيف بما تهوى اللذات والدينُ

فقالت له: دع أحدهما تنل الآخر. فلا ينال المحظور إلا بترك المأمور.

ولما كانت النفس مجبولة على حب الهوى، فكانت بالطبع تسعى في طلبه، افتقرت إلى حبسها عما يؤدي إليه الهوى، إذ مطلق الهوى كما مر يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة ما جاءت به الشريعة المطهرة، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً وإن كان سببًا للألم والأذى ويمنع لذات الآجل، والعقل السليم الذي قد تبع الفطرة السليمة والشريعة القويمة ينهى عن لذة تعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل الموصوف بما ذكر، وذمًّا للهوى الذي لم يتابع الفطرة والشريعة بميله إليهما، وأنشد بعضهم:

---

(١) رواه أبو يوسف في كتاب الآثار ص ١٩٨ عن إبراهيم النخعي من قوله.

وأفضل الناس من لم يرتكب سببًا حتى يميز ما تجني عواقبه

وعن الحارث المحاسبي أنه قال: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل والصبر(١).

قال أكثم بن صيفي: حيلة من لا حيلة له الصبر(٢).

وأنشد ابن مسروق(٣) في ذلك: [ك،١٥٣/أ]

إذا طالعك الكره فكن بالصبر لوّاذا
وإلا ذهب الأجر فلا هذا ولا هذا(٤)

وقالت الخنساء رضي الله عنها:

نُهين النفوس وهون النفوس عند الكريهة أوفى لها(٥)

فينبغي للإنسان أن يستعين على هواه المُردي، وصرفه بأن يميله إلى متابعة رسول الله ﷺ بالصبر، لهذا ورد في الأثر: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ألا وإنه لا إيمان لمن لا صبر له(٦).

---

(١) ذم الهوى، ابن الجوزي (ص ٣٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أحمد بن محمد بن مسروق البغدادي، شيخ الصوفية، توفي سنة ٢٩٨هـ وانظر سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٩٤، ٤٩٥).

(٤) ذم الهوى: ص٣٦.

(٥) ديوانها: ص٨٤، دار الكتب العلمية، وفيه: (أبقى) بدل (أوفى).

(٦) عن علي رضي الله عنه، وقد مضى تخريجه ص١٤٧٧، وأنه لا يصح مرفوعا ولا موقوفاً.

قال ابن الجوزي: قد حث الله على الصبر وأمر به ومدح أهله في أكثر من تسعين موضعًا من القرآن[1].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر[2].

وقد قال سفيان بن عيينة: ليس العاقل الذي يعرف الخير والشر، إنما العاقل من يعرف الخير فيتبعه، ويعرف الشر فيجتنبه.

رواه ابن أبي الدنيا[3]، وقال محي السنة أبو محمد الحسين البغوي: **(قال الشعبي)** هو عامر بن شراحيل، قال مكحول: ما رأيت أفقه منه[4]. **(كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة)** بضم الراء ما يدفع للحاكم من المال ليجور في الحكم، والصحيح أنها مثلثة الراء، ذكره ابن مالك وغير واحد.

قال في الترغيب: الرشوة ما أعطاه بعد طلبه، والهدية ابتداء.

وقد قال عمر بن عبدالعزيز: كانت الهدية فيما مضى هدية، وأما اليوم فرشوة[5].

---

(١) ذم الهوى، ابن الجوزي (ص ٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (٢/ ٥٣٤)، ومسلم في الزكاة، باب فضل التعفف والصبر (٢/ ٧٢٩).

(٣) العقل وفضله، ابن أبي الدنيا (ص ٥٩)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٣٩).

(٤) انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٥/ ٦٥)، تاريخ بغداد، الخطيب (١٢/ ٢٢٧).

(٥) الفروع، ابن مفلح (٦/ ٤٤٧).

ولهذا قال الشاعر:

إذا أتـت الهـديـة دار قـوم ... تطايرت الأمانة من كواها[1]

وقال منصور الفقيه:

إذا رشوة من باب بيت تقحّمت ... لتـدخـل فيـه والأمـانـة فيـه

سعت هربًا منه وولت كأنها ... حليم تنحى عن جواب سفيه[2]

(وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة) ويميلون في الحكم، تقدم أن الرشوة مثلثة الراء وجمعها رُشى ورِشى بضم الراء وكسرها، وحدها بعضهم بما يتوصل به إلى الممنوع، فإن كان حقًّا فالإثم على المرتشي، وإن كان باطلاً فالإثم عليهما، وأصلها من الرشا الذي يتوصل به إلى الماء. قاله البعلي[3].

(فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة) بضم الجيم وفتح الهاء والنون ثم هاء، قبيلة من ولد جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن إسحاق ابن قضاعة بن مالك بن حميد، ويقال: قضاعة بن معد على قول[4]، ويشهد للقول الأول قول شاعرهم:

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر ... قُضاعةَ بن مالك بن حميرِ[5]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: الفائق، الزمخشري (٢/ ٦٠)، النهاية، ابن الأثير (٢/ ٢٢٦).

(٤) انظر: الروض الأنف، السهيلي (١/ ٢٣)، التعريف بالأنساب، القرطبي (ص ٣٠٥)، نهاية الأرب، القلقشندي (ص ٣٥٨).

(٥) البيت منسوب إلى عمرو بن مرة القضاعي في نهاية الأرب، القلقشندي (ص ٣٥٨)، =

وللقول الآخر قول الآخر منهم:

أبونا معد كان يكنى ببكره ... قضاعة ما فينا به من يجمجمُ

(فيتحاكما إليه، فنزلت هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾[(١)]) [النساء: ٦٠].

الطاغوت اسم وصف عام، يطلق على كل من طغى عن الحق فعدل عنه إلى الباطل كائنًا من كان، ومنه من دعا إلى ضلالة، أو عبد من دون الله برضى منه، وتقدم الكلام على ذلك مستوفى.

قال جابر بن عبدالله: كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها واحدًا في جهينة، وواحدًا في أسلم، وفي كل حي واحد كهّان[(٢)].

(وقيل) قاله الكلبي عن أبي صالح وابن عباس: **(نزلت في رجلين)** رجل من المنافقين يقال له مبشر كان بينه وبين يهودي خصومة **(فاختصما فقال أحدهما)** وهو اليهودي: **(نترافع إلى النبي ﷺ. وقال الآخر)** وهو المنافق بل **(نترافع إلى كعب بن الأشرف)** وهو من أشراف يهود في دينهم، وأصله من العرب من طي، ثم من بني نبهان بطن من طي، وأمه من بني النضير من يهود، وهو المسمى بالطاغوت، فأبى اليهودي أن يخاصمه

= سبائك الذهبي، السويدي (ص ٦٠).

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٥٣)، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢/ ٥٨٠)، وإسحاق بن راهويه في تفسيره بإسناد صحيح، كما قال الحافظ في الفتح (٥/ ٣٧).

(٢) مضى تخريجه.

إلا إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ، فقضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق يطلب منه المخاصمة، يعني عند غير رسول الله ﷺ، (**ثم بعد ذلك تنازعا**، وقال المنافق: **انطلق بنا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وترافعا عند ذلك**[١]، **فذكر له أحدهما**) وهو اليهودي (**القصة فقال عمر للذي لم يرض برسول الله ﷺ**) وهو المنافق، (**أكذلك**) هو؟ (**قال: نعم**) فقال لهما عمر: رويدكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه، ثم خرج (**فضربه**) عمر (**بالسيف فقتله**[٢]).

وفي رواية: فضربه بالسيف حتى برد، وقال هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله ورسوله [ك،١٥٤/ب]، فنزلت هذه الآية، فقال جبريل: إن عمر فرق بين الحق والباطل، فسمي الفاروق[٣].

ذكره ابن الجوزي[٤]، ورواه ابن مردويه وابن أبي حاتم عن أبي الأسود قال: اختصم رجلان إلى النبي ﷺ فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه: ردونا إلى عمر، فقال: أكذلك قال؟ قال: نعم، فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فخرج إليهما مشتملاً على سيفه فضرب الذي قال ردونا إلى عمر فقتله، وأدبر الآخر فقال: يا رسول الله

---

(١) في متن كتاب التوحيد «ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب».
انظر: القول السديد، ابن سعدي (ص ١٠٣).

(٢) أخرجه الثعلبي، كما في الدر المنثور (٢/ ٥٨٢)، والكلبي كما في فتح الباري (٥/ ٣٧) عن ابن عباس، وقال الحافظ: وهذا الإسناد وإن كان ضعيفًا لكن يتقوى بطريق مجاهد، أخرجه الطبري في التفسير (١/ ١٥٤) بإسناد صحيح.

(٣) من رواية الكلبي عن أبي صالح، ذكرها الواحدي في أسباب النزول (ص ١٠٧).

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١١٩).

قتل عمر صاحبي، فقال: ما كنت أظن أن يجترىء عمر على قتل مؤمن، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ الآية، فأهدر النبي ﷺ دم الرجل وبرّأ عمر من قتله، وتقدم وصلُه[1] من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

وقال السدي: كان ناس من اليهود أسلموا ونافق بعضهم، وكانت قريظة والنضير في الجاهلية إذا قتل رجل من بني قريظة رجلاً من بني النضير، قتل به أو أخذت ديته مائة وسق تمرًا، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلاً من بني قريظة، لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقًا، وكانت النضير وهم حلفاء الأوس أشرف وأكثر من قريظة وهم حلفاء الخزرج، فلما جاء الله بالإسلام وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فاختصموا في ذلك، فقالت بنو النضير: كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا منا وديتكم ستون وسقًا، وديتنا مائة وسق، فنحن نعطيكم ذلك، فقالت [بنو قريظة][2]: هذا شيء كنتم فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقلتنا فغمرتمونا، ونحن وأنتم اليوم إخوة وديننا ودينكم واحد فلا فضل لكم علينا، فقال المنافقون منهم: انطلقوا بنا إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي[3]، وقال المسلمون من الفريقين: لا بل إلى النبي ﷺ فأبى المنافقون وانطلقوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في تفسير ابن كثير (١/ ٥٢١) من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود به، قال ابن كثير بعد ذكره لهذه الرواية: وهو أثر غريب مرسل، وابن لهيعة ضعيف.

(٢) في الأصل: الخروج، ولم أدر ما وجهها، ولعلها سبق قلم، وما أثبتّه هو الموافق للسياق، ولرواية ابن جرير للقصة.

(٣) كان أبو بردة الأسلمي كاهنًا يقضي بين اليهود، دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأبى، ثم تداركه الله برحمته وكلمه ابناه في ذلك فأجاب وأسلم.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ١٩).

إلى أبي بردة ليحكم بينهم، فقال لهم: أعظموا اللقمة، يعني الخطر[1]، فقالوا: لك عشرة أوسق، قال: لا بل مائة وسق ديتي، فأبوا أن يعطوه فوق عشرة أوساق، وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله آية القصاص وهذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية المتقدمة، يعني بالطاغوت الكاهن، أو كعب بن الأشرف[2].

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير نحوه[3].

فهكذا قادة الباطل يكونون سببًا لتغيير الأديان، كما قال عبدالله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبـار سـوء ورهبـانهـا[4]

والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولما ذكر رحمه الله تعالى باب التحاكم إلى الطاغوت، أعقبه بباب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات، ليعلم بذلك أن التحاكم في

---

(١) الخطر بالتحريك في الأصل: الرهن وما يخاطر عليه، ومثل الشيء وعدله، ولا يقال إلا في الشيء الذي له قدر ومزية. انظر: النهاية، ابن الأثير (٢/ ٤٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٤/ ١٥٣) عن الأسدي، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/ ٥٨١).

(٣) ذكرها ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٢١) وذكرها أنها نزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة، اختصما في ماء فقضى النبي ﷺ أن يسقي الأعلى ثم الأسفل، وقال: هذا مرسل.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٢/ ٢١٣)، والقرطبي في تفسيره (١٣/ ١٧٩) حيث نسباه إلى ابن المبارك.

جميع الأشياء من شرعه، وما وصف به من الأسماء والصفات إنما بيانه إليه جل وعلا، فيما أخبر به في كتابه، أو على لسان رسوله محمد ﷺ، لا إلى ما سنح من الآراء والأهواء، فقال الباب التاسع والثلاثون.



الباب التاسع والثلاثون
باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

الأسماء هي الموضوعة للذات الكريمة المستجمعة لسائر الصفات الواجبة له سبحانه، المستحيل عليه نقائضها كاسمه الله تعالى.

والصفات منها صفات الذات كالعلم والحياة والقدرة والإرادة، وصفات الأفعال كالمنعم، وأسماء الصفات كالرؤوف والرحيم والعليم والسميع والبصير والحليم والقدير ونحو ذلك، فهي أسماء وصفات أيضًا، والقول في الأسماء والصفات كالقول في الذات، فإنه قد جلّ سبحانه عن الشبيه والنظير، فلا تَمثّله العقول بالتفكير، ولا تَوهّمه القلوب بالتصوير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. له الأسماء الحسنى والصفات العلا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه: ٥ـ ٨] أحاط بكل شيء علمًا، وقهر كل مخلوق عزةً وحكمًا، ووسع كل شيء رحمة وعلما ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠]. موصوف بما وصف به نفسه في كتابه العظيم، وعلى لسان نبيه الكريم، فكل ما جاء في القرآن أو صحّ عن المصطفى عليه السلام، من صفات الرحمن لا تجحد بل يجب بها الإيمان، وتتلقى بالتسليم والقبول والإذعان، ويجب ترك التعرض لها بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل والنكران، وما أشكل من ذلك وجب إثباته لفظًا وترك التعرض لمعناه(١)، ويرد علمه إلى قائله، ويجعل عهدته

---

(١) ليس في القرآن ما لا يمكن الوصول إلى معناه على جميع الناس، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ =

على ناقله، اتباعًا لطريق الراسخين، الذين أثنى الله عليهم في كتابه المبين بقوله جل وعلا: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ثم ذم مبتغي التأويل لمتشابه تنزيله فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] فجعل ابتغاء التأويل علامة على الزيغ، وقرنه بابتغاء الفتنة في الذم، ثم حجبهم

= إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فهل يعقل أن يأمرنا الرب سبحانه بتدبّر ما لا يفهم معناه.

يظن البعض أن آيات الصفات لا يمكن الوصول إلى معانيها وأنها من قبيل المتشابه، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي، ولا شك أن ذلك من الخطأ العظيم، فلم يقل ذلك أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتقدمين، بل كانوا يعقلون معانيها، وقالوا في آيات الله وأحاديثها: «تمر كما جاءت» ونهوا عن تأويلات الجمية وأبطلوها، وأقروا النصوص على ما دلت عليه من معاني، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك.

والنصوص الواردة عن السلف تدل دلالة واضحة على أن السلف لم يفوضوا معاني النصوص بل أثبتوها على الوجه اللائق بالله تعالى، وسوف يذكر المصنف بعد قليل جملة من النصوص عن السلف منها النص المشهور عن الإمام مالك وشيخه ربيعة: «الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب».

فقد بينا أن الاستواء معلوم وأن الكيف مجهول، ولم يقولا معنى الاستواء مجهول بل أثبتاه ولم ينفيا إلا العلم بكيفيته، لا العلم بنفس الاستواء، وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه، وهذه هي حقيقة مذهب السلف: يؤمنون بالصفات الواردة، ويفهمون ما دلت عليه من المعاني اللائقة بالله تعالى، أما الكيفية فيفوضونها لعالمها.

وهذه العبارة نقلها المؤلف من لمعة الاعتقاد لابن قدامة ويبدو أنه لم ينتبه لها. انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠١ـ ٢٠٨)، الفتوى الحموية (ص ٣٠٨ـ ٣١٠).

(١) الجهمية

عما أملوه وقطع أطماعهم عما قصدوه بقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى﴾، أتى في هذا بضمير الاختصاص، الذي هو ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي حق ﴿إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾[١] [الرعد: ٣٠].

قال قتادة ومقاتل وابن جريج: نزلت في صلح الحديبية حين أرادوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل[٢] بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن، اكتب باسمك اللهم[٣].

وقيل نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: اسجدوا للرحمن فقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾[٤] [الفرقان: ٦٠].

والمعنى في الآية قل لهم يا محمد: إن الرحمن الذي أنكرتم معرفته

---

(١) اكتفى الشيخ محمد بن عبدالوهاب في متن التوحيد بمطلع الآية: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

(٢) القرشي العامري، من لؤي، خطيب قريش، وأحد سادتها في الجاهلية، أسره المسلمون يوم بدر، وافتدي، فأقام على دينه إلى يوم الفتح بمكة، فأسلم فسكنها ثم سكن المدينة، وهو الذي تولى أمر صلح الحديبية، مات بالطاعون سنة ١٨هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٩٢)، البيان والتبيين، الجاحظ (١/ ٥٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة كما في الدر المنثور (٤/ ٦٥٠).
وعن مجاهد ابن جرير في تفسيره (١/ ١٥٠)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤/ ٦٥٠).
وحديث كتابة الصلح أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط (٢/ ٩٧٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن عطاء كما في الدر المنثور (٦/ ٢٦٨).

هو ربي لا إله إلا هو، عليه توكلت وإليه متاب، وحالهم [ك،١٥٤/أ] أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة، الذي أحاطت بهم نعمته، ووسعت كلَّ شيء رحمته، فلم يشكروا نعمه، خصوصًا ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والدنيوية.

وفي البخاري وغيره من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعًا: حين دعته [إحدى][١] بناته ﷺ عند موت ابنها، وفيه: ففاضت عيناه فقال له سعد بن عبادة[٢]: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء[٣].

وفي الترمذي بسند فيه حماد بن [أبي حميد[٤]][٥]، وقال غريب عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعًا: «خير الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي، لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»[٦].

---

(١) في الأصل: أحد

(٢) الخزرجي، أبو ثابت، سيد الخزرج، ومن الأشراف في الجاهلية والإسلام، أحد النقباء الاثني عشر، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد أحدًا والخندق وغيرها، توفي بالشام بحوران سنة ١٤هـ. انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد (٣/ ١٤٢)، تهذيب تاريخ دمشق، ابن بدران (٦/ ٨٤).

(٣) مضى تخريجه.

(٤) في الأصل: «حماد بن حميد» والصواب ما بين المعكوفين.

(٥) حماد بن أبي حميد هو محمد بن أبي حميد الأنصاري الزرقي، أبو إبراهيم المدني، ضعيف من السابعة.

انظر: تهذيب التهذيب (٩/ ١٣٢)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٤٧٥).

(٦) أخرجه في الدعوات، باب في دعاء يوم عرفة (٥/ ٥٧٢) وقال: هذا حديث غريب =

قال ابن العربي[1]: ليس في دعاء عرفة حديث يعول عليه إلا هذا.

فقوله «وحده» تأكيد لتوحيد الذات والصفات، فهو رد على الكرامية[2] والجهمية القائلين بحدوث الصفات.

وذكره البيهقي وغيره[3].

وقوله «لا شريك له» تأكيد لِتوحيد الأفعال، ففيه رد على المعتزلة القائلين بخلق العبد لفعل نفسه، وقوله: «له الملك» أخْذ منه ﷺ لربه تبارك وتعالى في إثبات ما له أن يوصف به بعد نفي ما لا يجوز عليه،

= من هذا الوجه، وحماد بن أبي حميد هو محمد بن أبي حميد، وهو أبو إبراهيم الأنصاري المدني وليس بالقوي عند أهل الحديث.

(١) هو القاضي المالكي، تقدمت ترجمته.

(٢) الكرامية: وهم أتباع محمد بن كرام السجستاني، طرد من سجستان بسبب بدعته، يغالون في إثبات الصفات لله إلى حد التشبيه، ويقولون إن الإيمان هو باللسان فقط دون المعرفة والعمل، وقالوا بالتحسين والتقبيح العقليين فوافقوا المعتزلة في ذلك.

انظر: الفرق بين الفرق، البغدادي (ص ٢١٥)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي (ص ١٠١).

(٣) في السنن الكبرى (٥/ ١١٧) عن علي بن أبي طالب مرفوعًا، وفي شعب الإيمان (٣/ ٤٦٢) من طريق عبدالرحمن بن يحيى المدني عن مالك بن أنس عن سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعًا، قال البيهقي: «هكذا رواه عبدالرحمن بن يحيى وغلط فيه، إنما رواه مالك في الموطأ» (١/ ٢١٤) مرسلا.

وهو عنده من طريق زياد بن أبي زياد عن طلحة بن عبدالله بن كريز مرسلا.

وأخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ٢٩٠) وعده من منكراته، وتكلم بنحو كلام البيهقي، وقال: عبدالرحمن بن يحيى المدني غير معروف.

وللحديث شواهد أخرى جمعها الألباني وحسن الحديث بها في السلسلة الصحيحة (٤/ ٦).

قاله السهيلي وغيره.

وقدم الملك على الحمد لأنه ملك فحمد في مملكته، ثم ختم بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ ليتم معنى الحمد إذ لا يحمد المنعم حقيقة حتى يعلم أنه لو شاء لم ينعم، وأنه كان قادرًا على المنعم عليه، وكان جائزًا أن يمنع وأن ينعم، فلما علم أن له الكمالَ في الأمرين استحق الحمدَ على الكمال، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين أنه يجب عليه تعالى إصلاح الخليقة[1].

---

(١) هذه المسألة من أشهر المسائل التي اشتهر بها المعتزلة، وما ذكروه من وجوب فعل الأصلح على الله تبارك وتعالى مخالف لما عليه جمهور أهل العلم ـ أهل السنة والجماعة والأشاعرة ومن تبعهم ـ فإنهم يرون أنه لا يجب على الله تعالى فعل الأصلح لعباده، لأنه لا سلطة لأحد من الخلق في إيجاب شيء أو تحريمه على الله سبحانه وتعالى، بل هو الذي بيده الخلق والأمر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فما أوجبه على نفسه كان واجبًا عليه بإيجابه هو، وما حرمه على نفسه، كان محرمًا عليه بتحريمه هو. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وفي الحديث القدسي عند مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٤): «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا».

وكيف يجب على الله تعالى فعل الأصلح لعباده والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. وقد ورد في حديث ابن مسعود في الصحيح (٣/ ١١٧٤) وغيره: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها». وهذا لا يعني أن أهل والجماعة ينفون وجود المصلحة في أوامر الله تعالى ونواهيه، بل إن مقتضى مذهبهم أن أوامر الله تعالى ونواهيه لا تخلو من مصلحة، لكنها غير واجبة عليه سبحانه وتعالى كما تقول المعتزلة، بل هو فضل منه سبحانه وإحسان على =

وإنكار قريش «للرحمن» إنما هو إنكار جحود، إذ العرب تعرفه وقد ذكرته في أشعارها، قال حاتم الطائي فيما ذكر عنه الزبير بن بكار في أخباره في قصيدة لحاتم يقول لمن يعذله في الجود:

كلوا اليوم من رزق العباد وأبشروا فإن على الرحمن رزقكمُ غدا[(١)]

فيا له من بيت، لو أن صاحبه أدرك الإسلام لرجي له به الخير.

فهذا باب عقده الشيخ رحمه الله تعالى لذكر الأسماء والصفات وإثباتها وعدم إنكارها بنفي أو تأويل، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، قاله سبحانه جوابًا لبعض الكفار حين سمعوا المسلمين يذكرون الرحمن، فقالوا أليس محمد يقول: أدعو الناس إلى عبادة واحد، فما بال أصحابه يدعون إلهين أحدهما الله والثاني الرحمن، فأنزل الله هذه الآية، قاله ابن عباس وغير واحد من السلف[(٢)]، وفي هذا دليل أن الرحمن اسم وصفة أيضًا كما بيناه في أول هذا الشرح عند الكلام على البسملة[(٣)].

وقوله ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ قالوا: فأي ههنا شرط، ونُوِّنَ لمّا قُطع عن ما

= عباده. انظر: منهاج السنة، ابن تيمية (١/ ٤٦٠ـ ٤٦٦)، الملل والنحل، الشهرستاني (١/ ٥٤)، الفرق بين الفرق، البغدادي (ص ١٣٣ـ ١٣٤)، القضاء والقدر، المحمود (ص ١٧٦ـ ١٨٠).

(١) الأخبار الموفقيات (ص ٤٠)، ديوان حاتم الطائي: ص٢١٨، مكتبة الخانجي، ١٤١١هـ.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٥/ ١٨٢) عن ابن عباس ومكحول.

(٣) راجع ص ٣٨.

هو مضاف إليه، والتقدير: أي الاسمين ذكرتموه أصبتم، فله هذان الاسمان، وأسماءٌ أخرُ زائدة عنهما كلها حسنى كقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ إلى قوله: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٤﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]، وقوله: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ إلى قوله: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ٤ ـ ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد، والميل والانحراف والجور، ومنه اللحد في القبر؛ لانحرافه إلى القبلة عن قصد الحافر له.

وذكر الحافظ أبوبكر بن العربي أحد أئمة المالكية رحمه الله في الأحوذي أن بعض أهل العلم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله تعالى ألف اسم، قال: وهذا القدر حقير فيها.

قلت: ولا شك أنها أكثر من [تسعة][1] وتسعين اسمًا، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه[2]، يدل عليه الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وغيره وفيه: أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي»[3]، الحديث.

---

(١) في الأصل: تسع.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٦/ ٣٨١)، درء التعارض، ابن تيمية (٣/ ٣٣١).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٩١)، والحارث في مسنده (٢/ ٩٥٧)، وأبو يعلى =

وهو حديث مرفوع من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ورواه عنه ابن أبي حاتم[1]، وابن حبان بطوله[2]، وقال أبو سليمان الخطابي وغيره: هذا يدل على أن له سبحانه أسماءً استأثر بها، وأن من أسمائه ما هو قد خص به بعض خلقه دون بعض.

وهذا واضح ولله الحمد والمنة، فمن جحد اسمًا من أسماء ذاته أو صفة من صفاته فقد هدم أساس الإسلام والإيمان والإحسان، فضلاً عن أن يكون جاحد شيء من ذلك من أهل العرفان، فإن معرفة ذلك والإيمان به هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان وثمرة شجرة الإحسان، وقد جعل الله سبحانه منكِر صفاته مسيء الظن به، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكبائر فقال: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٢ـ ٢٣].

= في مسنده (٩/ ١٩٨)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه.

وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: وأبو سلمة لا يُدرَى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة.

وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهمي وقد وثقه ابن حبان.

وللألباني كلام طويل في الصحيحة (١/ ١٧٧) خالف به الذهبي في تعقبه الحاكم، وانتهى به إلى تصحيح الحديث.

(١) لم أعثر على أحد عزاه إلى ابن أبي حاتم.

(٢) صحيح ابن حبان (٣/ ٢٥٣).

فأخبر سبحانه أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به، وهو الذي أهلكهم وأرداهم، وقال في الظانين به ظن السوء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح: ٦] ولم يجيء مثل هذا الوعيد في غير سوء الظن به، فجحد صفاته وإنكار حقائق أسمائه جل وعلا من أعظم ظن السوء به، ولما كان إنكارها وجحدها من أعظم الإلحاد والكفر؛ إذ المعطل شر من المشرك، فإنه لا يستوي إنكار صفة الملك وحقيقة ملكه، فالطعن في أوصافه هو أعظم من التشريك بينه وبين غيره، فلولا تعطيل كماله أو بعضه وظن السوء به لما أشرك به.

قال إمام الحنفاء [ك،١٥٥/ب] وأهل التوحيد لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصافات: ٨٦- ٨٧].

قال موفق الدين ابن قدامة رحمه الله: قال الإمام أحمد رضي الله عنه في قول النبي ﷺ: «إن الله ينزل إلى سماء الدنيا»[(١)]، وأن الله يُرى في القيامة[(٢)]، وما أشبه هذه الأحاديث: نؤمن بها ونصدق بها ولا نرد

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١/ ٣٨٤) من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الأخير، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له». ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (١/ ٥٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب فضل السجود (١/ ٢٧٧) من حديث أبي هريرة: ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٣) ولفظه: «أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه حجاب، قالوا لا يا رسول الله. . . قال: فإنكم ترونه كذلك».

منها شيئًا[١]. قال: ونعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ حق، ولا نرد على رسول الله ﷺ، ولا يوصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١] نقول كما قال، ونصفه بما وصف نفسه، ولا نتعدى ذلك، ولا تبلغه صفة الواصفين، ونؤمن بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ولا نزيل عنه صفة من صفاته لشناعة شنّعت، ولا نتعدى القرآن والحديث، ولا نعلم كنْه ذلك إلا بتصديق الرسول ﷺ وتثبيت القرآن[٢].

قال: وقال الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه: آمنت بالله وما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ[٣].

وعلى هذا درج السلف وأئمة الخلف، كلهم متفقون على الإقرار والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله من غير تعرض لتأويله، وقد أمرنا باقتفاء آثارهم، والاهتداء بمنارهم، وحذرنا المحدثات، وأخبر أنها من الضلالات فقال النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[٤].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي (٣/ ٤٥٣).

(٢) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة (ص ٩).

(٣) المصدر السابق (ص ١٠).

(٤) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٥/ ٤٤)، وأبو داود في السنة، باب في لزوم السنة (٤/ ٢٠٠) واللفظ له، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١/ ١٥)، وأحمد في مسنده (٤/ ١٢٦)، والدارمي في سننه (١/ ٥٧)، والحارث في زوائد مسنده (١/ ١٩٧)، والطبراني في الأوسط (١/ ٧٨)، =

وقال أبو عمرو الأوزاعي رحمه الله: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه بالقول[1].

ومما جاء من آيات الصفات قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله عن المسيح عليه السلام أنه قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩]، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله: ﴿كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

ومن السنة النزول[2]، وقوله: يعجب ربك من الشاب ليس له صبوة[3][4]،

= والكبير (١٨/ ٢٤٥)، ومسند الشاميين (١/ ٢٥٤)، والحاكم وصححه في المستدرك (١/ ١٧٧)، والبيهقي في سننه (١٠/ ١١٤)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٨١)، وغيرهم. قال الألباني في الإرواء (٨/ ١٠٧): صحيح.

(١) لمعة الإعتقاد (ص ١٧٥). وأخرجه الآجري في الشريعة (١/ ٤٤٥)، والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ٧)، والذهبي في العلو، المختصر (ص ١٣٨)، وقال الألباني: سنده صحيح.

(٢) مضى تخريجه قبل قليل.

(٣) الصبوة: مصدر صبا الرجل يصبو صبا وصبوة، إذا مال إلى الهوى.
انظر: غريب الحديث، الخطابي (٣/ ١٢٤).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٥١)، والحارث في مسنده (بغية الباحث ٢/ ٩٨٦)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٢٨٨)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٠) كلهم من طرق عن غير العبادلة عن ابن لهيعة عن أبي عشانة عن عقبة بن عامر مرفوعًا. =

وقوله: يضحك ربك ـ وفي لفظ: الله ـ إلى رجلين قتل أحدهما الآخر ثم يدخلان الجنة[1].

وقوله ﷺ في حديث ابن عمر الذي في البخاري وغيره في ذكر الدجال: إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور ـ وأشار بيده إلى عينه ـ وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية[2].

وفيه في حديث أنس عن الدجال: إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور[3].

وقوله في حديث ابن مسعود عند البخاري مرفوعًا: ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وما أحد أحب إليه المدح من الله[4].

= قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٧٠): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وإسناده حسن «وتعقبه حمدي عبدالمجيد السلفي في عمله على المعجم الكبير (١٧/ ٣٠٩): «قلت ليس أحد من الرواة عن ابن لهيعة من العبادلة فهو ضعيف». ووافقه المعلق على مسند أبي يعلى (٣/ ٢٨٨)، وتعقبهما الألباني بعد أن سرد إسناد الروياني في مسنده عن عبدالله بن وهب ثنا ابن لهيعة به فقال: «قلت والتضعيف هو الجادة في حديث ابن لهيعة، لكن فاتهما رواية الروياني إياه من طريق ابن وهب، وهو أحد العبادلة الذين أشار إليهم الأخ السلفي، فصح الحديث والحمد لله».

السلسلة الصحيحة (٦/ ٨٢٤).

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الكافر يقتل المسلم، ثم يسلم فيسدد بعد ويقتل (٣/ ١٠٤٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة (٣/ ١٥٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ولتصنع على عيني (٦/ ٢٦٩٥)، ومسلم في الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال (١/ ١٥٥).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ولتصنع على عيني (٦/ ٢٦٩٥).

(٤) أخرجه البخاري في النكاح، باب الغيرة (٥/ ٢٠٠٢)، ومسلم في التوبة، باب =

وفيه من حديث أبي هريرة في الحديث القدسي: وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي[1] الحديث. قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وفي البخاري وغيره قول خبيب[2] رضي الله عنه:

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع[3]

وفي البخاري أيضًا عن المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أتعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الجنة[4].

وعند مسلم من حديث أبي هريرة في الصدقة: أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن[5].

= غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٤/ ٢١١٣).

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (٦/ ٢٦٩٤)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى (٤/ ٢٠٦١).

(٢) هو خبيب بن عدي الأنصاري الأوسي، شهد بدرًا واستشهد في عهد النبي ﷺ، أسره المشركون، ثم باعوه بمكة، فاشتراه بنو الحارث بن عامر وكان هو الذي قتل أباهم يوم بدر، وهو أول من صلى ركعتين عند القتل، وذلك سنة ٣هـ.

انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٤١٨)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٤٣٠).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله (٤/ ٢٦٩٣).

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول النبي ﷺ: لا شخص أغير من الله (٦/ ٢٦٩٨)، ومسلم في اللعان (٢/ ١١٣٦) واللفظ له.

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (٢/ ٧٠٢).

وهذا الحديث أصله عند الجماعة كلهم[1]، وفي الموطأ وغيره[2]، وقد قال الترمذي في جامعه: قال أهل العلم من أهل السنة والجماعة: نؤمن بهذه الأحاديث ولا نتوهم فيها تشبيهًا ولا نقول كيف هي، هكذا روي عن مالك وابن عيينة وابن المبارك وغيرهم، وأنكرت الجهمية هذه الروايات[3].

قلت: فهذا وما أشبهه مما صح سنده وعدلت رواته، نؤمن به ولا نرده ولا نجحده، ولا نتأوله بتأويل يخالف ظاهره، ولا نشبهه بصفات المخلوقين، ولا سمات المحدثين، ونعلم أن الله سبحانه لا شبيه له ولا نظير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] وكل ما تخيل في الذهن أو خطر بالبال فالله تعالى بخلافه.

ومن ذلك العلو والاستواء كما ورد به الكتاب والسنة وأجمع عليه سلف الأمة[4].

وفي حديث حصين[5] الصحيح المشهور أن النبي ﷺ قال لحصين:

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول (٢/ ٥١١) من طريق سعيد بن يسار عن أبي هريرة، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة (٣/ ٤٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في الزكاة، باب الصدقة من غلول (٥/ ٥٧) وابن ماجه في الزكاة، باب فضل الصدقة (١/ ٥٩٠)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٣١).

(٢) الموطأ (٢/ ٩٩٥) مرسلاً عن سعيد بن يسار، والدارمي في سننه (١/ ٤٨٥) من طريق سعيد بن يسار عن أبي هريرة مرفوعًا، ورواه غيرهم.

(٣) سنن الترمذي (٣/ ٥٠).

(٤) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة (ص ١٧٦).

(٥) حصين بن عبيد الخزاعي، والد عمران، اختلف في إسلامه، رجح الحافظ إسلامه، وأورد حديث سؤال النبي ﷺ له عن آلهته. انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٣٣٦)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٣٣٢).

كم إلهًا تعبد؟ قال: سبعة، ستة في الأرض وواحدًا في السماء، قال: من تدعو لرهبتك ورغبتك؟ قال: الذي في السماء، قال ﷺ: فاترك الستة واعبد الذي في السماء، وأنا أعلّمك دعوتين، فأسلم وعلمه النبي ﷺ أن يقول: اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي(١).

وفي كتاب السنة لعبدالله بن الإمام أحمد قال: سمعت بعض المشايخ يقول: سألوا وكيعًا عن أحاديث الرؤية فحدث بها. ثم قال: غُمّوا الجهمية بهذه الأحاديث مرتين. فهذا ونحوه مما أجمع المسلمون ـ رحمهم الله تعالى ـ على نقله وقوله، ولم يتعرضوا لرده ولا تأويله ولا تشبيهه ولا تمثيله(٢).

ومن صفاته جل وعلا أنه [ك،١٥٥/أ] متكلم بكلام قديم(٣) غير

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب رقم (٧٠) (٥/ ٥٢٠) وقال: هذا حديث غريب، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٤٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٢٣)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٧٤) كلهم من طريق شبيب بن شيبة عن الحسن عن عمران بن حصين عن أبيه، قال حمدي عبدالمجيد السلفي في تعليقه على المعجم الكبير: قلت وشبيب وإن كان صدوقًا فإنه يهم في الحديث، والحسن لم يسمع من عمران، وأنه مدلس وقد عنعن فهو ضعيف بهذا الإسناد. ثم ذكر له متابعًا وحسنه به من طريق شيبان عن منصور عن ربعي عن عمران بن حصين عن حصين دون ذكر قصة الآلهة، مطولاً أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤٤٤)، والنسائي في الكبرى (ص ١٧٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٢٣)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ١٧٣)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٨١)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٣٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الحافظ في الإصابة (١/ ٣٣٦) سنده صحيح.

(٢) السنة (١/ ٢٥٧).

(٣) كلام الله عند أهل السنة والجماعة قديم النوع، حادث الآحاد، فهو صفة ذات وصفة فعل معا، يتكلم سبحانه إذا شاء، ويسكت إذا شاء، وكون آحاده محدثة ـ =

مخلوق، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال عز من قائل: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١- ١٢]، وقال: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤]، وغير جائز أن يقول هذا غير الله سبحانه[1].

ومن كلامه تعالى هذا القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فهو كتابه المبين، وحبله المتين، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين بلسان عربي مبين، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود[2].

وهو سور محكمات، وآيات بينات، وحروف مقطعات وكلمات، من قرأه فأعربه فله بكل حرف منه عشر حسنات، له أول وآخر، وأجزاء وأبعاض، متلو بالألسنة، محفوظ في الصدور، مسموع بالآذان، مكتوب في المصاحف، فيه محكم ومتشابه، ومنسوخ وناسخ، وخاص وعام، وأمر ونهي، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:

= كما في قوله تعالى ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ..﴾ - لا يلزم منه أن تكون مخلوقة، انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٦/ ١٦٠، ١٦١).

(١) لمعة الاعتقاد، ابن قدامة (ص ١٧١- ١٧٨).

(٢) المصدر السابق (ص ١٨١).

٤٢]، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، ومن ذلك نداء الرب تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦]، وكذا مناداة رسله له كقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ [هود: ٤٥]، ومناداته سبحانه عباده في الآخرة، وكلامه مع جبريل عليه السلام، ونداء الملائكة في أحاديث صحاح كثيرة شهيرة يطول عدها، كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا: إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل[1] الحديث.

وفيهما عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار[2].

وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢].

وعند الإمام أحمد والبخاري في الأدب، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، والبيهقي عن عبدالله بن أنيس[3] قال: سمعت

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣/ ١٧٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده (٤/ ٢٠٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج (٣/ ١٢٢١)، ومسلم في الإيمان باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (١/ ٢٠١).

(٣) الجهني أبو يحيى المدني، حليف بني سلمة من الأنصار، شهد العقبة وما بعدها، =

رسول الله ﷺ يقول: يحشر الله العباد يوم القيامة عراة غرلاً[١] بهما[٢]، قلنا: وما بهما؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، أنا الملك أنا الديان لا ظلم اليوم[٣]، الحديث.

وقد ذكره البخاري أيضًا في صحيحه تعليقًا[٤]، ورواه أيضًا أبو نصر المقدسي في كتاب الحجة على تارك المحجة، وابن أبي عاصم في كتاب العلم،

= مات سنة ٥٤هـ. انظر: التاريخ الكبير، البخاري (٥/ ١٤)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٢٧٠).

(١) الغرل: جمع الأغرل، وهو الأقلف، والغرلة: القلفة، وغلام أغرل، أي: غير مختون. انظر: النهاية، ابن الأثير (٣/ ٣٦٢).

(٢) البهم جمع بهيم، وهو في الأصل الذي لا يخالط لونه لون سواه، وفي الحديث معناه: ليس معهم ما يخالطهم من أعراض الدنيا شيء. انظر: النهاية، ابن الأثير (١/ ١٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٣٧)، وخلق أفعال العباد (ص ٨٩)، والتاريخ الكبير (٧/ ١٦٩)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٥)، والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٥) وصححه، وفي معرفة علوم الحديث (ص ١١)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٥٥)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ٢٢٣)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٩٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٧٨). كلهم من طرق عن همام بن يحيى ثنا القاسم بن عبدالواحد حدثني عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب أن جابر بن عبدالله حدثه قال خرجت إلى الشام إلى عبدالله بن أنيس الحديث. قال المنذري في الترغيب (٤/ ٢١٨): رواه أحمد بإسناد حسن، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ في الفتح (١/ ١٥٩)، وجمع طرقه الألباني في تخريجه للسنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٢٥) وحسنه.

(٤) في التوحيد، باب قول الله تعالى: ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له (٦/ ٢٧٢٠).

والحارث بن أبي أسامة في مسنده، والخطيب في كتاب الرحلة[1]، وهو الحديث الذي رحل فيه جابر بن عبدالله الأنصاري إلى عبدالله بن أنيس بمصر من المدينة، ورواه ابن عبدالحكم أيضًا في أخبار مصر، فهو حديث صحيح عند أهل الحديث، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًا.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وكل ما يتعلق بمسائل الصفات والقدر هو من أعظم مطالب الدين، وأشرف علوم الأولين والآخرين، وأدقها على عقول أكثر العالمين[2].

ثم إن اشتبهت عليك المسالك فإياك وسلوك طرق المهالك، وعليك بطريق المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان في سائر الأمصار والأعصار.

وسأبين لك مع ما تقدم طريقهم مجملاً، فاعلم أن طريق أهل السنة وما عليه السلف من صالح الأمة، من المحدثين والفقهاء والعلماء العاملين، إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلا كما جاءت، من غير تحريف لها ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل كما قال الإمام المرتضَى عالمُ قريش محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه: الحمد لله الذي هو كما وصف به نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه[3]. فليوقن الإنسان كل الإيقان بقول أهل الإيمان والإحسان، بأن ما جاء به الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما جاءت به الآثار النبوية حق ظاهرًا وباطنًا، وإن قصر عنه عقله ولم يبلغه علمه

(١) الرحلة في طلب الحديث، الخطيب (ص ١١٠).
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٧١١).
(٣) الرسالة، الشافعي (ص ٨).

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] فإياك مما يخالف التقديس والتنزيه، وتوق التمثيل والتشبيه، ولعمر الله إن هذا لهو الصراط المستقيم، الذي هو أحدّ من السيف وأدق من الشعر، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، فلا وجه لتكلف الدعوى على تأويل ما كتم الله علمه عن العباد، وكيف يحكم العقل على خالقه فيما وصف به نفسه، والسلامة في رد علمه إلى قائله، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] فمن ادعى علم ما وصف الله به نفسه بحمل لفظ على غير مقتضاه فقد كذب أو خالف؛ لأنه إما يضربُ لله الأمثال عند تصحيح دعواه، أو يدعي علم الإحاطة بصفات الله تعالى، فالأول يلزم منه المخالفة، والثاني يلزم منه التكذيب. ولا ريب أن في قولهم في التأويل مخالفةً للنصوص؛ لأن التأويل إنما هو حمل اللفظ على غير معنى لا يفهم منه بدون التأويل، فهو مخالف لإجماع السلف الصالح، فعند ابن مردويه بسنده إلى [عبدالجبار][(١)] قال جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش[(٢)] فقال سمعت رجلاً يقرأ: ﴿وكلم اللّهَ موسى تكليماً﴾[(٣)] [النساء: ١٦٤] فقال أبوبكر: ما قرأ هذا إلا كافر، قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب[(٤)]، وقرأ يحيى

---

(١) في الأصل: «عبدالجليل» وهو خطأ، وما بين معكوفتين من تفسير ابن كثير (١/ ٥٨٧).

(٢) ابن سالم الأسدي الكوفي الإمام، كان كثير العلم والعمل، صاحب سنة وعبادة، معروفًا بالصلاح والورع، توفي سنة ١٩٣هـ. انظر: تاريخ ابن معين برواية الدوري (٢/ ٦٦٦)، معرفة القراء الكبار، الذهبي (١/ ١٣٤).

(٣) حرف هذا الخبيث لفظ القرآن، فبدل أن يرفع لفظ الجلالة نصبه على المفعولية، هرباً من إثبات صفة الكلام.

(٤) الأسدي الكوفي، القارىء العابد، أحد الأعلام، مقرىء الكوفة في زمانه، توفي سنة ١٠٣هـ. انظر: المعرفة والتاريخ، البسوي (٢/ ١٥٤)، معرفة القراء الكبار، الذهبي =

على أبي عبدالرحمن السلمي[1]، وقرأ أبو عبدالرحمن على علي بن أبي طالب، وقرأ علي على رسول الله ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[2] [النساء: ١٦٤].

قال عماد الدين بن كثير: وإنما اشتد غضبه على من قرأ كذلك لأنه حرّف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة، كما روينا عن بعضهم أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿وكلم اللّهَ موسى تكليماً﴾ فقال: لا يا ابن [اللخناء][3] كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني أن هذا لا يحتمل التحريف[4].

وقال صاحب شرح السنة في ترك التأويل: وعلى هذا مضى سلف الأمة وعلماء السنة، تلقوها ـ أي آيات الصفات وأحاديثها ـ جميعًا بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله تعالى كما أخبر عن الراسخين في العلم فقال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧][5].

= (١/ ٦٢).

(١) هو عبدالله بن حبيب بن ربيعة، لأبيه صحبة، ولد في حياة النبي ﷺ، وقرأ القرآن وجوده، وبرع في حفظه، عرض على عثمان وعلي وغيرهم من الصحابة، كان ثقة كبير القدر، توفي سنة ٧٤هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ٥٨)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٥/ ١٨٣).

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في تفسير ابن كثير (١/ ٥٨٧).

(٣) في الأصل: يا ابن الخنا، ولا يصح؛ لأنه إذا يكون قدفًا بالزنا، والمعروف من قولهم ما أثبته، واللخناء: المنتنة ريح الفرج، وقيل: التي لم تختن، انظر اللسان (١٣/ ٣٨٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٧).

(٥) شرح السنة، البغوي (١/ ١٧١).

قال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس عن هذه الأحاديث في الصفات والرؤية فقالوا: أمرّوها كما جاءت بلا كيف[١].

وقال الزهري: على الله البيان وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم[٢].

وسأل رجل الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ولا أراك إلا ضالا، وأمر به أن يخرج من المجلس[٣].

وقال سفيان بن عيينة أيضًا: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه، فتفسيره قراءته والسكوت [ك،١٥٦/ب] عليه، ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله[٤].

ونحوه قاله الإمامان الحسيبان الشافعي وأحمد، وقال بعض

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (٣/ ١١٤٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٩٨)، وفي الاعتقاد (ص ٤٤)، والصابوني في عقيدة السلف (ص ٥٦)، وذكره ابن قدامة في ذم التأويل (ص ٢٣٢)، والذهبي في العلو (مختصر العلو ص ١٤٢)، وصححه الألباني، والبغوي في شرح السنة (١/ ١٧١).

(٢) ذكره البغوي في شرح السنة (١/ ١٧١).

(٣) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٣٣)، واللالكائي في السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٠٨)، وذكره الذهبي في العلو (مختصر العلو ص ١٤١) وقال: هذا ثابت عن مالك، وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك، وهو قول أهل السنة قاطبة. وذكره البغوي في شرح السنة (١/ ١٧١)، وقد نقل المؤلف منه هذا الأثر وما سبقه من الآثار.

(٤) ذكره البغوي في شرح السنة (١/ ١٧١).

السلف: قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم[1].

والأخبار والآثار في هذا الباب أكثر من أن يحصرها مختصر، كلها متفقة الدلالة متسقة العبارة مطلقة الحكاية، فالفطن من آثر الإحجام عن التأويل، وحاذر الإقدام على التعطيل، ورهب التجري بالتشبيه والتمثيل، ورغب في ترك ما لا يعنيه، فإن الفقيه من حاذر، والسفيه من خاطر، ولا ريب في أن الله سبحانه لم يكتم عن نبيه ﷺ من العلم ما يوصله إلى أحد بعده.

وقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] فدل على أنه لم يفوض إلينا من القول في معنى التنزيل إلا ما وقع لنا علمه من جهة نبيه ﷺ، وهو مكلف بتبيينه لنا، فمن ظن أنه ﷺ كتم شيئًا مما أمره به ربه فقد اتهمه بخيانة أمته ومخالفة ربه، ومن زعم أنه يتوصل برأيه إلى ما لم ينله نبي الله ورسوله بالنسبة إليه فهو جاهل، ولا ضلال أبعد من ذلك قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وأنه ما حكّم رسول الله ﷺ من قال في القرآن برأيه، ولا ظن نصحه لأمته، ولا أن ما أوضحه كاف.

فإن قيل فقد قال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فنص على علم المستنبطين له به، قيل وهل التعويل إلا على ذلك، ولا نتبع إلا ما هنالك، فإنه قد تقدم أن بيان ذلك مفوض إليه ﷺ، فيكون المستنبط من التمس بيانه من جهة السنة لا من الخوض بالرأي، ولهذا قدم الرد إلى رسول الله ﷺ ثم

(١) المصدر السابق.

عطف بأولي الأمر وهم الذين قاموا بأمره، وإنما يقوم بأمره من علم شرائع سننه، وعرف بها المحكم من المتشابه.

ولهذا قال عمر: إنه سيأتي أناس يأخذونكم بشبهة القرآن فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله[1]. فلا ينسب من جهل سنة النبي ﷺ إلى استنباط وصلاحية الولاية، بدليل ما تقرر من ضلال من ترك السنة للرأي، ثم يقال: أعلم الناس أو الأمة بسنة نبيهم ولاة الأمر، وهم أصحابه ﷺ، فهم وخلفاؤه وأمراؤه قد نصوا كلهم مع تابعيهم، على النهي عن الخوض في التأويل، وكان ما وراء اتفاقهم ضلالاً لا هدى، وجهلاً لا علمًا، ولقد أحسن بعضهم إذ قال: وهو عمر بن عبدالعزيز كما ذكره موفق الدين بن قدامة ومحمد بن وضاح[2] في كتاب «البدع والحوادث»[3] له: قف حيث وقف القوم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفّوا، ولهم على كشفها كانوا أقوى، وبالفضل لو كان فيها أحرى، ولقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصّر، وما فوقهم محسّر، لقد قصر عنهم قوم فجفوا، وطمح آخرون فغلوا، وإنهم فيما بين ذلك لعلى هدى مستقيم[4].

وفيما سبق كفاية لطالب الهدى، وأما راكب هواه فلا سبيل لهداه

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٦٢).

(٢) الإمام الحافظ الأندلسي محدث قرطبة، رحل مرتين إلى الشرق، وكان فيه زهد وعبادة، نفع الله به في الأندلس، توفي سنة ٢٨٦هـ. انظر: لسان الميزان، ابن حجر (٥/ ٤١٦)، الأعلام، الزركلي (٧/ ١٣٣).

(٣) هذا عنوان كتاب أبي بكر الطرطوشي في البدع، أما كتاب ابن وضاح فعنوانه: «البدع والنهي عنها».

(٤) أخرجه ابن وضاح البدع والنهي عنها (ص ٣٠)، وذكره في لمعة الاعتقاد، ابن قدامة (ص ١٧٤).

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧]، ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [الأنعام: ٢٥] والله الموفق للهداية.

قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: حدثنا عبيدالله بن موسى عن معروف وهو ابن خرّبوذ عن أبي الطفيل رضي الله عنه **(قال علي)** بن أبي طالب رضي الله عنه: **(حدثوا الناس)** بصيغة الأمر أي: كلموهم **(بما يعقلون)** أي: يفهمون وتدركه عقولهم.

ورواه أبو نعيم في المستخرج له وزاد «ودعوا ما ينكرون» أي: يشتبه عليهم فهمه، **(أتريدون)** بهمزة الاستفهام الإنكاري، ولفظ البخاري أتحبون بالمثناة الفوقية، (أن يكذّب الله ورسوله)[1]. بفتح الذال المعجمة المشددة، لأن السامع لما لا يفهم يعتقد استحالته فلا يصدّق وجوده، فيلزم التكذيب، إذ الإنسان عدو ما جهل، وفي المثل: من جهل شيئًا أنكره.

وعند ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: ما أنت محدّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان على بعضهم فتنة[2].

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا (١/ ٥٩)، وأبو نعيم في المستخرج كما في فتح الباري (١/ ٢٢٦)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص ٣٦٣).

(٢) أخرجه في تاريخ دمشق (٣٨/ ٣٥٥)، قال الألباني في ضعيف الجامع الصغير: ضعيف. والمحفوظ وقفه على ابن مسعود أخرجه مسلم في المقدمة، باب التغليظ في الكذب على رسول الله ﷺ (١/ ١١)، والبيهقي في المدخل إلى السنن (ص ٣٦٣).

ولهذا قال ابن الجوزي: من المخاطرات العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله قلوبهم.

قال أبو الوفاء بن عقيل رحمه الله: يحرم إلقاء علم لا يحتمله السائل.

قال ابن الجوزي: لا ينبغي هذا إذا كان جوابًا للسؤال، وقد قال القائل:

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهمُ

وقد قيل: الناس ثلاثة، رجل يدري ويدري أنه يدري، فذاك العالم فاسألوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فذاك الجاهل فعلموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذاك الأحمق فاتركوه[1].

قال الحافظ ابن العربي المالكي: ما عُصي الله بأعظمَ من الجهل، والجهل بالجهل أشد من الجهل، وفي مثله أنشد بعض الحكماء:

إذا كنت لا تدري ولم تكُ بالذي يسائل من يدري فكيف إذًا تدري

ومن عجب الأيام أنك لا تدري وأنك لا تدري بأنك لا تدري

وقد خص الله تعالى بالعلم قومًا دون قوم، وأمر من لم يعلم أن يسأل من علم، والعلم المطلوب أن يُعلم هو المذكور في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأصله العلم بالله وصفاته وسننه وأحكامه وشرائعه. قال: وصفة الرب تبارك وتعالى هي التي ينشىء عنها كل فعل.

---

(١) رواه البيهقي في المدخل إلى السنن (٤٤١) بسنده إلى الخليل بن أحمد، وفيه: الرجال أربعة. . ، زاد على ما هنا: ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذاك غافل فنبهوه.

وليس في قول علي رضي الله عنه هذا ما فهمته الرافضة، فهم من كذبهم وافترائهم بأهوائهم يحمّلون النصوص ما لا يحتمل اللفظ، فزعمت أن النبي ﷺ خص عليًّا بعلوم لا يحتملها غيره فكتمها عن الناس، قاتلهم الله أنى يؤفكون، [ك،١٥٦/أ] إذ هو ﷺ قد بلغ ما أرسل به البلاغ المبين، وعلّم أمته كل شيء فيه صلاح لهم في دينهم ودنياهم، حتى الخراءة كما قال بعض أصحابه[١] رضي الله عنهم، كيف وقد قال له مرسله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، ثم قوّى جانبه وربط جأشه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وهذا الأثر الذي رواه البخاري عن علي رضي الله عنه موقوفًا، قد أخرجه الديلمي في الفردوس عنه مرفوعًا، إلا أن الموقوف أصح لإعراض البخاري حافظ الأمة عن رفعه.

وقد أسلفنا من كلام علي رضي الله عنه، على الكلام على علم الرمل في هذا الشرح ما يكذّبهم في مقالتهم هذه، والحديث الذي ذكرنا هناك عنه في صحيح البخاري وغيره[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة، باب الاستطابة (١/ ٢٢٣) عن سلمان قال: قيل له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة. قال: فقال أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول... الحديث. وأخرجه أبو داود في الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (١/ ٣)، وابن ماجه في الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروثة والرمة (١/ ١١٥).

(٢) يشير إلى حديث أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله... الحديث. وقد ذكره المؤلف أسفل هذا الحديث وذكر طرقه، والحديث أخرجه البخاري في العلم، باب كتابة العلم (١/ ٥٣)، والترمذي في الديات، باب ما جاء لا يقتل مسلم بكافر (٤/ ٢٤)، والنسائي في القسامة، باب سقوط القود من المسلم للكافر =

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد ثنا أبو خيثمة ثنا ابن عيينة عن مطرف عن الشعبي قال: أخبرني أبو جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم عن رسول الله شيء سوى كتاب الله؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما عندنا سوى كتاب الله، إلا أن يؤتي الله رجلاً فهمًا في هذا القرآن، وما في هذه الصحيفة [قلت: وما في الصحيفة؟][1] قال: العقل وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر[2].

قال: وحدثني أبي ثنا هشيم نا مطرف عن الشعبي أنّ أبا جحيفة قال: قلت لعلي: يا أمير المؤمنين هل عندكم سوداء في بيضاء ليس في كتاب الله؟ قال: فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما علمته إلا فهمًا يؤتيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر[3].

قال: وحدثني أبي ثنا محمد بن جعفر [ثنا شعبة][4] سمعت القاسم ابن أبي بزّة يحدث عن أبي الطفيل قال: سئل علي: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ قال: ما خصنا بشيء لم يعم به الناس كافة، إلا كتاب في قراب سيفي هذا، فأخرج صحيفة مكتوب فيها، لعن الله من لعن

= (٨/ ٢٣)، وغيرهم.

(١) في الأصل: «فسئل فقال» وما بين معكوفتين نص الحديث.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٧٩)، وعبدالله في السنة (٢/ ٥٣٨)، وأخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب فكاك الأسير (٣/ ١١١٠)، والنسائي في القسامة، باب سقوط القود من المسلم للكافر (٨/ ٢٣) وغيرهم.

(٣) أخرجه عبدالله في السنة (٢/ ٥٣٩)، والترمذي في الديات، باب لا يقتل مسلم بكافر (٤/ ٢٤) وقال: حسن صحيح.

(٤) ساقطة من الأصل، وما بين معكوفتين مستدرك من السنة.

والده، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض(١).

قال: وحدثني أبوبكر بن أبي شيبة نا أبو خالد الأحمر عن [منصور ابن حيان](٢) عن أبي الطفيل قال: قلنا لعلي: أخبرنا بشيء أسرّه إليك رسول الله ﷺ، فقال: ما أسرّ إلي شيئًا كتمه الناس، ولكن سمعته يقول: لعن الله من ذبح لغير الله فذكر الحديث(٣).

قال: وحدثني أبي ثنا عبدالرحمن بن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه قال: ما عندنا شيء إلا في كتاب الله وهذه الصحيفة عن النبي ﷺ: المدينة حرم ما بين عير إلى ثور، الحديث(٤).

قال: وحدثني أبي ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن سليمان عن إبراهيم التيمي عن الحارث بن سويد قال: قيل لعلي رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ كان يخصكم بشيء دون الناس عامة؟ قال: ما خصنا رسول الله ﷺ بشيء لم يخص به الناس عامة، فذكر الحديث(٥)، إلا أن شعبة خالفهم قال: عن الحارث بن سويد وأخطأ، إنما هو عن إبراهيم

---

(١) أخرجه عبدالله في السنة (٢/ ٥٣٩)، ومسلم في الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى، ولعن فاعله (٣/ ١٥٦٧)، وأحمد في المسند (١/ ١١٨).

(٢) في الأصل: «عن منصور عن حسان» وهو خطأ.

(٣) أخرجه عبدالله في السنة (٢/ ٥٤٠)، وأحمد في المسند (١/ ١٠٨).

(٤) أخرجه عبدالله في السنة (٢/ ٥٤٢)، وأخرجه البخاري من طريق سفيان عن الأعمش به في الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر (٣/ ١١٦٠)، وأحمد في المسند (١/ ١٢٦).

(٥) أخرجه عبدالله في السنة (٢/ ٥٤٣)، وأحمد في المسند (١/ ١٥١).

التيمي عن أبيه، وهو الصواب إن شاء الله تعالى[1].

قال: وحدثني أبي وأبو خيثمة قالا حدثنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: خطبنا علي فقال: من زعم أن عندنا شيئًا نقرأه إلا كتاب الله وهذه الصحيفة فقد كذب، وذكر نحو ما تقدم[2].

قال: وحدثني محمد بن عبدالله بن نمير الهمداني ثنا حفص يعني بن غياث عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: خطبنا علي فذكر نحوه[3].

فقد علمت بهذه الأسانيد الصحاح وما تقدم في الصحيح كذبَ الرافضة، وأن مضمون قولهم قبّحهم الله أن النبي ﷺ لم يبلغ البلاغ المبين، وأنه كتم شيئًا من الوحي، وأودعه عليًّا رضي الله عنه، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ما أكذبهم وأقبلهم للكذب من طائفتهم.

فالحاصل أن قول علي رضي الله عنه المذكور في الباب أفادنا أن المتشابه لا ينبغي ذكره عند العامة، فينبغي للمدرس أن يكلم كل طالب على قدر فهمه وعقله، فيجيبه بما تحتمله حاله، وقد قال بعض المحققين: من شرع في حقائق العلم ثم لم يبرع فيها، تولدت له الشبهة وكثرت عليه حتى تصيبه الحيرة، فيصير بذلك ضالاً مضلاً، فيعظم على الناس ضرره، ولهذا النظر قيل: نعوذ بالله من نصف فقيه أو متكلم.

وقد كان السلف رضي الله عنهم يأخذون الناس في العلوم بالتدريج كالأطباء، فعند مسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما أنت

---

(١) انظر: العلل، الدارقطني (٤/ ١٥٤)، فتح الباري، ابن حجر (٤/ ٨٥).
(٢) أخرجه عبدالله في السنة (٢/ ٥٤١)، وأحمد في المسند (١/ ٨١).
(٣) أخرجه عبدالله في السنة (٢/ ٥٤٢).

محدثًا قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[1].

ومر هذا عن ابن عباس رضي الله عنه[2].

وممن كره التحديث ببعض دون بعض الإمام أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبله أبو هريرة كما عند البخاري في حديث الجرابين[3] ونحوه عن حذيفة[4] رضي الله عنهما.

وعن الحسن أنه أنكر على تحديث أنس للحجاج قصة العرنيين[5]، لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمد من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، فضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوّي البدعة،

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) مضى تخريجه قبل قليل.

(٣) يشير إلى ما أخرجه البخاري في العلم، باب حفظ العلم (١/ ٥٦) عن أبي هريرة قال: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم. وفي رواية «عندي جرابان من حديث النبي ﷺ» أخرجها البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ١٨٣). قال في الفتح (١/ ٢١٦، ٢٢٥): حملوه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وما يقع من الفتن.

(٤) فتح الباري، ابن حجر (١/ ٢٢٥).

(٥) أخرج قصتهم البخاري في المغازي، باب عكل وعرينة (٤/ ١٥٣٥) من حديث أنس رضي الله عنه أن ناسًا من عكل عرينة، قدموا المدينة على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام، فقالوا يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود، فبلغ النبي ﷺ فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم.

ومسلم في القسامة، باب حكم المحاربين والمرتدين (٣/ ١٢٩٦)، وغيرهم.

وظاهره في الأصل غير مراد فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب، والله أعلم[1].

(وروى عبدالرزاق) بن همام بن نافع الحميري مولاهم، أبوبكر الصنعاني، الثقة الحافظ، مصنف شهير رحل إليه الإمام أحمد، ويحيى ابن معين على أرجلهما من بغداد إلى صنعاء، وزود الإمام أحمد دنانير وقبلها منه، وعظّم خطره، وحدثه بأحاديث معمر عن الزهري وسعيد بن المسيب، وللإمام أحمد في رواية ابنه عبدالله قصةٌ، نوه عبدالرزاق باسمه فيها، قال عبدالله: فكان أبي إذا ذكر أن عبدالزراق قد نوه باسمه بكى. عمي رحمه الله آخر عمره فتغير حفظه، وكان يتشيع، مات وله خمس وثمانون سنة، قال الإمام أحمد: أتيناه قبل المائتين وهو صحيح البصر، ومن سمع منه بعد ما ذهب بصره فهو ضعيف السماع. وكان موته سنة إحدى عشرة ومائتين، روى عن أبيه وابن جرير ومعمر والسفيانين والأوزاعي ومالك وخلق[2].

أخرج (عن معمر) بن راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري نزيل اليمن، ثقة ثبت فاضل، إلا أن في روايته عن ثابت والأعمش وهشام وعروة شيئًا، وكذا فيما حدث به في البصرة.

قال الإمام أحمد: ليس تضم معمرًا إلى أحد إلا وجدته فوقه. وهو أول من ارتحل في طلب الحديث إلى اليمن فلقي بها همام بن منبه اليمني، وسمع من الزهري وهشام بن عروة، وارتحل إليه الثوري وابن

---

(١) فتح الباري، ابن حجر (١/ ٢٢٥).

(٢) الطبقات، ابن سعد (٥/ ٥٤٨)، الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (٦/ ٣٨)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٩/ ٥٦٣).

عيينة وابن المبارك وغندر، وهشام بن يوسف قاضي صنعاء، وأخذ عنه عبدالرزاق فقيه اليمن ومحدث صنعاء، وله الجامع المشهور، وهو أقدم من الموطأ لمالك.

قال معمر: جلست إلى قتادة وأنا ابن أربع عشرة سنة، فما سمعت منه حديثًا إلا كأنه ينقش في قلبي.

وقال ابن جرير: شرب معمر من العلم حتى أنقع. ولما دخل اليمن كرهوا أن يخرج من بينهم، فقال رجل: قيدوه، فزوجوه، وقد عده بعضهم من التابعين، توفي رحمه الله تعالى سنة أربع وخمسين ومائة، وله ثمانٍ وخمسون سنة، قال الإمام أحمد في رواية حنبل: ما أجد أعلم بحديث الزهري من معمر، إلا يونس فإنه يكتب كل شيء.

وسئل يحيى بن معين: من أثبتهما؟ فقال: يونس أسندُهما، وهما ثقتان[1].

(عن) [ك،١٥٨/ب] أبي محمد عبدالله **(بن طاوس)** الثقة العابد الفاضل، قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية وأحسنهم خلقًا، قال: وما رأيت ابن فقيه مثله.

مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم، روى له الجماعة[2].

(عن أبيه) طاوس بن كيسان اليماني **(عن)** عبدالله **(بن عباس)** رضي

---

(١) التاريخ الكبير، البخاري (٧/ ٣٧٨)، الطبقات، خليفة بن خياط (ص ٢٨٨)، مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان (ص ١٩٢).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ٢٦٧)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٣٠٨).

الله عنهما (**أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكارًا لذلك! فقال: ما فرَق هؤلاء؟**) الفرَق الخوف والاضطراب، (**يجدون رقة عند محكمه**) المحكم من الكتاب والسنة هو واضح الدلالة، الذي قد أحكمت عبارته، وحفظت من الإجمال، ويأتي لفظ المحكم على معنى السلامة من العيب، وفساد المعنى، وركاكة اللفظ فيعم، كقوله ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] (**ويهلكون عند**) سماع (**متشابهه**)[(١)].

وهو المحتمل لإجمال فيه أو مخالفة ظاهره، فقد لا يتضح المقصود به فيرد إلى المحكم، بحيث يعلم أنه لا يخالفه فيؤمن به، إذ الكل من عند الله. فذكر رضي الله عنه هؤلاء أنهم يهلكون عند متشابهه، وذلك لعدم الفرقان واليقين المثبّت لهم على الإيمان، بأنّ المتشابه لا يخالف المحكم وإن لم يحيطوا به علما، وماذا عليهم لو آمنوا بما آمن به الراسخون في العلم، ولم يضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وكذا سنة رسول الله ﷺ، فإن ذلك يخرج من مشكاة واحدة، فقد قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: ٧]، فوصف سبحانه المتبعين تأويل

---

(١) أخرجه في المصنف ابن أبي شيبة (٧/٥٥٦)، ومعمر بن راشد في جامعه (١١/ ٤٢٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٢)، وقال الألباني: إسناده صحيح.

المتشابه بالزيغ، وأن الفتنة مقرونة بذلك الابتغاء، ومدح الراسخين في العلم بأنهم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، فهو لا يخالف بعضه بعضًا، ولا يناقضه بل يوافقه ويصدقه، فيؤمَن به على هذا الوجه ويصدق، لأن الكل من عند الله جل وعلا. وأما من لم يثق بقول الله تعالى ورسوله، واعتمد على نظره فإنه قد ضل عن هداه، وظل يخبط في ظلمات عماه، ومن ذلك: (**لما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم**: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾[١] [الرعد: ٣٠]).

وقد قدمنا الكلام على ما في هذه الآية أول الباب بما أغنى عن إعادته ههنا.

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع بحديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبدالله بن خليفة عن عمر رضي الله عنه قال: إذا جلس الرب على كرسيه. فاقشعر رجل سماه عند أبي وكيع، فغضب وكيع وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث لا ينكرونها[٢]. وهذا الرجل الذي اقشعر وسماه وكيع هو زكريا بن عدي

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ١٥٠) من طريق ابن جريج عن مجاهد مرسلاً، وفيه عنعنة ابن جريج وهو عبدالملك بن عبدالعزيز. قال الحافظ في التقريب (ص ٣٦٣): يدلس ويرسل. وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم في الدر المنثور (٤/ ٦٥٠)، وأخرجه عن قتادة ابن جرير في تفسيره (١٣/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٤/ ٦٥٠).

(٢) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٠٠) وفي إسناده عبدالله بن خليفة الهمداني قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٣٠١): مقبول. وقال الحافظ ابن كثير في التفسير (١/ ٣١٠): «أخرجه البزار في مسنده، وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيرهما، والطبراني في السنة، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٢)، والحافظ الضياء في المختارة، (١/ ٢٦٥) من =

ابن الصلت التيمي مولاهم أبو يحيى الكوفي نزيل بغداد ثقة جليل[1]، وقد بينه في إبطال التأويل للقاضي أبي يعلى.

قال عبدالله: وسألت أبي عن قوم يقولون: لما كلم الله موسى عليه السلام لم يتكلم بصوت. فقال أبي: بلى تكلم بصوت، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت[2].

وقال أبي: حديث ابن مسعود «إذا تكلم الله سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان»[3].

= حديث أبي إسحاق السبيعي عن عبدالله بن خليفة وليس بذاك المشهور، وفي سماعه من عمر نظر، ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفًا ومنهم من يرويه عن عمر مرسلاً، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحذفها». وقال الألباني في هامش السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٥٢) بعد أن نقل كلام ابن كثير الآنف إسناده ضعيف، عبدالله بن خليفة، لم يوثقه غير ابن حبان. وقال في هامش الطحاوية (ص ٣١٠): لا يصح في أطيط العرش حديث. قال الذهبي: وليس للأطيط مدخل في الصفات أبدًا، بل هو كاهتزاز العرش لموت سعد، وكتفطر السماء يوم القيامة ونحو ذلك، ومعاذ الله أن نعده صفة لله عز وجل، ثم لفظ الأطيط لم يأت من نص ثابت. انظر: مختصر العلو (ص ١٢٤).

(١) انظر ترجمته في: الطبقات، ابن سعد (٦/ ٤٠٧)، تاريخ بغداد، الخطيب (٨/ ٤٥٥).

(٢) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٢٨٠).

(٣) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٢٨١)، والبخاري في صحيحه تعليقًا في التوحيد، باب قول الله تعالى: ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له (٦/ ٢٧١٩)، وفي خلق أفعال العباد موصولاً (ص ٩٩)، وأخرجه أبو داود في السنة، باب في القرآن (٤/ ٢٣٥)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٥٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٢٦٢) كلهم من طرق عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبدالله بن مسعود مرفوعًا. وأخرجه من نفس الطريق ابن أبي حاتم في الرد على الجهمية كما في فتح الباري (١٣/ ٤٥٦)، قال الألباني بعد أن استوعب طرقه في السلسلة =

قال: وهذه الجهمية تنكره، وهؤلاء كفار يريدون أن يموهوا على الناس، من زعم أن الله لم يتكلم فهو كافر، إلا أنا نروي هذه الأحاديث كما جاءت[1].

قال عبدالله أيضًا: وسمعت أبا معمر الهذلي[2] يقول: من زعم أن الله لا يتكلم ولايسمع ولا يبصر ولا يغضب ولا يرضى وذكر أشياء من هذه الصفات، فهو كافر بالله، إن رأيتموه على بئر واقفًا فألقوه فيها، بهذا أدين الله، لأنهم كفار.

قال عبدالله: وحدثني زياد أبو هاشم قال: سمعت أبا العوام المستملي يقول: قال لي مروان بن معاوية الفزاري: يا أبا العوام مكث جهم بن صفوان أربعين صباحًا لا يصلي. قال: لا أدري كيف ربي[3]. وكان سبب إضلاله أنه كان صاحب خصومات، وكان من أهل ترمذ من خراسان، فألقى عليه السُّمَنِيَّة[4] ـ قوم كفار ـ شبهة لما عرفوه

= الصحيحة (٣/ ٢٨٣): هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.

(١) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٢٨١).

(٢) هو إسماعيل بن إبراهيم الهذلي الهروي، إمام حافظ ثقة ثبت، من شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود وغيرهم، كان صاحب سنة وفضل، توفي أبو معمر في الثمانين من عمره سنة ٢٣٦هـ. انظر: الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (٢/ ١٥٧)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١١/ ٦٩).

(٣) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٢٧٦).

(٤) السمنية ـ بضم السين وفتح الميم وكسر النون وتشديد الياء المفتوحة ـ قوم من فلاسفة الهند يعبدون الأصنام، وينكرون من العلم سوى الحسيات، فالمعرفة محصورة دلائلها عندهم في الحواس الخمس، ويقولون بالتناسخ. انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي (٢/ ٧٩٥)، الفرق بين الفرق، البغدادي (ص ٢٧٠).

بالخصومات، فتحير أربعين يومًا لا يصلي، ثم استدرك حجة كحجة زنادقة النصارى، فضلّ بها وأضل بشرًا كثيرًا.

وقد ذكر طرفًا من ذلك الإمام أحمد[1] رضي الله عنه.

قلت: وجهم هذا هو جهم بن صفوان مولى بني راسب، رئيس الجهمية، قتل في سنة ثمان وعشرين ومائة، في حرب نصر بن سيار الأسدي المضري[2] مع الحارث بن شريح[3] والكرماني[4] اليماني، في خراسان أيام اختلاف الدولتين في أيام ولاية نصر بن سيار لخراسان.

قال محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير في تاريخه: فأُسر يومئذ جهم بن صفوان صاحب الجهمية، فقال لسلم بن أحوز صاحب شرط نصر بن سيار إن لي ولثاً[5] من أبيك حادث، قال: ما كان ينبغي له أن يفعل، ولو فعل ما

---

(١) الرد على الزنادقة، أحمد بن حنبل (ص ٢٣- ٢٤)، وذكرها اللالكائي في السنة (٣/ ٣٧٨، ٣٨٠)، وابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية (٢/ ٧٩٥).

(٢) من دهاة العرب وشجعانهم، ولاه هشام بن عبدالملك خراسان، يعد في أصحاب الولايات والحروب والتدبير والعقل وسداد الرأي، ومن الخطباء الشعراء، توفي سنة ١٣١هـ. انظر: البيان والتبيين، الجاحظ، (١/ ٤٧)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٣٢٦).

(٣) التميمي، من أهل خراسان، خرج على أميرها سنة ١١٦هـ، ثم لحق ببلاد الترك ومالأهم على المسلمين، ثم عفا عنه وأمنه الخليفة ورجع إلى خراسان، ثم خرج مع المسودة على بني أمية، قتل سنة ١٢٨هـ. انظر: تاريخ الطبري (٤/ ٢٩٨)، البداية والنهاية، ابن كثير (١٠/ ٢٧).

(٤) هو جديع بن علي الأزدي، من دهاة العرب وفرسانها، ولد بكرمان، وخرج على والي خراسان نصر بن سيار، واتفق مع أبي مسلم الخراساني على قتال نصر بن سيار، فاحتال عليه نصر وقتله سنة ١٢٩هـ. انظر: تاريخ الطبري (٤/ ٣١١٣)، البداية والنهاية، ابن كثير (١٠/ ٣٤).

(٥) عند ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٢٨): «أمانا».

أمّنتك ولو ملأت لي هذه الملاءة كواكب، وأنزلت إليّ عيسى ابن مريم ما نجوت، والله لو كنت في بطني لشققتُ بطني حتى أقتلك، والله لا تقوم علينا مع اليمانية أكثر مما قمت، وأمر سلمُ بن أحوز التميمي عبدَ ربه بن سيسن فقتله، فقال الناس قتل أبو محرز(١). وكان جهم الخبيث يكنى أبا محرز، وهو رأس أهل الإلحاد والتعطيل.

وأما ما يتعلق به أهل التشبيه والتمثيل والتكييف والتجسيم من مذهبهم في ذلك من الحديث الصحيح الذي عند الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته»(٢).

وفي لفظ: «لا تقولوا قبح الله وجهك»(٣).

وفي لفظ «لا تقبحوا الوجه»(٤).

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٤/ ٢١٨٣)، وغيرهم.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البخاري في الأدب المفرد (ص ٧١)، وأحمد في المسند (٢/ ٤٣٤). وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٩)، وقال الألباني: إسناده حسن صحيح، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٨٢).

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٢٢٩)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٨٥)، والآجري في الشريعة (٣/ ١١٥٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٧١)، بلفظ «لا تقبحوا الوجه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن» كلهم من طرق عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عمر مرفوعًا، وقد اختلف في حكم هذه الرواية بزيادة «على صورة الرحمن» فذهب ابن خزيمة إلى تضعيفها وأعلها بثلاث علل:

١ـ أن الثوري قد خالف الأعمش في إسناده، فأرسل الحديث ولم يقل عن ابن عمر. =

وفي لفظ: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته»[1].

فليس هذا من باب الصفات في شيء[2]..

= ٢ـ أن الأعمش مدلس، لم يذكر أنه سمعه، من حبيب بن أبي ثابت.

٣ـ أن حبيب بن أبي ثابت مدلس، لم يعلم أنه سمعه من عطاء.

وقد فند شيخ الإسلام هذه العلل ورد عليها، يمكن الرجوع إلى ذلك فيما نقله التويجري عن شيخ الإسلام في عقيدة أهل الإيمان (ص ٧٣)، وقد رد الحافظ في الفتح (٥/ ١٨٣) على من ضعف هذه الزيادة فقال: «قلت: الزيادة أخرجها ابن أبي عاصم في السنة والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات، وأخرجها ابن أبي عاصم أيضًا من طريق أبي يونس عن أبي هريرة بلفظ يرد التأويل الأول، قال: «من قاتل فليجتنب الوجه فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن»، فتعين إجراء ما في ذلك على ما تقرر بين أهل السنة من إمراره كما جاء».

ونقل عن إسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل تصحيح الحديث الحافظ الذهبي في الميزان (٢/ ٤٢٠)، وصححه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٩) ووافقه الذهبي، والشاهد المذكور أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٩) من طريق ابن لهيعة عن أبي يونس سليم بن جبير عن أبي هريرة، قال الألباني: إسناده ضعيف ورجاله ثقات غير ابن لهيعة فإنه سيء الحفظ، قال الدكتور الدميجي في تعليقه على الحديث في الشريعة للآجري (٣/ ١٥٣): وابن لهيعة وإن كان سيء الحفظ إلا أنه يصلح في الشواهد والمتابعات، ولهذا فالحديث لا يقل عن درجة التحسين إن لم يصل إلى درجة الصحة.

(١) أخرجه البخاري في العتق، باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه (٢/ ٩٠٢)و ومسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه (٤/ ٢٠١٦) من حديث أبي هريرة، وغيرهم.

(٢) قال ابن قتيبة في تأويل مشكل الحديث (ص ٣١٨): اضطرب الناس في تأويل هذا الحديث وذكر أقوالهم في توجيه الحديث، كما ذكر ذلك غيره من أهل العلم. ويمكن تلخيص أقوالهم فيما يلي:

أولاً: منهم من نهى عن التحدث به، حكاه العقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٢٥١؛ =

= ٢٥٢) عن الإمام مالك، وقد اعتذر له شيخ الإسلام ابن تيمية في دقائق التفسير (٣/ ١٧١) بأنه يكره التحدث بالصفات عمومًا عند من يفتنه ذلك ولا يحتمله عقله، كما قال ابن مسعود «ما من رجل يحدث قومًا حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة». وأما إن قيل إنه كره التحدث بذلك مطلقًا فهذا مردود على من قاله، فقد حدث بهذه الأحاديث من هم أجل من مالك عند نفسه وعند المسلمين كعبدالله بن عمر وأبي هريرة، وسرد جمعًا من السلف ثم قال: أما أن الأئمة أعرضوا عن هذه الأحاديث مطلقًا فهذا بهتان عظيم.

ثانيًا: منهم من أرجع الضمير إلى آدم عليه السلام، حكاه ابن قتيبة في تأويل مشكل الحديث (ص ٣١٨) عن قوم من أهل الكلام، ورجحه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٣). ومعنى الحديث عندهم: أن الله خلق آدم على صورته التي خلقه عليها وطوله ستون ذراعًا من غير أن يتقدمه اجتماع الذكر والأنثى، ومروره بمراحل النمو الإنساني، كباقي ذريته. وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣).

ثالثاً: إرجاع الضمير إلى المضروب، حكاه الحافظ ابن حجر في الفتح (٥/ ١٨٣): عن الأكثر، قال ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٨٤): «معنى قوله: «خلق آدم على صورته» الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم، أراد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب، الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالمضروب».

رابعًا: أن الضمير يعود إلى الرحمن سبحانه وتعالى كما جاء مصرحًا به في رواية ابن عمر مرفوعًا: إن الله خلق آدم على صورة الرحمن». وقد اختلف أهل العلم في الحكم على هذه اللفظة، فذهب ابن خزيمة إلى تضعيفها، وصححها إسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل والحافظ ابن حجر كما في الفتح (٥/ ١٨٣) والذهبي في الميزان (٢/ ٤٢٠)، وقد تقدم الكلام على ذلك.

وهذه الزيادة تقطع النزاع والاختلاف عند ثبوتها، نقل الحافظ في الفتح (٥/ ١٨٣). بعد أن صحح الزيادة، عن حرب الكرماني قوله: «في كتاب السنة سمعت إسحاق بن راهويه يقول: صح أن الله خلق آدم على صورة الرحمن. وقال الكوسج: سمعت أحمد يقول: هو حديث صحيح، وقال الطبراني في كتاب السنة حدثنا عبدالله بن أحمد قال: قال رجل لأبي إن رجلاً قال: خلق الله آدم على صورته ـ أي صورة الرجل ـ فقال: كذب هو قول الجهمية». ونقل التويجري في =

= عقيدة أهل الإيمان (ص ٥٤) عن شيخ الإسلام في «بيان تلبيس الجهمية» في الجزء الذي لم يطبع بعد، قوله: «لم يكن بين السلف نزاع في أن الضمير عائد إلى الله، فإنه مستفيض من طرق متعددة، عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك». وقال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ٣٢٢) بعد أن ذكر الأقوال في الحديث: «والذي عندي والله تعالى أعلم أن الصورة ليست بأعجب من اليدين، والأصابع والعين، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه، لأنها لم تأت بالقرآن ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد».

وهذا هو الواجب تجاه أحاديث الصفات مع نفي التشبيه والكيفية، يقول الإمام الذهبي في الميزان (٢/ ٤٢٠) بعد تصحيحه للحديث: «أما معنى حديث الصورة فنرد علمه إلى الله ورسوله، ونسكت كما سكت السلف، مع الجزم بأن الله ليس كمثله شيء». هذا وقد أثبت في طرة النسخة [ك] ما نصه:

[قال ابن الجوزي في هذا الحديث: الناس في هذا مذهبان: أحدهما السكوت عند تفسيره، والثاني الكلام في معناه، واختلف أرباب هذا المذهب: إلى من تعود الهاء؟ على ثلاثة أقوال:

أحدها: تعود إلى بعض بني آدم، قالوا: وذلك أن النبي ـ ﷺ ـ مرّ برجل يضرب رجلاً في وجهه، وهو يقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك. وقال: إذا ضرب أحدكم فليتق الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته. قالوا: وإنما اقتصر بعض الرواة على بعض الحديث، فوجب أن يحمل المختصر على المفسّر. قالوا: وقوله «ووجه من أشبه وجهك» يتضمّن سب الأنبياء والمؤمنين. وإنما خص آدم بالذكر لأنه هو الذي ابتدئت خِلْقة وجهه على هذه الصورة التي أحتُذي عليها من بعده، كأنه نبّه على أنك قد سببت آدم، ومنه ولده، وكان ذلك مبالغة في زجره، فعلى هذا تكون الهاء كناية عن المضروب.

القول الثاني: أن الهاء كناية عن........ فلا يصلح أن يصرف إلى الله عز وجل؛ لقيام الدليل أنه ليس بذي صورة، فعادت إلى آدم، ومعنى الحديث: أن الله خلق آدم على صورته التي خلقه عليها تاما، لم ينقله من نطفة إلى علقة كبنيه. وهذا مذهب أبي سليمان الخطابي. وقد ذكره ثعلب في أماليه.

وقدأخرج أبو حاتم هذا الحديث بلفظ الصحيحين عن أبي هريرة في صحيحه، وقال: هذا الخبر تعلق به من لم يحكم صناعة العلم. وأخذ ابن حبان يشنع على من أنكر على أهل الحديث، الذين ينتحلون السنن ويذبون عنها [ك،١٥٧/أ] ويقمعون من خالفها برواياتهم له، إلى أن قال: وليست تخلو هذه الهاء من أن تنسب إلى الله تعالى أو إلى آدم، فإن نسبت إلي الله كان ذلك كفرًا، يعني على وجه التشبيه إذ ليس كمثله شيء، وإن نسبت إلى آدم تعرى الخبر عن الفائدة، لأنه لا شك أن كل شيء خلق على صورته لا صورة غيره، ولو تملق قائل هذا إلى بارئه في الخلوة، وسأله التوفيق لإصابة الحق والهداية للصراط المستقيم في لزوم سنن المصطفى ﷺ، لكان أولى به من القدح في منتحلي السنن بما جهل معناه، وليس جهل الإنسان بالشيء [دالاً][1] على نفي الحق لجهله

= القول الثالث: أنها تعود إلى الله عز وجل، وفي معنى ذلك قولان:
أحدهما: أن تكون صورة ملك؛ لأنها فعله وخلقه، فيكون إضافتها إليه من جهتين: إحداهما التشريف بالإضافة، كقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾. والثانية أنه ابتدعها لا على مثال سبق. ثم ذكر حديث ابن عمر أن الله خلق آدم على صورة الرحمن، وعلل الحديث بعلل، ثم قال: الثالث أن تكون الصورة بمعنى الصفة، تقول: هذا صورة هذا الأمير، أي صفته، فيكون خلق آدم على صورته لأن الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة. . . . .
. . . .

وقال ابن عقيل: إنما خص آدم بإضافته صورته إليه لخصيصة فيه من السلطنة التي تشاكل الربوبية استعبادًا وسجودًا وأمرًا نافذًا وسياساتٍ يعمر بها البلاد، ويصلح بها العباد، وليس في الملائكة من يجتمع على طاعته نوعه وقبيله سوى الآدمي.

وهذا هو الوجه الذي أختاره في تفسير الحديث، وأن الصورة هنا لا صورته (كذا ولعلها: صورة) هي تخاطيط. انتهى كلامه]. ومكان النقط غير مقروء.

(١) في الأصل: «إلا» وما بين معكوفتين من صحيح ابن حبان (١٤).

به[1].

قال: ونحن نقول: إن أخبار المصطفى ﷺ إذا صحت من جهة النقل لا تتضادّ ولا تتهاتر ولا تنسخ القرآن، بل لكل خبر معلوم يعلم، وفصل صحيح يعقل، يعقله العالمون، فمعنى الخبر عندنا بقوله ﷺ: خلق الله آدم على صورته[2]، يعني بأنه فضل آدم على سائر الخلق، والهاء راجعة إلى آدم، والفائدة من رجوع الهاء إلى آدم دون إضافتها إلى الباري سبحانه، جل وعلا ربنا وتعالى أن يشبّه بشيء من المخلوقين، بأنه جل وعلا جعل سبب خلق الخلق الذي هو المتحرك النامي بذاته اجتماع الذكر والأنثى، ثم زوال الماء عن قرار الذكر إلى رحم الأنثى، ثم تغير ذلك إلى العلقة بعد مدة، ثم إلى المضغة ثم إلى الصورة، ثم إلى الوقت الممدود فيه، ثم الخروج من قراره، ثم الرضاع، ثم الفطام، ثم المراتب الأخر، على حسب ما ذكرنا إلى حلول المنية، هذا وصف المتحرك النامي بذاته من خلقه.

وخلق الله عز وجل آدم على صورته التي خلقه عليها، وطوله ستون ذراعًا من غير أن يكون تقدمه اجتماع الذكر والأنثى، أو زوال الماء، أو قراره أو تغير الماء علقة، أو مضغة، أو تجسيمه بعده.

فأبان الله بهذا فضله على سائر من ذكرنا من خلقه، بأنه لم يكن نطفة فعلقة، ولا علقة فمضغة، ولا مضغة فرضيعًا، ولا رضيعًا ففطيمًا، ولا فطيمًا فشابًا، كما كانت هذه [حالة غيره][3]، ضد قول من قال: إن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مضى تخريجه.

(٣) في الأصل: الحالة عبرةً. والتصويب من صحيح ابن حبان.

أصحاب الحديث حشوية[1] يروون ما لا يعقلون، ويحتجون بما لا يدرون[2]. انتهى.

وقد جنح شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه إلى أن الهاء راجعة إلى الله سبحانه، وكأنه لاحظ الحديث الذي رواه عبدالله بن الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وأبي هريرة حيث قال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثني أبو معمر حدثنا جرير عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن»[3].

ورواه من وجه آخر عن أبي هريرة بمعناه، وهذا إسناد جيد إن لم يكن فيه علة[4].

وأخرج أيضًا حديث الصحيحين بلفظهما[5].

---

(١) من علامة أهل البدع والزندقة تسمية أهل السنة حشوية وجهلة وظاهرية ومشبهة، وأول من ابتدع الذم بلفظ الحشو والتجسيم هم المعتزلة، اعتقادًا منهم أن نصوص الكتاب والسنة بمعزل عن العلم، فلذلك يعتمدون على نتائج عقولهم القاصرة، ويصادمون بها نصوص الشرع، ويقصدون بهذا اللقب أن أتباع الكتاب والسنة حشو في الوجود، وفضلة في الناس لا يعبأ بهم، ولا يقام لهم وزن إذ لم يتبعوا آراءهم الكاسدة وأفكارهم الفاسدة، وعند جهالهم أن معنى الحشو أن من قال إن الله سبحانه في السماء وفوق خلقه قد حشا رب العباد بالأكوان. انظر: مسائل الجاهلية، محمد بن عبدالوهاب (ص ٩٩)، شرح النونية، ابن عيسى (٢/ ٧٧).

(٢) صحيح ابن حبان (١٤/ ٣٣).

(٣) السنة: عبدالله بن أحمد (١/ ٢٦٨)، وقد مضى تخريجه.

(٤) السنة: عبدالله بن أحمد (٢/ ٥٣٦)، وتقدم أن الحديث صحيح.

(٥) السنة: عبدالله بن أحمد (٢/ ٤٨٠، ٤٩٠).

وقد ذكر شيخ الإسلام المذكور كلامًا على معنى رجوعها إلى الله سبحانه[1]، وقد رأيت معناه أيضًا لابن عربي.

وحاصله أن الله سبحانه ما سمى نفسه باسم من الأسماء إلا وجعل للإنسان من التخلق به حظًا منه، يظهر به في العالم على قدر ما يليق بالمخلوق، فإنه قال رحمه الله تعالى في تفضيل آدم: «وأما الذوات فإن ذات آدم خلقها الله بيده، وخلقها على صورته، ونفخ فيه من روحه، ولم يثبت هذا لشيء من الذوات»[2] قال: «وهذا بحر غريق يغرق فيه السابح، لا يخوضه إلا كل مؤيد بنور الهداية، وإلاوقع في التمثيل أو في التعطيل، فليكن ذو اللب على بصيرة، أن وراء علمه مرماة بعيدة، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ وليوقن كل الإيقان بأن ما جاءت به الآثار النبوية حق ظاهرًا وباطنًا، وإن قصر عنه عقله ولم يبلغه علمه ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٣]، فلا تلِجنّ باب إنكار ورد وإمساك وإغماض، ردًّا لظاهره، وتعجبًا من باطنه، حفظًا لقواعدك التي كتبتها بقواك، وضبطتها بأصولك التي عقلتك عن جناب مولاك. وإياك من مخالفة التقديس والتنزيه، وموافقة التمثيل والتشبيه، ولعمري إن هذا هو الصراط المستقيم، الذي هو أحد من السيف وأدق من الشعر، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[3].

وقد ذكر شيخ الإسلام الإشارة إلى ما ذكرنا قبل كلامه أيضًا

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، نقلاً عن الشيخ الغنيمان في شرح كتاب التوحيد (١/ ٥٣٨).

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٤/ ٣٧٤).

(٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٤/ ٣٧٤).

المتقدم حيث قال: «إن أهل السنة يقولون: يدا الله صفتان من صفات ذاته، حكمهما حكم جميع صفاته: من حياته وعلمه، وقدرته وإرادته وكلامه. فيثبتون جميع صفاته التي وصف بها نفسه ووصفه بها أنبياؤه، وإن شاركت أسماء صفاته أسماء صفات غيره، كما أن له أسماء قد سمى بها غيره، مثل رؤوف، رحيم، سميع، بصير، حليم، رشيد، صبور، شكور، قدير، مؤمن، علي، عظيم، كبير، مع نفي المشابهة في الحقيقة والمماثلة، كما في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] حيث جمعت هذه الآية بين الإثبات والتنزيه، ونسبة صفاته كنسبة خلقه إليه، والنسبة والإضافة تشابه النسبة والإضافة، كما شبهت رؤيته بالشمس والقمر تشبيهًا للرؤية لا للمرئي، كما ضرب مثله مع عباده المملوكين مع مملوكيهم وله المثل الأعلى.

فتدبر هذا فإنه مجلاة شبهة ومصفاة كدر، فجميع ما تسمعه وينسب إليه ويضاف: من الأسماء والصفات، هو كما يليق به ويصلح لذاته»[1]. فبان بهذا معنى كلام الشيخ في الحديث المذكور من جهة الإضافة، والله أعلم.

قال الشيخ: وبكل حال اتفق الكل على أن لآدم مزية وفضيلة بذلك ليست لغيره، وهذا دليل على فضله على سائر الخلق[2].

وقال عبدالله أيضًا حدثني أبي ثنا معاذ بن معاذ ثنا حماد بن سلمة ثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٤/ ٣٦٥).
(٢) المصدر السابق.

﴿تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال: قال هكذا يعني: أنه أخرج طرف الخنصر، قال عبدالله: قال أبي: أراناه معاذ فقال حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد، وما أنت يا حميد؟ حدثني به أنس بن مالك عن النبي ﷺ وتقول أنت ما تريد إليه؟[١].

وسيأتي إن شاء الله تعالى نحو هذا اللفظ في باب: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ قال أبو عبدالرحمن عبدالله ابن الإمام أحمد: وحدثني من سمع معاذًا يقول: وددت أنه حبسه شهرين، يعني لحميد. ثم روى هذا [ك،١٥٨/أ][٢] الحديث من طرف آخر[٣] مرفوعًا، والقائل هذا الكلام لحميد هو أبو محمد ثابت بن أسلم البناني البصري الثقة العابد الثبت[٤].

---

(١) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٢٦٩)، والترمذي في التفسير، باب من سورة الأعراف (٥/ ٢٦٦) وقال: حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث حماد، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٥)، وابن جرير في التفسير (٦/ ٥٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٠) وقال محققه الألباني: إسناد صحيح على شرط مسلم، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٥٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٠)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في كتاب الرؤية كما في الدر المنثور (٣/ ٥٤٥).

والحديث كما هو واضح ثابت لا مجال للطعن في صحته، ومع ذلك أورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٢٢) وقال عنه: هذا حديث لا يثبت.

وتعقبه السيوطي في اللآلىء المصنوعة (١/ ٢٥) فقال: هذا حديث صحيح، رواه خلق عن حماد وأخرجه الأئمة من طرق عنه، وصححوه.

(٢) هذه اللوحة ليس فيها قسم (ب) [ترك سهواً].

(٣) السنة، عبدالله بن أحمد (١/ ٢٦٩ـ ٢٧٠).

(٤) انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (١/ ٣٦٢)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٢/ ٢).

وقال عبدالله أيضًا حدثني أبو معمر ثنا عباد بن العوام قال: قدم علينا شريك فسألناه عن الحديث: «أن الله ينزل ليلة النصف من شعبان» قلنا: إن قومًا ينكرون هذه الأحاديث؟ قال: فما يقولون؟ قلنا: يطعنون فيها، فقال: إن الذين جاءوا بهذه الأحاديث هم الذين جاءوا بالقرآن، وبأن الصلاة خمس، وبحج البيت، وبصوم رمضان، فما نعرف الله إلا بهذه الأحاديث(١).

قلت: وحديث إسرائيل الذي حدث به وكيع الإمام أحمد واقشعر عنده زكريا بن عدي(٢)، قد رواه الإمام أحمد من طريق آخر حيث قال: حدثنا عبدالرحمن بن مهدي ثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق السبيعي عن عبدالله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إذا جلس الله على الكرسي سُمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد(٣).

---

(١) السنة، عبدالله بن أحمد (١/ ٢٧٣)، والآجري في الشريعة (٣/ ١١٢٦)، والدارقطني في الصفات (ص ٧٤)، وذكره الذهبي في العلو (المختصر ص ١٤٩)، وقال الألباني: سنده صحيح، وعزاه لابن منده في التوحيد (ق ٩٧/ ٢).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٠١)، وابن جرير في تفسيره (٣/ ١٠)، والدارمي في الرد على المريسي (ص ٧٤)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٤)، والبزار في مسنده (١/ ٤٥٧)، والدارمي في الصفات (ص ٤٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٥٢)، والضياء في المختارة (١/ ٢٦٤)، وذكره الذهبي في العرش (٢/ ١١٦) كلهم من طرق عن أبي إسحاق به، فمنهم من رفعه ومنهم من أرسله، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٧) إلى عبد بن حميد والبزار وأبي يعلى وأبي الشيخ والطبراني وابن مردويه. وفي إسناده عبدالله بن خليفة قال عنه في الميزان: لا يكاد يعرف. وقال في التقريب (ص ٣٠١): مقبول، وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٠) عبدالله بن خليفة ليس بذاك المشهور، وفي سماعه من عمر نظر، ثم منهم من يرويه ـ أي الحديث ـ عنه عن عمر موقوفًا ومنهم من يرويه عن عمر مرسلاً، =

وقفه سفيان الثوري، ورفعه إسرائيل كما عند المروذي والخلال وصاحبه، وكذا الحكم بن معبد الخزاعي[1] في كتاب الرد على الجهمية، والدارقطني في كتاب الصفات له من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق السبيعي عن عبدالله ابن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت ادع الله أن يدخلني الجنة، قال: فعظّم الرب، فقال: وسع كرسيه السموات والأرض، وإنه ليقعد عليه، وذكر كلمة أخرى[2].

هكذا رواه سفيان الثوري موقوفًا، وإسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق مرفوعًا عن أبي إسحاق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وله طرق كثيرة ثابتة إلى سفيان وإسرائيل وغيرهما، وقد صنف أبو الحسن ابن الزاغوني[3]

= ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة ومنهم من يحذفها. وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٣٥): «حديث عبدالله بن خليفة طائفة من أهل الحديث ترده لاضطرابه كما فعل الإسماعيلي وابن الجوزي، لكن أكثر أهل السنة قبلوه».
وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٥) وقال: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ وإسناده مضطرب جدا، وعبدالله بن خليفة ليس من الصحابة، فتارة يرويه ابن خليفة عن عمر عن رسول الله ﷺ وتارة يقفه على عمر، وتارة يوقف على ابن خليفة». وكذلك أورده الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/ ٢٥٦) وقال: منكر.

(١) الفقيه، من كبار الحنفية وثقاتهم، مصنف كتاب السنة، توفي بأصبهان سنة ٢٩٥هـ. انظر: العبر في خبر من غبر (١/ ٤٢٨)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٣/ ٥٥٢).

(٢) الصفات، الدارقطني (ص ٤٩).

(٣) علي بن عبيدالله، الإمام العلامة، شيخ الحنابلة بوقته، كان من بحور العلم والزهد والورع والعبادة، قال الذهبي: له مقالة في الحرف والصوت عليه فيها مآخذ، والله يغفر له، فيا ليته سكت، توفي سنة ٥٢٧هـ. انظر: المنتظم، ابن الجوزي (١٠/ ٣٢)، مشيخة ابن الجوزي (ص ٧٩)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٩/ ٦٠٥).

جزءًا في جمع طرقه والكلام عليه بما ينفي عن الله النقص والحدوث، وقال: هذا الحديث نقله عامة أئمة الحديث في كتبهم التي قصدوا فيها نقل الأخبار الصحيحة، وتكلموا على توثقة رجاله وتصحيح طرقه، ومن هذا ما رواه الحكم بن معبد أيضًا قال: حدثنا موسى بن عبدالرحمن المسروقي[1]، حدثنا روح بن عبادة[2] عن حماد بن سلمة عن عطاء ابن السائب عن الشعبي عن عبدالله في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قال: جلس[3]. وذكر كلامًا آخر.

---

(١) أبو عيسى الكوفي، ثقة، مات سنة ٢٥٨هـ. انظر: تهذيب التهذيب (١٠/ ٣٥٥)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٥٥٢).

(٢) القيسي، أبو محمد البصري، ثقة فاضل له تصانيف، مات سنة ٢٠٧هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٣/ ٢٩٣)، تقريب التهذيب (ص ٢١١).

(٣) لم أعثر عليه في مظانه، وفي الإسناد الذي ساقه المصنف حماد بن سلمة وهو ثقة اختلط بأخرة، ونقل ابن حجر في التهذيب (٣/ ١٤) عن البيهقي قوله: أحد أئمة المسلمين إلا أنه لما كبر ساء حفظه، لذا تركه البخاري، وأما مسلم فاجتهد فأخرج من حديثه عن ثابت ما سمع منه قبل تغيره، وما سوى حديثه عن ثابت لا يبلغ اثني عشر حديثًا أخرجها في الشواهد. وفي الكواكب النيرات (ص ٤٦١) نقل المحقق عن ابن رجب قوله: قال عبدالله بن أحمد: سمعت يحيى بن معين يقول: من أراد أن يكتب حديث حماد بن سلمة، فعليه بعفان بن مسلم. وقال أيضًا: قال النسائي: أثبتُ أصحاب حماد بن سلمة: ابن مهدي، وابن المبارك، وعبدالوهاب الثقفي. وفيه أيضًا عطاء بن السائب صدوق اختلط بأخرة، قال ابن الصلاح في علوم الحديث (ص ٣٥٣): عطاء بن السائب اختلط في آخر عمره فاحتج أهل العلم برواية الأكابر عنه مثل سفيان الثوري وشعبة، وأنكروا الاحتجاج برواية من سمع منه آخرًا. وفي سماع حماد بن سلمة منه خلاف، فمنهم من جعله قبل الاختلاط، ومنهم من جزم بأنه بعد الاختلاط، ونقل العقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٩٩) عن يحيى قوله: حماد بن سلمة حمل عن عطاء قبل الاختلاط، ثم حمل عنه بعد الاختلاط فكان لا يعقل ذا من ذا. وقال الحافظ في التهذيب (٧/ ٢٠٧): حماد بن سلمة اختلف فيه قولهم، والظاهر أنه سمع منه مرتين: مرة مع أيوب، ومرة بعد ذلك، والله أعلم. وفيه أيضًا =

وقال الحكم أيضًا: حدثنا محمد بن حاتم ثنا[1] الفضل بن عباس[2] ثنا عبدالرحمن بن ثابت[3] عن يزيد بن هارون[4] عن عباد بن منصور[5] قال: سألت الحسن وعكرمة[6] عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾؟ قالا: جلس[7].

= عدم سماع الشعبي من عبدالله بن عمر ومن ابن مسعود كما صرح بذلك الحافظ في التهذيب (٥/٦٨)، ويحتمل أن يكون الصحابي المسند إليه الأثر أحدهما، أو أنه شخص آخر من غير الصحابة، خصوصًا وأنه لم يصرح بأنه من الصحابة رضوان الله عليهم، والله أعلم.

(١) الجرجرائي، بجيمين بينهما راء ثم راء، المصيصي، أبو جعفر العابد، ثقة، توفي سنة ٢٢٥هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٩/ ١٠٣)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٤٧٢).

(٢) البغدادي، أبو العباس، ثقة من الحادية عشرة. انظر: تهذيب التذيب (٨/ ٢٧٨)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٤٤٦).

(٣) العنسي الدمشقي الزاهد، صدوق يخطىء، ورمي بالقدر وتغير بأخرة، مات سنة ١٦٥هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٦/ ١٥٠)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٣٣٧).

(٤) السلمي مولاهم، أبو خالد الواسطي، ثقة متقن عابد، توفي سنة ٢٠٦هـ. انظر: تهذيب التهذيب (١١/ ٣٦٦)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٦٠٦).

(٥) الناجي، أبو سلمة البصري، صدوق رمي بالقدر وكان يدلس، وتغير بأخرة، مات سنة ١٥٢هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ١٠٣)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٢٩١).

(٦) مولى ابن عباس، أبو عبدالله، أصله بربري، ثقة ثبت عالم بالتفسير، مات سنة ١٠٤هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٧/ ٢٦٣)، تقريب التهذيب (ص ٣٩٧).

(٧) لم أعثر عليه في مظانه، وفي الإسناد الذي ساقه المصنف عبدالرحمن بن ثابت ضعفه غير واحد من أهل العلم، قال العقيلي في الضعفاء (٢/ ٣٢٦): قال يحيى: عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان: ضعيف، قلت: يكتب حديثه؟ قال: نعم على ضعفه. وقال ابن عدي في الكامل (٤/ ٢٨١): له أحاديث صالحة، وكان رجلاً صالحًا، =

ورواه أبو عبدالله بن منده[١]، والحكم بن معبد أيضًا، وغيرهما من حديث الكلبي[٢] عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ قال قعد[٣].

لكن إسناد الكلبي هذا لا يحتج به في هذا ولا في غيره وإنما ذكرناه ليعرف، ومن ذلك حديث أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة تلقاه النبي ﷺ، فلما نظر جعفر إلى رسول الله ﷺ خجل إعظامًا منه لرسول الله ﷺ، وذكر الحديث إلى أن قال: حدثني عن بعض عجائب أرض الحبشة، قال: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، بينا أنا أسير في بعض طرقاتها إذا بعجوز على رأسها مكتل[٤]، فأقبل شاب يركض على فرس له فوجمها[٥] فألقاها

= يكتب حديثه على ضعفه. ونقل الحافظ في التهذيب (٦/ ١٥٠) عن الإمام أحمد قوله: أحاديثه مناكير، كان عابد أهل الشام وتقدم كلام الحافظ في التقريب (ص ٣٣٧): بأنه صدوق يخطىء وتغير بآخره.

(١) هو محمد بن إسحاق، أبو عبدالله بن منده، إمام حافظ، صاحب التوحيد والإيمان والرد على الجهمية، وغير ذلك، أصله من أصبهان وبها نشأ، وولاؤه لعبد القيس العبدي، توفي سنة ٣٩٥هـ. انظر: أخبار أصبهان، أبو نعيم (٢/ ٣٠٦)، الكامل، ابن الأثير (٩/ ١٩٠).

(٢) هو محمد بن السائب بن بشر، أبو النضر الكوفي، النسابة المفسر، متهم بالكذب ورمي بالرفض، مات سنة ١٤٦هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٩/ ١٧٨)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٤٧٩).

(٣) لم أعثر عليه في مظانه، وفي إسناده الذي ذكره المؤلف الكلبي، وهو متهم بالكذب كما تقدم.

(٤) المكتل والمكتلة: الزبيل الذي يحمل فيه الثمار والحبوب، يسع خمسة عشر صاعًا. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١١/ ٥٨٣).

(٥) عند ابن ماجه «فدفعها» والوجم اللكز تقول: وجم الرجل وجما: لكزه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٦٣٠).

لوجهها، وألقى المكتل الذي على رأسها، فاستوت قائمة وأتبعته البصر وهي تقول له: الويل لك غدًا إذا جلس الملك على كرسيه، فاقتص للمظلوم من الظالم.

قال جابر رضي الله عنه: فنظرت إلى رسول الله ﷺ وإن دموعه على لحيته مثل الجمان، ثم قال رسول الله ﷺ: لاقدس الله أمة لا تأخذ للمظلوم حقه من الظالم وهو فيه غير متعتع[(١)][(٢)].

---

(١) أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه، والتعتعة: التردد في الشيء والتبلد.
انظر: غريب الحديث، ابن الجوزي (١/ ١٠٨)، النهاية، ابن الأثير (١/ ١٩٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢/ ١٣٢٩)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٤٣): إسناده حسن وسعيد بن سويد مختلف فيه، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٧)، وابن حبان في صحيحه (١١/ ٤٤٣)، والخطيب في تاريخه (٧/ ٣٩٦)، كلهم من طرق عن أبي الزبير عن جابر بلفظ «سوف تعلم يا غُدَر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين». ولم أعثر على لفظة «إذا جلس الملك على كرسيه». وعند ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٦) من طريق زكريا بن أبي زائدة عن أبي إسحاق عن سعد بن معبد عن أسماء بنت عميس قالت كنت مع جعفر بأرض الحبشة... الحديث وفيها «أكلك إلى الملك، يوم يقعد على الكرسي». وفي إسناده زكريا بن أبي زائدة قال الحافظ في التقريب (ص ٢١٦): ثقة وكان يدلس، وسماعه من أبي إسحاق بآخره. وقد رواه بالعنعة ولم يصرح بالتحديث من أبي إسحاق وفيه سعد بن معبد الهاشمي قال عنه في التقريب (ص ٢٣٢): مقبول. وأخرجه من طريق عطاء عن محارب عن ابن بريدة عن أبيه البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٥١٠)، وشعب الإيمان (٦/ ٨١)، والسنن الكبرى (٦/ ٩٥)، بلفظ «ويل لك يوم يضع الملك كرسيه»، قال الألباني بعد أن جمع طرقه في العلو (ص ١٠٦): إسناده صحيح لولا أن عطاء بن السائب كان قد اختلط، ولكنه يستشهد به، فالحديث به صالح إن شاء الله تعالى. ويعني به حديث جابر وباللفظة المذكورة «إذا وضع الله الكرسي».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: هذا حديث محفوظ عن أبي الزبير عن جابر من طرق كلها صحاح، ورواه ابن ماجه في سننه عن سويد بن سعيد عن يحيى بن سليم عن أبي خيثم عن أبي الزبير عن جابر قال: لما رجعت إلى رسول الله ﷺ مهاجرة البحر قال: ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟ قال فتية منهم: بلى يا رسول الله، وذكر قصة العجوز قريبًا من معنى ما تقدم بلفظ الجلوس[1].

وله عدة طرق في التوحيد لابن خزيمة[2]، وإبطال التأويل للقاضي، وغيرهما.

وقد نحل بعض الناس شيخ الإسلام في الجلوس والقعود لفظًا هو بريء منه[3]، وإنما هو قول مفترى، قاتل الله من زوره عليه، وقد قرر

---

(١) لم يخرجه ابن ماجه بلفظ الجلوس وإنما أخرجه في سننه (٢/ ١٣٢٩): بلفظ: «إذا وضع الله الكرسي».

(٢) التوحيد، ابن خزيمة (١/ ٢٤٦): واقتصر فيما أخرجه على طريق زكريا بن أبي زائدة وقد مر الكلام عليه، ولم يذكر له طرقًا أخرى. قال الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/ ٢٥٦): وأما قعوده تعالى على العرش فليس فيه حديث يصح، ولا تلازم بينه وبين الاستواء عليه كما لا يخفى. وقال في موضع آخر (١/ ٢٥٨): لا أعرف هذه اللفظة ـ قعود الله تبارك وتعالى على العرش ـ في حديث صحيح، وخاصة أحاديث النزول، وهي كثيرة جدا بل هي متواترة. ثم ذكر رحمه الله أنه وقف على حديثين فيهما هذه اللفظة، وقد توسع في بيان علل هذين الحديثين، فيحسن الرجوع إلى كلامه لمن أراد الاستزادة في السلسلة الضعيفة (١/ ٢٥٦ـ ٢٥٨).

(٣) ونحو هذا ما افتراه ابن بطوطة على شيخ الإسلام حيث قال في رحلته (١/ ٣١٦ـ ٣١٧): «فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى السماء كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر». ولا شك أن هذا بهتان عظيم، وقد أحاط المؤلف الرد على هذه =

رحمه الله أن الصفات سمعية فلا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله لا يتجاوز في ذلك القرآن والحديث[1]، وذكر أن طائفة أنكرت لفظ الجلوس والقعود بناءً على أن هذا اللفظ فيه من إيهام المحذور ما ليس في غيره، وهذا هو الغالب على متكلمي أهل السنة، والأخرى أطلقت ذلك بناءً على أنه قد جاء عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أعيان الأسلاف، وهذا هو الغالب على محدثي أهل السنة، قال: وليس بين الطائفتين خلاف معنوي، فإن من أطلقه إنما اتبع في ذلك الأثر، ولا شك أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، واتفاق اللفظين لا يوجب اتفاق الحقيقتين، كما في سائر ألفاظ الصفات، من النزول والمجيء والفرح والضحك وغير ذلك، فتبين بهذا افتراء من نقل عن شيخ الإسلام غير هذا، وسيورده الله سبحانه إن لم يتب من افترائه موارد أمثاله من المفترين، فإنه قد علم أن شيخ الإسلام المذكور لا تأخذه في دين الله لومة لائم، ولا هو ممن يتقي بمذهبه، بل يفصح به ويودعه في مصنفاته وينشره بين أصحابه، ولم يوجد شيء من كلام المفتري عليه في شيء من مصنفاته، وقد طبقت بين الخافقين، ولا نقله أحد من أصحابه ولا من العلماء المعروفين المقبولين، فصح أنه كذب عليه وافترى، والله يجزي المفترين[2].

ولهذا قال أبو عبدالرحمن عبدالله بن [ك،١٥٩/ب] الإمام أحمد حدثنا

= الفرية.

(١) انظر: مجموع الفتاوى، . ابن تيمية (٥/ ١٩٥ـ ٥٢٣).

(٢) يشير المؤلف إلى الشيخ عثمان بن سند البصري، الذي أبدى عداوة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وقد رد عليه المؤلف ردًّا موجعًا، تجد الإشارة إليه في قسم الدراسة.

محمد ابن إسحاق الصاغاني ثنا أسلم بن قادم ثنا موسى بن داود قال: قال لي عباد بن العوام: قدم علينا شريك بن عبدالله منذ نحو خمسين سنة قال: فقلت له: يا أبا عبدالله إن عندنا قومًا من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث؟ قال: فحدثَني بنحو من عشرة أحاديث في هذا وقال: أمّا نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين عن أصحاب رسول الله ﷺ فهم عمن أخذوا؟[1].

وهذا أنموذج لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وفيما ذكرنا في هذا الباب كفاية لمن استبصر والله الموفق.

ولما ذكر المصنف رحمه الله باب الأسماء والصفات وعلم أن من صفاته المنعم، فهو الذي أنعم على عباده جل وعلا ظاهرًا وباطنًا، نبه بهذه الترجمة بأن من كفر نعمة الله بعد معرفتها، فقد تطرق بذلك لإنكار صفة من صفاته وجحدها، فأعقبه بهذا الباب، وكذا ما بعده من الأبواب فإن فيها إشارة إلى نفي الإلحاد عن أسمائه وصفاته جل وعلا.

---

(١) السنة، عبدالله بن أحمد (١/ ٢٧٣).

الباب الأربعون

باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ٨٣]

أي يعرف المشركون نعمة الله التي عدّدها عليهم في الآية التي قبل هذه، حيث يعترفون بها ويقرون بأنها من الله، ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم لها تبارك وتعالى كقولهم: إنها بشفاعة آلهتنا، وقيل: إنكارهم بإعراضهم عن أداء حقوقها، وقيل: نعمة الله نبوة محمد ﷺ عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عنادًا، ومعنى ثم في هذا الموضع: استبعاد الإنكار بعد المعرفة.

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الجاحدون عنادًا، وذكر الأكثر إما لأن بعضهم لا يعرف الحق لنقصان العقل والتفريط في النظر، أو لم تقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف، وإما لأنه يقام الأكثر مقام الكل كما في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

وقالوا في المعرفة والعلم: إنهما متغايران فهي أخص منه من وجه وأعم من وجه آخر، فهي علم مستحدث، وقيل: هي انكشاف بعد لبس، وتطلق على مطلق التصور فتقابل العلم[(١)].

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني (ص ١٥٥، ٢٢١)، الكليات، أبو البقاء (ص ٦١٠ ـ ٦١٦).

وفرق بينهما الآمدي[١] وغيره: بأن العلم يتعلق بالنسبة نحو علمت زيدًا قائمًا، ولهذا يتعدى لمفعولين، والمعرفة تتعلق بالمفردات فتتعدى إلى واحد نحو عرفت زيدًا، وبأن المعرفة لا تقال لله تعالى، لأنها تستدعي سبق جهل بخلاف العلم[٢].

قالوا: وخبر «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة[٣]» ونحوه من مجاز المشاكلة[٤].

---

(١) هو علي بن أبي علي، أبو الحسن الآمدي، الملقب بسيف الدين الآمدي فقيه شافعي، ومن كبار علماء الأصول، والكلام، توفي سنة ٦٣١هـ. انظر: عيون الأنباء، ابن أبي أصيبعة (ص ٦٥٠)، حسن المحاضرة، السيوطي (١/ ٢٣٣).

(٢) انظر: الكليات، أبو البقاء (ص ٦١١)، بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ٦٢ـ ٦٤).

(٣) جزء من حديث ابن عباس: «يا غلام احفظ الله يحفظك...» والحديث صحيح مشهور أخرجه الترمذي وأحمد وغيره، وقد مضى تخريجه.

(٤) أي أن وصف الله بالمعرفة ليس على إطلاقه، وإنما هو على سبيل المقابلة والتقييد، ومن قبيل المشاكلة كما في قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] فلا يوصف الرب سبحانه بهذه الصفة على الإطلاق، فلا يقال: ماكر، لا على سبيل الخبر، ولا على سبيل التسمية، لأن هذا المعنى يكون مدحًا في حال ويكون ذمًا في حال، فلا يمكن أن نصف الله به على سبيل الإطلاق. ومثلها المعرفة فوصف الله بها على سبيل المشاكلة والمقابلة، لأن الرب سبحانه اختار لنفسه اسم العلم وما تصرف منه، فوصف نفسه بأنه عالم، وعليم، وعلام، وعلِم، ويعلم، وأخبر أن له علمًا، دون لفظ «المعرفة» في القرآن. قال ابن القيم في مدراج السالكين (١/ ٣٣٥) بعد تفريقه بين لفظ العلم والمعرفة وأن الله اختار لنفسه اسم العلم وما تصرف منه دون لفظ المعرفة: «ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له في معناه». ثم بين رحمه الله في بدائع الفوائد (٢/ ٦٢) أن عدم إضافة المعرفة إليه سبحانه يرجع إلى نفس المعرفة ومعناها فهي تستعمل فيما سبق تصوره نسيان أو ذهول، ولذلك وصف الرب سبحانه نفسه في كتابه بالعلم دون المعرفة وفي ذلك يقول: «وعلى هذا فالفرق بين إضافة العلم إليه تعالى وعدم إضافة =

ومما يشير إلى الفرق بينهما قولهم بعد تعريف بعضهم العلم: بأنه معرفة المعلوم على ما هو عليه[1].

فإذا قلت: عرفت زيدًا فالمراد شخصه، وإذا قلت: علمت زيدًا، أردت العلم بأحواله من فضل ونقص.

وقال القاضي أبو يعلى وأبو إسحاق الاسفرائيني من الشافعية: هما مترادفان[2].

وقالت الكرامية: يوصف تعالى بالمعرفة.

وقال شمس الدين ابن قيم الجوزية: لفظ العلم أوسع إطلاقًا من المعرفة، يعني في الكتاب والسنة ولسان العرب، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: ١١٤]، وقال: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩] فذكر الفرق اللفظي كما ذكر الآمدي[3]، والمعنى منه أن المعرفة تتعلق بذات الشيء والعلم بأحواله كعرفت أباك وعلمته صالحًا، قال: وإذا وقع العلم على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وكذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون

= المعرفة لا ترجع إلى الإفراد والتركيب في متعلق العلم وإنما ترجع إلى نفس المعرفة ومعناها فإنها في مجاري استعمالها، إنما تستعمل فيما سبق تصوره من نسيان وذهول أو غروب عن القلب».

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني (ص ١٥٥)، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية (ص ١٢٣).

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير، ابن النجار (١/ ٦٥).

(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم (٣/ ٣٣٤).

المعرفة، كقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٩٨]، فالمعرفة حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس، والعلم حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه، فالمعرفة تشبه التصور، والعلم يشبه التصديق، والمعرفة تكون في الغالب لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل: عرفه، أو تكون لما وصف له بصفات قامت بنفسه، فإذا رآه وعلم أنه الموصوف قيل: عرفه، كقوله: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقال: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف: ٨٥]، وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] فالمعرفة تشبه الذكر [للشيء][١] وهو حضور ما كان غائبًا عن الذكر.

ولهذا كان ضد المعرفة: الإنكار، وضد العلم: الجهل. كما في آيات الباب، يقال: عرف الحق فأقر وعرفه فأنكر[٢].

وقال العسكري[٣]: المعرفة علم يبين الشيء مفصلاً عما سواه بخلاف العلم فإنه قد يتعلق بالشيء مجملاً[٤].

فعلى هذا لا يتصور أن يُعرف اللهُ بالكلية، فإن الله تعالى لا يحاط

---

(١) في الأصل: «النفسي» وما بين معكوفتين من مدارج السالكين (٣/ ٣٣٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) هو الحسن بن عبدالله بن سهيل، من علماء اللغة والأدب، صاحب جمهرة الأمثال، وشرح الحماسة وغيرها، توفي سنة ٣٨٢هـ. انظر: خزانة الأدب، البغدادي (١/ ١١٢)، الأعلام، الزركلي (٢/ ١٩٦).

(٤) الفروق، أبو هلال العسكري (ص ٧٢ـ ٧٣).

به علمًا ولا معرفةً ولا رؤية، فهو أكبر من ذلك وأعظم وأجل، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠].

وحقيقة هذا الحد انتفاء تعلق المعرفة بأكثر المخلوقات، حتى بأظهرها كالشمس والقمر، حتى نفس الإنسان لا يحيط بها[١] معرفة. فإطلاقها على الله سبحانه مجازي إذا كانت بمعنى العلم.

قال ابن المفلح: والمشهور في أصل الدين عن أصحابنا أن معرفة الله وجبت شرعًا، وقيل: عقلا[٢]. قال: وهي أول واجب لنفسه، ويجب قبلها النظر لتوقفها عليه، فهو أول واجب لغيره، ولا يقعان ضرورة، وقيل: بلى. وفي الصحيح «كل مولود يولد على الفطرة»[٣][٤].

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم (٣/ ٣٣٦).

(٢) الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات (١/ ٤٥٦) من حديث أبي هريرة ومسلم في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٤/ ٢٠٤٧).

(٤) ما ذكره ابن مفلح هو ما اصطلح عليه أهل الكلام بأول واجب على العبد، وقد اختلفت أقوال المتكلمين في ذلك على نحو اثني عشر قولاً ذكرها الباجوري الأشعري في تحفة المريد (ص ٢٠- ٢١) فمنهم من قال المعرفة وآخرون النظر وآخرون القصد إلى النظر وغيرهم الشك وغير ذلك. وسبب هذا الاضطراب هو بعدهم عن منهج الكتاب والسنة، وتمسكهم بطرق مبتدعة أخذوها من الفلاسفة والمناطقة، كمسألة الجواهر والأعراض، وهي بزعمهم تؤدي بهم إلى تحقيق معرفة الله عز وجل، وقد بين أهل العلم فساد طرقهم وصعوبتها وما نتج عنها من لوازم باطلة. ولا شك أن الكتاب والسنة قد تضمنا تعريف الناس بخالقهم بأيسر الطرق وأسهلها، وبسبب فطرية المعرفة لم يجعلها الكتاب والسنة هدفًا أساسيًّا لدعوة الناس، ثم إنها ليست أول ما يُدعى إليه العباد، بل الصحيح أن أول ما يُدعى إليه العباد هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فمن قالها أصبح مسلمًا، وهذا هو مذهب السلف والأئمة المتقدمين وقد نقل ابن المنذر الإجماع عليه فيما ذكره شيخ =

وفسرها الإمام أحمد: بالتي فطر الناس عليها من شقي وسعيد، قال القاضي أبو يعلى: المراد به الدين من كفر أو إسلام، قال: وفسر أحمد هذا في غير [ك،١٥٩/أ] موضع[(١)].

وذكر الأثرم معناه على الإقرار بالوحدانية حين أخذهم من صلب آدم عليه السلام، وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وبأن له صانعًا ومدبرًا، وإن عبد شيئًا غيره وسماه بغير اسمه، وأنه ليس المراد على الإسلام؛ لأن اليهودي يرثه ولده الطفل إجماعًا، وقيل للإمام أحمد في رواية الميموني[(٢)]: هي التي فطر الله

= الإسلام عنه في الدرء (٨/ ٧) وكان هذا هو منهج النبي ﷺ وصحابته من بعده، وفي حديث معاذ عندما بعث إلى اليمن وهو عند البخاري (٢/ ٥٠٥)، ومسلم (١/ ٥٠) أوضح دلالة على صحة ما ذهبوا إليه حيث قال له «إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله». وحديث ابن عمر عند البخاري (١/ ١٧)، ومسلم (١/ ٥٣): «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة». وفي السنة كثير من هذا القبيل. قال شيخ الإسلام في درء تعارض العقل (٨/ ٦ ـ ٧): «والنبي ﷺ لم يدع أحدًا من الخلق إلى النظر ابتداءً، ولا إلى مجرد إثبات الصانع، بل أول ما دعاهم إليه الشهادتان وبذلك أمر أصحابه»، ثم ذكر حديث معاذ وأحاديث أخرى ثم قال: «وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين وعلماء المسلمين، فإنهم مجمعون على ما علم بالاضطرار من دين الرسول، أن كل كافر فإنه يدعى إلى الشهادتين، سواء كان معطلاً، أو مشركًا، أو كتابيًا، وبذلك يصير الكافر مسلمًا، ولا يصير مسلمًا بدون ذلك».

(١) الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٨٧).

(٢) هو عبدالملك بن عبدالحميد بن مهران الرقي الميموني، ممن لازم الإمام أحمد، كان جليل القدر، روى عن الإمام أحمد مسائل، توفي سنة ٢٧٤هـ. انظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ١٤٢)، المنهج الأحمد، العليمي (١/ ٢٤٩).

الناس عليها الفطرة الأولى؟ قال: نعم[1].

قال ابن حامد: اختلف قوله في تعذيب أطفال المشركين، والكلام منه في ذلك مبني على مقالته في تفسير الفطرة. ثم ذكر هذه الروايات[2].

وتأتي الفطرة بمعنى الخلقة كقوله ﷺ: عشر من الفطرة[3].

قال أبوبكر محمد بن عبدالله بن العربي المالكي: هي ههنا عبارة عن الخلقة، فإن الإنسان يخلق سليمًا من عشرة أقذار، ثم تطرأ عليه فأمر بالتنظف منها.

وقد تقدم أن أول واجب على الإنسان وآخره عبادة الله وحده، التي هي مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وذلك هو الإيمان.

فعند الإمام أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أهل النار»[4].

قال في شرح مسلم: خص اليهود والنصارى بعدما عم الأمة للتنبيه لأن لهم كتابًا[5]. يعني: ليُعلم أن غيرهم إذا كانوا كذلك وهم أهل

---

(١) الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٨٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة، باب خصال الفطرة (١/ ٢٢٣) من حديث أبي هريرة، وأبو داود في الطهارة، باب السواك من الفطرة (١/ ١٤) وغيرهم.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل الأخرى (١/ ١٣٤)، وأحمد في المسند (٢/ ٣١٧).

(٥) شرح مسلم، النووي (٢/ ١٨٨).

الكتاب [فغيرهم ممن لا كتاب له][1] من باب الأولى والأحرى، وفي مفهومه: أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور[2].

قال: وهذا جار على ما تقرر في الأصول، لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح[3].

وقال القاضي أبو يعلى في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [الإسراء: ١٥] في هذا دليل على أن معرفة الله لا تجب عقلاً وإنما تجب بالشرع، وهو بعثة الرسل، وأنه لو مات الإنسان قبل ذلك لم يقطع عليه بالنار[4].

قال: وقيل: معناه أنه لا يعذب فيما طريقه السمع إلا بقيام الحجة بالسمع من جهة الرسول ﷺ، ولهذا قالوا: لو أسلم بعض أهل الحرب في دارهم، ولم يسمع بالصلاة ونحوها لم يلزم قضاء شيء منها، لأنها لم تلزمه إلا بعد قيام حجة السمع.

والأصل فيه قصة أهل قباء حين استداروا إلى الكعبة ولم يستأنفوا[5]،

---

(١) اقتضى السياق إضافتها، وانظر شرح مسلم، النووي (٢/ ١٨٨).
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي (٢/ ١٨٨)، الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٨٥).
(٣) المصادر السابقة.
(٤) الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٨٥).
(٥) أخرجه البخاري في القبلة، باب ما جاء في القبلة، ومن لا يرى الإعادة على من سها فصلى إلى غير القبلة (١/ ١٥٧) من حديث ابن عمر قال: بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة. ومسلم في المساجد، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (١/ ٣٧٥).

بخلاف لو أسلم في دار الإسلام؛ لأنه رأى الناس يصلون في المساجد بأذان وإقامة وذلك دعاء إليها[1].

وذكر ذلك ابن الجوزي ولم يزد عليه[2]، فدل على موافقته[3]، وهكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه[4]، فدل على أن قيام الحجة بلوغ الرسالة بالبرهان والبيان قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فأول واجب عبادة الله وحده، التي أولها وأصلها ولُبّها عمل القلب الخالي عن الشك والتردد، وقد خرج بنا لفظ المعرفة إلى شوارد يتعلق بها فوائد[5].

(قال مجاهد) بن جبر بفتح الجيم وسكون الموحدة، أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي الثقة، كان إمامًا في التفسير والعلم فاضلاً[6]، فقال في الآية المتقدمة **(ما معناه)** إذ الرواية بالمعنى جائزة عند الجمهور إذا لم يغير معنى اللفظ: **(هو قول الرجل هذا مالي، ورثته عن آبائي)**[7]. كقول الأبرص والأقرع لما أتاهما الملك وقد عرفا نعمة الله عليهما

---

(١) الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٨٥ـ ١٨٦).

(٢) المصدر السابق (٦/ ١٨٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق (٦/ ١٨٥).

(٥) لم أر سببًا لذكر المصنف رأي ابن مفلح واستشهاده به، مادام يرى أن أول واجب على العبد معرفة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن المعرفة فطرية كما هو مذهب السلف، ثم إنه لم يذكره في معرض النقد.

(٦) انظر ترجمته: المعرفة والتاريخ، البسوي (١/ ٧١١)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٤٤٩).

(٧) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ١٥٧).

بالعافية بعد المأذية[١]، والغنى بعد الفقر[٢].

(وقال عون بن عبدالله) بن عتبة بن عبدالله بن مسعود، أبو عبدالله الهذلي الكوفي، الثقة العابد الثبت، توفي قبل سنة عشرين ومائة[٣]. في هذه الآية: **(يقولون لولا فلان لم يكن كذا)**[٤]. فلم يفردوا التكوين لله تبارك وتعالى كما أفرده قادة الموحدين أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، كما ذكر البخاري وغيره عن عبدالله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه في قوله:

والله لـو لا اللهُ مـا اهتـدينـا ... ولا تصـدقنـا ولا صلينـا

فـأنـزلـنْ سكينـة علينـا ... وثبّـت الأقـدام إن لاقينـا

إن الأُلـى قـد بغـوا علينـا ... وإن أرادوا فتنـة أبينـا[٥]

فعلم من ذلك أن محل المحذور في لو، إذا كان اللفظ بها يشعر

---

(١) كذا في الأصل، وواضح أنه أراد معنى الأذى ونحوه مما هو ضد العافية، لكن صيغة (مأذية) غير موجودة في المعاجم قاطبة، فلعلّها من توليد المؤلف.

(٢) حديث الأقرع والأبرص والأعمى متفق عليه أخرجه البخاري في الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل (٣/ ١٢٧٦) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الزهد والرقائق في أوله (٤/ ٢٢٧٥)، وغيرهم.

(٣) انظر: ترجمته: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٥/ ١٠٣)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٨/ ١٧١).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ١٥٨).

(٥) أخرجه في المغازي، باب غزوة الخندق (٤/ ١٥٠٦) من حديث البراء رضي الله عنه، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق (١/ ١٤٣٠).

بما يعاند القدر فإن ذلك هو المحذور الممنوع من التلفظ به، وأما ما سوى ذلك فقد كثر مجيئها به في الكتاب والسنة كما سنذكر شيئًا منه إن شاء الله تعالى في هذا الشرح، فتنبه لهذا الحد والله الموفق.

(**وقال ابن قتيبة**) اللغوي وهو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي، صاحب كتاب المعارف، وأدب الكاتب وغيرهما، كان فاضلاً ثقةً ثبتًا، سكن بغداد وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وإبراهيم بن سفيان وتلك الطبقة، وأبي حاتم السجستاني. وأقام بالدينور مدة قاضيًا، وتوفي سنة ست وقيل سبع وسبعين ومائتين رحمه الله[1]: (**يقولون هذا بشفاعة آلهتنا**). ففسرها ابن قتيبة بالشرك الأكبر وهو ظاهرها، وقد أنكر الله تبارك وتعالى عليهم ذلك في كتابه العزيز وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له وأنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء، إذ هم أحق بالشفاعة التي أثبتها الله ورسوله، وأهلها، وهي الصادرة عن إذن الله لمن وحده تبارك وتعالى، والتي نفاها هي الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، فقوبلوا بنقيض قصدهم من نفي شفاعتهم عنهم، وفاز بها الموحدون.

ومن تأمل قول النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه وقد سأله كما في البخاري وغيره: من أسعد الناس **بشفاعتك** [ك،١٦٠/ب] يا رسول الله؟ قال: أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه[2]،

---

(١) انظر ترجمته: وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٢٥١)، لسان الميزان، ابن حجر (٣/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب الحرص على الحديث (١/ ٤٩)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٧٣)، وغيرهم.

علم أن تجريد التوحيد من أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته ﷺ، عكس ما عليه المشركون، وقد مر الكلام على هذا مستوفىً في موضعه ولله الحمد والمنة.

(وقال) شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام (**أبو العباس**) ابن تيمية قدس الله روحه (**لما ذكر حديث زيد بن خالد**) الجهني الصحابي المشهور، (**المتقدم**) ذكره في المتن (**وفيه: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، الحديث**) بطوله (**قال**) أي شيخ الإسلام المذكور: (**وهذا المعنى كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به**).

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

قال: (**وقال بعض السلف**) في الكلام على ذلك: (**هو كقولهم كانت الريح**) التي سير الله بها سفينتهم (**طيبة**) بحيث ينسبون الطيب إلى

الريح لا إلى الذي أجراها بها، وليس قول هذا القائل داخلاً في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]. إذ الألفاظ تختلف بالمقاصد والإضافة، وأيضًا الباء في قوله بريح باء السبب، والأسباب مثبتة عند أهل السنة والجماعة، قد أثبتها الله في كتابه كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ إلى قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤١- ٤٢].

(والملاح حاذقا) الحاذق العارف بالشيء والمتقن له، والملاح هو صاحب السفينة المعتني بأمرها، فهو لها بمنزلة الدليل في البر، فهو يسيرها بدلالته، ويعتني بآلاتها وما تحتاج إليه في سيرها، قال الأخطل يصف ماء الفرات:

يقمّص بالملّاح حتى يشفَّه الـ ... حذارُ وإن كان المشيحَ المعوّدا[(١)]

والمشيح: الحاذق العارف المتكمش، والمعوّد الذي عاود ذاك مرة بعد مرة.

وقال طرفة ابن العبد:

عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورًا ويهتدي[(٢)]

ولهذا قال أهل اللغة الملاح هو صاحب السفينة، وقاله الجوهري

---

(١) ديوان الأخطل (ص ٢٢٢).
(٢) ديوان طرفة بن العبد (ص ٢٠).

وغيره[1]، وهو المراد بمن ذكرنا، فأضاف هذا القائل سرعة سير السفينة إلى الأسباب، ولم ينظر إلى مسببها تبارك وتعالى المستقل بتسييرها، حيث يقول جلا وعلا مخبرا عن نفسه في كتابه العزيز: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٢- ١٣]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الشورى: ٣٢- ٣٥]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٤- ١٨]، وقال أيضًا في هذه السورة: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل: ٥٣- ٥٥]، ولهذا قال في الآية المتقدمة: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [النحل: ٨٣] بأن أعقبوا المعرفة الإنكار، ففي هذا دلالة أن توحيد الألوهية من لوازم توحيد الربوبية[2]، وأن ما ذكر من الاختلاف في معنى الآية

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري (١/ ٤٠٨).

(٢) الصواب أن يقال: من مقتضيات توحيد الربوبية؛ لأن اللازم لا يتخلف عن ملزومه، ومعلوم أن كثيرًا من المشركين يوحدون في الربوبية، ولم يلزم من ذلك أن يكونوا موحدين في الألوهية والعبادة.

إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، إذ الآية الكريمة تحتمل ذلك كله، والله تعالى الموفق.



الباب الحادي والأربعون

باب قول الله تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

الأنداد جمع ند بكسر النون وهو المثل، وقد تقدم الاستشهاد على ذلك، والعلم إدراك الشيء على ما هو عليه(١)، وإنما ذكر الأنداد التي هي الأصنام بلفظ الجمع تنبيهًا على زيادة سفاهتهم، لأنهم مع علمهم بامتناع أن يكون له ند واحد جعلوا له أندادا، وهم وإن كانوا لا يعتقدون الندية الحقيقية في الخلق والرزق، ولكن تعظيمهم إياها على ما أتوا به في حقها أشعر بالندية والمثلية، ومما يدل على انتفاء الندية ما قبل هذه الآية، التي أتت في سياقه من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ـ ٢٢].

قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي بكر عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد، التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول من توحيده هو الحق لا شك فيه(٢).

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني (ص ١٥٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٦٤).

وهكذا قال قتادة[1]، وقال أبو العالية[2]: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: عدلاء شركاء[3].

وهكذا قال الربيع[4] بن أنس وقتادة والسدي [ك،١٦٠/أ] وأبو مالك وإسماعيل ابن أبي خالد[5].

والمعنى أن الذي خلق بني آدم متمكنين من العبادة وجعل لهم الأرض فراشًا وبساطًا ومهادًا، والسماء بناء ومستقر الرزق، وأنزل منها ماءً فأخرج بسبب امتزاجه مع الأرض رزقًا من الثمرات التي هي الفوائد الجمة، ليكون ذلك وسيلة إلى التوصل إلى التوحيد بالفكر العقلي في خلق الأنفس والآفاق وما فوقها من الأفلاك، وما تحتها من طبقات الأرض، وما فيها من أنواع الحيوانات، وألوان المخلوقات، وفي أن كلا منهما مخلوق له سبحانه، وأن المخلوق لا يصح أن يكون ندا للخالق ولا ضده.

إذا حصل لكم العلم بتوحيده على الوجه المرضي، تعين عليكم عبادته برفع الشرك، وامتثال كل ما أراد منكم من الفعل والترك، لما ظهر لكم من البراهين الساطعة الباهرة، فإذا حصل لكم العلم بدقائق الأمور

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رفيع بن مهران الرياحي البصري، الإمام المقرىء المفسر، أدرك زمن النبي ﷺ، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق، توفي سنة التسعين وقيل بعدها. انظر: الطبقات، ابن سعد (٧/ ١١٢)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٢٠٧).

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٨).

(٤) البكري، الخراساني، المروزي، عالم مرو في زمانه، توفي سنة ١٣٩هـ. انظر: الثقات، ابن حبان (٣/ ٦٤)، الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (٣/ ٤٥٤).

(٥) ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٨).

وغوامض الأحوال، والإصابة في التدابير والدهاء والفطنة، حصل لكم العلم بما يشعر الندية، فلا تجعلوها إلا على صفة يؤذن بأنها جمادات في جانب الله تعالى، لا تضر ولا تنفع كجمادات أخر لا تنطق، وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك[1]. الحديث.

أي: والحال أنه انفرد بخلقك فكيف لك باتخاذ شريك معه، وجعل عبادتك مقسومة بينهما، وفي هذا الخطاب من الآية والحديث إشارة إلى أن الشرك من العالم أقبح منه من غيره.

(قال) ترجمان القرآن حبر هذه الأمة عبدالله **(ابن عباس رضي الله عنهما في الآية)**: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ **(الأنداد: هو الشرك)** الخفي، يعني به الشرك الأصغر كما يفهم من آخر كلامه، وفي الحديث المرفوع: أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء[2].

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في صفته هنا: **(أخفى من**

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، سورة البقرة (٤/ ١٦٢٦)، ومسلم في الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (١/ ٩٠)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أحمد من حديث محمود بن لبيد مرفوعًا في المسند (٥/ ٤٢٨)، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٣٣)، إلا أن الطبراني رواه من حديث محمود بن لبيد عن رافع بن خديج، قال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٣٤): «وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع ابن خديج وقيل: إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع بن خديج فيه والله أعلم». وقال قبل ذلك: «رواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا والبيهقي في الزهد وغيره». وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٢): رواه أحمد في المسند ورجاله رجال الصحيح.

وقال الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (ص ١٧): صحيح.

دبيب النمل) الأسود المعروف بالصغر، حالة كونه يمشي (**على صفاة سوداء في ظلمة الليل**). وهي أشد ما يكون من الليل ظلمة، فأضاف الظلمة إلى الليل لشدة المبالغة في وصف الظلمة، فلا شيء يعبّر به عن الخفاء للسمع والبصر في حق المخلوق أخفى مما مثل به ترجمان القرآن، وحبر الأمة المفقه في الدين المعلم للتأويل، فكيف السلامة من شركٍ هذا خفاؤه، نسأل الله تعالى التوفيق والحماية من ذلك.

وهكذا ما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مرفوعًا، عند الحاكم وقال: صحيح الإسناد عنها رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب الإنسان على شيء من الجور، وتبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] [آل عمران: ٣١].

ثم بين ابن عباس من ذلك بما عساه أن لا يلقي له أكثر الناس بالاً، أو لا يظن أنه من الشرك الذي هو أكبر من الكبائر، التي هي كبائر الذنوب وإن كان بالنسبة إلى مسمى الشرك صغيرًا فقال: (**وهو أن تقول**) يعني المكلف: (**والله وحياتك**) بكسر الكاف على خطاب التأنيث، وفتحها على خطاب التذكير، والمعنى بحيث لا يقتصر على القسم بالله تعالى، بل يعطف عليه قوله: وحياتك (**يا فلانة**) هكذا بالتأنيث في خط الشيخ بيده، وذلك أن العرب إذا قصدت الحكاية عن ما يعقل وعن ما

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٥٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٩٣).

لا يعقل حتى عن الجمادات أنثت، خصوصًا إذا لم تقصد أن تعبر عن شيء بعينه، وفي الأصل «فلان» بالتذكير وهو واضح[1]، إلا أنها بالتأنيث أعم لفظًا، وإن كان المقصود في التذكير أيضًا العموم.

(**وحياتي**) يعني المتكلم بأن يحلف بحياته، ومقصود ابن عباس رضي الله عنهما بأن يقتصر الحالف على الحلف بالله سبحانه، لأنه لما كان الحلف بغير الله تعظيمًا للمخلوق، يشبه تعظيم الرب جل وعلا سمي شركًا يعني في التعظيم، فمنع منه رأسًا.

وكأن (**يقول**) الإنسان المكلف: (**لولا كليبة**) بالتصغير في خط الشيخ، وفي الأصل كلبة[2] (**هذا لأتانا اللصوص**). وهو جمع لص، مشتق من التلصص، واللص هو السارق. قال الشاعر:

والخارب اللص يحب الخاربا

يعني اللص الفاسد يحب اللص الفاسد، ولهذا قال بعده:

وتلك قربى مثل أن تناسبا وتشبه الضرائب الضرائبا[3]

(**ولولا البط**) بفتح الموحدة وتشديد الطاء المهملة، وهو طائر معروف أبيض من طيور الماء، معلما[4] يصيح إذا رأى من ينكره (**في الدار**). والدار في اللغة كل منزل من الأرض ولو لم يكن فيه بناء، وذلك معلوم عند العرب من آثارها وأشعارها، قال امرؤ القيس:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأبيات غيرَ معزوة في الكامل للمبرد (٢/ ٩٣٧).

(٤) كذا في الأصل والمسودة، ولا أدري أهي من التعليم أم من العلامة.

ديار لسلمى عافيات بذي الخال ألح عليها كل أسحم هطال[1]

والشواهد على ذلك أشهر من أن تذكر (لأتى) وفي خط الشيخ (**لأتانا اللصوص**) وهكذا الحكم في كل ما يشعر به اللفظ في كلام المتكلم بأن القضاء والقدر ممتنع على الله عز وجل، إلا بوجود ذلك السبب، لا أن الله جل وعلا جعل شيئًا من الأسباب سببًا لوجود شيء أو عدمه، إذ الأسباب من إيجاد الله جل وعلا، فهو مسببها ومكونها، إذ هو الغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لا مانع لما قضى ولا راد لما منع، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. ومعنى لولا هنا هو امتناع الشيء لوجود غيره، لأنها شرطية داخلة في جملة اسمية، إلا أنها لا تجزم، وهي في المضارعة تحضيض، وفي الماضية للتوبيخ والعرض، وقد ترد للنفي [ك،١٦١/ب] كقول القائل: لولا علي لهلك عمر.

وكما في البخاري عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمّك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ فقال ﷺ: هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار[2].

رواه في صحيحه مسندًا في قصة أبي طالب، وهذا كقول ابن أم الحكم

---

(١) ديوان امرىء القيس (ص ٢٧)، لسان العرب، ابن منظور (٢/ ٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب كنية المشرك (٥/ ٢٢٩٣)، ومسلم في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (١/ ١٩٤)، وغيرهم.

يزيد بن الحكم[1] ابن عم الحجاج بن يوسف حيث يقول:

ومنزلة لولاي طِحت كما هوى ... بإجرامه من قُلة النيق منهوي[2]

وقال العرجي[3] عبدالله بن عمرو بن أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه:

تقـول لـي مـن داخـل الهـودجِ ... لولاك هذا العام لم أحججِ[4]

وقول الآخر:

[وتزحزحت] بك هضبة العرب التي ... لـولاك بعـد الله لـم تتـزحـزح

قال أهل اللغة: فلولا هناك داخلة على اسم مبتدأ فإن كان ظاهرًا فقد رجّح جمهور النحويين رفعه، وورد عن العرب نصبه بفعل محذوف كقول جرير بن الخطفى يهجو الفرزدق:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم ... بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا[5]

يقول لولا عددتم الكمي المقنعا، يعني أن ذلك ليس فيكم، وهو

(١) الثقفي، من أعيان العصر الأموي، شاعر عالي الطبقة، ولاه الحجاج فارس، توفي سنة ١٠٥هـ. انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٢/ ٢٨٦)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ١٢٥).

(٢) انظر: الأمالي، القالي (١/ ٦٨)، خزانة الأدب، البغدادي (٣/ ١٢٦).

(٣) سبقت ترجمته ص ٢٢٧.

(٤) البيت لعمر بن أبي ربيعة في ملحق ديوانه (ص ٤٨٧)، وفي خزانة الأدب، (٥/ ٣٢٦) ذكر البغدادي أنّ التبريزي نسبه للعرجي «ولم يوجد في ديوانه، والذي رواه العلماء أنه لعمر بن أبي ربيعة وهو موجود في شعره».

(٥) انظر: شرح ديوان جرير، مهدي ناصر الدين (ص ٢٥٤)، شرح ألفية ابن مالك، ابن عقيل (٣/ ٥٨).

المجد الذي يعد.

وإن كان مضمرًا، فقال سيبويه[1] والكسائي[2] وغيرهما: هو مجرور في الحكم ومحله الرفع بالابتداء، والخبر محذوف، وقد سد مسده جواب لولا، وهي الجملة التي بعدها، وخالفهم الأخفش والفراء[3] فحكما عليه بالرفع على أصله، حكاه عنهم أبو الفرج الأصبهاني في مجالسه وهذا معنى كلامه، فالقول في «لو» و«لولا» ليس على إطلاقه في المنع، فقد قال تعالى عن نبيه لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠]، وقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

وقال ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة»[4].

---

(١) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، لقب بسيبويه، ومعناه بالفارسية رائحة التفاح من أئمة النحو، وكتابه في النحو هو الإمام فيه، توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ على خلاف. انظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري (ص ٥٤)، بغية الوعاة، السيوطي (ص ٣٦٦).

(٢) أبو الحسن علي بن حمزة، بحر في النحو والقراءة وكلام العرب، له قراءة، توفي سنة ١٨٣هـ. انظر: إنباه الرواة، القفطي (٢/ ٢٥٦)، نزهة الألباء، ابن الانباري (ص ٥٨).

(٣) أبو زكريا يحيى بن زياد، أمير المؤمنين في النحو، له «الحدود» في النحو، و«المعاني»، توفي سنة ٢٠٧هـ. انظر: المعارف، بن قتيبة (ص ١٨٤)، نزهة الألباني، ابن الانباري (ص ٨١).

(٤) أخرجه البخاري في التمني، باب قول النبي ﷺ: لو استقبلت من أمري ما استدبرت (٦/ ٢٦٤٢)، وأبو داود في المناسك، باب في إفراد الحج (٢/ ١٥٩)، وأحمد في المسند (٦/ ٢٤٧)، كلهم من حديث عائشة، ورواه غيرهم.

وقال في وقت العشاء الآخرة: «إنه للوقت لولا أن أشق على أمتي»[١].

وقال لعائشة: «لولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية»[٢]، الحديث.

وقال: «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار»[٣].

قال: «لو سلك الناس واديًا وشعبًا، لسلكت وادي الأنصار وشعبها»[٤].

وقال: «لولا ما في البيوت من النساء والذرية» بعد أن هم أن يحرق على المتخلفين عن الجماعة بيوتهم بالنار[٥].

وقال للمُلاعِنة: «لولا ما سبق من كتاب الله، لكان لي ولها شأن»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب النوم قبل العشاء لمن غلب (١/ ٢٠٨) من حديث ابن عمر، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب وقت العشاء وتأخيرها (١/ ٤٤٢)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في الحج، باب فضل مكة وبنيانها (٢/ ٥٧٤) ومسلم في الحج، باب نقض الكعبة وبنائها (٢/ ٩٦٩)، وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف (٤/ ١٥٧٤) من حديث عبدالله ابن زيد بن عاصم، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (٢/ ٧٣٨).

(٤) جزء من الحديث السابق.

(٥) كما في حديث أبي هريرة مرفوعًا: لولا ما في البيوت من النساء والذرية لأقمت صلاة العشاء، وأمرت فتياني يحرقون ما في البيوت بالنار. والحديث أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٦٧)، وأصله في الصحيحين وغيرهما، أخرجه البخاري في الجماعة والإمامة، باب وجوب صلاة الجماعة والإمامة (١/ ٢٣١)، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاة الجماعة (١/ ٤٥٢)، دون قولهم: «لولا ما في البيوت...».

(٦) أخرجه النسائي في الطلاق، باب كيف اللعان (٦/ ١٧٢)، من حديث أنس مطولاً، =

وقال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء»[1]، وفي لفظة: عند كل صلاة[2].

وقال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ﴾ [الإسراء: ٩٥] الآية، وهذا أنموذج مما في الكتاب والسنة، فالممنوع إذًا من ذلك ما كان قادحًا في التوحيد، بحيث يسند ويضاف المنع مجردًا إلى غير الله جل وعلا، لا جعل الغير سببًا من الأسباب التي جعلها مسببها تبارك وتعالى سببًا في ذلك أو علة في الحكم، إذ الأحكام معللة عند أهل السنة والجماعة، والله سبحانه جاعل العلة لما له من الحكمة في أمره ونهيه وخلقه، وإن كانت قد تخفى علينا، فتأمل ما ذكرنا يظهر لك الصواب.

ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «لولا ذلك لأبرز قبره»[3].

ولهذا قال تعالى لرسوله محمد ﷺ حين حثا في وجوه الكفار حفنة

= ومسلم في اللعان (٢/ ١١٣٤) مختصرًا دون هذه اللفظة.

(١) أخرجه في الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم (٢/ ٦٨٢) معلقًا بصيغة الجزم عن أبي هريرة، ووصله النسائي في السنن الكبرى (٢/ ١٩٦)، وأحمد في المسند (٢/ ٥٠٩)، ومالك في الموطأ (١/ ٦٦) قال محمد فؤاد عبدالباقي: قال ابن عبدالبر: هذا الحديث يدخل في المسند لاتصاله من غير ما وجه، ولما يدل عليه اللفظ. وابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٩٩).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (١/ ٣٠٣)، من حديث أبي هريرة، ومسلم في الطهارة، باب السواك (١/ ٢٢٠)، وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤/ ١٦١٤) من حديث عائشة ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/ ٣٧٦) وغيرهم.

التراب: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فأثبت السبب منه ﷺ، وجعل الحقيقة له سبحانه ونفاها عن غيره، لأنه سبحانه هو الموصل لذلك بقدرته، وهو أيضًا جعل القوة في رسوله ﷺ وأرشده إلى ذلك، فالأسباب مثبتة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦]، فأخبر أنه يفعل الأسباب، ومن قال: يفعل عندها لا بها فقد خالف كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية القرآن والسنة، وأنكر ما خلقه الله من القوى والطبائع [وهو](١) شبيه [بإنكار](٢) ما خلقه الله من القوى التي في الحيوان، التي يفعل الحيوان بها مثل قدرة العبد، كما أن من جعلها هي المبدعة لذلك فقد أشرك بالله، وأضاف فعله إلى غيره، وذلك أنه ما من سبب من الأسباب إلا وهو مفتقر إلى سبب آخر في حصول سببه، ولابد له من مانع يمنع مقتضاه، إذا لم يدفعه الله عنه، فليس في الوجود شيء واحد يفعل شيئًا إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: ٤٩] أي: فتعلمون أن خالق الأزواج واحد، ثم قال: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

ولهذا من قال: إن الله لا يصدر عنه إلا واحد، لأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد كان جاهلاً، فإنه ليس في الوجود واحد صدر عنه وحده شيء، لا واحد ولا اثنان، إلا الله الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، فالنار التي جعل الله فيها

---

(١) كلمة غير مقروءة، وما بين معكوفتين نص التدمرية (ص ٢١٠).

(٢) ساقطة من الأصل، وألحقت من التدمرية (ص ٢١٠).

حرارة، لا يحصل الإحراق إلا بها وبمحل يقبل الاحتراق، فإذا أوقعت على الياقوت ونحوه لم يحترق. والشمس التي يكون عنها الشعاع لابد من جسم يقبل انعكاس الشعاع عليه، وإذا حصل حاجز من سحاب أو سقف لم يحصل الشعاع تحته[1]. وذلك من موانع الأسباب التي هي خلق الله وتكوينه، وجعل ذلك لعباده أسبابًا، لهذا صح عنه ﷺ أنه قال: «من اقتنى كلبًا إلا كلب صيد أو زرع أو ماشية، نقص من أجره كل يوم قيراط»[2].

وقد أمر الله رسوله بتعاطي الأسباب، وإنما المحذور ما ذكرنا، ومن أنواع الشرك أيضًا: **(قول الرجل)** والمراد به قول الإنسان، بل كل مكلف عاقل من الإنس والجان، حال المخاطبة **(لصاحبه ما شاء الله وشئت)** بفتح التاء المثناة الفوقية بأن يعطف الجملة بواو مطلق الجمع، وهي واو التشريك والتسوية فإن ذلك ونحوه لا يجوز، إلا أن يعطف بثم التي هي للتعقيب والمهلة، ليخرج بذلك من المحذور القادح في التوحيد، وكذا **(قول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان)**.

بالرفع على الحكاية، وقيل: رفع على النيابة عن الفاعل، على رواية من رواه بالياء التحتانية، يقول: لا تجعل في قولك ما شاء الله، وقولك لولا الله، «فلانًا». فإن **(هذا)** المقدم ذكره **(كله به شرك)**. والباء في «به» هنا للظرفية، ويحتمل أن تكون للمصاحبة، ليجتنب الإنسان

---

(١) التدمرية، ابن تيمية (ص ٢١٠- ٢١٢).

(٢) أخرجه البخاري في المزارعة، باب اقتناء الكلب للحرث (٢/ ٨١٧) من حديث أبي هريرة ومسلم في المساقاة، باب الأمر بقتل الكلاب وبيان نسخه (٣/ ١٢٠٣)، وغيرهم.

التلفظ بذلك وإن لم يقصد التسوية والتشريك، تأدبًا مع الله تعالى عن مضاهاة المشركين في الألفاظ، ولأن اللفظ بالإطلاق يقتضي ذلك.

(رواه) الإمام الحافظ الثبت، الفقيه الرُّحَلَة العابد الزاهد، أبو محمد عبدالرحمن (بن أبي حاتم) في تفسيره حيث قال: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم نا ابن عمرو نا الضحاك بن مخلد أبو عاصم ثنا شبيب بن بشر ثنا عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: [ك،١٦١/أ] الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل فذكره[١].

وقد قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قال: تقولون إنه إله واحد في التوراة والإنجيل[٢].

وروى ابن السني وأبو يعلى من حديث حذيفة بن اليمان عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما إما حضر ذلك حذيفة من النبي ﷺ، وإما أخبره أبوبكر أن النبي ﷺ قال: الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل. قال قلنا: يا رسول الله وهل الشرك إلا ما عُبد من دون الله عز وجل، أو ما دعي مع الله؟ شك عبدالملك فقال: ثكلتك أمّك يا صديق، الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل، ألا أخبركم بقول يُذهب صغاره وكباره، أو صغيره وكبيره، قال: قلت: بلى يا رسول الله قال: تقول كل يوم ثلاث مرات: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، واستغفرك لما لا أعلم، والشرك أن تقول: أعطاني الله وفلان، والند أن يقول الإنسان لولا فلان

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١/ ١٦٤)، ووكيع وعبد بن حميد كما في الدر المنثور (١/ ٨٨).

قتلني فلان[1].

ورواه ابن حبان في الضعفاء[2]، قال العراقي: وضعفه هو والدارقطني رحمهما الله تعالى[3].

وعند الإمام أحمد والترمذي حديث في معنى الآية الشريفة حيث قال الإمام أحمد: ثنا عفان أبو خلف ـ وكان يعد من البدلاء ـ[4] ثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده [ممطور][5] عن الحارث

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١/ ٦٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ١٤١) من طريق ليث بن أبي سليم عن أبي محمد عن حذيفة، وليث بن أبي سليم، قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٤٦٤): «اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك» وشيخه أبو محمد مجهول. قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٤٤): رواه أبو يعلى من رواية ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد عن حذيفة، وليث مدلس، وأبو محمد إن كان هو الذي روى عن ابن مسعود، أو الذي روى عن عثمان بن عفان، فقد وثقه ابن حبان، وإن كان غيرهما فلم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأعله بليث الدارقطني في العلل (١/ ١٩١)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨٢٤). وللحديث طريق أخرى من طريق سفيان الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر به، أخرجه بإسناده إلى الثوري أبو نعيم في الحلية (٧/ ١١٢)، وقال الألباني في صحيح الجامع (١/ ٦٩٤): صحيح، وأشار إلى ضعف رواية ليث بن أبي سليم.

(٢) أخرجه في المجروحين (٣/ ١٣٠) من طريق يحيى بن كثير عن سفيان الثوري به وأعله بيحيى بن كثير وقال عنه: «شيخ يروي عن الثقات ما ليس من أحاديثهم لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد». وقال الحافظ في التقريب (ص ٦٩٥): أبو النضر، صاحب البصري، ضعيف من كبار التاسعة.

(٣) انظر: العلل، الدارقطني (١/ ١٩١)، وقد أعله بالاختلاف على ليث بن أبي سليم.

(٤) انظر فيما مضى عن قضية البدلاء والأبدال ص: ٧٠٣.

(٥) في الأصل: مطمور، والتصويب من المصادر.

الأشعري: أن نبي الله ﷺ قال: إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات، أن يعمل بهن ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكان يبطي، فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن، فقال: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي، قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن، وأولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي إلى غير سيده.

وفي رواية الترمذي «فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده»[1]. فأيكم يسرّه أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

وهذا الشاهد من هذا الحديث وإيراده قال عليه السلام: وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لعبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه ضرب من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدّموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم، وآمركم بذكر الله كثيرًا وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره، فأتى حصنًا

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ١٤٨).

حصينًا فتحصن فيه، وإن أحصن باب للعبد من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل.

ولفظ الترمذي بعد قوله: فتحصن فيه «وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله عز وجل». قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن، الجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوة جاهلية فهو من جثى جهنم. قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله»[1].

وقد قال الترمذي بعد تخريجه له: وهذا حديث حسن صحيح[2].

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله: فقد ذكر رسول الله ﷺ في هذا الحديث الصحيح العظيم الشأن، الذي ينبغي لكل مسلم حفظه وتلقيه، لأن فيه ما ينجو به من الشيطان، وما يحصل للعبد به من الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة، مثل الموحد والمشرك، فالموحد كمن عمل لسيده في داره وأدى إلى سيده ما استعمل فيه، والمشرك كمن استعمله

---

(١) أخرجه الترمذي في الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٥/ ١٤٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأحمد في المسند (٤/ ١٣٠)، والطيالسي في مسنده (ص ١٥٩)، وعبدالرزاق في المصنف (١١/ ٣٣٩)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٤٠)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٨٧)، والحاكم وصححه في المستدرك (١/ ٣٦٢) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٣٧٨).

(٢) سنن الترمذي (٥/ ١٤٨).

سيده في داره فكان يعمل ويؤدي خراجه وعمله إلى غير سيده، فهكذا المشرك يعمل لغير الله في دار الله، ويتقرب إلى عدو الله بنعمة الله عليه، ومعلوم أن العبد من بني آدم لو كان له مملوك كذلك لكان أمقت المماليك عنده، وكان أشد غضبًا عليه وطردًا له وإبعادًا، وهو مخلوق مثله، كلاهما في نعمة غيرهما، فكيف رب العالمين الذي يتكرم على العبد، إذ كل نعمة فمنه وحده لا شريك له، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، وحده المتفرد بخلق عبده، ورحمته له وتدبيره ورزقه ومعافاته وقضاء حوائجه، فكيف يليق به مع هذا أن يعدل به غيره، في الحب والخوف والرجاء والحلف والنذر والمعاملة، وجميع العبادات من الأقوال والأفعال وإنما ذلك لله وحده[1].

(**وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه**) أمير المؤمنين ثاني الخلفاء الراشدين القوي في الدين العدوي القرشي الذي فرق الله به بين الحق والباطل فسمي الفاروق (**أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغير الله تعالى فقد كفر أو أشرك**[2]**.**)

شك الراوي وفي لفظ «فقد كفر وأشرك»[3] بواو العطف، فيكون من عطف الخاص على العام، إذ الشرك نوع من الكفر، وقد تقدم الكلام في ذلك عن السلف بأوضح عبارة والله الموفق.

وهذا الحديث عزوه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهم، ولعل

---

(١) الوابل الصيب، ابن القيم (ص ٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي في النذور والإيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (٤/ ١١٠) من حديث ابن عمر وقال: هذا حديث حسن، وأحمد في المسند (٢/ ١٢٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٥)، وقال الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٩٩): صحيح.

(٣) مسند أحمد (٢/ ١٢٥).

الشيخ رحمه الله وجده معزوا كذلك فنقله كما وجده، وإلا فالحديث عن ابنه عبدالله بن عمر وهو في خط الشيخ بيده عن عمر، ورواه الحاكم أبو عبدالله في مستدركه[(١)].

(والترمذي)[(٢)] أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي، يلتقي نسبه بنسب النبي ﷺ في مضر بن نزار، وهو أحد الحفاظ الأعلام، له مناقب جمة وتصانيف كثيرة في الحديث، منها جامعه وهو أحسن الكتب وأكثرها فائدة، وأحسنها ترتيبًا وأقلها تكرارًا، فيه من الفقه والاستدلال ما ليس في غيره، ومن التصحيح والتحسين والتغريب كذلك، وفيه [ك،١٦٢/ب] جرح وتعديل، وفي آخره كتاب العلل فيه فوائد حسنة لا يخفى قدرها.

قال الترمذي: ومن كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي يتكلم[(٣)].

توفي في ترمذ ليلة الاثنين ثامن عشر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين[(٤)].

فرويا في هذا الحديث عن عبدالله بن عمر مرفوعًا ولفظهما: أن ابن عمر سمع رجلاً يقول: لا والكعبة، فقال له: لا تحلف بغير الله فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك[(٥)]،

---

(١) المستدرك (١/ ٦٥)، بلفظ «فقد كفر».

(٢) سنن الترمذي (٤/ ١١٠).

(٣) تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ٦٣٤).

(٤) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٣/ ٢٧٠)، الوافي بالوفيات، الصفدي (٤/ ٢٩٤).

(٥) مضى تخريجه قبل قليل.

بالشك. و(قال) الترمذي هذا حديث (**حسن**[1]، **وصححه**) في مستدركه (**الحاكم**) أبو عبدالله فقال: صحيح على شرطهما[2]، ورواه أيضًا ابن ماجه في سننه[3].

وقد أكثر الترمذي رحمه الله تعالى في جامعه التحسين والتصحيح والتغريب والتضعيف لما رواه من الأحاديث، واختلفت عبارات المحدثين في حد هذه الألفاظ، فقال الترمذي في كتاب العلل: وما ذكرت «هذا حديث حسن» فإسناده عندي حسن، وما ذكرت «حديث غريب» ففي إسناده أدنى شيء، وما قلت: «حسن غريب» فإسناده جيد والحديث غريب، والصحيح أصح شيء منه، وما كان ضعيفًا فقد بينت علله[4].

وقال أبو محمد الحسين بن عبدالله بن محمد الطيبي[5] في الخلاصة: الحسن حجة كالصحيح وإن كان دونه، ، ولذلك أدرجه

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ١١٠).

(٢) المستدرك (١/ ٦٥).

(٣) لم يروه ابن ماجه بلفظ حديث الباب، وإنما رواه في الكفارات، باب النهي أن يحلف بغير الله (١/ ٦٧٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمعه يحلف بأبيه، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم» قال عمر: فما حلفت بها ذاكرًا ولا آثرًا. والحديث مخرج في الصحيحين، أخرجه البخاري في الأدب، باب من لم يرَ إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً (٥/ ٢٢٦٤)، ومسلم في الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (٣/ ١٢٦٦)، وغيرهم.

(٤) ليس هذا نص كلام الترمذي، وإنما هو تلخيص المؤلف لما فهم من كلامه، فلينتبه، وانظر سنن الترمذي، العلل (٥/ ٧٥٨).

(٥) تقدمت ترجمته ص ٢٨٤.

بعضهم فيه، ولم يفرده عنه، وهو ظاهر كلام الحاكم في تصرفاته. قال: وقولهم «حسن الإسناد» أو «صحيح الإسناد» دون قولهم «حديث صحيح» أو «حسن»، إذ قد يصح إسناده أو يحسن دون متنه لشذوذ أو علة. قال: فإن قاله حافظ معتمد لم يُقدح فيه، فالظاهر منه حكمه بصحة المتن أو حسنه.

وقال عماد الدين ابن كثير: الحسن هو في الاحتجاج به كالصحيح عند الجمهور(١).

قال وهذا النوع لما كان وسطًا بين الصحيح والضعيف في نظر الناظر، لا في نفس الأمر، عسر التعبير عنه وضبطه على كثير من أهل هذه الصناعة، وذلك لأنه أمر نسبي وشيء ينقدح عند الحفاظ، ربما تقصر عباراتهم عنه(٢).

قال ابن الصلاح: وقد تجشم كثير منهم حده(٣).

قال الخطابي: هو ما عرف مخرجه واشتهر رجاله، قال: وعليه مدار أكثر الحديث، وهو الذي يقبله أكثر العلماء، ويستعمله عامة الفقهاء(٤).

واعترضه في ذلك عماد الدين ابن كثير بقوله: إن كان المعرِّف هو قوله «ما عرف مخرجه واشتهر رجاله» فالحديث الصحيح بل والضعيف كذلك. وإن كان بقية الكلام من تمام الحد فليس هذا الذي ذكره مسلمًا له، أن كثير الحديث من قبيل الحسان، ولا هو الذي يقبله أكثر العلماء

---

(١) الباعث الحثيث (ص ٣٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الباعث الحثيث (ص ٣٥).

(٤) المصدر السابق.

ويستعمله عامة الفقهاء[1].

قال ابن الصلاح: وروينا عن الترمذي أنه يريد بالحسن: ألا يكون في إسناده متهم بالكذب، ولا يكون حديثه شاذا[2].

وأنكر ابن كثير أن يكون ذلك الذي ذكره ابن الصلاح مرويا عن الترمذي وقال: إن كان روي عن الترمذي أنه قاله، ففي أي كتاب له وأين إسناده عنه؟[3].

قلت: وذكر بعضهم أنه في كتاب العلل له فطالعته في أوفى نسخة فلم أجد فيه إلا ما ذكرته عند أول الكلام في هذه المادة.

قال ابن كثير: وإن كان فهمه ابن الصلاح من اصطلاحه في كتابه الجامع فليس ذلك بصحيح، فإنه يقول في كثير من الأحاديث: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[4].

قال ابن الصلاح: وأما قول الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح» فمشكل، لأن الجمع بينهما في حديث واحد كالمتعذّر، فمنهم من قال: ذلك باعتبار إسنادين: حسن وصحيح[5].

قال ابن كثير: وهذا يرده أنه يقول في بعض الأحاديث: «هذا حسن

---

(١) اختصار علوم الحديث مع شرحه الباعث الحثيث ص ٣٥.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ١٧٤، دار المعارف.

(٣) اختصار علوم الحديث ص ٣٦.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر مقدمة ابن الصلاح ص ١٨٥.

صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

ومنهم من يقول: هو حسن باعتبار المتن، صحيح باعتبار الإسناد[١].

قال ابن كثير: وفي هذا أيضًا نظر، فإنه يقول ذلك في أحاديث مروية في صفة جهنم، وفي الحدود والقصاص، ونحو ذلك[٢].

قال: والذي يظهر أنه يشوب الحكم بالصحة على الحديث بالحسن، كما يشوب الحسن بالصحة. فعلى هذا يكون ما يقول فيه «حسن صحيح» أعلى رتبة عنده من الحسن، ودون الصحيح، ويكون حكمه على الحديث بالصحة المحضة أقوى من حكمه عليه بالصحة مع الحسن[٣].

قلت: ولا يمكن أن يركب صنيعه في جامعه إلا على ما قاله عماد الدين ابن كثير رحمه الله هنا، قال الطيبي: والفرق بين حدي الصحيح والحسن، أن شرائط الصحيح معتبرة في الحسن، لكن العدالة في الصحيح ينبغي أن تكون ظاهرة والإتقان كاملاً، وليس ذلك شرطًا في الحسن، فالحسن قاصر عن الصحيح، بحيث لا تُشترط ثقة رجاله، بل إذا كان فيهم من لم يتهم بالكذب، وروي من وجه آخر، كان حسنًا على ما تقدمت الإشارة إليه، فعلم أن غير المتهم أعم من أن يكون ثقة أو مستورًا، فإن المستور غير مقبول عند الجمهور كما في الشهادة.

قال ابن الصلاح وغيره: من أهل الحديث من لا يفرد نوع الحسن، ويجعله مندرجًا في أنواع الصحيح، لاندراجه في أنواع ما يحتج به.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

قال: وهو الظاهر من كلام أبي عبدالله الحاكم في تصرفاته. قال: ثم من سمى الحسن صحيحًا، لا ينكر أنه دون الصحيح المقدم بيانه[١].

قال ابن كثير: إن كان بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، فليس إلا صحيح أو ضعيف أو كذب، وإن كان بالنسبة إلى اصطلاح المحدثين فهو منقسم إلى أكثر من ذلك[٢].

قال الطيبي: لو قيل ـ يعني في حد الحسن ـ: هو مسندُ من قَرُبَ درجةَ الثقة، أو مرسل ثقة، ويروي كلاهما من غير وجه، وسلم عن شذوذ وعلة، لكان أجمع وأبعد عن التعقيد[٣].

وعند أبي داود في سننه بسند صحيح عن بريدة [ك،١٦٢/أ] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف بالأمانة فليس منا»[٤].

---

(١) مقدمة ابن الصلاح: ص ١٨٦.

(٢) الباعث الحثيث (ص ١٩).

(٣) تدريب الراوي، السيوطي (١/ ١٥٩).

(٤) أخرجه أبو داود في الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالأمانة (٣/ ٢٢٠) من طريق أحمد بن يونس ثنا زهير ثنا الوليد بن ثعلبة الطائي، عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعًا، ولم يخرجه مقتصرًا على هذا اللفظ غير أبي داود. قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٥): تفرد به أبو داود رحمه الله. ولم يشر الألباني إلى من أخرجه غير أبي داود، وقال في السلسلة الصحيحة (١/ ١٤٩) بعد أن ساق إسناده: وهذا إسناد صحيح، ورجاله كلهم ثقات. وقد أخرج الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٥٢) هذا الحديث بزيادة «ومن خبب زوجة أمرىء أو مملوكه فليس منا»، من طريق وكيع ثنا الوليد بن ثعلبة به، وكذلك الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣١) من طريق عبدالله بن داود ثنا الوليد بن ثعلبة الطائي به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٠)، وشعب الإيمان (٧/ ٢٩٦) من طريق يحيى بن أبي بكر ثنا زهير بن معاوية به، والخطيب في تاريخ بغداد (١٤/ ٣٥) من طريق مندل بن علي عن الوليد بن ثعلبة الطائي به. قال الهيثمي في =

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ أدرك عمر وهو يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت[١].

وقال أبو داود حدثنا أحمد بن حنبل قال: حدثنا عبدالرزاق قال: أخبرنا معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه عن عمر قال: سمعني رسول الله ﷺ وأنا أقول: وأبي، فقال: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، قال عمر: فوالله ما حلفت بها أبدًا ذاكرًا ولا آثرًا[٢].

ورواه البخاري في المتابعات[٣]، وقال: قال مجاهد في قوله «ولا آثرًا» ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾: يأثر علمًا[٤].

= مجمع الزوائد (٤/ ٣٣٢) بعد أن ساق لفظ الإمام أحمد: روى أبوداود منه النهي عن الحلف بالأمانة فقط، ورواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح خلا الوليد بن ثعلبة، وهو ثقه. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٩): رواه أحمد بإسناد صحيح.

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولاً أو جاهلاً (٥/ ٢٢٦٥)، ومسلم في الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (٣/ ١٢٦٦).

(٢) سنن أبي داود، الأيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالآباء (٣/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم (٦/ ٢٤٤٩).

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم (٦/ ٢٤٤٩) تعليقًا.

وقال الخطابي: في «آثرًا» يريد مخبرًا به عن غيري، من قولك أثرت الحديث إذا رويته عن غيرك، يقول ما حلفت ذاكرًا عن نفسي ولا مخبرًا عن غيري[(١)].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤] وسميت الآثار آثارًا، لأنها تروى عن الغير ويخبر بها، وينقلها البعض عن البعض. قال الأعشى:

لتأتينْه منطقٌ قاذعٌ   مستوسق السامع والآثر[(٢)]

قال أبو داود: حدثنا سليمان بن داود العتكي ثنا إسماعيل بن جعفر المدني عن أبي سهيل نافع بن مالك بن أبي عامر عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيدالله في حديث قصة الأعرابي فقال رسول الله ﷺ: «أفلح وأبيه إن صدق»[(٣)].

وقد اختلف العلماء في حديث الأعرابي، وما يروى في حديث أبي العشراء[(٤)]، ففي بعض ألفاظه وأبيك لو طعنت في فخذها أجزاك[(٥)].

---

(١) معالم السنن، الخطابي (٤/ ٤٥).

(٢) البيت في ديوانه ص ١٠٦ هكذا:

ليأتينه منطق سائرٌ   مستوثق للمسمع الآثرِ

(٣) أخرجه في الأيمان والنذور، باب كراهية الحلف بالآباء (٣/ ٢٢٠)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد الأركان (١/ ٤١) من طريق إسماعيل بن جعفر به.

(٤) أبو العشراء، بضم أوله وفتح المعجمه والراء والمد، الدارمي، قيل اسمه أسامة بن مالك بن قهطم، وقيل عطارد، وقيل يسار، وقيل سنان بن برز، أو بلز، وقيل اسمه بلاز بن يسار وهو أعرابي، مجهول، من الرابعة. انظر: تهذيب التهذيب (١٢/ ١٦٧)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٦٥٨).

(٥) أخرج هذه اللفظة ابن عدي في الكامل (٢/ ٢٥٩)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٢/ ٣٧٧) والبيهقي في سننه (٩/ ٢٤٦) عن أبي العشراء عن أبيه أنه قال: يا =

بعد إجماعهم على تحريم الحلف بغير الله تعالى كما حكاه ابن عبدالبر وغيره[1]، فقال ابن عبدالبر في قوله في حديث الأعرابي: «أفلح وأبيه إن صدق»: هذه اللفظة غير محفوظة من وجه صحيح[2].

وحديث أبي العشراء قال أحمد: لو كان يثبت. يعني أنه لم يثبت[3].

وهذا جواب لا يبرد غليلاً ولا يشفي مجردًا عليلا، لورود ذلك من

= رسول الله أما أن تكون الذكاة إلا في الحلق واللبة؟ قال: وأبيك لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك.

وقد روي حديث أبي العشراء بدون لفظ القسم، أخرجه أبو داود في الأضاحي، باب ما جاء في ذبيحة المتردية (٣/ ١٠٢)، وقال أبو داود: هذا لا يصلح إلا في المتردية والمتوحش، والترمذي في الأضاحي، باب ما جاء في الذكاة في الحلق واللبة (٤/ ٧٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة، والنسائي في الضحايا، باب ذكر المتردية في البئر التي لا يوصل إلى حلقها (٧/ ٢٢٨)، وابن ماجه في الذبائح، باب ذكاة الفارّ من البهائم (٢/ ١٠٦٣)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٤)، والدارمي في سننه (٢/ ١١٣)، والطيالسي في مسنده (ص ١٦٩)، وابن الجعد في مسنده (ص ٤٧٩)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ١٧٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٤٠٥)، وابن الجارود في المنتقى (ص ٢٢٧)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٣٧٢)، والطبراني في الكبير (٧/ ١٦٨)، كلهم من طرق عن حماد بن سلمة عن أبي العشراء، مختلف في اسمه وفي اسم أبيه، وقد انفرد حماد بن سلمة بالرواية عنه على الصحيح، ولا يعرف حاله. وقال في التقريب (ص ٦٥٨): أعرابي مجهول. وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٤/ ٥٥١): قلت: ولا يدرى من هو، ولا من أبوه، انفرد عنه حماد بن سلمة. وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٨/ ١٦٨).

(١) حكاه عنه الحافظ في الفتح (١١/ ٥٣١).

(٢) حكاه عنه الحافظ في الفتح (١١/ ٥٣١).

(٣) المغني، ابن قدامة (١٣/ ٤٣٨).

وجه صحيح كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى.

قال صاحب مختصر النهاية[1] في قوله «أفلح وأبيه إن صدق» وهذه كلمة جارية على ألسن العرب كثيرة، وقد يراد بها القسم، وتارة يراد التوكيد، كقول الشاعر:

لعَمْرُ أبي الواشين لا عَمْرُ غيرهم   لقد كلَّفَتْني خطة لا أريدها[2]

فهذا توكيد لا قسم؛ لأنه لا يقصد أن يحلف بأبي الواشين، إذ هم أعداؤه[3]. وقال النووي وتبعه جماعة على ذلك في حديث الأعرابي: هذا مما جرت به عادتهم، إن سأل سائل عنه مع قوله ﷺ: «من كان حالفًا فليحلف بالله»[4]، وقوله: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم»[5]. بأن ذلك ليس هو حلفًا، إنما هو كلمة جرت عادة العرب أن تدخلها في كلامها، غير قاصدة بها حقيقة الحلف وإنما ورد النهي فيمن قصد حقيقة الحلف لما فيه من إعظام المخلوق به ومضاهاته بالله سبحانه وتعالى[6]. انتهى.

فهذا أرضى جواب في هذه المسألة، فإنه رب كلمة تُرك أصلها واستعملت كالمثل في غير ما وضعت له أولا، كما جاءوا بلفظ القسم هنا في غير موضعه، إما أرادوا تعجبًا، أو استعظامًا لأمر، كما قال ﷺ

---

(١) السيوطي وكتابه هو الدر النثير في اختصار نهاية ابن الأثير.
(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ٨).
(٣) النهاية، ابن الأثير (١/ ١٩).
(٤) مضى تخريجه.
(٥) مضى تخريجه.
(٦) شرح مسلم، النووي (١/ ١٦٨)، وحكاه الحافظ في الفتح (١١/ ٥٣٤) عن البيهقي.

في حديث الأعرابي الذي تقدم من رواية إسماعيل بن جعفر «أفلح وأبيه إن صدق»[١]، ومحال أن يقصد عليه السلام القسم بغير الله تعالى، لا سيما برجل مات على الكفر، وإنما هو تعجب من قول الأعرابي، والمتعجَّب منه مستعظم. ولفظ القسم في أصل وضعه عندهم في من يعظَّم، فاتسع في اللفظ حتى قبل هذا الوجه، قال الشاعر[٢]:

فإن تك ليلى استودعتني أمانة فلا وأبي أعدائها لا أخونها

فهو لم يرد أن يقسم بأبي أعدائها، ولكنه ضرب من التعجب.

ومن نقل الألفاظ عن أصولها باتساع اللفظ قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «ثكلتك أمك يا معاذ»[٣]. فإن هذه كلمة لا تقصد العرب معناها، وما كان ﷺ ليدعو على من هو من خير أصحابه الذابين عنه باللسان والسنان، فهي في أصل موضوعها معناها: فقدتك أمك.

وكذا قوله ﷺ: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[٤]، فإن أصله

---

(١) مضى تخريجه قريبا.

(٢) هو مجنون ليلى، انظر ديوانه: ص٢١٤، دار الفكر العربي، ١٩٩٤م.

(٣) أخرج هذه اللفظة ضمن حديث طويل منه: «يا نبيّ الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم» من حديث معاذ، الترمذي في الإيمان، باب حرمة الصلاة (٥/ ١١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٢/ ١٣١٤)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٦٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٢٨٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٣٢٨).

(٤) أخرجه البخاري في النكاح، باب الأكفاء في الدين (٥/ ١٩٥٨) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين (٢/ ١٠٨٦).

الدعاء؛ إذ معناه وأصل موضوعه: افتقرتا، أو لصقتا بالتراب من شدة الفقر، والمراد بها في هذا الموضع للتعجب وتعظيم الأمر والحث على ذات الدين. فإنه لم يخرج هذا منه ﷺ مخرج الدعاء وحاشاه، كيف وخلقُه للمؤمنين كما وصفه مرسله تعالى في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولم يصحح العلماء المحققون رحمهم الله تعالى قول من ذهب من الشراح إلى النسخ، إذ لا يصح في قوله ﷺ، لأنه [لم][(١)] يثبت أن رسول الله ﷺ كان يحلف قبل النسخ بغير الله ويقسم بقوم كفار، وما أبعد هذا من شيمه ﷺ، تالله ما فعل هذا قط، ولا كان له ﷺ بخلق، وما أُقِر على كبيرة من الكبائر فيُقَر على صغيرة شرك هي أعظم من ذلك[(٢)].

وقال قوم: رواية إسماعيل بن جعفر مصحّفة، وإنما هو «أفلح والله إن صدق»[(٣)].

قلت: وهذا أيضًا منكر من القول، واعتراض على الأثبات العدول فيما حفظوه، وقد خرّج مسلم في كتاب الزكاة قوله ﷺ لرجل يسأله أي الصدقة أفضل فقال: «وأبيك لأخبرنّك»[(٤)] وذكر الحديث.

---

(١) ليست في الأصل، والسياق يقتضيها.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر (١١/ ٥٣٤).

(٣) المصدر السابق (١١/ ٥٣٣).

(٤) باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (٢/ ٧١٦)، من حديث أبي هريرة بلفظ: «أما وأبيك لتنبأنه: أن تصدق وأنت صحيح شحيح...» الحديث.

وروى أيضًا في كتاب البر والصلة قوله ﷺ لرجل سأله من أحق الناس بأن أبره أو قال بأن أصله قال: «وأبيك لأنبّئنّك، صِلْ أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك»[1].

وعند مالك في الموطأ عن عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن الصديق عن أبيه: أن رجلاً من أهل اليمن أقطع [ك،١٦٣/ب] اليد والرجل قدم يعني المدينة، فنزل على أبي بكر الصديق، فشكى إليه من عامل اليمن أنه قد ظلمه، فكان يصلي من الليل فيقول أبوبكر رضي الله عنه: وأبيك ما ليلك بليل سارق، ثم إنهم فقدوا عقدًا لأسماء بنت عميس امرأة أبي بكر الصديق، فجعل الرجل يطوف معهم ويقول: اللهم عليك بمن بيّت أهل هذا البيت الصالح، فوجدوا الحلي عند صائغ زعم أن الأقطع جاءه به، فاعترف به للأقطع، أو شهد عليه، فأمر به أبوبكر فقطعت يده اليسرى، فقال أبوبكر: والله لدعاؤه على نفسه أشد عندي من سرقته[2].

وهذا حديث صحيح، وما كان أبوبكر رضي الله عنه ليحلف بغير الله تعالى، وهو من الصديقية بعد الأنبياء بالمنزلة العليا، ولا أن يجهل نهي رسول الله ﷺ في ذلك، وإنما المعنى ما ذكره من التعجب، فقد قال الكميت بن زيد يخاطب قريشًا:

---

(١) باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٤/ ١٩٧٤)، من حديث أبي هريرة بلفظ: «نعم وأبيك لتنبأن».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٣٥)، والشافعي في المسند (ص ٣٣٦)، والدارقطني في سننه (٣/ ١٨٣)، والبيهقي في سننه (٨/ ٢٧٣)، وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٤٣): «لقد ثبت مثل ذلك من لفظ أبي بكر الصديق في قصة السارق الذي سرق حلي ابنته فقال في حقه: «وأبيك ما ليلك بليل سارق».

لعَمْرُ أبي الأعداء بيني وبينها لقد صادفوا آذان سمع تجيبها[1]

وقد قال في هذه الأحاديث كما ترى «وأبيك» فلم يأت إسماعيل بن جعفر رحمه الله إذًا في روايته بشيء منكر، ولا بقول بدع، وقد غفل من حمل عليه ما حمل في روايته، وغفل عن هذين الحديثين اللذين تقدم ذكرهما، وقد خرجهما مسلم بن الحجاج في صحيحه، وفي سياق أبي داود للحديثين اللذين رواهما على نسق ما تقدم ما يدل على أنه كان رحمه الله يذهب إلى طريق النسخ، فيوهم أن القسم بالآباء كان جائزًا في أول الإسلام، وقد فهمتَ ما قدمنا ذكره أن هذا ليس من باب الحلف بالآباء، ولا قال في الحديث: وأبي، وإنما قال: وأبيه، أو أبيك بالإضافة إلى ضمير المخاطب والغائب[2].

وبهذا الشرط يخرج عن معنى الحلف إلى معنى التعجب، الذي ذكرنا أنه ليس من باب الحلف بالآباء، كما سبق بيانه وتوضيحه والله الموفق.

ولهذا النحو نحا أكثر العلماء من المحققين من أتباع السلف[3]، ولهذا لم يجعل الله سبحانه اليمين في حقه بأسمائه الحسنى يمينًا منعقدة مكفرة، بل ألغاها فجعلها من اللغو الذي لا حكم له، حيث لم يقصد

---

(١) ديوانه: ص٦٧، ٦٨، دار صادر ٢٠٠٠م.

(٢) ومن هذا الباب قول بعض الصحابة عن ماعز لما رجم على الزنا: وأبيك إن هذا لهو الخائب. انظر صحيح ابن ماجه (١٠/ ٢٤٧)، ومنه قول جبريل عليه السلام كما عند البزار (يا محمد، هذا وأبيك المواساة) قال في المجمع (٦/ ١٢٢): فيه معلى بن عبدالرحمن الواسطي، وهو ضعيف جدًا، وفي المسند (٢/ ٤٨) مرفوعًا: وأبيك لو سكتّ ما زلت أناول منها ذراعًا ما دعوت به. وفيه راو لم يسمّ.

(٣) انظر: شرح مسلم، النووي (١/ ١٦٨)، فتح الباري، ابن حجر (١١/ ٥٣٤).

الحالف عقدها فقال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقد ذكر صاحب نتائج أبكار الأفكار: أن الفرزدق بن غالب[١] ذات يوم في حلقة الحسن البصري رحمه الله فقال رجل: يا أبا سعيد ما تقول في الرجل يحكي عن غيره يقول: قال فلان طلقت امرأتي، وأعتقت عبدي، ولا نية له في ذلك؟ فقال الفرزدق: يا أبا سعيد قد قلت أنا في ذلك. قال: وما قلت يا أبا فراس؟ فليس كل قول يؤخذ به، قال: قلت:

ولستُ بمأخوذ بشيء أقوله إذا لم تُعقّد عاقدات العزائمِ[٢]

فقال الحسن البصري: صدق أبو فراس، القول ما قال[٣].

إذا علمت ذلك فقد تقدم لك ذكر الإجماع على تحريم الحلف بغير الله مطلقًا، وليس لأحد أن يستدل بما ذكرنا على جواز الحلف بغير الله تعجبًا، إذ العرب لها طرائق في لغتها، وقد انقطعت طرائقها في جنس ذلك بانقطاع لغتها المركبة على الإعراب، ولم يبق أحد يحلف بغير الله إلا

---

(١) هو همام بن غالب التميمي، الدارمي، أبو فراس، لقب بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه، من فحول الشعراء، وأخباره مع جرير والأخطل ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر، وكان من أشراف قومه، لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعدًا، توفي سنة ١١٠هـ. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٧١)، الأعلام، الزركلي (٨/ ٩٣).

(٢) نسبه الأصفهاني في الأغاني (٢١/ ٣٠٧) للفرزدق.

(٣) المصدر السابق.

قاصدًا به اليمين، فهو إذًا من أنواع الشرك، ومن ذهب ليستظهر من ذلك دليلاً على جوازه، فقد بارز الله ورسوله باستظهاره وإبرازه وبالله التوفيق.

ففي مصنف ابن أبي شيبة مرفوعًا: «لو أن أحدكم يحلف بالمسيح هلك، والمسيح خير من آبائكم»(١).

وقد ذكر ابن عقيل(٢) في الحلف بالنبي ﷺ عن الإمام أحمد روايتين، وطرده في سائر الأنبياء عليهم السلام(٣)، ولم يوافقه على ذلك أحد من العلماء إلا ما يروى عن ابن عبدالسلام(٤) من الشافعية، وأما نبينا ﷺ فجعل شيخ الإسلام ابن تيمية مسألة اليمين به والتوسل بذاته مسألة واحدة في المنع والجواز(٥)، والصحيح في هذا الباب المنع كما مشى عليه في الإقناع(٦) مع التحريم، وهو ظاهر ما جزم به في

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٧٨) من طريق أبي الأحوص عن سماك عن عكرمة قال: قال عمر حدثت قومًا حديثًا فقلت: لا وأبي، فقال رجل من خلفي: لا تحلفن بآبائكم، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ فقال: لو أن أحدكم حلف بالمسيح لهلك... الحديث، وفي إسناده سماك بن حرب البكري، قال الحافظ في التقريب (ص ٢٥٥): «صدوق، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأخره فكان ربما تلقن». وانظر: الكواكب النيرات، ابن الكيال (ص ٢٣٧).

(٢) أبو الوفاء بن عقيل، مضت ترجمته.

(٣) شرح منتهى الإرادات، البهوتي (٣/ ٤١).

(٤) هو عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي، الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، من فقهاء الشافعية، كان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم، ومواقفه مع السلاطين مشهورة، توفي سنة ٦٦٠هـ بالقاهرة. انظر: النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (٧/ ٢٠٨)، طبقات الشافعية، ابن السبكي (٨/ ٢٠٩).

(٥) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ابن تيمية (ص ٥٨).

(٦) الإقناع لطالب الانتفاع، للحجاوي.

المنتهى[(١)]، وصاحب التصحيح في تنقيحه[(٢)]، لأنه كما قال صاحب الإقناع: شرك في تعظيم الله سواء أضافه إلى الله تعالى، أو لم يضفه[(٣)].

ويدل على ذلك ويوضحه قوله ﷺ في حديث ابن عمر المتقدم: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك[(٤)].

قال ابن عبدالبر: لا يجوز الحلف بغير الله بالإجماع[(٥)].

وقال في موضع آخر: أجمع العلماء على أن اليمين بغير الله مكروهة منهي عنها، لا يجوز لأحد الحلف بها[(٦)].

(قال عبدالله بن مسعود) الهذلي ابن أم عبد رضي الله عنه: **(لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا)**[(٧)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وجماعة من السلف:

---

(١) منتهى الإرادات في جمع المقنع مع التنقيح وزيادات، لابن النجار.

(٢) التنقيح للمرداوي، وعن كل ما سبق ذكره من كتب الحنابلة، يراجع المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، ابن بدران (ص ٢٢٦ـ ٢٤٢).

(٣) انظر: شرح منتهى الإرادات، البهوتي (٣/ ٤٤١)، الفروع، ابن مفلح (٦/ ٣٤٠)، المغني، ابن قدامة (١٣/ ٤٧٢).

(٤) مضى تخريجه ص١٧١٣.

(٥) فتح الباري، ابن حجر (١١/ ٥٣١).

(٦) المصدر السابق.

(٧) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٨/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٧٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٥)، والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ١٧٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٧٧): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. ومثله قال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٧٢).

وذلك لأن صغيرة الشرك أكبر من كبيرة الكبائر، فإن اليمين الغموس من أكبر الكبائر والحلف بغير الله صادقًا أكبر من اليمين الغموس[(١)].

هذا معنى ما ذكروه، وذلك لأن حسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك، مع أن الكذب من أقبح المحرمات وأفحش العيوب، والإجماع منعقد على تحريمه مع النصوص المتظاهرة من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥]، وجعل الرسول ﷺ الكذب من علامات المنافقين كما في الصحيحين وغيرهما[(٢)].

وعند البزار وأبي يعلى مرفوعًا بسند صحيح: يطبع المؤمن على كل خلة غير الكذب والخيانة[(٣)].

وعن عائشة مرفوعًا: «ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ابن تيمية (ص ٨٥).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب علامة المنافق (١/ ٢١) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال المنافق (١/ ٧٨)، وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في الإيمان (ص ٣١)، والمصنف (٥/ ١٣٦) موقوفًا على سعد بن أبي وقاص، وابن أبي الدنيا في الصمت (ص ٢٤٣)، والبيهقي في سننه (١٠/ ١٩٧)، وشعب الإيمان (٤/ ٢٠٧) وقال: روي مرفوعًا ورفعه ضعيف. قال العجلوني في كشف الخفا (٢/ ١٤٢): حديث سعد ضعف البيهقي رفعه، وقال الدارقطني: الموقوف أشبه بالصواب. العلل (٤/ ٣٣٠) لكن حكمه الرفع على الصحيح لأنه لا مجال للرأي فيه. وقال في المجمع (١/ ٩٢): رواه البزار وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح. ونحوه في الترغيب (٤/ ٢٨) وقال: ذكره الدارقطني في العلل مرفوعًا وموقوفًا، وقال: الموقوف أشبه بالصواب. وقال الألباني في هامش الإيمان لابن أبي شيبة (ص ٣١): إسناد أثر سعد صحيح على شرط الشيخين.

من الرجل يكذب عنه الكذبة، فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث فيها توبة».

رواه أحمد وابن حبان وقال صحيح الإسناد[(1)].

(وعن حذيفة) بن اليماني[(2)] **(رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان)** بواو التشريك والتسوية، **(ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)**[(3)]. بثم التعقيبية، فأرشدهم [ك،١٦٣/أ] ﷺ إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه مجردة عن الشوائب، وليس من ذلك ما صح عنه ﷺ في الصحيح أنه قال في مرض موته في حديث عائشة: يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر[(4)].

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الصدق والكذب (٤/ ٣٤٨) وقال: هذا حديث حسن، وأحمد في المسند (٦/ ١٥٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (ص ٢٣٧)، ومكارم الأخلاق (ص ٥١)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٣/ ٦٥٤)و وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٤٤)، وقال الأرناؤوط في الهامش: إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك (٤/ ١١٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٦)، وقال في مجمع الزوائد (١/ ١٤٢): رواه البزار وأحمد والحاكم وإسناده صحيح.

(٢) (اليماني) هكذا أثبتها بالياء وهي كذلك في بعض المصادر، والغالب حذف الياء، والوجهان جائزان كما في (العاص) و(العاصي).

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي (٤/ ٢٩٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وعمل اليوم والليلة (ص ٥٤٤)، وابن ماجه في الكفارات، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (١/ ٦٨٤)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٨٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٣٤٦)، والطيالسي في المسند (ص ٥٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٣٤٤)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٩٠)، والبيهقي في سننه (٣/ ٢١٦)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٩٤٠): صحيح.

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٤/ ١٨٥٧) من حديث عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه «ادعي لي =

ولفظه عند الإمام أحمد «أبى الله والمؤمنون»[1].

(رواه أبو داود بسند صحيح) فقال: حدثنا أبو الوليد الطيالسي ثنا شعبة عن منصور عن عبدالله بن يسار عن حذيفة رضي الله عنه به[2].

وهذا كحديث عدي بن حاتم رضي الله عنه الذي رواه أبو داود حيث قال حدثنا مسدد ثنا يحيى عن سفيان بن سعيد حدثني عبدالعزيز بن رفيع عن تميم الطائي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: **أن خطيبًا خطب عند النبي ﷺ فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصمها فقد غوى. فقال ﷺ: قم ـ أو قال: اذهب ـ فبئس الخطيب أنت**[3].

فكَره ﷺ الجمع بين الاسمين تحت حرفي الكناية في قوله «ومن يعصهما» لما فيه من التسوية، قاله الخطابي وغيره[4]، ومر ذكر توجيه ذلك.

وفي حديث الأبرص والأقرع الآتي في قول الملك «فلا بلاغ لي إلا بالله ثم بك»[5]. الحديث.

= أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر». وأخرجه البخاري في المرضى، باب ما رخص للمريض أن يقول إني وجع (٥/ ٢١٤٥) من حديث عائشة أيضاً بلفظ: «يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون»، والحاكم في المستدرك بلفظ مسلم (٣/ ٥٤٢).

(١) مسند أحمد (٦/ ٤٧) بلفظ «أبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبابكر».

(٢) سنن أبي داود (٤/ ٢٩٧).

(٣) سنن أبي داود (٤/ ٢٩٧) وقد مضى تخريجه.

(٤) معالم السنن (٤/ ١٣٤).

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور، باب ما يقول ما شاء الله وشئت وهل يقول أنا =

(وعن إبراهيم) بن يزيد بن قيس ابن الأسود، أبو عمران (النخعي) الكوفي، العابد الثقة الثبت، فقيه حافظ، إلا أنه يرسل الأحاديث كثيرًا، مات سنة ست وتسعين ومائة وهو ابن خمسين[1]. (أنه كان يكره أن يقول الرجل:) وكذا المرأة لأن هذا اللفظ في هذا المقام وإن أتى بلفظ الرجل يعم.

(أعوذ بالله وبك) يعني أنه كره العطف بواو الجمع والتسمية قال ـ أي إبراهيم النخعي ـ: (ويجوز أن يقول) الإنسان أعوذ (بالله ثم بك) بثم التعقيبية، وقد تقدم أن الاستعاذة لا تجوز بمخلوق، وكلام الإمام أحمد على قوله ﷺ: أعوذ بكلمات الله التامة[2] الحديث صريح في ذلك، ومعنى الاستعاذة: الالتجاء والاعتصام.

ومنه قوله: «لقد عذتِ بمَعاذ»[3]. أي لجأت إلى ملجأ، فالمعاذ المصدر

= بالله ثم بك (١/ ٢٤٥١) وهو جزء من حديث الأبرص والأقرع، وقد مضى تخريجه.

(١) انظر: تهذيب التهذيب (١/ ١٧٧)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ﴿يَزِفُّونَ ﴾ [الصافات: ٩٤]: النسلان في المشي (٣/ ١٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة». وأخرجه أبو داود في السنة، باب في القرآن (٤/ ٢٣٥)، والترمذي في الطب، باب رقم (١٨)، (٤/ ٣٩٦)، وغيرهم.

(٣) أخرج البخاري هذا الحديث في الطلاق، باب من طلق، وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق؟ (٥/ ٢٠١٢) من طريق حمزة بن أبي أسيد عن أبي أسيد رضي الله عنه بلفظ «. . . فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: هبي نفسك لي، قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة؟ قال فأهوى بيده يضع يديه عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك. فقال: قد عذت بمعاذ، ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد، اكسها رازقين، =

والمكان والزمان.

ويدل على أن الاستعاذة: الالتجاء والاعتصام والاستجارة، قول أسامة رضي الله عنه في قتل الذي قال: لا إله إلا الله لما قال له ﷺ: أقتلته بعد أن قالها؟ إنما قالها تعوذًا[١]. أي إنما أقر بها لاجئًا إليها، ومستجيرًا أو معتصمًا بها، ليدفع عنه بها القتل.

وقد صح في صحيح مسلم وغيره استعاذة غلام أبي مسعود[٢] البدري رضي الله عنه لما ضربه أبو مسعود، بالنبي ﷺ وهو يسمع، فلم ينكر عليه؛ إذ ذلك بمعنى الاستجارة، فعند مسلم عنه رضي الله عنه في حديث شعبة: أنه كان يضرب غلامًا له فجعل يقول أعوذ بالله، فجعل يضربه فقال: أعوذ برسول الله، فتركه، فقال رسول الله ﷺ: والله لله أقدر عليك منك عليه، قال: فأعتقه[٣].

(قال) يعني إبراهيم: (**ويقول**) أي الرجل (**لولا الله ثم فلان**) لتعقيب فلان بثم التعقيبية، قال: (**ولا يقول لولا الله وفلان**[٤]) بواو التشريك

= وألحقها بأهلها.

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة (٤/ ١٥٥٥)، ومسلم في الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (١/ ٩٧).

(٢) هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري البدري، من الخزرج، ممن شهد العقبة وأحدًا وما بعدها، ونزل الكوفة، واستخلفه علي عليها لما صار إلى صفين، توفي بالكوفة بعد سنة ٤٠هـ، وقيل بالمدينة. انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ١٠٥)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٤٨٣).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده (٣/ ١٢٨١).

(٤) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١١/ ٢٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٣٤٧).

والتسوية، المقتضية لذلك عند الإطلاق؛ إذ هي لمطلق الجمع، وذلك لما فيه من تجريد إضافة الأمور إلى الأسباب وتعليق الحوادث بها، أو تشريكها دون تسليط القضاء عليها وتغليب المقادير فيها، بحيث تجعل الأسباب أسبابًا لتلك الكوائن لا موجبات لها، أو شريكة في الإيجاب، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ويُمنع من هذا حمايةً لحمى التوحيد، وسدًّا للذريعة ولو لم يقصد معناه، والله تعالى الموفق.

الباب الثاني والأربعون

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله تعالى

(عن) عبدالله **(بن عمر)** بن الخطاب رضي الله عنهما **(أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم»)** هذا كالذي تقدم في النهي عن الحلف بغير الله تعالى وهو مجمع على تحريمه كما مر عن العلماء رحمهم الله تعالى[1]، ثم قال: **(من حلف بالله)** ناويًا عقد يمينه، أو مستحلَفًا لما في الحديث الصحيح: «يمينك على ما يصدقك عليه صاحبك» رواه مسلم عن أبي هريرة[2]، **(فليصدق)** في يمينه، **(ومن حُلف له بالله)** تعالى **(فليرض، ومن لم يرض فليس من الله)**. وكفى بهذا اللفظ زجرًا عن ذلك.

(رواه ابن ماجه) القزويني **(بسند حسن)**[3]، وقوله: **«ومن لم يرض»** أي: بالحلف بالله تعالى أو بأن يحلف له بالله تعالى، فيطلب أن يحلف له بغير الله تعالى من الآباء والأنداد، التي تدعى من دون الله سبحانه ممن يخافها ويرجوها كالمقامات ومن جعلت له، فليس ذلك الطالب الذي لم يرض في اليمين إلا أن يُحلف له بغيره من الله تعالى في شيء،

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٥٣١) حيث حكاه الحافظ عن ابن عبدالبر وغيره.

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان، باب يمين الحالف على نية المستحلف (٣/ ١٢٧٤)، وابن ماجه في الكفارات، باب من ورى في يمينه (١/ ٦٨٦)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٢٨)، وغيرهم.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الكفارات، باب من حلف له بالله فليرض (١/ ٦٧٩)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٤٣): هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات. وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٥٣٦): سنده حسن.

وقد مضى أن «شيئًا» هو أنكر النكرات، وهذا وعيد شديد وتهديد أكيد، وفي هذا مع ما سنورده دليل أن اليمين لا تنعقد إلا باسم الله تعالى أو بصفة من صفاته[1].

وأما اليمين بالنبي ﷺ فقد قال بعض العلماء منهم أبو الوفاء ابن عقيل: أنها تنعقد، وجعلها رواية عن الإمام أحمد وحكاها غيره[2].

قال في الفروع: اختاره الأكثر، قال: والتزم ابن عقيل بنبي غيره[3].

وزد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وجعلها والتوسل بذاته من باب واحد[4]، فالصحيح كما قدمنا أن التوسل به ﷺ واليمين به ليسا من باب واحد، فقد رُوي عن الإمام أحمد رضي الله عنه جواز التوسل به ﷺ، كما كتبه للمرّوذي في منسكه[5]، ولم يُرو عنه ما يخالفه[6].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر (١١/ ٥٣٥).

(٢) شرح منتهى الإرادات، البهوتي (٣/ ٤٤١).

(٣) في الفروع: (ونبي غيره)، ومراد ابن عقيل أن اليمين تنعقد بنبي غير محمد ﷺ. انظر الفروع، ابن مفلح (٦/ ٣٤٠).

(٤) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ابن تيمية (ص ٥٦، ١٥٩)

(٥) المصدر السابق (ص ١٦٠).

(٦) مسألة التوسل بالنبي ﷺ بعد موته عليه الصلاة والسلام، قد نص على المنع منها جمهور أهل العلم، ولم يذكر عن أحد من أهل العلم القول بجوازها، إلا العز بن عبدالسلام نقل ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في ردّه على البكري (١/ ٢٦٩)، وذكر أن العز بن عبدالسلام لم يجزم بذلك، بل علق القول به على ثبوت حديث الأعمى وصحته، ولم تكن هذه المسألة محل خلاف عندهم، وإنما الخلاف في جواز الحلف بالنبي ﷺ خاصة، فإن فيه قولين في مذهب أحمد لكن القول الذي عليه جمهور الأئمة كمالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم أنه لا ينعقد اليمين بمخلوق ولا يقسم به البتة، وهذا هو الصواب، والإقسام على الله بنبيه محمد ﷺ داخل في مسألة =

= التوسل، وفي هذه المسألة وقع النزاع، وقد نقل عن أحمد في التوسل بالنبي ﷺ في منسك المروذي ما يناسب قوله بانعقاد اليمين، ولذلك جعله شيخ الإسلام بابًا واحدًا، وفي ذلك يقول: وهذا التوسل بالأنبياء بمعنى السؤال بهم، وهو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم أنه لا يجوز، وليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك، فمن نقل عن مذهب مالك أنه جوز التوسل به بمعنى الإقسام به أو السؤال به، فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه، فكيف يجوز عنده أن يسأل الله بمخلوق نبيًا كان أو غيره، وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق، لا نبي ولا غيره، بل قال عمر: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا.

فلو كان السؤال به معروفًا عند الصحابة لقالوا لعمر: إن السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس. قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص ٧٤ـ ٧٥).

وقد سئل شيخ الإسلام في المصدر السابق (ص ٧١) عن حمل قول القائل: «أسألك بنبيك محمد، على أنه أراد: إني أسألك بإيماني به وبمحبته، وأتوسل إليك بإيماني به ومحبته، ونحو ذلك، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع.

قيل: من أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع، وإذا حمل على هذا المعنى كلام من توسل بالنبي ﷺ بعد مماته من السلف كما نقل عن بعض الصحابة وعن الإمام أحمد وعن غيره كان هذا حسنًا، وحينئذ فلا يكون في المسألة نزاع، لكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى، فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر، وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته وهذا جائز بلا نزاع، ثم إن أكثر الناس في زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ».

وفي التوسل المشروع الذي جاء به الكتاب والسنة ـ التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بالأعمال الصالحات، والتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته وكذلك التوسل إلى الله بدعاء النبي ﷺ وشفاعته في حياته، وبدعاء غيره من الصالحين في حياتهم ـ غنية عن هذا التوسل البدعي، وهذه المسألة من المسائل التي شنع بها أعداء الدعوة السلفية على الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وعلى أئمة الدعوة إلى يومنا هذا، وقالوا بأن الشيخ قد حرم التوسل وكفر أهل الإسلام به، وأنه جعل التوسل بأنواعه شركًا، وقد أجاب الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله عن هذه الدعوى، وهي أن الشيخ كفر من

وأما اليمين به فليس كذلك، فإن الصحيح عنه رضي الله عنه أنه يحرم أن يحلف الإنسان بذات غير الله أو صفته، كما جزم به صاحب الإقناع[1]، وهو ظاهر ما مشى عليه صاحب المنتهى[2]، وصاحب التصحيح في تنقيحه، لما في الصحيحين من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من كان حالفًا فلا يحلف إلا بالله، وكانت قريش تحلف بآبائها فقال: لا تحلفوا بآبائكم[3].

وفي حديث عمر الذي تقدم في الصحيحين عنه مرفوعًا: فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت[4].

= توسل بالصالحين بمعنى سؤال الله بجاه هؤلاء الصالحين فقد أجاب رحمه الله عنها في رده على ابن سحيم فقال: «فالمسائل التي شنع بها، منها ما هو البهتان الظاهر ـ وذكر الشيخ منها ـ قوله: «أني أكفر من توسل بالصالحين، وجوابي أن أقول سبحانك هذا بهتان عظيم». انظر مجموعة مؤلفات الشيخ (٥/ ٦٤).

وقال في موضع آخر في مصدر سابق (٣/ ٦٨): «ولكن إنكارنا على من دعا المخلوق أعظم مما يطلب منه، تفريج الكربات، وإعطاء الرغبات، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصًا له الدين لا يدعو مع الله أحدًا. ولكن يقول في دعائه: أسألك بنبيك، أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين، أو غيره يدعو عنده، لكن لا يدعو إلا الله مخلصًا له الدين».

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب كما في الدرر السنية (٩/ ٢٣٢) مجيبًا لمن سأله عن التوسل بجاه النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء والمرسلين: «وأما التوسل بجاه المخلوقين كمن يقول: اللهم إني أسألك بنبيك محمد ﷺ ونحو ذلك بعد موتهم، فهذا لم ينقل عن النبي ﷺ وأكثر العلماء على النهي عنه، وحكى ابن القيم رحمه الله تعالى أنه بدعة إجماعًا».

(١) انظر: الإقناع، الحجاوي (٤/ ٤٥٤).

(٢) انظر: شرح المنتهى، البهوتي (٣/ ٤٤١).

(٣) مضى تخريجه.

(٤) مضى تخريجه.

ففي هذا دليل قاطع أن اليمين المحلوف بها مقصورة على الحلف بالله تعالى وأن الحلف بما سواه محظور، يدل على ذلك ما رواه النسائي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون»[1]. فنهى عن الحلف بغير الله كائنًا من [ك،١٦٤/ب] كان، ومخالفة النهي حرام، فيكون محرمًا.

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن بريدة مرفوعًا: من حلف بالأمانة فليس منا[2].

وقد استدل بعض أهل العلم على جواز الحلف بالنبي ﷺ بما في البخاري في قصة أضياف أبي بكر، حين قال لزوجته لما رأى بركة الطعام، وأنه يزيد بأكل أضيافه: يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: لا وقرة عيني، لهي الآن أكثر منها قبل ذلك بثلاث مرات، أو أكثر[3].

تعني الجفنة، قال الداوودي: أرادت النبي ﷺ، أقسمت به[4].

ورده القرطبي وغيره وقال: أقسمت لما رأت من قرة عينها من بركة الطعام بكرامة الله لزوجها، يقال: أقر الله عينه أعطاه حتى تقر عينه،

---

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور، باب الحلف بالأمهات (٧/ ٥)، وأبو داود في الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء (٣/ ٢١٩)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ١٩٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٩)، وما ذكره المؤلف جزء من الحديث وأوله: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ولا تحلفوا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله» الحديث، وقد صححه الألباني في صحيح النسائي (٢/ ٧٩٩).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب السمر مع الضيف والأهل (١/ ٢١٦)، ومسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٣/ ١٦٢٧)، وغيرهم.

(٤) فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٥٩٩)، الديباج على صحيح مسلم، السيوطي (٥/ ١٠٧).

فلا ينظر ما هو فوق ذلك، وقال الجوهري وغيره: فيكون كالحلف بصفة من صفات أفعاله، كما هو معلوم، لا كما قاله الداوودي ومن تابعه على ذلك.

إذا تقرر ذلك فقد أمر ﷺ الحالف بالله بالصدق في يمينه، فإن لم يصدق فهي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم، الذي يوجب له النار وغضب الجبار، فهو حقيق بأن يورده موارد أمثاله، وفي الصحيح: من اقتطع حق امرىء بيمينه لقي الله وهو عليه غضبان[1].

وفي البخاري وغيره عن ابن مسعود مرفوعًا: من حلف على يمين يقتطع بها مال امرىء مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان. فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٧] فدخل الأشعث بن قيس فقال: ما حدثكم أبو عبدالرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا. قال: فيَّ أُنزلت، كانت لي بئر في أرض ابن عم لي فأتيت رسول الله ﷺ فقال: بينتك أو يمينه، فقلت: إذًا يحلف عليها يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين صبر وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرىء مسلم، لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٦/ ٢٧١٠) من حديث ابن مسعود، ومسلم في الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١/ ١٢٢)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلا. . . الآية (٦/ ٢٤٥٧) من حديث ابن مسعود، ومسلم في الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١/ ١٢٢)، وغيرهم.

الباب الثالث والأربعون

[باب قول: ما شاء الله وشئت][1]

(باب قول) بالقطع والإضافة إلى جملة: **(ما شاء الله وشئت)** بضمير المخاطب **(عن قتيلة)** بضم القاف مصغرًا، هي بنت صيفي الجهنية ويقال الأنصارية وكانت من المهاجرات الأول[2]، روى عنها عبدالله بن يسار **(أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون)** بسكون الشين المعجمة ويروى بفتحها، وتشديد الراء المهملة، وفسره بقوله **(تقولون: ما شاء الله وشئت)** وهي عطف الجملة التي هي مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق، بواو مطلق الجمع التي هي للتشريك والتسوية، فإذا عطف بثم التي للتعقيب والمهلة زال محذور التشريك، **(وتقولون والكعبة)** وهذا حلف بغير الله، وهو شرك لكن أصغر، وهو أعظم عند الله من الكبائر، فانظر كيف فهم اليهودي ما دق من الشرك، ففيه دليل أن الله لم يبح في دين الرسل من الشرك شيئًا وإن دق، وأن هذا اليهودي لما كان له هوى في العيب والتعيير، كيف أخرج ذلك بألطف عبارة لتحصيل قصده، فصار منحة للمسلمين فقد يكون عدوك سببًا لستر عورتك، عكس قصده بهتكها، وأنه ينبغي أن يقبل الحق ممن جاء به ولو لم يأت به في جهة النصيحة.

---

(١) ما بين معكوفتين ليست في الأصل.

(٢) انظر ترجمتها: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٣٧٨)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٣٧٨).

[وعند أبي يعلى[١] وابن السني من حديث حذيفة عن أبي بكر رضي الله عنهما إما أخبر ذلك حذيفة عن النبي ﷺ، وإما أخبره أبوبكر أن النبي ﷺ قال: الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل قال: قلنا: يا رسول الله، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله عز وجل أو ما دعي مع الله - شك عبدالملك بن جريج فقال] ثكلتك أمك يا صديق، الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل، ألا أخبرك بقول يذهب صغاره وكباره، أو صغيره وكبيره، قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: تقول كل يوم ثلاث مرات: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، والشرك أن يقول: أعطاني الله وفلان، والند أن يقول الإنسان: لولا فلان قتلني فلان[٢].

ورواه ابن حبان في الضعفاء. قال العراقي: وضعفه هو والدارقطني.

(فأمرهم النبي ﷺ) عند ذلك **(أن يقولوا ورب الكعبة)** لما كان الحلف بغير اسمه تعالى أو صفته تعظيمًا للمخلوق به يُضاهي تعظيم الله تعالى، وأنهم إنما حلفوا بالكعبة تعظيمًا لها، أنزلهم ﷺ من المحذور إلى ما لا محذور فيه إلا تعظيمُ حرمات الله بإضافتها إليه، فأمرهم أن يقولوا ورب الكعبة، بأن أبقى الكعبة مضافة إليه تعالى في اليمين.

---

(١) ما بين معكوفتين إلحاق بالهامش غير واضح خطه وموضعه ويبدو أن مكانه هذا، وتم إلحاقه من ابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ١٤١).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١/ ٦٠)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ص ١٤١)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٧٢)، قال الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٢٥٦): ضعيف.

فحصل المقصود وهو عدم الحلف بغير الله تعالى، وحصل أيضًا المقصود من تعظيم حرمات الله بإضافة الكعبة إليه، فاتسق الأمر وترابط على وجهه المبغي المرضي لله ولرسوله ﷺ والله الموفق.

(وأمرهم) أيضًا **(أن يقولوا)** في الأول **(ما شاء الله ثم شئت. رواه النسائي وصححه)**[1].

كذا في الأصل «وصححه»، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن قتيلة قال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثني أبي ثنا يحيى بن سعيد ثنا المسعودي حدثني معبد بن خالد عن عبدالله بن يسار عن قتيلة بنت صيفي الجهنية قالت: أتى حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد نعم القوم لولا أنكم تشركون قال: سبحان الله وما ذاك؟ قال: تقولون إذا حلفتم: والكعبة. قالت: فأمهل رسول الله ﷺ ثم قال: إنه قد قال، فمن حلف بالله فليحلف برب الكعبة، قال: يا محمد نعم القوم لولا أنكم تجعلون لله ندا. قال سبحان الله وما ذاك؟ قال: تقولون ما شاء الله وشئت. قال: فأمهل رسول الله ﷺ ثم قال: إنه قد قال،

---

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة (٧/ ٦)، وعمل اليوم والليلة (ص ٥٤٥)، والسنن الكبرى (٣/ ١٢٤)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ٣٠٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/ ١٨٠)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٩١، ٣٥٧)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٣١)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (٣/ ٢١٦) قال الحافظ في الإصابة (٤/ ٣٧٨): وأخرجه النسائي وسنده صحيح، وأخرجه ابن منده من طريق المسعودي عن ابن يسار عن قتيلة.

فمن قال: ما شاء الله فليفصل بينهما «ثم شئت»[1].

(وله) أي النسائي وكذا ابن ماجه، من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح بن عبدالله الكندي عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس، وكذا ابن مردويه من طريق سفيان بن سعيد الثوري عن الأجلح به واللفظ للنسائي (عن) عبدالله (**بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت قال: ﷺ: أجعلتني لله ندا**).

وجه جعله إياه ندا حيث عطف مشيئة المخلوق وهي الجملة من الفعل والفاعل، على مشيئة الخالق بواو التشريك، لأنه ليست مشيئة أحد مشيئة لله تعالى، ولا مشيئة الله مستلزمة لمشيئة العباد، بل ما شاء الله كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لم يكن إن لم يشأ الله تعالى.

ومرّ الكلام على معنى الند، وفي لفظ ابن ماجه «**أجعلت لله ندا**»[2].

قال رسول الله ﷺ: «**قل ما شاء الله وحده**»[3].

---

(١) مسند أحمد (٦/ ٣٧١).

(٢) لم أعثر على هذا اللفظ عند ابن ماجه ولا غيره، وهو موجود بلفظ: «جعلت لله ندا» عند البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٧٤)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٤).

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٤٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٧٤)، وابن ماجه في الكفارات، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (١/ ٦٨٤)، وأحمد في المسند (١/ ٣٤٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٧٤)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٩٠)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٤)، والبيهقي في سننه (٣/ ٢١٧)، من طرق عن الأجلح عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس به. قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٥٠): هذا إسناد فيه الأجلح بن عبدالله، مختلف فيه، ضعفه أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد ووثقه ابن معين والعجلي ويعقوب بن سفيان، وباقي =

ورواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما ولفظه: «أجعلتني واللهَ عدلا، بل ما شاء الله وحده»[١].

وعدلا بفتح العين المهملة وكسرها: المثل، وقيل بالفتح ما عادله من جنسه، وبالكسر [ك،١٦٤/أ] ما ليس من جنسه، وقيل بالعكس[٢].

وأما الواو في قوله: «والله عدلا» فقال شيخ مشايخنا أبو الحسن السندي[٣] على شرح مسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون للعطف، وإفراد عدلا لكونه مصدرًا في الأصل، وأن تكون للقسم ومتعلق عدلا مقدر أي لله، وفي بعض الروايات «جعلتني لله عدلا»[٤].

والمراد أن هذا الكلام موهم المساواة فلا ينبغي التكلم به، بل بما أرشد إليه رسول الله ﷺ، فليس من هذا قوله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي في الصحيحين لما بعث النبي ﷺ عمر على الصدقة، فقيل منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس بن عبدالمطلب الصدقة، فقال النبي ﷺ: ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فأغناه الله

= رجال الإسناد ثقات. والأجلح هذا هو ابن عبدالله بن حجية الكندي قال الحافظ في التقريب (ص ٩٦): صدوق شيعي. والحديث ثابت وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٥٦).

(١) مسند أحمد (٣/ ٢٥٣) وقال أحمد شاكر في هامشه: إسناده صحيح.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٣/ ١٩١).

(٣) هو محمد بن عبدالهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي، فقيه حنفي، محدث بارع، عالم بالتفسير والعربية، أصله من السند ومولده فيها، وتوطن بالمدينة إلى أن توفي بها سنة ١١٣٨هـ، له حواشي على الكتب الستة ومسند أحمد. انظر: فهرس الفهارس، الكتاني (١/ ١٠٣)، معجم المؤلفين، كحالة (٣/ ٢٤٣).

(٤) النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٤٥)، مسند أحمد (١/ ٣٤٧).

ورسوله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالدًا، قد احتبس أدرعه وأعتده ـ وفي لفظ «واعتاده ـ في سبيل الله»، وأما العباس عم رسول الله ﷺ فهي عليَّ ومثلها معها[1].

فإنما عطف ﷺ نفسه بالواو على الله لكونه سببا لإسلامه وصيرورته غنيا بما أباحه الله من الغنائم، فليس مما نحن فيه.

(**ولابن ماجه: عن الطفيل**[2] **أخي عائشة**) أم المؤمنين رضي الله عنها (**لأمها**) أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية، توفيت في حياة رسول الله ﷺ في ذي الحجة سنة ست من الهجرة، وقيل تسع وقيل خمس، قاله ابن عبدالبر وغيره[3] ونزل ﷺ قبرها واستغفر لها وروي أنه قال: من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان[4].

وكانت تحت الصديق بعد عبدالله بن سخبرة الأزدي فتوفي عنها بعدما ولدت له الطفيل، وخلفه عليها أبوبكر الصديق رضي الله عنه فولدت له عائشة وعبدالرحمن، فهما أخوا الطفيل لأمه[5].

(**قال**) الطفيل: (**رأيت**) في المنام (**كأني أتيت على نفر**) جمع

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ (٢/ ٥٣٤)، ومسلم في الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها (٢/ ٦٧٦)، وغيرهم.

(٢) انظر ترجمته: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٢٢٠)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٢١٦).

(٣) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٤٣٠).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٧٦) من طريق عفان بن مسلم ويزيد بن هارون كلاهما عن حماد عن علي بن زيد عن القاسم بن محمد مرسلاً به، قال الألباني في ضعيف الجامع (٥/ ٢٠٦) ضعيف جدًا.

(٥) انظر: ترجمتها: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٤٣٠)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٤٣٣).

أنفار، يقع على جماعة الرجال خاصة ما بين الثلاثين إلى العشرة، (**فقلت لهم: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون عزير ابن الله**) فأجابوه بأن (**قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد**)، (**ثم مررت**) أي في منامي (**بنفر من النصارى فقلت** (**إنكم لأنتم القوم، لو لا أنكم تقولون: المسيح**) ابن مريم (**ابن الله**) تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقال: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

فلما قال ذلك مجيبًا لهم (**قالوا: وأنتم لأنتم**) المسلمون (**القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال هل أخبرت بها أحدًا؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا: (ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء وحده)**)[1].

في هذا الحديث دليل على أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي كما في الحديث الصحيح، ففي البخاري عن عبادة بن الصامت[2] رضي الله

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الكفارات، باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (١/ ٦٨٤)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ١٥١): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم. وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٧٢، ٣٩٣)، والدارمي في سننه (٢/ ٣٨٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٦٥٤)، الطبراني في الكبير (٨/ ٣٨٨)، وقال الألباني في صحيح الجامع (٦/ ١٧١): صحيح.

(٢) سبقت ترجمته ص١٥٨٩.

عنه مرفوعًا: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»[1].

ورواه أيضًا عن أبي هريرة وأنس وأبي سعيد كلهم بطرق بهذا اللفظ[2]، وفيه أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة»[3].

فثبت بهذا أنها من أجزاء النبوة، وقد كانت في حياته ﷺ سببًا لشرع الأذان كما في رؤيا عبدالله بن زيد[4]، وكما في هذا الحديث.

وفيه أيضًا أنه إذا عطف مثل ذلك بواو التشريك والتسوية فهو نوع

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة (٦/ ٢٥٦٣)، ومسلم في أوائل الرؤيا (٤/ ١٧٧٤)، وغيرهم.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) أخرجه البخاري في التعبير، باب المبشرات (٦/ ٢٥٦٤).

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب كيف الأذان (١/ ١٣٣)، والترمذي في أبواب الصلاة، باب ما جاء في بدء الأذان (١/ ٣٥٨) وقال: حديث عبدالله بن زيد حديث حسن صحيح ولا نعرف له عن النبي ﷺ شيئًا يصح إلا هذا الحديث الواحد في الأذان.

ونقل الحافظ في الإصابة (٢/ ٣٠٤) كلام الترمذي هذا، ثم قال: وقال ابن عدي: لا نعرف له شيئًا يصح غيره، وأطلق غير واحد أنه ليس له غيره وهو خطأ، فقد جاءت عنه عدة أحاديث ستة أو سبعة جمعتها في جزء مفرد. وأخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٤٥)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٣)، وابن الجارود في المنتقى (ص ٤٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ١٤٢)، والبيهقي في سننه (١/ ٣٩٩)، وقال الحافظ في التلخيص الحبير (١/ ١٩٧): صححه البخاري فيما حكاه الترمذي في العلل عنه، وقال محمد بن يحيى الذهلي ليس في أخبار عبدالله بن زيد أصح من هذا، وقال ابن خزيمة في صحيحه هذا حديث صحيح. وصححه الزيلعي في نصب الراية (١/ ٢٥٩).

من الشرك، وأن المنكر قد يمنع من إنكاره مخافة ما هو أكبر منه، فيدفع أعلى المفسدتين بأدناهما حتى تنجلي أو يضعف المانع، والله الهادي إلى سواء السبيل.



الباب الرابع والأربعون

من سب الدهر فقد آذى الله

السب ـ بفتح السين ـ والسباب في اللغة: الشتم بالكلام القبيح وما لا يليق، والدهر: الزمان، مدة بقاء العالم، قال الشاعر:

هل الدهر إلا ليلة أو نهارها　　　وإلا طلوع الشمس ثم غيارها[1]

ويقال الدهر الأبد، (**وقول الله تعالى**: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾) [الجاثية: ٢٤].

يقول تعالى: وقالوا أي: المشركون عبدة الأوثان ما هي أي ما الحياة أو الحال إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها، نموت ونحيا أي: نكون أمواتًا نطفًا وما قبلها ونحيا بعد ذلك، أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا، أو يموت بعضنا ويحيا بعض، أو يصيبهم الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة، ويحتمل أنهم أرادوا بقولهم التناسخ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان، ولهذا قالوا وما يهلكنا إلا الدهر، أي الزمان بمروره، وهو في الأصل مدة بقاء العالم، مشتق من «دهره» إذا غلبه (﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾) [الجاثية: ٢٤] يعني نسبتهم الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الاستقلال[2]، أو إنكار البعث، أو كليهما على اختلاف عبارات المفسرين رحمهم الله تعالى.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في لسان العرب، ابن منظور (٥/ ٣٥).

(٢) في [ك]: الاستدلال، وهو تصحيف.

(﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾) [الجاثية: ٢٤] إذ لا دليل لهم عليه، وإنما قالوه بناء على التقليد والإنكار لما لم يحسّوا به كقوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] لما أعرضوا عن الهدى الذي بعث الله به رسله، لم يبق عندهم إلا الظن وهوى النفس، فذلك أصل دين أهل الجاهلية، وأما ما يروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه [ك،١٦٥/ب] في خطبته حيث قال أبو سليمان الخطابي: أخبرنا ابن الأعرابي ثنا أبو داود ثنا صفوان بن صالح ثنا الوليد يعني بن مسلم حدثنا الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير أن أبابكر الصديق رضي الله عنه كان يقول في خطبته: أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحروب، قد تصعصع بهم الدهر فكانوا كلا شيء[(١)].

والمعنى في «صعصعهم الدهر»: بددهم وشتت شملهم[(٢)]، قال جرير:

باز يصعصع بالدهنا قطا جونا[(٣)]

فإنما نسب التفرق والتبدد إلى الدهر على معنى: أن وقوعهما كان في أيام الدهر، تقول العرب في الرجل إذا طال عمره: قد أكل عليه الدهر وشرب، تريد أنه أكل وشرب دهرًا طويلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] أي مكركم في الليل والنهار، ومثله قولهم: ليل نائم. أي: منوم فيه، قال الشاعر وهو جرير:

---

(١) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ١٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) شرح ديوان جرير (ص ٤٤٢) «بالسهباء» بدل: «بالدهناء»، وصدر البيت:
كأن حاديَها لما أضرّ بها

لقد لُمتنا يا أم غيلان في السرى ونِمْتِ وما ليل المطي بنائم[1]

فهذا وأمثاله مما يروى عن السلف ليس مما نحن فيه حتى تعلم ذلك؛ لأنه ورد على تأويل ما ذكرنا.

ثم أورد الشيخ رحمه الله تعالى ما (**في الصحيح**) عند البخاري وغيره (**عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال تبارك وتعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر**) فجعل سبحانه صرفهم تدبيره في مخلوقاته إلى ما هو مكوّن مدبر وسبهم الدهرَ أذىً له سبحانه.

وفي الحديث الصحيح: لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله[2].

قال ابن الجوزي: ما رأت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم للزمان وعيبهم للدهر. قال: ومعنى الحديث: أنتم أيها السابوّن للدهر تسبون من فرق شملكم، وأمات أهاليكم، وتنسبونه إلى الدهر والله سبحانه هو الفاعل لذلك. ولهذا قال تعالى: (**وأنا الدهر**) وقد تقدم أن السب والسباب هو الشتم بالكلام القبيح، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

لنا في كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء[3]

ثم قال: (**أقلّب الليل والنهار**)[4]. **وفي رواية: «لا تسبوا الدهر،**

---

(١) شرح ديوان جرير، مهدي ناصر الدين (ص ٤١٩).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب الصبر على الأذى (٥/ ٢٢٦٢) من حديث أبي موسى، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل (٤/ ٢١٦٠)، وغيرهم.

(٣) ضمن قصيدة قالها في فتح مكة، ذكرها ابن هشام في السيرة (٢/ ٤٢٣).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب: وما يهلكنا إلا الدهر (٤/ ١٨٢٥)، ومسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٤/ ١٧٦٢)، وغيرهم.

فإن الله هو الدهر»[1].

ورواه أبو داود في سننه ولفظه عن أبي هريرة بسند صحيح مرفوعًا قال: قال الله: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار[2].

قال أبو سليمان الخطابي: تأويل هذا الكلام أن العرب إنما كانوا يسبون الدهر على أنه الملمّ بهم في المصائب والمكاره، ويضيفون الفعل فيما ينالهم منها إليه، ثم يسبون فاعلها، فيكون مرجع السب إلى الله تعالى إذ هو الفاعل لها، فقيل على ذلك: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر، أي: أن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي يضيفونها إلى الدهر[3].

قال: وكان ابن داود[4] ينكر رواية أصحاب الحديث هذا الحرف مضمومة الراء، ويقول: لو كان «الدهرُ»[5]، كان اسمًا معدودًا من أسماء الله تعالى، وكان يرويه «وأنا الدهرَ أقلب الليل والنهار»، مفتوحةَ الراء على الظرف. يقول أنا طول الدهر والزمان أقلب الليل والنهار، والمعنى الأول هو وجه الحديث[6].

---

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٤/ ١٧٦٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه في الأدب، باب في الرجل يسب الدهر (٤/ ٣٧١).

(٣) معالم السنن، للخطابي (٤/ ١٥٩).

(٤) هو أبوبكر محمد بن داود الأصبهاني الظاهري (ت٢٩٧هـ) كما صرح به الخطابي في «شأن الدعاء» ص ١٠٨.

(٥) في المصدر السابق: «لو كان كذلك لكان الدهر اسمًا معدودًا من أسماء الله عز وجل».

(٦) معالم السنن، للخطابي (٤/ ١٥٨ـ ١٥٩).

وروى هذا الحديث أبو عبيد القاسم بن سلام صاحب الإمام أحمد وقرينه مرفوعًا ولفظه: لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر[1].

قال أبو عبيد: حدثنيه ابن مهدي عن سفيان عن عبدالعزيز بن رفيع عن عبدالله بن أبي قتادة عن أبيه عن النبي ﷺ مثله، وقال قوله: «فإن الله هو الدهر»[2] هذا مما لا ينبغي لأحد من أهل الإسلام أن يجهل وجهه؛ وذلك أن أهل التعطيل يحتجون به على المسلمين.

قال أبو عبيد: وقد رأيت بعض من يتهم بالزندقة أو الدهرية، يحتج بهذا الحديث ويقول: ألا تراه يقول: فإن الله هو الدهر. فقلت: وهل كان أحد يسب الله عز وجل في آباد الدهر؟ وقد قال الأعشى في الجاهلية الجهلاء:

استأثر الله بالوفاء وبالـ ـحمد وولّى الملامة الرجلا[3]

وإنما تأويله عندي ـ والله أعلم ـ أن العرب كان شأنها أن تذم الدهر وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم، من موت أو هرم أو تلف أو غير ذلك، فيقولون: «أصابتهم قوارع الدهر»، و«أتى عليهم الدهر»، فيجعلونه الذي فعل ذلك، فيذمونه عليه، وقد ذكروه في أشعارهم، قال الأعشى يذكر قومًا هلكوا:

فاستأثر الدهر الغداة بهم والدهر يرميني[4] وما أرمى

(١) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٢٨٥).
(٢) المصدر السابق.
(٣) ديوان الأعشى: ص١٥٥.
(٤) في غريب أبي عبيد (١/ ٢٨٦): «ولا أرمي».

يـا دهـر قـد أكثرت فجعتنـا بسـراتنـا ووقـرت فـي العظـم

وسلبتنـا مـا لسـت تعقبنـا يا دهر ما أنصفت في الحكم

وقال عمرو بن قميئة:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أدري[1] فكيف بمن يرمي وليس برام

فلـو أنهـا نبـل إذا لاتقيتهـا ولكنـه رام بغيـر سهـام

على الراحتين مرة وعلى العصى أنوء ثلاثًا بعدهـن قيـامي

فأخبر أن الدهر فعل به ذلك، يصف الهرم، وقد أخبر الله تبارك وتعالى بذلك عنهم في كتابه ثم كذبهم في قولهم فقال: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

فقال النبي ﷺ [ك،١٦٥/أ]: «لا تسبوا الدهر»[2]. على تأويل لا تسبوا الذي يفعل بكم هذه الأشياء ويصيبكم بهذه المصائب، فأنتم إذا فعلتم سببتم فاعلها، فإنما يقع السب على الله تعالى لأنه الفاعل لها لا الدهر. فهذا وجه الحديث إن شاء الله، ولا أعرف له وجهًا غيره[3].

فبهذا يعلم أن جميع الحادثات كلها حاصلة من الله تعالى، وأنه لا يقدر على الإعدام والإيجاد أحد إلا هو، وهذا الأصل فرض على كل

---

(١) في غريب أبي عبيد (١/ ٢٨٦): «من حيث لا أرى».

(٢) مضى تخريجه.

(٣) معالم السنن، الخطابي (٤/ ٢٨٥).

أحد علمه، وهو شرط الإيمان، ومن لم يعتقده كافر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

والناس في هذا الاعتقاد درجات، فيسكن قلب لهذا الاعتقاد وينزعج آخر، وهم في السكون والانزعاج أيضًا درجات، بزيادة إيمانهم ونقصانه.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: وفي سب الدهر ثلاث مفاسد:

أحدها: سب من ليس بأهله.

الثانية: أن سبه متضمن الشرك؛ فإن الساب له إنما سبه لظنه أنه يضر وينفع، وأنه ظالم.

الثالثة: أن السب إنما يقع على من فعل هذه الأفعال، التي لو اتبع الحق أهواءهم فيها لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، وإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه[١].

فلهذا قال ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «لايقولن أحدكم يا خيبة الدهر فإن الله هو الدهر»[٣].

وفي لفظ له عنه مرفوعًا: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما»[٤].

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم (٢/ ٣٥٥).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر (٤/ ١٧٦٣).

(٤) أخرجه في الألفاظ من الأدب وغيره، باب النهي عن سب الدهر (٤/ ١٧٦٢).

والله الموفق، وفي هذا كفاية لمن أبصر واقتدى، وأما من عمي عن الهدى فلن تجد له من دون الله وليا مرشدا.

الباب الخامس والأربعون

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

مما هو مُقاس على النهي عنه في حديث الباب، كسلطان السلاطين، ويلي ذلك «سيد الناس»؛ لأن ذلك ليس لأحد إلا رسول الله ﷺ، يدل عليه ما **(في الصحيح)** للبخاري حيث قال: حدثنا علي بن عبدالله ثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج **(عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن أخنع اسم عند الله، وقال سفيان غير مرة: أخنع الأسماء عند الله)** أي: أوضعها وأقتلها لصاحبه، وأهلكها له **عند** الله يوم القيامة، فقيد به لأنه يوم كشف الحقائق، **(رجل)** أي اسم رجل، أو أراد بالاسم المسمى مجازًا **(تسمى بملك الأملاك)** أو ما في معناه، إذ **(لا مالك)** لجميع الخلائق على الحقيقة **(إلا الله)**[1] تعالى وحده، ومالكية الغير مستردّة إلى ملك الملوك، فمن تسمّى بذلك فقد نازع الله في رداء كبريائه، واستنكف أن يكون عبدًا لله، إذ لا مالك للخلق إلا هو، ففي البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: يقبض الله الأرض ويطوي السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله (٥/ ٢٢٩٢) واللفظ له، ومسلم في الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وملك الملوك (٣/ ١٦٨٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (٤/ ١٨١٢)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٤/ ٢١٤٨)، وغيرهم.

ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣] الآية.

ومنع القاضي أبو يعلى بهذا من كل اسم فيه تفخيم أو تعظيم، واحتج به على منع التسمي بالملك، وأجاب بأن الله تعالى إنما ذكره إخبارًا عن الغير أو للتعريف؛ فإنه كان معروفًا عندهم به، ولأن الملك من أسماء الله المختصة، بخلاف «حاكم الحكام»، و«قاضي القضاة»؛ لعدم التوقيف، وبخلاف «الأوحد»؛ لأنه يكون في الخير والشر، ولأن الملك هو المستحق إما للملك حقيقة وإما للتصرف الدائم، ولا يصحان إلا لله سبحانه، وبنحو ذلك قال أبو [عبدالله] الصيمري[١] الحنفي، وأبو الطيب[٢] [الطبري][٣]، وأبو الحسن التميمي[٤] الحنبلي، والماوردي[٥] من الشافعية، وحرم

---

(١) في الأصل: «عبيدالله»، وهو الحسين بن علي، أبو عبدالله القاضي الصيمري، من الفقهاء المذكورين في العراق، ولي قضاء المدائن، ثم الكرخ ولم يزل يتقلده إلى حين وفاته سنة ٤٣٦هـ.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (٨/ ٧٨)، الجواهر المضية، لعبدالقادر القرشي (٢/ ١١٦).

(٢) هو طاهر بن عبدالله، أبو الطيب الطبري، الفقيه الشافعي، ولي القضاء بربع الكرخ بعد موت الصيمري، ولم يزل على القضاء إلى حين وفاته سنة ٤٥٠هـ.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (٩/ ٣٥٨)، طبقات الشافعية، الأسنوي (٢/ ٥٨).

(٣) من المسودة، ساقطة من الأصل.

(٤) سبقت ترجمته ص ١٨١.

(٥) هو علي بن محمد بن حبيب الماردي البصري، من كبار الشافعية ووجوههم، ولي القضاء ببلدان كثيرة، وله تصانيف عدة في الفقه وأصوله وغير ذلك، توفي ببغداد سنة ٤٥٠هـ.

انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (١٢/ ١٠٢)، طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة (١/ ٢٣٨).

النووي التسمية به في شرح مسلم[1].

وقال ابن الجوزي: قول الأكثر القياس، إذا أريد ملوك الدنيا، وقول الماوردي ومن تبعه أولى للخبر.

قلت: وأما ما يستدل به بعض الناس على جواز ذلك بالحديث المروي في ذلك أنه ﷺ قال: ولدت في زمن الملك العادل[2]. يعني كسرى أنوشروان، فقد قال الحاكم أبو عبدالله على تساهله في الحديث: الحديث الذي يرويه العامة «ولدت في زمن الملك العادل»، باطل ليس له أصل بإسناد صحيح ولا سقيم، ذكره في تاريخه، وقاله البيهقي عن شيوخه والسيوطي رحمه الله مع تساهله[3].

وفي الغنية للشيخ عبدالقادر: يُكره ما يوازي أسماء الله، كملك الملوك، وشاه[4]، لأنه عادة الفرس، وما لا يليق إلا بالله تعالى كقدوس، والبر، وخالق، ورحمان. وصحح غيره أنه محرم.

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: وكان جماعة من أهل الدين يتورعون عن إطلاق قاضي القضاة وحاكم الحكام. قال: وهذا محض القياس، قال: وكذلك تحرم التسمية بسيد الناس، وسيد الكل، كما

---

(١) شرح مسلم، النووي (١٤/ ١٢٢).

(٢) نقل البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٥) عن الحليمي إبطال هذا الحديث، وقد حكم بوضعه غير واحد من أهل العلم منهم القاري في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع (ص ٢٠٤) حيث قال: قال الحفاظ لا أصل له.

(٣) انظر: شعب الإيمان، البيهقي (٤/ ٣٥)، كشف الخفاء، للعجلوني (ص ٢/ ٤٥٤).

(٤) كذا في الأصل، ولعلها: شاهنشاه، ولم أهتد إلى موضعها من الغنية حتى أستوثق منها.

يحرم بسيد ولد آدم، وذلك أنه علم للنبي ﷺ[1].

(قال) علي بن المديني **(سفيان)** يعني ابن عيينة يقول غير مرة: تفسيره **(شاهان شاه)**[2].

ورواه أبو عبيد القاسم بن سلام في الغريب من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إن أنخع الأسماء عند الله أن يتسمى الرجل باسم ملك الأملاك»[3].

قال: وبعضهم يرويه: «إن أخنع الأسماء»، قال: فمن رواه «أنخع» أراد أقتل الأسماء وأهلكها، إذ النخع هو القتل الشديد، وهو أن يجوز بالذبح إلى النخاع. قال: وقال غير سفيان: هو أن يسمى الرجل بأسماء الله، كالرحمن والجبار والعزيز. قال: وكلا القولين له وجه[4].

ورواه أيضًا البخاري من طريق آخر فقال: حدثنا أبو [اليمان][5] أنا شعيب أنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أخنى الأسماء يوم القيامة عند الله رجل تسمى بملك الأملاك[6].

---

(١) المودود، ابن القيم (ص ١١٥).

(٢) كذا شرح المؤلف عبارة المتن على هذا النحو المضطرب؛ بسبب إيراده لرواية البخاري، وعدوله عن رواية مسلم التي أوردها صاحب المتن، ولفظها: (قال سفيان: مثل شاهان شاه) برقم (٢١٤٣)، أما رواية البخاري فهي هكذا: (قال سفيان: يقول غيره: تفسيره شاهان شاه). أراد غير أبي الزناد، أحد رجال السند. انظر فتح الباري (١٠/ ٦٠٦).

(٣) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٢١٨).

(٤) المصدر السابق (١/ ٢١٩).

(٥) في الأصل: اليماني.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله (٥/ ٢٢٩٢).

ورواه أبو داود فقال: حدثنا أحمد بن حنبل ثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ: إن أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك[1].

قال أبو سليمان [ك،١٦٦/ب] الخطابي على هذا الحديث: أي أوضعُه وأذلُّه عنده تعالى، والخانع الذليل، فالخنوع الذل والاستكانة، وقال في قوله في الحديث الذي أوردنا: أخنى الأسماء أي أفحشها يوم القيامة[2] عند الله. قال الفرزدق في الخناء:

يا أرغم الله أنفا أنت حامله   يا ذا الخنا ومقال الزور والخطل

وصح عن الأصمعي أنه قال: سمعت أعرابيًا يدعو ويقول: اللهم إني أعوذ بك من الخنوع والقنوع، وما يغض طرف المرء ويغري به لئام الناس، قال فالخنوع الذل، والقنوع المسألة[3].

(وفي رواية) لمسلم: (**«أغيض رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»**) رجل تسمى بملك الأملاك[4].

وعند الإمام أحمد في مسنده مرفوعًا: اشتد غضب الله على رجل كان يسمى بملك الأملاك، لا مالك إلا الله[5].

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، في تغيير الاسم القبيح (٤/ ٢٩٢).

(٢) معالم السنن، الخطابي (٤/ ١٢٩).

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجها مسلم في الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، وبملك الملوك (٣/ ١٦٨٨).

(٥) مسند أحمد (٢/ ٣١٥).

ويدخل في ذلك مجرد التلفظ به ولو لم يعتقد المتلفظ به معناه، إجلالاً لعظمة الله جل وعلا عن مضاهاة أسمائه وصفاته، ولهذا قال في الحديث: لا مالك إلا الله. إذ هو المالك حقيقة لكل ما سواه، وعلم بهذا أنه لا يكره التسمي بأسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد جاء التصريح بجوازه في مسند الإمام أحمد من حديث [أبي وهب][1] الجشمي[2] مرفوعًا: تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبدالله وعبدالرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة[3].

وسيأتي فيما يليق بذكره، وفي الصحيحين عنه ﷺ مرفوعًا: «تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي»[4].

---

(١) في الأصل: «وهب» وما بين معكوفتين هو الصواب.

(٢) قال الحافظ ذكره غير واحد في الصحابة منهم ابن السكن والبغوي، وذكروا أنه ممن سكن الشام، له حديثان حديث الخيل وحديث تسموا بأسماء الأنبياء.

انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٢١٢)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٢١٤).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٤٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٨٤)، وأبو داود في الأدب، باب في تغيير الأسماء (٤/ ٢٨٩)، والنسائي في الخيل، باب ما يستحب من شية الخيل (٦/ ٢١٨) دون لفظ «وأصدقها حارث وهمام...»، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ١١١)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٠)، والبيهقي في سننه (٣/ ٣٧)، والدولابي في الكنى (١/ ٥٩) كلهم من طريق عقيل بن شبيب عن أبي وهب الجشمي به، قال الألباني في الإرواء (٤/ ٤٠٨): قلت: وهذا إسناد ضعيف من أجل عقيل بن شبيب، قال الذهبي في الميزان (٣/ ٨٨): لا يعرف هو ولا الصحابي إلا بهذا الحديث. وقال الحافظ في التقريب (ص ٣٩٦) مجهول.

وقد صح الحديث دون لفظة «تسموا بأسماء الأنبياء» كما ذكر الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص ٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري في المناقب، باب كنية النبي ﷺ (٣/ ١٣٠١) من حديث جابر، =

وعند البخاري عن صدقة بن الفضل وعبدالله بن محمد، وأيضًا عند مسلم عن عمرو الناقد ومحمد بن عبدالله بن نمير، أربعتهم عن سفيان بن عيينة عن ابن المنكدر أنه سمع جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يقول: ولد لرجل منا غلام فسماه القاسم فقلنا: لا نكنيك أبا القاسم ولا نُنعم لك عينا، فأتينا النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال: سم ابنك عبدالرحمن[1].

وعند أبي داود بسند على شرط مسلم عن أبي الزبير عن جابر أن النبي ﷺ قال: «من تسمى باسمي فلا يتكنى بكنيتي، ومن تكنى بكنيتي فلا يتسمى باسمي»[2].

فهذا يشعر أن المنع محذور من التشويش عليه في حياته ﷺ في مشابهة الاسم عند الدعاء به، وقد ورد في ذلك ما يدل عليه، قال ابن عبدالبر: قال ابن قاسم: قال مالك: سمعت أهل مكة يقولون ما من أهل بيت فيهم اسم محمد إلا رزقوا ورزق حيوانهم خيرا. والله سبحانه الهادي الموفق.

= ومسلم في الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم، وبيان ما يستحب من الأسماء (٣/ ١٦٨٢) وغيرهم وهو جزء من الحديث الآتي.

(١) المصادر السابقة.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب من رأى أن لا يجمع بينهما (٤/ ٢٩٣)، قال الألباني في ضعيف أبي داود (ص ٤٨٨): منكر.

الباب السادس والأربعون
باب احترام أسماء الله تعالى
[وتغيير الاسم لأجل ذلك]

(باب: احترام أسماء الله تعالى) وفي خط غير الشيخ **(وصفاته وتغيير الاسم لأجل ذلك)** أي: لأجل احترامها، وقد غير ﷺ أسماء أراضي وأناسي أيضًا لقبحها كما مر، فغير اسم زينب بنت جحش واسم أبيها، وكان اسمها بَره بفتح الباء الموحدة، واسم أبيها بُره بضمها، فقالت: يا رسول الله لو غيرت اسم أبي فإن البرة صغيرة، فقال: لو كان أبوك مسلمًا لسميته باسم من أسمائنا أهل البيت، ولكني قد سميته جحشًا، والجحش أكبر من البرة. رواه الدارقطني مسندًا في المؤتلف والمختلف[1]. وتغييره لاسمها كأنه كره التزكية[2].

وعند أبي نعيم عن أنس: أن أمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما كان لها اسم من أسماء العجم، فسماها عمر جميلة فأبت، فقال عمر: بيني وبينك النبي ﷺ، فأتيا النبي ﷺ فقال: أنت جميلة، فقال عمر: خذيها على رغم أنفك[3].

---

(١) انظر الإصابة (١/ ٤٦٦).

(٢) انظر ترجمتها: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٣٠٦)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٣٠٧).

(٣) حلية الأولياء، أبو نعيم (٨/ ٣٠١) من طريق بشر السري ثنا حماد بن سلمة عن ثابت أراه عن أنس به. قال أبو نعيم: غريب بهذا اللفظ لم يروه عن حماد إلا بشر.

(عن أبي شريح) الخزاعي الكعبي، اختلف في اسمه قيل خويلد بن عمرو، وقيل عكسه، وقيل كعب بن عمرو وقيل غير ذلك، أسلم قبل الفتح وكان يحمل أحد ألوية بني كعب بن خزاعة يوم الفتح، وكان رضي الله عنه من عقلاء الرجال، وكان يقول: إذا رأيتموني أبلغ من أنكحته أو أنكحت إليه إلى السلطان فاعلموا أني مجنون، ومن وجد لأبي شريح سمنًا أو لبنًا أو جداية فهو له، فليأكله ويشربه، وهو الذي أنكر على عمرو بن سعيد[1] حين بعث البعوث إلى مكة زمن ابن الزبير[2].

ففي الصحيحين عنه رضي الله عنه أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام له رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي، حين تكلم به، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحدٌ ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب.

---

(١) الأشدق الأموي القرشي، أبو أمية، ولي مكة والمدينة لمعاوية وابنه يزيد وعهد إليه مروان بن الحكم بولاية عهد عبدالملك بن مروان، ولما ولي عبدالملك خلعه فنفر عمرو واتفق خروج عبدالملك عن دمشق فاستولى عليها، ثم قتله عبدالملك سنة ٧٠هـ. انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ١٧٤)، تهذيب التهذيب (٨/ ٣٧).

(٢) انظر: ترجمته: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ١٠٢)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ١٠٢).

فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًا بدم، ولا فارًا بخربة.

قال البخاري: الخربة [البلية[1]][2].

فقال رضي الله عنه مخبرًا عن نفسه: **(أنه كان يُكْنى)** بضم المثناة التحتية وإسكان الكاف **(بأبي الحكم)** وقد اشتهرت الكنى في العرب حتى غلبت الأسماء وكذا الألقاب، كأبي طالب وهاشم بن عبد مناف وقصي بن كلاب، والاسم والكنية بضم الكاف وكسرها واللقب يجمعها «العلَم» بالتحريك، وتتغاير في الأصل، فاللقب ما أشعر بمدح أو ذم، والكنية ما صدرت بأب أو أم، وما عدا ذلك هو الاسم، فالكنية واحدة الكنى، من قولك كنيت عن الأمر إذا واريت عنه بغيره **(فقال له النبي ﷺ: إن الله هو الحكم)** قال تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا**﴾ [الأنعام: ١١٤]، **(وإليه الحكم)** قال تعالى ﴿**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**﴾ [هود: ١٢٣]، والحكم أيضًا في الحقيقة له كما قال تعالى: ﴿**فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ**﴾ [غافر: ١٢]، إذ ليس لأحد أن يعمل أو يأمر [ك،١٦٦/أ] إلا بما شرعه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ ثم يحكم بينهم إذا رجعوا إليه بحكمه وعلمه تعالى فيهم، فجميع الخلائق وإن خرج منهم عن حكمه الشرعي من خرج، فهم لا يخرجون عن حكمه الكوني، فهو سبحانه لا معقب لحكمه.

---

(١) من البخاري، في الأصل: «الخيانة».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح (٤/ ١٥٦٣)، ومسلم في الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها (٢/ ٩٨٧)، وغيرهم.

(**فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال النبي ﷺ: ما أحسن هذا؟**) بنصب أحسن على تعجب المدح، (**فمالك من الولد؟ قلت: شريح ومسلم وعبدالله، قال: فمن أكبرهم؟ قلت شريح، قال فأنت أبو شريح**.

رواه أبو داود وغيره[1])، منهم النسائي في سننه ولفظه عنه رضي الله عنه أنه لما وفد على النبي ﷺ في قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم فدعاه رسول الله ﷺ فقال: إن الله هو الحكم، فلم تكنى أبا الحكم؟ قال إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كل الفريقين. فقال رسول الله ﷺ: ما أحسن هذا، فمالك من الولد؟ فقال: شريح ومسلم وعبدالله، فقال من أكبرهم قلت شريح، فقال أنت أبو شريح[2].

ففي الحديث حض على احترام أسماء الله تعالى وصفاته وتغيير الاسم المضاهي لها، وجواز الصلح إذا لم يحرم حلالاً أو يحل حرامًا، وكان صدوره عن تراض من الخصمين، وفيه أن من حكّمه الخصمان عن تراض منهما وهو يصلح للقضاء فحكم بينهما نفذ حكمه، ولهذا حسنه ﷺ بلفظ التعجب وأفعل التفضيل، وإنما أنكر التكني بما يضاهي

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح (٤/ ٢٩٠)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٨٢)، والتاريخ الكبير (٨/ ٢٢٧)، والنسائي في آداب القضاة، باب إذا حكموا رجلاً فقضى بينهم (٨/ ٢٢٦)، وابن سعد في الطبقات (٦/ ٤٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٣٢٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٥٧)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٧٨)، والحاكم في مستدركه (١/ ٧٥)، وسكت عنه الذهبي، والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ٤٦٦)، والخطيب في تاريخ بغداد (٨/ ٤٤٦).

(٢) سنن النسائي (٨/ ٢٢٦).

أسماء الله تعالى وصفاته، وكذا بما هو اللائق بحقه، وفيه جواز التكني بالأولاد وأن أول ما يكنى به الأكبر منهم، وإن كان اسم الأصغر أحب إلى الله تعالى، مع قطع النظر عن أنه لا يجوز إلا به، أو أنه لا يجوز الاكتناء إلا لمن له ولد، فإنه ﷺ قد كنى أبا هريرة بهرة وجده يحملها كما صح بذلك الخبر[1]، وإن كان قد روي أنه كني بها قبل أن يسلم كناه بها أهله[2]، وقد كنى النبي ﷺ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بأم عبدالله، وفيه حديث رواه ابن السني أنها أسقطت سقطًا منه ﷺ فسماه عبدالله.

ولا يصح إسناده، قاله الحفاظ أهل الحديث منهم النووي[3] رحمه الله، بل إنما كناها بابن أختها عبدالله بن الزبير[4] رضي الله عنه، كما عند الإمام أحمد

---

(١) ذكره ابن عبدالبر في الاستيعاب (٤/ ٢٠٤) وقال: وهذا أشبه عندي أن يكون النبي ﷺ كناه بذلك والله أعلم. وعند ابن عساكر في تاريخه (٦٧/ ٣١٣) من طريق أبي معشر نجيح عن محمد بن قيس قال: كان أبو هريرة يقول: لا تكنوني أبا هريرة، كناني رسول الله ﷺ: أبا هر، فقال: «ثكلتك أمك أبا هر» والذكر خير من الأنثى.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب أبي هريرة (٥/ ٦٨٦) ولفظه: «كنت أرعى غنم أهلي، فكانت لي هريرة صغيرة، فكنت أضعها بالليل في شجرة، فإذا كان النهار ذهبت بها معي فلعبت بها فكنوني أبا هريرة».

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ٢٣٥): حسن الإسناد.

(٣) قال الحافظ في الإصابة (٤/ ٣٤٩): قيل إنها ولدت من النبي ﷺ ولدًا فمات طفلاً، ولم يثبت هذا.

(٤) ابن العوام القرشي، أبوبكر، أمير المؤمنين، تولى الخلافة سنة ٦٤هـ، فارس قريش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، مدة خلافته تسع سنين، نشبت بينه وبين عسكر الحجاج حروب انتهت بمقتله رضي الله عنه سنة ٧٣هـ.

انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (١/ ٣٢٩)، صفة الصفوة، ابن الجوزي (١/ ٣٢٢).

بسند صحيح حيث قال: ثنا عبدالرزاق ثنا معمر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله كل نسائك لها كنية غيري، فقال لها رسول الله ﷺ: «اكتني أنت أم عبدالله»، فكان يقال لها أم عبدالله حتى ماتت ولم تلد قط[1].

وأما التصريح بأنه كناها ﷺ بابن أختها عبدالله بن الزبير فهو في سنن أبي داود[2].

وأتى على صبي يلعب بنغير له وهو أخو خادمه أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه فقال له وقد مر به وليس معه نغيره ذلك: يا أبا عمير ما فعل النغير[3].

وحديثه في الصحيح تركنا إيراده خشية التطويل، وكان ﷺ يكره أن يستعمل اللفظ الشريف في حق من ليس كذلك، وأن يستعمل اللفظ المكروه في حق من ليس من أهله، وكان أبعد الناس عن ألفاظ أهل الجفاء والفحش فإنه لم يكن فحاشًا ولا متفحشًا ولا فظًّا ولا غليظًا ولا صخابًا في الأسواق.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٥١)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٧٣)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ١٨)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٠٩) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (٩/ ٣١٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٤٥).

(٢) أخرجه في الأدب، باب في المرأة تكنى (٤/ ٢٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل (١/ ٢٢٩١) من حديث أنس بن مالك، ومسلم في الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند الولادة (٣/ ١٦٩٢)، وغيرهم.

الباب السابع والأربعون

(باب من هزل بشيء فيه ذكر الله تعالى أو القرآن أو الرسول)

قال موفق الدين: من سب الله أو استهزأ به، أو بآياته، أو رسله، أو كتبه كفر، سواء كان مازحًا أو جادًّا[1].

وذكره غيره[2] إجماعًا، وسيأتي كلام أبي الوفاء بن عقيل ومعناه لشيخ الإسلام ابن تيمية في الباب قريبًا إن شاء الله تعالى.

(وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]).

قال ابن الجوزي: روي **(عن عمر)** بن الخطاب رضي الله عنه، **(ومحمد بن كعب)** الأنصاري[3]، **(وزيد بن أسلم)** العدوي، مولى عمر بن الخطاب المدني العالم الثقة[4]، **(وقتادة)** بن دعامة بن قتادة السدوسي،

---

(١) انظر: الكافي (٤/ ١٥٦)، المغني، ابن قدامة (١٢/ ٢٩٨ـ ٢٩٩).

(٢) انظر: الإجماع، ابن المنذر (٢/ ٥٨٤)، المغني، ابن قدامة (١٢/ ٢٤).

(٣) الصحيح القرظي وليس الأنصاري، قال ابن كثير حين ذكر الحديث في تفسيره (٢/ ٣٦٧) قال أبو معشر عن محمد بن كعب القرضي وغيره أن رجلاً من المنافقين... الحديث، وأبو معشر هذا معدود فيمن روي عن محمد بن كعب القرظي كما في تهذيب التهذيب، ولم أجد في ترجمة الأنصاري أنه قد روى عنه أبو معشر، والقرضي يكنى بأبي حمزة، ثقة عالم من أفاضل أهل المدينة، توفي سنة ١٢٠هـ.
انظر: تهذيب التهذيب (٩/ ٤٢١)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٥٠٤).

(٤) انظر ترجمته: تهذيب التهذيب (٣/ ٣٩٥)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٢٢٢).

أبو الخطاب البصري الثقة الثبت، (**دخل حديث بعضهم في بعض: أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء**) يعني النبي ﷺ وأصحابه (**أرغب بطونا**) يقال: بطن رغيب أي: واسع، ويقال أيضًا: إناء رغيب، ومكان رغيب، أي: واسع، فالحاصل أن الرغيب الأكول الواسع الجوف[1]. قال حميد بن ثور الهلالي[2] رضي الله عنه يصف قطا سائرا:

تبادر أطفالاً مساكين دونها ... فلا ما تخطاه العيوب رغيب[3]

أي واسع، (**ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء**) للعدو، (**يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء**) فوصفهم هذا المنافق بصفات إخوانه من المنافقين، التي هم أحق بها وأهلها، وهي الشره، فإن المنافقين قد اتصفوا بالحظ الأوفر من ذلك وبالكذب وهم أهله، كما قال الشاعر: رمتني بدائها وانسلت[4]، وذلك من نفاقهم، فهم أهل الريب والكذب، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾[المنافقون: ١]، وبالجبن وهو صفتهم اللازمة، قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[التوبة: ٤٧]، وقال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقين: ٤]، وقال: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) انظر: غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٣٦).

(٢) أبو المثنى، له صحبة، كان أحد الشعراء الفصحاء، وكان كل من هاجاه غلبه، وقد وفد على النبي ﷺ وأنشد بين يديه، وعاش إلى خلافة عثمان.

انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٣٩٠)، الإصابة، ابن حجر (١/ ٣٥٥).

(٣) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٣٦).

(٤) ليست هذه الجملة شعرًا، وإنما هي مثل مشهور يضرب لمن يعيّر أحدًا بما هو فيه، انظر فصل المقال (١/ ٩٢).

﴿وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النساء: ١٤٢- ١٤٣] الآية، قد اتخذوا الشياطين لهم من دون الله أولياء فهم أشحة على الخير. (**فقال عوف بن مالك**) الأشجعي الصحابي المشهور من مسلمة الفتح[١]، لذلك المنافق (**كذبت**) في مقالتك هذه، (**ولكنك منافق**)[٢].

المنافق هو من يظهر خلاف ما يبطن، قال جرير بن الخطفى:

يُسرُّ لك البغضاءَ كلُّ منافق ... كما كلُّ ذي دين عليك شفيقُ[٣]

فهذا الصحابي قد علم رضي الله عنه أن مقالته هذه لا يقولها إلا منافق مغموس، إذ هو مريض قلبه، قال أبو عبيد القاسم بن سلام: إنما سمي المنافق منافقًا لأنه نافق كاليربوع، وهو دخوله نافقاءه يقال: قد نفق فيه ونافق وهو جحره، وله جحر آخر يقال له: القاصعاء، فإذا طُلب قصع فخرج من القاصعاء، فهو يدخل في النافقاء ويخرج من القاصعاء، أو يدخل من القاصعاء ويخرج من النافقاء، فيقال: هكذا يفعل المنافق يدخل في الإسلام، ثم يخرج منه [ك،١٦٧/ب] من غير الوجه الذي دخل فيه[٤].

والمراد من هذا النفاق إنما هو نفاق من أظهر الإسلام وأسر الكفر كعبد الله بن أُبَيّ بن سلول، وإن أظهر أنه قائم بالواجب وفي قلبه أن لا

---

(١) مختلف في كنيته قيل أبو عبدالرحمن وقيل أبو محمد وقيل غير ذلك، أسلم عام خيبر، وقيل شهد الفتح ومعه راية أشجع، سكن دمشق، مات سنة ٧٣هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٤٣).

(٢) انظر ترجمته في: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٢١٣١)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٤٣).

(٣) شرح دوان جرير، مهدي ناصر الدين (ص ٣٠٠).

(٤) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٣٨٢).

يفعل فنفاق أيضًا، كقوله في ثعلبة: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥] الآية، ولكن في كفر هذا الثاني قولان للعلماء كما ذكرهما القاضي وشيخ الإسلام ابن تيمية، وجْه كفره أنه شاق الله ورسوله، وردّ رسول رسول الله ﷺ فكفر[١].

فالحاصل أن ما كان من النفاق في الأعمال فهو النفاق العملي لا يكفر صاحبه، قال الإمام أحمد لما سئل عمن لا يخاف النفاق على نفسه: ومن يأمن النفاق؟[٢].

فبيّن أنه يكون في غالب حال الإنسان، ولا يدل على كفره، وفي معنى النفاق الرياء.

ومن أطلق الكفر على هذا القسم الأخير فمراده غير ناقل عن الملة، كقول الإمام أحمد: كفر دون كفر، إذ ظاهر كلامه وكلام الأصحاب أنه لا يكفر إلا من أسرّ الكفر وأظهر الإيمان كما مر[٣].

ثم قال له عوف بن مالك رضي الله عنه: **(لأخبرن رسول الله ﷺ)** يعني بقولك، وفيه دليل أن رفع مثل هذا لولي الأمر لا يعد نميمة، بل هو للمسلمين عين النصيحة، لئلا يفسد عليهم من ليس منهم مصالح دينهم ودنياهم وهم لا يعلمونه، وإنما النميمة والغيبة رفع عيوب المسلم إذا زل أو هفا، فالمطلوب من أخيه أن يقيل عثرته بنصيحته مع الستر، إلا أن يجاهر بالمعصية فيُردع بالإنكار عليه جهارًا **(فذهب عوف**

---

(١) لا يصح هذا في حق ثعلبة بن حاطب البدري؛ لأنه استشهد بأحد، ولأنه من أهل بدر، وقد ثبتت لهم المغفرة والتحريم على النار، فلعله ثعلبة آخر وافقه في الاسم، انظر الإصابة لابن حجر (١/ ٤٠٠).

(٢) مسائل ابن هاني (٢/ ١٧٦).

(٣) انظر: الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٦٦).

إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه) بنزوله على رسول الله ﷺ، **(فجاء ذلك الرجل)** المنافق وسيأتي اسمه، يعتذر **(إلى رسول الله ﷺ)** من مقالته التي نقلها عوف عنه، فوجده **(وقد ارتحل وركب ناقته ﷺ، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب)** أي بما قلنا في الحديث، والخوض: التخليط في الكلام وغيره، من خاض الشيء إذا خلطه، ثم قال: ونلعب، يشير أنهم دخلوا في ذلك الكلام من غير قصد.

والحاصل أنه صدق هذا المنافق، فإنما سجيتهم الخوض في أعراض المسلمين واللعب بها دائمًا، وما ذاك إلا من مرض قد عم في قلوبهم لا يستطيعون كتمه، فلابد أن يظهر ذلك على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم، ثم قال في عذره: **(ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق)** هذا دليل على أن الجهاد في سبيل الله لا تألفه نفوسهم، ولا تستأنس به قلوبهم، فلا يعدّونه عبادة، فهم لا يروحون نفوسهم من هذا المكروه عندهم إلا بما يحبون وتألفه قلوبهم، وهو الاستهزاء بأهل الإسلام وقادته، يتفكهون بذلك لا يملون مع لذاذته قطع الطريق المكروه عندهم، فقلوبهم لا يصل إليها هدى، ولا يخلص لها خير، فلا تهدى ولا تهدي، فهم في ريبهم يترددون، وهم مع ذلك تعجبك أجسامهم إذا رأيتهم، لهم أشكال حسنة وفصاحة وألسنة حداد ذلقة[1]، إذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، ولهذا قال تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ

(١) ذَلِقَةٌ أي حادّة. اللسان (١٠/ ١٠٩).

أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ [الأحزاب: ١٩] الآية، فهم جهامات وصور بلا معاني، ولهذا قال: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المنافقون: ٤].

وعند الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: إن للمنافقين علامات يعرفون بها، تحيّتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هجرًا، ولا يأتون الصلاة إلا دبرًا، مستكبرين، لا يألفون ولا يؤلفون، خُشب بالليل، صخب بالنهار، أو قال مرة: ضجر بالنهار(١).

وأما المسلم فهو يرتاح للمكان الذي يجمعه برسول الله ﷺ وسادات أتباعه، كيف وهذه الغزوة قد جمعتهم جمعًا مستوفرًا، فلم يتخلف عنه ﷺ فيها إلا من كان مغموسًا في النفاق، أو من عذَره القرآن، إلا ما كان من الثلاثة كعب بن مالك(٢) وصاحبيه(٣) فتاب الله عليهم رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٢٩٣)من طريق يزيد بن هارون عن عبدالملك بن قدامة الجمحي، والبيهقي شعب الإيمان (٣/ ٨٧)،وأخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (١/ ١٠٧)،وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار وفيه عبدالملك بن قدامة الجمحي وثقه يحيى بن معين وغيره، وضعفه الدارقطني وغيره.
وقال الحافظ في التقريب (ص ٣٦٤): ضعيف.

(٢) الأنصاري، السلمي، اشتهر في الجاهلية، وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ، شهد أكثر المشاهد، وممن ناصر عثمان يوم الدار، وحرض الأنصار على نصرته، عمي في آخر عمره، مات سنة ٥٠هـ.
انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٢٧٠)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٢٨٥).

(٣) وهما هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، تخلفوا ثلاثتهم عن غزوة تبوك، فتاب الله عليهم وعذرهم وغفر لهم ونزل القرآن المتلو في شأنهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾

(قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة)[1] أي بحقب[2] **(ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ عند ذلك وهو متعلق بناقته لا يقف له:** ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ـ ٦٦] **وما يلتفت إليه، وما يزيده عليه)**[3].

توبيخًا على استهزائهم بمن لا يصلح الاستهزاء به، وإلزامًا للحجة عليهم، إذ لا يعبأ باعتذارهم الكاذب، فإنما يوهم اعتذارهم بأنهم لم يقصدوا الهزؤ فكذبهم القرآن، وقد جزم أبو الوفاء بن عقيل بأن من وجد منه امتهان القرآن، أو خمْص منه، أو طلب تناقضه، أو دعوى أنه مختلف، أو مقدور على مثله، أو إسقاط لحرمته، كل ذلك دليل على كفره فيقتل بعد الاستتابة[4].

وقال غيره من الأصحاب: قال الإمام أحمد: من قال: القرآن مقدور على مثله ولكن الله منع قدرتهم، كفر، بل هو معجز بنفسه،

---

(١) النسعة بالكسر: سير مضفور، يجعل زمامًا للبعير وغيره، والجمع نسع، ونسع، وأنساع. انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٥/ ٤٨).

(٢) الحقب هو النسع وهو الحبل المشدود على حقو البعير. المصدر السابق (١/ ٤١١).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ١٧٢ـ ١٧٣)، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه كما في الدر المنثور (٤/ ٢٣٠)، والحديث إسناده حسن، حسنه الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص ٧٧).

(٤) الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٦٨)، وقد سبق التنبيه على قوله: (كل ذلك دليل على كفره) وأنه إن أراد أن الكفر لا يكون إلا بالاعتقاد دون العمل فهذا من مقالات المرجئة.

والعجز شمل الخلق، وكذا من ظهر منه الاستهزاء به[1].

قال ابن الجوزي: قال عبدالمجيد بن عبدالعزيز[2]: كان عندنا بخراسان رجل كتب مصحفًا في ثلاثة أيام، فلقيه رجل فقال: في كم كتبت هذا؟ فقال وأومأ بالسبابة والوسطى والإبهام، وقال في ثلاث ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]. فجفت أصابعه الثلاثة، فلم ينتفع بها [ك،١٦٧/أ] فيما بعد.

قال: وخطر لبعض الفصحاء أن يقدر أن يقول مثل القرآن، فصعد إلى غرفة له فانفرد فيها وقال: خلوني ثلاثًا، فصعدوا إليه بعد الثلاث ويده قد يبست على القلم وهو ميت، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ ﴾.

وهكذا ينبغي لولاة الأمر أن يقولوا لهذا الجنس، إذا تحققوا بطلان عذرهم ليرتدعوا عن أذى المسلمين والقدح في دينهم.

قال محمد بن إسحاق: وقد كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشي بن حمير يشيرون إلى رسول الله وهو منطلق إلى تبوك، قال بعضهم لبعض أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وأنّا نتفلت مخافة أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو ابن أبي روّاد من أئمة المرجئة، توفي سنة ٢٠٦هـ، انظر تهذيب لابن حجر (٦/ ٢٣٩)، وانظر ما يأتي عنه ص٢٠٣٣.

وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر[1]: أدرك القوم فقد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار بن ياسر، فقال لهم ذلك فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على ناقته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]. وقال مخشي بن حمير فتسمى: عبدالرحمن، وسأل الله أن يقتله شهيدًا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة[2] فلم يوجد له أثر[3].

وفي رواية أن مخشي بن حمير الأشجعي أنكر عليهم بعض ما سمع ولم يمالئهم عليه، وجعل يسير مجانبًا لهم، فلما نزلت هذه الآية تاب وبرأ من نفاقه، وقال: اللهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ أعنى بها، تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب، اللهم اجعل وفاتي قتلًا في سبيلك، لا يقول أحد: أنا كفنت، أنا غسلت، أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة فيمن قتل، فما أحد من المسلمين إلا وقد وجد، وعرف مصرعه غيره[4].

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]. أي: قد أظهرتم

---

(١) العنسي، أبو اليقظان، المخزومي مولاهم، صحابي مشهور جليل، من السابقين الأولين بدري، قتل مع علي بصفين سنة ٣٧هـ.
انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٤٦٩)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٥٠٥).

(٢) فيه فتح المسلمون اليمامة أحد بلدان نجد، خاصة لبني حنيفة، وقتل فيها مسيلمة الكذاب في خلافة الصديق رضي الله عنه سنة ١٢هـ وفتحها أمير المسلمين خالد بن الوليد عنوة ثم صولحوا. انظر: معجم البلدان، ياقوت (٥/ ٤٤٢).

(٣) ذكر ابن هشام في السيرة (٢/ ٥٢٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ١٧٢) عن عكرمة مرسلاً.

الكفر بإيذاء الرسول ﷺ بالاستهزاء والطعن بعد إظهاركم الإيمان وإقراركم به، قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

فهذا الإيمان منهم إنما هو إقرارهم بما لم يصل إلى قلوبهم كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وعن إظهارهم الإيمان برسول الله ﷺ، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ١٠٧] ليس عن إيمان حقيقي، هكذا قال جمهور المفسرين، وفي هذا دليل واضح أن من أتى بقول أو فعل صريح في الاستهزاء بالدين أنه يكفر، كما صرح بذلك صاحب الترغيب[1] من أصحابنا وغيره، وكشيخ الإسلام[2] ابن تيمية قدس الله روحه، ثم قال تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم كمخشي، أو لتجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء، ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٦]، أي مصرين على النفاق، أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء بالمؤمنين.

وفيه جواز العفو عن المجرم في الإسلام للمصلحة، وأن العفو عن بعض من أجرم قد يكون سببًا لجراءته واستهانته بالمسلمين، فردعه بالعقوبة أصلح وأكف لنظيره عن مثل جرمه، خصوصًا أهل النفاق والريب ومرض

---

(١) لفخر الدين ابن تيمية محمد بن أبي القاسم الخضر بن محمد، أحد أعمدة أسرة آل تيمية الراسخة في العلم، شيخ حران وخطيبها، فقيه مفسر واعظ، وكتابه هذا - ترغيب القاصد في تقريب المقاصد - أحد ثلاثة كتب ألفها في الفقه، وله مؤلفات أخرى، توفي سنة ٦٢٢هـ بحران. انظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٤٠٦- ٤٠٩).

(٢) انظر: الإيمان، ابن تيمية (ص ٢٥٩- ٢٦٠).

القلوب، فإنهم ليسوا من الإسلام وأهله في شيء، ولهذا قال تعالى مخاطبًا لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣]، وهذا أمر مطلق ليس فيه ثني، ولهذا لم يعف عمن حضر تلك المقالة إلا عن مخشي رضي الله عنه، لأنه قد دخل الإيمان في قلبه، ولهذا قاده ما خامر قلبه من الإيمان إلى الخير، لغلبة مادة الإيمان وقوته على ضده، والله الموفق.

الباب الثامن والأربعون

باب قول الله تعالى
﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ أي: الإنسان ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ يعني أصبناه عافية وغنى، ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: بعد الشدة التي أصابته، ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: أنا أهل لهذا ومستحقه، ويقال: أنا أحق بهذا، **(وقال مجاهد هذا بعملي وأنا محقوق به)**[1].

(وقال) ترجمان القرآن عبدالله **(بن عباس رضي الله عنهما: يريد من عندي)**[2].

ولهذا أنكر البعث فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: كائنةً، ثم قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ يعني يوم القيامة بزعمكم أن الخلائق يرجعون إليه بعد موتتهم ﴿إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾، والمعنى: إن كان يوم القيامة كما يقول محمد أنكم مبعوثون ومجزيون، فلي عند ربي الجنة، وإنما له عنده كما قال في ختم هذا السياق: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لنخبرنهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من أعمالهم الخبيثة، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝﴾ [فصلت: ٥٠] جزاء لهم على أعمالهم الخبيثة، لا ما يظنون من قياسهم الفاسد على أمر الدنيا، لأن الدنيا لا يعبأ الله بها شيئا،

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٥/ ٢).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٤٣).

ولهذا قال: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣ـ ٣٥] فالدنيا عند الله حقيرة مهينة يحجبها عن أوليائه من رسله وأنبيائه وأتباعهم على منهاجهم، ويعطيها الكفرة الفجرة والجبابرة من أعدائه، بخلاف دار البقاء كما قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٨]، وقال عز وجل: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم: ٣٥ـ ٣٦]، فمن ظن أن الله يساوي بين الفريقين فضلاً من أن يظن أنه يفضّل المجرمين على المؤمنين فقد ظن بالله ظن السوء، فعليه دائرة السوء، وغضب الله عليه، ولعنه، وسيورده من العذاب مورد أمثاله.

(وقوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ قال قتادة رحمه الله: **على علم مني بوجوه المكاسب[(١)]، وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل[(٢)]، وهذا معنى قول مجاهد في قوله: أوتيته على شرف[(٣)]).**

وهذا كقوله تعالى: [ك،١٦٨/ب] ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٦/ ٤٤٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي كما في الدر المنثور (٦/ ٤٤٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٤/ ١٢)، والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور (٧/ ٢٣٤).

مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني قارون وقومه ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ۝﴾ ثم قال: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝﴾ [الزمر: ٤٩ـ ٥٢].

والمعنى أنه يقول: إنما أوتيته على علم عندي فضلت به الناس، واستوجبت به التفوق عليهم، قال بعض المفسرين: و«على علم» في موضع الحال وهو علم التوراة، وكان قارون أعلم أهل زمانه بها يحفظها [عن] ظهر قلبه، قيل إنه لم يحفظها من بني إسرائيل [عن][(١)] ظهر قلبه بعد العزير عليه السلام إلا قارون، وقيل عنى بذلك علم الكيمياء، وقيل كنوز يوسف عليه السلام، وقيل علم التجارة والدهقنة وهي الزراعة، وسائر المكاسب كما تقدم[(٢)].

قال الزجاج: طريق الأول أشبه، لأن علم الكيمياء لا حقيقة له[(٣)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في الكيمياء: والقول بأن قارون صنعها باطل لا أصل له[(٤)].

وبه قال محققو علماء الشريعة؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل[(٥)]، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) وقع في الأصل: (على) موضع (عن) في الموضعين، وانظر: فتح القدير، الشوكاني (٤/ ١٨٧).

(٢) انظر زاد المسير، ابن الجوزي (٦/ ٢٤٢).

(٣) بمعناه، انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ١٥٦).

(٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٢٩/ ٣٧٧).

(٥) المقصود بالكيمياء هنا على المصطلح القديم: تحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة، فلا علاقة له بعلم الكيمياء الحديث فتنبه.

ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [الحج: ٧٣] الآية، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة[1].

وهذا في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة والشكل، فكيف بمن يدعي أن يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى، هذا زور ومحال وجهل وضلال، وإنما يقدرون على الصنع في الصورة الظاهرة، وهي كذب وزغل وتمويه، وترويج أنه صحيح في نفس الأمر وليس كذلك لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها جهلة الفسقة الأفاكون، فأما ما يجريه الله من خوارق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهبا أو فضة، أو الحصباء برا ونحو ذلك، فهذا لا ينكره مسلم ولا يرده مؤمن، ولكن ليس هو من قبيل الصناعات، وإنما هو عن مشيئة الله تعالى واختياره وإكرامه من يشاء بذلك من عباده، وقد روي مما أجراه الله سبحانه من ذلك على يدي أوليائه ضروبٌ يكثر عدها، ويخرج بنا عن المقصود إيرادها، والله الموفق[2].

ثم أعقب ذلك سبحانه بقوله لهذا القائل: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ﴾ [القصص: ٧٨]، فهذا

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب نقض الصور (٥/ ٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٣/ ١٦٧١)، وغيرهم.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٣/ ٣٩٩).

تعجب وتوبيخ على اغترار هذا القائل بقوته وكثرة ماله، مع علمه بذم ذلك؛ لأنه قرأه في التوراة، وسمعه من حفاظ التواريخ عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، أو هو رد لادعائه العلم وتعظّمه به، بنفي هذا العلم الذي ادعاه عنه، والمعنى: أعنده مثل هذا العلم الذي ادعاه، ولم يعلم هذا حتى يقي نفسه مصارع الهالكين.

ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨] أي: سؤال استعلام أو معاتبة، بل يعذّبون بها بغتة[١]، كأنه سبحانه لما هدد هذا القائل بذكر إهلاك من قبله ممن كانوا أقوى منه وأغنى، أكد ذلك بأن بين أنه لم يكن مهملاً ما يخصهم، بل الله مطلع على ذنوب المجرمين كلهم يعاقبهم عليها لا محالة، هكذا وجهه بعض المفسرين[٢].

وقال محمد بن كعب: هو كلام متصل بمعنى ما قبله، والضمير في ذنوبهم عائد على من أهلك من القرون، أي أهلكوا ولم يسأل غيرهم بعدهم عن ذنوبهم، أي: كل أحد إنما يكلم ويعاقب بحسب ما يخصه[٣].

وقال قتادة أيضًا ومجاهد: معناه أن الملائكة لا تسأل عن ذنوبهم، لأنهم يعرفونهم بسيماهم من السواد والتشويه ونحو ذلك[٤].

وقد قال بعض العلماء رحمهم الله: إن مدار التكبر والتجبر و[الفخر][٥] والحسد من ثلاث كلمات: أنا، ولي، وعندي. وأهل هذه

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٦/ ٢٤٣)، تفسير القرطبي (١/ ٢٠٩).
(٢) المصادر السابقة.
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ١١٤).
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٢٠/ ١١٤).
(٥) في الأصل: والفجر.

الكلمات هم القادة في ذلك، منها قول إبليس المتصف باللعنة: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

وثانيًا: قول فرعون رئيس الجبابرة ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

وثالثًا: قول قارون ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] نسأل الله الكريم الحماية، ومن هذه صفاته لا حظ له في الآخرة إلا النار، نعوذ بالله منها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: ٨٣].

(وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن ثلاثة من بني إسرائيل) إسرائيل هو يعقوب بن نبي الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فخلّف يعقوب عليه السلام اثني عشر ولدًا أسباطًا، كلهم أعقب ذرية، ومن نسلهم عليهم الصلاة والسلام كانت الأنبياء والرسل في بني إسرائيل، وتركيب إسرائيل كتركيب جبرائيل وإسرافيل، ثم ذكر أحد الثلاثة فقال: (أبرص) وهو: مغير الجلد ببياض ناصع. وهو عيب في أحد الزوجين سواء كان حدوثه قبل العقد أو بعده، ولو بعد الدخول عندنا، وعند الشافعية على الصحيح(١)، قال الجوهري: البرص داء وهو بياض، انتهى(٢).

وهو بفتح الباء والراء مصدر برص بكسر الراء إذا ابيضّ جلده - وقيل أو اسودّ - بعلة.

---

(١) انظر: المغني، ابن قدامة (١٠/ ٥٧- ٦١).

(٢) الصحاح، الجوهري (٣/ ١٠٢٩).

(**وأقرع**) وهو داء في الرأس يزيل نبات الشعر، وهذا أيضًا من العيوب التي يفسخ بها النكاح عندنا إذا كان فيه رائحة منكرة.

(**وأعمى**) البصر، والأبرص والأقرع والأعمى بالنصب على البدلية من ثلاثة ويجوز الرفع.

(**فأراد الله أن يبتليهم**) وفي البخاري «بدا لله أن يبتليهم»[1] وهو بمعنى أراد لا بمعنى ظهر، لأنه سبحانه لا يبدو له شيء كان غائبًا عنه، والنسخ للحكم ليس ببداء، كما توهمت ذلك الجهلة من الرافضة واليهود فأنكروه لما توهموا ذلك[2]، [ك،١٦٨/أ] وليس كما توهموا، وإنما هو تبديل حكم بحكم بقدر قدره الله وعلمه في سابق علمه، فبداء في حق الله تعالى من المجاز الذي لا سبيل إلى اطلاقه على الله إلا بإذن صاحب الشرع كما هنا، مع اعتقاد أنه بمعنى أراد في حقه تعالى، والابتلاء يقع في الخير والشر قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

(**فبعث**) تبارك وتعالى (**إليهم ملكًا**) من الملائكة، قيل جبريل وقيل غيره، (**فأتى**) أولاً (**الأبرص فقال**) له: (**أي شيء**) من الأشياء (**أحب إليك؟ قال**) أي: أحب الأشياء إلي: (**لون حسن وجلد حسن**) فطلب حسن اللون زيادة على سلامة الجلد من البرص، (**ويذهب عني الذي قذرني الناس به**) هذا دليل على ما قاله الفقهاء رحمهم الله تعالى من أن

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل (٣/ ١٢٧٦).

(٢) بل الثابت في المصادر اليهودية والرافضية إثبات البداء في حق الله تعالى، انظر سفر التكوين، الفصل السادس، فقرة ٥، أصول الكافي للكليني (١/ ١٤٦)، وعن المواضع الأخرى انظر أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية للدكتور ناصر القفاري (٢/ ٩٣٧).

البرص عيب في أحد الزوجين يفسخ به الآخر النكاح، لأنه مستقذر في نفوس الناس، قال رسول الله ﷺ: (**فمسحه**) أي: الملك، (**فذهب عنه قذره**) وهو برصه الذي كان يقذره الناس به، (**وأعطي**) ما طلب (**لونًا حسنا وجلدا حسنا**) وبهذا يعلم أن ضد الحسن القبيح، فهو يؤذن بإثبات البرص عيبا.

ثم (**قال**) أي الملك: (**فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر، شك إسحاق**) بن عبدالله أحد رواة هذا الحديث[1]، فقد قال البخاري في سنده له حدثني محمد ثنا عبدالله بن رجاء أخبرنا همام عن إسحاق بن عبدالله قال أخبرني عبدالرحمن بن أبي عمرة أن أبا هريرة رضي الله عنه حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول فذكره.

(**فأعطي ناقة عشراء**) العشراء هي الناقة الحامل، يقال عشّر العود إذا امتلأ جوفه ماءً، فكذا الناقة إذا قرأت بماء الفحل وحمله رحمها، فهي عشراء ومعشر كما قال الفرزدق:

كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت علي عشاري[2]

وقال غيلان ذو الرمة:

فحنت بها النكب السوافي فأكثرت حنين اللقاح التاربات العواشر

وهذا دليل أن غالب ظن إسحاق في الشك أنها الإبل، (**قال**) أي الملَك لما أعطي العشراء (**بارك الله لك فيها. قال**) أي رسول الله ﷺ:

---

(١) الأنصاري، المدني، أبو يحيى، ثقة حجة، روى له الجماعات، مات سنة ١٣٢هـ.
انظر: تهذيب التهذيب (١/ ٢٣٩)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ١٠١).

(٢) لسان العرب، ابن منظور (٤/ ٥٧٣).

(فأتى) أي الملك: (**الأقرع فقال له أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس**) وفي هذا أيضًا أوضح دليل للعلماء رحمهم الله تعالى، حيث جعلوا القرع شديد الرائحة في أحد الزوجين عيبًا كما تقدم، ولم يقل الأعمى ذلك لأن الطبيعة البشرية لا تنفر من العمى، قال: (**فمسحه**) أي الملك (**فذهب عنه**) أي قرعه الذي قد قذر به، (**وأعطي شعرًا حسنًا**) ثم (**قال**) أي الملك: (**فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأعطي بقرة حاملا، ثم قال بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله علي بصري فأبصر به الناس**) إذ نعمة البصر عظيمة على المبصر، فينبغي أن يكفه شكر الله عما حرم عليه، (**فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: أي المال أحب إليك؟ قال الغنم، فأعطي شاة والدا فأنتج هذان وولّد**) بتشديد اللام وفتحها، (**هذا**) ما أعطيه من الغنم. تقول العرب ولّدت الشاة بتشديد اللام، إذا نتجت عندك فوليت أمر ولادها، وأنشد في ذلك:

إذا ما ولّدوا يومًا تنادوا أجدي تحت شاتك أم غلام[1]

وقد قال الزبير بن بكار فيما تتكلم به العرب على ألسنة البهائم تقول الضانية: أنا أولّد رخالا[2]، وأجز جفالا، ولا ترى العين مثلي مالا[3]. والجفال الكثير من الصوف[4]، فجعل في هذا التنتيج للإبل

---

(١) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه، انظر ديوانه: (١/٣٥٨) ط دار صادر، ١٩٧٤م.

(٢) الرِّخل والرَّخل: الأنثى من أولاد الضأن، والذكر: حَمَل، والجمع: أرخُل وأرخال، ورخال. انظر: لسان العرب، انب منظور (١١/ ٢٨٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (١١/ ١١٥).

(٤) المصدر السابق.

والبقر، والتوليد للغنم، وليس هذا باختصاص في اللغة وإنما هو التغليب، إذ التنتيج يكون في جميع الأنعام، وكذا التوليد، قال الشاعر:

أكل عام نعم تحوونه ... يلقحه قوم وينتجونه

أربابه نَوْكى[1] فلا يحمونه[2]

يقال نعم وأنعام، ومن جعل النعم والأنعام خاصا بالإبل فقد أخطأ[3]، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ إلى قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: ١٤٢- ١٤٣] الآية، ويطلق التوليد على الإبل أيضًا، وكذا البقر، ولهذا قال ﷺ لمن جاءه ليحمله: إني حاملك على ولد الناقة، قال: وما يصنع ولد الناقة يا رسول الله قال: وهل تلد الإبل إلا النوق؟[4] فعلم بما ذكرنا أن التسمية بذلك فيما هنا إنما هي تغليب والله الموفق.

(فكان لهذا) أي الأبرص **(واد من الإبل ولهذا)**. يعني الأقرع **(واد**

---

(١) النوك: الحمق، والأنوك: الأحمق وجمعه النوكى.
انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٠/ ٥٠١)، مادة (نوك).

(٢) الأبيات لرجل ضبي كما في الأغاني، الأصفهاني (١٦/ ٣٥٧).

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٥٨٥).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٦٨) من حديث أنس بن مالك، وأبو داود في الأدب باب ما جاء في المزاح (٤/ ٣٠٠)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في المزاح (٤/ ٣٥٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه في الشمائل (ص ٢٣٩)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٦٧)، والبغوي في شرح السنة (١/ ١٨٢) من طريق الترمذي، وقال هذا حديث صحيح غريب.
وقال الألباني في مختصر الشمائل المحمدية (ص ١٢٦): قلت: وقال المؤلف: «حديث حسن صحيح غريب»، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

من **البقر، ولهذا)** أي الأعمى **(واد من الغنم، قال: ثم إنه)** أي الملك **(أتى الأبرص في صورته)** الضمير راجع إلى أقرب مذكور، والمعنى أن الملك أتى الأبرص في صورته حالة البرص والفقر، لكي يعرف ما هو فيه أولاً فيشكر المنعم، وقيل إن الضمير راجع إلى الملك ليذكره أول أمره وما هو فيه من الفقر وسوء الحال.

(وقال رجل مسكين) وفي غير خط الشيخ **(وابن سبيل)** وليست في البخاري[1]، **(قد انقطعت بي الحبال)** وهي الأسباب الموصلة إلى البغية، وقد مر الاستشهاد على الحبال من قول جرير في باب خاتمة الثلاثين، **(في سفري فلا بلاغ لي اليوم)** يبلغني بغيتي **(إلا بالله ثم بك)** عطف بثم التعقيبية ليزول المحذور من العطف بواو التسوية والتشريك، **(أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيرا أتبلغ به في سفري. فقال: الحقوق كثيرة)** فاستكثر الحقوق ولم ينظر إلى فضل الله وسعته، حيث أغناه بعد فقر وحسن جلده ولونه في مدة قريبة، ومن عادة البخلاء الاعتلال لبخلهم بكثرة الحقوق عليهم. **(فقال)** أي الملك: **(كأني أعرفك)** أتى بكاف التشبيه للاستظهار، وهذا من كمال العقل وحسن الأدب، ثم استفهمه استفهام توبيخ وتقريع وتقرير فقال: **(ألم تكن أبرص يقذرك الناس)** فأبدلك الله من الجلد واللون ما ترى، **(فقيرًا فأعطاك الله عز وجل)** ما بيدك من **(المال)** فحينئذ جحد نعمة المنعم عليه في البدن والمال **(فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر)**. فجمع بين إنكار نعم الله وكفرها والكذب، وتغليب قوة جانب الميراث بقوله: ورثت هذا المال كابرًا عن كابر كما

---

(١) هذه اللفظة أخرجها ابن حبان في صحيحه (٢/ ١٣).

قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣] (فقال) أي الملك: (إن كنت كاذبًا) في مقالتك هذه (فصيرك الله إلي ما كنت) في الزمن الماضي قبل حالك هذه من البرص والفقر، (قال: وأتى الأقرع في صورته) قرعًا، (وهيئته) فقرًا، (فقال) وهو في هذه الصورة والهيئة (له: رجل مسكين وابن سبيل) وصف نفسه بصفتين يستحق بأحدهما أن يرفد، فكيف إذا اجتمعا، فزادهما مبالغة بقوله: (قد انقطعت بي الحبال) أي: الأسباب (في سفري) الذي أنا متلبس به، (فلا بلاغ لي اليوم) فيه (إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك الشعر الحسن) بعد القرع الذي قذرك الناس به، (والمال بعد) [ك،١٦٩/ب] الفقر الذي كان بك، (بقرة أتبلغ بها في سفري) هذا. (فقال) مجيبًا له: (الحقوق كثيرة) اعتل بما اعتل به الأبرص، لأن الأرواح جنود مجندة[1]، والداعي إلى جحود نعمة الله واحد وهو الشيطان. (فقال) أي الملك: (كأني أعرفك ألم تكن أقرع يقذرك الناس) فأعطاك الله شعرًا حسنًا، ألم تكن فقيرًا (فأعطاك الله عز وجل) ما بيدك من المال، ذكّره ذلك ليشكر نعمة الله حيث عافاه وأغناه فلم يفعل، (فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر. فقال) أي الملك مستقبحًا عليه كما استقبح على صاحبه قبله: (إن كنت كاذبًا) في مقالتك هذه، (فصيرك الله إلى ما كنت) من حالتك الأولى التي تعلم، وفيما تقدم جواز السؤال مع الحاجة، وأن إعطاء السائل إذا كان محتاجًا مع صدقه فرض كفاية كما هو المذهب

---

(١) جزء من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». أخرجه البخاري في الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة (٣/ ١٢١٣)، ومسلم في البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة (٤/ ٢٠٣١)، وغيرهم.

عندنا[١]، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه[٢]، حيث عوقب على تركه لما تعين عليه بتعيين السائل له، إذ الملك لا يأتي إلا بصورة ما هو مشروع، وقد مر أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه[٣]، لعموم الآيات في ذلك منها قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله ﷺ في الصحيحين: من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن الله يقول ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[٤] [طه: ١٤].

وأن غير المسؤول المعين لا يلزمه البذل، وأن في المال حقا سوى الزكاة، كما قال الآجري[٥]، قال: وهو قول جماعة من العلماء رحمهم الله تعالى، من نحو مواساة قرابة، وصلة إخوان، وإعطاء سائل، وإعارة محتاج لدلوها[٦]، وركوب ظهرها، وإطراق فحلها، وسقي منقطع حضر حلابها[٧].

---

(١) انظر: الفروع، ابن مفلح (٢/ ٥٩٢).

(٢) انظر: الاختيارات الفقهية من فتاوى ابن تيمية، البعلي (ص ٩٥).

(٣) انظر: المستصفى، الغزالي (١/ ٢٥١، ٢٥٥)، شرح الكوكب المنير، ابن النجار (٤/ ٤١٢)، إرشاد الفحول، الشوكاني (ص ٢٤٠).

(٤) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكرها (١/ ٢١٥) من حديث أنس، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة (١/ ٤٧٧)، وغيرهم.

(٥) هو محمد بن الحسين بن عبدالله، أبوبكر الآجري البغدادي، الفقيه المحدث الحافظ، صاحب الشريعة والرؤية وغيرها، جمع العلم والزهد، صاحب سنة واتباع، توفي سنة ٣٦٠ بمكة شرفها الله. انظر: تاريخ بغداد، الخطيب، (٢/ ٢٤٣)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٦/ ١٣٣).

(٦) الظاهر أن الضمير هنا يعود إلى الدابة كما يفهم من السياق.

(٧) الفروع، ابن مفلح (٢/ ٥٩٣).

وذكر القاضي عياض من المالكية أن الجمهور قالوا: إن الحق في الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥﴾ [المعارج: ٢٤] المراد به الزكاة، وكذا قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩﴾ [الذاريات: ١٩] وأنه ليس في المال حق سوى الزكاة، وما جاء غيره على الندب ومكارم الأخلاق[(١)].

وقيل هي منسوخة، قال: وذهب جماعة منهم الشعبي والحسن وطاوس وعطاء ومسروق[(٢)] وغيرهم، إلى أنها محكمة، وأن في المال حقا سوى الزكاة[(٣)]. ويدل على ذلك حديث فاطمة بنت قيس[(٤)] رضي الله عنها، وهو عند الترمذي وابن ماجه والدارمي ولفظ الترمذي قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن في المال لحقًّا سوى الزكاة، ثم تلا ﴿۞لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾[(٥)] [البقرة: ١٧٧] الآية».

---

(١) الفروع، ابن مفلح (٢/ ٥٩٣).

(٢) هو ابن الأجدع بن مالك الوادعي، أبو عائشة الكوفي الإمام القدوة، الثقة الفقيه العابد، مخضرم، أسلم في حياة النبي ﷺ، توفي سنة ٧١هـ وقيل غير ذلك.
انظر: أسد الغابة، ابن الأثير (٤/ ٣٥٤)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٦٣).

(٣) الفروع، ابن مفلح (٢/ ٥٩٤).

(٤) الفهرية، أخت الضحاك، صحابية مشهورة، من المهاجرات الأول، عاشت إلى خلافة معاوية. انظر: الطبقات، خليفة (ص ٣٣٥)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٣٧٣).

(٥) أخرجه الترمذي في الزكاة، باب ما جاء أن في المال حقا سوى الزكاة (٣/ ٤٨)، وابن ماجه في الزكاة، باب ما أدي زكاته فليس بكنز (١/ ٥٧٠) بلفظ: «ليس في المال حق سوى الزكاة»، والدارمي في سننه (١/ ٤٧١)، والدارقطني في سننه (٢/ ١٢٥)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٠٣)، والبيهقي في سننه (٤/ ٨٤)، كلهم من طرق عن أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة به قال البيهقي في السنن: هذا حديث يعرف بأبي حمزة ميمون الأعور الكوفي، وقد جرحه أحمد بن حنبل ويحيى بن =

فالحاصل أنه يجب كما قال الآجري وغيره أن يعلم الإنسان حل المسألة وعدمه، ومتى تحل، وهذا معنى كلام الإمام أحمد رضي الله عنه في أنّ تعلم الإنسان ما يحتاج إليه من العلم لدينه فرض[1]، وهو أيضًا معنى قول الأصحاب أنه لا يجوز أن يقدم أحد على ما لا يعلم جوازه من الأحكام كلها، هذا مع تظاهر الأدلة والعقول في الجملة على كراهة هذا السؤال، إلا فيما لابد منه، وفي ذلك حديث قبيصة ابن مخارق[2] الهلالي رضي الله عنه المرفوع وفيه: «إن الصدقة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة[3] اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش أو قال: سدادًا من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجى[4] من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ـ أو قال: سدادًا من عيش ـ، وما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها

= معين فمن بعدهما من حفاظ الحديث. قال الحافظ في التقريب (ص ٥٥٦): ضعيف. وضعف الحديث الألباني في ضعيف الترمذي (ص ٧٤). وهذا الحديث جعله العلماء مثالاً للحديث مضطرب المتن. انظر تدريب الراوي للسيوطي (١/ ٢٣٨).

(١) أي إذا تعذر الجمع بين طلب العلم والكسب للقادر، فيجب إعطائه إذا سأل معينًا. انظر: الفروع، ابن مفلح (٢/ ٥٩٢).

(٢) صحابي، سكن البصرة، أبو بشر الهلالي، ويقال له البجلي، ولي سجستان. انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٢١٥)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٢٤٤).

(٣) الجائحة هي الآفة التي تهلك الثمار والأموال وتستأصلها وكل مصيبة عظيمة، واجتاحت أي أ هلكت. انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (١/ ٣١١).

(٤) الحجى: العقل. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ١٦٥).

صاحبها سحتًا». لفظ رواية الإمام مسلم[1]، والسداد بكسر السين المهملة ما يسد به الشيء، قال العرجي:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر[2]

وقد قال ﷺ مرشدًا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي في السنن: وإذا سألت فاسأل الله[3].

وفي الأثر: ما فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر[4].

وروى عبدالرزاق عن معمر عن قتادة عن قيس بن عاصم[5] سيد بني تميم الذي قال فيه رسول الله ﷺ هذا سيد أهل الوبر، أنه قال لبنيه لما احتضر: إياكم والمسألة فإنها آخر كسب المرء[6].

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب من تحل له المسألة (٢/ ٧٢٢)، وأبو داود في الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة (٢/ ١٢٣)، والنسائي في الزكاة، باب الصدقة لمن تحمل بحمالة (٥/ ٨٩)، وغيرهم.

(٢) ديوان العرجي (ص ٣٢)، لسان العرب، ابن منظور (٣/ ٢٠٧).

(٣) حديث الوصية المشهور تقدم تخريجه.

(٤) جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٤/ ٥٦٢) عن أبي كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح عليه باب فقر أو كلمة نحوها، . . .وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٣١)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٤١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (ص ٩).

(٥) سبقت ترجمته ص ١١٣٤.

(٦) لم أعثر عليه في مصنف عبدالرزاق ولم أجد من عزاه إليه، والحديث مع القصة =

وكما روى أبو سليمان الخطابي في غريبه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: مكسبة فيها بعض الريبة خير من المسألة[1].

وقد قال شاعر العرب:

لمَالُ المرء يصلحه فيغني ... مفاقره أعفُّ من القنوعِ[2]

يعني من السؤال.

ودخل عبدالله بن الزبير يومًا على معاوية رضي الله عنه فقال له معاوية رضي الله عنه: إنك تقول الشعر فأنشدني شيئًا من شعرك، قال: حضرتني ثلاثة أبيات، قال: هاتهن. قال: على أن تهب لي ثلاثمائة ألف درهم، قال معاوية رضي الله عنه: أغليت جدا، فقال عبدالله بن الزبير رضي الله عنه: لك الإقالة، قال: أنشد ولك ذلك، فقال رضي الله عنه:

بلوت الناس قرنًا بعد قرن ... فما شيء بأفضل من نوالِ

وذقت مرارة الأشياء طرا ... فما طعم أمرَّ من السؤالِ

= أخرجها البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٢٨)، والحارث في مسنده (١/ ٥٢٩)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٣٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٧٠٩)، وابن عبدالبر في التمهيد (٤/ ٢١٣) كلهم من طرق عن الحسن البصري، وأورده الحافظ في ترجمة قيس بن عاصم في الإصابة (٣/ ٢٤٢) وعزاه إلى ابن سعد في الطبقات من طريق الحسن عن قيس بن عاصم وحسنه. ولم أعثر عليه في الطبقات من طريق الحسن وإنما عثرت عليه من طريق قتادة عن مطرف عن حكيم بن قيس عن أبيه به (٧/ ٣٦) ويبدو أن طريق الحسن هذا في المواضع المفقودة من الطبقات. قال الألباني في صحيح الأدب (ص٣٦٠) عن إسناد الطبقات: معضل، وقال في الحديث من طريق الحسن إنه حسن لغيره.

(١) ذكره الخطابي تعليقًا في غريبه (٢/ ٥٦٠).

(٢) عزاه ابن منظور في لسان العرب (٨/ ٢٣١) إلى الشماخ، وهو في ديوانه (ص ٢٢١).

ولم أر في الخطوب أشدَّ هولا وأصعب من معاداة الرجالِ[١]

فوصله معاوية رضي الله عنه بثلاثمائة ألف درهم ففرقها عبدالله يمنة ويسرة ودخل منزله وليس معه منها شيء.

وكان مطرف بن الشخير[٢] رحمه الله تعالى يقول: من أراد منا حاجة فليرفعها في رقعة، ولا يواجهني بها، فإني أكره أن يُرى عليه ذلُ المسألة[٣].

وكذا يروى عن يحيى بن خالد البرمكي[٤] وقد تمثل بقول القائل:

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله عوضا وإن نال الغنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال وزنته رجح السؤال وخف كل نوال[٥]

---

(١) الأبيات للأفوه الأودي كما في ديوانه ص ١٠٤، دار صادر، لا لابن الزبير كما يوهم سياق القصة، والقصة ذكرها السيوطي بسياق آخر وعزاها إلى الطيوريات، وفيها التصريح بأن الأبيات للأفوه، وليس فيها أن ابن الزبير فرق الدراهم، والأبيات دون القصة في المستطرف (١/ ٣٥١).

(٢) الحرشي العامري، أبو عبدالله، زاهد عابد، من كبار التابعين، له كلمات في الحكمة مأثورة، ولد في حياة النبي ﷺ، أقام بالبصرة، وبها وفاته سنة ٨٧هـ.

انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ١٩٨)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (١٠/ ١٧٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٠).

(٤) أبو الفضل، الوزير البرمكي، مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه، قلده الرشيد أمره ودفع إليه خاتمه، واستمر يعلو شأنه إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في الرقة إلى أن مات سنة ١٩٠هـ.

انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١٠/ ٢٠٤)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٢٤٣).

(٥) ذكرها أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٠) بدون نسبه.

وأما سؤال الدعاء وطلبه من أهل الخير والصلاح فذاك غير مكروه عندهم، ففي الصحيحين أن أم أنس[(١)] رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ادع لابني[(٢)]، وفي لفظ «لخادمك»[(٣)] قال أنس: فدعا لي بكل خير، فكان في آخره: اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيه[(٤)].

وصح في البخاري عنه رضي الله عنه أنه قال: دفنت لصلبي إلى مقدم الحجاج البصرة، مائة وبضعًا وعشرين[(٥)].

وقال ابن قتيبة: ثلاثة من أهل البصرة لم يموتوا حتى رأى كل واحد منهم مائة ذكر من صلبه:

أنس بن مالك، وأبوبكرة[(٦)]، وخليفة بن بدر[(٧)]، ذكره في المعارف.

---

(١) سبقت ترجمتها.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك (٤/ ١٩٢٨): «هذا أنيس ابني أتيتك به يخدمك فادع الله له».

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات، باب دعوة النبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله (٥/ ٢٣٣٦)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضل أنس بن مالك (٤/ ١٩٢٨).

(٤) المصادر السابقة.

(٥) أخرجه في الصوم، باب من زار قومًا فلم يفطر عندهم (٢/ ٦٩٩)، وبنحوه عند مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك (٤/ ١٩٢٩)، وغيرهم.

(٦) نفيع بن حارث الثقفي، من أهل الطائف، تدلى ببكرة من حصن الطائف إلى النبي ﷺ فسُمّي بأبي بكرة، مات سنة ٥٢هـ. انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٥٣٧)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (١٠/ ٤٦٩).

(٧) لم أعثر على ترجمته.

[ك،١٦٩/أ] وكان لأنس رضي الله عنه بستان بالبصرة يحمل في السنة مرتين، وكان فيه ريحان يجيء منه ريح المسك، وذكر هو والمدائني أنه مات لأنس في الطاعون الذي في زمن ابن الزبير سنة تسع وستين، الذي مات فيه في ثلاثة أيام في كل يوم سبعون ألفًا من البصرة، ثلاثة وثمانون ابنًا، ومات لعبدالرحمن بن أبي بكرة أربعون ابنا.

قال في شرح مسلم: فيه طلب الدعاء من أهل الخير، وجواز الدعاء بكثرة المال والولد والبركة فيهما.

وأما قوله ﷺ لأم حبيبة[1] لما سألت أن يمتعها الله بزوجها عليه الصلاة والسلام، وأبيها، وأخيها: إنك سألت الله تعالى لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة، لا يعجل منها شيء قبل حله، ولا يؤخر منها شيء بعد حله، فلو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار، وعذاب في القبر كان خيرًا. رواه مسلم[2]، فلم ينه، ولم يقل إن الدعاء لا أثر له في زيادة العمر، إنما أرشد إلى الأفضل لأنه عبادة، فإن عند أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان[3] «لا يرد القدر

---

(١) أم المؤمنين رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية، زوج النبي ﷺ، تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة زوجها بعد أن خرج بها مهاجرًا عن مكة إلى أرض الحبشة مع المهاجرين ثم افتتن وتنصر، وكان وليها النجاشي وقيل عثمان بن عفان، توفيت سنة ٤٤هـ. انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٢٩٦)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها، لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر (٤/ ٢٠٥٠)، وأحمد في المسند (١/ ٣٩٠)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ٢١٢)، وغيرهم.

(٣) سبقت ترجمته ص ١٥٣٣.

إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر». وإسناده ثقات[١]، ورواه الترمذي من حديث سلمان بإسناد جيد، وقال حسن غريب[٢]، ورواه الحاكم في صحيحه وقال صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان أيضًا في صحيحه وزادا «وإن الرجل يحرم الرزق بالذنب يذنبه»[٣].

ولمسلم أن النبي ﷺ قال عن أويس القرني[٤]: «فمن لقيه منكم فليستغفر لكم»[٥]

وفي لفظ أنه قال لعمر: «إن استطعت أن يستغفر لك فافعل»[٦].

ثم قال في شرح مسلم عند ذلك: فيه طلب الدعاء والاستغفار من أهل الصلاح وإن كان الطالب أفضل منهم[٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب في القدر (١/ ٣٥)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٨٠)، قال البويصري في مصباح الزجاجة (١/ ٦١): سألت شيخنا أبا الفضل العراقي عن هذا الحديث فقال: حسن. وقال الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٢٢): حسن دون «وإن الرجل».

(٢) أخرجه في القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء (٤/ ٤٤٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والطبراني في الكبير (٦/ ٣٠٨)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه في المستدرك (١/ ٦٧٠) من حديث ثوبان، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٥٣).

(٤) هو أويس بن عامر القرني، سيد التابعين، ناسك عابد، مخضرم، قتل في صفين مع علي بن أبي طالب. انظر: الطبقات، ابن سعد (٦/ ١١١)، حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ٧٩).

(٥) أخرجه في فضائل الصحابة، باب من فضائل أويس القرني (٤/ ١٩٦٨).

(٦) صحيح مسلم (٤/ ١٩٦٩).

(٧) شرح مسلم، النووي (١٦/ ٩٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى المصرية: لا بأس بطلب الناس بعضهم من بعض ذلك، لكن أهل العلم والفضل ينوون بذلك أنه إذا دعا لهم كان له من الأجر أعظم من أجره لو دعا لنفسه، وذكر قوله ﷺ: يا علي، عُمَّ في دعائك؛ فإن فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض(١).

وقوله لعمر: لا تنسانا يا أخي من دعائك(٢).

قال: وما زال أصحابه يسألونه الدعاء لهم.

رجعنا إلى الحديث، إذ قد طال بنا المدى ولم نخرج عن المعنى، (قال) أي النبي ﷺ: **(وأتى)** أي: الملك **(الأعمى في صورته)** عمىً **(وهيئته)** فقرًا **(فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم)** في سفري **(إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك)** بعد إن كنت أعمى **(شاة أتبلغ بها في سفري. فقال)** أي الأعمى مجيبًا له: **(قد كنتُ أعمى فرد الله علي بصري فخذ ما شئت)** شكرًا للمنعم **(ودع)** من مالي الذي ترى **(ما شئت)**، فإنه من الله

---

(١) لم أعثر عليه في الفتاوى الكبرى المصرية، وهو بمعناه في مجموع الفتاوى (١/ ٧٩).

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء (٢/ ٨١) من حديث عمر بن الخطاب، والترمذي في الدعوات، باب رقم ١٠ (٥/ ٥٥٩) وقال: هذا حديث صحيح، وابن ماجه في المناسك، باب فضل دعاء الحاج (٢/ ٩٦٦)، وأحمد في المسند (١/ ٢٩)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٢٤١)، والبيهقي في سننه (٥/ ٢٥١)، كلهم من طرق عن عاصم بن عبيدالله عن سالم عن ابن عمر به، وعاصم بن عبيدالله ابن عاصم بن عمر بن الخطاب ضعيف، قال الحافظ في التقريب (ص ٢٨٥): ضعيف. وقال الألباني بعد إيراده الحديث في ضعيف أبي داود (ص ١٤٧): ضعيف.

وله، **(فوالله)** أي: الذي رد علي بصري وأغناني بعد فقري **(لا أجهدك)** أي لا أشق عليك وأتركك فيما أصابك من الجهد الذي تشكو من حالك، يقال: أجهده، ويجهده جهدًا، بالفتح. قال عبدالله العرجي:

أفي غيبتي عنكم ليال مرضتها تزيدينني ليلى على مرضي جهدا

(بشيء أخذته لله) تعالى. فقد حصر قصده لله وحده حذرًا من القوادح في الإخلاص، **(فقال)** أي: الملك عند ذلك: **(أمسك عليك)** أي: مالك الذي بذلته لي، لا أنه أمره بالبخل والشح، فإن ذلك خلق مذموم لا تأمر به الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد يكون لمناسبة الأشياء ومصاحبتها تأثير كما وصف النبي ﷺ أصحاب الإبل بالغلظة، وأصحاب الغنم باللين والسكينة[1]، وسيأتي الكلام على هذا المقام قريبًا إن شاء الله تعالى لتعلقه بذلك، ثم أخبره بحقيقة ذلك بأنه إنما هو ابتلاء من الله تعالى لهم، فقال: **(فإنما ابتليتم)** أيها الثلاثة، والابتلاء الاختبار، يأتي في الخير والشر، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] ثم أخبره بجزاء فعله فقال: **(فقد رضي الله عنك)** أي: بقولك وعزمك على الفعل، ورضاك عن ربك ومعرفتك به، وشكرك لنعمته، وأنك له وبه وإليه، **(وسخط على صاحبيك)** بكفرهما لنعمة الله عليهما. **(أخرجاه)** في

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب قول الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ (٣/ ١٢٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «الفخر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم، والإيمان يمان، والحكمة يمانية».

ومسلم في الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان فيه (١/ ٧٢) بلفظ: «الفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفدادين، أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم»، وغيرهم.

صحيحيهما[1]، وبهذا يعلم أن الفلاح مقرون بوقاية الله العبد شح نفسه، وبه يعرف فضيلة الإفضال والإيثار، وقبح نتيجة الشح الذي هو غاية البخل وشدته، الذي منه فعل هذين، وقد أنشد أبو العتاهية في استقباح من اتصف بذلك فقال:

إنك لو [تستنشق][2] الشحيحا   وجدته أنتن شيء ريحا

ولذلك قال تعالى في سياق تنويهه بفضل الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعلنا ممن سلك هديهم ووالاهم: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩]، فلما ذكر منهم الإيثار على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وذلك أنهم وُقوا شح أنفسهم، دل على أن المانع عن الإيثار هو الشح الذي هو غاية البخل وشدته، وقد ذكره سبحانه في سياق الإنفاق في قوله ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ﴾ [التغابن: ١٦]، فمن أخلى لفظ الشح عن البخل فما درى معناه، ولا ورد بالقول مغناه؛ إذ الحريص على جمع المال ولو من غير حله لا يسمى بذلك وحده شحيحًا البتة، حتى يكون مع ذلك بخيلاً، يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ﴾ [الأحزاب: ١٩]، إذ قد علم بالاضطرار أنهم مع حرصهم على الغنيمة بخلاء عليها، فدل بهذا أن الشح هو شدة البخل، وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ﴾ [الأحزاب: ٩١] يدل أنهم لا يطلبون الخير ولا يحرصون عليه بالمعاونة للمسلمين فيما ينوبهم من جهاد وغيره، فهم قد وصلوا معهم إلى غاية البخل وهو الشح، ولهذا وصفهم الله سبحانه بذلك، ومن الشح كالصادر من الأبرص والأقرع، فحملهما أن جحدا أفضال

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) في [ك] و[م]: (تستنشىء)، والمثبت من الديوان ص ٤٩٤ ط دار بيروت ١٤٠٦هـ.

المنعم جل وعلا، وخرقه العادة لهما بتصحيح جسديهما في لحظة، مع إعطائهما ما أعطاهما من الغنى، فجحدا الأول جملة، وأضافا الثاني إلى قوة السبب في تحصيله، وقطعا نظرهما على ذلك مع كذبهما فيه.

وفي الطبراني عن خالد بن زيد بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه مرفوعًا: «ثلاث من كن فيه وقي شح [ك،١٧٠/ب] نفسه: من أدى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة»(١).

وهذه الكلمة الأخيرة كلمة جامعة عامة، لها أذيال وشعب وتقريبها أنه: ما ينوب الإنسان من واجب وتفضل ومندوب.

وراوي هذا الحديث مختلف في صحبته قاله الذهبي، قيل فيه خالد بن زيد، وقيل بن يزيد، وعده البخاري وابن حبان في التابعين(٢).

قال ابن حجر في الإصابة: إسناده حسن(٣). وقال غيره: فيه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع ضعيف(٤). وأقل أحواله أنه يصلح للاستشهاد على ما ذكرنا في الشح(٥)، وأوضح منه وأصح حديث الصحيحين في قصة

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ١٨٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ١٨١).

(٢) الإصابة، ابن حجر (١/ ٤٠٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) قال الحافظ في التقريب (ص ٨٨): إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع الأنصاري، أبو إسحاق المدني ضعيف.

(٥) وله شاهد من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه بنفس اللفظ أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٩٤) من طريق زكريا بن يحيى الوقار حدثنا بشر بن بكر عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر به، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦٨): فيه زكريا بن يحيى الوقار وهو ضعيف.

هند رضي الله عنها في قولها: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم. فقال ﷺ: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف.

وهو فيهما من حديث عائشة[1] رضي الله عنها، فالسخاء ينشأ من حقيقة التوحيد، والتوكل والثقة بالله تعالى وبوعده وضمانه للرزق؛ فإن هذه هي أغصان التوحيد، والبخل والشح ينشأ من الشرك، وهو الوقوف مع الأسباب دون مسببها، وينشأ أيضًا ذلك من الشك بالوعد.

ومن شرف السخاء والجود أن الله قرن اسمه بالإيمان فوصف أهله بالفلاح، والفلاح أجمعُ سعادة الدارين، إذ المفلحون هم المنجحون الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا مما عنه هربوا، وحق للجود أن يقرن بالإيمان، إذ لا شيء أخص منه به، ولا أشد مجانسة له منه، فمن صفة المؤمن انشراح الصدر ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وهما من صفات الجواد والبخيل، لأن الجواد يوصف بسعة الصدر، والبخيل بضيقه، فالسخاء هيئة في الإنسان داعية إلى بذل المقتنيات حصل معه البدل أم لا، ومقابله الشح، والجود هو بذل العطاء ويقابله البخل، هذا هو الأصل، وقد يستعمل كل منهما محل الآخر، وقال بعضهم: السخاء أتم من الجود وأكمل وضده البخل، وضد السخاء الشح، والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب عادة بخلاف ذينك، فإنهما من ضرورات الغريزة، وكل سخي جواد ولا عكس، والجود يتطرق إليه الرياء ويمكن تطبعه،

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل، فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف (٥/ ٢٠٥٢)، ومسلم في الأقضية، باب قضية هند (١/ ١٣٣٨)، وغيرهم.

بخلاف السخاء، فالسخاء يدل على كرم نفس صاحبه، وتصديق إيمانه بالاعتماد في الخلف[1] على من ضمن الرزق وهو على كل شيء قدير، فمن أخذ بهذا الأصل وعقد طويته عليه فقد استمسك بالعروة الوثقى، الجاذبة إلى ديار الأبرار، والبخل والشح يدلان على ضعف الإيمان وعدم الوثوق بضمان الرحمن، وذلك جالب إلى الخسران وقائد إلى الهوان والحرمان.

فعند الإمام أحمد ومسلم والبخاري في الأدب عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، وحملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[2].

وهذا يدل على أنه لا يقال للبخيل شحيح، إلا إذا كان مع بخله حريصًا كما قاله الثعلبي، وقد قال الشاعر يعرّض بعبدالله بن الزبير وكان رضي الله عنه يُبخّل[3]:

قدْنِيَ من نصر الخُبيبين قدِ ليس الإمام بالشحيح المُلحِدِ

يعني بالخبيبين عبدالله وأخاه مصعبًا، وكانا يسميان بذلك.

وروى القاضي أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني بسند فيه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد عن أبي عبيدة قال: لمابلغ حاتم طي قول

---

(1) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[سبأ: ٣٩].

(2) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١٧١)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٦)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٢٣)، وغيرهم.

(3) أي ينسب إلى البخل وهذا يعارض ما ذكره في القصة التي أوردها ص١٨٠٤؛ ففيها أن ابن الزبير فرّق ثلاثمائة ألف درهم وصله بها معاوية، والبيت في اللسان (٣/ ٣٨٩) منسوبًا لحميد بن ثور.

المتلمس[1]:

قليل المال تصلحه فيبقى ... ولا يبقى الكثير على الفساد

وحفظ المال خير من فناه ... وعسف في البلاد بغير زاد[2]

قال ماله قطع الله لسانه حمل الناس على البخل فهلا قال:

فلا الجود يُفني المال قبل فنائه ... ولا البخل في مال الشحيح يزيد

فلا تلتمس مالا [بعيشٍ مقتّرٍ] ... لكل غد رزق [يعود] جديد

ألم تر أن المال غاد ورائح ... وأن الذي يعطيك [ليس يبيد][3]

وقد أحسن حاتم في قوله: وأن الذي يعطيك غير بعيد[4]. ولو كان مسلمًا لرجي له بما أتى به من هذا ما يرتبط[5] به في معاده، وقد أتى كتاب الله في هذا المعنى بما يعجز الخلق عن مساواته في قوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية.

---

(١) هو جرير بن عبد المسيح، من بني ضبيعة، شاعر جاهلي مقل. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ١٧٩)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٤٤٦).

(٢) الأغاني، الأصفهاني (٢٤/ ٢٥٧). وقد كتب في الأصل فوق (فناه): ضياع، وفوق (عسف): طوف، وهي روايات للبيت.

(٣) في الأصل: (تعيش مقترًا) (يعد) (غير بعيد)، والتصويب من خزانة الأدب (٣/ ٧٢، ٧٣).

(٤) سبق التنبيه في الحاشية السابقة إلى أن الصواب: ليس يبيد؛ إذ على روايةغير بعيد تكون القافية مكسورة على خلاف بقية الأبيات.

(٥) كذا بالأصل، ولعل صوابها: يغتبط.

وقد قال حاتم أيضًا فيما رواه الزبير بن بكار في أخباره مما يجانس ما تقدم عنه جوابًا لعذّاله في الإنفاق والجود:

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد وما كنت لولا ما تقولون مفسدا

كلوا اليوم من رزق العباد وأبشروا فإن على الرحمن رزقكم غدا[١]

وقد جعل هذا الجواد الجودَ مقابلاً للشح الذي هو شدة البخل، حيث قال فيما رواه الزبير بن بكار في أخباره:

إذا ما البخيل الخِب هرّت كِلابُه وشق على الضيف الغريب عَقُورُها

[ك، ١٧٠/أ]

فإني جبان الكلب بيتي مُوَطّأٌ أجود إذا ما النفس شح ضميرها[٢]

ومن هذا قوله تعالى بعد ذكره الزوجين وأن الصلح بينهما خير من الفرقة والنشوز: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]. أي: جبلت على الشح وهو شدة البخل، فكأنها حاضرته لا تغيب عنه، والمعنى أن المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها، والرجل لا يكاد يسمح عليها بنفسه إذا أحب غيرها.

فاتضح بما ذكرنا أن الشح شدة البخل، فعند الديلمي في الفردوس من طريق علال بن علي الشرفي عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا: حسب المرء من البخل أن يقول: آخذ حقي كله ولا أدع منه شيئًا[٣]، انتهى.

---

(١) الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار (ص ٤٤٠).

(٢) الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار (ص ٤٤٩).

(٣) عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الديلمي في الفردوس ولم أعثر عليه في المطبوع، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٩٧): ضعيف جدا.

إذ من البخل بل الشح والدناءة المضايقة في التافه، ومن ثم رد الفقهاء الشهادة به، وقد قيل أن من قبح البخل أن صاحبه يعيش عيش الفقراء، ويحاسب حساب الأغنياء، فالبخل جلباب المسكنة، وفي الترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا، وقال غريب: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، ولَجاهل سخي أحب إلى الله سبحانه من عابد بخيل»[(١)].

ورواه ابن وهب عن جابر[(٢)] رضي الله عنه، والطبراني في الأوسط عن عائشة[(٣)]، وفي سنده عندهم جميعًا سعيد بن محمد الوراق قال الذهبي: ضعيف[(٤)]. وقال ابن حبان كالترمذي: الحديث غريب[(٥)]، وقال البيهقي تفرد به سعيد بن محمد الوراق وهو ضعيف. وهذا لا يوجب الحكم بوضعه كما ظنه أبو الفرج بن الجوزي[(٦)] رحمه الله.

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في السخاء (٤/ ٣٤٢) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن سعد عن الأعرج عن أبي هريرة إلا من حديث سعيد بن محمد. قد خولف سعيد بن محمد في رواية هذا الحديث عن يحيى بن سعيد، إنما يروى عن يحيى بن سعيد عن عائشة مرسلاً. وسعيد بن محمد الوراق قال الحافظ في التقريب (ص ٢٤٠): ضعيف.

(٢) وللحديث شواهد من حديث جابر وعائشة جمعها الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ١٨٤) وقال: ضعيف جدا. وقد أعل الدارقطني الحديث في العلل (٨/ ٢١٨) بالاختلاف والاضطراب في إسناده على يحيى بن سعيد.

(٣) المعجم الأوسط، الطبراني (٣/ ٢٧)، كلهم من طريق سعيد بن محمد الوراق.

(٤) ميزان الاعتدال، الذهبي (٢/ ١٥٦)، وكذلك الحافظ في التقريب (ص ٢٤٠).

(٥) روضة العقلاء (ص ٢٤٦).

(٦) الموضوعات، ابن الجوزي (٢/ ١٨١).

والمراد بالجاهل في الحديث هو الجاهل بما يعود نفعه على الناس من العلم، لا جهل ما لا بد منه من العلم في عمل الإنسان واعتقاده، وإلا فعابد عليم بما لابد منه متصفًا بالبخل خير من سخي جاهل بما لابد من علمه، ولو لم يكن في الإنفاق إلا ما في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم تصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»[1].

وفيهما عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: أَنْفِقْ ابنَ آدم أُنْفِقْ عليك[2].

وفيهما عن أسماء[3] رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك، ارضخي ما استطعت[4].

وفي مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا: أن تبذل الفضل خير

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب قول الله تعالى: فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى (٢/ ٥٢٢)، ومسلم في الزكاة، باب في المنفق والممسك (٢/ ٧٠٠)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في النفقات، باب فضل النفقة على الأهل (١/ ٢٠٤٧)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٢/ ٦٩٠)، واللفظ له، ورواه غيرهم.

(٣) بنت أبي بكر الصديق، آخر المهاجرين والمهاجرات وفاة، وهي أخت عائشة لأبيها، وأم عبدالله بن الزبير، عميت بعد مقتله وتوفيت بمكة سنة ٧٣هـ، هي وأبوها وجدها وابنها وزوجها صحابيون.

انظر: الطبقات، ابن سعد (٨/ ١٨٢)، حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ٥٥).

(٤) أخرجه البخاري في الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها وعتقها (٢/ ٩١٥)، ومسلم في الزكاة، باب الحث في الإنفاق، وكراهية الإحصاء (٢/ ٧١٣)، وغيرهم.

لك، وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على الكفاف، وابدأ بمن تعول[1].

وقد يمتحن الله سبحانه العبد بالدنيا ليشكر أم يكفر، ولهذا قال بعض أهل العلم: فتنة الضراء يصبر عليها البر والفاجر، ولا يصبر على فتنة السراء إلا صدّيق.

قال عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه يشكو تقصيره مع السرّاء: بلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا، وبلينا بفتنة السرّاء فلم نصبر[2].

ويُروى عن الإمام أحمد نحوه، وقد أتى في ذلك المثل السائر: «عند الامتحان يكرم المرء أو يهان»[3]، فلا إكرام أعلى من إكرام الله العبد على شكره، ولا إهانة أوضع من إهانته على كفره، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، فنعوذ بالله من الخذلان والحرمان، وطاعة الشيطان وغضب الرحمن، ونسأله التوفيق والتسديد والهداية لما يحب ويرضى، إنه كريم منان، فلا يغتر الإنسان بسعة فضل الله عليه، إذا لم يستعمل ذلك في طاعته ومراضيه فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، فينبغي للإنسان أن يشكر مولاه على ما أنعم به عليه في ماله وبدنه، ليستوجب بذلك الرضى منه والإكرام، والله الموفق.

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (٢/ ٧١٨)، والترمذي في الزهد، باب رقم ٢٢ (٤/ ٥٧٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٦٢)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٠).

(٣) انظر: مجمع الأمثال، الميداني (٢/ ٣٧)، موسوعة الأمثال العربية، د. إميل بديع (٤/ ٣٩٠).

الباب التاسع والأربعون

باب قول الله تعالى

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٠]

هذا الباب فيه مناسبة لما قبله في الابتلاء، **(قال)** أبو محمد علي ابن أحمد بن سعيد **(بن حزم)** الحربي الأموي مولاهم، الأندلسي الظاهري المشهور في المغرب بالعلم والفهم والحفظ والإتقان، كان شديدًا في متابعة الكتاب والسنة، وكان صاحب فنون وردود وزهد، وإليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم، أجمعُ أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسع في كلام [اللغة](١) والبلاغة والشعر والنثر والأخبار، آخر من روى عنه بالإجازة أبو الحسن شريح بن محمد(٢)، مات في جمادى الأول سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وفضائله كثيرة جمة، وله تصانيف كثيرة نافعة(٣).

(اتفقوا) حكاية منه عن اتفاق أهل العلم المعتد باتفاقهم في ذلك، على استحسان الأسماء المضافة إلى الله كعبدالله وعبدالرحمن وما أشبه ذلك،

---

(١) غير واضحة في الأصل.

(٢) الرعيني الإشبيلي، خطيب إشبيلية ومقرؤها ومسندها، توفي سنة ٥٣٩هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٢٠/ ١٤٢)، بغية الوعاة، السيوطي (٢/ ٣).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١/ ١٨٤)و معجم الأدباء، ياقوت (١٢/ ٢٣٥).
والمشهور أن وفاته سنة ٤٥٦هـ.

واتفقوا أيضًا (**على تحريم**) تسمية (**كل معبد لغير الله تعالى، كعبد العُزّى، وعبد هبل، وكعبد النبي، وكعبد الحسين، وكعبد (عمرو، وكعبد الكعبة، وما أشبه ذلك**) من كل اسم أضيف لغير الله تعالى، (**حاشا عبدالمطلب**)[1] بجر عبدالمطلب، إذ حاشا على الصحيح عند أهل اللسان العربي حرف جر واستثناء، وبه قطع سيبويه وغيره، ومعناها تبرئة المستثنى عن ما نسب إلى المستثنى منه، كما قال الشاعر:

حاشا أبي ثوبان إن به ... ظنا على الملحاة والشتم[2]

والمعنى: أنه نزه أباه عن خصال ذميمة وأخبر أن به انبساطًا على من يخاطبه بالملحات وهو الكلام القبيح والشتم، يقال: ملحة وملحات وهو عندهم من الأضداد، واختار المبرد في «حاشا» الفعلية من حاشا الشيء إذا جانبه، ومنه «حاشا بالقوم» كما في غزوة مؤتة، حيث حاشا بهم خالد بن الوليد، وكما قال النابغة الذيباني:

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشْبِهُهُ ... وما أحاشي من الأقوام من أحد[3]

فاستثنى ابن حزم رحمه الله وكذا غيره من أهل العلم عبدالمطلب من التحريم لأن أصل تسميته بذلك ليست للتعبد من دون الله تعالى، إذ لم يقصد في موضوعها التشريك في التسمية، إنما اسمه شيبة كما قاله

---

(١) مراتب الإجماع، ابن حزم (ص ١٥٤).

(٢) البيت للجميح الأسدي في الأصمعيات (ص ٢١٨)، لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ١٨٢).

(٣) ديوان النابغة الذيباني (ص ٢٠)، لسان العرب، ابن منظور (١٤/ ١٨١).

ابن إسحاق وغيره[١]، وقيل عامر، قاله ابن قتيبة[٢]، والصحيح الأول، قال شاعر قريش حين استسقى لقريش على أبي قبيس[٣]، وهو رافع رسول الله ﷺ على عاتقه وهو غلام قد أيفع، ودعا متوسلاً برسول الله ﷺ فسُقوا، فقال الشاعر [ك،١٧١/ب] المذكور:

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا[٤]

وهو خبر طويل رواه أبو سليمان الخطابي بسنده إلى مخرمة[٥] بن نوفل رضي الله عنه عن أمه رقيقة بنت أبي صيفي[٦] تركنا ذكره خشية الإطالة، وذكرنا منه طرفًا في الباب الثالث والعشرين، وسبب التسمية بعبدالمطلب أنه كان مع أمه سلمى النجّارية عند أخواله في المدينة، فلما شب وترعرع أُخبر عمه المطلب عنه، فركب إليه وأخذه من عند أمه، في قصة طويلة رواها ابن إسحاق وغيره، فاستردفه على بعيره، فلما قدم به مكة وكان فيه دُهْمَةٌ من أخواله بعد مخالطتهم بالنسب

---

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (١/ ١٣٧).

(٢) المعارف، ابن قتيبة (ص ٤٣).

(٣) اسم الجبل المشرف على المسجد الحرام، وجهه إلى قعيقعان والمسجد الحرام بينهما، وأبو قبيس من شرقي مكة، وقعيقعان من غربيها.
انظر: معجم البلدان، ياقوت (١/ ٨٠).

(٤) البيت لرقيقة بنت صيفي الهاشمية في الإصابة، ابن حجر (٤/ ٢٩٦).

(٥) أبو صفوان الزهري، أمه رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم، وهو والد المسور بن مخرمة الصحابي المشهور، من مسلمة الفتح، توفي سنة ٥٤هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٣٧٠)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٣٩٥).

(٦) الهاشمية بنت عم العباس وإخوته من بني عبدالمطلب، أدركت رسول الله ﷺ وأسلمت وهي التي أخبرت الرسول ﷺ باجتماع قريش على قتله فتحول عن فراشه وبات عليه علي.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ٢٩٦)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٣٠٤).

الحبشة مع قومهم الأزد بسد مأرب، ورأته قريش خلف عمه، ظنت أنه مملوك له، فقالوا عند ذلك: عبدالمطلب. فيقول المطلب: ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم، فصار بذلك اسمًا له، لا يعرف ولا يدعى إلا به، فلذلك استثني.

ولهذا قال النبي ﷺ يوم حنين[1]:

أنـــا النبـــي لا كـــذب أنـــا ابـــن عبـــدالمطلـــب[2]

ولم يقصد بذلك الإنشاء، وإنما الإخبار بالاسم الذي عُرف به جده عبدالمطلب، وباب الإخبار أوسع من باب الإنشاء، وقد ذكر ذلك الأصوليون، ولم يقصد أيضًا بذلك الفخر فإنه كان يكرهه، ولا العصبية فإنه كان يذمها، فنسب إليه نفسه لشهرته به للتعريف، لأن أباه مات وهو ﷺ حمل فكفله جده، وللتذكير لما أخبرهم به الكهنة من ميلاده أنه حان أن يظهر من بني عبدالمطلب نبي، فذكّرهم به لاشتهار ذلك عند العرب، وعدّ بعضهم هذا من الشعر لموافقته الوزن، وليس كذلك؛ فإنه لم يُقصد، فلا يسمى شعرًا، ويصدّق ما قلنا في دهمة الأنصار رضي الله عنهم قول حسان يمدح من الأزد غسان:

فُضلُ اليدين كريمةٌ أحسابُهم بيضُ الوجوه من الطراز الأولِ[3]

---

(١) حنين واد قبل الطائف، وفيه وقعت المعركة المعروفة به، وذلك سنة ثمان من الهجرة، بعد فتح مكة، وكان النصر فيها حليفًا للمسلمين.

انظر: المغازي، الواقدي (٣/ ٨٨٥)، معجم البلدان، ياقوت (٢/ ٣١٣).

(٢) أخرج هذا البيت ضمن قصة غزوة حنين البخاري في الجهاد، باب من قاد دابة غيره في الحرب (٣/ ١٠٥١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٣/ ١٤٠١)، كلاهما من حديث البراء بن عازب.

(٣) البيت في ديوان حسان (ص ١٢٢) بلفظ: =

(وعن ابن عباس في الآية قال: لما تغشاها آدم حملت حملاً خفيفًا) أي خف عليها، ولم تلق منه ما تلقى الحوامل غالبًا من الأذى، أو محمولاً خفيفًا وهو النطفة على معنى من جعله المحمول، فاستمرت بالحمل وقامت به وقعدت. ولهذا قال: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. قال مجاهد: استمرت عليه[١]، وروي عن الحسن[٢] وإبراهيم[٣] والسدي[٤]. وقال ميمون بن مهران عن أبيه[٥]: استخفّته، ومعنى قول أيوب: استمرت بالماء فقامت به وقعدت: استبان حملها، فيما قاله ابن جرير.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: شكّت أحبلت أم لا؟[٦].

(فأتاهما إبليس فقال: إني لصاحبكما الذي أخرجكما من الجنة لَتُطيعُنّي) فطلب منهما الشرك في الطاعة، ثم استحثهما على ذلك بالتخويف بعد الطلب، وبهذا يُعرف أن الشيطان لا يدق له في ابن آدم طمع، فقال في تخويفه: **(أو لأجعلنّ له قرنى أيّل)**. الأيل بتشديد المثناة التحتية مفتوحة مع ضم الهمزة وكسرها ذكره أبو البقاء، وبكسر

= بيض الوجوه كريمة أحسابهم شُمّ الأنوف من الطراز الأول

وهو هكذا في الأغاني للأصبهاني (١٥/ ١٥٤)، ولسان العرب، ابن منظور (٥/ ٣٦٨).

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ١٤٤)، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ١٤٤)، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٥).

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ١٤٤)، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٥).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٥)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٧٤).

(٦) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ١٤٤)، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٩/ ١٤٤).

الهمزة مع كسر المثناة المشددة وبفتح الهمزة أيضًا، مع كسر المثناة المشددة، وهو ذكر الأوعال، قيل إنه مولع بأكل الحيات، وربما لسعته فسالت دماؤه إلى نقرتين تحت محاجر عينيه، فتصير كالشمع، فيؤخذ بالأصبع درياقًا لسم الحيات، وهو البازهر[1] الحيواني، فالأيِّل من أسماء الوعول[2]. (فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن) يعدد أشياء يخوفهما بها، (سمِّياه عبدالحارث) هكذا طلب منهما الطاعة بأن يعبّدا له الاسم، (فأبيا أن يطيعاه) في ذلك، (فخرج) منها بأمر الله تعالى حالة كونه (ميتًا، ثم حملت) مر أخرى (فأتاهما فقال: إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة لتطيعنّي) فيما أمرتكما به بتسميته عبد الحارث، (أو لأجعلن له قرن أيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن) يعدد أشياء يخوفهما بها، (سمّياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه) في ذلك لعلمهما بما أراد منهما أنه معصية وتشريك في التسمية، ولهذا أسند إليهما الجعل في قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] بأن يسميا ولدهما عبد الحارث.

(فخرج) منها (ميتًا، ثم حملت) الثالثة (فأتاهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبدالحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾) [الأعراف: ١٩٠].

فانظر كيف لم يعطياه عند تخويفه لهما على أنفسهما، فلما رأيا

---

(١) اسم لهذا الدرياق ـ أي العلاج ـ يتخذ للعلاج من سم الحيات، وأجوده الأصفر وأماكنه بلاد الهند والسند وفارس، وله في دفع السموم خاصية عجيبة.
انظر: حياة الحيوان، الدميري (١/ ١٥٤).

(٢) المصدر السابق.

موت الولد أدركهما حبه فحملهما أن أشركا في الطاعة بتسميته عبد الحارث، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] فليحذر العاقل من فتنة هذين، فإن منهما يدخل عليه الشيطان، وليلزم في هذا المقام قوله في مخاطبة المؤمنين جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وليحذر الإنسان من الشيطان، فقد قال أبو ذر رضي الله عنه: إن من فقه الرجل أن يعلم من أين يأتيه الشيطان[١]. وليعلم أنه ليس بأفضل من أبويه، ولا أعلم منهما، ولا أعرف للشيطان. وقد قال سيد ولدهما على الإطلاق: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين[٢].

وقد أخرجهما من الجنة بتسويله حيث غرهما بدعوى نصحه بيمينه كما ذكر الله عنه في قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١ ـ ٢٢].

وعند الإمام أحمد وأبي داود من رواية مجالد عن عامر عن مسروق: أن عمر رضي الله عنه قال له: من أنت؟ قال مسروق بن [الأجدع][٣]. فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [الأجدع][٤] شيطان، ولكنك مسروق بن عبدالرحمن. قال عامر: قد قرأته في الديوان مسروق بن

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٥/ ٢٢٧١)، من حديث أبي هريرة، ومسلم في الزهد والرقائق، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٤/ ٢٢٩٥)، وغيرهم.

(٣) في الأصل والمسودة: «الأخدع» وهو خطأ.

(٤) في الأصل والمسودة: «الأخدع» وهو خطأ.

عبدالرحمن فقلت: ما هذا؟ قال: هكذا سماني عمر[١].

(رواه) الإمام العامل الخيّر العابد الحافظ الثقة الثبت، أبو محمد عبدالرحمن (ابن أبي حاتم)[٢] ابن الحافظ الكبير محمد بن إدريس التميمي الحنظلي[٣] الدارمي، رحل به أبوه فأدرك الأسانيد العالية، قال الخليلي[٤]:

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب تغيير الاسم القبيح (٤/ ٢٩١)، وابن ماجه في الأدب، باب ما يكره من الأسماء (٢/ ١٢٢٩)، وأحمد في مسنده (١/ ٣١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣١١)، كلهم من طريق مجالد عن عامر عن مسروق به، وقال الألباني في ضعيف أبي داود (ص ٤٨٨): ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وسعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٤)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأعراف (٥/ ٢٦٧) من طريق عمر بن إبراهيم عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعًا، وأحمد في مسنده (٥/ ١١)، وابن جرير في تفسيره (٩/ ٩٩)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢١٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٥) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة.

وفي إسناده عمر بن إبراهيم العبدي قال الحافظ في التقريب (ص ٤١٠): صدوق في حديثه عن قتادة ضعف، وهنا شيخه قتادة.

وفيه أيضًا عنعنة الحسن البصري وهو موصوف بالتدليس، وفيه أيضًا الخلاف في سماع الحسن من سمرة، ثم إن الحسن فسر هذه الآية ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ بخلاف الحديث فقال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم... كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٤) حيث ضعف حديث الباب وقال: هذا حديث معلول من ثلاثة أوجه. وقال الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ١٧٩): حديث منكر، وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (١/ ٣٤٨).

(٣) تقدمت ترجمة المؤلف له ص ٨٩٠.

(٤) الخليل بن عبدالله، أبو يعلى الخليلي القزويني، ثقة حافظ، عارف بالرجال والعلل، توفي سنة ٤٤٦هـ.

انظر: الإكمال، ابن ماكولا (٣/ ١٧٤)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٧/ ٦٦٦).

أخذ علم أبيه وأبي زرعة[1] وكان بحرًا في العلوم والمعرفة ثقة حافظًا زاهدًا له الجرح والتعديل والتفسير والرد على الجهمية، وكان قد كساه الله المهابة، توفي سنة سبع [وعشرين][2] وثلاثمائة[3].

(وله بسند صحيح عن قتادة قال: جعلا له شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته[4] **وله)** أي ابن أبي حاتم **(بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قال: أشفقا ألا يكون إنسانًا**[5]**)**.

(وذكر) أيضًا أن **(معناه)** مروي [ك،١٧١/أ] **(عن الحسن)**[6] بن أبي الحسن البصري المشهور بالعلم والفضل والزهد والعبادة رحمه الله تعالى، ولد في خلافة عمر وحنكه بيده وكانت أمه تخدم أم سلمة أم المؤمنين، فربما غابت فتعطيه أم سلمة ثديها فيدر عليه، فكانوا يقولون فصاحته من بركة ذلك، وهو من كبار التابعين[7].

(وسعيد)[8] بن جبير **(وغيرهما)**[9]، وهذا على تقدير صحة هذه

---

(١) الرازي، عبيدالله بن عبدالكريم، الإمام، سيد الحفاظ، محدث الري، توفي سنة ٢٦٤هـ.
انظر: الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (١/ ٣٢٨)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٣/ ٦٥).

(٢) في الأصل: وثلاثين، والتصويب من مصادر ترجمته.

(٣) انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (٣/ ٨٢٩)، لسان الميزان، ابن حجر (٣/ ٤٣٢).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ١٤٧)، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٦).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٦).

(٦) أخرجه عبدالرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٣/ ٦٢٦).

(٧) انظر ترجمته: الطبقات، ابن سعد (٧/ ١٥٦)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٥٦٣).

(٨) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ١٤٧).

(٩) انظر: تفسير ابن جرير (٩/ ١٤٧)، الدر المنثور، السيوطي (٣/ ٦٢٦).

الآثار المتقدمة في معنى الآية الكريمة، فقد رويت مرفوعة إلى النبي ﷺ، فعند الإمام أحمد عن الحسن عن سمرة بسند صحيح عند من يصحح سماع الحسن من سمرة[1] عن النبي ﷺ قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال سميه عبدالحارث فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره[2].

ورواه ابن جرير[3] والترمذي وقال حسن غريب[4]، والحاكم وقال صحيح الإسناد ولم[5] يخرجاه، وروي موقوفًا على سمرة بن جندب

---

(١) اختلف أهل العلم في سماع الحسن من سمرة، وقال الذهبي في سير الأعلام: «اختلف النقاد في الاحتجاج بنسخة الحسن عن سمرة، وهي نحو من خمسين حديثًا، فقد ثبت سماعه من سمرة فذكر أنه سمع منه حديث العقيقة... قال قائل: إنما أعرض أهل الصحيح عن كثير مما يقول فيه الحسن: عن فلان، وإن كان مما قد ثبت لقيه فيه فلان المعين، لأن الحسن معروف بالتدليس، ويدلس عن الضعفاء، فيبقى في النفس من ذلك، فإننا وإن ثبتنا سماعه من سمرة، يجوز أن يكون لم يسمع فيه غالب النسخة التي عن سمرة والله أعلم». بمعنى لابد وأن يصرح بالسماع.

وقال الحافظ في التهذيب: «وقال يحيى القطان وآخرون هي كتاب - أي رواية الحسن عن سمرة - وذلك لا يقتضي الانقطاع»، وقال بعد حديث الأمر بالصدقة والنهي عن المثلة: «وهذا يقتضي سماعه منه لغير حديث العقيقة»، وقال بنحو كلام الذهبي في التقريب (ص ١٦٠). انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٥٨٧)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٢/ ٢٦٩).

(٢) مسند أحمد (٥/ ١١).

(٣) تفسير ابن جرير للطبري (٩/ ١٤٦).

(٤) أخرجه في تفسير القرآن، باب ومن سورة الأعراف (٥/ ٢٦٧).

(٥) المستدرك (٢/ ٥٩٤)، وتعقب الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ٣٤٨) الحاكم والذهبي في قولهم عن الحديث صحيح الإسناد: «قلت: وليس كما قالوا، فإن =

رضي الله عنه كما قال ابن جرير[1]، وروي عن الحسن أنه قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم. وفي لفظ عنه: عُني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، وعنه: اليهود والنصارى هودوا ونصروا أولادهم[2].

والآثار عن السلف مختلفة فيمن عني في الآية. قال العلماء ـ رحمهم الله ـ بالآثار منهم ابن الجوزي وغيره: قد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما جماعة من أصحابه مجاهد وسعيد بن المسيب وابن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الأخرى قتادة والسدي وغير واحد من السلف والخلف، ومن المفسرين جماعة لا يحصون كثرة قالوا: وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب[3].

فأخبارهم ثلاثة أقسام، منها ما عُلمت صحته بما دل عليه كتاب أو

= الحسن في سماعه من سمرة خلاف مشهور، ثم هو مدلس ولم يصرح بسماعه من سمرة، وقال الذهبي في ترجمته من الميزان: «كان الحسن كثير التدليس، فإذا قال في حديث: «عن فلان» ضعف احتجاجه».

ومما يبين ضعف هذا الحديث الذي فسر به قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ...﴾ الآية، أن الحسن نفسه فسر الآية بغير ما في حديثه هذا، فلو كان عنده صحيحًا مرفوعًا لما عدل عنه، فقال في تفسيرها: كان هذا في بعض أهل الملل. ذكر ذلك ابن كثير (٢/ ٢٧٤) من طرق عنه، ثم قال: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٤٦).

(٢) أخرجها ابن جرير في تفسيره (٩/ ١٤٨)، وتقدم كلام ابن كثير (٢/ ٢٧٤) واستحسانه لهذا التفسير.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٥).

سنة، ومنها ما علم كذبه بما دل على خلافه أحدهما، ومنها ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله ﷺ فيما صح عنه: «حدثوا عن أهل الكتاب ولا حرج»[1]، وهو الذي لا يصدّق ولا يكذّب لقوله ﷺ: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[2].

وهذا الأثر هل هو من القسم الثاني أو الثالث؟ فيه نظر للعلماء رحمهم الله، فمن حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث[3].

ومن طعن فيه فعلى مذهب الحسن البصري فيما صح عنه في هذا، أنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون[4].

ولهذا قال بعض المفسرين: المراد بهذه الآية هو الذي خلق كل واحد منكم من ذكر وأنثى من جنسه، ثم بعد ذلك صار من الخطاب

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣/ ١٢٧٥) من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار».

ولم أجده بلفظ «أهل الكتاب» علمًا بأن المؤلف نقله من تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٥) وهو في سياق كلامه وهو عنده بلفظ «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

وأخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل (٥/ ٤٠)، وقال: حسن صحيح، والدارمي في سننه (١/ ١٤٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود في العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب (٣/ ٣١٧)، وأحمد في مسنده (٤/ ١٣٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ١٤٠)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٥١)، وقال الأرناؤوط في الهامش: إسناده قوي، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٨٩)، والبيهقي في سننه (٢/ ١٠)، كلهم من حديث أبي نملة الأنصاري، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٥/ ٩١).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٥).

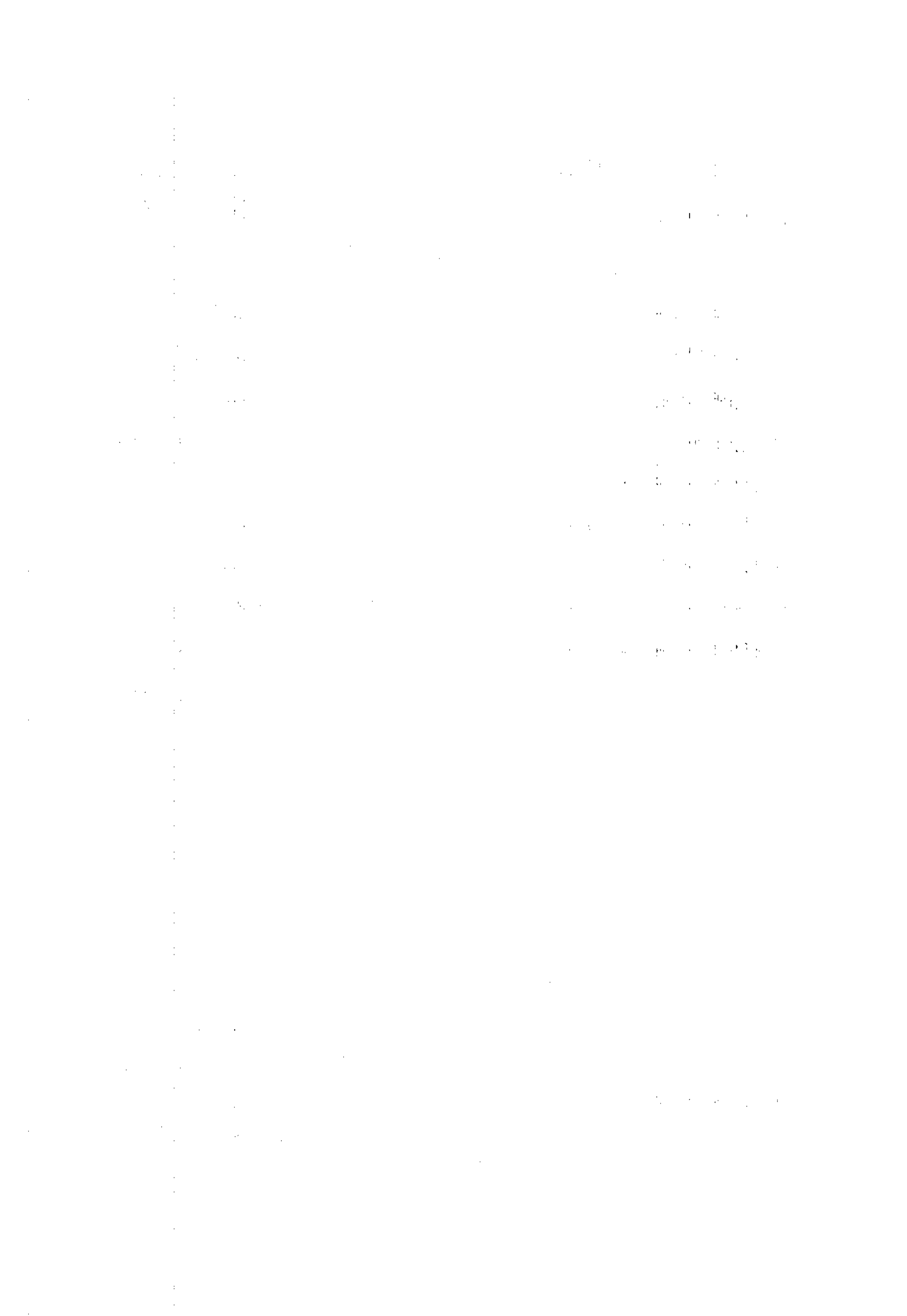
(٤) المصدر السابق.

العام إلى وصف المشركين منهم بكلمة الغيبة كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ثم قال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢] أي ثم منكم من إذا تغشى امرأته حملت وقالا وصنعا كذا وكذا[١].

ويروى عن الحسن وقتادة أن المراد بالنفس وزوجها كل كافر وكافرة[٢]، وعلى هذا قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي من يصلح لنا ولمعاشنا فإن الكافر لا يطلب صلاح الدين، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٠]. ولم يقل عما يشركان، وقيل تقدير الآية: فلما آتاهما صالحًا جعل أولادُهما له شركاء فحذف المضاف، ويحتمل أن الخطاب لآل قصي من قريش، فإنهم خلقوا من نفس قصي، وكان لها زوج من جنسها عربية قرشية، وطلبا من الله الولد فأعطاهما أربعة بنين، فسمياهم عبد مناف، وعبد شمس، وعبد قصي، وعبد الدار، ويكون الضمير في يشركون لهما، ولعقبهما المقتدين بهما، والله تعالى أعلم بمراده في كتابه.

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٩/ ١٤٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ١٤٨)، وعبد بن حميد، وأبو الشيخ كما في الدر المنثور، السيوطي (٣/ ٦٢٧).



الباب الخمسون

باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف: ١٨٠]

يخبر تعالى أن له الأسماء الحسنى الدالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الأسماء، وقيل الصفات، وأمر عباده أن يدعوه بها، ثم أمر بترك الذين يلحدون فيها ومجانبة أقوالهم وأفعالهم، فإن الله تعالى مجازيهم على سوء أفعالهم وأحوالهم.

قال البخاري في صحيحه: سمي اللحدُ لحدًا لأنه في ناحية، وكل جائر ملحد[١]. سواء كان ذلك بالجحود أو التكذيب، أو بالتمويه والتحريف. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٠].

والإلحاد فيها نوعان:

أحدهما: إلحاد المشركين، بإطلاقها على الأصنام التي يعبدونها من دون الله، واشتقاق أسمائها منها كاللات من الله، والعزى من العزيز ونحو ذلك، وقد ذكره المصنف، والإلحاد في اللغة الميل عن القصد.

النوع الثاني: إلحاد أهل التعطيل والتشبيه الذي يعطلونها عن معانيها، أو ينفونها بالكلية، أو يشبهونه بمخلوقاته، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا[٢].

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٤٥١).

(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم (١/ ١٦٩).

(ذكر ابن أبي حاتم عن) ترجمان القرآن عبدالله (بن عباس رضي الله عنهما) في قوله: (﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ يشركون). فالشرك من أعظم الإلحاد، وقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٢] السورة، فمن جعل معه شريكًا فقد ألحد في اسمه وصفته، فلم يجعله أحدًا، بل جعله ثاني اثنين، ومنهم من يكثّر المعابيد معه جل وعلا فيجعله ثالث ثلاثة وأكثر.

ومن الإلحاد في أسمائه تعالى: أن تعلم أنه سبحانه حكيم، ثم تراه يديل[1] أعداءه على أوليائه ويمكنهم منهم بالقتل والتشريد، كقتل بني إسرائيل لأنبيائهم بغير حق، وتشريد سيد البشر ﷺ من قومه، حتى اختفى في الغار عنهم، ثم غزوه فشجوا وجهه وكسروا رباعيته، وقتلوا من قتلوا من أصحابه وعمه، وكذلك فرعون أخرج الكليم من بلاده ففر منه هاربًا على وجهه بلا زاد ولا راحلة، مع فقره وعز فرعون وغناه، ثم تراه سبحانه يؤلم الأطفال حتى يرحمهم كل ذي طبع، وهو أرحم الراحمين، ويرسل موسى لفرعون، ويكلف العقل أن يعتقد أن الله سبحانه أضله، وأنه لابد لآدم من أكل الشجرة وقد نهاه سبحانه قبل الأكل، ووبخه بعده بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] ثم تعترض على الله سبحانه في حكمه وحكمته، وقد تحيّر في هذه الأشياء خلق حتى خرجوا إلى الكفر، ولو فتشوا [ك،١٧٢/ب] لعلموا أن ذلك تكليف للعقل بالتسليم لحكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، ولهذا قال تعالى لرسوله في كتابه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

---

(١) أي يجعل الدولة لهم، ويسلطهم عليهم، انظر الفائق للزمخشري (١/ ٤٤٦).

(**وعنه رضي الله عنه: سمَّوا اللات من الإله، والعزى من العزيز**)[1]. ومناة من المنان، فعبدوهم من دونه تعالى فأشركوا به ما لم ينزل به عليهم سلطانا، وهذا النوع من الإلحاد هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة، وهذا الذي قال الله في صاحبه[2]: ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢** ﴾ [المائدة: ٧٢].

(**وعن الأعمش**) سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي، أبو محمد الكوفي، الحافظ الثقة العارف الورع، المجمع على جلالته وديانته[3]، قال: (**يدخلون فيها ما ليس منها**)[4].

وهذا القول عام في النوعين المتقدمين، فإن المشركين والمشبهين قد أدخلوا فيها ما ليس منها، فهما رضيعا لبان، وإنما الفرق في التكفير بين أهل القبلة والمشرك الأصلي وإن تشابهت أقوالهم، فإن عامة المبتدعين لا يكفرهم أهل السنة والجماعة، إلا أنهم قد يفرقون فيهم بين الداعية وغيره في الإنكار، وبين النوع والعين في التكفير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وقد فرق جمهور الأئمة بين الداعية لبدعته وغير الداعية، فإنّ الداعية أظهر المنكر فاستحق الإنكار عليه ونهيه عن ذلك، بخلاف الساكت فإنه بمنزلة من أسرّ الذنب، فهذا لا ينكر عليه في الظاهر، فإنه لم يعلن بخطيئته، ولهذا كان المنافقون تقبل منهم علانيتهم وتوكل سرائرهم إلى الله، ومن أظهر الكفر فإن كان داعية

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور (٣/ ٦١٦).

(٢) مقصوده أنه من أنواع الشرك الأكبر، وأن الآية تشمله، لا أن الشرك الأكبر محصور فيه.

(٣) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء، الذهبي (٦/ ٢٢٦) وتهذيب التهذيب، ابن حجر (٤/ ٢٢٢).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور (١/ ٦١٧).

منع من ولايته وإمامته وشهادته وروايته، لما في ذلك من النهي عن المنكر، فإن لم يحصل صرفه عن ذلك إلا بشيء أعظم ضررًا من ضرر ما أظهره من المنكر، لم يجز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا يدفع أخف الضررين لحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يجتمعا جميعا، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعا، فإذا لم يمكن منع المظهر للبدعة والفجور إلا بضرر زائد على ذلك لم يجز ذلك[1].

ثم قال: وحقيقة الأمر في ذلك أن القول قد يكون كفرًا فيطلق القول بتكفير صاحبه، ويقال: من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها. وهذا كما هو في نصوص الوعيد فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠] فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد؛ لفوات شرط، أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم، ونحو ذلك، وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، أو لم يثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها لشبهة عرضت له يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنًا من كان، سواء كان في المسائل النظرية، أو العملية، هذا الذي

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٣/ ٣٤٢- ٣٤٣).

عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أئمة الإسلام[1].

وقد تقدم أن الذي قال لما وجد راحلته: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح[2]، لم يكفر بذلك، وإن أتى بصريح الكفر؛ لكونه لم يردْه، وكذلك المكره على كلمة الكفر أتى بصريح كلمته ولم يكفر، لعدم إرادته، بخلاف المستهزىء والهازل. وقاله ابن القيم رحمه الله تعالى[3].

قال الشيخ: وأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول، وبين نوع آخر وتسميته مسائل الفروع، فهذا الفرق ليس له أصلٌ لا عن الصحابة ولا التابعين ولا أئمة الإسلام، وإنما هذا مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع، فإنه يقال لمن فرق بين النوعين: ما حد مسائل الأصول التي يكفر المخطىء فيها؟ وما الفرق بينها وبين مسائل الفروع؟ فإن قال: مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد، والفروع مسائل العمل. قيل له: تنازع الناس في محمد ﷺ هل رأى ربه أم لا؟ وفي أن عثمان أفضل من علي، أم علي أفضل؟ وفي كثير من معاني القرآن، وتصحيح بعض الأحاديث في المسائل الاعتقادية العلمية، ولا كفر فيها بالاتفاق، ووجوب الصلاة والزكاة والحج، وتحريم الفواحش والخمر هي مسائل عملية، والمنكر لها يكفر بالاتفاق.

وإن قيل: الأصول هي المسائل القطعية، قيل له: كثير من مسائل العمل

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٣/ ٣٤٢ـ ٣٤٦).

(٢) أخرجه مسلم في التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٤/ ٢١٠٤) من حديث أنس بن مالك.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم (١/ ٣٣٨ـ ٣٣٩).

قطعية، وكثير من مسائل [العلم][(1)] ليست قطعية، وكون المسائل قطعية أو ظنية هو من الأمور الإضافية، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع، كأنه سمع النصوص من النبي ﷺ وتيقن مراده، وعند رجل لا تكون ظنية فضلاً عن أن تكون قطعية، لعدم بلوغ النص إياه، أو لعدم ثبوته عنده، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته.

وقد ثبت في الصحاح عنه ﷺ حديث الذي قال لأهله: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذرّوني في اليم، فوالله إن قدر الله علي ليعذبنّي عذابًا ما يعذبه أحدًا من العالمين. فأمر الله النار بردّ ما أخذت منه، وأمر البحر برد ما أخذ منه، وقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب، فغفر الله له[(2)]. فهذا شكَّ في قدرة الله تعالى وفي المعاد، بل ظن أنه لا يعود، وأنه لا يقدر عليه إذا فعل ذلك، فغفر له[(3)].

والمقصود أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل [ك،١٧٢/أ] بين النوع والعين، فلهذا حكى طائفة منهم الخلاف في ذلك عن السلف، ولم يفهموا غور قولهم، فطائفة تحكي عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقًا، حتى جعلت الخلاف في تكفير المرجئة، والشيعة المفضّلة لعلي، وربما رجّحت التكفير والتخليد، وليس هذا مذهب الإمام أحمد ولا غيرِه من الأئمة، ولا يختلف قوله أنه لا يكفر المرجئة

---

(١) في الأصل: «النظر» وكذلك المسودة، وما بين معكوفتين من مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٣/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب رقم (٥٢) (٣/ ١٢٨٣)، ومسلم في صحيحه في التوبة باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٤/ ٢١٠٩) كلاهما من حديث أبي هريرة، وغيرهم.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٣/ ٣٤٦ـ ٣٤٧).

الذين يقولون: الإيمان قول بلا عمل، ولا يكفّر من فضل عليا[1]، بل ونصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم من سائر أهل البدع والأهواء[2].

قال الخطابي: أجمع علماء المسلمين على أن الخوارج مع ضلالهم فرقة من فرق المسلمين، وإنما أُمر بقتلهم كفًّا لشرّهم.

وقال ابن بطال: ذهب جمهور العلماء إلى أن الخوارج غير خارجين من جملة المسلمين؛ إذ من ثبت له عقد الإسلام بيقين لا يخرج منه إلا بيقين، وذكر قول علي رضي الله عنه لما سئل عنهم فقال: من الكفر فرّوا.

وقال في المفهم: باب التكفير خطر ولا يعدل بالسلامة شيء.

وفي جواب لشيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه قال فيه: فمن كفّر الثنتين والسبعين فرقة كلهم فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، مع أن حديث الثنتين والسبعين ليس في الصحيحين، وقد ضعفه ابن حزم وغيره، لكن حسنه غيره أو صححه، كما صححه الحاكم، وقد رواه أهل السنن وروي من طرق.

قال: وليس قوله ﷺ ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة[3]،

---

(١) في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٨) على عثمان.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الفتن، باب افتراق الأمم (٢/ ١٣٢٢)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٢٠)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٣٢)، والطبراني في الصغير (٢/ ٢٩)، كلهم من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي تفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة.

قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٣٩): إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

وللحديث طرق أخرى عن معاوية وأبي هريرة صححها الحاكم في المستدرك =

بأعظم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠]، ومع ذلك لا يُشهد لفاعل ذلك بالنار، لإمكان أنه تاب، أو كانت له حسنات محت سيئاته، أو كفر الله عنه بمصائب، وكقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ [النساء: ٣٠] الآية، وأمثال ذلك من النصوص الصريحة بدخول من فعل ذلك النار لإمكان ما ذكرنا[١].

قال: فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطّئون ولا يكفّرون، وسبب ذلك أن أحدهم يظن ما ليس بكفر كفرًا، وقد يكون كفرًا، لأنه تبين له أنه تكذيب للرسول وسب للخالق، والآخر لم يتبين له ذلك، فلا يلزم إذا كان هذا العالم بحاله يكفر إذا قاله، أن يكفر من لم يعلم بحاله[٢].

قال المنقح في أصوله: ولا يكفَّر مبتدع غيره، في رواية اختارها القاضي وابن عقيل وابن الجوزي والموفق والأشعري وأصحابه، كمقلِّد في الأصح عند أحمد وأصحابه وغيرهم، ولا يفسّقان، قاله ابن عقيل وغيره.

قال: ولا يكفَّر من لم يكفِّر من كفَّرناه على الأصح، زاد المجد: ولا يفسَّق، ونقل عدم كفر من لم يكفّر من كفرناه عن الإمام أحمد وجماعة من أصحابه، منهم المروذي، وأبو طالب، ويعقوب، وغيرهم. قاله ابن

= (٤/ ٤٧٧) ووافقه الذهبي وغيره من أهل العلم، وقد توسع الشيخ الألباني في تخريج هذا الحديث وحكم بصحته في السلسلة الصحيحة (١/ ١٤) وله كلام لطيف حول إنكار بعض المبتدعة لزيادة «كلها في النار إلا واحدة» يحسن مراجعته.

(١) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٥/ ٢٤٩).

(٢) المصدر السابق.

حامد وابن مفلح وغيرهما[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وإنما كان ـ يعني الإمام أحمد رضي الله عنه ـ يكفّر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ﷺ ظاهرة بينة، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق، وكان رضي الله عنه قد ابتلي بهم حتى عرف حقيقة قولهم وأمرهم، وأنه يدور على التعطيل، وتكفيرُ الجهمية مشهور عن السلف والأئمة. لكن ما كان يكفّر أعيانهم؛ فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقوله، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط، والذي يكفّر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه.

ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية: أن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، وغير ذلك من تعطيل أسمائه وصفاته تعالى، ويدعون الناس إلى ذلك ويمتحنونهم، ويعاقبونهم إذا لم يجيبوا ويكفّرون من لم يجبهم، حتى أنهم كانوا إذا قيّدوا الأسير لا يطلقونه حتى يقرَّ بقول الجهمية: إن القرآن مخلوق، ولا يولّون متوليا ولا يرزقون من بيت المال إلا لمن يقول ذلك، ومع هذا فالإمام أحمد ترحّم عليهم واستغفر لهم؛ لعلمه أنهم لم يتبين لهم أنهم يكذّبون الرسول ﷺ، ولا [أنهم][٢] جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا من قال ذلك لهم[٣].

وكذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه لمّا قال لحفصٍ الفرد[٤]

---

(١) انظر: الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٦٢).

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٣/ ٣٤٨ـ ٣٤٩).

(٤) البصري المصري من أصحاب أبي يوسف، من المجبرة، سمع من أبي الهذيل =

حين قال: القرآن مخلوق: كفرت بالله العظيم[1]. فبين بذلك أن هذا القول كفر، ولم يحكم بردة حفص بمجرد ذلك، لأنه لم تتبين له الحجة التي يكفر بها، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله، وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهل الأهواء والصلاة خلفهم[2].

وكذلك قال الإمام مالك والشافعي وأحمد في القدرية: إن جحد علم الله كفر، ولفظ بعضهم: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا[3].

وسئل الإمام أحمد عن القدري هل يكفر؟ فقال: إن جحد العلم كفر[4].

وحينئذ فجاحده من جنس الجهمية، وأما قتل الداعية للبدع فقد يقتل لكف ضرره على الناس، كمايقتل المحارب. وإن لم يكن في نفس الأمر كافرًا، فليس كل من أمر الشارع بقتله يكون قتله لردته، وعلى هذا يكون قتل غيلان القدري[5] وغيره من أهل البدع قد يكون على هذا الوجه.

= وناظره فقطعه أبو الهذيل، قال الذهبي: مبتدع، قال النسائي: صاحب كلام لا يكتب حديثه، وكفره الشافعي في مناظرته.

انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (١/ ٥٦٤)، الفهرست، ابن النديم (ص ٢٢٥).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٣/ ٣٤٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) سبقت ترجمته ص ٩٧.

قال وهذه المسائل مبسوطة في غير هذا الموضع، وإنما نبهت عليها تنبيهًا لمن استبصر، انتهى كلام شيخ الإسلام[1].

فمن الإلحاد في أسماء الله وصفاته كأقوال المعتزلة من إنكار الصفات، والرؤية، والقول بخلق [ك،١٧٣/ب] القرآن، وإنكارهم أن الله مريد للكائنات، وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصولهم وأصول الجهمية الفاسدة، فأصول المعتزلة يسمونها: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعنى التوحيد عندهم يتضمن نفي الصفات، ولهذا سمى ابن تومرت[2] أصحابه الموحدين، وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته، ومعنى العدل عندهم يتضمن التكذيب للقدر، وهو خلق أفعال العباد، وإرادة الكائنات، والقدرةُ على كل شيء.

وأما «المنزلة بين المنزلتين» فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمنًا بوجه من الوجوه، كما لا يسمى كافرًا، فنزّلوه منزلة بين منزلتين، فهي عندهم هذه المنزلة كما وصفنا. وإنفاذ الوعيد عندهم معناه: أن فسّاق الملة يخلّدون في النار، لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك كما تقوله الخوارج.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٣/ ٣٤٩ـ ٣٥٠).

(٢) هو عبدالله محمد بن عبدالله بن تومرت المصمودي البربري، المتلقب بالمهدي، ولد ونشأ في قبيلته ثم رحل إلى المشرق، وأقام بمكة زمنًا، ودرس علم الكلام، ثم عاد إلى المغرب ونشره هناك، وكانت المغرب قبل ذلك على مذهب أهل السنة، أسس دولة الموحدين، على الكذب والاحتيال، وادعى العصمة وأنه المهدي، ومن قال بخلاف ذلك قتلوه، ويقال إنهم قتلوا القاضي عياضًا وأبابكر بن العربي، توفي ابن تومرت سنة ٥٢٣هـ. انظر: بغية المرتاد، ابن تيمية (ص ٤٩٤ـ ٤٩٥)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٩/ ٥٣٩).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة وقتالَهم بالسيف ونحوَ هذه الأقوال[1].

فالحاصل أنه كما أنه يجب تقديس الذات وتنزيهها عن النقائص وكلِّ ما لا يليق به جل وعلا، يجب تقديس أسمائه وصفاته؛ لأن الذات مع الأسماء والصفات متلازمان في الوجود والعدم بالتحقيق، لأن انتفاء تقديس الأسماء والصفات، يستلزم انتفاء تقديس الذات، لأنها قائمة بالذات ومقتضياتها، وإذا حصل الاعتقاد والاعتراف بأنه سبحانه منزه عن جميع النقائص، وما لا ينبغي أن ينسب إليه، ثبتت الكمالات ضرورة التزامًا، وحصل توحيد الربوبية، وثبت التقديس في كل كمال عن المشابهة والمماثلة والشركة وكل ما لا يليق، فثبت أنه الرب على الإطلاق، للأنفس والآفاق، فهو المستحق لأن يشكر ويعبد بكل ما يمكن[2] على الانفراد بالحق والحقيقة، وتوحيد الربوبية حجة ملزمة وبرهان موجب لتوحيد الألوهية، فقول القائل: «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» يتضمن إثبات التوحيدين وإثبات الكمالين في الذات والصفات، وهذان الإثباتان في ضمنهما كل مدح ممكن فيما يرجع إلى الله سبحانه، ولهذا ختم البخاري بهذا التسبيح صحيحه آخر كتاب التوحيد[3]، والمقصود أن الله تعالى موصوف بصفات كمال لازمة لذاته، قديمة أزلية واجبة بقدم الموصوف ووجوبه، وهو فوق خلقه، فوق

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/ ٣٨٦ـ ٣٨٧).

(٢) أي مما شرعه في كتابه أو على لسان رسوله.

(٣) ختم البخاري كتابه بحديث أبي هريرة مرفوعًا: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».
آخر كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ (٦/ ٢٧٤٩).

سمواته، عالٍ على عرشه، بائن من مخلوقاته، يحب ويرضى، ويسمع ويرى، ويعلم ما في البر والبحر وما تحت الثرى، وما فوق السموات العلى، لا يخفى عليه خافية، قد أحاط بكل شيء قدرةً وعلمًا، بعث الرسول إلى عباده ليؤمنوا بما أتاهم معه في كتابه فيصدقوه ويطيعوه لكي ينالوا السعادة بذلك في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١].

فالله سبحانه بعث الرسول بما يقتضي الكمال من إثبات أسمائه وصفاته المقدسة، فهو موصوف بنعوت الكمال التي لا غاية فوقها، منزه عن النقص بكل وجه، ممتنع أن يكون له مثل في شيء من صفاته، فما ثبت في ذلك عن الرسول ﷺ وجب الإيمان به، وما لم يثبت عنه فلا يجب الحكم فيه بنفي ولا إثبات حتى يُعلمَ مرادُ المتكلم، ويُعلمَ صحةُ نفيه فيها أو إثباتُه، ولهذا قال أبو جعفر الهمذاني[1] لأبي المعالي الجويني رحمه الله وعفا عنه، الذي ذكرنا عنه في أول هذا الكتاب أنه رجع من حيرته: أخبرنا عن هذه الضرورة، ما قال عارف قط: يا الله، إلا قبل أن ينطق يجد في قلبه معنى يطلب العلو، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، فهل عندك من حيلة في دفع الضرورة عنا.

يريد أن دليلك على نفي الفوقية نظري، فكيف تعارض ضرورة الفطرة وتواتر النصوص، فصاح أبو المعالي عند ذلك بأعلى صوته،

---

(١) محمد بن علي بن الحسن الهمذاني، أبو جعفر، الإمام الحافظ، بقية السلف، توفي سنة ٥٣١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٢/ ١٠١)، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (٥/ ٢٦٠).

الحيرة الحيرة، حيّرني الهمداني[1].

وقد استدركه الله بلطفه كما قدمناه عنه عند موته، وكان عالمًا نبيهًا نبيلاً زاهدًا ورعًا، ولكن ليس معصومًا، وإنما يدل هذا أن محمدًا رسول الله هو المعصوم فيما بلّغ، فإياك والعدول عن الكتاب والسنة، وطريقة سلف الأمة، فتقع في الحيرة فتوردك الهلكة، والله ولي التوفيق والهداية.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ٦١).

الباب الحادي والخمسون

باب لا يقال السلام على الله

لأن الله هو السلام ومنه السلام، قال شيخ مشايخنا الشيخ أبو الحسن السندي في شرح مسند الإمام أحمد: والمعنى أن الله هو معطي السلامة، فلا يحتاج إلى أن يدعى له بالسلامة، وأنه تعالى هو السالم عن الآفات التي لأجلها يطلب السلام عليه، فلا يطلب السلام إلا على من يمكن له عروض الآفات، فلا يناسب طلب السلام عليه تبارك وتعالى، ولهذا لما قال ﷺ لأم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها: هذا جبريل يقرئك من ربك السلام، أجابته بأن قالت: إن الله هو السلام ومنه السلام، وعلى جبريل السلام[1]. فعلمت بفقهها رضي الله عنها أن الله تعالى لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوق، لأن السلام دعاء بالسلامة، [ك،١٧٣/أ] وكأن معنى قولها الله السلام فكيف أقول عليه السلام، والسلام منه يسأل، ومنه يأتي، ولكن على

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٥) من طريق محمد بن الحسن عن إبراهيم بن سعيد بن كثير عن أبيه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ وهو بحراء فقال: هذه خديجة قد جاءت بحيس في غزرتها فقل لها إن الله يقرئك السلام، فلما جاءت قال لها: إن جبريل أعلمني بك وبالحيس الذي في غزرتك قبل أن تأتي، وقال: الله يقرئك السلام. فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٥): فيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف. بل قال الحافظ في التقريب (ص ٤٧٤): كذبوه. وأخرج البخاري الحديث دون قولها هو السلام ومنه السلام، في فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة (٣/ ١٣٨٩) من حديث أبي هريرة، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة (٤/ ١٨٨٧)، وغيرهم.

جبريل السلام.

فالذي تحصل من هذا الكلام من الفقه أنه لا يليق بالله سبحانه إلا الثناء عليه، فجعلت مكان رد التحية على الله ثناءً عليه كما علّموا في التشهد الآتي في المتن.

قال السهيلي في قولها رضي الله عنها «ومنه السلام»: إن كانت أرادت بالسلام التحية فهو خبر يراد به الشكر، كما تقول: هذه النعمة من الله. وإن كانت أرادت بالسلام السلامة من كل سوء، فهو خبر يراد به المسألة، كما تقول: يسأل منه الخير[1].

وذهب أكثر أهل اللغة إلى أن السلام والسلامة بمعنى واحد، كالرَضاع والرَضاعة قال: ولو تأملوا كلام العرب وما تعطيه هاء التأنيث من التحديد لرأوا أن بينهما فرقانًا عظيمًا، وأن الجلال أعم من الجلالة بكثير، وأن اللذاذ أبلغ من اللذاذة، وأن الرضاعة تقع على الرضعة الواحدة، والرَضاع أكثر من ذلك، فكذلك السلام والسلامة، وقس هذا على ثَمَرة وثَمَر، [وأمة][2] وإماء، وخَرِبةٌ وخَرِب، إلى غير ذلك[3].

(في الصحيح عن) عبدالله **(بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في صلاة)** وفي البخاري عنه رضي الله عنه: كنا إذا صلينا خلف النبي ﷺ **(قلنا: السلام على الله من عباده)** السلام على جبريل وميكائيل، **(السلام على فلان)** وفلان، **(فقال رسول الله ﷺ لا**

---

(١) الروض الأنف، السهيلي (١/ ٢٨٠).

(٢) في الأصل: [وأماة]، ولعل المثبت هو الصواب.

(٣) المصدر السابق.

تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام) فسمي سبحانه بالسلام، لما شمل جميع الخليقة وعمهم منه السلام ـ تبارك وتعالى ـ من التفاوت والاختلال، إذْ الكل خارج على نظام الحكمة، ولذلك سلم الثقلان[(١)] من جور وظلم أن يأتيهم من قبله سبحانه، فإن الكل مدبَّر لفضل أو عدل، أما الكافر فلا يجري عليه إلا عدله، وأما المؤمن فيغمره فضله، فهو سبحانه في جميع أفعاله سلام، لا حيف ولا ظلم، ولا تفاوت ولا اختلال، إذ هذه الأشياء إنما تعتري الناقص وهو مقدس عن النقائص.

وقد ذكر بعض المفسرين لهذا الاسم أنه يسمى به لسلامته من الآفات والعيوب، وعلى هذا جرى شمس الدين ابن القيم حيث قال:

وهو السلام على الحقيقة سالم   من كل تمثيل ومن نقصانِ[(٢)]

وقال: فالسلام مصدر وصف به سبحانه للمبالغة، لأنه تعالى سالم من كل نقص، ومنه تطلب السلامة من كل مكروه، قال: وحقيقة السلام البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى مدار تصاريفه، نحو قوله: سلّمك الله، وسلم فلان من الشر، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط: رب سلم سلم[(٣)]، ومنه سلم الشيء لفلان،

---

(١) بل جميع الخلق، لكن الشارح هنا ذكر الثقلين الإنس والجن لأنهم هم المكلفون.

(٢) شرح قصيدة ابن القيم، ابن عيسى (٢/ ٢٣٣).

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصراط (٤/ ٦٢١) من حديث المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: شعار المؤمن على الصراط: رب سلم سلم. قال الترمذي: غريب من حديث المغيرة بن شعبة لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق. وأخرجه أيضًا عبد بن حميد في المنتخب (ص ١٥١)، والحارث في مسنده (٢/ ١٠٠٥)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٢٤)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٤٠٧) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه =

أي: خلص له وحده، لا يملكه معه غيره، ومنه السلم ضد الحرب، قال تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، لأن كلًا من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخرين، ومنه القلب السليم، وهو النقي من الغل والدغل، وحقيقته الذي قد سلم لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب[١].

قال: ومنه أخذ الإسلام لأنه الاستسلام والانقياد لله والتخلص من شوب الشرك، فسلم لربه وخلص له، فهو قد أسلم لمولاه، ومسلّم ليس له فيه شركاء متشاكسون[٢].

إلى أن قال: فتضمن لفظ السلام معنيين أحدهما: ذكر الله، والثاني: طلب السلامة للمسلَّم عليه، وهو مقصود المسلِّم، فقد تضمن اسمًا من أسماء الله، وطلب السلامة منه سبحانه[٣].

وعند البخاري في الأدب المفرد بإسناد حسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا ولفظه: «إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضع في الأرض فأفشوا السلام بينكم»[٤].

= الذهبي. وفي إسناده عبدالرحمن بن إسحاق الواسطي قال الحافظ في التقريب (ص ٣٣٦): كوفي ضعيف. وضعفه به الألباني في السلسلة الضعيفة (٤/ ٤٤١).

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (٢/ ١٣٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (٢/ ١٤٣).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٤٣)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ١٤٨).

وقد اعترض في هذا السهيلي وجماعة وقال: إنما السلام من سُلم منه، والسالم من سلم من غيره، واستشهد بقوله ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ [القدر: ٥]، قال: ولا يقال أيضًا في الحائط: السالم من العمى، ولا في الحجر أنه سالم من الزكام، أو من السعال، إنما يقولون سالم فيمن يجوز عليه الآفة ويتوقعها ثم يسلم منها، والقدوس سبحانه وتعالى متعال عن توقع الآفات، متنزه عن جواز النقائص، ومن هذه صفته لا يقال سلم منها، ولا يتسمى بسالم، وهم قد جعلوا سلامًا بمعنى سالم، ثم ذكر الفرق بين السلام والسلامة بمثل ما ذكرناه أول الباب[١].

قال: وهو معنى قول أكثر السلف، قال: والسلامة خصلة واحدة من خصال السلام والله أعلم[٢].

والمقصود أنه ﷺ أرشدهم بأن يتأدبوا مع الله بما يصلح له من التحية، كما في البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا في الحديث الذي رواه وفيه: ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات[٣].

ففسر بعض أهل العلم التحيات بالملك، وبعضهم بالسلام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التحية العظمة، وعن القتيبي: أن الجمع في لفظ التحيات سببه أنهم كانوا يحيون الملوك بأثنية مختلفة[٤]، كقولهم:

---

(١) الروض الأنف، السهيلي (١/ ٢٨٠ـ ٢٨١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب (١/ ٢٨٧)، ومسلم في الصلاة، باب التشهد في الصلاة (١/ ٣٠١)، وغيرهم.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٢/ ٣١٢).

أنعم صباحًا، وأبيت اللعن، وعش كذا سنة، فأخبر أن استحقاق الأثنية كلها لله تعالى، وقيل المعنى: هو أن التحيات بالأسماء الحسنى لله تعالى.

والذي تحصل من هذا الكلام من الفقه أنه لا يليق بالله عز وجل إلا الثناء عليه وطلب السلامة [ك،١٧٤/ب] منه تعالى، فعرفهم ﷺ بما لا يستحقه إلا الخالق سبحانه وتعالى، وبين لهم قدر المخلوق، وهو ما أرشدهم إليه بقوله: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[١]. ليعطوا كل ذي حق حقه، ولا ينزلوا المخلوق منزلة الخالق تبارك وتعالى، فالسلام كما هو تحية أهل الإسلام فهو تحية أهل الجنة، فعند الواقدي[٢] وغيره بسند صحيح في قصة عروة بن مسعود[٣] رضي الله عنه لما أسلم وانصرف إلى قومه عشاء فدخل منزله فأنكر قومه دخوله منزله قبل أن يأتي الربة، يعنون الصنم. ثم قالوا: السفر وخضدُه، فجاؤوا منزله فحيوه تحية الشرك، فقال: عليكم بتحية أهل الجنة السلام[٤].

---

(١) حديث ابن مسعود السابق تخريجه.

(٢) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي مولاهم، أبو عبدالله الواقدي، ولي قضاء بغداد، إمام في المغازي والسير، متكلم فيه في الحديث، من كتبه المغازي والطبقات وغيرها، توفي سنة ٢٠٧هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ٣١٧)، وفيات الأعيان، ابن خلكان (١/ ٥٠٦).

(٣) الثقفي، من كبار قومه، قيل إنه المراد بقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ كانت له اليد البيضاء في تقرير صلح الحديبية، أسلم بعد الطائف، دعا قومه إلى الإسلام فقتلوه، وكان قد حذره النبي ﷺ من الذهاب لهم، وأصر فأذن له.

انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ١١٢)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٤٧٠).

(٤) أخرجه الواقدي في مغازيه (٣/ ٩٦٠)، والخطابي في غريب الحديث (٢/ ٥٥٥).

والخضد كسر الشيء اللين[1]، فتبين بهذا أن السلام تحية، وأن الله لا يُحيّا، وإنما يطلب منه ذلك، ولما رأى مِن قصْدِهم تحية جبريل وميكائيل، جمع لهم ما هو أوسع من ذلك في كلمة واحدة إذا قالوها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض، وهي قوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[2]. فهو ﷺ قد أعطي من جوامع الكلم ما بهر به البشر، رزقنا الله والمسلمين اقتفاء آثاره بمنه وكرمه، والله الهادي الموفق.

---

(١) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٥٥٦).

(٢) جزء من حديث التشهد الماضي تخريجه قبل قليل.



الباب الثاني والخمسون

(باب قول اللهم اغفر لي إن شئت)

(باب قول) الإنسان (**اللهم اغفر لي إن شئت**) أو أردت، (**في الصحيح**) للبخاري (**عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت**) نهى ﷺ عن هذا الكلام في حق الله لأنه لا يقال إلا لمن ليس له ملكوت كل شيء، كالمخلوق فإنه قد يُغلب على أمره، وإن كان واجدًا لما سُئل منه، حتى قد تغلبه نفسه بالبخل، فإن لم يكن واجدًا غلبه العُدْم، وعلى كل حال لابد له من تحرّف في الإعطاء مع البذل لما سئل، والباري جل وعلا وتقدس غني كريم ماجد واجد، لا يعجزه شيء، ولا مكره له، ولا يستعظم ما يُسأل ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] فإعطاؤه كلام، ومنعه كلام، ولا ينقص خزائنه جميع ما يعطي خلقه، أو تبلغ أمانيهم مثقال ذرة، ولا يزيدها ما يمنع وهو الغني الحميد، فالسؤال له تبارك وتعالى بلفظ ما نهى النبي عنه ﷺ قدح في التوحيد لما ذكرنا، ولهذا قال ﷺ: (**ليعزم المسألة**) بأن لا يعلق دعاءه وسؤاله بالمشيئة، (**فإن الله**) سبحانه مع كونه بيده ملكوت كل شيء، وله خزائن السموات (**لا مكره له**)[١].

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (٥/ ٢٣٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب العزم بالدعاء ولا يقال إن شئت (٤/ ٢٠٦٣)، وغيرهم.

قال العلماء: ويفتتح سؤاله بالحمد والثناء على الله سبحانه، والصلاة على رسوله ﷺ، ويختمه بذلك، وقاله شيخ الإسلام ابن تيمية، وأن يكون سؤاله بأسماء الله وصفاته بدعاء جامع مأثور، لقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك. رواه أبو داود بسند جيد[(١)].

وأن يكون ذلك بتأدب وخضوع وخشوع بعزم ورغبة وحضور قلب ورجاء، وفي الحديث: لا يستجاب الدعاء من قلب غافل. رواه الإمام أحمد عن ابن عمر[(٢)] رضي الله عنهما، ورواه الترمذي عن أبي هريرة[(٣)] وفيهما: ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة[(٤)].

قال سفيان بن عيينة: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي، ولله در عبيد بن

---

(١) أخرجه في الصلاة، باب الدعاء (٢/ ٧٨)، وأحمد في المسند (٦/ ١٨٩)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (ص ٢٠٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٢٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١/ ٢٧٨).

(٢) الحديث من رواية عبدالله بن عمرو بن العاص وليس من رواية عبدالله بن عمر وهو في المسند (١٠/ ١٤٠) قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، والحديث في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٨) وقال: «رواه أحمد وإسناده حسن» ولكن وقع اسم الصحابي فيه «عبدالله بن عمر» وهو خطأ لا شك فيه، من ناسخ أو طابع.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب رقم (٦٨) (٥/ ٥١٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٠) وقال: هذا حديث مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد أهل البصرة، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي وقال: صالح متروك، قال الألباني في الصحيحة (٢/ ١٤٤): لكن يشهد له شاهد بسند ضعيف رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٧٧) عن ابن عمر نحوه.

(٤) مسند أحمد (١٠/ ١٤٠)، سنن الترمذي (٥/ ٥١٨).

الأبرص[1] الأسدي حيث يقول في جاهليته في قصيدته المشهورة:

مَـن يسـألِ النـاسَ يحـرِمـوه   وسـائـلُ اللهِ لا يخيـبُ[2]

ولهذا قيل: أفضل العبادة انتظار الفرج، ومن شرط ذلك الإخلاص، قال الآجري: واجتناب الحرام.

وظاهر كلام ابن الجوزي وغيره أنه من الأدب، قال ابن مفلح: قال شيخنا: تبعد إجابته إلا مضطرا أو مظلوما.

(ولمسلم) في صحيحه **(وليعظّم الرغبة)** والرغبة: الطمع فيما عند الله، فأمر ﷺ الإنسان إذا سأل ربه أن يعظم طلبته ومسألته **(فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)**[3]. وهكذا في البخاري «لا يتعاظمه شيء أعطاه»[4]، فقوله: «لا يتعاظمه شيء» هو من باب المفاعلة، و«شيء» مرفوع، وفي رواية «لا يتعاظم شيئًا»، وهو ظاهر.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولنّ: اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مستكره له**[5].

---

(١) أحد شعراء الجاهلية المعمرين، قتله النعمان بن المنذر يوم بؤسه، وقيل قتله المنذر ابن ماء السماء. انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٢٦٧)، الأغاني، الأصفهاني (١٩/ ٨٤).

(٢) انظر: شرح القصائد العشر، التبريزي (ص ٣٦٨).

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء، ولا يقل إن شئت (٤/ ٢٠٦٣).

(٤) لم أعثر على هذه اللفظة في البخاري.

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات، باب ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له (٥/ ٢٣٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء، ولا يقل إن شئت (٤/ ٢٠٦٣)، وغيرهم.

ومن ذلك الحديث القدسي الصحيح المشهور[(١)(٢)].

(١) لعله يعني حديث أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أنفق عليك»، وقال: «يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار».

الحديث أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: وكان عرشه على الماء (٤/ ١٧٢٤)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٢/ ٦٩٠)، وغيرهم.

(٢) عند آخر شرح هذا الباب إلحاق صغير في الطرة غير واضحة، هذا ما أمكن قراءته منها: [في .. .. .. على قوله «فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه» قال: تعاظم ربنا أمرًا: أي كبر عليه وشق].

الباب الثالث والخمسون

باب لا يقول عبدي وأمتي

(باب لا يقول) الإنسان لمملوكه (عبدي أو أمتي) العبد اشتقاقه من التعبد بالعبادة، والأمة بمعناه، يقال: عبدالله، وأمة الله، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، فالأمة تُجمع على إماء وآم واماة[١]، كما قالوا: عبد وأعبد وعبيد وعباد وعبدان، قال جرير بن الخطفى يهجو الفرزدق بأمه:

قُفيـــرة وهـــي ألأم أُمٍّ قـــوم   تُوفِّي في الفرزدق سبعَ آمِ[٢]

يعني: توفّي سبع أمهات له، كلُّهن إماء، قد مُلكْن وتُعبّدن فهن آم.

(**في الصحيح**) للبخاري (**عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: لا يقولن أحدكم: أطعم ربك**)، مكان أطعم مولاك، (**وضّىء ربك**) بكسر الضاد المعجمة أي: اجعل مولاك ذا وضوء، (**اسق ربك**) مكان اسق مولاك، ولا يقل أحدكم ربي، وهذا نهي صريح عن استعمال اسم الرب في مواضع استعمال السيد والمولى؛ لأن الرب هو المالك المعبود، والإنسان مربوب متعبد، فكره ذلك الاسم له حذرًا عن المضاهاة، ولهذا لم يمنع إضافته إلى ما لا تَعَبُّدَ له كما يأتي، ولا أن يقول: سيدي، [ك،١٧٤/أ] لأن مرجع السيادة إلى الرياسة على ما تحت يده، ولهذا قال: (**وليقل سيدي**)

---

(١) كذا في الأصل، ولم أجد هذه الصيغة لجمع أمة في المعاجم.

(٢) شرح ديوان جرير، مهدي ناصر الدين (ص ٣٧٩).

أي: المملوك، (ومولاي ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي، وفتاتي، وغلامي)[1].

وفي رواية لمسلم: «لا يقل أحدكم ربي، وليقل سيدي ومولاي»[2]، وفي رواية له «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي»[3].

وفي مسلم أيضًا: «ولا مولاي فإن مولاكم الله»[4]، قيل إنما كره النبي ﷺ أن يقول السيد عبدي، لأن فيه تعظيمًا لنفسه، ولأن العبد في الحقيقة إنما هو لله سبحانه، وقيل إنما كُره إذا قاله على طريق التطاول على الرقيق والتحقير لشأنه، وإلا فقد جاء به القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ [النور: ٣٢].

وظاهر النهي التحريم، وقد يحتمل أنه للكراهة، وجزم به غير واحد من العلماء كما في شرح مسلم[5] وغيره.

وقد روى أبو داود هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بسند صحيح مفصلاً ولفظه: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي (٢/ ٩٠١)، ومسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة (٤/ ٢٢٤٩)، وغيرهم.

(٢) مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد والأمة والمولى والسيد (٤/ ١٧٦٥).

(٣) المصدر السابق (٤/ ١٧٦٤).

(٤) المصدر السابق.

(٥) شرح مسلم، النووي (١٥/ ٥ـ ٧).

يقولن المملوك ربي وربتي، وليقل المالك فتاي وفتاتي، وليقل المملوك سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون، والرب الله عز وجل[(١)].

ورواه أيضًا موقوفًا على أبي هريرة بسند أيضًا صحيح[(٢)]، قالوا: فإن اعترض معترض على قوله ﷺ: لا يقولن أحد عبدي، بقوله يوم حنين: أنا ابن عبدالمطلب[(٣)]. قيل: ليس هذا من باب إنشاء التسمية، وإنما هو من باب الإخبار بالاسم الذي قد عرف به المسمى، وباب الإخبار أوسع من باب الإنشاء.

إذا علمت ذلك فالرب يطلق على المالك والسيد والصاحب والمصلح والمولى، ولا يقال معرّفًا إلا لله سبحانه، والسيد يطلق على من يفوق قومه ويرتفع قدره عليهم، ويطلق على زعيم القوم والفاضل، ويطلق على الحليم الذي لا يستفزه غضبه، وعلى الكريم، وعلى المالك، وعلى الزوج، ووردت أحاديث بإطلاقه على أهل الفضل لا تحصى كثرة[(٤)]، إلا أنه يمنع أن يقال للمنافق سيدًا لما في سنن أبي داود وغيره

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب لا يقول المملوك ربي وربتي (٤/ ٢٩٦)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٨٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٤٢٣)، والبيهقي في سننه (٦/ ٦٩)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٩٤٠): صحيح.

(٢) سنن أبي داود (٤/ ٢٩٦)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٩٤٠): صحيح.

(٣) مضى تخريجه.

(٤) منها ما أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب سعد بن معاذ (٣/ ١٣٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري أن أناسًا نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأرسل إليه فجاء على حمار، فلما بلغ قريبًا من المسجد، قال النبي ﷺ: قوموا إلى خيركم، أو سيدكم. . . الحديث.

وكذلك قول النبي ﷺ في حق الحسن بن علي رضي الله عنهما: «إن ابني هذا سيد» أخرجه البخاري في الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله =

عن بريدة[١] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا للمنافق سيدًا، فإنه إن [يكُ][٢] سيدًا فقد أسخطتم ربكم عز وجل»[٣].

وسيأتي باقي الكلام في ذلك الباب في الباب الخامس والستين إن شاء الله تعالى بأبسط من هذا.

قال النووي: قال العلماء: «الرب» لا يطلق بالألف واللام إلا على الله تعالى خاصة، فأما إضافته فيقال: رب المال، ورب الدار، ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح في ضالة الإبل: دعها حتى يلقاها ربها[٤].

وفي الحديث الصحيح أيضًا: «حتى يُهمَّ ربَّ المال من يقبل صدقته»[٥]، وقول عمر في الصحيح: رب الصُريمة[٦] والغُنيمة[٧][٨]، ونظائر ذلك

= عنهما: إن ابني هذا سيد (٢/ ٩٦٢)، وغير ذلك.

(١) ابن الحصيب الأسلمي، أبو عبدالله، أسلم قبل بدر، ممن بايع بيعة الرضوان، لم يشهد بدرًا، وشهد بقية المشاهد، من أهل المدينة، توفي بمرو غازيًا في إمرة يزيد ابن معاوية.
انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ١٧٧)، الإصابة، ابن حجر (١/ ١٥٠).

(٢) في الأصل: لم يكن، والمثبت هو نص السنن.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب لا يقول المملوك ربي وربتي (٤/ ٢٩٦)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٦٧)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٤٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤٧)، والبيهقي في سننه (٦/ ٧٠)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٩٤٠): صحيح.

(٤) أخرجه البخاري في اللقطة، باب ضالة الإبل (٢/ ٨٥٥)، ومسلم في اللقطة (٣/ ١٣٤٨) كلاهما من حديث زيد بن خالد الجهني، وغيرهما.

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (٢/ ٥١٢) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن يوجد من لا يقبلها (٢/ ٧٠١)، وغيرهم.

(٦) رب الصريمة مصغر الصرمة، أي صاحب القطعة القليلة من الإبل.

(٧) الغنيمة مصغر الغنم، أي صاحب الغنم القليلة.

(٨) أخرجه البخاري في الجهاد، باب إذا أسلم قوم في دار الحرب، ولهم مال وأرضون=

في الحديث كثيرة شهيرة، واستعمال الشرع جملة ذلك أمر مشهور معروف.

قال العلماء: وإنما كُره للمملوك أن يقول لمالكه: ربي؛ لأن في لفظه مشاركةً لله سبحانه في اسم الربوبية[1].

وأما حديث «حتى يلقاها ربها»، و«رب الصريمة والغنيمة» وما في معنى ذلك، فإنما استعمل فيها لأنها غير مكلَّفة، فهي كالدار والمال، ولا شك أن لا كراهة في قوله: رب الدار والمال.

وأما قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، ففيه جوابان:

أحدهما: أنه خاطبه بما يعرفه، وجاز هذا الاستعمال للضرورة كما قال موسى للسامري: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ [طه: ٩٧]، أي: الذي اتخذته إلها من دون الله، ولهذا لم يأت مضافًا إلى المتكلم، وإنما أضافه إلى ضمير الخطاب والغيبة، ويرشّح هذا قوله تعالى عنه عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: ٣٩] وهذا منه يدل بفحواه على المنع.

والجواب الثاني: أن هذا شرع لمن قبلنا، وشرع من قبلنا لا يكون شرعًا لنا إذا ورد شرعنا بخلافه[2].

= فهي لهم (١/ ١١١٣) من حديث عمر بن الخطاب أنه استعمل مولى له يدعى هنيا على الحمى، فقال: يا هني اضمم جناحك للمسلمين، واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة، وأدخل رب الصريمة، ورب الغنيمة وإياي ونعم ابن عوف ونعم ابن عفان، ومالك في الموطأ (٢/ ١٠٠٣).

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٥/ ١٧٩).

(٢) انظر: المسودة، الحراني (ص ١٩٣)، شرح الكوكب المنير، ابن النجار (٤/ ٤١٢).

وهذا لا خلاف فيه، وإنما اختلف أصحاب الأصول في شرع من قبلنا إذا لم يرد شرعنا بموافقته ولا مخالفته، هل يكون شرعًا لنا أم لا، فاختار القاضي[1]، والمجد[2]، وحفيده شيخ الإسلام، وموفق الدين ابن قدامة، أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه[3]، وظاهر النهي ـ كما تقدم ـ التحريم، وقد يحتمل الكراهة وجزم بالكراهة، دون التحريم غير واحد من العلماء، كما في شرح مسلم وغيره[4]، وقوله في أشراط الساعة كما في الصحيحين: «أن تلد الأمة ربتها»[5] يقتضي ذلك.

فقد أرشد ﷺ أمته إلى تجريد التوحيد بالإخلاص في الأقوال والأعمال، حتى في لفظ الأسماء كما ترى، فأجاز قول سيدي ومولاي، ومنع من إضافة لفظ رب لما يعقل، وكذا قول عبدي وأمتي، وبين علتهما في حديث مسلم الذي أوردناه في أول الباب.

---

(١) أبو يعلى، وقد مضت ترجمته.

(٢) ابن تيمية الجد، وقد مضت ترجمته.

(٣) انظر: روضة الناظر، ابن قدامة (ص ١٦٠) وما بعدها، المستصفى، الغزالي (١/ ٢٥١ـ ٢٥٥)، شرح الكوكب المنير، ابن النجار (٤/ ٤١٢ـ ٤١٧).

(٤) انظر: شرح مسلم، النووي (١٥/ ٥ـ ٧)، فتح الباري، ابن حجر (٥/ ١٧٨ـ ١٨٠).

(٥) أخرجه البخاري في التفسير، باب إن الله عنده علم الساعة (٤/ ١٧٩٣) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٧)، وغيرهم.

الباب الرابع والخمسون
باب لا يُرَدُّ من سأل بالله

(باب لا يرد من سأل) شيئًا **(بالله تعالى، عن)** عبدالله **(بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من استعاذ بالله فأعيذوه)** ولهذا لما دخل ﷺ بأسماء بنت أبي الجون وقيل اسمها أميمة وقيل عمرة، ومد يده لها استعاذت بالله منه فقال لها: لقد عذت بمَعاذ ـ وفي رواية بعظيم ـ الحقي بأهلك.

ذكر ذلك البخاري وابن عبدالبر وابن منده وغيرهم(١)، في أسماء الصحابة رضي الله عنهم، مع اختلاف في القائلة ذلك له ﷺ مع صحة وقوعه، قيل أنها سبية من بني العنبر من بني عمرو بن تميم جميلة، فخفن نساء النبي ﷺ أن يُغلبن عليه، فقلن لها: إنه يعجبه أن يقال له: نعوذ بالله منك، وذكر نحو ما تقدم في فراقها، قاله ابن الأثير.

وقال أبو عبيدة: كلتاهما عاذتا بالله منه ﷺ، قال البخاري [ك،١٧٥/ب] حدثنا الحميدي ثنا الأوزاعي قال سألت الزهري عن أي أزواج النبي ﷺ استعاذت منه؟ قال: أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنّ ابنة الجون لما دخلت على رسول الله ﷺ دنا منها، قالت: أعوذ بالله منك، قال: لقد عذت بعظيم، الحقي بأهلك(٢).

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق (٥/ ٢٠١٢) وقد مضى تخريجه.

وقال البخاري أيضًا حدثنا أبو نعيم ثنا عبدالرحمن بن الغسيل عن حمزة بن أبي أسيد عن أبي أسيد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط يقال له الشوط، فقال النبي ﷺ: اجلسوا هاهنا فدخل، وقد أتى بالجَوْنية فأنزلت في بيت من نخل ومعها دايتها حاضنة[1] لها، فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: هبي لي نفسك، قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة، قال فأهوى بيده يضعها عليها لتسكن، قالت: أعوذ بالله منك. فقال: عذت بمعاذ. ثم خرج من عندها علينا، فقال يا أسيد اكسها رازقيتين[2] وألحقها بأهلها[3].

وقد سمّاها البخاري أميمة[4]، فهذا قوله وعمله ﷺ، فبهذا يلزم الإنسانَ أن يعيذ المستعيذَ بالله من نفسه، ومن غيره ممن أراد ظلمه، إذ لو استجار بك مستجير لأجرته ومنعته ممن أراده، فكيف من يتعرض لمن قد استعاذ بالله الذي ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، فالاستعاذة بالله عبادة فلا تكون بمخلوق، فمن استعاذ بغير الله فقد أشرك، إلا أن يكون ذلك بمعنى الاستجارة، كما في صحيح مسلم وغيره من حديث شعبة عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه: أنه كان يضرب غلامًا له فجعل يقول: أعوذ بالله، فجعل يضربه فقال: أعوذ برسول الله فتركه،

---

(١) الداية: الظئر المرضع وهي معربة، وقد وقع في [م] و[ك] (حاضة) بدل (حاضنة).
وانظر: فتح الباري، ابن حجر (١/ ٣٥٨).

(٢) الرازقية ثياب من كتان أبيض طوال. انظر: فتح الباري، ابن حجر (١/ ٣٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق (٥/ ٢٠١٢) وقد مضى تخريجه.

(٤) المصدر السابق.

فقال رسول الله ﷺ: والله لله أقدر عليك منك عليه، قال: فأعتقَه[١].

زاد غيره فقال رسول الله ﷺ: أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمسّتك النار[٢].

(**ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه**) أرشد ﷺ إلى إعطاء السائل بالله تعظيمًا له تبارك وتعالى حيث سأل به، فإعطاء السائل بذلك من أجَلّ العبادة لله سبحانه؛ إذ هي من مقام التعظيم له جل وعلا، وإجابةُ الداعي من حقوق أخوّة الإسلام، والمطلوب من المجيب أن يجعلها لله تعالى، حيث أمر بها رسول الله ﷺ، وأحبها وحض عليها؛ إذ هي من المصالح الدينية، والأسباب الجامعة للقلوب على محبة الله ورسوله والاجتماع على كلمة التقوى.

فعند الإمام أحمد والنسائي والترمذي وقال حسن غريب من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: ألا أخبركم بشر الناس؟ قلنا: نعم يا رسول الله قال: الذي يُسأل بالله ولا يعطي به.

روي من طريقين في أحدهما ابن لهيعة[٣]، والأخرى جيدة[٤]،

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) مضى تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء أي الناس خير (٤/ ١٨٢) من طريق قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن بكير بن عبدالله بن الأشج عن عطاء عن ابن عباس به، وقال: حسن غريب من هذا الوجه، ويروى هذا الحديث من وجه آخر عن ابن عباس.

(٤) أخرجه النسائي في الزكاة، باب من يُسأل بالله عز وجل ولا يعطي به (٥/ ٨٣) من طريق ابن أبي ذئب عن سعيد بن خالد عن إسماعيل بن عبدالرحمن عن عطاء عن ابن عباس به، وأحمد في المسند (١/ ٢٣٧)، وابن المبارك في الجهاد (ص ١٣٩)، =

ورواه البخاري في تاريخه مرفوعًا عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند صحيح ولفظه: شر الناس الذي يُسأل بالله ثم لا يعطي[١].

وظاهر هذا وجوب الإجابة على المعين، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه فإنه قال: إنما يجب على معين فلا يجب إجابة سائل يقسم على الناس.

حكاه عنه ابن مفلح بعد قوله: ولا يلزمه إبرار قسمه في الأصح، كإجابة سؤال بالله[٢].

وعند أبي داود من حديث ابن عباس أيضًا مرفوعًا بإسناد جيد: من سألكم بالله فأعطوه، ومن استعاذكم بالله فأعيذوه[٣].

قلت: وقد أخبرنا شيخنا عبدالعزيز بن عبدالله الحصين[٤] عن شيخه المؤلف رحمهما الله تعالى، أنها وقعت القراءة في هذا الباب على السؤال بالله، وأن رجلاً من الحاضرين سأل الشيخ ـ اختبارًا ـ بالله عباءة قيلان[٥] عليه سوداء ذات أعلام، فأعطاه إياها ثم قال له: لا تعد أن تسأل بالله تعالى

= والطيالسي في مسنده (ص ٣٤٧)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٢٢٣)، والدارمي في سننه (٢/ ٢٦٥)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٦٧)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣١٥)، وقال الألباني في صحيح النسائي (٢/ ٥٤٣): صحيح.

(١) التاريخ الكبير، البخاري (١/ ٣٦٢).

(٢) الفروع، ابن مفلح (٢/ ٥٩٢)، اختيارات شيخ الإسلام (ص ٩٥)، شرح منتهى الإرادات، البهوتي (١/ ٤٦٠).

(٣) أخرجه في الأدب، باب في الرجل يستعيذ من الرجل (٤/ ٣٣٠)، وأحمد في المسند (١/ ٦٢)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٢٥٨).

(٤) سبقت ترجمته في قسم الدراسة ضمن شيوخ المؤلف.

(٥) نوع من العباءات معروف في نجد آنذاك.

أحدًا من الخلق. هذا معنى ما ذكره لنا رحمه الله تعالى.

وفي الدعوة وإجابتها ووجوب ما يجب من إجابتها وما يسن أو يستحب تفصيل في كتب الفقه ليس هذا موضعه.

(**ومن صنع إليكم معروفًا**) المعروف ما عرفه الشرع من مندوب وواجب، يقول: فمن أولى إليكم شيئًا من المعروف تفضلاً منه عليكم (**فكافئوه**) بما يساوي معروفه؛ إذ المكافأة المساواة، (**فإن لم تجدوا ما تكافئونه**) من جنس معروفه، (**فادعوا له**) المتفضل الذي بيده خزائن السموات والأرض أن يجازيه عنكم، ويكافئه بما هو أهله، إذ هو صاحب الكرم والجود، وهذا الدعاء أيضًا من العبادة له جل وعلا.

(**حتى تروا أنكم قد كافأتموه**) فجعل ذلك الدعاء مكافأة له؛ إذ هو قد يكون أعظم من المكافأة بجنس معروفه.

وفي الأثر أن يعقوب عليه السلام لما جاءه البشير بيوسف قال له: مالي ما أكافيك به على بشارتك إلا الدعاء، هون الله عليك سكرات الموت، ولا جعل لك إلى البخيل حاجة.

ذكره ابن أبي حجلة[1] الحنفي رحمه الله تعالى، وفي هذا رد على من أنكر الأسباب، وفيه أن دعاء المؤمنين متيقن الإجابة حيث قال: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

---

(١) هو أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني، أبو العباس، شهاب الدين، كان حنفيًا يميل إلى مذهب الحنابلة، ويكثر من الحط على أهل وحدة الوجود، وكان شاعرًا، له أكثر من ثمانين مصنفًا، توفي سنة ٧٧٦هـ. انظر الأعلام للزركلي (١/ ٢٦٨، ٢٦٩).

وفي الحديث الصحيح: ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة[1].

إذ حسن الظن بالله من خصال أهل الإيمان المجتنبين لأسباب غضبه تبارك وتعالى.

(رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح) ورواه الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه وقال: صحيح الإسناد[2].

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب عطية من سأل بالله (٢/ ١٣١)، والنسائي في الزكاة، باب من سأل بالله عز وجل (٥/ ٨٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٦٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٢٢٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٨٥)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣٩٧)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٧٣) وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٥٦)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٢٥٦)، والطيالسي في مسنده (ص ٢٥٧)، وقال النووي في رياض الصالحين (ص٥٨٦): حديث صحيح رواه أبوداود والنسائي بأسانيد الصحيحين.

الباب الخامس والخمسون

باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

(عن جابر) بن عبدالله بن حرام الأنصاري رضي الله عنهما **(قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»)**.

(رواه أبو داود)[1]، وعند أبي داود أيضًا عن ابن عباس بسند جيد مرفوعًا: «من سألكم بوجه الله فأعطوه»[2].

وحديث جابر هذا الذي ذكره المصنف رحمه الله من رواية سليمان ابن معاذ بن أرقم، وهو أبو معاذ البصري التيمي، ضعيف ضعفه أحمد وابن عدي وغير واحد[3]، وقال النسائي[4] في كتاب الضعفاء: هو متروك.

---

(١) أخرجه في الزكاة، باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى (٢/ ١٣١) من طريق سليمان بن معاذ التيمي ثنا ابن المنكدر عن جابر به، وابن عدي في الكامل (٣/ ١١٠٧)، والبيهقي في سننه (٤/ ١٩٩)، ومدار الحديث على سليمان بن معاذ، وهو ضعيف، ضعفه غير واحد من أهل العلم، منهم ابن معين والنسائي كما في تهذيب التهذيب (٤/ ٢١٣)، وقال الحافظ في التقريب (ص ٢٥٣): سيء الحفظ يتشيع. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦/ ٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الرجل يستعيذ من الرجل (٤/ ٣٣٠)، وأحمد في المسند (١/ ٢٤٩) بلفظ: من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه، وقال الألباني صحيح، كما في صحيح أبي داود (٣/ ٩٦٢).

(٣) انظر: الكامل، ابن عدي (٣/ ١١٠٥)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٤/ ٢١٣)، ولم أعثر على تضعيف الإمام أحمد له.

(٤) انظر: الضعفاء والمتروكين، النسائي (ص ٤٨)، حيث قال النسائي في حقه: ضعيف. ولم يقل: متروك.

وعند الطبراني في معجمه الكبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا: «ملعون من يسأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله ثم يمنع سائله ما لم يسأل هُجْرًا»[1]، وسنده لا بأس به[2].

وروى أيضًا حديث ابن عباس عبدالله ابن الإمام أحمد فقال: حدثني عبيدالله بن عمر القواريري ثنا خالد بن الحارث ثنا سعيد عن قتادة عن أبي نهيك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بوجه الله فأعطُوه»[3].

ورواه أيضًا والده الإمام أحمد في [ك،١٧٥/أ] مسنده بسند صحيح عن ابن عباس ولفظه قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بوجه الله فأعطُوه»[4].

فالوجه هنا صفة من صفات ذاته جل وعلا، وقد نهى ﷺ [أن][5] يسأل به إلا أعلى المطالب وأسنى الرغائب، وهي الجنة التي لا تنال إلا برضى الله تعالى، ولهذا نال الرضى منه جل وعلا من عمل لوجهه

---

(١) هجرا، بضم الهاء وسكون الجيم: أي ما لم يسأل أمرًا قبيحًا لا يليق، ويحتمل أنه أراد ما لم يسأل سؤالاً قبيحًا بكلام قبيح. انظر: الترغيب والترهيب، المنذري (١/ ٣٤٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير كما في الترغيب والترهيب (١/ ٣٤٠) وقال المنذري: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا شيخه يحيى بن عثمان بن صالح وهو ثقة، وفيه كلام وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٠٣): رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن، على ضعف في بعضه مع توثيق. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٢٤)، وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (٥/ ٣٦٣).

(٣) السنة، عبدالله بن أحمد (٢/ ٣٩٦).

(٤) مسند أحمد (١/ ٢٤٩)، وقد مضى تخريجه.

(٥) في الأصل: (ألا)، وما أثبته هو المناسب للسياق.

الكريم، كالصدّيق رضي الله عنه حيث قال تبارك وتعالى في حقه على الصحيح من قول المفسرين[1]: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ [الليل: ١٩- ٢١].

وقد أنكر هذه الصفة أهل البدع، وطلبوا لها التأويلات حيث لم يفهموا من ذلك إلا التشبيه والتجسيم فلم يوفقوا للإثبات بالتسليم، ومتابعة السلف في ذلك، وفي دعائه ﷺ حيث انصرف من الطائف بعد ما ردوا عليه أقبح الرد، لما دعاهم إلى الله تعالى، فأغْروا به سفهاءهم حتى رجموه بالحجارة، في قصة طويلة ليس هذا موضعها، فانصرف عنهم كئيبًا حزينًا ﷺ فدعا بدعائه المشهور وفيه: أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة. الحديث[2].

فاستعاذ ﷺ بنور وجهه من أن ينزل به غضبه أو يحل به سخطه، فإذا سلم الإنسان من نزول غضب الله به وحلول سخطه فقد سلم من جميع المكاره، وفاز برضى الله، وصار ما يأتيه من أذى الخلق في ذلك مِنَحًا في ذات الله تعالى: كما قال خبيب رضي الله عنه وأرضاه كما في البخاري:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شيء كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع[3]

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء (ص ٣١٥) من طريق محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله بن جعفر، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥): وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. والحديث أصله في صحيح البخاري (٣/ ١١٨٠)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠) من حديث عائشة.

(٣) مضى تخريجه.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه لما اعتقل في القلعة: ما يفعل أعدائي بي؟ إن قتلوني فشهادة، وإن حبسوني فعبادة، وإن أخرجوني فسياحة[1].

فهذه حال المشتاقين الذين يبتغون وجه الله تعالى، ويعملون على رسم العبودية الخالصة لمولاهم، لا يريدون إلا وجهه، كما عاتب الله تعالى رسوله وحبيبه وخليله وأمينه على وحيه محمدًا ﷺ، آمرًا له بقصر نظره على من هذه صفته فقال: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] الآية.

نسأل الله الكريم الهداية، ونعوذ به من الغواية، إنه جواد كريم.

---

(١) انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام، جمع محمد عزير وعلي العمران (ص ٦١٣).

الباب السادس والخمسون

(باب ما جاء في اللو)

(**وقوله تعالى**: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾).

قد ذكر الله تعالى قبل هذه الآية عن هؤلاء قولهم حيث قال عز وجل عنهم: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فذكر الآية المتقدمة، لما أخبر تعالى عن حال المنافقين بأن أنفسهم جعلتهم حاملين همومهم في كيفية الحيل والمكر، لا همَّ الرسول ﷺ ودينه، ظانين بالله ظنا باطلا، كظن أهل الجاهلية بأن دين محمد يزول ولا يدوم بعده، قائلين: ليس لنا من أمر الله شيء من النصر والغلبة، فقال تعالى: قل لهم يا محمد إن الأمر كله لله تعالى في الحقيقة لا غير، وهم يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون سرا: لو كان لنا في أمر الحرب شيء من الثبات والإقامة في المدينة، ونصيب من رأي عبدالله بن أبي، لما قتل منا من قتل في يوم أحد، ويقولون جهرًا الأمر كله بقضاء الله وقدره، ولا تأثير لحيلة الإنسان في رده، وليس مقصودهم بهذا إثبات القدر، ولو كان ذلك لم يُذموا، ولما حسن الرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، ولهذا قال غير واحد من السلف: إن ظنهم هنا التكذيب بالقدر، وأن الأمر لو كان إليهم لما أصابهم القتل، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه، فلو كتب القتل على من كان في بيته لخرج إلى مضجعه ولابد،

وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدرية، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ في المدينة ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ ومصارعهم في أحد وقتلوا فيها، لاستحالة الخُلْف في تقاديره تعالى.

(وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾) [آل عمران: ١٦٨].

يقول تعالى قل يا محمد للذين قالوا من المنافقين لأجل إخوانهم جنسًا أو نسبًا ودارًا حال قعودهم عن القتال، لو أطاعونا في أمرنا لهم بالقعود عنه ما قتلوا في القتال، كما لم نقتل نحن من وجهة قعودنا عنه: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: ١٦٨] في قدرتكم على دفع الأسباب عن موت الغير، فادفعوه عن أنفسكم بدفع أسبابه، والقعود الذي جعلتم دافعًا قد يكون سببًا للموت أيضًا، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

(في الصحيح) للبخاري (**عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك»**).

ليس هذا من الحرص المذموم، فإن هذا مقيد بقوانين الشرع، فهو من الممدوح، والمذموم ما خرج عن ذلك، إذ فاعل هذا على هذا القانون لا يسمى حريصًا، بل حازمًا عاقلاً، فإن الله سبحانه خص الإنسان بالقوى الثلاث، الشهوة، والغضب، والفكر، ليسعى في المكاسب، فإن فضيلة القوى الشهوية تطالبه [ك،١٧٦/ب] بالمكاسب التي تنميه، وفضيلة القوى الغضبية تطالبه بالمجاهدات التي تحميه، وفضيلة القوى الفكرية تطالبه بالعلوم التي تهديه، فحقه أن يتأمل قوته فيسعى

بحسبها، فإذا كانت قوته من جهة اكتساب المال من حله لم يسم حريصًا، وهذا من باب قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

ولهذا قال ﷺ: **(واستعن بالله)** فأمر ﷺ بفعل الأسباب، ثم أرشد إلى الاستعانة بالله تعالى فهو وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] يخرج من مشكاة واحدة، وفيه رد على الجبرية(١)، ثم قال: **(ولا تعجز)**.

والعجز: ترك ما كان واجبًا أو مندوبًا من أمور الدنيا والدين، وقد روى ابن ماجه بسند صحيح حيث قال: حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة ومحمد ابن بشار قالا حدثنا محمد بن جعفر غندر قال: ثنا شعبة ح وحدثنا أحمد بن سعيد الرازي قال: ثنا النضر بن شميل قال: ثنا شعبة ثنا محمد بن عبدالرحمن ابن أسعد بن زرارة الأنصاري قال: سمعت عمي يحيى وما أدركت رجلاً منا به شبيهًا [يحدث](٢) الناس أن أسعد بن زرارة(٣) وهو جد محمد من قبل [أمه](٤) أنه أخذه وجع في حلقه يقال له الذبح(٥)،

---

(١) الجبرية هم الذين ينفون قدرة العبد ومشيئته، وأوضح فرقة تمثل هذا الاتجاه الجهمية أتباع الجهم بن صفوان، فالعبد عندهم مسلوب الإرادة، فهو أشبه ما يكون عندهم بريشة في مهب الريح، وإنما نسبت الأعمال إلى المخلوقين مجازًا، وفي الحقيقة مجبور عليها لا إرادة له فيها.

انظر: الفرق بين الفرق، البغدادي (ص ٢١١)، الملل والنحل، الشهرستاني (١/ ٨٦).

(٢) من المسودة، وفي الأصل: «ما يحدث».

(٣) النجاري من الخزرج، من أشراف الجاهلية والإسلام، أحد النقباء الاثنى عشر، كان نقيب بني نجار، مات قبل وقعة بدر، فدفن في البقيع.

انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٥٠)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٥٧).

(٤) في الأصل والمسودة: «أبيه» وهو خلاف نص الحديث.

(٥) الذبحة: وجع يعرض في الحلق من الدم، وقيل هي قرحة تظهر فيه فينسد معها =

فقال النبي ﷺ: لأبلغن أو لأبلين في أبي أمامة عذرًا، فكواه بيده فمات، فقال النبي ﷺ: ميتة سوء لليهود، يقولون: أفلا دفع عن صاحبه، وما أملك له ولا لنفسي شيئًا[1].

قال أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني حدثنا الحسين بن القاسم الكوكبي قال حدثني بن عجلان قال سمعت الفضل بن مروان يقول كان ابن المقفع يقول: إذا نزل بك أمر مهم فانظر، فإن كان مما له حيلة فلا تعجز، وإن كان مما لا حيلة فيه فلا تجزع.

فتبين بهذا أن التوكل من المفروضات، ومهما دخل فيه من قادح فهو قادح في توحيد المتوكل، ونهى ﷺ عن العجز لأن من آفاته أن يحمل صاحبه على معارضة أقدار الله سبحانه، ويفتح على صاحبه أيضًا بتركه الأسباب عمل الشيطان.

ثم قال ﷺ مرشدًا إلى التسليم لأقدار الله تعالى السابقة الغالبة، بعد بذل العبد وسعه بفعله الأسباب المأمور بها.

(وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا) فإن ذلك زيادة حسرة في قلب العبد لا تغني عنه شيئًا، وإنما هو إلقاء من الشيطان في قلبه،

= وينقطع النفس فتقتل. انظر: النهاية، ابن الأثير (٢/ ١٥٤).

(١) أخرجه ابن ماجه في الطب، باب من اكتوى (٢/ ١١٥٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٢١١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣٩) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، قال الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ٢٦٢): حسن دون «ميتة سوء»، وأخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٢٨٢) بلفظ «منية سوء». وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٩٨): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

ولهذا أرشد ﷺ إلى ما يستدرك به العبد نفسه عندما يرد عليه من ذلك فقال: **(ولكن قل)** مسلِّمًا لله عند وقوع القدر عليك: **(قدر الله وما شاء فعل، فإن لو)** إذا استعملتها في جنس هذا الموضع **(تفتح)** عليك **(عمل الشيطان)** وهو معارضة الله في أمره القدري، كما أن إبليس لعنه الله عارض في أمره الشرعي، بامتناعه عن السجود لآدم عليه الصلاة والسلام، وفي أمره الكوني بأن قال: أنا خير منه، وفي علم الله وأمره الكوني والشرعي خلاف ما قال اللعين، وهذا الذم في التكلم بلو ليس على إطلاقه، وإنما الذم في التكلم بها إذا كان ذلك فيه معارضة لقضاء الله وقدره، وإلا فقد قال ﷺ في حجة الوداع، كما في الصحيحين وغيرهما من دواوين الإسلام عن جابر بن عبدالله: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة(1).

وقوله في البخاري في حديث ابن عباس: لو رجمت أحدًا بغير بينة لرجمت هذه(2).

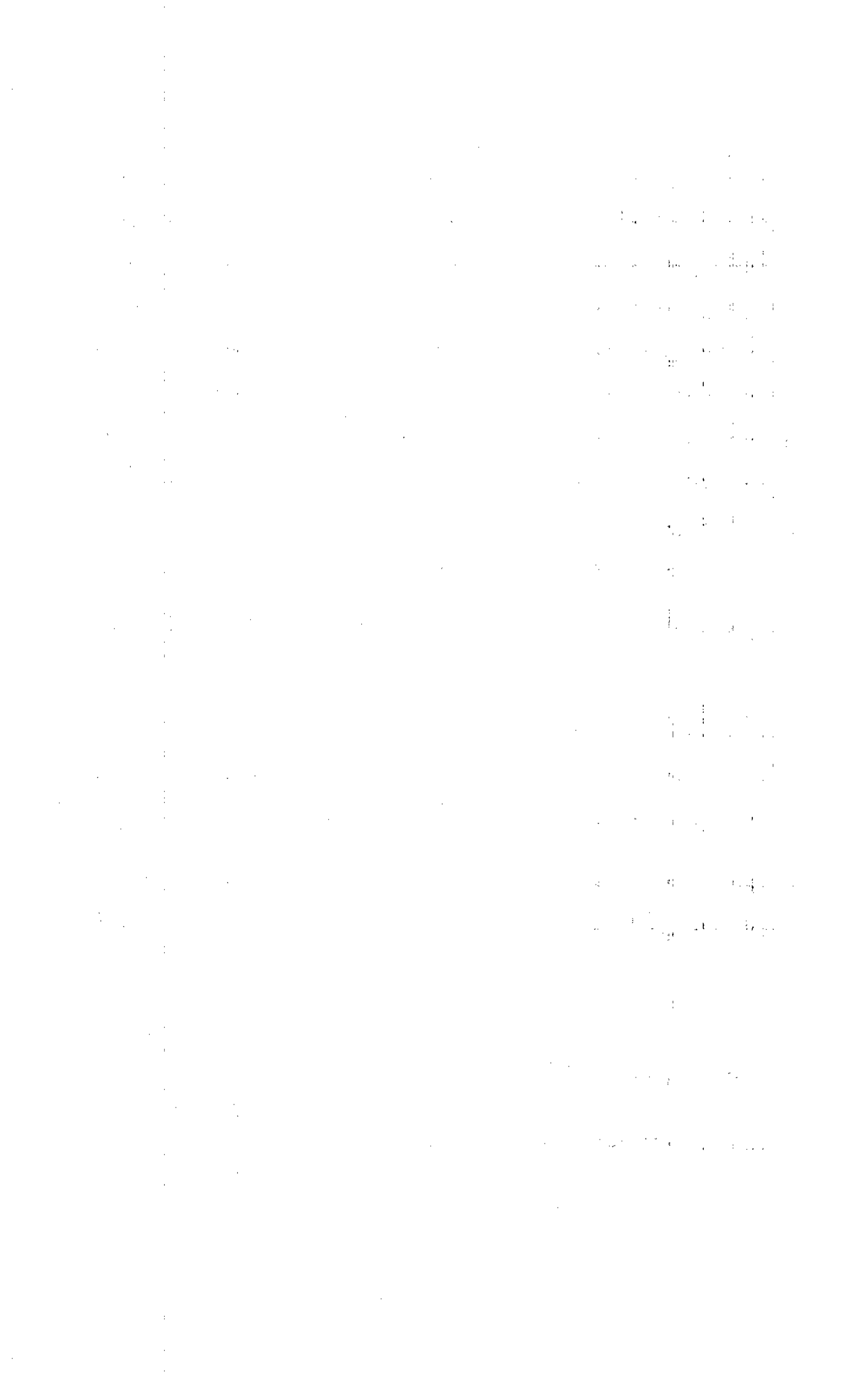
وقوله مخاطبًا له ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدا، وإنما المحذور منها ما ذكرناه موضحًا في باب المعرفة، موفي الأربعين بابًا والذي بعده فلينظر هناك، والله الهادي الموفق.

---

(١) أخرجه البخاري في العمرة، باب عمرة التنعيم (٢/ ٦٣٢)، ومسلم في الحج، باب بيان وجوه الإحرام (٢/ ٨٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب قول الإمام: اللهم بيِّن (٥/ ٢٠٣٦)، ومسلم في اللعان (٢/ ١١٣٤)، وغيرهم.



الباب السابع والخمسون

باب النهي عن سب الريح

السب هو الشتم، ومنه حديث الصحيحين عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما وفيه: قالوا يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه[1]، الحديث.

وجوابه ﷺ بالسب من التفنن، وقد يفرق بينهما ويقال: السب أعم؛ فإنه شامل للّعن أيضًا، بخلاف الشتم.

(عن أبي بن كعب) الأنصاري، الخزرجي، أبو المنذر، سيد القراء، الصحابي المشهور رضي الله عنه **(أن رسول الله ﷺ قال: لا تسبوا الريح)**. بأن تسندوا الفعل إليها فتشتموها؛ فإنها لا فعل لها في الحقيقة، فإن الله تعالى هو المرسل لها، فهي مدبَّرة مأمورة بأمر ربها الذي قال للسموات ﴿وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ١١] فكيف تُسب وهي لا فعل لها في الحقيقة، فهي تُرسل بالرحمة تارة، وبالعذاب تارة، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجرات: ٢٢]، ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وقال: ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات: ٤١]، وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت: ١٦].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب لا يسب الرجل والديه (٥/ ٢٢٢٨)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (١/ ٩٢) واللفظ له، ورواه غيرهم.

روي أن الله أمر خزنة الريح أن يفتحوا على عاد منها قدر حلقة الخاتم، ولو فتحوا قدر منخر الثور لهلكت الدنيا[١].

وروي أنها كانت ترفع العير بأوقارها فتطير بها حتى تطرحها في البحر، قال جماعة من المفسرين: والصرصر صفة الريح، باردةً كانت أو سمومًا، من «صرّ» «يصرّ» إذا صوت صوتًا يشبه الصاد والراء[٢].

وفي مسند الإمام الشافعي حديث منقطع عن رجل: أنه شكا إلى رسول الله ﷺ الفقر، فقال له رسول الله ﷺ: لعلك تسب الريح[٣].

قال الشافعي رحمه الله: لا ينبغي لأحد أن يسب الريح فإنها خلق لله مطيع، وجند من أجناده، يجعلها رحمة ونقمة إذا شاء سبحانه[٤].

ولهذا أرشدهم ﷺ في ذلك لما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم فقال بعد نهيه عن سبّها: **(فإذا رأيتم ما تكرهون)** أي من الريح **(فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به. صححه الترمذي)**[٥].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٢ـ ٤١٣)، الدر المنثور، السيوطي (٨/ ٢٦٤ـ ٢٦٥).

(٢) المصادر السابقة.

(٣) لم أعثر عليه في المسند، وهو في الأم (١/ ٢٥٣).

(٤) المصدر السابق.

(٥) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الريح (٤/ ٥٢١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٥١)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٣١)، وعمل اليوم والليلة (ص٥٢١)، وأحمد في المسند (٥/ ١٢٣)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٨٦)، والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣٩٨) كلهم من طرق عن حبيب بن أبي ثابت عن ذر عن سعيد بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي بن كعب به، قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٥٩٨): حديث صحيح.

فأضاف أولا الخير والشر إليها [ك،١٧٦/أ] في هذا الحديث إضافة سببية لا استقلالية، لأن الله سبحانه جعلها سببًا لذلك الخير والشر الذي أمرت به، ثم جعلها ظرفًا لذلك لأن الله جعله فيها تحمله إلى حيث أمرت، ثم قال فيها: **(وما أمرت به) فجعل ﷺ الأمر في السؤال كله لله** تعالى، وأثبت الأسباب التي أثبتها مرسله تبارك وتعالى، فإنه تعالى يرسلها مبشرات ونقمات، فهو تعالى يرسلها بما يكره الإنسان وبما يحب، فإذا كان الأمر كذلك، فليسأل العبد مرسلها من خيرها وخير ما أرسلت به، ويستعيذ به من شرها وشر الذي أرسلت به، وحيث علم أنها مأمورة فلا يسبها، بل يسأل الله، ثم يسلم لأمره فيما أصابه بعد ذلك.

وروى أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، واسألوا الله تعالى خيرها، واستعيذوا بالله من شرها[١].

ورواه النسائي في اليوم والليلة[٢] عنه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي على ذلك[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا هاجت الريح (٤/ ٣٢٨)، وابن ماجه في الأدب، باب النهي عن سب الريح (٢/ ١٢٢٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٥١)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٣٠)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٨٧)، كلهم من طرق عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٩٦٠).

(٢) عمل اليوم والليلة، النسائي (ص ٥١٩).

(٣) المستدرك (٤/ ٣١٨).

والروح بفتح الراء قال الخطابي وغيره: يعني من رحمة الله بعباده، ويقال من تنفيسه وتفريجه، والكل متقارب لأن ذلك من رحمته[1].

وقد قال الإمام أحمد: ثنا يزيد بن هارون أنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمينه يخفيها عن شماله[2].

وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه، وهو عند الترمذي وقال: حديث غريب[3].

وقال أحمد أيضًا: ثنا يزيد بن هارون الواسطي ثنا حميد الطويل عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: السموات السبع وسكانها، والأرضون السبع السفلى إلى الماء إلى الريح الهفّافة، كل ذلك مخلوق ما خلا القرآن، فإنه كلام الله غير مخلوق[4].

---

(١) انظر: النهاية، ابن الأثير (٢/ ٢٧٢).

(٢) مسند أحمد (٣/ ١٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير، باب رقم ٩٦ (٥/ ٤٥٤) وقال: هذا حديث غريب، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٨٦) وفي إسناده سليمان بن أبي سليمان قال الحافظ في التقريب (ص ٢٥٢): مقبول. وقال الألباني في ضعيف الترمذي: ضعيف.

(٤) لم أعثر عليه.

وهذا الحديث من عوالي ما يرويه الإمام أحمد، فإن بينه وبين النبي ﷺ ثلاثة رجال: يزيد وحميد وأنس رضي الله عنه، لكن فيه إدراجًا.

ولهذا في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به[1].

وروى ابن السني عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا اشتدت الريح يقول: اللهم لقحًا لا عقيمًا[2].

قال النووي: لقحًا أي حاملا للماء كاللقحة من الإبل، والعقيم التي لا ماء فيها، والعقيم من الحيوانات الذي لا يولد له، قال جرير بن الخطفى:

مطاعيم الشمال إذا استحنت وفي العرّاء كل صبا عقيم[3]

يريد مطاعم الشتاء، والعراء البرد الشديد والرعدة، واستحنان الشمال هيجانها، والعقيم التي لا مطر فيها[4]، قال تعالى: ﴿ أَرْسَلْنَا

---

(١) أخرجه في صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر (٢/ ٦١٦)، والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا هاجت الريح (٥/ ٥٠٣)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٢٣٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه في عمل اليوم والليلة (ص ١٤٦)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٥٠)، والطبراني في الكبير (٧/ ٣٣)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٨٨)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣١٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨٥٤).

(٣) شرح ديوان جرير (ص ٣٧٤).

(٤) لسان العرب، ابن منظور (١٢/ ٤١٣).

﴿عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات: ٤١]، وقد قال أبوبكر بن عياش[١]: لا تقطر من السماء قطرة حتى تعمل فيها أربع رياح، فالصبا تهيجه، والشمال تجمعه، والجنوب تبدده، والدبور تفرقه. ذكره ابن الجوزي عنه في تفسيره[٢].

وفيه قال عبيد بن عمير[٣]: يبعث الله المبشرة فتقمّ الأرض قمّا، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب، ثم تلا ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ورواه عنه ابن أبي حاتم[٤] وابن جرير.

وقال أبو زيد الأنصاري[٥]: وتقول العرب لريح الدبور: محوة، لأنها تمحو السحاب، قال شاعرهم[٦]:

قد بكرت محوة بالعجاج   فدمرت بقية الرجاج

والرجاج ضعاف الناس والمواشي، ومن لا طائل عنده.

وقال غير أبي زيد: هي الشمال.

---

(١) مضت ترجمته ص ٣٠٦.

(٢) لم أعثر عليه في زاد المسير، وذكره البغوي في تفسيره (٣/ ٤٧).

(٣) الليثي، أبو عاصم المكي، من كبار التابعين، قال مسلم ولد في عهد النبي ﷺ، وكان قاصّ أهل مكة، مجمع على ثقته، مات قبل عبدالله بن عمر.
انظر: تهذيب التهذيب (٦/ ٧١)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٣٧٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٢١)، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة كما في الدر المنثور (٥/ ٧٣).

(٥) مضت ترجمته ص ١٥٧٢.

(٦) هو العجاج كما في الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ص (٣٤٣)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ولم أجده في ديوانه ط دار صادر.

وقوله عنهم أثبت، قال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: ومن آياته الباهرات هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، والطير محلقة سابحة بأجنحتها في أمواجه، كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب بجوانبه وأمواجه عند هيجانه كاضطراب أمواج البحر، ويدرك جسمه بحس اللمس عند هبوبه ولا يرى شخصه، فإذا شاء سبحانه وتعالى حرّكه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحًا للسحاب يلقحه كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل، وتسمى رياح الرحمة المبشرات، والنُشُر، والذاريات، والمرسلات، والرُخاء، واللواقح، ورياح العذاب تسمى: العاصف، والقاصف، وهما في البحر، والعقيم، والصرصر، وهما في البر[1].

وهذا مروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع ثنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: الرياح ثمانية، أربعة منها رحمة، وأربعة منها عذاب. فأما الرحمة: فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات وأما العذاب: فالعقيم والصرصر وهما في البر، والعاصف والقاصف وهما في البحر[2].

وعند الحاكم عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من طريق عمرو بن دينار [ك،١٧٧/ب] قهرمان آل الزبير مرفوعًا: الريح تُبعث عذابًا لقوم ورحمة لآخرين[3].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (١/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٧).

(٣) لم أعثر عليه في المطبوع من المستدرك.

ورواه الديلمي أيضًا في الفردوس من هذا الوجه[1]، وقال الذهبي في قهرمان آل الزبير: متفق على ضعفه[2]. فإذا شاء الله حرك هذا البحر بحركة العذاب فجعله عقيمًا، وأودعه عذابًا أليمًا، وجعله نقمة على من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا ونحسًا وعاتيًا، ومفسدًا لما يمر عليه، وهي مختلفة في مهابها، فمنها صبا، ودبور، وجنوب، وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها بأمر ربها أعظم اختلاف، فريح لينة رطبة تغذي النبات، وأبدان الحيوانات، وأخرى تجففه، وأخرى تهلكه وتعطبه، وأخرى تشده وتصلبه، وأخرى توهنه وتضعفه، ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع، لاختلاف منافعها وما يحدث منها، فريح تثير السحاب، وريح تلقحه، وريح تحمله، وريح تدره، وريح تمحوه، وريح تغذي النبات[3].

قال: ولما كانت مختلفة في مهابها وطبائعها جعل سبحانه لكل ريح ريحًا تقابلها تكسر سورتها وحدتها، ويبقى لينها ورحمتها[4].

---

(١) عزاه العجلوني في كشف الخفا (١/ ٥٢٥) إلى الديلمي فقط، ولم أعثر عليه في المطبوع من مسند الفردوس.

(٢) انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (٣/ ٢٥٩).

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (١/ ٢٠١).

(٤) المصدر السابق.

فصل

فالرياح أمهاتها أربع: الصبا وتقابلها الدبور، والشمال وتقابلها الجنوب، فعند ابن أبي الدنيا وابن مردويه وابن جرير الطبري وأبي الشيخ بن حيان في العظمة كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفًا ومرفوعًا: ريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللواقح التي ذكر الله في كتابه، فيها منافع للناس، والشمال من النار، تخرج فتمر بالجنة فيصيبها نفحة منها، فبردها من ذلك[١].

وفي الحديث الصحيح المرفوع: نُصرت بالصَبا، وأُهلكت عاد بالدبور[٢].

وفي البخاري عن النعمان بن مقرن[٣] قال: شهدت القتال مع رسول الله ﷺ فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تهب الأرواح وتحضر الصلاة[٤].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٢٢)، وابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه كما في الدر المنثور (٥/ ٧٢): قال السيوطي: سنده ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: نصرت بالصبا (١/ ٣٥٠) عن ابن عباس، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور (٢/ ٦١٧)، وغيرهم.

(٣) المزني، قدم على رسول الله ﷺ مع قومه مسلمًا، وأخباره في فتوح العراق كثيرة، وهو الذي قدم على عمر بشيرًا بفتح القادسية، فتح أصبهان واستشهد بنهاوند، توفي سنة ٢١هـ.

انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٥١٦)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٥٣٥).

(٤) أخرجه في الجزية، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (١/ ١١٥٢).

ورواه أبو داود عنه ولفظه: انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح[1]، ورواه الترمذي بمعناه وقال: قال قتادة: كان يقال عند ذلك يعني زوال الشمس وحضور الصلاة: تهيج رياح النصر، ويدعو المؤمنون لجيوشهم في صلاتهم[2]. وقد قيل إن الصبا هي الرخاء التي سُخّرت لسليمان بن داود عليه الصلاة والسلام، وذكر ابن الجوزي في المنعش عن أبي الحسن الثوري أنه قال: قالت النملة لسليمان بن داود عليه السلام: أتدري لم سخرت لك الريح من بين الأنبياء؟ قال: لا أعلم. قالت: ليعلمك أن ما آتاك من الملك زواله عنك كسرعة الريح فلا تغتر به.

ونكب الرياح المذكورة أربع أيضًا، قال ابن الأعرابي في نوادره: النكب من الرياح أربع: فنكباء الصبا، والجنوب مهياف ملواح ميباس للبقل، وهي التي تجيء بين ريحين. ونكباء الشمال معجاج مصراد، ولا مطر بإذن الله تعالى فيها ولا خير، فهي عقيم. ونكباء الشمال والدبور قرة، وربما كان فيها بإذن الله تعالى مطر قليل. ونكباء الدبور والجنوب: ريح حارة كما قال غيلان ذو الرمة:

وصوّح البقل نآج تجيء به ... هيف يمانية في مرها نكبُ[3]

ولما ذكر غيلان أن النكب الأربع في كلام له قال:

فحنّت بها النكب السوافي فأكثرت ... حنين اللقاح القاربات العواشر

---

(١) أخرجه في الجهاد، باب في أي وقت يستحب اللقاء (٣/ ٥٠).

(٢) أخرجه في السير، باب ما جاء في الساعة التي يستحب فيها القتال (٤/ ١٦٠).

(٣) البيت في ديوانه (ص ٥٤)، ولسان العرب، ابن منظور (٢/ ٥٢٠).

فوصف شدة حنينها حيث تقابلت بحنين اللقاح التي لا ترد الماء إلا لعشر، والنكب هي أشد ما يكون لقشر التراب وسفيه من الأرض وأصول الشجر.

قال: والجنوب ريح حارة، والدبور من رياح القيظ لا تكون إلا فيه، وهي مهياف، والجنوب تكون في القيظ والشتاء، والصبا شتوية مباركة طيبة، لينة البرد، قليلة العجاج، وهي القبول، وسميت بذلك لأن النفس تقبلها، وقيل: لأن العرب تجعل أبواب بيوتها لمطلع الشمس شرقًا، فصارت تقابلهم فسميت بذلك، وقيل: لأنها تقابل باب بيت الله تعالى، والدبور العكس، فالصبا ريح طيبة المس، لم يجعل الله سبحانه فيها أذى، فهي أطيب الأرياح غذاء للأرواح والأبدان، لما أودع ذلك فيها الكريم المنان ذو العز والملكوت والسلطان، الذي لا يخرج أحد عن تدبيره، فهو الخالق لما فيها من المنافع والمضار، إذ هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار، وقد جعل بعض العلماء رحمهم الله تعالى مهب الرياح من الدلائل على القبلة، وأودع الله فيها من المنافع والمصالح ما لا يعلمه إلا الذي أرسلها، فهي تجري في البر والبحر وتسكن بأمره، فهي جند من جنده، أهلك بها عادًا التي لم يخلق مثلها في البلاد، ونصر بها نبيه محمدًا ﷺ يوم الأحزاب، حين أرسلها عليهم رب الأرباب، كما ذكر ذلك في محكم الكتاب، فصار ذلك نصرًا ورحمة للمؤمنين، وعذابًا ونقمة على الكافرين، فلم يستقر لهم خباء ولا قدر، ولم يثبت لهم على الأرض قدم حتى ارتحلوا خائبين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١﴾ [الأحزاب: ٩- ١١]. ثم ذكر المنافقين وإرجافهم،

وذلك لخلوهم من اليقين بالله ومعرفة عظمته وجلاله وكبريائه، وما في صدورهم من تعظيم غيره، فإنهم قد ملأ الباطل صدورهم، ولم يعلموا أن الله سبحانه يكفي عباده المؤمنين بما شاء من جنده، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الذين جاؤوهم من فوقهم بنو قريظة، ومن أسفل منهم قريش وغطفان[1]. ثم خذّل بينهم نعيم بن مسعود[2] رضي الله عنه لما أسلم في قصة طويلة معلومة، حتى بعث الله عليهم الريح فقام [ك،١٧٧/أ] أبو سفيان فقال: يا معشر قريش والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة ولقينا من شدة الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل. فتحملت قريش وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فارتحلوا راجعين إلى بلادهم.

وذكر ابن النجار أن الملائكة اتبعوا الأحزاب حتى بلغوا الروحاء يكرّون في أدبارهم، فهربوا لا يلوون على شيء[3].

وروي أنه ﷺ قال: لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا[4].

وقد قال قتادة وابن زيد على قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] هي ريح النصر، لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله عز وجل، تضرب وجوه العدو. ذكره البغوي[5] عنهما.

---

(١) أخرجه ابن إسحاق وابن مردويه كما في الدر المنثور (٦/ ٥٧٤).

(٢) الأشجعي، ذو رأي ومشورة، قدم مسلمًا على رسول الله ﷺ أيام الخندق، فأسلم وكتم إسلامه، ثم عاد للأحزاب فألقى الفتنة بينهم، توفي بنحو ٣٠هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٣/ ٥٣٩).

(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (٢/ ٢٢٩-٢٣٣).

(٤) المصدر السابق (٣/ ٢٥٤).

(٥) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٩)، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ =

وعند سيف بن عمر عن سهل بن يوسف عن القاسم وهشام عن عروة وأبي يعقوب قالوا: لما وجه أبوبكر خالدًا تقدم إليه وقال فيما يقول له: لا تلقين بالمسلمين إلا في النصف الأخير من النهار، وإن نازلتم العدو صباحًا فالزموا الأرض واستظلوا حجفكم إلى أن تميل الشمس، فإنها ساعات النصر وحين الصلاة، وتهب فيها رياح الفتوح وتدنون من الليل.

فالحاصل أن من الرياح ما يكون عذابًا ومنها ما يكون رحمة، ورياح الرحمة متعددة، وأما رياح العذاب فإنها ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك ما ترسل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وحدتها، بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء، تدمر كل شيء أتت عليه بأمر ربها، فانظر إلى جلالة القرآن وفصاحته كيف اطّرد فيه الجمع في البر كما مر، وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]، الآية.

فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من جهة واحدة، فإذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها، فالمقصود منها في البحر خلاف المقصود منها في البر، إذ المقصود منها البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء، فأفردت هنا وجمعت في البر.

وقد قال ابن حجر الفقيه[١] في شرح الهمزية: أصول الرياح أربعة

= عن قتادة وابن جرير في تفسيره عن مجاهد، وابن أبي شيبة والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٤/ ٧٦).

(١) مضت ترجمته ص ١١٢٦.

كما تقدم، وهي الصبا حارة رطبة، ومهبها من مطلع الشمس إلى كرسي بنات نعش، والشمال باردة يابسة، ومهبها من كرسي بنات نعش إلى مغرب الشمس، والدبور باردة رطبة، ومهبها من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل، والجنوب حارة رطبة، ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الشمس، ولها فروع وهي: النكباء بين الصبا والجنوب، والأزيب بين الصبا والشمال، والجربياء بين الشمال والدبور، والهيف بين الدبور والجنوب.

وقد مر أن الأربع تسمى نكبًا كلها، وقد ذكرنا الشاهد على ذلك من كلام غيلان ذي الرمة. قال: والشمال تخرج من النار وتمر بالجنة فتتكيف بريحها وبردها، وحكمة ذلك قمعًا للقوة النارية والقوة البردية، لأن من شأن الأولى كثرة الحركة وشدة الإنضاج، ومن شأن الثانية ملاءمة النفس وإزالة أكدارها، وهي ملح الأرض، ولولا الشمال لما أنبتت الأرض.

ومسكن الأربع الرياح تحت أجنحة الكروبيين حملة العرش، وإنها تهيج فتقع بعجلة الشمس فتعين الملائكة على جرها، ثم تهيج من عجلة الشمس فتقع في البحر، ثم تهيج من البحر فتقع برؤوس الجبال فتقع في البر[1].

قلت: وقد روى ابن أبي حاتم في مخرجها حديثاً حيث قال: حدثنا ابن عبيدالله ابن أخي ابن وهب ثنا عمي ثنا عبدالله بن عياش حدثني عبدالله ابن سلمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: الريح تخرج من الثانية يعني من الأرض الثانية، فلما أراد الله أن يهلك عادًا أمر خازن الريح أن يهلك عادا، فقال: يا رب أرسل عليهم قدر منخر الثور؟ قال له الجبار تبارك

---

(١) هذا الكلام وماشابهه مما لم يرد في القرآن وصحيح السنة غير لازم القبول، وإنما هو اجتهادات أو روايات إسرائيلية كما في الأثر الآتي.

وتعالى: لا، إذًا يكفي الأرض ومن عليها، ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم، فهي التي قال الله في كتابه ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾[1]. لكن هذا الحديث فيه غرابة، ورفعه منكر، والظاهر والله أعلم أنه من كلام عبدالله بن عمرو بن العاص[2] رضي الله عنه، وعند ابن أبي حاتم أيضًا عن عبدالله بن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: ما فتح الله على عاد من الريح التي هلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم وسواقيهم وأموالهم فحملتهم بين السماء والأرض، فلما رأى أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها قالوا: هذا عارض ممطرنا، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة[3].

وحكى البغوي أن عجوزًا منهم دخلت سربًا فقتلتها الريح في اليوم الثامن فسميت الأيام النحسات أيام العجوز[4].

وأوردنا هذا الفصل في هذا الباب لما فيه من التنبيه على حكم أحكم الحاكمين، لينتفع السامع وليعلم أن الأمر كله لله، يفعل ما يشاء

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٣٧) وقال: هذا الحديث رفعه منكر والأقرب أن يكون موقوفًا على عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما من زاملتيه اللتين أصابهما يوم اليرموك والله أعلم، وأخرجه الحاكم بنفس إسناد ابن أبي حاتم في المستدرك (٤/ ٦٣٦) وقال: الحديث صحيح ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: بل منكر، وعبدالله بن عياش القتباني ضعفه أبو داود وعند مسلم أنه ثقة، ودراج كثير المناكير.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٣).

(٤) المصدر السابق.

ويحكم ما يريد، فإن الريح مدبرة ليس عندها علم، فالساب لها متطرق بذلك على سب مرسلها ومدبرها جل وعلا، وذلك قادح في التوحيد.

وفي الرياح منافع ومصالح للعباد والبلاد، لا يحصيها ويحيط بعلمها إلا الذي خلقها ودبرها، فمنها ساكن ومتحرك، فمن الساكنة هذه الريح الساكنة بين السماء والأرض، ترى الطير فيها سابحة بأجنحتها كالمجاديف للسفينة في بحر الماء، وكل من البحرين له ساكن لا يعيش في الآخر، إذ غذاء روح ذلك الساكن من بحره، فإذا خرج ساكن بحر الماء لبحر الهواء هلك وبالعكس، ثم انظر أيضًا في مصالح بحر الهواء كيف يجذب نافخ النار إذا أراد نفخها من ذلك البحر بفيه، ثم ينفخها فتشب وتسجر، وكذا الحداد يرفع منافيخه حتى تمتلىء، كمايملأ صاحب الدلو دلوه من بحر الماء، ثم يكبح لها الكير حتى يطير شرره، وما يحصل بها من التنشيف وحمل [ك،١٧٨/ب] الصوت والأطياب والروائح من غيرها، فإذا كانت رخاء فهي أبعد للشم والصوت بحيث أنها لا تفرقه بشدتها، وانظر إلى السابح في بحر الماء وهو لا يحسن العوم كيف يأخذ قربة فيجدف فيها بفيه من بحر الهواء الساكن حتى تمتلىء ثم يجعلها في وسطه فتطفح به على الماء لما في جوفها من الهواء المحبوس فيها، فيسير بها على ظهر الماء، فلو انفلت وكاؤها أو انخرقت لخرّجت الهواء وسقط السابح في البحر فغرق، إلى غير ذلك من المصالح التي لا تحصى، وبعضها يعرف بالحس وذلك تقدير العزيز الحكيم، والله تعالى الموفق.

الباب الثامن والخمسون

باب قول الله تعالى

﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

وقوله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفتح: ٦].

وقد مر بعض الكلام على هذا المقام، والظن هو الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به، وهو ظن السوء، دون مبادىء الظنون التي لا تُملك، وخواطر القلوب التي لا تُدفع[١].

(قال) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن جرير الزرعي التميمي، الدمشقي الفقيه الحنبلي الأصولي، المفسر النحوي، [أبو][٢] المعارف شمس الدين أبو عبدالله **(ابن القيم)** قيّم الجوزية، ولد رحمه الله تعالى في سابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة، سمع من شهاب الدين النابلسي[٣] العابر، والقاضي تقي الدين سليمان[و][٤] أبي بكر بن

---

(١) انظر: النهاية، ابن الأثير (٣/ ١٦٢)، لسان العرب، ابن منظور (١٣/ ٢٧٢).

(٢) في الأصل: أبي.

(٣) هو أحمد بن عبدالرحمن الحنبلي، أبو العباس، المعروف بالشهاب العابر، لأنه يعبر الرؤيا، توفي سنة ٦٩٧هـ، سمع منه ابن القيم وهو لم يتجاوز السابعة، انظر زاد المعاد (٣/ ٣٢).

انظر: البداية والنهاية، ابن كثير (١٤/ ٢٧٥)، شذرات الذهب، ابن العماد (٥/ ٤٣٧).

(٤) في الأصل: «بن» وهو خطأ تم تصويبه من مصادر ترجمته.

عبدالدائم[١]، وأبي نصر الشيرازي[٢] وجماعة، ولازم شيخ الإسلام ابن تيمية، وأخذ عنه الفقه والفرائض والأصلين، وقرأ العربية على المجد التونسي[٣]، وابن أبي الفتح البعلي[٤]، وكذا الأصلين على الصفي الهندي[٥]، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفًا بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيها المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط، وكان لا يلحق في ذلك، وله اليد الطولى بعلم الكلام والسلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، وكان ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله سبحانه، والانكسار له والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته.

قال ابن رجب: لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيت أوسع علمًا منه، ولا أعرَف بمعاني الكتاب والسنة وحقائق الإيمان منه، وقد امتُحن مرات وأوذي، وحبس مع شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية بالقلعة في

---

(١) هو أبوبكر بن المنذر بن أحمد بن عبدالدائم المقدسي، المتوفي سنة ٧١٨هـ.
انظر: الوافي بالوفيات، الصفدي (٢/ ٢٧١)، الدرر الكامنة، ابن حجر (٤/ ٢١).

(٢) لم أعثر على ترجمته.

(٣) أبوبكر محمد بن قاسم التونسي الشافعي، مجد الدين، المتوفي سنة ٧١٨هـ.
انظر: شذرات الذهب، ابن المعاد (٦/ ٤٧)، الدرر الكامنة، ابن حجر (٤/ ٢١).

(٤) تقدم التعريف به ص٥٢٤.

(٥) هو محمد بن عبدالرحيم الأرموي الشافعي، صفي الدين الهندي، الفقيه الأصولي، المتوفي سنة ٧١٥هـ. انظر: الدرر الكامنة، ابن حجر (٤/ ١٣٢)، البدر الطالع، الشوكاني (٢/ ١٤٣).

المرة الأخيرة منفردًا عنه، ولم يُفرج عنه إلا بعد موت الشيخ، وفتح عليه في الحبس فتوح[1] عظيمة، وجاور بمكة، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة أمرًا يُتعجب منه، وأخذ عنه العلم خلق كثير، وكان فضلاء وقته يعظمونه كابن عبدالهادي[2] وغيره[3]. وقال القاضي برهان الدين الزرعي[4]: ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه[5]. ودرس بالصدرية وأَمّ الجوزية مدة طويلة، وطبقت تصانيفه ما بين الخافقين من نَفَاقها[6]، توفي وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس ثالث عشر شهر رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، ودفن بمقبرة باب الصغير، ذكره ابن رجب وغيره[7].

(في الآية الأولى: فُسر هذا الظن بأن الله سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته.

---

(١) في الأصل: فتوحًا.

(٢) هو محمد بن أحمد بن عبدالهادي، المقدسي، الحنبلي، شمس الدين، ذكر له ابن رجب ما يزيد عن سعين مصنفًا، فقيه، حافظ، تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، وجامع سيرته، توفي سنة ٧٤٤هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (٤/ ١٥٠٨)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٣٦٠).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب (٢/ ٤٤٨).

(٤) هو إبراهيم بن محمد ابن قيم الجوزية، برهان الدين، المتوفي سنة ٦٧٦هـ. انظر: شذرات الذهب، ابن المعاد (٦/ ٢٠٨)، المقصد الأرشد، ابن مفلح (١/ ٢٣٥).

(٥) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب (٢/ ٤٤٨).

(٦) كلمة غير مقروءة في الأصل، ولعل الصواب ما أثبت.

(٧) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب (٢/ ٤٤٨)، وانظر: المقصد الأرشد، ابن مفلح (٢/ ٣٨٤).

ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم الله أمر رسوله وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو الظن السيء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا هو ظن السوء والجاهلية، لأنه ظن به غير ما يليق به سبحانه، ولا يليق بصفاته وأسمائه، وغير ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والألوهية وبوعده الصادق. فمن ظن أنه لا يتم أمر رسوله، وأنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها الحق) اضمحلالاً لا يقوم بعده، فقد ظن به ظن السوء ونسبه سبحانه إلى خلاف ما يليق بكماله وصفاته، (أو أنكر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره) فما عرفه حينئذ ولا عرف ملكه، (أو أنكر أن يكون قدره) السابق في علمه (لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد) في ذلك، (بل قد زعم أن ذلك مشيئة مجردة) عن الحكمة، (فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار).

وفي الصحيحين من حديث أبي معمر عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع أن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣] الآية[1].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ (٤/ ١٨١٨)، ومسلم في أوائل صفات المنافقين وأحكامهم (٤/ ٢١٤١).

(وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يخصهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وموجب حكمته).

وحقيقة الحكمة عند العرب: هي ما صدرت عن علم وصواب برفق ولين دون أن يكون فيها تعسف [ك،١٧٨/أ] ولا تغير ولا إخجال، فإن الخلق ينبغي لهم أنهم على حكم وموجب صفات الباري العُلا وأسمائه الحسنى يجرون قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد قال ابن أبي نجيح[١] عن مجاهد على هذه الآية: إن الحكمة الإصابة في القول[٢].

يبين هذا ما عند الجماعة بطرق متعددة عن ابن مسعود مرفوعًا: لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىٰ هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها[٣].

وهذا يدخل فيه قول من قال: الحكمة القرآن، ومن قال: هي السنة، ومن قال: الفهم، ومن قال: الفقه في الدين، ومن قال: هي النبوة[٤]، ومر الكلام عليها في آيات الإسراء أول الكتاب.

---

(١) مضت ترجمته ص ١٦٠٦.

(٢) ذكره أبو البقاء في الكليات (ص ٣٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة (١/ ٣٩)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (١/ ٥٥٩)، وغيرهم.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن رجب (٧/ ١٠٠).

(وحمده) فمن قنط من رحمته فقد ظن به ظن السوء، ومن جوز عليه أنه يعذب المحسن أو يسوي بينه وبين عدوه فقد ظن به ذلك، ومن ظن أنه ترك خلقه سدى عن الأمر والنهي فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه أخبر عن نفسه سبحانه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وترك الحق لم يخبر به إلا برمز بعيد، وصرح دائمًا بالباطل وأراد من خلقه أن ينقبوا في تحريف كلامه، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم لا على كتابه، بل أراد أن[1] يحملوا كلامه على ما لا يعرفون من لغتهم مع قدرته على التصريح بالحق وإزالة الألفاظ التي توقع في الاعتقاد الباطل، وظن أنه وأسلافه عبروا عن الحق دون الله ورسوله وأن الهدى في كلامهم، وأن كلام الله لا يؤخذ من ظاهره إلا الضلال، فقد ظن به ظن السوء، فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية، ومن ظن أنه يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يقدر ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن الفعل، ثم صار قادرًا عليه فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه لا إرادة له ولا كلام يقوم به، وأنه لم يكلم أحدًا ولا تكلم أبدًا، ولا له أمر ولا نهي يقوم به، فقد ظن به ظن السوء، ومن ظنّ أنه ليس فوق سمواته على عرشه، وأن الأمكنة بالنسبة إليه سواء بالقرب، وأن من قال سبحان ربي الأسفل كمن قال سبحان ربي الأعلى فقد ظن به أقبح الظن، ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أحد ولا يقرب منه أحد فقد ظن به ظن السوء، وكذلك من ظن أنه يساوي بين المتضادين، أو فرق بين المتساويين من كل

---

(١) في الأصل (أن لا) والواجب حذف «لا» هذه؛ لأنها تجعل العبارة متناقضة، وبدونها يستقيم الكلام.

وجه، أو يحبط طاعات المرء بكبيرة تخلّده في الجحيم.

وبالجملة فمن ظن به خلاف ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسله، أو عطله من ذلك، أو ظن أن له شريكًا أو شفيعًا بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أن ما عنده ينال بالمعصية كما ينال بالطاعة، أو أنه إذا ترك المرء لأجله شيئًا لم يعوضه خيرًا منه، أو أنه يعاقب بمحض المشيئة بغير سبب من العبد، أو أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة أنه يخيبه فقد ظن به ظن السوء.

(فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا) الموضع **(وليتب إلى الله سبحانه ويستغفره)** كل وقت **(من ظنه بربه ظن السوء)**.

وفي صحيح مسلم وصحيح البخاري وغيرهما عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: ترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1] [فصلت: ٢٢ـ ٢٣].

والمقصود الكلام على قوله تعالى ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

---

(١) تقدم تخريجه.

(ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامة له، وأنه يقول: ينبغي أن يكون كذا وكذا) ومن فتش نفسه رآه فيها كامنًا كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، (فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا[1])

وقوله: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ﴾ [الفتح: ٦] قال المفسرون ولكن يعذب المنافقين من أهل المدينة والمنافقات، والمشركين من أهل مكة والمشركات الذين أقاموا على عبادة الأصنام، الظانين بالله ظن السوء، وهو ترك التصديق بالله ورسوله، مخافة ألا ينصر محمدًا ﷺ كما قال: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [الفتح: ١٢] الآية. ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾، يعني: عاقبة العذاب والهزيمة إلى قوله: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح: ٦] أي: بئس المصير الذي صاروا إليه، ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح: ٧]. أي: بالنقمة لمن مات على نفاقه وكفره، وبالنصر لأوليائه، حكيمًا في أمره وقضائه، لا معقب لحكمه ولا راد لفضله، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، ومن يضاد الله في قدره وقضائه، فقد اتهمه في حكمه، وضاد توحيده جل وعلا، والله الموفق.

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد (٣/ ٢٢٨ـ ٢٣٥). والبيت للفرزدق، وانظر طبقات فحول الشعراء (٢/ ٣٦٣).

الباب التاسع والخمسون

باب ما جاء في منكر[1] القدر

هذا الباب من حيث الجملة قد زلت فيه أقدام، وتاهت فيه أحلام وأفهام، ولم يسلم من ذلك إلا من اهتدى بكتاب الملك العلام، واقتدى بهدي سيد الأنام، محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وهم أهل الصراط المستقيم، [المقتدون][2] بالدين القديم القويم، الذين هم وسط بين طرفين[3]، طرف أنكروا القدر وجعلوه [ك،١٧٩/ب] أُنُفًا، فسموا بذلك القدرية؛ لأنهم غلب عليهم ذكر ما أنكروه فنسبوا إليه، وطرف آخر غلوا في إثبات القدر زيادة عن الحد الذي حد الله ورسوله، وهم الجبرية، وكانوا أولى بتسميتهم القدرية لغلوهم في ذلك وتعديهم الحد، لكن صار الأمر بالتسمية على العكس فسموا الجبرية، لزعمهم أن العباد مجبورون مقهورون على ما يصدر منهم، لا قدرة لهم ولا اختيار، وهذا خلاف القرآن والسنة والإجماع والفقه واللغة والنظر الصحيح، فقد صرح القرآن بأن للإنسان وسعا وقدرة واستطاعة وطاقة، وتمكنًا وإرادةً ومشيئةً واختيارًا ورضى، وأن دعوى الإجبار تكذيب بغير حق، ودعوى بغير علم، وخرْص جرت به عادة المشركين، فقال تعالى في الوسْع: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفي القدرة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]، وقال في الطاقة: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وفي التمكين: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى

---

(١) كذا في الأصل، وفي المطبوع من متن كتاب التوحيد: (منكري) بالجمع.

(٢) في الأصل: المقتدين.

(٣) من أفضل ما كتب في المقابلة بين أدلة هذين الطرفين مافي كتاب «المختار من كنوز السنة النبوية» للدكتور محمد عبدالله دراز: ص٢١٨ ـ ٢٧١.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٠]، وفي الإرادة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠]، وفي المشيئة: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠]، وفي الاختيار: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وفي الرضا: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يونس: ٧]، وقوله: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]، وقال في دعوى الإجبار عن المشركين: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠]، ولقد نص تعالى على إناطة الكفر بالكفار وعجب من تجرؤهم به فقال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧]، ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة: ١٧٥]، وأنكر تخلفهم عن الإيمان، وجعله من جهتهم لا مما عزّهم عليه وقهرهم كما قالت الجبرية، فقال: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٩]، وقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤]، أي: لا مانع لهم من الإيمان سوى إنكارهم بعث رسول البشر، وأبلغ من ذلك أن جعل ما يصيب به عباده نتيجة كسبهم موقوفًا عليهم، فقال عز من قائل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٠٣٠]، وأنكر على من تجاهل عن ذلك فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، ونظير هذا في القرآن كثير، وأما السنة فكثيرة فيكفي منها ما يصحح المقصود، نحو قوله في الحديث الصحيح: «اللهم إن الخير كله بيديك، والشر ليس إليك»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤)=

وإنما ورد ردًا لقول المجبرة المشركين والاحتراز منه، والمعنى: أن الخير بادٍ منك فضلاً عن غير سبب، حتى عم العباد في أصلاب الآباء وأحشاء الأمهات، حين لا حراك بهم ولا سعي لهم ولا علم، حتى إذا صلحوا للتكليف ببلوغ الأشد للقدرة، وحصول الرشد للاختبار، سعوا لموجبات الشر وأسبابه، فكان وقوعه منسوبًا إلى كسبهم كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وتحقيق هذا قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»(١).

والمعنى: أن الله فطر العباد على السلامة من الكفر، فإذا ولد أحدهم تولاه أبواه فكسياه كفرًا لم يكن من فطرة الله التي فطره الله عليها. قالوا: ولا يرد على هذا ما ورد في القدر بأن الله قضى بما سبق به علمه مما سيكون من عباده إذا خلى بينهم وبين ما مكنهم فيه من القدرة والاختيار بعد ما فطرهم طاهرين من الكفر، ثم بين ما أبداهم به وما رضوه لأنفسهم، فكان ما ورد في ذكر قضائه وقدره دالا على كمال سلطانه، ليجب الإيمان بسابق علمه فيهم، لا ليسقط اعتبار أفعال العباد بقدرتهم واختيارهم، فإن ذلك يمنع تعلق الجزاء بها، وهذا خلاف الإجماع.

= من حديث علي بن أبي طالب ضمن حديث طويل والشاهد منه قوله: «لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك...»، وأخرجه الترمذي في الدعوات، باب رقم (٣٢) (٥/ ٤٨٦)، والبيهقي في سننه (٢/ ٣٢).

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١/ ٤٦٥) من حديث أبي هريرة، ومسلم في القدر، باب معنى كل مولود على الفطرة (٤/ ٢٠٤٧)، وغيرهم.

فالحاصل أن في قوله ﷺ: «والشر ليس إليك» للعلماء رحمهم الله تعالى خمسة أقوال:

أحدها: أن معناه لا يتقرب به إليك. قاله: الخليل بن أحمد، والنضر بن شميل[1]، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، وأبوبكر بن خزيمة، والأزهري[2]، وغيرهم.

القول الثاني: معناه والشر لا يصعد إليك، وإنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح.

الثالث: معناه والشر ليس شرا بالنسبة إليك، فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين.

الرابع: ما حكاه الخطابي: أنه كقولك فلان إلى بني فلان إذا كان عداده فيهم، أو صفوه إليهم.

الخامس: ما حكاه أبو حامد عن المزني وغيره معناه: لا يضاف إليك على انفراده، لا يقال: يا خالق القردة الخنازير، ويا رب الشر ونحو هذا، وإن كان هو خالق كل شيء، ورب كل شيء، وحينئذ يدخل الشر في العموم، والله أعلم[3].

---

(١) المازني التميمي، أبو الحسن، أحد الأعلام باللغة والتاريخ، ولي قضاء مرو وبها توفي سنة ٢٠٣هـ.
انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ١٦١)، الأعلام، الزركلي (٨/ ٣٣).

(٢) هو محمد بن أحمد بن الأزهر، أبو منصور الهروي، الأزهري نسبة إلى جده، أحد الأئمة في اللغة والأدب، ولد بهراة وبها توفي سنة ٣٧٠هـ.
انظر: معجم الأدباء، ياقوت (٦/ ٢٩٧)، مفتاح السعادة، طاش كبرى (١/ ٩٧).

(٣) انظر: شرح مسلم، النووي (٦/ ٥٩).

وقد ذكر انعقاد الإجماع غير واحد من السلف على أن العباد لهم قدرة واختيار ثابت في جميع الأمم، فقد اقترحت كل أمة على رسولها خارقًا يأتي به، والخوارق إنما تعتبر بقدرة العباد، فما أمكن تعلق قدرتهم به أسند فعله إليهم، وما لا يمكن أسند فعله إلى الله تعالى، وثبتت به دعوى النبوة.

وأما الاختيار فجميع الأمم لا تنفك عن إسناد الفعل إلى العباد، وتصف الفاعل منهم بمقتضى فعله من المدح والذم، فدعوى كون العباد لا قدرة لهم ولا اختيار مخالف لما اتفقت عليه جميع الأمم، وأما الفقه فلم يكن بين الفقهاء خلاف، وأن من أكره على شيء وأجبر عليه لم يلزمه إثم، ولا إقرار ولا عقد فعل معاوضة، ولا ردة، إلا قتل النفس، لأنه يفدي بها نفسه، ومضمون قول هؤلاء إبطال لأحكام الله الشرعية من الأمر والنهي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [ك،١٧٩/أ] قدس الله روحه: وهذا الأصل الفاسد يخالف الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمة الدين، ويخالف صريح المعقول والحس والمشاهدة.

وقد سئل النبي ﷺ عن إسقاط الأسباب نظرًا إلى القدرة فرد ذلك، وألزم القيام بالأسباب كما في الصحيح عنه أنه قال: ما من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار، قالوا: يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له[1].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ (٤/ ١٨٩٠)، من حديث أبي عبدالرحمن السلمي عن علي بن طالب، ومسلم في القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٤/ ٢٠٤٠)، وغيرهم.

وقد قال الإمام أحمد في مسنده: ثنا أبو عبدالرحمن ثنا حيوة وابن لهيعة قالا أنا أبو هاني الخولاني أنه سمع أبا عبدالرحمن [الحبلي] يقول: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة(١).

ورواه مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن وهب وحيوة بن شريح ونافع بن زيد ثلاثتهم عن أبي هاني، وزاد ابن وهب: وكان عرشه على الماء(٢).

ورواه الترمذي وقال حسن صحيح(٣)، ولهذا قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢- ٢٣] وهذه الآية العظيمة الكريمة من أدلّ دليلٍ على القدرية نفاة العلم السابق قبحهم الله تعالى وما جاؤوا به من مضادة الله ورسوله، فهم بذلك كفار، فنعوذ بالله من الخذلان وتسويل الشيطان، قال ابن العربي في قول آدم لموسى عليهما السلام: أتلومني على أمر قدر علي(٤). ليس ما سبق من القضاء والقدر يرفع الملامة عن البشر، ولكن معناه قدّر علي وتبت منه، والعاصي التائب لا يلام(٥)، وهذا معنى

---

(١) مسند أحمد (٢/ ١٦٩)، وقد وقع في الأصل: الختلي، والتصويب من المسند.

(٢) في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/ ٢٠٤٤).

(٣) أخرجه في القدر، باب رقم (١٨) (٤/ ٤٥٨).

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد (٣/ ١٢٥١) من حديث أبي هريرة، ومسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام (٤/ ٢٠٤٤)، وغيرهم.

(٥) عارضة الأحوذي، ابن العربي (٨/ ٢٢٦).

قول الباجي المالكي، والأحاديث فيه كثيرة كما سيرد بعضها في الباب، وقد قال تعالى في السحاب: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [فاطر: ٩]، وقال: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ١٠٥]، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٩]، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، والقرآن مملوء من ترتيب أحكامه الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة، فيأتي بباء السببية تارة، وباللام تارة، وبإذ تارة، وبكي تارة، وبذكر صريح التعليل تارة كقوله ذلك بأنهم فعلوا كذا وكذا، ويذكر الجزاء تارة كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٦]، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧]، ويذكر المقتضى للحكم والمانع منه كقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وعند منكري الأسباب والحكم لم يمنعه إلا محض المشيئة، ليس إلا ذلك وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٥]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠]، وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره يبطل هذا المذهب ويرده، كما تبطله الفطرة والعقول والحس.

إذا علمت ذلك وأحكمت الفرق بين الجبرية والقدرية، وأن

الصراط المستقيم بينهما، فلنورد ما ذكر الشيخ رحمه الله على ترجمة الباب حيث قال: (**وقال ابن عمر رضي الله عنهما: والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم**) يعني القدرية، (**مثل أحد**) الجبل المعروف في المدينة المنورة داخل في حدود حرمها، لأن حد الحرم من جهته جبل خلفه مدور صغير يقال له ثور[1]، وهذا الذي قال فيه ﷺ كما في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه لما بدا له أحد: هذا جبل يحبنا ونحبه[2].

وفي رواية لأحمد والطبراني عن ابن سويد بسند صحيح قال: لما بدا له أحد في رجوعه من خيبر[3] قال: الله أكبر، جبل يحبنا ونحبه[4].

إلا أن في سنده عقبة بن سويد[5] ليس من رجال الصحيح، ولفظ الإمام أحمد قال: حدثنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عقبة بن سويد الأنصاري أنه سمع أباه وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: قفلنا مع رسول الله

---

(١) انظر: معجم البلدان، ياقوت (٢/ ٨٦ـ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب فضل الخدمة في الغزو (٣/ ١٠٥٨)، ومسلم في الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه (٢/ ١٠١١)، وغيرهم.

(٣) خيبر الموضع المذكور في غزاة النبي ﷺ، وتبعد عن المدينة ثمانية أبرد جهة الشام، وخيبر بلسان اليهود الحصن، ولما كانت كلها حصون سميت خيابر، وقد فتحها النبي ﷺ في سنة سبع للهجرة وقيل سنة ثمان.

انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (٢/ ٣٢٨)، معجم البلدان، ياقوت (٢/ ٤٠٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٤٣)، والطبراني في الكبير (٧/ ٩٠)، كلهم من طريق الزهري قال أخبرني عقبة بن سويد الأنصاري عن أبيه به.

(٥) عقبة ويقال عتبة بن سويد الأنصاري، صحح ابن عبدالبر حديثه وقال الحافظ ابن حجر: مجهول.

انظر: التاريخ الكبير، البخاري (٦/ ٤٣٣)، تعجيل المنفعة، ابن خجر (ص ٢٨٨).

ﷺ غزوة خيبر فلما بدا له أحد قال: الله أكبر جبل يحبنا ونحبه[1].

ويروى عنه مثل ذلك في رجوعه ﷺ من تبوك[2] والحج[3]، قال السهيلي رحمه الله في هذا المقام ما معناه: إنه قد كان ﷺ يحب الاسم الحسن، واشتقاق هذا الجبل من الأحدية، وقد سماه الله تعالى بهذا الاسم مشاكلة لمعناه، إذ أهله نصروا التوحيد والمبعوث بدين التوحيد، حتى استقر ورسا في القلوب وعلا على جميع الأديان، وحركات حروف اسم هذا الجبل كلها مرفوعة، وذلك يشعر بارتفاع دين الأحد ـ سبحانه جل وعلا ـ وعلوِّه، فتعلق الحب من النبي ﷺ به اسمًا ومسمى، فخُص من بين الجبال بأن يكون في الجنة إذا نسفت الجبال نسفا، وقد روى الزبير بن بكار بسنده مرفوعًا في فضل المدينة أن قبر هارون عليه السلام فيه، وذلك أنه مر هو وأخوه موسى حاجين أو معتمرين عليهما الصلاة والسلام فمات فقبر فيه، ذكره الزبير بمعناه والله أعلم[4].

---

(١) مسند أحمد (٣/ ٤٤٣).

(٢) تبوك: بالفتح ثم الضم، وواو ساكنة وكاف، موضع بين وادي القرى والشام، وهو بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر نحو نصف طريق الشام، به عين ونخل وحائط ينسب إلى النبي ﷺ، توجه إليها النبي ﷺ في سنة تسع للهجرة، وهي آخر غزواته حيث تجمع فيها عساكر للروم ولخم وجذام، فوجدهم قد تفرقوا فلم يلق كيدًا.

انظر: السيرة النبوية، ابن هشام (٢/ ٥١٥)، معجم البلدان، ياقوت (٢/ ١٤).

(٣) كما في حديث أنس المتفق عليه والمتقدم تخريجه، وأما ما روي عنه ﷺ من قول ذلك في غزوة تبوك فهو من حديث أبي حميد قال أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: هذه طابة وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه.

ومسلم في الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه (٢/ ١٠١١)، وغيرهم.

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٤٦): «قلت: وسند الزبير بن بكار في ذلك ضعيف =

ورواه ابن شبة عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما مرفوعًا[1].

وعند الإمام أحمد مرفوعًا: أحد جبل يحبنا ونحبه، وهو من جبال الجنة[2].

وممن أجرى الحديث على ظاهره أيضًا الحافظ ابن حجر والبغوي والمنذري[3]، وقد جاء أنه طار من الجبل الذي تجلى الله له، رواه ابن شبة عن أنس بن مالك مرفوعًا[4].

وروى هو والطبراني وأبو يعلى حديث أحمد المتقدم من وجه آخر

= جدا من جهة شيخه محمد بن الحسن بن زبالة، ومنقطع أيضًا وليس بمرفوع».

(١) أخرجه في تاريخ المدينة (١/ ٦١) من طريق عبدالعزيز الدراوردي عن رجل من الأنصار عن عبدالملك بن جابر بن عتيك، عن جابر بن عبدالله به، وفي إسناده راو لم يسم، وبقية رجال الإسناد ثقات.

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٣٧٨): «أحد من جبال الجنة كما ثبت في حديث أبي عبس بن جبر مرفوعًا: جبل أحد يحبنا ونحبه، وهو من جبال الجنة» ولم أعثر عليه في المسند.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٣٧٨).

(٤) أخرجه في تاريخ المدينة (١/ ٥٧) من طريق عبدالعزيز بن عمران عن معاوية بن عبدالله الأودي به، وفيه عبدالعزيز بن عمران، قال الذهبي في الميزان (٢/ ٦٣٢): قال البخاري لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك، وقال يحيى ليس بثقة. وقال الحافظ في التقريب (ص ٣٥٨): متروك.

وقد أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٤٤١)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣١٤)، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٢٠)، وذكره الذهبي في ترتيب الموضوعات رقم (١٦)، وقال: عبدالعزيز تركوه، وذكره أيضًا في الميزان (٢/ ٦٣٣) في ترجمة عبدالعزيز بن عمران وذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة (ص ٤٥٥) وقال: رواه الخطيب عن أنس مرفوعًا، وقال ابن حبان في المجروحين (١/ ٢١٠) بعد أن ساق الحديث: موضوع لا أصل له.

عن النبي ﷺ مرفوعًا[1].

إذا علمت هذا، فمثل به رضي الله عنه لكبره بأنه لو كان لأحد ممن ينكر القدر مثل أحد (**ذهبا ثم أنفقه**) كله (**في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر**) وذلك لتخلف الإيمان عن العمل الصالح، ولعل هذا القول من ابن عمر رضي الله عنه فيمن يجحد العلم من القدرية كعمرو ابن عبيد[2]، فإنه قد قيل إنه يجحد العلم، وكذا معبد الجهني[3]، روى هذا الكلام عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما البخاري ومسلم وغيرهما[4] في صحيحيهما، (**واستدل**) **عند** [ك،١٨٠/ب] **ذلك** ابن عمر بحديث أبيه عمر رضي الله عنهما وهو حديث جبريل بأن قال كما في البخاري حيث قال ابن عمر: حدثني عمر بن الخطاب قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ فذكر الحديث بطوله حتى بلغ فيه مستدلا (**بقوله ﷺ**) في حديث جبريل عليه السلام المذكور: (**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره.**

رواه مسلم[5]) قال ابن عمر هذا جوابًا ليحيى بن يعمر[6]، كما قال البخاري

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/ ٣٢٥) من حديث أنس مرفوعًا: إن أُحدًا جبل يحبنا ونحبه، والطبراني في الكبير (٧/ ٩٠) من حديث عقبة بن سويد عن أبيه مرفوعًا: أحد جبل يحبنا ونحبه.

(٢) مضت ترجمته ص ٩٨.

(٣) مضت ترجمته ص ٩٨.

(٤) سوف يأتي تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (١/ ٣٦)، والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام (٥/ ٦)، وأحمد في المسند (١/ ٢٧)، وغيرهم.

(٦) البصري، نزيل مرو وقاضيها، ثقة فصيح، وكان يرسل، مقرىء مفوه، من الطبقة =

أيضًا حدثنا عبيدالله بن معاذ ثنا أبي ثنا كهمس عن ابن بريدة عن يحيى ابن يعمر قال: كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن حاجين أو معتمرين، فوقف لنا عبدالله بن عمر فقلت له: يا أبا عبدالرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم، يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف! قال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني براء منهم وهم براء مني، ثم ذكر قوله: والذي نفس ابن عمر بيده، الحديث بنحو ما تقدم[(١)].

وقوله: «يتقفرون العلم» بتقديم القاف على الفاء، معناه: يطلبونه ويتبعون أثره، والتقفر تتبع أثر الشيء، قاله الخطابي وابن الأثير والسيوطي وغيرهم[(٢)].

وقوله: «الأمر أنف» معناه: مستأنف لم يتقدم فيه شيء من قدر أو مشيئة يقال: كلأٌ أُنُفٌ، إذا كان وافيًا لم يُرْعَ منه شيء، وروضة أنف بمعناه[(٣)].

قال عمر بن أبي ربيعة:

فـي روضـة أنـف تيممنـا بهـا ... ميثـاء رائقـة بُعَيْـدَ سمـاء[(٤)]

= الوسطى من التابعين، روى له الجماعة، توفي قبل المائة هجرية، وقيل بعدها.
انظر: تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٥٩٨)، الكاشف، الذهبي (٢/ ٣٧٩).

(١) هكذا في الأصل والمسودة «كما قال البخاري» وقد وهم المؤلف في عزوه إلى البخاري ويبدو أنه اختلط عليه حديث ابن عمر بحديث جبريل في الإيمان والإسلام، والإسناد المذكور لأبي داود في السنة، باب في القدر (٤/ ٢٢٢)، وتقدم أن مسلمًا أخرجه والترمذي وأحمد وغيرهم.

(٢) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٩٣)، النهاية، ابن الأثير (٤/ ٩٠).

(٣) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٩٣)، معالم السنن، الخطابي (٤/ ٣٢٠).

(٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ١١)، غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٩٣).

وفي قول ابن عمر رضي الله عنه: «إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء» دلالة على أن الخلاف إذا وقع في أصول الدين وكان مما يتعلق بمعتقدات الإيمان أوجب البراءة، وليس كسائر ما يقع فيه الخلاف من أصول الأحكام وفروعها التي موجبها العمل، فإن شيئًا منها لا يوجب البراءة ولا يوقع الوحشة بين المختلفين، بخلاف ما يتعلق بمعتقدات الإيمان. قاله أبو سليمان الخطابي[1].

وعند أبي داود في سننه وغيره بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال لا إله إلا الله لا نكفره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، ولا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار»[2].

وقد قال الإمام أحمد: ثنا عبدالرحمن يعني ابن مهدي ثنا شعبة عن عاصم بن عبيدالله قال: سمعت سالم بن عبدالله يحدث عن ابن عمر قال: قال عمر: يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه أفي أمر قد فرغ، أو مبتدأ، أو مبتدع؟ قال: فيما فرغ منه فاعمل يا ابن الخطاب فإن كلا ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان

---

(١) معالم السنن، الخطابي (٤/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في الغزو مع أئمة الجور (٣/ ١٨)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٨٧) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة وأبي خيثمة زهير بن حرب قالا: حدثنا أبو معاوية به، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٥٦) من طريق أبي داود، ومدار الحديث على يزيد بن أبي شبة راويه عن أنس، قال الحافظ في التقريب (ص ٦٠٥): مجهول. وقال الألباني في تخريج المشكاة (١/ ٢٥): إسناده ضعيف، فيه مجهول وإن كان معناه صحيحًا.

من أهل الشقاوة فإنه يعمل للشقاوة[1].

ورواه الترمذي في القدر عن بندار عن ابن مهدي به وقال: حسن صحيح وهو كما قال[2]، ومعناه في الصحيحين عن علي[3] رضي الله عنه، ولهذا لما ليم عمر رضي الله عنه في رجوعه عن دخوله الشام لما ذكر له أنه قد حل به الطاعون، وتوهم اللائم أنه قد فر من القدر قال: نفر من قدر الله إلى قدر الله[4].

وما أحسن ما قال النابغة الذبياني في جاهليته حيث يقول:

فريع قلبي وكانت نظرة عرضت   حينا وتوفيق أقدار لأقدار[5]

وعند مسلم وابن جرير عن جابر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله

---

(١) مسند أحمد (١/ ٢٩) وفي إسناده عاصم بن عبيدالله بن عمر قال الحافظ في التقريب (ص ٢٨٥): ضعيف، وأخرجه من طريقه الترمذي في القدر، باب ما جاء في الشقاء والسعادة (٤/ ٤٤٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧٢)، والآجري في الشريعة (٢/ ٧٤٤)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ٣٥٤)، كلهم من طرق عن عاصم بن عبيدالله، وللحديث طرق أخرى وشواهد صححه بها الألباني في ظلال الجنة (١/ ٧٢) وقال: هو حسن بل صحيح لغيره لطرقه وشواهده، ومنها حديث علي رضي الله عنه الآتي، ولفظه قريب منه.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٤٤٥).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله (١/ ٤٥٨)، ومسلم في القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه (٤/ ٢٠٣٩)، وغيرهم.

(٤) أخرجه البخاري في الطب، باب ما يذكر في الطاعون (٥/ ٢١٦٣)، وأخرج مسلم في السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها (٤/ ١٧٤٠)، وغيرهم.

(٥) لم أعثر عليه في ديوانه الذي حققه محمد أبو الفضل إبراهيم.

أنعمل لأمر قد فرغ منه أو لأمر نستأنفه؟ فقال: لأمر قد فرغ منه. فقال سراقة[1]: ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: كل عامل ميسر لعمله[2].

وروى معناه الإمام أحمد في مسنده بسند حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعًا[3]، وقال ابن جرير: حدثني يونس ثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طلق بن حبيب عن بشير بن كعب العدوي قال: سأل غلامان شابان النبي ﷺ فقالا: يا رسول الله أنعمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أو في شيء يستأنف؟ فقال: بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، قالا: ففيم العمل إذًا؟ قال: اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذي خلق له، قالا: نجدّ ونعمل[4].

وقد مر الكلام على الإيمان جملة بما فيه كفاية.

(وعن عبادة بن الصامت) الأنصاري[5] رضي الله عنه **(أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك)** فأثبت أن للإيمان طعمًا لا يجده إلا من آمن بالقدر، ثم قال مستدلا على ذلك بقوله: **(سمعت رسول الله ﷺ يقول: أول ما خلق الله القلم)** في هذا الإيمان بأن القلم أول المخلوقات، **(فقال له)** جل وعلا لما خلقه: **(اكتب، فقال)** أي القلم: **(رب وماذا**

---

(١) مضت ترجمته ص ١٥٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي (١/ ٢٠٤١)، وابن جرير في تفسيره (٣٠/ ٢٢٥)، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٠٤)، وغيرهم.

(٣) مسند أحمد (٦/ ٤٤١).

(٤) تفسير ابن جرير الطبري (٣٠/ ٢٢٥).

(٥) مضت ترجمته ص ١٥٨٩.

أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة).

هذا أمر لا يسعه إلا قلب المؤمن بالله وكتابه، وما جاء به رسوله ﷺ، ولهذا قال صاحب رسول الله ﷺ لابنه وثمرة فؤاده الذي هو أحق الناس بالنصيحة: (**يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني**) رواه أبو داود[1]، وهو للترمذي بغير هذا اللفظ وصححه وفيه «يا بني اتق الله واعلم أنك لن تتقي الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[2].

وقد قال الإمام أحمد: ثنا الحسن بن سوار ثنا ليث عن معاوية عن أيوب بن زياد حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني أبي قال: قال أبي: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني إنك لن تطعم الإيمان ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أول ما خلق الله القلم قال اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني إن مت ولست على

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر (٤/ ٢٢٥)، والترمذي في القدر، باب رقم (١٧) (٤/ ٤٥٧) وقال غريب من هذا الوجه، والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ٩٢)، وابن جرير في تفسيره (٢٩/ ١٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٥١)، والآجري في الشريعة (٢/ ٧٦٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢/ ٢١٨)، كلهم من طرق عن عباد بن الصامت، والحديث صححه الألباني بمجموع طرقه في ظلال الجنة في تخريج السنة (١/ ٥١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٤٥٧).

ذلك دخلت النار[1].

[ك،١٨٠/أ] ورواه الترمذي أيضًا عن يحيى بن موسى البلخي عن أبي داود الطيالسي عن عبدالواحد بن سليم عن عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه به وقال: حسن صحيح[2].

(وفي رواية أحمد **«إن أول ما خلق الله تعالى القلم، ثم قال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»**[3].

وفي رواية) عنه **(لابن وهب)** هو عبدالله بن [وهب بن مسلم][4] المصري الفهري مولاهم أبو محمد الحبر أحد الأعلام، ولد في ذي القعدة سنة خمس وعشرين ومائة، روى عن مالك والسفيانين وغيرهم، قال ابن عدي: كان من جلة الناس وثقاتهم، لا أعلم له حديثًا منكرًا، تفقه بمالك والليث. وقال ابن يونس: جمع بين الفقه والرواية والعبادة، وله تصانيف كثيرة منها الجامع، وكان مالك يكتب إليه: «إلى عبدالله بن وهب فقيه مصر».

وقال أحمد بن صالح: ما رأيت أكثر حديثًا منه، حدث مائة ألف حديث، قرىء عليه كتابه في أحوال القيامة فخر مغشيًّا عليه، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام، وذلك في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة[5].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣١٧).

(٢) أخرجه في القدر، باب رقم (١٧) (٤/ ٤٥٧) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وفي إسناده عبدالواحد بن سليم المالكي قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٣٦٧): ضعيف. وقد تقدم أن له طرقًا يصح بها.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣١٧).

(٤) في الأصل: «مسلمة»، والتصويب من المصادر.

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٩/ ٢٢٣)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٦/ ٧١).

(قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»[(١)]).

وعند مسلم في صحيحه عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين رضي الله عنه: أرأيت ما يعملون الناس اليوم ويدخلون فيه أشيءٌ قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم. فقال: أفلا يكون ظلمًا؟ ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا، فقلت: كلٌ خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فقال لي: رحمك الله، إني لم أرد بما سألتك إلا حرزًا لعقلك.

وإن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: لا بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝﴾[(٢)] [الشمس: ٧ـ ٨].

وقد سبق كلام الفاروق عمر رضي الله عنه للجاثليط[(٣)]، وكلام أبي

---

(١) أخرجه ابن وهب في كتاب القدر (ص ١٢١)، والآجري في الشريعة (٢/ ٧٩١) بلفظ: «القدر على هذا، من مات على غير هذا دخل النار»، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٦٧٣).

(٢) أخرجه مسلم في القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٤/ ٢٠٤١).

(٣) راجع ص١٠١ والجاثليط أو الجاثليق: إحدى الرتب الدينية عند النصارى، قال في القاموس: الجاثليق: بفتح الثاء المثلثة: رئيس للنصارى في بلاد الإسلام ويكون تحت بطريق أنطاكية ثم المطران تحته، ثم الأسقف يكون في كل بلد من تحت المطران، ثم القسيس ثم الشماس. ترتيب القاموس، الزاوي (١/ ٤٤٥).

موسى لعمرو بن العاص رضي الله عنهما في الفصل الأول من كتاب التوحيد أول الكتاب، فأغنى عن إعادته هنا[١].

وعند اللالكائي في السنة عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال: أرأيت الزنا مقدر؟ قال: نعم. قال: فإن الله قدره علي ثم يعذبني به؟ قال: نعم يا ابن اللخناء، أما والله لو كان عندي إنسان لأمرته أن يجأ أنفك[٢].

وعند البزار عن زيد بن أسلم[٣] قال: والله ما قالت القدرية كما قال الله تعالى، ولا كما قالت الملائكة، ولا كما قال النبيون، ولا كما قال أهل الجنة، ولا كما قال أهل النار، ولا كما قال إبليس، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، وقالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال أصحاب الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال أصحاب النار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦، وقال إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩] الآية[٤].

---

(١) راجع ص ١٠٠.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، اللالكائي (٤/ ٦٦٣).

(٣) العدوي العمري مولاهم، أبو أسامة، فقيه مفسر، من أهل المدينة، كان مع عمر ابن عبدالعزيز أيام خلافته، توفي سنة ١٣٦هـ.

انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ١٢٤)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٣/ ٣٩٥).

(٤) وأخرجه الآجري في الشريعة (٢/ ٧٢٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/ ٥٦٩)، كلاهما من طريق خلف بن محمد الواسطي المعروف بكردوس قال حدثنا يعقوب بن محمد قال: حدثنا الزبير بن حبيب عن زيد بن أسلم به، وفي إسناده الزبير بن حبيب =

وروى الخطابي في غريبه: أن رجلاً قال لعمرو بن العاص رضي الله عنه: إنك في هذه البلاغة والفصاحة والرأي الفاضل كنت تأتي حجرًا فتعبده، فقال له عمرو: والله لقد كنت أجالس أقوامًا تزن حلومهم الجبال الرواسي، ولكن ما قولك في عقول كادها خالقها[1]. يريد منعها خالقها.

قاله أبو العباس أحمد بن يحيى عن سلمة عن الفراء عن الكسائي[2].

(وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي) هو عبدالله أخو الضحاك بن فيروز الديلمي اليمني، الذي قتل أبوه فيروزُ الأسودَ العنسي بصنعاء، كان عبدالله هذا ثقة من كبار التابعين، ومنهم من ذكره في الصحابة رضي الله عنهم، وقد تقدم الخبر عنه بنقله رأس الأسود العنسي للنبي ﷺ إلى المدينة قبل موته، وهو من الأبناء، أهل اليمن، من الفرس الذين قدموا اليمن أيام أرياط[3][4].

(قال أتيت أبي بن كعب فقلت: في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله يذهبه عني. فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله منك

= الأسدي، عن بعض التابعين مدني فيه لين، انظر: الميزان (٢/ ٦٧)، اللسان (٢/ ٤٧١)، وذكره ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٢/ ١٠٨١)، وفيه يعقوب بن محمد الزهري قال الحافظ في التقريب (ص ٦٠٨): صدوق كثير الوهم والرواية عن الضعفاء.

(١) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٤٨٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٨٧).

(٣) انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ٣٥٩)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ١٣٨)، ورجح فيها عدم صحبته.

(٤) أرياط أحد ملوك الحبشة على اليمن، وهو الذي قتله أبرهة، وملك بعده اليمن. انظر: الروض الأنف، السهيلي (١/ ٥٤).

حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا كنت من أهل النار. قال: فأتيت عبدالله بن مسعود وحذيفة بن [اليمان] وزيد بن ثابت فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ.

هذا حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه)[1].

وقد روى هذا عبدالله بن الإمام أحمد في السنة بأبسط من هذا فقال: حدثني أبي ثنا إسحاق بن سليمان الرازي سمعت أبا سنان عن وهب بن خالد الحمصي عن ابن الديلمي قال: وقع في نفسي شيء من هذا القدر فأتيت أبي بن كعب فقلت: يا أبا المنذر وقع في نفسي شيء من هذا القدر خشيت أن يكون فيه هلاك ديني وأمري، حدثني عن ذلك بشيء لعل الله ينفعني به فقال: لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان لك جبل أحد أو مثل جبل أحد ذهبًا ثم أنفقته في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإنك إن مت على غير هذا دخلت

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر (٤/ ٢٢٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب في المقدمة (١/ ٢٩)، وأحمد في المسند (٥/ ١٨٢)، وعبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٣٨٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٠٩)، والطبراني في الكبير (٥/ ١٧٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٥٠٥)، والآجري في الشريعة (٢/ ٧٩٣)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٦١٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٨): رواه الطبراني بإسنادين، ورجال هذه الطريق ثقات. وقال الشيخ ناصر في هامش المشكاة (١/ ٤١): سنده صحيح. وقد وقع في الأصل: «اليماني» بدل «اليمان».

النار، ولا عليك أن تأتي عبدالله بن مسعود فتسأله، فأتيت عبدالله فسألته فقال مثل ذلك. وكان أبو سنان يقص [ك،١٨١/أ] الحديث قال: ولا عليك أن تأتي أخي حذيفة بن اليمان فتسأله، فأتيت حذيفة فسألته فقال لي مثل ذلك، وقال: ائت زيد بن ثابت فاسأله فأتيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم، ولو رحمه لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو كان لك جبل أحد أو مثل أحد ذهبًا، ثم أنفقته في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وإنك إن مت على غير هذا دخلت النار[١].

قال: وحدثني أبي حدثنا أنس بن عياض حدثني أبو حازم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن المرء حتى يؤمن بالقدر خيره وشره».

وقال أبو حازم: لعن الله دينًا أنا أكبر منه، يعني التكذيب بالقدر[٢].

وذكر بسند فيه أبوه عن وكيع عن سفيان عن عمرو بن محمد بن زيد عن رجل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن وحد وكذب بالقدر نقض التوحيد[٣].

---

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٣٨٨).

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٤١٨).

(٣) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٢٢) وفي إسناده مبهم، مجهولة حاله وهو الراوي عن ابن عباس، وأخرجه الآجري في الشريعة (ص ٢١٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٧) رواه الطبراني في الأوسط بسند فيه هاني بن المتوكل وهو =

وروي بسند صحيح عن الحسن قال: من كذب بالقدر فقد كذب بالقرآن[1].

وعنده أيضًا عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: من زعم أن مع الله باريًا أو قاضيًا أو رازقًا، أو يملك لنفسه ضرًّا أو نفعًا أو موتًا أو حياةً أو نشورًا، بعثه الله يوم القيامة فأخرس لسانه وأعمى بصره، وجعل عمله هباءً منثورًا، وقطع به الأسباب وكبه على وجهه في النار[2].

قال علماء السنة وسلف الأمة: الإيمان بالقدر على درجتين:

[إحداهما][3]: الإيمان بأن الله تعالى سبق في علمه ما يعمله العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم وإيجادهم، ومن هو منهم من أهل الجنة ومن أهل النار، وأعد لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

الدرجة الثانية: أن الله تعالى خلق أفعال عباده كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وشاءها منهم. فهذه الدرجة أثبتها أهل

= ضعيف.

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٢٥)، وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (١١/ ١١٩)، والآجري في الشريعة (٨٨٥)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٦٨٢).

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٣٢) من طريق مؤمل نا عمر بن محمد قال سمعت سالمًا يقول: قال ابن عمر به. ومؤمل هو إسماعيل العدوي قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٥٥٥): صدوق سيّء الحفظ.

(٣) في الأصل: أحدهما.

السنة والجماعة وينكرها القدرية، والدرجة الأولى أثبتها مع أهل السنة كثير من القدرية، ونفاها غلاتهم كمعبد الجهني الذي سأل ابن عمر رضي الله عنه عن مقالته وكعمرو بن عبيد وغيره[١]. فإنهم قالوا إنه يجحد العلم، وقد قال كثير من السلف منهم الإمام أحمد كما قدمنا وعمر بن عبدالعزيز: ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا[٢]. يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد وغوي ورشيد، وكتب ذلك عنده فوق العرش في كتاب حفيظ، فقد كذب بالقرآن فيكفر بذلك، وإن أقر بذلك وأنكر أن الله خلق أفعال العباد وشاءها وأرادها إرادة كونية قدرية فقد خصموا، لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه، وفي تكفير هؤلاء نزاع مشهور بين العلماء، وقد ذكرنا عن شيخ الإسلام فيما تقدم عدم تكفيرهم فيما إذا أقروا بالعلم، وأما من أنكر العلم القديم فقد نص سلف الأمة والأئمة كالشافعي وأحمد وغيرهما من أئمة الإسلام على تكفيره.

وقال عبدالله بن الإمام: سمعت أبي وسأله علي بن الجهم عمن قال بالقدر أيكون كافرًا؟ قال: إذا جحد العلم. إذا قال: إن الله لم يكن عالمًا حتى خلق علمًا فعلم، فجحد علم الله تعالى فهو كافر[٣].

قال عبدالله: وحدثت عن حوثرة بن أشرس قال: سمعت سلامًا غير مرة وهو يقول: سلوهم عن العلم هل علم أو لم يعلم؟ فإن قالوا:

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣/ ١٤٨ـ ١٥٠)، التدمرية، ابن تيمية (ص ١٥٠).

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٣٨٥، ٣٨٦، ٤٢٩).

(٣) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٣٨٥).

علم فليس في أيديهم شيء، وإن قالوا لم يعلم فقد حلت دماؤهم[1].

قال حوثرة: وحدثنا حماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي قال: قيل لعمر بن عبدالعزيز إن غيلان يقول في القدر كذا وكذا قال فمر به فقال: أخبرني عن العلم؟ قال: سبحان الله فقد علم الله كل نفس ما هي عاملة وإلى ما هي صائرة، فقال عمر بن عبدالعزيز: والذي نفسي بيده لو قلت غير هذا لضربت عنقك، اذهب الآن فاجهد جهدك[2].

وفي رواية له عن أبي جعفر أبسط من هذه تركناها اختصارًا وفيها قال غيلان لعمر: وإني أعاهد الله أن لا أتكلم في شيء مما كنت أتكلم به أبدًا، قال: اذهب فلما ولى قال عمر: اللهم إن كان كاذبًا فيما قال: فأذقه حر السلاح. قال: فلم يتكلم زمن عمر، فلما كان يزيد بن عبدالملك[3] جاء رجل لا يهتم لهذا ولا ينظر فيه، قال: فتكلم غيلان، فلما ولي هشام[4] أرسل إليه قال: أليس قد عاهدت الله لعمر أن لا أتكلم في شيء من هذا الأمر أبدًا. قال: أقلني فوالله لا أعود، قال: لا أقالني الله إن لم أقتلك، هل تقرأ فاتحة الكتاب؟ قال: نعم، قال: فاقرأ، فقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤

---

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٣٨٥) في إسناده من لا يعرف وهو شيخ عبدالله بن أحمد.

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٣٨٦) في إسناده انقطاع بين عبدالله وحوثرة حيث لم يصرح عبدالله بمن حدثه.

(٣) أبو خالد الأموي، ولي الخلافة بعد وفاة عمر بن عبدالعزيز، توفي سنة ١٠٥هـ.
انظر: الطبقات، ابن سعد (٨/ ٣٤٨)، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (١/ ٢٥٥).

(٤) ابن عبدالملك بن مروان، ولد بدمشق، وبويع فيها بالخلافة بعد موت أخيه يزيد، كان حسن السياسة يقظًا في أمره، يباشر الأعمال بنفسه، توفي سنة ١٢٥هـ.
انظر: تاريخ الطبري (٨/ ٢٨٣)، تاريخ الخميس، الدياربكري (٢/ ٣١٨).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾، قال: قف، على ما استعنته؟ أعلى أمر بيده لا تستطيع إلا به، أو على أمر في يدك، ـ أو بيدك ـ؟ اذهبا به فاقطعا يديه ورجليه واضربوا عنقه واصلبوه[1].

قال عبدالله: حدثني سوار بن عبدالله ثنا معاذ بن معاذ عن ابن عون قال: أنا رأيت غيلان مصلوبًا بأعلى باب دمشق[2]. ثم روى بسنده قال: حدثنا عبيدالله بن عمر القواريري حدثني الحسن بن عبدالرحمن بن العريان الحارثي عن ابن عون عن ثابت البناني قال: رأيت عمرو بن عبيد وهو يحك المصحف فقلت: ما تصنع فقال أثبت مكانه خيراً منه[3].

قال: [ك،١٨١/أ] وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي ثنا سعيد يعني ابن عامر عن سلام يعني ابن أبي مطيع قال: كنت أمشي في جنازة وبين أيدينا ثلاثة رهط، كانوا مع عمرو بن عبيد في الاعتزال ثم تركوا رأيه ذلك وفارقوه، قال: فقال لي أيوب من غير أن أسأله: لا ترجع قلوبهم إلى ما كانت عليه[4].

وروي أيضًا بسند صحيح عن أيوب قال: ما عددت عمرو بن عبيد عاقلاً قط[5].

---

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٢٩)، والآجري في الشريعة (٢/ ٩١٨)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٧١٣).

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٣٠).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٣٤)، في إسناده الحسن بن عبدالرحمن العريان لم أعثر على من ترجم له.

(٤) المصدر السابق (٢/ ٤٣٩).

(٥) المصدر السابق (٢/ ٤٣٧).

والآثار في هذا تخرج بنا عن حد الاختصار، وقبح المذهب ينادي على ذمه، وقد حذر السلف عنه وعن مجالسة أهل البدع، قال أبو عبدالرحمن ابن الإمام أحمد: حدثني أبي ثنا مرحوم بن عبدالعزيز العطار سمعت أبي وعمي يقولان: سمعنا الحسن وهو ينهى عن مجالسة معبد الجهني يقول: لا تجالسوه فإنه ضال مضل.

قال مرحوم: قال أبي: ولا أعلم أحدًا يتكلم في القدر غير معبد ورجل من الأساورة يقال له سيسويه[1].

قال: وحدثني أبي حدثنا أبو سعيد ربيعة بن كلثوم عن أبيه قال: قال أصحاب مسلم بن يسار: كان مسلم يقعد إلى هذه السارية فقال: إن معبدًا يقول بقول النصارى[2].

ثم روى له بسنده عن الشعبي أنه قال: أَرجِىءِ الأمور إلى الله ولا تكن مرجئًا، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ولا تكن حروريا، واعلم أن الخير من الله ولا تكن قدريا.

قال: وأثبت صلاح بني هاشم ولا تكن شيعيا[3]. قال تاج الدين الفزاري الشافعي المعروف بابن الفركاح: زعمت المرجئة أن الله تعالى قبل كل شيء ولا يقال إنه شيء، وأن علم الله مخلوق، وإنما يفعل الله

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٩١).

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٣٩٢) وفي إسناده كلثوم بن جبر، قال الحافظ في التقريب (ص ٤٦٢): صدوق يخطىء.

(٣) أخرجه الخلال في السنة (١/ ٧٩).

أفعال العبد إذا عملها. انتهى.

فهذا أصل قولهم الذي تفرقوا عنه، فإنهم افترقوا فرقًا، ومن أقوالهم الشنيعة كما قال الفضيل بن عياض عنهم: أن الإيمان قول بلا عمل، وأول من تكلم في ذلك ذر[(١)](٢).

فروى عبدالله ابن الإمام أحمد عن سلمة بن كهيل قال: وصف ذر الإرجاء وهو أول من تكلم فيه ثم قال: إني أخاف أن يتخذ هذا دينا، فلما أتته الكتب من الآفاق قال: فسمعته يقول: وهل أمر غير هذا[(٣)].

وروي أيضًا عن أبي الجحاف قال: قال سعيد بن جبير لذر: يا ذر مالي أراك كل يوم تجدد دينا[(٤)].

ثم روى عن أبي المختار قال: شكا ذر سعيد بن جبير إلى أبي البختري[(٥)] الطائي فقال ذر: مررت فسلمت عليه فلم يرد علي، وقال أبو البختري لسعيد بن جبير فقال سعيد: إن هذا يجدد كل يوم دينا لا والله لا أكلمه أبدا[(٦)].

---

(١) مضت ترجمته ص ٩٨.

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (١/ ٣٤٧).

(٣) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٢٩)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٩٢).

(٤) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٢٨)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٩١).

(٥) هو سعيد بن فيروز، أبو البختري، ابن أبي عمران الطائي مولاهم، الكوفي، ثقة ثبت فيه تشيع قليل كثير الإرسال، توفي سنة ٨٣هـ.

انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ٧٢)، تقريب التهذيب، كلاهما لابن حجر (ص ٢٤٠).

(٦) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٢٨)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٩١) كلاهما من طريق أبي المختار الطائي، قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٦٧١): =

وفي رواية له أيضًا قال: أتى ذر الهمداني سعيد بن جبير في حاجة فقال سعيد لا حتى تخبرني على أي دين أنت اليوم عليه، ألا تستحي من دين أنت أكبر منه[1].

ثم روى عن الحسن بن عبيدالله قال سمعت إبراهيم يقول لذر: ويحك يا ذر ما هذا الذي جئت به؟ قال ذر: ما هو إلا رأي رأيته، قال الحسن: ثم سمعت ذرًا يقول: إنه لدين الله الذي بعث به نوح عليه السلام[2].

ثم روى بسند فيه مجهول عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صنفان من هذه الأمة ليس لهم في الإسلام نصيب، المرجئة والقدرية»[3].

ورواه الترمذي في جامعه بسند حسن مرفوعًا إلى النبي ﷺ[4]، ورواه أيضًا البخاري في تاريخه عن ابن عباس بهذا اللفظ[5]، وابن ماجه عنه[6]،

= قيل اسمه سعد مجهول.

(١) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٢٦)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٩٠) كلاهما من طريق محمد بن أبي وضاح عن العلاء بن عبدالله بن رافع به، ومحمد بن أبي وضاح قال فيه الحافظ في التقريب (ص ٥٠٧): محمد بن مسلم بن أبي وضاح صدوق يهم، والعلاء بن عبدالله بن رافع قال عنه في التقريب (ص ٤٣٥): مقبول.

(٢) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٣٥).

(٣) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٢٥)، والترمذي في القدر، باب ما جاء في القدرية (٤/ ٤٥٤) وقال: هذا حديث غريب حسن صحيح، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٤٧)، كلهم من طريق نزار بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس، وقد ضعفه الشيخ الألباني من أجل نزار بن حيان، كما في ظلال الجنة في تخريج السنة (١/ ١٤٧).

(٤) سنن الترمذي (٤/ ٤٥٤).

(٥) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ١٣٣).

(٦) أخرجه في المقدمة، باب الإيمان (١/ ٢٤).

وعن جابر[1] رضي الله عنهما، والخطيب عن ابن عمر[2]، والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري[3] رضي الله عنه.

وعند الإمام أحمد وأبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[4].

قال الخطابي: إنما جعلهم مجوسًا لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٨) من طريق نزار بن حيان أيضًا به.

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه (١٤/ ٣١٩) كلهم من طريق محمد بن عطية عن كرز ابن وبرة الحارثي عن محمد بن كعب القرظي عن ابن عمر: لعنت القدرية على لسان سبعين نبيًّا منهم محمد ﷺ، والطبراني في الأوسط (٧/ ١٦٢)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٦٤٣)، والسهمي في تاريخ جرجان (ص ٣٥٦)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٨٣)، وإسناده ضعيف جدا لأجل محمد بن الفضل بن عطية متهم بالكذب، قال الحافظ في التقريب (ص ٥٠٢): كذبوه.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٧٠) من طريق عمرو بن القاسم التمار عن ابن أبي ليلى عن عطية عن أبي سعيد الخدري، قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٦): فيه عمرو بن القاسم التمار وهو ضعيف وكذلك عطية العوفي.

(٤) أخرجه أبو داود في السنة، باب القدر (٤/ ٢٢١)، وأحمد في المسند (٢/ ١٢٥)، والبخاري في التاريخ الصغير (٢/ ٢٧١)، والكبير (٢/ ٣٤١)، والطبري في صريح السنة (ص ٢٢)، وابن أبي عاصم (١/ ١٤٩)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٥)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٦٣٩)، والحاكم في المستدرك (١/١٥٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع ابن أبي حازم من ابن عمر، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي والبيهقي في سننه (١٠/ ٢٠٣)، وفي الاعتقاد (ص ٢٣٦)، وحسنه الألباني لتعدد طرقه في تعليقه على المشكاة (١/ ٣٨).

الله عز وجل، والشر إلى غيره، والله تعالى خالق الخير والشر جميعًا، لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقًا وإيجادًا، وإلى الفاعلين لهما من عباده فعلاً واكتسابًا[١].

قال الخطابي: وقد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله تعالى العبد وقهره على ما قدره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن قديم علم الله سبحانه تعالى، عما يكون من اكتساب العبد وأعماله وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها[٢].

وقد مر التنبيه على مذهب المرجئة في أول هذل الشرح، وعند أبي داود عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعًا: لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم الدجال[٣].

وعند مسلم في صحيحه والترمذي وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر فنزلت هذه الآية: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾[٤] [القمر: ٤٨ـ ٤٩].

---

(١) معالم السنن، الخطابي (٤/ ٣١٧).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود في السنة، باب القدر (٤/ ٢٢١) عن عمر مولى غفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة، وفي إسناده عمر مولى غفرة، قال الحافظ في التقريب (ص ٤١٤): ضعيف وكان كثير الإرسال، وفيه أيضًا جهالة الراوي الذي لم يسم، وأخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٠٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٤٤)، وذكر الألباني في الهامش طرقًا للحديث يتقوى بها.

(٤) أخرجه مسلم في القدر، باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٦)، والترمذي في القدر، =

وفيه عنه أيضًا رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه فكأنما فقىء في وجنتيه حب الرمان، فقال: أفبهذا أمرتم أم لهذا أرسلت إليكم، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم أن لا تنازعوا فيه[(١)].

ورواه غيره بمعناه[(٢)]، وفي هذا الغاية لمن رزق الهداية ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ فنسأله أن يهدينا صراطه المستقيم إنه جواد كريم.

= باب رقم (١٩) (٤/ ٤٥٩) وقال: هذا حديث صحيح، وابن ماجه في المقدمة، باب في القدر (١/ ٣٢)، وغيرهم.

(١) أخرجه الترمذي في أبواب القدر، باب ما جاء في التشدد في الخوض في القدر (٤/ ٤٤٣) وقال: وهذا حديث غريب لا نعرفه من هذا الوجه، من حديث صالح المري، وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها، قال الألباني في تعليقه على هذا الحديث في مشكاة المصابيح (١/ ٣٦) بعد نقل كلام الترمذي الآنف: قلت لكن يشهد له الذي بعده. يشير رحمه الله إلى ما أخرجه ابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في المقدمة، باب في القدر (١/ ٣٣) قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٢) كحديث أنس الذي رواه أبو يعلى في مسنده (٥/ ٤٢٩) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٢): رواه أبو يعلى وفيه يوسف بن عطية وهو متروك.

وقد تقدم قبل قليل حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبدالله بن عمرو ابن العاص.

الباب الستون

باب ما جاء في المصورين

الذين يضاهون خلق الله تعالى، **(عن أبي هريرة)** الدوسي خادم رسول الله [ك،١٨٢/ب] ﷺ رضي الله عنه **(قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)** أي لا أحد أظلم منه، فإن كانوا في ذلك صادقين ومشابهين لخلقه تعالى **(ليخلقوا)** من خلقه تعالى **(ذرة)** أو يركبوا ما لها من أعضائها فيها، **(أو ليخلقوا)** مما لا روح فيه **(حبة)** بر، **(أو ليخلقوا شعيرة)**.

فتحدى سبحانه المصورين أولاً بما فيه الروح من أصغر خلقه، ثم بما لا روح فيه من صافي صغير النبات، ثم بما لا صفاء في خلقة ثمرته كالشعير، واقتصر في تحديهم على حبة واحدة وذرة واحدة، وهكذا تحدى من دعا من دونه آلهة أخرى في عجز آلهتهم حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٣- ٧٤].

وفي الحديث دليل على تحريم التصوير على ما يشابه خلق الله تعالى، فأما ما كان فيه روح فظاهر من غير هذا الحديث، وأما ما لا روح فيه ففيه خلاف لابن عباس وغيره، ومفهوم هذا الحديث القدسي التحريم فيما يشابه به خلق الله **(أخرجاه)** في الصحيحين[١].

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب نقض الصور (٥/ ٢٢٢٠)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٣/ ١٦٧١)، وغيرهم.

(ولهما) فيهما **(عن عائشة)** أم المؤمنين رضي الله عنهما: **(عن رسول الله ﷺ قال: أشد الناس)** أي: من أشدهم **(عذابًا يوم القيامة)** المراد بالقيامة هنا ما بعد البعث إلى ما لا نهاية له، وقيل بعد الموت من عذاب القبر ثم بعد البعث إلى ما لا نهاية له، لأن من مات فقد قامت قيامته، وقيل بعد البعث إلى أن ينقضي الموقف والله أعلم.

فالقيامة مصدر قام يقوم، دخله التأنيث للمبالغة على عادة العرب، وهي عبارة عن الانتصاب عن الجلوس أو الاضطجاع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦]، وقد ينسب الفعل إليها فيقال: قامت القيامة، قال تعالى مخبرًا عمن شك فيها: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦]، وذلك على عادة العرب من إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيره، مما لم يكن منه الفعل كقولهم: ليل نائم، ونهار صائم، فسميت باسم ما فيها كأنه زمان سمي باسم فعل أو زمان وجدت وقامت فيه.

(الذين يضاهئون بخلق الله تعالى)[1]. أي: يشابهون عملهم التصوير بخلق الله من ذوات الأرواح على قول ابن عباس، والقول الآخر أن التحريم عام.

وسبب هذا الحديث ما في البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت بقرام لي على سهوة لي فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه وقال: فذكر الحديث المتقدم، قالت فجعلته وسادة أو وسادتين[2].

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب ما وطىء من التصاوير (٥/ ٢٢٢١)، ومسلم في الزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٣/ ١٦٦٩)، وغيرهم.

(٢) جزء من الحديث السابق.

وفي هذا دليل أن ذلك إذا استمهن بالوطء أو الاتكاء زال المحذور، وكذا إذا قطع منه ما تزول مع قطعه الحياة.

(ولهما) أيضًا في صحيحيهما **(عن)** ترجمان القرآن، **(عبدالله ابن** عم النبي ﷺ **(عباس)** بن عبدالمطلب رضي الله عنهما **(قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل مصور)** بكسر الواو: الذي يضع التصاوير، كائن أو مستقر، **(في النار، يجعل له)** فيها **(بكل صورة صورها)** في الدنيا **(نفسًا)** حقيقة لا كما يصور هو، **(فيعذب بها في جهنم)**(١).

فقوله «بكل صورة صورها» هذا يعم جميع ما يصوّر؛ إذ (كلّ) هنا هو الكلّي المجموع من جميع الصور، وهو بمنزلة الجنس من كل ما صور، سواء كان مما يشبه ذوات الأرواح أم لا، ولكن قوله في الجزاء «نفسًا» يدل أن الجزاء من جنس العمل، وأن ذلك خاص بما صور على ما له نفس من مخلوقات الله تعالى، يدل عليه الحديث الآتي، وله أدلة خارجة عن الباب يطول الكلام بذكرها، وهذا الحديث يفيد دوام العذاب، فيحمل أنه يستحق ذلك إذا فعله للتعبد أو مستحلا أو كافرا، أو أن المعنى يعذب بها في جهنم مدة لبثه فيها.

(ولهما) أيضًا في صحيحيهما **(عنه)**: أي: عن ابن عباس رضي الله عنهما **(مرفوعًا)** إلى النبي ﷺ: **(من صور صورة في الدنيا، كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ)**(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب بيع التصاوير التي ليس فيها روح (٢/ ٧٧٥)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٣/ ١٦٧٠) واللفظ له، ورواه غيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في اللباس، باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها =

وهذا وعيد شديد وتكليف ما لا طاقة له به جزاءً وفاقًا على ما صنع، حيث تلبس في الدنيا بما لا يستطيع صنعه، فكيف حال هذا المكلف بهذا التكليف مع ما هو فيه من العذاب على تحصيل ذلك المحال عليه، نسأل الله العفو والعافية مما يوجب الخزي والوبال في الدنيا والآخرة.

(ولمسلم) في صحيحه **(عن أبي الهياج)** حيان بن حصين الأسدي الكوفي الثقة[1] **(قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه)** ابن عم النبي ﷺ، وهو أول من أسلم من الصبيان، وهو أحد العشرة رضي الله عنهم، مات في رمضان سنة أربعين وهو يومئذ أفضل الأحياء من بني آدم بإجماع أهل السنة والجماعة، وله ثلاث وستون سنة على أرجح الأقوال في مدة عمره رضي الله عنه، روى ابن أبي الدنيا بسنده إلى عبدالواحد بن أبي عمرة الأسدي أن معاوية رضي الله عنه قال لرجل من كنانة سماه غير ابن أبي الدنيا ضرارًا: صف لي عليًا؟ قال: أعفني، قال لا أعفيك، قال: أما إذا لابد فإنه كان والله بعيد الحد، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس من الليل وظلمته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدينا إذا أتيناه، ويلبينا إذا دعوناه، ونحن والله [ك،١٨٢/أ] مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة، ولا نبتدئه تعظيمًا، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله،

= الروح وليس بنافخ (٥/ ٢٢٢٣)، ومسلم في اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٣/ ١٦٧١)، وغيرهم.

(١) انظر: تهذيب التهذيب (٣/ ٦٧)، تقريب التهذيب (ص ١٨٤)، كلاهما لابن حجر.

ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سرباله، وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني الآن أسمعه وهو يقول: يا دنيا يا دنية إلي تعرضْتِ، أم إلي تشرفْتِ، هيهات هيهات، غُرّي غيري، لا حاجة لي فيك، قد بتَتُّكِ فلا رجعت لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبعد السفر، ووحشة الطريق. قال: فبكى معاوية رضي الله عنه وبكى القوم ثم قال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك، فكيف حزنت عليه؟ قال: حزنت والله حزن ثكلى انتزع واحدها من حجرها، فلا عبرتها ترقأ ولا حزنها يسكن[1].

قال: وحدثنا يوسف بن موسى ثنا جرير عن مغيرة قال: لما جاء معاوية رضي الله عنه نعي علي رضي الله عنه وهو قائل مع امرأته [فاختته بنت قرطة][2] في يوم صائف قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا فقد من العلم والخير والفضل والفقه، قالت امرأته: بالأمس تطعن في عيبته وتسترجع اليوم عليه؟ قال: ويلك لا تدرين ما فقدوا من علمه وفضله وسوابقه[3].

ومن فضائله أنه بعثه ﷺ ببراءة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنهما مؤديا عنه، وصح عنه ﷺ أنه قال: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[4].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٨٤)، وابن عبدالبر في الاستيعاب (٣/ ٤٣).

(٢) في الأصل: «أخت قرطة» وما بين معكوفتين من البداية والنهاية، ابن كثير (٨/ ١٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوو تبوك (٤/ ١٦٠٢) من حديث سعيد. =

وبعثه ﷺ إلى اليمن فوصل إلى نجران، ووافاه بمكة في حجة الوداع وأشركه في هديه[1]، ولهذا قال لأبي الهياج المذكور (**ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها**) وفي لفظ لمسلم «تمثالاً إلا طمسته». الطمس: مسح الشيء أو إذهابه بالكلية، قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورًا وفي يده الأزلام يستقسم بها فقال: قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم والأزلام ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧] ثم أمر بتلك الصور فطمست[2].

ورواه أبو نعيم من طريق عبدالله بن وهب صاحب الجامع قال ابن وهب حدثني عمرو بن الحارث عن بكير بن الأشج عن كريب عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ حين دخل البيت وجد فيه صورة إبراهيم وصورة مريم فقال: أما هم قد سمعوا أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة؟ وهذا إبراهيم مصور، فما باله يستقسم، قال: وهو غريب من حديث بكير، وعمرو تفرد به ابن وهب[3].

قلت: وابن وهب ثقة فلا يضر تفرده به، وقد أخرجه البخاري بهذا اللفظ في صحيحه عن ابن عباس بهذا السند حيث قال: حدثنا يحيى بن

= ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٤/ ١٨٧٠)، وغيرهم.

(١) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٢٦)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٥٠١).

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام (٢/ ٤١٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٢٥).

سليمان قال: حدثني ابن وهب فذكره متنًا وسندًا[١]، ثم رواه من طريق عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام فقال: قاتلهم الله، والله إن استقسما بازلام قط[٢].

(**ولا قبرًا مشرفًا**) روي بفتح الراء مع التشديد وبكسرها مع التخفيف، (**إلا سويته**)[٣]. عن تشريفه على رواية التشديد، أو عن إشرافه عن التخفيف، بحيث تجعله على الوجه المرضي لله ورسوله، وهو المشروع من تسنيمه كما هو مذهب الجمهور، أو تسطيحه كما هو مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، حيث لا يخرج به عن الأمر الجائز في الشريعة المحمدية والملة الإبراهيمية، إلى الملة الجاهلية من تعظيم القبور بالبناء عليها كما تفعل النصارى، وقد لعنهم رسول الله ﷺ على ذلك.

وقد روى هذا الحديث أيضًا عن أبي الهياج مرفوعًا الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما[٤]، وقال القاضي في الخلاف: هذا محمول على القبور التي عليها البناء والجص ونحوه[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥] (٣/ ١٢٢٣).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر (٢/ ٦٦٦)، وأبو داود في الجنائز، باب في تسوية القبر (٣/ ٢١٢)، والترمذي في الجنائز، باب ما جاء في تسوية القبر (٣/ ٣٦٦)، والنسائي في الجنائز، باب تسوية القبور إذا رفعت (٤/ ٨٨)، وأحمد في المسند (١/ ٩٦)، وغيرهم.

(٤) انظر في تخريج الحديث السابق.

(٥) انظر: الفروع، ابن مفلح (٢/ ٢٧٠_ ٢٧١).

قال العلماء: ويكره رفعها بالتسنيم فوق شبر، وصرح الأصحاب أن الشبر مسنون[1]، قال البخاري في صحيحه: وقال خارجة بن زيد رأيتني ونحن شبان في زمن عثمان رضي الله عنه، وإن أشدنا وثبة الذي يثب قبر عثمان بن مظعون[2] حتى يجاوزه[3]. وليس من ذلك المنهي عنه تعليمها بحجر كما علم ﷺ به قبر عثمان بن مظعون رضي الله عنه كما صح في الصحيحين وغيرهما عنه[4] ذلك، ومن أفتى بكسر الأعلام المعروفة بين الناس اليوم بالنصايب فقد أخطأ خطأً فاحشًا، إذ ليس له في ذلك مستند إلا مخالفة السنة، فهي أعلام لأهل الميت عليه، وبعدهم لعامة المسلمين عليها، كي تصان ولا تهان وتعرف بأنها مقابر فيسلم عليها ويدعى لأهلها بما شرع لهم من ذلك.

وقال القرطبي على شرح مسلم في قوله ﷺ: «ولا قبرًا إلا سويته»:

ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاصقة بالأرض، وقد قال به بعض أهل العلم، وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته ليس هو التسنيم ولا ما يعرف به القبر، وإنما هو الارتفاع الكثير

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الجمحي، أبو السائب، كان من حكماء العرب في الجاهلية، وممن حرم الخمر فيها، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، ممن هاجر إلى الحبشة، أول من مات بالمدينة من المهاجرين، وأول من دفن بالبقيع منهم، وذلك سنة ٢هـ.

انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (١/ ١٠٢)، تاريخ الخميس، الديار بكري (١/ ٤١١).

(٣) أخرجه البخاري تعليقًا في الجنائز، باب الجريد على القبر (١/ ٤٥٧)، ووصله في التاريخ الصغير (١/ ٤٢).

(٤) لم أعثر عليه في الصحيحين، وهو عند أبي داود في الجنائز، باب في جمع الموتى في قبر والقبر يعلم (٣/ ٢٠٩)، وعند البيهقي في سننه (٣/ ٤١٢)، بسند حسن كما قال الحافظ في الفتح (٥/ ٢٢٩).

الذي كانت الجاهلية تفعله، فإنها كانت تعلي عليها وتبني فوقها تضخيمًا لها وتعظيمًا، وأما تسنيمها فذلك صفة قبر رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، على ما ذكر في الموطأ[1]، وتسنيمها اختاره أكثر العلماء، انتهى ملخصًا.

[ك،١٨٣/ب] وفي صحيح البخاري عن سفيان التمار أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنمًا[2].

زاد أبو نعيم في مستخرجه وقبر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كذلك[3] ورواه ابن سعد عنه بلفظ: رأيت قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر مسنمة[4].

وهكذا رواه يحيى بن النجار عن عبدالله بن الحسين المدني قال: رأيت قبر النبي ﷺ مسنمًا في زمن الوليد بن هشام[5].

وسفيان التمار المذكور في رواية البخاري عنه ذكروا أن ولادته في زمن معاوية[6] رضي الله عنه، وعند الحاكم وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه عن القاسم بن محمد[7] قال: دخلت على عائشة

---

(١) لم أعثر عليه في الموطأ.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما (١/ ٤٦٨)، والبيهقي في سننه (٤/ ٣).

(٣) عزاه الحافظ في الفتح (٣/ ٢٥٧) إلى أبي نعيم في المستخرج.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٠٦).

(٥) لم أعثر عليه.

(٦) سفيان بن دينار التمار، أبو سعيد الكوفي، من ثقات التابعين.
انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ١٠٩)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٢٤٤).

(٧) ابن أبي بكر الصديق التيمي، ثقة، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، مات سنة ١٠٦هـ.
انظر: تهذيب التهذيب (٧/ ٣٣٣)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٤٥١).

فقلت: يا أم المؤمنين اكشفي لي عن قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطية[١]، مبطوحة[٢] ببطحاء العرصة الحمراء[٣].

وهو عند أبي داود بهذا اللفظ وفي إسناده عمرو بن عثمان بن هاني لم يخرجاه له في الصحيحين شيئًا[٤]، وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهى أن يُقعد على القبر وأن يقصص أو يبنى عليه[٥].

ورواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي[٦]، وفي لفظ بدل «وأن يقصص» «وأن يجصص»[٧] وهما بمعنى.

---

(١) يقال لطىء بالأرض، ولطأ بها، إذ لزق، واللط الإلصاق.
انظر: النهاية، ابن الأثير (٤/ ٢٤٩ـ ٢٥٠).

(٢) أي ألقى عليه البطحاء، وهو الحصى الصغار. انظر: النهاية، ابن الأثير (١/ ١٣٤).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٤).

(٤) وأخرجه أبو داود في الجنائز، باب في تسوية القبر (٣/ ٢١٢)، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ٥٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٣)، كلهم من طريق عمرو بن عثمان بن هاني عن القاسم بن محمد، وفي إسناده عمرو بن عثمان بن هاني، قال الحافظ في التقريب (ص ٤٢٤): مستور.

(٥) أخرجه مسلم في الجنائز، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه (٢/ ٦٦٧).

(٦) وأخرجه أبو داود في الجنائز، باب في البناء على القبر (٣/ ٢١٣)، والترمذي في الجنائز، باب ما جاء في كراهية تجصيص القبور والكتابة عليها (٣/ ٣٦٨)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في الجنائز، باب الزيادة على القبر (٤/ ٨٦)، وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في النهي عن البناء على القبور (١/ ٤٩٨)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٩٥)، وغيرهم.

(٧) أخرجها مسلم والبقية ما عدا ابن ماجه.

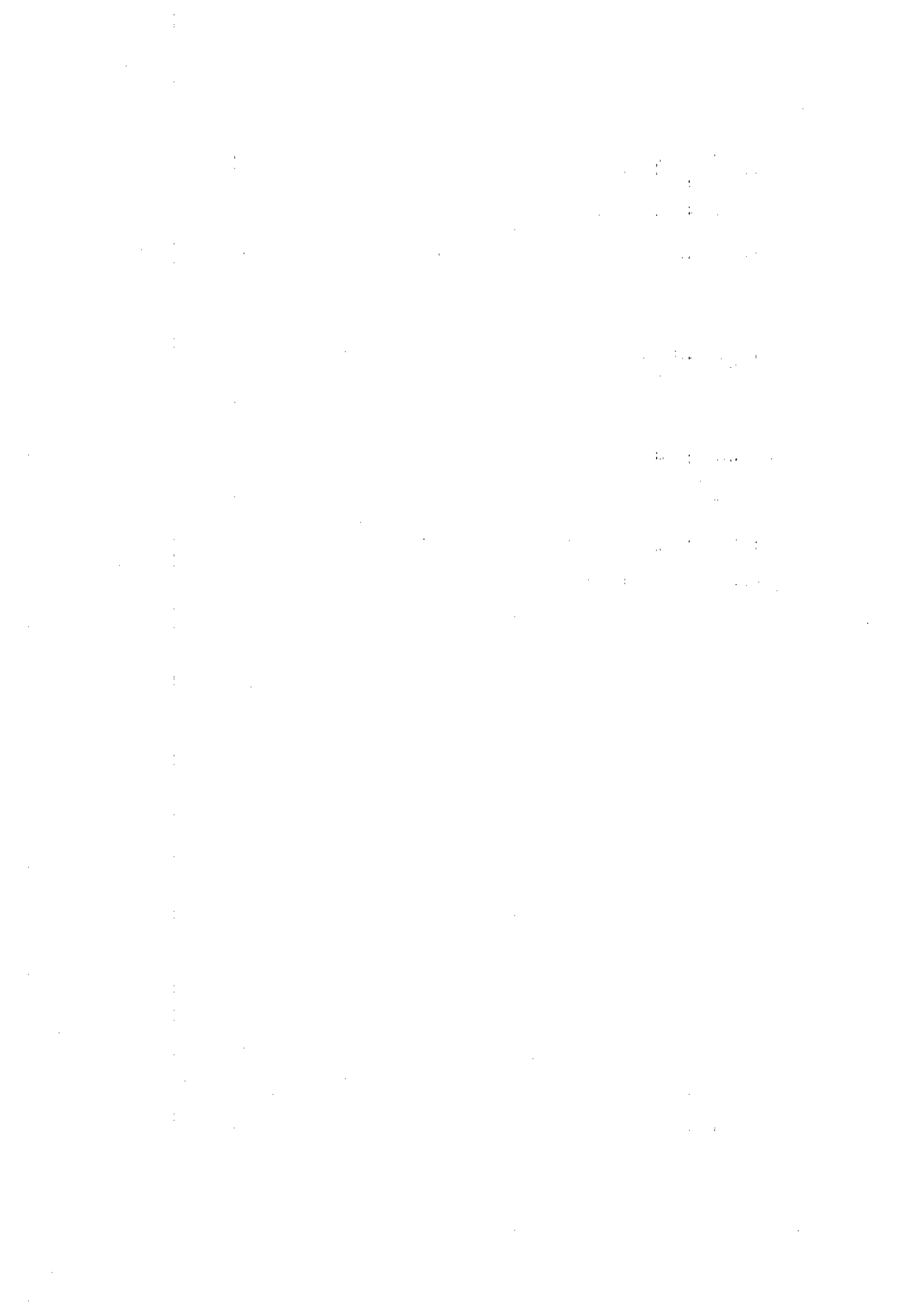
وعند مسلم في صحيحه من رواية هارون بن سعيد الأيلي أن ثمامة ابن شفي وهو أبو علي الهمداني حدثه قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوي ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها[1].

وقد كره العلماء رحمهم الله تعالى الزيادة على تراب القبر من غيره إلا أن يحتاج إليه.

وهذا مع نهيه ﷺ عن البناء على القبور، وتصوير الصور فيها كما تقدم مؤذن بتحريم ذلك تعظيمًا، فإن أصل حدوث الشرك ناشيء من تعظيم القبور وتصوير صور أهلها وجعلها تماثيل، حتى طال عليهم الأمد فعبدت من دون الله تعالى، نسأل الله الحماية، والله الهادي الموفق يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر (٢/ ٦٦٦)، وأبو داود في الجنائز، باب في تسوية القبر (٣/ ٢١٢)، وأحمد في المسند (٦/ ٢١)، وغيرهم.



الباب الحادي والستون

باب ما جاء في كثرة الحلف بالله تعالى

وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بأن تضنوا بها ولا تبذلوها لكل أمر، وقيل: تبروا فيها ما استطعتم ولم يُفَتْ بها [خير][1]، وقيل: بأن تكفّروها إذا حنثتم، والآية تحتمل ذلك كله، إذ هذا كله من حفظانها، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي أعلام شرائعه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩] نعمة التعليم، أو نعمه الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه.

(**عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحلف**) وفي لفظ لمسلم «اليمين»[2]، قال الزركشي على البخاري: وهي أوضح، وفي رواية للإمام أحمد «اليمين الكاذبة»[3] وهي أصرح، (**منفقة للسلعة**) النَّفاق ضد الكساد، ويقال: أنفق السلعة ونفّقها جعلها نافقة، وفي الحديث الآخر «والمنفّق» بالتشديد، أي: المروج سلعته بالحلف الكاذب أي: الفاجر، والسلعة: المتاع، وكل مبيع سلعة قاله الجوهري وغيره[4]، (**ممحقة للكسب**) وفي لفظ عندهما في الصحيحين

---

(١) في الأصل: خيرًا.

(٢) عزاها إليه الحافظ في الفتح (٤/ ٣١٦) ولم أعثر عليها في صحيح مسلم.

(٣) أخرجها أحمد في المسند (٢/ ٢٣٥).

(٤) انظر: الصحاح، الجوهري (٤/ ١٢٣١)، لسان العرب، ابن منظور (٨/ ١٦٠).

وأبي داود وابن ماجه «ممحقة للبركة»[1]، والمحق: الإذهاب، وحكى عياض ضم أول «مُمْحِقة» مع كسر الحاء: اسم فاعل.

وقال الزركشي: لكن الرواية الفتح لأولها وسكون ثانيها: مَفْعَلة، وأسند الفعل إلى الحلف إسنادًا مجازيًّا، لأنه سبب لرواج السلعة ونَفَاقها، وأنّث «ممحقة» إما لتأويل الحلف باليمين، أو أن الهاء للمبالغة، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فهذه الزيادة التي حصلت في ثمن السلعة بالحلف ممحقة لباقيه لما داخلته، كما أن الرياء وإن كثر فعاقبته إلى قلّ، فلما كان صاحب السلعة يريد بحلفه الكاذب مع نفاقها زيادة الكسب في ثمنها وقد يحصل له ذلك بيمينه الكاذبة، عوقب بنقيض مقصده من محْق الكسب، ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إياكم وكثرة الحلف في البيع، فإنه ينفق ثم يمحق[2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدّقه، وهو على غير ذلك، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه

(١) أخرجها البخاري في البيوع، باب ما يكره من الحلف في البيوع (٢/ ٧٣٥)، وأبو داود في البيوع، باب في كراهية اليمين في البيع (٣/ ٢٤٢).

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع (٣/ ١٢٢٨)، والنسائي في البيوع، باب المنفق سلعته بالحلف الكاذبة (٧/ ٢٤٦)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٩٧)، وغيرهم.

منها وفى، وإن لم يعطه منها لم يف[1].

ورواه أيضًا من هذا الوجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال صحيح[2].

وعند الشيخين أيضًا من طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم، رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل منع فضل مائه، فيقول الله: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك[3].

فصاحب [هذه][4] اليمين يراعي غبطة نفسه، وهضم صاحبه وغشه باليمين، فهذا من باب المخادعة لأخيه المسلم، وهي من صفات إبليس وأتباعه من بني آدم، وهذا خلاف قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[5].

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام، باب من بايع رجلاً لا يبايعه إلا لدينار (٦/ ٢٦٣٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار (١/ ١٠٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع، باب في منع الماء (٣/ ٢٧٥)، والترمذي في السير، باب البيع (٧/ ٢٤٦)، وابن ماجه في التجارات، باب ما جاء في كراهية الأيمان في الشراء والبيع (٢/ ٧٤٤)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة: ٢٢] (٦/ ٢٧١٠)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية (١/ ١٠٢)، وغيرهم.

(٤) في الأصل: هذا.

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١/ ١٤) من حديث أنس، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان =

وقال: «من غشنا فليس منا»[1].

فلابد أن يمشي الإنسان مع التوحيد لله بطرح هوى النفس في جميع الأقوال والأفعال من جميع أحواله، حتى لا يخرج عما شرع مولاه على لسان رسوله محمد ﷺ.

(أخرجاه)[2] في الصحيحين.

(وعن سلمان) الفارسي، كان من أبناء دهاقين الفرس، فر إلى الله من المجوسية فلم يزل ينتقل من النصرانية، [ك،١٨٣/أ] ثم إلى الملة المحمدية الإبراهيمية، حتى وصل إلى النبي ﷺ بعدما تولاه الرق، فكاتب، وأعانه النبي ﷺ على كتابته، وحصل بذلك معجزتان له ﷺ في وزن الذهب، وحمل الودي[3] الذي غرس بيده ﷺ من عامه ذلك[4]، حتى قال بعد ذلك ﷺ في حق سلمان: سلمان منا أهل البيت[5].

وفضائله جمة لا تحصى، فيقال له: سلمان الخير، وأصله من أصبهان،

= أن يحب لأخيه (١/ ٦٧)، وغيرهم.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ من غشنا فليس منا (١/ ٩٩)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٥)، وابن حبان في صحيحه (١١/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم [البقرة: ٢٧٦] (٢/ ٧٣٥)، ومسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع (٣/ ١٢٢٩)، وغيرهم.

(٣) الودي على وزن فعيل: صغار الغسيل من النخل، الواحدة: وديّة. انظر مختار الصحاح: ٢٩٨.

(٤) انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٤٨).

(٥) مضى تخريجه.

وقيل من رام هرمز[1]، شهد الخندق بعدما خرج من الرق وما بعدها، ومات سنة أربع وثلاثين، ويقال بلغ من العمر ثلاثمائة سنة[2].

(مرفوعًا) إلى النبي ﷺ أنه قال: **(ثلاثة لا يكلمهم الله)** ولفظ الطبراني «لا ينظر الله إليهم يوم القيامة»[3] أي استهانةً بهم وغضبًا عليهم بما انتهكوا من حرماته، وخالفوا من أوامره.

(ولا يزكيهم) لكونهم لم يزكوا أحكامه جزاءً وفاقا، لأن الجزاء من جنس العمل، **(ولهم عذاب أليم)** يؤلمهم حتى يعرفوا به ما جهلوا من عظمته جل وعلا وما اجترحوا من حرمته، **(أشيمط زانٍ)** الشمط الشيب، **(وعائل مستكبر)** قيل هو فقير ذو عيال ولا يقدر على تحصيل مؤنتهم، ولا يطلب من بيت المال للتكبر، فهو آثم لإيصال الضرر إلى عياله بترك الطلب، وقيل الأمر أعم من ذلك.

والمعنى: أن كبره مع فقده سبب الكبر وهو المال والجاه من حسب أو منصب، يدل على كونه مطبوعًا على الكبر الذي قد استحكم فيه، وفي الأثر: «إن الكبر يأتي الرجل وعليه العباءة»[4].

---

(١) إحدى مدن فارس، ومعنى رام بالفارسية المراد والمقصود، وهرمز أحد كبارهم فكأن معنى اسمها: مراد هرمز أو مقصود هرمز، وهي من أشهر مدن خوزستان. انظر: معجم البلدان، ياقوت (٣/ ١٧).

(٢) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٥٣)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٦٠).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٦)، وقال الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٨٩): صحيح.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٧٣) مرفوعًا عن ابن عمر، وقال في المجمع (١٠/ ٢٢٦): رجاله ثقات، وكذا قال المنذري في الترغيب (٣/ ٣٥٢)، ومعناه أن الرجل لا ينبغي أن يأمن على نفسه الكبر ولو كان في ضنك من العيش وشدة، انظر =

قال الخطابي: عن أبي عمرو عن أبي العباس ثعلب عن سلمة عن الفراء عن الكسائي قال: هو من عال يعول فهو عائل، بمعنى كثر عياله، فصيحة سمعت من العرب. قال: وأما عامة أهل اللغة فإنهم يجعلون الإعالة بمعنى كثرة العيال، قالوا: أعال الرجل إذا كثر عياله، فهو معيل، وعال يعيل إذا افتقر كقول ابن الجلاح[1]:

وما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الفقير[2] متى يعيل[3]

فالكبر قبيح، وهو من الفقير العائل أقبح، قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن سلام الجمحي قال: كان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره، فجاء يومًا ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما، وقعد الأحنف وكان سيد بني تميم في زمانه فزحم بعض الزحم، فرئي ذلك فيه فقال الأحنف: عجبًا لابن آدم يتكبر وقد جرى من مجرى البول مرتين[4].

ويقال: عال يعول أيضًا إذا جار في الحكم، قال الشاعر:

موازين عدل كلها غير عائل[5]

= فيض القدير (٣/ ١٣٢).

(١) هو أحيحة بن الجلاح بن الحريش الأوسي، أبو عمرو، شاعر جاهلي من دهاة العرب وشجعانهم، كان سيد الأوس في الجاهلية، مات نحو ١٣٠ق.هـ.
انظر: الأغاني، الأصفهاني (١٥/ ٣٦)، الأعلام، الزركلي (١/ ٢٧٧).

(٢) البيت لأحيحة بن الجلاح في غريب الحديث، للخطابي (١/ ٩٨)، في لسان العرب، ابن منظور (١١/ ٤٨٨)، وفيه «وما يدري الغني متى يعيل».

(٣) غريب الحديث، الخطابي (١/ ٩٨)، (٢/ ١٣٨).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٩٣).

(٥) البيت غير منسوب لأحد في غريب الحديث للخطابي (٢/ ١٣٨)، والفائق =

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما أدخلته النار[1].

وفي رواية «قذفته في النار»[2] نعوذ بالله من أليم عذابه، وفظيع عقابه.

(ورجل جعل الله بضاعته) أي: يخادع الناس في بيعه وشرائه بالأيمان الكاذبة ليكسب بها، فهو **(لا يشتري)** شيئًا **(إلا بيمينه، ولا يبيع)** أي: شيئًا **(إلا بيمينه)**.

وهذا لا يكون إلا من ضعف الإيمان واليقين، وقوة الجهل بعظمة الله تعالى وكبريائه جل وعلا، وذلك قدح في التوحيد واستهانة برب العبيد، فحقيق بالمسلم أن يتحاشى من الاستعانة[3] باليمين حتى في الحق، وأن يتحقق قدر المقسم به تبارك وتعالى، ويعلم أن الأغراض الدنيوية أخس من أن يفزع فيها إلى الحلف بالله تعالى، فإنه إذا قال: والله إنه لكذا، تقديره أن ذلك حق كما أن وجود الله المحلوف به حق، وهذا الكلام يتحاشى منه من في قلبه قدر حبة خردل من تعظيم الله سبحانه،

= للزمخشري (٣/ ٣٩).

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر (٤/ ٢٠٢٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٧٦)، وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٤٨٦)، وغيرهم.

(٢) أخرجها أبو داود في اللباس، باب في الكبر (٤/ ٥٨)، وأحمد في المسند (٢/ ٤١٤)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٥).

(٣) كذا في الأصل، ولعلها (الاستهانة).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] الآية، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

(رواه الطبراني[١] بسند صحيح).

ورواه البيهقي في شعب الإيمان[٢]، وقال الهيثمي بعد ما عزاه لمعاجم الطبراني الثلاثة: ورجاله رجال الصحيح[٣].

وعند الطبراني في الكبير عن عصمة بن مالك[٤] رضي الله عنه مرفوعًا: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم غدًا: شيخ زان، ورجل اتخذ الأيمان بضاعة يحلف في كل حق وباطل، وفقير مختال مزهو»[٥].

(وفي الصحيح) للبخاري **(عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: خير أمتي)** هكذا في خط الشيخ بيده، «خير أمتي» وهو في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم، وفي بعض نسخ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٣٠١)، والصغير (٢/ ٨٣)، والأوسط (٥/ ٣٦٧)، وفي الترغيب والترهيب للمنذري (٢/ ٥٨٧) قال: رواته محتج بهم في الصحيح.
وقال الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٨٩): صحيح.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٢٠).

(٣) مجمع الزوائد، الهيثمي (٤/ ٧٨).

(٤) الأنصاري الخطمي له صحبة، روى له الدارقطني والطبراني.
انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ١٣٧)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٤٧٥).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٨٤)، من طريق الفضل بن المختار عن عبدالله بن موهب عن عصمة به، قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٨): رواه الطبراني في الكبير بإسناد ضعيف.
وقال الحافظ في الإصابة (٢/ ٤٧٥) في ترجمة عصمة: له أحاديث أخرجها الدارقطني والطبراني وغيرهما مدارها على الفضل بن المختار وهو ضعيف جدًا.

التوحيد بغير خط الشيخ: «خير القرون (قرني») أي: عصري، من الأقران في الأمر الذي يجمعهم، يعني أصحابي، ومن رآني أو من كان حيا في عهدي متابعًا لي[1].

قال بعضهم: قرن الإنسان جيله الذي هو فيه، وهو كل طبقة يقترنون في وقت يسمى قرنًا، لأنه يقرن أمة بأمة وعالمًا بعالم، مصدر قرنت، جعل اسمًا للوقت أو لأهله، ومن هذا كقول كعب بن مالك رضي الله عنه يمدح الأنصار:

إذا مــر قــرن كفــا نسلــه ويــورثــه بعــده آخــرينــا

وفي مقداره أقوال: قيل ثمانون، وقيل سبعون، قال الزجاج: الذي عندي أن القرن كل مدة كان فيها نبي أو طبقة من أهل العلم سواء قلت السنون أو كثرت، وقيل: إن مدة قرنه ﷺ من البعثة نحو مائة وعشرين سنة[2].

وقال الزمخشري: القرن الأمة من الناس، سميت قرنًا لتقدمها على الأمة التي بعدها[3].

(ثم الذين يلونهم) أي: يقربون منهم وهم التابعون، قال بعض العلماء: وهم من نحو مائة إلى التسعين[4]، **(ثم الذين يلونهم)** أتباع التابعين وهم إلى حدود العشرين ومائتين[5]، ثم ظهرت البدع بحيث فشت وفاحل

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٥).

(٢) فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٦).

(٣) الفائق في غريب الحديث (٣/ ١٨٠)، أساس البلاغة، كلاهما للزمخشري (ص ٥٠٤).

(٤) فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٦).

(٥) المصدر السابق.

بها أهلها، وأطلقت المعتزلة [ك،١٨٤/ب] ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتُحن أهل العلم بخلق القرآن، وعظم البلاء، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن، وهذا من معجزات رسوله ﷺ.

(قال عمران) بن حصين رضي الله عنه: **(فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا)**.

قد اتفق الشيخان على ثلاثة القرون في حديث عمران من غير هذا الوجه[(١)]، وكذا عند الترمذي والحاكم عنه ولفظهما: خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمنون، أو يحبون السمن[(٢)]، وفي لفظ «السمانة»[(٣)] يعطون الشهادة قبل أن يسألوها. **(ثم إن بعدكم)** أي: بعد الثلاثة **(قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون)**[(٤)].

هذا موافق لخبر: شر الشهود من شهد قبل أن يستشهد[(٥)].

وهذا الذمّ لاحقٌ لمن عنده شهادة يعلمها صاحب الحق فيشهد بها قبل طلبه لها، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا يعجبكم من

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢/ ٩٣٨)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٤/ ١٩٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في القرن الثالث (٤/ ٥٠٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٣٥)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم (٤/ ١٩٦٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٢٨) كلاهما من حديث أبي هريرة.

(٤) مضى تخريجه.

(٥) مضى تخريجه.

الرجل طنطنته، ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل.

رواه ابن المبارك والبيهقي[١].

وعند عبدالرزاق وابن أبي شيبة ورسته والخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي عنه أيضًا رضي الله عنه قال: لا يغرنك صلاة الرجل ولا صيامه، من شاء صام ومن شاء صلى، ولكن لا دين لمن لا أمانة له[٢].

وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه، ولكن انظروا إلى من إذا حدث صدق، وإذا أؤتمن أدى، وإذا أشفى ورع[٣].

رواه مالك في الموطأ، وابن المبارك وعبد الرزاق ومسدد ورسته والبيهقي، وأما من عنده شهادة لا يعلمها صاحب الحق، فيريد أن يؤديها لأنها بمنزلة الحق الواجب قبل طلبها، فذاك خير الشهود لأدائه الأمانة.

(وينذرون) بضم الذال المعجمة وكسرها، **(ولا يوفون)** بنذورهم، وقد مدح الله تعالى في كتابه العزيز الموفين بالنذر، ومن لوازم ترك الممدوح الذم **(ويظهر فيهم السمن)**[٤]. يعني أنهم يحبون التوسع في المأكل والمشرب،

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص ٢٤٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١١/ ١٥٧) عن الحسن مرفوعًا، وإسناده مرسل، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٦٠) من طريق هشام بن عروة عن أبيه موقوفًا، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٢٦) من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وقال: والمحفوظ عن هشام بن عروة عن أبيه قال قال عمر بن الخطاب به.

(٣) أخرجه عبدالله بن المبارك في الزهد (ص ٣٥٧)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٢٨٨)، وشعب الإيمان (٤/ ٣٢٧)، ولم أعثر عليه في الموطأ.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ومن صحب النبي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه (٣/ ١٣٣٥)، ومسلم في فضائل =

وهي أسباب السمن، أو يتعاطون التسمين، أو يتكثرون بما ليس فيهم، ويدّعون بما ليس لهم من الشرف.

وظاهر الخبر أن صحبه ﷺ ورضوان الله عليهم أفضل من جميع من جاء بعدهم، وعلى ذلك كثير من أهل العلم، لكن ذهب جمع منهم ابن عبدالبر أنه يمكن أن يكون فيمن بعدهم أفضل من بعضهم[١]، للخبر الحسن بل قيل الصحيح: مثل أمتي مثل المطر الذي لا يُدرى آخره خير أم أوله.

رواه الترمذي عن أنس[٢]، وابن حبان عن عمار بن ياسر[٣]، وأبو يعلى الموصلي من رواية يوسف الصفار عن ثابت عن أنس مرفوعًا[٤].

قال النووي: ويوسف ضعيف باتفاق المحدثين، كثير الوهم منكر الحديث[٥]، ورواه البزار عن عمران بن حصين بسند حسن وقال: لا يروى

= الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٤/ ١٩٦٤) واللفظ له، وغيرهم.

(١) فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٦).

(٢) أخرجه الترمذي في الأمثال، باب رقم (٦) (٥/ ١٥٢) وقال: حسن غريب من هذا الوجه وأحمد في المسند (٣/ ١٣٠)، والطيالسي في مسنده (ص ٢٧٠)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٣٨٠)، كلهم من طرق عن أنس به، قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦): هو حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٢٠٩)، وأحمد في المسند (٤/ ٣١٩)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٦٨) وقال: رواه أحمد، والبزار، والطبراني، ورجال البزار رجال الصحيح غير الحسن بن قزعة وعبيد بن سليمان الأغر وهما ثقتان.

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/ ٣٨٠) من طريق يوسف بن عطية الصفار، قال الحافظ في التقريب (ص ٦١١): متروك.

(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٦).

عن النبي ﷺ بإسناد أحسن من هذا[1]، ورواه أيضًا الطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنه[2]، فأقل أحواله أن يكون حسنًا كما قال ابن عبدالبر[3]، وأما النووي فضعفه[4].

ويبعد القطع بأفضلية أعرابي جلف لم يحصل له إلا مجرد الرؤية، ولم يخالط علماء الصحابة رضي الله عنهم على مثل الأئمة الأربعة والسفيانين والبخاري ومسلم وأضرابهم.

قال ابن حجر: والذي يظهر أن من قاتل مع النبي ﷺ، أو في زمنه بأمره أو أنفق شيئًا من ماله بسببه، لا يعدله في الفضل أحد بعده كائنًا من كان، وأما من لم يقع له ذلك فهو محل البحث، ومن وقف على سير القرن الأول علم أن ثناءهم لا يلحق[5].

قال الحسن البصري المجمع على جلالته وإمامته: لقد أدركنا أقوامًا ـ يعني من الصحابة رضي الله عنهم أهل القرن الأول ـ كنا في جنبهم لصوصًا، وقال أدركنا الناس وهم ينامون مع نسائهم على وسادة واحدة، عشرين سنة يبكون حتى تبتل الوسادة من دموعهم لا يشعر عيالهم بذلك[6].

---

(١) عبارة الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٦).

(٤) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٦): أغرب النووي فعزاه في فتاويه إلى أبي يعلى من حديث أنس بإسناد ضعيف، مع أنه عند الترمذي بإسناد أقوى منه من حديث أنس، وصححه ابن حبان من حديث عمار.

(٥) فتح الباري، ابن حجر (٧/ ٦).

(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٤٥) من قول محمد بن واسع.

وقال: ذهبت المعارف وبقيت، ومن بقي اليوم من المسلمين فهو مغموم، وكان ينشد كثيرًا:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميْت ميّت الأحياء[1]

وقال الربيع بن خيثم[2]: لو رأونا أصحاب محمد ﷺ لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب.

فهم خير القرون، فليس لك فضيلة ولا خصلة رفيعة إلا وأصحاب رسول الله ﷺ إليها أسبق، وبها أحق، فهي فرقة لا تُدانى ولا تلحق، وأما من ظن أن ذلك لسبقهم في الزمان فقد أخطأ، فإنما سبقوا في الفضائل حين سبقوا، أوَلا ترى أن زمانهم آخر الأزمنة وهم خير أمة، فليس للزمان في ذلك حظ، والذي جاء بعدهم ليس هو أحظ منهم لما فاته من مرتبتهم، وكذلك الدين يضعف حتى يذهب، ويحول حتى يزول.

وعُلم من ذلك أن كل قول أُحدث بعد القرون المفضلة مخالفٍ لما هم عليه غيرُ مقبول، لأن صاحبه ليس له منهم سلف، فهو إذًا مبتدع خارج بذلك عن السلف الذين هم على الصراط المستقيم، بنص أصدق القائلين محمد سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام إلى يوم الدين.

وعند الإمام أحمد والشيخين والترمذي والنسائي وابن ماجه **(عن)** عبدالله **(بن مسعود: أن النبي ﷺ قال: خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم)** وفي لفظ «أقوام» جمع قوم، **(تسبق**

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٣/ ٢٢٠)، وابن أبي عاصم في الزهد (٢/ ٢٨٠)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٦٤).

(٢) الثوري، أبو يزيد الكوفي، ثقة عابد، أحد الأعلام، ومن عقلاء الرجال، مخضرم أدرك زمن النبي ﷺ وأرسل عنه، توفي سنة ٦٣هـ. وبعضهم يضبط اسم أبيه: «ختيم». انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٢٥٨)، الحلية، أبو نعيم (٢/ ١٠٥).

شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته). أي: في حالتين لا في حالة واحدة لأنه دور.

قال البيضاوي والكرماني: هم قوم حراص على الشهادة، مشغوفون بترويجها، يحلفون على ما يشهدون به تارة، ويحلفون قبل أن يشهدوا تارة، وفي مثل هذا قالت الحكماء: العاقل إذا تكلم أتبع كلامه ندمًا، والأحمق إذا تكلم أتبع كلامه حلفًا، وعلامة الكاذب جودة يمينه كما قال الشاعر: [ك،١٨٤/أ]

وفي اليمين على ما أنت واعده ... ما دل أنك في الميعاد متهم

واحتج بهذا من رد شهادة من حلف معها، والجمهور على خلاف ذلك، والحديث يقتضي أن كلا من القرون الثلاثة أفضل مما بعده، لكن هل الأفضلية بالنظر للأفراد أو المجموع، فيه خلاف كما تقدم، أخرج هذا الحديث الترمذي، والنسائي في الشروط، وابن ماجه في الأحكام[١]، وقال فيه السيوطي: يشبه أن يكون الحديث يعني الوارد في التفضيل متواترًا.

(قال إبراهيم[٢]: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار)[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢/ ٩٣٨)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٤/ ١٩٦٣)، والترمذي في المناقب، باب ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه (٥/ ٦٩٥)، وقال حسن صحيح، وابن ماجه في الأحكام، باب كراهية الشهادة لمن لم يستشهد (٢/ ٧٩١)، وأحمد في المسند (١/ ٣٧٨)، وغيرهم.

(٢) مضت ترجمته ص ١١٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد (٢/ =

وروي معنى ذلك عن جابر رضي الله عنه، فينبغي أن يلزم الإنسان صبيانه بالفطرة، وأن يحرص أشد الحرص على كفهم عما يغيرها من الألفاظ القبيحة، كما يحرص على تمرينهم على إصلاح دنياهم لأنه كما قيل: وكل امرىء جار على ما تعودا، ومن قوله ﷺ للحسن لما أخذ تمرة من الصدقة: «كخ كخ اطرحها»[١]، وفي لفظ في الصحيحين «فأخرجها من فيه»[٢]، وزاد أبو مسلم الكجي[٣] «فلم يفطن له النبي ﷺ حتى قام ولعابه يسيل فضربه النبي ﷺ لشدقه» وقال ما تقدم، ثم قال له: «أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة»[٤].

وقد أمر ﷺ أن يضرب ابن العشر من الصبيان على ترك الصلاة[٥]، وهي غير واجبة عليه، وإنما هو تمرين له على فعل الطاعة، ولئلا يعتاد

= ٩٣٨)، وانظر بقية التخريج في التخريج السابق للحديث.

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي (٢/ ٥٤٢) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله (٢/ ٧٥١)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل وهل يترك الصبي فيمس تمر الصدقة (٢/ ٥٤١)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٧٩) كلاهما من حديث أبي هريرة.

(٣) هو إبراهيم بن عبدالله بن مسلم، البصري الكجي، صاحب السنن، من نبلاء المحدثين، توفي ببغداد سنة ٢٩٢هـ.
انظر: تاريخ بغداد، الخطيب (٦/ ١٢٠)، المنتظم، ابن الجوزي (٦/ ٥٠).

(٤) من رواية أبي مسلم الكجي ذكرها الحافظ في الفتح (٣/ ٣٥٥).

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة (١/ ١٣٠)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأحمد في المسند (٢/ ١٨٠)، والدارقطني في سننه (١/ ٢٣٠)، والحاكم في مستدركه (١/ ٣١١)، والبيهقي في سننه (٢/ ٢٢٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١/ ٩٧).

ترك الصلاة وهو معصية في حق المكلف.

وقد قال ابن الجوزي يرحمه الله تعالى: المنكر أعم من المعصية وهو أن يكون محذور الوقوع في الشر، فمن رأى صبيًا أو مجنونًا يشرب الخمر فعليه أن يريقه ويمنعه، وكذلك عليه أن يمنعه من الزنا، انتهى.

وقال المروذي لأحمد في الطنبور الصغير يكون مع الصبي قال: يكسره، وقال: إذا كان مكشوفًا فاكسره[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الكلام على حديث ابن عمر رضي الله عنه في سماع زمارة الراعي[(٢)]، قال: لم يعلم أن الرقيق كان بالغًا، ولعله كان صغيرًا دون البلوغ، والصبيان يرخص لهم من اللعب ما لا يرخص فيه للبالغ[(٣)]. كما ذكر الله سبحانه عن إخوة يوسف لأبيهم يعقوب عليه وعلى أبويه الصلاة والسلام في قصة يوسف ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: ١٢]، وكما في لعب عائشة باللعب[(٤)]،

---

(١) انظر: مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبدالله (٣/ ١٠٠٤)، إغاثة اللهفان، ابن القيم (١/ ٢٣٠)، الفروع، ابن مفلح (٤/ ٥٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كراهية الغناء والزمر (٤/ ٢٨٣) عن نافع قال: سمع ابن عمر مزمارًا، قال: فوضع أصبعيه على أذنيه، ونأى عن الطريق وقال لي: يا نافع هل تسمع شيئًا؟ قال: قلت: لا، قال: فرفع أصبعيه من أذنيه وقال: كنت مع النبي ﷺ فسمع مثل هذا فصنع مثل هذا.

وأخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٨)، وابن أبي الدنيا في الورع (ص ٦٩)، والطبراني في الأوسط (٢/ ١٠١)، والصغير (١/ ٢٩)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٦٨)، قال الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٩٣٠): صحيح.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٠/ ٢١٤).

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب الانبساط إلى الناس (٥/ ٢٢٧٠) من حديث =

والحسن والحسين رضي الله عنهم، وفي ذلك أحاديث صحيحة صريحة تركنا ذكرها عن الإطالة، والله أعلم.

= عائشة، ومسلم في فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٤/ ١٨٩٠)، وغيرهم.

الباب الثاني والستون

باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله

وقول الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل: ٩١].

والعهد: الأمان، واليمين الموثق، والذمة، والحفاظ، ورعاية الحرمة[١] ومنه الحديث: «حسن العهد من الإيمان»[٢]. يريد الحفاظ ورعاية الحرمة[٣]، قال تميم بن مقبل[٤] يهجو بني العجلان:

قبيّلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل[٥]

---

(١) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٣/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٢) من طريق صالح بن رستم عن ابن أبي مليكة عن عائشة ضمن حديث طويل، وقال: صحيح على شرط الشيخين وليس له علة، ووافقه الذهبي.
والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥١٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٠٢).

(٣) النهاية، ابن الأثير (٣/ ٣٢٥).

(٤) العجلاني، أبو كعب، شاعر جاهلي، أدرك الإسلام وأسلم، توفي بعد ٣٧هـ. انظر: طبقات فحول الشعراء، الجمحي (١/ ١٥٠)، الإصابة، ابن حجر (١/ ١٨٩).

(٥) نسبه الحافظ في الإصابة للنجاشي وأن تميم بن مقبل هو الذي شكاه إلى عمر بن الخطاب عندما هجا النجاشي بني عجلان قوم تميم بن مقبل.
انظر تمام القصة في الإصابة (٣/ ٥٥٢).

وقال الحطيئة في العهد يمدح بني سعد تميم:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا وفّوا وإن عقدوا شدوا[1]

ومن ذلك الرعاية والتولية والوصية، وقد عهدت إليه أوصيته، قال الجوهري: ومنه اشتق العهد الذي يكتب للولاة، يكتبه مولّيه[2].

(وقوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾) [النحل: ٩١].

قال ابن الجوزي: أي قلتم عند الحلف: الله كفيل أن أفعل لك[3]. لأن الناس كثيرًا ما يحلفون بالله تعالى على هذا السبيل، وقد بين رسول الله ﷺ أن من حلف على شيء من المعاصي التي يكرهها الله تعالى، أو على شيء يكون الخيرة والصلاح له في خلافه، أنه يسع الحالفَ أن لا يفعل ما حلف عليه، بل يأتي الذي هو خير، ويكفّر عن يمينه[4]، فالذين أمرهم الله تعالى في هذه الآية بأن يوفوا بأيمانهم إنما كانوا حلفوا على أمر كان لله رضى، فروي أن الآية نزلت في معاهدتهم أن يطيعوا رسول الله ﷺ في مجاهدة المشركين ولا يخذلوه[5]، وإن كان حكمها عاما فيما يضاهي ذلك، وقيل معنى قوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾:

---

(١) ديوانه (ص ٤١).

(٢) الصحاح، الجوهري (٢/ ٥١٥).

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٤/ ٤٨٥).

(٤) لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيرًا منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها». أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب اليمين فيما لا يملك (٦/ ٢٤٥٩) ضمن حديث أبي موسى الأشعري، ومسلم في الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها (٣/ ١٢٦٩)، وغيرهم.

(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٤/ ٤٨٥)، تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٤).

أي: بالثواب والجنة عند الوفاء بالعهد. فتقديره: يا أيها الذين عاهدوا الله بمعاهدتهم رسوله وبيعتهم له، وحلفوا له بالله تعالى لينصرُنّه، لا تنقضوا عهدكم ولا تحنثوا في أيمانكم المؤكدة بذكر الله تعالى، وحالكم في هذه المعاهدة والأيمان أن جعلتم الله عليكم كفيلا، أي: تكفل الله لكم بالجنة إذا وفيتم، فيكون الخطاب للأنصار، وحكمه عاما في جميع الناس.

فقد تبين لك أن العهد غير الوعد، وأنه يكون بمعنى اليمين والأمان والذمة والحفظ والرعاية والوصية وغير ذلك، وفي حديث سيد الاستغفار: «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت»[1] فغاير بينهما، والمعنى: أنا مقيم على ما عاهدتك عليه من الإيمان بك والإقرار بوحدانيتك.

قال ابن الجوزي: قال المفسرون: العهد: الذي يجب الوفاء به الذي يحسن فعله، والوعد من العهد، وقال في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء: ٣٤] إنه عام فيما بينه وبين ربه وبين الناس، ثم قال: قال الزجاج: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: العهود والعقود متقاربة المعنى أو متفقة، فإذا قال: أعاهد الله أني أحج العام فهو نذر وعهد ويمين، وإن قال: لا أكلم زيدًا فيمين وعهد لا نذر، فالأيمان إن تضمنت معنى النذر، وهو أن يلتزم لله قربةً، لزمه الوفاء وهي عقد وعهد ومعاهدة لله؛ لأنه التزم لله ما يطلبه منه، وإن تضمنت معنى العقود التي بين الناس، وهو أن يلتزم

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب فضل الاستغفار (٥/ ٣٢٤) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، والترمذي في الدعوات، باب رقم (١٥) (٥/ ٤٦٧)، وأحمد في مسنده (٤/ ١٢٤)، وغيرهم.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٥/ ٣٤).

كل من المتعاقدين للآخر ما اتفقا عليه، فمعاقدة ومعاهدة يلزم الوفاء بها، ثم إن كان العقد لازمًا لم يجز نقضه، وإلا خيّر، ولا كفارة في ذلك لعِظَمِه[1].

ونقل عبدالله ابن الإمام أحمد عن أبيه: قال الله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] قال: العهود.

ونقل عنه أبو طالب: العهد شديد في عشرة مواضع من كتاب الله[2].

وقالوا في قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ أي: في العهود [ك،١٨٥/ب] والمواثيق قالوا هي كقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ الآية، و﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.

قالوا: والعهد يجب الوفاء به إجماعًا، حكاه الموفق وغيره، فمع اليمين أولى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن جنس العهد والعقد لفظ الذمة، وقولهم هذا في ذمة فلان أصله من هذا، أي فيما لزمه بعهده وعقده.

وعند الإمام أحمد وابن حبان بسند صحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[3].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٩/ ١٣٨)، (٣٣/ ٣٨).

(٢) انظر: المغني، ابن قدامة (١٣/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٣٥)، من طريق أبي هلال محمد بن سليم الراسبي ثنا قتادة عن أنس به، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٣٦١)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص ٩١)، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ٢٤٦)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٢٢)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٥١)، والبيهقي في سننه (٦/ ٢٨٨)، =

قال أبو الوفاء في الفنون: الذمم هي العهود والأمانات، وفي «الواضح»: ومنه أهل الذمة، وذمة فلان.

(**وعن بريدة بن الحُصيب**) مصغرًا هو أبو سهل الأسلمي صحابي أسلم قبل بدر، ويُروى أيامَ الهجرة[1]، (**قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية**).

قال أبو السعادات: السرية قطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة، تبعث إلى العدو، وجمعها سرايا، سموا بذلك لأنهم خلاصة [العسكر][2] وخيارهم، من الشيء السري النفيس، [وقيل سُمّوا بذلك لأنهم][3] ينفذون سرا وخفية[4]، وقيل لأنها تسري بالليل، فعيلة بمعنى فاعلة.

وعند الترمذي وحسّنه عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعًا: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف».

قال ابن القطان: هذا الحديث يروى مسندًا ومرسلاً ومعضلاً، ولكن

= كلهم من طرق عن أنس بن مالك، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٩٦) وقال: رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، والطبراني في الأوسط، وفيه أبو هلال، وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره. وقد تابع أبا هلال حماد بن سلمة عند ابن حبان وسنان بن سعد الكندي عند ابن خزيمة. ومثل أبي هلال لا يحتاج إلى متابع قال عنه الحافظ في التقريب (ص ٤٨١): صدوق فيه لين، ونقل المناوي في فيض القدير (٦/ ٣٨١) عن الذهبي قوله: سنده قوي.

(١) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ١٧٧)، الإصابة، ابن حجر (١/ ١٥٠).

(٢) في الأصل: (النفيس)، وهو سبق قلم، والمثبت من النهاية.

(٣) ساقط في الأصل، واستدركناه من النهاية.

(٤) النهاية، ابن الأثير (٣/ ٣٦٣)، وفيه موضع (قطعة): طائفة.

ليس هذا بعلة، والأقرب صحته، وذكر الترمذي مع تحسينه له أنه غريب[(١)].

(أوصاه) أي: الأمير (**في خاصته**) خاصة الرجل الذي يختص بخدمته وصحبته، فهم أولى بأن يوصى فيهم (**بتقوى الله**) تعالى، فإن التقوى هي إيجاد الوقاية بالعبادة، وهي التوحيد بالقلب، وإفراد الله تعالى بالقصد، والاستسلام للحكم، والاعتراف بالتبرؤ[(٢)].

وقال بعضهم: الوقاية هي التجرد عن المحظور، والتجلد في أداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتجافي عن منازل الكسل والاستهانة (و) كذا (**من معه من المسلمين**) بأن يستوصي بهم (**خيرا، فقال: اغزوا باسم الله**) أرشدهم بهذا إلى الاستعانة بالله تعالى، وقد تكون الباء في هذا للمصاحبة، ولهذا قال: (**في سبيل الله**) وفي هذا إرشاد لهم أيضًا على استصحاب النية لئلا تخرج عن ذلك، فإن العوارض لها كثير، نسأل الله الكريم الإخلاص له في جميع الأعمال والأقوال، وبهذا وصف الله المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٦].

ثم قال ﷺ: (**قاتلوا من كفر بالله**) موافقة لأمر ربه ومرسله في مخاطبته للمؤمنين بقوله: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

(١) أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في السرايا (٤/ ١٢٥) وقال: حسن غريب، وأبو داود في الجهاد. باب فيما يستحب من الجيوش والرفقاء والسرايا (٣/ ٣٧)، وأحمد في المسند (١/ ٢٩٤)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٢١٨)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٤٥٩)، وابن حبان في صحيحه (١١/ ١٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٤٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦١١) وقال: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ١٠٥): صحيح.

(٢) أراد التبرؤ من الحول والقوة إلا بالله.

ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، ولأجل قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤] أوصاهم ﷺ وخص أميرهم بالتقوى، ليكون الله معهم إذا لزموا التقوى، فمن كان الله معه فمن يحذر.

وأما اشتقاق الكفر فقال أبو عبيد القاسم بن سلام: إنما سمي الكافر كافرًا لأنه متكفر به كالمتكفر بالسلاح، وهو الذي قد ألبسه السلاح حتى غطى كل شيء منه، ولذلك غطى الكفر قلب الكافر، ولهذا قيل للّيل كافر، لأنه ألبس كل شيء ظلمته، قال لبيد يذكر الشمس إذا غربت:

حتى إذا ألقتْ يدًا في كافرٍ وأجنّ عوراتِ الثغورِ ظلامُها

وقال أيضًا:

يعلو طريقةَ متنِها متواترٌ في ليلة كفر النجومَ غمامُها[1]

المعنى: أنه يعلو طريقة متن هذه البقرة مطر متتابع في ليلة مظلمة، وقد غطى السحاب فيها النجوم.

قال أبو عبيد: ويقال في الكافر سمي بذلك للجحود كما قال: كافرني فلان حقي إذا جحده، انتهى[2].

فلما أمرهم ﷺ بما هو سبب نصرهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، نهاهم عما هو سبب كسرهم وخذلانهم وهوانهم في الدنيا والآخرة، فقال: **(اغزوا ولا تغلّوا)** الغلول في هذا الموضع: الخيانة في المغنم.

---

(١) غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام (١/ ٣٨٢).

(٢) غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام (١/ ٣٨٣).

(**ولا تغدروا**) بمن أعطيتموه عهدًا وميثاقًا بالله تعالى أو ذمته منكم؛ لأن ذمة المسلمين يسعى بها أدناهم.

(**ولا تمثلوا**) بالقتلى، إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، ولأن التمثيل بهم يدعوهم إلى فعله بالمسلمين.

(**ولا تقتلوا وليدًا**) وهو الذي لم يُنبت، جمعه ولدان، ثم عدل ﷺ إلى مخاطبة الوالي بما يخصه، إذ هو من ناموسه فلا يفتات عليه به إلا بأمره فقال: (**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال**) والمعنى واحد، (**فأيتهن ما**) «ما» هنا صلة، (**أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم**).

الظاهر أن هؤلاء المطلوب منهم ثلاث الخصال أهل الكتاب، أو ملحقون بهم كالمجوس، فإن مشركي العرب لا تؤخذ منهم الجزية إلا نصارى بني تغلب تبعًا لدينهم، [ثم][1] (**ادعهم إلى الإسلام**) الذي رضيه الله لعباده في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥] الآية، وهو الذي دعت إليه الرسل أممهم قبله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وهذا يدل على أن الدعوة واجبة لقيام الحجة.

وعند الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت [ك،١٨٥/أ] به، إلا كان من أهل النار»[2].

---

(١) ليست في الأصل ولا المسودة، وهي في نص الحديث في المصادر.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع =

قال في شرح مسلم: خص اليهود والنصارى للتنبيه، لأن لهم كتابًا، قال: وفي مفهومه أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، قال: وهذا جار على ما تقرر في الأصول: لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح[1].

قال القاضي أبو يعلى في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]: في هذا دليل على أن معرفة الله لا تجب عقلاً، وإنما تجب بالشرع وبعثة الرسل، وأنه لو مات الإنسان قبل ذلك لم يقطع عليه بالنار. قال: وقيل معناه أنه لا يعذب فيما طريقه السمع إلا بقيام حجة السمع من جهة الرسول، ولهذا قالوا: لو أسلم بعض أهل الحرب في دار الحرب ولم يسمع بالصلاة والزكاة ونحوها لم يلزمه قضاء شيء منها، لأنها لا تلزمه إلا بعد قيام حجة السمع. والأصل فيه قصة أهل قباء حين استداروا إلى الكعبة ولم يستأنفوا، ولو أسلم في دار الإسلام ولم يعلم بفرض الصلاة قالوا: عليه القضاء، لأنه قد رأى الناس يصلون في المساجد بأذان وإقامة، وذلك دعاء إليها، ذكر ذلك ابن الجوزي ولم يزد عليه[2].

قال صاحب الفروع: فدل ذلك على موافقته، وقد ذكرنا ذلك، قال والمشهور في أصول الدين عن أصحابنا أن معرفة الله وجبت شرعًا، نص عليه الإمام أحمد، وقيل عقلاً.

= الناس ونسخ الملل بملته (١/ ١٣٤)، وأحمد في مسنده (٢/ ٣١٧)، وهمام في صحيفته (ص ٥٢)، وغيرهم.

(١) شرح صحيح مسلم، النووي (٢/ ١٨٨).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٥/ ١٨).

قال: وهي أول واجب لنفسه، ويجب قبلها النظر لتوقفها عليه، فهي أول واجب لغيره، ولا يقعان ضرورة، وقيل بلى[1].

وقد مر الكلام على أول واجب في هذا الشرح ولله الحمد والمنة[2]، ومر أيضًا الكلام في الإسلام والإيمان بما فيه كفاية من كلام السلف رضي الله عنهم.

(فإن أجابوك) أي: لذلك، **(فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم)** التي هي دار الكفر، **(إلى دار المهاجرين)** الذين هاجروا لإظهار دينهم ونصرة نبيهم ﷺ، في دار المنعة التي هي دار الإسلام التي لا يقدرون على ذلك إلا فيها، فكانت الهجرة لأجل ذلك واجبة إليها.

قال في الفروع: ومن عجز عن إظهار دينه بدار حرب يغلب فيها حكم الكفر، زاد بعضهم أو بلد بغاة، أو بدعة كرفض واعتزال وأطاق

---

(١) الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٨٦).

(٢) تقدم معنا في التعليق على كلام ابن مفلح نفسه أن أول واجب على المكلف هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله كما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن فقال له: إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات... وفي رواية: «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوك لذلك...».

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٢٩)، ومسلم في صحيحه (١/ ٥٠).

والأدلة من الكتاب والسنة واضحة بأن الله سبحانه لم يأمر أحدًا ـ وكذلك رسول الله ﷺ ـ من الخلق إلى النظر ابتداء ولا إلى مجرد إثبات الصانع، بل أول ما دعاهم إليه الشهادتان، وبذلك أمر الصحابة، وهذا هو الحق الذي عليه السلف والأئمة من بعدهم.

الهجرة لزمته[1]، وهذا إذا لم يقدر على إظهار دينه وتوابعه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلا فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: قد يكون مقام الرجل في أرض الكفر والفسق من أنواع البدع والفجور أفضل، إذا كان مجاهدًا في سبيل الله بيده أو لسانه، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، بحيث لو انتقل عنها إلى أرض الإيمان والطاعة لقلت حسناته وإن كان أروح قلبًا[2].

قال: وكذلك إذا عَدم الخيرَ الذي كان يفعله في أماكن الفجور والبدع، ولهذا كان المقام في الثغور بنية المرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة في المساجد الثلاثة باتفاق العلماء[3].

قلت: ومفهوم هذا الحديث يدل على ذلك بل وظاهره، قال الشيخ: وهكذا لو كان عاجزًا عن الهجرة والانتقال إلى المكان الأفضل التي لو انتقل إليها[4] لكانت الطاعة عليه أهون، وطاعة الله ورسوله في الموضعين واحدة، لكنها هناك أشق عليه، فإنه إذا استوت الطاعتان فأشقهما أفضلهما، وبهذا ناظر مهاجرة الحبشة المقيمون بين الكفار لمن زعم أنه أفضل منهم، فقالوا: كنا عند البغضاء البعداء، وأنتم عند رسول الله ﷺ يعلّم جاهلكم، ويطعم جائعكم، وذلك في ذات الله سبحانه[5].

إلى أن قال: ومنذ أقام الله حجته على أهل الأرض بخاتم رسله

---

(١) الفروع، ابن مفلح (٦/ ١٩٧).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٧/ ٤٠).

(٣) المصدر السابق.

(٤) كذا في الأصل وفي مجموع الفتاوى، ولا أدري إن كان يصح تأنيث المكان، فلينظر.

(٥) المصدر السابق.

محمد عبده ورسولهﷺ، وجب على أهل الأرض الإيمان به وطاعته واتباع شرعته ومنهاجه، فأفضل الخلق أعلمهم وأتبعهم لما جاء به علمًا وحالاً وقولاً وعملاً، وهم أتقى الخلق، وأي مكان وعمل كان أعون للشخص على هذا المقصود كان أفضل في حقه، وإن كان الأفضل في حق غيره شيئًا آخر، فالعبرة بفضل الإنسان في إيمانه وعمله الصالح والكلم الطيب[1].

وكلام شيخ الإسلام هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، ومن تأمله حق التأمل خرج من الجهل وشُبَهِ أهله الذين لا يعلمون مدارك الكتاب والسنة، والله تعالى الموفق.

ولهذا قال: (**وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك**) أي: هاجروا فتمكنوا من أداء ما وجب عليهم، من أداء الفرائض ونصرة الرسول ﷺ وجهاد عدو الله وعدوهم، (**فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين**) أقام الظاهر مقام المضمر زيادة توضيح، (**فإن أبوا أن يتحولوا منها**) أي: من دارهم فقد لزموا دارًا لا يمكنهم فيها التمكن من أداء ما افترض عليهم، من أداء الفرائض والنصرة وجهاد العدو، فحيث أَبَو ذلك (**أخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين**) وهذا دليل أن القروي لا يطلق عليه اسم المهاجرين حقيقة حتى يفعل ما وجب عليه، ويهجر ما نهى الله عنه، ومنه الحديث الصحيح: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٦).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١/ ١٣) من حديث عبدالله بن عمرو، والنسائي في الإيمان وشرائعه، باب صفة المسلم (٨/ ١٠٥)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٣)و وغيرهم.

ولهذا قال ﷺ: (**فأخبرهم**) أي: حيث لم يتمكنوا من ذلك (**أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله**) في دارهم (**الذي يجري على المؤمنين**) فشبه ﷺ من أبى أن يتحول إلى دار المكنة بالأعراب لنقص إيمانهم، حيث قصر الله جملة الأعراب عن وصفهم بمطلق الإيمان في قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وإن كان منهم من قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٩٩]، فالآية خرجت مخرج الغالب، فقال النبي ﷺ ذلك لتخلفهم عما يحصل لهم بفعله الإيمان المطلق، فلما كان مسمى [ك،١٨٦/ب] الإسلام أوسع من مسمى مطلق الإيمان شبههم بالأعراب، وأضاف الأعراب إلى المسلمين بحيث أن المضاف داخل في مسمى المضاف إليه في الجملة، وقصر مطلق الإيمان على المهاجرين فقال: (يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين) يعني المتمكنين من أداء ما افترض عليهم من الفرائض ونصرة الرسول ﷺ وجهاد العدو، فإن هؤلاء هم المتصفون بالإيمان المطلق، وكذا من دخل فيما دخلوا فيه وفعل فعلهم، ومن أبى عن ذلك مع إجابته للإسلام فحكمه حكم الأعراب، لكن لابد أن يغلب على بلادهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين في بلادهم، بلاد المكنة فيستسلموا لحكم الله في بلادهم.

(**ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء**) لأن الغنيمة لمن شهد الوقعة، ولم يكونوا، والفيء لمن أَوجف عليه الخيل والركاب فتُرك مخافة ذلك، ولم يكن منهم شيء من ذلك، فليس لهم في ذلك حق.

(**إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**) لما كان مسمى الإسلام أوسع من مسمى مطلق الإيمان، وأنه إذا أفرد الإسلام دخل فيه الإيمان قطعًا،

أفرده هنا؛ لعمومه لمن يجاهد مع رسول الله ﷺ من الأعراب، (**فإن هم أبوا**) عن الدخول في الإسلام، (**فاسألهم**) أن يعطوا (**الجزية**) عن يد وهم صاغرون، (**فإن هم أجابوك**) أي: لإعطاء الجزية (**فاقبل منهم**) ذلك، (وكف عنهم. **فإن هم أبوا**) أن يعطوكها (**فاستعن بالله**) عليهم واتخذه ناصرًا، ولا تتكل على قوتك وكثرتك، فإن العبد بالله لا بعدّته وعدده، وإنما ذلك سبب وطاعة لله تعالى، ثم قال: (**وقاتلهم**) أي: على كفرهم ممتثلاً لأمر الله ورسوله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون إن لم يقبلوا الإسلام، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] الآية، وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال مخاطبًا لأوليائه المؤمنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٥- ٢٦] الآية، والآيات في هذا كثيرة جدا، فمن دخل على الله تعالى من باب الطاعة والاستعانة نصره وإن قل جنده.

(**وإذا حاصرت أهل حصن**) من حصون أعدائك أهل الكتاب، إذ لا حصون لغيرهم من المشركين، مع أن الحكم في هذا عام كالجزية وعقد الذمة عليها، فإنه لا يجوز أن يقَر بها عبدة الأوثان على عبادة أوثانهم، ومعاذ الله أن يقول بهذا أحد، أو أنه نقل عن واحد من السلف، بأن يمكّن عابد وثن من عبادته، أو من عمل صنم بجزية، إلا أهل الكتاب أو المجوس، فمن جوّز الشرع أخذ الجزية منهم وإقرارهم على دينهم على الشروط العمرية المعلومة[1] (**فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه**)

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة، ابن القيم (٣/ ١١٥٩).

محمد ﷺ، (**فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه**) الذمة في اللغة: العهد والميثاق، وشرعًا وصف يصير به المكلف أهلاً للإلزام والالتزام، ولهذا لو اشترى في ذمته من آخر صح: وإنما يملك الحق الثابت فيها.

وقال أبو [عبيد][1]: الذمة الأمان في قوله: «يسعى بذمتهم أدناهم»[2] والذمة الضمان والعهد أيضًا[3]، والأمان ضد الخوف، ولما كان إخفار ذمة الله وذمة نبيه ﷺ أعظم خطرًا من إخفار ذمة غيرهما، أرشد أمته ﷺ تجنب الخطر العظيم فقال: (**ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك**) ثم بين العلة في ذلك فقال: (**إنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم**) والخفر النقص للعهد، (**أهون**) عليكم عقوبةً في الدنيا والآخرة (**من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**) ففي هذا توقي أعظم الخطرين بأدناهما خطرًا.

وعند الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يتبعنكم الله بشيء من ذمته»[4].

---

(١) في الأصل: عبيدة، وهو خطأ، لأن الكلام للقاسم بن سلام في غريب الحديث، وكنيته أبو عبيد، أما «أبوعبيدة» فهي كنية معمر بن المثنى صاحب مجاز القرآن.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر (٣/ ٨١) من حديث عبدالله بن عمرو، وابن ماجه في الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم (٢/ ٨٩٥)، وأحمد في المسند، حديث رقم (٦٧٩٧) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وابن الجارود في المنتقى (ص ٢٦٩)، والبيهقي في سننه (٨/ ٢٩).

(٣) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٢٦٣).

(٤) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء من صلى الصبح فهو في ذمة الله (٤/ ٤٦٥)، وقال حسن غريب، وأخرجه مسلم من حديث جندب بن سفيان بلفظ حديث أبي هريرة في المساجد ومواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة (١/ ٤٥٥).

وهو عند ابن ماجه بمعناه من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وزاد «فمن قتله طلبه الله تعالى حتى يكبه في النار على وجهه»[1].

ورواه الطبراني في الكبير بمعناه عن والد أبي مالك[2] الأشجعي وابن عمر من طريقين بإسناد حسن فيهما[3].

وعند البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»[4].

(وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم منه على حكم الله تعالى، فلا تنزلهم على حكم الله) أنزل الظاهر منزلة المضمر توضيحًا

---

(١) أخرجه بن ماجه في الفتن، باب المسلمون في ذمة الله عز وجل (٢/ ١٣٠١)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٢٢٦): هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع: سعد بن إبراهيم لم يدرك حابس بن سعد، قال الحافظ في التهذيب (٢/ ١٢٦)، ورواه الطبراني في الكبير بسند صحيح. والحديث له شواهد كما سيأتي يصح بها.

(٢) هو طارق بن أشيم بن مسعود الأشجعي، صحابي له أحاديث، لم يرو عنه غير ابنه أبي مالك. انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٢١٠)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٥/ ٢).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٣٨١)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٩٧): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه الهيثم بن يمان ضعفه الأزدي وبقية رجاله رجال الصحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٨٦)، وأخرجه أحمد في المسند (٢/ ١١١) من حديث ابن عمر، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير للطبراني، وفي صحيح الجامع (٢/ ١٠٨٦) صححه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري في القبلة، باب فضل استقبال القبلة (١/ ١٥٣)، والنسائي في الإيمان، باب صفة المسلم (٨/ ١٠٥)، والبيهقي في سننه (٢/ ٣).

وتأكيدًا للنهي، (**ولكن أنزلهم على حكمك**) فانظر إلى قوله ﷺ واجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك لما كانت ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، ومن أدناهم المرأة، وقد قال ﷺ يوم الفتح لأم هاني هند بنت أبي طالب[١] رضي الله عنهما: قد أجرنا من أجرت يا أم هاني، في قصة مضى ذكرها قال مقالته هذه[٢]، وأما في الحكم فوحد الأمر إلى وليه لئلا يفتات عليه فيه فيورث الاختلاف والتنازع، فقال: (**ولكن أنزلهم على حكمك**) ولم يقل: وحكم أصحابك، إلا أن يجعل ذلك إلى رجل من أصحابه كما جعله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين حكّمه في بني قريظة[٣] ثم أرشد ﷺ إلى تعريفهم المحذور في إنزالهم على حكم الله فقال: (**فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أو لا**).

وفيه دليل أن الأحكام لا ينفذ منها باطنًا إلا ما وافق حكم الله، وأنها تنفذ ظاهرًا إذا لم تعلم مخالفتها للكتاب والسنة، وأن الاجتهاد معفو خطؤه حيث أرشدهم إلى الاجتهاد، وأنه لو أنزلهم على حكم الله كان عاصيًا مخالفًا للنهي، ولكن يجتهد عسى أن يوافق حكم الله من الكتاب والسنة، وهو في ذلك على خطر عظيم، وتوقي الخطر له حينئذ

---

(١) ابنة عم النبي ﷺ قيل اسمها فاختة وقيل فاطمة وقيل هند والأشهر الأول، عاشت بعد علي بن أبي طالب.

انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٤٧٩)، الإصابة، ابن حجر (٤/ ٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفًا به (١/ ١٤١) وهو جزء من حديث أم هاني، وأحمد في المسند (٦/ ٣٤٣)، والنسائي في الكبرى (١/ ١١٥).

(٣) قصة نزول بني قريظة على حكم سعد أخرجها البخاري في الجهاد، باب إذا نزل العدو على حكم عدو (٣/ ١١٠٧) من حديث أبي سعيد، ومسلم في الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد (٣/ ١٣٨٨)، وغيرهم.

أولى، لأنه لا يلحق السلامة شيء، وفيه أيضًا أنه لا يقال في حكم الحاكم هذا حكم الله إلا أن يكون حكمًا ظاهرًا محكمًا ناطقًا به القرآن المجيد، لا يقبل التأويل، وأنه لا يعنف بمن عمل أو حكم بما [ك،١٨٦/أ] أدى إليه اجتهاده من النص، ولهذا لما قال ﷺ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»[١]. فأخذت طائفة بظاهر الحديث، وطائفة صلت قبل أن تغرب الشمس، وقالت: لم يرد رسول الله ﷺ إخراجها عن وقتها، فما عنف أحداً من الفريقين.

وقد قال تعالى في حكم سليمان وداود في نفش الغنم الزرع: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

ولا يستحيل أن يكون الشيء صوابًا في حق إنسان، خطأ في حق غيره، إلا في من حكم في نازلة بحكمين متضادين في حق شخص واحد، هكذا وجهه جماعة من المحققين كالسهيلي وغيره والله أعلم[٢].

وقال في الفروع: وإن سألوه أن ينزلهم على حكم الله لزمه أن ينزلهم وخيّر كالأسرى، وكرهه في الواضح، ومنعه في المبهج عملاً بالحديث[٣].

(رواه مسلم)[٤] في صحيحه وقد حصل في أصل الشيخ رحمه الله

---

(١) أخرجه البخاري في صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب، راكبًا وإيماءً (١/ ٣٢١) من حديث ابن عمر، ومسلم في الجهاد، باب المبادرة في الغزو (٣/ ١٣٩١).

(٢) انظر: الروض الأنف، السهيلي (٣/ ٢٨١).

(٣) الفروع، ابن مفلح (٦/ ٢٢٠).

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب جواز الإغارة على الكفار (٣/ ١٣٥٧)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٥٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ٣٢٨).

تعالى في هذا الحديث بعض الاضطراب عند المقابلة لهذه النسخة، فأخذته من الأصل والله الموفق للهداية.



الباب الثالث والستون

باب ما جاء في الإقسام على الله تعالى

هذه الترجمة بعيدة الغور مشعة النواحي، فهي جملة تحتها تفاصيل، فإقسام الإنسان على غيره [بشيء][(١)] منه ما يكون من باب تعظيم المقسِم للمقسَم به، وهذا هو الذي جاء به الحديث الصحيح من إبرار القسم[(٢)]، وكقول الصدّيق في حديث الرؤيا: أقسمت عليك فقال ﷺ: لا تقسم[(٣)]. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، قال وفي مثل هذا قيل إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره[(٤)]. وذلك ما روى الترمذي وحسنه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: كم أشعث أغبر ذي طمرين[(٥)] لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء[(٦)] بن مالك[(٧)].

---

(١) العبارة في الأصل هكذا: فإقسام الإنسان على غيره منه مايكون بشيء من باب تعظيم. . ، والتصويب من الاقتضاء، والمؤلف ينقل منه.

(٢) يشير إلى حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الآتي.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٨٢) برقم ٦٦٣٩، ومسلم (٤/ ١٧٧٧) برقم ٦٦٣٩.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٤٢٢).

(٥) الطمر: الثوب الخلق. انظر: النهاية، ابن الأثير (٢/ ١٣٨).

(٦) الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ، من شجعان الصحابة وأبطالهم، أخو خادم رسول الله ﷺ أنس بن مالك، شهد أحدًا، من أهل الشجرة، توفي في المعركة يوم فتح تستر سنة ٢٠هـ.

انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ١٤١)، الإصابة، ابن حجر (١/ ١٤٧).

(٧) أخرجه الترمذي في المناقب، مناقب البراء بن مالك (٥/ ٦٩٢) وقال: هذا حديث =

ورواه البيهقي في دلائل النبوة[١]، ورواه أيضًا المقدسي في المختارة[٢].

وقوله: «لا يؤبه له» أي: لا يبالي ولا يلتفت إليه لحقارته، يقال: وَبَهْتُ له بفتح الباء وكسرها وَبْهاً بالسكون والفتح.

وعن أنس قال: كسرت الربيّع وهي عمة أنس بن مالك ثنيّة جارية من الأنصار فأتوا النبي ﷺ، فأمر بالقصاص. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: والله لا تكسر ثنيتها يا رسول الله، وفي رواية: «والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها فقال رسول الله ﷺ: يا أنسُ كتابُ الله القصاص، فرضي القوم وقبلوا الأرش، فقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره». متفق عليه[٣].

وفي لفظ لمسلم أن القائل والمقول له أم الربيع[٤] رضي الله عنها، والبراء بن مالك هذا رضي الله عنه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: كان إذا أقسم على الله أبر قسمه، فكان الحرب إذا اشتد[٥] على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براءُ أقسم على ربك، فيقول: يا رب أقسمت

= صحيح حسن من هذا الوجه.

(١) دلائل النبوة (٦/ ٣٦٨).

(٢) المختارة (٧/ ٢١٧).

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب والجروح قصاص (٤/ ١٦٨٥)، وأبو داود في الديات، باب القصاص من السن (٤/ ١٩٦)، والنسائي في القسامة، باب القصاص في السن (٨/ ٢٧)، وغيرهم.

(٤) أخرجه مسلم في القسامة، باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناه (٣/ ١٣٠٢)، والنسائي في القسامة، باب القصاص في السن (٨/ ٢٦)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ١٢٤٠)، وغيرهم.

(٥) كذا في الأصل، بتذكير الحرب، وهو نادر كما في اللسان (١/ ٣٠٣).

عليك لما منحتنا أكتافهم، فينهزم العدو، فلما كان يوم اليمامة[1] قال: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد، فمُنحوا أكتافهم وقُتل البراء رضي الله عنه شهيدًا. ذكره في الفرقان[2].

وكان رضي الله عنه على ما ذكر سيف بن عمر أول من اقتحم على بني حنيفة الحديقة فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين فأغلق الباب عليه وعليهم، حتى رمى بالمفتاح من وراء الحديقة واستشهد رضي الله عنه ذلك اليوم[3].

وعن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «كم أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم عمار بن ياسر». رواه ابن عساكر[4].

وفي صحيح الحاكم عن أنس رضي الله عنه أيضًا: «كم من ضعيف ذي طمرين، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك»[5].

وعند مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «رُبّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»[6].

---

(١) هذا على قول، وهناك قول آخر أنه قتل رضي الله عنه يوم فتح تستر، وهو ما رجحه خليفة بن خياط والحافظ ابن حجر.

انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ١٤١)، الإصابة، ابن حجر (١/ ١٤٧).

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية (١١/ ٢٧٧).

(٣) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ١٤٣).

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٤١١)، والطبراني في الأوسط كما في المجمع (٩/ ٢٩٤) وقال: فيه عيسى بن قرطاس وهو متروك.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٣٣١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب فضل الضعفاء والخاملين (٤/ ٢٠٢٤).

وعند الحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي عليه عن أبي هريرة أيضًا مرفوعًا: «رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبره»(١).

ورواه أبو نعيم(٢). وفي سنده له محمد بن [عزيز](٣) ضعفه النسائي وقبله غيره(٤).

وروى ابن أبي الدنيا بإسناده أن النعمان بن قوقل(٥) قال يوم أحد: اللهم إني أقسم عليك أن أقتل وأدخل الجنة، فقتل، فقال رسول الله ﷺ: «إن النعمان أقسم على الله فأبره»(٦).

وقد دعا نوح عليه الصلاة والسلام على أهل الأرض فأغرقهم الله جميعًا بدعوته.

وقد ذكر الحسن البصري: أن خُصاصًا(٧) احترقت بالبصرة في زمن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧) من طريق محمد بن عزيز ثنا سلامة بن روح ثنا عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك به، وفيه محمد بن عزيز قال فيه الحافظ في التقريب (ص ٤٩٦): فيه ضعف وقد تكلموا في صحة سماعه من عمه سلامة.

(٣) في الأصل: «زيد» وما بين معكوفتين هو الصواب.

(٤) انظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر (٩/ ٣٤٤).

(٥) الأنصاري، له صحبة، معدود في البدريين، وقصة استشهاده بأحد معروفة، وكان به عرج فأقسم على ربه أن لا تغيب الشمس حتى يطأ بعرجته في خضر الجنة.
انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٥١٩)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٥٣٤).

(٦) لم أعثر عليه في كتب ابن أبي الدنيا، وأخرجه ابن قانع في معجم الصحابة (٣/ ١٤٦).

(٧) جمع خص: وهو بيت يعمل من الخشب والقصب، سمي لما فيه من الخصاص =

أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وبقي في وسطها خُصٌّ لم يحترق، فقال أبو موسى لصاحب الخص: ما بال خصك لم يحترق؟ فقال: إني اقسمت على ربي ألا يحرقه. فقال أبو موسى: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: في أمتي رجال طُلْس[1] رؤوسهم، دُنْس ثيابهم، لو أقسموا على الله لأبرهم[2]. ذكره زين الدين ابن رجب.

قال: وكان صلة بن أشيم[3] في سرية فذهبت بغلته بثقلها وارتحل الناس، فقام يصلي وقال: اللهم إني أقسمت عليك أن ترد بغلتي وثقلها، فجاءت حتى قامت بين يديه[4].

وفي الطبراني من حديث سالم بن جعد عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن من أمتي من لو جاء أحدكم يسأله دينارًا لم يعطه، ولو سأله درهمًا لم يعطه، ولو سأله فلسًا لم يعطه، ولو سأل الله الجنّة لأعطاه إياها، ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره»[5].

ورواه غيره من حديث سالم مرسلاً.

= وهي الفرج. انظر: النهاية، ابن الأثير (٢/ ٣٧).

(١) أي مغبرو الألوان، والطلسة لون كالغبرة، ومنه قيل للذئب أطلس.
انظر: غريب الحديث، الخطابي (١/ ٤٧٥)، النهاية، ابن الأثير (٣/ ١٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء (ص ٢٢).

(٣) أبو الصهباء العدوي البصري، أحد الزهاد العباد، قتل في أحد المعارك سنة ٦٢هـ.
انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤/ ٤٩٧)، حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ٢٣٧).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٩٥)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٣٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٦٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٩٨)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٤): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: وهذا يشبه ما ذكره الفقهاء في الحلف الذي يقصد به الحظ والمنع، قال: ومن الإقسام السؤال للمسئول بما عنده من محبة المسئول به وتعظيمه ورعاية حقه، فإن ذلك ما يقتضي حصول مقصود السائل حين السؤال، كسؤال الإنسان بالرحم، ومن هذا سؤال الله بالأعمال الصالحة، وبدعاء أنبيائه وشفاعتهم، وأما مجرد الأنبياء والصالحين، ومحبة الله تعالى لهم، ورعايته لحقوقهم التي أنعم بها عليهم، فليس فيها ما [ك،١٨٧/ب] يوجب حصول مقصود السائل إلا بسبب بين السائل وبينهم، أما محبتهم وطاعتهم فيثاب على ذلك، وأما دعاؤهم له فيستجيب الله شفاعتهم فيه.

فالتوسل بالأنبياء يكون بأمرين: إما بطاعتهم واتباعهم على منهاجهم، وإما بدعائهم وشفاعتهم، أما مجرد ذواتهم من غير طاعة منه لهم، ولا شفاعة منهم له، فلا ينفعه، وإن عظم جاه أحدهم عند الله.

فالحاصل أنه لا يجوز أن يُقسَم على الله تعالى بمخلوق البتة(١).

وهذا هو الصواب عند سلف الأمة وأتباع الأئمة، قال شيخ الإسلام قدس الله روحه: وأما الإقسام على الله بنبيه ﷺ فهو مبني على جواز اليمين به، وقد قدمنا منعها، وعدم انعقادها عند الجمهور من السلف، وهو الصحيح من مذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين المقطوع بها، وأن ذلك المنع على التحريم.

قال: وقد نقل عن الإمام أحمد في التوسل بالنبي ﷺ في منسك

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٤٢٣).

المروذي ما يناسب قوله بانعقاد اليمين به، لكن الصحيح أنه لا ينعقد اليمين به، فكذلك هذا، يعني الإقسام به[1].

قال: وأما غيره فما علمت بين الأئمة فيه نزاعا، بل قد صرح العلماء بالنهي عن ذلك[2].

وقال أيضًا قدس الله روحه: وما زلت أبحث وأكشف ما أمكنني من كلام السلف والأئمة والعلماء هل جوّز أحد منهم التوسل بالصالحين في الدعاء، أو فعل ذلك أحد منهم؟ ثم وقفت على فتيا للفقيه أبي محمد ابن عبدالسلام: أفتى بأنه لا يجوز التوسل بغير النبي ﷺ، وأما بالنبي ﷺ فيجوز التوسل به لحديث الأعمى[3].

فقد جعل الشيخ ابن تيمية رحمه الله مسألة التوسل به ﷺ كمسألة اليمين به، يعني في المنع والجواز، وأما غيره من الأنبياء فلم يطرده

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٧٨١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) حديث الأعمى أخرجه الترمذي في الدعوات، باب رقم (١١٩) (٥/ ٥٦٩) عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك. قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى لي، اللهم فشفعه فيّ. وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في صلاة الحاجة (١/ ٤٤١)، وأحمد في المسند (٤/ ١٣٨)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ١٤٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٢٢٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٨): وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

أحد من العلماء، إلا ما ذكرنا عن أبي الوفاء بن عقيل في اليمين في هذا الشرح، والله الموفق(١).

قال: واتفقوا على أن الله تعالى يُسأل ويُقسم عليه بأسمائه وصفاته كما يقسم على غيره بذلك، كالأدعية المعروفة في السنن كقوله ﷺ: «اللهم أني أسألك بأن لك الحمد، أنت الله المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام»(٢).

ومنها: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، لم يكن له كفوًا أحد(٣)».

وقوله: أسألك بكل اسم هو لك(٤) الحديث.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء (٢/ ٨٠) من حديث أنس بن مالك، وابن ماجه في الدعاء، باب اسم الله الأعظم (٢/ ١٢٦٨)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٠)، والحارث في مسنده (بغية الباحث ٢/ ٩٦٠)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٥)، والطبراني في الصغير (٢/ ٢٠٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٨٣)، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه (٢/ ٣٢٩): حسن صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء (٢/ ٨٠) من حديث بريدة، والترمذي في الدعوات، باب جامع الدعوات (٥/ ٥١٥) وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الدعاء، باب اسم الله الأعظم (٢/ ١٢٦٧)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٥٠)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٧٣) وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٨٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٥٦) من حديث ابن مسعود، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣)، والحاكم في مستدركه (١/ ٦٩٠)، ونقل الحافظ في الفتح (١١/ ٢٢٠) عن ابن حبان تصحيحه، وقال الشيخ أحمد شاكر في عمله على =

فهذه الأدعية ونحوها مشروعة باتفاق العلماء، وكره أبو حنيفة رحمه الله تعالى «أسألك بمعاقد العز من عرشك»[(١)]، ورخص فيه غير واحد من السلف لمجيء الأثر فيه[(٢)]، ذكره أبو يوسف، وكذا كره «وبحق خلقك»[(٣)].

وقال أبو يوسف: بمعقد العز من عرشك هو الله فلا أكره هذا، وأكره بحق خلقك وبحق فلان، وبحق الأنبياء ورسلك، وبحق البيت الحرام[(٤)].

قالوا جميعًا: فالمسألة بخلقه تعالى لا تجوز؛ لأنه لا حق للخلق على الخالق، فلا يجوز أن يسأل بما ليس بمستحَق، ولكن بمعقد العز من عرشك هل هو سؤال بمخلوق أو بالخالق؟ فيه نزاع بينهم، فلذلك تنازعوا فيه، وأبو يوسف بلغه الأثر فيه فجوزه لذلك[(٥)].

وقد تنازع في هذا بعض الناس وقالوا في حديث أبي سعيد الذي رواه ابن ماجه مرفوعًا: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا الحديث»[(٦)].

= المسند: إسناده صحيح.

(١) يشير إلى حديث موضوع ينسب إلى ابن مسعود رفعه، وقد حكم غير واحد من أهل العلم بأنه مكذوب مختلق على النبي ﷺ منهم الحافظ في الدراية (٢/ ٢٣٩)، والزيلعي في نصب الراية (٤/ ٢٧٢).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق (٢/ ٧٨٣).

(٥) المصدر السابق.

(٦) أخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة (١/ ٢٥٦) من طريق الفضل بن الموفق ثنا مرزوق عن عطية عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا، وأحمد في المسند (٣/ ٢١)، والبغوي في الجعديات (ص ٢٩٩)، والطبراني في =

ومن هذا الأثر الذي رواه الحاكم وصححه من طريق عبدالرحمن ابن زيد بن أسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال: يا آدم وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه، قال: يا رب إنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا لا إله إلا الله محمد رسول الله فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، إذْ سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك.

وزواه الطبراني وزاد: وهو آخر الأنبياء من ذريتك[1]، فإن صح فهو كقوله وأسألك بحق السائلين عليك، ولكن قال الإمام أحمد: عبدالرحمن ابن زيد ضعيف، وقال ابن معين: ليس حديثه بشيء، وقال ابن عبدالكريم:

= الدعاء (ص ١٤٩)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٩٨): هذا إسناد مسلسل بالضعفاء: عطية وهو العوفي، وفضيل بن مرزوق، والفضل بن الموفق كلهم ضعفاء، لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق فهو صحيح عنده.

وقال الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ٣٨): ضعيف من طريقيه وأحدهما أشد ضعفًا من الآخر، وقد ضعفه البوصيري والمنذري وغيرهما من الأئمة، ومن حسنه فقد وهم أو تساهل.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٣١٣) من طريق عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب، وقال: لم يرو هذا الحديث عن زيد بن أسلم إلا ابنه عبدالرحمن ولا عن ابنه إلا عبدالله بن إسماعيل المدني ولا يروى عن عمر إلا بهذا الإسناد، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٢) وقال: صحيح الإسناد وهو أول حديث ذكرته لعبدالرحمن بن زيد بن أسلم في هذا الكتاب، وتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع، وعبدالرحمن واه. وقد نقل المصنف أقوال العلماء في توهينه فلا داعي لذكرها، وللشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله كلام بديع في المسألة في السلسلة الضعيفة (١/ ٣٨) يحسن الرجوع إليه.

سمعت الشافعي يقول: ذكر رجلٌ لمالك حديثا، فقال: من حدثك، فذكر إسناداً له [منقطعا][1]، فقال: اذهب إلى عبدالرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح عليه السلام، وقال أبو داود: أولاد زيد بن أسلم كلهم ضعيف، وضعّف [عبدالرحمن بن زيد][2] النسائي، وقال علي بن المديني: ضعيف جدا، وهكذا قال أبو زرعة، وقال أبو حاتم: كان في نفسه صالحًا، وفي الحديث واهيًا، وقال ابن حبان: كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم، حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل، وإسناد الموقوف، فاستحق الترك.

وقال ابن سعد: كان كثير الحديث، [ضعيفًا][3] جدا، وقال ابن خزيمة: ليس هو ممن يحتج أهل العلم بحديثه، وقال الحاكم وأبو نعيم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة، فقد انفرد بهذا الحديث وهو مجمع على ضعفه فلا يحتج به[4].

وإما نحو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]. على قراءة حمزة وغيره ممن خفض (والأرحام) فقالوا تفسيرها أي: تسألون به وبالأرحام، كما يقول: سألتك بالله وبالرَحم[5].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: ومن زعم من النحاة أنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار، فإنما قاله

---

(١) في [م] [ك]: (منقطع)، والمثبت هو الصواب.
(٢) في الأصل: (زيدًا)، وهو خطأ ظاهر.
(٣) في الأصل: ضعيف.
(٤) انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (٢/ ٥٦٤)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٦/ ١٧٧).
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٣).

لما رأى غالب الكلام بإعادة الجار، وإلا فقد سمع في الكلام العربي نثره [ك، ١٨٧/أ] ونظمه العطف بدون ذلك، كما حكى سيبويه: «ما فيها غيرُه وفرسِه»(١).

ولا ضرورة هنا كما يدّعى مثل ذلك في الشعر(٢). قال الشاعر:

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب(٣)

ولأنه قد ثبت في الصحيحين أن عمر قال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون(٤).

وسيأتي باقي الجواب على هذا المقام قريبًا إن شاء الله مقررًا بأوضح بيان. وفي النسائي والترمذي وغيرهما حديث الأعمى وصححه الترمذي: أنه جاء إلى النبي ﷺ فسأله أن يدعو الله أن يرد بصره، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد يا نبي الله إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضيها، اللهم فشفعه في، فدعا الله فرد عليه بصره(٥).

وهذا ليس إقسامًا به ﷺ، بل توجّهًا به، وأيضًا إنما توجه بدعائه وشفاعته، فإنه طلب من النبي ﷺ الدعاء، وقال في آخره: فشفعه فيَّ.

---

(١) انظر: أوضح المسالك، ابن هشام (ص ٥٠٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٣).

(٣) هذا من الأبيات التي لايعرف لها قائل، انظر الإنصاف لابن الأنباري ٢/ ٤٦٤، تعليق محمد محي الدين عبدالحميد.

(٤) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (١/ ٣٤٢) من حديث أنس، ولم يخرجه مسلم في الاستسقاء في صحيحه، وابن حبان في صحيحه (٧/ ١١٠)، والطبراني في الكبير (١/ ٧٢)، وغيرهم.

(٥) مضى تخريجه ص ١٩٩٣.

فعلم أنه يشفع له، فتوسل بشفاعته لا بذاته.

فحديث الأعمى هذا رواه الترمذي وقال: حسن صحيح غريب عن عثمان بن حنيف، وليس عنده فيه صلاة الركعتين، إنما قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يدعو بهذا الدعاء وذكره[١].

وعند النسائي واللفظ له وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه: أن أعمى أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يكشف لي عن بصري، قال أو أَدَعُك، قال: يا رسول الله إنه قد شق علي ذهاب بصري. قال فانطلق فتوضأ، ثم صل ركعتين ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه إلى ربي بك أن يكشف لي عن بصري، اللهم شفعه فيَّ وشفعني في نفسي، فرجع وقد كشف الله عن بصره[٢].

وهو عند الطبراني لكن في أوله قصة، وقال بعد ذكر طرقه: والحديث صحيح ولفظه: أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف ائت الميضأة فتوضأ، ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلي ربي فتقضي حاجتي، وتذكرُ حاجتك، ورح إليَّ حتى أروح معك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى عثمان فجاء البوابَ حتى أخذ بيده

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٥٦٩) وقد مضى تخريجه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في عمل اليوم والليلة (ص ٤١٨)، وقد مضى تخريجه.

فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة ـ والطنفسة: مثلثة الطاء والفاء أيضًا، وقد تُفتح الطاء وتكسر الفاء، اسم للبساط، وتطلق على حصير من سعف يكون عرضه ذراعًا، قاله أهل الغريب(١) ـ ثم قال له: حاجتك، فذكر حاجته فقضاها له، ثم قال: ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة، وقال: وما كانت لك من حاجة فأتنا، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيرًا، ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت لي حتى كلمتَه فيَّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمته، ولكن شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي ﷺ: ائت الميضأة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات، فقال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط(٢).

---

(١) انظر النهاية، ابن الأثير (٣/ ١٤٠).

(٢) أخرج الطبراني في الصغير (١/ ٣٠٦)، وفي الكبير (٩/ ١٧) هذه القصة من طريق عبدالله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلاً كان... القصة.

وقال: «لم يروه عن روح بن القاسم إلا شبيب بن سعيد وهو ثقة، وهو الذي يحدث عنه أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلي، وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر الخطمي ـ واسمه عمير بن يزيد ـ وهو ثقة، تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة، والحديث صحيح».

ولا شك في صحة الحديث المرفوع، وإنما الشك في هذه القصة التي أوردها المصنف، وهي من الأدلة الواهية التي يستدل بها أصحاب التوسل المبتدع، وقد تفرد بها كما ذكر الطبراني شبيب بن سعيد، وشبيب هذا متكلم فيه، وخاصة في رواية ابن وهب عنه كما في التقريب (ص ٢٦٣)، وذكر النقاد أن شبيبًا لا بأس بحديثه بشرطين أن يكون من رواية ابنه أحمد عنه، وأن يكون من رواية شبيب عن =

هكذا رواه الطبراني بطرق كما ذكره عنه، وقال إنه صحيح[1]، ورواه البيهقي من طريقين بنحو هذا اللفظ وصححه[2].

وظاهر هذا أنه بعد موت النبي ﷺ، وأنه في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ورواه أيضًا الإمام أحمد عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه

= يونس بن يزيد. قال ابن عدي في الكامل (٤/ ٣٠): كان شبيب لعله يغلط ويهم إذا حدث من حفظه، وأرجو أنه لا يتعمد، فإذا حدث عنه ابنه أحمد نسخة يونس عن الزهري إذا هي أحاديث مستقيمة، ليس هو شبيب الذي يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التي يرويها عنه».

والحديث كما تقدم من رواية ابن وهب عن شبيب عن يونس، وقد ذكر الشيخ ناصر رحمه الله في التوسل (ص ٩٤) متابعة أبناء شبيب إسماعيل وأحمد لابن وهب، وذكر أن إسماعيل بن شبيب لا يعرف وليس له ذكر في كتب الجرح والتعديل، أما أحمد بن شبيب قال الذهبي في الميزان (١/ ١٠٣): صدوق. وقد روى القصة عن أبيه إلا أنها ليست من طريق يونس بن يزيد، وقال الشيخ ناصر: «إذا تبين هذا يظهر لك ضعف هذه القصة، وعدم صلاحية الاحتجاج بها، ثم ظهر لي فيها علة أخرى وهي الاختلاف على أحمد فيها، فقد أخرج الحديث ابن السني (ص ٢٩٦)، والحاكم (١/ ٥٢٦) من ثلاثة طرق عن أحمد بن شبيب بدون القصة، وكذلك رواه عون بن عمارة البصري ثنا روح بن القاسم به، أخرجه الحاكم، وعون هذا وإن كان ضعيفًا فروايته أولى من رواية شبيب، لموافقتها لرواية شعبة وحماد بن سلمة عن أبي جعفر الخطمي.

وخلاصة القول: إن هذه القصة ضعيفة منكرة، لأمور ثلاثة: ضعف المتفرد بها، والاختلاف عليه فيها، ومخالفته للثقات الذين لم يذكروها في الحديث، وأمر واحد من هذه الأمور كافٍ لإسقاط هذه القصة، فكيف بها مجتمعة؟».

(١) تصحيح الطبراني المذكور للحديث، وليس للقصة وهذا ليس عليه جدال بدليل قوله وقد سبق في الهامش: «قد روى الحديث شعبة... والحديث صحيح».

(٢) دلائل النبوة (٦/ ١٦٦، ١٦٧).

بنحوه[1]، وسيأتي مزيد كلام وبيان على حديث الأعمى إن شاء الله تعالى، ولكن يقال لا ريب في مثل هذا، وفيما تقدم بأن الله سبحانه جعل على نفسه حقًّا لعباده كما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وفي الصحيحين عن معاذ: «أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله» الحديث[2]، فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق، وقد اتفق العلماء على وجوب ما يجب بالوعد الصدق، وتنازعوا: هل يوجب سبحانه بنفسه على نفسه؟ على قولين.

ومن جوزه احتج بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وبالحديث الصحيح: «إنّي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما»[3].

وأما الإيجاب عليه سبحانه والتحريم بالقياس [على خلقه][4] فهذا قول القدرية، وهو قول مبتدع مخالف لصحيح المنقول وصريح المعقول[5].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٣٨) بدون القصة، وقد تقدم تصحيح الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك (١/ ٥٩)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (١/ ٥٨)، وقد اختصر المصنف لفظ الحديث.

(٣) أخرجه مسلم في البر، باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٤) جزء من حديث قدسي يرويه أبو ذر عن النبي ﷺ.

(٤) ساقطة من الأصل، وما بين معكوفتين من اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٥).

(٥) المصدر السابق.

قال شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه: وأهل السنة متفقون على أنه تعالى خالق كل شيء ومليكه، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأن العباد لا يوجبون عليه شيئًا، ولهذا كان من قال من أهل السنة بالوجوب يقول: إنه كتب على نفسه، وحرم على نفسه، لا أن العبد يستحق على الله شيئًا، كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإنه تعالى هو المنعم على عباده بكل خير، فهو الخالق لهم، وهو المرسل إليهم [الرسل](1) وهو الميسر لهم الإيمانَ والعمل الصالح، ومن توهم من القدرية المعتزلة أنهم يستحقون عليه تعالى من جنس ما يستحقه الأجير على من استأجره فهو جاهل في ذلك(2).

ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل الجنة أحد بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»، والحديث في الصحيح(3).

قال: فإن كان الأمر كذلك لم تكن الوسيلة [ك،١٨٨/ب] إليه إلا بما مَنَّ به سبحانه من فضله وإحسانه، والحق الذي لعباده هو من فضله وإحسانه ليس من باب المعاوضة، ولا مما أوجبه غيره عليه، فإنه سبحانه يتعالى عن ذلك(4).

---

(١) ساقطة من الأصل، وأثبتت من المصدر السابق.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٥).

(٣) أخرجه البخاري في المرضى، باب نهي تمني المريض الموت (٥/ ٢١٤٧) من حديث أبي هريرة، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل الجنة أحد بعمله، بل برحمة الله تعالى (٤/ ٢١٧٠)، وغيرهم.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٥).

قال أبو الوفاء بن عقيل: لا يجب على الله شيء لا عقلاً ولا شرعًا.

وقال تلميذه ابن الجوزي وجمع من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم: يجب عليه شرعًا بفضله وكرمه، وحكى ذلك عن أهل السنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: أكثر الناس يثبت استحقاقًا زائدًا على مجرد الوعد، وعند المعتزلة يجب عليه رعاية الأصلح.

والحاصل أنه سبحانه إذا سُئل بما جعله هو سببًا للمطلوب من الأعمال الصالحة التي وعد أصحابها بالكرامة، وأنه سبحانه يجعل لهم فرجًا ومخرجًا، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، فيستجيب دعاءهم، ومن أدعية عباده الصالحين وشفاعة ذوي الوجاهة عنده، فهذا سؤال وتسبب بما جعله هو سببًا.

وأما إذا سُئل بشيء ليس سببًا للمطلوب: فإما أن يكون إقسامًا عليه [به][(١)]، فلا يُقسم على الله سبحانه بمخلوق، وإما أن يكون سؤالاً بما لا يقتضي المطلوب فيكون عديم الفائدة[(٢)]. وإما أن يكون من باب التألّي عليه والاعتراض عليه تعالى في حكمه الكوني السابق في علمه جل وعلا، فيكون خطرًا ممنوعًا منه.

كما أورد الشيخ رحمه الله تعالى في هذه الترجمة لذلك الحديث المشهور وهو من أفراد مسلم من طريق أبي عمران الجوني واسمه عبدالملك ابن حبيب، **(عن جندب بن عبدالله)** بن سفيان البجلي، صحابي رضي الله عنه، **(قال: قال رسول الله ﷺ: قال رجل)** يعني ممن كان قبلكم، وكان ﷺ يحدث عن بني إسرائيل بما يلقي إليه جبريل عليه السلام،

---

(١) من اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٨٦)، ساقطة من الأصل.

(٢) المصدر السابق.

لتعتبر أمته بذلك.

(**والله لن يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألّى علي؟**) المتألّي على الله سبحانه هو الذي يحكم عليه، فيقول: فلان في الجنة، وفلان في النار، قال أبو السعادات: ويقال تألّى: حلف، ومنه قوله ﷺ للذين أتوه في صاحب الثمرة التي أجيحوا فيها، لما حلف لا يضع شيئًا كما في الصحيحين: «تألّى ألا يفعل خيرًا»، وذلك لأن الإنسان إذا قال: لا فعلت، أو لأفعلن، نوع تألٍّ على الله سبحانه، فربما أكذبه الله بحنث، أو عذب قلبه بندم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ـ ٢٤] الآية، والأليّة: الحلف، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢] الآية، والمؤلي الحالف قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦] الآية، وفِعْلتُه التألّي، وقد قرأ أبو جعفر المدني[1]، وزيد بن أسلم[2]: ﴿وَلَا يتألَّ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النور: ٢٢] الآية، على معنى يتفعل، وقرأه الجمهور «ولا يأتل»[3] على معنى يفتعل من الألية، وهو اليمين أي: لا يحلف. قال ذلك أبو الليث[4] في تفسيره، وأبو

---

(١) يزيد بن القعقاع، أبو جعفر القارىء، أحد القراء العشرة، مدني مشهور، توفي سنة ١٣١هـ على خلاف.

انظر: معرفة القراء الكبار، الذهبي (١/ ٧٢)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٢/ ٤٠٦).

(٢) مضت ترجمته ص ١٩٣٥.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٥/ ٢٤).

(٤) نصر بن محمد السمرقندي، أبو الليث، من أئمة الحنفية، زاهد، عابد، فقيه، مفسر، توفي سنة ٣٧٣هـ.

انظر: الجواهر المضيئة، القرشي (٢/ ١٩٦)، الأعلام، الزركلي (٨/ ٢٧).

البقاء[1] في إعرابه للقرآن المجيد يقال: تألى، يتألّى، تأليا، وفي الخبر «من [يتألَّ] على الله يكذِّبه»[2].

ولهذا قال هنا: (**من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان، إني غفرت له وأحبطت عملك**).

وهذا مصداق حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه في قوله ﷺ: «وهل يكب الناس في النار على وجوههم، ـأو قال: على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم»[3].

ومن العجب أن الإنسان قد يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر والنظر المحرم ونحو ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى قد ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالاً يزل بالكلمة الواحدة أبعد مما بين المشرق والمغرب، كما في صحيح مسلم وغيره[4] عن أبي هريرة، وعند الإمام أحمد والبخاري في أفراده عن ابن

---

(١) مضت ترجمته ص ٥٠.

(٢) مسند الشهاب (١/ ٢٢٠)، الزهد لهناد (١/ ٢٨٧)، وقد وقع في الأصل: يتألى، والتصويب من المصادر، وانظر رواية أخرى بهذا المعنى تأتي في ص٢٠١٠.

(٣) أخرجه الترمذي، باب ما جاء في حرمة الصلاة (٥/ ١١) وقال حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨)، وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٢/ ١٣١٤)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٦٨)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٣٠)، وأورده الألباني في إرواء الغليل (٢/ ١٣٨) وحسنه.

(٤) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٠) برقم (٢٩٨٨)، وهو في صحيح البخاري (٥/ ٢٣٧٧) برقم (٦١١٢).

مسعود مرفوعًا: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»[1].

وهذا القرب معنوي، وإلا فالجنة فوق السموات السبع، سقفها عرش الرحمن، والنار تحت الأرضين السبع، والمعنى في ذلك أن قليل الخير قد يكون سببًا لدخول الجنة، وقليلاً من المنكر قد يكون سببًا للنار، فينبغي الرغبة في أسباب الجنة والرهبة من أسباب النار، ومعنى آخر: إذا كان عمل العامل صفة له فهو أقرب إليه من شراك نعله، ولهذا كان أعظم المخاوف عند السلف من سوء الخاتمة، ولها سببان: الولع بالدنيا وأهلها، والمثابرة على المعاصي، وفي الأثر: الخير عادة والشر لجاجه[2].

وأي سبب للخوف أعظم من غيوب ديوان المرء عنه، فلا يدري في أي ديوان كتب، أشقي أم سعيد، كما في الصحيحين: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[3].

فإن هذا أوجب خوفًا لا أمن معه إلا بالاطلاع على حالة الخاتمة،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله (٥/ ٢٣٨٠)، وأحمد في المسند (١/ ٤١٣) كلاهما من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (١/ ٨٠)، وابن أبي عاصم في الزهد (٢/ ٢٨١)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٨)، والثقات (٥/ ٥٥٥)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٠٠)، وأورده الألباني في صحيح ابن ماجه (١/ ٤٣) وقال: حسن.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٣/ ١٢١٢)، ومسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي (٤/ ٢٠٣٦)، من حديث ابن مسعود.

ولذلك قال ﷺ: «فرغ ربكم، اعملوا فكل ميسر لما خلق له» الحديث، وهو في الصحيح[1]، إلا أن بهذا يقع الأنس، لجعله العمل الصالح علامة في الأغلب والأكثر.

ومن المخاوف أيضًا سوء الحساب، وهو أن يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب؛ من انكشاف ما يظنه طاعة معصية، أو مناقشة الحساب، وهو دون هذا وإن كان عظيمًا، فإن وراءه العذاب لما في الحديث: «من نوقش الحساب عذب»، ويروى هلك[2].

وعند الترمذي ـ وقال: حديث حسن ـ عن أنس بن مالك قال: توفي رجل من الأنصار فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك لعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا يغنيه[3]».

وفي رواية: أن غلامًا استشهد يوم أحد، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع، فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: هنيئًا لك يا بني بالجنة، فقال النبي ﷺ: «وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه، ويمنع ما لا يضره[4]».

---

(١) جزء من حديث علي بن أبي طالب عند البخاري في التفسير، باب فسنيسره لليسرى (٤/ ١٨٩٠) دون قوله «فرغ ربكم» وقد مضى تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاب، باب من نوقش الحساب عذب (٥/ ٢٣٩٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب (٤/ ٢٢٠٤)، كلاهما من حديث عائشة بكلتا الروايتين.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد، باب رقم (١١) من طريق الأعمش عن أنس بن مالك مرفوعًا وفي إسناده انقطاع: الأعمش لم يسمع من أنس، انظر: تهذيب التهذيب (٤/ ٢٢٢)، وأورد الألباني هذا الحديث في ضعيف الترمذي (ص ٢٦١).

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٨٤) من طريق الأعمش عن أنس أيضًا وإسناده =

(رواه مسلم) في صحيحه، ورواه [ك،١٨٨/أ] الطبراني أيضًا[١].

(وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته)[٢].

هذا الحديث عند الإمام أحمد وأبي داود ولفظ الإمام بسند حسن عن ابن [جوس اليمامي][٣] قال: قال لي أبو هريرة: [يا يمامي][٤] لا تقولن لرجل لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة أبدًا، قلت: يا أبا هريرة إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب، قال: لا تقلها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان في بني إسرائيل رجلان أحدهما مجتهد في العبادة وكان الآخر مسرفًا على نفسه، وكانا متآخيين، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب فيقول: يا هذا أقصر. فيقول: إنك لم تبعث علي رقيبًا، إلى أن رآه يومًا على ذنب فقال له: ويحك ما لك أقصر، فقال إنك لم تبعث علي رقيبًا، فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبدًا. قال: فبعث الله إليهما ملكًا فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي،

= كسابقه، وفيه أيضًا كما قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٣): «يحيى بن يعلى الأسلمي وهو ضعيف» وكذلك ضعفه الحافظ في التقريب (ص ٥٩٨).

(١) يشير إلى حديث الباب وقد أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى (٤/ ٢٠٢٣)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٩٩)، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ١٩)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٦٥) كلهم من طريق أبي عمران الجوني عن جندب به.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب النهي عن البغي (٤/ ٢٧٧)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٢٣) قال الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٢٩٦): صحيح.

(٣) في الأصل: «ابن جرس الهيالي» وما بين معكوفتين من المسند.

(٤) في الأصل: «يا يماني» وما بين معكوفتين من المسند.

وقال للآخر: أكنت على ما في يدي قادرًا، اذهبوا به إلى النار»، قال أبو هريرة والذي نفس أبي القاسم بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته[1].

وعند الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعًا: «لا تألوا على الله فإنه من تألى على الله أكذبه الله تعالى»[2]. يعني بالقدر السابق، ولهذا لما حكّم إبليس في أمر الله هواه، واعترض على أمر الله الكوني والشرعي بأن قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، طرده الله وأبعده من رحمته وأيّسه منها، وجنس كلام هذا الرجل ينشأ عن العُجْب، نعوذ بالله من الاتصاف بما يُردي، فهذا في الحقيقة فيه نوع من الإقسام على الله تعالى، وفيه زيادة الاعتراض على حكمه الكوني السابق في علمه على خليقته جل وعلا.

وفي البخاري أن بعضهم لعن رجلاً يدعى حمارًا لكثرة شربه الخمر، فقال النبي ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[3]. ولم يعاقبه للعنه، وقد يفرق في هذا بين المتأول وغيره، إذ المتأول المخطىء مغفور له بالكتاب والسنة، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال في رده على الرافضي: الأمة يقع منها التأول في الدم والمال والعرض، ثم ذكر قتل أسامة للرجل الذي أسلم بعد أن علاه بالسيف[4]، وقول أسيد بن

---

(١) مسند أحمد (٢/ ٣٢٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٧٣) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٨): رواه الطبراني وفيه علي بن زيد الألهاني وهو ضعيف. وأورد الألباني هذا الحديث في ضعيف الجامع (٦/ ٥٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر (٦/ ٢٤٨٩) من حديث عمر بن الخطاب، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣١٢).

(٤) مضى تخريجه.

حضير[١] لسعد بن عبادة في قصة الإفك: إنك منافق[٢]، وقول عمر في حاطب: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق[٣]، وقول عتبان بن مالك[٤] لابن الدخشن[٥]: إنه منافق، فأنكر عليه النبي ﷺ وذلك في الصحيحين[٦]، ولم يكفّر أحدًا ولا عاقبه، والعلة التأويل مع صحة الباطن[٧].

وأما الإقسام الذي هو صفة مدح في حق المقسِم، إنما هو في صورة الدعاء لله سبحانه بما اتصف به الداعي من طاعته وطاعة رسوله

---

(١) الأوسي، الأنصاري، من السابقين الأولين، أحد النقباء ليلة العقبة ممن أبلى يوم أحد، وجرح فيها سبع جراحات، توفي سنة ٢٠هـ.
انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٥٩)، الإصابة، ابن حجر (١/ ٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا (٢/ ٩٤٢)، ومسلم في التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٤/ ١٢١٩) من حديث عائشة، وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الجاسوس (٣/ ١٠٩٥) من حديث علي، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم (٤/ ١٩٤١)، وغيرهم.

(٤) الخزرجي، الأنصاري، بدري، آخى النبي ﷺ بينه وبين عمر، توفي في خلافة معاوية.
انظر: مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان (ص ٢٢)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٤٤٥).

(٥) هو مالك بن الدخشم الأنصاري، بدري، اتهم بالنفاق وهو منه بريء، فقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه.
انظر: الطبقات، ابن سعد (٣/ ٥٤٩)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٣٢٣).

(٦) البخاري برقم ٤١٥ ومسلم في الإيمان، باب الدليل أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (١/ ٦١)، وأحمد في المسند (٥/ ٤٤٩)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٧٤) وغيرهم، وقد تقدم مفصلاً ص٢٦٤.

(٧) انظر: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٤/ ٤٤٥ـ ٤٥٨).

ﷺ، فبين الإقسامين أبعد مما بين المشرق والمغرب، وهذا باب ينبغي الاستقصاء فيه ليتضح عن الاشتباه في الجائز والمحظور، ونسأل الله في ذلك الهداية والاقتداء بمن سلف من صالح الأمة، إذ هم القدوة في ذلك، وعليهم المعول في معاني الكتاب والسنة؛ لخلوهم من البدع وإنكارهم لها.

فإن قال مجيز الإقسام على الله بخلقه: الأنبياء والمؤمنون لهم حق على الله؟، قيل: نعم لهم حق على الله بوعده الصادق لهم، وكلماته التامة، ورحمته لهم أن ينعّمهم ولا يعذبهم، وهم وجهاء عنده، يقبل من شفاعتهم ودعائهم ما لا يقبله من دعاء غيرهم. فإذا قال الداعي: أسألك بحق فلان وفلان، وفلانٌ لم يدع له، وهو لم يسأله سبحانه باتّباعه لذلك الشخص ومحبته وطاعته، بل بنفس ذاته وما جعله له ربه من الكرامة، فلم يكن قد سأله بسبب يوجب المطلوب[1]. وحينئذ فيقال: أما التوسل والتوجه إلى الله وسؤالُه بالأعمال الصالحة التي أمر بها، كدعاء الثلاثة الذي آووا إلى الغار بأعمالهم الصالحة[2]، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم، فهذا كما قال شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه مما لا نزاع فيه، بل هذا من الوسيلة التي أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو طلب ما يتوسل به، أي: يتوصل ويتقرب به إليه سبحانه، سواء كان على وجه العبادة والطاعة وامتثال الأوامر، أو على وجه السؤال والاستعاذة به

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٦).

(٢) مضى تخريجه.

رغبة إليه في جلب المنافع ودفع المضار[1].

ولفظ الدعاء في القرآن يتناول هذا وهذا، الدعاء بمعنى العبادة، والدعاء بمعنى المسألة، وإن كان كل منهما [مستلزمًا][2] الآخر، لكن العبد قد تنزل به النازلة فيكون مقصوده طلب حاجاته وتفريج كرباته، فيسعى في ذلك بالسؤال والتضرع، وإن كان ذلك من العبادة والطاعة، ثم يكون في أول الأمر قصده حصول ذلك المطلوب من الرزق والنصر والعافية مطلقًا، ثم الدعاء والتضرع يفتح له من أبواب الإيمان بالله عز وجل ومعرفته ومحبته والتنعم بذكره ودعائه، ما يكون هو أحب إليه وأعظم قدرًا عنده من تلك الحاجة التي أهمته، وهذا من رحمة الله لعباده، ليسوقهم بالحاجات الدنيوية إلى المقاصد العلية الدينية[3].

وقد يفعل العبد ما أمر به ابتداء لأجل العبادة لله والطاعة له، ولما عنده من محبته والإنابة إليه وخشيته وامتثال أمره، وإن كان ذلك يتضمن حصول الرزق والنصر والعافية[4].

وعند أبي داود وغيره من أهل السنن عن النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[5] [غافر: ٦٠].

وقد فسر هذا الحديث مع القرآن بدعاء العبادة ودعاء المسألة، قيل

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٧).

(٢) في الأصل: مستلزم.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) مضى تخريجه.

ادعوني أي: اعبدوني وأطيعوا أمري أستجب دعاءكم، وقيل: سلوني أعطكم، وكلاهما حق[1].

وكذلك ما في حديث النزول الذي في الصحيحين عنه ﷺ وفيه: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، حتى يطلع الفجر[2]» فذكر أولاً إجابة الدعاء، ثم ذكر إعطاء السائل والمغفرة للمستغفر، فهذا جلب المنفعة، وهذا دفع المضرة، وكلاهما مقصود للداعي المجاب، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦]. ولهذا لما قال بعض الصحابة كما مر: يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ نزلت هذه الآية[3]. فأخبر أنه قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ثم أمرهم بالاستجابة له والإيمان به، كما قال بعض السلف: فليستجيبوا لي إذا دعوتهم وليؤمنوا بي أني أجيب دعواتهم[4].

قالوا: وبهذين السببين تحصل [ك،١٨٩/ب] إجابة الدعوة: بكمال الطاعة بألوهيته، وبصحة الإيمان بربوبيته، فمن استجاب لربه بامتثال

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٨).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢/ ٩٢)، والبغوي وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور (١/ ٤٦٩)، وابن حبان في الثقات (٨/ ٤٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٣٥)، والنقاش في فوائد العراقيين (ص ٣١) كلهم من طريق الصلت ابن حكيم عن أبيه عن جده، وذكره الحافظ في لسان الميزان (٣/ ١٩٥) وقال: الصلت بن حكيم مجهول، وليس له ولا لأبيه ولا لجده ذكر في كتب الرواة.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٨٩).

أمره ونهيه حصل مقصوده من الدعاء، وأجيب دعاؤه، كما قال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦]. أي: يستجيب لهم، يقال استجابه واستجاب له، فمن دعاه موقنًا أنه يجيبه إذا دعاه أجابه سبحانه، وقد يكون مشركًا فاسقًا، فإنه سبحانه هو القائل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وهو القائل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وهو القائل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠- ٤١]، لكن هؤلاء الذين يستجاب لهم لإقرارهم -كما قال شيخ الإسلام- بربوبيته وأنه يجيب دعاء المضطر إذا[1] لم يكونوا مخلصين له الدين في عبادته، ولا مطيعين له ولرسوله كان [ما يعطيهم][2] بدعائهم متاعًا في الحياة الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق كما قال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: ١٨- ٢٠]، ولما دعا الخليل بالرزق لأهل الإيمان فقال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فهو سبحانه يرزق المؤمن والكافر والبر والفاجر، وقد يجيب دعاءهم ويعطيهم سؤالهم في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق، وقد ذكروا أن بعض الكفار من النصارى حاصروا

---

(١) في الأصل: وإذا، والصواب حذف الواو كما في الاقتضاء.

(٢) من اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٨٩)، وفي الأصل: «ما يطيعهم».

مدينة للمسلمين فنفد ماؤهم العذب، فطلبوا من المسلمين أن يُرووهم بماء عذب ليرجعوا عنهم، فاشتور ولاة أمر المسلمين وقالوا: بل ندعهم حتى يضعفهم العطش فنأخذهم، فقام أولئك فاستسقوا ودعوا الله فسقاهم، فاضطرب بعض العامة، فقال الملك لبعض العارفين: أدرك الناس فأمر بنصب منبر له وقال: اللهم إنا نعلم أن هؤلاء من الذين تكلفت بأرزاقهم كما قلت في كتابك: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. وقد دعوك مضطرين وأنت تجيب دعوة المضطر إذا دعاك، فأسقيتهم لما تكفّلت من رزقهم لما دعوك مضطرين، لا لأنك تحبهم وتحب دينهم، والآن فنريد أن ترينا آية بهم تثبت بها الإيمان في قلوب عبادك المؤمنين، فأرسل الله عليهم ريحًا فأهلكتهم[1].

ولهذا قال تعالى لجنس من هذه حاله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٤٤]، وقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]. فقد يجيب الله دعاء المشرك والكافر إملاء له بذلك، والإملاء إطالة العمر وما في ضمنه من رزق ونصر[2]. قال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

والمقصود هنا أن دعاء الله قد يكون دعاء عبادة فيثاب العبد عليه في الآخرة مع ما يحصل له في الدنيا، وقد يكون دعاء مسألة يقضي بها حاجته،

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٧٩٠).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٧٩١).

ثم قد يثاب عليه إذا كان مما يحبه الله، وقد لا يحصل له إلا تلك الحاجة، وقد يكون سببًا لضرر دينه فيعاقب على ما ضيعه من حقوق الله وما تعداه من حدوده، فالوسيلة التي أمر الله بابتغائها تعم الوسيلة في عبادته، وفي مسألته، فالتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي أمر بها، وبدعاء الأنبياء والصالحين وشفاعتهم، ليس هو من باب الإقسام عليه بمخلوقاته[(١)]. كما كان الصحابة رضي الله عنهم يستسقون ويتوسلون بالنبي ﷺ في حياته وبعمه بعد وفاته كما صح ذلك عن الفاروق رضي الله عنه في الصحيحين وغيرهما[(٢)]، وليس المراد بهذا أنهم رضي الله عنهم يقسمون عليه سبحانه به ولا بعمه أو بما يجري هذا المجرى مما يفعل بعد موته وفي مغيبه، كما يقول بعض النساك: أسألك بجاه فلان عندك، ويقولون نتوسل إلى الله بأنبيائه، ويروون حديثًا موضوعًا: إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي، فإن جاهي عند الله عريض[(٣)].

فلو كان هذا التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه كما ذكر عمر، لفعلوا ذلك بعد موته ولم يعدلوا إلى عمه مع علمهم بأن السؤال به والإقسام أعظم من العباس، فعلم أن ذلك التوسل الذي ذكروه وهو مما يفعل بالأحياء دون الأموات أنه هو التوسل بدعائهم وشفاعتهم، فإن الحي يطلب منه ذلك، والميت لا يطلب منه شيء لا دعاء ولا غيره، وكذلك حديث الأعمى[(٤)] كما مر، فإنه طلب منه ﷺ أن يدعو له ليرد

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مضى تخريجه ص ١٩٩٨، وليس في صحيح مسلم.

(٣) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١/ ٣١٩): «وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث».

(٤) مضى تخريجه ص ٢٠٠٠.

عليه بصره، فعلمه ﷺ دعاء أمره فيه أن يسأل الله قبول شفاعة نبيه، فهذا يدل أنه ﷺ شفع فيه وأمره أن يسأل الله قبول شفاعة نبيه، وأن قوله «أسألك وأتوجه إليك بنبيك» أي: بدعاء نبيك نبي الرحمة وشفاعته كما قال عمر: «كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»(١)، فلفظ التوسل والتوجه في الحديث بمعنى واحد، ثم قال: «يا محمد يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها، اللهم فشفعه فيّ» فطلب من الله أن يشفع فيه [ك،١٨٩/أ] نبيه، وقوله «يا محمد يا نبي الله» قال شيخ الإسلام: هذا ونحوه نداء يطلب به استحضار المنادى في القلب، فيخاطب المشهود بالقلب، كما يقول المصلي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، والإنسان يفعل مثل هذا كثيرًا، يخاطب من يتصور في نفسه وإن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب(٢)، كما قال حسان رضي الله عنه فيما رثاه به ﷺ:

يا أفضل الناس إني كنت في نهر   أفردت [منه] كمثل المفرد الصادي(٣)

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به والسؤال به فيه إجمال واشتراك، غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة رضي الله عنهم، فهو مراد به التسبب به لكونه داعيًا وشافعًا مثلاً، أو يكون الداعي محبًا له مطيعًا لأمره مقتديًا به، فيكون التسبب: إما لمحبة السائل له واتباعه له، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته، ويراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فلا يكون التوسل، لا بشيء منه، ولا بشيء من السائل، بل بذاته، أو بمجرد

---

(١) مضى تخريجه ص١٩٩٨.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٩٣).

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٦٧١) ضمن قصيدة طويلة. وهو في ديوانه ص ٦٧ وما بين [] ساقط من الأصل.

الإقسام به على الله[1]. فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك لفظ السؤال قد يراد به المعنى الأول، والتسبب به لكونه سببًا في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام.

ومن الأول حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار، فأطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله بصالح أعمالهم، وهو مشهور في الصحيحين وغيرهما[2]، وهذا أعظم وأفضل ما يتوسل به العبد إلى الله، فإنهم دعوه سبحانه بعبادته وفعل ما أمر به من العمل الصالح وسؤاله والتضرع إليه، وما يذكر عن الفضيل بن عياض[3] أنه أصابه عسر البول فقال: بحبي لك إلا فرجت عني ففرج عنه[4].

وكما قاله المؤمنون: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ [آل عمران: ١٩٣] الآية، فسؤال الله والتوسل إليه بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وفعل ما يحبه والعبودية والطاعة له، هو من جنس فعل ذلك رجاءً لرحمته وخوفًا من عذابه، وكسؤال الله بأسمائه وصفاته كما مر، وقد يتضمن ذلك معنى الإقسام عليه سبحانه بأسمائه وصفاته.

وأما حديث أبي سعيد: أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا[5]. فرواه عطية العوفي وفيه ضعف، لكن على تقدير ثبوته

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٩٣).
(٢) مضى تخريجه.
(٣) مضت ترجمته ص ١٤١٩.
(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٩).
(٥) مضى تخريجه.

هو من هذا الباب؛ فإن حق السائلين عليه سبحانه أن يجيبهم، وحق المطيعين أن يثيبهم، فالسؤال له والطاعة سبب لحصول إجابته وإثابته فهو من التوسل به، والتوجه به والتسبب به، ولو [قدر][1] أنه أقسم عليه لكان قسمًا بما هو من صفاته، لأن إجابته وإثابته من أفعاله وأقواله[2]. فصار هذا كقوله في الحديث الصحيح: «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك...» الحديث[3].

والاستعاذة لا تصح بمخلوق، كما نص عليه الإمام أحمد وغيره كما مر، وأورد بعض الناس لفظ (المعافاة)[4] فقال جمهور أهل السنة: المعافاة من الأفعال، وجمهور المسلمين من أهل السنة وغيرهم يقولون: إن أفعال الله قائمة به، وأن الخلق ليس هو المخلوق، وعلى هذا جمهور أصحاب الإمام أحمد والشافعي ومالك، وهو قول أصحاب أبي حنيفة، وقول عامة أهل الحديث والصوفية، وطوائف أهل الكلام والفلسفة[5].

هكذا قرر شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، وبهذا يحصل الجواب عما أوردته المعتزلة ونحوهم من الجهمية نقضًا، فإن أهل الإثبات من أهل الحديث وعامة المتكلمين الصفاتية من الكلابية[6]،

---

(١) من اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٩٧)، ساقطة من الأصل.

(٢) المصدر السابق.

(٣) صحيح مسلم برقم (٤٨٦).

(٤) يعني أنه ﷺ استعاذ بها في قوله: «وبمعافاتك من عقوبتك» مع كونها مخلوقًا بزعمهم.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الكلابية هم أتباع عبدالله بن سعيد بن كلاب، أحد المتكلمين، له مؤلفات ومناظرات مع المعتزلة، ولهذا شنع عليه ابن النديم المعتزلي في الفهرست وذكر أنه من أئمة الحشوية، وهكذا كل من أثبت الصفات فهو عندهم حشوي، وابن كلاب من أقرب الناس إلى =

والأشعرية، والكرامية وغيرهم، استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق، فإن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل لا على غيره، واتصف به ذلك المحل لا غيره، فإذا خلق الله لمحل علمًا أوقدرةً أو حركةً أو نحو ذلك، كان هو العالم به القادر به المتحرك به ولم يجز أن يقال: إن الرب المتحرك بتلك الحركة، ولا هو العالم القادر بالعلم والقدرة المخلوقتين، بل بما قام به من العلم والقدرة. قالوا: فلو كان قد خلق كلامًا في غيره كالشجرة التي نادى منها موسى عليه السلام لكانت الشجرة هي المتصفة بذلك الكلام القائلة لموسى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤]، ولكان ما خلقه الله من إنطاق الجلود والأيدي، وتسبيح الحصى وتأويب الجبال، وغير ذلك كلامًا له، كالقرآن والتوراة والإنجيل، بل كان كل كلام في الوجود كلامه لأنه خالق كل شيء، وهذا قد التزمه صاحب الفصوص(١) وأمثاله من الجهمية

= مذهب السلف إلا أن له رأيًا في بعض الصفات، مخالف للقول الصحيح فمثلاً صفة الكلام عند الكلابية أن الله يتكلم بغير مشيئة وقدرة بكلام لازم لذاته بمعنى واحد لا يختلف باختلاف الأمم، وهذا باطل، توفي ابن كلاب بعد سنة ٢٤٠هـ.

انظر: الفهرست، ابن النديم (ص ٢٥٣ـ ٢٥٥)، لسان الميزان، ابن حجر (٣/ ٢٩٠).

(١) محي الدين محمد بن علي ابن عربي، إمام الحلولية، وقدوة القائلين بوحدة الوجود، اتخذ من التصوف ستارًا لهدم الدين، وهكذا أئمة البدع، يلقبه أتباعه من المتصوفة بالشيخ الأكبر، فيلسوف متكلم، هلك بدمشق سنة ٦٣٨هـ.

انظر: ميزان الاعتدال، الذهبي (٣/ ١٠٨)، لسان الميزان، ابن حجر (٥/ ٣١١).

وانظر كتابه الفتوحات المكية (٤/ ١٤١) باب (٥٠٣) حيث يقول:

ألا كل قول في الوجود كلامه ... سواء علينا نثرُه ونظامهُ
يعمّ به أسماع كلّ مكوّن ... فمنه إليه بدؤه وختامهُ
ولا سامع غير الذي كان قائلاً ... فمندرج في الجهر منه اكتتامهُ
فتستره ألفاظنا بحروفها ... فما فيه من ضوء فذاك ظلامهُ
فما ظنكم بالنور منه إذا بدا ... وقد ملأ الجوّ الفسيح غمامهُ

الحلولية والاتحادية. فأوردت المعتزلة صفات الأفعال: كالعدل والإحسان، فإنه يقال: إنه عادل محسن بعدل خلقه في غيره، وإحسان خلقه في غيره[(١)].

قال شيخ الإسلام: فأشكل ذلك على من يقول: [ليس][(٢)] لله فعل قائم به، بل فعله هو المفعول المنفصل عنه، وليس خلقه إلا مخلوقه[(٣)].

وأما من طرد القاعدة وقال أيضًا: [إن][(٤)] الأفعال قائمة به، ولكن المفعولات المخلوقة هي المنفصلة عنه، وفرق بين الخلق والمخلوق، فاطرد دليله واستقام[(٥)]. بمعنى التفريق بين الخلق والمخلوق في الجملة، إذ فعله غير مفعوله، ففعله خير كله، وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر، ولهذا لما كان الشر مخلوقًا منفصلاً غير قائم بالرب سبحانه وتعالى، قال ﷺ في دعائه: «والشر ليس إليك»[(٦)]، فهو لا يضاف إليه سبحانه بهذا الاعتبار، إذ هو لم يقل ﷺ وأنت لا تخلق الشر، وإنما نفى إضافته إليه وصفًا وفعلاً واسمًا، إذ الشر ليس إلا الذنوب وموجباتها وهي من أفعال العبد، مع أنها مخلوقة لله سبحانه.

وقد يكون الخلق بمعنى المخلوق كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١].

والرحمة [ك،١٩٠/ب] أيضًا قد تستعمل بمعنى المخلوق كقوله

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٩٨).

(٢) من المصدر السابق، ساقطة من الأصل.

(٣) المصدر السابق.

(٤) في الأصل: الآن، والتصويب من الاقتضاء.

(٥) الاقتضاء (٢/ ٧٩٩).

(٦) مضى تخريجه.

للجنة: أنت رحمتي[1]، والمقصود هنا أن استعاذة النبي ﷺ بعفوه ومعافاته من عقوبته، مع أنه لا يستعاذ بمخلوق، كسؤال الله بإجابته وإثابته، وإن كان لا يُسأل بمخلوق، ومن قال من العلماء: لا يسأل إلا به تعالى، لا ينافي السؤال بصفاته، كما أن الحلف لا يشرع إلا بالله، كما ثبت ذلك مما تقدم في بابه، ومع هذا فالحلف بعَمْرِ الله ولعَمْرِ الله ونحو ذلك مما ثبت عن النبي ﷺ من الحلف به لم يدخل في الحلف بغير الله، لأن لفظ الغير قد يراد به المباين المنفصل، ولهذا لم يطلق السلف وسائر الأئمة على القرآن وسائر صفات الله أنها غيره، ولم يطلقوا عليها أنها ليست غيره؛ لأن لفظ «الغير» فيه إجمال، قد يراد به: البائن المنفصل، فلا تكون صفة الموصوف أو بعضه داخلاً في لفظ: الغير.

وقد يراد به: ما يمكن تصوره دون تصوّر ما هو غير له، فيكون غيرًا بهذا الاصطلاح[2].

قال شيخ الإسلام عند ذلك: ولهذا تنازع أهل النظر في مسمى الغير، والنزاع في ذلك لفظي، لكن بسبب ذلك حصلت في مسائل الصفات من الشبهات ما لا ينجلي إلا بمعرفة ما وقع في الألفاظ من الاشتراك والإبهامات، ولهذا يفرق بين قول القائل: الصفات غير الذات، وبين قوله: صفات الله غير الله، فإن الثاني باطل، لأن مسمى اسم «الله» يدخل فيه صفاته، بخلاف مسمى «الذات» فإنه لا يدخل فيه الصفات،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ (٤/ ١٨٣٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون (٤/ ٢١٨٦) من حديث أبي هريرة، وغيرهم.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٨٠٠).

ولهذا لا يقال صفات الله زائدة عليه سبحانه وإن قيل: الصفات زائدة على الذات، لأن المراد أنها هي زائدة على ما أثبته المثبتون من الذات المجردة، والله تعالى هو الذات الموصوفة بصفاته اللازمة، فليس اسم الله متناولاً لذات مجردة عن الصفات أصلاً، ولا يمكن وجود ذلك، ولهذا قال أحمد في مناظرته للجهمية: لا نقول الله وعلمه، والله وقدرته، والله ونوره، ولكن نقول الله بعلمه وقدرته ونوره: هو إله واحد[1].

وأما قول الناس أسألك بالله والرحم، وقراءة من قرأ: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، فهو من باب التسبب بها، فإن الرحم توجب الصلة، وتقتضي أن يصل الإنسان قرابته، فسؤال السائل بالرحم لغيره، يتوسل إليه بما يوجب صلته من القرابة التي بينهما، وهو ليس أيضًا من باب الإقسام، ولا من باب التوسل بما لا يقتضي المطلوب، بل هو توسل بما يقتضي المطلوب، كالتوسل بدعاء الأنبياء، وبطاعتهم، والصلاة عليهم[2].

ومن هذا الباب ما يروى عن عبدالله بن جعفر قال: كنت إذا سألت عليًّا شيئًا فلم يعطنيه قلت له: بحق جعفر إلا ما أعطيتنيه فيعطينيه، أو كما قال[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فظن بعض الناس أن هذا من باب الإقسام عليه بجعفر، وكذلك قولهم «أسألك بحق أنبيائك» وليس كذلك، بل جعفر هو أخو علي، وعبدالله هو ابن جعفر، وله على علي

---

(١) المصدر السابق، الرد على الجهمية والزنادقة، الإمام أحمد (ص ٤٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٨٠١).

(٣) أخرجه مسلم من طرق في البر والصلة، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما (٤/ ١٩٧٩).

حق الصلة، فصلة عبدالله صلة لأبيه، كما في الحديث: «إن من البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي»[1]. وكقوله: «إن من برهما بعد موتهما الدعاء لهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة رحمك التي لا رحم لك إلا من قبلهما»[2].

ولو كان هذا من باب الإقسام عليه تعالى كما ظنه من ظنه، لكان سؤاله لعلي رضي الله عنه بحق النبي ﷺ وإبراهيم الخليل ونحوهما، أولى من سؤاله بحق جعفر، ولكان علي إلى تعظيم رسول الله ﷺ ومحبته وإجابة السائل به أسرع منه إلى إجابة السائل بغيره، لكن بين المعنيين فرق؛ فإن السائل بالنبي ﷺ طالب به متسبب به، فإذا لم يكن في ذلك السبب ما يقتضي حصول مطلوبه، ولا كان مما يقسم به كان باطلاً. وإقسام الإنسان على غيره بشيء يكون من باب تعظيم المقسِم للمقسَم به كما مر، وهذا هو الذي ورد به الحديث بإبرار القسم[3].

قال شيخ الإسلام: فإذا كان النبي ﷺ نهى عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصًا عند القبور لئلا يفضي ذلك إلى نوع من الشرك

---

(١) صحيح مسلم، برقم (٢٥٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٧)، وأبو داود في الأدب، باب في بر الوالدين (٤/ ٣٣٨)، وابن ماجه في الأدب، باب صل من كان أبوك يصل (٢/ ١٢٠٨)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٩٧)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٦٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٦٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٧١)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (٤/ ٢٨) كلهم من طرق عن عبدالرحمن بن سليمان عن أسيد بن علي بن عبيد عن أبيه عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي مرفوعًا، وفي إسناده علي بن عبيد مولى أبي أسيد قال فيه الحافظ في التقريب (ص ٤٠٣): مقبول.

وقال الألباني في المشكاة (٣/ ١٣٨٠) عن هذا الحديث: إسناده ضعيف.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٨٠٢).

بربهم، فكيف إذا وجد ما هو نوع من الشرك من الرغبة إليهم، سواء طُلب منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أو طُلب منهم أن يطلبوا ذلك من الله، بل لو أُقسم على الله ببعض خلقه من الأنبياء والملائكة وغيرهم لنُهي عن ذلك، ولو لم يكن عند قبره، يعني الإقسام به، كما لا يُقسم بمخلوق مطلقًا، وهذا القسم منهي عنه، غير منعقد باتفاق الأئمة، وهل هو نهي تحريم أو تنزيه؟ على قولين: أصحهما: أنه نهي تحريم كما مر[1].

قال: ولم يتنازع العلماء إلا في الحلف بالنبي ﷺ خاصة، وأن فيه قولين في مذهب أحمد، وبعض أصحابه كابن عقيل طرد الخلاف في سائر الأنبياء، لكن القول الذي عليه جمهور الأئمة كمالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم: أنه لا ينعقد اليمين بمخلوق البتة كما مر تقريره في بابه، ولا يقسم بمخلوق البتة، وهو الصواب[2].

والإقسام على الله بنبيه مبني على هذا الأصل في مسألة التوسل بالذات الشريفة عند شيخ الإسلام أبي العباس ومن نحا نحوه من متأخري الأصحاب، وأما جل أهل المذهب فإنهم يفرقون: فيمنعون في اليمين، منهم من عبر في ذلك بالكراهة، ومنهم من عبر بالتحريم وهو الصحيح، ويجيزون في مسألة النوسل بالذات، فمنهم من يعبر بالجواز، ومنهم من عبر بالاستحباب، ففيه هذا النزاع، ولهذا المنقول عن السلف أن المسلّم على النبي ﷺ وصاحبيه إذا فرغ من السلام وأراد أن يدعو، يستقبل القبلة إما منحرفًا عن القبر لئلا يستدبره ﷺ كما يقول الإمام أحمد والجمهور، وإما أن يستدبره ويدعو كما يروى ذلك عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس،

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٧٨٠).

(٢) المصدر السابق.

وهو المنقول عن سائر الأئمة، ليس في أئمة المسلمين من استحب [ك،١٩٠/أ] للمرء أن يستقبل قبره ﷺ في الدعاء، إلا حكاية ذكرها القاضي(١) عن محمد بن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكَ بنَ أنس في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] الآية، ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣] الآية، وذم أقوامًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] الآية، وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًّا، فاستكان لها أبو جعفر. وقال: يا أبا عبدالله، أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ قال: فقال: ولمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك [آدم](٢) إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به يشفّعْه الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤] الآية(٣).

فهذه حكاية قال فيها شيخ الإسلام: إما أن تكون ضعيفة، أو مغيَّرة، وإما أن تفسر بما يوافق مذهبه؛ إذ قد يفهم منها ما هو خلاف مذهبه المعروف بنقل الثقات من أصحابه، فإنه لا يختلف مذهبه أنه لا يستقبل القبر عند الدعاء، وقد نص على أنه لا يقف عند الدعاء مطلقًا، وذكر

---

(١) القاضي عياض، وقد مضت ترجمته.

(٢) من اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٦٤)، ساقطة من الأصل.

(٣) أخرجها القاضي عياض في الشفا (٢/ ٣٩)، وقد تعقب شيخ الإسلام هذه القصة ـ المنسوبة للإمام مالك ـ في كتابه قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص ٧٧) وأثبت بطلانها سندًا ومتنًا.

طائفة من أصحابه أنه يدنو من القبر ويسلم على النبي ﷺ، ثم يدعو مستقبلاً القبلة ويوليه ظهره، وقيل عنه لا يوليه ظهره، فاتفقوا في استقبال القبلة، وتنازعوا في تولية القبر ظهره وقت الدعاء، ويشبه والله أعلم أن يكون مالك سئل عن استقبال القبر عند السلام عليه، وهو يسمي ذلك دعاء، فإنه قد كان من فقهاء العراق من يرى أنه عند السلام عليه يستقبل القبلة أيضًا، ومالك يرى استقبال القبر في هذه الحال.

أو كما قال في رواية ابن وهب عنه: إذا سلم عليه ﷺ يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة، ويسلم ويدعو، ولا يمس القبر بيده، وفي رواية عنه يصلي عليه ويدعو له[1].

ومعلوم أن الصلاة عليه والدعاء له ﷺ توجب شفاعته للعبد يوم القيامة كما في حديث إجابة المؤذن المشهور[2].

فقول الإمام مالك رحمه الله إن كان ثابتًا في هذه الحكاية عنه فمعناه: إنك إذا استقبلت وصليت عليه، وسألت الله له الوسيلة يشفع فيك يوم القيامة، وكذلك كانوا يتوسلون بشفاعته، كسؤال الله له الوسيلة ونحو ذلك، وكذلك ما نقل من رواية ابن وهب: إذا سلم على النبي ﷺ ودعا، يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدعو ويسلم، قال شيخ الإسلام: يعني دعاءه للنبي ﷺ وصاحبيه[3].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٦٥).

(٢) حديث جابر بن عبدالله مرفوعًا: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة...» الحديث أخرجه البخاري في الأذان، باب الدعاء عند النداء (١/ ٢٢٢)، وأبو داود في الصلاة، ما جاء في الدعاء عند الأذان (١/ ١٤٣)، والترمذي في الصلاة، باب رقم (١٥٧) (٤١٣)، وغيرهم.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٦٦).

فهذا هو الدعاء المشروع هناك، كالدعاء عند زيارة قبور سائر المؤمنين، وهو الدعاء لهم، فإنه أحق الناس أن يصلى عليه ويدعى له، وبهذا تتفق أقوال مالك، ويفرق بين الدعاء الذي أحبه، والدعاء الذي كرهه وذكر أنه بدعة.

فالحكاية في تلاوة مالك هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ الآية، فهذا والله أعلم باطل، قال: فإن هذا لم يذكره أحد من الأئمة فيما أعلم(١).

قلت وقد ذكر هذه الحكاية المطري(٢) في تاريخ المدينة، ولم يذكر تلاوة الآية ولا أورد لها في الحكاية ذكرًا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولم يذكر أحد منهم أنه استحب أن يسأل بعد الموت الاستغفار ولا غيره، وهذا كلامه المنصوص عنه وعن أمثاله [ينافي](٣) هذا، وإنما يعرف مثل هذا في حكاية ذكرها طائفة من متأخري الفقهاء، عن أعرابي أنه أتى قبر النبي ﷺ وتلا هذه الآية وأنشد بيتين وهما:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ولهذا استحب طائفة من متأخري الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مضت ترجمته ص ٦٢٩.

(٣) من اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٦٦)، ساقطة من الأصل.

مثل ذلك، واحتجوا بهذه الحكاية التي لا يثبت بها حكم شرعي، لا سيما في مثل هذا الأمر الذي لو كان مشروعًا مندوبًا لكان الصحابة رضي الله عنهم والتابعون أعلم به وأعمل له من غيرهم، بل قضاء الله حاجة مثل هذا الأعرابي وأمثاله لها أسباب غير هذه[1].

وليس كل من قُضيت حاجته بسبب يقتضي أن يكون السبب مشروعًا مأمورًا به، فإن عامة العبادات المبتدعة قد يفعلها بعض الناس ويحصل له بها نوع من الفائدة، وذلك لا يدل على مشروعيته، بل لو لم يكن مفسدتها أغلب من مصلحتها لما نهي عنها، ثم الفاعل قد يكون متأولاً مخطئًا مجتهدًا، أو مقلدًا فيُغفر له خطؤه ويثابُ على ما يفعلُه من الخير المشروع المقرون بغير المشروع، كالمجتهد المخطىء.

والمقصود أنه قد عُلم أن مالكًا من أعلم الناس رحمه الله بمثل هذه الأمور، فإنه مقيم في المدينة، يرى ما يفعله التابعون وتابعوهم، ويسمع ما ينقلونه عن الصحابة رضي الله عنهم وأكابر التابعين، وهو ينهى عن الوقوف عند القبر للدعاء، ويذكر أنه لم يفعله السلف، وقد أجدب الناس على عهد عمر رضي الله عنه فاستسقى بالعباس كما كانوا يستسقون بالنبي ﷺ في حياته، وهو أنهم يتوسلون بدعائه وشفاعته لهم، فيدعو لهم ويدعون معه، كالإمام [ك،١٩١/ب] والمأمومين من غير أن يكونوا يقسمون على الله بمخلوق، ولهذا لما مات ﷺ توسلوا بالعباس واستسقوا به.

ولهذا قال الفقهاء رحمهم الله تعالى: يستحب الاستسقاء والتوسل

---

(١) المصدر السابق.

بأهل الخير والدين والصلاح، والأفضل أن يكونوا من أهل البيت، وقد استسقى معاوية رضي الله عنه بيزيد بن الأسود الجرشي[١] وقال: اللهم إنا نستسقي بيزيد بن الأسود، يا يزيد ارفع يديك، فرفع يديه فدعا، ودعا الناس حتى أمطروا[٢]. ولم يذهب أحد من الصحابة رضي الله عنهم إلى قبر نبي ولا غيره، فيستسقي عنده ولا به، ولا أقسم به على الله تعالى البتة[٣]. وليس هذا باستنقاص للنبي ﷺ وإنما هو تجريد للتوحيد الذي بعث به ﷺ، ولا أيضًا هضمًا من حقه، فإن حقه صدق متابعته ﷺ، وإنه لفوق مدح المادح ﷺ كما قال شاعره حسان رضي الله عنه يرثيه:

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد

عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبرًا بها واراه في الترب ملحد

ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجن تسعد

أطالت وقوفًا تذرف العين جهدها ... على طلل القبر الذي فيه أحمد

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد

وبورك لحد منك ضمن طيبًا ... عليه بناء من صفيح منضد

---

(١) هو يزيد بن أبي الأسود، ممن أدرك الجاهلية، واختلف في صحبته، وعداده في الشاميين، من العباد الزهاد، أدرك زمن خلافة ابن الزبير، وكان في جيش عبدالملك. انظر: الطبقات، ابن سعد (٧/ ٤٤٤)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٦٣٤).

(٢) أخرجها يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٨٠)، وأبو زرعة في تاريخه كما في الإصابة (٣/ ٦٣٤) وقال: بإسناد صحيح.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية (٢/ ٧٦٨).

<table>
<tr><td>لقد غيبوا حلمًا وعلمًا ورحمةً</td><td>عشية علّوه الثرى لا يوسد</td></tr>
<tr><td>وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم</td><td>وقد وهنت منهم ظهور وأعضد</td></tr>
<tr><td>يبكّون من تبكي السموات يومه</td><td>ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد</td></tr>
<tr><td>وهل عدلت يومًا رزية هالك</td><td>رزية يوم مات فيه محمد</td></tr>
<tr><td>يدل على الرحمن من يقتدي به</td><td>وينقذ من هول الخزايا ويرشد</td></tr>
<tr><td>فما فقد الماضون مثل محمد</td><td>ولا مثله حتى القيامة يفقد</td></tr>
<tr><td>أقول ولا يُلقى لقولي عائب</td><td>من الناس إلا عازب العقل مبعد</td></tr>
<tr><td>وليس هواي نازعًا عن ثنائه</td><td>لعلى به في جنة الخلد أَخلُد</td></tr>
<tr><td>مع المصطفى أرجو بذاك جواره</td><td>وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد(١)</td></tr>
</table>

ومن قوله رضي الله عنه وأرضاه:

<table>
<tr><td>آليت ما في جميع الناس مجتهدًا</td><td>مني ألية بر غير إفناد</td></tr>
<tr><td>[تالله] ما حملت أنثى ولا وضعت</td><td>مثل الرسول نبي الأمة الهادي(٢)</td></tr>
</table>

وقد جعله الله تبارك وتعالى خيرًا لأمته، ورحمة لهم حيًّا وميتًا، فعند البزار بسند رجاله رجال الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم»(٣).

---

(١) ذكرها ابن هشام في السيرة (٢/ ٦٦٩) وقد اختصرها المؤلف، واقتصر على بعضها.

(٢) المصدر السابق (٢/ ٦٧١) وقد وقع في الأصول: (بالله) موضع (تالله).

(٣) أخرجه البزار في مسنده من طريق عبدالمجيد بن عبدالعزيز بن أبي رواد عن سفيان =

ومر في الباب الحادي والعشرين.

وعند الدارمي وغيره عن أبي الجوزاء أوس بن عبدالله قال: قحط أهل المدينة قحطًا شديدًا فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كُوىً إلى السماء، حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف.

قال: ففعلوا فمطرنا حتى نبت العشب وسمنت الإبل، حتى تفتقت

= عن عبدالله بن السائب عن زاذان عن عبدالله هو ابن مسعود مرفوعًا: «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «حياتي خير لكم تُحدثون ويُحدَث لكم، ووفاتي خير لكم، تُعرض علي أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم».

ثم قال البزار: لم نعرف آخره يروى عن عبدالله إلا من هذا الوجه.

وذكره الحافظ ابن كثير في البداية (٥/ ٢٤٩): ثم قال: قلت: وأما أوله وهو قوله عليه السلام: «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام» فقد رواه النسائي من طرق متعددة عن سفيان الثوري وعن الأعمش كلاهما عن عبدالله بن السائب به».

وقد أعل الشيخ ناصر في الضعيفة (٢/ ٤٠٤) الحديث بمخالفة عبدالمجيد بن أبي روّاد للثقات ممن روى عن سفيان هذا الحديث، وحكم بشذوذ هذه الزيادة، وقال بعد أن أورد كلام ابن كثير السابق:

«قلت فاتفاق جماعة من الثقات على رواية الحديث عن سفيان دون آخر الحديث «حياتي خير لكم...»، ثم متابعة الأعمش له على ذلك مما يدل عندي على شذوذ هذه الزيادة، لتفرد عبدالمجيد بن عبدالعزيز بها، لا سيما وهو متكلم فيه من قبل حفظه مع أنه من رجال مسلم، وقد وثقه جماعة وضعفه آخرون... ولهذا قال فيه الحافظ في التقريب: صدوق يخطىء».

ثم نقل قول الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٢٨) عن إسناد البزار: «ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عبدالمجيد بن أبي رواد وإن أخرج له مسلم، ووثقه ابن معين والنسائي، فقد ضعفه بعضهم».

من الشحم، فسمي عام الفتق[1].

وذكر المطري أن أهل المدينة لم يزل يفعلون ذلك بعد، ومعلوم غير مجهول أن هذا نوع من التوسل بذاته الشريفة ﷺ، وأن الآمر به أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبيها فليس ببدع[2].

---

(١) سنن الدارمي (١/ ٥٦) برقم (٩٢).

قال شيخ الإسلام: وما روي عن عائشة رضي الله عنها من فتح الكوة من قبره إلى السماء لينزل المطر فليس بصحيح، ولا يثبت إسناده، وإنما نقل ذلك من هو معروف بالكذب، ومما يبين كذب هذا أنه في مدة حياة عائشة لم يكن للبيت كوة، بل كان بعضه باقيًا كما كان على عهد النبي ﷺ بعضه مسقوف وبعضه مكشوف، وكانت الشمس تنزل فيه، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ كان يصلي العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء بعد، ولم تزل الحجرة كذلك حتى زاد الوليد بن عبدالملك في المسجد في إمارته لما زاد الحُجَر في مسجد الرسول ﷺ وكان نائبه على المدينة ابن عمه عمر بن عبدالعزيز، وكانت حجر أزواج النبي ﷺ شرقي المسجد وقِبليه، فأمره أن يشتريها من مُلّاكها ورثة أزواج النبي ﷺ فاشتراها وأدخلها في المسجد، فزاد في قبلي المسجد وشرقيه، ومن حينئذ دخلت الحجرة النبوية في المسجد، وإلا فهي قبل ذلك كانت خارجة عن المسجد في حياة النبي ﷺ وبعد موته، ثم إنه بُني حول حجرة عائشة التي فيها القبر جدار عال، وبعد ذلك جُعلت الكوة لينزل منها من ينزل إذا احتيج إلى ذلك لأجل كنس أو تنظيف.

وأما وجود الكوة في حكاية عائشة، فكذب بين، ولو صح ذلك، لكان حجةً ودليلاً على أن القوم لم يكونوا يقسمون على الله بمخلوق ولا يتوسلون في دعائهم

ففوائد بركته ﷺ لا تعد ولا تحصى، ومن فوائد موته أنه فرط لنا على الحوض كما صح بذلك عنه الخبر[1]، ومنها عرض صلاة من صلى عليه[2]، وكذا أعمالنا عليه[3]، ومنها الإثابة بالحزن بموته وتسهيل كل مصيبة بمصيبته[4]، والاعتبار والتأسي به كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ

= ففعلهم ليس بحجة، والعجب من المؤلف كيف يعارض بهذه القصة الواهية ما نقله سابقًا عن «اقتضاء الصراط المستقيم» من الأدلة على عدم مشروعية التوسل بالذوات، إلا أن يكون هذا من تصرف أحد النساخ؛ فإن القصة ملحقة بالهامش على طريقة المؤلف في إلحاقاته، فالله أعلم.

(١) كما في حديث عقبة بن عامر مرفوعًا: «إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض...» أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٤/ ١٤٨٦)، ومسلم في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ (٤/ ١٧٩٥)، وغيرهم.

(٢) كما في حديث أوس بن أوس مرفوعًا: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي...» أخرجه أبو داود في الصلاة، باب فضل يوم الجمعة (١/ ٢٧٤)، والنسائي في الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة (١/ ٩١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة (١/ ٣٤٤)، وأحمد في المسند (٤/ ٨)، والدارمي في سننه (١/ ١٩٠)، والطبراني في الكبير (١/ ٢١٦)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١١٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤١٣) وقال: على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (٣/ ٢٤٨)، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي (ص ٣٧)، كلهم من طريق حسين بن علي الجعفي ثنا عبدالرحمن بن يزيد عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس به وقد صححه جماعة منهم ابن كثير في البداية (٥/ ٢٤٩)، والألباني في تحقيقه لكتاب فضل الصلاة على النبي ﷺ للقاضي إسماعيل المالكي (ص ٣٧).

(٣) كما في حديث ابن مسعود مرفوعًا: «حياتي خير لكم... ووفاتي خير لكم، تعرض علي أعمالكم...». وقد مضى تخريجه قبل قليل.

(٤) كما في حديث عائشة مرفوعًا: «أيما أحد من الناس أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري فإن أحدًا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد =

﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومنها الرحمة الناشئة من اختلاف الأمة، وارتفاع الشدائد في التوقير وغير ذلك، رزقنا الله والمسلمين التمسك بسنته، والاهتداء بهديه إنه كريم وهاب.

= عليه من مصيبتي». أخرجه ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١/ ٥١٠)، وأورده الشيخ ناصر الألباني رحمه الله في صحيح ابن ماجه (١/ ٢٦٧) وقال: صحيح.

الباب الرابع والستون
(باب لا يستشفع بالله على خلقه)

الاستشفاع: طلب السؤال في التجاوز، وحصول المطلوب من المشفوع عنده هي الشفاعة[1]، والخلق هنا بمعنى: المخلوق، وقد يستعمل ذلك في الشرع كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١]، وأما على الإطلاق فالخلق عند جمهور السنة غير المخلوق كما قد نبهنا عليه في هذا الشرح.

وهكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الرد على أهل البدع: أن الخلق غير المخلوق، وقاله غيره من علماء السنة.

قال أبو داود في سننه: حدثنا عبدالأعلى بن حماد ومحمد بن المثنى ومحمد بن بشار وأحمد بن سعيد الرباطي قالوا: حدثنا وهب بن جرير قال: حدثنا أبي قال: سمعت محمد بن إسحاق يحدث عن يعقوب بن عتبة **(عن جبير)** [ك،١٩١/أ] بن محمد بن **(جبير بن مطعم)** عن أبيه عن جده **(قال: جاء أعرابي)** وفي الأصل: أتى رسول الله ﷺ أعرابي، والأعرابي يطلق على من يسكن البادية، والعربي من يسكن البادية والقرى من العرب. **(إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نهكت الأنفس)** وفي الأصل: جهدت الأنفس، النهك: المبالغة في إخلاء الشيء، ومنه: نهكت الناقة حلبًا إذا لم يبق في ضرعها شيء، فالنهك المبالغة في كل شيء[2]، يقال: نهكته السنة إذا أهزلته وأذابته، ونهكته الحمى

---

(١) في الأصل: «وهي الشفاعة» بالواو، ولعلها سبق قلم.

(٢) انظر: النهاية، ابن الأثير (٥/ ١٣٧).

كذلك، والنهك: النقص أيضًا قال زهير بن أبي سلمى:

ولا تكـونـنْ كـأقـوام علمتهـم يلوون ما عندهم حتى إذا نهكوا[1]

والجهد بالفتح: غاية المشقة، وهو المراد هنا، فاللفظان متقاربان، وأما الجهد بالضم: فهو الوسع والطاقة[2]، وليس مرادًا هنا.

(وجاع) وفي الأصل وضاع **(العيال، وهلكت الأموال)** وفي الأصل: ونهكت الأموال وهلكت الأنعام، **(فاستسق لنا ربك)**.

الاستسقاء: هو طلب السقيا من الله سبحانه. وذلك أن الأعرابي لما علم أن السقيا إنما هي من الله تعالى، وأنه المفزع عندما يُنزل بالعبد، وعلم أن محمدًا ﷺ رسول رب العالمين، وأن ربه هو الذي ينزل الغيث على عباده وبلاده، طلب من رسول الله ﷺ هذا الأعرابي أن يستسقي لهم ربه، وفي قوله: استسق لنا ربك من حيث هذه الإضافة الخاصة، سر لطيف وتنويه منيف، فكأن هذا المتكلم بكلامه يشير إلى التوسل إلى الله سبحانه بألوهيته وربوبيته، فمن الألوهية الإشارة بالانقياد لرسوله والإذعان بالطاعة، وبها يحصل العمل الصالح، حيث لم يتقدم عليه بالاستسقاء، بل سأله أن يستسقي لهم، وهذا من جنس توسل الصحابة به ﷺ وبصالح أصحابه، كما قال الفاروق عمر بن الخطاب: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا، فيسقون[3].

---

(١) انظر: غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٦٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (١/ ٣٢٠).

(٣) مضى تخريجه ص١٩٩٨.

وكما توسل معاوية رضي الله عنه [بيزيد بن الأسود][1]، بحيث يقدمونهم بين يديهم متوسلين بدعائهم، وهذا من السنة التي عليها السلف الصالح، حيث يقتدون في أمور دينهم بأفضلهم، ومن هذا سؤال الرجل النبي ﷺ، كما في الصحيحين وغيرهما عن أنس لما دخل المسجد يوم الجمعة، والنبي ﷺ يخطب أن يستسقي لهم، فاستسقى على المنبر فسقوا سبتًا، حتى سألوه أن يسأل الله سبحانه أن يقلعها عنهم[2]، في أحاديث ليس هذا موضع إيرادها، وفي بعض ألفاظها أنهم لما سقوا وهو على المنبر قال ﷺ: لو حضر أبو طالب هذا اليوم، فقال علي بن أبي طالب وكان تحت المنبر: كأنك يا رسول الله تعني قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال[3] اليتامى عصمة للأرامل

فقال رسول الله ﷺ أجل[4].

وفي البخاري عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه قال: ربما ذكرت

---

(١) في الأصل: (بالأسود)، وهو خطأ، راجع ص ٢٠٣١.

(٢) كما في حديث أنس عند البخاري في الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع (١/ ٣٤٣)، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء (٢/ ٦١٢)، وغيرهم.

(٣) الثمال: بالكسر: الملجأ والغياث، وقيل: هو المطعم في الشدة.
انظر: النهاية، ابن الأثير (١/ ٢٢٢).

(٤) إحدى روايات حديث أنس الذي في الصحيحين أخرجها أبو نعيم في دلائل النبوة (٢/ ١٨٤)، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٢/ ٦٣، ٦٦) من رواية مسلم الملائي عن أنس، والملائي هو مسلم بن كيسان الضبي الأعور، قال الحافظ في التقريب (ص ٥٣٠): ضعيف وقال في الفتح (٢/ ٤٩٥): إسناد حديث أنس ـ يقصد من طريق الملائي ـ وإن كان فيه ضعف إلا أنه يصلح للمتابعة.

قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقي فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب:

وأبيضَ يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال: وهو قول أبي طالب[١].

ولكن السائل في هذا الحديث الذي أورد المصنف رحمه الله تعالى أخطأ الأدب مع ربه جل وعلا، حيث قال: **(فإنا نستشفع بالله عليك)** حتى أرشده سيد البشر ﷺ بما بين له من عظمة الله وكبريائه جل وعلا، بحيث إذا علمها الجاهل علم يقينًا أن من هذا جلاله وكبرياؤه وعظمته، لا يستشفع به على خلقه، إذ القائل لهذا الكلام لم يقصد بقوله هذا مخالفة الله ورسوله، كما أن القائل يوم حنين: اجعل لنا ذات أنواط[٢]، لم يقصد المضادة لما بعث به ﷺ[٣] بحيث أنهم كفوا عن ذلك لما أرشدهم، حيث أعظم مقالتهم.

(وبك على الله) وفي الأصل: فإنا نستشفع بالله عليك، وفي قوله: وبك على الله دليل على تقديم أهل الخير والصلاح، خصوصًا أهل المتابعة

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا (١/ ٣٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٤/ ٤٧٥) من حديث أبي واقد الليثي، وأحمد في المسند (٥/ ٢١٨)، والطيالسي في مسنده (ص ٩١)، والحميدي في مسنده (٢/ ٣٧٥)، وعبدالرزاق في مصنفه (١١/ ٣٦٩)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٣٠)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٩٤)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٤).

(٣) وذلك بسبب جهلهم وحداثة إسلامهم كما في إحدى الروايات عند الطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٤): «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم...».

له ﷺ الخالين عن البدع في سؤال الله تعالى كالاستسقاء، وأن للإنسان أن يسألهم الدعاء ويستشفع بهم، لأنه ﷺ لم ينكر طلب الاستشفاع به، وإنما أنكر واستعظم استشفاعهم بالله تعالى عليه، وكثيرًا ما يسأله أصحابه الدعاء، كما سألته أم أنس بن مالك لأنس أن يدعو له، وكما سألته المرأة أن يدعو لزوجها، وقال لعمر: «لا [تنسنا][1] يا أخي من دعائك»، وكان أصحابه يأتونه بصبيانهم ليبرك عليهم ويدعو لهم، ودعا لأصحابه في بركة أزوادهم غير مرة وكذا في الماء حيث جاش من بين أصابعه الشريفة[2]، وثبت في الصحيحين وغيرهما أن أصحابه ﷺ كانوا يقبلون يده تبركًا به.

ومن طلب الدعاء استسقاء الفاروق عمر بن الخطاب بعمه العباس ابن عبدالمطلب، وكذا معاوية [بيزيد بن الأسود][3]، وقد ثبت ذلك عنهما في الصحيحين[4] وغيرهما.

وذكر ابن قتيبة في كتابه أن عمر رضي الله عنه خرج بالعباس يستسقي به فقال: اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وفيه: وإنك تقول: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] فحفظتهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيك في عمه، فقد دلونا به إليك مستشفعين.

ومعنى دلونا أي: أدلينا ومَتَتْنَا به إليك، واستشفعنا به، وهو التقرب

(١) في الأصل: (تنسانا) والتصويب من المسند (١/ ٢٩).
(٢) راجع دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٨٣ _ ٢٥٧).
(٣) في الأصل: (بالأسود)، وهو خطأ، وانظر ما سبق ص ٢٠٣١.
(٤) إنما أخرج خبر عمر مع العباس البخاري دون مسلم كما سبق في ص ١٩٩٨، أما خبر معاوية مع يزيد فليس في الصحيحين كما سبق ص ٢٠٣١.

أيضًا، والمقصود: بدعائه، ليقبل سبحانه منه، وإلا لم يكونوا عادلين عن النبي ﷺ إليه لو كان المقصود مجرد الذات، وهذا أمر مجمع عليه في الأمة، لا ينكره إلا مكابر أو جاهل بالسنة وأحوال السلف رضي الله عنهم.

(**فقال رسول الله ﷺ**) عند ذلك متعجبًا تعجب إنكار على هذا القائل: (**سبحان الله**) وسبحان مصدر سبحت الله سبحانًا وتسبيحًا، مميز منصوب على الحال، والمعنى: قولوا سبحان الله، وعن الخليل وسيبويه أن معنى سبحان الله: براءة الله أي: تنزه عن النقائص. ففسراه بالبراءة التي هي [ك،١٩٢/ب] مصدر، لأن عندهما أنه مصدر لم يستعمل فعله، ولو استعمل لقيل: سبح سبحانًا، كغفر غفرانًا، وكذا قال الخطابي: أن معناه التنزيه والتفريد بالكمال، والتبرئة عن النقائص[(١)].

قلت: قد ورد استعمال العرب تصريفه، قال زيد بن عمرو بن نفيل[(٢)] وقيل ورقة[(٣)] بن نوفل:

سبحان ذي العرش سبحانًا يدوم له وقبلنا سبح الجودي[(٤)] والجمد[(٥)]

---

(١) غريب الحديث، الخطابي (١/ ٦٨٥).

(٢) العدوي القرشي، أحد من اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية، ودعا قومه لذلك فأخرجوه من مكة، توفي قبل البعثة بخمس سنين.
انظر: الأغاني، الأصبهاني (٣/ ١١٧)، الأعلام، الزركلي (٢/ ٦٠).

(٣) وهو أيضًا ممن اعتزل عبادة الأوثان في الجاهلية، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان، عنده علم في كتب الملل السابقة، وقصته مع خديجة في سؤالها عن جبريل عندما نزل على النبي ﷺ في غار حراء مشهورة.
انظر: الأغاني، الأصبهاني (٣/ ١١٣)، الأعلام، الزركلي (٨/ ١١٤).

(٤) الجودي جبل بالجزيرة يقال أن سفينة نوح استوت عليه، والجمد: جبل بنجد.
انظر: معجم البلدان، ياقوت (٢/ ١٧٩، ١٦١).

(٥) البيت لورقة بن نوفل في الأغاني (٣/ ١١٥).

والجودي والجمد جبلان بالحجاز[1]، وتسبيحهما دلالتهما على الله سبحانه، ولم تستعمله العرب إلا منصوبًا مضافًا، وقد يجيء غير مضاف فيترك صرفه كقول الأعشى:

أقــول لمــا جــاءنــي فخــره   سبحان ابن علقمة الفاخر[2]

قاله متعجبًا تعجب إنكار على علقمة بن علاثة، حيث طلب الفخر على عامر بن الطفيل، وعكَس ذلك في علقمة الحطيئة فنصر علقمة[3]، وهو كما قال؛ إذ ابن الطفيل[الغادر بالقراء...][4]. وإنما لم يصرفه الأعشى لأنه معرفة، وفي آخره ألف ونون زائدتان، كأنه أجري مجرى الأعلام كسفيان وصفوان، وانتصابه انتصاب المصادر المقامة مقام أفعالها، من حيث لا يذكر معها أفعالها التي تنصبها، وإذا قال القائل: «سبحان الله» فكأنه قال: أسبحُ الله سبحانًا، وهو من الله تعليم أن يبرّئوه وينزهوه عن كل عيب ونقص، فهو تسبيح المتيقظين، وثمرة فكر المتنبهين، بحيث يوجب ذلك الفكر حثًّا للباطن، وقلقًا للقلب، وندمًا للنفس، فيثمر أن يقول الفاعل، أو القائل لما لا يجوز: أستغفر الله إذا تنبه بالتسبيح لعظمة الله سبحانه وكبريائه، فهذا هو التسبيح والاستغفار، والغافلون يقولون ذلك عادة، فشتان بين الفريقين.

---

(١) انظر: معجم البلدان، ياقوت (٢/ ١٦١، ١٧٩)، وفيه أيضًا أن الجودي جبل في الموصل مطل على دجلة، يقال أن سفينة نوح استوت عليه.

(٢) في ديوانه ص ١٠٦: فجره، الفاجرِ.

(٣) كانت بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل منافرة مشهورة، وكان الحطيئة فيها من أنصار علقمة، وله في تفضيله ونصرته قصائد، انظر ديوانه: ٣٣، ٢٨٧، وكان الأعشى من أنصار عامر.

(٤) آخر الكلام غير واضح في الأصل وفيه طمس، لكن مراده ظهر.

(فما زال) رسول الله ﷺ (يسبح، حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه) استعظامًا منهم لما استعظمه ﷺ، وهذا يدل على شدة متابعتهم، واستعظامهم لما عظم الله ورسوله، وأن طريقتهم التسليم فيما جاء عن الله ورسوله من صفات الباري جل وعلا وغيرها، (ثم قال:) ﷺ للأعرابي (ويحك) وهي كلمة توجع وترحم لمن وقع في هلكة، منصوبة على المصدر، (أتدري ما الله؟) هكذا استفهام وتنبيه على عظمة ذاته سبحانه، وجلال صفاته، ولهذا قال: (إن شأن الله) الشأن: الخطب والأمر والحال، جمعه: شئون، (أعظم من ذلك) يعني: يتعالى عن الذي ذكرت، أتى بأفعل التفضيل مبالغة لعظمة الله تعالى على عادة العرب، لأنها علامة عندهم في الثناء والمدح للمفضل، وأعظم الشيء أكبره، فهو عظيم جل وعلا عن أن يستشفع به على أحد، فلا تحده العقول، ولا تتصور الإحاطة بكنهه، فهو العظيم الذي ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾، قد أحاط بمخلوقاته قدرةً وعلمًا ولا يحيطون به علمًا[1]، فلعظمته وجلاله وكبريائه وارتفاعه، قال رسول الله ﷺ لهذا

---

(١) يوجد أسفل الأصل إلحاق في أوله طمس، ويبدو أن موضعه هنا، وفيما يلي نصه مصححًا على قدر الطاقة، وموضع النقط غير مقروء:

[. . . . ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ . . الإنسان. . إنما. . تصور. . ممثلاً وهو لا يحيط بنفسه وروحه التي هو حي بها تكييفًا فكيف بالعلي العظيم الذي لا يحيط به خليقته علمًا.

وقد أوقع المتكلمون الشك على الناس في أنفسهم حيث تجادلوا في تكييف حقيقة هذا الآدمي المصور في صورة ظاهرها معلوم عقلاً ولغةً وشرعًا قد رتبت عليه الأحكام وارتبط به الابتلاء والامتحان، فهو معلوم بدنه ـ أو بدءه ـ . .، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾، وقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ السورة، وخاطب من يفهم =

القائل تعظيمًا لربه تبارك وتعالى: (**إنه لا يستشفع بالله على أحد. وذكر الحديث. رواه أبو داود**)(1).

وفي أصل أبي داود: فقال رسول الله ﷺ: ويحك أتدري ما تقول؟ وسبح رسول الله ﷺ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم

= بما يفهم، ولم يجعلوا فيه شكًا ولا ابتدعوا فيه مقالاً، ولهذا ذكر أبو... أن أعرابيًا دخل مسجد البصرة وسمع قومًا من المتكلمين يتجادلون في الإنسان، وينتحل كل واحد فيه قولاً غير الآخر.. بحجته على نحلته، فقام عنهم وخرج على باب المسجد وهو ينشد شعرًا:

إن كنـت أدري فعلـيّ بدَنَـهْ
من كثرة التخليط فيّ من أَنَهْ

وهذا التخليط والتخبيط من المتكلمين حيث داروا حول إثبات حقيقة ما حجبه الله تحت ستار الغيب في الروح لقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى﴾، فكيف الكلام في الباري جلت عظمته] وانظر خبر الأعرابي في نفح الطيب (٥/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(1) أخرجه أبو داود في السنة، باب في الجاهلية (٤/ ٢٣٠)، والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٤)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص ٢٧٢)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٣٩)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٢)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٣٢)، والدارقطني في الصفات (ث ٥٠)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٣٩٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٥)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٧٥) كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده به، وفي إسناده جبير بن محمد بن جبير قال الحافظ في التقريب (ص ١٣٨): مقبول.

ولم يتابعه أحد، وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس كما في التهذيب (٩/ ٣٨) وقد عنعن ولم يصرح بالتحديث.

وهذا الحديث استغربه الحافظ ابن كثير في التفسير (١/ ٤٥٨)، وقال الذهبي في العلو (١/ ٤١٣) بعد إيراده الحديث: «هذا حديث غريب جدا فرد وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب، فالله أعلم أقال النبي ﷺ هذا أم لا..». وقال الألباني في ظلال الجنة (١/ ٢٥٢): إسناده ضعيف.

قال: إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ثم قال: ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه على سمواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القبة عليه وإنه ليئط أطيط الرحل بالراكب.

قال أبو داود: قال ابن بشار في حديثه: إن الله تعالى فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته، وساق الحديث.

وقال عبدالأعلى وابن المثنى وابن بشار عن يعقوب عن عتبة وجبير ابن محمد بن جبير عن أبيه عن جده، والحديث بإسناد أحمد بن سعيد هو الصحيح، وافقه عليه جماعة منهم يحيى بن معين، وعلي بن المديني، ورواه جماعة عن ابن إسحاق، فهذا قاله الإمام أحمد محتجًّا به رضي الله عنه وصححه[1].

قال أبو سليمان الخطابي: وقوله «إنه ليئط» معناه إنه ليعجز عن جلاله وعظمته حتى يئطّ به، إذ كان معلومًا أن أطيط الرحل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه لعجزه عن احتماله، فقرب بهذا عنده [معنى][2] عظمة الله وجلاله وارتفاع عرشه على خلقه، ليعلم أن الموصوف بعلو الشأن في ارتفاع الذات[3] وجلالة القدر وفخامة الذكر، لا يجعل شفيعًا إلى من هو دونه في القدر، وأسفل منه في الدرجة، وهو يتعالى سبحانه أن يكون مشبّهًا بشيء، أو مكيفا بصورة خلق، أو مُدركا بحدٍّ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقد ذكر البخاري هذا الحديث في التاريخ من رواية جبير بن

---

(١) سنن أبي داود (٤/ ٢٣١).

(٢) في الأصل: من، والتصويب من معالم السنن للخطابي (٧/ ٩٦) دار المعرفة.

(٣) (في ارتفاع الذات) ليست في معالم السنن وأظنها زيادة من المؤلف. أراد أن يتحاشا بها مافي كلام الخطابي من إيهام تأويل العلو بعلو القدر دون الذات.

محمد عن أبيه[١]، ولم يدخله في الجامع الصحيح، وقد ذكرنا كلام إمام دار الهجرة مالك بن أنس في مسألة الاستواء بما أغنى عن إعادته[٢].

وقال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثني أبي ثنا عبدالرحمن بن سفيان عن أبي إسحاق عن عبدالله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إذا جلس الرب على الكرسي سمع له أطيط كأطيط الرحل الجديد[٣].

قال: وحدثني أبي ثنا وكيع بحديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبدالله بن خليفة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إذا جلس الرب، فاقشعر رجل سماه أبي عند وكيع، فغضب وكيع وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يتحدثون بهذه الأحاديث لا ينكرونها[٤].

قال عبدالله أيضًا: وحدثني أحمد بن إبراهيم ثنا علي بن الحسن سألت عبدالله بن المبارك: كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا؟ قال: على السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية إنه ههنا في الأرض[٥].

وقال أيضًا: حدثني أبي ثنا وكيع عن سفيان عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٤).

(٢) مضى تخريجه.

(٣) مضى تخريجه والحكم بضعفه.

(٤) مضى تخريجه.

(٥) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ١١١)، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٨)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص ٢٣)، وصححه شيخ الإسلام في الحموية (ص ٤١)، وابن القيم في اجتماع الجيوش (ص ٨٤).

الكرسي موضع قدميه، والعرش لا يقدر أحد قدره[(١)].

ثم روى من جهة أبيه بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه قال: الكرسي موضع القدمين، وله أطيط كأطيط الرحل[(٢)].

وقد سئل شيخ الإسلام قدس الله روحه عن هذه الأحاديث فأجاب بثبوتها، ورواية [ك،١٩٢/أ] السلف[(٣)] رضي الله عنهم لها[(٤)].

وهكذا قال عبدالله بن الإمام أحمد عن أبيه، وقد حدثه بها كما ترى، ولا نطيل الكلام، لأنا قد ذكرنا منه طرفًا في الباب التاسع والثلاثين، وذكرنا سبب ما نُحل إلى شيخ الإسلام أبي العباس ابن تيمية من الكذب عليه في ذلك وبطلانه، وأنه منه بريء، وهو مما قد حصل بيني وبين عثمان بن سند[(٥)] بسببه ومسائله الاعتقادية المنازعة بالبصرة أوجبت الرد عليه[(٦)] كما ذكرته في الرد الدامغ على من زعم أن ابن تيمية زائغ بما

---

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في المسند (١/ ٣٠١)، وابن جرير في تفسيره (٥/ ٣٩٨)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، والدارقطني في الصفات (ص ٤٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الذهبي في العلو، وقال الألباني في مختصر العلو (ص ١٢٤): إسناده موقوف صحيح ورجاله كلهم ثقات.

(٢) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٠٢)، والذهبي في العلو (مختصر العلو ١٢٣) وقال: وليس للأطيط مدخل في الصفات أبدًا، بل هو كاهتزاز العرش لموت سعد، وكتفطر السماء يوم القيامة ونحو ذلك. وقال الألباني رحمه الله في شرح الطحاوية بتحقيقه (ص ٣١٠): لا يصح في أطيط العرش حديث.

(٣) ابتداء من هذه الكلمة اختلف خط النسخة. بما يبدو أنه بدلٌ لورقة تالفة.

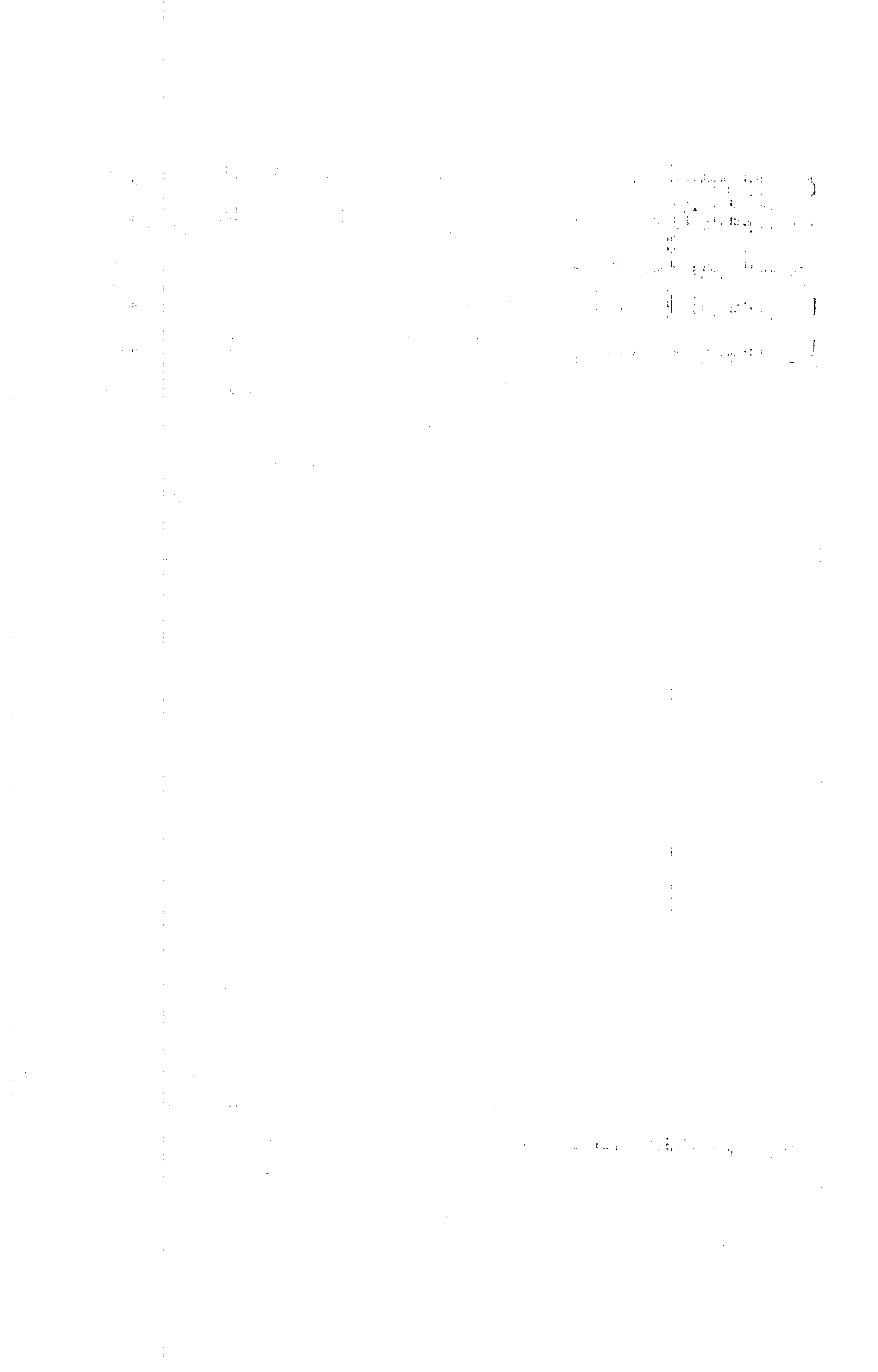
(٤) انظر بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٧٠).

(٥) مضت ترجمته في قسم الدراسة.

(٦) كذا في طرة الأصل، وهو من النصوص الملحقة، ولا يخلو من ركاكة، لكن المراد واضح.

أغنى عن إعادته في هذا الباب[1]، لأن طريقه الإيمان والتسليم مع قطع النظر عن التشبيه والتعطيل بالتأويل فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠]، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] السورة، وأما الكلام على الاستشفاع فقد مضى بيانه، وتوضيحه فيما سبق، والله تعالى الموفق.

(١) راجع عن «الرد الدامغ» ما سبق في قسم الدراسة، ضمن الكلام على مؤلفات المصنف.



الباب الخامس والستون

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

قوله: **(حماية)** هو مصدر حمى يحمي - بفتح المثناة التحتية وضمّها -[1] حماية، وهي المنع، و**(المصطفى)**: هو المختار من الشيء والمصفّى منه، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، فهو ﷺ صفوة الرسل، وأفضل أولي العزم.

وما أحسن ما قال فيه ﷺ عمه أبو طالب حيث يقول:

إذا اجتمعت يومًا قريشٌ لمفخرٍ ... فعبدُ منافٍ سرُّها وصميمُها

وإن حُصّلت أشراف عبد منافها ... ففي هاشم أشرافُها وتميمُها[2]

وإن فخرت يومًا فإن محمدًا ... هو المصطفى من سرِّها وكريمُها[3]

وقد ذكر شيخ الإسلام قدس الله روحه تفضيله على الملائكة في جواب له[4]، و«حِمَى» اسم للمصدر الواقع عليه الفعل، وأُضيف إلى **(التوحيد)** إضافة الشيء إلى جملته، **(وسده)** مصدر أيضًا، وهو اسم فعل أضيف إلى الفاعل، و**(طرق الشرك)**: مناهجه، وقد يقال: إن

---

(١) يقصد: يَحمي، يُحمى.

(٢) في سيرة ابن هشام: وقديمها.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٩).

(٤) انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٣٥٠).

الشيخ رحمه الله تعالى كرر هذا الباب؛ حيث قال في ترجمة الباب الحادي والعشرين: باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك، وليس كذلك، فإن تلك الترجمة أعم وأبلغ في التحذير في عدم المقاربة، وهذه الترجمة أخص، فهناك ترجم على حماية جناب التوحيد، والجناب كما تقدم في اللغة: الناحية، وقال هنا: حمى التوحيد، فهذا اللفظ أخص، وذاك أعم في التحذير بعدم المقاربة، وقال هناك: وسده كل طريق يوصل إلى الشرك، وقال هنا: وسده طرق الشرك، وهذا اللفظ أخص من هناك، فتأمله فإنه ظاهر للمتأمل، وهذا من دقته وفطنته رحمه الله، فكأنه أمر بحماية نواحي الحمى، وحذر عن قربانها في تلك الترجمة، ثم خصص بالحض على حماية الحمى نفسه الذي حميت النواحي لأجله، فكيف إذا وصل إلى الحمى المحذور، فإنه لا بقية مع استباحة الحمى والله الموفق.

وهذا كما قدم رحمه الله التحذير عن الشرك الأصغر على الأكبر، ثم أورد رحمه الله حديثًا يوهم التكرير، فيكون أورد الأول للتمرين على عادة المتقدمين، ثم أورد هذا تقريرًا وتنبيهًا على خطر المقام، مع أن الترجمة لا تعطي التكرير، وإنما تعيد الاستدلال، فقال مطرف بن عبدالله **(عن) أبيه (عبدالله بن الشخّير)** بكسر الشين المعجمة وتشديد الخاء المعجمة، **(قال: انطلقت في وفد بني عامر بن صعصعة)** وهم قومه، إذ هو عبدالله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقدان بن معاوية الحريش ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة الحرشي، من مسلمة الفتح رضي الله عنه[1]، ومطرف هذا هو الذي قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

---

(١) انظر ترجمته: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٣٨٠)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٣١٦).

يا مطرف، أَحُبُّ عثمان منعك من أن تأتينا؟ أما والله لئن أحببته لقد كان أصدقنا حياء، وأوصلنا للرحم[1].

وأخو مطرف أبو العلاء بن عبدالله بن الشخير، كان شريفًا فقيهًا، تؤخذ عنه الآثار[2].

(إلى رسول الله ﷺ فقلنا) أي: بعد وصولنا إليه **(أنت سيدنا، فقال: السيد الله)** وفي رواية: **السيد** هو الله، مزيد تأكيد وإفادة للحصر، ومبالغة في تعظيم ربه تبارك وتعالى، وتواضع لنفسه، فحول الأمر فيه إلى الحقيقة مراعاةً [لآداب][3] الشريعة والطريقة، والمعنى أنه سبحانه هو الذي يملك نواصي الخلق ويتولى أمورهم ويسوسُهم؛ إذْ له الخلق والأمر وإليه يرجع الأمر كله، وهذا لا ينافي [سيادته][4] المجازية الإضافية المخصوصة بأفراد الإنسانية، حيث قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[5].

أي: لا أقول ذلك افتخارًا، بل متحدثًا بنعمة الله تعالى، وإخبارًا بما أمرني وأكرمني به، وقد روى البخاري في صحيحه عن جابر أن عمر كان يقول: أبوبكر سيدُنا، وأعتق سيدنا[6]. يعني بلالاً، وهو بالنسبة إلى بلال

---

(١) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ١٩٤).

(٢) انظر ترجمته: الطبقات، ابن سعد (٧/ ٥٥)، الحلية، أبو نعيم (٢/ ٢١٢).

(٣) في الأصل والمسودة: «لادات»، والصواب ما أثبته.

(٤) في الأصل والمسودة: «سياسة»، ولا معنى لها هنا، وما أثبته هو الموافق للسياق.

(٥) أخرجه مسلم في الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٢) من حديث أبي هريرة وأبو داود في السنة، باب في التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٤/ ٢١٧).

(٦) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب بلال (٣/ ١٣٧١)، وأحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٣٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/ ٢٠٢)، وغيرهم.

تواضع.

وفي الترمذي وقال حسن صحيح عن عمر قال: أبوبكر سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله ﷺ[1].

وقال ابن الأثير في قوله ﷺ «السيد الله» أي: الذي يحق له السيادة، كأنه كره أن يحمد في [ك،١٩٣/ب][2] وجهه، وأحب أن يتواضع[3].

قال أبو جعفر النحاس[4]: وينبغي أن لا يرضى أحد أن يخاطب: يا سيدي، وأن ينكر ذلك كما فعل رسول الله ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقه إلا أن يكون على سبيل الإرشاد، وكما فعل ﷺ، وإلا فقد قال ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم»[5]. يعني سعدًا[6] وهو يسمع، وقال: «إن ابني هذا سيد»[7].

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٥/٦٠٦).

(٢) لا توجد في هذه اللوحة صفحة (أ).

(٣) النهاية، ابن الأثير (٢/ ٤١٧).

(٤) أحمد بن حمد أبو جعفر النحاس، إمام العربية، صاحب التصانيف توفي سنة ٣٣٨هـ. انظر: المنتظم، ابن الجوزي (٦/ ٣٦٤)، سير أعلام النبلاء، الذهبي (١٥/ ٤٠١).

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد، باب إذا نزل العدو على حكم رجل (٣/ ١١٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم في الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد (٣/ ١٣٨٨)، وغيرهم.

(٦) هو سعد بن معاذ رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣/ ١٣٢٨) من حديث أبي بكرة، وأبو داود في السنة، باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة (٤/ ٢١٥)، والترمذي في المناقب، باب مناقب الحسن والحسين (٥/٦٥٨)، وغيرهم.

وقال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1].

وقال هنا: (**قولوا قولكم**) وقال هذا في موضع آخر، والقول في هذا أنه لا يجوز أن يقال لمنافق ولا كافر ولا فاسق يا سيدي، لما ورد في ذلك من حديث كما سيأتي، ويقال لغيرهم ذلك لما ذكرنا، وهذا خلاف إطلاق أبي جعفر النحاس هنا.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: أن سعد بن عبادة قال: يا رسول الله أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجلاً ويقتله.. الحديث.

فقال رسول الله ﷺ: انظروا إلى ما يقول سيدكم[2].

(**فقلنا: وأفضلنا فضلاً**) أي: مزية ورتبة، (**وأعظمنا طَوْلاً**) أي: عطاءً للأحباء، وعلوًّا على الأعداء، (**فقال**) رسول الله ﷺ أي مجيبًا لهم: (**قولوا قولكم**) أي: مجموع ما قلتم، (**أو بعض قولكم**) هذا، مبالغة منه ﷺ في التواضع في قوله **أو بعض قولكم**، وهذا بظاهره يرد قول النحاس.

وقيل المعنى: قولوا قولكم المعتاد، المسترسَل فيه بالسجية دون المستعمَل للإطراء، والمتكلِّف لمزيد الثناء، وحاصله لا تبالغوا في مدحي فضلاً عن غيري، (**ولا يستجرينكم الشيطان**) أي: لا يتخذنكم جَرِيًّا بفتح الجيم وكسر الراء المهملة وتشديد المثناة التحتية، أي: كثير

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في اللعان (٢/ ١١٣٥)، وأبو داود في الديات، باب في من وجد مع امرأته رجلاً أيقتله (٤/ ١٧٩)، وابن ماجه في الحدود، باب الرجل يجد مع امرأته رجلاً (٢/ ٨٦٨)، وغيرهم.

الجري في طريقه ومتابعة خطواته، وقيل: هو من الجرأة بالهمزة. أي: لا يجعلنكم ذوي شجاعة على التكلم بما لا يجوز، وعلى المعنى الأول لا يغلبنكم فيتخذكم جريًا أي رسولاً ووكيلاً، يقال: أجري، يجري، جريا، قال جرير بن الخطفى:

أخالدُ كان الصرم بيني وبينكم ... دلالاً فقد أجرى البعاد إلى الهجر[1]

وقال العرجي العثماني:

فلما هذاهنّ الجريُّ لمجلسٍ ... وهن به لولا التجاهلُ أَبصرُ[2]

ومنه حديث جرهم في قصة هاجرَ التي في الصحيحين: فبعثوا جريًّا أو جريّين[3].

وذلك أنهم مدحوه ﷺ فكره لهم المبالغة في المدح، فنهاهم عنه، وأمرهم أن يتكلموا بما يحضرهم من القول على المعنى الثاني، ولا يتكلفوا فيصيروا كأنهم وكلاءُ الشيطان ورسلُه ينطقون على لسانه، لعلمه ﷺ أن أديان الرسل لم تغير إلا من جهة الغلو، حذرًا أن يصيبهم من ذلك ما أصاب الأمم، مع أن قضاء الله واقع، ولكن تبليغًا لما حمّل تبليغه.

وقال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: أراد ﷺ: قولوا بقول أهل دينكم وملتكم وادعوني نبيا ورسولا، كما سماني الله تعالى في كتابه، ولا تسموني سيدًا كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم، لأني لست كأحد منهم؛

---

(١) ديوانه: (١/ ٤١٩).

(٢) ديوانه: ص٢٢٤.

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٢٢٨) رقم (٣١٨٤)، ولم أجد هذه اللفظة في صحيح مسلم.

لأن سَوْدهم إياكم في أمر الدنيا، وأنا أسودكم فيما هو سبب فلاحكم في الدنيا والآخرة[١].

ومعنى السؤدد في اللغة والحقيقة: هو الذي بلغ الغاية في الفضائل، وفاق الأقران والنظراء في خصال الكمال، فقد قال زهير بن أبي سلمى:

يمينًا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم[٢]

عنى زهير بذلك اللذَينِ أصلحا[٣] بين عبس وذبيان في حرب داحس حتى وضعت عنهما الحرب أوزارها، وذلك لا يصدر إلا عن حلم ونائل[٤] وشجاعة، فاستحقا السيادة بذلك.

ويروى أن سلم بن نوفل سيد بني كنانة وثب رجل من قومه على ولده وابن أخيه فجرحهما، فجيء بالرجل إليه فقال: ما أمّنك من انتقامي؟ قال له الرجل: ما سوّدناك علينا إلا لتكظم الغيظ عنا، وتحلم عن الجاهل، وتحتمل المكروه، فخلّى عنه فقال فيه الشاعر:

يُسوَّدُ أقوامٌ وليسوا بسادةٍ ... بل السيدُ الصِّنْدِيدُ سلمُ بن نوفلِ

فالسؤدد عند العرب إنما يتصف به مِن جميع الخصال المحمودة

---

(١) معالم السنن، الخطابي (٤/ ١١٢)، إلا أن آخر النص هناك: وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة، فسمّوني نبيا ورسولاً.

(٢) من معلقة زهير المشهورة، انظر: ديوان زهير بن أبي سلمى (ص ١٤).

(٣) هما الحارث بن عوف بن أبي حارثة، وهَرِمُ بن سنان بن أبي حارثة. انظر شرح المعلقات لابن الأنباري ص ٢٣٦.

(٤) من النوال بمعنى الهبة.

من جمعها.

وقد قال أسد بن عبدالله[1] لرجل من بني شيبان: بلغني أن السؤدد فيكم رخيص، فقال: أما نحن فلا نُسوّد إلا من يعطينا رحله، ويُفرِشُنا عِرْضه، ويُخدِمُنا نفسَه، ويبذل لنا ماله، فقال: إنه إذًا فيكم لعزيز[2].

ولهذا قال عبدالرحمن بن عبدالله بن عتبة بن مسعود المعروف بالمسعودي[3]:

سأفرش نفسي التي خُوِّلَتْ ... وأوثر نفسي على الوارثِ

أبادر إنفاق مستحمد ... بماليَ أو عبثِ العابثِ[4]

وقال ياقوت في مختصر الجمهرة: قال عوانة: وفدت بلقين من قضاعة على معاوية رضي الله عنه فقال: ما كان قطبة بن الخضراء فيكم؟ قالوا يا أمير المؤمنين سادنا يومًا إلى الليل، أي: لم يدع فينا

---

(١) القسري البجلي، أمير، من الأجواد الشجعان ولاه أخوه خالد القسري خراسان سنة ١٠٨هـ، توفي في بلخ سنة ١٢٠هـ.
انظر: الكامل، ابن الأثير (٥/ ٧٩)، الأعلام، الزركلي (١/ ٢٩٨).

(٢) انظر غريب الحديث للخطابي (٣/ ١٤٥).

(٣) من نسل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فقيه، علامة، محدث، توفي سنة ١٦٠هـ. انظر: المعرفة والتاريخ، الفسوي ١٠/ ١٤٨)، تذكرة الحفاظ، الذهبي (١/ ١٩٧).

(٤) انظر غريب الحديث للخطابي (٣/ ١٤٥) والبيتان في الأغاني للأصفهاني (٩/ ١٧٢) من شعر عبيدالله بن عبدالله، وروايتهما هناك هكذا:

أعاذلَ عاجل ما أشتهي ... أَحَبُّ من الآجلِ الرائثِ

أبادر إهلاكَ مستهلك ... لمالي أو عبثَ العابثِ

ولدًا، قال: فأخبروني عن صخر بن أبي عمرو؟ قالوا: كان إذا غاب شتمناه، وإذا حضر أطعناه، قال: هذا والله السؤدد، يعني تهابونه إذا حضر وتحسدونه إذا غاب.

وقال الزبير بن بكار: حدثني أبو الحسن المدائني قال: سأل معاوية عرابة الأوسي[1] فقال: بأي شيء سدت قومك؟ قال: أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأعقلهم في حوائجهم، فمن زاد على هذا فهو خير مني، ومن زدت عليه فأنا خير منه، ومن ساواني فهو مثلي[2].

وعند ابن أبي الدنيا أن مروان بن الحكم قال لوهب الثقفي وهو ابن الأسود: ما المروءة فيكم؟ قال: العفاف وإصلاح المال، فقال مروان: علي بعبدالملك وعبدالعزيز، فلما أتيا قال: اسمعا ما يقول عمّكما، قال: فما السؤدد؟ قال: الحلم والتأويل، قال: وي اسمعوا.

قال: وقال عبدالملك بن مروان لرجل من قريش: إنا كنا نعدّ الحلم وإعطاء المال سؤددًا، ونعد القيام على المال وإصلاحه مروءة.

قال: وحدثني محمد بن الحارث بن المبارك عن شيخ من قريش قال: دخل على الأحنف سيد بني تميم وهو يجر يد شاة، فقال الداخل: ما هذا من عمل السيد، فقال الأحنف:

فإن لها ربًا صبورًا على القِرى ... وليس القِرى في نفس جحش بهيّنِ

(١) الحارثي الأنصاري، من ضمن من استصغره النبي ﷺ يوم أحد، كان من المشهورين بالجود، توفي نحو سنة ٦٠هـ.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٤٦٦)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٤٥٥).
(٢) الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار (ص ١٨٧).

والحاصل أن السيد بالحقيقة الكاملَ هو الله سبحانه وتعالى، الذي لا مثل له، والنبي ﷺ سيد ولد آدم؛ لأنه فوقهم في المراتب والفضائل، وهذا ظاهر، ولهذا قال ﷺ على المعنى الأول: قولوا قولكم أو بعض قولكم، قاله لما أتوا بمعنى السيادة في حقه ﷺ، وقد قال هو فيما صح عنه وثبت: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1].

ولما نزلت قريظة على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في حياة رسول الله ﷺ فجاء سعد فلما رآه رسول الله ﷺ قال للأنصار: «قوموا إلى سيدكم»[2]. فأثبت له المنزلة على جميعهم، وحكم بأنه أفضلهم، فسعد ابن معاذ في حياة رسول الله ﷺ أفضل الأنصار، ولا علم لأحد بأفضلهم بعد موته.

قال الحافظ ابن العربي: فصار السيد يطلق عند العرب على من يُرجع إليه في الآراء، وينفذ قوله في الأمور [ك،١٩٣/ أ]][3] على الجمهور.

ولما فيه من الخصال الحميدة المحمودة، ولذلك قال الشاعر:

ألا بكّر الناعي بخير بني أسد   بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمدْ

قال ابن هشام: قالته هند بنت معبد بن نضلة تبكي عمرو بن مسعود وخالد بن نضلة عميها الأسديين، اللذين قتلهما النعمان بن المنذر وبنى عليهما [الغريين][4] بالكوفة.

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) مضى تخريجه.

(٣) لا توجد في هذه اللوحة صفحة (ب)، وببدايتها ينتهي اختلاف الخط الذي أشرنا إليه سابقًا.

(٤) من سيرة ابن هشام (١/ ٥٧٢)، غير واضحة في الأصل، والغريان بناءان طويلان: يقال هما قبر مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش، وسميا الغريين لأن النعمان كان =

وهو سبحانه هو الذي يُصمد إليه في الأمور، ويقصد فيها بكل معنى كما تقدم بيانه، وقد قال تعالى في معرض المدح ليحيى بن زكريا عليهما السلام: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩]، فهذا في سيادة النبوة، وسمى سبحانه الزوج سيدًا فقال: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، وتقدم في المتن قوله ﷺ في حديث الصحيحين في المملوك: «وليقل سيدي ومولاي»[(١)].

ومنه الحديث الذي رواه أبو داود بسنده عن طلحة بن عبدالله بن كريز قال حدثتني أم الدرداء قالت: حدثني سيدي أبو الدرداء أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قالت الملائكة: آمين ولك بمثل ذلك»[(٢)].

قال أبو سليمان الخطابي: للسيد في هذا معنيان:

أحدهما: أن يكون بمعنى الرئيس، وأن تكون أرادت هذا القول لتسويده رضي الله عنه وتعظيمه[(٣)].

وقد كان رضي الله عنه فقيهًا عاقلاً حليمًا، آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سلمان الفارسي[(٤)].

= يغريهما بدم من يقتله في يوم بؤسه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (١٥/ ١٢٢).

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب (٢/ ٩٠)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٤/ ٢٠٩٤)، وأحمد في المسند (٥/ ١٩٥)، وغيرهم.

(٣) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٤٥).

(٤) انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٥٩).

قال في أسد الغابة في أسماء الصحابة: وقال ﷺ: «عويمر حكيم أمتي»[1].

ورواه الحارث بن أبي أسامة عن أبي المثنى المليكي مرسلاً[2]، فبهذا يستحق المدح والسيادة، ولهذا قال ابن عيينة: قال ابن أبي حسين: كان أبو الدرداء رضي الله عنه من العلماء الحكماء، الذين يشفون الداء[3].

وقال مكحول: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: أتبعنا للعلم بالعمل أبو الدرداء.

وفي حديث أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء أنه قال: سلوني فوالذي نفسي بيده لئن فقدتموني لتفقدن زملاً عظيمًا من أمة محمد ﷺ[4]. يريد أنه من كثرة ما جمعه من العلم وأحرزه منه كالحمل العظيم من المتاع المحزوم المزموم بالزمل، فلهذا سمته سيدًا.

والوجه الآخر: وهو أخصهما به أن يكون بمعنى الزوج[5]، وقاله ابن الأعرابي، وقاله غير واحد في قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، قال الأعشى:

وسيد نعم ومستادها[6]

(١) أسد الغابة، ابن الأثير (٦/ ١٠٤)، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ.

(٢) أخرجه الحارث في مسنده (بغية الباعث ٢/ ٩٢٥).

(٣) الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٦٠).

(٤) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٣٤٢)، وفيه: «رجلًا» مكان «زملًا».

(٥) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٤٥).

(٦) المصدر السابق (٢/ ٣٤٦).

ويقال: استاد الرجل في بني فلان، إذا نكح في ساداتهم، قال الشاعر:

أراد ابن كوز والسفاهة كاسمها ليستاد منا أن شتونا لياليا[1]

وقد يتناول ذلك حديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه الخطابي عن ابن الأعرابي قال: حدثنا أبو سعيد الحارثي حدثنا يحيى بن سعيد القطان حدثنا رجل يقال له محمد الرمام قال: حدثتني كريمة بنت همام قالت: كنت عند عائشة فسألتها امرأة عن الخضاب فقالت: كان سيدي رسول الله ﷺ يكره ريحه، وليس بمحرم عليكنّ أخواتي أن تختضبن[2].

قال: وأشبه الوجهين أن تكون أرادت زوجي؛ لأن الإضافة بالاسم الخاص يدل على معنى خاص، وقد كان ﷺ سيد المسلمين كافة، وهي للخلق قاطبة[3].

وفي البخاري عنه ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «بُعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا حتى كنت من القرن الذي كنت منه»[4].

---

(١) غريب الحديث للخطابي (٢/ ٣٤٥).

(٢) أخرجه الخطابي في غريب الحديث (٢/ ٣٤٦)، وأبو داود في الترجل، باب في الخضاب للنساء (٤/ ٧٤) من طريق علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير قال: حدثتني كريمة بنت همام أن امرأة أتت عائشة به، وأخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢١٠)، والبيهقي بنفس طريق الخطابي (٧/ ٣١١)، وفي إسناده كريمة بنت همام، قال الحافظ في التقريب (ص ٥٧٢) مقبولة. وقال الألباني في ضعيف أبي داود (ص ٤١١): ضعيف.

(٣) غريب الحديث، الخطابي (٢/ ٣٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣/ ١٣٠٥).

وعند مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه مرفوعًا: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[1].

وعند الترمذي عنه ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة»[2].

وعند مسلم أيضًا في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع»[3].

قلت: ومع هذه الأحاديث قد تجد من قد ضاق بالجهل عطنه، ولم تسرح في رياض العلم فطنه، من يتحاشى في حقه ﷺ من أن يقول عنه سيدنا، وتسمحُ نفسه أن يقول سيد المرسلين، وإن كان هو كذلك، إذ هو كما أخبر عن نفسه ﷺ فيما صح عنه وثبت، أنه قال: «آدم فمن دونه تحت لوائي»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ١٦٤)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/ ٤٧٢)، وغيرهم.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل النبي ﷺ (٥/ ٥٨٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) مضى تخريجه.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة بني إسرائيل (٥/ ٣٠٨) من طريق علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي...» وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان ضعفه الحافظ في التقريب (ص ٤٠١)، إلا أن للحديث طرقًا وشواهد يصح بها منها حديث عبدالله بن =

ولكن قال من تواضعه ـ لما قيل له: يا خير البرية ـ: «ذاك إبراهيم[1]»: وقيل: إنه قبل أن يُعرّف بمنزلته، ويُكشف له عن مرتبته، ومنه قوله: «لا تفضلوني على موسى»[2]، وكذا قال في يونس بن متى عليهم أفضل الصلاة والسلام[3].

ولما ذُكر كليم الرحمن موسى بن عمران عنده ﷺ في قصة اليهودي والمسلم في الاصطفاء، ذكر ﷺ فضيلة موسى وأخذه بقوائم العرش[4].

وهذا المتحاشي عن التلفظ بسيادة سيد البشر ﷺ له مع سماحة

= سلام عند أبي يعلى في مسنده (١٣/ ٤٨٠) وفي إسناده عمرو بن عثمان الكلابي ضعفه الحافظ في التقريب (ص ٤٢٤)، وحديث ابن مسعود عند ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٩٨)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٩٩) وصححه بمجموع طرقه.

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم ﷺ (٤/ ١٨٣٩) من حديث أنس بن مالك، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة لم يكن (٥/ ٤٤٦)، وأحمد في المسند (٣/ ١٧٨)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري في الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة (٢/ ٨٤٩) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل موسى عليه السلام (٤/ ١٨٤٣)، وغيرهم.

(٣) قال شارح الطحاوية (١/ ١٦١): هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها، وإنما اللفظ الذي في الصحيح «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» وفي رواية: «من قال: إني خير من يونس بن متى، فقد كذب». أخرج اللفظ الأول البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾ (٣/ ١٢٥٣) من حديث أبي هريرة، ومسلم في الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام (٤/ ١٨٤٦)، وغيرهم. وأخرج اللفظ الثاني البخاري في التفسير، باب ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ (٤/ ١٦٨١).

(٤) جزء من حديث أبي هريرة المتقدم «لا تخيروني على موسى».

نفسه بسيادته ﷺ لجميع رسل رب العالمين، ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام إلى يوم الدين ـ قد أتى بذلك أمرًا عظيمًا، لو درى حقيقة ما يؤول إليه أمره، فإنه إما مترفع بذلك عن رسل رب العالمين، الذين منهم أولو العزم: إبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام، أو غير مذعن للانقياد له ﷺ والخضوع لما جاء به من رب العالمين من الأمر الذي يقع ملائكته خضعانًا له، فيالله العجب! ما أقبح الجهل بأهله، فإياك أن تغتر بمن يتنسك بالجهل وهو لا يدري ما يؤول إليه ما ارتكب، [فلأَن](١) يتحاشى عن أن يقول سيد المرسلين أولى من أن يتحاشى أن يقول سيدنا، مع أنه ﷺ لم [يتحاش](٢) عن قوله «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(٣)، فلم [يتحاش] ﷺ في ذلك إلا من الفخر والارتفاع عن منزلته التي أنزله [ك،١٩٤/ب] الله إياها، فإنه نهى أمته عن ذلك، وعن الغلو في دينهم كفعل من قبلهم، أو يطروه كإطراء النصارى المسيحَ بن مريم عليه السلام، وأما إطراؤه ﷺ بما أثبته لنفسه فليس كإطراء النصارى للمسيح بن مريم، إذ لم يكن ذلك داخلاً في النهي، فهو ﷺ نبينا ورسولنا وسيدنا وحبيبنا الذي هو أحب إلينا من أنفسنا فضلاً عن أولادنا وأهالينا، إذ لا يتم الإيمان إلا بتلك المحبة، ونرجو ممن أرسله أن يشفّعه فينا، فهو الذي سادنا وساد أمته بأمر مرسله ونهيه، حتى أُنفذ أمره، وعلا دينُه وسؤدده على جميع الأديان والسادات، حتى أُعطي ﷺ في حياته مفاتيح جميع ما فتح الله على أمته من البلدان بعده، ولم يرض ﷺ بسؤدد يخرج عن أمر ربه، حتى نهى عن تسمية الفاسق سيدًا، ولم

---

(١) في الأصل: فلئن.

(٢) في الأصل: (لم يتحاشا)، في الموضعين.

(٣) مضى تخريجه.

يثبت للبخيل سيادة، ولما قال لبني سلمة فصيلةٍ من الأنصار رضي الله عنهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس[1] إلا أنا نبخّله. وفي رواية: على ما به من البخل، قال ﷺ: «وأي داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح[2] الجعد الأبيض»[3].

وكان الجد أيضًا يتهم بالنفاق، فلم يثبت له ﷺ السيادة لذلك ولبخله، وإن كان رأسًا فيهم، فبين ﷺ في الحديث المتقدم في المتن أن السيد الكامل على الحقيقة هو الله تبارك وتعالى، ولهذا لا يكون سيدًا في لسان الشارع إلا من ساد بأمره تبارك وتعالى وأمر رسوله ﷺ، وأما الخارج عن ذلك فلا يسمّى سيدًا، وأمرهم ﷺ أن يدعوه بأعلى المراتب في حقه نبيًّا ورسولاً، كما سماه الله بذلك في كتابه ليبين لهم وجه سيادته لهم، لا كما يسودهم به رؤساؤهم وعظماؤهم؛ إذ هو ﷺ إنما يسودهم بالنبوة والرسالة، ومكارم الأخلاق، بما يرضي العظيم الخلاّق.

والمعنى من حديث الباب: لا تسموني سيدًا كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم بذلك إلا على هذا الوجه، لا على وجه سؤدد رؤساؤكم،

---

(١) الأنصاري السلمي، أبو عبدالله، قال ابن عبدالبر: كان ممن يغمص عليه النفاق من أصحاب رسول الله ﷺ، وقد قيل إنه تاب فحسنت توبته فالله أعلم.
انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٢٥٤)، الإصابة، ابن حجر (١/ ٢٣٠).

(٢) الأنصاري السلمي، من سادات الأنصار، استشهد بأحد، ورآه النبي ﷺ يطأ في الجنة بعرجته. انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٢/ ٤٩٦)، الإصابة، ابن حجر (٢/ ٥٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ١١١)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٩٧)، وقال الألباني: صحيح كما في صحيح الأدب المفرد (ص ١٢٥).

وإلا فهو السيد كما قال شاعره حسان رضي الله عنه:

بالله ما حملت أنثى ولا وضعت　　　مثل النبي رسول الأمة الهادي[1]

ولهذا قال فيه ﷺ بعد كلمة له:

وأكرم بيتًا في البيوت إذا انتمى　　　وأكرم جدا أبطحيا يسوّدُ[2]

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب[3] رضي الله عنه يرثي النبي ﷺ ويخاطب فاطمة الزهراء رضي الله عنها:

فقبر أبيك سيد كل قبر　　　وفيه سيد الناس الرسول[4]

وقال الأعشى عبدالله بن الأعور التميمي يخاطب النبي ﷺ في قصيدة حين أنشدها بين يديه:

وهن شر غالب لمن غلب

فجعل رسول الله ﷺ يرددها يقول: وهن شر غالب لمن غلب، لما نشزت عليه امرأته معاذة حين ذهب يمتار لها من هجر[5]،

---

(١) ضمن قصيدة يرثي بها المصطفى عليه الصلاة والسلام ذكرها ابن هشام في السيرة (٢/ ٦٧١).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٦٦٨).

(٣) الهاشمي، ابن عم الرسول وأخوه من الرضاعة، أرضعتهما حليمة السعدية، كان ممن يؤذي الرسول ﷺ بهجائه، أسلم يوم فتح مكة، وشهد حنينًا، فكان ممن ثبت، توفي سنة ٢٠هـ. انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ٩٠).

(٤) ضمن قصيدة طويلة يرثي بها المصطفى عليه الصلاة والسلام، ذكرها ابن عبدالبر في الاستيعاب (٤/ ٨٥).

(٥) مضى التعريف بها ص ١٠٦.

وعاذت برجل من قومه بني مازن فيما رواه عبدالله بن الإمام أحمد وغيره يقال له: مطرف بن نهصل:

يا سيد الناس وديّان العرب   أشكو إليك ذربة من الذرب

في أبيات له وفيها: وهن شر غالب لمن غلب.

فجعل رسول الله ﷺ يرددها يقول: وهن شر غالب لمن غلب، فكتب النبي ﷺ في امرأته إلى ابن عمه ليخلي بينه وبينها، فلما بلغها الخبر قالت للرجل حين استعذر منها بكتاب رسول الله ﷺ: إن كنت لابد مخليًا بيني وبينه فخذ لي منه، في قصة طويلة[1]، المقصود منها البيت الشاهد الذي أنشده بين يدي النبي ﷺ فلم ينكره.

ولهذا قال شمس الدين ابن القيم رحمه الله: وتحرم التسمية بسيد الناس لأنه علم على رسول الله[2] ﷺ، فهو خيار من خيار بني آدم، فأمره ﷺ عظيم عند الله، وقدره كريم، رُزق العاقبة، ومُكّن له في الأرض، وملك أعداءه فمنّ عليهم، وسُوّد على جميع الخلق، وأُعطي لواء الحمد، ورفعت درجته على الخلق بكونه شفيعهم لفصل القضاء بإذنه تعالى،

---

(١) أخرجها عبدالله بن أحمد في زوائده على المسند (٢/ ٢٠٠)، والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٦١)، وابن سعد في الطبقات (٧/ ٥٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ٢٩٦)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٢٨٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٩٩)، وابن حبان في الثقات (٣/ ٢١)، والبيهقي (١٠/ ٢٤٠)، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٢٧): «رواه عبدالله بن أحمد والطبراني وأبو يعلى والبزار وقال إن اسم الأعشى عبدالله بن الأعور، ورجالهم ثقات. قلت: وله طرق أطول من هذه في النكاح في باب النشوز».

(٢) تحفة المودود، ابن القيم (ص ١١٥).

وهو المقام المحمود الذي وعده جل وعلا.

قال الحافظ ابن العربي المالكي رحمه الله: ويجلسه معه على عرشه كما ورد بذلك الخبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه[(١)]: وقد ثبت في ذلك الحديث؛ فقد حدث به العلماء المرضيون والأئمة [المقبولون][(٢)]: أن محمدًا رسول الله ﷺ يجلسه ربه معه على العرش، روى ذلك محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد[(٣)] في تفسير: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وذكر ذلك من وجوه أخر مرفوعة وغير مرفوعة.

وقال محمد بن جرير: وهذا ليس مناقضًا لما استفاضت به الأحاديث الصحيحة من أن المقام المحمود هو الشفاعة، باتفاق الأمة من جميع من ينتحل الإسلام ويدعيه، لا يقول أن إجلاسه على العرش منكر[(٤)]، وإنما أنكره بعض الجهمية، ولا ذِكْرُه في تفسير الآية منكر[(٥)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٧٤) وليس فيه جملة: (وقد ثبت في ذلك الحديث).

(٢) في الأصل: المعقولون، وفي مجموع الفتاوى: وأولياؤه المقبولون.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ٤٣٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٠٥)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٥/ ١٤٥)، والخلال في السنة (١/ ٢٤٣)، والآجري في الشريعة (٤/ ١٦١٣) كلهم من طريق محمد بن الفضيل عن ليث عن مجاهد به، وفي إسناده ليث بن أبي سليم قال الحافظ في التقريب (ص ٤٦٤): «صدوق اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك».

(٤) قال الإمام الذهبي في العلو (١/ ١٠٨١): فأما قضية قعود نبينا على العرش فلم يثبت في ذلك نص، بل في الباب حديث واه. وللشيخ الألباني بحث قيم حول هذه المسألة وتضعيف أثر مجاهد في مختصر العلو (ص ١٥ - ٢١) تحسن مراجعته.

(٥) انتهى كلام شيخ الإسلام وهو في مجموع الفتاوى (٤/ ٣٧٤)، وانظر تفسير الطبري (١٥/ ١٤٥) حيث رجح رحمه الله بعد أن ذكر القولين في المقام المحمود بأن=

وقد ذكره أبو عبدالرحمن عبدالله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة[١].

ومن فضله ﷺ أن أمته تُقدّم على الأمم، ويُستشهد به وبهم عليهم، ليظهر له المزية، وليعلي لمرتبته، ويوجب له بذلك الشرف الأقصى، وذلك ليس بعمل استوجبه، وإنما هو بفضل منه سبحانه، ومنّة منّ بها عليه وعلى أمته، وكذلك جميع الخلق من الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين والخلق أجمعين، ولئن كان أعطى سبحانه المنازل للأنبياء بالبلاء، لقد أعطاها لمحمد ﷺ بالعافية والعلاء، وضاعف له الأجر ولأمته في حُرمته، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

[ك،١٩٤/أ] وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما مجموعًا[٢] قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم ـ أو إنما أجلكم في أجل من خلا قبلكم من الأمم ـ كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمّالاً فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط[٣]، فعملت اليهود [وأوتي][٤] أهل التوراة التوراةَ فعملوا

= المقصود به هو الشفاعة العظمى يوم القيامة وليس إقعاده ﷺ على العرش، وهو الحق الثابت في الصحاح وغيره.

(١) أخرجه عنه الخلال في السنة (١/ ٢٤٣).

(٢) الظاهر أنه يقصد بهذه الكلمة أنه جمع ألفاظ الحديث من مواضعه في صحيح البخاري حيث رواه في سبعة مواضع بألفاظ مختلفة، لكن ورد في اللفظ الذي أثبته هنا أخطاء كما نبهنا.

(٣) القيراط: جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشره في أكثر البلاد.
انظر: النهاية، ابن الأثير (٤/ ٤٢).

(٤) في الأصل: وأتى، والتصويب من صحيح البخاري.

[بها][1] حتى إذا انتصف عجزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم [أوتي][2] أهل الإنجيل [الإنجيل][3] قال ابن دينار: فقال: من يعمل من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى إلى صلاة العصر ثم عجزوا، فأوفوا قيراطًا قيراطًا، ثم [أوتينا][4] القرآن، قال: من يعمل من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟ فعملتم به حتى غربت الشمس، فأعطيتم قيراطين. فغضب اليهود والنصارى وقالوا: ربّنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطًا قيراطًا، ونحن كنا أكثر عملاً وأقل عطاءً؟ قال الله تبارك وتعالى: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، قال: فهو فضلي أوتيه من أشاء، واستكملوا أجر الفريقين»[5].

فهو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، إن عذب الخلق أجمعين فبعدله، وإن رحمهم أجمعين فبفضله، إذ هم خلقه وعبيده، وإن نوّعهم فبحكمته وحكمه، وكان من أمره جل وعلا أن فضّل محمدًا ﷺ على جميع الخلق، فأشاع فضله، وذُكر في الصحف الأولى، ثم في كتابه العربي المبين بالبيان الأوفى، وأدناه جل وعلا منه حتى كان قاب

---

(١) ليست في الأصل، وألحقتها من الصحيح.

(٢) في الأصل: أتى.

(٣) ساقطة من الأصل، ألحقت من نص الحديث.

(٤) في الأصل: أتينا.

(٥) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام (٤/ ١٩١٧)، والترمذي في الأمثال، باب ما جاء في مثل ابن آدم وأجله وأمله (٥/ ١٥٣)، وأحمد في المسند (٢/ ١٢١)، وغيرهم.

قوسين أو أودنى، وحدث ﷺ أمته بفضله ورفعته، وإكرام الله له في المقام المحمود لأهل الموقف بشفاعته، ولما قال له عمه العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه كما رواه ابن إسحاق وابن عبدالبر وابن منده وابن سعد أبو نعيم وغيرهم من حفاظ الإسلام: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك فقال له النبي ﷺ: قل، قال فأنشد بين يديه يقول:

من قبلها طبت في الظلال[1] وفي ... مستودع[2] حيث تخصف الورق[3]

ثم هبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة ولا علق[4]

بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسرا[5] وأهله الغرق[6]

تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق[7]

---

(١) أي طبت في ظلال الجنة. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة (ص ١٤٧).

(٢) يعني الموضع الذي استودعه من الجنة. المصدر السابق.

(٣) أي: حيث خصف آدم وحواء عليهما السلام من ورق الجنة، وإنما أراد أنه ﷺ كان إذ ذاك طيبًا في صلب آدم. المصدر السابق.

(٤) يريد أن آدم هبط البلاد، فهبطت في صلبه، وأنت إذ ذاك لا بشر ولا مضغة، ولا دم. المصدر السابق.

(٥) يريد الصنم الذي كان يعبده قوم نوح عليه السلام وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾. النهاية، ابن الأثير (٥/ ٤٧).

(٦) يريد أنك نطفة في صلب نوح عليه السلام حين ركب الفلك. تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة (ص ١٤٧).

(٧) يريد أنه يتنقل في الأصلاب والأرحام، فجعله طيبًا وهابطًا للبلاد، وراكبًا للسفن، من قبل أن يخلق، وإنما يريد بذلك آباءه، الذين اشتملت أصلابهم عليه. المصدر السابق.

حتى احتوى بيتك المهيمنُ من خندف علياء دونه النطق[1]

وأنت لما بُعثت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبْل الرشاد نخترق[2]

وهذه الأبيات على هذا الوجه مشهورة، تلقتها الأمة بالقبول، واشتهرت حتى صار طلب الإسناد لها كالعبث[3].

فلقد كان ﷺ طيبًا في الأصل، طيبًا في النشأة، طيبًا في المطعم، طيبًا في المسكن، طيبًا في المعيشة، طيبًا في الوفاة، طيبًا في المدفن، طيبًا في الآخرة، فالحاصل من معنى قوله ﷺ في حديث عبدالله بن الشخّير في الباب، بعدما جرى بنا القلم في فضل سيد البشر، ومعنى سيادته في الشرع واللغة، أنه يقول: إني لست كأحد من رؤسائكم؛ إذ كانوا يَسُودونكم في أسباب الدنيا، وأنا أسُودكم بالرسالة والنبوة، فسموني

---

(١) النطق: جمع نطاق وهي أعراض من جبال، بعضها فوق بعض: أي نواح وأوساط منها، شبهت بالنطق التي يشد بها أوساط الناس، ضربه مثلاً له في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته، وجعلهم تحته بمنزلة أوساط الجبال، وأراد ببيته شرفه، والمهيمن نعته، أي حتى احتوى شرفك الشاهد على فضلك أعلى مكان من نسب خندف.
النهاية، ابن الأثير (٥/ ٧٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢١٣) من حديث خريم بن أوس الطائي به، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٦٩) وقال: رواته أعراب ومثلهم لا يضعون، وذكره الذهبي في السير (٢/ ١٠٣)، وتعقب الحاكم بقوله: قلت: ولكنهم لا يعرفون. وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١٨): رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم.
وذكر هذه الأبيات ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/ ٤٢٧) في ترجمة خريم بن أوس الطائي، وكذلك ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ١٤٦).

(٣) هذه مجازفة من المؤلف، كما تبين من التعليق السابق.

رسولاً نبيًا؛ لأنها المنزلة التي لا منزلة وراءها لأحد من البشر، فنسبته إلى ما دونها وضع من منزلته ﷺ.

ولما قال له رجل آخر كما في جامع ابن وهب وغيره: أنت أشرفنا حسبًا، وأكرمنا أمًّا وأبًا. فقال له: «كم دون لسانك من طبق؟» قال: أربعة أطباق، فقال: «فما كان فيها ما يزع عني عزب لسانك»[١].

(رواه أبو داود بسند جيد)[٢]، ورواه الإمام أحمد بسند صحيح حيث قال: ثنا حجاج ثنا شعبة قال: سمعت قتادة سمعت مطرف بن عبدالله بن الشخير يحدث عن أبيه، فذكر نحو حديث أبي داود[٣]، فهذا إسناد صحيح متصل بالتحديث والسماع، ثم رواه من طريق آخر بلفظ أبي داود وزاد فيه: وأنت الجفنة الغراء[٤].

ورواه النسائي في اليوم والليلة من طرق[٥].

(وعن أنس) بن مالك الأنصاري خادم رسول الله ﷺ قال: **(أن ناسًا قالوا يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا، فقال:**

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) أي حديث الباب.

أخرجه أبو داود في الأدب، باب في كراهية التمادح (٤/ ٢٥٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٨٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٧٠)، وفي عمل اليوم والليلة (ص ٢٤٨)، وابن أبي الدنيا في الصمت (ص ٧٨)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٤)، قال الحافظ في الفتح: «رجاله ثقات، وقد صححه غير واحد».

(٣) المسند (٤/ ٢٤).

(٤) المسند (٤/ ٢٥).

(٥) أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (ص٢٤٨ ـ ٢٤٩).

يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل).

فقولهم: يا خيرنا وابن خيرنا، هذا دليل أنه قد استفاض عندهم أن عنصره ﷺ خير العرب، فهو خيار من خيار، لا ما يقوله الملحدون من الشعوبية من أن العرب لم تفضل غيرهم إلا بكون النبي ﷺ منهم، ليتطرقوا إلى تضعيف فضيلة النبي ﷺ وذم قبيلته بذلك، إذ الأمر كما قال عمر الفاروق رضي الله عنه: ما مُدح من ذُمّت قبيلته، لما قال الشاعر في جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه:

لـولا جـريـرٌ هلكـت بجيلـة نعـم الفتـى وبئسـت القبيلـة[1]

وقوله ﷺ: «**قولوا بقولكم**» لأنهم لم يقولوا إلا حقًّا، وإنما خاف عليهم أن [يستهويهم][2] الشيطان كما استهوى [ك،١٩٥/ب] النصارى في المسيح بن مريم عليه السلام حتى جعلوه وأمه إلهين من دون الله، ولهذا قال هنا: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**» فإن النصارى قالوا: المسيح ابن الله، وأشار بقوله: «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله**» إلى نفي الغلو والإطراء المذموم، الذي كإطراء النصارى للمسيح عليه السلام، وأرشدهم إلى أنّ أعلى المنازل للعبد منزلة العبودية، فكيف إذا كانت مع ذلك الرسالة والنبوة، وقد أكمل الله سبحانه له هذين المقامين، ونوه بذكرهما في كتابه العزيز؛ لأن ذلك أشرف مراتبه عند ربه تعالى، فقال جل وعلا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) في الأصل: يستهوينهم.

ﭐلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] الآية، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فهذان المقامان هما أشرف المقامات له ﷺ، وأيضًا فهما لا يتطرق إليهما الغلو، ولا يستهوي بهما الشيطان جنده، والله سبحانه الموفق للهداية، **(رواه النسائي بسند جيد)**[١] في اليوم والليلة[٢].

---

(١) من المسودة، غير واضحة الأصل.

(٢) أخرجه النسائي في اليوم والليلة (ص ٢٤٩ـ ٢٥٠)، وفي السنن الكبرى (٦/ ٧٠)، وأحمد في المسند (٣/ ٢٤٩)، وعبد بن حميد في المنتخب (ص ٣٩٠)، والبغوي في الجعديات (ص ٤٧٣)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٣٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٥٢)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤/ ١٣٩٥).

الباب السادس والستون
وهو خاتمة الكتاب

باب قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]

قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: ما عرفوه حق معرفته، وما عظموه حق عظمته، ولا وصفوه حق صفته، فمَن هذه صفة ذاته وأفعاله يمتنع أن يكون له شبيه، أو شريك أو ضديد أو نديد، إذ هو يتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، فكما أنه الخالق وحده فهو المعبود وحده.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النبي ﷺ على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال: ما لكم لا تتكلمون؟ قالوا: نتفكر في الله، فقال: تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره.

رواه أبو الشيخ الأصبهاني في كتاب العظمة[١].

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥/ ٢١٦) من طريق الأعمش عن عمرو بن مرة عن رجل حدثه عن ابن عباس به، وفيه الأعمش وهو مدلس وقد عنعن ولم يصرح بالسماع، وجهالة الراوي عن ابن عباس.

وللحديث طرق أخرى وشواهد يرتقي بها إلى الحسن من حديث ابن عباس وابن عمر وأبي ذر وعبدالله بن سلام، قال العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٧٢): =

وعنده هو والديلمي في الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله، فإن بين السماء السابعة إلى كرسيه سبعةَ آلاف نور، وهو فوق ذلك»[1].

وعند أبي الشيخ أيضًا عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه مرفوعًا: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا»[2].

وعنده هو والطبراني في الأوسط وابن عدي والبيهقي عن ابن عمر مرفوعًا: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله[3].

وقال البيهقي: في إسناده نظر، قال الحافظ العراقي: فيه الوازع ابن نافع متروك، وقال أبو حاتم في الجرح والتعديل: الوازع بن نافع

= «أسانيدها كلها ضعيفة، لكن اجتماعها يكسبه قوة، ومعناه صحيح».

وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٩٥) مثل ذلك، وحسّنه بمجموع طرقه، وسوف يذكر المؤلف كما يأتي طرفًا من طرقه وشواهده.

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥/ ٢١٢)، والديلمي في الفردوس (٢/ ٥٦)، وابن أبي شيبة في العرش (ص ٥٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٦٠) من طريق عاصم بن علي عن أبيه عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به، قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٨٣) إسناده جيد. وحسنه الألباني بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥/ ٢١٤).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥/ ٢١١) من طريق الوازع بن نافع عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه مرفوعًا به، والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٥٠)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٩٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٣٦) وقال: هذا إسناد فيه نظر، وابن حبان في المجروحين (٣/ ٨٣)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٥٢٥)، والهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (ص ٩٠)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨١): رواه الطبراني في الأوسط وفيه الوازع بن نافع وهو متروك.

هو العقيلي، أصله من المدينة، سكن الجزيرة، يروي عن سالم بن عبدالله وأبي سلمة بن عبدالرحمن، وروى عن أهل الجزيرة، وكان ممن يروي الموضوعات عن الثقات على قلة روايته، ويشبه أنه لم يكن المتعمِد لذلك، بل وقع ذلك في روايته لكثرة وهمه فبطل الاحتجاج به؛ لما انفرد به عن الثقات بما ليس من أحاديثهم، وقال: حدثنا الحنبلي قال: قال أحمد بن زهير: عن يحيى بن معين قال: وازع بن نافع ليس بثقة، ثم نقل عنه أحاديث تكلم في إسناد بعضها بأنه موضوع، أو مقلوب[1].

وقال الحاكم فيه: إنه روى أحاديث موضوعة[2].

وقال ابن عدي: أحاديثه كلها غير محفوظة[3].

ورواه أيضًا أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا ولفظه: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله»[4].

وذكر الهيثمي: أن فيه وازعًا وهو متروك[5]. وقال شيخه العراقي: سنده ضعيف جدا، قال: ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من وجه أصحَّ من هذا. وقال السخاوي: هذه الأحاديث أسانيدها كلها ضعيفة، لكن اجتماعها يُكسب قوة.

وعند البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) انظر: الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم (٩/ ٣٩)، وفيه اختلاف عما هنا ليس باليسير.

(٢) انظر: لسان الميزان، ابن حجر (٦/ ٢١٣).

(٣) الكامل في الضعفاء، ابن عدي (٧/ ٩٨).

(٤) حلية الأولياء، أبو نعيم (٦/ ٦٧).

(٥) انظر: مجمع الزوائد، الهيثمي (١/ ٨١).

مرفوعًا: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»[(١)].

وفي لفظ لهما: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله ورسوله»[(٢)].

وفي لفظ لأبي هريرة عند مسلم قال: «جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به؟ قال: أوَقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذاك صريح الإيمان»[(٣)].

وعند مسلم من حديث مغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة قال: تلك صريح الإيمان»[(٤)].

إذا علمت ذلك فالطريق الواضح القويم في هذا المقام، والصراط النير المستقيم، إنما هو الإيمان والتسليم، وإن بحث باحث كان بحثه دائرًا على طريقة السلف رضي الله عنهم، فيكون بحثه بالعدل وترك

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣/ ١١٩٤)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (١/ ١٢٠)، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان (١/ ١١٩) من حديث أبي هريرة، ولم أعثر عليه في البخاري، وأبو داود في السنة، باب في الجهمية (٤/ ٢٣٠)، والحميدي في مسنده (٢/ ٤٨٨).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان (١/ ١١٩)، وأحمد في المسند (٢/ ٤٤١)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٣٥٨)، وغيرهم.

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان (١/ ١١٩)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٨٣).

التعمق، بحيث يعلم أن كل ممكن محدث، إذ الإمكان والحدوث متلازمان كما عليه جماهير العقلاء من الأولين والآخرين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: حتى قدماء الفلاسفة كأرسطو وأتباعه. بحيث يعلم الإنسان أن المخلوقات مفتقرة إلى الخالق سبحانه، وأن الفقر وصف لازم لها دائمًا، لا تزال مفتقرة إليه، والإمكان والحدوث دليلان على الافتقار، لا أنّ هذين جعلا الشيء مفتقرًا، بل الأشياء مفتقرة إلى خالقها فقرًا لازمًا لها، لا يحتاج إلى علة، كما أن غنى [الرب][1] لازم [ك،١٩٥/أ] لذاته جل وعلا، لا يفتقر باتصافه بالغنى إلى علة، وكذلك المخلوق لا يفتقر باتصافه بالفقر إلى علة، بل هو فقير لذاته، لا تكون ذاته إلا فقيرةً فقراً لازمًا لها، لا تستغني إلا بالله في جميع أمورها[2] قال تعالى: ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧ ﴾ [فاطر: ١٥- ١٧]، وهذا الذي ذكرنا هو من معاني الصمد، وهو الذي يفتقر إليه كل شيء، ويستغني عن كل شيء، بل الأشياء مفتقرة إليه من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم، وهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة: ٥] فلو لم يخلق جل وعلا شيئًا بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء، وكل الأعمال إن لم تكن لأجله فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته وإلا كانت أعمالاً فاسدة، فإذا أردت أن تنظر إلى عظمة الله سبحانه واستغنائه، وأن من عبد معه غيره لم يقدره حق قدره، ولا عظّمه حق

---

(١) ساقطة من [ك].

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٣/ ١٤٠- ١٤٢).

عظمته، فانظر إلى هذا الفلك الدوار، وارتفاع هذا السقف المرفوع بغير عمد، ومجاري هذه البحار والأنهار دائمًا في الليل والنهار، فإذا تحققت ذلك علمت أن لها صانعًا ومدبرًا لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وانظر إلى زينة هذه الكواكب، وأجِل فكرتك في جملة هذه العجائب متفكرًا في قدرة مقدّرها، ومتدبرًا في حكمة مدبرها، قبل أن يسافر بك القدر، ويُحال بينك وبين النظر، واترك التفكر في الخالق لها، فإن كل ما يخطر بالبال فهو بخلافه، فإنك لا تقدر قدره لما له من الإحاطة بصفات الكمال، ولما جبلنا عليه من النقص، وإنما يُستدل على عظمته وجلاله وكبريائه وعلوه وارتفاعه بمخلوقاته، التي يعرف العباد أصلها جملةً لا تفصيلاً، كالسموات بكواكبها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، وكالأرض بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها ومجاريها وحيوانها ونباتها، وما بينهما وهو الجو بغيومه وأمطاره ورعده وبرقه وصواعقه وما أشبه ذلك، فلا تتحرك منه حركة إلا ولله فيها ألوف من الحكمة شاهدة له بالوحدانية، دالة على عظمته وكبريائه، والتفكر هو المخصوص بالقلب، والمقصود من الخلق.

قال القاضي عياض: وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله:

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد[1]

ألا ترى إلى نصبه السماءَ ذاتَ الطرائق، ورفعه الفلك فوق رؤوس الخلائق، وإحداثه الماء بلا سائق، وإرساله الريحَ تجري بلا عائق،

(١) البيت لأبي العتاهية، انظر ديوانه: ١٢٢.

فالسموات تدل على نعته، والأرض جميعًا يوم القيامة بقبضته، والسموات مطويات بيمينه، ولذلك قال تعالى في الاستدلال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، إذ المراد بالشيء ما يقع عليه الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها، ليدلهم ذلك على كمال قدرة صانعها، ووحدة مبدعها، وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها، ليظهر لهم ما يدعوهم إليه من توحيده وإخلاص الدين له، ونعته بأوصاف الكمال، ولهذا قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٤]، فالفلك يدل على حسن صنعته، والأرض تدل على تمام حكمته، فبهذا لا يصح أن يجتمع الخلق والخالق في وجه أبدًا من حيث الذات، لأن التفكر في ذات الله وصفاته قد منع منه الشرع، كما مرت الإشارة إلى ذلك، لأن الخلق لا يقدرون قدره، فلم يبق إلا النظر في الآثار التي دلت على المؤثر، وجميع الموجودات من آثار قدرته، ومن أعجب آثار قدرته جل وعلا الآدمي، فإنك إذا فكرت في نفسك كفى، وإذا نظرت في خلقه شفا، أليس قد فعل في قطرة ماء ما لو تقضّت الأعمار في شرح حكمته ما وفت: كانت النطفة مغموسة في دم الحيض، ونقّاش القدر يشق السمع والبصر، خلق منها ثلاثمائة وستين عظمًا، وخمسمائة وتسعًا وعشرين عضلة، كل شيء من ذلك تحته حكمة، فالعين سبع طبقات، [وأربعًا][1] وعشرين عضلة لتحريك حدقة العين وأجفانها، لو نقصت منها واحدة لاختل الأمر، وأظهر في سواد العين على صغره صورة السماء مع اتساعها، ولذا قال غيلان ذو الرمة يصف عين الإنسان:

---

(١) في الأصل: وأربع.

وأصغر من قعب الوليد ترى به   بيـوتًـا مبنّـاة وأودية خضـرا[1]

وخالف سبحانه بين أشكال الحناجر في الأصوات، وسخر المعدة لإنضاج الغذاء، والكبد لإحالته إلى الدم، والطحال لجذب السوداء، والمرارة لتناول الصفراء، والعروق كالخدم للكبد، تنفذ معها الدماء إلى أطراف البدن، فإذا كنت لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع وتأكل وتنام وتشبع وتغضب، فبماذا تميزت عن البهائم، ثم ادفع بصر فكرك إلى عجائب السموات، فتلمح الشمس كل يوم في منزل، فإذا انخفضت برد الهواء وجاء الشتاء، وإذا ارتفعت [ترَ] الحر، وإذا كانت بين المنزلتين اعتدل الزمان، وقد قيل إنّ الشمس مثل الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، كما ذكره ابن الجوزي وغيره، ثم اخفض بصرك إلى الأرض [ترَ][2] فجاجها مذللة مسخرة، ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ وتفكر في شربها بعد جدبها بكأس القطر، وتلمح خروج النبات يرفل في ألوان الحلل على اختلاف الصور والطعوم [والأرائج][3]، وانظر كيف نزول القطر إلى عروق الشجر، ثم عاد يجذبه إلى فروعها، ويجري في تجاويفها بعروق يصعد معها، لا يفتقر إلى كلفة، وقد يكون لا حظَّ للعاقل في ذلك إلا سماع الرعد بأذنه، ورؤية المطر والنبات بعينه، ولو فتح بصيرته لقرأ على كل قطرة وورقة خطًّا بقلم [ك،١٩٦/ب] إلهي: إنها رزق فلان في وقت كذا.

ثم انظر إلى المعادن، لحاجات الفقير إلى المصالح، فمنها دروع

(١) البيت في ديوان ذي الرمة (ص ١٤٤٧).

(٢) في الأصل: ترى، في الموضعين.

(٣) في الأصل: الأرانيج، ولا معنى لها، والأرائج: الروائح الطيبة، انظر تاج العروس (٥/٤٠٢).

كالرصاص والحديد، ومنها مصنوع لسبب من غيره، كالأرض السبخة يجتمع فيها ماء المطر فيستحيل ملحًا، وانظر إلى انقسام الحيوان بين طائر وماش، وإلهامها ما يصلحها، وانظر إلى بُعدِ[1] ما بين السماء والأرض، كيف مليء ذلك الفراغ، تُستنشق منه الأرواح، وتسبح الطير في تياره إذا طارت، وانظر بفكرك إلى سعة البحر وتسخير الفلك فيه، وما فيه من دابة.

قال يحيى بن أبي كثير[2]: خلق الله تعالى ألف أمة، فأسكن ستمائة في البحر، وأربعمائة في البر.

فيا عجبًا لك، لو رأيت خطًّا مستحسن الرقم لأورثك الدهش من حكمة الكاتب، وأنت ترى رقوم القدرة ولا تعرف الصانع، فإن لم تعرفه بتلك الصفة فعجبٌ كيف أعمى بصيرتك مع رؤية بصرك؟! ولهذا قال جل ثناؤه: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

وقد قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتفكر على التذكر، والتذكر على التفكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار، فنطقت بالحكمة، وضربت الأمثال، فأورث العلم.

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٦] الآية، قال: أمنع قلوبهم الفكرَ في أمري.

وكان لقمان يجلس وحده ويقول: طول الوحدة أفهم للتفكر،

---

(١) في الأصل: وانظر إلى ما بُعد، والظاهر أن (ما) سبق قلم.
(٢) مضت ترجمته ص ١١٢٩.

وطول التفكر دليل على طريق الجنة[1].

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرىء قط إلا علم، ولا علم إلا عمل[2].

وعند ابن الجوزي بسنده عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن سالم ابن أبي الجعد عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[3].

وقيل لها: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكر[4].

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة[5].

وقال الحسن البصري: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لهو.

وقد قال شيخ الطائفة الجنيد[6] بن محمد قدس الله روحه: أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع التفكر في ميدان التوحيد.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٢٠٢)، وهناد في الزهد (٢/ ٤٦٨)، وابن سعد في الطبقات (٧/ ٣٩٢)، وابن أبي عاصم في الزهد (٢/ ١٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٣٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١١١)، وأحمد في الزهد (١٩٨)، وهناد في الزهد (٢/ ٤٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٨).

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص ٩٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ٣٠١).

(٦) تقدمت ترجمته ص ٣٣٦.

قال الروذباري[1]: التفكر على أربعة أنحاء: فكرة في آيات الله سبحانه، وعلامتها تَوَلُّدُ المحبة، وفكرة في وعد الله بثوابه، وعلامتها تولد الرغبة، وفكرة في وعيده بالعذاب، وعلامتها تولد الرهبة، وفكرة في جفاء النفس مع إحسان الله تعالى، وعلامتها تولد الحياء من الله عز وجل.

وقد قال عبدالله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة له: ثنا سريج ثنا إسماعيل بن مجالد ثنا مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر بن عبدالله قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: انسب لنا ربك. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] السورة كلها[2].

(وعن) ابن أم عبد عبدالله **(بن مسعود)** الهذلي الذي قال فيه النبي ﷺ: «واهتدوا بهدي ابن أم عبد»[3].

---

(١) أحمد بن محمد، أبو علي الروذباري، شيخ الصوفية، سكن مصر وصحب الجنيد، له دراية بالفقه والحديث والأدب، توفي سنة ٣٢٢هـ.

انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم (١٠/٣٥٦)، صفة الصفوة، ابن الجوزي (٢/٤٥٤).

(٢) أخرجه عبدالله في السنة (٢/ ٥٠٨)، وفي إسناده مجالد بن سعيد الهمداني قال الحافظ في التقريب (ص ٥٢٠): «ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره»، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٣٩)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٤٦) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط وأبو يعلى... وفيه مجالد بن سعيد».

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (٥/ ٦٧٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن سلمة بن كهيل، ويحيى بن سلمة يضعّف في الحديث»، وقد رواه من نفس الطريق الحميدي في مسنده (١/ ٢١٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٨٠) وصححه وتعقبه الذهبي وقال: «سنده واه»، وقد تقدم أن الترمذي أعله بيحيى بن سلمة بن كهيل، وقد قال فيه الحافظ في التقريب (ص =

(قال: جاء حَبر) بفتح الحاء المهملة وكسرها، (من الأحبار) وهي جمع حبر بكسر الحاء المهملة وفتحها، وسمي به كعب الأحبار لأجل كتبه، وبذلك سمي الأحبار أحبارًا، وأصله في العربية التحبير وهو: التحسين والتزيين، ومنه قول أبي موسى الأشعري للنبي ﷺ حين أخبره أنه استمع لقراءته: لو علمت يا رسول الله أنك تسمع لحبرته لك تحبيرًا[1].

وإنما الحبر الحقيقي من حسن قلبه بالمعرفة، ولسانه بالصدق، وجوارحه بالطاعة، فلم يخرج عن حدود الأمر والنهي، ولم يقصّر في الواجبات، ولم يخلَّ بالمندوبات، فلم يبق عليه حق إلا قام به، إن كان لله من غير تقصير، وإن كان لمخلوق فمن غير تأخير.

وقد ذكر ابن عبدالبر[2] وأبوبكر بن العربي عن أحمد بن الحسن بن يحيى عن عبدالملك بن أحمد الجزيري أنه كتب إلى بنيه بقصيدة في سجن السلطان منها:

واعلم بأن العلم أرفعُ رتبةً وأجلُّ مكتسب وأسنى مفخرِ

= ٥٩١): «متروك وكان شيعيا»، وللحديث طرق وشواهد يصح بها من حديث حذيفة وأنس بن مالك، وابن عمر رضي الله عنهم أجمعين، جمعها الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٢٣٣).

(١) أخرجه البيهقي في سننه (٣/ ١٢) بلفظ: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة. لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود فقال: لو علمت لحبرته تحبيرًا» وأصله إسنادًا ومتنًا عند مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن (١/ ٥٤٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله: ص٥٨٤.

والعـالـم المـدعـوُّ حبـرًا إنمـا سمّاه باسم الحبر حمْل المِحْبر

فاسلك سبيل المقتفين له تَسُدْ إن السيـادة تُقتنـى بـالـدفتـر

سمو إلى ذي العلم أبصارُ الورى وتغُضُّ عن ذي الجهل لا بل تزدري

وبضُمّـر الأقـلام يبلـغ أهلهـا ما ليس يُبلغ بالجياد الضُمّر

والعلـم ليـس بنـافـع أربـابـه ما لم يُفد عملاً وحسن تبصّر

فاعمل بعلمك تؤت نفسُك حظَّها لا ترض بالتضييع حظ المخسر

سيّانَ عندي علمُ من لم يستفد عمـلاً به وصلاةُ مـن لم يطهـرِ

فقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: جاء حبر من الأحبار، يعني من أحبار يهود (**إلى النبي** ﷺ **فقال: يا محمد إنا**) أي: معشر الأحبار، (**نجد**) يعني: في كتاب الله التوراة، أو في العلم المأثور عن موسى عليه السلام، (**أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع**) العرب تفتح راء الأرضين وقد تسكّن، وقد مر الاستشهاد عليه في حديث موسى ـ عليه السلام ـ القدسي، (**والشجر**) وهو ما له ساق (**على إصبع، والماء على إصبع، والثرى**) وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦]، وهو ما لا يعلمه إلا هو (**على إصبع، وسائر**) وهي تستعمل عند العرب بمعنى الباقي، قال ابن الصلاح: استعمال سائر بمعنى الجميع مردود عند أهل اللغة، معدود في غلط العامة وأشباههم من الخاصة، قال الأزهري في تهذيب اللغة: اتفقوا على أن معنى سائر الباقي: قال ابن الصلاح: ولا التفات إلى قول الجوهري في قوله: سائر الناس: جميعهم، فإنه لا يقبل ما انفرد به. وعكس النووي في تهذيبه وقال: هي لغة صحيحة، ذكرها

الجوهري ووافقه أبو منصور الجواليقي عليها في كتاب أدب الكاتب، واستشهد عليها، وإذا اتفق هذان الإمامان على نقل لغة فهي صحيحة[١].

قال: وبه يندفع قول ابن الصلاح.

قلت: ومعنى هذا الكلام أنها قد تستعمل في ذلك عند العرب في بعض المواضع وهو صحيح، وقد [...][٢] إمام النحويين سيبويه الثاني أبو عبدالله [...][٣] فيما حكاه عنه تلميذه ابن أبي الفتح البعلي الحنبلي[٤] واستشهد عليه بقول الشاعر:

فجلتها لنا لبابة لما وقذ النوم سائر الحرّاس[٥]

يقول: بعدما أسقط النوم جميع الحرّاس، فهي في [...][٦] البيت للجميع.

وأما هنا فهي بمعنى: باقي، (**الخلق على إصبع، فيقول**) تعالى (**أنا الملك**) ولهذا قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، (**فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه**) بالذال المعجمة، ويروى بالمهملة، وهي مقدم الأضراس التي هي الأنياب، (**تصديقًا لقول الحبر**)

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات، النووي (٣/ ١٣٣).
(٢) كلمة غير واضحة في الأصل، ويشبه أن تكون: صححه.
(٣) كلمة غير واضحة في الأصل.
(٤) انظر المطلع على أبواب المقنع له ص١٩، وهو هناك إنما ذكر ذلك عن الجوهري.
(٥) البيت للأحوص في ديوانه (ص ١٣٥).
(٦) غير واضحة في الأصل، ويشبه أن تكون: هذا.

متعجبًا له، لا منكرًا له، كما قاله بعض الناس حيث حرف الكلم عن مواضعه، ليصرفه إلى مذهب التعطيل الفاسد، لما وقع في قلبه من التجسيم للباري جل وعلا عن ذلك، قيل إن الحبر عبدالله بن سلام رضي الله عنه قبل أن يسلم، وقيل غيره، (**ثم قرأ رسول الله ﷺ**) عند ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

أخرجه البخاري في صحيحه حيث قال: ثنا آدم ثنا شيبان عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة يعني السلماني عن عبدالله يعني ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار، فذكره بلفظه[1].

(**وفي رواية لمسلم**) في صحيحه عن عبدالله بن مسعود مرفوعًا: (**والجبال والشجر على إصبع**) فجعل في هذه الرواية الجبال مع الشجر قال: (**ثم يهزهن** [ك،١٩٦/أ] **فيقول: أنا الملك أنا الله**) وفي لفظ: أنا الجبار، وهذا اللفظ في البخاري أيضًا، وفي هذا دليل على أن الاسم هو المسمى لا التسمية.

(وفي رواية للبخاري: يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر) أي: باقي (**الخلق على إصبع**) وكل هذه الألفاظ في

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب سورة الزمر (٤/ ١٨١٢)، ومسلم في المنافقين وأحكامهم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٤/ ٢١٤٧) وغيرهم كلهم بالألفاظ المتقدمة من حديث ابن مسعود، سوى لفظ «أنا الجبار» فهو من حديث ابن عمر أخرجه أحمد في المسند (٢/ ٧٢)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٣٢٢)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ١٧١)، وابن جرير في تفسيره (٢٤/ ٢٧).

رواية عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(وعن عبدالله بن عمر) بن الخطاب رضي الله عنه (**مرفوعًا: يطوي الله السموات يوم القيامة**) الطي: هو الذي يقابله النشر، وتقدم اشتقاقه والاستشهاد عليه في النشرة، وكذا تقدم الكلام على اسم القيامة وحقيقتها في حديث البرقاني.

(**ثم يأخذهن بيده اليمنى**) وكلتا يديه يمين[1] (**ثم يقول أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟** رواه مسلم) في صحيحه.

(وفي رواية) لمسلم في صحيحه عنه: (**ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله**[2]).

---

(١) جزء من حديث عبدالله بن عمر مرفوعًا: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين...» أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل (٣/ ١٤٥٨)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين، صفة القيامة والجنة والنار (٤/ ٢١٤٨) من طريق عمر بن حمزة عن سالم بن عبدالله أخبرني عبدالله بن عمر به، قال البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤١٠): «وذكر الشمال فيه تفرد به عمر بن حمزة عن سالم، وقد روى هذا الحديث نافع وعبيدالله بن مقسم عن ابن عمر لم يذكرا فيه الشمال. ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وغيره عن النبي ﷺ، فلم يذكر فيه أحد منهم الشمال، وروي ذكر الشمال في حديث آخر في غير هذه القصة، إلا أنه ضعيف بمرة تفرد بأحدهما جعفر بن الزبير وبالآخر يزيد الرقاشي وهما متروكان، وكيف يصح ذلك؟ وصحيح عن النبي ﷺ أنه سمى كلتا يديه يمينًا، وكأن من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له، أو على عادة العرب في ذكر الشمال في مقابلة اليمين» ثم ذكر حديث عبدالله بن عمرو الذي ذكرته آنفًا وحديث أبي هريرة في هذا الباب وكذلك بعض الآثار، وقد أورد الحافظ في الفتح كلام البيهقي الآنف مقرا له (١٣/ ٣٩٦)، ومدار هذه اللفظة على عمر بن حمزة العمري، قال الحافظ =

وفي لفظ «بيده الأخرى»[١]، وفي لفظ آخر في الصحيح «إن الله يطوي السموات بيمينه، ويأخذ الأرض بيده الأخرى، ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[٢].

وصح في الحديث قوله ﷺ: «وكلتا يديه يمين»[٣]، وليس بين ذلك تنافٍ عند العلماء رحمهم الله تعالى، وذلك إشارة لنفي مشابهة خلقه من أن يكون من ذاته فاضل أو مفضول، جل وعلا عن الشبيه والنظير، وإثبات بذلك للمدح ونفي للذم، ومنه قول بلال بن جرير[٤]:

كانوا كأيد أوهن الله بطشها ... ترى أشملاً ليست لهن يمين

= في التقريب (ص ٤١١): ضعيف، ونقل في التهذيب (٧/ ٤٣٧) تضعيف النسائي وابن معين له، وقال أحمد: أحاديثه مناكير.

وقد خالف راوي هذه اللفظة الثقات حيث روى الحديث البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٦/ ٢٦٩٧) من طريق عبيدالله عن نافع عن ابن عمر، وليس فيه لفظ الشمال، بل رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٤١) من طريق عمر بن حمزة نفسه وليس فيه لفظ الشمال.

ولم يجوز ابن خزيمة في التوحيد (١/ ١٩٤) اطلاق لفظة الشمال حيث قال: «ونقول: إن لله عز وجل يدين يمينين لا شمال فيهما قد أعلمنا الله تبارك وتعالى أن له يدين وخبرنا نبينا أنهما يمينان لا شمال فيهما»، وقال أيضًا (١/ ١٥٩): «لخالقنا جل وعلا يدان كلتاهما يمينان لا يسار لخالقنا عز وجل إذ اليسار من صفة المخلوقين فجل ربنا أن يكون له يسار».

(١) أخرجها أبو داود في السنة، باب في الرد على الجهمية (٤/ ٢٣٤) من طريق عمر بن حمزة عن سالم عن ابن عمر.

(٢) هو نفس حديث أبي داود السابق وليس في الصحيح.

(٣) كما في حديث عبدالله بن عمرو الماضي تخريجه.

(٤) الخطفى، أبو زافر، كان أفضل إخوته من أبناء جرير وأشعرهم، توفي نحو ١٤٠هـ.

انظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (١/ ٤٦٤)، الأعلام، الزركلي (٢/ ٧٢).

(ثم يقال: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟).

هذا اللفظ الأخير قد اتفق عليه الشيخان في صحيحيهما عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما[1]، وعند البخاري عن أبي هريرة مرفوعًا: «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض»[2].

وفيه أيضًا عنه رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن يمين الله تعالى ملأى، لا تغيضها نفقة، سحّاءُ الليلَ والنهارَ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يُنقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض والقبض، يرفع ويخفض»[3].

وفيه حديث أبي موسى رضي الله عنه أنه قال ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم وهو في سفر لما رفعوا أصواتهم بالتكبير: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ، ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا قريبا»، ثم قال: «إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبدالله ابن قيس ألا أعلمك كنزًا من كنوز الجنة، لا حول ولا قوة إلا بالله»[4].

وقال ابن ماجه في سننه: ثنا هشام بن عمار ومحمد بن الصباح

---

(١) مضى تخريجه، في الباب (٢٤).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝﴾ (٦/ ٢٦٨٨)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٤/ ٢١٤٨)، وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء (٦/ ٢٦٩٨)، ومسلم في الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٢/ ٦٩٠).

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝﴾ (٦/ ٢٦)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٤/ ٢٠٧٦)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٠٢)، واللفظ له.

قالا: ثنا عبدالعزيز بن أبي حازم ثني أبي عن عبيدالله بن مقسم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «يأخذ الجبار سمواته وأرضه بيده ـ وقبض ﷺ بيده، فجعل يقبضها ويبسطها ـ ثم يقول: أنا الجبار، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» قال: ويتميّل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن يساره، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني أقول: أساقط هو برسول الله ﷺ.

ورواه ابن منده وابن خزيمة وعثمان بن سعيد الدارمي وسعيد بن منصور وغيرهم من أئمة الحفاظ الجهابذة النقاد[1]، قال شيخ الإسلام: فإذا كان سبحانه يطوي السموات كلها بيمينه، وهذا قدرها عنده، فهو سبحانه بين لنا من عظمته بقدر ما نعقله، كما قال عبدالعزيز بن الماجشون رحمه الله تعالى: والله ما دلهم على عظيم قدرته، وما تحيط به قبضته إلا صغر نظيرها منهم عندهم، إن ذلك الذي ألقى في روعهم، وخلق على معرفته قلوبهم[2]. ولهذا قال:

(و) رُوى (عن) عبدالله (**بن عباس**) بن عبدالمطلب رضي الله عنه، رواه عنه عبدالله **ابن الإمام أحمد** حيث قال: حدثني أبي ثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما (**قال: ما السموات السبع، والأرضون السبع**) وما فيهما

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (١/ ٧١)، وسعيد بن منصور في سننه (٤/ ٢١٤٨)، ومن طريقه مسلم في صفات المنافقين، كتاب صفة القيامة (٤/ ٢١٤٨)، والدارمي في نقضه على المريسي (١/ ٢٤٥)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ١٧٣)، وغيرهم.

(٢) من مجموع الفتاوى (٥/ ٤٨١)، مع اختلاف يسير.

في يد الله تعالى (إلا كخردلة في كف أحدكم)[1].

قال عبدالله أيضًا: وحدثني أبي ثنا ابن مهدي وأبو سفيان يعني العمري عن سفيان عن ليث عن مجاهد قال: ما السموات والأرض في الكرسي، إلا كحلقة في أرض فلاة[2].

وقال أبوبكر بن مردويه: ثنا سليمان بن أحمد ثنا عبدالله بن وهب المقري ثنا محمد بن أنس العسقلاني أنا محمد بن عبدالله التميمي عن القاسم بن محمد الثقفي عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما السموات السبع، والأرضون السبع، عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[3].

(قال) إمام المفسرين الحافظ الثبت الثقة الفاضل المجتهد، محمد (بن جرير) الطبري أحد الأعلام، وصاحب التصانيف، الطواف في الآفاق، قال الخطيب: كان أحد الأئمة، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، حافظًا

---

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٧٦)، والطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٥) كلاهما من طريق عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء به، وفي إسناده أوس بن عبدالله الربعي، أبو الجوزاء قال الحافظ في التقريب (ص ١١٦): «بصري ثقة يرسل كثيرًا».

(٢) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (١/ ٢٤٧)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم قال الحافظ في التقريب (ص ٤٦٤): «صدوق اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك».

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٣١٠).

لكتاب الله، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن والسنة، عالمًا بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين، بصيرًا بأيام الناس وأخبارهم، له تاريخ الإسلام والتفسير [لم يصنف أحد مثله][1] من رجال طبقته: ابن خزيمة وابن صاعد وابن أبي حاتم، وتوفي عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة[2].
(**حدثني يونس**) هو ابن عبدالأعلى بن موسى الصدفي المصري الإمام، أبو موسى الفقيه، المقرىء، المحدث، روى عن ابن عيينة، وتفقه على الشافعي، وقرأ على ورش، وانتهت إليه رياسة العلم وعلو الإسناد في الكتاب والسنة، قال يحيى بن حسان: يونسكم هذا من أركان الإسلام، وكان ورعًا، صالحًا، عابدًا، كبير الشأن، ولد في ذي الحجة سنة سبعين ومائة، ومات في ربيع الآخر سنة أربع وستين ومائتين، روى عنه مسلم والنسائي وابن ماجه وغيرهم[3].

(**أخبرنا ابن وهب**) هو عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم، أبو محمد المصري الفقيه الحافظ الثقة الثبت العابد، صاحب الإمام مالك بن أنس، روى عنه وعن السفيانين، كان أحد الأعلام، ولد في ذي القعدة سنة خمس وعشرين ومائة.

قال ابن عدي: كان من جلة الناس وثقاتهم، لا أعلم له حديثًا منكرًا، تفقه لمالك والليث بن سعد.

---

(١) غير واضح في الأصل، وأكملته من تاريخ بغداد للخطيب (٢/ ١٦٣).
(٢) انظر ترجمته: تاريخ بغداد، الخطيب (٢/ ١٦٢)، تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ٧١٠).
(٣) انظر ترجمته: تهذيب التهذيب (١١/ ٤٤٠)، التقريب، ابن حجر (ص ٦١٣).

وقال ابن يونس: جمع بين الفقه والرواية والعبادة، وله تصانيف كثيرة، وكانوا أرادوه على القضاء فتغيب.

وقال مالك فيه: ابن وهب عالم، وابن القاسم فقيه.

وقال أحمد بن صالح: ما رأيت أكثر حديثًا منه، حدث مائة ألف حديث، وقرىء عليه كتابه أهوال القيامة فخر مغشيًّا عليه، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد أيام، وذلك في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة رحمه الله تعالى.

وذكره أبو نعيم في الحلية وقال: سنة تسع وتسعين ومائة، وأشهر مصنفاته الجامع في الحديث[1].

(قال) أي: **(ابن وهب قال)**: عبدالرحمن **(بن زيد)** بن أسلم العدوي، مولاهم وكان عبدالرحمن هذا يضعف في الحديث[2]، **(حدثني أبي)** زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، المدني الثقة العالم الثبت، كان يرسل الحديث، وهذا الحديث من مراسيله كما ترى، **(قال: قال رسول الله ﷺ: ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم ألقيت في ترس)**. الترس [ك،١٩٧/ب] ما يتترس به في الحرب، وهو المجن أيضًا **(قال)**: يعني زيد بن أسلم عن أبيه، **(وقال أبو ذر)** يعني: الغفاري الصحابي رضي الله عنه: **(سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما الكرسي في العرش إلا كحلْقة من حديد ألقيت بين ظهري)** هكذا في خط الشيخ رحمه الله، والصحيح ظهراني، زيدت الألف والنون المفتوحة تأكيدًا في ظهري، والمعنى: ما الكرسي في العرش من سعته

---

(١) انظر ترجمته: الطبقات، ابن سعد (٧/ ٥١٨)و سير أعلام النبلاء، الذهبي (٩/ ٢٢٣).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٦/ ١٧٧)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٣٤٠).

إلا كحلقة من حديد ملقاة بين جوانب فلاة من الأرض. والفلاة: هي ما اتسع من الأرض واستوى مع البعد بلا ماء، هذا معنى ما ذكره أهل اللغة[1]. ولهذا قال: بين ظهري **(فلاة من الأرض)**[2].

وقد زعم بعض متكلمي علماء الإسلام على علم الهيئة أن الكرسي هو الفلك الثامن، وهو فلك الثوابت، الذي فوقه الفلك التاسع[3]، الذي يقال له: الفلك الأطلس، الذي يدير الأفلاك جميعًا قسرًا في كل يوم وليلة مرة، وهو مخالف لسيرها حركة وجهة، إذ سيره من المشرق إلى المغرب، وسيرها من المغرب إلى المشرق، مع اختلافها في السرعة والعجلة كما يشاهد ذلك، ورده آخرون، وقد قال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثني أبي ثا يحيى بن آدم ثنا شريك عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله جل وعلا ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٨] قال: الله، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال: الملائكة[4].

---

(١) انظر: معجم البلدان، ياقوت (٤/ ٢٧٠)، لسان العرب، ابن منظور (١١/ ٥٣١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٢٧٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧)، وفي إسناده عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال الحافظ في التقريب (ص ٣٤٠): «ضعيف»، وفيه أيضًا إرسال زيد بن أسلم للحديث وهو تابعي لم يدرك النبي ﷺ، قال الحافظ في التقريب (ص ٢٢٢): «ثقة عالم وكان يرسل، من الثالثة».

(٣) ذكر شيخ الإسلام أن هذه المقالة تلقفها أهل الكلام من الفلاسفة، وقولهم هذا لم يثبت بدليل يعتمد عليه، وليس هناك دليل عقلي أو شرعي يدل على أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكروية الشكل، وعليه فالجزم بأن ما أخبرت به الرسل هو أن العرش هو الفلك التاسع رجمٌ بالغيب وقولٌ بلا علم.

انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٥٤٦ـ ٥٥٩).

(٤) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٠٠)، وابن جرير في تفسيره (١٩/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم وابن مردويه كما في الدر المنثور (٦/ ٣٤١)، وفي إسناده عطاء بن =

ورواه أيضًا بوجه آخر بلفظه، وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السموات السبع، والأرضين السبع، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، لن يكنّ في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلْقة في المفازة[(١)].

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[(٢)]، وهذا بيان لما قلنا أولاً، وعند ابن أبي حاتم في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] بسنده عن ابن عباس قال: علمه[(٣)].

وكذا رواه ابن جرير بسنده عنه، وعن سعيد بن جبير مثله[(٤)].

= السائب قال الحافظ في التقريب (ص ٣٩١): صدوق اختلط.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٠).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ٣٠٩) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣/ ٩)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٩) كلهم من طريق مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفًا، وفي إسناده جعفر بن أبي المغيرة. قال ابن مندة: ليس بالقوي في سعيد بن جبير، نقله عنه الحافظ في التهذيب (٢/ ١٠٨)، وقد ذُكر في تفسير الكرسي أقوال:

القول الأول: أن المراد بالكرسي: العلم.

وهذا القول هو قول الجهمية، فقد أولوا الكرسي بمعنى العلم، كما أولوا العرش بمعنى الملك، فرارًا منهم عن إثبات علو الله واستوائه على عرشه، قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٦/ ٥٨٤): «وقد نقل عن بعضهم أن كرسيه علمه وهو قول ضعيف، فإن علم الله وسع كل شيء كما قال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾».

القول الثاني: أن الكرسي هو العرش، وقد رواه ابن جرير في تفسيره (٣/ ١٠) عن الحسن البصري، وقد مال إليه ابن جرير.

القول الثالث: أن الكرسي بين يدي العرش، وأنه موضع القدمين، وهذا هو =

قال ابن جرير: وقال آخرون: الكرسي موضع القدمين[1].

ثم رواه عن أبي موسى والسدي والضحاك ومسلم البطين[2].

وقال شجاع بن مخلد في تفسيره: ثنا أبو عاصم عن سفيان عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] قال: كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل[3].

وكذا أورده الحافظ بن مردويه من طريق شجاع بن مخلد الفلاس فذكره[4] ورواه وكيع بن الجراح في تفسيره فقال: ثنا سفيان عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره[5].

وقد روى الحاكم في مستدركه عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي عن محمد بن معاذ عن أبي عاصم عن سفيان وهو الثوري بإسناده المتقدم عن ابن عباس موقوفًا مثله، وقال: صحيح على شرط

= مذهب السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، وهذا هو ما دل عليه الكتاب والسنة. انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٥٤)، شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز (١/ ٣٦٨)، مقدمة تحقيق كتاب العرش، الذهبي (١/ ٣٠٣).

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٣/ ١٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٩).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

الشيخين ولم يخرجاه[1]، فالصحيح وقفه على ابن عباس[2]، وقد رواه ابن مردويه من طريق [الحكم][3] بن ظهير الفزاري الكوفي، وهو متروك، عن السدي عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا، ولا يصح رفعه أيضًا[4]، وقال السدي عن أبي مالك: الكرسي تحت العرش[5].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: ثنا ابن أبي بكر أنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبدالله بن خليفة عن عمر رضي الله عنه قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة، قال: فعظّم الرب تبارك وتعالى وقال: «إن كرسيه وسع السموات والأرض، وإن له أطيطًا كأطيط الرحل الجديد من ثقله»[6].

وقد رواه الحافظ البزار في مسنده المشهور، وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيرهما، والطبراني وابن أبي عاصم في كتابي السنة لهما، وعبدالله ابن الإمام أحمد في كتاب السنة له، والحافظ الضياء في كتابه «المختارة»، من حديث أبي إسحاق السبيعي عن عبدالله بن خليفة، قال بعضهم: وليس بذاك المشهور، وفي سماعه من عمر نظر[7].

قلت: هو عبدالله بن خليفة الهمداني من كبار التابعين، قال الحافظ

---

(١) المستدرك (٢/ ٣١٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٩) شرح الطحاوية، ابن أبي العز (١/ ٣٦٩).

(٣) في الأصل: الحاكم، والتصويب من مصادر ترجمته.

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٣٠٩).

(٥) المصدر السابق.

(٦) مضى تخريجه.

(٧) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٠).

ابن جحر: وهو مقبول[١].

ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفًا، ومنهم من يرويه عنه مرسلاً، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحذفها[٢].

وما ذكرنا هنا أحسن ألفاظ متنه، وقد ذكرنا لفظ رواية أبي عبدالرحمن الحافظ عبدالله ابن الإمام أحمد في باب الصفات، وقال عبدالله أيضًا: حدثني أبي ثنا وكيع عن سفيان عن عمار الدهني عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكرسي موضع قدميه، والعرش لا يقدر أحد قدره[٣].

قال: وحدثني أبي ثنا عبدالصمد ثنا أبي ثنا محمد بن جُحادة عن سلمة بن كهيل عن عمارة بن عمير عن أبي موسى رضي الله عنه قال: الكرسي موضع القدمين، وله أطيط كأطيط الرحل[٤].

(وعن) عبدالله **(بن مسعود)** الهذلي، أبو عبدالرحمن رضي الله عنه في حديث له عند أبي داود وغيره **(قال)** فيه: **(بين السماء الدنيا وبين) السماء (التي تليها)** مسيرة **(خمسمائة عام)** لما يتعارفه بنو آدم من السير، **(وبين كل سماء)** إلى التي تليها مسيرة **(خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي)** مسيرة **(خمسمائة عام، وبين الكرسي وبين الماء)**

---

(١) انظر: تقريب التهذيب (ص ٣٠١).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٠).

(٣) مضى تخريجه.

(٤) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٣٠٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٣/ ٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٠٤)، وابن المنذر وأبو الشيخ كما في الدر المنثور (٢/ ١٧)، وقال الألباني في مختصر العلو (ص ١٢٤): إسناده موقوف صحيح.

الذي قال فيه عبدالله بن رواحة في قصة زوجته المشهورة:

وعرش الله فوق الماء طافٍ   وفوق العرش رب العالمينا[1]

مسيرة (**خمسمائة عام، والعرش فوق**) ذلك (**الماء، والله**) جل شأنه وعز سلطانه (**فوق العرش**) بلا كيف، فهو جل وعلا [ك،١٩٧/أ] بائن من خلقه، (**لا يخفى عليه شيء من أعمالكم**).

وقد تقدم قوله ﷺ: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيراً قريبًا»[2].

كما قال جل ثناؤه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ٥ ـ ٨]، وهذا يدل على عظم شأنه وعلو سلطانه، وارتفاع عرشه وشدة بطشه، فهو العلي الكبير القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة إليه، وهو الغني الحميد الفعال لما يريد، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾ [الأنعام: ١٨]، لا إله لنا غيره، ولا رب لنا سواه، وقد قال الحافظ عثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية: حدثنا الحسن بن الصباح حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن

---

(١) روى القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٨/١١٢ـ١١٦) بعدة ألفاظ، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/٩٠): وقصته مع زوجته في حين وقع على أمته مشهورة، رويناها من وجوه صحاح.ا.هـ. وانظر ما يأتي ص٢١١٦.

(٢) مضى تخريجه.

المبارك أنه قيل له: كيف نعرف ربنا جل وعلا؟ قال: إنه فوق السماء السابعة على العرش، بائن من خلقه[1].

فرحم الله ابن المبارك، لقد أتى بأصل المعرفة التي لا يصلح لأحد معرفة ولا إقرار بالله سبحانه إلا بها، وهو المباينة لخلقه جل وعلا، والعلو على العرش، ففي البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: كانت زينب أم المؤمنين رضي الله عنها[2] تفتخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكنّ أهلوكنّ، وزوجني الله من فوق سبع سموات[3].

ولهذا قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٣ـ ٤]، وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] الآيتين: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦ـ٣٧]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٣٩)، وعبدالله بن أحمد في السنة (١/ ١١١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٢٧)، والبخاري في خلق الأفعال (ص ٣١).

وذكره ابن تيمية وصححه في الحموية (ص ٣٦)، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص ١٣٤).

(٢) هي زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، ابنة عمة النبي ﷺ، تزوجها سنة ثلاث وقيل خمس، ونزلت بسببها آية الحجاب، أول نساء النبي ﷺ موتًا بعده، توفيت سنة ٢٠هـ. انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (٦/ ٢٦٩٩)، والترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة الأحزاب (٥/ ٥٤)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٩).

ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١] ونظائرها في القرآن يطول عدّها.

ومن السنّة حديث الجارية في الصحيحين[١]، وحديث الذهيبة التي قدم بها علي رضي الله عنه من اليمن فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة: زيد الخيل[٢]، والأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، وعلقمة بن علاثة[٣]، أو عامر بن الطفيل[٤] العامري كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه عند البخاري ومسلم وغيرهما، فوجد من بعض الناس فقال رسول الله ﷺ: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر من في السماء مساءً وصباحًا»[٥]. وحديث: «من لم يرحم من

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة (١/ ٣٨١) ضمن حديث طويل لمعاوية بن الحكم السلمي وفيه قال لها النبي ﷺ: «أين الله؟ قالت في السماء قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: اعتقها فإنها مؤمنة»، وأخرجه أبو داود في الصلاة، باب تشميت العاطس في الصلاة (١/ ٢٤٢)، وأحمد في المسند (٥/ ٤٤٧)، وغيرهم، وليس في صحيح البخاري.

(٢) الطائي، وفد على النبي ﷺ سنة تسع مسلمًا، كان أحد شعراء الجاهلية وفرسانهم، وكان جسيمًا طويلاً موصوفًا بحسن الجسم وطول القامة، وكان شجاعًا كريمًا، توفي بعد منصرفه من النبي ﷺ.

انظر: الإصابة، ابن حجر (١/ ٥٥٥)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (١/ ٥٤٣).

(٣) العامري، صحابي، كان في الجاهلية من أشراف قومه، ممن ارتد في الردة، ثم عاد للإسلام، وولاه عمر حوران فنزلها إلى أن مات سنة ٢٠هـ، وكان كريمًا، مدحه الحطيئة. انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ٤٩٦)، خزانة الأدب، البغدادي (١/ ٨٨).

(٤) من بني عامر، فارس قومه، وأحد فتاك العرب وسادتهم في الجاهلية، وفد على النبي ﷺ بعد فتح مكة، ودعاه إلى الإسلام، ولم يشرح الله صدره للإسلام، ومات كافرًا.

انظر: الإصابة، ابن حجر (٢/ ١٢٥)، الأعلام، الزركلي (٣/ ٢٥٢).

(٥) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ =

في الأرض لم يرحمه من في السماء». وهو في الصحيح عن ابن مسعود[1] رضي الله عنه، وحديث عروج الروح في السنن عن جابر وأبي هريرة وغيرهما[2]، وقصة عبدالله بن رواحة مع امرأته في الصحيحين، وقد مر الشاهد منها[3]، وقصة حكم سعد في بني قريظة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه في قوله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات[4]. وفي لفظ: من فوق سبعة

= (٣/ ١٢١٩)، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٢/ ٧٤١)، وغيرهم.

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٤٣)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٣) بلفظ: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء» من طريق أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبدالله به، وعزاه الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٧) إلى الطبراني في معاجمه الثلاثة، وأبي يعلى وقال: رجال أبي يعلى رجال الصحيح، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه فهو مرسل».

وللحديث شواهد يصح بها أوردها العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة (٢/ ٦٣٠) وصحح بها الحديث، ولم يخرج البخاري هذا الحديث في صحيحه، ولم أعثر على أحد عزاه إلى البخاري سوى المصنف.

(٢) لعله يعني حديث البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعًا وفيه «... فتعرج بها الملائكة فلا يأتون على جند بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذا الروح...» حديث مساءلة منكر ونكير وهو حديث مشهور صحيح أخرجه أبو داود في السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤/ ٢٣٨)، والطيالسي في مسنده (ص ١٠٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٣٨٠)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٨٧)، وعبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٦٠٣)، والآجري في الشريعة (٣/ ١٢٩٤)، والطبراني في الأحاديث الطوال (ص ٢٣٨)، والحاكم في مستدركه وصححه (١/ ٩٣) وغيرهم، وللحديث شواهد من حديث أنس وابن عباس وأبي هريرة وغيرهم في الصحيح وغيره ذكرها ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢/ ٥٧٦).

(٣) ليست في الصحيحين، وقد مضى تخريجها قريباً، وستأتي ص ٢١١٦.

(٤) مضى تخريجه.

أرقعه[1]، وحديث: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. وهو في السنن[2]، وحديث خولة بنت ثعلبة[3] رضي الله عنها، وهو عند الإمام أحمد بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول: فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[4] [المجادلة: ١].

وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد بهذا اللفظ[5]، ورواه النسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير من غير وجه[6]، وهو عند الإمام

---

(١) أخرجها ابن إسحاق من مرسل علقمة بن وقاص كما في الفتح (٧/ ٤١٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الرحمة (٤/ ٢٨٧) من حديث عبدالله بن عمرو، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين (٤/ ٣٢٣) وقال حسن صحيح، واللفظ له، وأحمد في مسنده (٢/ ١٦٠)، والحميدي في مسنده (٢/ ٢٦٩)، والحاكم في مستدركه وصححه (٤/ ١٧٥)، والبيهقي في سننه (٩/ ٨١).

(٣) امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة رضي الله عنهم أجمعين، فيها وفي زوجها أوس بن الصامت أنزل الله عز وجل صدر سورة المجادلة.
انظر: الإصابة، ابن حجر (٤/ ٢٨٢)، الاستيعاب، ابن عبدالبر (٤/ ٢٨٢).

(٤) مسند أحمد (٦/ ٤٦).

(٥) أخرجه البخاري تعليقًا في التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ١٣٤﴾ (٦/ ٢٦٨٩).

(٦) أخرجه النسائي في الطلاق، باب الظهار (٦/ ١٦٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٧)، والطبري في تفسيره (٢٨/ ٥)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٢٢٢)، وعبد بن حميد في مسنده (ص ٤٣٨)، وأبو يعلى في مسنده (٨/ ٢١٤)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٢٣) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (٧/ ٣٨٢).

أحمد أيضًا عن خولة بنت ثعلبة من طريق محمد بن إسحاق فيما تحكيه من شكواها زوجها إلى النبي ﷺ[١]، وعند ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فتبارك الذي وعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضُه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله: أكل [مالي، وأفنى][٢] شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١] الآية، قال: وزوجها أوس بن الصامت[٣].

وقال ابن لهيعة عن [أبي][٤] الأسود عن عروة عن أوس بن الصامت وكان أوس امرءًا به لمم، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته، وإذا ذهب لم يقل شيئًا، فأتت الرسول ﷺ تستفتيه في ذلك وتشتكي إلى الله، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] الآية[٥].

وهكذا روى هشام بن عروة عن أبيه أن رجلاً كان به لمم فذكر مثله ولم يسمه[٦]، ولهذا لما استوقفت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته فسئل عنها فقال: هذه امرأة سمع الله نجواها من فوق

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤١٠).

(٢) ساقطة من الأصل والمسودة.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٨).

(٤) ساقطة من الأصل والمسودة.

(٥) نقلاً عن ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣١٨).

(٦) المصدر السابق.

سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت عنها حتى تقضي حاجتها، إلا أن تحضر صلاة فأصليها ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها. رواه ابن أبي حاتم من غير وجه[(١)].

وعند عثمان الدارمي من طريق ابن شهاب عن سالم بن عبدالله أن كعب الأحبار قال: ويل لملك الأرض من ملك السماء. فقال عمر: إلا من حاسب نفسه، فقال كعب: والذي نفسي بيده إنها في التوراة لتابِعَتُها!!، فخرّ عمر رضي الله عنه ساجدًا[(٢)].

والآيات في هذا المعنى كثيرة لا تحصر، كلها تشير إلى إثبات الفوقية له جل وعلا، وأنه أحد فرد صمد، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [ك،١٩٨/ب]، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾، أقرب إلى أحدنا من حبل الوريد، لا إله إلا هو خالق كل شيء وهو الواحد القهار، لا يكيَّف ولا يمثَّل، لا تحيط به الأفكار، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، قد وصف نفسه في أعظم آية في كتابه حيث قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٤٩).

﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥ ـ ١٦].

(**أخرجه**) أي الحديث المتقدم، عبدالرحمن (**بن مهدي**) بن حسان العنبري العمري التميمي مولاهم، أبو سعيد البصري الحافظ الثقة الثبت، العارف بالرجال والحديث.

قال الترمذي: سمعت محمد بن عروة بن نبهان بن صفوان الثقفي البصري يقول: سمعت علي بن المديني يقول: لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني لم أر أحدًا أعلم من عبدالرحمن بن مهدي.

وذكر الترمذي أيضًا عن الإمام أحمد أنه قال: عبدالرحمن بن مهدي إمام، توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة وهو ابن ثلاث وسبعين سنة[١].

(**عن حماد بن سلمة**) هو ابن دينار البصري، أبو سلمة الثقة العابد، أثبت الناس في ثابت البناني، تغير رحمه الله آخر عمره، توفي سنة سبع وستين ومائة، قال عبدالرحمن بن مهدي: لو قيل لحماد بن سلمة إنك تموت غدًا لما قدر أن يزيد في العمل شيئًا، وكان سيد وقته[٢].

(**عن عاصم**) هو ابن بهدلة ابن أبي النجود الأسدي مولاهم، أبوبكر الكوفي المقري، صدوق قيل له أوهام، حجة في القرآن، روي له في الصحيحين وغيرهم .

(**عن زر**) بكسر الزاي المعجمة في أوله وتشديد ثانيه، (**بن حبيش**) بمهملة فموحدة مصغرًا، ابن حباشة بضم المهملة، بعدها موحدة ثم معجمة، أسدي كوفي، يكنى بأبي مريم ثقة جليل القدر مخضرم .

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٩/ ١٩٢)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٦/ ٢٧٩).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧/ ٤٤٤)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٣/ ١١).

(عن عبدالله) هو ابن مسعود الهذلي رضي الله عنه.

وأخرجه أيضًا بمعناه أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي[1] في كتاب العظمة له قال: حدثنا عبدالملك ثنا أحمد بن عبدالرحمن عن أبي إسحاق الفزاري عن سفيان عن عاصم عن زر عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه به، وهذا إسناد صحيح.

(ورواه بنحوه المسعودي) وهو عبدالرحمن بن عبدالله بن عتبة بن مسعود رضي الله عنه الكوفي الهذلي، روى له أهل السنن والإمام أحمد، وهو أخو عبيدالله بن عبدالله أحد الفقهاء السبعة المدني، وهما ثقتان، إلا أن عبدالرحمن المعروف بالمسعودي دون أخيه في الحفظ، وروى له البخاري خارج الصحيح.

وعند الشهاب بإسناده عن عبدالله بن عتبة والد عبدالرحمن المذكور وعبيدالله قال: أذكر أن النبي ﷺ أخذني وأنا خماسي أو سداسي فأجلسني في حجره، ومسح رأسي ودعا لي وذريتي بالبركة[2].

ولهذا ظهرت دعوة النبي ﷺ في ذريته بالعلم والزهد والورع والعبادة.

فأما عبدالرحمن المذكور فقد قال أبو حاتم الرازي: كان أعلم أهل زمانه بحديث ابن مسعود رضي الله عنه. قيل إنه اختلط آخر عمره، فمن سمع منه ببغداد فقبل الاختلاط[3].

---

(١) محدث، حافظ، صوفي، سكن مكة، وصار شيخ الحرم، وصحب الجنيد وغيره، ورحل إلى الأقاليم، توفي بمكة سنة ٣٤٠هـ.

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٩٩) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه من لم أعرفهم»!! والشهاب إنما هو اسم مسند القضاعي، فلا تستقيم عبارة المؤلف هنا.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٧/ ٩٣)، تاريخ بغداد، الخطيب (١٠/ ٢١٨).

(عن عاصم) بن بهدلة المذكور، **(عن أبي وائل)** هو شقيق بن سلمة الأسدي التابعي الجليل، صاحب عبدالله بن مسعود مخضرم(١). **(عن عبدالله)** بن مسعود رضي الله عنه به(٢).

وقد رواه بمعناه ابن حبان بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري، **(قال الإمام الحافظ)** العالم العلامة، مؤرخ الشام ومحدثه، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز التركماني الفارقي الأصل، الدمشقي المعروف بـ(الذهبي) الشافعي، ولد سنة ثلاث وسبعين [وستمائة](٣)، وسمع الحديث في سنة اثنتين وتسعين وستمائة، وتوفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة(٤).

قال في كتاب العلو له: **(وله)** أي الحديث المتقدم **(طرق)** يشير بذلك إلى ثبوته لتعدد طرقه(٥).

(وعن عباس بن عبدالمطلب) عم النبي ﷺ في حديث له وفيه **(قال)** العباس رضي الله عنه: **(قال رسول الله ﷺ)** أي لأصحابه أو بعضهم

---

(١) انظر: الطبقات، ابن سعد (٦/ ٩٦، ١٨٠)، تهذيب التهذيب، ابن حجر (٤/ ٣١).

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٤٦)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٣)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٦٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٥٠٧)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٣٩٦) وإسناده حسن لأجل عاصم بن بهدلة فهو حسن الحديث، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٦) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) ساقطة من الأصل.

(٤) انظر: الدرر الكامنة، ابن حجر (٣/ ٣٣٦)، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي (١٠/ ١٨٢).

(٥) العلو، الذهبي (١/ ٤١٧).

رضي الله عنهم ممن حضر القول مستفهمًا لهم: **(هل تدرون)** هو من الدراية وهي العلم، والمعنى هل تعلمون؟ **(كم بين السماء والأرض؟)** يعني من المسافة، ولهذا قال: **(قلنا: الله ورسوله أعلم)** وهذا من تأدبهم رضي الله عنهم حيث وكلوا العلم إلى عالمه ومن هذا قول الملائكة عليهم السلام لربهم: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] الآية، وقد جرم الله القول عليه بلا علم فقال: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٩]. فينبغي أن يقول الإنسان فيما لا يعلم: الله أعلم، أو كلمة نحوها حتى يكون مقتديًا سالمًا من التبعة.

(قال ﷺ: بينهما مسيرة خمسمائة عام، ومن) وفي غير خط الشيخ: **وبين (كل سماء إلى سماء)** من المسافة، **(مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء)** الكثف: جمع كثيف، وهو الثخين الغليظ[1]. **(مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة)** وفي لفظ: **(وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء الأرض)** من المسافة المذكورة فيما تقدم، **(والله تعالى فوق ذلك، وليس)** مع ذلك العلو والمباينة لمخلوقاته، **(يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم)** فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو سميع يسمع ويرى، يعلم ما في الأرض وما في السماء وما بينهما وما تحت الثرى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

قال ابن أبي الدنيا: حدثنا الوليد بن شجاع ثنى وهب أخبرني أسامة ابن زيد الليثي أن نافعًا حدثه قال: كان لابن رواحة [ك،١٩٨/أ] امرأة وكان

---

(١) انظر: النهاية، ابن الأثير (٤/ ١٥٣).

يتّقِيها، وكانت له جارية ترفع عليها، وفرِقت أن يكون فعل، قال سبحان الله، قالت اقرأ علي إذًا فإنك جنب، وكانت لا تقرأ القرآن، فقال:

شهـــــدت بإذن الله أن محمـــــدًا رسول الذي فوق السموات من علُ

وأن أبـا يحيـى ويحيـى كـلاهمـا[1] لـه عمـــل فـي دينـه متقبـــل[2]

وهو في الصحيحين بلفظ آخر ذكرناه في هذا الشرح[3].

إذا فهمت ذلك علمت أن من جعل معه سبحانه آلهة أخرى فما قدره حق قدره، وكذا من لم يصفه بصفات الكمال فما قدره حق قدره، وكذا من نفى عنه شيئًا من صفات كماله، ولم يسلّم لقدره وقضائه، فما قدره حق قدره ومن لم يحكّم كتابه المبين، ورسوله الأمين، ويسلّم لهما ويرضى، فما قدره حق قدره.

---

(١) أبو يحيى هو زكريا عليهما الصلاة والسلام.

(٢) لم أعثر عليه فيما لدي من كتب ابن أبي الدنيا، وقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٧٣) من طريق أبي أسامة عن نافع قال كانت لعبدالله بن رواحة جارية... الحديث ومن طريقه ابن قدامة في صفة العلو (ص ١٠٨) وإسناده كما هو واضح مرسل وفيه أبو أسامة وهو حماد بن أسامة، قال الحافظ في التقريب (ص ١٧٧): «ثقة ثبت ربما دلس»، وقد عنعن في هذا الإسناد.

وهذه الأبيات مروية أيضًا عن حسان بن ثابت رضي الله عنه عند ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٢٧٣)، وأبي يعلى في مسنده (٥/ ٦١) كلهم من طريق أبي حيان التيمي عن حبيب بن أبي ثابت قال أنشد حسان للنبي ﷺ وذكر الأبيات السالفة، وأورده الهيثمي في المجمع (١/ ٢٤) وقال: «رواه أبو يعلى وهو مرسل» يشير بذلك إلى الانقطاع بين حبيب بن أبي ثابت وبين النبي ﷺ.

(٣) سبق التنبيه إلى أن عزو هذه القصة إلى الصحيحين وهم. راجع ص٢١٠٩.

(أخرجه أبو داود) في سننه (وغيره)[(١)] منهم أبو جعفر محمد بن عثمان ابن أبي شيبة في كتابه [العرش] بإسناد حسن عنه بهذا اللفظ[(٢)]، ورواه أيضًا هناد بن السري[(٣)] بسند صحيح عن أبي ذر رضي الله عنه من طريق الأعمش عن زر بن حبيش عن أبي ذر مرفوعًا فذكر مثله[(٤)]، ورواه الترمذي وابن ماجه وأبو داود بغير هذا اللفظ، قال أبو داود وابن ماجه واللفظ لهما متنًا وإسنادًا: حدثنا محمد بن الصباح ثنا الوليد بن

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في الجهمية (٤/ ٢٣٠)، والترمذي في التفسير، باب سورة الحاقة (٥/ ٤٢٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٩)، وعبدالله بن أحمد في زوائده على المسند (١/ ٢٠٧)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص ٤٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٣)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٣٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٥٠٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٦٨)، والضياء في المختارة (٨/ح ٣٧٤، ٤٦٢)، والخطابي في غريب الحديث (١/ ٥٤١)، واللالكائي في شرح أصول السنة (٣/ ٣٩٠)، وابن عبدالبر في التمهيد (٧/ ١٤٠) كلهم من طريق عبدالله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس به، وفيه جهالة عبدالله بن عميرة، قال الذهبي في الميزان (٢/ ٤٦٩): «فيه جهالة» وقال الحافظ في التقريب (ص ٣١٦): «مقبول» وفيه أيضًا عدم سماع عبدالله بن عميرة من الأحنف بن قيس، قال البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ١٥٩): «ولا نعلم له سماعًا من الأحنف»، وللألباني عليه رحمة الله كلام طويل نفيس في تخريجه وتضعيفه في السلسلة الضعيفة (٣/ ٣٩٨) يحسن الرجوع إليه إتمامًا للفائدة.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في العرش (ص ٥٦). وقد وقع في الأصل والمسودة: «الغربيين» موضع «العرش».

(٣) التميمي الدارمي، محدث، زاهد، حافظ شيخ الكوفة في عصره له كتاب الزهد، توفي سنة ٢٤٣هـ.
انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي (٢/ ٨٢)، الرسالة المستطرفة، الكتاني (ص ٣٩).

(٤) لم أعثر عليه في مظانه.

أبي ثور عن سماك عن عبدالله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبدالمطلب قال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظروا إليها، فقال رسول الله ﷺ: ما تسمون هذه؟ قالوا: السحاب، قال: والمزن، قالوا: والمزن، قال: والعنان، قالوا: والعنان، قال: هل تدرون ما بُعدُ ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري، قال: «إن بعد ما بينهما إما واحدة، وإما اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، والسماء التي فوقها كذلك، حتى عد سبع سموات، ثم فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله مثلُ ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثلُ ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه مثلُ ما بين سماء إلى سماء، ثم الله عز وجل فوق ذلك»[1].

وفي الترمذي من حديث [عبدالله بن عمرو][2] يرفعه: «لو أن رضاضة[3] مثل هذه ـ وأشار إلى مثل الجمجمة[4] ـ أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل[5].

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في الجهمية (٤/ ٢٣٠)، والترمذي في التفسير، باب سورة الحاقة (٥/ ٤٢٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٦٩)، وانظر تمام تخريجه والكلام على إسناده في الحديث السابق.

(٢) في الأصل: «ابن عمر» وما بين معكوفتين من الترمذي (٤/ ٧٠٩).

(٣) الرضاض ما دق من الحصى، ورضاض الشيء فتاته، وكل شيء كسرته فقد رضضته. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٧/ ١٥٤).

(٤) الجمجمة: قدح من خشب، والجمع جماجم، وبه سمي دير الجماجم بالعراق، كان أهلها يصنعون بها أقداح الخشب. انظر: النهاية، ابن الأثير (٤/ ٧٠٩).

(٥) أخرجه الترمذي في صفة جهنم، باب رقم (٦) من طريق أبي السمح عن عيسى بن هلال الصدفي عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعًا، وقال: هذا حديث إسناده حسن =

فمهما خطر بخاطرك فالله عز وجل فوق ذلك.

وقال ابن أبي حاتم: ثنا أبي قال كتب إلي أحمد بن حفص بن عبدالله النيسابوري حدثني أبي ثنا إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُذن لي أن أحدّثكم عن ملَك من حملة العرش، إن بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه مخفِق الطير سبعَمائة عام[1]».

وهذا إسناد كما ترى جيد رجاله كلهم ثقات[2].

ورواه أبو داود في سننه فقال: حدثنا أحمد بن حفص بن عبدالله ثنا أبي ثنا إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله تعالى من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام». هذا لفظ أبي داود[3].

= صحيح، وأحمد في المسند (٢/ ١٩٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٦) وصححه ووافقه الذهبي، وفي إسناده أبو السمح دراج المصري قال أحمد أحاديثه مناكير ولينه، وضعفه غير واحد كما في ميزان الاعتدال (٢/ ٢٤)، وقال الألباني في المشكاة (٣/ ١٥٨٤): إسناده ضعيف فيه أبو السمح واسمه دارج وهو ضعيف صاحب مناكير.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٤).

(٢) انظر ابن كثير، التفسير (٤/ ٤١٤).

(٣) أخرجه أبو داود في السنة، باب في الجهمية (٤/ ٢٣٢)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٤٢٥) وأورده الهيثمي في المجمع (١/ ٨٠) وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، وقال الذهبي في العلو (١/ ٧٤٥) إسناده صحيح، وقال ابن حجر في الفتح (٨/ ٦٦٥): إسناده على شرط الصحيح. =

وروى ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾ [الحاقة: ١٧] قال: ثمانية صفوف من الملائكة[١].

قال: وروي عن الشعبي وعكرمة والضحاك وابن جريج مثل ذلك[٢].

وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه: الكروبيون، ثمانية أجزاء، كل جزء منهم بعِدّة الإنس والجن والشياطين والملائكة[٣].

وعند البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»[٤].

وعندهما عنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق، إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»[٥].

ومن ذلك حديث النزول من الأحاديث المتواترة وهو في الصحيحين وغيرهما[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (١/ ٢٠٣)، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر (١/ ٤٣٩)، وغيرهم.

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١﴾ (٦/ ٢٧٤٥)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى (٤/ ٢١٠٧)، وغيرهم.

(٦) مضى تخريجه.

وعند أبي داود بإسناد على شرط الصحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا ۝﴾ فوضع أصبعيه: الدعّاءَ وإبهامه على عينيه وأذنيه(١).

وعند البخاري وغيره في الصحيح عن جبير بن مطعم في حديث له قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته، وسمواته فوق أرضه مثل القبة، وأشار النبي ﷺ بيده مثل القبة»(٢).

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن [فقال](٣): اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء، ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أدرك ناقتك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا السراب يقطع دونها، وأيم الله لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في الجهمية (٤/ ٢٣٣)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٩٨) وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣/ ٨٩٥): صحيح الإسناد.

(٢) حديث جبير بن مطعم حديث أطيط العرش، وقد تقدم تخريجه والحكم عليه بالضعف، وليس في الصحيح كما ذكر المؤلف رحمه الله.

(٣) في الأصل: فقالوا، والتصويب من البخاري.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (٦/ ٢٦٩٩)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٣١)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٠) وغيرهم، ولم أعثر عليه في مسلم.

وفي حديث أبي رزين العقيلي[1] عند الترمذي وغيره قال: قلت يا رسول الله أين ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء».

قال يزيد بن هارون: العماء: ليس معه شيء[2]، وهكذا قال الإمام أحمد فيما ذكر الترمذي عنه.

قال الخطابي: رواه بعض المحدثين «في عمىً» مقصور [ك،١٩٩/ب] على وزن عصىً وقفًا، يريد أنه في عمى من علم الخلق. قال: وليس هذا بشيء، وإنما هو [في عماء][3] ممدودًا، وهكذا رواه أبو عبيد[4] وغيره من العلماء ممدودًا[5].

---

(١) هو لقيط بن عامر بن المنتفق العامري، أبو رزين العقيلي، وافد بني المنتفق إلى رسول الله ﷺ غلبت كنيته على اسمه.

انظر: الاستيعاب، ابن عبدالبر (٣/ ٣٠٥)، الإصابة، ابن حجر (٣/ ٣١١).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب من سورة هود (٥/ ٢٨٨) وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه في المقدمة، باب ما أنكرت الجهمية (١/ ٦٤)، وأحمد في المسند (٤/ ١١، ١٢)، والطيالسي في مسنده (ص ١٤٧)، وابن أبي شيبة في العرش (ص ٥٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧١)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٢٠٦)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ٤)، وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٣٦٣) كلهم من طريق حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس عن أبي رزين، وفي إسناده وكيع بن حدس، قال ابن القطان: مجهول الحال، وقال ابن قتيبة: غير معروف، وقال الذهبي: لا يعرف، وقال ابن حجر: مقبول.

انظر: ميزان الاعتدال (٤/ ٣٣٥)، الكاشف، الذهبي (٢/ ٣٥٠)، تهذيب التهذيب (١١/ ١٣١)، تقريب التهذيب، ابن حجر (ص ٥٨١).

(٣) ساقطة من الأصل، ألحقت من غريب الخطابي (٣/ ٢٤٢).

(٤) أخرجه أبو عبيد في غريبه (١/ ٢١٢).

(٥) غريب الحديث، الخطابي (٣/ ٢٤٢).

قال أبو عبيد: والعماء: السحاب. وقال غيره: الرقيق من السحاب. قال ورواه بعضهم: في غمام، وليس بمحفوظ[1]. وإنما هو «في عماء»، ممدود، وقاله الأصمعي وغيره، قال الحارث بن حلزة:

وكأن المنون تردي بنا ... أرعن جونًا ينجاب عنه العماء[2]

يقول: من أرادنا بالمنون فكأنما يريد ذلك الجبل الأرعن الأسود الذي ينشق عنه العماء، وهو السحاب من طوله وارتفاعه عنه[3].

وقل جرير:

وإذا بدا علم الفلاة طلبنه ... عَمِقُ الفجاج منطّقٌ بعماء[4]

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: وإنما أوّلنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عندهم، ولا ندري كيف كان ذلك العماء وما مبلغه، والله أعلم بذلك، وأما العمى في البصر فإنه مقصور، وليس هو من معنى هذا الحديث في شيء[5].

وقد روى نحو ما تقدم الترمذي والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب فقال نبي الله: هل تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذه العنان، هذه زوايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه،

---

(١) المصدر السابق.
(٢) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٢١٢).
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: شرح ديوان جرير، مهدي ناصر الدين (ص ١٣).
(٥) غريب الحديث، أبو عبيد (١/ ٢١٣).

ثم قال: هل تدرون ما فوقكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: فإنها الرقيع: سقف محفوظ، وموج مكفوف، ثم قال هل تدرون ما بينكم وبينها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: بينكم وبينها خمسمائة عام، ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال [فإن فوق ذلك][1] سماءين بُعْدُ ما بينهما خمسُمائة سنة. ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض، ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن فوق ذلك العرش، بينه وبين السماء بعد ما بين السماءين، ثم قال: هل تدرون ما الذي تحتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنها الأرض. ثم قال: هل تدرون ما تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن تحتها أرضًا أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة، حتى عد سبع أرَضِين، بين كل أرْضَينِ مسيرةُ خمسمائة سنة. ثم قال: والذي نفس محمد بيده، لو أنكم [أدليتم][2] رجلاً بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله، ثم قرأ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾[3] [الحديد: ٣].

قال الترمذي رحمه الله: قراءة رسول الله ﷺ الآية تدل على أنه أراد

---

(١) ساقطة من الأصل، ألحقت من نص الحديث.

(٢) ساقطة من الأصل، ألحقت من نص الحديث.

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، باب سورة الحديد (٥/ ٤٠٣) وقال: هذا حديث غريب، وأحمد في المسند (٢/ ٣٧٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٥٠٥) كلهم من طرق عن الحسن البصري عن أبي هريرة، قال الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٥٥): «فيه عنعنة الحسن البصري فإنه مدلس... وقال البيهقي مبينًا علته: وفي رواية الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه انقطاع، ولا يثبت سماعه من أبي هريرة...».

لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على العرش كما وصف نفسه في كتابه[١]. هكذا أوّله الترمذي بعد روايته لحديث جابر والله سبحانه أعلم بمراده[٢].

وقد قال عبدالله ابن الإمام أحمد: حدثني أبوبكر ثنا أبو الأسود النضر ابن عبدالجبار ثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ الآية التي في خاتمة النور[٣]، وهو جاعل أصابعه تحت عينيه يقول: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾[٤] [الملك: ١٩].

وعند ابن جرير وعبدالله ابن الإمام أحمدَ من حديث حماد بن سلمة قال: أخبرنا ثابت عن أنس عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال حماد: هكذا، ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن، فقال حميد لثابت: أتُحدّث بمثل هذا؟ فضرب ثابت في صدر حميد ضربة بيده شديدةً وقال: رسول الله ﷺ يحدّث به.

ورواه الحاكم في صحيحه وقال: هو على شرط مسلم[٥]، قالوا:

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٤٠٤).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذا الحديث: تأويله بالعلم تأويل ظاهر الفساد، من جنس تأويلات الجهمية؛ بل بتقدير ثبوته يكون دالاً على الإحاطة، والإحاطة قد عُلم أن الله قادر عليها.. إلخ، مجموع الفتاوى (٦/ ٥٧٤).

(٣) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٢/ ٥٣١) وفي إسناده عبدالله بن لهيعة صدوق اختلط كما في التقريب (ص ٣١٩).

(٤) كذا قال، وليست في سورة النور.

(٥) مضى تخريجه والحكم بصحته.

وهو كما قال، ومر مثله.

وقال محمد بن جرير الطبري: حدثنا القاسم ثنا الحسن ثنا المعتمر بن سليمان عن عبدالجليل عن أبي حازم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: يهبط الله عز وجل حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة، فيصوّت في تلك الظلمة صوت تبلغ له الحناجر[(١)]. وهذا موقوف على عبدالله بن عمرو ابن العاص، ولعله من الزاملتين اللتين وجدهما من أخبار أهل الكتاب، والله أعلم[(٢)].

وقال عبدالله ابن الإمام أحمدَ أيضًا عن أبيه قال: سئل عما روي عن النبي ﷺ: «إن الله يحمل السموات على أصبع» وما أشبه ذلك من الأحاديث، فأورد حديث ابن مسعود فقال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان حدثني منصور وسليمان عن إبراهيم عن عبيدة عن عبدالله رضي الله عنه: أن يهوديًا أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إن الله يمسك السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والثرى على أصبع، والخلائق على أصبع ثم يقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال عبدالله: قال أبي: قال يحيى: قال فضيل بن عياض: فضحك

(١) كذا في الأصل والمسودة، وينبغي أن يكون السياق: تبلغ له القلوب الحناجر. وقد أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٩/ ٦)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٩) ولفظه عند ابن جرير: «... منها النور والظلمة والماء، فيصوت الماء صوتًا تنخلع له القلوب».

(٢) ابن كثير، التفسير (٣/ ٣١٦).

رسول الله ﷺ تعجبًا وتصديقًا له[1].

قال عبدالله: وسمعت أبي يقول: حدثنا يحيى بن سعيد بحديث سفيان عن الأعمش [ك،١٩٩/أ] ومنصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبدالله عن النبي ﷺ: «إن الله يمسك السموات على أصبع». قال أبي: وجعل يحيى يشير بأصابعه، وأراني كيف جعل يحيى يشير بأصابعه يضع أصبعًا أصبعًا حتى أتى إلى آخرها[2].

ثم أورد بنحوه من وجوه أخر كلها صحاح على شرط الشيخين، وأورده عن ابن عباس رضي الله عنهما من وجهين كرهنا الإطالة بإيرادهما[3]، قال عبدالله: وحدثني أحمد بن إبراهيم قال: سمعت وكيعًا يقول: نسلّم هذه الأحاديث كما جاءت، ولا نقول: كيف كذا؟ ولا: لم كذا؟ يعني مثل حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله يحمل السموات على أصبع والجبال على أصبع» الحديث، وحديث أن النبي ﷺ قال: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن» ونحوها من الأحاديث[4].

وعند مسلم والإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعًا: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[5].

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) أخرجه عبدالله في السنة (١/ ٢٦٤).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٦٦).

(٤) أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (١/ ٢٦٧).

(٥) أخرجه مسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب (٤/ ٢١١٢)، وأحمد في مسنده (٤/ ٣٩٥)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (ص ٦٦) وغيرهم.

وعند مسلم أيضًا وابن ماجه عنه رضي الله عنه: إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه[1].

وهكذا رواه ابن ماجه، ورواه من طريق آخر صحيح إلى أبي عبيدة عن أبي موسى رضي الله عنه مرفوعًا، فذكره وقال فيه: «لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره».

ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنْ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾[2] [النمل: ٨].

ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠].

[وعند الترمذي[3] وصححه أن الله خلق إسرافيل بينه وبين الرب تبارك وتعالى سبعون نورًا، ما منها نور يكاد يدنو منه إلا احترق[4].

فقد علمت بهذا أنه الأحد الفرد الصمد، الذي لا يخرج عن حكمه أحد، ولا يجد أحد من دونه ملتحدا، القادر القائم على كل نفس، الذي الجبابرة تحت بطشه وسطوته، والسموات والأرض تحت تصرفه

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام (١/ ١٦١)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٧٠)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٠٥)، وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٧١).

(٣) كذا قال: عند الترمذي!، وإنما هو في المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٧٩) وشعب الإيمان للبيهقي (١١/ ٣٧٩) قال في المجمع (٩/ ١٩): فيه محمد بن أبي ليلى، وقد وثقه جماعة، لكنه سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات.

(٤) غير واضح في الأصل، وأثبتناه من المصدر.

وفي قبضته، ويوم القيامة مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون، أول لا أول له، وآخر لا آخر له، فهو الله خالق كل شيء، وهو الواحد القهار، تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، فله العزة والجبروت، والملك والملكوت، لا يستطيعه أحد بوصف، وكيف وسيد الأولين والآخرين ﷺ قد اعترف في ذلك بالتقصير[1] فقال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[2].

وقد قال تعالى آمرًا رسوله في كتابه العزيز أن يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

انتهى ما كان لوجهه قصدنا وإنا لنرجو بذلك منه الزيادة والحسنى.

قال الشيخ أبقاه الله: وقد تم تبييضه على يد كاتبه ومصنفه وجامعه، الفقير إلى رحمة ربه الغفور عثمان بن عبدالعزيز بن منصور الناصري ثم العَمْري: التميمي نسبًا، الحنبلي مذهبًا ومعتقدًا[3]، النجدي مولدًا،

---

(١) الأليق أن يقال: العجز؛ لأن التقصير يتضمن إثبات المقدرة مع التفريط، ثم إن الحديث الذي أورده إنما هو في العجز عن الوفاء بحقه في الثناء، لا في العجز عن وصفه.

(٢) جزء من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٢)، وأبو داود في الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود (١/ ٢٣٠)، والترمذي في الدعوات، باب رقم (٧٦) (٥/ ٥٢٤)، وغيرهم.

(٣) ليس للحنابلة معتقد يتميزون به عن سائر أهل السنة والجماعة من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، وكان الأجدرَ الانتسابُ إلى السلف في الاعتقاد.

نهارَ الخميس خامسَ شعبانَ المباركِ من سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف من الهجرة النبوية، على مهاجرها أفضلُ صلاة وأزكى سلام إلى يوم الدين، وأسأل الله الرؤوف كما قال عبدالرؤوف[١] العفو عما طغى به القلم، فأي إنسان من ذلك إلا ألمّ، وأُحرّج على من عثر على هفوة أو كبوة، أن يرقع خرقه، ويفتق رتقه، ويصلح خلله، ويستر زلله، فمن تجنب الإنصاف، ونظر بعين الانحراف، وطلب عيبًا وجدّ وجد، ومن افتقد زلل أخيه بعين الزلل فقد، فرحم الله امرأً غلب هواه وعمل بالإنصاف وعذرني في خطأ إن كان مني أو صدر عني، فالكمال محال لغير ذي الجلال، والمرء غير معصوم، والنسيان في الإنسان غير معدوم، وقد عوّلت فيما ذكرت في هذا الشرح على كلام العلماء الراسخين، المعروفين بالتقدم في العلم باليقين، من الصحابة والتابعين، وأتباع الأئمة الأربعة أئمة الدين، نسأل الله أن يعمّنا وإياهم بعفوه وإحسانه، وأن يمنّ علينا من جوده وامتنانه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، إذ ليس لنا في وضع ذلك من غرض في عيب أو سباب، وإنما الغرض هنا الذبّ عن دين رب الأرباب، أوجبَ لنا ولمن قبلنا من علماء الملة الإسلامية كصاحب متن هذا الكتاب التكلمَ في هذا الباب، نصيحةً لله ورسوله وكتابه، وأئمة المسلمين وعامتهم، مع محبتنا الصلاح لنا وللمسلمين، والمغفرة الشاملة حتى نكون من أصحاب اليمين، ولا نحبّ بحمد الله إلا ما يحبه الله من العباد، وما لنا في شقاء أحد من الناس من مكروه بُغْيَـة أو مراد، والله الموفق لسبيله، لا معطي لما منع ولا رادّ.

(١) لعله يعني عبدالرؤوف المناوي صاحب «فيض القدير شرح الجامع الصغير»؛ فقد رجع إليه في هذا الشرح كثيرًا.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية فيما نقل عن [سهل بن][1] عبدالله التستري أنه قال: ليس بين الله وبين العبد حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب إليه من الافتقار؛[2] إذ الاستقامة لا تصح إلا بترك الدعوى.

[ك، ٢٠٠/ب] وقال أبو الوفاء ابن عقيل: اعتبرت الأخلاق فإذا أشدُّها وبالاً الحسد.

وقال ابن الجوزي: الإنسان مجبول على حب الترفع على جنسه.

نسأل الله من ذلك العفو والعافية والمعافاة، إنه كريم جواد رحيم بالعباد، وقد عنّ لي أن أختم بتتمة من كلام حسّان السنة أبي زكريا يحيى بن يوسف الصرصري[3] ليكون مُلحة للكتاب، ونُبهة للاعتقاد، فاخترنا من قوله قصيدته التي ذكر فيها رؤياه للنبي ﷺ، وقد أبدلت في أبيات منها من قولي، وبينت ذلك عند قول الناظم رحمه الله تعالى، وكان قد رأى النبي ﷺ في النوم، قال: قبّلت فاه ﷺ وقلت: أشهد أن هذا الفمُ الذي أنزل عليه الوحي. قال: فقال لي عليه السلام: وأنا أشهد أنك متّ على

---

(١) ساقطة من الأصل.

(٢) مجموع الفتاوى: ٧/ ٢٠.

(٣) أبو زكريا جمال الدين الصرصري، شاعر من أهل صرصر بلدة على مقربة من بغداد، سكن بغداد، وكان ضريرًا، له ديوان شعر ومنظومات في الفقه وغيره، قتله التتار يوم دخلوا بغداد، بعد أن قاتلهم وهو شيخ فقتل أحدهم بعكازه، فقتلوه سنة ٦٥٦هـ.

انظر: المقصد الأرشد ابن مفلح (٣/ ١١٤)، البداية والنهاية، ابن كثير (١٣/ ٢٢٤).

الكتاب والسنة. فذكر له ﷺ موته على الكتاب والسنة بلفظ الماضي تحقيقًا، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يسميه مع ما فيه من التوسل بالذات حسّان السنّة، إلا أنه قد عنّ لي فضل قول من قولي عند ختمي لهذا الشرح، فأردت أن أذكره ههنا قبلُ، ثم أعقّب بقول أبي زكريا حسّان السنّة لما ذكرت أنه مُلحة لختم هذا الشرح، فمن قولي في الختام:

الحمـــد لله إكمـــالاً لبُغيتنـــا	مِلأُ السماء وملأ الأرض كَرّاتِ
أنت المهيمن إنعامًا ومغفرةً	والفقرُ لي لازمٌ جميعَ حالاتي
فارزق بجودك ربي أنت ملجؤنا	والمستغاثُ على همّي وحاجاتي
عفوًا تجود به عني وعن زللي	يمحو الخطيئات من ذنبي وحوباتي
وارحم لعبدك ذا المسكينِ إنّ له	ما قد علمتَ ووفّق قلبه العاتي
فهْما لشرعِك يهديه ويُرشدُه	طُرْقَ الرشاد ونَوِّر بالهدى ذاتي
شكرًا له الرب مني فهو ألهمني	شرحًا جلوتُ به غرًّا غريباتِ
عرائسَ العلم أجلوها مُخَدّرةً	كأنها أنجمٌ من بين غيماتِ
من الغوامض في التوحيد على	متنٍ عليه بهذا الشرح تنهاتي(١)
فاقبل بفضلك ربي ما قصدتُ به	أنـت العليـم بـأعمـالـي ونيّـاتـي
اسم الكتاب ومنك الفتحُ ترشدنا:	«فتح الحميد» وكم فتح لك آتي
فهو الرياض بنور الوحي ضُمّنَ ما	يشفـي الصـدور أحـاديثًا وآيـاتِ

(١) التنهات: روضة مشهورة بنجد.

بكل نوع من الأزهار أودعها ... روضٌ عميمٌ ربيعٌ للبريات[1]

أقفوا به إثر شيخ الدين سيدِنا ... بحرِ العلوم وشمسٍ في الدجيّات

حبرِ القرآن جمالِ الدين كاشفِ ما ... يُعيي الفحولَ بكشفٍ للضلالاتِ

شمسِ المعارف مفتاحِ العلوم غدا ... منه المثال بوصفِ الدين مِرآةِ

يعلو الرجالَ أفضالاً ومعرفةً ... وفي الشجاعة ليثٌ بين غابات

وفي السياسة لا يُحذى به أحدٌ ... على الشريعة يعلو بالعُلى العاتي

يتلو الرسولَ بهذا الدين مجتهدًا ... كأنه الشمس تعشو للخُفَاشاتِ

شيخٌ عليه يُدار الدين كما ... يدور جديٌ على قطْبِ السموات

وهو النسيب لصلب الياسَ ناسبه ... يُنهى العدادَ إليه بالكرامات[2]

تمّ الكتاب بعون الله خالقِنا ... به استعنتُ على حاجي وهماتي

فاغفر لشارحه ربي وماتنه ... والناسخين له كل الخطيّات[3]

---

(١) ألحق المؤلف بعد هذا البيت أربعة أبيات في طرّة الأصل، قرأت منها:

إذ لا أكفّر بالعصيان راكبه ... مع الذين يرجّون السلامات

كالقائمين على ....

..من الله زيغا ثم يركسني ... مع الغلاة بتكفير البريات

هذا .... ممّا يصدقني ... . .ويغفر زلاّتي

(٢) ألحق المؤلف بعد هذا البيت في طرة الأصل بيتين أو ثلاثة استطعت قراءة أولها وهو:

فالله يعلم من مدحي ومقصده ... أني رجوت به أعلى المسرّاتِ

(٣) في الهامش قيد أحدهم شهادة هذا نصها: «أشهد على أن هذا الكَتْبَ كَتْبُ عثمانَ ابن منصور بيده، وهذا كلامه بلسانه وفمه. قاله كاتب الأحرف عبدالعزيز بن حمد... =

[ك، ٢٠٠/أ]

مـالـي عُـذيـر وداعـي الخيـر بلّغنـي ... إلا بفضلـك فـرّاجَ الجليـلاتِ

أو أن تُشفِّـع خيـر الخلـق أفضلَنـا ... فضـلاً بـإذنـك تشـريفًـا بسيّـاتـي

ثـم الصـلاةُ علـى طـه وتـابعِـه ... محمـدٍ خيـرِ مبعـوثٍ بـآيـات

مثلُ التراب عِدادًا أو يزيدُ وما ... غنّى الحمام على بانٍ وسمْراتِ

فهـو الـرسـول علينـا فـي محبتـه ... حـق عظيـم منـافٍ للمحبـات

وهو المقدّم في سِرّي وفي علني ... فاجعلْه ربي شفيعي في مقاماتي

واختم وفاتي على التوحيد يا أملي ... أنت الجواد وتُرجى للملمات

وقال حَسَّان السنة أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري رحمه الله تعالى:

تواضعْ لرب العرش علّكَ تُرفعُ ... لقد فاز عبدٌ للمهيمن يَخضعُ

وداوِ بـذكـر الله قلبَـك إنّـه ... لأعلـى دواءٍ للقلـوب وأنفـعُ

وخُذ من تقى الرحمن أمنًا وعُدّةً ... ليـوم بـه غيـرُ التَقِـيّ مُـروّعُ

وبالسُنّة المُثْلى فكن متمسّكًا ... فتلـك طـريـقٌ للسّـلامـة مَهْيَـعُ

هي العروة الوثقى وحجة مُقتدٍ ... يَبُتُّ بها أسبابَ من هو مُبدِعُ

رأيتُ رسولَ الله أنصحَ مُرشدٍ ... وأنجحَ ذي جاهٍ كريمٍ يُشفَّعُ

وأصدقُ رؤيا المرءِ رؤياه إنها ... لمِنْ شَبَهِ الشيطانِ تُحمى وتُمنعُ

= ثبته الله على الإسلام والإيمان آمين يا أرحم الراحمين». ومكان النقط غير مقروء.

فقبّلتُ فاهُ العذبَ تقبيلَ شيّقٍ وما كنتُ في تقبيلِ مَمشاه أطمعُ

وقلتُ له هذا الفمُ الصادقُ الذي بوَحْيِ إلهِ العرشِ كان يُمتّعُ

وبشّرني خيرُ الأنامِ بمِيتتي على سنّةٍ بيضاءَ للحقّ تُشرعُ

فها أنا تصديقًا لرؤياه ثابتٌ عليها بحمدِ اللهِ لا أَتَتَعْتَعُ

بِمُعْتَقَدِ الثبْتِ الإمامِ ابنِ حنبلٍ أَدينُ فَلَهْوَ الناقلُ المتَورِّعُ

لئن لم أتابعْ زهدَه وثقاتِه فإني له في صحة العقْدِ أتبعُ

أُمِرُّ أحاديثَ الصفاتِ كما أتتْ على رغْمِ غَمْرٍ يعتدي ويُشنِّعُ

فلا يلجُ التعطيلُ قلبي ولا إلى زخارف ذي التأويلِ ما عِشتُ أرجعُ

أُقِرُّ بأنّ اللهَ جلَّ ثناؤُهُ إلهٌ قديمٌ قاهرٌ مترفّعُ

سميعٌ بصيرٌ ما له في صفاتِه شبيهٌ يَرى مِن فوقِ سبعٍ ويَسمعُ

وخلْقُ الطِّباقِ السبع والأرضِ واسعٌ وكرسيُّه في الخلقِ منهنّ أوسعُ

وما هنّ والكرسيُّ إلا كحلْقةٍ إلى العرش والرحمنُ أعلى وأرفعُ

قضى خلقَه ثم استوى فوق عرشِه ومن عِلْمِه لم يَخْلُ في الأرض موضِعُ

وليس بخافٍ عنه مثقالُ ذرةٍ تضمّنها بحرٌ وبيداءُ بلقعُ

[ك، ٢٠١/ ب]

ومن قال إنّ اللهَ حلّ بذاتِه بكلّ مكانٍ جاهلٌ متسرعُ

إليه الكلامُ الطيّبُ الصِّدقُ صاعدٌ وأعمالُ كلِّ الخلقِ تُحصى وتُرفعُ

يُضِلُّ ويَهدي والقضاءُ بأمرِه مضى نافذًا فيما يَضرُّ وينفعُ

فما لم يشأْهُ اللهُ ليس بكائنٍ وما شاءه في خلقهِ ليس يُدفعُ

وللشرّ والخير المهيمنُ خالقٌ وإبليسُ من أن يخلقَ الشرَّ أوضعُ

ولكنّه للشرِّ أخبثُ مُحدثٍ بوَسواسِه في موبقِ الإثم يوقعُ

علا عن مُعينٍ ربُّنا ومُظاهرٍ على المُلْكِ أو كُفْوٍ على الغيبِ يُطلَعُ

لقد برَأَ الخلق ابتداءً من البرا بلا مُسْعدٍ فيما يسوّي ويَصنعُ

وقال لهم ذرًّا ألستُ بربِّكم فقالوا بلى منهم عَصِيٌّ وطَيِّعُ

وسوف يناديهم جميعًا إذا أتوا حفاةً عراةً في المعاد فيُسْمِعُ

ويَسْمعُ سكّانُ السموات وحيَهُ فهم لسماعِ القولِ صَرْعى وخُضّعُ

وكلّم موسى والكلامُ حقيقةٌ بتوكيده بالمصدر الخصمُ يُقطعُ

ومعتَقدي أن القرآن كلامُه قديمٌ كريمٌ في المصاحفِ مودعُ

وقد سبق الوعدُ المصدَّقُ أنّه إذا جاءت الأشراطُ منها سيُرفعُ

وأُودِعَ حفظًا في الصدورِ وإنّه لبِالْعَيْنِ مَرْئيٌّ وبالأُذْنِ يُسمعُ

بألَسِنَةِ القُرّاءِ يُتْلى وإنّه بحرفٍ وصوتٍ ضلَّ من يتنطعُ

هو السوَر الهادي إلى الحق نورُها وآياتُ صدقٍ للمنيبين تَنْفعُ

به نزل الروح الأمين مصدَّقًا على قلب عبدٍ كان بالحق يَصدعُ

وليس بمخلوقٍ ومن قال عكسَ ما ذكرتُ له في الناس بالكفر يُقطعُ

ولا مُحدَثٍ قد جاء عن سيّد الورى حـديـثٌ لمعناه أسـوق وأرصَـعُ[1]

لقد قرأ الرحمنُ «طه» جميعَها و«يس» أيضًا والملائك تسمعُ

وقولُهُمُ خَلْقٌ فظيعٌ وقولُ من يُشيـر إليـه بـالعبـارة أفظـعُ

ومـن كـان فيـه واقفيًّا مُحيَّـرًا فـذلـك واللفظـيُّ كـلٌّ مُبـدّعُ

وفي كتُبِ اللهِ القديمةِ كلِّها أقول بهذا القولِ لا [أتغزّع][2]

ومعتقَـدي أن الحـروفَ قـديمـةٌ وإن حار في قولي غويٌّ مُتعتِّعُ[3]

---

(١) نفيه أن يكون القرآن مُحدثا مخالف لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾، والحديث الذي ذكره في البيت التالي رواه ابن خزيمة في التوحيد والدارمي في سننه (٢/ ٥٤٧) وابن أبي عاصم في السنة (ص ٢٦٩) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٧٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٢/ ٢٢٦)، وقال عنه ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٤٢): هذا حديث غريب وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تُكلم فيهما. ا.هـ. وضعفه الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم.

(٢) في الأصل: أتقرّع، ولعل ما أثبته هو الصواب.

(٣) لما كان الناظم لا يفرق بين المحدث والمخلوق أثبت قِدم الحروف، فرارًا من القول بخلق القرآن المؤلف من حروف، مع أن هذا ليس بلازم له؛ إذْ الحوادث القائمة بالمخلوقين مخلوقة، أما الحوادث القائمة بذات الرب من أفعاله وكلامه، المتعلقة بمشيئته فهي صفاته الفعلية، ليست بمخلوقة، وهي حادثة بعد أن لم تكن، حدثت بمشيئته وإرادته، هذا هو تحرير مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة: التفريق بين الخلق والحدوث، فما كل حادث مخلوقًا عندهم إلا إذا قام بالمخلوق وكان صفة له أو فعلاً له، أما إذا قام بالرب جل وعلا فهو فعله وصفته. وانظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٢/ ٣٠٠)، الصفدية له (٢/ ٨٤) وما بعدها.

والأئمة إذا وصفوا كلام الله ـ تعالى ـ بالقدم فإنما يعنون أنه تعالى لم يزل إذا شاء تكلم وإذا شاء سكت، لم يتجدّد له وصف القدرة على الكلام، التي هي صفة كمال، كما لم يتجدد له وصف القدرة على المغفرة، وإن كان الكمال هو أن يتكلم =

تبارك ربي [ذو][1] الجلال صفاتُه ... تَجِلُّ عن التأويلِ إن كنتَ تَتْبعُ
يـداه همـا مبسـوطتـان تعـالتَـا ... عن المِثْلِ يُعطِي من يشاء ويَمنعُ
وألـواحُ مـوسـى خطَّهـا بيمينـه ... مواعظُ تشفي مَن يُنيبُ ويَخشعُ
وكلتا يديهِ جلَّ عن مُشبهٍ لهُ ... يمينٌ إلى خير البرية يُرفعُ
وينزل في الأسحار في كل ليلةٍ ... كما جاء في الأخبارِ والناس هُجَّعُ

[ك،٢٠١/أ]

ينادي أولي الحاجاتِ والتوْبِ طالبًا ... فهـل راهـبٌ أو راغـبٌ متضـرِّعُ
ومن قال: إثباتُ الصفاتِ شناعةٌ ... فجُرْأتُهُ إذ عارضَ النصَّ أشنعُ
ويَنْظُـرُهُ الأبـرارُ يـومَ معـادِهـم ... ويُحجبُ عنه مَن إلى النارِ يوزَعُ
كما ينظرون الشمس لا غيمَ دونها ... لقد خاب محجوبٌ هناك مُمَنَّعُ
ولم ير في الدنيا من الناس ربَّه ... بعينيه إلا الهاشميُّ المشفَّعُ[2]
محمدٌ المخصوصُ بالرؤيةِ التي ... غدا الطورُ إجلالاً لها يتقطّعُ
وإنّ نعيـمَ القبـرِ ثـم عـذابَـه ... لَحـقٌّ فمسـرورٌ بـه ومـروّعُ

= إذا شاء، ويسكت إذا شاء. انظر مجموع فتاوى ابن تيمية (٦/ ١٦٠).

(١) في الأصل: ذي، والصواب ما أثبته.

(٢) الصحيح أنه رآه بقلبه، لقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: من حدّثكم أن محمدًا رأى ربّه فقد أعظم على الله الفرية. (صحيح مسلم، برقم ١٧٧)، ولقوله ـ ﷺ ـ لما سُئل: هل رأيت ربك؟ قال: رأيت نورًا. صحيح مسلم برقم (١٧٨).

يُخالِفُ ضِيقًا بين أضلُعِ من طغى ويُفْسَحُ فيه للتقِيّ ويُوَسَّعُ

ويَسْأَلُ فيه الميّتَ الملكانِ عن هُداه فمرحومٌ وآخرُ يُقْمَعُ

ويَعرِفُ في [ذا][1] القبرِ من زاره وإنْ يُسلِّمْ على الأمواتِ في القبرِ يُسْمَعُ

ومَنْ يقرأ القرآنَ للميْتِ مُهديًا يَصِلْهُ وبالإطعام والبرِّ يُنفعُ[2]

وقد يَسألُ الأمواتُ من مات بَعدهم من الأهل[3] مَن منهم مصرٌّ ومُقْلِعُ

وربيَ أحيا خلقَهم ويميتُهم ويبعثُهم بعد المماتِ ويَجمعُ

ويَنْفُخ إسرافيلُ في الصورِ نفخةً فكلٌّ من الأجداثِ للحشرِ مُهطِعُ

ويُنصَبُ للناسِ الصراطُ فعاثِرٌ بذنبٍ وذو بُطءٍ وآخرُ مُسرِعُ

ويُدعى البرايا للحساب جميعُهم فلا ظلمَ والميزانُ للعدلِ يوضعُ

وذلك يومٌ فيه نورُ نبيِّنا برفعِ لِواءِ الحمدِ يعلو ويسطعُ

ويَظهَرُ فيه جاهُه بشفاعةٍ إليها لكربِ الموقفِ الخلقُ يهرع

---

(١) أضفتُها ليستقيم وزن البيت، وليست في الأصل ولا المسوّدة.

(٢) قراءة شيء من القرآن عند الاحتضار، أو بعد وفاة الشخص، وجلب القُرّاء بالأجرة لإهداء ثواب القراءة للمتوفى من البدع الحادثة، والسلامة في اتباع السنة وعمل السلف حيث كان شأنهم الدعاء والاستغفار والترحم للميت، والاتعاظ فكفى بالموت واعظًا.

انظر: حكم القراءة للأموات، محمد أحمد عبدالسلام.

(٣) كذا في الأصل والمسودّة، ويبدو لي أنها [عن الأهلِ]؛ فهو أليق معنىً.

ويُنقِذ في يوم القيامة من لظى به اللهُ للعاصين إذ هو يشفعُ[1]

وقد أبدلت من قوله في هذا البيت من قولي «به الله» أول الشطر الثاني.

ويُنصب فيه حوضُه كاشفُ الصدى[2] وذلك حوضٌ بالرويْ العذبِ مترعُ

وإنّ لـه فيـه مقـامًـا مقـرَّبًـا ومقعـدَ صـدقٍ نـورُه يتشعشـعُ

ويسبِقُ كـلَّ العـالميـن مبـادِرًا لِحلْقةِ باب المنزل الرحْبِ يَقرَعُ

فيَدخـلُ والشُّعْـثُ الخِمـاصُ كـأنما وجوهُهُمُ شمسُ الضحى حين تطلُعُ

ويُنـزِلُـهُ الله الـوسيلـةَ رتبـةً له ليس فيها للخلائقِ مَطمعُ

وقـد خلـق اللهُ الجِنـانَ مُعـدَّةً لأربـابِهـا فيهـا ظِـلالٌ ومَـرْتـعُ

وحورٌ حسانٌ ناعماتٌ كواعبٌ بهـا كـلُّ أوابٍ حفيـظٍ مُمتَّـعُ

وقد خلق اللهُ الجحيمَ لأهلِها لِباسٌ أذاها عنْهُمُ ليس يُنزعُ

لهم ظُلَلٌ منها عليهمْ وتحتَهم لأمعائهمْ شُربُ الحميمِ يُقطِّعُ

وبعد التقاضي يُذبحُ الموتُ بينهم فمستبشِـرُ راضٍ وآخـرُ يَجْـزَعُ

[ك،٢٠٢/ب]

---

(١) شطر البيت في ديوان الصرصري (ق٥٤/أ):

من الأمة العاصين إذ هو يشفع

وأبدله المؤلّف من عنده احترازًا من الغلو.

(٢) الصدى: الظمأ.

وأعتقـد الإيمـانَ قـولاً مسـدَّدًا وأعمالَ صدق في الصحائف تودعُ

وإيمـانُنـا بِضـعٌ وسبعـون شعبـةً حديثٌ صحيحُ النقلِ لا يتضعْضَعُ

يزيد بفعلِ الخيرِ من كلِّ مؤمنٍ وينقُصُ بالعصيان فهو مُمَزَّعُ

وليس كبيرُ الذنبِ مُخْلِدَ مؤمنٍ بنـارٍ بلـى فيـه النبـيُّ مُشفَّـعُ

ولستُ أرى رأي الخوارج بل إذا رعـى أمـرَنـا والٍ أطيـعُ وأسمـعُ

وإنّ جهـاد المسلميـن عـدوَّهـم لفرضٌ وقرنُ الشمس في الغرب تطلُعُ

وأمسحُ فوق الخفِّ والمسحُ سنةٌ إلـى مـدّةٍ معلـومـةٍ ثـم أخلـعُ

ونافي وجودِ الجنِّ للذِّكْرِ جاحدٌ بتخييلهم يُدهَىٰ اللبيبُ ويُصرَعُ

وللسحر تأثيرٌ ولا بأس بالرقى بـأُمِّ الكتـاب أو دعـاءٍ [فيُـدفـعُ][1]

ولستُ لميْتِ المسلمين بشاهدٍ أيُسقى رحيقًا أم جحيمًا يُجَرّعُ

بلْ أرتجي للمحسنين سلامةً وأخشى على من يعتدي ويُضيِّعُ

ولا ريب عنديَ في ثبوتِ كرامةِ الـ ولي ولو أمسى على الماءِ يُسرِعُ

وبـالحمـدُ لله افتتـاحُ صـلاتنـا لما صحّ من نقل المحقّين أتبعُ

ولم أر في الفجر القنوتَ ولا أرى علـيَّ إذا أذّنـتُ أنـي أُرجِّـعُ

وإنْ مرَّ في شعبانَ عشرونَ ليلةً وتسعٌ وغُمَّ البُرْجُ بالصومِ أقطعُ

ومذهبنا الوسطى هي العصرُ فاستفد مسـائـلَ خمسًـا مـن فـروعٍ تُفـرَّعُ

---

(١) في الأصل والمسودّة: يدفعُ، وقد أثبتها بالفاء لإقامة البيت.

ولستُ لمن فيها يخالِفُ مانعًا ... ولكنْ خلافٌ في الأصولِ ممنَّعُ

وما ساغ فيها من خلافٍ لمسلمٍ ... فإني لمن يفتي به لا أبدِّعُ

وأشهد أن الأنبياءَ جميعَهم ... ومعجزَهم حقٌ وذلك يُقْنِعُ

وأنَّ رسولَ اللهِ أحمدُ خيرُهم ... وأفصحُهم عند البلاغ وأبرَعُ

على عرشِه خَطَّ اسمَه قبل آدمٍ ... كما ذاك في التوراة واللوحِ مودَعُ[1]

وهذا البيت أبدلت منه من قولي «قبل آدم» إلى آخر البيت، وصرف آدم للضرورة.

وكان صفيُّ الله آدمُ طينةً ... وفيه لأقمارِ النبوة مطلَعُ

وأودِعَتِ التوراةُ غُرَّ صِفاتِه ... فمِن نَعْتَةِ الأحبارِ آمن تُبَّعُ

وأَوْدَعَتِ الرُّهبانُ سلمانَ وصفَه ... فكان إلى أخباره يتطلّعُ

فأبصر برهانَ العلاماتِ عنده ... فأضحى بجِلبابِ الهُدى يتلفّعُ

وقد كان حَمْلاً والجباهُ منيرةٌ ... به وسَمَتْ أنوارُه وهو مُرضَعُ

تنكّستِ الأصنامُ عند وِلادِهِ ... كما نكّستْها منه في الفتحِ أصبعُ

وشبّ شبابًا للنواظِرِ ناضرًا ... وفيه لِسرِّ المجد مرأىً ومَسمعُ

---

(١) ورد في ذلك بعض الأحاديث ولكنها لا تصح، وفي أصل القصيدة كما في ديوان الصرصري (ق ٥٤/ ب):

«على عرشه خط اسمه ولقد عفى ... لآدم إذ أضحى به يتضرع»

وقد أبدله المؤلف احترازًا من الغلو.

لقد شرحت منه الملائكُ صدرَه وكان له من أبرك العمر أربعُ
وكـان ابـن خمـسٍ والغمـامُ تُظِلُّـهُ وفي العشرِ نورُ الشرح في الصدر يَلمعُ
وفي الخمس والعشرين سافر تاجرًا لمـالِ رزانٍ للمفـاوز يقطـعُ

[ك، ٢٠٢/ أ]

رآه بَحِيـرى والغمـامـةُ فـوقـه وميسرةٌ والحَرُّ للوجهِ يَسْفَعُ
وأبصرت الكُبرى فتاةُ خويلدٍ ومِن فوقِهِ ظِلُّ الغَمامِ مُرقَّعُ
إلى أن أرته الأربعين[1] أشدَّه فأضحى بسربال الهدى يتدرَّعُ
ولمـا تجلّـى للنبـوة وانتهـى إلى مستوىً عنه الملائِكُ تُوزَعُ
أتى وعلى عِطفيهِ أفخرُ حُلّةٍ وتاجٌ [بِدُرٍّ][2] المَكْرُماتِ مُرَصَّعُ
رأى ليلةَ المعراج أمرًا محقّقًا ومُنكِرُ هذا الأمر يُجفَىٰ ويُردَعُ
وفيها قُبَيْلَ الرفعِ أُكمل صدرُهُ بشـرحٍ منيـرٍ نَشْرُه متضـوِّعُ[3]
بـه أظهـرَ اللهُ المهيمـنُ دينَـه فأصبح وجهُ الدين لا يتبرقعُ
وأحكامُهُ في الأمر والنهي والشِّرا وفي البيع تبقى والجبالُ تَصَدَّعُ
ومعجزةُ القرآن ظلّت لِحُسْنِهِ وترتيلِه في نخلةَ الجِنَّ تُخْضِعُ

---

(١) كذا قال «الأربعين» بالنصب حكاية لما في الآية الكريمة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، وكان المقام يقتضي أن يقول: «الأربعون»؛ لأنها فاعل.

(٢) في الأصل: ببدر، والمثبت هو المناسب للسياق.

(٣) نشْرُه: طيبُه. متضوِّع: فائح الرائحة.

وَلَلقَمرُ المنشقُّ نصفين معجزٌ   عـزيـزٌ علـى مَـن رامـه مُتمنِّـعُ
ونــادى فلبّتْــهُ بمكــةَ دوحــةٌ   تَخُدُّ إليه الأرضَ خدًّا وتُسرِعُ
ولمـا دنـى منـه سُـراقةُ طـالبًـا   على فَرسٍ كادتْ لها الأرضُ تَبلَعُ
فعــاد بــه مستــأمِنًـا فــأجـارَهُ   وأطلقَهــا حتــى غــدت تتقلّــعُ
وحنَّ إليه الجِذعُ عند فِراقِه   كما حنَّ مسلوبُ القرين مفجَّعُ
وخر له النابُ المهدَّد ساجدًا   وأجفانُه خوفًا من النحر تدمَعُ
وأطلقــه مــن أهلــه فبِجــاهِــهِ   نجا من أليم الذبح هذا الجَلَنْفَعُ[1]
فكيف بنا إن نحن طلبنا شفاعة   مـن الله فينـا والنبـيُّ يُشَفَّـعُ[2]

وهذا البيت قد أبدلت فيه من قوله: «طلبنا شفاعة» إلى آخر البيت وأبدلت من ثاني الاثنين بعده «ونادت».

وخرّ له ساتي[3] الأباعرِ ساجدًا   وكان شرودًا فانثنى وهو طَيِّعُ
«ونادت» به ريمٌ فذلّت أُسادُها   فمرّتْ على الخِشْفَينِ تحنو وتُرضِعُ
ومـدَّ يـديـه والـرُّبَـىٰ مُقْشَعِـرّةٌ   فما رام إلا والسحائبُ تَهْمَعُ
فدام الحيا سبعًا فمدّ لكشفِها   يدًا غُمِرَتْ جودًا فظلّت تَقَشَّعُ
ودرّتْ له في الجدبِ عجفاءُ حائلٌ   وبِكـرٌ علـى نَـزْوِ الفحـولِ تَمَنَّـعُ

---

(١) الجلَنفعُ من الإبل: التامُّ الغليظ الشديد. انظر اللسان (٨/ ٥٢).
(٢) هذا البيت غير مستقيم الوزن، ولو قال: «رُمنا» بدل «طلبنا» لاستقام.
(٣) يقال: ستى البعير، إذا أسرع. انظر اللسان (١٤/ ٣٧٢).

وقد كان من مُدٍّ من التمر أو من الشـ — عير لجوعِ الجحفل الجسمَ يُشْبِعُ

ومن لبنٍ في القَعْب أشبع كلَّ من — حَوَتْ صُفّةُ الإسلامِ والقومُ جُوّعُ

[وخرَّ][1] أبو هِرٍّ وقد كان آيسًا — من الرِّي وهو الشارب المتضلِّعُ

ولما اشتكوا يوم الحُدَيْبِيَةِ الصدَى — غدا الماء من بين الأصابع ينبُعُ

رووا وسقوا أنعامهم وتطهّروا — وهم ألفُ نفسٍ والمئاتُ فأربعُ

وقد أصبح المِلْحُ الأجاجُ بريقِه — يُروّي غليلَ الظامئين وينَقعُ

وساحتْ به بئرٌ ومقلةُ حيدرٍ — شفاها فلم يرمَدُ لها الدهرَ مدمعُ

بإذن إله الخلق لا شيء غيرَه — يدبِّر فينا ما يشاء ويصنعُ[2]

وقد استدركت بهذا البيت الأخير من قولي وهو «بإذن إله الخلق».

[ك، ٢٠٣/ب]

وكلّمه الصمُّ الصوامت مثلَما — يكلّمُه بادي الفصاحة مِصقعُ

وكان على شهْرٍ له الرعبُ ناصرًا — وريحُ الصبا للنصر هوجاءُ زَعزعُ

---

(١) في الأصل والمسوّدة: «وأخر»، لكن بها ينكسر البيت، وما أثبتّه يقيم الوزن ويليق بالسياق.

(٢) نص البيت في ديوان الصرصري (ق ٥٥/ أ):

فكيف بنا إن نحن عذنا بجاهه — من الحادث المغري بنا فهو موجِع

وقد حذفه المؤلف رحمه الله، لما فيه من الدعوة إلى التوسل بجاه النبي ﷺ بعد موته، وقد توسع المؤلف رحمه الله فيما تقدم في بيان عدم جواز مثل هذا التوسل، وضعّف الأحاديث الواردة فيه، وذكر كلام العلماء حول ذلك.

وإن رُمت من أخلاقه ذِكرَ بعضِها　　فتلك من المسك المُعَنْبَرِ أضوعُ

أتتـه مقـاليـدُ الكنـوز فَـرَدّهـا　　فقال: أجوعُ اليومَ والغدَ أشبعُ

فصح له الزهدُ الصريح بقدرةٍ　　وعلمٍ فمَن ذا منه أغنى وأقنعُ

وفي الحلم ما جازى مسيئًا بفعله　　ألم يعفُ عمّن للسِّمام يُجرِّعُ

وعن ساحرٍ حزْيانَ رامَ بكيدِه　　أذاه فلم يَجْزِهْ بما كان يصنعُ

وقـال لقـوم عنـد دركلـةٍ[1] لهـم　　رأوه ففروا: آلَ رِفْدَةَ [فارجعوا][2]

ليعلـمَ أعـداءُ الهـدى أنّ دينَنـا　　هو الحقُّ فيه الأمرُ سهلٌ موسّعُ

ويستنشدُ الأشعارَ مستحسنًا لها　　وقد كان من حسّانَ للمدحِ يَسمعُ

ولابن أبي سُلمى أجاز وقد دعا　　على المدح للعباس نِعْمَ المشرِّعُ

وكان له حسنُ التواضع شيمةً　　حبـاه بهـا الـرحمـن لا يتضيّـعُ

ففي بيته قد كان يخصف نَعْلَه　　وكان إذا ما أنهجَ الثوبُ يَرقَعُ

ويجلِس فوق الأرض لا فَرْشَ تحته　　ومطعمُه أيضًا على الأرض يوضعُ

دعاه [يهوديٌّ][3] أجاب دعاءه　　وعـن دعـوة المملـوك لا يتمنّـعُ

وفي الجود فاسأل عن حِباء يمينه　　أئمـةَ أهـل النقـل يـا مُتتبـعُ

---

(١) الدركلة: نوع من لعب الصبيان، حبشية. انظر النهاية في غريب الحديث (٢/ ١١٤).

(٢) في الأصل والمسوّدة: ارجعوا، وأضفت الفاء ليستقيم وزن البيت.

(٣) في الأصل: يهوديا.

ألم يهبِ الشاءَ الكثير عِدادُها ... لِعافٍ أتاه يعتريه ويَقنعُ

أما فضّها سبعين ألفًا بمجلسٍ ... فلم يَبق منها درهمٌ يُتوقّعُ

وفي الباس فاسأل عنه يومَ هوازنٍ ... أما انهزموا وهو الكميُّ السمَيْدَعُ

وما التفَتَ الأقرانُ يومَ كريهةٍ ... على الطعن إلا وهو أقوى وأشجعُ

لهم منه يوم السِّلم شرعٌ وسُنّةٌ ... وفي الحرب نصرٌ والأسنّةُ تُشْرَعُ

وأُمّتُه خيرُ القرون وخيرُهم ... صحابتُه أزكى الأنامِ وأورعُ

وخيرُهمُ الصدّيقُ إذ هو منهمُ ... إلى السبق في الإسلام والبرِّ أسرعُ

وفي ليلة الغار افتداه بنفسه ... حِذارًا عليه من أراقمَ تلسعُ

وقاه من الرُّقْشِ العوادي برجله ... فبات يعاني السُّمَّ والطرفُ يدمعُ

وأتحفه بالبكر عائشةَ التي ... براءتُها في سورة النور تُسمَعُ

وكان له صهرًا وصلّى ورآه النـ ... ـبيُّ صلاةَ الصبح والصحبُ أجمعُ

وردَّ فريقَ الرِّدّةِ الزائغَ الذي ... لِفرضِ زكاةِ المالِ أصبحَ يَمنعُ

إلى أن أقام الدينَ بعد اعْوجاجِه ... وأضحى حمى التقوى به وهو مُمرِعُ

رضِينا به بعد النبيِّ خليفةً ... على عَقْدِهِ كلُّ الصحابة أجمعوا

ومِن بعده الفاروقُ مُظهرُ ديننا ... بإسلامه والأمرُ خافٍ مُبرقعُ

هو العدويُّ العبقريُّ [الملهم][1] الـ ... مُبصَّرُ والبابُ الحديد المُمنَّعُ

---

(١) في الأصل: المفهم.

لافتُــه صحّــت بعقــد خليفــةٍ ... على فضلِه حزبُ الصحابةِ مُجمِعُ
ورؤيا النبيِّ المصطفى أنّهُ على ... قليبٍ غزيرِ الماءِ بالغَرْبِ يَنْزِعُ[1]
وتأويل هذا ما سمعتُ: فتوحُهُ ... وعـدلٌ لـه بيـن الأنـام مـوزَّعُ

[ك، ٢٠٣/ أ]

له العلمُ والحلمُ الشديدُ وصحةُ التـ ... ـوكّـل وصـفٌ والتُّقـى والتـورُّعُ
وعن زهده فاسأل خبيرًا ألم يقم ... خطيبًـا عليهـم والإزارُ مـرقّـعُ
ومِن بعده عثمانُ مَن كان في الدجى ... يـرتّـلُ آيـاتِ الكتـابِ ويـركـعُ
يـرتّلُـه فـي ركعـةٍ وهـو الـذي ... له كان في رَقِّ المصاحف يَجمعُ
وزوّجَـه الهـادي ابنتَيـه كـرامـةً ... ولو كُنَّ عشرًا لم يَكنْ بعد يُمنعُ[2]
وأعطاه سهمًا يوم بدرٍ ولم يكن ... وبايعَ عنه نائبًا حين بُويعوا
وسبَّل بِئرًا ماؤها ينقع الصدى ... وجهَّز جيشًا وهو بالعُسْرِ مُدقعُ
وقمَّصه الرحمن ثوب خِلافةٍ ... بوعد النبيِّ المصطفى ليس يُخلعُ
ومِن بعده الهادي عليٌّ بقوله السـ ... ـديـدِ إذا مـا أشكـل الأمـرُ يُقطـعُ
إذا ذكر الراوون صحبَ محمدٍ ... يكون له فيهم خصائصُ أربعُ
إخاءٌ مع المختارِ وهو ابنُ عمِّه ... وسِبطاه والزهراءُ أفضلُ مَنْوَعُ[3]
وأعطاه بين الناس أشرفَ رايةٍ ... فكان له بالفتح والنصر مَرجِعُ

---

(١) الغَرْبُ: الدلو العظيمة.

(٢) في الأصل: ولم يكن، بواو، ويظهر لي أنها زائدة معنىً ووزنًا.

(٣) منوع، كذا في الأصل والمسوّدة، ولعله أراد أفضل أنواع الخصائص.

ولو شاء أنْ يرقى السموات إذْ[1] له على كَتِفِ الهادي البشيرِ ترفُّعُ

إمامٌ بطينٌ في العلوم وإنّه   من الشكّ والشرك الخفيِّ لأنزَعُ

ومِن بَعدِهم خيرُ الصحابة ستةٌ   لهم بالجنان المصطفى كان يَقطعُ

فذِكرُكَ منهم طلحةُ الخير شائعٌ   وقولُك فيه: طلحةُ الجودِ أشيعُ

ويُعرف بالفيّاضِ إذ جود كفِّه   أعمُّ من البحر الخضيم وأنفعُ

فكم مائتي ألفٍ على الناس فضَّها   عليهم بها في الضائقات يُوسِّعُ

ويُمناه يومَ أحُدْ شُلّت لِدفْعِه   بها عن نبيِّ اللهِ لا يتزعزعُ[2]

وإنّ الزبيرَ الفاتكَ الشهمَ منهمُ   أشدُّ رجالِ الحربِ بأسًا وأمنعُ

وفارسُ بدرٍ وابنُ عَمّةِ سيد الـ   ورى والجوادُ المنفقُ المُتطوِّعُ

حَوارِيُّهُ وهو الذي باختيارِه   لِرايتِه العَلياءِ في الفتح يَرفعُ

ومنهم أميرُ الحربِ سعدُ بن مالكٍ   وأفضلُ ما رامٍ عن القوسِ يَنزِعُ

وثالثُ أربابِ الهُدى ودعاؤُه   إليه من الله الإجابةُ تُسرِعُ

وكان له خالاً وأوّلَ من رمى   بسهم له في عُصبةِ الشِّرك موقعُ

ومنهم سعيدٌ خصّه سيّدُ الورى   وأخّرهُ عذرٌ عن الغزو يَمنعُ

---

(١) في الأصل: أذن، والتصويب من المسوّدة.

(٢) كذا في الأصل والمسوّدة، ولعله أقوم وزنًا لو كان:
ويُمناه شُلّت يومَ أُحْدٍ لِدفعِه...

بسهمٍ وأجرٍ يومَ بدرٍ فقد غدا كمن هو في بدر كميٌّ مُدرّعُ

وإنّ ابنَ عوفٍ منهمُ المنفقُ الذي بأَنْفَسِ مالٍ لم يزل [يتبرّعُ][1]

ومنهم أمينُ الأمّةِ الليثُ عامرٌ فيا لقبًا فيه غَناءٌ ومَقْنَعُ

وأبطالُ بدرٍ فضلُهم غيرُ مُنكَرٍ بأفخرِ ثوبٍ في الجهاد تدرّعوا

وفي بيعةِ الرِّضوانِ فضلٌ لأهلِها وتنفيلُ أهلِ البيتِ ما ليس يُدفعُ

وأزواجُه في جنة الخُلد عندَه بهنّ مع الحور الحسان يُمتّعُ

وللفضل أيضًا في معاويةَ اعتقد رَدَافتَه تفضيلُها لا يُضيَّعُ

هو الكاتبُ الوحيَ الحليمُ وأختُه مع المصطفى في جنة الخلد تُرفعُ

وكلُّ صحابيٍّ رآهُ ففضلُه على غيره في نَيْلِه ليس يُطمعُ

ولا أبتغي التفتيش في ذِكر ما جرى لأصحابه خابَ الغويُّ المُشنِّعُ

فيا طالبًا أرضَ الحجاز إذا انطوى له أجرُعٌ منها تعرّض أجرُعُ

تُحاولُ أسباب العلا في طِلابه فتوجف في البيدا الرِّكابَ وتُوضِعُ

إذا بلَغتْ سَلْعًا مطاياك غُدوةً ولاح لها من أرضِ طيبةَ مَربعُ

فذلك مأوى العلمِ والحلمِ والهدى وفيه لمكنونِ الحقائقِ مَنبعُ

[ك، ٢٠٤/ ب]

---

(١) في الأصل والمسوّدة: متبرّعُ، ولا يستقيم إعرابًا ولا قافيةً.

فبلّـغ لخيـرِ الخلـقِ منّـي تحيـةً عساه بإذن الله في الذنْبِ يشفع[1]

أبدلت هذا البيت من قولي كله وفي أول البيت الذي بعده.

به السُنَّةَ المُثْلى عرفْنا وأنكرَتْ قلـوبٌ عليهـا بـالغَبـاوة يُطبـعُ

بتسليمنـا فيهـا وَعَيْنًـا وفِـرقـةُ الـ هوى قلّدوا فيها العقول فلم يعوا

عسى ربُّنا الرحمنُ ألا يُزِلَّنا عن السنّةِ المُثلى وفينا يشفّعُ[2]

نبيًّا سلامُ الله ما هبّتِ الصبا عليه يضوعُ المسك ما دام لعلعُ

أبدلتُ من قولي هذا البيت الأخير ما خلا «سلام الله» ومني الذي قبله «عسى ربنا الرحمن»، ومني آخر الشطر الثاني قولي: «وفينا يشفّع».

فنسأل الله لنا وله والمسلمين أن يغفر ذنبنا ويشفّع فينا نبينا محمدًا ﷺ، وأن يُغلي منازلنا عنده وأن لا يحرمنا خير ما عنده، بسوء ما عندنا، إنه كريم رحيم غفور شكور وهاب، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾[3].

---

(١) في أصل القصيدة في ديوان الصرصري (ق٥٧/أ):
فقل يا رسول الله أنت نصيرنا على فتن في وقتنا تتفزع

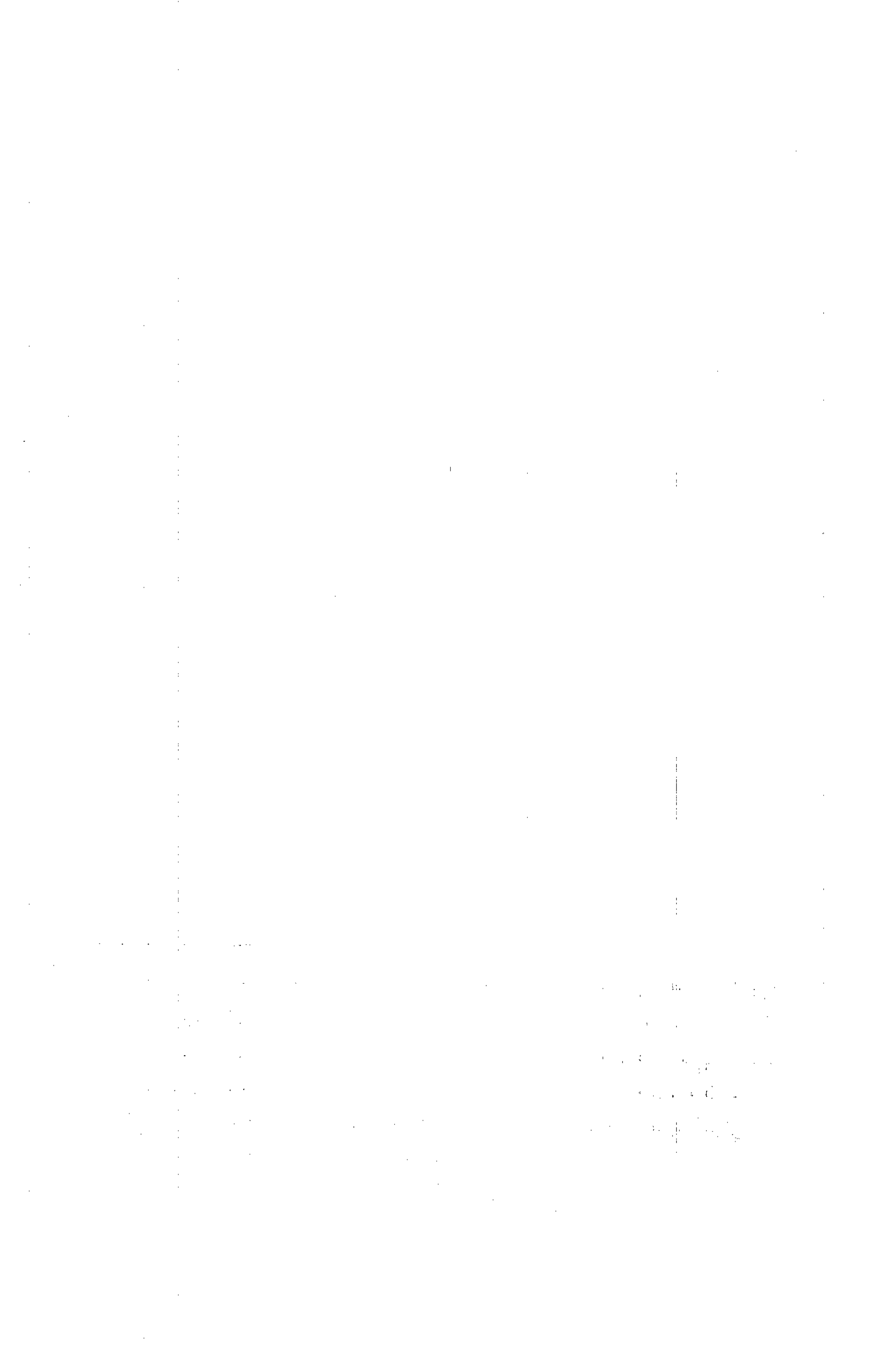
(٢) في أصل القصيدة في المصدر السابق:
فسل ربك الرحمن ألا يزلّنا عن السنة المثلى فأنت مشفع
وقد أبدل المؤلف تلك الأبيات؛ احترازًا من التوسل البدعي.

(٣) خاتمة الناسخ في الأصل مطموسة، وتحتها كُتب ما نصه: [وعند مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بيدي فقال: «خُلقت التربة يوم السبت، وخُلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد =

= العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، آخرُ ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل».

وقد قال أهل العلم: إن في رفع هذا الحديث نظرًا، فالله أعلم.

وقال العلماء: هذا الحديث من غرائب مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب الأحبار، وأن أبا هريرة إنما سمعه منه، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعًا، وقرره البيهقي، وبيّن مخالفته للقرآن العظيم في صفة الخلق، والله أعلم].



مراجع الدراسة والتحقيق

ـ أ ـ

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، ت الدكتور باسم الجوابرة، دار الراية، ط١، الرياض.

٣ ـ الآداب الشرعية، لابن مفلح، ت شعيب الأرنؤوط وزميله، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٧هـ، بيروت.

٤ ـ آراء المعتزلة الأصولية، للدكتور علي الضويحي، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٥هـ، بالرياض.

٥ ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني، عالم الكتب، بيروت.

٦ ـ الأباطيل والمناكير، للجورقاني، ت عبدالرحمن الفريوائي، إدارة البحوث بالجامعة السلفية، ط٢، ١٤٠٥هـ، بنارس ـ الهند.

٧ ـ الإبانة، لابن بطة، ت رضا نعسان، دار الراية، ط١، الرياض.

٨ ـ الأحاديث المختارة، للضياء المقدسي، ت عبدالملك بن دهيش، مكتبة النهضة، ط١، ١٤١٠هـ، مكة.

٩ ـ الأحاديث الطوال، للطبراني، ت حمدي السلفي، مطبعة الأمة، بغداد، ملحق بالمعجم الكبير.

١٠ ـ أحكام أهل الملل، للخلال.

١١ ـ الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، لابن بلبان، ت شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٤هـ بيروت.

١٢ ـ أحكام القرآن، للجصاص، ت محمد قمحاوي، دار إحياء التراث، ١٤٠٥هـ.

١٣ ـ أحكام الجنائز، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط١، بيروت.

١٤ ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ، بيروت.
١٥ ـ أخبار المدينة، لابن شبه، ت عبدالله الدويش، دار العليان ط١، ١٤١١هـ، بريدة.
١٦ ـ أخبار القضاة، لوكيع بن خلف عالم الكتب، بيروت.
١٧ ـ أخبار مدينة الرسول «الدرر الثمينة»، لابن النجار، ت صالح جمال، مكتبة الثقافة، ط٣، ١٤٠١هـ، مكة.
١٨ ـ أخبار مكة، للأزرقي، ت رشدي ملحس، مطابع دار الثقافة، ط٨، ١٤١٦هـ مكة.
١٩ ـ اختصار علوم الحديث، لابن كثير، مع شرحه الباعث الحثيث لأحمد شاكر، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ، بيروت.
٢٠ ـ الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكار، مطبعة العاني، بغداد.
٢١ ـ أخبار النحويين البصريين، لأبي سعيد السيرافي، معهد المباحث المشرقية، الجزائر.
٢٢ ـ الأدب المفرد، للبخاري، ت محمد عبدالباقي، دار البشائر، ط٣، ١٤٠٩هـ، بيروت.
٢٣ ـ الإخوان، لابن أبي الدنيا، ت مصطفى عبدالقادر، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤ ـ الأذكار، للنووي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
٢٥ ـ الإرشاد، للجويني، ت د/ محمد موسى وعلي عبدالمنعم، مكتبة الخانجي، ١٣٦٩هـ، مصر.
٢٦ ـ إرواء الغليل، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ.
٢٧ ـ إرشاد الفحول، للشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
٢٨ ـ أساس البلاغة، للزمخشري، دار الفكر، ١٤٠٩هـ، بيروت.
٢٩ ـ الاستيعاب، لابن عبدالبر ت علي البجاوي، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ، بيروت.

٣٠ ـ أسباب النزول، للواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣١ ـ الاستقامة لابن تيمية، ت محمد رشاد سالم، مكتبة السنة، القاهرة.
٣٢ ـ أسد الغابة، لابن الجزري، ت البنا وآخرين، دار الشعب، ١٣٩٠هـ، القاهرة.
٣٣ ـ أسماء الله الحسنى، لعبدالله الغصن، دار الوطن، ط١، ١٤١٧هـ، الرياض.
٣٤ ـ الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، لأبي عبدالله القرطبي، ت د/ محمد جبل وزميله، دار الصحابة، ط١، ١٤١٦هـ، طنطا.
٣٥ ـ الأسماء والصفات، للبيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٦ ـ الإشارات والتنبيهات، لابن سينا، ت د/ سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة.
٣٧ ـ الاشتقاق، لابن دريد، ت عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٣، القاهرة.
٣٨ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ومعه الاستيعاب لابن عبدالبر، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٩ ـ إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث، لابن قتيبة.
٤٠ ـ الأصمعيات، ت أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف، ط٧، ١٩٩٣م، مصر.
٤١ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للفخر الرازي، ضبط محمد البغدادي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧هـ، بيروت.
٤٢ ـ الأضداد، لابن الأنباري، ت محمد أبو الفضل، ط١، ١٩٦٠م، الكويت.
٤٣ ـ الاعتقاد، للبيهقي، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٤٤ ـ الأعلام، لخير الدين الزِّركلي، دار العلم للملايين، ط٦، ١٩٨٤م، بيروت.
٤٥ ـ الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، ت سمير جابر، دار الفكر، ط٢، بيروت.
٤٦ ـ اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية، ت د/ ناصر العقل، مكتبة الرشد، ط٣، ١٤١٣هـ، الرياض.
٤٧ ـ إكمال الإعلام في تثليث الكلام، لابن مالك، ت سعد الغامدي، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٠٤هـ، مكة المكرمة.
٤٨ ـ إكمال المعلم، للقاضي عياض، ت د/ يحيى إسماعيل، دار الوفاء، ط١،

١٤١٩هـ، المنصورة.
٤٩ ـ الأم، للإمام الشافعي، دار المعرفة، ط٢، ١٣٩٣هـ، بيروت.
٥٠ ـ الإكمال لابن ماكولا، ت عبدالرحمن المعلمي، حيدر أباد، الهند.
٥١ ـ الأمالي، لأبي علي القالي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٥٢ ـ أمثال الحديث، للرامهرمزي، ت أمة الكريم القرشية، المكتبة الإسلامية إستانبول.
٥٣ ـ الأموال، لأبي عبيد، ت محمد هراس، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٥٤ ـ إنباء الغَمْر بأبناء العُمْر، لابن حجر العسقلاني، ت عبدالله المديحج، دار الكتب، ط٢، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٥٥ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، ت محمد أبو الفضل، دار الفكر العربي ـ مؤسسة الكتب، ط١، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٥٦ ـ الأنساب، لأبي سعد السمعاني، تعليق عبدالله البارودي، دار الجنان، ط١، ١٤٠٨هـ، بيروت.
٥٧ ـ الإنصاف للمرداوي، ت محمد الفقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٨ ـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، لأبي البركات الأنباري، ت محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.
٥٩ ـ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام، ت محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت.
٦٠ ـ الإنصاف للباقلاني، ت الكوثري، المكتبة الأزهرية، القاهرة.
٦١ ـ الإيمان لابن أبي شيبة، ت الألباني، مطبعة المدني، القاهرة.
٦٢ ـ الإيمان، لابن تيمية، المكتب الإسلامي، ط٣، بيروت.
٦٣ ـ الإيمان، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ت الألباني، مطبعة المدني، القاهرة.
٦٤ ـ الإيمان للعدني، ت حمد الحربي، ط١، الدار السلفية، الكويت.

- ب -

٦٥ - بدائع الفوائد، لابن القيم، تصحيح محمد منير الدمشقي، إدارة الطباعة المنيرية.

٦٦ - الباعث الحثيث، لأحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٧ - البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت.

٦٨ - البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، للسكسكي، ت د/ بسام العموش، مكتبة المنار، ط٢، ١٤١٧هـ، الأردن.

٦٩ - البدر الطالع، للشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

٧٠ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، ت محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت.

٧١ - بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، للهيثمي، ت د. حسين بكري، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٧٢ - بغية المرتاد، لابن تيمية، ت د. موسى الدويش، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

٧٣ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ت محمد الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٤ - بين الشيخين ابن سند وابن منصور، مقال لحمد الجاسر، مجلة العرب، عدد الربيعين، ١٤١٦هـ.

٧٥ - بلوغ المرام، لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٦ - البيان والتبيين، للجاحظ، ت عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت.

- ت -

٧٧ - تاج العروس، للزبيدي، ت مصطفى حجازي، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٩هـ، بيروت.

٧٨ - تاريخ الإسلام للذهبي، ت د/ عمر تدمري، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٣هـ، بيروت.

٧٩ - تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٠ ـ تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، لإبراهيم بن عيسى، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ.
٨١ ـ تاريخ دمشق، لابن عساكر، ت محب الدين العمري، دار الفكر، بيروت.
٨٢ ـ تاريخ البلاد العربية السعودية، منير العجلاني.
٨٣ ـ تاريخ جرجان، لحمزة السهمي، ت محمد خان، عالم الكتب، بيروت.
٨٤ ـ تاريخ الخميس، لحسين بكري ط١٢٨٣هـ، مصر.
٨٥ ـ تاريخ الطبري، ت محمد أبو الفضل، روائع التراث، ط٢ بيروت.
٨٦ ـ تاريخ الدولة السعودية، د. مديحة أحمد درويش، دار الشروق، ط٨، جدة.
٨٧ ـ التاريخ الكبير، للبخاري، تصوير دار الباز، مكة.
٨٨ ـ تاريخ ابن ضويان، مكتبة الرشد، ط١، الرياض.
٨٩ ـ التاريخ الصغير، للبخاري، ت محمود إبراهيم زائد، دار المعرفة، بيروت.
٩٠ ـ تاريخ عجائب الآثار، للجبرتي، دار الجيل، بيروت، لبنان.
٩١ ـ تاريخ ابن معين، ت د/ أحمد سيف، جامعة الملك عبدالعزيز، ط١، ١٣٩٩هـ، مكة.
٩٢ ـ تاريخ المدينة المنورة، لابن شبّة، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.
٩٣ ـ التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، ت علي البجاوي، دار الجيل، ط٢، ١٤٠٧هـ، بيروت.
٩٤ ـ تاريخ ملوك آل سعود، لسعود بن هذلول، الرياض، ١٣٨٠هـ.
٩٥ ـ تاريخ المملكة العربية السعودية، د. عبدالله العثيمين، ط٥، ١٤١٤هـ.
٩٦ ـ تاريخ نجد لابن غنام، تحرير د. ناصر الدين الأسد، ط٣، ١٤٠٣هـ، الرياض.
٩٧ ـ تاريخ نجد، لمحمود شكري الآلوسي، دار المعالي، ط٤.
٩٨ ـ تاريخ نجد وحوادثها، لصالح القاضي، ط١٤١٤هـ.
٩٩ ـ تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ت محمد الأصفر، المكتب الإسلامي، بيروت.
١٠٠ ـ تبيين كذب المفتري، لابن عساكر، دار الفكر، ط٢، ١٣٩٩هـ، دمشق.

١٠١ ـ تجريد أسماء الصحابة، للذهبي دار المعرفة، بيروت.

١٠٢ ـ تحفة القاري على صحيح البخاري، لزكريا الأنصاري.

١٠٣ ـ تحفة الطالب والجليس، لعبداللطيف بن عبدالرحمن، ت عبدالسلام البرجس، ط١، ١٩٨٨م.

١٠٤ ـ تحقيق التجريد في شرح التوحيد، لعبدالهادي العجيلي، ت حسن العواجي، مكتبة أضواء السلف، ط١، ١٤١٩هـ، الرياض.

١٠٥ ـ تحفة المودود، لابن القيم، ت بشير عيون، دار البيان دمشق.

١٠٦ ـ تدريب الراوي، للسيوطي، ت عبدالوهاب عبداللطيف، دار الفكر، ط١، ١٣٨٦هـ، مصر.

١٠٧ ـ تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٨ ـ التدمرية، لابن تيمية، ت محمد بن عودة السعوي، ط١.

١٠٩ ـ ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ت سعيد أعراب، ط١، ١٤٠٣هـ، المغرب.

١١٠ ـ ترتيب القاموس المحيط للطاهر الزاوي، الدار العربية للكتاب، ط٣.

١١١ ـ الترغيب والترهيب، للأصفهاني، ت أيمن شعبان، دار الحديث، ط١، ١٤١٤هـ، القاهرة.

١١٢ ـ التسعينية، لابن تيمية، ت د/ محمد العجلان، مكتبة المعارف ط١، ١٤٢٠هـ، الرياض.

١١٣ ـ الترغيب والترهيب، للمنذري، ت إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٤ ـ التعريفات، للشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٠٨هـ، بيروت.

١١٥ ـ تصحيح الفروع للمرداوي، بهامش الفروع لابن مفلح، عالم الكتب، بيروت.

١١٦ ـ تعجيل المنفعة لابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت.

١١٧ ـ التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة، للجمال المطري.

١١٨ ـ التعريف بالأنساب، لأحمد القرطبي، ت د. سعد ظلام، دار المنار، القاهرة.

١١٩ ـ تعظيم قدر الصلاة، للمروزي، ت د/ عبدالرحمن الفريوائي، مكتبة الدار، ط١، ١٤٠٦هـ، المدينة.
١٢٠ ـ تغليق التعليق، لابن حجر العسقلاني، ت سعيد القزقي، المكتب الإسلامي ـ دار عمار، ط١، ١٤٠٥هـ، بيروت.
١٢١ ـ تفسير البيضاوي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ، بيروت.
١٢٢ ـ تفسير الجلالين، بحاشية المصحف، مكتبة الملاح، دمشق.
١٢٣ ـ التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢٤ ـ تفسير الطبري، دار الفكر ١٤٠٥هـ. بيروت.
١٢٥ ـ تفسير ابن عطية، ت عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ، بيروت.
١٢٦ ـ تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، ت أسعد الطيب، مكتبة نزار الباز، ط٢، ١٤١٩هـ، مكة.
١٢٧ ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ت سامي السلامة، دار طيبة، ط١، ١٤١٨هـ، الرياض.
١٢٨ ـ تفسير القرطبي، مكتبة الرياض الحديثة.
١٢٩ ـ تفسير ابن جزي الكلبي، ت محمد هاشم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ، بيروت.
١٣٠ ـ تفسير النسفي، لأبي البركات النسفي، دار الفكر.
١٣١ ـ تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، ت محمد عوامة، دار الرشيد، ط١، ١٤٠٦هـ، حلب.
١٣٢ ـ تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ط٢، ١٣٦٨هـ، تصحيح محمد منير الدمشقي، إدارة الطباعة المنيرية.
١٣٣ ـ تلخيص الاستغاثة الكبرى لابن تيمية، ت محمد عجال، مكتبة الغرباء، ط١، ١٤١٧هـ، المدينة.
١٣٤ ـ تلخيص الحبير، لابن حجر، ت عبدالله المدني، ١٣٨٤هـ، المدينة.

١٣٥ ـ التمهيد، لابن عبدالبر، ت مصطفى العلوي ومحمد البكري، وزارة الأوقاف المغربية، ١٣٨٧هـ، المغرب.

١٣٦ ـ التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، للمالقي، دار الثقافة، قطر.

١٣٧ ـ تهافت التهافت، لابن رشد، ت د/ سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة.

١٣٨ ـ تنوير الحوالك للسيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

١٣٩ ـ تهافت الفلاسفة، لأبي حامد الغزالي، دار المعارف، ط٧، القاهرة.

١٤٠ ـ تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، إدارة الطباعة المنيرية، تصوير دار الكتب العلمية، بيروت.

١٤١ ـ تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، دار الفكر، ط١، ١٤٠٤هـ، بيروت.

١٤٢ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر لابن بدران، دار المسيرة، بيروت.

١٤٣ ـ تهذيب الكمال، للمزي، ت د/ بشار معروف، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٤هـ، بيروت.

١٤٤ ـ تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، ت عبدالسلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف.

١٤٥ ـ توضيح المقاصد ـ شرح نونية ابن القيم ـ، لأحمد بن عيسى، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٦هـ، بيروت.

١٤٦ ـ التوكل، لابن أبي الدنيا، جاسم الدوسري، دار الأرقم، ط١، ١٤٠٤هـ، الكويت.

١٤٧ ـ التوسل أنواعه وأحكامه للألباني، المكتب الإسلامي، ط٥، بيروت.

١٤٨ ـ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبدالله التميمي، المكتب الإسلامي، ط٦، ١٤٠٥هـ، بيروت.

ـ ث ـ

١٤٩ ـ الثقات، لابن حبان، تصحيح السيد عزيز بك، دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٩٣هـ، حيدر أباد.

ـ ج ـ

١٥٠ ـ جامع بيان العلم وفضله، **لابن عبدالبر**، تقديم عبدالكريم الخطيب، دار الكتب

الإسلامية ط٢، ١٤٠٢هـ، القاهرة.
١٥١ ـ جامع التحصيل، للعلائي، ت حمدي السلفي، عالم الكتب ـ مكتبة النهضة، ط٢، ١٤٠٧هـ، بيروت.
١٥٢ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، ت د/ محمد الخطيب، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٤هـ، بيروت.
١٥٣ ـ الجامع الصغير، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥٤ ـ جامع العلوم والحكم لابن رجب، ت شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤١٤هـ، بيروت.
١٥٥ ـ جلاء الأفهام، لابن القيم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ، بيروت.
١٥٦ ـ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، لعلي عمران ومحمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، ط١، مكة المكرمة.
١٥٧ ـ الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥٨ ـ جمع الجوامع، للسبكي، ضمن مجموع مهمات المتون، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥٩ ـ الجمع بين رجال الصحيحين، لابن القيسراني، حيدر أباد، الهند.
١٦٠ ـ جمهرة الأنساب، لابن حزم، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ، بيروت.
١٦١ ـ جمهرة الأمثال، للعسكري، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت.
١٦٢ ـ الجواب الصحيح، لابن تيمية، ت د/ علي بن ناصر وزميليه، دار العاصمة، ط١، ١٤١٤هـ، الرياض.
١٦٣ ـ الجهاد، لابن المبارك، ت نزيه حماد، الدار التونسية، تونس.
١٦٤ ـ الجواهر المضية في تراجم الحنفية، لعبدالقادر القرشي، حيدر أباد، الهند.
١٦٥ ـ الجوهر المنضد، للعليمي، ت د. عبدالرحمن العثيمين، مطبعة المدني، القاهرة.

- ح -

١٦٦ ـ الحاوي للفتاوي، للسيوطي، مكتبة الرياض الحديثة.

١٦٧ ـ حاشية كتاب التوحيد لعبدالرحمن بن قاسم، ط٤، ١٤١٤هـ.
١٦٨ ـ الحجة في بيان المحجة، لقوام السنة الأصبهاني، ت محمد المدخلي، ومحمد أبو رحيم، دار الراية، ط١، ١٤١١هـ، الرياض.
١٦٩ ـ حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤٠٥هـ، بيروت.
١٧٠ ـ حسن الظن بالله، لابن أبي الدنيا، ت مخلص محمد، دار طيبة، الرياض.
١٧١ ـ حكم القراءة للأموات، لمحمد أحمد عبدالسلام الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية.
١٧٢ ـ الحوادث والبدع، للطرطوشي، ت عبدالمجيد تركي، دار الغرب، ط١، ١٤١٠هـ، بيروت.
١٧٣ ـ حياة الحيوان للدميري، تقديم أحمد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٧٤ ـ الحيوان للجاحظ، ت عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت.

ـ خ ـ

١٧٥ ـ خزانة الأدب لعبدالقادر البغدادي، دار صادر، ط١، بيروت.
١٧٦ ـ الخصائص الكبرى، للسيوطي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ، بيروت.
١٧٧ ـ الخطط للمقريزي، دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة.
١٧٨ ـ خلاصة تهذيب الكمال للخزرجي، بولاق ١٣٠١هـ، مصر.
١٧٩ ـ خلق أفعال العباد للبخاري، ت د. عبدالرحمن عميرة، دار المعارف، السعودية ١٣٩٨هـ.

ـ د ـ

١٨٠ ـ درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، ت د/ رشاد سالم، جامعة الإمام، ١٣٩٩هـ، الرياض.
١٨١ ـ دائرة المعارف الإسلامية، لجماعة من المستشرقين، طبعة الشعب، مصر.
١٨٢ ـ الدارس في أخبار المدارس للنعيمي، سوريا.
١٨٣ ـ دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين للدكتور أحمد جلي، مركز الملك

فيصل، ط٢، الرياض.
١٨٤ ـ الدراية لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨٥ ـ الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبدالرحمن بن قاسم، من مطبوعات دار الإفتاء بالسعودية، ط٢، ١٣٨٥هـ، الرياض.
١٨٦ ـ الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبدالبر، ت شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، القاهرة.
١٨٧ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، تصحيح د/ سالم الكرنكوي، دار إحياء التراث، بيروت.
١٨٨ ـ الدر المصون، للسمين الحلبي، ت علي معوض وزملائه، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ، بيروت.
١٨٩ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ، بيروت.
١٩٠ ـ دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، لعبدالعزيز العبداللطيف، دار الوطن، ط١، ١٤١٢هـ، الرياض.
١٩١ ـ الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة للأصفهاني، ت عبدالمجيد قطامش، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.
١٩٢ ـ الدرة فيما يجب اعتقاده لابن حزم، ت د. أحمد الحمد، مطبعة المدني، ط١.
١٩٣ ـ الدرعية العاصمة الأولى، لابن خميس، مطابع الفرزدق، ط١، الرياض.
١٩٤ ـ دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، ١٣٩٧هـ.
١٩٥ ـ دلائل النبوة، للبيهقي، ت د عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ، بيروت.
١٩٦ ـ الديباج المذهب، لابن فرحون، ت مأمون الجنان، دار الكتب العلمية، ط١ ١٤١٧هـ، بيروت.
١٩٧ ـ الدولة السعودية الأولى، د. عبدالرحمن عبدالرحيم دار الكتاب الجامعي، ط٦، القاهرة.
١٩٨ ـ ديوان الأعشى، «الصبح المنير في شعر أبي بصير»، تصوير دار ابن قتيبة، ط

٢، ١٩٩٣م، الكويت.

١٩٩ - ديوان الأحوص، ت عادل سليمان، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠هـ.

٢٠٠ - ديوان ذي الأصبع العدواني، ت عبدالوهاب العدواني، وزارة الإعلام، الموصل، ١٩٨٣م.

٢٠١ - ديوان امرىء القيس، ت حسن السندوبي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤١٠هـ، بيروت.

٢٠٢ - ديوان جرير، ت د/ نعمان طه، دار المعارف، ط٣، القاهرة.

٢٠٣ - ديوان أبي تمام، ت محمد عبده عزام، ط٥، دار المعارف.

٢٠٤ - ديوان حاتم الطائي، دار صادر، ١٤٠١هـ، بيروت.

٢٠٥ - ديوان الحارث بن حلزة، ت د/ إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١١هـ، بيروت.

٢٠٦ - ديوان حسان بن ثابت، ت د/ سيد حسنين، دار المعارف القاهرة.

٢٠٧ - ديوان الحطيئة، ت د/ نعمان طه، مكتبة الخانجي، ط١، ١٤٠٧هـ، القاهرة.

٢٠٨ - ديوان خداش بن زهير، ت د/ يحيى الجبوري، مجمع اللغة، ط١، ١٤٠٦هـ، دمشق.

٢٠٩ - ديوان الراعي النميري، ت راينهرت فايبرت، المعهد الألماني، ١٤٠١هـ، بيروت.

٢١٠ - ديوان أبي داود الإيادي، نشر جوستاف جرونيام، مكتبة الحياة بيروت، ط١.

٢١١ - ديوان رؤبة، ت وليم بن الورد، تصوير دار ابن قتيبة، الكويت.

٢١٢ - ديوان زهير، بشرح ثعلب، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٩٥م، القاهرة.

٢١٣- ديوان زيد الخيل، ت د/ أحمد البزرة، دار المأمون، ط١، ١٤٠٨هـ، دمشق.

٢١٤ - ديوان الشماخ، ت صلاح الدين المحمادي، دار المعارف، مصر.

٢١٥ - ديوان طرفة، ت فوزي عطوي، دار صعب، ١٩٨٠م.

٢١٦ - ديوان الصرصري، يحيى بن زكريا، مخطوط بوزارة الأوقاف الكويتية، برقم

(خ١٨٤).
٢١٧ ـ ديوان العباس بن مرداس، جمع د/ يحيي الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٢هـ، بيروت.
٢١٨ ـ ديوان عبدالله بن المبارك، جمع د/ مجاهد مصطفى، دار الوفاء، ط٢، ١٤٠٩هـ.
٢١٩ ـ ديوان عبدالله بن الزِّبَعْرَى، ت يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.
٢٢٠ ـ ديوان عبيد بن الأبرص، دار بيروت، ١٤٠٤هـ.
٢٢١ ـ ديوان أبي العتاهية، دار بيروت، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٢٢٢ ـ ديوان العجاج، ت عزت حسن، دار الشرق، بيروت.
٢٢٣ ـ ديوان عدي بن زيد، ضمن ديوان المروءة، شرح يوسف شكري، دار الجيل، ط١، ١٤١٣هـ.
٢٢٤ ـ ديوان العرجي، جمع د/ سجيح الجبيلي، دار صادر، ط١، ١٩٩٨م، بيروت.
٢٢٥ ـ ديوان علقمة الفحل، ت لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، ط١، ١٣٨٩هـ، حلب.
٢٢٦ ـ ديوان عروة بن حزام، ت إبراهيم السامرائي، مجلة كلية الآداب، بغداد، ١٩٦١م.
٢٢٧ ـ ديوان علي بن أبي طالب، جمع نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٢٨ ـ ديوان غيلان ذي الرمة، ت د/ عبدالقدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٤هـ، بيروت.
٢٢٩ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة، ت محمد محي الدين عبدالحميد، دار الأندلس، ط٤، ١٩٨٨م.
٢٣٠ ـ ديوان عنترة، ت محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، ط٢، بيروت.
٢٣١ ـ ديوان الفرزدق، دار بيروت، ١٤٠٠هـ بيروت.
٢٣٢ ـ ديوان كعب بن مالك، ت سامي العاني، مكتبة النهضة، ط١، ١٩٦٦م،

بغداد.

٢٣٣ ـ ديوان كعب بن زهير، ت علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م.

٢٣٤ ـ ديوان الكميت، ت د/ داود سلوم، عالم الكتب، ط٢، ١٤١٧هـ، بيروت.

٢٣٥ ـ ديوان لبيد، ت إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٩٨٤م.

٢٣٦ ـ ديوان ليلى الأخيلية، ضمن «ديوان الباكيتين»، شرح يوسف عيد، دار الجيل، ط١، ١٤١٣هـ، بيروت.

٢٣٧ ـ ديوان المرَقّشين، ت كارين صادر، دار صادر، ط١، ١٩٩٨م، بيروت.

٢٣٨ ـ ديوان متمم بن نويرة، ت ابتسام الصفار، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٨م.

٢٣٩ ـ ديوان ابن مشرّف، مؤسسة مكتبة الفلاح، الأحساء.

٢٤٠ ـ ديوان مسكين الدارمي، ت خليل العطية، مطبعة دار البصري ط١، ١٩٧٠م.

٢٤١ ـ ديوان معن بن أوس، ت عمر محمد القطان، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٤٢ ـ ديوان ابن مقبل، ت د/ عزت حسن، دار الشرق، ط١، ١٤١٦هـ، بيروت.

٢٤٣ ـ ديوان النابغة الذبياني، ت محمد أبو الفضل، دار المعارف، ط٢، مصر.

٢٤٤ ـ ديوان أبي النجم، ت سجيح الجبيلي، دار صادر، ط١، ١٩٩٨م، بيروت.

٢٤٥ ـ ديوان وضاح اليمن، ت محمد خير البقاعي، دار صادر، ط١، ١٩٩٦م، بيروت.

٢٤٦ ـ ديوان يزيد بن مفرغ، جمع عبدالقدوس صالح، موسسة الرسالة، ط٢، بيروت.

ـ ذ ـ

٢٤٧ـ ذم الهوى، لابن الجوزي، ت خالد العلمي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٩هـ، بيروت.

٢٤٨ ـ ذم التأويل، لابن قدامة، ت بدر البدر، دار ابن الأثير، الكويت، ط٢.

٢٤٩ ـ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب، دار المعرفة، بيروت.

٢٥٠ ـ ذيل كشف الظنون، لإسماعيل باشا، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٥١ ـ الرد على الجهمية، لعثمان الدارمي، ت زهير الشاويش، ط٤ ١٤٠٢هـ المكتب الإسلامي، بيروت.

٢٥٢ ـ الرد الدامع على الزاعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية زائغ، لعثمان بن منصور، مخطوط بجامعة الإمام برقم (٢١٣٧).

٢٥٣ ـ الرد على البكري لابن تيمية، ت محمد عجال، مكتبة الغرباء، ط١، المدينة النبوية.

٢٥٤ ـ الرد على المنطقيين، لابن تيمية، ت عبدالصمد شرف الدين، إدارة ترجمان السنة، ط٤، ١٤٠٢هـ، لاهور ـ باكستان.

٢٥٥ ـ الرد على الجهمية لابن منده، ت د. علي الفقيهي، ط٢، ١٤٠٢هـ.

٢٥٦ـ رسالة إلى أهل الثغر، لأبي الحسن الأشعري ت عبدالله الجنيدي، مكتبة العلوم والحكم ـ مؤسسة علوم القرآن، ط١، ١٤٠٩هـ، المدينة النبوية.

٢٥٧ ـ الرسالة للشافعي، ت أحمد شاكر، مكتبة دار التراث، ط٢، ١٣٩٩هـ، القاهرة.

٢٥٨ ـ الرسالة القشيرية، لعبدالكريم القشيري، مطبوعات مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة.

٢٥٩ ـ الروح، لابن القيم، دار الكتب العلمية، ١٣٩٥هـ، بيروت.

٢٦٠ ـ الرسالة المستطرفة، للكتاني، دار الكتب العلمية.

٢٦١ ـ الرضا عن الله لابن أبي الدنيا، ت ضياء الحسن السلفي، الدار السلفية، بومباي، الهند.

٢٦٢ ـ روح المعاني، للآلوسي، دار الكتب العلمية، علي عطية، ط١، ١٤١٥هـ، بيروت.

٢٦٣ ـ الروض الأنف، للسهيلي، ت عبدالرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي - مؤسسة التاريخ، ط١، ١٤١٢هـ، بيروت.

٢٦٤ ـ روضة الأفكار والأفهام، لابن غنام، حرره د/ ناصر الدين الأسد، ط٣، ١٤٠٣هـ، بيروت.

٢٦٥ ـ روضة الطالبين، للنووي، ت عادل عبد الموجود وزميله، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ، بيروت.

٢٦٦ ـ روضة المحبين لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٦٧ ـ روضة الناظر لابن قدامة، مكتبة المعارف، الرياض.

٢٦٨ ـ رياض الصالحين للنووي، ت الألباني، المكتب الإسلامي.

ـ ز ـ

٢٦٩ ـ زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٧هـ، بيروت.

٢٧٠ ـ زاد المعاد، لابن القيم، ت شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار، ط١٤، ١٤٠٧هـ، بيروت.

٢٧١ ـ الزهد، لهناد بن السري، ت عبدالرحمن الفريوائى، دار الخلفاء، ط١، ١٤٠٦هـ، الكويت.

٢٧٢ ـ الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري، ت د/ حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط١/ ١٤١٢هـ، بيروت.

٢٧٣ ـ الزهد لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧٤ ـ الزهد لوكيع، ت د. الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة النبوية، ط١.

١٧٥ ـ الزهد، للإمام أحمد، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ، بيروت.

١٧٦ ـ الزهد الكبير، للبيهقي، ت عامر حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط٣، ١٩٩٦م، بيروت.

٢٧٧ ـ الزهد لابن أبي عاصم، ت عبدالعلي عبدالحميد، دار الريان، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

٢٧٨ ـ زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن اليوسي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨١م.

ـ س ـ

٢٧٩ ـ سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، للسويدي، دار الكتب العلمية، ط١ ١٤٠٦هـ، بيروت.

٢٨٠ ـ السبعة في القراءات، لابن مجاهد، ت د/ شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، القاهرة.
٢٨١ ـ السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، لمحمد بن عبدالله بن حميد، ت بكر أبو زيد ود/ عبدالرحمن العثيمين، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٦هـ، بيروت.
٢٨٢ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٢٨٣ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، للألباني، المكتب الإسلامي، ط٥، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٢٨٤ ـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، لمحمد بن علي المرادي، دار البشائر ـ دار ابن حزم، ط٣، ١٤٠٣هـ، بيروت.
٢٨٥ ـ سمط اللآلي، لأبي عبيد البكري، ت عبدالعزيز الميمني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٤هـ.
٢٨٦ ـ سنن الترمذي، ت أحمد شاكر، دار عمران، بيروت.
٢٨٧ ـ سنن الدارقطني، ت عبدالله المدني، دار المعرفة، ١٣٨٦هـ، بيروت.
٢٨٨ ـ سنن الدارمي، اعتنى به محمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية تصوير دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٨٩ ـ سنن أبي داود، مراجعة محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر.
٢٩٠ ـ سنن سعيد بن منصور، ت حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٢٩١ ـ سنن سعيد بن منصور، ت د/ سعد آل حميد، دار الصميعي، ط١، ١٤١٤هـ، الرياض.
٢٩٢ ـ سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، المكتبة العلمية، بيروت.
٢٩٣ ـ سنن النسائي «المجتبى»، ت عبدالفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٤٠٦هـ، حلب.
٢٩٤ ـ السنن الكبرى، للبيهقي، دار الفكر، بيروت.
٢٩٥ ـ السنن الكبرى، للنسائي، ت د/ عبدالغفار البنداري وسيد كسروي، دار الكتب

العلمية، ط١، ١٤١١هـ، بيروت.

٢٩٦ - سنن ابن ماجه، ت محمد مصطفى الأعظمي، ط٢، ١٤٠٤هـ، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض.

٢٩٧ - السنن الواردة في الفتن، لأبي عمرو الداني، ت رضاء الله المباركفوري، دار العاصمة، ط١، ١٤١٦هـ، الرياض.

٢٩٨ - السنة، للخلال، ت د/ عطية الزهراني، دار الراية، ط١، ١٤١٠هـ، بيروت.

٢٩٩ - السنة لابن أبي عاصم، تخريج الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ، بيروت.

٣٠٠ - السنة، لعبدالله بن الإمام أحمد، ت د/ محمد القحطاني، دار ابن القيم، ط١، ١٤٠٦هـ، الدمام.

٣٠١ - سؤالات أبي عبيد الآجري، لأبي داود السجستاني، ت محمد العمري، الجامعة الإسلامية، ط١، ١٣٩٩هـ، المدينة.

٣٠٢ - سير أعلام النبلاء، لشمس الدين الذهبي، ت شعيب الأرناؤوط وزملائه، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ، بيروت.

٣٠٣ - السيرة النبوية، لابن هشام، ت مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، تصوير مؤسسة علوم القرآن، بيروت.

- ش -

٣٠٤ - شذرات الذهب لابن العماد، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠٥ - شرح أشعار الهذليين للسكري، ت عبدالستار فراج، دار العروبة، القاهرة.

٣٠٦ - شرح الأصول الخمسة، لعبدالجبار الهمذاني، ت د/ عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٠٨هـ، القاهرة.

٣٠٧ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي، ت د/ أحمد سعد، دار طيبة الرياض.

٣٠٨ - شرح ألفية ابن مالك لابن عقيل، ت محمد محي الدين عبدالحميد، دار التراث، القاهرة، ط ٢٠.

٣٠٩ - شرح ألفية ابن مالك للأشموني، ت محمد محي الدين عبدالحميد مكتبة

النهضة، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.

٣١٠ ـ شرح حديث النزول، لابن تيمية، ت محمد الخميس دار العاصمة، ط١، ١٤١٤هـ، الرياض.

٣١١ ـ شرح السنة، للبغوي، ت شعيب الأرنؤوط وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ، بيروت.

٣١٢ ـ شرح صحيح مسلم، للنووي، تصوير دار الريان للتراث، القاهرة.

٣١٣ ـ شرح العقيدة الأصفهانية، لابن تيمية، تقديم حسين مخلوف، دار الكتب الإسلامية، القاهرة.

٣١٤ ـ شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، ت د/ عبدالله التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٢هـ، بيروت.

٣١٥ ـ شرح القصائد السبع الطوال، ت عبدالسلام هارون، ط٥، دار المعارف، القاهرة.

٣١٦ ـ شرح القصائد العشر للتبريزي، ت عبدالسلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

٣١٧ ـ شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى، المكتب الإسلامي، ط٣، بيروت.

٣١٨ ـ الشرح الكبير، لشمس الدين ابن قدامة، ت د/ عبدالله التركي، دار هجر، ط١، ١٤١٤هـ، مصر.

٣١٩ ـ شرح الكوكب المنير لابن النجار، ت د. محمد الزحيلي، جامعة أم القرى، ط١، ١٩٨١م، مكة المكرمة.

٣٢٠ ـ شرح مختصر الخرقي، للزركشي، ت د/ عبدالله الجبرين.

٣٢١ ـ شرح مشكل الآثار، للطحاوي، ت شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت.

٣٢٢ ـ شرح معاني الآثار، للطحاوي، ت محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٢٣ ـ شرح المفصّل، لابن يعيش النحوي، عالم الكتب، بيروت.

٣٢٤ ـ شرح ملحة الإعراب، للحريري، ت د. أحمد قاسم، مكتبة دار التراث،

ط٢، ١٤١٢هـ، المدينة.
٣٢٥ ـ شرح منتهى الإرادات للبهوتي، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٣م بيروت.
٣٢٦ ـ شرح الموطأ، للزرقاني، دار المعرفة، ١٤٠٧هـ، بيروت.
٣٢٧ ـ شرح نخبة الفكر، لملا علي قاري، ت محمد تيم وهيثم تيم، ط١، دار الأرقم.
٣٢٨ ـ الشريعة، للآجري، ت د/ عبدالله الدميجي، دار الوطن، ط١، ١٤١٨هـ، الرياض.
٣٢٩ ـ شعار أصحاب الحديث، للحاكم، ت عبدالعزيز السدحان، دار البشائر، ط١، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٣٣٠ ـ شعب الإيمان، للبيهقي، ت محمد زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ، بيروت.
٣٣١ ـ شفاء السقام، للسبكي، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ، بيروت.
٣٣٢ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة، ت أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.
٣٣٣ ـ شفاء العليل، لابن القيم، ت محمد الحلبي، دار الفكر، ١٣٩٨هـ بيروت.
٣٣٤ ـ شواهد التوضيح والتصحيح، لابن مالك، ت محمد عبدالباقي، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ بيروت.

ـ ص ـ

٣٣٥ ـ الصحاح، للجوهري، ت أحمد عطار، دار العلم للملايين، ط٣، ١٤٠٤هـ، بيروت.
٣٣٦ ـ الصارم المسلول لابن تيمية، الحلواني وشودري، رمادي للنشر، ط١، الدمام.
٣٣٧ ـ صحيح البخاري ضبط د/ مصطفى البغا، دار ابن كثير ـ اليمامة، ط٤، ١٤١٠هـ، دمشق ـ بيروت.
٣٣٨ ـ صحيح الأدب المفرد، للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.
٣٣٩ ـ صحيح الجامع الصغير، للألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٦هـ، بيروت.

٣٤٠ ـ صحيح مسلم، تصحيح محمد فؤاد عبدالباقي، دار ابن حزم ط١، ١٤١٦هـ، بيروت.
٣٤١ ـ صحيح سنن الترمذي، للألباني، مكتب التربية العربي، ط١، ١٤٠٨هـ، الرياض.
٣٤٢ ـ الصحيح المسند من أسباب النزول للوادعي، مطابع الهدف، الكويت.
٣٤٣ ـ صحيح سنن ابن ماجه، للألباني، مكتب التربية العربي، ط١، ١٤٠٧هـ، الرياض.
٣٤٤ ـ صحيح سنن أبي داود، للألباني، مكتب التربية العربي، الرياض.
٣٤٥ ـ صريح السنة، لابن جرير الطبري، ت بدر المعتوق، دار الخلفاء، ط١، ١٤٠٥هـ، الكويت.
٣٤٦ ـ صحيح سنن النسائي، للألباني، مكتب التربية، الرياض.
٣٤٧ ـ الصفات، للدارقطني، ت د/ علي الفقيهي، ط١، ١٤٠٣هـ.
٣٤٨ ـ الصفدية، لابن تيمية، ت د محمد رشاد سالم، شركة مطابع حنيفة، ١٣٩٦هـ، الرياض.
٣٤٩ ـ صفة الفتوى والمفتي والمستفتي لابن حمدان الحراني، ت الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.
٣٥٠ ـ صفة الصفوة لابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت.
٣٥١ ـ الصواعق المرسلة، لابن القيم، ت د/ علي الدخيل الله، دار العاصمة، ١٤٠٨هـ الرياض.
٣٥٢ ـ الصلاة وحكم تاركها لابن القيم دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٩هـ.
٣٥٣ ـ الصمت لابن أبي الدنيا، ت أبي إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٥٤ ـ الصواعق المرسلة الشهابية، لسليمان بن سحمان، دار العاصمة، الرياض، ط١.
٣٥٥ ـ صيانة الإنسان، للسهسواني، مطابع نجد، الرياض، ١٩٧٥م.

- ض -

٣٥٦ - الضعفاء، للعقيلي، ت عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ، بيروت.

٣٥٧ - ضعيف الجامع الصغير، للألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٨هـ، بيروت.

٣٥٨ - الضعفاء والمتروكون للنسائى، ت محمود إبراهيم، دار الوعي، حلب، سوريا.

٣٥٩ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين السخاوي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٣٦٠ - ضعيف سنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه للألباني، المكتب الإسلامي.

٣٦١ - ضعيف كتاب التوحيد لصغير بن علي الشمري، مطابع ابن تيمية، القاهرة.

- ط -

٣٦٢ - طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، ت عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية.

٣٦٣ - الطبقات لخليفة بن خياط، ت د. أكرم العمري، دار طيبة، الرياض.

٣٦٤ - طبقات الحفاظ للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦٥ - طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، ت د. عبدالرحمن العثيمين، مطبوعات المئوية، الرياض، ١٤١٩هـ.

٣٦٦ - طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة، ت د. الحافظ عبدالعليم، عالم الكتب، بيروت.

٣٦٧ - طبقات الشافعية للأسنوي، ت كمال الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦٨ - طبقات الشعراء، لابن قتيبة، ت د/ مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٥هـ، بيروت.

٣٦٩ - طبقات الصوفية، لأبي عبدالرحمن السلمي، ت نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٦هـ، القاهرة.

٣٧٠ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، بيروت.
٣٧١ ـ طبقات فحول الشعراء للجمحي، ت محمود شاكر، مطبعة المدني، جدة.
٣٧٢ ـ طبقات المفسرين للداوودي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٧٣ ـ الطرق الحكمية، لابن القيم، ت د/ محمد غازي، دار المدني جدة.
٣٧٤ ـ طريق الهجرتين، لابن القيم، دار الوطن.

ـ ظ ـ

٣٧٥ـ ظلال الجنة في تخريج السنة، مع السنة لابن أبي عاصم، للألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ، بيروت.

ـ ع ـ

٣٧٦ ـ العبر في خبر من غبر، للذهبي، ت محمد زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٣٧٧ ـ عارضة الأحوذي لابن العربي المالكي، ت جمال مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٧٨ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، لعبدالرحمن الجبرتي، دار الجيل، بيروت.
٣٧٩ ـ عقد الدرر، ، لإبراهيم بن عيسى، ت عبدالرحمن آل الشيخ، من مطبوعات المئوية، ١٤١٩هـ، الرياض.
٣٨٠ ـ العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني، ت رضاء الله المباركفوري، دار العاصمة، الرياض.
٣٨١ ـ علل الترمذي، ت أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، ١٣٥٧هـ، بيروت.
٣٨٢ ـ العقل وفضله لابن أبي الدنيا، ت لطفي الصغير، دار الراية، ط١، الرياض.
٣٨٣ ـ عقيدة السلف لأبي عثمان الصابوني، الدار السلفية، ط١، الكويت.
٣٨٤ ـ العلل للدارقطني، ت د. محفوظ الرحمن السلفي، دار طيبة، ط١، الرياض.
٣٨٥ ـ علل الحديث، لابن أبي حاتم، ت محب الدين الخطيب، دار المعرفة، ١٤٠٥هـ، بيروت.

٣٨٦ ـ العلل المتناهية، لابن الجوزي، تقديم خليل الميس، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ، بيروت.

٣٨٧ ـ العلل ومعرفة الرجال، للإمام أحمد، ت د/ طلعت بيكيت و د/ إسماعيل أوغلي، المكتبة الإسلامية، إصطنبول.

٣٨٨ ـ علماء نجد خلال ثمانية قرون، للشيخ عبدالله البسام، ، دار العاصمة، ط٢، ١٤١٩هـ، الرياض.

٣٨٩ ـ عمل اليوم والليلة، لابن السني، ت د/ فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ، بيروت.

٣٩٠ ـ علوم الحديث للحاكم، ت معظم حسين، المكتبة العلمية، ط٢، المدينة النبوية.

٣٩١ ـ عنوان المجد في تاريخ نجد، لابن بشر، ت عبدالرحمن آل الشيخ، دارة الملك عبدالعزيز، ط٤، ١٤٠٢هـ، الرياض.

٣٩٢ ـ عمل اليوم والليلة، للنسائي، ت د. فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت.

٣٩٣ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود، لمحمد العظيم آبادي، دار الفكر، ط٣، ١٣٩٩هـ، بيروت.

٣٩٥ ـ العيال، لابن أبي الدنيا، ت د/ نجم خلف، دار ابن القيم، ط١، ١٩٩٠م، الدمام.

٣٩٦ ـ عيون الأنباء، لابن أبي أصيبعة، تقديم سميح الزين، دار الثقافة، ط٤، ١٤٠٨هـ، بيروت.

- غ -

٣٩٧ ـ الغاية في القراءات العشر، ابن مهران الإصبهاني، ت محمد الجنباز، دار الشواف، ط٢، الرياض.

٣٩٨ ـ غاية المرام، للألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٥هـ، بيروت.

٣٩٩ ـ غاية النهاية لابن الجزري، بعناية ج. بر جستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٠٠ ـ غريب الحديث لابن الجوزي، ت د. عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٠١ ـ غريب الحديث، لأبي عبيد، دائرة المعارف العثمانية، ط١، ١٣٨٤هـ، حيدر أباد.
٤٠٢ ـ غريب الحديث، للحربي، ت د. سليمان العايد، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
٤٠٣ ـ غريب الحديث، للخطابي، ت عبدالكريم العزباوي، جامعة أم القرى، ١٤٠٢هـ، مكة.
٤٠٤ ـ الغنية، لعبدالقادر الجيلاني، مكتبة البابي الحلبي، ط٣، ١٣٧٥هـ، القاهرة.

ـ ف ـ

٤٠٥ ـ الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، ت علي البجاوي ومحمد أبو الفضل، ط٢، دار المعرفة، لبنان.
٤٠٦ ـ فتاوى ابن الصلاح، ت د/ عبدالمعطي قلعجي، دار المعرفة، ط١، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٤٠٧ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ت محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، ط٤، ١٤٠٨هـ.
٤٠٨ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ت محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، ط٤، ١٤٠٨هـ، القاهرة.
٤٠٩ ـ الفتح الرباني، لأحمد البنا، دار الشهاب، القاهرة.
٤١٠ ـ فتح القدير للشوكاني، مطبعة الحلبي، ط٢، مصر.
٤١١ ـ فتح الله الحميد المجيد لحامد بن محمد بن حسن، ت بكر أبوزيد، دار المؤيد، ط١، الرياض.
٤١٢ ـ فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد لعبدالرحمن بن حسن، ت د. وليد الفريان، دار الصميعي، الرياض.
٤١٣ ـ الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية، ت حمد التويجري، دار الصميعي، الرياض.

٤١٤ ـ الفتن، لنعيم بن حماد، ت د/ سهيل زكار، دار الفكر، ١٤١٤هـ، بيروت.

٤١٥ ـ الفرق الإسلامية للدكتور علي عبدالفتاح، مكتبة وهبة، القاهرة.

٤١٦ ـ الفرق بين الفرق، لعبدالقاهر البغدادي، ت محمد محي الدين عبدالحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١١٧ ـ الفروع، لابن مفلح، مراجعة عبدالستار فراج، عالم الكتب، ط٤، ١٤٠٥هـ، بيروت.

١١٨ ـ الفصل، لابن حزم، ت د/ محمد نصر و د/ عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، ١٤٠٥هـ، بيروت.

١١٩ ـ فطرية المعرفة، للدكتور أحمد سعد الغامدي، دار طيبة، ط١، الرياض.

٤٢٠ ـ فقه السيرة، لمحمد الغزالي، تخريج الألباني، دار القلم، ط٣، ١٤٠٧هـ، دمشق ـ بيروت.

٤٢١ ـ الفهرست لابن النديم، رضا تجددي، دار المسيرة، لبنان.

٤٢٢ ـ فهرس الفهارس والأثبات، لعبدالحي الكتاني، باعتناء د/ إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٢هـ، بيروت.

٤٢٣ ـ الفوائد لتمام الرازي، ت حمدي السلفي، مكتبة الرشد، ط٣، الرياض.

٣٢٤ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي، ت د. إحسان عباس، دار صادر، الرياض.

٤٢٥ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، دار الفكر، بيروت.

ـ ق ـ

٤٢٦ ـ قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية، ت عبدالقادر الأرناؤوط، دار البيان، دمشق.

٤٢٧ ـ القاموس المحيط، للفيروز آبادي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ، بيروت.

٤٢٨ ـ قانون التأويل، لابن العربي، ت محمد السليماني، دار القبلة ـ مؤسسة علوم القرآن، ط١، ١٤٠٦هـ، بيروت.

٤٢٩ ـ قرى الضيف، لابن أبي الدنيا، ت عبدالله المنصور، أضواء السلف، ط١، ١٩٩٧م، الرياض.

٤٣٠ ـ القرطين، لابن مطرف الكناني، دار المعرفة، بيروت.

٤٣١ ـ قضاء الحوائج، لابن أبي الدنيا، ت مجدي السيد، مكتبة القرآن، القاهرة.

٤٣٢ ـ القضاء والقدر في الإسلام للدكتور عبدالرحمن المحمود، دار النشر الدولي، ط١، الرياض.

٤٣٣ ـ القناعة، لابن السني، ت عبدالله الجديع، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٩هـ، الرياض.

٤٣٤ ـ القواعد النورانية الفقهية، لابن تيمية، ت محمد الفقي، إدارة ترجمان السنة، ط٢، ١٤٠٢هـ، لاهور.

٤٣٥ ـ القول السديد لعبدالرحمن السعدي، مطابع الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٤٣٦ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد لمحمد العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام.

٤٣٧ ـ قيام الليل لابن نصر المروزي، تعليق عبدالشكور الأثري، لاهور، باكستان.

ـ ك ـ

٤٣٨ ـ الكاشف، للذهبي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ، بيروت.

٤٣٩ ـ الكافي لابن قدامة، ت زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٥، بيروت.

٤٤٠ ـ الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، تقديم خليل الميس، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٥هـ، بيروت.

٤٤١ ـ الكبائر للذهبي، ت عبدالرحمن فاخوري، دار السلام، ط٢، حلب.

٤٤٢ ـ الكتاب، لسيبويه، ت عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٨هـ القاهرة.

٤٤٣ ـ الكشاف، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت.

٤٤٤ ـ كشاف القناع، للبهوتي، ت هلال مصيلحي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ، القاهرة.

٤٤٥ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار، لنور الدين الهيثمي، ت حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٤هـ. بيروت.

٤٤٦ ـ الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث لسبط ابن العجمي، ت صبحي السامرائي، وزار الأوقاف العراقية، بغداد.

٤٤٧ ـ كشف الخفاء، للعجلوني، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٥١هـ، بيروت.

٤٤٨ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٤٩ ـ كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي، ت د/ علي البواب، دار الوطن، ط١، ١٤١٨هـ، الرياض.

٤٥٠ ـ الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٤٥١ ـ الكليات، للكفوي، ت د/ عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٣هـ، بيروت.

٤٥٢ ـ كنز العمال، للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت.

٤٥٣ ـ الكنى للدولابي، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ ل ـ

٤٥٤ ـ لب اللباب في تحرير الأنساب، للسيوطي، ت محمد أحمد عبدالعزيز وزميله، دار الكتب، ط١، ١٤١١هـ، بيروت.

٤٥٥ ـ لحظ الألحاظ بذيل تذكرة الحفاظ، لابن فهد، ضمن ذيول تذكرة الحفاظ.

٤٥٦ ـ لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.

٤٥٧ ـ لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، دار الفكر، ط١، ١٤٠٨هـ، بيروت.

٤٥٨ ـ اللباب في الأنساب لابن الأثير، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٥٩ ـ لمعة الاعتقاد لابن قدامة، ت بدر البدر، دار ابن الأثير، بيروت.

٤٦٠ ـ لوامع الأنوار البهية «شرح السفارينية»، لمحمد السفاريني، المكتب الإسلامي ـ مكتبة أسامة، ط٢، ١٤٠٥هـ، بيروت.

ـ م ـ

٤٦١ ـ ما جاء في البدع، لابن وضاح، ت بدر البدر، دار الصميعي، ط١، ١٤١٦هـ، الرياض.

٤٦٢ ـ المبين للآمدي، ت عبدالأمير الأعسم، دار المناهل، بيروت.

٤٦٣ ـ المجروحين، لابن حبان، ت محمود زايد، دار الوعي، حلب.
٤٦٤ ـ مجمع الأمثال، للميداني، ت محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر، ط٣، ١٣٩٣هـ.
٤٦٥ ـ مجمع الزوائد، لنور الدين الهيثمي، مؤسسة المعارف، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٤٦٦ ـ مجمل اللغة، لابن فارس، ت زهير سلطان، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ، بيروت.
٤٦٧ ـ مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم، الرياض.
٤٦٨ ـ مجموع مخطوط، لإبراهيم بن عيسى، منه صورة في مكتبة الدكتور عبدالرحمن العثيمين بمكة المكرمة.
٤٦٩ ـ المحدث الفاصل للرامهرمزي، ت د. محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، ط٣، بيروت.
٤٧٠ ـ محصل أفكار المتقدمين، للفخر الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٤٧١ ـ المحصول في علم الأصول، للفخر الرازي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ، بيروت.
٤٧٢ ـ المحكم، لابن سيده، ت محمد النجار، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ط١، ١٣٩٣هـ، بيروت.
٤٧٣ ـ المحلى، لابن حزم، ت أحمد شاكر دار التراث، القاهرة.
٤٧٤ ـ محمد بن عبدالوهاب حياته وفكره للدكتور عبدالله العثيمين، دار العلوم، الرياض، ط٢.
٤٧٥ ـ مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، دار القلم، بيروت.
٤٧٦ ـ مختصر الشمائل للألباني، المكتبة الإسلامية، الأردن.
٤٧٧ ـ مختصر الصواعق المرسلة، لمحمد بن الموصلي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٥هـ.
٤٧٨ ـ مختصر العلو للألباني المكتب الإسلامي، بيروت.
٤٧٩ ـ مدارج السالكين، لابن القيم، ت محمد الفقي، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٣٩٣هـ، بيروت.

٤٨٠ ـ المدارس النحوية، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، ط٦، القاهرة.
٤٨١ ـ المدخل إلى السنن للبيهقي، ت محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء، ١٤٠٤هـ، الكويت.
٤٨٢ ـ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن بدران، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت.
٤٨٣ ـ المدخل المفصل، للدكتور بكر أبو زيد، دار العاصمة، ط ١، ١٤١٧هـ، الرياض.
٤٨٤ ـ المدونة، للإمام مالك، دار صادر، بيروت.
٤٨٥ ـ مرآة الجنان لليافعي، ط١، حيدر أباد، الهند.
٤٨٦ ـ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي، حيدر أباد، الهند.
٤٨٧ ـ المراسيل لأبي داود، ت شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت.
٤٨٨ ـ المرض والكفارات لابن أبي الدنيا، ت عبدالوكيل الندوي، الدار السلفية، ط١، بومباي، الهند.
٤٨٩ ـ مسائل الإمام أحمد، رواية ابنه صالح، ت د/ فضل الرحمن محمد، الدار العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ، دلهي ـ الهند.
٤٩٠ ـ مسائل الإمام أحمد، رواية ابن هانىء، ت زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.
٤٩١ ـ مسائل الإمام أحمد، رواية ابنه عبدالله، ت علي المهنا، مكتبة الدار، ط١، المدينة المنورة.
٤٩٢ ـ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة، لعبدالإله الأحمدي، دار طيبة، ط١، ١٤١٢هـ، الرياض.
٤٩٣ ـ مسائل الجاهلية لمحمد بن عبدالوهاب، طبع الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية.
٤٩٤ ـ المستدرك، للحاكم، ت مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ، بيروت.
٤٩٥ ـ المستصفى للغزالي، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت.

١٩٧٤م.
٤٩٧ ـ مسند البزار ت د. محفوظ الرحمن، مكتبة العلوم والحكم، ط١، المدينة النبوية.
٤٩٨ ـ مسند أبي عوانة، ت أيمن الدمشقي، دار المعرفة، ١٩٩٨م، بيروت.
٤٩٩ ـ المسند، للإمام أحمد، بتحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، ١٩٩٨م، بيروت.
٥٠٠ ـ المسند، للإمام أحمد، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٣هـ، بيروت.
٥٠١ ـ المسند، للإمام أحمد، ت شعيب الأرنؤوط ومجموعته، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ، بيروت.
٥٠٢ ـ مسند ابن الجعد، ت عامر حيدر، مؤسسة عامر حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.
٥٠٣ ـ مسند الحميدي، ت حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٠٤ ـ مسند الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٠٥ ـ مسند الشاميين، للطبراني، ت حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٧هـ، بيروت.
٥٠٦ ـ مسند الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.
٥٠٧ ـ مسند عبد بن حميد، ت صبحي السامرائي وزميله، مكتبة السنة، ط١، ١٤٠٨هـ، القاهرة.
٥٠٨ ـ مسند الفردوس للديلمي، ت بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت.
٥٠٩ ـ مسند الشهاب للقضاعي، ت حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ، بيروت.
٥١٠ ـ مسند أبي يعلى، ت حسين أسد، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٤هـ، دمشق.
٥١١ ـ المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية، ت محمد محي الدين عبدالحميد، دار الكتاب العربي، بيروت.
٥١٢ ـ مشاهير علماء الأمصار لابن حبان، بيروت.

٥١٣ ـ مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف، لمحمد عليان المرزوقي، في ذيل الكشاف للزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
٥١٤ ـ مشكاة المصابيح، للخطيب التبريزي، ت الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٥١٥ ـ مشكل الآثار للطحاوي، دائرة المعارف النظامية، ١٣٣٣هـ، حيدر أباد ـ الهند.
٥١٦ ـ مصباح الزجاجة للبوصيري، الدار العربية للنشر والتوزيع، بيروت.
٥١٧ ـ مصباح الظلام، لعبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ، مراجعة إسماعيل بن عتيق، دار الهداية، الرياض.
٥١٨ ـ المصباح المنير، للفيومي، مكتبة لبنان، بيروت.
٥١٩ ـ المصنف، لابن أبي شيبة، ت كمال الحوت، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٧هـ، الرياض.
٥٢٠ ـ المصنف، لعبدالرزاق الصنعاني، ت حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ، بيروت.
٥٢١ ـ المطالب العالية لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٢٢ ـ المطلع على أبواب المقنع، لشمس الدين البعلي، مطبوع في آخر المبدع، المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ، بيروت.
٥٢٣ ـ المعارف لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت.
٥٢٤ ـ معالم التنزيل، للبغوي، ت خالد العك ومروان سوار، دار المعرفة، ط٢، ١٤٠٧هـ، بيروت.
٥٢٥ ـ معالم السنن، للخطابي، مع مختصر سنن أبي داود للمنذري، وتهذيب السنن لابن القيم، ت أحمد شاكر وحامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.
٥٢٦ ـ معاني القرآن، للفراء، ت أحمد نجاتي، انتشارات ناصر خسرو، طهران.
٥٢٧ ـ معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج، ت د/ شلبي، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨هـ، بيروت.
٥٢٨ ـ المعتمد، لأبي الحسين البصري، ت خليل الميس، دار الكتب العلمية، ط١،

١٤٠٣هـ، بيروت.
٥٢٩ ـ معجم الأدباء الياقوت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٣٠ ـ معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني، ت د. عبدالعال شاهين، دار المنار، ط١، القاهرة.
٥٣١ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ، بيروت.
٥٣٢ ـ المعجم الأوسط، للطبراني، ت طارق بن عوض وعبدالمحسن الحسيني، دار الحرمين، ١٤١٥هـ، القاهرة.
٥٣٣ ـ المعجم الصغير للطبراني، ت محمد شكور أمرير، المكتب الإسلامي، ط١، عمان.
٥٣٤ ـ معجم الصحابة، لابن قانع، ت صلاح المصراتي، مكتبة الغرباء، الأثرية، ط١، ١٤١٨هـ، المدينة النبوية.
٥٣٥ ـ المعجم الفلسفي لجميل صليبا، الشركة العالمية للكتب، ١٤١٤هـ، بيروت.
٥٣٦ ـ المعجم الفلسفي، للدكتور عبدالمنعم الحفني، الدار الشرقية، ط١، مصر.
٥٣٧ ـ المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة.
٥٣٨ ـ معجم المؤلفين لعمر كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥٣٩ ـ معجم ما استعجم، للبكري، ت مصطفى السقا، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ، بيروت.
٥٤٠ ـ معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين بن فارس ت عبدالسلام هارون، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ، بيروت.
٥٤١ ـ المعجم الكبير، للطبراني، ت حمدي السلفي، ط٢.
٥٤٢ ـ معرفة القراء الكبار للذهبي، ت بشار عواد، ورفاقه، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت.
٥٤٣ ـ المعرفة والتاريخ للفسوي، ت د. أكرم العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٥٤٤ ـ المعلم بفوائد مسلم، للمازري، ت محمد النيفر، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٢، بيروت.

٥٤٥ ـ المغازي للواقدي، ت د. مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت.
٥٤٦ ـ المغرب، للمطرزي، ت محمود فاخوري وزميله، دار أسامة بن زيد، حلب.
٥٤٧ ـ المغني لابن قدامة، دار الفكر، ط١، ١٤٠٥هـ، بيروت.
٥٤٨ ـ المغني في أبواب العدل والتوحيد، للقاضي عبدالجبار، القاهرة.
٥٤٩ ـ المغني عن الحفظ والكتاب، للموصلي، دار الكتب العلمية.
٥٥٠ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام، ت د/ مازن المبارك وزميله، دار الفكر، ط١، ١٤١٢هـ، بيروت.
٥٥١ ـ المفصل في علم اللغة، للزمخشري، مراجعة د/ محمد السعيدي، دار إحياء العلوم، ط١، ١٤١٠هـ، بيروت.
٥٥٢ ـ مفتاح دار السعادة، لابن القيم دار الكتب، بيروت.
٥٥٣ ـ مفتاح السعادة، لطاش كبرى زاده، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٥٤ ـ المفضليات، ت أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، ط٦، بيروت.
٥٥٥ ـ المفهم، للقرطبي، ت محي الدين مستو ورفاقه، دار ابن كثير، ط٢، ١٤٢٠هـ، دمشق ـ بيروت.
٥٥٦ ـ المقاصد الحسنة، لشمس الدين السخاوي، ت عبدالله محمد الصديق، دار الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ، بيروت.
٥٥٧ ـ مقالات الإسلاميين، للأشعري، ت محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، ١٤١١هـ، بيروت.
٥٥٨ ـ مقاييس اللغة لابن فارس، ت عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١.
٥٥٩ ـ مقدمة ابن الصلاح، ت عائشة عبدالرحمن، دار المعارف، القاهرة.
٥٦٠ ـ المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، ، لبرهان الدين ابن مفلح، ت د/ عبدالرحمن العثيمين، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٠هـ، الرياض.
٥٦١ ـ مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، ت مجدي السيد، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤١١هـ.
٥٦٢ ـ الملل والنحل، للشهرستاني، تقديم عبداللطيف العيد، مكتبة الأنجلو المصرية، ط١، ١٩٧٧م، القاهرة.

٥٦٣ ـ المنار المنيف، لابن القيم، ت عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط٢، ١٤٠٣هـ، حلب.
٥٦٤ ـ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ت د. عبدالله التركي وعلي محمد، مكتبة الخانجي، مصر.
٥٦٥ ـ مناقب الإمام الشافعي للبيهقي، ت السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة.
٥٦٦ ـ مناقب الشافعي للرازي، ت د. أحمد حجازي، دار الجيل، بيروت، ط١.
٥٦٧ ـ المنتخب لعبد بن حميد، ت صبحي السامرائي، ط١، مكتبة السنة، القاهرة.
٥٦٨ ـ المنتظم، لابن الجوزي، ت محمد عطا وأخيه، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٢هـ، بيروت.
٥٦٩ ـ المنتقى لابن الجارود، ت عبدالله البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، بيروت.
٥٧٠ ـ المنتقى من منهاج الاعتدال، للذهبي، ت محب الدين الخطيب، وزارة الشؤون الإسلامية، ١٤١٨هـ، الرياض.
٥٧١ ـ منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، ت د/ رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٤٠٦هـ الرياض.
٥٧٢ ـ المنهج الأحمد للعليمي، ت محمد محي الدين عبدالحميد، عالم الكتب، ط١، بيروت.
٥٧٣ ـ منهج إمام الحرمين في دراسة العقيدة، للدكتور أحمد العبداللطيف، مؤسسة الملك فيصل الخيرية، ط١، الرياض.
٥٧٤ ـ منهج المعارج لأخبار الخوارج، لابن منصور، مخطوط، جمعية إحياء التراث، الكويت.
٥٧٥ ـ المنهل الروي، لابن جماعة، ت د/ محي الدين رمضان، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٦هـ، دمشق.
٥٧٦ ـ موسوعة الأمثال لإميل يعقوب، دار الجيل، بيروت.
٥٧٧ ـ الموضوعات، لابن الجوزي، ضبط عبدالرحمن عثمان، دار الفكر، ط٢، ١٤٠٣هـ، بيروت.

٥٧٨ ـ الموطأ، للإمام مالك، ت محمد عبدالباقي، دار الحديث، مصر.
٥٧٩ ـ موقف الإسلام من السحر لحياة سعيد، دار المجتمع، ط١، جدة.
٥٨٠ ـ موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للدكتور عبدالرحمن المحمود، مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٥هـ، الرياض.
٥٨١ ـ ميزان الاعتدال، للذهبي، ت علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

ـ ن ـ

٥٨٢ ـ نبذة تاريخية عن نجد، إملاء ضاري الرشيد، كتابة وديع البستاني، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ.
٥٨٣ ـ النبوات لابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٨٤ ـ النجاة، لابن سينا، ت د/ ماجد فخري، دار الآفاق الجديدة، ط١، ١٤٠٥هـ.
٥٨٥ ـ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٣م، مصر.
٥٨٦ ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات الأنباري، ت د/ إبراهيم السامرائى، مكتبة المنار، ط٣، ١٤٠٥هـ، الأردن.
٥٨٧ ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، للدكتور علي سامي النشار، دار المعارف، ط٧، مصر.
٥٨٨ ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
٥٨٩ ـ نصب الراية لأحاديث الهداية، للزيلعي، المجلس العلمي، دارالمأمون، ١٣٥٧هـ، القاهرة.
٥٩٠ ـ نظم المتناثر من الحديث المتواتر، لمحمد الكتاني، دار الكتب السلفية، ط٢، مصر.
٥٩١ ـ نفح الطيب للمقري، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٩٢ ـ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٩٣ ـ نهاية الإقدام، للشهرستاني، ت الفردجيوم، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.
٥٩٤ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الجزري، ت طاهر الزاوي ومحمود

الطناحي، تصوير دار الباز، مكة.

٥٩٥ ـ النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد، لجاسم الدوسري، دار الخلفاء، ط١، ١٤٠٤هـ، الكويت.

٥٩٦ ـ نوادر الأصول، للحكيم الترمذي، ت د/ عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م، بيروت.

٥٩٧ ـ نور الاقتباس لابن رجب، ت محمد العجمي، دار البشائر، بيروت.

٥٩٨ ـ نيل الأوطار، للشوكاني، دار الكتب العلمية بيروت.

٥٩٩ ـ هدية العارفين لإسماعيل باشا دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ و ـ

٦٠٠ ـ الوابل الصيب، لابن القيم ت محمد عوض، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ، بيروت.

٦٠١ ـ الوافي بالوفيات للصفدي، إعتناء محمد الحجيري، ١٤١١هـ، لبنان.

٦٠٢ ـ الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي، ت عادل عبدالموجود وزملائه، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ، بيروت.

٦٠٣ ـ الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزي، صححه محمد النجار، المؤسسة السعيدية، الرياض.

٦٠٤ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان، ت إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

ثانيًا فهرس النص المحقق

فهرس المجلد الثاني

الموضوع	رقم الصفحة

فهرس المجلد الثالث

فهرس المجلد الرابع

الموضوع	رقم الصفحة